الهلال

الثمن ٦ جنيهات

وداع قرن واستقبال قرن

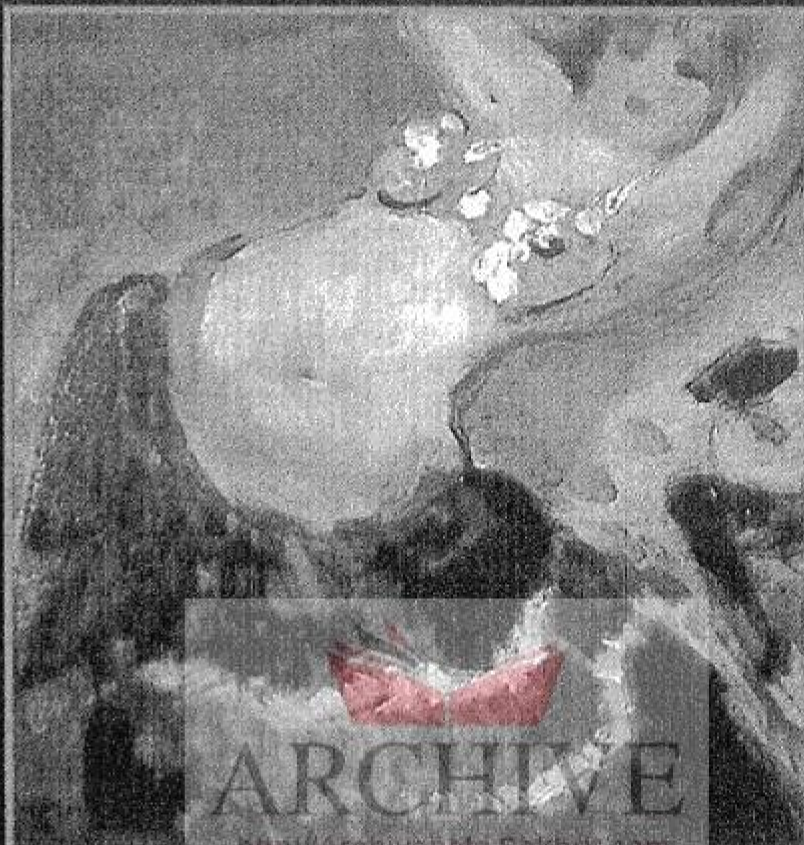
من يحكم العالم ؟!

الحكام والإعلام

في العالم



Abutalib



لوحة وفنان



الراقصة (١٩٥٩) للفنان أدهم وانلي

تمثل لوحة الراقصة إيقاعا شرقيا معاكسا لفراشات الباليه السابحات في النور، حيث تميزت أعمال الفنان أدهم بالحركات الرشيقة. في الخلفية يطل الطبال كجزء من السطح يموج بحركة دائرية تتجاوب مع إيقاع الجسد.

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

سيد عبد المالك — سكرتير التحرير

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) [illegible] جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية [illegible] دولارا - أمريكا وأوروبا وأفريقيا [illegible] دولارا - باقي دول العالم [illegible] دولارا.
● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/ 00965 [illegible]
القيمة تسدد نقدا أو بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

العام التاسع بعد المائة



الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

ثمن النسخة
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١.٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبو ظبي/ ١٥ درهما - سلطنة عمان ١.٥ ريال.

الأبواب الثابتة

عزيزى القارئ

عــــام جــــديد
وهــلال جــــديد

كل سنة وأنت طيب ، ونحن ندخل قرناً جديداً ، وعاماً جديداً ، نفتح عقولنا وقلوبنا على المستقبل ، ونتفاءل بكل جديد .

ولا أنسى ما شاهدته فى اليابان ، فاليابانيون يخرجون مع كل عام جديد كل أمتعتهم القديمة ويستبدلونها بما هو جديد طازج .

وهذا ما أرجو أن نفعله ، وأن نستغنى عن كل قديم بال ، وأن نفتح أذرعتنا للجديد .

وهذا هو المعنى الحقيقى للتجديد والتطوير -- الذى تلحظه فى الهلال ، مع المحافظة على رسالة وصيغة الهلال التى استمرت مائة وتسعة أعوام ، رأى خلالها القراء كيف جاهدت من أواخر القرن التاسع عشر لكى تؤدى رسالتها ، حتى أصبحت واحدة من عدة مجلات باقية تعد على أصابع اليد الواحدة التى صمدت كل هذا الزمن .

إن كل شىء فى العالم اليوم يفتح صفحة جديدة ، ولعل وقفتنا تكون من أجل فتح صفحة جديدة نحو المستقبل .

وقد مرت الهلال بعدة مراحل من حياتها وهذه هى أحدث مراحلها، التى نبدؤها من هذا العدد ، فتغيرت طباعتها وحسن حرفها، ودخلت عهداً جديدا من الطباعة الفنية الحديثة ، التى تستعمل آخر التقنيات الفنية ، وتقف على مستوى أرقى المجلات العالمية ، على الرغم من كل الصعوبات التى تواجهها والتى منها الانصراف النسبى عن الكلمة المكتوبة .

وهذه خطوة فى طريق طويل نقدمها ونتقدم إلى القارئ بما





ادخرناه من تطوير ، بل نقدم إليه هلالاً جديداً فى كل صفحاته، وسوف نتابع فى أعدادنا المقبلة كل ما هو جديد . ويستمر هدفنا التوجه إلى الأجيال الجديدة بأفكار معاصرة، وخلال هذا العام الذى يقبل علينا بعد ما مر بالعالم من المحن، وظلمات من المتاعب وأخذ الجميع يتطلعون إلى ما يأتى به الغد ، ويتمنون أن يشهد العالم العدل والسلام .

كما ينتهى قرن بدأ سنة ١٩٠٠ ، وليس فى التاريخ كله قرن حفل بالحوادث الجسام ، مثل ما شهده هذا القرن ، الذى رأينا فيه قيام الدول وسقوطها ، وهو القرن الذى شهد قيام إسرائيل على قطعة غالية من الأرض العربية ، ولو قرأنا حوادثه فى الكتب لما اكتفينا قراءة مكتبة كاملة . لقد ذاب القرن العشرون ، كأنه لم يمتلئ بالمآسى ، وأنجزت فيه البشرية أعظم أعمالها منذ مشى الانسان على الأرض خطواته الأولى .

والقرن الجديد بشير ونذير بملامح تاريخ جديد للبشرية ، والتغيرات أسرع من الخيال ، من لا يلاحقها فسيسقط فى بئر التخلف .

ولا نجد شكراً نقدمه للقارئ سوى مضاعفة الجهد ، وملاحقة العصر ، ولدينا مشروع فى وضع مقالات الهلال ابتداء من عدده الأول فى سبتمبر ١٨٩٢ وحتى اليوم على (السى . دى) ، وأن يظهر على أحد مواقع الانترنت . وأن يكون على الدوام ،مجلة

عزيزى القارئ





العرب الأولى،

نحن أمة تبحث عن المستقبل ، والقرن الحادى والعشرون يفتح ذراعيه ، تراثنا يمتد وراءنا آلاف السنين ، ولكنه سوف يذهب أدراج الرياح إذا وقفنا عنده لا نتخطاه ، متجاهلين حاضرنا ، غافلين عن مستقبلنا ، ونعد القارئ أن تكون الهلال مجلة المستقبل ، لا نقدم الماضى إلا لكى نأخذ عبره ، ونتناول الحاضر كمدخل للمستقبل .

صحيح أن ماضى مصر يمتد فى أعماق السنين ، ولكن لا جدوى من ذلك الماضى المجيد إذا أصبح عبئاً وحاجزاً يقوم بيننا وبين المستقبل فى عالم يتغير ويتطور كل يوم .

إن البحث عن النغمة الصحيحة مهمة بالغة الصعوبة ، فى عصر اختلطت فيه الأنغام الصحيحة بتلك الخادعة . وستظل الهلال محافظة على دورها فى التصدى للتبعية ومحاولات وأد الهوية الوطنية والقومية ، وستستمر وعاء الفكر العربى الذى تلوذ به الطلائع المثقفة فى تصديها لكل التحديات .

وستظل رسالة الإنسان العربى إلى العالم ، وصلة الشرق بالغرب ، والماضى بالحاضر ، وتستمر تبشر بالتطور وأن يستبدل العقل بالنقل ، والعدل بالظلم ، والحوار بالإملاء ، والإبداع بالاتباع .

وهكذا عزيزى القارئ تجد عدد « الهلال » الذى بين يديك ، لا يمتاز بشكله فقط ، بل يمتاز بمادته الفكرية والفنية التى تخاطب مستقبل الانسان كما تخاطب حاضره ..

وهناك مسألة أخرى ، فى علاقتنا بك أيها القارئ العزيز .. وهو





زيادة سعر المجلة فى ظل الظروف الاقتصادية الصعبة التى نعيشها .
وتكاد « الهلال » تباع بسعر رمزى ، ولا تحصل على الدعم من خارج « دار الهلال » التى تصدرها ، ولهذا لا تأخذ المجلات الثقافية سوى ثقة القراء ، أما المال فإنها لا تحصل عليه ، ولا تستطيع أن توازن بين حصيلة توزيعها وبين نفقات ورقها وطباعتها وتحريرها ، لأن ثمنها أقل من نصف الثمن الحقيقى .

وتتلقى الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية عائد الاعلانات الذى يساعدها على الموازنة بين النفقات والدخل ، ولكن المجلات الثقافية لا تحظى بنصيب كاف من الاعلانات .

ورغم ما تشهده من ارتفاع الأسعار ، أبقت مجلة الهلال على سعرها فى متناول قارئها ، وأرجأت الخطط الخاصة برفع السعر مرة بعد أخرى .

وهذه هى المحنة الحقيقية للمجلات الثقافية .

ونحن نصر أن نحصل على الدعم من القارئ وحده ، لذلك نضاعف خدمتنا للقارئ ، وكان مما ليس منه بد .

ولابد لصوت الصحافة الثقافية أن يظل مسموعاً ، ولهذا نعاهد القارئ أن نبذل كل الجهد الممكن لكى نصبح جزءاً من العصر الذى نعيش فيه ، مادام القراء ينتظرون صدورها فى الموعد الذى لم تخلفه مرة على مدار الأعوام .

المحــــرر

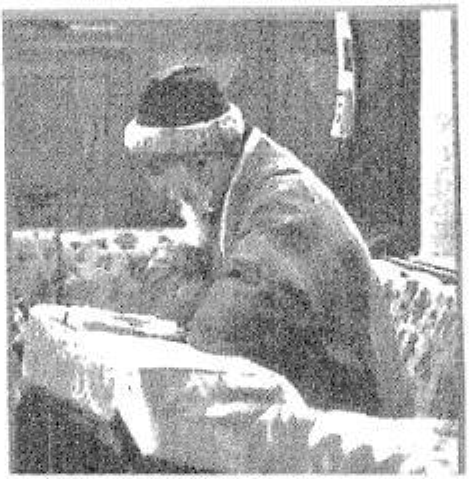
قضية المستقبل

المسألة اليهودية من جديد

بقلم : جميل مطر

عادت «المسألة اليهودية» إلي الواجهة ، وإن جاءت في ثوب جديد. إذ أنه منذ أن أعلن المرشح لرئاسة الجمهورية الأمريكية آل جور اختياره جوزيف ليبرمان ليكون نائباً للرئيس، وربما قبل هذا بقليل، صارت قضايا الانقسامات الدينية أو الطائفية بين اليهودية والمسيحية أو داخل اليهودية ذاتها تتصدر النقاش فى أجهزة الإعلام الغربية. بل إن عدداً من الكتب صدر ليشترك فى هذا النقاش، بعضه فى حدة وانفعال ، وبعضه في اعتدال وموضوعية .

أحد الحاخامات الذين يرفضون المجتمع العلمانى، ويتمسكون بتطبيق الشريعة اليهودية





ملصق نازى يظهر فيه اليهودى وهو يقف خلف الحلفاء الروس والأمريكان والانجليز،
فقد سعت الصهيونية ان تجعل من نفسها ترسا فى الآلة الغربية الأمريكية

قضية المستقبل



كان المتصور، منذ هيمن التقدم العلمى على جميع وجوه الحياة فى الغرب، وهو العنصر الأكثر تأثيراً فى اليهودية بصفة خاصة على امتداد القرن العشرين، أن اليهودية الأرثوذكسية، وأقصد بها هذا التيار فى اليهودية المتمسك بالتعاليم الصارمة وبالأصولية فى الاجتهاد والتفسير والالتزام بالتقاليد فى السلوك الفردى والجماعى لليهود، ستستعيد قوتها ونفوذها ولكن ليس إلى هذا الحد الذى فاجأ كثيراً من المجتمعات. يقول أحد المعلقين، أن لا أحد فى تمام عقله كان يمكنه فى منتصف القرن العشرين أن يتصور أن قوة اليهودية الأرثوذكسية ونفوذها سيصلان إلى هذه الدرجة التى هما عليها الآن. فالأرثوذكسية اليهودية كانت تسير دائما على خط مناوىء لنمط الحياة العصرية . وفى أمريكا تحديداً كان السائد أن هذا التيار انحسر إلى درجة لا يستطيع عندها أن يفرز شخصاً مثل جوزيف ليبرمان يضع اسمه على بطاقة ترشيح لمنصب نائب رئيس الولايات المتحدة ، ممثلاً لكل يهود أمريكا، خاصة وأنه توجد بين هؤلاء اليهود أغلبية ساحقة لا تعترف لليهود الأرثوذكس بمكانة مميزة أو باحترام خاص .

فاليهود الأمريكيون فى غالبيتهم الساحقة اعتقدوا، على الأقل إلى عهد قريب ، أن تقاليد اليهودية الأرثوذكسية وبخاصة التزامها القاسى بسلوكيات تتعارض مع تقاليد هذا العصر، تتناقض حتماً مع العقلانية والحرية الفردية، وكلاهما علامتان بارزتان من علامات العصر. ثم كانت المفاجأة عندما اكتشف الأمريكيون ، واليهود خاصة ، أن هؤلاء اليهود الأرثوذكس الذين لا تزيد نسبتهم إلى العدد الكلى لليهود الأمريكيين عن ١٠٪ هم الأكثر بروزاً فى الحياة اليهودية الأمريكية والأشد تميزاً واندفاعا وثقة بأنفسهم، وأنهم صاروا يسيطرون ، من داخل الحركة اليهودية الأمريكية ، على عدد متزايد من أجهزة الاعلام . بل أنهم صاروا يشدون وراءهم يهوداً آخرين فى اتجاه اليمين ونحو الانعزال عن بقية

المجتمع وضد الحداثة ، ويعودون بهم وبسرعة إلى نمط حياة ما قبل التنوير فى أوروبا.

تطويع الشخصية اليهودية

كان معروفا أن طوائف اليهود الأخرى تعودت على هذا التعنت من جانب الأرثوذكس، وتعودت أيضاً على تجاهله خاصة وأنه كان يتصل بأمور تجرى على هامش الحياة المادية لليهود ولا تمس القطاعات المهمة منهم، أو علاقات اليهود ببقية اليهود. ولكن يبدو أنه مع زيادة نفوذ الأرثوذكس ومحاولاتهم الدائبة المتصاعدة لاثبات وجودهم فى كل مكان بدأ السلوك الأرثوذكسى يثير مشكلات حقيقية وعميقة داخل المجتمع اليهودى الأمريكى . وان يكون الخلاف الراهن إن استحكم أول خلاف. فالجالية اليهودية فى الولايات المتحدة الأمريكية تواجه منذ فترة غير قصيرة تفاقمات متعددة فى خلافات قائمة وإن كانت كامنة ، وأخرى استجدت مع الظروف الدولية المتغيرة . تفاقم مثلاً الخلاف التقليدى بين الجماعات الصهيونية وبين أنصار الانصهار فى المجتمع الأمريكى . فالصهاينة كانوا دائماً أشد أعداء التيارات الداعية لانصهار اليهود فى المجتمع بحجة حمايتهم من العداء للسامية وللاستفادة من مزيج الثقافات والحضارات ولتطويع الشخصية اليهودية التى تعودت على الغرور والتعالى أو على الانطواء والانعزال، أو عليها جميعاً. كذلك تفاقم الخلاف بين العلمانيين الراديكاليين من اليهود الذين كانوا يشكلون غالبية القطاعات المثقفة والعلماء ومهنيين كثيرين، وبين بقية اليهود .

ثم جاءت صحوة اليهودية الأرثوذكسية لتستنفر - فيما يشبه الحرب الدينية - يهوداً ضد يهود ، ولكن بالأكثر ضد غير اليهود. فالطلاب المنتمون إلى هذه الطائفة يرفضون النوم فى عنابر أو أجنحة يختلط فيها الجنسان ويعتبرون هذا الاختلاط تعدياً صارخاً على حرية العقيدة. ويتظاهرون احتجاجاً على الدعاية التى تقوم بها منظمات غير حكومية لصالح ما يسمى بممارسة «الجنس الآمن» . وفى كليفلاند نشب خلاف حاد بين يهود المدينة بسبب إصرار جماعات أرثوذكسية على تشييد حمامات خاصة باليهود حسب الطقوس الدينية القديمة، وإصرارهم على تخصيص مدارس للفتيات فقط، وأن يحيا اليهود فى أحياء خاصة حتى لا يضطرون إلى التنازل عن ممارسة بعض عاداتهم وطقوسهم الحياتية .

★★★

ثم ظهر فى السوق الأمريكية كتاب بعنوان بوستفيل Postville ، وبعنوان فرعى «صدام الثقافات فى أمريكا» ، فأحدث على الفور أصداء كبيرة . إذ كان السائد والمتعارف عليه بين علماء الاجتماع




«إمرأة الكمان» لماتيس و«لعب الورق» لسيزان يزعم اليهود أنهم أصحاب المدارس الجديدة فى الفنون المختلفة

الأمريكيين وعلى امتداد عقود ومئات الكتب وآلاف المقالات أن التعددية الثقافية تحمل فى طياتها بالضرورة عنصر التسامح . وجاء هذا الكتاب يطرح النقيض، فيتساءل ... ماذا يحدث لمجتمع تعددى ، الجماعات فيه جماعات مختلفة إلى درجة يصبح عندما التسامح استحالة حقيقية ؟ ويقدم الإجابة من خلال عرض حالة معينة فى مدينة صغيرة فى ولاية آيوا وصل فيها الصدام بين الثقافات إلى حد يتحدى كل المسلمات التى يمكن أن يفترضها عالم اجتماع وحضارات عن امكانية التعايش بين جماعات مختلفة ثقافيا أو دينياً.

يتحدث ستيفن بلوم مؤلف الكتاب عن جماعة دينية يهودية معروفة باسم Lu-bavitcher Hassidim وهى جماعة تنتمى إلى طائفة واسعة النفوذ فى أماكن تجمع اليهود ومقرها الرئيسى مدينة نيويورك، وقد وصلت حفنة من العائلات المنتمية إليها إلى مدينة بوتسفيل فى منتصف الثمانينات لتشترى مجزرا غير يهودى لتعبئة اللحوم حولته إلى مجزر يعبىء اللحوم «الحلال» لليهود! والمعروفة بلحوم «الكوشر» لبيعها لأعضاء هذه الطائفة فى كافة أنحاء أمريكا. وقد تسبب وجود هذه الجماعة وتشغيلها للمجزر خلق حالة رخاء فى المدينة التى يبلغ عدد سكانها ١٤٦٥ نسمة. إلا أنه تسببت تصرفات هذه العائلات فى إثارة قلق شديد بين السكان الذين يعتنقون المسيحية اللوثرية، وهى الطائفة التى تبشر بمبادىء تشجع على إقامة علاقات حميمة بين الجيران . إذ فرض اليهود



قـضـيـة المســتـقـبل



القادمون على المدينة أنفسهم كفئة منعزلة لا تريد الاختلاط ، وتفرض على الآخرين احترام طقوسها وانعزالها وطرائق معيشتها حتى وإن كانت جميعها مزعجة للسكان الأصليين في المدينة . حاول السكان، بالمناقشة والود، اقناع الوافدين بأهمية التعايش من أجل استمرار جو التسامح الذى اشتهرت به هذه المدينة الصغيرة . عقدوا الندوات والمؤتمرات واستدعوا علماء اجتماع وسياسة وأقاموا احتفالات ومأدب، كلها بغير جدوى . وأمام اصرار اليهود على عدم الاختلاط ورفضهم الاختلاط والتعايش طرح مجلس المدينة فكرة عقد استفتاء على ضم الأراضى المقام عليها المجزر إلى ملكية المدينة بهدف اجبار اليهود على مغادرتها .

وبأسلوب شيق وعرض موضوعى ومثير ينقل المؤلف عن أبطال كتابه ما يؤكد أن التعددية ليست بالضرورة طريقاً إلى التسامح والتعايش. يقول واحد من اليهود المهاجرين إلى المدينة ذات الأغلبية المسيحية : أينما نذهب فاننا لن نتأقلم مع المكان أو مع السكان . إن المكان والسكان هما اللذان يجب أن يتأقلما معنا. ويعتقد المؤلف أن هذه المدينة الصغيرة فى برارى أمريكا ليست أكثر من حالة من مئات الحالات حيث لا يريد الناس أن تصبح «جزءاً فى جماعة» . ولا ينسى المؤلف أن يذكر القارىء بأن سكان هذه المدينة كانوا ، قبل وصول اليهود، معتادين على أن كل الناس مسيحيون حتى أنهم لم يتصوروا أن هناك إنساناً آخر لا يؤمن بالمسيح ، أو على الأقل لم يتعلم كيف يؤمن بالمسيح . وهو يصف الرغبة فى التمايز عند اليهود بأنها فاقت أحياناً حدود المتصور . فقد رفض اليهود قص الحشائش فى حدائق منازلهم تأكيدا لرفضهم أن يكونوا مثل الآخرين. ووضعوا نصب أعينهم - رجالاً ونساءً وأطفالاً - هدف تشييد سور نفسى عالٍ يفصل بينهم وبين غير اليهود. ولذلك فحين دعاهم سكان الأحياء المجاورة لمشاركتهم الاحتفال بعيد الشكر، وهو عيد كل الأمريكيين ، وليس عيداً لطائفة

دون أخرى، قبلوا الدعوة . وفى يوم الاحتفال لم يظهر يهودى واحد فى أى حفل من الحفلات الثلاثة التى أقيمت لهذا الغرض.

ويرصف المؤلف، وهو يهودى، عبارات وردت على ألسنة يهود القرية يقول أنه لم يسمعها من قبل وجميعها تتعالى على المسيحيين وتصفهم بأبشع الصفات . يقول واحد من اليهود «نعم لم نسدد القرض الذى اقترضناه من المدينة.. سندفعه يوماً ما .. ولكن بشروطنا وليس بشروط أصحاب القرض». ويعلق ستيفين بلوم بأن ما سمعه من اليهود جعله يتعاطف مع أهل القرية الأصليين ، ويستطرد قائلاً « .. لقد رأيت فى هذه القرية الجانب المظلم فى عقيدتى، إن نظرة إلى سلوك اليهود المتطرفين الذى أقلق سكان بوتسفيل جعلنى أنا نفسى أقلق وينقبض صدرى». يذكرنى ما جاء فى هذا الكتاب على لسان مؤلفه ستيفن بلوم بتصريح غاضب صدر عن بافيل دوستال وزير الثقافة التشيكى فى شهر أغسطس الماضى. كانت مناسبة التصريح حملة إعلامية وسياسية نظمها يهود مدينة براغ ، بقيادة طائفة اليهود الأرثوذكس، تطلب من الحكومة عدم السماح بإقامة مبانى جديدة محل مبانى جارى هدمها بحجة أنها تقع فى منطقة كانت فى الأصل، أى منذ خمسمائة عام، مقبرة عامة لليهود. قال الوزير «لا أعرف لماذا يرفض يهود براغ بناء مسرح فوق رفات أجدادهم.. لماذا هم قلقون الآن، ولم يقلقوا على امتداد ٥٢٠ سنة شيد خلالها فوق المقابر مراقص ومسارح وأنشطة كثيرة.. اليهود يتصرفون كالطبيب الذى يظهر بعد الجنازة.. ولكن هذه المرة يظهر بعدها بخمسة قرون». ورغم ذلك نجح اليهود فى اجبار الحكومة على وضع رفات اليهود فى مبنى من الأسمنت فى مكان المقبرة نفسه. وبعدها سمحوا للحكومة أن تقيم ما شاءت من مبان حول المبنى . ورغم ذلك عاد يهود براغ إلى الاحتجاج على إقامة مبان تتاخم الرفات اليهودى.

★★★

وفى مقال نشرته نيويورك تايمس (١/١٠/٢٠٠٠)، لكاتب يهودى ، اسمه لورى جورستين ، يقول إن تضخيم الاحتفال بالسنة اليهودية الجديدة فرصة لتتذكر اليهود الأمريكيون أنهم «قبيلة عزلت نفسها بنفسها. عزلت نفسها بمناسباتها وأعيادها، وبنمط حياتها وطقوسها». وأضاف إن الجديد هو ردود الفعل العنيفة على أى محاولة للتقريب بين المسيحية واليهودية . مثال ذلك رد الفعل على بيان أصدره عدد من اليهود فى سبتمبر يؤكدون فيه «أن اليهود والمسيحيين يعبدون إلها واحداً، ومرجعهم من كتاب واحد، وهو الانجيل، ويقبلون تعاليم التوراة». إذ اجتمع عدد من كبار

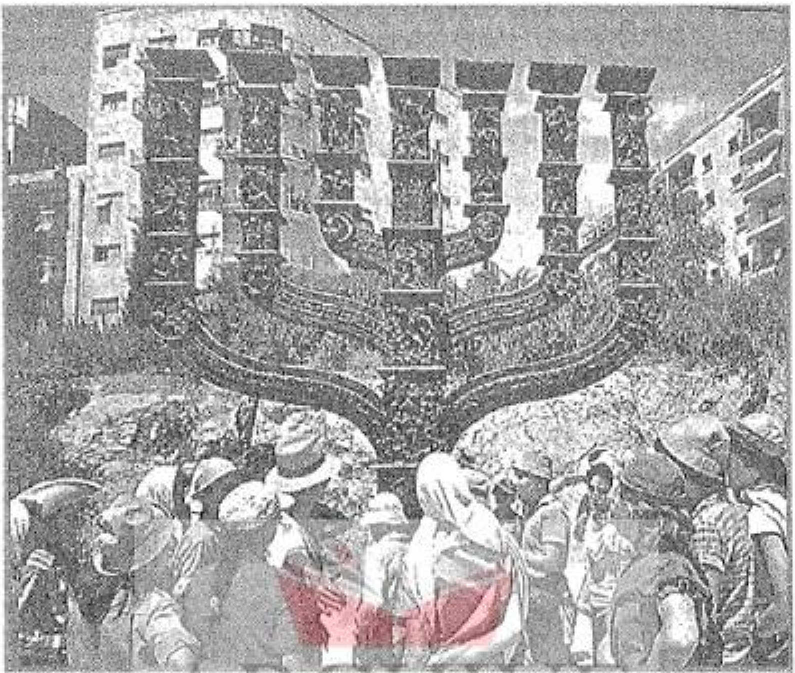
قضية المستقبل



المفكرين اليهود ليقرروا أن هذا البيان وأمثاله أعمالاً خاطئة بل وتهدد بأخطار كبيرة «.. إنها تعمل على تمييع الفوارق بين عقيدتين لا يمكن بأى حال التوفيق بينهما».

واشتد الجدل حول هذا البيان الذى صدر تحت عنوان «دابرو إيميت.. بيان يهودى عن المسيحيين والمسيحية»، ودابرو إيميت عبارة بالعبرية معناها قل الحقيقة. وقد اشترك فى كتابة البيان أساتذة يهود من جامعات نوتردام ومدرسة شيكاغو للاهوت وفرجينيا وتورونتو. أراد الأساتذة من خلال بيانهم تأكيد حقيقة أنه خلال نصف قرن تخلت كنائس عديدة كاثوليكية وبروتستنتية عن تعاليم كانت تعتبر اليهودية عقيدة فاشلة ومرفوضة من الرب. ويوجه البيان الدعوة إلى اليهود للاستجابة لهذا الاتجاه المسيحى والاعتراف بهذا التغيير سعياً وراء تعايش أقوى وتسامح أفضل. ويبدو أن أكثر النقد الذى وجه إلى البيان كان بسبب عبارة وردت فيه تقول أن «النازية لم تكن ظاهرة مسيحية ولم تكن المحرقة نتاجاً حتمياً للمسيحية».

ويتساءل الكاتب ، هل صحيح ما يقوله بعض الأكاديميين والقساوسة المسيحيين من «أننا وهم» نقدس الرب نفسه والانجيل نفسه والمبادىء والأخلاق نفسها؟ وهل صحيح ما يقوله ويروج له على أوسع نطاق البروفسور فيليب كاتينجهام أستاذ الأديان فى كلية بوسطون عن أن «العهد القديم هو العهد المشترك»؟ وقد تصدى للرد على هذا الاتجاه «التوفيقى» ، أو التوحيدى، عدد كبير من المتخصصين اليهود.. قال المعتدلون إن قصة التراث المشترك والعهد المشترك حقيقة مبالغ فيها، «وأن المسيحيين يقرأون العهد الجديد كمفتاح لتفسير حقيقة العهد القديم. ولذلك فالقول أننا نقرأ الكتاب نفسه قول مضلل. إننا نقرأ الكتاب نفسه ولكن بافتراضات متناقضة وبالضرورة متنافرة» . يقول الدكتور آمى جيل ليفاين من جامعة فاندربيلت أن «المسيحيين يقرأون العهد القديم كجزء أول والعهد الجديد كجزء ثان من الانجيل، أما بالنسبة لنا فالانجيل



الشمعدان احد رموز الدولة العبرية ورمز للأصولية اليهودية وهو هدية من البرلمان البريطانى للبرلمان الإسرائيلى

ليس إلا العهد القديم فقط، ويستطرد قائلاً أنه «لا داعى إطلاقاً لأن يقتبس اليهود من العهد الجديد . إنه ليس جزءاً من كتابنا المقدس.. انه بالنسبة لنا لا يختلف عن باجافارجيتا أو القرآن أو السوترا».

آخرون يمثلون التيار الأرثوذكسى المتصاعد النفوذ يتهمون البيان التوفيقى بأنه دعوة صريحة إلى اختفاء اليهودية ، باعتبارها العقيدة المجهولة وعقيدة الأقلية. بينما يذهب لاهوتيون يهود إلى أنه لا خوف على اليهود لأن تلقين اليهود، معلومات عن المسيحية لا يؤدى بالضرورة إلى ضعف اليهودية . بل العكس، لأنه إذا نظر اليهودى إلى المسيح على أنه رجل يهودى فى وسط يهودى ، سيجد أن لدى المسيح أشياء كثيرة يقولها لليهود عن العدالة الاجتماعية.

ومازالت القيادات الدينية والسياسية اليهودية منقسمة حول بيان التوفيق ، وما كان هذا البيان ليصدر، وما كان لهذه الزوبعة أن تحتد وأن تستمر لو أن

قضية المستقبل



آل جور اختار شخصاً آخر غير ليبرمان ليكون نائبا له.. ومازلت عند رأيى بأنه سيكون لاختيار ليبرمان أبعاد سوف تمس العلاقات المسيحية اليهودية، والعلاقات بين الاصلاحيين والأرثوذكس من اليهود. ستمس أيضاً مجمل منظومة القيم الدينية فى الولايات المتحدة والعلاقة بين الدولة والدين وجوهر الدستور الأمريكى خاصة بعد أن تعالى أخيراً صوت الرأى العام الذى يزعم أن الآباء المؤسسين اعتبروا التوراة المصدر الرئيسى للدستور والتشريع فى الولايات المتحدة الأمريكية.

***

وخلال الأسبوع الأخير من نوفمبر الماضى، انعقدت فى مدينة القدس «الجمعية العمومية لليهود الأرثوذكس». ولاحظت الصحافة الإسرائيلية كثافة عدد الحضور من الخارج على الرغم من أن اجتماعات يهودية أخرى عقدت ولم يحضر من الخارج عدد كاف من اليهود، وعلى الرغم من أن عدد السياح إلى إسرائيل من يهود الشتات انخفض بنسبة كبيرة منذ بدء الانتفاضة الفلسطينية. لاحظ المراقبون أيضاً أن الوضع الأمنى والحرب الدائرة بين الفلسطينيين وإسرائيل لم تكن بنداً فى جدول الأعمال، كما لم يتضمن ، رغم أهميتها ، العلاقات بين الأرثوذكسية اليهودية وبقية الطوائف اليهودية . والطريف أنه عندما سئل الحاخام مانديل جانشرو رئيس الاتحاد الأرثوذكسى العالمى عن السبب فى عدم مناقشة العلاقات مع الطوائف اليهودية الأخرى قال «نحن لا نكن احتراماً لهذه الطوائف، وبالتالى فهى لا تستحق من اجتماعنا أى اهتمام .. الكل يعرف أنه لا مستقبل لليهودية فى العالم بدون الأرثوذكسية».

من هو اليهودى ؟

وفى الواقع نشطت الحركة الأرثوذكسية اليهودية فى كافة أنحاء العالم ، ويقال أنها تشكل أغلبية اليهود فى الشتات باستثناء يهود الولايات المتحدة ، وهؤلاء لا يحترمهم قادة اليهود

الأرثونكس بسبب المعدل السريع لانصهارهم في المجتمع، وانشغالهم عن قضايا ديانتهم ، وضعف انتمائهم لإسرائيل حسب رأى هؤلاء القادة. ولذلك قرر المؤتمر أن يخصص أغلب مناقشاته لقضية الزيادة المتتالية في نسبة عدد غير المتزوجين من أهل الشتات ، وبخاصة في الولايات المتحدة ، وقرر تخصيص المؤتمر القادم لتقديم حلول عملية لهذه المشكلة .

كذلك ناقش المؤتمر قضية «من هو اليهودي»، وانتصر التيار الداعي إلى توفير مرونة أكبر في وضع معايير التعريف . وقد أصيب المجتمعون بالصدمة، حسب وصف معلق إسرائيلي، حين قال لهم وزير شئون الشتات في الحكومة الإسرائيلية أنهم تأكدوا في إسرائيل من أن ثلثي المهاجرين إلى إسرائيل من أقاليم الاتحاد السوفييتي سابقاً من غير اليهود. وألقى أغلب المتحدثين بالمسئولية على عملية الانصهار في مجتمعات الشتات، ولم يحملوا إسرائيل المسئولية باعتبار أن هناك شبهة قيامها بتشجيع هجرة كل من يعرب عن رغبته في العيش في إسرائيل وكل شخص يعتبر نفسه يهودياً ، حتى أنه قيل إن إسرائيل توسع من مفهوم اليهودية لتصبح وعاء لمختلف الأجناس والشعوب.

وفي نهاية المناقشات ، وعندما نوقش موضوع الانتماء لإسرائيل بين يهود الشتات، وجه المؤتمر اللوم إلى حكومة إسرائيل لمسئوليتها عن ضعف الانتماء لها بين يهود الشتات لأنها تتسامح مع التيارات العلمانية ، وتشجع على عدم التمسك بتعاليم الدين، وبخاصة في شأن عطلة السبت، وهو الأمر الذى أدى إلى فقدان الحافز لدى اليهودي خارج إسرائيل ، وحتى في داخلها ، لدعم انتمائه للدولة العبرية .

ويبدو على كل حال أن انتفاضة الأقصى لم تشجع الإسرائيليين ويهود الشتات على زيادة تعلقهم بإسرائيل، على عكس ما توقعت الحكومة الإسرائيلية حين قررت تصعيد المواجهة إلى درجة تقترب من درجة الحرب الفعلية ، فتكرر ما حدث عام ١٩٦٧ وخلال المواجهة مع المقاومة الفلسطينية في لبنان، حين توحد يهود الشتات وراء إسرائيل . وقدموا المعونات والقروض والاستثمارات الهائلة . بل ويوجد ما يدل على أن سكان المستوطنات، وأغلبهم من الأمريكيين المتشددين في تدينهم أو في تطرفهم السياسي، يرحلون عن المستوطنات ويطالبون بمساكن وراء الخط الأخضر بحجة أن الدولة استخدمتهم وقوداً لحربها مع الفلسطينيين، وقد تتخلى عنهم إذا ازداد الضغط الشعبي في فلسطين واضطرت إسرائيل إلى الانسحاب.



بقلم: د. أحمد يوسف أحمد

ليس استشراف المستقبل بالعمل الهين أو المبسط، غير أن شواهد الماضى والحاضر أكثر من واضحة، وعلى أية حال فإن أفضل طريقة لاستشراف المستقبل كما يقولون هى أن تشارك فى صنعه، ولو كانت هذه الصفحات قد اشتطت كثيرا أو قليلا فى التفاؤل بمستقبل الصراع العربى - الإسرائيلى من وجهة نظر عربية فلنحاول أن نجعل شططها واقعا ملموسا فى مستقبل غير بعيد نبنيه بحسن الرؤية لما جرى ويجرى حولنا وسلامة التخطيط لعمل يتعين علينا أن نقوم به من أجل أن نضمن أمننا وأمن أبنائنا .

انتفاضة الأقصى

طرحت انتفاضة الأقصى التي اشتعلت في الأراضي الفلسطينية المحتلة عددا من الأسئلة لعل من بينها سؤالا لم يحظ بعد بالاهتمام الكافي، وهو ذلك المتعلق بمستقبل الصراع العربي ـ الاسرائيلي، ذلك ان الانشغال كان كبيرا بالآثار والتداعيات الفورية للانتفاضة على التطورات الآنية لعملية التسوية المحبطة ومسار التصعيد المتسارع، وفي ظل هذا الانشغال بدا أن أحدا لم يكن يملك رفاهية التأمل في مستقبل الصراع العربي الاسرائيلي ككل على ضوء ما أحدثته الانتفاضة من تداعيات .

الاتجاه الى التسوية فى أعقاب حرب ١٩٦٧

لقد كانت الفكرة السائدة قبل حدوث الانتفاضة أن الصراع العربي الاسرائيلي لم يدخل فحسب مسار تسوية أكيدة، بل إن هذا المسار كاد يبلغ نهايته، وبدا هذا واضحا في حديث البعض عن هموم «مابعد السلام» ، وتسابق البعض الآخر الى الحديث عن صفقة متكاملة تم ابرامها قبل انعقاد قمة كامب ديفيد الفلسطينية ـ الإسرائيلية ـ الأمريكية .

ويغض النظر عن خطأ طرح هموم ما بعد السلام في وقت بدا فيه أن التسوية مازال أمامها عقبات موضوعية هائلة وشوط زمني كبير كي تبلغ منتهاها، وبغض النظر كذلك عن أن الحديث عن تسوية صراع عمره قرن من الزمان فى قمة تستغرق أسبوعا أو أسبوعين ينطوى على استخفاف بالغ بالعقل، فإن وجه الصحة في الفكرة السائدة قبل الانتفاضة يتمثل في أن الصراع كان قد دخل بالفعل مسارا للتسوية في أعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧ التي استطاعت اسرائيل ان تحدث بها تغييرا هائلا في ميدان الصراع لصالحها، سواء بما أثبتته من تفوق عسكرى، أو بما احتلته من أراض عربية استكملت بها سيطرتها على كل فلسطين وشبه جزيرة سيناء، ومرتفعات الجولان. وبدا أن القيادات العربية أدركت على التوالى أنه لا مناص من التركيز مرحليا على ازالة آثار العدوان، وهي عملية كان واضحا أنها لابد وأن تتضمن الاستعداد لتقديم تنازل ذى طابع استراتيجى يقوم على أساس القبول بوجود اسرائيل فى حدود ما قبل حرب يونيو ١٩٦٧ .

ومن جانب اسرائيل لاشك أنها كانت تريد أن تفرض ارادتها على الأطراف العربية المعنية فى أعقاب حرب ١٩٦٧، أو بعبارة أخرى كانت تريد للتسوية إن تمت

ومستقبل الصراع العربي ـ الإسرائيلي

أن تحمل سمات الانتصار الاسرائيلي في الحرب، وهو ماكان يستحيل قبوله عربيا، ومن هنا بدأت المحاولات العربية لتصحيح ميزان القوى مع اسرائيل سواء لاغراض تفاوضية أو عسكرية، وبدا هذا واضحا على الجبهة المصرية بالذات من خلال عملية اعادة البناء السريعة للقوات المسلحة، والصمود العسكري في أعقاب الهزيمة مباشرة. ثم التصعيد الى حرب الاستنزاف فحرب اكتوبر ١٩٧٣ التى كانت حربا عربية بكل المقاييس. ولذلك بدأت اسرائيل تتجه بالتدريج الى التخلى عن فكرة فرض ارادتها بالكامل على العرب، وتبدى استعدادها للتوصل الى تسوية حرصت دوما على أن تكون لصالحها، وإن تكن قد اضطرت فى غمارها لتقديم تنازلات كان بعضها جوهريا، وتعزز نفس النموذج الذى أشار الى استحالة فرض اسرائيل لارادتها على النحو الذى تريده على العرب بالمقاومة اللبنانية - الفلسطينية لغزو ١٩٨٢، والانتفاضة الفلسطينية منذ أواخر ١٩٨٧، والمقاومة اللبنانية بقيادة حزب الله فى الشريط الحدودى المحتل.

ولقد مثل اتفاق اوسلو ١٩٩٣ على الرغم من مساوئه الظاهرة نقطة مهمة فى تأكيد اتجاه الصراع الى التسوية، لا على صعيد المسار المصرى - الاسرائيلى فحسب وانما على صعيد أهم مسار فى الصراع وهو المسار الفلسطيني - الاسرائيلي، وكان اعتراف اسرائيل فى هذا الاتفاق بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل للشعب الفلسطيني نقلة تاريخية اذا قيست بالادعاءات الصهيونية السابقة عن أرض فلسطين: أرض بلا شعب لشعب بلا أرض. وبنيت هندسة الاتفاق على أساس أن تتم عملية التسوية على مرحلتين أولاهما انتقالية تستمر خمس سنوات وتتم فيها مواجهة القضايا الأكثر سهولة فى الصراع، والثانية نهائية تعالج كل القضايا المستعصية كقضايا عودة اللاجئين والمستوطنات والقدس والكيان الفلسطيني والمياه.

وعلى الرغم من الانتقادات التى وجهت بحق الى اتفاق اوسلو الا أن أحدا لم يكن يستطيع أن ينكر أن شواهد الخبرة الماضية تشير الى أن بعض الاتفاقيات السيئة قادت الى الاستقلال السياسى فى عدد من تجارب التحرر الوطنى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. صحيح أنه بدا فى حينه استقلالا منقوصا، لكنه كان استقلالا على أية حال فضلا عن أن التبعية تكاد تكون قد طالت الغالبية لاحقا. وفى المرحلة الانتقالية وعلى الرغم من المماطلات الاسرائيلية المعتادة والتشدد فى التنفيذ عندما يكون هناك تنفيذ أصلا، والتراجع عنه فى كثير من الاحيان ظل أنصار أوسلو يأملون فى

الوصول الى التسوية النهائية التى كان واضحا أنها تتطلب تنازلات أكبر بكثير مما توقعوا فى البداية .

ثم جاءت قمة كامب ديفيد لتكون لحظة كاشفة: هذا هو أقصى ما تستطيع اسرائيل ان تقدمه بتركيبتها السياسية الراهنة، وفى ظل ميزان مختل للقوى لصالحها، ولم يكن بمقدور اكثر الفلسطينيين اعتدالا أن يقبل ما تطرحه اسرائيل ومن هنا كانت الانتفاضة التى عجل بها السلوك الاستفزازى اللاحق لشارون بزيارته للمسجد الأقصى. بعبارة أخرى فان الانتفاضة كانت واقعة لا محالة سواء بزيارة شارون أو بغيرها . فى لحظات معينة تدرك الشعوب بفطرتها السياسية السليمة أن استمرار الوضع الراهن من شأنه أن يقضي على أهدافها، ومن ثم فعليها أن تخرج على المألوف فى محاولة لتحطيم هذا الوضع الراهن وتأسيس واقع جديد يكون اكثر مواتاة لتحقيق أهدافها. هكذا فعل الجزائريون فى خبرة التحرر العربى فى نقطة زمنية فى أوائل النصف الثانى من القرن العشرين، وفعلها اليمنيون أيضا فى نقطة أخرى فى أوائل الستينات، وفعلها الشعب الفلسطينى أكثر من مرة وصولا الى انتفاضته الحالية .

انتفاضة الاقصى ومستقبل التسوية

ولقد طرحت انتفاضة الأقصى اسئلة مهمة حول مستقبل الصراع : هل تعنى الانتفاضة أن مستقبل تطور الصراع فى مسار تفاوضى قد قضى عليه؟ الواقع أن إعمال العاطفة قد يغرى بالإجابة بالإيجاب، غير أن إمعان النظر يفضي الي شيء أكثر تعقيدا. فلعل انتفاضة الأقصى قد قضت على مسار للتسوية وليس على مسار التسوية. بعبارة أخرى يمكن القول بأن انتفاضة الأقصى قد حررت شهادة الوفاة الرسمية لمنهج أوسلو فى التسوية، ولكنها لم تقض على امكانية التسوية، وان تكن بشروط أفضل. أى أن الانتفاضة هى محاولة لتحسين الوضع التفاوضى للشعب الفلسطينى بحيث ان فتات اوسلو لم يعد يلائمه ، ولما كان يبدو لنا في المدى القصير أن اسرائيل لا تستطيع بسهولة في حالتها الراهنة أن تقدم طرحا أفضل على نحو جوهرى للفلسطينيين، فإن المعنى الوحيد لهذا هو أن الصراع سوف يقدر له فى هذا المدى القصير أن يشهد مزيدا من التفجرات التى تشير الى أشكال مختلفة للمقاومة يبدعها الشعب الفلسطينى حتى تجبر اسرائيل على أن تفهم أن أمنها الحقيقى ينبع من حد أدنى من الاستجابة لمطالب الشعب الفلسطيني.

والواقع أن تطور الصراع منذ هزيمة ١٩٦٧ يشير الى نفس النموذج. أى أن العرب على الرغم من قبولهم الاستراتيجى بالتسوية فى اعقاب هزيمة ١٩٦٧ قد وجدوا أنفسهم مضطرين أكثر من مرة لاعمال القوة ضد اسرائيل لاجبارها على التسليم بتنازلات لم يكن ممكنا دونها تقدم التسوية من وجهة النظر العربية. لقد قبل الرئيس جمال عبدالناصر فى نوفمبر

١٩٦٧ القرار ٢٤٢، لكنه احتاج الى حرب الاستنزاف كي تجد الولايات المتحدة الامريكية نفسها مضطرة لتقديم مبادرة روجرز في يوليو ١٩٧٠ ، وعرض الرئيس السادات عرضه الشهير للتسوية في فبراير ١٩٧١ ولكنه اضطر لخوض حرب اكتوبر ١٩٧٣ كي يجعل اسرائيل تقبل بالجلاء عن سيناء، وقبل الفلسطينيون منطق التسوية «التاريخية» بدولة اسرائيلية في حدود ما قبل يونيو ١٩٦٧ ودولة فلسطينية على الضفة الغربية وقطاع غزة في أعقاب حرب اكتوبر ١٩٧٣ وهو ما قننته صيغة فاس التي أقرتها القمة العربية في ١٩٨٢، غير أنهم لم يتمكنوا من تحقيق أي انجاز يذكر الا في أعقاب انتفاضة ديسمبر ١٩٨٧، التي دامت - وان يكن بدرجات متفاوتة القوة - حتى ازمة الخليج في مطلع التسعينات، وهذا فضلا عن أن إعمال القوة ضد اسرائيل في أكتوبر ١٩٧٣ وبالمقاومة اللبنانية - الفلسطينية في أعقاب الغزو الاسرائيلي للبنان في ١٩٨٢ وبمقاومة حزب الله في الشريط الحدودي الجنوبي قد أجبر اسرائيل على الانسحاب من أراض عربية دون تسوية تفاوضية .

على المدى القصير وربما المتوسط سوف يستمر اذن حدوث تفجرات في الصراع بأشكال متنوعة حتى ترتفع تكلفة الاحتلال الاسرائيلي للأراضي الفلسطينية الى الحد الذي يجبر اسرائيل على اعادة حساباتها، وسوف يتوقف المدى الزمني المطلوب لاجبار اسرائيل على اعادة النظر في حساباتها على اداء حركة التحرر الوطني الفلسطيني وظهيرها العربي، فإن ساء الاداء طال المدى وكلما تحسن قصرت المدة المطلوبة لاحداث التحول المرغوب في السلوك الاسرائيلي. ومن المحتمل ان يبرز في هذه العملية سيناريو لتسوية رديئة يقبل فيها الجانب الفلسطيني الرسمي بما هو اقل من الحد الأدنى المقبول من القوى الفلسطينية الفاعلة والقوى العربية ذات الصلة، وهنا سوف يكون هذا السيناريو بمثابة جملة اعتراضية مؤقتة، حيث أن مثل هذه التسوية الرديئة لابد وأن تؤدي بدورها الى تفجرات جديدة لعدم قابليتها للبقاء، كونها تحمل بذور فنائها. لنتخيل مثلا كيف تدوم تسوية تتحدث عن مسجد المسلمين وما تحته للصهاينة ، ومن المهم أن ما تطرحه اسرائيل حتى الآن يدخل في باب التسويات الرديئة حيث تبقى للمستوطن المغتصب على سبيل المثال حقوقا تجعله ملاصقا لصاحب الأرض الحقيقي، بكل ما يحمله ذلك من تناقض قابل للانفجار في اى وقت وتبقى مئات الألوف من اللاجئين الفلسطينيين مشردين في ظل ظروف انسانية بالغة المشقة ومناخ سياسي شديد الحساسية ،

وكلها عوامل من شأنها أن تجعل التسويات المطروحة حتى الآن أقرب الى القنابل الموقوتة منها الى صنع السلام .

بل انه مما يثير التأمل أكثر فى هذا السياق ما يبدو من أن التسوية حتى أن تم التوصل اليها في ظل ميزان افضل للقوى من وجهة النظر الفلسطينية سوف تقصر عن شمول عناصر بالغة الأهمية لدوامها. بعبارة أخرى فانه وان كان متصورا ان حركة التحرر الوطنى الفلسطينى قادرة من خلال نضالها بشتى الاساليب على أن تصل الى تسوية معقولة فيما يتعلق بالاراضى التى احتلت فى حرب ١٩٦٧، الا انه لا يبدو أنها قادرة فى المدى القريب او المتوسط على التوصل الى حل تاريخى للصراع، والمقصود بالحل التاريخى هنا هو حل كل قضايا الصراع وأهمها فى هذه الحالة قضية الشعب الفلسطينى المشرد بالملايين خارج ارضه. وطالما أن هذه القضية لن تحل وبالذات فى مناطقها الحساسة (كما فى الحالة اللبنانية) فإن التسوية حتى وإن تم التوصل اليها سوف تبقى ناقصة .

تأملات حول مستقبل الصراع

وتنقلنا هذه النتيجة الى سؤال آخر حول مستقبل الصراع العربى الاسرائيلى فاذا كان التحليل السابق قد أفضى الى أن أية تسوية يفترض التوصل اليها فى المدى القصير أو المتوسط سوف تكون ناقصة بمعنى أنها لن تشكل حلا تاريخيا للصراع فترى كيف يكون الاتجاه العام للصراع بعد مثل هذه التسوية او حتى بدونها بفرض أن التوصل اليها بات مستحيلا، قد تبدو محاولة الاجابة التالية على مثل هذا السؤال منطوية على مفارقة للواقع ، غير أن المرء لا يمكنه أن يتجاهل دروس الخبرة التاريخية لحركات التحرر الوطنى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية من ناحية وبدروس الخبرة المعاصرة لتطور الصراع العربى الاسرائيلى منذ ١٩٦٧ من ناحية أخرى .

وتشير كل خبرات حركات التحرر الوطنى الى ان صراعها مع المستعمر قد انتهى بالاستقلال . ربما كان الاستقلال منقوصا بدرجات متفاوتة فى حالات عديدة، وربما استمر نموذج التبعية للمستعمر القديم فى هذه الحالات، غير أن النتيجة الأكيدة أن الاستقلال السياسى كان هو نهاية المسار النضالى لتلك الحركات، ومن السهولة بمكان أن نتذكر السخرية والاستخفاف اللذين كانت النبوءات العلمية لعدد من المحللين بانهيار النظام العنصرى فى جنوب افريقيا تقابل بهما قبل ما لايقل عن ربع قرن على وقوع ذلك الانهيار، وكان سبب تلك السخرية وهذا الاستخفاف واضحا : ان أحدا لم يكن يتصور أن يأتى اليوم الذى تنهار فيه تلك القلعة العنصرية التى بدت فى حينه أكثر منعة من أن تنال منها حركة التحرر الوطنى للأغلبية السوداء المقهورة.

ويعنى ماسبق أن خبرة التاريخ واضحة أكثر : أن مآل الحالة الاستعمارية الاسرائيلية الراهنة هو الانهيار ، وعندما

نتحدث عن الانهيار فنحن لا نشير بالتأكيد الى الزوال المادى لما تمثله اسرائيل، وانما الى البنية الصهيونية لها: تماما كما بقى البيض بممتلكاتهم وادوارهم بصفة عامة في جنوب افريقيا وان تغيرت بنْية السلطة لتصبح ديمقراطية على النحو الذى سمح للأغلبية السوداء بأن تسيطر على السلطة السياسية. وبالتأكيد سوف يكون هناك اختلافات فى التفاصيل فى الحالة الفلسطينية عن حالة جنوب افريقيا على سبيل المثال كون الاسرائيليين لا يمثلون اقلية فى الوضع الراهن في أرض فلسطين، غير أن جوهر الحل يبقى واحدا: زوال بنية الهيمنة الاستعمارية .

ومن ناحية أخرى فإن دروس الخبرة المعاصرة للصراع العربى - الاسرائيلى بعد ١٩٦٧ تبدو معززة للتحليل السابق، وقد يكون هذا بدوره بالغ الغرابة لدى البعض حيث تعودنا نحن العرب أن نتحدث عن الاخفاق العربى المتكرر فى ادارة الصراع العربى - الاسرائيلى، وهو قول حق، ولكن الأمور نسبية، بمعنى أن الاخفاق يقاس بما كان يمكن للعرب أن يفعلوه لو أحسنوا استغلال كل امكاناتهم وكذلك الفرص التى اتيحت لهم. أما الحديث عن الاخفاق المطلق فهو أمر غير وارد ، والدليل على هذا يمكن أن يستمد من إلقاء نظرة متأنية على تطور الصراع العربى - الاسرائيلى منذ حرب ١٩٦٧ .

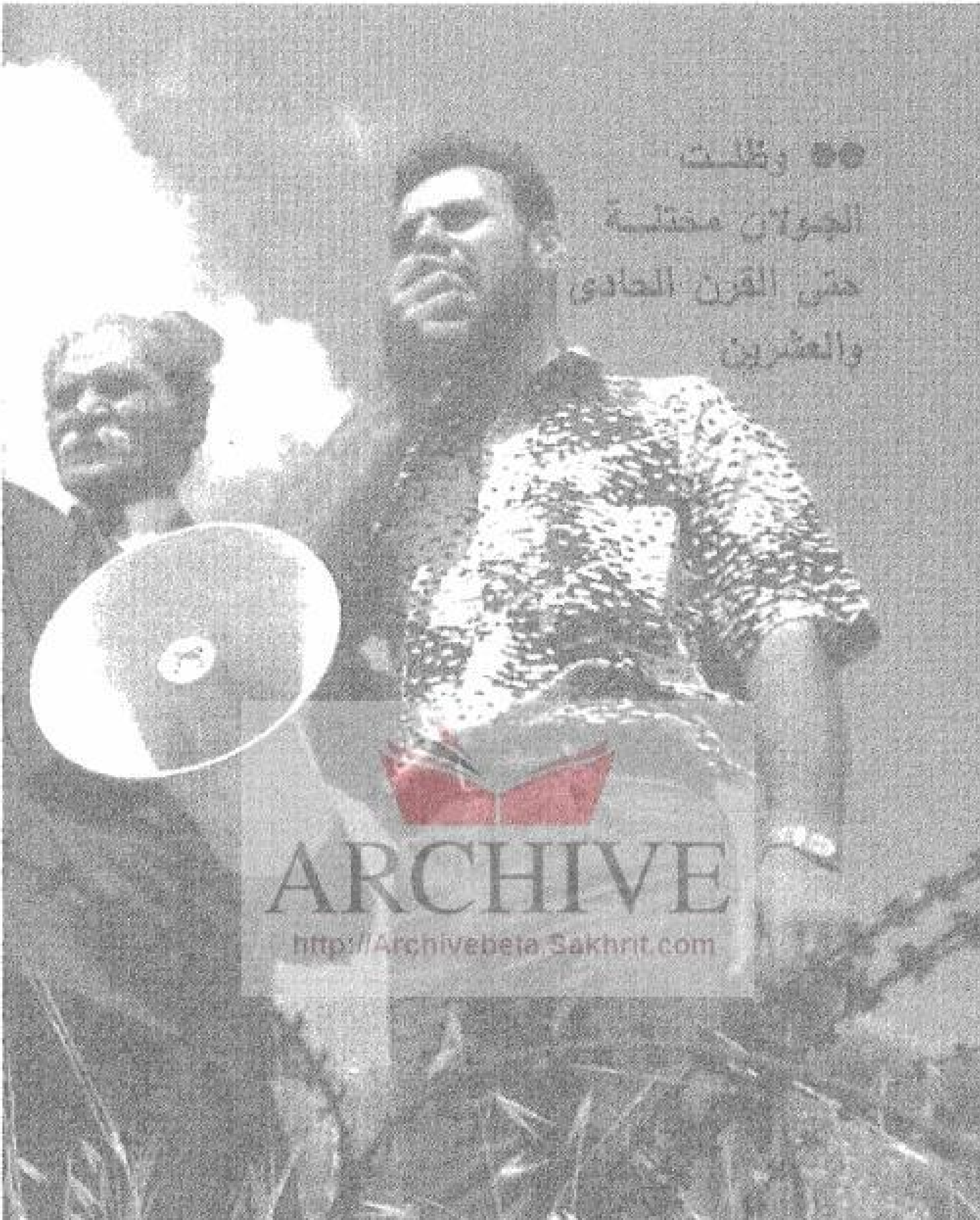
لقد بلغت اسرائيل اوج قوتها فى أعقاب تلك الحرب بما أثبتته من قدرة على هزيمة أكبر الجيوش العربية مجتمعة، وما احتلته من أراض تابعة لدول عربية ثلاث، ان لم تكن أربع باضافة لبنان الى مصر وسوريا والاردن، غير ان امعان النظر يظهر ان تلك النقطة الزمنية كانت هى اعلى نقطة فى منحنى القوة الاسرائيلى. ومرة اخرى فإن خبرة التاريخ تشير الى أن كل قوة استعمارية تصل الى نقطة ذروة تبدأ بعدها فى الانحدار ، وقد يكون الانحدار بطيئا لكنه يستمر، ولنتأمل ماحدث لاسرائيل منذ ١٩٦٧ : اخلاء شبه جزيرة سيناء بعد صمود عسكرى مصرى ثم حرب للاستنزاف توجت بحرب اكتوبر ١٩٧٣ - الاضطرار للانسحاب من لبنان فى اعقاب غزو ١٩٨٢ تحت وطأة المقاومة اللبنانية - الفلسطينية فيما عدا الشريط الحدودى الجنوبى - الاضطرار لاخلاء المناطق الفلسطينية كثيفة السكان فى أعقاب انتفاضة أواخر الثمانينات - الانسحاب من الجنوب اللبنانى تحت وطأة المقاومة اللبنانية المسلحة .

لم يتسع نطاق الهيمنة الاسرائيلية فى اعقاب حرب ١٩٦٧ اذن وانما انكمش وقد يقول قائل إن القوة العسكرية الاسرائيلية بالمقابل قد تعاظمت ناهيك عن بعدها النووى، وهذا حق، غير أن عقم

انتفاضة الأقصى ومستقبل الصراع العربى - الإسرائيلى

هذه القوة قد ثبت فى مواجهة الانتفاضات المتكررة للشعب الفلسطيني والمقاومة المسلحة لحزب الله، وقد يقول آخر ان اسرائيل قد تغلغلت فى الوطن العربى سياسيا واقتصاديا، وهو قول تعوزه الدقة، فضلا عن أن هذا التغلغل بفرض حدوثه قد ولد حركة رفض شعبية ناجحة الى حد بعيد ضخت دماء جديدة الى النظام العربي. بل أنه عندما يتذكر المرء أن الحركة الصهيونية العالمية مدعومة فى كل مراحلها بقوى الهيمنة الدولية تحاول منذ قرن كامل من الزمان أن تؤسس لها وجودا استعماريا مستقرا على أرض فلسطين دون أن يكتمل نجاحها على الرغم من سوء الاداء العربى فانه لا يمكننا سوى ان نكون متفائلين تاريخيا على الرغم من كل ما نعرفه عن واقعنا العربى الراهن.

ويبقى فى النهاية أن الوصول الى «الحل التاريخى» للصراع العربى ـ الاسرائيلى فى المستقبل البعيد على النحو السابق بيانه يتطلب توفر ارادة للصراع أو التحرير أو النضال لدى الطرف العربى عامة والفلسطيني خاصة فهل تتوفر مثل هذه الارادة لدى الاجيال الشابة التى سيقدر لها وحدها أن تحمل على كاهلها عبء الوصول بهذا الصراع الى نهايته التاريخية الحتمية؟ لقد ولد جيل الشباب العربى الراهن فى زمن الحديث عن السلام وتوقع ثماره الموعودة، وثمة شواهد على أن قطاعات ربما تكون واسعة من هذا الجيل لم تكن تملك ضغينة محددة تجاه اسرائيل لهذا السبب، ولو امسكت اسرائيل بتلك الفرصة لربما حدث تحول تاريخى فى مجريات الصراع يبنى على التوصل الى تسوية متوازنة، لكن طبيعة اسرائيل الاستعمارية جعلتها عاجزة عن أن تفعل ذلك، تماما كما حدث فى عديد من تجارب التحرر الوطنى السابقة، بل ان اسرائيل دون أن تدرى بتصرفاتها الهمجية ضد الشعب الفلسطيني منذ انتفاضة الأقصى قد ساعدت على عودة الوعى أو ترسيخه لدى جيل الشباب العربى الحالى بحقائق الصراع وبديهياته، وسهل ذلك أن عصر الفضائيات التليفزيونية قد مكن من نقل وحشيتها وعنصريتها الى كل عين عربية على عكس ما كان يحدث منذ عقود خلت حينما كانت جرائم الابادة الجماعية ترتكب دون شواهد عليها. وهكذا تابعنا جميعا بقدر من الانبهار والاحترام فى آن واحد تلك الحركة النشيطة المتسارعة لقطاعات واسعة من الشباب العربى تدعو المقاطعة الاقتصادية لاسرائيل وحلفائها وتمارسها، وتستخدم الانترنت فى تحرك إعلامى حقيقى لخدمة القضية العربية، وبغض النظر عن فعالية هذا كله ـ وثمة مؤشرات على أنه لا يخلو من فاعلية فضلا عن قابليته للتطوير ـ فإن الأهم أنه يعنى أن هناك جيلا جديدا سوف يستمر تأثيره لثلث الى نصف قرن من الزمان يحمل معه وعيا كافيا للاستمرار فى النضال من أجل الحقوق العربية.



●● وظلت الجولان محتلة حتى القرن الحادى والعشرين

رسالة دمشق

بقلم : محمود أحمد


مع القرن الحادى والعشرين .. مازالت الجولان محتلة ..
في دمشق . قيل لنا إن زيارتنا للجولان ستتضمن توقفا في "وادى الصراخ" .
وورد اسم المكان ، على ألسنة مرافقينا السوريين ، كما لو كان اسما مألوفا تماما .. نعرفه نحن ، كما يعرفونه هم وكما يعرفه الجميع .
صراخ فى الجولان !

ولما بدا واضحا أن الاسم يطرق آذاننا ربما للمرة الأولى ، سارعوا إلى الإيضاح : إنه هذا الجزء الضيق من واد تقع فيه بلدة «مجدل شمس» المحتلة فى الجولان ، ويطل عليه جبل الشيخ ، وتقسمه الأسلاك المكهربة وحقول الألغام التى تفصل الجزء المحتل من الجولان عن بقية سوريا. إلى هذه البقعة الهادئة ، والبائسة ، يأتى أفراد الأسر التى مزقها التقسيم ، فى العطلات الأسبوعية والأعياد ، وفى أيديهم مكبرات الصوت، ويصرخون من خلالها محاولين الإبقاء على حد أدنى من «التواصل» ومن هنا جاءت تسمية «وادى الصراخ» .

عندما وصلنا إلى المنطقة ، توقفت بنا السيارات فوق ربوة مطلة على الوادى . كان الطقس خريفيا يميل ، عند أعلى الربوة ، إلى برودة صباحية خفيفة.. فالزيارة تمت فى أواخر شهر نوفمبر . وبدا جبل الشيخ على يميننا عاليا بقممه التى زرعت فوقها نقاط المراقبة العسكرية الإسرائيلية و«المراصد» التى تكشف التحركات فى مساحات واسعة من الأراضى السورية والأردنية واللبنانية . ولكن الجبل بدا أجرد فى لون الصحراء .. وقال بعض مرافقينا السوريين إنه لم يكن كذلك فى الماضى ، وإنما كان بياض الثلج يكسوه على مدار العام .. ومن هنا جاءت تسميته حيث يبدو وكأن عمامة مثل عمامة الشيخ تغطى قممه العالية دائما . أما الآن، فإن إسرائيل عمدت إلى استخدام وسائل صناعية لإذابة الثلج ، كلما أقبل الصيف ، لاستغلاله كمورد من موارد المياه العذبة فى هذه المنطقة التى يحرقها العطش للمياه .

هذا الواقع الذى تعيشه المنطقة مستمر منذ الاحتلال الإسرائيلى فى عام ١٩٦٧، ولكن هذه الزيارة (المتأخرة) للجولان تأتى لتدفع إلى الذاكرة ، والوجدان بالكثير من الحقائق الأساسية والأحداث التى توالت حتى كاد يطمس بعضها بعضا . فالوضع تغير ، بالطبع نتيجة لحرب أكتوبر عام ١٩٧٣ (حرب تشرين التحريرية وفقا للقاموس السورى) فإذا كان مجمل مساحة الجولان السورية يربو على ١٨٥٠ كيلو مترا مربعا ، فإنه تم فى حرب أكتوبر تحرير نحو ستمائة كيلو متر مربع منها ، وبقيت ١٢٥٠ كيلو مترا مربعا تحت الاحتلال حتى اليوم .

ولكن «البشر» هم الذين جسدوا المأساة - مأساة الاحتلال - وأبقوها حية. ذلك أن القوات الإسرائيلية عندما



الدمار .. داخل مستشفى القنيطرة

اكتسحت المنطقة فى عدوانها عام ١٩٦٧، أقدمت على تدمير ٢٤٤ قرية وبلدة، فلم تترك فيها حجرا ، وكانت النتيجة هى تهجير ما يقل قليلا عن نصف مليون شخص انتشر أقلهم من أنحاء متفرقة من سوريا بينما لا يزال أكثرهم يقيم فى منازل للإيواء فى انتظار يوم التحرير، الذى لا يزال مجهولا ، العودة إلى موطنهم وأراضيهم .

تحت الاحتلال ، لا تزال تعيش أربع قرى ، يبلغ مجموع سكانها نحو ٢٣ ألف نسمة ثلثهم تقريبا يقطن «مجدل شمس» كبرى البلدات التي لا تزال قائمة دون تدمير والتى ترقد أمامنا عبر «وادى الصراخ» مستكينة فى حضن الجبل .. تتدرج بيوتها ومبانيها ويختفى جزء منها وراء أحد التلال ثم تعود إلى «الظهور» جهة اليسار لتشكل لوحة بانورامية بديعة تكاد تخفى ملامح المأساة الإنسانية التى تعيشها .

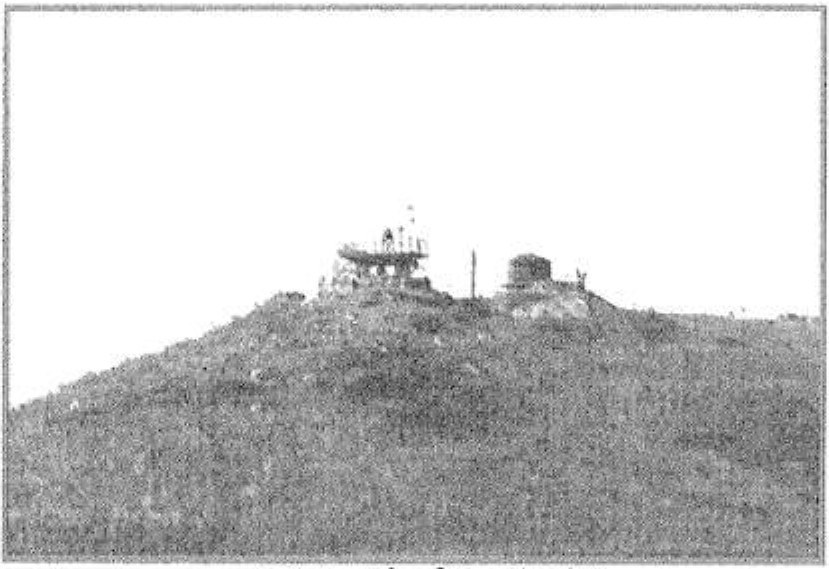
***

تشكل «الجولان» بالجزء المحرر منها والذى لايزال تحت الاحتلال ، هضبة مرتفعة تتخذ موقعها فى الركن الجنوبى الغربى من سوريا وتتألف من أرض بركانية تشرف على وادى الأردن بحواف شديدة الانحدار ، يصل ارتفاعها أحيانا إلى ثلاثمائة متر لاسيما عند سهل «الحولة» وأطراف بحيرة «طبريا» . وتنتهى حدود الهضبة جنوبا بوادى اليرموك الذى يفصلها عن القطر الأردنى ، كما تشترك فى حدودها الشمالية الغربية مع لبنان حيث تشتركان فى سلسلة الجبال المرتفعة التى يقع أحد جانبيها فى لبنان والآخر فى سوريا . ويتصل سفح هضبة الجولان من ناحية الشرق بسهول «حوران» على امتداد وادى نهر «الرقاد» بينما تفصل التلال البركانية فى الشمال بينها وبين غوطة دمشق .

ويرتفع فوق الهضبة عدد من الجبال والتلال ، ينتشر بعضها على هيئة «مخاريط» بركانية متفرقة - أشهرها «تل الأحمر» و«تل الشيحة» و«تل العرام» و«تل الفرس» .. والتى ينتظم بعضها على شكل جبال متجمعة فى محور يتجه من الشمال إلى الجنوب .. وهو المحور الذى يعرف بسلسلة جبال الجولان التى ترتفع أعلى قمة فيها إلى ١١٥٨ مترا (عند قرية «بئر العجم») فوق سطح البحر . كما تشتمل هضبة الجولان على عدد من الوديان الصغيرة التى تتميز بقلة مواردها المائية ، وبالتالى ضحالة المجارى المائية (باستثناء نهرى الرقاد واليرموك) .

ونعود إلى الجزء المحتل من الجولان، والذى يمثل ثلثى مساحتها تقريبا ، فنجد أنه يمتد من جبل الشيخ شرقا حتى حدود

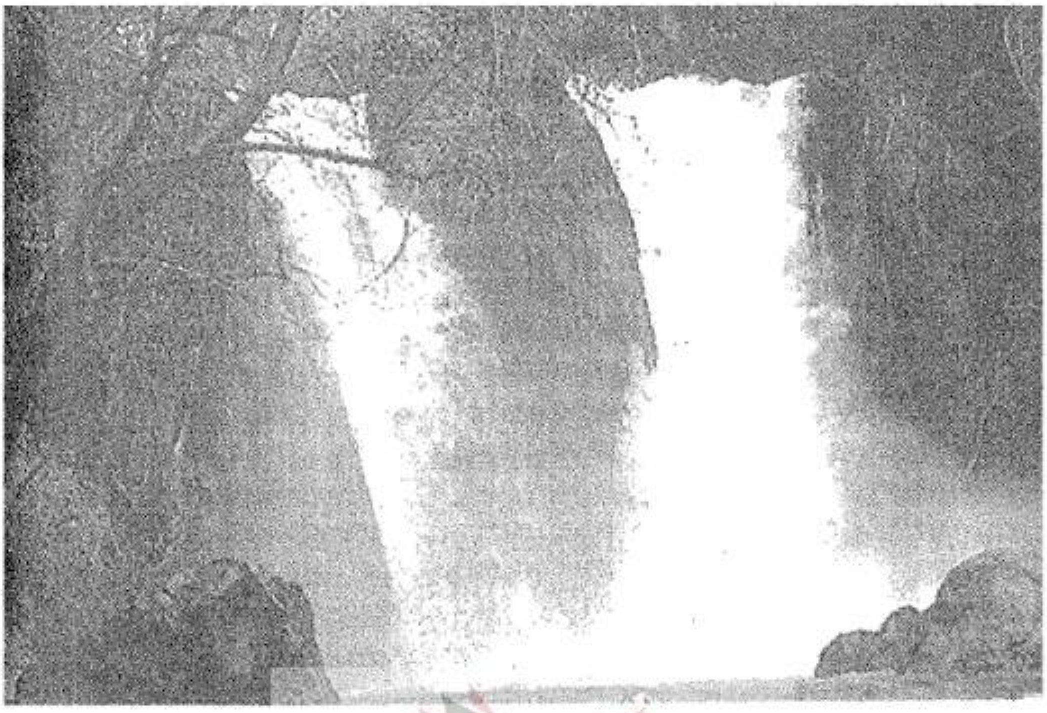
صراخ فى الجولان



المراصد الإسرائيلية .. فوق جبل الشيخ



مجـدل شمـس .. كمـا تبـدو عـبر وادى الصـراخ .. يطل عليها جبل الشيخ، وتفصلها عن سوريا حقول الالغام والأسوار الكهربائية



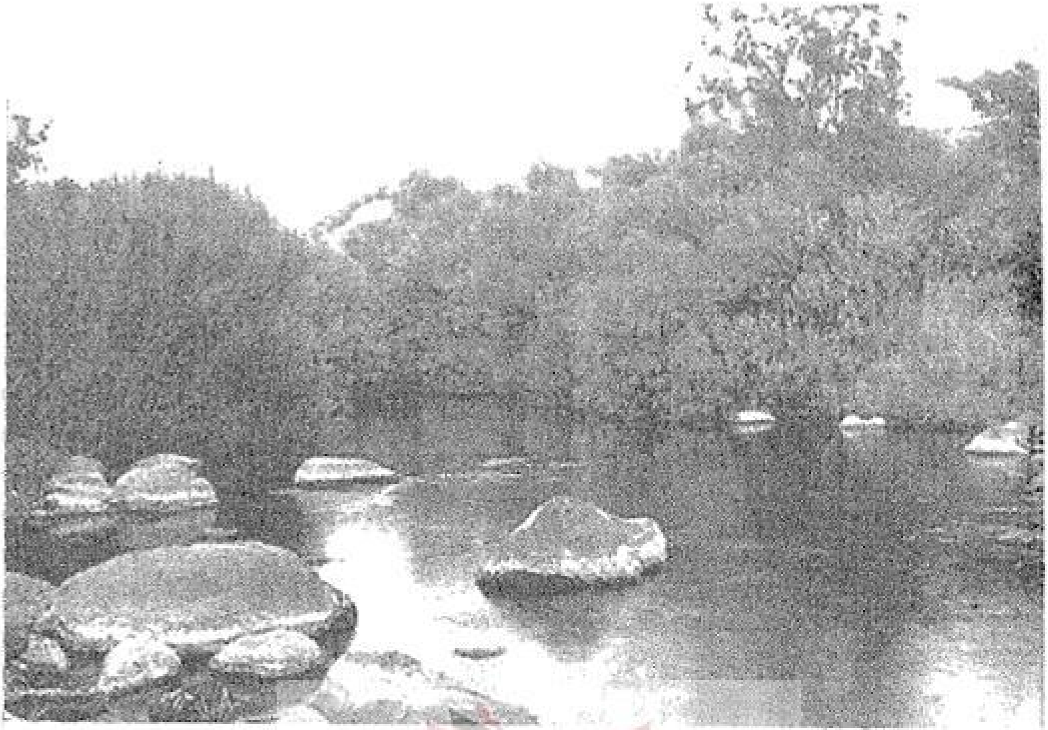
مساقط المياه من أبدع المناظر التى تشاهدها العين

الأردن بمسافة تصل إلى ٦٧ كيلو مترا هى طول الشريط المحتل من الهضبة.. أما عرضه فيتراوح بين ١٥ و١٨ كيلو مترا.

***

يقول لنا «مدحت صالح» ، نائب المنطقة فى مجلس الشعب السورى وابن «مجدل شمس» - والذى رافقنا فى الزيارة - إن الإبقاء على «مجدل شمس» والقرى الأربع الأخرى التى نجت من التدمير أثناء اجتياح القوات الإسرائيلية للمنطقة عام ١٩٦٧ ، لم يكن مقصودا من جانب القوات المحتلة . ولكن الذى حدث ، هو أن كثافة السكان فى «مجدل شمس» وقرية «مسعدة» وأخواتهما ، جعل القوات الغازية تتردد بعض الوقت .. ثم وصلت قوات الأمم المتحدة إلى المنطقة فى إطار إجراءات تنفيذ قرار وقف إطلاق النار ، وهكذا نجت القرى الخمس .

ولكن معايشة الاحتلال ظلت معاناة يومية بالنسبة لذلك العدد غير القليل من السوريين الذين بقوا تحت الاحتلال والذى يصل إلى نحو ٢٢ ألفا كما أشرنا . ويتحمل السكان مشكلات لا حصر لها : من الضرائب ، وحتى التعليم ، ومرورا بصعوبات الحصول على تصاريخ السفر.. ناهيك عن استحالة تحقيق «لم الشمل» مع



إحدى البحيرات المتنازع عليها فى الجولان

الأهل فى الجانب السورى . فإذا كانت الأمم المتحدة والجهود الدولية قد نجحت فى تحقيق لم شمل الأسر فى مناطق أخرى للنزاعات فى أنحاء كثيرة من العالم، فإنها فشلت - كالعادة - مع إسرائيل .. وأصبح «لم الشمل» سرابا ، وأملا بعيدا يعرف أبناء الجولان أنه لن يتحقق إلا بالتحرير .

يفرض الاحتلال مناهج التعليم العبرى على أبناء الجولان . وقد تمكن عدد قليل منهم ، لا يزيد على أربعمائة تلميذ، من الحصول على تصاريح لاستكمال تعليمهم العالى فى دمشق حيث يستقبل من يستطيع الوصول منهم بتقديم كل التسهيلات والاستثناءات للالتحاق بالجامعات السورية . ولكن هؤلاء يجيئون إلى دمشق - بعد مشقة كبيرة - وهم يعرفون أن العودة إلى قراهم الأصلية قد أصبحت شبه مستحيلة .. فسرعان ما يضطرون إلى الاندماج فى الحياة داخل الوطن الأم .

أما الاصطدام بسلطات الاحتلال ، فإنه يوقع ابن المنطقة فى مشاكل غالبا ما تنتهى بوضعه فى القوائم السوداء بشكل دائم ، وهى مشاكل قد لا يكون أقلها مواجهة تهمة «مقاومة السلطات» - أى الاحتلال - وتقديمه للمحاكمة بهذه التهمة مدحت صالح نفسه واجه هذه التهمة وقدم للمحاكمة فى عام ١٩٨٥ وحكم عليه بالسجن لمدة ١٢ عاما أمضاها جميعها

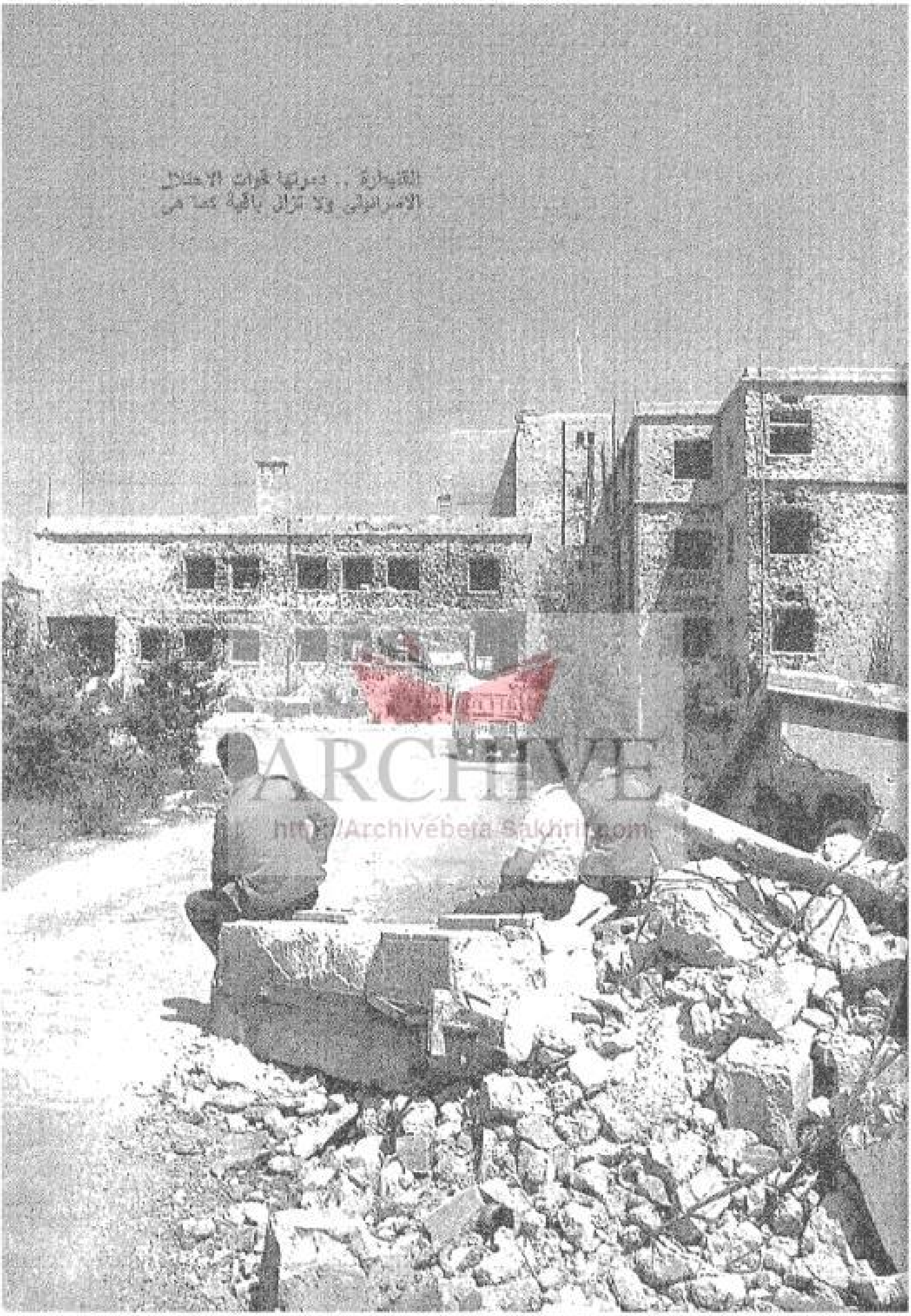
رهن الاعتقال. وعندما خرج من المعتقل فى عام ١٩٩٧ ، وجد أن الحياة خارج المعتقل لا تقل بؤسا بعد أن اعتبر مشبوها دائما . وأمام استحالة المضى فى الحياة وسط مضايقات لا تنتهى ، ورغم الأخطار الشديدة ، قرر أن يحاول الهرب .. عبر السلك المكهرب . ونجح فى تجنب حقول الألغام ، وشق طريقه ليلا وسط صخور جبل الشيخ شديدة الوعورة ولم تشعر به قوات الاحتلال إلا بعد مضى نصف ساعة على اجتيازه السور المكهرب . وعندما انطلقوا للحاق به كان الوقت قد فات ، ونجح فى الوصول إلى المنطقة التى تخضع للسلطة السورية والتى تراقبها قوات الأمم المتحدة وفقا لاتفاق فك اشتباك القوات السارى منذ عام ١٩٧٤ .

***

أيضا ، فإنه من الواضح أن سوء المعاملة من جانب سلطات الاحتلال لا يتوقف على البشر من أهالى الجولان، وإنما يمتد إلى الأرض والطبيعة والبيئة التى ترتكب فى حقها انتهاكات تصل إلى حدود الجرائم! ولعل أوضح مثال لذلك هو ما حملته إلينا الأنباء مؤخرا عن إقدام إسرائيل على دفن نفايات كيميائية سامة فى أرض الجولان - وبالتحديد بالقرب من بلدة مجدل شمس - وهو ما دفع أهالى الجولان إلى إصدار بيان وزع على الهيئات الدولية المعنية وعلى وسائل الإعلام، يعبرن فيه عن احتجاجهم على ما وصفوه بأنه جريمة تنافى كل المواثيق الدولية وحمل البيان إسرائيل المسئولية الكاملة عن أية مضاعفات بيئية وصحية تنجم عن دفن هذه النفايات فى أرض الجولان، وطالب جميع الهيئات والمنظمات المعنية بحقوق الإنسان، وكذلك الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية، بالتدخل لوقف هذه الممارسات اللا إنسانية من جانب سلطات الاحتلال الإسرائيلى.

***

لا يزال الحديث متواصلا مع النائب مدحت صالح ، عن الجولان المحتلة ، فيروى لنا كيف تتابعت المحاولات الإسرائيلية فى سبيل «تهويد» المنطقة . وشملت هذه المحاولات افتعال أعمال تنقيب عن آثار عبرانية مزعومة تثبت أن اليهود سكنوها فى عهود غابرة . وقد انتهت هذه المحاولات كلها إلى الفشل ، فلم تستطع البعثات الأثرية التى تولت أعمال التنقيب على مدى سنين عديدة العثور على دليل واحد على الدعاوى اليهودية ، ولم تجد سلطات الاحتلال سوى اللجوء إلى إطلاق تسميات عبرانية على أماكن عربية . وخاصة على القرى التى دمرتها وأنشأت مستوطنات فى مواقعها ، كإطلاق اسم «كتسرين» على مستوطنة



القنيطرة .. دمرتها قوات الاحتلال
الاسرائيلي ولا تزال باقية كما هي

أقيمت فى موقع قرية «قصرين» .. لعل ذلك يوحى بأن الاسم العبرانى هو الأصل فى التسمية!!.

كذلك واجهت المحاولة «القانونية» لضم الجولان ، فى مطلع الثمانينات ، فشلا مماثلا عندما رفض المجتمع الدولى الاعتراف بهذا الضم . وهكذا كان لابد وأن يدور جوهر المفاوضات التى جرت على المسار السورى - وفقا لصيغة مدريد- حول قضية أساسية هى «الانسحاب من الجولان» ولا يزال هذا هو جوهر المفاوضات بين سوريا وإسرائيل رغم توقفها منذ عهد حكومة نتانياهو .

يذكرنا هذا كله بحقائق مثبتة فى كتب التاريخ طوال قرون ، وقبل أن تنشأ إسرائيل وتتدفق هجرات اليهود على فلسطين . تؤكد الحقائق التاريخية أن من استوطن هضبة الجولان فى البدء كانت موجات من العرب البداة الذين وفدوا إليها من أطراف الجزيرة العربية واستوطنوها فيما استوطنوا من مناطق «الهلال الخصيب» فى بلاد ما بين النهرين وسورية. وكانت الموجات التى استقرت فى سورية وفلسطين ، منذ الألف الثالثة قبل الميلاد ، من «الأموريين» الذين استوطنوا المناطق الداخلية .. بينما استقر الكنعانيون فى المناطق الساحلية . كما أكدت الدراسات المعاصرة أن ممالك آرامية قد نشأت ووطدت أركانها فوق بقايا الكيانات الكنعانية والأمورية .

وعلى أى الحالات ، فإنه لا مجال للشك فى أن الآراميين قد استقروا منذ القرن الحادى عشر قبل الميلاد فى وادى «العاصى» الأعلى ، وفى وادى الليطانى، وفى سورية الجنوبية بأكملها .. فضلا عن انتشارهم فى وقت مبكر فى كل أنحاء الهلال الخصيب . وقد كانت منطقة الجولان واحدة من المناطق التى سيطر عليها الآراميون ، فى مطلع الألف الأول قبل الميلاد وأقاموا فيها ممالك مثل مملكة «آرام صوبة» التى كان مركزها فى البقاع وامتد نفوذها إلى أعالى الجولان .. وكذلك مملكة «بيت رحوب» التى سيطرت على مجرى نهر «الليطانى» الأوسط ، ومملكة «بيت معكة» التى بسطت نفوذها على منطقة بانياس والجولان والتى كانت تقع إلى الشرق منها مملكة أخرى هى «جشور» التى امتدت من اليرموك وحتى دمشق. وكل هذه الوقائع التاريخية جرت قبل قيام الإمبراطورية الآشورية (القرن الثامن قبل الميلاد) التى سيطرت على الجولان كجزء من مناطق نفوذها ، ثم

صراخ فى الجولان





لقاء مع محافظ القنيطرة .. هلال الأطرش

الإمبراطورية الكلدانية (واستمرت حتى القرن السادس ق.م) . والمعروف أن «السامرة» قد سقطت بأيدي الآشوريين (عام ٧٢١ ق.م) فزال الكيان السياسي لإسرائيل في شمال فلسطين ، ثم سقطت القدس بيد الملك نبوخذ نصر الكلداني (٥٨٦ ق.م) فزال الكيان الإسرائيلي في جنوب فلسطين .

هذه لمحة تاريخية سريعة ، ولكنها تعد كافية في هذا السياق .

***

نهبط من فوق الربوة إلى عمق الوادي، حيث تخف حدة الريح وترتفع درجة الحرارة باشتداد شمس الظهيرة . وفجأة ، يصل إلى أسماعنا «صدى» صوت لرجل يصرخ عبر مكبر للصوت : «صباح الخير .. ياسمر» ! وسرعان ما نتبين أن الصوت آت من الطرف الآخر للوادي الذي أصبحنا الآن نقف في جوفه مواجهين مباشرة للقرية المحتلة «مجدل شمس» . وندقق البصر .. فنرى ، في غير وضوح بسبب بعد المسافة ، مجموعة قليلة العدد يقف أفرادها عند طرف القرية حيث يبدأ تدرج الوادي هبوطا إلى الموقع الذي وصلنا إليه . ويحمل أحد أفراد المجموعة، التي تبدو لأنظارنا عبر حقل الألغام والسور المكهرب ، مكبر الصوت الذي يخاطب عبره أشخاصاً وقفوا في بطن الوادي إلى يميننا . هؤلاء يضمون «سميرة» التي يخاطبها أبوها عبر مكبر الصوت ، وزوجها ، وبعض أفراد من الاسرة لا يزيد عددهم علي أربعة . لقد جاءت «سميرة» إلى الجانب السوري لتتزوج قريبا لها ، ولم يتم هذا منذ وقت بعيد ، فهي عروس لا تزال .. وتفتقد بشدة أهلها الذين أصبحوا وكأن مسافة هائلة تفصلهم عنها .

إن الأمر يجري ترتيبه ببساطة . يجيء شخص إلى هذا الموقع من الوادي ومعه مكبر الصوت .. ثم ينتظر فرصة مرور أحد الأشخاص بالقرب من السور فينادي عليه طالبا أن ينقل عنه إلى فلان من بيت فلان أنه سينتظره في الساعة كذا من يوم كذا ، ويتم ترتيب الموعد .

وعندما مرت «سميرة» بجوارنا عائدة إلى السيارة التي حملتها إلى «وادي الصراخ» كانت عيناها حمراوين من فرط البكاء !.

***

جاءت زيارتنا إلى الجولان عندما كانت «انتفاضة الأقصى» في ذروتها ، وبينما الشهداء يسقطون كل يوم على

صراخ في الجولان

أرض فلسطين . وكان طبيعيا أن تثير المشاهد المؤلمة فى «وادى الصراخ» ، والخلفية الدامية فى غزة والضفة الغربية تساؤلات عن أسباب «السكون» على الجبهة السورية طوال هذه السنين . ولم تتوقف التساؤلات لتكون مجرد تعبير صامت عن الحيرة ، وإنما ترجمت إلى أسئلة أثيرت فى لقاءات مع عدد من المسئولين السوريين ، كان من بينهم رئيس مجلس الشعب عبدالقادر قدورة ومحافظ القنيطرة هلال الأطرش ، وقدمت خلالها أمثلة لما يمكن للمقاومة الشعبية أن تحققه من نجاحات لعل أقربها وأشدها وضوحاً ما جرى فى الجنوب اللبنانى بالأمس القريب عندما أجبرت قوات الاحتلال الإسرائيلية على انسحاب مهين من المنطقة

وتضمنت الأسئلة إشارات إلى أن المناطق المحتلة من الجولان إنما هى مناطق «مأهولة» ، وأن سكانها يعانون من مضايقات لا تنتهى من جانب سلطات الاحتلال ويتوقون إلى التحرير .

ولكن الإجابات لم تكن على هذه الدرجة نفسها من الوضوح . فهى لم تخرج عن إشارات إلى جهود سوريا فى دعم صمود أبنائها فى الأراضى المحتلة وهو الصمود الذى حقق الحفاظ على الهوية وتأكيد رفض الاحتلال حتى اليوم . كما اشتملت الإجابات على تلميحات إلى



مدحت صالح .. ابن قرية مجدل شمس ونائب الجولان فى مجلس الشعب السورى

الظروف الدولية التى تفرض التقيد بالاتفاقات القائمة .

***

فى طريق العودة من «وادى الصراخ» ، كان لابد من إلقاء نظرة على مدينة «القنيطرة» عاصمة الجولان التى تحررت من الاحتلال عام ١٩٧٣ ولكن القوات الإسرائيلية دمرتها تدميرا كاملاً قبل أن تكمل انسحابها منها . لا يزال مشهد المدينة المدمرة رهيباً ، ينطق بمأساة تفوق القدرة على الوصف .. مأساة التدمير المتعمد لمدينة كاملة ، ببيوتها ومدارسها ومعابدها ومستشفياتها ، وتهجير أهلها الذين كان عددهم يزيد على ٥٣ ألف نسمة !.

فى ذلك الوقت الذى أقدمت فيه القوات الإسرائيلية على تدمير «القنيطرة» ، حاولت إسرائيل الادعاء بأن ما أصاب

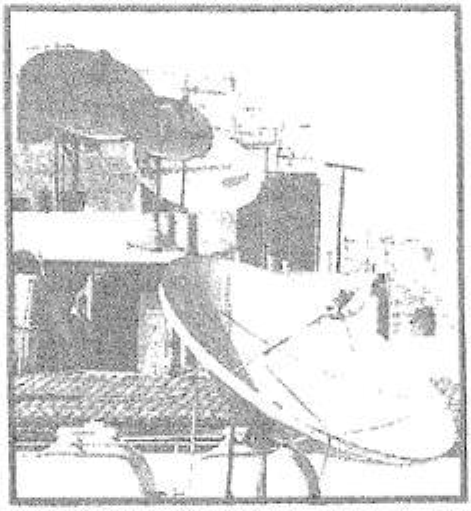

اهالي الجولان والارتباط بالارض

المدينة كان نتيجة «العمليات الحربية» . وهو ادعاء باطل ، تكذبه المشاهد التي لا تزال ماثلة والتي تدل بوضوح على أن قوات الاحتلال استخدمت «البولدوزرات» والمتفجرات في هدم ونسف المباني . وعندما تقدمت سوريا ، وقتئذ ، بشكوى إلى الأمم المتحدة التي أوفدت لجنة خاصة للتحقيق في الممارسات الإسرائيلية ، جاء قرار الجمعية العامة (رقم ٣٧٤٠ بتاريخ ٧٤/١١/٢٩) ليؤكد تعمد إسرائيل تدمير المدينة والذي نص على أن الجمعية العامة للأمم المتحدة «تقرر صحة النتيجة التي خلصت إليها اللجنة الخاصة المعنية بالتحقيق في الممارسات الإسرائيلية ، التي تمس حقوق الإنسان لسكان الاقاليم المحتلة والقائلة بأن إسرائيل مسئولة عن تخريب مدينة القنيطرة وتدميرها» .. ويستطرد القرار «وترى في قيام إسرائيل عن عمد بتخريب مدينة القنيطرة وتدميرها خرقاً خطيراً لاتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب المؤرخة في ١٢ أغسطس عام ١٩٤٩، وتدين إسرائيل على هذه الأعمال» .

ولكن إسرائيل تضرب عرض الحائط دائماً بهذه القرارات الدولية التي ينتهي بها الأمر إلى النسيان ، في حين يدفع المجتمع الدولي بقرارات أخرى إلى أقصى حدود الفاعلية مؤكداً بذلك أن هناك «معايير مزدوجة» في النظر إلى القرارات الدولية وتنفيذها .. وهو ما عبر عنه الرئيس السوري بشار الأسد مؤخرا - وجاءت الإشارة إليه في لقاء مع عبدالقادر قدورة - عندما قال إن هناك دولة بأكملها (العراق) يتم تدميرها من أجل تنفيذ القرارات الدولية ، بينما لدينا قرارات دولية يتم تدميرها من أجل .. عيون إسرائيل !!.

ولكن الذي لم نفهمه هو لماذا لم تقدم سوريا على إعادة بناء القنيطرة ! صحيح أن الإجابة على هذا التساؤل ، على ألسنة المسئولين السوريين ، تركزت على أن الإحجام عن إعادة بناء المدينة كانت وراءه رغبة في الإبقاء على شاهد حي على البربرية الإسرائيلية ، ولكن هذا كان يمكن أن يتحقق إذا أعيد بناء «المدينة الشهيدة» - كما يطلقون عليها في سوريا - والإبقاء على مناطق معينة منها كما هي لتعبر عن المعنى المقصود .. كما حدث في حالات عديدة مماثلة في العالم .

وتنتهي زيارتنا للقنيطرة والجولان ، وفي طريق العودة إلى دمشق يبقى في أسماعنا صدى صوت العروس «سميرة» وهي تنادي من أعماقها مخاطبة والدتها عبر مكبر الصوت «ياأمي .. ديري بالك على صحتك» .. ولكن صوتها يذهب سدى في «وادي الصراخ» .



من يحكم العالم فى القرن الحادى والعشرين

بقلم : حسين أحمد أمين

كى نجيب عن هذا التساؤل لابدّ من البدء ببيان السّمات الرئيسية للقرن الذى دلفنا إليه، والذى سيكون نظام العولمة أبرز ملامحه . فإن كان البعض يتحدث عن شيوع أنماط من الهيمنة، كهيمنة الولايات المتحدة على مقدّرات العالم، (أو احتمال هيمنة الدولة الإسرائيلية على مقدرات منطقة الشرق الأوسط) ، فستكون الهيمنة هنا فى إطار العولمة لا خارجها، مع كل ما يعنيه ذلك من التزام الكافة بقواعد اللعبة، واحتمال أن تطرأ التغيرات على موازين القوى نتيجة تنامى أو ضعف قدرة هذه الدولة أو تلك، أو هذه المجموعة أو تلك، على منافسة الآخرين.

فإن كان بوسعنا أن نصف القائلين بأن العولمة - كرهنا أو أحببنا - تطور لازم هو أشبه مايكون بالظواهر الطبيعية التي لاسبيل إلى الوقوف فى وجهها، ونتيجة حتمية للتطور التكنولوجى والاقتصادى، بأنهم فى أغلب الحالات من الذين سيفيدون منها، فلن يكون بوسعنا أن ننكر أن تلك «الحتمية» قاد إليها دخولنا عصر ثورة المعلومات، وتكنولوجيا الاتصالات، وما تمخض عن الانهيارات المتتالية للنظم الشمولية، بما فى ذلك النظم الشيوعية والاشتراكية، وعن سيادة المذهب الليبرالى، من تحرير للتجارة الداخلية والدولية، ولتنقّل رءوس الأموال، ومن استنكار لتدخل الدولة، ودعوة إلى خصخصة المشروعات والشركات الحكومية.

العالم أضحى سوقا واحدة بفضل الشركات دولية النشاط وثورة الاتصالات

اقتصاد شمولى

ويضيف المدافعون عن العولمة قولهم إن العالم قد أضحى - أو هو فى سبيله إلى أن يصبح - سوقا واحدة، بفضل الدور الذى تلعبه الشركات دولية النشاط، والأقمار الصناعية، وشبكة الإنترنت، ومختلف أشكال ثورة الاتصالات، وتضخم علاقات التشابك التجارى والنقدى، والتزام أكبر بمبدأ تقسيم العمل الدولى .. وإذ قد غدا العالم الآن أشبه بقرية كونية واحدة متجانسة ، فلا مفرّ من أن ينصهر عدد هائل من مختلف الاقتصادات الوطنية والإقليمية فى اقتصاد عالمى شمولىّ موحّد، يشهد نموّاً مطردا فى التجارة العالمية يُفيد منه الجميع، ويؤدّى بالضرورة إلى إضعاف السلطة الاقتصادية للدولة، بحيث يغدو من المستحيل العودة إلى عصر ماقبل العولمة. عندئذ يتحقق مايسمى بالداروينية الاجتماعية فى مجال الاقتصاد العالمى، فلا يكتب البقاء إلا للأصلح، ولا يكون ثمة مكان فيه للخاملين أو العاجزين عن المدافعة، ولاينجو من الطوفان غير أولئك القادرين على مواجهة عواصف المنافسة الهوجاء.

سيكون هذا وغيره من ملامح الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى غالبية دول العالم خلال القرن الحادى والعشرين، فبعد قرن أو قرنين من الدعوة إلى الديمقراطية والاشتراكية والشيوعية، وإلى مبادىء العدالة الاجتماعية، وإلى عُمّال العالم أن يتّحدوا، تبدو الغلبة الآن وكأنما ستكون من نصيب تيار يعصف عصفا بكل

المكاسب التى حققتها الطبقتان المتوسطة والعاملة بعد صراع مرير مع المستغلين، ومن نصيب دعوة كبار رجال الأعمال والرأسماليين إلى الاتحاد فيما بينهم فى مواجهة غيرهم .. وهى غلبة تستند فى تحققها إلى مبادىء الليبرالية الحديثة، وستتنامى بتنامى السرعة التى تتحرك بها عجلات العولمة.

فى القرن الحادى والعشرين سيكون خمس السكان العاملين فحسب كافيا للحفاظ على نشاط الاقتصاد الدولى، ولن تكون ثمة حاجة إلى أيد عاملة تزيد عن هذا القدر الكافى لإنتاج جميع السلع .. سيكون الخمس وحدهم القادرين على العثور على أعمال تمكنهم أجورها من سد احتياجاتهم أما الباقون، وهم ثمانون فى المائة يشكلون الطبقة العريضة الدنيا من المجتمع الجديد .. فسيكونون فائضين عن الحاجة، يواجهون المصاعب الجمة والمشكلات المتفاقمة، وما من سبيل أمامهم إلى العيش إلا من خلال الإحسان والتبرعات وأعمال البرّ وسيزداد فى ظل هذا الوضع تركز الثروة، واتساع الفجوة بين أفراد البشر، وبين الدول، وستستأثر داخل كل دولة قلةٌ من السكان بالشطر الأعظم من الدخل الوطنى والثروة القومية، فى حين تعيش غالبية السكان مقهورة مهمشة .. وكلها أمور باتت عند منظرى العولمة والمدافعين عنها مطلوبة ولاغنى عنها فى حلبة التنافس الضارى.

فى ظل العولمة يتزايد عجز الحكومات عن اتخاذ زمام المبادرة لإجراء الإصلاحات الضرورية

عندئذ لن يكون ثمة مفرّ من اختفاء بعض المفاهيم والمصطلحات الشائعة اليوم، مثل التحرر، والتقدم، وحوار الشمال والجنوب، والتنمية الاقتصادية، والتوزيع العادل للدخل والثروة القومية، ومسئولية العالم المتقدم عن المساهمة فى إيجاد الحلول لمشكلات الدول النامية .. ليس هذا فحسب، بل وسيتفاقم التعارض بين الديمقراطية السياسية ذاتها وآليات السوق، فالديمقراطية التى لايزال الكثيرون يحلمون بها ويتحدثون عن ضرورتها، لن يتعدى دورها حماية مصالح الأثرياء من أصحاب الشركات دولية النشاط والمتفوقين فى المجال الاقتصادى بل وستلحق الأضرار الجسيمة بمصالح العمال وأفراد الطبقة المتوسطة، حين ترتبط بحرية هذه

الشركات ورجال الأعمال والرأسماليين في تخفيض الأجور، وزيادة ساعات العمل، ودعوتهم الحكومات إلى خفض مساعداتها ومنحها وخدماتها الاجتماعية، بحجة «تهيئة الشعوب لمواجهة سوق المنافسة الدولية».

تقلص دور الحكومات

سيتضح للأعين في ظل العولمة تزايد عجز الحكومات عن اتخاذ زمام المبادرة من أجل إجراء الإصلاحات الضرورية، كإصلاح النظام الضريبي، وتطوير نظم التأمينات الاجتماعية، ورفع مستوى نظام التعليم والتوسّع فيه، والدفاع عن الثقافة القومية ضدّ حضارة «التنميط» التي تسعى العولمة إلى فرضها، والمحافظة على البيئة في عالم يهدده عادم السيارات المتكاثرة بكارثة محققة، ويتسبب فيه ارتفاع الحرارة الناجم عن قلة اكتراث الصناعيين الجشعين بالبيئة في عواصف وفيضانات بات ينجم عنها الآن مائة وعشرون كارثة طبيعية في العام الواحد، وفي ارتفاع في مستوى البحر يهدّد وجود مدن مثل بومباي وبانكوك واستنبول ونيويورك وشنغهاي وهونج كونج، ووجود دلتا النيل، ويضحى فيه بالمزيد فالمزيد من الأراضي الزراعية الخصبة في سبيل إقامة المزيد من المصانع، وشق الطرق، وتشييد أحياء سكنية جديدة.

ستفرض العولمة والشركات دولية النشاط على حكومات الدول الإحجام عن التدخل في النشاط الاقتصادي الدائر فيها، وقصر دورها على حراسة المصالح المالية وحماية النظام والأمن، أما واجب مراعاة البعد الاجتماعي والاهتمام بسد احتياجات الطبقات الدنيا، فهو في مفهوم المستفيدين من العولمة عبء لايطاق .. لقد كان حرص الحكومات في الماضي على تلبية تلك الاحتياجات مجرد تنازل اقتضته ظروف الحرب الباردة، والخوف من انتشار الشيوعية، أما وقد انتهت تلك الحرب بانهيار النظم الشيوعية، وساد التشكك في فاعلية المبادىء الاشتراكية، وانتهى الحوار بين الشمال والجنوب، وشلّت الديون الخارجية حرية الدول النامية في الحركة، وتضاءلت مساعدات التنمية التي كانت تقدمها الدول الغنية إلى

الدول الفقيرة، فلم يعد ثمة فى رأيهم مبرر لمراعاة الأبعاد الاجتماعية، ولا لاشتراك الناس فى رسم السياسات الاقتصادية الجديدة أو حتى موافقتهم عليها .

فإن حاولت الحكومات المقاومة ورفض الاستجابة لمطالب العولمة ومقتضياتها، وجدت نفسها عرضة للابتزاز والضغوط التى تمارسها المؤسسات المالية الدولية، وهددت برفض طلبها الحصول على قروض من صندوق النقد الدولى أو البنك العالمى أو غيرهما، وبسحب رءوس الأموال والاستثمارات الأجنبية من بلادها علما بأن مجموعة الدول الصناعية السبع الكبرى تحتفظ بالكلمة النافذة في مجلس إدارة صندوق النقد وفى مجلس محافظيه، وترى فى هذا الصندوق الوسيلة المثلى لتنفيذ مخططاتها، وفرض إرادتها على سائر دول العالم، فما من حالة قرر فيها المهيمنون على سياسة الصندوق تقديم القروض، إلا ربطوها بشرط أن تقوم الدولة المقترضة بإطلاق سعر صرف عملتها، والانفتاح على سوق المال العالمية، وتخفيض الضرائب على الثروة والاستثمارات، وخصخصة جميع المشروعات العامة والخدمات المالية، والحدّ من الانفاق الحكومى على الرعاية الاجتماعية، ومنح الشركات متعددة الجنسية تنازلات سخية، وتوفير مشروعات البنية التحتية مجانا، وإلغاء التشريعات التى تحفظ بعض مكاسب الطبقة العاملة والطبقة الوسطى، مثل قوانين الحد الأدنى للأجور، ومشروعات الضمان الاجتماعى والصحى، وإعانات البطالة، وتحويل الكثير من الخدمات العامة التى كانت الحكومة تضطلع بها إلى القطاع الخاص الذى لايعبأ بغير تحقيق الربح، مع إضفاء الطابع التجارى على تلك الخدمات.

أضحى المطلوب إخضاع كل شىء لقانون العرض والطلب ، حتى فى مجالات مثل الملاحة الجوية، والمصارف، وشركات التأمين، وصناعة البناء، والقوة العاملة، وتطوير برامج الكمبيوتر، والاتصالات ذات التقنية العالية، لم تعد لا الأيديولوجيات ولا العقائد ولا المنظمات الدولية، ولاحتى الانشغال بقضايا حيوية مثل تلوّث البيئة ، بقادرة على أن تربط بين أمم العالم بعضها ببعض كما

تربطها اليوم، ستربطها فى القرن القادم، أموال المصارف وشركات التأمين وصناديق الاستثمار المالى بما تستخدمه من شبكات الربط الإليكترونية .. وقد نجم عن تحرير الأسواق المالية والنقدية إن لم تعد الشئون النقدية خاضعة للسلطة المحلية، فعمليات دخول وخروج الأموال بالمليارات تتم بسرعة البرق على شاشات الكمبيوتر، بحيث لم تعد السلطة النقدية المحلية قادرة على حماية أسعار الصرف وأسعار الفائدة وأسعار الأوراق المالية فى البورصات، وبالتالى فقد تحولت دول العالم إلى رهينة فى قبضة حفنة من كبار المضاربين المتاجرين بالعملات والأوراق المالية، القادرين على التحكم فى رخاء أو فقر دول برمّتها، وعلى تخفيض قيمة العملة فى هذا البلد أو ذاك، ورفع أو خفض أسعار الأوراق المالية فى هذه البورصة أو تلك.

***

شعار القرن الحادى والعشرين «لينقذ نفسه من يستطيع ذلك»

هى إذن فئة صغيرة من الرابحين المنعمين ، وأغلبية ساحقة من الخاسرين المطحونين، فى قرن شعاره «لينقذ نفسه من يستطيع ذلك» .. عشرون فى المائة من دول العالم تستحوذ على ٨٤٫٧٪ من الناتج الإجمالى لجميع الدول وعلى ٨٤٫٢٪ من التجارة الدولية، وتتضاعف بسرعة رهيبة سعة الهوّة التى تفصل بينها وبين دول من المفروض أن تتلقى منها مساعدات من أجل التنمية .. وقد أضحت السياسة برمتها، وأنظمة الحكم بأسرها، مسرحا يضم حشدا من رجال مسلوبى الإرادة، تتآكل بمرور الأيام سلطاتهم، وكذا قدرتهم على إحداث التغيرات التى تنشدها وتتوقعها شعوبهم، وإذ تدرك هذه الشعوب تدريجيا فقدان الدولة الديمقراطية شرعيتها، إذا باستنكارها وتمرّدها ينصب بادئ ذى بدء على الحكومات وعلى السياسيين، غير أن هؤلاء السياسيين لايصارحونهم بحقيقة الأوضاع، ويشرعون فى إلقاء المسئولية عن المحنة على عاتق المنافسة الأجنبية، أو على تزايد عدد المهاجرين إلى بلادهم من الأقطار الفقيرة، فإذا بمشاعر كراهية الأجانب الذين يزاحمونهم على العمل ويعيشون على حسابهم تنمو فى البلدان الصناعية المتقدمة، وكذا الدعوة إلى إغلاق الحدود فى وجه الراغبين فى القدوم هربا من البؤس. وبذا يصبح ردّ فعل المعزولين متجسدا فى

عزل الآخرين، ثم فى ارتفاع معدل الجريمة وأعمال العنف واللجوء إلى المخدرات .

سيستمر دعاة العولمة والمستفيدون منها فى دعوتهم الشعوب إلى التضحية التى يسمونها «وسيلة التكيّف مع العالم الجديد» وفي قولهم إن «قدرا من اللا مساواة الاجتماعية قد أضحى أمرا لامناص منه» .. غير أنهم في الوقت نفسه سيسعون إلى تهدئة خواطر المحبطين عن طريقين توفير التسلية المخدِّرة بواسطة المؤسسات الإعلامية العملاقة مثل «C.N.N» المجهزة على أفضل نحو للنهوض بأعباء تخدير الشعوب، وتوفير الغذاء الكافى للوقوف فى وجه التمرد، عن طريق المؤسسات المشرفة على الأعمال الخيرية، وحثّ الأفراد على مساعدة بعضهم البعض، والتبرع بمبالغ صغيرة كفيلة بحفظ كرامة ملايين الكادحين .

اكتسب الانسان خلال القرن الماضي سيطرة على قوى الطبيعة فاقت سيطرة آلهة القدماء

حتمية قيام سلطة عالمية واحدة

سيذهب القائلون بحتمية قيام نظام عالمى جديد تنهض بأعبائه سلطة عالمية واحدة، إلى أن عالم اليوم قد أصبح صغيرا إلى درجة لم يعهدها من قبل، وأنه بات يواجه ظروفا جديدة تجعل من التغيير أمرا ضروريا، يقتضى - من بين مايقتضيه - تنازل الدول عن سيادتها الإقليمية (أو عن شطر كبير منها)، وتخلى الحكومات عن معظم مهامها التقليدية، وهجر الشعوب لمفاهيمها العتيقة البالية عن القومية والوطنية!

لقد اكتسب الإنسان خلال القرن الماضى سيطرة على قوى الطبيعة تفوق تلك التي كان ينسبها القدماء إلى بعض آلهتهم، فصاعقة جوبيتر قد فاقتها القنبلة النووية، وهرمس رسول الآلهة بكعبى قدميه المجنّحين كان بطيئا إذا قورن باللاسلكى، وهايجيا ربّة الصحة لم يكن بمقدورها تخليص البلاد من أمراض كالملاريا، وهو مايستطيعه الطب الحديث فى بضعة أشهر، ولم ينسب أحد إلى سيريس ربّة الزراعة القدرة على تحويل صحراء قاحلة إلى أرض خصبة تنتج محصولات وفيرة من القمح على نحو ما هو باستطاعتنا اليوم.

هذه القدرات الجديدة للإنسان تعمل على إحداث تغييرات

عظيمة سريعة في المجتمع الإنساني، فالاتصال بالإنترنت والطائرة جعلا الأرض كلها، من حيث الاتصال والنقل، أصغر مما كانت عليه انجلترا في مطلع القرن التاسع عشر، والعلم الآن هو من الصغر بحيث ينتج عن الحدث الجلل في أية دولة، ردُ فعل قوى فورى في كل عاصمة فإن نشبت حربٌ فالحرب عالمية، وإن حلّت أزمة اقتصادية خطيرة في بلد ما أضحت الأزمة عالمية، والظروف الطبيعية للدولة العالمية التي اعتاد الفلاسفة الكتابة عنها في الماضي باعتبارها مثلا أعلى قد يمكن تحقيقه في المستقبل البعيد جدا، قد فرضت الآن علينا فرضا وعلى نحو مفاجيء، غير أن هذه الدولة - حتى الآن - تسودها الفوضى وعدم التنظيم السياسي والحروب الأهلية.

وتضاؤل العالم على هذا النحو، وغيره من التغيرات التى أحدثها تقدم في العلم والتكنولوجيا لم يسبق له مثيل، قد حطم البنيان السياسي الذي عرفه القرنان التاسع عشر والعشرون وقد غدا من المستحيل أن تعاد إقامة هذا البنيان على النمط القديم، فقد حاولنا ذلك عقب الحرب العالمية الأولى ثم عقب الحرب العالمية الثانية، فتمايل البناء الأول ثم انهار، ثم هاهو البناء الثاني يتهدده الانهيار مالم نبادر بإدخال تعديلات جوهرية عليه. فالمجتمع الإنساني بحالته الراهنة من التحول السريع هو أشبه بالحشرة في دور التكوين، فقد تتحوّل الدودة إلى فراشة، أو قد تموت، غير أنه لن يمكنها أن تعود دودة من جديد. والعالم الذى عليه اليوم أن يجابه مشاكل الطاقة النووية، والقوى البيولوجية الحديثة التي لاتقل عن الطاقة النووية، قوة، ومشاكل الأمن والغذاء العالمي، والانفجار السكاني، والسيادة القومية، عالم شديد الاختلاف عن عالم الأمس، والبديل الوحيد لانهيار مدينتنا هو إعادة تنظيم الأوضاع إعادة شاملة حتى تتفق مع نظام عالمي جديد يوجّه القوى الجديدة صوب غايات نافعة، ويراعي الصالح المشترك (وهو استمرار بقاء المدنية) على حساب المصالح القومية ضيّقة الأفق، ويحوّل العلم الحديث تدريجيا من إنتاج الأسلحة الحربية إلى خلق الثروة .

باتت الآن إدارة العالم كله باعتباره وحدة واحدة أيسر من

إدارة دولة كبيرة واحدة منذ قرن مضى، بل ومن إدارة مدينة واحدة فى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد. فالصعوبة إذن ليست صعوبة تنظيمية، وإنما الصعوبة هى فى تهيئة الشعوب للتخلّى عن عادات ومفاهيم راسخة لديها، كالتعلّق بالسيادة الوطنية، والمشاعر القومية!.

أخطار التمرّد

مثل هذه الحجج والمبررات للعولة ولقيام سلطة عالمية واحدة قد تبدو سليمة لو أننا أغفلنا التدقيق فى هوية القائمين على العولمة، وحقيقة نوايا المنادين بسلطة عالمية واحدة، وطبيعة المصير الذى يهدد أكثر من ثلاثة أرباع سكان العالم فى ظل هذه أو تلك، ثم إن ثمة إحساسا قد ينمو بمضى الوقت بأن العولمة ليست من قبيل الحتميات الاقتصادية والتكنولوجية كما يدعى البعض، وإنما هى نتيجة لسياسات معينة خلقتها (بوعى وإرادة منها) مؤسسات وشركات وحكومات وبرلمانات اشتركت فى إصدار القوانين الآخذة بمبادىء الليبرالية الجديدة، وألغت الحدود والحواجز أمام حركة تنقّل السلع ورؤوس الأموال، وألغت مكاسب العمال والطبقة المتوسطة، ووقعت على اتفاقية منظمة التجارة العالمية (الجات) التى ستوقّع العقوبات على الحكومات التى ترفض الإذعان لسياسة حرية التجارة .. ففى كلّ هذا لم تكن ثمة حتميات ليس بالإمكان تجنّبها، وإنما هى إرادات سياسية واعية بما تصنع، وتعبّر عن مصالح الشركات دولية النشاط.

وهناك تلك الملايين من المواطنين فى أوربا وغيرها من المنادين بالتصدى لجنون السوق العالمية، وبضرورة مراعاة إنسانية الإنسان، وحماية البيئة، والأخذ بمبادىء العدالة الإجتماعية، وهو ماينعكس فى نشاط أحزاب الخضر، والاتحادات النقابية، واتحادات الشباب والطلبة، وحركات اللاهوت السياسى، إلى آخره .. وهناك الاضرابات العمالية واسعة النطاق التى شهدتها فى الآونة الأخيرة فرنسا وبلجيكا وأسبانيا وبريطانيا وإيطاليا وغيرها، ضدّ الخصخصة والتّهميش ، والمسيرات الشعبية فى الولايات المتحدة وسائر الدول ضدّ سطوة البنك العالمى وصندوق النقد الدولى، وضدّ

قيام مجتمع العشرين فى المائة، وكل مايهدد مقوّمات الدولة المتماسكة، والاستقرار الديمقراطى.

وثمة ما أدى إليه انفتاح العالم بعضه على بعض، وما خلقته وسائل الإعلام، خاصة البرامج التليفزيونية، من إثارة الرغبات والتطلعات لدى شعوب فقيرة لن يمكنها أبدا إشباعها أو تحقيقها، اللهم لا حكامها وطبقة جدّ محدودة من الأثرياء فيها، هذه الزيادة فى التطلعات وتنامى الرغبات، دون القدرة على إشباعها، يشكلان للمجتمع الصناعى المتقدم تهديدا على أمنه رآه يقتضى بناء أسوار عالية حوله حتى لايتسلل إليه الفقراء والإرهابيون وسائر الخطرين على الأمن.

★★★

خطر التمرد سيبقى ماثلا أمام أعين القائمين على العولمة

سيبقى خطر التمرد إذن ماثلا أمام أعين القائمين على العولمة وعلى السلطة العالمية الواحدة التى قد يقدر لها أن تحكم العالم، خاصة أنه لم يحدث فى التاريخ قط أن بات عدد هائل من سكان العالم يعرف ويسمع عما يجرى فى سائر أنحائه معرفته وسماعه اليوم، بحيث يمكن القول بأن البشرية قد أضحت لأول مرة وحدة واحدة، وبأن المطحونين المهمّشين فى مختلف أرجاء الدنيا قد زادت فرصتهم عن زمن كارل ماركس (الذى دعا عمال العالم أن يتحدوا)، لأن تتشكل منهم جبهة تتصدّى للمستغلين .. وسيسعى أنصار العولمة إلى الحيلولة دون تحقيق هذا التضامن والتضافر، متمسكين بسياسة، فرّق تسدُ، وساعين إلى خلق الأسباب والدواعى التى تدفع الشعوب المهمشة إلى التحارب فيما بينها، فى الوقت الذى ينشغلون هم فيه بتنسيق مصالحهم وسياساتهم الاقتصادية ... سيكون هدفهم .. أو هو قد صار بالفعل - أن تبقى الشعوب (على حدّ تعبير أحد الجنرالات الإسرائيليين فى معرض حديثه عن العرب) «كالصراصير السكارى داخل زجاجة مغلقة!». □

التحولات
في الشخصية المصرية

هل تغيرت طبائع المصريين؟!

بقلم : د. أحمد أبوزيد

من العبارات الجميلة العميقة التى ينبغى علينا أن نتذكرها دائما ونسترشد بها فى نظرتنا إلى الحياة، وفى تقويمنا لأنفسنا والحكم على الآخرين، عبارة سجلها المرحوم الدكتور حسين فوزى فى كتابه (سندباد مصرى) ومؤداها أن المصريين بناة حضارة وليسوا صناع حرب. فهذه العبارة القصيرة البليغة تكشف من ناحية عن طبيعة الحضارة المصرية العريقة الراسخة التى امتدت لعدة آلاف من السنين..



هل تغيرت طبائع المصريين؟!

وتجلت عظمتها في خمسة مجالات رئيسية مختلفة هي المجال الديني حيث وضعت مصر البذور الأولي لفكرة التوحيد والمجال الفنى المتمثل بقوة فى فن العمارة وفن النحت وفن التصوير وهى فنون تحدت تقلبات الزمن ولا تزال قائمة تشهد على مدى ما بلغه الإنسان المصرى من رقى فى الذوق وقدرة على تذوق الجمال والتعبير عنه فى صور وأشكال تجمع بين الجمال والجلال؛ ومجال الأدب بفروعه المختلفة من أناشيد وترانيم دينية ومسرحيات تعكس واقع المجتمع المصرى والمثل العليا والقيم الأخلاقية التى تحكم سلوك الناس، كما يتبدى ذلك واضحا أيضا فى الحكم والأمثال التى يمتلىء بها هذا الأدب والتى سجلها لنا سليم حسن عالم الآثار المصرى العظيم فى كتابه الفذ عن الأدب المصرى القديم؛ والمجال الاقتصادى الذى يرتكز على (اختراع) الزراعة الكثيفة المستقرة فى وادى النيل بكل ما يرتبط بها من معرفة باختلاف الشهور وقياس الزمن ومشروعات للرى. ثم المجال السياسى باعتبار مصر مثالا قديما - وربما يكون أقدم مثال للحكومة المركزية التى تقوم على تنظيم إدارى دقيق يؤكد سلطة (الدولة) على المناطق البعيدة المتطرفة من أرض مصر وقدرة هذه الدولة على صد الأعداء بل وعلى الامتداد حين يقتضى الأمر خارج حدودها لتأمين حياتها وأمنها الداخلى .

خصائص المجتمع المصرى

إلا أن عبارة حسين فوزى تكشف لنا فى الوقت ذاته أيضا عن أهم خصائص المجتمع المصرى والملامح الأساسية فى تكوين الإنسان المصرى نفسه وطبائعه التي تميل إلى الاستقرار والارتباط بالأرض - أرض الوطن وأرض الخير والثراء، وما يتطلبه ذلك الاستقرار من هدوء النفس والصبر على المتاعب والعمل على تذليلها والعمل الجاد الشاق المثابر فى فلاحة الأرض والنحت فى الصخر والحجر وتشييد المعابد الضخمة والتأمل فى أسرار الكون والصمود أمام تقلبات الزمن والتصدى للأحداث والتغيرات دون أن يؤدى ذلك الصمود والاستقرار والهدوء إلى الجمود، فقد يعتبر البعض الفن المصرى القديم وبالذات فن النحت فنا أقرب إلى الجمود والعجز عن التعبير عن الحركة، وأن يعكس بذلك جمود الإنسان المصرى وعجزه عن قبول التغيير والتعديل والتطوير، إلا أن ما يعتبر (جمودا) فى الفن هو ذاته رمز القوة والصلابة والتحدى والشموخ والقدرة على الصمود والعزم على البقاء والاستمرار فى الوجود، وهذا نفسه ينعكس حتى فى سلوكيات الإنسان المصرى المعاصر وفى كثير من عاداته التى لا يمكن فهمها إلا



فلاح وزوجته يحصدان الزرع تملؤهما
ابتسامة الرضا وهدوء النفس

هل تغيرت طبائع المصريين؟!

إذا أخذنا البعد التاريخي في الاعتبار.

وتمتلىء الكتابات عن مصر بالحديث عن وداعة الإنسان المصري وقدرته الفائقة على الصبر والتسامح ونسيان الإساءة والصفح عن الآخرين سواء على المستوى الفردي أو مستوى الجماعة أو مستوى الدولة، وهي أمور كثيرا ما تؤخذ على غير حقيقتها إلى أن يثبت الزمن وتدافع الأحداث خطأ ذلك الفهم الخاطيء وقد أصبحت هذه الملامح والصفات - بإيجابياتها وسلبياتها - بمثابة المقومات الأساسية للشخصية المصرية - أيا ما يكون المقصود بهذا التعبير الذي تختلف الآراء حول تحديد أبعاده مثلما تختلف حول جدوى التمسك به وهي مسألة ليس هنا مجال الخوض فيها.

رصد سلوكيات المصريين

ولكن الظاهر أن بعض التغيرات الواضحة [illegible] خلال العقدين الأخيرين من القرن الماضي تطرأ على سلوكيات المصريين أو على الأقل قطاع عريض منهم وتفرض نفسها على المجتمع المصري بوجه عام وتثير القلق لدى المسئولين والمهمومين والمهتمين بحاضر مصر ومستقبلها ولذا يرصدون عن قرب سير المجتمع وما يطرأ على العلاقات بين الناس من تحولات. وليس من شك في أن المجتمعات الإنسانية قابلة للتغير طيلة الوقت سواء من حيث اكتساب أنماط سلوكية جديدة وعادات لم تكن معروفة من قبل، أو استعارة أفكار وآراء وتوجهات ومواقف من الحياة تنتمي في الأصل إلى مجتمعات أخرى غريبة؛ وأن هذه التغيرات التي تطرأ على حياة المجتمعات الإنسانية يتوقف حجمها وعمقها إلى حد كبير على مدى قوة التأثيرات الخارجية التي تتعرض لها هذه المجتمعات كما تتوقف قوة التأثيرات ذاتها على تنوع مصادر التأثير وفاعلية أدوات التأثير ومدى انتشارها بين الناس وتقبل الناس لها. وقد ازدادت فاعلية التأثير في هذين العقدين السابقين نتيجة لازدياد واطراد التقدم العلمي في مجال تكنولوجيا الإعلام والاتصال وانتشارها بين غالبية السكان في المجتمع المصري بل وأكاد أقول غالبية السكان في العالم أجمع بما في ذلك المناطق النائية المعزولة مثل سكان الصحاري والغابات، وهذا هو ما حدث ويحدث للمجتمع المصري الذي يتعرض لموجات مكثفة من التأثيرات الثقافية - بالمعنى الواسع لكلمة ثقافة - نتيجة لموقعه الجغرافي الفريد واتصالاته المتشابكة والمعقدة مع مختلف المجتمعات التي تحيط به والتي ترتبط تقليديا وتاريخيا به ارتباط وثيقا ثم نتيجة لتوفر وتدفق المعلومات والبيانات عن المجتمعات الأخرى وشيوع هذه المعلومات والبيانات بما فيها سلوكيات، الشعوب الأخرى،

وأخلاقياتها بفضل وسائل الإعلام والاتصال كالصحافة اليومية من ناحية والتليفزيون من الناحية الأخرى إلى جانب وسائل الإعلام المسموعة وهى كلها تنقل المعلومات بسرعة فائقة وتنشرها فى نطاق واسع للغاية وتصل إلى مختلف قطاعات المجتمع وشرائحه وتؤثر فيها ايجابا أو سلبا حسب طبيعة ونوعية هذه المعلومات من ناحية ودرجة التقدم الفكرى أو الثقافى لتلك القطاعات أو الشرائح من الناحية الأخرى، وعلى العموم فإن مثل هذا الانتشار السريع والفعال والواسع هو الذى يفرض علينا جميعا مقولة أن العالم أصبح قرية كونية كبيرة. وهذه عبارة أصبحت ممجوجة من كثرة الاستعمال والتداول وإن كانت صادقة ودقيقة .

وكثير من تلك التغيرات الطارئة على حياة المجتمع المصرى يثير القلق والمخاوف ليس فقط لتعارضها مع أساليب الحياة والفكر المألوفة فى مصر ولكنها تتعارض أيضا مع صحة وسلامة المجتمع وتهدد أمنه وحياته للخطر والفوضى الشاملة والارتباك والتمزق خاصة وأن بعض هذه التغيرات كادت تصبح ظاهرة عامة يعترف المجتمع بوجودها وإن كان يستنكر هذا الوجود ويقف منه موقف المناوأة والرفض

انتشار العنف بأشكاله

وربما كان انتشار العنف بأشكاله وألوانه المختلفة هو أهم ما يثير القلق فى مصر ويدعو إلى التساؤل عما إذا كانت أسس وملامح تكوين الشخصية الاجتماعية للإنسان المصرى أصابها الخلل، وأن الإنسان المصرى الذى ينتمى لمجتمع يؤلف دولة منذ أقدم العصور تسودها قوانين وضعية على درجة كبيرة من الاحكام وتتوخى تحقيق العدالة والذى عُرف خلال كل تاريخه بتقبله لهذه القوانين ومراعاتها واحترامها بدأ يتمرد على هذه القوانين ، ويخرج عليها بانحرافه أو حتى انحيازه إلى أسلوب التعامل بالعنف ويبدأ يأخذ القانون «بين يديه» حسب التعبير الشائع فى بعض اللغات الأجنبية ويحل مشاكله الخاصة بالعنف بل ويبدأ الآخرين بالعنف لسبب ظاهر وأحيانا لغير سبب ظاهر، وقد يكون فى ذلك تعبير عن انعدم الثقة فى فاعلية الاجراءات القانونية المطولة ولكنه قد يكون تعبيرا عن الاستهانة بالقانون وأجهزة القضاء بل ونظام الحكم من أساسه، وهذه هى الخطورة الحقيقية . فالعنف والجريمة والانحراف كلها ظواهر اجتماعية موجودة فى كل المجتمعات الإنسانية، أما أن يكون الالتجاء إليها وسيلة للتعبير عن عدم الثقة وعدم الاحترام وعن الشك فى فاعلية الأجهزة الرسمية فإنه يدل على وجود خلل خطير بين الحاكم والمحكوم .

وليس من شك فى أن كثافة وغزارة الإعلام والإلحاح على إبراز حوادث العنف من شأنها أن تجعل هذه الحوادث تبدو كما لو كانت هى السلوك النمطى السائد أو حتى المألوف فى الحياة مما قد يساعد بدوره على اعتناق هذا النمط السلوكى والتشجيع على محاكاته والتمسك به،

هـل تغيـرت طبـائع المصريين؟!

فـالإلحـاح على إبراز هذه الحـوادث فى وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية والحديث بالتفصيل عن أحداث القتل والنهب والتهريب والصدام بين الأهالى وسلطات وأجهزة الأمن وحوادث الثأر والاغتصاب وقتل الوالدين أو أحد الزوجين للآخر والتمثيل بجثته وما اصطلح على تسميته خطأ بأحداث الفتنة الطائفية لكل صدام بين شخصين أو فئتين تنتميان إلى عقيدتين مختلفتين والمبالغة الشديدة فى تصوير هذه الأحداث واعطائها حجما أكبر من حجمها الحقيقى والمغالاة فى تقديم التفسيرات والتأويلات والتحليلات تحت ستار مقولة الرأى والرأى المخالف، من شأنها كلها أن تجعل من هذه الأحداث موضوعا للحديث اليومى وجزءا من تفكير الإنسان المصرى العادى الذى لن يلبث أن يأخذ هذه السلوكيات على أنها الأمر الواقع الذى ينبغى التسليم به، وبين قبول هذه الأوضاع والتسليم بها من ناحية ومحاكاتها والالتجاء إليها فى الظروف المماثلة خطوة واحدة يسهل الإقدام عليها وبذلك يزداد انتشار أحداث العنف التى تمسك بخناق المجتمع المصرى الذى عُرف خلال تاريخه الطويل المجيد بالتسامح والتفاهم وطيب الخلق.

التليفزيون مسئول عن العنف

وربما كان المسئول الأكبر عن شيوع الالتجاء إلى العنف والجنوح عن القيم هو التليفزيون وان كان هذا لا يبرىء وسائل الإعلام الأخرى التى تعتبر أن الإثارة هى أحد الجوانب المهمة فى رسالتها الإعلامية دون إدراك للآثار السيئة التى قد تترتب على هذه الإثارة وكيف يمكن أن تصبح هذه السلوكيات جزءا من مفردات الحياة اليومية. فالمسلسلات التليفزيونية وأفلام السينما التى تعرض أحداث العنف والجريمة والانحراف بأنواعه بالتفصيل الشديد حتى تجذب إليها الأنظار، بل إن كثيرا من إعلانات التليفزيون عن أفلام الرعب والعنف تحمل فى ثناياها - دون قصد أو وعى كامل - الدعوة إلى ممارسة مثل هذه الأفعال التى توحى وبخاصة إلى الشباب بأعمال الشجاعة والقوة والبطولة التى تثير الاعجاب، وسن الشباب هى سن الاندفاع وراء كل ما من شأنه العمل على اثبات الذات وفى هذا بالذات يكون مكمن الخطر!.

ورغم خطورة الأوضاع القائمة الآن فى المجتمع المصرى فيما يتعلق بهذه الأنماط السلوكية الجديدة التى تتعارض تماما مع التقاليد وما قد تحمله هذه الأوضاع من حدوث تغيرات جذرية فى المقومات الأساسية للشخصية المصرية وتغيير الطابع التقليدى الغالب خلال كل عصور التاريخ على المجتمع المصرى فإن

الأمور لم تصل بمصر والمصريين إلى ما وصلت إليه في المجتمعات الأكثر تقدما في الغرب وبالأخص في المجتمع الأمريكي، مجتمع الإثارة والرعب والخوف والجريمة بكل معاني الكلمة كما أنه هو المجتمع الذي يتولى تصدير هذه السلوكيات والقيم إلى بقية أنحاء العالم، بحيث يمكن القول إن العنف بصوره المختلفة هو السمة الأساسية للثقافة الأمريكية المعاصرة كما تشير إلى ذلك الأحداث الكثيرة والاحصاءات المتاحة. فعدد حوادث القتل في أسبوع واحد في أمريكا يفوق عدد حوادث القتل في أمريكا كلها خلال سنة كاملة، كما أن القتل رميا بالرصاص قد يحدث لأتفه الأسباب وبين الأصدقاء كما حدث منذ شهور قليلة حين أطلق أحد العمال في إحدى الولايات الرصاص على صديقه أثناء تناولهما الطعام معا وقت الراحة من العمل، لأن الصديق الذي أصبح قتيلا تناول قطعة من الخبز موضوعة أمام صديقه الذي أصبح قاتلا دون أن يستأذن فكان عقابه الفوري على سوء الأدب إطلاق الرصاص عليه. بل إن سياسة العنف في أمريكا أصبحت إلى حد كبير جزءا من التنشئة الاجتماعية بحيث نجد الأب يهدي أبناءه الصغار في سن العاشرة مثلا مسدسات وبنادق حقيقية مع ما يلزمها من الذخيرة الحية للتدريب على الرماية منذ الصغر ، فالمسدس أو البندقية رمز للقوة والشجاعة والبطولة وهكذا، وهذه مسألة سبق لنا أن عالجناها في غير هذا المكان ولذا ليس ثمة ما يدعو إلى الكلام بالتفصيل فيها هنا .

وقد يكون من الصعب استبدال ثقافة بأخرى، أي استبدال ثقافة العنف والجريمة والإرهاب وما إليها من مظاهر سلوكية منحرفة بثقافة التسامح والصبر والعمل الجاد والبناء التي ارتبطت بالإنسان المصري خلال كل تاريخه. ورغم كثرة الحوادث الخارجة على نسق القيم التقليدية فلم تصبح هذه الأحداث ظواهر مميزة ، للمجتمع المصري يكفي لإدراجه تحت ثقافة العنف. وليس ثمة ما يشير إلى عدم وجود هذه الحوادث وأمثالها خلال عصور التاريخ السابقة ولكننا لا نعرف شيئا كافيا عنها لعدم توفر وسائل الاتصال والإعلام والنشر المتاحة الآن والتي ترصد الأحداث مهما صغرت بدقة وتفصيل. ولكن هذا لا يعني التهوين من فداحة المشكلة وإن كان يعني في الوقت ذاته عدم المبالغة والمغالاة والتهويل في رصد أبعادها وتفسيرها وإطلاق الأحكام العامة فيها، كما أنه يعني ضرورة الرجوع إلى الأصول الثقافية الراسخة والاسترشاد بها في رسم حياة المجتمع المصري في مستقبله الطويل مع عدم اغفال المتغيرات الدولية ولكن مع الأخذ في الاعتبار طيلة الوقت أن المصريين كانوا دائما ويجب أن يظلوا دائما بناة حضارة.

أبرز معالم القرن الحادى والعشرين



ثورة المعلومات ودوار البحر

بقلم: د. أحمد محمد صالح

إن كمية المعلومات التى أنتجت فى الـ ٣٠ سنة الأخيرة، أكثر من تلك التى أنتجت فى خمسة آلاف سنة مضت. والكمية الكلية للمطبوعات بأنواعها تتضاعف كل خمس سنوات، وتزيد بسرعة رهيبة، فمنذ منتصف الستينات زادت مفردات اللغة الإنجليزية من ٦٥ ألف كلمة إلى ٧٠ ألف كلمة، وشبكة الويب www فى الإنترنت بلغ عدد صفحاتها لوحدها ٣٢٠ مليون صفحة من المعلومات عام ٩٨، وتزيد كل شهر أكثر من ٣٠ مليون وثيقة. فى ٢٠ مارس عام ١٩٩٨ أذاعت وكالة الأشوسيتدبرس أن المدراء يستقبلون فى المتوسط ١٩٠ رسالة فى اليوم الواحد، وأن تطبيقات العلم وتكنولوجيا المعلومات تزيد ١٤٪ كل سنة، وتتضاعف كل خمس سنوات ونصف. وأن ما تنشره جريدة مثل نيويورك تايمز من معلومات خلال أسبوع واحد فقط، يفوق متوسط ما كان يكتسبه المتعلمون فى القرن السابع عشر خلال حياة كاملة. والعالم كله يطبع أكثر من ١٠٠٠ كتاب جديد فى اليوم الواحد فى كل المجالات، رغم كل الادعاءات بموت الكتاب المطبوع، وازدهار النشر الإليكترونى على أقراص مدمجة أو عبر الانترنت.

انفجار المعلومات رفع كفاءة الاقتصاديات الكبيرة وشجع المنافسة العالمية وعزز سيطرة وهيمنة الدول

فقد ظهرت ثقافات جديدة وتقنيات جديدة لانتاج الثقافة، وأصبح هناك ثقافة تقليدية وهى السائدة فى عصر ما قبل الكمبيوتر، واستمرت بعده بمنتجاتها الثقافية المعروفة مثل المسرح والقصة والسينما والكتاب والصحف والمجلات إلخ، وبدأت الآن تسيطر الثقافة الإلكترونية، وهى جاءت من صلب تقنيات المعلومات، وورثت ملامحها، وأنتجت منتجات ثقافية جديدة مثل الصحف الإليكترونية أكثر من ١٥٠٠ صحيفة، ٣٠٠٠ نشرة إليكترونية و٥٠ ألف كتاب إليكترونى تصدر فى العام الواحد، وكلها تدور فى ثانية حول العالم، هذا غير القصص الأليكترونية والألعاب وآلاف

الصفحات الثقافية خلال الشبكات العالمية والواقعية الافتراضية.
وكلتا الثقافتين تستخدمان التقنيات الحديثة كأدوات إنتاج، لكن الاختلاف في الشكل النهائي للمنتج، شكل الوسيط الحامل.
وازدهار النشر الإليكتروني للمعلومات عبر الإنترنت أتى بمشكلات جديدة لم تكن مطروحة في عصر المطبوعات، مثل انهيار الحواجز الطبيعية بيننا وبين المعلومات. وأحدثت التطورات التقنية تحولا في إنتاج وتوزيع المعلومات، إذ من خلال الاستعمال الواسع للكمبيوترات والأقمار الصناعية والارسال من خلال التصميم multiplexing والالياف البصرية fiber optics والرقمنة digitalization وضغط البيانات، data compression أصبح بوسع منتجي المعلومات اليوم أن يقدموها في صورة نصوص أو صوت أو صورة أكثر من أي وقت مضى، ويمكن انجاز ذلك بسرعة أكبر وبسعر أقل. وإذا كانت تكنولوجيا المعلومات تزودنا بفرص واسعة لزيادة الإنتاج، فهي أيضا أصبحت سيفاً ذا حدين، فتدفق المعلومات وانفجارها، جعلها بين أصابعنا وفي متناول أيدينا في أي وقت، فالمعلومات تحيط بنا في كل مكان، وتكاد تغمرنا، وتسحقنا، فالمعلومات الآن تطاردنا وتحاصرنا وتحيط بنا، وتمسك بتلابيبنا في كل مكان به جهاز كمبيوتر، ورغم ذلك لا يمكن أن تجد ما تبحث عنه، وبالشكل الذي تريده، وتصبح عملية البحث عن معلومة معينة، مثل البحث عن ابرة في كومة من التبن. والإنترنت تغرينا وتحثنا على الإبحار فيها والتنقل من موقع لآخر، وتشعرك بالغيظ والحيرة الطامعة، وتثير فيك الجشع المعرفي، وتجد نفسك لا تملك الوقت والجهد والقدرة، الا على حمل بعض المعارف المتواضعة شديدة الصلة بالموضوع، بعد رحلة عذاب تشعرك بالاكتئاب والمرض والضعف ولا تعرف من أين تبدأ؟ ومن أين تنتهي؟ إلى أن تشعر بالغثيان ودوار المعلومات، وهو أشبه بدوار البحر، والمعطيات السابقة تعكس بعض جوانب انفجار المعلومات، والتي زادت شدته في القرن الحادي والعشرين، حيث تتدفق فيه المعلومات كالمياه الجارية، وأصبح فيض وتخمة المعلومات له مشاكله تماما مثل فقر المعلومات، لكن الاختلاف في طبيعة المشكلة ونوعها.

المعلومات المنتجة خلال الـ ٣٠ سنة الماضية أكثر من التي انتجت في خمسة آلاف سنة!

الإعياء المعلوماتى !

ومنذ فترة قصيرة أعلن فى لندن تحت عنوان dying for information، نتائج دراسة ميدانية، تم فيها مسح دولى لعينة من المهتمين والعاملين فى مجال المعلومات عن الأعراض المرضية المرتبطة والناشئة عن الإفراط والإسراف والفيض المعلوماتى، واتضح أن هذا الفيض المعلوماتى يحاصر الفرد ويخنقه، ويسبب له معاناة فكرية، وكرب عقلى، وآلام مبرحة، وأمراض جسدية. وأطلق على الأعراض المرضية المرتبطة والناشئة عن الضغوط التى يسببها الفيض أو الحمل الزائد فى المعلومات مصطلح information fatique syndrome (IFS)، بمعنى الإرهاق والإجهاد العضلى والإعياء المعلوماتى إن صح التعبير. فالمعلومات الكثيرة يمكن أن تكون ضارة جدا ولها آثار خطيرة، تماما مثل قلة وضعف المعلومات، بل وتؤدى إلى مشاكل أخرى مثل شلل وعجز القدرات التحليلية للإنسان، والفشل فى إيجاد الحلول الملائمة، وزيادة صعوبة اتخاذ القرار، أو عدم اتخاذ القرار على أفضل وجه، وحالة نفسية مثارة ومستنفرة جدا، مع سيادة القلق وعدم الثقة بالنفس.

والكل الآن أصبح يعانى، أغنياء المعلومات فى دول الشمال يعانون من ضغط وإجهاد مرتفع خلال محاولاتهم للتغلب على الكميات الضخمة للمعلومات التى تفيض من الكتب، ومن رسائل الفاكس، والتليفونات، والصحف والمجلات والمطبوعات السيارة بأنواعها، والبريد الإليكترونى، والإنترنت، غير المحطات الفضائية للاذاعة المسموعة والمرئية، ويزيد هذا الضغط والإجهاد بصفة خاصة بين عمالة المعرفة Knowledge worker، وهم المهنيون المحترفون الذين يعتمدون على مهاراتهم وقدراتهم فى البحث وايجاد المعلومات، ومعالجتها وتركيبها، وممارسة مهارات الاتصال لتوصيلها، وتطبيق معارفهم. فهى عمالة عصر المعلومات والقرن الحادى والعشرين. ففى السنوات العشر القادمة ستكون المهارات المعلوماتية هى المحك الأساسى فى النجاح أو الفشل المهنى.

وأيضا فقراء المعلومات فى دول الجنوب، وهم أغلبية يعانون من مشاكل فى اكتساب، واسترجاع ومعالجة، ونشر المعلومات بأشكال

متعددة، وهذا يعكس أعراض ما يسمى بفقر المعلومات الذى يضعف عمليات اتخاذ القرار على كل المستويات، حيث النقص الشديد فى المعلومات الخام، ونقص الوسائل التى تحولها إلى معارف أو تلك التى تحول البيانات إلى معلومات. وفقر المعلومات يأخذ أشكالاً متعددة ويسبب نتائج رهيبة تنذر بكوارث، فتتقلص الأعمال والاستثمارات المحلية بسبب النقص فى المعلومات حول الاسواق المحلية والعالمية، وأيضا نقص المعلومات حول التغييرات فى أنماط الطلب، وأنماط المنتجات التكنولوجية الجديدة ووسائل الإنتاج. وفى الدول التى تعانى فقر المعلومات، نجد البحاث والعلماء والعمالة الماهرة منعزلون تماما عن التطورات السريعة الحادثة فى تخصصاتهم ومهنهم. والنقص فى وسائل الوصول للمعلومات ينعكس تباعا فى انخفاض معدلات الإنتاج، وفى فقر فى نوعية الأبحاث ومستواها، وفى إهدار وقت ثمين فى تصيد المعلومات وتقارير البحاث الموجودة فعلا ومتاحة فى الدول المتقدمة.

ودول الجنوب الفقيرة معلوماتيا تواجه صعوبات خطيرة تعوق صانع السياسة فيها على سبيل المثال:

١ - نقص المعلومات حول المصادر الطبيعية.

٢ - عدم الثقة فى أى بيانات اقتصادية أو اجتماعية.

٣ - فقر وضعف المعلومات المتعلقة بالحسابات الوطنية من ديون وميزان مدفوعات، وأسعار سوق، ونسبة ومدى الفقر، وتأثير برامج تخفيف الفقر.

٤ - اعتماد تخطيط البرامج التنموية المختلفة فى الصحة والتعليم على بيانات لا تعكس حقائق الموقف الراهن.

٥ - مواجهة صعوبات كبيرة فى التعامل مع المشاكل الملحة والأزمات الفجائية من أوبئة وفيضانات وزلازل وأزمات مالية.

والنقص فى المعلومات يضعف قوة مساومة الدولة فى المفاوضات الثنائية والمتعددة الأطراف سواء ذات الطبيعة السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية. فالشركات الكبيرة الرئيسية وخاصة المتعددة الجنسيات سلحت نفسها بشبكات الاتصال بالأقمار الصناعية، ولديها كل المعلومات حول البترول والمعادن وإنتاجيات

المحاصيل الاستراتيجية فى العالم كله، وربما تعرف وتملك معلومات حول المصادر الطبيعية فى الدول النامية أكثر من حكومات تلك الدول نفسها، التى قد تواجه بقصا فى جذب الاستثمارات من الأسواق الرأسمالية العالمية، وتواجه أيضا صعوبات فى التعامل مع الشركات المتعددة الجنسيات، وتواجه ضغوطاً من المؤسسات العالمية مثل البنك الدولى أو صندوق النقد الدولى تؤثر تماما على قراراتها.

الدول الغنية معلوماتيا

وإذا كان عدد أجهزة الكمبيوتر فى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها يقارب عدد أجهزة الكمبيوتر فى العالم كله، وأن عدد أجهزة الكمبيوتر فى طوكيو وحدها يعادل ما هو موجود فى قارة أفريقيا بأجمعها، فالعالم أصبح منقسما فعلا إلى تلك الدول الغنية معلوماتيا المتقدمة صناعيا وتعانى من أعراض فيض المعلومات، وأخرى الفقيرة معلوماتيا تعانى من مشاكل نقص المعلومات وعاجزة عن التعامل مع الاجهزة المعلوماتية المسيطرة على عالم اليوم، الذى لم تعد تسيطر عليه قوة الأسلحة أو قوة رأس المال، بل أصبح يسيطر عليه الآحاد والاصفار والعشرات والارقام والمعلومات.

كثرة المعلومات أو قلتها لها آثار خطيرة فالكل يعاني

وهناك خوف يسود بين المراقبين من أن تصبح أغلبية البلدان على كوكب الأرض دولا مُهمشة ومنعزلة عن الطريق السريع للمعلومات information highways (إنترنت ١ وإنترنت ٢)، وخاصة الدول النامية.. ربما استجابة لذلك الخوف حرص مؤتمر Midrand مدراند بجنوب أفريقيا، عام ١٩٩٦ على اقتراح مخطط عالمى للطريق السريع للمعلومات، يُشارك فيه كل من الدول الصناعية والبلدان النامية. وفجوة المعلومات بين الغنى والفقير فى عالم اليوم صعبة التقييم. فمثلا بنجلاديش الجزء المخصص فى اقتصادها لمنتجات المعلومات مثل أجهزة الكمبيوتر وبرامجه والخدمات المرتبطة بل تمثل ١٪ فقط، وهذا الرقم فى الولايات المتحدة أكبر منه بأكثر من ١٠٠ مرة، فهو حوالى ١٠٪ من الاقتصاد الأمريكى تذهب لتكنولوجيات المعلومات. الإنفاق السنوى على تكنولوجيا المعلومات على مستوى الفرد العادى يظهر أن

بنجلاديش أفقر ٢٠ مرة بالمقارنة بأمريكا، فالفرد هناك ينفق على تكنولوجيا المعلومات في المتوسط حوالى ٢٠٠٠ دولار في السنة مقابل دولار واحد فقط للفرد ينفقه في بنجلاديش على تكنولوجيا المعلومات. بل أن هناك فرقاً بين الإنفاق على تكنولوجيا المعلومات بين من يعيش في المدن الداخلية ومن يعيش في الضواحي حتى في أمريكا نفسها. فالناس تناضل يوميا في حياتهم من أجل لقمة العيش ولا يتبقى لهم شئ للإنفاق على تكنولوجيا المعلومات. لذلك فالغنى اليوم هو الذى يستطيع شراء التكنولوجيات الجديدة واستعمالها ليصبح أكثر إنتاجية، ويصبح أكثر غنى. بينما الفقير واقف ينتظر! وخلاصة الموضوع أن ثورة المعلومات ستزيد الفجوة بين الغنى والفقير من الدول، وأيضا بين الغنى والفقير من الناس داخل الدولة الواحدة. وبعض الخبراء ومنهم بيل جيتس يقولون إن التكنولوجيات الجديدة في المعلومات سوف تساعد الفقراء لكى يصبحوا مثقفين، وتساعدهم على التعلم وكيف يزرعون محاصيل جديدة؟ وكيف يحافظون على صحتهم، ويبيعون خدماتهم في السوق الواسع أو في فضاء المعلومات. هذه النظرة متوقفة في رأيى على إذا استطاع الفقراء واتيحت لهم الفرصة لكسب هذه المنافع، وإذا اتيحت لهم الفرصة بطريقة أو أخرى بالتزود بنظم الاتصالات الحديثة وأجهزة الكمبيوتر وبرامجه والتدريب عليها. بهذا الشكل قد يستطيع الفقير أن يستفيد من ثورة المعلومات. وجاء الوقت الآن في أن ينتبه العالم إلى ضرورة بداية تقديم مثل هذه المساعدات ليس فقط من باب الشفقة والرحمة بالفقراء والاغنياء. ولحسن الحظ توجد أشياء يستطيع العالم المتقدم أن يفعلها للمساعدة في سد فجوة المعلومات بين الأغنياء والفقراء. من خلال شبكة الاقمار الصناعية (LEOS) التى تلتف حول العالم. فهذه الأقمار عندما تكون فوق الدول الصناعية الغنية تكون في منتهى النشاط والمشغولية، وعندما تكون فوق العالم النامى لا تفعل شيئاً. ويمكن للعالم المتقدم من خلال تكلفة هامشية منخفضة أن تقدم مصانعه الخاصة بنظم الكمبيوتر وبرامجها الهاردوير والسوفت وير، وتزويدهم بالتدريب المناسب، والاتصالات الارضية والخدمات التى

دول الجنوب الفقيرة معلوماتيا تواجه صعوبات خطيرة تعوق صانع السياسة فيها.

تستطيع أن تقدم بضائعهم إلى الفقراء بخصم كبير. وإذا كان المواطنون فعلا فى الدول الغنية يودون المساعدة بصدق نستطيع أن ندفع تكلفة من خلال تشجيع الحكومات الغنية بخفض الضرائب على المزودين التكنولوجيا للدول الفقيرة، والمزودين أيضا يستطيعون المشاركة فى التكاليف بتوسيع سوق أعمالهم، والافراد يستطيعون المساهمة بالتبرع بالمال والوقت. ومنظمات مثل البنك الدولى التى تنفق أكثر من ١٥ بليون سنويا قروضا للدول النامية يستطيع أن يساعد بفروق جوهرية بتخصيص بعض من البلايين لمشروعات تكنولوجيا المعلومات فى تلك الدول. فمن المتوقع زيادة اقتصاد دولة نامية مثل نيبال بـ ٢٠ بالمائة من خلال الاستعمال الذكى لمعلومات السوق.

فقر معلوماتى شديد

ومصر والدول العربية أيضا تعانى من فقر معلوماتى شديد، حيث تبين الدراسات أن ٩٥٪ من الاستخدام العالمى للمعلومات تتم خارج العالم العربى تماما. فرغم أن عدد سكان الدول العربية مجتمعة تقريبا يقارب عدد سكان الولايات المتحدة الأمريكية حوالى ٢٧٠ مليون نسمة، لكن الفرق بين عدد مستخدمى الإنترنت هنا وهناك كبير جدا، إذ يقدر بحوالى ٢٠ مليونا أى ما يساوى ١٢٠ ضعف عدد المستخدمين العرب، بالإضافة إلى أن مستخدمى إنترنت هناك يقضون عددا من الساعات أمام الشبكة أكبر بكثير مما يقضيه المستخدمون العرب لأسباب عديدة أهمها التكلفة، وإذا عرفنا أن هذا القرن سيشهد المزيد من احتكار الشمال للعلم والتكنولوجيا من خلال المؤسسات العالمية المسيطرة علي الانتاج، وعرفنا مثلا أن نسبة العلماء العاكفين على تطوير التكنولوجيا الإنتاجية لكل عشرة آلاف نسمة من السكان بلغوا فى اليابان ٤٥، وفى إسرائيل ٣٨، وفى أمريكا ٣٧، وفى دول الجنوب كالشرق الاوسط وشمال أفريقيا لا تتجاوز النسبة ٤ علماء فى كل عشرة آلاف نسمة. فى التقرير العالمى للعلم world science report الذى تصدره اليونسكو كل سنتين تستعرض فيه احوال العلم فى العالم، وكان التقرير الأخير فى القرن العشرين عام ١٩٩٨، جاء فيه أن العالم كله أنفق

عام ١٩٩٤ على البحث العلمى والتطوير التكنولوجى Scientific Research & Development (R&D) ٤٧٠ بليون دولار أمريكى، ساهمت فيه أمريكا الشمالية بأكبر نصيب بنسبة حوالى ٣٨٪، وجاءت بعدها أوربا الغربية حيث ساهمت بنسبة ٢٨٪، ثم اليابان والدول الصناعية الجديدة بنسبة ١٩٪، والصين بنسبة ٥٪ وكان فى آخر القائمة وأقل نسبة هى الدول العربية مجتمعة حيث كان نصيبها ٠,٤٪ (أربعة أجزاء من الواحد الصحيح)، وهو أصغر إنفاق فى العالم كله. وكانت نسبة الإنفاق على البحث العلمى والتطوير التكنولوجى Scientific Researchg & Development (R&D) بالمقارنة بإجمالى الناتج المحلى، أكبرها فى أمريكا الشمالية حيث انفقت ٢,٥٪ من إجمالى الناتج المحلى على البحوث والتطوير التكنولوجى، وانفقت أوربا الغربية ١,٨٪ من إجمالى الناتج المحلى على البحوث والتطوير التكنولوجى، وكانت أقل نسبة إنفاق فى العالم موجودة فى الدول العربية مجتمعة حيث أنفقت ٠,٢٪ (جزءين من الواحد الصحيح) من إجمالى الناتج المحلى على البحوث العلمية والتطوير التكنولوجى، وفى مصر لا يتجاوز الإنفاق على البحث العلمى ما نسبته ٠,٥٥٪ من الناتج المحلى الاجمالى لعام ١٩٩٦، وتصل هذه النسبة إلى ٢,١٢٪ فى السويد، ٣٪ فى اليابان، ٢,٦٨٪ فى سويسرا، ٢,٦١٪ فى أمريكا ٢,٥٢٪ فى إسرائيل. وفى عام ١٩٩٥ صدرت فى أمريكا الشمالية ٣٨,٤٪ من المطبوعات العلمية فى العالم، ٣٥,٨٪ من تلك المطبوعات العلمية صدرت فى أوربا الغربية. ١٠,١٪ صدرت فى اليابان والدول الصناعية الجديدة، وكانت أقل نسبة اصدار للمطبوعات العلمية فى الدول العربية مجتمعة، التى صدر عنها ٠,٠٧٪ (سبعة أجزاء من الواحد الصحيح)من المطبوعات العلمية فى العالم، ثم يستعرض تقرير العلم أحوال براءات الاختراع التكنولوجى فى العالم ويذكر أن ٤٧,٤٪ من مجموع براءات الاختراع التكنولوجى فى العالم، ١٩٩٥ كانت فى أوربا الغربية، ٣٣,٤٪ فى أمريكا الشمالية، ١٦,٦٪ كانت فى اليابان والدول الصناعية الجديدة، أما الدول العربية مجتمعة فقد حصلت على رقم

صفر ٪ ، وأكررها كان نصيب الدول العربية مجتمعة من براءات الاختراع التكنولوجي في العالم عام ١٩٩٥ صفرا كبيرا ، بمعنى أن الدول العربية لم يصدر عنها أو تساهم بأى ابتكار تكنولوجى فى العالم.

★ ★ ★

وبصورة عامة فإن انفجار المعلومات قد رفع كفاءة الاقتصاديات الكبيرة، وشجع المنافسة العالمية، وعزز سيطرة وهيمنة الدول التى نجحت فى سد حلقة المعلومات. ومع التقدم السريع والدخول المتزايد لتكنولوجيا المعلومات، ينتظر أن تنخفض تكاليف أجهزة الكمبيوتر وخدمات الاتصال، مع تقدم متواز فى بناء طريق المعلومات السريع، والذى يضيف قوة جديدة لدول الشمال، وعلى الرغم من الجهود المتواضعة التى حدثت لسد الفجوة الرقمية بين الشمال والجنوب مثل انتشار ورخص تكاليف صناعة الحاسبات الصغيرة، لكن مازالت الدول المتقدمة خاصة فى أوربا وأمريكا مع قليل من الدول الصناعية الحديثة تحتكر القدرة على استعمال التكنولوجيات الجديدة فى الكمبيوتر ، وتوضيحا فهى تنحصر فى دول (International Organization Founded) وهى الولايات المتحدة الامريكية، كندا، استراليا، البرتغال، دنمارك، فنلندا، فرنسا، ألمانيا، اليونان، ايسلاندا، ايطاليا، اليابان، لوكسمبرج، نيوزيلندا، ايرلندا، هولندا، النرويج ، أسبانيا، السويد، سويسرا ، تركيا، بريطانيا، فتلك الدول هى الدول الاسرع تقدما، وبقية العالم يقع فى تخلف نهائى ، حيث تضاف فجوة المعلومات إلى الفجوة اللانهائية فى المنافسة، فيزداد عمق فجوة التنمية بين الشمال والجنوب، لكن بارقة الأمل أمام مصر والدول العربية موجودة فى النموذج الهندى، حيث أصبحت مدينة بنجالور مركزاً لابتكار تكنولوجيا المعلومات فيها حوالى ٢٠٠ شركة تكنولوجيا معلومات رفيعة، وتجاوزت صادرات الهند من البرمجيات وحدها حوالى ٤ بلايين دولار هذا العام ويتوقع أن تصل إلى ٥٠ بليون دولار عام ٢٠٠٨ .

عدد أجهزة الكمبيوتر في أمريكا يقارب عدد أجهزة الكمبيوتر في العالم كله

قراءة فى أحداث القرن العشرين :

الحكام والإعلام

بقلم :

د. مصطفى سويف

بدأت فى يناير الماضى أقدم على صفحات هذه المجلة المرموقة سلسلة من الأحاديث حول قراءتى أحداث القرن العشرين ، إذ عايشتها بدءاً من منتصف العشرينيات . وقد خططت للأحاديث أن تسلط الضوء على مواضع التماس بين ماهو عالمى ، وماهو وطنى / قومى ، وماهو فردى/ شخصى فى هذه الأحداث . وفى تصورى أن هذه المواضع تقوم بدور المصابيح الكاشفة بالغة الأهمية فى فهم التاريخ بمعناه الإنسانى العام الذى يتحول معه البعد السياسى إلى جزء لايجوز له أن يرقى إلى تمثيل الكل . ولا يعنى ذلك أننى قصدت بمقالاتى هذه أن تكون دروسا فى التاريخ بمعناه العلمى الموضوعى كما يكتبه أساتذة التخصص ، ولكنه يعنى أننى أردت للمقالات فى مجموعها أن تقدم منظورا معينا لأحداث التاريخ ، وهو مايمكن أن نسميه منظور الوقع الإنسانى للأحداث ، أو الصدى والرنين الإنسانى للأحداث ومترتباتها .



الدمار الذى سببه العدوان الثلاثي الغادر
على بورسعيد عام ١٩٥٦



ستالين

فما يكتبه المؤرخون هو تأثير الأحداث على الأحداث التالية ، دون ذكر للإنسان الذي هو واسطة العقد فيما بينها ، وما أقصده هو إبراز الرنين الإنساني فى هذا المسار ، لذلك وجب اعتبار ما أكتبه رصداً وتسجيلا يقوم بين الذاتية والموضوعية ، فلا هو ذاتى تماما وإلا لكان ذلك يعنى أن الأحـداث التى يرد ذكـرها فى هذه الأحاديث مجرد هلوسات لم يكن لها وجود مؤثر فى الواقع ، ولا هو موضوعى تماما بمعنى أن كل من تصدى للمشاهدة كان بإمكانه أن يرصده كما رصدته أنا بنصه وفصه . الواقع أنه مغاير لهذا وذاك، فهو ذاتى بقدر ما يملى من فروق واختلافات فى الرؤية ، وهو فى الوقت نفسه موضوعى بقدر ما يسمح بتخليق التكامل بين الرؤى المتعددة للراصدين والمسجلين. وما أزعمه أن تقديم هذا المنظور (حيث يلتـقى العـالمى والوطنى والفـردى / الشخصى) يعتبر من المهام ذات الخصوصية العـاليـة ، ومن ثم يحسن بالمثقفين أن يدرجوها ضمن واجباتهم . وما أتصوره وأرجوه أن يأتى يوم تتوافر فيه كثرة من الأدبيات التى تقدم مثل هذا المنظور بحيث تغـرى أهل الاختـصـاص من أسـاتذة التـاريخ بإدخـال هذه الوثائق ضـمـن مصادرهم المتميزة ، وتغريهم بالاجتهاد فى استحداث أو إستكشاف التكامل بينها حتى يتسنى لهم (أى لأصحاب الصناعة) أن يكتبوا التاريخ باعتباره الوجه الدينامى لعلم الاجتماع .

● ●

لقد أردت بهذا التقديم أن أستعيد مع القارىء أطراف الأحاديث التى بدأتها فى يناير ، وتوقفت عن متابعتها بعد يوليه سنة ٢٠٠٠ ، معـيـداً التـذكـرة بالدلالة الأساسية لمجراها .

مع بداية النصف الثـانى من الخمسينيات :

والآن نعود إلى مواصلة الحديث من حيث توقفنا .أعتقد أن أقبح القبائح التى تعرضت لها شعوب الأرض على امتداد النصف الثانى من القرن العشرين كانت هى الحرب الباردة التى بدأت فعلا يوم ٦ أغسطس سنة ١٩٤٥ عندمـا أسـقطت الولايات المتحدة الأمريكية القنبلة الذرية فوق هيروشيما فى اليابان ، فكان هذا إيذانا بدخـول العـالم فى أتون مناخ سياسى جهنمى لم يعهده من قبل : كان الشعـار الرئيسى فى هذا المناخ هو التهديد المستمر والتهديد المضاد المستمر، وكان موضوع التهديد فى الحالتين هو «القضاء على الآخر» ، وعلى الحياة كلها إذا لزم الأمر ، كـان هذا المستـوى من التهديد يجرى فى الرسائل المتبادلة بدون انقطاع بين القوتين الكبـريين ، الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى على مرأى ومسمع من جميع الدول وجميع الحكام ، وكانت تحيط به ضجة إعلامية حققت نجاحا مشهودا فى مضاعفة قدرته على إثارة الخواطر . ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، فقد ادعت كل قوة لنفسها حق الهيمنة على عدد من دول العالم (ظاهرة

الاستقطاب) بحيث انتهى الأمر إلى ما يقرب من اقتسام دول العالم فيما بينهما ؛ وهكذا تطور الأمر بحيث أصبح متبادلا بين جوقتين أو عصبتين من الدول ، لكل عصبة زعيم وخلف الزعيم أذناب على درجات مختلفة من الذنبية . صحيح أن الأمور لم تكن منسقة ولا سلسة تماما على النحو الذى قد توحى به هذه العبارات ، إلا أنه كانت هناك أساليب لا حصر لها لتحقيق التنسيق المطلوب داخل كل عصبة ، وكانت معظم هذه الأساليب تكرس القهر فى نهاية الأمر. وقد استمر هذا المسلسل حتى أشرف القرن على نهايته فى بداية التسعينيات عندما تصدع الاتحاد السوفييتى ثم انهار بصورة لم نعرف لها سابقة على مر التاريخ الحديث . ومع ذلك فإننا لن أتجاوز فى مقالى الراهن حدود الأحداث التى وقعت حتى نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات . وسيجد القارىء فى الفقرات التالية أن وقائع كثيرة – على الصعيد العالمى والمحلى – يتعذر فهمها أو إدراك دلالة تداعياتها إلا على خلفية إطار التهديد العام الذى ذكرت كيف نشأ وكيف تمكن ، والذى سوف أعيد ذكره فى مقالاتى التالية بينما أنا أكمل روايتى للكيفية التى قرأت بها أحداث القرن العشرين .

تعرية الاستبداد

على خلفية التهديد والتهديد المضاد (كمناخ عالمى) أبيحت وارتكبت كل الجرائم ضد شعوب الأرض ؛ فقد ارتكب الحكام من العصبتين أو المعسكرين أقبح الجرائم فى حق الشعوب ، وتم ذلك فى ظل حالة إعلامية لها مقوماتها الفعالة ؛ وأول هذه المقومات الضجة التى تعطل العقول عن التفكير الرشيد ، وثانيها قدر كبير من الاستثارة الانفعالية تدعم أساساً انفعالى الخوف والغضب فى أشد صورهما بدائية ، وثالث المقومات تبرير (تمتزج فيه المعلومة والقيمة) كالعذر الذى هو أقبح من الذنب ؛ وكان التبرير الصادر عن معسكر الشرق يدور دائما حول الدفاع عن الدولة القلعة التى قامت لترسيخ العدل الاجتماعى ؛ وفى معسكر الغرب كان التبرير دائما هو الدفاع عن الحرية وعن الدولة وأتباعها الرامزين للحرية . ولكى يتم تضييق الخناق على أى تفكير رشيد (قوامه التروى والنظرة النقدية) عسى أن تكتم أنفاسه استعان جميع الفرقاء فى المعسكرين بتسريع الأحداث ، أو ما نسميه نحن بالعامية المصرية «الكربجة» فالكل يجرى ويلهث وكأن السياط تلاحقه ، فلا وقت الآن لكذا ، ولا وقت لكذا ... الخ.

وقد يكون هذا الكذا حقا من حقوق الإنسان ، وقد يكون مطلبا من مطالب الحرية وتقرير المصير ، وقد يكون ... وقد يكون ... الخ) ، وأصبح لسان حال المشرفين على إدارة شئون التهديد : ضرورة تأجيل كل المطالب ، حتى ولو كانت من بين المطالب الأساسية للإنسان ، ضرورة تأجيلها إلى أجل غير مسمى حتى تحسم المواجهة بين العصبتين . وإلى القارىء بعض الأحداث تفصيلا .

فباسم الدفاع عن الحرية ومعسكر الحرية أعلن فى تقرير صدر فى يناير سنة ١٩٥٦ أن البريطانيين قتلوا فى الفترة ما بين سنتى ١٩٥٢ و١٩٥٥ عدد ١٠١٧٣ عشرة آلاف ومائة ثلاثة وسبعين مواطنا كينيا لأنهم كانوا أعضاء فى تنظيم يدعى «ماو ماو» بزعامة جوموكينياتا يطالبون باستقلال كينيا عن



تيتو

التـاج البـريطانى ، وهذا يعنى أنهم يحاربون الدولة (البريطانية) التى تحالف الدولة (الأمريكية) المدافعة عن الحرية .

وباسم الحرية والدفاع عن معسكر الحرية منح البرلمان الفرنسى (فى مارس سنة ١٩٥٦) رئيس الوزراء جيه موليه سلطات خاصة فى الجزائر لأنها تشاغب طلبا للاستقلال عن فرنسا التى تقف فى معسكر واحد مع الدول الرامزة للحرية ، وباسم الدفاع عن الحرية أعلن فى يوليه سنة ١٩٥٦ أن باريس ولندن تدرسان إمكانية إنزال جيوشهما فى مصر لمنعها من تنفيذ قرار الاستقلال بامتلاك شركة قناة السويس ، وضرب الطيران البريطانى والفرنسى مصر بدءا من ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٥٦ . وباسم الحرية والدفاع عن العالم الحر مارست القوات الفرنسية أبشع أنواع العدوان والتعذيب فى مجاهدى الجزائر كما أعلن هنرى أليج فى كتاب له نشر فى فرنسا فى فبراير سنة ١٩٥٨ . وباسم الحرية والدفاع عن العالم الحر منعت الشرطة الفرنسية اجتماعا دعت إليه جماعة تسمى نفسها العصبة الفرنسية لحقوق الإنسان كان الهدف منه الدعوة لوضع حد للتعذيب فى الجزائر . وباسم الحرية أعلن فى ديسمبر سنة ١٩٦٠ عن تفجير ذرى ثالث قامت به فرنسا فوق الصحراء الكبرى الأفريقية وكانت المغرب قد احتجت من قبل على التفجير الذرى الاول والتفجير الذرى الثانى اللذين قامت بهما الحكومة الفرنسية فوق هذه الصحراء الكبرى وكان ألبرت شفايتزر الحائز على جائزة نوبل للسلام قد أصدر نداء فى ابريل سنة ١٩٥٧ بإيقاف التجارب الذرية ، وكان الزعيم الهندى جواهر لال نهرو قد أصدر نداء مماثلا فى أكتوبر سنة ١٩٥٧ ، وكان ٩٢٣٥ تسعة آلاف ومائتان وخمسة وثلاثون عالماً من ٤٤ دولة قد طالبوا فى يناير سنة ١٩٥٨ بإيقاف التجارب الذرية ، ولكن ذهبت أو أذهبت كل هذه الجهود أدراج الرياح لأنها كانت معارضة لقرارات رموز الحرية !! .

وعلى الجانب الآخر ، جانب التهديد المضاد (حيث قلعة الدفاع عن العدل الاجتماعى) كان موت ستالين فى النصف الأول من الخمسينيات إيذاناً بتعرية الستالينية فى النصف الثانى من الخمسينيات ، وجاء التوقيت المناسب فى منتصف فبراير سنة ١٩٥٦ بمناسبة عقد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفييتى ، وفى هذا المؤتمر أعلن نيكيتا كروشتشيف (السكرتير العام للحزب بعد ستالين) إنهاء الطغيان الذى ساد فى فترة الحكم الستالينية ، وكشف عن العديد من الجرائم التى ارتكبت ضد الأفراد والدول باسم الدفاع عن الاتحاد السوفييتى والقيم التى يرمز لها ، وفى مقدمتها إقامة دولة العدل الاجتماعى ومساندة الدول التى تحتو حذوها . وبعد قليل نشر نص الخطاب الذى كان كروشتشيف قد ألقاه فى تلك المناسبة وأحدث مضمون الخطاب صدمة عميقة فى نفوس أعداد غفيرة ممن كانوا يؤمنون بقضايا العدل الاجتماعى



عبد الناصر يعلن تأميم قناة السويس

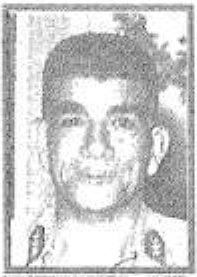
أو يتعاطفون معها . وشعر البعض أنهم غدر بهم ، أو غرر بهم لأن الجرائم كانت تقترف في الخفاء ولا تجد طريقها إلى العلن ، وكأن الفرق بين المعسكرين كان في حقيقته فرقا بين مستويات من المهارة في إخفاء الجرائم التي ترتكب باسم الحفاظ على المعاني والقيم التي يدعي النظام القائم في الشرق أو في الغرب الدفاع عنها .

وبدا الوجه القبيح للنظام في الشرق من خلال مظهرين رئيسيين : أحدهما فيما كان يعلن من حين لآخر من تراجع عن قرارات تجريم سابقة . والثاني فيما كان يرتكب من أفعال جديدة تصل إلى حد الجرائم هي الأخرى لكنها تثير حولها البلبلة في النفوس والعقول نظراً لما يحيط بها من تبريرات إعلامية لا أول لها ولا آخر . وهكذا تلقى الناس تحت المظهر الأول أنباء إعادة الاعتبار للزعيم الهنغاري لازلو راجيك في مارس سنة ١٩٥٦ ، وكان قد حوكم وأعدم بتهمة الخيانة لقيم العدل الاجتماعي في سنة١٩٤٩ .

وفي أبريل من العام نفسه أطلق سراح الزعيم البولندي ڤلاديسلاف جومولكا من سجنه وأعلن أنه كان من ضحايا الاستبداد الستاليني ، وأعلن في الوقت نفسه العفو عن ثمانين ألفا من مواطنيه البولنديين كانوا قد حكم عليهم في سلة واحدة مع جومولكا ، وفي أغسطس من العام نفسه وصل رد الاعتبار إلى جومولكا إلى حد إعادة تنصيبه عضوا في اللجنة المركزية للحزب



جواهر لال نهرو



محمد نجيب



شكرى القوتلى

الشيوعي البولندى . وفي يونيه سنة ١٩٥٦ أعلن كروشتشيف أن آراء الزعيم اليوغسلافى چوزيف تيتو التى سبق أن استوجبت المؤاخذة إلى حد اللعنة والطرد من مجال الفكر الشيوعى أيام ستالين اتضح أنها كانت سليمة ، وأن الحكم الستاليني عليه كان خطأ فاحشا يصل إلى حد الجنون أو الجريمة أو كليهما معاً وفي سبتمبر سنة ١٩٥٦ أعلن فى بلغاريا عن إعادة الاعتبار للزعيم البلغارى تراچكو كوستوف وكان قد حوكم وأعدم بتهمة الخيانة في ديسمبر سنة ١٩٤٩ !! ويضيق المقام هنا عن ذكر العديد من الأمثلة من هذا الطراز الذى يقع تحت المظهر الأول . وكنت أتساءل وأنا أقرأ هذه الأخبار (وكنت حينئذ فى لندن أتابع دراساتى لمستوى ما بعد الدكتوراه) :

كيف كانت المحاكمات تتم إذن ، المحاكمات التى أدانت هؤلاء جميعا ومئات وآلافاً آخرين غيرهم ، ووصلت فى مستوى الإدانة إلى حد الحكم بالموت ؟

وتلقى الناس أمثلة أخرى عديدة تحت المظهر الثانى ، الأفعال الجديدة التى تصل إلى حد الجرائم ، والتي أوقعها نظام كروشتشيف نفسه ، وأثارت البلبلة فى النفوس والعقول ، وأصبح السؤال الأساسى فى نهاية المطاف :

هل الحق ما أعلن الحاكم أنه الحق والباطل ما أعلن الحاكم وبطانته أنه الباطل ؟

كان من أقبح الأمثلة في هذا الصدد دخول ألف دبابة سوفييتية بودابست فى شهر نوفمبر سنة ١٩٥٦ لسحق الانتفاضة الهنغارية ضد الهيمنة السوفييتية فى أكتوبر ، وتم للسوفييت القبض على إيمرى ناچ رئيس الوزراء الهنغارى وزملائه الوزراء الذين تجرأوا على التفكير والتخطيط لوضع الأسس لسياسة هنغارية مستقلة . وبدأ نزوح الآلاف من الهنغاريين إلى الغرب هربا من موجة البطش الانتقامى الآخذة في التزايد . ومع ذلك فقد بدا لى هؤلاء كالمستجير من الرمضاء بالنار . وكنت أعى جيدا أثناء قراءتى تلك الأحداث أن هذا الذى يفعله كروشتشيف فى هنغاريا جاء فى ذات الوقت الذى كان يقف فيه بحزم ضد التدخل الانجليزى الفرنسى فى مصر بجيوشهما (فى نوفمبر سنة ١٩٥٦) لقمع محاولة الحكومة المصرية أن تخطط لسياسة مستقلة تتبعها فى تمويل مشروعاتها التنمية وعلى رأسها مشروع إقامة السد العالى.

كنت أقرأ التناقض المزرى بين الموقفين ، وأطلق العنان لقدراتي التحليلية النقدية أن تصل في تحليلاتها إلى منتهاها .

وفي مصر :

اتسمت فترة النصف الثاني من الخمسينيات (التي نحن بصددها) بثلاث سمات رئيسية ، تخلقت جميعا باعتبارها إفرازاً متوافقا مع مضمون المناخ السياسي العالمي (مناخ «التهديد والتهديد المضاد») السائد ، ومناسبا لظروف دولة صغيرة مصنفة على أنها ضمن دول العالم الثالث ، وتنوء في الوقت نفسه بعواقب مخاضها الذى عاشته في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات ، وهو المخاض الذى كان واعداً والذى لم يكن قد محى بعد من ذاكرة المهمومين بالهم العام من أبناء الشعب. كانت هذه السمات الثلاث هي : أولا عبادة الفرد / البطل ، وثانيا سياسة رد الفعل أكثر من الفعل ، وثالثا التوفيقية أو التلفيقية في الفكر السياسي .

وتحتاج عبادة الفرد لكى تقوم لها قائمة أن تتوافر لها ثلاثة عناصر : أولها مجال اجتماعي تم تفريغه من القوى السياسية الفاعلة ، وثانيها الفرد / البطل نفسه الذى يتسم بالنهم إلى الانفراد باتخاذ القرارات ، وثالثها الأفراد والجماعات والأجهزة الداعمة والمروجة لهذا الفرد وبضاعته . وقد توافرت هذه العناصر جميعا في مصر على امتداد الخمسينيات المتأخرة ، وكان الفرد / البطل هو عبدالناصر . ولمن أراد المزيد من الدراسة المتأنية لتفريغ المجتمع المصرى من القوة السياسية الفاعلة آنذاك أن يدرس الأسلوب الذى عولجت به قضية الأحزاب بعيد قيام حركة ٢٣ يوليه ، وأن يدرس الوظائف المجتمعية التي قامت بها المحاكم الاستثنائية ، وأن يدرس الأسلوب الذى أزيح به محمد نجيب عن الرئاسة ، والأساليب التي أزيح بها معظم أعضاء مجلس الثورة واحدا بعد الآخر عن المشاركة في الحكم. أما من أراد التفقه في موضوع الجماعات والأجهزة المروجة والداعمة لعبادة الفرد / البطل فيلزمه أن يدرس الخطوات والمراحل التي مر بها تخليق العلاقة وتنميتها بين عبدالناصر والجهاز الإعلامي برمته ، والأصداء النافذة التي استثارها في المجتمع كله بمؤسساته وأفراده .

وإلى القارىء أمثلة محدودة من القرارات التي انفرد الفرد البطل باتخاذها . يدخل تحت هذا البند قرار تأميم شركة قناة السويس في يوليه سنة ١٩٥٦ ، وقرار تمصير شركات التأمين والبنوك وكثير من الوكالات التجارية في يناير سنة ١٩٥٧ ، والقرار بإعلان الوحدة بين مصر وسوريا في فبراير سنة ١٩٥٨، والقرار بمصادرة المشروعات البلجيكية في مصر على أثر القبض على الزعيم الأفريقي باتريس لوممبا في الكونغو البلجيكية في ديسمبر سنة ١٩٦٠ . وسواء أكانت هذه القرارات وما صدر على شاكلتها جاءت من صنع عبدالناصر مائة في المائة أم تسعين في المائة أم أقل من ذلك أم أكثر فهكذا قدمها الإعلام المصرى حينئذ ، وهكذا تشير الدراسات الجادة التي تناولت تلك الفترة من تاريخ مصر (راجع في هذا الصدد مقالي الدكتور أسامة الغزالي حرب في جريدة الأهرام بتاريخي ١٣ و٢٧ نوفمبر الماضى) وهكذا اتخذت قرارات التأميم فيما بعد (سنة ١٩٦١) التي سميت بالقرارات الاشتراكية



لوممبا

كما اتخذت قرارات أخرى من قبل لاتقل عن ذلك خطراً فى حياة الأمة ، مثل قرارى الدستورين المؤقتين دستور ١٩٥٦ ودستور سنة ١٩٥٨ . وقد اتخذ الإعلام المصرى من صدور كل قرار من هذه القرارات فرصة ذهبية لمزيد من دعم عبادة الفرد / البطل .

ولا أدرى إن كان سيتيسر لطالبى الدراسة العلمية لهذا الفصل من تاريخ الأمة أن يستعيدوا فى مقبل الأيام الصورة التى تم بها الفصل ووقعها استعادة مطابقة للأصل لكى يتناولوها بالتحليل الموضوعى الرصين ويبرزوا ماخلفته عناصرها من أضرار جسيمة فى معنويات المصريين وما يمكن أن نسميه بآثار التربية السياسية للشعب .

ونترك مسألة عبادة الفرد إلى القضية الثانية ؛ قضية غلبة أسلوب رد الفعل (مقارنا بأسلوب المبادرة بالفعل) فى ميدان العمل السياسى . هكذا جاء كثير من القرارات . من هذا القبيل قرار حل جماعة الإخوان المسلمين ردا على حادث الاعتداء على عبدالناصر فى ميدان المنشية بالإسكندرية سنة ١٩٥٤ . وقرار تأميم شركة قناة السويس رداً على قرار البنك الدولى بالانسحاب من تمويل مشروع إقامة السد العالى ، وقرارات التأميم (المسماة بالأشتراكية) الصادرة فى سنة ١٩٦١ وقد جاء توقيتها ردا على ما قيل من أن بعض أغنياء مصر أظهروا عدداً من مظاهر الشماتة فى فشل مشروع الوحدة المصرية السورية . وجدير بالذكر أننى أقتصر هنا على ذكر بعض القرارات الكبرى ولا أذكرها كلها ، كما أننى لا أذكر نوعاً آخر من القرارات وأسميها قرارات التردد ثم التراجع . وهى قرارات بالغة الغرابة عندما يمس الأمر السياسة العليا للدولة ، ومن أشهرها قرار اتخذه عبدالناصر (وأذاعه بنفسه) بالتدخل العسكرى فى سوريا لضرب الانقلاب الذى قام هناك ضد الوحدة ، وقيل إن قوات عسكرية مصرية بدأت بالتحرك بحراً نحو سوريا لتنفيذه ، ثم عدل عنه فى خلال ساعات من إصداره ، وهو قرار قلما يأتى ذكره فى الحديث عن سياسات تلك الفترة ويعتبر هذا التردد دليلا دامغا على عفوية عملية اتخاذ القرار وإصداره حينئذ ، أو بعبارة أخرى أنه كان مجرد رد فعل آلى لم ترشده عمليات التفكير فى العواقب أو فى البدائل .

ثم نأتى إلى ذكر السمة الثالثة التى وسمت حكم مصر فى تلك الفترة ، وهى سمة التوفيقية أو التلفيقية فى الفكر السياسى السائد داخل دائرة الحكم ، وهى سمة تكشف عنها أمور كثيرة كان أشهرها شعار «التجربة والخطأ» الذى تردد ذكره عشرات المرات فى أحاديث عبدالناصر والمتزلفين إليه . وقد قرأت هذا الشعار آنذاك على أنه ملاذ للتهرب من أية مسئولية عن الأخطاء كبيرها وصغيرها مما كان يتكشف تباعاً على مستويات التخطيط والتنفيذ . وقرأته كذلك على أنه



لحظة إعلان الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨

كان وقاءً متميزا ضد المطالبة بأى ارتباط محدد سلفاً أمام الرأى العام المحلي أو العالمى ، ومن ثم فقد رأيت فيه واحداً من المفاتيح (الفكرية أو التبريرية) المهمة لإلقاء الضوء على الكيفية التى أساغ بها عبدالناصر لنفسه ولأشياعه أن يضع للأمة ثلاثة دساتير متتابعة فى مدى زمنى لايتعدى ثمانية أعوام (١٩٥٦ و١٩٥٨ و١٩٦٤) .

وأخيرا وليس آخيرا ، فقد قرأت في هذا الشعار استهانة صريحة بمصير شعب بأكمله ،وهل توضع مصائر الشعوب، من حيث المبدأ ، موضع التجريب والخطأ ؟ أن نخطىء فى أداء أدوارنا السياسية هذا شىء ، وهو جائز ووارد ؛ أما أن يكون التوجه من حيث المبدأ هو التجريب والخطأ فهذا قمة الاستهانة بحاضر الأمة ومستقبلها .

وبعد..

فى ختام هذا المقال أرى لزاما علىّ أن أقدم ثلاثة تعقيبات : أولها أننى تعمدت الإيجاز الشديد فيما يتعلق بنقطة التماس بين الأحداث (العالمية والوطنية) من ناحية وماهو فردى/ شخصى من ناحية أخرى ، فاقتصرت على ذكر قراءتى لهذه الأحداث. وثانيها أننى تحاشيت فى القسم الذى يتناول مصر من هذا الحديث أن أذكر اسماء أشخاص أيا كان قربهم من مركز صدور الأحداث ، لأن الاسماء لا أهمية لها فى مثل هذا السياق . وثالثها أن كل المؤشرات كانت ومازالت تشير إلى أنه آن الأوان للنظر الجاد فى مضمون المسئولية المجتمعية للإعلام .

DAILY EXPRESS

www.express.co.uk SATURDAY DECEMBER 9, 2000



BATES SURVIVES WEMBLEY CRISIS

CHELSEA CHAIRMAN SEES OFF CRITIC

YOUR FAVOURITE READ – 112 PAGES IN BRITAIN'S BRIGHTEST NEWSPAP

STORM CLAIMS MORE LIVES

Even worse to come as the weather goes wild

TURN TO PAGE 4, COLUMN 1



CHARLES BREAKS ROYAL TAB BY APPEARING ON THE STREE

SEE PAGE 3

الصحافة الصفراء

الهلال يناير

ليس هناك أى قانون طبيعى أو وضعى يفرض علينا أن نقرأ صحيفة فى صباح كل يوم ، وإنما حدث الأمر تدريجيا نتيجة لظروف اقتصادية واجتماعية معينة ، حتى تمكنت منا هذه العادة الغريبة ، وشاعت حتى شملت نسبة كبيرة من الناس ، خاصة فى المجتمعات المسماة بالراقية ، واستمرت حتى تحولت العادة إلى إدمان .

كيف يمكن أن يحدث هذا دون أن نشعر ونتخذ وسائل الوقاية الواجبة ؟.

بقلم : د. جلال أمين



نابليون بونابرت



محمد على

عصر ما قبل الصحافة

هناك بالطبع حاجة حقيقية لمعرفة بعض الأخبار ، ولابد من تلبية هذه الحاجة بطريقة أو بأخرى ، فإذا كانت هناك مثلا ، دلائل على أن قبيلة معادية تنوى غزو قرية مجاورة لنهبها ، فلابد من العثور على طريقة لتنبيه أهالى هذه القرية كما يحدث لاتخاذ الحيطة وتحصين أنفسهم ، فيرسل عمدة القرية أو كبار القوم فيها ، الذين يعرفون الأخبار قبل غيرهم ، من ينبئ أهل القرية بالخبر ، وإذا انتشر وباء فى قرية فمن واجب الحكومة أن تعرّف القرى المجاورة بحدوثه وتخبرهم بأفضل الطرق للوقاية منه ، قد ترسل الحكومة من يعلق بيانا مكتوبا على بعض الأشجار ، أو على باب منزل العمدة ، ولكن هذا يفترض معرفة أهل القرية بالقراءة . الأفضل ، فى حالة انتشار الأمية ، الاعتماد على خطيب المسجد أو الكنيسة ، أو على المؤذن الذى يمكن أن يذيع الخبر من أعلى مئذنة ، أو على أى شخص جهورى الصوت فيصيح فى الناس فى أكبر ميدان فى القرية بما عنده من أخبار .

ينطبق هذا على أى خبر تريد السلطة المركزية تبليغه للناس ، كعزمها على تجنيد الشباب للحرب ، أو زيادة النسبة الواجب تسليمها للحكومة من هذا المحصول أو ذاك .. إلخ. وقل مثل هذا عن حاجة بعض



الخديو إسماعيل



توفيق الحكيم



سلامة موسى

المتكسبين من عمل من أعمال الترفيه ، كالسيرك أو التمثيل ، لإخبار الناس بأنهم سيقيمون سيركا أو مسرحا فى قريتهم أو على أطراف مدينتهم ، فى ذلك اليوم المحدد . لا بأس فى هذه الحالة من إرسال من يدق على طبلة ليطوف بالناس لاخبارهم بالحادث السعيد .

الصحف الأولى

كانت هذه هى المقدمات التاريخية للصحافة وهى المقدمات المعقولة تماما فى مجتمع من الأميين ، إذ لابد فى هذه الحالة من الاعتماد على نقل الأخبار شفاهة أما أن تظهر بانتظام ، على فترات معروفة وثابتة ، بضع صفحات مطبوعة ، وتعرض للبيع للناس ، فكان هذا يشترط أمرين لا غنى عنهما : ظهور المطبعة ، وهذا تطور تكنولوجى بحت ، ووجود عدد كاف من الناس الذين يعرفون القراءة والكتابة ولديهم القدرة على دفع تكاليف كتابة وطباعة هذه الصفحات .

أما الشرط الأول فقد أصبح متوافرا فى منتصف القرن الخامس عشر بظهور المطبعة ، وأما الشرط الثانى فلم يتوافر إلا فى أوائل القرن السابع عشر ، فى بعض البلاد الأوربية ، الأمر الذى سمح بالفعل بظهور أولى الصحف المطبوعة والمنتظمة الصدور فى كل من ألمانيا والنمسا وهولندا وايطاليا ، أما فى الولايات المتحدة فلم يظهر أى شئ يمكن اعتباره صحيفة منتظمة الصدور إلا فى أواخر ذلك القرن (١٦٩٠) ، عندما ظهرت صحيفة فى مدينة بوسطون تحمل هذا الاسم الطويل (الأحداث العامة ، خارجية ومحلية) وتصف نفسها بأنها :

« تصدر مرة واحدة فى الشهر ما لم يحدث من الأحداث ما يستوجب ظهورها أكثر من ذلك». لم تكن هذه الصحيفة الأمريكية الأولى تتكون من أكثر من أربع صفحات طولها لايزيد على ٣٠ سم وعرضها ١٥ سم ،ملئت ثلاث صفحات منها بالأخبار القصيرة ، بينما تركت الصفحة الرابعة بيضاء لكى يستخدمها القارئ لمراسلاته الشخصية. على أى حال فإنه لم يصدر من هذه الصحيفة إلا عدد واحد فقط ، إذ أصدر حاكم المنطقة أمرا بإغلاقها بعد أربعة أيام من

صدورها .

أما الصحف اليومية فقد تأخرت عن ذلك بنحو قرن من الزمان . فلم تظهر أول صحيفة يومية بريطانية إلا فى أوائل القرن الثامن عشر (١٧٠٢) ، وأول صحيفة يومية أمريكية إلا بعد ذلك بثمانين عاما (١٧٨٣) ، ولم تكن هذه الأخيرة تتكون من أكثر من صفحتين .

صحف بورجوازية

لا يسع المرء إلا أن يلاحظ أن نشأة الصحف المطبوعة والمنتظمة الصدور كانت وثيقة الصلة بنمو الطبقة الوسطى، وأنها كانت ظاهرة «بورجوازية» بحتة. كانت الأخبار الغالبة فى الصحف الأولى هى أخبار التجارة وما يهم التجار معرفته كخبر وصول باخرة إلى الميناء وبيان ما تحمله من سلع . بل قيل إن الصحف اليومية فى أمريكا لم تظهر إلا لمنافسة المقاهى التى كانت تعلق على جدرانها آخر الأخبار عن حركات التجارة . نعم ، سرعان ما أضيفت الأخبار السياسية المهمة والتعليقات عليها ، ولكن ظلت الصحف فى الأساس صحف «الطبقة الوسطى» منذ ظهورها فى أوائل القرن السابع عشر وحتى أوائل القرن العشرين.

تنشر ما يهم هذه الطبقة معرفته ، وتستجيب لأذواق هذه الطبقة ومعاييرها الأخلاقية ، وتتجنب ما يؤذيها أو يجرح حسها الأخلاقى أو الجمالى . هكذا نجد جريدة التايمز اللندنية مثلا عندما ظهر أول عدد منها فى أول يناير ١٧٨٥ تنشر وعدا من مؤسسيها للقراء بأن هذه الصحيفة الجديدة «لن تحتوى على أى شئ من شأنه أن يخدش الحياء أو يفسد الخلق ، وستمتنع امتناعا باتا عن نشر أى شئ يتضمن تحيزا ظالما أو قذفا مبتذلا فى حق أى شخص» وعندما تولى رئيس تحرير جديد إدارة صحيفة النيويورك تايمز فى ١٨٩٦ رأى من المفيد أن يتبنى شعارا للصحيفة مؤداه أنها «لن تنشر من الأخبار إلا ما كان من الملائم نشره ، وأنها لن تلوث المفرش الذى يغطى مائدة الإفطار» .

لم يكن غريبا بالمرة إذن ، أن تجد فى هذه الصحف مقالات لكبار كتاب القصة أو قصصا وروايات تنشر فى حلقات لبعض الروائيين العظام ، فالصحف البريطانية اليومية الأولى ، التى ظهرت فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، نشرت قصصا مسلسلة لدانييل ديفو ، صاحب قصة روبنسون كروزو الشهيرة ، واعتبر لذلك أول من اتبع هذه الطريقة فى نشر قصصه ، كما كان كاتب المقالة الأساسية فى إحداها هو جوناثان سويفت، صاحب كتاب رحلات جلفر الشهير أيضا . ولكن هذا لم يكن إلا بداية لمساهمة بعض من أعظم الأدباء والكتاب السياسيين بالكتابة فى الصحف من صمويل جونسون وديكنز وثاكرى فى انجلترا إلى جوته وشيلر فى ألمانيا إلى مارك توين فى أمريكا .. الخ .

نشأة الصحافة الصفراء

المدهش حقا هو كيف استمرت الصحف على هذه الدرجة من الوقار والرصانة كل هذا الزمن الطويل ، وأنها لم تعدل عنه إلا قبيل حلول القرن العشرين بسنوات قليلة ، أى إلى ما لا يزيد كثيرا

عن مائة عام ، الأمر الذى يذكرنا بهذه الحقيقة المهمة : إن الجماهير الغفيرة ، حتى فى الدول التى سبقتنا فى ميدان التعليم وفى التنمية الاقتصادية السريعة بعشرات السنين ، لم تنتشر بين جماهيرها معرفة القراءة والكتابة إلا منذ وقت جد قريب .

فقبيل حلول القرن العشرين بقليل بدأت ثمرات الثورة الصناعية فى دول غرب أوربا وأمريكا تصل إلى أيدى الجماهير الغفيرة ، إذ كان التقدم التكنولوجى قد وصل إلى درجة تتطلب توسيع دائرة القدرة الشرائية وإلا عجز المنتجون عن تصريف منتجاتهم ، ومن ثم كانت الاستجابة لمطالب النقابات العمالية ليست فقط ضرورة اجتماعية وسياسية بل وضرورة «تكنولوجية» ، وكان لابد أن ينعكس هذا فى أحوال الصحف .

ففى سنة ١٩٠٠ كانت معرفة القراءة والكتابة والقدرة الشرائية قد انتشرا إلى حد سمح لجريدة مثل الديلى ميل Daily Mail البريطانية أن تطبع وتوزع مليون نسخة يوميا ، الأمر الذى جعل أذهان بعض الأذكياء تتفتق عن الفكرة الآتية :

إن القدرة على تعبئة مثل هذا الطلب الواسع على الصحف (بسبب تحقق القدرة على القراءة والقدرة على الشراء فى نفس الوقت) يمكن أن يكون مصدر ربح وفير لمن يستطيع أن يخاطب هذه الجماهير الغفيرة بالطريقة التى تحب أن تخاطب بها ، فما هى هذه الطريقة ؟ إن من السهل علينا الآن ونحن ننظر إلى ما حدث بعد مرور قرن من الزمان على بدايته، أن نحدد ما الذى يعجب هذه الجماهير الغفيرة ، ولكن لابد أن الأمر فى البداية كان اكتشافا عبقريا من جانب مصدرى الصحف : الجماهير تفضل الجرائد ذات العناوين المثيرة والمكتوبة بخط كبير ، والجماهير تحب أن ترى الصورة أكثر مما تحب أن تقرأ الكلام، والجماهير تحب، إذا كان المقال فى موضوع علمى ، أن يكون المقال مبسطا للغاية ، وإذا كان فى السياسة أن يكون مثيرا وحماسيا ، أما الأخبار فالأفضل منها هو ما تعلق بالفضائح وأسرار الناس ، وأما القصص فأفضلها قصص الحب والجنس .

كان من أولى الصحف الأمريكية التى اكتشفت هذا الاكتشاف صحيفتان تصدران فى نيويورك هما «الجريدة» (The Journal) والعالم (The world) وقد دخلتا فى منافسة حادة فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر فى جذب جماهير القراء ، فنشرت إحداهما قصة مسلسلة ومصورة بعنوان الطفل الأصفر (The Yellow Kid) حققت نجاحا جماهيريا باهرا ، وسرعان ما قلدتها الصحيفة الأخرى ، ثم انتشرت الموضة ، الجديدة إلى صحف أخرى خارج نيويورك، ثم خارج الولايات المتحدة ، اعتمدت هى الأخرى على الإثارة ، وعرفت منذ ذلك الحين ، وبسبب قصة «الطفل الأصفر» باسم «الصحافة الصفراء» وقد دخل الطلب والعرض ، فيما يتعلق بالصحافة الصفراء ، كما دخلا فى أمور كثيرة ، فى حلقة مفرغة من : زيادة عدد القراء ، الناجمة عن زيادة السكان وزيادة القدرة الشرائية وانخفاض مستوى الأمية



طه حسين — العقاد — على أمين

تؤدى إلى زيادة الطلب على الصحف ، وزيادة حجم الطلب تؤدى إلى الاستجابة إلى القاسم المشترك الأعظم بين القراء ، وهو حب كل ماهو مثير وسهل وسريع ، ومن ثم يزيد المعروض من مواد الصحافة الصفراء ، ولكن زيادة المعروض من هذه المواد يضاعف من حجم الطلب ، الذى يضاعف بدوره من حجم العرض .. الخ .

وهكذا ، ما أن بلغنا منتصف القرن العشرين ، حتى وجدنا أرقام التوزيع لبعض الصحف اليومية فى بريطانيا تبلغ بضعة ملايين ، فبلغ توزيع الديلى ميل فى ١٩٥٠ مليونين من النسخ يوميا ، والديلى ميرور ٢ر٧ مليون نسخة ، والديلى اكسبريس أربعة ملايين .

بيع القراء بدلا من بيع الأخبار

عندما بلغ عدد القراء هذا الحجم ، كان من الطبيعى أن تحدث الخطوة الخطيرة التالية ، وهى أنه ، بدلا من أن تقوم الصحيفة ببيع أخبارها ومقالاتها وصورها للقراء ، بدأت الصحيفة فى «بيع قرائها للمعلنين». قد يبدو التعبير قاسيا ومبالغا فيه ، ولكنه لا يبعد كثيرا عن الحقيقة . فالصحيفة عندما يبلغ مستوى انتشارها حدا معينا يمكنها أن تعتمد فى تحقيق الربح ليس على قارئ الجريدة كقارئ ، وإنما كمشتر لسلع أخرى كثيرة. ومن ثم فهى الآن قادرة على تقديم خدمة أعلى ثمنا وأكثر ربحا بكثير من الخدمة التى قامت فى الأصل لتقديمها وهى الإعلام والتثقيف . هذه الخدمة هى الإعلان ، وهذا هو المقصود من قولنا إن الصحف تقوم الآن ببيع القراء بدلا من بيع الأخبار ، فالمشترى المهم الآن ، فى نظر الصحيفة ، ليس هو قارئ الصحيفة بل هو منتج السلعة الراغب فى الإعلان عنها ، والشئ المباع ليس هو كمية من الأخبار أو المقالات ، بل القراء أنفسهم .

وللقارئ أن يتخيل المتغير الذى كان لابد أن يطرأ على الصحيفة نتيجة لهذا التغير الخطير فى طبيعة ما يعرض للبيع والشراء . نعم ، لابد من مراعاة ما يريده القارئ ، أولا وأخيرا ، سواء كان المباع هو الخبر والمقال ، أم عدد القراء الذين سوف تقع أعينهم على الإعلان. ولكن



يوسف إدريس



مصطفى أمين



محمد التابعى

زيادة أهمية الإعلان ضاعفت من أهمية الانتشار الواسع بالنسبة لأهمية صدق الخبر أو جودة المقال . بل إن رأى القارئ نفسه فى الصحيفة لم يعد مهما بنفس الدرجة ، طالما تحققت واقعة الشراء ابتداء . المهم هو جذبه إلى شراء الصحيفة الآن ، وليس من المهم كثيرا رأيه بعد انتهائه من الإطلاع عليها . المهم هو النجاح فى خداعه بأن هناك شيئا فى الصحيفة تتعين قراءته حتى لو اكتشف بعد لحظات قليلة أن ما ظنه مهما ، ليس فى الحقيقة كذلك ، إذ إنه فى هذه اللحظات القليلة يكون عدد من الإعلانات قد وقع بالفعل تحت بصره ودخل فى وعيه أو لا وعيه .

ترتب على ذلك أن أصبح القارئ المسكين يشترى الجريدة فيقلب صفحاتها فإذا به يجد المنشور فى صفحة بعد أخرى من الأخبار والمقالات لا يتجاوز ربع، أو حتى عشر مساحة الصفحة ، بل وقد يجد الصفحة بأكملها وقد احتوت على صورة لسيارة أو علبة للسجائر إلى جانبها صورة امرأة جميلة تهم بركوب السيارة أو تشعل سيجارتها . إنه ليس من أجل هذا بالطبع ، دفع ثمن الجريدة ، ولكن هذا فى نهاية الأمر ، هو ما يحصل عليه ، ومن أجل تمرير هذه الخدعة لابد أن تحمل الصفحة الأولى عناوين مثيرة ، وأن تعده بأخبار لا يمكن له الإحاطة بها إلا بتقليب صفحات الجريدة ، فإذا به بعد أن يقلب هذه الصفحات لا يكاد يظفر بشئ على الإطلاق ، وإذا بالخبر «شبه خبر» كتكرر أن شخصا التقى بآخر وتكلما فى موضوع مهم . دون أن يقال لك ماذا قال أحدهما للآخر ، بل ولا حتى ماهو هذا الموضوع المهم . إن من المناظر المثيرة الشفقة منظر مشترى بعض الجرائد فى الولايات المتحدة وكثير من الدول الأوربية ، وقد ذهب لشراء الجريدة الصادرة يوم الأحد ، ثم يعود إلى بيته حاملا ما يقرب من طن من الورق على ظن أنه بقراءتها سيحيط إحاطة تامة بما يحدث فى العالم، فإذا به يجد تسعة أعشار المكتوب على هذا العدد النهائى من الصفحات يتكون من إعلانات لم يكن فى نيته أبدا أن يدفع ذلك المبلغ من المال

لاقتنائها . وسرعان ما يلقى هذا الطن من الورق الذى تتكون منه الصحيفة فى صحيفة القمامة ، حتى يأتى يوم الأحد التالى فيقع فى نفس الفخ.

كيف يصبح الخبر التافه خبراً مهماً ؟

كيف يمكن لأى جريدة ، مهما كانت درجة كفاءة محرريها ومراسليها ، أن تعثر فى كل يوم على خبر يستحق أن ينشر بالعناوين الكبيرة فى الصفحة الأولى ، ويكون من الأهمية بحيث يجذب عدة ملايين من القراء ؟ الأمر صعب ويكاد يكون مستحيلا ، والصحيفة يومية لابد أن تصدر فى موعدها الثابت ولا يمكن أن يؤجل صدورها حتى يحدث ما يستحق الكتابة عنه ، كما كان الحال فى بداية ظهور الصحف . ليس هناك إلا حل واحد : أن يرفع كل يوم خبر من الأخبار ، مهما كان فى حقيقته تافها أو حقيرا ، فيمنح نفس الأهمية التى أعطيت فى اليوم السابق لنشوب حرب أو قيام ثورة . فى كل يوم يبقى مكان المانشيت الرئيسى خاليا حتى يقرر رئيس التحرير ماهو الخبر الذى سينتشل من بين مجموعة الأخبار التافهة ليتصدر الأخبار الأكثر تفاهة . قد يكون الخبر هو القبض على راقصة مشهورة ، أو قتل لاعب كرة كبير لزوجته هى وعشيقها ، أو مقابلة تمت لمجرد السؤال عن الصحة أو تبادل التهانى بالعيد ، فيقال إنها تمت لمناقشة الأوضاع الحساسة فى المنطقة . إن الأمر لم يصل بعد إلى حد أن تقوم الصحف بنفسها باشعال حرب أو بالايقاع بشخصية مشهورة حتى يمكن الكتابة عن هذا أو ذاك . ولكننا لم نعد بعيدين عن هذا أو ذاك ، ومثال مقتل الأميرة ديانا ليس ببعيد . صحيح أن الصحفيين لم يقتلوها بغرض الكتابة عن موتها ، ولكنهم على أى حال قتلوها ثم كتبوا عن ذاك .

الصحافة فى مصر

مرة أخرى نجد أن ما استغرق ثلاثة قرون فى أوربا ، لم يحتج إلى ما يزيد كثيرا عن مائة عام فى مصر . بل وفى بلاد أخرى كثيرة أقل «تقدما» من مصر ، ربما لم يستغرق كل هذه التطورات أكثر من خمسين عاما . صحيح أن ظهور أول جريدة فى مصر يرجع إلى قرنين من الزمان ، عندما بدأ نابليون فى إصدار صحيفتين بمجرد وصوله إلى مصر فى ١٧٩٨ ، ولكن هاتين الصحيفتين كانتا باللغة الفرنسية وموجهة لفرنسيين . وصحيفة محمد على (الوقائع المصرية) التى صدرت فى ١٨٢٨ بالعربية والتركية، كانت صحيفة رسمية تحتوى على قوانين وقرارات إدارية دون أخبار بالمعنى الذى نفهمه الآن .

وعلى أى حال لم يكن من الممكن أن تنشأ صحيفة دورية ليقرأها الناس فى أجزاء مختلفة من القطر المصرى إلا بعد إنشاء هيئة البريد فى ١٨٦٥ أثناء عصر الخديو إسماعيل .

فى مجتمع ظلت نسبة الأميين فيه تزيد على ٨٠٪ من السكان حتى منتصف القرن العشرين ، لم يكن من المتوقع أن تصدر الصحف ، حتى ذلك الحين ، إلا لنسبة جد ضئيلة من السكان ممن ينتمون إلى الطبقتين العليا والوسطى ، وهما طبقتان كان يتمتع أفرادهما بوجه عام ،



لويس عوض



نجيب محفوظ



أحمد بهاء الدين

وحتى منتصف القرن ، بمستوى عال من التعليم ، ويتملك ناصية اللغة التى تكتب بها الجريدة ، عربية كانت أو انجليزية أو فرنسية ، مع احترام تام ، من جانب أفراد الطبقة الوسطى على الأقل ، للغة العربية وقدرتهم على تذوق ما فيها من جمال .

من ناحية أخرى ، كان عدد قارئى الصحف من الصغر بحيث لم يكن ليسمح للصحيفة أن تحقق إيرادا من الإعلانات ذا أهمية تذكر . تضافرت هذه الظروف لتحديد طبيعة الصحف والمجلات الصادرة فى مصر حتى منتصف القرن :

عدد جد محدود من النسخ ، يتضمن أخبارا وموضوعات تلائم قراء ذوى ذوق رفيع ، لغة ومضمونا ، ويحد أدنى من الإثارة وعدد محدود جدا من الصور أما المقالات فيكتبها بانتظام أعلى أدباء وكتاب مصر شأنا وأعظمهم موهبة من العقاد إلى طه حسين ، ومن توفيق الحكيم إلى سلامة موسى .

انقلاب في الصحافة المصرية فى منتصف القرن العشرين

بدأ الانقلاب على استحياء فى أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة ، بظهور مدرسة أخبار اليوم فى الصحافة المصرية، فشاهد قراء الصحف المصرية لأول مرة المانشيتات المثيرة والمكتوبة بحروف ضخمة ، دون اهتمام كبير باتساق العنوان المثير مع مضمون الخبر المكتوب تحته . وزاد عدد الصور المنشورة، مع مراعاة اعتبارات الإثارة فى اختيار الصور والأخبار على حد سواء .

لقد ظل بعض الكتاب الكبار يكتبون فى صحف ومجلات مؤسسة أخبار اليوم ، فكان للعقاد مثلا مقاله الأسبوعى ولتوفيق الحكيم مربعه الثابت تحت عنوان «عصاى تقول». وأذكر أن من بين مقالات الحكيم فى هذا الوقت مقالا بعنوان «العصر الشكوكى» إشارة إلى انتشار ثقافة من نوع جديد ترمز لها منولوجات محمود شكوكو التى كانت تحقق فى ذلك الوقت نجاحا جماهيريا غير مسبوق . ولكن المساحة المخصصة لمثل هذه المقالات انخفضت نسبتها بشدة إلى إجمالى حجم الصحيفة ، وكانت حجة صاحبى المؤسسة أن «ليس هذا هو بالضبط ما يريده الجمهور» .

صحافة الخمسينات والستينات

عندما قامت ثورة ١٩٥٢ أضيف عنصر جديد للإثارة ، إذ انضمت الإثارة السياسية إلى مواد الاثارة المستمدة من الجرائم والفضائح وأسرار الفنانين والفنانات . ولكن كل هذا لم يكن من شأنه أن يزيد من توزيع الصحف لولا ما حدث من تطور في ارتفاع مستوى الطبقات الدنيا اقتصاديا وتعليميا ، وهو ما تكفل بعمله العقدان التاليان (الخمسينات والستينات) . وكانت النتيجة الحتمية لهذا الارتفاع في التوزيع الانخفاض في مستوى ما تنشره الصحف لغة ومضمونا . كان هذا هو ما يتفق مع ما يطلبه ويقدر على استيعابه قارئو الصحف الجدد الذين انضموا حديثا جدا إلى الطبقة الوسطى ، وحققوا قدرا من التعليم على عجل ، في مدارس وجامعات مكتظة بالتلاميذ وعلى أيدي مدرسين تخرجوا هم أنفسهم على عجل لمواجهة حاجات المدارس المتزايدة بسرعة .

كان من الممكن أن تؤدي هذه الزيادة الكبيرة في توزيع الصحف إلى ارتفاع كبير في أهمية الإعلان كمصدر من مصادر الدخل للصحيفة ، ولكن حال دون ذلك خلال الخمسينات والستينات ، أن كثيرا من الصحف أصبح يعتمد على التمويل المباشر من الحكومة ، التي قامت هي نفسها بإصدار بعض الصحف ابتداء ، أو نزعت ملكيتها من مؤسسيها الأصليين كما حال دونه ما حدث من تأميمات واسعة النطاق في مطلع الستينيات ، إذ أصبح كثير من المشروعات التجارية والصناعية في مركز احتكاري بعد دخولها في ملكية الدولة ، لا تكاد تحتاج معه إلى الإعلان عن نفسها .

انقلاب السبعينات

على الرغم من كل ما فعلته العشرون سنة الأولى التالية لثورة ١٩٥٢ في إعادة توزيع الدخل والارتفاع بمستوى الدخل في مصر بوجه عام ، فإن الزيادة في الحجم النسبي للطبقة الوسطى في مصر بين ٥٢ و ١٩٧٠ لا يمكن أن يقارن بما حدث لهذه الطبقة في العشرين سنة التالية (١٩٧٠ - ١٩٩٠) . نعم ، لقد أدت إجراءات عبدالناصر في الإصلاح الزراعي والتأميم ونشر التعليم إلى زيادة ملحوظة في حجم الطبقة الوسطى ، ولكن كل هذا لم يكن له من الأثر في نمو هذه الطبقة مثلما كان لظاهرة الهجرة التي عرفتها مصر في السبعينات والثمانينات. فإذا أضفنا إلى ذلك أن السبعينات والثمانينات، مع كل تنكرها لسياسات عبدالناصر في إعادة توزيع الدخل ، لم تستطيعا الوقوف في وجه التيار الكاسح المطالب بمزيد من المدارس والجامعات ، أيا كان مستوى التعليم الذي تقدمه هذه المدارس والجامعات ، فإن النتيجة كانت هي صعود أفواج غفيرة من الشعب المصري إلى مرتبة الطبقة الوسطى (وعلى الأخص الطبقة الوسطى الدنيا) حتى أصبحت هذه الأفواج الغفيرة ، بمستوى تعليمها وأذواقها وتطلعاتها هي المحدد الأساسي لمستوى وخصائص الثقافة السائدة في الربع الأخير من القرن ، بما في ذلك مستوى وخصائص الثقافة السائدة في الربع الأخير من القرن ، بما في ذلك مستوى وخصائص الصحف الرائجة .

كان يوسف إدريس ولويس عوض ونجيب محفوظ لايزالون يكتبون في



صلاح حافظ



صلاح جاهين



روز اليوسف

الصحف فى أوائل السبعينات ، ولكن نجيب محفوظ مع نهاية القرن ، كان قد انكمش إلى مربع صغير قليل الأثر ، وكان لويس عوض فى السنوات العشر الأخيرة من حياته ، قد تحوّل من الكتابة فى إصلاح التعليم ، وكأنه قد يئس من إمكانية ذلك ، إلى الكتابة فى التاريخ الأقدم بكثير ، الأوربى أو المصرى ، وكأنه كان يبحث عن عزاء فى فترة تاريخية أفضل . أما يوسف إدريس ، فقد توقف تماما عن كتابة القصة والمسرحية وتحول هو نفسه إلى المقالة المثيرة ، التى لم تكن دائما تحظى بإعجاب قرائه القدامى .

عصر التبسيط الشديد

تحول عنصر الإثارة فى الصحافة ، التى بدأت على استحياء قبيل منتصف القرن على يد مدرسة مصطفى أمين وعلى أمين ، من إثارة الأخبار الصغيرة المتناثرة إلى الاثارة السياسية والقومية فى الخمسينات والستينات ، ثم إلى الاثارة الدينية فى السبعينات ، ثم أضيف إلى كل ذلك الاثارة المعتمدة على أخبار الرياضة فى الثمانينات ، والإثارة الجنسية فى التسعينات . كان كل شئ الآن يحمل طابع التبسيط الشديد ، وهو التبسيط الملائم بالطبع للجماهير الغفيرة من القراء كانت السياسة والقضايا القومية قد جرى عليها التبسيط الشديد فى الخمسينات والستينات . ولكن هذا التبسيط الشديد لحق أيضا التفسير السائد للدين فى السبعينات ، ثم انتشرت طريقة فى معالجة الرياضة والجنس تتسم بدورها بالتبسيط الشديد ، فأى شئ أبسط من متابعة مباراة الهدف الأساسى منها إدخال كرة فى شبكة الفريق الآخر؟ .. وأى شئ أبسط وأكثر ضمانا للربح الوفير من نشر صور الاغراء لممثلات السينما؟ .

المدهش أن هذه النزعة للتبسيط قد أصابت حتى ما كان فى الأربعينات أو مطلع الخمسينات أكثر الصحف والمجلات وقارا ورصانة فنفس المجلات التى كانت تنشر المقالات البديعة لصلاح حافظ فى الخمسينات تحت عنوان «انتصار الحياة»، أو التى أسسها أحمد بهاء الدين فى منتصف الخمسينات لمخاطبة «القلوب الشابة والعقول المتحررة» ونشر أول مقال له فيها تحت عنوان «معنى اليسار» ، وجدت أنها لن تستطيع الاستمرار

وتحقيق مستوى معقول من التوزيع ما لم تنشر صورا مماثلة لما تنشره «الصحافة الصفراء» وما لم تتوسع فى أخبار الرياضة وفى نشر المقالات المبسطة جدا فى الدين مثلما تتوسع الأخريات . كما ظهرت مجلات جديدة من نوع جديد تماما على مصر ، حققت نجاحا باهرا ، رغم ارتفاع ثمنها ، تطبع على ورق مصقول وتعتمد على الصور الجميلة وإذاعة الأسرار، ونشر كل ماهو مدهش وغريب .

هكذا نجد أن الصحافة فى مصر استطاعت خلال ما لايزيد كثيرا على مائة عام ، أن تقطع نفس الشوط الذى قطعته الصحافة فى أوربا وأمريكا فى أكثر من ثلاثة قرون . بل إن الشوط الذى قطعته مصر فى الثلاثين عاما الماضية يكاد يفوق ما استغرق من أوربا وأمريكا قرنا كاملا.

فنوع الصحافة الذى بدأ فى أوربا بقصص «الطفل الأصفر» منذ مائة عام ، لم يبدأ فى مصر ، وعلى استحياء تام ، إلا فى منتصف القرن ، ولكن انظر إلينا وقد كدنا نتفوق على أوربا وأمريكا فى هذا النوع من الصحافة .

من أقوال الصحافة

«إذا هو نشأ ضعيف العقل، فاسد الرأى، مشوه التفكير، عاجزاً عن الفهم والحكم، مستعداً للتأثر بكل ما يلقى إليه، والاستجابة لكل ما يدعى إليه. هذا النوع من الشباب خطر على نفسه وعلى أمته لأنه خطر على النظام الاجتماعى دائماً»

«طه حسين»
«مستقبل الثقافة في مصر»

«الصحافة كرسى اعتراف جماعى يتيح مشاركة مشتركة إذ أن فى استطاعتها تلوين الأحداث باستخدامها أو بعدم استخدامها».

مارشال ماكلوهان

* إن قلة اهتمام الصحفيين بالمواضيع السياسية الصغيرة وتفاصيلها المملة تدفع السياسيين المحليين إلى تسويق أنفسهم عبر الحوادث المزيفة.

سوزان جاكشكي
من صحيفة «دي زايت» الألمانية

* «كلمة واحدة أصغى إليها حيا خير عندى من صفحة كاملة كلها تمجيد فى جريدة كبرى حينما أكون قد مت ودفنت».

فولتير

«لا فائدة من التربية التى تجعل الإنسان مستودعا لأفكار غيره، لأن الكلمات التى توضع فى الكتب لا يمكن أن تنتج معانى إلا على نسبة التجارب المكتسبة».

«هربت سبنسر»
١٨٢٠ - ١٩٠٣
الفيلسوف الانجليزي «فيلسوف التطور»





أهمية الضحك

الفوضى التعليمية بين النظرية والتطبيق

تقديم : د. حامد عمار

كاتب هذا المقال أستاذ في إحدي الجامعات الأمريكية ، فرانك نورمان . وقد شاركتني في إعداده وترجمته بتصرف ، وملاءمته للقارئ العربي الباحثة لمياء محمد أحمد السيد ، المدس المساعد بكلية التربية، جامعة عين شمس . وقد التقطنا الموضوع من شبكة الإنترنت ، وهو - فيما نعلم - أول جهد تعليمي يقدم حالة مشخصة ومتجسدة لمواقف في صورة حكاية لنظرية الفوضي (الشواش) وفي توظيفها في الفصل المدرسي . وفيها يتضح كيف تتفاعل وتتخمر عدة عوامل معقدة ، ومن بينها عوامل قد تبدو صغيرة أو تافهة لتصل إلي نتائج غير متوقعة ، وكيف تتحول الفوضي إلي نظام ، وكيف يسعي التفكير الإنساني إلي محاولة كسر الطوق المألوف في رتابته ونمطيته إلي تجاوز الواقع ، فيغدو أكثر إبداعاً وإثماراً . وإليكم حكاية هذا المقال :

بدايات الضحك : (أكتوبر ١٩٩٥)

بينما كنت استقل ترام مدينة مينو ، شاهدت فتاتين في بداية مرحلة المراهقة يجلسان خلف مقعدي في مؤخرة الترام ، وقد بدت عليهما علامات الضحك بصورة غير طبيعية ، تصل إلى حد الضحك الهستيرى .

وقد تسبب هذا الضحك في ازعاجي وإعاقتي عن القراءة ، كما ازعج باقي الركاب الذين بدت عليهم علامات الانزعاج إلى أقصى حد ممكن .

وفي أثناء ذلك هممت أن اوجه لهاتين الفتاتين اللوم ، واحاول ان اوقفهما عن الضحك ، بيد اني تذكرت ما كنت افعله مع طلابى فى فصلى كل يوم قبل بداية الدرس . فقد كنت اوجههم لضرورة الضحك ، وانه عملية ضرورية تشبه تأثير التعبد ، له القدرة على كسر رتابة النظام اليومى ، ويدعو إلى التجديد والتفاؤل والمرح والإقبال على الحياة .



شارلى شابلن

هذا الموقف المشكل الذى وقعت فيه جعلنى فى صراع فكرى سريع ، ولم يدم ذلك طويلاً إذ استدعى فى مخيلتى محاضرة ممتعة استمعت اليها بعنوان " يوجا الضحك " تناولت أهمية الضحك للصحة النفسية والجسمية ، وضرورة ممارسة جميع أنواع الضحك من ثلاث إلى اربع مرات فى اليوم الواحد بمستوياته المختلفة من قهقهة إلى الضحك الاجش ، ومن ابتسامة او ضحكة قصيرة إلى ضحكة مدوية عالية تحمل معنى الفرحة واللطف والنشوة والسعادة الغامرة ، ومن الضحك التلقائي الطبيعى إلى الضحك المصطنع المتكلف ، فضلاً عن كل ما فى هذه الانواع من الأصوات الموحية بالضحك مثل هى هى - هوو هوو - هولوو ... ومع كل هذه الأنواع المتضمنة فى المحاضرة وما بها من أصوات مختلفة إلا أني أحسست بأنها لا تتشابه مع صوت الضحك الصادر من فتاتى الترام اللتين امعنتا فى الضحك .

وفى كل الاحوال قد يكون الضحك أيسر على المرء واكثر فائدة من جلوسه متجهما عبوساً بصورة توحي بالضبط والوقار والتحكم الشدية المصطنع .

وبعد برهة زمنية لم استطع الا ان انخرط فى الضحك مع هاتين الفتاتين، وان لم يكن بنفس الدرجة الصاخبة ، فحدودى ومهنتي تفرضان على سلوكي ان يكون محترماً لا يؤدى لإزعاج الركاب .

الضحك اضطراب مبدع وحميد

وفى أثناء هذا الضحك حاصرتنى بعض التساؤلات حول ما أثارته لدى هذه الضحكات من الفتاتين ، ومن ردود افعال من قبل باقى الركاب ، ومن بين هذه التساؤلات :

- لماذا تسبب الضحك فى حدوث حالة من الضيق لدى الركاب؟ ولماذا تضايقت أنا مبدئياً من جراء هذا الضحك ؟

- هل يستطيع أحد ان يشكو من ضحك الآخرين دون ان يصبح هو مدعاة للسخرية ؟

وتخيلت ان يصدر فى إحدى الصحف مقال فى هذا الشأن بعنوان :

«ايقاف المراهقين عندما يضحكون» يا له من عنوان مضحك !، ما وجه الخطأ فى الضحك حتى لو كان من النوع الصاخب ؟



أهمية الضحك

ان الضحك موجود فى جميع الثقافات ، وقد وجهت طلاب فصلي إلى ضرورة التدرب على طرق الضحك فى الثقافات المتعددة ، بل إننى شعرت بالضيق حينما لم استطع تقليد ضحك قزم سمعته فى مكان معين ، ويا للأسف !!

وفى هذا الصدد يمكن تعريف الضحك على انه :

" اضطراب مبدع وحميد ، له تأثير فعال على الانسان ، وهو محاولة جيدة للتعارف من خلال المرح . إنه يختلف عن بعض الأشياء الاخرى غير المقبولة اجتماعياً مثل التهديد بالعنف أو العنف ذاته ، والرسم على الحوائط ، والموسيقى العالية ، والإعلانات المقززة، والتدخين ، ورؤية السكارى فى الشوارع ، ورائحة العطور النفاذة ، وهو من اكثر الاشياء المتاحة فى وسائل المواصلات " .

ويرى أحد علماء الصحة النفسية أن للضحك تأثيراً فعالاً على صحة الانسان ، فكثير من الامراض الخطيرة امكن علاجها

باستخدام الضحك على أفلام لوريل وهاردى وعروض الكاميرا الخفية .

ان كثيراً من المدرسين معرضون يومياً للعديد من الامراض ، وقد اصبت أنا شخصياً باكثر من نصيبى المعتاد من الامراض فى ظل الحياة العادية التى نحياها . ولربما كان من الأفضل ان نغير من حدة هذه الحياة بالضحك ، فهو تجربة مثيرة ومفيدة ، وأقل تكلفة من تكلفة الذهاب إلى الاطباء أو شراء الأدوية .

وانى لشديد الاعتقاد فى أهمية الضحك وقدرته على جعل الطلاب اكثر حرصاً على الانتظام فى الحضور داخل المدرسة ، وفى انه من افضل الاليات الدفاعية التى يمكن توظيفها للحد من انتشار العنف الى المدارس بين الطلاب . ومن ثم بدأت توجيه طلابى للضحك لوقت قصير قبل بداية الدرس كل يوم ، مع الغناء لدقيقة من أنشودة اخترناها من احدى مقطوعات موسيقى البوب .



وعلى الرغم من استمتاع كثير من طلاب فصلى بالضحك إلا اننى وجدت من بينهم بعض المعارضين لهذه الطريقة الجديدة فى التمهيد للعمل والدرس ، لكن سرعان ما زال هذا الاعتراض لينخرط هؤلاء الطلاب فى الضحك مع اقرانهم ، وعلى وجه العموم يمكن اعتبار هذا الاعتراض علامة صحية تعبر عما هو موجود من تباين فى الحياة والمجتمع بصورة طبيعية .

ومع مضى الوقت اصبح الطلاب مصدر تدعيم لى فيما أقوم به من تجارب تبدو وكأنها ضرب من الجنون الحميد ، كما ازدادت الثقة بينى وبينهم إلى الدرجة التى اصبحت افتقد المدرسة فى أوقات العطلة أو الاستجمام فى البيت ، وقد لاحظ الطلاب هذا على مزاجى أحياناً .

الضحك أحد معايير التقييم

وبعد فترة زمنية قصيرة قمت بإضافة عنصر الضحك كأحد معايير التقييم للطالب فى البطاقة المصممة لذلك والتى تحوى معايير اخرى مرتبطة بالتعاطف والتميز وتقدير الغير ، إلى غير ذلك من السمات الخلقية العامة التى تقع خارج نطاق تقييم العملية التعليمية

والحاصل باختصار ، لقد اختلف فصلي شكلاً ومضموناً عن الفصول الاخرى فى المدرسة ، فحينما تدخل إليه تجد جميع حوائطه وقد زينت باقتباسات مأخوذة من كبار الكتاب عن الضحك مثل :

" لا يوجد ضحك فى الحياة الآخرة " مارك توين

" الضحك هو وسيلة المجتمع لنموه وحمايته من التحجر " هنرى بيرجسون

" الرجل الذكى حينما يسمع نكتة سوف يضحك بصوت عال وإذا لم يضحك فهو ليس بذكى " فورمان

وبالإضافة إلى تلك الأقوال توجد معروضات من الرسوم الفنية لرسامة أمريكية شهيرة ، ولبعض الرسامين الاسيويين ، وللرسام سلفادور دالي ، كما توجد بعض الاجندات القديمة المستخدمة ، وبعض الخرائط لتطور شكل الأحذية عبر التاريخ ، وبعض الرسوم التاريخية عن لعب الأطفال على الرقائق المعدنية .

وعلى الرفوف تعرض بعض الاشياء الغريبة كأغطية العلب ، وطائرات اللعب، وميزان قديم ازرق لوزن العيش الفرنسى ، وتجميعات من القبعات والأحذية والكور المختلفة ، وقشر جوز الهند ، وبعض اعمال الطلاب ، ومجموعة تليفونات مختلفة التطور وقطع عاج متنوعة ، وسمك منتفخ (محنط) ، يضاف إلى كل هذا (٥٠ ساعة) تقريباً متعددة الاشكال .



أهمية الضحك

وهذه الساعات أهداها لى بعض الطلاب والاصدقاء فقد كانت ساعة المدرسة كثيرا ما تخفق فى اعطائنا توقيتا دقيقاً ، ولذلك جرى إهدائى هذه المجموعة من الساعات ، وتشمل :

ساعة كوكو ، ساعة خروف ، ساعة مروحة ، ساعة حمام ، وساعة عكسية، وساعة صينية ، ومجموعة من ساعات اليد الضخمة ، كما توجد كذلك كثير من الأشياء التافهة والضئيلة من صناعة القرن العشرين .

وذات يوم زارنى عدد غفير من الآباء والمدرسين والاداريين بالمدرسة ، وشعروا بعدم الرضا والاضطراب والخبطة للفوضى الظاهرة فى الفصل، وعدم تنظيمه واتساقه .

وعلى الرغم من الصعوبة التي وجدوها ليصنفوا أو حتى ليدركوا ما أقوم بتدريسه ، فإنني كنت مبتهجا وسعيدا ولم يتسبب ذلك في احداث اى ضيق لى .

ومع ذلك لم تكن جميع أمورى تسير على ما يرام ، فتقارير تقييمى المبكرة جاء بها عديد من التعليقات التى توجه إلىّ اللوم نظراً لحالة الفوضى التى تسود الفصل وعدم أحواله المنظمة ، كما دعانى نائب الناظر إلى مكتبه وأخذ يحذرنى مما اقوم به ، مع أنها جميعها امور طبيعية بالنسبة لى .

صندوق الكنوز الفكرية



ومع مرور الايام، وفجأة ، أخذت تختلف تلك الانتقادات والتعليقات ، لقد حدث ذلك مؤخراً بعد ان نشرت احدى المقالات لصحفى معروف اشار فيها الى تجربتى واثنى عليها ووصف فصلى كأفضل ما يكون فى مقال له بعنوان :

صندوق الكنوز الفكرية «الاعتبارية» المفترضة

وقد اثر هذا المقال تأثيرا إيجابياً فى تحسين الصورة عن تجربتى ، وحولها فى نظر المسئولين الى شكل افضل له قيمته . وبذلك حسمت الامور لصالحى ، ووجدت ناظر المدرسة يثنى على فصلى وأدائى ، واعتبره بمثابة نموذج تفخر به المدرسة ، ويستحق ان يعرض كعمل ريادى على الشخصيات المهمة التى تزور المدرسة . ومن خلال هذا الفصل استطعت ان اضرب مثلا على اهمية التنوع وامكانيته فى قلب النظام ، كما يمكن من خلاله التأكيد على اهمية مرونة المبادئ وتوظيفها فى ظل رؤية واضحة مسبقة ، وان المبادرة الفردية ليست بالضرورة رداً لفعل ، أو ثورة على لفت نظر ، أو تحطيماً للقيود. لم يكن الهدف فى فصلى (فوضى الضحك) رداً على التحذير الذى وجه إلىّ فى تقارير تقييمى او عما وجهه إلىّ نائب الناظر ، بل انه نتاج تفكير متعمق ناقد لما نقوم به بصورة يومية وبشكل آلى لما يسود مجريات الحياة المدرسية . واستطاع هذا التفكير ان يصل الى درجة النضج ، حين توافرت لحظة الالتباس فى المواقف ، فاللبس يقود الى التفكير ، والضحك كان من العوامل التى وجهتنى الى التفكير .

توقف الترام اكثر من مرتين ، وظلت الفتاتان تضحكان الى الحد الذى جعلنى احترم قدرتهما على الضحك ، بل وابتسم معهما كما فعل باقى الركاب كذلك . وهنا ادركت ان الضحك والمرح وعدم الاتساق والمفارقات والحس العبثى جزء لا يتجزأ من حياتى ، ومن يُمن الطالع ان هذا التكوين ساعدنى على تنمية مهاراتى فى التعليم، وبخاصة فى التعامل مع المراهقين من الطلاب .

لذلك يؤكد عدد من كبار الاساتذة على اهمية تنمية روح المرح لارتباطها بارتفاع نسبة الذكاء، واكتشاف وصقل الموهبة ، والقدرة على الابداع ، وهو ما دفعنى لتوجيه طلابى لهذه الملحوظة من ممارسة الضحك بأى صورة من صوره.

ونظرا لأهمية تنمية روح المرح من قبل كبار الاساتذة ، فقد نظمت مدرسة المقاطعة مؤتمرا للمرح ، وتوقعت بما يشبه اليقين ، انه سوف يبعث على الملل كأغلبية الاعمال التى تقوم به مدرسة المقاطعة ، الا ان هذا لم يتحقق، بل على العكس من ذلك جاء كأفضل مؤتمر قامت به مدرسة المقاطعة ولم ينافسه فى الافضلية غير مباريات كرة السلة ذات الاقبال الكبير ، ويمثل هذا المؤتمر فى رأيى امتع المؤتمرات التى عقدتها مدرسة المقاطعة التى حضرتها خلال ٢٦ عاماً كمعلم فى المدارس العامة فى سان فرنسيسكو .

وبعد كل هذه التموجات والسياحات الفكرية التى استعرضتها تظل التساؤلات الاولية التى بدأت بها حول الفتاتين : ماذا عنهما ؟ أيكون ضحكهما مجرد تهريج ؟

أم هو تعبير مبدع عن بعض مشكلاتهما الاجتماعية ؟

أم هو موقف تشخيصى لانهما من طلاب الدراما ؟

أم هو مجرد تفاهة وفقدان للهدف ؟

لقد ثار لدى عديد من التساؤلات ، بيد انى لم استطع ان اعرف او احدد اى اجابة قاطعة لاى منها ، غير انى مازلت فترة افكر واستغرقت فى الضحك مدة طويلة مع الفتاتين على الرغم من محاولتى التماسك والهدوء .

وبعد عشر دقائق من الصرخات الضاحكة لهاتين الفتاتين ، غادرتا الترام ، وقد تملكهما العجب لما وجهته لهما من كلمات الشكر على ما صدر منهما من ضحك .

سلفادور دالى



أهمية الضحك

أقوال معاصرة

● «ليس ثمة ما يحول دون إجراء محادثات مع الشيطان إذ كان الامر يخدم مصالحنا»

محمد جواد لاريجاني
أحد وجوه التيار المحافظ فى ايران



نجيب محفوظ

● «فى السودان نسير إلى المجد فى دائرة».

الكاتب السودانى محمد ابراهيم الشوش

● «العالم يتقدم، وتركنا حيث نقف»».

الاديب نجيب محفوظ



محمد ابراهيم الشوش

● «إسرائيل عاجزة عن الضم أو الانسحاب، ولذا تذهب إلى الانتخابات.

الصحفى اللبنانى جوزيف سماحة

● «الشيخوخة هى الجنازة الوحيدة التى يمشى فيها الفقيد على قدميه»..

الأديبة غادة السمان



غادة السمان

● «لولا أن الله يحب ابناء النوبة، ما أعطاهم كل هذا الجمال».

المخرجة الألمانية لينى ريفنشتال
ولها من العمر الآن ثمانية وتسعون عاما

●«الأجدر بالانتخابات الأمريكية أن تكون قدوة ، لا موضوع إستهزاء»

المفكر حسن منيمنة



وود آلن

● المدهش المريع فى الأمر ان يكون چورچ بوش الابن مرشحا للرئاسة، رغم انه لا يساوى شيئا، ومهرج من النوع الذى لا نحتاج اليه».

وود آلن
الممثل والمخرج الفائز باوسكار

●«يبدو أن الكتاب العرب لا يجدون فى حيواتهم ما يصلح للكتابة ويظنون أن القارئ لا يهتم بذلك».

المفكر المغربى حسين بن حمزة

وداع قرن .. واستقبال قرن جديد

يصف الكثيرون ، مؤرخون وسياسيون وعسكريون القرن العشرين بأنه كان أشد القرون وحشية ودموية ، فى التاريخ القديم والوسيط والحديث ، فقد تخللته حربان عالميتان وانتهى القرن بأن هيمنت دولة واحدة على مقادير العالم وعندما انهار الاتحاد السوفيتى أعلن نهاية التاريخ وظهرت لافتات مثل التكيف الهيكلى .. العولمة .. الخصخصة

وهذه إطلالة على ابرز معالم القرن العشرين

اعداد
محمود قاسم
أمانى عبد الحميد


LA POLITIQUE

موسكو
انهيار الشيوعية



القيصر
نقولا الثانى

وسط تصفيق العالم له وبعد تتويجه بجائزة نوبل للسلام انهار فوق رأسه عالمه القديم وظل جالسا على أطلاله وحيدا ..

ميخائيل جورباتشوف آخر زعماء ماكان يسمى بالاتحاد السوفيتى القديم «١٩٨٥ - ١٩٩٠» دخل التاريخ على أنه شيوعى يسعى إلى تحديث الشيوعية لتوائم أحوال العالم لكنه أعلن سقوط قلعة الشيوعية وزوال الاتحاد السوفيتى من على خريطة العالم السياسية قال عنه الأمريكيون وزعماء أوروبا بأنه أعظم زعماء العالم فى القرن العشرين .

فهو الذى سحب القوات السوفيتية من أفغانستان فى ١٩٨٩ ، وألغى ميثاق بريجنيف حول أمن المنظومة الإشتراكية ، وحث ألمانيا على فتح حدودها ثم صرف النظر عن الاعتراض على الوحدة الألمانية ، وبالتالى انهيار سور برلين والستار الحديدى عام ١٩٨٩.

وقام بأهم خطوة تاريخية وهى إلغاء احتكار الحزب الشيوعي للسلطة وتأييد إقرار تغييرات شاملة تهدف إلى التحول إلى الاقتصاد الحر فى عام ١٩٩٠ وبالنظر فى التاريخ الروسى نجده تاريخا دمويا طويلا مليئاً بالقلاقل والثورات والحروب الدامية فبحركة دموية قام بها الشيوعيون نجحت الثورة البلشفية عام ١٩١٧ فى اسقاط القيصرية الروسية وإنشاء أول نظام اشتراكى فى تاريخ البشرية . وبالرغم من صمود هذا النظام أمام العديد من العقبات والتحديات أهمها الحرب العالمية الثانية واعتبار هتلر أن هجومه على الاتحاد السوفيتى أساس استراتيجيته للهيمنة على أوروبا والعالم ، لكنه فشل فى معالجة أسباب زواله والتى نبعت من داخله فهو نظام قام على سحق الفرد والعصف بالحريات العامة وتركيز السلطة فى يد شخص واحد الأمر الذى أنتج فسادا كاملا وشاملا فى المجتمع .



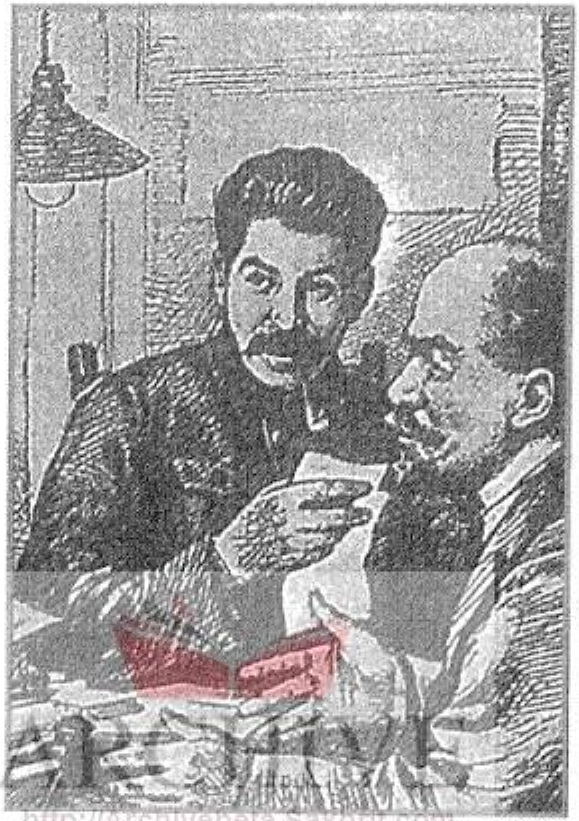
وبعد مرور أكثر من سبعين عاما على قيام الثورة البلشفية تتصاعد الأوضاع المتردية إلى ذروتها وتظهر حركات تهدف إلى أيقاظ القضية القومية من سباتها ويستشرى الخلل فى نظام الدولة ويتضخم حتى يصل إلى الهاوية .. فمن داخل جمهورية



جورباتشوف



بوتين



لنين وستالين

كازاخستان تقوم انتفاضة صغيرة «ألما - آتا» لم تستمر سوى يوم واحد ولم تسفر عن عدد يذكر من القتلى والجرحى لكنها كانت بمثابة الشرارة التى أدت إلى اندلاع اللهب فى طول البلاد السوفيتية وعرضها وحولت المعسكر الشرقى إلى وحدات دومينو متراصة تسقط الواحدة تلو الأخرى . فانهار الاتحاد السوفيتي وتفتت إلى خمس عشرة دولة ضعيفة تبيع ما تبقى لديها من سلاح الماضي . كما انهار حلف «وارسو» الذى كان ذا هيبة عسكرية تثير ذعر قوات حلف شمال الأطلنطى . وتحولت دول الكتلة الشرقية إلى دويلات لا حول لها ولا قوة !

هذا ليس فنا .. إنه شخبطة ..

وكانت هذه الشخبطة هى الفيصل الرئيسي بين عصرين من الفن التشكيلى ، عصر الرؤية الذاتية للفنان ، وعصر انقضى كان الرسام البارع فيه ينقل الواقع بنفس الصورةالتى صارت آلات التصوير «الكاميرا» تقوم بها .

باريس ، هى أهم مدينة شهدت هذا التحول وقد بدأت الحكاية على يدى سيزان الذى قال عما يرسمه : إنها انطباعاتي ... ما أشعر به ... ومن يومها قرر الفنان التشكيلى أن يضع ذاته فى اللوحة ، أن يغير مناظير الكون التقليدية، مردداً كانت الكلاسيكية ذات يوم ثورة ، فلماذا لا ينتهى دورها..

أحد النقاد، ردد ذات يوم ، وهو يشاهد اللون الأحمر طاغياً : إنهم وحشيون ... وبدأت المذاهب التشكيلية فى الظهور ، لا يهم كم يطول عمرها، المهم أن تشارك معانى تحطيم جميع صور التقليدية، قرر بيكاسو أن يرسم الاشياء من خلال خطوط متداخلة ، واطلقوا على رسومه «التكعيبية» وضع البعض شاربا كثيفا فوق أنف «الجيوكندا» محاولين أن يروا الابتسامة أسفل شارب واطلقوا على أنفسهم اسم «الدادية» ، وردد سلفادور دالى مشيرا إلى واحدة من لوحاته الأولى : رسمتها وأنا أحلم ... كنت أنذاك مستيقظا» وأطلقوا على ما يرسمه بالسريالية ، وقام آخرون بتجريد اللوحات من العناصر الحية وصارت تركيبات لونية على المرء أن يشاهدها حسب ذاتيته ، والحالة النفسية التى يعيش فيها .

هذه الصدمة، لم يستوعبها الكثيرون فى البداية ، وكان لابد لهؤلاء الفنانين أن يفلسفوا لوحاتهم ، وأن يظهر جيل من النقاد يدافع عن هذه الرسوم ، وصار القرن العشرون بمثابة جلسة مواجهة حقيقية بين عشاق الماضى، وهؤلاء الذين يغيرون ايقاع الحياة ، قال المعارضون أن الفنانين الجدد (المخربين) يجيدون رسم التفاصيل ، مثلما كان يفعل جويا ورمبرانت، ورفائيل ، وردد الفنانون دون النظر إلى الخلف : غير مطلوب منى أن أفهم نفسية الشخص الذى أتحدث إليه، وأنا أدقق فى ملامح أصابعه : العروق البارزة، الاظافر الطويلة ، أو شقوق مسام





بيكاسو



سلفادور دالى



لوحة لبيكاسو



لوحة لسلفادور دالى

الاصابع.. تكفى كلمة واحدة منه كى أفهمه بالكامل ..

وتوارى الكلاسيكيون ، وتقدم المجددون ، ونجحوا فى أن يكونوا سمة القرن العشرين. غيروا فى ايقاع الألوان، والنسب فيما بينها، ونقلوا فنونهم إلى ملابس الناس، وديكورات البيوت ، وشكل الميادين أثناء الاحتفالات ، وشيئاً فشيئاً ، صاروا هم بدورهم تقليديين ، ولم يعد العصر يشهد الجديد، وعادت الكلاسيكية مرة أخرى على استحياء، مع نهاية القرن ، وظهرت فنون جديدة اليكترونية ، ستختلف حولها الآراء فى القرن الجديد ، وستكون خصومات ، وحوارات .. وتستمر الحياة ، بأشكالها المتجددة .

ستكهولم

الديناميت يتفجر بالكتب

هل انفجر أصبع ديناميت واحد ، كي يسفر عن كل هذه الجوائز الأدبية والعلمية فى القرن العشرين .

الاجابة حتما : نعم ، فبعد أن أحس ألفريد نوبل بفداحة سوء استخدامه اختراعه «الديناميت» الذى نسب إليه، ورصد ثروته لمنح جوائز للمتفوقين فى الطب ، والأدب ، والطبيعة ، والكيمياء، والذين أدوا دوراً جليلا فى خدمة السلام العالمى .

بعد هذا الإحساس، وبعد رحيل نوبل ١٨٩٦ ، منحت أهم جائزة فى القرن العشرين لأول مرة وتولدت ظاهرة الجوائز الأدبية والعلمية، وصارت الجوائز بمثابة مرآة العطاء، وتتويجا للموهوبين ، وكان الأدباء هم أكثر المبدعين حظا، حيث منحت لهم الجوائز فى كل بقاع الأرض، واكتشف الناشرون أن حصول أديب على جائزة مرتبط فى المقام الأول برواج الكتب ، على مستوى القراء وايضا رواج الكتابة عن هذه الكتب الفائزة فى الصحف ، لذا لم يكن غريبا أن أسماء صحفية قد أسست أشهر الجوائز الأدبية فى العالم ، ومنها الإخوان جونكور، التى منحت جوائز أدبية تحمل اسمها فى فرنسا منذ عام ١٩٠١ ، وأيضا بوليتزر الصحفى الذى خصص أموالا طائلة لمنح الجوائز السنوية فى عدة أفرع متعلقة بالصحافة أشهرها جائزة الرواية ، التى منحت لأول مرة عام ١٩١٨ .

وصارت قوة الابداع تقاس فى المقام الأول، بقوة الجوائز التى تمنح فى دولة ما، فقوة الجائزة تعكس أن هناك العديد من الروايات ، أو الكتب التى تستحق الترشيح، ومن بينها تتم التصفية لاختيار رواية واحدة، بما يعنى أن هناك على الأقل عشرة كتب تصدر سنويا، تستحق المفاضلة فيما بينها، وأن هناك كتابا على الأقل، هو الفائز بالجائزة، يستحق القراءة ، وفى بعض الدول زاد عدد الجوائز المهمة إلى أكثر من عشرين جائزة ، تنسق فيما بينها حتى لا يفوز نفس الكتاب بجائزتين ، ولعل هذا يعكس الكم الكبير من الكتب الجيدة التى تنشر سنويا ...



وصار لكل دولة جائزة مهمة ، غالبا ما تحمل اسم أديب مرموق ، من التاريخ مثل جائزة «ثربانتس» مؤلف دون كيشوت – فى أسبانيا، وجائزة جورج بوشنر – الكاتب المسرحى – فى



الفريد نوبل



د. زويل يتسلم جائزة نوبل

المانيا ، وجائزة مونديللو الايطالية .

وانتقلت هذه الظاهرة إلى مصر ، والوطن العربى ، بدأت فى الخمسينات من خلال المؤسسات الحكومية ، وأطلقت عليها تسميات غريبة «جائزة الدولة التشجيعية» ، «وجائزة الدولة التقديرية» ، ثم اكتشف الأثرياء ، أنهم بمكنهم منح جوائز اعلى قيمة مادية، وسميت بعض الجوائز باسماء حكام - وجوائز أخرى باسم مانحيها ... وصارت المؤسسات الخاصة أو العامة التى لا تمنح جوائز كأنها رجل عقيم بلا جدوى، أو امرأة لا تحمل فى بطنها جنينا..

البداية كانت بانفجار ديناميت، والظاهرة الآن تتفجر بالتكريمات ، والمنافسات ، وهى على كل ظاهرة ايجابية ، مهما شابها من سلبيات .

هوليوود حاسة جديدة للمسلسلات التليفزيونية

ليس الحدث المهم فى القرن العشرين، هو قيام جون بيرو باختراع التليفزيون عام ١٩٣٦ ، ولكن ما فعله هذا التليفزيون فى وجدان الناس مع مرور السنين..

ينقل التليفزيون الأخبار، والمباريات ، ويذيع الأفلام، وكان عليه أن يصنع دراما خاصة به بدت فى السنوات الأولى أقرب إلى الاذاعة المصورة ، منها إلى أفلام السينما، وذلك لاعتبارات خاصة بتقنية التصوير، وتطورت الآليات ، لكن أفلام ومسلسلات التليفزيون لم تطال ابداع السينما ، الذى تطور إلى السينما سكوب، والأصوات المجسمة .

لكن ، نقطة التحول الحقيقية فى القرن العشرين هى ظهور مسلسلات التليفزيون الضخمة المعروفة باسم "Soapopera" أو أوبرا الصابون ، حيث استطاع مؤلفوها أن يقفوا ضد جميع إغراءات السينما وأن يشدوا انتباه المتفرجين ، كى يترك كل ما لديه لمدد قد تزيد على العام ، من أجل رؤية حلقات تحكى قصص الأثرياء، بصفة خاصة وسط أساليب حياة معقدة، ومتشابكة ، تثير الدهشة دوما بما تحتويه على قدر هائل من العلاقات الممنوعة ، التى تثير دهشة المتفرج ، وتصدمه ، لكنها لا توقفه عن الفرجة، بل تدفعه إلى المزيد من المشاهدة .

حدث هذا فى مسلسلات من طراز «دالاس» «الجرىء والجميلات» ، التى تضم أجرأ قصص الحب، وأجمل النساء، وتصور مجتمعات فردوسية المكان جهنمية العلاقات .

وقد غيرت هذه المسلسلات من آلية المشاهدة لدى المتفرج العالمى ، وسعى المؤلفون إلى إيجاد المزيد من هذه العلاقات المحرمة، من أجل إثارة المزيد من الدهشة ، ووصل عدد الحلقات فى بعض المسلسلات إلى عدد أيام السنة .

وفى مصر، والعالم العربى ، سرعان ما انتقلت هذه الظاهرة ، وكان لابد من كتاب موهوبين يمكنهم استيعاب هذا

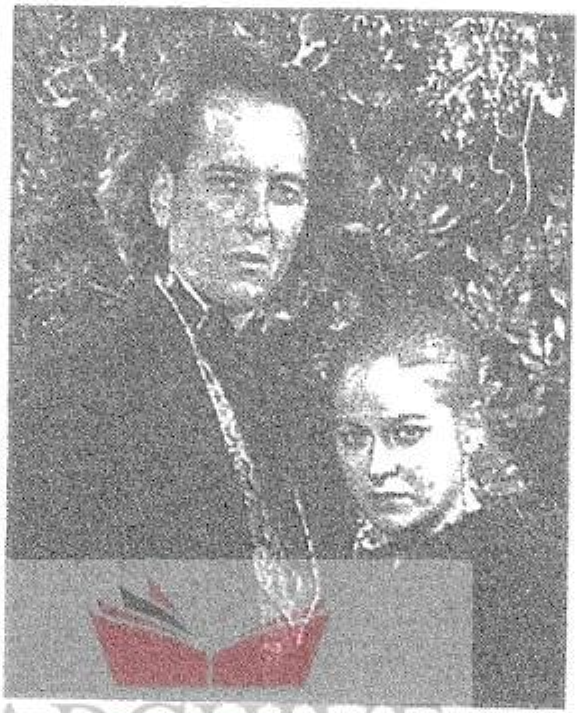




أسامة أنور عكاشة



محفوظ عبد الرحمن



لقطة من مسلسل أجنبي

التحـول ، والكتابة على نفس الايقاع، من أجل إثارة الدهشة بصفـة دائمـة، وحدث هذا في المقام الأول في المسلسلات التاريخية ، والاجتماعية التي كتبها كل من أسامة أنور عكاشة ، ومحفوظ عبد الرحمن ، وغيرهما .

وفي شهور رمضان من السنوات الأخيرة، تحول الكثيرون من المشاهدين العرب إلى كائن مرتبط بشكل غريزي بمسلسلات التليفزيون الكثيرة الأحداث ، الطويلة الايقاع، والمزدحمة بالعلاقات والأزمنة ، وصار المشاهد ينتقل طوال ساعات النهار والليل من مسلسل إلى آخر، دون إحساس بالملل ، يعرف جيداً كيف يفرق بين كل هذه القصص، ويحفظ أسماء الشخصيات ، وينتظر مصائرها ... وكأنه واحد منهم .

نيويورك

جيتس وثورة المعلومات



بل جيتس

شهدت الخمسينات فى القرن العشرين ولادة ثورة تكنولوجية واسعة النطاق، جاءت كثمرة نتاج علوم الفيزياء والرياضيات والهندسة الألكترونية . وعلى مدى نصف القرن الأخير ارتقت التكنولوجيا المعلوماتية بصورة غير مسبوقة خلال سلسلة من التطورات التقنية فى نظام الحاسبات الآلية أو ما يطلق عليه الكمبيوتر ، وأصبح الاتجاه السائد هو الاتجاه صوب كل ما هو أصغر وأسرع وأكفأ والأهم من ذلك صوب الأرخص والأسهل استخداما .

ونجد أن أهم شخصية أثرت فى مجال الكمبيوتر هو «بيل جيتس» الذى اعتلى عرش أكبر امبراطورية برمجيات كمبيوتر فى العالم وهى شركة المايكروسوفت الامريكية ، وأصبح أغنى أغنياء العالم حيث جمع ثروة تقدر بـ ١٠٠ مليار دولار بذكائه الحاد وعبقريته الفذة فى مجال الكمبيوتر . ابتكر برامج تشغيل الحاسبات الشخصية المعروفة باسم «دوس DOS» والتى سهلت انتقال العالم فى حقبة الحاسبات الكبيرة إلى ما يطلق عليه «المين فريم» "Mean Fram" إلى حقبة الحاسبات الشخصية . ثم قام بإحداث ثورة جديدة بتحويل التعامل مع الكمبيوتر الشخصى فى نظام «الدوس» إلى أنظمة تشغيل الويندوز والتى سهلت عملية استخدام الكمبيوتر بالاعتماد على نوعيات بسيطة من الرسوم والرموز ، وهو الأمر الذى زاد من سرعة الكمبيوتر من آلاف العمليات الحسابية فى الثانية الواحدة إلى سرعة «النانوثانية» أو بلايين العمليات فى الثانية الواحدة وبالتالى تقلص حجم الكمبيوتر الذى كان يحتل مساحات ضخمة ويتسم بالبطء الشديد فى استرجاع المعلومات فى الستينات وتحوله إلى أجهزة شخصية قد يصل إلى حجم راحة اليد وأصبح مستخدموها مئات الملايين من البشر .

ويرى جيتس «أن شبكة الإنترنت ما هى إلا خطوة صغيرة نحو الغد» حيث أن نظام «الدوت نت» وهو نظام يشمل طيفا واسعاً من نظم التشغيل يصنع عالما جديدا منفتحا وقادرا على التفاعل الكامل عبر الإنترنت وشبكات المعلومات .. وهو محاولة للانتقال بعالم الانترنت إلى حقبة جديدة تفوق حقبة التجوال والتصفح على الشاشة بل يدخل إلى التفاعل القائم على الأخذ والرد وبناء مواقع ذكية قادرة على التحاور والتفاعل مع الشبكة من خلال الصوت والصورة وبالتالى فإن «الدوت نت» المعلومات لمن يطلبها فى الوقت والمكان الذى يريده وبالشكل الذى يرتضيه.



فيينا

فرويد والتحليل النفسي



سجموند فرويد

كان لأبحاث سجموند فرويد الفضل الأول في كشف الستار عن كثير من الحقائق السيكولوجية المهمة التي ساعدت على فهم أسباب الأمراض النفسية التي حيرت الأطباء عبر العصور. فبعد أن كان المريض النفسي يتعرض للعزل أو الموت أو حتى الحرق في الشوارع للاعتقاد أنه يحمل مسا شيطانيا داخله أسس «فرويد» مدرسة للتحليل النفسي في عام ١٩٢٦ التي أثرت بشكل كبير على علوم الطب النفسي وأثارت اهتمام الأطباء وعلماء النفس ووجهت أبحاثهم إلى ميادين جديدة من البحث العلمي .

ويعتبر «فرويد» أول من قسم عقل الإنسان إلى جزءين : العقل الواعي الذي يفكر به، والعقل الباطن أو اللاشعور الذي تستقر فيه الأمور عن غير قصد وتؤدي إلى ترسيب العقد . وكان علماء النفس من قبله يقصرون أبحاثهم على العمليات الشعورية فقط. كما اكتشف أهمية الكبت ، وبين الدور الخطير الذي يقوم به في إقصاء كثير من الخبرات النفسية المؤلمة أو المخيفة عن دائرة الشعور . وشرح بجرأة شديدة تطور الحياة الجنسية عند الانسان إبتداء من الطفولة المبكرة حتى بلوغ النضج التناسلي .

وفي عام ١٩٣٦ أصدر كتابا عن «القلق» قام فيه بتحليل مشكلة القلق تحليلا علميا دقيقا وبين كيف ينشأ القلق في الأصل عن الرغبات الجنسية غير المقبولة ، وقد أوضح لأول مرة الدور المهم الذي يؤديه القلق في نشوء الأمراض النفسية .. ويعتبر «فرويد» مكتشف عقدة «أوديب» التي ترجع بعض الاضطرابات النفسية في الكبر إلى تعلق الطفل الشديد بأمه وغيرته من الأب واضطراره لكبت هذه المشاعر . وهي العقدة التي أصبحت أشهر مرض نفسي في التاريخ . وقد تعالت أصوات مع بدايات الثمانينات في القرن العشرين تطالب بإقصائه عن عرش التحليل النفسي . حيث واجهت نظرياته العديد من الانتقادات والاتهامات أبرزها اتهامه بإتخاذه من الجنس محورا لتفسير الكثير من الأمراض النفسية . واتهامه بأنه لم يكن يصف ما تعانيه البشرية من أمراض بل ما يعانيه هو من أمراض نفسية .

باريس

امـــرأة مـتـحـررة جـــدا



سيمون دى بوفوار



بنازير بوتو

«الجنس الثانى» كتاب لسيمون دى بوفوار صدر فى منتصف القرن العشرين ليغير كثيراً من المفاهيم السائدة آنذاك حول قضية تحرير المرأة، وحول الدعوة النسائية من مجرد المطالبة بحق التعليم أو العمل الوظيفى والسياسى إلى حقوق تتعلق بوضعها داخل الأسرة والمجتمع بل تمتد إلى حقوق أكثر تحررا خاصة فى المجتمعات الغربية.

تصاعدت النداءات بإطلاق الحريات للمرأة مثل حقها فى الإجهاض، أو منح اسمها لأطفالها، وفى ممارسة الحرية الجنسية دون الالتزام بإطار الزواج، والعيش بمفردها وتحقيق الاستقلالية الشخصية بعيدا عن مجتمع الرجل. واجتاحت العالم حركات التحرر النسائية Feminism لتطالب بالقضاء على القديم وخلق أوضاع جديدة ترتضيها المرأة لنفسها. وتتويجا لجهود المرأة أقرت الدول الاسكندنافية قانونا جديدا يسمح بإعطاء الرجل أجازة تفرغ لرعاية الأسرة ليتيح للمرأة ممارسة العمل العام دون ضغوط أسرية. وبالنظر فى التاريخ نجد أن المرأة كافحت منذ بدايات القرن من أجل الحصول على حق الانتخاب والتصويت وبالتالى العمل السياسى ودخول البرلمان . ونجحت فى إصدار قانون يمنحها ذلك فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٢٠، وفى فرنسا عام ١٩٤٤، وفى مصر عام ١٩٥٢ فى أعقاب ثورة يوليو، تمكنت المرأة المصرية لأول مرة من دخول البرلمان بفوزها فى انتخابات عام ١٩٥٧





أنديرا غاندى مارجريت تاتشر راوية عطية

وهما «راوية عطية شمس الدين» و«أمينة أبو العز شكرى» ، وكان قد ظهر فى عام ١٩٤٢ أول حزب نسائى مصرى برئاسة فاطمة راشد للدفاع عن حقوق المرأة السياسية والاجتماعية .

وعلى الساحة الدولية تمكنت المرأة من انتزاع بعض المناصب القيادية من الرجل ومثال ذلك مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا أو المرأة الحديدية التى فرضت الليبرالية الاقتصادية فى بلادها، وسيمون فيل أول رئيسة للبرلمان الأوربى والتى ذاع صيتها بعد مطالبتها بحق المرأة فى الاجهاض فى فرنسا حتى صدر القانون يحمل اسمها «قانون فيل» وأونج سان سوكى الحاصلة على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٩١ لنضالها للحرية والديمقراطية فى بورما . وأنديرا غاندى أول رئيسة وزراء للهند وبنازير بوتو رئيسة وزراء باكستان وكورى أكينو رئيسة وزراء الفلبين .

وعلى الصعيد العربى وفرت معظم الدول للمرأة حق العمل السياسى ومباشرته عن طريق الأحزاب والجمعيات الأهلية وعضوية البرلمان فظهرت المرأة الوزيرة والسفيرة والنائبة البرلمانية .

وفى مجالات الإبداع الفكرى حققت المرأة بعض الانجازات الملموسة وإن كانت نسبة المبدعات والمشتغلات فى مجالات الكتابة أقل بكثير من نسبة الرجال. وأشهرهن الكاتبة الفرنسية «فرانسواز ساجان» التى أكملت مسيرة «دى بوفوار» وصاحبة رواية «صباح الخير أيها الحزن» التى ترجمت لمعظم لغات العالم .

بريطانيا

فـرد واحـد يسـيطر على ملايين البشر



جثمان الاميرة ديانا محمولاً من رجال الحرس الملكى

صحافة القرن العشرين.. عالم مثير شغوف لا يهدأ دائما فى حالة ترقب يسعى وراء المتاعب وكل ما هو جديد.. قال عنها «فولتير»: إنها آلة يستحيل كسرها تعمل على هدم العالم القديم حتى يتسنى لها أن تنشىء عالما جديدا». أطلقوا عليها السلطة الرابعة لكنها فى الواقع هى قوة من أعتى القوى، لديها القدرة على كشف الحقائق ومواراة بعضها، وتضخيم بعض الأمور وتهوين بعضها لتوجيه الرأى العام نحو اتجاه معين.. فيرى «بوف ميرى» مؤسس صحيفة «لوموند» الفرنسية «أنها توفر للقارىء العناصر التى تمكنه من الحكم على الأمور والوصول إلى فكر معين»، وعلى مدار القرن العشرين تحولت دور الصحف إلى مراكز قوى لها يد طولى فى تغيير كثير من الأحداث. فظهرت التكتلات الصحفية الضخمة التى يملكها شخص واحد يسيطر على كل ما يقرأه ملايين من البشر وبالتالى توجيه الرأى العام نحو ما يرتضيه من قضية بعينها



مثل «روبرت مردوخ» ملك الصحافة الاسترالى الذى يملك «التايمز» و«صنداى تايمز» و«صن» ، وروبيرت ماكسويل صاحب الصحف الشعبية «الديلى ميل» وهو يهودى من أصل تشيكوسلوفاكى ومعروف بمحاباته لإسرائيل . وفى فرنسا روبير هيرسان الذى يمتلك «الفيجارو» و«فرانس سنوار» و«الأورور» فضلا عن حوالى اثنتى عشرة صحيفة إقليمية وعشرات المجلات المتخصصة . وأبرز دليل على مدى قوة الصحافة خلال القرن الماضى نجاح جريدة «الواشنطون بوست» فى إسقاط الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون فى أغسطس عام ١٩٧٤ بعد نشرها سلسلة من التحقيقات التى كشفت عن تورطه فى فضيحة «ووترجيت» والتى نالت عنها الجريدة جائزة بوليتزر الصحفية.

كما شهد القرن الماضى ظهور أشكال جديدة من الصحافة مثل الصحف المتخصصة كالصحف الرياضية والفنية والسياسية ، ومثل صحف الإثارة التى حققت شعبية عالية بين القراء ويطلق عليها صحف «التابلويد» ذات الحجم النصفى وتهتم بنشر الصور الفوتوغرافية المثيرة وأخبار الحوادث الغريبة وأخبار الفضائح مثل «الديلى ميرور» و«الديلى إكسبريس» و«الديلى ميل» فى بريطانيا ، و«ذى نيويورك ديلى نيوز» فى الولايات المتحدة الأمريكية. وواجهت صحافة التابلويد اتهامات بدخول غرف النوم وهتك الأعراض والنبش فى حياة المشاهير واختلاق قصص الفضائح لاغراء القراء بشرائها وزيادة أرقام التوزيع.

ولعل الأميرة «ديانا» أشهر من كتبت عنها صحف الإثارة منذ بدء مراسم زواجها من الأمير «تشارلز» ولى عهد بريطانيا فى عام ١٩٨١ حتى لقيت حتفها مع عماد الفايد فى حادث سيارة بباريس فى ٣٠ أغسطس ١٩٩٧ وهى تحاول الفرار من مطاردة المصورين الصحفيين لها.

وتلاحقت عملية التغيير على شكل الصحف وإخراجها وأسلوب كتابتها .. فظهرت الصور الصحفية المرافقة للموضوع وتخلى الصحفيون عن أساليب المط والإطناب فى كتاباتهم واتجهوا إلى الأسلوب الموجز أو ما يطلق عليه «السهل الممتنع». كما استخدمت الصحف الأقمار الصناعية فى نقل الصفحات الملونة إلى أماكن طبع أخرى مما مكنها من طباعة الصحف فى أماكن متفرقة فى العالم وبالتالى قراءتها فى يوم إصدارها نفسه.

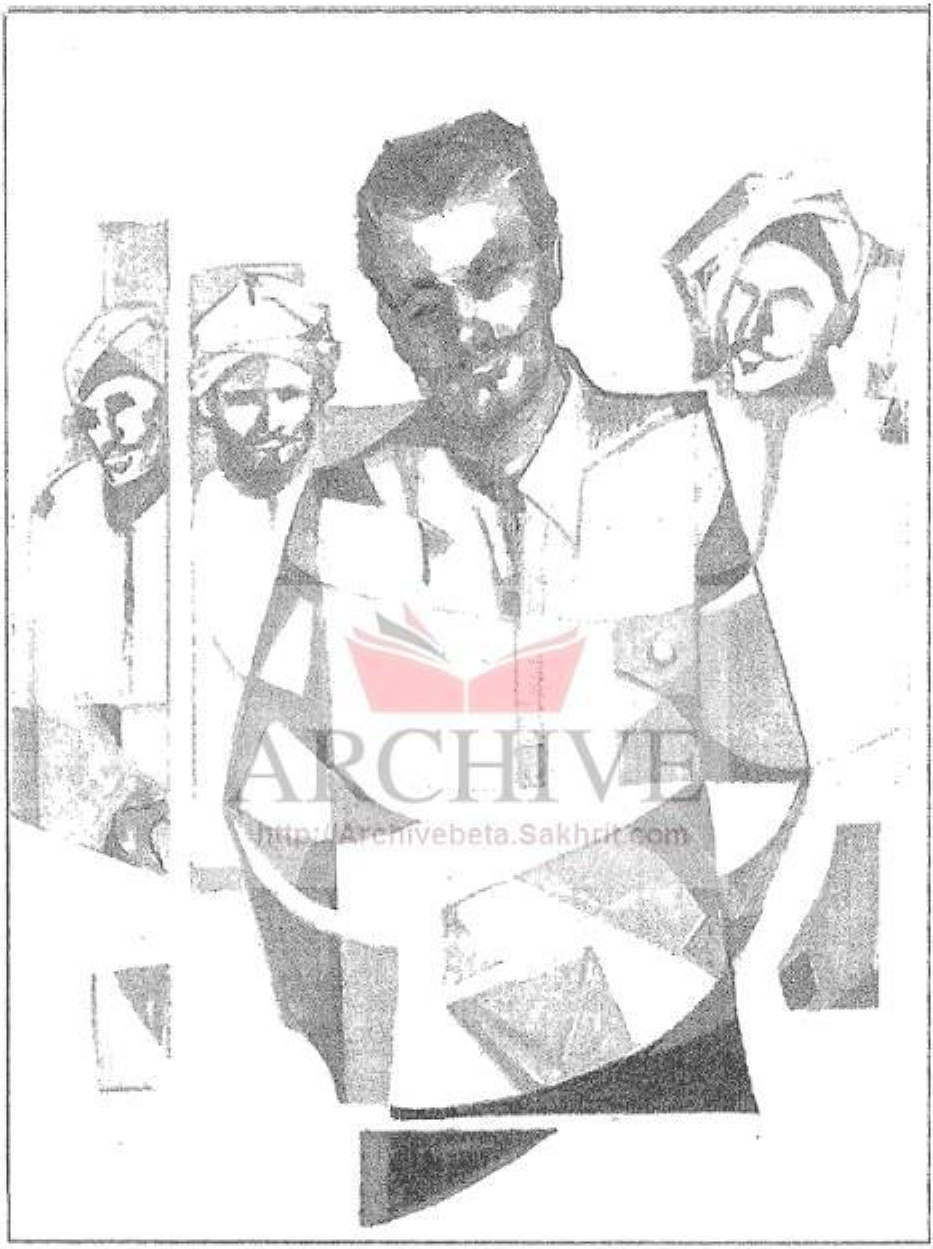


قصة قصيرة

بقلم : مختار العطار

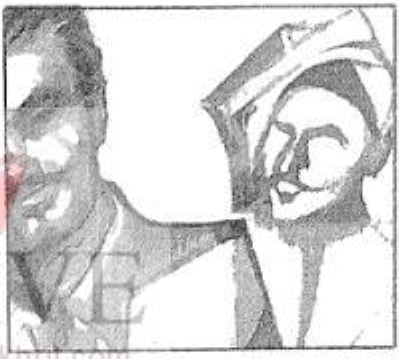
رسوم : سميحة حسنين

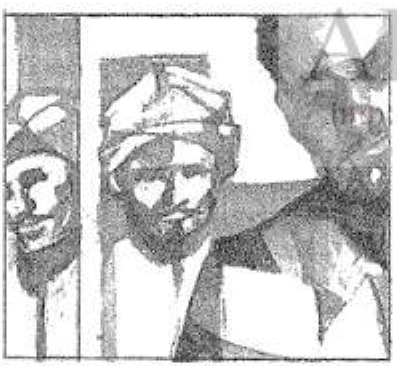
زمـــان .. فى مطلع الخمسينيات من القرن الماضى كنت أعيش فى قرية صغيرة ، تربض فى حضن هضبة الأهرام بالجيزة . إذا سعيت صاعدا الهضبة وأدرت ظهرك الى أهرام خوفو العظيم واستراحة الملك السابق فاروق ، انحدر عند قدميك سفح الهضبة عميقا مئات الأمتار حتى ينتهى عند بيوت القرية التي كانت قليلة فى ذاك الزمان ، تحوطها الحقول الخضراء على مدد الشوف . لم تكن فى مصر معاهد للسياحة



والفندقة تخرج مرشدين يقودون السياح الوافدين من أركان الأرض الأربعة يتحدثون بعدة لغات . كان التراجمة «جمع ترجمان» يقومون بهذا الدور الحيوى ويتمركزون فى قرية «نزلة السمان» لقربها من الأهرامات وأبى الهول . كانوا ينتمون الى قبائل بدوية استقرت فى القرية من زمن بعيد . لهم شيخ كشيوخ الصنعة القدامى يحكم فيما بين جمهرة التراجمة ويوزع الأعمال فيما بينهم . كنت أسكن فى بيت صغير يشبه الفيللا يملكه شيخ التراجمة . وفى ظهر أحد الأيام وأنا عائد كالعادة من دار النشر التي كنت أعمل بها ، فوجئت بأهل القرية وكأن بهم مساً من الكهرباء، فقد قتل شيخ التراجمة برصاصة أطلقها عليه ابن أخيه فى رائعة النهار على شط ترعة المنصورية التى تمر جنوب القرية ، وتقطع شارع الهرم لتستمر الى مابعد قرية كرداسة التى يشتهر أهلها بصنع الملابس النسائية ذات الزخارف الشعبية التي تستهوى السائحات .

لم يستطع أحد الإمساك بالقاتل لأنه أسرع الى قسم البوليس القريب فاحتمى به ولم يتمكن المطاردون المتجمهرون أمام القسم من اقتحامه والانتقام . لم تكن هناك أية أصوات أو ولولة تنبعث من بيت القتيل الذي تطل نوافذه المغلقة على حديقة بيتى . كان الصمت يخيم علي القرية كلها ويسودها جو من التوقع والخوف والحزن . طرق بابى بعد ساعة صديقى وأستاذي السابق الذى كان يسكن جاري : عبدالسلام الشريف ، وطلب منى السير معه خلف نعش الضحية . كنا نفرأ قليلاً نهرول فى صمت مهيب ،





بينما يحمل الرجال النعش المكشوف الذي يضم القتيل بنفس الملابس التي كان يرتديها ساعة وقوع الجريمة . فى آخر القرية بلغنا المدافن وبها قبر مفتوح مستعد لاستقبال الجثة . كنا بضعة عشر رجلا يتقدمنا ولدا الشيخ الراحل ، ترتسم على وجهيهما أمارات الحزن الممزوج بالغضب . أوصانى أستاذى الذي كان يعيش قبلي فى هذه القرية أن أشد على يد الابن الاكبر بعد أن يوارى والده التراب ، وأن أقول له : «شد حيلك» ، وحذرنى من قول «البقية فى حياتك» ، لأن العبارة الأولي تعنى الدعاء له بالتوفيق فى الأخذ بالثأر والانتقام ، ثم انصرفنا كأن شيئا لم يكن .

مرت شهور بعد تلك الحادثة دون أن يتحدث أحد فى الموضوع ، أو يذكره بخير أو شر حتي نسيناه . كان الشيخ القتيل يعاملنى كأننى ابنه. كثيرا ماكان يطرق باب حديقتي ويدخل ومن خلفه فتاة صغيرة تحمل على رأسها مشنة بها أطايب الطعام الريفى من خبز طازج وجبن ولحم وما الى ذلك من خيرات الله . كنت أعزب وكان يحمل اليّ الهدايا بين حين وآخر . ويجلس معى قليلا ثم يمضى ليعيد الكرة بعد شهر أو اثنين وكان ولداه فى العشرينيات من العمر يعاملونني باحترام كبير. ويقرءون اسمى فى الصحف والمجلات التى أكتب فيها ، ويشعرون أن سكناى فى ديارهم شرف كبير .. كنت ابادلهم احتراما باحترام ولم يروا منى ما يشين طوال السنوات الثلاث التى قضيتها فى رحابهم. ذات مساء بعد الحادثة بعامين تقريبا جاءنى خادمهم الصغير

الذي كان يخدمني في نفس الوقت ، قال لي إن أبناء الشيخ الراحل يدعونني الى بيتهم فانطلقت اليهم وكان الوقت مساء . كانت أول مرة أدخل فيها منزلهم . قابلني عبده الابن الأكبر وكان في الخامسة والعشرين تقريبا في مثل سني قادني الى غرفة ما كاد يفتح بابها حتى ألفيتني أمام منضدة طويلة على رأسها شيخ بدوي في الخمسينيات من العمر علمت فيما بعد أنه شقيق القتيل . عن يمينه يجلس ولدا الشيخ الراحل وعن يساره شابان آخران ، علمت فيما بعد أنهما ولداه . أجلسوني على الرأس الثاني المائدة التي كانت عليها صينية كبيرة بها تل من الأرز المخلوط بالخضر والمكسرات ثم خروف صغير مشوي مقسم الى عدة أجزاء ، ثم صحون فارغة امام كل من الجالسين .



كان الجميع متجهمين جادين صامتين صارمين، لكنهم رحبوا بي ترحيبا كبيرا . وبعد أن استقر المقام ورددت التحية بأحسن منها صمتوا جميعا، وبدأ الشيخ في الكلام من الطرف الآخر من المائدة قائلا : «لنقرأ الفاتحة على أن ما يحدث في هذه الغرفة الآن وما يجري فيها من حديث لا يخرج من بابها بعد أن تنصرف من هناه . قرأنا الفاتحة وأنا أحس بشعر رأسي يتململ وأن جيوشا من النمل تسري في عروقي. شيء يشبه تيار الكهرباء . شعرت ليلتها إنني في موقف خطير أقامر فيه بحياتي، فمثل هؤلاء القوم لهم اصابع تمتد سريعا الى زناد المسدسات والبنادق. فلو خرج الحديث من باب الغرفة من أحد غيري، فمن المحتمل أن يخطئوا التقدير فألحق بقتيلهم

الذي مضى دون رجعة .

قال العم موجهاً حديثه الىّ عبر المائدة وعلى مسمع من الجميع : هل يصح ياسيدنا البيه أن يذهب عبده دون علمي الى عصابة من الأشقياء في الفيوم ، ويتفق مع زعيمها على مهاجمة قريتنا ليلا وكأنهم لصوص يطلقون النار هنا وهناك للتمويه على عدة بيوت وبينها بيتك الذي تسكنه، ثم ينتهزون الفرصة أثناء الهرج والمرج ويتسللون الى أهل القاتل فيأخذون بالثأر من احدهم ؟.

انتهى الشيخ من كلامه ورنا الصمت على الجميع وطأطأ عبده رأسه معترفا بالذنب ، أما الباقون فحولوا انظارهم الىّ ينتظرون مني الرأى والمشورة. مرت لحظات كأنها دهر وأنا لا أكاد أعي بالضبط كلمات الرجل الكبير فقد كنت مشغولا بكيفية التخلص من هذا المأزق .

أدركت ليلتها احساس اليأس والاستسلام الذي درسناه في علم النفس ، ذلك الاحساس الذي يشعر به الفأر الذي وقع في الفخ فقام بعدة محاولات سريعة للخروج بعد أن انصفق باب المصيدة . إنه ينزوى في أحد الأركان ويقبع في سكون تام ينتظر القدر المحتوم . أتذكر الآن الكلمات التي خرجت من فمي وكأنني أردد شيئا محفوظا . أوقعت اللوم كله على الابن الأكبر : عبده . كان ينبغي أن يستشير العم صاحب الولاية والمشيخة بعد رحيل الوالد رحمه الله ، ويتحتم على عبده أن يقبل رأس العم وأن يستغفره ويعترف بخطئه ويعد بالا يتكرر . لم يتردد عبده في التنفيذ فهب يقبل رأس عمه واقتلت كلمات الاعتذار علي شفتيه وطفرت الدموع من عينيه، فربت عمه على كتفيه ثم شمر عن ساعديه وقام الى الخروف المشوى ليتناول قطعة كبيرة يضعها في طبقي ويذكر أن البيت بيتى وأن الراحل كان يعتبرني ثالث أبنائه ويتحدث عني بالخير . وبدأ كل منا في وضع مخلوط الأرز والخضر والمكسرات في طبقه ، وشرعنا نأكل ونحن نتبادل أحاديث لا أذكر منها حرفاً واحداً . فقد كنت مهموما برهبة الموقف وأعمل الفكر في التعجيل بإخلاء بيتى ومغادرة القرية بأكملها والابتعاد عن احراش التقاليد البدوية التي قد يخرج من مجاهلها ما لا تحمد عقباه .

انقضى عامان بعد تلك الليلة لم يحدث فيهما ما يعكر صفو الحياة في القرية ، حتى تركت الجمل بما حمل لأسكن بيتاً في قلب القاهرة ، ولم أعد أعيش وحيدا بعد أن تزوجت وتغير نمط حياتي . ■

شخصية العدد

محمد طلعت حرب وخلفيته الثقافية

بقلم : طارق البشرى

عندما نقرأ فى كتب الاعلام والقواميس والموسوعات عن طلعت حرب، نعرف انه «زعيم مصر الاقتصادى» كما ورد فى «الأعلام» للزركلى، أو أنه «رائد نهضة مصر الاقتصادية والصناعية» كما ورد فى موسوعة أعلام مصر فى القرن العشرين، ثم نعرف طبعا أنه هو الذى أنشأ بنك مصر، وما أدرانا ما بنك مصر فى حياة مصر الاقتصادية على مدى النصف الأوسط من القرن العشرين، من العشرينات الى السبعينات

وهو المؤسسة التي نقلت مصر عبر العشرينات والثلاثينات والاربعينات، نقلتها من الاقتصاد الفردي الي الاقتصاد الذي تديره شركات المساهمة، ومن المشروعات الاقتصادية التي يبنيها الأجانب ويديرونها الي المشروعات المثيلة التي يملكها الوطنيون ويديرونها ويوجهونها وجه الصالح الوطني المصري العام. ومن الورش الصناعية الصغيرة الي مثل مصانع المحلة الكبري للغزل والنسيج، التي تشغل مدينة بكاملها. ومن المشروعات المعزول كل منها الي المشروعات المتكاملة افقيا ورأسيا .


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رجل كهذا، عندما نفتش عن تاريخه العملي، فلابد أن نتوقع أن نجده بين رجال الاعمال الاقحاح، بين عمليات البيع والشراء وحركات التأسيس والبناء وميزانيات الشركات بما تثبت من ارباح وخسائر. وهو كان كذلك ، فضلا عن تكوينه الاداري والاقتصادي . وعندما ننقب عن تشكله الثقافي، فلابد أن نتوقع أن نجده في مجال الاقتصاد وادارة الأعمال. ولكننا هنا لا نجده كذلك بالضبط، أو لا تجده مقصور الاهتمام والانتاج بهذا المجال فيما كتب من كتب .

اسمه «محمد طلعت» ، ابن حسن محمد حرب. ولد في ١٨٦٧ بقصر الشوق في حي الجمالية، وتوفي في ١٩٤١. وكان ابوه من موظفي مصلحة السكة الحديد، وأصله من ميت ابو علي من محافظة الشرقية. وهو فيما يقول الزركلي له وجه نسب بقبائل حرب التي تقطن في الحجاز بين الحرمين الشريفين. واهتمامه بهذا الأصل أمر ينبغي وضعه في الاعتبار باعتباره من مكوناته الثقافية الواعية. كما ان اشتغال أبيه في مصلحة السكة الحديد، امر يجب الاعتبار به أيضا، لأن السكة الحديد في ذلك الوقت المبكر في سبعينات القرن التاسع عشر، كانت من المشروعات الحديثة في مصر من حيث الآلة المتحركة ومن حيث الادارة الحديثة .

خبرة أدارة المشروعات

تخرج طلعت حرب في مدرسة الحقوق الخديوية سنة ١٨٨٩، واشتغل بقلم القضايا «بالدائرة السنية» وهي الجهة التي كانت تدير الأملاك الخديوية الخاصة، وهي أملاك شاسعة من الأراضي الزراعية وغيرها ، وكان يتبعها من الأراضي الزراعية في ١٨٨٠ نحو ٥٠٠ ألف فدان فضلا عن العقارات الأخرى، ثم خلف محمد فريد في ادارة اقلام القضايا بالدائرة. ثم انتقل مديراً للمركز الرئيسي بالقاهرة لشركة وادي كوم امبو، وكانت تملك عشرات الآلاف من الافدنة في بداية القرن العشرين. ثم جمع بين ذلك وبين ادارة شركة التعاون المالي، ثم أدار الشركة العقارية المصرية التي أنشأها سوارس ورولو وقطاوي ومنشة وغيرهم، كما أدار دائرة محمد سلطان باشا لما ورثها عمر سلطان .

كان هذا هو بعض النشاط «المهني» الذي مارسه طلعت حرب خلال المدة من





قاسم امين



محمد فريد

تخرجه فى ١٨٨٩ حتى الحرب العالمية الأولى (نحو سنة ١٩١٤)، أى خلال ربع قرن. وهى خبرة ادارة مشروعات اقتصادية يتخذ بعضها شكلا حديثا مثل شركات المساهمة، وهى تعتمد على مايسمى بنظم الادارة غير الشخصية (أو البيروقراطية الحديثة) التى عرفتها النظم الغربية وتبلورت على مدى القرن التاسع عشر. وهى خبرة مرن عليها وتلقاها فى صورها العملية من مجموعة من المديرين الأجانب الذين وجدوا فى ذلك الوقت بالدائرة السنية، كما تلقاها من مؤسسى وأصحاب ومديرى الشركات التى أدارها مثل كوم امبو والشركة العقارية، وأن أصحاب الشركة العقارية (المسمين من قبل) كان أهمهم من مؤسسى البنك الأهلى المصرى فى ١٨٩٨، بما يشير الى نوع الخبرات الفنية التى انتقلت اليه فى ذلك الوقت عن البنوك وأعمالها، ومن هؤلاء سوارس ورولو .. الخ .

هذا من ناحية الاشارة الى التأهل المهنى فى ادارة المشروعات الاقتصادية واعمال البنوك. أما من ناحية الثقافة العامة المكونة لطلعت حرب، فهذا ما نلحظه فى الكتب التى ألفها، فى المرحلة الأولى من عمره، مرحلة ما قبل انشاء بنك مصر، وهى مايعنينا فى هذا الحديث.

الاهتمام بتاريخ العرب والاسلام

إن أول ماعرفنا من كتبه هو كتاب «تاريخ دول العرب والاسلام» ، صدرت طبعته الأولى فى ١٨٩٧ (١٣١٥ هجرية)، وصدرت الطبعة الثانية له فى ١٩٠٥ (١٣٢٣ هـ) صدرت مزيدة ومنقحة، بما يعنى انه ظل موصول الاهتمام بهذا الموضوع. ولكن ما صدر من الكتاب هو الجزء الأول فقط من بين أربعة أجزاء كان يزمع اتمام الموضوع بها. والجزء الأول الذى صدر هو عن تاريخ العرب من قبل الاسلام الى عصر الخلفاء الراشدين.

والثاني كان يزمع تخصيصه عن المرحلة من دولة الخلفاء الراشدين الى سقوط بغداد، والثالث عن الدول التى انشقت من دولة بنى العباس ودول الاسلام فى الأندلس، والرابع عن تاريخ الدولة العثمانية .

وأشار فى مقدمة الطبعة الأولى للجزء الأول الوحيد الذى صدر، الى مايراه من أهمية فى كتابة التاريخ للنهوض بالأمم، وأكد مدى الاحتياج لهذه الكتب من الناشئة مما ألجأه الى إعادة طبع هذا الجزء، وارفق بمقدمته نص خطاب وجهه الى الشاعر حفنى ناصف يستحثه فيه على اكمال كتابه، اما الكتاب ذاته فهو يتكلم عن عرب ما قبل الاسلام من حيث انسابهم ونظمهم الاجتماعية وحروبهم وأنشطتهم، ثم يتكلم عن «العرب البائدة» مثل قوم عاد وثمود، ثم عن «العرب الباقية» ومنهم العرب المتعربة الذين وجدوا فى اليمن فى الأساس، ثم العرب المستعربة الذين انحدروا من اسماعيل عليه السلام وبنى جرهم . ثم خص الثلث الاخير من الكتاب لوقائع البعثة المحمدية بالاسلام، منذ ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وفاته، وتكلم عن اعجاز القرآن وأوضاع الدين الاسلامى وانتشار الاسلام السريع. (الكتاب فى نحو ٢٨٠ صفحة من القطع الصغير) .

تربية المرأة والحجاب

أما كتابه الثانى، فقد أصدره فى ١٨٩٩ (١٣١٧ هـ)، وهو بعنوان «تربية المرأة والحجاب»، كتبه ردا على كتاب تحرير المرأة الذى أصدره قاسم أمين فى السنة ذاتها. والكتاب ينتقد رأى قاسم أمين فيما يدعو اليه من رفع الحجاب ووجوب الاختلاط. ويذكر طلعت حرب أن كتاب «تحرير المرأة» عندما صدر انقسم الناس حزبين بشأنه، حزب يرى رأى المؤلف وهم قلائل يعدون على الأصابع» والحزب الآخر «وهو الأعظم عددا» اجمع على استهجان ماورد بالكتاب، ولكن طلعت حرب يجمع الحزبين فى مسلمة واحدة بقوله «الحمد لله إن الدين لا يمنع مطلقا من تعليم المرأة وتربيتها وتهذيبها بل هو يحض على ذلك».

دافع طلعت حرب عن الحجاب، وأوغل فى الدفاع عنه، بادئا بمأثورات تنسب الى السيدة فاطمة الزهراء والامام على وإلى الحسن بن على. وتكلم عن التربية



ووجوبها. وقسمها أنواعا ثلاثة، الأولى تربية البيت، والثانية تربية الموافقة لاحوال الأمة وطريقة ادارتها والاصول الحسنة التي تجرى في الأوطان، عسكرية كانت أو تجارية أو زراعية، فاذا كان طبيعة البلد عسكرية وجب تربية الذكور على ذلك وتربية البنات على محبة الشجاعة والشجعان ليشجعن الأبناء على ذلك، والنوع الثالث هو التعليم وهو بالنسبة للمرأة، يفيدها في شئونها التي تنشط فيها بالنسبة لبيتها وأولادها. وهو يستحسن أن يكون الحجاب شاملا فلا يظهر الا العينين.

وأيا ما كانت وجوه اختلاف الرأى مع ما أثبته طلعت حرب في هذا الشأن بالنسبة لحجاب المرأة، فان مما يلفت النظر في موقفه هو ما أثبته في مقدمة الكتاب من ربط بين هذا الموقف وبين المناخ السياسى العام، اذ يقول «أخذنا نسأل ونتساءل ونبحث ونتناظر حتى علمنا أن معظم هياج الرأى العام على حضرة المؤلف (قاسم أمين) مما هو راسخ في أذهانهم من أن رفع الحجاب والاختلاط كليهما أمنية تتمناها أوربا من قديم الزمان لغاية في النفس يدركها كل من وقف على مقاصد أوربا بالعالم الاسلامى...» «واستشهد في ذلك بمقال ورد في الصحف وقتها وفيه أن الاوربيين مثلا «يعلمون حق العلم انه لم يبق حائل يحول دون هدم المجتمع الاسلامى - في المشرق لا في مصر وحدها - الا أن يطرأ على المرأة المسلمة التحويل بل الفساد الذى عم الرجال في المشرق».

وينقل عن ذات المصدر أيضا أن الأوربيين دائبون عاملون على التنفير من حالة المرأة المسلمة وماهى عليه من الشقاء لتقوى كلمتهم فيتداخلون يوما ما بالقوة باسم المروءة ليحملوا دول الاسلام على تغيير حالة المرأة، فيتم لهم الغرض الخفى الكامن في نفوسهم، كما تداخلوا من قبل باسم الانسانية والعهد ليس ببعيد في مسألة الرق».

فهو يريد أن يقول إن الغرب باسم محاربة الرق استعمر بلادا، وانه اليوم باسم تحرير المرأة يريد ان يستعمر بلادا أخرى، ويتدخل بالقوة في شئونها.. ومن هنا نلحظ موقفا سياسيا لطلعت حرب ضد الاستعمار الغربى، كما نلحظ فهما منه للتوظيف السياسى للثقافة وللعلاقات الاجتماعية، الذى يتبعه الغرب لتحقيق أطماعه في بلادنا، والتوسل بالشعارات النبيلة لتحقيق أهدافه غير النبيلة.

ولذلك فإن طلعت حرب الذى دافع في كتابه هذا عن حجاب المرأة واستحسن قصر نشاطها على شئون البيت والأبناء، قد انفتحت بعد ذلك مشروعاته الاقتصادية الوطنية لعمل المرأة بكثافة نسبية واضحة، وذلك من العشرينات وما بعدها.

رد على قاسم أمين

ثم يرد الكتاب الثاني لطلعت حرب في ذات الموضوع وهو كتاب «فصل الخطاب في المرأة والحجاب» أصدره في سنة ١٩٠١ (١٣١٩ هـ). وجاء هذا الكتاب أيضا ردا على الكتاب الثاني لقاسم أمين «المرأة الجديدة» . وركز في هذا الكتاب على أقوال الشيخ محمد عبده عن المرأة ودورها، وعلى ردود السيد رشيد رضا في مجلة المنار على كتاب قاسم أمين، كما أشار الى آراء سابقة لقاسم أمين عن المرأة تغاير ما تبناه في كتابيه وتسبقهما، لا في الرأى الذى ساقه بقدر ما هو في تصوير وضع المرأة المصرية، وكانت صورة المرأة لدى قاسم أمين في كتاباته السابقة هذه التى نشرها في ١٨٩٤ ردا على ما كتبه اللورد داركور، كانت أحسن من صورتها في كتابي قاسم أمين نفسه اللاحقين .

اعجبني من مقدمة طلعت حرب لكتابه الثاني هذا، قوله إن أحد من تصدوا بالتأييد لقاسم أمين أسماه «لوثر الشرق»، وعلق طلعت حرب على هذه التسمية بقوله: «ان لو كان عند كاتبها اطلاع على أن من رجال الدين الاسلامى من قام يدفع الخرافات الدخيلة مثل ابن تيمية أو الغزالي، لانتحل واحدا من هذه الاسماء بدلا من اسم «لوثر» ، ومن هنا تظهر فراسة طلعت حرب الثقافية، كما يظهر ذلك من مؤلفاته هذه، أيا كان الرأى في موضوع المرأة ذاته، إن طلعت حرب كان صاحب تكوين استقلالى متكامل، وتبلورت شخصيته العامة على هذا التكوين الاستقلالى المتكامل، بجوانبه السياسية الاجتماعية الثقافية، وهو يرتكز في بدايته على التكوين الاستقلالى الثقافى الذى ظهر في هذه الكتابات، ثم تتركز نهاياته في التشكل الاستقلالى في مجال الاقتصاد .

ينتقل طلعت حرب في ١٩١٠ (١٣٢٨ هـ) الى كتاب آخر هو «قناة السويس» كانت شركة قناة السويس قدمت للحكومة مشروعا لمد امتياز الشركة على القناة أربعين سنة بعد انتهاء مدة امتيازها في ١٩٦٨، فيصير انتهاء الامتياز في ٢٠٠٨. وكشف محمد فريد زعيم الحزب الوطنى وقتها عن وقائع هذا الاقتراح وعن ميل الحكومة الى قبوله، وذلك في صحيفة اللواء، وانتبه الرأى العام المصرى الوطنى لهذا الأمر، واشتد الجدل





محمد سعيد باشا



محمد رشيد رضا

حوله، وتصاعد السخط على الحكومة حتى أن تقبل المشروع، واغتيل بطرس باشا غــالى رئيس الوزراء على يد وطنى مصرى، وشكل محمد سعيد باشا الوزارة واضطر الى طرح المشـروع على هيئـة الجمعية العمومية - التشكيل النيابى شبه البـرلمانى - مع وعد بأن تلتـزم الحكومـة بتنفيذ ما تقرره الجمعية من الرفض أو القبـول، ورغم أن قراراتها فى الأساس قرارات استشارية إلا أن الحكومة ألزمت نفسها بما ستقرره الجمعية.. وانتهت الجمعية الى رفض المشروع، ببيان كان آية فى الدقـة والموضـوعيـة والدراسـة المستقبلية الناضجة، فضلا عن كونه كان آية فى الوطنية .

دراسة واقعية حول قناة السويس

فى هذا السـياق أعد طلعت كـتـابه «قناة السويس» ونشره فى فبراير من هذه السنة، تكلم فى البداية عن فكرة توصيل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر عبر التاريخ، ، وبخاصة منذ محمد على، وموقف الانجليز والفرنسيين من ذلك وموقف محـمـد على، ثم وقائع تأسيس شركة القناة فى سنة ١٨٥٨، ثم تكلم عن وقـائع تنفـيـذ المشـروع منذ تأسـسـت الشركة، حتى كمل المشروع وحفرت القناة وتهيـأت للافـتـتـاح فى ١٨٦٩. كان قد مضى على هذه الوقائع أربعين سنة فلم تعد تفاصيلها عالقة فى ذاكرة الجيل الذى عرض عليه اقتراح مد الامتياز. ثم تحدث فى الباب الثانى عن حالة الشركة فى دور الاستغلال وما لقيت من صعوبات مالية فى البداية، واضطرار مصر لبيع اسهمها فى الشركة الى انجلترا، واضطرارها الى بيع حصتها فى الارباح أيضا بحيث لم يعد لها من أمر المشروع فائدة، واحتلال انجلتــرا لمصــر وللقناة فى ١٨٨٢، والمؤتمرات التى عـقـدت بين الدول ذات المصـالح والمعـاهدات التى أبرمت، سـواء

في ١٨٨٥ او في ١٨٨٨ . وعرض للحالة الحاضرة في ١٩١٠ للقناة، من حيث ايراداتها ومصروفاتها وديونها وماتساويه القناة، وماخسرته مصر من القناة ومن بيع اسهمها وحصتها في الارباح .

ثم أفرد الباب الثالث والأخير لنوع من دراسات الجدوى الاقتصادية للمشروع المقدم، باقتراح مد أجل امتياز الشركة أربعين سنة أخرى، وكانت الشركة تغرى حكومة مصر على قبول اقتراح المد عن طريق منحها حصة من الربح تتزايد كل عدد من السنوات حتى تصل الى نصف ربح الشركة في فترة المد. فعرض لاحتمالات زيادة دخل القناة وما يتوقع في ذلك، والاحتمالات الخاصة بمصروفات الشركة ، وما يتوقع بشأنها، وعرض للمحاذير الخاصة بالتوقع في هذا الشأن من حيث قيام طرق للتجارة بديلة لها أو منافسة لها، سواء كانت طرقا برية أو قناة بنما في أمريكا الجنوبية أو سكة حديد بغداد ، ووضع امكانات التقدير الرقمي لدخل الفترة ومجموع ما ستغنمه مصر من الاقتراح حتى تمام انتهاء فترة المد في ٢٠٠٨. ومجموع ما ستغنمه ان لم توافق على الاقتراح، وذلك عندما تؤول اليها القناة خالصة لها خلال السنوات الأربعين من انتهاء المدة الأصلية للامتياز في ١٩٦٨ وعلى السنوات الأربعين التالية.

وكان هذا الكتاب دراسة واقعية تطبيقية واقتصادية طريفة وجديدة، فيما يبدو لي، بالنظر الى الفكر المتداول في ذلك الوقت ، بطابعه الانشائي وأسلوبه الخطابي وعدم اعتنائه بالتفاصيل وتجربته عن الأرقام والتقديرات الرقمية. كان الكتاب فكرا جديرا بأن يهيىء صاحبه لأن يكون رائداً في بناء المشروعات الاقتصادية التي تقوم بها نهضة معاصرة في بلده. ويبدو لي أن الطابع العلمي الموضوعي المستقبلي الذي انصبغ به بيان الجمعية العمومية في رفضها هذا المشروع، كان مستفيدا من عروض طلعت حرب في هذا الشأن ، ومن أطروحات من هم على شاكلته .

في سنة ١٩١١ عقد ما اسمي «المؤتمر المصري الأول»، الذي ناقش الوضع الطائفي في مصر، ثم انتقل سريعا الى عرض ما رآه أعضاؤه من مشروعات للنهوض الاجتماعي



والاقتصادى لمصر، وكان من أهم المؤتمرات الأهلية التى عقدت فى مصر فى هذا القرن العشرين، فيما يبدو لى. وكان هو ما رسم اطار المشروع النهضوى الاجتماعى والاقتصادى لمصر على مدى السنوات الخمسين التالية، وتحقق منه ما هيأ مصر لنقلة نهضوية أخرى فى النصف الثانى من القرن ذاته.

لم يحضر طلعت حرب هذا المؤتمر، رغم انه هو المؤتمر الذى ولد فيه مشروع البنك الوطنى المصرى ولادته الشرعية من «الأمة المصرية» .. كانت مصر خارجة من أزمة مالية طحنت الكثير من ثرواتها فى ١٩٠٧ ، وكان البنك الأهلى الذى يقوم بوظائف البنك المركزى بنكا انجليزيا، والبنوك الأخرى كلها أجنبية ، والثروات المصرية مرتهنة فى هذه البنوك أو مهددة منها. واقترح الأعضاء أن يشترى الأهالى الديون التى على حكومتهم للمقرضين الأجانب، وانشاء نقابات التعاون الزراعى (جمعيات تعاونية) وانشاء مستودعات التأمين (شركات تأمين) مع تشجيع الصناعة وحمايتها وتأسيس الشركات. ولكن المطلب الذى حكم غيره من المطالب وترأسها جميعا وتوفر له اجماع الحاضرين، هو مطلب انشاء مصرف وطنى مصرى برؤوس أموال مصرية كلها وتكون ادارته العليا مصرية كلها. وجد هذا القرار التصفيق الحاد المتكرر واقتراح الاكتتاب الفورى له، وتقديم الاموال العينية لضمان الودائع به .

كان طلعت حرب فى الخارج فى ذلك الوقت، وبعد عودته اصدر كتابا فى سنة ١٩١٣ (١٣٣١ هـ) بعنوان «علاج مصر الاقتصادى وانشاء بنك للمصريين» عرض فى هذا الكتاب الحالة الاقتصادية فى مصر منذ عهد الخديو اسماعيل ، مع عرض فكرة انشاء بنك مصرى بشكل اكثر تفصيلا ودراسة مما ثار فى المؤتمر.

والحال انه فى سنة ١٩١٤ انشئت لجنة للتجارة والصناعة، صارت بعد ذلك مصلحة ثم وزارة من وزارات الدولة، وكانت برئاسة اسماعيل صدقى، وفيها محمد طلعت حرب. وفى سنة ١٩١٦ أعد طلعت حرب ويوسف اصلان قطاوى تقريرا صدر باسم اللجنة، وهو تقرير اشتهر فى التاريخ الاقتصادى لمصر، لما رسمه من طريق للنهوض الاقتصادى .

ولكن، هنا نكون دخلنا فى تاريخ بنك مصر وطلعت حرب رجل الاقتصاد والأعمال، وهو ما يجاوز الحدود المرسومة لهذا المقال .

الاستقلال الكامل للوطن

الخلاصة التى أريد أن اشير اليها، فى معرض بيان الاسس الثقافية لطلعت حرب ومنهجه فى النظر الى الأمور. فهو كما سبقت الاشارة قد تبلورت رؤيته وتفكيره ودوافعه فى العمل العام، تبلورت على أساس الموقف الاستقلالى الوطنى المتكامل، وهو موقف يبدأ بالتشكل

الثقافى على أساس من العقيدة ومن التاريخ الحضارى العام، وهو موقف يضم الجانب السياسى الى الجوانب الاجتماعية والاقتصادية الى الجوانب الثقافية الحضارية والعقيدية التى تحدد الهوية الذاتية، ويضم الى ذلك خبرة النشاط العملى فى مجال اعمال المال والادارة.

وبكامل هذا التشكل اختار مجال الاقتصاد وادارة الاعمال ليبذل فيه نشاطه الوطنى خدمة لبلده وجماعته. فهو لم يكن مجرد تاجر يريد الربح المادى وحده واكتشف وجوه الربحية المادية فى تكوين البنوك الوطنية والشركات الصناعية، ولكنه بدأ بالنظر الوطنى الشامل ثم تخصص فى هذه الجوانب يبذل فيها جهوده لخدمة جماعته .

ولذلك، فاذا كان من حق سعد زغلول ومن بعده مصطفى النحاس ان يطلق على كل منهما فى عصره انه الزعيم السياسى للجماعة المصرية خلال فترة مابين ١٩١٩ و ١٩٥٢، كان من حق طلعت حرب ان يطلق عليه انه الزعيم الاقتصادى للجماعة المصرية فى ذات الفترة. والفارق هو فارق بين مجالين. مجال السياسة ومجال الاقتصاد. والفارق ايضا هو فارق مابين عموم مجال السياسة وخصوص مجال الاقتصاد. بمعنى ان ثمة زعامة عامة وثمة زعامة نوعية خاصة فى مجال أخص، وهنا نجد طلعت حرب.

ومما نستفيده من دروس طلعت حرب، انه مع زعامته لحركة التحرير الوطنى فى مجال الاقتصاد، لم يكن حزبيا ولم يكن منتميا الى حزب الوفد الذى كان يقود حركة التحرير السياسى فى حينه، ذلك أن لكل مجال رجاله. وان من المستحسن ان تتميز مجالات النشاط النوعية المختلفة بحيث يكاد يستقل كل مجال برجاله ونوع سياساته ومجالات نشاطه وأساليب حركته وأنماط تحالفاته، فليس من صالح مجال الاقتصاد الوطنى فى تنافسه مع قوى الاقتصاد الاجنبى أن يثقل كاهله بأعباء خصومات الساسة والسياسيين فى مجال التنافس على الحكم وقد تتداخل دوائر النشاط وتتقاطع، وقد تختلف وجوه النشاط وتتعارض فى بعض الأحايين. ولكن سيبقى مجال التغذية المتبادلة بين كل من





مصطفى النحاس



اسماعيل صدقى

هذه المجالات التى تتفق فى الوجهة والهدف العام .

ان محمد كامل البنا سكرتير مصطفى النحاس، يحكى فى المذكرات التى أعدها النحاس أنه لما وقع النحاس فى ضائقة مالية شديدة بسبب عداء حكومة اسماعيل صدقى فى بداية الثلاثينات وفوجئ بأن بنك مصر يخصص له قرضا يكفيه نفقاته كلها، وذلك بضمان شخصى، ولما قال النحاس إن ليس لديه ضمان يقدمه عن القرض، رد عليه طلعت أن الأمة استأمنتك على مصيرها، أفلا يستأمنك البنك على قرض بخمسة آلاف جنيه.

والخلاصة التى تظهر من مطالعة كتاب طلعت حرب هى ما يلى :

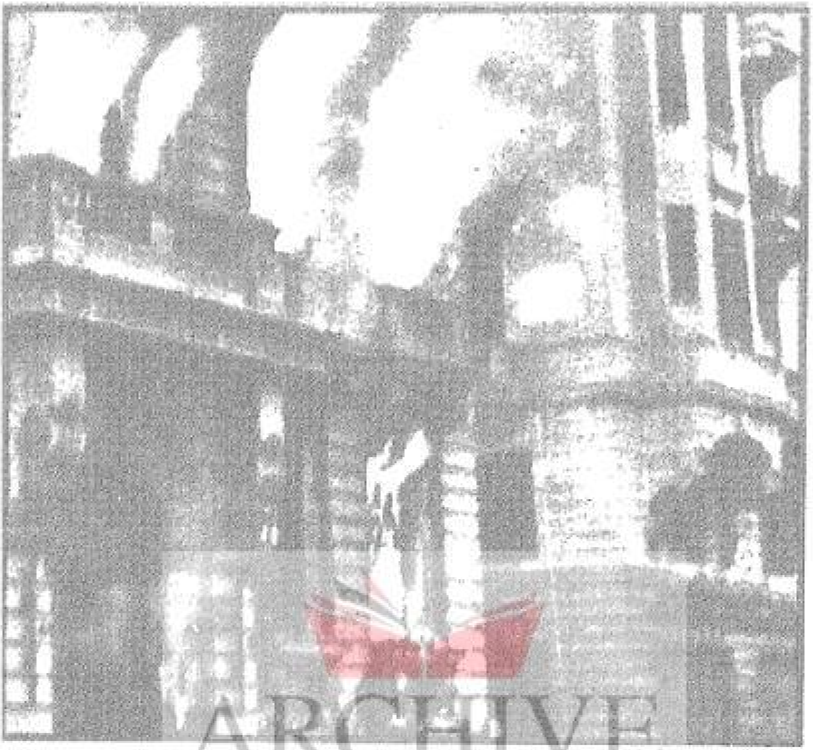
أ ـ إلمام عميق الأثر فى نفسه بالثقافة الاسلامية العربية، وموقف حضارى وانسانى منحاز اليها، وقد انعكس ذلك فى الشركات التى كونها، ومنها شركة للطباعة وشركة للسينما، ومسرح، وكذلك فى الطراز الاسلامى الفنى لمبانى البنك .

ب ـ لعل هذا الاثر العميق هو ما جعله سريع الانفتاح فى نشاطه الاقتصادى على البلاد العربية، سواء سوريا أو العراق أو السعودية أو السودان أو غيرها.

جـ ـ إلمام تاريخى وسياسى معاصر بطبيعة العلاقة الاستعمارية مع الغرب وموقف منحاز الى القضية الوطنية لمصر ولشعوب الشرق (كان يقصد بهذه العبارة وقتها البلاد العربية الشرقية) وموقف استقلالى متكامل يجمع بين شئون السياسة والمجتمع والاقتصاد والثقافة.

د ـ منهيج تاريخى فى بحث المشاكل الواقعية وتدقيق فى التفاصيل الموضوعية.

هـ ـ نظر الى المشاكل فى صورها التطبيقية والملموسة والتماس الحلول لها فى هذا الاطار .



حل لغز

حريق القاهرة

٢٦ يناير ٥٢

من الفاعـــل ؟!

الهلال يناير ٢٠٠١ بقلم : د. رءوف عباس

يوم السبت ٢٦ يناير ١٩٥٢ كان منذ صباحه الباكر يوما حزينا، فقد انفجر بركان الغضب فى صدور المصريين جميعا بسبب ما حدث بالإسماعيلية فى اليوم السابق (يوم الجمعة) عندما حاصرت قوات الجيش البريطانى محافظة الإسماعيلية وطالبت الشرطة المصرية بالاستسلام، فقاوم الجنود بقيادة ضباطهم الشبان حتى آخر طلقة ، فكانت مذبحة راح ضحيتها عدد من شهداء الشرطة، وأسر قادتهم من الضباط. باتت مصر ليلة الجمعة - السبت دون أن يغمض لها جفن، وكان من الطبيعى أن يشهد صباح السبت تعبيرا شعبيا عن هذا الغضب فى صورة مظاهرات شارك فيها جنود وصف ضباط بلوكات النظام (وهي فرق الطوارىء الشبيهة بما يسمى اليوم بالأمن المركزى) كما شارك فيها الطلبة والعمال ، وكان من الطبيعى أن تتجه هذه المظاهرات إلى موقع مجلس الوزراء والبرلمان وإلى ساحة عابدين تعبر عن سخطها على النظام ممثلا فى أركانه الأساسية.



فؤاد سراج الدين



الملك فاروق



مصطفى النحاس باشا

حريق القاهرة

من الفاعل ؟!

ومن الواضح أنه لم تكن هناك قيادة موحدة تحرك تلك المظاهرات على نحو ما حدث عام ١٩٤٦ عندما تولت «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» قيادة وتوجيه العمل الجماهيرى فى شكل جبهة وطنية لم يخرج عليها سوى «الإخوان المسلمون» فقد كانت مظاهرات «السبت الأسود» (كما سمته الصحافة المصرية) متعددة ومتفرقة، اتخذت طابعا سلميا، ورددت شعارات الاستنكار المعادية للاستعمار، والمطالبة بالاستقلال، والمعبرة عن السخط الموجه ضد أركان النظام. ووسط هذه المظاهرات السلمية التى شاركت فيها جماهير لا تحركها قيادة واحدة منظمة، كانت هناك مجموعة مجهولة الهوية، يرتدى أفرادها ملابس ذات لون موحد، قدر عددها فى مختلف الروايات بنحو الثلاثين فردا، انطلقت وسط القاهرة تضرم النار فى الملاهى والبارات والمحال التجارية والشركات المملوكة للأجانب دون تمييز. وأجمعت مختلف الشهادات أن فرقة اضرام النار على مستوى رفيع من التدريب وعلى درجة عالية من الاستعداد إذ كانت مجهزة بوسائل النقل التى تسهل حركتها وبالمواد الملتهبة (صفائح البنزين، مسحوق مساعد على الاشتعال، كرات من القماش، أدوات حديدية لكسر أبواب المحلات)، وهم يضرمون النار بأسلوب متقن لتندلع فى الهدف كله بصورة يصعب معها انقاذه، ثم ينتقلون بسرعة وخفة إلى هدف آخر. كما أنهم لم يتحركوا كفريق واحد، بل كانوا ينقسمون إلى مجموعات صغيرة لكل منها جدول أعمال محدد، ومهام معلومة.

اهتراء النظام القائم

وهكذا بدأت الحرائق ظهر السبت بكازينو الأوبرا، ثم امتدت لتشمل كل منطقة وسط البلد، حيث مركز التجارة والأعمال، وحيث يتركز نشاط الأجانب الاقتصادى والاجتماعى والثقافى، وكان من المنطقى أن تعجز فرق الإطفاء بالقاهرة بامكاناتها المتواضعة عن مواجهة هذا الحريق الشامل.

قيل فى بعض الروايات أن الجماهير مزقت خراطيم الحريق عندما حاولت فرقة المطافى» أطفاء حريق كازينو الأوبرا، وقيل بل جنود الشرطة هم الذين فعلوا ذلك، وسمع صاحب هذا المقال من عبدالفتاح حسن باشا مباشرة أن خراطيم المطافىء كانت مهترئة يتسرب منها الماء فلا يخرج منها إلا خيط رفيع من الماء يتساقط بين أقدام رجال الإطفاء فلا يصل إلى ألسنة اللهب، وأضاف الرجل «كان المشهد يعبر بصدق عن اهتراء النظام القائم».

وفى الوقت نفسه الذى اشتعلت فيه

النيران فى قلب قاهرة الخديو إسماعيل كان حفيده الملك فاروق ينظم الوليمة الرابعة من سلسلة الولائم التى دعا فيها جلالته ضباط الجيش والشرطة إلى تناول الغداء على المائدة الملكية ابتهاجا بمولد ولى العهد الأمير أحمد فؤاد. كان مقررا أن تقام الوليمة يوم ٢٣ يناير فأرجئت (لسبب مجهول) إلى ٢٦ يناير، وعندما كانت النيران تشتعل فى قلب قاهرة الخديو إسماعيل، كان كبار ضباط الجيش والشرطة يتدفقون بزى التشريفة الرسمى على الأعتاب الملكية الكريمة فى عابدين، وكان من الصعب الوصول إلى القصر وتعكير صفو ومزاج صاحب الجلالة لسبب «تافه» مثل احتراق العاصمة الذى كان يقتضى وجود أولئك الضباط فى مواقعهم لمواجهة الموقف .

خلفية تلك الأحداث

أما خلفية الأحداث التى أدت إلى بلوغ المأساة ذروتها بحريق القاهرة، فمعروفة للمخضرمين من أمثالنا، ممن عاصروا الحدث، ولكن تغيب عن وعى الكثيرين ممن بلغوا مرحلة الكهولة اليوم إلا أولئك الذين يعشقون أن يبحثوا عن الأصول بامعان النظر فى التاريخ. لذلك لا بأس أن نشير هنا باختصار إلى خلفية تلك الأحداث التى تعود إلى عجز النخبة السياسية المصرية عن التوصل إلى حل للقضية المصرية بتحقيق الاستقلال التام عن طريق التفاوض بعدما أثبتت الحرب العالمية الثانية أن معاهدة «الشرف والاستقلال» التى وقعت عام ١٩٣٦ كانت وهما، فقد تحملت مصر أعباء إعالة قوات الحلفاء، وتعرضت لأخطار حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل بما تبع ذلك من أزمات اقتصادية واجتماعية خطيرة، وفشلت جولات المفاوضات التى دارت بين النخبة السياسية المصرية والإنجليز، والتى كان آخرها مفاوضات ١٩٥١ التى دفعت حكومة الوفد - تحت ضغط الحركة الوطنية - إلى إلغاء المعاهدة من طرف واحد، وبذلك فتح الباب أمام خيار الكفاح المسلح ، وبدأ كل فصيل سياسى يعد المتطوعين لخوض غمار المقاومة المسلحة ضد الوجود البريطانى، وانسحب العمال المصريون من خدمة القاعدة البريطانية بمنطقة القناة، واضطر المقاولون الذين كانوا يوردون للقاعدة ما تحتاجه من مواد غذائية ومستلزمات أخرى إلى الامتناع عن التعامل مع الإنجليز طوعا أو كرها، وبدأت عمليات الفدائيين ضد جيش الاحتلال تتصاعد، وأخذ زمام الأمور يفلت من يد حكومة الوفد التى تعاطفت مع حركة الكفاح المسلح، ولكنها أرادت أن تخضعها لاشرافها بحيث تستخدمها كأداة ضغط سياسى دون أن تتحول إلى «حرب شعبية» ضد الاحتلال قد تؤدى إلى ولادة نظام سياسى جديد.

بلوغ الاختمار الثورى مداه

وهكذا سمحت حكومة الوفد (على

حريق القاهرة

من الفاعل ؟!

استحياء) بالكفاح المسلح، وقدمت العون لبعض الفصائل، وتغاضت عن مشاركة رجال الشرطة فى دعم الفدائيين وتغطية نشاطهم، كما تغاضت - فى بداية الأمر - عن معسكرات التدريب التى أقامتها بعض الأحزاب، ثم ما لبثت أن وضعت ضوابط تخضعها لاشرافها، ولا شك أن دور الشرطة فى منطقة القناة فى مساندة ودعم العمل الفدائى كان السبب الرئيسى وراء مذبحة ٢٥ يناير التى تعرضت لها الشرطة ، وأدت إلى تفجر بركان الغضب الشعبى.

وهناك عوامل أخرى يجب أن توجه إليها انتباه القارئ، لعبت دورا مهما فى بلوغ الاختمار الثورى مداه، فاضافة إلى مأزق النظام السياسى وتفشى الفساد، وتدهور سمعة الملك، كانت هناك الأزمة الاجتماعية الخانقة التى بلغت الذروة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية: البطالة واتساع نطاق الفقر وغياب الخدمات الأساسية مع تراكم الثروات فى أيدى النخبة الاجتماعية الحاكمة، وجاء التعبير عن الأزمة فى ظاهرة القلق السياسى والاجتماعى الذى اتخذ صورة الاضرابات العمالية وحوادث تمرد الفلاحين ضد كبار الملاك التى قوبلت ببطش السلطة، والمظاهرات المتكررة التى عمت القاهرة والإسكندرية والمدن الكبرى والتى بلغت ذروتها بالهتافات المدوية فى ساحة عابدين ضد الملك تطالبه - للمرة الأولى - بمغادرة البلاد. ومن ثم كان موقف الجماهير السلبى من حريق القاهرة الموجه ضد رموز السيطرة الأجنبية على الاقتصاد القومى وضد الوجود الأجنبى له ما يبرره.

وقد لقى حريق القاهرة اهتماماً كبيرا من جانب كل من تناولوا تاريخ تلك الحقبة بالدراسة سواء فى ذلك الكتاب الأجانب والمؤرخين المصريين بحثا عن القوة الخفية التى نظمت الحريق على هذه الصورة التى تشى بالخبرة ودقة التنظيم بمستوى لا يتوفر لأى فصيل من الفصائل السياسية المصرية، ويوحى بتورط جهة ما فى الترتيب والتدبير والتخطيط، فهناك من أشاروا إلى الجهات التى استفادت من الحريق الذى أدى إلى إعلان حكومة الوفد الأحكام العرفية مما أتاح للملك فرصة طردها من الحكم ، وتوقف الكفاح المسلح فى منطقة القناة فتنفس الإنجليز الصعداء، وبالتالى كان المستفيد من الجريمة الملك والإنجليز . ولما كانت ثورة يوليو قد وقعت بعد ستة شهور من ذلك الحدث فهناك من أشار إلى «الضباط الأحرار» بأصبع الاتهام باعتبارهم أصحاب المصلحة فى اسقاط

النظام، وأرجعه البعض إلى سخط «الرعاع» على النظام آخذين في الاعتبار المظاهرات التي طافت وسط القاهرة وموقف الجماهير السلبي من الحريق، وتعرض بعض المحال التجارية للسلب والنهب وسط الفوضى التي ضربت أطنابها حتى ما يقرب من منتصف الليل، وقدم كل باحث من هؤلاء ما يدعم وجهة نظره من أدلة وقرائن.

الكفاح المسلح وكبح الجماح

فالإنجليز كانوا - دون شك - أصحاب المصلحة في تصفية حركة الكفاح المسلح بعد ما نظروا بعين الشك إلى التأكيدات التي قدمها فؤاد سراج الدين - وزير الداخلية ورجل الوفد القوى - من خلال طرف ثالث إلى السفير البريطاني من أن حكومة الوفد لا تزال ترى في التفاوض السبيل الوحيد لحل مأزق العلاقات المصرية - البريطانية، وأن التعنت البريطاني في المفاوضات دفعها دفعا إلى إلغاء المعاهدة، وأنها لا تشعر بالارتياح إزاء تفجر حركة الكفاح المسلح وتسعى لاحتوائها تمهيدا للعودة إلى مائدة المفاوضات. فقد كانت كل الشواهد تدل على أن حركة الكفاح المسلح قد خرجت من نطاق سيطرة الحكومة، وأوجد انسحاب العمال من العمل في قاعدة قناة السويس وانقطاع الامدادات عن القاعدة أزمة خانقة حاولت السلطات البريطانية حلها من مصادر خارج مصر (من بينها قبرص)، وزاد من حرج موقف القيادة البريطانية تعرض أمن القاعدة وأرواح جنودها لضربات كتائب الكفاح المسلح، وقد كشفت الوثائق البريطانية عن خطة وضعتها الحكومة البريطانية تحت الاسم الكودى «روديو» (أى كبح الجماح) تتلخص فى عزل منطقة القناة عن مصر وإقامة حكم عسكرى بريطاني فيها، ثم تحرك القوات البريطانية على محورين أحدهما من القناة والآخر من الإسكندرية بعد إنزال قوات بريطانية هناك فى حماية سلاح الجو الملكي البريطاني ويلتقى المحوران عند القاهرة، فيتم بذلك عزل الدلتا، وإملاء ما يشاء الإنجليز من شروط على الحكومة التي يطلبون من الملك تنصيبها، وقد أصبحت تلك الخطة جاهزة للتنفيذ انتظارا لتحديد ساعة الصفر في الأسبوع الأول من يناير ١٩٥٢.

المخابرات البريطانية والدور الخفي

ويبدو أنه كان هناك ترتيب آخر تعده «المخابرات البريطانية» لتفجير الموقف المصرى من الداخل توفيرا لما تتطلبه خطة «روديو» من نفقات وما قد تسببه من مخاطر سياسية دولية، فكان نشاط «جماعة أنصار الحرية» ذات الصلة بالمخابرات البريطانية الذى اتخذ صورة محاولة إشعال فتنة طائفية باشعال النيران في إحدى كنائس السويس، وعندما طاشت سهامهم، وتم احتواء

حريق القاهرة

من الفاعل؟!

الموقف، ليروا حريق القاهرة بالصورة التى تم بها، وقد استند جميع من اعتبروا الإنجليز وراء الحريق إلى قرائن قوية تجعل دور المخابرات البريطانية واضحا فى تدبير الحريق، ولم يكن بين يدى أولئك الباحثين (محمد أنيس، طارق البشرى، جمال الشرقاوى) عندما كونوا هذا الرأى معلومات عن خطة «روديو» التى كشفت عنها الوثائق البريطانية فيما بعد، والتى تجعل من تحرك «المخابرات البريطانية» لتفجير الموقف المصرى من الداخل مطلبا ملحا.

أما اتهام الملك بتدبير الحريق، فيستند إلى عدم ارتياحه للوفد بسبب حادث ٤ فبراير ١٩٤٢، حتى أنه كان معترضا على قيام مصطفى النحاس باشا بتشكيل الوزارة الوفدية وحاول أن يسند تشكيلها إلى فؤاد سراج الدين، وكاد ينجح فى ذلك لولا اعتراض قادة الوفد، واستنكار النحاس لموقف سراج الدين مما جعل الأخير يلح على كريم ثابت (وسيط الملك) بضرورة تكليف النحاس باشا بتشكيل الوزارة، وهو ما تم بالفعل، كذلك لم يشعر الملك بالارتياح عندما وضعه النحاس باشا فى مأزق لم يملك معه سوى الموافقة على توقيع المراسيم الخاصة بإلغاء المعاهدة. كما ضاق الملك ذرعا بما اعتبره موقفا سلبيا من جانب الحكومة فى مواجهة المظاهرات التى هتفت بسقوطه وطالبته بمغادرة البلاد.

تنسيق بين الملك والانجليز

ومن القرائن التى تم الاستناد إليها فى توجيه الاتهام إلى القصر، تلك الوليمة التى أرجئت لوعد يتفق مع اضرام الحريق، والتأخر فى الاستجابة لطلب الحكومة بنزول الجيش إلى الشوارع للمحافظة على الأمن والنظام والسلبية التى واجه بها الجيش المتظاهرين، بل ومسارعة القصر إلى طرد الوفد من الحكم. ولم يستبعد هؤلاء أن يكون هناك تنسيق ما بين الملك والإنجليز فى هذا الصدد أو أن تكون فرق اضرام الحريق قد دربت وأعدت بناء على خطة وضعها القصر، لم لا وأمر «الحرس الحديدى» الذى كونه الملك لاغتيال بعض الشخصيات السياسية كان معروفا.

أما اتهام «الضباط الأحرار» فقد جاء استنادا إلى قرائن ضعيفة كان صاحبها أحمد أبو الفتح وجاءت فى الترجمة العربية لكتابه «مصر الناصرية» عاد فأنكرها فى حديثه إلى جمال الشرقاوى واعتبرها «تخمينية». كما استند آخرون إلى مناسبتين خطب فيهما جمال عبدالناصر فأشار إلى أن جريمة حريق القاهرة رغم شناعتها إلا أنها جاءت

تعبيراً عن ذروة أزمة النظام السياسى وقمة سخط الجماهير المصرية، وهو تحليل له وجاهته لم يتفرد به جمال عبدالناصر وحده، بل شاركه الرأى عبدالفتاح حسن باشا أحد وزراء حكومة الوفد الأخيرة، وصفى فؤاد سراج الدين باشا ولذلك قصة تروى .

ففى شتاء ١٩٦٨ تمت لقاءات بين أستاذنا محمد أنيس وسراج الدين باشا فى قصره بجاردن سيتى فى إطار خطة مركز تاريخ مصر المعاصر لتجميع شهادات الساسة القدامى وكنت بصحبة الدكتور محمد أنيس أسجل ما يدور من نقاش بقلمى، وكانت الجلسة مخصصة لمناقشة حريق القاهرة وحضرها عبدالفتاح حسن باشا ، وعندما علق على مشاهدته لاحتراء خراطيم المطافىء بميدان الأوبرا بأن ذلك كان تعبيرا عن تهاوى النظام السياسى والاجتماعى استاء فؤاد سراج الدين لذلك واعتبره نوعا من المبالغة. ومن الجدير بالذكر أن فؤاد باشا نفى تماما التهمة عن الملك وحده ، ورأى أن الإنجليز هم وحدهم وراء الحريق، وأن الملك استثمره لمصلحته.

فاذا كان عبدالناصر قد رأى فى موقف الجماهير السلبى من الحريق، الذى وصفه بأنه كان جريمة شنعاء، تعبيرا عن تفاقم سخط الجماهير وقمة الأزمة الاجتماعية، التى كانت محركا لثورة يوليو، فلا يعنى ذلك أن للضباط الأحرار يداً فى ارتكاب جريمة كهذه.

حادث محلى صرف

ومن الغريب ان نجد عبد الرحمن الرافعى ينفرد بالقول بأن حريق القاهرة كان حادثا محليا صرفا ليس لأحد فيه دور بالتدبير أو التنفيذ، وانه تم على ايدى جماهير «الرعاع» الذى خرجوا بالمظاهرات المعبرة عن الاحتجاج على مذبحة الشرطة بالاسماعيلية عن مسارها السلمى واتجهوا الى التخريب والسلب والنهب. اما الاغلبية والقصر فقد كانوا مجرد منتفعين بالحادث.

ووجه الغرابة فى ما انتهى اليه عبدالرحمن الرافعى ان ما توصل اليه من نتائج مشابه لما توصلت اليه لجنة التحقيق التى شكلها السفير البريطانى برئاسة المستشار العمالى بالسفارة وعضوية بعض الدبلوماسيين وممثل للغرفة التجارية البريطانية وسكرتارية كين بويد الذى كان رئيسا للبوليس السياسى بوزارة الداخلية المصرية منذ الثلاثينات حتى نهاية الاربعينات. ويقع التقرير فى ٥٨ صفحة من حجم الفولسكاب إطلعنا عليه فى الوثائق البريطانية السرية، ويتضمن وصفا تفصيليا للحوادث من خلال شهود العيان الذين استمعت إليهم اللجنة وبيان بجميع المؤسسات التى أضيرت من الحريق والخسائر البريطانية فى الأموال والأرواح، وانتهى التقرير الى اعتبار حكومة الوفد المسئول المباشر عن

حريق القاهرة

من الفاعل؟!

الحريق بسبب اشعالها لروح العداء ضد الانجليز، وتشجيعها المتطرفين على مقاومة الوجود البريطاني بالقوة مما جعل العناصر المعروفة بتعصبها ضد المسيحيين واليهود والأجانب تتحرك لاشعال الحرائق، واتفقت مع الحكومة في ترجيح أن يكون وراء الحريق أحمد حسين وحزبه ورجاله، ولكن ذلك تم في رأي اللجنة ـ بمباركة من حكومة الوفد، بدليل وقوف الشرطة موقفا سلبيا خلال الحوادث واشتراكهم في المظاهرات. كذلك السلبية التي اتسم بها موقف الجيش عندما نزل الى الشوارع لاقرار الأمن والنظام. وانتهى التقرير إلى إن خسائر الانجليز كانت أقل من غيرهم مما يوحي بأن مثيري الشغب كانوا يقصدون المصالح الاجنبية عامة وليس الانجليز وحدهم.

وواضح أن التقرير بسعيه لإدانة حكومة الوفد، تجاوز عن دور اللواء محمد ابراهيم إمام «تلميذ كيني بويد» ورئيس البوليس السياسي ـ الذي كان موجودا في موقع الأحداث في مخالفة تعليمات وزير الداخلية بالتصدي للمظاهرات، وغياب كبار الضباط في وليمة الغداء بقصر عابدين. وعدم وجود ولاية للحكومة على الجيش الذي يأتمر بأمر الملك.

جمع أدلة لإدانة حكومة الوفد

ولعل القارىء يتساءل: اذا كان الحريق من تدبير الانجليز فما معنى وجود لجنة التحقيق هذه، وما أهمية ذلك التقرير السري الذي أعدته؟

من المعروف أن الأعمال «القذرة» مصطلح شائع بين أجهزة المخابرات الكبرى، ويقصد به الخطط ذات الطابع الاجرامي التي تخدم الأهداف السياسية لبلادهم دون ان تترك وراءها أثرا يمكن تتبعه. ولا شك أن المخابرات البريطانية لعبت دورا مهما في تنفيذ هذه الجريمة مستخدمة في ذلك عملاءها. سواء من كانوا أعضاء في جمعية انصار الحرية الذي تشير الدلائل الى صلتهم بهذا اللون من النشاط، أو رجالهم داخل البوليس السياسي المصري وداخل القصر الملكي، فعمل بهذا الحجم يقتضي التنسيق على مستوى رفيع بين من خططوا له ونفذوه، وبين من يغطون نشاط هؤلاء ويسهلون عملهم، ويضمنون لهم الانسحاب بسلام، وهم أنفسهم الذين عليهم البحث عن كبش فداء تعلق التهمة في رقبته وهو ما فعله أحمد مرتضى المراغي باشا وزير الداخلية ورجل الانجليز في قرار الاتهام الموجه ضد أحمد حسين وبعض أعوانه وعناصر ممن شاركت في السلب والنهب.

لقد بذل صاحب هذا المقال جهدا فى الوثائق البريطانية بحثا عن أى صلة بين المخابرات البريطانية وحريق القاهرة وكان من المنطقى الا يعثر فى الوثائق على اثر لذلك الدور فى الوثائق المسموح بالاطلاع عليها. وتقرير لجنة التحقيق التى شكلتها السفارة البريطانية بالقاهرة لا يعنى أن أعضاءها لا يدركون ذلك. فالنتيجة التى توصلا إليها كانت مطلوبة بالحاح، وهو جمع ادلة الادانة لحكومة الوفد والتأكد من أن خسائر الانجليز محدودة قياسا بالخسائر التى لحقت بالمصالح الأجنبية الأخرى.

أصابع الاتهام تشير للانجليز

إن استقراء الأحداث التى شهدتها مصر منذ حريق ١٩٥١ حتى حريق القاهرة تجعل أصابع الاتهام تشير إلى الانجليز كفاعل أصلى، والى عملائهم فى البوليس السياسى المصرى وداخل القصر كشريك. أما الحدث نفسه فكان تعبيرا عن تداعى النظام السياسى والاجتماعى كله. بعد ما عجز عن تحقيق الاستقلال الوطنى بطريق التفاوض وعن بناء اقتصاد وطنى خارج اطار التبعية لرأس المال الاجنبى، ووقفت النخبة السياسية المسيطرة على الحكم ضد كل الافكار والمشروعات التى طرحت لحل الازمة الاجتماعية التى تفاقمت منذ الحرب العالمية الثانية . هذا فضلا عما تركته نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ من جرح عميق فى الروح الوطنية. لذلك لم تهتم الجماهير التى شهدت حريق القاهرة بمحاولة انقاذ المؤسسات التى تعرضت للحرق، فقد كانت كلها رموزا للسيطرة الأجنبية على مقدرات البلاد، بل كان وسط المدينة الذى شهد الحريق يمثل مصر الأخرى التى تشعر الجماهير بغربة فيها. ولم يكن مسلك جنود الشرطة والجيش من تلك الأحداث تجسيدا لرؤية الجماهير التى جاءوا من بين صفوفها لمجتمع وسط المدينة بكل ما تحمله تلك الرؤية من معان. بل كان الملك فاروق نفسه يدرك تماما أن النظام السياسى الذى يقف على قمته يتهاوى تحت أقدامه ، فراح يعد العدة لثورة قادمة، ويتهيأ للحياة فى المنفى بتهريب جانب كبير من أمواله الى الخارج بمساعدة رجله الياس اندراوس وكان يؤكد لخلصائه أن أيامه أصبحت معدودة، وأن مستقبل النظام فى كف القدر.

وقد شجع حريق القاهرة الضباط الأحرار على التبكير بالانقلاب العسكرى الذى كان مقررا له فى تقدير جمال عبدالناصر عام ١٩٥٥ بعدما أصبحت الظروف المترتبة حافزا قويا للتحرك الثورى لتقويض أركان النظام، فكانت ثورة يوليو ١٩٥٢ نتيجة منطقية لتلك الأحداث.

شريط ذكريات عن السينما فى القرن العشرين

قلم: مصطفى درويش

نشأت فى أسرة تعشق السينما، رجالا وصبيانا، لا يخرج حديث مائدة العشاء، عن ذكر الأفلام القديمة والحديثة والقادمة، وعن ترديد أسماء الممثلين فى ايطاليا والمانيا وامريكا والمقارنة بينهم.



لا أشترك فى الحديث - لصغر سنى - بل تلتقط أذناى منهم كل كلمة تقال. وأعتنق آراءهم، وأضحك لضحكهم، وقد أروى بعض ما سمعت إلى زملائى فى المدرسة ، كأنه مما رأته عيناى.

وانتبهت . فاذا بى انتظر يوم الخميس بفارغ الصبر، فهو اليوم الوحيد الذى يسمح لى فيه بالذهاب إلى السينما. أترقبه منذ صباح الجمعة، وأعد الأيام والساعات. أريد أن ينفذ العمر فيها كغمض العين.

فاذا جاء الخميس - مرحبا بغرة الايام - تناولت غذائى مسرعا، وأنا قلق متلهف، واخذت ألح على أخى الاكبر لنخرج، ولما تدق الساعة الرابعة - وأسير بجانبه، وأنا ألهث أى ساحر سحرنى؟ ليست هى دار السينما وحدها، ولا الرواية، ولا الممثل، بل جو خليط من هذا وذاك: واجهة الدار باعلاناتها وصورها الضخمة، تكاد تنطق، وانوارها المتحركة والتزاحم على بابها، وتلك الضجة العظيمة التى اسمعها ولما ندخل» . هذا الاستشهاد الطويل من شريط ذكريات لاديبنا الكبير «يحيى حقى»، أردته مدخلا للحديث عن الفن السابع، عندنا فى مصر المحروسة إبان القرن العشرين، وكيف انه ، ومنذ البداية، كان له منزلة كبيرة في قلوبنا وعقولنا .

ولا غرابة فى أن يكون لذلك الفن الوليد مثل تلك المنزلة التى عبر عنها اديبنا الكبير خير تعبير.

فلو ان للقرن العشرين ملمحا واحدا يميزه عن كل ما سبقه من قرون، تعد بالمئات ، وربما بالآلاف فى حياة الإنسان، فلعل كان ذلك، هو تحرك الصورة، صامتة فى البداية، ثم متكلمة، فملونه بأزهى الألوان.

غزو الصورة

ثم استكمالها مشوار غزوها لقلوبنا وعقولنا، بفضل شاشات صغيرة بيضاء تتصدر صناديق سوداء، عرفت عندنا



فيفيان لى .. نجمة «ذهب مع الريح» تقلدها ماجدة الصباحى

تحت اسم التليفزيون أو التلفاز.

وهو ما تحقق رويدا، رويدا، على مر أعوام النصف الثانى من ذلك القرن الفريد.

والأمثلة على منزلة الصورة المتحركة، وازدياد تأثيرها، ولا أقول هيمنتها، على حياتنا، تلك الأمثلة اكثر من ان يغيب امرها عن اى قارىء لبيب.

واعود إلى شريط ذكريات اديبنا الذى استشهدت ببعض ما جاء فيه كمدخل، لاقول أن من بين ذكرياته ان افراد اسرته كانوا يرددون فى أثناء تناولهم طعام العشاء اخبار ممثلى السينما الإيطالية والألمانية والأمريكية.

وأول ما يلاحظ على هذا القول هو تقدم اخبار ممثلى كل من السينما الإيطالية والألمانية، على اخبار ممثلى السينما الأمريكية فى احاديث موائد عشاء أسرة اديبنا الكبير، وغياب اخبار ممثلى السينما المصرية، وكأنه ليس لها وجود فى دنيا الأطياف.

والحق أنه وقتذاك لم تكن قد خرجت أطيافها بعد إلى النور، أو بمعنى اصح ظلام دور السينما .

أما لماذا كانت اخبار ممثلى السينما الإيطالية تجىء فى مقدمة احاديث موائد العشاء، دون اخبار ممثلى السينما الأمريكية، فذلك لأنه فى الزمن الذى كانت تجرى فيه تلك الأحاديث كان اديبنا الكبير لايزال صغيرا، ليس فى وسعه الذهاب بمفرده إلى حيث يجرى عرض الأفلام.

مولد قرن وأديب

ومتى كان الثابت انه جاء إلى الحياة الدنيا، والقرن العشرون ليس له من العمر سوى خمسة أعوام، فأغلب الظن إذن أن أحاديث موائد العشاء، كانت تدور فى العصر الجميل السابق على اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى، أو ربما فيما بعد اندلاعها بقليل.

ومن المعروف أنه قبل تسعين عاما أو يزيد، وبالتحديد عام ١٩٠٨، كانت هوليوود لاتزال تحبو، لا تنتج سوى أفلام روائية قصيرة من بكرة واحدة، لا يستمر عرضها سوى دقائق معدودات.

هذا فى العالم الجديد، أما فى إيطاليا، فقد انتجت شركة امبروزيو فى ذلك العام فيلم «آخر ايام بومبيى» عن قصة «بولوير ليتون» التاريخية.

بعد ذلك، وقبل هوليوود بحوالى أربعة أعوام، بادرت السينما الإيطالية بانتاج فيلم روائى طويل من خمس بكرات اسمه «جحيم دانتى» «١٩١١» وبفضله ، مع أفلام إيطاليه أخرى أكثر طولا، جاءت بعده تباعا، أذكر من بينها «كوفاديس» و«كابيريا» ، ارتفعت منزلة السينما الإيطالية، على نحو أهلها لاحتلال مركز الصدارة.

الحرب غير المعلنة

ولأعوام قليلة ظلت محتلة لذلك المركز بأفلام اذكر من بينها «ليدا بوريللى» على



صراع الأبطال للمخرج توفيق صالح



النجوم شابلن وفيربانكس مع جريفيث مخرج مولد أمة

سبيل المثال.

وأقول لاعوام قليلة ، وذلك لانه فى اغسطس من عام ١٩١٤، اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى.

وفى تعليق يقطر مرارة عن تأثير تلك الحرب جاء على لسان «ليون جومون» المنتج الفرنسى الشهير، قال إنها «حرب صنعت خصيصا من أجل أمريكا».

وذلك التعليق المرير اتفق معه ، فيما بعد، الكثير من الأمريكيين.

فمثلا «جسى لاسكى» أحد الرواد الأوائل الذين أقاموا مصنع الأحلام، قال من بين ما قال، وهو يسترجع على شاشة ذاكرته ما فات من احداث تاريخها موغل فى القدم.

«أعتقد أنه فى وسعنا إرجاع سيطرة أمريكا على السوق العالمى للفيلم إلى الحرب العالمية الأولى.

فأوروبا قبل تلك الحرب، كانت متقدمة علينا بأفلام فرنسية مسلية، رفيعة المستوى، مثل «غادة الكاميليا» و«الملكة اليزابيث». وأفلام إيطالية رائعة مثل «كابيريا» و«كوفاديس» المكون من ثمانى بكرات.

فنمو صناعتنا وقتذاك كان بطيئا.

غير أنه فى أثناء انتكاسة اوروبا، سرعان ما توسعت وقفزت إلى أمام.

ومع نهاية الحرب . كنا قد سبقنا بمراحل أوروبا تقنيا.

وكانت قبضتنا على جمهور السينما خارج أمريكا قد أصبحت من القوة. بحيث ارتفع مجموع ايراداتنا. على نحو اهلنا لان نكون فى وضع منيع».

هيمنة هوليوود

ومصداقا لقوله هذا، فإنه ما أن دخلت تلك الحرب عامها الثانى . حتى كانت هوليوود قد انتجت «ميلاد امة» لصاحبه «دافيد جريفيث» المسمى بأبى السينما.

وفيلمه هذا، عن الحرب الأهلية الأمريكية، قد امتد عرضه لأكثر من ثلاث ساعات!!

وما أن القت الحرب سلاحها عام ١٩١٨ حتى كانت استديوهات هوليوود بأفلامها ونجومها الأولى فى العالم، لاتنازع احتلالها مركز الصدارة اية سينما اخرى. حتى ولو من بعيد.

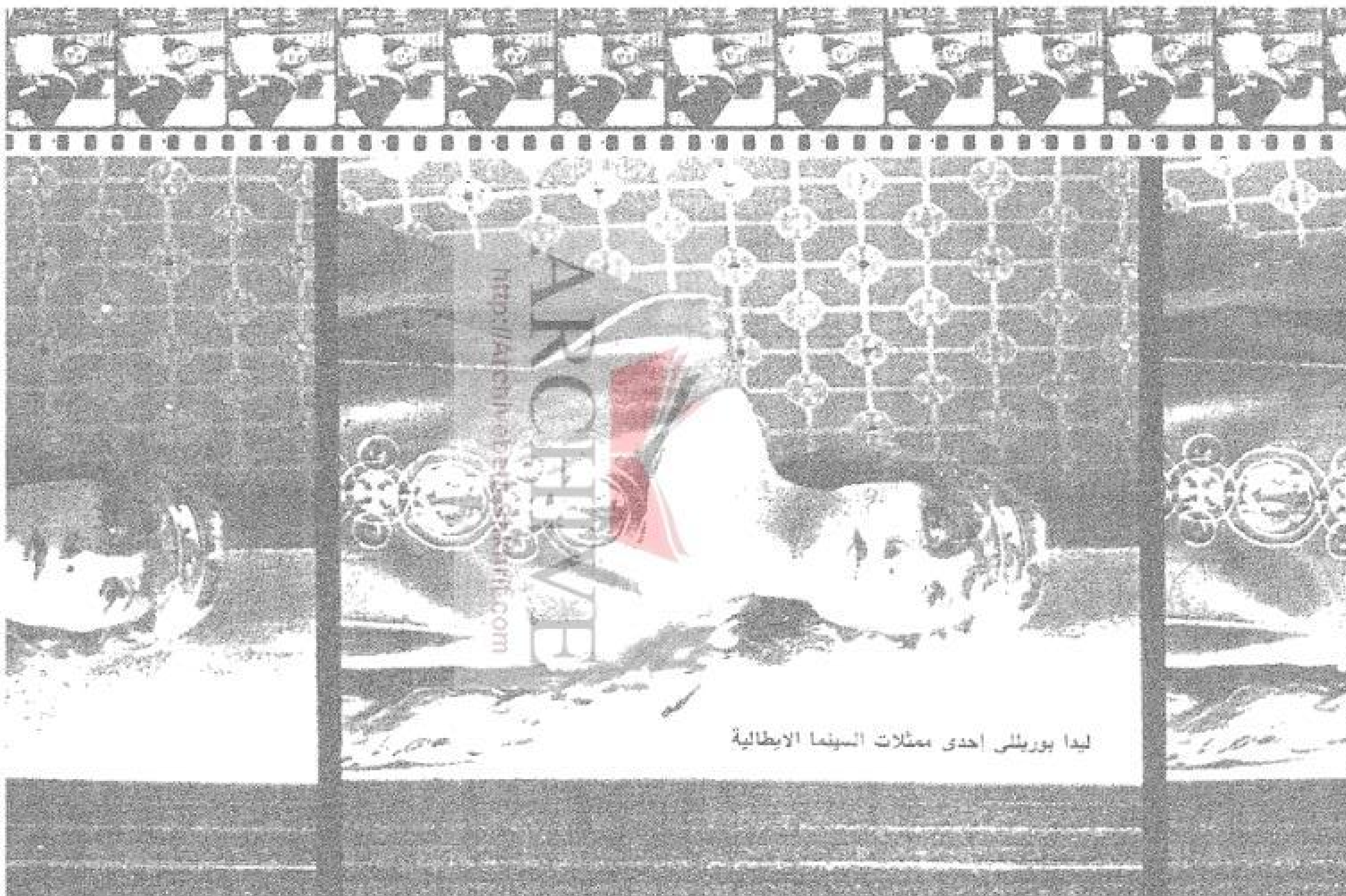
ولو كان قد كتب لاحاديث اسرة اديبنا الكبير حول موائد العشاء ان تدوم إلى ما بعد القاء الحرب العالمية سلاحها، لما ترددت اخبار ممثلى السينما الإيطالية، بعدئذ أصبحت فى خبر كان.

تأخر الميلاد

ولما ترددت . من باب أولى، اخبار ممثلى السينما المصرية.

ولترددت . بدلا من ذلك. اخبار نجوم مصنع الاحلام.

ولربما اقتصر الحديث عليهم ، فهم كثر. واسماؤهم بدءا من شارلى شابلن



ليدا بوريللى احدى ممثلات السينما الايطالية

ودوجلاس فيربانكس ومارى بيكفورد، وانتهاء براعى البقر «توم ميكس» بطل أمريكا . تجرى على كل لسان.

أما لماذا كان لزاما الا تتردد أخبار ممثلى السينما المصرية، مع أنها أولى بالذكر، فذلك لأن ميلادها جاء متأخرا، وفى نفس العام الذى تحررت فيه السينما من صمتها بالكلام (٦ أكتوبر لعام ١٩٢٧)، اى بعد القاء الحرب سلاحها بتسعة أعوام.

ولسوء الحظ، فإن ميلادها المتأخر قد جاء متعثراً فى جو مشبع بروح السينما الأمريكية، التى كانت قد تسيدت بأفلامها على سوق العروض، بطول وعرض البلاد فى شبه احتكار.

القاعدة والاستثناء

ومن هنا تأثر انتاجها بتلك الروح . الا فيما ندر من افلام.

فباستثناء نفر قليل من المخرجين مثل توفيق صالح وشادى عبدالسلام، وعدد من الأفلام اقل من القليل مثل «دعاء الكروان» و«الحرام» و«بداية ونهاية» و«السقا مات» و«اللص والكلاب»، باستثناء ذلك، كانت معظم الأفلام مجرد محاكاة وتقليد لأفلام مصنع الاحلام.

ولعل خير مثل على ذلك التأثر المقيت، «من أحب» ذلك الفيلم الذى قامت النجمة «ماجدة» بانتاجه واخراجه واداء الدور الرئيسى فيه. متأثرة، فى كل ذلك بفيلم «ذهب مع الريح»، خاصة باداء «فيفيان لى» لدور «سكارليت اوهارا» .

ورغم ذلك . ورغم معوقات اخرى يبرز من بينها رسوخ الرقابة بموانعها العديدة رسوخ الجبال وجنوح نفر لا يستهان به من صانعى الأفلام إلى الاستسهال، ذلك الداء العضال.

انجاز واعجاز

رغم ذلك ، اسهمت السينما المصرية فى جعل لهجة الكلام القاهرية، اللهجة السائدة، المحببة الى قلوب العرب من الخليج إلى المحيط.

كما شاركت فى الإنتاج السينمائى العالمى بنصيب غير قليل من الأفلام.

فبفضل ولع بالصورة، يرجع إلى ايام قدماء المصريين.

وبفضل قدرة مذهلة على تمثل الافكار، وبث روح مصرية فيها، صار لكثير من افلامها المقتبسة لا سيما ما كان منها من صنع مخرجين محبين للسينما، مذاق مصرى، يميزها عن الافلام التى جرى الاقتباس منها.

أزمة بقاء

ومع ذلك ، فتلك السينما التى استطاعت مقاومة عناصر الجدب والعقم، والفناء، تواجه الآن . ولأول مرة أزمة توشك أن تودى بها.

ومن بين أسباب تلك الأزمة . اقف قليلا عند قرار صدر، قبل عدة أعوام،



لقطة من فيلم «بداية ونهاية»

بالغاء صندوق دعم السينما وذلك بدمج اختصاصاته ضمن اختصاصات صندوق اسمه صندوق التنمية الثقافية.

فلقد كان من نتائج ذلك الدمج التعسفي، حجب مال الصندوق الملغى عن المستحق الوحيد له. الا وهو فن السينما.

ولعله من اخطر ما يغيب عنا ادراكه إدراكا واضحا ان ذلك الدمج، قد أدى، في حقيقة الامر . الى المساواة بين غير متساويين.. فن السينما والفنون الأخرى.

تغير الموازين

فالسينما فنها اولى بالرعاية، وذلك بحكم الدور المتزايد والحاسم الذى تلعبه الصورة المتحركة فى حياتنا الآن، وقد دخلنا القرن الحادى والعشرين دخلناه والامل يحدونا ان يكون فى عقلنا عزم وتصميم، على مواجهة تحديات العصر متمثلة في العولمة وثورة المعلومات والاتصالات ، وارتباط مستقبل الصورة المتحركة بتلك الثورة التى قلبت كل الموازين!!.



الفن التشكيلى وأزمة الفنون الرفيعة فى مصر

بقلم: د.صبري منصور

منذ حوالي قرن من الزمان - ومن خلال البعث الجديد للشعب المصرى بعد فترة ركود وتدهور حضارى استمرت مئات السنين - بدأت الفنون التشكيلية على أرض مصر انطلاقتها الحديثة في ثوب جديد يتوافق مع المفاهيم العصرية التي كانت قد رسخت أقدامها في اوربا منذ عصر النهضة في القرن الخامس عشر . في تلك الفترة كانت ولادة أول أعمال فنية تمثل القريحة الإبداعية للمصريين وقد حملت تلك الأعمال المبكرة قيمة فنية واضحة تضارع



فتاة - للفنان صبرى راغب

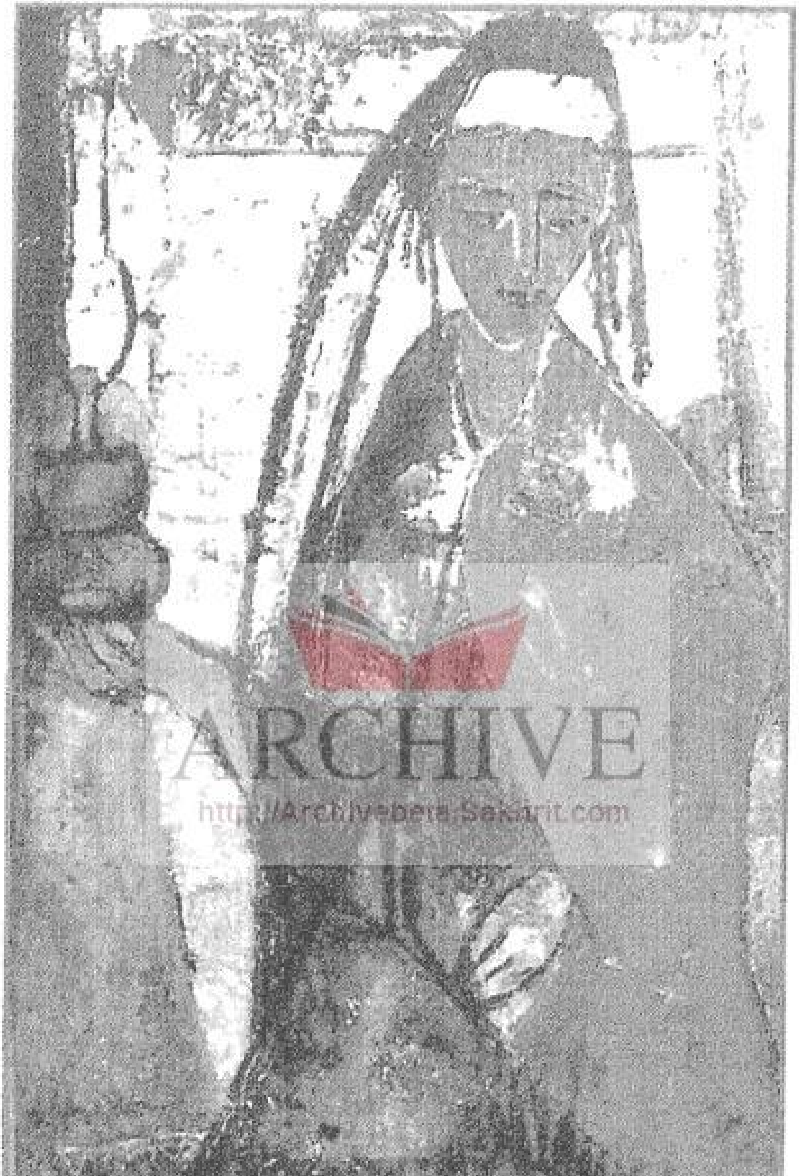
في جودتها ورقي مستواها ودقة أدائها الأعمال الفنية العالمية، فجسدت أعمال الفنانين من أمثال محمود مختار فى فن النحت ومحمود سعيد ومحمد ناجي وراغب عيد في فن التصوير معلما من معالم الثقافة المصرية الحديثة، ولم يكن إنجاز هؤلاء المبدعين أمراً هينا أو بسيطا فالفن التشكيلى هو ضرب من الفنون يستلزم ثقافة فنية عالية واحساساً مرهفا وخيالا خصبا وخبرة فنية ومهارة فى الأداء .

الفن التشكيلى

ومع ذلك فلم يكن غريبا ، أن تبدأ الفنون التشكيلية نهضتها الحديثة بتلك القوة ، فلا شك أن ميراث مصر الحضارى المتنوع والموغل فى القدم مازال كامنا فى نفوس المصريين ينتظر من يمهد له السبيل الى الانطلاق. وبعد تلك البداية الرائعة للفن المصرى الحديث خلال العشرينات على أيدى جيل الرواد ، ازدادت حركة الفن المصرى تألقا فى الأربعينات والخمسينات بظهور الجماعات الفنية المتتابعة التى جعلت من الفن التشكيلى عنصراً مساهما وفعالا فى الحياة الثقافية المصرية، فكانت جماعات الفن والحرية ، والفن الحديث ، والفن المعاصر، والفن والحياة ، تنطلق من توجهات ثقافية عميقة، وأضفت على الفن التشكيلى فى تلك الفترة الخصبة سمات الفن الجاد الرصين ، وجعلت منه فرعاً من فروع الإبداع الثقافى لا يقل فى قيمته عن باقى الفنون الأدبية والتعبيرية. أما فى فترة الستينات فكانت الحركة التشكيلية تودع أزهى فترة مزدهرة، لتستقبل بدايات مرحلة انحسار اوصلتنا إلى ما يعانيه الفن التشكيلى فى مصر اليوم من فقدان البريق، واختلاط الجاد بالهازل، وضياع القيمة الحقيقية ، وتراجع عن الوفاء بدوره المؤثر فى حياتنا الثقافية المعاصرة .

الفنون الرفيعة وثقافة المواطن :

ولا شك أن الفن التشكيلى هو مهما قل دوره جزء من حياتنا العامة ، وازدهاره أو تدهوره إنما لا يأتى منفصلا عن السياق العام لتطور البلاد وتقدمها ، والراصد لحياتنا الثقافية بشكل عام خلال العقود الماضية يستطيع أن يلمح ظاهرة النقص المتزايد فى ثقافة المواطن العادي الذي أصبح لا يرضيه من الفنون إلا ما هو فج هابط ، ولا يستميله إلا ماهو بسيط ساذج وتسيدت المستويات السوقية المبتذلة ساحة الإبداع المصرى فى شتى مجالاته من سينما ومسرح وموسيقى وفن تشكيلى . تلك الظاهرة التى اعترضت مسار التطور الطبيعى لتقدم وتحضر المصريين، ساهم فى وجودها عدة عوامل متشابكة ، وزاد من تعقيدها عدم رصد الظاهرة منذ البداية ، مما أدى بالتالى إلى صعوبة التصدى لها ، ولا يعرف بالتحديد مختلف عناصرها، فبعضها يتعلق بصعوبة تذوق الإبداع الفنى نفسه لجدته على ثقافة المصريين، وبعضها يتعلق بالعوامل الاجتماعية والحضارة



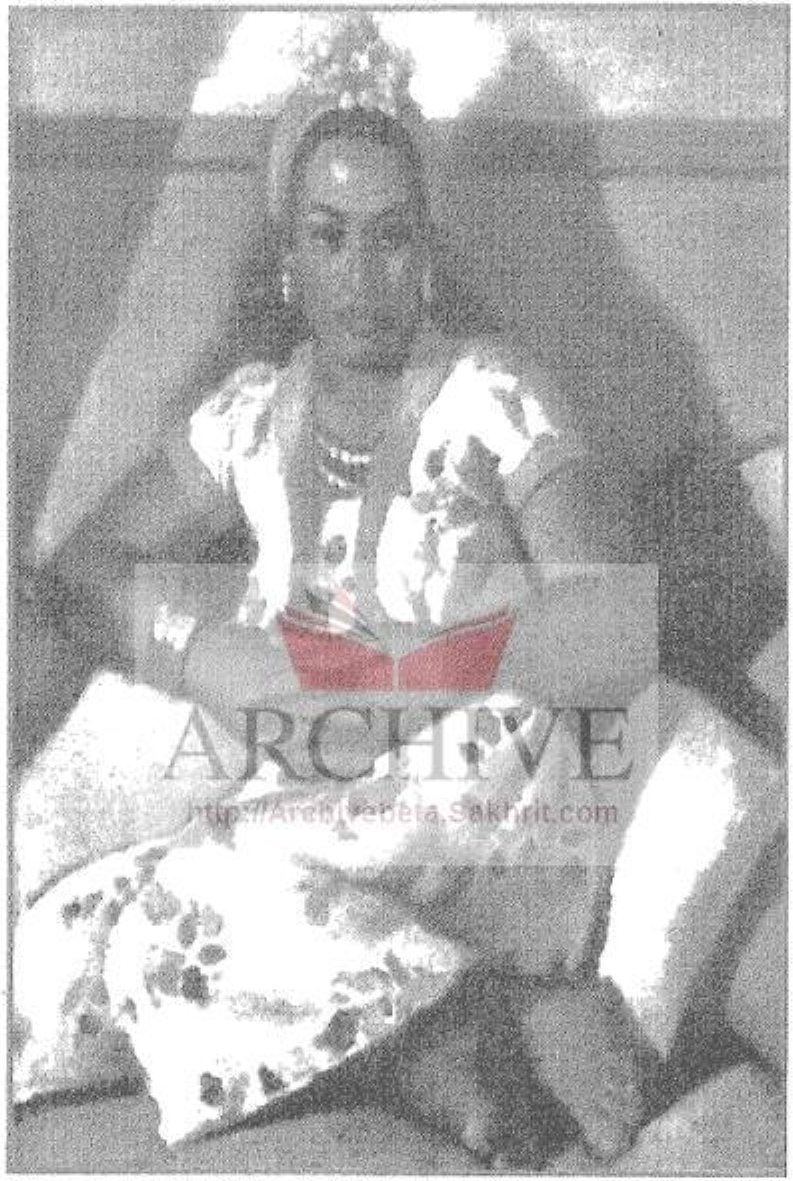
حاملة المصباح - تحية حليم

الفن التشكيلى

السائدة اليوم وما تمثله من ردة فكرية وسلفية لا تريد الانعتاق من نطاق اسلوب التفكير فى القرون الوسطى . ومع صعوبة تحديد أى العوامل كان أشدها تأثيرا فى خلق الظاهرة وانتشارها ، فإننا يمكن أن نشير الى عامل جوهرى يدركه الجميع ويلمسونه، وهو مستوى التعليم فى مصر الذى أفرخ أجيالاً غير قادرة على التفكير والتطور، فعقولهم تفتقد إلى المعارف الأساسية للإنسان المعاصر، فهم يكتفون بالمعرفة البسيطة التى تكاد تكفى لتسيير حياتهم اليومية، أما ما هو أبعد من ذلك فهو عالم غامض مجهول، ولا يستحق بذل العناء للتعرف عليه فهو لا يهمّ ولا يؤثر، لذلك فالفنون الرفيعة بما تحفل به من خيال وانطلاق يسمو فوق الواقع المعاش هو موضوع غير مطروق وغير مستحب، وباستثناء بعض المعلومات البسيطه المتبقية من مرحلة الدراسة والتعليم فى المدارس والجامعات، لن تجد من هو ملم بأطراف من تاريخ بلده وفنونها وثقافتها، ولن تعثر على من يستمتع بسيمفونيات بيتهوفن وموزار وأغانى سيد درويش، أو يكون مطلعاً على ملامح من الثقافة المصرية المعاصرة أو قرأ كتاباً لطه حسين أو الحكيم أو نجيب محفوظ، ولن نقول أو من زار متحفاً فنياً أو تعرف على ابداع فنان تشكيلى معاصر كمحمود سعيد أو حامد ندا، ومن يا ترى هو المسئول عن حرمان المصريين من بلوغ المستوى الحضارى الراقى الذى يجعلهم قادرين على الاستمتاع بتذوق الفنون على اختلاف مجالاتها ؟ وعندما ظهر فيلم المومياء للمخرج شادى عبد السلام وجد فى الخارج احتفاء وتقديراً لم يجده فى مصر رغم مصرية الفيلم الشديدة، ولم يكن حظ فيلم عرق البلح للمخرج رضوان الكاشف - وقد حصد العديد من الجوائز العالمية - أسعد حظاً من المومياء، وتظل الأفلام الرخيصة التى تخلو من أى قيم رفيعة هى التى تجتذب الجمهور العريض، كما تظل قاعات المتاحف ومعارض الفنون الخاوية دليلاً على انصراف الجمهور عن كل ما هو رفيع القيمة، وتلك هى مشكلة وأزمة الفنون الرفيعة فى مصر إذ أن الجمهور المتذوق يمثل طرفاً أساسياً فى العمل الفنى وبدونه يظل العمل الابداعى كالجثة الهامدة أو هو كالعدم سواء بسواء.

نخبة المثقفين والفن التشكيلى

وإذا كنا نتحدث عن المستوى الثقافى المتدنى للمواطن العادى الذى



بنت بحرى - محمود سعيد

الفن التشكيلى

حصل على درجة معقولة من التعليم، فإن ظاهرة الثقافة المسطحة امتدت لتشمل النخبة من المثقفين المصريين الذين يمثلون عقل الأمة ووجدانها العام، وهم القدوة التى تقود الجماهير وترشدها إلى كلّ ما هو قيم وعميق، وتنبه أذهان الناس وتلفت انتباههم لمصادر الثقافة الحقيقية . تلك النخبة - التى تضم الكتاب والادباء والشعراء والمفكرين وأساتذة الجامعات والاعلاميين - تجدها بعيدة كل البعد عن مجال الفنون بشكل عام والفنون التشكيلية على وجه الخصوص، فبدلا من نظرة التقدير المبدعين باعتبارهم ثروة بشرية نادرة يجب الإشادة بانتاجها ورعايتها لأن فى ذلك البرهان على التحضر والرقى ، فإنه تسود نظرة الاستهانة احيانا والتجاهل فى معظم الأحيان ، ولا نعتقد أنه يوجد فى مصر الآن كاتب أو مثقف حريص على متابعة مسار الحركة الفنية وتطور أساليبها أو يعرف نجومها ، وإنما يكتفى بمعرفة بعض الأسماء التى تتناولها وسائل الإعلام وحتى بدون امعان النظر فى القيمة الحقيقية لإبداعهم ، وبينما كان صفوة المثقفين - فى أوائل القرن الماضى - هم أول من دعا لضرورة واهمية الفنون فى تطور وتحديث المجتمع المصرى، وكان انشاء مدرسة الفنون الجميلة العليا عام ١٩٠٨ استجابة لنزعة المفكرين التقدمية المستنيرة ، نجد أن صفوة المثقفين المصريين فى آخر القرن ينصرفون عن الفنون الجميلة ويعزفون عن اكتساب الثقافة اللازمة لتذوق هذه الفنون واعطائها حق قدرها. ويمثل موقف الصفوة من الفنون عاملا من عوامل الإحباط عند الفنانين التشكيليين الذين لا يجدون انفسهم معزولين فقط عن الجماهير العريضة ذات المستوى الثقافى المحدود ، وإنما أيضا عن اولئك الذين يفترض ان يساندوا إبداعهم ، ولم يتبق للفنان التشكيلى المعاصر فى مصر غير دائرة محدودة من زملائهم الفنانين ليمنحوهم المواساة وكلمة التشجيع الوحيدة التى تساعدهم على الاستمرار .

الصيغ التشكيلية الجديدة :

وفى مناخ ثقافى عام لا يهمه سوى الانتاج الخالى من القيمة الحقيقية والذى يهتم بالكم لا بالكيف ويولى للإعلام والاعلان أهمية تفوق المعاناة من أجل تحقيق قيمة ابداعية حقيقية، ضاعت النظرة المتعمقة ، والفكرة الجادة ، والعمل الفنى الأصيل . وإذا اضفنا لذلك اختلاط القيم والمفاهيم



حفر قناة السويس – عبد الهادى الجزار

الفنية التى ساهم فى نشرها أولئك الذين لم يحظوا بأية موهبة حقيقية فاقتحموا عالم النقد والتنظير الفنى بروح هدامة تسعى لتدمير كل ماهو اصيل فى حياتنا الثقافية والفنية ، فالبحث عن معالم ذاتية – فى رأيهم – نوع من الرجعية والسلفية، ومسايرة الاتجاهات الاوربية وتقليدها ونسخها هو مواكبة لروح العصر وايقاعه ، وقد أدى ذلك الخلط إلى ضياع مواهب اصيلة واعدة بعد أن التبست عليها المفاهيم فتاهت فى خضم المدارس والاتجاهات . وبدلا من العمل الدوب على خلق صيغ فنية جديدة بالاعتماد على المعالم الثقافية والتراثية الممتدة فى عمق التاريخ المصرى، اصبح اللجوء الى اشكال وصيغ مستهلكة ابتكرها الآخرون، وفقد بذلك الفن المصرى بعض سماته التى كان جيل الرواد ومن تلاهم قد قطع شوطا كبيرا فى احيائها وتجسيدها .

إن السعى نحو ايجاد الصيغ التشكيلية المصرية يجب أن يكون هو المعيار الموضوعى الدقيق فى تقييم الأعمال الفنية ، وهو ما يجب أن يكون كذلك هدفاً سامياً لإنشاء الجوائز ومنحها وليس معيار النقل والاتقان لما هو موجود بالفعل من مدارس واساليب ، فذلك ينفى عن الفن المصرى المعاصر صفة الاصالة والابتكار ، بل يجعله

الفن التشكيلى

عديم القيمة والأهمية .

نحو استراتيجية ثقافية في مصر :

وإذا كانت مصر قد أصلحت خلال السنوات الماضية العديد من مشاكل البنية الاساسية سعيا للحاق بالتقدم العصرى ، فإنها فى أشد الحاجة اليوم إلى اعادة النظر فى البنية الأساسية للإنسان المصرى نفسه، الذى تكاتفت عوامل عديدة من أجل حرمانه المقدرة على التطور وأصابت عقله بالتوقف وخياله بالجدب ، مما جعله غير قادر على القيام بدور– سبق لأسلافه القيام به على خير وجه – من أجل تطور الحياة البشرية .

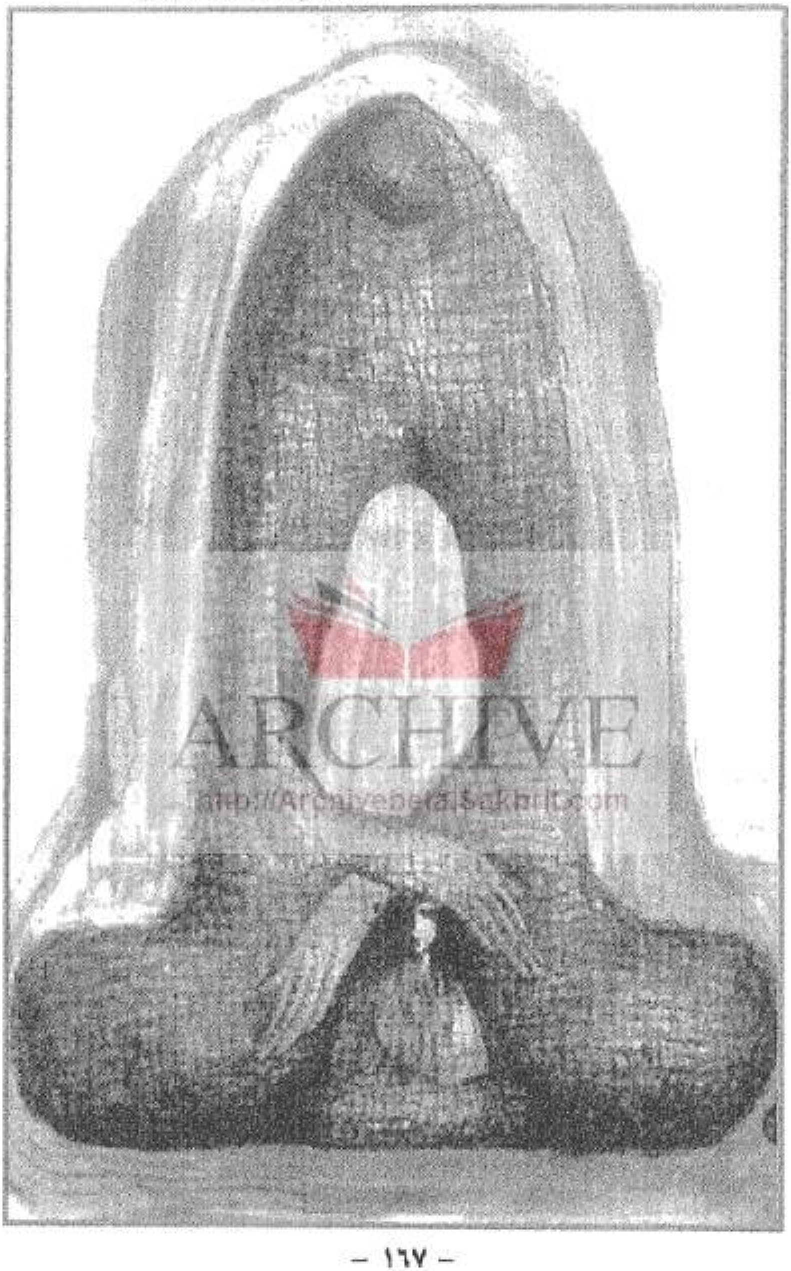
ولا ندرى هل هناك فى مصر اليوم المؤسسات التى تعنى بدراسة تلك الموضوعات المصيرية ، والتى ترصد بكل دقة الأسباب والعوامل التى تعوق تقدم الإنسان المصرى وتحضره ، ومن ثم تقترح الحلول الملائمة ، أم أن دراسة ومتابعة نمو وتطور المجتمع المصرى سيظل مقصوراً على الهيئات الأجنبية التى تجمع معاهد ومؤسسات خاصة فيها كل صغيرة وكبيرة على أرض مصر وتخضعها للدراسة والتحليل وتكون بها قاعدة علمية يرتكز عليها فى اتخاذ القرارات .

إن مصر بموقعها وتاريخها وتعداد سكانها لا تتوازن بكل هذه المقومات مع حالتها الثقافية المتواضعة التى أمست فى أشد الحاجة إلى إعادة النظر فى مخططاتها الثقافية المستقبلية برؤية علمية وموضوعية لا تكتفى بالشعارات الجوفاء التى لا تعبر عن واقع الأمر ، فليس عيباً أن يواجه المصريون مشاكل تطورهم لكن العيب أن ندفن رءوسنا فى الرمال متغاضين عن سلبيات حياتنا تاركين لها العنان فى التضخم والاستفحال .

وربما يبدو ذلك التناول لأزمة الفنون الرفيعة – ومن بينها الفنون التشكيلية – بعيداً عن كل ما ذكرناه ، ولكن النظرة المتمهلة تستطيع أن تدرك أن الفنون وتذوقها ليس ترفاً فى حياة الانسان المعاصر ، فصلتها بالسلوكيات والذوق العام لا يحتاج إلى تأكيد بعد فيض الدراسات التى أكدت هذه العلاقة .

فلا جدال أن الانسان الذى تشكل الفنون الرفيعة جزءاً من ثقافته يحتل فى سلم التطور والتحضر الانسانى درجة أسمى وأرقى ، وهو ما نحب أن يكون عليه كل المصريين .

الانسان - جمال السجينى





ناصر عراق

تاريخ الرسم الصحفى

بقلم : محمود بقشيش

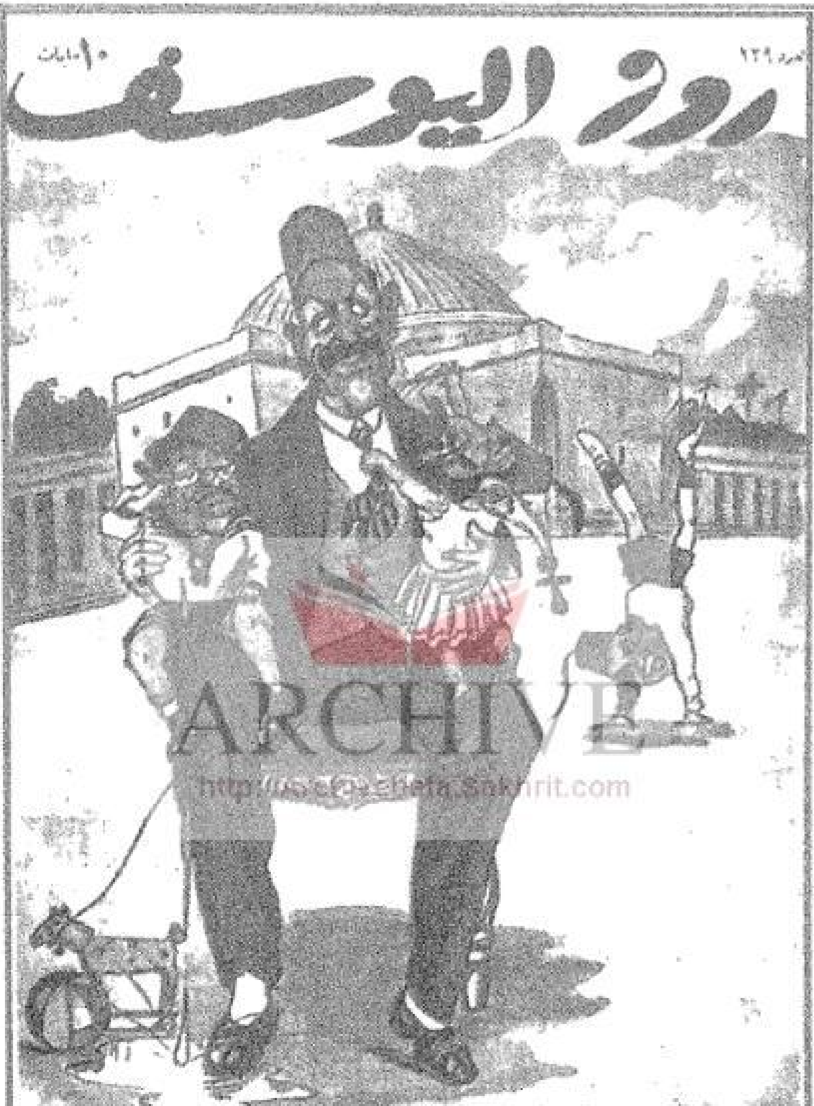
يُعد الفنان والناقد «ناصر عراق» من أكثر أبناء جيله ولعا بالصحافة - أو بدقة - إيمانا بها وبدورها التنويري وبقدرتها على خلق ذهنية عربية تستطيع الإسهام في الحيوية الثقافية العالمية. فاز أخيرا بالجائزة الأولى في مسابقة «جائزة أحمد بهاء الدين» عن بحث شائق بعنوان: «تاريخ الرسم الصحفي في مصر» . ويعد هذا البحث الأول من نوعه فلم يسبقه إلى هذا الموضوع أحد. وكانت البحوث السابقة قاصرة على «النص الصحفي» من حيث بنيته ومجالاته وموضوعاته المختلفة واقتصرت بعض البحوث حول إبداعات بعض رسامي الكاريكاتير ؛ مثل البحث الذي أنجزه «د. عمرو عبد السميع» حول إبداعات والده رسام الكاريكاتير الكبير «عبد السميع» كما أعد الفنان «صلاح بيصار» كتابا حول إبداعات كبار رسامي الأطفال في الصحف المصرية :



اللطائف المصورة - ٣ مايو ١٩١٥


وقايع مصرية

اول رسم فى الصحافة المصرية عام ١٨٢٨



غلاف روز اليوسف

للفنان صاروخان



رسوم صاروخان على أغلفة آخر ساعة المصورة

وكتب بعض النقاد مقالات ودراسات حول إبداعات بعض الفنانين الذين يحتفون بالرسوم التوضيحية الصحفية بالقدر نفسه الذى يقبلون فيه على إنتاج فن «لوحة الحامل» أمثال: حسين بيكار ومحمد حجى وحلمى التونى والحسينى فوزى وحسن فؤاد. لم يكن فى خطة «ناصر» الاكتفاء بموهوب واحد - وما أكثرهم فى الصحافة المصرية - بل أراد أن يكتب عن كل الموهوبين، لهذا اختار لهدفه منظورين متكاملين : منظور «الطائر» الذى يتيح للعين المعالم الإجمالية دون التفاصيل ومنظور «الميكروسكوب» الذى يتيح للعين رؤية التفاصيل الدقيقة وحدها. وكان عليه أن يقوم بدور الجراح الماهر ودور البناء فى آن واحد . كان عليه أن يميز الجزئى من الكلى وأن يستخلص من الكلى حكمته وقد فعل ذلك بمهارة ملحوظة.



الرئيس جمال عبد الناصر بريشة صاروخان

زمن الفعل

اختار «ناصر» بحس الصحفى الذى يتعقب الحقائق المثيرة أينما وجدت وبوعى المؤرخ الوطنى مساحة زمنية مفعمة بالأحداث الجسام . وقد أتاحت له تلك الأحداث مادة ثرية نسج من خيوطها صورة باهرة لنضال الشعب المصرى من أجل الحرية ومن أجل تألق مواهب مبدعيه فى آن واحد. اختار مساحة زمنية لتلك الدراما الحضارية، تبدأ من الغزوة النابليونية سنة ١٧٩٨ إلى الاحتلال الإنجليزى سنة ١٨٨٢ . وعلى الرغم من أن الغزوة العسكرية الفرنسية كانت



الفلاح المصرى عام ١٩٥٠
رسوم حسن فؤاد

استعمارية فقد أجمع المؤرخون على أن مصر لم تعرف الصحافة إلا مع قدوم الحملة الفرنسية . ومن المعروف أنها أحضرت معها أول مطبعة عربية لطبع المنشورات والبيانات. ويذكر «ناصر» أن الدكتور «أحمد حسين الصاوى» قال فى كتابه «فجر الصحافة فى مصر» :

«إن بونابرت كان يخشى ألا تفى الطابعات والحروف التى طلبها من حكومة باريس بالغرض وبخاصة فيما يتصل بالطباعة العربية فكتب إلى العالم «مونج» يطلب إليه أن يعد للحملة مجموعات من حروف الطباعة العربية» . وقد ظهرت الرسوم لأول مرة مصاحبة للشعارات والبيانات التى كانت تصدرها الحملة. ومن عجب أن الأخطاء المطبعية التى نلقاها فى صحف اليوم بالعشرات لم يكن يسمح لها نابليون أو محمد على .

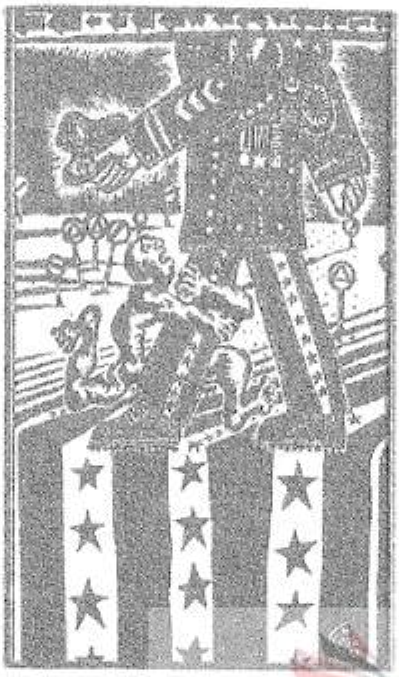
أما أول رسم ظهر فى الصحافة المصرية فقد ظهر على غلاف مجلة «الوقائع المصرية» سنة ١٨٢٨ . وقد لاحظ «ناصر» أن ظهور الرسوم أو تسللها - حسب تعبيره - قد حدث عبر الإعلانات التى تروج للسلع الترفيهية مثل العطور والمشروبات الكحولية وغيرها وقد قدم «ناصر» نماذج منها نشرت فى جريدة الأهرام سنة ١٨٩٥. ولم يكن فى ذلك الزمن رسامون مصريون يقومون بهذا الدور بل كانوا من الأرمن ومن جنسيات أخرى، وكان من الطبيعى بعد أن فتح الاستعمار الإنجليزى سوقا رائجة للمنتجات الإنجليزية أن تدور الإعلانات حولها.

الرسوم الكاريكاتيرية

كان لابد أن يتوقف الكاتب بالتحليل عند مجال من أخطر المجالات الفنية وهو «الرسم الكاريكاتيرى» لما يتمتع به هذا الفن من طاقة تحريضية هائلة بسبب قدرته على الإضحاك والنقد الكاشف والطابع الخطابى الذى يتوجه به مباشرة إلى القارىء، لهذا كان من الطبيعى أن يجد فرصته فى مجلة «اللطائف المصورة» وقدم «ناصر» عددا من الرسوم الكاريكاتيرية السياسية التى ظهرت فى المجلة سنة ١٩١٥، ويبدو من أسلوب الرسم أن أصحابها - كما لاحظ ناصر - رسامون أجانب وأن تلك الرسوم كان قد سبق نشرها فى إحدى الدوريات الأوربية. وقد اكتشف «ناصر» أثناء بحثه فى الجرائد المصرية القديمة رساما كاريكاتيريا مصريا يدعى «ايهاب خلوصى» ورسومه بالفعل على جانب كبير من الموهبة . وكان من الطبيعى أن يحتفى «ناصر» بمجلة «روز اليوسف» وإن شئنا الدقة قلنا «مدرسة روز اليوسف» فقد ضمت أفذاذ هذا الفن من أجيال متعاقبة، أمثال «صاروخان، وزهدى، وصلاح جاهين والليثى ورجائى ونيس وحاكم وجمعة وحجازى وروف»، ولأن فن الكاريكاتير فن ناقد بطبيعته، لاذع فى نقده فإنه يزداد ألقا مع الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ونحن لاننسى

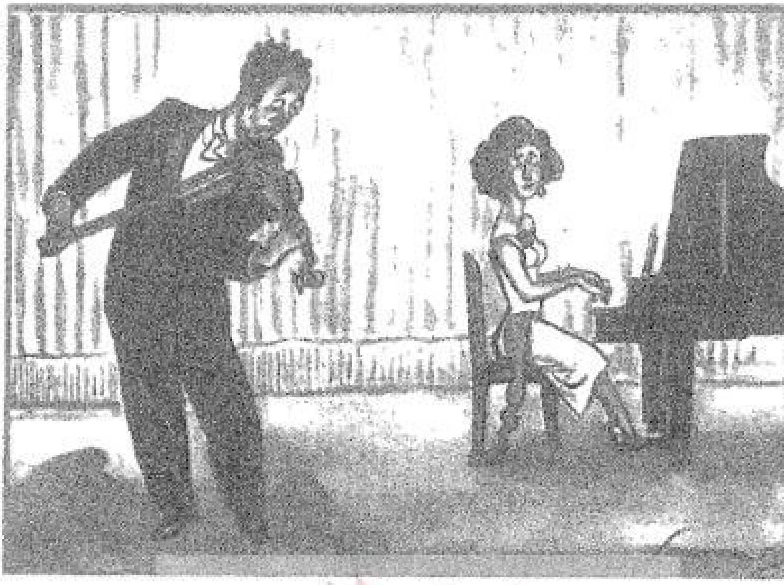


غلاف المستقبل للفنان صاروخان



من كتاب شمال يمين
للفنان محمد حجى

ردود الفعل التى حدثت عند ظهور الرسم الكاريكاتيرى لصلاح جاهين الذى صور فيه هجاء لاذعا على فكرة تطبيق الميثاق وفضيحة تلوث مياه الشرب، وأصداء رسوم «ناجى العلى» غنية عن التعريف، وأنكر أن كتاب «شمال يمين» للفنان «محمد حجى» «وهو كتاب كامل من الرسوم الكاريكاتيرية التى رسمها الفنان بنفسه، منتقدا السياسة الأمريكية بشدة» قد رفعها المتظاهرون أثناء إحدى المظاهرات المضادة لتلك السياسة فى طرابلس . ويبدو أن صديقنا الفنان الناقد «ناصر عراق» قد تأثر - بعض الشىء - بالطبيعة الاقتحامية لفن الكاريكاتير فيفاجئنا - بين الحين والحين - بخطاب مباشر إلى القارىء كأن يقول: «تعالوا أقول لكم .. كذا!» وعلى الرغم من حرصه على أن يكون جادا أو عابسا بعض الشىء فإنه يلتقط من الحقائق التاريخية ما يستدعى الضحك ولكنه. كما يقول الشاعر - ضحك كالبكا فيذكر واقعة مخزية من «سعيد باشا» بقوله - أعنى قول «ناصر» - : «هى المرة الأولى فيما أعلم التى يقدم فيها حاكم مصرى على إهداء المطبعة



اللحظة الحرجة من كتاب صاروخان

الرسمية الوحيدة والمملوكة للدولة لأحد موظفيه !! - بقصد مطبعة بولاق - ويستطرد «ناصر» بقوله : «لاتتعجب عزيزى القارىء من السبب الذى دفع والى مصر إلى اتخاذ هذا القرار المثير، ذلك أن ولى النعم أراد أن «يكون ذلك سببا لاتساع معاشه»!! .

ملاحظات ختامية

وعلى الرغم من الجهد الكبير الذى بذله «ناصر عراق» فى بحثه عن الحقائق التاريخية فقد أدهشنى أن غاب عن ذاكرته اثنان من أفذاذ فن الإخراج، ليس فى مصر وحدها بل فى العالم العربى: أولهما هو الفنان «عبد السلام الشريف» مؤسس هذا الفن فى مصر. وثانيهما الفنان متنوع المواهب «عبد الغنى أبو العينين». وتاه من قلمه حشد من كبار الرسامين الذين أثروا الصحافة المصرية برسومهم الرائعة أمثال : جودة خليفة ونبيل تاج وجميل شفيق وعدلى رزق الله وعبد العال ، ربما لو كان قد تذكر هؤلاء أثناء اتهامه الرسوم الصحفية المعاصرة بتدنى مستواها بالقياس الى رسامى الأجيال السابقة لعدل من موقفه، كما أدهشنى تجاهل أغلفة الهلال والصور الرائعة للفنان والمخرج الفنى الكبير محمد أبو طالب .



الشعراء وكبار الحادثات

بقلم : وديع فلسطين

كان قارىء الصحيفة اليومية فى العقد الثالث من القرن العشرين يستفتح نهاره بقراءة قصيدة من وحي الساعة تتناول كبار الحادثات في مصر والعالم العربى وفى الخارج، وقد تصدرت القصيدة الصفحة الأولى من جريدة الصباح . فهذه قصيدة للشاعر أحمد شوقى (١٨٦٨ - ١٩٣٢) وتلك ثانية للشاعر حافظ إبراهيم (١٨٧٢ - ١٩٣٢) وهناك ثالثة للشاعر خليل مطران (١٨٧٢ - ١٩٤٩) وأحيانا قصائد للشاعر محمد الأسمر (١٩٠٠ - ١٩٥٧) أو لشاعر الأهرام محمد عبدالغنى حسن (١٩٠٧ - ١٩٨٥) أو لشاعر الجندول على محمود طه المهندس (١٩٠٢ - ١٩٤٩) ، وهلم جرا . فقد كانت للشعر منزلة فى الحياة العامة باعتباره صدى لكبار الحادثات ، فلا تمر حادثة إلا فجرت انفعالات لدى الشعراء ، وخرجوا على الناس من خلال الصحف الواسعة الانتشار يعلنون آراءهم ومواقفهم إزاءها . ولم يكن أحد من النقاد يعد هذا الشعر «شعر مناسبات» انتقاصاً من قدره واستخفافاً بالروح التى انبعث منها الشعراء فى نظم هذه القصائد.

وإذا اقتصرنا على شاعر واحد ، هو أحمد شوقى ، فقد كان شعره مرآة عصره، وكانت كبريات الحوادث تتراءى فى قصائده . أليس هو القائل عن نفسه :

كان شعرى الغناء فى فرح الشرق   وكان العزاء فى أحزانه

وعندما اندلع حريق فى ميت غمر فى عام ١٩٠٥ نظم قصيدة مطلعها :

الله يحكم فى المدائن والقرى

يا ميت غمر، خذى القضاء كما جرى

وقال فيها :

فإذا لقيت لقيت حياً يائسا   وإذا رأيت رأيت ميتا منـــــكرا

والأمهات بغير صبر، هذه   تبكى الصغير ، وتلك تبكى الأصغرا

وعندما حكم بالإعدام فى دنشواى على فلاحين مصريين بتهمة قتل جنود إنجليز فى عام ١٩٠٦ انتقاماً منهم لأنهم كانوا يصيدون حمائمهم ، مع أن الواقع أنهم ماتوا متأثرين بضربة شمس ، نظم شوقى قصيدة مطلعها :

يا دنشواى ، على رباك سلام   ذهبت بأنس ربوعك الأيام

شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا   هيهات للشمل الشتيت نظام

وقال فيها :

كيف الأرامل فيـك بعد رجالها   وبأى حال أصبح الأيتام ؟

«نيرون» لو أدركت عهد «كرومر»   لعـرفت كيف تنفذ الأحكام

وعندما ضرب الأسطول الإيطالى بيروت فى عام ١٩١٢ ، نظم شوقى قصيدة بعنوان «نكبة بيروت» قال فيها :

كل بصـــيد الليث وهـــو مقيد ويعز صيد الضيغم المفكوك
ما كنت يوماً للقنابل موضـعاً ولو أنها من عسجد مسبوك
سالت دماء فيك حول مساجد وكنائس ومدارس وبنـــوك

وعندما اعتدى على حياة الزعيم سعد زغلول باشا (١٨٦٠ - ١٩٢٧) فى عام ١٩٢٤ ، نظم شوقى قصيدة مطلعها :

نجا وتمــاثل ربانهـــا ودق البشـائر ركبانها
وهلل فى الجو قيدومها وكبر فى الماء سكانها

إلى أن قال :

ونجى الكنانة من فتنة تهددت النيل نيرانها

ولما اعتدى الفرنسيون على دمشق فى عام ١٩٢٥ ، أنطقت الفجيعة شوقياً بقصيدة مطلعها :

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشـــق
ومعذرة اليراعة والقوافى جلال الرزء عن وصف يدق

إلى أن قال :

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

وحتى عندما وقع زلزال فى اليابان فى عام ١٩٢٦ ، لم يتخلف شوقى عن المشاركة بشعره فى هذه الكارثة فنظم قصيدة مطلعها :

قف بطوكـيـو ، وطف على يوكـوهامـه
وسل القـريتين : كـيف القـيـامـه ؟
دنت السـاعـة التي أنذر الناس،
وحلت أشـراطهـا والقـيـامـة
قف تأمل مـصـارع القـوم وانظر
هل ترى من ديار عـاد دعـامـة ؟
خـسـفت بالمساكن الأرض خـسـفـا
وطوى أهلهـا بسـاط الإقـامـة

وعندما نفذ الإيطاليون حكم الإعدام فى الزعيم عمر المختار فى عام ١٩٣١، شارك شوقى فى هذه المناسبة بقصيدة مطلعها :

ركزوا رفاتك فى الرمال لـواء يستنهض الوادى صباح مساء
ياويحهم ، نصبوا مناراً من دم يوحى إلى جيل الغد البغضاء

إلى أن قال :

وأتى الأسير يجر ثقل حـديده أسـد يجرر حية رقطـــاء

كل هذا الشعر الذى نظم فرائده الشاعر شوقى فى كبار الحادثات - ودع عنك ما نظمه غيره من شعراء جيله - عرف طريقه إلى النشر على الصفحات الأولى فى الصحف ، وكان صداه بعيدا .

ولكن هذا التقليد بسرعان ما تقلص وانتهى، إذ اختفى الشعر من الصفحات الأولى ، وتوارى فى الصفحات الداخلية ، بل كاد يتوارى نهائياً



حافظ إبراهيم



على محمود طه

بعدما اقتضت المدارس الجديدة في الصحافة إيلاء أولوية أولى للأخبار ومجريات الأحداث ، ولا سيما مع وقوع الحرب العالمية الثانية ، وتقلص عدد صفحات الصحف، واختفاء كبار الشعراء الذين غيبهم الموت، فمات شوقي وحافظ في سنة واحدة هي عام ١٩٣٢، أما ثالثهما وهو خليل مطران فقد أرخى له في العمر إلى عام ١٩٤٩ .

وعندما حلت بالأمة العربية كارثة ٥ يونيو ١٩٦٧، التي اصطلح على تسميتها بالنكسة ، قلبنا الصحف بحثاً عن الشعر الوطني الصادق بساق في هذه المحنة ، فلم نجد منه شيئا ، ربما لأن الكارثة ألجمت كل الألسنة وحكمت على قرائح الشعراء بالعقم ، فلم يجودوا بشيء ، باستثناء الشاعر السوري نزار قباني (١٩٢٣ - ١٩٩٨) الذي طلع علينا بقصيدته «هوامش على دفتر النكسة» والشاعر السوري محمد سليمان الأحمد المكنى «ببدوي الجبل» (١٩٠٤ - ١٩٨١) بقصيدته الرائية المعنونة «من وحي الهزيمة». وحتى هاتان القصيدتان لم تعرفا السبيل إلى النشر في الصحف ، فكنا نتبادل نسخاً منهما وحفظناهما بالاستظهار . أما الشاعر السوري عمر أبوريشة (١٩٠٨ - ١٩٩٠) فقد انتهز فرصة مشاركته في رثاء الشاعر اللبناني بشارة الخوري المكنى «بالأخطل الصغير» (١٨٨٥ - ١٩٦٨) وضمن مرثيته بيتين من الشعر عن قمة الرباط التي عقدت بعد النكسة جاء فيهما :

الشعراء وكبار الحادثات

إن خُوطبوا كذبوا ، أو طولبوا غضبوا
أو حوربوا هربوا ، أو صوحبوا غدروا
خافوا على العار أن يُمحى فكان لهم
على «الرباط» لدعم العار مؤتمر

وكنت في ذلك الوقت صديقاً للشاعر المهجري جورج صيدح (٩) الذي اختار باريس للإقامة بعد هجرة طويلة في أمريكا الجنوبية ، فتلقيت منه قصيدة نارية الألفاظ نظمها من وحي النكسة واختار لها عنوان «واشكيباه». ذلك أنه قرأ لكاتب في إحدى الصحف احتجاجاً على تدنيس المساجد الإسلامية في فلسطين ختمه بقوله «أين الأمير شكيب أرسلان يطلق الصرخات من جنيف ، فتتألب على صوته الشعوب الإسلامية في جميع الأقطار ؟» فعلق الشاعر على ندائه بقوله :

رمم نحن ، دع شكيباً وهمه
قاصف الرعد لا يحرك رمه
حشرجات الإباء ضاع صداها
في كهوف المطامع المدلهمة
والوفا للأمير لم يبق منه
غير همس الثنا ودس المذمة
رحم الله عهده، كان فيه

قـولة الحق لا تشكل تهـمـه
أصبح اليوم أصدق الشعر يخشى
من حـواة الكلام نقـدا ونقـمـه
فـضح الخطب علة الضن والجبن
وعـرى الدعى من ثوب صـمـه
فـشكا الغـادرون غـدر الليـالى
وبكى السارقـون سـالف نعـمـه
مـا تمطى على المسـاجـد علج
يوم كنا على صـراط الأئمـه
يوم طعنا لسنة الله فـيـنا
فـاستطعنا مـا ليس تسطيع أمـه
ذلك الحظ خـانـنا حين خـنا
وخـفـرنا لأرضنا الأم ذمـه
ولأدهى من صـدمـة هشـمـتنا
مـا دهانا من غـفلة بعد صدمه
فـإذا نحن كـالحـبـارى ذكـاء
وابتناء ، وكـالنعـامـة حكمـه
أترانا من الملمـة ننجـو ؟
كيف ننجو ، ونحن نحن الملمه ؟

***

غـاب عنا نجم المجـوس فـسـرنا
فى الدياجى تجاذب الغرب نجمه
فـحـبـانا مـذنبـا إخطبـوطا
نافـثـا فى مـقـاتل الشرق سمـه
حطمـتنا شـبـاكه الزرق حـتى
سلبـتنا حس المصـاب بحطمـه
صـحـوة الموت بالفـدائى طارت
هل أطارت عن الأنانى نومـه ؟
لا تزال الكئـوس تسـقى ثرانا
والدمـاء البـراء تصـبغ ثلمـه
قـد هزلنا أمـام جـد الأعـادى
فـانتهـينا قـبل ابتـداء المهـمـه
واسـترحنا على الحضيض كصخر
حطه السيل من مـشـارف قـمـه
لم نجد فى الشعوب شعباً سوانا
خـذلتـه أرحـامـه دون رحـمـه

غـيـرة الدين ألبت كـاشـحـينا
لم تؤلب جـمـوعنا ، وهى جـمـه
يا «حـقـوق الإنسـان» لا تشملينا
نحن قـوم نبـيـع حـقـا بلقـمـه

كانت هذه القصيدة صرخة شاعر أحس بالفجيعة الطاغية ، فطلق هذه السهام القاتلة تعبيراً عن أساه تلقاء هذه النازلة . وهو معذور فى تشاؤمه لأن الداهية كانت فوق التصور. وقد بعث الشاعر بنسخ من هذه القصيدة إلى أصدقائه الذين أخذوا يتداولونها فيما بينهم.

حركت هذه النغمة التشاؤمية التى سرت فى طول القصيدة وعرضها الكوامن لدى شاعرين من أصدقاء جورج صيدح ، هما محمد عبد الغنى حسن وعادل الغضبان (١٩٠٥ - ١٩٧٢) ، فنظم كل منهما قصيدة من الوزن والبحر والقافية نفسهما فى معارضة القارعة الصيدحية، وخصني كل منهما بنسخة من قصيدته حفظتها ضمن ضنائنى حتى جاءت هذه السانحة لإخراج القصيدتين إلى النور .


خليل مطران


محمد عبدالغنى

وإذا كان صيدح قد غلبه اليأس وطغى عليه التشاؤم ، فإن عبدالغنى حسن (٢) وعادل الغضبان غلب عليهما التفاؤل وبشرا بقرب الخلاص من هذه المحنة.

كانت قصيدة محمد عبدالغنى حسن بعنوان «أية أمه» قال فيها مخاطباً صيدحا:

لا تلمها فى الحادثات الملمـة
إنهـا أمـة ، وأيـة أمـه
كيف لا يحمل الحوادث شـعب
عربى السمات ، عالى الهمـه؟
لا تفل الخطوب من غرب متنيه
ولا تثلم المصـيـبـة عـزمـه
يتلـقى من الهـزيمة درسـاً
يتحدى الليـالى المـدلهمه
فيحيـل الدجى وضـاءة صـبح
ويرد الشـكوى حـلاوة نغـمـه
ويصوغ العبوس من صفحة الدهر
ائتـلافا على الشـفاه وبسمه

•••

قد بلينا من اليهـود قـديما
وبلينا منهم حـديثا بنقـمـه
لليهـودى غدرة وصـغار
مشـبـه فيهمـا أباه وأمه

هو للمال تابع ، يتـــــلقى

فى ســبيل الدولار أحقر لطمه

قد أقاموه شوكة فى جنـــوب

عرفت غـــدره قـــديما ولؤمه

هل نسيتم «بنى قريظة» لما

نكثـــوا للنبى عهــــدا وذمه ؟

حين أجلوا عن الجزيرة يومـاً

انجلت فيه بانجلائهم كل غُمــه

***

إنها الحرب يا صديقى سجال   فلم اليأس عند أول صدمه ؟

بيننـــا فى الوغى لقـــاء طويل   ومــواعيد فى المعارك جمـه

لا «السويس» اشتكت ولا «بورسعيد»   أضعفت روحها القوية ظلمه

إن تفتتـــا بداية من حظـــــوظ   فالـبدايات بعدهـن التتمـــه

***

لا تظنوا الخطـــوب منبع شـر   رب خطـــب وراءه ألف نعمــه

إنهـــا نكسة ، ولكن فيهـــا   من دروس الحياة أجمل حكمه

وحدتنا على الحـــوادث صفا   ألفتنا على المصــائب حــزمه

فالتقينا بالأمس فى خير قمة   وغداً نلتقى بأرفـــع قـــمــه



نزار قبانى

أما الشاعر عادل الغضبان (٢) فكان بدوره متفائلاً ، واختار لمعارضته نفس عنوان قصيدة صيدح «واشكيباه» حيث قال :



بشارة الخورى

صـــيدح الأيك ، تلك أغـــرب نغـمــة

سامت العـرب تهمـــة بعد تهمـــه

وأحـالتـهـمــو عظامـــا رميمـــا

غطت الأرض ، رمـــة جنب رمـــه

ونفت منهـمـــو الكرامـــة حـــتى

ليـبـيـعـــون كل حق بلقـــمـــه

ورمــــتـــــهم بالمخـــزيات توالت

وصـمـــة تلو وصـمـــة تلو وصـمــه

فـــإذا هم مـــثل الحـبـــارى ذكـــاء

وإذا هم مـــثل النعـــامــــة حكمـــه

مـــا بهم غـــيـــر قـــادر يتـشكى

وســوى سـارق بكى فـــقـــد نعـمـــه

ودعى ســـمـــــا بدنيـــا نفــــاق

فـــتـعـــرى فى الروع من ثوب صـمـــه

وجـبـــان على الحـيـــاة حـــريص

سد أذنيه يوم قيل هلمه

وخؤون جفا كريم المبادى
وتمادى فى نكث عهد وذمه

عمرك الله ، يا أخى تمهل
إن فى راحتيك مهجة أمه

***

شدة ألهمتك حر بيان
ساير اليأس فيه ركب المذمه

أنت فيه ، وإن قسوت مقالاً
عربى بث القوافى همه

قسوة تؤثر الصلاح ولكن
تنكأ الجراح ، والجراحات جمه

أفدح الرزء أن يصاب شقيق
بشقيق يراه يأكل لحمه

واشكيباه ، ليت كل يراع
يحتذى حذوه بيوم الملمه

ويدويه فى البلاء نداء
يكشف الله بعده شر غمه

فى جهاد يدق عنق عدو
لا يراعى لمنزل الله حرمه

يتلقاه فيه صيد غضاب
غضبة الموج داست الريح يمه

ويثيرونها على البغى حرباً
لا أناة بها ولا طيف رحمه

كلما جاس منه فى الروض صل
سحقوه، وجنبوا الروض سمه

فغداً تنعم البلاد بعيد
تشرق الشمس فيه من بعد ظلمة

وعندما نظم الغضبان هذه القصيدة ، بعث بها إلى صيدح ومعها رسالة يقول فيها «مختلفان رأياً متفقان وداداً» .

أما الأمير شكيب أرسلان (١٨٧٠ - ١٩٤٦) الذى استنفرت همته لتأليب أمة العرب على أعدائها، فهو مجاهد عربي رفع صوته عاليا على مدى نصف قرن لإيقاظ العرب من غفلتهم ولمناهضة الطغيان والاحتلال الأجنبى لبلادهم فى مئات من المقالات نشرها فى صحف العالم العربي وأوربا ، كما أن له طائفة كبيرة من الكتب الضخام منها «الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية» وهو فى ٣ أجزاء و«حاضر العالم الإسلامى» وهو

الشعراء وكبار الحادثات

موسوعة دونها الأمير شكيب على متن كتاب ترجمه عجاج نويهض (١٨٩٨ - ١٩٨٢) عن المستشرق ستوذارد لوثروب ، كما أن له ديوان شعر عنوانه «الباكورة».

وإذا كانت قصيدة «واشكيباه» لجورج صيدح قد استنهضت حمية الشاعرين محمد عبد الغنى حسن وعادل الغضبان فعارضاها حتى لا تشيع روح الهزيمة وضياع الأمل فى النفوس ، وهى الروح التى كانت سائدة فى ذلك الوقت، فقد أرخى الله فى العمر للشعراء الثلاثة حتى شهدوا مصرع النكسة فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣، إذ توفى الغضبان فى السنة نفسها، ولحق به صيدح فى عام ١٩٧٨ وانضم إليهما محمد عبدالغنى حسن فى عام ١٩٨٥، وبقيت قصائدهم التى يطالعها القراء لأول مرة، شاهداً على أن الشعر هو مرآة العصر ، وأن الشعراء لا يصمتون أمام كبار الحادثات حتى وإن عزت عليهم أسباب النشر، وامتنعت عليهم وسائل التواصل مع الجمهور العريض .



ابراهيم ناجى

(١) جورج صيدح من مواليد دمشق عام ١٨٩٣ نزح إلى أمريكا الجنوبية حيث عمل بالتجارة وشارك فى الأنشطة الأدبية مع زملائه المهجريين وأخرج عدة دواوين منها «النوافل» و«نبضات» و«حكاية مغترب» وشظايا حزيران، كما وضع كتاباً ضخماً عن تاريخ الهجرة عنوانه «أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية» .

(٢) محمد عبد الغنى حسن (١٩٠٧ - ١٩٨٥) أديب وشاعر عرف باسم «شاعر الأهرام» . عمل بالتدريس ، ثم تولى إدارة بعض دور النشر وله عشرات من الكتب تتناول السير والتراجم والدراسات الأدبية والنقد الأدبى ، عدا دواوينه «من وراء الأفق» و«من وحى النبوة» و«من نبع الحياة» و«ماض من العمر» و«سائر على الدرب» كما أن له كتباً مترجمة ومحققة .

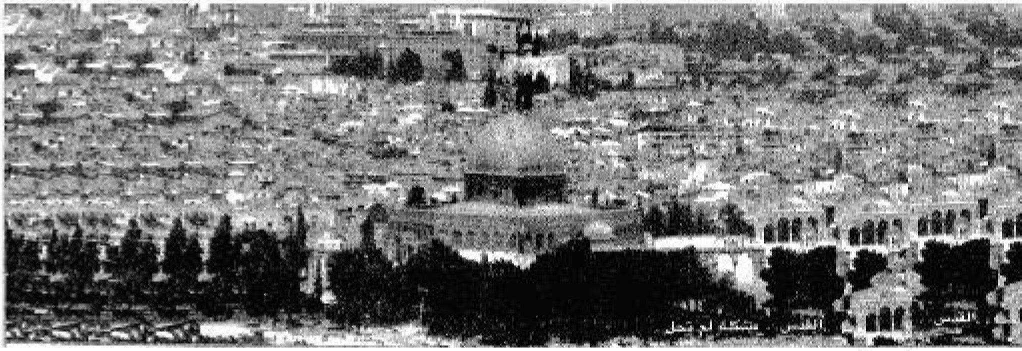
كلمات عاشت

ليس الزهد أن تملك شيئا بل الزهد ألا يملكك شىء
«على بن أبى طالب»

القلم بريد القلب يخبر بالخير وينظر بلا نظر.
«ابن المقفع»

ان الخير اعظم من السعادة وهو يشملها ويحتويها ولكنها لا تشمله ولا تحتويه
عباس العقاد

من اعتقد أن لا حياة الا هذه الفانية فقد خسر الاولى والثانية
«جمال الدين الافغانى»



يا قدس

شعر
محمد التهامي

كثير ببابك غنى السور | وأكثر منها لديك العبر
وتكرك أعيا لسان الزمان | لطول الحكايا وعمق السير
أيا قدس، يا ملتقى الأنبياء | ومن ذاق طعم الضحى فاخر

* * *

ويا راعة في يمين الوجود | تجمع فيها الهدى والقدر
تربى النبيون في حجرها | وأرست الحق حتى كبر
وخصّ كنانه بالإله أحبّ إليها | ومن الفتنة ألهاموا فيها البشر
وذا حربا واستوى فوقها | أتى بها الملوك تقص الأثر
وقد خشعوا على بابها | فهذا يجيء وذا ينتظر
فنزل خيط الهدى عندها | وأشرق فوق كل البشر

* * *

رأيا بمكة أهل الفناء | فأغضبني قريش وزاغ البصر
وخطوا عن النور أنظارهم | لكي لا يشد الهدى من نظر



تدلى لدى «القدس» خيط الرجاء ... وكان الهدى والمنى المنتظر

وفُتح فى القدس باب السماء ... وجاء لنا المصطفى بالخبر

فيا قدس يا راحة للنفوس ... ويا سورة من طوال السور

ويا صخرة لامستها السماء ... فما هى نور ولا هى حجر

ولكنها بين حضن السماء ... وحضن التراب لها مستقر

تضئ وتغلب كل الضياء ... إذا قل فى جنبها أو كثر

تضىء وفى قلبها زيتها ... وتحسدها الشمس قبل القمر

وتوزن بالدر أحجارها ... فتخجل منها كرام الدرر

بها لمسة من جناح البراق ... تبقَّى توهجها واستمر

تصلى على جانبيها الرياح ... ويغسلها بالعطور المطر

تعيد حفيف جناح يطير ... لغير قداستها لم يطر

ومن قبل أن تستجيب الرياح ... لإنس على منكبيها عبر

إلى «القدس» حيث تجلى النداء ... وكل نبى كريم حضر

وأول داع أقام الصلاة | أدار إليها التفات النظر
ولولاك «مكة» ما فاتها | ولا حاد عنها اشتياق البصر

* * *

تظل منى الروح في ديننا | وأولى مراحلنا في السفر
ومن هانت «القدس» في دينه | يكون لمن هان حتى كفر
وترك الجهاد إذا ما استبيح | بلاط الشعائر إحدى الكبر
أنخشى الجهاد وأعباءه | ولا نتقي جمرها في سقر
فياويلنا عند وزن الحساب | وعند التلاقي بيوم عسر
وحين نساق إلى عرشه | ويحكم في أمرنا المقتدر
أيا قدس ديسَ المكان الجليل | وغطى على الطهر رجس أشر
وسيقت لك النار خجلانة | وكاد ينوح عليك الشرر
وفي قدميك مضوا يحفرون | فتشهق تحت علاك الحفر
ويحرسك المسلمون الصغار | على حين خاف الكبار الخطر
تسنُّ العصافير منقارها | وتلقى على الدارعين الحجر
وتهرع عند دوى الرصاص | لأعشاشها في أعالي الشجر
كأن الحصاة بمنقارها | رمى «خالد» سهمها فانتصر
كأن الأبابيل في صفِّها | تعبئ أحجارها من سقر

* * *

يصلُّون في غابة للوحوش | تضج بأنيابها والظفر
بها الموت تخطئ أسبابه | وترميه كف جبان ذعر
فتخطئ من حولها في العراء | وتأخذ من بالجدار استتر
بهذا العمى في حصاد الحياة | تعمق إيمانهم بالقدر
وإيمانهم طوع المعجزات | وألبس ثوب الأمان الخطر
وأنبت أقدامهم في التراب | فأينعه تحت التراب الثمر
فلن تحرق النار أصل الحياة | ولن تحصد الكف جذر الشجر



المجهول .. عثمان صبرى صاحب أهم كتاب عن المسرح المصرى فى القرن العشرين

بقلم : صافى ناز كاظم

بمحض مصادفة عثر الناقد والباحث نبيل فرج علي واحدة من أهم وثائق المسرح المصري في القرن العشرين، كانت الوثيقة راقدة كتابا مهملا بين كتب قديمة على رصيف بشارع رمسيس عند محطة الاسعاف ، لفت نظره الغلاف بعنوانه ومؤلفه المجهول وعام النشر. «مجموعة روايات صبرى التمثيلية، تأليف عثمان صبرى - ليسانسيه فى الحقوق -، جزء واحد شبابنا فى أوربا، مع مقدمة الكتاب، مبحث فى فن التمثيل، ١٩٢٢» . بعين الخبير المدقق عرف الأستاذ نبيل فرج أنه كشف لمجهول، وتبين له فيما بعد قراءته، أنه حلقة ذات قيمة كبرى فى حلقات تراثنا المسرحى المصرى، فأسرع بنشرها ضمن سلسلة «نصوص مسرحية» التى تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة، مارس ٢٠٠٠ .



مسرحية «البيت المحاصر» قدمتها فرقة رمسيس عام ١٩٥٤

يقول الأستاذ نبيل فرج في مقدمته لهذه الوثيقة المهمة: «من الأسماء المجهولة في تاريخ المسرح المصري، التي لم يرد لها ذكر قط في الدوريات أو الكتب، أقدم لكم عثمان صبري، راجيا أن يأخذ مكانه في هذا التاريخ، بالقدر الذي يستحقه كاتب على هذا المستوى من الموهبة الفنية والطموح، كما أخذه من قبل إسماعيل عاصم، وعباس علام، وإبراهيم رمزي، ومحمد تيمور، وغيرهم وعثمان صبري ولد سنة ١٨٩٧ .. أولع في صباه بالمسرح، ومن الذكريات الجميلة التي ظلت راسخة في نفسه اصطحاب والده له في مطالع القرن العشرين وهو في التاسعة من عمره إلى دار التمثيل العربي لمشاهدة فرقة سلامة حجازي» . والحقيقة أنه لولا تأكدي طيلة الوقت وأنا أقرأ هذا الكتاب الوثيقة، أنني أقرأ صفحات مصورة من النسخة الأصلية، لدب الشك في نفسي ولما استطعت أن أصدق بسهولة، وأنا أقرأ

المقدمات والهوامش والتعليقات والاستدراكات التى كتبها عثمان صبرى - هذا الذى لم نسمع باسمه من قبل من أى مصدر حى أو مكتوب - إن ما أقرأه صفحات كتبها صاحبها منذ أكثر من ثمانين عاما، وقدمها ضمن مشروع أعماله الكاملة، التى لاتزال بقيتها مفقودة، والغريب ليس فقط فى الصياغة الطازجة التى كتب بها عثمان صبرى مقدمتيه، وسخونتها الشابة، ولا فى سعة أفق إطلاعه الثقافى والمسرحى ومهارة لمة معلوماته من مصادرها المتعددة : تركية وفرنسية وانجليزية، ونسجها قواما يغذيه الهم الثقافى المصرى، ولا فى أن صاحب هذا المستوى العالى والعميق من الثقافة والوعى الفنى، كان شابا لايتعدى وقت كتابة تلك الصفحات العشرين من عمره، والخامسة والعشرين عند إخراجها فى صورة كتاب، لكن الغريب حقا أننا لم نسمع من قبل عن هذا الناقد المسرحى، الكاتب، المؤلف ، الفنان، المثقف، الرائد : عثمان صبرى الذى كان معاصرا لتوفيق الحكيم وطه حسين، والمجموعة الرائدة من المهتمين بالمسرح فى تلك الآونة، حتى أن السيدة فاطمة اليوسف لم تشر إليه فى كتابها «ذكريات» الذى خصصت القسم الأول منه لذكرياتها عن المسرح تحت عنوان «الكتاب الأول : أيام الفن» وأصدرته فى طبعته الأولى ديسمبر ١٩٥٣، العدد الأول من سلسلة كتاب روزاليوسف . ولقد تحدثت فى هذا القسم على مدى ٧٧ صفحة عن كل الأسماء البارزة تقريبا فى ساحة المسرح منذ عام ١٩١٢ حتى تاريخ اعتزالها للمسرح عام ١٩٢٥ لتؤسس مجلة روزاليوسف التى قصدت بها أولا أن تكون مجلة فنية ناقدة راصدة للنشاط المسرحى على وجه الخصوص، كذلك لم يرد ذكره عند د.محمد مندور، ود.على الراعى، ود.إبراهيم حمادة، واستاذ فؤاد دوارة، وغيرهم ممن اهتم بالكتابة والبحث فى أسماء وشخصيات رواد المسرح العربى والمصرى، لقد قال لى أستاذ نبيل فرج إنه سأل د. فاطمة موسى عنه، ولكنها لم تجد له أى ذكر فى قاموس المسرح الذى تم إنجازه منذ سنوات قريبة، ولقد سألت أنا عنه العديد من المصادر التى أثق فى علمها وذاكرتها، فلم أجد لاسم «عثمان صبرى» أى صدى لديها، باستثناء أخى وصديقى أستاذنا الكبير الفنان حسن سليمان الذى أفاد بأنه التقى بعثمان صبرى فى مطلع الخمسينيات حيث كان يعمل معه فى الجامعة الشعبية، وكانت له ملامح وأصول تركية ويقترب عمره وقتها من الستين، وقال لى حسن سليمان إنه قام برسم لوحة لوجهه بناء على طلبه وأنها أعجبته جدا حتى أنه أخذها وهى طرية الألوان، وقال حسن سليمان إن هذا الشخص - الذى يظن أنه عثمان صبرى المسرحى، كان عالى الثقافة خاصة فى شئون المسرح العالمى، وأنه كان يسكن مصر الجديدة فى ذلك الحين وكان لديه زوجة وبنات جميلات «!» ومات متأثرا بإدمانه المشروبات الكحولية. وبما أن



فاطمة اليوسف



سلامة حجازي



محمد مندور

عثمان صبري - والعهدة على الراوي حسن سليمان - كان له بنات جميلات فلابد أن له على الأقل ولو حفيد أو حفيدة واحدة أكثر جمالا، فياليت يكون هناك من يواصل البحث ليجد لنا بقية مؤلفات عثمان صبري التي يشير إليها في قائمة بنهاية مجلده الأول - الوحيد الذي تم العثور عليه حتى الآن - لتكتمل لدينا المجلدات التسع الباقية .

***

يقع هذا المجلد الأول لعثمان صبري في ٤١١ صفحة، وهو يهديه «إلى أبناء الشرق الناهض، إلى مصر المستقبل الفنية، إلى نشء اليوم، رجال الغد من نبذر فيهم جذور مسرح المستقبل» ويحتوي قبل النص المسرحي على مقدمتين على درجة من الأهمية تفوق مسرحيته ذاتها، المقدمة الأولى التي يسميها «مبحث في فن التمثيل» يرجع تاريخ كتابتها إلى عام ١٩١٩ ومراجعتها ١٩٢٢ وتقع في ١١٥ صفحة. تبدأ بتعريف «التياترو» إذ يوضح في الهامش أن كلمة «تياترو» أوسع بدلالاتها من «فن التمثيل» وأنه مضطر إلى استخدام الكلمة الأجنبية «لأنه ليس في اللغة العربية كلمة تدل على هذه المجموعة من الدلالات رغم الكلمات التي وضعها بعض العصريين في هذا الباب.. وكيف يمكن وجود مثل هذه الكلمة في العربية والعرب كانوا يجهلون هذا الفن تماما» .

***

في مقدمته الأولى يضع عثمان صبري بأعلى الصفحات رءوس الموضوعات التي يتحدث فيها متنقلا من موضوع إلى آخر. علاقة المسرح بالفنون، أصل التياترو، وأقسامه، تقسيم الروايات التمثيلية، أنواع الروايات التمثيلية ، المسرح الطبيعي والفودفيل، أنواع التياترو المصري ، نقد أنواع الروايات، الأنواع الفاسدة، المذاهب المسرحية، رأي دوما - «دوماس» - نتيجة التمييز بين الأنواع، فوائد المسرح، ضرورة المسرح، نشوء المسرح، تطور المشاهد المسرحية، استشهاد على أهمية

التياترو، الحكومة الفرنسية والتمثيل الكوميدى فرانسيز، إعانة الحكومة للتمثيل، منزلة الممثلين، منزلة المؤلفين، التمثيل فى مصر، سبب انحطاطه، مسئولية الحكومة، مسئولية الأغنياء، تقصير الأجواق - «جمع جوق ويعنى الفرقة المسرحية بلغة ذلك الزمن» - ارتباط المؤلف والممثل والجمهور، أهمية وظيفة الممثل، علاج لانحطاط التمثيل، ايجاد تيار فكرى تمثيلى، ميزة الطبع - «ويعنى هنا طبع نصوص المسرحيات وإصدارها فى هيئة كتاب لحفظها من الضياع» - مهمة الممثل، استقلال المؤلف عن الممثل، انتشار الطبع فى أوربا، اهتمام دوما بالطبع «يقصد هنا الكاتب الفرنسى إسكندر دوماس الصغير» - رأى دوما فى الطبع، لزوم الطبع فى مصر، غرض المؤلف من الطبع، قلة فائدة الروايات المعربة، نداء إلى المؤلفين التمثيليين، حض المؤلفين على العمل، سقوط الروايات الفنية، ربح الرواية التجارية، الرواية المنحطة، تكوين شركة للطبع، فوائد الطبع، الآداب التمثيلية، ذكرى للمؤلف، فطرية الفنون، روايات المؤلف، نوع رواياته، دواعي اقتباس المؤلف، أهمية الاقتباس، استقلال المؤلف عن الممثل، الاقتباس، الشهرة والجمهور، الشهرة، خمول النبوغ، سبق الأدب للجمهور، أسلوب روايات المؤلف - «شديد الحماسة للغة العامية رغم اعترافه بأنه مضطر للكتابة بالفصحى»! - لغة الروايات، اللغة العامية، اللغة المسرحية تفوق اللغة العامية، المسرح والروايات العربية، نشر اللغة العامية، ضيق هذه المقدمة» - كل تلك المساحة العريضة من القضايا والهموم والأمور المسرحية والثقافية يجول فيها صاحبنا ويصول بقوة واقتدار وجرأة تتميز بعلو النبرة فى الغضب وحدة التهكم والسخرية من دون أن يجور ذلك على ذكاء الجدل وعمق فهمه لما يتكلم عنه، سواء وافقناه أم اختلفنا معه. بل إننى أكاد أجزم أننى لم أقرأ باللغة العربية لأحد بلغ مبلغه - خاصة من جيله - فى ذلك الفهم الواضح الجلى لماهية المسرح وتحدث فى أموره وقضاياه، بكل هذا الحماس والحب والوعى، ولعل كتاب المسرحى الراحل نجيب سرور «حوار فى المسرح» الذى صدر عام ١٩٦٩ يكون النموذج الشبيه لكتاب عثمان صبرى بعد مسافة امتدت بينهما إلى نصف قرن.

***

فى مقدمته الثانية يبدأ عثمان صبرى بقوله : «رأيت أن أضع قبل كل رواية من مجموعة رواياتى التمثيلية مقدمة موجزة أبحث فيها عن موضوع الرواية وعما له بها مساس ورابطة . أول رواية من هذه المجموعة هى رواية «شبابنا فى أوربا» .. وقد كتبتها فى أول سنة ١٩١٦، أى أننى كنت حينئذ فى نحو التاسعة عشرة من عمرى، لذلك قد لاتكون على جانب من الجودة والاتقان، أما الأصل فى نوع الرواية فهو مسلاة خلقية .. فى هنا حياة وأخلاق بعض الشبان المصريين فى أوربا

فيما يختص بعلاقاتهم النسائية» .. ونجد أن عثمان صبري يسمى الكوميدى «مسلاة» من التسلية والمتعة بدلا من «ملهاة» من اللهو أو اللغو التى كان بعض المترجمين قد اختاروها مقابل «كوميدى» وتقع مقدمته الثانية فى ٧٣ صفحة مؤرخة فى «المعادى سنة ١٩١٧» يشرح فيها بالتفصيل فكرة المسرحية وملخصها وعقدتها والمشكلة التى تعالجها، وهى مشكلتان : الزواج من أجنبيات – «الذى يعارضه تماما» – وأبناء الطبيعة – «أى الأبناء غير الشرعيين ويتعاطف معهم ويدافع بحرارة عن حقهم فى الاعتراف بهم مستندا إلى الشريعة الإسلامية والقوانين الفرنسية» – ويصدرها بحديث شريف : «أيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه يوم القيامة وفضحه على رءوس الأولين والآخرين» ثم يتلو سطرا من التوراة، سفر الأمثال يقول : «حافظوا على تقاليدكم تصونوا أنفسكم» وفى «كلمة إضافية» يوقعها مؤرخة «المنصورة ١٩٢٢» ينوه إلى أنه كان ينوى طبع الرواية – المسرحية – منذ كتب المقدمة سنة ١٩١٧ ولكن صعوبة وسائل الطبع المادية زمن الحرب – «الحرب العالمية الأولى التى بدأت ١٩١٤ وانتهت ١٩١٨» – عاقته عن ذلك، وأنه هم بطبعها بعد ذلك أوائل سنة ١٩٢٠ وعمل لها الكليشيه، «رسم السيد الفتى ايهاب خلوصى قبل سفره إلى ألمانيا» ولكن طرأ عليه من الأعمال الشخصية وتوقع السفر إلى الخارج ماحال دون ذلك» وقد كانت نتيجة لذلك أن هذه الرواية التى كتبت سنة ١٩١٦ لم يمكن البدء فى طبعها إلا فى أواخر سنة ١٩٢٢ أى بعد ست سنوات من كتابتها، ومعلوم أن فكر الإنسان يتطور ويترقى .. وحقا لقد تبين لى أن عقليتى ونفسيتى اليوم غيرهما قبل ست سنوات .. بحيث لو كنت سأكتبها الآن لما كتبتها هكذا خصوصا من جهة اللغة والوضع «القالب» ... لذلك لجأت إلى أن أدع الرواية كما كانت عليه تماما مكتفيا بالإشارة الى ما لا أوافق عليه الآن وانتقاده كأننى ناقد أجنبى عن كاتب الكتاب بل وعن نفسى وهذا فى الواقع هو عين الحقيقة لأن مؤلف الرواية الأصلى أجنبى عنى لا أثر له فى الوجود الآن، إذ أنى ، أنا الذى كنت قبل ست سنوات، بل أمس، قد ابتلعه الماضى وصار غير موجود الآن..»

***

يسمى عثمان صبرى مسرحيته – أو روايته بمصطلح ذلك الزمن مسلاة حديثة ذات أربعة فصول، ويقول فى إهدائها «لمن عسى أهدى هذه الرواية، التى هى أول زهرة من شجرة شبابى، تتضوع صفحاتها بأريج الشباب، وتفوح منها ذكراه وتتكلم عن عهده وهواه، إن لم أهدها إلى شبابنا، الذين فى أوربا، والذين فى مصر، إليهم كلهم سواء منهم الراحل وراء البحار، والمقيم فى أحضان وادى النيل، أقدم روايتى هذه..»

وتجرى أحداث مسرحيته فى فرنسا عام ١٩١٦ وأشخاصها هم: عزيز بك

قاض مصرى ٤٠ سنة، حسن طالب حقوق مصرى بفرنسا وابن جلال بك ٢٠ سنة، جلال بك من أعيان مصر المحافظين على التقاليد القديمة ملتح وعمره ٤٥ سنة، وجميلة زوجة عزيز بك، عمرها ٣٠ سنة، وشخصيات أخرى فرنسية منها فتاة جميلة عمرها ١٧ سنة، اسمها كلير متزوجة من حسن، وتبين أحداث المسرحية أنها ابنة غير شرعية لعزيز بك أنجبها من عشيقة فرنسية عندما كان طالبا شابا يدرس فى فرنسا !.

والمسرحية تحمل فى أسلوبها وبنائها فجاجة المحاولة الأولى للكتابة، وتبدو هزيلة بالمقارنة للنضوج والتوهج، الذى تبدى فى كتابة عثمان صبرى لمقدماته، مما يؤكد أن موهبته كناقد ومفكر مسرحى أعلى بكثير من قدرته الإبداعية كمؤلف مسرحى .

***

لعثمان صبرى آراؤه وأفكاره التى أخاصم شططها وعلى رأسها آراؤه فى اللغة العربية وانحيازه الكامل للغة العامية المصرية، وتأثره بنزعة التغريب فى عصره، بل يمكننا أن نعتبره واحدا من المروجين له، لاذعا ضد التمسك بالتقاليد الى حد التجاوز، غير المقبول رغم احتفاظه طيلة الوقت بخط رجعة يمكنه من إبراز مساوىء ذلك الغرب الذى ينشده، لكن عدم الاتفاق مع آراء عثمان صبرى وتوجهاته التى وصفتها بالشطط لايمنعنى من الاعتراف بقوة وعمق وغزارة وخصوصية تعبيره عن أطروحاته فى أعوام ١٩١٦ حتى ١٩٢٢ وهو فى مطلع عشريناته، يترجم من التركية والفرنسية والانجليزية حتى لتحسبه قد تعلم فى معاهدهم، ثم يكتب بلغة عربية سلسة وظريفة وحديثة وفصيحة وجزلة حتى لتتصور أنه من حفظة القرآن الكريم، ودارس للشريعة، أكل وشرب كل كتب التراث، وبلع، وهضم كل كتابات عصره المحلية والعالمية. يحمل راية تجديد فى الكتابة والصياغة، وناقد متمكن موهوب متمرد فى أفكاره، ومن فرط حبه لمصر وحماسته لبلاده مصر لايكف عن التنديد بأخطاء بنيها وتقاعسهم عن النهضة .

***

مازلت أتساءل ، من هذا الذى كانت له منذ ١٩١٦ كل هذه الثقافة الشاملة المتكاملة فى المسرح والسينما والأدب محليا وعالميا وبإمكانه هذه الكتابة الواثقة العلمية المنهجية المرتبة والجياشة بالوقت نفسه، من هذا الملتهب بالحماسة والغيرة والتهكم والغضب والأمل فى المستقبل، وكيف تم اخفاؤه والردم على اسمه حتى لا يأخذ حقه فى موقع الريادة بالمسرح المصرى، ناقدا ومفكرا، وباحثا ومؤلفا وهو الذى قال أملا فى الإنصاف: «وليأتين اليوم الذى تتفق فيه أذهان تلك الأمة فيهدمون أصنام الأدب التى يعبدونها اليوم، ويبجلون مكانها رسل الأدب الراقى والفن الصحيح، ولقد بدأت تظهر بشائرهم، كما أن الضربات الأولى بدأت تصيب تلك الأوثان القديمة» .

لغويات

● يخلط بعض الكتاب بين «الأعجمى» و «العجمى»، أما الأعجمى فهو غير الفصيح اللسان وإن كان نازلا فى البادية، أما العجمى فهو المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحا، والإعرابى هو البدوى وإن كان نازلا بالمدن، والعربى هو المنسوب إلى العرب، وإن لم يكن بدويا.

● نقرأ فى الصحف كلمة «إنشاء الله» مكتوبة هكذا حتى فى كتابة بعض المشاهير والصواب «إن شاء الله» لأن الفعل الماضى «شاء» لا يتصل عند كتابته بأداة الشرط «إن».. ولعل كاتبى «إنشاء الله» يحسبونها كلمة واحدة.. وهذا بعض الجهل المؤلم باللغة المغلوبة على أمرها.

● تشتهر بين العامة كلمتا «الطرشى» و«المخلل» لكثرة استعمال هذا اللون من الأكل كفاتح للشهية.. وكلمة «الطرشى» دارجة، وكلمة «المخلل» فصيحة.

● في مصر يقول العامة «سنكر الباب» أى أغلق الباب، وفى الشام يقول العامة «سكروا الباب» بفتح السين وتشديد الكاف المفتوحة، والصواب ما يقوله العامة الشاميون، وهو من الفصيح وللمطربة فيروز أغنية مشهورة عن بيروت تقول فيها «سنكروا الشوارع» أى أغلقوها.

● من الألفاظ التى يتوهمها بعض الأدباء عامية: «زاغ - كع - خنس» وهى ألفاظ أو أفعال فصيحة.. يقال زاغ عن الشىء زياغة.. وكع عن الشئ كعاعة.. وخنس أيضا ومعناها: أحجم عن الشىء ونكص عنه.

● ينطق الفصحاء كلمة «ترجمان» بفتح التاء وضم الجيم، وينطقها العامة بهذين الحرفين، وكلا النطقين فصيح.

درية شفيق ..

بقلم : د. أحمد السيد عوضين

ظهر فى باب بريد القراء فى ١٩٧٥/٦/١٤ فى صحيفة أخبار اليوم سؤال من القارئة: نانى مبارك نصه : أين ذهبت درية شفيق؟ ولماذا اختفت تماماً؟. ولعل الداعى إلى هذا السؤال هو أن درية شفيق كانت ملء السمع والبصر لسنوات طويلة، تشغل الصحف والمجلات، وتملأ المجتمعات بنشاطها، ودعوتها، وجهودها وندواتها، وكتاباتها المتصلة، دون أن تتوقف للحظة ثم على حين فجأة اختفت من الحياة الاجتماعية والسياسية، دون أن يرد لها ذكر فى صحيفة، أو تظهر لها صورة فى مجلة، وطال اختفاؤها دون أن يعرف الجمهور العريض لذلك سبباً !.

وجاءت الإجابة المقتضبة من الصحيفة لتقول: اتخذ قرار بإغلاق مجلاتها واتحادها النسائى بحجة أنها تمثل خطراً على الأمن العام. ولقد عزلت فى شقتها لمدة ثمانية عشر عاماً، وهى الآن تؤمن أن الصمت أبلغ من الكلام.

فما هو هذا القرار الذى اتخذ بإيقاف نشاطها وعزلها؟ ومن الذى أصدره؟ وما الداعى لإصداره؟ وقبل ذلك كله: من تكون درية شفيق؟ وما هو الدور الذى أدته فى المجال الذى ارتادته، ونذرت له الشطر الأكبر من حياتها، وكيف لها أن تمثل خطراً على الأمن العام؟.

ولعل كثيرين من أبناء الجيل المعاصر لا يعرفون شيئاً عن تلك الشخصية التى عاشت إلى ما قبل عام ١٩٥٧ تواصل العمل، دون أن تغيب - أو تتغيب - ودون أن تتوقف عن المضىّ فى تنفيذ ما خططت لتنفيذه ولو لفترة مؤقتة.

وقد اختلف المعاصرون لها: ما بين مؤيدين لها، يشيدون بجهودها. ويتحدثون عنها برضا وإعجاب، وبين آخرين كانوا يرون فيما تقوم به خروجاً على الدين، ومخالفة التقاليد، والأعراف.. وهى بين أولئك وهؤلاء كانت تمضى فى سبيلها، لا تضعف ولا تلين، بل تأتى كل يوم بجديد، تتجدد معه الإشادة بها، كما تتجدد به أيضاً الهجمات عليها.

***

وقد يكون من المفيد - قبل أن نمضى

مواقف من حياتها



مع الحديث عن درية شفيق - أن نشير إلى أن تاريخ أول لقـــاء لكاتب هذه السطور مع تلك الشخصية غير العادية يرجع إلى عـام ١٩٥٠ عندمـا قـدم إلى القاهرة ليدرس فى جامعتها العتيدة، وكان فى الوقت نفسه حريصاً على ارتياد جميع «ندوات» القاهرة طالما أن الدعوة إليها عامة، وباب الاشتراك فيها مفتوح أمـام الجـميع، وقـد طالع - ذات يوم - إعـلاناً عن ندوة يحـضـرها العـلامـة الدكتور/ أحمد زكى بك (شغل لفترة منصب مدير جامعة القاهرة، كما ظل لفترة طويلة رئيساً لتحرير مجلة الهلال) - وكان موضوع الندوة على - ما أذكر - يدور حـول «الإسـلام والمرأة». أمـا مكان الندوة فدار «بنت النيل» فى شارع قصر النيل . وعندما توجه صاحبنا لحضور تلك الندوة، لم يكن فى ذهنه أكثر من أنه سوف يتابع حديثا شيقا، يمزج بين العلم والدين، ويقدم خلاصة فكر واع، لشخص مستنير يتميز فوق علمه وأدبه بحلاوة العبارة، وجمال الإلقاء. غير أن صاحبنا فـوجىء لدى دخـوله «الدار» وهى شـقـة فسيحة فى إحدى العمارات الكبيرة فى ذلك الشارع الراقى، بتميز مكان الندوة عن سائر الأماكن التى تعقد فيها الندوات - فى العادة - صالة منسقة ، كل شىء فى مـوضـعـه، الحوائط تزينها لوحات، والمنصة عليها زهور، والجمهور يجلس على كراسى مريحة، والصالة تشيع فيها روائح فيـعشن، والعضوات يجلسن فى مختلف أنحاء الصالة أنيقات معطرات، بل ومبتسمات أيضا، فيشعن فى جو الندوة روحا من الود بل ولا يترددن فى تبـادل الحـديث - والنقـاش - مع الحاضرين ، فى مودة بادية، فإذا بهؤلاء الحضور يندفعون فى تأييد القضية حتى قبل أن يبدأ الحديث عنها. على أن الندوة ما لبثت أن ابتدأت حين اعتلى المنصة المتحدث الأول وإلى يمينه.. الزعيمة : سيدة أسرة، تتبعتها نظراتى منذ أن دخلت القاعة يسبقها عطرها الزكى، وتخطر بين الجالسين فى رشاقة وأناقة، بقامتها المنتصبة تعلو وجهها ابتسامة رقيقة، ونظرات حانية ، وينطلق صوتها خفيضا، ناعما، ولكنه واضح الألفاظ، بيّن المعانى، وتلقى بكلمات موجزة لكنها ثرية المضمون تقدم بها للندوة، وقطبها، ولم تكد تتوقف حتى دوت القاعة بالتصفيق - هل كان التصفيق لها أم للمتحدث الذى قدمته ؟ لا أدرى على وجه الدقة، وبالطبع لا يتـذكـر كـاتب هذه السطور مـا قـاله المحاضر فى تلك الندوة وإن كان لم ينس شـرحـه للآية الكريمة ، «وليـضـربن بخمرهن على جيوبهن» فقد كانت تلك هى المرة الأولى الذى أعرف فيها أن «الجيب» هو أعلى فتحة الصدر وأن الخمار هو ما يغطى الرأس، وينسدل ليغطى الصدر-



درية شفيق مع بنات وطالبات الثانوى ١٩٥٠

فيما عدا الوجه - وهى أقوال يستمدها قائلها من شرحه لألفاظ القرآن الكريم، واستنباط للأحكام من النص الخالد.. وفيما عدا هذه الإشارة فقد نسيت كل ما أفاض فيه المتحدث، إلا أننى لم أنس - ولا أظننى سوف أنسى - ما أعقب الحديث من نقاش، فقد عقبت صاحبة الدعوة بكلام كثير، وكان مما قالته أن المرأة سوف تستمر فى كفاحها حتى تحصل على كامل حقوقها، فتعتلى منصة القضاء، وتتبوأ كرسى الوزارة.. وما أسرع ما نهض كاتب هذه السطور طالبا الكلمة فى انفعال لم يلتفت معه إلى تلك البسمة المشرقة التى صاحبت إعطاءه الكلمة. وهو إنما كان يتحدث - فى الواقع - من وحى ظروفه الخاصة، ومن هنا كان قوله: إن الشباب يعانى من البطالة، ولا يجد فرص العمل، ومع ذلك نسمع مطالب غير منطقية.. فكيف للمرأة أن تتولى القضاء؟ قالها وقد خيل إليه أنه ألقى قنبلة، فإذا بشيخ وقور مازال يذكر صورته: بوجهه الخمرى، ونظارته السميكة، وتلك السماعة التى يضعها على إحدى أذنيه. وقف ذلك الشيخ مقدما نفسه بأنه مفتش اللغة العربية، ثم انطلق يتحدث فى طلاقة وانطلاق عن «المرأة قاضية» وكيف أن ذلك حقها الطبيعى، بل وراح يستشهد بوقائع من تاريخ الإسلام تولت

فيها المرأة أمر القضاء.. وانساب حديثه سلسا، فياضا، مع إيراد شواهد كثيرة، وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح.. كل ذلك، و«صاحبنا» فى حالة من الضيق لشعوره بالهزيمة وسط هذا الحشد الأنثوى، وقد زاد من ضيقه ما ختم به المتحدث حديثه إذ اتجه إليه متسائلا: فما رأى ابننا العزيز؟ وهل مازال عند قوله بأن المرأة لا تصلح قاضية؟ وأحس أن كل العيون تتجه إليه، ولم يجد لديه القدرة لأى قول آخر، فبادرت صاحبة الدعوة تنقذ الموقف، وعلا صوتها تشكر المتحدث، وتثير موضوعا آخر، وجهت إليه الحديث، فما كان من «صاحبنا» إلا أن تسلل خارجا فى هدوء، وما أن خرج إلى الشارع حتى أحس كأنه يفيق من كابوس ثقيل..!

***

ومع ذلك فما كان يقرأ عن ندوة لرئيسة بنت النيل إلا ويبادر إلى حضورها، وما كان يطالع مقالا لها، أو مقالا أو خبرا عنها وعن أنشطتها المتعددة إلا ويستوعب ذلك كله، فقد صار من المعجبين بتلك الشخصية، المتابعين لخطواتها التى ما كانت لتتوقف، ولكن ذلك كله لم يقطع المسافة التى تفصله عنها، فقد ظلت متابعته لها عن بعد، وظل تقديره لها، ولخطواتها لا يعدو تعبيره عنه ما يبديه من تعليقات فى أحاديثه بين زملائه، وهى أحاديث لم تكن لها نهاية .

غير أنه قد أتيحت لصاحب هذه السطور أن يلتقى برئيسة بنت النيل، وأن يتناقش معها وجها لوجه. ومازال يذكر وقت الأصيل من ذلك اليوم من أيام شهر نوفمبر من العام نفسه الذى قامت فيه الثورة. كان موعد محاضرة القانون التجارى، وكان حضوره بعد الموعد بدقائق، وفى طريقه إلى الباب الخلفى للمدرج لمح جمعا من الطلبة يقف أمام باب الكلية، ولما اقترب وجد أن «الزعيمة» تقف بينهم ، فكان من الطبيعى أن ينضم إلى هذا الجمع، وأن يشارك فيما يجرى من نقاش، وقد اختار هذه المرة جانب الزعيمة، ووجد نفسه يؤيد كل ما تقول، بل ويأتى بأدلة مساندة من قراءاته، وكم أسعده أن يسمع منها تأييدا لما يقول، بل وأن تستشهد بما قاله للرد على من كان يناقشها من الطلبة «المعارضين» دائما. ولا ينسى أبدا نظرة الود التى كانت تتبدى فى عينيها، وهى تتابع حديثه - المؤيد على طول الخط - وقد طال الحديث، ولم تقطعه سوى دقات ساعة الجامعة التى ما إن أعلنت الخامسة حتى وجدنا الزعيمة تشير إلى ساعتها وتنصرف مودعة، ثم تسرع فى خطاها إلى العربة التى كانت تقف غير بعيد، ولم يلبث الدكتور/ نور الدين رجائى - أستاذ القانون التجارى - أن حضر إليها، ولوح هو الآخر للطلبة مودعا، ثم تمضى به

العربة، وإلى جواره زوجته العزيزة: رئيسة بنت النيل!

★★★

لقد عاشت درية شفيق حياة حافلة بالنشاط، لا تعرف الهدوء أو الاستسلام بحال من الأحوال، ولم يتوقف نشاطها إلا فى فبراير عام ١٩٥٧ عندما اضطرت إلى ذلك نتيجة لتحديد إقامتها فى منزلها فأصبح عليها ألا تغادره، بل تعيش حبيسة جدرانه دون أن تمد نشاطها إلى خارجه ودون أن يبقى لها من متنفس سوى أوراقها تبث فيها خطراتها، وتروى ذكرياتها، وتسجل مشاعرها.. وتظل رهينة محبسها حتى بعدما أصبح فى وسعها أن تمارس حريتها، بل وأن تسافر إلى الخارج لزيارة إحدى ابنتيها، فقد عادت بعد تلك الزيارة تستأنف حياة المحبس، مستسلمة لحالة اليأس إلى أن كانت مأساة وفاتها فى خريف عام ١٩٧٥.

وعلى ذلك وإذ كانت درية شفيق قد ولدت فى ديسمبر عام ١٩٠٨، فإنها تكون عند وفاتها قد قاربت السابعة والستين من عمرها ، ولكن نشاطها قد توقف وهى لم تكن قد جاوزت الثامنة والأربعين من عمرها إلا بشهرين اثنين، ثم توارت بعد ذلك فى الظل لمدة ثمانية عشر عاما متصلة، وهى التى كانت ملء السمع والبصر، وكان نشاطها قد تجاوز مصر شرقا وغربا، وتردد اسمها وذكرها فى مختلف المنتديات والمنظمات : كمدافعة عن



فاتن حمامة تكرم بنت النيل بمناسبة جهودها للمطالبة بحقوق المرأة

المرأة، ومطالبة بحقوقها فى مجتمع ديمقراطى.

ومن أسف أن كتاباتها - وأشعارها - التى ملأت الصفحات، وخاصة ما كتبته وهى فى فترة محبسها لم تجد سبيلها إلى النور إلا بقدر ضئيل ، فقد كانت كتابتها لذكراتها - وأشعارها - باللغة الفرنسية، ولم تجد من يتولى تجميعها ونشرها كاملة فى لغتها الأصلية، ثم ترجمتها ونشرها باللغة العربية .

ومع ذلك فقد وجدت تلك الصفحات من أهتمت بها، واتخذت منها مرجعا لدراسة كاملة قدمتها عن تلك الشخصية الفريدة، تعتبر من أوفى ما كتب عنها - ونعنى بها الكاتبة الأمريكية: سينثيا نلسون «عميدة معهد الإنسانيات والعلوم الاجتماعية وأستاذة الأنثروبولوجيا بالجامعة الأمريكية بالقاهرة» التى قدمت فى عام ١٩٩٦ كتابها القيم: درية شفيق:

امرأة مختلفة (أو امرأة متفردة) A Woman apart ، وقد قامت الكاتبة الفاضلة : نهاد أحمد سالم بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية ترجمة دقيقة فى عبارة رقيقة، وبأسلوب عذب، وتولى المجلس الأعلى للثقافة نشر هذه الترجمة بالتعاون مع «جمعية المرأة العربية».

وإذا كان هذا الكتاب قد تضمن اقتباسات عديدة من مذكرات وأشعار درية شفيق، إلا أنه لا يغنى عن ضرورة نشر تلك المذكرات والأشعار كاملة، وترجمتها - فى الوقت ذاته - إلى اللغة العربية على نحو يقدم للقارىء العربى تلك الحياة الحافلة.. وكل ما شغل صاحبتها من أحداث ، وما ملكها وملأ نفسها ووجدانها من خواطر ومشاعر وأحاسيس.

***

وتصحبنا المؤلفة لنعايش صاحبة السيرة منذ مولدها فى مدينة طنطا فى ديسمبر عام ١٩٠٨ - وكانت ثالثة الأطفال فى الأسرة المكونة من المهندس/ أحمد شفيق ، والسيدة/ رتيبة ناصف: فقد سبقها أخ وأخت.. وتصاحبها فى كل خطاها حتى تبلغ بها النهاية، وإذا كان المقام لا يتسع هنا لعرض كل تفاصيل تلك الحياة الحافلة، فإننا سوف نتخير عددا من المواقف التى تبدو كعلامات بارزة فى حياة درية شفيق. وهى حياة قد وصفتها صاحبة السيرة - فى مذكراتها - بأنها «فى جوهرها جهد لكسر القيود التى فرضت على مصر والمصريين عبر قرون من الاستعباد. هى محاولة لاكتشاف الأسباب المباشرة والأصول البعيدة لقيود العبودية التى أرزح فيها منذ طفولتى» (١).

وعلى ذلك فلم تقتصر جهود درية شفيق على تحرير «المرأة»، بل كانت تعمل للمجتمع كله - رجاله ونسائه - بل يمكن أن نقرر أن «همها الأكبر» كان هو «الديمقراطية».. حتى أن ثورتها الكبرى التى أعقبها إدخال إلى «محبسها» لم تكن إلا لما ارتأته من أن ثمة عدوانا يقع على «الديمقراطية»، وأنه عدوان شديد الوطأة ، لا يحسن السكوت عليه، أو الرضوخ له.. حتى وإن اقتضى الأمر مواجهة صاحب السلطان الأعظم!.

***

كان مولدها فى طنطا - فى بيت جدتها لأمها - من أبوين جاءا من طبقتين مختلفتين: فالأم رتيبة ناصف «بك» - والأب أحمد أفندى شفيق، وقد كانت الجدة - التى عاشت درية فى كنفها - هى خديجة هانم ابنة واحد من كبار أعيان طنطا : حسين القصبى ، وقد تزوجت الجدة - وهى فى الثانية عشرة من عمرها - من رجل ثرى يكبرها سنا، وما أن بلغت العشرين من عمرها حتى

كانت قد ترملت بعد أن رزقت منه ببنات ثلاث. فكان أن عاشت - رغم ثرائها لما ورثته عن زوجها وعن أبيها - في كنف أخيها الأكبر - أبو العز القصبي - الذى كان يلقب بـ (الباشا) لثرائه ومكانته الاجتماعية.

وإذ كانت رتيبة هى البنت الوسطى ، وقد زوجت أختها الكبرى لعلى شفيق - ضابط بالجيش - فقد زوجت رتيبة - في الوقت نفسه - ولم تكن قد بلغت بعد الخامسة عشرة من عمرها - لشقيقه الأصغر الذى كان مايزال طالبا ينهى دراساته في مدرسة المهندسخانة . ورغم أن الطالب تخرج ، وأصبح «موظفا» ذا دخل يكفل الحياة الكريمة لأسرته، فضلا عن حرصه على أن يرتفع بمستواه الثقافى إلا أنه ظل أسير إحساس بأنه من طبقة أقل مستوى من طبقة زوجته، وإن ربط الحب، وساد الاحترام فيما بينهما .

ومع أن مولد، درية كان في بيت الجدة في طنطا، إلا أن نشأتها الأولى كانت في المنصورة حيث عمل أبوها مهندسا بالسكك الحديدية.. غير أنها ما أن بلغت السادسة أو السابعة حتي قرر أبواها أن تنتقل إلى طنطا لتعيش مع جدتها، وتكون دراستها بإحدى مدارس البعثة الفرنسية في طنطا، وفى حياتها في طنطا كانت تحس بالغربة، وفى دراستها في المدرسة كانت تلقى المعاملة السيئة.. وزاد من آلامها فقدها لأمها وهى ماتزال في تلك السن الغضة، وتصف يوم وفاة الأم بأن ذلك اليوم «ظل في ذاكرتي صدمة عميقة لا برء منها، جرح من العمق بحيث ترك على حياتى كلها بصمة خراب....».. فقد كان وقع الموت عليها فظيعا، وكان ما أعقبه من تشتت للأسرة أشد فظاعة، ولم تجد درية مخرجا لها من أحزانها ويأسها سوى الانكباب على دراستها، حتى لقد نقلت إلى فصل أعلى في أثناء السنة الدراسية. وكان أبوها قد انتقل في عمله إلى الإسكندرية وإذ رغب أن تنتقل درية لتعيش في كنف أبيها، وكان ذلك في عام ١٩٢٤، ودرية تستقبل بشائر أنوثتها ، ومن الطبيعي أن تستكمل تعليمها في المدارس التابعة للإرسالية الفرنسية - في الإسكندرية - ونجحت درية في اختصار عام دراسي، ونالت شهادة «البريفى» Brevet .. وتقدمت بعد ذلك إلى شهادة البكالوريا - من منزلها - وكان اختيارها لـ «شعبة الفلسفة» ونالت لذلك وساما فضيا ولم تكن قد جاوزت السادسة عشرة من عمرها إلا بشهور. ومع ذلك فقد راودتها فكرة السفر إلى باريس لاستكمال دراستها في السوربون، خاصة وأن أخويها كانا قد سافرا إلى أوربا لدراسة الهندسة: أحدهما إلى ألمانيا والثانى إلى إنجلترا. ولم يكن ثمة ما يمكن أن يعوق طموحها ، فبادرت توجه رسالة إلى السيدة/ هدى شعراوى تطلب منها العون والتوجيه، وقد تأثرت هدى شعراوى بالرسالة وأبرقت تستدعى إليها الفتاة.. وطمأنتها ووعدتها خيرا. وقد أوفت

بوعدها.. بل وأتاحت الفرصة لدرية بأن تلقى كلمة فى مسرح حديقة الأزبكية فى الاحتفال بالذكرى العشرين لوفاة قاسم أمين.. وفى اليوم التالى لذلك الاحتفال كانت وزارة «المعارف» قد وافقت على المنحة التعليمية لدرية شفيق.. وفى أغسطس من عام ١٩٢٨ مضت درية فى طريقها إلى فرنسا وهى لم تبلغ العشرين من عمرها بعد، حيث تقول «فى طريقى إلى باريس لأدرس الفلسفة.. وقد شعرت أن ربيع الحياة يبتسم لى.. ولقد تضاعف حبى لمصر منذ غادرتها، لعلنى أحببتها دائما بهذا القدر، ولكنى لم أع كل ذلك الحب إلى أن غمرنى فالوطن أكثر من أم: فهو يكفلنا حتى إذا جحدنا. لذلك أريد لا أن أخدم بلادى ما استطعت فحسب، بل وأن أعزز من قدرتى لأبرهن لوطنى على ذلك الحب الذى يفيض بداخلى».

ولدى أول تعامل لها مع مدير مكتب البعثة التعليمية صدمت بأن عليها أن تكون دراستها فى «فرع من فروع التربية النسوية» وقد اختاروا لها دراسة التاريخ والجغرافيا، وإذ أبدت عدم موافقتها وأن رغبتها هى دراسة الفلسفة لم تلق غير الرفض، وأن عليها الالتزام بالتعليمات وأن عليها كذلك «أن تحذر من الحديث مع الشبان، وأن تحافظ على سمعتها، وترعى سلوكها، وإلا أعادوها إلى مصر..!» - ولم تستسلم درية فبادرت بالإبراق إلى الدكتور/ طه حسين تناشده المساعدة، وما أسرع ما تلقى مدير المكتب برقية بأن عليه أن يغير برنامج درية «حسب رغبتها» وكان ذلك انتصارا لدرية، ولكنه انتصار دفعت ثمنه غاليا: عداوة مدير المكتب لها..!!

وفى باريس راحت تنهل من المعارف: فى الأدب، الفن، الموسيقى.. وترتاد المعارض، والندوات، وتنعم بالفن والجمال من مختلف ينابيعه - وذلك بالطبع فضلا عن دراستها الأكاديمية للفلسفة، بل وراحت تستجيب لمشاعرها وتعبر عنها فى أشعار تتميز بالرقة، والبساطة، والانطلاق.. وكانت النبرة الغالبة على شعرها هى التعبير عن حبها لمصر.. وللنيل بصفة خاصة - كما كانت مقالاتها تتوالى لتنشر فى مصر تتحدث عن المرأة وعن مستقبلها، وعما تريده لها من مكانة. وكانت لغتها فى شعرها ونثرها ومقالاتها هى اللغة الفرنسية. ومن ثم كان مجال نشرها مقتصرا على الصحف والمجلات الفرنسية.

وقد لقيت - طوال فترة دراستها - الكثير من المتاعب - بل والدسائس - ولكنها انتصرت عليها جميعا بفضل عزيمتها القوية، وإصرارها العنيد، ونكاتها اللماح، ولم تطل إقامتها مع رفيقات البعثة فما لبثت أن غادرتهن إلى «الدار الدولية» التى تجمع مبعوثات من

مختلف دول العالم من أفريقيا وآسيا، وأمريكا اللاتينية.. حيث عرفت درية أن «بلدى ليس بالبلد الوحيد الذى تعانى فيه المرأة» . وفى دراستها فى السوربون اختارت برنامجا شاقا، بل وقررت دخول امتحانات شهادتين فى الوقت ذاته: شهادة الليسانس الحر، وليسانس الدولة، رغم أن النجاح فى هذه الشهادة الأخيرة كان يستلزم اجتياز امتحان فى اللغة اللاتينية التى لم تكن تعرفها.. ومع ذلك فقد عزمت على تحدى هذه العقبة.. وقد تحدتها بالفعل وحصلت على الشهادتين - كلتيهما.

وكان عليها أن تعود بعد ذلك إلى الوطن.. وتصف لقاء أسرتها فتقول «رأيت أبى والدموع فى عينيه بسبب تأثره العميق لرؤيتى بعد هذه السنين، أما شقيقاتى فانبهرن بأناقتى الباريسية».

صعيدى فى غلاف أوربى!

وقد أمكن لها خلال إقامتها فى مصر أن تفلت من زواج كانت أسرتها قد أعدته لها، بل واتفقت معه على الزواج منها.. وكان من العسير على درية أن تواجه الأسرة بالرفض، فاضطرت إلى الموافقة على الخطبة وهى تقول: «رأيت أن أقبل فكرة الخطبة، وأن أؤجل الزواج الفعلى إلى حين عودتى بعد الانتهاء من الدراسة» ومع ذلك فما لبثت أن أدركت ما قد يترتب على هذا الوضع من مأساة، فبادرت تضع حدا للأمر، وأعادت «الشبكة» وأنهت الموضوع ورغم ما أبداه أبوها من خيبة أمله، إلا أنه لم يحاول إقناعها بالعدول عن قرارها.. وما إن حانت بداية العام الدراسى حتى كانت درية قد عادت إلى باريس لتستكمل دراساتها العليا.. وإن كانت قد حرصت بعد ذلك على قضاء عطلاتها الصيفية فى الإسكندرية - مع أبيها وأخواتها - وفى إحدى تلك العطلات تقدم لخطبتها الكاتب - والصحفى - المعروف : أحمد الصاوى محمد (وكان واحدا ممن نالوا ثقافتهم ودراستهم من فرنسا) وقد وافقت على تلك الخطبة وتصفه بأنه: «أغرق بيتنا فى فيض من الورود الحمراء. وكان يحدثنى عن باريس، فظننت أنه يملك روح شاعر أحاطنى فى دوامة، وتم كل شىء فى سرعة كبيرة لم تسمح لى بالتفكير مليا قبل دخول هذه المغامرة الجديدة، ووقعنا عقد الزواج فى سرعة مذهلة» - إلا أن الأمور ما لبثت أن تعقدت قبل أن يتم الزفاف.. فقد كان الوضع كما يصوره مصطفى أمين (فى كتابه : مسائل شخصية) أن «أحمد الصاوى كان صعيديا فى غلاف أوربى، ولد فى أسوان وتعلم فى باريس، كان متحررا فيما يكتب، متزمتا فى بيته.. فأصبح الطلاق أمرا لابد منه، وتحملت درية صدمة الطلاق بشجاعة».

وكان علاج الأمر أن تستكمل دراساتها فتحصل على منحة جديدة للتحضير لشهادة دكتوراة الدولة فى الفلسفة - من السوربون أيضا - وكان

الموضوعان اللذان تدور حولهما رسالتاها: يتصل أولهما بالنظريات السائدة عن الفن المصري القديم وعنوانه : الفن للفن في مصر القديمة. أما الموضوع الثاني - وهو ما يعرف بالتكميلي - فكان عن (المرأة في مصر المعاصرة، وحقوقها في الإسلام) - وقد وجدت نفسها - وهي في باريس - مضطرة إلى اتقان اللغة العربية حتى يتسنى لها قراءة المراجع الأساسية في العربية.. بل وكان عليها أن تلم بلغات أخرى كالإنجليزية والألمانية واليونانية حتى يتسنى لها أن تحيط بفلسفة الجمال، وتاريخ الفن والمصريات، وعلم الاجتماع، ومن هنا فقد كان عليها أن تبذل جهدا شاقا، وأن تكرس كل وقتها للبحث والدراسة.. وتحملت كل ما في ذلك من شدة وألم وقسوة.

وكأنما أرادت الأقدار أن تفتح لها طاقة أمل، فقد عرفت أن ابن خالتها: «نور الدين رجائي» جاء إلى باريس في بعثة دراسية ليحصل على الدكتوراه في القانون التجاري.. وكانت معرفتها به هامشية، إذ لم تتح لهما الظروف من قبل سوى لقاءات معدودة بحيث لم تنشأ بينهما - من قبل - علاقة ما. ومن عجب أن يأتي لقاؤها معه بمحض المصادفة.. وكان من الطبيعي أن يتقاربا وأن تتعدد لقاءاتهما .. حتى لقد أصبحا متلازمين، وتصف ذلك بقولها: «أخرجني نور من عالم الفكر البحت، وساعدتني حيويته على مزج الفكر بالمشاعر، وبالحياة نفسها، وصرت أشعر بتكامل ، لم أعد وحدي» وعندما عرض عليها نور بعد ذلك أن يتزوجا ترددت - وبخاصة لأنها كانت أكبر منه سنا - كانت تكبره بحوالي ست سنوات - ولكن هذا التردد لم يستمر طويلا، وهي تصف لحظة توقيعها على عقد الزواج فتقول : «في اللحظة التي سبقت توقيعي على عقد الزواج، كان لي رد فعل يدل على أني لم أتخلص بعد من إيماني بالخرافات، كما ظننت فلما سألني القنصل عما إذا كنت أريد الاحتفاظ بالعصمة في يدي، بادرت بالإجابة: لا، إذ خفت أن يؤدي أي تحفظ من جانبي إلى سوء حظ. فإذا بي بعد تلك الشرقية التي تؤمن بالقوة الكامنة في الكلمة..».

ولم يعقها الزواج - كما لم يعق زوجها - عن إتمام أبحاثهما .. وإذ انتهت درية من الصياغة النهائية لبحثيها وقدمتهما لأساتذتهما - فقد حصلت على الموافقة على الطبع، وما أن أعدتهما للنشر حتى عادت إلى مصر - وكان ذلك في أغسطس ١٩٣٩ - وكان عليها أن تنتظر تحديد يوم المناقشة حتى تعود إلى باريس.

وعلى أثر عودتها إلى مصر فقد عملت مفتشة للغة الفرنسية لكل المدارس الثانوية لفترة حتى جاءها خطاب من



بعض بنات وسيدات بنت النيل فى وداع الدكتورة درية شفيق بمناسبة رحلتها إلى الخارج

السوربون يحدد موعد مناقشتها رسالتها فى التاسع من مارس ١٩٤٠.

فبادرت إلى السفر، وكان يوم مناقشة الرسالة يوما مشهودا فى حياتها، قد أعلن رئيس اللجنة بعد انتهاء المناقشة: «لقد حصلت السيدة درية شفيق على درجة دكتوراة الآداب فى الفلسفة من جامعة السوربون بمرتبة التقدير».

وكان زوجها قد عاد من قبل وعمل مدرسا فى كلية الحقوق.. ولما عادت درية أستأنفا حياتهما الزوجية التى لم يقطعها سوى سفرها لمناقشة رسالتها.. وإذ عادت المرة الأخيرة تحمل الدكتوراة، فقد كانت تعد نفسها للحصول على وظيفة للتدريس بكلية الآداب، وبخاصة وأن شهادتها كانت تؤهلها لتدريس تلك المادة فى جامعة باريس.. إلا أن عميد الكلية فى ذلك الوقت - المرحوم/ أحمد أمين رفض تعيينها لأنه «لا يستطيع تعيين امرأة جميلة لتدرّس بالكلية»!

***

وأيا ما كان الأمر.. فإن درية شفيق لم يثنها ذلك الموقف عن أن تواصل رحلتها - وكفاحها - فى الحياة، وقد اتخذت من العالم كله جامعة لها تنشر عبر مختلف وسائل الإعلام رسالتها وفكرها، وظلت فى صراع متصل إلى أن اضطرت لالتزام محبسها.

---

(١) الفقرات التى بين الأقواس منقولة من كتاب : (درية شفيق - ترجمة : نهاد أحمد سالم - نشر المجلس الأعلى للثقافة بالتعاون مع جمعية المرأة العربية - ١٩٩٩ -).

التكوين

«حرص والدى على أن أتعلم القرآن الكريم واللغات الأجنبية»

«والحرية هى القيمة الغالية التى نشأت عليها»

السفير أحمد ماهر

●● ليس أثقل على النفس من الحديث عن الذات ، وليس أصعب من تجنب الوقوع فى فخ الكبر أو التواضع الزائفين ، أو فخ المبالغة فى دور هو فى الحقيقة متواضع ، أو فى نفى دور قد يكون من حظه إن كان له بعض التأثير . وليس اسهل من محاولة التهرب عندما يطلب منك صديق يحسن الظن بك أن تكتب عن النشأة والتكوين باعتبارك زاولت مهنة - أو مهمة - جعلتك أحياناً فى الضوء العام ، وليس أكثر عسرا من الاستمرار فى محاولة التهرب إزاء إلحاح فيه من الود الممزوج بالزجر الخفيف.

وإذ أجلس - بعد ذلك كله - لأكتب ماهو فى النهاية سيرة ذاتية مختصرة قد لا تهم أحداً ، فإنى أجدها فرصة لمحاسبة النفس ، ولن يرى القارىء منها إلا ملامح بسيطة بينما أختزن محصلة الحساب النهائية فى نفس لعلى - فيما بقى من عمر - أصحح وأجود ●●

نشأت فى بيئة أسرية متشبعة بالوطنية والسياسة والثقافة .

فلقد كان والدى رحمه الله طبيباً متخصصاً فى أمراض النساء والولادة والأطفال، وكان بارعاً فى فنه واشتهر فى حى العباسية حيث كانت عيادته، ومع ذلك فقد ظل حتى نهاية حياته حريصاً على إبقاء رسم الكشف فى العيادة أو فى المنازل زهيداً رغم ارتفاع تكاليف المعيشة. وكان يستجيب لنداءات المرضى فى منتصف الليالى فى أزقة وحوارى الحى دون أن يتبرم أو يتهرب. ولعلى تعلمت منه القناعة والرضا وحب العمل ومحاولة اتقانه . ولكنى تعلمت منه وبفضله أشياء أخرى كثيرة، فقد كان مثقفاً مولعاً بالقراءة ولذلك كانت لديه مكتبة زاخرة بالكتب العربية والانجليزية قديمها وحديثها، تتناول الموضوعات المختلفة من علم وأدب وفلسفة وتاريخ وسياسة، وكان أكثر مايستهوينى فيها كتب التاريخ وسير العظماء وبعض روائع الأدب والشعر.

ولما كان والدى قد أكمل دراسته العليا فى الطب فى ايرلندا فقد كان متأثرا



التكوين

بكفاح الشعب الايرلندى ضد الاستعمار البريطانى رابطاً بينه وبين نضال الشعب المصرى فى ثورة ١٩١٩ فكان يقص علينا القصص عن تاريخ مصر مركزاً على ما فيها من عبر ودروس، ومبرزا سلبياتها وإيجابياتها، عاكساً ولعه بالسياسة التى كان يود لو ينخرط فيها حتى أنه فكر فى أن يرشح نفسه يوماً لانتخابات مجلس النواب لولا أن جدى لوالدتى أثناه عن ذلك حرصاً عليه.

وكان جدى لوالدتى هو الدكتور أحمد ماهر الذى كانت حياته سلسلة من النضال الوطنى الذى اقترب برأسه من حبل المشنقة لمشاركته فى مقاومة الاحتلال، ومن النضال السياسى فى الوفد، أولا قريبا من سعد زغلول الذى استوزره وهو بعد شاب يافع «وأفندى»، ثم بعد انفصاله عن الوفد على رأس حزب قد تختلف فيه الآراء لكنه كان يستهدف الوفاء لمبادىء سعد التى رأى من خلفائه خروجا عنها . ولقد اكسبته مواقفه عداء الكثيرين وعلى رأسهم الانجليز الذين ظلوا لسنوات طوال يعترضون على مشاركته فى أى نشاط سياسى رسمى.

السفير أحمد ماهر وحرمه يتوسطهما الملك عبد الله عاهل الأردن وقرينته الملكة رانيا



وقد تعلمت منه – وعنه – الكثير في الفترة القصيرة التي عايشته فيها قبل أن تقتله يد الغدر والجهل حين أراد إعلان الحرب على دول المحور عندما كانت تلك الحرب تقاب نهايتها، حتى يضمن لمصر مقعدا ثابتا على مائدة المنتصرين عندما يجتمعون للتخطيط للعالم الجديد المأمول ويقننون آمالهم في ميثاق الأمم المتحدة . وكنت في العاشرة من عمري عندما اغتيل ولكني كنت – حتى في ذلك السن الصغير – أتلقى منه مباشرة ثم من والدتي التي حملت مشعل أفكاره لتظل ذكراه العطرة جزءاً أساسياً من حياتنا اليومية . تعلمت منه الشجاعة والصراحة عندما سألني مرة عما إذا كنت أفضل الحمار الذي كنت أسعد بامتطائه في الحديقة ، أم جدي، أجيب «الحمار» . وعندما أرادت أمي زجري ، وقف جدي في صفي مشيراً إلى ضرورة أن أتعلم مبكراً أن أعبر عن رأيي دون خوف أو تردد . وكان هذا مبدأه حين وقف يعارض أحياناً زعيمه سعد زغلول الذي كان يرأس مجلس نواب كان أحمد ماهر أحد أعضائه . وحين وقف منادياً – عندما غزا الألمان والايطاليون مصر من الغرب في الأربعينات – بأنه مهما كانت الظروف فإن مصر لايصح أن تقف متفرجة، وان عليها أن تدافع عن أراضيها المقدسة حتى تثبت للمحتل البريطاني انها قادرة على أن تضطلع بمسئوليتها راغبة في ذلك رافضة أي استعمار أيا كان مصدره . وكان رأيه أن لنا «ناقة وجمل» – على عكس مايقوله الكثيرون – في أن ندافع عن ترابنا المقدس ضد الألمان والايطاليين كما ندافع عنه ضد المحتل البريطاني . وقد أدرك مبكراً أن استكمال استقلال مصر يقتضي أن يشارك جيشها في الدفاع عنها حتى يسقط حجة من يدعون ضرورة بقائهم على أراضيها للدفاع عنها ، وحتى يحصل ذلك الجيش على الخبرة القتالية وتحيط به هالة شرف الدفاع عن أرض هي أرضها وليست أرض المستعمر . وظل على إقتناعه هذا وإيمانه رغم الهجوم والتشويه لموقفه .

وتعلمت منه أيضا الوطنية الصادقة التي تعرف متى تندفع ومتى تتعقل ، ومتى تثور ومتى تهدأ ، لأنها تستهدف خدمة الوطن ، وتعلمت منه حب السياسة والصحافة ، فقد كان سياسيا من الطراز الأول ، وبرلمانيا مبرزا ، وعمل أيضا بالصحافة رئيسا لتحرير جريدة كوكب الشرق لفترة لم تطل .

ولذلك فإني ظللت متطلعا لكي أحذو حذوه . أما الصحافة فكان حلمي ومثلي الأعلى بعد ذلك إحسان عبدالقدوس الذي استهواني أسلوبه وجرأته وتنوع اهتماماته وأيضا رئاسته لتحرير مجلة تملكها والدته. ولم



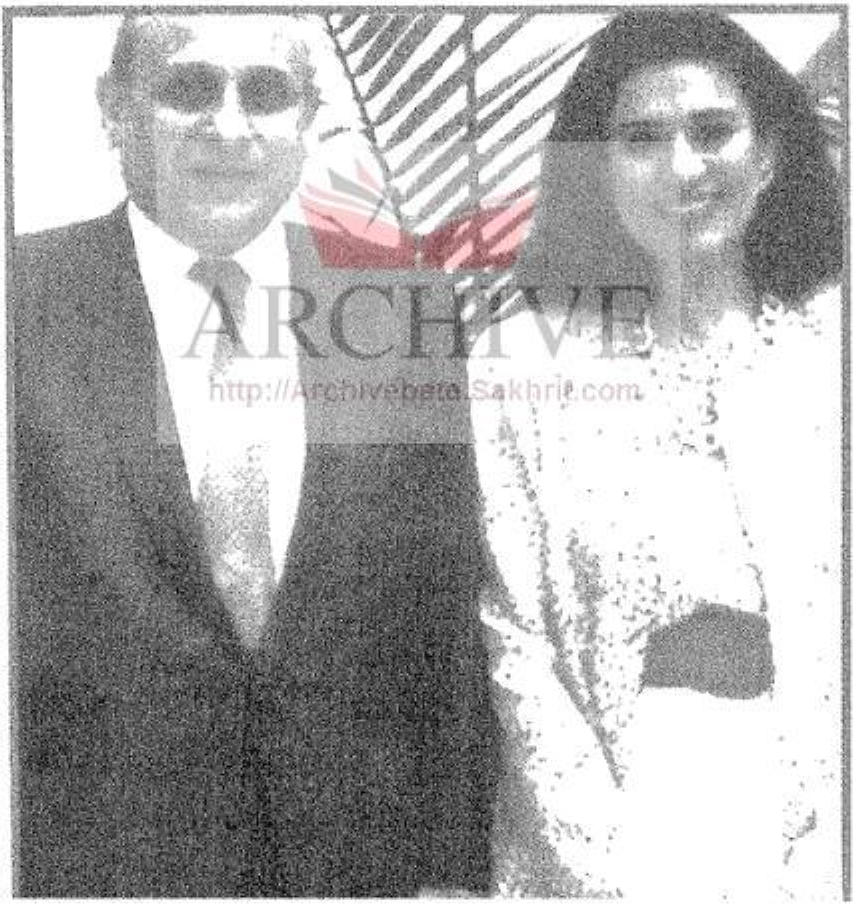
التكوين

يتحقق الحلم، وإن كنت ظللت حتى اليوم قارئا نهماً للصحف، ومحاولاً للإسهام فيها أحيانا بمقالات .

وقد بلغ ولعلى بالصحافة وأنا صغير أننى أصدرت جريدة - كنت أكتبها بخط يدى - لا أوزعها إلا على أخى وصديق لى، وشجعت أخى على أن يصدر - بمساعدة هذا الصديق - جريدة تعارض جريدتى ، ودخلنا فى معارك صحفية عنيفة فى موضوعات لا تستحق العنف . ولكن هذا السجال كان ممتعا ولم يفسد للود قضية .

وعن السياسة ، فإن الظروف العامة فى البلاد عندما التحقت بالجامعة بعد الثورة مباشرة - لم تشجعنى على

السفير أحمد ماهر وحرمه



ممارستها ، إذ أن ما رأيته منها في الجامعة من صراعات ، ثم ما حدث من «تأميم» العمل السياسي جعلني أشعر بأن المطلوب هو التأييد وليس المناقشة . وكنت فعلا أؤمن بالثورة وبأهدافها النبيلة من إخراج الشعب من المأزق الذى كانت قد أوصلته إليه سياسات وزعامات بهتت وشاخت وترهل فكرها ، وعلى رأسها ملك كنت قد أحسنت الظن به فترة ، فإذا به ينقلب من أمل أمة إلى مشكلة تضاف إلى المشكلات الأخرى . وأمنت بزعامة عبدالناصر ومبادئه ، وتعرضت لذلك لانتقادات من بعض أفراد الأسرة الذين أصابهم من الثورة ما أصابهم - ودخلت في مناقشات لم تثنني عن ثقتي بأن ماحدث في يوليو ١٩٥٢ كان ضروريا وكان بداية لنهضة مصرية وعربية . ومازال هذا اعتقادي رغم الأخطاء والنكسات لأن إيجابيات الثورة فتحت وتفتح الطريق أمام المستقبل الذى نتمناه بينما سلبياتها - على فداحتها أحيانا - لا تسد ذلك الطريق وهي قابلة للتصحيح المستمر بالنظر إلى ما يجب أن يكون بدلا من البقاء في أسر ماض يسبغ عليه البعض قداسة ليست له .

المهم أن مجال العمل السياسي الحقيقي لم يكن متاحاً لي فاخترت الدبلوماسية باعتبارها أيضا عملاً سياسياً ينقل ساحة الدفاع عن الشعب من المجال الداخلي إلى المجال الخارجي، ليشكل سياجاً يحمي منجزات الداخل من هجمات الخارج المناوىء ويوفر لها مساندة الخارج الصديق . وقد دخلت تلك الساحة متحمساً ومسلحاً بما اختزنته من علم حصلت عليه من الكتب التي قرأتها والقانون الذى درسته ، واللغات التي حرص الوالدين على أن أتقنها ، فقد أدخلت مدرسة فرنسية مصرية تدرس لطلابها المنهجين، وتلقيت منذ الصبا دروساً خصوصية في القرآن واللغة العربية واللغة الانجليزية .

ولكني فوجئت بعد دخولي السلك الدبلوماسي بفترة قليلة بنقلي إلى الخارج ثم إلغاء ذلك النقل لأسباب لم يفصح عنها أحد رغم إني كنت أول دفعتي ، ولكني فهمت أن السبب هو انتمائي لأسرة

محمود رياض



احسان عبدالقدوس





التكوين

صنفها البعض في جانب الأقطاع ، مع إننا لم نملك قيراطاً من الأرض ، وفي جانب الرجعية مع أن منها من حارب الاستعمار ودعا إلى حقوق الشعب ، ومن ساعد الثورة في أيامها الأولى سواء في المجال السياسي أو في مجال الانتماء إلى الأوساط القريبة من الضباط الأحرار .. وظل الحظر على سفري عدة سنوات رغم المساعي والجهود ، إلى أن اختار رجل فاضل لم أكن أعرفه من قبل أن أعمل معه في إحدى القنصليات في الخارج ، فبذل من الجهد المشكور وحارب على أعلى المستويات، إلى أن تحقق له ما أراد وأفرجت الثورة - التي كنت مؤمنا بها لغير غرض - عني من محبسي بديوان عام وزارة الخارجية ، ثم توالت مهامي في الخارج ، وتنقلت في مناصب مختلفة بالسلك الدبلوماسي متجولا من بلد إلى آخر . ولكن الأهم أن الفرصة أتيحت لي لأعمال مع صفوة من الرجال تعلمت من كل منهم الكثير ، وكان أولهم السفير

السفير أحمد ماهر مع الرئيس الروسي يلتسين



محمد شكرى الذى عملت تحت رئاسته فى زيوريخ ثم فى مكتب وزير الخارجية السيد محمود رياض ، ثم السفير محمد إبراهيم كامل الذى أصبح وزيرا للخارجية ، ومن بعده السفير نجيب قدرى ثم السيد محمد حافظ إسماعيل سفيرا ووزيرا ومستشارا للرئيس لشئون الأمن القومى. وأتيح لى أن أشارك فى نشاطات ومفاوضات دبلوماسية وسياسية مهمة أستهدفت كلها الدفاع عن مصالح مصر ، وعن مصالح الأمة العربية وعن القضية الفلسطينية التى كانت المحور الأساسى للدبلوماسية المصرية . وقد أتيح لى أن أعيش محنة ١٩٦٧ فى الخارج مع كل الألم والحسرة مع التصميم على أنها ليست نهاية المطاف، ثم أراد الله أن أكون قريبا من الاعداد السياسى لحرب أكتوبر المجيدة والعمل من أجل ترجمة الانتصار العسكرى إلى عمل سياسى .

وأتوقف هنا لأتساءل هل الكثير مما ذكرته يدخل فى مجال التكوين .. أم أن التكوين يقتصر على مرحلة الطفولة والشباب المبكر .. إذ أنه اذا كان حقيقيا أن الإنسان يتعلم كل يوم ومع كل تجربة جديدة وفى أى سن الجديد إذ ظل منفتحا على العالم ومستجداته ، فإن الواقع أن كل ما يتلو الشباب هو نتاج بذور غرست فى الشخصية فى السن المبكرة تحمل معها جينات تحكم التطور .

ولذلك فإنى أتوقف هنا ولعلى قبل ذلك أن أستخلص درساً أساسياً وهو أن بناء شخصية الطفل والشاب اليافع على الحرية – حرية الفرد فى ابداء رأيه وحرية الآخرين فى ألا يقبلوا هذا الرأى ولا يقهروه ، حرية الأوطان ورفض السيطرة الأجنبية ، وعلى الشجاعة فى الرأى والفعل ، وعلى الإنفتاح على ثقافات الغير دون التضحية بالهوية أو التشبه الأعمى كالقرود بتلك الثقافات والعادات والتقاليد ، وعلى رفض الانغماس فى الماضى دون التطلع إلى المستقبل والعمل قدر الطاقة من أجل بزوغه ، كل هذه مقومات تستطيع أن تخلق المواطن الصالح الناجح .

وهو ما حاولته مؤملا أن أكون أدركت بعضه وألا أكف عن محاولة إدراك بعض آخر .





محمد حافظ إسماعيل



محمد إبراهيم كامل

أنت والهلال

الهلال عبر الأنترنت وعلى سى . دى



السيد رئيس تحرير الهلال :

قرأت مقالك فى افتتاحية هذا العدد عن أهمية وجود الهلال على الإنترنت ، لقد أصبح فى حكم المؤكد أن الاهتمام الرئيسى لرؤساء التحرير فى العالم الآن هو كيف يجذبون القراء خاصة الشباب من الإنترنت والتليفزيون إلى الكلمة المطبوعة ؟ والحل هو أن توجد الكلمة المطبوعة نفسها على الإنترنت .

والهلال وهى فى الإنترنت تصبح فى متناول أكثر من مليونى مستخدم عربى ، وسيتضاعف هذا العدد بسرعة فى منتصف عام ٢٠٠١ . وفى المستقبل القريب ستصبح تكلفة قراءة الهلال فى الإنترنت أقل كثيرا من تكلفتها فى صورتها الورقية ، فالكمبيوتر بعد خمسة أعوام من الآن سيصبح ثمنه أقل كثيرا من ثمن جهاز التليفزيون ! ورغم أن تكلفة الإنترنت فى الدول العربية عموما تبلغ الآن عشرة أضعاف مثيلتها فى دول العالم المتقدم ، لكن يتوقع مع نمو البنيات الاتصالية للدول العربية أن تنخفض تكلفة الاتصال بسرعة . ومع نمو عالمية الإنترنت بسرعة شديدة فى العالم يتوقع للهلال أن تصل إلى العرب فى كافة أنحاء العالم ، وإلى كافة الشعوب التى تقرأ العربية من غير العرب ، فهى بذلك تنفذ إلى قراء محتملين وقراء جدد تبحث عنهم دوما ، مع توفير تكاليف التوزيع والطباعة ، وتفتح أبوابا جديدة للإعلان .

د . أحمد محمد صالح

جامعة أسيوط

●● الهلال :

هذا دورنا فى التواصل مع كل جديد فى دنيا المعلومات وقد توافق نشر هذا الموضوع مع ما كتبه رئيس التحرير فى افتتاحية العدد «عزيزى القارئ» والطموحات التى يرجوها ، والجهود التى يبذلها لوضع كل مقالات الهلال ومادتها على «السى . دى» .

طفل الحجارة والجسارة

قلبى معه .. هذا الفتى ما أشجعه ... رضع الصلابة فى الليالى المفجعة
الظلم أدمى جرحه .. القيد كبـــ ... ـــل حلمه . والقهر يسكن مضجعه
فطعامه خبز المهانة والأسى ... وشرابه كأس المرارة مترعة
مازال فى شرخ الصبا لكنه ... لم يله يوما بالنوى والقوقعة
غض الإهاب حزينة نظراته ... قصص البطولة لا تفارق مسمعه
كيف السبيل إلى الحمى وهو الذى ... ما ذاق طعماً للسكينة والدعة ؟
هيهات أن ينسى مقالة والد ... عند الفراق وفى غمار الموقعة
خذ لى بثأرى يا فتى خذ صخرة ... واقذف بها كبد العدو لتصرعه
ما قد رميتم إذ رميتم لكن اللـــ ... ـه رمى . قلها . فتخرق أضلعه
فى بلدتى مسرى الاله بأحمد ... فوق البراق وكان جبريل معه
فى القدس صلى بالكرام وأمهم ... هو خاتم . والجمع يعرف موقعه
وعدوه رأس النفاق بيثرب ... هو نفسه فى القدس عاود مطمعه
فى أرض يافا والخليل وخيبر ... نفس الملامح بالرياء مقنعة
نم يا أبى . لن تستكين جوانحى ... والقدس مسلوب وأرضى موجعة
سنحيلها نارا على أعدائنا ... أعداء عيسى والأمين ومن معه

مهندس محمد محمد أبو خشبة
الادارة الزراعية بدسوق

حجارة الحرية !

مهداة إلى أطفال الحجارة فى أرض الحجارة

كلمة .. ليس أكثر من كلمة . كلمة وحيدة
الكلمة الأولى ، والكلمة الأخيرة
قديمة قدم الأصل ، قدم الحياة ، فريدة ومجيدة
بسيطة هى بحروفها الصغيرة
كبيرة ، واسعة الآفاق ، غنية ووفيرة
بل هى أكبر من كبيرة ...
كلمة قدسية ، طاهرة منذ الخليقة نقية
كالنور ، موهوبة فى كتب السماء أبدية
دائمة ، باقية بقاء الحياة ، سرمدية هى وأزلية
كلمة لا تكتب على سطح الغيوم الزائلة
لا ولا فى أعماق البحار الآفلة ..
بل هى فى عينى ، فى قلبى ، وفى دمى ماثلة
كلمة تكبر ، تنمو ، تزداد وبنورها تسطع
توقد شعلة الأفراح والأعياد ، وبها تبرع

أنت والهلال

تنتشر ضوء الأمل وراية الثورة ترفع
كلمة بها تغنت حناجر أسلافي الراحلين
عالية ، ترددها اليوم أفواه الثوار الغاضبين
خالدة هي في ذاكرة أحفادي القادمين
كلمة عذبة ، شابة كالنهار ..
كالسهم .. تنطلق كالصاعقة .. كالنار
عنيفة صرخاتها ، قوية تطلقها شرار
كلمة تكسر الصمت العميق
تقطع الأصفاد ، تمزق الطوق الوثيق
وتفتح للخلاص ألف وألف طريق
كلمة صامدة ، قوية ، وأبية
حجارة هي نبيلة ، فلسطينية رسالتها ، عربية
كلمتي ، حجارة النصر .. حجارتي .. حجارة الحرية

فخرى المهدى - فرنسا



هل يصدق مؤرخ إسرائيلى ؟!

قرأت باهتمام شديد في عدد نوفمبر من الهلال مقال لبنى الريدى تحت عنوان : كتاب جديد : الجدار الحديدى للمؤرخ الاسرائيلي آفى شلايم ، وأهمية هذا المقال ، أو عرض الكتاب ، قد جاء متزامنا مع انتفاضة الأقصى ، وما يلاقيه الفلسطينيون من قتل بكل أنواع الأسلحة والصواريخ ، ولكن أبناء هذا الشعب صامدون حتى الآن ، برغم بحار الدم التى أريقت منذ ٢٨ سبتمبر حتى اليوم وبلا توقف ليل نهار.

والغريب أن مايحدث يراه العالم ويسمعه ، ولا يحرك ساكنا ، خاصة وأن الصلف الاسرائيلي يحول دون التوصل لوقف نزيف الدم الفلسطيني ومسلسل القتل المستمر .

إن مؤرخي اسرائيل يتشدقون بالموضوعية وهي منهم براء ، ومن خلال عرض لبنى الريدى لم أستشف ما ينم على أنه كتاب يخضع لقواعد التأليف المعروفة بطريقة علمية أكاديمية ، وقد وصفت لبنى الريدى شلايم بانه مؤرخ موضوعي من مؤرخى إسرائيل الجدد .

ومن نافلة القول أن الكاتبة غاب عنها أنه مؤرخ صهيوني لم يكشف النقاب عن أسرار وطنه . بزعم أنه استعان بالوثائق

الرسمية التى أفرج عنها مؤخرا ، واللافت للنظر أن المؤلف لم يأت بجديد ! .

د . صموئيل لبيب
المنيا

●● الهلال :

الكتاب الذى قدمته الأستاذة لبنى الريدى يزيد عدد صفحاته على ألف صفحة ، وبالطبع يضم الوثائق والأسانيد ، والكاتبة أشارت فى مقالها إلى مؤرخ يحاول أن يقترب من الحقيقة ، وعليك أن تبحث عن الكتاب وتقرؤه لتحكم بنفسك .

قدساه

بكيت هنا وما نفع البكاء
وما فاد التحسر والرجاء
وما نفع السلام بكل أرض
آهات لا يجاب لها نداء
وهذا الدمع تنزفه العيون
أرادوا دين طه بالبلاء
أرادوا سحق من دان بدين
وهذا الدين فى قمم العلاء
ولم يخشوا عتابا أو ملاماً
وما طلبوا لهم إلا الفناء
وكل الناس فى الطرقات تبكى
من الظلم الذى عم الخلاء
وما خاف العدو من الإله
وما استحيا وما طلب البقاء
ولكن الإله وقد وعدنا
بأن النصر دوما للنقاءْ
فلا مدفع يروع قلب مسلم
ولا نشب يروع أتقياء
إذا مات صلاح الدين فينا
فألف صلاح تنجبه النساء

أحمد نادى بهلول - المندرة بحرى - أسيوط

أنت والهلال

همهمات .. فى أذن النخيل



بشراكمو .. حراس روض خمائل
فالنيل في وديانكم يتفجر
عذب سليل المجد فاح حياؤه
من كل فج فى الروابى يقطر
فبكفه الأغصان أضحت سندسا
تكسو الضفاف ، والشذى تتعطر
وكأنه الشوق الدفوق غشى الظما
فيهيم فى البيداء إذ يتبختر
ويهدهد الفرس الحرون على الثرى ،
ينساب نوراً في الدياجى ، ينثر
فرحا ينام على الجسور متيما ،
ويراقب الفجر الضحوك ويبصر
فالمزن عزّته الجداول يقتفى
ظل المروج مداعبا إذ يمطر
تشتاقه أغوار دفء الملتقى
ما للمسافر بالسنا يتعثر
(هاميس) فى ثوب الزفاف تزفه
ولعرسها الجذب انبرى يتحسر
هذى حضارات العوالم كلها
جاءت تقر بفيض حسن ، يسحر

عبد الناصر أحمد الجوهرى - نادى أدب المنصورة

استخدام التكنولوجيا وجودة الإنتاج

تصادف أن قرأت فى إحدى الصحف اليومية رأيا للمفتى يشير فيه إلى أن استيراد أى سلعة يوجد لها بديل فى مصانعنا وأسواقنا العربية والإسلامية وليس من آمريكا واسرائيل فقط ، يشكل نوعا من المعصية ، فالأيدى العاملة العربية والمسلمة أولى بالعمل والتجارة بين دولنا أحق بالشراء والبيع .

وقرأت أيضا فى عدد الهلال لشهر ديسمبر ٢٠٠٠ رسالة الدكتورة سونيا محمد على فى باب «أنت والهلال» ما تناوله د . أحمد مستجير فى مقاله «بذور شيطانية» المنشور فى عدد نوفمبر

بالهلال وما أشار اليه من استعمار جديد للإنسان عن طريق الغذاء.
وبعد قراءتى أعرض الآتى :
* حتى لا يجرفنا تيار العولة ، فإنه فرض عين علينا العناية بانتاجنا المحلى واستخدام التكنولوجيا الجديدة التى تساعدنا على المنافسة للإنتاج العالمى .
* الاهتمام بالتجارة البينية بين الدول العربية ، والتى نأمل أن تتحول قريبا إلى تجارة شاملة مع الدول العربية وقيام السوق العربية المشتركة ويتلوها قيام السوق الإسلامية المشتركة .
* ضرورة إعادة النظر فى الاهتمام بالسوق الافريقية والتى تقبل على الانتاج المصرى ، فذلك يدعم قوتنا الاقتصادية ويساعدنا على أن نكون قوة اقتصادية كبرى لا يستطيع غول العولة أن يلتهمنا ولا يتم ذلك سوى بالإرادة الحديدية

حسين منتصر - فارسكور

إلى الأصدقاء تحية واجبة

وصلتنا رسالة رقيقة من الكاتب مراد صبحى متى ، ومعها نسخة من كتابه الثانى «رحلة الأيام» الصادر عن مديرية الثقافة بالبحيرة فى يوليو ٢٠٠٠ ، ومن بين قصصه ، قصتان كانتا قد نشرتا بمجلة الزهور ، وهى ملحق للهلال صدر لفترة فى السبعينيات وتوقف عن الصدور .

وتهنئة لمراد صبحى متى بهذا العمل الأدبى ، متمنين أن يواصل عمله الدوب لنشر إنتاجه القصصى ، وخصوصا بعد أن عوفى تماما من عملية جراحية فى عينيه .

وعرض من أديب سودانى

وحفل بريد الهلال برسالة من الأديب السودانى محمد هارون عمر يعرض فيها طبع بعض رواياته ضمن إصدارات روايات الهلال، خاصة بعد قراءته لرواية المبدع ابراهيم عبد المجيد «طيور العنبر» والمنشورة فى روايات الهلال ، وقد أرسل لنا الأديب السودانى روايته «المحفل السندسى» والتى قام بطبعها فى اليمن ، ولكى تكون نموذجا لأعماله .

ويتم دراسة عرض الأديب السودانى وقراءة روايته

أنت والهلال

فلسطين الجريحة

ومن بسكره بالجزائر أرسل إلينا عبد السلام خير الدينى قصيدة بعنوان «فلسطين الجريحة» ، تحتاج أبياتها إلى عناية شديدة فى الوزن ، والاهتمام ببحور الشعر العربى ، ومن أبياتها يقول :

سلام على القدس أرض السلام ... ومهد الديانات أرض الأخوة

سيأتيك يوم يعم السرور ... ديار المسيح ومهد النبوة

بنوا العرب هبوا فما هذا السبات ... فأين الجهاد وأين الرجولة

شبابكم قد أحب المنون ... وسجل فى صفحات البطولة

فمن مات كان شهيدا عزيزا ... تحلى بتلك الحلى السندسية



مناجاة الشابى

وكتب إلينا سالم الزريبى من تونس أبياتا يناجى بها الشاعر التونسى الكبير أبى القاسم الشابى ، وهو يقف على ضريحه بمدينة توزر التونسية يقول فى مناجاته :

أناجى الطود والطود عنيد

أم أناجى الروح ، والروح قصيد

أنا من أناجيه تربع فوق عرش لا يبيد

فوق هامات الوجود ، ملأ الدنيا نشيد

***

كم صرخت فى النيام صرخة الدهر المديد

لتعيد للروابى طيرها الشادى الغريد

لتعيد الوعى فينا كلما غم الجليد

يا محرك السواكن صوتك فينا يعيد

فإذا الشعب أراد، نال حتما ما يريد .

تكريم مناضلة فلسطينية

وفي بيان صحفي وصل إلى الهلال من مؤسسة ابن رشد في ألمانيا تفيد بأن المناضلة الفلسطينية السيدة عصام عبد الهادى والتي تميزت بقدر كبير في الكفاح من أجل حقوق المرأة في العالم العربي ، قد حصلت على جائزة ابن رشد خلال شهر ديسمبر الماضي ٢٠٠٠ .

وتمثل المرأة الفلسطينية حالة خاصة متميزة في العالم بوجه عام ، وفي المجتمع العربي بوجه خاص ، فهي التي حافظت على البناء الثقافي والاجتماعي لمجتمعها ، وهي التي قاتلت في كافة المعارك الوطنية ، وفرضت وجودها وتنظيماتها على الحركة الفلسطينية ، وقد جعلت نضالها من أجل تحقيق ذاتها مرتبطا ارتباطا وثيقا بنضالها من أجل تحرير الوطن ، وهي من مواليد مدينة نابلس عام ١٩٢٨ .

قوانين الأحوال الشخصية

قارئ لم يفصح عن اسمه حين كتبه بالأحرف (ق . م .أ) من الزقازيق يطالب بمراجعة قانون «الخلع» ويتناول قضايا ومشكلات واجهته وهو يعمل بإحدى الدول الخليجية مؤكدا ضرورة أن تصحب الزوجة زوجها في أسفاره حفاظا عليه وعليها ، كما يطالب بمراجعة القانون الذى يبيح للزوجة السفر بدون إذن زوجها ، وعلى الرغم من أن هذه الرسالة ليس مكانها النشر في أنت والهلال لتناولها موضوعات شتى إلا أنه من الضرورى توضيح هذه القوانين وتبسيط شرحها حتى يفهمها الجميع ولا يحدث نوع من البلبلة وشعور البعض بأنها تخالف الشريعة الإسلامية .

* * *

** وإلى الصديق عبد الناصر محمد اسماعيل : قصيدتك التى أرسلتها بعنوان «القوس تنادى ليس بها بيت شعر واحد يصلح ، وهى هنا كما ذكرت ليست بقصيدة ، ولا نثر» .

** أحمد رشاد حسانين من بورسعيد .. مساهمتك «أزيز الحجر» تحتاج إلى ضبط في الوزن ، وينبغى أن تقرأ الشعر كثيرا ، فالشعر فن له أصوله ، والموهبة أو الرغبة في الكتابة ، ليست كافية .

** عصام الزهيرى - الفيوم .. قصتك شيخ البلد ، محاولة جيدة نرجو أن تواصل الكتابة .

الكلمة الأخيرة



لو لم نكن عرباً

بقلم : مريد البرغوثى

نعم .نحن الفلسطينيين، لو لم نكن عرباً لاندثرنا أو لماتت قضيتنا. لو كنا مجرد شعب معزول في لغة تخصنا ولا يتحدثها سوانا، ولنا تاريخ لا يشترك معنا فيه أحد غيرنا، ونواجه أخطارا لا يشعر بها إلا نحن، وعدوا لا يواجهه معنا كثيرون من أهلنا العرب، ومستقبلا يمسنا ولا يمسهم، فإن إسرائيل لم تكن لتتورع عن المضى في حرب الإبادة ضدنا إلى مداها النهائى لتطوى صفحة صراعنا معها إلى الأبد.

إن الذى صان القضية الفلسطينية من النسيان التاريخى والذى صاننا من الانقراض هو بلا شك الكفاح الفلسطينى الممتد منذ بدايات القرن الماضى والذى مازال مستمراً . لكن لولا عمقنا العربي ووجودنا في وطن كبير نتبادل معه المسرات والأحزان ونشاركه الدين والثقافة العربية الاسلامية واللغة والأخطار والمصالح والمصير لما حسب عدونا التاريخى ألف حساب قبل أن يحول أمنياته بالتخلص منا إلى واقع .

إن الإنكار العنصرى الذى اطمأنت له جولدا مائير عندما صاحت ذات يوم : «لا يوجد شئ اسمه الشعب الفلسطينى، أين هو الشعب الفلسطينى؟» وأضافت له «بأمومتها» التى لا مثيل لها حتى فى مملكة الجماد لا الحيوان وحده: «فى الليلة التى أتخيل فيها أن طفلا فلسطينيا قد ولد لا أستطيع أن أنام» . هو إشارة واضحة من بين إشارات كثيرة إلى توفر استعداد إجرامى كامن ومعلن عند اسرائيل لرمينا جميعاً فى البحر أو القبر أو الصحراء إذا استطاعت. وهي لم تستطع لأن الشعب الفلسطينى قاومها بكل ما أوتى من قوة أولا وأساساً، ولأن امتدادنا العربى، ثانياً، جعلنا شعبا أكبر من أن يكسره موشيه دايان كبيضة في يده كما قال، ولأن الوقوف إلى جانبنا ومؤازرتنا والاشتراك معنا فى المقاومة كان جزءا من السعى العربى للتحرر وعنوانا على شرف هذا المسعى بل وجزءا من المصير العربى ذاته.

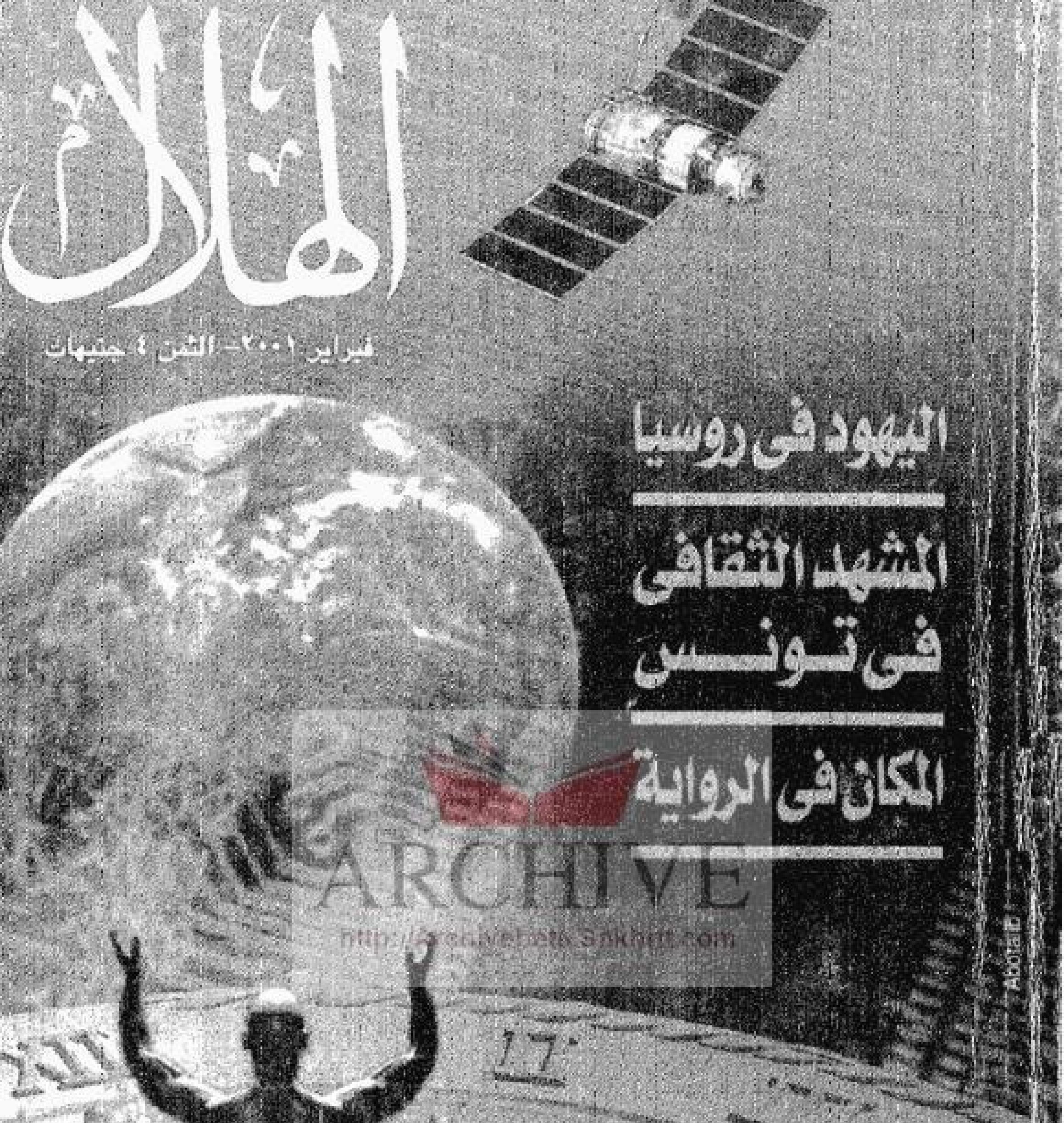
يجب أن يعرف كل مواطن عربى وكل مواطنة عربية أن صوته وصوتها إلى جانبنا ثمين إلى هذا الحد، بل وأكثر :

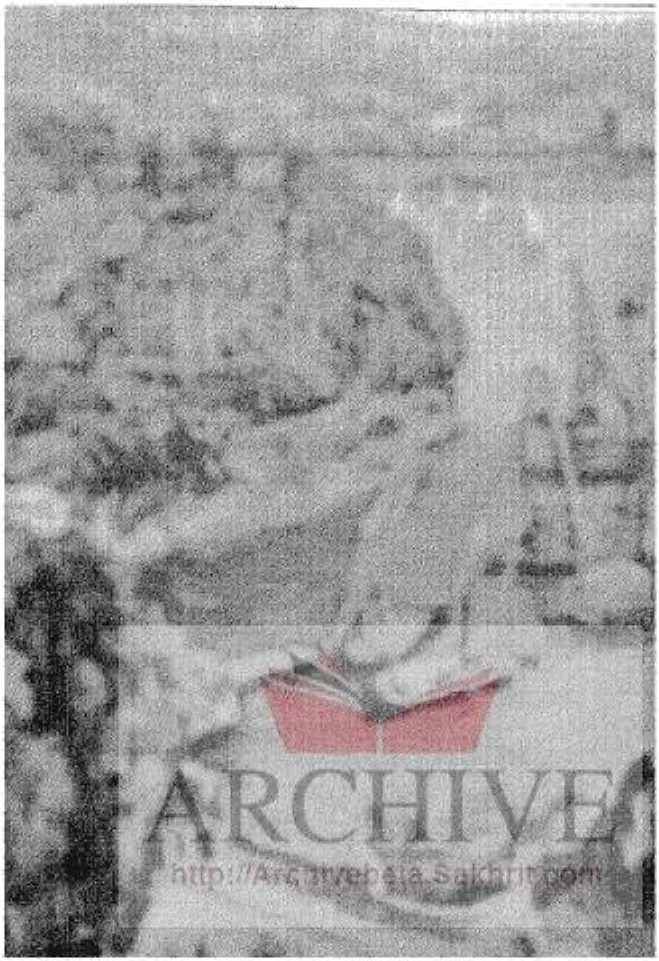
الفلسطينيون (لكى يتحرروا) بحاجة لمناصرة الأمة العربية.

والأمة العربية (لكى تتحرر) بحاجة لمناصرة الفلسطينيين .

والمهم ألا تكون هذه المناصرة موسمية تصعد وتخبو حسب عدد مقابرنا.




الهلال
فبراير ٢٠٠١ - الثمن ٤ جنيهات
اليهود فى روسيا
المشهد الثقافى فى تونس
المكان فى الرواية
المعرفة فى عصر المعلومات



لوحة وفنان



محور كوبرى الجلاء للفنان محمد ناجى

هذه اللوحة احدى روائع الفنان وصور فيها حركة الحياة: الأمواج والأشرعة والنخيل. وهى حركة مكونة بحيوية الألوان .

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب. ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١٠ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

سيد عبد المالك — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١.٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا
البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبى/ أبوظبى ١٥ درهما - سلطنة عمان ١.٥ ريال - تونس ٤
دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار -
إيطاليا ٧٠٠٠ ليرة - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢.٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات : قيمة الإشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٣٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقي دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت د/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

العام التاسع بعد المائة
فبراير ٢٠٠١م / ذو القعدة ١٤٢١هـ

الأبواب الثابتة



عزيزى القارىء

يصادف هذا الشهر ميلاد الدكتور حامد عمار شيخ التربويين العرب، حيث يبلغ الثمانين من عمره المديد، فهو من مواليد ٢٥ فبراير ١٩٢١ كما شهد شهر يناير الماضى الاحتفال بتكريم عالمنا التربوى الكبير بحصوله على الجائزة العربية التقديرية للتربية من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والتى حصل عليها أيضا الدكتور محمد جواد رضا من مواليد العراق عام ١٩٣١.

وحضر حفل التكريم صفوة من كبار المثقفين والوزراء والأستاذ محمد الميلى المدير العام للمنظمة، حيث أشادوا بالدور المهم الذى لعبه حامد عمار فى مجال التربية والعلوم الاجتماعية بشكل خاص، وفى جهوده فى البحث وفى بناء الانسان العربى، والتنمية البشرية فى الوطن العربى، والاشتراك فى اعداد مشروع الميثاق العربى للتنمية الاجتماعية الشاملة، واعداد استراتيجية الطفولة والأمومة فى مصر، فضلا عن دوره فى اعداد جيل يتحمل مسئوليته فى مجال التربية غرس فيه الجرأة والشجاعة فى البحث والتقييم بكل الحيدة والشجاعة . والفكرة النقدية عند الدكتور حامد عمار، تمثل محورا فى فكره، ونستطيع أن نرصدها فى كتابه «التنشئة الاجتماعية فى قرية مصرية «سلوا» والذى ظهر باللغة الانجليزية عام ١٩٥٤، وترجم الى العربية عام ١٩٨٦ .

وكانت النقلة الثانية فى كتابه «فى بناء البشر» وفى هذا الكتاب نادى بأن تكون وظيفة التربية هي بناء الشخصية المنتجة الملتزمة بقضايا الوطن، القادرة على ممارسة التفكير النقدى، إلا أن هذه الشخصية المنتجة عنده ليست مسئولية النظام التعليمى فحسب، بل هى مسئولية المجتمع، فلا يمكن أن ينتج النظام التعليمى هذه الشخصية الا فى اطار حركة تنمية شاملة.

وقد انحاز حامد عمار الى الانسان، وتنمية الوطن وهموم الكادحين والبسطاء من أبناء الوطن، ليس لأنها قضايا عدل اجتماعى فحسب، بل لأنها قضايا نهضة أمة وعزة وطن.

.. هناك قضايا كثيرة توقف عندها من بينها : مجانية التعليم وعدم المساس بها، القضاء على الأمية، العدل الاجتماعى والمساواة، تنمية تكنولوجيا المعلومات فى التعليم الجامعى وقبل الجامعى، وفى اطار هذه

الدكتور حامد عمار.. شيخ المربين

القضايا وغيرها كتب حامد عمار من منطلق تلبيته لنداء الوطن والالتزام بقضاياه .

ونجده فى حفل تكريمه يقول : «وأيا ما كان ، أجدنى غير مبالغ أو متزايد أن أشعر بأن لهذه الجائزة مذاقا متفردا واعتزازا خاصا لما تحمله من معان لبعدها القومى العربى.. شعورى بالفرح والبهجة الصادقة يتملك شيخا على أعتاب الثمانين، هو شعور غامر، شأنه كشأن فرحى ونشوتى وأنا استقبل الهدايا والجوائز ، وأنا فى ريعان الصبا ومطلع الشباب .

.. وقد دعانى هذا الشعور أن اسائل نفسى.. هل تعيد الأيام دورتها فى هذا المكان؟.. وهل تمتزج أحوال الشباب بأحوال الشيوخ مع هذه اللحظة من الزمان؟... وهل تتجدد من هنا آفاق الحياة والحيوية للوعى والوجدان؟.. أتساءل .. من يدرى لعل وعسى»..

وجاءت كلمات د. حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم فى الحفل معبرة عن كل من شهد تكريم د. حامد عمار وهو يقول : «إن السنين قد عجزت عن أن تلين لحامد عمارة قناة، ولم يتخل عن مبادئه. ولم يغير جلده، ولم ينفصل عن أصوله وجذوره، فقد ظل متمسكا بالحفاظ على المبادىء والقيم .. وشباب حامد عمار أفلح فيما أخفقت فيه السنون، فأعطته قدرة كبيرة على استخدام الأفكار الجيدة، وعلى تقبل النظريات الحديثة، وظل نموذجا فريدا، شيخا يخرج من السنين، وشابا فى مقتبل عمره، فى دأبه الشديد فى العمل، وفى اخلاصه وحماسه فى الدفاع عن مبادئه وفى تقبله للفكر الجديد.

إن حامد عمار قيمة تربوية كبيرة، ليس فى مصر، وإنما فى الوطن العربى كله، وفى الأوساط العلمية والتربوية على مستوى العالم.

وتهنئتان من «الهلال» الى شيخ المربين والذى تعتز به واحدا من أبرز كتابها .

الأولى : فوزه بالجائزة .

والثانية بلوغه سن الثمانين فى الخامس والعشرين من هذا الشهر متمنين له مزيدا من الابداع والعمل الدءوب فى العمل التربوى والاجتماعى خدمة لوطنه مصر.. وللأمة العربية وطنه الكبير.

المحرر



المعرفة في عصر المعلومات

بقلم

د. أحمد محمد صالح

كان محور تقرير التنمية الصادر من البنك الدولى (WDR) عام ١٩٩٨ ، هو «المعرفة للتنمية»، ونشر البنك هذا التقرير لتشجيع مناقشة أعرض حول دور المعرفة فى التقدم والتنمية الاجتماعية والاقتصادية . وناقش التقرير كيفية مواجهة فجوات المعرفة ومشاكل المعلومات،ومدى الإحاطة بهذه القضايا الحرجة فى الدول النامية ومستقبلها . وكانت الكلمات الافتتاحية للتقرير هى : «المعرفة مثل الضوء» نعم هى كالضوء، ولكن يمكن أن يساء تفسيرها ، وتحرف ويتلاعب بها، وتشوه ، ويتم استغلالها والسيطرة عليها ، فالمعرفة دائما ناقصة وغيركاملة .

وركز التقرير على التناقض، بين المعرفة كسلعة - والمعرفة كسياسة، حيث لايمكن فصل معرفة مضمون المعلومات عن أسئلة مثل من ينتجها ويتحكم فيها؟ من يقرر أى المعرفة صحيحة أو خطأ، مفيدة أو غير مفيدة؟ ومن يملك الارادة والقدرة لتفعيل المعرفة؟ فالمعرفة فقط تكون مفيدة، إذا توفرت القدرة والإرادة على استعمالها! وهذا يتأثر بالعوامل الثقافية والسياسية والاقتصادية، والعوامل الأخرى التى تجاهلها التقرير.

بين المعرفة والمعلومات

والمعرفة ليست مثل المعلومات، فهي الدلالات والمعانى التى يتحصل عليها الناس من المعلومات. وإذا قرأت هذه المقالة ولم تستخلص منها شيئا مفيدا، عندها تصبح هذه المقالة بالنسبة لك عبارة عن بيانات data من الأحرف والكلمات والأرقام متلاصقة بجوار بعضها البعض لا تقدم لك أى معلومات information فالبيانات مطلقة، والمعلومات نسبية، فهناك قارىء آخر سوف يستخلص معلومات مهمة من هذه المقالة، ولكن تبقى قيمة المعلومات محدودة، ما لم توضع فى مكانها الملائم فى قاعدة المعرفة knowledge لدى قارئها. فإذا وصلتك معلومات تشير إلى فشل الأحزاب المصرية فى الانتخابات الأخيرة، ولم تربط ذلك بمعلومات أخرى عن الحالة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية للمجتمع المصرى وأحوال الاحزاب الداخلية، فلن تشكل المعلومة الجديدة اضافة إلى قاعدة معرفتك للواقع القائم. فالمعلومات هى الحقائق التى نستخلصها من البيانات، والمعرفة نبنيها على ترابط المعلومات المختلفة فى بنية منطقية متماسكة. الكلمات السابقة تعكس بالضبط فلسفة الإنترنت، فهى تقدم لنا كما هائلا من البيانات، التى يمكن أن نستخلص منها الكثير من المعلومات، التى يمكن ربطها مع بعض لتشكل البنية المعرفية والمعرفة تنشط ببصيرة وخبرة وقدرة مالكها.

ويحتاج الناس أن يكونوا قادرين على صنع دلالات معلوماتهم لترجمتها وتقييمها، لبلوغ أهدافهم، واتخاذ قراراتهم الحياتية.

سمسار المعرفة

والبنك الدولى قد رسم دوره بلا تفاصيل فى نمو المعرفة، واعتبر نفسه وسيطاً أو سمساراً أميناً يأخذ المعرفة من فضاء المعلومات، وتسليمها الى من يحتاجها. لكن الخزان الشاسع للمعرفة الذى يملكه البنك، يمثل بصفة عامة فهمه الخاص للقضايا المختلفة، وهذا الفهم غالبا غير موضوعى، فهى تعكس خبرات وقيم البنك ورجاله، وليست بالضرورة تصلح للدول النامية، ومهما كانت أهمية دور سمسار المعرفة، فان التحديات ليست فقط إيجاد طرق لاستعمال المعرفة فى الدول النامية، لكن للمساعدة فى خلق الشروط اللازمة لكي يكون الناس فى تلك الدول مطلعين ومشاركين في القرارات التى تؤثر عليهم.

وإذا كانت عوامل الإنتاج الرئيسية

المعرفة

فى عصر المعلومات

هي رأسمال، والأرض ، والعمل - فقد انضم لها عامل رابع هو المعرفة فعمالة المعلومات ، وفرص العمل التى تعتمد على المعلومات ، هى مناطق النمو الكبيرة للمستقبل ، وعمالة المعرفة knowledge worker، هم المهنيون المحترفون الذين يعتمدون على مهاراتهم وقدراتهم في البحث وإيجاد المعلومات ، ومعالجتها وتركيبها ، وممارسة مهارات الاتصال لتوصيلها ، وتطبيقها ، فهى عمالة عصر المعلومات والقرن الحادى والعشرين . ففى السنوات العشر القادمة ستكون المهارات المعلوماتية هى المحك الأساسى فى النجاح أو الفشل .

ونقص المعلومات (أو فقر المعلومات) قد يعتقد انه مشكلة تشبه بالضبط مشكلة نقص رأس المال أو العمل أو الأرض ، لكنها فى الحقيقة ليست نفس الشيء ، فهناك ضرورات اجتماعية يحتاج أن يجاب عنها فى مجتمع المعلومات :" هل المعلومات سلعة مجانية ؟ (كما قال مهنيو الكمبيوتر عام ١٩٨١ من منطلق مسئوليهم الاجتماعية) إن جسم المعرفة البشرية كنز اجتماعى ، تجمع جماعياً خلال التاريخ، ولا يخص شخصا واحدا أو السركة أو بلدا معينا ، ويجب أن يكون هذا الكنز العام متاحا الوصول إليه للجميع ، فهو ثروة البشرية كلها .

«إذا كانت الإجابة بنعم ، المعلومات سلعة مجانية ! فما مسئوليات مزودى مداخل الوصول للمعلومات ؟ وكيف سيتم تمويل تلك المداخل ؟ وهل الإنترنت هى أوتوستراد عام أو طريق خاص ؟ وكيف يتاح للجميع الوصول للمعلومات ، وفى نفس الوقت يتحقق العدل في هذا الوصول؟ وحينما تزود الناس بالمعلومات على الأساس التجارى ، فمن الذى يحدد الخط الفاصل بين المعلومات كسلعة مجانية ، والمعلومات كملكية تجارية ؟ ما الضمانات عند خصخصة المعلومات لحماية الملكة الفكرية ؟ وكل هذه القضايا يتم تجاهلها فى طريقه السياسة المجزأة عند تناول هذا الموضوع .

الفجوة المعلوماتية بين الدول

وقد درست بعض القضايا المتعة المتعلقة بثورة المعلومات الحديثة ، وعلاقتها بوسائل الإعلام العام وزعمت تلك الدراسات أن الشخص الفقير معلوماتيا ، هوالذى يوجد فى مكان لا يتاح له فيه استخدام الإنترنت . ويعاني من نقص فى المعدات والتدريب ومصادر المعلومات التى سوف يعتمد عليها اعتماداً متزايداً فى تحسين حياته . وسوف تفتقد حياة هذا الشخص الكثير ، ليس فقط كمستهلك أو مشاهد للتليفزيون ، لكن كمواطن وعضو في ثقافة . «ويدخل أيضا فى تلك الشريحة الفقيرة معلوماتيا هؤلاء الذين يعدوا سن

الرءة ولا يملكون فرصة تنمية مهارات التعامل مع تكنولوجيا المعلومات ، وأيضا شريحة السكان المحرومة من ملكية التليفون أو جهاز راديو ، خاصة سكان المناطق الريفية . وحكومات كثيرة الآن في الدول الصناعية ، تنوى وتسعى إلى مد خدمات تكنولوجيا المعلومات إلى العاطلين وأصحاب الدخول المنخفضة . وفى محاولة لبعض الدول مثل استراليا لتوصيل تكنولوجيا المعلومات إلى المحرومين ، انتشرت دعوى تدعو وتشجع الهيئات الكبيرة مثل البنوك والشركات ، للتبرع بكمبيوتراتهم المتقادمة والمعدات الإلكترونية المستعملة إلى جمعيات أهلية ، تكون مهمتها تدريب الناس الذين لا تتوافر لديهم إمكانيات أو فرصة لاستعمال كمبيوتر ، وذلك من خلال متطوعين . واعترفت الأمم المتحدة في تقاريرها بأن هناك خللاً عميقاً في توزيع الموارد والفرص بين الشمال الغنى والجنوب الفقير في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات ، وأن الفجوة في تكنولوجيا المعلومات بين الدول الصناعية المتقدمة والدول النامية آخذة في الاتساع ، وأن الدول النامية في حاجة إلى بنية تحتية اتصالية ، وتدريب كوادرها ، ودعت جميع منظماتها لمساعدة الدول النامية لكى تخرج من هذا الواقع المفزع .

عمالة المعرفة

وفى رؤية تنبئوية للأستاذ Ian Angell من مدرسة لندن لعلم الاقتصاد ، يقول إن الصفوة في مجتمع المعلومات سوف تشكل تقريبا ١٠٪ من سكان العالم ، وهم أغنياء المعلومات ، وباقى العالم (٩٠٪) تعتبر فقيرا معلوماتيا ، حيث تتدنى أجورهم إلى مستويات العالم الثالث . وعندما أصبحت الثروة والوفرة أكثر اعتمادا على عمال المعرفة ، توافرت فرص كبيرة لهم لأن يهاجروا حيثما يريدون فمثلا مبرمجو لغة الكوبول cobol راتبهم في المكسيك ١٢ ألف دولار في السنة يزيد حوالى ٤٠٠٪ إذا هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية وعملوا فيها ، المبرمجون البرازيليون أجرهم ١٢٠ ألف دولار في السنة ومطلوبون جدا وبشكل واسع في البرتغال ، المبرمجون الكنديون أجورهم حوالى ٢٥ ألف دولار في السنة ترتفع بنسبة ١٠٠٪ أو ٢٠٠٪ إذا هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو بريطانيا العظمى . وتبين الاحصاءات في تقرير الجمعية الأمريكية لتكنولوجيا المعلومات (ITAA) أن في عام ٩٨ كان في الولايات المتحدة الأمريكية ٣٤٦ ألف وظيفة خالية مرتبطة بتكنولوجيا المعلومات ، وأن الطلب على العمالة المدربة في هذا المجال يزداد كل عام بـ ٩٥ ألف وظيفة ، وحتى عام ٢٠٠٥ سيتولد طلب في قطاع الأعمال الأمريكى لأكثر من ١.٣ مليون محترف ومهنى في مجال تكنولوجيا المعلومات .

وتذكر تقارير التعليم الأمريكى أن أعداد المتخرجين في درجة البكالوريوس في علوم الكمبيوتر انخفض أكثر من ٤٠٪ بين عام ١٩٨٦ وعام ١٩٩٤ ، وهى

المعرفة في عصر المعلومات

مؤشرات تبرز حاجة الولايات المتحدة الشديدة لجذب تلك العمالة ذات الخبرات الفنية في مجال تكنولوجيات المعلومات . والآن نأتي إلى الجزء المخيف حقا في المشكلة ، فملامح الفجوة السابقة في العماله الفنية في مجال تكنولوجيا المعلومات سوف تكلف قطاع الأعمال في الولايات المتحدة الأمريكية ٥٠٠ بليون دولار في السنة كدخل مفقود ، وستكلفه ١٠ بلايين دولار سنويا كدخل عمل مفقود ، و١٥ بليون دولار كل سنة يفقد في التعويضات هذا ما قاله هوارد روبن Howard Rubin مستشار ورئيس قسم علوم الكمبيوتر في كلية Hunter فكل دولار ينفق في رواتب عمالة أنظمة المعلومات في شركات الاعمال يتوقع أن يولد ٤٣ دولاراً كدخل ، ونحت تلك الفرضية فان أي شركة تخسر ٢.٤ مليون دولار كل سنة عن كل محترف وفني في تكنولوجيا المعلومات لاتستطيع توظيفه أو تأجيره أو استخدامه . فلا نتعجب من أن الكثير من ممثلي الحكومات وشركات صناعات تكنولوجيا المعلومات تجرى وتتسابق الآن لجذب العمالة الفنية المدربة في هذا المجال ، ولا يتوفر لدى أي معلومات عن خسارة مصر في هدا المجال بهجرة المبرمجين المصريين للخارج ، لكن المؤشرات السابقة توحي بخسائر فادحة ، لأن مصر أمامها فرصة ذهبية تأتي من محاولة التدخل بكوادرها وعمالتها الرخيصة كي تخلق فرص عمل جديدة للمبرمجين والشركات سواء في مصر أو في العالم العربي ، وحماية تلك العمالة من إغراءات الهجرة والعمل للشركات الأجنبية، خاصة أن العمالة أو الخبرة المصرية في هذا المجال تعتبر رخيصة مقارنة بالعمالة العالمية التي يصل أجر المبرمج فيها إلى ٥٠ دولاراً في الساعة ، ويتضاعف هذا المبلغ عشرات المرات في أمريكا وبريطانيا وكندا .

وفي كتاب دومينكوي بلاك Domin-ijue Black وعنوانه «نخبة تكنولوجيا المعلومات» يذكر أن المحدد الاستراتيجي الآن أصبح مهارات العامل نفسه ، فهي تساهم وحدها بـ ٢٠ مليون دولار في السنة الواحدة في صافي قيمة أي شركة أعمال ، لذلك من الطبيعي أن نتوقع ارتفاع قيمة هؤلاء المبرمجين ، وأن ما يحدث لقوة العمالة في مجال تكنولوجيا المعلومات من محاولات استقطاب لها في الدول المتقدمة هو نفس ما سيحدث في الاقتصاد العالمي في الـ ١٠ سنوات القادمة على الأقل .

العلماء والبحاث

والآن دعونا نركز على فئة أساسية في عمالة المعرفة وهم العلماء والبحاث ، خاصة في الدول النامية ، فأحد وعود ثورة المعلومات أنها سوف نعطي الفرص

المتزايدة والمتساوية لكل الناس لتتقاسم المعرفة . لكن مـاذا يحدث إذا كنت لا تعيش في بلد متقدم ؟! إن النقص الحالي في فرص الوصول إلى الإنترنت بين العلماء والبحاث في العالم النامي ، ينشيء شكلا جديدا من الفقر وهو فقد القدرات والمهارات والوسائل والنظم والأدوات التي تستخدم في جمع وتحليل ومعالجة وصياغة وتداول المعلومات وكيفية توظيفها لخدمة الأهداف التنموية، وبالتالي يجعل من الصعب على هؤلاء العلماء أن يتابعوا ويكونوا على صف واحد مع زملائهم في العالم المتقدم. فالعلماء والبحاث في الدول النامية موقعهم هامشي على أطراف العلم العالمي ، ولا تلاحظ أعمالهم ، ولا تلفت اهتمام أحد .

والعالم والباحث في الدول النامية والذي يعمل في ظروف ، وشروط مناوئة يحتاج إلى أن ينجز الكثير ليكتسب ويفوز بالتقدير بالمقارنة بأولئك الذين يعملون تحت شروط أفضل كثيراً في البلاد المتقدمة ، ربما هذا ليس مفاجأة ! لكن برغم كل شيء، نحن نعيش في عالم غير متساو .

فمحررو العلوم في الصحف والمجلات الدولية عندما يختارون مخطوطات علمية للنشر وأمامهم مخطوطان في نفس الجودة العلمية، واحد من جامعة هارفارد Harvard والثاني من جامعة حيدر أباد Hyderabad ، طبعا يختارون مخطوطة هارفارد ؛ لأن هارفارد تعتبر بالنسبة، لهم في أي يوم رهان آمن من حيدر أباد، وتميل التكنولوجيا إلى أن تستثير هذا التفاوت وتجعله يتفاقم، وتزيد من تهميش علماء الدول النامية . وقد أظهر التاريخ أن التكنولوجيا تعمق التفاوتات الحالية بصورة متكررة . ففي دول نامية كالهند وباكستان ومصر يوجد فيها علماء أكفاء، يملكون فرصا ضئيلة للغاية لنشر أعمالهم في الدوريات العلمية، بل إن تلك الدوريات تصلهم متأخرة عدة شهور ، وفي مصر تصل الدوريات العلمية متأخرة سنة أو أكثر بالمقارنة بزملائهم الأوربيين ، علاوة على الاتجاه المتزايد في ارتفاع تكاليف النشر والاشتراك في تلك الدوريات .

أفريقيا معلوماتيا

الوضع في أفريقيا أسوأ ، حتى أن أستاذا جامعيا نيجيريا قال ذات مرة في مؤتمر صحفي : «عندما يسمي البعض منا بالعلماء نضحك على أنفسنا كثيرا . لأننا نعرف أننا لانقدر أن نقدم إسهامات حقيقية إلى العلم . ولا أعرف زملاء لي في كينيا أو حتى في لندن قد فعلوا ، وعلى سبيل المثال لا أستطيع أن أنفذ تجربة ، وأعتقد أنني على الطريق إلى إسهام أصيل في العلم . وإذا كنت أعطي وأدرس أجيالا من الطلاب نفس المسودات الدراسية للسنوات العشر الأخيرة ، أظن بعد ذلك لايجب أن أسمي نفسي عالما» . وأزعم أن ما ذكره هذا الأستاذ ينطبق تماما على التدريس والبحث العلمي في جامعاتنا ومراكزنا البحثية ، بل إن البعض في جامعاتنا يدرس للطلاب نفس المسودات التي كان يدرسها هو من ثلاثين سنة .

المعرفة في عصر المعلومات

ويزيد على ذلك أن العلماء والبحاث في الدول النامية ، لاتتوافر لهم تكنولوجيا المعلومات التي تمكنهم من الوصول إلى الفضاء الأنترنتي (السيبيرسباس) حيث فرص النشر الإليكتروني ، وتبادل المعلومات مع زملائهم الآخرين ، والوصول إلى بنوك المعلومات ، وقواعد البيانات . فالعلماء والبحاث في العالم ليسوا شركاء متساوين في المؤسسة العالمية لإنتاج المعرفة ؟

فالانتقال إلى النشر الإلكتروني في الفضاء الانترنتي ، بالطبع سوف يوسع الفجوة بين البلاد المتقدمة والدول النامية وسوف يزيد تهميش العلماء في الدول النامية . فمعظم الدول النامية خاصة ذات الأعداد السكانية الكبيرة، لا تملك البنية التحتية الاتصالية الضرورية لتكون قادرة على أن تشارك كشريك متساو في المؤسسة العالمية لإنتاج المعرفة والنشر، فالبنية التحتية للاتصالات telecommunications infrastructure – هي خطوط التليفونات ، والكابلات التليفزيونية ، والأقمار الصناعية ، والألياف الضوئية ، وأجهزة الكمبيوتر وملحقاتها الاتصالية كلها تتداخل وتتكامل في منظومة واحدة تمثل البنية التحتية للاتصالات ، وهي تمثل أساس البنية التحتية للمعلومات في أي دولة . وتلك البنية الاتصالية تعتبر الآن من أهم البنيات التحتية في تنمية أي مجتمع، وتخدم على بقية البنيات الأساسية الأخرى .

ثقافة معلوماتية أحادية

وتشير الأرقام إلى أن ٩٥٪ من كل الكمبيوترات في العالم موجودة في الدول المتقدمة وعشر دول متقدمة فقط تمثل ٢٠٪ من سكان العالم تملك ثلاثة أرباع خطوط التليفونات في العالم أجمع ومعظم التليفونات في الدول المتقدمة تتركز في المدن الحضرية ، وليس لدى علماء وبحاث كثيرين تليفونات على مكاتبهم ، و معظم جامعات ومراكز البحوث في الدول النامية تفتقد إلى البريد الإلكتروني أو مرافق إنترنت ، والبعض يملك اتصالات بالانترنت ، ولكنها بطيئة للغاية . فهناك ناس كثيرون جدا في العالم النامي لم يلمسوا بعد أهمية ثورة المعلومات ، وهناك أغلبية شاسعة من علماء في الدول النامية لا تصل لهم هذه التكنولوجيات .

والآن أصبحت معظم الدوريات العلمية العالمية تتلقى البحوث وترسل نقدها ومراجعتها من خلال البريد الإليكروني ، طبعا هذه الدوريات لاتحبذ الاستعانة بمحكمين للبحوث من الدول النامية ، حتى لو كانوا أكفاء في تخصصهم، لأنها ببساطة لاتستطيع أن تصل إليهم. وهناك

فرص كبيرة لعلماء الدول النامية لنشر أبحاثهم ومخطوطاتهم في الدوريات العلمية الإليكترونية ، إذا توفر لهم تكنولوجيا المعلومات .

والتحول السريع إلى النشر الإلكتروني سهل للعلماء والبحاث في البلاد المتقدمة فرصا كثيرة للتفاعل مع زملائهم في العالم . والقلق الرئيسي أن المستوى المنخفض للمعلومات وتكنولوجيات الاتصال في الدول النامية سوف يؤدي إلى الاستبعاد المتزايد لأغلبية العلماء والبحاث في هذه البلاد من مخاطبة التجمع العلمي الدولي ، الذي يعتبر الاساس في إنتاج المعرفة الجديدة.

فعندما تكون مشاركة الدول النامية ببحوثها في الدوريات العلمية العالمية مثل Science, cell journal of American Chemical Society ، ضعيفة جدا ، سوف ترتفع مستويات العلم والتكنولوجيا في الدول المتقدمة وتتسع الفجوة بينها وبين الدول الفقيرة ، ويقود ذلك إلى استنزاف العقول من تلك الدول ، وزيادة اعتمادها على المساعدات العلمية من الدول المتقدمة ، بمعنى آخر تكون هناك ما يسمى بإمبريالية المعرفة Knowledge imperialism .

والبعض يطلق عليها الآن ثقافة الإمبريالية الآسكية cultural Imperialism Of Ascii .

حيث تسيطر الآن ثقافة معلوماتية أحادية عقيمة ، وسيطرة أسكية أمريكية رغم ذلك أمام الدول النامية الكثير للاستفادة واستثمار العناصر الإيجابية في الانترنت بشرط ، أن يتصرف العالم بسرعة لسد فجوة المعلومات بين الشمال والجنوب ، التي تزداد اتساعا وعمقا بسرعة كبيرة تنذر بمخاطر عديدة .

دعــوة

ندعو البنوك والشركات والأفراد للتبرع بأجهزة الكمبيوتر المتقادمة والمعدات الألكترونية المستعملة إلى مؤسسات أو جمعيات أهلية ، تدرب الأجيال الجديدة الذين لا يملكون فرصة شراء كمبيوتر .

الدكتور أحمد زكى

ملامح شخصية

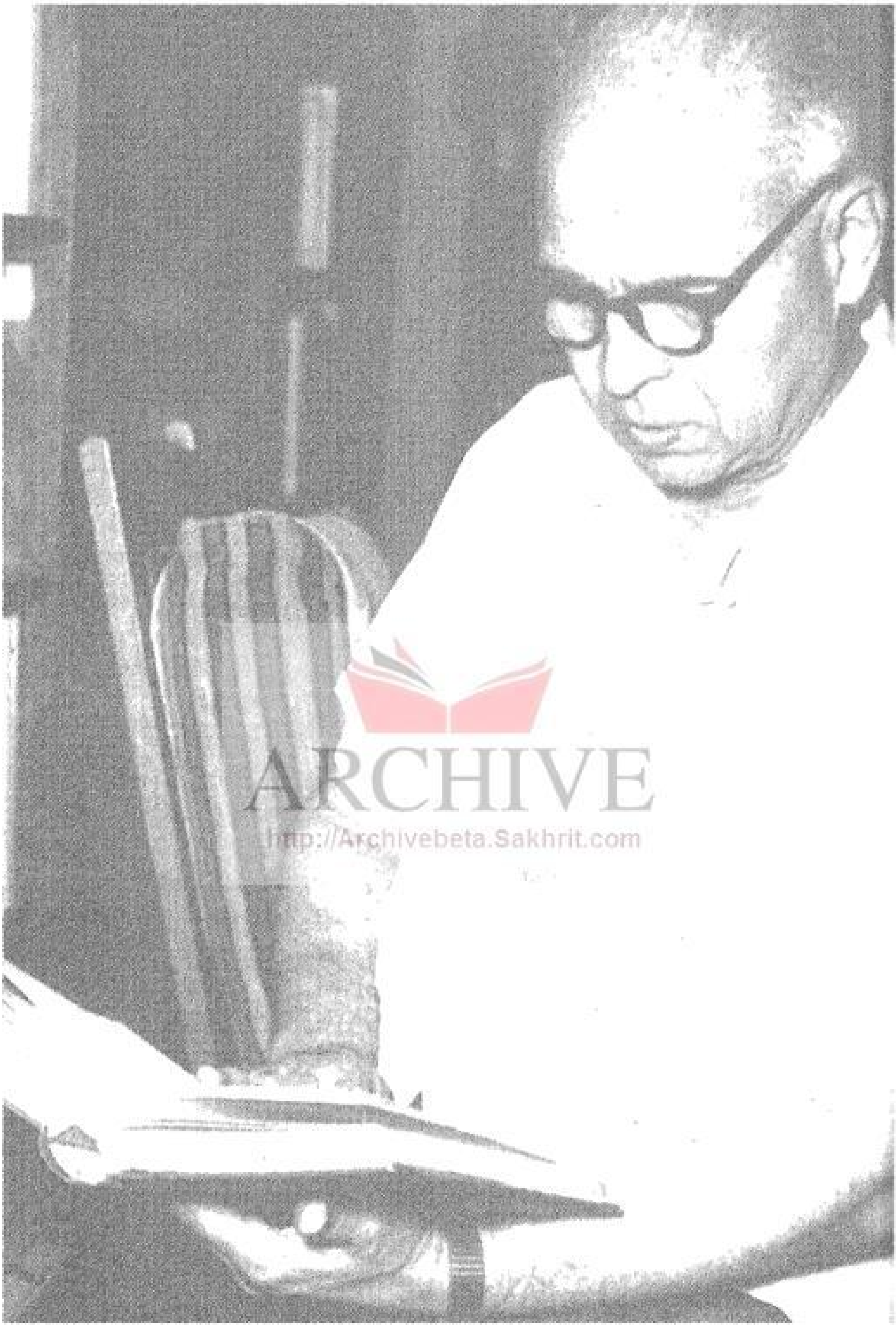
بقلم : مصطفى نبيل

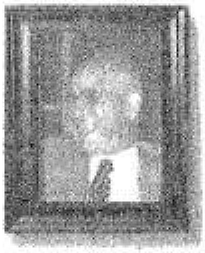
شخصية العدد هذه المرة ، هو الدكتور أحمد زكى ، العالم المثقف الذى أثرى الحياة الفكرية والعلمية ، وعلاوة على ذلك فهو الأب الروحى لمجلة الهلال ، الذى لعب دوراً مهماً فى تحديد رسالتها ورسم شخصيتها ، وهو الذى أرسى فى كل كتاباته قيمة «الحرية» .

نقدم ملامح شخصيته ، ولماذا رحل من القاهرة إلى الكويت عام ١٩٥٨ ؟! ، ولماذا اختفى اسمه كرئيس لتحرير الهلال رغم أنه كان يتولى المسئولية كاملة عامى ١٩٥٧ و ١٩٥٨ ؟!.

نذكر فضل د . أحمد زكى اليوم ، ونحن منغمسون فى تطوير مجلة «الهلال» فهو أحد رموز الثقافة المصرية وأحد الذين ساهموا فى بناء مجلة «الهلال» ، ولم ينل حقه من التكريم ، فقد وصل قبل ثورة يوليو إلى منصب الوزارة ، ولم يتخل يوما عن دوره الثقافى ، ولم يترك قلمه حتى آخر يوم من حياته ..

تولى رئاسة تحرير مجلة «الهلال» بين يناير ١٩٤٧ وحتى نهاية عام ١٩٥٠ ، وعاد وتولى رئاسة تحرير الهلال فى سنوات ٥٧ و٥٨ وتولى مسئولية مدير جامعة القاهرة أقدم وأعرق جامعة عربيه ، ولكنه استقال بعد أزمة مارس ١٩٥٤ ، عقب الصدامات التى وقعت بين الطلبة والبوليس وترك منصبه فى الثامن من سبتمبر ١٩٥٤ ، إما





شخصية العدد

احتجاجاً على دخول البوليس الحرم الجامعي ، وإما بعد فصل عدد كبير من أساتذة الجامعة ، وإما استحالة تعامله مع وزير تعليم عسكري !

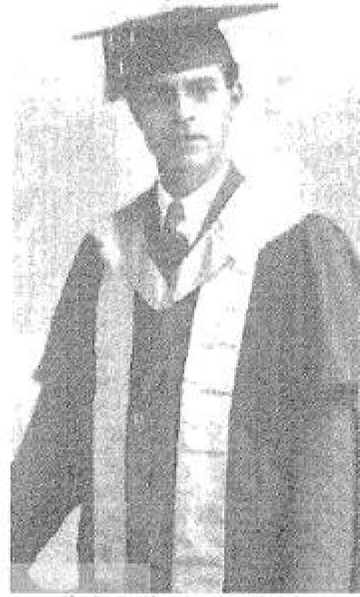
وفي عملية كيميائية مزج أحمد زكي بين العلم والأدب ، فلم يحصل أحد على ما يطاول شهادته العلمية في الكيمياء ، ولكنه ألف وترجم ، يقول عنه العقاد .. «لا أقرأ له إلا وأتصوره قد جلس إلى مكتبه وبيده قلم وبيده الأخرى مسطره وبرجل..» ويقول عنه أحمد أمين .. «إنه أدب العلم ، إنه كيميائي عظيم وأديب كبير ، مزج العلم والأدب كما يمزج بين السكر والماء ، فبينما نراه في معمله بين الأنابيب والمحاليل ، نراه في مكتبه يحلل الكلمات ، ويستخرج المعاني ويصوغ الأفكار ..» .

أما أحمد زكي فيقول .. «كنت أستاذ جامعة ، ومدير جامعة ، ورئيساً لمركز علمي مدة ربع قرن ووزيراً .. ولو أن الحياة عادت بي من جديد ، وأذن لي أن أتمنى ما تمنيت شيئا من هذه المناصب ، لقد تمنيتها قبل أن أكونها ، فلما كنتها ، تعلمت منها ما رغبني عنها . إن الحياة طعام وشراب ، وهي أيضا فكر ، والفكر لذة يستمتع بها الإنسان وحده ، والفكر قراءة وكتابة ..» .

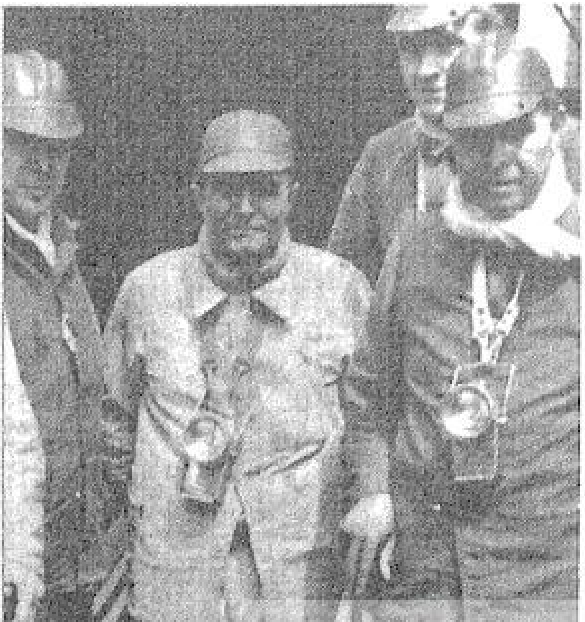
● سعى لكي يصل برسالة الهلال الثقافية الى القارىء في كل مكان

ثالث رئيس

وكاننا هو ثالث رئيس تحرير لمجلة «الهلال» ، فقد جاء بعد كل من منشئها جرجي زيدان ، ثم رئيسي التحرير ولديه إميل وشكري زيدان ، ثم جاء أحمد زكي الذي اختار القطع الحالي للهلال ، والمدهش أنه عاد إلى القطع الأول عندما أسس مجلة العربي - واعتنى بتطوير الطباعة والاخراج ، وأصدر «الهلال» اثني عشر عدداً في العام بدلا من عشرة أعداد ، واهتم بالغلاف والعناوين والاخراج ، وحرص على أن تكون صورة الغلاف فتاة عصرية رائعة الجمال ، وسعى لكي يصل برسالته الثقافية إلى القارىء في كل مكان . وجعل «الهلال» جزءاً حيا من الثقافة العربية ، ولم تعد بعيدة عن ثقافة القارىء ، ولم تعد تعزل نفسها عن قضايا الوطن الملحة ، وأصبحت وعاء لحركات فكرية واجتماعية ، ومنبراً لدعوات ومدارس فنية جديدة ، وحاضنة لتيارات فكرية فعالة ، وكانت أداة تجمع وتوحد حول قضايا حيوية وخلق تيار عام مؤثر ، ونقل أحمد زكي الهلال



زامل علي مصطفى مشرفه ومحمد الغمراوي في جامعة نوتنجهام



د. احمد زكي عالم الكيمياء يستعد للهبوط الى احد المناجم .. لقد مزج بين العلم والادب

نقلة كبيرة فى الشكل والمضمون ..

وأهم إضافاته جعل العلم جزءا من نسيج المجلة وتلمس تأثيره عندما تجد بروازاً يعود فيه إلى دائرة معارف ، وعندما تلاحظ أنه يندر أن تجد خطأ لا يعقبه تصويب ، فقد كان بحق عالما موسوعياً مدققا ، يزن أبواب المجلة ويرتبها وينسقها بتوازن جمالى متميز .

وكانت المجلة الثقافية قبله لا تعتنى بالشكل وتكتفى بالمضمون ولكن بعد أن تطورت فنون الطباعة والاتصال ، أصبح من الضرورى العناية بالجماليات ، وخاصة بعد ظهور دراسات ووسائل مبتكرة للجذب البصرى ، لذا لم يغفل عن عناصر التشويق والجذب ، وإراحة العين بالفراغ والصورة .

الدنيا قصة

وتلحظ اهتمامه بالتشويق والجذب فى قوله .. «ليس ألذ فى أحاديث الناس من قصة ، وليس أمتع فيما يقرأ الناس من قصة ، والعقول قد تخمد من تعب ، ويكاد يغلبها النوم ، حتى إذا قلت قصة ذهب النوم ، واستيقظت العقول ، وأرهفت الآذان ..»

ونجده يفتح صفحات مجلة «الهلال» على الكتاب العرب فى كل مكان وفى عدده

الأول فى يناير ١٩٤٧ نجده يقول .. «إننا نعود فنذكر أن «الهلال» مجلة العالم العربى كله ، وأنه يسرنا أن يساهم فيها أدباء الأقطار الشقيقة..» .

وكما نلحظ فتاة جميلة على أغلفة «الهلال» فى فترة رئاسته للتحرير ، نلحظ أيضا قصر المقالات التي تتجاوز أربع أو خمس صفحات ، فهي مقالات ينطبق عليها المثل القائل «ما قل ودل» ، وهى مقالات عالية المستوى ، راقية الأسلوب ، ولن نجد كاتبا مهما لم يساهم بالكتابة فى هذه المرحلة .

ولا يتناول هذا الحديث رصد ما أدخله من تغييرات ، وإنما هو مجرد ملاحظات سريعة ، يضع كاتبنا صيغة موسوعية للأدب والعلم والطب والفن ، ويأخذ من كل قسم بطرف ، ويحرص على التوازن الدقيق بين التراث والحداثة ، وبين العربى والغربى ، وبين القديم والجديد ، وتعامل مع المجلة كأداة تثقيف عام ، يعرف القارىء بكل شىء ولم يقتصر عالمه على الغرب بل امتد إلى كل أنحاء العالم ، ويقول شارحاً رؤيته ومذهبه فى دور المجلة الثقافية .. «إن أستاذ الطب تلميذ غالباً عندما يتصفح مقالاً فى فلسفة الأديان ، واستاذ الفقه الإسلامى تلميذ غالباً عندما يتصفح مقالاً فى نفسية المراهقين والمراهقات ، وأستاذ التاريخ تلميذ غالباً عندما يقرأ مقالا فى إنتاج الكهرباء من الذرة وهكذا.. » .

ويفتح صفحات «الهلال» لكل موهبة وينادى .. «يجب ألا يقتصر «الهلال» على ما يكتبه أصحاب المكانة المعروفة ، والصيت الواسع ، بل يجب أن يساعد على إبراز النبوغ الكامن وتشجيع الكفاءات الجديدة .. وسنبذل عناية خاصة بفحص ما يرد إلينا من الكتاب الناشئين ، ولعلنا بذلك نخدم هؤلاء الأدباء وجمهور القراء » .

الثقافة العلمية

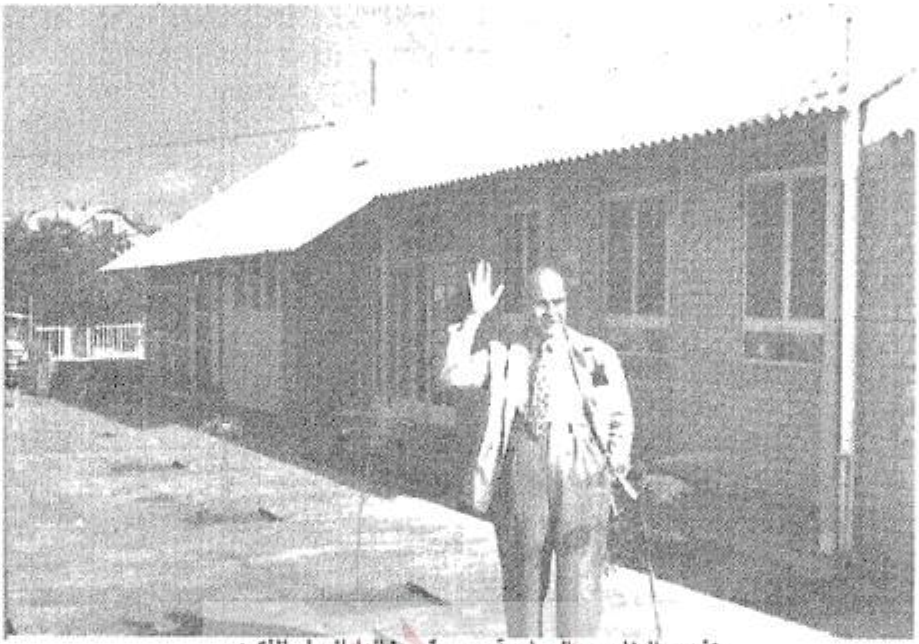
ويكاد يكون د. أحمد زكى هو أول من بشر ونادى بإدخال الثقافة العلمية لكى تصبح جزءا من نسيج الثقافة العربية ، فهذا هو الطريق الوحيد للتقدم ، وأرسى بالفعل قواعد تناول العلوم ومعالجة الثقافة العلمية ، وتبسيط العلوم وتقديمها .

صحيح كانت مجلة «المقتطف» أسبق فى الاهتمام بالعلوم ، فهى من أولى المجلات التى قدمت نظرية النشوء والارتقاء .



شخصية العدد

● أول من بشر ونادى بإدخال الثقافة العلمية لكى تصبح جزءا من نسيج الثقافة العربية



تذهب المناصب السياسية ، ويبقى خالدا العمل الفكرى

ونقلت الكثير من العلوم الحديثة من الغرب، ولكن أضرها تلك الرابطة التى كانت لها مع المقطم ومع الاستعمار البريطانى ، خاصة وأن كل من فارس نمر وفرح انطون قدما إلى القاهرة مع الاحتلال البريطانى .

ولعله يمكن تبين الفارق بين «هلال» أحمد زكى ومجلة «المقتطف» فى تعريف الثقافة ، فإذا اقتصر تعريف الثقافة على مجموع المعارف ، فقد قامت بها المقتطف، ولكن الثقافة كما قدمها د. أحمد زكى أوسع وأرحب من مجرد المعلومات، فهى هذا الشىء الذى نرثه ويتناول إدراكنا لذواتنا وسلوكنا ومواقفنا إزاء كل ما يحيط بنا ، وهو بالضرورة لا يعزلنا عن قضايا الوطن الملحة ..

ويبدو أن الاستعمار البريطانى جاء بفكرة أن العلم الحديث قادر على القضاء على التراث ، فوضعت «المقتطف» العلوم الحديثة فى مواجهة التراث ، وجعلت الاختيار ضرورياً بين العلوم الحديثة فى الغرب وبين تراث الشرق، على اعتبار حتمية التناقض بن العلم الحديث وبين نظم الحياة ، وهياكل المجتمع فى الشرق!

لذلك لم يكن غريبا أنه عندما ترك فارس نمر مصر أن يترك ثمانية آلاف فدان، حصل عليها من عمله فى المقتطف والمقطم ، أما أحمد زكى فقد مات غريبا بعد جهاده

الطويل.

وقام أحمد زكي ومعه كوكبة من العلماء مثل د. عبد الحليم منتصر و د. عبد المحسن صالح، بسعى صادق لإدخال المنهج العلمى فى نسيج الفكر العربى من أجل تحديث البلاد .

مجمع اللغة العربية

وماذا بقى من سيرة حياته والتى تلقى الضوء على بعض جوانب شخصيته فالدكتور أحمد زكى جزء من جيل لا تقف أمامه العقبات ، فعندما لم يحصل على بعثة للدراسة فى انجلترا ، عمل ناظراً لمدرسة وادى النيل الثانوية بباب اللوق لصاحبها المهندس وهبى بك والد يوسف وهبى، مكان المدرسة الألمانية الحالية بباب اللوق ، وادخر راتبه وسافر للدراسه على نفقته ، ومن مدخراته ، عام ١٩١٩ ، وعاد عام ١٩٢٨ ، وأسهم فى تأسيس الجمعية الكيمائية سنة ١٩٣١، وظل رئيساً لها لمدة ربع قرن، وأسهم فى إنشاء المجمع العلمى المصرى عام ١٩٢٩ وتولى رئاسته فى أوائل الأربعينيات وفى عام ١٩٤٦ أختير عضوا فى مجمع اللغة العربية .

وشغل مناصب علمية ثقافية عديدة: رئاسة الجمعية الكيمائية المصرية، ورئاسة الأكاديمية المصرية للعلوم، ورئاسة المجمع المصرى للثقافة العلمية ، وعضوية مجمع اللغة العربية، وعضوية المجمع العلمى بدمشق ، وعضوية معهد فؤاد الأول للصحراء ، وعضوية المجلس الأعلى لدار الكتب .

ومنذ كتابه الأول «مبادىء الكيمياء» توالت كتبه ، فاشترك مع الزيات فى ترجمة «غادة الكاميليا» وترجم «جان دارك» و «قصة الميكروب» و «سلطة علمية» و «ساعات السحر» و«بين المسموع والمقروء» واعتبر كل عدد من «الهلال» خلال رئاسته لتحريرها كتابا كأحد أبنائه .

وفى قصة حياة أحمد زكى العديد من المصادفات ذات الدلالة .. ومنها أنه زامل كلا من محمد فريد أبو حديد ومحمد عوض محمد وعبد الحميد العبادى ومحمد بدران ومحمد شفيق غربال ومحمد أبو زهره وعبد الوهاب خلاف ومحمد كامل سليم، وهى مجموعة متميزة ساهم كل منهم بإنجاز فى مجاله ، وخرج هذا الجيل من عباءة ثورة ١٩١٩ .

وها هو ذا يقول :« إنه كان هو ومصطفى عبد الرازق



شخصية العدد

● لماذا لم يوضع اسمه رئيسا لتحرير مجلة الهلال فى سنتى ١٩٥٧، ١٩٥٨؟

ومنصور فهمي وأحمد أمين زملاء في مدرسة ثورة ١٩١٩» .

وتمضي الاحداث مع حركة المجتمع ، ويزامل في جامعة نوتنجهام علي مصطفى مشرفة ومحمد أحمد الغمراوي ، وكان أحمد زكي ثالث ثلاثة يحصلون على هذه الدرجة العلمية في مصر بعد مصطفى مشرفة وعبد العزيز أحمد .

ويروى جانبا حزينا مما صادفه في حياته حول قصة بناء السد العالي .. يقول .. «جاءه مهندس يوناني ، «صاحب فكرة بناء السد» ، وعرض عليه فكرة إنشاء السد العالي وأقنعه بها وطلب مساعدته ، فذهب به العالم الكبير إلى الوزير - قبل الثورة - ، فرد عليه الوزير مستنكراً وقال .. «إحنا في إيه ولا في إيه يا زكي» !!

محمد عبده وأحمد زكي

ومن يعيد قراءة حياة وأعمال «أحمد زكي » يلحظ أنه وهو الحاصل على أعلى الدرجات العلمية ، لم يأخذه البحث العلمي، ولم يعكف على العمل في معمل الكيمياء، بل أخذ يكتب في الصحف ويلقي المحاضرات، ويقيم المؤسسات العلمية والجمعيات الأهلية ويساهم في إصدار الدوريات المختلفة ، مما يعني أنه أيقن أن زراعة الفكر العلمي في التربة المصرية ، هو الدور الذي يبحث عن من يؤديه ، ونجده يكتب في هذا الصدد نحو موسوعة علمية ومع الله في السماء ...

وألح عليّ سؤال حول انصراف د. أحمد زكي عن البحث العلمي وانصرافه الكامل للتأليف ، وهنا تذكرت تجربة الاستاذ الإمام محمد عبده ، الذي كانت بدايته مع جمال الدين الافغاني ، وبعدها اشترك في الثورة العرابية، وبعد فشلها سجن ولوحق ونفي ، وغرق في العمل السياسي والسري وأصدر مجلة «العروة والوثقى» ثم انصرف عن العمل السياسي المباشر، وأدرك ضرورة الاهتمام بالتربية والعمل الثقافي ، فأخذ يساهم في تطوير التعليم وتطوير الدراسة في الأزهر الشريف، وإقامة الجمعيات الأهلية وغير ذلك من الانشطة الفكرية ..

وكذلك فعل د . أحمد زكي الذي وجه إهتمامه للعقول وأدمغة البشر التي تصنع النهضة ، ومن كلماته .. «أدركنا بعد مؤتمر الصلح أن السلاح .. كل السلاح في المدى الطويل، إنما هو العلم والعرفان .. فألقينا سلاحنا، هكذا أعلنا ، واستبدلنا بالسلاح القلم، وألفنا عام ١٩١٤ لجنة سميناها لجنة التأليف والترجمة والنشر» .

وكان أول كتاب صدر عن اللجنة هو «مبادىء الكيمياء» لأحمد زكي فقد اضطلع العالم الكبير بالعمل على بناء صرح العلم الحديث ، وتمكين الثقافة العلمية من النفوس .

وها هو ذا يقول ما يوضح رسالته .. «الفارق بين العلم والأدب مفتعل ، وهو أكثر افتعالاً في الشرق . فكل كاتب في الشرق مفروض أن يكون أديبا ولو كان عالماً .. ومن غرائب الشرق أن يستغرب أن يكون العالم أديباً ..» .

الرحيل من مصر

وشغلني أيضا السؤال التالي ، وهو لماذا رحلت هذه الشخصية الفريدة من مصر ، وسافر إلى الكويت لإنشاء مجلة العربي؟ ولماذا لم يوضع اسمه رئيساً لتحرير مجلة

«الهلال» فى السنوات ١٩٥٧ و ١٩٥٨ ، رغم أنه كان يمارس عمل رئيس التحرير .. ؟ وهل هذا من عمل أصحاب الدار ؟ أم باختياره ؟ ولماذا رحل من القاهرة إلى الكويت ، علما أن الكويت فى هذا الوقت لم تكن قد استقلت بعد ، وأن مجلة العربي صدرت من مبان مؤقتة ، أقيمت على عجل تطل على الخليج العربى ...

وتقترب إجابة هذا السؤال من المسكوت عنه من تاريخ ثورة يوليو ، والتي تتمثل في سعى بعض المسئولين ملاحقة السياسيين من بقايا العصر الملكي، كأحد نتائج الصراع السياسى الحاد الذى واجهته الثورة ، وخاصة بعد أزمة مارس ١٩٥٤. واعتبرت الثورة د. أحمد زكى سياسيا سابقا لأنه تولى الوزارة قبل الثورة، ولأن أخاه كان الطيار الخاص للملك فاروق، وأنه كان ينتمي للمدرسة الليبرالية التي قامت مع ثورة ١٩١٩.

رغم أن بعض السياسيين والمثقفين القدامى نجحوا فى الإفلات من الاستقطاب ، مثل د. طه حسين إلا أنه لم تفلت شخصية أخرى مثل د. محمد حسين هيكل الذى كان رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين ورئيساً لمجلس الشيوخ وفي نفس الوقت أحد أهم الكتاب .

وكان على الثورة أن تميز بين السياسيين والمثقفين ، فالبعض كان بالفعل في خدمة السراى والانجليز، ولكن معظم السياسيين ، كانوا يعملون من أجل نهضة البلاد ، وإن تعاونوا فى بعض الأحيان مع السلطة القائمة حينئذ .

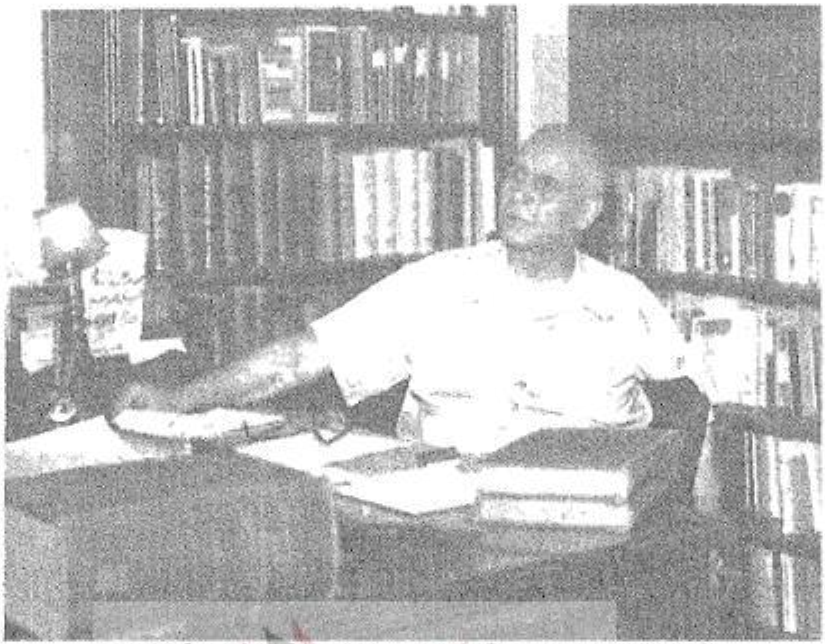
وكان د. أحمد زكى قد بلغ الستين قبل خروجه من الجامعة وبدأ حياة ثقافية جديدة انتهت برحيله إلى الكويت، بعد الحصار الذي تعرض له ، ويكفى أنه عمل رئيسا للتحرير كالجندى المجهول، وكانت عملية الرحيل جزءاً من ظاهرة عامه، اشترك فيها، السنهورى باشا الوزير السابق ورئيس مجلس الدولة ، ووحيد رأفت، وسابا حبشى وزهير جرانه ... وغيرهم .

وها هوذا د. أحمد زكى يعبر بأسلوب غير مباشر عما تعرض له من الثورة بقوله .. «من الثورات التى أعرفها ، ثورات نحت من رجال الفكر رجالاً لهم كفايات ترجح بهم فى الموازين ، لو أذن لهم فى البقاء حيث هم ، فى العهود الجديدة لسهلوا الطريق وكشفوا عن الأخطار ، ونفعوا نفعاً عظيما .. ولكن بدلاً



شخصية العدد

● كانت تجربتي في الوزارة تجربة مرة ، عرفت منها ان للحكم ظاهرا يعرفه الناس وباطنا لا يعرفونه.



ثالث رئيس لتحرير مجلة الهلال .. اعتنى بتطوير الطباعة والاخراج

من هذا ركنت هذه الثورات فى كثير من الأحيان إلى أصناف من الرجال لم يكن فيهم النضج الكافى ، ولا حتى الايمان بالجديد الذى خشيت الثورة أن يكون قليلا فيمن أبعدوا، ولم يكن فى الكثير ممن أبعدوا عن مشاركة، نقص فى إيمان ، ولا عزوف عن جديد، وكانت لهم قلوب مليئة بالنقمة على القديم ، لكنها عادة فكر كان من شأنها النظر قبل القطع والاستماع إلى الرأى الحر قبل إبداء المشورة ..»

ويعود ويروى تجربته فى تولي المناصب السياسية بقوله .. «وكانت تجربتى فى الوزارة تجربة مرة ، عرفت منها أن للحكم ظاهراً يعرفه الناس ، وأن للحكم باطنا لا يعرفونه ، .. رجل مثلي تعود أن يقيس الأطوال بالمتر ، فإذا قاس شيئاً طوله عشرة سنتيمرات فلا يستطيع أن يقول إنها عشر بوصات ، لو قرأها عشرون رجلا من حوله من أهل الحكم .. إنها عادة أهل العلم يضيق بهم أهل السياسة..» .

وتذهب المناصب السياسية بحلوها ومرها ، ويبقى خالداً العمل الفكرى، وتستمر مدرسته قائمة على طريق النهضة والتحديث ، ونحو آفاق المستقبل . ■

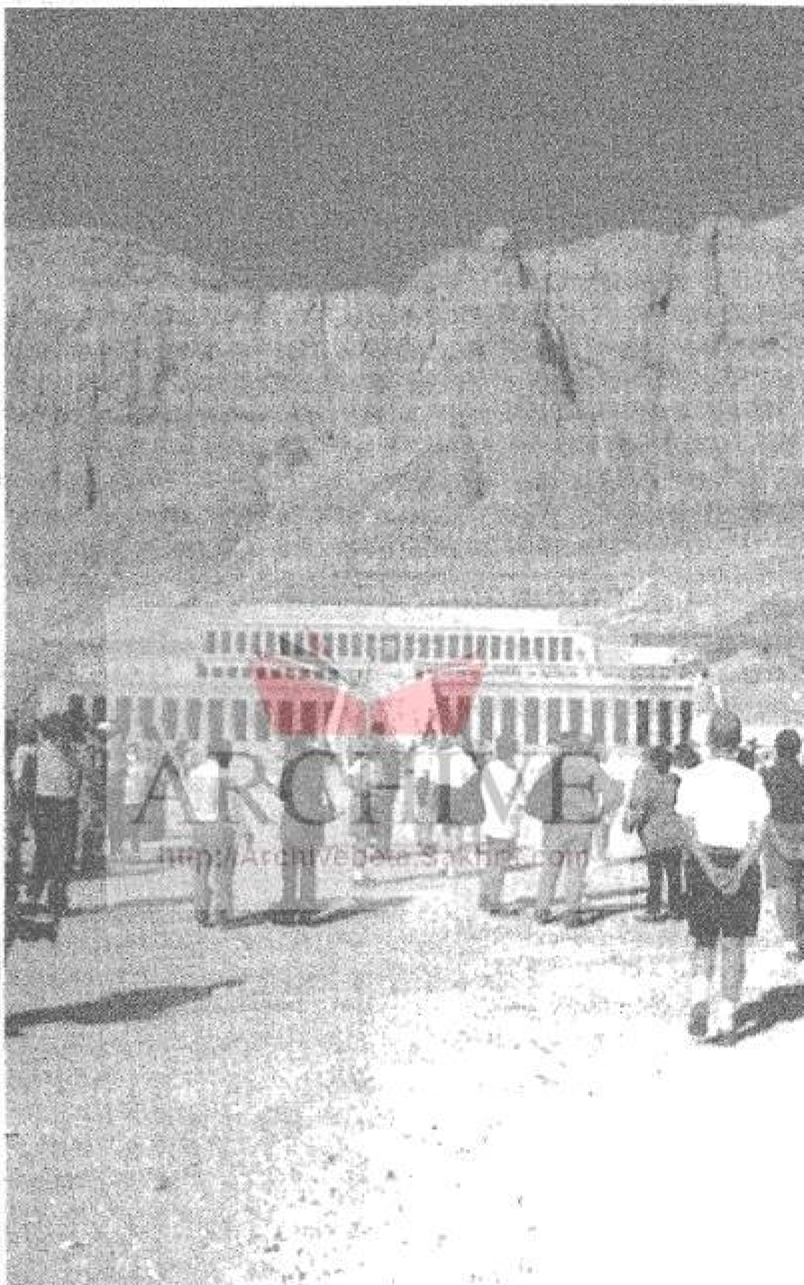
السياحة

من عصر ابن بطوطة إلى عصر العولمة

بقلم : د. جلال أمين

كثير جداً من أنواع السلوك فى المجتمع الحديث ليس إلا تعبيرا متطورا او معقدا عن حاجات إنسانية بسيطة للغاية. فذهابنا إلى السوبر ماركت الحديث، وطوافنا بين رفوفه، والتقاطنا لهذه السلعة أو تلك من هذا الرف أو ذاك، حتى تمتلىء السلة التى نحملها، ليس إلا صورة متطورة بعض الشىء لطواف الرجل البدائى بين الأشجار يلتقط من هذه الشجرة أو تلك مايصلح للأكل من ثمار، أو تفتيشه فى الأرض عما يؤكل من جذور النباتات . لا أريد بالطبع أن أقلل من أهمية الفروق بين سلوك الرجل البدائى فى الغابة وسلوكنا فى السوبر ماركت الحديث، ولكن من المفيد من حين لآخر أن نلفت النظر إلى أوجه الشبه ولو لكى نستعيد بعض التواضع المفقود.

كذلك فإن جلوسنا يوما بعد يوم أمام التليفزيون أو إدماننا قراءة صحيفة كل صباح، ليس إلا صورتين حديثتين لمجلس الرجال أو النساء بعد أن يفرغوا من العمل، للتلذذ بالخوض فى سيرة الغير وبالإستماع إلى آخر أخبار الفضائح التى يرتكبها الآخرون.





ابن بطوطة

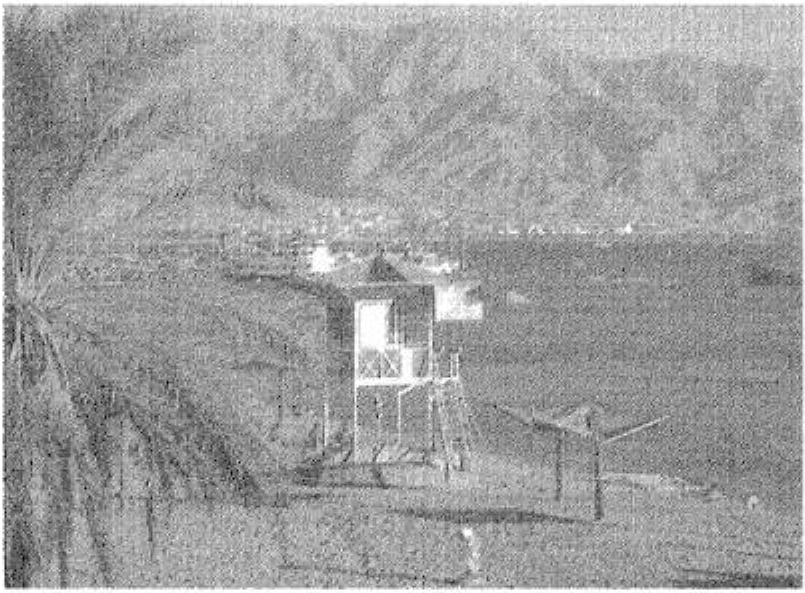
السياحة أيضاً ، ومهما تعددت صورها واختلفت تعريفاتها، ليست في نهاية الأمر إلا استجابة لميلين طبيعيين فى أى إنسان (بل وإلى حد ما فى الحيوان أيضا) وهما الميل إلى الاسترخاء بعد القيام بجهد عضلى أو ذهنى، طمعاً فى تجديد النشاط واستعادة القدرة على بذل المجهود من جديد ، والميل إلى اكتشاف المجهول . مادام الأمر كذلك فلابد من أن الانسان قد مارس صورة أو أخرى من «السياحة» منذ أقدم العصور، وأيا كانت درجة «تقدمه» أو «تخلفه» ، إذ ليس من الضرورى لإشباع هذين الميلين ، إلى الاسترخاء والاستكشاف ، أن يكون بيد المرء مجموعة من الشيكات السياحية أو أن يذهب إلى مكتب سياحى لينضم إلى فوج من الناس من أصحاب الرغبات المتشابهة .

كل هذا بديهى ، وإنما المدهش حقا هو كيف احتاج الانسان إلى مرور كل هذا الوقت الطويل قبل أن يصل إلى مانعرفه اليوم مما يسمى «بالسياحة الجماهيرية» (Mass Tourism) ، وكل هذا العدد من التطورات التكنولوجية التى كان لابد أن تتحقق قبل أن تنشأ هذه الظاهرة .

فالحقيقة أن ظاهرة السياحة الجماهيرية لايزيد عمرها على أكثر تقدير على خمسين عاماً. فهى لم تبدأ إلا ببدايات متواضعة للغاية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، عندما عبر بعض الأمريكيين المحيط الأطلنطى، ومعهم آلاتهم الفوتوغرافية وراحوا يتجولون فى بعض المدن الأوروبية التى سمعوا عنها أو رأوها خلال الحرب، وهم فى لهفة إلى أن يعودوا لذويهم فى أمريكا، ومعهم بعض الصور لقصر الملكة فى انجلترا، أو لبعض القوارب السائرة فى قنوات مدينة البندقية .. الخ ثم تطور الأمر من هذه البداية المتواضعة حتى رأينا بعض الدول يعتمد اقتصادها اعتمادا أساسياً على ما ينفقه هؤلاء السياح، وأصبح ازدهار السياحة مصدرا للتباهى والتفاخر بين الأمم، وحتى أصبحت، من ناحية أخرى مصدرا للنقمة الشديدة من بعض المهتمين بصيانة الثقافة والمقومات القومية، إذ يرون فى هذا الازدهار السياحى تهديداً لأشياء غالية وعزيزة جداً عليهم.

شروط ضرورية

كان لابد للإنسان ، من أجل أن ينتقل من أبسط صور «السياحة» التى قد تتمثل فى حمل بعض الطعام والشراب والذهاب للجلوس على شاطىء أقرب نهر أو بحر ، إلى ما تعنيه السياحة اليوم من ركوب الطائرات وعبور المحيطات والحجز فى الفنادق وتحويل العملات ...الخ، كان لابد للإنسان لكي يحقق هذا التطور



أن يحقق تقدما مدهشا في أكثر من مجال ، كان عليه أن يعبد الطرق، ويطور السفن، ويخترع البوصلة، ثم أن يخترع الآلة البخارية ويستخدمها في تسيير السفن والقطارات، ثم أن يخترع الطائرة الصغيرة ثم الطائرة النفاثة، وأن يخترع التلغراف والتليفون ثم الكمبيوتر، وأن يخترع أيضاً النقود سهلة الحمل لكي يستغني بها عن حمل السلع من مكان لآخر، ثم أن يخترع الشيكات حتى يصل إلى بطاقات الائتمان (Credit Cards).

ولكن فوق هذا وذاك كان لابد للإنسان أن يحرز تقدما تكنولوجيا كبيراً في إنتاج مختلف السلع الزراعية والصناعية مما يمكنه أولا من الحصول على فائض من الدخل يمكن أن ينفقه على مثل هذه الكماليات ، كالذهاب إلى أقصى أركان الأرض لمجرد الاسترخاء والاستكشاف، ويمكنه ثانياً من الحصول على وقت كاف من الفراغ يمكن أن ينفقه على مثل هذه الأمور . لم تتحقق للإنسان كل هذه الأشياء : الطرق المعبدة ، ووسائل للمواصلات ذات سرعة معقولة، ونقود تتمتع بالقبول العام في أكثر من دولة، وفائض من الدخل يسمح للسفر من أجل الراحة والاستكشاف، وفائض من الوقت يمكن أن يخصص لهذا السفر، لم يتحقق كل هذا ، ولو لنسبة ضئيلة جداً من الناس، الا منذ أربعة أو خمسة قرون، بل وظل السفر للسياحة



مقصوراً على هذه النسبة الضئيلة جداً لعدة قرون أخرى. نعم كانت هناك قبل ذلك الوقت استثناءات رائعة ومدهشة لبعض الرحالين العظام، من أشهرهم ماركو بولو الإيطالى الذى قام برحلاته فى القرن الثالث عشر (١٢٧١ - ١٢٩٥)، وابن بطوطة العربى الذى قام للسياحة من أقصى الطرف الغربى لأفريقيا إلى أقصى شرقى آسيا، فاستغرق منه ذلك ثمانية وعشرين عاماً فى القرن الرابع عشر (١٣٢٥ - ١٣٥٤).

الجولة الكبرى لأبناء الارستقراطية

باستثناء هذه الأمثلة المدهشة يمكن أن تعتبر نقطة البداية لتاريخ السياحة ما شهده عصر النهضة الأوروبية من تكرر قيام أولاد الطبقة الارستقراطية بزيارة مراكز التوهج الفكرى والفنى فى مختلف بلاد أوروبا الغربية ، هذا التوهج الذى يدين فى الأساس لتطورات تكنولوجية، أدت إلى نمو الملاحة والتجارة والثروة ، ومن ثم إلى ازدهار الفنون والثقافة بوجه عام فى بلد أوروبى بعد آخر ابتداء من المدن التجارية الإيطالية . وقد انتشرت فى بريطانيا على وجه الخصوص منذ منتصف القرن السادس عشر، تلك الظاهرة الشهيرة المعروفة باسم «الجولة الكبرى» (The Grand Tour) وكانت تعنى سفر بعض أولاد الأثرياء للطواف ببعض البلاد الأوروبية الكبرى ، ابتداء من باريس ، حيث يتعلمون الرقص والمبارزة وركوب الخيل ، بل وربما أيضاً بعض قواعد التعامل مع النساء قبل أن يستقروا للزواج فى بريطانيا، ثم يذهبون إلى إيطاليا ليتعلموا تذوق النحت والموسيقى وغيرهما من الفنون، ثم يعودون إلى بريطانيا عن طريق ألمانيا وسويسرا وهولندا وبلچيكا. واستمر شيوع هذه الجولة الكبرى حتى بلغت أقصى شهرتها فى منتصف القرن الثامن عشر حينما أصبحت تعتبر شرطا لا غنى عنه لاتمام تعليم وتثقيف أولاد الأسر الراقية.

لابد أن اختراع الآلة البخارية فى أواخر القرن الثامن عشر التى نتج عنها ظهور الباخرة والقطار، قد دفع بالسياحة بضع خطوات مهمة إلى الأمام ، ولابد أيضاً أن نمو المدن نتيجة للثورة الصناعية التى نتجت بدورها عن اختراع الآلة البخارية وظهور نظام المصنع، قد حفز بعض الناس إلى السفر للسياحة هربا من المدن المكتظة والملوثة . ومع ذلك ظلت السياحة لفترة طويلة أخرى مقصورة على شرائح ضيقة للغاية من السكان من أسر ملاك الأراضى الكبار الذين كانوا ينمتعون دون غيرهم بالإضافة إلى المال، بوقت الفراغ اللازم للسفر لمدد طويلة ، إذ ظل الوقت اللازم للسياحة، خاصة إلى دولة أجنبية،

ناهيك عن السياحة فى قارة أخرى، أطول مما تسمح به ظروف الطبقة الوسطى التى كانت تكسب دخلها من الصناعة أو التجارة .

السياحة الجماهيرية

كان ظهور السياحة الجماهيرية (Mass Tourism) بمعنى الكلمة، ينتظر شيوع مستويات الدخل العالى وإطالة مدد الاجازات السنوية لدى شرائح واسعة من السكان ، وهو ما لم يتحقق إلا مع قيام دولة الرفاهية. (Welfare State) فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، كما كان ينتظر تقصير زمن السفر بالدرجة التى تتناسب مع طول هذه الأجازات السنوية ، وهو مالم يتحقق الا بتوافر الطائرات كوسيلة من وسائل النقل المدنى، ثم استخدام الطائرة النفاثة فى نقل الركاب فى الستينات .

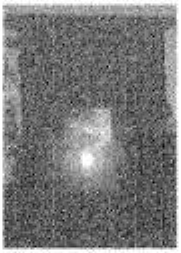
ولكن الكلام عن ظهور السياحة الجماهيرية وكأنه مجرد تغير كمى فى ظاهرة كانت صغيرة ثم كبرت، أى مجرد زيادة فى عدد السياح وفى حجم الدخل من السياحة وفى حركة الطائرات والقطارات .. الخ، هو كلام يقصر عن المساس بأهم جوانب هذه الظاهرة وأخطرها . فهنا أيضاً ، كما رأينا فى ازدياد استهلاك الصحف وفى انتشار التليفزيون ، وفى حلول السوبر ماركت العملاق مكان محلات البقالة الصغيرة (انظر أعداد مجلة الهلال ، نوفمبر وديسمبر ٢٠٠٠ ويناير ٢٠٠١) يؤدى التغير فى حجم الظاهرة إلى تغيرات مهمة للغاية فى طبيعة الظاهرة نفسها وآثارها ، وقد يحول الظاهرة البريئة إلى ظاهرة بالغة الخطر. فكما أدى الانتشار الواسع للتليفزيون إلى تغيرات كبيرة فى طبيعة ما يعرضه التليفزيون من برامج وإلى سطوة الاعلان عليه، وكما أدى الازدياد الكبير فى عدد النسخ المطبوعة من الصحف إلى ظهور الصحافة الصفراء، وكما أدى حلول السوبر ماركت مكان محلات البقالة الصغيرة إلى تغير فى سلوك البائع والمشترى بل وإلى تغير فى طبيعة السلع المنتجة نفسها ، أدت أيضاً الزيادة الكبيرة فى عدد السياح إلى انقلاب فى طبيعة السياحة رأساً على عقب.

السائح القديم والسائح الجديد

كان السائح القديم ، إذا اعتزم السفر، يترك امرأته وعياله ويسافر بمفرده، ليجنبهم مخاطر السفر ومشاقه. فإن احتاج للزواج من جديد تزوج من أهل البلد التى يزورها (كما فعل ابن بطوطة خلال رحلته التى تزوج خلالها ست مرات).

وكانت رحلة السائح بلا استثناء طويلة ومرهقة تطول فى الغالب أعواماً، إذ كانت الطرق صعبة ووسائل التنقل بطيئة مما قد يفرض على السائح أن يقيم فى البلد الذى يحل به شهورا قبل أن ينتقل إلى بلد آخر . لم يكن من الممكن إذن أن تظهر سياحة الأسبوع أو الأسبوعين التى نقضيها الآن، ناهيك عن سياحة عطلة آخر الأسبوع. هكذا استغرقت رحلة ابن بطوطة من المغرب إلى الصين عشرة أعوام مما قد لايستغرق من السائح اليوم أكثر من يوم واحد.

فلما عاد فى نهاية رحلته إلى بلده



طنجة عرف أن أباه قد توفي منذ خمسة عشر عاماً، ولم يكن هناك من وسيلة لاخباره بذلك في غيبته، وما كان هناك طائل على أي حال من أخباره، إذ لم تكن هناك جدوى من محاولة العودة بأمل رؤية أبيه حياً.

في مثل هذه الظروف لم يكن ليقدم على السياحة إلا رجل مدفوع بقوة شديدة من حب الاستطلاع والاستكشاف لم يكن السائح يذهب للاسترخاء على شاطيء البحر أو ارتياد الملاهي الليلية بل كان يقوم برحلته من أجل المعرفة والفهم أو من أجل الحج ، لم تكن المتعة المطلوبة مادية بل عقلية أو روحية ، فها هو ذا ابن بطوطة يقطع كل هذه المسافات لا من أجل المتعة ، بل من أجل الفهم والاستكشاف، وينتهز الفرصة فيقوم أيضاً بالحج أربع مرات، خلال ذهابه وإيابه . إن سائحاً كهذا لا يذهب لمجرد التفرج على الناس والمناظر والتقاط الصور، بل كان لابد له، شاء أم أبى أن يقيم بين الناس ويخالطهم ويحادثهم، وقد يجد من الضروري ، هذه الظروف ، أن يرتدي ثيابهم وأن يتكلم بلغتهم وأن يفهم دوافع سلوكهم . أما منظر سياح اليوم ببنطلوناتهم القصيرة وهم يسيرون في الأسواق ، رجالا ونساء، بحثاً عن مشتروات للذكرى (Souvenirs) ، يدللون بها على زيارتهم لهذه البلد الغريبة أو تلك ، وينطقون بلغة لايفهمها السكان المحليون، دون أن يشعروا بأنهم يمارسون سلوكا غريباً أو غير لائق فهو منظر لم تكن تتصور رؤيته في السياحة القديمة .

ربما كان الأهم من كل ذلك أن السائح القديم لم يكن يأتي بالضرورة من بلد أعلى دخلا وأكثر ثراء، كما هو الغالب في سياحة اليوم ، إذ لم تكن أمم العالم قبل الثورة الصناعية لتتفاوت كثيراً في الدخل والثروة. كان من الممكن جدا للسائح أن يكتشف أن كثيرا من البلاد التي يطوف بها أكثر ثراء وأعلى مدنية من بلده التي جاء منها . إنه لا يذهب للتفرج على فقراء العالم ، كما يذهب كثير من سياح اليوم ، ومن ثم فالسائح القديم لم يكن ليخطر بباله قط أنه ذاهب للحصول على الخدمة الرخيصة في بلاد فقيرة تقبل شعوبها أن تعرض الكثير من هذه الخدمات للبيع في مقابل عملة «صعبة» ونادرة.

بقدوم عهد السياحة الجماهيرية أصبح السياح يطلبون أشياء مختلفة جداً عما كان يطلبه سياح الماضي ، سواء كان هؤلاء السياح القدامى من المهوسين بالاستكشاف والاستطلاع من أمثال ماركو بولو وابن بطوطة ، أو من المنتمين للارستقراطية الأوروبية . هؤلاء السياح الجدد لا يبحثون بالضرورة عن الحقيقة أو التاريخ ولا عن الشمس الدافئة، بل يكفي لإرضائهم أن تلتقط لهم صورة أمام أحد المعالم المشهورة للبلد التي يزورونها، مما يقترن في أذهان

أصدقائهم ومعارفهم بهذه البلد، أو بجوار راقصة ترتدى ملابس الرقص الشرقي يمكن لهم بها إثبات ذهابهم إلى هذه البلاد الشرقية وقضائهم فيها «وقتا ممتعاً» (حيث أصبح «قضاء وقت ممتع هو معيار الحكم بجدوى أى عمل)، أو أن يشتروا أى تمثال رخيص هو تقليد لتمثال مشهور، أو حتى أن يطوفوا بشوارع هذه العاصمة الأوروبية أو تلك بعد احتساء أكواب عديدة من البيرة تمهيداً لحضورهم مباراة لكرة قدم واستعدادا لمعركة قد تنشب بين مشجعي هذا الفريق ومشجعي الفريق الآخر.

الطلب يخلق العرض

مادام هذا وأمثاله هو ما يطلبه السياح الجدد فهذا إذن هو مايقوم أهل البلد المستقبل للسياح بتقديمه لهم. الطلب يخلق العرض، والذوق الرخيص يخلق الانتاج الرخيص، وسياحة الجماهير تخلق مايناسبها من السلع والفنادق والكباريهات والمرشدين السياحيين. وكلما زاد «تقدم» الدولة فى مضمار المنافسة مع الدول الأخرى فى اجتذاب السياح، كلما انتشرت فيها هذه الأشياء جميعاً وتغلغلت أكثر فأكثر فى الحياة الاجتماعية لهذه الدولة.

لا يمكن لأحد أن ينكر المزايا الاقتصادية العظيمة التى تجلبها سياحة الجماهير، من دخل وعمالة وعملات صعبة بل وكذلك ما تحققه من تعارف شعوب على غيرها، ومن التقارب بينها، ومن تقدم فى مستوى النظافة أحياناً بل وفى مستوى الذوق أيضاً فى بعض الأحيان. ولكن لا يجوز لأحد أن ينكر أيضاً ما تحمله هذه السياحة الحديثة، أى سياحة الجديدة، أى سياحة الجماهير، من «تلويث للبيئة»، ليس بمعنى التلوث المادى بل المعنوى. إذ لا يمكن أن نتجاهل المرء هذا الاقتحام البالغ الجرأة، والذى كثيراً ما يصل إلى درجة البجاحة والوقاحة، من جانب هذه الأجسام الغريبة، لثقافة وعادات أهل البلد التى تجرى السياحة فيها، والذين يجبرون على السكوت والصبر على هذا الاقتحام من أجل لقمة العيش لهم ولأولادهم.

المسألة تتلخص إذن فى السؤال التالى:

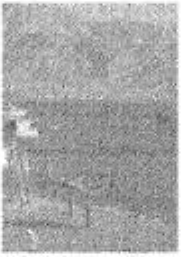
كم حجم التلوث الذى نحن على استعداد لقبوله وتحمله من أجل التنمية الاقتصادية؟

كما هى الحال تماماً مع التلوث المادى

كم من تلوث الهواء والمياه نحن على استعداد لقبوله من أجل زيادة معدل نمو الصناعة والزراعة؟ وبصدد هذا التلوث المعنوى الذى تجلبه السياحة تختلف الآراء والأذواق مثلما تختلف حول التلوث المادى الذى يجلبه انتاج السلع. والظاهر أن هناك حدا يصبح معه التلوث غير محتمل فى الحالين، مهما كان النفع المتمثل فى زيادة الدخل، حتى ولو كان هذا الدخل بالعملة الصعبة. فالعملة التى تجلبها السياحة تصبح بعد حد معين «صعبة» على النفس حقا.

السياحة والخدمة المنزلية

إن بعض المواقف التى أشاهدها أحياناً، فى العلاقة بين بعض السياح



وأهل البلد المضيف ، تذكرني برفض بعض النساء الفقيرات فى مصر أن يشتغلن بالخدمة المنزلية فى بيوت الطبقة العليا والمتوسطة، مهما كان الأجر المعروض عليهم مرتفعاً، وتفضيلهن للعمل فى مصنع أو ورشة أو حتى للجلوس على قارعة الطريق لبيع بضاعة تافهة القيمة وقليلة الربح ، على تعريض أنفسهن لخطر الإهانة والمهانة من جانب مخدوميهم.

ففى السياحة، على عكس الصناعة والزراعة ، لا يدور البيع والشراء حول سلع بل حول مجموعة من الخدمات ، وهى خدمات من نوع خاص جداً. فالسائح الحديث يأتى بغرض المتعة بوجه عام، والراحة بوجه عام، وهو مستعد لإنفاق المال من أجل هذه وتلك دون تحديد دقيق لنوع المتعة ونوع الراحة تماماً مثل رب البيت الذى يستأجر خادما أو خادمة. إنه يدفع لهما الأجر من أجل أن يسهرا على راحته ، ويلبيا كل طلباته، دون تحديد دقيق لما يمكن أن يحتاج إليه فى أى وقت من الأوقات. ومن ثم فإن هناك فى الحالين شيئاً قريباً من عرض النفس للبيع، وكلما زاد فقر الخادم أو الخادمة واشتدت حاجتهما ، كان احتمال المهانة أكبر.

السياحة فى عصر العولمة

يجب ألا نظن ، مع ذلك ، أن السياحة قد بلغت آخر مراحل تطورها. فالسياحة فيما يبدو دخلت ، منذ وقت قريب ، مرحلة جديدة تماماً مع بزوغ عصر العولمة وهى مرحلة لم نر بعد إلا بداياتها الأولى.

أقصد بذلك بزوغ نوع جديد من السياحة يقفز فوق سلطة الدولة ، ويقتطع أجزاء منها ليربطها بالعالم الخارجى دون أن يحتاج فيها السائح إلى أكثر من الحد الأدنى من التعامل مع الدولة التى ينزل فيها، ولا حتى مع سكان هذه الدولة.

فإذا كان المقصود مثلا هو مشاهدة أوبرا عايدة فى مدينة الأقصر، فالسائح يستقل طائرة فى بلد أوروبى أو أمريكى، تنزل به فى مطار الأقصر دون المرور بالقاهرة، ثم يستقل سيارة من المطار إلى مكان الأوبرا، وما أن ينتهى من مشاهدتها حتى يعود مسرعا إلى البلد الذى جاء منه. هذه الأوبرا التى يشاهدها قد لا تكون لها إلا علاقة واهية للغاية بالبلد التى تعرض فيه، فالمخرج والممثلون والموسيقيون قد يكونون هم أنفسهم من الأجانب، يأتون ويذهبون بنفس السرعة التى يأتى بها السياح ويذهبون ، كما أن الفندق الذى ينزل السائح فيه قد يكون هو الشيراتون أو الهيلتون، والذى رتب الزيارة ونظمها وحصل على ربحها شخص أجنبى أيضاً، والربح قد يكون قد تم تحصيله فى الخارج مقدما ، وأودع واستثمر فى بنك أجنبى، فلا تكسب الدولة

المضيفة من هذه السياحة المدهشة أكثر كثيراً من أجرة التاكسى الذى حمل السائح من المطار وإليه.

شيء مماثل بدأ يحدث على شواطيء البحر، حيث يأتي السياح إلى المنطقة المشمسة أو مناطق الغوص والاستحمام، فتنزل بهم الطائرة قرب الشاطيء، ثم تعود بهم إلى بلادهم، بعد أن ينفقوا بعض المال على خدمات الفنادق ومراكز الغوص، التى قد يكون كل أصحابها من الأجانب ، فتخرج الأموال من البلد كما دخلت دون أن يراها أهل البلد ، باستثناء بعض الخدم المشتغلين في هذه الفنادق الأجنبية.

شيئاً فشيئاً يصبح من الصعب تحديد المستفيدين الحقيقيين من هذه السياحة ، وتحديد الأشخاص أو البلد التى ذهب إليها دخل السياحة فى النهاية ، تماماً كما أصبح من الصعب فى عصر العولمة تحديد البلد الذى انتج السيارة أو جهاز التليفزيون وإلى من يذهب ثمنهما. إنها سياحة بلا هوية. كما أن السيارة أو جهاز التليفزيون قد أصبحا بلا هوية لاشك أن التلوث المعنوى فى مثل هذه السياحة أقل بكثير منه فى السياحة التى تقتحم العواصم ويسير فيها السياح بين الناس فى الأسواق ، ولكن العائد الاقتصادى على البلد المضيف هو بدوره أقل، حيث يكاد يقتصر النفع هنا، كما هو المألوف فى عصر العولمة ، على هؤلاء الشطار الذين استطاعوا على نحو أو آخر بأن يلصقوا أنفسهم بشركة من الشركات متعددة الجنسيات.

هكذا تطورت السياحة شيئاً فشيئاً مع تطور التكنولوچيا، حيث حلت محل سياحة الإبل والقوارب الشراعية، سياحة البواخر والقطارات، ثم سياحة السيارات والطائرات النفاثة، حتى وصلنا إلى سياحة عصر العولمة. عصر الكومبيوتر، وأفول الدولة وصعود الشركات متعددة الجنسيات ، فى مثل هذه السياحة الحديثة لايحتاج السائح إلى معرفة كلمة واحدة من لغة البلد التي يزورها، فهو لايدخل فى أى علاقة مع أهلها، ولا إلى معرفة قوانين الدولة وعاداتها ، فهو لا يكاد يتعامل مع الدولة ، بل ولا يحتاج حتى إلى أن يرى عملتها ونوع نقودها، فهو يستخدم بطاقات الائتمان التى لا تتطلب تبادل النقود.

إنها كما ترى سياحة بلا تلوث وبلا مشقة، ولكنها أيضاً سياحة بلا طعم ولا رائحة ، مثل الفنادق التي ينزل فيها هذا النوع الجديد من السياح، لايكاد يرى فيها السائح أكثر مما كان بإمكانه أن يراه فى بلده، ولا يكسب منها أكثر من زيادة درجة السمسرة فى بشرته. ولكن حتى هذا كان من الممكن أن يحصل عليه بتعريض جسمه لبعض الأجهزة الحديثة التي تبث الأشعة الملائمة، وبالدرجة المطلوبة بالضبط، دون أى حاجة لمغادرة منزله. ■

«وليمة لأعشاب البحر» و«ذاكرة الجسد»

روايتان متشابهتان فأين الأصل.. وأين الصورة؟!

●● فى النصف الأول من سنة ٢٠٠٠ أثيرت ضجة كبيرة فى مصر والعالم العربى كله حول رواية «وليمة لأعشاب البحر» للكاتب السورى «حيدر حيدر»، وكانت هذه الضجة دينية وسياسية أكثر منها ضجة أدبية. ولذلك اختفى صوت النقد الأدبى والفكرى الخالص فى هذه المعركة الصاخبة، والتى أوشكت أن تتحول الى قتال من شارع الى شارع ومن بيت الى بيت ●●

بقلم: رجاء النقاش

وفى مثل هذه الأجواء العنيفة يصعب الحديث فى هدوء وموضوعية عن أية قضية، فقد تجاوز الأمر حدود المعقول، وذلك حين أصبح الصراع حول الرواية قائما بين طرفين: الأول هو الذى يعتبر الرواية إلحادا وكفرا وبذاءة، حتى أن الكاتب الذى أثار المشكلة وهو الدكتور محمد عباس نادى بالجهاد فى مقالة له ضد الرواية وقال بالنص «... من يبايعنى على الموت»، وكأن الدكتور عباس كان ذاهبا الى محاربة الصليبيين أو التتار، أو لعله كان ذاهبا الى تحرير القدس، أسوة بما فعله صلاح الدين بعد معركة حطين فى يوليو «تموز» سنة ١١٨٧، وبذلك لم يكن هذا النداء العجيب الذى أطلقه الدكتور محمد عباس، يمكن أن يقنع أحدا بأنه ضد



روايه كتبها كاتب أديب وأغضبت الدكتور عباس لأنه رأى فيها ما يمس الدين والعقيدة. والدفاع عن الدين والعقيدة واجب مقدس على كل مؤمن، ولكن هذا الواجب لا يمكن أن يصل إلى درجه النداء «بالمبايعة على الموت» بسبب كتاب من اليسير نقده وتفنيد ما ورد فيه والرد عليه بالحجة القوية والبرهان الساطع. والمبايعة على الموت لا تكون إلا في معارك الجهاد الكبرى والمصيرية، أما في «الخناقات» الصغيرة المحدودة فإن المبايعة على الموت.. خسارة ، لأن حجم الموضوع لا يستحق هذه الصرخة العالية وهذه التضحية الجسيمة، فإذا كان الدكتور محمد عباس يريد منا أن نبايعه على الموت من أجل كتاب واحد فيه خطأ من وجهة نظره.. فماذا يبقى لنا اذا هاجمنا اليهود يوما بقنبلة ذرية من قنابلهم المخزونة، والتي يبلغ عددها مائتين كما تقول أوثق المصادر!؟.

وجاء الرد على الدكتور محمد عباس ودعوته الى «المبايعة على الموت» بالدفاع المستميت عن رواية «الوليمة» لحيدر حيدر واتهام كل من يرى فيها خطأ فكريا أو أدبيا بأنه متطرف خارج على النظام وعدو لأمن بلاده. ولذلك «احتاس» أمثالي ممن يحبون التفكير في هدوء وموضوعية وصفاء ذهن، ويحبون أن ينظروا الى الأشياء في حجمها الصحيح، فلاذوا بالصمت، وانضموا الى حزب قديم مندثر من الأحزاب العربية هو حزب «المرجئة»، أى الذين «يرجئون» التعبير عن أفكارهم الى يوم الحساب العظيم ، حتى لايقعوا في خطيئة الانضمام الى حزب من الأحزاب الفكرية المتصارعة في هذه الدنيا الفانية! ولو لم انضم أنا وأمثالي الى حزب «المرجئة» في هذه الضجة الصاخبة، لأصابنا شر عظيم، اذا مدحنا الرواية قيل أننا من الملحدين، وإن وجهنا الى الرواية نقدا قيل إننا من المتطرفين والارهابيين. ولذلك قلنا لأنفسنا باللغة العامية الفصيحة .. وعلى ايه.. أسكت وخلاص!.

عاصفة أخرى!

ولم تكد العاصفة التي أثارتها رواية «حيدر حيدر» تهدأ، حتى هبت عاصفة أخرى حول رواية «ذاكرة الجسد» للكاتبة الجزائرية «أحلام مستغانمي»، وبالمناسبة فقد سألت بعض أهل العلم عن هذا اللقب الغريب الذى تحمله الكاتبة الجزائرية ، فقال بعض هؤلاء

العالمين ببواطن الأسماء، إن الاسم هو نسبة الى بلدة جزائرية لم أسمع بها اسمها «مستغانمي»، فالاسم هو من تلك الأسماء المنسوبة الى بلدان مثل «البغدادى» و«الحمصى» و«الطرابلسى» و«المنصورى» و«الطنطاوى» وغير ذلك من الاسماء، وأرجو أن يكون هذا التفسير لاسم «مستغانمي» صحيحا، أما اذا كان خطأ فأرجو أن يصححه لى من يعلمون الحقيقة، وأنا أقدم لهم اعتذارى من الآن، .. وأقدم الطاعة والولاء لكل من يعرف حقيقة أنا بها جاهل وغير عليم.

على أن الضجة الكبرى التي أثيرت حول رواية «ذاكرة الجسد» لم يكن فيها دين ولا سياسة، ولكنها ضجة أخرى من نوع غريب، وقد قامت كلها حول ما تردد على لسان الشاعر العراقي الكبير سعدى يوسف، ونفاه سعدى بعد ذلك، حيث قيل إن سعدى هو كاتب الرواية التي تحمل اسم «أحلام مستغانمي». ولا تزال هذه الضجة مستمرة، وأخبارها كادت تكون أعلى على أخبار «كامب ديفيد الجديدة» التي كانت منعقدة في نفس الوقت بين الاسرائيليين والفلسطينيين في أمريكا، والتي لم يأخذ فيها العرب بالحكمة المشهورة التي تقول . «لايلدغ مؤمن من كامبد ديفبد مرتين»! فقد لدغنا من كامب ديفيد مرة في أيام المرحوم السادات ومازلنا مصممين على أن نلدغ مرة أخرى في أيام طويل العمر عرفات .. الذى ندعو له بالسلامة والنجاة .. من كامب ديفيد الثانية وكل كامب دفيد قادمة في المستقبل بعون الله .

وهكذا ثارت عاصفتان كبيرتان فى

وقت واحد تقريباً حول روايتين هما «وليمة لأعشاب البحر » و«ذاكرة الجسد» وشاء حظي الذى لا أدرى إن كان سعيدا أو هو شديد السوء، أن أقرأ الروايتين في وقت واحد، فلم أكد انتهى من الصفحة الأخيرة فى رواية الوليمة حتى بدأت فى الصفحة الأولى من ذاكرة الجسد ، لأنى لم أكن قرأت الروايتين قبل ما أثير حولهما من عواصف عاتية .

التأليف السري !

وبعيدا عن المشاكل التى أثارتها الروايتان في الدين والسياسة والتأليف السرى ، أى التأليف الذى يقوم به شخص ثم يظهر العمل باسم شخص آخر .. بعيدا عن هذا كله ... وبعيدا عنه كل البعد وليس «بعض» البعد ... بعيدا عن كل هذه المشاكل التى سوف أتحدث عنها أو عن بعضها على الأقل فى الفصول التى يتضمنها هذا الكتاب وجدت نفسى أمام ملاحظة بدت لى عجيبة جداً وعلى ملاحظة لم تلفت نظر أحد قبلى ، ولكنها بدت أمامي ملاحظة صحيحة تماما .

هذه الملاحظة هى أن الروايتين متشابهتان إلى أبعد الحدود ، ويكاد هذا التشابه يكون تطابقا ، مع اختلافات فى الطلاء الخارجى ، أى فى الاسلوب

والتعبير ... فقط لاغير، مع بعض اختلافات فكرية أخرى، وسوف أدخل إلى تفصيل هذه الملاحظة مباشرة، وسوف يفهمني تماما كل من قرأوا الروايتين إذا فكروا في المقارنة بينهما ، أما من لم يقرأ الروايتين أو قرأ واحدة منهما فقط ، فسوف أحرص على أن أكون شديد الوضوح في تسجيل التفاصيل ، حتى تبدو الملاحظة مفهومة للجميع ، سواء وافقوا عليها أو اختلفوا معي بعد ذلك

فالروايتان متشابهتان إلى حد التطابق أحيانا وهذه هي الأدلة .

أولا : الخلفية العامة للروايتين من أول صفحة فيهما حتى آخر صفحة هي أحوال الجزائر بعد الاستقلال وبعد انتهاء نضال المناضلين والشهداء في ثورة الجزائر، وما حدث في ظل الاستقلال من تجاوزات ومحاولات للتمسك بأسباب النجاح والكسب في الحياة العمليه الجديدة، بعد أن أصبح عصر النضال والاستشهاد مجرد تاريخ. وهذه الخلفية في الروايتين واحدة وأساسيه وهي «الجو» العام الرئيسي الذي يملأ الروايتين بصورة كاملة .

ثانيا بطلة رواية الوليمة الأساسية هي «أسيا لخضر» وهي ابنة شهيد من شهداء الثورة الجزائرية هو «سي العربي لخضر» ولخضر هي - فيما أظن - النطق العامي الكلمة «الأخضر» وبطلة رواية ذاكرة الجسد هي أيضا ابنة شهيد جزائري هو «سي الطاهر عبد المولى»، والمفروض أن البطلة في رواية «ذاكرة الجسد» اسمها أحلام ولكن بطل الرواية في ذاكرة الجسد اختار أن يسمي بطلته باسم «حياة» لأسباب يذكرها في الرواية ولا مجال للحديث عنها هنا .

وهكذا فإن بطلة رواية وليمة وهي أسيا لخضر وبطلة رواية ذاكرة الجسد وهي أحلام أو حياة بنت سي الطاهر عبد المولي شخصيتان متشابهتان بل متطابقتان من حيث النشاة والتكوين ، فهما ابنتا شهيدين مهمين من شهداء الثورة الجزائرية ، وهذا الانتساب الى أب شهيد كان له تاثير كبير ومتشابه أيضا على حياة البطلتين في الروايتين معاً .

ثالثا. رواية الوليمة تتركز على الحديث عن مدينة جزائرية هي «عنابة» وهي المدينة التي يسميها الفرنسيون باسم «بونة» ويسميها حيدر حيدر في روايته باسم بونة، وعنابة مدينة معروفة تقع في الجزء الشمالي الشرقي من الجزائر على مقربة من الحدود مع تونس ، وتطل المدينة على البحر الأبيض المتوسط. ومدينة «عنابة» في رواية الوليمة هي المكان الذي يتعلق به بطل الرواية ويصفه ويهتم بكل ما يتصل به من تفاصيل وتقاليد ومقاه وبشر وشواطئ؛ فعنابة إذن هي بطلة رئيسية وأساسية في رواية الوليمة وعشق البطل الروائي لها وبحثه عن أسرارها الطبيعية والإنسانية يملأ صفحات الرواية التي تزيد على سبعمائة صفحة .

وفي المقابل نجد أن رواية ذاكرة الجسد تجعل بطولة المكان لمدينة جزائرية أخرى هي قسنطينة ، والتي تقع مثل عنابة في الجزء الشمالي الشرقي

روايتان متشابهتان..
فأين الأصل وأين الصورة؟!

من الجزائر على مقربة من الحدود التونسية أيضا. والحديث عن قسنطينة في رواية ذاكرة الجسد يعزف على نفس الأوتار التي تعزف عليها رواية الوليمة بالنسبة لمدينة عنابة، مثل العشق للمدينة ومحاولة فهم أسرارها وتقاليدها والتعلق العاطفي بها والشكوى من التحولات التي طرأت عليها بعد الاستقلال. الروايتان تعزفان نغماً واحداً، أحدهما في حب مدينة عنابة والثاني في حب مدينة قسنطينة مع بعض السخط والغضب على المدينتين أحيانا، وهو سخط وغضب صادران عن الحب وليس عن الكراهية.

رابعا: بطل رواية الوليمة هو ثوري سابق من العراق، خرج من ارتباطاته الثورية القديمة بجراح عديدة في نفسه، واضطر بعد انهيار عمله الثوري إلى أن يحترف مهنة أخرى هي مهنة مدرس عربي في مدينة عنابة. وبطل ذاكرة الجسد هو ثوري سابق أيضا كان من المقاتلين في صفوف الثورة الجزائرية، وفقد ساقه خلال مرحلة النضال، وبعد الاستقلال اتجه إلى مهنة أخرى مختلفة هي مهنة الرسم وكانت لديه موهبة كامنة فيه، ولم يكتشفها إلا بعد أن تم بتر ساقه بسبب إصابته في حرب التحرير، فاتجه إلى الرسم ليحقق فيه نفسه ويلتمس فيه تعويضا عن آلامه.

والبطلان المتشابهان في رواية الوليمة ورواية ذاكرة الجسد يبكيان على الماضي الثوري الذي ضاع، وينقمان على الحاضر الذي اختلف تماما مع أخلاق الثوار وأحلامهم ومبادئهم. ففي الحاضر يبحث الناس عن مصالحهم ويتنافسون على المكاسب، والروايتان معاً تتفقان تماما في نقد الواقع الجزائري بعد الاستقلال اتفاقا يثير الدهشة لقوة التشابه فيه بين الروايتين.

خامسا: قصة الحب الأساسية في رواية الوليمة هي بين البطل الثوري السابق وبين البطلة أسبا بنت الشهيد الجزائري «سي العربي لخضر»، وقصة الحب في رواية «ذاكرة الجسد» هي بين البطل الثوري السابق وبين البطلة أحلام أو حياة بنت الشهيد الجزائري «سي الطاهر عبد المولى».

سادسا: تفشل قصة الحب في رواية الوليمة بسبب أحد التجار المنتفعين بالاستقلال الجزائري، والذين حققوا أرباحا طائلة من أعمالهم التجارية واتصالاتهم الوثيقة برجال السلطة وهو «بزيد ولد الحاج» الذي تصفه الرواية بأنه الغول مرة وبأنه هتلر مرة أخرى، وتقول عنه الرواية إنه استمد طغيانه من رأسماله، وبهذا المال كان يخيل إليه أنه يحرك دفة العالم ويوقف الأرض عن دورانها ساعة يشاء». وكان «بزيد ولد الحاج» هذا متزوجاً من أم البطلة المحبوبة بنت الشهيد



حيدر حيدر



أحلام مستغانمي

سي العربي لخضر، وذلك بعد استشهاد الأب ، وحاجة الأم إلى من يحميها ويرعاها . وقد غضب «يزيد ولد الحاج» التاجر الرأسمالي الفاسد على العاشق بطل الرواية «مهدي جواد» فأبلغ سلطات الأمن بوشايات سياسية ضده مما جعل سلطات الأمن تقرر طرده من الجزائر، مما أدى الى فشل قصة الحب بين الثوري السابق في رواية «الوليمة» وبين حبيبته بنت الشهيد الجزائري.

وبنفس الطريقة انتهت قصة الحب بين بطل رواية «ذاكرة الجسد» وبين حبيبته بنت الشهيد الجزائري «سي الطاهر عبدالمولي»، فقد انقض عليهما وهما في قمة الحب واحد يشبه «يزيد ولد الحاج» تماما، واختطفها من حبيبها بطل الرواية «خالد» وتزوجها، والزوج الذي قضى على الحب بين البطل والبطلة تصفه رواية «ذاكرة الجسد» بأنه «رجل الصفقات السرية والوجهات الأمامية كان رجل العملة الصعبة والمهمات الصعبة. كان رجل العسكر ، ورجل المستقبل». وهذا الوصف لا يختلف في مضمونه عن وصف رواية «الوليمة» ليزيد ولد الحاج . فهما شخصان متشابهان تماما، ووصفهما في الروايتين يكاد يتطابق في الالفاظ ، ودورهما في الروايتين واحد وهو الانقضاض على قصة الحب الأساسية في الروايتين .

سابعا : البطل المثالي في رواية الوليمة هو «خالد أحمد زكي»، وهو شيوعي كان يعيش في لندن، ولكنه عاد الى العراق ، وقرر أن يحمل السلاح ليغير الدنيا والمجتمع «بالقوة»، وهرب مع مجموعة صغيرة الى منطقة «الأهوار» في جنوب العراق، وقد أصبح «خالد أحمد زكي» هو المسئول السياسي عن «القاعدة المسلحة» الصغيرة التي تم انشاؤها في منطقة «الأهوار» وكان يقول لزملائه «علينا أن نضغط من هنا لنولد بقوة البنادق بعيدا عن انتهازية المدن». وقد انتهى «خالد أحمد زكي» الى الموت في معركة مع القوات الحكومية.

وفي رواية «ذاكرة الجسد» لأحلام مستغانمي فدائي ولكن من نوع آخر من حيث الشكل الخارجي» ومع ذلك فهو شبيه ببطل «الوليمة» من حيث التفكير والاتجاه والاستعداد للموت من أجل

القضية التى يؤمن بها . هذا البطل فى رواية «ذاكرة الجسد» هو الشاعر الفلسطينى «زياد»، وهذا الشاعر كان يزور فرنسا ويعيش فيها بعض الوقت، كما كان «خالد زكى» فى رواية الوليمة يعيش فى لندن، وكان زياد بطل «ذاكرة الجسد» مؤمنا بالمقاومة المسلحة ولا يرى سواها حلا لقضيته، وسوف نجد وصفا تفصيلياً لموت خالد زكى فى «رواية الوليمة» وهو يقاتل القوات الحكومية، وذلك فى الفصل الذى عنوانه «نشيد الموت» فى هذه الرواية، ولكننا لن نجد فى رواية «ذاكرة الجسد» وصفا تفصيليا لموت الشاعر الفدائى الفلسطينى زياد الا أن ملامح «خالد» فى رواية الوليمة وملامح الشاعر الفدائى الفلسطينى زياد فى رواية «ذاكرة الجسد» هى ملامح واحدة تماما، فهما معا يؤمنان ـ فى هدوء وثقة ـ أنه لا حل سوى البندقية والاختلاف الوحيد بينهما هو فى القضية التى يؤمن بها كل منهما فبطل الوليمة مؤمن بالشيوعية، وبطل «ذاكرة الجسد» مؤمن «بتحرير فلسطين» أما أسلوب العمل والكفاح فهو أسلوب واحد يعتمد على السلاح ولا شىء غير السلاح .

تشابه فى الشخصية الروائية

وعندما نقرأ رواية «الوليمة» لحيدر حيدر ورواية «ذاكرة الجسد» لأحلام مستغانمى سوف نجد تشابها فى «الشخصية الروائية» بين بطل «الوليمة» «خالد زكى» وبين بطل «ذاكرة الجسد» الشاعر الفدائى الفلسطينى «زياد». وقد كنت أود أن أنقل أجزاء من وصف حيدر حيدر لشخصيته الروائية «خالد زكى» لولا أنه يتحدث عنه فى فصل طويل يستغرق ٥٤ صفحة، ومن الصعب اقتطاع أجزاء منه، لأن التفاصيل فيه كثيرة جدا، وهى متفرقة على صفحات ذلك الفصل الطويل الذى عنوانه ـ كما أشرت ـ هو «نشيد الموت». ولكننا نجد فى رواية «ذاكرة الجسد» لأحلام مستغانمى نوعا من التركيز، ويمكننا أن نقف أمام جزء منها، فى وصف الفدائى الشاعر «زياد»، هو وصف يشابه تماما من الناحية النفسية والفكرية شخصية «خالد» فى رواية «الوليمة»، فهذا الوصف للبطل الثورى المثالى فى «ذاكرة الجسد» يكاد يكون ملخصا دقيقا لوصف البطل الثورى المثالى فى رواية «الوليمة» أيضا، ففى رواية «ذاكرة الجسد» نقرأ فى صفحة ٢٤٧ على لسان الراوى، بطل الرواية الأصلى، ما نصه :

«مات زياد ..

وهاهو خبر نعيه يقفز مصادفة من مربع صغير فى جريدة الى العين.. ثم الى القلب.. فيتوقف الزمن، يتكور النبأ غصة فى حلقى فلا أصرخ .. ولا أبكى . أصاب بشلل الذهول فقط، وصاعقة الفجيعة.

كيف حدث هذا؟.. وكيف لم أتوقع موته ونظراته الأخيرة لي كانت تحمل أكثر من وداع؟».

«مازالت حقيبته هنا، في خزانة غرفته، تفاجئني عدة مرات في اليوم، وأنا أبحث عن أشيائي. لقد عاد هناك، أي من باريس الى المخيم الفلسطيني في لبنان أو غزة، دون أمتعة أكان يعرف أنه لن يحتاج الي كثير من الزاد لرحلته الأخيرة، أم كان يفكر في العودة الى باريس ليستقر هنا ويعيش الى جوارك ـ اي الى جوار «حياة»بطلة الرواية ـ كما كنت أتوهم تحت تأثير غيرتي؟ لم أسأله يومها عن قراره الأخير. لقد سكن الصمت بيننا في الأيام الأخيرة، وأصبحت أتحاشى الجلوس اليه، وكأنني أخاف أن يعترف لي بأمر أخشاه أو بقرار أتوقعه، لم يقل شيئا وهو يسافر محملا بحقيبة يد صغيرة. قال لي معتذرا فقط : «ألا يزعجك أن أترك هذه الحقيبه عندك. أنت تدري أن مضايقات المطارات كثيرة هذه الأيام، ولا أريد أن أنقل أشيائي مرة أخرى من مطار الى أخر..» .. ثم أضاف بما يشبه السخرية « .. خاصة ألا شيء ينتظرني في المطار الأخير » .. مازلت أذكر قوله مرة : «لنا في كل وطن مقبرة.. على يد الجميع مقتلنا .. باسم كل الثورات . وباسم كل الكتب ».

هذا الوصف لشخصية الشاعر الفدائي الفلسطيني «زياد» في رواية «ذاكرة الجسد» يكاد ينطبق تماما على شخصية «خالد زكي» في رواية «الوليمة»، فهما شخصيتان متشابهتان في كل شيء الا في الهدف الذي من أجله يناضلان ويقاتلان ويموتان في النهاية. وإن كان من الانصاف الأدبي أن نشير في هذه النقطة بالتحديد، الى أن وصف «حيدر حيدر» لموت بطله «خالد زكي» كان أكثر حرارة ومرارة من وصف أحلام مستغانمي لموت الفدائي «زياد» وذلك لأن «حيدر حيدر» وصف حادث الموت نفسه وروى وقائعه بالتفصيل لحظة بعد لحظة، فكأننا نشاهد هذا الموت أمام عيوننا منذ كان «خالد زكي» يقاتل بسلاحه الى أن بدأ جسمه ينزف من جراحه، حتى وصل في النهاية الى أنفاس لاهثة، هي الأنفاس الأخيرة التي جاء بعدها الموت. بينما أحلام مستغانمي قد وصفت بطلها الشهيد من بعيد، فجاء وصفها لموته هادئا رقيقا الى حد البرود .

ثامنا . ننتقل الى عنصر تشابه آخر بين رواية «الوليمة» ورواية «ذاكرة الجسد» ففي رواية «الوليمة» يتردد اسم الكاتب الجزائري «مالك حداد» الذي كان حزينا مثلنا لأنه لا يكتب بالعربية ، وهذا مقطع مما جاء في رواية الوليمة عن مالك حداد وذلك في وصف حيدر حيدر لأحد اللقاءات بين بطل روايته وهو عراقي يعمل مدرسا لغة العربية وبين البطلة هي جزائرية ابنة شهيد جزائري كما سبقت الإشارة يقول حيدر حيدر في روايته صفحة ٣٤ :

في فسحة الاستراحة بدأ حوارهما حول الحالة اللغوية وصعوبة التفاهم بين العرب المشارقة والجزائريين ، وسألها إن كانت تقرأ أدبا بالفرنسية فقالت بأنها

روايتان متشابهتان..
فأين الأصل وأين الصورة؟!

قرأت «الغريب» لكامو، و رواية مالك حداد: «سأهديك غزالة» كما قرأت «الأحمر والأسود» لستاندال و«الشرط الإنساني» لمالرو وسألته إن كانوا مترجمين للعربية، وعندما قال بأن مالك حداد يشعر بأن الفرنسية منفاه قالت: إنها منفانا جميعا نحن العرب الجزائريين واستطردت مدهوشة: هل قرأت مالك حداد؟ وقال: «مترجما إلى العربية»

هذا بعض ما جاء في رواية «الوليمة» عن مالك حداد أما في رواية ذاكرة الجسد فإن «مالك حداد» يقابلنا ابتداء من الصفحة الأولى في الرواية وبالتحديد في الأهداء، حيث تقول الكاتبة عن مالك حداد:

ابن قسنطينة الذي أقسم بعد الاستقلال ألا يكتب بلغة غير لغته، فاغتالته الصفحة البيضاء، ومات متأثرا بسلطان صمته ليصبح شهيدا للغة العربية، وأول كاتب قرر أن يموت صمتا وقهرا وعشقا لها

ويتردد اسم مالك حداد بعد ذلك في الرواية عدة مرات.

فشخصية مالك حداد ومنفاه من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية، هما هاجسان متشابهان إلى حد التطابق بين رواية الوليمة ورواية ذاكرة الجسد.

تاسعا: نصل بعد ذلك إلى عنصر تشابه آخر بين الروايتين هو الجو العام الذي تتحدث عنه الروايتان معا، فهو «جو» واحد، إذ أن الروايتين تقومان على نقد الواقع العربي كله منذ السبعينات إلى الآن، وتركز الروايتان على نقد الواقع الجزائري بالتحديد، ولكنهما لاتنسيان أبدا ربط نقدهما للواقع الجزائري بالواقع العربي كله، وقد جاء في رواية «ذاكرة الجسد» صفحة ٢٨ على لسان الراوي هذه العبارة:

«... لا أذكر من قال: يقضي الإنسان سنواته الأولى في تعلم النطق، وتقضي الأنظمة العربية بقية عمره في تعليمه الصمت». وهذه النغمة الناقدة سائدة في رواية ذاكرة الجسد، وهي سائدة أيضا في رواية الوليمة وإن كانت الوليمة تضيف الي نقدها للجزائر نقدا للعراق ونقدا للمصريين، وهذا النقد المحدد لقطرين عربيين آخرين غير الجزائر لا وجود له إلا في الوليمة وحدها، ولكن السخط على الأوضاع العربية منذ السبعينات إلى الآن يملأ الروايتين بصورة متشابهة حتى في التفاصيل إلى حد يثير الدهشة.

عاشراً: وأخيرا فهناك تشابه شكلي ولكن لابد من تسجيله، وهو أن بطل رواية ذاكرة الجسد وراويها اسمه خالد والبطل الثاني من وجهة نظر حيدر حيدر في رواية الوليمة اسمه خالد أيضا. وهو تشابه شكلي كما قلت ولكنه مع وجود عناصر التشابه التسعة السابقة لابد أن

يلفت النظر ولابد يشير الى أن هناك علاقة قوية بين الروايتين حتى فى العناصر الثانوية مثل أسماء الأبطال ١.

وهذا التشابه الذى قدمنا عليه عشرة أدلة وبراهين، ويقودنا إلى السؤال الأساسى · أين الأصل وأين الصورة ؟ وليس أمامنا من سبيل الى الإجابة عن هذا السؤال إلا بالنظر الى تاريخ كتابة الروايتين، فرواية الوليمة لحيدر حيدر محدد فى آخر صفحة منها وهى صفحة ٦٩٠ الطبعة المصرية أنها مكتوبة بين سنتى ١٩٧٤ و ١٩٨٣ بين الجزائر وبيروت وقبرص ». أما رواية ذاكرة الجسد فقد جاء فى آخر صفحة منها، وهى صفحة ٤٠٤ طبعة دار الآداب اللبنانية وهى الطبعة الثانية عشرة «أن الكاتبة أحلام مستغانمى قد أنهت كتابة روايتها فى باريس فى تموز «يوليو» سنة ١٩٨٨.

بهذا ينحسم الموضوع فتكون رواية حيدر حيدر هى التى صدرت أولاً وتمت كتابتها قبل رواية أحلام بخمس سنوات وبذلك تكون الإجابة عن السؤال المطروح سهلة وبسيطة وهى . أن رواية حيدر هى «الأصل» ورواية أحلام هى «الصورة».

ولكننا لو وقفنا عند حدود هذه الإجابة فسوف تواجهنا أسئلة دقيقة أخرى منها. لماذا بقيت رواية «حيدر» التى انتهى من كتابتها سنة ١٩٨٣ دون أن تلفت الأنظار حتى سنة ٢٠٠٠ عندما أثيرت حولها ضجة فى مصر تتصل باتهام الكاتب بالاساءة الى العقيدة الدينية وامتلاء الرواية بعدد لا يستهان به من البذاءات اللفظية والجنسية؟.

وفى المقابل كانت رواية «أحلام مستغانمى» ناجحة ولافتة للأنظار منذ أول طبعة لها، وأصبحت فى مقدمة الروايات العربية الناجحة نجاحا استثنائيا مثل «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ، و«موسم الهجرة الى الشمال» للطيب صالح، و«مدن الملح» لعبد الرحمن منيف .. لماذا لم تتعرض رواية أحلام مستغانمى للمصادرة والاعتراض العنيف كما تعرضت رواية حيدر حيدر؟ واذا كانت الروايتان متشابهتين الى الحد الذى أقول به، فكيف أفلتت «أحلام» من مصير حيدر حيدر، وكيف استطاعت الكاتبة الجزائرية أن تقول منذ اللحظة الأولى للجميع «أنا هنا»، ولقيت ترحيبا واسعا من القراء والنقاد، ولم يستطع حيدر حيدر أن يقول «أنا هنا» الا بعد ١٧ سنة من كتابة روايته وهى قلب عاصفة يتعرض فيها للقذف بالطوب والحجارة واتهامات عديدة تمتد من الكفر الى البذاءة وقلة الحياء؟.

هذه وغيرها أسئلة كثيرة دقيقة تحتاج الى نظرة هادئة فى كل رواية على حده، وهذا ما سوف نحاوله. ■

---

* هذا المقال جزء من كتاب «قصة روايتين - دراسة نقدية وفكرية لرواية ذاكرة الجسد ورواية وليمة لأعشاب البحر» - يصدر عن دار الهلال

الجواهرى

ومئة عام على مولده

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى
عضو المجمع اللغوى

أعظم الشعراء من تستطيع أن ترسم صورة لمسيرة حياته من شعره، وأن تؤرخ لأمته من قصيده، وأن ترى عصره، فى صعوده وهبوطه، وتقدمه وتخلفه من خلال ديوانه، وبهذا المعنى يكون الجواهرى شاعر العربية الأكبر فى النصف الثانى من القرن العشرين، كوكب العروبة المحلق فى سماء الفن.

شغل ديوانه ثمانية مجلدات كبار، تضم قرابة ألفى ونصف من الأبيات، هى من أبدع ماعرفت العربية فى تاريخها الأدبى الطويل، ولايدانيه فى عظمته هذه غير شاعرين، أحدهما استعجل الرحيل إلى الآخرة فسبقه إليها: نزار قبانى، وثانيهما احتقر الحياة بعده فلحق به بعد شهور: عبد الله البردونى ولو لم يكن فى تاريخ أدبنا العربى المعاصر غيرهم لكفونا فخرا، ويصعب على من يعرفهم فنانين جيدا، وأحسب أننى واحد منها، أن يضع أيا منهم فى المقدمة، إنهم كما قالت فاطمة بنت الخرشب الأنمارية، وكان لها إثنا عشر ولدا، وسئلت أيهم أفضل، فترددت، واحتارت، وقالت ثكلهم إن كنت أعلم أيهم أفضل، هم كالحلقة المفرغة، لا يدرى أين طرفاها.

وكذلك شعراؤنا الثلاثة، وإن تمايزوا أنغاما ومشاعر وهموما، فلكل واحد مزاجه وذاته وبيئته.



شهرة في الصغر

مع نهاية القرن العشرين تكون قد مرت على مولد الجواهري مئة عام، فقد جاء إلى الحياة عام ١٩٠٠ ، وربما قبلها أو بعدها بعام ، وفي أشعاره مايدعم كل اتجاه، يقول في قصيدة سينية نظمها عام ١٣٤٥ هـ : ١٩٢٤م:

طبقت شهرتي البلاد وما
جاوز عمري عشراً وسبعاً وخمسا .

وفي قصيدته الرائعة التي توجه بها إلى الشعب المصري، في المؤتمر الثقافي الذي دعت إليه جامعة الدول العربية عام ١٩٥١.

ركضت بي الخمسون لا حلباتها
توقي العثار ولا العنان يقصر
طه(١) ، وما جزعاً أبث شكايتي
فأنا الهزبر المستميت القسور
أشكو إليك لأن مثلك عارف
مثلي ، وليس لأنك المستوزر

الرحيل إلى مصر

وحين حاصرته السلطات العراقية، وعطلت صحيفته وضيقت عليه الخناق حتى في الرزق ، عزم على الرحيل إلى مصر ، وذهب إلى أمه عام ١٩٥٠ يستودعها ، وقد اعتزلت الحياة في النجف الأشرف بعد استشهاد ابنها جعفر، وحين فارقها دار بخاطره أنه قد لايراها ثانية فبكا، وانثال شعره بأبيات باكيات:

حججت إليك والدنيا تلاقي
عليك بكل قاصمة عقام
....
وأمات المطامع في ضلوعي
حواشد يضطربن من الزحام
وطارت بي على الخمسين ذكرى
أقلتني إلى عهد الفطام

وفي براغ غريبا ، نشر عام ١٩٦٨ قصيدة يقول فيها :
عشرون طالت ، حيث مرت قبلها.
خمسون وهي قصيرة الأرقام

بقي أن نشير أن المؤرخين بعيدا عن شعره، منهم من يجعل مولده ١٨٩٨ ، أو ١٩٠٠ أو ١٩٠٣، وكان الجواهري،

الجواهري

● الجواهري شاعر كلاسي طويل النفس أكثر قصائده تعدت المائة بيت.



الرئيس حسني مبارك في الاحتفال بمئوية الهلال عام ١٩٩٢ يتحدث مع مكرم محمد أحمد وبجواره مصطفى نبيل وكمال النجمي ورجاء النقاش والشاعر الكبير الجواهري

وبخاصة بعد أن تقدمت به السن ، يحذف من عمره سنوات، فكان في جواز سفره ١٩٠٧.

●●●

في النجف الأشرف طرق الجواهري باب الحياة لأول مرة ، وكانت مدينة العلم الديني المنقطعة النظر، وفي الأدب والشعر نادره النوادر، وأعجوبة الظواهر، يعني أهلها بقول الشعر وسماعه والتحاور حوله ونقده ، عنايتهم بالحياة اليومية من طعام وشراب. وفي بيت عريق النسب، كريم المحتد، ولأب قوي الشخصية، حديدي المزاج، أنوف غضوب، سخي كريم، شاعر مجيد، ولكن ميله إلى الفقه كان أغلب ، وكلما تقدم في مدارج العلم الديني ازداد ميلا إلى الفقه، وعزوفا عن الشعر، إلى أن هجره بأخره.

رعاية منذ الصغر

كان مهدي ثاني أخوين هو أصغرهما ، نشأ في رعاية والد يرى فيه نجابة فيحرص عليه، وأم ترى في حب الأب تحفظا في التعبير، فتعوض الإبن زيادة في التدليل ، وعبدة تملكها الأسرة مهمتها أن ترعاه ولا تفارقه، وكانت «تفاحة» ، وهذا اسمها ، تجعل من الطفل متنفسا لكل مشاعرها امرأة، تداعبه وتؤانسه، فيستجيب لها ويطمئن، تقص عليه الكثير من الحكايا والأساطير ، تزجها بماضيها المر، كيف بيعت وكيف اشتريت، وكيف يفارق الأطفال آباؤهم بلا وداع ، وتتعثر الأسرة في

أركان الدنيا الأربعة ، لايتلاقون بعدها أبداً، وهم على قيد الحياة، ولا يعرف أحدهم أين انتهى المطاف بالآخرين، ويغلبها الوجد، ونفيض بداخلها المشاعر، فيجرى الدمع على خديها غزيراً، ثم تعود إلى واقعها ، وتتذكر ألا فائدة في التذكر أو البكاء، فتحمد الله على أنها في بيت قوم طيبين. كل ذلك ، والطفل يسمع ، وذاكرته تختزن، فإذا شب عن الطوق بدأ يفكر ويقارن، ويأسى لواقع خادمته ونظرائها المساكين.

●●●

في بيئة محافظة كالنجف الأشرف، ماذا يتعلم الأطفال في أولى خطاهم؟. يحفظون شيئاً من القرآن على يد «الملة»، وهي سيدة تتعهد الأطفال بحفظ السور القصار، ثم يكملونه حفظا في الكتاب، فإذا ختم القرآن ، وكتب وقرأ ، وحفظ كثيراً من نهج البلاغة للإمام على ، وقطعاً من «الأمالي» لأبي على القالي ، وقصائد من شعر المتنبي، وقد برع الجواهري في كل هذا ، وجاز الامتحان، وصار مثلا وأعجوبة في مدينة تتنفس الشعر حفظا وفهما ورواية ونقدا ، ولما يتجاوز الثانية عشرة من عمره . ويدرك الصبي هذا، فيهتز عجبا، وينتشي زهوا، ومن يملك هذه القدرات مكانة حلق العلم في النجف، يدرس النحو والصرف ، يبدأ بالآجرومية للصنهاجي، و«قطر الندى» لابن هشام، و«شذور الذهب في شرح الألفية والفلسفة والمنطق» ، وكانت البلاغة أحب المواد إليه، وأقربها إلى مزاجه ، ويراها جزءا من نفسه، فهي - حتى في أسوأ أحوالها ، قريبة من الشعر وجل أمثلتها منه.

لم تر النجف مثل هذا الطالب في ذكائه وقوة ذاكرته، وفي خروجه على تقاليدها العلمية أيضاً، فالعهد بأمثاله أن يواظبوا على الحضور، وأن يتدرجوا في التلقي، أما هو فكان يحضر وقت يشاء، ويتنصل بين الأساتذة على هواه، مرة في أسفل السلم وأخرى في أعلاه، يحضر مرة ويتغيب عشرات. ولم يعترض أحد لأن قبول ولد في مثل سنه مخالف للقواعد أصلا. ومع تقلبه على حلق الدرس المختلفة، أمام علماء يتفاوتون علماً ومواد، أدرك ما عليه رجال الدين من قساوة، وما هم فيه من شح وحب للمال، ورأى أن أسرته تعيش حياة ضنكة، رغم وجاهتها الدينية والاجتماعية والعلمية، وأن كثيرين غيرها، ممن يتعاطون الشعر خاصة، في حالة أفضل ، فمال عن دراسة الدين ورجاله، ولم يعد راغباً أن يكون فقيها أو أصوليا أو محدثا، فماذا جنى أبوه من الفقه، لعله لو واصل انشاد الشعر، لكان أيسر حالا، وللشعراء من المنزلة العالية في وطنه ما

● كان الجواهري شاعر العروبة دون منازع، وشغلت مصر مساحة واسعة من إبداعه



الجـــواهرى يلقى شـعـره فى الندوة الشعرية التى أقيمت بدار الأوبرا احتفالا بمرور مائة سنة على صدور الهلال وأمامه حشد كبير من كبار المثقفين العرب والمصريين

للفقهاء، فبدأ الشعر يستفزه أكثر، ويسد أمامه الطريق إلى أية رغبة أخرى، ويحس بأنه ليس أهلا لسواه .

●●●

من حيث يدرى ولا يدرى، بدأ وهو فى العاشرة من عمره ينظم البيت والبيتين، وحين اطمأن إلى هاجسه وجد فى نفسه الشجاعة ليقرأ مانظم على بعض الأدباء الشادين، فوجد منهم سخرية استحالت عقدة، أورثته حذار ، فراح ينظم لنفسه مع نفسه ، حتى إذا اطمأن تماماً بدأ يخرج منها، ويطلع أبياته على من يستضعفهم من أصحابه ، وكلما ازداد تمكنا ازداد اطمئناناً، وفى السادسة عشرة من عمر طغت الكلمة على قلبه ولسانه، فبدأ يقرأ شعره فى أوساط النجف الأدبية ، وبدأ الناس يتعرفون عليه شاعرا، وقد ضاع الشعر الذى نظمه فى البدايات لم يحفظه، ولم يحتفظ به أحد، لأنه عادى أو ضعيف فيما أرى ، لا يجتذب المعجبين ، ولا يفرض نفسه على الحافظين، ولم ينشره فى مجلة أو جريدة عراقية لأن طريقه إليها لم يكن سهلا ، وصحافة القاهرة وكانت قبلة كل شاعر أو كاتب أو ناقد فى بغداد، كانت وقفا على المشاهير. ولم يتيسر له أن ينشر شيئاً من شعره فى وطنه إلا فى يناير ١٩٢١ ، حين نشرت له صحيفة بغداد قصيدتين مرة واحدة.

ولما نضج انفتح على واسع من المعارف الجديدة فى الأدب والنقد والفكر والشعر تحملها إلى النجف الأشرف الجرائد والكتب والمجلات التى تطبع فى القاهرة ، وكانت قد سبقت إلى كثير منها، لا يعرفه غيرها من العواصم العربية فى تلك الأيام .

إلى جانب ماقرأ ودرس كان رحالة ، جواب آفاق ، لايكاد يستقر فى مكان ، والحياة كتاب مفتوح، ومن كانت ثقافته من الورق وحده، أو الحرف دون غيره، قد يصبح مفكراً جيداً ، ولكن يندر أن يكون مبدعاً عظيماً. أقام فى أوربا الشرقية ، أيام

أن كانت شيوعية أعواماً، تنقل بين مدنها المختلفة، براغ، وموسكو، ووارسو، وبرلين الشرقية، وزار فرنسا وإيطاليا وإنجلترا، وألقى ركابه في مصر عامين، وتردد على إيران وتركيا وتونس والمغرب ، واستقر في سوريا عاما وبضع عام، وفي كل بلد تأثر بحدث، أو أثار قضية، وقال فيها شعرا، وأخيرا أن للمجهد أن يستريح، وللمسافر أن يؤوب، فعاد إلى بغداد آخر عام ١٩٦٨، وطالما تغنى بها ، وغنى لها ، أنهارا وطبيعة وبشرا وثورات وأمجاد:

أرح ركابك من أين ومن عثر
كفاك جيلان محمولاً على خطر

كفاك موحش درب رحت تقطعه
كأن مغبره ليلاً بلا سحر

عريان يحمل منفاراً وأجنحة
أخفُ ما لم من زاد أخو سفر

الجواهرى عربى الدم واللسان، شيعى المذهب، إنسانى النزعة قبل ذلك كله، لم يقف بإبداعه عند الحدود الوطنية الضيقة، أو العرقية المتشنجة، أو المذهبية الدينية، وإنما اتسع شعره لكل البشر، وأطل على الكون من عل، ولم ير غير الإنسان، يألم لتعاسته وشقائه ، ويدعو إلى وئامه وتآخيه:

أنا شاعر يبغي الوفاق موحدُ
بين الشعوب سبيله الإرشاد

ما الفرس والأعراب إلا كفتا
عدل ولا الأتراك والأكراد

لم تكفنا هذى المطامع فرقة
حتى تفرق بين الأحقاد

ألفات هذا الشرق سيرى للعلى
جنبا لجنب رافقتك الضاد

كان يسارى النزعة، يدعم كل دعوة إلى الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وناضل عضوا فاعلا فى حركة «مؤتمر السلام العالمى»، وكان العربى الوحيد الذى حضر أول مؤتمر له عقد فى بولونيا عام ١٩٤٧، وكان العربي الوحيد ، وكان الدكتور طه حسين قد دعى للمؤتمر أيضاً، ولكنه لم يذهب ، ربما لأن الغرب فى ذلك الوقت، كان يقاوم بشدة هذه الحركة، ويراها منظمة شيوعية، وفى هذا المؤتمر التقى بالشاعر العالمى الكبير بابلو نيرودا، وهو من شيلي، وتزاملا عضويته طوال حياتهما، وكان الشبه بين إبداعهما قوياً، فكرا ومنحى وبناء،

الجواهري

● استخدم الجواهري الفكاهة والنقد اللاذع في حث الشعوب على الثورة في أوزان سهلة الحفظ

ويصلحان موضوعا لدراسة مقارنة جيدة على المذهب الامريكي، في انتظار من ينهض بها. كلاهما تبنى القضايا الاجتماعية، وقضايا التحرر، والحركات الثورية، بالنصيب الأوفر من إبداعه، وكان المناضلون من أجل حياة كريمة موضع إعزازهما وتقديرهما ، أيا كان وطنهم أو لونهم أو جنسهم، لقد أنشد الجواهرى أروع قصائده فى جمال الدين الأفغاني، حين مر بأرض العراق رفاتا، في طريقه إلي وطنه أفغانستان ، وكلاهما نظم أكثر من قصيدة في تحية جيوش الاتحاد السوفييتي فى نضالهما ضد النازية، وكوريا الشمالية في كفاحها ضد الإمبرياليه الأمريكية، ودعم الجواهرى جهاد الشعوب الإسلامية والعربيه، اندونيسيا ، والمغرب والجزائر واليمن، والخليج العربي، ومن هذا الجانب كانت قصائده الثلاث فى إكراد العراق، نظم الأولى عام ١٩٧٠ بمناسبة إحلال السلام في ربوع كردستان، وإقرار الحقوق القومية للشعب الكردي، وفي المقدمة منها الحكم الذاتي، وأذاعها الشاعر بنفسه من محطتي الإذاعة والتليفزيون العراقية.

يوم الشمال وأنت من تطلابي
وإليك من عشرين كان خطابي

لم تزو عن عيني رواك ولا خلت
شفتاي من نغم ومن تطراب

قد كنت منك - ولست أبرح - قطعة
وهواك ظلّ على المدى من دابي

وقصيدتان أخريان لم تضمهما اللجنة العراقية التي أشرفت على نشر الديوان إليه، رغم شهرتهما، أولاهما مطلعها

قلبي لكردستان يهدى والفم
ولقد يجود بأصغريه المعدم

ومطلع الثانية

سلِّم على الجبل الأشم وأهله
ولأنت تعرف عن بنيه من هم

شعب دعائمه الجماجم والدم
تتحطم الدنيا ولا يتحطم

لقد ظل الجواهرى متعاطفا مع الأكراد، حقوقهم ومطالبهم، ومدافعاً لايكل عن الأخوة العربية الكردية ، منذ وقت مبكر، وظل على موقفه هذا طوال حياته .

الجواهرى شاعر كلاسي، طويل النفس في قصائده، وأغلبها تتجاوز الواحدة منها المئة وخمسين بيتا ، ويبلغ بعضها

المتنبي أو يتجاوزها ، دون خلل في القافية، أو اهتزاز في الموسيقا، فهو يملك شاعرية متدفقة، تصدر عن نبع ثر، يغذيها معجم لغوي مترامي الأطراف، يمده بماشاء من الألفاظ لما يشاء من المعاني والصور والأفكار، وانتهى به هذا التطويل إلى لازمة عرف بها ، فهو لا يقول القصيدة مرة واحدة ، وإنما يبدؤها بأبيات، ثم تعلق بخاطره أياما أو شهورا، وتتوارد على لسانه أبياتا بعد أبيات، يسجلها على دفعات أو مرة واحدة حين تكتمل، وقد لا تكتمل أبداً، فينشر منها ما استقر في خاطره، وقد تلتقي في أعماقه أكثر من قصيدة في وقت واحد ، وحين زار لندن مع وفد صحفي عراقي عام ١٩٤٧ نظم عدة قصائد على «بحيرة الأخوين» وعلى الملل الذي أصابه، ومتغزلا في إنجليزية جميلة ، وأي من هذه القصائد لما يكتمل، وهي ظاهرة لاينفرد بها، وحدثني عنها عبد الله البردوني أحد أضلاع المثلث العظيم ، في إحدى زياراته لي في منزلي، وتحاورنا في الشعر والفن ، وقال لي إنه يشغل عادة بأكثر من قصيدة في وقت واحد تتجاور، والتي تستكمل حملها تخرج إلى الحياة ، فيمليها أو ينشدها.

واستخدم الجواهري الفكاهة والنقد اللاذع في حث الشعوب على الثورة ، في أوزان سهلة الحفظ، رقيقة الوزن:

نامي جياع الشعب نامي
حرستك آلهة الطعام
نامي فإن لم تشبعي
من يقظة فمن المنام
نامي على زبد الوعود
يداف في عسل الكلام
نامي تصحي! نعم نو
م المرء في الكرب الجسام
نامي إلى يوم النشور
ويوم يؤذن بالقيام

«و في قصيدته التي يدعو فيها إلى أن يطبق الظلام على العالم العربي، فقد يعقبه فجر مضيء»

أطبق دجى، أطبق ضباب
أطبق على متبلد بن
ين شكا خمولهم الذباب
لم يعرفوا لون السماء
لفرط ما انحنت الرقاب

● امتلك الجواهري شاعرية متدفقة تصدر عن نبع ثر يغذيها معجم لغوي مترامي الأطراف



لقاء الاجيال . الشاعر محمد مهدي الجواهري في حديث الشعر مع سميح القاسم

أطبق على هذى المسوخ
تعاف عيشتها الكلاب

وكان يضمن سخريته وفكاهاته رمزية لاتغيب عن الفطن، ومن خلالها يفلت من الرقابة والملاحقة.

كان الجواهرى شاعر العروبة دون منازع، ذهب العراق بالجانب الأكبر من إبداعه ، وشغلت مصر مساحة واسعة منها تستحق وقفة خاصة ، آمل أن أعود إليها ، ووقف شامخا صريحا إلى جانب قضايا الأمة العربية كلها، دفن فى قلبه كل شهدائها، بكاهم ورثاهم، واستثار الجموع لتثأر لهم، من ثورة عربية إلا وجدت من قصيده دعما : الجزائر ولبنان وسورية ومصر والخليج ولبنان والسودان والمغرب ، واليوم تمر مئة عام على مولده فلا ينتبه لها أحد، ربما لأن الشعر الثورى أصبح فى أيامنا هذه ثقيلا على سمع الحاكمين والمحكومين، ومثقفونا مشغولون عنه بالعولمة والتنوير وكلام باطل كثير، يسترون به واقعا مهترئا، وأهدافا وغايات شخصية صغيرة، وأجرؤ أن أقول حقيرة، ومن كان هذا حالهم فهم فى شغل عن عظائم الأمور . وكان الشعب الوحيد الذى احتفى به ، وأقام له أكثر من تمثال فى غير مدينة، هم أكراد العراق فى شماله، فجزاهم الله عن الوفاء والشعر والعروبة خيرا . ■



اليهود فى روسيا

عرض وتعليق : عبدالرحمن شاكر

حسنا فعلت الهيئة العامة للاستعلامات، بإصدارها هذا الكتاب، بعنوان «الطائفة اليهودية فى روسيا»، من تأليف جمال لطفى أبو طاحون، وهو بالفعل كما وصفه مؤلفه فى أول سطر من مقدمته «محاولة جادة لاستقراء ما يحدث على الساحة الروسية فيما يتعلق بالوجود اليهودى فى روسيا وتغلغل اليهود فى المؤسسات الحاكمة ودوائر الاقتصاد والإعلام» ولقد اعتمد بالفعل ـ كما ذكر ـ على العديد من المصادر والمراجع، منها عدد كبير من الصحف العربية والأجنبية .



لورنس أولفنت مسيحي عضدته الصهيونية



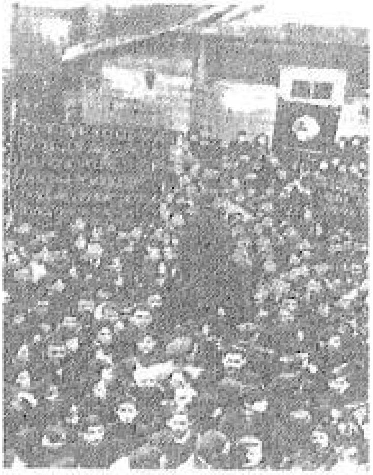
كتاتيب لتعليم الأطفال اليهود في اليمن

وكنت أفضل للمؤلف أن يترك وصف عمله بأنه محاولة «جادة» لمن يقرأ الكتاب أو يعلق عليه، عملا بحكمة أبي العلاء المعري حين قال :

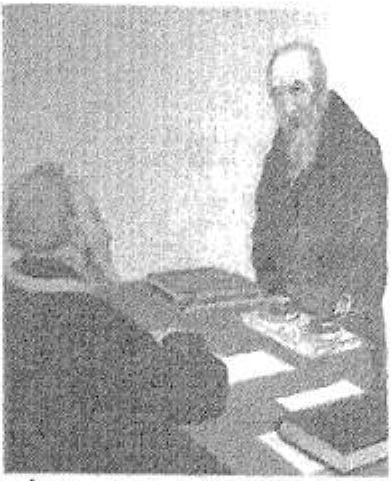
- فليحذر الدعوى اللبيب فإنها
للفضل مهلكة وشر موبق

لو قال بدر التم إني درهم
قالت له السفهاء أنت مزنبق

والفضيلة الأولى عندي لهذا الكتاب، ونشر هيئة الاستعلامات له، هي تخصيص مدخله لبيان أن أصل اليهود في روسيا وبولندا وغيرهما من بلدان شرق أوربا يعود الي جنس الخزر الذين كانوا يسكنون القوقاز، وقد اعتنقوا الديانة اليهودية في القرن الثامن الميلادي، ويحدد الكتاب تاريخ ذلك بأنه كان في عام ٧٤٠ ميلادية . وأن هؤلاء المتهودين الذين عرفوا ويعرفون حتى الآن باسم اليهود «الأشكنازيم» إنما يعود نسبهم طبقا للعقائد اليهودية ذاتها إلى إشكناز بن جومر بن يافث بن نوح عليه السلام، ولا أدرى لماذا قال المؤلف إن كلمة اشكناز معناها الحرفي هو ألماني؟! إلا أن يكون ذلك استمدادا من بعض المعاجم، التي تختصر الموضوع وتنسى أصله وهو أن الخزر المتهودين وصل ملكهم الى نهر الراين في ألمانيا،



مظاهرة سنة ١٩٠٥ للحزب الاشتراكى اليهودى فى موسكو



لوحة توضح استجواب احد اليهود الروس فى فى القرن الـ١٩

وبذلك فإن معظم يهود ألمانيا - إن لم يكن كلهم - هم من الخزر الأشكنازيم، وأنهم بالتالى الواجهة الأشكنازية لدى شعوب غرب أوربا من البريطانيين والفرنسيين والأمريكان وسواهم فنصت بعض مراجعهم، منها مثلا معجم Standard Dictionary الأمريكانى على أن أشكناز تعنى ألمانى، واكتفوا بذلك دون الرجوع الى الأصل التوراتى.

تعمية مقصودة

ولعل اليهود «الأشكناز» ومنهم معظم يهود أمريكا وراء هذه التعمية المقصودة، لأن بيان أصل التسمية يكشف زيف الدعوى الصهيونية بأن كل يهود العالم هم من بنى اسرائيل الذين تشتتوا فى الأرض بعد زوال ملكهم فى فلسطين! بينما حقيقة الأمر أن معظم يهود العالم هم من الأشكنازيم، ويقدر الكتاب الذى بين أيدينا نسبتهم إلى يهود العالم بأنها ثمانون في المائة من هؤلاء، بينما تقدر مصادر أخرى هذه التسمية بأكثر من ذلك (٩٠ أو حتى ٩٢٪) من يهود العالم. ومعنى كونهم ينتسبون إلى أشكناز بن جومر بن يافث بن نوح أنهم ليسوا من سلالة العبرانيين التى تنتسب الى سام بن نوح، ويافث مجرد أخ له وليس من



السير موسى مونتيفور اليهودى بدأ نشاطه السياسى عام ١٨٤٠ وتنقل بين موسكو ودمشق



اشير جلسبرج احد المنادين بالبعث اليهودى



اليهودى التائه كما صوره رسام الكاريكاتير دوريه عام ١٨٥٢

سلالته طبقا لما ورد في سفر التكوين، ويصبح وصف اليهود الأشكنازيم بأنهم «ساميون» وأن من يعاديهم إنما يعادى «السامية» وصفا باطلا من أساسه، وأشد بطلانا منه ادعاؤهم أنهم من بنى اسرائيل التوراتية، ويبقى أن العلاقة التى تربطهم باسرائيل هي مجرد أنهم اعتنقوا الدين الذى يدين به أو كان يدين به بنو اسرائيل، كما اعتنق كثير من الأقوام فى كل أرجاء العالم الديانة المسيحية، أو الاسلام، وكان اعتناق الخزر لليهودية بعد ظهور هاتين الديانتين، وأن ملك الخزر أو خاقانهم «بولان» خشى أنى يضيع ملكه بعد أن تفشى اعتناق المسيحية والاسلام فى صفوف شعبه فقرر أن يعطى هذا الشعب ديانة سماوية محترمة بدلا من العقيدة الوثنية التى كانوا يدينون بها وهى عبادة «فالوسى» أو عضو التذكير، وأن تكون العقيدة الجديدة مستقلة عن كل من الاسلام والمسيحية نظرا لوقوع بلاده مابين الدولة العباسية المسلمة وبيزنطة المسيحية. ويعد بولان قرر

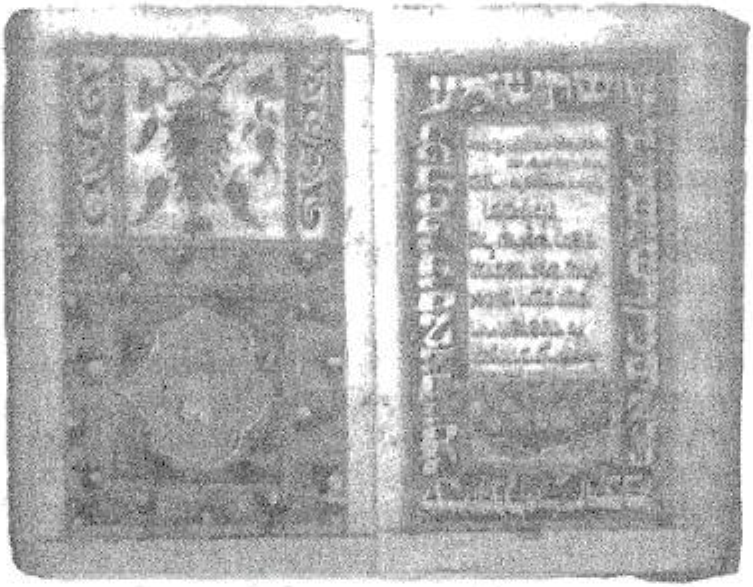


لوحة للرسام اليهودي فارسو موريس مفكو فيسكي (١٨٨١-١٩٣٠) تهدف الى جذب اهتمام العالم بقضية اليهود

الخاقان عبديه ألا يتولى ملك الخزر إلا من يعتنق الديانة اليهودية . فتهود البلاط الملكي كله على عهده، ثم تبعهم شعب الخزر أو معظمه، ويورد الكتاب الذي بين أيدينا أن كثيرا من الممارسات الوثنية ظلت باقية بين الخزر بعد تحولهم إلى اليهودية .

سياسة الترويس

وقد استطال ملك الخزر من القوقاز، وبالتحديد من نهر الفولجا في روسيا حتى وصل الى الراين في ألمانيا كما تقدم القول، ودام حوالي ثلاثة قرون حتى أسقطه الأمراء الروس الذين تحالفوا مع بيزنطة واعتنقوا الديانة المسيحية، وشرعوا في اضطهاد اليهود «أعداء الرب» الذين تسببوا في صلب المسيح طبقا للعقيدة الأرثوذكسية . ولكن الاضطهاد الأكبر الذي وقع على اليهود الخزر في روسيا في القرن التاسع عشر في عهد نقولا الأول لم يكن واقعا على اليهود فحسب، بل شمل المسلمين التتر، بل حتى المسيحيين الكاثوليك في أوكرانيا وبولندا، حيث مارس القيصر المذكور ووزراؤه سياسة «الترويس» التي كانت تهدف الى تحويل الأجناس



كتاب يمثل آيات من التوراة عثر عليه فى كردستان

غير الروسية فى امبراطوريتها الواسعة الأرجاء فى «أوراسيا» الى روس، وكان عدد هؤلاء يكاد يبلغ نصف سكان الامبراطورية. كانت سياسة الترويس تقوم على عدة مبادىء أهمها تكلم اللغة الروسية، وارتداء الملابس الروسية، واعتناق الديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكسى، والولاء للقيصر حامى الأرثوذكسية فى روسيا المقدسة وريثة بيزنطة وفى العالم كله بعد سقوط هذه الأخيرة فى يد العثمانيين!.

إن نشر هيئة الاستعلامات لهذا الكتاب، يعني فيما أتصور، أن يكون على مكتب كل مسئول فى الدولة سواء من الناحية السياسية أو الاعلامية نسخة منه، فلا نعود نسمع كلمات جاهلة من أحد، مثل الزعم بأن اليهود الذين اغتصبوا فلسطين هم أبناء عمومتنا ! أو حتى مهاجمة هؤلاء بترديد الأقوال الدينية عن بنى سرائيل لكفرهم وقتلهم الأنبياء بغير حق .. الخ، فهذه قضية وتلك أخرى. بنو أسرائيل الذين كانوا فى بلادنا ثم زال ملكهم في فلسطين وتشتتوا فى الأرض لا يكاد يكون منهم اثر اليوم بما فى ذلك اليهود الشرقيون «السفارديم» فكثير من هؤلاء اعتنق آباؤهم اليهودية كما



مناحم مندل بليس الذي اتهم باغتيال شاب في كييف

اعتنقها الخزر فيما بعد، من هؤلاء يهود اليمن الذين ينص كتاب «صهيونية الخزر» على كونهم ممن أجبرهم ملك اليمن على التهود في القرن الرابع الميلادي في قصة «أصحاب الأخدود» المذكورة في القرآن الكريم والذين يعرفون باسم «المزراحيم».

ثم نعود الى الكتاب بين أيدينا فندهش لكون مؤلفه يتباكى على القياصرة الروس الثلاثة الذين قتلهم اليهودي، كأن اليهود وحدهم كانوا الثائرين على طغيان هؤلاء، ويفسر الثورة الروسية تفسيرا سطحيا حينما يزعم أنها كانت جزءا من مؤامرة يهودية من نوع ما تشير اليه «بروتوكولات حكماء صهيون» المشكوك في صحة الكتاب الذين يحمل عنوانها، ويزيد قارئه حيرة حينما يقول إن تمام هذه المؤامرة كان اشتراك اليهود مع الأمريكان في القضاء على الشيوعية! إن هذا العمل الأخير قد يكون صحيحا الى حد كبير ولكن يستحيل أن يكون ثمة لتدبير سابق كانت الثورة الروسية عام ١٩١٧ أول فصوله، نعم لقد ساهم اليهود الروس في تلك الثورة بدور كبير ولكن الكاتب ذاته يورد الكثير من تناقضها مع الصهيونية، التي قال تشرشل عنها إنها تفتح طريقا ثالثا أمام اليهود خلاف الخضوع للعسف القيصري أو الانحياز للبلشفية!.

الخراب الاقتصادي

بعد المدخل الذي تناول فيه المؤلف أصل «الطائفة اليهودية في روسيا» يدور سائر الكتاب حول استيلاء أفراد من هذه الطائفة على مقاليد الأمور في روسيا في عهد رئيسها السابق بوريس يلتسين حيث «تسلط اليهود على ٤٠٪ من المناصب السياسية (السلطة) رغم أن اعداد اليهود بالنسبة الى الروس لا تتعدى ١.٥٪» (ص ١١) وبالنسبة لهذه المسألة يقع المؤلف في تناقض حيث يقدر عدد اليهود عقب النص المذكور بأنهم حوالى مليوني نسمة (ص١١) ، ويعود بعد ذلك

في ص (٣٩) وسواها فيقدر هذا العدد بأنه ٤٠٠ ألف نسمة فحسب!. وفي ظني أن الرقم الأول هو الأقرب الى الصحة. وأتساءل عما اذا كان أكثر من موظف هيئة الاستعلامات قد اشترك في تأليف هذا الكتاب، حيث يكثر فيه خلاف مثل هذه الأخطاء التكرار، حتى أن المعلومة الواحدة قد تذكر عشر مرات أو أكثر تحت عناوين مختلفة !.



موسى هس (١٨١٢-١٨٧٥) أحد المتخصصين في الاشتراكية الصهيونية

ويتناول الكتاب حقبة التسعينيات من القرن المنصرم حيث بدأ يلتسين في أولها سياسة التحول الى الرأسمالية بعد حل الاتحاد السوفييتي وإقصاء رئيسه جورباتشوف، الذي شرع سياسة البريسترويكا وإلغاء انفراد الحزب الشيوعي بالسلطة وبدء العمل بالتحول إلى اقتصاد السوق. ولقد ذكر الكتاب أن حل الاتحاد السوفييتي قد أدى الى تدهور الإنتاج فيه وخاصة في الصناعة، ومفهوم من مصادر أخرى لم يذكرها الكتاب أن السبب في ذلك هو أن كثيرا من الصناعات «السوفييتية» كان يعتمد بعضها على بعض بصورة متكاملة، حيث كان يتم تجميع المواد الخام أو بعض الأجزاء المصنعة من مختلف الجمهوريات ثم تدخل في المنتج النهائي في جمهورية بعينها قد تكون روسيا أو سواها ، وبعد انحلال الاتحاد كانت كل جمهورية تتصرف فيما تحت ايديها على هواها فتبيع المنتج الذي لديها أو تمنعه أو تبيعه لجهة ثالثة غير مبالية بأثر ذلك على الانتاج «السوفييتي» الذي لم يعد موحدا ولا يخضع لتخطيط منظم كما كان في السابق.

- ينقل المؤلف في أكثر من موضع عن زيوجانوف زعيم الحزب الشيوعي الروسي قوله إن السياسة الاقتصادية التي اتبعها ايجار جيدار القائم بأعمال رئيس الوزراء في عهد يلتسين والتي سميت «العلاج بالصدمة» كانت تستهدف

«تدمير القاعدة الاقتصادية للبلاد وتصفية كل تراثها الروحى والثقافى حيث انخفض الإنتاج الروسى فى عهد جيدار بمعدل ٥٠٪ بينما لم ينخفض إلا بنسبة (٢٤٪) عندما كان الفاشست على أبواب موسكو!.

- قام تشوبايس المسئول عن سياسة الخصخصة فى حكومة جيدار ببيع ٥٠٠ مصنع روسى تبلغ قيمتها الحقيقية أكثر من ٢٠٠ مليار دولار بمبلغ ٧ مليارات دولار فقط! (ص ١١٥) .

- تعمد جيدار وتشوبايس تخصيص الشركات والمؤسسات الحكومية تحت دعاوى أنها قديمة ولا تصلح، مما سهل بيعها كما يقال بسعر التراب، ومن هؤلاء المشترين الجدد تشكلت جماعات نخبة أصحاب الثروات اللاحقة لأصحاب المليارات من اليهود (ص ١١٧) .

- أسلم يلتسين أمر روسيا لجيدار وشوبايس ليتصرفا كما يريدان وشرعا فعلا فى استنزاف مدخرات ملايين الروس المودعة فى البنوك وصناديق التوفير مع وعد المدخرين بنسب عالية من الأرباح (ص ١١٧).

- اليهود يتعاملون مع النظام الاقتصادى فى روسيا على أساس انه «غنائم حرب» على طريقة (اخطف واجرى) وليس على أساس نظام اقتصادى له كيانه وتاريخه العتيد لدولة عظمى! (ص ١٣) .

- اكتشف روتسكوى نائب يلتسين الوحيد سرقة ١٧ مليار دولار من الأموال العامة كبداية (ص ١٣) .

- اكتشف الروس استيلاء اليهود على الثروات الطبيعية فى روسيا مثل جبال الأسمدة التى لا أول لها ولا آخر وجبال سبائك الألومنيوم التى كانت تمثل المخزون الاستراتيجى للاتحاد السوفييتى سابقا (يستخدم فى صناعة الذخيرة) كذلك تخسير آلاف الشركات الروسية العاملة لبيعها بأقل من أسعارها الحقيقية تحت ستار الخصخصة (ص ١٤) .

- هناك حوادث غسيل الأموال التى تم الكشف عنها بالاستيلاء على أموال صندوق النقد الدولى ، كذلك مدخرات الملايين من الشعب الروسى التى ضاعت



خريطة تبين اللغات التى كانوا يستخدمونها فى المناطق المختلفة التى عاشوا بهـا. وقـد اسـتـخـدم الـيـهـود الاشكيناز لـغـة أليديش

عليهم من النخبة السياسية اليهودية الحاكمة فى روسيا، ناهيك عن الاستيلاء على شركات البترول والطيران والسلاح والكهرباء (ص ١٤).

- كان يتداول فى روسيا مصطلح العائلة ويقصد به أولاء تاتيانا دياشنكو» ابنة الرئيس السابق يلتسين،. وأما اليهود الذين يمثلون العائلة الى جوار تاتيانا فهم اناتولى تشوبايس مسئول الخصخصة فى حكومة جيدار - الكسندر فولوشين رئيس ديوان الكرملين - دايشنكو ويعمل كمستشار فى الكرملين - ياما شيف رئيس الفريق الرئاسى من مارس ١٩٩٧ حتى ديسمبر ١٩٩٨ - رومان ابراموفيتش (٣٢ عاما) مقرب من دايشنكو وياماشيف - فلاديمير بوتين (الرئيس الحالى) عضو مؤهل انضم أخيرا الى العائلة - بيريزوفسكى، ليس ضمن العائلة ولكنه عضو قوى ونافذ ضمن فريق الرئاسة ومهيمن على العائلة وهو المدخل الى يلتسين والممول والمستشار غير الرسمى للرئيس يلتسين قبيل اعتزاله الحياة السياسية (٦٧). وكان هذا يطلق على نفسه اسم «القيصر الحقيقى لروسيا» (ص ٥٤)، وكان



كاريكاتير يمثل ابتلاع طفل يهودى لعملة معدنية ومحاولة الاسرة استردادها

يحمل الجنسيه الاسرائيلية الى جانب جنسيته الروسية ثم تخلى عن الأولى بضغط من الدوما (البرلمان الروسى) .

- بلغت خسائر الاقتصاد الروسى من عمليات النهب فقط ٤٠٠ مليار دولار (ص ١٧) .

- أصبحت مرتبة روسيا بين دول العالم الحادية والسبعين (ص ١٧) .

- خلال الفترة من (٩٣ - ١٩٩٨) استطاعت ألمانيا الروسية تهريب ما يزيد على ٣٠٠ مليار دولار وتسيطر ألمانيا على ٥٥٠ مصرفا فى أنحاء روسيا (ص ١٨).

- كان الدخل الروسى فى عام ١٩٨٩ أى قبل رئاسة يلتسين يقدر بـ (٦١٨ مليار دولار) أما فى عام ١٩٩٩ وهو العام الأخير من عهد يلتسين فقد تدنى الى ٢٠١ مليار دولار (ص ١٨) .

- الملياردير اليهودى بوريس بريزفسكى وألكسندر فولوشين رئيس ديوان الكرملين .. قاما بإنشاء شركات لتوظيف الأموال باعت آلافا من الأسهم الوهمية



احد شوارع بيرو بيدجان الذى اعطى فيها اليهود الحكم الذاتى

لمواطنين عاديين ووعدتهم بأرباح كبيرة ، ولكن المواطنين الذين اشتروا الأسهم لم يتسلموا أية أرباح ولم يستردوا حتى المبالغ التى دفعوها (ص ١٢٧ ، ١٢٨) .

ـ كان المفروض أن تساعد الخصخصة فى إعطاء جميع المواطنين شهادات أحقيه تعطيهم حق المشاركة فى الاقتصادى الوطنى لكن بسبب التضخم لم ينجح سوى عدد محدود من التجار فى شراء هذه الشهادات، وبهذه الطريقة استطاع مديرو المصانع والمؤسسات التجارية الاستيلاء على تلك الشهادات التى يملكها العمال والموظفون فى الشركات. وسرعان ما تركزت خيرات الشعب ومقدراته فى أيدى أعداد محدودة من أباطرة المال اليهود (ص ١٤٢) .

ذلك غيض من فيض من تفاصيل كثيرة أوردها الكتاب لتخريب الاقتصاد الروسى ونهب موارده الغنية وتهريب الكثير من أمواله الى الخارج بما فى ذلك تزويد الكيان الصهيونى بالمال والرجال وخاصة من ذوى التخصصات العلمية العالية، وفى النهاية فهو كتاب يستحق أن يقرأ وأن يقتنى. ■

دائرة الحوار

٦٨

الهلال



طه حسين



ادوارد سعيد



لطفى السيد



نصر حامد أبو زيد

ليس دفاعا عن ادوارد سعيد بل دفاعا عن حرية الرأى

بقلم

د. فكري اندراوس

لقد سعدت بمقالة الأستاذ حسين أحمد أمين حول حرية الرأي والمنشورة في مجلة الهلال في شهر أكتوبر الماضي. وتصادف في الوقت نفسه تقريباً أن تثار قضية متعلقة بحرية الرأي في أحد أعرق الجامعات الأمريكية ضد واحد من أعرق أساتذتها وهو الدكتور ادوارد سعيد.

ادوارد سعيد معروف بكتاباته وكتبه الكثيرة المتعلقة بالقضية الفلسطينيه وعدائه للهيمنة الإسرائيلية على مصير الفلسطينيين، وموقفه هذا يثير ضده الكثير من العداء في محيط عمله بجامعة كولومبيا والتي تقع في مدينة نيويورك حيث الجالية اليهودية كبيرة وقوية ومنظمة وفعالة. من هنا كانت حرية الرأى قضية مهمة فالأكثرية القوية يهودية والعرب مازالوا قليلي الفعالية وإن كانت تلك الفاعلية في ازدياد مضطرد.

حرية إبداء الرأى في الجامعة يجب أن تقدس.

القضية تتعلق بادوارد سعيد حين زار الأراضي الفلسطينية في الصيف الماضي، ومن نقطة على الحدود مع إسرائيل قذف حجراً على الأراضي الاسرائيلية تضامنا مع الانتفاظة. وبسرعة طارت صورة ادوارد سعيد وهو يقذف الحجر إلى مدينة نيويورك وتلقفها بعض الطلبة اليهود في جامعة كولومبيا، ونظمت المظاهرات والمحاضرات ضد ذلك الأستاذ بالجامعة والتي قادها اثنان من الأساتذة وكثير من الطلبة المؤيدين لإسرائيل بتعصب، وقد طالبوا بمعاقبة وإقصاء إدوارد سعيد عن الجامعة.

وكثيرا ما حدث مثل ذلك لإدوارد سعيد إلا أن الجامعة لم تعلق أهمية على ذلك إنطلاقا من مبدأ حرية الرأى المقدس في تلك الجامعة العريقة. ولكن هذه المرة كان الصوت عاليا ولمدة طويلة مما اضطرت معه الجامعة إلى التعليق. ولقد كان رد عميد الكلية كممثل لنفسه ونيابة عن رئيس الجامعة مثالا قويا لما تعنيه حرية الرأى داخل أسوار الجامعة.

لقد اعتبر بيان الجامعة أن قذف ادوارد سعيد الحجر لم يمثل أى ضرر لأى شيء بل كان مجرد رأى سياسي، وانطلاقا من هذا المبدأ فإن اعتراض الطلبة لم يكن يستحق الالتفات إليه إلا أنه حسب قول الجامعة وجب علينا أن نذكر أنفسنا والبعض بما تعنيه حرية الرأى. لقد أكد البيان أن أستاذ الجامعة له حرية الرأى داخل أو خارج الحرم الجامعي وحيث أن قذف الحجر لم يحدث عنه أى

ضرر ولم يصدر ضد ادوارد سعيد أى حكم قضائى، وحتى لو كان قد صدر ضده حكم قضائي داخل هذا البلد أو خارجه قد لا يجوز للجامعة عقابه طبقا لما هو وارد بقوانين الجامعة.

لقد ذكر بيان الجامعة أن الزوبعة التى أثيرت ضد ادوارد سعيد لم تكن لمجرد قذف حجر على الحدود مع إسرائيل بل كانت نتيجة دفاعه الدائم والمنشور عن الحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني. من هنا فإن إبداء الرأى لإدوارد سعيد ركن أساسى فى هذا الخلاف ووجب على الجامعة الدفاع عنه.

ورغم أن إدوارد سعيد أحد رواد الفكر المعاصر وأنه حاصل على أعلى درجة يمكن أن تمنحها جامعة كولومبيا لأحد أساتذها إعترافا بجليل أعماله إلا أن الحرية المتاحة له متاحة أيضا لجميع الأساتذة ليس أكثر ولا أقل. ولو أن الجامعة قصرت فى حماية حرية الكلمة لإدوارد سعيد أو غيره من سيكون الأستاذ التالى والذى ستقصر الجامعة فى حماية حقه فى حرية الرأى، ومن سيكون ذلك الشخص الذى يملك الحق الإلهى لينشر لمن يشاء وليسكت من يشاء (The inquisitor).

وقد اختتم بيان الجامعة بتذكيرنا بما قاله الفيلسوف الانجليزى جون ستيوارت ميل (Joan Stuart Mill) والذى قال «لو أن كل الناس اتفقوا على رأى واحد وخالفهم فى ذلك الرأى إنسان واحد فليس من حق أحد أن يسكت صوت ذلك المعارض الوحيد».

كان هذا بعض دفاع الجامعة عن أحد أساتذتها ولكن الجامعة أيضا دافعت عن حرية الطلبة فى إبداء رأيهم. إن الجامعة تحمى حرية الطالب فى ابداء رأيه تماما كما تحمى حرية الأستاذ فى إبداء رأيه.

هذا ما حدث لأستاذ جامعى من أصل عربى فى ولاية نيويورك ذات الصبغة اليهودية. والسؤال أين نحن فى العالم العربى من هذا؟

حين ابتدأت الجامعة المصرية فى أوائل القرن الماضى أثار الدكتور طه حسين زوبعة قوية بكتابه «الشعر فى العصر الجاهلى» والذى صدر فى مايو سنة ١٩٢٦. ومازال هذا الكتاب محل نقاش إلى الآن. حين صدر الكتاب لم يرض عنه الكثير وقد نوقشت تلك القضية بعصبية فى الجامعة والبرلمان والصحافة وفى ساحة القضاء. وقد دافع رئيس الجامعة حينئذ الأستاذ لطفى السيد عن كتاب طه حسين وأيدته الوزارة فى ذلك الوقت، ولكن هذا الدفاع لم

حرية التعبير عن الرأى

بقلم : حسين أحمد أمين

غدت حرية التعبير عن الرأى اليوم مقبولة
سلماً بها فى معظم البلدان المتحضرة . غير
حرية لم تكتسب إلا فى العصر الحديث
ة بحور من الدماء . وكان لا
لا حتى تقتلع الشع

يكن دفاعا مطلقا فلقد كانت هناك خلفيات سياسية وحزبية قوية وراء ذلك الصراع.

المهم أن طه حسين لم يفقد وظيفته وإن اضطر إلى تقديم بعض التنازلات وقد استمر طه حسين فى ابداء رأيه فى العديد من المشكلات بقوته المعهودة، وقد أصبح عميداً ثم وزيرا فى آخر وزارة وفدية سنة ١٩٥٠. وليس من العسير تقدير مقدار الخسارة لو أن طه حسين تم إسكاته إلى الأبد كما حدث للبعض.

> حرية الرأى ركن اساسي في شخصية ادوارد .

وفى عهد جمال عبد الناصر استبعد بعض أساتذة الجامعات إما لأنهم خالفوا بعض آراء الثورة أو لأن بعض أصحاب النفوذ اعتقدوا ذلك وقد تم ذلك بجرة قلم بدون أى اعتراض من مسئولى الجامعات وقد أسكتت الأصوات المعارضة فى الجامعات حتى كانت هزيمة سنة ١٩٦٧.

وانتهى عهد جمال عبد الناصر وابتدأ عهد السادات وقد منح السادات بعض الحريات المقننة فى أول عهده ولكنه ما لبث أن أسكت كل معارضيه داخل وخارج الجامعات.

أما الآن فإن بعض أساتذة الجامعات ذوى الرأى المخالف لما يتوقعه البعض تعرضوا لإرهاب فكرى ليس داخل الجامعات فقط بل فى ساحة القضاء كما حدث للدكتور نصر حامد أبو زيد والذى اضطر للخروج من مصر حرصا على حياته وضماناً لحريته من التدريس والكتابة.

هذه بعض علامات على طريق الجهاد إلى ديمقراطية سليمة. إن حرية إبداء الرأى فى الجامعة يجب أن تقدس إن لم يكن هناك حرية الكلمة فى الجامعات فلا داعى للكلام عن الديمقراطية خارجها. ■

لا .. لنخاسة جديدة تشتري وتبيع أعضاء الإنسان

بقلم :
صافي ناز كاظم



جنّبت كل الأمور التى كنت أخطط للكتابة عنها أمام هلع أصابنى بعد الاتفاق شبه الكامل على أحقية وشرعية نقل الأعضاء البشرية من إنسان إلى آخر ، وآخرها موافقة علماء الدين ، وعلى رأسهم فضيلة شيخ الأزهر، والمفتى، ووزير الأوقاف بجواز نقل قرنية عين الميت لإنقاذ حالات مهددة بالعمى بين الأحياء .

لاشك أن الصورة المبسطة للقضية تبدو إنسانية، ومنطقية ومليئة بالخير. لكن الصور المبسطة للأشياء لاتعنى أبدا أنها ستبقى على أرض الواقع والتطبيق «بسيطة» و«مثالية» و«طيبة» كما تبدو نظريا . نعم، من حق المهدد بالعمى أن يبحث له العلم عن وسائل للإنقاذ، وأنا شخصيا مدينة للعلم بحفظ قوة بصرى، بعد إصابتى بالمياه البيضاء، لنجاح العلم والطب فى زرع عدسة بديلة عن العدسة المصابة، غير أن تلك العدسة البديلة لم تكن عدسة بشرية مأخوذة من عين إنسان توفاه الله أو لايزال حيا يسعى لايجد غضاضة من بيع أعضائه. فالذى أعرفه أن تلك العدسات المزروعة كانت عدسات مصنعة من مواد غير بشرية تماثل فى وظيفتها العدسة التى خلقها الله سبحانه وتعالى بداخل أعيننا . إننى مؤمنة أن العلم قادر على محاكاة ماخلق الله لنفع الإنسان ، كما استطاع أن يحاكي قدرة طيران الطيور ، فقدم لنا «الطائرة» التى ظلت تتطور من أفضل إلى أفضل، واستطاع أن يحاكي الدواب التى كانت تقوم بمهام حمل الإنسان ومتاعه فى أسفار من مكان إلى آخر طال أو قصر، وقدم لنا العربات والسيارات والحافلات بأنواعها من صغير ومتوسط وضخم وخفيف وثقيل . ولن أطوف بكل الإنجازات التى نجح الإنسان فى تحقيقها بواسطة قدراته العلمية - (التى خلقها الله سبحانه وتعالى

كامنة فى تركيبته العقلية والدماغية، آيات لأولى لألباب، وبأى آلاء ربنا تكذب؟) - إذن لا اعتراض على أن نبحث ونجد قطع غيار للإنسان تعينه على الشفاء من أمراضه ومعوقاته لمواصلة الحياة براحة ولياقة أفضل، لكن قطع الغيار هذه لايجب أن تكون قطعا بشرية مأخوذة من بشر أمواتا كانوا أم أحياء بل يجب أن تكون مصنعة - مثل العدسات المزروعة - من مواد بديلة مقارية للخاصية الأصلية للعضو التالف فى الجسم البشرى. إن الذى

لا .. لنخاسة جديدة تشترى وتبيع أعضاء الإنسان

استطاع أن يحاكى العدسة البشرية، يستطيع أن يبتكر المماثل للقرنية، وللكلى، وللكبد، وللقلب، ولجميع أعضاء الإنسان، لكن أن نعود لسوق نخاسة جديدة تفتح الباب لنقل الأعضاء وقطع الغيار من إنسان لإنسان فهذا ما أستنكره بشدة لما أراه بعين زرقاء اليمامة من أهوال وحشية منتظرة لايمكن أن نغمض عنها العيون المبصرة أو البصائر البصيرة .

***

بعيدا عن جدل «الحلال والحرام» فأنا لست فى موقع علماء الفقه والشريعة، وإن كان من بينهم الكثير الذى يحرم بشدة فكرة نقل وزرع الأعضاء البشرية، لكنى من موقعى الثقافى والإنسانى المتواضع جدا أرى طريق النوايا الحسنة مفروشة فوق ألغام الجرائم والشر المستطير . إن تاريخنا البشرى الذى بدأ بقتل «هابيل» على يد أخيه «قابيل» يعكس لنا فى مرآته الجشع المتأصل فى النفس البشرية. وللعلم أنا أسجل هنا أن «المعلم الأول» للإنسان ليس حضرة الفيلسوف «أرسطو طاليس» لكنه أستاذنا «الغراب» حين علم القاتل «قابيل» كيف يوارى سوءة أخيه، الذى اعترف فى توبيخه لنفسه أنه عجز أن يكون مثل هذا الغراب فيوارى سوءة أخيه، ومع ذلك صار التاريخ البشرى يسمى أبناءه متيمنا باسم القاتل «قابيل» متناسيا تماما الشهيد «هابيل» الاكثر تقوى وحضارة ورقيا رافع الشعار النبيل «لئن بسطت إلىّ يدك



لتقتلني ما أننا بباسط يدى إليك لأقتلك، إنى أخاف الله رب العالمين» .هذا التاريخ البشرى لايعطينا الثقة أبدا فى أن نضمن دائما أن «القرنية» – مثلا – لن يتم نقلها إلا من متبرع بها توفاه الله وفاة طبيعية . هذه «مثالية» ساذجة تدحضها بقوة سجلات تجارة الرقيق، وخطف الأطفال، والنساء، ومجازر الإبادة، وقبائل أكلة لحوم البشر، ومهالك الفقر والمجاعات المصدّرة لعصابات تجارة بيع الأطفال الأبناء المباعة برضاء الآباء المعدمين. «الله أكبر» ، ألا تتخيلون حين يسير الفرد منا فينظر إليه «التاجر» و«المورد» لقطع الغيار البشرية من فوق لتحت هامسا فى سريرته «والله الجدع هذا والسيدة تلك والكتكوت ابنهما صفقة لا بأس بها لزبون طالب كلية، وزبونة تحتاج قرنية، وابن ثرى ينقذه النخاع والقلب والكبد...»، ياستار ! هل سنعود إلى حكايات الغيلان القادرين على التخفى فى ثياب الطيبة والسماحة لتفاجئنا الصرخة «هات فشتك وكبدتك»!.

***

بجريدة الأهرام ٢٠٠١/١/٧ خبر عن فضيحة قاتل للنساء فى بريطانيا وظيفته طبيب يدعى الدكتور «هارود شيبمان»، حصل على لقب «أبشع قاتل فى تاريخ أوربا» لأنه استطاع من خلال عمله أن يقتل ٢٣٦ سيدة على مدى ٢٥ عاما عن طريق إعطائهن أدوية خطيرة تؤدى إلى الموت، وقد قام الطبيب المذكور بتنفيذ جرائمه فى هدوء : يكتب الدواء، ثم يدون شهادات الوفاة لمرضاه على هواه من دون أن يستريب فيه أحد، إلى أن شاء الله أن يوقع بهذا السفاح . لنا أن نقرأ هذا الخبر بأبعاد أخرى، تخيلوا حين يتم فتح سوق بيع الأعضاء البشرية، وسوق نقل القرنية من عيون الأموات لتغذية بنوك العيون، بدعوى إنقاذ الآلاف من العمى، ألا يمكن أن تظهر نماذج من الدكتور «هارود شيبمان»، تقتل بالدواء وتحرر شهادات وفيات «طبيعية» للنساء والرجال والفتيان ومن شاء له حظه العاثر أن يقع تحت طائلة هؤلاء الأطباء فى مصر أو خارجها، وتغتصب «القرنيات» للعلاج الباهظ أو المجانى لمن يهددهم العمى؟ هل تظل هذه «القرنيات» معدودة فى حكم «الصدقات الجارية» كما تمنى سيادة المفتى فى رأيه الذى أدلى به لجريدة الأهرام ٢٠٠١/١/٤؟

***

دائرة حوار

لا .. لنخاسة جديدة تشتري وتبيع أعضاء الإنسان

لقد رفعت ندوة وزارة الصحة لمكافحة العمى شعار «الإبصار حق للجميع» ونعم الشعار ولكن ليس على حساب حق الحياة الآمنة للإنسان الذى سوف تتهدده بالحتم مافيات وعصابات ومؤامرات الذين يريدون الإثراء أو تحقيق المصالح بالتجارة فى «أعضاء الإنسان» مثل عصابات تجارة السلاح - ويجيدون التخفي وراء الأقنعة الوبودة والقفازات الناعمة وغسيل الأموال والأيدى من الدماء الحرام . لقد تبرع الاتحاد الدولي للقرنيات بـ ٣٠ قرنية تم نقلها للمرضى في ليلة القدر وقال من قال : «هذا عمل جليل» سبحان الله، ومن أين يأتى «الجليل» ونحن مهددون بـ «الجلل» ؟ لقد عاشت البشرية مع تجارة الرقيق دهورا طويلة، ولم تتوقف تلك التجارة الوحشية إلا منذ قرن أو قرنين، على أى شيء كانت تعتمد هذه التجارة؟ ألم تعتمد على خطف الضعفاء من بلاد الجنس الأبيض والأسود والأصفر، وأقامت قوانين ومواثيق وقواعد لتلك التجارة الفاحشة استسلم لها الجميع وأقروها ونظموا لها المعاملات التى خضع لها حتى الطيبين كأنها من سنن الحياة المنطقية؟ كيف نكون من السذاجة بحيث نتصور أن «نقل الأعضاء» و«القرنية» ستظل سليمة المصدر مبرأة من أي شبهة شرعية؟ الناس تقتل من أجل المال والمصالح، فكيف لانرى التهديد والهدف «جوهرة العين» وبيت الكلاوى» و«الحلويات» من قلب وكبد وطحال وأمعاء . أنا لا أناقش مبدأ «الإبصار حق للجميع» ، ولا الأهداف النبيلة في استبدال التالف من جسد الإنسان بقطع غيار تمده بالصحة والحياة حتى يحين الأجل المحتوم، فأنا ممتنة لعمليات «القلب المفتوح» التى تعيد للشرايين والصمامات لياقتها، لكنى أصرخ : لا وألف لا لنخاسة جديدة تبيع وتشترى أعضاء الإنسان، «أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه» ؟ تصوروا احتمالات منها: قيام الكيان الصهيونى بقتل من يريد من الشعب الفلسطينى وبحركة التفاف تورد أعضاءهم



و«قرنياتهم» لبنوك دولية تتفضل بالتبرع ببعضها لحضراتنا، وتحت شعار «الصحة والإبصار حق للجميع» نأكل لحم إخواننا من دون أن ندرى. الاحتمال غير بعيد مادمنا رأينا بأعيننا رسائل اللحوم المصابة . بجنون البقر تصل موانئنا لتعبر المنافذ، بواسطة من لا ضمائر لديهم، ليفتك بنا الوباء .

***

لقد قامت جمعيات للدفاع عن الحيوانات، منها جمعية تسمى نفسها : «جبهة تحرير الحيوانات» أعلنت مسئوليتها عن خطف ٤٦ كلبا من كلاب الصيد المدربة الغالية القيمة بسبب اشتراك تلك الكلاب فى عمليات صيد الحيوانات . كان الإنسان فى قديم الزمان يحتاج لصيد الحيوان ليسلخ عنه فراءه ليسد احتياجه إلى ثوب يلبسه أو غطاء يتدفأ به، وحين نجح الإنسان فى أن يجد النسيج الذى يقوم بسد هذا الاحتياج، انتهت الضرورة «الشرعية» ، وأصبح صيد الحيوان وسلخه من أجل التباهى بثراء وأناقة معاطف «المينك» و«الفراء» جرائم، تهب جمعيات الدفاع عن الحيوانات للتصدى لها. ونحن يجب ألا ننتظر حتى تستفحل جرائم القتل الخفية التى قد تكون من مظاهرها الزيادة اللافتة لأعداد «المتبرعين» بأعضائهم و«قرنياتهم» الذين قبض الموت أرواحهم بكثرة فجأة وتباعا، علينا أن نهب للدفاع عن الإنسان حماية له من عمليات «صيد» أعضائه و«قرنياته» بواسطة كلاب الصيد المدربة على إخفاء شباكها، وأفخاخها لتبدو «الوفيات» «طبيعية» والتبرعات «طوعية» .

***

اغلقوا أبواب الجحيم هذه ، المسماة «إباحة نقل الأعضاء البشرية» إلى أن يتمكن العلم من الوصول الى ابتكار الحلول المطلوبة لتحقيق حلم «الابصار للجميع» و«الصحة والعافية» للمرضى كافة، بعيدا عن قتل الإنسان لأخيه الإنسان.

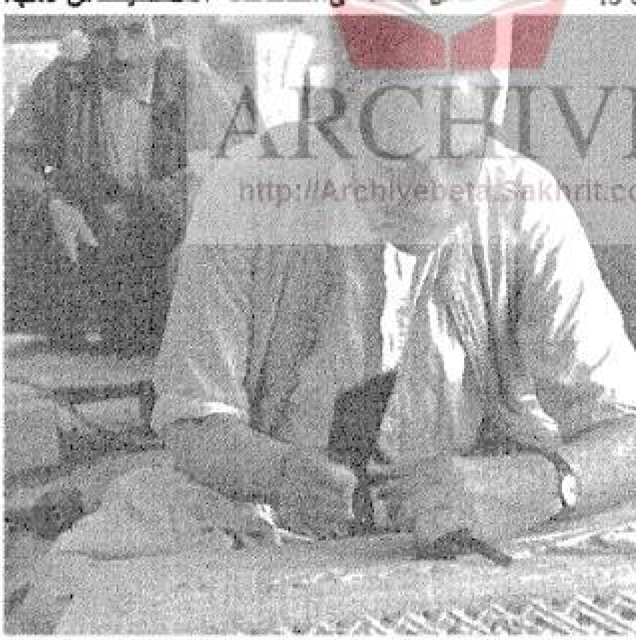


المشهد الثقافى التونسى

الفاصل الثقافى لايزال منطقة شاحبة بين المشرق والمغرب

رسالة تونس : صلاح المراكبى

الصناعة اليدوية اشتهرت فى تونس بدقة أشكالها وترجمة للمثل العامى،الصنعة مقياس ذهب،



على الرغم من أن مساحة تونس لاتزيد على ١٦٣ ألف كيلو متر مربع ، إلا أنها متنوعة بين السواحل والوديان والصحارى والبحيرات ، يسكنها حوالى ٩ ملايين نسمة ونصف ، وأثناء زيارتى لتونس ولقاءاتى بمثقفيها وفنانيها اكتشفت أن الفاصل الثقافى لايزال واضحا بين جناحى العالم العربى، المشرق والمغرب ، وإن كان خط الثقافة فى المشرق أكثر وجودا وتأثيرا .

وأثناء زيارتى لها التقيت بعدد من الشخصيات الثقافية الفاعلة فى الحياة التونسية :د. عبدالوهاب بوحديبة رئيس المجمع التونسى للعلوم والآداب والفنون ، والأديب الشاعر الميدانى بن صالح رئيس اتحاد الكتاب التونسيين، والفنان التشكيلى عبدالعزيز القورجى عميد التشكيليين ، والشاعرة فضيلة الشابى ، من رواد الطليعة ، وشاذلية بوخشينة رئيسة اتحاد المرأة التونسية ، ونائبة رئيس البرلمان .

جانب من المنسوجات الشعبية التى تقوم النساء بصناعتها





● **د. عبدالوهاب بوحديبة**
رئيس بيت الحكمة :

أمامنا تحديات ثلاثة لينهض العرب !

عندما عبرت مدخل بيت الحكمة في حي «قرطاج حنبعل» في تونس ، كنت قد عبرت القرن العشرين بطوله مع النصف الثاني من القرن التاسع عشر ؟! حيث قام بناء هذا القصر العتيق الذى أقطع محمد الباى أرضه للمملوك أحمد زروق مستشاره وزوج أخته زنيخة عام ١٨٥٥ م فبناه وأقام فيه وترقى وزيرا للحرب والبحر .. ثم هجره ليصبح قصر محمد الأمين آخر بايات تونس وحكامها حتى الاستقلال.

في هذا القصر كانت زيارة الوزير الفرنسي جوليه فرى الذى كان دوره كبيرا في فرض الحماية على البلاد ، كما أعلن فيه الرئيس منديس فرانس باسم فرنسا عن حق تونس في الحكم الذاتي ، وفيه أصدر باى تونس مئات القرارات ومنها «مجلة الأحوال الشخصية» التي حررت المرأة ، وألغت تعدد الزوجات وقيدت الطلاق .. ومن باب هذا القصر خرج باى تونس للمنفى وأعلنت الجمهورية التونسية!!

هو إذن قصر له تاريخ كما يقول الدكتور عبدالوهاب بوحديبة رئيس بيت الحكمة وهو الاسم المختصر للمجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون .

ويقول :

– نحن نحاول أن نكون في مستوى الأمانة .. والأمانة هى أيضا جدران ، والجدران تتكلم وتحكى .

المجمع التونسي يوازى في مصر مجمع اللغة العربية ، لكنه على شاكلة المجمعات في فرنسا والدول الأوروبية .. هو كما يقول رئيسه د. بوحديبة – المفكر العربي وأستاذ علم الاجتماع الإسلامي والمغاربي في جامعة تونس ، يقول :

– هو مجمع جامع لا مجمع مختص باللغة العربية وحدها .. هو يعتني بكل قطاعات الإبداع .. نحن مؤسسة علمية لا إدارية ، وسوف يتم اكتمال قانونها قريبا.. بحيث تضم ٧٠ مبدعا من تونس وثلاثين من الخارج .. الآن نقوم بنشاطين أساسيين هما : الندوات والنشر .. أربع ندوات أقمناها حتى الآن – في كل سنة ندوة – الأولى حول «الحرية .. الكائن الحى في هذا الزمان» والثانية عن «المعقول واللامعقول» ذلك أن عودة اللا معقول تخيفنا بالفعل ، الثالثة عن «واقع البيئة في هذا الزمان» والرابعة التى تمت في مايو الماضى كانت حول هذا التساؤل: « ما الحياة» ؟ حيث دعونا ما بين ٢٠ ، ٣٠ أستاذا كما تعودنا ، من البلاد العربية وأوروبا والولايات المتحدة وتونس ، وهم كبار المتخصصين في الفلسفة والطب والإبداع والبيولوجيا للإجابة عن هذا التساؤل .. فالحياة الآن تتميز بمعرفة

مكثفة من طرف الفيزيائيين والفلاسفة والأطباء .. وقدم لنا العلماء وكان من بينهم من مصر الدكتور مراد وهبة ، والأستاذ حسين أحمد أمين ، وعدد كبير من البلاد العربية والعالم .

نشر التراث

أما في مجال النشر – يقول الدكتور بوحديبة – فهدفنا من ورائه هو التعريف بالتراث التونسي والترجمة ، فقد نشرنا لبيرم الخامس كتابه : « صفوة الاعتبار في مستودع الامصار والأقطار» وهو الذى سافر إلى العديد من أصقاع العالم فى منتصف القرن التاسع عشر وكتب مذكراته وانطباعاته .

كما نشرنا لخير الدين التونسى كتابه فى «أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك» .

ونشرنا لابن الجزار كتابه في «طب الفقراء» .

وكان لنا ملتقى أسميناه «أيام الخط العربي» فقد جلبنا من اسطنبول ١٥٠ لوحة من روائع الخط العربي ولوحات من تونس وأقمنا معرضا ودعونا ١٠ من أساتذة الخط الأتراك – والخط العربي مادة تدرس في تركيا – أقاموا ورشات عمل استمرت أياما ، ولقيت اقبالا هائلا من الدارسين التونسيين ، استفدنا كثيرا منها ، حيث تعلم الدارسون التونسيون فنونا فى الخط لم يكونوا يعرفونها كالنمنمة والتذهيب وغيرهما ، وأقمنا حفلا توجنا به هذه الأيام أبدع لنا فيه فنان تونسي بصنع ثوب زخرفه بالحروف العربية بشكل أعجب الجميع .

● متى بدأ المجمع ؟

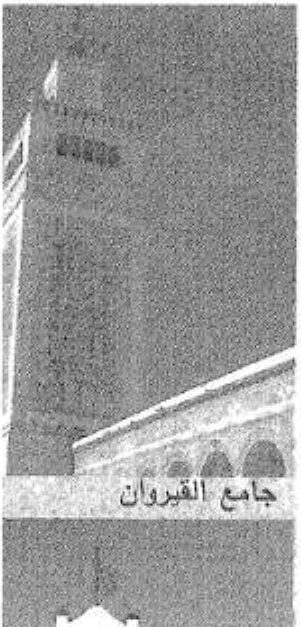
– عام ١٩٨٣ وأنا توليت رئاسته عام ١٩٩٦ وأنا اعتبر نفسى مثقفا عربيا يقوم بمسئولياته التى نجابهها .. وهذه المسئوليات هى التى جعلتنى أمارس كل نشاطاتى فى تونس ، وفى الجامعة التونسية .

● خبرتك طويلة عن الفكر والإبداع ومشاكل العالم العربى .. كيف ترى المستقبل العربى ؟

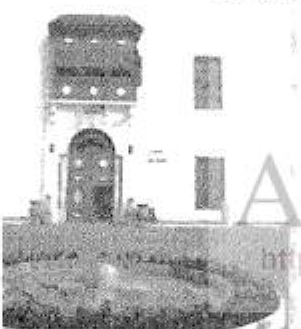
– فى رأيى أن الشخصية العربية قوية ، وأملى كبير فى أنها ستخرج بالرغم من المحن بتجديد عميق لكيانها .. فقد مرت بأزمات عديدة وخرجت منها سليمة ، لا كما كانت ولكنها جابهت التحديات وصمدت ، صحيح أنها لم تقل بعد كلمتها الأخيرة ، وأنا أنصح نفسي وطلابي والشباب من حولى أن يضعوا أنفسهم فى مجرى الحركة ، حتى نخرج بالشخصية العربية بما يجعلها تضطلع بإيجابياتها الكبيرة وطاقتها الكاملة ، لا أن تساهم فقط فى صيانة نفسها ، ولكن لتساهم فى تجديد الفكر الكونى المشترك .

● ولكن التحديات كبيرة .. ومتجددة ؟

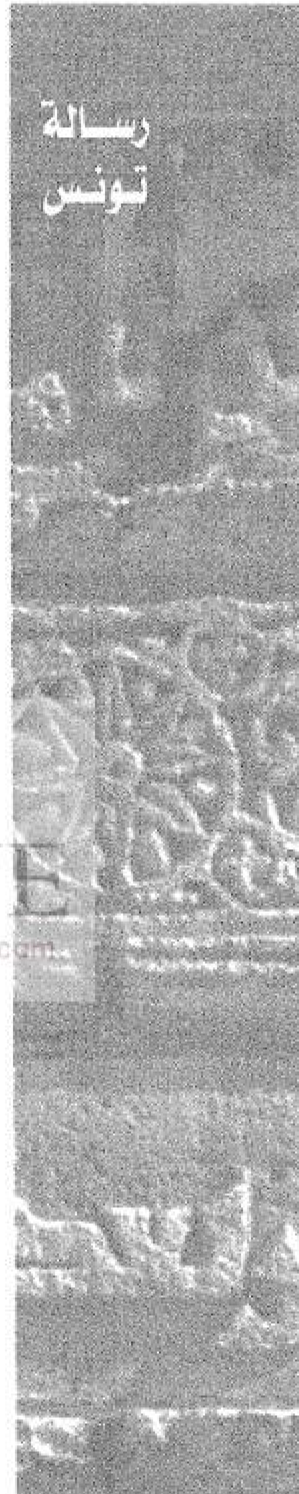
– نعم التحديات مختلفة وصعبة عبر التاريخ الطويل .. وكانت تقضى علينا ، ولكننا وجدنا فى ثقافتنا وفى الإسلام الدرع الواقى



جامع القيروان



بيت الحكمة فى تونس (قرطاج)



والكافي ، الذي مكننا من أن نربح الوقت ، خاصة عندما فقدنا الدور الأساسي الاقتصادي والسياسي والعسكري .. لكننا في الواقع لم نخسر أنفسنا .

٣ تحديات
● وما خطة الفعل المطلوب؟

– بعجالة أمامنا ثلاثة تحديات ، لها مستوياتها المختلفة ، وعلينا أن نحذر ، وألا نخلط بين هذه التحديات بمختلف مستوياتها :

١ – التحدي الأول هو من أنفسنا ، أي أنه يخيل الينا أننا نستطيع أن نجابه المستقبل كما جابهه أجدادنا ، وهذه أكبر غلطة ، وقد دفعنا ثمنها باهظا .. كما دفعناه في فلسطين .. من الخطأ أن نتمادى في التعامل مع أنفسنا كما تعامل أجدادنا مع أنفسهم ، نحن في غليان وفي جيشان وألم ، فإذا لم نوجه طاقاتنا الحركية الديناميكية بالطريقة المثلى فسنقضي على أنفسنا .

٢ – التحدي الثاني هو أننا نحن العرب نسبب لأنفسنا أكثر مما يسببه لنا غيرنا بخلافاتنا ولنكن صرحاء ، فقد قتل العرب وشردوا ودمروا من العرب أكثر مما فعل الانجليز والفرنسيون وإسرائيل .. لنكن صرحاء ، أكبر مشاكلنا منا نحن لا من غيرنا ، حتى غيرنا لا يصيبون منا إلا من خلال ثغرات نحن الذين نصنعها .. نحن في حاجة إلى أن نفهم الواقع القريب منا والمحيط بنا : ماهي الأمة العربية ؟ ماهي حقائق التنوع العربي ، لماذا نخسر؟ لماذا لا نزال نعيش في منظمات سياسية فرضتها الظروف التاريخية علينا وكأنه لا مناص منها .. وكيف نتعامل مع الواقع المحيط بنا ، اقتصاديا وسياسيا وعسكريا .

٣ – أما التحدي الثالث فهو لا يواجه العرب فقط ، ولكنه تحد كوني ، يواجه العرب في المعية مع أي دولة أخرى .. فالعولمة تشكل اشكالية بالنسبة للعرب والأوربيين والاسيويين والافارقة .. هناك أمركة ، هناك أوربة ، بطبيعة الحال نحن لا نغفلها ولها ضغوطاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. ولكن بالنسبة لنا جميعا كبشر نقيم على هذه الأرض ، لنا قواسم مشتركة ، ولو وجدنا الحلول للتحدي الأول والثاني ، فيمكن لنا أن نساهم في هذا التحدي الكوني بالبحث عن القواسم المشتركة وتدعيمها وتوسيعها وترسيخها ، المشكل الكبير الذي أراه ، هو أنه سيأتي زمان سنجد فيه اللغة المشتركة ، ذلك أننا الآن عندما نتحدث عن الحضارة الأمريكية .. ماذا نعرف عنها ؟ .. نحن نتعامل بالجانب التجاري للحضارة الأمريكية ، هل نحن نعلم حقا ماهي إبداعاتهم الفكرية في السينما الأصيلة ، في الفنون التشكيلية الأصيلة ، في الفلسفة التي تقوم عليها حياتهم ؟ ماذا يصلنا ؟ تصلنا الأفلام السينمائية من النوع الرابع والخامس .. يأتينا الهامبورجر والسلع التجارية !

الميداني بن صالح
رئيس اتحاد الكتاب



الميدانى بن صالح

الاستثمار في الكتاب؛
لتونسي لايزال محتشما ؟!
أمتنا العربية تعيش الآن بداية يقظة

ومن حسن الحظ أننى التقيت بمؤسسى اتحاد الكتاب التونسيين ورؤسائه جميعا على مدى عمر الاتحاد الذى بدأ فى عام ١٩٧١ وهم محمد مزالي، والبشير بن سلامة ، والعروسى المطوى .. وفي هذه المرة التقيت بالميداني بن صالح .. وهو أديب كبير وشاعر رائع ، قرأت له قبل أن ألقاه قصيدة كتبها فى ليلة عيد الأضحى عام ١٩٩٥ عنوانها «أقباس في كهف الظلمة» كتبها إثر مجزرة وحشية بمدينة الجزائر ذهب ضحيتها عدد كبير من الأطفال والشيوخ والنساء والرجال ..

أيها السائل عن سر انتشائى وابتهاجى
ليلة العيد وليلي مظلم الآفاق داجى ..
هدنى قيدى ولم يجد خضوعى واحتجاجى ..
فإلى الكاهن أهديت تخيلى وجمالى ونعاجى ..
وإلى الشيخ تبرعت بدارى وبأبنوسى وعاجى ..
أطلب الرحمة لكن سيج الشيخ سياجى ..
ثم أفتى أننى قن لديه بطموحى ونتاجى ..
ها أنا الآن رهين السجن أضنانى اعوجاجى

كانت بداية الاتحاد بمائة عضو ، الآن بلغوا الخمسمائة ، ثم جمعهم فى مجلدين كبيرين بأسمائهم ومسيرتهم ونماذج من أعمالهم القصيرة .. من بينهم خمسون كاتبة وشاعرة .. الطريف فى شروط عضوية الاتحاد أن يكون للمتقدم للعضوية كتابان منشوران ، إلا كتاب الأطفال فيشترط أن يكون لطالب العضوية سبعة كتب خاصة أو عشرة كتب بالاشتراك !؟



شازلين بوخشينة



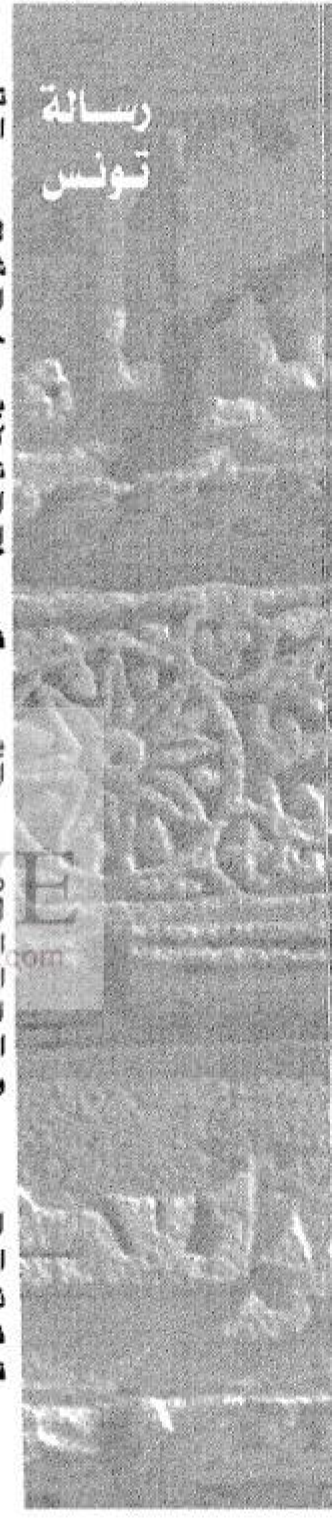
فضيلة الشابى

للاتحاد ١٥ فرعا في ولايات تونس ، وفرع فى باريس للمبدعين فى المهجر .. ويضم أربعة نواد : للشعر ، والقصة ، والفنون ، وجدل ؟

نادى فنون يقوم على فكرة تجميع كل المبدعين للحوار والنقاش وتبادل المعارف....

يقول الميدانى بن صالح :

– لم تعد الإبداعات جزرا منفصلة ، فالشاعر والرسام والمطرب والملحن وكاتب السيناريو يجب أن يلتقوا وأن يتبادلوا الرأى والمعارف .. وهم يلتقون فى الاتحاد مرة فى كل شهر ، بينما نادى الشعر والقصة يلتقى كل منهما ثلاث مرات فى الشهر ، أما نادى «جدل» فيناقش فى ندواته قضايا الفكر والمعرفة والحضارة : العولمة ، حقوق الإنسان ، الحرية الديموقراطية، المرأة ، واقع الإبداع فى



تونس ، النقد ومواكبته ودوره ، ونحن ندعو لندوات «جدل» كبار المفكرين من العالم العربي .

ويضيف :

– نحن يا سيدي أصحاب حضارة وأصحاب عطاءات عديدة .. لكننا لا نزال فاشلين في تعريف أنفسنا للآخر .. أرضنا العربية شهدت مولد الحضارات الأصيلة في العالم .. من ينكر أن الخط المسماري كان أول خط في العراق وأن الخط الهيروغليفي كان أول خط في مصر ، وأن الإبجدية الغربية ABCD هي أبجدية قرطاجية .

لكن من المعروف أن حركة التاريخ تحدث فيها انكسارات : سقطت بغداد بيد المغول عام ١٢٥٨ ، وسقطت قرطبة عام ١٢٣٦ ، وغرناطة ١٤٩٢ ودخلنا في ظلام الحكم العثماني في عام ١٥١٧ ، لكننا الآن نعيش بداية يقظة أو شبه يقظة لا أدري .. ربما تكون المذابح الفلسطينية التي نشهدها هذه الأيام هي الشرارة التي تنير طريقنا إلى مستقبل أفضل .

● ولكن .. ماهي مشاكل الكتاب التونسي ؟

– مشاكلنا في مستواها المحلي هي مشكلة النشر والتوزيع .. فواقع النشر يحتاج إلى نظر .

● وما الحل في رأيك ؟

– نطمح أن يمتلك اتحاد الكتاب التونسيين مطبعة خاصة .. كما يجب أن تكون المؤسسات الاقتصادية مجبرة وملتزمة بشراء عدد من النسخ على قدر عدد العاملين فيها وبنسبة معقولة .

● النقد .. وكيف مواكبته للإبداع ؟

– في رأيي أنه لايزال انطباعيا .. مجاملا أو محطما .. النقد في رأيي مهمة أساتذة الجامعة .. الجيل الأول منهم في تونس كانت أدمغته تعيش في أوروبا لا يعرفون أو يعترفون بالأدب التونسي .. الجيل الثاني بدأ يهتم لكن اهتماماته كانت أيديولوجية تسوقه رياح الايديولوجيا فالماركسي يمتدح الماركسي والليبرالي .. وهكذا .. أما الجيل الثالث فقد أفرز نقادا لايزالون في مقتبل العمر ، يهتمون بالأدب التونسي شعرا ورواية وقصة ودراسات منهم الأستاذ محمد القاضي ، وعثمان بن طالب .. لكنه جيل لايزال جنينيا يبشر بالخير إن شاء الله

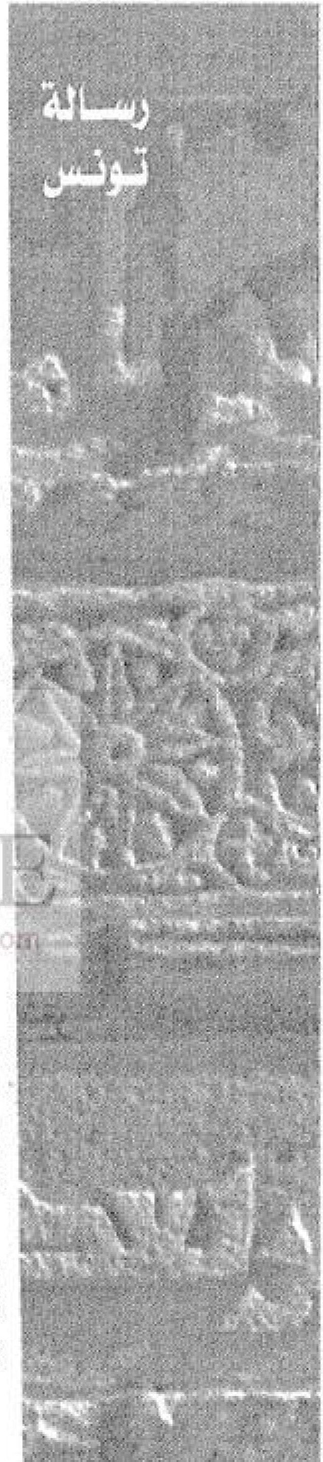
● ماهي الاتجاهات في الشعر التونسي ؟

– الشعر التونسي رافد مشابه للشعر في مصر وسوريا لكن الملاحظ أنه بعد هزيمة ٦٧ ظهرت موجة من الشعراء نادوا بكتابة الشعر بالعامية أو بتحطيم قواعد اللغة العربية ، صرفا ونحوا ، وكان ذلك ناتجا عن صدمة الهزيمة ، وفشل التجربة الاشتراكية في تونس في نفس الوقت .. وظهرت مدرسة الشعر الحر ، ولو أنها كانت قديمة في بعض البلاد العربية ، أدونيس ويوسف الخال .



بائع الكتب يجلس وبجواره كتب تضم ألوان الثقافات





عميد التشكيليين فى تونس
● عبدالعزيز القورجى

أول من يحصل على جائزة الإبداع فى تونس

استغرق حديثى مع «الرسام» عبدالعزيز القورجى ، وهو أفضل تعريف للفنان التشكيلى فى تونس مدة أطول مما حددها لى وتحملنى .. فقد كان حديثه بالفرنسية التى تلمع فى أثنائها كلمات عربية بالعامية التونسية التى أعرفها وكنت أستعيده ، فيحاول أن يجد كلمة أو كلمتين ، وكنت أعيد له ما فهمته فيوافقنى أو يعود ليكرر ما قاله بشكل أكثر وضوحا .

قال لى ونحن نتجول بين لوحاته التى تتميز بالأداء الحديث وعمق الروح التراثية وقوة الألوان :

– إن التراث التونسى خارق للعادة .. رائع .. يأخذ بمجامع القلوب ويخطفها لتستقر فى العيون بسحرها الجميل .. لقد درست على فنانين فرنسيين ، سواء فى فرنسا أو تونس ، لكنى لم أتأثر سوى بالفن التونسى القديم ، أنا لا أتبع أية مدرسة ، هذه مدرسة قورجى التونسية .

كان عشرات التلاميذ الذين هم الآن فنانون تشكيليون معروفون يؤمون مرسمه، يعملون وهو يعمل .. لا يوجههم ولكن يكتشفهم .. فقط يرسمون فى ظله ، يقف وراءهم ويتابعهم .. يقول :

– الفنان يولد ولا يصنع .. الفنان هو الذى يخرج من شرنقته وأنا أسنده ليصلب طوله ويتحرك .

قلت له :

● ماهى ملامح اللوحة التى تعجبك ؟

– هى التى تقدم رؤية جديدة .. وهى التى تراها فتحس أنها تتحرك بكل حيوية .. إن الفنان أى فنان ، هو أول من يتمتع بكامل حريته فى هذا العالم .

● كيف كانت البداية .. والمسار؟

– ولدت منذ ٧٠ سنة .. لكننى لم أفطن لبدايتى الفنية .. كل ما وعيته أننى دخلت مدرسة الفنون الجميلة فى تونس وعمرى ١٦ سنة ، لم أكن أقصد شيئا سوى الحب والرغبة فى دخول هذا العالم السحرى الجميل .. كل التلاميذ فى المدرسة كانوا من المستوطنين الفرنسيين فى تونس، إلا ثلاثة تلاميذ فقط ، هم سى معمرى ، وايلى مشارى ، وأنا ..

● كيف كانت الدروس ؟

– بخلاف الحديث عن تاريخ الفن والفنانين وتقنية استخدام الألوان ودراسة أعضاء جسم الرجل والمرأة وطبيعة الحركة ، فقد كانت الدروس العملية أن يرسم الجميع .. كل واحد على حريته دون توجيه .. لا الأستاذ يفرض رؤيته أو ينتقد ما ترسم ، ولا التلميذ يسأل

الرأى .. ولم تكن للدراسة مدة محددة أنا شخصيا بقيت ٦ سنوات وتخرجت ، ثم سافرت إلى باريس.

● هل ترسم مناظر طبيعية ؟

- أرسم مناظر طبيعية وأشخاصا لكنها تحمل اسمى ولا تحمل شخصياتها..

● هل رسمت نفسك ؟

- لأننى لا أفهم نفسى فلم أرسمها.



عبد العزيز القورجى

● شاذلية بوخشينة
رئيسة اتحاد المرأة التونسية ونائبة رئيس البرلمان

أتمنى الغاء اتحاد المرأة لتصبح قضايانا انسانية ؟!

يتدفق حديثها بالعربية الفصحى بقدرة دقيقة التعبير وأنيقة الكلمات ، ليس فقط باعتبارها تونسية ، ينتشر فى مجتمعها الحديث بالفرنسية ، ولكن على مستوى المرأة العربية ، وبصوت أنثوى رقيق ، يعطى للكلمات السلسالة نموذجا تمنيت لو أنه حديث مذاع .. لينفع الكثيرات وربما الكثيرين أيضا بدرس لغوى للغتنا العربية التى أصبح النطق الصحيح بها ، يحتاج إلى شيخ معمم ، يتقعر بها فى دور مسرحى ساخر؟! ليضحك الجميع !!

قلت لشاذلية بوخشينة رئيسة اتحاد المرأة التونسية ونائبة رئيس البرلمان ، والمستشارة السابقة برئاسة الجمهورية :

● حققت المرأة التونسية نسبة عالية من المشاركة فى مجالات النشاط والعمل واتخاذ القرار فى المجتمع التونسى ، مقارنة بأختها العربية .. ماذا بعد ؟ ماهى طموحاتكن للمستقبل ؟

- أولا لا نهاية لطموح البشر ، لأنه حتى الدول المتقدمة أكثر منا بكثير ، يشغلها بل ويقلقها التفكير الدائم فى غد أفضل .. وكلما حقق الإنسان شيئا ، خلقت له حاجات جديدة .. نفس الشئ بالنسبة للمرأة التونسية ، ففى البرنامج الانتخابى للرئيس زين العابدين بن على ١٥ نقطة ، كلها تهم المرأة بصورة أو بأخرى إما كأم أو ربة بيت .. ومنها نقطة مهمة سماها الرئيس «آفاق متجددة» .. ونحن ندرك ونعى تماما أنه لا تزال أمامنا خطوات كثيرة نسعى للوصول إليها .. منها.

- دعم قدرات المرأة على المستوى المعرفى .. وإذا كنا لا نزال نحارب الأمية التقليدية ، فقد نشأت أمامنا أمية جديدة هى الأمية الإعلامية ، وقد صدرت قرارات أخيرة بتخفيض سعر الحاسوب وتخفيض أجور الاتصال بالانترنت .. هذا الاهتمام سيمكن المرأة من آلة جديدة للمعرفة ، يرفع مستواها التعليمى ، ويزيد قدراتها على المشاركة فى الحياة .

- هناك مشكل آخر .. هو إدماج المرأة أكثر فى سوق العمل ،



من لوحات عبد العزيز القورجى

رسالة تونس

حتى لا تبقى مهمشة العولة ، فخطر أن تكون المنافسة الشرسة وفتح الحدود على حساب المرأة ، فلا تزال قدراتها أقل في مجالات الاختصاص ، ولا تزال مشاركتها في سوق العمل تقارب نسبة ٣٠٪

– أمامنا سعي هام لتجعل المرأة مستثمرة ، فيجب عليها أن تتعلم لتنتصب بذاتها ، بخلق شركة صغيرة ، أو مؤسسة صغيرة .. فنحن عندما نقول أن المرأة نصف المجتمع ، فيجب ألا تكون هذه النسبة غير مستغلة بالكامل .

هناك مشكل آخر وليس الأخير ، هو العمل على إدماج المرأة وأكثر في الهياكل السياسية ، في مجالات اتخاذ القرار ، حتى تساهم في تصور الاستراتيجيات بكل مستوياتها .. وتصبح شريكا كاملا في الحياة .

● ماهي أبرز مكتسبات المرأة حسب القوانين المعمول بها ، والتي تسمونها «مجلة الأحوال الشخصية» ؟

– يوم ١٣ أغسطس من كل عام عيد وطني للمرأة .
– إلغاء تعدد الزوجات .
– ضرورة موافقة الطرفين على اتمام الزواج .
– زواج القاصرات يتم بموافقة الأب والأم معا .
– الحق في تعاطي موانع الحمل والاجهاض داخل المستشفيات .
– الطلاق حق لأي الطرفين الرجل والمرأة على نفس المستوى .
– الحكم الجزائي يتساوى في حالة ثبوت الأدلة القانونية لخيانة أي طرف للآخر .
– جريمة قتل الزوج لزوجته الخائنة لاتحاط بأي تخفيف .
– المساواة في الأجور .
– معاقبة الأبوين اللذين يسحبان أبناءهما من التعليم حتى سن ١٦ سنة .
– للمرأة التي لها حق حضانة أبنائها الحق في كل شئونهم في السفر والدراسة والتصرف في حساباتهم المالية .
– للمرأة التونسية المتزوجة من أجنبي الحق في إعطاء أبنائها جنسيتها التونسية بموافقة الأب ، حتى لو ولدوا خارج الوطن.
– استخدام العنف مع الزوجة عامل من عوامل التشديد في الجزاء .
– صندوق تحصل منه الزوجة المطلقة على حقوقها في حالة عجز الزوج عن أدائها .

فضيلة الشابي :

اذا كان شعري أنهت كلماتي ولا أثر ؟!

هي من أسرة أبو القاسم الشابي ، ابن خال والدها ، عاهدت نفسها أن تكمل رسالته ، ذلك الشاعر «الشهاب» ، الذي ظهر في

سماء الثقافة التونسية والعربية ، ولم يمهله العمر ، فمات شابا ! ..
تشعر أنها تتحمل هذه المسئولية دون أن تتأثر به .. تريد أن تبنى مشروعها الشعرى دون أن تكرر تجربة غيرها مهما عظمت !

منذ بدايتها - تقول - بحثت عن صوتها ، عن لغتها الشعرية الخاصة «ومازلت وسأظل أبحث عن هذه الرؤية الشعرية للأشياء والعالم» .

بدأت بكتابة الرواية عام ١٩٦١ كانت صغيرة جدا .. لكن ظهورها الحقيقى على الساحة كان فى أواخر الستينات مع حركة الطليعة الأدبية فى تونس .. ومنذ ذلك الوقت والرحلة متواصلة .. حركة الطليعة كانت ثورة «ضد» الشعر الكلاسيكى ..

وتضيف :

- كلمة «ضد» إذا كانت تبدو عنيفة ، إلا أننا يجب ألا نخشى من العنف فى الفكر والأدب .. إن حركة الطليعة جاءت لتبشر بلغة شعرية أخرى وبخروج القصيدة عن عالم العروض تماما .. إن الشعر العربى الحديث يعيش بعد أن حفر مساره الجديد رجة قوية .. والشعر هو لغة الإنسان القصوى .. وقد عرف الشعر العربى عبر تاريخه الطويل مثل هذه الرجات ، وهذا دليل تطور ، ومن الخطأ أن نستمع إلى من يقولون أن شعرنا العربى يعيش أزمته .. ولا ننسى قولة أبى العتاهية : « أنا أكبر من العروض» .. فالعروض هو ذلك الوزن الذى ابتدعه شاعر الصحراء ، كان إذن ابن بيئته .. أنا كقارئة أعشق الشعر الكلاسيكى وأردد روائعه .. لكنى كشاعرة أعرف أن ذلك كان ابن بيئة ذلك الزمان .. الآن شعرنا ابن المدنية .. ايقاعه هو هذا الفضاء الفسيح الذى نسعى إليه .. ونجول فيه .. هذه الرجة القوية التى تعيشها القصيدة العربية فى كل أقطارنا ، تحتاج إلى عملية استقراء ، لاستخراج هذه الايقاعات الجديدة التى أراها علامة صحة وتطور فى الشعر العربى .. أنا أسميها نصوصا شعرية وليست قصائد شعرية ، والنص هو حادة الشئ ، أو تخم الشئ .. إنه نظرة جديدة للعالم ، وقدرات إبداعية جديدة فى النظر إلى الأشياء .

● إذن أنت تعتبرين أن الشعر قد خرج من «بحور العواطف» إلى «عالم المعرفة» ؟

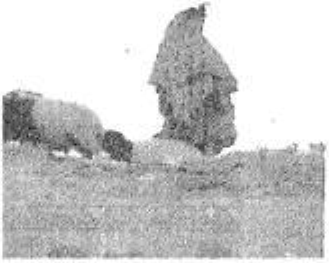
- نعم .. الشعر جانب من جوانب المعرفة ، أنه يوازى الفلسفة ، والفلسفة هى شعر خارج النظام .. الشعر عالم ذهنى .. حتى غنائياته تلونت بهذا اللون الذهنى .. والشعر هو ذلك المنفلت إلى آخر العمر وآخر العالم .. يحلو لى أن أعرف نفسى - رغم كراهيتى للتعريفات - بأننى كائن شعرى ، لأن الشعر هو موقف من الحياة والوجود .. هو انصات للعالم ، والشاعر إذ يهيئ نفسه للانصات يصبح بحد ذاته عالما مصغرا .. وتخرج نصوصه عوالم مصورة .



قراءة القرآن



يرتدى الطفل التونسي اجمل ملابسه يوم الختان



● الشاعر إذن انعكاس للعالم ؟

– ليس انعكاسا للعالم .. وطبيعة الفن ليس انعكاسا للعالم ، وإنما هو خلق جديد له – الشاعر يعيش على هامش المعرفة .. يسكنه الرعب .. أنا مسكونة دائما بالرعب، موسيقى العالم تهزنى .. لا أعرف ما الذى سأراه غدا ، وما الذى سأكتبه غدا .. لا يمكننى أن أتصور عالما بلا شعراء .. الشعر هو الفن الأول الحى فى ثقافتنا العربية وثقافة العالم .

قلت لها :

● دعينى أطلب منك أن نهبط على أرض الواقع لأسألك عن معاناة الشاعر ؟

– لقد انعكس الشعر على كل مراحل حياتى الشخصية ، وتحملت كثيرا من المتاعب .. وهذا قدر الفنان الذى يعيش بحثا عن الكلمة الصادقة فى عالم اللا صدق .

● ومم يعانى الشعر؟

– يعانى من التوزيع .. ويعانى من النشر ، فإذا استطاع اختراق عقبة النشر، دخل فى مجاهل التوزيع .

● الشعراء يشتهرون من خلال الأغنية ؟

– هذا أمر يؤسف له – فالشعر للقراءة .. الشعر الحديث نص ذهنى وليس للانشاد .. وهنا تكمن القطيعة بين الشاعر والمتلقى .

● هل ترين أن حظ الشعراء فى الرجال أوفر من حظ الشاعرات .. فالتعبير عن العواطف عيب على الفتاة والمرأة فى مجتمعنا ؟

– نحن تجاوزنا هذا فى تونس ، فالقوانين تعطى المرأة الكثير وتحميها .. لكنى معك فى أن حظ الرجال أوفر – لأن الرجل لا يزال يحتكر التفكير .. والمرأة التى تفكر تتحمل عبئا كبيرا . جدا .. هى تتعرض للطمس حتى لا تفكر .. وتحتاج لمقدرة كبيرة لتجتاز تلك النظرة .. ولكن إذا لم تفهم المجتمعات العربية أنه بالتقدم لابد أن يكتمل جناحاه : الرجل والمرأة فسوف تظل الأمية طاغية وغالبة .

● هل تكتبين الرواية والشعر ؟

– نعم .. كتبت «الاسم والحضيض» و «تسلق الساعات الغائبة» ولى ديوان «شروق الأشياء» و «الأرض الأخرى» و «الشاعر والعالم ووردة الصباح» و «الكواكب المائية» .. وبعضها دواوين للأطفال .. فى شكل جديد .

● فى سطور قليلة .. من أنت؟

– أنا كائن شعرى .. كأننى خلقت لأقول شعرا .. إن الشعر هو لغة الإنسان القصوى وسيظل الشعر ما بقى الإنسان على الأرض – الشاعر يعيش تساؤلا مستمرا .. وحيرة دائمة .. دون أن يصل إلى شئ !!



أقوال معاصرة


فدوى طوقان

● «الإنسان خلق عاطفيا، وما دام عاطفيا، فسيظل الشعر» .

الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان

● «حتى تكتمل عملية نزع القداسة عن إسرائيل، فإن عذابات الفلسطينيين وشعوب المنطقة مرشحة لأن تطول».

المفكر جورج طرابيشى

● «حين تنسق الولايات المتحدة الأمريكية مع آخرين، فإنها تتمسك فى كل لحظة بحقها فى أن تعطى التعليمات».

خبير الدبلوماسية الفرنسى دومينيك مويسى


جورباتشوف

● «قرار مصادرة كتاب دليل يقدم للغرب على تخلفنا».

الروائية حنان الشيخ

● «لو أن غايتى فى الحياة، الاستسهال والمال، لا ثرت الاتجار فى المخدرات».

المخرج المكسيكى ألفونسو آراو

● «العالم لا يريد أن يكون أمريكيا»

ميخائيل جورباتشوف

● «الأدب العظيم كله ولد فى الريف»



جونتر جراس

الاديب الالمانى الفائز بجائزة نوبل

● «الشعر ذريعة لكسر الحدود بين الفنون والأنواع الأخرى»

الشاعر السورى أدونيس

● «إذا كانت الدراما المصرية ماردا، فإنه مارد نائم»

المخرج السورى نجدت انزور

● «كل من سكت عما شاهده من عناصر الخلل فى التجربة، مسئول عن استمراره، ومسئول، بدرجة ما عن الانهيار»

المفكر اللبنانى كريم مروة



عقد الستينيات

هو عقد الكوارث في القرن العشرين

بقلم: د. مصطفى سويف

تفرّد عقد الستينيات دون بقية عقود القرن بعدد من الخصائص لم تجتمع معاً لغيره من العقود، فقد تفرد أولا: بعرض شديد الكثافة لجبروت السلطة ، وانطوى هذا الجبروت على استخفاف بكيانات الأفراد (مع أنهم مادة الشعوب ومفرداتها) ، وبدا واضحا أن هذا الاستخفاف يمتد ليشمل أفكار هؤلاء الأفراد ووجدانهم وأحق حقوقهم، ألا وهو حق الحياة، وفي مواجهة ذلك تخلق واندلع عرض متنامي الحجم والكثافة لتمرد الأفراد وثورتهم الصريحة والضمنية على السلطة بكل ما تدعى الدفاع عنه من قيم مادية ومعنوية.

اتهم لي هارفي أوزفالد باغتيال كينيدي ، ولكنه تم التخلص منه بعد يومين بطريقة مريبة

وهكذا تفجرت ثلاث ثورات مجتمعية لن يغفل التاريخ ذكرها: ثورة الطلبة، والانتشار الوبائي للمخدرات، والانفلات الجنسي. وتفرد عقد الستينيات ثانيا بأن أزماته كانت ما تلبث أن تكبر حتى تتحول إلى كوارث. وتفرد العقد ثالثا بحالة الهلع الشامل التي ترسب في نفوس الناس شرقا وغربا باعتباره المعادل النفسي للكوارث التي تلاحق وقوعها على الشعوب محفوفة بالإطار الإعلامي المرعب البارز.

السيناريوهات الرئيسية :

أربعة سيناريوهات رئيسية تقاسمت العقد فيما بينها: دار أولها بين الدول الكبيرة/القوية، والدول الصغيرة/المستضعفة، ودار ثانيها بين الاتحاد السوفييتي والصين على وجه التخصيص، وجرت أحداث ثالثها داخل بعض الدول ولم تكن القوى الخارجية محسوبة له أو عليه. أما السيناريو الرابع فلم تكن الدول هي الشخوص الرئيسية فيه، ولكن قامت بالأداء شرائح عريضة من الشعوب. وعن هذه السيناريوهات سيكون الحديث في هذا المقال ، وغني عن البيان أن مثل هذا الحديث لا يسمح بالتطرق إلى تفصيلات الوقائع، ولكن يسمح بإشارات مقتضبة إليها حتى ينصرف بمزيد من التوضيح إلى بيان دلالتها في التيار العام، وإلى القارئ حديث هذه السيناريوهات كما عايشناها.

عقد الستينيات

السيناريو الأول :

شملت أحداث هذا السيناريو عدة مواجهات بين دول كبيرة /قوية، ودول صغيرة /مستضعفة. من هذه المواجهات ما وقع بين بلجيكا والكونغو البلجيكية، وما وقع بين الولايات المتحدة الأمريكية وكوبا، وبين الولايات المتحدة وفيتنام، وبين فرنسا والجزائر، وبين الاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا، وبينه وألبانيا. وسوف ينصب حديثي على المواجهات الثلاث الأولى بصفة خاصة ، وأكتفي بإشارات مقتضبة إلى المواجهات الأخرى، وهو ما يتناسب مع أحجام الضجيج الذي أحدثته تلك المواجهات جميعا.

أبدأ بالمواجهة التي وقعت بين بلجيكا والكونغو البلجيكية، وكانت هذه الأخيرة في خضم اجراءات الحصول على استقلالها. في هذه الأثناء اغتيل بطل الاستقلال باتريس لوممبا، وجاء هذا الاغتيال (في فبراير سنة ١٩٦١) خاتمة لصراعات دموية شارك فيها بالتآمر والتواطؤ ثلاثة من الزعماء مواطني لوممبا ومعهم عدد من الشركاء الأوروبيين من بلجيكا وفرنسا بوجه خاص. وعندما انتهى المواطنون الثلاثة من لوممبا (وهم تشومبي وكازافوبو وموبوتو) التفتوا إلى تصفية أحدهم الآخر، وفاز في نهاية الأمر موبوتو واستقر على قمة السلطة أكثر من ثلاثين سنة، وطوال تلك المدة كان ينزح ثروات بلاده المعدنية لحسابه الشخصي وحساب من عاونوه على جريمته من أهل الداخل والخارج. وكنا في ذلك الوقت (أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات) في غمرة الترحيب بحصول عديد من الدول على استقلالها . فجاءت أحداث الكونغو ووقعت علينا وقوع الكارثة لما تحمله من معاني التفريغ والفشل والتهديد .

وبينما نحن لم نفق بعد من صدمة الكونغو إذا بأحداث مواجهة أخرى تبدأ مسيرتها وكانت أسوأ من سابقتها . كانت المواجهة هنا بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي على أرض كوبا، بدأت المواجهة بأخبار عن فشل محاولة لغزو كوبا قام بها منشقون كوبيون تدربوا في أمريكا. وعلى أثر إذاعة أخبار المحاولة وفشلها أعلن كاسترو أن كوبا أصبحت ديمقراطية شعبية، وهو ما يعني بمصطلحات ذلك الوقت التقرب الشديد إلى الاتحاد السوفييتي، ومن ثم فقد أعلن الاتحاد السوفييتي أنه سيزود كوبا بالصواريخ والخبراء لتعرف كيف تدافع عن نفسها، وسرعان ما أعلنت الولايات المتحدة فرض حصار على السواحل الكوبية لمنع وصول الصواريخ إليها. واشتعل اللهيب في أركان الموقف الدولي وزاده الإعلام اشتعالا.

وأصاب النفوس قدر من الهلع على أساس أن التصادم المباشر بين الدولتين

الكبريين أصبح وشيكا؛ ثم فجأة أعلن الاتحاد السوفييتى سحب صواريخه وبدا الجو السياسى فى طريق التبريد، إلى أن أعلن أن الدولتين الكبريين اتفقتا على إنشاء خط تليفونى مباشر بين البيت الأبيض والكرملين ، للعمل على حل مثل هذه الصراعات قبل فوات الأوان، وانتهت الأزمة.

ومرة أخرى لم يكد العالم يفيق من آثار أزمة الصواريخ الكوبية حتى فوجىء (فى نوفمبر سنة ١٩٦٣) بأنباء اغتيال جون كيندى رئيس الولايات المتحدة، وهو حدث ضخم بكل المقاييس، وكان طبيعيا أن تتعلق أنفاس العالم بنوع الأنباء التى تذاع عن الواقعة وهل ستتجه أصابع الاتهام إلى الاتحاد السوفييتى؟ ولكن الواقعة كان وراءها حسابات أخرى، فسرعان ما قبضت الشرطة على شاب يدعى لى هارفى أوزفلد بتهمة أنه هو القاتل، وسرعان ما اتجه لندون جونسون (نائب الرئيس) إلى واشنطن ليتولى سلطات الرئاسة، وبعد يومين اثنين قُتل الشاب المتهم بطريقة مريبة، وأسدل ستار كثيف على أسرار اغتيال الرئيس وما قد يكون فيها من حسابات أخرى.

ومرة أخرى سرعان ما دخلنا فى دوامة كارثة جديدة «كارثة فيتنام»، وتبدأ العلاقة الرسمية بين أمريكا وفيتنام الجنوبية فى يناير ١٩٥٦ عندما طلب الجنرال دييم الحاكم الفيتنامى إلى القوات الفرنسية (بقايا الاستعمار الفرنسى القديم) أن تغادر البلاد (وكان هذا بإيعاز من أمريكا). وفعلا رحلت فرنسا وحلت محلها أمريكا فى الشكل المعتاد: مساعدات محدودة وخبراء. وبدأ الصراع بين عدد من القوى الوطنية (بقيادة الفيتكونج) والحكومة التى اعتبرت ألعوبة فى يد الأمريكان. وظل الأمريكان طوال فترة حكم كيندى يزيدون تدخلهم فى الشئون الفيتنامية بالتدريج. ويبدو أن هذا التدريج والتمهل هو العنصر الذى لم يعجب قوى أخرى بين محركى السياسة الأمريكية. ومن ثم فقد بدأ التصعيد بصورة حادة بعد انتقال السلطة إلى لندون جونسون والجناح الذى يقف وراءه. ففى فبراير سنة ١٩٦٥ بدأ الطيران الأمريكى قصف مناطق فى فيتنام الشمالية على أساس أنها تساند المقاومة التى يبديها الجنوبيون. وفى مواجهة هذا التصعيد بدأ التذمر فى الشارع الأمريكى واتخذ هذا التذمر شكل مظاهرات شبابية قامت فى واشنطن فى شهر أبريل ، ورداً على المظاهرة أعلنت الحكومة (بعد ستة أيام فقط) أنها بصدد ارسال قوات أمريكية كبيرة إلى فيتنام، ثم أعلنت بعد شهرين البدء فى قصف هانوى عاصمة فيتنام الشمالية بالقنابل، ثم بعد شهر ثالث عادت فأعلنت عن زيادة القوات الأمريكية فى فيتنام الجنوبية من ٧٥ ألفاً إلى ١٢٥ ألف مقاتل، ثم فى يناير ١٩٦٧ طلبت الحكومة من الكونجرس اعتمادا إضافيا لحساب الحرب الفيتنامية مقداره

اثنا عشر مليار دولار. وزاد تذمر الشعب الأمريكي فاندلعت مظاهرات جديدة فى عدد من المدن الأمريكية. ثم توالت الأخبار باشتداد المعارك فى فيتنام واشتداد القصف الجوى لهانوى، وهكذا تطور الموقف من مواجهة بين الحكومة الأمريكية وفيتنام إلى مواجهتين للحكومة الأمريكية احداهما ضد فيتنام والأخرى ضد الشعب الأمريكي نفسه، وهو نوع من التناقض الكاشف عما تصل إليه سياسات الحكام أحيانا. وفى نوفمبر سنة ١٩٦٨ جرت الانتخابات الرئاسية، وكانت النتيجة أن فاز نيكسون والحزب الجمهورى وسقط جونسون والحزب الديمقراطى. وكان المفترض أن يستنتج من ذلك أن هذه النتيجة جاءت تعبيرا عن رفض سياسة جونسون التى قضت بالتورط الشديد فى حرب فيتنام حيث تُحصد أرواح الشباب الأمريكي فى حرب تجرى على بعد آلاف الأميال من وطنهم. لكن حكومة نيكسون لم تستخلص هذه النتيجة ، أو ربما استخلصتها وآثرت أن تتجاهلها تمشيا مع حسابات أخرى. ومن ثم فقد اندلعت أخطر التظاهرات فى مايو ١٩٦٩، وفى هذه المرة كان معظم المشاركين فيها من طلبة جامعة باركلى، وأطلقت الشرطة النار عليهم فسقط عدد كبير من القتلى قدرتهم بعض المصادر بحوالى خمسة وسبعين طالبا. بعد ذلك ، وبعد ما أثارته هذه الأحداث من غضب انعكس فى عدد من أدوات الإعلام بصورة منذرة وأعلن نيكسون خطوة أولى فى الطريق إلى تخفيض حجم القوات الأمريكية المتورطة فى حرب فيتنام.

ونترك موضوع المواجهة الفيتنامية عند هذا الحد؛ ولا تزال أمامنا سيرة مواجهات أخر تدخل تحت السيناريو الأول، ولكنى أتناولها باقتضاب يتناسب مع وزنها على مسرح الأحداث العالمية وقت وقوعها. فقد كانت بقايا المواجهة الفرنسية الجزائرية لاتزال جارية على مشهد من الجميع، لكنها انتهت إلى إعلان بوقف إطلاق النار فى مارس سنة ١٩٦٢، وفى أبريل أعلن عن بدء نزوح المستوطنين الفرنسيين من الأرض الجزائرية التى خدعوا أنفسهم لفترة من الزمن بترويج أسطورة أنها مقاطعة فرنسية، وفى يوليو سنة ١٩٦٢ أعلن عن استقلال الجزائر. ومضت الستينيات متثاقلة بما فيها من أحداث جسام، حتى إذا وصلنا إلى سنة ١٩٦٨ إذا بانقلاب يقع فى تشيكوسلوفاكيا ضد ما اعتبره البعض حكما شيوعيا متساهلا إلى درجة التهرؤ، وإذا بالدبابات السوفييتية تتدخل فى ٢٠ أغسطس لتساند الانقلاب المتشدد. وفى نوفمبر سنة ١٩٦٨ تندلع المظاهرات التشيكوسلوفاكية ضد التدخل السوفييتى ولكنها لا تلقى إلا القمع. وفى يونية سنة

١٩٦٩ يُعلن عن حل اتحاد الطلبة ويثور الطلبة وتُقمع المظاهرات مرة ثانية. وأخيرا وليس آخرا نجدنا بصدد مواجهة بين ألبانيا (المحسوبة على المعسكر الاشتراكي) والاتحاد السوفييتي، ولكن المواجهة لم تكن دموية كالمواجهة التشيكوسلوفاكية، إلا أنها تنتهي بإعلان ألبانيا في سبتمبر سنة ١٩٦٨ عن عزمها على ترك حلف وارسو.

السيناريو الثاني :

لم تجر أحداث السيناريو الثاني بالصورة الدموية التي جرت بها أحداث السيناريو الأول. لكن ذلك لم يكن ليقلل من خصائصها ككارثة، لأسباب متعددة: منها أنها وقعت بين دولتين (الصين والاتحاد السوفييتي) محسوبتين على أنهما من الدول العظمى (على الأقل بمعايير مجلس الأمن الدولي)، وهذا وحده نذير بشرور كبيرة؛ ومنها أن ما وقع من مواجهات بين الدولتين أصاب كثيرا من الدول، والتنظيمات السياسية، والأفراد (كل لحساباته الخاصة) بإصابات فادحة وغائرة تتراوح بين خيبة الرجاء في الحاضر، وفشل الحسابات للمستقبل فدول عدم الانحياز تأثرت جبهتها تأثرا بالغ الضرر، والتنظيمات السياسية ذات التوجه الاشتراكي بجميع ألوانها أضيرت، والأفراد المعنيون بالهم العام الداعون إلى مزيد من العدل الاجتماعي المشروط بمزيد من الاعتبار لكرامة الإنسان أصيبوا هم كذلك في نظراتهم وفي آمالهم، ومع ذلك فلا أظن أن أحدا من هؤلاء جميعا تنبأ بأن الصراع الذي دار حينئذ بين الصين والاتحاد السوفييتي (والذي بدأت بوادره منذ عهد ستالين) كان واحدا من النذر المنبئة باتجاهنا منذ ذلك الوقت المبكر نحو عالم أحادي القطب في نهاية المطاف. وإلى القارىء بعض أحداث التصدع الذي نحن بصدده: ففي أبريل سنة ١٩٦٤ بدأت الصراعات الإعلامية بين الصين والاتحاد السوفييتي، بدأت بمقالات تنشر في أبريل سنة ١٩٦٤. وفي سبتمبر من السنة نفسها أعلن الاتحاد السوفييتي رفضه الاعتراف بأية حقوق للصين في سيبيريا، وفي أكتوبر جاء توقيت الإعلان عن تفجير القنبلة الذرية الأولى للصين، ثم في مايو سنة ١٩٦٥ جاء توقيت الإعلان عن تفجير القنبلة الذرية الثانية وفي مايو سنة ١٩٦٦ أعلن عن التفجير الثالث. وفي أكتوبر من العام نفسه قرر الاتحاد السوفييتي طرد جميع الطلبة الصينيين من أراضيه. وفي نوفمبر سنة ١٩٦٦ أعلن الاتحاد السوفييتي إدانته للثورة الثقافية الحادثة في الصين، ثم تدور الأيام وفي يوليو سنة ١٩٧٠ يُعلن عن استئناف العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفييتي والصين .

السيناريو الثالث :

ثم نأتي إلى السيناريو الثالث، وقد جمع في طياته قُبح الدموية، ومأساة العدوان على أحلام الشعوب. جرت أحداث السيناريو الثالث داخل بعض الدول حديثة

الاستقلال. وكان المفترض أن تكمل المسيرة التى أملاها المنطق نفسه الذى أملى عليها السير بمطلب الاستقلال قُدُماً حتى حققته، وهو ذات المنطق الذى فجر فى نفوس شعوبها بطولات كفاح بدا أسطوريا فى بعض لحظاته. لكن شيئا من هذا لم يحدث، حدثت أمور أخرى تباينت فيما بينها بعضها البعض من حيث القوالب والعناصر التى تملأ هذه القوالب، ولكن يجمع بينها جذر واحد، هو التدمير من الداخل، أو التدمير الذاتى، وإلى القارىء بعض الأمثلة :

أبدأ بالجزائر التى كان الهواء النقى يملأ رئتينا ونحن نصفها بأنها بلد المليون شهيد. هؤلاء الرجال والنساء، الصغار والكبار، الذين بلغوا المليون عداً ضحوا بحياتهم لاستخلاص بلدهم من المستعمر الفرنسى. فهل أهدرت هذه الحيوات جميعا كما يهدر السفهاء أموالهم. هكذا جرت الأحداث: فى يولية سنة ١٩٦٢ أعلن استقلال الجزائر. وفى أغسطس سنة ١٩٦٢ اكتسبت عضويتها فى جامعة الدول العربية، وفى سبتمبر سنة ١٩٦٢ بدأت المصادمات المسلحة بين ما عرف عندئذ بجيش الحدود والقوى الداخلية المتحالفة، وقُتل فى هذه المصادمات أكثر من ألف جزائرى، قُتلوا بأيد جزائرية، وكان قتل الجزائريين يتم بأيد فرنسية قبل ذلك بثلاثة أشهر فحسب، وفى نوفمبر سنة ١٩٦٢ أعلنت الدولة تحريم الحزب الشيوعى، وكان الحزب برجاله قبل ذلك رفيق سلاح ضد المستعمر، وفى يناير سنة ١٩٦٤ قامت تظاهرات ضخمة فى مدينة وهران قام بها شباب عاطلون يطالبون بحقهم فى العمل فاستخدم الجيش الجزائرى سلاحه وعتاده لقمع هذه التظاهرات، وتم له قمعها فعلا وبقسوة.

وفى مايو سنة ١٩٦٤ اندلعت الحرب بين الجيش وقوات الجبهة الاشتراكية بقيادة حسين آية أحمد، هذه عينة محدودة مما جرى فى الجزائر غداة الاستقلال.

وفى العراق لم يكد المواطنون العراقيون يستريحون بعد الانقلاب العسكرى الذى فاجأهم به عبدالكريم قاسم فى أواخر الخمسينيات حتى فاجأهم عبدالسلام عارف بانقلاب جديد فى فبراير سنة ١٩٦٣. ثم فاجأهم أحمد حسن البكر بانقلاب ثالث فى يولية سنة ١٩٦٨، وكان هذا تمهيداً لانقلاب رابع قام به بعد ذلك صدام حسين.

وفى سوريا قام الجنرال الأتاسى بالانقلاب رقم « ٨ » ثمانية فى مارس ١٩٦٣، بعد سلسلة الانقلابات التى افتتحها حسنى الزعيم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وثنّى بعده سامى الحناوى، ثم أديب الشيشكلى ثم.. إلخ.. وهكذا

ضاعت هذه البلاد وغيرها (إندونيسيا مثلا) بين التطاحن الداخلى من ناحية والانقلابات العسكرية من ناحية أخرى وتبددت طاقاتها المادية والبشرية.

هكذا كانت مشاهد السيناريو الثالث، تغلب عليها أن تكون مشاهد تدمير من الداخل. ولأن الأمر لم يتوقف عند حدود دولة واحدة، ولأنه جاء فى معظم الأحيان مسبوقا بتاريخ طويل لاستعمار تلك البلاد فقد أصبح السؤال الذى يفرض نفسه علينا هو: هل هناك علاقة بين الاستعمار طويل الأمد وهذه النتيجة، أى التوجه إلى التدمير الذاتى؟ كانت الكارثة الحقيقية فى هذا السيناريو الثالث هى فى حجم ظاهرة التدمير الذاتى للدول، وأكاد أقول للأمم، وما توحى به من دلالات، أسوأها اغتيال أحلام الشعوب المقهورة. أما أكثرها مدعاة لاستنهاض طاقة التحدى فهو: وماذا بعد اغتيال الحلم؟ كيف نفهم ما حدث؟.

السيناريو الرابع :

وأخيرا وليس آخرا نأتى للسيناريو الرابع، وفيه تفتح أعيننا على طائفة من ردود الأفعال الإنسانية التى صدرت عن شرائح عريضة من شعوب عديدة، صدرت هذه الردود أو هذه الأرجاع ردا على ما أوقعته الستينيات على هذه الشعوب من كوارث. وأنا أشير هنا إلى ثلاثة أشكال لهذه الأرجاع، هى : ثورات الطلبة، والانتشار الوبائى للمخدرات، والانفلات الجنسى. ولا شك أنه كانت هناك أرجاع أخرى، لكنها لم تفرض نفسها على عقولنا نحن الذين عايشنا الستينيات بملء جوارحنا، إما لأنها لم تبلغ حجما كبيرا بما فيه الكفاية، أو لأنها لم تتبلور فى قالب له شكل محدد يمكن رصده وتسجيله.

وتثير الأرجاع الثلاثة المذكورة العديد من الأسئلة، منها على سبيل المثال: أسئلة حول وصف هذه الأرجاع، أشكالها وأبعادها وتوقيتها، وكيف ارتبطت بكوارث الستينيات، كيف تولدت وكيف نمت وماذا كان مصيرها؟ وهل تعتبر هذه الأرجاع نفسها من بين الكوارث المحسوبة على الستينيات؟ ولما كانت هذه الأسئلة وأمثالها على جانب كبير من الأهمية، لا لأهمية موضوعاتها فحسب ولكن لأنها تشير إلى نماذج فريدة لما نعتبره وقع الأحداث الكبرى على الناس وقد ترجموا هذا الوقع إلى سلوكيات وخبرات بعينها فمسئولية الرأى المكتوب تقتضى أن نفرد لمعالجتها مقالا وربما أكثر من مقال.

أما بعد..

فقد يلحظ القارىء أننى تحدثت عن عقد الستينيات كما جرت أحداثه فى العالم العريض دون أن أتحدث عن وقائعه وتوجهاتها فى مصر، ولأن مصر هى مصرنا فقد رأيت أن أخصها بمقال قائم بذاته فى القريب.

ذكريات الإسكندرية

بقلم : د. عبد العظيم أنيس

عشت فى الإسكندرية ست سنوات (١٩٤٤ - ١٩٥٠) معيداً بكلية العلوم بجامعة الإسكندرية، وذكرياتى السياسية عن تلك الحقبة - إنما تعود إلى أكثر من خمسين عاماً. ومع أننى اشتهرت فى شبابى بقوة الذاكرة، إلا أن وضعى الحالى - وقد بلغت السابعة والسبعين - لا يسمح لى بالثقة الكاملة فى هذه الذاكرة . وقد حاولت أن أستعيد مع بعض الاصدقاء ممن زاملونى فى تلك الحقبة بالإسكندرية ، بعضا من هذه الذكريات وأحداثها .. ولذلك فإننى أرجو ألا أكون قد أخطأت فى بعض التفاصيل.

ولقد أشرت فى مقال سابق (هلال - ديسمبر ٢٠٠٠) إلى مجموعة المعيدين فى كلية العلوم الذين شكلوا حلقة دراسية ماركسية لمناقشة الأوضاع فى مصر، خصوصاً الاحتلال البريطانى ومشكلة الفقر ، وكانت هناك بالقاهرة حلقات أوسع بكلية العلوم كانت لنا نموذجا يحتذى .



أحداث ٢١ فبراير ١٩٤٦ بالقاهرة

ذكريات الاسكندرية



اسماعيل صدقى باشا

وبالطبع سعينا إلى تدعيم صلاتنا بقوى المعارضة الأخرى فى أوساط الشباب، وخصوصاً شباب الطليعة الوفدية، وإلى حد ما شباب مصر الفتاة من الطلاب، كما سعينا إلى تجنيد أعداد من طلاب الجامعة إلى وجهات نظرنا وإلى حلقتنا ونجحنا فى ذلك نجاحاً كبيراً ، فأصبحت لدينا أعداد غير قليلة فى كليات العلوم والحقوق والطب والآداب فى زمن قصير. وهكذا تشكل تنظيم ماركسى داخل جامعة الاسكندرية. ومع أن اهتمامنا انصرف فى مبدأ الأمر إلى تثقيف الاعضاء بالفكر اليسارى، مع تجنب العمل السياسى قبل أن تتكون مجموعة فكرية يوثق بها ويعتمد على مبادراتها ، فإن أحداث البلاد السياسية المتسارعة قد اضطرتنا إلى دخول حلبة العمل السياسى مستعينين فى ذلك بصلاتنا القوية بالطليعة الوفدية التى كانت تتقارب فى آرائها السياسية مع آرائنا.

ولقد وقعت أحداث ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ بالقاهرة وقادت هذه الأحداث اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التى كان الماركسيون القاهريون عمادها . وكان اسماعيل صدقى هو رئيس الوزراء آنذاك، ولقد أطلق جنود الاحتلال البريطانى من ثكنات قصر النيل (مكان فندق هيلتون النيل ومبنى الجامعة العربية اليوم) النار على المتظاهرين فسقط عدد من الشهداء والجرحى وأدى هذا إلى غليان وطنى عارم.

ومع أن الاسكندرية لم تشترك فى أحداث ٢١ فبراير ، فإن أحداث ٥ مارس بالاسكندرية كانت تجاوبا مع ماحدث بالقاهرة ، وإن كانت أكثر عنفاً من جانب المتظاهرين الذين أحرقوا مراكز حراسة القوات البريطانية فى محطة الرمل وفى أماكن أخرى، ومات فى هذه الأحداث عدد من الجنود البريطانيين.

لقد كانت هذه السنوات هى سنوات مفاوضات إسماعيل صدقى مع وزير خارجية بريطانيا إيرنست بيفن، التى انتهت فى آخر الأمر بما عرف باتفاق صدقى - بيفن ، وكانت كل القوى الوطنية فى مصر معارضة لمشروع هذا الاتفاق ، وكان حزب الوفد بما له من نفوذ واسع فى مقدمة المعارضين.

معارضة اتفاق صدقى - بيفن

وأتذكر أنه فى شهر أبريل من عام ١٩٤٦ قامت مظاهرة من كليتى العلوم



ايرنست بيفن

والحقوق بجامعة الاسكندرية (وكانت هاتان الكليتان تشغلان مباني مدرسة العباسية الثانوية التي تقع على ربوة عالية في حي محرم بك) للتعبير عن معارضة مشروع اتفاق صدقي - بيفن . وكانت قوات الشرطة تقف أسفل الربوة لاعتراض المظاهرة وتفريقها بالقوة إن لزم الأمر.

ثم وقع حادث مفاجيء ذهلنا لها جميعاً . ذلك أن طالباً من فوق الربوة أطلق النار على أحد ضباط الشرطة فأرداه قتيلاً . وحتى اليوم لا نعلم من هو هذا الطالب الذي قام بهذا العمل الاستفزازي الدنيء، وإن كانت شكوكنا آنذاك اتجهت إلى شباب مصر الفتاة من الطلاب.

وبالطبع كان رد فعل الشرطة عنيفاً ، إذ حوصرت مباني الكليتين بالكامل وأطلق الرصاص على مباني الكلية بشكل عشوائي وألقي القبض على أعضاء هيئة التدريس الذين حاولوا الخروج إلى الطريق العام. وظل هذا الحصار مضروبا حول الجامعة من الصباح إلى منتصف الليل عندما حضر وزير التعليم (محمد العشماوي باشا) من القاهرة بالطائرة وأمر برفع الحصار عن الجامعة التي احتلتها قوات الجيش في الصباح.

وقمنا ونحن محاصرون بكتابة مذكرة احتجاج على هذا الحصار، ونجحنا في الحصول على توقيع عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس على المذكرة، وكان في مقدمة الموقعين عميد كلية العلوم الدكتور حسين فوزي وعميد كلية الحقوق الدكتور عبد المعطي خيال، وإن كان بعض أساتذة كلية العلوم قد رفضوا التوقيع .

وكانت المشكلة بعد جمع التوقيعات هي كيفية إرسال المذكرة إلى صحيفة المعارضة الرئيسية: الوفد المصري. وتفتق ذهني عن حل، وهو أن اتصل تليفونيا بصديق لي بالإسكندرية وأن أملي عليه نص المذكرة التي كانت قصيرة على أي حال، ولما ذهب هذا الصديق إلى مكتب التلغراف لإرسال البرقية رفض موظف البريد إرسالها وعليها توقيع عام مثل أعضاء هيئة التدريس بالجامعة ، وصمم على وجود اسم لشخص يمكن مساءلته. ولم يجد هذا الصديق مفرا من اعطاء اسمي. وهكذا ظهرت برقية الاحتجاج في اليوم التالي في صحيفة الوفد المصري وعليها التوقيع التالي : أعضاء هيئة التدريس (عنهم عبد العظيم أنيس).

وبالطبع هاج صدقي باشا من هذه البرقية وطلب من العشماوي باشا التحقيق في الموضوع . وظن الوزير أن الموقع على هذه البرقية أستاذ بالجامعة وليس معيدا

ذكريات الاسكندرية

صغيرا . واستدعاني إلى مكتب مدير الجامعة للتحقيق معي، وحضرت في صحبة الدكتور حسين فوزي عميد الكلية، وكان من حسن حظي أنه كان في جيبي نص مذكرة الاحتجاج وعليها التوقيعات بما في ذلك توقيع عميدي العلوم والحقوق، وعندما قدمتها للوزير وأكدت له أن هذا كان موقفا جماعياً أسقط في يده ولم يستطع معاقبتي.

لكن اسمي ظل محفوراً لدى السلطات في انتظار مناسبة أخرى للانتقام، وجاءت هذه المناسبة في يوليو عام ١٩٤٦ في حملة صدقي المشهورة التي اعتقل فيها العشرات من المثقفين المصريين بما في ذلك محمد مندور وزكي عبد القادر، وكنت بطبيعة الحال في طليعة المطلوب اعتقالهم بالاسكندرية.

الحظ في صالحي :

لكن الحظ لعب دوره مرة أخرى في مساعدتي، فقد كنت كثير التردد على منزل نائب سعدي بمحرم بك بالاسكندرية لصلة تربطني بأولاده . وظن البوليس أنني أقيم هناك ، وهكذا ذهبوا لتفتيش منزله وهم لايعلمون أنه نائب بالبرلمان، فلما سألهم إن كان لديهم أمر من رئيس البرلمان بذلك أسقط في أيديهم ثم اتصلوا بحكمدار الاسكندرية يسألونه الرأى قبل تفتيش المنزل فأمرهم بتفتيش المنزل مهما كان الأمر .



حسين سرى باشا

وبالطبع لم يجدوني ولم يجدوا أى شيء يهمهم، ولم يسكت النائب إذ تقدم باستجواب في البرلمان، وكانت العلاقات قد بدأت تسوء بين رئيس الوزراء وحزب السعديين، فاشتعلت جلسة البرلمان هجوماً على الحكومة وعلى رئيسها . وألقى صدقي باشا بياناً في البرلمان قال فيه إن التفتيش تم بحثا عن معيد شيوعي، وأن الضابط الذي قام بذلك نقل إلى أسوان عقاباً له على هذا الخطأ، وصدرت الصحف بمانشيت عريض في الصفحة الأولى بوقائع الجلسة واسمي بطبيعة الحال موجود في ذلك المانشيت.

وقد قرأت كل ذلك وأنا أقيم عند صديق قاهري يملك فيلا بالاسكندرية ولم أسلم نفسي للشرطة حتى انتهت القضية بالإفراج عن الجميع، فعدت إلى الجامعة وسألني وكيل النيابة أسئلة شكلية ثم أفرج عني في الحال خصوصاً عندما علم بإضراب طلاب كلية العلوم احتجاجاً على اعتقالي . وطلب وكيل النيابة مني الذهاب إلى الكلية فوراً حتى يراني الجميع وينتهي الموضوع، وهو ما تم بالفعل.

●●●



د. حسين فوزى

الحدث الثانى المهم الذى جرى بالاسكندرية وأدى إلى اشتعال مد ثورى بها هو موضوع إضراب الشرطة يومى ٥و٦ ابريل من عام ١٩٤٨ . وبالطبع فهذا الإضراب شمل القاهرة والاسكندرية وبعض المدن الأخرى ، وكان الأساس فى هذا الإضراب هو المطالبة بزيادة الرواتب، وبالطبع كان لهذا الحدث طعم خاص لانه لم يسبق له وقوع، ولم تكن لقوى التمرد فى مصر يد فيه، ولكنه أخذ طعما خاصاً بالاسكندرية إذ تحول إلى هبة شعبية شملت كل طوائف الشعب، وخصوصاً العمال والطلاب الذين ساندوا المظاهرات التى قامت بها قوات الشرطة بالاسكندرية وانضموا إليها وامتلأت بهم ساحات الميادين العامة وخصوصاً ساحة المنشية وكان جنود الشرطة يمضون فى مظاهراتهم رافعين بنادقهم إلى السماء وعلى أعلا كل سونكى منها رغيف عيش.

وشعر الشعب أنه بلا حكومة تتحكم فى أعماله ، حتى أن بعض الظرفاء من أبناء الشعب كانوا يصيحون فى الشعراء وهم يضحكون : «مافيش حكومة، اللى عايز يشلح النهارده يقدر!

وقد كان لهذا الهيجان الشعبى بالاسكندرية أسبابه الخاصة، وأتذكر على وجه الخصوص مسألتين ساهمتا فى هذا الالتهاب الشعبى . أولاهما مطالب العمال بعدما توقفت بعض المصانع عن العمل أو استغنت عن بعض العمال أو خفضت أجورهم ويمعنى آخر كان هناك اختمار ثورى عمالى خصوصاً فى أوساط عمال مصانع كرموز كالغزل الاهلية . ولقد كان الطلبة ومعيدو الجامعة اليساريون متحمسين للدفاع عن مطالب العمال وتعبئة الرأى العام السكندرى فى صفهم . وساعد على ذلك أن زملاءنا فى القاهرة كانوا قد بدأوا فى إصدار صحيفة أسبوعية تسمى «الجماهير» وكنا نحن المعيدين نقوم بتوزيع هذه المجلة علناً فى أحياء العمال بالاسكندرية وعلى محطات ترام الرمل ، وكان هذا محل اندهاش أساتذة الجامعة الذين كانوا يشاهدوننا وهم فى الترام ونحن على الأرصفة ننادى على جريدة الجماهير كأى بائع صحف.

أما المسألة الثانية ذات الصلة فهى ماعرف بالاسكندرية بمسألة سعد فريد.

كان سعد فريد طالبا بكلية العلوم قام بتوزيع منشور مساند للعمال فى حى كرموز، وقد قبضت عليه الشرطة قبل أحداث ٥و٦ إبريل ومعه العديد من نسخ المنشور . ويبدو أن الحكومة قد رأت فرصة فى هذا الموضوع لتأديب طلاب الاسكندرية المشاغبين فأجرت لسعد فريد محاكمة سريعة وحكمت عليه المحكمة

ذكريات الاسكندرية



د. شريف حتاته

بستة أشهر سجنا، وقد أثار الحكم على سعد فريد ثائرة طلاب الجامعة، فقد كان هذا أول حكم بالسجن يصدر على طالب بالجامعة لعمل سياسى.

وبدأت إضرابات الطلاب ، لكنها لم تحقق نتيجة فى مسألة سعد فريد . ثم جاء إضراب البوليس وامتلات ساحات الاسكندرية - وخصوصاً المنشية - بالجماهير الثائرة ، وأثار الطلاب المشتركون فى المظاهرات مسألة سعد فريد من جديد، وقررت مجموعة منهم الاتجاه إلى سجن الحدرة لإخراج سعد فريد منه لكن سلطات سجن الحدرة أوهمتهم أن سعد فريد أفرج عنه فعلاً.

فى هذا الجو الجماهيرى الثائر ينبغى أن أذكر واقعتين هامتين.

الأولى أننا قررنا توزيع منشور باسم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى يساند المطالب الشعبية سواء مطالب الشرطة أو العمال أو الطلبة، وقد صدرنا هذا المنشور بشعار جديد «تسقط الملكية وتحيا الجمهورية» وكان هذا أول منشور يوزع فى مصر تحت هذا الشعار الثورى، وقد أشارت إليه صحيفة الاهرام فى اليوم التالى وإن لم تذكر الشعار نفسه واكتفت بالقول إن منشورا ثوريا وزع بالاسكندرية.

وللتاريخ كان الشاعر كمال عبد الحليم هو الذى كتب الصياغة الأولى للمنشور وإن كنت قد عدلت فيه، وقمت بطبع المنشور فى مطبعة عادية فى محرم بك قبلت طبعه لأنه لا توجد حكومة! وأشرفت على توصيله لمن قاموا بالتوزيع فى أحياء الاسكندرية المختلفة .

أما الواقعة الثانية فتتعلق برد حكومة النقراشى على مايجرى بالاسكندرية. فقد أنزلت قوات الجيش وملأت دباباته الميادين العامة وبدأت قواته فى إطلاق الرصاص على المتظاهرين فسقط عدد من القتلى، وجرى هذا خصوصاً فى ميدان المنشية، وكنت من مشاهدى أحداثه.

إعلان الأحكام العرفية!

وفى ظنى أن أحداث الاسكندرية الثورية كانت من العوامل التى جعلت حكومة النقراشى تنتهز فرصة إرسال قوات مصرية إلى فلسطين لكى تعلن الأحكام العرفية فى ١٥ مايو عام ١٩٤٨ وتعتقل كل القوى النشيطة سياسياً من اليسار وشباب الوفد، ثم جرى بعد ذلك اعتقال شباب الإخوان المسلمين عندما توقفت الحرب فى فلسطين وأعلنت الهدنة.



د. رفعت السعيد

ومع أننى أفلت بالمصادفة من الاعتقال فى ١٥ مايو فإننى اعتقلت فى شهر يونيو ، وكنت ذاهبا لحضور اجتماع فى منزل د. شريف حتاته بالسيوفى، لكنه كان قد تم اعتقاله قبل ذلك بيوم هو والشاعر كمال عبد الحليم، ورتبت الشرطة كميناً داخل المنزل للقبض على كل من يزور المنزل، وهكذا وقعت فى كمين ونقلت إلى معتقل أبو قير، وبقيت فيه لمدة ستة أشهر ثم نقلت مع آخرين من اليساريين وشباب الوفد إلى معتقل هاكستيب فى طريق الاسماعيلية، وبعد عدة أشهر نقلت مع آخرين إلى معتقل الطور على البحر الأحمر وظللت هناك حتى خضت مع آخرين إضرابا عن الطعام استمر فيما أذكر لمدة أسبوعين مطالبين بتحسين ظروف معيشتنا. وقد أدى هذا الاضراب إلى مرضى بعد أن كان قد انتهى بوعد من المسئولين المحليين بتحسين ظروف حياتنا.

وكانت وزارة حسين سرى قد عادت للإعداد للانتخابات وكان فؤاد سراج الدين (باشا) وزيرا للزراعة فى تلك الحكومة وتحدث أخى الكبير إبراهيم معه عن طريق بعض أصدقائه من الوفديين حول ظروفى الصحية وأدى هذا إلى نقلى إلى معسكر هاكستيب حيث حضرت لجنة طبية لفحصى ثم أصدرت قرارها بنقلى إلى مستشفى الدمرداش للعلاج من التهاب كبدى وبائى. وبقيت فى المستشفى قريباً من منزل أهلى حتى جرت الانتخابات فى آخر عام ١٩٤٩، وحصل الوفد على أغلبية مقاعد البرلمان وتشكلت حكومة الوفد التى أفرجت عن جميع المعتقلين فى يناير عام ١٩٥٠.

***

بقيت نقطة واحدة ينبغى توضيحها. فقد ورد فى أحد كتب الدكتور رفعت السعيد فى وصفه لأحداث الاسكندرية هذه التى تعرضت لها فى هذا المقال أننى وقفت فى ميدان المنشية بين المتظاهرين وألقيت قصيدة هذا مطلعها:

عساكر الجيش والبوليس خطبكمو،
خطب البلاد فعادوا من يعاديها

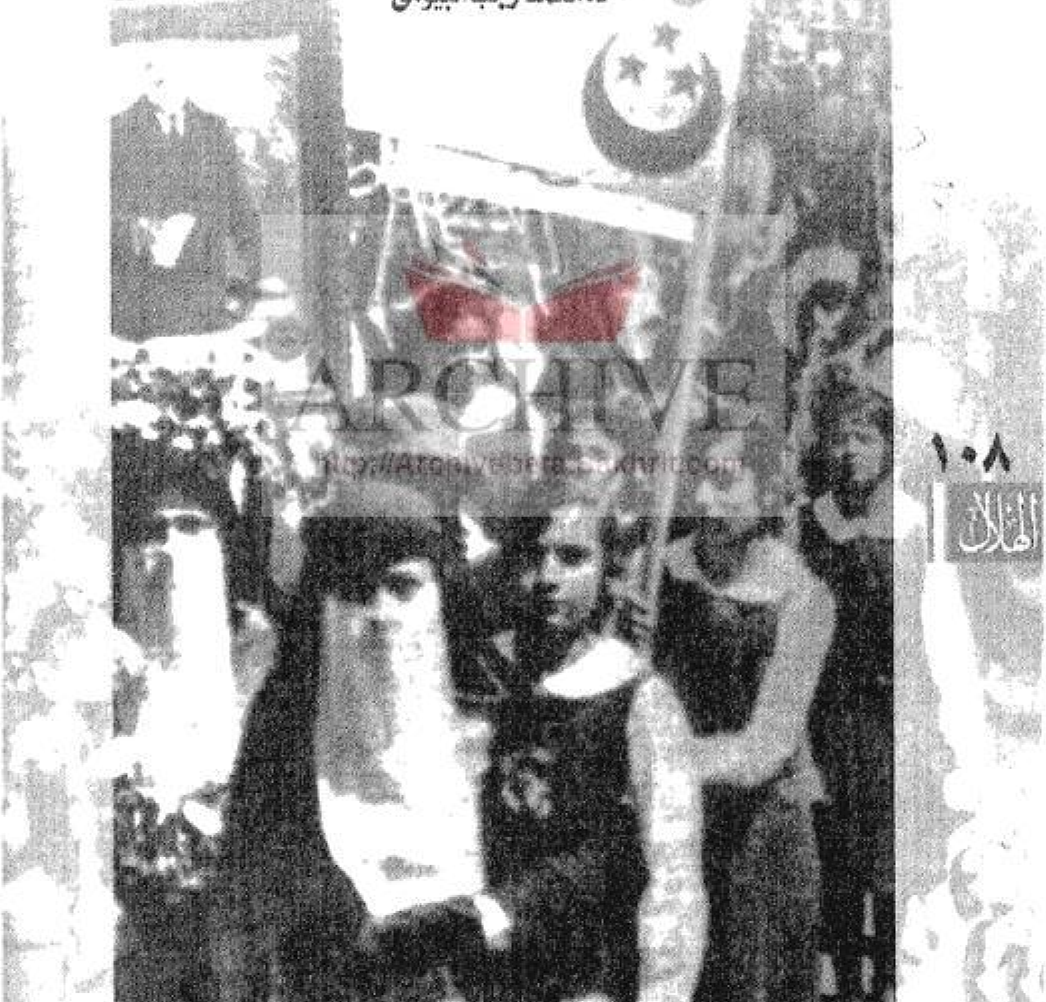
وبالطبع وسط أزيز رصاص دبابات الجيش لم يكن هناك مجال لإلقاء قصائد ولا يحزنون. والحقيقة أن هذه القصيدة ألقيت فى احتفال بمعتقل الطور بعد مرور سنة على إضراب البوليس، وقد حضر جنود وضباط الشرطة فى المعتقل هذا الاحتفال وصفقوا كثيراً للخطب والقصائد التى ألقيت فيه.

مصدر تاريخي مهمل عن:

الثورة المصرية سنة ١٩١٩م

بقلم

د. محمد رجب البيومي



١٠٨

الهلال





الأيام الحمراء

كتب الكثير عن ثورة سنة ١٩١٩، فسجلت أحداثها على نحو واقعي يشهد لمؤرخيها بالجهد المشكور وفي طليعتهم مؤرخ مصر الحديثة الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعي حيث نهض في هذا المجال بأكثر مما نهض به المتخصصون في الدراسات الجامعية.


حمد الباسل


اسماعيل صدقى


مصطفى النحاس

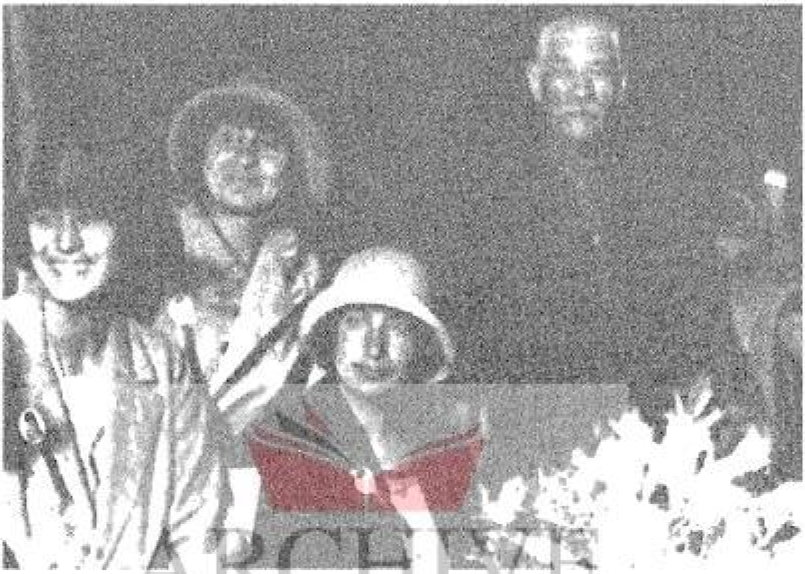

محمود اسماعيل


الحاج أحمد رمضان


عبد الوهاب النجار

ولكن تاريخا جليلا حافلا كتبه المؤرخ الكبير الأستاذ عبد الوهاب النجار استاذ التاريخ بالجامعة المصرية والأزهر ودار العلوم ، ونشرته جريدة «البلاغ» فى ست وستين حلقة متوالية فى شهور مارس وابريل ومايو ويونيه سنة ١٩٣٣م تحت عنوان (الأيام الحمراء) لم يلتفت إليه أحد ، وبه من غرائب الأحداث فى القاهرة وعواصم المديريات وقراها مالا نجده فى غيره ، وقد اتبع الأستاذ النجار طريقة (الجبرتى) فى التدوين المباشر للأحداث كما تحقق وقوعها ، وذكر فى أحيان كثيرة أسماء من أبلغوه بأحداث الأقاليم وهم من الصفوة الكرام.

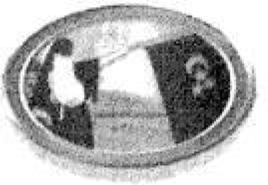
أما أحداث القاهرة فقد رآها رأى



زعيم الأمة سعد باشا زغلول مع بعض السيدات

العيان وسجلها وفق مشاهدته ، وإذا فاته موقف من المواقف لم تقع عليه عينه سأل عنه أصدقاءه ممن عاينوه ، وعزا الرواية إليهم ، معلقا بما يراه ، ولا أفيض فيما أعلم عن مآثر الأستاذ النجار ، فقد فصلت الحديث عنه في الجزء الأول في موسوعة (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين) ما بين ص ٣١٧ ، وص ٣٢٩ ، ولكني أنقل لأبناء الجيل المعاصر بعض ما كتبه عنه الأستاذ الكبير أحمد رمزى بك الباحث الشهير وسفير مصر الأسبق في روما في كتابه (منادمة الحروب) ص ٢٤٥ حيث قال عن الأستاذ النجار :

«كنا في السنوات الأولى بمدرسة الحقوق ، وكانت الدراسة في الصباح ، فأخذنا نتلقى دروسا بكلية الآداب بالجامعة المصرية القديمة ، وتتلمذنا جميعا على هذا الأستاذ الكبير الذى عرفنا منه المراجع مثل الطبرى وابن الأثير والبلاذرى وغيرهم، وكان إلقاؤه رحمة الله عليه وقت الدرس يحرك



مشاعر الطلاب ، فهو إذا تحدث عن الدولة العباسية جاء بالأسانيد ، وقرن التاريخ بالأدب، وتحدث حديث المؤرخ الواعى الذى يعيش فى الفترة التى يتكلم عنها، فهو لا يسرد الحوادث فقط، بل يعلق عليها وينتقل بك إلى تلك الفترة فكأنك عشت فيها وعرفت رجالها ، وسمعت خطبهم ، وكان رنين كلامه قويا ، يتغلغل فى النفس، فكنت أخرج من الدرس ، وفى مخيلتى الألفاظ والكلمات التى استعملها ، وأبيات الشعر التى رتلها فتلازمنى ، فأجد نفسى مدفوعا إلى مراجعة هذه النصوص ، واستكمالها لكى تلصق فى ذاكرتى ، لأتكلم بها واستشهد بما فيها ، ومن فيض هذا الأستاذ العظيم عرفت التاريخ الإسلامى ، واطلعت على كنوزه وكتبت فيه، فإليه يرجع الفضل الأول وإنى أعده فى الطليعة الأولى من خدام هذه النهضة الإسلامية المباركة».

هذا بعض ما قاله الأستاذ احمد رمزى، أما ما قاله الشاعر الكبير الأستاذ على الجارم فمنه قوله :

له حجج يسميها كلاما
وما هى غير أسياف تسل
يذل له شموس القول طوعا
ويستخذى له المعنى المدلّ
إذا فاضت ينابعه خطيبا
علمت بأن ماء البحر ضحل
يفل شبا الخصومة حيث كانت
برأى كالمهند لا يفل

ولست بعد قول رمزى والجارم بحاجة إلى المزيد ..

مقدمة الأيام

بدأ الأستاذ النجار يومياته بمقدمة نشرت بجريدة البلاغ (٢٢ مارس سنة ١٩٣٣م) قال فيها بعد أن أشار إلى ما سفك من دماء الشهداء برصاص الإنجليز:

«وبسبب سفك هذه الدماء ، أردت أن أسمى هذه الأيام (الأيام الحمراء) وهو اسم صادق معناه، ولما كانت الجرائد المصرية ملجمة عن قول الحق ، مكفوفة عن الصدق فى الرواية لا تقدر أن تشرح حادثة ، أو تفصل نكبة من النكبات بأكثر من قولها (حصل فى جهة كذا ما يكدر وعادت السكينة فى الحال) فى حين أن ذلك الحادث يكون قد حصد فيه من الأرواح عشرات ، وأصيب فيه بالجراحات مالا يصاب مثله فى وقعة حربية كبيرة ، لهذا رغبت فى خدمة التاريخ والحقيقة بتدوين حوادث هذه الأيام الحمراء على وجه الحقيقة متحريا فى ذلك جهد الطاقة، ملغيا ذكر الإشاعات الباطلة التى تروج فى مثل هذه الأوقات المحزنة مع حرصى على



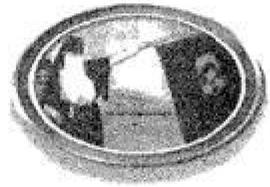
ام المصريين السيدة صفية زغلول تقود احدى المظاهرات النسائية ضد الاستعمار

العزو إلى من حدثنى الحديث وشرح لى الخبر، إن لم أكن رأيته بعينى ، حتى لا يقع الجيل الآتى فى عماء ، وضلال ، عن صحيح الأخبار، ليكون وجه الحقيقة أبيض ناصعا، والله الهادى إلى سواء السبيل» .

وما ذكره النجار عن إحجام الجرائد المصرية عن نشر هذه الفظائع ، أجد مثله فيما كتبه الأستاذ الرافعى ، حيث ذكر فى كتابه عن ثورة سنة ١٩١٩ م فصلا تحت عنوان (خطبة سعد باشا فى دار جمعية الاقتصاد والتشريع) ، «وهى خطبة رنانة قالها تعليقا على خطاب لمستشار إنجليزى تحدث عن جهود بلاده فى شأن مصر ، ونهض سعد باشا ليشرح كيف أعلنت الحماية قهرا عن الشعب، ولم يرض به أحد، وثار عليها كل مصرى وأفاض فى ذلك بما عرف عن سعد فى بلاغة حجته وسطوة بيانه»، وبعد أن سجل الرافعى ذلك قال فى الهامش (ص ١٧٦) والغريب أن جريدة وادى النيل تحدثت عن المستشار الانجليزى ومحاضرته ثم قالت (وبعد أن انتهى من إلقائه ، وقف أحد السامعين وبسط بعض الملاحظات)!! أى والله زعيم الأمة سعد زغلول أحد السامعين، وكلمته الرنانة : بعض الملاحظات !

مقارنة

إن ما كتبه النجار مكمل ومتمم لما كتبه مؤرخو الثورة ، لأنه فى أحيان



كثيرة يضيف زيادات لم يتطرقوا إليها، وقد تكون ذات أهمية حين تضيف الجديد مما يساعد على تفسير الأحداث، فمثلا تحدث الاستاذ الرافعي عن الاعتداء الفظيع الذى قام به الانجليز على المصلين بالمسجد الحسينى عند خروجهم يوم الجمعة إذ ظنوا أنهم متظاهرون كما برروا فعلتهم الشنيعة فقتل عشرة وجرح أكثر من الثلاثين وسالت الدماء غزيرة ! هذا ملخص ما قاله الرافعي ، وقد ذكر ذلك الأستاذ النجار ، ولكنه أضاف محادثة بل مشادة حصلت بين الشيخ محمد شاكر وسكرتير الوكالة البريطانية حين ذهب الشيخ محتجا على ما انتهك من حرمات ، وكان فيما قاله : إن المدنية الأوربية لا يمكن أن تبرر هذه الفظائع إنكم يا مستر (كومباين) أشعلتم النار فى القلوب ، وجرحتم الأفئدة جرحا بطىء الاندمال ، إننا قرأنا فى الجرائد إن الجيش الانجليزى فى العراق ترجل جنرالاته وضباطه وهم مارون بالمكان الذى قتل فيه الحسين، وأنتم فى مصر تضربون مسجد الحسين ومن يصلون فيه ! فما بال الحسين يكرم فى العراق ، ويهان فى مصر ، إن من ضربتموه بالنار ممن التجئوا إلى الحسين يعنى أنكم صوبتم النار على الحسين نفسه، وبعد جدال طويل ذكره الاستاذ النجار . قال المستر (كومباين) : وما يرضيكم ؟ فقال الشيخ محمد شاكر : إن المعتدى عليه لا يفكر فيما يرضيه، ولكن عليكم أن تفكروا فى ذلك، ولا تتركوا صدورنا تأكلها النيران ، فقال السكرتير : الحال سيئة فى مصر، فقال الشيخ : ومصر مظلومة!

أما مظاهرة السيدات، فقد تحدث عنها الاستاذ الرافعى فذكر اسماء الفضليات من المتظاهرات وكلهن من ذوات الأسر الرفيعة وبنات المرموقين من رجال السياسة والفكر والجاه . كما نقل خطابهن الذى توجهن به إلى المعتمد البريطاني، ثم قال: «إنهن حين اجتمعن بشارع سعد زغلول حاصرتهن قوة مسلحة . ووجهت لهن السلاح كيلا يتحركن لا إلى الأمام ولا إلى الخلف وبقيت السيدات هكذا ساعتين تحت نار الشمس المحرقة».

وهذا إيجاز وجد تفصيله الشافى فيما كتبه الأستاذ النجار حيث قال واصفا المشهد الرائع ، وما دار به من حوار :

«لقد ألفن موكبا فخماً يتقدمه أربعة من طلاب الأزهر ، أمسك كل واحد منهم بطرف العلم المصرى منبسطا كما يفعل المسيحيون فى بساط الرحمة ، عند تشييع موتاهم ، ووضع الصليب داخل الهلال موضع النجوم من هذا العلم ،



تكاتف الشعب المصرى بكل فئاته وطوائفه من أجل حرية البلاد واستقلالها..
وقضى على محاولات تفريق طوائف الأمة

وكان خلف الأزهريين الأربعة أزهريان يحملان علما آخر رُسم فى أعلاه هلال معانق للصليب ، وكتبت عليه الجملة الآتية: (الحرية من آيات الله، الحرية غذاؤنا - والاستقلال حياتنا)، وسارت السيدات صفين على جانب الطريق، وفى الوسط سيدة تحمل علما أبيض وفى وسطه الهلال بلون أحمر، وبلغ عدد السيدات المنتظمات فى صفين ٣٢٠ سيدة وطافت السيدات فى موكبهن بأهم شوارع القاهرة . وقصدن إلى دور الوكالات السياسية للدول، كما قصدن سراى عابدين، وكانت حاملة العلم تهتف بحياة مصر واستقلالها ، وسقوط الحماية الانجليزية فتردد المتظاهرات الهتاف فى حماسة وجميعهن رافعات أيمانهن بأعلام مصرية صغيرة ، وصادف مرورهن فى ميدان الأوبرا بعض الجنود الانجليزية المحتشدة بسلاحها الحربى ، فتعرضوا للموكب ، فوقفن ، وقد كثر عدد الاجانب المطلين من الفنادق ، ففسح لهن الجنود الطريق حتى وصلن إلى منزل سعد زغلول ، فحال الجنود بينهن وبين



الوصـــول إليــه وصـــوبوا البنادق إلى صدورهن فتقدمت حاملة العلم إلى الضابط الانجليزى القابض بيده على المسدس وقالت وهى تكشف صدرها «هذا صدرى فاضرب بما عندك»، نحن لا نهاب الموت وستكون فى مصر مس كابل أخرى ، وظلت واقفة فى مكانها ، والضابط أمامها برهة ، فانثنى خجلا ، وقال لجنوده: أفسحوا الطريق» .

هذا الوصف الدقيق لهذه المظاهرة النسائية الرائعة لم يكتب على تفصيله إلا فيما سطره الاستاذ النجار فى الأيام الحمراء، وقد قامت مظاهرة ثانية للسيدات تحدث عنها الأستاذ الرافعى بمثل حديث النجار تماما ، وجاءت الألفاظ مماثلة! فهل نقل الرافعى عن (الأيام الحمراء) حديث المظاهرة الثانية أو أن توارد الخواطر قد انساق بالألفاظ فى نسق مؤتلف، أقول ذلك لأن الطبعة الأولى من كتاب الرافعى ظهرت فى ١٩٤٦ ، والأيام الحمراء سجلت بجريدة البلاغ سنة ١٩٣٣م .

مهازل مضحكة

ذكر الاستاذ النجار مهازل مضحكة قام بها الانجليز وكأنها تمثيليات درامية يريدون بها أن يدلسوا الحقائق على الجماهير ، ولم أر من المؤرخين من أشار إلى هذه المهازل كما سجلها النجار، وهى ذات مغزى عميق فى الدلالة على إباء الشعب وغضبه لكرامته ، وسخطه على الاحتلال، من هذه الطرف الهزلية ما ذكره الأستاذ عن أحداث يوم ٢٨ ابريل سنة ١٩١٩، حيث أراد الانجليز أن يموهوا على الشعب الثائر، فكانوا يلبسون بعضهم الملابس المصرية ، ويأتون بشخص سورى يتكلم العربية مع أنه يلبس «الزى الانجليزى» ثم يقتحمون البلدة فلا يقابلهم أحد إطلاقا فيسألون عن العمد والخفراء فلا يجدون أى جواب ، فيطلب رئيس الحملة ممن يجده فى مقر العمودية أن يجمع له أعيان البلد، فلا يجد بدا من أن يذهب إلى الحقول، ويأتى بمجموعة من العمال الزراعيين ، فيتقدم إليهم الشخص السورى ، ويقوم خطيبا يتمدح بأعمال الانجليز ، وأنهم شقوا الطرق الزراعية ، ونظموا حركة الرى ، وعملوا الخزانات المائية، ولولا ذلك لتعطلت الزروع ، وخربت البلاد، وهو يرجو أن تكون هذه البلدة مثلا فى الطاعة لتضرب المثل للقرى الأخرى المجاورة ، وإذ ذاك يغمر القوم سكون حزين ولا يتكلمون فيقوم رجل يلبس شملة من الصوف، وعليه عمامة كبيرة وبيده عصا غليظة ، ويقول كأنه مصرى يخاطب الحملة الانجليزية : كل ما ذكرتموه صدق ، إنكم حسنتم أحوالنا، وأكثرتم النقود فى أيدينا



عبد الحميد عنايت — هدى شعراوي — احسان القوصي

فكثر الله خيركم ، ولن تجدوا منا إلا الطاعة والإذعان ولن نعصى الأوامر أبدا .. وينصرف القوم وقد اعتقدوا أنهم ضحكوا على الريفيين ، مع أنهم هم الذين كشفوا مهازلهم ونفروا منها !

على أن من غير المتوقع أن يكون بعض المأمورين فى المراكز المختلفة ممن يقفون فى صف الاحتلال ، ولكن هذا ما حدث فعلا من بعض ضعاف النفوس ، ومن بعض المديرين أيضا ، وهو أمر يسجل عليهم بالفضيحة والخزى ، فقد أراد مأمور كفر الزيات أن يجمع عمد القرى ليوقعوا عرائض بقبول الحماية الانجليزية ويبعث رسله إليهم بعد أن نصب سرادقا للاجتماع ، وفى الميعاد المحدد لم يحضر أحد، فغضب المأمور وأرسل الخفراء لاستدعائهم فى اليوم التالى وجعل يؤنبهم بغلظة على عدم الحضور فقام فى وجهه أحد العمد وكان من أهل العلم من قبل ، وخاشنه فى القول ، وحذره من توجيه الإهانة للعمد لأنهم ليسوا موظفين عنده، وخرج المأمور من الاجتماع حزينا لا يدرى ما يصنع !

وتكررت المهزلة فى مركز آخر، فووجه قائد الحملة الانجليزية بتهكم مرير، حتى ضاق به الأمر فتوجه إلى عمدة (كفر كلا الباب) وقال له : منذ متى صرت عمدة ، فقال من ثلاث سنوات، فرد عليه كيف لم ترب أهل بلدتك فى هذه المدة ليعرفوا الاستقامة وعدم الخلاف ، فأجابه على البديهة وأنتم فى مصر منذ سبع وثلاثين سنة فلماذا لم تربوا القطر المصرى إذا كانت التربية منتقصة ! وانفض الجمع دون أن يصل الأعداء إلى نتيجة مرضية.. ومضى الأستاذ النجار يسرد أنباء اجتماعات كثيرة فى القرى والمراكز تنتهى بالشجار بين العمد ورئيس الحملة.. وحين تأزم الموقف ، وعرف المحتلون أن جميع المراكز والقرى على



قلب رجل واحد ، نظم اجتماع عام فى طنطا عاصمة المديرية ، حضره جميع العمد والاعيان ، وأراد الجنرال الانجليزى أن يلاطف القوم : «كنت غاضبا منكم لأنكم لم تحضروا اجتماعات المراكز . ولكن غضبى زال حين حضرتم اليوم، وعليكم أن تعلموا أن الانجليز قوم طيبون ، وأعطوكم ما تطلبون فماذا ينقصكم ولماذا تتفرون عن الاجتماعات التى ندعو إليها فقام نعمان بك الأعصر عمدة المحلة الكبرى وقال: أنت تأتى فى جيش مسلح، وحولك الجنود مسلحون وكأنهم فى ساحة حرب فكيف نأمن على أنفسنا ؟ إذا دخل عمدة واحتك بجندى فقتله الجندى ، وغضب الشعب وقام بمهاجمتكم ألا تحدث مجزرة!» ودار نقاش طويل ذكره الشيخ النجار بتفصيله ، وكله يدل على غضب هذا الشعب الأعزل، ورفضه الاستسلام ! وهذه المواقف النادرة لم تسجلها بهذا التفصيل الشافى غير (الايام الحمراء) .

طالب باسل

مما يحمد للأستاذ عبد الرحمن الرافعى أنه سجل أسماء كل من سمع عنه من شهداء الثورة عمالا وفلاحين وأزهريين ونساء وطلبة وحاول استقصاء ذلك فى جميع نواحى القطر ما استطاع، وقد تحدث عن أول شهيد من شهداء الثورة وهو طالب بالمدرسة السعيدية الثانوية يسمى (مصطفى ماهر أمين) حيث أصيب برصاص الأعداء إصابة قاتلة . فشيعه الجمهور تشييعا حارا وصفه الرافعى – كما وصفه النجار – أتم وصف ، إذ ذكرا معا : هتاف المشيعين ، وحمل النعش على أكتاف أربعة من طلاب مدرسة القضاء الشرعى، ورفرفة العلم المصرى على التابوت ، ثم دفن الشهيد بمدافن زين العابدين ! هذا ما ذكراه معاً ، ولكن الشيخ النجار زاد على ذلك فذكر سبب المصرع تحت عنوان (طالب يخطف مدفعا) وقال :

شاهدت المدافع – مدافع الانجليز – بكثرة فى جميع الميادين وجهات الأزهر والمشهد الحسينى ، وقد أغرى بعض الناس جماعة من الصبيان لمعاكسة جندى برميه بالحصى ، حتى إذا التفت إلى مكان الرمى، أسرع طالب بالمدارس الثانوية اسمه (ماهر أمين) إلى المدفع فأخذه وجرى ، فضربه جندى بالرصاص فسقط قتيلا ، بعد أن سار بالمدفع نحو عشرين مترا، واستعاد الجنود المدفع!» ا هـ .

طالب صبى أعزل يهجم على جندى مسلح، فيأخذ مدفعه الضخم، ويجرى به مسافة عشرين مترا، غير هياب ولا وجل! ماذا نقول فى بسالته وحميته الملتهبة فى صدره وهو بعد لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره ! إن فى الشباب المصرى اليافع لهمة وفتوة لو وجد الاشبال مثلا عليا تخط



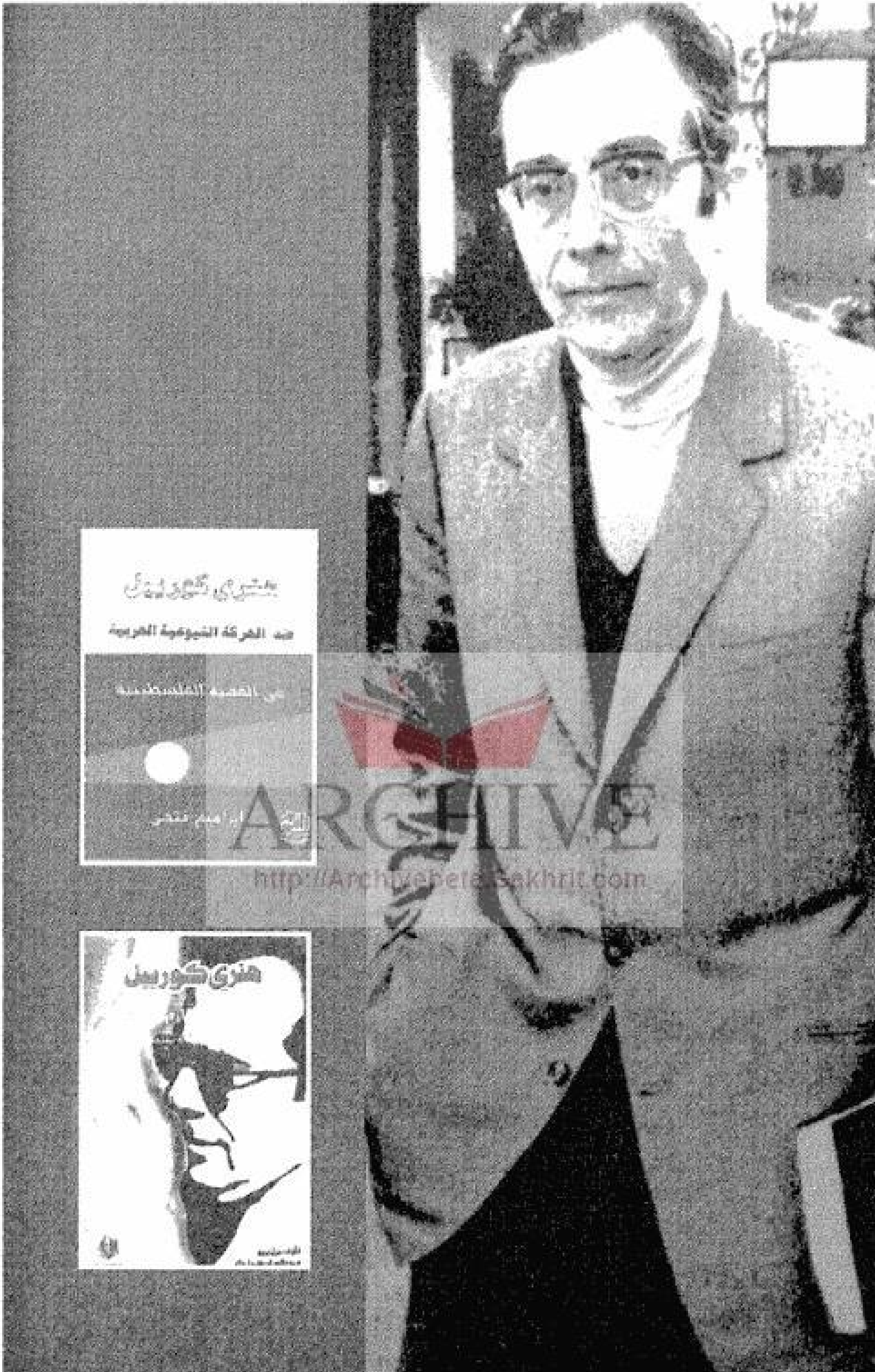
اشعل الثوار الحرائق في محطات السكك الحديدية في الوجه البحري برغم الدوريات المسلحة

لهم الطريق! .

وقد ذكر النجار فيما ذكر أن الثورة الهندية بزعامة غاندى قامت بتأثير الثورة المصرية بزعامة سعد زغلول ، وأن الصحف الهندية قد ذكرت ذلك متخذة من جهاد المصريين مثلا يحتذى ، وهو أمر تحدث به الزعيم نهرو حين زار مصر ، فجاء حديثه مصداقا لما قال المؤرخ الكبير .

رجاء

إن كثيرا من طلاب الدراسات العليا بأقسام التاريخ الحديث يبحثون عن موضوعات تصلح للرسائل العلمية فلماذا لا ينهض باحث من هؤلاء بجمع (الأيام الحمراء) والتعليق عليها، ومقارنة ما جاء بها بما كتبه مؤرخو الثورة المصرية ، فيقدم عملا مثمراً يستأهل الثناء! كما يحفظ حق مؤرخ فاضل سجل ما رأته عينه في هذه الأيام الحمراء بصدق وتحر واجتهاد ! هذا ما أدعو إليه . فهل من مجيب ؟


هنري كورييل
الحركة الشيوعية العربية
في القضية الفلسطينية
ابراهيم فتحي
هنري كورييل

هنرى كوريبل

لورانس الحركة الشيوعية المصرية

بقلم
د. فهمى عبد السلام

«لا أصدق أن هناك يهوديا ملحدا .. والويل للإنسانية من المثقف اليهودي الذي يدعي الإلحاد»

«لا شك أن محكمة التاريخ تحكم بالإعدام على أولئك الأفراد والشعوب ، الذين يملكون من الحقائق أكثر مما يملكون من الوقائع ، وأولئك الذين يملكون من العدالة أكثر مما يمتلكون من القوة» هذا الاستخلاص الرائع لفيلسوف التاريخ أوزوالد إشبنجلر تؤكده مأساة الشعب الفلسطينى ، فالحقائق تؤكد أن أرض فلسطين ملك للشعب الفلسطينى ، لكن الواقع أن إسرائيل اغتصبتها وأن الشعب الفلسطينى يعيش مشرداً هنا وهناك ، والعدالة تقضى بعودة أصحاب الأرض ، لكن إسرائيل تملك القوة لإنكار كل هذه الحقائق بالرغم من عدالة القضية . وانتفاضة الشعب الفلسطينى البطل التى فرضت نفسها على العالم كله ، تؤكد إستخلاص إشبنجلر أن هذه الحياة لا تعرف سوى القوة .



الأمر الذي توصل إليه الشعب الصامد البطل في فلسطين المحتلة ، فها هو الشعب الفلسطيني ينهي ما عرف باسم المسيرة السلمية، والمسيرة السلمية لم تبدأ في أوسلو ومدريد ، لكنها بدأت في منتصف الأربعينيات ، لقد طرحت هذه الأفكار نفسها ، والتي تقول إن إسرائيل ليست شيئاً واحداً ، وأن هناك قوى للسلام علينا مناصرتها ، وبسقوط الحاجز النفسي بين العرب واليهود ، وبناء جو الثقة والألفة ، وأن المفاوضات السلمية قادرة على إعادة الحقوق العربية بالطرق الودية وعلى «موائد المفاوضات» ، تلك الأفكار التي طرحت بقوة في منتصف الأربعينيات واختفت فترة طويلة ، لتعاود الظهور من جديد عام ٩٠ في بدايات اتفاقيات مدريد بما عرف بالمسيرة السلمية لحل المشكلة الفلسطينية .

هذه الأفكار هي أفكار رجل واحد ، يهودي إيطالي الأصل ، ولد في القاهرة عام ١٩١٤ لأب مليونير ، إنه هنري كورييل الذي عاش حياة مثيرة مضطربة انتهت برصاصات غامضة أردته قتيلاً في باريس عام ١٩٧٨ ، وانقسمت الآراء بشأن هنري كورييل انقساماً حاداً ، فهو إما نبي الثورة العالمية وإما شيطان صهيوني رجيم ، فأنصار كورييل يضعونه في مصاف الآله : فهو مثلا «راهب الثورة العالمية الذي تزوج التاريخ »، «وقديس الحركة الشيوعية العالمية» ، رجل الأممية الذي خان طبقته الأرستقراطية من أجل البروليتاريا . وحينما شيعت جنازته إلى المقبرة الفاخرة في باريس ، تغطت المقبرة بعشرات من باقات الزهور لأحباء كورييل ومريديه ، من جبهات تحرير ثورية ، ومن لجان وهيئات دولية ، ومن منظمة التحرير الفلسطينية ، ومن مصر التي غادرها عام ١٩٥٠ مطروداً ، ومن زملائه في حدتو الذين ظلوا على العهد ، وعشرات من تلاميذ كورييل الذين أعاد كورييل صياغة نضالاتهم على حسب تعبير جيل بيرو (مؤلف كتاب هنري كورييل رجل من نسيج خاص) . أما خصوم كورييل وهم كثر فيتهمونه بالعمالة للصهيونية ، وأن كورييل كان أحد أهم المتسببين في انحراف الحركة الشيوعية المصرية انحرافا «صهيونياً» ذميماً ، وهذا الاتهام إذا ما أتى من قامات فكرية ونضالية بحجم محمد سيد أحمد ، وسعد زهران وشهدي عطية الشافعي وعبد المعبود الجبيلي ومصطفى طيبة واسماعيل صبري عبد الله ود. رؤوف عباس والمستشار طارق البشري ، فلابد أن ننصت إليهم جيداً ، بالرغم من كل باقات الزهور التي رصعت قبر كورييل الفاخر في باريس .

إذن هنري كورييل إما قديس أممي دفع حياته ثمناً لنضالاته في سبيل الحرية والعدالة والتقدم ، وإما جاسوس صهيوني لم يكن يهدف بكل نشاطاته إلا لخدمة إسرائيل . ومنذ عام تقريبا صدر كتاب بعنوان «نحو سلام عادل في الشرق

الأوسط» عن دار الثقافة الجديدة ، قام بترجمته عن الفرنسية والتقديم له محمد يوسف الجندى – وهو الناشر فى الوقت نفسه – ، والكتاب المهم لا يحوى سوى نقطة واحدة ، وهى التى تلوث شرف كوربيل الثورى بوحل العمالة للعدو الصهيونى ، فالكتاب يقدم كل أطروحات كوربيل النظرية والعملية بشأن الصراع العربى الإسرائيلى ، وهى بيانات وتوجيهات وتحليلات كتبها كوربيل من ٤٧ حتى مصرعه عام ٧٨ .

يقوم محمد يوسف الجندى بتقديم الجزء الذى لم يكتب كوربيل خلاله شيئاً ، ويوضح الخط السياسى لحدتو (المنظمة الماركسية التى أسسها كوربيل وكان زعيمها الفكرى والروحى) خلال عام ٤٥ . تحديداً فى نوفمبر ١٩٤٥ ، بمناسبة ذكرى صدور وعد بلفور ، كان الشارع المصرى يغلى آنذاك وهو يرى العصابات الصهيونية تكاد تلتهم فلسطين العربية بالقتل والترويع والإرهاب الوحشى ، وحثالة أوروبا الشرقية يفدون بالآلاف على فلسطين تحت سمع وبصر العالم كان ، فى سابقة لم يعرفها التاريخ الحديث ، كان من الطبيعى أن تقوم المظاهرات الشعبية الكثيفة ، تندد بالصهيونية ، وواكبت تلك المظاهرات حملة صحفية واسعة ، فإذا بكوربيل يقوم بإدانة المظاهرات ، ويتهمها بأنها قامت بتدبير من الفاشية (!!) وأن سبب الأحداث الدامية فى فلسطين ليس اليهود القتلة ، وإنما الرجعية العربية والإنجليز (الإمبريالية) ، وأن الإنجليز نجحوا فى الوقيعة بين الكادحين العرب والكادحين اليهود ، وعلى الكادحين العرب والكادحين اليهود أن يتحدوا فى جبهة واحدة لطرد الإمبريالية ، وبعدها ينشئان سوياً دولة ديمقراطية تقوم بنفسها بحل التعايش السلمى بين الطائفتين .

هذه الآراء يقدمها محمد يوسف الجندى بانبهار شديد ، وهذا أمر مدهش، فهى تحتوى على مغالطات فجة لا تنطلى على أحد ، وتحيزها الواضح لليهود يجعلها مرفوضة ولا تستحق عناء مناقشتها ، مثلاً الشعور الوطنى الشعبى يعتبره كوربيل شوفينية ، مع أن إسرائيل هى الشوفينية مجسدة والشوفينية هى إسرائيل ، ومسألة وحدة الكادحين العرب واليهود مسألة لا يستطيع العاقل الرشيد، أن يأخذها على محمل الجد .

المدهش أن الرفاق فى حدتو لم ينتبهوا إلى لا معقولية آراء كوربيل بتحيزها الصارخ إلى اليهود ، والتسوية – وهم المغتصبون– بينهم وبين ضحاياهم ، وحتى تزداد غرابة الصورة علينا أن نلقى ببعض الأضواء على حياة كوربيل قبل أن يعمل فى السياسة ، حتى تكتمل الرؤية ، فكوربيل هو الابن الأصغر لـ دانيل كوربيل اليهودى الأعمى المليونير صاحب بنك !! ، وهنرى نفسه عاش حياة أرستقراطية فى قصر الأب المنيف بالزمالك ، وحتى بلغ كوربيل الـ ٢٦ عاما (١٩٤٠) لم يكن لـ كوربيل أدنى علاقة بالواقع المصرى ، ولم يعرف من المصريين سوى الخدم والسفرجية ، ويعيش فى القاهرة جسداً ، أما روحه فهى فى باريس ، وكان كوربيل يقضى الليالى لاهياً



في ملهى الكيت كات ، يزجي الوقت مع الفتيات اللاتي كن يطلقن عليه لقب «الزهرة المسحوقة» ، وكان فتى الكيت كات اللاهي يمضي الساعات متبرماً ، منتظراً اليوم الذي سيرحل من مصر بدون رجعة إلى باريس ، كي يدرس القانون في السوربون ، وعندما أجبره والده على البقاء في القاهرة ، سقط كوربيل في هوة اليأس ، وتحت ضغط الأب اضطر هنري إلى العمل في البنك ، ويصف هنري ضجره اللامحدود وهو يستمع إلى توسلات الفلاحين الأجلاف الذليلة كي يخفض لهم الفوائد ، والغريب أن هذا اليهودي الأجنبي الأرستقراطي المليونير ، والذي يتحدث العربية على طريقة الأفلام «إعملتوا إيه ياريس .. إسمع خبيبي (بالخاء) .. إمسكتوا واخد فلوس (بالخاء) .. إمسكتوا واخد سفلانه (بالخاء) ..» إذا به وبدون سابق إنذار يذوب في المصريين حباً ، وإذا بزهرة الفتيات المنسحقة يذوب في فقراء مصر شفقة ، والأعجب أن هذه الإنعطافة الروحية العميقة الهائلة ، التي حولت فتى الكيت كات اللاهي إلى راهب البروليتاريا ، كانت نتيجة لمصادفة عجيبة هي الأخرى ، وهي أن كوربيل رافق الأب عريوطي الذي كان يجوب قرى مصر لعلاج الفلاحين ، وفي إحدى هذه الجولات ، تمزق هنري كوربيل عندما رأى الفقر البشع في فلاحي مصر ، فوهب نفسه لتحرير فقراء مصر من بؤسهم الشديد .

علينا أن نصدق أن الإنسانية وحدها! هي التي دفعت كوربيل إلى العمل السياسي ، والخطوة الثانية هي مراجعة مواقف كوربيل ، بما خطت يداه ، من عام ٤٧ حتى عام ٧٨ ونبدأ بـ عام ٤٧ . في عام ٤٧ كانت مأساة فلسطين قد فرضت نفسها ليس على العالم العربي فحسب ولكن على العالم كله ، فالإنجليز على وشك الرحيل والمذابح الصهيونية تدور على قدم وساق ، وتحت تأثير وضغوط الصهيونية العالمية ، أصدرت الأمم المتحدة قرار التقسيم المعروف ، ورقص الشعب الإسرائيلي في شوارع فلسطين فرحاً باعتراف العالم بدولتهم الإجرامية ، وكان من الطبيعي أن يشتعل الشارع العربي والمصري بالغضب للجريمة التي تمت في بلد عربي شقيق ، ورفضت كل الأحزاب العربية والقوى السياسية قرار التقسيم الظالم ، الذي يكافيء المجرم على جريمته، واضطرت الحكومات العربية تحت الضغوط الشعبية إلى الاجتماع ، واضطر القادة العرب إلى رفض قبول قرار التقسيم وأعلنوا أنهم سيدخلون الحرب ضد العصابات الصهيونية ، فأصدرت حدتو دوناً عن بقية المنظمات الشعبية والرسمية ، توافق على قرار التقسيم ، وهذه الموافقة هي اعتراف بالدولة العبرية ، وراح كوربيل يندد بالحرب ضد إسرائيل ، وأسماها بالحرب الظالمة وبالحرب الرجعية وبالحرب الإجرامية (أوراق هنري كوربيل

تقديم د . رؤوف عباس) . هذا الموقف المريب يصفه محمد يوسف الجندى بالشجاعة (!!) وأصدرت حدتو بياناً ، وزعت منه الآلاف ، ثم أعيد نشره فى مجلة الجماهير لسان حال حدتو آنذاك «إن سياسة موالاة الاستعمار التى سار عليها رؤساء الحكومات العربية هى المسئول الأساسى عن تقسيم فلسطين ، فلقد كان ولا يزال الضمان الوحيد لوحدة فلسطين هو العمل على إيجاد جو من الألفة المتبادلة بين الجماهير الكادحة العربية واليهودية (!!) ، واليوم وقد اتخذت هيئة الأمم المتحدة قرارها بإنشاء دولتين مستقلتين على أساس إلغاء الانتداب البريطانى وجلاء القوات البريطانية عن فلسطين فإن الطريق الوحيد لتوحيد الدولتين الجديدتين يكمن فى المساهمة الجدية فى طرد الاستعمار (وكأن اليهود لم يستعمروا فلسطين) ، وإيجاد جو من الثقة والألفة بين العرب واليهود والكفاح المشترك ضد محاولات التفرقة العنصرية» .

ويكمل كوربيل محملاً الجميع أسباب المشكلة فيما عدا اليهود بالطبع .

«أمام هذه الأزمة السياسية والاجتماعية يرى الاستعمار والرجعية ألا مخرج لهما منها سوى بإشعال الحرب العنصرية فى الشرق العربى ، كى تلهى الشعوب عن أهدافها الوطنية ومطالبها الاقتصادية ، وقد وجدوا فى فلسطين نقطة البدء لتحقيق هذه السياسة الإجرامية . وفى ضوء هذه الحقائق نستطيع أن نفهم البيان الذى أصدره رؤساء الحكومات العربية ، إنه يرمى إلى وقف الحركات الوطنية وتحويل حربنا الوطنية المقدسة إلى حرب دينية عنصرية تدعم مركز الاستعمار ، وإنه يرمى إلى صرف أنظار الجماهير الكادحة عن الكفاح» . ثم ينهى كوربيل بيانه بنصف دستة من الـ «عاشات» ثم بسقوط الاستعمار وأذنابه .

هذا البيان يعتبر نموذجاً للتدليس السياسى ، فالحرب ضد إسرائيل هى حرب دينية مع أن اسرائيل هى التى قامت على أساس دينى ، وأن الحرب ضد اسرائيل تحول أنظار الجماهير عن العدو الأساسى ، مع أن الجماهير بفطرتها السليمة فطنت إلى عدوها الأساسى والواجب على المناضل الأممى هو الإنصات لنبض الجماهير وأن يتبعه ، وحكاية الألفة والثقة العجيبة هذه لا يكل كوربيل من ترديدها ، ولابد أن نذكر أن كيسنجر وهو يهودى أيضا ، كان أول من طرح إسقاط الحاجز النفسى بين العرب واليهود ، المهم أن هذا البيان الذى يتصف بوقاحة لا مثيل لها ، أحدث ردود فعل هائلة سواء على مستوى الشارع ، أو داخل صفوف حدتو . فالجماهير المصرية بنبضها السليم عاقبت كوربيل العقاب الجدير بهذه الوقاحة ، وذلك الاستخفاف بمشاعر الناس وعقولهم ، فقد ألقيت الزجاجات الحارقة على بيت كوربيل وعلى



مكتبة الميدان وعلى مقر مجلة الجماهير ، بإعتبار أن بيان كوربيل بمثابة صفاقة ما بعدها صفاقة .

أما داخل حدتو فنترك مصطفى طيبة (كان عضواً بلجنة حدتو المركزية آنذاك) فى كتابه الهام «الحركة الشيوعية المصرية عام ١٩٤٥ - ١٩٦٥ - رؤية داخلية» ، أن يحدثنا عن ردود الأفعال داخل حدتو .

«انحسر نشاط حدتو وانعزلت المنظمة عزلة تامة عن الجماهير بسبب موقفها من فلسطين ، وكان موقفها وموقف التنظيم كله مستمداً من مقولة نظرية «بالحق القومي لليهود في تكوين دولتهم علي أرض فلسطين» والتي صاغها كوربيل في محاضرة كانت تدرس للخلايا ، ويذكر مصطفى طيبة كيف راح كوربيل يتهم كل من يعارض بيانه العجيب «بالإنحراف الأممي ، ويعلق طيبة علي ذلك الاتهام بأنه كان اتهاما خطيراً يصل إلى درجة الخيانة . وأنشق الراحل الكبير شهدى عطية الشافعي عن حدتو ، وأنشق عبد المعبود الجبيلي (الرفيق عادل) ، وخرج معه عدد من أفضل مناضلى حدتو وأكثرهم إخلاصاً ، وراح مصطفى طيبة يتساءل فى حيرة محزنة عن انصراف الجماهير عن حدتو : أين يكمن الخطأ ؟ ثم ها هو ذا يكتب بلا مواربة «اكتشفت أننا غرباء عن واقعنا» ، وبدورنا نقول كيف لا يصبحون غرباء ، فالدنيا كلها ضد إسرائيل الوحشية ، وكوربيل يجرهم وحدهم لتأييد إقامة اسرائيل والتحاب والمودة معها ، ضد رغبة الشعب وعواطفه ووجدانه ، وعلى أشلاء الشعب الفلسطيني .

(٢)

وفى عام ٥٠ تم إبعاد هنرى كوربيل إلى خارج مصر ، وقامت السلطات بشحنه عنوة على باخرة إلى ايطاليا ، ويحكى لنا جيل بيرو عن تشرد كوربيل فى أوروبا بلا نقود وبلا جنسية وبلا أوراق شخصية ، حتى استقر به المطاف فى باريس ، وكون هناك ما عرف باسم «مجموعة روما» ، باعتبارهم فرعاً للقيادة الحزب (حدتو) فى الخارج ، ولم يترك كوربيل الرفاق فى مصر ، إذ أصر أن يظل متسلطاً عليهم بسطوته الروحية المدهشة ، ويظل يراسل الرفاق القلائل الذين ظلوا على العهد مقيمين ، ولم يغير كوربيل من عواطفه تجاه اسرائيل ، وإذا كان نشاط كوربيل من ٤٥ - ٤٨ يهدف إلى صرف الرفاق عن خطورة الصهيونية، ففى الأعوام من ٥٠ حتى ٥٣ كان المطلوب من الرفاق هو الترويج لفكرة الاعتراف باسرائيل ، والترويج والاعتراف بقرار التقسيم ، والجديد فى نشاط كوربيل هو الدعوة إلى إقامة صلات مع قوى السلام الإسرائيلية ، ففي عام ٥٣ بعث كوربيل بياناً عريضا ، مليئاً بالاستطرادات والتكرارات ، سنكتفى بمقتطفات منه .

«كنا الوحيدين الذين دافعنا عن

قرار التقسيم ورفض حرب ٤٨ ، أما الشيوعيون الآخرون فلم يجرؤوا على أن يتخذوا هذا الموقف علناً ، وقالو إن الاتحاد السوفيتى وافق على قرار التقسيم لأن الاتحاد السوفيتي بعيد ويجهل حقائق الشرق الأوسط (!!) ، أما حدتو وفى مواجهة الشوفينية الصاعدة (..) دافعت عن مواقفها لصالح الحركة الوطنية ولصالح الشعبيين العربي واليهودي فى فلسطين .

ثم يدين كوربيل الأنظمة العربية لعدم قبولها بقرار التقسيم الذى يراه كوربيل ليس حلاً مثالياً ولكنه حل واقعى كما حدث من قبل ، لكن الجديد في بيان ٥٢ هو تلك الأعجوبة الجديدة .

«هذه الأنظمة بقيامها بالمغامرة العسكرية في عام ٤٨ ، انتهت ليس بكارثة تلك الجيوش فقط ، لكنها انتهت بكارثة لعرب فلسطين، فالقادة العرب بدخولهم حرب ٤٨ يتحملون المسئولية الأكبر في مأساة اللاجئين وإحتلالهم لمنطقة غزة (!!) وضمها إلي مصر (!!) .

والحقيقة أن المرء لا يكاد يصدق هذه الافتراءات الصهيونية التى تلوى عنق الحقيقة وتحرم الحلال وتحلل الحرام من خلال منطق لا مثيل له ، فاللاجئون سبب مأساتهم ليست العصابات الصهيونية ، إنما الجيوش العربية ، ووجود المصريين فى غزة هو إحتلال ، أما اسرائيل فهى شعب يهودى له حقه فى إقامة دولته فعيون كوربيل الصهيونية لا ترى الخشية الإجرامية فى عينى اسرائيل ، لكنها تختلق قشة فى عين العرب وتعتبرهم الجناة .

ويكمل كوربيل بيانه الصفيق :

«إن حالة التوتر القائمة تفيد الطبقات الحاكمة العربية» ، ومقاطعتها وحصارها لإسرائيل تعبر عن خوف الرأسمالية العربية العاجزة عن مواجهة الرأسمالية الإسرائيلية ، ولهذا ينبغي علينا أن نناضل ضد الشوفينية التي تثيرها الطبقات الحاكمة ، وإذا لم نقف ونكافح للدعوة لمواقفنا ، فهذا معناه أننا سنترك للطبقات الحاكمة أن تفرض مواقفها ، وهذا معناه أن نتخلي عن الموقف المستقل للبروليتاريا (!!) ويعنى وضع البروليتاريا فى ذيل البورجوازية ، لكن الذي يدعو للفخر أن الرفاق في حدتو يثقون في الحزب الشيوعي الإسرائيلي وفي الشعبين العربي واليهودي فى إسرائيل .

مازال كوربيل يردد أراجيفه لكن هنا يضيف شيئاً جديداً عن تطبيع الرفاق فى حدتو مع الرفاق في الحزب الشيوعى الاسرائيلى فيكمل :

«قلنا إن على اسرائيل أن تلعب في مشاريع الإمبرياليين دور الشرطى للإمبريالية فى الشرق الأوسط ، لكن إذا إقتنع الشعب الاسرائيلي أن الشعوب العربية لا تهدد وجوده وأن الحركات الوطنية تتخذ موقفاً وتناضل من أجل حل عادل ، فإن مشاريع الإمبريالية سوف تفشل مرة أخري ، وعلينا



الاعتماد على الحزب الشيوعى الاسرائيلى والحزب الاشتراكى اليسارى فهما يخوضان ميداناً لا هوادة فيه ضد الإمبريالية والصهيونية . لهذا إذا عرفت الشعوب العربية بهذه النضالات فهذا بمثابة ضربة للشوفينية الصاعدة ، ولهذا فنحن نناضل من أجل حل سلمى بين إسرائيل من جهة والدول العربية وخاصة مصر من جهة أخرى ، ومن أجل إقامة علاقة صداقة بين الشعبين العربى واليهودى فى إسرائيل ، فلابد أن نشرح خطورة الوضع الحالى ، فلا يبقى إلا حل واحد : المفاوضات من أجل السلام مع الاعتراف بالحق القومى لليهود فى إقامة دولتهم المستقلة .

ينتهى البيان الخادع ، ونعلم أن هذا البيان الصفيق تمت كتابته عام ٥٣ ، بمناسبة رسالة أرسلتها قيادة حدتو إلى الحزب الشيوعى الإسرائيلى ، وبهذا يثبت لنا أن هنرى كورييل لعب دور الأب الشرعى للتطبيع ، وأن الأصوات اليسارية التى حملت عار التطبيع فى التسعينيات ، كانت تقوم بإحياء تراث خلقه كورييل فى الأربعينيات .

(٣)

فى كتاب محمد حسنين هيكل عن المفاوضات السرية بين العرب واسرائيل ، قدم هيكل الاستراتيجية التى تبناها بن جوريون مؤسس إسرائيل الحقيقى ، كانت إستراتيجية بن جوريون لمستقبل إسرائيل مع الجيران العرب ، تتركز حول إخراج مصر من الصراع وبأى طريقة ، فإذا لم ترضخ مصر بالتفاهم الودى ، سترضخ بضربة عسكرية ، ويتم إجبارها على معاهدة سلام ، وبعدها ستجد الدول العربية نفسها مضطرة لتوقيع معاهدات سلام مع إسرائيل . وفى عام ٥٦ انتهزت إسرائيل فرصة تأميم قناة السويس ، لإظهار وجهها التوسعى الوحشى ، وقامت بإحتلال سيناء ، ولم تخرج منها إلا بعد إنذارات شديدة من موسكو ومن واشنطن، وعلى الرغم من هذا ، إذا بكورييل يبعث إلى الرفاق يوجه إليهم التوبيخات والملامات الأممية الشديدة ، فالرفاق لا يستطيعون أن يجاهروا بأفكار كورييل ، ومن شدة إذعانهم له وانسحاقهم أمام تعليماته ، يبعثون إليه يطلبون النصيحة بشأن . «ماذا نفعل أمام الشوفينية ؟!

فى عام ٥٧ يرسل كورييل ليرشد الرفاق ويهديهم إلى كيفية النضال ضد الشوفينية ، وهى المرادف عند كورييل لـ للعداء لإسرائيل يكتب كورييل» .

يكتب كورييل :

الرسائل التى أرسلت إلى الحزب الشيوعى الإسرائيلى ، كانت هى والصلات بهذا الأخير تعتبر إنتصاراً للرفاق المصريين

على النطاق الدولى (مع أن هذه الصلات نفسها فى الضمير العربى هى الخيانة) . وكان الرفاق الشيوعيون المصريون يلتقون بالمندوبين الإسرائيليين ، لكن سرعان ما ساءت الحالة ، ونعتقد أن الشيوعيين المصريين تركوا أنفسهم ينجذبون إلى التيارات البورجوازية القومية ، والنواة الأكثر ثورية فى الحزب (حدتو) كانت تدرك مخاطر العزلة عن الجماهير ، فراحوا يرفضون طرح المشكلة على الجماهير ، ولهذا قدموا شعار التوقيت ، بحجة أن اللحظة غير مواتية ، ولم يقتصر التراجع على أنه لم تعد هناك رسائل ترسل إلى الحزب الشيوعى الاسرائيلى ، بل ولقد ضربنا عرض الحائط بقواعد الأممية البروليتاريا ، إلى درجة رفض النقاش مع الشيوعيين الإسرائيليين فى المؤتمرات الدولية ، وعلينا أن نعترف أن ليس نقص العناصر (انفضاض الكوادر عن حدتو) هو السبب فى هذا التقاعس لكن هناك فى الحزب (البقية الباقية) تيارات أخرى لديها «انحراف أممى» ..

...الانحراف الأممى هو العداء لإسرائيل ، أما الأممية الرشيدة عند كوربيل ، فهى تنمية الثقة بين إسرائيل والعرب ، والعجيب أن هذا الكلام يقال عام ٥٧ ، ودماء المصريين لم تجف على أرض سيناء . بعد هذا التقريع الأممى الثورى الذى بعث به كوربيل إلى الرفاق ، قامت الحركة الشيوعية المصرية ، ذلك الفصيل المهم فى كفاح شعبنا ، بتصحيح أوضاعها ، وقررت استبعاد كل اليهود من قيادة الحركة الشيوعية ، وبتجميد وحل جماعة روما ، بعد أن أيقنت أن اليهودى لليهودى ، وإن إدعى الثورية .

وفى بقية البيان يشرح كوربيل خطة العمل لإجبار مصر على الاعتراف والتفاوض مع اسرائيل ، وما فشل بن جوريون فى تحقيقه بالسلاح والدم والعدوان ، يحاول كوربيل أن يحققه بالرطان الايديولوجى وبالألاعيب الكلامية . وخطة كوربيل التى وضعها طويلة مملة مليئة بالاستطرادات وبالإلحاح وهى فى اختصارها ، أن يقوم الرفاق بالدعاية المكثفة للحل السلمى (الاعتراف والتفاوض) وأن اسرائيل ليست كتلة واحدة .. إلى آخره ، فى نفس الوقت ستتبنى مجموعة روما حملة عالمية وستصدر بياناً دولياً يحمل توقيعات عدد كبير من الشخصيات الديمقراطية المرموقة دولياً ، كى تطالب بحل سلمى للصراع . وبهذا يتم اعداد المسرح الداخلى (المصرى) والعالمى ، فلا يجد عبد الناصر أمامه (الذى يريد السلام فى قرارة نفسه) إلا الرضوخ تجاه الإرادة العالمية والمصرية ، فيتحقق حلم بن جوريون على يد كوربيل وبطانته ، فى الخارج وفى الداخل ، وخابت جهود كوربيل ، فكانت حقيقة اسرائيل أبشع من التغلب عليها بجهود مجموعة روما والديمقراطيين العالميين وبقايا حدتو التى كانت فى حيرة من أمرها ، ما بين الانعزال عن الشعب أو



طاعة كورييل .

وبعد استبعاد الحركة الشيوعية للقيادة اليهودية يكتب كورييل «تسلمنا بالأمس المجلة الإسبوعية «موليير» التي تحتوي على مواد مهمة ومن بين هذه المواد كان هناك ذلك العمل الفذ ، وهو برنامج الحزب الشيوعى المصرى الموحد : يقرر البرنامج أن تحقيق السلام مع إسرائيل يساوى دخول حلف بغداد!؟؟ .. إنها الماركسية الخلاقة ؟ويبدو أنه يوجد فى مصر إتجاه حقيقى للشيوعية القومية . ثم تفاقمت حالة الحركة الشيوعية بعد تخلصها من اليهود فاعلنت أن الكفاح المسلح لتحرير فلسطين يعتبر نضالاً أممى، وانفضت الكوادر من حول كورييل إلا من خاصة الخاصة ، وانشغل كورييل بدوره فى دعم جبهة التحرير الجزائرية لتحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسى ، وتألق كورييل فى دوره الجديد ، وتوهج كمتآمر أصيل ، تزوير جوازات سفر ، تزوير أوراق ، تهريب أموال ، غسيل فرنكات فرنسية بفرنكات سويسرية ، تهريب سلاح وتهريب أفراد عبر الحدود وعقد مؤتمرات سرية علنية وإخفاء مناضلين ، وقامت حرب ٦٧ ، وانتهز كورييل الفرصة كى يحيى مشروعه الصهيونى القديم ، مشروع ٤٧ (الثقة المتبادلة والألفة بين الشعبين العربى واليهودى والكادحين .. إلى آخره) . واستخدام الرطان الماركسى الجذاب لتمرير الإعتراف باسرائيل والتفاوض السلمي معها . وتحييد مصر وفقاً لمخطط دافيد بن جوريون مؤسس الكيان العبرى الإجرامى .

يكتب كورييل إلى الرفاق تحت عنوان «مذكرة للرفاق المصريين حول ضرورة مواصلة النضال من أجل السلام» :

«يجب أن نقول وبوضوح أننا ننطلق مع الغالبية العظمى للقوى التقدمية والاشتراكية فى العالم من الحقيقة الاسرائيلية باعتبارها شرعية (صياغة ركيكة لشرعية وجود اسرائيل) ، ويعتبر شيئاً مسلماً به أن اليهود فى اسرائيل يكونون كياناً قومياً له مثل كل المجموعات القومية الحق فى تقرير مصيرها وتكوين دولة قومية .

مع أن كورييل يدين الاتجاهات القومية بشدة عند الجماهير والرفاق ، ويعتبرها انحرافاً قومياً ، لكن فى حالة إسرائيل فالقومية هنا قومية أممية رشيدة .

ذلك يبقى صحيحاً حتى إذا أعلنا أن إسرائيل واقع استعمارى لأن كثيراً من الدول القومية أصلها وقائع استعمارية .

هل على المناضل الأممى واجب سوى

محاربة الامبريالية وهدم واقعها .. هذا لا ينطبق على اسرائيل بالطبع .

ونعتبر أيضا أن الجماهير اليهودية لها مثل كل شعوب العالم الحق فى الأمن (!!) وأن تتطلع إليه .

مع أن الجماهير اليهودية نفسها هى التى حرمت الجماهير العربية من الأمن منذ قيامها ، المهم هو الشعب اليهودى وأمن الشعب اليهودى وحق الشعب اليهودى أما الحق العربى فهو حق فالصو وترسو عند كورييل .

ولهذا فنحن لسنا مستعدين لبحث الحلول ليس فقط التى تقترح إبادة اليهود (مع أن اليهود هم الذين أبادوا العرب) ، لكننا ضد الحلول التي تدعو إلي أن تفرض عليهم وضعاً أيا كان لا يرغبون فيه ، وإذا حدث هذا فمن السهل أن نتصور أن الاسرائيليين سوف يحاربون حتى النهاية بنفس العزم وبوسائل أكثر قوة بكثير (!!) للدفاع عن حقوقهم ، ولهذا فإن أى سياسة واقعية وتقدمية لا يمكن أن يكون لها هدف إلا نهاية النزاع بطرق سلمية .

هناك سنلاحظ فخر كورييل الخفى بقوة اسرائيل ، وكيف ستقاتل أعداءها حتي النهاية ، ثم يلجأ كورييل إلى تعجيز أولئك الذين يدعون إلى الكفاح المسلح وإلى الحرب كطريق وحيد لحل النزاع ، ثم يكمل كورييل فى تضليل لا مثيل له .

إن الشعب الاسرائيلي متعطش ويتطلع إلي السلام والأمن ص ١١٦ . وإذا سمينا الأشياء بمسمياتها فهذا الشعب المدجج بالسلاح ، وهذه الدولة التى لا يوجد بها «مدنيون» ، وكل سكانها مجندون فى جيش الدفاع ، لا تتطلع إلى السلام إنما تتطلع إلى الإذعان والاستسلام العربى . ويكمل كورييل :

ولهذا يجب أن نتحرك بسرعة في إتجاه قوى السلام الاسرائيلية وتقويتها لعزل الايدلوجية الصهيونية (حديث التطبيع القديم الجديد عن قوى السلام الاسرائيلية وأن اسرائيل ليست شيئاً واحداً .. إلى آخره) .. ولهذا فإن التقدميين العرب الذي سيكافحون للإعتراف بقوي السلام الإسرائيلية لا يجب أن يشعروا بالحرج أو بالخجل ، لأنهم سيصبحون المدافعين الأكثر قدرة والأوضح رؤية والأكثر شجاعة عن المصالح العربية ، أما العناصر المتطرفة المعادية لقوى السلام العربية والذين يظهرون كوطنيين غير متهاونين فى حقوق أوطانهم ، علينا النضال ضدهم ، لأنهم فى حقيقة الأمر الحلفاء الموضوعيون للقوى العربية والإمبريالية والرجعية الإسرائيلية .

الحقيقة أن مسألة دعوة كورييل للرفاق بألا يخجلوا أو يشعروا بالحرج تذكر المرء بالقوادة العجوز التى تسهل السقوط فى الوحل .

وبعد رحيل عبد الناصر عام ١٩٧٠ ، يبعث كورييل إلى الرفاق بماسمى «بعد عبد الناصر - أفكار حول تسوية سلمية



للنزاع العربي الاسرائيلي : نبدأ بتحديد جانب معروف معرفة ضئيلة جداً من الواقع الاسرائيلي لكنه يحدد كل الجوانب الأخرى وهو أساسي ، يتم النظر إلى الشعب الاسرائيلي دائماً باعتباره كلاً واحداً من حيث التطلعات والأهداف . وهذه نظرة خاطئة للغاية فداخل الشعب الاسرائيلي يوجد عنصران تختلف بل وتتعارض أهدافهما وتطلعاتهما ، العنصر الأول يتكون من الصهيونية الحقيقية أي أولئك الذين ذهبوا إلى اسرائيل بهدف واحد هو بناء دولة يهودية هناك ، وهم يمثلون في اسرائيل أقلية ضئيلة والعنصر الثاني الذي يكون غالبية السكان اليهود في اسرائيل يتكون من اليهود الذي أقاموا هناك بسبب أنه ليس لهم مكان آخر يذهبون إليه ، وإذا كان الأولون يكونون الأقلية والآخرون الغالبية ، فكيف حدث أن النفوذ الصهيوني كان غالباً بهذا الشكل ؟ هذا يرجع إلى أن الصهاينة يشغلون أماكن القيادة ، أما الآخرون فهم الكادحون والكادر والذين يمارسون مهناً حرة إلخ . لقد قبلوا نفوذ الأقلية الصهيونية بالقدر الذي شعروا فيه منذ بداية وجودهم بتهديد جيرانهم العرب ، وهذا التهديد هو الذي يكون أداة السيطرة الصهيونية على مجموع السكان .

ها هو ذا كوربيل يتحدث عن الغالبية العظمى من الشعب اليهودي المسكين المسالم (!!) الذي جاء ليطرد الفلسطينيين من شدة طيبة قلبه فهم مهنيون وكادحون ... متناسياً أن الحكومات الصهيونية تصعد إلى السلطة بأصوات هؤلاء ، وأن الصهيونية هي شريعة كل من أتى إلى فلسطين ، ثم ها هو ذا كوربيل يناقض نفسه في نفس البيان .

وعندما نتحدث عن السلام والحل السياسي للأزمة هناك رؤية مختلفة في مصر واسرائيل (صادرة في هذا البلد من أولئك الذين يدعون لهذا الحل) . ففي مصر يعتبرون أن كل شيء سيسوى بإعادة الوضع إلي ما كان عليه قبل ٥ يونيو ٦٧ ، ويجب أن نفهم أن الجانب الاسرائيلي لا يمكن أن يقبل ذلك . ومن الضروري أن ندرك أن الجماهير الاسرائيلية عاشت وساوس الإبادة . ويجب أن يكون مفهوماً لدينا أنه إذا كانت البلاد العربية تعتبر أحداث يونيو ٦٧ «عدواناً» اسرائيلياً فإن الرأي العام الاسرائيلي كله يعتبرونها

حرباً دفاعية ضد عدوان عربى جرى إعداده ، فالجماهير الاسرائيلية إعتبرت أن الحرب لم تكن عدواناً من اسرائيل ، وإنما نضالات من أجل حياة بلادهم . فهل يمكننا بشكل معقول أن نطلب منهم العودة إلى هذا الوضع ؟ وضع يخاطرون فيه بأن يصبحوا مهددين بالفناء . وضع عليهم أن يتخلوا فيه عن ثمار تضحياتهم الكبيرة دون أى مقابل ؟ لا يجب أن نخدع أنفسنا ..

الحقيقة أن كوربيل مارس خداعه علينا ، وظل يمارس خداعه حتى قبل مقتله بساعات قليلة ، فقد كان على موعد لمقابلة عصام الصرطاوى حتى يدبر لقاءات العار بين عتاة الصهاينة الذين أرتدوا مسوح الحمائم كذباً وبهتاناً ، وممثلين من منظمة التحرير ، والرصاصات الغامضة التى أردته قتيلاً ، كانت تقصد أن يموت كوربيل وأن تموت أسراره معه ، وكوربيل نموذج لرجال من ذوى الذكاء الحاد والإرادات الحديدية ، نوع من الرجال من عينة عبد الله فيلبى ولورانس العرب ، فلورانس كان يتصور نفسه مبعوث رسالة سماوية لرفعة الامبراطورية الانجليزية ، وكما احتمل لورانس الصحراء اللافحة وهو فوق جمل أو على الأقدام ، يذرع الجزيرة العربية بحرارتها الرهيبة ، احتمل كوربيل زهرة الفتيات المسحوقة الطرد والتشرد والسجن ، وقد نذر نفسه ومواهبه وصبره الطويل وأمواله الطائلة لهدف واحد ، وهو خدمة اسرائيل ، لقد استخدم كوربيل كل دهائه وكل نعومته لإخفاء هدفه، لكن صهيونية كوربيل ظلت صارخة وعلى الدوام . ■

قناديل الحرية

● الشرط الاساسى للإبداع ، هو أن يشعر الأديب انه جزء من إعماقه ، وأن الحرية معناها امكانية الشك وامكانية الوقوع فى الخطأ ، وامكانية البحث والتجريب ، وفى النهاية امكانية أن يقول لا لكل سلطة ادبية كانت او فنية او سياسية .
الفنان الأيطالى
اجنازيو سيلونى

ايها الأمراء ايها الوزراء اسمعوا وعوا ..لئن ماتت الحرية اليوم فستبعث من جديد غدا.
محمد فريد وجدى

د.محمود فهمي حجازي

يتابع مجمع اللغة العربية بحث كلمات وتعبيرات في الاستخدام العربي المعاصر، ينظر فيها من جوانبها الصرفية والتركيبية والدلالية، ويصدر قرارات بشأن تلك «الألفاظ والأساليب» وينشر المجمع هذه الكلمات والتعبيرات مع قرارات المجمع والمذكرات اللغوية بشأنها، وقد ظهر منذ أسابيع كتاب «الألفاظ والأساليب» ، الجزء الثالث متضمنا مئات الكلمات التي لا نجدها في المعاجم العربية القديمة ولكن الحاجة اليها واضحة للتعبير عن الجديد في العلوم والحياة المعاصرة، وبعض هذه الكلمات طرأ عليه تغير دلالي كبير فكان من الضروري أيضا أن ينظر فيها المجمع.

تستخدم اليوم في إطار نظم الاتصالات الحديثة كلمات مثل شفرة وشفّر وتشفير ومشفّر ومشفّرة . دار بحث هذه الكلمات بدلالاتها في مجال الرموز الخاصة التي تستخدم للتفاهم في إطار مجموعة محددة، وهو معنى جديد نسبيا. أما المعنى القديم المذكور في معاجم التراث العربي فقد ارتبط بدلالة الشفرة على حد السيف وحد السكين والسكين العظيم وبدلالات أخرى . وكان الاستخدام الجديد لكلمة شفرة قد بدأ في المراسلات الدبلوماسية بين الأجهزة السياسية للدولة، ولكنها اليوم دخلت نظم الاتصالات في عصر المعلومات والتقنيات المتقدمة ، وأصبحنا نستخدم في هذا المجال الفعل شفر والمصدر تشفير واسم المفعول مشفر ومشفّرة بدلالات جديدة محددة، ولكنها كلمات متداولة على المستوى العربي ومقبولة في العرف المعاصر .

كلمة الشفرة بحثت من حيث أصلها اللغوي ، وأغلب الظن أن لها تاريخا طويلا عبر اللغات، عرفنا الكلمة مع قيام وزارة الخارجية في مصر الحديثة مقابلا مباشرا لكلمة chiffre الفرنسية الدالة على الكتابة السرية التي تستخدم رموزا خاصة غير مألوفة . وتلك الكلمة الأوربية معروفة بصيغ مختلفة ، منها في الانجليزية cy-pher وفي الالمانية die ziffer وترجع في واقع التاريخ اللغوي الى الكلمة العربية صفر، باعتبار دلالتها على أول رمز في جدول الأرقام العربية، ثمّ تغير دلالتها بعد ذلك ودار نقاش طويل حول الكلمة في الإطار العربي أو في اطار الكلمة المعرّبة ، وكان قرار مجمع اللغة العربية بقبول كلمة شفرة بدلالتها الجديدة المحددة في مجال تقنيات الاتصالات المتقدمة، قبلها مع ضبطها بالفتح في هذا المجال، وبالتالي أصبحت لدينا بهذا المعنى الجديد كلمات متعددة مأخوذة منها، منها الفعل شفر والمصدر تشفير واسم المفعول مشفر ومشفرة . وهذه الكلمات جديرة بأن تدخل بهذه الدلالة الجديدة المحددة معاجمنا العربية الحديثة .



غريب

شعر
أماني حاتم بسيسو

سائرٌ في عتمة الدَّرب، وأحلام الغريب
كوميض البرق، ما إن تنجلي حتى تغيب
وتُحيل الفجر وهماً، والدجى ظلاً كئيب
فترى القلب خواء، فيه لليأس دبيب

* * *

شاعر غنى على قيثارة الكون الرحيبْ
لحن عشق قد تسامى، فيه يحتارُ اللبيب
عشق المجد، وروح الشعر لو غنيِ تطيب
ونسيم الصبح يصفو، وصدى اللحن يُجيب

* * *

كم شدا للحب لكن ضيع الحب الحبيب
ورماه القوم - جهلاً - من بعيد أو قريب
أحرقوا فاه وكفيه، بجمر ولهيب
فغدا الشاعر قلباً صامتاً، دون وجيب

* * *

مَلَّ ظلم الناس، جهل الناس، والعزم السليب
ومضت تذروه ريح اليأس في جو المغيب
فانثنى يعطو، وحيداً، ليس يلوي أو يُجيب
ويزَجِّي خطوه في القفر، والقفرُ جديب

* * *

لو تراه الآن يهذي قلت: ذا شئ عجيب
لست تدري هل يقولُ الحق، أم ليس يُصيب
ليس يُشجيه - وإن راق - غناء العندليب
هل ترى حق لقلب، هَدّه طول النحيب
أن يرى شدو هَزَار، مثل أصوات النعيب !



لوحة الرحيل من النوبة – تحية حليم ١٩٦٢

الجنينة والشباك

بقلم
يحيى مختار

«الجنينة والشباك» بالنوبة القديمة هى قريتى التى ولدت فيها عام ١٩٣٦ بعد ثلاث سنوات من التعلية الثانية لخزان أسوان، والذى اختزل مواسم العمل فى الأرض إلى موسم واحد من ثلاثة شهور، فكان على الذين بقوا فى القرى بعد هجرة القادرين على الكسب إلى الشمال، أن يملأوا الشهور التسعة بالغناء والرقص وإقامة موالد أولياء الله الصالحين «سيدى كبير» و «الشيخ عبدالله» و «سيدى حسن أبوجلابية» وينشدون «السفين» فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، وان يحكى العجائز الحكاوى حول الكوانين وعلى المصاطب وكان على النساء والفتيات أن يغزلن الخوص أبراشا وأطباقا ملونة، ويزين الدور بالرسوم والزخارف يستوحين فيها جداريات المعابد والكنائس القديمة، ويلصقن على جدران الواجهات أطباق الصينى المزركشة.

جئت إلى القاهرة سنة ١٩٤٣ فى صحبة والدتى للحاق بوالدى الذى كان مقيما فى حى العرب بالمعادى جنوب القاهرة، جئت محملا برؤى ذلك العالم الجميل: النهر النوبى بعظمته وكبريائه واندفاعه.. غابات أشجار السنط على الشاطىء الريان، وأدغال النخيل الكثيفة بعراجين البلح كالثريات، أو كشخوص غرقى يرفعون أيديهم طلبا للنجدة عندما ترتفع مياه النهر وقت الدميرة (الفيضان) وبعدها.. المراكب السابحة كالاوز فى النيل بأشرعتها البيضاء.. وعلى صواريها الأعلام الصغيرة الملونة والجلاجل النحاسية بصلصلاتها مع ريح الجنوب الواهنة، الدور المتناثرة فى كل نجع بألوانها الزاهية، ورسوماتها البديعة تقف مزهوة على طول الشاطىء تطل على النيل تباركه وتتبرك به. السكون الشامل كان يلف الوجود كله، حتى أننا كنا نسمع ثرثرات الذين يديرون «الونسة» على الشاطىء الآخر البعيد تحملها مياه النهر الساجى.. هناك.. كان الكون كله فى ديمومة تسبيح وصلاة.

● همى الحالى إعادة النوبة إلى مكانها فى الجغرافيا كما فى التاريخ.

جئت حى العرب ولم أكن أعرف كلمة واحدة عربية.. كانت غربة لغة ومكان، هذا هو «بر مصر»، عالم غريب مختلف تماما ومغاير لكل ما عشته: ضجيج وزحام .. عمائر شاهقة وسيارات مسرعة تنفث دخانا كثيفا، وعربات ترام تصدر صريرا عاليا مرعبا، وكارو وحناطير ودراجات.. دنيا مفزعة ومخيفة، بشر مختلفو السحن والملابس يتحركون لا تعرف مقاصدهم وفيم يسرعون ويزعقون، أسقطت فى هوة من البلبال والتوجس والخوف والوحدة. أى حصار كان؟.. بدا الأمر بمثابة زلزال.

البدايات الأولى

بدأت فى تعلم مبادىء العربية قراءة وكتابة على يد شيخ يدعى «الشيخ ابراهيم أبودراع» كان بذراع واحدة.. كان قاسيا



مسجد القرية - للفنان ادهم وانلى

ورهيبا.. كاد يصرفنى عن الدرس والدراسة، ثم التحقت بكتاب لشيخ ضرير يدعى إبراهيم مطاوع.. كان سمينا جدا ويكرش ممتد امامه، بقيت فى الكتاب لمدة عامين حفظت فيهما جزئى عم وتبارك.

تعلم العربية الفصحى فى الكتاب وعلى يدى الشيخين، والتعامل مع اقرانى بلغة أخرى هى العامية فى الحى وفى المدرسة بعد ذلك كان تحدى الاول وكان بدء تجاوز الزلزال.

ولكن ما كان مربكا لى فى أول الأمر أننى فى البيت مع والدتى ووالدى واقاربى نتحدث طوال النهار النوبية، وفى الشارع بالعربية العامية وفى المدرسة بالفصحى، وظلت هذه العوالم المختلفة متجاورة ومتعايشة.

حقيقة أعاقتنى النوبية عن سرعة التقدم فى العربية، وان جعلتنى احتفظ فى أعماقى بعالمى القديم وايقاع الحياة فيه، ومغذيا وجدانى من العلاقة الموصولة بالأهل فى قرانا فى الجنوب وفى تجمعاتنا فى الشمال من خلال الجمعيات والمقاهى النوبية وباقى المناسبات من أعياد أو افراح ومآتم.

كانت صلتى الأولى بعالم القراءة بعيدا عن الكتب المدرسية من خلال جريدة «الأهرام» و«المختار» من «الريدرز دايجست» كان ابى مواظبا على قراءتهما، وكان يختبر مدى تقدمى فى الدراسة

وتعلم العربية بأن اقرأ له الجريدة وفقرات مما هو منشور فى مجلة «المختار» كنت أقرأ دون ان افهم كثيرا مما اقرأ، فمثلا لم أكن استطيع التفرقة بين كلمة «أعداء» و «اعضاء»، وكانت محاولة الفهم هى التحدى الثانى، فهم الواقع الجديد الذى اعيشه ولا اعرف عمق دروبه، وكذلك فهم العالم الواسع الذى تفتح القراءة نوافذه أمامى. فى المدرسة وقعت لى تجربة مثيرة، مدرس اللغة العربية كان قد اعد كراسة «التحضير» الخاصة به على شكل كتاب، ثم قام بتحويل هذه الكراسة الى كتاب مطبوع بغلاف ملون جميل تحت عنوان «التعبير الحديث» ووزعه علينا مقابل خمسة قروش.. هذا التحول المثير العجيب لكراسة تتحول الى كتاب مطبوع متعدد النسخ يحمل اسم الاستاذ عبدالباسط بركات، هذا الاسم الذى اراه مجردا ومطبوعا، بدا لى ككل الاسماء التى اقرأها على باقى الكتب المدرسية وعلى صفحات الاهرام والمختار، هذا الاسم يتجسد دونهم جميعا فى عبدالباسط بركات الذى أراه واعرفه، وأنا لم أر الآخرين ولا اعرفهم ولكنهم يأتون الىّ من خلال كتبهم، بدا لى الامر أشبه بالسحر، تكون لدى رغبة قوية وعارمة لأن أضع أنا أيضا كتابا.

المطبعة ودورها في نشر المعرفة

لم أكن أعرف ما هى المطبعة، وكيف تطبع الكتب والصحف، ولأننى لم أنشأ فى المدينة أو حتى فى قرية من قرى «الشمال» فظللت فى قريتى غفلا لم تتسرب إلى معلومات تكمل أو تضىء لى أية معارف عن الحياة، فظلت الأشياء محجوبة عنى باقية فى منطقة من مناطق الظل.. وفى الشمال بدأت تهطل على جذاذات متفرقة فى كل لحظة بدفقات من المعارف الجديدة حتى كانت كالسيل، وبدأت أمارس فى وحدتى لعبة تركيب هذه المتفرقات فى سياقات أفهمها.

بدأت أمتلك أشياء جديدة كل يوم لتضاف إلى ما كنت أعرفه من عالمى القديم، حيث كانت الأشياء قريبة جدا، أوراق الشجر وروائحها بدء نمو النبات عندما يشرع فى شق التربة، الرمال.. الزلط.. الطمى ورائحته.. الماء والنهر والموج.. اعشاش العصافير.. الحيوانات ،

كل ما يحتويه عالمي ذاك، وكان ثمة تحول هام في حياتي عندما سكن ابن خالي محمد الماوردي بجوارنا منتقلا من حي الناصرة في قلب القاهرة، علي يديه تعلمت قراءة روايات الجيب، ويقدر ما بهرني ذكاء شرلوك هولمز وحبكة روايات «أجاثا كريستي»، فإن روايات «أرسين لوبين» ملكت عليّ نفسي، هذا البطل الذى يعرض نفسه للخطر من أجل أن يأخذ من القادرين ليعطي للفقراء، محولا قبح السرقة من الوجهة الأخلاقية والدينية إلى عمل مشروع يتعاطف القارىء معه، لقد سلم «موريس لبلان» بأن هناك ظلما واقعا وقائما في العالم، إن هذا الحس الإنساني الرهيف والذى يشكل الخلفية الشفيفة لكل رواياته البوليسية المحبوكة والمشوقة أسرتني في سنوات مراهقتي، كان فهما ساذجا للعدالة، ولكنه عمق وعيي بما يكابده أهلي في قريتي الفقيرة وجيراني حيث أقطن، وأشعرني بمدى حاجة كل إنسان للمساعدة، حتى أولئك الذين يبدون أقوياء. استقر في يقيني أن كل إنسان في هذا العصر في مسيس الحاجة للمساعدة والمساندة، وبعد سنوات تعمق هذا الإحساس ونضج في رؤية أكثر اتساعا بعد التحاقي بقسم الصحافة بجامعة القاهرة حيث انفتحت قراءاتي في مجالات أخرى غير الادب في الفلسفة والتاريخ، وتعرفت على الفكر الماركسي ودرست كتابات ماركس وانجلز وفيورباخ وغيرهم، ووجدت الاشتراكية العلمية صدى عميقا لها في نفسي، وكان المناخ الذى ساد مصر في الخمسينات بشعارات ثورة يولية والاصلاح الزراعي ثم التأميمات والاقتصاد المخطط، وشعارات الاشتراكية العربية وإذابة

● لولا الطابور الطويل من المبدعين والمفكرين العظام لما خرجت كتاباتي للوجود.

الفوارق بين الطبقات ومناهضة الاستعمار والأحلاف العسكرية، ما جعلت نظرتي للحياة تختلف، وينمو في داخلي الحس الطبقي، مما جعل زاوية الرؤية عندي تنفرج لتكون هناك رؤية شمولية لحركة الانسان في الوجود.

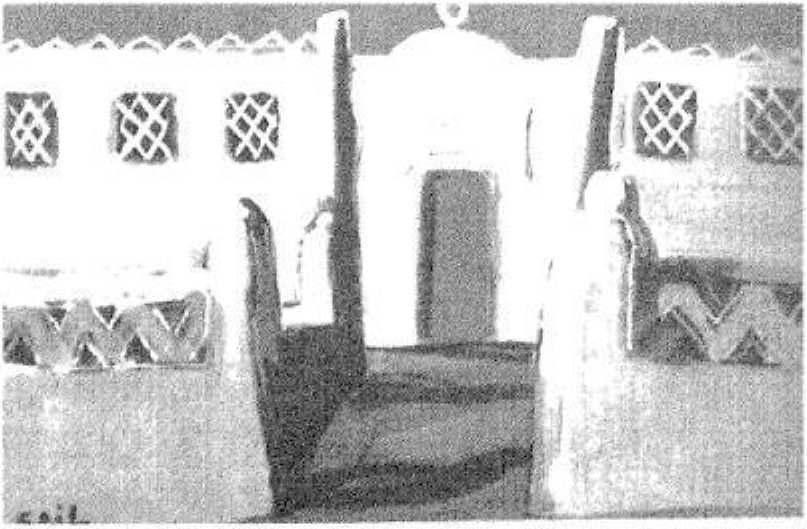
قراءة في شتى فروع المعرفة

وهكذا أوصلتني روايات الجيب إلى شاطىء آخر، لتكون بداية دخولي إلى عالم القراءة الجادة الرحبة بعدما رسخت عادة

القراءة :روايات الهلال ذلك الانجاز الرائع لجورجي زيدان، ثم سلسلة «كتابي» لحلمي مراد، والتي صدرت في صورة قشيبة جذابه، عمقت حبي للقراءة وفتحت لي آفاقا أخرى واسعة نحو التعرف على ابداعات الثقافات الاخرى، وخاصة الغربية، ثم أردف السلسلة بسلسلة اخرى هي «مطبوعات كتابي» خصصها للأعمال الكاملة لروائع الروايات العالمية، وعرفت الطريق إلى دار الكتب في ميدان باب الخلق بعد معرفتي الدقيقة «بسور الازبكية» وانفتحت امامي عوالم مثيرة جديدة متنوعة، وقرأت بنهم شديد في شتى فروع المعرفة من فلسفة وتاريخ ونقد وقصص، كنت عطشانا.. قرأت لمعظم الكتاب المصريين بلا استثناء، الكبير والصغير، والقديم والجديد، تاثرت جداً بعالم الفقراء والمهمشين عند طه حسين «المعذبون في الأرض» وتوفيق الحكيم في عودة الروح وفي مسرحياته بجواره الساحر المعجز، كما دخلت عالم استاذنا العظيم نجيب محفوظ ويحيى حقي الفنان الكبير، واللذين احدثا انقلابا كاملا في اللغة وهي من اعظم الانجازات إضافة إلى إبداعهما الروائي والقصصي، ولتقترب في أعماقي أعمالهما مع يوسف إدريس عبقري القصة القصيرة مع أعمال الكتاب الأوربيين ، وحيث كان لهم الفضل في أن يكونوا مقدمة طبيعية لأجوس في عالم الكتاب الأوربيين والروس.

وكان تاثري شديدا بتشيكوف وديستويفسكي ، اللذين قرأت اعمالهما الكاملة اكثر من مرة ومازلت ، لقد غرقت في عالم شديد الخصوبة والانسانية، ووقعت في أسرهما بالرغم من اختلاف رؤيتهما.

كما كان تاثري شديدا ومازال بوليم فوكنر في رواياته الرئيسية الثلاث: «الصخب والعنف» و«سارتوريس» و«قداس لراهبة» «يوكنا باتوفا» هذا المكان الموجود بالخيال بلا وجود، مكان اسطوري اصبح واقعيا بالابداع، هذه المقاطعة الخيالية التي خلقها فوكنر ليجري عليها احداث رواياته لتشفى بالحياة والحركة.. هذه المقاطعة استدعت عندي قريتي «الجنينة والشباك» في النوبة القديمة، التي كانت موجودة بالفعل لا بالخيال في أعماقي، عزمت ان توجد بالفعل وبالقوة ليحقق



المدخل لبلاد النوبة -للفنان سيف وانلى

وجودا كاملا واقعيا من جديد.. وكان ذلك طريقا لأن أدرك ان تجربة الإنسان النوبى تختلف عن أية تجربة أخرى، فبلاد النوبة فى اقصى جنوب مصر اصبحت تحت مياه بحيرة السد العالي، ليست اطلالا دارسة يمكن العودة إليها كما كان يعود العربى القديم إلى مرابط القبيلة بعد ارتحالها، انها مكان لا يمكن أن يستعاد فى الواقع، ولكن الحنين والتذكر والامساك به كتابة بعد تبدده، استعادته فى الجغرافيا كما فى التاريخ ، أصبح همى الخاص انقاذ الذاكرة النوبية لكى لا تغرق فى مياه البحيرة مع الوجود الذى غرق فيها، مدركا أن يدوم هذا الخيط النوبى الأصيل بخصوصيته، وتفرده داخل نسيج الوطن، لأنه منه، وهو أحد مكوناته، يمده بنسغ الاستمرار والتواصل حائلا دون انقطاع تاريخ مصر فى حقبة مهمة من وجوده، والذى تحمله النوبة فى أعماقها منذ بدء نبض الحياة فى الكون عند ضفاف النيل، تحمل فى أعماقها العصر الفرعونى والمسيحى والرومانى والاسلامى .. استمرار النوبة هو بقاء هذا الخيط الخاص والعام فى مكونات الوطن، يثريه ويغنيه ، يزيده قوة، يضيف إليه ويأخذ منه، ولكى لا يكون جيلنا أو عصرنا هو عصر اندثار النوبة التى ظلت باقية تقاوم الدهر منذ أجدادنا الفراعنة حتى اليوم،

لن يكون هذا العصر وصمة لنا جميعها.

تغير كوني للنوبة

إن ما حدث لبلاد النوبة هو تغير كوني، ولن اقول ان النوبة اصبحت كقارة اطلنتس المفقودة، فمازال البشر الذين استوطنوا النوبة منذ بداية الخلق موجودين، يحملون في اعماقهم نسغ الحياة القديمة التي لم تختلف كثيرا عما كانت عليه منذ بدأ الإنسان الاول حياته في مدارج طفولته في ذلك العصر القديم ادواته وطرائق عيشه عزلة المكان الذى لم تخترقه الآلة.. اللغة الخاصة والتي هي امتداد طبيعي للغة الانسان المصري القديم، والتي لم تستطع اللغة العربية القضاء عليها كما فعلت في لغات اخرى كثيرة، فمازال الإنسان النوبي في مجتمعه سواء في المهجر الجديد أو داخل أسرته في بيته في المدينة يعبر عن نفسه بها، أغانيه وأفراحه عدودة الموت وحكاويه وطرقه، ومازالت هذه اللغة حية تحمل تراثا وقيما وعادات شديدة الخصوصية، مرتبطة بالنيل الذى كان يعبد، ومازال النوبي يقدسه.. يحبه ويخشاه.. لا يلوثه ولا يجعل شيئا يحجبه عنه. إنها منظومة كاملة وتجربة بشرية فريدة لم يلتفت إليها ولم يعتن بها أحد، ولم يعانيها إلا من عاشها.

السينما المصرية والمسرح وأخيرا التليفزيون لم يقدم الانسان النوبي – وهي من اخطر أدوات التعبير – إلا على شكل خادم اسمر أو اسود يتمنطق حزاما احمر ويضع على رأسه طربوشا احمر وينطق العربية بشكل مضحك، ليس هذا هو النوبي ابن الحضارة العريقة وصانعها، تماما مثلما يقدمون ابناء الصعيد في بعض المسلسلات. وإذا كنت احاول ان استعيد المكان الأول الطفولي وفضاءه، أن استعيد الهارب المتبدد وما قوضه الزمن فان نظرتي لتراث اهلي النادر والذى هبت شعوب العالم لانقاذه والمحافظة عليه من الغرق والاندثار فاقامت له متحفا من خلال اليونسكو، فان السؤال مازال يلح عليّ:

أين مكاننا ونحن الذين ظللنا حراسا لهذه الكنوز خلال الحقب الطويلة؟

في تقديري أن الأدب النوبي ينبغي عليه أن يعبر عن هذه التجربة الإنسانية وعن معاناة الإنسان المصري الذى اقتلع

من جـذوره فى تلك البـقـعـة من أرض الوطن. لم تتعرض طائفة من البشر- فى حـدود علمى- لما تعـرض له النوبى، والكاتب إذ يقـبض على هذه الجـمـرة المتقدة، إنما يعرض لها من خلال تجربته التى عاشها هناك فى طفولته وصباه وشبابه، ومن خلال ثقافته التى تشربها عبر لغة مغايرة للغته الأم، يقدم الكاتب النوبى ابداعه الخاص هذا لبنى وطنه الذين لا يعلمون شيئا عن هذه البقعة من أرض وطنهم، إن معاناة الإنسان النوبى هى جزء من معاناة الإنسان المصرى الذى يلحقه نفس التهميش.

هناك أجيال سوف تأتى لاشك لم تعان من التهجير ولم تعش فى النوبة القديمة وسيكون لها تجاربها الخاصة، وأن المرارة التى يمكن ان تلحظ فى بعض الكتابات النوبية لا تمس السد ولكن تشير إلى الإهمال وسوء الإدارة التى عولجت بها قضية الإنسان هناك، تماما كما هو حادث فى قضايا السيول فى الجنوب فى قنا وسوهاج وغيرهما مثلها فى انهيارات المنازل والعمارات فى الزلازل ونحن جميعا خضنا معركة بناء هذا السد الذى كان ولايزال لخير مصر كلها والذى خضنا حرب ٥٦ التى فرضت علينا عقابا لنا على تصميمنا على بنائه كضرورة فى مسيرة تنمية وتقدم بلادنا.

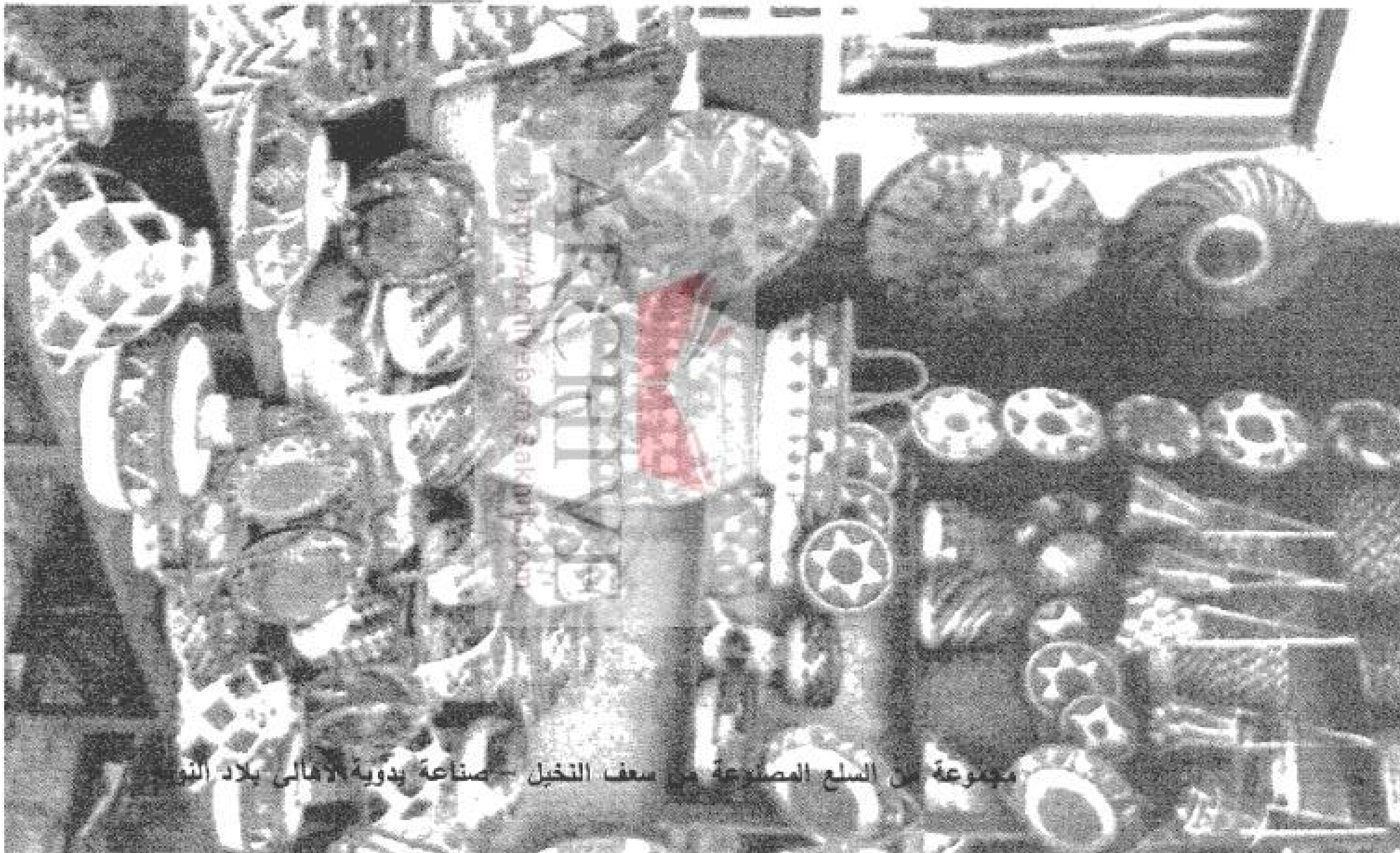
للكتابة النوبية خصوصية ترتكز على خصوصية مكان ذى جغرافيا وطبيعة متفردة ، هى التى أبدعت معمارا خاصا للبيت النوبى ، ينتمى فى أصوله الى العمارة الفرعونية ، والنيل لدى الكاتب النوبى مثل الحارة لدى عميدنا وأستاذنا

● لا تعنينى الحداثة أو قضايا التجريب ويستفزنى تخريب الثقافة والابداع بالدعاية الاعلامية

نجيب محفوظ . النيل هذا المستكين المغلوب على أمره هنا فى الشمال المروض والملوث أمره فى النوبة مختلف ، هو هناك الأفريقى الهادر ،هو الملك الذى حمل موسى فى مهده ونجاه من فرعون يسكنه القوم الأخيار الذين هم سلالة الأجداد الذين فروا فى العصور السحيقة من الاضطهاد فرفعوا صفحته كما ترفع السجادة واختفوا تحته .. النيل لا يدنس هناك .. النيل علم النوبى الجمال والطهارة والأمانة ، ولانه محاط بهالات الاجلال

والقداسة لذا تقف البيوت النوبية فى صفوف متراصة موازية للنهر ليرى النوبى النيل فى اصباحه وحين يمسى، كل ذلك خلق قيما وعادات وأعرافا وقصصا وحكايات واساطير ، وخلق اشكالا خاصة من الفنون النوبية. النقوش والأشغال اليدوية .. الجداريات الخاصة فى المعابد والكنائس والتى تحمل أصداء الفن الفرعونى والقبطى والوثنى .. العمارة .. كل هذا و غيره هى خصوصية ثقافية وحضارية امتزجت فى وجدان الإنسان النوبى ضاربة فى عمق جذوره المصرية الفرعونية والقبطية والإسلامية ومن قبلهم الزنجية . ومازال مبدعو النوبة باستمراريتهم يشكلون تيارا فاعلا وحضورا بليغا فى الحاضر الثقافى باعتباره رافدا خصبا يعمق نهر الإبداع المصرى .

لم تكن الكتابة عن النوبة وناسى فى قرانا القديمة فى البؤرة الواعية من توجهى، فقد كان بناء السد العالى حلما قوميا استبد بنا، ووقع العدوان الثلاثى وانخرطت مع زملائى من طلاب جامعة القاهرة فى كتائب الجامعة لصد العدوان، وظلت النوبة متوارية خلف الإطار الوطنى الذى يحركنا، وتحقق حلم بناء السد، ومعه جاء الغرق والتهجير، وكنا نعى أننا سنقتلع من جذورنا، ورغم ذلك قمنا قومة رجل واحد لبنائه ولندافع عن حقنا فى تطوير حياتنا نحن حفدة البناة العظام، ولكنى كرهت البيروقراطية والإهمال وعدم الإدراك الواعى والإحساس بالمسئولية القومية والإنسانية التى عالجت اوضاعنا، هذه البيروقراطية وقصور الرؤية الذى تعامل مع الإنسان النوبى باعتباره كما ينبغى نقله من مكان لمكان يحشره فيه، ويكون بذلك قد أدى ما عليه.. لم تقف البيروقراطية لتنظر وتتأمل حياة هؤلاء الناس من وطنه، كيف يعيشون، ما هى عاداتهم وتقاليدهم ، ولم تكن البيروقراطية قادرة على تحسس طبقات التاريخ الذى يحمله وجدانهم، لم يعرف معنى وقيمة الموتى ورفاتهم لم يعرفوا مدى قداسة قبور الموتى التى توارثها النوبى عن اجداده الفراعنة، وما رسخ فى أعماقه من خشية اللعنة التى تصيب العابثين بها، ولذلك كان حارسا أمينا لها طوال حقب التاريخ ليكون هو الوحيد



مجموعة من السلع المصنوعة من سعف النخيل - صناعة يدوية لأهالي بلاد النوبة

الوفي الأمين لأجداده الفراعنة، فلم ينهبوا القبور ولا تاجروا في ممتلكاتهم، ولم يدنسوا قداسة الموتى، ولم يزعجوهم في مراقدهم الابدية، لم تفهم البيروقراطية شيئا من ذلك فلم تفكر في

● النوبة تجربة بشرية فريدة لم يلتفت إليها إلا من عاشها

ان ينقل النوبي معه رفات أهله، الذين شعروا انهم يتركون للطمي والأصداف والأسماك في البحيرة أجساد ذويهم، متخلين عنهم، وخائنين للعهد، وهي نفس البيروقراطية التي تعاملت مع العمارة النوبية بخصائصها الفريدة بفلظة وغباء، فدمرت جمالا نادرا وتاريخا معماريا اصيلا وموصولا بالعمارة الفرعونية لا يمكن تقدير قيمتها الفنية والتاريخية، ولا يمكن استعادتها ربما بدا ما اقوله رفاهية وحلما ساذجا في الظروف التي كانت تمر بها البلاد وترفا دافعه تعصب مقيت، ولكن يدحض هذا ما حطمه ذلك في وجدان الانسان النوبي، وقطع حقبة من تاريخه وذاكرته مشوها هويته ومكونات وجوده الروحي، سالبا الذاكرة المصرية في شمولها عنصرا هاما وأساسيا من مكوناتها .

«عروس النيل» وجائزة الدولة التشجيعية

وهنا اطرح سؤالا ساذجا، بعد ان قضى الأمر، لماذا لم تنقل قرانا حول البحيرة في مواقعها القديمة؟ تماما مثلما كنا نزحف نحو التلال شرقا وغربا مع كل تعلية للخزان؟

النوبة انبعثت وطفت من الأعماق تطالبني بكتابتها بعد ان غرقت فكتاباتي الأولى لم تكن تحمل هذا الهم، فأول قصة نشرتها باسم «البناء» في مجلة الجامعة كنت أدرس في قسم الصحافة بآداب القاهرة، كان ذلك عام ١٩٥٧ ولم يكن لها علاقة بالنوبة وقصة أخرى هي «قطة من العصر المملوكي» عن النكسة، متدثرة بالرمز، نشرها لي الراحل الجميل عبدالفتاح الجمل بجريدة المساء عام

١٩٦٩. وفى نهاية عام ١٩٧٠ كتبت «عروس النيل» أول قصة نوبية بعد رواية «الشمندورة» للصديق الراحل محمد خليل قاسم ولكنها لم تنشر إلا فى يونية ١٩٧٣ فى الملحق الادبى لمجلة الطليعة القاهرية، وكان لتأخر نشرها لمدة ثلاث سنوات كاملة ما اصابنى بالاحباط أنا المقل جدا فى الكتابة، توقفت تماما، ثم تحركت النوبة مرة اخرى فى اعماقى فنشرت حكاية للنسيان فى مجلة صباح الخير عام ١٩٨١.. ثم قصة واقعية نشرها لى الصديق الروائى جمال الغيطانى فى صفحة الأدب بالاخبار عام ١٩٨٥، وظلت مجموعتى الاولى فى الخزانة سنوات دون نشرها ودون كتابات اخرى، وللمرة الثانية كان الفضل للصديق جمال الغيطانى الذى أشرف فى فترة على اصدارات إدارة الكتب والمكتبات باخبار اليوم فصدرت المجموعة بعنوان القصة الأولى «عروس النيل» فى أكتوبر ١٩٩٠ لاحصل بها على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٩٢.. وهو جمال الذى زف إلى نبأ الفوز بها وأنا مغترب فى البحرين لمدة عامين ، إن صدور عروس النيل وقبل حصولها على جائزة كانت حافزاً قويا لأنجز رواية قصيرة وعدة قصص قصيرة لتصدر فى مجموعة «ماء الحياة» عن دار سعاد الصباح، وكان أيضا الصديق جمال الغيطانى وراء نشرها – ثم اخيرا فى مارس عام ١٩٩٧ صدرت مجموعتى الثالثة «كوبلاء» فى اصوات ادبية التى يرأس تحريرها الصديق محمد البساطى.

وفى النهاية يهمنى ان اقرر انه لا يعنينى مطلقا الجرى وراء موضات الابداع التى تفد إلينا من أليات واقع مغاير لحياتنا ومتطلباتها، لا يعنينى الحداثة او قضايا التجريب، كما يستفزنى تخريب الثقافة والابداع بالدعاية الاعلامية، همى ان اصل الى ناسى.. ان اعبر عنهم وعن معاناتهم كجزء من معاناة الشعب المصرى، ان اعيد النوبة إلى مكانها فى الجغرافيا كما فى التاريخ كما قلت ان يعود المجتمع النوبى بأصالته وزخمه إلى مواقعه القديمة حول توشكى وباقى القرى عند النيل مرة اخرى ليكون اكثر قدرة على إثراء الحياة المصرية ويواصل معها العطاء الانسانى . والعمل الفنى فعل فى الواقع يتحقق بالقوة أو بالوجود، ولولا الطابور الطويل من المبدعين والمفكرين العظام الذين قرأتهم فصاغوا وجدانى وتكوينى واثروا طاقتى الروحية فأعادوا ولادتى من جديد لما خرجت كتاباتى للوجود.

السينما

بين الاقتباس والابتكار

بقلم : مصطفي درويش





لم يكن شتاء العام الأخير من القرن العشرين قد قارب على الانتهاء حين فوجئنا بعرض عمل سينمائى جديد، دون تمهيد، اسمه «فيلم ثقافي»، وصاحبه شاب ، بغير رصيد من أفلام هو المخرج محمد أمين .

ولم يكن بيننا وبين رؤية هلال رمضان سوى بضعة أيام ، حين فوجئنا بعرض فيلم ، ثار حوله جدل لأكثر من عام، دون أن تتاح لنا فرصة مشاهدته فى القاهرة ذلك الفيلم هو «المدينة» لصاحبه المخرج يسرى نصر الله .

وكعهدنا مع موزعى افلام السينما المصرية، ما أن انتهى شهر الصيام ، حتى سارعوا الى اغراق جميع دور السينما، بأفلامهم وذلك بقوة القانون طوال أيام العيد .

وتلك الأفلام هي «فرقة بنات وبس» للمخرج «شريف شعبان» و «ليه خلتني احبك».. للمخرجة «ساندرا» و«الوردة الحمراء» للمخرجة «ايناس الدغيدى» و «الأجندة الحمراء» للمخرج علي رجب و «سوق المتعة» للمخرج سمير سيف و «الكاش ماشي» للمخرج طارق النهرى .

وأبدأ الحديث بفيلمي محمد امين ويسرى نصر الله لأقول أن كليهما افضل بكثير من جميع أفلام العيد لا استثنى منها شيئا .

مفتاح التسمية

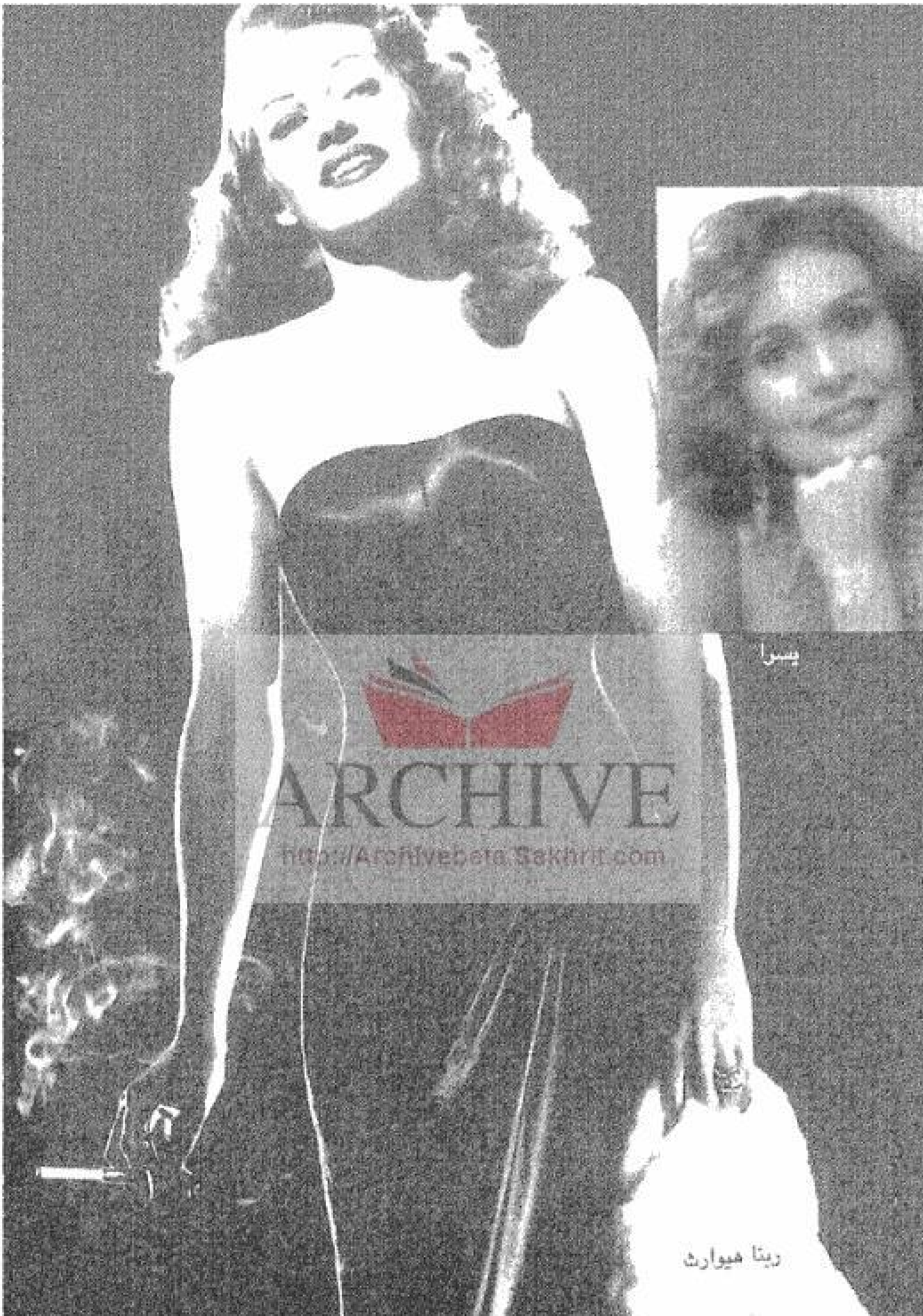
هذا ويدور «فيلم ثقافي» حول فكرة بسيطة للغاية طرحها المخرج ، وهو فى نفس الوقت كاتب السيناريو، دون إدعاء إنه صاحب رسالة يهدى بها الناس، كما يزعم معظم مخرجي هذه الأيام .

وباستثناء ظهور يسرا فجأة ممتطية عربة مرسيدس فارهة ، والفيلم يوشك على الانتهاء ، باستثناء ذلك فجميع أبطاله ليسوا نجوما .

وذلك التحرر من نظام النجوم يحسب لصالح فيلم أمين .

ويجدير بالذكر في هذا الموضع من سياق الحديث أن أحكى كيف لفت نظرى اسم الفيلم وملصقه ، على نحو أثار السؤال .

قبل عرض الفيلم بقليل ، التقت



يسرا

ريتا هيوارث



عيناى بملصق يشع شبابا وحيوية، وينحصر المكتوب عليه فى كلمتين هما «فيلم ثقافى» .

وتساءلت ما المقصود بهاتين الكلمتين ، ثم حاولت جاهدا أن أعثر على تفسير لهما فى رسوم الملصق الذى يعتبر بفضل تصميمه ، واحدا من اجمل ملصقات أفلامنا وأغلبها ، لسوء الحظ ، يعانى من فقر فى الابتكار .

فالملصق لم يكن عليه، إذا ما استثنينا اسم الفيلم ، سوى ثلاثة شبان يجْرون لاهثين ، وكأنهم على موعد، وكل واحد منهم فى يده أو فى حضنه شيء متصل بما عند الآخر .

فأحدهم يقبض بيده على شريط فيديو ، ورفيقاه أحدهما يحتضن جهاز فيديو ، والآخر يحمل جهاز تلفاز .

والحق ، اننى لم أجد تفسيرا لاسم الفيلم ، يشفى الغليل .

وبقيت على هذا الحال الى أن وجدته ، عندما أتيحت لى فرصة مشاهدته ، مع الجمهور فى إحدى دور السينما .

الفاكهة المحرمة

فما أن اجتمع أبطال الملصق الثلاثة على الشاشة وأخذوا يتحدثون فيما بينهم، حول شريط فيديو بطلته «سلمي حايك»، نجمة الاغراء حتى توصلت الى معرفة المقصود من الاسم ، لماذا اطلق على الفيلم، ولماذا يجرى الشبان الثلاثة فى الملصق وكل واحد من فرط السعادة يكاد يطير .

ففيلم ثقافى لا يعدو أن يكون مصطلحا تجرى به ألسنة الراغبين فى مشاهدة الأفلام الجنسية التى توصف بالزرقاء والمحظور رؤيتها الا خلسة فى السر والخفاء .

وكما سبق القول، فالفيلم جاءت عناوينه خالية من أسماء النجوم .

فالأدوار الرئيسية وهى ثلاثة، أسندها المخرج الى ممثلين ناشئين هم احمد رزق وأحمد عيد وفتحى عبد الوهاب .

ورزق شاهدناه فى المسلسل التلفزيونى الرجل الآخر ، حيث تفوق فى أدائه لدور صبى معوق عقليا .

أما عيد وعبد الوهاب فكلاهما لفت اليه الانظار الأول بأدائه فى «شورت وفانلة وكاب » والثانى بأدائه فى «صعيدى فى الجامعة الامريكية» .

امبراطورية الحواس

والثلاثة لا تراهم طيلة الفيلم ، إلا وهم يحاولون دون جدوى، مشاهدة



مخرج «فرقة ستات» مع هانى رمزى فى دور امرأة

فيلم مسجل على شريط فيديو ، لا لسبب سوى إنه ملىء بلقطات ساخنة ، ملهبة للحواس .

ففي كل مرة تبوء محاولتهم بالفشل ، ومع ذلك فلا يكلون ولا يملون مثلهم فى ذلك مثل سيزيف ومحاولاته مع الصخرة فى أساطير اليونان .

وهذا لا يعنى أن الفيلم من نوع المأساة إنه على العكس من ذلك تماما ، فيلم يدفع المتفرج بمواقفه الهزلية ، الى الضحك ولكنه ضحك كالبكاء فأنا، أغلب الظن إننى لست استثناء ، كنت مشفقا عليهم، وهم يلهثون ، مع حشد من الشباب ، فى أكثر من حى من أحياء القاهرة ، بحثا عن جهاز تلفاز وعن مكان آمن ، يشاهدون فيه فيلما رديئا مسيئا .

خيبة الامل

فإذا ما خاب سعيهم عندما تبين لهم أن الفيلم الموعود لم يبق منه سوى دقائق معدودات ، وأن سلمى حايك ، قد حل محلها ، ويا لخيبة الامل ، تسجيل لرئيس مجلس الشعب في أثناء قيامه بادارة إحدى الجلسات !!

اسرعوا ، لنتيجة هذه الخيبة وما صاحبها من احباط شديد، الى مغادرة القاهرة ، فى شكل تظاهرة ، نحو الريف بحثا عن شريط بديل فى حوزة عريس، ليلة زفافه ولايريد التفريط فيه لحاجته إليه، وهو يؤدى واجب الأزواج فى أول الأيام .

أقول كنت مشفقا وكيف لا أكون كذلك ، وأنا أرى شبابا فى زهرة العمر ، يضيع أحلى أيام حياته عبثا ، فى البحث عن متع زائفة ، على سبيل التعويض

ولعله من المفيد هنا ، أن أذكر أن

قصة الفيلم وإن كانت كاريكاتورا لحياة الشباب ، وأبطالها ، هم ايضا مرسومون فى صور كاريكاتورية ، إلا أن المخرج نجح فى كشف النقاب عما فى مجتمع مريض يضع رأسه كالنعامة فى الرمل ، من نفاق مستتر ، بغيض .

هجاء وثناء

أما فيلم «يسرى نصر الله»، فأحداثه لا تدور فى مدينة واحدة ، كما يوحى اسمه، وإنما فى مدينتين هما القاهرة وباريس وقبل مشاهدته، كنت قد قرأت واستمعت لآداء عديدة عنه، تتراوح بين الثناء الشديد، والذم الشديد وبين الحدين فى الوسط ، ثناء لا يخلو من ذم، أو ذم لا يخلو من ثناء

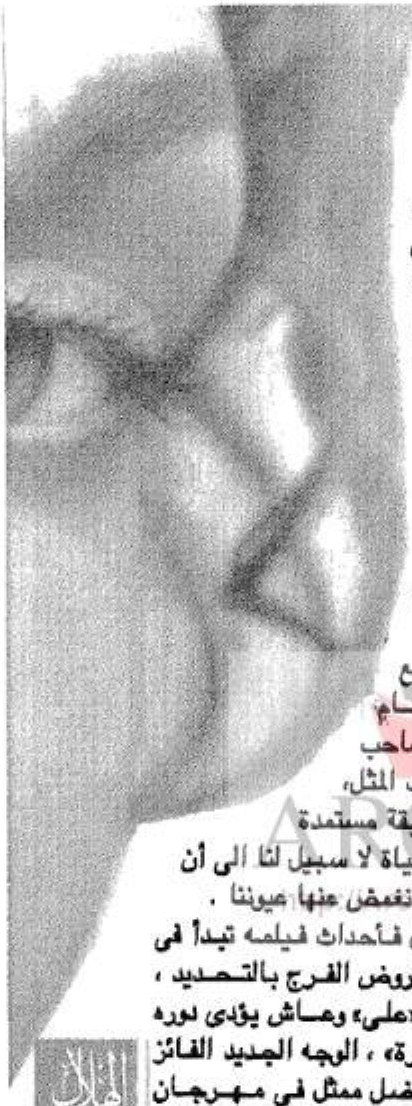
ولكنى لاحظت أن جميع أصحاب هذه الآراء المتباينة قد تأثروا بالفيلم بشكل أو بآخر ، فبقى فى ذهنهم وفرض عليهم أن يتحدثوا عنه فكان هذا برهانا عندى، وإن كان غير مقصود من أصحاب الآراء ، على أنه قد شذ عن بقية أفلامنا ، التى يرتفع معظمها لمستوى النقد ، وآية ذلك جميع أفلام العيد .

وهذا ولا شك ، نجاح من العدل والانصاف أن نقر له به مهما اختلف حكمنا عليه .

إنه جعلنا ، والحق يقال ، نترك مقالب الزبالة أو مقابر الأموات، لنخالط الأحياء فى العمار ، أصحاء كانوا أم معلولين .

فالمطلب الأول فى أى عمل فنى هو دبيب الحياة فيه .

نفاق وحياء



وفيلم «نصر الله» ، عمل سينمائى حى ، وإن كان قد افتقد الحياء فى رأى البعض، وتحرر من النفاق فى رأى البعض الآخر .

ويرجع ذلك الانقسام الى تناول صاحب الفيلم حب المثل، باعتباره حقيقة مستمدة من واقع الحياة لا سبيل لنا الى أن نتجاهلها أو نغمض عنها عيوننا .

وعلى كل فأحداث فيلمه تبدأ فى القاهرة ، وروض الفرج بالتحديد ، حيث ولد «على» وعاش يؤدى دوره «باسم سمرة» ، الوجه الجديد الفائز بجائزة أفضل ممثل فى مهرجان قرطاج السينمائى الأخير .

وتنتهى فى القاهرة ، وفى نفس الحى، بعد عودة «على» من باريس، حيث صادف أهوالا انتهت به حطاما ، فاقد الذاكرة ، هائما فى شوارع مدينة النور، وقد فقد كل شيء، الى أن جرى ترحيله الى مصر، فروض الفرج ، حيث

عاد سيرته الأولى انسانا ضائعا.

اما لماذا غادر القاهرة الى باريس ، فذلك لأنه كان يعشق فن التمثيل .

ولقد اتاح له عمله مع فرقة مسرحية ان يسافر معها الى فرنسا، وذلك بالتحدى لإرادة ابيه ، الذى كان يريد له ان يعمل فى إحدى دول الخليج براتب مجز، يتيح لاسرته تجاوز أزمة نقل سوق الخضار من روض الفرج الى سوق العبور .

ممثل وملاكم

وفى باريس لم نره ممثلا على خشبة المسرح وأنما ممثل فى حلبة الملاكمة، يقتسم أرباحه بالغش مناصفة مع عربى من شمال أفريقيا يستغل وجوده غير الشرعى على أرض فرنسا

ومما يحسب للفيلم أن صاحبه لم يصور باريس، كما اعتدناها فى الأفلام ، مدينة ساحرة، يتغنى بجمالها الشعراء .

وإنما صورها من وجهة نظر اللاجئين اليها ، خلسة من أفارقة وعرب . مدينة بدينة ، ليس فى قلبها رحمة ازاء الذين يعيشون فى قاعها ، معذبين بالفقر والحرمان ، والبعد عن الأوطان.

ومما يحسب له كذلك، مشاهد تحريك الجموح فى سوق روض الفرج.

فقد بدا تحركها تلقائيا دون أى افتعال ولا يفوتنى هنا أن أشير إلى مشهد على مع رفاق شلته ، وهم يحتسون البيرة، وفى أثناء الاستحمام، وأين ؟ فى مياه النيل .

حقا، كان مشهدا فريدا، طابعه الألفة ، واقتناص المتعة، وذلك رغم التوتر العصبى الذى يعانى منه الشبان.

كما لا يفوتنى أن أثنى على موسيقى الفيلم التصويرية فقد كان يغلب عليها الاقتصاد ، دون ضجيج ، عرفت فى المشاهد الدرامية، كيف تعبر عن الحزن والأسى معا .

واخص بالذكر مرثية موت الموسيقار الانجليزى «بنيامين بريتين».

واختيار آخر أغنية لحنها، الشيخ زكريا أحمد لأم كلثوم هو صحيح الهوى غلاب، خلفية معبرة عن حالة «ام على» النفسية ، وتؤدى دورها عبلة كامل - وهى تبكى مرارة فراق ضناها الوحيد .

ركود وغموض

والآن الى ما يحسب ضد الفيلم لاقول ان تسلسل المشاهد وتركيب بعضها فوق بعض ، فى نصفه الباريسى، المتكلم بالفرنسية ، لم

يسرى نصر الله مخرج «المدينة»



يسيرا باتصال مقنع ومريح ، لا يقطعه تخلخل وركود أو غموض وحشو لا طائل تحته .

وفوق هذا فاضافة مشهد النجمة يسرا ، ممتطية عربتها المرسيدس ، وهو مشهد سبق أن فوجئنا به في فيلم ثقافي ، تلك الاضافة لم تخدم الفيلم، ان لم تكن زادته غموضا .

وأخوف ما أتخوفه الا يكون ثمة هدف من اضافة مشهد يسرا ممتطية المرسيدس في الفيلمين ، وكلاهما يقترب من الختام ، سوى الاعلان .

وفضلا عن «فيلم ثقافي»، والمدينة فيسرا تظهر في فيلم ثالث« الوردة الحمراء» ولكنه ليس ظهورا عابرا وانما رئيسيا وفيه تلعب دور غانية ترقص وتغني مثل «جيلدا» أيام زمان .

أين الرقص والغناء ؟

بحر الأساطير

على شاطئ بحر الاساطير في واحد من اجمل المنتجعات المطلة عليه، الا وهو منتجع «الجونة» حيث الحياة اللذيذة ، يعيشها اصحاب الملايين ومن يعيش في فلكهم من المحظوظين ولم أقل مثل «جيلدا» اعتباطا ، فـفيلم الوردة الحمراء مأخوذ عن فيلم ، جيلدا ، أو في أحسن الأحوال متأثر به الى حد كبير .

ويبدو ولع «ايناس» بجيلدا واضحا في لباس يسرا المماثل للباس ريتا هيوارث وهي تحاول إغراء «جلين فورد» بغناء «ألقي اللوم على ماما يا ولد» ، على نحو مثير للحواس .

ولا لوم على ايناس إن هي تأثرت بجيلدا فلا أحد من عشاق السينما الا وتأثر بها أما سلبا او ايجابا ، وذلك قبل أربعة وخمسين عاما .



ومعروف أن أداء ريتا لدور جيلدا هو الذى أدى الى الصعود بها الى مصاف النجوم المرصعة بها سماء هوليوود

وهو الذي جعلها محل اشتهاء المشاهير من امثال المخرج «اورسون ويلز» صاحب فيلم ، المواطن كين ، وهوارد هيوز المليونير الغريب الاطوار وعلي خان ابن رئيس الطائفة الاسماعيلية «أغا خان» .

ومع ذلك ، فلأننا قد نضجنا، ومعنا السينما ، فقد قل تأثير جيلدا وأمثاله من الافلام ، بل كاد يكون هو والعدم سواء .

الفشل لماذا ؟

وربما هذا يفسر بعض الشيء .

أولا.. عدم اقبال جمهورنا على مشاهدة معظم الافلام المقتبسة دون تصرف، وفشلها في أغلب الاحيان فشلا ذريعا .


مارلين مونرو فى
«البعض يفضلونها
ساخنة»
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وثانيا : الحملة المسعورة على السينما الاجنبية ، ومسارعة البعض الى المطالبة بمنع الفيلم الامريكى بالذات ، وذلك بحجة حماية الفيلم المصرى، المهدد بطغيان أفلام مصنع الاحلام .

وفيما يبدو، فلا هدف من تلك الحملة سوى حماية أهل الاقتباس من افتضاح أمرهم أمام الرأى العام، خاصة وأن الجنوح الى الاقتباس ، أخذ فى الازدياد ، لا النقصان ، وآية ذلك ، أفلام العيد ، فلا اقل من نصفها مقتبس من افلام امريكية فشريف شعبان يستخف بعقولنا فينقل فيلمه «فرقة ستات وبس» بالكامل من فيلم «بيلى ويلدر» البعض يحبونها ساخنة ، الذى لعبت فيه «مارلين مونرو» الدور الرئيسى أمام تونى كيرتس و جاك ليمون ، وذلك قبل اثنين واربعين عاما .

وحتى اسم مونرو فى الفيلم وهو شوجار أى سكر لم يستطع أن يغيره وإذا باسم بطلة فيلمه «اميرة فتحى» سكرة أى ترجمة حرفية لشوجار .

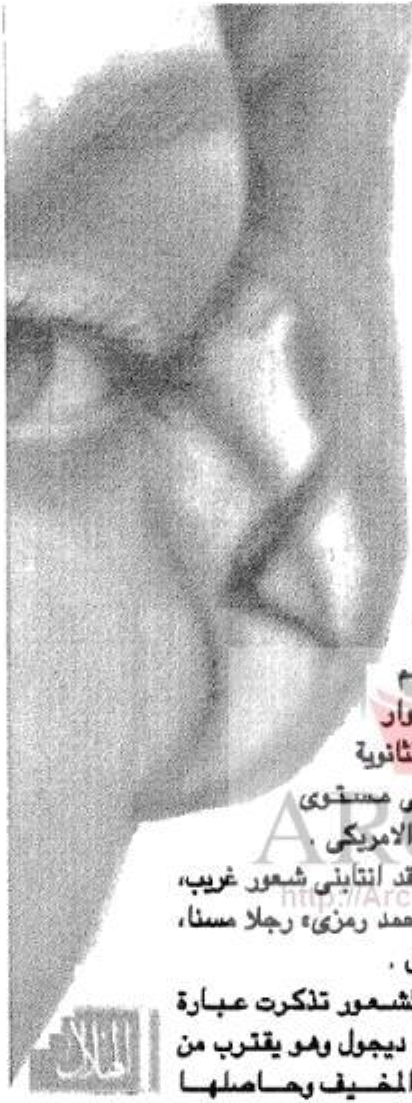
وساندرا تستخف هى الاخرى بعقولنا فتنقل فيلمها «ليه خلتنى أحبك» من «زواج أعز صديق ١٩٩٨» ، ذلك الفيلم الذى تقاسمت بطولته «جوليا روبرتس» و«كاميرون دياز» .

حطام سفينة

وأعود الى «الوردة الحمراء» لاقول انه بالاضافة الى يسرا بديلة لريتا ، وقع اختيار ايناس على كل من مصطفى فهمى و أحمد رمزى ، بديلين «لجلين فورد، وجورج ماكريدى» .

وبطبيعة الحال كانت ايناس بديلا «لشارلز فيدور» مخرج جيلدا .

وغنى عن البيان انه لا هى ولا من اختارتهم لأداء الادوار الرئيسية، أو الثانوية ، قد ارتقى الى مستوى صانعى الفيلم الامريكى .



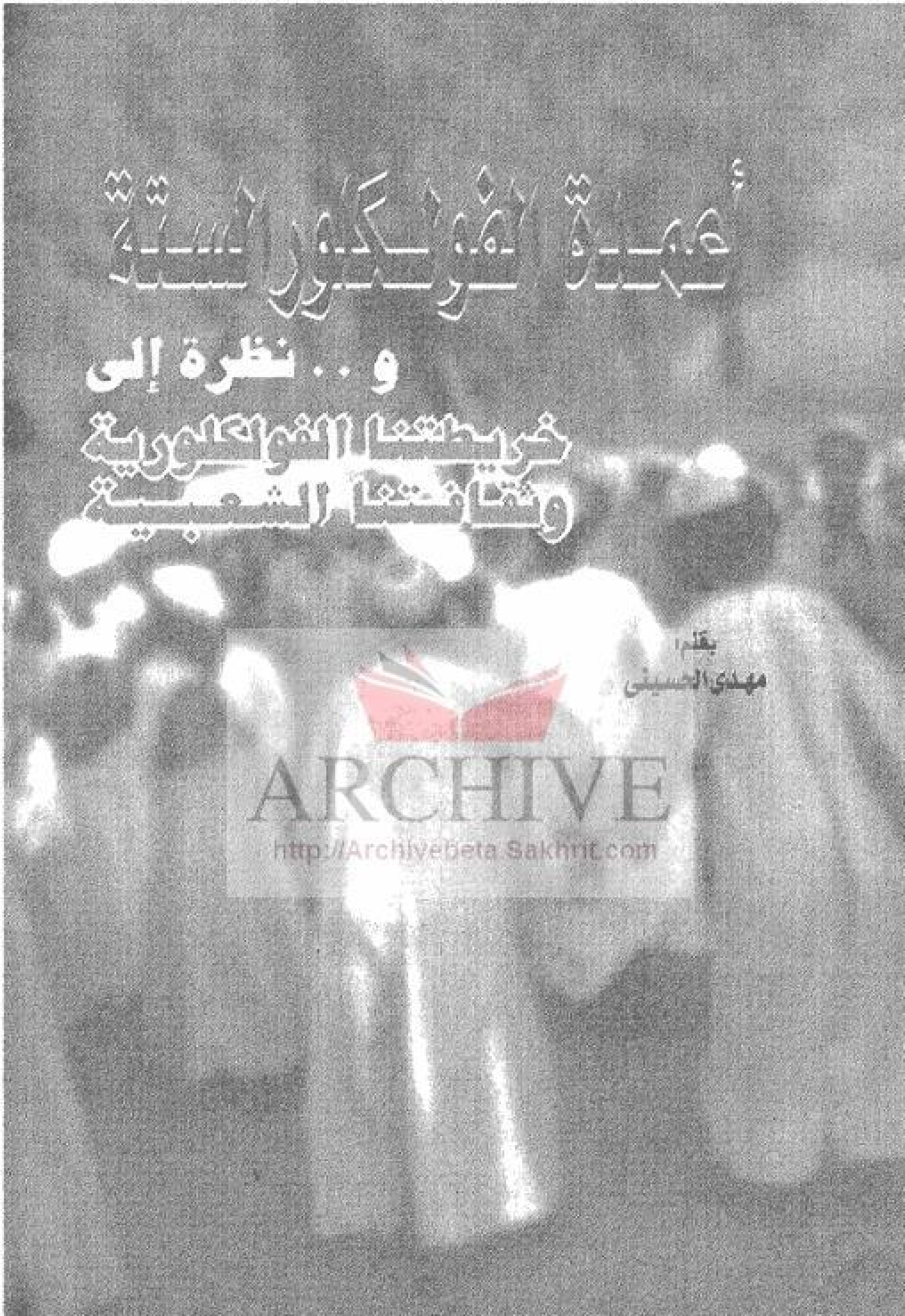
وختاما، فلقد انتابنى شعور غريب، وأنا أشاهد «أحمد رمزى» رجلا مسنا، بعد غياب طويل .

ومع هذا الشعور تذكرت عبارة قالها الجنرال ديجول وهو يقترب من سواد الموت المخيف وحاصلها «الشيخوخة حطام سفينة» .

وما أن اقترب فيلم «ايناس» من الختام حتى تبين لى أن أفضل ما فيه هو ذلك الحطام ..

أهمية الفولكلور الستة

و .. نظرة إلى خريطتنا الفولكلورية وثقافتنا الشعبية



بقلم:
مهدي الحسيني

عقد الملتقى القومى الثانى للفنون الشعبية بالمجلس الأعلى للثقافة بعنوان «المأثورات الشعبية فى ١٠٠ عام» فى الفترة من ١٤-١٨ يناير الماضى ، ونوقشت فيه العديد من البحوث التى تتناول هذا الجانب المهم فى حياتنا .

●● فى جنوب صعيد مصر ، تتردد أنشودة ساحرة النغم يغنيها الغجر : (الحلب والنور والمساليب والحمر ..) كأنما يرسلونها إلى تلك الأوطان التى كانوا يتنقلون فى نجوعها وحقولها وقراها وشواطئها وعلى أطرافها وجسورها .. فى أعياد الفيضان وفى ليالى الحصاد وفى أفراح جمع المحاصيل وجنى الثمار ، يغنونها إلى « .. جرجا .. وبرديس .. والبلينا » . بشغف وشجن وعشق على أوتار الرباب من سبيب (شعر ذيل الحصان) الخيل ، ونغمات الأراغيل والسلاميات ، وعلى نبر رهيف للدفوف الكبيرة ، فتتردد أصواتهم الجريحة الدافئة الشجية فى أرجاء : نجع حمادى وفرشوط والهو والبلاص وأبو تشت وأبو شوشة .. جنوبا ، وعبر نيل أولاد طوق مدينة السلام شرقا ثم بر خبل والغابات والعرابة المدفونة وأبيدوس غربا ، فقد قست كل هذه الأرجاء على (البلينا) التى تكاد تقع فى الوسط منها جميعا .. هذا إذا أبحرنا شمالا إلى برديس وجرجا ●●

هناك يعيش عشرات من عازفى الرباب والمزامير والأراغيل والصفافير وأنواع الطبول والدفوف والبنادير والمزاهر وإيقاعات النحاس ، وكذا عشرات المغنين وشعراء السيرة والمداحين والقوالين والحكائين وأصحاب الحكمة ، وعدد آخر من فنانى رسم

الجدران وتلوين البيوت والسفن والقوارب وتزيينها فى كل مناسبة وعيد ، فلم تزل هنالك بقايا من صور قديمة حميمة لمواكب الأعراس والحجيج ومفارقة الحياة ، وكذا البناؤون من بناة القبوة والقوس والأساس والصلبة والكتف هؤلاء الذين تبنى



مسيرة وجماعات الطرق الصوفية ١٩٧٨



شراعة وطاقة علوية لباب منزل (مدينة دسوق ١٩٧٨)

مهندسنا الكبير «حسن فتحي» تراثهم الثقافى الفذ وتقنياتهم المعمارية البسيطة المعجزة على يد نظائرهم فى القرنة وادفو ، فبنى بأيديهم نماذج فى كل بيئة مصرية ومناخ .. حتى مضى بهم ليبنى قرية مصرية فى المكسيك!! ثم هناك النساء المغنيات صانعات الأفراح والثياب المطرزة وأغطية الرأس لكل مناسبة (المناديل والطرح والعصب والقرط والخرز والقمط) وملاءات السترة والحشمة (البردة والبردة المزبّرة) التى صاغ منها فناننا المصرى العظيم «محمود مختار» تمثاله الأخلد (الخماسين) فصاغ فيه روح مصر وكشفها : الحركة والسكون ، الحيوية والبقاء ، التحدى والثبات ، القوة والجمال ، الغموض والخفاء ، إنها روح إيزيس الباقية أبدا ، ومن عجب - ورغم قسوة المتغيرات وعسفها - فإن كثيرات منهن لا يزلن محتفظات بألوان الأغانى والمراثى (العديد) والحواديت والأمثال والحكايات والذكريات الحميمة والخرافات الرائعة المدهشة المثيرة ، لا يزلن محتفظات بصلابة شجرة السنط وامتناعها وحُسْن شجرة التوت قوة ورقة وحلاوة ، وكشجرة الجميز وظلالها وعطائها وأمومتها . هن الـ «جازية» عمود للساقية وعماد للدار . هن «نعيمة» و«بهية» و«رحمة» و«ناعسة الأجفان» .

وإذا نظرنا إلى هذه المساحة التى تصل إلى حوالى ٨٠ كم طولا من جرجا شمالا إلى أبى تشت جنوبا ، وإلى حوالى ٤٥ كم عرضا على جانبى النيل ، فإنها - ولحسن الحظ - لم تزل تضم فى جنباتها كثيرا باقيا من الطابع القومى المصرى التقليدى للحياة على شاطئ النيل العظيم كما كانت صورتها فى الأربعينيات ، هذا رغم دخول المزيد من وسائل التعليم والاتصال الحديثة ، وكذا ظهور بعض ملامح التحديث (المخل) الذى تتسم به الحياة المعاصرة ، من أبنية اسمنتية فوق الأراضى الزراعية ، وغياب الفيضان ودى الحياض وردم الترع والمصارف وغير ذلك، فإنه لم يزل فى تكوينها السكانى مزارعون وبدو وهوارة وأشراف وأقباط وغجر ، وأغلبهم - إذا لم يكونوا من الملاك المتوسطين أو الأثرياء - يعمل بالزراعة والرعى والتجارة والحرف والأعمال اليدوية الأخرى ، كما أن بعضهم يعمل بالحكومة، كل حسب قدره الاجتماعى ، ابتداء من ساع أو خفير .. وصولا إلى رئاسة مدينة أو عضوية البرلمان ، فضلا عن نخبة من المهنيين كالمهندسين والأطباء والمحامين .

هذه صورة تقريبية للخريطة الديموجرافية لمنطقة مهمة تقع بين سوهاج .. وقنا ، منطقة ثرية فاحش



فتيات من واحة سيوة يرتدين
الزى السيوى (١٩٧٩)

الثراء بعناصر الأنثروبولوجية الثقافية . ومن ثم العناصر الفولكلورية ، وكذا العناصر الأثارية والتاريخية التي لا يخفى تأثيرها على الثقافة والفن والناس ، حيث كانت - قديما جدا - مقرا لعاصمتين فرعونيتين باكرتين هما (الطينة) أى قرية البلاص ، و(أبيدوس) أى قرية العرابة المدفونة ، وتلك كلها أمور تتطلب منا مزيدا من المعرفة الميدانية الدقيقة والمحددة والمبنية على القياس والاحصاء ، تمهيدا ضروريا لجمع التراث الثقافى والشعبى ، مع التركيز على المأثور منه ، بفضل عمليات منظمة وعلمية من الحصر والتصنيف والبحث والاستقراء ، ومن ثم الحفاظ فالإحياء فالإبداع ، إذن ؛ كيف نكون قريبين منهم ؟ بل فى قلبهم ؟ .

بيوت الإبداع الشعبى

منذ سنوات ، كنت قد اقترحت من الفنان التشكيلي الكبير د. محمد طه حسين ، حين كان رئيسا لهيئة قصور الثقافة ، زيارة هذه المنطقة ، والنظر فى مشروعى لإقامة «بيت للإبداع الشعبى» فى مدينة «البلينا» بصفتها النقطة الوسط جغرافيا فى هذه المنطقة ، بيت يكون مقراً وموئلا وملتقى للفنانين الشعبيين هناك ، يمارسون فيه تدريباتهم وأنشطتهم، فيكون ميدانا لعروضهم ، ومعرضا دائما لإنتاجهم الحرفى ، ومكانا لجلساتهم الحميمة يحتسون فيه مشروباتهم الشعبية الأثيرة ، حيث يلتقون بعشاق فنونهم وحرفهم ويتداولون مع الباحثين المتخصصين والزوار والسائحين .

واقترحت أن يقام المبنى وأن يؤثث بمنهج حسن فتحى المعمارى البيئي : متحف فولكلورى ، حوش أو رحبة أو فسحة للسامر والعروض الفنية ، قاعات متنوعة لعمل الفنانين ، ورش للحرف البيئية والفنون التطبيقية ومضيفة مجهزة ، ومقهى شعبى صغير، كرار ، مصاطب ، دكك ، مقاعد بلدية من الخشب والجريد ، مشربيات ، أزيار وقلل .. الخ ، وأن يشرف على إدارته اثنان فقط : فنان باحث متخصص يساعده موظف مالى و إدارى بالإضافة إلى اثنين من الحراس وساع ، على أن يتبع الإدارة المركزية فى القاهرة ، حيث أن البيت - بجغرافيته تلك - لا يتبع إدارة سوهاج ولا إدارة قنا ، وإنما يتبع الثقافة الشعبية والفولكلور ، والبشر الذين يقيمون فوق هذه المساحة من الأرض هم وحدهم الذين يشكلون وحدته .. وبكل الأسف لم يستمر (طاها) فى رئاسة قصور الثقافة بعد أن نفد صبره .

معنى هذا أنه يمكن لتمثال الطين والحجر المسمى «بيت الابداع الشعبى» أو «بيت جابر أبو حسين» بمدينة البلينا

، أن يكون عينة اختبارية لتغيير المنهج الميدانى للدراسة الأنثروبولوجية الثقافية والفلولكلور رأسا على عقب ، أى من المركزية إلى اللا مركزية ، أو بمعنى آخر : بدلا من تمركز العملية فى القاهرة حيث يوجد : (لجنة الفنون الشعبية - مركز الفنون الشعبية - معهد الفنون الشعبية - إدارة الفنون الشعبية - أطلس الفولكلور) يمكن أن نبدأ من الميدان .. من الحقل والدكان والورشة والسوق والدار والمصطبة والسامر والفرح والمولد ومواكب الحج والرؤية والعرس والعزاء ... حيث يتوفر (الآن وفورا) وحيث يتاح للاخبارى والجامع والمصنف والباحث ، فرصة التعامل مع مادته طازجة من مصدرها مباشرة فيضمها ويصنفها ويفحصها ويمحصها وينظر إليها على ضوء بيئتها ومبدعها الشعبى فيعود بها إلى أصولها ، هنا تصبح العملية أسهل وأعمق ، يمكن انجازها على نحو كمى وكيفى فى مدى زمنى قصير نسبيا .

ومن بيوت الإبداع الشعبى التى لابد وأن تنتشر فى ربوع مصر ، يمكن الانطلاق - بواسطة عشاق الثقافة الوطنية والابداع الفولكلورى المصرى - إلى أماكن استراتيجية متميزة ديموجرافيا وفولكلوريا أخرى ، على أن يتم اختيارها وتحديدها بعناية وتدقيق ، وعلى ضوء تقييم عميق لتجربة «البلينا» كتجربة رائدة .

فيمكن مثلا تنفيذها فى جنوب مصر وعلى مدى ٥٠٠ كم من وادى حلفا حتى شمال إدفو طولا ومن هضاب الشرق عبر النيل إلى درب الأربعين وذلك باختيار مكان وسط بين بلاد هذه المنطقة شديدة التنوع عرقيا وسكانيا رغم ضآلة التعداد ، وليكن هذا البيت فى «جرف حسين» بالقرب من أبى سنبل ، هنا يمكن اقامة «بيت الجنوب للابداع الشعبى» وفى مكان ما آخر يمكن اقامة بيت ثالث يعبر عن الثقافة الشعبية فى إسنا والأقصر .. وحتى القوصية والبلاد التى تكتنفها وتحوطها ، ومن قوص إلى نجع حمادى عبر قفط وقنا منطقة رابعة ، وهكذا يمكن تقسيم مصر إلى مناطق شبه متميزة على ضوء التكوين السكانى والتقارب الجغرافى ، وطبيعة النشاط الاقتصادى والاجتماعى ، والتشابه التقريبى فى الثقافة والفنون ، بحيث نستطيع حصر الجماعات الشعبية بثقافتها وفنونها ، ولهجاتها ولكناتها ، ورصد تاريخها ووقائعها المهمة ومدى تأثرها بآثارها وتراثها وتفاعلها معه . إذن ففى كل منطقة فولكلورية (إذا جاز التعبير) ، نستطيع أن نقيم بيوتا للثقافة والابداع الشعبى ، وفقا لنظرية المعمار البيئى الشعبى ، ففيها يلتقى الفنانون

الشعبيون مع المثقفين الوطنيين المعنيين بثقافة المكان وتاريخه ، كبيئة وكبشر ، وكعمل وإنتاج ، وأيضا مع الباحثين الفولكلوريين ، ومع منقبي الآثار والمهتمين بالتاريخ القومي ، وكذا باحثي التاريخ الطبيعي ومحبي الطبيعة وأنصار البيئة ، ورواد العمل الاجتماعي في الجمعيات الأهلية ، وأساتذة الجامعات الاقليمية والمركزية .

ولأن الثقافة الشعبية المصرية تنفرد بمزيتين مهمتين عن غيرها ، ألا وهما :

١ - إنها أقدم ثقافة شعبية إنسانية وجدت في التاريخ .

٢ - أنها تتميز بالتفاعل العميق - الخفي والمراوغ في الغالب - بين الثقافة الشعبية من جهة وبين الأثر والبعد التاريخي من الجهة الثانية بحكم أن الآثار المصرية تنتشر في طول مصر وعرضها منذ فجر التاريخ - وقبل أن تصبح آثارا - ولأن وقائع التاريخ المصري كانت دائما مهمة ، وكانت دائما كبيرة ، وكانت محورية ومؤثرة ليس في تاريخ المصريين فحسب ، وليس في تاريخ المنطقة المحيطة بمصر فقط ، بل في تاريخ البشر أجمعين.

لهذا على الباحث الجاد المتردد على «بيت الإبداع الشعبي» في اقليم ثقافي / فولكلوري ما ، أن يركز على النقاط الآتية:

١ - دراسة شخصية المكان .

٢ - خصوصية التكوين السكاني ونوعياته وتفاصيله .

٣ - تاريخ المكان والسكان أي تاريخ التفاعل بينهما .

٤ - طبيعة هذا التفاعل البشري مع المكان وآلياته .

٥ - النتاج الحضاري الناجم عن التفاعل الإنساني العميق والطويل مع البيئة ، أي مبررات «العراقة» .

٦ - استنتاج القانون النسبي لهذا التفاعل والذي يخلق السمات المادية والمعنوية المميزة للتراث ، سواء الثقافي أو الشعبي مع رصد وتوصيف هذه السمات.

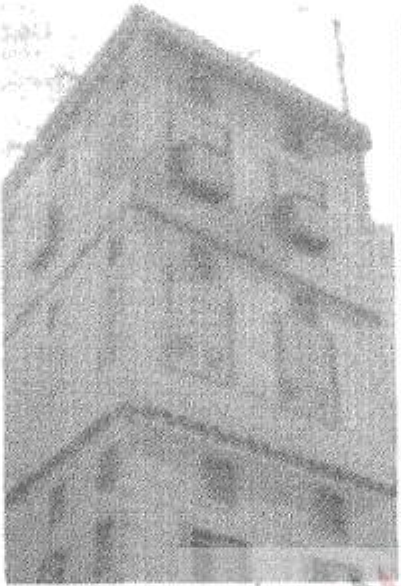
٧ - التركيز على الابداع الشعبي ، ورصده وتوصيفه وبيان ملامحه ووظيفته العضوية في عملية بقاء المجتمع ومنافعه المستمرة والعارضة .

٨ - استنتاج القانون الشامل للثقافة الشعبية للقومية المصرية .

وهنا يلزم علينا إدراج حقول هذا البحث من الناحية الفولكلورية:

١ - ثقافة أدبية : شفاهية وتأخذ صورا عديدة : السيرة - الموال القصصي - الموال - القصيدة - نصوص غنائية - الأمثال - الأهازيج - الألغاز والأحاجي - الروح والهجاء - .. أما الكتابية فهي ألف ليلة وليلة ، وبعض

الصور من المجموعة الخاصة بالدكتور / محمد عمران استاذ الموسيقى الشعبية





رسوم جدارية بمناسبة الحج (فوة)

منزل أثرى (رشيد ١٩٧٩)



صناع الأباريق والأوانى النحاسية (دسوق)

المدونات المنقولة عن مخطوطات قديمة .

٢ – ثقافة حركية : أداء حركي – رقص – طقوس – مواكب – العاب شعبية – الطابع العصبي العضلي والايقاعي للحركة الانسانية في الحياة اليومية في مصر .

٣ – ثقافة موسيقية : موسيقى – آلات موسيقية – قوالب موسيقية – أساليب في العزف والأداء الموسيقى والغنائي – أسس وملامح خاصة بالموسيقى والغناء الشعبي.

٤ – ثقافة مادية : عمارة قديمة أو بيئية في علاقتها مع العمارة الأثرية – أثاث – أشغال يدوية – فنون تطبيقية وحرف بيئية – أدوات عمل وآلات – أدوات طعام – أدوات قتال – أدوات متعلقة بالموتى – صناعة آلات موسيقية – أواني طعام وماء – لعب – رسم – دمى – نقش – زخرفة – نحت – خط – تلوين – فنون وأدوات بناء – أزياء – زينة – تجميل – نسيج شعبي وصناعة ملابس – اكسسوارات تستخدم في المناسبات – صناعة سجاد – نحت شعبي.

٥ – فنون شبه مسرحية : السيرك الجائل – الأراجوز – خيال الظل – الفرق المسرحية الجوالة من مقلدين ومهرجين ومحبظين ومشخصاتيّة واكروبات وبهلوانات – ألعاب القوة والخطر – ألعاب المهارة والإعجاز – ألعاب خداع البصر (السحر) – نمر الموالد – السفيرة عزيزة – البيانولا – العجائب والغرائب والطرائف – الغناء الفكاهي الساخر الهزلي والتمثيلي وفن التقليد .. وأغلبها عناصر من فنون مسرح شعبي مصري قديم مندثر .

٦ – عادات وتقاليد ومواسم ومناسبات وطقوس : وكلها مبنية على عقائد تعتقدها الجماعات الشعبية ، وهي تتعلق بدورة الحياة والموت ، والخصوبة ، وأسرار الكون والفلك ، وكل ما يتعلق بالميتافيزيقا من زاوية الفولكلور والثقافة الشعبية .

وبالطبع ، فإنه سوف يتم دراسة لهذه العناصر الستة المبينة آنفا ككل موحد ، على ضوء الخلفيات التاريخية والحضارية والأثارية ، وأوضاع الجماعة الشعبية وفقا لتطورها ومسيرتها ، ولا حاجة بنا لأن نؤكد أنه لا يمكن فهم أي ظاهرة ثقافية شعبية أو فولكلورية بمعزل عن الظروف المنتجة لها والمحيطة بها .

إنني على يقين أن مصر في حاجة إلى ما لا يقل عن ثلاثين بيتا للابداع الشعبي منتشرة في كل ربوع مصر ، فهكذا نستطيع وضع أيدينا على خريطة مبدئية – من خلال حالة من النبض والحيوية والاستمرار – لثقافتنا الشعبية وفولكلورنا.



بقلم : محمود بقشيش

الحياة والفن

عندما دعيت إلى إقامة معرض لمختارات من لوحاتى فى الأكاديمية المصرية بروما، فى نوفمبر الماضى، ترددت قليلا، ليقينى بأن الفن المصرى المعاصر ليس جاذبا لاهتمام الذائقة الإيطالية، على النقيض من إبداعات الفن المصرى القديم الذى يستقبلونه بحفاوة، ليس فى ايطاليا وحدها، بل فى كل دول الغرب، وقد حسمت ترددى إعتبارات، منها ماهو شخصى، ومنها ماهو موضوعى، فى مقدمتها مدينة روما ذاتها، فهى من أجمل مدن العالم، وتعد متحفا يستحق أن يزار.

وعندما زرتها أخيرا - وكانت المرة الثانية بالنسبة لى - تأكد يقينى بأن المدينة التى تشبعت بما لديها من جمال طبيعى وجمال أثرى تتأبى على الأجانب، وليست فى حاجة إلى قاعة عرض مغلقة، تقع فى طرف ناء من أطراف المدينة الشاسعة لكى يزورها بعض من أهل المدينة، يعدون على أصابع اليدين - فى أحسن الأحوال - ويشاهدون مجموعة من اللوحات المعلقة على جدران قاعة العرض، خصوصا إذا كانت تلك اللوحات تنتمى إلى فنان مجهول بالنسبة إليهم، ولم تشكل جاليته ثقلا مركزيا، يتيح له الدعاية الضرورية والمؤثرة فى المجتمع الثقافى الإيطالى، ومن الاعتبارات الشخصية التي جعلتنى أقرر السفر هى علاقة الصداقة القديمة مع مدير الأكاديمية الحالى الفنان الكبير



«فاروق وهبه» الذى تولى هذا المنصب منذ بضعة أشهر ، وفى نيته أن يوقظ الأكاديمية من سباتها السابق، ولم أكن لأرفض أن أسهم بالرأى -أيا كانت درجة تواضعه - من أجل نهضة مصدر من مصادر الإشعاع الثقافى المصرى فى الخارج .

التوقعات

ماتوقعته حدث ومالم أتوقعه حدث أيضا! .. فقد جاء جمهور قليل ممن اعتادوا زيارة الأكاديمية فى المناسبات، معظمهم من المصريين والعاملين فى السلك الدبلوماسى. وما لم أكن أتوقعه هو أن أجد نفس التساؤلات والأسئلة التى تصادفها من الجمهور العام فى القاهرة الذى لم يتعمق الثقافة الفنية، فقد سألتنى رسامة إيطالية عجوز وكان معها إبنها وهو يعمل مهندسا معماريا، والتقيت بسيدة قالت إنها ناقدة، وسألنى الثلاثة نفس السؤال، كما لو كانوا قد إتفقوا على طرحه، وكان السؤال هو: ماذا تريد أن تقول هذه اللوحة؟! .. وهو سؤال يكشف عن أمية صاحبه فى مجال الفن ويحتاج من الفنان أن يبدأ مع سائله من نقطة الصفر، وقد أدهشنى أن ينتقل فنان من قارة إلى قارة ليجيب على نفس الأسئلة!.

بالنسبة لى لم أكن فى حاجة إلى حراسة لوحاتى مثلما يفعل كثير من الفنانين فى القاهرة ويلحون فى تسجيل آراء أو مجاملات الزائرين، بل كنت مشوقا إلى التجوال فى حدائق بورجيزى الساحرة، متأملا أشجارها الصنوبرية العملاقة التى إهتم برسمها فنانو عصر النهضة، وهى تنهض مستقيمة كالمسلة المصرية، تشق الفضاء، ولاتبدأ الأغصان والفروع فى الظهور إلا قبل الذروة بقليل.عندئذ تبدو فروعها وكأنما تحولت إلى أذرع تعانق بها جاراتها. كان يصاحبنى فى تلك الجولات الجمالية الفنان «فاروق وهبه» وكنا نبتهج عندما تقع عيوننا على مسلتنا المصرية وإن كان ابتهاجا يشوبه العتاب، فالمسلة فى موضعها الإيطالى مُدَلّلة بالقرب من جنات بورجيزى على عكس حالها الحزين بالقاهرة، إن حدائق الصنوبر تكشف من طرف خفى أن يدا انسانية عبقرية وراء إنتظامها الدقيق، ولاتكاد تجد مسطحا أخضر يخلو من شباب وفتيات يمارسون أنواعا مختلفة من الرياضة، وكم من مرة كانت تنفلت منى أو من الفنان «فاروق وهبه» ونحن فى نزهتنا الصباحية فى بورجيزى كلمة «الله»!.. تساءلت بينى وبين نفسى: هل من الضرورى أن نُعَلّبَ هذا الجمال الطبيعى فى لوحات أم نتنسم عطره الطبيعى ونستمتع بحضوره الفعلى؟!.. أذكر أن تلك اللحظات الصافية، الروحية كانت تُعكّرها خواطر تدور حول ما ألَمّ بقاهرتنا التى كانت ذات يوم جميلة



وأصبحت الآن دميمة بضوضائها وزحامها المقيت ..

درس آخر في الجمال

دعاني الصديق «فاروق وهبه» إلى قلعة «كاستيل جوندولفو» وهي منتجع البابا، والقلعة التي يقيم بها أثناء إجازاته تقع على ربوة عالية، تطل على بحيرة أشبه بالزئبق، تخال مع سكونها الشديد أنك تستطيع السير عليها بقدميك لتصل إلى الجبل المواجه لقلعة البابا ولمدينة «كاستيل جوندولفو» . إن من جاء من زحام القاهرة وضجيجها وقذارتها وفوضاها المرورية لابد أن يصيبه ما أصابني من ذهول لنظافتها المعقّمة ووجوه بشرها النضرة ولُطف سلوكهم.

ومن المصادفات السعيدة أن كان بالكنيسة حفل زفاف، ظهرت بعده العروس وعريسها يتهاديان على الأسفلت الفسيفسائي، دون خوف من أن يتسخ ثوب زفافها الفضفاض، الطويل، فهمتُ لحظتها سر نقاء لوحات «دي كريكو» وصراحة ألوانه ونظافة مسطحاتها ووضوح معالم ظلاله، وفهمت لماذا لم يغرق في

الإكتئاب الذى غرق فيه غيره من الرسامين الميتافيزيقيين الذين عبروا عن غربة الإنسان فى الكون، وأذكر من بينهم – على وجه الخصوص – فناننا المصرى «مصطفى أحمد» الذى يتجلى فى لوحاته حزنٌ مصرى مأساوى، كونه تاريخٌ طويل من ميراث التقاليد وصخب البيئة الشعبية المصرية.

ميدان الحرية

ميدان الحرية ميدان صغير وجميل، تتوسطه نافورة ويحيطه من الجانبين: قلعة البابا ومجلس المدينة والكنيسة، وعلى مقربة من الميدان يوجد نصب تذكارى، ضم أسماء شهداء المدينة فى الحرب العالمية الثانية. جلسنا فى مقهى الميدان نتأمل العروسين وفلول المدعوين، تشعر فى هذا المكان أنك أمام خشبة مسرح، كلٌ يقوم بدوره، وكان دورنا هو التأمل السعيد بما نرى، إنتقلنا بعد ذلك إلى مطعم «فيشيو» وهو فندق فى ذات الوقت، وكان موضعنا يطل على البحيرة الزئبقية، لفتت [illegible] مزهرية تضم زهوراً رائعة الالوان، ناعمة الدرجات، حسبناها للوهلة الأولى صناعية وإذا بنا نكتشف أنها زهور طبيعية، وقدموا لنا غذاء ملكيا من عالم البحار لم أعرف منه إلا الجمبرى مع أننى من مدينة بورسعيد.

عودة إلى اللوحات

لقارىء العربية الذى لم يسبق له أن تعرف على لوحاتى أقدم بعضها وأقدم بعض المعلومات التي قد تكون ضرورية لتذوق الأعمال، قدمت فى هذا المعرض خمسا وثلاثين لوحة من القطع المتوسطة والصغيرة (٨٠×٧٠سم، ٦٠×٦٠سم) بناء على طلب إدارة الأكاديمية، لأن القاعة صغيرة إلى حد ما، أما أسلوبى الفنى فهو أسلوب يميل إلى الرمزية ويحتفل بعنصر الضوء باعتباره من الثوابت الجوهرية فى فن التصوير، وأنا ممن يهيمون بالليل، خصوصا ليل القرية المصرية، لهذا تحتل درجات وأنواع من اللون الأزرق الركيزة المحورية التى تتيح درجات من الضوء البارد، يقتحم عتامة الليل تارة ويتسلل حول البوابات والأبواب والنوافذ تارة أخرى.

والضوء فى لوحاتى لايقوم بدوره التقليدى فى تجسيد الكتلة، بل يتحرر من أسر المصدر الثابت، الواقعى، إلى آفاق أرحب وأعمق، أما العوالم التي تجسدها لوحاتى فهى عوالم جوانية وإن اعتمدت على مثيرات الواقع الملموس، وإذا كانت هذه هى وجهة نظرى فيما أصنعه، فمن العدل أن أقدم وجهة نظر أخرى هى وجهة نظر الفنان «فاروق وهبه» الذى قدمنى إلى [illegible]، ولم أحذف من كلمته إلا ماكان خطأ مطبعياً.

وجهة نظر فاروق وهبه

عُرف الفنان «محمود بقشيش» فى



الحركة التشكيلية المصرية كناقد مرموق، يعرف أصول الأحكام الفنية وسلاسة العبارة في مناخ نقدي يحفل بلذة التباري بالكلمات، وتجاذبته رائحة عطر زيوت الألوان لينخرط في تجربة فائقة الحساسية، شديدة المراس، و«محمود بقشيش» كواحد من عشاق المدينة يومض بوميضها ويخفق لاخفاقها، قد آل على نفسه أن يزرع في ظلامها وميضا من نور، يخبو تارة ويتألق تارات كنبع الحياة وخفقان القلب، وعلى هذا المنوال جسدت أعماله حالة خروج النور من الظلام، تلك الحالة المعروفة في المدرسة الفلمنكية: في أعمال «رمبرانت» و«جورج دي لاتور» ثم «جان فيرمير»، ومع اختلاف النهج والتوجه، فالصياغة هنا تمزج بين التجريد والتكعيب والتبسيط بقياسات حسية للألوان واقتدار في الاختيارات وتروٍ في الحوار مع الفراغ.

وإذا دققنا النظر في نهج الفنان، نجد أن صياغات مدينته هي نداءٌ للحثّ على الاستقرار، وفي قلبه تقبع قريةٌ لها ملامح طفولته، إن دقة الحساسية في أعماله ترجعه إلى رومانتيكية القرن التاسع عشر، بالرغم من أنه تجاوز تبعية تقليديات جيل ينعي الماضي ويرفض النظر إلى الأمام، ونلاحظ من خلال صمت الفنان صوتا شاهقا، حدّد بجلاء شخصيته الفنية ونهجه المعروف



باريس

الناس لم تقرأ الروايات الجميلة !



فرانسواز ساجان

الإحصاءات الكثيرة التى أجريت فى نهاية ديسمبر الماضى، حول الأفضل.. فى مجالات عديدة لاشك انها تدفعك الى التساؤل عن مدى توافقك شخصيا مع هذه الاختيارات ، قد يحدث هذا وانت تطالع استفتاءات عن أحسن النجوم، والأفلام، لكن الاختيارات التى قدمتها مجلة «لوفيجارو» عن أفضل كتب القرن العشرين، تدفع الى السؤال المزدوج.. ترى هل قرأت الكثير من هذه الكتب، ترى هل ترجمت هذه الكتب الى اللغة العربية، ولماذا لا..؟

أولى المفاجآت فى هذا الامر، أن الكثير من هذه الكتب الافضل.. فى القرن العشرين لم يحصل اصحابها، كما انها لم تنل، اى جائزة ادبية، مما يعنى ان الجوائز، رغم اهميتها ليست سوى «فشنك» إعلامى. والمفاجأة الثانية، بالتالى، هى ان

اصحاب هذه الكتب مجهولون تماما، ليس فقط بالنسبة لنا فى الشرق، بل أيضا لدى القارىء الغربي، ولعلها تمثل نوقا خاصا للاشخاص الذين قاموا باختيارها، فمن منا يسمع عن رواية تحمل عنوان «الصديق الصغير».. ألفها بول ليوتو عام ١٩٠٣، ومن التفت الى اهمية رواية «صديقتى نان».. للكاتب بولز - جان توليه «١٩٠٥»، او للكاتب لول ديتريش صاحب رواية «سعادة الحزانى» ١٩٣٥.

دعونا نتوقف عند روايات شهيرة، لكنها لم تترجم، فى مصر على الاقل، فهناك رواية «شاى فى الصحراء» لبول بولز - انظر الهلال ديسمبر ٢٠٠٠ - ورواية «صباح الخير ايتها الاحزان» لفرانسوا ساجان وهى رواية القرن العشرين المدللة، من حيث عدد مرات ترجمتها، خاصة فى اللغة العربية أو فى تحويلها الى افلام امريكية ومصرية.

من هذه الروايات ايضا «بندقية الصيد» للكاتب اليابانى ياسوشى اينوه، ورواية «القلب صياد وحيد».. لكارسون ماكللرز، وهى مترجمة عام ١٩٦٧ الى اللغة العربية، ورواية «فهد الثلوج» للكاتب الامريكى بيتر مايتسن التى استوحاها عام ١٩٧٨ من وفاة زوجته.

اغرب هذه الاختيارات هى رواية، «زهرة التراب» التى نشرها جان - جاك شول عام ١٩٧٢، وكانت اولى رواياته، ولم يبع منها سوى ألفى نسخة حول الممثلة مارلين ديتريش، وتجىء غرابة الاختيار أن شول ظل مجهولا لأكثر من ٢٨ عاما، الى ان فاز عام ٢٠٠٠ بجائزة جونكور عن روايته انجريد كافن «ومع ذلك لم يتم اختيارها ضمن اهم روايات القرن، وكأنما ظل الكاتب اعلى مستوى وان الحصول على الجائزة يعنى انحداره.

القليل من هذه الروايات التفتت اليها السينما فى افلام شبه مجهولة مثل «الوازه للكاتبة كاى طومبسون، و«وسط مجرى النهر».. التى كتبها الأمريكى نورمان ماكلان عام ١٩٧٦.

لندن

مرارة بيسى

أصدرت مؤخرا الروائية البريطانية مارجريت درابل «٦٠ عاما» رواية جديدة بعنوان The pepperd Moth لتضيف الى رصيدها الأدبى

عملا روائيا يغوص فى أعماق المرأة النفسية كحال رواياتها السابقة، ويترنح بين الخيال والواقع وتملؤه مشاعر الحب والقسوة والمرارة ، وإن كانت الركيزة الأساسية فى الرواية هى مبدأ البقاء للأقوى.

تقدم لنا «درابل» فى روايتها الجديدة قصة حياة والدتها كاثلين مارى بلور التى وافتها المنية عام ١٩٨٤. وكما تقول «درابل» فى ختام روايتها «استخدمت دماء امى كحبر لكتابتها». تجمع الرواية بين الترجمة الذاتية وبين الخيال القصصى. فتتجسد والدة «درابل» فى شخصية بيسى باوترى ذات الحساسية المفرطة والذكاء الفطرى والسمو والتى ولدت قبيل الحرب العالمية الأولى فى مدينة «بريزيبور» جنوب يوركشير والتى تصفها «درابل» على لسان بطلتها بـ «البيئة الموحلة» وتقرر بيسى أن مدينة بريزيبور مدينة وهمية ومن الخطأ الإقامة بها. وعليها استخدام مهاراتها لتصحيح هذا الخطأ. فطموحها يقتلها فهى تسعى الى الفوز بمنحة دراسية من جامعة كمبردج لتجوب العالم وتخرج من شرنقتها. وبأسلوب الفلاش باك او الاسترجاع تبدأ الرواية بحفيدة «بيسى»، فارو جاولدن



مارجريت درابل

«الصوت النقى الذى يغمر الوادى» كما تراها«درابل» قادمة من لندن وعائدة الى بلدة جدتها فى مهمة صحفية كما يبدو ظاهرها لكنها فى الحقيقة ذات شق شخصى ، «ففارو» محررة شئون علمية تسعى الى البحث عن جذورها لسبب علمى بحت ينطوى عليه مذهب اللاماركيه الذى تتبناه ويدعو الى ان التغييرات البنيوية التى تحدث فى الحيوانات والنباتات نتيجة التغييرات البيئية تنتقل الى ذريتها ، وتعتقد فارو انها ترتبط بجدتها لسبب ما غير ذلك المصير البيولوجى فقط.. وهنا يتجلى لنا سبب الاسم المثير للرواية The Pepperd Moth فالفراشة التى يحاصرها الظلام لن تتمكن

من البقاء على قيد الحياة الا بتغيير لونها الشاحب الى لون قاتم مظلم يتماشى مع الظلام السائد. فالبقاء للاصلح والاكثر قدرة على التكيف، فبيسى باوترى الجدة نجحت فى صراعها من اجل البقاء وان كانت مهارة التكيف ليست من مواطن قوتها. وهو ما حاولت الحفيدة فارو التوصل اليه. فالاستقرار وزواج «بيسى» من شخصية جوى بارون، والذى لاترى الكاتبة سببا وجيها لزواجها منه، رسخ داخل بيسى إحساس الاستعلاء والترفع مما جعل حياتها تتسم بالمرارة وجعلها موطن سخرية زوجها الذى يصفها بأنها نموذج لإحدى شخصيات الن بنيت الكوميدية.

وتمتلىء الرواية بمظاهر الحب الغامر الذى تكنه الكاتبة لبيسى ويظهر جليا فى مواقف اعترافاتها واستيائها وامتعاضها، وبرغم ما تحمله تلك المواقف من قوة وعزم فإنها لم تساعدها كثيرا فى توصيل رسالتها وجعل الرواية تتأرجح بين الخيال والواقع.

ومن روايات «مارجريت درابل» الشهيرة «القدس الذهبية» عام ١٩٦٧، «وثقب الابرة» عام ١٩٧٢ «العمر الذهبى لإمرأة» عام ١٩٧٥ «قبضة من زجاج» عام ١٩٧٨ «الطريق المشع» عام ١٩٨٠، «وسط الحياة» عام ١٩٨٥.

روما

فيردي : الأوبرا.. فقط للأقوياء

هل يمكن لمصر ان تشارك أيضا فى الاحتفال بالذكرى المئوية للموسيقار الذى جعل مصر الفرعونية فى قلب ووجدان كل عشاق الغناء الجميل!.

جوزيبه فيردى صاحب أوبرا عايدة، الذى بدأ الاحتفال بذكرى رحيله فى ٢٧ يناير الماضى، ويستمر لمدة عام فى العديد من صالات الاوبرا فى مدن اوربية عديدة، ومن بينها اوبرا «عايدة»، التى عرضت لاول مرة عام ١٨٧١.

تجىء أهمية فيردى (المولود عام ١٨١٣) من ايمانه بأن الموسيقى هى لغة الأبرياء، وان الفنان تجسيد للأفكار الانسانية، وان تجمع بين الناس فى الصالات الكبرى. لذا جاءت اعماله شديدة القوة، تعبر عن المجد الإنسانى، وتعكس لحظات التاريخ العظمى، ومنها «ماكبث» عام ١٨٤٧، و«معركة لينيانو» ١٨٤٩، و«لاترافياتا» ١٨٥٣ و«قوة القدر» ١٨٦٢، و«دون كارلوس» ١٨٦٧، و«عطيل» ١٨٨٧، و«فالستاف» ١٨٩٣، والملاحظ انه استوحى اغلب اعماله عن شكسبير،



صوفيا لورين فى فيلم عايدة

متجاهلا القصص الرومانسية، فى مقابل حكايات المجد والبطولة.

ومن المعروف ان فيردى قد ارتبط بأحداث شخصيات وطنه الكبرى، وعلى رأسهم جاريبالدى الذى الف أحب اعماله من أجله.

ولد فيردى فى اسرة فقيرة، وكم حلم ان تعيش ايطاليا سنوات القوة، وامن أن على المرء أن يرمى بشكواه جانبا، ليغنى للقوة، وقد عانى فيردى الكثير فى حياته الاجتماعية بوفاة ابنائه، وزوجتيه اللتين تزوجهما على فترات من حياته.

وقد صار فيردى نموذجا يحتذى به لعشاق الفنون المختلفة، وليست الموسيقى وحدها، ويعتبر المؤلف الاوبرالى الاول الذى شغفت السينما بأعماله. فنقلتها عشرات المرات الى الشاشة، وقد استوحى الاخوان ماركس بعض اعماله فى فيلم «ليله فى الاوبرا» عام ١٩٣٤، كما قامت شركة والت ديزنى بإخراج فيلم عن اوبرا «ريجوليتو» بالاضافة الى العديد من الافلام الاوبرالية، ومنها «أمامى الفريد».. و«لاترافياتا»، و«ريجوليتو»، و«قوة القدر» و«الموجود» وهى افلام نقلت فيه الاوبريتات بشكل سينمائى دون الابتعاد عن خشبة المسرح.

ومن اشهر هذه الافلام على الاطلاق فيلم «عايدة» الذى قامت ببطولته صوفيا لورين عام ١٩٥٣، وفيلم «احساس».. لفيسكونتى» و«لاترافياتا» اخراج زيفيريللى، وايضا الفيلم العربى «عايدة» الذى اخرجه احمد بدرخان، عام ١٩٤٢ وقامت ببطولته ام كلثوم.



أدب الجاسوسية

جون لوكاريه وتحول جديد

أمانى عبد الحميد

شهد العالم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية انتشار أجهزة المخابرات بشكل كبير فى الغرب والشرق.. واحتلت شخصية العميل السرى، أو ما يطلق عليه الجاسوس - مكانة أسطورية جعلته مادة خصبة للأعمال الأدبية والروائية والسينمائية.

ومن عباءة الروايات البوليسية التى تهتم بشكل أساسى بعالم الجريمة خرج نوع جديد من الأدب الروائى، استقل بذاته وهو أدب الجاسوسية.

وكتابها، ولم يصمد حتى وقتنا هذا من الروائيين إلا أصحاب الموهبة الحقيقية أمثال جون لوكاريه.

لوكاريه ورواية الجاسوسية

وجون لوكاريه روائي بريطاني (٧٠ عاما) رائد أدب الجاسوسية في العالم، وهو صاحب أكثر من ١٨ رواية تدور أحداثها داخل العالم السرى لأجهزة المخابرات وأوساط السلك الدبلوماسي الذي يعتقد أنها «بؤرة عمليات التجسس».. يطالعنا لوكاريه كل عامين تقريبا برواية جديدة مليئة بالأحداث المثيرة عن موقع من المواقع الساخنة في العالم، روسيا وبنما وكينيا وبريطانيا وألمانيا مثل «مرآة الجواسيس» ١٩٦٥ «مدينة صغيرة في ألمانيا» ١٩٦٨، «خياط من بنما» ١٩٩٦ وغيرها من الروايات، ويعتبر لوكاريه من الروائيين القلائل الذي استطاع بموهبته ان يطور رواية الجاسوسية بشكل جعلها تصمد وتستمر برغم انتهاء الحرب الباردة، بل انه اتجه برواية الجاسوسية نحو منعطف جديد وأبعاد أكثر اتساعا وأشكال غير التي اعتاد عليها العالم.. مثل رواية «الطبالة الصغيرة» ذات الطابع التاريخي و«خياط من بنما» ذات الطابع الكوميدي، واستطاع ان يحظى باحترام النقاد الذين اعتبروه من الكتاب الجيدين لهذا النوع من الروايات نتيجة قدرته الفائقة على الوصف الدقيق الذي ينقل المشاعر بصدق وشفافية. فهو يرى



جون لوكاريه

أثناء اندلاع الحرب الباردة نشطت أعمال الجاسوسية حتى بين الدول الحليفة، فتصدرت روايات ذلك الأدب الجديد قوائم المبيعات في جميع أنحاء العالم.

وأصبح كتابها من أشهر الروائيين وتمتعوا بشعبية كبيرة بين القراء أمثال جراهام جرين، إيان فيلمنج، إريك امبلز، جون لوكاريه وكين فوليت. ومع انتهاء الحرب الباردة وتغير الأوضاع السياسية في العالم فقد عالم الجاسوسية بريقه، وإن كان دوره الوظيفي قائما الأمر الذي ادى الى انحسار الأضواء عن رواية الجاسوسية



ان الكاتب الجيد هو من يستطيع ان يدفع قراءه إلى الجلوس للإصغاء لآرائه وتحريك مشاعرهم وامتاعهم على مستوى عال وهو ما يؤثر على مستوى العلاقة بين الكاتب وقرائه.

وقد تجلت موهبة لوكاريه منذ نشر روايته الأولى «نداء الموتى» عام ١٩٦٤ والتى ابتدع فيها شخصية الجاسوس جورج سمايلى الذى اصبح بطل العديد من رواياته أشهرها «الجاسوس الذى أتى من بلاد الصقيع» والتى حققت أعلى نسبة مبيعات و«عشيرة سمايلى» ١٩٨٠.. ونهاية بروايته الجديدة «البستانى المخلص» The constant Gardener والتى سوف نتحدث عنها لاحقا.

عملاء سريون

اشتغل لوكاريه بالسلك الدبلوماسى، حيث عمل سكرتيرا للسفارة البريطانية فى بون ثم قنصلا فى هامبرج وهو الوسط الذى استمد منه أحداث معظم رواياته كحال كتاب رواية الجاسوسية، وإن كان معظمهم وثيقى الصلة بأجهزة المخابرات أو أنهم عملاء سريون لبلادهم امثال جراهام جرين الذى عمل فى مكتب الخدمات الخارجية التابع

للمخابرات البريطانية لعدة سنوات حتى اثناء اندلاع الحرب العالمية الثانية. ومن أشهر أعماله «عميلنا فى هافانا» التى تكشف عن تورط أجهزة المخابرات البريطانية فى السياسة الداخلية فى كوبا.. كذلك كين فوليت الروائى البريطانى الذى استلهم اعماله فى ملفات المخابرات البريطانية الاسرائيلية ونشرت روايته الأولى «ثقب الابرة» عام ١٩٧٨ عن أشهر جواسيس القرن العشرين العميل هاينريش رودلف هانس ذى الاسم الحركى ثقب الابرة لقدرته الفائقة على الرصد والإفلات من المخاطر بسهولة. وإيان فليمنج أشهر الجواسيس البريطانيين الذى اتجه بعد احالته على المعاش إلى كتابة رواية الجاسوسية استوحاها من عمله الذى وصل فيه الى منصب المدير المساعد للمخابرات البحرية.. ومن أهم شخصياته جيمس بوند العميل (007) التى تحولت إلى سلسلة طويلة من الأفلام السينمائية قام ببطولتها نجوم كبار امثال شين كونرى وروجر مور وحظيت بأعلى نسب مشاهدة من دور العرض السينمائية.

ومن الممكن ان نستثنى روبرت لودلم واريك أمبلر من العمل داخل أجهزة المخابرات.. فروبرت لودلم كان أمريكى الجنسية وليس بريطانيا كحال باقى كتاب رواية الجاسوسية.. كما انه مارس الى جانب الكتابة التمثيل والاخراج المسرحى، فعمل فى مسارح برودواى بنيويورك مما اثر على اسلوب كتابته للرواية. والمعروف ان رواياته باعت حوالى ١٩٥ مليون نسخة خلال عشرين عاما ونشرت فى ٢٨ دولة - وترجمت الى ٣٢ لغة - أما إريك أمبلر فهو روائى بريطانى تمكن من رسم صورة الجاسوس فى معظم رواياته بشكل جديد .. فهو انسان عادى يحتاج الوظيفة ليقتات منها وليس ذلك الإنسان الخارق.. بل اضفى عليه صفة خفة الظل وتحولت الجاسوسية من عالم ملىء بالمطاردات والقتل إلى عالم ملىء بالمعرفة والبحث كما فى روايته الشهيرة «الخطر المجهول» ١٩٤٦..

أعمال وشخصيات

اتسمت شخصية البطل فى روايات لوكاريه بالغموض والمكر فهو الشبح عالمه الظلام لا يرى افعاله الآخرون وهو كالزئبق يمكن رؤيته لكن من الصعب الإمساك به . وهى صفات فى مجملها صفات الجاسوس خلال الحرب الباردة وتظهر جليا فى شخصية جورج سمايلى الغامض المتحذلق فى الكلام. وشخصية «باركى» الناشر البريطانى فى روايته «المنزل الروسى» ١٩٨٩ والتى تحولت الى فيلم سينمائى يحمل نفس الاسم.. وباركى يتعرف على كاتيا التى تمده بمسودة كتبها عالم فيزيائى روسى تتضمن أسراراً خطيرة فترسله المخابرات البريطانية إلى روسيا للبحث

عن المزيد من المعلومات وهناك يتم تجنيده ويتحول إلى عميل مزدوج. أما في روايته «الجاسوس الكامل» يستمد لوكاريه من شخصية والده الحقيقي ملامح البطل والتي يعتبرها الأقرب إلى قلبه وشخصيته.

وتأتي رواية «الطبالة الصغيرة» ١٩٨٣ والتي نشرت ضمن سلسلة روايات الهلال في مقدمة الروايات التي أثارت شخصيتها الكثير من الجدل بل إنه تعرض لهجوم شرس من قبل الجماعات اليهودية في أوربا، فبطل الرواية شخصية «انكل بيني» اليهودي ذي الخلفية الاجرامية يظهر وسط أحداث تتسم بالطابع التاريخي . يسرد خلالها لوكاريه حياة اليهود وتقاليدهم وعاداتهم حتى حكاياتهم الطريفة داخل حي ايمت اند الشهير بلندن خاصة بعد انتقالهم من مجمعات «الجيتو» من شرق أوربا وتمركزهم في لندن، وافتتاح محلات الحلوى بها. ونتيجة إدخال قضية الصراع العربي الاسرائيلي ومحاولة اصطياد مناضل فلسطيني من قبل جهاز المخابرات الاسرائيلي الموساد، تعرض لوكاريه لتلك الحملة الشرسة خاصة انه اقر بوضوح في روايته «أن أرض الميعاد يجب ان تضم اليهود والفلسطينيين على حد سواء»..

حيث يرى «أن الكاتب يحمل على عاتقه مهمة الكشف عن الاحداث التي تدور من حوله وإن لم يفعل فان احساس الذنب يسيطر عليه رغم كل شيء».

رواية جديدة

اصدر لوكاريه الشهر الماضي رواية جديدة بعنوان «البستاني المخلص» وفيها يخرج عن اطار رواية الجاسوسية نوعا ما ليدخل اطار الرواية البوليسية وهي خطوة جديدة في تاريخ جون لوكاريه رائد ادب الجاسوسية.

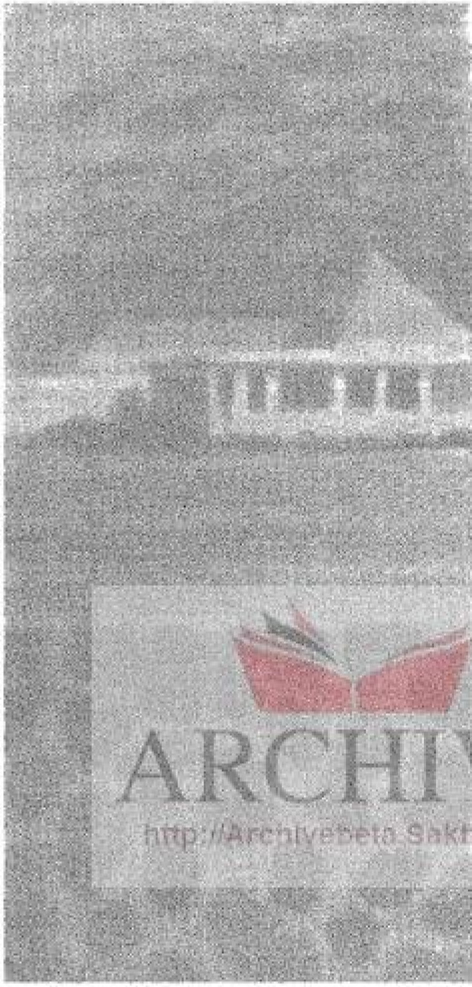
يقدم لنا المحامية الشابة تيسا كوايلي التي تعمل في مجال المعونة الانسانية في كينيا .

ويرسم لنا شخصيتها على انها انسانه رقيقة المشاعر تدافع عن الحق مهما كلفها الأمر والذي أدى في النهاية الى موتها، تبدأ الرواية بوقائع جريمة قتل «تيسا» وسائقها بطريقة وحشية . حيث وجدت الشرطة الكينية «تيسا» مذبوحة داخل سيارتها بجوار بحيرة توركانا وسائقها جسد دام مقطوع الرأس.

وبهذا المشهد المؤثر تتوالى أحداث الرواية بشكل مثير وغامض يتلمس فيه لوكاريه مشاعر الزوج الحزين جاستين الدبلوماسي في المندوبية العليا البريطانية في نيروبي، والذي فجع لوفاة زوجته وبدأ يحاسب نفسه حسابا عسيرا على إهماله لها وعدم تقديره لها حق التقدير من خلال عرض بعض المواقف والحوارات التي دارت بينه وبين تيسا ،

فهى كما يقول جاستين : «إن مجرد النظر اليها اشعر ان حلمى أصبح حقيقة»، وتتكشف الاحداث «فتيسا» أرسلت قبل مقتلها إلى ساندى وودرو الصديق الذى يعمل مع زوجها فى السلك الدبلوماسى وثائق خطيرة تكشف عن عمليات تهريب المخدرات فى كينيا وافريقيا وهو الامر الذى حذرها زوجها جاستين كثيرا من اقحام نفسها داخله.. فحكومة بريطانيا قررت عدم التدخل ووودرو اختار الصمت وزوجها تملكه الخوف، ورغم ذلك تتخذ تيسا موقف الشجاعة وتحاول مكافحة تلك الجرائم من المنطلق الذى ارتأته لنفسها كما تقول لزوجها.. «إن واجبى تجاه افريقيا فما واجبك أنت جاستين».

تتشابك الأحداث رغم تكشف حقيقة مرتكبى جريمة مقتل «تيسا» للمحققين إلا ان الكثير من الاسئلة تظل بلا اجابة خاصة ان خيوط الجريمة تتصل بأحد التكتلات الاقتصادية البريطانية الضخمة والتى تعمل داخل كينيا وافريقيا فى مجال الدواء.. ويظل لغز اختفاء الطبيب الكينى ارنولد بلوهم زميل تيسا فى أعمال المعونة الانسانية وعشيقها الخفى.. هل هو قتل أم هرب بحياته؟ ويظل هذا اللغز قائما حتى نهاية الرواية التى تختتم أحداثها بتهديد الزوج جاستين للالتزام بالصمت حتى لا ينال جزاء زوجته التى لم تعبأ بالتهديدات... ■

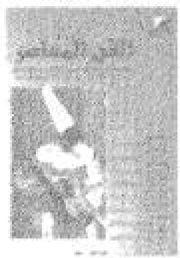




رحيق الكتب

الفن المعاصر

العدد الثاني - خريف ٢٠٠٠ - ٥٨٤ص
الناشر - أكاديمية الفنون



قررت أكاديمية الفنون أن تخرج من أسوار معاهدها ، كي تتواصل مع القارىء العادى وذلك من خلال اضطلاعها بطبع مجموعات من الكتب المترجمة في فنون المسرح، والباليه والسينما .

وإيمانا بدور المجلات الثقافية، أصدرت الأكاديمية مجلة فصلية، تعني فقط بشئون ترجمة الدراسات والابحاث المصاغة بلغات عالية عديدة، وجاء العدد الأول من مجلة «الفن المعاصر» في صيف عام ٢٠٠٠، ثم صدر العدد الثاني في الشهر الماضي، وذلك إيمانا بسد الفراغ الهائل في البحث العلمي في الفنون والثقافة في الوطن العربي، وذلك من مختلف أنحاء المعمورة.

وليست مجلة «الفن المعاصر» نشرة صغيرة أو مجلة عادية، بل هي مجلد ضخم، تزداد صفحاته على الخمسمائة واحتوت في عددها الأخير على أبحاث عديدة، ترجمها أساتذة متخصصون في مجالاتهم، مثل إعادة قراءة شرح «أنطونان أرتو» الذى ترجمه الدكتور نبيل راغب ، وراجعه الدكتور محمد عناني، ومثل مقال عن المفكر الفرنسي المعاصر جيل دولوز، وعلاقته بالسينما، وهو مقال منقول عن الإنجليزية منشور عن الانترنت، كتبه توماس مارل وول.

ومن بين المقالات المهمة في العدد ، مقال كتبته باترشيا سينيوريل باللغة الفرنسية (أيضا مأخوذ عن الانترنت) بعنوان فلسفة اللون التي جاء فيها أن عالم الألوان يعبر عن نفسه بأسلوب فلسفي، ولكى نعيه جيدا فهو يتطلب الرصد والملاحظة من خلال وجهات نظر متعددة، فحسب بول

كلي، فإن اللون نوعية وكثافة، ثم هو مقياس لابد له أيضا حدود، ومحيط ومساحة، لذا فإن الفن الحديث، بشكل خاص لم يعد على قياس الانسان، وإنما أصبح على قياس عينه المتضخمة، والرسم المجرد ويبحث في وصف القوانين، وكما قال الفيلسوف ميرلو جونتي: أحسست، ذات يوم، أن الاشجار هي التي تنظر إلي وتتحدث لي. قد ارسم لكي ابدو فقط للعيان .

ومن المقالات المترجمة البارزة ايضا المثقفة والتكنولوجيا الحديث .و الانسانيات ونقد الرقص، ونهاية الفلسفة والسينما

ورغم هذا المجهود الضخم، فإن إدارة التحرير في حاجة إلى إعادة صياغة بعض الترجمات باللغة العربية، مثل هذه العبارة: من تعدد الاشكال المرسومة والمفهومة، والظاهرة في الزمان والمكان كما في الفروق وامكانيات قراءتها قد تولد عن طريق الحركة والبصر اشكال جديدة مقرونة اقترانا بسيطا بإدراك الخريطة واستقبال الرسالة التي ترسمها الاشكال وليس المرسومة ..

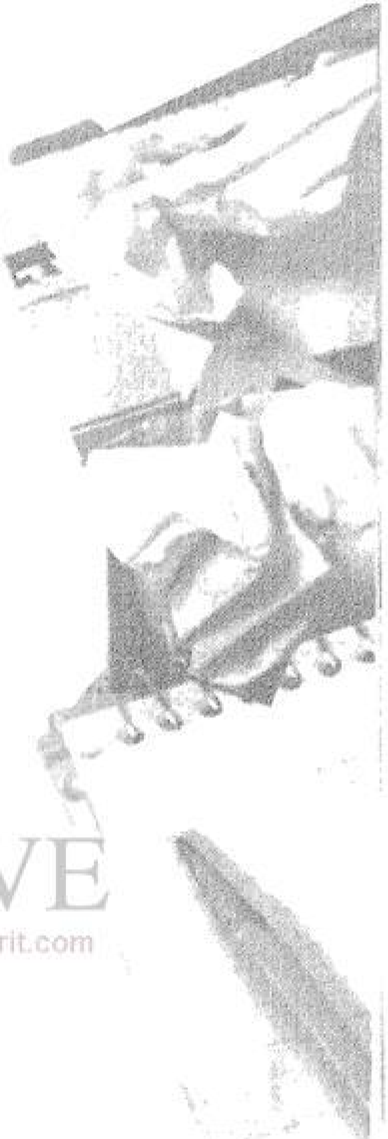
الفساد والجرائم الاقتصادية في مصر



ظلت الدراسات التي تجرى عن الجريمة في مصر أسيرة التصور التقليدي القائم على وصم الفقراء بالإجرام والمجرمين بالفقر دون النظر إلى الجرائم التي يرتكبها «علية القوم» فجميع الأدلة تشير إلى أن الأغنياء قد يكونون أكثر إجراما من الفقراء وأن جرائمهم تلحق بالمجتمع أضرارا بالغة تفوق خطورتها جرائم الفقراء، وبالرغم من ذلك فإن الإجراءات القانونية الرادعة للص ارتكب جريمة سرقة مع راكب واحد في إحدى وسائل النقل العام، تتساوى مع الإجراءات القانونية المتخذة ضد صاحب شركة ضخمة حقق أرباحا خيالية من خلال عمليات النصب والاحتيال على أفراد المجتمع، ومن هنا تأتي أهمية الدراسات التي أجراها الدكتور أحمد أنور مدرس علم الاجتماع بجامعة عين شمس والتي صدرت في كتاب بعنوان «الفساد والجرائم الاقتصادية في مصر» فالكتاب يعد محاولة جادة لتفسير السلوك الإجرامي خاصة فيما يتعلق بجرائم شركات توظيف الأموال في مصر والأضرار البالغة التي ألمت بآلاف الأسر المصرية من ذوي الدخل المحدود والمتوسط وأثرت بالسلب على الاقتصاد القومي، ويقدم الكتاب تفسيرا أعمق لمفهوم الجريمة ولسوسيولوجية القانون في مصر، كما يهتم بالأبعاد البنائية والتاريخية لعملية التجريم ولظاهرة الجريمة بصفة عامة كمحاولة لتبرئة الفقر من تهمة الإجرام والتوجه نحو أوجه الخلل الحقيقي في المجتمع الذي يعد مسئولا عن ظاهرة الفقر بالدرجة الأولى.

يبدأ الكتاب بعرض نشأة وتطور التجريم الاقتصادي وماهية الجريمة الاقتصادية والتعريف بجرائم

رحيق الكتب



الخاصة والتي تطلق عليها «جرائم الياقات البيضاء» وأساليب عقابها ويبحث في ظهور جرائم شركات توظيف الأموال على المستويين العالمي والمحلي، ويكشف عن الفساد المؤسسي، وكيفية قيام شركات توظيف الأموال باختراق مؤسسات المجتمع وأساليب العقاب في هذه الجرائم مع عرض للقوانين التي تمكنت تلك الشركات من اختراقها، وأهم الجرائم التي تشملها مثل جرائم النصب والاحتيال وخيانة الأمانة، وجرائم الاحتكار والمضاربات غير المشروعة وجرائم تهريب النقد .

قضايا الفكر في الأدب المعاصر



- هذا الكتاب هو الطبعة الثانية من الكتاب الذى صدرت طبعته الأولي بالقاهرة ١٩٥٩ عن المكتب الفني للنشر. ورغم ان هذا يعني صدوره منذ مايزيد علي أربعين عاماً، إلا أننا نجد أن قضاياه للعجب أو للأسف - لاتزال حتي الآن ٢٠٠١، هي القضايا البارزة من قضايا الفكر في الأدب المعاصر . بل لعلها صارت أكثر سخونة وإلحاحا وهي تتناول قضايا: العامية والفصحي، الشعر الحر والشعر الموزون المصطلحات العلمية، قواعد اللغة العربية، أزمة الهجاء أزمة الطباعة الحروف اللاتينية ، الإلتزام في الأدب، الأدب الواقعي الإبانه والرمز اسلوب الإثارة والمنهج العلمي كاتب الأمس وكاتب اليوم، انحراف رسالة النقد ، مكان المسرحية خال ، الترجمة الي الضاد ، أزمة الكتاب العربي «أهناك محنة ادبية ؟ الفكر بين الأرستقراطية والغوغائية يعبر الاستاذ الناقد واللغوي وديع فلسطين بغضب شديد عن رفضه التام استخدام اللغة العامية في التعبير الأدبي

ولا يري لها أي مبرر أو عذر وينحاز كاملا للشعر الموزون ، غير أن تعبير الغضب عند الاستاذ وديع فلسطين له خاصية الهدوء وكظم الغيظ والبحث عن الحل عند رفض القائم فهو غضب بناء يمتلك الصراحة الشديدة مع التهذيب المفرط والدماثة المحرجة ؟!
فجوهر رأيه في الاتفاق والإختلاف يتضح في قوله: «.. ولئن ذهب الناس في آرائهم كل مذهب فثمة اعتبار ينبغي ان يعلو علي كل اعتبار سواه، وهو الحرص علي حرية الفكر والرأي والذود عنها والذب عن حياضها فإن كانت هناك صلة عميقة بين حملة الأقلام فهي صلة سداها تلك الحرية ولحمتها الإخلاص في إبداء الرأي وإعلانه. فليختلف الأدباء على المذاهب الأدبية المتباينة ، وليتناحروا علي المعايير الأدبية، وليتضاربوا - إذا شاءوا - علي إمارة الشعر أو إمامة الأدب، ولكن حذار أن يضحوا بهذه القنية الغالية قنية الحرية الفكرية وهم يتلاحون ويتنابذون .

يعترف الاستاذ وديع فلسطين بالواقع المتردى للناطقين باللغة العربية خرج جيل من الشباب يجهل لغته ولسانه ، ويعز عليه أن يكتب كتابة تخلو من خطأ أو أن يتكلم كلاما يبرأ من السقام.، وهو يرى الحل في تصحيح صيغة تعليم قواعد اللغة العربية للنشء والتلاميذ والطلاب ويجد أن القول بصعوبة اللغة العربية من الأقوال التي شاعت رغم عدم صحتها : «يمكن تقسيم قواعد اللغة العربية من ناحية عامة إلى قسمين : قواعد متداولة كثيرة الاستعمال ، وقواعد قليلة التداول.. اما القواعد المتداولة التي يحتاج اليها المرء في حياته اليومية.، فهي القواعد التي ينبغي ان تعطي أولوية في التدريس، فتختفي تبعا لذلك الأغاليط الفاحشة.. وهذه القواعد المتداولة هي من السهولة واليسر بحيث لا تحتاج الي مزيد من التبسيط أو التيسير ، ولو أنفق المرء في دراستها قليلا من الوقت ، لأمسك بناصية اللغة وامتنع عن إيراد الفاحش من الاخطاء ، مما هو معهود في النشء الجديد ، بل في خريجي المعاهد الجامعية العليا ..

بهذه السياسة الباحثة عن الحلول بعيدا عن الصدام والهدم يتنقل الاستاذ وديع فلسطين بين قضاياه الثماني عشرة المختلفة حتي يصل الي قضيته الأخيرة : «الفكر بين الارستقراطية والغوغائية .. فلا يملك أن يقاوم قوله : «. لقد مني الأدب بوباء الغوغائية ...»

وقد افزعنا ما قرأناه ليوسف السباعي من دعوة الي ما سماه : التفاهة وخفة الدم، فهو يري ان الزمن الذي توترت فيه اعصاب البشر وزادت اسباب منغصاتهم يحتاج الي التافه الخفيف الدم اكثر من حاجته الي العبقري الثقيل . ويضيف الي ذلك انه شخصيا يفضل ان يكون تافها خفيف الدم عن ان يكون عبقريا ثقيلا سمجا ، ويعلق الاستاذ وديع فلسطين علي فلسفة الاستاذ يوسف السباعي الذي وصل بعد ذلك الي منصب وزير الثقافة في مصر - قائلا : «فالذي دعا بالأمس الي نبذ قواعد اللغة لأنها قواعد سخيفة لا لزوم لها ، قد تطور مع نفسه تطورا منطقيا فصار يدعو اليوم الي التفاهة وخفة الدم لكن الذي لم يستطع الاستاذ وديع فلسطين ان يقوله بسبب ادبه الجم اقوله انا بصدق وحرية وهو ان الاستاذ يوسف السباعي وإن كان قد حقق التفاهة فعلا فإنه قد عجز تماما عن تحقيق خفة الدم.

«يا أخى إنه فقير..!»

بقلم : حسن سليمان



زكى طليمات



أمينة رزق

العمل بالمسرح كان شاقا فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات، واستمر الأمر هكذا حتى استفحل أمر التليفزيون. فسطح الدراما، وشأن كل شىء حلت الارتجالية والافتعال محل العمق والدراسة - إلا فيما ندر - ويكون ذلك بمحض المصادفة، حدث هذا رغم أن إمكانيات التليفزيون كانت من المفروض أن تضيف للمسرح لا أن تقضى عليه.



بروفة لاحدى مسرحيات الفنان يوسف وهبى

نرجع للمسرح وكثيرا ما كان يمضى بنا الوقت إلى ساعة متأخرة من الليل فى قراءة النص وإلقائه على منضدة مستطيلة طويلة، ويتمرن الممثلون على الإلقاء منفردين دون الحركة على خشبة المسرح، يتبع ذلك «البروفات» دون ديكور وإضاءة. ثم يتبعها «البروفات» بالديكور مع الإضاءة عدة مرات متتالية. الكل كان يرتجف من «البروفة الجنرال» فالكل ممتقع حتى أمينة رزق وهى أكبر من عملت معهم، كانت ترتجف متسائلة: هل أجدت واستطعت أن أؤدى بالضبط؟».

إخراج المسرحية فى ذلك الوقت كان شيئا غير ما يحدث الآن، كان يتطلب أحيانا تحضيرات تطول إلى ستة أشهر مثقلة من المخرج قبل اللقاءات الأولى مع مهندسى الديكور والملابس، وحينما كنت أعمل كان اللقاء مع المخرج فى مرسمى تطول مدته شهرين أو أكثر، قبل أن يبدأ التمرن على إلقاء النص حول المنضدة المستطيلة. نتشاور أنا والمخرج مرات متعددة على الحركة من أين يدخل الممثل ومن أين يخرج وأين يقف ؟ حتى أحيانا ما كنت أضطر إلى تقسيم خشبة المسرح إلى خطوط بيضاء ومتقاطعة تساعد الممثل على الوقوف بالضبط فى المكان المحدد له حتى نحصل على توازن حركة الممثلين مع الديكور والإضاءة.

لكن ما أود قوله يبعد عن هذه الديباجة لأنه عن المرحوم زكى طليمات الذى كان عندما ينشغل فى عمل شاق فى إخراج مسرحية أو موعد بالليل يطلب من أنور فتح الله الذى كان طالبا عنده فى «معهد الفنون المسرحية» فارع الطول ذا عينين زرقاوين وشعر أصفر، ينادى عليه زكى طليمات قائلا: سترسب هذه السنة، وأنا واثق أنك بليد، إن لم تفعل ما آمرك به، هل تعرف قهوة «ركس» هناك رجل

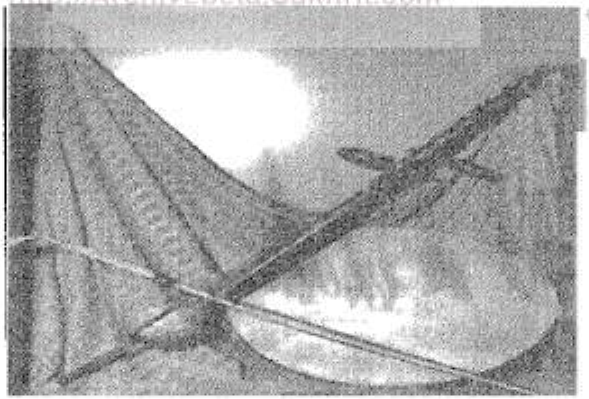
عمله أن تدفع له عشرين قرشا ويكتب لك نكتة، إذن خذ جنيهين لتشترى عشر نكات، وخذ كذلك ثمن كباب لك ولزوجتى وزجاجة خمر «لتطفحها سيادتكم». تحضر لىّ إلى المنزل وحينما أنزل عليك أن تسلى زوجتى، و «وقعتك سودة» لو مضيت قبل أن أحضر مهما طال الوقت إلى الثانية أو الثالثة صباحا، عليك أن تسليها وتمنع عنها الملل والنعاس إلى حين عودتى.

يفعل أنور ما يأمره به ومن حين لآخر يقول لها نكتة فتضحك قائلة : «ضحكتنى يامضروب»، وهكذا يمضى الأمر بأنور فتح الله يأكل الكباب ويحتسى الخمر ويسامر زوجة زكى طليمات حتى يحضر فيسأل عن الحال، فتقول له زوجته: كانت جلسة تنقصك.

استمر الحال هكذا كلما شغل زكى طليمات بعمل أو ربما بموعد غرامى يُحضر أنور فتح الله، حتى وصل الأمر أن المرات التى يكون فيها زكى طليمات فى المنزل تقول له زوجته «قعدتك مملة وجلستك دمها تقيل» ولايمكن لامرأة أن تحتملك بثقل دمك. أرسل فى إحضار أنور - الذى لاتسمح له حتى بمصافحتها.!

أعجبنى ماحدث بين أنور وزكى طليمات حتى أننى مع قصص حبى المأساوية كنت أسعد حينما أجد للمحبوبة سميرا أو مسلياً حتى أستطيع أن أعمل واكتشفت أن هذا يبقى على الحب أكثر، إن كان الرجل واثقا من ذاته ولايمكن أن يقارن نفسه بأحد.

إن حادثة مثل حادثة الأستاذ زكى



الربابة ..صاحبتنا مع سيرة الظاهر بيبرس وعنترة

طليمات ليست غريبة على مجتمعنا وعن باقى المجتمعات أو القرون الماضية حتى العصر اليونانى، أذكر فى طفولتى ببلدتنا، أن جدى كان مشغولا جدا وهو فى أوج مجده، كان لدينا شخص قوى البنية يسمى «الكلاف» وهو بجانب ما تأمره به سيدة البيت من تقديم الأكل للحيوانات والدواجن والذهاب إلى السوق لشراء بقية الاحتياجات كان عليه أن يجلس لمسامرتها، منتظرا أوامرها دائما، فى وحدتها يقص عليها كل شىء عن أحداث البلد، فهى عازفة دائما عن الخروج، وإن ذهبت لزيارة ما فهو الحارس الأمين.

يخشى جدتى إلى أقصى درجة، وكأنه كلب هى سيدته، يسليها أحيانا بنوادر تختلط فيها قصة الهلالى مع سيرة الظاهر بيبرس وعنترة أما جدى فدائما مشغول بأمر إدارة أرضه وعلاقاته واتصالاته، ولم نكن نراه، فدائما المندرة التى فى الدوار الكبير ممتلئة بالزوار. إن كل مايفعله هو أن يصفق بيديه طالبا طعام من خلال صوان مستدير يدور حول نفسه، تضعه إحدى الخادمات تحت إشراف جدتى ليدور الصوان ويصبح ناحية المندرة، وهناك من باقى الفلاحين من يصف الصحاف على صينية كبيرة لها حامل.

أما «الكلاف» فيعرف مهمته جيدا يجلس تحت أقدام جدتى حتى لايشعرها بالملل وحتى يكون طوع بنانها، كثيرا ماتقول له قص علىّ بعض قصص الهلالى أو نوادر جلال الدين فى سيرة الظاهر بيبرس.

إذن فدوره محصور فى دور أنور فتح الله مع زوجة المرحوم زكى طليمات، لكنى كنت دائما أشعر بذلة وفقر فى شخصيته.

كان الفرسان فى القرون الوسطى فى نزاعهم مع جيرانهم كثيرا مايتركون نساءهم مع مثل هذه الشخصيات بجانب المهرجين والأقزام، حتى شاعت بعد ذلك مقولة «مضحك الملكة».

أذكر وأنا طالب فى «كلية الفنون الجميلة» أننا كنا نطلق على الشاب الذى يسعى دائما خلف الفتاة - منتظرا أوامرها ملبيا احتياجاتها يغرقها بالثناء والهدايا، كنا نطلق عليه لفظ «الموصلاتى» ولم يحدث قط أن أحبت فتاة مثل هذا الشخص. كان معنا فى الكلية شاب صعيدى ضخم يبلغ من السذاجة حدا كبيرا حتى أن نوادرنا معه تكاد لاتنتهى لكن ليس هذا مجالنا .

فى ذلك الوقت جمعتنى صداقة حميمة بزميلة، حتى أنها كانت تحدثنى عن أشياء خاصة جدا ولم تكن تستطيع أن تبوح بها

لأحد من زميلاتها، كانت عزيزة عليّ إلى درجة أنني لم أكن أدعها تذهب إلى منزلها بمفردها، وفي الوقت نفسه بما أنني كنت أعمل في أكثر من عمل وأنا طالب في الكلية، فمن الصعب أن أوصلها إلى منزلها في مصر الجديدة فلم أجد أمامي سوى أن أقنع زميلي الصعيدي بأنها تعزه بالضبط كأخيها، فيضبط ساعته على موعد انصرافها ليوصلها كما طلبت منه، وأقنعته بأنه هو الوحيد الذي أثق به، فكنت دائما أحدثه عن شهامة الصعيدي حتى تأخذه النعرة الصعيدية فيذهب ليوصلها، يأخذها في حمايته ثم يرجع إليّ لاهثا سعيدا بأنه أنجز المهمة على مايرام، بالضبط كما يحدث مع بعض المسئولين لدينا، حيثما يأمرون أحد المرءوسين بإنجاز شئ قد يكون خاصا بهم، فيفعل المرءوس هذا الشيء عن طيب خاطر، وهذا ليس مبالغة، فمنذ ثلاثين سنة كان يأتي إليّ موظف ويقول : لقد كلفني رئيسي بانتظار فراخ الجمعية والبيض والأشياء المدعمة الأخرى وأحيانا الجزارة والسمك، يقول لي دائما : هل استطيع أن أجلس لديك حتى ترجع الست إلى المنزل؟، فهي كذلك تعمل مثل زوجها، يجلس لديّ حاملا مثل هذه الأشياء، ومن حين لآخر يحدثها في التليفون حتى يتأكد من وصولها فينصرف مسرعا.

شعرت ومازلت أشعر أن مثل هذه الشخصية تملك ضعفا وفقرا ما. مضت الأيام بسرعة وإذ بهذا الرجل الذي كان يقوم بدور «الكلاف» أصبح ملء السمع والبصر للشعب كله، ووصل إلى أعلى المراتب .

●●●

مغرما بالنيل ومراكبه الشراعية التي كثيرا مارسمتها ومازلت أرسمها، كانت هذه المراكب ضخمة جدا تحمل البضائع من الوجه القبلي إلى الوجه البحري والعكس ، قررت - لحبي لها - أن أدرسها عن قرب . وظيفة كل حبل مدلى، وما الذي يظهر منها وما الذي يختفي تحت الماء ، فقررت أن أقوم برحلة فيها إلى الصعيد وأرجع، وبعد توصية من تاجر بصل في ساحل « أثر النبي» قبلني «ريس المركب» سرعان ما ماكتشفت أنه عالم كبير داخل المركب، حيث الرجل ونصف الرجل وثمن الرجل . الرجل دائما ربان المركب وهما اثنان يتناوبان ، يحفظان كل التيارات المائية على مجرى النيل، أما نصف الرجل فهم الملاحون الذين يأمرهم الريان بفك الأشرعة وتغيير اتجاهات حسب الريح إلى أعلى حتى يضمن سلامة الشراع وربطه من أعلى .

أما ربع الرجل وعددهم كثير حيث يربو على ثمانية. وظيفتهم أنه حينما تكون المياه ضحلة والتيار ضعيفاً يخرجون خارج المركب ليسحبوها بالحبال من الشاطىء ويسمى ذلك «شد اللبانة» ، وطيلة سحبهم المركب يرددون بإيقاع على وتيرة واحدة «هيلاهوب .. هيلاهوب.. هيلاهوب».. أو «صلى.. صلى .. صلى ..» يقصدون النبي.. في إيقاع منتظم حزين. أما ثمن الرجل فهو الذي يغسل لهم ملابسهم المتسخة ويرتقها ويطبخ لهم العدس في الإناء الفخاري، وفي ذات مرة نظرت الى هذا الرجل الذي هو الثمن فوجدته قوى البنية والشكيمة فقلت «للريس» : لماذا لم تجعله يشد معهم المركب ؟ . أجابني بلهجته الصعيدية « عجله على أده – غلبان– هيخابط لهم الدبه ». يقصد أن عقله ضعيف وسيفسد لهم الإيقاع ومن غير ايقاع منتظم لن يستطيعوا أن يشدوا المركب في سهولة وسرعة .

هناك بعض الرجال يقوم بدور «الكلاف» أو «الموصلاتي» للنساء والسلطة وتجدهم النساء والسلطة مسليون وتقربهم منها . أما الرجل المنكفيء على عمله تهرب منه دائما المرأة والسلطة رغم أنهما دوماً يحنان اليه لاحتياجهم الشديد اليه . وفي المركب «ثمن الرجل» لا يمكن أن يصعد إلى أعلى وسيبقى «ثمن رجل». أما في الكادر الوظيفي فالباب مفتوح له على مصراعيه .

قال لي شاعر معروف :إنه حينما يأتى له شئ ملح وتبدأ الكلمات تبحث عن صياغة في رأسه . كان يجلس صامتا. فتتساءل زوجته حزينة : هل أنت غاضب مني ؟ هل فعلت شيئا ضايقك؟ أخبرني : ماذا تريد ؟ هل أغني لك «فريد الاطرش»؟ هل أرقص لك ؟ ، وهكذا تستمر في مضايقته حتى يرتدى ملابسه ويصفع الباب خلفه باحثا عن مكان في ركن مقهى أو عن صديقة ليكمل قصيدته ، وظلت زوجته هكذا سنوات ولم تتعلم أبدا أن تتركه وحاله فهو ليس حزينا منها ولا غاضبا عليها لكنه منغلق على نفسه : مستغرق عنها وعن كل نساء العالم في لحظات الهامه. قال لي رحمة الله عليه؟ مهما طال بنا العمر لم تفهم او تتعلم . إن أية أمرأة تفضل طبعا الرجل المسامر الظريف الذي تستطيع ان تأمره ليذهبا سويا إلى أي مكان ، فهي لا تفهم أبدا أن ينشغل زوجها أو حبيبها عنها . ربما كانت تفتخر به لكنها ترفض أن ينشغل عنها وتريد أن يدور محور حياته حولها . إنها تفضل الرجل المطيع السمير المسلي الذي

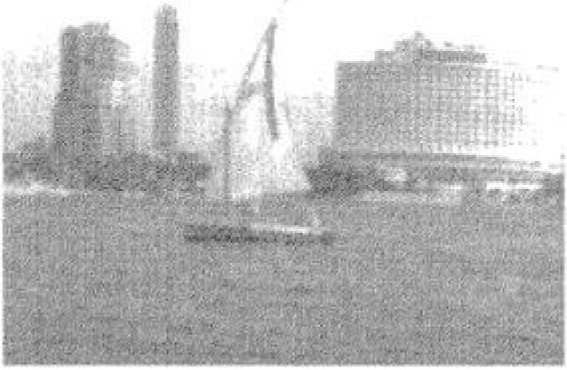
تسهل قيادته وحيازته، ونحن نومأ إلى الرجل القوى الذى استعصى عليها . هذا مفهوم المرأة فى الشرق حتى أصبح مثلا يقال «ماليه عليه حياته» . ربما صفحنا هذا للمرأة . لكننا لا نستطيع أن نتفهم أن ينعكس هذا الوضع على المسئولين حتى أثر فى إنتاجنا .

حدث أن ذهبت زوجة رئيس مجلس إدارة شركة وطنية ضخمة الى عمرة، وفى اليوم التالى لوصولها . استدعى زوجها رئيس مجلس الإدارة - مهندسا بالشركة قائلا له. كيف يصل بك الأمر الى حد انك لم تذهب الى المطار لاستقبال زوجتى وهى عائدة من العمرة ؟! . اجابه المهندس : هل تريد منى أن يتوقف خط إنتاج وردية كاملة عن العمل بالمصنع؟. اجابه رئيس مجلس الإدارة : أجل .. المهم أن أراك فى المطار .

حينما درست فى كلية الفنون الجميلة كنت أدخل مباشرة إلى الطلبة . ولا اتركهم حتى الثالثة إلا منصرفاً . استدعانى العميد قائلا بعشم : لماذا لاأراك ؟ ، وتجلس معى لنشرب فنجان قهوة ؟ قلت له : هل الأهم أن أذهب لأرى ماذا يفعل الطلبة أم آتى اليك ونتسامر ؟ قال لى : لا الأفضل أن تأتى الى كل مرة قبل كل شيء ونتسامر ونجلس بعض الوقت فنحن زملاء قبل كل شيء ، ولنا معا ذكريات ممتدة .

حينما كنت فى العراق فى زيارة لها فى السبعينات كنا نناقش وصول أحد العراقيين الى مركز مرموق فى السلطة وغنى فاحش علق أحد العراقيين بلهجته البغدادية : يا أخى هذا إنسان فقير .أجبته مندهشا : فقير !! قال : أجل ، ضعيف. لم أفهم. قلت له : انه صحته جيدة جدا وبنيته قويه ويملك نقودا كثيرة من العمولات . أجابنى : بأنه فقير . لقد وصل إلى وظيفته بأن كان يحضر المزات ويعصر الليمون على «الطلاطة» يقصد السلطة . ويحضر زجاجة الويسكى والكئوس . إنه فقير ، وأخيرا ادركت ان الشخص الذى ليس له نخوة او رجولة أو لا يملك الشرف يطلقون عليه «فقير» .

تعرفت ذات مرة على أحد الأفراد من عائلة ميسورة ، ولا أدرى إن كانت أممت املاك العائلة أم لا. عرفت انه يعمل مع مقاول كبير كان له شأن مهم جدا وقريب من السلطة. بنى الكثير من المدارس والمبانى والمشروعات الضخمة حتى ترميم الاثار فى الخمسينات . ثم جاء زلزال ٩٢ فإذا بها تتهدم او تقع متصدعة بينما المبانى التى بنيت منذ عهد اسماعيل باشا



المراكب الشراعية على صفحة النيل لوحة هام بها الفنان

لم يحدث لها شيء . على كل سألته: ماذا تفعل معه ؟ يبدو أن راتبك كبير جدا حتى أنك تغير عربتك المرسيدس كل عام؟ فقال لي : إنني بالنسبة له كل شيء ، ذراعه الأيمن ، دائما معه في استراحته بالمريوطية أو ساقية مكي . قلت له : وماذا أنت بفاعل ؟ قال لي : أنا المسئول عن المزاج ، عن الكيف .. قلت له : فهمت ! لقد بلغ بهذا المقاول أن سيطر في سنوات مضت على كل شيء في مشروعات الدولة من ترميم آثار إلى إنشاء مشروعات ، وحفر انفاق ومد المجاري . كأنه لا يوجد أحد غيره ، وكل ما أقامه من إنشاءات اثبتت التجربة فشل فاعليته ، وعلى حد قول العراقيين : إن الرجل المسئول عن المزاج« فقير ». أي لا يملك الصلابة أو العزة أو الكرمة . إن هذا الأمر استفحل

في كل مجالات الدولة عندنا أصبح الشخص الفقير يختار شخصا فقيراً آخر حتى وصل الأمر الى بنية الدولة الأساسية. ذات مرة طلب مسئول اول أحد الممثلين وأحد الكتاب، «المتروحنين بالاسم كي يقضيا معه وقتا في استراحته في أعلى الوجه البحري، فأمست جلسات المثقفين المسائية كلها في كل مكان تدور حول إنه قد اختارهما بالذات لأن تغييرا وزاريا على وشك التشكيل ، وأحدثت هذه المناقشة بلبلة وصخبا ومجالا واسعا من التكهنات : من سيكون الوزير في الدفاع والاقتصاد ؟ ومن سيوصي الكاتب من الوزراء ؟ ومضت الأيام ورجع الفرسان الثلاثة وسئل الممثل فلم تخرج اجابته عن أن لا شيء على الإطلاق مما تكهن به الناس. كل ما في الأمر أنه – المسئول

الأول - كان يحن الى اجازة كيف واسترخاء كما كانوا يفعلون في أيامهم الأوائل ، ويتذكرون نوادرهم مع بعضهم ..

●●●

إننا نحمل الأمور هنا في منطقتنا أكثر مما يلزم. فكثيراً من القوانين تسن اعتباطا دون دراسة قانونية . بل يحددها مزاج أشخاص لصالح افراد بعينهم ، وهكذا أصبح القانون يسن في السبعينات يجبه قانون آخر بعد سنوات قليلة ، ولم نخرج أبدا عن الخطأ أو الأضرار التي وقعنا فيها منذ خمسين سنة ، وهي ما اشيع في بداية الثورة من أنه لابد من التجربة والخطأ ، وكان المسئول حينما تلم به مشكلة منطقية عويصة يقول : هل الحكم كيمياء يعني ألا استطيع فهمها ؟ لقد استفحل الأمر في الآونة الأخيرة وأصبحنا نطلق على كل متعطش للسلطة دون مستوى أخلاقي أو علمي يذكر،إنه «فقير» بلغة أهل بغداد . ما مصير دولة يطلق على رجال الحكم فيها - يطلق عليهم بالعربية - «إمعة » وما مصير الكفاءات الحقيقية التي تحارب بأقصى ما يمكن لأن كرامتهم لا تسمح لهم أن يذهب احدهم لاستقبال زوجة رئيسه العائدة من العمرة أو يحضر المزات والكئوس او يصبح الملك في جلسة توزيع الكيف. هل هانت نفوسهم عليهم أم هانت البلد ؟ إننا بحسبة بسيطة نستطيع ان نصل الى أن تلك النوعية اصبحت تملك حقدا وغلا لإذلال الآخرين الذين يحتفظون بكرامتهم وبكبريائهم وهم ينهون أية مناقشة بأنهم يفعلون ، ما هو للصالح العام أو هكذا امرهم المسئول الاكبر منهم .

أذكر مرة كنت سائرا مع المرحوم احمد غنيم في بدء شبابنا وإذ به يلمح صورة في «فاترينة» المصورة «انترو» بجوار سينما مترو قال لي : «انظر أن هذه صورة وكيل نيابة لدي، إذ كان احمد غنيم في ذلك الوقت رئيسا لنيابة الزقازيق قال أنظر الى شعره الطويل». ثم استطرد احمد غنيم قائلا: إنه ممنوع على وكيل النيابة أن يعرض صورته نهائيا ، اضف الى هذا شعره الطويل وليس بهذه الفجاجة. غداً سآمره برفع الصورة وفي مساء اليوم التالي لم تكن الصورة موجودة، مضى الوقت وقال لي احمد غنيم هل تذكر صورة وكيل النيابة المضحكة التي أمرته أن يزيلها اصبح الآن شيئا مهما ، لقد عرف طريقه!

منذ أيام ذهبت الى الجزار وإذ بأحد مساعديه يخرج ليقبله رجل ذو حلة يضيق بها جسده المنتفخ . يقبله على خديه الأيمن والأيسر ثم سأله: هل احضرت لي ما

طلبت ؟ هل نسيت ما طلبته منك ؟ أجابه مساعد الجزار : أبدا يا سعادة البيه .
ثم أتى له بطبق به الأجزاء الحساسة من العجول . فقال له : عال، عال إصنع لى إذن طاجن على كيفك ولا تنس ان تضع ست حبات من جوزة الطيب والتوابل والتحابيش، وحينما مضى الرجل سألت مساعد الجزار : من هذا ؟ قال لى انه رئيس محكمة (.....) كيف تركت هذا القاضى ويتحكم فى مصير الأفراد . إنه من نوعية أصبحت تسود عندنا الآن، اما القاضى فى انجلترا فما زال ممنوع عليه أن يذهب الى الأماكن العامة او يصادق أحدا ، وهو الوحيد فى انجلترا الذى لا يزال لا يتقاضى راتبا. بل إن خزينة الدولة تهبه ما يحتاجه ولم يحدث أن قاضيا نقض عهده أو أساء استخدام هذا الحق . كان القضاء المصرى مشهورا فى العالم كله بالنزاهة . أما الآن فلا أود أن أتحدث !.

أخذنا من النظم العالمية ابرز مساوئها منذ القرن التاسع عشر من الرأسمالية والفاشية والشيوعية ولم نستفد حتى من اخطاء هذه النظم بل كرسنا جهودنا لنمارس مساوءها فقط، فتعم الفوضى والانتهازية . أين ذهب وعينا وضميرنا الاجتماعى ؟ . أين ضاعت النخوة والشهامة والثقة فى النفس والاحترام للذات .

الحقيقة .. الحقيقة .. الحقيقة أن الضمير الإنسانى حين يكون واعيا بذاته فإنه يصل بالحياة إلى شعاع الضوء فى الأفق اللانهائى ■

قالوا عن المرأة

● إن المرأة قد نشأت منذ طفولتها على ان النموذج الذى ينبغى عليها ان تحتذيه ، هو النموذج المضاد لنموذج الرجل ، بمعنى أن ليس من حقها أن تكون حرة الإرادة أو محكومة بذاتها ، بل أن تكون مستسلمة ومحكومة من الآخرين .

جون استيوارت
من كتابه « خضوع المرأة ١٨٦٩ »

كتابة المرأة عن المرأة من الممكن أن تسير فى طريق مسدود إذا إصرت المرأة على طرح أدب المرأة باعتباره أدبا موجها ضد الرجل .

الروائية : سلوى بكر

قصة قصيرة

غرباء

بقلم: د. أيمن الجندى

بريشة: محمد أبو طالب

أمسك بالفأس ورفعه فى عزم.. لم يكن قد أمسك فأسا من قبل ولا اعتادت يده الناعمة ملمسه الخشن البدائى، ولكنه تحامل على نفسه ومضى يهوى به فى قوة على جذع الشجرة. وامتزج صوت لهاثه مع صوت تهشيم الشجرة مع أصداء أصوات غاضبة تقترب من بعيد.





الحكاية كما يرويها العجوز

كان مساء أغبر لم تشرق له شمس، عمري سبعون عاما.. قضيتها بالكامل منحنيا على أرضي.. تمتزج قطرات عرقي بذرات التراب بطعم اللهفة بمذاق الفرح .

فلاح أنا بكل ما تعنيه الكلمة من معان.. فلاح يؤمن بأن الحياة مقدسة وأن المساس بها جريمة يستحيل الإغضاء عنها.

لذلك يجب أن تتفهموا مشاعر الغضب الجامح الذى اجتاحتني حينما أبصرت ذلك المأفون يتسلل كاللص فى ظلام الليل ليهشم شجرتي العزيزة.. شجرتي الثمينة التى لا نظير لها فى بر مصر كلها .

لم أكن أعرفه حينما اصطحبه ولدى الى قريتنا الهادئة (وليته لم يفعل)، رحبت به فى حرارة كما تقتضى التقاليد، ومضت (الحاجة) كالعادة تعد الفطير البلدى والحمام المحشو بالأرز والعسل الشهى بينما دعوت الضيف الى جولة فى الحديقة.

اعترف أننى أحببت هذا الشاب لشغفه بحديقتى الغالية.. كان عشقه للأشجار والزهور أصيلا غير زائف .. إن هذه الحديقة هى لى بمثابة الروح من الجسد.. النور من العين.. العطر من الورد، ومثلما يحتفظ البعض بالبوم للذكريات يشتمل على صوره القديمة فإن تلك الحديقة هى بمثابة البوم الذكريات الخاص بى.

خذ عندك هذه الشجرة مثلا.. انها لا نظير لها فى بر مصر كله.. زرعتها بيدى منذ خمسين عاما .

هى شجرة نادرة من أشجار الهند لإحدى ثمار الفاكهة غير المألوفة فى مصر. أتى بها باشا مصرى فى إحدى زياراته للهند فى الأربعينات، ولكنه لم يفلح قط فى زراعتها.. يقولون أن مناخ مصر غير ملائم لها.. وحينما تملكهم اليأس استطاع والدى أن يظفر بها .. لكنه لم يفلح هو الآخر فى زراعتها .

ولكنكم ترونها أمامكم الآن، فهل تراكم تعلمون من الذى أفلح فى ذلك؟

حتما إنه أنا .

مئات الليالى أنفقتها فى محاولات مضنية حتى اهتديت فى ليلة ما إلى الوسيلة المثلى لاستنباتها.

هل أسهب فى الحديث عن مدى فرحتى بذلك أم أن الأمر مفهوم حتما؟.. هل أكون مبالغا إذا قلت إن هذه الشجرة بمثابة ابنتى التى أنجبتها منذ خمسين عاما.. ابنتى الضعيفة المنهكة التى لم تثمر أبدا..؟

هل تخمنون

الشيء الذي أتطلع لمرآه بشغف كل صباح قبيل صلاة الفجر في المسجد؟.. هل تعرفون الشيء الذي يثير هواجسي في ترحالي؟ والذي أهرع اليه لدى إيابي متملصا من عناق الأهل والأحباب؟
هل تعرفون كل ذلك وأكثر ؟
هكذا مضيت أقص تلك الحكاية الأثيرة نشوان وكأني أفلحت توا في زراعتها.
ولكن..
كيف غفلت عن ذلك الشحوب الذي عراه وهو يصغي الى حكاية الشجرة اياها؟
كيف عزوت ذلك الشحوب الى إرهاقه في السفر ؟.. كم كنت ساذجا حين لم انتبه الى عزوفه عن تناول طعام الريف الشهي الطازج؟.. كيف طاوعتني نفسي على النوم الهادىء المطمئن حتى انتبهت على صوت مكتوم لم يكن ممكنا - كفلاح - الا اعرف كنهه؟.
هو صوت فأس يهوى على جذع شجرة



مافي منتصف الليل ولم يكن ممكنا إلا أن استطلع جلية الأمر .
وهكذا رأيت ..
ويالهول ما رأيت

......
الحكاية كما يحكيها الابن
ماذا تفعل لو أبصرت عزيزا عليك يدير ظهره للشاطىء ويتجه صوب أعماق البحر الغادر صاما أذنيه عن صيحات التحذير؟
ألن تسعى لانقاذه؟
ألن تتمزق من أجله؟
كان هذا هو حالي.
صدقي عزيز هو .. بنفسه العطوف وشفافيته التي تشبه الزجاج النقي الرقيق .. الزجاج الذي يتهشم بمجرد اللمس .
في البدء لم أفطن إلى تغيره، خلت أن ايثاره الصمت وعزوفه عن رفقة الأصدقاء هو أمر عارض لن يلبث أن يزول .
ورغم ذلك لم أقف ساكنا إزاء أحزان صديقي الوحيد .
كان قاربه يبتعد رويدا عن شاطىء البحر ولكني لم أدرك أنه قد توغل الى نقطة اللاعودة إلا في رحلتنا المشئومة إلى قريتنا.
ألححت على صديقي أن نمضي عطلة قصيرة بالقرية. كنت أخال أنه - حتما - سيأبى مرافقتي الا أنه لدهشتي أذعن على الفور. أتراه كان يود الهروب من مدينته التي يمقتها؟ أم تراه أزمع شيئا آخر؟ لست أدري.
عندما دعاه أبي الى مشاهدة حديقته أشفقت عليه فقد كنت أعلم مدى ولع أبي العجوز بالحديث الممل عنها، كان التأدب وحده هو ما يمنع ضحاياه من الهروب، ولكن المدهش أن صديقي لم يبد عليه الملل بل كان يصغي



اليه فى شغف حقيقى، وقفت أرمقه فى إشفاق،

اعلم ولعه باللون الأخضر، إلا أن ماشاهدته من شغفه أثار شجونى.. متبتلا كان.. يكاد يبكى تأثرا من مشهد الثمار المتدلية من الأشجار.

ثم قص أبى حكايته المشهورة عن الشجرة النادرة التى لا نظير لها فى مصر، وعلى الفور وجدت وجهه يشحب .. يتغير.. يمتقع.

لم أفهم بالطبع، وكيف يتسنى لى أن ألم ساعتها بغرابة أطواره؟ لم أفطن إلى سر شروده وعزوفه عن الطعام رغم ترحيب أبى الذى أعجبه ولعه بحديقته .

وفى النهاية مضينا سويا الى غرفتى لننام . حاولت أن أسامره الا أنه تظاهر بالنوم ليتجنب الحديث فلم أشأ الاثقال عليه .

وبينما كنت أتفكر فى غرابة أطواره غلبنى النوم.

استيقظت على أصوات غامضة بعيدة، ورنوت الى صديقى محاذرا ازعاجه الا أننى لدهشتى لم أجده.. هرولت مسرعا مع والدى الذى جاء هو الآخر يستطلع الخبر .

وهناك تحققت أسوأ مخاوفى .

وجدت صديقى يحطم بالفأس- دون سبب مفهوم - شجرة أبى الثمينة النادرة .

لحظتها عرفت أن قارب صديقى قد اختفى وراء نقطة الأفق البعيدة حيث لا عودة ..

لا ريب انه قد جن، ولا فهل ثمة تبرير لتسلله فى ظلام الليل كاللصوص ثم تهشيم شجرة نادرة لأناس كانوا فى غاية من الود معه ؟

هل ثمة تفسير آخر ؟

بالحق لا تفسير لدى إلا المرض النفسى .

لكن هذه التحليلات يمكن تأجيلها قليلا لانقاذه من براثن أبى الذى جن جنونه وأوشك أن يهشم عنقه بذات الفأس. عبثا ما حاولت تهدئة الشيخ العجوز الثائر الذى تهدجت أنفاسه وتناثر لعابه وجمحت عيناه .

بالكاد أنقذت حياته .

....

الحكاية كما يرويها الصديق

أفهم الآن لماذا أطعت ذلك النداء الغامض الذى ألح بى فى الذهاب الى ذلك المكان البعيد رغم عزوفى عن الرفقة والاختلاط. اعرف الآن لماذا أطعت صديقى كالمسحور .

غريب أنا عن عالمى.. غريب عن نفسى.. على أى جنب ارتاح؟

وعلى أية وسادة أريح رأسى المتعب ؟

ومتى يدركنى النوم وأنا غريب بين غرباء؟

ومتى يدركنى الموت وهو الراحة الكبرى؟

كان الرجل العجوز يثرثر، وقتها راق لى حديثه فلم أكن آمل من حديث العجائز والأطفال قط، تأملت الثمار المتدلية من الأشجار ولم أفهم قطعا كيف يعتاد المرء على تلك المعجزة المدهشة؟ شجرة خشبية تتناول غذاءها من الطين فكيف تنجب تلك الثمار المعطرة الملونة ؟

أى اعجاز؟

كانت الحديقة تنفث السلام النفسى الذى أتوق اليه، وتنشر عبقها الفريد الذى يموج بالحب والصفاء، وأوشكت لوهلة أن أنعم بذلك الود، وتصورت أننى نزعت عنى جبلة اللحم والدم التى تعكر صفوى وتؤخر لحاقى بالعالم الذى أريد.

كانت الدموع تتدافع فى عينى وأحاول جهدى أن أخفيها كى لا يراها الآخرون، أكاد لا أسمع حديث العجوز وان كنت أتظاهر بذلك تأدبا وبدأت انتبه الى حديثه عن شجرة معينة بالذات .

يقينا كانت تختلف عن سائر أشجار الحديقة، لا أعنى سمتها فلست أدرك أنواعها للأسف وإن كنت أحسن الدهشة فحسب، أدركت دون جهد أن تلك الشجرة مختلفة عن سائر الأشجار الفخورة المتآلفة.. كانت وحيدة منزوية غريبة.. كانت خائفة .. خائفة.

لم أعد أصغى الى ثرثرة العجوز وانما شرعت أصغى اليها.. الى الشجرة .. كانت تستغيث بى.. شىء ما كالإلهام انطبع فى وعيى بجلاء..

كانت تقول :

«غريبة أنا فى هذه الأرض..

انتزعونى من بين صديقاتى ..

قسرا فى أرض غريبة صلبونى ..

الأشجار حولى تتحدث لغة لا أعرفها، ولا أريد أن أتعلمها.

يتبادلون نكات لا أفهمها

لم يبال أحد بعذابى

ولم يحاول أحد فهمى

مرضت فلم يفهموا علتى

امتنعت عن الثمار فلم يعلموا

أن الشجرة غير المثمرة تفقد علة وجودها

وتعلن على الملأ رغبتها الصريحة فى الموت

هذه استغاثة من أعماق أوجاعى

من يرحمنى بقطع جذعى؟

من يفعل؟

....

كانت الاستغاثة تنتشر فى الأثير لكنها لم تصل إلى أحد سواى.

من يفعل؟»

أنا سأفعل .



التكوين

إن ظن المرء أنه علم فقد جهل

محمد نعمان فرحات

ماهى العوامل الثقافية والاجتماعية التى أثرت فى تكوينى الفكرى؟ هذا هو السؤال الذى طلب منى الإجابة عنه فى عدد محدود من الصفحات وهو جهد لاشك عسير. ترجع صعوبته الى أن قبول الكتابة فى هذا الموضوع يعنى إقرارا صريحا منى أننى قد تكونت ثقافيا فعلا، وأن هذا التكوين قد اكتمل وأننى أجلس اليوم على هضبة عالية من هضاب المعرفة تراكمت طبقاتها خلال سنوات عمرى، وهذا افتراض غير صحيح، فمازلت أشعر أننى فى مجال المعرفة كلما صعدت أمتارا هبطت أذرعا وأميالا، ومازال عالم الفكر والمعرفة عندى أشبه بالبحر اللجى المضطرب منه بالهضبة الثابتة الساكنة، بحر تتجاذبه عوامل المد والجزر تعلو أمواجه تارة ويهدأ سطحه كالمرآة تارة أخرى، تصفو سماؤه وترعد وتبرق، وفى كل الأحوال لا تلوح فى الأفق بوادر شاطىء بعيد تستقر عليه سفينة المعرفة التائهة، لم توصف حالة الحيرة التى تنتاب طالب العلم بأبرع مما وصفه شعرا صلاح عبدالصبور على لسان أبى منصور الخلاج قائلا:

لهثت وراء العلوم سنينا ككلب يشم روائح صيد. فيتبعها حتى ينال طريقا إليها فيركض.. ينقض.. فلم يشبع العلم قلبى قط للمعرفة. بل زادنى حيرة وأجفة بكيت لها وارتجفت.



مع عبد الناصر سنة ١٩٦٦ حين كلفني الدكتور أحمد خليفة وزير الشئون الاجتماعية وقتئذ بمرافقة وفد تنزانيا في مؤتمر وزراء الشئون الاجتماعية الافارقة.

هذا هو حال المتصوفة ولسنا منهم، وإن كانت لنا بعض حيرتهم، وهى حيرة عبر عنها على بن أبى طالب قائلا: «يظل المرء عالما ما طلب العلم، فإن ظن أنه قد علم فقد جهل» أى أن العالم صفة ليست لاكتمال العلم وإنما لطلبه ولا يكتمل العلم إلا لدى جاهل به.

الأمر الثانى، أن الحديث عن التكوين العلمى والثقافى، تتداخل فيه اعتبارات الذات بالموضوع تداخلا وامتزاجا يصعب الفصل فيه بين الاعتراف والسيرة الذاتية والعناصر الموضوعية للتكوين الثقافى ، أى أننا نطلب من الذات أن تتحدث بموضوعية عن تاريخها العقلى، وهذا أمر أشبه بالاستبطان أو بجلسات التحليل النفسى الثقافى الذى يجب أن تؤخذ معطياته بحذر شديد من القارىء وتؤخذ عباراته على أنها مجرد دلالات لنظرة المفكر إلى نفسه، دلالات تستدعى بذاتها النظر والتحليل دون أن ترقى إلى مستوى الحقيقة الموضوعية المجردة.

★★★

أول ما أذكره من عوامل تكوينى الثقافى هو ما ربانى عليه أبى المرحوم صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ نصر محمد فرحات الذى كان من علماء الأزهر الشريف حصل أبى على العالمية الأزهرية عام ١٩٢٨ ونذر حياته لكى ينقل علمه وقيمه الدينية إلى أولاده من بعده وهم كثر. أذكر عندما كنا نستيقظ أطفالا قبل صلاة الفجر، لنقرأ جميعا بصوت واحد سورتى ياسين والواقعة ثم نصلى الفجر. ونعاود قراءة القرآن ثم يبدأ يومنا بالاستعداد الدراسى مع طلوع الصبح.

أذكر كيف كان التفافنا حول مائدة الغذاء مناسبة لامتحاننا فى اللغة العربية

والقرآن والحديث وقواعد الإعراب والنحو والصرف. وأذكر كيف كانت مداعباته معنا تتم على صفحات مختار الصحاح والمصباح المنير والكامل للمبرد، وكيف كنا نحتكم فيما نتساءل عنه من أمور الدين إلى كتاب الفقه على المذاهب الأربعة.

ولعل هذا يفسر أنه رغم تعرضي فكريا لرياح عاتية من فلسفات المادة والالحاد، ظل الإيمان الديني راسخا في الفؤاد لا تزعزعه تساؤلات العقل أو شكوك الفكر، التي هي في بنائي الذهني خلجات أو انتفاضات سطحية على قرار ثابت راسخ من الإيمان الديني وطيد الأركان.

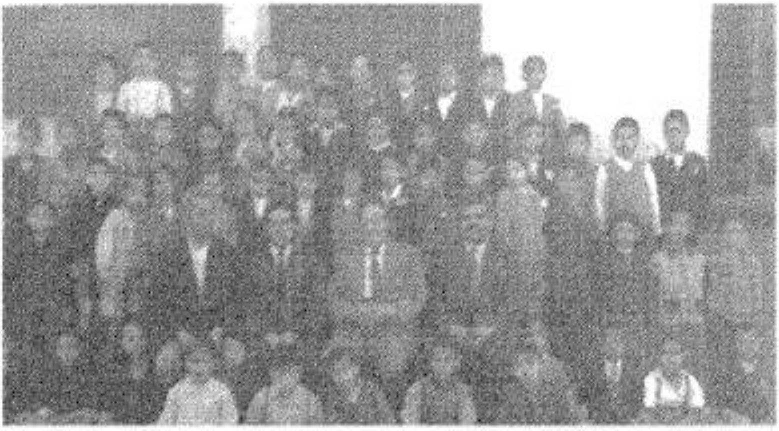
كنت طوال سنوات دراستي غير موفق في الحساب والهندسة والرياضيات، لم يقتنع عقلي الصغير يوما بمنهجها أو جدواها، كنت أراها نوعا من عبث السفهاء الكبار، الذين اخترعوها لمجرد ممارسة هوايتهم في ضرب التلاميذ بالعصا. أما نبوغي الفطري فكان يظهر في مواد اللغة العربية والدين والتاريخ والفلسفة والمنطق.

هل يرجع هذا لتكوين فطري؟ أم لأنه لم يكن لدي في الحياة ما أحسبه إلا سنوات عمري الصغير؟ أم لأن مدرسي الرياضيات الذين تصادف أن تولوني بالتدريس كانوا من أشد خلق الله قسوة، في حين كان مدرسي الانسانيات من أكثرهم عذوبة وخلقا ووطنية وثورة؟ قد يكون ذلك كله صحيحا.

مازلت أذكر مدرس التاريخ والجغرافيا، الأستاذ عبدالغفار، الذي كان يقف في فناء المدرسة الابتدائية، وقت الفسحة يخطب فينا في المناسبات والأحداث الوطنية فيحولنا إلى كرات صغيرة مشتعلة بالحماس الوطني تخرج مندفعة متدحرجة الى الشوارع المحيطة تهتف بحياة النحاس وسقوط الانجليز.

مازلت أذكر الأستاذ إسماعيل مدرس التربية الوطنية وسيم الطلعة والمحيا كريم الخلق الذي انتظرته على بوابة المدرسة سيارة مغلقة متجهمة. رفض السلام علينا عندما اقتربنا منه، ولم يبتسم كالعادة، وأشاح بوجهه ودلف إلى السيارة التي أسرعت بعيدا.. بعد عدة أيام شاهدنا صورته في الصفحات الأولى من الصحف ببدلة السجن حليق الشعر يقف أمام جمال سالم في محاكمات الإخوان الأولى، ينظر إليه في دهشة وهو يطلب منه أن يقرأ الفاتحة بالمقلوب. لا يمكن أن يكون الأستاذ إسماعيل على خطأ وأن يكون جمال سالم الذي تلمع عيناه كنصل سيف





١٩٥٠ مدرسة عباس الاميرية الابتدائية . فصل أولى ثالث . الثاني من اليمين في الصف الخلفي

مسرور السياف على صواب، لابد أن ثمة خطأ بشعاً فى جلوس أصحاب الملل «الكاكية» على منصة القضاء.

تفوق في موضوعات الانشاء

لم أجد تقديرا أو احتفاء بى فى حياتى مثل ذلك الذى لقيته من مدرس اللغة العربية الأستاذ إبراهيم زيادة الذى فاجأنى إلى حد الخوف بانبهاره بموضوعات الإنشاء والتعبير. كانت درجته لى عشرة من عشرة ومازلت أذكر العبارة التى أضافها فكتب يقول: «أحسنت كثيرا بارك الله فيك» وأخذ يحتفظ بكراساتى للانشاء لاطلاع المفتشين عليها لا أعلم تحديدا لماذا كنت أبدأ كل موضوعات الانشاء بعبارة واحدة رغم اختلاف الموضوعات والمضامين «يا لسخرية القدر ويا لرحمة الله».

مازلت أذكر الأستاذ بهجت حسنى مدرس الفلسفة فى التوفيقية الثانوية ذا الشارب الكث الذى حول لنا دروس الفلسفة الى متعة عقلية نحاوره فيها ويحاورنا مثلما يحاور سقراط تلاميذه ، ثم انقطع عن التدريس وسيق الى المعتقل لأن شاربه الكث أنبأ عن تشبهه بستالين قبل أن تفضحه أفكاره وأخلاقه العظيمة.

لم تكن العداءات والتقاطعات الفكرية قد تمكنت من المجتمع ومن نفوسنا بعد ونحن فى مطلع الصبا، لم نكن نجد تعارضا بين حب الفكر والاستماع الى الأغانى الماجنة وترديدها مع النكات البذيئة. ولم تكن نجد مانعا أن يبدى بعضنا إعجابه بالماركسية أو يجهر بعضنا بالالحاد ثم نستمع فى خشوع إلى القرآن الكريم ونتدبر آياته فى حصص الدين. كانت هناك فى المدرسة جماعة للصحافة يأتى إليها كبار الصحفيين لزيارتها مازلت أذكر منهم أحمد الصاوى محمد ومحمد زكى عبدالقادر ويديرها أمير المليجى، وكان فيها جماعة للخطابة وجماعة للتمثيل

وجماعة للاذاعة المدرسية وجماعة للرسم وأخرى للمكتبة وفرق رياضية لكل الأنشطة والألعاب. كان بمدرستنا فى ذلك الوقت ملعبان لكرة القدم وثلاثة ملاعب للتنس وآخر لكرة السلة وحمام للسباحة ومسرح وعدد من معامل الطبيعة والكيمياء، وكنا نتعلم ونمارس الرياضة والهوايات فى المدرسة الحكومية مجانا.

الاطلاع على نفائس الكتب

كانت ثقافتنا العامة تعتمد أساسا على الصحف والكتب كانت صحيفتنا المقطم والمقتطف ومجلات المصور والاثنين والمختار والأزهر ومنبر الإسلام ثم بعد ذلك الفكر المعاصر والكاتب وتراث الإنسانية من الصحف الدائمة التى نقتنيها بقروش قليلة. إلى جانب ذلك كانت هناك سلاسل ثقافية راقية مثل سلسلة الألف كتاب وكتابى وإقرأ وغيرها التى تقدم كل صور المعرفة بأسلوب شيق رشيق. وعندما كان يعوزنا المال لشراء الكتب كانت قروش قليلة كافية لشراء النفائس من على سور الأزبكية الذى أذكر أننى اقتنيت منه مجموعة جرجى زيدان التاريخية والأدبية كاملة وكتابات مصطفى لطفى المنفلوطى وأمين يوسف غراب ومحمد فريد أبو حديد وهيكل والمازنى وغيرهم.

لم يكن التليفزيون قد ظهر بعد لذا كان الراديو المسموع ذو الهوائى الذى يصل من الدور الأول الى أعلى السطح هو سيد الموقف ،كنا نتحلق حوله للاستماع إلى أحاديث الشيخ عبدالوهاب خلاف ومحمود شلتوت وتلاوة القرآن فى الصباح وكانت تبهرنا تمثيليات طاهر أبو فاشا ويوسف الحطاب ومسلسلات ما بعد الخامسة وشدو أباطرة الغناء فى ذلك الوقت.



رغم الحيرة المؤقتة التى انتابتنى إثر حصولى على الثانوية العامة بمجموع مريح يؤهلنى للدخول الى الكلية التى أرغبها بين كليات القسم الأدبى، ورغم ترددى بعض الوقت بين أقسام الفلسفة والصحافة وعلم النفس بكلية الآداب وبين كلية الحقوق إلا أن التردد سرعان ما حسم سريعا لصالح الأخيرة غير عابىء باغراءات الالتحاق بكلية التجارة لما بينى وبينها من تباعد فى الهوى.

خيارات مفتوحة أمام جيلنا

وفى كلية الحقوق ، أعطتنا دراسة



فى عام ١٩٦٣ إجتماع على ظهر الباخرة شيخ البلد فى رحلة النيل الجنوبية ، يظهر فى صدر الصورة الاستاذ سيديس وبجانبه المهندس حسن فتحي. انا على طرف المائدة الى اليسار

القانون احساسا عميقا ، أن أمر تكويننا العقلى لم يعد مقبولا أن يترك عفو الخاطر لأننا نتهيأ لمهمة خطيرة.كانت طبيعة المواد التى ندرسها وشخصية الأساتذة من جيل العمالقة ترسخ فينا هذا الاحساس. كنا ننبهر انبهارا عظيما بشخصيات اساتذة كبار مثل عبدالفتاح عبدالباقى الذى كان يحدثنا بلكنته شبه الفرنسية عن مجتمع غيبة القانون قائلا عبارة مأثورة محفوظة حتى الآن فى ذاكرتنا: حيث لا سيد فالكل سيد، وحيث الكل سيد، فالكل عبيد.ومحمود مصطفى الذى كانت تحيط به مهابة تجعلنا ننصت الى قواعد الاجراءات الجنائيةخاشعين ، ومحسن شفيق وجابر عبدالرحمن اللذين كانا يتمتعان بصوت جهورى فيلقيان المحاضرة يجوبان المدرج على أقدامهما صعودا وهبوطا وقد تملكا العقول والقلوب معا، وعثمان خليل الذى كان يحدثنا فى كل تفاصيل الحريات العامة والعلاقة بين المواطن والدولة بصوت هادىء رصين ، والشيخ محمد أبو زهرة الذى كان يسقنا مبادىء الشريعة العذبة فى هدوء ويسر دون تعقيد أو تكلف.

وكان لابد لهذا النوع من الدراسة على يد هذه النوعية الفذة من الأساتذة أن تصوغ من جيلنا أفرادا على مستوى عال من الكفاءة المهنية ذوى جيل ليبرالى مرهف واعتزاز بالنفس باعتبارهم رجال الشرعية والحرية فى نفس الوقت.

وعلى عكس الحال اليوم لم يصطدم خريجو الحقوق تلك الصدمة الحضارية والاجتماعية الهائلة التى يلاقونها بعد تخرجهم ولا تجعل الزرافات منهم يتسولون الرزق على أبواب المحاكم على حساب كل ما تعلموه من مبادىء القانون والشرعية، بل لعلهم لا يحيطون اليوم حتى بهذه المبادىء ـ كانت الخيارات مفتوحة أمام أبناء جيلنا فى المجالات التقليدية للعمل القانونى، وهى المحاماة والنيابة

العامة ومجلس الدولة والنيابة الادارية وهيئة قضايا الحكومة فضلا عن الادارات القانونية بالقطاع العام والمصالح الحكومية.

التمرد على القانون الوضعي

ولكن العمل القانوني التقليدى لم يستهوني فمازالت المقابلة الحائرة بين القانون والعدل تلح على عقلى بشدة، ومازالت المقابلة بين مقاصد الشريعة كما علمنا إياها الشيخ البرديسي وبين كثير من الاجتهادات الفقهية تمثل مأزقا عقليا لى فى إطار عام من الإيمان القلبى . هذه الأسئلة والمقابلات تضخمت بفعل البذرة التي غرست في عقولنا بفعل محاضرات ثروت أنيس الأسيوطى ذلك الشاب المتمرد على القانون الوضعى العائد لتوه من جامعات الغرب ، والذى أطلق بيننا بشارته الا نتعبد في محراب القانون النافذ لأن هذا القانون غيرمحايد ويعبر عن مصالح بعينها وألا نكف عن التساؤل حول القانون وما تختبئ خلفه من مصالح وما يحكمه من قيم.

لن يكون القانون بعد اليوم بالنسبة لى سلطاناً يأمر فيطاع. فهكذا يتم قهر الشعوب وهكذا يشيع الظلم وهكذا أخذ التساؤل يأخذ اتجاها أكثر عملية وجذرية،أكثر عملية لارتباطه بمسار حياتي العملية وأكثر جذرية لأن التساؤل قد طرح جميع المسلمات على بساط البحث. انتهت إذن مرحلة التلقين والاكتساب، وبدأت مرحلة الفرز والتساؤل المثير للحيرة والعذاب معاً . جاء الخلاص فى اعلان منشور بجريدة الأخبار فى صيف عام ١٩٦٢ بعد تخرجي بأيام عن حاجة المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية الى المتفوقين من خريجى كليتى الحقوق والآداب أقسام الاجتماع والفلسفة وعلم النفس للحصول على منحة دراسية تمهيدا للتعيين كباحثين مساعدين بالمركز. لم يكن المركز الذى لم يمض على انشائه سوى سنوات قليلة قد عرف معرفة كافية فى الأوساط القانونية بمصر ولم تكن صورة المستقبل التى يعد بها واضحة.. ومع ذلك تقدمت بطلبى، فلعل هذا المركز الذى لا أعرفه والذى ينبىء اسمه عند المزج بعين القانون والمجتمع أن يكون ساحة مناسبة لمزيد من التساؤل والتساؤل.

من الجدار للفضاء الرحب



مبنى أنيق غاية في الأناقة يقع على حافة الرقعة الزراعية التى كانت تحيط العاصمة فى حى امبابة فى المنطقة المعروفة الآن بمدينة الأوقاف. استقبلتى مباشرة مدير المركز ومؤسسه الدكتور أحمد خليفة دون وساطة أو تزكية كان نوعا من الأشخاص النادرين يجمع بين وسامة المحيا مع رشاقة العبارة مع الأدب الجم مع القدرة على النقد اللاذع مع الفكاهة الراقية. اكتسبت من عملي فى المركز مع هذا الرجل الفذ خبرات عقلية وشخصية يصعب حصرها. فى تناولى للقانون خرجت من بين جدران القانون كما هو كائن الى الفضاء الأرحب للقانون كما يجب أن يكون، وتحقق ذلك عن طريق التزاوج المستمر بين المعرفة القانونية الوضعية وبين العلوم الاجتماعية العامة وهكذا أدى إلى الحوار المستمر بين مختلف التخصصات الاجتماعية الى أن انصهرت في نفوسنا جميعا سبيكة العلوم الاجتماعية الذهبية، ولم نعد ننظر إلى نصوص القانون من وجهة نظر قوتها الالزامية فقط وانما باعتبارها موضوعا للدراسة محلا للنقد والتشريح من وجهات النظر الاجتماعية الأخلاقية. كان غريبا ومدهشا أن أجالس وأنا في هذه السن الصغيرة والخبرة المحدودة مجالسة شبه يومية رجال من قامات سيد عويس والمهندس حسن فتحى وحسن الساعاتي وزكي نجيب محمود وعاطف غيث وعثمان نجاتي وقائمة العمالقة في ذلك الزمان ممتدة وكان غريبا ومدهشا ورائعا في نفس الوقت أن يدفع بى الدكتور خليفة وأنا فى مقتبل حياتى العملية الى أقاصى جنوب مصر، فأخلع البدلة ورباط العنق اللذين كانا يعتبران من متممات العمل القانونى وألبس «الشورت» والصندل والقبعة، وأستقل الباخرة «شيخ البلد» التابعة لمصلحة الآثار لتتهادى بنا على صفحة النيل فى جنوب مصر متوجهة الى حدود السودان متوقفة فى قرى النوبة شرق النيل وغربه حيث دابود وتوشكى حتى أوندان ثم فرس، لندرس عادات النوبيين ومشاكلهم الاجتماعية قبل تهجيرهم عندما يحين أوان بناء السد العالى.

اتساع مساحة الاسئلة

كان يجلس معنا على منضدة الاجتماعات البحثية حسن فتحى «مهندس الفقراء» ومحمد خيرى «عالم الاجتماع» ومكرم سمعان «أخصائى علم النفس فى أمريكا الآن» والسيد ياسين «المفكر المعروف الآن». حقيقة أن السيد ياسين قد أصابنى وقتها بفزع حقيقى عندما أصر أن يتحدث بعبارات انجليزية عن الملاحظة بالمشاركة واستمارة الاستبيان والمصداقية والثبات ومعدل التشتت الاحصائى، وهى كلها أمور فى مناهج العلوم الاجتماعية كنت أسمعها لأول مرة ولا أدرى لها معنى. فلقد خبرت مصطلحات من قبيل اركان الجريمة وشروط العقد ومبدأ سلطان الارادة وسيادة الدولة ولم أخبر تلك المصطلحات وكان أن ازدادت عندى مساحة الأسئلة. فعكفت على الدراسة.. وأخذت مساحات الاسئلة تزداد اتساعا وتتنوع دروبها، فتارة أشارك فى بحث ميدانى عن العمل

والعمال في المصانع الكبرى بالقاهرة أجوب بسببه مصانع القاهرة الكبيرة أجالس العمال ورجال الادارة، ومرة أشارك في بحث عن ظاهرة الاستهلاك، مرة ثالثة أجدني أجوب سجون القاهرة من الحضرة في الاسكندرية الى ابى زعبل وطرة بالقاهرة الى قنا مرورا بسجون بني سويف والمنيا وأسيوط وسوهاج ، أشارك في بحث عن أوضاع السجون المصرية، ومرة أخرى أجوب مصر شمالا وجنوبا أجالس قضاة مصر وأسألهم عن العوامل الحاكمة للسلطة التقديرية للقاضي الجنائي، ولا أكاد أفرغ من هذا حتى أجد نفسي بين بدو سيناء ورهبان دير سانت كاترين في دراسة عن أعراف أهل سيناء، وكان هذا قبل نكسة عام ١٩٦٧.



١٩٧٤ - أمام جامعة موسكو

بروز الظواهر الاجتماعية

تورات الى مؤخرة الوعي نصوص القانون وشروح الفقهاء وبرزت الى صدارة الاهتمام الظواهر والعلاقات الاجتماعية والثقافية المتداخلة في علاقتها بالظاهرة القانونية. وكان مطلوبا مني بحكم النظام الوظيفي بالمركز الذى يحتذى حذو نظم التوظف بالجامعات المصرية أن أعد رسالة للدكتوراه خلال مدة محددة، ومثلما عزفت بتكويني الثقافي المبكر عن الوظائف القانونية التقليدية، عزفت بتكويني الثقافي الذى أصبح أكثر نضجا وتركيبا عن أن أعد رسالة للدكتوراه سائرا في دروب القانون الجنائي كما كان يفعل زملائي، اذ رأيت في ذلك طريقا ضيقا محدودا قد يزيد المعرفة عن القانون ولكنه لا يسمح بالتساؤلات حول القانون ولا يسمح بالحصول على إجابات عن هذه التساؤلات.

كان الطريق المفتوح على مصراعية.. والذي تهب على جنباته نسائم الحرية الثقافية لرجل القانون هو طريق التخصص في فلسفة القانون ورغم ان الطريق لم يكن معبدا بعد إذ لم يكن قد

التكوين





فى مايو ١٩٧٥ - اثناء مناقشة رسالة الدكتوراه

طرحه احد فى مصر من الباحثين، إلا أن ثمة استاذاً جليلاً كان يقوم بتدريس منهج فلسفة القانون فى قسم الدكتوراه بحقوق عين شمس هو الأستاذ الدكتور إسماعيل غانم.

التخصص فى فلسفة القانون

كان إسماعيل غانم شخصية متميزة من كل جانب ، كان موسوعى الثقافة لا تقتصر معارفه على مجال القانون الضيق كشأن الكثير من أساتذة القانون ، إذ ان معرفة القانون نوع من الثقافة صاحبها برغبة بالاكتفاء بها عما عداها، تماما كالمعرفة الدينية انه الاحساس بالمعرفة المطلقة استندت هذه المعرفة الى نصوص الدين او الى نصوص القانون او اليهما معا. نجح اسماعيل غانم فى الانفلات من هذه الاطلاقية المعرفية الصارمة التى تصيب الانسان بالتعصب والتعالى الكاذب. ومع ذلك فقد أضفى عليه القانون دقة شديدة فى العبارات وتحديدا للأفكار ونزوعاً دائما نحو الانتصار للحق. عندما طلب مني أن الخص كتاب روسكو باوند «مقدمة فى فلسفة القانون» قدمت له بحثا صغيرا بعنوان «القانون بين الثبات والتغير» اعتبر استاذى هذا البحث من المواد المقررة على طلبة الدكتوراه.. وعندما ابديت رغبتى فى تسجيل رسالة الدكتوراة تحت اشرافه فى فلسفة القانون اعطانى كتاب فريدمان عن نظرية القانون باللغة الانجليزية لاقرأه .. وهو من الكتب ذات العبارة المركزة الصعبة والمادة الثرية الدسمة التى تقدم مسحا شاملا لكل اتجاهات فلسفة القانون . علمني استاذى الا اسعد كثيرا بالكتب التى تمكن قراءتها فى حالة استرخاء على الفراش فهى لا تترك فى العقل اثرا. إنما ما يكون العقل والفكر هى الكتب التى تدعو قارئها الى الانتباه والتيقظ والتحفز لقبول الجديد.

هلال جديد.. وفكر جديد ..تحية متبادلة..

أود أن أعبر عن تهنئتي بالعدد الجديد من الهلال والذى سيضعها - إخراجا ومضمونا - فى طليعة المجلات الثقافية العربية ويؤكد وجودها الممتد منبرا رصينا متجددا لثقافتنا العربية . وأود أن أشير بوجه خاص إلى باب « شخصية العدد» الذى نرجو له الاستمرار كى نتعرف من خلاله على شخصيات مصرية وعربية وعالمية فى قراءة جديدة وضوء جديد ، ومع استمرار الهلال فى تأصيل الثقافية العربية نأمل أن تعطى فسحة أوسع للثقافة العالمية لتظل صلة الشرق بالغرب ، ومع التقدير لما تتضمنه أعداد الهلال من عروض وافية لأكثر من كتاب ، إلا أننا نأمل أن يصبح التعريف الموجز بالإصدارات الجديدة الجيدة بابا ثابتا فى المجلة .

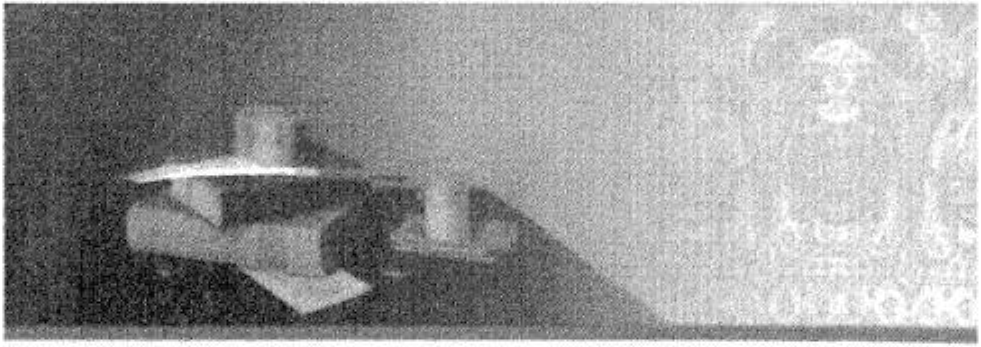
د . السيد أمين شلبى

الهلال :

نشكر الدكتور السيد أمين شلبى وكل المفكرين والمثقفين الذين حرصوا منذ اليوم الأول لصدور هلال يناير ٢٠٠١ الاتصال بنا للتهنئة على الجهد تحريرا وإخراجا وطباعة ، وهذا الثناء يضع أمامنا ضرورة مواصلة تألق «الهلال» فى ثوبه الجديد ، ولن يتم ذلك بالطبع إلا بالدعم الكامل والمساهمات الفكرية والثقافية من الأدباء والمفكرين والشعراء فى كل أرجاء الوطن العربى .

اليهود

ما أسوأ حظك يا موسى ... القوم عبيد الأموال
تركوك وحيداً تتلظى ... هل أنت نبى الأطفال ؟
فسقوا ، كذبوا ، غدروا حتى ... غرقوا فى سم الأفعال
كرهوا كل الأقوام وكم ... كرهوا ينبوع الأظلال
شعب محتال كذاب ... مختال ، مختل ، قالى (١)
وجدوا كى يقبس إبليس ... منهم أفكاراً كنبال
وجدوا خطأ فى عالمنا ... إحذر يا غرب من التالى



يا غـــــرب أراك بلا وعى — أتصـــدق قـــول القـــتّـــال ؟
ســحروا يومـــا فـــرعـون وكم — لدغـــوه بأفــعى الأدغـــال
مـــا مـــعنى أن تنصـــر قـــومـــا — لا خلق لهم مـــــثل الآل (٢) ؟
ســحقوا فى التاريخ كـثيراً — الســحق عـــقـــاب الدجـال
لا حس يجـــول بأضلعـــهم — فـــبلادتهم كـــالأجـــبـــال
لو ملكوا الدنيـــا مـــا شـــبعـــوا — نهـــبـــوا غـــيم القـــمـــر الغـــالى
ســجـدوا للمـــال فـــعـذبهم — رب الأمــــــــوال بذا المـــال
من يعـــبـــد غـــيـــر الله يعش — جـــرثومـــاً ذا صـــوت عـــالى
قـــالوا ذبنا فى الغـــاز ولم — يثـــبت أحـــد قـــول خـــيـــالى
وهنا فى يافـــا مـــحـــرقـــة — يتـــجـــاهلهـــا الجـــيل الســالى
يتـــمـــسكن فى الدنيـــا حـــتى — يتـــــمـــكن ابن الأنـــذل

(١) كاره

(٢) السراب

د . هيثم الحويج العمر
دمشق - سوريا

توقعات الهلال منذ نصف قرن مضي

أصدرت مجلة الهلال عددا ممتازا فى يناير سنة ١٩٥٠ تحت عنوان : سنة ٢٠٠٠ ، وذلك لمحاولة كشف ما سيكون عليه العالم بعد خمسين عاما فى جميع النواحى العمرانية والإنسانية والعلمية (كما جاء فى افتتاحية العدد) . وقد طرحت المجلة أربعة أسئلة على أهل الرأى فى ذلك الوقت (توفيق نوس باشا وعبد الرحمن عزام باشا والدكتور ابراهيم مدكور وسليمان نجيب بك) ، كالتالي : «هذه المؤسسات هل تبقى إلى القرن الحادى والعشرين ؟ ١ ، - هيئة الأمم المتحدة ، ٢ - جامعة الدول العربية ، ٣ - مجمع فؤاد الأول (مجمع اللغة العربية) ، ٤ - المسرح التمثيلى .

☐ وكان رد توفيق نوس باشا على السؤال الأول كالتالى :

«اعتقادى أن هيئة الأمم فشلت فى كل أمر سياسى عرض عليها وذلك لعيوب أساسية فى قانونها ، فإن حق الفيتو إنما هو سرطان فى جسم الهيئة يشلها عن تنفيذ أى مشروع سياسى . ذلك لأن ما يرضى الكتلة الغربية لا يرضى الكتلة الشرقية والعكس بالعكس ، اللهم إلا مسألة إسرائيل التى اتفق عليها الطرفان وإن اختلف الباعث على ذلك الاتفاق . على أن الهيئة قد أدت خدمات جلى فى الميادين الثقافية والاجتماعية والصحية وغيرها ، فلعل هذه من العناصر التى تؤدى بها إلى البقاء والنمو والازدهار . فإذا أصلحت الهيئة قانونها فقد تطول حياتها وتتسع اختصاصاتها ، أما إذا لم يصلح فقد تدفن فى لحد مجاور لعصبة الأمم القديمة .

على أنه من الضرورى ألا ننسى أنه لا يتسنى لهيئة الأمم المتحدة أن يكون لها الاحترام والقوة اللازمين لتنفيذ قراراتها إلا بتأليف جيش قوى يمكنه تنفيذ القرارات التى تصدرها الهيئة ، فهل يتحقق هذا الحلم الجميل ؟ هذا ما سيخبرك عنه أولادنا أو أحفادنا فى ميعاده .

❑ وكان رد الدكتور ابراهيم مدكور (رئيس مجمع اللغة العربية) كالتالى :

هل هناك محل لأن نتحدث عن بقاء وفناء ؟ لست فى حاجة إلى أن أشير إلى أن المجمعيين أنفسهم يؤمنون بسنة الخلود هذه ، يؤمنون بها فى بحثهم فلا يحددونه بزمن ، ويرون دائما أنهم إنما يبدأون وتتم الأجيال القادمة ، إن كان هناك ثمة تمام . ويؤمنون بها فى أحكامهم ، فلا يزعمون أنها نهائية ، بل يقنعون بأن يقرروا أنهم إنما يسجلون الواقع ، فإن جد جديد ذو شأن ، لم يكن ثمة بد من الأخذ به .

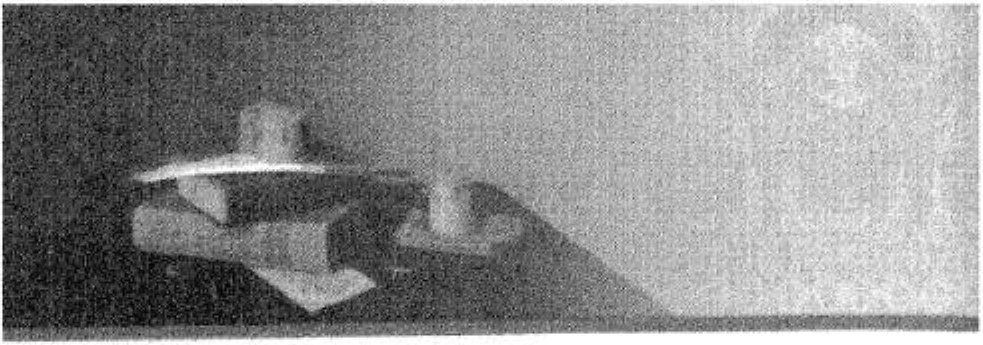
ولن يختلف مجمعنا اللغوى عن هذا فى شىء فسيبقى ما بقيت رسالته ، مسجلا للفصحى تطوراتها ، ومتداركا ما فاتها ، كى تسد حاجة العصر وتلائم مقتضيات الحياة .

❑ وأخيرا فقد كان رد سليمان نجيب بك كالتالى : لست أدرى لماذا تدور فى رءوسنا هذه الفكرة ولماذا نظن أن المسرح التمثيلى لا يبقى إلى سنة ٢٠٠٠ ، ولست أخاف شيئا يطغى على المسرح وعلى التمثيل إلا السينما .

أ . د. السيد ماضى حسين
هيئة المواد النووية - المعادى

الهلال :

على مدى أكثر من مائة عام نؤدى دورا مهما للثقافة العربية ، وحرصنا على نشر بعض التوقعات لما يمكن أن يحدث على مدى الخمسين عاما المقبلة نشرناه فى عدد يناير عام ٢٠٠٠ .



رحم

قطعت يدى فصافحتك
بدمع سال من كبدى
وقلت الآه فانفجرت
منابع رحمتى تروى
شقوق العقم يا ولدى
قتلت الفكر فانفرطت
عناقيدى
وغطت ساحة البلد
حبست الروح فى سجن
من التجوال فى المجهول
لم تجبر
كسور اللوح فى المكتوب
لم «ترسى» مجاديفى
بشط العدل .. لم يكمل
رحيل الفارس المشنوق
فوق شواهد الغد
لأن ملامحى شاهت
وضاع الغد من قدمى

د . حسنه عبد الحكيم عبد الله
كلية بنات جامعة عين شمس

العربي.. والتقاليد الصحفية

نشرت جريدة «العربى» التى يصدرها الحزب العربى الديمقراطى الناصرى عددا من المقالات التى سبق نشرها فى مجلة الهلال على مدى السنوات الأخيرة والتى أتابعها وأقرؤها باستمرار، ومن بنيها مقالات : سعد زغلول ، النحاس ، هدى شعراوى ، طلعت حرب ، عبد الرحمن الرافعى ، مكرم عبيد ، فتحى رضوان ، حسن البنا ، الملك فاروق ، عباس العقاد ، طه حسين ، توفيق الحكيم ، محمد حسنين هيكل . أحمد بهاء الدين ، د . جمال حمدان .

وأسماء كثيرة ، نشرتها «العربى» ..

وأنا أعرف أن التقاليد الصحفية تقتضى ذكر المصدر !

يحيى رشاد نويشى
الجيزة - العجوزة

الهلال : لا تعليق !

بين التليفزيون والإذاعة

● تحت عنوان «التليفزيون كأداة للقهر» كتب د . جلال أمين مقالا بعدد ديسمبر ٢٠٠٠ من مجلة الهلال يقوم على التحليل الدقيق لأداء هذا الجهاز الخطير ، واسمحوا لى أن اختلف معه فى نقطة واحدة هى تلك التى جاءت بالفقرة الأولى من المقال حين ذكر أن «من رأى ليس كمن سمع ، وحاسة البصر فيما يظهر أكثر تملكا للنفس من حاسة السمع» .. فأنا «أرى» أن السمع أكثر تملكا للنفس من البصر ، وألخص وجهة نظرى كالآتى :

● كثير من الصور المرئية لا تتضمن فكرا ، فى الوقت الذى يحمل لنا فيه الصوت فكرا وتأملا ، ولا أقصد هنا صور اللوحات الفنية ، إنما أقصد الصور التليفزيونية ، إلا فى بعض حالات الدراما النادرة كحالة الشهيد محمد الدرة .

● أدعو مشاهد التليفزيون وهو يشاهد أحد المسلسلات أن يغلق مفتاح الصوت لبضع الوقت ، فسوف لا يرى إلا شفاها تتحرك وصورا بلا مضمون فكرى تثير الضحك والسخرية ، بينما يحدث العكس عندما يستمع إلى الراديو ، حيث يمكنه أن يترجم ما يسمعه إلى صور مرئية ، دون الحاجة إلى الرؤية البصرية !

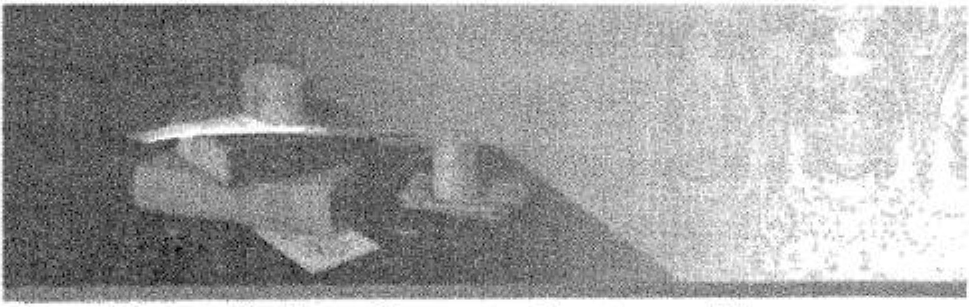
مازالت تمثيليات ألف ليلة وليلة وغيرها تعيش فى وجداننا ، وكثير منا يفضل سماعها على رؤيتها بالتليفزيون .

● بل إن المرء إذا رأى أحيانا منظرا مبهرا كمنظر الغروب عند أفق البحر فإنه يغمض عينيه ليرى أكثر ويستمتع أكثر .

● أما بالنسبة لسماع الموسيقى والأغانى ، فالكثير منا يفضل سماعها بالراديو .

عادل شافعي الخطيب

القاهرة - حدائق القبه



دموع في خدود الثرى

لا تجزعي وتجرعي كأس العذاب
سيجيء يوم ينجلي فيه الضباب
يا قدس يا جرح العروبة والقلوب
يبكي اليراع عليك بالدمع السكوب

* * *

يا حسرتي أمسى البغاث محلقاً
والصقر أوهنه التخاذل والشحوب
والدود ينخر في الجراح ويبتغي
مص الدماء فليس تعنيه الثقوب

* * *

يارب هذى القدس اضناها الأسى
ودموعها بين الثرى تشكو الطغاة
مقهورة في كل يوم تحتسي
كأس الردى من غادر يخشى مداه
وهناك طفل في يديه حجارة
بين المدافع لا يبالي بالحياة !!
يا أمة الإسلام لا تتقاعسوا
وأعيدوا نور الفجر من قبل الوفاة

حاتم عبد المحسن غيث
الدقهلية – طلخا

همهمات.. في أذن النخيل

بشراكمو حراس روض خمائل
فالنيل في وديانكم يتفجر
عذب ، سليل المجد فاح حياؤه
من كل فج في الروابي يقطر
فبكفه الأغصان أضحت سندسا
تكسو الضفاف ، والشذى تتعطر
وكأنه الشوق الدفوق غشى الظمى ؟
فيهيم في أغواره ، يتبختر
ويهدهد الغرس الحرون على الثرى

ينساب نوراً فى الدياجى ، ينثر
فرحا ينام على الجسور ، متيما
فيداعب الفجر الضحوك ، ويبصر
فإذا بدت أنات غوث ، يقتفى

صوت الأنين وبالغدائر يسهر
تشتاقه أطياف هذه الملتقى ،
والنخل فى عليائه يستبشر
(هاميس) فى ثوب الزفاف تزفه
ولعرسها الجدب انبرى يتحسر
هذا الغدير ألفته منذ الصبا ،
فلكم لهونا والمنى يتنكر
مهما اغتربنا بين ليل دامس
ما للمسافر بالسنا يتعثر
هذى المسلات ، المعابد فى العرا
جاءت تقر بفيض حسن يسحر
لكنها قد أطلقت بين البرا
ح رسالة : وجع الجداول ينذر

عبد الناصر أحمد الجوهرى
نادى أدب المنصورة

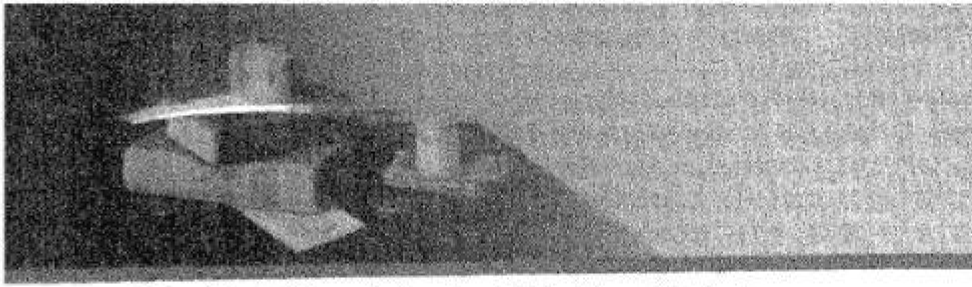
من رسائل الأصدقاء

كتبت كلمة بسيطة عن «أين ثقافة المصريين» فى صفحة واحدة فولسكاب وأرسلتها بالفاكس بتاريخ ٢٦ سبتمبر ٢٠٠٠ ولم تجد حظها من النشر .. وهل وجدت طريقها إلى مكان الأوراق المستغنى عنها أم لم تصل ؟!

طلال السعيد
كفر الشيخ - مطوبس

الهلال :

صديقنا العزيز طلال : تصل إلى الهلال مئات الرسائل ، فضلا عن



قصائد الشعر والقصة القصيرة ، وقد يكون هناك قضية مشتركة نتناولها في نفس العدد ، وبالتالي لا نذكر كل أسماء الأصدقاء .

ونحن دائما في انتظار مساهماتك ، وثق بأننا نعتني بكل ما يصلنا من رسائل .

أخا الإسلام

هذه أبيات من قصيدة للصديق زكريا عبد المحسن - أسيوط - جزيرة الواسطى :

أخا الإسلام لا تجزع لنائبة بدنياكا
وقل حمدا تجد عونا من الرحمن مولاكا
فكل مصيبة تمحو كثيرا من خطاياكا
فلله احتسب وارجع تفز ويرق مثواكا
فلا تحزن على فرح وخل الحزن ينساكا

الصديق : خالد عبد الرءوف : قصتك «ثقب الإبرة» فكرتها جيدة، ونرجو أن تتسع مساحة لنشرها في هذا الباب .

** وهذه أيضا أبيات من قصيدة بعنوان «تعالى» أرسلها إلينا الصديق طارق مراد :

قد تأخرت كثيرا	كم تظنين العمر
فتعالى قبل أن تذوى	أكاليل الزهر
فأنا والياسمين	كل يوم ننتظر

** الصديق : السيد عصر ، وصلتنا قصيدتان نرجو أن تجدا متسعا للنشر وكل الرجاء أن تحاول كتابة قصائدك بشكل أوضح ، حيث يصعب قراءتها .

لكل المقهورين أجنحة



د. رضوى عاشور

حكاية «لكل أبناء الربّ أجنحة» من الحكايات المشهورة فى التراث الشعبى الأفرو – أمريكى، وهو تراث زاخر، أنتجه الأفارقة من موقعهم المستجد فى عالم حُملوا إليه قسرا، ليبدأوا فيه حياتهم على خشبة المزاد، ومنها إلى المزارع للعمل سخرة تحت تهديد السياط.

يبدأ الراوى الحكاية قائلا : «فى سالف الأيام كان لكل الأفارقة أجنحة، كانوا قادرين على التحليق كالطيور». ثم يحكى الراوى عن امرأة تعمل فى المزرعة ولم تتعاف بعد من الوضع . يصرخ وليدها فتجلس لترضعه. يضربها سائق العبيد. تقوم للعمل ولكنها تسقط من شدة الوهن. يضربها من جديد، هكذا حتى تتطلع المرأة لشيخ أفريقى من العبيد وتقول له بلغة لا يفهمها سادة المزرعة : «هل حان الوقت يا والدى؟» فيجيب : «حان الوقت يا ابنتى». فإذا بالمرأة تطير بصغيرها وقد نبتت لها أجنحة. يتكرر المشهد مع عبد آخر وحين ينتبه سيد المزرعة ونائبه وسائق العبيد إلى أن الرجل المعمر هو مصدر الكلمات التى تجعل العبيد يطيرون يهجمون عليه لقتله، ولكن الشيخ يضحك ويوجه كلامه بصوت جهورى لكل عبيد المزرعة. «وأثناء حديثه كانوا يتذكرون كل الأشياء التى نسوها، ويستحضرون ما كان لهم من قوة فقدوها، ثم نهضوا جميعا معا، العبيد الجدد والعبيد القدامى. رفع الشيخ يديه فقفزوا جميعا فى الهواء وهم يهتفون فى صوت واحد. وفى لحظة كانوا يحلقون كسرب من الطيور .. الرجل يصفقون والنساء يغنين والأطفال يضحكون .. ولم يكونوا خائفين» .

ليست هذه مجرد حكاية انتجتها المخيلة الجماعية للعبيد الأفارقة، فيما عُرف لاحقا باسم الولايات المتحدة الأمريكية، تُصوّر واقعهم، وتكسر طوقه، وتوسّع عبر الخيال حدود عالمهم، فتعيد لهم الثقة فى قدراتهم الإنسانية، ولكنها أيضا حكاية نموذجية تلتقط قانونا من قوانين النضال الشعبى من أجل التحرر، حيث الذاكرة شرط من شروط هذا الفعل التحررى.

أتابع تفاصيل الانتفاضة الفلسطينية، فى الضفة الغربية وقطاع غزة وفلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨، أعود لهذه الحكاية، أتمتم: لكل المقهورين فى الأرض أجنحة.


معنا..
الزمان و المكان ملك يديك
EGYPT AIR


روايات مصرية للجيب
النغمة الجميلة المحببة في ربوع الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه
البورصة
روايات مصرية للجيب
تفتح آفاق الثقافة والمعرفة في عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

الهلال

مارس ٢٠٠٦ - الثمن ٤ جنيهات

ماذا قال العقاد وحقى ولطيفة الزيات فى الجنس ؟

عميل الموساد فى البيت الأبيض

فى بيت السنارى التقى مونج والجبرتى

عونى هيكل و٤٠ عاما مع الفن





لوحة ذات المروحة

للفنان : أحمد صبرى



لوحة وفنان

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١٦ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال - تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٧٠٠٠ ليرة - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



تصميم الغلاف للفنان محمد أبو طالب عن تمثال للفنان عوني هيكل

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما او بحوالة بريدية غير حكومية البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقي دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

العام التاسع بعد المائة
ذو الحجة ١٤٢١هـ — مارس ٢٠٠١م

الأدب المكشوف .. جزء خاص

فنون

الأبواب الثابتة



عزيزى القارئ

بعد النجاح الذى حققته «الهلال» فى ثوبها الجديد، فمن الضرورى توجيه الشكر والتحية لأسرة تحرير «الهلال» للجهود الكبيرة التى يقومون بها، فقد عشنا تجربة رائدة، تظهر الطاقات اللا محدودة الكامنة والتى يملكها الإنسان فى بلادنا. عندما ظهرت فى صفوف العاملين مهارات وقدرات كبيرة، فاستطاع عدد منهم أن يعمل على الأجهزة الحديثة بكفاءة عالية.. وتعمل أسرة التحرير كفريق عمل على قلب رجل واحد.

ونضع بين يديك العدد الثالث من مجلة «الهلال» بعد تطويرها، وهى التى اعتادت على التطور والتجديد، واحترفت السبق وأدمنت النجاح..

فقد حظيت منك - عزيزى القارئ - باهتمام كبير، ومتابعة دقيقة، ومحبة صادقة، تلمسها من تلك الرسائل والاتصالات والاقتراحات التى تصلنا، وفى إرتفاع أرقام التوزيع، وتأكد لنا أن الخيط الواصل بين الماضى والحاضر والمستقبل لم ينقطع، ويسعدنا ما نلاحظه من أن ما يزيد على ستين فى المائة من قراء الهلال من الشباب والقراء الجدد..

وكما ظهرت على صفحات «الهلال»، أسماء أشهر الأدباء والشعراء والفنانين والمفكرين، ممن كان لهم أبلغ الأثر فى عقل ووجدان الإنسان المصرى، فقد استمرت «الهلال» تضم نخبة من الكتاب، لست مبالغا إذا قلت إنهم عقل الأمة وموضع أحلامها، يكتبون على صفحات المجلة باهتمام ودأب، رغم قلة العائد المادى، ورغم وجود العديد من الفرص لمضاعفة هذا العائد، ويؤكدون بما

أســـرة التحـريـــر

يكتبونه، أن رسالة المفكر نحو أمته هى دافعهم الأول، وأن فريق كتاب الهلال يضم أولئك المنشغلين بالقضايا العامة، والساعين إلى إضاءة الطريق نحو الغد، والذين يتطلعون إلى حياة بلا أزمات، لا أزمة بطالة ولا أزمة مساكن ولا إضطهاد عرقى أو دينى، ولا ظلم الأقوياء، للضعفاء، ويحلمون بعالم يسوده العدل والجمال، ويشغلهم مستقبل الأجيال المقبلة..

ولعل ندوة الهلال فى عيدها المئوى خير شاهد على ذلك والتى حضرها المفكرون والكتاب العرب من كل العواصم العربية، وكان موضوعها «نحو مائة عام جديدة من التنوير والتحديث»:.

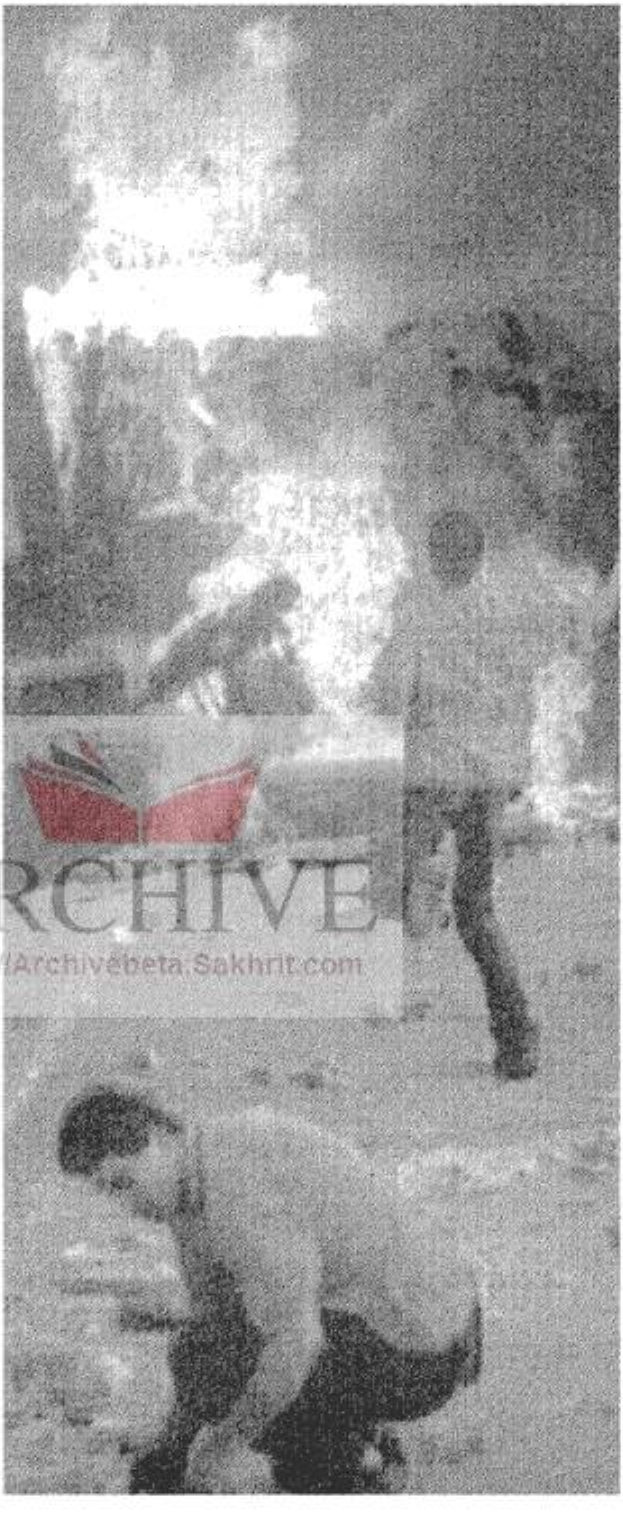
ولم نحتفل بهذه المناسبة وحدنا بل سعينا إلى تطوير المحيط التى تعيش فيه «دار الهلال» والتى قامت فى حى السيدة زينب أكثر الأحياء عراقة، ونجحت دعوتنا فى إقامة مكتبة طلعت حرب فى الحى، ووافق بنك مصر على تمويلها، وترميم مدرسة السنية أول مدرسة ثانوية للفتيات فى مصر، وطالبنا بترميم بيت السنارى مقر علماء الحملة الفرنسية.

ولم نندم على ما قمنا به، عندما لم يتذكر أحد دورنا، ولم ندع حتى إلى حفل افتتاح مكتبة طلعت حرب التى قامت نتيجة جهودنا، ويكفينا أن المكتبة والمدرسة وبيت السنارى تحولت إلى مشاعل مضيئة فى الحى الذى تقوم فيه «دار الهلال». فمن يعمل عملا حقيقيا لا ينتظر الجزاء، فالحياة تصحح ذاتها بلا انقطاع.

المحرر

ثقافة الخنوع

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد



عندما بدأت عملية التسوية السلمية للصراع العربى - الإسرائيلى تؤتى ثمارها بدأنا نسمع عما يسمى بثقافة السلام، ولاحظنا جهوداً محمومة لاستغلال هذه العبارة التى لا يمكن أن يعترض عليها أحد فى حد ذاتها فى تحقيق غايات مشبوهة، ولم يقف الأمر عند رعاية بعض القوى العظمى والكبرى لهذا الهدف «النبيل»: إشاعة ثقافة السلام، بل لقد دخلت منظمة اليونسكو الساحة من أوسع أبوابها، وقيل يومها إن منطق وجودها ذاته يرتبط بثقافة السلام: ألم يبن هذا المنطق على أن الصراعات تنشأ فى عقول البشر؟ وبالتالى فإن العمل على إشاعة ثقافة السلام وترسيخها هو من صميم أهداف هذه المنظمة الدولية.

ولم يكن خافياً أن ثمة هدفاً محدداً وراء تلك الجهود: ذلك هو تطويع أو إلغاء إرادة الصراع مع إسرائيل بصفة خاصة، إن بقيت لديه هذه الإرادة من القوى الفاعلة العربية، وترسيخ وضع إسرائيل فى المنطقة بدعامة ثقافية، ومحو ذاكرة الأمة ووعيها الحاضر بصراعها مع إسرائيل قدر المستطاع، كى تضمن أكثر المستقبلات أمناً، وأشد الأوضاع سيطرة، والدليل على هذا أن جهود ثقافة السلام لم تمتد إلى إسرائيل كما امتدت إلينا، كما لو أن العرب هم الأكثر حاجة إلى تعلم «ثقافة السلام».

ولقد كانت مواجهة هجوم «ثقافة السلام» ممكنة على أية حال، فالضغط من الخارج واضحة أهدافه، وهو من ثم يستثير كوامن المقاومة فى الجسد العربى، وقد كان. وتعرض هجوم «ثقافة السلام» لمقاومة ضارية من فئة واسعة من المثقفين العرب، أثبتت، التزامها بالسلام، وفهمها الصحيح لهذا السلام الذى لا يمكن أن يبنى إلا على العدل، وليس على بنى ثقافية شوهاء، غير أن الخطر الأشد بدأ يجيئنا من الداخل فى صورة أفكار تروج لما أود أن أطلق عليه «ثقافة الخنوع»، وهى وإن ارتبطت عضوياً بثقافة السلام - ولعلها

المكمل الموضوعي لها - إلا أنها قابلة للتميز عنها.

☆☆☆☆

وتهدف «ثقافة الخنوع»، بالوعي أو باللا وعي، بسوء النية أو بالسذاجة، إلى تطويع الإرادة العربية لكل محاولات تشكيلها، إن لم يكن القضاء عليها، أياً كان مصدر هذه المحاولات، بحيث تصبح إمكانية إنجاز أي تصحيح - ولو نسبي - لميزان القوى المختل بين العرب وخصومهم وهماً بلا جدال، ويستند مروجو «ثقافة الخنوع إلى «الواقعية» حسب زعمهم. وحقيقة الأمر أن الواقعية قد ظلمت كثيراً، مع أن أي باحث علمي أو رجل حركة سياسية لا يستطيع أن يؤسس جهوده إلا على الواقع بعد تحليله وفهمه، غير أن ثمة فارقاً هائلاً بين أن تلوذ بالواقع لتبرير العجز عن المقاومة، والتغيير إلى الأفضل، وبين أن تنطلق منه بخطى راسخة نحو المثالية المنشودة.

والأمثلة لا أول لها ولا آخر من واقعنا على تسلل «ثقافة الخنوع» إلى بعض الأقلام والأصوات، ومنها المؤثر في حياتنا الفكرية والسياسية، وإذا اخترنا ساحة الصراع العربي - الإسرائيلي على سبيل المثال لهالنا ذلك الكم الكبير من «مخرجات ثقافة الخنوع» الذي يتصل بصميم قدرتنا على النضال والمجابهة.

☆☆☆☆

في أيام الانتفاضة الفلسطينية الأولى التي تفجرت في أواخر الثمانينات (اعتباراً من ديسمبر ١٩٨٧) روج أنصار «ثقافة الخنوع» لاستحالة التطور النوعي للانتفاضة، بمعنى أن تنتقل مثلاً من انتفاضة حجارة إلى استخدام أساليب أخرى للنضال، وكان الإنذار بالويل والهلاك لكل من تسول له نفسه أن يستخدم ولو سكيناً في المقاومة، على أساس أن ذلك سوف يستفز القوة الإسرائيلية لردود أفعال مدمرة لا يمكن احتمالها.

وعلى الرغم من أن التطور النوعي للانتفاضة من حيث أساليب النضال لم يكن مطروحاً بإلحاح آنذاك إلا أن أصحاب ذلك «التخويف» نسوا أو تناسوا أن كل القوى الاستعمارية قد مرت بذات الخبرة، وأن حركات التحرر المناضلة ضدها قد تطورت نوعياً في مرحلة معينة، وأن ردود الأفعال الاستعمارية، وإن كانت شديدة الإيلام هائلة التكلفة للشعوب الخاضعة للاستعمار، إلا أن الأمر الذي يجب ألا يغيب عن بال أحد أن النصر كان دائماً من نصيب هذه الشعوب، وأن التكلفة الهائلة كانت هي الثمن الباهظ

الذى دفعته من أجل حريتها، والتى كان مستحيلاً انتزاعها بغير هذا الثمن.

☆☆☆

وعندما وقعت اتفاقية أوسلو التى مثلت - على الرغم من سوءاتها البنيوية العديدة - نقلة فى السياسة الإسرائيلية تجاه القضية الفلسطينية - على الأقل من منظور الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل للشعب الفلسطينى - وتلت ذلك عمليات إعادة انتشار القوات الإسرائيلية التى ترتب عليها إخلاء عدد من المدن الفلسطينية المزدحمة بالسكان، وتسليمها للسلطة الإدارية الفلسطينية، أرجع أنصار «ثقافة الخنوع» هذه التطورات الإيجابية - بغض النظر عن الاختلاف حول تقييمها - إلى إرادة السيد المتفرد الجديد للنظام العالمى، ذلك أنه قد تعين عليه - أى السيد الأمريكى - بعد حرب الخليج الثانية أن يرتب أوضاع المنطقة بما يضمن له استقرار مصالحه فيها، وهكذا فإنه لا يد للفلسطينيين، من قريب أو من بعيد، فى انتزاع ما حصلوا عليه من تنازلات.

ثم تعثرت اتفاقية أوسلو، وبدا أن إسرائيل تراجع نفسها حتى فى تلك التنازلات المحددة التى قدمتها مضطرة بموجب تلك الاتفاقية، وطُرحت قضية الخلل فى ميزان القوى الذى يقف وراء التعنت الإسرائيلى ومن ثم ضرورة تصحيح ذلك الخلل، ولو نسبياً، بفعل عربى عامة، وفلسطينى خاصة، وهنا انبرى أنصار «ثقافة الخنوع» ليبشروا بأن زمن النضال قد ولى، وأن القضية برمتها باتت مستقرة فى كنف المسار الدبلوماسى، ولا شىء غير ذلك، وأن خروج القوات الإسرائيلية من مناطق الكثافة السكانية الفلسطينية يجعل من المستحيل قيام انتفاضة فلسطينية أخرى، وهذا فى الوقت الذى كان عدد من الساسة الذين لا يمكن وصفهم بالتشدد فى الوطن العربى يحذرون فيه من أن استمرار تجاهل حقوق الشعب الفلسطينى سوف يؤدى لا محالة إلى انفجار فى المنطقة. وظل أنصار «ثقافة الخنوع» يروجون لمقولاتهم حتى صدمتهم انتفاضة الأقصى منذ أواخر سبتمبر ٢٠٠٠ لكى تثبت حتمية التغيير النوعى فى حركة التحرر الفلسطينى، كما كان الحال فى كل حركة تحرر وطنى سبقتها، وتؤكد قدرة الشعب الفلسطينى مجدداً على رفع تكلفة الاحتلال: الطريق الوحيد لإجبار إسرائيل على إعادة حساباتها.

★★★

ومع تصاعد حركة المقاومة فى الجنوب اللبنانى بقيادة «حزب الله» نشط أنصار «ثقافة الخنوع» فى اتجاهين: أحدهما تقليدى، والثانى «يواكب المتغيرات»، أما التقليدى فقد تمثل فى الاستخفاف

بإنجازات المقاومة عسكرياً. فإن بدا واضحاً أن هذه الإنجازات تزداد عدداً وتقوى تأثيراً يوماً بعد يوم انتقل هؤلاء إلى التأكيد على أنها مهما كانت لا تتناسب مع الثمن الفادح الذى تدفعه الدولة والشعب فى لبنان من جراء الضربات الانتقامية الإسرائيلية، متناسين على الدوام أن هذا هو الثمن الطبيعى والمعتاد الذى دفعته كل حركات التحرر الوطنى المعاصرة، بالنظر إلى أن الرضى بالاحتلال وعواقبه يمثل الثمن الأكثر فداحة. وأما الاتجاه «المواكب للمتغيرات» فانصب على التنبيه إلى أن المقاومة اللبنانية تتحرك على هدى من الماضى، وأن عصر «العولمة» بالتأكيد ليس هو عصر حركات التحرر الوطنى، حيث يسيطر السيد الأمريكى فى زمن «العولمة» هذا على كل شىء، ويرسم بيده نهايات كل القضايا.

ثم أخذت المقاومة اللبنانية فى التعاظم، وبدا واضحاً أنها تفرض نفسها، بالتدريج على الساحة السياسية فى إسرائيل، وأنها وصلت إلى النقطة الحرجة التى تقترب فيها من النجاح فى التأثير على أعصاب العدو الحساسة: فى مراكز دراساته الاستراتيجية أولاً، ثم فى أوساطه السياسية ثانياً، وصولاً إلى مؤسسته العسكرية ثالثاً، ومن ثم دنت - أى المقاومة - أكثر وأكثر من لحظة إجبار العدو على إعادة حساباته، وهنا خفتت أصوات أنصار «ثقافة الخنوع»، ولم يكن هذا من قبيل الاعتراف بالخطأ، أو الإعجاب بما يجرى على ساحة المقاومة، وإنما يبدو أنه كان لإعداد العدة لمواجهة المستقبل بنفس المنطق الخانع.

وهكذا فإنه مع اضطرار القوات الإسرائيلية للهروب بليل من الجنوب اللبنانى فى تلك الأيام المجيدة من شهر مايو ٢٠٠٠ التى مثلت انتصاراً كلاسيكياً لحركة تحرر وطنى فى زمن العولمة خرج أنصار «ثقافة الخنوع» بأقصى ما يمكن أن يثير الإحباط، ويدعو للتأمل فى حقيقة الدوافع، فقد ركزوا على مقولة أن إسرائيل لم تكن أصلاً تريد الاحتفاظ بالجنوب، ولم تعلن ذلك يوماً، ولم يتوقف أحدهم ليسأل نفسه لماذا بقيت تحتفظ به اثنتين وعشرين سنة إذا لم تكن له قيمة كبرى لديها؟ ولماذا لم تفكر فى تركه إلا بهذه الصورة المذلة؟

وعم الوطن العربى شعور بالفخر تزامن مع اليأس من عملية التسوية السلمية على المسار الفلسطينى - الإسرائيلى بموجب اتفاقية أوسلو وتوابعها، وهنا تجاسر البعض على طرح



مليشيات حزب الله قامت بدور مهم فى تحرير الأرض

إمكانية تكرار تجربة الجنوب اللبنانى فى الحالة الفلسطينية. لم يكن هؤلاء يقصدون بالضرورة النقل الحرفى، فذلك أصلاً مجافٍ لمنطق التاريخ والأشياء، ولكن المعنى كان يتركز فى أن «فعل التحرر الوطنى» مهما تعددت أساليبه وأشكاله هو وحده القادر على الإنجاز، وليس المفاوضات العقيمة التى تجرى فى ظل ميزان مختل للقوى لصالح العدو، وهنا انبرى أنصار «ثقافة الخنوع» ليقولوا إن مجرد التفكير فى الاسترشاد بتجربة النضال فى الجنوب اللبنانى فى الحالة الفلسطينية وهم وعبث، إذ لا يوجد أدنى وجه للمقارنة بين الحالتين!!.

***

ومع تفجر انتفاضة الأقصى فى ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ عادت الروح إلى حركة التحرر الوطنى الفلسطينى، وهنا عاد أنصار «ثقافة الخنوع» على الفور للتحذير من القوة الإسرائيلية الباطشة وآثارها التدميرية فى الساحة الفلسطينية، وللتنبيه إلى ضرورة العودة إلى المسار التفاوضى بأقصى سرعة ممكنة، لاستحالة تحقيق إنجاز من خلال الصدام مع القوة

ثقافة الخنوع

الإسرائيلية، وبعيداً عن أن رد الفعل العسكرى الإسرائيلى متوقع وعاجز فى نفس الوقت عن وضع نهاية لتلك الحركة التحررية. كما كان الحال فى كل الخبرات المماثلة - لم يلحظ هؤلاء أن إسرائيل على الرغم من كل بطشها لم تطلق العنان للحدود القصوى لقوتها لأكثر من سبب، وبصفة خاصة لأن الشعب الفلسطينى أثبت قدرته المتزايدة على إلحاق الضرر المادى والمعنوى بخصمه.

ولقد أعادت انتفاضة الأقصى الروح للشارع العربى، وبرزت قطاعات واسعة من الجماهير العربية عامة، والشباب العربى خاصة، لم تكتف بالسير فى مظاهرات حماسية تأييداً للشعب الفلسطينى، ولكنها حاولت أن تمارس فعلاً أكثر تأثيراً، سواء باستخدام الإنترنت فى عمل دعائى لصالح قضية هذا الشعب، أو بالدعوة إلى تفعيل المقاطعة الاقتصادية للعدو، وربما ظن أنصار «ثقافة الخنوع» فى البداية أنها دعوة جوفاء ستذهب أدراج الرياح، لكنها - لسبب أو لآخر - بدأت تحدث آثارها على نحو أقلقهم كثيراً فيما يبدو، وكلما بدت شواهد أكثر على النجاح - كأن تعلن مؤسسات تجارية أجنبية عملاقة عن براءتها من إسرائيل على صدر كبريات الصحف، أو تموه بعض المؤسسات الأخرى على اسمها الذى يشير بشكل أو بآخر إلى ارتباط بمعسكر العدو، أو تظهر مؤشرات على تراجع مبيعات، وأرباح مؤسسات بعينها كانت هدفاً للمقاطعة، أو تتبارى مؤسسات أخرى مماثلة فى إظهار تعاطفها مع القضية الفلسطينية، وإظهار دعمها المادى للشعب الفلسطينى - كلما حدث هذا وغيره صعد أنصار «ثقافة الخنوع» من حملتهم ضد المقاطعة: أين مقاطعتكم البلهاء هذه من تشابك الاقتصاد الدولى؟ هل تظنون أنكم بسوقكم الهزيل هذا تؤثرون على مجريات الصراع؟ ألا تدرون أنكم لا تعاقبون بمقاطعتكم هذه سوى أنفسكم؟ هل تقدرون على مقاطعة تكنولوجيا العدو.

لاشك أن دعوة المقاطعة الاقتصادية قد شابها قدر من الارتباك وعدم الشفافية، وأنها قد استُغلت على نحو رخيص من بعض المصالح التجارية الضيقة، لكن ما أزعج أنصار «ثقافة الخنوع» لم يكن هذا القصور، وإنما أزعجهم أن ثمة قدرة على الفعل آخذة فى التبلور، ولهذا فإنهم لم يهتموا بالدعوة إلى ترشيد المقاطعة، وإنما كان كل اهتمامهم هو وأدها فى مهدها، ونسوا أو تناسوا أن مصالح «العمال» التى انبروا للدفاع عنها،

بحكم أنها سوف تتضرر من جراء المقاطعة عندما تؤدى إلى خروج استثمارات أجنبية، قد أضيرت من قبل بسبب سياسات أخرى لا علاقة للمقاطعة بها، لكن أحداً منهم لم يفكر لحظة فى التصدى للدفاع عن تلك المصالح فى حينه، وإنما تذكروها جميعاً عندما ارتبطت بقدرة على الفعل من أجل الكرامة، ونسوا أو تناسوا أن المقاطعة يمكن أن تكون رمزية لمجرد التعبير عن رفض العدو، وأنها يمكن كذلك، كما تشير الخبرات السابقة، أن تكون انتقائية: تقاطع ما يؤلم العدو، ولا نقاطع ما يصيب القائم بها بالضرر، وأن العدو لرغبته فى تقليل آثارها السلبية عليه يقبل بقواعد اللعبة على هذا النحو. وبمجرد تلويح الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل بعروض شوهاء للتسوية سارع أنصار «ثقافة الخنوع» بالدعوة إلى قبولها «قبل أن تضيع الفرصة» (أى فرصة؟!) كما ضاعت من قبل فرص أخرى (يقصدون قرار التقسيم)، كأن نضال الشعوب من أجل تقرير مصيرها مقامرة، أو كأنها مطالبة بالرضى بالظلم الفادح لمجرد عدم قدرتها على تغيير الواقع فى لحظة من لحظات التاريخ. لم يتوقف أحد من أنصار ثقافة الخنوع ليسأل نفسه لماذا الإلحاح على التسوية السريعة بعد البلادة فى الحركة؟ ألا يمكن أن يكون ذلك لإجهاض تطورات إيجابية محتملة من وجهة النظر الفلسطينية والعربية؟ ولماذا نربط مصيرنا برئيس غربت شمسه فى الولايات المتحدة الأمريكية أو بسياسى فاشل يخوض معركة انتخابية شبه يائسة فى إسرائيل؟ ولم يهتم أحد بملاحظة أن عروض التسوية المطروحة على الفلسطينيين على الرغم من سوئها الظاهر آخذة فى التحسن، وأن هذا التحسن لا يمكن أن يرد إلا إلى الفعل الفلسطيني خاصة والعربى عامة وليس إلى الخوف والخنوع، وأن القبول بتلك العروض إذن لن يكون سوى قطع للطريق على وصول حركة التحرر الوطنى الفلسطينى إلى غاياتها.

***

يتوقف المرء كثيراً عند محاولة استكشاف دوافع «ثقافة الخنوع»: أهى اختراق خارجي؟ أم انعكاس لمصالح ذاتية؟ أم أنه تعود على الخنوع على النحو الذى جعل عبد الرحمن الكواكبى يطلق صرخته المدوية فى «طبائع الاستبداد»؟ وعلى الرغم من أننى اكتفيت فى الصفحات السابقة بإثارة المسألة من منظور الصراع العربى - الإسرائيلى فإن «ثقافة الخنوع» تحاول أن تتسلل على نحو لا يقل وضوحاً فى جميع قضايانا الحيوية، فهل لنا أن نمعن النظر فى هذه الظاهرة، وأن نحاول استقصاء أسبابها، والتنبيه لما يمكن أن تلحقه من ضرر بمستقبلنا الذى نسعى إلى أن يكون مستقبلاً مستقلاً كريماً آمناً؟ ■



«عملية الخليل»

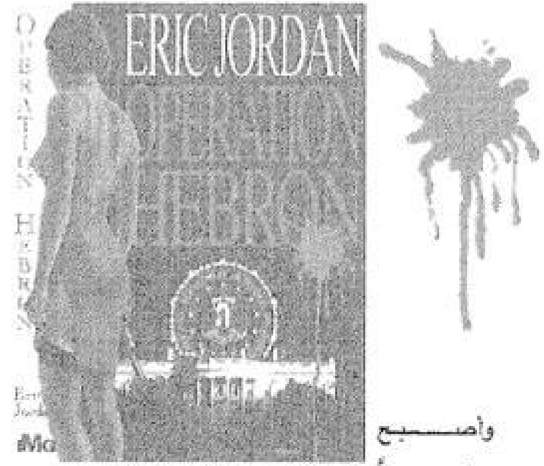
رواية امريكية تتناول علاقة امريكا باليهود!

عميل الموساد في البيت الأبيض!

بقلم: محمود صالح

كانت اسرائيل منذ قيامها، ومازالت، الطفل المدلل للولايات المتحدة الأمريكية، فهى تتقبل أخطاءها، بل وتحاول أحياناً تبريرها، وهى تستخدم نفوذها كدولة عظمى، تستخدم حق الفيتو مثلاً، حتى تضمن عدم إدانتها في مواجهة العالم.

وقد اعتدنا، نحن العرب، على قبول هذه العلاقة الخاصة باعتبارها أمراً واقعاً مفروغاً منه وإن تعددت مبرراته ما بين أسباب دينية وعقائدية أو أسباب سياسية واستراتيجة، أو مزيج منها جميعاً!.



وأصبح مفهوماً ومقبولاً أن يهتم كل مرشح لانتخابات الرئاسة الأمريكية بالتأكيد على التزامه بأمن إسرائيل والحفاظ على مصالحها.

ولعل اعتيادنا على حتمية هذه العلاقة هو الذي جعلنا لا نطرح أي تساؤلات مثل: إلى أي مدى يمكن أن تستمر هذه العلاقة الخاصة والمتينة بين الطرفين؟. هل يمكن أن تتطور الأمور إلى النقطة التي تتعارض فيها مصالح الكيانين؟. وماذا يكون رد فعلهما لمثل هذا الموقف المفترض؟. وهل يمكن أن ينتج عن ذلك مشكلة تعدد أو اختلاط ولاءات الأفراد المنتمين لواحد من الطرفين أو كليهما؟.

هذه التساؤلات وغيرها طرحت في رواية جديدة صدرت في يوليو ٢٠٠٠ تحت عنوان OPERTION HEB-RON أو «عملية الخليل».

أما مؤلف الرواية فهو Eric Jor-Dan إريك جوردان، وهو صاحب تاريخ طويل من العمل في مجالي الدبلوماسية وأنشطة التجسس، خاصة في مناطق الشرق الأوسط وإفريقيا وأوروبا. لقد عمل جوردان في واشنطن كضابط مخابرات مختص بعمليات الشرق الاوسط كذلك كلفه الرئيس الأمريكي رونالد ريجان، بصفته مستشاراً خاصاً في شئون الإرهاب، بعدة مهام سرية خاصة تتعلق برهائن أمريكيين في لبنان وغيرها من الدول. أما وقد عرفنا ذلك

عـــميل الموســـاد في البـيت الابيض

فيحق لنا، نحن القراء، أن نتــوقع أولاً: رواية محكمة شيقة يجيد صاحبها تصوير ما يحدث في عالم المخابرات، وثانياً: رؤية سياسية معينة لابد أن يكون المؤلف قد توصل إليها من خلال خبرته الطويلة في مجالي الدبلوماسية والجاسوسية منذ الخمسينات وحتى بداية الثمانينات.

والحق أن المؤلف قد نجح فعلاً على مدى ٣٧٥ صفحة في الحفاظ على اهتمام القارىء لمتابعة أحداث الرواية المثيرة التي تدور معظم تفاصيلها في مكاتب المخابرات ومكاتب رؤساء الدول في مدن العالم المختلفة: واشنطن، موسكو، بروكسل، القدس، وغيرها. أما شخصيات الرواية فهي لا تقل إثارة عن الأحداث نفسها إذ تتضمن الرئيس الأمريكي والرئيس الروسي ورئيس الوزراء الإسرائيلي وعدد من ضباط المخابرات والمحققين والمرشحين للرئاسة في الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى ألسنة هؤلاء، وفي تكامل وتداخل مع أحداث الرواية تتجمع خطوط وتفاصيل الرؤية التي سنحاول أن نستجليها للقارئ».

حقا إن «بعض الحقائق من الأفضل أن تقال وقد ارتدت ثوب الخيال القصصي»!.

عن الرواية

يتلخص الحدث الرئيسي في الرواية في أن المخابرات الإسرائيلية (الموساد) كانت قد نجحت في تجنيد أحد أعضاء الكونجرس الأمريكي كعميل لها. وبعد عشرين عاماً من إمداد هذا العميل للموساد بالمعلومات ومساعدتها بالتأثير في قرارات الكونجرس تقرر السلطات الإسرائيلية أنه لم يعد يكفي أن يكون لها تأثير INFLUENCE قوي في عملية صنع القرار الأمريكي، وإنما يجب أن تصل الى التحكم في Con-trol صنع هذا القرار. وهكذا تدفع

اسرائيل بالسناتور العميل، اسمه الكودى حبرون وهو الاسم العبرى لمدينة الخليل، تدفع به إلى انتهاز فرصة إمكانية ترشيح الحزب له لخوض انتخابات الرئاسة الأمريكية. ويدخل حبرون فعلاً الانتخابات مرشحاً عن الحزب الجمهوري، وبالتأييد المادى والمعنوى القانونى وغير القانونى من الموساد ينجح حبرون في اكتساح منافسيه في سباق الرئاسة، لكن أحداثا أخرى غير متوقعة تتصعد حتى تطيح به في اللحظات الأخيرة، وقد كان قاب قوسين أو أدنى من احتلال كرسى الرئيس الأمريكى فى المكتب البيضاوى!.

تبدأ الرواية بجريمة قتل تتم فى أحد أحياء العاصمة الأمريكية واشنطن في السابع من نوفمبر، أي عشية اجراء انتخابات الرئاسة الأمريكية. ولا يعرف القارىء هوية الضحايا الثلاثة لهذه الجريمة إلا فى الفصول الأخيرة من القصة. وما بين البداية والنهاية تتصاعد الأحداث متلاحقة وتتحرك الشخصيات التى أجاد المؤلف رسمها بحيث تبدو متسقة مع اختياراتها وردود أفعالها. وذلك كله فى اطار من براعة الحكي ودقة الوصف والاهتمام بالتفاصيل.

ليس تعاطفاً مع العرب

ومن حسن الحظ أن المؤلف لا يذكر العرب إلا قليلاً، بما لا يمكن معه اتهامه بالتعاطف معهم. وهو في الوقت ذاته لا يعبر عن شيء من العداء ناحية إسرائيل.

هو فقط ينبههم، كصديق فيما يبدو، إنه لا يمكنهم الاعتماد بشكل مطلق على أساليب الضغط والأنشطة التجسسية لإرساء أمن إسرائيل وضمان استقرارها مستقبلاً. أما السبيل الوحيد لتحقيق هذين الهدفين فهو الدخول فى مفاوضات سلام حقيقية مع العرب. ففى الفصل الثانى من الرواية، والذى تدور أحداثه فى القدس، يستغرق رئيس الوزراء الإسرائيلى أهارون إيشيل Aharon Eshel فى التفكير فيما يجب عليه عمله لحل مشاكل حكومته وشعبه بالذات، فيما يتعلق بعلاقة بلاده بالولايات المتحدة الأمريكية، خاصة أن الادارة الأمريكية الحالية تتبنى موقفاً متشدداً من إسرائيل.

لقد بدأت العلاقات الأمريكية الاسرائيلية فى التدهور منذ غزو

عميل الموساد
فى البيت الابيض

إسرائيل للبنان، ثم ساءت الأمور أكثر بعد كشف العميل الإسرائيلى بولارد Pollard فى وزارة الدفاع الأمريكية وما تم عن طريقه من سرقة أجزاء من السلاح النووى واليورانيوم المخصب من الولايات المتحدة. وعندما أقدم رئيس الوزراء إيشيل على تجميد مفاوضات السلام مع العرب وصلت الإدارة الأمريكية إلى أقصى درجات التشدد:

«لقد أيدناكم عسكرياً ومادياً، تفاوضوا من أجل السلام مع العرب، وإلا لن تحصلوا على دولار واحد من الادارة الأمريكية الحالية» ص٢٣.

لكن رئيس الوزراء الاسرائيلى لا ينوى الاستجابة للضغوط الأمريكية والعودة إلى مائدة المفاوضات لأنه لا يقبل التنازل عن أى أراض أخرى. وهكذا يلتقى إيشيل بمجلس وزرائه المصغر محاولاً اقناعهم بتأييد وتمويل عملية حبرون، أى دفع السناتور الأمريكى العميل للفوز بمقعد الرئاسة، ويوجه حديثه إليهم قائلاً:

«إذا نجحت عملية حبرون فإن ذلك سيعنى تغييراً جذرياً فى قدرتنا على التحكم فى السياسة الأمريكية لمدة عقد من الزمان، وسنستطيع خلال هذه السنوات أن نعقد اتفاقيات مشتركة ونبرم معاهدات تحافظ على اسرائيل ومصالحها لمدة قرن من الزمان! لن نكون عندئذ بحاجة إلى مباحثات فى كامب ديفيد أو مفاوضات فى أوسلو أو اتفاقات فى واى» ص٢٨.

لكن عملية حبرون لا تكلل بالنجاح فيخاطب رئيس الوزراء الإسرائيلى نفسه فى الصفحات الأخيرة من الرواية قائلاً:

«إن هذه المكائد الجنونية الخطيرة لم تعد هى الاسلوب المناسب لحماية إسرائيل. يجب أن تنخرط أمتنا بصدق فى عملية السلام. إن هذا هو الأمل الوحيد لابنائنا وأحفادنا. أعرف أن هذا قد يكلفنى حياتى، فلا يزال بيننا كثير من المجانين،

لكننى كنت ومازلت مستعداً لمثل هذه التضحية من أجل شعبى» ص٣٦٢. ولا تفوتنا كقراء بالطبع أن هذه إشارة لشخصية اسحق رابين رئيس وزراء اسرائيل الذى تم اغتياله على يد أحد مواطنيه احتجاجاً على عملية السلام مع العرب.

لكن لهجة النصيحة التى يتبناها المؤلف لا تخلو من نبرة حادة قد تصل إلى التحذير من الاعتماد على تأييد الرأى العام الأمريكى لاسرئيل. يقول المؤلف على لسان ضابط المخابرات الإسرائيلى فى واشنطن إنه رغم الوجود الكبير لليهود فى أمريكا إلا أن ذلك لا يضمن التأييد التلقائى من اليهود الأمريكيين لاسرائيل.

بمعنى آخر فإن الانتماء للديانة اليهودية لا يستتبع بالضرورة الولاء السياسى لدولة إسرائيل. ويقدم جوردان نموذجا لذلك هو برندا ستراوس Bren-da Straus محققة مكتب التحقيقات الفيدرالية المكلفة باكتشاف العميل حبرون. إن برندا، اليهودية الديانة الأمريكية الجنسية قد شاركت فى الايقاع بالعميل الاسرائيلى بولارد، رغم ما سببه ذلك من توتر وصل إلى حد مقاطعة والدها اليهودى المتعصب الذى يرى أن انتماءه الحقيقى هو للدولة العبرية!. تقول برندا:

«أنا يهودية، نعم، لكننى لست إسرائيلية» ص٣١٠ وهى تعتقد أن الولاء لاسرائيل كان من سمات جيل والديها، أما جيلها الذى كثر فيه التزاوج مع غير اليهود وانتشرت فيه اتجاهات أقل تعصباً للصهيونية، فسيكون كما تأمل أكثر اندماجاً فى المجتمع الأمريكى أكثر استيعاباً لثقافته وقيمه.

أسطورة الموساد

تبدو المخابرات الإسرائيلية (الموساد) فى الرواية من أقوى وأجرأ أجهزة المخابرات فى العالم، ويرد هذا المعنى على ألسنة العديد من الشخصيات فى سياقات متعددة، وهذه القوة لا تنبع فقط من كفاءة العاملين بها وإنما وهو الأهم، لما يتمتع به مؤيدو اسرائيل من حصانة فى المجتمع الأمريكى، وإلى حد ما فى المجتمع الدولى! وعلى لسان ضابط المخابرات الروسية تأتى عبارة مهمة يقول فيها: «إن هناك عدم رغبة، بل عدم قدرة، فى داخل الدوائر الأمنية الأمريكية لعمل أى شىء بل، قول أى شىء، ضد الأمريكيين الذين يعملون لحساب اسرائيل، حتى لو قاموا بأعمال

عميل الموساد في البيت الابيض

تضر بالمصالح الأمريكية.

بولارد (يقصد العميل الاسرائيلي) كان هو الاستثناء الوحيد الذى يؤكد القاعدة!» ص٨٨ وينجح الروس فى اختراق المخابرات الإسرائيلية بهدف أن تصب المعلومات التى تصل إليها (الموساد) عن الولايات المتحدة في عروق جهاز المخابرات الروسي.

ينبه المؤلف إذن إلى أن التساهل الذى يتعامل به المسئولون فى الولايات المتحدة مع إسرائيل ومؤيديها يجعل بلادهم فى موقف أكثر ضعفاً فى مواجهة القوى الدولية الأخرى. أما قضية الجاسوس بولارد فقد لا تكون فقط الاستثناء الذى يؤكد القاعدة، وإنما هى فى الحقيقة رمز لوجود علامة حمراء، يجب على إسرائيل أن تنتبه إليها، يقف عندها تساهل أمريكا مع أصدقائها حتى لو كانت ربيبتها إسرائيل!

سباق الانتخابات

من التفاصيل المهمة التى تتضمنها الرواية تلك الخاصة بسباق انتخابات الرئاسة الأمريكية، وما يدور فى دهاليزها الخفية من مكائد وتحالفات، والدور الذى يلعبه المال فى حسم نتائج السباق.

ويلاحظ فى هذا الصدد ما أشرنا إليه قبلاً من تسابق المرشحين إلى تقديم الوعود لكسب رضا اسرائيل واللوبى الصهيونى المؤيد لها. فها هو أحد المرشحين يعد أنه فى حالة نجاحه فى الفوز بمقعد الرئاسة سوف يوصى فوراً بنقل السفارة الإسرائيلية من تل أبيب إلى القدس، ويقوم بتقديم القروض المطلوبة لتمويل بناء المستوطنات فى الضفة الغربية.

ومع ذلك فإن ما حسم نتيجة الانتخابات ليس أصوات الناخبين اليهود، وإنما ملايين الدولارات التى حقن بها (الموساد) الحملة الانتخابية

للعميل حبرون فى الأيام الأخيرة قبل موعد الانتخابات، بالإضافة إلى الفضيحة الأخلاقية التى تمس المرشح المنافس والتى دبرت (الموساد) ايضاً كشفها فى اللحظات الأخيرة. وبشكل عام فإن المؤلف يقترح من خلال الأحداث أن ما يحدد نتيجة الانتخابات هو المال الذى يقف وراء الحملة الانتخابية وليس أصوات الأقليات بما فيها أصوات اليهود الأمريكيين، وهو اقتراح علينا نحن العربَ أن ندرسه ونحكم منه على مدى صحة ما يسمى بأسطورة «التصويت اليهودى»

***

لم يبق إلا الإشارة إلى جزء طريف من هذا الكتاب الممتع وهو يتضمن الحوار الذى دار بين ضابط المخابرات الإسرائيلى المسئول عن عملية حبرون وأحد الوزراء الإسرائيليين. فالوزير يسأل: ألن يتعرض عميلنا السرى، فى حالة انتخابه رئيساً للولايات المتحدة، للانتقاد لقبوله دائما ما يوافق رغباتنا ومصالحنا؟ ص١٦٧ . فيجيب ضابط المخابرات أنه قد تم التنسيق مع حبرون، فى حالة انتخابه بحيث يقول له الاسرائيليون سراً أقل ما يمكنهم القبول به، ثم يطالبونه فى العلن بما هو أكثر من ذلك بكثير حتى اذا رفض طلباتهم المعلنة وقدم لهم بعض المقترحات الجديدة التى يبدو وكأنها تنطوى على بعض التنازل، قبلوها وكأنهم قد تنازلوا حقاً، بينما هم فى الحقيقة لم يحصلوا إلا على ما أرادوا منذ البداية.

وهذه الخطة تذكر القارىء بالمقترحات التى قدمها الرئيس السابق بيل كلينتون قبل رحيله عن البيت الأبيض فيما سمى بخطة كلينتون للسلام. وقد ظلت إسرائيل تبدى التردد أياماً ثم قبلتها وكأنها قد قدمت بعض التنازلات، بينما لم تكن الخطة الجديدة إلا المقترحات الإسرائيلية نفسها وقد ألبست ثوبا آخر كساها بغموض جديد يجعل تنفيذها فى حاجة إلى جولات وجولات من المباحثات فقط لتوضيح الغموض!.

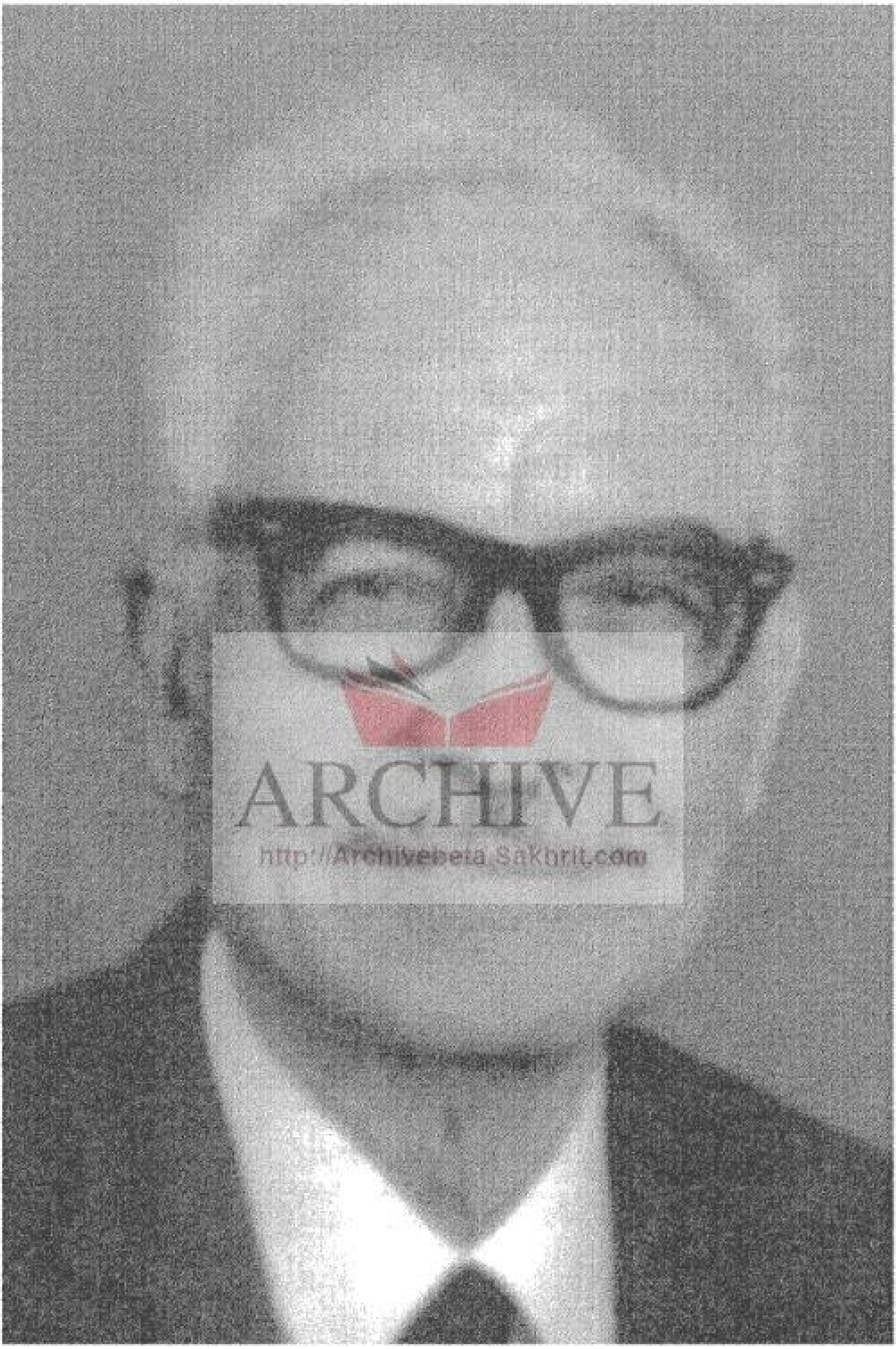
حقاً «إن بعض الحقائق من الأفضل أن تقال وقد ارتدت ثوب الخيال القصصى»!. ■

الدكتور
محمد عبد الفتاح القصاص
وبعض ما حدث لبيئة الانسان

بقلم
د. رشدي سعيد

هذا مقال أهديه إلى الأستاذ الدكتور محمد عبدالفتاح القصاص بمناسبة بلوغه سن الثمانين أتناول فيه بعض ماحدث لبيئة الإنسان خلال الخمسين سنة الماضية من خلال عرض لاتجاهات بعض مؤشراتها رأيت أن فى كتابته تحية لهذا العالم الكبير والصديق العزيز الذى كرس حياته العلمية كلها لدراسة موضوعها والحفاظ عليها من عوامل الفساد التى تتعرض لها، وكان موضوع البيئة هو أحد الاهتمامات المشتركة التى ربطتنى مع الدكتور القصاص فى صداقة دامت منذ عودتنا من بعثاتنا العلمية فى سنة ١٩٥١ .

وقد بدأت رحلة صداقتى معه فى أعقاب عودتى من جامعة هارفارد بالولايات المتحدة لأبدأ عملى بقسم الچيولوچيا بكلية العلوم بجامعة القاهرة، والتى تزامنت مع عودته من جامعة كامبريدج بانجلترا ليبدأ عمله فى قسم النبات بالكلية نفسها. وتسبب اهتمامه بالدراسة البيئية للنباتات الصحراوية إلى التعرف علىّ ورغبة فى مصاحبتى إلى الصحراء ، التى بدأنا نزورها معا بانتظام نسير بين جبالها ووديانها لساعات طويلة نسجل فيها


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



شخصية العدد

ملاحظاتنا العلمية كل فى ميدانه، ونشارك بعضنا فى مناقشة مايمكن أن تحمله هذه الملاحظات من فهم لأسرار الطبيعة التى يتفاعل فيها الأحياء فى تناغم واتزان مع الأرض ومايغلفها من غطاء جوى والتى يعيشون عليها وفى ظلها. وقد فتن هذا التناغم والاتزان الدكتور القصاص وشغل فهمه والبحث فى أسراره عمره كله، كما شغله أمر الحفاظ عليه من الخلل الذى يمكن أن يحدثه التلوث أو الاستغلال غير المنضبط للموارد حتى يبقى على البيئة التى تحيط بالإنسان سليمة وآمنة للعيش الطيب له ولأبنائه من بعده، وقد أصبح الدكتور القصاص بفضل مثابرته وإخلاصه واحدا من أبرز علماء البيئة فى العالم وواحدا من أكبر الدعاة للحفاظ عليها.

> ● كرس د. القصاص حياته لدراسة البيئة ومشكلاتها

وخلال الخمسين سنة التى مضت منذ أن بدأ الدكتور القصاص أبحاثه فى علم البيئة حدثت أحداث جسام غيرت وجه الأرض فى سرعة مذهلة حتى ليصعب على المرء أن يلاحقها، ففى هذه الفترة زاد سكان العالم من ٢.٥ مليار نسمة فى سنة ١٩٥٠ إلى أكثر من ٦ مليارات نسمة فى سنة ٢٠٠٠ أضيف المليار الأخير منهم فى غضون الاثنتى عشرة سنة الماضية فقط، كما شهد عام ٢٠٠٠ وصول سكان الهند إلى أكثر من المليار نسمة، وحدثت أغلب الزيادة فى السكان فى بلاد الجنوب التى شهدت ضغطا على مصادرها الطبيعية التى عجزت فى الكثير من هذه البلاد عن تلبية حاجات هذه الأعداد الكبيرة من السكان، وعلى الأخص فيما تعلق منها بالمياه أو الوقود أو حتى مساحات الأرض القابلة لزراعة المحاصيل، وعلى الرغم من أن الاقتصاد العالمى قد شهد توسعا هائلا خلال الخمسين سنة الفائتة زاد خلالها بمقدار ست مرات عما كان عليه فى مبدئها إلا أن معظم هذا التوسع قد لحق بعالم الشمال وحدث عن طريق الاستخدام الكثيف للموارد، وعلى الأخص للوقود الحفرى

(الفحم والبترول) الذى زاد استهلاكه حتى بلغ أربع مرات ماكان عليه مما أدى إلى تزايد انبعاثات غاز ثانى أكسيد الكربون أحد أهم غازات الصوبة الزجاجية فى الجو وازدياد نسبته فيه من ٣١٧ جزءا فى المليون فى سنة ١٩٥٩ (سنة بدء رصده) إلى ٣٦٨ جزءا فى المليون فى سنة ١٩٩٩ ، وهذه الزيادة فى نسبة ثانى أكسيد الكربون والتى بلغت حوالى ١٦٪ فى الأربعين سنة المذكورة ربما كانت أحد أهم أسباب الاضطراب الكبير الذى حدث للطقس خلال هذه السنوات التى شهدت زوابع وفيضانات مدمرة فى تواتر لم يخبره الإنسان من قبل، وكذلك الارتفاع المستمر لدرجة حرارة سطح الأرض خلال هذه السنوات والتى زاد متوسطها بأكثر من درجة مئوية واحدة عما كانت عليه فى بدئها.

تغير دورة المحاصيل

وبالإضافة إلى الاضطراب الذى حدث للطقس فقد أدى الارتفاع فى درجة حرارة الأرض إلى تغير دورة المحاصيل وميعاد نضجها، وكذلك فى ذوبان الثلوج التى تغطى القطبين الشمالى والجنوبى والكثير من قمم الجبال الشاهقة فى العالم، ورصد العلماء تراجع خطوط الثلوج وتقليص سمكها فى جميع هذه المناطق ففى القطب الشمالى تقلص سمك الجليد فيه بأكثر من ٤٠٪ خلال السنوات الثلاثين الماضية، وفى القطب الجنوبى قلت مساحة غطائه الجليدى بانفصال كتل كبيرة منه على أطرافه لتذوب فى البحار، أما ثلاجات قمم الجبال فقد كان تأثرها بارتفاع درجة الحرارة كبيرا وفقدت جبال الألب نصف كتلتها من الجليد خلال المائة عام الماضية، وتقلصت مساحة ثلاجة قمم جبال الهمالايا فى سرعة كبيرة حتى يخشى اختفاؤها كلية وهى التى تبلغ اليوم الثالثة من حيث المساحة بعد ثلاجات القطبين مما سيؤدى إلى تناقص إمدادات المياه لأنهار الأندوس والميكونج واليانجزى والأصفر النابعة منها ـ ويقدر مقدار النقص الحالى فى هذه الإمدادات بما يزيد على ٢٠٪ عما كان يصلها منذ خمسين سنة.

ولعل أخطر ما سوف يحدثه ذوبان الثلوج ووصول مياهها إلى المحيط العالمى هو فى أنها ستؤدى إلى ارتفاع منسوبه مما سيتسبب فى إغراق الأراضى الواقعة على طول السواحل فى أرجاء العالم وهى الأراضى التى يسكنها اليوم أكثر من نصف سكان الأرض، وكان منسوب البحر قد ارتفع خلال القرن العشرين بين ١٠ إلى ١٥ سنتيمترا ومن المنتظر أن يرتفع إلى أكثر من ستة أمتار فى آخر سنى القرن الواحد



شخصية العدد

○ أبرز علماء البيئة في العالم على مدى خمسين عاما

والعشرين لو أن معدلات ارتفاع درجة حرارة الأرض قد استمرت على ماهي عليه اليوم، وفي مثل هذه الحالة فإن أثر ارتفاع منسوب البحر سيكون هائلا ومؤثرا على حياة الملايين من البشر الذين يسكنون المناطق الواطئة حول سواحل البحار والتى ستكون من بينها ثلاثة أرباع منطقة الدلتا المصرية ذات الكثافة العالية فى السكان.

الحد من ارتفاع درجة حرارة الأرض

ومما يبعث على بعض الأمل فى ألا تتم فصول هذا السيناريو المخيف تلك الجهود التى تبذل اليوم للحد من معدلات ارتفاع درجة حرارة الأرض وذلك بالإقلال من انبعاثات غاز ثانى أكسيد الكربون أحد أهم غازات الصوبة الزجاجية والتى يسبب تزايدها رفع درجة حرارة الأرض، ومن المؤشرات المهمة فى هذا الاتجاه تراجع استخدام الوقود الحفرى لتوليد الطاقة وعلى الأخص فى حالة الفحم على مستوى العالم وفى بريطانيا بالذات التى كانت أول من استخدمه على نطاق واسع وكذلك فى التوسع فى استخدام بدائل نظيفة ومتجددة لتوليد الطاقة كالرياح التى زاد استخدامها خلال العقد الأخير من القرن العشرين فى أوربا والصين وبلاد الغرب الأمريكى كمصدر مهم للطاقة. وتنوى أوربا التوسع فى استخدام هذا المصدر لإستيفاء كل حاجتها من الكهرباء بعد أن وجدت أن المناطق البحرية التى تحف سواحلها وحتى عمق ٣٠ مترا تهب عليها الرياح بانتظام وعلى طول العام. كما زاد استخدام الخلايا الشمسية فى توليد الطاقة وحدث فى تطبيقاتها اختراق كبير بعد أن أدخلت هذه الخلايا فى صلب مواد أسقف المنازل من أجل تزويد ساكنيها بالطاقة اللازمة للتدفئة ولسد مختلف الاحتياجات المنزلية دون الحاجة إلى استخدام الوقود الحفرى.

أما في ميدان الموارد الطبيعية فقد زاد استخدامها زيادة كبيرة خلال الخمسين سنة الماضية بسبب انتشار ظاهرة الاستهلاك التي تعاظمت أبعادها على أوسع المقاييس خلال العقود الأخيرة، وأصبحت المحرك الأساسي للنظام الاقتصادي القائم وأهم مايميز نمط الحياة التي يسعى إليها الناس في جميع أرجاء الأرض ويتوقون لها على الرغم مما يسببه هذا الاستهلاك من تدهور للبيئة وتبديد للموارد في عالم يزيد فيه السكان ويحتاج إلى توجيه جهوده إلى تدبير المزيد من الغذاء، والحفاظ على الأراضي والمياه من الضياع، ومن آسف فقد شهدت العقود الأخيرة تناقصا في خصوبة الأراضي وتقلصا في مساحة الأرض القابلة لزراعة المحاصيل وفي حجم خزانات المياه الأرضية في معظم البلاد، وخلال هذه العقود قلت مساحة أراضي المحاصيل من ١,٨ مليار فدان في سنة ١٩٨١ إلى قرابة ١,٦ مليار فدان في سنة ١٩٩٩، وفيها تم السحب الجائر للمياه من الكثير من خزانات المياه الأرضية بحجم قدر بحوالي ١٦٠ مليار متر مكعب استخدمت في إنتاج الحبوب لمقابلة احتياج ما لا يقل عن ٤٨٠ مليون نسمة من الغذاء، ولو توقف سحب هذه الكمية من المياه كما ينبغي أن يكون عليه الحال لو أريد لهذه الخزانات أن تستدام لحدثت أزمة في إنتاج الحبوب يمكن أن تؤثر على غذاء هذا العدد الكبير من سكان الأرض، ومما يزيد من قتامة الصورة عدم وجود ما يشير إلى أن اختراقا كبيرا سوف يحدث في مجال إنتاج الغذاء في الأفق القريب كذلك الذي حدث خلال الخمسين سنة الماضية، ولم يحقق حتى اليوم استخدام تقنيات الهندسة الوراثية التي لازالت تثير الكثير من الجدل حول آثارها على الصحة والبيئة ذلك الأمل الذي كان معقودا عليها.

تفاوت كبير بين سكان الكوكب

على أنه ومهما كان نمط الاستهلاك واتجاهاته فإن أبرز مايمكن أن يخرج به المتأمل لشكل عالم اليوم هو هذا التفاوت الكبير بين سكان كوكب الأرض سواء في الثروة أو القوة أو الفرص المتاحة أمامهم أو حتى في القدرة على البقاء، إذ أنه على الرغم من أن العالم قد أصبح صغيرا ومتشابكا بسبب ما أحدثه التوسع التجاري وسهولة انتقال الأموال والسرعة في الاتصال وانتشار شبكة الأنترنت إلا أن الناس لازالوا بعيدين عن بعضهم البعض ومختلفين في قدر الاستفادة من الفرص التي أتاحها لهم هذا التشابك، فهناك انفصال بين سكان الشمال والجنوب وبين من يملكون



شخصية العدد

ومن لايملكون من مواطنى الدولة الواحدة وبين سكان المدن والريف بل وبين الرجال والنساء، وعلى الرغم من بروز ظاهرة التباين والتنوع هذه بين الناس فقد اختفت أو كادت فى كل مجال آخر سواء فى محيط الموارد الحيوية التى اختفت الكثير من عناصرها أو فى عالم الحضارات التى بدأت تذوب تحت وطأة الإعلام عابر القارات، وانتشار أنواع الترفيه ذى الصبغة العالمية أو فى ميدان الاقتصاد الذى بدأ يندمج تحت شعار العولمة وامتداد نشاط الشركات متعددة الجنسية عبر العالم كله أو فى وسائل النقل التى وحدها الاستخدام المكثف للسيارة، ومن المفكرين من يظن أن انتشار وسائل الاتصال الحديثة والتى تأتى الأنترنت فى مقدمتها سيتسبب فى التقريب بين الناس إلا أنه وحتى هذا العام فإن أقل من ٤٪ من سكان العالم هم الذين يستخدمون الأنترنت وأن ٨٧٪ من هؤلاء يسكنون دول الشمال.

○ **الهندسة الوراثية مازالت تثير الكثير من الجدل على الصحة والبيئة**

إن المشكلات والتحديات التى يواجهها الإنسان الحديث بسبب الاستخدام الكثيف للموارد وتزايد أنماط الاستهلاك كبيرة جدا سيحتاج الخروج منها إلى جهد كثيف من محبى البيئة والفاهمين لتوازناتها. ومن هنا يجيىء التقدير الكبير لما يقوم به الدكتور محمد عبدالفتاح القصاص على كل من المستويين القومى والعالمى من جهد للخروج من هذه المشكلات فتحية له ودعاء بأن يمد الله فى عمره ويمنحه الصحة حتى يستمر فى العطاء. ■

أقوال معاصرة

● «الاسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة، وجعلها تنافس الرجل في كل ميادين الحياة».

الشيخ أحمد كفتارو

المفتي العام للجمهورية العربية السورية



نجيب محفوظ

● «لم أتخيل حياتى أبدا بدون كتابة»

نجيب محفوظ

● «مرآة الرواية لا تعكس الوجه، بل الأمنيات الدفينة»

الروائية اللبنانية رجاء نعمة

● «لا أفهم كيف يمكن أن نثير زوابع في قضايا كان يفترض أن العالم قد اتفق عليها من زمن طويل».

الأديب السودانى الطيب صالح



دنيس روس

● «الإرهاب سلاح الضعفاء»

صامويل هنتنجتون

صاحب نظرية صدام الحضارات

● «السلام لا يصنع بناء على شعارات، بل على أساس الإحتياجات»

دنيس روس منسق عملية السلام سابقا

● «قبول الآخر هو قبول للذات مثلما أن نفيه هو نفى له فى آن»

الشاعر المصرى حلمى سالم



كلينتون

● «الذين صنعوا ويصنعون مجد العرب ابداعيا، هم تحديدا أولئك الذين مورست عليهم الرقابة، فمنعوا أو قتلوا، أو حرقت كتبهم».

الشاعر السورى أدونيس

● «بعد خمسمائة سنة ستكون الجرائد غبارا، ولن يصمد إلا قوة ما شعرنا به، وفعلنا وجماله ونزاهته».

بيل كلينتون رئيس الولايات المتحدة السابق

القمة العربية وعالم متغير

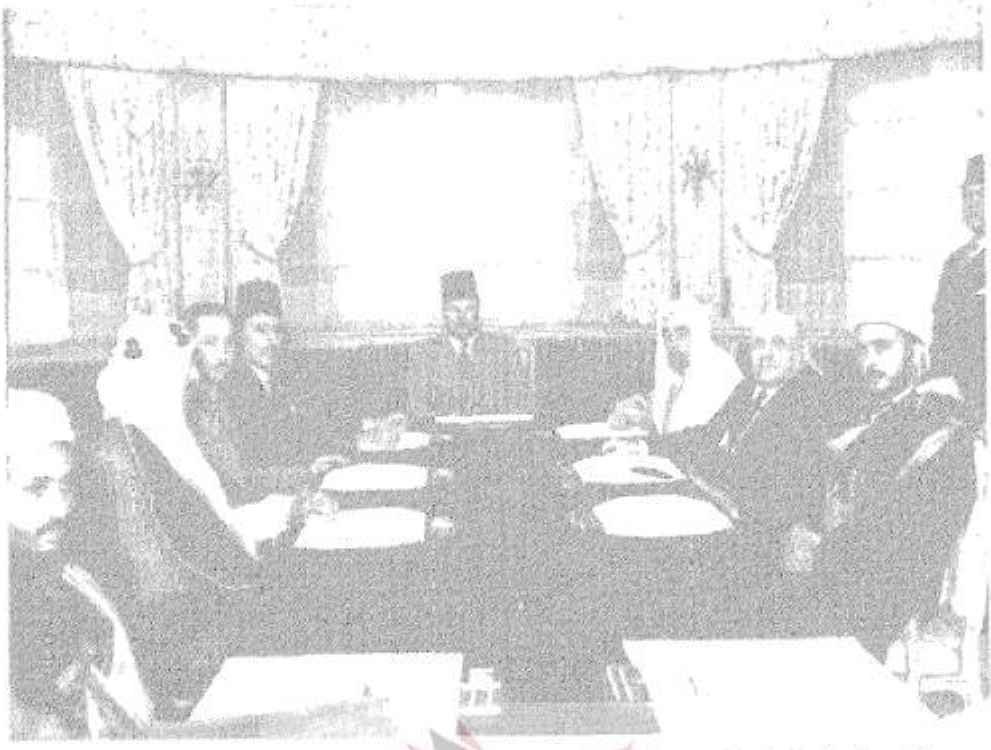
هل حان الوقت لاقتراب العرب من المشاكل الحقيقية؟!

بقلم
مصطفى نبيل

تعقد الآمال الكبيرة على عقد الاجتماع الدورى للقمة العربية، وستعقد أول قمة عربية فى ظل النظام الجديد فى مارس الحالى فى عمان، فهل ستتمكن أعلى سلطة فى اتخاذ القرار العربى من حل «عقدة» العمل العربى المشترك..؟!

ونشهد تناول العقبات الحقيقية أمام العمل العربى، والوصول إلى تصور مشترك للعمل فى القرن الحادى والعشرين..

فقد حان الوقت لكى تبحر «القمة» فى العمق، ولا تكتفى - كما هى العادة - بما هو آن من ردود الفعل.



أول مؤتمر قمة حضرته سبع دول هي مصر وسوريا والأردن والعراق واليمن ولبنان والسعودية ويظهر في الصورة الملك فاروق والملك عبد الله وشكرى القوتلى وبشاره الخورى

وليس هناك مبالغة في القول إن مؤتمر عمان يمثل حدا فاصلا بين مرحلتين؛ ضرورة الاجتماعات تعكس ضرورة الاستفادة من تجارب الماضي، وأنه من الضرورى أن يتقدم التعاون الاقتصادى العربى على الشأن السياسي. فيصب التعاون الاقتصادى فى القرار السياسي ويعطيه قوته.

وتتزايد التوقعات العربية حول احتمال نجاح التعاون الاقتصادى العربي، بعد أن تقاربت واتفقت مصالح الدول العربية على تحقيق النمو الاقتصادى الذى يعجز عن تحقيقه أى قطر عربى بمفرده، وغدا مقبولا فكرة تبادل المصالح مع تبادل التنازلات بين الأطراف العربية المختلفة، وقبول فكرة الاختلاف السياسي واستمرار التعاون الاقتصادى؛ وهاهى ذى الدول المتقدمة تتنازع دون ان يخل ذلك بقواعد التعاون بينها، فلا يقطع التمثيل الدبلوماسي، ولا تتوقف التجارة بينها، ولا تغلق الحدود فى وجه مواطنيها . كما أصبح من المسلم به الادراك العميق أن حل مشاكل

القمة العربية وعالم متغير

العالم العربى لا يأتى سوى من داخل العالم العربى.

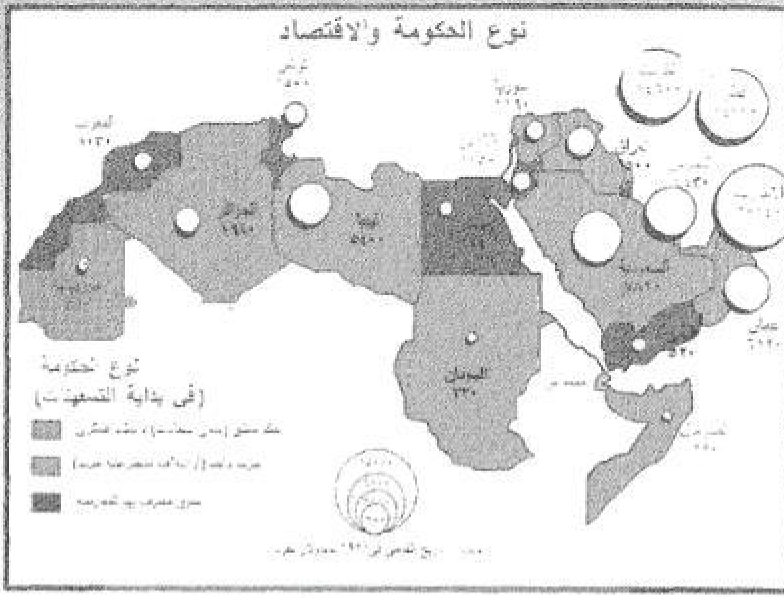
فرغم أن جامعة الدول العربية هى أول تنظيم إقليمى فى العالم بأسره، وهى سابقة على قيام منظمة الوحدة الأوربية ومنظمة الوحدة الأفريقية، إلا فإنها أكثر هذه التنظيمات فشلاً، وخاصة فى الجانب الاقتصادى وفى تطوير العلاقات الاقتصادية بين الدول العربية؛ وسادها منذ قيامها المحاور والمنازعات ، وهذا لا يعنى إغفال الدور الذى قامت به فى مساندة الدول العربية فى كفاحها ضد الاستعمار التقليدى، ولا تجاهل الدور الذى لعبته فى توحيد وتحديث المناهج الدراسية ، ولا الدور الذى لعبته فى التعريب فى دول شمال إفريقيا.

ولم تر تلك المشروعات الاقتصادية المتعددة النور، وظلت موجودة فى أدراج الجامعة العربية، من مشروع السوق العربية المشتركة ومشروع إقامة منظمة الوحدة الاقتصادية، إلى مشروعات عملية، مثل إقامة شركة ناقلات بحرية، ومشروع إقامة شبكة طرق، وشبكة طيران عربية، وغيرها من المشروعات التى أبدعتها القريحة العربية، والتى ظلت فى الأدراج نتيجة الصراعات السياسية من جانب وعدم وجود الإرادة السياسية لإقامتها من جانب آخر. وعجزت الدول العربية عن إقامة علاقات صحية بينها، ووصل التبادل التجارى بين الأقطار العربية إلى حده الأدنى، رغم العديد من التوصيات والقرارات التى اتخذت فى هذا المجال، وكانت الجامعة العربية سباقة للدعوة إلى السوق العربية المشتركة، وتحققت السوق الأوربية المشتركة وانتقلت إلى الوحدة الأوربية ولم تحقق السوق العربية..!

واعتادت الدول العربية أن تتحدث بلسانين ولغتين، إحداهما داخل الغرف المغلقة، والأخرى تخاطب بها الرأى العام العربى ، فى الوقت الذى يوصد الصوت الأول الباب أمام التعاون الاقتصادى العربى ويفضل التعاون مع الأجانب ، رغم أنه يمكن أن يقوم التعاون الاقتصادى العربى جنبا إلى جنب مع التعاون مع العالم الخارجى.

الاقتصاد والأمن

وشهدت تجربة التعاون العربى جنوحا للاهتمام بالمسائل السياسية، وغلب على اهتمام معظم مؤتمرات القمة العربية القضايا السياسية، صحيح أنه



التباين في نظم الحكم وفي عدد السكان وفي الانتاج القومي لكل دولة



الحالة السياسية في كل البلدان العربية من ناحية الحرية وموارد الدولة

القمة العربية

ومسائل مستقبلية

من الطبيعي أن تهتم التكتلات الإقليمية بقضايا الأمن والاستراتيجيات العليا، وبالفعل نشأت السوق الأوربية بعد الحرب العالمية الثانية كأداة للأمن أولا، وكذلك رابطة الأسيان التي تضم دول جنوب شرق آسيا. ولكن لم يتحقق الأمن إلا بعد أن دفعته قاطرة التبادل والتعاون الاقتصادي، وسارت الأمور في طريقها المرسوم، عندما بدأت السوق الأوربية المشتركة في مجال التعاون في إنتاج الحديد والصلب، وتواصلت في المشروعات العملاقة المشتركة مثل التعاون الأوربي في مجال الاتصالات والاليكترونات والأقمار أو في مشروع طائرة الإيرباص وغيرها من المشروعات.

ونظرة خاطفة على مؤتمرات القمة العربية منذ أول مؤتمر قمة عربي عقد في انشاص بمصر عام ١٩٤٦، ومنذ هذا التاريخ عقدت الدول العربية الكثير من القمم، ولم يظهر في قراراتها سوى القليل النادر الخاص بالمسائل الاقتصادية والقليل أيضا من الاهتمام بتعزيز التعاون وتطويره بين الأقطار العربية، وذلك مثل من يريد أن يضع العربة قبل الحصان. ففي خلال ثلاثة عشر مؤتمرا، لا توجد أي إشارة إلى أي مسألة اقتصادية، وكانت معظمها ردود افعال على أحداث سياسية خطيرة..

ولم يفلت من هذا النقص سوى مؤتمر القمة الحادي عشر سنة ١٩٨٩ في عمان. والذي أقر استراتيجية العمل الاقتصادي العربي حتى عام ٢٠٠٠، وجعل التسعينات عقد التنمية المشتركة، وللأسف ذهبت كل تلك القرارات هباء، نتيجة حرب الخليج وعاصفة الصحراء التي طمست برمالها قرارات عمان الاقتصادية!

وأي استعراض للأرقام الاقتصادية يكشف الكثير من الحقائق، ويعكس قتامة الصورة. فالدول الاوربية تستولي وحدها على نصف تجارة المنطقة العربية. والميزان التجاري مختل فالدول العربية غير النفطية، والخرائط والجداول المصاحبة توضح ذلك.

ولعل التذكير بذلك المشروع القديم الذي قيل إنه كفيل بأن يحقق الاكتفاء الذاتي في الغذاء لجميع الدول العربية، والذي يجمع بين أرض السودان الخصبة والعمالة المصرية الوفيرة، وأموال النفط العربي، وغاب المشروع في الأدراج ولم ير النور.

الأمن والبعد الاقتصادي

ولا يتجاهل الفكر الجديد قضايا



مؤتمر القمة العربية الذى عقد فى القاهرة ١٩٦٤ لمواجهة تحويل اسرائيل لنهر الأردن

الامن ولا يغفل طبيعة الصراع العربي الاسرائيلي، بل على العكس فهو يقترب منه فى مدخله الصحيح، على اعتبار ان حل الصراع العربي الإسرائيلي فى المدى البعيد، رهن بما يتحقق في العالم العربي من تطور وأن ما تحقق لاسرائيل يعود الى الضعف العربي أكثر ما يعود الى قوة إسرائيل.

ويكفى فى المرحلة الراهنة، وأنت أمام إدارة أمريكية جديدة ورئيس جديد للحكومة الإسرائيلية، أن يكون للعرب صوت واحد وكلمة واحدة وموقف سياسي متفق عليه.

ولا تغفل السياسة الإسرائيلية التى تعمل على توظيف الخلافات والصراعات العربية لصالحها، وأن الأوان لسد الثغور وعلاج الثغرات فى الموقف العربي، فمهما فعلت إسرائيل فى مجال القوة العسكرية الغاشمة، وبعد أن جربت كل شيء فهناك سقف لما يمكن أن تحققه تلك القوة الغاشمة فى عالم العلاقات الدولية فهى فى حالة تغير مستمر.

والمجتمع الإسرائيلي يسير فى طريق مسدود، يؤكد ذلك ما حدث خلال العقدين الأخيرين، فلم يتمكن اى رئيس وزراء إسرائيلي فى أكمال مدته من اسحق رابين الى بيريز الى نتانياهو

وحتى باراك، لأن كلاما منهم ينطلق من موجة تعاكس تيار الزمن، وتقف ضد حركة التاريخ، ويقامر على عكس الكثير من أسس الحداثة والتحضر الصحيح للإنسانية. وفى عصر تنقل الأقمار الصناعية الحدث لحظة وقوعه.

فإذا اتخذت الخطوات فى طريق التعاون الاقتصادى العربى والتضامن بين الأقطار العربية، فذلك ما لا يلائم إسرائيل والتى تبنى سياستها على أن تعيش الدول العربية فى إطار التشرذم والتفكك، كما سيصب التعاون الاقتصادى بالضرورة لصالح الأمن العربى.

ولابد ان يعالج مؤتمر القمة المقبل فى عمان نقاط الضعف فى الموقف العربى، وأن تؤدى اجتماعاته الى بعث حالة من النهوض الوطنى العربى وفى إطار أرضية المصالح المشتركة لكل الأطراف العربية. فحان الوقت لكى نحتمى بالعروبة فى مواجهة العولمة والجات «وتوحش» الشركات متعددة الجنسية.

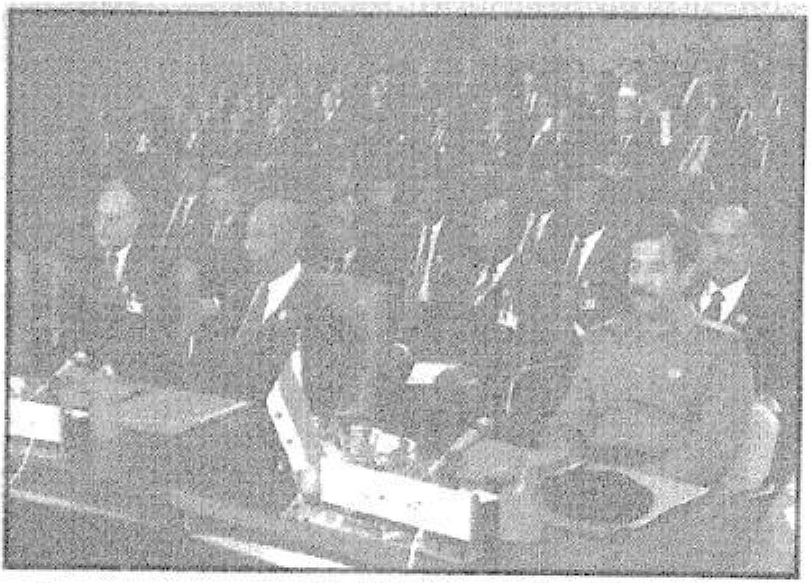
الهروب إلى الأمام

وإذا كان تشخيص المرض هو أول مراحل العلاج، فلنحاول تلمس تلك الأسباب التى عاقت العمل العربى المشترك. خلال نصف القرن الأخير :

● عدم تعديل ميثاق جامعة الدول العربية، وعدم تحديث هياكلها التنظيمية، لكى يساير الميثاق وهياكل الجامعة العصر والتغيرات التى وقعت فى الاقطار العربية.

● دأبت الأقطار العربية على حل مشاكلها على طريقة «الهروب إلى الأمام»! وعندما لا تتوصل احد الاقطار العربية إلى حل لمشكلة الحدود مع جارتها تسارع وتطلب اقامة الوحدة بينهما، وتتغير مواقف العديد من الأقطار العربية مثل حركة «البندول» بين المزايدة أحيانا والمناقصة أحيانا أخرى. فمثلا تتوزع النشاطات بين جامعة الدول العربية وبين منظمات اقليمية اخرى، مثل المؤتمر الاسلامي أو منظمة الوحدة الأفريقية وغيرهما من المنظمات دون وضع حد يميز بين نشاطات كل منها، وعدم تحديد الفارق بين المهم والأهم، ولا بين الاصل والفرع، ويغيب التمايز بين الجامعة وهى منظمة فى إطار أمة واحدة ولغة واحدة وغيرها من المنظمات الإقليمية.

هذا عن المزايدة اما المناقصة ، فقد نشأت فى ذات الوقت تجمعات عربية



قمة عمان ١٩٨٧ وسقوط القطيعة مع مصر وعودة التضامن العربى

أصغر مثل مجلس التعاون الخليجى والاتحاد المغاربى، ولا اعتراض على ذلك بشرط الا تأخذ من رصيد الجامعة بل العمل على ان تضيف الى رصيدها، ولم يوضع حتى اليوم صيغة واضحة للعلاقة بين هذه التجمعات والجامعة العربية سوى دعوة الأمين العام لحضور اجتماعاتها ولذا اضطربت الخطى وتعثر العمل العربى بين الاقدام والنكوص.

● التفاوت الحادث بين الأقطار العربية فى المجالات المختلفة فى درجة الفقر وفى النمو الاقتصادى والاختلافات فى النظام السياسى.

● تقوم بعض المنازعات العربية على أساس شخصى أو عشائرى، وتتخذ عندها القرارات بطريقة فوقية مع غياب المؤسسات وعدم وجود الديمقراطية مما يجعل العلاقات العربية تتعرض للعواصف وتخضع للأهواء.

● تتعدد التصورات بالنسبة لمستقبل الاقطار العربية. فالبعض يرى أن الجزيرة العربية هى مركز القوة لامكانياتها المالية الكبيرة ، ويتصور آخرون ان المركز العربى هو الشام وبلاد الهلال الخصيب، وتصور ثالث يرى ان مصر بحكم وزنها وتاريخها ودورها هى المحور الرئيسى للمستقبل العربى ومركز قوته، وأظن انه لا يوجد ما يمنع

القمة العربية وعالم متغير

من تعدد المراكز واختلاف الأدوار.

● آن الأوان لكي لا يقتصر العمل العربي على الحكومات وان ينتقل الى العمل الشعبي، والتنظيمات الشعبية العديدة مثل الاتحادات والجمعيات والنقابات العربية التي يصل عددها الى ما يقرب من مائة اتحاد وجمعية.

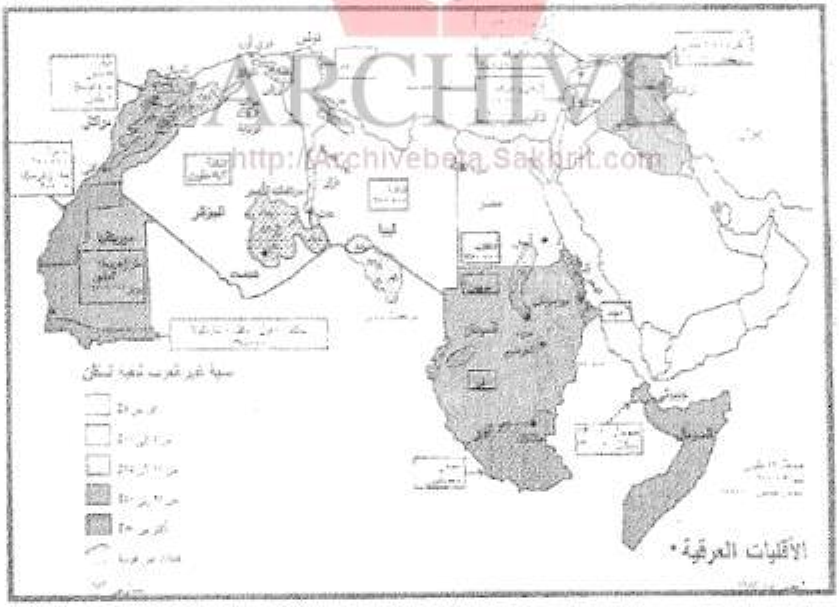
وهذه القضايا تحتاج الى حوار موسع بين الأفراد والاقطار العربية والوصول إلى اتفاق عام حولها، مع تجنب إحدى العادات العربية القديمة وهي التباين الكبير بين الظاهر والباطن، وأن يسبق التغيير الاجتماعي تغيير فكرى.

ويقى أن ننظر الى المشاكل في «عينها» ولا نتهرب منها، بعد أن أوصلنا الاستهزاء بالفكر إلى عدم القدرة على التفكير السليم!

المعلومات والخرائط

ولا يوجد قرارات صحيحة دون معلومات دقيقة، وعلينا البدء بالمعلومات الدقيقة والخرائط الصحيحة للحاضر والمستقبل، مثلما تفعل الصور الملتقطة من الأقمار الصناعية من أجل التوقعات الجوية، فلا يمكن الوصول إلى نهايات

خريطة توضح الأقليات العرقية (البربر - الزنج - الأكراد)



بلا بدايات محددة ولا نتائج بلا مقدمات واضحة، فقد فات زمن العموميات.

ولكي لا تصبح خطانا «هروبا الى الأمام» ولكي نضيف إلى رصيد القوة العربية، ولا نأخذ منها. فالقوة هي مجموعة عناصر إذا غاب احدها انقلبت الى الضعف، فالغني مع الجهل يعنى الضعف، كما أن المعونة بلا امكانيات تبديد للطاقة، لذا فالأمية وغياب المؤسسات الديمقراطية، وفقدان حرية الرأى نقاط ضعف خطيرة من الضرورى علاجها.

ومن يستعرض الأوضاع فى العالم العربى يجد الكثير من المفارقات.

وهناك أطلس معلومات أصدرته دار المستقبل العربى، وأعده رفيق البستانى وفيليب فارج وترجمه مصطفى اللباد. وهو يمثل قاعدة معلومات متينة يمكن للمرء أن يبنى عليها خططه وأفكاره، وسيرى القارئ صورة العالم العربى ككيان منتظم حول عدة محاور تعمل على تجميعه، كما تعمل - في الوقت ذاته - على تمزيقه..!.

ويطرح الكتاب السؤال التالى هل النفط قوة انقسام أم توحيد للعالم العربي؟ ويجيب..«ليس غريبا ان تكون كميات النفط في البلدان العربية متناسبة

خلافات الحدود بين البلدان العربية



تناسبا عكسيا مع حقوق المرأة وحقوق المواطنة، حيث يزيد التمسك بالقديم خوفا من الجديد»..

وسنتناول هنا بعض الموضوعات التي لها علاقة بعناصر القوة العربية والتي تصب في العلاقات بين الدول العربية، ومنها ندرك صعوبة قضية اتخاذ القرار في الوطن العربي، فهي عملية معقدة، وتتم في إطار قيود ومحددات متنوعة ، كما أن الوصول الى القرارات الصائبة يتطلب اختيار أفضل المناهج لاتخاذ القرار في الاقطار العربية المختلفة بما فيها قرارات القمة العربية.

الحدود والأقليات

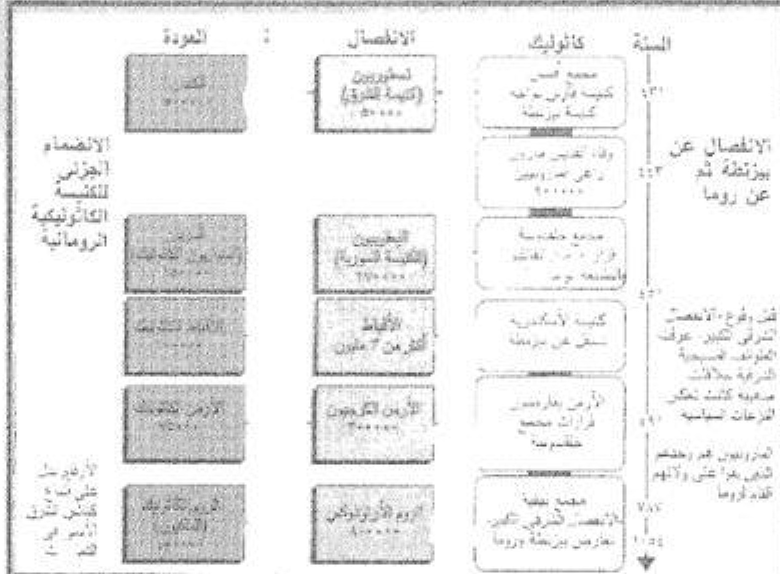
ويدهشك أن تعلم أنه مازالت أراض عربية في الأسر رغم نهاية الاستعمار التقليدي مثل الجيوب الأسبانية على الساحل المغربي، عندما كانت أسبانيا أول بلد أوربي - بعد البرتغال - وصلت قواتها الاستعمارية الى إفريقيا . وهي الوحيدة التي مازالت تحتفظ بأجزاء من إمبراطوريتها الأفلة ولها موانيء في الأرض المغربية، «سبته» التي تبلغ مساحتها تسعة عشر كيلو مترا، و«مليلة» التي تبلغ مساحتها إثنى عشر كيلو مترا والجزر الجعفرية التي تبلغ مساحتها ستة كيلو مترات، بالاضافة الى الحسيمة.

و«لم يكن في وسع المرء أن يتخيل في بداية هذا القرن، شكل العالم العربي بحدوده الحالية».

فالحدود الحالية لا تتطابق مع أي تقسيم واقعي، فعدا مصر والمغرب ليس لأي منها حدود تاريخية، فكانت هذه الدول تابعة إما للدولة العثمانية أو مستعمرات بريطانية أو فرنسية أو إيطالية أو أسبانية، ومعظم الحدود بين الدول العربية رسمت بالتفاوض بين الدول الاستعمارية ، أما الحدود التي رسمت نتيجة اتفاقيات ثنائية بين الدول فلا تمثل سوى نصف حدود المنطقة العربية.

لذلك مازالت بعض مشاكل الحدود قائمة وهي من أكثر الموضوعات حساسية، وما إن تختفي حتى تظهر من جديد ووضع حد لها في الاطار العربي . ينزع امكانية استغلالها ويزيد القوة العربية.

ومازال العالم العربي يعاني من مشكلة الاقليات الدينية أو العرقية ولابد من وجود صيغة عصرية، تجعل هذا التعدد مصدر قوة لا مصدر تفكك وضعف، عندما يعيش الجميع في إطار



السنة
كاثوليك
الانفصال
العودة
الانفصال عن بيزنطة ثم عن روما
الانضمام الجزئي للكنيسة الكاثوليكية الرومانية



الاقليات فى العالم العربى
العراق
السودان

القمة العربية وعالم متغير

وطن واحد، يستمتع كل ابنائه بحقوق متساوية وفي إطار خلاق، وليس إطاراً ضيقاً.

ولا توجد معلومات كافية عن هذه المشكلة فلا يظهر التعداد في معظم الدول العربية الانتماء الديني أو الطائفي سوى في مصر والاردن، واغلبية السكان في العالم العربي ينتمون الى المسلمين السنة، الذين يبلغ تعدادهم حوالي مائة وخمسة وثمانين مليون نسمة ، من مائتي مليون نسمة هم سكان الوطن العربي الذي يمتد بين إفريقيا وآسيا ، ويتكلمون لغة واحدة هي العربية.

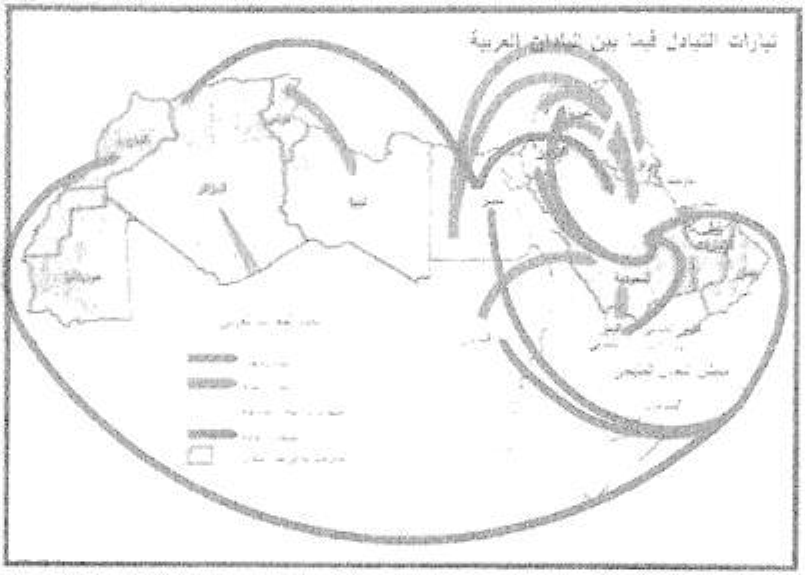
وتبين الخريطة المرفقة تعداد أبناء الأديان والطوائف المختلفة، كما أنه ليس في المغرب طوائف سوى الأباضية في مزاب بالجزائر وفي جزيرة جربة في تونس وفي جبل نفوسه بليبيا، وما لا يعرف أن أهل سيوه في مصر من البربر الأباضية.

أما الأقليات العرقية مثل البربر «الامازيغ» والأكراد والزنج، فيعيش البربر في جبال أطلس وجبال الريف وجبال الأوراس وفي الاحراش المدارية، وحاربوا جميع معارك العرب والإسلام ، ويعيش في المغرب ٤٦ مليون عربي مع أربعة عشر مليونا من البربر.

ويعيش الأكراد شمال العراق، والذين حصلوا على الحكم الذاتي عام ١٩٧٤ ، وعادت المنازعات وتفجرت من جديد حول تحديد ارض الحكم الذاتي.

وتم اجراء انتخابات ـ بعد عاصفة الصحراء ـ لاختيار مجلس كردي يتكون من مائة وخمسة أعضاء ، ولا تطلب اي من القوى السياسية الكردية الانفصال عن العراق.

وتثور قضية الزنج والعرب في مناطق التماس والتخوم العربية واستمرارها يشكل عائقا في العلاقات العربية بالدول الإفريقية ، وفي السودان تسع عشرة مجموعة عرقية ومشكلة الجنوب تستنزف وتؤرق الحكم في السودان منذ الاستقلال، وقدمت اتفاقية أديس أبابا سنة ١٩٧٢ آفاق الحل، عندما اعطت مديريات الجنوب الثلاث الحكم الذاتي، بحر الغزال ومديرية النيل الاعلى، وتشكل مجلسها المحلي الخاص، وعادت الحرب في جنوب السودان عام ١٩٨٠ عندما عاد التمييز بين المواطنين بسبب العرق أو الدين، ولم يعرف السودان بعد استقلالة سوى ثماني سنوات من السلام، وعاش ثلاثين عاما يعاني من التمرد المسلح، وبدلا من أن يكون جسرا للتفاهم بين العرب والزنج ، اصبح عازلا بينهم وعاني السودان من المجاعة وهو البلد الذي يملك أضخم الموارد الزراعية.. ولا أعرف على وجه التحديد ما الذي يمكن أن تفعله القمة



التبادل بين دول الوطن العربى فى جميع المجالات

العربية ولكن المؤكد ان هذه المشاكل يمكن ان:

تتقلص وتختفى مع النهوض الاقتصادى وحركة التحديث. وأحد المسالك المؤكدة لهذا النهوض هو التعاون الاقتصادى العربى، واستثمار الاموال العربية داخل الاقطار العربية وليس خارجها.

وهذا هو النهج الذى نأمل ان يقتحم آفاقه القادة العرب فى مؤتمر القمة المقبل فى عمان، فلا يمكن للتغيير الحقيقى أن يتم بلا رؤية واضحة وإرادة عميقة وهدف يقوم من داخل المجتمع العربى ذاته.

ولعلنا فى حاجة الى من يذكرنا بإغلاق الورش، والمصانع المحلية عند الدخول الاستعمارى للبلدان العربية، عندما فشلت هذه الورش فى مواجهة الانتاج الاوربى، ولم ينج مصنع واحد من تلك المحنة.

ويتجدد الخطر مع العولمة واتفاقيات الجات، ولا يمكن مواجهة هذا التحدى إلا إذا اجتمعت وتعاونت الاقطار العربية، خاصة بعد عدم نجاح أى دولة عربية فى اللحاق بالبلدان الصناعية الجديدة مثل بعض دول شرق آسيا.

واخيرا...

فرحلة الألف ميل تبدأ بخطوة.. والطريق واضح وان كان شاقا. ■

التكامل الاقتصادى

من عصر القومية الى عصر العولمة

بقلم
د. جـلال أمين

لم يكن الكلام عن التكامل الاقتصادى مألوفا قبل الحرب العالمية الثانية، بل كان المألوف هو الكلام عن عكسه. نعم كانت «القومية الاقتصادية» حينئذ فى عنفوانها، ولكن كان المقصود بالقومية الاقتصادية يكاد يكون عكس المقصود بالتكامل الاقتصادى كما نفهمه الآن. كانت الحدود المقصودة «بالقومية الاقتصادية» هى حدود الدولة الواحدة، ولم يكن المقصود أن تتكامل الدولة مع دولة أو دول أخرى.

كان المفهوم من «القومية الاقتصادية» فى أوربا أن يشترى الفرنسى ما تنتجه فرنسا، والألمانى ما تنتجه ألمانيا، أما الوحدة الاقتصادية الأوربية، أو التكامل الاقتصادى الأوربى، كالذى نراه الآن، فكان أبعد شىء عن الأذهان.

وكان لهذا انعكاساته عندنا، فكانت الدول العربية الخاضعة لفرنسا تحمى حدودها الاقتصادية ضد الدول العربية الخاضعة لبريطانيا، وكانت القومية الاقتصادية فى العالم العربى تفهم بالمعنى الذى قصده طلعت حرب: أن يشترى المصريون ما صنع فى مصر، وأن تعلو الأسوار الجمركية المصرية فى وجه الجميع.

كان هناك الاستعمار بالطبع، والاستعمار نوع من التكامل الاقتصادى بين الدولة المستعمرة ومستعمراتها، ولكن كان من المفهوم والواضح للجميع أن الهدف من هذا النوع من التكامل هو تحقيق مصلحة الدولة الاستعمارية، ومن

ثم فقد كان مختلفا تماما عما ظهر بعد انتهاء الحرب من رغبة عدد من الدول فى تحقيق التكامل فيما بينها تحقيقا لمصلحة جميع الأطراف.

كان هذا المفهوم الضيق جدا للقومية الاقتصادية، والمقصود على حدود الدولة الواحدة، سواء فى أوربا أو فى العالم العربى، انعكاسا بدرجة أو بأخرى، للأزمة العالمية الطاحنة التى سادت فى الثلاثينات. ولكن الأمور تغيرت تماما بعد انتهاء الحرب. فما أكثر مابدأنا نسمع عن التكامل الاقتصادى ، سواء فى أوربا أو فى العالم العربى، أو فى بقية ذلك العالم الذى بدأت تسميته منذ خمسين عاما بالعالم الثالث.

فى أوربا بدأ الإعداد لصورة بعد أخرى من صور التكامل الاقتصادى، وهو ما توج بعقد اتفاقية السوق الأوربية المشتركة بين ست دول أوربية فى ١٩٥٧. أما فى العالم الثالث فقد كان عدد كبير من دوله قد حصل على الاستقلال فى أعقاب انتهاء الحرب فى ١٩٤٥، وكان فى معظم الأحوال استقلالا عن بريطانيا أو عن فرنسا، ثم جاءت موجة كاسحة من استقلال دولة أفريقية بعد أخرى فى أوائل الستينات، وما أن انتهت كل من هذه الدول من اختيار علمها، ولحن سلامها الوطنى (وأحيانا بعد تغيير اسمها بما يتلاءم مع حصولها على الاستقلال ومع شخصيتها الأفريقية أو الآسيوية الجديدة)، وربما أيضا بعد الانتهاء من وضع الخطة الخمسية الأولى (وهو الأمر الذى كان شائعا أيضا فى تلك الأيام) حتى بدأت تفكر فى إمكانية تحقيق تكتل اقتصادى بينها وبين بعض الدول المجاورة، والتى تشترك معها فى بعض الخصائص الثقافية والتاريخية.

•••

كان هذا هو بالضبط حال الدول العربية أيضا، فوقع عدد من الدول العربية بضع اتفاقيات لتحرير التجارة فيما بينها فى الخمسينات، وساد الأمل (بل نادرا ما كان يثور الشك) فى أن هذه ليست إلا البداية لوحدة اقتصادية عربية كاملة، إذ أن أول الغيث قطرة ثم ينهمر.

لم يكن هناك أى شىء غريب فى هذا: استقلال، فاهتمام بالتنمية، خاصة التنمية الصناعية، فإدراك لأهمية اتساع السوق لتحقيق هذه التنمية ، من أجل الإفادة من تنوع الموارد ومن مزايا التخصص وتقسيم العمل، ومن ثم إدراك لضرورة التكامل الاقتصادى العربى، وفى عصر تسود فيه الحماسة لنظام التخطيط، بل والتخطيط الشامل، حيث تصدر القرارات من سلطة مركزية ذات قدرة على الالزام وفرض إرادتها، لماذا يقتصر التخطيط على دولة صغيرة واحدة، ولا نفيد من مزايا التخطيط على نطاق واسع يشمل عدة دول ذات ثروات طبيعية وبشرية يكمل بعضها بعضا ويخلق بعضها السوق اللازمة لنمو الصناعة فى الدول الأخرى؟

لم يكن هذا مدهشا، وإنما الذى يبدو الآن مدهشا (وإن لم يكن يبدو كذلك وقتها) هو حصول هذا المنحى من التفكير، نحو التكامل والتكتل الاقتصادى بين عدد من الدول المتخلفة، بالرضا والقبول من

التكامل الاقتصادى

جانب الدول الكبرى والمؤسسات والمنظمات الدولية، المالية وغير المالية، وعلى رأس هذه المؤسسات البنك الدولى وصندوق النقد الدولى، اللذان تأسسا فى نهاية الحرب.

التكامل الاقتصادى

لقد أشرت إلى أسباب حماسة الدول المتخلفة نفسها لتحقيق التكامل الاقتصادى فيما بينها، ولكن ما هو سر هذا القبول والرضا من جانب الدول الكبرى والمؤسسات الدولية فى ذلك الوقت؟.

قد يقال إن السبب هو أن الدول المتخلفة حديثة الاستقلال كانت تلعب فى العقدين التاليين لانتهاء الحرب (٤٥ - ١٩٦٥) دورا فعالاً فى إدارة هذه المؤسسات الدولية التابعة للأمم المتحدة، وتتمتع بدرجة عالية من الحرية التى فقدت الكثير منها فيما بعد، فى صياغة ما يصدر من هذه المؤسسات من قرارات وتوصيات . كانت الحرب الباردة الدائرة فى ذلك الوقت بين القوتين العظميين، الرأسمالية والاشتراكية، تزيد من حرية هذه البلاد الصغيرة فى الحركة والتصويت ، إذ كثيرا ما كانت كل من هاتين القوتين العظميين تقنع بمجرد امتناع الدولة الصغيرة عن اتخاذ موقف معاد لها، دون أن تطلب منها انصياعا كاملا لإرادتها. كان هذا هو عصر الحياد الايجابى وعدم الانحياز، وفى مثل هذا المناخ من المتصور أن ينمو الاتجاه نحو التكامل الاقتصادى بين الدول الصغيرة.

ولكن الأرجح أن هذا التفسير السياسى ليس بكاف وحده، ولا هو التفسير الأهم، لتمتع فكرة التكامل الاقتصادى بين مجموعات من الدول الصغيرة والفقيرة، بهذه الدرجة من القبول والرضا من جانب الدول الكبرى. كانت هناك على الأرجح أسباب اقتصادية تستند فى نهاية الأمر إلى مستوى التقدم التكنولوجى والنمو الاقتصادى التى كانت الدول الكبرى قد بلغته فى ذلك الوقت.

كانت أوربا، كما رأينا ، مشغولة بنفسها، وأعنى على الأخص انشغالها بإقامة وحدتها الاقتصادية وسوقها المشتركة. ومن ناحية أخرى كان لدى كل من القوتين العظميين، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، ما يشغلها أيضا عن القلق من فكرة التكامل بين هذه المجموعة أو تلك من دول العالم المتخلف. كان لدى الاتحاد السوفيتى ما يكفيه من فرص الاستثمار والتصدير، طوال العقدين التاليين للحرب على الأقل، فى داخل حدوده من ناحية وفى دول أوربا الشرقية الأخرى التى أدت الحرب إلى وقوعها فى دائرة نفوذه، من ناحية أخرى. أما عن الولايات المتحدة فقد كان العقدان التاليان لانتهاء الحرب هما عصر اعادة بناء ما دمرته هذه الحرب فى أوربا واليابان، وقد كانت إعادة البناء هذه لا تهم أوربا واليابان وحدهما بل تهم الاقتصاد الأمريكى أيضا، إذ كان من المهم لاستمرار النمو الاقتصادى الأمريكى بمعدلات عالية أن يستعيد الاقتصاد الأوربى واليابانى صحته وعنفوانه ليمد الصناعات الأمريكية بالسوق الواسعة

ويمد فوائض رءوس الأموال الأمريكية بفرص مجزية للاستثمار . نعم، قد تتحول إعادة بناء ما دمرته الحرب، متى تجاوزت حدا معينا، إلى خلق تهديد حقيقى ومنافس شرس للاقتصاد الامريكي، وهو ما حدث وظهر بوضوح ابتداء من أوائل السبعينات. ولكن الأمر لم يكن كذلك فى العقدين السابقين. كان فى السوق الأوربية واليابانية، وفرص الاستثمار فيهما طوال عقدى الخمسينات والستينات، ما يكفى لسد جزء مهم من حاجة الاقتصاد الأمريكى إلى تصدير السلع ورءوس الأموال على السواء ولم تمثل أسواق العالم الثالث حينئذ مطلبا حيويا، لا للولايات المتحدة ولا لأوربا أو اليابان. نعم، كانت هناك مواد أولية مهمة لابد من الحصول عليها من بعض دول العالم الثالث بأسعار بخسة من أهمها البترول، ولكن بيع البترول وغيره من مواد أولية لم يبد وكأنه يتعرض لأى تهديد من جانب مشروعات التكامل المطروحة. إنى لا أقصد بالطبع أن أسواق العالم الثالث لم تكن لها فى ذلك الوقت أى جاذبية فى نظر الدول الصناعية، وإنما أقصد فقط التأكيد على الفارق النسبى بين العقدين التاليين مباشرة للحرب (١٩٤٥ - ١٩٦٥)، وما أصبحت عليه الحال بعد ذلك.

استغلال البلاد المتخلفة

لعل هذه الظروف وهذا المناخ هما ما أديا بأستاذ كبير وواحد من أكثر الاقتصاديين فهما لمشاكل التخلف والتنمية، وهو الأستاذ آرثر لويس (Arthur Lewis) إلى أن يكتب فى أواخر الستينات:

«إن من المألوف هذه الأيام أن يعتقد المرء أن رخاء البلاد الصناعية يعتمد على استغلالها للبلاد المتخلفة. ولكن الواقع هو أنك لو جمعت كل صادرات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية لما بلغ مجموعها أكثر من ٥ر٣٪ من مجموع الدخل القومى للبلاد الصناعية، فلو تصورنا أن آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية قد غرقت كلها تحت سطح البحر لما أثر ذلك تأثيرا يذكر على الرخاء الحاضر أو المستقبل لأوربا وأمريكا الشمالية» (من محاضرة ألقاها فى غانا فى ١٩٦٨، ونشرت فى كتابه Some Aspects of Economic Development, London 1969, PP. 15 - 16).

صحيح أن آرثر لويس فى هذه الفقرة يشير إلى ضآلة صادرات البلاد المتخلفة إلى الدول الصناعية وليس العكس، ولكن قدرة البلاد المتخلفة على الاستيراد من الدول الصناعية لابد أن تكون محكومة فى النهاية بقدرتها على التصدير.

لعل شيئا لهذا يكمن وراء ما صادفته دعوة التكامل الاقتصادى بين مجموعات من الدول المتخلفة من قلة المبالاة، فى ذلك الوقت، من جانب الدول الكبرى والمؤسسات الدولية، مما سمح لاقتصاديى التنمية ولمن كان يكتب عن مشاكل التخلف والتنمية، سواء فى العالم المتقدم أو المتخلف بأن يجندوا الدعوة إلى هذا التكامل وأن يعترفوا بما يمكن أن يحققه من مزايا وما يمكن أن يذلله من عقبات أمام زيادة معدلات النمو.

التكامل الاقتصادي

كان الاقتصاديون يدركون منذ زمن طويل أهمية اتساع السوق لتحقيق النمو الاقتصادي السريع. أدرك آدم سميث هذا بوضوح تام منذ أكثر من قرنين، بل وذهب إلى حد تفسير النمو الاقتصادي السريع في بريطانيا بنجاحها في تحقيق الوحدة بين إنجلترا واسكتلندا في وقت مبكر. والمسألة ترجع في نهاية الأمر إلى تحقيق ما يسميه الاقتصاديون بمزايا الحجم الكبير: النمو يتطلب تخفيض نفقات الإنتاج، وتخفيض النفقات يأتي من ازدياد حجم المشروع، وازدياد حجم المشروع غير ممكن إلا إذا وجدت سوق واسعة لتصريف إنتاجه. فإذا لم يكف حجم الدولة الصغيرة، سكانا واقتصادا، لاستيعاب هذا الإنتاج فلابد من التصدير إلى الغير أو الاندماج معه.

وقد أدرك الاقتصاديون العرب هذا بوضوح وعبروا عنه، منذ أوائل الخمسينات، خاصة بالنظر إلى الحجم الصغير لمعظم الدول العربية التي لم ينشأ أكثرها إلا بتقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية. ولكن الاقتصاديين العرب أكدوا أيضاً، فضلا عن مزايا الحجم الكبير، على ما لابد أن ينتج من التكامل والاندماج الاقتصادي العربي من زيادة قوة المساومة، والانتفاع مما يوجد من تكامل في عناصر الإنتاج، حيث تكمل الدول ذات الفائض من السكان حاجة الدول ذات العجز السكاني، والعكس بالعكس. وقالوا مثل هذا عن رأس المال والأرض الزراعية. وقد توجت هذه الكتابات والجهود للدعوة إلى التكامل الاقتصادي العربي، باتفاقية انشاء السوق العربية المشتركة في ١٩٦٤.

بداية الانحسار

ولكن كما كانت هذه الاتفاقية ذروة ما حققه العرب من خطوات التكامل الاقتصادي، فقد كانت أيضا بداية الانحسار. لقد وضعت مأساة حرب ١٩٦٧ حدا لأشياء طيبة كثيرة، كان من بينها بلا شك مسيرة العرب في اتجاه التكامل الاقتصادي. ولكن اللافت للنظر والذي يدعو إلى الكثير من التأمل هو أن السنوات الأخيرة من الستينات شهدت انحسار فكرة التكامل الاقتصادي، ليس في العالم العربي وحده بل وفي العالم الثالث بأسره وفي كتابات التنمية بوجه عام.

كيف يمكن أن نفسر ذلك؟

التفسيرات المطروحة تدور كالعادة، حول الاعتراف بالخطأ واكتشاف الصواب. وكأن المسألة هنا، كما في غير ذلك من القضايا، هي بلوغ الحكمة بعد فترة من الضلال، أو أن قصة تطور الفكر الاقتصادي هي قصة الاقتراب التدريجي من الحقيقة أو قصة التصحيح المستمر لخطأ بعد آخر حتى نصل إلى الصواب الكامل. ولكن الحقيقة في رأيي ليست كذلك بل هي أقرب إلى أن تكون قصة الانتقال من فكرة إلى أخرى بحسب تغير الظروف والأحوال، فلكل ظرف ما يناسبه من الأفكار وليست الفكرة الاقتصادية السائدة في مطلع القرن أو منتصفه أقل صوابا بالضرورة من تلك التي تسود في

نهايته، وإنما يتحصر الأمر فى أن الظروف المستجدة تطلبت أفكارا مستجدة.

إن معظم ما كتب فى تفسير ذلك الانحسار الذى أصاب حركات التكامل الاقتصادى منذ أوائل السبعينات يندرج تحت هذا النوع من التفسيرات، مما أجده غير مقنع البتة. فمعظم ما كتب فى تفسير هذا الانحسار يذكر أن مما عطل التكامل الاقتصادى بين البلاد المتخلفة أن اقتصادياتها متنافسة أكثر منها متكاملة، بمعنى أنها تنتج نفس الأنواع من السلع وكثيرا ما تحوز عناصر الإنتاج بنسب متقاربة. يذكر أيضا الخلاف بين الدول المتخلفة حول طريقة توزيع ثمرات التكامل وأعبائه، أو رغبة بعض هذه الدول فى تحقيق نوع من التكامل يحقق مصالحها على حساب بقية الأطراف، أو تخلف ما تحوزه هذه الدول من مؤسسات ضرورية لدعم التكامل، أو تخلف ما يربط بينها من طرق ووسائل النقل والاتصال بالمقارنة بما يربط بين كل منها والدولة الاستعمارية القديمة.. إلخ.

إن كل هذه العوائق موجودة بالطبع، ولكن كلها كان من الممكن جدا تذليله والتغلب عليه لو كانت الظروف الدولية ملائمة والمناخ الاقتصادى العام مواتيا، فالطرق يمكن أن تشيد ، ووسائل الاتصال والمؤسسات الضرورية لتسهيل التكامل يمكن أن يجرى تحسينها ودعمها، والتنافس فيما بين أنماط السلع المنتجة بالفعل يمكن أن يحل محله تكامل بين السلع التى يمكن إنشاؤها إنشاء عن طريق جهاز تخطيطى، أو حتى بتقديم الدعم الملائم والتنسيق بين النشاط الإنتاجى فى مجموعة الدول الأطراف.

عقبات فى طريق التكامل

ولم تكن هذه العقبات التى تقف فى طريق التكامل الاقتصادى بين الدول المتخلفة بمجهولة أو غائبة عن أذهان الداعين إليها والمتحمسين لها فى الخمسينات والستينات. وإنما كان الذى أدى إلى انحسار الفكرة وفتور الحماس، ليس ظهور ما كان غامضا، أو إدراك ما كان من قبل غائبا عن الذهن، بل كان السبب هو تغير الظروف والأحوال، فما الذى جد بالضبط من الظروف والأحوال؟

منذ أوائل السبعينات، ظهرت اتجاهات جديدة فى العالم الغربى، فى الواقع الاقتصادى والكتابات الاقتصادية على السواء، لا يسع المرء إلا أن يتساءل عما بينها من علاقة ، وكذلك أن يتساءل عما إذا كان لبعضها أو كلها علاقة ما بفتور الاهتمام بتحقيق التكامل الاقتصادى بين الدول المتخلفة اقتصاديا.

ففى الوقت نفسه الذى بدأ فيه التراخى فى معدلات النمو الاقتصادى فى العالم الغربى، وهو ما ظهر بوضوح منذ أوائل السبعينات، بدأ يكثر الحديث عن ظاهرة الشركات متعددة الجنسيات وكيف أصبحت تقفز فوق حدود الدول القومية، ويزيد حجمها أحيانا وقوتها عن حجم وقوة عدد من الدول مجتمعة، وكيف أن العلاقات الاقتصادية الدولية قد أصبحت ، أكثر فأكثر ، علاقات بين هذه الشركات بعضها البعض أكثر من كونها علاقات بين

الدول. فى الوقت نفسه أيضا بدأ توجيه النقد الشديد لسياسة الإحلال محل الواردات، التي كانت تتمتع بدرجة عالية من القبول خلال الستينات، حتى من جانب المؤسسات الدولية المؤثرة فى صنع وترويج الأفكار الاقتصادية، وزاد الكلام أكثر فأكثر عن ضرورة تشجيع الصادرات كبديل لسياسة الإحلال محل الواردات، وشاع تقديم السياستين كبديلين لا يحتملان الجمع بينهما: إما حماية السلع البديلة للواردات أو الإنتاج من أجل التصدير وفتح الأبواب على اتساعها لاستقبال الواردات.

اقترن شيوع هذه الأفكار فى الغرب بشيوع الكلام فى العالم الثالث عن ضرورة «الإنتاج الاقتصادي» ومزاياه، وعن مساوىء الانغلاق. وصكت تعبيرات حديثة شاع أيضا استعمالها مثل وصف السياسة الاقتصادية بأنها «ذات توجه خارجي» "Outward Looking" وغيرها بأنها «ذات توجه داخلي» "Inward Loking"، وكانت هذه التعبيرات وأمثالها تقترن عادة بالثناء على الأولى والسخط على الثانية، بما تنطوى عليه هذه الأخيرة من انطواء وانكفاء على النفس، وكأن الدولة التي تعتمد على نفسها أكثر مما تعتمد على الخارج تشبه شخصا غير اجتماعي لا يرغب فى الاختلاط بالغير أو لا يقدر عليه، وينطبق عليها ما ينطبق عليه من ضعف وقلة قدرة على التعامل الصحى مع الغير. كما كان هذان التعبيران أو الوضعان يطلقان وكأننا بصدد طرفي نقيض لا يمكن الجمع بينهما، فإما الانفتاح الكامل على الغير أو الانطواء الكامل على النفس.

كان لابد أن يكون لكل هذه التوجهات الجديدة آثار وخيمة على فكرة الاندماج والتكامل بين الدول المتخلفة اقتصاديا. فعلى الرغم من أن سياسة تشجيع الصادرات تقوم فى نهاية الأمر على أهمية توسيع السوق ومزايا التعرض للمنافسة، وأن التكامل بين مجموعة من الدول المتخلفة اقتصاديا ينطوى على كلا الأمرين: توسيع السوق والتعرض لمزيد من المنافسة إلا أن المقصود الآن بهذين الأمرين أصبح شيئا مختلفا.. فالمقصود الآن توسيع السوق فى اتجاه معين دون غيره، والتعرض لمزيد من المنافسة من جانب شركات من نوع خاص دون غيرها. نعم، إن التكامل الاقتصادى بين مجموعة من الدول المتخلفة اقتصاديا ينطوى على انفتاح أكبر مما كان يتوفر للدولة المكتفية بذاتها، ولكن الانفتاح المطلوب الآن هو انفتاح على العالم بأسره مما يعنى بالضرورة تفوق الشركات متعددة الجنسيات البالغة القدرة والكفاءة، فى الإنتاج والتسويق، والقادرة بالتالي على اكتساح كل من يقف أمامها. نعم، إن التكامل الاقتصادى بين عدد من الدول الفقيرة يعني تشجيع بعض الصادرات من كل دولة إلى الدول الأخرى الأطراف فى اتفاقية التكامل، ولكن الصادرات المطلوب تشجيعها الآن هى من نوع معين، أى تلك التى يمكن أن تجلب للدولة المصدرة عملات «صعبة»، أى عملات يمكن استخدامها فى استيراد سلع وخدمات من

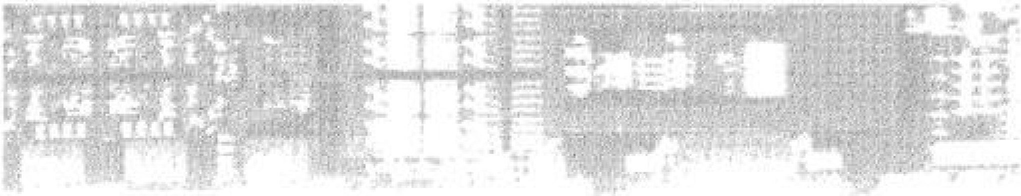
نفس هذه الشركات. أضف إلى كل هذا بالطبع وجود عيب خطير فى هذا الاندماج أو التكامل الاقتصادى بين مجموعة من الدول المتخلفة، من وجهة نظر الشركات متعدية الجنسيات، وهو ما قد يقترن به هذا التكامل من فرض أو تقوية أسوار الحماية المحيطة بهذه الدول الأطراف فى هذا التكامل، فى وجه ما عداها من الدول، مما لابد أن يضر بالاستيراد من هذه الشركات متعدية الجنسيات.

الخلاصة أن ما كان من الممكن الصبر عليه فى الخمسينات والستينات لم يصبح كذلك ابتداء من السبعينات، وكلما زادت حاجة الشركات متعدية الجنسيات إلى أسواق جديدة فى العالم الثالث قل صبرها على مشروعات التكامل الاقتصادى بين دول العالم الثالث. اللهم إلا ما كان منها «بلا أنياب»، أى يزيد انفتاح هذه الدول على هذه الشركات ولا يغلق فى وجهها بابا كان مفتوحا.

وكما تعودنا أن نرى فى تاريخ الفكر الاقتصادى ومسايرته لمتطلبات أقوى الأطراف فى ساحة العلاقات الاقتصادية، اقترنت قلة الصبر هذه من جانب الشركات متعدية الجنسيات، بقلة صبر مماثلة من جانب الاقتصاديين الذين ينشرون «الحكمة الشائعة» "Conventional Wisdom"، التى هى ليست بالضرورة الحكمة الحقيقية، ففى «عصر العولمة»، لابد أن ينفتح الجميع على الجميع ولابد أن يصور هذا على أن مصلحة الجميع هى فى هذا الانفتاح الشامل، إن لم يكن فى المدى القصير ففى المدى الطويل. ولا يمكن الصبر على انفتاح جزئى، إذا كان معناه الانغلاق فى وجه من يهمهم الأمر. هكذا جاءت اتفاقية الجات فى ١٩٩٤، التى وقعها من وقعها سعيدا ومغتبطا، ووقعها آخرون مضطرين ومرغمين، وكان من بين هؤلاء الآخرين إحدى عشرة دولة عربية، تظاهروا بالسعادة والاغتباط بتوقيعها مع أنهم كانوا بلا شك يتمنون شيئا أفضل. فالانفتاح المطلوب منهم الآن، سواء على سلع الغير أو خدماته أو استثماراته، انفتاح شامل كاسح، والمادة التى تسمح لهم بتحقيق تكامل خاص فيما بينهم، وهى المادة (٢٤) الشهيرة، تشير إلى نوع غريب حقا من التكامل الاقتصادى، فهى تسمح لأى مجموعة من الدول أن تنشىء ما تريد من تكتل أو تكامل أو اندماج فيما بينها ولكن بالشرط البسيط التالى، وهو ألا يؤدى هذا التكتل أو التكامل إلى فرض رسوم جمركية أو أى قيود جمركية أخرى على ما عداها من الدول، تزيد فى مجموعها أو فى المتوسط على ما كان مفروضا عليها قبل إنشاء هذا التكتل.

فلأى دولة، إذا شاءت، أن تزيد من درجة انفتاحها على دولة أو عدد من الدول الأخرى، ولكن بشرط ألا يؤثر هذا على انفتاحها على بقية أنحاء العالم. وهو شرط لا يختلف عما يمكن أن يضعه العشيق إذ يقول لعشيقته «إنى لا أمانع من زواجك من شخص آخر، ولكن بشرط أن تستمر علاقتنا بالضبط كما كانت قبل الزواج».

هذا هو ما آل اليه التكامل الاقتصادى فى عصر العولمة. ■



هذا المقال نشر في مجلة «فورين أفيرز» ضمن جزء خاص عن العولمة تختار منها هذا المقال المهم لكاتبه .

العولمة

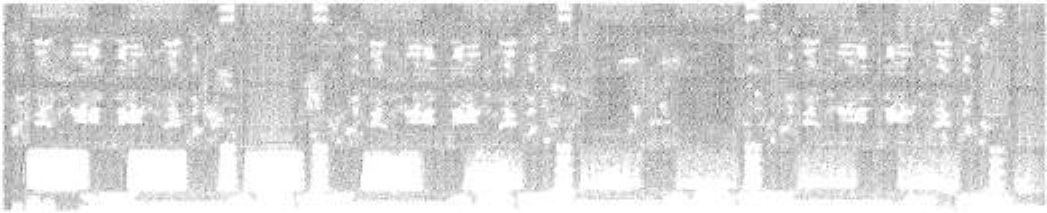
اتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء

بقلم

شاكر عبد الفتاح

في بداية الأمر صدق العديدون الوعود بأن العولمة سوف تفضي إلى زيادة معدلات دخول الأفراد في مختلف دول العالم ، وأن الشركات ستجني أرباحا هائلة من جراء توسيع نطاق الأسواق، وأن الدول الفقيرة ستنمو بصورة أسرع من الدول الغنية، وفي هذا التطور الذي سيكون فيه الكل فائزا تضاءلت أهمية الدولة في الوقت الذي أخذت فيه القرية العالمية «في النمو واتجهت الأسواق للاندماج» .

غير أن الدلائل كما يشير بروس سكوت أستاذ إدارة الأعمال في جامعة هارفارد في مقال له بمجلة فورين افيرز الأمريكية المرموقة ترسم صورة مختلفة أبعد ما تكون عن الصورة الوردية التي حاول مروجو العولمة طبعها في الأذهان، إذ أنه على الرغم من أن متوسطات الدخل قد اتجهت بالفعل للنمو والزيادة فإن الفجوة في الدخل بين الدول الغنية والأخرى الفقيرة قد ازدادت أيضا . وهناك في عالمنا الآن مليار نسمة يقل دخل الواحد منهم عن دولارين يوميا .



ومع أن هذين الاتجاهين ظلا واضحين لأكثر من مائتي عام فإن التقدم الهائل الذى طرأ على وسائل الاتصال قد زاد من الوعى بين الفقراء تجاه التفاوت في الدخول ، كما زاد من التدافع على الهجرة للدول الأغنى الأمر الذى حدا بالدول الغنية إلى وضع عراقيل أكبر على الهجرة وهو ما جعل الاقتصاد العالمى يبدو مثل مجتمع تكثر به البوابات بدلا من أن يكون قرية عالمية .

وعلى الرغم من أن الأسواق العالمية للسلع ورأس المال قد انفتحت على مصراعيها منذ الحرب العالمية الثانية وتولت المنظمات الدولية مهمة وضع القواعد ومراقبة الاقتصاد العالمى فإن التعاون الاقتصادى بين الدول مازال فى ازدياد .

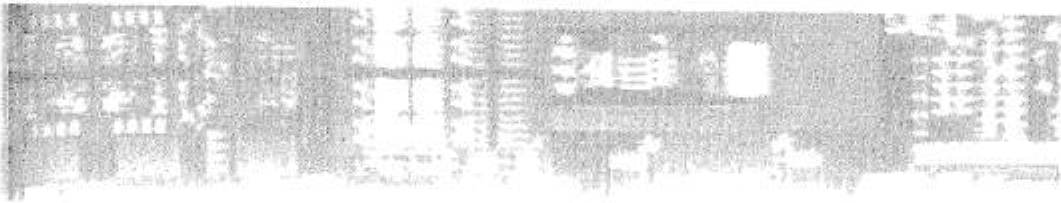
شتان ما بين النظرية والواقع

ويقول سكوت أن هناك سببين أديا إلى الاختلاف بين النظرية الاقتصادية والواقع أولهما اصرار الدول الغنية على وضع حواجز أمام الهجرة والواردات الزراعية وثانيهما أن معظم الدول الفقيرة غير قادرة على جذب رؤوس الأموال الأجنبية نظرا لإخفاقات حكوماتها ، وهما سببان مرتبطان ببعضهما البعض إذ أن حواجز الهجرة بإجبار الشعوب الفقيرة على أن تظل فى دولها التى تدار بواسطة حكومات سيئة تحرم أولئك الذين هم فى أشد الحاجة من فرصة تحسين مستويات معيشتهم من خلال الانعتاق والخروج من بلادهم . وفى المقابل فإن هذا الثبات والجمود يقضى على مصدر محتمل للضغط على الحكومات غير الفعالة التى لا تتسم بالكفاءة ، وهو ما يعزز من فرص بقائها .

ونظرا لأنه من غير المرجح أن تحد الدول الغنية بشكل جوهرى من قيودها على الهجرة والحواجز التى تضعها أمام الواردات الزراعية فإنه يتعين عليها أن تعترف هنا بأن السياسة هى سبب رئيسى للتفاوت الاقتصادى.

دور الدولة مازال محوريا

ولكون معظم الدول النامية لا تستقبل إلا قدرا ضئيلا من الاستثمارات الاجنبية فإنه يجب أيضا على الدول الغنية أن تعترف بخطأ «اجماع واشنطن» الذى يفترض بأن الأسواق الحرة سوف تعمل على تحقيق التجمع الاقتصادى. واذا هى اعترفت على الاقل بتلك الحقائق فانها سوف تتخلى عن فكرة أن استراتيجيتها الخاصة هى الافضل بالنسبة لجميع الدول. وفى المقابل عليها ان تسمح للدول الاكثر فقرا بقدر معقول من الحرية بأن تتبع استراتيجيات تنموية تتفق مع ظروفها الخاصة، وفى هذه النظرة الاكثر براجماتية عملية فإن دور الدولة يصبح محوريا.



ويتساءل سكوت عن أسباب عدم ادراك الاقتصاديين والساسة لهذه الحقائق فى وقت مبكر وهو ما يرجعه الى ان الحواجز التى اقامتها الدول الغنية تم النظر اليها على انها جوهرية لاستقرارها السياسى، ومن ثم فإن زعماء هذه الدول وجدوا من الملائم التغاضى عنها والتركيز بدلا من ذلك على جانب الاقتصاد العالمى الذى يجب تحريره. ويرى أيضا أن القوة السياسية للدول الغنية فى المنظمات الدولية تجعل من الصعب على الدول النامية تحدى وجهة النظر تلك التى تتخفى تحت راية العالمية.

خطأ الثقة العمياء فى الاسواق وتجاهل القضايا السياسية.

وقد تجاهلت النظرية الاقتصادية القضايا السياسية مخاطرة بتحديث المؤسسات حيث تكهنت على نحو خاطىء بانه بوسع الاسعار التى تستند على السوق توزيع الموارد بصورة مناسبة.

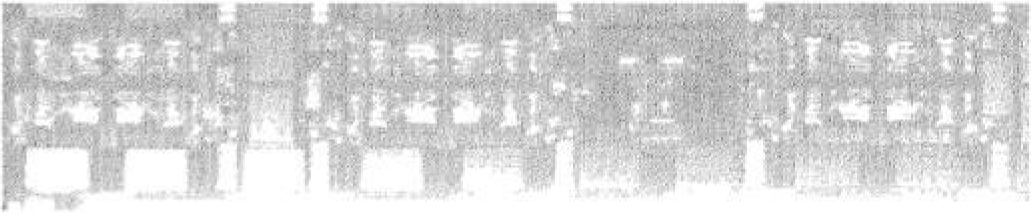
وكان الاخفاق التام للاصلاحات فى روسيا قد أجبر على اعادة تقويم متأخر لهذه الثقة العمياء فى الاسواق، فالعديد من المراقبين يعترفون الآن بان الاقتصاديات الانتقالية فى حاجة الى حقوق ملكية مناسبة ودولة تتسم بالفاعلية والكفاءة لفرض هذه الحقوق مثلما هى فى حاجة الى تحرير الاسعار، وفى الحقيقة فان تحرير الاقتصاد دون احترام لحقوق الملكية يتحول الى طريق مفروش لحكم العصابات وليس لانتعاش الرأسمالية فالصين بفضل تمتعها بدولة على قدر اكبر من الفاعلية حققت نجاحا اكبر فى فترة تحولها الاقتصادى من روسيا على الرغم من ان بكين كانت تمضى ببطء اكبر فى التحرر الاقتصادى والخصخصة.

وتحتاج التنمية الاقتصادية الى تحول فى المؤسسات فضلا عن اطلاق حرية الاسعار التى تتطلب بدورها تحديث سياسى واجتماعى فضلا عن اصلاحات اقتصادية. وتلعب الدولة دورا رئيسيا فى هذه العملية وبدونها فان استراتيجيات التنمية تتمتع بفرص ضئيلة للنجاح.

العالم النامى يحتاج اكثر لحكومات تخضع للمساءلة

وايجاد نظم فعالة فى العالم النامى لن يتأتى من خلال قوى السوق المألوفة حتى ولو كان بوسع الضغوط الصادرة عن الاسواق المالية فرض انضباط مالى ونقدى فى عالم مازال يحكم من خلال «حقوق الدول» فان التقدم الحقيقى فى ايجاد حكومات تخضع للمساءلة مازال يحتاج الى ادخال اصلاحات على التفويضات الممنوحة للمؤسسات الدولية.

ومن الناحية النظرية فإن العولمة توفر فرصة لزيادة الدخل من خلال زيادة التخصص والتبادل التجارى، غير أن هذه الفرصة مشروطة بحجم الاسواق التى نحن بصددها التى تعتمد بدورها على الجغرافيا وتكاليف النقل وشبكات الاتصال والمؤسسات التى تعزز الاسواق والتجارة الحرة تزيد من حجم الاسواق



وكذلك من الضغوط لتحسين الأداء الاقتصادي. وأولئك الأكثر قدرة على المنافسة هم الذين يستغلون الفرص التي توفرها الأسواق من أجل البقاء والازدهار.

الدول الغنية تتنكر لمبادئها وتضع الحواجز أمام حرية الهجرة

ويحاول سكوت الإجابة على تساؤل يتردد كثيرا حول أسباب استمرار الدول الفقيرة في التقهقر والتخلف عن اللحاق بالدول الغنية . ويعرب عن اعتقاده بأن السبب الرئيسي يرجع إلى أن معظم الدول الغنية قد استبعدت إلى حد كبير التدفق الدولي للعمالة إلى داخل أسواقها خلال فترة ما بين الحربين العالميتين.

ونتيجة لذلك لم تكن العمالة غير حرة في التدفق عبر الحدود الدولية في البحث عن وظائف تدر عليها دخلا أكبر. فبالنسبة للولايات المتحدة وأوروبا لم تشهد الهجرة زيادة كبيرة إلا في السنوات الأخيرة على الرغم من أنها بلغت ذروتها السابقة قبل قرن في الولايات المتحدة.

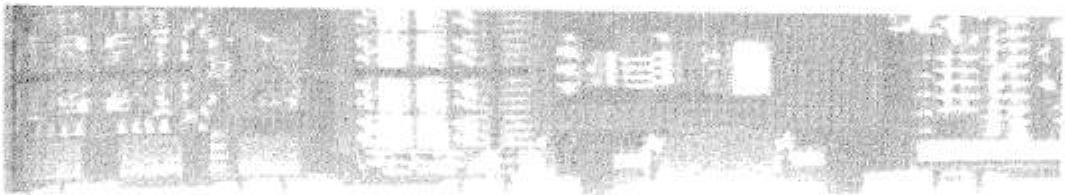
ففي عام ١٩٧٧ لم تسمح الولايات المتحدة سوى بهجرة ٧٣٧ ألف شخص من الدول النامية بينما سمحت أوروبا بدخول ٧٣٧ ألف مهاجر. والرقمان معا لا يشكلان سوى ٤٠ر في المائة فقط من المهاجرين المحتملين . فالقصة المسكوت عنها هي أن الدول الغنية التي ترفع عقيرتها بالتحرر والأسواق الحرة تتنكر لتلك المبادئ عندما تضع العراقيل أمام حرية الانتقال والواردات الزراعية . حيث أن كلا من أوروبا واليابان تضعان عقبات تجارية كبيرة على وارداتها الزراعية.

الاستثمارات تذهب للدول الغنية وليس الفقيرة

غير أن مسألة الاستثمارات المباشرة التي تجلب في العادة التكنولوجيا والمعرفة فضلا عن رؤوس الأموال هي أكثر تعقيدا مما توقعته النظريات، فعلى الرغم من أن الاستثمارات المباشرة الأجنبية قد زادت سبعة أضعاف خلال الفترة من ١٩٨٠ إلى ١٩٩٧ كما زادت من ٤ في المائة إلى ١٢ في المائة من اجمالي الناتج العالمي خلال تلك الفترة فإن القليل للغاية منها هو الذي اتجه إلى الدول النامية. ففي عام ١٩٩٧ ذهب حوالي ٧٠ في المائة من هذه الاستثمارات من دول غنية إلى دول أخرى غنية وتلقت ثماني دول نامية فقط ٢٠ في المائة وتوزع الباقي بين أكثر من مائة دولة.

ووفقا لبيانات البنك الدولي تلقت الدول الفقيرة الحقيقية أقل من ٧ في المائة من الاستثمارات المباشرة الأجنبية الموجهة للدول النامية خلال الفترة من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٨ . ولم يكن أمرا عارضا أن الدول الغنية تصر على فتح الأسواق كلها كلما كان بوسعها الاستفادة من ذلك، وتصر على وضع الحواجز والعراقيل أمام الهجرة والمواد الزراعية إذا كان تدفقها سيضر بها.

وبالنسبة للنمور الآسيوية فإن نموها



القوى يعود إلى حد كبير إلى مدخراتها العالية وليس إلى رأس المال الأجنبى فالصين تحذو الآن حذو سنغافورة إذ يبلغ معدل الادخار بها ٤٠ فى المائة من إجمالى الناتج الوطنى.

فرص متساوية نعم ولكن من هو المستفيد؟!

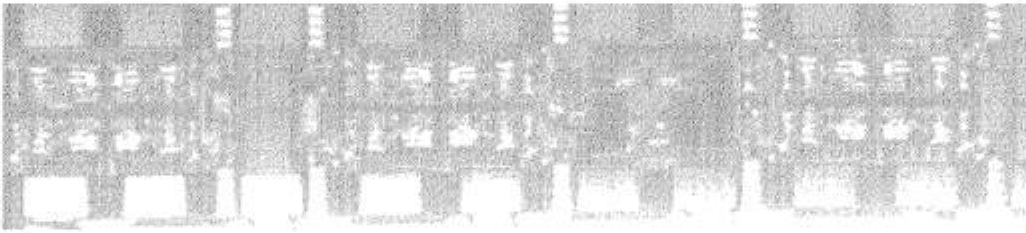
وخلاصة الأمر أن الأسواق العالمية توفر الفرص للجميع غير أن هذه الفرص لا تضمن النتائج إذ أن معظم الدول الفقيرة غير قادرة على الانتفاع من رؤوس الأموال الأجنبية الكثيرة أو الاستفادة من الحرية المتزايدة للدخول إلى الأسواق، وفى الحقيقة فإن هذه الدول قد زادت من حجم مبادلاتها التجارية من ٣٥ فى المائة من اجمالى الناتج الوطنى فى عام ١٩٨١ إلى حوالى ٥٠ فى المائة فى عام ١٩٩٧. ولكن بدون النمور الاسيوية لازالت صادرات الدول النامية أقل من ٢٥ فى المائة من اجمالى صادرات العالم. ويعود جانب من تلك المشكلة إلى أن الميزة التقليدية للدول النامية تكمن فى السلع الأولية: الزراعة والمعادن. وقد تقلصت مثل هذه السلع من حوالى ٧٠ فى المائة من التجارة العالمية فى عام ١٩٠٠ إلى حوالى ٢٠ فى المائة فى نهاية القرن العشرين. فقد تحولت فرص النمو فى السوق العالمى من المواد الخام أو المواد شبه المعالجة إلى السلع المصنعة والخدمات وإلى تلك التى تعتمد على مزيد من المعرفة من بين هذه السلع وهو اتجاه يفيد بالتأكيد الدول الغنية وليست الفقيرة التى مازالت على هامش اقتصاد المعرفة وإن كانت النمور الآسيوية تشكل استثناء .

الميراث الاستعمارى مازال أكبر عائق أمام الدول الفقيرة

ويقدم سكوت إجابة للتساؤل عن أسباب تفاوت أداء الدول الفقيرة وعدم تطابقه مع التوقعات النظرية بقوله: إن الحواجز فى الداخل والخارج تكبح من الامكانيات الاقتصادية للدول الفقيرة ولكن أكثر هذه الحواجز تأثيرا يكمن فيما ما تعانيه هذه الدول من مشاكل سياسية وادارية داخلية . وبالطبع فإن هذه العوامل تقع خارج إطار التحليل الاقتصادى العام. وقد ساهم فى ذلك الميراث الاستعمارى لمعظم الدول الاستعمارية إذ أن الأنظمة الاستعمارية اتجهت إلى الابقاء على التوزيع غير المتساوى للدخل والثروة والسلطة السياسية، فى الوقت الذى حدث فيه من انتقال رأس المال ومن ثم فإن الدول النامية الرئيسية مثل البرازيل والصين والهند واندونيسيا والمكسيك تشهد تفاوتا فى الدخل بين أقاليمها ، فى الوقت الذى تفشل فيه العمالة ورأس المال فى العثور على فرص أفضل بل ومازالت النخبة فى بعض الدول تحاول جاهدة الابقاء على هذه الأوضاع الجائرة.

حواجز الهجرة تقوض من القرية العالمية

وقد يبدو أن حق النزوح والهجرة



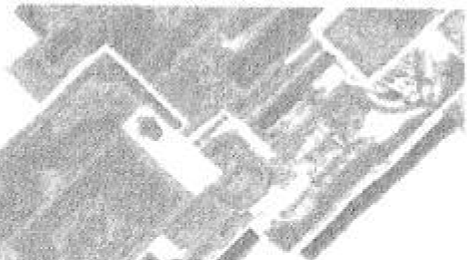
وحده هو الذى بوسعه أن يخضع سلميا الأنظمة الفاسدة القمعية للمسئولية والحساب إذ أن المؤسسات الدولية تفتقد شرعية التدخل فى الشئون الداخلية لمعظم الدول. وكانت هجرة ٦٠ مليون شخص لأمريكا الشمالية والارجنتين والبرازيل واستراليا قد ساعد على انطلاق الاقتصاد الأوروبى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فقد عملت هذه الهجرة التى بلغت ١٠ فى المائة من قوة العمل على زيادة الأجور فى أوروبا بينما خفضت من الأجور المتضخمة فى مناطق تندر بها العمالة مثل استراليا والولايات المتحدة.

وحواجز الهجرة فى الدول الغنية لا تقضى بصورة متعسفة على الفرص فى القرية العالمية أمام الملايين من الفقراء فحسب وانما تساعد أيضا الدول المتسلطة التى تدعى الديمقراطية من خلال حرمان مواطنى تلك الدول من حق التصويت ضد النظام باستخدام «أقدامهم» أى تركها والنزوح للخارج، فعلاج الاختلال هو سياسى بقدر ما هو اقتصادى.

ومن الناحية النظرية الاقتصادية فإنه على الدول النامية أن تنشئ أو تحدث المؤسسات اللازمة لدعم أسواقها لكى يكون بوسع أسواقها وشركاتها أن تساير تدريجيا أداء الدول الغنية ، غير أن الواقع أكثر تعقيدا من النظريات كما أن الاقتصاديين الذين يقترحون بأنه يجب على جميع الدول أن تتبنى المؤسسات العربية لتحقيق مستويات الدخل الغربية غالبا ما يخفقون فى الاعتراف بالتغيرات والمخاطر السياسية الناجمة عن ذلك.

وبلا شك فإن العولمة توفر فرصا لجميع الدول غير أن معظم الدول النامية تعانى من أوضاع سيئة للغاية لا تمكنها من الاستفادة من تلك الفرص. ففضلا عن بعدها عن الأسواق الرئيسية وانتشار الأمراض المعدية ومعدلات النمو السكانى المنفلتة ، فإنها تعانى أيضا من هياكل غير متساوية للدخل موروثة من الأنظمة الاستعمارية ومن الصعب تغيير هذه الهياكل لتوزيع الدخل دون حدوث تغيير رئيسى مثل نشوب حرب أو اندلاع ثورة غير أن أكبر عيوب هذه الدول هى افتقار حكومتها للكفاءة.

ويطالب سكوت فى ختام مقاله بالسماح للدول الفقيرة بأن تفعل ما فعلته الدول الغنية لكى تنطلق بدلا من إجبارها على تبنى نهج «دعه يعمل دعه يمر» فالاصرار على فائدة ميزة المنافسة فى صناعات تتسع بانخفاض الأجور والبطء فى النمو طريق مؤكد لبقاء هذه الدول فى وهدة الفقر واستمرار الفقر سيؤدى إلى ارتفاع مستويات الهجرة غير المشروعة والعنف مثل عمليات الاختطاف وانتشار العصابات وغياب حكم القانون. ■



دائرة حوار

وماذا عن أزمة السيولة الاجتماعية والسياسية في مصر؟

بقلم
د. محمود عبد الفضيل

تحدثنا كثيراً خلال العام الماضي عن أزمات السيولة المالية والركود الاقتصادي. وغاب عنا أن هناك أزمة أعمق تضرب بأطنابها بين جنبات المجتمع منذ نحو عقدين من الزمان، وتفاقمت تداعياتها خلال السنوات الأخيرة. وتلك الأزمة التي نقصدها هي أزمة ضعف «السيولة» الاجتماعية والسياسية في البلاد.

فعلى الصعيد الاجتماعي نجد أن أحد مظاهر تلك الأزمة يتمثل في ضعف الحراك الاجتماعي في المجتمع المصري، مقارنة بما كان عليه الحال منذ الخمسينات والستينات والسبعينات، وذلك نتيجة تراكم الآثار السلبية لسياسات التعليم والتوظف وتوزيع الدخول والثروات، حيث تعمقت «الانفصامية الاجتماعية» وأغلقت قنوات «الحراك الاجتماعي».

وعلى الصعيد السياسي، تأخذ الأزمة شكل التيبس والجمود في أطر العمل السياسي، نتيجة ضعف التجديد المؤسسي وترهل كوادر العمل السياسي، سواء في إطار السلطة أو لدى أحزاب المعارضة، على السواء. فلقد شاخت قيادات كثيرة في مواقعها هنا وهناك.

والناظر لحال المجتمع المصرى من خارجه، يكاد يخيّل له أن هذا المجتمع يسير بخطى بطيئة، وكأنّ أرجله «موضوعة فى الجبس» «وجسده» مصاب بالأنيميا»، نتيجة عدم ضخ دماء جديدة فى عروقه وشرايينه. ولعدم حدوث تغييرات مؤسسية تواكب روح العصر وتحدياته الثقيلة.

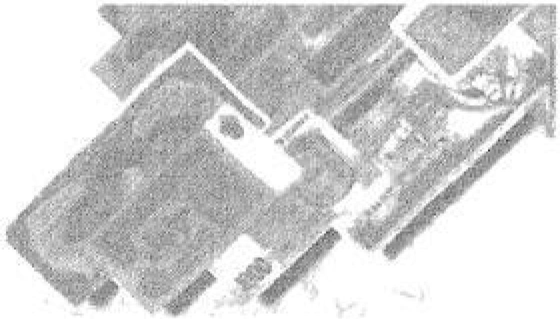
فالملاحظ أنه تجرى «إعادة تدوير» عناصر نفس النخبة بين المناصب ومواقع المسئولية المختلفة، دون تجديد يذكر، خلال ربع القرن الماضى (١٩٧٥ - ٢٠٠٠). وأصبح «جيل الستينات» على أعتاب الستين من العمر، أى يكاد يصبح «خارج نطاق الخدمة»، دون أن يستفيد المجتمع من عطاء أكثر عناصره كفاءة ونزاهة وخبرة.

ولم يحدث التجديد سوى على مستوى «نخب رجال الأعمال»، حيث برز على السطح نخبة جديدة من «رجال الأعمال»، دون حيثيات واضحة ودون «سيرة ذاتية» معروفة. باستثناء القلة القليلة. يقابل هذا ضمور واضح فى دور وتكوين عناصر «النخب المهنية» و «النخب البيروقراطية» و«النخب الأكاديمية»، التى لعبت أدوارا مهمة ومتجددة فى التاريخ المصرى الحديث منذ بداية الصحوة الوطنية عام ١٩٠٧.

وحول المواقع الجديدة التى أخذ يحتلها «رجال الأعمال»، كتب أحد كبار «رجال الأعمال الجدد» مؤخرا يقول: «إننى أمثل رجال الأعمال والقطاع الخاص الذى يحمل ٧٠٪ من عبء التنمية فى مصر». ورغم عدم صحة هذا الرقم الذى هو «شعار» أكثر منه «حقيقة»، فإن هناك حدودا تاريخية لدور رجال الأعمال فى مسيرة النهضة والتنمية فى المجتمعات النامية.

وبهذا الصدد يطرح جاديش باجواتى - الأستاذ المرموق فى جامعة كولومبيا وأحد كبار الاقتصاديين الليبراليين - لدى مراجعته لكتاب «جورج سوروس» عن «كيمياء صنع المال»، تساؤلا تاريخيا مهما: **المال يمكن أن يتكلم، ولكن هل باستطاعته الكتابة؟**، وأعتقد أن هذه العبارة البليغة حافلة بالدلالات والمعانى بالنسبة لمستقبل بلادنا.

ويتمثل «المأزق المزدوج» الذى يعانى منه المجتمع المصرى عند بداية «الألفية الجديدة» فى شقين:



(أ) **على الصعيد السياسي**:
إصرار الحزب الحاكم على الاحتكار الكامل للسلطة، من ناحية، وعدم قدرة القوى السياسية الأخرى على تجديد كوادرها وبرامجها، من ناحية أخرى.

(ب) وعلى صعيد «**حركة المجتمع**»، نجد أن الطبقات الثلاث الرئيسية فى المجتمع قد لحقت بها تحولات وتشوهات جوهرية منذ منتصف السبعينات. فبالنسبة **للطبقة العليا**، نجد أنها تزخر بالأغنياء الجدد، الذين جاءت ولادتهم «غير طبيعية» فى عصر النفط والتدويل، ودون رصيد تاريخي يذكر، بما لا يقارن بسابقتها التى كانت مستندة إلى أرضية إنتاجية صلبة تقوم على «ملكية الأرض». إذ كوّن معظم «الأثرياء الجدد» ثرواتهم من خلال مجالات «التداول والوساطة والمقاولات»، والعلاقة برأس المال الأجنبي، وليس من خلال عمليات التراكم الإنتاجى الإنمائى، على نحو ما فعلت «رأسماليات» فى بلدان نامية أخرى، مثل بلدان جنوب شرق آسيا.

ولذا فإنها «طبقة» لم تتحدد معالمها بعد، ومازالت غير واثقة من نفسها ومن مستقبلها، وتحتاج دوماً لمظلة حماية خارجية.

وعلى صعيد «**الطبقة الوسطي**»، نجد أن تلك الطبقة التى شكلت «العمود الفقرى» لنهضة المجتمع المصرى منذ ثورة ١٩١٩، قد ترهلت وتشرذمت وفقدت جانباً كبيراً من قوة شكيمتها وكبريائها. إذ ضاق بها الرزق وفقدت مكانتها الوظيفية والاجتماعية المتميزة، وتريّع (نسبة إلى ريع النفط) الكثير من أبنائها. فأصبحت طبقة «منهكة» تعيش مرحلة «إعادة فرز» اجتماعى واقتصادى وأيديولوجى مؤلم.

وعلى صعيد «**الطبقات الشعبية**»، نجد أن تلك الطبقات تعانى منذ نهاية السبعينات من عمليات مستمرة للتهميش الاجتماعى والبلبلة الفكرية، وتعدد سبل الكسب والعيش التى تصل أحيانا إلى حد «تسول الرزق» والتحايل على الحياة اليومية. ولذا فهى تعانى من التوظف «غير المنتظم»، ومن «فقدان الاتجاه». بل لقد تحولت أعداد كبيرة منها لتكون مستودعاً للبلطجة والتعطل.

ولذا فإن القراءة الصحيحة لدلالات

«المعركة الانتخابية» الأخيرة في مصر، بعيداً عن النواحي الإجرائية وما شابها من تجاوزات ومخالفات، لابد أن تمتد إلى قراءة شاملة للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أفرزت تلك الممارسات والسلوكيات، ودون ذلك، سوف تظل القراءة مبتورة وناقصة.

إذ أننا يجب أن نعى أن «السرادق المنصوب» على سطح المجتمع، وما يحويه من قوى سياسية ومنتديات فكرية ومهنية عديدة، قد يكون منعدم الصلة بحركة الجماهير التحتية وآليات وتربيطات الحياة اليومية «المعيشية» و «الاجتماعية». ولا يمكن مواجهة تلك الوقائع الجديدة بمفاهيم وأدوات تحليلية متآكلة «يعلوها الصدأ».

ولذا فمهما كان تركيزنا على اعتبارات الكفاءة الاقتصادية والتوازنات الاقتصادية ضرورياً ومهما.. فإن الإصرار على تحقيق أكبر قدر من العدالة في توزيع الدخول والثروات، وربط الجهد بالعائد يعتبر ضرورة للاستقرارين الاقتصادي والسياسي. إذ أن عدم مشروعية الثروات والتوزيع الظالم لثمار النمو يؤثر تأثيراً بالغاً على أخلاقيات العمل وعلى نظام الحوافز لدى قطاع كبير من المنتجين والمبدعين في هذا البلد، مما يضعف جهاز المناعة المجتمعي.

إن بناء «جهاز المناعة المجتمعي» يقتضي توافر ثلاث آليات فاعلة في حياة المجتمع لحماية مسيرة النمو والتنمية، وتحويل «الشعارات إلى» واقع عملي مُعاش، يحس به الصغير قبل الكبير. وتتلخص تلك الآليات في ثلاث:

(١) آلية للمحاسبة الدورية عن الأداء وحسن أو سوء الإدارة، آلية تتسم بالشفافية والوضوح والمصداقية.

(٢) آلية للتصحيح، بحيث يمكن تصحيح المسار دون إبطاء عندما يتضح أن هناك أخطاء تشوب مجموعة معينة من السياسات. إذ أن عنصر الزمن مهم في هذا المجال لأن تراكم الأخطاء وبطء عمليات التصحيح تكلفان البلاد جهداً ومالاً لا طاقة لها بهما.

(٣) آلية للتغيير، وذلك حتى يطمئن الناس إلى إمكانية تجديد الدماء والقيادات في المجتمع وفقاً لآليات معروفة وحتى يدب الأمل في نفوس المواطنين على اختلاف مواقعهم عندما يعلمون أن التغيير حق، وأن التغيير ضرورة لضخ دماء جديدة في عروق المجتمع في إطار استراتيجية للتقدم والنمو. لأن التغيير هو طريق الاستقرار. ■

ذكريات الإسكندرية.. أيضاً

بقلم الشاعر
محمد التهامى

صوّر مقال الدكتور عبدالعظيم أنيس (ذكريات الإسكندرية) فى الهلال فبراير عام ٢٠٠١ ملمحا من ملامح الغليان الشعبى عام ١٩٤٦ الذى كان وقوده طلبة الجامعة والعمال الذين قاموا بمظاهرات عارمة ضد جنود الاستعمار البريطانى وحكومة اسماعيل صدقى المتعاونة معه، وكان الرجل دقيقا وحريصا على تحرى الصدق فيما شاهده وشارك فيه، وهو وان اعتذر لتقدم السن وتوقع ضعفا الذاكرة إلا أنه أثبت أنها لم تخنه.

جاء فى مقال الدكتور: «إن طالبا من فوق الربوة أطلق النار على أحد ضباط الشرطة فأرداه قتيلا .. وحتى اليوم لا نعلم من هو هذا الطالب الذى قام بهذا العمل الاستفزازى الدنىء.. وإن كانت شكوكنا آنذاك اتجهت إلى شباب مصر الفتاة من الطلاب».

وبديهى وخاصة إن الدكتور كان مشاركا فى الأحداث أنه يعلم حق العلم أن الطلبة لم يكونوا مسلحين، وانهم فى مظاهراتهم كانوا فى منتهى الوعى والادراك فلم يحطموا ولم يتلفوا شيئا من الأموال العامة أو الخاصة، وكانوا يتصادمون مع رجال البوليس الذين كانوا كثيرا ما يطلقون النار ويسقط الشهداء من الطلبة وهم يعلمون أن رجال البوليس المصريين مواطنون مصريون شرفاء يؤدون واجبهم وينفذون الأوامر فى أغلب الأحيان مرغمين، وان العدو الحقيقى يتمثل فى الجنود البريطانيين .. وان إطلاق



طلاب الرصاص كانت شائعة أطلقها البوليس السياسي، والحقيقة أن الضابط أصيب برصاصة طائشة أثناء البوليس الرصاص على الطلبة، وهذا ما اثبته التحقيق إذ وجدوا ان الرصاصة من النوع الذى يستعمله البوليس، وعندما تمكنوا من القبض عليّ بعد هذه الواقعة بيومين ، وجدوا اثناء تفتيش منزلى مسودة خطاب كنت ارسلته إلى الأستاذ فتحى رضوان لنشره فى مجلة اللواء الجديد التى كان يصدرها شباب الحزب الوطنى ، وفيه شرح للواقعة ونوع الرصاصة الذى علمته من الدكتور محى الدين الخرادلى زميلنا فى لجنة الطلبة والعمال حينذلك، وقد كان شباب الحزب الوطنى يوزعون مجلة اللواء الجديد في الشوارع كما كان الماركسيون يوزعون مجلة الجماهير كما جاء فى مقال الدكتور .

وقد أشار الدكتور إلى قصيدته الشعرية ، والذى حدث أننا حوصرنا يوم استشهاد الضابط فى الكلية، وقضينا الليل كله حول جثمان أحد الشهداء منا، تلقى الخطب الحماسية وقصائد الشعر ، وقد انشدت قصيدتى ومنها:

يامصر إن جار الطغاة فإننا
بالروح ندفع عن حماك وبالدم
والدم أغلى ما يباع وماله
ثمنا من النذال غير مقوم
فإذا رأيت الدم يهرق طاهرا
بالله لا تنهى ولا تتألمى
هايتك أوسمة الجهاد فقبلى
يامصر جرح الماجد المتوسم
وتبسمى إن راح منك مجاهد
فشريعة الأبطال أن تبتسمى
أشلاؤنا هذى فمرى فوقها
للمجد ثابتة الخطا وتقدمى

إنا نموت وأنت أنت حياتنا

للمجد عيشي يابلادي واسلمي

ولكن الذي عز عليّ كثيرا هو أن يشير الدكتور إشارة عابرة إلى أخطر أحداث الإسكندرية بل أخطر أحداث مصر كلها، وهي أحداث ٤ مارس عام ١٩٤٦ في محطة الرمل إذ يقول الدكتور عنها: «إن احداث ٥ مارس بالإسكندرية كانت تجاوبا مع ما حدث بالقاهرة وان كانت أكثر عنفا من جانب المتظاهرين الذين أحرقوا مراكز حراسة القوات البريطانية في محطة الرمل وفي أماكن أخرى، ومات في هذه الأحداث عدد من الجنود البريطانيين».

وحقيقة الأمر فيها أن طلبة جامعة القاهرة ومدارسها كانوا بشوارع القاهرة في مظاهرة كبيرة احتفالا بذكرى يوم ٢٨ فبراير فأطلق عليهم ثالج؟نود الانجليز الرصاص من ثكناتهم بمعسكر قصر النيل (كان مبنى هيلتون ومبنى الجامعة العربية) وسقط من المتظاهرين عدد من الشهداء مما كان له دوى كبير ضاعف الغليان الشعبي ضد الاستعمار الانجليزي والحكومة المتعاونة معه وكانت حكومة اسماعيل صدقي .

وقد قمنا في الإسكندرية في ٤ مارس عام ١٩٤٦ على أثر ذلك الحادث بمظاهرة كبيرة من طلبة الجامعة والمدارس وشارك فيها العمال وقادها أعضاء لجنة الطلبة والعمال من جميع الانتماءات الحزبية فقد كان معنا ممن تسعفني الذاكرة بأسمائهم، وممن يجب أن يذكرهم تاريخ المرحلة: عبداللطيف الفاحل وعبدالرحمن محسن (عضو مجلس الشورى) ومصطفى عبدالعظيم وسعد التائه ومنيب الجعلي من شباب الحزب الوطني ومحمد عيد وعبدالله عطا وإبراهيم الطويل من الوفد وجمال لحولان وعمرو لاشين من مصدر الفتاة وعلي فهمي طجان ومختار عبدالعليم من الأخوان المسلمين وعدد من الماركسيين من طلبة الجامعة والمعيدين والقيادات العمالية منهم د. عبدالعظيم انيس ود. محمود أمين العالم ود. فؤاد مرسي وعبدالعظيم أبوالعطا وعباس الدابي (سوداني).

تحيا مصر

وتوجهت المظاهرات العارمة إلى محطة الرمل وحاصرت نقطة الحراسة الانجليزية هناك وبها ستة (٦) من الجنود، وكانت ملحمة بين الجنود المسلمين والثوار العزل، كان الجنود يطلقون الرصاص من خندقهم ومن وراء الستائر الخشبية محتمين بجدران نقطة الحراسة، وكانت مورجات الحشود الثائرة تتراجع وتتقدم باصرار بالرغم من سقوط الشهداء، والجرحي، وقد رأيت بعيني صبيا من العمال يخلع سترته ويغمرها بالبنزين ويشعل فيها النار ويلقيها على نقطة الحراسة ويسقط مصابا وهو يهتف تحيا مصر، ولم ينتصف النار إلا وقد نفدت ذخيرة الجنود واطبقت الجموع الثائرة عليهم، وأحرقت النقطة بكل من فيها.

وقد أصبا في ساقي ونقلت إلى المستشفى الأميري بجوار محطة الرمل



واسعفني هناك الدكتوران على معبد ومحى الدين الخرادلي وكانا طبيبي امتياز ومن اعضاء ومن أعضاء لجنة الطلبة والعمال، وتحفظت على النيابة وظللت تحت الحراسة دون تحقيق معي طيلة ستة شهور، ولن ينقذني إلا اضرابي عن الطعام لمدة عشرة إأيام . فأخلى سبيلي ولكن بعد أن ضاعت عليّ سنة دراسية.

التصدى للإنجليز

ودارت الأيام وأثناء عملي بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية في الستينات، وفي حديث مع الأمين العام للجامعة المرحوم (عبدالخالق حسونة باشا) وقد كان عام ١٩٤٦ محافظا للإسكندرية قال - والعهدة عليه - أنه في ٤ مارس عام ١٩٤٦ اتصل به قائد الحامية البريطانية في معسكر مصطفى باشا ليخطره بأنه سيتحرك في شلة من الجنود إلى محطة الرمل ليخلص جنود نقطة الحراسة من المتظاهرين . فقال له المحافظ انه لو تحرك الجنود الانجليز في شوارع الإسكندرية فانه سيأمر البوليس المصرى بالتصدى لهم، وأضاف ان البوليس المصرى كفيل بالمتظاهرين، وبناء عليه لم يتحرك القائد والجنود من معسكر مصطفى باشا.

وقد نشرت الصحف في حينه أن إحراق ستة من الجنود الانجليز في محطة الرمل أثير في مجلس العموم البريطاني واستدعي قائد حامية مصطفى باشا لمساءلته، وليس هذا هو المهم ولكن المهم أنه بعد هذه الواقعة صدر قرار سحب الجنود الانجليز من القاهرة والإسكندرية إلى منطقة قناة السويس:

ومن هنا تتضح أهمية الوثية الشعبية في مظاهرات ٤ مارس عام ١٩٤٦ بالإسكندرية كعلامة مضيئة من من علامات كفاح الشعب المصرى تسجل لطلبة الإسكندرية وعمالها وتضاف بكثير من الفخر والاعتداد لذكريات الإسكندرية. ■

ثورة ١٩٥٢.. شعبياً!

بقلم:
عبد الرحمن شاكر

أرجو أن يأذن لي «الهلال»، والدكتور رءوف عباس، بالتعقيب على مقاله القيم، في عدد يناير من هذا العام على صفحات الهلال والتي تناول فيه أحداث ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢، الذي شهد ما يعرف باسم «حريق القاهرة». ولا يأتي التعقيب من موقع المخالفة لما تضمنه المقال، بل هو بمثابة توضيح لبعض ما كان يدور في أروقة نوع آخر من «المتآمرين» في ذلك اليوم، وما سبقه، أولئك هم المتآمرون من أجل قلب نظام الحكم! ولا يكون التآمر معنى قبيحا في جميع الأحوال، بل العبرة بالهدف المقصود منه، وإلا لما اشتق من المصدر ذاته لفظ «المؤتمر»، الذي يحاط عادة في الدوائر السياسية بالاجلال والاحترام.

حريق القاهرة

٢٦ يناير ١٩٥٢



والفريق الذى أعنيه فى هذه الكلمة، هم أشد المتآمرين على قلب نظام الحكم تطرفا وأعنى بهم «الشيوعيين»، الذين لم يكن لهم حزب سياسى مشروع معترف به، ولكن كانت لهم منظمات سرية، يطاردها البوليس، ومن يقبض عليه منهم كان يقدم للمحاكمة بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم. كان موقفهم المعروف من هذا النظام هو عداوته، والسعى إلى استبداله بنظام جمهورى، ديمقراطى على الأقل، لأن الأكثر المرموق لديهم، هو أن تصبح البلاد جمهورية اشتراكية.

وكان من المعروف عن المنظمات الشيوعية، أنها كانت متعددة تتباين عادة فى برامجها أو بعض تفاصيل تلك البرامج، وكان بعضها أحيانا يقع فيه الانشقاق وتنسلخ من المنظمة الواحدة منظمة أخرى أو أكثر، وكان من المنظمات، التى نشأت مستقلة فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات منظمة أطلقت على نفسها اسم «الحزب الشيوعى المصرى»! هكذا «خبط لزق» كما يقال! بينما كانت المنظمة الشيوعية الكبرى المعروفة فى ذلك الحين تختار اسما شديد التحفظ والتوقى، وهو اسم «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» والتى يشار إليها مختصرة بكلمة «حدتو». وان كان قد انشق عنها ما يعرف باسم «نحو حزب شيوعى مصرى» واختصارها «نحشم» ، «والمنظمة الشيوعية المصرية» واختصارها «م. ش. م».. الخ. وكان فى منظورها أن ما يستحق أن يسمى «بالحزب الشيوعى المصرى» لابد وأن يكون كيانا كبيرا يشمل كل المنظمات أو معظمها، يكون برنامجه متفقا عليه ومقبولا من الجميع، وكذلك قيادته!.

حزب الراية

فلما أعلنت المنظمة الجديدة أنها هى «الحزب الشيوعى المصرى» قوبل ذلك باستياء شديد من جانب أعضاء المنظمات الأخرى، واعتبرته تبجحاً واستباقا لواقع الأمور، يكاد يشبه قطع الطريق! ورفضت أن تشير الى تلك المنظمة بالاسم الذى اختارته، وإنما كانت تستخدم بدلا من ذلك الاسم الذى أطلقته تلك المنظمة على مجلة سرية كانت

تصدرها تحمل اسم «راية الشعب»، وأطلقت على المنظمة التى تحمل اسم «الحزب الشيوعى المصرى» منظمة الراية، أو «حزب الراية»!.

ولم يكن الخلاف مع المنظمات الأخرى يدور حول الاسم فقط، بل البرنامج أيضا، ففى الوقت الذى كانت «حدتو» ومعها معظم المنظمات تعتبر أن التحرر من الاستعمار البريطانى هو المهمة الأولى، ومن هذه المهمة اشتقت حدتو اسمها المشار إليه، كان ما يسمى «بالحزب الشيوعى المصرى» يعتبر أن المهمة الأولى هى القضاء على النظام الملكى الموالى للاستعمار، وعلى الطبقة الاجتماعية السائدة له وهى «الاقطاع» واعتقد إذا لم تخنى الذاكرة، أن الفضل فى ظهور هذه الكلمة الأخيرة فى الفكر السياسى المصرى المعاصر، يعود لهذا الحزب وبرنامجه.

وكان تجنيد الأعضاء الجدد للحزب، سواء من الشيوعيين الذى كانوا منضمين إلى منظمات أخرى، أو لم يكونوا كذلك، يجرى باطلاعهم على تقرير سياسى يتضمن تفكير الحزب وفلسفته بعنوان «ثورتنا المقبلة»! وكان شديد التأثر بتاريخ الثورة الروسية، إذ كان يرى أن الثورة سوف تتم على مرحلتين ، الأولى هى «الثورة الديمقراطية» التى يتم فيها القضاء على النظام الملكى الاقطاعى ، ويكون خروج الاستعمار مع هذه المرحلة أمرا مفروغا منه، والمرحلة الثانية تكون هى «الثورة الاشتراكية» على غرار ما حدث فى روسيا بثورتيها: الديمقراطية فى فبراير من عام ١٩١٧، والاشتراكية فى أكتوبر فى العام ذاته!

وقد انضممت فى أوائل الخمسينات إلى تلك المنظمة، أو الحزب، بعد أن تبخرت المنظمة التى كنت أعمل فيها من قبل وهى المنظمة الشيوعية المصرية وسبب تبخرها أن زعماءها من اليهود، وخاصة الزوجين إديت وسلامون سدنى، هاجروا إلى دولة الكيان الصهيونى! فضلا عن كونى كنت مختلفا مع قادتها حول بعض الأمور التنظيمية.. رغم نجاحى فى ظلها فى تكوين نقابة سرية لعمال شركة «ثورنيكروفت» للنقل العام، وكنت أفكر مع بعض فلول المنظمة فى تكوين منظمة جديدة.

وقد اكتسبت ثقة قادة ما يسمى «بالحزب الشيوعى المصرى» سريعا، وخاصة بعدما اتيح لى الاطلاع على نسخة بالانجليزية لكتاب ، «ماوتسى

تونغ، زعيم الثورة الصينية، بعنوان «ديمقراطية جديدة»، الذى ذكر فيه امكانية اندماج الثورة الاجتماعية، في الاشتراكية، مع ثورة التحرر الوطنى الديمقراطى في المستعمرات في عملية ثورية واحدة، وارتبطت الكتاب في قيادة الحزب، فتعاد زعيمه الرفيق خالد (المرحوم الدكتور محمد فؤاد مرسى وزير التموين الأسبق فيما بعد) كتابة تقريره عن ثورتنا المقبلة، ليصورها شبيهة بالثورة الصينية وليس الروسية!!

الانفجار الشعبى

كان من المقدمات الحاسمة للانفجار الشعبى فى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢، وهو ما لم يشر إليه الدكتور رءوف عباس فى مقاله، هو إقدام الملك فاروق قبل ذلك اليوم بعدة أسابيع على تعيين المرحوم الدكتور حافظ عفيفى (باشا) رئيسا للديوان الملكى، وهو المعروف بصداقته للانجليز، وعدائه لحكومة الوفد، التى كانت تسمح بالمقاومة الشعبية المسلحة ضد الاحتلال البريطانى، فيما عرف باسم «حركة الفدائيين»، وأنه قد جيء به فى هذا المنصب، لكى يشرع فى التآمر من أجل إقصاء حكومة الوفد وضرب الحركة الوطنية.

وقد انفجر السخط الشعبى ضد الملك وقراره بتعيين حافظ عفيفى فى صفوف الطلبة، وقامت مظاهرات صاخبة كان أهمها مظاهرة جامعة القاهرة (التى كانت تسمى جامعة فؤاد الأول فى ذلك الحين)، ووقف الرفيق سلمى (الكاتب الصحفى المرحوم محمد جلال كشك)، وكان عضوا بالحزب الشيوعى المصرى وأهم ممثليه فى الجامعة، ينادى بسقوط الملك والنظام الملكى الأوتوقراطى ومع الاستعمار، وانبرى له المرحوم عبدالمنعم الغزالى (ممثلا لمنظمة حدتو) يدين موقفه ويطالب بالاكتفاء بالمطالبة بسقوط حافظ عفيفى.

وكنت أنا مسئولا عن الطلبة والعمال فى لجنة منطقة القاهرة بالحزب المذكور واجتمعت فى المساء مع بعض الطلبة والعمال من أعضاء الحزب، وقلت لهم إن عليهم أن يدعوا الى تشكيل جبهة متحدة من كافة القوى الثائرة على النظام الملكى المطالبة بسقوط هذا النظام، وإقامة جمهورية ديمقراطية تتولى قيادة النضال

ضد الاحتلال البريطاني.

مغامرة بمصير الشعب

وجاء لي الرد من قيادة الحزب بعد أن رفعت لها تقريرا بما تم مني في الاجتماع المذكور، حمل إليّ هذا الرد المرحوم الأستاذ مصطفى طيبة الذي كان هو المسئول المركزي عن لجنة منطقة القاهرة، وأبلغني أن قيادة الحزب ترفض ما دعوت إليه وتعتبره مغامرة بمصير الشعب، وتطلب مني أن أبلغ الرفاق بالاكتفاء بالمطالبة بإسقاط حافظ عفيفي (نفس موقف حدتو)! والسبب في ذلك هو أن الحزب لايزال ضعيفا، والضعيف [illegible] يقود ثورة ضد النظام برمته، ورفضت. حاولت إفهامهم عن طريق الرفيق طلعت (الاسم الحركي لمصطفى طيبة) أن ثورة الشعب قد تجاوزت حد المطالبة بسقوط حافظ عفيفي، وأنها غير مسئولة عن كون الحزب لايزال ضعيفا، وأن المد الثوري العارم هو الفرصة الكبرى للأحزاب الثورية لكي تنمو، وأن اتخاذ موقف أقل ثورية من الجماهير بدعوى ضعف الحزب يزيده ضعفا ويعزله عن الجماهير!

وإزاء إصراري على هذا الموقف تم إيقافي عن النشاط الحزبي، وطلب مني الرفيق طلعت أن يتسلم من أنا مسئول عنهم من الرفاق الطلبة والعمال، ولكن واقعة معينة أكدت لي سلامة موقفي، بل أكثر من ذلك.. استعداد حكومة الوفد ليس فقط للسماح بحركة الفدائيين في قناة السويس، بل أيضا التغاضي عن النشاط الثوري المعادي للملك والنظام الملكي بحكم أنها كانت تدرك أنها تخوض معركتها الأخيرة مع الملك. تلك الواقعة هي أن البوليس ألقى القبض على شقيق لي (هو المرحوم المهندس زهير شاكر) وكان وقتها طالبا بكلية الهندسة ومتعاطفا مع الحزب الشيوعي وليس عضوا فيه، كان [illegible] يقوم بطبع منشور [illegible] الملك والنظام الملكي في مطبعة صغيرة في ميدان الفلكي، [illegible] حيث [illegible] خرج من محبسه في اليوم التالي [illegible] الحكومة بمصادرة المنشور الذي كان يطبعه!

[illegible] اتحاد الفلاحين

أما لماذا استقل جلال كشك بموقفه في الجامعة عن قيادة الحزب الشيوعي، فذلك لأنه كان في ذلك الحين في حالة غضب وتمرد على قيادته.

فقد كان قد اتفق مع المرحوم الكاتب خالد محمد خالد على تكوين حزب للفلاحين، وطالب الحزب الشيوعي

بمساندته فى هذا المطلب، وحينما عرض علىّ الأمر، افتيت لقيادة الحزب بأنه من غير المعقول أن يتولى حزب معين إنشاء حزب آخر! فذلك مما يثير الارتباك فى الولاء ما بين الحزبين، وأن المنطقى هو انه إذا قام حزب للفلاحين بشكل مستقل فحزبنا يكون على استعداد للتحالف معه بقدر ما تتفق برامج الحزبين.. وأن ما نستطيع عمله كحزب هو المساعدة على انشاء اتحاد للفلاحين فحسب! وقد اخذت قيادة الحزب الشيوعى بهذا الرأى فى مواجهة جلال كشك الذى غضب واستقل!

أما فيما يتعلق بالدعوة الى تكوين جبهة متحدة من القوى الثائرة على النظام الملكى فقد اشتكى المرحوم أحمد حسين زعيم الحزب الاشتراكى من أن الشيوعيين قد حيروه، فمرة يأتى إليه عضو من حدتو يدعوه الى الدخول معهم فى جبهة وطنية، فيوافق ، وفى اليوم التالى يأتى إليه عضو فى منظمة أخرى يدعوه إلى الدخول معهم فى جبهة شعبية، فيوافق أيضا، فيأتى الأول فيقول بل جبهة وطنية.. وأخيرا يقول لهم اذهبوا فاتفقوا أولا على اسم الجبهة.. وطنية أو شعبية.. ثم عودوا إلىّ!.

ثورة الشعب مع النظام

ووقع الانفجار فى ٢٦ يناير كما وصفه الدكتور رءوف عباس فى مقاله، مع اختلاف بسيط، هو أن قوات بلوكات النظام لم تشارك فحسب فى مظاهرات ذلك اليوم، ولكن توجهت بقيادة أحد الضباط إلى جامعة القاهرة التى خرج طلبتها منها بقيادة جلال كشك يهتفون بسقوط الملك والنظام الملكى. وسارت تلك المظاهرة إلى قصر عابدين حيث تصدى لهم مأمور قسم عابدين الذى أخرج مسدسه لتخويف المتظاهرين، وتقدم منه جلال كشك فاتحا صدره مشيرا إليه أن يطلق عليه النار! ولكنه لم يفعل.. كانت الشرطة لا تقل سخطا عن الجماهير لما أصاب رجالها فى محافظة الاسماعيلية ! وكانت تحضرنى مقارنة مؤلة مع الثورة الروسية، وهو أن الشرطة لم تنضم للثورة الروسية على القيصرية إلا بعد مرور سبعة عشر يوما على اندلاعها، أما «ثورتنا» نحن فقد كانوا فى طليعتها!.

أقول «ثورتنا» لأنه بعد أيلولة الامور الى ما آلت إليه ونشوب حريق القاهرة وإعلان الاحكام العرفية وسقوط حكومة الوفد، «طفشت» إلى الصعيد بمشورة ومعاونة بعض الرفاق من الطلبة خشية القبض عليّ، وكان قد تم بالفعل القبض على شقيقي زهير، وهناك كتبت تقريرا بعنوان «ثورة ١٩٥٢»، قلت فيه كلاما شبيها بما قاله الدكتور رءوف عباس عن الانفجار الشعبي في ٢٦ يناير، من أنها كانت ثورة الشعب على النظام الملكي، ولكن انعدام وجود قيادة منظمة لتلك الثورة تقودها للاستيلاء على مقاليد السلطة عن طريق الاستيلاء على الوزارات وأقسام البوليس وما أشبه، قادتها الرجعية عبر الاحراق والتدمير إلى الهزيمة المنكرة، بل ذكرت في هذا التقرير أن الملك لم يأمر بنزول القوات المسلحة إلى الشوارع خشية انضمامها إلى الشعب في ثورته كما فعل البوليس!

شيوعية خارج الحزب

وأدنت في هذا التقرير قيادة الحزب الشيوعي المصري، التي رفضت التسليم بأن «ثورتنا المقبلة» التي ظلت تبشرنا بها كانت أقرب مما نتصور بعد تعيين حافظ عفيفي رئيسا للديوان الملكي، واتهمتها بأنها قصرت في الشروع في تكوين الجبهة المتحدة التي كان يمكن أن تقود هذه الثورة لو تكونت من الشيوعيين والاشتراكيين والوفديين، وخاصة الطليعة الوفدية والحزب الوطني الجديد والاخوان المسلمين، بل حتى لم تسع إلى توحيد الشيوعيين تمهيدا لتكوين الجبهة المذكورة.

وكان تعليق الرفيق المركزي الذي استلم مني هذا التقرير (وهو الأستاذ داوود عزيز الفنان التشكيلي المعروف): إذن فأنت تعتبر أن هناك شيوعية خارج الحزب!! هكذا كان أفق تفكيرهم نفي الشيوعيين الآخرين!!

ثم علمت بعد ذلك أن الرفيق خالد كتب ردا [illegible] على تقريري بعنوان «احذروا الانتهازية اليسارية»، يعني به «الرفيق عامر» الذي هو شخصي الضعيف، وأن تجنيد الرفاق الجدد للحزب كان يتم باطلاعهم على هذا الرد بدلا من «ثورتنا المقبلة»! واقرأ ما كتبه الرفيق الأستاذ عبدالخالق الشهاوي عن هذا الموضوع في كتابه بعنوان «الحلم والسجن والحصار»!!



في بيت السناري

رسم الفرنسيون «وصف مصر» والتقى الجبرتي مع مونج

بقلم
مهدى الحسينى



مشربية في حاجة للمسات قليلة

فى فن الترميم لايوجد شىء اسمه طبق الأصل، كما لاتوجد دولة أجنبية لديها مدرسة فنية متخصصة فى ترميم آثارنا، لأن هذا ليس تراثهم، فقط يقوم الخبير الأجنبى بتوظيف معرفته العلمية المعمارية والهندسية والتكنولوچية فى خدمة الأثر، ومن أجل هذا يظل يدرس الأثر وتاريخه ووظيفته وثقافته لمدة قد تصل إلى عشرين عاماً، ثم يضع خطة تنفيذية محكمة لعمليات الترميم كي تتم فى مدى زمنى محدد، وبحد أقصى من الجودة. هذا المنهج هو مايجب أن نتعلمه منهم كى يصبح لدينا مدرسة أو مدارس فنية مصرية للترميم الأثرى.

بيت السناري

إذن فترميم الأثر هو مسئولية الأثرى المصري، لأن هذا هو تراثه وثقافته وروحه وملكيته الوطنية، هكذا تنشأ المدرسة الفنية المصرية في الترميم، تلك التي كان يجب أن توجد منذ زمن بعيد، منذ أحسسنا بقيمة آثارنا، وأدركنا ضرورة ملكيتنا المعنوية والمادية لها، ومهما كان أو يكون فإن علينا السعي لتأسيسها منذ الآن.

★★★

كل هذا متعلق بالأثر الشهير «بيت إبراهيم كتخدا السناري» الذي يبعد بضع عشرات من الأمتار عن (دارالهلال)، فتدلف إليه من حارة «مونج» Mounge العالم الفرنسي رئيس المجمع العلمي المصرى (الفرنسى) الذى ضم خيرة علماء فرنسا، وقد اصطحبهم «بونابرت» معه في إطار حملته العسكرية الاستعمارية على مصر ١٧٩٨، كي تستنير الحملة بالبحث العلمي والدراسة الميدانية، فوضعت أسسا جديدة لكل العمليات الاستعمارية العالمية التى تلتهاهكذا قال الجبرتي

ولم يكن «بيت السناري» الذى كان قد بناه قبل الحملة بأربع سنوات وحده هو المسكن الذى اتخذوه مقرا للبعثة الفرنسية العلمية، بل احتلوا منزلا شاسعا كان يملكه مملوك هارب هو بيت «حسن بك كاشف» بالناصرية وكان جديدا تماما وموسعا كي يضم بناء آخر، وإلى جواره منزل بيت قاسم بك وبيت أمير الحاج المعروف بأبي يوسف، وبذلك فقد «أفردوا مكانا في بيت حسن كاشف لصناعة الحكمة والطب الكيماوى»، وهكذا يكونون قد خصصوا حارة الناصرية «للمديرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والمنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحسّاب والمنشئين» كما يقول الجبرتي: «وأفردوا أماكن للمهندسين وصناع الدقائق، وسكن الحكيم رويا بيت ذى الفقار كتخدا ـ بجوار ذلك ـ ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه في ناحية وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان واستخراج الأملاح وقدورا عظيمة وبرامات وجعل له مكانا أسفل وأعلى وبها رفوف عليها القدور المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة...».

غير أن بيت السنارى كان هو المكان الذى وضع فيه كتاب «وصف مصر» تلك الموسوعة التوثيقية الضخمة التى وضعت الأساس العلمي لكل من أراد (التعامل) مع مصر من كبار الدول والساسة والعلماء والرحالة والمستكشفين والأثريين والمؤرخين، ولكن ـ وللأسف ـ لم يبق من هذا المنزل العتيد الجميل سوى ربع مساحته أو أقل على وجه التقريب، فقد احتلت عمارتان كبيرتان واجهته عند أول شارع خيرت وهما من طراز شاع في مطلع القرن العشرين حتى ثلاثيناته، ومن قبله احتلت مدرسة السنية مساحة أكثر اتساعا شمال الجزء المتبقى من المبنى القديم.



الشخشيخة المطلة على القاعة الكبرى

بيت السنارى

ومع ذلك لانملك إلا أن نتعامل مع البقية المتبقية من الأثر بالصون والإحياء.. وهذه هى العملية التى تشترك فيها هيئة الآثار المصرية قطاع الآثار الإسلامية والقبطية مع البعثة الفرنسية بتمويل من اليونسكو والحكومتين المصرية والفرنسية، ويشرف على العمل من الجانب المصرى الأثرى «وجدى عباس» الذى تخرج عام ١٩٨٨ وشارك فى ترميم عدد من الآثار الإسلامية منها: جامع البهلول وجامع حسن باشا طاهر ومسجد أحمد بن طولون، ثم بيت السنارى، أما من الجانب الفرنسى فكان المسيو «برنار موريه» الذى تخصص فى العمارة الإسلامية لمدة ٢٠ عاما ، وكان قد حضر إلى القاهرة فى السبعينيات ليقوم بدراسة عميقة وواسعة لآثار مدينة القاهرة خاصة منازلها الأثرية ليصدر عنها كتابا بعنوان (منازل القاهرة وقصورها) بالإشتراك مع الفرنسى «جاك ريفو» والمصرية «منى زكريا» ثم قام بالإشراف على ترميم بيت الهراوى، بشارع الإمام محمد عبده خلف جامع الأزهر، أما ترميم بيت السنارى فهذا هو ثانى مشروع يقوم به فى هذا المجال، وفى حين توفر الدولة الفرنسية مرتبات الخبير وخمسة من الفنيين الفرنسيين بالإضافة إلى نجار أرابيسك ومشرف فنى، تقوم الحكومة المصرية بتوفير العمالة المحلية من نحاتين وبنائين وعمال محارة ونجارين وحدادين... إلخ، بالإضافة إلى كل الخامات المطلوبة: أنواع الحجر والملاط والخشب والمعدن، كما يتكون الجانب المصرى فضلا عن الأثرى المسئول، من متخصص فى فن الترميم الدقيق هو المهندس «مدحت سنجر» ومعمارى خريج كلية الهندسة وحاصل على دبلوم فى الآثار هو المهندس «فريد شافعى»، هذا بالإضافة إلى شركة مقاولات تعمل فى مجال الترميم الأثرى وغيره، هى المسئولة عن توريد العمالة المصرية والخامات المطلوبة وتنفيذ كافة العمليات وفقا للتصور الفنى لعملية الترميم.

ولكن المرمم الأثرى وجدى عباس لايرى أن هذا الطاقم الفنى كاف لإنجاز عملية الترميم فى مدى زمنى أقصر وبكفاءة أعلى وبدقة أشد، فلابد أن ينضم إلى المجموعة متخصصون فى مجالات عدة منها علوم الكيمياء وميكانيكا التربة والبيئة والهيدروليكا والفنون التطبيقية والحرف التقليدية بالإضافة إلى مهندسين مدنيين متخصصين فى الترميم يدركون الفارق بين إنشاء كوبرى خرسانى وبين ترميم الأثر العريق ذي التصميم الفنى والمعنى الحضارى، وأنا معه فهكذا يكون الطاقم الفنى المتخصص والمتفرغ والمطلوب كى يعمل تحت قيادة المرمم الأثرى المختص بمرحلة حضارية بعينها (مصرى قديم بمراحله الكثيرة، يونانى رومانى، بيزنطى قبطى، عربى إسلامى، أيوبى مملوكى تركى، معاصر وحديث)، فكما أن الترميم تاريخ ومعرفة وعلم



جانب من القاعة الكبرى

وهندسة وتقنية وحرفة، فهو فن وثقافة وحس حضارى مرهف، لابد من إنشاء كلية دراسات عليا للتنسيق الحضارى لتخريج مرممين متخصصين يستكملون فيه ماكانوا قد اتجهوا فى دراساتهم الأصلية من حيث رغبتهم فى العناية بالآثار المصرية أثمن مافى التراث القومى المصرى.

مهارة الترميم

ويلاحظ المرمم الدقيق «مدحت سنجر» مهارة العامل المصرى وذكاءه أثناء سير عملية الترميم، ولكنه يلاحظ أيضا أن روحه المعنوية شديدة الهبوط إذ يتخذ موقفا سلبيا وكأن الأثر ليس ملكا له ولايعنيه فى شىء، على عكس العامل الفرنسى ـ وهذا الأثر ليس من تراثه ـ فإنه يعمل بحيوية ونشاط يدلان على نوع من العشق لهذا اللون من الحرفة والفن!!، وقد يقول قائل إن الأمر راجع إلى قلة الأجور، والحقيقة هى العكس فإن الحرفى المصرى يحصل على ٢٥ جنيها مصرياً مقابل العمل ٤ ساعات تضيع منها ساعة فى أمور لاعلاقة لها بالعمل، ومع ذلك يقوم الجانب الفرنسى باستقطاب هؤلاء الحرفيين لنويتشية عمل أخرى ولمدة أربع ساعات بأجر مضاعف، يبذلون فيها جهدا كبيرا، ولكنه جهد بلا روح!!

عمل فقط!!

إن الأمر يدعو للدهشة، فمنذ عقيدة

الإله «بتاح» إله الحرفة وفن الأداء الفرعوني، والحرفيون يحتلون مكانة خاصة فى حياة مصر، لقد نهبهم قمبيز وأوكتافيانوس أوغسطس والسلطان سليم، ووجه إليهم اللورد كرومر ضربة موجعة بإلغاء نظام الطوائف الحرفية، ثم أجهزت عليهم إجراءات أخرى عديدة جاءت بعد ذلك، أدت إلى الإنهيار التام للإنتاج الحرفى مما أدى إلى تشرذم الحرفيين ففقدوا ارتباطاتهم بطائفتهم الحرفية من جهة وعلاقاتهم بنقاباتهم من جهة أخرى، فأدركوا أنهم أصبحوا مجرد أفراد تحت الطلب، كل بعرق جبينه بغض النظر عن تقاليد الحرفة وثقافة الطائفة ومكانتها فى المجتمع، بل أصبحت بلا مكانة على الإطلاق. لقد أطلقت عليهم كل أنواع الضرائب المباشرة وغير المباشرة وأشكال الغرامات والمدفوعات والقيود والممنوعات والعقوبات، إلى أن أحسوا بافتقاد فادح لإنسانيتهم، ثم مالبث أن ظهر ذلك النوع الجديد من الحرفيين الذين تفننوا فى ابتزاز الطبقة الجديدة وغيرها.. لقاء مشاهدة فيلم فيديو ممنوع آخر الليل.. أو شراء بدلة كاجوال وارد جنوب شرق آسيا!!، إن الوضع الفني والتقني والمعنوى والاجتماعي والنقابي والتشريعي والثقافى للحرفيين المصريين فى حاجة إلى نظر عميق بهدف النهوض بهم وبحرفهم بصفتهم شريحة من أصحاب الحقوق فى البلاد وبصفتهم من حملة تراث الحرفة والتقنية المصرية عبر العصور، وبصفتهم قوة اقتصادية ذات نفع عام لايستهان بمساهمتها فى الاقتصاد القومي، ومن هنا لابد من إنشاء مدارس إعدادية وثانوية متخصصة فى الحرف المصرية التقليدية، بها أقسام متخصصة فى الترميم الأثرى والعمارة المصرية بكل مراحلها التاريخية، فضلا عن العمل - فورا - للحفاظ على البقية الباقية من الشيوخ والأسطوات فى هذه المجالات وتسجيل علمي لخبراتهم الثمينة قبل أن يرحلوا، هكذا نجمع بين الخبرة والوفرة معا، خاصة أن آثار مصر - ثلاثة أرباع آثار العالم حتى الآن - محتاجة إلى مئات من الحرفيين المثقفين المهرة العاشقين لتراث بلادهم.

وبدون هذا الأساس العلمي والمادى لاتوجد مدرسة وطنية لترميم الآثار، وأن أغلب مايحدث - كما يرى المرمم الأثرى وجدى عباس - اجتهادات تحاول تفادى الخطأ والمخاطرة قدر الإمكان وإلا لما تعرضت بعض آثارنا لتجارب سلبية، علما بأن كل مرمم أثرى لابد له من معطيات عديدة فى تعامله مع الأثر تشكل الحد الأدنى:

١ - الصور والرسوم القديمة إن أمكن.

٢ - الأوصاف المعمارية المستقاة من الرحالة والشهود وثنايا صفحات كتب الجغرافيا والتاريخ والآثار والأنثروبولوچى.

٣ - الحالة الفعلية الآنية للأثر.



٤ ـ الوظيفة التى كانت قديما للأثر قبل أن يصبح أثرا.

٥ ـ الإطار البيئى المحيط بالأثر قديما وحديثا.

أما الناحية التقنية أيضا هناك محددات مهمة:

١ ـ الخامات (حجر ـ خشب ـ معدن).

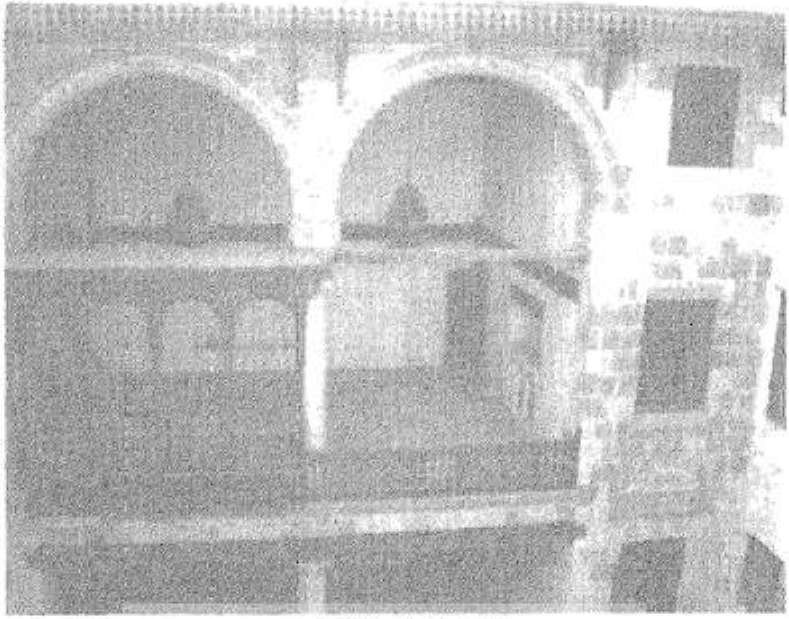
٢ ـ المواد الرابطة (الملاط ـ المونة ـ الدهانات)، محاولة استنتاج الأسس الهندسية والحرفية التى تم تنفيذه (بناؤه) بها.

٣ ـ علاقة الأثر بعناصر الطبيعة والبيئة مثل التربة والمنافع والضغط الجوى ودرجة الرطوبة والجفاف واتجاهات الرياح ومساقط الشمس.

٦ ـ أثر الاستخدام العادى وعيوب الاستخدام المخل للأثر ومرافقه عبر مراحله التاريخية.

٧ ـ كيفية التعامل بالأثر مع عناصر حديثة كالصرف الصحى والكهرباء والمياه والغاز دون الإخلال ببنية الأثر وشكله.

ولكن فى جميع الحالات من العبث أن نحاول (إعادة الأثر كما كان طبق الأصل) فهناك متغيرات لايمكن إدراكها أو تداركها، أحيانا لانستطيع الحصول على نفس نوع أحجار البناء (بالضبط) وهنا على المرمم الأثرى أن يستخدم النوع الأقرب، والأمر نفسه ينطبق على الأخشاب والمعادن، أما عن قضية استخدام الأسمنت فى صناعة الملاط (المونة) فيدور حولها جدل شديد، وفى هذا الأمر يقول المرمم «وجدى عباس» إنه لابأس من استخدام الأسمنت فى حدود ١٠٪ إلى جانب الجبس والجير والرمل التى تخلط بنسب معينة كى تشكل نوعا من الملاط المتين والأقرب للصورة القديمة للأثر فى الوقت نفسه، وذلك لأن المادة الرابطة القديمة وهى (الأوسروميل) من الصعب التأكد من مكوناتها بالضبط بعد أن خضعت لتفاعلات كيماوية طبيعية من داخلها ومن خارجها عبر الزمن، فضلا عن انقضاء العصر الذى نستطيع فيه توفير العناصر التى يفترض أنها تدخل فى تكوين هذا الأوسروميل. وفى لقاء لى مع المهندس «حسن فتحى» سيد البنائين فى أول السبعينيات فى منزله بدرب اللبانة بالقلعة، قال إن مادة الأوسروميل هذه أفضل بكثير من الأسمنت وأطول عمرا وأرخص كلفة لأنها تتكون من مسحوق الطوب الأحمر (الحُمرة) مضافا إلى تراب المستوقد أو الفرن البلدى مضافا إلى الجير الحَى يخلطون بنسب محددة ثم يطفأون بالماء، فيكونون ملاطا متينا بنيت به كل مبانى القاهرة الإسلامية القديمة، وأن البنائين المصريين كانوا يستخدمونه إلى عهد قريب فى الخمسينيات وقبل (عصر الأسمنت ومقاولى الخرسانة الأمريكية على حد قوله) وأنه شخصيا قام باستخدام الأوسروميل فى كثير من المبانى التى صممها، وأنشأها فى مصر



إحدى الشرف بعد الترميم

والمكسيك وغيرها، ويعلق المرمم الأثرى المصرى قائلا إننا لانستطيع الآن صناعة الأوسروميل لأنه لم يعد هناك مستوقد ولا فرن بلدى ولا طوب أحمر حتى تخلطهما بالجير الحَى، إنها المتغيرات.

لقد بدأت عملية الترميم عام ١٩٩٦ وستنتهى فى منتصف هذا العام، أى أنها استغرقت خمس سنوات، ولعل البيت يعود إلى أقرب صورة لحالته الأولى، فقد مرت عليه عهود وعهود بعد رحيل الحملة، استغله جلياردو بك كمتحف باسم «متحف بونابرت» وبعد وفاته كانت الأوقاف تؤجره للأهالى بصفته مسكنا، وتم بيع أجزاء من أرضه واستيلاء الدولة على أجزاء أخرى (مدرسة السنية).. ثم استغلته هيئة الآثار (وبنت بداخله!!) كمركز للحرفيين الأثريين، بدأت العملية الترميمية بدراسة مشكلة المياه الجوفية (صرف صحى، مياه شرب متسربة، مياه النيل، مياه أمطار... إلخ)، وقد تم عمل مشروع لتخفيض مستواها يعمل بنجاح حتى الآن (من المستحيل تجفيفها تماما على مستوى القاهرة كلها على الأقل) ولكن الأمر سوف يزداد تحسنا بعد إتمام مشروع الصرف العام لمنطقة السيدة زينب، أما داخل البيت فقد تم إعادة الصحن إلى حالته الأصلية، وكذلك النافورة الموجودة فى وسطه، وكذلك ترميم التختبوش والمقعد الصيفى، كما تم

الاهتمام بقاعة الاحتفالات الكبرى الشتوية ذات السقف الخشبى المزخرف، وكذلك الملقف الكبير الذى يتقدمها والذى يعد واحدا من أعظم الملاقف الأثرية فى القاهرة، كما تم ترميم الحمام الملاصق للقاعة الكبرى، وكذلك جميع أجزاء المنزل الأثرية من أعمدة وبوابات حجرية وأبواب ونوافذ وسلالم خشبية، وحاليا لم يتبق من العمل سوى إزالة المبانى الطفيلية التى كانت هيئة الآثار قد أقامتها، كما ستعاد الحديقة إلى وضعها القديم، وقد تم الكشف عن تفاصيل المدخل الرئيسى المطل على حارة مونج الأمر الذى يتطلب تخفيض مستوى أرضية الحارة وإعادة تبليطها بالحجر كما كانت فى القرن الثامن عشر، وقد روعى فى كل ذلك المشابهة - قدر الإمكان - مع الصور القديمة للأثر سواء فى الشكل وفى المواد، دون أى إضافة أو تجديد أو تجميل، لأن معنى التجديد أن الأثر لم يعد أثرا.

***

حفاظا على الخبرة الوطنية

لكى تتطور هذه الأعمال الريادية فى مجالات الصون والأحياء المتعلق بتراثنا الأثرى والحضارى لابد من عقد حلقات بحث دورية كى تضم الأثريين والمرممين والمؤرخين والمهندسين والمعماريين والرسامين والمصورين المتخصصين وخبراء البيئة وكبار الفنانين والمفكرين القوميين وأساتذة الحضارة وعلم الجمال، ليتبادلوا الرأى حول قضايا الصون والأحياء والبعث القومى والنهضة، فهكذا تقوم مدرسة مصرية للترميم من خلال تبادل الخبرة والرأى وتضييق مسافات التباين، حتى نصل إلى وضع «دستور» للترميم كى يلتزم به كل المرممين الأثريين، فهذا تراث لايرعاه إلا النخبة الواعية.. ولكن لصالح الأمة كلها ومستقبلها.

تبقى مهمة قومية أخرى، ألا وهى تعميق الاهتمام الجماهيرى العام بقيمة الأثر، ليس فقط من النواحى التاريخية والمعمارية والجمالية، أو لأغراض تجارية سياحية، أو لإقامة بضع عروض فنية أو ملتقيات ثقافية، أو لجعله عجلا مقدسا، وإنما - وهذا هو الأهم - جعله نموذجا معماريا لبيوت المستقبل المصرية، فمن خلال مثوله الحى بيننا يتم ترقية فكرة المواطن عن ماهية (المنزل) كقيمة اجتماعية وبيئية وصحية وإنسانية، لعلنا نتراجع عن علب الخرسانة ناطحة السحب، لننشىء لأنفسنا بيوتا أجمل وأنظف وأوسع نستطيع أن نسكن إلى أرواحنا بين جدرانها وجنباتها وأشجارها المزدهرة. ■

لغويات

د. محمود فهمي حجازي

نعيش اليوم عصر العولمة، وأصبح من الضروري أن نعبر عن حياتنا وعصرنا وعن ذلك الاتجاه إلى جعل العالم كله وكأنه في منظومة واحدة متكاملة. كتب المفكرون باللغات الأوربية عنGlobalisation فى الانجليزية والألمانية، وعبروا عن ذلك في الفرنسية بمصطلح Modialisation- ووضعت كلمة العولمة فى اللغة العربية مقابلا حديثاً للدلالة على هذا المفهوم الجديد .

كلمة العالم بفتح اللام من أقدم الكلمات فى العربية. تنتمى إلى تلك الألفاظ المغرقة فى القدم التي نجدها بصيغ شتى في اللغات السامية القديمة. عمرها يصل إلى نحو خمسين قرنا على الأقل، شأنها مثل باقي الألفاظ القديمة المشتركة في اللغات السامية. عرفت العربية كلمة العالم واستخدمتها عبر القرون، ولكنها لم تكد تأخذ منها كلمات أخرى في إطار هذه الدلالة المحددة، ولا شأن لنا هنا بدلالات أخرى للمادة (ع ل م) في إطار المعرفة. ذكر القاموس المحيط كلمة العالم بمعنى الخلق كلهم وما حواه بطن الفلك. وكانت مشكلة جمع هذه الكلمة الدالة على الكون المعمور الكبير مطروحة للمناقشة، وجعل النحاة كلمة (عالمون/ عالمين) ملحقة بجمع المذكر السالم وكأنها منه. لم تكن عالم منطلقا لاشتقاقات أو لكلمات جديدة في هذا المجال الدلالي المعبر عن الكون المعمور كله .

وما أن ظهر المفهوم الجديد وبدأ استخدام الكلمة الجديدة المعاصرة عولمة حتى أخذ مجمع اللغة العربية يبحثها من حيث الصيغة والدلالة، كتب الدكتور كمال بشر عن هذه الكلمة فى سياقات مثل العولمة الأمريكية وعولمة أمريكا ودلالتها على اتجاه السيطرة على العالم وجعله في نسق واحد. وكان هذا البحث أساس قرار لمجمع اللغة العربية بإجازة استعمال كلمة العولمة بمعنى جعل الشئ عالميا، ذلك لأن الكلمة صحيحة من حيث الصيغة فهي بوزن فوعلة بزيادة الواو على نحو ما ورد في شواهد عربية، وبذلك أصبحت هذه الكلمة الجديدة بدلالتها صحيحة في العربية. إن كلمة العولمة لم تعرفها المعجمات القديمة، ولم تذكرها الطبعات المتاحة من المعجمين الوسيط والوجيز وهى جديرة بأن تأخذ مكانها فى المعاجم الحديثة لإفادة هذا المفهوم الجديد الذى لا يمكن تجاهله .



كتاب جديد

عصر التناقضات القصوى



بقلم
د. ماجدة بركة

دبلوماسية وباحثة في العلوم الاجتماعية



يعتبر الكثيرون إيريك هوبسبوم مؤلف كتاب «عصر التناقضات القصوى التاريخ القصير للقرن العشرين : ١٩١٤ - ١٩٩١»، أهم مؤرخى القرن أو على الأقل من بين أهم ثلاثة أو أربعة من مؤرخيه إلى جانب آرنولد توينبى وفرناند بروديل. ويصف المؤرخ البريطانى الجنسية السكندرى المولد مجال تخصصه بأنه القرن التاسع عشر. ولنفس السبب فهو يعتبر جهده فى التأريخ للقرن العشرين نوعاً من الشهادة على العصر الذى عاصر الجزء الأكبر منه، وهو يتوجه بهذا الجهد لقراء عاصروا بدورهم مساحات مختلفة منه. وهوبسبوم مؤرخ القرن التاسع عشر ينظر بمنظار ذلك القرن نظرة أسى إلى القرن العشرين. فهو يرى حصاد القرن الذى واكب عمره ارتداداً على القيم التنويرية التى كان لها مطلق الغلبة طوال القرن التاسع عشر، قرن تخصصه.

وضمن هذا الإطار العام فهو لا ينظر إلى القرن العشرين كساحة للصراع بين قطبين هما الأيديولوجية الشيوعية بقيادة الاتحاد السوفيتى والأيديولوجية الرأسمالية بقيادة الولايات المتحدة كما هو سائد، وإنما

كساحة للصراع بين القيم العقلانية والإنسانية لكل من الرأسمالية والشيوعية وريثتا الثورة الفرنسية وانتصار التنوير في القرن الثامن عشر وسيادته في القرن التاسع عشر، وبين قوى المحافظة والتقليد السلفية المتشككة في الحداثة والعلم والتقدم المادي وليبرالية القانون والدستور والتي تأمل في جر العالم إلى شيء شبيه بما كان عليه قبل القرن الثامن عشر. ولهذا السبب اعتبر المؤلف القرن العشرين قرن حروب دينية معبراً بذلك عن صراع العقائد الذي صبغ القرن سواء قام ذلك الصراع بين الأيديولوجيا الدينية والايديولوجية العلمانية، أو ثار بين العقائد العلمانية الرأسمالية والشيوعية والقومية.

قرن العلم

أما لماذا اعتبر المؤرخ هذا العصر عصراً للتناقضات فهو - في خطوطه العريضة - بسبب التناقض بين كون هذا القرن قرناً للعنف على نطاق لم يسبق له مثيل من حيث اتساع نطاقه وكثافة تكراره وطول مدته (نحو ١٨٧ مليوناً من القتلى في حروب القرن العشرين أو نحو ١٠٪ من إجمالي تعداد العالم عام ١٩٠٠، - عصر التطهير العرقي وأكبر مجاعات التاريخ - والعودة إلى سياسة الاغتيالات والتعذيب كجزء من السياسات الأمنية للدول بينما كانت أوربا القرن التاسع عشر قد حرمت التعذيب رسمياً في ١٨٧٠)، وبين كون هذا القرن قرنا للعلم الذي أدى إلى أن يكون سكان هذا العالم أكثر بسطة في الجسم والعمر وأعلى في مستوى معيشتهم - بما لا يقاس - بما كان عليه آباؤهم أو أجدادهم في ١٩١٤.

وهو عصر للتناقضات لأن «عصر العلم» هذا ينطوي على انفصام بين العلماء الذين يخترعون منجزات التكنولوجيا الحديثة من تليفون وتليفزيون وفاكس وبين الرجل العادي الذي يستخدم هذه المخترعات دون أن تكون معرفة كيفية عملها شرطا على الإطلاق للقدرة على تشغيلها بضغطة إصبع حتى من أبله على زر (Fool-Proof buttons).

كما أنه عصر التناقضات لأنه عصر الرجل العادي وليس عصر البرجوازية أو النخب المختلفة كما كانت العصور السابقة، بينما تشهد في الوقت ذاته إعراضا من ذلك الرجل العادي عن الدخول في متاهات السياسة والأحزاب،

وانفصالا عن الطبقة السياسية الحاكمة، ومن هذا التناقض ادراك تلك الطبقة السياسية حتى في الدول التي تعد صروحا للديمقراطية أنه في كثير جداً من الأحيان فإن «الرجل العادي» غير مؤهل للإدلاء برأيه في «عملية اتخاذ القرار» في مسائل تتطلب معرفة متخصصة ودراية غير متوافرة له، وتحاول بشتى السبل الالتفاف حول ضرورة الحصول على موافقته . ولكن وفي نفس الوقت فإن الديمقراطيات تعلم أن سخط الشارع يعني سقوطها في مراكز الاقتراع مثلما أدركت النظم غير الديمقراطية قدرة الشعوب على «الاقتراع بأقدامها» (إشارة إلى الهجرة والتظاهر). وقد ظهر ذلك جليا حينما غادر ثلاثمائة ألف ألماني شرقي البلاد في ثلاثة أشهر حين فتحت المجر حدودها مع ألمانيا الشرقية، أو في خروج الجماهير في مظاهرات الشوارع في العديد من البلدان بما لا يكفي لإسقاط أي نظام ولكنه يسلط ضوءاً كاشفاً على فقدان هذا النظام لشرعيته ، بل قد يؤدي لسقوطه إذا امتنعت قوى الشرطة والجيش عن التدخل لصالحه كما حدث في إيران الشاه ورومانيا تشاوتشيسكو.

القرن القصير

وإذا كان العنوان قد أشار إلى تناقضات القرن فقد أشار أيضاً إلى مفهوم «القرن القصير» الذي يمتد سبعة وسبعين عاماً هي الأعوام من ١٩١٤ إلى ١٩٩١ بدلاً من قياسه بمقياس الزمن الصرف الذي يحسب القرن مائة عام تبدأ من ١٩٠٠ وتنتهي في عام ٢٠٠٠. وتفسير هوبسبوم لاعتماده هذا المفهوم هو أن البدايات لا تكون إلا بعد النهايات، ونهاية القرن التاسع عشر الحقيقية كانت عام ١٩١٤ بتفجر الحرب العالمية الأولى التي قضت على الإمبراطوريات الثلاث « التركية » (العثمانية) «والألمانية» (أي إمبراطورية النمسا والمجر)، و «الروسية» (إمبراطورية روسيا القيصرية)، وقد اقتسمت انجلترا وفرنسا أراضي الإمبراطوريتين الأوليين بينهما كغنيمة حرب بينما احتفظت روسيا بتوابعها الآسيوية تحت المسمى البلشفي الجديد.

كانت تلك نهاية القرن التاسع عشر، أما نهاية القرن العشرين فقد كانت آيتها هي سقوط النظام الشيوعي السوفيتي وملحقاته الأوروبية، من حيث كان لذلك النظام التأثير الأكبر - في رأي الكاتب - في تشكيل ملامح القرن العشرين.

كيف كان ذلك ؟ كان ذلك بمقتضى عدة عوامل أولها انتشار الدعوة الشيوعية في غضون ثلاثة عقود من الزمان على قيامها لتغطي ثلث سكان البسيطة في أسرع انتشار لنظام سياسي - اجتماعي عقائدي منذ انتصارات الإسلام في القرن الأول لقيامه على حد قول المؤلف، وذلك

بالرغم من انطلاق ثورة أكتوبر من اقتصاد زراعي متخلف بالرغم من ضخامته.

وثانيها - وهو من سخرية الأقدار - هو أن الشيوعية التي كان الهدف الأول المعلن لنشأتها هو القضاء على النظام الرأسمالي والحلول محله، كان أثرها الوحيد الباقي هو إنقاذ هذا النظام في الحرب والسلام. أما في الحرب فقد كان ذلك بقيام روسيا البلشفية بالمساعدة على القضاء على ألمانيا النازية، الأمر الذي لم يكن أبداً ليتم دون الجيش الأحمر (قارن نجاح روسيا الشيوعية في الحرب العالمية الثانية بفشل روسيا القيصرية في الحرب العالمية الأولى). وأما في السلام فقد أنقذت الشيوعية غريمتها الرأسمالية لأنها شكلت بالنسبة لها تحدياً ومن ثم كانت حافزاً لها على إصلاح نفسها، بل إنها زودتها ببعض الآليات لتحقيق ذلك، كالتخطيط ودولة الرفاه والضمان الاجتماعي.

وثالثاً وأخيراً فقد كانت هذه الثورة هي الداعم الأول لحركات التحرر الوطني في العالم الثالث وسيطرت فعلياً على الرقعة الجغرافية لما كان يعرف بالعالم الثاني فضلاً عن كونها كانت الملهمة لقطاع كبير من حركات المقاومة للاحتلال النازي في أوربا.

أقسام ثلاثة

يقسم هوبسبوم القرن العشرين أقساماً ثلاثة هي «عصر الكارثة» و«العصر الذهبي» و«عصر الأزمة». الجديد في «عصر الكارثة» أن الكاتب يتعامل فيه مع حدثين يفصلهما فاصل زمني بوصفهما وحدة زمنية مترابطة. وهكذا يضم الكاتب الإحدى وثلاثين سنة الممتدة منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى وحتى انتهاء الحرب العالمية الثانية في وحدة واحدة. وقد أنهت تلك الحرب شبه رسمياً الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية وإن اتخذت التصفية النهائية لبعض مستعمراتهما وقتاً أطول امتد حتى السبعينات في بعض الأحوال. وشهد القرن إجمالاً بداية انحسار مركزية أوربا التي ميزت القرن التاسع عشر.

وهكذا فقد عززت الولايات المتحدة للمرة الثانية - بعد الحرب الأولى - نفسها في موقع القيادة للتحالف الغربي وبحيث أمكن بحق للمواطن الأمريكي في نهاية القرن العشرين أن ينظر إليه بوصفه

«القرن الأمريكي».

أما العصر الذهبي فهو عصر من الرخاء الاستثنائي والنمو الانفجاري غير المسبوق الذي امتد ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية وأوائل السبعينات. وبينما اعتقد الجميع أنه جاء ليبقى إذ به يظهر وكأنه جملة اعتراضية ما بين عصر الكارثة السابق عليه بحروبه العالمية وكساده الكبير وبين عصر الأزمة اللاحق عليه والذي عاد فيه شبح البطالة يخيم على ملايين البشر وعادت فيه الأزمات الاقتصادية الدورية الحادة وعجز الميزانيات عن ردم الفجوة بين الموارد المحدودة وأعباء الإنفاق المتصاعدة.

تمتعت الدول الصناعية الكبرى بالقسط الأوفر من رخاء العصر الذهبي حيث حظيت بثلاثة أرباع الإنتاج العالمي و٨٠٪ من الصادرات الصناعية. ولكن نسب النمو في الاتحاد السوفيتي في الخمسينات فاقت نظيرتها في أي من الدول الغربية وكذلك كان الأمر بالنسبة لدول المعسكر الشرقي خلال ذلك العقد، وذلك قبل أن تفقد قوة الدفع في الستينات وتتأكد مكانة الصدارة للرأسمالية عوضاً عن الاشتراكية. حتى العالم الثالث ناله قسط من هذه الظاهرة الغربية في الأساس، تمثل في نمو الإنتاج الغذائي في أفريقيا وجنوب شرق آسيا - حتى أوائل السبعينات - بنسب تفوق النمو السكاني هناك، رغم تضاعف هذا النمو في السنوات الخمس والثلاثين اللاحقة على سنة ١٩٥٠. شهد العالم في تلك السنوات نموا انفجارياً حتى أن ناتج الصناعة التحويلية (Output of manu-factures) تضاعف أربع مرات ما بين أوائل الخمسينات وأوائل السبعينات بينما تضاعفت التجارة العالمية في المنتجات الصناعية مرات عشر خلال نفس الفترة، وفي قلب العالم الصناعي تدنت نسب البطالة إلى أدنى مستوى لها (١,٥٪ في أوربا و١,٣٪ في اليابان وأقل من ذلك في الولايات المتحدة) وتمتع العاملون بزيادات سنوية تلقائية لرواتبهم.

ثمار التكنولوجيا

فتح العصر الذهبي السوق لتصبح هناك للمرة الأولى في التاريخ سوق استهلاكية الكماليات الرفاهية تشمل الجماهير الغفيرة من الناس، ودخلت الثورة التكنولوجية مجال الاستهلاك فانتشرت ثمار التكنولوجيا كالتليفزيون والاسطوانات (منذ عام ١٩٤٨) ثم شرائط الكاسيت (في الستينات) والأقراص المغنطة وأجهزة الراديو ترانزستور الصغيرة والساعات الرقمية والحاسبات الصغيرة وكاميرات التصوير الضوئي والفيديو لدى الجميع على وجه التقريب (بينما لم تنتشر أجهزة الكمبيوتر الفردية

إلا فى السبعينات مع بداية عصر الأزمة). وبينما حملت تلك الفترة الرخية بذرة فنائها فى ذاتها بطبيعتها كثيفة رأس المال والتى كان مقدرا لها أن تستغنى فى النهاية عن البشر كمنتجين وتسعى إليهم كمستهلكين فحسب ، فإن تفسير ظاهرة العصر الذهبى فى ظن الكاتب يستند إلى سببين: السبب الأول هو الإصلاح الذى قام به النظام الرأسمالى لنفسه بانتهاج سياسة اقتصاد مختلط أتاح للنظام الرأسمالى التخطيط للتحديث الاقتصادى وإدارته وقيام بتنشيط كبير للطلب. أما السبب الثانى فهو تدويل وعولمة الاقتصاد على نحو غير مسبوق أتاح قدرا أكبر وأفضل من تقسيم العمل الدولى وعت فيه الأطراف جيدا درس الكساد الكبير فما عادت تسمح لا بانهيار النظام التجارى والمالى الدولى الذى أدى إلى الأزمة ولا بترك الحبل على الغارب لحرية السوق وحدها لتصحيح اختلالاتها وهو ماثبت بالقطع عجزها التام عن القيام به خلال الأزمة ذاتها.

عصر الأزمة

ويلاحظ المؤلف توازيا بين نجاح النظم التى استلهمت ثورة أكتوبر البلشفية فى الإسراع بوتيرة تطوير المجتمعات الزراعية المختلفة وبين العصر الذهبى ، كما يلاحظ توازيا بين سقوط الاشتراكية السوفيتية وبين عصر الأزمة الذى كان هذا السقوط أبرز ما وقع خلاله من أحداث .

إلا أنه يرى عصر الأزمة عصراً لأزمة الأيديولوجيات والبرامج جميعاً يمينها ويسارها . فالصيغة الكينزية فى إنجلترا أو ما عرف فى الولايات المتحدة تحت رئاسة الرئيس روزفلت «بالنيو ديل» (New Deal) والتى بدا نجاحها باهراً فى العصر الذهبى فقدت بدخول عصر الأزمة قدرتها على تحقيق نفس النتائج ، كما فشلت السياسات اليمينية الاقتصادية المتطرفة بقيادة تاتشر ورونالد ريجان مع نهاية حكم كل منهما. ولم تفشل هذه السياسات فى موطنها الأصلى فحسب بل جاءت نتائجها كارثية عند تطبيقها على دول وسط وشرق أوربا المرتدة عن الشيوعية تحت اسم «العلاج بالصدمة». ويمكن للقارىء أن يستشف ظلا من التشاؤم فى آراء هوبسبوم الذى يرى أنه وإن كان قيام حرب عالمية ثالثة يكاد يصبح أمراً غير وارد الحدوث فى الألفية الثالثة إلا أن العودة إلى ما يشبه عصر

الأزمة الاقتصادية في ثلاثينات وأربعينات القرن العشرين ليست كذلك ولقد سقطت الشيوعية الروسية سقوطا تراجيديا خلال محاولتها إصلاح نفسها (البريسترويكا والجلاسنوست)، الا انه بعيداً عن الصورة الوردية للمنتصر على النازية والفاشية في «الحروب العالمية الساخنة» وعلى الشيوعية الروسية في الحرب العالمية الباردة، فإن تصوير المؤرخ للرأسمالية هو تصوير لنظام مأزوم يخطو فوق منزلق انتحاري ما لم ينجح في إيجاد وسيلة ما للتغيير. فهذا النظام يواجه مشاكل من كل نوع بعضها كامن في بنية الرأسمالية ذاتها وبعضها من نتاج التقدم العلمي والتكنولوجي.

غلبة القيم الفردية

من أهم ما هو كامن في بنية الرأسمالية ذاتها هو غلبة القيم الفردية الأنانية المفترضة في فكرة تعظيم الربح والمنفعة الذاتية بوصفهما السبيل الأوحد لتحقيق خير المجموع. يرى هوبسبوم في هذه الفكرة المنشار الذي تنشر به الرأسمالية على الأقل أحد فروع الشجرة التي تجلس عليها. إذ يعتقد أن الرأسمالية قامت على قيم ماقبل رأسمالية طوعتها لمصلحتها وكانت أساسية في توطيد أركانها وهي احترام العمل والفخر بالإنجاز والثقة المتبادلة وتأجيل الإشباع (في صورة ادخار واستثمار). كما أن الوتيرة المتسارعة للعولمة لم يكن معناها أن تمتد ثمار «العصر الذهبي» الذي شمل ٦٠٠ مليون من سكان العالم المتقدم لتغطي سائر سكان البسيطة بسكانها الذين يبلغ عددهم ٦ آلاف مليون من البشر، بل كانت النتيجة الحقيقية تزايد اتساع الهوة الفاصلة بين أغنياء العالم وفقرائه، أي الإفقار المتزايد لثلثي سكان العالم ووجود نمط من الاقتصاد العالمي يعيش على ما يولده من تباينات صارخة ومتفاقمة في مستويات المعيشة، الأمر الذي يحمل في طياته - لاشك - بذور توترات مستقبلية .

كذلك فقد وصلت القوى التي أطلقها الاقتصاد المبني على العلم والتكنولوجيا إلى مرحلة تدمير البيئة، أي إلى تدمير الأسس المادية للحياة البشرية . بحيث أن نسبة نمو اقتصادي شبيهة بما ساد النصف الثاني من القرن العشرين سوف تكون لها آثار كارثية على البيئة الطبيعية على كوكبنا بما في ذلك الجنس البشري الذي يعيش على سطحه، وفي كلمات الكاتب فإنها «قد لاتدمر الكوكب أو تجعله غير صالح للحياة بتاتاً ولكنها سوف تغير بكل تأكيد نمط حياة مختلف الكائنات الموجودة فيه وقد لا تجعله قابل لسكنى الجنس البشري بما يداني ولو من قريب العدد الحالي له (ص ٥٦٩). ولكنه يرى أن أي حل يجب أن يراعى إيجاد توازن ما

بين عناصر النمو والسكان والتكنولوجيا والاستهلاك وهو توازن مستحيل التحقيق في ظل اقتصاد عالمي قائم على السعي غير المحدود وراء الربح بواسطة فعاليات (Enterprises) اقتصادية لا هم لها إلا هذا الهدف وتتنافس وبعضها البعض في سوق كونية مفتوحة .

تآكل الصناعة

ولم يكن هذا هو التأثير الجانبي الوحيد للتكنولوجيا الذي يهدد مستقبل الرأسمالية «المنتصرة» فبعد أن أعلن الثلث الأخير من القرن العشرين «موت الزراعة» بتحول أكثر من نصف سكان العالم إلى سكني المدن (أكثر من ذلك بكثير إذا استثنينا الهند والصين) وانتهاء نمط من الحياة ساد طيلة سبعة أو ثمانية آلاف عام، شهد العالم المتقدم «تآكل الصناعة» وتدنيا حادا في أعداد العمالة الصناعية فيه بلغ ربع إجمالي قوة العمل الصناعية في دول أوروبا الصناعية السبع القديمة إي سبعة ملايين عامل تلاشى نصفهم تحديداً في الفترة ما بين ١٩٧٩ و١٩٨٣.

ثم أنه إذا كانت التكنولوجيا قد عملت للاستغناء عن البشر إلى حد كبير (حلم الطائرة التي تطير دون طيار والقطار الذي يسير دون سائق .. إلخ) فإن مصلحة الرأسمالي الذي يجد كلفة الكمبيوتر أو الآلة أقل من كلفة العامل قد تضافرت مع التكنولوجيا لتقضي بشكل متسارع على الحاجة للعمالة البشرية وتقلص بذلك فرص التوظيف زادة البطالة إلى أبعاد كابوسية تعيد إلى الأذهان الأجواء الداكنة لفترة ما بين الحربين العالميتين.

وإذا كان العلم مسئولا عن الانفجار السكاني والذي تضاعف بمقتضاه عدد سكان العالم عما كان عليه عام ١٩٥٠، فإن كارثة حقيقية تنتظر البشرية إذا لم تتحقق نبوءة ثبات عدد السكان عند عتبة العشرة بلايين نسمة عام ٢٠٣٠، أي إذا استمر النمو السكاني بنسبته الحالية دون أن يستقر عند عدد محدد ودون أن تكون لموارد الكواكب المحدودة مهما بلغت تنميتها القدرة على مواكبة هذه الزيادة السكانية.

وأخيراً وليس آخراً فإن العالم بشقيه المتقدم والساعي إلى التقدم يواجه أزمة تآكل الدولة الواقعة بين مطرقة القوى ما فوق القومية أو العابرة للقومية ، أي

الشركات دولية النشاط التي لا ترى في الدولة القومية سوى عامل إزعاج وعرقلة لحريتها ، وبين سندان القوى ما تحت القومية، أي الإثنيات والعرقيات والطوائف التي تسعى إلى تفتيت الدولة «التأليفية» وإنشاء دويلات صغرى على انقاضها .

قرن الرجل العادي

يضع الكاتب نفسه كما يقول في كتاب آخر له (كتاب «عن التاريخ») (On His-tory) ضمن المؤرخين البريطانيين المنتمين إلى اليسار والذين يجدهم أقرب صلة وأكثر التقاء بمدرسة الحوليات الفرنسية (Annales) التي تبدي اهتماماً بالترابطات بين الثقافة والاجتماع والاقتصاد والسياسة. ومن هنا كانت تلك الفصول الضافية التي كرسها للحركة الفنية وللعلوم الطبيعية وللشورتين الاجتماعية والثقافية. وإذا كان المؤلف قد اعتبر القرن العشرين - كما أسلفنا - قرن العلم وقرن الرجل العادي فقد اعتبر أن هذين المؤثرين قد تضافرا في التأثير على الفن فأحدثت التقنية المبنية على العلم ثورة في الفنون جعلت الموسيقى على سبيل المثال في متناول الجميع حين دخل الراديو كل بيت . كما جعل التليفزيون - والفيديو المشتق منه - من الفيلم أهم فنون القرن بلا منازع . وشهد القرن غلبة المرئي والمسموع على المقروء وأثر سلبا على عادة القراءة قياسا على الماضي. وتأثرت الفنون الرفيعة سلبا لأنها غير شعبية . فموسيقى البوب هي التي انتشرت بينما أخفت كثرة الحفلات السيمفونية والأوبرات التي تم تأليفها في ستينيات القرن التاسع عشر حقيقة أنه لم يعد ثمة سيمفونيات أو أوبرات جديدة تؤلف. كما أخفى ارتفاع أسعار اللوحات (اللوحات الانطباعية تضاعف ثمنها ٢٣ مرة من ١٩٧٥ إلى ١٩٨٩) أن مشتريها لم يكونوا بالضرورة من محبي الفنون بل مستثمرين ومضاربين استخدموا اللوحات كضمان لقروضهم من البنوك . كذلك فقد هبطت مقدرات فن النحت في النصف الثاني من القرن العشرين واقتصرت العمارة على المباني العامة كالمطارات والفنادق (الأمريكية أساساً) التي انتشرت بكثرة في السبعينيات كقصور للأحلام مع ازدهار السياحة. وأثرت العولمة على الكلمة المقروءة ففقدت أوربا مركزيتها في مجال الأدب بحيث أصبحت الرواية الأولى في هذا القرن - مائة عام من العزلة - لكاتب هو جارثيا ماركيز ينتمي إلى دولة لاتينية صغيرة لم يكن الكثيرون يعرفونها إلا من خلال سمعتها في تصدير المخدرات وهي كولومبيا . وحتى في أوربا أصبح أهم الكتاب من المهاجرين إلى دولها .

وفي الفصل الخاص بالعلم يستعرض الكاتب كيف حكمت التكنولوجيا القائمة على البحث العلمي «الطفرة» الاقتصادية في النصف الثاني من القرن العشرين

وهو يفصل كيف بدلت النتائج التطبيقية للعلم حياة الناس العاديين من الطائرة والسيارة إلى الراديو والسينما التى «جعلت أمام الرجل العادى من الترفيه مالم يكن متاحا فى القرن التاسع عشر أمام الأباطرة». ثم هو يستعرض الثورة التى حدثت فى مجال النظريات العلمية من نظرية النسبية إلى ظهور ميكانيكا الكوانتوم (علم الفيزياء) إلى الثورة فى مجال الجينات الوراثية (علم الأحياء). وهو يحلل المفارقة ما بين قرن قائم على العلم، من ناحية، وعزلة هذا العلم والقلق من نتائجه من ناحية أخرى. ظهر ذلك فى انفصال الرجل العادى عن العلماء الذين أضحوا صفوة معزولة تتحدث لغة لا يفهمها سواها، كما ظهر كذلك فى شيوع فكرة «أن العلم يعنى كارثة محتملة» . وقد عضد هذه الفكرة تجربة القنبلة النووية وسابق وجود أنظمة عنصرية اهتمت بموضوع الجينات الوراثية إضافة إلى ما يثيره هذا الموضوع عموما من مخاوف حول الضوابط الأخلاقية للبحث العلمى ومن شعور دفين باستحالة السيطرة التامة على تداعيات الاكتشافات العلمية.

● أتاح العصر للرجل العادى من الترفيه ما لم يكن متاحا للأباطرة فى القرن ١٩

نشأة ثقافة شبابية

إن الشق الأكثر إمتاعاً فى شرح هويسبوم للثورة فى مجال الثقافة والقيم هى تحليله لنشأة «ثقافة شبابية» لم تعد فيها مرحلة الشباب «ينظر إليها كمرحلة تحضيرية للرشد وإنما كمحطة أخيرة للنمو البشرى المستكمل». وأصبح الشباب يعاملون كشريحة عمرية منفصلة لها أنماط استهلاكها التى استغلتها بهمة صناعات مثل صناعات التجميل والعناية بالشعر والملابس الجاهزة (ظهور الجينز) وشركات التسجيلات الموسيقية (الاسطوانات - ظاهرة البيتلز فى الستينات، ثم الكاسيت فيما بعد) وعلى حين كانت الطبقة العاملة قديما تستلهم أحيانا أساليبها من الموضة الرفيعة لدى الطبقات الاجتماعية العليا، فقد ترسخ الاتجاه العكسى لا فى الملبس فحسب وإنما فى اللغة أيضاً. وإذ زادت الفجوة بين جيل الشباب وليد الرخاء و«العصر الذهبى» وبين جيل الآباء الذين ترعرعوا فى ظل «عصر الكارثة» ، عبرت ثورة الشباب عن رفض كل سلطة، سلطة الآباء وسلطة الدولة ، سلطة التقاليد وسلطة القانون أيضاً وفى هذا المجال لا يظهر

هوبسبوم كبير تعاطف حتى مع أعلى لحظات هذه الثقافة وأهم تجلياتها وهى الثورة الطلابية فى عديد من بلدان العالم الأول (والثانى) عام ١٩٦٨ و١٩٦٩ لأنه يراها انزلقت إلى الجنس والمخدرات وأعلت الفرد على الجماعة وهو يجدها ذات جذور فوضوية رغم تعاطفاتها اليسارية وغير قادرة بطبيعتها على إحداث التغيير مالم تلعب دور فتيل الإشعال للطبقة العمالية الأبطأ اشتعالا والتى كانت فى الظرف التاريخى الغربى غير ثورية لأنها كانت تشعر بتحسن وضعها المذهل فى العصر الذهبى.

آراء مثيرة للجدل

كتاب عصر التناقضات ملىء بالآراء القيمة والمثيرة للجدل. فملاحظاته التى يقارن فيها صعود الشيوعية بصعود الإسلام وسرعة غزوهما للعالم رغم انطلاقهما من مراكز متخلفة عن الجوار وكذلك ملاحظاته الساخرة عن انتشار الفكر الشيوعى بين أبناء الطبقات العليا فى العالم الثالث فى الوقت الذى كان مقصوداً فيه أن تقوم بتثوير البروليتاريا تدعو إلى إعادة النظر حول مدى أولوية «البنية التحتية على البنية الفوقية» أو الاقتصادي على الأيديولوجي فى اتجاه إعادة الاعتبار للأخير.

ثم لا أدرى ما إذا كان رأيه سوف يلقى قبولا سهلا حين يقول إن التحدى الحقيقى للرأسمالية لم يأت أبداً فى الحقيقة سوى من اليمين (الفاشية والنازية) لأن الاتحاد السوفيتى حافظ على استقرار النظام الدولى الذى دبت فيه الفوضى بسقوطه ولم يحاول الانتشار خارج حدود يالطا وكان عدوه الحقيقى ليس الرأسمالية وإنما الأنماط ما قبل الرأسمالية والمصالح المرتبطة بها (والولايات المتحدة التى تقف وراءها) وأن السلاح لم يكن سبيله لتحقيق الهدف بل كان سبيله لذلك تكوين جبهة شعبية وطنية تمثل فيها البرجوازية الوطنية كحليف «وهى الاستراتيجية التى بدت وكأنها تنتصر فى البرازيل وإندونيسيا فى أوائل الستينات وشيلى فى عام ١٩٧٠ وعند هذه النقطة تم وقفها بانقلابات عسكرية ومذابح فى الدول الثلاث» (٤٣٦). إذ ألم يكن دور الاتحاد السوفيتى فى خروج الصين وتشيكوسلوفاكيا من المعسكر الغربى خرقا لموازين يالطا، وألم يكن الدور الروسى فى كوبا وأفغانستان إخلالا باستقرار التوازنات الدولية بين المعسكرين عموماً؟

ويبدى هوبسبوم آراء شائقة حول مختلف ما يستعرضه من أحداث وموضوعات فالحرب العالمية الأولى كانت عبثية وكان مقدرا لفرساى أن تفشل لأن الولايات المتحدة لم تضمنها فى النهاية ولأنها استبعدت قوتين كان مقدرا لهما أن

أن تستعيدا عافيتهما وتعاودا الظهور على الساحة الدولية هما روسيا وألمانيا . ذلك بينما أسفرت الحرب العالمية الثانية عن نتائج إيجابية بإعادتها دمج الخاسرين ألمانيا واليابان ونجاحها فى عدم حدوث تصادم بين الخصمين الجديدين (وإن تصارعا) .

والتاريخ لديه هو سجل للأخطاء المذهلة للبشر، مثل غزو هتلر لروسيا ثم إعلانه الحرب على الولايات المتحدة. فقد كان حتما مقضيا أن تخسر ألمانيا حربا تواجه فيها الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة مجتمعين. وهو ما يثير الذهن حول خطأ تقدير صدام فى حرب الخليج الثانية مثلا، وحول أهمية الديمقراطية كضمان ضد أخطاء وشطط الحكم الفردى.

وبرى هوبسبوم فى مجال آخر أن النظام الشيوعى البلشفى لم يكن فى حقيقة الأمر شموليا كما وصف - وإن حاول أن يكون كذلك - وذلك لأنه لم ينجح فى تحقيق الشرط اللازم لذلك وهو «غسل أدمغة الشعب» على النحو الذى صوره جورج أورويل للدولة الشمولية فى روايته الشهيرة «١٩٨٤» وقد اقتصر الإيمان بالعقيدة الشيوعية فى رأى المؤلف على النخب الحاكمة والمثقفة ولم يتغلغل أبداً إلى أعماق الريف.

السياسة الموجهة وسقوط التنظيم

كذلك يعبر المؤلف عن رأيه أن «التنظيم وليس العقيدة كان الإسهام الأكبر» الذى قدمته بلشفية لينين لتغيير العالم». وأن الاقتصاد الموجه Command Economy رتب بالضرورة سياسة موجهة Command Politics ولذا فعندما تخلى جورباتشوف عن مركزية الدولة والحزب «سقط التنظيم» الذى كان يحافظ على تماسك الدولة السوفيتية فأسقطها الجلاسنوست والبيروسترويكا من حيث أريد بهما إصلاحها. وقد تعلمت الصين من رأس الذئب الطائرة فأطلقت قوى الإصلاح الاقتصادى الليبرالى بينما أبقت على النظام المركزى للقيادة (Central Command System) الذى سقط الاتحاد السوفيتى بسقوطه. ومن هنا جاء القمع الذى قامت به الدولة للطلبة الثائرين فى ميدان السلام السماوى (تيانامن سكوير).

> قرن تحكم التكنولوجيا القائمة على البحث العلمى والطفرة الاقتصادية

أما تفسير الكاتب لفشل الليبرالية السياسية في فترة ما بين الحربين فلا يسع المرء معه إلا أن يتساءل مع الكاتب عن مصير تلك الليبرالية الآن وفي المستقبل. فلليبرالية عنده شروط أربعة سقطت جميعها آنذاك، أولها توافر الإجماع، وثانيها وجود توافق بين عناصرها (وهو ما عرقل تحقيق السلام في أيرلندا والبوسنة)، وثالثها عدم قيام الحكومة بالحكم بل بالحد من غلواء وشطط أصحاب النفوذ (فالمفروض أن الفرد يعيش لا في ظل الحكومة بل الاقتصاد والمجتمع المدني)، ورابعها هو الرخاء. وفي غياب هذه الظروف تصبح الديمقراطية «آلية لتقنين الانقسامات بين الجماعات التي لا سبيل للتوفيق فيما بينها».

وعن القوة العظمى الوحيدة يبدي هوبسبوم ملاحظات ثاقبة في الماضي والحاضر، فهو يؤكد أن الحديث عن «تيار انعزالي» في الولايات المتحدة أمراً ينطبق على توجهها نحو أوربا فحسب ولم ينطبق أبداً على مجالها الحيوي الباسيفيكي. ولذا فإنها لم تكن أبداً لتسكت على توسعية يابانية في الحرب العالمية الثانية سكوت بريطانيا وفرنسا في البداية على توسعية ألمانيا. أما في الحاضر فهو يتتبع ما يراه ضعفاً متناميا للقوة الاقتصادية للولايات المتحدة رغم كل المظاهر. ويظهر ذلك من تخلي الولايات المتحدة أوائل السبعينات عن «معيار الذهب» كضمان للعملة وحتى عجزها عن تمويل هيمنتها العسكرية من مواردها الخاصة كما اتضح من حرب الخليج عام ٩١ ضد العراق والتي «كانت إحدى الحروب النادرة التي تحقق فيها قوة عظمى كسبا مادياً».

أخيراً وليس آخرا في مجال آراء هوبسبوم المثيرة للجدل هو ما يخص عالمنا الثالث المتميز بانفجاره الديمغرافي ونزوعه نحو الحكم العسكري. فهو يرى أنه في العالم الثالث والإسلامي وإن كانت النخبة القومية والقوى الدينية كلاهما مناهض للاستعمار إلا أن مقاومة الاستعمار (القديم) جاءت من العلمانيين لا من الدينيين (ص ٢٠٩). وأن الجماهير الفقيرة لم تشارك النخب الإيمان بقيم القرن التاسع عشر الغربية للتطور العلماني، وأن حماية قيم الليبرالية الغربية - من الجزائر إلى تركيا - جاء من العسكر الذين سبق لهم تحرير بلادهم أو من ورثتهم في الحكم (ص ٣٦٩).

وفي نهاية عرض «عصر التناقضات» ألفت النظر إلى النبرة التحذيرية التي أطلقها المؤلف عن مستقبل البشرية في الألفية الثالثة ما لم تنجح في إيجاد دواء لأدوائها البيئية والديمغرافية والمؤسسية والقيمية بتغيير طبيعتها جذريا. إذ ليس أكبر تناقضات هذا العصر التي يلاحظها القارىء ولكن من أقواها دلالة، أن القرن قد انتهى في عام ١٩٩١ بسقوط النظام الأكبر تأثيرا على مساره ومقدراته، ولكن عصر الأزمة الذي بدأ في ثلث القرن الأخير لم تلح نهايته بعد. ■

المصوّر جاك فرنش

فارس الرمزية

في التصوير الأمريكي المعاصر

بقلم
د. صبري منصور

من المسلمات التي يؤمن بها مؤرخو الفن، أن الإضافة الأمريكية للفن الغربي الحديث قد تمثلت في تلك الاتجاهات والمدارس التي نبذت التشخيص واعتمدت على جماليات الشكل الخالص (التجريدية - الفن الحركي - البوب). ومع بدايات الحرب العالمية الثانية هاجر عديد من فناني أوربا إلى الولايات المتحدة، وانتقلت ريادة الحداثة من باريس إلى نيويورك، فقد كان هؤلاء الفنانون اللاجئون من رواد المذاهب الفنية الحديثة التي ظهرت في أوربا قبل الحرب، ومن بينهم كان: موندريان، ليجيه، دو شامب، ومعظم مجموعة السيرياليين: اندريه بريتون، ماكس إرنست، سلفادور دالي، إيف تانجي.

ولقد وجد هؤلاء في أمريكا المناخ الملائم لمواصلة إبداعهم، فلديهم الجمهور المثقف القادر على تذوق وتقدير اعمالهم، وقاعات العرض المتعددة، والمقتنون الأثرياء، والمتاحف الضخمة، بالإضافة إلى وجود تاجر الفن الماهر.

الحنين للوطن - ١٩٤٢



جاك فرنش
فارس الرمزية

ولا شك أن وجود هؤلاء الرواد قد أحدث تأثيراً في المناخ الفني التشكيلي في أمريكا والذي كان من على البعد يتابع تطورات الفن الأوربي منذ بدايات القرن. ومع ذلك فإن هذا التأثير كان محدوداً، فلم يكن المزاج الأمريكي مستعداً للتأثر بالحركة السيريالية، بالإضافة إلى أن الفنانين الأمريكيين كانوا تُواقين إلى إضافة بصمتهم الخاصة والمميزة - النابعة من طبيعة مجتمعهم ونوع حياتهم - على مسار تاريخ الفن الحديث. وبالفعل فقد ارتبطت أسماء فنانين أمريكيين من أمثال جاكسون بولوك، مارك توبي، روشينبرج، أرشيل جوركي، دي كوننج، مارك روثكو، بإسهاماتهم المتنوعة في إرساء قواعد الأسلوب التجريدي وإثراء تجاربه.

لذلك فإن فناناً مثل جاك فرنش يبدو غريباً على هذا المشهد الثقافي الأمريكي، فهو قد اختار منذ الأربعينات أسلوباً تشخيصياً رمزياً بعيداً بل ومناقضاً للاتجاه التجريدي السائد.

أسلوبه الرمزي

وقليل هم الفنانون الذين لم يوضحوا أسلوبهم الفني، أو يتركوا مفاتيح قليلة لفهم هذا الأسلوب، فأعمال فرنش التصويرية التي نفذها في الأربعينات تمتلىء بأشكال إنسانية تشبه التماثيل المصمتة التي لا يمكن اختراقها والنفاذ إلى كنهها وهي مشحونة بالتلميح والإيحاء وتحمل معنى رمزياً أو استعارياً، وتشي بإخفاء نصٍّ معين، فتشحذ الذهن لتحريك مجموعة من الأفكار، وهي بالصدى العميق الذي تحدثه تثري العمل أكثر مما تفسره، فعلى الرغم من قدرة فرنش على تضمين الأفكار الذهنية في وحدات فنية تدعو للتأمل، فإن القوة الحقيقية لصوره تكمن في الغموض الذي يخلفها والذي يحيلها إلى حلم أو ما يشبه الشعر الرمزي.

وتدعو أعمال فرنش إلى إجراء مقارنة بينها وبين لوحات السيرياليين، ولكن ذلك لن يؤدي إلى تطابق كبير بينهما، فالفنان رغم أنه لم يطور إنتاجه الفني بدون الوعي بالنموذج السيريالي، والنظريات النفسية التي دعمته، فإن أعماله لا تلتقي مع تلقائية فنانين سيرياليين أمثال ماسون أو ميرو، وكذلك فإن لوحاته لا تشبه مناظر إيف تانجي العبثية الغريبة، أو أشكال سلفادور دالي المتحللة، فهؤلاء الفنانون عموماً كانوا مهتمين بدمج عالم اللا وعي بعناصر الحياة العضوية، ولكن بالنسبة لفرنش فإنه يعرض العقل اللا واعي أو حالة الحلم من خلال نظام هندسي ورياضي صارم.



إمرأة - عام ١٩٤٨

ولقد اعتبر فرنش أيضاً كواحد من فناني الواقعية السحرية، ولكنه مع ذلك لم يمثل رؤيا غير عادية لعالم عادي معروف، فهو بدلاً من ذلك يخلق رؤيا جديدة تنتمي لعالم الأسطورة مع اتصاله بالعالم الدنيوي في نفس الوقت. إن أسلوب فرنش رغم علاقته بالسيريالية والواقعية السحرية والتصوير الميتافيزيقي فإننا لا نستطيع أن ندرجه تحت أي من هذه التصنيفات الفنية، وإن كانت إعادة صياغته للواقع تضعه بصحبة المصورين رينيه ماجريت وبول ديلفو اللذين أعادا صياغة الحدود بين الموضوعي واللاموضوعي في الواقع، وربما كان فرنش أكثر انتماء إلى تلك الحركة من الفنانين الذين وجدوا ما بين الحربين العالميتين واتجهوا إلى إحياء الأشكال الكلاسيكية بحثاً عن المثالي، مثل المصورين: دي كيريكو، كارلوكارا، كامبيللي، وحتى بابلو بيكاسو الذي استعار في بعض أعماله ملامح من الفن الإيطالي في القرن الرابع عشر.

ولكن فرنش - مع كل ذلك - يظل بوضوح أمريكياً رمزياً في الأسلوب والحساسية الفنية، وهو واحد من المميزين الذين شكلوا حركة التشخيصية العالمية، مع التركيز على الجسم الإنساني وجعله محور العمل الفني ومركزه، وقد خلق لغة تصويرية مستمدة من عصر النهضة والفن القديم، وتمثل أشكاله الكلاسيكية الأصيلة معبراً بين الماضي والحاضر وبين الوعي

جاك فرنش

فارس الرمزية

والللاوعي، وبين النفس والعالم.

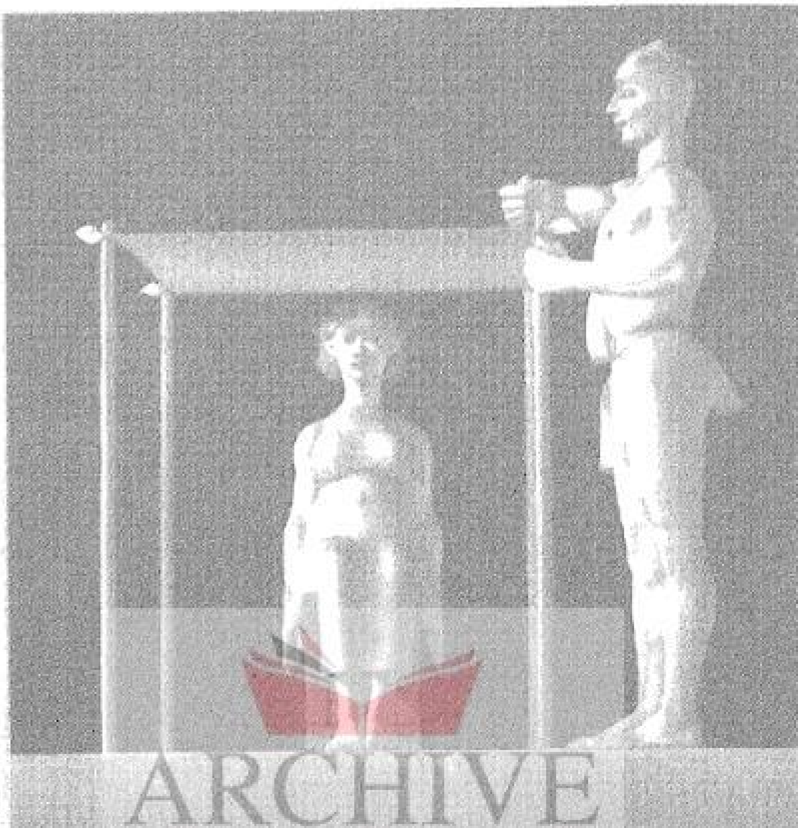
بدايات الفنان

كان إنتاج فرنش الفنى قليلاً، وهو لم يكتب تقريباً شيئاً عن عمله، ونادراً ما تحدث عنه حتى مع أصدقائه، كما لم يترك يوميات أو خطابات أو مذكرات تلقى أضواء كاشفة على حياته، وكل ما هو متاح عن تاريخه مأخوذ من «كتالوجات» المعارض التى شارك فيها بأعماله.

وقد ولد عام ١٩٠٥ وسط عائلة من الطبقة الوسطى فى نيوچيرسى (قرب نيويورك) وكانت والدته فنانة هاوية، ووالده مقاول بناء. واتجه فرنش لدراسة الأدب والموسيقى والفنون البصرية، ومن عام ١٩٢١ حتى ١٩٢٥ درس الشعر على يد روبرت فروست، وبعد حصوله على الدرجة الجامعية انتقل إلى نيويورك حيث عمل كموظف حسابات بشارع المال والتجارة هناك (وول ستريت)، وفى نفس الوقت واظب على حضور دروس فى الفن برابطة دارسى الفن (وهى مؤسسة أهلية تعنى بتعليم الموهوبين) وقد تتلمذ هناك على أيدى فنانين أمثال: بوردمان روبنسون، كيمون نيكولايدس، آلن لويس، تشارلز لوك الذين كان أسلوبهم الفنى ينتمى إلى الرسم الطبيعى، ووصف أحداث الحياة اليومية بدقة، وقد أثر هذا التوجه فى أعمال فرنش المبكرة.

وفى عام ١٩٢١ سافر فرنش إلى أوربا حيث التقى بأعمال الأساتذة الكبار أمثال: بييرو ديللا فرانشيسكا، مانتينيا، روبنز، وبعد جولة فى إسبانيا وفرنسا استقر فى قرية صغيرة بجزيرة مايوركا الإسبانية حتى عام ١٩٢٣. وحين عودته إلى نيويورك شارك فى برنامج قومى لتنفيذ أعمال جدارية بالأماكن والمؤسسات العامة، وبدأ منذ عام ١٩٣٥ فى تنفيذ لوحات جدارية لبعض مكاتب البريد والمدارس والمستشفيات، وقد احتوت موضوعات لوحاته فى تلك الفترة على مشاهد واقعية من الحياة الأمريكية.

وعموماً فإنه قد أمضى معظم سنوات الثلاثينات محاولاً العثور على صوته الفنى الخاص، وقد استمر فى رسم الجسم الإنسانى، مع تطوير اهتمامه بمظاهر البطولة والفتوة. وفى عام ١٩٣٧ تزوج فرنش من الفنانة مارجريت هوئينج، ويكوّن معها ومع صديقه المقرب بول كادموس جماعة للتصوير الفوتوغرافى، وكانوا يقضون شهور الصيف فى (جزيرة النار) وهى منطقة مهجورة وغير مأهولة بالسكان والعمران، وعلى شاطئها المنعزل عثر فرنش على بقايا المنظر البدائى، وكان هو وأصدقاؤه يتخذون أوضاعاً للتصوير غير عادية وموحية، وجاء تصوير فرنش الفوتوغرافى مدمجاً للجسد الإنسانى مع



ساوى - عام ١٩٤٤ ويتضح تأثر الفنان بالفن المصرى القديم فى وضع المرأة الجالسة

أشكال الطبيعة والعمارة البدائية معبّراً عن عالم سحيق لا نهائى، وقد استفاد من هذه الصور كنماذج لأعماله التصويرية فيما بعد.

الاستفادة من الكلاسيكية

وابتداء من عام ١٩٤٠ يلجأ فرنش إلى النسب الكلاسيكية للجسم الإنسانى والمأخوذة عن عصر النهضة الإيطالى، تلك النسب التى ورثها الإيطاليون عن الإغريق والتى كانت تعتمد على الانسجام والتوازن بين أعضاء الجسم، وتظهره فى كامل قوته ولياقته وفتوته وصولاً إلى الشكل المثالى.

وفى نفس الوقت فقد غير فرنش الوسيط الذى كان يستعمله فى التصوير، من استعمال الألوان الزيتية إلى تمبرا البيض، ذلك الوسيط الخالد الذى عرف

جـاك فرنش
فارس الرمزية

منذ أيام جيوتو وربما عرف أيضاً أيام الإغريق. وكل الأعمال التى نفذها فرنش بعد عام ١٩٤٠ قد نفذت بهذا الوسيط على لوحات خشبية، وقد ساعدت هذه التقنية على خلق ضوء متلألىء أضفى لطفاً على أشكاله المرسومة التى تبدو كالنحت . وذلك دون التضحية بصفائها ونقائها، كما تلاءمت المواد المتربة والسطح الناعم لخامة التمبرا مع رؤيا الفنان التى توغل فى أزمان سحيقة.

التحول الى الرمزية

وفى عام ١٩٦٨ نشرت إحدى الدوريات جملة لفرنش حول أعماله يقول فيها «كان عملى مهتماً بتمثيل الأوجه المختلفة للإنسان وعالمه، وبالتدريج بدأت الاهتمام بتمثيل مظاهر نفسية» وعديد من الأعمال منذ عام ١٩٤٠ يعلن دخول فرنش فى التحول من الواقعية نحو الرمزية، وكان ذلك حين اطلع بعمق على كتابات العالم النفسى كارل يونج، وقد كان فرنش ناقداً للاتجاه القمعى الذى يمارسه المجتمع الأمريكى لكل ما هو جسدى شهوانى، لذلك فإنه قد انجذب بشدة إلى أفكار يونج الذى كان يعتقد بأن العالم الحديث بعبادته وتقديسه للعلم فإنه أصبح يعانى من الجدب الروحى، وأن إنسان القرن العشرين الذى نصب العقل كإله مزيف قد فصل نفسه عن عالم اللاوعى الروحى المبهم، كما كان يعتقد بأن العقل يحتوى على طبقة موروثة تمثل اللا وعى الجمعى، وهى مكونة من الرموز المهجورة التى تتواتر من خلال الأسطورة والأحلام والخيال، وهو يؤمن أيضاً بأن تحقيق المساواة بين الوعى واللاوعى هو جزء من عملية النضج الإنسانى، وكان ذلك المفهوم موضوعاً لبعض لوحات فرنش (مثل لوحة الشبيه) التى قام فيها بتصوير العلاقة بين شكلين لإنسان واحد، أحدهما هو الواقعى الفانى أو الوعى، والآخر هو الخالد الباقى أو اللاوعى.

ويمزج العلم بالأسطورة، وبالسعى نحو إجراء مصالحة بين عالم لاوعى الإنسان الروحى مع عالم وجوده الواقعى، استطاعت أفكار يونج أن تطلق العنان لدوافع فرنش الرمزية، والتعبير بعمق عن حالة الانفصام بين الحياة الحديثة وطبيعة الإنسان الفطرية، كما سمحت له بالتحرك بحرية داخل مناطق النفس دون أن يهجر المظهر الجسمانى الطبيعى والعالم المحيط.

ومع أن فرنش كان مشاركاً للشعراء الرمزيين فى أوائل القرن العشرين فى الانغماس فى التأمل النفسى، إلاّ أن رمزيته كانت رمزية شهوانية تتخذ من الجسد وسيلة للتحقق.

مظاهر الإنسان

ومثلما كان لمؤلف يونج «أصل الأنواع



العش - لوحة أنتجها الفنان عام ١٩٦٩ وتمثل المرحلة الأخيرة من أسلوبه الرمزي

واللاوعي الجمعي» تأثير على أسلوب فرنش، كذلك فعل كتاب ويليام بتلر ييتس «الرؤيا» ذلك المؤلف اللاهوتي الذي كان بمثابة تمرين جرىء للخيال، فهو يحاول أن يوضح ويفسر طبيعة الإنسان وحياته الحالية وحياته السابقة في الماضي، أو كل تاريخه . من خلال إطار رمزي قائم على دعائم دوّارة . تتذبذب ما بين الذاتية الخالصة والموضوعية الخالصة، وهي حالات يشير إليها ييتس بالروح الخالصة المتناقضة، فالإنسان محكوم بطبيعته الذاتية، وفي حالات أخرى بالواقع الموضوعي.

ويتضح تأثير ييتس في عديد من لوحات فرنش المرسومة في الفترة من ١٩٤٠ إلى ١٩٥٠، وهي الفترة التي حاول فيها أن يعبر عن الطبيعة الإنسانية من خلال أسلوب رمزي محكم، حيث قسم الإنسان في سبعة مظاهر أساسية هي:

الجسد، الوظائف ، العمل، اللعب، الإنسان (ويشمل اللغة والملابس والحكومة والجريمة) الطبيعة ، الخلق.

جاك فرنش

فارس الرمزية

ثم قام فرنش بتقسيم هذه المظاهر الأساسية إلى تقسيمات فرعية، تلك التي استمد منها موضوعات لوحاته، فمثلاً قسم تصنيف الوظائف الرئيسى إلى : النمو ، الشذوذ، التنفس، التمدد، الجرى، المشى، الأكل، النوم، الجنس، وتضمن تصنيف الخلق الرئيسى :

الفن الزخرفى، التصوير ، النشر، الشعر، الموسيقى، النحت.

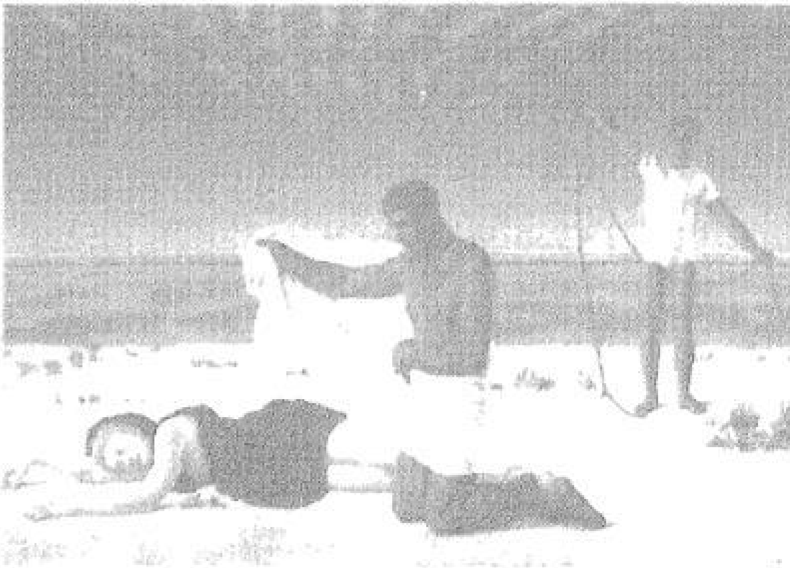
وقد بلغت تصنيفات فرنش لمظاهر طبيعة الإنسان تسعة وأربعين، لكنه لم يستطع أن يعبّر عنها جميعاً، ولم يكن تعبيره عن هذه المظاهر والحالات مجرد رسوم توضيحية للأنشطة الإنسانية، وإنما كان تركيز الفنان الأكبر قد وجّهه نحو استدعاء ماهية الإنسان وحالته الأولية .

وفى أساطير اليونان القديمة والتراث الفنى لمصر القديمة وجد فرنش صوراً مناسبة تماماً لتوضح بشكل مثالى مناحى من الطبيعة، وقد استلهم من هذا التراث الفنى للإنسان فى الماضى البعيد صياغات فنية ذات استجابات طبيعية نابضة وقوية، محاولاً إقامة بناء شعرى لحياة الإنسان المتقلبة والغامضة، تلك الحياة التى كان مؤمناً بأنها القاعدة الأساسية للحقيقة الإنسانية.

وفى الستينات غيّر فرنش صوره، ونوع أسلوبه بإتاحة الفرصة الكاملة للاوعى للإنطلاق بلا حدود أو حواجز، استمراراً لإيمانه بأفكار يونج عن عالم اللاوعى اللامحدود. وانتقل من التشخيصية الرمزية التى سادت أعماله خلال عقدين من الزمان، إلى صياغة تحويرات تشكيلية لعناصر غامضة تتوالد من بعضها فى تراكيب خيالية تتسم بالعفوية والتلقائية.

فلقد سمح فرنش لعالم اللاوعى بالتجوال الحرّ فى مناطق مجهولة الملامح عديمة الانتماء إلى زمان أو مكان كما يتضح فى لوحة مثل (العش) التى ابدعها عام ١٩٦٩ .

ولم يتقبل الوسط الثقافى الأمريكى هذا التحول الجديد فى أسلوب فرنش، وفى معرضه الشخصى السادس والأخير عام ١٩٦٩ أصيب الفنان بالإحباط حين أبدى النقاد - المتقولبون فى نظريات جمالية مسبقة - عدم ترحيبهم بأعماله الجديدة، فانسحب مغادراً نيويورك ليعيش منفياً باختياره فى روما حيث توفى هناك عام ١٩٨٨ تاركاً ابداعه ليتبوأ - بسموه وارستقراطيته وانسانيته - مكانه الحقيقى فى تاريخ الفن كواحد من كبار المصورين الرمزيين فى القرن العشرين. ■



أشخاص على الشاطئ، عام ١٩٤٠



نهايات صيف ١٩٣٩

« بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء » حديث شريف

الغريب

شعر
محيى الدين عطية

ألأنى أحمل فى صدرى عشقا لعباد الله؟
ألأنى أغزل من دمعى حبلا يربطنى برضاه؟
فأدور أفتش عن شاك مستور يكتم شكواه؟
عمن قد يقتله الجوع ولكن لا تمتد يداه؟
أجرى بين يديه عطاء، أمسح عن عينيه بكاه؟
أظفر منه ببعض دعاء، هو أشهى ما أتمناه؟

●●●

ألأنى أهجر دفء فراشى قبل بلوغ الليل مداه؟
أقطع طيب منامى فرحا إذ يسمعنى الفجر نداه؟
إذ يصحبنى الشوق رفيقا كى أسلك دربا أهواه؟
ألقى ربعا فى المحراب تقود مسيرته تقواه؟

●●●

ألأنى أعشق لون الزهر وتأسر قلبى عيناه؟
أدنو منه لعلى أسمع عن قرب ألحان دعاه؟
أستحلفه أن يخبرنى كيف يسبح عنه شذاه؟
كيف إذا مسته النسمة أجفل محمرا خداه؟

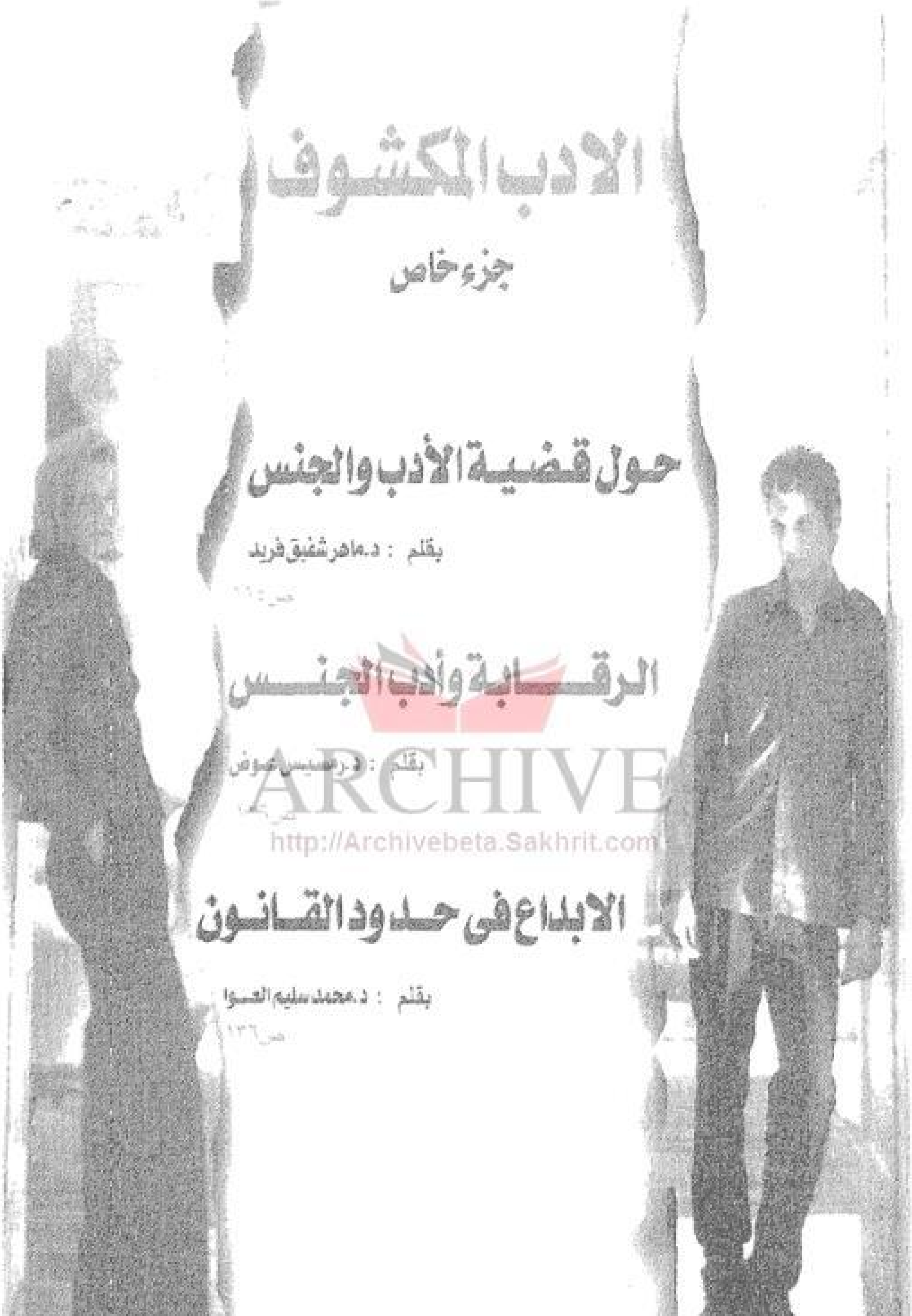
●●●

ألأنى قد أرقص طربا إن أسهمت بزرع نواة؟
فى بلدان قد خلناها منذ قديم أرض فلاة؟
أزهر فيها النبت، ترعرع، حتى أثمر صف صلاة؟

●●●

أغريب أمرى أم أنى مغمور بعطاء الله؟
مشمول بحديث البشرى للغرباء، وما أبهاه؟
مستغن برداء العزة، مذ آمنت، وما أغناه؟

●●●



الأدب المكشوف

جزء خاص

حول قضية الأدب والجنس

بقلم : د. ماهر شفيق فريد

الرقابة وأدب الجنس

بقلم : د. رمسيس عوض

الابداع فى حدود القانون

بقلم : د. محمد سليم العوا

ص ١٣٦

ماذا كتب العقاد ويحيى حقى ولطيفة الزيات فى الجنس ؟!

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

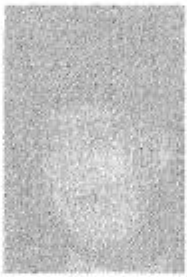
قلّ بين نقادنا من عالج قضية العلاقة بين الأدب والجنس معالجة وافية. هناك، بطبيعة الحال، كتاب الناقد الراحل الدكتور غالى شكرى "أزمة الجنس فى القصة العربية"، ولكنه كتاب صدرت طبعته الأولى عام ١٩٦٢، وقد ظهرت منذ ذلك الحين أعمال كثيرة مهمة مثل "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح و"الضحك" لغالب هلسا و"تلك الرائحة" لصنع الله إبراهيم، وغدا الكتاب بحاجة إلى تنقيح أو على الأقل إلى فصل ختامى يلم بهذه التطورات.



وهناك في فترة أحدث كتب قيمة للدكتور رمسيس عوض عن الأدب والجنس والرقابة ولكنها تقتصر على الأدب الغربي دون أن تدنو من تخوم أدبنا العربي، هناك أيضا أعمال سطحية عن الموضوع مثل كتاب «الجنس والأدب» لمحمد عبدالرحيم عنبر المحامي (وفيه بعض اقتباسات من كتاب غالي شكري ومن مصادر أخرى)، ومقالة لفتحي الإبياري في مجلة «الأدب» التي كان يصدرها المرحوم أمين الخولي، وكتاب للدكتور صلاح عدس ولكن ما أعرفه عن الأمانة العلمية لمؤلفه يقعدني عن محاولة قراءته.

وفي السطور التالية أحاول أن أقدم - من منظور نقدي جمالي - نماذج من معالجات أدبائنا العرب للخبرة الجنسية بكل تنوعاتها مع تعليق سريع يرمي إلى اكتشاف الفروقات الدقيقة بين معالجة هذا الأديب وذاك .

منطلقي هنا إيمان لايتزعزع بأن للأديب كل الحق في معالجة الجنس بصراحة تامة، إني أدعو إلى تحطيم المخاوف الحمقاء من مواجهة الجسم الإنساني، وإلى تخفيف الرقابة على الكتابة الجنسية، وإلى ترك الضمير الأدبي (وهو في جوهره ضمير أخلاقي) يتكفل بتقرير ما إذا كان الشيء المقدم أدبا أو لم يكن.



عباس محمود العقاد

ليس من الصعب أن نتخيل بعض الآثار الجانبية السيئة لهذه المخاوف الحمقاء: سوف ينهمر علينا سيل من الكتابات الرخيصة المبتذلة (وقد انهمر فعلا نثرا وشعرا) وسوف يزدهر في ظل حرمان الشباب - أمثال عزيز أرماني وفؤاد القصاص وإلياس عكاوى : ذلك الثالوث غير المقدس في تاريخ القصة المصرية، وسوف يكون هناك ضحايا لهذه الحرية (أنظر صفحات الحوادث في جرائدنا اليومية وأبواب مشاكل القراء العاطفية) ولكن ذلك كله جزء من ضريبة الانفتاح الفكري ومواجهة الحقائق، والقعود عن معالجة الجنس بشتى جوانبه إنما هو تهرب من قضية سوف تواجهنا إن عاجلا أو أجلا (بل هي تواجهنا منذ زمن ليس بالقصير) كما واجهت غيرنا من المجتمعات مع استبحار العمران، وحلول المجتمع الصناعي بقيمه الجديدة محل مجتمع القرية، ومع اطلاعنا على تجارب الغير في عصر الحاسوب والإنترنت والسموات المفتوحة، ومع تغير وضع المرأة وتطور عقلية الرجل.



المازني

ليست هذه دعوة للأدباء إلى فحش القول وهجره، فالفحش مبتذل دائما إلا أن تفتديه روح فكاهة أو طاقة حيوية غامرة من النوع الذي نجده عند شكسبير ورابليه وبلزاك وهنري ميلر .

والأدب يرقى بمقدار بعده عن التعبير المباشر، وإحلاله المجاز محل الصورة الواقعية المباشرة، ولكن للأديب الحق أيضا - إن دعا السياق - في أن يسمي الأشياء بأسمائها، وله - بل عليه - أن يصل إلى أعمق جذور المخاوف والذكريات والرغبات، والفيصل في

هذا كله هو نوع حساسيته الفنية، وإطلاعه علي تجارب السابقين، وخبرته بالحياة، وقدرته على مزج الواقع بالخيال، ورفعه الجنس إلى القضية الوجودية .

على ضوء هذه الملاحظات التمهيدية أتقدم فيما يلي لرسم معالم الخبرة الجنسية كما صورها عدد من القصاصين والأدباء والمفكرين المصريين من أكثر من جيل .

العقاد :

تعاني «سارة» – رواية عباس محمود العقاد الوحيدة – من عيوب فنية كثيرة أهمها اللجوء إلى التقرير بدلا من التصوير، مما يجعلها أشبه بسجل حالة (وهو ما ألمح إليه د.على الراعي في دراسة نافذة أثارت غضب العقاد) ولكن فيها تحليلات طيبة، تكشف – في حدودها – عن صدق بصر المؤلف كقوله عن سارة :

«عاشت بعد ذلك تنظر إلى خطايا الأديان نظرة المرأة الوثنية التي نشأت قبل أن ينشأ الأنبياء فهي لبست كالمتدينة التي خامرها الشك في دينها، ولكنها كالمرأة التي لم تتدين قط ولا قبل لها بالتدين، من نزعة طبيعية فيها لا عن بحث ونقاش وإطلاع، ومثلها كمثل الطفل يأكل الحلوى خلسة إن لم يأكلها جهرة، وأباؤه مع ذلك هم الملومون لأنهم منعوه، وليس هو بالملوم لأنه اختلس مالابد له من اختلاسه.

ليست غواية الجسم عندها كجوع الحيوان يشبعه العلف، ولاكضجر المدمن يخدره العقار، ولكنها كرعدة الحمى وصرعة الفرح الجموح، يتبعها النشاط والمرح كما يتبعها الإعياء والبكاء» .

هذه السطور الأخيرة تمس خصوصية الجنس عند سارة، وهي – بوضوح – ثمرة خبرة حميمة تعرف عم تتكلم . ولهذا نعدها من أعمق استبصارات العقاد .

مــاذا كــتــب العقاد ويحيى حقي ولطيفة الـزيـات فـي الجــنــس؟!



المازني

كان ابراهيم عبدالقادر المازني أرهف أبناء جيله شعورا بالعاطفة الجنسية، فعلي حين حالت ظروف طه حسين البصرية بينه وبين توسيع خبراته أفقيا، وعلى حين وقفت عقلانية العقاد الصلبة حائلا بينه وبين إسلام ذاته (أمام القراء على الأقل) تجد المازني شديد الاهتمام بالمرأة، يقظا إلى حيلها، متذوقا لجمال البدن الأنثوي، بارعا في تسجيل مناوشات العشاق والأخذ والرد بينهم مما يقطع بأن خبرته بهذه الأمور كانت واسعة مباشرة .

ومما يضفي وزنا على معالجة المازني للجنس، خاصة في رائعته «ابراهيم الكاتب» أن لهذه المعالة سندا ركينا من قراءاته الواسعة وثقافته الفلسفية . فهو على وعي بما قاله شوبنهور وغيره من حيل

الطبيعة وكيف تتفنن في إيقاع الذكر في براثن الأنثى عملا على إبقاء النوع والحفاظ عليه، وهو متأثر بفلسفة الخيام الداعية إلى انتهاب اللذات وبتأملات المعرى الزاهدة في آن واحد (فيما بعد خبر كمال عبدالجواد - بطل ثلاثية نجيب محفوظ - حيرة مشابهة) من هذا التوتر الخلاق بين الشهوة والتنسك، بين الاقبال والعزوف، تكتسب خبرات ابراهيم الكاتب خصبها وعمقها .

وفى كتاب المازني «خيوط العنكبوت» قطعتان ذاتا دلالة، كان الدكتور مصطفى ناصف فضل توجيه الانتباه إليهما في كتابه الرائع عن رمز الطفل عند المازني، القطعة الاولى ترد في قصة «الراعيان» وهى صورة وصفية من العهد القديم تصف كيف تنبه فتى - أو آدم - إلى أنوثة رفيقته - حواء - لأول مرة :

«وقعت نحلة صغيرة على صدرها واعتدلت تمشى بين ثدييها فافزعتها وأطارت نومها وصرخت، ولما رأت صاحبها يضحك عادت تفرك عينيها، وأزت النحلة بين نهديها فصرخت مرة أخرى فضحك الفتى ثانية ورفع يمينه بين ثدييها وأخرج هذا الطفيلي وأراها إياه فتناولته وقبلته وألقت به حيث كان وتركته يمشي ويغنى إذا استطاع.


توفيق الحكيم

ولكن الفتى كف عن الضحك بعد أن لمست راحته صدرها وأحس ثدييها ناهدين على جانبي يديه، وشعر بضلوعه تنطبق وبقلبه يوجعه كأن فى جوفه سما، وراح ينفخ ويلهث كأنما كان قد قطع خمسين فرسخا جريا، وزاغ بصره وصار يرى الشيء اثنين وأربعة، فنهضت إليه تسأله ما له؟ فارتمى على الأرض ووجهه إلى السماء، وهو لايزال يزفر كأن فى جوفه بركانا فرفعت رأسه بكفها وحنت عليه تمسح له جبينه وخده بالأخرى، فسرت رعدة في بدنه تلاها مثل نار الحريق فطوقها وضمها إلى صدره وعرفا بعد ما نابهما!».


يحيى حقى

والقطعة الثانية تدعى «ليلة سوداء» وفيها يتمشى الراوى بين المقابر فى ليلة مظلمة فيسمع نجوى عاشقين لايأبهان لجو الموت المحيط بهما (لاحظ قران الجنس والموت عند المازنى) ويدور بينهما هذا الحوار المعبر:

- استنى بس لما أكلمك
- وأنا مش عاوزه أكلمك
- أمال عاوزه إيه؟
- عاوزة أبص لك كده، عاجبنى وأنت بوزك شبرين، بوز والنبى تبوز.

ضحكة خشنة

- ياباى بتضحك ليه؟
- عشان كلامك يضحك

– لكن أنا مش عاوزاك تضحك، عاوزه أشوفك مبوز وأنا أديك بوسة

– هو التبويز بالكيف؟ ما دام مبسوط أبوز أزاى؟

– باباى عليك! امبارح كنت حلو وأنت مبوز

– يابت أنت تكونيش عبيطة؟ حد يبوز وهو مبسوط؟».

إلى أن تقول الفتاة:

– «أه مش أنت لعبتى؟

– لعبتك؟

– أه لازم أخلق لك حاجات تعذبك ولازم أكيدك، ولازم أسمع أنك بتعيط.

وبسرعة أمسح لك دموعك وأبوسك.

وكأنما التقت الشفاه فى قبلة طويلة مستغرقة فقد صمتا هنيهة ثم تنهدت الفتاة تنهد الرضا والاغتباط، ثم صار صوتهما أخفت وهى تقول أو تهمس:

خدنى على صدرك .. لا مش قوى كده .. بالراحة .. خلينى كده شوية».

ماذا كتب العقاد ويحيى حقى ولطيفة الزيات فى الجنس؟!

توفيق الحكيم

عالج توفيق الحكيم خيط الخيانة الزوجية فى روايته «الرباط المقدس» وفى عدد من الأقاصيص والمسرحيات وفى مسروايته «بنك القلق» يعالج خيطا جديدا هو جو القلق والتوتر الذى أشاعته مراكز القوى فى الحياة المصرية قبل أن يقوم أنور السادات بما دعى حركة التصحيح، كما يصور ما كان لإرهاب تلك المراكز من أثر وبيل فى معنويات الناس وأمنهم.

إن توفيق الحكيم يراوح هنا بين السرد القصصى والحوار المسرحى ويمزج ببراعته الفائقة بين قضايا الذهن ومشكلات المجتمع، حتى ليدهش المرء من هذه الحيوية الذهنية الدافقة التى ظلت تغذو كتاباته حتى النهاية. وبطلا الرواية – أدهم وشعبان – يفتحان بنكا للقلق بعد أن رأيا أنه هو العملة السائدة فى هذا العصر، ويتبنى مشروعهما وجيه يدعى منير عاطف. ومن خلال زبائن البنك المتباينين نرى أكثر من وجه لقلق الانسان فى العصر الحديث.



والعنصر النسائى يتمثل فى الشابة المطلقة مرفت وخالتها فاطمة التى دنا شبابها من الأفول فهى تشتهى شباب شعبان، وفى مشهد بارع، يفوق المشاهد الجنسية فى «الرباط المقدس» يصور الحكيم لقاءهما الحسى الأول:

«سار كل شىء بعد ذلك سيرا طبيعيا سريعا وتوالت تفصيلات يكاد كل منهما لايذكر منها شيئا، وتم الانتقال من الكنبة إلى

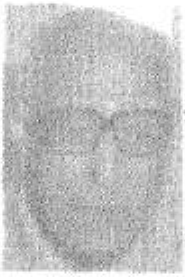
السرير دون أن يشعر أحدهما كيف تم، وقد راعى شعبان رغبتها فلم يتركها إلا بعد أن تراخت قبضتها عليه فانفلت منها بلطف وعاد إلى الكنبة وارتدى ملابسه وأخذ يدخن سيجارة، وهي ماتزال فوق الفراش في شبه غيبوبة.

إنها ليست عانسا بالمعنى الحقيقي فهي ليست بكرا. ويبدو أنها لم تتصل برجل منذ زمن طويل: رأى ذلك في نظراتها وفي تشبثها بكتفيه كأنها لاتصدق ماهي فيه. تملكها شعور المرأة التي ذبلت ففقدت الأمل في المتعة مع رجل. ونفث الدخان من سيجارته ونظر إلى ذلك الجسد الممدد الغائب في نشوته وأدرك حجم تلك المتعة التي تلقى إلى محروم. العجيب أنه وجد في ذلك متعة له هو أيضا. إن السعادة معدية كالمرض، وهذا الامتنان الصامت الذي يتلقاه من هذه المرأة يملؤه غبطة، إنه أراد التوسل بها إلى أخرى لكنها هي أيضا لها مذاقها وهو من نوع آخر. إنها لفرط تقديرها لما نالت تشعرك بلذة الكرم، إنه الآن أدرك أن زير النساء الحقيقي هو قبل كل شيء رجل كريم، إنه يحب كل النساء ولايفرق بين سن وسن، يحببن أحيانا لأنفسهن، متعته أن يمتعهن.

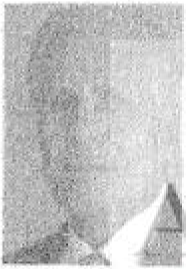
ونفخ مرة أخرى الدخان من سيجارته ونظر بزهو ورضا إلى جسد فاطمة نصف العاري فوق السرير وهي تتنهد ثم راقبها وقد أفاقت وحركت أعضاءها. ثم فتحت عينيها والتفتت حولها فلما وقع نظرها عليه أسرعت بلم أطراف ثوبها في حياء، وابتسمت، ثم نهضت واستوت على قدميها وقالت له برقة: تحب تأكل شيئا! ..

أحضر لك فاكهة؟.. انتظر لأرى ماذا يوجد في المطبخ».

زكي نجيب محمود



د.زكي نجيب محمود



د. يوسف ادريس

لعله ما لا يجود الأدب في وصف الرغبات المشبعة قدرما يجود في وصف الرغبات المحبطة، إن جحيم دانتي أبلغ - لدى الكثيرين - من نعيمه أو مطهره، ربما كان ذلك راجعا إلى أن الاحباط يلتمس في التعبير الفني منفذا على حين يكتفي الاشباع بذاته، يعيش الخبرة دون شعور بالحاجة إلى ترجمتها على شكل كلمات أو أنغام أو ألوان.

و«قصة نفس» هي العمل القصصي الوحيد للدكتور زكي نجيب محمود. إنها تترجح - كما لاحظ يوسف الشاروني - بين فن الرواية والترجمة الذاتية، وهي - مثل «رحلة نحو البداية» لكولن ولسون - سيرة ذاتية عقلية لايقل دور الأفكار فيها عن دور الوقائع، لا بل إن الأفكار فيها وقائع تتغير وتتحول وتتنمى والرواية - مثل بعض مسرحيات الحكيم الذهنية - أقرب إلى الفكر المجرد الذي يعوزه نبض الواقع ودماؤه، وإن تمكنت - في لحظات قليلة - من الدمج بين الفكر والشعور.

ماذا كتب العقاد ويحيى حقي ولطيفة الزيات في الجنس؟!

- من هذه اللحظات وصف الراوي لهذا الموقف الذي ينتهي بلوعة وإحباط:

«جاءتني فتاتان سودانيتان مازلت أذكر منهما لغة العيون التي تناديك في إغراء، بل في إغواء صامت دون أن ينطق اللسان بكلمة، كما أذكر منهما صدورا ناهدة تستثير أصابع القديسين أن تمتد لتجمش، كانت سمراوين أفتح لونا من اللون السائد بين نساء السودان وأغمق لونا من اللون السائد بين نساء مصر، جلستا على الحصيرة واتكتا على الذراعين، راكعتين على الركبتين، كأنما دربتا أن تقوما بهذه الحركة معا في توقيع موسيقي، وشخصتا إليّ بعيون ضاحكة وشفاه باسمة كاشفة عن أسنان ناصعة البياض، وقالت إحداهما- وردّدت الأخرى قولها - «إنك لتتململ قاعدا راقدا، باسطا ذراعيك قابضا لهما، كأنما في القلب جمرات نحن نعرفها» فأخذتني رعشة هزت كياني هزا من أعلاه إلى أسفله ومن باطنه إلى ظاهره، فكأنني هذه الساعة أسمع ما دق به قلبي دقا عنيفا، وتذكرت الدنيا المسحورة العجيبة التي طالما حدث عنها الأصدقاء والتي طالما ارتعبتها، وخيل إليّ أن تلكما الفتاتين هما اللتان أرسلهما الغيب لتفتحا الباب الذي لبث حتى تلك اللحظة مغلقا، لا أدري ماذا وراءه إلا عن طريق الرواية، لكني تذكرت كذلك أن علامات النضج التي هي جواز المرور إلى داخل العالم المسحور لم تظهر بعد فقلت لهما بأنفاس متقطعة: «لكني مازلت صغيرا» فضحكتا في دلال لا يعرفه إلا من عرف كيف تدل الفتاة السودانية بأنوثتها، وقالت إحداهما - وردّدت الأخرى قولها - «صغير؟! هذه هي السن التي جئنا نبحث عنها» فلم أشعر عندئذ إلا بالقشعريرة الشديدة تلم ببدني كأنها الموت الداهم، وجمعت حصيرتي وأسرعت عائدا، تاركا ورائي فتاتين تضحكان ضحكات عالية الرنين».

هذه فقرة صادقة تترجم بإخلاص - وأسلوب أدبي رفيع عذابات الشباب في فترة المراهقة: وما أبعدها عن النرجسية التي تبتدى في مثل كتابات الدكتور سهيل إدريس، خاصة «أصابعنا التي تحترق» وهي رواية أبدع أنسي الحاج حين وصفها في مقالة له (مجلة أدب، بيروت، خريف ١٩٦٢) بأنها «وفقت في أن تجمع إلى التقليد والسطحية العارمة، جرأة مفتعلة مؤسفة وخفرا أبله».



يحيى حقي

تحقق قصة «الفراش الشاغر» - وهي من أعمال حقي في مرحلته الأخيرة - ركنين كبيرين - أحدهما فني والآخر أخلاقي. والفن والأخلاق فيما نعتقد توأمان لا ينفصلان وإلى انفصالهما

ترجع ضحالة جزء كبير من رصيدنا القصصي المعاصر. ويحيى حقي واحد من القلائل الذين جمعوا بين البراعة الفنية والنظرة الأخلاقية. فالفن عنده سلوك أخلاقي. والأخلاق سلوك فني. وإلى التحام هذين العنصرين في إنتاجه ترجع أهميته.

تلجأ قصة «الفراش الشاغر» (نشرت لأول مرة في مجلة «الكاتب» في الستينيات) إلى استيحاء الشكل الأدبي الأوربي المعروف باسم الألجورية. والألجورية لون أدبي يجمع بين خصائص الواقعية والرمزية فهي تتوسل بالواقع إلى الرمز، وبالمجسد إلى المجرد، وبالنسبي إلى المطلق. لا تستهدف وجه الفن وحده وانما تستهدف أيضا وجه التعليم والإرشاد. هنا يتحقق المفهوم الكلاسي القائل إن غاية الأدب هي الامتاع والإرشاد «ومما له دلالة أن حقي من أدبائنا القلائل الذين تنطبق على عملهم مواصفات النقد الكلاسي ومتطلباته». فما من فن يستحق هذا الاسم إلا وهو يعلم أيضا، وما من إرشاد فني إلا وهو يمتع أيضا.



يوسف الشاروني



الطيب صالح

إن الألجورية بطبيعتها ارتياد العالم الفكر والروح، وارتفاع عن جزئيات الحياة اليومية، واقتراب من مشاكل الكون العليا، ودعوة إلى التحرر من إسار الواقعية. إنها شكل لا يجيده إلا الكاتب البصير بأسرار النفوس الراصد لتحركات الروح، التواق إلى قيم الحق والخير والجمال. لهذا كان اصطناع هذا الشكل الأدبي ثمرة طبيعية لتلاقي الفن والأخلاق في نفس يحيى حقي. إنه يكتب من وحي حسه الأخلاقي المرهف وحسه الفني المرهف. وهو قادر على إثراء الشكل الفني لأنه قادر على إثراء الروح والوجدان.

قصة «الفراش الشاغر» شاهد على قبر الإنسانية حين تسف وتنحدر، ولذلك فهي كتيب أخلاقي. إنها «إمالة رأس القارئ لحظة على الهوة ليدرك بشاعتها» وسواء بعد ذلك أن يتعظ القارئ أو يتردى. فانما كل نفس بما كسبت رهينة. وانحدار الإنسانية إلى اللاإنسانية كما يصوره حقي، أمر مخيف حقا فهو يعني تفسخ الروح الإنسانية وتعفنها وانحلالها وفقدانها القدرة على التمييز بين الخير والشر. هنا تتمحى الحدود ويظلم الكون ويموت كل شيء جميل. إن القصة، بهذا المعنى، تحذير موجه إلى عالم يقترب من الهوة شيئا فشيئا.. ولا يعلم ما هو صانع بنفسه. لأن تعوده على الخطيئة أظلم وعيه الروحي.

والقصة - ككثير من الأعمال الفنية الكبيرة - تبعث على الكآبة، إنها أشد إخلاصا من أن تخدع قارئها أو تساير أوهامه أو تتملق غروره. هي قصة ترتكز على عنصري الجنس والموت، وترينا الإنسانية حين تمتهن على عتبات هذين الأمرين.

الجنس في هذه القصة ليس الشرارة الإلهية التي تغنت بها أساطير القدماء وآدابهم. وأعاد د. هـ. لورنس إضرام جذوتها في

القرن العشرين ليس الجنس هنا طاقة حيوية ولا قوة دافعة ولا عملية خلاقة. انه قرين الموت وضجيع الانحراف وخدن الشذوذ وآية الضياع. الأبطال هنا حالات فرويدية ذات دلالة: «الزوج ينادي امرأته بيا أمي وهي تناديه بيا أبي ويناديان ابنهما الوحيد بيا أخانا والابن ينادي امه بيا عروستي». وعقدة الاخصاء ماثلة في الجو دائما: «يحدث مرارا وهما يتدابران وينصرف أحدهما عن الآخر أن يلتفت الاب وراءه فيجد ابنه ملتفتا اليه في اللحظة ذاتها. يحس الابن انه يتلقى نظرة متجسسة متوجسة، ويحس الأب أنه يتلقى نظرة تبحث عن مشرط لامع مخبأ في قبضة اليد وتنقلب النظرات المتبادلة إلى ابتسامات الخجل والاعتذار ممن ينكشف لعبه ثم تتحول الابتسامات مرة أخرى إلى نظرات تنطلق بالفهم والمحبة والاعزاز». والجنس قد فقد حيويته وحرارته: «طلع على الفتى يوم من أيام الخريف استكان فيه النيل بعد هياجه وانقلب ذوب عناية المنحدر من الجبال البعيدة إلى سمرة وطنية داكنة متموجة كجلد السمك. فرغ من لقاح الأرض ودخل حجره لينعس فيه طول الشتاء». ولما فقد فحولته أصبح لا شيء مثله يوحي بالقشعريرة وظلمة الأعماق والثقل العظيم. وشر ما ينحدر إليه الجنس هو ان يغدو أخذا - بل مبشا - لا عطاء فيه: «لم يجد الفتى بعدها لمتعته اشباعا ولا لجرحه لسانا يلعقه الا في أحضان تاجرات الهوى. ليس لواحدة منهن حق عليه فلا مسئولية عليه قبلها. انه يريد أن يشتري بالنقد لا بمبادلة شيء بشيء».

ماذا كتب العقاد ويحيى حقي ولطيفة الزيات في الجنس؟!

وفي ظلال الضعف والسلبية تجد الجنسية المثلية مرتعاً خصبا: «أدرك صبي الحانوتي أن الفتى أصبح لا يستطيع فراقه ورأى ابتسامته تزداد رقة ووداعة ونظرته تعسيلا وجسده ارتخاء فأخذ الصبي إذا جلس إليه الفتى التصق به ووضع ذراعه فوق كتفه وهبط به إلى خصره لا يكلمه الا بوضع الفم على الإذن ليهمس له بكلام، ولما ظن أن الطبخة قد نضجت وسوس له ذات يوم: سلم نفسك إلي إن كنت حائرا بها. لا تتدلل ولا تخف فداخل الدكان ظلام فيه نعش كبير يسعنا نحن الاثنين. فكان الفتى ينحي عنه الثعبان الأصلع والنجم ولكنه لا يغضب ولا يتأفف لأن ذهنه سارح في ملكوت القبور». وهكذا ينقلب الوضع فبعد أن كان الجنس تجسيدا لارادة الحياة والخلق أصبح تجسيدا لارادة الموت والعدم. إن الايروس اذا استخدمنا تعبير فرويد قد تحول إلى الثاناتوس.



وما أروع وصف يحيى حقي للتناقض بين ضعف الفتى وسلبيته وشهوة المرأة الحارقة:

«على هذه الملة السلك لقي الفتى صدمة حياته. زلزلت كيانه فانهدمت أوهامه وبقي هو عاريا وسط أنقاضها يلعق حيرته. ففي الليلة الأولى ذاتها انقلبت هذه الفتاة الخام الساذجة إلى وحش

ضار مفترس. العيون المسبلة أبرقت كعيون الصقر المتحفز تنبعث منها في جوف الليل نظرة متقدة كأنها وميض سيف أو ذوائب لهيب. لو مرت بعود ثقاب لأشعلته. نار لا تطفئها مياه الانهار المقدسة كلها. نظرة تلحس جسده كالمبرد. والجبين الذى لا يلمع بفكرة اصبح مسطورا عليه - يدل القدر أمر أداء صادر من محكمة مستعجلة لا يقبل التأجيل أو الاستئناف. الشفاه الرقيقة المطبقة انفرجت عن رعشة تلهث الفم يتلمظ ولا يستقر على هيئة واحدة. هو تارة فوهة بركان مستديرة وتارة بطن دوامة مكورة، كالقمع وتارة مستطيل كشق الخنجر تقلصات متتابعة كأنما في حلقها خطاف تجذبه يد بلا رحمة. وانكشفت اسنان تلألأ جوعها فتطاير من حولها الظلام مذعورا، والأعضاء التى كانت تزعم أنها فقدت فتنتها في شيوع الجسد استرد كل منها حقه واغتصب لنفسه فتنة الجسد كله. اشرأب ابهام القدم وطلب العلا وزادت الضراوة حدة لشدة التناقض فقد بقي الكف منبسطا مستسلما واهيا والذراع رطبا والرضاب شهدا زلالا والنفس نفس طفل غرير».



صنع الله ابراهيم

يوسف الشاروني

في قصة يوسف الشاروني «لمحات من حياة موجود عبدالموجود» (يوليو ١٩٦٩) يهبط الراوى وهو طالب من الأقاليم الى القاهرة فيستأجر غرفة من أرملة لا تلبث أن تغويه. بينما تزوجه ابنتها. وتقترن لذته بشعور عميق بالإثم: «كانت معلمتي قديرة خبيرة تستأنس الحيوان البرى الوجل. أسمع طرقات على الباب تفسد متعتنا، لا أجد إلا الريح، فأواصل ما انقطع، وأنا منزلق في الكهوف السحرية. أخفي خوفي في مصدر خوفي.



غالب هلسا

البيت يطل على الساحة، الساحة فيها مولد، المولد فيه سبعون ألف إنسان، لكل إنسان سبعون ألف يد، بكل يد سبعون ألف مداس، بكل مداس سبعون ألف شمعة. وهم يتمايلون وينشدون: عملنا المحظور، وقع المقدور، أنت الغفور»، ولا تلبث عروسه ان تنتحر حين تكتشف علاقته بأمها.

وفي قصة أسبق هي «الزحام» (فبراير ١٩٦٣)، يتكرر نفس الإثم: الزنا بالمحارم فالراوى - وهو محصل أتوبيس - يعاشر امرأة أبيه بعد موته: «في ليلة الأربعين كان عليّ أن أكون بجانب عواطف أستقبل المعزين. في تلك الليلة اكتشفت صوتها، كيف لم أكتشفه إلا الليلة. نطقها المتكسر كأنه نداء، فيه بحة كأنه رغبة. ليلتها لم أنم بعيدا عنها، لم يفصل بيني وبينها اخوتي. بل نمت تحت سريرها مباشرة، كان هذا في أول الليل غير انه حدث في

منتصفه آن وجدت نفسي أرقد حيث أبي كان يرقد . في تلك اللحظة اكتشفت قدميها .اكتشفت أصابع قدميها كنا مجنونين رغبة، ثم غفت فغفوت» . وبعبقرية ملهوية فريدة يصور الشاروني شعوره بالذنب : «في الفجر لمحت والدي في ركن الغرفة يرتدي بذلة مفتش في شركتنا وقد جلس متربعا وهو يتمايل يمينا ويسارا، المانوفستو بيده ينشد منه:

آه يا جبار يا قاسي

أنا أبوك يا ناسي»

هكذا تلتحم الفكاهة مع حس المأساة في عالم الشاروني، وينتهي بطله بالذهاب إلى مستشفى الأمراض العقلية، وفي كل قصصه التي تتناول الخبرة الجنسية نجد أصداء، أحسن الكاتب تمثلها، من الفلسفة الوجودية، والسريالية، والتعبيرية مما يضعنا في قلب العصر.

لطيفة الزيات

ماذا كتب العقاد ويحيى حقي ولطيفة الزيات في الجنس؟!

وهل يمكن أن تكتمل هذه الجولة دون إطلالة على عالم الجنس من منظور المرأة الكاتبة؟.

إن رواية «الباب المفتوح» التي نشرتها لطيفة الزيات في ١٩٦٠ من أنضج نماذج الأدب النسائي عندنا، هذا الأدب الذي - مازال قصة وشعرا ومسرحا ومقالا ونقدا - مترديا في هاوية التخلف، والعجز عن الارتقاء من مرتبة الأنوثة إلى مرتبة الإنسانية المكتملة مع التسليم بوجود استثناءات قليلة من هذا الحكم.

وتغطي أحداث الباب المفتوح عشر سنوات من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٦ تقع فيها أحداث مهمة كهجمات الفدائيين على معسكرات الانجليز في منطقة قناة السويس، وحريق القاهرة، والعدوان الثلاثي على مصر في ١٩٥٦، وتلتحم هذه الأحداث العامة بالخبرات الخاصة لليلى بطلة الرواية: نلتقي بها في البداية فتاة في الحادية عشرة، ونودعها شابة في الواحدة والعشرين.

وتحتل العلاقة بين الجنسين مساحة واسعة من الرواية، وتصور بأسلوب شاعري بارع إن ليلي تسترق السمع إلى حديث الدكتور رمزي مع محمود.

«أنا حا احكيلك حكاية يا محمود ماقلتهاش لحد قبل كده، ولكن أنت أخويا الصغير ومش ممكن أبخل عليك بتجربة من تجاربي.. لما كنت طالب في الجامعة حبيت بنت ساكنة في الدور اللي تحتي - وبقيت أقعد بالليل في الضلمة أسمع أم كلثوم وأعيط، وأسهر للصبح وأنا باكتب قصيدة شعر لحبيبتي وأنزل ألاقيها مستنياني على السلم بمريلة المدرسة أعطيها القصيدة وكل حته في جسمي بترتعش وفاتت الأيام وابتديت أخرج معاها وحبي لها بيزيد يوم بعد



يوم. والدنيا جميلة فى عينى ونويت إنى اتجوزها بمجرد ما اتخرج. ماكانش ممكن أتصور نفسى عايش يوم واحد من غيرها.

واتسعت حدقتا ليلى فى دهشة وابتلعت ريقها.

واستأنف رمزى كلامه:

- وفى ليلة كان أهلها مسافرين وفتحت لى الباب وقمت من على الكنبة وبصيت لها وهى لسه متمددة وعرفت فجأة إن حبى لها خلص. خلص فى اللحظة دى».

ولكن الثلثين الأخيرين من الرواية ليسا مكتوبين على نفس هذا المستوى الرفيع. إن قيمة الرواية إنما تنحصر فى ثلثها الأول فحسب.

وبعد..

عند هذا الحد تنتهى جولتنا، وقد كان منطلقها - طوال الوقت - حقيقة تكاد لفرط وضوحها أن تكون مبتذلة: إن العلاقة بين الرجل والمرأة موضوع أساسى من موضوعات الأدب، بل لعله أن يكون فى طليعة هذه الموضوعات فالغريزة التى تجذب الرجل إلى المرأة والمرأة إلى الرجل، وكل تنوعات العاطفة من حب وكراهية وغيرة، خيوط ظلت تشغل الأدباء مذ كان الأدب لأنها مشتبكة الجذور بالطبيعة البشرية، لا يكاد يطرأ عليها تغير يذكر من جيل إلى جيل.

والدلالة التى نخرج بها من النماذج التى سقتها هى أن معالجة الجنس إذا أريد لها أن تكون جادة وعميقة لا يمكن أن تتم فى فراغ وإنما ينبغى أن تصدر عن موقف فكرى محدد: فلسفى أو دينى أو وجودى أو نفسى أو اجتماعى أو فيزيقى. تماما كما ترتبط معالجة هذه الغريزة عند الروائى الانجليزى توماس هاردى بفلسفته فى الطبيعة وإيمانه بأن البشر لعب فى يد قدر قاس يتخذ من الجاذبية المتبادلة بين الرجل والمرأة أداة لإيقاعهما فى الشرك وإيرادهما موارد العطب، أو على نحو ما ترتبط معالجة د. هـ. لورنس للجنس بإيمانه بأن العقل قد يخطئ، أما اللحم والدم فلا يخطئان.

ومما يبعث على التفاؤل أن فى أدبنا العربى المعاصر - وفى القصة بخاصة - نماذج ممتازة من أدب الجنس غير ما أشرت إليه هنا: نجيب محفوظ، يوسف إدريس، إدوار الخراط، سليمان فياض، شوقى عبدالحكيم، جبرا إبراهيم جبرا، حليم بركات، زكريا تامر، الطيب صالح، حنان الشيخ وغيرهم ممن لا يكفون عن استكشاف هذه القضية استكشافا شجاعا لا إسفاف فيه، فى ظروف مجتمع لا يكف عن التشرنق والتحول. ■

الرقابة وأدب الجنس

بقلم
د. رمسيس عوض

الأدب المكشوف مصطلح درج النقاد على استخدامه للدلالة على ذلك النوع من الإنتاج الأدبي الذي يخوض في تفاصيل الجنس بهدف استثارة أحط الغرائز عند الإنسان، ويرفض النقاد - ولهم كل العذر في ذلك - اعتبار الأدب المكشوف فرعا من فروع الأدب الجاد . ولكنه الخط الفاصل بين الأدب والجنس الرخيص والأدب والجنس الجاد أبعد مايكون عن الوضوح أو الجلاء في كثير من الأحيان . ولهذا نري أن الرقابة كثيرا ما تتدخل لمصادرة بعض أنواع الأدب الجنسي التي قد تبدو رخيصة ومبتذلة في باديء الأمر ثم يتضح للفاحص المدقق أنها نظيفة وراقية بعد فترة من الزمان . وفرض الحظر علي مثل هذه الأعمال الأدبية قديم قدم الحضارة الإنسانية نفسها . ولكنها كلما ارتفعت المجتمعات البشرية في مدارج الرقي والتقدم ، وكلما رسخت أقدامها بالأعراف والتقاليد الديمقراطية تقلص دور الرقابة فيها . ورغم هذا فالمجتمعات حتي في أكثر الدول رقيا قد تسئ الفهم وتضل السبيل .



• ويدل استقراء تاريخ الإنسانية أن الرقابة ركزت كل اهتمامها على الكلمة المكتوبة وليس على الكلمة المنطوقة نظرا لبقاء الأولى وزوال الثانية . ومن الخطر كل الخطر أن نظن أن الإنسان اقتصر في فرض الرقابة





هنرى ميلر



ارسطو

وممارسة الحظر على الجنس وحده . فهناك أسباب أخرى عديدة للحظر منها الجهر بالهرطقة والإلحاد واحتدام الخلاف حول العقائد الدينية والسياسية . ولعلنا لا نخطيء إذا ذهبنا إلى أن ممارسة الإنسان للرقابة فى مجال الجنس أقل بكثير منها فى مجالى الدين والسياسة ، ومن عيون الفكر والأدب العالمى التى تعرضت فى وقت أو آخر للمصادرة أعمال شكسبير وجيمس جويس وكانط وروسو وهوبز ولوك .

موقف الإغريق من المصادرة

اتسم موقف الإغريق من الجنس بالإباحة المطلقة واستمتعوا بممارسته دون أدنى شعور بالذنب تدل على ذلك رسومهم ونقوشهم التى ازدانت بها جدران الآثار . حتى أوانى الشراب التى استخدمها أطفالهم عند تناول وجبات الطعام كانت عليها رسوم تصور العلاقات الجنسية حتى تدخل الانشراح والابتهاج فى نفوسهم .

وكانت التماثيل التى ترمز إلى التناسل والخصوبة تقام فى النواصى والميادين العامة . ويشير المؤلف الكوميدى الاغريقى المعروف أرسطو فان (حوالى ٤٤٨ - ٣٨٠ ق . م) فى مسرحية ليستراتا إلى الجنس صراحة ودون مواربة . والجدير بالذكر أن رجال القانون فى أمريكا اعتبروا هذه المسرحية أدبا

مكشوفا من شأنه إفساد أخلاق الناس . وحتى وقت قريب للغاية كانت المسرحية فى أصلها الكامل ممنوعة من دخول الأراضى الأمريكية وتتعرض لمصادرة رجال الجمارك الأمريكان لها .

ورغم جو الإباحة التى عرفها الاغريق فإن الفيلسوف أفلاطون على مايبدو هو أول من حاول أن يلعب دور الرقيب فى تاريخ الفكر والأدب فى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، عندما اقترح فرض الحظر على أشعار هوميروس مثلما فعل توماس بودلر بأشعار شكسبير بعد ذلك بألفى عام . فقد اقترح أفلاطون إصدار نسخة نظيفة وخالية من البذاءات من أعمال الشاعر الاغريقى القديم هوميروس وهو نفس الشىء الذى فعله بودلر فيما بعد بأعمال شكسبير .

الرقابة عند الرومان :

بمجىء الرومان عرف العالم الأوربى الحظر الفعلى على الأدب عندما قام الامبراطور أوغسطوس بطرد الشاعر الرومانى المعروف أوفيد (٤٣ ق . م-١٨م) بسبب قصيدته الجنسية الفاضحة التى ألفها بعنوان « فن الحب » وقت ميلاد المسيح تقريبا . يقول أوفيد إن هدفه من القصيدة تلقين دروس الحب لمن ليست له خبرة أو دراية به . فالعشق مهارة ينبغى على الإنسان حذقها وإتقانها شأنها فى ذلك شأن سائر المهارات مثل التجديف والملاحة . والجزء الثالث من قصيدة « فن الحب » الذى ينصح المرأة باستثمار كل ما فى جسدها من مزايا فهو أكثر الأجزاء بذاءة. فالشاعر لا يكتفى بنصيحة المرأة بالعناية بتصفيف شعرها وتحريك أردافها وهى تسير فى الطريق حتى تلفت أنظار الرجال إليها، وبالكشف عن بعض جسدها لإثارة الناظر إليها بل إنه يجند مجموعة من الأوضاع



الجنسية المتنوعة تختار من بينها مايظهر فتنتها وما يتناسب مع جسدها .

ولهذا فليست هناك غرابة رغم مرور ألف وتسعمائة عام على تأليف أوفيد لهذه القصيدة أن تقوم مصلحة الجمارك والبريد فى الولايات المتحدة بحظرها ومنع تداولها .

الكنيسة الكاثوليكية والجنس :

بمجيء المسيحية طرأ على سلوك الامبراطورية الرومانية تغير ملحوظ . فقد بدأ الناس يهتمون بطهارة الجسد عند النساء والرجال على حد سواء . وأصبحت العفة المثل الأعلى الذى ينبغى احتذاؤه بعد أن كان الإغريق يعتبرون ممارسة الجنس شيئا طبيعيا للغاية . وعندما تمكنت الكنيسة الرومانية من بسط نفوذها فى أنحاء أوروبا فى القرن الرابع خلت المؤلفات من الجنس واقتصر تأليف المخطوطات على الأمور الدينية والروحية يتوفر الرهبان والنساك على وضعها . ورأت السلطة الكنسية أن من حقها إنزال العقاب بكل إنسان تسول له نفسه الخروج على تعاليم الديانة المسيحية .



د.هـ.لورنس

عصر النهضة في ايطاليا ورواية ديكاميرون

مع أفول العصور الوسطى تفشى الفساد الأخلاقى بين الرهبان والنساك فتحول بعض الأديرة على أياديهم الى بنايات يندى لها الجنين كما يتضح لنا من كتاب بوكاشيو المعروف «ديكاميرون» .

تعتبر رواية «ديكاميرون» (أى الأيام العشرة) التى ألفها جيوفانى بوكاشيو فى الفترة بين ١٣٤٨ و ١٣٥٣ والمنشورة فى البندقية عام ١٣٧١ أول عمل بذئ وفاضح فى العصر الحديث، ومما زاد من ذيوعه واقبال الناس عليه أنه أول كتاب أدبى قيض

له أن يعرف الطباعة فقد كانت الاعمال البذيئة التي سبقته لا تعدو أن تكون مخطوطات محدودة الانتشار .

كان جيوفاني بوكاشيو مؤلف الديكاميرون ابن زنا ينحدر من أب تاجر من ايطاليا وأم فرنسية استطاع هذا التاجر أن يراودها عن نفسه أثناء زيارة قام بها الى باريس .

وبسبب بذاءة كتاب بوكاشيو - رغم أهميته الأدبية - قامت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا بمنع تداوله. وظل الكتاب محظورا فى كلا البلدين حتى فترة الخمسينات من القرن العشرين .

رابيليه والأدب المكشوف :

ارتبط اسم فرانسوا رابيليه أديب فرنسا المعروف فى القرن السادس عشر بالفكاهة والهزل الجنسى الخشن. بدأ رابيليه حياته كراهب ثم أصبح قسيسا ثم انصرف الى دراسة الطب وعندما نشر انتاجه الأدبى الشهير «بانتاجرويل» (١٥٣٢) و«جارانتوا» (١٥٣٤) صدم هذان العملان مشاعر الفرنسيين صدمة عنيفة لدرجة أن جامعة السوربون وضعتهما في قائمة الكتب الممنوعة، ويرجع السبب فى حظرهما الى تطاولهما على رجال الدين اكثر مما يرجع الى ما يتضمنه الكتابان من بذاءات جنسية .

بيترو أرتينو وقصائده الداعرة :

ألف الأديب الايطالى بيترو ارتينو فى القرن السادس عشر مجموعة من القصائد الداعرة تتكون من ست عشرة سوناته توضحها رسوم بريشة الفنان جيوليو رومانو تصور اوضاع المضاجعات الجنسية المختلفة . وأثناء إقامته فى البندقية عاش ارتينو فى قصر منيف تحيط به جوقة كبيرة من العاهرات اللاتى انجبن له عدد كبيرا من الأطفال .

بيير برانتوم .

يعتبر الكاتب الفرنسى بيير برانتوم المعاصر للكاتب



الايطالى ارتينو من ابذأ أدباء العالم طرا. وتدور بعض قصص برانتوم الداعرة حول الأزواج الذين يقبلون عن طيب خاطر خيانة زوجاتهن لهم. وفي موضع آخر يروى برانتوم قصصا تدور حول السحاق وحول حفلات الترفيه التى عرفتها فرنسا فى عصر النهضة والتي استمرت حتى مطلع القرن الثامن عشر . وهذه الحفلات التى كان يحضرها عدد مخصوص من الرجال والسيدات ليستمتعن بمشاهدة رجل وامرأة وهما يمارسان الجنس امام عيونهم. وقد تعرضت كتابات برانتوم للحظر من فرط بذاءتها .

القرن الثامن عشر والقانون الانجليزي



دانييل ديفو

لم تكن انجلترا فى اوائل القرن الثامن عشر تعرف أية قوانين لمعاقبة نشر كتب الجنس المكشوف. والجدير بالذكر أن مثل هذه القوانين لم توجد دفعة واحدة بل استنها المشرع الانجليزى على مراحل. ومن المؤكد أن القانون الانجليزى العام ظل بوجه عام يتخذ موقفا متسامحا وليبراليا من أدب الجنس حتى القرن الثامن عشر. وليس أدل على أن البذاءة لم تشغل بال السلطات الانجليزية فى القرن الثامن عشر من أنها سمحت لكوكبة من كبار أدباء هذا القرن أمثال دانييل ديفو وهنرى فيلدنج وسموليت وستيرن أن ينتجوا ادبا فاضحا في كثير من المواضع دون أن يفكر أحد فى قمعه أو مصادرته .

وظل الأدب الانجليزى ردحا كبيرا من الزمن يتمتع بقدر هائل من الحرية منذ عهد الشاعر تشوسر (١٣٤٠ ـ ١٤٠٠) حتى وفاة الروائى سموليت (١٧٢١ ـ ١٧٧١) ولكنه فى نهاية القرن الثامن عشر اصابه تغير مفاجىء . فبعد الاباحة التى عرفها فى شئون الجنس اخذ يراعى خفر العذارى. وأيضا

الرقابة وادب الجنس



يتضح لنا أن الاستقراطية الانجليزية لم تجد أدنى غضاضة فى الخوض فى أمور الجنس فيما أنتجته من أدب فى حين أن الطبقات المتوسطة التى قويت واشتد ساعدها فى أعقاب الثورة الصناعية هى التى اتجهت الى التزمت الأخلاقى وأصرت على أن يتسم الأدب بالحياء والاحتشام . وارتبط هذا الاتجاه نحو التزمت الجنسى بنشأة الطوائف البروتستانتية المتطرفة. وبسيادة الزمت والجو المحافظ فى انجلترا فى القرن التاسع عشر ظهر اثنان من كبار رجال القانون هما كامبل وكوكبيرن لعبا دورا بارزا فى استنان القوانين المغالية والمتعسفة الخاصة بالنشر . وهى قوانين لم تعق مسيرة الأدب المكشوف وحده بل وضعت العوائق فى طريق ادب الجنس الجاد الذى يقدم مفاهيم انسانية جديدة. وسوف نتناول هذا بشىء من التفصيل عندما نعرض لمحاكمة رواية د. هـ . لورانس «عشيق الليدى تشاترلى» عام ١٩٦٠. وقد ظهرت فى انجلترا فى القرن التاسع عشر عائلة متزمتة اسمها عائلة بودلر لعبت دورا بارزا فى تطهير أدب «شكسبير من أية بذاءات فنشر رب هذه الأسرة واسمه توماس بودلر كتابا بعنوان «شكسبير للأسرة» عام ١٨٠٧. والجدير بالذكر أن كتاب «شكسبير للأسرة» تعثر فى بادىء الأمر ولكنه ما لبث ان انتشر انتشارا كاسحا فى جميع أرجاء انجلترا.

الرقابة في فرنسا في القرن التاسع عشر

فى يناير ١٨٥٧ قدم الروائى المعروف جوستاف فلوبيرت الى المحاكمة بسبب نشر روايته المعروفة «مدام بوفارى» على حلقات واستمعت المحكمة الى الدفاع الذى ذهب الى ان فلوبيرت سعى الى تصوير الرذيلة بهدف الاعلاء من شأن الفضيلة.

وفي صيف ١٨٥٧ قدم الشاعر شارل بودلير للمحاكمة بسبب نشره الجزء الأول من ديوانه السيء السمعة «أزهار الشر» الذي استقبلته الصحافة بالشتائم والسباب القاذع. واستخدم ممثل الادعاء في محاكمة «أزهار الشر» نفس الأسلوب المتبع في المحاكمات الانجليزية والذي يتلخص في تلاوة بعض فقرات الكتاب خارج السياق الذي وردت فيه. واعترض بودلير على هذا الأسلوب المتعسف وطالب بالنظر الى الديوان كوحدة واحدة وليس كأجزاء منفصلة أو متفرقة . وهي نقطة بالغة الأهمية سوف نعود اليها عندما نعرض لمحاكمة رواية «عشيق الليدي تشاترلي» التي ألفها الكاتب الانجليزي الكبير د. هـ . لورانس . وأصاب بودلير الذهول وظهرت على وجهه أمارات الألم المحض عندما حكم عليه القاضي بدفع غرامة. غير أن تشجيع فكتور هيجو له شد من أزره بعض الشيء فقد كتب هيجو اليه : «ان ديوانك «أزهار الشر» سوف يسطع ويتلألا كالنجوم فسر الى الأمام» .



افلاطون

الرقابة في انجلترا في القرن العشرين

لابد أن نذكر أن القانون الانجليزي قبل عام ١٩٥٩ كان يحكم على العمل الادبي بالبذاءة اذا وردت فيه بعض الألفاظ أو العبارات الخادشة للحياء. أي أنه كان يصدر حكمه بناء على بذاءة اجزاء العمل الفني وليس على بذاءة العمل ككل. ولهذا طالب الناشرون الانجليز باجراء بعض التعديلات المهمة في القانون بحيث يتم الحكم على بذاءة العمل الفني من الاثر العام الذي يتركه ككل في القاريء وليس مجرد بذاءة الأجزاء.

ولعل أهم تعديل أجري على القانون القديم يقضي بعدم الإدانة وفي حالة التثبت من امر نشر الموضوع الخلاف له ما

يبرره من حيث المصلحة العامة تأسيسا على مصلحة العلم أو الأدب أو الفن أو التعليم أو الأهداف الأخرى التى تهم الناس وتشغل بالهم، وقد استفادت رواية «عشيق الليدى تشاترلى» من هذا التعديل فى قانون المطبوعات .

ألف د. هـ . لورانس هذه الرواية فى أخريات حياته عام ١٩٢٨ وأعرضت دور النشر الانجليزية عن نشرها فتولت مطبعة حروف فى نيويورك نشر الرواية كاملة دون خوف، غير ان مصلحة البريد الأمريكية صادرت الرواية . وفى ٢٥ أغسطس ١٩٦٠ أعلنت دار بنجوين للنشر فى انجلترا انها بصدد نشر الرواية فرفع مدير النيابة العامة قضية فى محكمة بوستريت بلندن ضد الرواية على أساس أن نشرها يمثل خرقا لقانون المطبوعات البذيئة الصادر عام ١٩٥٩ . وعند نظر القضية امام المحكمة الأولدبايلى احتشد خمسة وثلاثون شاهدا مرموقا فى عالم الفكر والأدب للادلاء بشهادتهم فى صف الرواية المصادرة. وعقدت المحكمة خمس جلسات انتهت بإصدار حكم ببراءة الرواية من البذاءة فى ٢ نوفمبر ١٩٦٠ على أساس أن الرواية قد تكون بذيئة فى بعض أجزائها ولكن هذا لا يعنى أنها بذيئة ككل.

الرقابة فى أمريكا فى القرن العشرين

١ - محاكمة رواية «يولسيس» تأليف جيمس جويس

تم حرق النسخ المصادرة من هذه الرواية بمقتضى قانون الجمارك فى بريطانيا لعام ١٨٦٧ بعد أن نشرتها دار شكسبير للنشر فى باريس عام ١٩٣١ . وفى بادىء الأمر، لم تكن معاملة أمريكا الرواية افضل من معاملة بريطانيا لها فقد أمرت المحكمة بتغريم الناشرة الامريكية لهذا الكتاب، ولكنها رفضت دفع الغرامة وفضلت السجن عليها ولكن امرأة أخرى تكره الرواية



من صميم قلبها دفعت الغرامة نيابة عنها.

وفي عام ١٩٣٣ قررت دار النشر راندوم هاوس أن تتحدى مصلحة البريد الأمريكي باصدار طبعة كاملة وغير منقوصة من الرواية. وعند نظر المحكمة الفيدرالية للأمر أصدر القاضي جون م. وولسي حكما بالغ الأهمية يتلخص في الاعتراف الرسمي بأهمية رواية يولسيس من الناحية الأدبية. وهكذا تم تبرئة الرواية من تهمة البذاءة المنصوص عليها في قانون التعريفة الجمركية وامر القاضي دولسي بالسماح بدخول رواية يولسيس في الولايات المتحدة. وأورد وولسي في حكمه ما يلي : «ان الفن بالتأكيد لايمكن أن يتقدم تحت ضغط ووطأة الاعمال التقليدية. وليس هناك شيء في ذلك المجال اكثر عرقلة للتقدم من وضع قيود على الفنان في التجربة واستحداث تكنيك جديد. والرأي عندنا أن رواية يولسيس كتاب يتسم بالاصالة والاخلاص في المعالجة وليس من شأنه اثارة الشهوات».


جيمس جويس

٢ - حظر مؤلفات هنري ميلر :

في عام ١٩٣٤ الف هنري ميلر أولى رواياته بعنوان «مدار السرطان» . ثم الف ثلاثية بعنوان «الصلب الوردي» التي تتكون من «شهوة الجنس» (١٩٤٩) و«صفير الأوعية المتشابكة» (١٩٥٣) و«الرباط» (١٩٦٠) . وكانت صراحة ميلر في معالجة الجنس سببا في حظر مؤلفاته واغفال قيمتها الأدبية. وفي عام ١٩٤٤ عاد ميلر من باريس حيث كان يعيش الى أمريكا بلده حيث استقر في كاليفورنيا وحيث طرأ تغير ملحوظ على الجو الفكري الأمريكي فلم يعد متزمتا في معالجة الجنس مثلما كان الأمر الذي ساعد على إعادة تقييم أعماله ورد الاعتبار اليها .

الإبداع

في حدود القانون

بقلم
د. محمد سليم العوا



قد يبدو للقارئ أن عنوان هذا المقال منبئ عن تناقض أو تضاد، إذ هو يجمع بين فكرتين شاع في حياتنا الثقافية أنهما لا تجتمعان. فالإبداع - فيما يشاع - ليس له سيد، ولا يجوز أن يرد عليه قيد أو تحدد حرية صاحبه بحد. والقانون - في مفهومه البسيط الصحيح - أمر ونهي يلتزم بهما المخاطبون بنصوصه وإلا تعرضوا للعقاب. فكيف تجتمع هاتان الفكرتان النقيضتان؟!

والواقع أن هذا التناقض بين فكرتي الإبداع والقانون تناقض ظاهري فحسب، بل هو - عندي - تناقض موهوم ليس له من الحقيقة ظل. فالأدب، والإبداع بصوره كلها، لا ينشأ من فراغ ولا يعيش في فراغ، ولكنه صناعة اجتماعية تعبر في لحظة إنتاجها عن حال مجتمع - أو حال بعض فئاته أو أفراده - وهي تصدر أو تنشر أو تذاع أو تعرض على مجتمع، وبين أفراده، لتقرأ وتؤثر وينفعل بها المتلقي رضاء أو سخطا، وإعجابا وقبولا أو إباء ورفضا.

وليس في الدنيا مجتمع بلا نظام يحدد الجائز والممنوع، والمحتمل من صور

البيان الذى ينشر على الناس - أدبا كان أم فنا أم سواهما - والمستنكر الذى لا يحتمل النشر أو الإذاعة أو العرض على الكافة.

فالعمل الفني أو الأدبي يلتزم في كل مجتمع بحدود ما يقبله هذا المجتمع وما يرفضه، وبحدود ما يجيزه القانون فيه وما يمنعه، وبحدود ما يسيغه الذوق العام وما يستسخفه.

وليس فى شئ من ذلك تقييد لحرية الإبداع ولا هضم لحقوق المبدعين ولا حجر على خيال المتخيلين لأن ذلك كله، مهما اشتط دعاة تركه بلا رقيب فى وصفه، لا يستطيع التفلت من تلك القيود الاجتماعية وإلا لحقه ما يلحق الخارجين عليها من نقمة الجماعة أو ازدرائها، أو تعرضه لإعمال حكم القانون السائد فيها.

- ٢ -

ولكن الذى دعانى إلى الانشغال بقضية هذا المقال هو الضجة الثانية - فى ستة أشهر - التى أثارتها بعض مطبوعات وزارة الثقافة، فأدت بالوزير الفنان فاروق حسنى إلى إبعاد بعض زملائه الفنانين من إدارة أعمال كان معهودا بها إليهم فى أقسام تتولى نشر «الإبداعات» الأدبية باسم وزارة الثقافة.

وقد اتخذ الوزير الفنان فى أزمة هذا الشتاء (يناير ٢٠٠١) موقفا وصف بأنه يخالف موقفه من أزمة الصيف الماضى (مايو/ يونيو ٢٠٠٠) عندما كان الموضوع هو «وليمة الأعشاب» . ووصف المخالفون للوزير فى أزمته الحالية - وهم أنفسهم كانوا من أشد مؤيديه فى أزمته السابقة - موقفه الجديد بأوصاف تدل على الغضب من تصرفه والاختلاف البين مع آرائه الجديدة.

وبصرف النظر عن الدوافع والبواعث فى أزمتى الصيف والشتاء المتواليتين. فإن المثقفين المصريين - والعرب وغيرهم من المتابعين لحياتنا الثقافية - من حقهم أن يتبينوا «الحقيقة القانونية» التى ينشر فى ظلها على الناس ما تقدمه قرائح أهل الفن وأقلام صناع الأدب وأفكار المنسوبين إلى الإبداع، إذا أرادوا أن يكون المجتمع المصرى هو المخاطب بما يقولون أو يفعلون.

لقد قلت من قبل - ولا أزال عند هذا القول - «إننى مع الإبداع وحرية التعبير بأقصى ما يتيحه النظام العام الدينى والقانونى والأخلاقى للمبدع والمعبر . فإذا جاوز هذه الحدود كلها أو بعضها فكل امرئ بما كسب رهين» .

فمن أين جاءت هذه الحدود؟

جاءت هذه الحدود أولا من الدستور المصرى، وجاءت ثانيا من نصوص قوانين مختلفة تفرض حماية النظام العام والآداب فى كل عمل فنى أو أدبى مهما كان نوعه.

- ٣ -

فأما الدستور المصرى فهو يتضمن عددا من النصوص التى تحدد المقومات

الأساسية للمجتمع المصرى، وواجب الدولة هو حماية هذه المقومات من أى خرق لها أو عدوان عليها أو استهانة بها أو تحريض - سافر أو مستتر - على هدمها. فنص المادة الثانية من الدستور حين يقرر أن «الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية، ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع» لا يبتدع شيئا جديدا غير معهود فى حياتنا الدستورية والثقافية، وإنما يكشف عن معنى استقر فى ضمير الجماعة الوطنية المصرية منذ انتظمت فى شكل دولة حديثة ذات دستور. فلم يخل دستور من دساتيرنا الوضعية التى حكمت البلاد على أساسها، وارتضاها الشعب - أو فرضت عليه فرضا - لتنظيم السلطات وممارستها صلاحياتها، من نص صريح على أن «الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية». فأوردته المادة ١٤٩ من دستور ١٩٢٣ وأوردته المادة ١٣٨ من دستور ١٩٣٠ الذى عاش خمس سنوات تقريبا عاد بعدها دستور ١٩٢٣، وبقى معمولا به إلى أن قامت ثورة يوليو ١٩٥٢، وأوردته بنصه نفسه المادة ٥ من دستور ١٩٦٤ وأوردته مع زيادة النص على مصدرية مبادئ الشريعة - ثم عدلت لتصفها بأنها المصدر الرئيسى - المادة الثانية من دستور ١٩٧١ المعمول به حتى اليوم.

«ويعبر هذا النص بهذا المفاد مراحل تاريخية كاملة من النظام الملكى إلى النظام الجمهورى ومن النظام الرئاسى إلى نظام مشترك، ومن نظم اجتماعية إلى نظم اجتماعية أخرى، وإن ثباته بنصه ومعناه رغم كل ذلك إنما يفيد أنه يكشف عن إقرار التشريع الوضعى للدولة الحديثة بأنه نص يقر حقيقة أكثر رسوخا وأدوم بقاء، وأوغل فى الدلالة على جوهر «النظام العام والآداب» بما لا يتغير بتغير الدساتير ونظم الحكم والنظم الاجتماعية.

والإسلام دين الغالبية من الشعب المصرى بحسبان أن الشعب هو الركن الركين الدولة التى ينظمها الدستور، ومن ثم تقوم خصائصه الثابتة فى الواقع بحسبانها من خصائص الدولة المعترف بها فى القانون، وقد نص دستور ١٩٧١ فى المادة (٥) على أن مبادئ الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع وبهذا يتقرر أن الإسلام ومبادئه وقيمه إنما تشكل النظام العام والآداب وهو كذلك مما تتضمنه المبادئ العليا للدولة». (نقلا عن فتوى الجمعية العمومية لقسمى الفتوى والتشريع فى مجلس الدولة رقم ١٢١ الصادرة فى ١٩٩٤/٢/١٠ المنشورة فى: «المختار من فتاوى الجمعية العمومية لقسمى الفتوى والتشريع فى ٥٠ عاما» ص ٧٢٨).

ولم يكتف الدستور بهذا النص الجامع لقيم الخير والفضيلة والحق كلها، إذ هى أجزاء من الإسلام لا تنفصل عنه، بل

أضاف إليه نصوصا أخرى، تتناول بالتفصيل اللائق بالدستور، بعض المقومات المصرية الجديرة بالعناية الدستورية، وألزم الأحزاب السياسية - وهي تنظيمات جماهيرية أهلية لا دخل للحكومة من حيث المبدأ بها - بأن تلتزم بالمقومات والمبادئ الأساسية للمجتمع المنصوص عليها في الدستور.

فنصت المادة الخامسة منه (المعدلة باستفتاء ٢٢ مايو سنة ١٩٨٠) على أن النظام السياسي يقوم على أساس «تعدد الأحزاب وذلك في إطار المقومات والمبادئ الأساسية للمجتمع المصري المنصوص عليها في الدستور» ، فإذا خالفت برامج الأحزاب أو سلوك أعضائها النصوص الدستورية الآمرة - التي يأتي ذكر أهمها - وقعت في حومة مخالفة الدستور والقانون ووضعت نفسها تحت رحمة لجنة شئون الأحزاب ومحكمتها، فضلا عما يمكن تعريضها له من إعمال نصوص قانونية أخرى مدنية أو جنائية.

والمادة التاسعة من الدستور تنص على أن: «الأسرة أساس المجتمع، قوامها الدين والأخلاق والوطنية».

وتحرص الدولة على الحفاظ على الطابع الأصيل للأسرة المصرية وما يتمثل فيه من قيم وتقاليد، مع تأكيد هذا الطابع وتنميته في العلاقات داخل المجتمع المصري.

والمادة الثانية عشرة من الدستور تنص على أن: «يلتزم المجتمع برعاية الأخلاق وحمايتها والتمكين للتقاليد المصرية الأصيلة، وعليه مراعاة المستوى الرفيع للتربية الدينية والقيم الخلقية والوطنية.. والآداب العامة.. وتلتزم الدولة باتباع هذه المبادئ والتمكين لها».

فكل عمل فكري أو فني، وكل نوع من أنواع الإبداع الفردي أو الجماعي يراد نشره وتوزيعه، أو يعد لعرضه في مصر لا يجوز أن يخالف شيئا من نصوص الدستور سالفة الذكر. وإلا كان صاحبه ومن قام بنشره أو عرضه مستهينين بالقانون الوضعي الأسمى في البلاد، غير ملقين بالا لما يعبر عنه من مكنون ضمير هذا الشعب العريق وما يقبله أفراده أو لا يقبلونه من صور التعبير وأشكاله وقوالبه.

فإذا منعت الجهات المعنية في الدولة مثل هذه الأعمال التي تهزأ بالدين أو تحرف بعض الكلم عن مواضعه أو تعبث بمضمون بعض قيمه، أو تتناول المسائل التي يعد تناولها ماسا بالأخلاق والقيم النبيلة التي يفرض الدستور احترامها وحمايتها، فإن صنيعها، بهذا المنع يكون أداء لواجبها في احترام الدستور وإعمال نصوصه الواجبة الأعمال.

ولا ينال من صحة هذا التحليل وسداد منطقه، أن نصوص المواد ٤٧ و٤٨ و٤٩ من الدستور تكفل حرية الرأي والتعبير والنشر بالقول والكتابة والتصوير، وحرية الصحافة والطباعة والنشر ووسائل الإعلام

وحرية البحث العلمي والإبداع الأدبي والفني والثقافي ... لأن ذلك كله مكفول «في حدود القانون» بتعبير المادة (٤٧) ووفقا للقانون في تعبير المادة (٤٨) من الدستور.

– ٤ –

والقانون المصري يتضمن نصا صريحا على «العلة» القانونية التي من أجلها أجيزت في بعض الأحوال الرقابة على المصنفات السمعية البصرية والأشرطة السينمائية والأغاني والمسرحيات والمونولوجات وأشرطة التسجيل الصوتي وغيرها من وسائل نشر الإنتاج الفني. هذه العلة هي «قصد حماية النظام العام والآداب ومصالح الدولة العليا» (المادة الأولى من القانون رقم ٤٣٠ لسنة ١٩٥٥ ونصها الحالي بديل عن نصها الأصلي، تقرر بالقانون رقم ٣٨ لسنة ١٩٩٢).

وهذه الحماية الواجبة للنظام العام والآداب ومصالح الدولة العليا لا تقتصر على وسائل النشر والعرض المشار إليها في القانون رقم ٤٣٠ لسنة ١٩٥٥ وإنما تمتد - قطعا - إلى سائر الصور التي يتشكل بها إبداع المبدعين من الفنانين وأدب الأدباء، لأنه لا يعقل أن تكون «مصالح الدولة العليا والنظام العام والآداب» جديرة بالحماية بالنسبة إلى بعض الأعمال الإبداعية دون بعض، ولا بعض أنواع الوسائل التي تعرض بها هذه الأعمال على الناس دون بعض. وإنما المعقول المحقق - فعلا - لمصلحة الدولة العليا أن تكون هذه العلة مرعية في كل عمل وفي كل وسيلة ينشر بها هذا العمل على الناس أو يعرض بها عليهم.

وإذا كان الدستور ينص صراحة على وجوب حماية القيم الخلقية والتقاليد المرعية للمصريين، فإن الجمعية العمومية لقسمي الفتوى والتشريع قد انتهت في قرارها السالف ذكره إلى أن الشأن الإسلامي يتخلل حماية النظام والآداب وتتضمنه المصالح العليا للدولة، أي أنه جزء منها ومكون من مكوناتها وعنصر من عناصرها.

فإذا تركنا القوانين المتخصصة في تنظيم تعامل الدولة - بحكم مسئوليتها الدستورية - مع الإبداع بصوره كافة وتشكلاتها المختلفة، فإننا نجد قانون العقوبات - والشأن في نصوصه فرض عقوبة لحماية المصالح التي يراها الشارع جديرة بأن تصان من العبث والعدوان - نجد هذا القانون يعاقب على استغلال الدين بأية وسيلة بقصد إثارة فتنة أو ازدراء أحد الأديان السماوية أو الطوائف المنتمية إليها أو الإضرار بالوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي (المادة ٩٨ (و) من قانون العقوبات).

ويعاقب على كل تعد على أحد الأديان التي تؤدى شعائرها علنا يقع بالقول أو الصياح العلنيين أو الكتابة أو الرسوم أو

الصور الشمسية أو الرموز أو غير ذلك من الطرق بالحبس وبغرامة لا تقل عن خمسمائة جنيه أو بإحدى هاتين العقوبتين (المواد ١٦٠ و١٦١ و١٧١ من قانون العقوبات).

— ٥ —

فالمطالع لنصوص الدستور المصرى، والمطلع على مجمل النظام القانونى المصرى، لا يملك أن يقول إن العمل الأدبى أو الفنى الذى يقع فى حومة الهزء بالأديان، أو العبث بمقدساتها أو الاستهانة بالحرمات الأخلاقية أو بالضوابط التى تحكم - شرعا وقانونا - العلاقات الفردية والجماعية، يعتبر عملا مشروعا فى ظل النظام القانونى المصرى، بل هو عمل غير مشروع قطعا لمصادمته مجموع النصوص القانونية سالفة البيان أو مخالفته لبعضها فى أقل تقدير.

ولا يستقيم الاعتراض - الذى يثيره أنصار الإبداع بلا حدود ولا قيود - بأن تراثنا الأدبى ملىء بما لا يقل عما تعترض عليه الأجهزة المعنية فى الدولة - كاعتراض وزارة الثقافة أو الأزهر الشريف - وينتقده قطاع لا يستهان به من المثقفين بتياراتهم كافة.

لأن معنى هذا الاعتراض أن نوافق على إنفاق الأموال الحكومية - مهما تكن قيمتها المادية - على أعمال توصف بأنها أدب أو إبداع، وهى فى حقيقتها تحتقر المقدسات أو تشجع على احتقارها، وتستهين بالمحرمات أو تشيع - بالوصف والقول - الفواحش والمنكرات وتكسر بذلك كله الحواجز الخلقية فى نفوس الشباب بحيث يغدو المعروف منكرا والمنكر معروفا. وليس ثمة أخطر على المجتمع وقواه من هذه الآثار المدمرة وحين كانت الكتب الموروثة والأشعار المحفوظة التى يشيرون إليها تكتب وتنسخ لم يكن ذلك يتم على نفقة الدولة وتحت رعايتها. ولم تكن الدولة بوصفها الحديث ونظمها العصرية قد تكونت أصلا، ولم يكن تدخلها فى الحقير والخطير من شئون الناس قائما ولا جائزا على نحو ما هو واقع الآن بصرف النظر عن قبوله أو الاعتراض عليه.

— ٦ —

لذلك كله فإننى أنتهى إلى أن الإبداع بكل صوره ومضامينه لا يجوز أن يغفل عملا يخرج عن الأحكام الدستورية، أو النصوص القانونية، أو يتضمنه النظام العام من عناصر أو تحترمه القيم السائدة فى المجتمع التى تمثل تقاليده وأعرافه.

والذين لا يقبلون هذا التحليل مدعوون إلى العمل على تغيير القوانين القائمة والدستور الذى يعلوها جميعا. ومدعوون قبل ذلك إلى تغيير أذواق الناس وأعرافهم وما يقبلونه أو يرفضونه إذعانا لعقائدهم.. وعند ذلك فقط - إذا افترضنا جدلا إمكان حدوثه - سوف يمكن لأنواع «الإبداع» الطليق من قيود الدين والأخلاق والعرف والعادات أن يكون مقبولا!! ■

أحد الانفجارات العلمية:

خط التقسيم الرقمي

بقلم

د. أحمد محمد صالح

عندما بزغ عام ١٩٨٩ ، كان مثل أى عام آخر ، لكنه شهد تطورين رئيسيين لهما مغزى تاريخي كبير . أحدهما كان مرئيا جداً ، وعلى نطاق واسع من الشهرة بدرجة كبيرة ، وكان على المستوى الرمزى هو تفكيك حائط برلين ، وعلى مستوى المعنى انتشار الديمقراطية الإنتخابية خلال العالم الشيوعى السابق . والتطور الآخر كان أقل إدراكا وشهرة بوجه عام ، وعرف فى هذا الوقت ، بين القليل من نخبة التقنيين والعلميين ، وهو بداية اختراع شبكة الويب WWW ، التى توفر صفحات جرافيكية من المعلومات ، وكانت بمثابة الحجر الذى سقط فى بركة صافية ،وبسرعة سيطرت الويب على الإنترنت تماما عام ١٩٩٧ ، وأصبحت تتدفق من كل جانب ، وهى رمز للعالم الرقمى الذى نعيش فيه من ولاعات رقمية ، والآلات وكومبيوترات صغيرة ، وهواتف محمولة ، وشرائح الإلكترونية فى كل مكان من التوستر إلى محركات الأقراص ، من السيارات إلى الأنسر ماشين .



فنحن نعيش فى عالم رقمى ، فكل الأجهـزة التى نعـيش عليها تعتمد على ما يسمى الأنظمة المدمجة Embedded Systeme وهى دوائر إليكترونية متناهية الصغر تسمى ميكروشيبس Micro-chipsوهى مخ أى جهاز ،عبارة عن برامج عمل مركزه وظيفتها التحكم ومراقبة الأجهزة التى نعيش عليها ، فهى ترسل المعلومات مجزأة على هيئة نبضات إليكترونية قصيرة ،والعكس فى عملية الاسترجاع،والنبضة الاليكترونية هى إشارات رقمية تستخدم الواحد والصفر فى التعبير عن هذه القيم . وإنتاج هذه الرقائق يتم عبر عمليات انتاجية كبيرة وواسعة ، ومنتجوها يختلفون عن منتجى الكمبيوتر وبرامجه ، وهى لا تستعمل فقط فى الكمبيوتر كما قلنا كعنصر مدمج للنظام ، بل تشمل تقريبا جميع الأجهزة التى نستعين بها فى حياتنا اليومية ، وتمثل العالم الرقمى digital الجديد الذى نعيش فيه فهى ضمن أجهزة الاتصالات ، وأجهزة العلاج ، وأجهزة مراقبة البيئة ، وأجهزة التسخين والتبريد والتهوية ، والأجهزة الطبية والصناعية ، وأنظمة الجيش والدفاع الجوى والخدمات ،وهى داخلة أيضا فى صناعة المصاعد وإشارات المرور والسيارات والفيديو كاسيت وأجهزة التسجيل والميكروويف ، والبنوك ، ومحطات الصرف والمياه ، وأجهزة المستشفيات ، بطاقات الأئتمان ، محطات الغاز الطبيعى ، التليفونات ، نظم الإنذار والحريق ، أجهزة التحكم فى المصانع، نظم النقل والمواصلات ، كل شىء تقريبا ، فهى تدخل فى مئات المليارات من الأجهزة اليومية التى يعتمد عليها البشر. والحقيقة المخيفة للغاية هنا أن كل هذه الرقائق الالكترونية حساسة جدا وأيضا مدركة وواعية للوقت والتاريخ ، ويقدر عددها بـ ٢٥ بليون شريحة اليكترونية مندمجة فى النظم الإليكترونية المنتشرة فى العالم كله، وتمثل العالم الرقمى لحياتنا اليومية .

التعليم فى مجتمع المعلومات

وعندما أنفجرت الإنترنت وسيطرت ، وأصبحت المعرفة هى القوة والسلطة الحقيقية، ونشأت طبقة جديدة من الذين يعرفون ، ظهرت دعاوى تنادى بأن التعليم أصبح هو الملكية التى يجب أن يعاد توزيعها بالتساوى لتحقيق المساواة فى المجتمع ليصبح كل فرد حسب معرفته وليس حسب حاجاته أو عمله. فالتعليم فى مجتمع المعلومات هو الملكية التى كان يتوقع أن يعاد توزيعها بالتساوى كما كانت الملكية المادية فى عهد ماركس ، لأن المساواة فى التعليم والثقافة أكثر عدلا ، فتعليم الجاهل لن ينقص نصيب الآخرين ،فالتعليم لايمكن أن تأخذه من شخص لإعادة توزيعه على الآخرين، لذلك كثرت التخمينات والتوقعات حول تأثيرات الإنترنت الشديدة والبعيدة المدى على الاقتصاد ، والمجتمع والسياسة. وكانت هناك آمال كبيرة تتوقع أن تكون الإنترنت قوة جديدة قوية تتمكن من تحويل وتغيير الكثير من الأنماط الحالية للتفاوت

أحد الانفجارات العلمية

الاجتماعي ، وتقوى حلقات الاتصال بين المواطنين وممثليهم في البرلمان ، وتسهل أشكالا جديدة من الممارسات والاتصالات العامة ، وتوسع فرصا لنمو مجتمع مدني عالمي قادر وفعال، وطرحت تساؤلات كثيرة عن إمكانية تغيير الإنترنت فعلا للأشكال التقليدية للديمقراطية ؟! أو أنها سوف تدعم فقط الفجوة التكنولوجية بين الأغنياء والفقراء ؟! وهل سوف يكون للإنترنت نفس التأثير الإيجابي على الدول النامية ، أم سيقتصر هذا التأثير على الدول المتقدمة التي تملك اقتصاديات ما بعد الصناعة ؟! هل سوف تستعمل الأحزاب وجماعات المصالح والحكومات الإنترنت لتشجيع وتنمية المشاركة التفاعلية الشعبية الفعالة ؟! أم ستكون الإنترنت شكلا آخر من أشكال الاتصال بين النخبة والقاعدة ؟! كل هذه الأسئلة وغيرها يحاول العالم أن يناقشها الآن ، وهي موضع اهتمام علماء الاجتماع والسياسة .

لقد وصلت الإنترنت إلى ذروتها التاريخية الآن ، وقد هزت بعنف الطريقة التي نستلم ونتلقى بها المعلومات ، وأيضا الطريقة التي نعمل بها خاصة في التجارة. . إن الإنترنت أحدثت أيضا عالما جديدا مفعما بالأسواق الإلكترونية والديمقراطية الفورية . لكننا في عالم غير متساو ، فاكثر من ٨٠٪ من سكان العالم ليس فقط لايملكون تليفونات ، بل إنهم لم يسمعوا أبدا في حياتهم حرارة التليفون ، ناهيك عن التزحلق عبر موجات الويب WWW، وتبادل الرسائل والمعلومات عبر البريد الإليكتروني ، وأصبح هناك خط رقمي يقسم العالم ، ويطلقون عليه «خط التقسيم الرقمي the digital divide» الذي يفصل بين الذين يملكون المعلومات ، وبين الذين لا يملكون ، وهذا الخط يمثل الفجوة الرقمية ، التي آخذت في الاتساع بشكل متزايد . وهو يترجم سياسة تفرقة عنصرية كلاسيكية أو يعكس نوعا من «العزل التكنولوجي» أو كما يقول الرئيس الأمريكي السابق كلينتون : إن خط التقسيم الرقمي هو الفجوة المزعومة بين أغنياء المعلومات وفقراء المعلومات ، سواء كان ذلك بين الدول على مستوى العالم ، أو داخل الدولة الواحدة .

مصطلح شعبي

والمصطلح خط التقسيم الرقمي، منتشر جداً في الغرب ، بل أصبح مصطلحا شعبيا في الولايات المتحدة الأمريكية ، ودخل الخطب والتصريحات الرسمية .وفي ٢٦ أكتوبر عام ٢٠٠٠ صدر عن



جامعة هارفارد كتاب مهم تحت عنوان التقسيم الرقمي : الالتزامات المدنية وفقر المعلومات والإنترنت في المجتمعات الديمقراطية ،نعرف منه أن خط التقسيم الرقمي يفهم كظاهرة متعددة الأبعاد ويشمل ثلاثة أبعاد متميزة : الأول هو التقسيم العالمي global divide ويعكس التباينات والتفاوتات بين الدول الصناعية المتقدمة ، والدول النامية ، البعد الثاني هو التقسيم الاجتماعي social divide وهو متعلق بالفجوة بين أغنياء المعلومات وفقراء المعلومات في الدولة الواحدة ، وأخيرا البعد الثالث هو التقسيم الديمقراطي democratic divide وهو يعنى الفرق بين الذين يفعلون ، والذين لا يفعلون ،والذين يفعلون هم الذين يستعملون أدوات التكنولوجيا الرقمية للمشاركة في الحياة العامة ، أو بمعنى أدق يشاركون في المجتمع المدني من خلال الوسائل الرقمية ولن تتسع هذه العجالة لاستكشاف الأبعاد الثلاثة لمصطلح خط التقسيم الرقمي ، ولكننا سنحاول هنا إعطاء صورة عامة لتداعيات ذلك المصطلح تمهيدا لاستكمال أبعاده الثلاثة في مقالات قادمة .

وكان كوفي عنان سكرتير عام الأمم المتحدة في جنيف بسويسرا عام ١٩٩٩ ، قد حذر من خطر استبعاد الفقراء من ثورة المعلومات ، وقال : إن الناس في العالم يعانون ويحتاجون إلى أشياء كثيرة ، منها فرص العمل ، المأوى ، الطعام والرعاية الصحية والماء الصالح للشرب ، ولكن اليوم يعتبر عدم توافر خدمات الاتصالات السلكية واللاسلكية الأساسية ، يمثل صعوبة كبيرة ونوعا شديدا من الحرمان قد يكون أصعب من المشاكل الأخرى ، وقد يقلل فرص علاجها ومواجهتها . وحرصت أيضا محطة الـ BBC أن تقدم تقريرا خاصا في ١٤ أكتوبر ١٩٩٩ تحت عنوان «عبور خط التقسيم الرقمي Bridging the digital divide» تتقصى فيه الفجوة النامية بين أغنياء المعلومات وفقراء المعلومات : ماهو حجم تلك الفجوة ؟ لماذا الصعوبة في سد تلك الفجوة ؟ وكيف يمكن للأفراد والمجتمعات حول الكرة الأرضية أن تعبر خط التقسيم الرقمي للعالم !؟ فالإنترنت من مانهاتن ومدريد قد غيرت أساسا طريقة الحياة في العمل والترفيه، حتى شكل الحب تغير ، لكن في مالاوي وموزمبيق ، بقيت الحياة كما هي ، فالحقيقة الدامغة أن أقل من ٢٪ فقط من سكان العالم ، على اتصال حقيقي بالإنترنت ،والأرقام والإحصائيات التي يعتمد عليها خط التقسيم الرقمي، وتمثل مؤشرا جوهريا للبنية الاتصالية في الدول هي خطوط التليفون . فطبقا لتقرير التنمية البشرية للأمم المتحدة ١٩٩٩ يتبين ، أن الدول الصناعية المتقدمة تمثل ١٥٪ فقط من سكان العالم ،وفيها حوالي ٨٨٪ من مجموع مستعملي الإنترنت ، ودول جنوب آسيا والتي تمثل خمس سكان العالم ، فيها أقل من ١٪ من مجموع مستعملي الإنترنت .

الموقف أسوأ حتى في افريقيا ، فعدد

أحد الانفجارات العلمية

سكانها ٧٢٩ مليون نسمة ،وهناك فقط ١٤ مليون خط تليفون. وهذا العدد أقل كثيرا بما هو موجود في مدينة مثل مانهاتن أو طوكيو ، و٨٠٪ من تلك الخطوط في ستة بلاد فقط ،وهناك فقط مليون مستخدم للانترنت في كل القارة مقابل بـ ١٠ مليون في المملكة المتحدة ، وتكلفة وصول الإنترنت في شهر واحد حوالى ٢٠ دولاراً في أمريكا الشمالية ، مقابل ١٠٠ دولار في أفريقيا. لذلك يجب أن يعترف العالم بأن توظيف الإنترنت للوصول إلى المعرفة غير متاح بقدر متساو للجميع ، فالفقراء تتاح لهم فرص ضئيلة للغاية فى الدخول إلى الإنترنت ،وذلك لسنوات عديدة قادمة ، ورغم ذلك تنمو الإنترنت وتنتشر بسرعة متزايدة ، وتنمو معها أيضا الفجوة الرقمية .

وقد حاز موضوع شبكة الانترنت وتأثيرها على علاقة الدول الصناعية بالدول النامية على اهتمام المنتدى الاقتصادى العالمى فى دافوس ، الذى عقد دورته الأخيرة فى الأسبوع الأخير من يناير ٢٠٠١ ، وقد تراجع فى هذا المنتدى الإفراط فى التفاؤل الذى صاحب نشوء الإنترنت ، حيث اعتبره البعض بأنه سيحقق للدول النامية قفزة هائلة يجعلها فى مصاف الدول المتطورة ، وأنه سيعادل الفروق بينهما ، ويشير تقرير وزع فى منتدى دافوس الأخير ، إلى أن رجال الأعمال الكبار أصبحوا يخشون من قيام الإنترنت بتوسيع الهوة بين الدول الصناعية المتطورة والدول الفقيرة بدلا من ردمها ، وعبر مدير إحدى الشركات الأمريكية عن دهشته لهذه النتيجة وقال إن التكنولوجيا الحديثة فى الماضى كانت دوما تساعد على محو الفروق بين الطبقات الاجتماعية . ويعلق المحللون على هذا الموضوع قائلين إنه ليس بهذه البساطة، فهناك قبل كل شىء مسألة صعوبة الحصول على هذه التكنولوجيا فى العالم الثالث . وقال بيتر آرمسترونغ من شركة خدمات وانوورلد نيت ،التى تحتوى على ٧٠٠ ألف منظمة غير حكومية أن الإنترنت يخلق فجوة فى المعلومات للذين تتوفر لديهم المؤهلات الفنية ووسائل الاتصال لاستعمال الشبكة والآخرين الذين لا يملكون ذلك، ولكن غالبا ما يعطى الازدهار الذى حصل فى عالم الكمبيوتر فى الهند كمثال على كيفية الاستفادة من



الإنترنت فى دول العالم الثالث . وقد قام فى الهند عدد من رجال الأعمال الكبار عند عـودتهم من سـيليكون فـالى فى كاليفورنيا ، وهى منطقة التقنية العالية فى الولايات المتحدة ، بجمع الرأسمال اللازم لشركات الإنترنت الهندية، ولكن ما حصل فى الهند فى هذا المجـال لم يمس إلا شريحـة بسيطة من مـجمـوع سكان الهند.وتحاول المنظمات المالية الكبرى ، مـثل البنك الدولى والأمم المتـحـدة ربط العالم النامى بالتكنولوجيا فعلى سبيل المثال ، أنشأ برنامج الأمم المتحدة للتنمية مراكز تعليميـة فى صحراء جوبى فى منغوليا حيث يستطيع السكان المحليون الربط بالإنترنت ودراسة علوم الكمبيوتر، وتنفق هذه المنظمات الأموال أيضا على الطلاب فى دول العالم الثالث لتسهيل حصولهم على تكنولوجيا المعلومات ومن أجل مساواة الطالب بقرينه فى الغرب ، وقال أحد الخبراء فى إجتماع دافوس إنه يمكن عكس ذلك فـبـدلا من أن تخلق الشبكة توترا بين الفقراء والأغنياء يمكن أن تستخدم للتثقيف عوضا عن ذلك ، ويجمع الكل أن تكنولوجيا الإنترنت لاتزال فى بدايتها حيث يقدر مدير شركة نوفيل أنها قد حققت خمسة فى المئة فقط من الإمكانيات الكامنة فيها ، ويبقى السؤال المطروح هو :هل سيفى الإنترنت بوعوده بخلق عالم خال من الفروق المعلوماتية؟!

وحتى لو توفرت نظم اتصالات سلكية ولاسلكيـة فى المكان المناسب ، فـمـعظم العالم فقير حتى الآن ، وسوف يستبعد من ثورة المعلومات بسـبب الأميـة ونقص المهارات الأساسـيـة فى التـعـامل مع الكمبيوتر والإنترنت . فى بنين على سبيل المثال، أكثر من ٦٠٪ من السكان أميون وال٤٠٪ الآخرون سيئو الحظ فعلا فهم لا يعرفون الانجليزية ،التى تتكلم بها أربعة أخماس مواقع الإنترنت ، فـهى اللغة التى يفهمها واحد من بين كل عشرة أشخاص على كوكب الأرض ،ولا يمكن اتهام نقص الموارد فى المجتمعات الفقيرة بأنه السبب الوحيد فى الفجوة التكنولوجية ، فـهناك أيضـا المقاومة الشديدة للأفكار الجـديدة وخاصـة التكنولوجيـة منهـا فى العـالم النامى.

التكنولوجيا للصفوة فقط !

خذ مثلا الجامعة الافتراضية الإفريقية ، وهى جامعة قائمة على تكنولوجيات الواقع التخيلى ، تكفل بها البنك الدولى ورعى برامجها فى دول جنوب صحارى أفريقيـا ، وبثت تلك الجامعة أكثر من ٢٠٠٠ سـاعـة من التعليم المصـحـوب بالإيضـاحـات من خـلال تكنولوجيـات التليميديا ، إلى مايزيد على ٩٠٠٠ طالب جميعا فى تلك الدول . وقد سمحت تلك المبادرة لطلبة هذه الجامعة أن يأخذوا المناهج من أساتذة فى مؤسسات تعليمية مشـهورة وعالمية فى إفريقيا وأمريكا الشمالية وأوربا ،والذى لايبهر ولا يثير الدهشة ظهور مقاومـة لتلك الجامعـة الجديدة، خلطت بين قضية حتمية توظيف تكنولوجيـات المعلومـات لحل مـشـاكل المجتمع ، وبين قضية أولويات احتياجات المجتمع ، فارتفعت أصوات تعارض وجود

أحد الانفجارات العلمية

تلك الجامعة وتعارض إنفاق كل هذه الأموال ،التي لا تستطيع في النهاية أن تستخدم عددا كافيا من المحاضرين ، وطالبت تلك الأصوات البنك الدولي بأنه إذا كان حريصا فعلاً على مساعدة الجامعات الافريقية ، عليه أن يشجع ويدعم الوسائل الكفيلة برجوع الكفاءات الإفريقية المهاجرة في أوروبا وأمريكا ، إلى أوطانها في أفريقيا ، ففي النهاية لن يحل مشاكل أفريقيا غير الأفريقيين ، وشكى آخرون أن التعليم التكنولوجي العالي ، متاح فقط لصفوة مختارة ، ويعتبر غير مفيد ، طالما أن هناك أماكن كثيرة في القارة حتى الآن بدون الكهرباء وماء للشرب ، وأن هناك أولويات مثل النظافة والصحة وماء الشرب الآمن ، لذلك يوجد الآن جدل عالمي مثار حول أولوية الاحتياجات ، فأيهما أولى في الأهمية وصول الإنترنت إلى مناطق تعاني من نقص البنية التحتية الإنسانية ، حيث لاتوجد مياه صالحة للشرب أو خدمة تليفونية ، ورعاية صحية وتعليمية ، وهذا يذكرنا بدخول الإنترنت بعض مدارسنا ، وهي تفتقد تماما دورات المياه ، وملاعب ، وفصولا جيدة لتخفيف كثافة التلاميذ وتعاني من نقص في المدرسين ، ومهددة بسقوط مبانيها .

وعلى مستوى الفجوة الرقمية داخل الدولة الواحدة ، تسعى الدول المتقدمة ، بكل الطرق الى مساعدة فقراء المعلومات فيها ، بتوصيل خدمة الوصول للمعلومات بتكلفة منخفضة، فتتنافس الشركات والهيئات في بريطانيا في الاعلان عن تخفيضات هائلة في تكلفة تقديم خدمة الإنترنت لدرجة أن بعض تلك الشركات ، قدمتها مجانا ، واندلعت في بريطانيا حرب ضارية بين شركات تقديم خدمات الإنترنت ، وتأتي هذه التطورات الجديدة في عالم الإنترنت متزامنة مع تعهد رئيس الوزراء البريطاني توني بلير بأن كل مواطن بريطاني يجب أن يتمتع بحق استخدام الإنترنت بدون عقبات خلال خمس سنوات ، وسيستفيد من هذه الخدمة أي شخص لديه كمبيوتر وخط هاتفي ، وقد اجتمع رئيس الوزراء البريطاني توني بلير مع رجال الأعمال وزعماء النقابات ، وامتدح هذه الخطوة في كلمته باعتبارها ستساعد في جعل الإنترنت وسيلة جماهيرية . وفي أوائل العام الماضي عام ٢٠٠٠ ، كشف كلينتون عن الخطط لإعطاء كمبيوترات مجانية للأمريكيين



الفقراء . ونادى بمجموعة من الإجراءات لسد الفجوة الرقمية بين أغنياء وفقراء المعلومات داخل الولايات المتحدة الأمريكية نفسها . لدرجة أن باحثا مثل آدم ثايرير Adam Thierr دعا الأمريكان بالاحتفال اليوم بالأكازيون الرقمي المتمثل فى التخفيضات الكبيرة فى أسعار الكمبيوترات وبرامجها ومستلزماتها، وأسعار الدخول على الإنترنت التى تنخفض يوما بعد يوم بسرعة كبيرة . كما دعت المجالس المحلية الأمريكية الرئيسية إلى التبرع بتكنولوجيا الكمبيوتر إلى الفقراء الرقميين . وبدأت شركات خطوط الطيران الأمريكية بتوزيع أجهزة كومبيوتر مجانى للعاملين فيها ، وشركات السيارات أيضا أعلنت فى فبراير ٢٠٠٠ بتوزيع أجهزة كمبيوتر مجانى ومستلزماتها من طابعة وغيرها ،واشتراكات مخفضة جداً فى الإنترنت إلى موظفيها ، هذا غير التبرعات من الشركات الكبيرة بالملايين ،والتبرع بالكمبيوترات المستعملة للمدارس ومراكز التدريب . هذا مايحدث فى الدول المتقدمة جداً فى تكنولوجيات المعلومات !

وفى مصر بدأ اهتمام واسع بنشر تكنولوجيات المعلومات ، وبدأت إحدى الشركات تعلن عن توفير فرص للدخول إلى الإنترنت مجانا فى المستقبل القريب ، لكننا نذكر رجال الأعمال والشركات الكبيرة فى مصر بأنهم يمكن أن يساهموا بالكثير لسد الفجوة الرقمية الكبيرة جدا فى مصر ، فحوالى ٩٪ فقط من السكان لديهم خط تليفون ، و٤٪ فقط لديهم تليفون محمول . وعدد مستخدمى الإنترنت فى مصر حوالى الـ ٥٠٠ ألف مستخدم ،وهو رقم ضئيل إذا قورن بأرقام الدول المتقدمة التى ذكرت فى متن المقال . ويعتبر رقما متواضعا جدا حتى بين الدول العربية إذا نسب لعدد السكان ، فحوالى ٨ ٪ (ثمانية أجزاء من الواحد الصحيح) فقط من السكان يستخدمون الإنترنت ، ناهيك عن أمية أبجدية الكمبيوتر والإنترنت التى تسود بين الغالبية العظمى وأمية المتعلمين الثقافية إلى الأمية الهجائية فى مهارات القراءة والكتابة المنتشرة بين أكثر من نصف المصريين ،فتتبلور مشكلتنا على هرمية الأولويات فى الجبل المركب بمعناه الواسع . فالجهود المبذولة فى سد الفجوة الرقمية فى مصر لا تتناسب مع الأهداف التى يجب أن نسعى لتحقيقها . فسد الفجوة الرقمية فى مجتمعنا يتطلب شروطا سياسية واجتماعية وثقافية أعمق من مجرد استيراد أحدث الأجهزة وتعليم الناس كيفية الضغط على أزرارها الأنيقة، فالتحديات التى يطرحها عصر المعلومات يجب أن تؤدى إلى مراجعة شاملة لنظم التعليم فى مجتمعنا ، فالمعرفة فى حد ذاتها لم تعد هدفاً بل الأهم من تحصيلها هو القدرة على الوصول إلى مصادرها الأصلية ، واستمرارية الاستفادة منها لاحتياجات تنمية المجتمع وتوظيفها فى حل مشاكله . ■

قصة قصيرة

الوحدات

قصة: محمد جبريل

رسوم: سميحة حسنين

ماكدت أفتح الباب الزجاجي، حتى لطمني هواء ثلجي. أغلقت الباب، وانسحبت إلى الداخل..

كنت قد أعددت نفسي لمغادرة الفندق فوق الجبل، والنزول إلى عمان. التمشي في الشوارع المنحدرة، ومشاهدة الدكاكين والأبنية التي تغيب ملامحها في أسفل..

أعدت النظر إلى المدينة من وراء الباب الزجاجي. بدت المرئيات ضبابية بتكثف البرودة على الزجاج، بينما الجو - ربما من المكيفات - مقبول في الداخل. الجبال قمم فسيحة، تتسلقها البيوت الصغيرة. تكومت، فلا تبين الشوارع المؤدية إليها. تكتسي بغلالة من البرد الثلجي. تشف الغلالة، حتى تغيب في الطرق والميادين والبنايات..

لزمت الفندق في أثناء الليل. النجفة الهائلة تدلت من وسط السقف، عكس تداخل زجاجها الملون أضواء، وظلالاً تشابكت وتقاطعت على الأرض والجدران. الأضواء الخافتة، غير المرئية، تسبح في أركان البهو الواسع. الجدران كسيت بالخشب المطلي، وزينت بحواف بلون الذهب. وثمة مواضع زينت بالرسومات والزخارف الجصية ونقوش الخزف ومعلقات السجاد والنسجيات. الأرضية من الرخام الأسود، تتخلله تشابكات من الخيوط البيضاء، تتباعد في أرجاء البهو طاولات صغيرة من الأبنوس والصدف. وتتناهى موسيقا خافتة من موضع لا أتبينه. ثم صعدت إلى حجرتي المطلة على جبل عمان، أتأمل - من وراء النافذة الزجاجية المغلقة، تناثر الأضواء في مساحات الظلمة.

***

ساحة الباصات..

حدد لي الموعد من التاسعة إلى العاشرة صباحاً. البرد أقل قسوة من أعلى الجبل. لمحته وهو يتفحصني، كأنه يفتش عما لم أتبينه. ضم



أصابعه على ياقة السويتر القطني، يتقى البرد. خمنت أن مرحه الظاهر غلالة تخفى وراءها حزناً يحاول كتمه. بدا مسكيناً بقامته الضئيلة، وشعره المهوش، ووجهه الطويل، النحيل، وعينيه القلقتين، والشعيرات الخشنة النابتة فى ذقنه.

الشاحنات المبردة تفتح أبوابها. العمال ينقلون إليها الفاكهة فى صناديق خشبية أو كرتونية، وهدير المحركات يختلط بالنداءات والصيحات وعبارات البيع والشراء والفصال وتلاغط الإذاعات. والسماء ملبدة بغيوم تشى بقرب سقوط المطر.

قال:

- هذه الشاحنات تنقل الخضر والفاكهة إلى دول الخليج.

ثم وهو يحاول التغلب على البرد بالنفخ فى يديه، وفركهما:

- فكرت فى أن أستقل واحدة إلى خارج الحدود.

قلت فى دهشة:

- لن تظفر بغير اكتشاف موقفك.



تنهد:

- يا ريت!..

- ستعيدك مصر على أول طائرة..

وهززت رأسى:

- دوخيني يا لمونة..

***

تعرجت الشوارع، وصعدت، وهبطت. بدا المشهد - فى الشوارع التى تتخلل البيوت - مختلفاً عن الذى رأيته فى وقفتى خلف نافذة الفندق. التقطت عيناى أسماء الشوارع والأبنية: شارع مادبا.. شارع الملك طلال.. شارع السلط.. شارع بارطو.. مستشفى لوريلا.. شرطة البادية.. مستشفى الهلال.

لاحظ تأملى لسور تبين من ورائه شواهد:

- هذا سور المقبرة الإسلامية.

سرنا فى الشوارع المتجهة إلى أسفل. تناثر البرد الثلجى فى تكوينات على اتساع المدى. أهملت نظراته المتلفتة، ووضع جانب راحته على وجهه كأنه يخفيه..

أشرت إلى المبنى المتعدد الطوابق، يحتل ناصية شارعين، اجتذبتنى الواجهة بتصميمها وألوانها ونوافذها المغلقة، المسدلة الستائر.

- فندق؟

وهو يتلفت - بتلقائية - حوله:

- إنه مبنى المخابرات..

وقرب يده من فمه، وراح ينفخ فى أصابعه المضمومة:

- قيل لى إن من يريد السفر إلى الخارج لابد أن يمر عليه أولاً..

الهدوء فى صوته وتصرفاته لا يشى بأن الطرق مسدودة. ذلك ما بدا لى. ظللت صامتاً، وإن أومأت إليه لكى يواصل كلامه:

- المشكلة أنه لا يمكننى الإقامة فى عمان.. ولا أستطيع العودة إلى القاهرة.

وأخذه انفعال:

- فكرت مرة أن أركب سيارة أقتحم بها الحدود إلى فلسطين..

إن قتلت فسأقتل في وطن .. وطني.

زاد في تألي أني أبدت فكرة السفر إلى الأردن، حين تردد في الموافقة، نصحت بالسفر، يحقق عائداً يعود به ليبدأ مشروعاً يخصه، ويستقر.

- لم أكن أعرف أني إذا لم أعد قبل انتهاء مدة الوثيقة، لن أستطيع العودة.

- لماذا لا تحصل على وثيقة سفر أردنية؟..

- حاولت .. رفضوا..

- لماذا؟..

خنق الانفعال صوته:

- رفضوا..

- لو أنك جددت الإقامة في موعدها؟..

رفع عينيه في تثاقل:

- رفضت الشركة هنا سفري. ظل الرفض معلقاً حتى انتهى موعد التجديد. لما طلبت الشركة وثيقة إقامة مصرية مجددة، كان كل شيء قد انتهى.

لأنه يكبرني بعامين، فقد لعبنا في الشارع، ودخلنا المدرسة نفسها. واصلت دراستي في الجامعة، بينما عمل عند ميكانيكي سيارات في الشارع الخلفي. ظلت صداقتنا على حالها. يهمني أن أراه. نتسكع في الشوارع، تجلس في البيت، أو في المقهى، نشاهد مباريات كرة القدم. نتردد على السينما. لم أفطن إلى مشكلة وثيقة الإقامة إلا عندما لمحتها على الكومودينو، ونحن نلعب الكوتشينة على طرف السرير.

- بطاقتي تختلف.

- هذه ليست بطاقة.. إنها وثيقة إقامة.

- لماذا ؟..

- لأني فلسطيني .. أنت تحمل بطاقة، وأنا أحمل وثيقة إقامة.

حدجته بنظرة متسائلة :

- أنت في مصر من قبل ولادتي.

- لكني أتبع أبي.. وأبي يحمل وثيقة إقامة منذ هاجرنا إلى مصر.

- زمان؟..

- زمان .

- ولماذا لا تحصل على الجنسية المصرية؟.

أشاح بيده :

- أسئلتك كثيرة .

قال لي إن ما يشغله الآن هو أن تستقر حياته، فلا يلاحق. مجرد أن يعلو رأسه سقف، وتحيط به جدران لها نافذة، حتى لو كانت نافذة ذات قضبان. وقال إنه يعاني التلفت لأقل صوت، ويعطي تشككه في النظرات التي يلتقي بها.

قلت :

- هل تظن أنك ستظل العمر مختفياً؟.. غداً يلقون القبض عليك.

- لا يهم ..

- لا تخاف السجن؟..

- هو مكان للإقامة..

- لن تظل فيه إلى الأبد.. سيرحلونك..

اختلجت شفتاه:

- إلى أين ؟..

- لا أعرف .. لكنهم لابد أن يدفعوا بك إلى أول طائرة..

في لهجة مستخفة :

- سأصبح إذن مواطناً عالمياً.. فليس معي تأشيرة دخول إلى أي بلد.

- تغيظني البساطة التي تتعامل بها.

لوى الضيق ملامح وجهه:

- هذا ما تتصوره .. قتلني الإحباط والخوف.

قلت :

- ربما استطعت أن أسافر بك إلى لبنان أو سوريا.. لكن .. هل

تستطيع أن تحيا بلا جواز سفر ولا أوراق تثبت شخصيتك؟..

أشار بتأثر إلى البيوت من تحتنا :

- هذه الورقة .. هذا الطير .. هذا الكلب .

وهز قبضته :

- حتى الحشرات تستطيع أن تعبر الحدود بلا أوراق ولا جواز سفر.

بدا كل شيء كحلم، أو كابوس. ألف الطرقات، أهل وأصدقاء وأصحاب عمل. فاجأته السحن التي أربكته صرامتها. أجاب عن أسئلة الضابط ذي الزي المدني في الحجرة المغلقة، ثم اقتاده أصحاب السحن الصارمة إلى عربة لوري مغلقة، إلا من نافذتين صغيرتين من الحديد، مزدحمة بالأنفاس والعرق.

***

صعدنا إلى سوق كبيرة للخضر، اصطفت فيه، وتناثرت عربات صغيرة وأجولة وصناديق. تعالت النداءات والصيحات والمساومات والشتائم، وروائح العطارة والبخور والدخان المحترق وشواء اللحم، وثمة كلب تشمم عمود نور، ثم رفع إحدى ساقيه في اتجاهه.

قلت لنظرته المتسائلة:

- متى نصل إلى مخيم الوحدات؟

- نحن نسير فيه..

- وأين الخيام؟..

أطلق ضحكة من أنفه :

- المخيم مجرد تسمية. إنه حي سكني مثل الأحياء التي تحيط به: التطوير الحضاري والدبابية والأشرفية والشرق الأوسط والقويسمة.

قال لي إنه ينزل ضيفاً على أسرة فيه.

الشوارع الواسعة تختلط بالحارات الضيقة والأزقة التي تنتهي بجدار بيت، أو حائط مسدود، أو مساحات من الخضرة. المآذن والقباب والبنايات المرتفعة، تلاصقها، وتقاربها، بيوت حجرية، بيضاء، من طابق واحد، تمتد في المساحة الواسعة . الشرفات ذات القواعد الرخامية ، المتجاورة في أشكال منسجمة، تستند إلى دعامات على شكل مقرنصات وتماثيل لبشر وحيوان من الرخام أو الجبس. صف على بعضها أصص نباتات الزينة. النوافذ من الضلف الخشبية، أو مساحات الزجاج. الأبواب الحديدية السوداء، غطيت واجهاتها بصفائح النحاس المنقوش في صور ورود وأغصان متعرجة وأوراق . الجدران ملونة بشعارات ونداءات وإعلانات عن بضائع وآيات قرآنية وعبارات مشطوبة، وصور لعرفات وعبد الناصر وجيفارا. التندات ظللت الدكاكين التي كومت بضائعها أمام الأبواب. الباعة يفترشون الأرصفة ، وجوانب الطريق ، يبيعون القمصان والجوارب والشباشب والمناشف ولعب الأطفال. المارة يرتدون البدل والبنطلونات الجينز والسويترات والحطة والعقال.



أشار إلى بائع زهور يتقافز بين السيارات في مفترق الطرق:

- هذا ما فعلته في البداية.. ثم عرفت أن الجنود يقفون عند الإشارات الضوئية..
وأطرق وهو يعض شفته السفلى:

- قبل الذي أعانيه الآن لم أكن أعرف أنني فلسطيني.

ولجأ إلى تعبيرات يديه:

- لم يكن ذلك في بالي..

ووشى صوته بتأثر:

- إنهم ناس طيبون.. لكنهم ليسوا أهلي..

- أنت فلسطيني..

وهو يحكم ياقة السويتر إلى صدره:

- هذا ما تقوله وثيقة الإقامة. لم أغادر القاهرة منذ ولدت إلا هذه المرة.

واصلنا السير حتى بلغنا خط السكة الحديد في نهاية المخيم.

بدا الرجل مختلفاً عن الآخرين في شكله وملامحه: وجه أبيض مشرب بحمرة، وأنف مستقيم، مدبب، وحاجبان بارزان كأنهما يفصلان جبهته عن بقية وجهه، وعينان زرقاوان،



واسعتان، يرتدي فوقهما نظارة طبية ذات إطار معدني أبيض، وثمة عروق زرقاء تتقاطع تحت البشرة.

- هذا موظف وكالة الغوث.

- الغوث؟..

- هذا هو اسمها.. وكالة غوث اللاجئين.. وهو وسيط بين سكان المخيم والوكالة.

وانتزع ضحكة مبتورة:

- من يصادقه يضمن كميات أوفر من التموين والمساعدات الاجتماعية.

قلت مداعباً:

- ولماذا لاتصادقه؟

- لن أظل العمر هنا..

ورفت على شفتيه ابتسامة مهزومة:

- أعرف أن إقامتي هنا لن تطول.

ثم وهو يهدىء بيده خصلة شعر متطايرة:

- لابد أن أترك المخيم إلى القاهرة أو إلى حيث لا أعرف.

***

هبطنا من المخيم إلى قلب المدينة. عرفت من تكرار اسم الأشرفية على واجهات الدكاكين، وعلى واجهة المستشفى، أن هذا هو اسم الحي.

غلبتني الحيرة، فلم أدر كيف أتصرف. تزاحمت الأفكار في ذهني، وتقاطعت الكلمات، وارتبكت. ولم أجد الكلمات التي تعبر عن مشاعري. ثم داخلني شعور بالتبلد، لم أستطع معه التفكير في أي شيء. وتشاغلت بالنظر إلى الأرض.

بدا عليه ذهول:

- هل تتركني؟.

أشحت بوجهي بعيداً، فلا أواجه نظراته:

- مؤقتاً.. نلتقي بعد غد في المكان نفسه، والموعد نفسه.

قال في نبرة تذلل:

- لم أصدق أنك جئت، وأني رأيتك.

- ستراني ثانية ومعي حل.

كان آخر رؤيتي له وهو يتابعني بنظرة ثابتة، غاب عنها المعنى المحدد. ■

كتاب الهلال
يقدم
حديث الزمان
كتاب لم يسبق نشره
د. أحمد زكي

يصدر
٥ مارس سنة ٢٠٠١

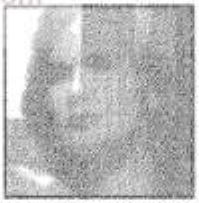
روايات الهلال
تقدم
فيرونيكا تقرر أن تموت
تأليف
باولو كويلهو
ترجمة: ظبية خميس

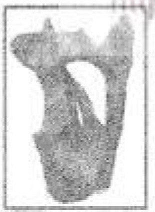
تصدر
١٥ مارس سنة ٢٠٠١

فنون









موسيقى
وغناء

من فقر الأغنية إلى ثراء المسرح الغنائى



بقلم
فرج العنترى

لكى يكون الحديث مليئا بفائدة مضمونة فى وجوب تطوير موسيقانا، وليس من قبيل «طق الحنك» بتعبير أقربائنا الشوام، أو من أجل «فك المجالس» بمفهومنا المصرولوجى، فإن أهمية هذا التطور الذى ينبغى أن تفيد منه مختلف تفريعات المفهوم الجامع المانع للموسيقى وبما هى موسيقى حقا، كانت هدفا سبق إثباته فى صلب توصيات المؤتمر الدولى الذى أقيم فى القاهرة لموسيقانا العربية فى سنة ١٩٣٢ بالسعى الحثيث لتحقيق هذه الأهداف بالذات: ١- رفع مستوى الثقافة الموسيقية العامة، وإنبات النشء نباتا موسيقيا حسنا، ٢ - العمل على استقرار الموسيقى بكل بيت من بيوت المجتمع المصرى، ٣ - أن تساير مناهج التعليم الموسيقى بوجه عام الأساليب الأوربية كى تنتفع موسيقانا العربية من مزاياها ..

وها نحن أولاء بمستهل الألفية الثالثة، وقد أصبح أطفال عام ١٩٣٢ فى عمر التاسعة والستين المديد بإذن الله تعالى، لكننا إذا ما أردنا أن نفتش عن حصيلة ما تم انجازه مدرسيا واجتماعيا من تلك الوصايا، ومع احتساب أدوار كل من وزارة الثقافة من بدء نشأتها، وإذاعة الراديو من بعد نقل ملكيتها وإدارتها إلى حكومتنا فى ١٩٣٤، وبالارسال التليفزيونى بدءا من أول نشاط له فى سنة ١٩٦٠، وبمبلغ إفادتنا من معاهد التخصص بأكاديمية الفنون ومن أنشطة هيئة قصور الثقافة الجماهيرية فى جميع أنحاء البلاد، ومن كل جهد مشكور تم بذله فى نشر وإذاعة ماتيسر من التنوير الذى قدمه ويقدمه الاساتذة الأجلاء الخ .. الخ سوف لانجد من كل حاصل الجمع - وبكل الأسف - إلا ما يساوى القطرة فى متسع المحيط بإزاء ماتفشى ويتفشى من الأمية الموسيقية، ومن أمراض التلاحين الفاسدة والمفسدة معا!! ولذلك، فإنه عندما يتساءل كل صديق وصديقة عن تحديد الموقف الحالى لجماهيرنا الغفيرة بإزاء الموسيقى الانسانية وثقافتها بكل الحق ولاشىء غير

الحق، أنهض من فورى فأستأذن بأن أجيب على هذا السؤال المشروع والمهم بسؤال مهم ومشروع أيضا وإنما يبدو مزعجا نوعا لأنه سيتوجه فورا ليقول «بالفم المليان» لكل زيد أو عمر ولكل فتاة أو سيدة بيت من بيوت المجتمع المصرى فى طول البلاد وعرضها : «أذكروا من فضلكم أسماء المقطوعات العشرة من أهم الأعمال الموسيقية المحترمة، سواء من المحليات أو من العالميات، ثم ليستنشد كلٌ على حدة بنغمه الخاص أهم لحن يتذكره فى مقطوعة» وبسرعة - ولأجل خاطرى - سؤال آخر سيقول : «أذكر لنا يا أخى المواطن وأختى المواطنة تعدادا متواليا لعشرين مباراة محلية أو دولية لكرة القدم فى شتى مدن القارات الخمس مع تسمية حكامها، وأهم أبطالها، وتعداد الأهداف فى كل منها سلبا أو إيجابا، وبتحديد ألوان «الفانلات» لكل فريق، وآراء مختلف الجرائد والدوريات والإذاعات مع توضيح رأيك الخاص؟؟!! وعن نفسى، سوف لا أنتظر الإجابة على السؤالين معا لأن النتيجة المتوقعة معروفة سلفاً أو تكاد!!..



وإذن، هيا بنا معا لننظر ونتمعن فيما جرى لبلادنا من هجمة ألحان «انفتاح السداح مداح» التى تبرنطت - من البرانيط!! - فيما شاهدناه وسمعناه بأساليب قد تأوربت وتأمركت - أوربية وأمريكية أعنى - وفى مجموعات من الطواقم التى حملت أسماء حشرات «الخنافس» وحيوانات «الكلاب» و«الهررة» فى «البيتلز» وفى «الكاتس» وفى «البتى شا»، وهذا، مع ما انضاف بالزيادة - ولعله بسبق الإصرار والترصد الانفتاحى أو الانفضاحى!!- من سلطانم الأنشطة لبعض أو غالبية شركات الكاسيت فى إنتاج وتوزيع «بلاوى الأغانى» التى استفزعت فى المشاعر والآداب قوى التململ والضجر، والتى اتضح من كشوف التقصى البحثى عنها أن نحواً من خمسين شركة بالاسم والعنوان ظلت مفرودة اليدين تماما فى الانتاج والنشر الانفتاحى حتى ١٩٨١، وأن قدرات أصحابها لم تعجز قط عن



كامل الخلعي



سيد درويش

إنجاح تدابيرها فى الانفلات من أية ضوابط رقابية على المصنفات، بل ولا حتى عن تسريب انتاجها الموبوء إلى كل من مرفقي الإذاعة والتليفزيون لنشره بأجهزتهما!! .. وما أن طفح الكيل أو كاد، حتى أصدرت جريدة الأهرام حيَّاها الله سلسلة من متواليات المقالات طوال الفترة من ١٨ يونيو حتى أواخر ديسمبر ١٩٨٢ وجاءت بمثابة طلقات الميدان الكاشفة بتصويبات الاستاذة القديرة آمال بكير فى تقديمها النقدى لمثل ماتلى من بلاوى السداح مداح :

- السّح ادّح امبوه
- من باعك بيعه للريّس بيره
- حمدان الصعيدى يقدّم جحش السهرة
- تعبتيني قوى ياعمتى
- آلهى تنشكّ فى عينك
- كوز المحبة انخرم اديله بنط لحام
- تسجيلات لدقات الزار المختلفة مع ارشادات للتعامل مع أنواع الأسياد.
- تسجيلات لأغاني الفرانكوأراب التي تمعن في سخف الشيطنة
- تسجيلات لأغاني ذات ألفاظ تخدش الحياء
- تلاحين لبعض آيات القرآن الكريم بطريقة مستهجنة

وكان أن دارت سخونة البحث والتقصى لدراسة هذا الموضوع من شتى نواحيه اللفظية واللحنية والادائية فى كل من شعبتي الموسيقى والأعلام بالمجالس القومية المتخصصة، وتحرر عنه تقرير مشفوع بتوصيات العلاج والترشيد ثم تقديمه إلى المجلس القومى للثقافة والفنون والإعلام الذى ناقشه وأقرّ توصياته في جلسة الثامن والعشرين من فبراير ١٩٨٣، وكالمتبع فى تقارير المجالس القومية تم رفعه إلى السيد رئيس الجمهورية في يوليو ١٩٨٣ .

ومهم للغاية أن نستعرض معا ماجاء بهذا التقرير من المرتكزات الارشادية ومن توصيات العلاج الشافى ومن التنوير بدءا من أن وراء الأغانى ثقافة فنية عامة، ووراء هذه الثقافة حضارة اجتماعية أعم وأشمل، وأن كل مجتمع له غناؤه الذى ينبغى أن يعبر عن كل ما له من قيم يرددها

الأداء في سمع المتلقين ليخاطب فيهم روح الجماعة وطبيعة الانسان.

وأما عن وظائف الغناء الأساسية فإن التقرير أشار إلى أنها تعمل على تهذيب النفوس وتربية الأذواق والارتقاء بها إلى المستويات العليا من الجمال إلى جانب ماتقوم به من نقل التراث الاجتماعي والتقاليد بين الأجيال ومن التعبير عن الروح القومي، ومن الاحتفال بالمناسبات الوطنية والدينية، ومن توفير طاقة الدفاع الوجداني والروحي ضد ما يعتري حياة الانسان والجماعات من أزمات ومصائب.

وفي جانب الترشيد الانتاجي أوصى التقرير بضرورة ايجاد مقياس محدد تلتزم به جميع جهات الانتاج الغنائي ليكون هذا الانتاج على ماينبغي من رفعة المستوى في عناصر اللفظ واللحن ونقاء التسجيل والأداء، وبأن تراعي جمعية المؤلفين والملحنين والنقابات الفنية الثلاثة واتحاد الاذاعة والتليفزيون أيضا كل الالتزام فيما تسمح بانتاجه ونشره بالاختيار الجيد للكلمة واللحن، وبمراعاة الحظر على ظهور أغاني المستوى الهابط في الأفلام وفي المسرحيات كي لايتسرب انتشارها من هذه المنافذ، وبأن يتوفر في عضوية لجان الفحص شرط التخصص الفني الاكاديمي مع دعمها باللازم من الاخصائيين في علوم النفس والاجتماع وهندسة الصوت، وبأن تكون قراراتها إلزامية.

وفي توقي السلبيات تم التشديد على عدم إجازة الاتجاهات الفردية التي لاتعبر عن روح الجماعة فيما تعرضه من المضامين والأفكار، وتلك التي تقصر عاطفة الحب على علاقات الغرام وما من شأنه أن يوحي بالإذلال النفسي أو بالمبالغة في تعابير معاناة الحب بمضامين غير واقعية، وهذا الى جانب عدم الترخيص فنيا واداريا بقبول ما تقدمه الفرق الخاصة إلى الإذاعة والتليفزيون خارجا عن مقررات الحفلات الخارجية، والكف تماما عن تقديم أي من الأغاني التي يتضمن سياقها أمارات عن دغدغة عواطف الانسان الداخلية على نحو متدن.





بيرم التونسي



سلامه موسى

وأما عن إحكام جهاز الرقابة على إنتاج الكاسيت، فقد أشار التقرير بضرورة اخضاع جميع شركاته لضوابط المستوى الرفيع، وبأن يكون لهذا الجهاز من الفاعلية مايؤدى إلى سد كل منافذ الانتاج والتوزيع على ممنوعات الكاسيت والفيديو، وبأن يضاف إلى قانون المصنفات من المواد ما يكفل إحكام السيطرة على الإنتاج والتوزيع، ومع إعادة النظر فى مواد العقوبات المنصوص عليها فى هذا القانون بهدف تشديدها على المخالفين فى حالة العودة.

وأخيرا أوصى التقرير لجهازي الإذاعة والتليفزيون بانشاء فريق أوركسترالي وكورال للصغار وآخر للكبار ضمانا لتجويد وتنفيذ عمليات التجهيز والإرسال والتسجيل بما ينبغي من الكمال والنقاء، وبأن يتولى الجهازان مراجعة ماتراكم لديهما من نماذج غنائية تتناقض مع المستوى الرفيع واستبعادها كليا من النشر ومن التداول.

وبهذا كله أجدنا على كامل الاتفاق فى أنه لازيادة لمستزيد إلا سرد كتابات النقد[1] الذى وجهه كبار أدبائنا وعلمائنا الى عيوب الموسيقى فى حينهم.

* * *

ونبدأ «بالشيخ» طه حسين فى فترة الضحى من شبابه (١٩٠٨ - ١٩١٣) حين أضجرته النماذج الغنائية التى شاعت يومئذ فخرج الى الناس شاهرا سيف نقده بمحاضرة علنية ألقاها فى نادى الموظفين بالقاهرة قال فيها: «إنه إذا صح ما يقولونه من أن الرقى الأدبى لكل أمة من الأمم هو أشعارها وأمثالها وأغانيها، ثم قسنا رقى العرب فى جاهليتهم بهذه المقاييس الثلاثة لكانت النتيجة مؤلمة جدا، لأننا لانستطيع أن نتردد لحظة واحدة فى الحكم بأن العرب الجاهليين الذين لم يؤدبهم استاذ، ولم يفقههم كتاب، ولم يصلح أخلاقهم دين، كانوا أرقى منا نفسا، وأزكى قلوبا، وأبعد منا همة وأصدق عزيمة»، ثم زاد فضرب المثل الإصلاحى بكتابته لنموذج نص

١- سبق أن أدرج الكاتب شيئاً من هذه الفقرة في هلال سبتمبر ١٩٩٨ عن «ماذا حدث للمصريين؟» ف.ع .

غنائي للسير على منواله قالت بدايته:

آنا لـــولاك كنت مـلاك

غير مسموح أهوى سواك

وهو النمـوذج الذى لحنه بالكامل الموسيـقـار كامل الخلعى (١٨٧٠ – ١٩٣٧) وسجل فعلا على اسطوانة لم تذع لسبب أو لآخر، وقد تم العثور على صيغة هذا النظم فى متروكات الخلعى. وكذلك أفرد الأديب والمصلح الإجتماعى سلامة موسى (١٨٨٨ – ١٩٥٨) فصلا كاملا عن أغانينا فى كتابه عن «الأدب والحيـاة» رفض فيـه شـتى الألحـان المطوطة بشكل البكاء والعويل، وطالب بنوع الأغانى المبهجة والمفرحة لتملأ نفوسنا بالنشاط والتفاؤل، ولتحفز شبابنا إلى العمل بالأمل بدلا من الألحـان التي تشل فـينا الأمل وتحثنا على البكاء.



وأيضـا كـتب شيـخنا الأديب الخـفـيف الظل جـدا عبدالعزيز البشرى (١٨٨٦ – ١٩٤٣) فى الجزء الثانى من كتابه «المختار» عن أهمية تطوير أغانينا فقال: «إن الغناء المصرى قد صرف كل همه إلى ترديد الصبابة والهوى، وشدة البين وطول النوى، وألم الفراق وحرقة الجوى، بدلا من إصابة المعانى السامية التي تتصل بتربية الأخلاق أو بتزكية الأذواق»، ثم أشار إلى مقاطع الغناء التي انتشرت فى حينه باسم الطقاطيق بأنها «من فاتر القول وساقط الكلام، وأن مايجرى منها على ألسنة الفتيان كله خور وتكسر واستخذاء لاينتهض به للفتى عزم أو يشتد له طبع، وأما ما يتصلصل منها فى حلوق البنات فكله خنى وعهر، وكله استرسال فى الفتنة إلى آخر المدى، وتدريب على عصيان الآباء فى طاعة الهوى (أنا لما استاطف مايهمنى بابا!!) ولمطالبة الأم بأن تفسح فى جوانب الحيل لتجمع بنتها بهواها وتبلغها أخس مناها (هاتى لى حتى يانينة الليلة!!) . وكتب عباس العقاد (١٨٨٩ – ١٩٦٤) فى عدد جريدة البلاغ بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٩٣٢ فقال: «إن الفنان فى البلد – وخاصة المغنى! – مجرد خليع وماجن من مجانها، كل همه أن يضيع الوقت على الناس بإحياء الردىء فيهم من الشعور ومن ذميم الأمل، ومن وضيع التفكير والتخيل،



د. رتيبة الحفني



منار ابو هيف

وأنه قد صار عهدنا بالمطربين والمغنين ألا نجد فيمن نسمعه منهم من ينطق بلسان النفس يائسة وراجية، غاضبة وراضية، مستنفرة ومتهللة، ضارعة وملتهبة، كما لم نجد من يروى بأنغامه عن جلال الحياة وجمالها، وعن عظمة الكون وبهجته كما ينبغى أن تكون الموسيقى، وقد علم كل انسان أن ليس منهم من يفهم الموسيقى على هذا النحو، ولكنها أصوات الذل والضراعة، ينشدها النائم فلا يستيقظ، ويسمعها الصحى فينام!!» .

ويجيئنا شاعر العامية الوطنى بيرم التونسى (١٨٩٣ - ١٩٦١) بنقده لأغانى التفاهة والتسطيح فى نظمه التالى الذى ذاع واشتهر :

يا أهل المغنى، دماغنا وجعنا ،
دقيقة سكوت لله
دا أحنا شبعنا ، كلام ماله معنى
، ياليل وياعين ويا آه
يا أهل المغنى

طلعت موضة، غصون وبلابل،
شابط فيها حزين
شاكى وباكى وقال موش عارف،
يشكى ويبكى لمين
واللى جايب له الداء والكافية،
طارشه ماهش سامعاه
يا أهل المغنى
ردى عليه، ياطيور بينادى،
وارمى له جناحين
وانت كمان، ياوابور الوادى،
قل له رايح على فين
قل له إياك ، يرتاح ياوابوره،
ويريحنا معاه
يا أهل المغنى
حافض عشره اتناشر كلمة،
نقل من الجرنال
شوق وحنين ، وأمل وأغانى،
وصدّ وبكا وعويل
واللى اتعاد يزداد يا اخواننا ،
وليل ونهار هواه
يا أهل المغنى

ثم يحدثنا أخيرا أديبنا المسرحى محمود تيمور (١٨٩٤ - ١٩٧٣) فى كتابه عن «طلائع المسرح الحديث» فيعدد أوجه العجز والقصور فى «موسيقانا الشرقية» (التى أخذت صفة العربية فى الستينات)، وذلك بصراحة «علمفنية» أوفت على الغاية، وبشكل غير مسبوق على أيامه فى النقد الموسيقى حيث قال وقوله الحق



: «إنه لكي ننصف حقيقة الفن عندنا وأثرنا فضيلة الحق، فإن الموسيقى الشرقية القائمة بأصولها التقليدية، قاصرة عن مطاوعة المقتضيات العامة للملحنات (الأوبرا والأوبريت)، أضف إلى ذلك أن تنوع الآلات الموسيقية الشرقية ضئيل بالنسبة لنظيره في موسيقى الغرب وهو لذلك لا يستجيب ايضا لتلك المقتضيات ، ويستطرد فيقول : إن الطابع المميز للموسيقى الشرقية في اوضاعها الراهنة هو التعويل علي الميلودى (اللحن)، و هو على روعته جزء من كلّ، وقليل من كثير، وشيء من أشياء، وأما موسيقى الغرب فقد سادها الهارموني وهو مجموعة من الأصوات والأنغام والالحان متفاوتة الطبقات ومتنوعة القوى ليصوغ منها الفنان لحنه المتوافق المتناسق، فأين من هذا كله موسيقانا الشرقية التى تسودها البساطة والسطحية والرتابة؟؟». ثم ينتهى إلى أنه «يوم تتسامى الموسيقى الشرقية فلاتكون مقصورة على احتذاء التراث (الفلكلور)، بل تتخذه ركيزة لبناء جديد الطراز، ويوم تتنوع الآلات فى الموسيقى الشرقية لتحاكى نظائرها فى موسيقى الغرب (بالآلات الأوركسترالية) ويوم يسودها نظام التأليف بالالحان المهرمنة الذى أصبح عمود الموسيقى العالمية، تستبشر عندنا الفنون بأن الطريق قد انفتح أمام ميدان الأوبرا والأوبريت كى تتجلى على المسرح، وتأخذ حظها من التألق والتفنن» .



ومع كل ماتقدم حدث أن اسعفتنا نجدة التطور على يد سيد درويش (١٨٩٢ - ١٩٢٣) الذى أدار ظهره «للتخت» وآلاته و«ترلم لماته»، وعهد بتعابير المصاحبة فى مسرحه الى فريق أوركسترالى عصرى له قيادته، ويعزف أفراده من التدوينات الموسيقية NOTATION التى جهزها له الأخصائيون تلافيا لشطط الارتجالات وفهلويات العزف الفوضوى، فتميز تفرده لدينا تاريخيا بتمسرحه الغنائى المتطور الى مرتقى المذهب القومى، وبكامل قدراته على إبداع وتقديم أوبريتاته الثلاثة المشهورة: العشرة الطيبة، وشهرزاد،



بديع خيرى



عبد العزيز البشرى

والباروكة بمعاونة من مؤلفي قصص موضوعاته ونظم سيناريوهاتها بالأدباء الوطنيين اتجاها والكبار فعلا محمد تيمور، وبديع خيرى، وبيرم التونسي، وهذا في الفترة التى لم تكن مصر قد تمتعت بعد فيها بأكاديمية للفنون ذات معاهد عليا في تخصصات المسرح والعزف والقيادة والباليه والإخراج، هى الآن معنا منذ مايزيد على أربعين عاما للأنشغال بتأهيل وتخريج عناصر أداء أعمال المسرح الغنائي بأحدث المناهج الحضارية وإلى أن أصبحنا ذوى تجارب متعددة ومحسوبة في عمليات تجهيز وتقديم الأعمال المحلية أو العالمية بفنانينا وحدهم أو بالمشاركة مع الوافدين المحترفين، وفي نصوص بأصلها الأجنبي أو من المعربات التى نذكر منها بالذات تقديمنا الناجح لأوبريت «الأرملة الطروب» لفرانز ليهار النمساوى في ١٩٦١ بتعريب الاستاذ الفذ عبدالرحمن الخميسي، «المرحوم»، وبقيادة ادوارد اشتراوس وإخراج تونى نيسنار النمساويين، وبطولة فنانينا وفناناتنا، رتيبة الحفني، ومنار أبو هيف، وأميرة كامل (المرحومة)، وروجينا يوسف، وكنعان وصفي، ويوسف عزت، ويوسف صباغ، ومحمد نصار وبجانب الممثل المخضرم والقدير الفنان حسين رياض (المرحوم) .

وأسفر هذا التقديم الذى استمر طوال موسم خاص في شهرى نوفمبر وديسمبر ١٩٦١ عن أنه كان موضع الاعجاب والاقبال المزدحم، وفي تجربة أكثر من ناجحة خصوصا في جانب ملاءمة التعريب الممتاز الذى برأ تماما مع موسيقى ليهار من أية مصادمات أو مطبات أو احتباسات حنجرية بالمرة، بقدر ما كان ردا عمليا على تقولات ودعاوى عدم صلاحية أداء التعريبات الغنائية لحناجرنا في مجال الأوبرا والأوبريت، وما عاد لمكابر أن يزعم أن تقديم هذه الأوبريت في لغة الأصل الألماني لشعبنا هو الأنسب والأقوم للفهم والتذوق، وإنما المعقول مائة الف مرة وعلى ضوء ما أحرزناه من النجاح في التعريب أن نمضى في الاستمرار مع مسارح أوبريت كل عواصم الحضارة في الاهتمام بنقل روائع المسرح الغنائي العالمى الى

لغتنا بالتعريب الملائم، لاسيما وحقيقة الممارسات السائدة عالميا والمعمول بها تاريخيا وحتى الآن قد تناولت بالفعل نقل جميع الأوبرات الايطالية والألمانية والفرنسية الى اللغات السلافية ولهجاتها، وإلى الانجليزية، وحتى إلى الصينية والكورية طلبا لتيسير الفهم والتذوق بدلا من جلوس المتفرجين مجرد جثث مرصوصة قد دفع أصحابها أثمان تذاكر الدخول بالشيء الفلاني لكي تتدحرج الأنغام برطاناتها الى طبلة آذانهم وحسب!!.

وحقت لنا إذن مشروعية قيامنا منذ الآن بوضع خطة طويلة الأجل لتعريب كل الأوبرات والأوبريتات العالمية التي تناولت أفريقيتنا وشرقيتنا وشرقنا الأوسط العربي الى جانب الأسبانيوليات التي تحمل عطر التأثير العربي تاريخيا ومنها بالذات هذه الروائع:



- أوبرا حلاق أشبيلية لروسيني
- أوبرا سميراميس لروسيني
- أوبرا الايطالية في الجزائر لروسيني
- أوبرا عايدة لفيردي
- أوبرا التروفاتور لفردي
- أوبرا الناي السحري لموزار
- أوبرا الأفريقية لمايربير
- أوبرا اختطاف من السراي لموزار
- أوبرا معروف الاسكافي لهنري رابو
- أوبرا عنترة لرمسكي كورساكوف
- أوبرا تاييس لماسنيه
- أوبريت علي بابا لشارل ليكوك

وهذا الى جانب تفعيل القيام بحصر وتسجيل تراثنا المحلي في المسرح الفنائي والعمل على ضبط موسيقاه أوركستراليا لأغراض إعادة إخراجه وتقديمه بالامكانات العصرية، بجانب وضعه في متناول الدارسين والمؤرخين.

- والقضاء على عادة تكليف أكثر من ملحن للمشاركة في صياغة المصنف الواحد مما يسبب افتقاد وحدة الأسلوب والمذاق في السياق، ويتسبب كالعادة في سقوط العمل، وضياع الجهد والانفاق بغير أدنى فائدة،



عبد الرحمن الخميسى



كنعان وصفى

● والعمل على اقرار مبدأ انتقال العروض دوريا الى مسارح الأقاليم فى المحافظات والمدن بالاتفاق مع وزارة الحكم المحلى على طريقة ونفقات السفر والاقامة، وإنما مع التأكد مسبقا من تعديل «جورات» جلسة الأوركستر بمسارح هيئة قصور الثقافة فى أنحاء الجمهورية لضمان استيعابها لكل أفراد الفرقة بآلاتهم فى جلسة مريحة بدلا من التزاحم!!

● والعمل على رصد الجوائز ومنح التفرغ الداخلى وفى الأكاديمية المصرية بروما فى مهام: التوزيع الأوركسترالى لموسيقى نص عربى قديم، وفى تعريب سيناريو الأوبرات، والأوبريتات LIBRETTO المعينة، ولإنجاز التأليف الموسيقى لنص أوبرالى أو من الأوبريتات وعروض الباليه .

● والقيام بتشكيل لجنة من الاخصائيين لكتابة وتوثيق تاريخ مسرحنا العربى الغنائى - ومنه الانتاج الرحبانى - مع الحرص على استيفاء جوانب التوثيق بإثبات قصة الموضوع ومؤلفها، وسيناريو النظم الغنائى وواضعه، وتاريخ وموقع أول عرض، وإثبات أسماء القائد والمخرج ومهندسى الديكور والأزياء والإضاءة، ومدرب الكورال وفرقته، وأسماء الأبطال وأدوارهم مع بيان نوع طبقة الصوت، والعمل على إدخال عملية الطبع والنشر لما يتجهز تباعا فى مشروع مهرجان القراءة للجميع ضمانا لنشر الثقافة الموسيقية فى مجال الأوبرا والأوبريت على الواسع .

● والعمل على تجهيز وتفعيل برامج اسبوعية ثابتة لكل من جهازى الراديو والتليفزيون فى تخصص مجال الأوبرا والأوبريت، وأن تعنى الصحافة اليومية والأسبوعية بأخبار وموضوعات وتحليلات وبطولات وتذوق أعمال المسرح الغنائى المحلى والعالمى فى أركان ثابتة .

وأخالنا نتفق سويا على مضمون هذه الرؤية التطويرية ودوافعها للانتقال بعمليات تنغيمنا من مستوى فقر الأغنية إلى ثراء المسرح الغنائى بأنواعه كدفعة أولى فى التطوير الواعى لموسيقانا . ■



مسرح

الحرية
فى مسرح فتحى رضوان

بقلم
د . نادية بدر الدين أبو غازى

يعد فتحى رضوان نموذجا للمثقفين الذين غمروا حياتنا بفيض من العطاء المتدفق والمتجدد دائما فى شتى المجالات السياسية والفكرية والثقافية . وإيمانا بالعلاقة الوثيقة بين الفن من جانب والأفكار السياسية والاجتماعية من جانب آخر يسعى هذا المقال إلى تناول فكر فتحى رضوان من خلال إبداعه المسرحى الذى طرح فيه العديد من القضايا والأفكار التى شغلته ، وتجلت فى مجالات نشاطه وإبداعاته المتعددة والمتنوعة . وإذا كنا سنتعرض - بشكل عام - لأبرز القضايا والأفكار السياسية فسينصب - أساسا - على تحليل قضية الحرية كما وردت فى مسرحيتى «الجلاد والمحكوم عليه بالإعدام» و «المحلل» .

ويهدف هذا المقال إلى محاولة دراسة انعكاس الأوضاع السياسية على الإبداع . ورصد العلاقة بين حركة الأوضاع والأفكار السياسية وتطورها فى المجتمع ، وبين عملية الإبداع الأدبى فيه .

كان انفعال فتحى رضوان - ككاتب مسرحى - بالقضايا الإنسانية عامة وبأحداث مجتمعه خاصة هى مبعث هذا الجلاء الفكرى والوجدانى الذى انبثقت منه أعماله الفنية الصادقة .



فتحى رضوان

أما عن قضية الحرية والصراع من أجلها ، فإن العلاقة بين الحرية والابداع الفنى وثيقة . فإذا كان الابداع الفنى فى جوهره حرية ، فهو كذلك حرية من خلال سعيه الدائب إلى خلق عالمه الخاص ، وهو أيضا يستلزم الحرية مطلبا لبقائه واستمراره .

فقضية الحرية هى أكثر القضايا التصاقا بالإبداع الفنى، فتاريخ الفن هو تاريخ لسعى الإنسان عامة وسعى الإنسان المبدع - بوجه خاص - نحو التحرر من القيود ونحو البحث عن مزيد من الحرية .

وقد مثلت قضية الحرية والصراع من أجلها مطلبا وقضية محورية فى الواقع المصرى ، وعلى امتداد العصور .

فمن تتبع تاريخ مصر وكفاح شعبها نستطيع أن نتبين تيارين أساسيين سادا الأوضاع السياسية فى مصر منذ العصر الحديث : تيار مقاومة الاستعمار الأجنبى والتبعية السياسية. ويقابل ذلك تيار آخر هو تيار مقاومة الحكم المطلق والسعى إلى تحقيق نوع من التوازن بين صلاحيات السلطة وحقوق الأفراد وضماناتهم .

وإذا كان فتحى رضوان قد انتمى دوما إلى التيار الأول ، فإن قضية الحرية الإنسانية بمعناها العام ، وقضية الحريات العامة والحريات السياسية لم تغب عن اهتمامه . وكان ظهورها فى نشاطه أجلى ما يكون فى السنوات الأخيرة من حياته ، عندما تصدى مع مجموعة من المفكرين العرب البارزين لتأسيس المنظمة العربية لحقوق الإنسان .

فعلى امتداد حقبتى الخمسينات والستينات كانت قضية الحرية والصراع من أجلها قضية من أهم القضايا التى شهدتها هذه الفترة .

فقد نجح تنظيم الضباط الأحرار فى الوصول إلى السلطة ليلة ٢٣ يوليو لتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ مصر المعاصر . شهدت تغيرات هامة فى بنية المجتمع المصرى ، كما شهدت توجيه ضربات رئيسية للنفوذ الاستعمارى ليس فى مصر وحدها بل على المستويين العربى والافريقى . ولكنها على صعيد آخر، شهدت بروز مفهوم جديد للحرية مغاير لذلك المفهوم الذى ظل سائدا طوال تاريخ النضال الديمقراطى للشعب المصرى منذ مطلع القرن الماضى .

وقد تجلت قضية الحرية وتمثلت محورا رئيسيا فى كثير من الأعمال المسرحية فى الستينات ، حيث أكدت معظم أعمال تلك الحقبة على غياب الحرية وافتقادها فى المجتمع ، كما ربطت بين هذا الغياب وبين

الأوضاع التي سادت في تلك الفترة .

ولم تقتصر هذه الأعمال المسرحية على تناول الحرية السياسية وحدها ، وإنما تناولت الحرية بمختلف أبعادها سواء تمثلت في الحرية الاجتماعية أو حرية الرأي والفكر والاعتقاد . وقد ربطت بعض هذه الأعمال بين أبعاد الحرية المختلفة وعبرت عن تداخلها .

ففي مسرحيتي «المحلل» و«الجلاد والمحكوم عليه بالإعدام» اختار فتحي رضوان صياغة أفكاره في إطار مسرحية الفصل الواحد . وتحديدا للزمان والمكان مما أتاح له التفرغ إلى تعميق أفكاره ومقولاته الاجتماعية والأخلاقية والسياسية عن طريق حوار يتسم ببلاغة الحجة وقوتها ، وبأسلوب من الجدال أبان عن قدرته كرجل قانون مقتدر ومفكر اجتماعي وسياسي تشغله قضايا إنسانية واجتماعية جليلة .

والقضية الأساسية عند فتحي رضوان - في أغلب أعماله المسرحية وفي المسرحيتين موضع الدراسة تحديدا - هي ضرورة أن يستعيد الإنسان ذاته من خلال إدراكه لقواه الكامنة . وأغلب الموضوعات تدور حول الصلة القائمة أو التي ينبغي أن تقوم بين السياسة والأخلاق .

فالفكر السياسي عند المؤلف يصاغ في صيغة فنية مشوقة ، غير مباشرة وغير خطابية . وأفكاره الفلسفية وما وراءها من مضمون سياسي تنساب في تلقائية وسلاسة إلى فكر ووجدان المتلقي . ومسرحه ثري بالأفكار الفلسفية والمضامين الاجتماعية والسياسية ولكنه يتميز عن المسرح الخطابي الذي يجهر بالأفكار في صورة خطابية وعظية ومباشرة.

قضية الحرية

وإذا انتقلنا إلى تحليل قضية الحرية في أعمال فتحي رضوان نجد أن القضية الأساسية في أعماله المسرحية - وكما سبق أن أوضحنا - هي استعادة الإنسان لذاته من خلال إدراكه لقدراته الكامنة. ومن هذه الزاوية تأتي فكرة الحرية كفكرة متضمنة باعتبار أن استعادة الإنسان حريته جزء من استعادته لذاته . وهذا ما تجلى في كل من مسرحيتي « المحلل» و«الجلاد والمحكوم عليه بالإعدام» .

وإذا كان مفهوم فتحي رضوان للحرية هو مفهوم متعدد الأبعاد ، إلا أن جانب التركيز - في مسرحيتيه - كان منصبا أساسا على الحرية السياسية التي تناولها من خلال قضية المشاركة السياسية حيث أن شاغله الأساسي هو موضوع السلطة وعلى حد قوله «هذا الموضوع يشغلني من حيث أشعر ومن حيث لا أشعر . لذلك حين أفكر أولي اهتمامي بفكرة معينة أو واقعية محددة لها هدف معين . لكن عندما أبدأ الكتابة تخرج من نفسي الأفكار التي هي الينبوع الأصلي الذي يستقي منه قلمي مادته . فالفكرة - فكرة السلطة - تشغلني دوما . وكلما أفكر في واقعة ما ، فإن جاذبية الفكرة - فكرة السلطة - الموجودة دائما تجذبها وتأخذها » .

القضية المحورية المطروحة - في كتابات فتحي رضوان - هي كيف تقوم السلطة بواجبها على الوجه الصحيح ؟

ولماذا لا تقوم بواجبها على الوجه الصحيح ؟ وهل يمكن أن تقوم بواجبها على الوجه الصحيح ؟

ولكن فتحي رضوان لا يعالج هذه القضية وتلك الأفكار بصيغة مباشرة ، وإنما يتناول السياسة في إطار أشمل وأعم فالظاهرة السياسية جزء لا يتجزأ من الظاهرة الاجتماعية ، ومنطلقه في معالجة فكرة السلطة - كجوهرة للظاهرة السياسية - هو منطلق تكاملي .

فقلما نجد فى عمل من أعماله - خاصة الأعمال المسرحية - تعرضا للسلطة بصيغة مباشرة ، أو ترديد لعبارات سياسية ، أو تجسيدا لظاهرة سياسية . وإنما هو يتناول السلطة ويناقش الأبعاد السياسية التى تشغله من خلال معالجة ظواهر اجتماعية أخرى يرى فيها السلطة أو يرى ظاهرة السلطة من خلالها ، مثل الدين - كما فى مسرحية «اله رغم أنفه» أو العلاقات الاجتماعية كعلاقات الزواج - كما فى مسرحية «المحلل» ، والعلاقات الإنسانية - كما فى مسرحية «الجلاد والمحكوم عليه بالإعدام» . ففى هذه المسرحيات لم يعالج فكرة السلطة مباشرة ، ولم يتطرق إلى معطيات النظام السياسى ومكوناته ، ولن ينتقد السلطة بصورة واضحة ، وإنما وجه نقده للعلاقات الاجتماعية التى يرى فيها تجسيدا للسياسة . فالسلطة - فى مفهومه - هى السلطة بمعناها الواسع سواء فى محيط العلاقات الاجتماعية أو الدين .. الخ وليس فقط العلاقات السياسية .

فمسرح فتحى رضوان هو مسرح يدعو للتغيير من خلال تجسيد السلبيات ونقد الواقع والسخرية منه ، ثم مساعدة الإنسان على اكتشاف الطاقات الكامنة فيه والقدرات الهائلة التى تساعده على التحرر وبث الإحساس بالقوة التى هى أداته فى التغيير .

وإذا انتقلنا إلى تحليل أبعاد الحرية فى الأعمال المسرحية ، وجدنا أن فتحى رضوان كان من الكتاب الذين تناولوا قضية المشاركة السياسية باعتبارها أحد أركان الحرية السياسية .

وكان طبيعيا أن تستأثر قضية الحرية السياسية بفكر واهتمام فتحى رضوان الأديب والسياسى . فقد عايش منذ شبابه نماذج وإنماطا متباينة من نظم الحكم تباينت فى المسميات وتمايزت فى الأشكال ، وإن التقت حول وجود بعض مظاهر غياب المشاركة السياسية وصورتها .

وبخبرة السياسى المحنك الذى عرك الحياة السياسية وجاس فى دهاليز السلطة ، وبرهافة وصدق احساس الأديب وملكة السخرية عنده ، استطاع فتحى رضوان أن يتمثل قضية المشاركة السياسية - بشكل عام - فاضحا أساليب السلطة المضللة ، كاشفا خبايا القوة الكامنة ، كما نرى فى مسرحية «المحلل» .

فقد اتخذ فتحى رضوان من فكرة المحلل منطلقا ليعالج من خلاله قضية الممارسة الشكلية . فالزوج المتسلط الاستغلالى اضطر بعد أن طلق زوجته ثلاث مرات إلى اللجوء إلى المحلل ليعيدها إلى عصمته . فاستعان بأحد الأفراد المضطهدين والمغلوبين على أمرهم ، إلا أن الزوجة التى سئمت تلك الحياة الذليلة تتمسك بالرجل المحلل وترفض العودة لزوج القديم ، وتدفعه لرفض هذا الدور الشكلى وتدعوه ليكون الزوج الحقيقى .

والمسرحية تحمل فى مظهرها الخارجى ومضمونها العام ، سخرية من هذا الأسلوب من الحياة ، حيث أقدس العلاقات تتحول إلى عملية تجارية وسخرية من انحدار الحياة الاجتماعية إلى أن تصبح صورية حيث تبدو مظاهرها فى غاية السمو على حين أن حقيقتها فى غاية الانحطاط .

وفكرة المحلل فى بعدها السياسى إنما هى شكل من أشكال الممارسة السياسية الشكلية . فقد أراد الزوج أن يجعل من الرجل المستأجر وسيلة يتحايل بها على الشرع لكى يتخلص من الشرط الذى يقف عقبة فى سبيل رده لزوجته ، ولكنه لم يلتزم بمضمون هذا الشرط ولم يفهم الحكمة منه ، إنما التزم به

شكلا دون الجوهر .

وهذا لا يختلف كثيرا عن وضع المشاركة السياسية في كثير من الأنظمة حيث يكون الشعب في وضع «المحلل» تأتي به السلطة محاطا بالشروط ، مقيدا بالمحظورات ، مرسومة له كل خطوة مسبقا . لا يمارس مشاركة حقيقية وإنما هو مجرد شكل ، ولا يتمتع بحقوقه السياسية وإنما يردد ما يؤمر به ويلتزم بما تفرضه عليه السلطة .

يرى فتحي رضوان أن عددا كبيرا من الناس في الحياة السياسية هم بمثابة محللين ، فالمحلل في نظره «رمز لآلاف من الناس يحتلون أماكن كثيرة في السياسة والاقتصاد والاجتماع وهم لا يمثلون مظهرهم وإنما يمثلون شيئا آخر» .

أساليب العنف

أما فتحي رضوان في مسرحية «الجلاد والمحكوم عليه بالإعدام» فيعالج ظاهرة القمع وأساليب العنف التي ترددت في أغلب مسرحيات الستينات ، حيث لا ينغمس في تفاصيل الظاهرة ولا يفيض في وقائع التعذيب ، وإنما يعالج الفكرة أساسا ، ويعلو على المعالجة الجزئية والمباشرة إلى المناقشة الفكرية العامة المجردة . فهو كشأنه في أعماله الأدبية يميل إلى مناقشة القضية من منطلق إنساني اجتماعي أخلاقي .

وتدور أحداث المسرحية في إحدى القرى النائية التي تاهت في طي النسيان وسقطت من الحسبان حيث يعيش أهلها في فاقة وحرمان يصارعون الفقر ويتحدون الموت الذي يأتي على العديد من الأبرياء من جراء انعدام أبسط الضمانات الأساسية لاستمرار الحياة .

وتبدأ المسرحية «بالجلاد والمحكوم عليه بالاعدام» وهما في انتظار القطار لينقلهما إلى المكان المقرر لتنفيذ حكم الاعدام . ونتبين من الحوار أن المحكوم عليه كل جرمه أنه صاحب رأي وحامل فكر حاكمته الدولة على فكره وأدانته لمحاولته بث آرائه في نفوس الكائنات التي تحيا حياة أقرب للعدم .

وفي هذه المسرحية ينطلق فتحي رضوان - أساسا - من فكرة العلاقة بين الحاكم والمحكوم - تلك العلاقة استوقفته لما فيها من تفاعل وتأثير متبادل - ينطلق منها إلى مناقشة أسلوب ممارسة السلطة الذي قد يقف حائلا دون تحقيق الحرية . ومن هنا تكون معالجة الفكرة بداية في إطار إنساني حيث يكشف فتحي رضوان كيف أن العلاقة بين طرفي العملية «الجلاد» الذي يمارس العنف، و «المحكوم عليه» الذي لا يمارس العنف وهي علاقة حميمة ، تحمل كل الحب رغم ما يلقى عليها من ستار يطمس حقيقتها ويبرزها على أنها علاقة تحمل كل التناقض والبغض .

ومن خلال هذا المنطلق يتطرق فتحي رضوان إلى تصوير السلطة في عجزها وقصورها ، فيسخر من الأسلوب الذي تفرضه السلطة على نفسها وعلى موظفيها وهو شل ملكة التفكير وتعطيل الحواس حتى تتحول إلى آلة خالية من الفكر والعواطف والأحاسيس فيتأتى لها أداء دورها دون تساؤل . وممارسة أبشع أنواع التنكيل مادامت لا تعي ما تقدم عليه من أعمال .

وقد جسد فتحي رضوان ببراعة صورة المسئولين عن أجهزة الأمن والعاملين فيها جاءت على لسان أحد هؤلاء المسئولين - هو الجلاد - في وصفه لنفسه - هذا الوصف الذي ينطبق على غيره من مسئولي الأمن - وتصويره لما انتابه من تحول جذري بعد لقائه بالمحكوم عليه الذي أيقظ فيه مشاعر لم يألفها من قبل وبث فيه أحاسيس لم يعهدها ، واستحدث لعقله القدرة على التفكير والتدبير .

الجلاد (للمحكوم عليه) : لقد تكلمت ولم يعد هناك سبيل لنسيان ما قلت .. أنت لم تعترض وكان هذا وحده كافيا لأن يشعل في رأسي نارا .. نارا (يضحك في استغراب) رأسي أنا .. إن الجميع كانوا لا يتصورون أن لي رأسا ، وأنا نفسي .. كنت مشغولا بحذاء ألبسه في قدمي .. أو سيجارة أمسكها بيدي وأضعها في فمي ، أما رأسي فعلى الله حسابه .

وبعد أن كان الجلاد يؤدي واجبه الرسمي (الشنق) كعمل روتيني دون أن يتسرب إلى نفسه أي شعاع من الفكر أو الاحساس انتابه القلق والفزع مما كان يقترفه .

الجلاد : وبعد أن أشنقك ماذا أفعل؟

المحكوم عليه: (بهدوء) تشنق غيري .

الجلاد : كان ذلك قبل أن أعرفك .. قبل أن يسري في بدني سمك الزعاف ، أما الآن فأنا أعرف ماذا أفعل بحياتي ، تصور أنني أسأل نفسي منذ عرفتك : لماذا أعيش هذه العيشة ؟ لماذا أشنق الناس ؟ لماذا تشنقهم المحاكم ؟ أنا لا أكف عن النظر إلى وجوه الناس وإلى تصرفاتهم ، كلهم في نظري مجانين .

وتتشعب من هذه الفكرة أفكار فرعية تحمل نقدا لأسلوب العنف تأكيدا على عدم إنسانيته وكذلك خلوه من المعنى .

ويجسد فتحي رضوان عجز السلطة من خلال فكرة لماحة وهي كيف أن السلطة تشنق نفسها .

وقد جسد ذلك في شخصية الجلاد المقنع المتخشب - والذي يمثل أقسى درجات العنف - كيف أنه حين تسرب إليه الفكر زلزل كيانه ودفعه إلى أن يضع حدا لحياته .

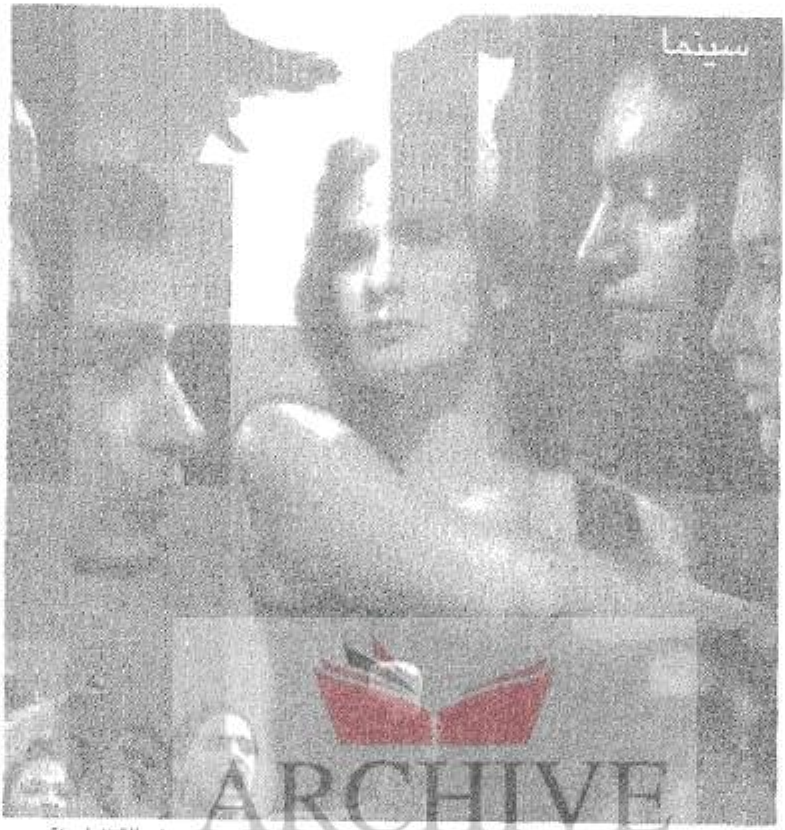
عملية بطش

وكان لاختيار فتحي رضوان للجلاد الذي ينفذ حكم الإعدام بالتحديد هدف محوري وهو إبراز وحشية السلطة وجبلها . فالاعدام هو عملية بطش في أعلى صوره ، أراد فتحي رضوان ادانتها وإبراز خلوها من المعاني ، وكذلك تضخيم آثارها السلبية سواء على المحكومين أو على السلطة نفسها .

فالإعدام خطأ فاحش تأتيه السلطة دون وعي ونتيجة لعجزها وقصورها ونمط إدارتها لشئونها وعواقبه وخيمة . فمن جانب تهدر الدولة طاقاتها وتهدد قدرات الأفراد حين تضع حدا لحياتهم دون رؤية أو تفكير . وهذا ما كان من شأنها مع المحكوم عليه الذي تبين مدى نفعه للمجموع ومدى إنسانيته . ومن جانب آخر فمردوده سلبي على السلطة نفسها حيث انتهى الجلاد بشنق نفسه .

ومن جانب آخر - وفي إطار الممارسات المضادة للحرية - يعالج فتحي رضوان في مسرحية «المحلل» ظاهرة استشرت في الواقع - آنذاك - وسمة لازمت دولة المخابرات ، وهي ظاهرة كتابة التقارير التي أضحت ضمانة للترقي في العمل واكتسابه حظوة عند الرئيس ، فلم تعد معايير الكفاءة والخبرة هي المحك لتقييم الفرد ، وإنما براعته في تتبع رفاقه والوشاية بهم وإجادته كتابة التقارير التي تحمل قليلاً من المعلومات الصحيحة وكما لا يستهان به من التلفيق والافتعال .

ومازالت تلك الظاهرة تملك الخوف من كل نفس وانعدام الثقة في الآخرين . ولم تعد مهمة التجسس وجمع المعلومات حكرا على رجال الأمن والمخابرات ، وإنما سعت السلطة إلى أن تجعل من كل فرد رجل أمن في موقعه. ■



يسرا بطلة العاصفة

قليل من الصدق
كثير من الزيف والادعاء

بقلم
مصطفى درويش



غاب عن ساحة إخراج الأفلام الروائية الطويلة زمنا دام زهاء عشرة أعوام.

ثم عاد إليها، ويا للغرابة، لا بفيلم واحد، بل بفيلمين، أحدهما «أولى ثانوى» والآخر «بطل من الجنوب.. عزيز عينى».

وذلك المخرج الغائب. العائد، هو «محمد أبوسيف» نجل المخرج الراحل «صلاح أبوسيف».

وعودته بفيلمين يجرى عرضهما على الشاشات الكبيرة فى يوم واحد، أمر غير مسبوق فى تاريخ السينما المصرية.

فحتى مخرجون اشتهروا بغزارة الإنتاج مثل «نيازى مصطفى» و«حسن الإمام» و«حسام الدين مصطفى» لم يعرض لهم فى دور السينما، وفى اليوم نفسه، أكثر من فيلم جديد.

وحكمة ذلك ظاهرة: وهى عدم الانتقاص من قيمة المخرج، بعرض أفلامه متنافسة فيما بينها على الإيرادات.

فضلا عن تجربة من هذا القبيل، ولاريب، «قاصمة» على النفس، حتى ولو كانت أمارة بالسوء.

فوضى وعشوائية

وعلى كل، فإن دل عرض فيلمى «أبوسيف» فى اليوم نفسه، على شىء فإنما يدل على فوضى العروض، وكيف أصبحت تتم دون ضابط ولا رابط.

وفيما يبدو، فالفوضى لم تنحصر فى العروض، وإنما امتدت إلى العناوين.

فأولى ثانوى توحى عناوينه بأن دور «حنان يوسف» أقل شأنا من دورى «سوسن بدر» و«ميرفت أمين»، فى حين أن الواقع عكس ذلك تماما.

والعناوين تنصبا لتوحى بأهمية الدور الذى يلعبه الصبية الثلاثة «ماهر عصام» و«شريف بدوى» و«أحمد حسنين»، فى حين أن ذلك الدور من الأهمية بمكان.

فلولا حضورهم المذهل، ودفقة الحيوية والمرح الذى أشاعوه، لولا ذلك، لتحول «أولى ثانوى» إلى فيلم رومانسى مكرر، ثقيل.

حل وسط

أما الفوضى فى عنوان فيلمه الثانى، فظاهرة فيما آل إليه بعد خلاف بين أصحابه، أدى إلى صيرورته فيلما باسمين، أحدهما بطل من الجنوب استجابة لرغبة مخرجه وعزيز عينى



نور الشريف في اولى ثانوى

إرضاء لتجمته نجلاء فتحي، وكاتب قصته الصحفي شريف الشوباشي.

وأحداث الفيلم الأول تبدأ بـ «عواطف» وتلعب دورها «حنان يوسف» في البيت الكبير، العتيق، حيث تقوم على خدمة «حمزة» ـ نور الشريف ـ منذ أن كانت صبية، ليس لها من العمر سوى عشرة أعوام.

والعلاقة بينهما ليست من ذلك النوع المعتاد قيامه بين الخدم والأسياد.

إنها علاقة خاصة، قوامها المشاركة والندية، فكلاهما يكمل الآخر على نحو ما.

وفيما عداهما، فالبيت شبه مهجور، يكاد ينعق في جنباته البوم، وتعشش الغربان.

لقاءات متشابكة

أما كيف التقى «حمزة» بـ «راوية» ـ ميرفت أمين ـ وكيف التقى بالصبية الثلاثة، وكيف تداخلت حياتهم بحياته هو و«عواطف»، فذلك مايحكيه سيناريو في عمومه محكم البناء، أبدعه «أشرف محمد».

ولن أعرض بالتفصيل لأحداث الفيلم، فذلك شيء يطول، وإنما اكتفى بأن أقول إن كاتب السيناريو والمخرج لم يقنعا إلا بخيوط متعددة، متشابكة.

فكل واحد من أصحاب الأدوار الرئيسية له قصة تؤهله للمشاركة بنصيب في نسيج الفيلم، وذلك دون أدنى افتعال.

موجة الوحدة

وليس أدل على ذلك، من أسلوب التناول لما اصطلح على تسميته بالوحدة الوطنية.

فالفيلم يركب، ولاريب، موجة الاهتمام المثارة حولها، ولكن بغير الطريقة المباشرة، الزاعقة التي شابت مسلسل «أوان الورد».

فأحد الصبية الثلاثة مسيحي، وهو ما يوحي به اسمه، وخاله، ويلعب دوره «إبراهيم نصر» الذي جاءته الشهرة

بفضل «زكية زكريا» يملك محل تحف لاشيء فيه يوحي بأنه مسيحي، سوى صورة معلقة في خلفية اللقطة للسيدة مريم العذراء.

فإذا ماجاء الصبي الموت أثر أزمة قلبية، شاهدنا خاله، أمام أحد الكنائس، وهو يتقبل العزاء.

وهكذا، ومن خلال مشهد قصير دال، شاركنا أبطال الفيلم حزنهم العميق.

وكما كان خبر موته له وقع الصدمة عليهم، كان له نفس الوقع علينا.

ومن إيجابيات الفيلم الأخرى أنه جاء زاخراً بحوارات خفيفة الدم وابتكارات فنية ظريفة، لايتسع المجال هنا لشرحها.

ولكنني أشهد أنني ظللت طول الفيلم مستمتعا بما تراه عيناي، وتسمعه أذناي.

وأتتبع بإعجاب البراعة الفائقة التي أدى بها جميع الممثلين أدوارهم. وأخص بالذكر الصبي «ماهر عصام». هذا.

وبقدر نجاح «أولى ثانوي» فنيا وتجاريا، كان فشل فيلم «أبو يوسف» الثاني، وذلك رغم أن كاتب سيناريو الفيلمين واحد.

والسؤال المطروح لماذا كان النجاح حليف أحدهما دون الآخر؟.

يرجع نجاح الفيلم الأول إلى بساطة فكرته، وترجمتها إلى لغة سينمائية تقطر رقة وصفاء.

وكل ذلك، دون استعراض خارق، خانق لعضلات الذكاء.

هذا إلى أنه عرض لنا، مكتفيا بالتلميح عن التصريح، قضايا جديرة بالانتباه.

سر الفشل

أما الفيلم الثاني، فيرجع فشله، وهو فشل يضرب به المثل، إلى أن صاحبيه لم يقنعا إلا بخيوط عديدة، شديدة التعقيد.

فلولا أراداه فيلما ميلودراميا يدور حول أم مصرية «نجلاء فتحي»، فقدت ابنها الصغير، في أثناء الحرب الأهلية المشتعلة نيرانها على أرض لبنان، وعندما جاءها خبر العثور عليه حيا يرزق، في أحضان أسرة لبنانية، تولت أمر تربيته، زهاء خمسة عشر عاما، عندئذ سارعت بالسفر مع أبيه إلى لبنان، بأمل استرداده، والعودة به إلى مصر، وكان شيئا لم يحدث.

صراع الأمهات

وهنا، أراد صاحبا الفيلم أن يتحولا به إلى ملهاة، تدور أحداثها حول امرأتين متنافستين على الشاب اليافع، أيهما أحق بأمومته، المرأة المصرية التي فقدته، ولاتعرف عن أمر تنشئته شيئا، أم المرأة اللبنانية «كارمن لبس» التي سهرت على تنشئة مع زوجها «جوزيف أبونصار» إلى أن صار شابا.

ولم يكتف صاحبا الفيلم بجعل هذا



النجم الشاب ماهر عصام



مرفت أمين بطلة أولى ثانوي

التحول خيطا أساسيا، بل عملا على زيادة الأمر تعقيدا، بالزج بالدينين الإسلامي والمسيحي في الأحداث.

فإذا بالأسرة اللبنانية تدين بالإسلام.

ومن هنا اختيارها عبدالله اسما للصغير وإذا بالأسرة المصرية تدين بالمسيحية، و«عزيز» هو الاسم الذي اختارته له، والمدون في شهادة الميلاد.

وعندما يسمع الأب المصري ـ أحمد خليل ـ ان اسم ابنه «عبدالله» لا «عزيز»، يندب حظه، ويصرخ قائلا: «ابني مات»، ويغادر بيت الأسرة اللبنانية غاضبا، ليختفي من الفيلم نهائيا، دون أن يترك أثرا!!.

الحيرة والخلاص

وبطبيعة الحال، يحتار عبدالله ـ عزيز، لايعرف أي الاسمين، ولا أي الدينين، ولا أي المرأتين يختار.

ويظل هكذا حائرا، إلى أن يجد طريق الخلاص في النضال ضد قوات الاحتلال، في جنوب لبنان، حيث نراه يرفع علم الوطن، على قمة أحد الجبال، بعد قيامه بنسف القلعة المتحصنة فيها تلك القوات وينتهي به الأمر ، وقد استشهد بين ذراعي أمه المصرية، وهي تبكيه، وعزاؤها الوحيد أنه مات بطلا.

وكل ذلك، قد جرى حكيه بأسلوب سينمائي عتيق، أغفل عنصر التشويق.

فكان أن جاء الفيلم مملا، كسولا، كما وصفه، بحق، قلم أحد النقاد.

وهنا، لايفوتني أن أذكر أن ثمة شبه إجماع على أن الفيلم لم يأت بجديد.

ولاينبىء، من باب أولى، بأن السينما المصرية على أعتاب مرحلة جديدة في تاريخها.. كما زعم قلم أحد الكتاب، في مقال كال فيه المدح له، ولفيلم آخر «العاصفة» أول عمل سينمائي لخالد يوسف، صاحب سيناريو وحوار فيلم «المصير».

العاصفة المميتة

و«خالد» يعرض في فيلمه الأول لحرب الخليج الثانية التي بدأت بالعدوان على

الكويت، وانتهت بتحرير أرضه، بفضل قوات التحالف التي شاركت فيها جيوش عربية، تصدرها جيشان من مصر وسوريا.

و«خالد» في عرضه لتلك الحرب، قد عرض لها من خلال «أم» مثله في ذلك مثل «أبوسيف»، مع استبدال «يسرا» بـ «نجلاء».

فجميلة، وهو على ما أتذكر اسم «يسرا» في العاصفة، أم لشابين تنتهي بهما الأحداث مجندين أحدهما بالتطوع في الجيش العراقي «محمد نجاتي» والآخر بالجبر في الجيش المصري «هاني سلامة».

وكلاهما للآخر عدو، لحظة اشتعال نيران الحرب بين قوات التحالف المحتشدة على الحدود بين المملكة العربية السعودية ودولة الكويت، حين كان يرزح شعبها تحت نير الاحتلال.

الرمز أداة!

ولن أعرض شيئا من تفصيل حكاية العاصفة، مكتفيا بذلك العرض الخلاصة لها في كثير جدا من الإيجاز، لأنني لو عرضت تفصيلها لتنقلت من شيء مفتعل إلى شيء آخر أكثر منه افتعالا، ولتنقلت في الوقت نفسه، من رمز خفي إلى رمز أشد منه خفاء.

فالشيء المؤكد أن صاحب العاصفة قد اعتمد على الرمز والإيماء، أكثر مما اعتمد على التعمق والاستقصاء.

ومن هنا، جنوحه إلى المساواة بين المعتدي وضحيته، وتوسله إلى ذلك بخلط الأوراق.

فالمظاهرات التي تتزعمها «يسرا - جميلة» وأحداث فيلمه تقترب من الختام، ليست موجهة ضد المعتدين المحتلين للكويت، وإنما موجهة، دون لف ودوران، ضد قوات التحالف المحررة لأرض بلد عربي صغير.

ويصل الخلط إلى ذروته، عندما يجرى حرق العلم الأمريكي موصولا بعلم إسرائيل.

داء النسيان

وهكذا، فلم يمر سوى عشرة أعوام على الفتنة الكبرى التي أثارها العدوان على الكويت، حتى كان يراد لنا أن ننسى أحداث ذلك الماضي القريب.

ولكن هيهات أن ننسى، لأن الذين ينسون الماضي محكوم عليهم بتكراره، كما قال بحق الفيلسوف جورج سانتانايا.

وقبل الانتقال إلى فيلم «سوق المتعة» وهو من إنتاج التليفزيون المصري، أرى من اللازم الإشارة إلى واقعة دعم ذلك التليفزيون الفاقد الوعي للعاصفة رغم زيفه وسخفه وتحريفه للتاريخ.

أولا بالمشاركة في انتاجه وثانيا بالدعاية المجانية له ليل نهار على الشاشة الصغيرة.

والآن إلى «سوق المتعة» لأقول إنه فيلم





شادي سلامة وحنان ترك في «العاصفة»

اجتمعت له كل عوامل النجاح، فكاتب السيناريو وحيد حامد والمخرج «سمير سيف» و«المصور» «رمسيس مرزوق» ونجما الفيلم «محمود عبدالعزيز» و«إلهام شاهين».

ومع ذلك، فشلوا جميعا في أن يحلقوا إلى ذرى عالية بالفكرة التي يدور حولها وجودا وعدما سيناريو «وحيد».

النور والظلام

وتلك الفكرة نستشفها من حكاية بطل الفيلم «أحمد أبوالمحاسن» ـ محمود عبدالعزيز ـ وقوامها كيف عبثت بحياته الأقدار، حتى اضطربت بها اضطرابا شديدا.

فتلك الحكاية تبدأ به، حسب تسلسل الأحداث، وهو خارج من ظلام السجن إلى نور الحرية، بعد أن فقد أجمل سنوات عمره، معذبا وراء القضبان وماهي إلا بضع لقطات حتى يتبين لنا أنه فقد تلك السنوات، وسط عتاة الإجرام، لأنه ضبط متلبسا في مطار القاهرة بتهريب كمية من الهيروين.

ورغم قضائه عشرين عاما رهين السجون، إلا أنه من تلك التهمة براء.

نذالة وعدالة

أما كيف اتضحت لنا براءته، بعد خروجه من السجن بقليل، فذلك بفضل رجل غامض «فاروق الفيشاوي» جاء إلى الحمام الشعبي، حيث يعمل «أبوالمحاسن»، مندوبا عن قوة أكثر غموضا، ليقول له إن تلك القوة هي التي دست له كيس الهيروين، حتى يكون طعما يخدع أنظار رجال الشرطة، عن صفقة مخدرات كبرى يجرى تهريبها من المطار.

وأن تلك القوة القاهرة، الماكرة قد أفردت له من منطلق العدل، نصيبا في أرباح تلك الصفقة، واستثمرته لحسابه

على امتداد عشرين عاما.

وبفضل ذلك، له الآن سبعة ملايين من الجنيهات، يمتلكها حلالا بلالا، وله الحق في أن يتصرف فيها كيفما يشاء، وكل ذلك يرتهن بالالتزام بشرط واحد، هو ألا يحاول إعادة الاتصال بذلك الرجل الغامض، ولا حتى بالسؤال عن اسمه، أو عن كنه تلك القوة القاهرة الماكرة، التي أنفذت فيه هذا القضاء.

فإذا لم يلتزم بذلك الشرط، حق عليه الموت، وانفاذ الحكم به فورا.

قوة الماضي

على كل، فمع هبوط هذه الملايين عليه من السماء، انتقل «أبوالمحاسن» من حال يرثى له، إلى حياة لذيذة، لايعيشها إلا أصحاب المال والجاه، لكنه لم يهنأ بتلك الحياة، لأن ماضيه في السجن أخذ يطارده فيقلق منامه، وحال بينه وبين الاستمتاع بالفراش المريح، والمأكل الطيب، والجنس كما يمارسه أغلب الناس.

وها هو ذا، يسلك في الحياة مسلك السجناء، يفترش الأرض، يغسل دورات المياه، يفضل تناول الطعام في صحن حقير على تناوله في أرقى المطاعم، يستمتع بالمرأة «إلهام شاهين» لا بالاتصال، وإنما بالاستمناء.

وفوق كل هذا، يأمر بإقامة مزرعة مماثلة تماما لمزرعة السجن، تحتوى عنبرا طويلا، به أسرة ذات دورين تعلوها نوافذ ضيقة أشبه بنوافذ عنبر السجن.

ولم يكتف «أبوالمحاسن» بذلك، بل عمل على أن يحيط المكان بأسلاك شائكة، تحول دون هروب السجناء. كما عمل على استدعاء زملائه في السجن المفرج عنهم للعمل بالمزرعة، ولم يستثن من ذلك حتى الجلادين والمتعصبين.

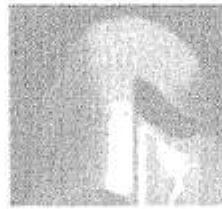
وظاهر مما تقدم أن الفكرة الدائر حولها السيناريو والفيلم قوامها:

أولا: أن ثمة قضاء مستترا، لايستطيع أحد أن يحاكمه نقضا ولاتغييرا.

ثانيا: أن الإنسان أسير ما شب عليه، لايستطيع منه فكاكا.

وفكرة بمثل هذه الأبعاد، لايتصور ترجمتها إلى لغة السينما بأسلوب مغرق في الواقعية وإنما بأسلوب متجاوز لها، فيه من الشاعرية، وشطحات مافوق الواقعية، الشيء الكثير.

ولكن شيئا من هذا لم يحدث، لسوء الحظ، وإذا الفيلم، وقد تردى في واقعية عفا عليها الزمان، لم يقنع أحدا، وجاء في بعض الأحيان شديد الابتذال، مخيبا لما علق عليه من آمال. ■



جولة المعارض

بقلم
محمود بقشيش

عونى هيكل
و٤٠ عاما مع الفن

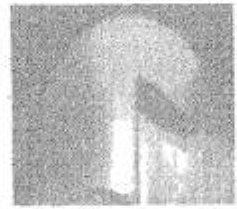
أقام المثال الكبير «عونى هيكل» معرضه الاستعادى الأول بقاعات أتيليه القاهرة للفنانين والكتاب واستمر المعرض من ٩ يناير الى ٤ فبراير، وقد كرس الفنان لكل قاعة مجالا من مجالات ابداعه : عرض فى القاعة الأولى نماذج مجسمة. واختار للقاعة الثانية رسومه التحضيرية، وضمت القاعة الثالثة منحوتاته الفراغية. وضمت القاعة الرابعة لوحاته فى مجال الرسم بالقلم الرصاص، أما الحديقة فقد اختصها بالنحت البارز. والمعرض حصاد أربعين عاما فى مجال الفن، لهذا كان من الطبيعى أن يضع لمعرضه عنوانا ينبه به زوار معرضه من النقاد والمهتمين بالفنون الجميلة الى أنهم لايشاهدون معرضا عاديا، يدور حول مرحلة واحدة، بل معرضاً لكل مراحل الفنان التى استغرقت من عمره أربعين عاما .



المثال عونى هيكل



تمثال العائلة عام ١٩٦٨



جولة المعارض

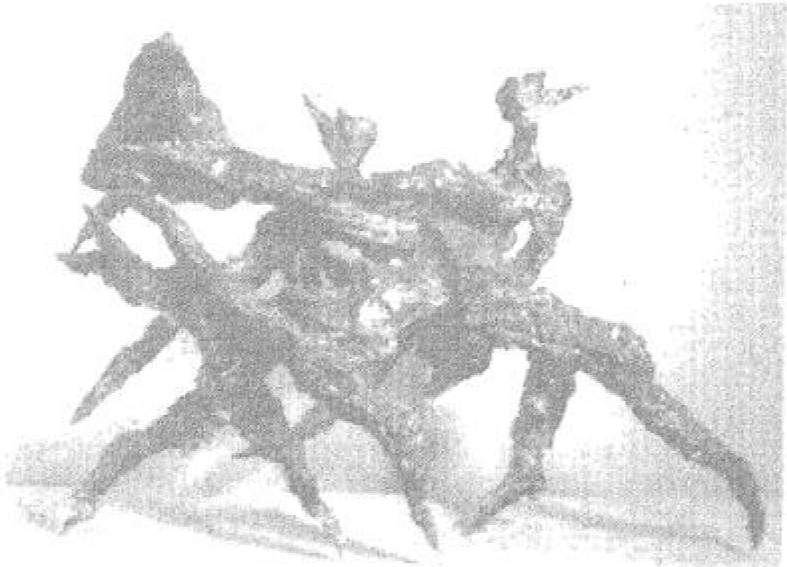
انطباع الوهلة الأولى

إن جولة فى رحاب هذا المعرض تترك فى النفس شعورا بأن صاحبه فياض بالانتاج، مولع بالصروح المعمارية، ويمتلك خيالاً ولاّداً لكائنات لا نظير لها فى الواقع المشترك أو فى أعمال مبدعين آخرين، وإن امتدت جذور تلك «الموجودات الفنية» الى ثقافات مختلفة ولم تنحصر فى اطار ثقافة واحدة ينحاز لها الفنان : امتدت الى الأساطير اليونانية والموروث الإسلامى والمسيحى فى آن واحد، ولم يكتف الفنان بهذا الاتصال المتنوع بل مدده الى العصر الذى نعيشه، وهو عصر ـ كما نعلم جميعا ـ مفعم بكل ألوان العنف والعدوان . ومن الطبيعى أن تنتقل عدوى هذا العنف الى «موجودات» الفنان . وقد خصص لها كتابا ضم عشرات المحاولات من أجل الوصول الى نموذج مثالي لهذا الكائن الذى يمثل عصرنا. واختار أكثرها اكتمالا (من الناحية الفنية) ووضعه على غلاف الكتاب الذى أطلق عليه عنوان : «كروكيات نحات».. أما النموذج ذاته فقد تجلى فى هيئة كيان مسخى، مرعب، مدجج بأسلحة من صنع الخيال .

ثنائيات حوارية

ما أن تصل إلى نهاية جولتك فى المعرض حتى تدرك أن ثمة وجهين يقتسمانه : وجهاً يجسد رؤية متأملة، فلسفية فى الوجود، ينسجها الفنان ـ كما سبق الاشارة ـ من الأساطير اليونانية ومن الموروث الدينى الاسلامى والمسيحى، غير أنه يمتلك من الاصرار والاعتداد بموهبته القدر الذى يسمح له بأن يذوّب الرموز العامة فى نسيج أسلوب فنى يخصه. أما الوجه الآخر فهو وجه اجتماعي مشرق، مكرسة أعماله لما هو نافع وجميل وموجه لكل الأعمار فى المجتمع المصرى .

تتسم مجسماته المعمارية التى اتخذت شكل المسلات الهرمية بالانضباط الهندسى ونصاعة السطوح ، فى نموذج «نافورة المسلات السبع» تتجلى المسلات فى تماسك جماعى ، «كورالى» ، والعنوان يصف الغرض من المشروع. وقد اقترح له الفنان عند التطبيق أن ينفذ بالخرسانة البيضاء وأن تكون مساحة قاعدته ٤٠×١٥ مترا وارتفاعه ثمانية عشر مترا. وتعود المسلات الهرمية إلى الظهور ثانية فى عمل آخر، موجه الى الأطفال، حيث يتيح لهم

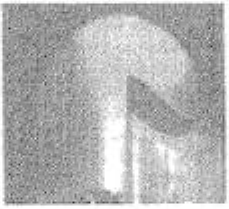


الملاك والفارس



الحمامة والغراب رسم بالقلم الرصاص

١٨٧

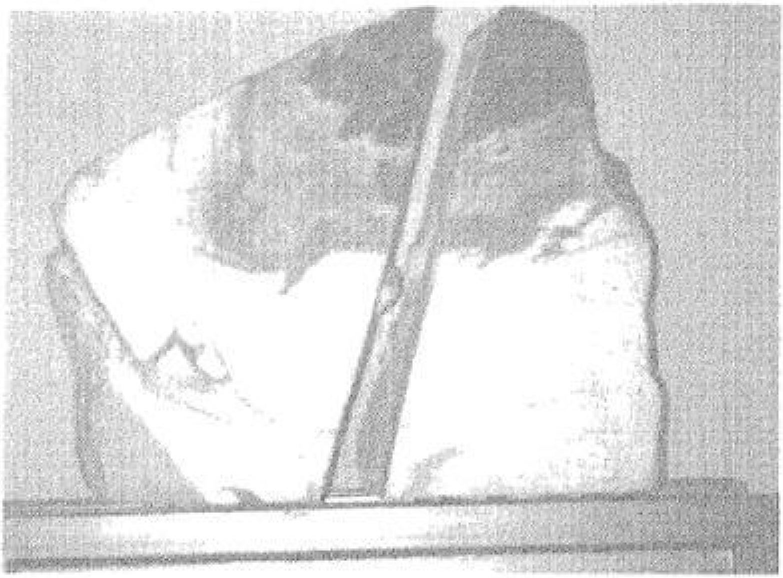


جولة المعارض

اللهو بين فراغاته البينية. ويقترح الفنان على منفذى هذا النموذج أن ينفذ بالخرسانة البيضاء أيضا وأن تكون مساحة القاعدة ٣٠×٢٠ مترا وارتفاعه خمسة عشر مترا. واذا كانت تلك المجسمات المعمارية (التى فاز بعضها بالجوائز الأولى) قد اتسمت بالأناقة والانضباط الهندسي والبهجة فإن منحوتاته ذات التوجه (التعبيرى / الرمزى) تتسم بالتلقائية وخشونة الملمس والدينامية .

على النقيض من بساطة اللوحة الكنسية يفاجئك تمثال «عونى» بحركة صدامية صاخبة بين كتل شبه طائرة. والتمثال من البوليستر المباشر، مقياسه ٨٠×٦٥سم. ويشبه اشتباك الكتل علامة × المزدوجة (××) وامعانا فى الحركة الصدامية فإنه يتخذ لمنحوتته نقاط ارتكاز متعددة، لدفع الكتل فى الجهات المعاكسة.

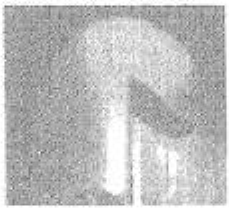
وتسهم خشونة الملمس فى اعلاء درجة سخونة الشحنة الدرامية الكامنة. وقام لون الصدأ ليسهم بدوره في الايحاء فإن ما نراه قد جيء به من زمن قد اندثر الا من ذاكرة الكتب المقدسة . ولا يعنى استلهام المثال «عونى هيكل» ، بين الحين والحين، شيئا من التراث الدينى أنه من الفنانين الدعاه. والحقيقة أن ماهو مشغول به فى المقام الأول هو اكتشاف أشكال نحتية تناسب أغراضه التعبيرية. وهو يريد لنحوتاته، أيا كانت موضوعاتها، أن تكون مفعمة بالحركة والحضور المؤثر. والحركة في منحوتاته لا علاقة لها بأسلوب الفن الحركي (Cine'tique) ولا ترتبط بآلية الحركة الواقعية، فالحركة فى منحوتاته ايحائية. وهى توحى دوما بحركة ذات طابع صدامى : فتمثال «البراق» - على سبيل المثال - يبدو مندفعا فى كل اتجاه فى آن واحد، ويذكرنا بقول امرىء القيس : (مكر مفر مقبل مدبر معا!) .. ونفس الحالة تنطبق على تمثاله (القنطور) وهو كائن خرافى نصفه رجل ونصفه فرس، وتحكى الاسطورة اليونانية التى أوجدته أنه كان ينتمى الى قبيلة من المخلوقات التى تتصف بالتوحش والغلظة. وبطبيعة الحال فإن الطبائع البدائية وما تتسم به من صدق، لاقترابها من الغريزة قد راقت لكثير من المبدعين المحدثين فى العالم. (وعونى هيكل واحد منهم) وهو لا يحفل بالمشابهة مع الواقع، حتى لا



كيان مشطور (تمثال المصارعة السعيدة)



الساحرات الثلاث



جسمولية المعارض

يصرف انتباه المشاهد بعيدا عن تجليات الفعل «الدينامي» الى هامشية قياس درجات اقتراب العمل الفني من الواقع ومهارة الصانع .

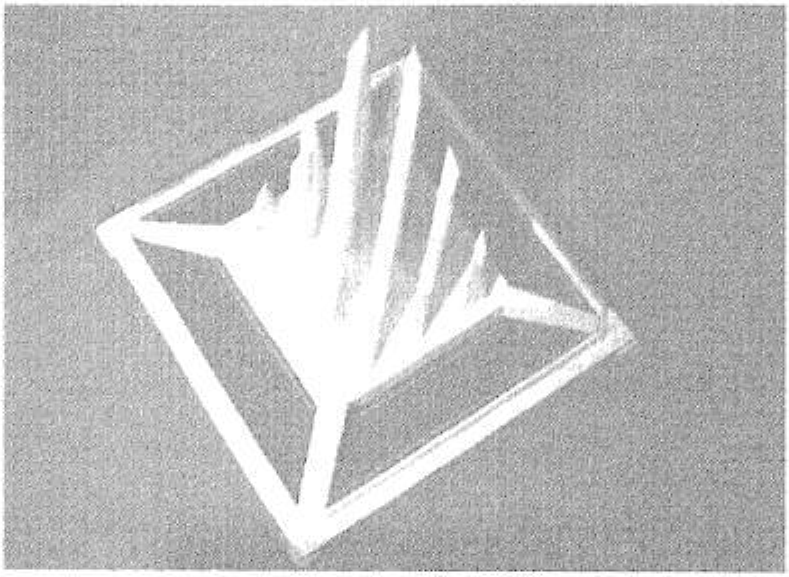
صائد المصادفات المتفردة !

أتاحت له إحدى المصادفات السعيدة لقاء بكتلة من الرخام المصري ادفو في محجر رخام ، زنتها مائتا كيلو جرام ، لونتها الطبيعة بألوان خلابة، أغراه جمالها بأن يحتفظ بها كما هي، غير أنه قرر أن يصنع منها عملا فنيا يحمل اسمه. ولحسن حظه أنه ليس مثالا «أكاديميا» والا كان عليه أن يحطم جمال الخامة، لكي يحصد حصادا هزيلا وهو الوصول الى شكل تشبيهي، يتبارى المشاهدون في قياس درجات اقترابه من الأصل الواقعي. وقرر أن يشطرها شطرين متكاملين، ومن ثم يقوم الفراغ الهندسي البيني بفصل كتلتي الوجهين (الناعم والخفل) فصلا (حقيقيا) ووصلا (ايحائيا). وكان عليه ، احتراما لخامة الرخام - من ناحية - وحرصا على الثنائيات الملمسية لمنحوتات «عوني» - من ناحية أخرى ، أن يصقل وجها واحدا. وأن يترك الوجه الآخر على ما كان عليه في اللقاء الأول من خشونة. وبحس القناص الماهر ترك في الفراغ البيني بروزا يتجه نحو ملامسة الشطر الآخر ، ويذكر - من طرف خفي - بتمثال «القبلة» لـ «برانكوزي»!.

تمثال المسيح

هو آخر تمثال للفنان «عوني هيكل» وقد انتهى منه قبل افتتاح المعرض بساعة واحدة. وقد استخدم لتنفيذه ثلاث خامات متباينة ، هي : الحديد والرخام والنحاس.

وقد أعطى الحديد دور الركيزة المحورية ، في شكل عمود من الصلب، ينهض عاليا، على قاعدة تشبه أصابع شوكة تنغرز في الأرض، فيما تظهر ذروة العمود وقد توجت بدائرة شمسية، تمتد أصابعها في كل اتجاه، بدلا من اكليل الشوك المعروف، اشارة ذكية الى تحول الآلام التي عاناها المسيح في الأرض الى نور يضيء العالم. وعلى جانبي العمود الذي يرمز الى جسد المسيح، مثلثان يتجهان الى الأعالي اشارة الى الصعود السماوي. وابقى الفنان على نعومة ونصاعة المثلث الرخامي، فيما أحدث في النحاس ما يشبه تجاعيد بشرة انسانية عجوز، أو قشرة أرضية جافة تنتظر من يرويها. وقد اختار الفنان لتمثاله أسلوبا



نماذج نحتية للأطفال، حتى تتاح لهم فرصة اللهو حوله وداخله

يجمع بين ايجاز الأسلوب التجريدى وأدبية الأسلوب الرمزى. وقد أعانه هذا الاختيار على أن يحتفظ لتمثاله بدرجة عالية من التركيز على كل ماهو جوهرى .

على الرغم من أن الفنان «عونى هيكل» يتمتع بخيال خصب فإنه يعترف بأنه أول المندهشين ، والمفاجئين بأعماله، وفى البيان الذى صاحب معرضه كتب يقول :

ماهذه الأشكال التى أصنعها؟ .. أين أولها وأين منتهاها ؟ ..) ويواصل تساؤلاته الحائرة واجاباته غير اليقينية بقوله : ماهذا الذى أجده أمامى بعد طول معاناة فى عملية الخلق والإبداع؟.. هل هى كوارث منطلقة مما يحدث ومما حدث من تدمير وتحطيم؟ .. ربما ! .. هل هى هياكل عظمية منزوعة النخاع، تلتحف بأشكال أسطورية ، تنطلق الانطلاق الأخير هربا من الطغيان المعنوى والتخلف الفكرى ومشاعر الدونية والعجز واليأس؟

وربما كان من المناسب أن نختتم تساؤلات مثالنا المصرى «عونى هيكل» بعبارة للمثال الأمريكى الكبير (دافيد سميث ١٩٠٦ ـ ١٩٦٣) وهى : (إن النحت يجب أن يكون حرا كالروح ، معقدا كالحياة!). ■

معارك فكرية

محمد لطفي جمعة

منصفا وظالما

بقلم
وديع فلسطين



تمر ذكرى الأدباء، وقل أن يلتفت إليها أحد، مع أن الذكرى تنفع المؤمنين، ومع أن الأدباء الذين عاشوا عصورهم بالطول والعرض لاتنطوى ذكراهم فى تلافيف الحياة الهادرة، ومنهم من تعتبر سيرته سيرة ملهمة عطرة، هى من أثمن الدروس التى تستخلص من حياتهم وأعمالهم بل فتوحاتهم.

وقد مرت فى الثامن عشر من شهر يناير الحالي ذكرى ميلاد الأديب العلامة محمد لطفي جمعة، الذى ولد فى الإسكندرية فى عام ١٨٨٦ وعاش حياة خصبة غزيرة الإنتاج، وكانت له فى كل ميدان جولات وجولات.


ماري كوري


خليل مطران


غلاف المقتطف

لم ألتق بمحمد لطفي جمعة، ولكنني رأيته في آخر مرة وقف فيها يواجه الناس في محفل كبير، كان ذلك بعد اغتيال الزعيم الروحي الهندي المهاتما غاندي في عام ١٩٤٨، عندما قرر خريجو جامعات فرنسا وسويسرا وبلجيكا في مصر إقامة حفل لتأبينه في قاعة يورت التذكارية بالجامعة الأمريكية، وكان ذلك في شهر ديسمبر ١٩٤٨، وهو حفل شارك فيه محمد لطفي جمعة وكنت من شهوده.

تعاقب الخطباء، كل يتحدث عن مناقب الزعيم الهندي الراحل من زاوية من الزوايا، فلما حل الدور على محمد لطفي جمعة، وقف بقامته القصيرة وجسمه الممتلئ وطربوشه التقليدي، وأخذ يلقي كلمة مكتوبة «أنا» ومرتجلة في معظم الأونة، وهو شديد الانفعال، تكاد الدموع تتساقط من عينيه، ولم يلبث جسمه أن أخذ يترنح، فحسبناه يتخذ لنفسه موقفا خطابيا تهتز له جميع أعضائه، ولكنه بدا وكأنه لم يعد يقوى على مجالدة الموقف العصيب، وأنه يؤذن بالسقوط، فهرع إليه الدكتور حنا رزق مدير قسم الخدمة العامة بالجامعة ومنظم الحفل، وقام بمساندته، بل حاول إثناءه عن إتمام كلمته، ولكنه تشبث بالمنبر، وواصل حديثه في جهاد عنيف لمقاومة اختلال توازنه، وكان في كل خطبته مفرطا في الانفعال وكأنه يبكي صديقا حميما، وكيف لا؟، وهو الذي سعى إلى لقاء المهاتما غاندي عندما توقفت سفينته «راجيوتانا» في بورسعيد في طريقه إلى لندن لحضور مؤتمر المائدة المستديرة في ٢٩ أغسطس ١٩٣١، وكانت للطفي جمعة معه جلسة طويلة، ولاغرو أن يحتشد في خطبته بشعور فياض، حيث قال:

«لاشغل شاغل، ولا مرض داهم، ولانقص في الشعور بالواجب هي أو بعضها التي أخرت تعبيري عن عميق

الحزن وشديد الاسى وصادق الوجد والالم لوفاة الإنسان العظيم والمرشد الكامل والرجل المخلص خادم الإنسانية والشرق عامة والهند خاصة، الطيب الذكر الخالد الأثر، الزعيم الجليل والروح السامي المهاتما موهانداس غاندي، إنما الذي عاقني وعطل وأسكت لساني حتى جف المداد وتلجلج اللسان ذهول كامل شامل وحيرة عقلية وحداد نفساني لم يسبق أن اعتراني شيء منها عندما سمعت نعيه، ثم تأكدت الخبر المفزع في الصحف».

هذه اللوعة المحرقة الصادقة فيها أكبر برهان على أن لطفي جمعة كان إنسانا جبل من أصفى المعادن، فاهتز كيانه كله لوفاة زعيم ليس من بلاده أو من مواطنيه، وكاد يسقط وهو يرثيه على منبر.

كان هذا في شهر ديسمبر ١٩٤٨، وقد علمت بعد ذلك من نجله المستشار رابح أن هذه المناسبة كانت آخر مرة خرج فيها محمد لطفي جمعة من بيته فقد أنشبت العلة أظافرها فيه حتى انطلقت روحه إلي بارئها بعدها بخمس سنوات في الخامس عشر من يونيو ١٩٥٣ بالغا من العمر سبعة وستين عاما.

***

عاش لطفي جمعة في خضم الحياة السياسية والفكرية في عصره، واقترب من عدد كبير من الأعلام الذين كانت لهم على مسارح الحياة أدوار، من مصريين وعرب ومشارقة ومستشرقين، وكانت له مع كل منهم مواقف أو مراسلات أو مجادلات جاء نشرها، أو على الأصح بعثها، على يدي نجله المستشار رابح شهادات حية على عصر بتمامه، وهي لاتخلو من خصوصيات، ومن مسائل عامة كانت للطفي جمعة، فيها مواقف جازمة أو عنيفة أحيانا، أو مواقف كان فيها منصفا سديد الرأي، وهي في مجموعها تدل على علمه وعلى وطنيته وعلى حرصه على المبادىء الخلقية، وعلى قدرته على محاولة من سمّاهم بـ «المتعاصرين والأنداد». والغريب أن هذه الشخصية الضخمة التي اشتغلت بالتاريخ وبالأدب وبالفلسفة وبالنقد وبالسياسة وبالقانون وبالأدب الروائي وبالدين وبالاجتماع.. أقول إن الغريب أن هذه الشخصية الضخمة لم تصادف من مواطنيها التقدير الذي يليق بها، وإنما جاءها التقدير من مجمع دمشق ـ وكان يعرف وقتها باسم المجمع العلمي العربي ـ فاختير عضوا مراسلا فيه عام ١٩٣١ .

***

كان لطفي جمعة معاقرا للقلم، يكتب ويكتب ولا يمل، سواء تهيأت له أسباب النشر أو لا، ومازالت مخطوطاته من مذكرات ودراسات أدبية وتاريخية وفلسفية تضاهي في عددها ماتيسر نشره في حياته أو على يدي نجله البار المستشار رابح، ولكن هذا الكلام الكثير الذي دونه لطفي جمعة يثير قضايا نختلف معه في بعضها أشد اختلاف.

فهو حين يتحدث عن مجلة «المقتطف» التي عمرت ٧٧ عاما بين عامي ١٨٧٦



يعقوب صروف



المهاتما غاندى

و١٩٥٢ يحاول النيل منها ومن أهداف ناشريْها يعقوب صروف وفارس نمر، فهو يتهم المجلة بسوء النية وبمحاولة زعزعة العقائد لأنها عرّفت بنظرية داروين فى النشوء والارتقاء التى كانت نظرية طازجة فى وقتها لايصح لمجلة تزعم أنها مجلة علمية أن تتجاهلها، بل يتعين عليها حتما أن تعرضها وتناقشها من كل جوانبها. «فالمقتطف» لم يروج لهذه النظرية، وإنما عرضها عرضا علميا جريا على سنن العلماء، شأن المجلة فى ذلك شأنها فى احتفائها بنظرية اللاسلكى لماركونى، واكتشاف الراديوم بفضل مارى كورى، واكتشاف البنسلين على يدى فلمنج وبنظرية النسبية لأينشتين، وما إلى ذلك من النظريات العلمية التى غيرت وجه الحياة فى القرن العشرين.

ثم إن لطفى جمعة نعى على مجلة «المقتطف» اهتمامها برجال المال والأعمال بما نشرته من قصص نجاحهم لكى يستخلص من ذلك أنها تدعو إلى الرأسمالية أو إلى سيادة طبقة الأثرياء على طبقات الفقراء. فإذا كابد عالم فى التنقيب عن البترول، وانتهى كده إلى اكتشافه، وتدفقت الثروة عليه، أفلا يعد هذا حدثا يستحق التسجيل؟. ومع ذلك فإن «المقتطف» لم يهمل القضايا الخاصة بالزراعة وفلاحة الأرض. وعندما استقبل شريف باشا رئيس الوزراء صاحبى «المقتطف» قال لهما إنه مدين لهذه المجلة بما أحرزه من نجاح فى فلاحة أرضه، حيث استخدم أنواع الأسمدة التى أوصت المجلة باستخدامها، فجاء محصوله وفيرا، شأن غيره من الفلاحين.

فاتهام المجلة صراحة أو ضمنا بأنها تنحاز إلى رجال المال والأعمال، هو اتهام جائر ولاسيما عندما يصدر عن محمد لطفى جمعة حيث أحصيت ١٣ موضوعا نُشرت له أو عنه فى هذه المجلة بين عامى ١٩٢٠ و١٩٤٠ مما يوحى بأنه كان على دراية كاملة باتجاهات المجلة.

على أن لطفى جمعة راجع نفسه بعد طول معرفة بالدكتور يعقوب صروف محرر المجلة، فلما توفى فى عام ١٩٢٧ تنادى

مع جمهرة من رجال الفكر لتأبينه. وألقى هو كلمة منصفة في حق هذا الرجل الذى ظلمه قبل أن يعرفه.

ومعذرة لدفاعي عن مجلة «المقتطف» إذ كنت من المسئولين عن إدارتها وتحريرها في سنيها الثماني الأخيرة.

★★★

ويروى لطفي جمعة أنه قدّم إلى صديقه الشاعر خليل مطران مسرحية من تأليفه عنوانها «الحب والضمير» على أمل تمثيلها - بعد إجازتها - على مسرح دار الأوبرا الملكية. وكان خليل مطران يشغل وقتها منصب مدير فرقة التمثيل القومية، وطال انتظار لطفي جمعة لليوم الذى يزاح فيه الستار عن هذه المسرحية، ولكن انتظاره خاب، وأدهشه أن المسرحية تحولت إلى رواية سينمائية عنوانها «نشيد الأمل» مثلتها أم كلثوم، ذلك أن مطران ائتمن عليها واحدا من مساعديه اسمه إدمون تويما، وهذا قام بإشراف مطران باصطناع فيلم منها هو الذى عرض باسم «نشيد الأمل» ويُشتم من كلام لطفي جمعة أن خليل مطران خان الأمانة وكفر بالصداقة واجترح هذه الفعلة في حقه.

وأنا وقد عرفت الشاعر خليل مطران عن قرب شديد ولازمته ملازمة شبه تامة في سني عمره الأخيرة أشهد بأنه كان يتحلى بأخلاق النبلاء سراوة ونهاوة وشهامة وأمانة وعفة وصدق طوية، واستبعد استبعادا تاما أن يكون مطران قد قام عامدا ومتعمدا بتسريب مسرحية لطفي جمعة على النحو الذى توهمه المؤلف، وإذا كانت المسرحية قد عرفت طريقها إلى السينما من خلال إدمون تويما في ظروف غير معروفة، فالمؤكد أن ذلك لم يكن بمعرفة مطران ولا بإشراف منه، كما ذهب إلى ذلك لطفي جمعة، وهنا يبرز تساؤل: لِمَ سكت لطفي جمعة عن هذا الانتحال وهو المحامى الضليع؟، ولِمَ لم يلجأ إلى القضاء لاستنداء حقوقه الأدبية قبل المادية، وهو الذى كان مكتبه كمحام مقصد الأدباء، يستنجدون به لقاضاة من يناوئونهم، كما فعل رائد أبولو أحمد زكى أبو شادى؟، ولو أن لطفي جمعة احتكم إلى القضاء لجاء قراره حاسما في هذه القضية.

★★★

وللطفي جمعة رأى فيه تحامل شديد على الصحفي خليل ثابت الذى رأس تحرير جريدة «المقطم» أربعين عاما، ولم يخل عدد منها من مقالات الصدر المسهبة التى كان يكتبها تعليقا على الأحداث الداخلية والخارجية والاقتصادية، فلطفي جمعة يقول: «إن خليل ثابت اتخذ طريقة كتابة المقالات الفاترة الجافة التى يصاب قارئها بالصداع لقلة حنكة الكاتب وبرود مزاجه وثقل دمه.. ومقالاته سمجة فاترة لا حماسة فيها ولا فن.. وقد ادعى خليل ثابت أنه أتقن الكتابة في وصف وقائع الحربين الكبريين ١٩١٤ و١٩٣٩، وقد وصف فيها وقائع لم ينظرها، وكل عهدته على الأخبار البرقية والصحفية، وليس لديه



سلامة موسى



فارس نمر

ثقافة حربية ولا تاريخية، والمسألة مسألة اجتهاد».

هذا بعض ما وصف به لطفي جمعة كتابات خليل ثابت، وهو في اعتقادي أبعد مايكون عن الصواب، وأشد مايكون تحاملا. فهل يعاب الاجتهاد على الكاتب الصحفي؟، وهل جميع المعلقين الكبار على الحربين العظميين كانوا مراسلين حربيين ذهبوا إلى المواقع ووصفوها وصف عيان؟ أعتقد صادقا أن لطفي جمعة تحامل على خليل ثابت وتعسف أشد تعسف في وصفه، فقد كان من أبرع المحللين السياسيين في عصره، إن لم يكن أبرعهم، وقد تابعت بنفسي وعن قرب افتتاحياته على مدى عشرين عاما، وكنت وأنا طالب صحافة، ثم وأنا مشتغل بالصحافة، ثم وأنا قائم بتدريس علوم الصحافة على المستوى الجامعي أعجب بها أشد الإعجاب وأستفيد منها في حياتي العملية. وعندما خلفت خليل ثابت في عمله.

***

ومادام لطفي جمعة قد حرص في مذكراته وكتاباته على وضع جميع معاصريه في الميزان، وإصدار أحكام عليهم، فقد افتقدت بين هؤلاء رجالا مثل أنطون الجميل محرر الأهرام، وعلى الغاياتي صاحب جريدة «منبر الشرق» وسليم سركيس صاحب مجلة «سركيس» ونقولا الحداد مترجم نظرية النسبية وزوجته الأديبة روز أنطون حداد شقيقة فرح أنطون الذى أعلى لطفى جمعة من شأنه بأعظم عبارات التقدير، كما أنه أشار إشارة عابرة إلى فؤاد صروف الذين خلف عمه ـ وليس شقيقه ـ يعقوب صروف في تحرير المقتطف عشرين عاما، ولا اهتم بالحديث عن إسماعيل مظهر محرر مجلة «العصور» وسلامة موسى محرر «المجلة الجديدة».

لقد أمسك لطفي جمعة بغربال كبير غربل فيه «المتعاصرين من الأنداد» فتحصل في غرباله كثير من الحنطة وكثير من الزوان أيضا، فكان منصفا وظالما في آن، ولكنه كان في جميع الأحوال صادقا مع نفسه يجاهر برأيه ولايخشى شيئا، وله

من ثقافته ومن تجاربه ومن بلاغته ومن «روب» المحاماة الأسود مايكسب به حتى القضايا الخاسرة.

إضافات واستدراكات

أشرت في عدد أكتوبر من «الهلال» إلى أن آثار طه حسين تلقى حفاوة واضحة في تونس وأوردت عناوين بعض الكتب التى ظهرت أو هى بسبيل الظهور عن طه حسين نقلا عن العلامة التونسى «أبو القاسم محمد كرو».

وقد نبهني الأستاذ حسن جغام إلى كتب أخرى عن طه حسين ظهرت في تونس منها «طه حسين: نقده الأدبى ومصادره الفرنسية» تأليف مفتاح طاهر وظهر عام ١٩٧٦ و«طه حسين يتحدث عن أعلام عصره» لمحمد دسوقي وقد نشر فى عام ١٩٨٢ و«عدد خاص» من مجلة الحياة الثقافية عن طه حسين أصدرته وزارة الثقافة التونسية في عام ١٩٩٠، و«طه حسين مؤرخا»، وهو في جزءين من تأليف عمر مقداد الجمني وصدر عن بيت الحكمة في عام ١٩٩٣.

أما الكتب التي ستصدر في سلسلة «مكتبة طه حسين» فهي: «طه حسين مفكرا سياسيا» لرشيد القرقوري و«مسالك إلى فكر طه حسين» للدكتور منجي الشملي وآخرين و«مع أيام طه حسين» للدكتور عطية عامر.

وفي العدد نفسه من «الهلال» قلت إنه لا العرب ولا الفراعنة عرفوا علة البروستاتة التي يطلق عليها مجمعا دمشق والأردن لفظة «المؤثة». وكنت في هذا ناقلا ما حدثني به الطبيب الاستشاري الدكتور شريف الكرداني، زميل كلية الجراحين الملكية البريطانية، وهو ما تأكدت منه بالرجوع إلى موسوعة الدكتور حسن كمال عن الطب الإسلامي وإلى كتاب الأطباء في مصر الفرعونية «للدكتور بول غليونجى والكتابان باللغة الانجليزية.

غير أن الطبيب السوري - والروائي أيضا - الدكتور عبدالسلام العجيلي علق على كلامي قائلا إن العرب عرفوا هذا الداء ولكنهم لم يشخصوه، وإن الشاعرة الخنساء رفضت الزواج من دريد بن الصمة عندما شكا لها من هذه العلة.

وفي عدد نوفمبر من «الهلال» رويت أن المسئول عن الآثار في سوريا في زمن الاستعمار الفرنسي باع بفرنك واحد لوحة منقوشة على ضريح الشاعر أبي العلاء المعري إلى بعض المسئولين الفرنسيين، وإن هذه اللوحة كانت تحمل بيته المشهور:

هذا جناه أبي عليّ

وما جنيت على أحد

وأن اللوحة اختفت ولايعرف مصيرها، وقد ذكرت سهوا أن المعري مدفون في حلب الشهباء مع أنه مدفون في معرة النعمان في سوريا.

ثلاث رحلات للشاعرة فدوى طوقان

سجلت الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان سيرة حياتها في كتابين، حمل الأول منهما عنوان «رحلة صعبة» وحمل



طه حسين



فدوى طوقان



محمد عبد الغني

الثاني عنوان «الرحلة الأصعب» ولكنها في تسجيلها لسيرة حياتها أغفلت أشياء كثيرة من حياتها المبكرة وقصائدها الأولى، فقام الدكتور يوسف بكار باستقصاء كل مافات الشاعرة من الصحف والمجلات القديمة وجعله حلقة ثالثة من سيرة فدوى طوقان عنوانها «الرحلة المنسية».

وسبق للشاعرة جليلة رضا أن نشرت سيرتها الذاتية، أما الشاعرة جميلة العلايلى فقد تركت سيرتها مخطوطة ولكنها لم تر النور حتى الآن بعد مضى نحو عشر سنوات على وفاتها فى ١١ ابريل ١٩٩١.

مشروعات أدبية لم تكتمل

تجيء المنايا فتضع حداً لمشروعات بدأ فيها أصحابها دون أن تكتمل، وكان الدكتور محمد صبرى السوربونى أخبرنى أنه عاكف على تأليف كتاب ضخم عن افريقيا الوسطى باللغة الفرنسية وأنه أنجز منه فعلا نحو ١٥٠٠ صفحة، فلما توفى فى ١٨ يناير ١٩٧٨ توقف القلم عن استكمال هذا الكتاب الموسوعى ولايعرف مصيره على وجه التحديد.

وكان الأديب إبراهيم المصرى أخبرنى أنه يعكف على كتابة ما أسماه بـ «كتاب العمر» وهو مزيج من السيرة الذاتية والخيال الروائى، ولكن وفاته متأثرا بالسرطان فى ١٣ أكتوبر ١٩٧٩ لم تمهله لإتمام مشروعه.

أما الشاعر حسن كامل الصيرفى فقد أفلح قبل وفاته فى ١٩ مايو ١٩٨٤ فى نشر ستة من دواوينه العشرة المخطوطة، ومازالت الدواوين الأربعة الباقية جاثمة فى إحدى دور النشر.

كما أن الأديب محمد عبدالغنى حسن أعد قبل وفاته فى ٢٢ يناير ١٩٨٥ نسخة موسعة من كتابه «أدب المهجر» وديوانا جديدا استوحاه من غربة أبنائه فى الأمريكتين، فبقيت المخطوطتان تاعستى الحظ ولم تريا النور حتى اليوم.

ومؤكد أن هناك عشرات من أمثال هذه المشروعات التى عزّ إتمامها أو حالت الظروف بينها وبين النشر، وحرام أن تظل مطوية أو حبيسة الأدراج. ■

الخروج من مصر!



ايهاب حسن
رحلة خروج لا تنقطع

بقلم
ابراهيم فتحى

عرّفنا الدكتور عبدالعزيز حمودة بسمات بارزة من شخصية المفكر والناقد المصرى الأصل الأمريكى الجنسية العالمى التأثير إيهاب حسن . فقد ترك مصر إلى الولايات المتحدة بعد تخرجه فى كلية الهندسة جامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٦، ثم غير اتجاهه الى الأدب وحصل على الجنسية الأمريكية عام ١٩٥٦ . ولإيهاب حسن كتاب فى السيرة الذاتية .الخروج من مصر " Out of Egypt" وهو خروج نهائى ظل يصاحبه خوف من العودة رغم تكرار دعوة الدكتور عبدالعزيز حمودة له من موقعيه كعميد لكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وكمستشار مصر الثقافى لدى الولايات المتحدة. وقراءة الدكتور حمودة للسيرة الذاتية عن الخروج من مصر لا ترى فى ذلك الخروج تنكرا للمصرية أو انكارا لها .

إن ايهاب حسن كان معاديا للاستعمار الانجليزى من جهة ولفاروق من ناحية أخرى . ولكن انتماءه إلى أسرته وانتماء تلك الأسرة إلى طبقة حاكمة متفسخة منحلة عميلة للانجليز والسراى جعل وضعه معقدا . لقد كان والده مديرا «محافظا» للمنصورة التى خرج سكانها وطلبتها «وإيهاب متعاطف معهم» فى مظاهرة حاشدة للترحيب بزعيم الوفد «مصطفى النحاس» فى تحد صريح لتعليمات الحكومة ووالده المدير. لذلك كان ولاؤه مشتتا بين حبه لوطنه وطاعته لوالده، الذى كان عليه أن يمنع خروج الطلاب «وتشتيتهم بالقوة» . ويرسم إيهاب صورا حافلة بالازدراء لعمه الذى كان وزيرا للداخلية ولوحشيته ولبقية أعمامه الذين كانت اراضيهم الزراعية تدر عليهم دخلا كبيرا ينفقونه على النساء الزرقاوات العيون فى أوربا، ولأخواله الذين يخسرون هذا الدخل على موائد القمار فى مونت كارلو، فهذه هى الطبقة التى هرب منها من انحطاطها وفراغها وتفاهتها . ومن ناحية أخرى لا عجب أن تجمدت الحياة العامة فى مصر وتحجرت دون تطور . إن الثورة الزراعية الأولى فى العالم حدثت كما يقول فى مصر على ضفاف النيل ، ولكن الفلاح المصرى ظل حتى وقت هجرة إيهاب حسن يستخدم نفس أدوات الزراعة التى عرفها الانسان منذ العصر الحجرى فكل شىء يتكرر دون تغير .

خط الاغتراب الأساسى

وترصد تلك القراءة اكثر الخطوط تأثيرا فى قرار الخروج من مصر وهو خط «الاغتراب» الأساسى الذى حكم حياته منذ الطفولة . إنه عضو فى طبقة عليا يجيد أفرادها اللغات الأجنبية أكثر من إجادتهم العربية. وكان مثل معظمهم إفرنجى التقاطيع والبشرة.. والصبية المصريون الصغار كانوا يطاردونه فى الشوارع وهم يرددون فى إلحاح : «بقشيش يا خواجة» إن اغترابه او منفاه الاختيارى المبكر داخل النفس فى مصر سيصبح منفى اختياريا فعليا خارج مصر.

ويرى الدكتور حمودة أن ايهاب حسن لم يستطع أن يتعايش مع طبقة تتحرك داخل فراغ عدمى، ولم يتصور نفسه حيوانا أليفا يتقبل الأسر داخل قفص، حتى لو كان ذلك القفص هو رفاهية طبقته العليا. وكانت قوة جذب الحلم الأمريكى متزايدة القوة فى السنوات السابقة لخروجه من مصر فأبناء طبقته يحتسون الكوكاكولا ويلتهمون صفحات المختار أو «الريدرز دايجست» ، ويضعون نظارات ريبان فوق عيونهم بل ويلوكون اللبان فى أفواههم تشبها برجال الجيش و البحرية الأمريكية الذين بدءوا يظهرون فى شوارع القاهرة.. وفى براءة ساذجة أثناء السنوات السابقة لخروجه من مصر - كما يرى الدكتور حمودة - كان يأمل أن يكتشف فى أمريكا المجال وانفراج الزمان والتاريخ المتطور، أى مجالا خاصا يستطيع داخله التغير والنمو بدلا من الثبات الجامد فى مصر الباقية دوما على حالها. ويكشف الدكتور

ايهاب حسن



محدودة عن بزوغ النزعة الفردية عند إيهاب حسن في هجرته الداخلية أو منفاه الاختياري، وعن ضعف ارتباطه بالمكان أي مكان. فهو يدون في مذكراته المبكرة بعد رحيله من مصر مباشرة: «انني إنسان أولا. وحينما يطلب مني تحديد فلسفتي أو مذهبي السياسي، فإنني اذكر اسمي في كل مرة».

الرؤية الطوباوية

وإذا انتقلنا بعد السيرة الذاتية إلى أول كتاب شهير له في أمريكا «البراءة الجذرية .. دراسات في الرواية الأمريكية المعاصرة «١٩٦١» وجدنا احتفاء تملؤه المرارة بأزمة الذات الفردية. داخل عالم تحول الحلم «الأمريكي» فيه إلى كابوس. وهو في مطلع الفصل الثاني من الكتاب يقتبس عن مارك توين تعليقه الساخر: كان اكتشاف أمريكا رائعا ولكن فقدان الطريق إليها كان سيصبح أكثر روعة. ولماذا كانت الرواية هي الجديرة بالاهتمام؟ لأن الرواية الأمريكية لا تقف عند توكيد حضورنا، بل ترتاد وتوسع الطرائق المختلفة لوجودنا أن تكون حيا، أن تكون إنسانا بأكمله حيا. هذه هي المسألة. فهي تساعدك على ألا تكون إنسانا ميتا في حياته. وهنا يبرز التساؤل هل لم يعد المجتمع «الامريكي» الأعظم الملتزم بمغامرة فضائية بين المجرات قادرا على تقبل البطوليات الزهيدة التي تثير الرثاء للروح الفردية؟ وهذا الرأي عند ايهاب حسن يكشف عن أن قصر النظر هو السمة البارزة للرؤية الطوبائية. ولن نستطيع دحضه بأكثر بما نستطيع دحض كابوس او نبوءة.. ولكننا نستطيع ان نضع حكمه موضع التساؤل بالبحث في مسألة اكثر حيوية. هي طبيعة الذات «الفردية» المعاصرة في الفعل ورد الفعل. في وطأة القيد والحرية. في الموافقة والإنكار، في هجومها لمواجهة التجربة ثم نكوصها وارتدادها للاحتفاظ ببراءتها.

لقد ارتبطت أفعال الذات المعاصرة وارتداداتها بتلك المساحة الكثيفة من الواقع التي يلتقي عندها وعينا بالعصر بأشكالنا الادبية. ويواصل إيهاب حسن تأكيد أن حركات الذات توحي بمناطق التوتر والاسترخاء في حياتنا الثقافية. وكانت تلك الحركات في رأيه الشغل الشاغل للرواية منذ دون كيخوته. فالبطل الروائي طالما ان الحياة ماتزال تنبض في قلبه المتخيل سيواصل توسطه بين الذات والعالم. واسماء الروايات في هذا السياق ذات دلالة: الضحية، والرجل المعلق. والعاري والميت، والقلب صياد وحيد. ولون الظلام وشجرة الليل. فالعنف والتشويه هما وسيلتا عرض رؤية يكون المجتمع معاديا لها. فالعالم «الامريكي» المعاصر يقدم تحديا مهينا للانسان لذلك يجب أن تكون استجابت

هى استجابة المتمرد او الضحية الذى يحيا تحت ظل الموت.

ولذلك فإن الذات المعارضة المعاصرة تمتلك قوى ادراك يملؤه الحنق، وخيالا كثيفا مضادا مناهضا للثقافة التى تحيط بها . ولكن الذات الفردية المعاصرة لم تقف عند أن تكون مثل دوريت الصغيرة «رواية لديكنز مترجمة إلى العربية» قد ولدت في سجن، وعندها تكون قد جعلت من السجن قلعة وضريحا بل لقد اكتشفت الاسرار الغريبة لكل السجون. فعلى الرغم من أن ابواب السجون : لا توصد أبدا فاننا لن نجد سجينا يرغب فى الهرب، كما أن كل طرق الهرب تؤدى الى نفس الزنزانة ، فما من شىء يوجد فى الواقع وراء اسوار السجن، بل إن كل سجان ليس الا سجينا أخر متنكرا. وهكذا تتراجع الذات المعاصرة عن العالم ضد نفسها وبذلك تكتشف السخف واللامعقول، وبالاضافة الى ذلك فإن تكوص الذات الفردية هو أحد مصادر وعيها واستراتيجية تقوم بها ارادة تلك الذات فكل الايماءات المعذبة للمعارضة تصرح بتورط الذات . فى حماة العالم الذى تعارضه . كما تسير اشكال استسلامها اليائس قلب حياة تكاد أن تكون شبه صوفية فى عصرنا. فهناك عنصر يأس هدام هو أحد علامتى الذات، والعلامة الأخرى هى الاستخدام البناء لهذا العنصر اليائس.

ويتساءل إيهاب حسن بعد ذلك عن ماذا يمثل بطل الرواية المعاصرة؟ ويجيب عن السؤال باننا لا نستطيع تحديده، فهو ليس الفكرة الليبرالية عن الضحية ولا المحافظة عن المنبوذ ولا الراديكالية عن المتمرد. قد يكون هذه الأفكار كلها وقد لا يكون أيا منها. وقد يؤكد جانبا أو أخر. ولكن طاقاته على الألم تقترب من طاقات قديس كما أن أهواءه نحو الهرطقة تكاد أن تكون إجرامية . ويحمل إيهاب حسن إلى استدراك شديد التعميم. فمهما تكن قداسة بطل الرواية المعاصرة معطوبة، ومهما تكن نزعته الاجرامية غريبة عجيبة فإنه يبدو فى النهاية تعبيرا عن رغبة لا يخمد لظاها في توكيد الحس الإنساني بالحياة رغم كل ما يعترض الطريق من انعطاف وتقلب وفراغات.

البراءة الجذرية

ويسمى إيهاب حسن هذه الخاصية لانفعال بطل الرواية الأمريكية ووعيه (فى تعبيره عن الذات الفردية المعاصرة) البراءة الجذرية: جذرية لأنها باطنة فى شخصيته وتصل إلى جذرها أو أساسها ، وجذرية أيضا لأنها متطرفة مندفعة خارجة على كل سلطة وتتنازعها الرؤى من كل جانب. وهذه البراءة لاتحيلنا إلى ضروب من البساطة والسذاجة وطيب الطويلة بل إلى براءة ذات ترفض قبول حكم الواقع الذى لايُرَد.

إنها ذات لا يمكن خنق المتطلبات الجذرية لحيويتها ، كأنها أرومة أصلية، لم يتمايز وعيها الإنساني بعد، كأنها غادرت لتوها المستوى الحيواني، ومع ذلك فإن تلك البراءة الأمريكية تحوى عنصرا ينتمى إلى الإله اليونانى

إيهاب حسن

ديونيزوس يتدفق بطاقة الوجود الداخلية الفوارة. لذلك فثمة تناقض بين براءة البطل والطابع الهدام لتجربته.

ومن البداية المبكرة رغم الإيماءات الوجودية التى تؤكد على فردية الذات فى كتاب البراءة الجذرية، أكد إيهاب حسن عناصر من النقد الثقافى، فالقوى المتناقضة للتاريخ والمجتمع (العالم) تؤثر فى فكرتنا عن الذات (البطل) وبذلك يبرع نوع جديد من الأبطال . ومن اللحظتين الحرجتين للقاء البطل بالتجربة لحظتى الاندماج والتكريس أو الهزيمة يأخذ شكل الرواية قوامه. ومهمة التحليل التاريخى للذات فى تراجعها ونكوصها هو تعقب الاغتراب المعاصر إلى أصوله، تعقب الهروب المزدوج من الأرض إلى الكون ومن العالم إلى الذات. فالمأساة والتمرد يشكلان الاستجابة الحديثة لوقائع عصرنا الكئيبة وتطوراته الغريبة. إن سورة النفور أصبحت موقفا حداثيا من التاريخ . الهلع من التاريخ، كابوس التاريخ (كما يقول جيمز جويس) فجنة عدن بعيدة جداً وراءنا ، وليس المجتمع الألفى السعيد بقريب. لذلك فإن الحس السائد هو حس الاجتياح أو سرعة الزوال. وأصبح طراز الأفعال الانسانية فى الزمان لا يقدم معنى يمكن التعرف عليه .



وماذا وجد إيهاب حسن فى التجربة السياسية والاجتماعية للقرن الامريكى الذى كان حلما لحرية ذاته الفردية؟ إنه يكتشف اتجاهين متضادين التنظيم الصارم الذى لا يفتر للمجتمع، وإطلاق طاقات هدامة ضد المدنية.

فلم تعد صورة شارلى شابلن للإنسان جالسا على خازوق بين ترسين ذات أثر تهكمى، إنها إمكان أصبح واقعا يوميا. هناك شيطانية فى الالة الحديثة والأجهزة الحديثة. فالبرمجة الألية بكل أشكالها هى انعدام حياة لا إنسانى لا عقلانى يتخلل الحياة . والشيطانى حاضر فى لا عقلانية البشر كما يكمن فى الانتظام الآلى اللانسانى. الاثنان معا يتجهان نحو إلغاء الإنسان. هناك ميكنة العمليات الفكرية، وأصبحت الدولة جهازا تكنولوجيا فعالا، يضع الناس فى قوالب للتحكم والضبط وراء الواجهة الديموقراطية. فالاشتراك السياسى للفرد ودوره فى اتخاذ القرارات المتعلقة بمصيره يقترب من الصفر وكذلك قدرته على إحداث تغيير أو توجيه مسار الأحداث. لذلك يختار الناس الانسحاب من المجال العام للفعل على الرغم من أن انسحابهم من العالم يرغمهم على ممارسة علاقة هشة عقيمة بأنفسهم. وبدلا من الفعل المؤثر هناك السلوك المقلوب. وبدلا من النفوذ المعنوى الفكرى هناك الإقناع المخادع المستتر أو

القسر النسقي. وأصبحت الطاقة الإنسانية تقاس بلغة وظائف مجردة، والصفات الإنسانية بوصفها سلعا تحقق ربحا. إن أمريكا تجسد أكثر الخطوات تقدما في اتجاه «قذف الإنسان خارج الإنسان».

ويرصد إيهاب حسن اغتراب الذات، واستجابتها بالاستشهاد أو العصيان أو كليهما في مواجهة التجربة المعاصرة، حيث لا خلاص في التنظيم التكنولوجي الجمعي (الاتجاه السياسي السائد) ويتساءل: أيمكن القول إن ما يواجهه العالم ليس مجرد نهاية الفردية بل هو تدهور للشكل الإنساني نفسه؟ ، ويجيب إن ذلك يعتمد على استجابة الإنسان للعناصر الهدامة في تجربته وتفصح الروايات إفصاحا ثريا عن هذه الاستجابة.

وهو يرى أن الفلسفة الوجودية كانت عرضا لمجتمع صناعي يتحلل، ويفرق بينها وبين الذات الوجودية في الأدب الحديث التي تذهب إلى شروط جديدة أثناء انسحابها للاحتفاظ بنوع جذري من البراءة، ويصل ناقدنا إلى أن الأدب الحديث معني بنزاع الذات مع الحضارة، وأن صورة الذات في هذا النزاع وفي صراعها مع نفسها تجد بؤرتها في البطل المضاد.

البطل والبطل المضاد

ويشير هذا البطل المضاد عند إيهاب حسن إلى تجمع متهرىء من الضحايا: الأبله والمهرج والفلتة الغريبة واللا منتمي وكبش الفداء والانتهازي السافل والمتمرد بلا قضية والبطل في صفيحة الزبالة والبطل مفلوت الزمام. ويطابق القراء بين مأزقهم ومأزق أي من هؤلاء.

وفي تتبع إيهاب حسن للبطل المضاد يصل إلى اكتشافاته الخاصة المبتكرة عن الذات ما بعد الحداثية قبل رواد ما بعد الحداثة الآخرين. فالاهتمام الرئيسي للبطل المضاد عنده أن يكون شخصا محددا، أن يعرف من هو أو ما هو ، وأن يصل إلى إنسان آخر بالحب، وأن يفعل ذلك بمفردات يكتبها المجتمع. ولكنه يؤكد بعد ذلك أن تلك الهوية مراوغة ، ليست هي الأنا القديم الثابت الراسخ بل أنا آخر يمر بحالات متغايرة في تقلب. فتاريخ البطل المضاد هو تاريخ الوعي المتغير للإنسان بنفسه. فالمتمرد/ الضحية هو في الروايات الحديثة اللامنتمي يبحث عن الحقيقة ، ذئب البوادي، عبقري المعاناة المنعزل. ولايزال مشتبكا مع ضروب التعدد الجذرية للأنا، متذبذبا لا بين الذئب والإنسان فحسب أو بين قطبين فحسب مثل الجسم والروح القديس والأثم بل بين الآف الأوجه. فليس الإنسان إلا اتفاقا مؤقتا بين أضداد متحاربة.

ومن ناحية أخرى نجد عند إيهاب حسن في تلك الفترة المبكرة (الفصل المعنون طراز التجربة الروائية) أن اغتراب الذات عن المجتمع هو الافتراض الأساسي للرواية الحديثة. وهو يمضي من ذلك إلى أن يقول (١٩٦١)، لم يعد السهل تعريف المجتمع تعريفا مؤكداً ويتحدث عن انهيار النظريات المتماسكة أو المتصلبة عن المجتمع وهو ما يولد لا

ايهاب حسن

أدرية في أشكال السرد، أي أنه يستبق ليوتا . في الشرط ما بعد الحداثي عن اخفاق الانسان الكلية والسرديات الكبرى عن المجتمع (في أواخر السبعينات).

البدايات الأولى لا تتطابق

ولن نقف عند دراسته للروايات فما يعنينا هو الخط العام لنقده الثقافي الذى يؤكد الحياة الإنسانية والالتزام بالحرية.

وفي كتاب تمزيق أورفيوس: نحو أدب ما بعد حداثي (١٩٧١) يتساءل، هل سيظل الأدب يبنى نفسه ويهدمها إلى الأبد؟ . ولكننا في رأيه نعرف أن البدايات الجديدة لا تتطابق دائماً مع النهايات القديمة. هناك أيضا انشقاق وعدم اتصال وربما نهاية كارثية . ولم يعد العالم الأسطوري للعود والعالم التاريخي للاستمرار نموذجين للزمان قادرين على تصوير العالم الذى نخلقه الآن. وربما كان مستقبل المستقبل أى شيء نريد. وردا على سؤال هل للتأملات حول مصير الإنسان مكان في دراسة الأدب يجيب إن الأدب نادرا ما يخرج عن هذه التأملات.

فالطليعة الأدبية تسهم في اختراع المستقبل في رداء تنكر تهريجي هو التجريب. وطوال قرنين اتجهت هذه التجارب نحو أشكال متلاشية ، فهى تجارب تحمل ايماءات صمت أو وعى يدور مبتعدا عن التاريخ محاولا أن



ينفلت متحررا من الكلمات والأشياء. وينجذب الخيال إلى رؤية غريبة عن نفسه فيغزو الخواء. ويفزعك الفراغ فتفتح عينيك على اتساعهما، وهما عينان تريان كل شيء أو لا شيء. ولكن تلك الروح بعد الحداثية ترى على أى حال.

وهذا الوجود المنتهك يؤدى إلى نشوء تراجيديا الأشكال الأدبية ، وإلى تجرؤ على تمنى نهاية للفظاعة . وهذا التكفير الصامت للوعي هو سر أورفيوسي. وهنا نرى مثالا لما ذهب إليه إيهاب حسن من أن الكتابة النقدية هى أدب على أدب، إبداع في شذرات متحرر من القيود الأكاديمية، وهو يرى أن تقليد الصمت يوقع في شباكه تنوعات التجربة المعاصرة، فالثقافة والوعي ينقلبان على نفسيهما ليقدما استعارات القلب (العكس) في فن مضاد. ولا تقف المسألة عند تداعي البطل أو موت جنس أدبى بل تمتد إلى نقلة جذرية في أشكال إدراكنا، في إمكانات حياتنا، أنه يدعو إلى أن يكون الأدب الحداثي وما بعد الحداثي تجربة جمعية مقتسمة بين الذوات مشحونة بالطاقة تنير الوعي وتعمق الحياة ، وهو يبحث عن الخلاص حتى حينما يدرس أعمالا قد توحى باليأس عند دى ساد وهمنجواي وكافكا وبيكيت. وهو يواصل مشروعه الخاص في النار البروميثيوسية الصحيحة «الخيال والعلم والتغير الثقافي» (١٩٨٠).

و«المنعطف ما بعد الحداثي» مقالات في نظرية وثقافة ما بعد الحداثة (١٩٨٧) وما يتلوها.

ويرى بيتر بروكر في كتابه «الحداثة/ ما بعد الحداثة» الذي حرره وقدم له أن ما بعد حداثة إيهاب حسن شديدة القدرة على الامتصاص، فهي تبتلع بليك ودي ساد وباوند وجويس والدادية والسيريالية والرواية الفرنسية الجديدة وجان جينيه والأدب الشعبي .. والكثيرين من مفكري ما بعد البنيوية . وإيهاب حسن يعتبر ما بعد الحداثة بنية معرفية شاملة تجمع الخطابات المختلفة على أساس من الافتراضات الضمنية عن وضع المعرفة الآن. وقد قدم تمييزا شهيرا في مقاله ثقافة ما بعد الحداثة (١٩٨٥) بين الحداثة وما بعدها.

فالحداثة ينتمي إليها الشكل المغلق والفرض والتصميم والتراتب والتحكم (اللوجوس) والعمل المكتمل والمسافة والمدلول والقرائي والميتافيزيقا والتعالي، إلخ. على حين ينتمي إلى ما بعد الحداثة الشكل المفتوح واللعب الحر والمصادفة والفوضى والاستنفاد (الصمت) والأداء والمشاركة والكتابي والمفارقة والمحايثة..إلخ.

فما بعد الحداثة هي ثقافة الإحساسات المتشظية والصور الجاهزة السطحية المختلطة المشوشة. وهي تتطابق مع الحياة اليومية ذات الطابع السلعي وتحطم الانفصال الحداثي بين الجمالي واليومي ، بين المؤلف وعمله، بين الفن والجمهور بين الفن الرفيع وفن العامة . ويرحب إيهاب حسن بالتجديد المستمر لما بعد الحداثة، ويريد التخلص من استبداد الانساق المغلقة، ويطمح إلى ثورة معرفية وثقافية بل وإلي تغير سياسي أساسي. وقد يرى بعض النقاد أن ما بعد حداثة إيهاب حسن العدوة لكل رؤية ذات طابع كلي تتناقض مع نفسها مبشرة بتوحد عالمي وبالكون الانساني الواحد الذي يتجاوز خروج ما بعد الحداثة على كل إجماع. ويروض ايهاب حسن السياسات الجزئية التفصيلية عند ما بعد الحداثة برؤية تسرع نحو إنسانية مجردة عامة. ويؤكد الاختلاف ثم يدفنه في افتراض عن الانسجام العالمي.

وتلك لفتة تكرر ما لدى بعد الحداثة من افتراض متناقض عن كيانات لا مركزية على نحو جذري في عالم من الاتصال والترابط التكنولوجي الذي لم يسبق له مثيل. وينتقد بيتر بروكر ما بعد حداثة إيهاب حسن التقدمية الملتزمة بإمكان وضرورة تغيير سياسي أساسي من ناحية صعوبة التوفيق بين هذا الإلتزام وافتراضات ما بعد الحداثة في التشظي والتبعثر وانعدام التكامل. ولكن ما أجمل تلك النزعة الإنسانية التي ظلت ملتصقة بما بعد حداثته كميراث من حركات المناهضة الثقافية الطوباوية في الستينات والسبعينات فخروجه من مصر إلى العالم بحثا عن اغناء ذاته في عالم حر متفتح واصل تجدده في خروجه على التمذهب الضيق. ■



التكوين

ضرورة المزاوجة الدائمة بين الحرية والإيمان والالتزام

محمد نور فرحات

يقول د . محمد نور فرحات : «إن الحديث عن التكوين العلمي والثقافي تتداخل فيه اعتبارات الذات بالموضوع تداخلا واقترانا يصعب الفصل فيه بين الاعتراف والسيرة الذاتية والعناصر الموضوعية للتكوين الثقافي» .

وقد وصلت قاطرة تكوينه في العدد الماضي حتى حصوله على درجة الماجستير والاستعداد لمرحلة الدكتوراة ويواصل الحديث :

عرض على أستاذى الدكتور اسماعيل غانم موضوعا للدكتوراه لم أسمع عنه من قبل أثناء دراستي في كلية الحقوق وهو عن «الوضعية القانونية» وطلب مني إعداد الخطة . من أجل هذا قرأت شهورا في الفلسفة العامة حتى أعرف كيف انتهى الأمر إلى الفلسفة الوضعية ، وفي تاريخ النظريات الاجتماعية حتى أحيط بأفكار «أوجست كونت» وفي تطور الفكر القانوني لأضع يدى على تأثير الفلسفة العامة والنظريات الاجتماعية على علم القانون . وكانت هناك وقفة عند الفلسفة الماركسية في المجتمع والدولة والقانون . إذ أن هذه الفلسفة يجرى تصنيفها من قبل الباحثين الغربيين على أنها رافد من روافد الوضعية القانونية ، في حين ينظر الماركسيون أنفسهم إلى الوضعية على أنها رافد من



مع الرعاة المغول في فصل الشتاء

روافد الفكر البرجوازي الذي يناصبونه العداء، سألني أستاذي الدكتور اسماعيل غانم. كيف ستدرس الماركسية القانونية؟ في أي إطار وبأية مصادر؟ لم أحر جوابا.

أشار عليّ بالسفر إلى موسكو حيث المصدر الأصيل للمعرفة عن الماركسية. في هذا الوقت بالذات ودون سابق ترتيب أو اتفاق أو اعداد رشحني الدكتور أحمد خليفة للسفر في بعثة دراسية إلي موسكو للحصول على درجة الدكتوراه في القانون. كان من المعتاد في ذلك الوقت أن يذهب طلاب الدراسات العليا في الحقوق إلى فرنسا وبعضهم إلى أمريكا وانجلترا. إلا أنه لسوء علاقات مصر بالغرب في ذلك الوقت اقتصرت البعثات ولسنوات عديدة على دول الكتلة الشرقية وفي مقدمتها الاتحاد السوفيتي. وهكذا تضافرت الظروف السياسية في ذلك الوقت مع توجهات أستاذ ليبرالي النزعة، مع نزعة دفينة نحو الاكتشاف والتميز في أن أشد الرحال في ٢٥ سبتمبر عام ١٩٧٠ إلى مدينة موسكو حيث أدرس للدكتوراه في جامعة موسكو الحكومية. كانت رحلة الطائرة هي ذات الرحلة التي سافرت عليها السيدة أم كلثوم لإحياء حفل هناك لصالح المجهود الحربي ولكنها عادت بعد ثلاثة أيام دون إقامة الحفل لوفاة الرئيس جمال عبد الناصر.

نمو التوجه الاجتماعي

كان تكويني الفكري عندما أنهيت دراستي بكلية حقوق القاهرة تكوينا ليبراليا ذا جذور دينية عميقة. وأسفرت تجربة المركز القومي للبحوث الإجتماعية ثم بعد ذلك تجربة منظمة الشباب

الاشتراكي التي انخرطت فيها في ذلك الوقت ، ثم تجربة التنظيم الطليعي عن تأصل ونمو التوجه الاشتراكي أو لنقل الاجتماعي داخل هذا التكوين الليبرالي الديني . وعندما سافرت إلى موسكو لم يكن في داخلي عداء للماركسية . وكيف أعاديها وهي تمثل أحد جوانب دراستي للدكتوراه ، ومع ذلك فلم يكن هناك قبول كامل لها . ولقد بدأ إطلاعي على الماركسية في القاهرة من منظور نقدي صرف سواء على يد منظري الإشتراكية الناصرية أو ما يسمى بالطريق العربي للاشتراكية ، أو على يد مفكري القانون الإجتماعيين من أمثال أحمد خليفة واسماعيل غانم وثروت اليس الأسيوطي . وأذكر سؤالاً وجهه لي الدكتور اسماعيل في امتحان الدكتوراه هو : بدأت الماركسية مادية وانتهت مثالية - اشرح ذلك . وأفضت في الإجابة بنقد نظرية تلاشي الدولة والقانون عند كارل ماركس .

استقررت في حجرة صغيرة في الطابق الثاني عشر طولها ثلاثة أمتار وعرضها متر ونصف بالمدينة الجامعية بجامعة موسكو حيث أطل من نافذتها على أبراج الجامعة العريقة المسماة باسم عالم الطبيعة لومونوسوف وعلى تلال لينين الخضراء المنحدرة حتى شاطىء نهر موسكو . حاجز اللغة يقف جدارا منيعا دون التواصل . ومع ذلك فإن النفس كانت تمتلىء بهجة بالضحكات العالية لفتيات الصقالبة الشقراوات ذوات الوجنات الوردية دوما . موسكو مدينة عملاقة ذات شوارع واسعة وبنايات نظيفة خطط كل شيء فيها بنظام حسن . مدينة حانية لا يحس فيها الإنسان اطلاقا بما يسمى شظف العيش فالمسكن ميسور بأقل القليل والثقافة والعلاج والراحة ميسورة دون مقابل تقريبا . فلماذا لا يفرغ الإنسان للعلم والهناء . ومع ذلك فقد أدركنا فيما بعد أنه تحت هذا السطح البراق كانت تتفاعل كثير من التقلصات الإجتماعية نخرت كالسوس في عظام جسد عملاق فهوت به صريعا بعد عقدين من الزمان .

مجمع الرافضين وغير الرافضين

كيف تكون الاشتراكية سيئة على النحو الذي سمعنا عنه من البعض في





مع راجيف غاندي في مؤتمر الحقوقيين [illegible] الهند ١٩٨٧



مع زوجتي السيدة / هالة البلي في هضاب منغوليا.

مصر إذا كان ناجبا هذا القدر من الازدهار الثقافى والحضارى ؟ هذا هو السؤال الاول الذى واجهنا نحن المبعوثين المصريين إلى موسكو فى هذا الوقت : وفى مواجهة الإجابة عن هذا السؤال انقسم مجتمع المبعوثين إلى عدة فرق . كان مجتمع المبعوثين فى موسكو كبير العدد إذ كانت مصر ترسل سنويا إلى الاتحاد السوفيتى قرابة مائة وخمسين مبعوثا فى مختلف التخصصات كان أغلب هؤلاء فى تخصصات الرياضة والطبيعة والكيمياء والبيولوجيا وعدد أقل فى العلوم الإنسانية أغلبهم فى اللغة الروسية ثم عدد محدود فى باقى التخصصات الإنسانية كالاقتصاد والإدارة وعلم نفس وواحد فقط لدراسة القانون هو أنا . ومن حيث الموقف الفكرى من المجتمع السوفيتى انقسم المبعوثون إلى قسمين كبيرين . قسم ممن يرفضون هذا المجتمع رفضا تاما ويدينونه إدانة كاملة ويخلعون عنه كل مميزات ويعتبرون حضورهم اليه من سوء الطالع . وللغرابة كان أغلب هؤلاء ينتمون إلى تخصصات الطبيعة والكيمياء والبيولوجيا. وقسم أخر يجمع غير الرافضين للمجتمع الذى يدرسون فيه ويتعاملون معه بانفتاح يبدأ من الاعتناق الكامل والصريح للفكر الماركسى ويتدرج حتى الإقرار بايجابيات التجربة الاشتراكية السوفيتية والاقرار ايضا بسلبياتها . وكان هؤلاء يطلقون على أنفسهم وصف التقدميين . وكان أغلبهم من تخصصات الرياضة والفنون وبعض دارسى العلوم الإنسانية . وكانت الحرب العدائية بين الفريقين تصور بمعرفة الفريق الأول على أنها مفاضلة بين الكفر والإيمان مع أن الأولين لم يكونوا مؤمنين خلصاء إذ كان الكثيرون منهم يفرطون فى شرب الخمر ويبررون علاقاتهم مع الصقلبيات بأنها علاقات مع إماء الموالى - كما أن الآخرين لم يكونوا جميعا فى صف الالحاد . ولكن الانقسام الحاد الذى شهده المجتمع المصرى عقب أحداث ١٩٧١ والحرب الدعائية التى شنها السادات على خصومه فى ذلك الوقت تردد صداها فى مجتمع المبعوثين . ولم يكن هناك خيار لى إذ وضعت قسرا فى صف التقدميين بكل ما يترتب على ذلك من أوصاف .

إعدادى لرسالة الدكتوراة

بعد أن أنهيت دراسة اللغة الروسية لمدة عام كامل على طريقة كتاتيب الريف





في احد مؤتمرات حقوق الانسان بتونس، بين الاستاذ محمد فائق والاستاذ حسيب بن عمار

المصرى على يد السيدة/ ليا أليكسند روفنا. سألنى أستاذى المشرف على آندريه ايفانوفتش دينسوف (وكان أستاذا مسنا يبلغ من العمر ثمانين عاما عمل لفترة طويلة مستشارا دستوريا لخروشوف ويرأس قسم نظرية القانون والدولة فى جامعة موسكو) سألنى عن الموضوع الذى ساعده لمناقشة رسالة الدكتوراة. أعدت من جانبى طرح السؤال عليه. طلب منى أن أكتب فى موضوع النظام القانونى للمؤسسات الإجتماعية فى مصر. تبسمت ولم أرد. كنت أعلم أن مثل هذه الموضوعات التافهة تسعد الأساتذة الروس والطلاب المصريين معا. تسعد الروس لانها تضيف إلى معلوماتهم شيئا عن البلدان ذات التوجه غير الرأسمالى كما كانوا يسمونها فى فقه السياسة والقانون. وتسعد الطلاب المصريين لأنها لا تكلفهم إلا جهدا يسيرا فى الإعداد، إذ يكفيهم القيام ببعض الترجمات لعدد قليل من المصادر العربية، ولكننى لم أحضر إلى موسكو بهذا الغرض إذ كان بوسعى أن أحصل على الدرجة العلمية فى بلدى. أجبت أستاذى بأننى أعد فعلا رسالة دكتوراه عن الوضعية القانونية. نظر إلى مندهشا ومتسائلا: ما هذه الوضعية؟ هل هى نظرية برجوازية فى القانون؟ قلت لعلها كذلك ولكن الأمر بكل تأكيد أعقد من مجرد وصفها بالبرجوازية وانطلقت فى دراستى.

فى مرحلة بعينها من مراحل إعداد رسالتى أدركت أنه لابد أن أشد الرحال

إلى الغرب وتحديداً إلى المملكة المتحدة، كان جزء كبير من بحثى يتعرض لنشأة الاتجاهات الشكلية فى فلسفات القانون الغربية وتداعياتها التاريخية لدى مدرسة الوضعية القانونية الجديدة بأكسفورد. وكانت المكتبة السوفيتية فقيرة جدا فى هذا الجانب.

فى لندن

فى عام ١٩٧٢ أوفدتنى إدارة البعثات بناء على طلبى إلى لندن . فى هذه العاصمة التليدة ، عاصمة التقاليد والتاريخ والعلم والحضارة ، يفتقد المرء كثيرا إحساس الحنان والألفة وحسن المعاشرة والأمان الذى تقدمه مدينة مثل موسكو . كان التشرنق حول الكتب هو الحل الأمن حيث الغربة الاجتماعية . انطلق يوميا فى الثامنة صباحا من غرفتى المتواضعة فى إحدى حوارى ميدان راسل سيرا على الاقدام إلى مكتبة معهد الدراسات القانونية المتقدمة أو إلى مكتبة مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية . هناك تعرفت على كتابات بنتام وأوستن وبلاكويل وبولوك وغيرهم من أساطين الشكلية الإنجليزية . أجلس فى المكتبة من الثامنة صباحا إلى الثامنة مساء . لا مجال للرقص أو اللهو كما كان الحال فى موسكو لأن الدخل الضئيل لا يكفى إلا للطعام البسيط والسكن المتواضع ولا سبيل لمزيد من الموارد إلا بعزف الموسيقى والتسول على محطات المترو . فى كيمبردج وفى رحاب الأريحية الإجتماعية للدكتور محمود عبد الفضيل الذى كان يعمل استاذا زائرا للاقتصاد . كانت الحياة أكبر يسرا . تعرفت هناك على المدرسة اللغوية فى القانون وعمدتها جلانفيل ويليامز . وفى أكسفورد سألنى استاذ الوضعية الأشهر البروفسور هربرت هارت . لماذا تدرس فى الاتحاد السوفيتى هذا البلد السيىء ؟ أجبته بمثل ما أجبت به أستاذى فى جامعة موسكو.قد يكون البلد سيئا فى نظرك ولكن الأمر أعقد بكثير مما تتصور .

العودة إلى الوطن

أجلس على سطح الباخرة بيلوروسيا التى غادرت ميناء أوديسا متجهة إلى الاسكندرية ، بعد أن ناقشت رسالة الدكتوراه عائداً إلى الوطن . سألت نفسى؟ ماذا بعد هل أضحيت ماركسيا ؟



ماركس نفسه قال : أنا لست ماركسيا جامدا . أما أنا فلست بماركسي ولست بجامد . كل ما فعلته أنني فتحت جميع النوافذ المغلقة كما أوصاني أستاذي الدكتور سيد عويس في خطاباته .

أيقنت أنني لم أصل إلى اليقين العقلي في رحاب جامعة موسكو أو جامعة لندن أو كيمبردج أو أكسفورد . كل منها قدم لي بعضا من الحقيقة أو وصف لي بصدق جزئي بعضا من جسد الفيل . تبدو النظرية الماركسية في المجتمع والقانون ذات بناء منطقي محكم . كل حلقة من حلقاته تسلم إلى الحلقة التالية على سبيل الحتم . ولكن ظل السؤال الأولي الذي تنطلق منها الماركسية محل تساؤل بدوره . لماذا يجب أن تكون المادة سابقة على الفكر ومحددة له . هل لمجرد الاستناد إلى بعض النظريات غير المطلقة في البيولوجيا والفيزياء والكيمياء التي كانت محكومة بواقع التقدم العلمي في القرن التاسع عشر . وهل من المعقول أن نطبق هذه الحتمية المادية بصرامة في مجال حركة المجتمع بحيث لا ندع لإرادة الإنسان أو قوانين الصدفة التاريخية إلا دورا ثانويا ؟ ورغم الآفاق الهائلة التي فتحتها الماركسية في مجال فهم الصراع الاجتماعي والأسس الاجتماعية للمعرفة وظاهرة الاستعمار إلا أن موقفها الصارم في التعامل مع الدين ومع ثقافات الشعوب هو موقف غير مقنع وغير علمي وغير مفهوم . وفي الجانب المقابل لم يقدم كثير من علماء القانون والمجتمع الغربيين الحقيقة كلها في فهم القانون وجوانبه الاجتماعية لأن حماسهم الزائد في مقاومة الماركسية أوقعهم في شراك الشكلية والمثالية التي تغفل تماما علاقة القانون بالصراع الاجتماعي التاريخي .

ولكن اليقين الذي استقر عندي أن هذه الثنائيات الكبرى في الفكر ليست بالأمر السيء أو الشرير بل هي علامة بارزة لازمت كل مراحل تطور الفكر الإنساني . وليست هناك محطة نهائية

الأستاذ الدكتور محمد نور فرحات

- يعمل حاليا استاذا ورئيسا لقسم فلسفة القانون بكلية الحقوق جامعة الزقازيق .
- يعد من ابرز ممثلي المدرسة الاجتماعية للقانون في مصر والعالم العربي .
- اكتسب البعد السوسيولوجي من عمله فور تخرجه بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة.
- خبر مدارس البحث القانوني في الشرق (موسكو) والغرب (جامعة كاليفورنيا بركلي)
- عمل لسنوات مسئولا عن برامج الامم المتحدة لحقوق الانسان في دول شرق ووسط آسيا.

للمعارف الاجتماعية على الباحث أن يستكين إليها . عليه أن يسعى دائما للوصول إلى الحقيقة المطلقة. أما الحقيقة المطلقة ذاتها فهي سراب في مجال العلم ، قد يتعرف على مجموعة من الحقائق الجزئية في مسيرته الطويلة ، وسيجد في كل بستان الثمر الطيب والحصرم ولكن عليه أن يسير . فهذا قدر الإنسان ، وبهذا وحده يستحق الإنسان شرف الخلافة فليقبض الانسان على كرات الثلج لتذوب سريعا بين يديه ، لا يهم فالمعاناة نحو بلوغ الحقيقة هي كل الحقيقة.

* * *

وفي مصر تجولت سفينة الحياة بين جزر كثيرة : بدءا من العمل في الجامعة بايجابياتها المفرطة وسلبياتها المفرطة أيضا ، والعمل مع منظمات المجتمع المدني وأهمها بالنسبة لي كانت تجربة اتحاد المحامين العرب التي أضافت إلى خبرتي العملية الكثير والكثير ، إلى الانخراط في منظمات حقوق الإنسان المصرية والعربية. لقد أصبح السعي نحو حرية أوسع وحقوق إنسانية مؤمنة هو الهم الاكبر الذي أثمرت عنه رحلة التكوين الأولى . فتعددت مؤتمرات حقوق الإنسان التي شاركت في الاعداد لها في مصر والسودان وتونس والكويت وغيرها من العواصم العربية .

واستمر جهدي العلمي في المزاوجة بين القانون والمجتمع في سياق بحثي واحد فسافرت عاما ضيفا على قسم الأنثروبولوجيا القانونية بجامعة كاليفورنيا بركلي ، وسافرت أعواما قضيتها مشرفا على برامج المساعدة الفنية لحقوق الإنسان في أقصى بلاد الشرق حيث رعاة الجليد في منغوليا وبلاد ما وراء النهر في أوزبكستان . ورغم أن كرات الجليد كانت تذوب دائما في قبضة اليد إلا أن وجه الحقيقة قد بدأ يشرق على استحياء :

الحقيقة هي السعي نحو ادراك الحقيقة ، والحقيقة هي المزاوجة الدائمة بين الحرية والإيمان والالتزام .

ومازال التكوين مستمرا حتى إشعار نهائي .





خلال مؤتمر أوضاع المرأة العربية بالقاهرة عام ١٩٨٦ ويظهر بالصورة الأستاذ خالد محيي الدين ود. رفعت المحجوب والأستاذ فؤاد سراج الدين



في زيارة لجامعة «نيو ساوث ويلز» باستراليا

أنت والهلال

تهنئة إلى الهلال الشماء

عزيزى رئيس التحرير الصامد المتطور الناجح.

ارتفعت - بفريقك الدءوب - إلى سمو - وفى نظرى قارنا عجوزا ٧٠ عاما - فصار عدد (فبراير سنة ٢٠٠١) هلالا هلالا بل قمرا يشمس الفكر .

بورك فيك - وفيهم - والله من وراء كل مكافح ثقافى ، لأنه يعمل فى سبيل الله . ولأنه «إنما يخشى الله من عباده العلماء» (المثقفين).

وأنتم هكذا فى نوعية عرض الموضوعات ، ونوعية انتقاء الموضوعات ، ونوعية تجدد الكتاب .. فى هلال فبراير سنة ٢٠٠١ .

د . سامى منير عامر استاذ الأدب والنقد - جامعة الاسكندرية

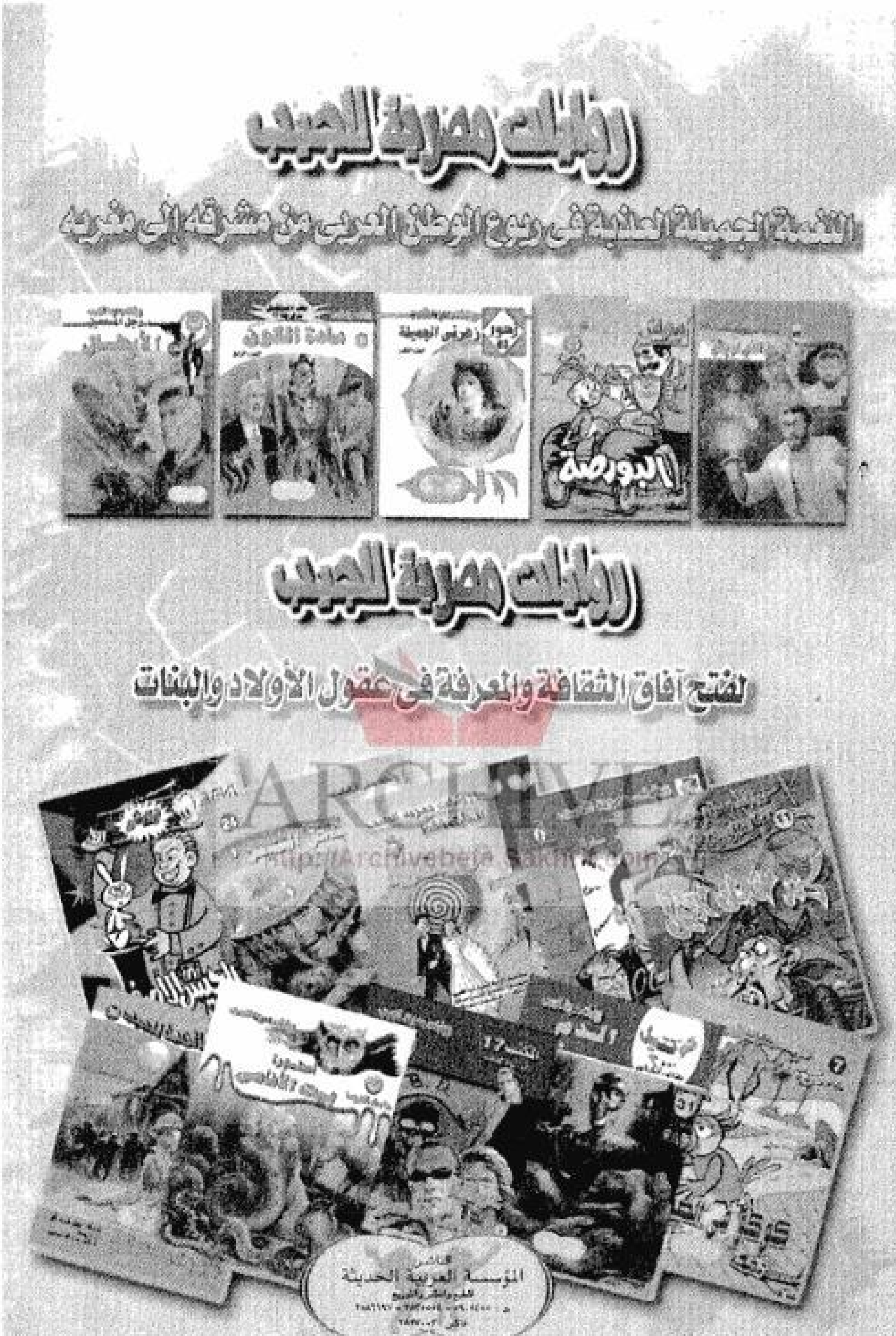
تحية للهلال الفائزة بجائزة معرض الكتاب

اعتادت مجلة الهلال فى بداية كل عام إصدار أعداد متميزة ولكننى تابعت بشغف وإعجاب شديدين هذا التطور الكبير الذى وصلت إليه الهلال مع إطلالة العام الجديد ولنقل مع بداية الألفية الثالثة .

ومن يراجع هذه المجلة الأولى فى مصر والعالم العربى وبحق يشهد كيف سايرت تكنولوجيا العصر فى الطباعة والإخراج ، فضلا عن مجموعة كبيرة من مفكرى مصر والعرب يكتبون فى شتى القضايا ، ويتناولون بالنقد البناء والهادف حياتنا . وهو دور جديد لمجلتنا الحبيبة .

صحيح أن الهلال تناولت منذ حوالى خمسين عاما التنبؤات لعام ٢٠٠٠ ، وصدقت نبوءة الهلال فى كثير من القضايا وخاصة العلمية منها ، إلا أنها تتناول الآن قضايا أخطر وأهم .

لقد أحسست وأنا أقرأ عددى يناير وفبراير عام ٢٠٠١ بالجهد الكبير المبذول لكى تحقق الهلال للقارىء المعلومة الصادقة والنقد


روايات مصرية للجيب
روايات مصرية للجيب
لفتح آفاق الثقافة والمعرفة في عقول الأولاد والبنات
البورصة
المؤسسة العربية الحديثة

الهلال

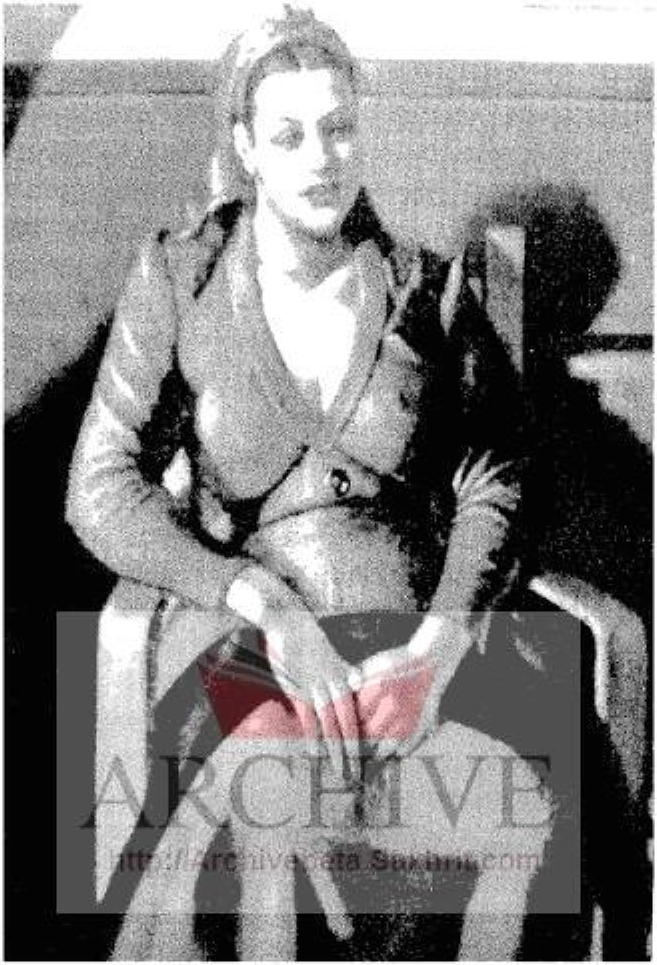
ابريل ٢٠٠١ - الثمن ٤ جنيهات

فى مصر تتعانق الأديان الثلاثة

ماذا نعلم أطفالنا فى القرن ٢١ ؟

فن الكاريكاتير فى العالم





البشارة- للفنان محمود سعيد



لوحة وفنان

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

سيد عبد المالك — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١.٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا
البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١.٥ ريال - تونس ٤
دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار -
إيطاليا ٧٠٠٠ ليرة - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢.٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



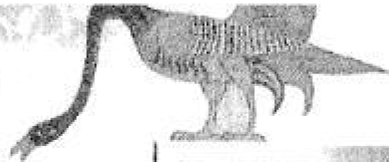
تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

رسم ساخر للفنان جويل يصور تكاتف القوى الصهيونية البريطانية والحلفاء لاغتيال فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت د/13079 ٤٧٤١١٩٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد



الأبواب الثابتة



عزيزى القارئ

دائرة معارف عربية

ألم يحن الوقت بعد لإصدار دائرة معارف عربية؟.. وأليس من الأجدى لوزارة الثقافة أن تصدر الموسوعة العربية الشاملة، التى تتناول المعارف المختلفة، والتى لا يستغنى عنها قارىء، بدلا من العديد من الإصدارات المتعددة وإهدار الجهد والوقت فى مطبوعات يمكن للناشرين القيام بها؟!

ومشروع دائرة المعارف العربية مشروع قديم لم ينجز رغم ما أنفق عليه من أموال وعقدت من أجله اللجان، ورغم أنه المتمم الحقيقى للاستقلال، وهو الحلقة الرئيسية فى الميدان الثقافى، والخطوة التى تسبق سواها. والتى تملك آلية خاصة تساهم فى الارتقاء بالمعارف. والكل يجمع على حاجة البنية الثقافية العربية المعاصرة الى حركة موسوعية شاملة ومتجددة.

وكما هو معروف فإن دائرة المعارف ليست مجرد موسوعة مكتوبة باللغة العربية، بل إنها فى المقام الأول خلاصة فكر أصحاب هذه اللغة، تعكس تراثهم وأسلوب حياتهم ونظرتهم إلى الكون. فالثقافة وطن، والوحدة نظام، وفى نواة النظام تصب المعرفة، وهى تمثل خبرة مجتمع بأسره على مدى أجيال كبيرة، وخلال عصور متعاقبة.

وربما يعود عدم إصدار دائرة المعارف العربية إلى العجز عن العمل الجماعى كفريق أو غياب العمل طويل المدى الذى ربما لايرى صاحبه نتائجه، أو لعل السبب ذلك الرفض لفكرة الترجمة من دوائر المعارف الغربية مثل: البريطانية أو الفرنسية أو الأمريكية، وامتد الجدل طويلا حول العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية، فيرى البعض أنه يمكن تقديم الفيزياء أو الكيمياء باللغة العربية مترجمة من إحدى الموسوعات الغربية. ولكن لا يجوز أن تمتد الترجمة إلى العلوم الانسانية ذاتها. ونادى البعض بأن تبدأ الموسوعة العربية بالتأليف والتعريب معا، التأليف فى الانسانيات والتسامح فى العلوم مع وضع خطة لزيادة المؤلف وتقليص المترجم فى كل طبعة

جديدة، ورغم أن العلوم الانسانية تقوم على المفاهيم والقيم السائدة، وتنعكس عليها الصراعات التاريخية، واختلاف العقائد والأديان، ويتسع فيها المجال للتحيز، فإنه من غير المقبول ترك يد مثل هذا القول، وتعطيل أهم المشاريع الثقافية من أجل المعرفة والتقدم.

فكثيرا ما يعرقل العمل «البقرات المقدسة» أى الأفكار المسبقة، التى تنفصل عن الواقع وتحلق فى الخيال، فالمنطق والواقع يقضى أن نبدأ من القدرة الحالية، ثم نعمل على زيادتها، أى الترجمة من الموسوعات الحالية كبداية نحو موسوعة عربية شاملة.

وليس مقبولا أن تبقى الموسوعة مجرد هدف يسعى إليه المثقفون ويظل القارىء العربى محروما من دائرة معارف شاملة.

فقد نشر المستشرق الإيطالى كارلو فيللينى فى هلال مايو ١٩٣٦م مقالا يدعو إلى إقامة موسوعة عربية، ومن وقتها تتوالى المقالات، ولكن بلا نتيجة.

نقدر ونعرف ضخامة المشروع وجسامة الجهد المطلوب، ولكن يكفى أن نعرف الدور البارز الذى قامت به الحركة الموسوعية فى أوروبا، فيتفق المؤرخون أن إصدار دائرة المعارف الفرنسية وراء قيام الثورة الفرنسية ذاتها..

واللافت للنظر، أن مشروع الموسوعة العربية، قائم منذ زمن بعيد، بدأ التفكير عندما كانت الثقافة مجرد إدارة تابعة لوزارة المعارف، وانتقل إلى وزارة الثقافة، التى أقيمت بعد ذلك.

وانتقل الاهتمام إلى جامعة الدول العربية مع بداية الخمسينيات، وأصبح بندا دائما على جدول أعمال مجلس الجامعة العربية منذ عام ١٩٦١، وحتى اليوم، وأصبح القول بديلا عن الفعل..

فهل حان الوقت بعد كل هذه المشروعات الفاشلة أن ترى الموسوعة العربية النور، وتسد ثغرة أساسية فى الحياة الثقافية العربية؟!.

المحرر

العمود اليومى في الصحافة

بقلم :
د. محمد رجب البيومى



حين وقعت كارثة البنك الأهلى بالمراغة نشطت الصحافة نشاطا كبيرا فى تتبع وقائع هذا الحدث المزعج وامتلأت أنهارها بفيض من أقوال الشهود، وصور المصابين على نحو ماهو منتظر فى مثل هذا الموقف، وطبيعى أن يكتب أصحاب الأعمدة الدائمة فى الصحف عن الحادث، وأن يطالع القراء مايكتبون ليعرفوا من الملابسات والأسرار مايستشفه هؤلاء الكاتبون بناء على قدرتهم المتوقعة فى التفسير والتحليل وربط الأسباب بالمسببات، ولا أكتم مايغمرنى من إعجاب بنفر قليل من هؤلاء يرون الأشياء بنظرة ثاقبة ذات وعى اجتماعى، وخبرة نفسية، وفهم لمجريات الأمور كما يتصور أن تقع، لا أكتم إعجابى بهذه القلة النادرة التى تلوح أعمدتها الوضيئة بين الأنهار المتدفقة عن شمال ويمين، كما يلوح البرق الخاطف فى غيم متكاثف، ولا أحب أن أشير إلى أسمائهم حتى لايظن أحد أنى أجامل من أشيد به وراء مأرب ذاتى فحسبهم رضاهم عن أنفسهم بما يبذلون، واستراحة ضمائرهم لما يسطرون، وحب القراء أن يتلهفوا على قراءة آثارهم تلهف الظامىء على المورد العذب. وماذا يزيد الكاتب المجيد أكثر من أن يحرص قراؤه على متابعة آثاره إن ذلك هو العزاء كل العزاء، لصاحب النظر المتمين، والفكر الواعى، والموضوعية الخالصة.



احمد بهاء الدين



محمد زكي عبد القادر



مصطفى امين

ولكن كثرة كاثرة رأت من واجبها أن تملأ الأعمدة اليومية المخصصة لها بحديث السطو المزعج، فلم تزد على أن نقلت أخبار المراسلين إلى أعمدتها، وكأن المهم لديها أن تكتب في الموضوع فحسب، لا أن تعالج الأمر معالجة الطبيب حين يرى العلة مستعصية فيشرح دخائلها، ويشخص مصاعبها، ثم يقترح الدواء بنافذ بصيرته، ووثيق علمه وتجربته، أجل، جعل هؤلاء يتحدثون عن الكارثة كما وقعت تماما، بحيث لم يجد القارئ فرقا بين ما قال مراسلو الجريدة ومندوبوها في المراغة، وبين ماسطروه من قول! فهل كانت رسالة صاحب المقال اليومي في عمود دائم أن يلخص أخبار المراسلين وأن يعقب هذا التلخيص بتوقيعه الكريم؟

إن المسألة ليست سهلة يسيرة تقابل بالاغضاء، لأنها ذات خطر كبير على الناشئة المتطلعة إلى الاحتذاء والتثقيف مما تقرأ، فإذا كان الكبار - في السن - من أمثالنا قد عرفوا بمزاولاتهم الطويلة أن يفرقوا بين الجيد والردئ، وأن يستخفوا بكل مالا يرتفع إلى المستوى المنشود، فإن الطالب الناشئ يؤمن بالحرف المطبوع، ويرى في مقالات الصحف نموذجا عاليا يحاول أن يحتذيه، فإذا كنا نقدم له هذا الخواء الجديب، وإذا كان لايجد في المقال التحليلي غير مايجده في الخبر الصحفي فإنه بتكرار هذه النماذج سيفقد المثل الراقي للكتابة الموضوعية، بل ربما ظن الأمر من السهولة بحيث يحضر الورقة والقلم ويكتب هو الأخر لأن المصدر أمامه في واقع مانشر عن الحادث بالتفصيل وماعليه إلا أن يلخص، ولن يكون الفرق بعيدا بين ماكتب وما يكتب مما أشرت إليه هنا بالنقد الهادف دون تجريح.

ولنترك حادث البنك ومادار حوله، فليس الحادث هو المقصود بالذات فيما أتجه إليه من نقد، ولكنه واقع حدث وكثر القول حوله بما لايرضى القارئ المتعطش في أكثر ماقيل، فكان مثلا لما أعنيه وما أعانيه.

نحن نعلم أن الصحافة ذات جلالة ديمقراطية لا دكتاتورية، فإذا كان من حقها أن تنقد ماتراه موضع النقد من مسائل السياسة والاقتصاد والاجتماع فإن من واجبها أن تسمع مايوجه إليها من نقد هادف يصحح مايحتاج إلى تصحيح،

فيما تعرض على القراء من صفحات، والقائمون على تحرير الصحف يعرفون تماما أن العمود اليومي مصدر جذب للقراء، وأنه – في وضعه المعقول – يعتمد على التركيز المستوعب، والعرض الكاشف والحل الميسر، مع تلبية سريعة للأحداث العاجلة، الأحداث التى تشغل الناس فى حاضرهم، وتتردد وقائعها فى الخبر والصورة والسؤال، هنا يفزع القارئ إلى زاوية العمود اليومى ليجد تفسيرا لما أغمض وحلا لما أعضل، وإذا كان لهذا الأمر خطره فلابد أن يقوم به إنسان دارس مستوعب مهر من قبل على تحرير المقالات الطويلة، واعتمد على رصيد واف من ثقة القارئ به فى ماضيه الحافل، وهو مع ذلك يعرف طبيعة مايقوم به من عمل، وما يتطلب من خصائص فى الصياغة والشمول والإيجاز، فإذا فهم ذلك كله أفاد قارئه، واحتل مكانته فى نفوس الجمهرة من القراء، فهم مهما اختلفت مستوياتهم الفكرية، يعرفون الغذاء الجيد ويتركون الصفحات المتتابعة ليصلوا إلى موضعه مطمئنين!.



نحو النور

وإذا كان لابد من مثالين متعارضين، أضعهما أمام القارئ، فإني أتجاوز الأحياء إلى من سبقوا إلى رحمة الله، فأتحدث عن فترة من عمرى، كنت فيها طالبا بالمعهد الدينى إبتدائيا وثانويا وكنت حريصا على أن أقرأ جريدة «الأهرام» يوميا، فكنت أجد عنوانين فى الجريدة يحملان طابع العمود اليومى، هما «ما قل ودل» ويحرره الأستاذ أحمد محمد الصاوى و«نحو النور» ويحرره الأستاذ محمد زكى عبدالقادر، قبل أن ينتقل إلى الأخبار، أما الأستاذ الصاوى فكان يميل إلى الخطف السريع دون تركيز، وهو يعد صحافى نابه، ولكن حديثه أشبه بالسندوتش الذى يؤكل فى لقمة أو لقمتين دون أن يشبع جوعة القارئ، أما مقال «نحو النور» مع إيجازه المحدود فى سطور قد لاتتجاوز الثلاثين، فهو دائما فى تواصله اليومى ذو نظرة مستقلة، ونقد موضوعى، واحترام للقارئ، ولم يأت ذلك للكاتب الكبير عن فراغ، لأن ثقافته المتشعبة فى مسائل القانون والسياسة والتاريخ والاقتصاد، قد أمدت قلمه بالبليغ من الرأى، والصادق من التحليل، مع شفافية روحية، وانطلاق ذهنى ومع بعض الشاعرية أحيانا ثم لايمنعه اتصال القول يوميا من الإجادة الشافية، والنظر الموضوعى، وأظنه جمع بعض ماكتب فى أسفار مستقلة ليست تحت يدى! ولست أضائل كثيرا من مكانة الأستاذ الصاوى إذ كان له جمهوره المتلهف على آثاره، وليت الذين يكتبون اليوم ممن أعنيهم فى

هذا المقال يصلون إلى مستواه، ولكنى أوازن بين اتجاهين، إذ أدعو إلى الاتجاه الأمثل.

أسجل هذه الخواطر. وأنا أعلم أن بعضهم سيتعلل بأن الأسلوب الصحفى يراعي حق القارىء الشعبى، فلا يعمد إلى التعمق بل يتجه إلى البسط اليسير، وأنا لا أنكر حق القارىء المتواضع ذهنيا، فى تناول ما يلائم طبيعته، ولكن هذا الحق شىء، وتقديم المفيد شىء آخر، وقد كان القراء منذ تسعين عاما يقرءون آثار مصطفى لطفى المنفلوطى، ومحمد فريد وجدى، وعبدالعزيز شاويش، ثم آثار من خلفهم من أمثال طه حسين، والمازنى، وهيكل ولا أقول العقاد.. فقد يعسر أحيانا على من أعنيهم بالقول، يقرءون آثار هؤلاء الكبار قبل أن تنتشر الجامعات، وترن الإذاعات وتكثر الندوات، ثم هم مستمرءونها أشهى استمراء، وقد يتعصبون لفريق أمام فريق، فكيف نقول اليوم إن طبيعة القارىء العربى تحتم أن نقدم له المقال سطحيا مفككا دون تحليل!! أليس هذا تبريرا مخذولا، ثم أين رسالة الكاتب التى من صميمها أن ترتفع بمستوى القارىء؟ لا أن تحافظ على مستواه الهابط، إن سهولة التعبير لاتعارض عمق الفكرة وطرافتها، لأن الفكرة إذا أشرقت فى عقل الكاتب انتقلت إلى قلمه فى إشراق متكافىء، ومايجىء الغموض فى أكثر أحواله إلا من غموض الفكرة نفسها فى عقل كاتبها، وخير له حين ذلك أن يتركها حتى تبزغ فى إشراق .

ملء الفراغ

وإذا كان من المتفق عليه أن يكون «العمود اليومى» ذا فكرة محددة، وذا موضوع واحد، فإننا نفاجأ كثيرا حين نقرأ عدة موضوعات تتوالى فى هذا العمود، دون أدنى ارتباط، وقد تأخذ أرقاما تدل على الانفصال التام، فما معنى هذا؟ معناه الصريح أن كاتب العمود اليومى ليس لديه مما يقوله، وأنه اضطر لملء الفراغ التزاما بتعهده أن يكتب كل يوم! وبذلك يصير المقال أخبارا متفرقة، كان حقها أن تجد مكانها فى صفحات الأنباء العامة، أما الناحية المقابلة لهذا الاتجاه، فتلك التى نراها فى المقالات المسلسلة ، فقد يكتب صاحب العمود مقالا طويلا من شأنه أن ينشر فى غير عموده، ثم يجزئه على مرتين أو ثلاث وهنا يفقد العمود اليومى رسالته التى وجد من أجلها، فصاحب العمود ملزم بتقديم رأى خاص فى مسألة خاصة، ولايعود إليها إلا إذا جاء تعقيب من معترض، فيفسح المجال لصاحبه، ثم يعقب عليه بما يراه، يخيل إلىّ أن فلسفة وجود هذا النوع من المقال غائبة عن أذهان كثير ممن يقومون بكتابته، بدليل أنهم لايفرقون بين البحث الموضوعي، والمقال الذاتى فيما يقدمون للقراء، كما يخيل إلىّ أنه لاسبيل إلى تنحية هؤلاء المتواضعين، لأنهم معينون فى



محمد توفيق دياب



أحمد حسن الزيات

الجريدة من ناحية، ولأن الجرائد قد زادت صفحاتها زيادة فرضها التنافس الشكلي بين الصحف، ولم يفرضها السعي إلى النهوض الحقيقي في عالم الإعلام، وهذه الزيادات تتطلب ملء الفراغ، وحيا الله أخبار الرياضة والسيارات حيث كفت الجريدة أكثر حاجتها من اللغو المديد، وبقيت حاجة الأعمدة التي يجب أن تملأ بالحروف السوداء مهما انحدر المضمون، وقد عين المشرفون على التحرير أسماء الكاتبين، ومنهم هؤلاء فواجهوا القراء بهم فجأة وكأنهم نزلوا من السماء على غير انتظار، وعهدنا بالكاتب الناشيء أن يتدرج شيئا فشيئا، فلا ينهمر نتاجه يوميا على هذا الوجه، ولدي اقتراح مفيد، هو أن يقتصر المقصرون على مقال أسبوعي، يفكر فيه صاحبه طيلة الوقت متأنيا مستمهلا، وسيكون بهذا التمهل أكثر قيمة من مقال يومي يكتب لملء الفراغ فحسب، وخير للكاتب أن ينتظره القاريء في يوم معين من الأسبوع ويجد لديه بعض مايفيد، من أن يقرأه يوميا، ثم لا يقرأ شيئا ذا بال، إننا نعرف من



كتاب الجيل الماضي أناسا كانوا يقتصرون على مقال ينشر في مجلة شهرية، وقد لايوالون النشر بانتظام الشهور، ولكنهم يكتبون بين الآونة والآونة، بحيث ينقضي العام متمخضا عن أربع مقالات! ومع ذلك يجدون من ترحيب القاريء مايجعله يتفقد آثارهم، وينتظرها على شوق، وقد ظل الأساتذة على أدهم، وعبد الرحمن صدقي، وحسن الشريف ، وغيرهم يكتبون في «الهلال» وأحيانا في المقتطف فمضت لهم شهرة أدبية قبل أن يتسعوا بالنشر في المجلات الأسبوعية كالرسالة والثقافة، وإذن فالمسألة مسألة كيف لا كم . ومتى تعود صاحب العمود الأسبوعي أن يجيد التأمل، وأن ينتقي الموضوع الجيد، وأن يراعي خصائص المقال العمودي، في تركيزه ووضوحه واقتصاره على غرض واحد مما يشغل الأذهان فإنه يصبح ذا مراس يدفعه إلى الكتابة المتواصلة إذ بدأ السير بخطوات واثقة رشيدة فعرف صعاب الطريق وملتوياته، وجرى قلمه في يسر أوحى به المران الجاد، وسهل عليه بعد ذلك أن يكتب أكثر من خاطرة في الأسبوع بل قد يوفقه الله أن يكتب العمود اليومي بنجاح.

التركيز يتطلب الدقة

وقد يظن القاريء أن كتابة العمود اليومي بمعناه الصحفي الدقيق أيسر سبيلا من كتابة المقال الممتد إلى عدة أعمدة وقد يكون هذا صحيحا إذا كان المقال الممتد يعالج موضوعا تشعبت مناحيه، وكثرت به مواضع الجدل، وأسباب التبرير، ولكن من الصحيح أيضا أن التركيز في عمود واحد يتطلب من الدقة والافتنان مايتطلبه المقال المسهب المطيل

من الجهد، وقد قرأت فى كتاب «دفاع عن البلاغة» للأديب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات أن المستر ولسن الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية سئل: كم تنفق من الزمن فى إعداد خطبة تلقى فى عشر دقائق؟ فقال: أسبوعين فقيل له: فكم تنفق إذن فى خطبة تلقى فى ساعة؟ فقال: أسبوعا، فقيل له فإذا أردت أن تلقيها فى ساعتين، فقال: ألقيها على الفور.

وقد يكون هذا الحوار مما يحتمل الأخذ والرد فى بعض نواحيه ولكن مغزاه لايختلف عليه أحد، فالرجل الموجز المقيد بزمن قصير أو بمساحة ضيقة يضطر إلى أن يقول ما بنفسه فى دقة تراعى حدود الزمان والمكان، وهذا وحده يمثل تبعة أدبية تلقى على كاتب العمود المحدود، وهذا ما لا يفهمه من أعنيهم بهذا المقال، وعلم الله أنى أريد توجيها لا انتقاصا، فأكثرهم يؤدى واجبا فرض عليه! فعده سهلا، وهو شاق عسير.

أنا أعرف أن أكثر هؤلاء قد تخرجوا فى كليات الإعلام، وقد ألقيت عليهم محاضرات فى الفن الصحفى فعرفوا مايتطلبه المقال الموجز من سمات بل ربما جاء الامتحان فى هذا الموضوع، وأجابوا عن الأسئلة بما لايبعد عن الصواب، ولكن الكتابة قبل كل شيء تستلزم ثقافة أصيلة، وخبرة دقيقة بالتعبير الأدبى لا يجدى دونهما مايحفظ من المقررات، ومايراعى من السمات! لابد أن يكون الفكر سديدا، وملكة التعبير قوية لدى الكاتب ليستطيع أن يفصح عن خاطره فى نطاق ما أخذ من توجيهات!، أرأيت أنك إذا جئت إلى شخص ما وقرأت عليه



أحمد الصاوى محمد



عبد الرحمن صدقى

كتابا فى السباحة فعرف بالقراءة وحدها كيف يقاوم أمواج البحر، ثم قذفت به إلى الماء ليسبح وفق ماتعلم! ماذا يفعل الجسم المريض حينئذ؟ إنه سيرسب فى الماء فورا دون أن يتذكر شيئا مما قرأ، كذلك إذا فقد الطالب ملكة التعبير الصحيح، ثم عرف خصائص الفن الصحفى فيما درس ونال الشهادة الجامعية والتحق صحفيا بالجريدة، وكان من عمله أن يكتب، ماذا سيقول؟ سيقول مانقرؤه ناقدين، وندعو إلى إصلاحه مخلصين!.

على أن الإنسان ليس عبقريا بحيث يكون قلمه طوع يده، يصرفه متى دعى إلى الكتابة يوميا فى زمنها المحدد ووقتها المعلوم، فلهذه الناحية أناس مميزون متمتعون بالمواهب، مسلحون بالاطلاع، وحتى هؤلاء أيضا يعانون فى بعض المواقف من نضوب الفكر وخمود العاطفة مالا تسمح لهم بالاسترسال! أليسوا بشرا؟ والإنسان لا يدوم على حال، وإذا كان من الشعراء من يشتكون نضوب القريحة حين تدعو الحاجة إلى القريض فى بعض المناسبات لا أقول المناسبات الرسمية، بل المناسبات النفسية التى تستدعى الافصاح، وتتطلب التنفيس فإن من كبار الكتاب من يقفون هذا الموقف

أحيانا فيحتالون على القلم أن يخط بعض الكلمات، ولكنه يقف بين الأصابع الواهنة واهنا مثلها تماما، وهنا يجب على الكاتب أن يعتذر عن الكتابة إذ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وإذا كان في الشباب من ذوى العزة الموهومة من يعز عليه أن يعترف بنضوب ذهنه في بعض الأوقات كيلا يحرج موقعه في زعمه، فهو ذلك مخطىء أي مخطىء، وسأضرب له المثل بعلم من أعلام البيان في الجيل الماضي كانت الصحف تزدان بثمرات يراعه مباهية مستطيلة، وهو على مكانه المرموق، ونشاطه الدوب لم يجد حرجا في أن يعلن للناس ما اعتراه من إفلاس أدبي حين عصر ذهنه عصرا ذات مرة فلم يهتد إلى موضوع يجب أن يكتبه للصحيفة المنتظرة، وقد أزف الميعاد ولعل في الاستشهاد ! بقوله مايغني عن كل تعليق !

لقد اتفقت جريدة «الجهاد» التي كان يصدرها الأديب الكبير الأستاذ محمد توفيق دياب لعدة سنوات متتالية في الثلاثينات مع الكاتب الكبير الأستاذ عبدالعزيز البشري أن يحرر باب «حديث رمضان» يوميا مدة الشهر المبارك اتفقت معه قبل قدوم الشهر بأمد طويل كي يستعد لما يكتب، ووافق الأستاذ، وكأنه وثق من قدرته فلم يحاول أن يهيىء ما سينشر قبل قدوم الشهر المبارك، وجاء الوقت، فأخذ الشيخ يرسل المقال تلو المقال، وقراؤه في لهفة متطلعة لما يقول، ولكنه ذات ليلة جلس إلى مكتبه ليخط حديث الغد، فما فتح الله عليه بشيء! كيف وجرس التليفون بالجريدة يدعوه وإنه لقول الفصل وماهو بالهزل.

فكر الأستاذ ثم فكر في هذه الأزمة الأدبية الآخذة بخناقه، ثم هداه الله إلى أن يكون إفلاسه الأدبي موضوع حديثه، وإنه ليطيب لي أن أنقل إلى القارىء ماكتب، لا ليؤيد وجهة نظرى في نضوب الفكر الإنساني في أوقات لاتسمح بالارتواء فحسب بل ليرى قارىء اليوم نمطا من البيان العالي، كان له دعاته المحافظون، وعشاقه المتيمون، حين كان للغة البيانية ما للقيثار الموسيقى من رنة الطرب، وحلاوة الايقاع، ونشوة التأثير.

يقول الأستاذ عبدالعزيز البشري تحت عنوان : «إفلاس» نقلا عن الجزء الأول من كتابه «المختار» :

«اجتمعت اليوم لأكتب حديث رمضان فإذا بي مفلس لا أصيب زادا، ولا أجد لشئي عدة وعتادا لقد فضحني النهار، وعليّ أن أكتب للجهاد «حديث رمضان» وأنبعث إلى مكتبي فأستوى له، وأبسط القرطاس بين يدي، وأشرع اليراع ثم أهوى به، فإذا هو يتعصى عليّ ويركب رأسه، ويشرد تارة الى اليمين، وأخرى إلى اليسار، مايكف له جماح، وما يطامن



من نفار .

ياويلتا ماذا أكتب للجهاد اليوم وكيف أقول؟ اللهم لاشيء!.

أترى الأرض كلها أقفرت من موضوع يكتب فيه كاتب ولو بالإصابة من أطرافه، ومس حواشيه ؟ اللهم لا؟

وإني لأبسط العزم وأشده، وأذكى الذهن وأحده، وأمد الفكر وأثنيه ، ثم أنشره وأطويه.

ثم أغوص به في جوف الدأماء «البحر» فلا يجديني ولاقطرة ماء.

ثم إني لأرمي القلم وأتطاير عن مكتبي، وانفر إلى حديقتي الصغيرة، فأتفقد أشجارها، وأتوسم أزهارها، وأهرول من هاهنا ، وهاهنا، لعل خاطرا يعتريني فأصيب به كلاما، فإن ظفرت بعد هذا بشيء فهو كالقابض على المزقة من الفيء «القطعة من الظل».

ثم أعود فأستوي إلى مكتبي وأستندي ذهني، فلا يندى، وأروضه على القول فلا يطيع ولايرضى، وأستبينه فلا يبين، وأستعطفه فلا يرق ولا يلين، وإني لأهز القلم هزة الكمي ساعة يخرج إلى النزال ويبرز لمقارعة الأبطال، فإذا هو يتعالى في يدي ويتثاقل، وإذا هو يتراضى ويتزايل، وإذا بي أراه، قد تفلل من غير حرب، وتثلم من غير طعن ولا ضرب !.

ويلي عليك وويلي منك أيها القلم!».

هذا بعض ماقاله الكاتب المبين مصورا عسر الميلاد، وهو بذلك لم ينقص قدرا من مكانته الأدبية لأنه احترم القارىء أن يطالعه بالممسوخ المعاد إذ أن



عبدالعزيز البشرى



طه حسين

الشهر شهر رمضان، والحديث حديث رمضان، وكان في طوقه أن يتحدث عن فضائل الصيام أو مزايا الزكاة، أو سنة الاعتكاف بما يعرفه العالم الأزهري الذى تولى منصب القضاء الشرعي عدة سنوات ! ولكنه يرتفع بنفسه وبقارئه أن يقدم له ما قد عرفه من قبل لدى أقلام من يلوكون هذه الأحاديث دون تجديد، وكأنهم جاءوا بالفتح المبين، ومايزالون إلى اليوم يملأون الصفحات، نقلا ونسخا، وليس الجديد عندهم سوى التوقيع! وكلامهم على هزاله ليس بالجديد فقد كرر الكاتب هذه المشهورات فى ماقبل، ثم أعادها دون تجديد !.

لقد خفت الملام، حين صممت أن أكتب هذا المقال، ملام من يظنون أنفسهم فوق الانتقاد، ولكن بواعث القول كانت أشد من أن تكتم، وكم حاولت التغاضي فشعرت بمثل وخز السنان، فعلى من يريدني أن أصمت أن يشرح لي كيف أسكت هذه الأشجان! :

وحببتما لي سلوة وتناسيا
ولم ترشدا كيف السبيل إليهما! ■

عقد الستينيات

فى مصر

بقلم
د. مصطفى سويف

أربع نقاط مهمة، أستأذن القارىء الكريم، أن أقدم بها للمقال الراهن:

الأولى: أننى أتقبل النقد، بل وأرحب به، شريطة الالتزام بالعقلانية مضمونا، وبالأخلاقية أسلوبا.

والثانية: أرجو بها التذكرة بأن هذا المقال هو الثامن بين سلسلة المقالات التى بدأتها على صفحات هذه المجلة الغراء فى يناير ٢٠٠١ أقدم فيها شهادة بما أسميته قراءتى بعض أحداث القرن العشرين الذى عايشته وعشت من خلاله منذ منتصف عشرينياته.

والثالثة: أعيد بها تكرار أقوال قلتها من قبل لتكون إطارا يحدد ما تنطوى عليه هذه المقالات من معان ودلالات حتى لا يطالبنى أحد بما لم أعد بالوفاء به.

فقد قلت فى مطلع المقال الأول ما نصبه : «ولست أدعى هنا أننى سأحاول التاريخ لهذه الفترة من الزمن المصرى بموضوعية المؤرخ المتخصص، ولكن اجتهادى سوف ينصرف الى بيان الكيفية التى نفذت بها الأحداث العامة الى نفسى، وكيف قرأتها..» ثم قلت فى مستهل المقال المنشور فى يناير سنة ٢٠٠١ مانصه : «وما أقصده هو إبراز الرنين الانسانى فى هذا المسار، لذلك وجب اعتبار ما أكتبه رصدا وتسجيلا يقوم بين الذاتية



موكب عبد الناصر والقوتلي بعد إعلان الوحدة بين مصر وسوريا ١٩٥٨

والموضوعية، فلا هو ذاتي تماما.. ولا هو موضوعي تماما.. الواقع أنه مغاير لهذا وذاك، فهو ذاتي بقدر ما يملي من فروق واختلافات في الرؤية، و هو في الوقت نفسه موضوعي بقدر ما يسمح بتخليق التكامل بين الرؤى المتعددة للراصدين والمسجلين.. وما أتصوره وأرجو أن يأتي يوم تتوافر فيه كثرة من الأدبيات التي تقدم مثل هذا المنظور بحيث تغري أهل الاختصاص من أساتذة التاريخ بإدخال هذه الوثائق ضمن مصادرهم .. وتغريهم بالاجتهاد في استحداث أو استكشاف التكامل بينها حتى يتسنى لهم (أي لأصحاب الصناعة) أن يكتبوا التاريخ باعتباره الوجه الدينامي لعلم الاجتماع».

والنقطة الرابعة والأخيرة أرجع فيها إلى لسان العرب لابن منظور، فقد جاء فيه تحت مادة قرأ، قوله: «وقارأه دارسه.. وتقرأ تفقه.. وقال بعضهم قرأت تَفَقَّهتُ» وجاء في اللسان أيضا تحت مادة فقه ما نصه».. ودعا النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس فقال : اللهم علّمه الدين، وفقّهه في التأويل، أي فهّمه تأويله ومعناه» . وفي العلوم النفسية الحديثة أن الفهم يبدأ بالادراك ، والادراك انتخابي بطبيعته عند الأسوياء طلبا للتركيز واستخلاص المغزى، ثم تجرى على المدركات عمليتان ذهنيتان، إحداهما تحليلية والثانية تركيبية، وهما يهدفان معا الى استيعاب ما جاء به الادراك جديدا في اطار ينتظم القديم ويعيد تشكيله، وبتمام الاستيعاب يتحقق تمام الفهم .

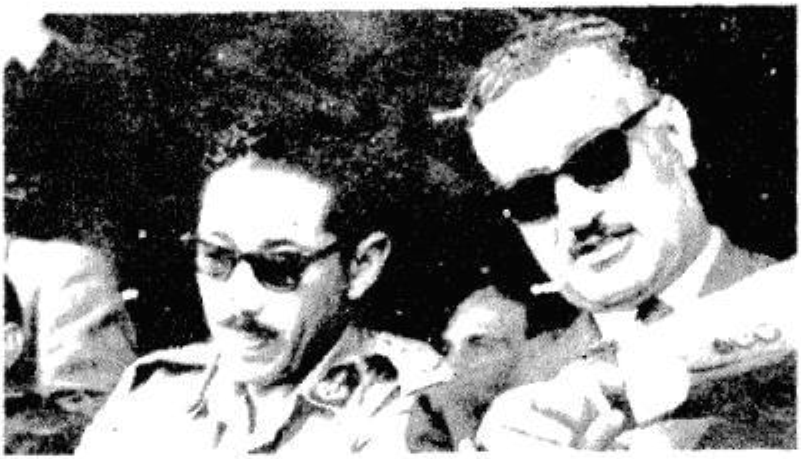
عقد الستينات فى مصر

مطلع الستينيات

وصلت الى ستينيات القرن ومعى رسائل من أحداث الخمسينيات تموج بأقدار من القلق، وتنضح بمشاعر المشقة، لكن المشقة أنواع تنتظم فى مستويات: بعضها مقبول أو يكاد، فأنت تشعر بإمكانات ترويضية، وقد تكون امكانات ضعيفة لكنها تنطوى على خواطر بأن الأمر فى نهاية المطاف فى يدك وأنه طوع إقدامك على الارادة والفعل. وفى مقابل ذلك هناك نوع آخر من المشقة مرفوض بطبيعته لأنه مفروض عليك من خارج ذاتك، وهو مفروض عليك من حيث المنشأ والمآل، ومن حيث تبعاته وتوابعه. هكذا حملت معى الى أوائل الستينيات همومى كمواطن مصرى، واهتماماتى كإنسان له فرديته/ شخصيته التى لا تلغيها اجتماعيته. كانت همومى تنضح وتنذر بالنوع الثانى من المشقة، وكانت اهتماماتى تنبىء بالنوع الأول.

حديث الهموم

فى مطلع الستينيات أعلن فشل مشروع الوحدة بين مصر وسوريا، وكان ذلك فى أكتوبر سنة ١٩٦١ عندما أعلنت سوريا انسحابها من هذه الوحدة. لم أكن أبدا من المتحمسين للنظام، ولكنى فى الوقت نفسه لم أكن أشعر بالعداوة نحوه. كنت أرى أخطاءه، وأراها أحيانا فى توقيت مبكر بالنسبة لوقوع الأحداث، ومع ذلك احتفظ فى ركن من نفسى بقدر محدود من الشك فى صواب ما اذهب اليه، وكان احتفاظى بهذا الشك يستند الى مقدمة محددة، خلاصتها اننى لست مع اللاعبين الرئيسيين داخل الحلبة، ومن ثم فلا تتوفر عندى جميع المعلومات اللازمة للوصول الى حكم يقينى بالخطأ أو الصواب.. ولا مفر إذن من الانتظار حتى تظهر نتيجة هذا التحرك أو ذاك. وعلى أية حال لم يكن أمامى أنا وأمثالى من المواطنين سوى الانتظار، مادام النظام لايسمح للرأى المغاير بأدنى فرصة للظهور، لا على سبيل النقد، ولا على سبيل المشورة. اذكر كل هذا الآن وانا اقلب النظر فى صفحات الماضى، واذكر اننى لم أكن مطمئنا لمشروع الوحدة عندما أعلن فى سنة ١٩٥٨. وكنت، كلما زاد التهليل والتكبير له فى وسائل الاعلام، ازداد شعورا بعزلتى الفكرية والوجدانية، وعندما فشل المشروع وترددت اصداء الفشل فى وسائل الاعلام فى الخارج ازداد شعورا



عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر

بهذا الذى يتحدث عنه علماء النفس باسم «التناقض الوجدانى»، فأنا اشهد صحة ما تنبأت به مبكرا، وقد يرضى هذا جانبا معينا فى نفسى، ولكننى فى الوقت نفسه اشعر بمرارة لكل ما ينصب على البلد من مهانة، ومما ينالنى من نصيب من هذه المهانة بحكم التوحد الرسمى والنفسى مع هذا البلد، ولأسباب أخرى كثيرة، ليس أقلها ما ضاع ويضيع على البلد من طاقات وأموال تُهدر فى هذه المغامرات وأمثالها . وكذلك لما يستثيره الاقدام عليها (أى على هذه المغامرات فاسدة الحساب) من تحفز وتربص عند عدد من النظم العربية التى كانت تشعر بالتهدد ازاء نظام عبدالناصر أصلا.

ولم نكد نفرغ من فشل مشروع الوحدة حتى بدأ النظام يخطو نحو صدور قرارات التأميم. ونتوقف هنا قليلا للنظر فى أمر يدعو الى التأمل، فقد بدا إلى النظام فى عجلة من أمره، بدا لى كذلك أثناء الخمسينيات، وزادت هذه السمة وضوحا فى أثناء الستينيات، ولاشك أن هذه السمة تحتمل قراءات متعددة، وهذا مما يجعل الحسم فى صحة قراءة دون أخرى أمرا صعبا، ويزيد من هذه الصعوبة أن بعض هذه القراءات متداخلة فيما بينها، بمعنى أن صحة واحدة لا تعنى بالضرورة خطأ الأخرى. ولكنى على أى حال قرأت فيها دلالتين رئيسيتين، إحداهما التأثر بجو «السريعة» أو «الكربجة» العام وهو الجو الذى ظل مناخ «الحرب الباردة» العالمى، وقد تحدثنا عنه فى مقال سابق.

والدلالة الثانية هي أن النظام المصرى اذ ذاك وظف هذا الجو لخدمته الخاصة لشغل العقول والنفوس عن التفكير فى أمور أخرى لا ترضيه ولا تتفق ومصلحته. على أي حال، كانت الخطوات الأولى فى المسيرة نحو التأميم مافوجئنا به من أن كبرى الجرائد اليومية بدأت تنشر يوميا قوائم بأسماء بعض المواطنين (من أغنياء القوم) ومع كل اسم بيان بممتلكاته من الأموال والأسهم والعقارات والشركات التجارية والصناعية، وأدرك الناس أننا مقبلون على شيء خطير، ثم صدرت قرارات التأميم التي وصفت حينئذ بأنها «اشتراكية»، ورغم انني شاركت فى الحلم الاشتراكى فى بواكير الشباب، ورغم انني لازلت مقتنعا بما ورد من أفكار فى كثير من الكتابات الماركسية الكلاسيكية ولا أزال أكن لها الاحترام، فقد عجزت عن الاقتناع بأن قرارات التأميم التى صدرت لدينا فى ذلك الوقت تعنى أننا بصدد دولة تتحول بالمجتمع من النظام الرأسمالى الى النظام الاشتراكى. وكان السؤال الاساسى الذى يحول بينى وبين استخلاص هذا المعنى هو : وأين بقية مقومات النظام الاشتراكى فى الدولة المصرية؟ وحتى عندما أعلنت الدولة عن قيام الاتحاد الاشتراكى بعد فترة وجيزه من صدور قرارات التأميم فقد تساءلت حينئذ هل هذه التسمية صادقة فعلا فيما تدَّعيه؟ وقد قرأت هذه الاجراءات جميعا على أنها اجراءات تستهدف إحكام سيطرة النظام على مقدرات المجتمع، وبينما نحن فى خضم القيل والقال حول موضوع قرارات التأميم اذا بموضوع جديد يفرض نفسه على الساحة، الحرب فى اليمن، واذا بنا نشارك فى هذه الحرب ببعض قواتنا المسلحة انتصارا لحركة قام بها فريق من العسكريين اليمنيين وأعلنوا أنهم يريدون بحركتهم تخليص بلادهم من مستنقع حكم سلطاني شديد التخلف، وكان أمرا طبيعيا فى رأيى وفى رأى الكثيرين أن يتحمس النظام الناصرى لشد أزر تلك الحركة. ولكن أن تساعد حركة تقدمية فى بلد عربى شيء وأن ترسل فريقا من القوات المسلحة لتنفيذ هذه المساعدة شيء آخر. فقد سبق لمصر أن ساعدت دولا أخرى فى المنطقة العربية والأفريقية المحيطة، ساعدتها بالمال، وبالسلاح، وبالاعلام، وبالاتصالات الدبلوماسية .. الخ. فلماذا

المساعدة على هذا النحو شديد التصعيد هذه المرة؟ ومرة أخرى يثار سؤال أساسي هنا: هل تتحمل مواردنا القومية هذا النمط من الإنفاق الخارجي، دون الإخلال الخطير بمقتضيات الانفاق الداخلي (على التعليم، والصحة، والأمن، والرعاية الاجتماعية، وتنمية الموارد.. الخ)؟ أم أن هذه الأسئلة وأمثالها لم تكن واردة عندئذ وكانت هناك حسابات أخرى لها علاقة بموضوع فشل الوحدة المصرية السورية وتوابع هذا الفشل؟ .

حديث الاهتمامات

كيف تشابكت الخيوط بين أحداث الوطن كما أهمتني، ونشاطاتي التي كنت أقبل عليها بعقلي وجوارحي؟ هذه صياغة جديدة بعض الشيء للسؤال الجوهري الذي طرحته كمحور يدور حوله المقال الراهن وكل هذه السلسلة من المقالات، السؤال الخاص بنقاط التماس بين العالمي والوطني والفردي .

لم أغفل لحظة عن ذكر قراري الذي اتخذته مبكرا، وهو أن أكرس حياتي للاشتغال بالبحث العلمي. وقد عبرت النصف الثاني من عقد الأربعينيات، كما عبرت الخمسينيات وأنا أحمل معي هذا القرار، فأعايش الأحداث الاجتماعية/السياسية وأنفعل لها بصورة ما ولكني احتفظ بمسافة محسوبة تفصلني عنها لأنصرف بمعظم طاقتي الى حياة البحث والدراسة فأتعلم وأنشر وأعلم. وكان في جعبتي قرار آخر يساند القرار الأول خلاصته أن الاشتغال بالسياسة العملية في زماننا هذا يتطلب التكريس التام لمقتضياتها ، أما الاشتغال بها بنصف قلب فلا يخدم الوطن ولا يخدم القضية، وربما تداعى بصاحبه الى شكل من أشكال الوصولية.

كنت في ذلك الوقت مشدود العقل والهمة الى عملين من أعمالي البحثية، أحدهما ميداني أجريه على أنواع معينة من الأمراض النفسية، والثاني مكتبي أتجه به الى وضع مؤلف في علم النفس الاجتماعي يكون له طابع خاص. وكنت أعطي للعملين أهمية كبيرة، آمل في أولهما أن ألقي الضوء على مشكلة لها وزن كبير في عالم التخصص، هي مشكلة العلاقة بين المرض النفسي والاطار الحضاري للمريض . وآمل في الدراسة الثانية أن ألقي الضوء على بعض اسهامات الفكر العربي الاسلامي القديم (عند الفارابي وابن خلدون مثلا) في التاريخ المبكر لعلم النفس الاجتماعي. وبزيادة النظر في الدلالة الأكاديمية لهاتين المسألتين كنت أزداد يقينا مع الأيام بأن اتقان أدائي بشأنهما سوف يكون له رنين ذو طبيعة اجتماعية/سياسية. فالبحث الميداني اذا اتقنته بحيث قُبل للنشر في احدى

دوريات التخصص في الخارج سوف يحسب للعقل المصرى/العربى فى نهاية الأمر. ومن ناحية أخرى فهذا البحث نفسه مضافا الى مجلد علم النفس الاجتماعي الذى اسعى الى وضعه سوف يقومان أمام طلابي وزملائى فى الجامعة دليلا دامغاً على أن من أراد أن يعمل عملا أكاديميا جادا وسط أجواء اجتماعية/سياسية معاكسة فلن تعجزه هذه الأجواء .

وبين هذه الآمال من ناحية، وما تكلفنى إياه من صراعات حادة بين اهتماماتى وهمومى أتممت البحث الميدانى وأرسلته للنشر فى الخارج ونشر فعلا، وأكملت كتابة المجلد النفسى الاجتماعى ونشر كذلك. وتلقيت نتيجة للنشر فى الحالتين أنواعا من المردود ترسبت آثارها فى نفسى فى صورة مزيد من الاقتناع بخط السير الذى ارتضيته لشخصى، ومزيد من التمسك به وبلورة مضامينه وتوجهاته. وفى صيف سنة ١٩٦٣ أذنت لى الجامعة بالسفر الى معهد الطب النفسى بجامعة لندن (شريطة أن يتم ذلك على نفقتى الخاصة لأن الدولة ليس لديها ما تنفقه فى هذا الصدد)، وكان هدفى من السفر أن أتعلم أساليب منهجية جديدة لمزيد من الارتقاء بقدراتى البحثية. وارتضيت الشرط الذى وضعته الجامعة. وعندما اقترب موعد السفر تبين لى أن رئيس الوزراء (السيد/ على صبرى عندئذ) كان قد أصدر قرارا بألا يسافر أحد العاملين فى الدولة الا بإذن كتابى منه شخصيا. هكذا!! وأترك للقارىء هنا أن يتخيل أنواع المشاق كما واجهتها اذ ذاك للحصول على الاذن بالسفر. على أى حال انتهى الأمر بأن سافرت فعلا فى منتصف أغسطس. وفى انجلترا طاف بخاطرى التفكير فى الهجرة، ولكن ، بعد حوارات مضنية أجريتها جميعا فى رأسى قررت اسقاط الفكرة تماما من حساباتى، وكانت حجتى الرئيسية فى ذلك أن البلد بلدى كما هو بلدهم، وأن لى فى هذا البلد حقا لا يقل عن حقهم (وفى هذه الحوارات كان الضمير «هم» يشير الى مجموع المسئولين عن خلق الأجواء المعاكسة فى مصر ودعم هذه الأجواء، من أصغرهم الى أكبرهم). وفى معهد الطب النفسى انصرفت الى عملى العلمى بكل ما أوتيت من عزم وتصميم. وفى ذاكرتى الآن أن هذه الفترة من عمرى هى الفترة التى أفقت

فى ثناياها على أن الدلالة الحياتية للبحث العلمى بالنسبة لى تتمثل فى كونه أصبح أرض المعركة بينى وبينهم (هم صانعو الأجواء المعاكسة) . وأثمرت هذه المهمة العلمية فى النهاية ثمرة طيبة، فقد تعلمت ما أردت أن أتعلمه، وشاركت أثناءها فى انتاج عدد من الأوراق العلمية نشرت مع الاستاذ ومع عدد من الزملاء الانجليز والامريكيين (الباحثين فى المعهد).

عودة الى حديث الهموم

ورجعت الى مصر فى أواخر سنة ١٩٦٤ . ووجدت المواطنين لا يزالون يذكرون الاحتفال بالافتتاح الرسمى للتعاون بين مصر والاتحاد السوفييتى فى مشروع بناء السد العالى. (مايو سنة ١٩٦٤). ولاحظت كذلك نشاطا متزايدا لتكوين كيان سياسى جديد باسم «التنظيم الطليعى». وقلت لنفسى هأنذا أعود لأواجه الموالد التى لا تنقطع فى البلد. وسرعان ما دعيت للانضمام الى هذا التنظيم، واعتذرت لمن كان يدعونى، وكانت حجتى فى الاعتذار واضحة وصادقة: «خسارة، بعد كل السنوات والجهود التى بذلتها لتكوين نفسى كباحث علمى، أن اتجه الآن الى العمل السياسى». وتنبهت فى الوقت نفسه الى ما كان يترامى حولى من علامات استفهام وتعجب، فالتنظيم حكومى، وأنا شخصيا عندما تلقيت الدعوة تلقيتها من رجل مقرب الى النظام فى أعلى مستوياته. ومع ذلك أبلغت بأن التنظيم سرى وأن اجتماعاته تتم سرا. فكيف تستقيم هذه المعلومات معا؟ وبعد فترة وجيزة تكشفت لى الحقيقة (على طريقة ياخبر النهاردة بفرش بُكره ببلاش) فقد كان التنظيم واحدا من آليات الصراع الذى كان ينخر كالسوس فى لب الدولة بين عبدالناصر ورجاله، وعبدالحكيم عامر ورجاله.

ثم دخلنا فى دوامة جديدة، دوامة استفتاء تستعد له الدولة حول رئاسة عبدالناصر للجمهورية، نعم أم لا؟ وربما أدير هذا الاستفتاء أيضا كحلقة من حلقات الصراع الذى كان يجرى فى الخفاء. وأجرى الاستفتاء فى مارس ١٩٦٥، وأعلن عن فوز عبدالناصر بـ ٩٩,٩٩٪ من الأصوات !! كان مصدر دهشتى أمام هذه اللعبة السياسية (وكانت قد تكررت مرارا قبل ذلك) أن الكل (فى مصر وخارج مصر) يعرفون مقدما الشكل الذى ستعلن به النتيجة، وكان هذا موضع تندر المواطنين (فى الخفاء طبعا) ولكن كان هناك اصرار ممن يعنيهم الأمر على أن يلعبوها بكل ما يعنيه هذا اللعب من اهدار للطاقة والمال والوقت. وبظل السؤال قائما فى عقلى : من يضحك على من؟ وحدث فى

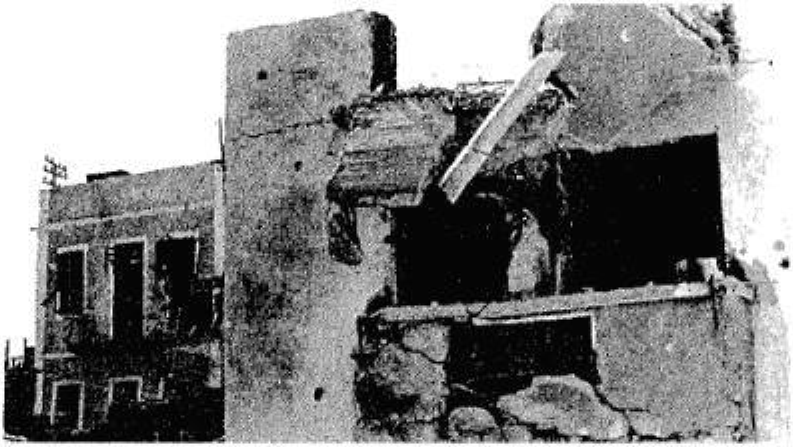
عقد الستينات فى مصر

هذه الفترة أحداث أخرى كثيرة، منها ما يتعلق بالجامعات وما جرى بينها من ناحية وأحد وزراء التعليم العالى من أمور أثارت القلق والانزعاج ، ومنها ما جرى من قبض على عشرات الآلاف من المواطنين ، وقيل إن الذى أشرف على هذه الحملة أحد كبار رجال المشير عامر. ولكنى أترك هذا كله لأقترب من الحديث عن حرب ١٩٦٧، لأن أوزان سائر الأحداث تتضاءل جذريا أمام وزن هذا الحدث. وقد تناولت أقلام كثيرة هذا الموضوع، بالصدق أحيانا قليلة، وبالكذب والتعتيم أحايين أخرى كثيرة. وجلاء الحقيقة موكول فى نهاية الأمر الى أساتذة التاريخ السياسى والتاريخ العسكرى، والى ماسوف ينشر من وثائق جديدة تمس الموضوع.

أترك أمر هذه التحقيقات التاريخية الوثائقية وأعود الى السؤال الرئيسى الذى يعنينى كيف كان وقع الأحداث علينا، نحن المواطنين العاديين، فى ١٨ مايو سنة ١٩٦٧ تم سحب قوات الطوارئ الدولية من الحدود المصرية الاسرائيلية بناء على طلب الرئيس عبدالناصر الذى تقدمت به الحكومة المصرية. وقيل ان الرئيس عبدالناصر دُفع الى هذا الطلب دفعا، كرد فعل فى مواجهة الملاحظات الاستفزازية التى كانت تنهال عليه من حين لآخر من بعض دوائر الحكم فى البلاد العربية .(وكان هذا مثالا آخر يضاف الى الأمثلة المتعددة لسياسة رد الفعل بدلا من الفعل، التى سبق أن أشرنا اليها). وعلى امتداد الأيام التالية راح الاعلام المصرى يبث (فى الراديو والتليفزيون) أحاديث تفيض بالحماس والتحدى لاسرائيل. وفى الوقت نفسه كانت الاتصالات الدبلوماسية تجرى بسرعة محمومة بين القاهرة وموسكو وواشنطن

وفى صباح ٥يونيو سنة ١٩٦٧ اندلعت الحرب بين مصر واسرائيل، ولم تستمر أكثر من ١٣٠ مائة وثلاثين ساعة ونصف الساعة. وانتهت رسميا فى تمام الساعة ٥.٣٠ الخامسة والنصف من مساء العاشر من يونيه، وقد وصل الجنود الاسرائيليون الى الشاطىء الشرقى لقناة السويس. هذا هو الحدث فى أضيق حدوده الرسمية.

فى الخامس من يونيه صباحا، أى فى الوقت الذى اندلعت فيه الحرب كان فريق من الباحثين المساعدين (وكانوا



آثار الدمار الذى لحق بمدينة السويس بعد حرب ١٩٦٧

يعملون معى فى اطار المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية) يبدأون أول رحلة ميدانية (تحت اشرافى) للبدء فى جمع المادة البحثية لبحث كبير الحجم للكشف عن العوامل النفسية/الاجتماعية المرتبطة بتعاطى القنّب (الحشيش) فى مصر، وقد اقتضت أمور فنية أن نبدأ بأخذ العينات البشرية للبحث اعتبارا من نزلاء سجن طنطا. وعندما وصل فريق البحث الى بوابة السجن (فى تمام الساعة التاسعة صباحا) ومعهم الاذن الرسمى بالدخول قيل لهم ان التعليمات صدرت بإغلاق السجن (وباقى سجون الجمهورية) لحين صدور تعليمات أخرى وذلك لأن الحرب قامت بين مصر واسرائيل هذا الصباح. وعاد الشباب الى مركز البحوث، وتداعت الأحداث الوطنية بعد ذلك. هكذا علمنا أنا وتلامذتى بقيام الحرب فى ساعاتها الأولى. وطوال المائة والثلاثين ساعة التى جرت فيها الحرب كان اعلامنا (وخاصة اذاعة صوت العرب) يبث رسائل نارية توحى لمن يسمعها اننا كنا نعبر من نصر الى نصر فى ميدان القتال. ثم لم تلبث اخبار الهزيمة أن تفجرت وتلت ذلك اجراءات يحسن بنا أن نذكر بعضها، فإن الذكرى تنفع المؤمنين. تقرر الا يستخدم الاعلام لفظ الهزيمة، أما اللفظ المعتمد رسميا فكان «النكسة» . وفى اليومين التاسع والعاشر من يونية انقلبت الأمور رأسا على عقب ، بإعلامها وشوارعها، أعلن الاعلام أن الرئيس عبدالناصر يستقيل من رئاسة البلد، ويبدأ فى الوقت نفسه حملة من الصياح

عقد الستينات فى مصر

الذى لايتوقف متوجها بالرجاء اليه الا يستقيل، وامتلأت الشوارع بالمظاهرات ترجو الرئيس الا يستقيل، وفى نهاية اليوم العاشر سحب الرئيس استقالته، وأذاع التليفزيون على الهواء مباشرة جلسة لمجلس الامة (الشعب حاليا) شاهدنا فيها عددا من النواب يرقصون فوق المقاعد تعبيرا عن سعادتهم لأن الرئيس سحب استقالته!!

وجرت بعد ذلك دوامات أخرى تستحق كل منها لقب الدوامة/ الكارثة، لكن أيا منها لم تبلغ فى وزنها الكارثى ما بلغته دوامة الحرب/النكسة، فقد جرت مواجهة عسكرية مباشرة بين عبدالناصر ورجال المشير انتهت بالقبض على المشير ثم باعلان انتحاره، وجرت محاكمة العدد من رجال المشير العسكريين باعتبارهم مسئولين عن الهزيمة وصدرت ضدهم أحكام أقل ما يقال فيها انها جاءت تعبيرا صريحا عن استخفاف شديد برأى المواطن العادى (اى غير المسيّس) ومشاعره . وجرت كذلك مجموعة الأحداث التى يشار اليها الآن باسم مذبحة القضاء.

* * *

هكذا قرأت عقد الستينيات كما جرت أحداثه فى مصر: كانت الستينات (بمعنى ما) حصادا للخمسينات، ومن ثم فقد تبلور فيها ما كان مائع المعالم من قبل، فجاءت مجموعة من دوامات متلاحقة، ومغامرات تأسست على حسابات متعجلة يغذيها عاملان (جو «الكربجة» العالمى الذى فرضته الحرب الباردة، وجو «السريعة» الذى يتمسك بأهدابه الحكم الاستبدادى، ولاشك أن أحداثا أخرى جرت وكانت أقل عتمة من تلك التى أوردت ذكرها، ولكنى لا أقصد بهذا المقال او بغيره ان اقدم حسابا ختاميا عن عقد بعينه، ولا اقصد أن أحاكم حقبة من تاريخ مصر أو أحاكم أحدا من المؤدين الرئيسيين فيها، فانا ممن يعملون جاهدين بالحكمة العربية القائلة «رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه». ما قصدت وأقصد اليه أن اقدم قراءتى بأمانة ؛ على أساس أن عهود الحكم كيانات متكاملة عضويا كالمجتمعات البشرية، تغلب على كل منها سمة بعينها، فتنطق الجزئيات بحقيقة توجهها ومعناها. ■

أقوال معاصرة

● «الآثار هى تراث وطنى وثقافى لافغانستان، وجزء من تاريخ حضارات الشعوب، وبالتالى فإنها ملك للبشرية جمعاء.»

حميد رضا أصفى

الناطق باسم الخارجية الايرانية

● «الخيمة التى تلبسها المرأة الأفغانية، تجعل كل النساء إمرأة واحدة، أى امرأة غير موجودة»

الأديبة هدى بركات

● «الهداية لا علاقة لها بالوزن الزائد»

صابرين (بطلة مسلسل أم كلثوم)

بمناسبة اعتزالها وتحجبها

● «عندما يحرم إنسان من الاحترام لغايات سياسية فان الضرر يقع فى النهاية على المجتمع ككل أكثر مما يقع على الفرد»

بى نظير بوتو

رئيسة وزراء باكستان الأسبق

● «كم هى الحياة باهظة حينما ترتبط اطلالة الجنين على الحياة بموت الأم»

الأديبة التشيلية ايزابيل الليندى

● «كل ساعة لا أقرأ فيها كلها عقارب تلسع»

أنيس منصور

● «لا أمل فى امتلاك قدرة الحد الأدنى على ردع الجموح الاسرائيلى من دون امتلاك ارادة الحد الأدنى من معاندة الولايات المتحدة»

المفكر اللبنانى جوزيف سماحة

● «العبقرية لاتعدو أن تكون جهدا مثابرا لإنجاز العمل على أفضل وجه، مع ترك مجال دائما لشك ممض بأنه لم يكن ابدا كاملا .

المفكر إدوارد سعيد



بى نظير بوتو



أنيس منصور



ادوارد سعيد

المنطقة العربية وتحديات المستقبل

بقلم
د. حازم الببلاوى

تعددت الكتابات عن التحديات التى تواجهها المنطقة العربية ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين . وتختلف الرؤى بحسب وجهة نظر الباحث واهتماماته من ناحية ، والمدى الزمنى المطروح من ناحية أخرى . وليس هنا مجال استعراض مثل هذه التحديات أو مسح لمختلف الرؤى المطروحة . ولكن قد يكون من المفيد التطرق إلى بعض المحاور الأساسية التى تمثل أهمية خاصة لهذه المنطقة وبما يميزها عن أية منطقة أخرى من مناطق العالم.

إذا نظرنا إلي المنطقة العربية فإنها - ربما - تتميز بين مختلف مناطق العالم بوضع خاص فيما يتعلق بالموارد الطبيعية. حيث تعرف المنطقة ندرة استثنائية في موارد المياه من ناحية ، ووفرة نسبية في موارد الطاقة من ناحية أخري . وهذا الثنائي المتناقض فقر في المياه وثراء في الطاقة هو أحد الخصائص المميزة للمنطقة العربية .

● نقص المياه أحد التحديات الكبرى أمام البشرية وخاصة المنطقة العربية



أمارتيا كومار سن



بنجامين كونستانت

فأما عن المياه فإن منطقتنا تقع في أشد مناطق العالم جفافا - جزء من الصحارى الكبرى - وما يجرى فيها من انهار إنما يجد متابعة خارج المنطقة مما يفرض مشاكل من نوع آخر من حيث اقتسام المياه وتوزيعها بين الدول المجاورة، ولا شك أن قضية المياه - أو بالأحرى قضية نقص المياه - تمثل أحد التحديات الكبرى أمام البشرية ، ولكن حجم هذه المشكلة بالنسبة لدول المنطقة يمثل خطورة خاصة بالنظر إلى حدة المشكلة فيها .

ازدواجية فقر المياه مع ثراء الطاقة

وإذا كانت الطبيعة قد حرمت المنطقة العربية من توافر موارد كافية من المياه ، فقد حبتها على العكس بعطاء واسع من مصادر الطاقة التقليدية وغير التقليدية، فهذه المنطقة - وهى المعروفة فى الأدب السياسى المعاصر بمنطقة الشرق الأوسط - هى منطقة النفط والغاز الطبيعى ، فحوالى ٥٥٪ من احتياطى العالم من النفط يختزن فى باطن الأرض فى هذه المنطقة ، ونصيبها من احتياطى الغاز الطبيعى ليس بالقليل . وإذا نظرنا إلى المصادر غير التقليدية - وغير المستغلة حاليا - نجد أن هذه المنطقة تتعرض لأكبر كمية من أشعة الشمس ، فهى تمثل الحزام الشمسى للعالم ، وهى بذلك تمثل المخزون الاستراتيجى العالمى للتوسع عندما يصل العالم إلى اختراق تكنولوجى بتوفير الوسائل للاستخدام التجارى المناسب للطاقة الشمسية فى المجالات المختلفة للحاجات الإنسانية .

وفى ضوء هذا الوسط الطبيعى الذى تعيش فيه المنطقة العربية من حيث ازدواجية فقر المياه مع ثراء الطاقة فإن التساؤل لابد وأن يثور ، هل تجد مشكلة فقر المياه حلها من ثراء الطاقة ، وكيف ؟ يطرح هذا التساؤل خيارات تكنولوجية

المنطقة العربية وتحديات المستقبل

قائمة أو مستقبلية . ومن هنا فإن هذا المحور يتطرق بالضرورة لدراسة أوضاع المصادر المائية وإمكانيات تطورها وإمكانيات الطاقة ووسائل استخدامها لزيادة الموارد المائية وما يتطلبه ذلك من تطوير فى التكنولوجيات المختلفة ، والحديث عن المياه والطاقة لابد وأن يفرض مناقشة قضايا البيئة نظرا لأن استخدامات كل من المياه والطاقة وثيقة الصلة بالبيئة تؤثر عليها وبالتالى على الموارد المتاحة للأجيال المستقبلية .

لذا فإن سياسات البحث العلمى المستقبلى تحتاج إلى نظرة متكاملة فى هذا الميدان ، حيث تكون قضايا المياه والبيئة والطاقة حزمة متكاملة .

الجانب الثقافى للتنمية

التقدم والتنمية لا يتحققان فقط بمدى توافر أو عدم توافر الموارد الطبيعية ، بل إنهما يعتمدان بدرجة أكبر على الأوضاع البشرية من قيم السلوك وسياسات ومؤسسات .

ظلت قضايا التنمية وقتا حكرا على الاقتصاديين ، يرون فى «التنمية» قضية اقتصادية بالدرجة الأولى تثير الكميات والمتغيرات الاقتصادية أساسا . وفى مرحلة تالية تبين أنه ليس بالاقتصاد وحده ما يمكن أن يقدم حلولا لقضية التنمية ، إذ إن لها أبعادا اجتماعية لا يمكن - ولا يجوز - تجاهلها ، وها نحن الآن نشاهد اقتناعا يرى بأن الجوانب الثقافية للتنمية قد لا تقل أهمية عن الجوانب الاقتصادية والاجتماعية بل يذهب البعض إلى القول بأن التنمية هى فى جوهرها عمل ثقافى مرتبط بالقيم السائدة وقواعد السلوك .

وإذا نظرنا إلى منطقتنا للاحظنا، أن هذه المنطقة ، ربما من دون مناطق العالم الأخرى ، تتميز بتجانس ثقافى هائل : لغة واحدة ، تاريخ مشترك ، ديانات غالبة مما ولد كتلة حضارية ذات نسق قيمى متشابه.والحديث عن النسق القيمى السائد حديث دقيق وملتبس وكثيرا ما يكون متجاوزاً أو متحيزاً ولذلك وجب الحذر . ولكن ذلك لا يمنع من محاولة البحث والتحرى عن القيم السائدة ، ومدى ملاءمتها ، أو على العكس تعارضها مع احتياجات التقدم والتنمية .

القيم السائدة ومدى ملاءمتها أو تعارضها

وليس هنا مجال استقصاء هذا الميدان الصعب ، ولكن ربما تجدر الإشارة إلى عدد من القيم التى يجرى الحديث المعاصر على حيويتها وأهميتها للتقدم والتنمية . ولعل أول وأهم هذه القيم هى قيمة «الحرية» التى يتجه معظم الفكر المعاصر إلى التأكيد على انها ليست فقط مطلباً لغاية فى ذاتها ، بل إنها وثيقة الصلة ولازمة للتنمية ذاتها (على سبيل مؤلفه الاقتصادى الهندى Sen الحائز على جائزة نوبل للاقتصاد (Freedom as Development) . والأصل فى

الحرية هو الحرية الفردية : حرية الفرد فى الاعتراف له بمجال خاص يستقل به ولا يجوز التدخل فيه أو انتهاك حرمته ، حريته فى شخصه ، بحماية حياته وحركته، وحريته فى اعتقاداته ، بحماية أفكاره ومعتقداته ، وحريته فى أمواله ، بحماية ملكيته وحريته فى التعاقد .ومع ذلك فهناك من يعتقد أن هذا المفهوم للحرية إنما هو مفهوم بورجوازى غربى ، وأنه يمثل حرية شكلية نظرية ، وإن الحرية الحقيقية هى التى تضمن المساواة فى الواقع أى المساواة فى الظروف الاقتصادية (المفهوم الماركسى) والتى قد تتطلب التدخل فى حياة الفرد بما يكفل تحقيق هذه المساواة الحقيقية أو الواقعية فى الظروف .ومع ذلك فإن الرأى الغالب هو أننا عندما نتكلم عن الحرية فإننا نشير إلى ذلك المفهوم الفردى لحرية الفرد ، وما يرتبط به من مساواة أمام القانون ، مساواة فى الفرص المتاحة وليس فى النتائج . وقد ارتبط مفهوم الحرية بهذا المعنى الفردى بمفهوم آخر ومكمل للحرية هو حرية المواطن فى اختيار حكامه وفى رقابته على أعمالهم ومسئوليتهم أمامه عن هذه الأعمال ، وهو ما يعرف باسم الديمقراطية . وهكذا ظهر مفهوم الحرية السياسية كمفهوم أساسى لمعنى الحرية . وبشكل عام فإن الحديث عن الحرية يختلف بين القدامى والمحدثين .وكان بنجامين كونستانت B.Constant قد أوضح فى كتابه «الحريات القديمة والحديثة» (١٨١٩) هذه التفرقة . فالحرية بالمعنى الحديث هى الاعتراف للفرد بمجال خاص يتمتع فيه بالاستقلال ولا يخضع فيه لغير القانون ، فى حين أن الحرية بالمعنى القديم السائد فى المدن الإغريقية - يشير إلى الحق فى المشاركة فى القرارات السياسية . وتجمع الديمقراطية الليبرالية بين هذين الأمرين معا ، فهى تتضمن الاعتراف بحقوق الأفراد الأساسية والتى لا يجوز المساس بها - حتى وإن كان من الأغلبية - كما تتضمن المشاركة السياسية فى اختيار الحكام وإخضاعهم للمساءلة أمام شعوبهم . والحرية بهذا المفهوم الليبرالى الديمقراطى هى مفهوم غربى .

العدالة والحرية

وإذا نظرنا إلى المنطقة العربية فإنه يصعب القول بأن الحرية فيها بهذا المفهوم تعتبر من القيم السائدة سواء فى جانبها الليبرالى أو فى جانبها الديمقراطى. وعندما حاول رفاعة الطهطاوى ترجمة الدستور الفرنسى وإعطاء صورة عن الحياة السياسية فى فرنسا وجد صعوبة فى ترجمة كلمة Liberte واستقر على كلمة «الحرية» . وكان الغالب على مفهوم «الحرية» فى التراث العربى هو المقارنة بين وضع العبد والحر ، وليس تحديد العلاقة بين الحاكم والمحكومين ، وقد كان الحديث عن الحرية والاختيار فى التاريخ الفكرى العربى اقرب إلى التساؤل عن مدى حرية الإنسان فى تصرفاته أمام الخالق ، وهل هو «مسير أم مخير»

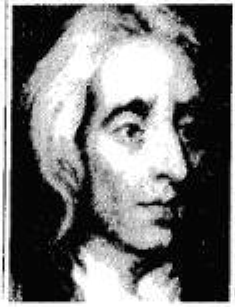
فالحرية هي حرية المخلوق في اختيار أفعاله وبالتالي تحمل مسئوليته أمام خالقه، ومن هنا قضية «الجبر والاختيار» عند الفلاسفة المسلمين . وليس معنى ذلك أن الفلاسفة المسلمين لم يعيروا قضية الحكم اهتمامهم ، فالصحيح هو غير ذلك. فالحاكم العادل الصالح هو أساس الحكم (العدل أساس الحكم) . وبشكل عام فقد كانت قضية «العدالة» اظهر وضوحا في الحكم من قضية «الحرية» بالمفهوم الحديث . ويظهر الحاكم المستبد - في نظر معظم الفلاسفة الإسلاميين - أمرا معقوتا ، بل وذهب بعضهم إلى جواز الخروج على الحاكم المستبد إذا أخل بأحكام الشرع . ومع ذلك فقد كانت خشية جمهرة المسلمين من الوقوع في الفوضى أكثر أهمية وقسوة من خطر الوقوع في قبضة الحاكم الظالم المستبد . و«حاكم جائر خير من الفتنة» ، «حاكم خشوم خير من فتنة تدوم» . وهكذا وضع المسلمون - بشكل عام - قضية الحاكم المستبد على نحو جعل الاختيار المعروض هو بين الاستبداد والفوضى ، ولا شك أن قبول الاستبداد أهون شرا من الوقوع في براثن الفوضى . وكان أخشى ما يخافه المسلمون هو وقوع الفوضى والفتنة . فالاستقرار والأمن أعلى مرتبة من الحقوق والحريات. ويمكن القول بأن هذا التفكير لا يكاد يفترق عن أفكار توماس هوبز الفيلسوف الإنجليزي المعروف . ورغم أن المشهور هو أن هوبز قد دافع عن السلطة الملكية المطلقة - وبالتالي الاستبداد الملكي - فإنه من وجهة نظر معينة ، كان من أوائل من ارسوا مبادىء المذهب الفردي . فالغرض من الجماعة - عنده - وأساس وجودها هو حماية حقوق الأفراد من حالة الوحشية والبربرية التي يتعرض فيها كل فرد للاعتداء من جانب الآخرين (حرب الجميع ضد الجميع). ومن هنا قامت الحاجة إلى الجماعة السياسية التي يتنازل فيها كل فرد - في شكل من أشكال العقد الاجتماعي - عن جزء من حريته للحاكم أو السلطان حماية لحقوقه وحرياته الباقية . وبذلك فقد كانت نقطة البدء عند هوبز حقوق الأفراد وحرياتهم ، وهي أيضا مبرر الجماعة والسلطة . فالسلطة المطلقة للحاكم أو السلطان هي ثمن التخلص من الوحشية والفوضى . وإذا كانت بوادر حقوق الأفراد قد بدأت مع هوبز ، فيظل جون لوك هو المؤسس الحقيقي للمذهب الليبرالي في دفاعه عن الملكية الدستورية مع الثورة الإنجليزية وقد بدأت تظهر - عند لوك - بشكل واضح فكرة الحقوق الطبيعية للأفراد والتي يستمدونها من القانون الطبيعي السابق على القوانين الوضعية.

التسامح

ويبدو مما تقدم أن الخوف من الفتنة والفوضى هو الذي جعل مفكري وفلاسفة المسلمين يقفون عند مرحلة معينة، ولم تأت

● تمثل المنطقة العربية المخزون الاستراتيجي العالمي للطاقة الشمسية


رفاعة الطهطاوي


جون لوك

بعد - بشكل مباشر - فى التفكير السائد فى منطقتنا مرحلة لوك من الفكر السياسى من حيث ضرورة إخضاع الحاكم للمساءلة واستبداله عند تجاوزه حقوق الأفراد الأساسية . ومن هنا فقد ظلت فكرة الحرية السياسية أقل وضوحا فى الفكر السائد وأكثر بعدا فى الواقع السياسى كنسق قيمى أو ثقافى . وربما ساعد على ذلك طبيعة وشكل الدولة الشرقية بالمقارنة بطبيعة وشكل الوحدة السياسية الأوربية . فقد بدأت الوحدات السياسية الأوربية - بشكل عام - فى شكل تجمعات صغيرة - مدن فى الغالب - متنافسة ومتصارعة ، مما ساعد على قبول فكرة المشاركة السياسية فى إدارة شئون هذه الوحدات السياسية الصغيرة المتناثرة . أما فى الشرق وحيث ساعدت الظروف الطبيعية والجغرافية على قيام الإمبراطوريات والحكومات المركزية الكبيرة المسيطرة على مساحات شاسعة فى حضارات وادى ما بين النهرين أو وادى النيل مما غلب منطق «المجتمع الهيدروليكى» ، وضرورة السيطرة على نظم الرى المركزى للأنهار الكبرى فى دجلة والفرات والنيل . وهكذا ساعدت الطبيعة على تأكيد سلطات الحكومة المركزية فى مواجهة حقوق الأفراد . وكانت غلبة الزراعة - بالمقارنة بالتجارة - مما ساعد على سيادة عقلية المحافظة والاستقرار بالمقابلة بعقلية التجارة القائمة على التجديد والمخاطرة .

والحديث عن قيمة الحرية بالمعنى المتقدم وثيق الصلة بقيم التقدم والتنمية . فالحرية صنو المسئولية ، ومعها تبدأ المبادرة الفردية وتحمل المخاطر . وقد كانت فكرة المبادرة وتحمل المخاطر هى أحد المحركات الرئيسية لظهور الثورة الاقتصادية الثانية مع الثورة الصناعية .

ومن الطريف أن اصطلاح تحمل المخاطر Risk قد أخذ - فى الغالب -

من الكلمة العربية «رزق» ، حيث كانت أساس التجارة ، والتي يعتمد نجاح التاجر فيها على الرزق، الذي هو من عند الله وبالتالي أمره غير مؤكد ، ورغم أن الإسلام قد ولد في بيئة من التجارة وقد ازدهرت التجارة خلال عصور الإسلام الزاهية (من القرون الثامن إلى الحادى عشر) ، إلا أنه لم يلبث أن تغلبت على المجتمع الشرقي نزعة الركود وتخلى عن روح المغامرة والمخاطرة التي ميزت القرون الإسلامية الأولى .

كذلك فإن الحديث عن الحرية والمبادرة يثير قضية الإبداع والابتكار ، وكان رأى شومبيتر الاقتصادى النمساوى الشهير - هو أن روح التقدم الاقتصادى قد ولدت مع النظم Entrepreneur وما يتحلى به من روح التجديد Innovation والابتكار ، وهى أمور وثيقة الصلة بالحرية الفردية والمبادرة . وهى أمور تتعارض - كلياً أو جزئياً - مع العقلية التقليدية فى المحافظة على قيم السلف وعدم الخروج على المألوف وهى عقلية تقتل الإبداع ، والمخاطرة والإبداع تتقبل الخطأ وتتصالح معه على أساس أن التقدم عملية تجريبية قائمة على التجربة والخطأ Trial and error . ولا تقتصر أهمية التجربة والخطأ على سلوك المجتمعات وحدها فى تطورها ، بل إن الطبيعة ذاتها تتطور من خلال قانون الانتقاء الطبيعى natural selection، أى عن طريق التجربة والخطأ ، الأمر الذى يتطلب تسامحا فى قبول الجديد والغريب . فالتسامح أيضا قيمة أساسية للتقدم والتنمية ، لأنه بدون الأخطاء لا مجال للتعلم وبالتالى التقدم . فالإنسان يتعلم من تجربته ، وبالدرجة الأولى من أخطائه .

الشك والثقة

ويرتبط بكل ذلك قيم «الثقة» الثقة بالنفس ، والثقة بالغير ، والثقة فى المستقبل ، وفى عدد من الدراسات الحديثة بدأت قيم «الثقة» تظهر كأحد العناصر الأساسية للتقدم والتنمية . وفى رسالة الدكتوراه اظهر المفكر السياسى الفرنسى ألان بيرفت (١٩٩٤) أن مجتمعات الثقة هى وحدها القادرة على تحقيق التقدم الاقتصادى وذلك بعكس مجتمعات الريبة والشك والتربص . وعلى نفس المنوال فإن المفكر اليابانى / الأمريكي فوكوياما لم يلبث أن أصدر كتاباً عن «الثقة» بعدما أثار زوبعة من الجدل فى كتابه الأول .

وأخيرا فإن التوقف على الجانب الثقافى من قضايا التنمية يمكن أن يوقعنا فى المحظور ، بمقولة أن هناك ثقافات قابلة للتقدم والتنمية ، وثقافات أخرى معادية ومناوئة لها . ليس هناك أخطر من القول بأن ثقافة ما ، بطبيعتها ، متفقة أو متعارضة مع التقدم والتنمية . فالثقافة وما تفرزه من قيم ليست أمرا محتوما ، لا هى خصائص عرفية ثابتة ، بل هى - فى نهاية الأمر - حصيلة تطور تاريخى ونتيجة للممارسات والمؤسسات تساعد فى

وقت وظروف معينة ، على شيوع قيم محددة ، ويمكن أن تؤدى - فى ظروف وأوقات أخرى - إلى ظهور قيم أخرى . فالقيم السائدة هى نفسها محصلة ونتيجة للمؤسسات والممارسات السائدة . ومن هنا أهمية المحور المتعلق بالجانب المؤسسى فليس التقدم والتنمية مجرد انعكاس للموارد .. كما أنهما ليسا نتيجة حتمية للقيم السائدة بل أنهما أيضا حصيلة للمؤسسات والممارسات القائمة . فمع تغيير هذه المؤسسات والممارسات فإن مسار التنمية والتقدم لابد وأن يتغير معهما . وقد أظهرت المدرسة المؤسسية الجديدة Institutional Economic أهمية الإطار المؤسسى فى التطور الاقتصادى .

المؤسسة

الحديث عن المؤسسات يتناول المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقانونية . ولا شك أن النظام السياسى يلعب دوراً لا يمكن التهوين منه فى تحديد مسارات النجاح والفشل . والحقيقة أنه لا يمكن فصل الاقتصاد عن السياسة الحرية فى جانبها القيمى أو الثقافى ، والحقيقة أن الحرية ليست مجرد قضية وعى وقيم سائدة بقدر ما هى وليدة مؤسسات ومنظمات تفرض سلوكا وتغلب قيما فى ظروف وأوضاع معينة ، كما تفرض غيرها من ظروف وأوضاع أخرى . فقيم الحرية والمساواة وحكم القانون ليست مجرد قناعات غالبة وإنما هى تعبير عن تنظيمات ومؤسسات تاريخية . وهناك علاقة تبادلية وديالكتيكية بين القيم السائدة والمؤسسات القائمة كل منهما يؤثر فى الآخر ويطوره . ومن هنا فإن شكل الدولة وحجمها ونوعها مما له ابلغ الأثر على مسارات «التقدم والتنمية» . وقد احتل موضوع العلاقة بين الديمقراطية واقتصاد السوق مكانا مهما من المناقشات السائدة حاليا من الأدبيات الاقتصادية .

اقتصاد السوق والديمقراطية السياسية

وإذا كان النظام السياسى وثيق الصلة بالنظام الاقتصادى ، وأن اقتصاد السوق لا يحقق احسن نتائجه إلا فى ظل الديمقراطية السياسية ، فإنه ينبغى التذكر أن أهم مقومات الديمقراطية هى المساواة أمام القانون . فالدولة الديمقراطية هى فى نهاية الأمر دولة القانون . ومن هنا أهمية التنظيم القانونى واحترام الحقوق . ويذهب البعض وخاصة من المدرسة المؤسسية فى الاقتصاد. (دوجلاس نورث على سبيل المثال) إلى أن التطور الاقتصادى كان محكوما إلى حدٍ بعيد بتطور فكرة الحقوق . فالثورة الزراعية لم تكن متصورة دون ظهور فكرة «الحق العينى» وخاصة فكرة «حقوق الملكية» . فمع الزراعة استقرت الجماعة على قطعة محددة من الأرض ، اعترفت لنفسها وفى مواجهة الغير ، بأنها وحدها صاحبة الحق فى استغلالها ، وبالتالى منع تعرض الغير لها . وهذا هو تعريف الحق العينى أو

الملكية . وبدون هذا الاعتراف ما استطاعت أى جماعة حماية زراعتها وتطويرها . ومن هنا فقد جاءت الثورة الاقتصادية الأولى مصاحبة لتطور قانونى مهم هو ظهور فكرة الملكية والحق العينى ، وقبلها لم يكن معروفا سوى الحيازة المادية Posses-sion . والفرق بين الحيازة والملكية ، هو أن الحيازة هى وضع مادى بالسيطرة على الشىء . أما الملكية فإنها تتضمن بالإضافة إلى ذلك عنصرا معنويا هو الاعتقاد بأن هذه السيطرة مشروعة ومعترف بها من صاحب الشأن ومن الغير على السواء ، ففكرة الحق تستند إلى المشروعية وهى الاعتقاد السائد بين الجميع على أن استئثار فرد أو جماعة بقطعة من الأرض أمر مقبول ومعترف به .

وإذا كانت الثورة الاقتصادية الأولى - الزراعة - قد استندت بالدرجة الأولى إلى الاعتراف بالحقوق العينية وحقوق الملكية بوجه خاص ، فإن الثورة الاقتصادية الثانية - الصناعة - قد استندت إلى تطور وتعاظم «الحقوق الشخصية» وحقوق التعاقد وما يرتبط بها من التزامات . ولذلك لم يكن غريبا أن كانت المدن الإيطالية فى القرن الثالث عشر وما بعدها هى موطن القانون التجارى والأوراق التجارية وما يرتبط بها من ازدهار فكرة الالتزامات الشخصية ، والتى كانت الأساس فى تطور التجارة العالمية ثم ظهور الصناعة وانتعاشها مع الثورة الصناعية . والآن ونحن على أبواب الثورة الاقتصادية الثالثة - مع ثورة التكنولوجيا المعاصرة - وهى القائمة على البحث والتطور العلمى والتكنولوجى ، فإنه لا غرابة فى أن الاهتمام يتجه حاليا إلى «حقوق الملكية الفكرية» (براءات الاختراع) ، والتى تمثل أساس التقدم المعاصر . وهكذا ، نجد علاقة مباشرة بين تطور النظام القانونى وبين التقدم الاقتصادى ودون احترام الحقوق القانونية فإن فكرة التقدم تنهار من أساسها .

والحديث عن النظام القانونى السائد واحترام القانون يفقد معناه ومبناه ما لم يكن فعالا ومؤثرا ، ومن هنا أهمية وجود نظام قضائى سليم وقادر ، سريع وعادل ، وبذلك فإن المؤسسات القانونية والقضائية تلعب دورا رئيسيا فى التقدم والتنمية .

مساهمة الأفراد وحماية حقوقهم

ويساعد النظام القانونى السائد ليس فقط على تحديد مساهمة الأفراد وحماية حقوقهم ، وإنما يمثل الضمان الأساسى لعمل المجتمع المدنى . وقد أصبحت مساهمة المجتمع المدنى أحد أهم عناصر التقدم فى المجتمع المعاصر ، وإذا كانت الدولة تمثل السلطة السياسية وتقوم على فكرة القهر المشروع ، وإذا كان الأفراد والقطاع الخاص يسعون نحو مصالحهم الذاتية من خلال السوق وفقا لدافع الربح

● في المفهوم العربي، الاستقرار والأمن أعلى مرتبة من الحقوق والحريات



الآن بيرفت



فوكوياما

والمصلحة الخاصة ، فإن المجتمع لابد وأن يتضمن أيضا مجالا للعمل الاختياري القائم على التضامن والتكافل ، الذي هو أساس عمل المجتمع المدني . ونجاح مؤسسات المجتمع المدني رهن بتوافر النظام القانوني المناسب فضلا عن توافر النسق القيمي الحافز على القيام بالعمل الاختياري لصالح العام .

كذلك فإن الحديث عن المؤسسات لابد وأن يثير موضوع مؤسسات التعليم . وترتبط قضية التعليم وجانب القيم كما ترتبط وجانب المؤسسات . فالقيم السائدة هي - إلى حد بعيد - وليدة نظام التعليم السائد ولكن التعليم من ناحية أخرى هو أحد أهم المؤسسات والذي يساعد على خلق الوعي العام .

وإذا كانت المؤسسات السياسية والقانونية ومؤسسات المجتمع المدني ونظم التعليم من الجوانب الرئيسية للتقدم في أي مجتمع حديث ، فإنه لا يخفى أننا نعيش في عالم المعلومات ، وأنه ما لم تتوافر المؤسسات المناسبة لنشر المعلومات السليمة والضرورية بشكل كاف من الشفافية والمصداقية فإن مسارات التقدم والتنمية لابد وأن تتأثر . ومن هنا فإن وجود مؤسسات مستقلة لإصدار الإحصاءات والبيانات على أساس دوري وبقدر من المصداقية يعتبر من محددات التقدم والتنمية .

وبعد ، فإن المحاور المتقدمة تفرض على منطقتنا العربية تحديات قاسية ، وهي تحديات راجعة إلى الوسط الطبيعي الذي نعيش فيه ، وإلى النسق القيمي السائد ، وأخيراً إلى الإطار المؤسسي الذي نعمل خلاله . ولابد من مواجهة صريحة وشاملة لهذه التحديات ومحاولة لتغيير الظروف المحيطة في هذه الجوانب وبما يكفل انطلاقا لهذه المنطقة التي تخلفت كثيراً عن الماضي . والله أعلم . ■



نخبة العولمة.. ومن سيقود العالم؟

بقلم
جميل مطر

فى كل دولة، وفى كل مجتمع أو تجمع ثقافى، تتردد أسئلة، وتبقى مترددة وحائرة بين اجابات أو محاولات اجابة عاجزة أو فى أفضل الأحوال غير مقنعة. ولا تقتصر هذه الحيرة على الناس العاديين، فالحيرة ملء ساحات الجامعات وقاعات الدرس ومراكز البحث العلمى ومنتديات الفكر. لم يحدث، إلا نادراً، أن مرحلة من مراحل التاريخ الحديث لم يضع العلماء والمتخصصون لها إطاراً نظرياً أو ما يشبه ذلك.

ويبدو أننا نعيش هذه المرحلة النادرة، بدليل أن كثيراً من الأسئلة مازالت بغير اجابات شافية من جانب علماء السياسة والاقتصاد، وبدليل أن مكونات الحضارة أو المنظومات الحضارية القائمة مازالت تفتقر إلى نسق يحقق الاتساق والتكامل بينها، أو حتى إطار ينظم أو يشرح تنافرها وتناقضها . هناك كم هائل من الأسئلة يتعلق بشكل وطبيعة المرحلة القادمة من مراحل التطور الإنساني، والناس لم تجد حتى الآن اجابات مقنعة أو كافية عن أسئلة تفسر المرحلة الراهنة بكل تعقيداتها . ناهيك عن أسئلة عن مرحلة قادمة نعيش تباشيرها.

السؤال الأهم بين هذا الكم الهائل من الأسئلة هو «من سيحكم؟». هذه الورقة ستحاول الاجابة عن هذا السؤال أو عن جزء منه من خلال مناقشة مسألة النخبة السياسية التى ستقود «الدولة» فى المرحلة القادمة من مراحل التطور الإنسانى، والتى اصطلح الفكر «العالمى» على تسميتها بمرحلة العولمة، أياً كان المعنى المقصود من كلمة العولمة.

★★★

لقد درس الفلاسفة وعلماء السياسة والاجتماع على مر التاريخ عشرات بل مئات المجتمعات واتفقوا على أن الناس لاتجتمع فى كيان أو مجتمع أياً كان حجمه إلا واختاروا قائداً أو جماعة قائدة تتولى تخطيط حياتهم وضبط خلافاتهم وتنظيم سبل حمايتهم . وان لم يبادر الناس بالاختيار ، بادر فرد أو بادرت فئة أو عائلة أو طبقة بتعيين نفسها قائداً لهذه الجماعة الإنسانية . ولا أظن أن الفلاسفة وعلماء السياسة والاجتماع كانوا يجدون صعوبة كبيرة فى تحديد ماهية أو نوعية «الجهة - القائد» فى أى مجتمع، ولا وجدوا صعوبة كبيرة فى وضع نظريات ساعدت الباحثين السياسيين فى التعرف على الجهة - القائد فى مجتمع أو آخر.

ملامح نخبة العولمة

ولكنهم - وجدوا - ويجدون صعوبة فى أداء مهمتهم خلال المرحلة الراهنة ، ويجدون صعوبة أشد فى محاولة وضع الأسس النظرية اللازمة للتنبؤ بشكل ونوعية القيادة التى ستقود معظم المجتمعات فى المرحلة القادمة . إذ أن صورة الخريطة السياسية لأى مجتمع ، وبخاصة المجتمعات التى خطت خطوات واسعة على طريق العولمة ، أصبحت تعكس غيوماً أو ضباباً كثيفاً يخفى من تفاصيل عملية صنع السياسة واتخاذ القرار . المؤكد ، والواضح جداً، هو أن قيادة سياسية واضحة المعالم والشخصيات مازالت تحتل مقاعد ومناصب اتخاذ القرار. ولكن المؤكد ، وإن كان غير واضح تماماً، هو أن نخبة أخرى، سواء كانت منتخبة أو بالتعيين أو بالفرض، تظهر فى جانب من الصورة ولا تظهر فى جانب آخر، أو تظهر فى لقطة فوتوغرافية ولا تظهر فى لقطة أخرى رغم أن الخريطة التى يجرى تصويرها لم تتغير. هذه «النخبة» ، ان



نخبة العولمة

صحت التسمية، ستكون موضوع هذه الورقة التى ستجتهد فى محاولة لتحديد ملامح نخبة العولمة وهى النخبة الناشئة والصاعدة بقوة وبسرعة ، والتعريف بوظائفها ، وطرق تجنيدها ، وبعض أدوارها المحلية والعالمية، من خلال طرح واختبار عدد من الافتراضات.

نخبة في طريق التكوين

لم تتوفر حتى اليوم كتابات كثيرة تناقش مفهوم «نخبة العولمة»، فضلاً عن أن قليلين جداً من الباحثين استخدموا هذا المفهوم. وفى الغالب مازال بعض علماء السياسة يتعامل مع التحولات السياسية الداخلية فى دراسته المقارنة على أساس مفاهيم يعتقد كاتب هذا المقال أنها ستصبح تقليدية إذا استمرت مسيرة العولمة تتقدم بمعدلاتها الراهنة. من هذه المفاهيم مفهوم الطبقة السياسية أو النخبة السياسية . نخبة العولمة ليست بالضرورة هذه النخبة الحاكمة ، وهى لاتنتمى بالضرورة إلى الطبقة الأغنى ، أو الطبقة البورجوازية . نخبة العولمة هى نخبة فى طريق التكوين . وهى شريحة ممتدة أفقياً ورأسياً فى قطاعات كثيرة . تجدها - كأفراد متناثرين - فى قطاع الفكر والمجتمع الأكاديمى ومراكز البحوث وفى الصحافة والاعلام . وتجد أفراداً من هذه النخبة يمثلون مناصب فى مستويات متباينة فى البيروقراطية الحكومية وبيروقراطية الأحزاب الحاكمة ، وفيها عمال مهرة ومهندسو اتصالات وخبراء معلومات .

الولاء للعولمة قبل الثوابت !

وعلى الرغم من أن الكتابات عن هذه النخبة مازالت شحيحة ، إلا أنه يمكن استخلاص سمات معينة نراها تميز نشاط هذه النخبة ونفوذها . من هذه السمات أختار بعضاً قليلاً . أختار مسألة الولاء والهوية سمة أولى حيث يبدو من كتابات أهل النخبة وسلوكياتهم وممارستهم أن الأولوية فى الولاء تحتلها العولمة. وهذه تأتى قبل الدين والدولة والحزب والجماعة (حتى لو كانت الجماعة جماعة رجال أعمال أو جمعية لخبراء الاتصال تنتمى هى نفسها للعولمة). ولكن هذه الأولوية للعولمة لاتمنع هؤلاء - بل على العكس تحثهم - على التمسك - ولو شكلاً - بولاءات أولية لاتفرض التزامات بقدر ماتقدم ضمانات وتسهيلات.

السمة الثانية هى الاعتقاد والتصرف على أساس أن الدولة موجودة لخدمة العولمة، اقتصاداً وسياسة وثقافة ، بل ولخدمة نخبة العولمة بالدرجة الأولى. بهذا المعنى يتقلص المضمون التاريخى لمفهوم الطبقة ، خصوصاً بعد أن احتلت نخبة العولمة مكان الطبقة المتميزة، لها كل امتيازات الطبقة الارستقراطية ولكن بدون مسئولياتها ولا تقاليدها . ولذلك ليس صحيحاً تماماً الاعتقاد السائد بأن

نخبة العولة تفضل أن تكون الدولة ضعيفة وأن تضمحل حتى تذوى تماماً كما كان يفضل ويتمنى بعض الماركسيين الأوائل . الصحيح فى رأيى هو أن هذه النخبة تريد الدولة ضعيفة بالقدر الذى يجعلها خاضعة لقوى العولة ، ولكن قوية بالقدر الذى يخدم هذه القوى ويدافع عن مصالح نخبة العولة ويوفر لها الحماية فى الداخل . وتشير تجربة اندونيسيا ثم روسيا وغيرهما إلى مسيرة ضعفت خلالها الدولة بتشجيع قوى الفساد فيها ولكن إلى حد معين . عند هذا الحد عادت الدولة تستعيد بعض قوتها بتشجيع من نفس قوى العولة مثل البنك الدولى وصندوق النقد الدولى وبعض رجال الأعمال .

الوطن والوطنية من رموز التخلف !

السمة الثالثة لنخبة العولة وترتبط بالسمتين السابقتين، هى مكانة الوطن عند هذه النخبة. ولا أعتقد أن الآراء ستختلف على أن كثيرين يصرحون أو يكتبون ويقولون بغير تصريح أن الوطن والوطنية من رموز التخلف ، أو على الأقل من رموز مرحلة تاريخية انقضت. ولسنا هنا فى سبيل الدفاع عن الوطنية أو تبرير ضرورات إعادة إنعاشها من أجل إنعاش الوطن، أو من أجل الدخول إلى العولة من موقع ثقة بالنفس وقوة معنوية كبيرة . يكفى أن أردد فى هذا الصدد عبارة وردت على لسان المهاتما غاندى فى حوار مع الماركسيين الهنود ، قال «الطريق إلى الأممية لابد أن يمر بالوطن» . فالرجل ترك باب المستقبل مفتوحاً أمام كل الخيارات الأيديولوجية، بشرط أن يكون الوطن ككيان أو رمز أو حتى وهم عتبة هذا الباب ، أى عتبة المستقبل بكل خياراته . ولذلك لاتدهشنى أحياناً دعوة بعض المتنورين من العولميين للعمل على استعادة مكانة الوطنية كهوية أولى. هؤلاء يستحقون التقدير لذكائهم وصواب رؤيتهم. فالوطنية - كالثقافة - مجمع أو سلة رموز . لاشىء محدد يمكن أن يحتكر مضمون الوطنية .. لا الأرض ، ولا الشعب، ولا التاريخ ، ولا الأحلام ولا الأوهام ، ولا شىء وحده من كل هذه الرموز يعنى الوطنية ، فكلها وأشياء أخرى كثيرة تشكل فى جملتها معنى الوطنية . ولذلك فإن المتنورين من العولميين حين يستنكرون أحاديث اللاوطنية وخطاب الاستهانة بالوطنية إنما يريدون بناء صرح للعولة على أسس متينة متوافقة . أما الآخرون الذين يتصورون أن تغييب الوطنية يدفع بعجلة العولة ويعزل من يسمونهم بالديناصورات الوطنية بعيداً عن تيار العولة ، هؤلاء غير مدركين لعواقب التصادم.

كأنك رأيتهم جميعا !

ثم هناك أيضاً النمطية كواحدة من أهم سمات نخبة العولة . وقد أبالغ وأقول نمطية إلى حد أنك إذا رأيت أحدهم أو سمعته فقد رأيتهم أو سمعتهم جميعاً . وعلى كل حال لا يوجد فى النمطية مايشين. فقد سعى الفرد عبر



نخبة العولمة

التاريخ إلى الاثنين معاً، سعى إلى النمطية، أى سعى ليكون عضواً فى مجتمع وكيان يفعل مايفعله الباقون ويرث الخبرة والتجربة ممن سبقه ويورثها لمن يأتى بعده. وفى نفس الوقت كان يسعى إلى حماية خصوصيته وإلى التميز. لذلك أتعاطف أحياناً مع بعض المفكرين وقادة الرأى الذين تمكن منهم الفزع بسبب تسارع خطى العولمة فى كل أبعادها السياسية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ففى معظم الأحوال وخصوصاً فى مجتمعات الغرب أصبح الفرد المعولم بالفعل رقماً، أى تم واكتمل تنميطه، وفى الوقت نفسه أصبح كتاباً مكشوفاً أى تم تعميمه «وتأميمه» وإلغاء خصوصيته. وفى الغرب يناقشون الآن هذه المسائل بهدف كبح جماح هذا التيار الخطير خصوصاً بعد أن أصبحت حياة الانسان الشخصية وتفاصيل خصوصياته وسلوكياته وعاداته سلعة تباع وتشترى بدون العودة إلى صاحب هذه الشخصية المعروضة للبيع بكلياتها أو بالتجزئة.

واجتهدنا - أو نجتهد حالياً فى اكتشاف وتعريف نخبة جديدة بدأت تتشكل من أفراد يمثلون مصالح متصلة جميعها بمسيرة العولمة. وتوصلنا انطباعياً إلى أن هذه النخبة، فى معظمها، ستبقى لوقت غير قصير نخبة تابعة، أى ليست أصيلة. هذه النخبة تابعة فكرياً، أو تابعة مهنياً وحرفيا، أو تابعة «تنظيمياً»، لنخبة عالمية. النخبة العالمية هى نخبة العولمة بامتياز. أما النخبة المحلية للعولمة فتتلقى توجيهات وتفاصيل عقيدتها ورسائل التبشير لعقيدتها من القلاع العظمى للعولمة على مستوى العالم، وهى متعددة وبالغة القوة والثراء والتحصين.

يجرنا هذا الاجتهاد إلى اجتهاد آخر لقد بدأنا نلاحظ وجود مسافات تتزايد اتساعاً وتتزايد عدداً تفصل بين مصالح نخب العولمة «العالمية» ومصالح الدولة القطرية. فالولايات المتحدة، وهى نفسها داعية العولمة، وهى أكبر وأقوى مؤيد لمسيرتها، تقف أحيانا عاجزة عن الاستجابة لمصالح بعض قوى العولمة «العالمية»، أو عاجزة عن فرض ارادتها عليها. مثال ذلك، هذا الفشل المتلاحق فى محاولة أمريكا فرض قواعد وأصول معينة لتشغيل العمل على بعض الشركات العابرة الجنسية. لوحظ، أيضاً نفس الفشل بالنسبة لقضايا تلوث البيئة، وبالنسبة لعمليات الاندماج الكبرى التى ستهدد فى النهاية روح المنافسة التى هى أحد أهم أسس حرية التجارة. مثال آخر هو قضايا الخلاف المتكررة، ولا أقول التناقض، بين مصلحة الدولة الأعظم وبين قواعد وقوانين أحد أهم قلاع العولمة، وهى منظمة التجارة العالمية.

الوكالة لقلاع العولمة

اعتماداً على هذه الأمثلة، وأمثلة أخرى كثيرة، نستطيع أن نتصور أن

قلاع العولمة مثل المنتدى الاقتصادى العالمى ومقره «دافوس»، ومنظمة التجارة العالمية ومقرها «جنيف»، وغرفة التجارة العالمية، ومجتمع الشركات العملاقة عابرة الحدود، سوف تواصل العمل على تجنيد أفراد وجماعات قطرية لتقوم بأدوار الوكالة لقلاع العولمة أو لنخبة العولمة العالمية. وهو الأمر الذى سوف يستدعى مزيداً من محاولات انتزاع الفرد (المرشح للتدريب على «العولمة» أى ليصبح جاهزاً للانضمام إلى نخبة العولمة) من ولاءاته الوطنية والقومية أى من ولاءاته الملتصقة بالأرض، ومن ولاءاته الثانوية كالعشيرة والقبيلة والمجتمع المحلى. وهذا التطور سوف يستدعى بدوره خلافاً وربما يتطور إلى صدام بين الدولة أو الدول الأعظم فى العالم وبين قوى العولمة العالمية. فالدولة أو الدول الأعظم حتى وإن كانت مستفيدة من إضعاف «الدولة» فى البلاد النامية أو فى «الدول» المنافسة أو الصاعدة، وإن كانت مستفيدة إلى حد ما من «سحب» مبدأ السيادة أو تشجيع انحسارة فى نفس تلك الدول تحت ضغوط العولمة والاتفاقات الدولية المنعقدة تحت لواء العولمة، فإنها أى هذه الدول الأعظم لن تنتظر حتى تجد نفسها وقد أصبحت «دولاً أقل»، وبسيادة أقل!

غزو واغتراب

هذا الغزو المتدرج من جانب العولمة للدولة، وهو الغزو الذى لا يميز بين دولة عظمى ودولة نامية، يقابله شعور متزايد من جانب الدول النامية عموماً بالاغتراب. إذ أصبحت النخب السياسية ومنها الحاكمة، فى حالة إحباط من أنها لاتشارك فى القرارات الدولية المهمة، ومنها القرارات التى تخصها، بسبب الاحتكار المتزايد من جانب الدول العظمى لعملية صنع القرار الدولى. الشعور السائد والغالب هو الشعور بالاهمال، وبالتالى تصدر عن كثير من حكام هذه الدول تصرفات تعكس حال اغتراب عن النظام الدولى. هذه النخبة السياسية، وفيها النخبة الحاكمة، فى حالة سياسية سيئة بسبب شعورها بالضعف المتزايد إزاء قوة قوى العولمة ونفوذها المتعاظم، ومنها القوة المتزايدة لنخبة وكلاء العولمة المحليين. إذ أن هذه النخبة تتلقى توجيهات من قوى خارج الدولة تتصل بها مباشرة متجاوزة سلطات الدولة. من ناحية أخرى تشعر النخبة السياسية، ومنها الحاكمة، بالنقص المتتالى فى احترام سياستها وحقها فى هذه السيادة. انعكس هذا الشعور على السلوكيات السياسية لكثير من حكومات العالم النامى وبخاصة السلوكيات المعبرة عن توتر النخبة الحاكمة وسرعة لجوئها إلى استخدام العنف ضد المعارضين أو ما يشتم أنها معارضة. من ناحية ثالثة فقد أثرت على النخبة السياسية، ومنها الحاكمة، فى دول كثيرة الحملة التى تشنها الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى باسم النظام الدولى لتشجيع المجتمع المدنى فى الدول النامية على ممارسة نفوذ أوسع



نخبة العولمة

ومشاركة أعم فى شئون المجتمع. وقد برزت آثار هذه الحملة بشكل أساسى فى صحوة حقيقية أو مفتعلة داخل مجتمعات الاقليم والطوائف والمذاهب وجماعات الاحتجاج المختلفة .

اغتراب النخبة السياسية

السبب الثالث وراء شعور النخبة السياسية، وبالذات الحاكمة، بالاغتراب، هو أنها مازالت غير واثقة من أنها مقبولة من جانب قوى العولمة، أى من جانب النظام العالمى. بمعنى آخر، تدرك هذه النخبة أنها لا تحظى بالاحترام الكافى من جانب المؤسسات فى النظام الدولى والدول العظمى الفاعلة فى هذا النظام والمهيمنة عليه، وفى نفس الوقت لم تتأهل دولهم ، ولم يتأهلوا هم أنفسهم كأفراد نخبة سياسية أو حاكمة لعضوية كاملة فى النظام العالمى، أى نظام العولمة . ولعل أحد الشروط التى توسع فجوة عدم الثقة بين قوى نظام العولمة والدولة هو شرط الاستعداد للتخلى عن كثير من ممارسات السيادة ومظاهرها. وتدفع قوى العولمة بحجة أن السيادة والتمسك بها وبممارساتها تتسبب فى تشنجات يرتكبها أو يقع فيها صانع السياسة والقرار فى الدولة ، وأن هذه التشنجات تتسبب بدورها فى إبطاء أو تباطؤ التقدم الاقتصادى والاندماج فى السوق العالمى.

هذا النقد الموجه من قوى العولمة إلى الدولة أصبح هو نفسه مدخلا لنقد مماثل تشنه قوى العولمة على النظام الدولى ورموزه . فالدولة ..ليست وحدها العاجزة عن التأقلم مع قوى العولمة ، بل إن النظام الدولى ذاته عاجز عن التأقلم مع القوى الصاعدة فى النظام العالمى. فكما أن «الدولة - القومية» بحكم التعريف عاجزة بسبب التصاقها بأرض وقوم ، كذلك حال النظام الدولى وان كان بسبب مختلف . فالنظام الدولى «مثبت» وملتصق بمجموعة اتفاقيات ووثائق وتوازنات جامدة صنعتها ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية لم تعد قائمة . ولا يستطيع النظام الدولى التحلل منها ان أراد تطوير ذاته للتأقلم مع اختراقات قوى العولمة والاتفاقات والقواعد التى تسعى لفرضها كقيم جديدة تلتزم بها الدولة والمؤسسات السياسية الدولية.

ولا يخفى أن التفكير فى مستقبل العلاقات بين النظام الدولى ، أى القائم على مجموعة وحدات ، كل منها دولة، وبين قوى العولمة ، وبعضها أكبر وأقوى نفوذاً من معظم دول العالم، وكذلك التفكير فى مستقبل منظومة القيم والعلاقة بين المنظومة الحضارية المختلفة، كلاهما يحتاج من المفكرين إلى جهود خلاقة ومبدعة، تدخل فى إطار مايطلق عليه الصديق الدكتور نبيل على تعبير «هندسة الخيال» أو «الهندسة الخيالية» . معالم المستقبل يخبئها ما يجرى من صراعات قوة بين «قوى الدول» وقوى العولمة. ■

أمام الهرم

شعر: سليم الرافعي

طرابلس- لبنان

على الأرض قيثارة المغرم
ومعزوفة الصمت لم تُهْزم
سمعت حبيبا مناجاته
تصعّد زفرة مستسلم
ومحرقة العشق في شاهق
يئن من الجسد المفعم
من الشرق يحمل أسراره
إلى السرمدية.. لم يسأم
من الروح كان؟ فكيف استوى
على صخرة الرفض كالبرعم؟
نقيضان ما اتحدا مرة
سوى لحظة الفزع الأعظم
يعانق معبوده؟ فليقف
لدى هيكل موقف المحرم
ليسجد من قمة حلّقت
مع الغيم والطيف والأنجم
أيغتسل الليل في حضنه؟
أترتجف الشمس من مأتم؟
هما قبلتان على خده
وكأسان من فلك مبهم
فمن يشرب الدهر.. من ينتشي
بمعصرة الأبد الأيكم؟
وقفت على السفح مستغفرا
فباني من النهر يحكي فمي
وأجهل منزلة حلّقت
حوافر فارسها المعلم
من الرعب والحب ترتيلة
يلوذ بها الطيف أو يحتمي
يروّعنا الهرم المرتقي
بألواحه.. مثل مستلهم
ونقرأ من جبروت الحجى
سماء إلى أرضنا تنتمي
همست له: إنني مثله
من الروع يجري الهوى في دمي
على هيكل الحرف لي موقف
ولي هرم عاش في أعظمي

رحلة عمر رُشدى سعيد

هموم مصر بين عبد الناصر والسادات

بقلم
شوقى عقل

انبعاث مضىء على يد الطهطاوى ومحمد عبده وطه حسين وسلامة موسى ومشرفة وجمال حمدان ويحيى حقى ومحفوظ وأخيراً رشدى سعيد صاحب جيولوجية مصر.

نتساءل كثيراً حين نواجه كل ما يحيط بنا من سوء وزيف: أين إذن الحضارة التى ننتمى إليها؟ أنحن حقاً نفس الشعب الذى أنشأ هذه الحضارة (أم الحضارات) والتى يؤرخ ببداياتها بداية الحضارة البشرية الجامعة؟.

سؤال بسيط ومحير لن نجد إجابته فى الجمل البليغة الزاعقة من أمثال (عظمة الشعب، تاريخه المجيد، أصالته وطيبته...) وهى جمل تخفى ببلاغتها وعلو نبرتها عدم إيمان عميق بما تزعق به، وكانت الإجابة البسيطة المدهشة هى : إن تمثل حضارتنا الغاربة الآنى يكمن فى هؤلاء!! إنهم التعبير الأكثر صدقاً عن كنه الحضارة المصرية ووجودها المستمر رغم كل سوء وهو تعبير صامت هادىء منزو فى أغلب الأحيان، وعن أننا فعلاً الشعب صاحب هذه الحضارة فها هم أبناؤها، وهم دليل حى رغم خفوته وضعف نبرته عن نبضها كما أنه التفسير الوحيد لحجم إبداعهم رغم سوء الحال.

فى إطلالة سريعة على كتاب السيرة الذاتية للدكتور- رشدى سعيد -





شخصية العدد

الذى صدر مؤخراً تحت عنوان « رحلة عمر. ثروات مصر بين - عبدالناصر والسادات» تكاد ترى ما أصبح السمات لحياة ومسيرة عمل مفكرينا وعلمائنا الكبار، وهى سمات تتعلق بوجودهم (أعنى الوجود المبدع لا المادى) فى مصر، وهى تتعلق كذلك بتفاعل المؤسسات الرسمية أو شبه الرسمية الثقافية منها أو البيروقراطية أو العلمية .. إلخ معهم. وإنك حين ترى ما حدث لهم - كظاهرة لا كحالة فردية - تتساءل، وترى أن تلك القاعدة التى تقول أن (العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق) تنطبق بشكل مثالي على مجتمعنا، إذ ترك جمال حمدان - وهو ما هو عليه - الجامعة واعتكف فى منزله، وكيف طردت الجامعة (طه حسين وعلى عبدالرازق وأمين الخولى ولويس عوض ومحمود أمين العالم) * .

وهل هى مصادفة (أن كبار المشتغلين بالآداب والعلوم الإنسانية كانوا من خارج الجامعة كجرجي زيدان والعقاد والحكيم وسلامة موسى ومحفوظ وحسن فتحى) * .

هذا ما واجهه رشدى سعيد - خلال حياته كلها بقسوة لا مثيل لها، فكلما تكشفت حقيقته وأسفرت عن عالم عظيم محب بعمق لهذا الوطن دارس لواديه وصحاريه، باحثاً فى أعماقها عن ثرواته، كانت الحملة المعادية الكارهة تضيق حلقاتها حوله.

● كان احتفاء العالم به واستقباله لمرجعيه الأعظم: جيولوجية مصر ونهر النيل كبيراً

لم يتحقق الحلم

وتكاثرت الضغوط بدءاً من حجب الأموال والأجهزة عن معمله حتى تنحيته عن التدريس للطلاب، وبلغ الأمر أن يقضى سنتين لا يجد مكتباً له بالجامعة، وهو الذى ترك عمله كأستاذ هارفارد ليعود ليدرس بوطنه حاملاً حلماً كبيراً والثقة فى القدرة على تحقيقه تتناسب مع طاقات خريج هارفارد المتقد حماسة، (... كانت الآمال والطموحات فى ذلك الوقت تسمح لنا بأن نحلم بأن نرى كلية العلوم بجامعة القاهرة نداً لزميلاتها بجامعة هارفارد أعظم الجامعات بالولايات المتحدة!) * .

وخاض معركته لتحقيق حلمه، وكانت صحارى مصر وواديها مكانها وكذا معمله الصغير فى كلية العلوم.

(كانت حياتى العامة كلها جهاداً لتحقيق أهداف آمنت بأنها يمكن أن تحقق لمصر اليسر والرخاء ولأبنائها السعادة والنماء، ودخلت من أجل ذلك معارك مع قيادات لم يكن همها إلا تحقيق

مصالحها الآنية والذاتية).

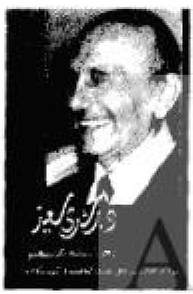
ووسط مناخ من التخلف كان عليه أن يواصل معركته فى الجامعة، ثم فى هيئة المساحة الجيولوجية حتى جاءت سنوات الانحسار وذلك (عندما توارى دور الصناعة وحل محلها اهتمام بالنشاطين الخدمى والسياحى) * .

(وهكذا انتهت علاقتى بالوظائف العامة) * .

ولم يتحقق الحلم !.

....

هذه هى السمة الأولى، فماذا نجد أيضاً عند رشدى سعيد - ما وجدناه من قبل عند طه حسين أو جمال حمدان مثلاً، إنه الفهم العميق لطبيعة ما يواجهونه من رفض وانكار وتضييق خناق، كانت المعركة عندهم دائماً مع الفساد الذى تواجهه الأمة لا مع المفسد الصغير الذى يواجههم فى موقعهم، ومع التخلف والجهل الذى يئن منه عقل الأمة ويثقل روحها لا مع جهل وتخلف فرد هنا أو هناك وضعته الظروف فى طريقهم وهكذا، وهو فهم يتناسب مع جوهرهم ومع كونهم قد اختاروا معركتهم وهى بالطبع بحجمهم ، ولم يستطع أيا كان أن يفرض عليهم معارك صغيرة لو كانوا انشغلوا بها لضاعت سنى عمرهم ولما قدموا للوطن ما قدموه.



(وإذا كان لى من فضل فى شىء، فهو يرجع إلى أننى استطعت أن أحتفظ برباطة جأشى وأن أقف أمام الصعاب والاغراءات فى صلابة) * .

الثورة وأثرها عليه

يربط رشدى سعيد أحداث حياته بأحداث وطنه والعالم.

فيذكر أن عيناه تفتحتا على النهضة الكبرى التى أحدثتها ثورة ١٩١٩ الوطنية وكانت نشأته فى ظلها وكان للنهضة الشاملة التى أحدثتها هذه الثورة على حياة المصريين أثراً مباشراً عليه، ولا سيما بعد أن تمخضت عن دستور ١٩٢٣ الذى (جاء تتويجاً لكفاح أجيال سعت لأن تأخذ مستقبلها بأيديها وأن تشارك فى حكم بلادها وأحدث صدوره نقلة كبيرة فى حياة أبنائها وبناتها، وأعادت لهم الروح وأعطت للأغلبية العظمى منهم الأمل فى مستقبل جديد، يكون أكثر أماناً فى ظل المؤسسات الجديدة التى استحدثها والتى تطلعوا إلى أن يشاركوا بها فى حكم بلادهم

وتقييد سلطة ملوكهم ومحاسبة رؤسائهم... كما أعطى للشعب الحق في اختيار حكومته وهو الحق الذي كان مطلقا في يد الملك!) * .

ويواصل رحلة عمره التي يرى في كل أحداثها رابطا بأحداث وطنه .

(كان تعييني بكلية العلوم في وقت بدا فيه الضغط الشعبي لزيادة فرص التعليم في مصر) * ، ثم تم إرساله مبعوثا ليحصل على الدكتوراه من جامعة هارفارد ويعود عام ١٩٥١ ليجد مصر في غليان حتى قامت ثورة الجيش يوليو ١٩٥٢ . وكانت فكرة بناء وطن جديد قوي جدير باسم وتاريخ مصر تلهب حماس كل محب له، وفي أول وظائفه العملية في منجم فوسفات بالقصير تفتحت عيناه على (حقيقة مأساة المصري وغربته في بلاده) * ويرى كيف كان حال مصر عندما بدأ حياته العملية (شعب مقهور محصور في واديه الضيق لا يستطيع الخروج منه إلا بتصريح .. وأمواله في أيد أجنبية تنزح أرباحها إلى خارج الحدود)* .

وكان دخوله الحياة العامة في مصر وتبوؤه بعض المنصب منها متزامنا مع صعود التوجه الاجتماعي في الستينات، وكان إبتعاده عنها متزامناً أيضاً مع انحسار هذا التوجه في السبعينات، وانتهت المطاردة التي بدأت بالحصار الوظيفي وتقارير الأجهزة إلى وضع اسمه على قوائم المطلوبين في أحداث سبتمبر ١٩٨١ .

(وعندما خرجت من وظائفي العامة، كنت أشعر بغربتي ولم تنتبني الدهشة عندما قبل الوزير استقالتي بالفرحة، من هيئة المساحة الجيولوجية).

....

والسمة التالية المهمة وهي تعد من أبرز سمات كبار مفكرينا ، بل نستطيع القول أنها ما ميزهم بالتحديد، كانت قدرتهم على الربط ما بين العلوم التطبيقية أو الثقافية ووضع مجتمعهم ، أو بتعبير آخر أن العلوم البحتة أو التطبيقية أو الثقافية بأشكالها كانت تكتسب على أيديهم قيمة حقيقية بتوظيفها وإبراز دورها الحقيقي في خدمة تطور المجتمعات البشرية ، وهو بالطبع هنا وطنهم (مصر).



شخصية العدد

● تحولت الجيولوجيا على يديه الى كائن ينبض بالحياة. فهي آمال شعب للخلاص من فقره.

أنظر إلى الطبيعة الاجتماعية والسياسية لأفكار طه حسين - وهو المفكر والمثقف رفيع المستوى (إن التعليم كالماء والهواء...) .

أنظر كيف استطاع جمال حمدان أن يجعل الجغرافيا - ذلك العلم المدرسي الثقيل الوطأة على أطفالنا - علماً ذا طابع اجتماعي جمالي يكاد يكتسب ثوباً اسطورياً في بعض الأحيان يقول : (إن قناة السويس أعظم جراحة قام بها الإنسان لوجه الأرض !!!).

(إن موقع القاهرة كعاصمة مصر من قديم الأزل - على اختلاف أسمائها - هو اختيار قامت به الآلهة) وذلك بإدخال الطابع الاجتماعي والفعل الإنساني في دراساته لجغرافية مصر بوجهيها الطبيعي والبشري.

الجيولوجيا كائن حي

وها هي الجيولوجيا تتحول على يد رشدي سعيد - إلى كائن ينبض بالحياة، إنها آمال شعب للخلاص من محنته وفقره ، إنها كنزه المخبأ الذي يحلم به، وهو كنز حقيقي لا خرافي، موجود وظواهر وجوده كثيرة ، ولا يحتاج إلى عفريت المصباح لاحضاره والحصول عليه بل إلى سواعد الرجال وعقولهم ، وتتحول الصحاري على يده وفكره إلى مكان معلوم يذكرها بتفاصيلها، وبعد توقف المصانع عن العمل لعدم وجود خامات بعد احتلال سيناء يبحث عن مصادر جديدة للخامات وكان خام الكاولين المستخدم في مصانع السيراميك والحراريات من هذه الخامات ، فيطلب من رئيس شركة تابعة لهيئة المساحة الجيولوجية التي يرأسها أن يقدم تقريراً عن امكانية وجود ذلك الخام بمنطقة ما بصحراء النوبة بجوار كلابشة، فيأتي التقرير سلبياً وأن المنطقة خالية منه، ولكن رشدي سعيد - لا يقتنع وهو العارف بصحاري مصر معرفة لمس اليد (بدا لي أن الكلام غير متماشي ومعرفتي بالمنطقة حسب ما أتذكرها عندما زرتها منذ سنوات) * . فيقوم بالسفر بنفسه إلى هناك ويجد ما توقعه ، إمدادات ضخمة للخام المطلوب وتعود مصانع الحراريات للعمل!.

فماذا لو أطل العالم على أوضاع وطنه وتساءل عن أسباب تخلفه وفقره وجهله وهو يحمل من الثروات ما يحمل.

مصر وتبديد الثروات

يقدم رشدي سعيد - في كتابه الحقيقة والوهم في الواقع



المصرى - جدول مقارن بين نصيب الفرد من الأرض والمياه والطاقة (الفحم والبترول والغاز) ثم نصيب هذا الفرد من هذه الثروات ومستوى دخله وذلك بين كل من مصر والأردن وسوريا ولبنان وإسرائيل ، فماذا نجد ؟! تأتى مصر فى مقدمة هذه الدول من حيث أنصبة الفرد من البنود المذكورة ثم (لماذا لم يعد ذلك يدهشنا؟!) تأتى فى مؤخرة هذه الدول من حيث مستوى دخل الفرد.

يقول رشدى سعيد : (والناظر إلى دول منطقة الشرق الأوسط يجد أن مصر هى الدولة الوحيدة بينها التى تجمعت لديها عناصر السكان والطاقة والمياه، ومع ذلك هى أفقرها وأقلها فى نوعية حياة أبنائها.. ثم يستطرد .. وليس لى من تفسير إلا أن مصر لم تستفد من إمكاناتها وأنها أقدمت على تبذير ثرواتها . وأريد من القارىء فى النهاية أن يتصور معى مصر وقد استفادت من ثرواتها وجعلت من بترولها خيراً على البلاد وسنداً لصناعاتها وأساساً لبناء مجتمعات صناعية تبنى حول مدن كاملة تنشأ فى مواقع استكشاف الغاز بقلب الصحراء .. إلخ) *.

....

لقد كان دوماً احتفاء العالم بمفكرينا وكبار علمائنا أو أدبائنا هو إشارة للمؤسسات الرسمية أو شبه الرسمية عندنا للاحتفاء بهم واكتشاف مدى ما يمتلكون من قيمة فكرية أو علمية أو أدبية عالية، ويتم التبارى فى عمل حفلات لهم ودعوتهم وتوزيع الأوسمة و(الدكتوراهات) الفخرية عليهم، باختصار أقصى ما يمكن عمله خلف الميكروفون أو أمام العدسات المصورة، والمفارقة الساخرة هنا هى أن تلك المؤسسات هى ذاتها التى حاربت هؤلاء الأشخاص ذاتهم المحتفى بهم، وأنكرت تميزهم وقيمة ما يقدمونه من إبداع فى أى مجال، أو فى أفضل الأحوال - تجاهلتهم وتجاهلت إبداعاتهم، وذلك قبل أن يعرفهم العالم الخارجى ويحتفى بهم، على من ينطبق ذلك؟ على الجميع دون استثناء .

لا تشذ حالة رشدى سعيد - عن القاعدة وتذكرنا بالمثل القديم الكئيب (لا كرامة لنبى فى وطنه) وهو مثل يحتاج إلى بعض التعديل، بعد احترام غالبية شعوب العالم لمفكريها ومبدعيها، حتى ولو لم يكونوا بنفس قامة مبدعينا. وقد كان



شخصية العدد

● اكسب العلماء العلوم البحتة قيمة حقيقية بتوظيفها فى خدمة المجتمعات وكان على رأسهم رشدى سعيد

احتفاء العالم به وبإبداعه عظيماً واستقباله لمرجعيه الأعظم فى مجالهما وهما جيولوجية مصر ونهر النيل كبيراً، ويدرسان باعتبارهما مرجعين أساسيين عن نيل مصر وجيولوجيتها وقد كتبا بالإنجليزية وتمت ترجمة أحدهما (نهر النيل) إلى اللغة العربية بعد ذلك ولم تتم ترجمة كتاب جيولوجية مصر إلى العربية حتى الآن !.

(وأنى أعتبر هذا الكتاب - نهر النيل - من أفضل ما كتبت تعبيراً عن حبى لمصر التى أتاحت لى حياتى العملية معرفة أرضها، وأصبحت لى كالعشيقة يزداد الهيام بها كلما ازدادت معرفتى بها) * ... و... (العيش فى الغربة بعد كل ذلك التاريخ الطويل فى مصر التى كانت محل دراستى وأبحاثى التى أخذتنى إلى كل أرجائها وعرفتنى بامكاناتها، كان أمراً صعباً) * ، فكيف وجد رشدى سعيد نفسه يكتب بغير لغته ويعيش فى غير وطنه وهو المحب له والذى أفنى حياته فى سبيله .

....



يشير رشدى سعيد - إلى ما حدث لجده حين اختلف مع الملتزم بقرية (السراقنة) الواقعة بجوار الدير المحرق بالصعيد، مما أغضب الملتزم عليه وانتهى الأمر بطرد جده مع جميع أفراد أسرته من القرية بدلاً من قطع لسانه الذى تطاول به على الملتزم وانتهى الأمر بالأسرة المطرودة فى القاهرة مع الحنين للجذور ، ذلك الحنين الذى دفع به إلى العودة للقرية بعد حوالى ثمانين عاماً من حادثة الطرد للتعرف على جذوره ويبدو أن لعنة الطرد لازمت حياته :

الخروج من الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى، عام ١٩٦٥.

الخروج من الجامعة ، عام ١٩٦٨.

الخروج من البرلمان (مجلس الشعب). عام ١٩٧٦ .

-الخروج من الاتحاد البرلمانى الدولى. عام ١٩٧٦ .

-الخروج من هيئة المساحة الجيولوجية. عام ١٩٧٨

الخروج من مصر كلها (بعد أحداث سبتمبر ١٩٨١ والتى كان فيها على قائمة المطلوب اعتقالهم).

ذلك كله كان مرة بالإنزواء ومرة بالاستقالة أو بالدفع إليها.

فانظر كيف تطرد العملة الرديئة العملة الجيدة، ولكننا نحذو حذوه ونعطى الأمر أبعاده الحقيقية ولا ننسى العالم ولكننا ننسى الوطن ونقول كما قال إنها مأساة وطن لا مأساة عالم !. ■

* كتاب : د. رشدى سعيد رحلة عمر.

ذكريات لندن

بقلم
د. عبد العظيم أنيس

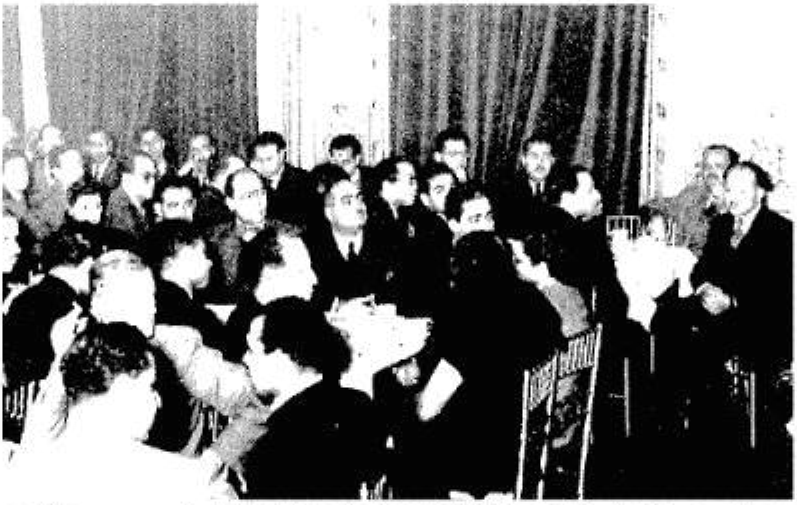
عشت فى لندن فترتين متقاربتين من حياتي، الفترة الأولى هى التى كنت أعد فيها رسالة الدكتوراه، وهى من سبتمبر ١٩٥٠ حتى سبتمبر ١٩٥٢ وبعدها عدت إلى القاهرة حيث عينت مدرسا بكلية العلوم جامعة القاهرة، قسم الرياضة البحتة.

لكننى كما سبق أن شرحت فى مقالات سابقة فصلت مع آخرين من الجامعة فى سبتمبر ١٩٥٤ بقرار من مجلس قيادة الثورة لأسباب سياسية سبق أن أوضحتها.

وجاءت لى فرصة تعيينى مدرسا بإحدى كليات جامعة لندن فى الفترة من مارس ١٩٥٥ حتى نوفمبر ١٩٥٦، وهكذا عشت الفترة الثانية فى لندن حتى جاء تأميم قناة السويس فى يونيو سنة ١٩٥٦ فآثرت الاستقالة من عملى فى لندن حتى أتفرغ للعمل الجماهيرى الذى كان مطلوبا فى بريطانيا للدفاع عن وجهة نظر مصر فى تأميم القناة.

ولقد فكرت فى الفترة الأولى - فترة دراسة الدكتوراه - كيف يمكن خدمة شعب مصر ونحن فى الخارج؟، وانتهيت مع زملاء آخرين إلى فكرتين أساسيتين: الأولى أن نعرف الشعب البريطانى بحقيقة ما يجرى فى مصر قدر الإمكان، من وجهة النظر الشعبية، أى من وجهة نظر العمال والفلاحين والطبقة الوسطى وخصوصا شرائحها المتدنية.

والفكرة الثانية هى أن نكون على اتصال بالأحداث المهمة التى تجرى فى مصر وأن نبدى رأينا فيها قدر الإمكان حتى يشعر المسئولون فى مصر أن طلاب البعثات المصريين



كان الطلاب فى حالة غليان أثناء المؤتمر الأول الذى انعقد فى ٢٨ يناير ١٩٥٢ بالنادى المصرى بعد حريق القاهرة

يفكرون فى مصر ويطالبون أن يأخذ رأيهم فى الحسبان.

تشكيل لجنة وطنية

وقد وصلت إلى قناعة أن الخطوة الأولى لتحقيق هاتين الفكرتين تتمثل فى تشكيل لجنة وطنية تكون بمثابة المحرك الأول لكل هذا العمل، وهكذا تشكلت اللجنة الوطنية من الدكتور فايق فريد والدكتورة حكمت أبوزيد (التى أصبحت وزيرة الشئون الاجتماعية خلال حكم عبدالناصر) والدكتور محمد عبدالحليم وكاتب هذه السطور.

وكان العمل الأول لنا هو إصدار نشرة غير دورية توزع على النقابات البريطانية اسمها «السلام والاستقلال» وكان لهذا الاسم قصة أود أن أشرحها، لقد سبقنا فى هذه العمل الصديق عبدالمعبود الجبيلى الذى كان يدرس لدكتوراه الدولة فى معمل كورى بباريس، وقد أرسل لى نسخة من نشرته التى كانت تكتب بالفرنسية طبعا وتوزع على النقابات الفرنسية وتحتوى على المهم من أخبار مصر التى يهمنا إطلاع الرأى العام الأوربى عليها.

وأرسل لى عبدالمعبود نسخة من نشرته وابتدأنا فى أول الأمر بترجمتها إلى الانجليزية وتوزيعها على النقابات البريطانية بالبريد، ثم أخذنا بعد ذلك فى تغيير مادة نشرتنا عن نشرة باريس وإن احتفظنا

بالاسم نفسه «السلام والاستقلال».

كما قمت عند وقوع أحداث مهمة في مصر بكتابة مقال تفسيري في صحيفة الحزب الشيوعي الانجليزي - الديل ووركر باسم مستعار هو «ص. الأيوبي» S. Aouby ولكن لم يكن للجنة الوطنية علاقة بهذا العمل.

أما خدمة الفكرة الثانية التي تمثلت في أن نكون على صلة بأحداث مصر وأن نكون رأينا قدر الإمكان معروفا وذا تأثير على هذه الأصوات فقد تمثل ذلك في دعوة اللجنة الوطنية طلاب البعثات في مدن بريطانيا المختلفة إلى الاجتماع في النادي المصري بلندن ومناقشة هذه الأحداث ثم بإرسال رأينا إلى المسئولين في مصر بعد ذلك.

وقد حققت هذه الفكرة نجاحا كبيرا، ونجحنا في تنظيم عدة مؤتمرات في لندن في المناسبات الوطنية المختلفة، في مقدمتها مناسبة قيام الوزارة الوفدية بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وحوادث الصدام بين قوات البوليس المصري والجيش البريطاني في الاسماعيلية، وبالطبع أعلنا تضامننا مع إلغاء المعاهدة وأدنا العمل البريطاني الوطني في أحداث الاسماعيلية.

أكبر مؤتمرين

إلا أن أكبر مؤتمرين دعونا إليهما وتوافد الطلاب المصريون من كافة المدن لحضورهما فكانا بمناسبة حريق القاهرة في يناير ١٩٥٢ ثم بمناسبة وقوع الثورة في يوليو ١٩٥٢.

في المؤتمر الأول الذي انعقد في ٢٨ يناير ١٩٥٢ (بعد حريق القاهرة) كان الطلاب في حالة غليان، ومع أننا لم نكن نعرف على وجه اليقين من هم الذين قاموا بعملية الحريق، فإن شكوكنا آنذاك كانت حول دور السراي الملكية في هذه العملية البشعة للتخلص من الوزارة الوفدية لكننا بالطبع لم نكن نملك أدلة حاسمة، المهم أن هذه الشكوك انعكست في المؤتمر حين قام أحد طلاب البعثات الدكتور عبدالحميد أمين نجل الكاتب المعروف أحمد أمين وطالب الملك فاروق أن يتنحى عن العرش، واحتبست الأنفاس بعد سماع كلمة عبدالحميد، ومما زاد من الحرج أن وكيل مكتب البعثات (دكتور عبدالعزيز عتيق) كان حاضرا المؤتمر، وهو بالمناسبة زوج شقيقة الدكتور عبدالحميد أمين!.

المهم انتهى المؤتمر بسماع إقالة وزارة مصطفى النحاس، وبقينا شهورا عدة في حالة غليان وإن كنا لانعرف ماذا نفعل.



الاشتراك فى الاجتماع الجماهيرى بميدان الطرف الأغر بلندن فى ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ احتجاجا على العدوان الثلاثى

حتى فوجئنا بوقوع ثورة الجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وقد أثار هذا الحدث الكبير حيرتنا فى مبدأ الأمر، إذ كيف يستولي الجيش على السلطة والقوات البريطانية موجودة فى القنال مالم يكن هناك تنسيق بينها وبين قادة هذا العمل؟.

كان هذا الخاطر الأول لنا، لكننا سمعنا أن هناك ضابطا (أحمر) فى قيادة الثورة هو خالد محيى الدين، وهذا يناقض الخاطر الأول.

واتجهت خواطرنا أيضا إلى دور أمريكى فى هذه الحركة يوم أذيع أن على صبرى كلف بالاتصال بالسفارة الأمريكية.

لكننا حزمنا أمرنا فى نهاية الأمر بتأييد الثورة عندما أعلن عن رحيل الملك وتنازله عن العرش، وعن قانون جديد للإصلاح الزراعى، واتخذ مؤتمرنا قرارا بهذا التأييد وأرسلت به برقية إلى الإذاعة المصرية حيث أذيع على الفور.

● ● ●

والآن أتحول إلى الفترة الثانية التى عشتها فى لندن مدرسا بإحدى كليات الجامعة.

لقد وصلت إلى لندن لاستلام عملى بالجامعة في فبراير (أو مارس) ١٩٥٥ قادما من بيروت، وكنت قد غادرت القاهرة في نوفمبر ١٩٥٤ (بعد فصلى من جامعة القاهرة) لتدريس مقرر فى الإحصاء باللغة

العربية فى فرع معهد الإحصاء الدولى ببيروت لمدة ثلاثة شهور.

وقد قبلت القيام بهذا العمل فى انتظار قرار اختيارى أو اختيار غيرى فى وظيفة لندن، ولحسن الحظ قررت الكلية اختيارى وأرسلت لى خطابا على بيروت بذلك، وكانت فترة بيروت هى الفترة التى كتبت فيها مقالاتى الثلاثة عن الرواية المصرية واتفقت فيها مع دار نشر بيروتية على نشر كتاب (فى الثقافة المصرية) وهو الكتاب الذى احتوى على مقالاتى ومقالات الصديق محمود أمين العالم فى النقد الأدبى، وتكفل الصديق اللبنانى محمد دكروب بالإشراف على إخراجه كما قام الشهيد حسين مروة بكتابة مقدمة، وقد أثار هذا الكتاب فى السنوات الأولى لصدوره ضجة كبيرة فى أوساط الشباب.

المهم تفرغت فى لندن لعملى العلمى من إعداد المحاضرات والتركيز على البحوث بحيث لم يكن عندى وقت للعمل السياسى، وكنت أكتفى فى ذلك بحضور الاجتماعات السياسية المهمة، وبتوثيق علاقتى بحركة «تحرير المستعمرات» التى كانت بمثابة مظلة واسعة تحطم جميع أعوان اليسار المعادى للإستعمار بقيادة نائب عمالى يسارى معروف فينر بروكواى، وكان اهتمام هذه الهيئة الأساسى بالمستعمرات البريطانية فى افريقيا انذاك مثل غانا وأوغندا ونيجيريا.... إلخ.

وعند انتهاء عملى بالكلية فى أواخر يونيو ١٩٥٢ قررت الاستجمام أنا والعائلة (زوجتى وابنى منى) فى جزيرة من جزر المانش تدعى جيرنسى فيما أذكر، ذهبنا لقضاء شهر يوليو هناك، وتمتعنا بجمال الطبيعة، وبجو الريف الذى افتقده دائما باعتبارى قاهرى قح، مثلا أتذكر أن الخضرة والأبقار كانت تملأ مساحة الفضاء أمام الفندق الذى نزلنا فيه.

تأميم القناة

حتى جاء يوم فى يوليو قضيناه بطوله خارج الفندق وعندما عدنا فى المساء ونزلنا لتناول العشاء كالعادة فى قاعة الطعام فوجئنا بالحاضرين وكأن على رؤوسهم الطير، لكن صديقا هنديا انحنى علىّ وقال بصوت خافت «ألم تسمع» لقد أعلن عبدالناصر تأميم قناة السويس»، ولم أصدق فى مبدأ الأمر وحسبته يهزل كالعادة، ولكنه أكد الخبر وطلب منى أن أسمع B. B. C للتأكد.

وقضيت تلك الليلة دون نوم عمليا، أفكر ماذا أعمل فى مثل هذا الوقت،



فى حفل تكريم بطل الاسكواش العالمى محمود عبد الكريم أبريل ١٩٥١

هل أستقيل من عملى مثلا وأتفرغ للدفاع عن تأميم القناة؟.

وفى الصباح اتصلت بسكرتيرة «حركة تحرير المستعمرات» وهى سيدة انجليزية تمتاز بالنشاط والعمل الجماهيرى الواسع، وقالت لى: أين أنت؟، إننا نبحث عنك فى كل مكان، لأننا فى حاجة إلى مثقف مصرى يشرح لأعضاء النقابات فى الاجتماعات التى نعدها فى المدن المختلفة وجهة نظر مصر، قلت: إننى سوف أعود إلى لندن بعد يومين.

وكانت هذه المكالمة الهاتفية حاسمة فى اتخاذ قرارى بالاستقالة من عملى منعا لإحراج كليتى من ناحية، ولأخذ كامل حريتى فى هذا النشاط الجديد، وأبرقت إلى الصديق محمود العالم بقرارى الاستقالة فى اليوم نفسه الذى أرسلت فيه خطاب استقالتى لعميد الكلية.

نشاط مكثف دفاعا عن القناة

وعدت إلى لندن، وبدأت أسافر إلى مدن بريطانيا المختلفة وفق الجدول الذى وضعته «حركة تحرير المستعمرات» للحديث فى اجتماعات النقابات العمالية.. فى مانشستر، وشفيلد، وأدنبرة، وليفربول، وبرمنجهام.... إلخ، وتصادف حضور اثنين من العاملين فى الإذاعة المصرية هما عبدالعزيز فهمى ويحيى أبوبكر فقاما بحضور بعض هذه

الاجتماعات وتسجيل ماجرى فيها، خصوصا الكلمات التي كنت ألقيها دفاعا عن التأميم وشرحا للمظالم التي حاقت بمصر عند بناء القناة.

والغريب في كل هذا النشاط أن السفارة المصرية في لندن لم تحاول أن تتصل بي لمساعدتي، وأنا شخصيا لم أكن أعرف أحدا في السفارة، وكنت أخشى من الاتصال بالسفارة باعتباري مفصولا من جامعة القاهرة بقرار لمجلس قيادة الثورة، أي أن السفارة سوف تعتبرني - إن اتصلت بأحد فيها - معاديا للنظام في القاهرة.

وقد تبينت صحة هذه المخاوف عندما فوجئت وأنا في قمة نشاطي هذا للدفاع عن تأميم القناة باتصال هاتفي من الملحق العسكري في السفارة المصرية يرجوني أن أمر عليه في مكتبه.

كان آنذاك قد تحدد الاجتماع الجماهيري الكبير للبريطانيين في ميدان الطرف الأغر أواخر أكتوبر، وكان قد أعلن عن المتكلمين في هذا الاجتماع وكنت منهم فإذا بالملحق العسكري يطلب مني أن أعتذر عن الاشتراك في هذا الاجتماع الكبير!، وفيما يبدو خوفا من أن أهاجم النظام في مصر، ولكني رفضت طلبه وقلت له إن الاجتماع الذي سوف يبدأ بمظاهرات من ماربل أرش غدا تنتهي عند الطرف الأغر، ويضم خمسين ألفا من البريطانيين، فرصة ذهبية للدفاع عن تأميم القناة فكيف يمكن أن أعتذر عنه!.

اجتماع الطرف الأغر

وبالفعل حدث الاجتماع الذي تكلم فيه نواب حزب العمال في ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ كما تكلمت فيه وكان حزب العمال معارضا للحرب، والغريب أنني بعد عودتي إلى القاهرة في أوائل ديسمبر ١٩٥٥ فوجئت بشخص يسلم عليّ بحرارة في مترو مصر الجديدة وهو في ملابس مدنية، ولم أعرف في مبدأ الأمر من هو وسألني: ألا تتذكرني؟، فقلت: آسف مش واخد بالي.

وإذ به الملحق العسكري الذي كان يطلب مني ألا أتحدث في اجتماع الطرف الأغر، وإذ به يعتذر عن طلبه هذا ويقول إنها كانت تعليمات من القاهرة وأنه أدرك خطأها بعد ذلك.

ولقد كان الدكتور مصطفى كمال حلمي - رئيس مجلس الشورى اليوم - من حضور هذا الاجتماع الجماهيري وقد سعى إلى مهنئا بعد سماع كلمتي، وطبعا فإن صداقتنا قديمة لأننا خريجو كلية العلوم.

ومن المفارقات المثيرة للضحك أن إحدى الصحف البريطانية وأظنها الديلي تلجراف ـ كتبت بعد اجتماع الطرف الأغر مقالا أدعت فيه أن عبدالناصر أرسل واحدا من مساعديه الإعلاميين للتحدث في الاجتماع، وربما كان المقصود الأستاذ محمود أنيس الذى كان يعمل فى مصلحة الاستعلامات.

ثم أدركت الصحيفة خطأها واتصل بى أحد محرريها تليفونيا وتأكد أننى مدرس بلندن فكتب اعتذارا بعد ذلك عن هذا الخطأ.

وقررت العودة إلى مصر أنا وأسرتى، خصوصا أن الأجهزة البريطانية بدأت تطاردنى وتسأل عنى أصحاب المنازل التى أقمت بها، ولكن كيف الذهاب إلى مصر، ومطار القاهرة مغلق بسبب الحرب، ولايوجد طيران مدنى بين مصر وبريطانيا؟.

لامفر إذن من الذهاب جوا إلى الخرطوم ومن هناك نتدبر الأمر إلى القاهرة.

وبالفعل وصلنا إلى الخرطوم وبقينا فيها مع عدد من الأصدقاء والأقارب حتى جاءت أول طائرة مصرية أخذتنا إلى القاهرة فى أوائل ديسمبر ١٩٥٦ . ■

كلمات ساخنة

● الكون مسرح ولكن توزيع أدوار المسرحية سيئ

(أوسكار وايلد)

● كل شريعة تؤسس على فساد الأخلاق فهى شريعة باطلة

(سعد زغلول)

● لو كان العقل يشترى لتغالى الناس فى ثمنه

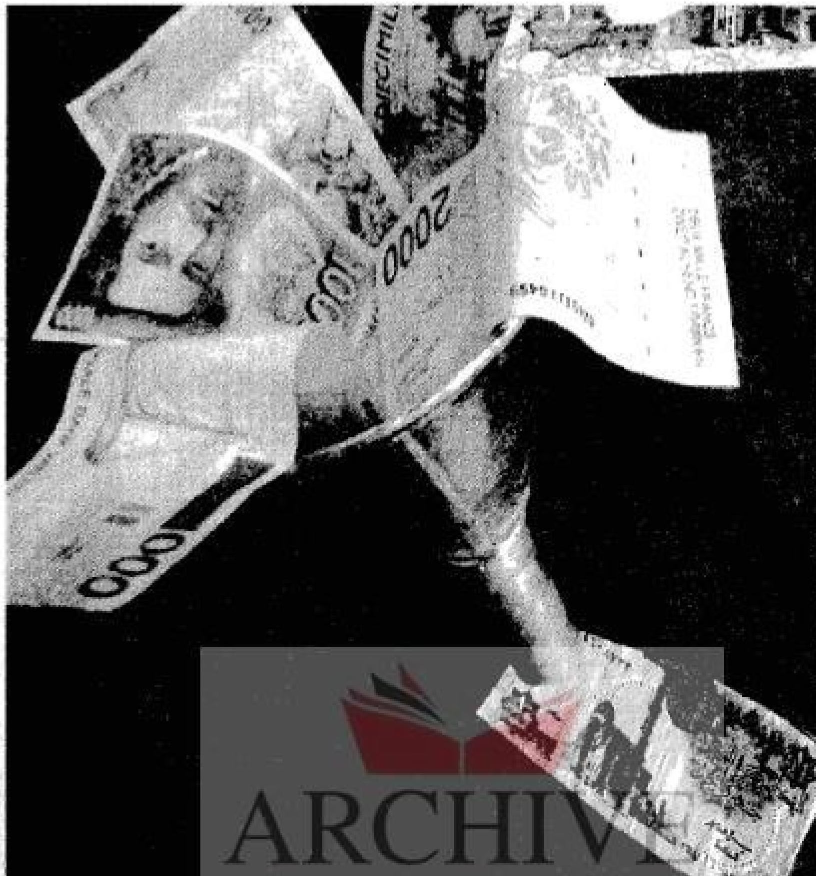
(الحسن بن على)

● يشعر الرجل بقوته فيغدق رحمته على المرأة.. وتشعر المرأة بضعفها فتقسو على الرجل

(برنارد شو)

● ليست العظمة فى ألا تسقط أبداً بل فى أن تسقط ثم تنهض من جديد

(كونفوشيوس)



٦٢
الهلال
محرم ١٤٢٢هـ - أبريل ٢٠٠١م

حيرة الاقتصاديين

بين زيادة الدخل وإعادة توزيعه

بقلم
د. جلال أمين

عندما بدأ الاهتمام بقضايا التنمية والتخلف الاقتصادى ، منذ نحو خمسين عاماً ، انشغل الاقتصاديون بقضية زيادة الدخل القومى ولم يعيروا اهتماما كبيرا لقضية إعادة توزيع هذا الدخل .

وقد بدا هذا الاختيار حينئذ واضحا تماما ومعقولا إلى حد كبير . فعندما تكون الكعكة صغيرة إلى هذا الحد ، ما أهمية أن يكون نصيبى منها أكبر من نصيبك أو العكس ؟ هكذا كان حال الدخل القومى للدولة المتخلفة ، كان صغيرا لدرجة أنه لو كان توزيعه بالتساوى التام بين الناس لما استطاع أحد أن يشبع أكثر من حاجاته الأساسية . كان متوسط الدخل فى مصر حينئذ ، أى فى منتصف القرن العشرين ، لا يزيد على ما يعادل مائة دولار ، ومن ثم كان هذا ما يمكن أن يحصل عليه كل مصرى لو تم توزيع الدخل القومى المصرى بالمساواة الكاملة ، فما الذى يدعو إلى الاغتباط أو الحماس فى هذا ؟ إنه توزيع للفقر أكثر مما هو توزيع للدخل .

إلى جانب هذا كان هناك أيضا ذلك الاعتقاد القديم ، الذى يرجع إلى البدايات الأولى لعلم الاقتصاد ، أى إلى ما قبل قرنين من الزمان ، بأن هناك تعارضا بين إعادة توزيع الدخل لصالح الفقراء وبين زيادة الدخل القومى فى المستقبل ، أو بعبارة أخرى أن سوء توزيع الدخل هو لمصلحة الفقراء فى الأجل الطويل . وكان منطق هذا الرأى يجرى على النحو التالى : التنمية تتوقف على الاستثمار ، والاستثمار يحتاج إلى إدخار ، والادخار لا يقوم به إلا الأغنياء ، إذ أن الفقراء مضطرون لانفاق كل دخلهم على الاستهلاك ، إذن فليتحمل الفقراء الآن سوء توزيع الدخل ، فإن هذا الغنى الفاحش لدى البعض ، سوف يتمخض فى النهاية عن زيادة الادخار والاستثمار ، ومن ثم ينمو الدخل القومى ، فيعود النفع فى النهاية على الجميع ! أغنياء وفقراء .

كانت هذه الحجة هى الأصل الذى خرجت منه النظرية التى كثر ترديدها فى الخمسينات والستينات من القرن



العشرين، والمعروفة باسم نظرية التساقط (trickling - down theory) أى أن ثمار التنمية لابد أن تتساقط إلى أيدى الفقراء فى النهاية حتى لو تركزت فى البداية فى أيدى حفنة من الأغنياء . وقد استمدت هذه النظرية قوة جديدة ودعما من كتابات الاقتصادى والاحصائى الأمريكى سيمون كوزنيتس (S.kuznets) الذى نشر فى أوائل الخمسينات إحصاءات تدل على أن تاريخ الدول المتقدمة اقتصاديا قد مرت فى بداية نموها الاقتصادى السريع بفترة ازداد فيها توزيع الدخل سوءا ، ولكنه أخذ بعد ذلك فى التحسن ، مما قد يرجح وجود قانون اقتصادى مؤداه أنه فى غمار عملية النمو الاقتصادى ، يزداد توزيع الدخل سوءا فى البداية ثم يميل بعد فترة إلى المزيد من المساواة ، وذلك عندما تبدأ ثمرات النمو فى «التساقط إلى أسفل» فيعم النفع على الفقراء أيضا . وكان التفسير الأساسى الذى قدم لنظرية التساقط هذه هو أن المراحل الأولى من التنمية تتسم بوجود فائض كبير من الأيدى العاملة المستعدة للعمل بمستوى من الأجر منخفض للغاية ، وتظل الأجور منخفضة طالما استمر هذا الفائض من العمالة كبيرا ، بينما تتركز الأرباح المتولدة من الاستثمارات الحديثة فى أيدى عدد صغير من أصحاب المشروعات . فى هذه الفترة أيضا تكون نقابات العمال ضعيفة بسبب وجود هذا الفائض نفسه من القوة العاملة، واستعداد العمال لقبول الأجر المنخفض ومن ثم يصعب جمع شمل العمال وتنظيمهم فى حركة تطالب برفع الأجور . يستمر ذلك طالما استمر وجود هذا الفائض من العمال ، ولكنه متى بدأ ينضب وأخذت ندرة العمال فى الظهور ، يبدأ العمال فى المطالبة بأجور أعلى ، وينجحون فى ذلك بسبب هذه الندرة ، وإذا بنصيب العمال من الدخل القومى يزيد على حسب نصيب أرباب العمل . ويأخذ توزيع الدخل فى التحسن .

الدعوة لرفع معدلات التنمية

ليس من الواضح بالضبط لماذا بدأ هذا الاهمال النسبى لقضية توزيع الدخل يتراجع فى أواخر الستينات ومطلع السبعينات ، ولكن من المؤكد أن هذا التغير قد حدث بالفعل فى ذلك الوقت ، وإذا بالدعوة إلى الاهتمام بإعادة التوزيع يعلو صوتها شيئا فشيئا حتى كاد يطغى على صوت الداعين إلى رفع معدلات التنمية . تركز هذا التغير فى فترة لا تزيد على العشر سنوات ، ولنقل أنها كانت تقع بالتقريب بين ١٩٦٨ ، و١٩٧٥ . إذ شهدت تلك السنوات ظهور كتابات مهمة حظيت بالشهرة والانتشار بين صفوف المهتمين بقضايا التخلف والتنمية ، تشكك فى جدوى زيادة معدل التنمية إذا لم يستفد منه الفقراء ، وتدعو إلى تقييم أداء الدول

المتخلفة لا على أساس ما يحدث لمتوسط الدخل وحده ، بل ولا حتى على أساس متوسط الدخل على الإطلاق ، بل على أساس ما يحدث للفقراء بالذات ، فإذا بهدف «رفع مستوى العمالة» يوضع على نفس المستوى ، بل وأحيانا على مستوى أعلى من هدف «زيادة متوسط الدخل» ، وإذا بشعار «اشباع الحاجات الأساسية»، الذى رفعته وأكدت عليه منظمة العمل الدولية فى ذلك الوقت ، يكتسب شيوعا واحتراما لم يكن يحظى به طوال العقدين السابقين ، وإذا بالبنك الدولى نفسه يقوم بنشر كتاب حظى برواج واسع اسمه «إعادة التوزيع مع النمو» (Redistribution with Growth) يؤكد فيه على أهمية إعادة توزيع الدخل ، بل ويقدم مؤشراً جديداً يجرى على أساسه تقييم أداء الدول فى مضمار التنمية ، وإذا بهذا المؤشر الجديد يضم ما حدث لمتوسط الدخل وما حدث لتوزيع الدخل فى رقم واحد ، يصعب التمييز فى داخله بين تطور أحدهما وتطور الآخر .

هناك عدة تفسيرات محتملة لهذا التغير فى النظرة إلى توزيع الدخل . فمن ناحية كانت الاحصاءات الواردة فى أواخر الستينات عما تم تحقيقه بالفعل فى دولة بعد أخرى من دول العالم الثالث ، تبين بوضوح أن الزيادة فى متوسط الدخل كثيرا ما اقترنت بزيادة عدد المتبطلين وزيادة فقر الفقراء . فبدأ التساؤل عن جدوى زيادة متوسط الدخل إذا كان هذا هو الحال . إزاء هذه الإحصاءات والبيانات الحديثة وقف روبرت ماكنمارا ، الذى كان حينئذ رئيسا للبنك الدولى ، ليقول عبارة بليغة هى أن «المعونات المقدمة للدول الفقيرة لانفع فيها إلا إذا وصلت إلى أيدى الفقراء» . كانت هذه السنوات أيضا سنوات مدهشة فيما يتعلق بالحركات الباهرة التى قام بها الشباب الأوربى والأمريكى ، ابتداء مما حدث فى الجامعات الفرنسية فى ١٩٦٨ ، ثم انتشر من دولة أوربية لأخرى ثم عبر الأطلنطى إلى جامعات وشوارع الولايات المتحدة . كان هؤلاء الشبان يرفعون شعارات غريبة تماما ويصعب فهمها إلا إذا استعدنا إلى الأذهان الظروف الاقتصادية التى كانت تمر بها المجتمعات الغربية فى تلك الفترة . كان عقدان من النمو الاقتصادى البالغ السرعة قد مرا على انتهاء الحرب العالمية الثانية ، أتمت أوربا خلالهما إعادة بناء ما دمرته الحرب ، وارتفعت الدخول فى أيدى الجميع ، وازدهرت خلالهما دولة الرفاهة التى جعلت الخدمات الضرورية متاحة لكل من يحتاج إليها ، مجانا أو بأسعار زهيدة. فى منتصف الستينات أطلق رئيس الوزراء البريطانى ماكميلان عبارته التى ذاعت واشتهرت لأنها كانت تعبر عن حقيقة لا شك فيها ، ليس فى بريطانيا وحدها بل وفى العالم الغربى بأسره ، وهى (We never had it so good).

أى «أننا لم ننعم قط فى أى يوم من



الأيام بمثل ما تنعم به الآن من رخاء !».

كانت دول أوربا والولايات المتحدة في حالة عمالة كاملة ، والبطالة في أدنى مستوياتها، وكان معدل التضخم متواضعا، والثقة عالية بين الشباب في أنهم لن يصادفوا أي مشكلة في العثور على وظائف مجزية متى أتموا دراستهم أو تدريبهم ، فلم يعد هناك يأس حتى من تأجيل البحث عن وظيفة ، والطواف بدلا من ذلك في رحلة حول العالم للنزهة والإطلاع على ما يجرى خارج بلادهم .

في مثل هذه الظروف من الممكن أن يتساءل الناس عن جدوى المزيد من رفع مستوى الاستهلاك ، وعن نقائص المجتمع الاستهلاكي بدلا من مزاياه ، بل وعن جدوى رفع معدل التنمية أصلا .

كانت هذه الفترة أيضا هي التي شهدت بداية الاهتمام على أي نحو جدي ، بقضية البيئة . فجرها كتاب صغير ولكنه أحدث دويا واسعا هو كتاب «حدود النمو» (The Limits of Grow) الذي أصدرته مجموعة من العلماء والمفكرين الايطاليين من أعضاء «نادي روما» ، وبدأ وكأن العالم الغربي قد اكتشف لأول مرة أن التقدم التكنولوجي ليس بلا حدود ، فهو محدود من ناحية بكميات الموارد الطبيعية المتاحة ، وهي على عكس ما كان يتصور ، قابلة للنضوب ، ومحدود من ناحية أخرى بقدرة الإنسان على تحمل ما ينشأ عن زيادة السلع ونمو الانتاج من تلويث البيئة الطبيعية ، وهي على عكس ما كان يتصور أيضا ، قدرة محدودة بدورها . سرعان ما تلا ذلك ظهور كتاب آخر حقق أيضا انتشارا واسعا ويحمل عنوان «الحدود الاجتماعية للنمو» (The Soeial Limits of Growth) ، ويشرح كيف أن التنمية ليس لها فقط حدود طبيعية بل لها أيضا حدود اجتماعيه ، تتعلق بما ينشأ عنها من «تلويث» العلاقات الاجتماعية وإفسادها .

نقد المجتمع التكنولوجي

من الكتب التي ظهرت في هذه الفترة أيضا وحققت نجاحا كبيرا كتاب الاقتصادي البريطاني ميشان (E. Mishan) بعنوان «تكاليف النمو الاقتصادي» (The Sosts of Er-onmoic Growth) الذي انتقد فيه بشدة ذلك الاهتمام المبالغ فيه بزيادة السلع والخدمات ، وكتاب آخر باسم «الأصغر هو الأجمل» (Small is Beautiful) للكاتب البريطاني ذي الأصل الألماني شوماخر (E. F. Schmacher).

ذهب فيه صاحبه ، كما يدل عنوانه إلي نقد المجتمع التكنولوجي الحديث وأخذ يتغنى فيه بالمجتمع الأصغر والأبسط وذي الحاجات المحدودة والمتجرد من النهم الاستهلاكي ، وكتاب هربرت ماركيوز (Herbert Mar-cuse) بعنوان «الإنسان ذو البعد

الواحـــد» (One Dimensional) والذى ينتقد أيضا ما فعله المجتمع الاستهلاكى بالإنسان .

عندما كنت تسأل فى ذلك الوقت شابا جامعيا أوربيا أو أمريكيا عن اهتماماته أو عن التزامه الفكرى وموضوع ولائه ، كانت الاجابة فى كثير من الأحيان تدور حول ما شاع تسميته «نبوغية الحياة» (Quality of Life) ، وهو تعبير يؤكد كما ترى على النوع لا على الكمية ، على طبيعة السلع والخدمات وليس على حجمها ، على محتوى الناتج وليس على معدل نموه .

ظهر أيضا فى الغرب اهتمام مفاجىء بالأفكار الاشتراكية والماركسية مما كان ينظر إليه شذرا قبل عشر سنوات فقط . كان المثقفون المسيسون فى العالم الثالث قد قرأوا خلال الخمسينات والستينات كتب ماوتسى تونج ، وتعاطف كثيرون منهم مع أفكاره عن قيام ثورة اشتراكية فى مجتمع من الفلاحين ، أو عن التمييز بين التناقض الرئيسى والتناقضات الثانوية ولكن يبدو أن المسيسين فى العالم الغربى لم يكتشفوا هذه الأشياء إلا فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات أى فى هذه الفترة التى نتكلم عنها الآن . كان غريبا أن ترى الشباب فى ذلك الجزء من العالم الذى وصل إلى هذا المستوى من الرخاء يقبلون هذا الاقبال على كتب ماركس وماو ، ويحتفلون كل هذا الاحتفال بما كتبه وفعله جيفارا فى أمريكا اللاتينية ، وكأنهم يسمعون لأول مرة عن شىء اسمه الاشتراكية وعدالة توزيع الدخل .

* * *

كان كل هذا شيقا وباعثا على الاعجاب : أن يشغل شباب الغرب الاثرياء أنفسهم بقضايا الفقراء والمضطهدين فى داخل بلادهم وخارجها ، ولكن هذه الفترة لم تدم طويلا للأسف ، بل سرعان ما ارتدت هذه الموجة على أعقابها وبدأ شباب الغرب وشيوخه على السواء ينشغلون بأشياء أخرى . هل كان سبب هذا الارتداد ظهور التضخم الجامح فى الغرب ابتداء من منتصف السبعينات ؟ ذلك التضخم الذى أدى إلى تهديد مستويات المعيشة وبعث فى النفوس الخوف مما يمكن أن يأتى به المستقبل ، بدرجة لا تسمح بالتعاطف والانشغال بقضايا الآخرين من الفقراء ؟ لقد اقترن هذا التضخم الجامح أيضا بارتفاع معدلات البطالة ، وبزيادة عدد العاجزين عن إشباع بعض الحاجيات الأساسية ، وخاصة السكن الملائم ، وباشتداد حدة التنافس بين الباحثين عن عمل من خريجى الجامعات ، مما لم يكن ليترك لهم وقتا لقراءة كتب ماو أو جيفارا ، أو للقلق من أن الإنسان لم يعد له أكثر من بعد واحد .

الفقراء مسئولون عن فقرهم

كان التحول الذى حدث فى اتجاه الفكر السياسى والاقتصادى السائد فى الغرب منذ أواخر السبعينات ، ولا يزال سائداً حتى اليوم ، تحولا مدهشا حقا ، ومن الشيق أن نحاول تفسيره . أقصد



بهذا التحول ما سمى بظهور وازدهار أفكار «اليمين الجديد» ، والذى عبرت عنه بكفاءة ملحوظة السيدة تاتشر فى بريطانيا والسيد ريجان فى الولايات المتحدة . لقد عاد هذا اليمين ، الذى سمى جديداً ، إلى تكرار ما كنا نسمعه قبل ذلك الانقطاع القصير الباهر الذى حدث فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات ، من كلام قديم للغاية يعود إلى أيام آدم سميث والاقتصاديين التقليديين ، عن الانسجام التام بين مصلحة الفرد ومصالح المجموع، بين مصالح الأغنياء والفقراء ، والذى عبر عنه مدير شركة جنرال موتورز فى عبارة عصرية عندما قال «إن ما يحقق مصلحة جنرال موتورز لابد أن يحقق أيضا مصلحة الولايات المتحدة الامريكية . كما بعثت الحياة من جديد فى أفكار تنتمى إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، كنا نظن أنه قد تم تفنيدها ودحضها إلى الأبد ، وهى أفكار «الداروينية الجديدة» التى تدور حول إلقاء المسئولية عن الفقر على الفقراء أنفسهم ، وتبرر ثراء الأثرياء بأنهم «أكثر صلاحية للبقاء مثلما كان داروين يفسر بقاء بعض أنواع الحيوانات وفناء البعض الآخر نظرية «البقاء للأصلح» .

أما البنك الدولي وصندوق النقد الدولي فقد عادا إلى ترديد «نظرية التساقط» من جديد، فالمهم هو النمو وليس التوزيع، والانشغال بقضية توزيع الدخل يكاد يكون بمثابة تضييع الوقت فيما لا طائل من ورائه ، بل يكاد يكون عملا مضرا إذ أنه يعطل التنمية ويخفض معدل زيادة الدخل القومي . وسوف يعم الرخاء، على أية حال ، على الجميع ، فى الوقت المناسب عندما تتساقط ثمرات التنمية من أيدى الأغنياء ، ليس بالإجبار ، بل بطريقة طبيعية تماما، عندما يشغلون العدد الكافى من العمال ويجدون من مصلحتهم رفع مستوى الأجور .

انحسار الاهتمام بعدالة التوزيع

لابد أن يكون هذا البعث الجديد للتركيز على النمو على حساب التوزيع، ذا علاقة وثيقة بظاهرة نمو ظاهرة الشركات متعدية الجنسيات وزيادة ناسها ونفوذها ، وانتشار نشاطها فى مختلف أركان الكرة الأرضية . فخروج هذه الشركات بنشاطها بدرجة متزايدة

إلى العالم الخارجي ، وتجاوزها حدود دولتها الأم بدرجة لم تعهد من قبل ، كان هو نفسه عاملا أساسيا في انخفاض مستويات العمالة داخل الدول الصناعية وارتفاع مستويات البطالة فيها ، ومن ثم زيادة التفاوت في الدخول بعد عدة عقود مال خلالها هذا التفاوت إلى الانكماش . من ناحية أخرى كان إصرار هذه الشركات على القفز فوق حدود دول العالم الثالث ، واختراق أسواقها ، والإفادة مما لديها من عمالة رخيصة نسبيا ، كان ينطوي على إضعاف لقوة الدولة الوطنية في العالم الثالث وتخفيض قدرتها على حماية فقرائها ، ومن ثم تخفيض قدرتها على فرض حد أدنى للأجور وتقديم الدعم لبعض السلع والخدمات الأساسية وعلى إعادة توزيع الدخل عن طريق الضرائب أو التأميم أو إعادة توزيع الأراضي الزراعية .. الخ

في مناخ كهذا كان لابد أن ينحسر تيار الاهتمام بعدالة التوزيع وأن يوضع التأكيد كله على نمو الدخل الاجمالي . ففي هذا الأمر بالذات ، تنمية الدخل الاجمالي ، تكمن عبقرية الشركات متعدية الجنسيات ، وليس في خلق فرص عمالة جديدة أو في اشباع الحاجات الأساسية للفقراء . فإذا كان النمو وليس إعادة التوزيع هو موطن عبقرية هذه الشركات ، فليتغن الجميع إذن بالنمو ، ولينتظر إعادة التوزيع بعض الوقت ريثما يحل وقت «تساقط» ثمرات النمو .

***

لا يسع المرء عندما يتأمل ما يحدث الآن لقضيتي التنمية وإعادة التوزيع إلا أن يتذكر حقبة مماثلة مر بها العالم الغربي منذ مائتي عام . ففي أوائل القرن التاسع عشر كانت أوربا تشهد بداية الثورة الصناعية وذلك التقدم التكنولوجي المدهش الذي تمثل في ظهور عدة اختراعات باهرة كل يوم ، وتطبيقها في مختلف فروع النشاط الاقتصادي ، مما أدى إلى ارتفاع مذهل في انتاجية العمال . اقترن هذا التقدم المفاجيء في أساليب الانتاج بشيوع البؤس في صفوف العمال الذين كانوا حديثي العهد بالصناعة تركوا قراهم بحثا عن عمل في المدن ، فإذا بهم يجدون ظروف الحياة في المدينة



أسوأ من نواح كثيرة من ظروفهم السابقة فى القرية ، سواء من حيث ساعات العمل الطويلة مقابل أجور زهيدة لا تتناسب بالمرة مع ما يحققونه من أرباح لأرباب العمل . أو من حيث ظروف الحياة الصحية والاجتماعية .

الاشتراكية وعدالة التوزيع

كان من الطبيعى فى هذه الظروف أن تنشأ الفكرة الاشتراكية التى تلفت الأنظار إلى الظلم الواقع على العمال وتدعو إلى عدالة التوزيع ولكن هذه الدعوة إلى الاشتراكية لم تستقطب أعظم عقول ذلك العصر ، بل كان أصحاب أعظم العقول فى ذلك الوقت وأكثر الناس ذكاء يدافعون عن القضية العكسية بالضبط .

«دع أرباب العمل يفعلون ما يشاءون بالعمال أو بغيرهم ، ففى ذلك مصلحة التنمية» . هكذا كان يقول ريكاردو مالتس ونثيام وجيمس ميل، إذ رددوا بثقة تامة مبادىء الحرية الاقتصادية التى رفع لواءها آدم سميث قبلهم بوقت قصير، وتبعهم سائر الاقتصاديين التقليديين والتقليديين المحدثين لأكثر من مائة عام .

لم يكن هؤلاء الاقتصاديون التقليديون غافلين عن قضية عدالة التوزيع بل ولا كانوا غلاظاً قساة القلب ، إنما كان الشىء الذى يبدو فى نظرهم أكثر إبهاراً وأعظم شأنا هو ذلك النمو السريع فى الانتاج والدخل لم تكن مشكلة الاقتصاديين التقليدية هى افتقارهم إلى الرحمة أو الشفقة ، بل كانت هى انبهارهم الشديد بنور التقدم التكنولوجى الساطع والذى أضعف قدرتهم على رؤية كل ما عداه . أما هؤلاء الاشتراكيون الذين سماهم ماركس وانجلز فيما بعد «الاشتراكيين الخياليين أو الطوباويين» (من أمثال أوين وفورييه ولوى بلان) فلم تكن مشكلتهم أنهم كانوا عاجزين عن رؤية مزايا التقدم التكنولوجى ودور الحافز الفردى فى تحقيقه ، بل كانت مشكلتهم هى فقط فى قدومهم قبل الأوان . ففى فترات التقدم التكنولوجى الباهر يصعب ، فيما يظهر ، تحويل أنظار الناس من الافتتان ، بأعاجيب التكنولوجيا الحديثة إلى الاهتمام بقضايا الفقراء والمظلومين . عندما يكون هناك شخص يقوم بأعمال

خارقة للعادة يوجه الجميع أنظارهم إليه ولا يلقون بالا لمن قد يكون هذا الشخص قد داسهم بقدمه . قد لا يلتفت الناس إلى هؤلاء المقهورين إلا بعد أن ينتهى ذلك الشخص من عمله الخارق للعادة ، أو عندما يبدأ فى التعثر وارتكاب الأخطاء . إن الماركسية مثلا ، وهى الفكرة الاشتراكية الأصلب عوداً من أفكار الاشتراكيين السابقين عليها ، لم تظهر وتكتسب أنصاراً أقوياء إلا بعد أن بدأت الرأسمالية فى التعثر وأصابها الانتكاس بعد الانتكاس ، فى صورة تتابع الدورات الاقتصادية ، وحلول الاحتكار محل المنافسة الكاملة وازدياد حدة التناقض بين الثروة والفقر .

العدالة تتراجع

نحن فيما يبدو نمر بفترة مماثلة ، فى هذا الصدد ، لبدايات الثورة الصناعية فى أوائل القرن التاسع عشر فهى بدورها فترة من الانتصارات التكنولوجيا الباهرة التى تجبر قضية العدالة على التراجع لصالح أهداف التنمية وإن ما نلاحظه اليوم على موقف أنصار العولمة وحرية التجارة والخصخصة الذين يجتمعون كل عام فى دافوس ليناقشوا مسار التقدم الاقتصادى والتكنولوجى فى العالم ، والعقبات التى لا تزال تعترض انفتاح العالم على التجارة والاستثمارات ، ما نلاحظه على موقف هؤلاء من استخفاف بأصوات الاحتجاج والاعتراض التى تواجههم من جانب المتعاطفين مع الفقراء والمهمشين والمضارين من هذا التقدم التكنولوجى وهذا الانفتاح ، لابد أن يذكرنا بالاستخفاف المماثل الذى كان الاقتصاديون التقليديون منذ قرنين من الزمان يقابلون به حركات الاحتجاج الاشتراكية ، التى كانت تعترض على استغلال العمال وتشغيل الأطفال .

إن هذا الاهمال الجديد لقضية إعادة توزيع الدخل وهذا الاستخفاف الذى يقابل به الداعون إليها ، لابد أن يثيرا الأسف والاشفاق ، ولكن مادام لهذا الاهمال وهذا الاستخفاف ، كما رأينا ، سوابق تاريخية ، فلعلنا نستطيع أيضا أن نأمل فى أن يعيد التاريخ نفسه بصورة أو بأخرى فنشهد من جديد ، كما سبق أن حدث أكثر من مرة ، عودة الاهتمام بقضية عدالة التوزيع ، وذلك بمجرد أن تتراخى سرعة هذه الثورة التكنولوجية الراهنة وتضعف قدرتها على صنع الأعاجيب الخارقة للعادة .

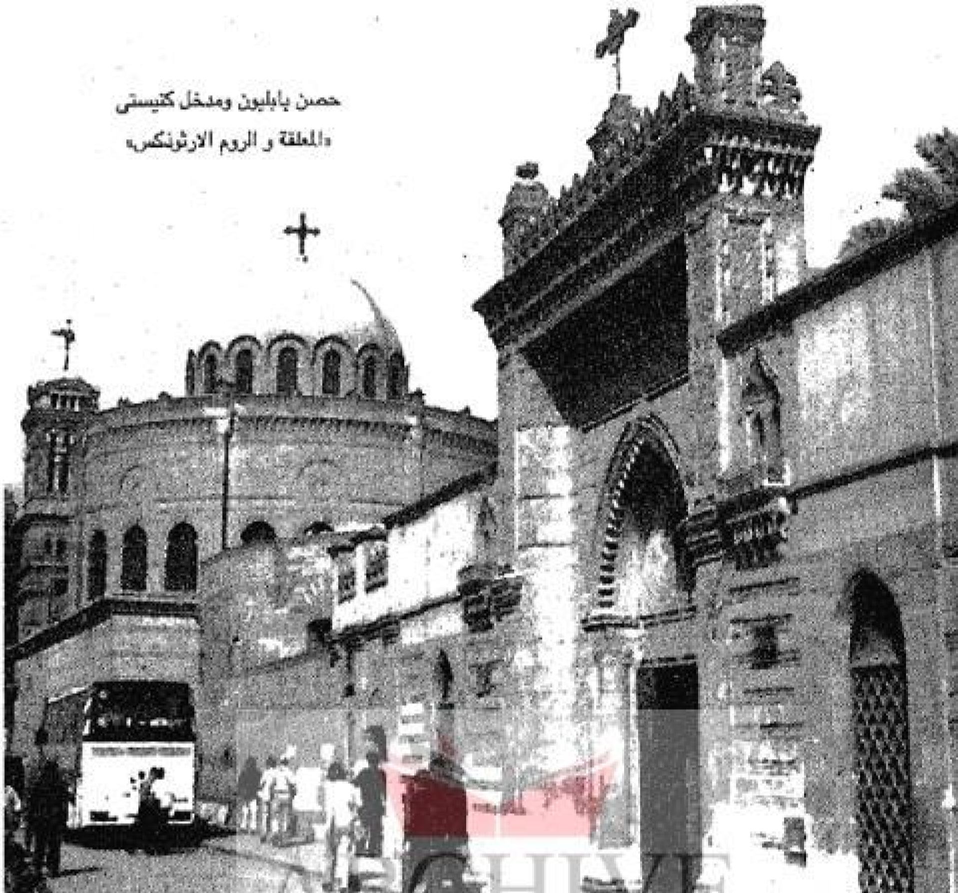
■



٧٢

الهلال

فى مصر القديمة تتعانق الأديان الثلاثة فى كيلو متر واحد

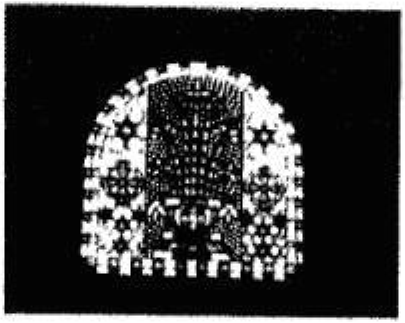


حصن بابليون ومدخل كنيستي «المعلقة و الروم الارثوذكس»

● يضم جامع عمرو بن العاص «تاج الجوامع» وأول جامع فى مصر بنى عام ٢١ هـ وتطورت عمارته على مر العصور .

● فى هذا المكان وضع سيدنا موسى فى السلة واحتمت به العائلة المقدسة .

تحقيق : امانى عبد الحميد ● تصوير : شوقى مصطفى



نافـــذه من الجص المعشق بالزجاج الملون في الكنيسة المعلقـــة

منطقة «مصر القديمة» .. ذلك المكان الفسيح الذى يتجلى فيه التاريخ أكثر مما يتجلى فى أى مكان آخر .. حيث فاض النهر بالصندوق الذى احتوى سيدنا موسى ليصل آمناً الى أيدى إمرأة فرعون. وفى هذا المكان نفسه سجد سيدنا موسى لربه طالبا الأمن والسلامة خلال رحلته الى فلسطين بعدما أوحي الله إليه، وأنزل عليه وعلى أخيه هارون التوراة والألواح (حوالى عام ١٢٠٠ ق. م) باللغة الهيروغليفية (لغة مصر). وداخل تلك المغارة احتمت السيدة العذراء، سيدة نساء العالمين، هى وابنها عيسى وعائلتها المقدسة هربا من بطش الرومان الوثنيين وملك اليهود «هيرودس» (٤ ق. م - ٣٩ م) الذى أراد قتل الصبى، وفى مصر وجدوا الأمن والاستقرار.

كانت مصر قد شهدت انتصار المسيحية على الوثنية، وبناء أقدم كنيسة هى «الكنيسة المعلقة» كما ضمت أرضها فرحة دخول الاسلام بعد انتصار عمرو بن العاص وجيوشه، وإقامة أول مدينة إسلامية وأول جامع فى مصر والقارة الأفريقية بأكملها، وعاش فى شوارعها ودروبها الأرمن والأقباط واليهود والمسلمون جنبا الى جنب على مر التاريخ، وهو الدليل على أن مصر والقاهرة لم تشهد فى مختلف عصورها نمط الأحياء المغلقة والمنعزلة طائفيا على ذاتها .. ومثال ذلك يهود مدينة الفسطاط الذين عاشوا وسط أهلها دون اتخاذ شكل الانعزال الطائفى المغلق الذى يفضلونه دوما فى جميع

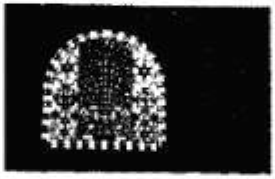


مئذنة جامع عمرو بن العاص التى تعود الى عهد مراد بك

أنحاء العالم .

وخلال تلك الشواهد التاريخية نستطيع أن نؤكد أنه من الخطأ الاعتقاد أن منطقة مصر القديمة بآثارها هى منطقة تجتمع فيها الأديان الثلاثة اليهودية، المسيحية والإسلام فقط.. بل هى منطقة تجمع نسيج أمة حافظت على مصريتها وكيانها منذ الأزل.. وهى تضم ثقافة مصرية قوية متميزة بخصال تنفرد بها عن غيرها من الثقافات ، وأول هذه الصفات تقوم على وحدتها الوطنية بغض النظر عن ديانة أفرادها.. فهى تحمل شخصية مصر بإنسانيتها.. حيث أخذت الديانة المسيحية وهضمتها ومصرتها وأخرجت منها نسختها الخاصة بها «القبطية» .. وهى التى احتوت العرب حضاريا وأضفت على لغتهم العربية لهجتها الأقرب الى القلب بعد أن رققتها.

يقول د. جمال حمدان فى كتابه «شخصية مصر» إن مصر لم تسبق العالم كدولة سياسية فقط وانما هى أطول دولة حافظت على وحدتها القومية



في مصر القديمة
تتعانق الأديان الثلاثة

عبر التاريخ.. فلم يحدث خلال ٦٠٠٠ سنة أن انفرط عقد وحدتها وتدهورت الى انفصاليات اقليمية إلا في حالات نادرة .

لقاء الأديان

فضلت وزارة السياحة أن تطلق على منطقة مصر القديمة لقب «مجمع الأديان الثلاثة» للتأكيد على السماحة الدينية التى تتمتع بها مصر مهد الديانات والحضارات.

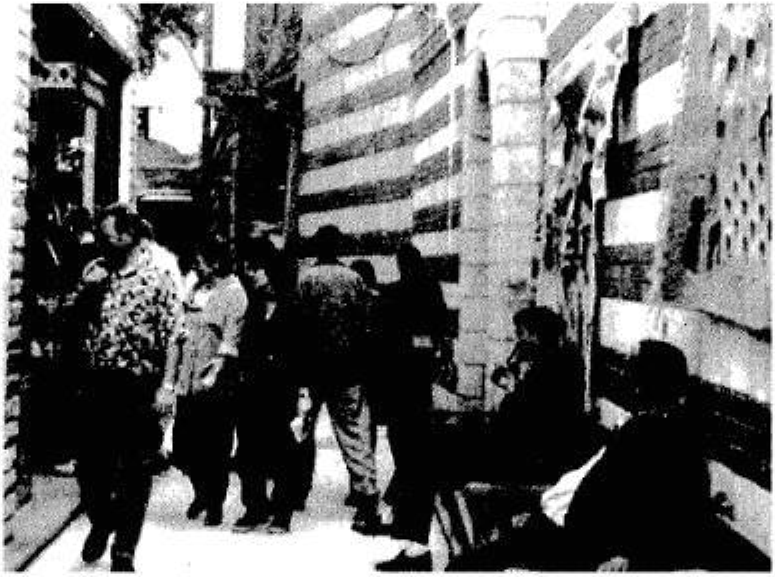
ومن هذا المنطلق بدأت الحكومة المصرية في تنفيذ مشروع تطوير وترميم المنطقة الأثرية بحي مصر القديمة بما تحتضنه من آثار إسلامية وقبطية ويهودية مع بدايات عام ٢٠٠٠ في اطار خطة لتحويل المنطقة الى نموذج ومتحف مفتوح أمام الزوار. حيث من المنتظر أن ينتهى العمل مع نهايات هذا العام. بعد أن أحيت هيئة تنشيط السياحة مسار العائلة المقدسة عندما فرت الى مصر هربا من بطش الرومان وتحصنا بالملجأ والملاذ الآمن بدءا من «الفرما» في الشمال الشرقي لسيناء ومرورا بمنطقة مصر القديمة . وقد ساهمت عمليات التطوير والمجهودات الضخمة المبذولة في تغيير الكثير من السلبيات التى عانت منها المنطقة. حيث كانت غارقة في بحار من المياه الجوفية والمجارى وأغلب حوائط آثارها متآكلة وسقوفها مليئة بالشروخ، واليوم أصبحت المنطقة أكثر أمانا من الناحية المعمارية وإن كانت الأصوات تتعالى احتجاجا على أساليب الترميم وتتهمها بعدم مراعاة المرجعية التاريخية في الترميم.

مجمع الأديان الثلاثة

والمعروف أن مجمع الأديان يضم جامع عمرو بن العاص ومعبد بن عازر اليهودى وحصن بابليون ومجموعة من الكنائس والأديرة التى تنقسم الى جزءين:

الأول : مجموعة كنائس حصن بابليون أو كما يطلق عليها «قصر الشمع» وتشمل الكنيسة المعلقة، وأبى سرجة والقديسة بربارة ومارجرجس وقصرية الريحان ودير مارجرجس للراهبات ومارجرجس للروم الأرثوذكس

أما الجزء الثاني : فيشمل الكنائس التى تقع داخل مدينة الفسطاط بالقرب من جامع عمرو وهى كنيسة ابوسيفين والأنبا شنودة والدمشرية وبابليون الدرج وأبا كبير يوحنا والأمير تادرس المشرقى ورئيس الملائكة ميخائيل ودير أبى

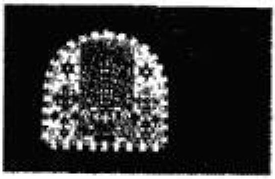


درب الأديرة الذى يربط بين كنائس قصر الشمع

سيفين للراهبات ومارمينا بزهراء مصر القديمة .

حصن بابليون وبوابة عمرو

مثل حصن بابليون نوعا من القوة الصلبة التى استخدمتها روما فى احراز انتصاراتها والمحافظة على امبراطوريتها. وهو نفس المكان الذى شهد ترحيب أقباط مصر بالإسلام وبالفاتحين المسلمين، الذين أعانوا أقباط اليعاقبة على التخلص من الاحتلال البيزنطى وأعادوا بطريرك المسيحيين الى كرسيه بعد طرد أصحاب مذهب الملكانيين (وهو مذهب البيزنطيين المحتلين). ولم تنل بقايا الحصن الرومانى العظيمة الكثير من الانتباه الا فى وقتنا الحاضر مع بدء مشروع التطوير. كما لا يوجد نص تاريخى يبين تاريخ إنشاء الحصن. ويرجع الفضل فى حفظ ما تبقى من الحصن الى الأقباط اذ اجتمعت لهم فيه عدة كنائس منذ أول عهد المسيحية، حيث وجدوا خلف أسواره منعة لهم فى أيام المحنة والشدة ويحتضن الحصن مالايقل عن ست كنائس أشهرها الكنيسة المعلقة وكنيسة أبى سرجة . ويربط بينهما درب بين الأديرة الذى يضم بعض المزارات القديمة تحت حوائطه يعرض اصحابها مشغولات يدوية بسيطة ترتبط بتاريخ المنطقة. ويوجد أسفل الحصن مدخل ضخم أطلق عليه «بوابة عمرو» . حيث



في مصر القديمة
تتعانق الأديان الثلاثة

شهدت الفتح الاسلامي لمصر، فمن خلالها اقتحم عمرو بجيوشه أكبر قلعة عسكرية محصنة في مصر والذى اعتبر فتحها فتحا لمصر باكملها .

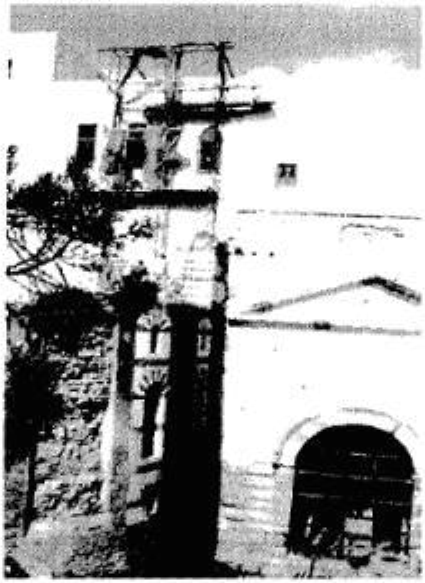
ومن المنتظر أن يتحول الموقع حول «بوابة عمرو» الى مدرج روماني على غرار المسرح الروماني بالإسكندرية في اطار مشروع تطوير المنطقة.. حيث شهد الحصن عملية ترميم شاملة بما في ذلك عملية خفض منسوب المياه الجوفية التي كانت تملؤه، الى جانب ترميم أسواره، تمهيدا لفتحه أمام الزوار للمرة الأولى في التاريخ والتجول داخله والتعرف على أجزائه التي ظلت سنوات طويلة غارقة في المياه الجوفية. كما ستتم ازالة مجموعة من المحال التجارية التي تقف حاجزا أمامه وتمنع الزائر من الرؤية الواسعة «للحصن» و«بوابة عمرو».

مجد مصري قديم

أكد د. طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» أن الحضارة المصرية القديمة هي أعظم حضارة وأقدم حضارة عرفها الانسان في تاريخه وهي ممتدة من الكنيسة القبطية . فالكنيسة مجد مصرى قديم، لذا فإن الزائر لمنطقة كنائس مصر القديمة يستطيع أن يتعرف بوضوح على ملامح التراث المصري القديم الذى ظل باقيا ومصونا ومحفوظا داخل جدرانها . فاللغة القبطية هي بعينها اللغة المصرية القديمة كما كان المصريون القدماء يتكلمونها .. وقد حافظت عليها الكنيسة القبطية في طقوس صلواتها وكتبها ومخطوطاتها .

خصائص الفن المصري القديم

كما أن الفنون القبطية وآثارها المحفوظة إلى اليوم في المتحف القبطي والكنائس والأديرة يشهد بأنها امتداد للفن المصرى القديم. «فقد احتفظ الفنان القبطي في التصوير والرسم التشكيلي والنحت وصناعة السجاد وفنون التطريز بالخصائص التي تميز بها الفن المصرى القديم». وهو ما أكده ألفريد باتلر في كتابه «كنائس مصر». فنحن لا نزال نرى داخل الكنائس القديمة والأديرة صورة «العنخ» مفتاح الحياة مرسوما على الجدران كما كان المصريون القدماء يرسمونه في معابدهم ومقابرهم. وإن احتوى على صورة السيد المسيح أو صورة السيدة العذراء مريم تحمل المسيح طفلا على ذراعها الأيسر. أو صورة السيد المسيح ذى ملامح قبطية مما يدل على أن الفنان صار مسيحيا



بوابة عمرو التى شهدت فتح مصر وانتصار الإسلام

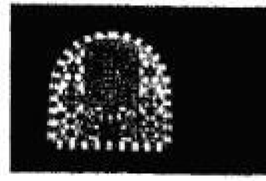


محراب المعبد اليهودي ويبدو أعلاه لوح الوصايا العشر

لكنه لم ينس مصريته. كما احتفظت العمارة القبطية بالروح الفرعونية فى بنائها واقتبست من العمارة الإسلامية أيضا. حيث حافظت على سمك الحوائط وقلة الفتحات والنوافذ الى جانب الزخارف الظاهرة على الأفاريز والنوافذ المغطاة بالزجاج الملون المعشق بحيث يتوافر للكنيسة الضوء الخافت الذى يثير الخشوع والرهبة والتركيز فى الصلاة.

ويضم المتحف القبطى الذى بنى عام ١٩٠٨ كمتحف تابع للكنيسة القبطية داخل حصن بابليون روائع الفن القبطى من أيقونات وقطع خزفية وفخارية ومنحوتات خشبية ومشربيات ومنسوجات علاوة على المخطوطات النادرة والتاريخية والتى تؤرخ جميعها لجذور الشعب المصرى منذ القدم.

ومن أشهر المخطوطات التى يضمها المتحف والتى تعد أهم الاكتشافات المتعلقة بالتاريخ القبطى خلال القرن العشرين، مخطوطات «نجع حمادى». وتضم ٥٣ نصا فى ١١٥٣ صفحة جمعت فى ١٣ مجلدا معظمها مكتوب باللغة القبطية القديمة. يختلف محتواها عما جاء فى أناجيل العهد الجديد خاصة فيما يتعلق بقصة صلب المسيح، وهى كتابات مسيحية لبعض الجماعات التى ظهرت عند بداية القرن الأول الميلادى وتعرف باسم «العارفين». كما يضم



فى مصر القديمة
تتعانق الأديان الثلاثة

المتحف مخطوط «المزامير» وهو كتاب قديم ظهر على هيئة ملازم مجمعة ومخاطة. تم اكتشافه فى قرية «المغل» ببنى سويف ومكتوب باللغة القبطية بلهجة محلية معروفة باسم «بهناسوية» .

الكنيسة المعلقة

تؤكد المراجع التاريخية أن الكنيسة «المعلقة» أقدم بكثير من كنيسة أبى سرجة نتيجة تأثير التجديدات المتوالية على الدليل الداخلى بحيث أصبح من الصعب الاستدلال على تاريخ بناء الكنيسة المعلقة بدقة . وبالرغم من ذلك تعتبر «المعلقة» أثرا ثمينا يعود الى نهاية القرن الثالث الميلادى وبداية الرابع . وقد شيدت فوق برج من أبراج حصن بابليون وتضم روائع الفن القبطى النادرة من الهياكل والرسوم الجدارية والأيقونات التى اختلفت الآراء حول عددها الحقيقى الذى يتراوح بين «١١٠ الى ١٢٠ أيقونة» .. وصمم سقفها الخشبى المعلق على شكل سفينة نوح رمز الانتصار والنجاة.

أما كنيسة أبى سرجة فتعود أهميتها الى احتوائها على المغارة المقدسة ذلك المكان الذى اختبأت فيه السيدة العذراء وطفلها عيسى وعائلتها المقدسة. لذا فهى مقصد ومزار جميع الطوائف المسيحية من جميع أنحاء العالم، وقد أنشئت فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلادى لتكون أول كنيسة فى مصر يقيم فيها البطاركة القداس. وتشتهر بما تحتويه من أيقونات يرجع تاريخ بعضها الى القرن العاشر الميلادى أشهرها صورة ميلاد السيد المسيح وأيقونة العشاء الأخير للسيد المسيح وتلاميذه. ويحتفل الأقباط فيها كل عام بذكرى دخول السيد المسيح أرض مصر فى اليوم الأول فى شهر يونيو.

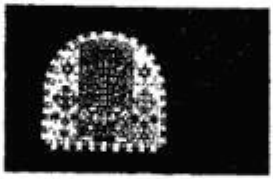
المعبد اليهودي

وتضم منطقة مصر القديمة المعبد اليهودى ، وقد كان فى الأصل كنيسة قبطية باسم رئيس الملائكة ميخائيل اشتراها اليهود مع نهاية القرن التاسع الميلادى.. وفى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى هدم اليهود المبنى القديم وأقاموا مكانه المعبد الموجود حاليا. وترجع أهميته الى وجود «بئر موسى» .. ذلك المكان الذى انتشلت منه امرأة فرعون الصندوق الذى كان بداخله سيدنا موسى عليه السلام. طرازه خليط معمارى من الطراز البازيليكى المميز للكنائس المحيطة به بجانب بعض فنون

صحن جامع عمرو

وترميم تيجان أعمدته





في مصر القديمة
تتعانق الأديان الثلاثة

الزخرفة الإسلامية. مقسم الى ثلاثة أقسام بواسطة أعمدة تنتهي بالمحراب المتجه نحو الشرق «القدس» المبني على هيئة نموذج هيكل سليمان ويحمل لوح الوصايا العشر.. ووسط المعبد الشاهد الرخامي ويحمل كتابات محفورة تشير الى انه الموقع الذي صلى فيه سيدنا موسى بعدما كلفه الله بالرسالة طالبا بأن يكلل رحلته الى فلسطين بالأمن والسلامة. وفي هذا الموقع تم اكتشاف عشرات الأوراق والمخطوطات والكتب التي سميت باسم «الجنيزة» عام ١٨٩٦م لكن للأسف قامت الطائفة اليهودية بنقلها الى جامعة كمبردج وبعض المؤسسات العلمية الأخرى، ويظهر التأثير الاسلامي جليا في زخرفة السقف حيث يمتلئ بالأطباق النجمية التي ظهرت لأول مرة في محراب السيدة فاطمة (الموجود حاليا في المتحف الاسلامي) والمشربيات الخشبية والاضاءات الموزعة على شكل «مشكاة اسلامية».

ويتبع المعبد طائفة اليهود «الربانيين» .. حيث انقسم اليهود الى عدة فرق دينية يدور الخلاف الرئيسي بينها حول الاعتراف بأسفار العهد القديم والمرويات الشفوية المنسوبة الى موسى عليه السلام والتلمود أو انكار هذه الأصول .

وملحق بالمعبد مكتبة عبرية ضخمة تضم كتبا تاريخية قديمة تؤرخ للديانة اليهودية باللغة العبرية.. أهم ما تحتويه مجموعة كتب يرجع تاريخها الى القرن العاشر الميلادي اثناء الحكم الاسلامي للأندلس. حيث تعتبر محاولة لتعريب اللغة العبرية ومكتوبة بحروف عبرية لتعلم اللغة العربية وفهمها مثل سفر المزامير. أسفار التوراة الخمسة.. وللأسف أيضا قامت الطائفة اليهودية بنقل بعضها للخارج طبقا لما أكده السيد عبدالحميد عثمان مدير مكتبة التراث اليهودي الملحقة بالمعبد. وتعتبر صلاة عيد «الهانوكة»» أو «عين الشموع أو الأنوار» أهم الاحتفالات الرسمية لليهود التي تقام سنويا داخل المعبد في «٢١ ديسمبر» حيث يفد اليها اليهود من جميع أنحاء العالم .

الفسطاط ومجدها الغابر

في ذلك المكان الفسيح القابع شمال حصن بابليون عسكرت قوات العرب بقيادة عمرو بن العاص للمرة الأولى منذ أكثر من ١٤٠٠ عام لتؤسس الفسطاط أول مدينة اسلامية في مصر والقارة



مازالت الأوانى الفخارية تجذب زوار المنطقة



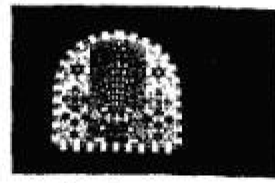
أيقونة «رئيس الملائكة ميخائيل» بكنيسة أبى سرجة

الأفريقية. لتظل عاصمة للديار المصرية فترة ممتدة طوال حكم الخلفاء الراشدين وبنى أمية حتى بنيت مدينة العسكر فى عام ٧٥١ م. وفقدت المدينة التى كانت أصل القاهرة مع الوقت بريقها نتيجة التطورات السلبية التى لحقت بها فى أعقاب سلسلة المجاعات والأوبئة التى أصابت مصر فى عهد الخليفة المستنصر (١٠٣٦ ـ ١٠٩٤ م) ثم أصابها الحريق الهائل الذى أشعله الوزير الفاطمى شاور خشية سقوطها بأيدى الصليبيين عام ١١٦٨ م. وكان له الأثر المدمر عليها وعلى سكانها فيما بعد أسماه المقريزى «خراب الفسطاط» موضحا حالها المتردى بقوله : «لا يرى هناك شئ يسر الخاطر مما كانت عليه مدينة العرب ذا العز والثروة والشهرة المنتشرة فى أقطار الأرض . والمبانى العالية الشامخة المشيدة، التى مزقتها سطوات الدهر وحوادث الأيام وجعلت عاليها سافلها ومحت آثارها بالمرة، فأصبحت خاوية موحشة ليس بها «إنس».

تاج الجوامع

بالرغم من أنه أول جامع يبنيه المسلمون فى مصر عام ٢١ هـ ـ ٦٤٠ ميلادية . وبالرغم من تسميته بالجامع العتيق وتاج الجوامع لأهميته التاريخية بالنسبة للإسلام. فإنه تعرض لكثير من الاهمال المتواصل عبر المراحل التاريخية المختلفة. وإن كان قد نال العديد من





في مصر القديمة
تتعانق الأديان الثلاثة

الترميمات والتجديدات خلال فترات الخلافة المتعاقبة فإن تلك التجديدات لم تكن جميعها على قدر من الجودة. بل كان بعضها يشوه ملامحه الأصلية وينزع منه كثيرا من دلائل بنايته الأولى. فالجامع الحالي لا يشتمل على شيء من الجامع الأصلي القديم الذي بناه عمرو سوى مساحة الأرض.. والتي تعرضت أيضا لزيادات متعددة على مر التاريخ. وكانت إقامته الأولى على مساحة ٥٠ × ٣٠ ذراعا أي حوالي «٢٠ × ١١.٢٤ متر» ويحيط به الطريق من كل جهة ولا صحن له ولا محراب مجوف ولا مئذنة ولا فرش وسقفه منخفض جدا مصنوع من الجريد والطين. توالت عليه التوسعات على يد العديدين منهم مسلمة بن مخلد الأنصاري في عام ٥٣ هجرية - ٦٧٣ ميلادية والذي أدخل عليه نظام المئذنة. ثم عبدالعزيز بن مروان عام ٧٩ هـ - ٦٩٨ م . وقرة بن شريك عام ٩٢ هـ ٧١٠ م . الذي هدم الجامع بالكامل وضم اليه جزءا من داري عمرو بن العاص وابنه عبدالله ، وأدخل محرابا مجوفا، ومنبرا خشبيا وذهب تيجان أربعة أعمدة تجاه المحراب. ثم تضاعفت مساحته في عهد عبدالله بن طاهر والي مصر والخليفة العباسي هارون الرشيد بحيث بلغت ١١٢.٥٠ × ١٢٠.٥٠ متر مساحته الحالية. ويمكن القول بأن أعمال الإصلاح والتجديد والتجميل التي أضيفت للجامع يرجع الفضل في معرفتها للمؤرخين المسلمين والرحالة عن طريق وصفهم لحالته مثل ابن دقماق، المقريزي، علي مبارك، وناصر خسرو، ولعل أسوأ أعمال الترميم التي تعرض لها الجامع كانت في عهد الأمير مراد بك عام ١٧٩٧ م. حيث هدمه وأعاد بناءه بأسلوب خاطيء فقد بنى عقود بوائكه في وضع غير وضعها الطبيعي وجعلها عمودية على جدار القبلة مما سد شبابيكه. ومن المرجح أن المئذنتين الباقيتين إلى الآن ترجعان الى عهده. وفي اطار مشروع التطوير يتم حاليا ترميم جامع عمرو واعادة بنائه طبقا لأصوله المعمارية الى ما قبل عمارة مراد بك. الى جانب محاولة خفض منسوب المياه الجوفية التي فاض بها من أجل أن يستعيد وظيفته الدينية والاجتماعية والتعليمية على أكمل وجه . ■

ازارات طريق مارجرجس ومشغولاتها اليدوية يرتادها السياح من جميع الاجناس

في صحبة القرضاوي

بين علوم الدين والدنيا

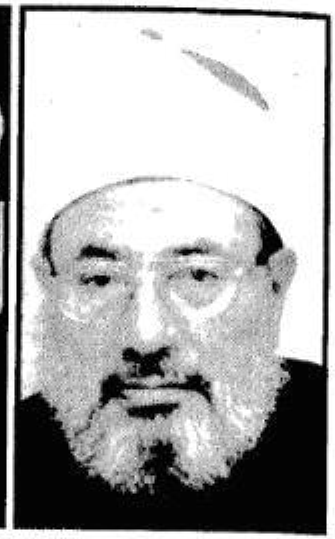
بقلم
طارق البشري

(١)

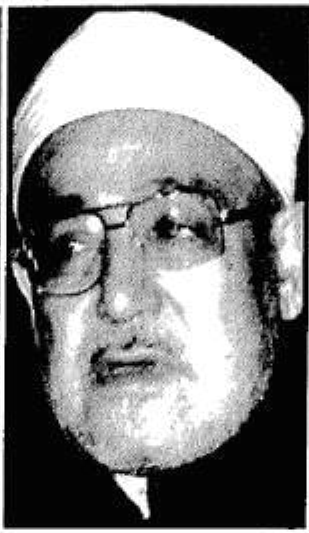
من محاسن عصرنا الذى نعيش فيه، إن وجد فيه من هم على شاكلة الشيخ محمد الغزالى رحمة الله عليه، والشيخ يوسف القرضاوى زاد الله لنا النفع بعلمه وفقهه. هؤلاء الرجال هم قلة، وهذا أمر طبيعى فمتى كان أمثالهم كثرة فى أى زمان ومكان؟، إن الواحد منهم صنعته مرحلة تاريخية، هى هذه المرحلة التى نشأ فيها وعاش وتفاعل مع مشاكلها وقضاياها وتحدياتها.

الشيخ محمد الغزالى كان أميل إلى الفكر السياسى الإسلامي، وعلى مدى نصف قرن عالج أكثر ما ثار فى هذا المدى الزمنى من قضايا السياسة والمجتمع وهموم الأمة، وهو هنا يكمل شجرة المفكرين الإسلاميين من أمثال محمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا وغيرهم سابق ولاحق.

والشيخ يوسف القرضاوى يجد مكانه الثابت على ذات جذوع هذه الشجرة ويكمل صنيع سابقيه، وهو فى الوقت ذاته ينشغل بفتاوى الأحكام وقضايا فقه المعاملات تأليفا للكتب وإصدارا للفتاوى فى مسائل الفروع، عبادات ومعاملات، ويكمل هنا شجرة تضم محمود شلتوت وأحمد ابراهيم



د. يوسف القرضاوى



الشيخ محمد الغزالى



الشيخ محمد عبده

وعبد الوهاب خلاف وعلى الخفيف ومن على شاكلتهم سابق ولاحق.

وأهم ما يميز الشيخين، ويجعلهما علامة على عصر وعلى مرحلة من مراحل الفكر الإسلامى، أنه على أيديهما ارتاب الصدع الذى عانى منه فقه الإسلام وفكره على مدى قرن سابق. وعلى مدى القرن الرابع عشر الهجرى (الذى بدأ فى ثمانينيات القرن التاسع عشر الميلادى، نحو ١٨٨٣م)، عانى الفكر الإسلامى نوعا من الانفصام بين حركة التجديد وحركة المحافظة، كانت حركة التجديد تنشر وجوها لاستجابة الفكر الإسلامى لأنواع معاملات جديدة وأوضاع نظم اجتماعية وسياسية حادثة، وتفتق حلولا لمشاكل طرأت لا تجد لها فى فكر السابقين حلولا جاهزة.

وكانت حركة المحافظة تنظر إلى الوافد الأجنبى من الغرب وأوروبا بقلق شديد، ترى فيه فكرا يريد أن يجتث الأصول من ركائز الفكر الإسلامى التليد، وترى فيه أنماط عيش وأوجه سلوك وأنواع معاملات تتعارض مع نظام الواجبات والمحرمات الإسلامية وتتبجح فى تحديها لهذا النظام وتعمل على توليد الاستهانة به وعدم الاعتبار بأوزار المخالفة له. مع تشبعه من قيم معارضة للقيم السائدة، وتمثل كل ذلك فى مسائل المأكل والمشرب والملبس وأنواع التعامل مع البنوك، بمثل ما تمثل فى تبجح بعثات التبشير المسيحى فى نشر دعواها فى بلادنا، وبمثل ما بدأت مجلات وكتب حديثة تنشر من الفلسفات بين الشباب المثقف ما يشكك فى أسس العقيدة الدينية.

اعتبر المحافظون إن حركة التجديد



فى صحبة القرضاوى

فى الفكر الإسلامى إنما تزكى هذا التفكك العقيدى والقيمى والسلوكى، وأساءوا الظن بها وقاوموها. واعتبر المجددون أن حركة المقاومة المحافظة إنما تستبقى الوهن الإسلامى الاجتماعى فى مواجهة مسائل التحضر والنمو وأساءوا الظن وشنعوا عليها. وظل العراك سجالا يخفت ويعلو جيلين أو ثلاثة أجيال. ثم جاءت هذه الحلقة الأخيرة التى نتكلم عنها لتوحد بين دعوة التجديد ودعوة المحافظة، بالدفاع عن ثوابت الفكر الإسلامى وأصوله وبتجديد ثوابته وفروعه، وكان من أزكى ثمار هذه المدرسة الموحدة للتجديد والمحافظة على حركة واحدة شيخانا الجليلان الغزالى والقرضاوى، الشيخ الغزالى ولد فى ١٣٣٥ للهجرة (سنة ١٩١٧ للميلاد) وولد الشيخ القرضاوى فى ١٣٤٤ للهجرة (سنة ١٩٢٦ للميلاد). وكلاهما تعلم وتخرج بالأزهر الشريف.

(٢)

هذا هو ما أظنه وضع الشيخ القرضاوى فى خريطة الفكر الإسلامى فى القرن العشرين، وقف مع الشيخ الغزالى على ملتقى البحرين، بحر المحافظة وبحر التجديد، وصار البحران بحرا واحدا، وصار المجدد هو من يدافع عن الأصول ويزود عنها، وصار المحافظ هو من يتوسل بالتجديد لصيانة الوجود والبقاء. والفكر الإسلامى بهذا الالتقاء صار أحصن وأمنع كما صار أحيا وأزهر مما كان فى بداية القرن الرابع عشر للهجرة.

أما عن صلتى أنا بكتابات القرضاوى، فقد اتصلت بها منذ شتاء ١٩٧٤ - ١٩٧٥ على التحديد. بدأت اتصال قارئ بكاتب عبر الدوريات والكتب. وما أكثر ما تفاعلت مع رجال لم ألقهم ولا عرفت أشخاصهم بالاتصال المباشر، إنما تفاعلت معهم عبر الكلمة المكتوبة، وكثيرا ما كفتنى هذه الصلة، وما أكثر ما صرفتنى فطرة الخجل عن السعى للتعارف الشخصى، إلا ما تدبره الأقدار للقاءات من بعد. وكان هذا شأنى مع الشيخ يوسف.

بدأت صلتى بكتاباته فى ذلك الشتاء البعيد من عامى ٧٤-١٩٧٥، كنت أعمل فى أسيوط رئيساً لمحاكم مجلس الدولة هناك، وكنا نذهب إليها دورا فى كل شهر، أياما نعقد جلساتنا ونهيئ قضايانا ثم نعود إلى القاهرة ندرس ونتداول ونكتب. وقبل سفرة من هذه السفرات مررت على المكتبات حسب عادتى ألتقط ما تهمنى قراءته، وصادفت مجلة دورية جديدة لم أرها ولا سمعت عنها من قبل اسمها «المسلم المعاصر»، وجدت عددين متجاورين، الأول اسمه «العدد الافتتاحى» نوفمبر

١٩٧٤، والآخر اسمه «العددان الأول والثانى» أبريل ١٩٧٥، وعجبت أن يكون ثمة عدد سابق للأول، ثم يرد العددان الأول والثانى مندمجان، وكان الأولى أن يصدر العدد السابق برقم والآخر برقم تال، وكفى الله المؤمنين الحيرة. وعزوت الأمر إلى قلة الخبرة فى إصدار الدوريات وضعف المكنة المالية، واستخلصت من ذلك أن القائمين على هذا الشأن يجتهدون لايصال حكمتهم إلى القراء، وأن لديهم الالحاح فى توصيلها رغم قلة الخبرة الصحفية وقلة المال، وأن من هنات المظهر ما يلفتك إلى المخبر ويحببك فيه.

فى هذه السنوات على التحديد، كنت أفتش عن المجددين فى الفكر الإسلامى وعن التجديد فيه .

أين هم وماذا يقولون كنت أطرح مسلماتى فى الفكر السياسى والاجتماعى وأعيد الفحص فيها وأنظر فيما يمكن أن يبقى صحيحا منها وما لا يصح وكنت فى تلمسي لهذا الأمر ادرك أن الفكر السياسى الغربى وحده لا يكفى ولا يصلح وحده هادياً فى حركتنا السياسية الاجتماعية، وأن الفكر النافع ينبغى أن يكون ابن حضارة بذاتها ابن نسق تاريخى، وأن الثوابت المثمرة ينبغى أن تصدر عن الجذور الضاربة، وأنه كلما عمق الجذر قوى الجذع وازدهر الفرع وأثمرت الثمار.

ولكن بقى السؤال الأخير لدى، أين هى هذه حركة التجديد المستندة إلى الأصول والثوابت، أين هى فى الحقيقة والواقع المعيش، وعلى أى أسس تشكلت وفى أية قضايا تمحورت، وهل اجتهاداتها تصدر عن حقيقة مشاكل الواقع المعيش حسبما نفهمها، وهل اجتهاداتها تستجيب لمستجدات هذا الواقع، وكيف يتصدى المجددون الآن لهذا الواقع بمشاكله وأساليب علاجه.

(٣)

وجدت فى العدد الافتتاحى، كلمة رئيس التحرير د. جمال عطية عن المجلة ثم خواطر حول أزمة العقل المسلم المعاصر للأستاذ عبد الحليم محمد أحمد، والسنة التشريعية وغير التشريعية للدكتور محمد سليم العوا ، والخصائص الثابتة اللازمة والخصائص المكتسبة للحركة الإسلامية للأستاذ توفيق الطيب، ثم منهاج المجلة للدكتور محمود أبو السعود وما يتوقع للمجلة للدكتور فتحى عثمان. ثم أحاديث عن الاقتصاد الإسلامي والبنك الإسلامى للتنمية، ثم جاء العدد التالى فيه أبحاث عن أزمة الخلق المسلم المعاصر وتراث الفكر الإسلامى فى النظم السياسية والإدارية ثم باب الحوار صار واسعا كثير الموضوعات والأقلام حول العدد الأول (التمهيدى) ونقده والتعليق عليه، وفيه موضوع «نظرات فى العدد الأول. د. يوسف القرضاوى».

حرمتنى المجلة بعدديها نوم الليل ليالى، كنت بعد أن أنتهى من عملى فى المحكمة وانتهى مع زملائى من إعداد

فى صحبة القرضاوى



واجبات الصباح التالى ويخلد كل منا إلي فراشه بحجرته. كنت أمسك المجلة من حيث توقفت فى الليلة السابقة وأظل أقرأ حتى الصباح عندما يحين موعد التأهب للذهاب لمكان العمل والمجلة كلها وجدت فيها طلبتى، وغالب من قرأت لهم فيها أيامها صرت من أصدقائهم فيما تلا ذلك من أعوام.

ولكن من أكثر ما استوقفنى حديث الدكتور يوسف القرضاوى عن نظراته فى العدد الأول. وجدت نفسى أمام رجل يجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا، وهو لا يقفز بنظراته فى الفضاء، انما يسير على نهج ويتقدم فى طريق ممهد ويستخرج من الجذور والأصول معايير التقدم والتجديد. كان الكثير من ذلك موجودا فى كتاب المجلة، ولكنه كان هو دائما يرد النتيجة إلى مقدماتها ويتفحص الآثار فى ضوء المبادىء بمنهج أصولي بديع.

لفتنى هذا المقال وملأ قلبى حماسا واطمئنانا، أما الحماس فلأنه ربط نظرات التجديد وتوجهات المعاصرة وتشخيص الأزمات وطرائق علاجها، ربط كل ذلك مما ورد فى البحوث والمقالات الواردة بالعدد الافتتاحي، ربطها كلها بمرجعياتها الأصولية، وأكد مصداقيتها .

وأما الاطمئنان فلأننى من رجال القانون وممن يعالجون فى عملهم القانوني النظرى والتطبيقي. يعالجون مسائل التفسير ومناهج التفريع فى الأحكام. والحمد لله أن لم تنقطع صلتى بالفقه الإسلامي وأصول الفقه، حتى وأنا أمارس تطبيق القوانين الوضعية، ولم تنقطع صلتى بمناهج التأصيل الشرعية للأحكام باعتبار ذلك جزءاً مكونا ومؤسسا لثقافتى الفقهيه والقانونية، وبقيت هذه الصلة قوية حية أمارسها فى عملي، حتى وأنا فى عز اقتناعى بالنظريات السياسية الوافدة من الفكر الغربى.

لذلك لم يكن يرضينى فى نظرى إلى محاولة التجديد فى الفقه الإسلامى وفكره، لم يكن يرضينى إيراد القياسات السريعة والاجتهادات المتعجلة التى تجدد فى خفة يد وبمهارة فى اخفاء العيوب المنهجية. كنت أشعر أنها إما محاولات غير جادة من أصحابها ، وأما أنها محاولات محكوم عليها بأن تذهب بددا وأن تزول هباء منثورا، وأن ما لفتنى فى المسلم المعاصر بكافة، وفى كتابات القرضاوى بخاصة أنها أبعد ما تكون عن هذه الخفة والتعجل. بل لعلها طرحت عددا من المسائل المهمة فى أعماق الشكل المنهجي. ولعل الشيخ يوسف أدام الله النفع به تصدى للعديد من هذه المعالجات في أعماقها المنهجية

الصميمة.

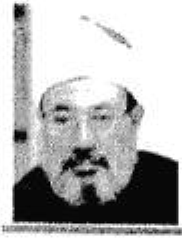
وكنت أعرف أن الشريعة الإسلامية، أفرزت فقهها ومناهجها في التفسير، لم تستعن فى ذلك بمادة غريبة عنها، إنما ولدت من داخلها أساليبها فى الفهم والتجديد. وأن تجديدا يصدر من معايير احتكام ليست مستخرجة منها هو تجديد لا يصح، إنما لابد أن يرد التجديد - إن ورد - من داخلها وبمادتها. والمرجعية هنا تعتمد على نصوص منزلة بالقرآن والسنة، وأن أى منهج يخضع هذه النصوص للزمان والمكان اللذين نزلت فيهما هو منهج باطل يتنافى معها ولا يدوم تعامله معها. والفقه الإسلامى أيضا هو أصول وثوابت وأحكام فرعية واستقراء للكليات من الفروع وأساليب استنباط للأحكام واقيسة ومصطلحات، وإن التجديد الحق إنما ينبغى أن يراعى كل هذه التضاريس.

أذكر ذلك واستطرد فيه لأوضح للقارئ، لماذا صرت سعيدا ومتحمسا ومطمئنا فى تلك الأيام التى اطلعت فيها على «المسلم المعاصر» فى عدديها الأولين، وطالعت «نظرات فى العدد الأول» للشيخ يوسف القرضاوى، وكيف كان ذلك حاسما معى فيما جد لى من أيام.

(٤)

ماذا كتب الشيخ يوسف فى «نظراته فى العدد الأول»، إننى أنقل عنه هنا ما كنت أشرت عليه بقلمي الرصاص فى تلك النسخة القديمة التى لاتزال عندى، قال «حسبها أنها مجلة الإسلام والعصر معا، فهى تنظر إلى الإسلام بعين وإلى العصر بأخرى، وهى مجلة الحرية البناءة فلا تتقيد بسياسة حكومة ولا بسياسة جماعة، ولا تحجر على ذى رأى أن يعلن رأيه من فوق منبرها، مادام مبنيا على دراسة ومنهج «.....» مجلة كل من يرتبط بدينه، ولا ينعزل عن واقعه وزمنه... كل من يحب الإسلام عن بينة، ويؤمن بالعمل له على نور، وبالدعوة إليه على بصيرة، والجهاد فى سبيله بالفكرة والكلمة، حتى يعود إلى قيادة الحياة من جديد، وبنائها على تقوى من الله ورضوان «....» إنها مجلة الذين يهتمون بالعلم والفكر والحركة جميعا، هؤلاء الذين لا يعملون إلا بعد أن يؤمنوا، ولا يؤمنون إلا بعد أن يقتنعوا، ولا يقتنعون إلا بعد أن يدرسوا ويفحصوا ويناقشوا، فليس فى دينهم كاهن يقول لهم (اغمض عينيك ثم اتبعنى)...».

ثم يتحدث فى موضوع الاجتهاد الذى تبنت المجلة الدعوة إليه وممارسته، ويناقش الدعوة التى أطلقها د. محمود أبو السعود عن الاجتهاد فى أصول الفقه، فعرض رأيه فيما يراه ظنيا من مسائل أصول الفقه وما يراه قطعيا، ورسم دائرة الظني منها مخالفا فيه قول الإمام الشاطبى وحدد مجال الاجتهاد فى الأصول الذى يراه مجالا رحبا «وهو مجال التمحيص والتحرير والترجيح فيما تنازع فيه الأصوليون من قضايا جمة»



في صحبة القرضاوي

وإن تقسيماً السنة إلى تشريعية وغير تشريعية في حديث الدكتور العوا، رآه القرضاوي تقسيماً جديراً باعداد الرسائل فيه، ثم عرض للاجماع وما كان منه مبنيا على أمر مصلحي قابل للتغيير بتغير الزمان والمكان، وإلى تغير الحكم والفتوى بتغير الزمان.

ثم ذكر أن ما نحتاج إليه أكثر من غيره هو الاجتهاد في مسائل الفقه، وهنا بيّن أموراً ستة أوجب مراعاتها عند ممارسة الاجتهاد، الأمر الأول أن يقتصر مجال الاجتهاد على ما كان من الاحكام ظني الدليل ثبوتا أو دلالة، والثاني ألا يكون الاجتهاد انسياقا وراء المتلاعبين ممن يريدون تحويل المحكمات إلى متشابهات، والثالث أن تظل مراتب الأحكام كما جاءت فيبقى كل من القطعي والظني على حال مجيئه، والرابع يتعلق بالحذر من الوقوع تحت ضغط الواقع القائم مما لم يصنعه الإسلام ولا المسلمون إنما فرض عليهم في زمن ضعف أو غفلة وتفكك، فليس الاجتهاد وظيفته تبرير هذا الواقع، والخامس ألا يكون أكبر الهم مقاومة كل جديد، إنما تجب التفرقة بين ما يلزم فيه التشدد والثبات وما تقبل فيه المرونة والتطور، والسادس أن يملك المجتهد أدوات الاجتهاد وأن يكون عدلا مرضي السيرة.

ثم علق على حديث الاستاذ عبد الحليم محمد عن أزمة العقل، قال إن العقل نعمة بغير شك ولكن الوحي نعمة أعظم وأكبر، وإذا كان المجتهد المخطيء مأجورا فشرط ذلك أن يكون أولا من أهل الاجتهاد وأن يكون قد استفرغ الوسع ولا يكون للهوى الخفي إلى نفسه سبيل . ولا يعيب المجتهد أن ينظر في تراث السلف وإن كان ذلك لا يلزم الخلف باجتهاداتهم.

شعرت وأنا أقرأ ذلك ، إن فضيلة الشيخ كما لو كان يخاطبني، أنا فلان ابن فلان، في زماني ذلك ومكاني ذلك، لأنه بالضبط كان يجيب على الأسئلة التي كانت تجول في صدري، وقد سجلت وقتها بالقلم الرصاص في هامش مقاله قبيل نهايته هذه بعبارة «سبيل الاجتهاد ليس مجرد الوصول إلى جواز أمر من أمور حياتنا المعاصرة، لاينبغي أن تقتصر على مثل قول (هو جائز طبقا لكذا، أو ليس جائزا طبقا لكذا) ولكن ينبغي أن نحدد باجتهادنا الجديد الجائز وغير الجائز معا، فهذا أكثر أمنا ومدعاة لاطمئنان النفوس إلى أن المجتهد لا يقود المكلفين إلى طريق غير محفوف بحدود الدين التي هي أمن لهم، أو أنه يغلق في وجههم الطريق». وأتذكر من هذه العبارة أن رسالة الشيخ كانت وصلتني بحديها.

الجائز والممنوع، فليس من فقه إلا وهو يضع الضوابط للجائز والممنوع، وتجديد الفقه يعني تحريك الضابط من حد إلى حد آخر، ليبقى دائماً أن هناك جائزاً وهناك ممنوعاً. وهو لا يعني قط رفع الضوابط والحواجز والحدود. والفقه أيا كان ، سواء كان شرعيا أو وضعيا، هو ضوابط وحدود، هو رسم للحدود بين الجائز والممنوع.

اتفق إن كان أول ما قرأت للشيخ بعد هذا المقال ، هو كتاب «الحلال والحرام في الإسلام»، قرأته في طبعته العاشرة (١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦م) وكانت صدرت طبعته الأولى في (١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠م)، ألفه بتكليف من الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر الشريف، ضمن مجموعة كتب أريد منها أن تكون للتعريف بالإسلام بين المسلمين وغير المسلمين في أوروبا وأمريكا.

وأن كتابا يتوجه إلى الغرب، ويتعلق بالتحليل والتحريم أي بالقيود والحدود، كان يمكن أن يهتز بشأنه قلم كاتبه، إذا سعى لأن يقدم الإسلام في قيوده وضوابطه بالصورة التي تسوغ له أبناء حضارة الغرب المنتصر المزهو المتباهي بذاته، وكان يكون الكاتب معذورا إن فعل، في ظروف السيادة الفكرية الغربية وهيمنتها الحضارية على بلاد الشرق بعامة، وفي ظروف الرغبة البريئة الساذجة لدى بعض من كتاب الإسلام في أن يتجملوا بأزياء هذه الحضارة المسيطرة ذات العنفوان.

ولكن شيخنا القرضاوي، ابن الرابعة والثلاثين من عمره عندما صدر الكتاب (١٩٦٠)، كان مسلما واثق الخطوة يمشي ملكاً حسب قول الشاعر العربي أول ما يهمه في الحلال والحرام هو استخلاص الحكم الصائب الذي يرضى الله سبحانه، يفهمه ويقومه في ضوء مستجدات العصر، ولكن في إطار ما تسعه النصوص وحسبما يستخلص منها بمناهج التفسير المعتبرة في الفقه الإسلامي.

والكاتب في مقدمته للطبعة الأولى متنبه لكل ذلك وهو يقول «رأيت معظم الباحثين العصريين في الإسلام والمتحدثين عنه يكادون ينقسمون إلى فريقين «فريق خطف أبصارهم بريق المدنية الغربية وراعهم هذا الصنم الكبير فتعبدوا له.. هؤلاء اتخذوا مبادىء الغرب وتقاليده قضية مسلمة لا تعارض ولا تنافس، فإن وافقها الإسلام في شيء هللوا وكبروا، وإن عارضها في شيء وقفوا يحاولون التوفيق والتقريب، أو الاعتذار والتبرير، أو التأويل والتحريف، كأن الإسلام مفروض عليه أن يخضع لمدنية الغرب وفلسفته وتقاليده ..». «والفريق الثاني جمد على آراء معينة في مسائل الحلال والحرام، تبعا لنص أو عبارة في كتاب ..» .

وذكر أنه حاول ألا يكون واحدا من أي من الفريقين، لأنه لم يتخذ الغرب معبودا، وإنما رضي بالله وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا. كما أنه لم يرض



بالتقليد لمذهب معين ولم يقيد نفسه بمذهب سـائد، لأن الحق في رأيه لا يشتمل عليه مذهب واحد.

لذلك نلحظ أن الكتاب لم ينساق إلى مذاهب الغرب ومدارسه ودعاويه في القضايا والمسائل الخلافية الكبرى، التي لاتزال تثور حتى اليوم، وهي قضايا الفوائد الربوية وخلوة الرجل بامرأة أجنبية عنه ليست محرما، وتحلي الرجال بالذهب والحرير، والطلاق وتعدد الزوجات.

في كل ذلك كان الكتاب ذا رأي يدور في إطار ماهو معروف عن أحكام الإسلام، وكذلك بالنسبة للتماثيل والصور والغناء والموسيقى، لم يجز إلا ما رآه جائزا حسبما شرع النصوص والاحكام بغير تفريط في المنع ولا إفراط فيه.

من متابعتي لأسلوب الشيخ في عرض مادته وتسبيب أحكامه، ورغم التبسيط الذي إلتزمه في عرض آرائه، أدركت أنه كما وصف نفسه صراحة لا يتبع، ولكنه يستعرض الآراء ويختار منها ما يقتنع بنفسه أنه الرأي الأقرب لقصد الشارع الحكيم والأنسب لزمان تطبيق النص في حدود ما يسعه؛ وأنه يتوسط في ذلك بغير تفلت ولا تقبض، وأنه يعالج معاني النص وفي ذهنه علاقة النص بمنشئه تعالى وفي ذهنه هيكل التشريع الإسلامي كله بتاريخه وجماعاته ومذاهبه ومدارسه. أي أدركت أنه يعمل مناهج التفسير والتجديد في إطار الجماعة برمتها ويتحرك من داخلها، كمن يحرك سفينة وسط شعاب البحر، لا يرى نفسه فردا فيها إنما يرى نفسه بحجم السفينة كلها، بطول ما بين مقدمتها ومؤخرتها وبعرض ما بين جانبيها.

وكنت أعرف بتجارب العمل والممارسة والتدبير في ذلك الوقت (١٩٧٥)، وكنت بلغت الثانية والأربعين من عمري وقتها، أعرف أن الإنسان فيما يفكر ويدعو يمكن أن يقفز فراسخ إلى الإمام بقدر ما يواتيه جهده الفردي وقدراته الذاتية ولكن لن يحقق أي تقدم يذكر لجماعته بهذا القفز الواسع السريع، وأن الأجدى والأنفع له ولجماعته ولفكرته التي يدعو إليها، أن يحرك المؤسسة التي يعمل فيها أو الجماعة التي ينتمي إليها، يحركها بطولها وعرضها ولو بضعة أشبار وأمتار، فهذا هو العمل الحصيف المأمون وهو الاغناء الباقي، وإن كان في الأمر تحويل أو تغيير أو تعديل، فهو التحويل أو التغيير أو التعديل الذي يطمئن إلى استمراره من بعد.

(٥)

إن عملي القانوني في مجال التطبيق، وجهني دائما، عند النظر في الأفكار والعلوم والنظريات ذات الطابع

السياسي الاجتماعي، وجهني إلى الجانب التطبيقي منها، وعادة ما يسبقني نظري فيها إلى مآلاتها في التطبيق، وعادة ما يجري تصنيف الأفكار عندي، لا بمراعاة أسسها الفكرية وتشكلاتها النظرية المنطقية فقط، ولكن بمراعاة أثرها في السياق الواقعي المشهود وفي المآل التطبيقي لها. وأن المنهج العلمي التجريبي ذاته يجعل آخر خطوة من خطوات الاستقراء والاستخلاص هي مدى اتساق النتيجة التي أفضى إليها البحث من غيرها من النتائج الواقعية.

أشعر عادة أن العموميات مثل الصناديق المغلقة، علينا أن نفتحها لننظر فيما حوته، وأنه عند المحاورة بين عموميات أو التدقيق في المفاضلة، يتعين ليتم لنا استكمال المنهج أن نفتح الصناديق ونجرد المحتويات، وأنه عندما يتحدث المتحدث في أمور السياسة والمجتمع وفق نظريات عامة، يتعين أن نسأله من بعد، وماذا بعد؟ . فليس المهم فقط هو الكمال النظري للأفكار السياسية والاجتماعية العامة ولا صدق مرجعيتها الفكرية والفلسفية، ولكن المهم أيضا هو كيف توظف في صورها الملموسة والمشهودة، دعوة كانت أو سياسة منفذة.

وقد أعجبني في قراءاتي السابقة في الصحف القديمة، صحف ١٩٥١، أن ذكر أحد الإسلاميين أنه يتبع رأي الاسلام، فرد عليه سيد قطب متسائلا «ما هو رأي الاسلام الذي تراه». ذلك أن الأمر كان أمر موقف سياسي يتخذ وأمر سياسة تنفذ. لذلك لم يكن يكفيني في سنوات السبعينات الماضية، السنوات التي أعدت فيها البحث في المرجعية السياسية الاجتماعية لي، لم يكن يكفيني أن يذكر ذاكر أن المرجعية الاسلامية أولى وأفضل من غيرها ، فقد كنت بلغت هذا الشاطئ، بل كنت على مشارف الوصول إلى أنها بالنسبة لنا هي المرجعية وهي المشرع والمنبت، على وجه الاختصاص. ولكن بقي لدي السؤال ... وماذا بعد، وما هو رأي الإسلام الذي يراه ذوو الرأي في واقعنا المعيش، وما هو الوزن النسبي لكل من هذه الآراء التي تسعُها شرعة الإسلام ومنهاجه.

أصل الآن إلى الكتابين الأثيرين عندي في هذه المرحلة، هما أثيران لا، بما فضلهما الله سبحانه على غيرهما من كتب الشيخ القرضاوي، ولكنهما أثيران بما انتجت قراءتهما من حاصل في صدري. ولازلت إلى اليوم، بعد ثلاثة وعشرين عاما، كلما قرأت للشيخ أو تردد اسمه أمامي أو جال بخلدي، لازلت كلما حدث ذلك يلمع بخاطري اسما هذين الكتابين وهيئتهما، الأول بلون غلافه البرتقالي والثاني بلون غلافه الأخضر. ولاتزال نسخة كل منهما عندي بما تحمل من أثر قراءتي الأولى على هوامشها.

الكتابان بعنوان عام لهما هو «حتمية



في صحبة القرضاوي

الحل الإسلامي» (١) ، (٢). والأول منهما بعنوان (١) «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا » قرأته في الطبعة الثالثة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م) وكانت صدرت طبعته الأولى بمقدمته ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م - والثاني منهما بعنوان (٢) الحل الإسلامي فريضة وضرورة، قرأته في طبعته الثالثة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م وكانت صدرت طبعته الأولى ومقدمته في ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤م . وقرأتهما معا في صيف العام نفسه، عام ١٩٧٧.

الكتاب الأول، كان أول ما وجهت مقدمته نظر القارئ إليه هو هزيمة يونيه ١٩٦٧، وأن لا حل ولا علاج إلا بالعودة إلى الإسلام. وهزيمة يونيه ١٩٦٧ كانت هي ما ارتطمنا به وانكسرت عليه آمال وسدت آفاق وتحطمت آراء ونظريات، وانطرح البحث في المسلمات السياسية والفكرية والاجتماعية لدى كل ذي لب. فالمؤلف هنا بهذه البداية يشير إلى الجرح الغائر ويشير إلى من المسئول، ولكنه لايزيدك وجعا بتكرار الضرب على الجرح الأليم، إنما يبدأ من فوره بدعوة قرائه أن يلتفوا حوله ليسمعوه، أيا كانت مشاربهم، إن كانوا عربا أو كانوا مسلمين أو كانوا بشرا عقلاء، إن كانوا مؤمنين بالديمقراطية السياسية أو بمنطق الحوادث وسير التاريخ أو مستقرئين للصراع الدائر في العالم وأزماته الروحية والنفسية.

ثم هو في أول سطر في الكتاب نفسه، يحل مشكلة العراك المصطنع بين العروبة والإسلام، فيقول «لا ينكر عاقل أن وطننا العربي الكبير من الخليج إلى المحيط، وأن وطننا الإسلامي الأكبر من المحيط الهادي... إلى المغرب والسنغال على شاطئ الأطلسي...»

فوضع مسألة الانتماء في صيغة تقبل الجمع والتداخل بين خصوص العروبة وعموم الإسلام وليست صيغة استبعاد ومحاربة بينهما، ثم في النقطة التالية مباشرة يصنف الحلول المطروحة على الأمة أي المرجعيات المطروحة عليها، وهي الحل الاسلامي القرآني، والحل الديمقراطي الليبرالي والحل الاشتراكي الثوري. وفي هذا الطرح تبدو الامكانات الفنية والفكرية في النفاذ إلى صميم العلاقات بين الظواهر، والقدرة على التعميم وعلى التصنيف، مما يوفر على الكاتب وقارئه الكثير من الوقت والجهد، ويشيع روح التآلف والثقة ويمهد لحسن التفاهم والنظر الموضوعي.

ثم يرد بعد ذلك سريعا الموقف الفكري السياسي، فأصل المشكلة وأساسها التاريخي والاجتماعي والفكري، هو الوهن الذاتي لدينا وهو الغزو الأجنبي الذي سيطر علينا عبر السنين فلم نستطع أن نقاومه وخضعنا له. صور ذلك بقوله إن كان ثمة «تخلف في العلم وجمود في التفكير وركود في الفقه والتشريع وقصور في التربية

والتوجيه وفساد فى الإدارة والحكم، وكان العدو الزاحف المنتصر متفوقا فى هذه المجالات، فبهر أبصار الكثيرين وخلب ألبابهم، فبدأوا يسيرون فى دروبه ويتبعون سنته، شبراً بشبر وذراعا بذراع..» ثم بدأ الحديث الطويل عن الغزو الخارجي وأثره في أمة المسلمين، دون أن يبرىء المسلمين والعرب من مسئولياتهم فيما كانوا فيه مما عبر عنه بلفظ «الانحطاط» وما آل إليه كثيرون من انبهار بالغرب، ولم يبرئهم لأنه يريد أن يصلحهم، ولا يكتفى بأن «يعيب الزمان ويضرب الأمثال».

والشيخ القرضاوى مثقف إسلامى إلى النخاع، والمشكل يبدأ عنده دائما متعلقا بالإنسان ويبدأ من الإنسان ومن الفكر، على العكس تماما مما يفعل الماركسيون عندما يبدءون دائما بالواقع المادى، تفريعا على ما يؤمنون به من أصالة المادة وحداثة الفكر وطرونه، والغزو لدى المفكر الإسلامى ليس غزو أرض فقط وليس غزو أرض أساسا، إنما هو غزو الإنسان وفكره ووجدانه، وهذا أظهر وأعمق فى الدلالة، فالاستعمار استعباد بشر فى الأساس، والاستعباد لا يتم إلا بالالحاق الفكرى وضمان التبعية الثقافية، التى تمحو الشعور بالتميز لدى الجماعة المستعبدة، والتحرر لا يأتى الا من خلال فكر تتشربه العقول والنفوس وتبذل من أجله المهج.

والكتاب يورد وسائل التأثير الغربى فى الشرق الإسلامى، وهى فى التعليم والتربية بالبعثات ومدارس التبشير ونظم التعليم الحديثة الآخذة عن الغرب، ثم فى الصحافة ثم فى نظم التشريعات الآخذة عن الغرب والتقليد فى السلوك والأذواق. وهو هنا يفرق بين العلوم الطبيعية التى لا وطن لها ويلزم الأخذ منها وبين العلوم الإنسانية التى هى محل التأثير والتأثر الضار.

والكتاب بعد ذلك يتحدث عن القومية العربية وعن الدعوة القومية بعامة، فيعرض للأثر التفكيكى لهذه الدعوة بالنسبة لما كان قائما من وحدة سياسية إسلامية، ويعرض لأثر القومية التركية فى هذا التفكيك ولدعوة أتاتورك، ولأثر القومية العربية، ولكنه هنا أيضا يفرق بين موضوع «القومية» الذى يرى بشأنه هذا الرأى وبين مطلب الوحدة العربية الذى يؤيده ويدعمه ويعتبره جزءا من مطلب الوحدة الإسلامية الأعم، كما يفرق بين «القومية» بما أدت من وظيفة تفكيكية فى رأيه وبين النزعة الوطنية الموجهة للتحرير من النفوذ الأجنبى.

وقد كنت أتصور أن من مشاكل التقارب الإسلامى العروبى هو رفض الإسلاميين لمبدأ القومية العربية، فلما ميز الشيخ بين المبدأ المرفوض وبين مطلب الوحدة العربية المؤيد، كما ميز بين المبدأ المرفوض وبين الأداء الوطنى المقاوم للاستعمار على الصعيدين العربى والإسلامى. لما فعل ذلك حل المشكلة فى جوهرها، وجعل الخلاف خلافا نظريا بحتاً لايكاد يبقى له أثر فى التوظيف



في صحبة القرضاوي

السياسي والأداء السياسي، وجعله خلافا هادئاً يتفكر فيه المفكرون في أوقات فراغهم من جهد العمل المطلوب، وأقام جسور الثقة بين الطرفين، قلت وقتها - لقد كسب فضيلة شيخنا قضيته عندي، لقد أحسن وضع المسألة وأحسن تحريرها.

ثم يرد حديث عن القوانين الوضعية والحياة النيابية، فذكر أن الأمة مصدر السلطات وأنه يوافق على هذا المبدأ مع تقييده بعبارة «في حدود شريعة الله سبحانه» وبهذا القيد والضابط الصحيح ربط بين المرجعية الشرعية وبين الأساس النظري الذي يقوم عليه التنظيم الديمقراطي. كما ذكر أن الأخوة الإسلامية لا تتعارض مع المساواة بين المواطنين وذلك بما يتقارب مع مبدأ المواطنة الذي تقوم عليه الجماعة الوطنية حسب النظم القائمة الآن.

وعلى هذا فليست المشكلة تقوم بين الإسلام والعروبة، ولكنها تقوم بين الإسلام. وبين من ينفي من العروبيين المرجعية الإسلامية ويتبنى المفاهيم العلمانية، وليست المشكلة بين الإسلام فيما يرى وبين الديمقراطية ولكن المشكلة تقوم مع من ينفي من الديمقراطيين المرجعية الإسلامية.

والكتاب في كل ذلك حريص على أنه لا يعرض لرأي فرد، ولكنه يعرض لتيار فكري منتشر ذي رموز معروفة، منهم أبو الحسن الندوي ومصطفى الخالدي وعمر فروخ ومحمد البهي، ومحمد الغزالي ومحمود شاكر وسيد قطب وحسن البنا. وبهذا يرى القارئ نفسه أمام موجات متراكبة من مفكري الإسلام المحدثين في العقود الوسطى من القرن العشرين وحركاتهم السياسية الاجتماعية.

(٦)

عرض الكتاب الأول لما لقي الحل الليبرالي الديمقراطي من فشل، يقصد التجربة التاريخية التي مرت بها بلادنا من نهاية الحرب العالمية الأولى حتى الخمسينات، ولما لقي الحل الاشتراكي الثوري من فشل أيضا، في الفترة التالية من الخمسينات إلى السبعينات، لذلك جاء كتابه الثاني عن البديل الثالث الذي يراه فريضة وضرورة أيضا وهو الحل الإسلامي.

أول ما استفتح به الكتاب هو موضوع قضية فلسطين، «أولى القبلتين وثالث الحرمين»، واستطرد إلى الصلة بين الإسلام والعروبة وأن القيادة لم تستطع أن تستخلص هذه الصلة العميقة، وأن العرب لم يستفيدوا من الطاقة الإسلامية في مقاومتهم الاستعمار والصهيونية. ثم أشار بنوع من التفصيل إلى ما يشبه البرنامج السياسي، بدءا بالإيمان بالله والتخلق بالقيم الإنسانية، والاعتزاز بالإسلام

عقيدة وشريعة وحضارة ونظام حياة، ثم الاشارة إلى الجوانب التعليمية والاجتماعية وما يتعلق بالتنمية الاقتصادية والعدالة وتقريب الفوارق.

ثم أشار إلى الجوانب الدستورية بحسبان أن الامامة منصب دينى وسياسى معا والاختيار يرد بالبيعة والرضا، والمختار يخضع لرقابة الشعب وحق المواطن فى الحرية التى هى خلاصة من كل سيطرة تتحكم فى تفكيره أو وجدانه أو حركته دون اتباع الشهوات واطلاق الغرائز السفلى. وبالنسبة لغير المسلمين ذكر أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم «إلا ما اقتضته ظروف دولة ايدلوجية تقوم على أساس فكرة الإسلام»، ثم أشار إلى السياسة الخارجية وأن المسلمين أمة واحدة، ووجوب مناصرة حركات التحرير انطلاقا من الفكرة الاسلامية التى تفرض استبعاد الإنسان للإنسان «أيا كان دينه وجنسه». ثم أشار إلى ضرورة وضع شروط ثقافية ودينية وخلقية للمرشحين للمجالس النيابية وسائر المناصب حتى لا توضع قيادة الأمة فى أيدى الجهلة أو الملاحدة أو الفسقة».

ونحن طبعا لا نناقش مجمل هذه البنود الآن ولا تفاصيلها، بل أننى لم أكن عند قراءتى الأولى للكتاب فى مناخ المناقشة لتفاصيل البرامج السياسية والاجتماعية، وما يمكن اقراره وما قد يختلف عليه وما قد يثير التحفظ والحوار. لأن الأمر لم يكن أبدا أمر تفاصيل وجزئيات نقاش، إنما الأمر كان أمر حسم للموقف العام من تيار فكرى عام، وهو أمر اهتمام بما يمكن أن ينبنى من جسور بين التيارات الوطنية وأمر انشاء للتيار العام السياسى الأساسى فى بلادنا وبحث لمكونات هذا التيار. فكان الأمر أمرا بعيد الأثر عميق الدلالة، وهو يتعلق باقامة التوازن فى حياتنا العقيدية الحضارية الثقافية والسياسية الاجتماعية، وهو يتعلق بنطاق ما تجتمع عليه الأمة وتدين به قوى التماسك بين جماعاتها وهيئاتها وأفرادها، وهو يتعلق بالوجهة التاريخية العامة لها بتحديد من تواجه ومن تؤازر وأين تقف وإلى أين تسير.

إن فضيلة الأستاذ الجليل، بهذه الجهود المعمقة فى هذه الفترة المهمة التى تعينت عندها مفارق الطرق بين قوى الأمة وعناصرها الفاعلة الوطنية، قد بنى من ناحية الشاطىء الإسلامى رؤوس الجسور للالتقاء والتلاحم، بناها مع غيره من ذوى الفكر والرأى والغيرة على أساس صلب وبدعمات فكرية وثقافية تأسيسية باقية إن شاء الله.

لذلك وجدتنى عند نهاية قراءتى وقتها لهذا الكتاب الثانى فى صيف ١٩٧٧، وجدتنى عند آخر كلمة من كلمات الكتاب، قد وقعت بالقلم الرصاص بعبارة «الحمد لله». نقولها عند الشبع والارتواء، ونقولها عند الاكتفاء.

والحمد لله ■

الأسلحة البيولوجية

أخطر أنواع أسلحة الدمار الشامل

بقلم
عــزة الحديدى *

تعد الأسلحة البيولوجية من أسوأ موروثات القرن العشرين حيث تكمن خطورتها في قدرتها التدميرية واسعة النطاق حتي أن عدد الضحايا المقدر سقوطهم في حال اندلاع حرب بيولوجية سيفوق إجمالي العدد الذي سقط خلال الحروب التي اندلعت علي مدار التاريخ المعاصر. كما تكمن خطورتها في أنها معركة خارجة عن إطار الزمان والمكان فالساحة مفتوحة علي مصراعيها .ورغم هيمنة دولة واحدة علي العالم (الولايات المتحدة الأمريكية) فإن البيانات تشير إلي أن مخزون روسيا من الأسلحة البيولوجية يتراوح بين ٣٠٠ إلي ٤٠٠ ألف طن فيما لا يتجاوز المخزون الأمريكي منها ٥٠ ألف طن.

ومع نظام العولمة، وما يؤديه من تزايد الفجوة بين الأغنياء والفقراء، فإن الدول الفقيرة تقدم علي شراء هذا النوع من الأسلحة لاستغلاله في حالة تعرضها لمخاطر، كما أن هذا النوع تستخدمه عصابات الارهاب، وأصبح من أفتك الأسلحة مثلما حدث مع طائفة الحقيقة السامية (أوم شرينكو) اليابانية خلال مارس ١٩٩٥ ضد ركاب مترو أنفاق طوكيو.

* محررة بوكالة أنباء الشرق الأوسط

في فيلم أنتجته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (سي. أي. ايه) - أشبه ما يكون بأفلام الخيال العلمي - حاولت فيه استقراء مستقبل الكائنات الحية في ظل التطورات الهائلة والمخيفة لمنتجات الأسلحة البيولوجية تظهر قطة كبيرة وقد حقنت بعقار تجريبي ثم أدخلت في قفص يوجد به فأر صغير. فإذا بالقطة تصاب بتشنج شديد وتقلصات عصبية وراحت تموء في هلع ورعب ثم انزوت في ركن بعيد من القفص خوفا من أن يلتهمها الفأر الذي أخذ بدوره ينقض على القطة ويحاول قرضها بأسنانه الحادة مرة في ذيلها وأخرى في أذنيها وثالثة في رأسها حتى أنه نجح في جرحها في أجزاء متفرقة من جسدها! .

وخلال سيناريو افتراضي وضعته أجهزة المخابرات الروسية الفيدرالية (كي. جي. بي. سابقا) ويتضمن شن هجوم بالأسلحة البيولوجية على دولة ما يبلغ تعداد سكانها مليون نسمة، اتضح أن عدد الوفيات الناجمة عن ذلك الهجوم سيصل إلى خمسين ألف نسمة في اليوم التالي مباشرة على افتراض إدراك



السلطات المعنية لحقيقة تعرض دولتهم لهجوم بيولوجي فى ضوء ظهور الأعراض على المواطنين، والشروع فورا فى حملات التطعيم الوقائية فإذا لم يحدث ذلك - وهو ما لا يحدث غالبا - فإن عدد حالات الوفاة قد يتجاوز ٦٢٥ ألف نسمة خلال أسبوع واحد فقط.

وفي إطار برنامج سرى نفذه الجهاز الخارجي للمخابرات البريطانية (أم - أى - ٦) تم تعريض جنود إحدى الفصائل العسكرية لغازات جرثومية بدون علمهم مما أدى إلى انهيار شبه كامل فى استجاباتهم الطبيعية حيث انخرطوا فى بكاء هستيرى خارج عن نطاق السيطرة، وتحركوا بكسل بالغ وعجزوا عن القتال وتمردوا ورفضوا الانصياع للأوامر القيادية والأدهى من ذلك أنهم راحوا يصافحون أعداءهم!.

والفيلم الأمريكي والسيناريو الروسى والبرنامج البريطاني جميعها تجسد التغيير الجذرى الذى يمكن أن يحدث فى خصائص وصفات وسلوك الكائنات الحية - على اختلافها - فى حال تعرضها للأسلحة البيولوجية ذات القوة التدميرية الهائلة والتي تفوق الأسلحة النووية والكيماوية حتى أن ثلث سكان العالم - أى ما يعادل مليارى نسمة - بات مهددا بالفناء، فى حال اندلاع حرب بيولوجية.

الأسلحة البيولوجية قنبلة الفقراء الذرية

وللأسف الشديد فإن كل التوقعات والدراسات تجمع على أن الحرب البيولوجية - فى حال اندلاعها - لن تكون بين الجيوش العملاقة للقوتين العظميين (الولايات المتحدة وروسيا الاتحادية)، كما لن تكون بين حلفائهما فى الشرق والغرب ولكنها ستكون حتما فى قلب منطقة الشرق الأوسط، وبين دول العالم الثالث حيث تتركز أسواق السلاح وقطع غيارها وحيث تتوافر الرغبة إما فى اقتناء الأسلحة الجديدة والمستعملة على حد سواء لتعزيز قدراتها الدفاعية بهدف ترسيخ أنظمة حكمها غير المستقرة، وإما فى بيعها للحصول على الأموال اللازمة لإنقاذ اقتصادياتها المتردية وهنا تبرز البرازيل وجنوب أفريقيا كأمثلة حية لذلك.

وإذا كان لدى القوتين العظميين أسبابهما التى تدفعهما لتدمير ترساناتهما من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية حيث يعانى كلاهما من زيادة ضخمة فى موازنات الدفاع لا قبل لهما بالاستمرار فيها مع حالة الركود التى يمر بها الاقتصاد العالمى، وفى الوقت الذى يشعر فيه الغرب بالقلق الشديد إزاء المخزون

الروسى الهائل لأسلحة بيولوجية فائقة التقنية وإزاء القدرة المؤكدة لأفراد مؤسسته العسكرية على استخدامها بمهارة عالية، فإن الروس - على الجانب الآخر - ينتابهم الهلع من الانتاج الأمريكى الحديث نسبيا لأسلحة بيولوجية مزدوجة التأثير ويعزز من الشعور الروسى بهذا تقسيم الاتحاد السوفييتى إلى دويلات متباينة السياسات والاستراتيجيات، ومن ثم اختفاء القوة العظمى الثانية من على الخريطة الدولية وبزوغ ما يسمى بعالم أحادى القطب.

ومثلما كانت أوروبا - وعلى مدار الأعوام الأربعين التى أعقبت الحرب العالمية الثانية - مسرحا خصبا لاحتواء مخزون الأسلحة التقليدية والنووية الأمريكية والروسية المراد التخلص منه.. تبدو الآن دول العالم الثالث مسرحا خصبا لاحتواء المخزون الأمريكى والروسى من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية المراد التخلص منها وهنا تكمن المعضلة الحقيقية ذلك أن الدول الكبرى - إلى حد ما - تتصرف بحرص وتتوخى الحذر لدى إقدامها على استخدام أسلحتها الكيماوية والبيولوجية لكن الدول الصغرى تسعى جاهدة لامتلاك وتطوير هذه الأسلحة لاستخدامها فى أى وقت وضد أى طرف معاد حتى لو كان ذلك الطرف - من وجهة نظرها - هو الشعوب الثائرة على حكومات تلك الدول.

ويتفاقم الوضع مع تجاهل دول غربية عديدة لاتفاقيات مبرمة تقضى بعدم مساعدة الدول النامية على تطوير قدراتها من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية والنتيجة المستخلصة تتمثل فى انتشار سلاح رخيص ومدمر فى أيدى العديد من دول العالم الثالث ذات الأنظمة غير المسئولة، وحيث تتمركز الجماعات الارهابية على اختلاف أهدافها وعقائدها. ومن هنا أطلق على الأسلحة البيولوجية بأنها قنبلة الفقراء الذرية الموقوتة التى تشكل كابوسا مخيفا سيظل جاثما على البشرية طوال القرن الحادى والعشرين ويتهددها بالفناء!.

الأسلحة البيولوجية.. أقوى أنواع أسلحة الدمار الشامل

تندرج الأسلحة البيولوجية تحت قائمة أسلحة الدمار الشامل (التى تضم بدورها الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية) وإن كانت أكثرها خطورة وأقواها دمارا.. وتتركز فكرتها الأساسية فى اطلاق كائنات مجهرية دقيقة للغاية مثل البكتريا والجراثيم والفيروسات والميكروبات السامة من معدات وأجهزة



مصنعة خصيصا لذلك الغرض بحيث تنشرها عبر الهواء فى أكبر مساحة جغرافية ممكنة، فيستنشقها الناس أو تتغلغل داخل أجسامهم عبر مسام الجلد ومن مختلف الفتحات أو يلتهمونها مع الطعام الفاسد أو يشربونها مع المياه الملوثة فتصيبهم فى مقتل! . وخلال الخمسة والعشرين عاما الأخيرة أصبح متوفرا ٢٩ نوعا من تلك الكائنات المجهرية الدقيقة بعضها قديم وعاد إلى الظهور مرة أخرى مثل فيروس الجدرى (سمول بوكس) وفيروس (التيفوئيد) وبعضها جديد تماما مثل فيروسات (ايبولا) و(الهانتا) وحمى (اللاسا) و(الماربورج) والبعض الثالث نجح العلماء فى تخليقه مثل بكتريا (التلريات) على أن أشهر أنواع تلك الكائنات وأكثرها خطورة هى:

– البكتيريا المسببة لمرض الجمرة الحمراء (انتراكس).

– البكتيريا المسببة للطاعون (بليج).

– الفيروس المسبب لمرض القرد الأخضر (ماربورج) ومن بين الأعراض المصاحبة له النزيف الدموى وليس له علاج حتى الآن.

– بكتيريا (الترليات) المسببة لمرض حمى الأرانب (تولاريما) وتصاحبه أعراض فقدان الوزن إلى حد الهزال وارتفاع شديد فى درجة الحرارة وهذيان وآلام مبرحة فى الرأس.

– البكتيريا المسببة للتسمم (بوتوليزم) الناجم عن تناول أطعمة فاسدة أو استنشاق هواء ملوث ويحدث خللا فى الجهاز التنفسى وشللا تاما.

– الفيروس المسبب لمرض (أيبولا) وهو مرض مميت يصاحبه نزيف دموى من كل فتحات الجسم البشرى وليس له علاج حتى الآن.

ويذكر أن تخليق البكتريا معمليا يعد أسهل بكثير من عملية تخليق الفيروس.

والتأثير المميت الذى تحدثه مثل تلك الفيروسات والبكتريا يعادل تأثير المواد شديدة السمية فكمية صغيرة (٠٧٧، أوقية) من بعض أنواع البكتريا المعش تتسبب فى تكوين سحابة قاتمة ارتفاعها ٣٢٥ قدما تغطى ستة أعشار الميل وتؤثر على آلاف البشر، كما أن جراما واحدا من فيروس (التيفوئيد) يتم صبه فى مجرى مائى يمكن أن يلحق ضررا يعادل الضرر الناجم عن أربعين رطلا من مادة السيانيد السامة.

ووفقا لمصادر عليمة فى أجهزة المخابرات الأمريكية والأوروبية، توجد

حاليا قائمتان في مجال الأسلحة البيولوجية.. الأولى تضم دولا من المرجح أنها تمتلك مثل تلك الأسلحة أو تعكف على تطويرها. وتندرج تحت تلك القائمة ١٢ دولة وهي: اسرائيل وروسيا والصين وتايوان وايران والكوريتان وفيتنام والولايات المتحدة وميانمار (بورما سابقا) وسوريا والعراق وليبيا وهناك قائمة أخرى تضم ١٨ دولة تسعى لامتلاك مثل تلك الأسلحة - ما لم تكن قد نجحت بالفعل في امتلاكها - وهي أفغانستان والأرجنتين وشيلي وتشاد والهند وباكستان وبيرو وجنوب أفريقيا وتايلاند وكوبا والسلفادور ولاوس وكازاخستان وجواتيمالا وموزمبيق ونيكاراجوا والفلبين والسودان.

وفي معرض المقارنة بين موسكو وواشنطن في هذا الصدد.. تشير أحدث البيانات الرسمية إلى أن مخزون روسيا من الأسلحة البيولوجية يتراوح بين ثلاثمائة إلى أربعمائة ألف طن فيما لا يتجاوز المخزون الأمريكي من الأسلحة البيولوجية خمسين ألف طن.

الأسلحة البيولوجية.. أسوأ موروثات القرن العشرين

وواقع الأمر فإن استخدام الدول للأسلحة البيولوجية يعود إلى أوائل القرن العشرين. فعلى الصعيد الدولي استخدمته إيطاليا ضد اثيوبيا في أواخر الثلاثينات كما استخدمته اليابان ضد الصين في أوائل الأربعينات واستخدمته ألمانيا ضد قوات الحلفاء إبان الحرب العالمية الثانية، واستخدمته الولايات المتحدة ضد فيتنام خلال الستينات فيما استخدمه الاتحاد السوفييتي السابق ضد أفغانستان في الثمانينات . وعلى الصعيد الإقليمي، تعد دول الكتلة الشيوعية سابقا أكثر الدول استخداما للسلاح البيولوجي حيث استخدمته حكومة جورجيا لقمع المظاهرات المناهضة خلال أبريل ١٩٨٩ واستخدمته قوات الشرطة الرومانية السرية لقمع المظاهرات خلال ديسمبر ١٩٨٩.. وعلى صعيد الجماعات الارهابية استخدمته طائفة الحقيقة السامية (أوم شرينكو) اليابانية خلال مارس ١٩٩٥ ضد ركاب مترو أنفاق طوكيو كما استخدمه فصيل ارهابي تابع للجيش الأحمر الياباني ضد ركاب مترو أنفاق باريس في التسعينات.

وعلى مدار القرن العشرين كانت القائمة التي تضم الأسلحة البيولوجية محدودة ومعروفة لكل الدول - المهاجمة والمدافعة على حد سواء - وظل الأمر كذلك حتى عقد الثمانينات فإذا بالقائمة تتسع





جنديان يلبسان الكمامات استعداداً لأي هجوم بيولوجي محتمل

وتتنوع لتشمل أعدادا وفيرة من الجراثيم والبكتريا والفيروسات، المكونات الأساسية اللازمة لانتاج الأسلحة البيولوجية - وإذا بتلك الأسلحة تتحول من خط دفاعي أولى إلى قوة ردع أخيرة، ويعزى ذلك أساسا إلى الانجازات السريعة والمتلاحقة التى شهدها عقدا الثمانينات والتسعينات فى علوم الكيمياء الحيوية والهندسة الوراثية، والتى لم يقتصر استغلال نتائجها - للأسف الشديد - على القطاع المدنى كما كان منشودا، بل امتد ليشمل القطاع العسكرى وليتم عبرها انتاج جيل جديد من الأسلحة البيولوجية ذات القوة التدميرية الهائلة.

ففى نوفمبر من عام ١٩٧٢ أجرى عالمان أمريكيان هما هربرت بوير وستانلى كوهين تجارب رائدة فى مجال هندسة الجينات أحدثت بالتبعية ثورة فى طبيعة الحرب البيولوجية.

ويذكر أن كل كائن حى يحمل معه بيانات وراثية معينة تنتقل من جيل إلى آخر من خلال جيناته. ولكل خلية فى جسم

الانسان نواة تحتوى على جزيئات من مادة كيماوية معقدة تسمى الديوكسيريبونيوكليك) وتعرف اختصارا بمادة (دى. ان. ايه) - فيما عدا كرات الدم الحمراء التى تخلق من النواة - وهذه المادة هى السبب الرئيسى فى التباين الرهيب فى صفات وخصائص الكائنات الحية وهى المسئولة عن توجيه أنشطة الخلايا، وعندما تنقسم الخلية تحدث شبيها مماثلا لها يعرف باسم الصورة الجينية الكاملة لمادة (دى. ان. ايه) ويحدث هذا لكل الكائنات الحية من الفيروسات حتى الكائنات البشرية.

ولقد استباح العلماء حرمة هذه المادة الوراثية بمقصاتهم ومشارطهم بالقطع تارة وباللصق تارة أخرى، بل وتمكنوا من إعادة تركيبها فاستطاعوا بذلك قراءة شفرة كل جين والتعرف عليها ومن ثم تصنيعها داخل المعامل.. وتعدى الأمر إلى حد عزل الجينة واستئصال مادة الـ (دى ان ايه) منها ثم إعادة انتاجها وادخالها فى كائنات دقيقة كالبكتيريا.. ونظريا فإن الهندسة الوراثية تسمح للعلماء بعزل مواد سامة معينة وجعلها حية بهدف توجيهها للإنسان وإحداث التأثيرات المطلوبة وعلى سبيل المثال يمكن لصانعي الأسلحة البيولوجية وضع مثل هذه المواد السامة داخل قذائف مصممة بشكل معين ثم تصويبها ناحية الهدف المنشود.

ونتيجة لاستشعار العالم بمدى الخطورة التى تمثلها تلك الأسلحة الفتاكة والمميتة.. أقدمت ١١٢ دولة على إبرام معاهدة دولية فى عام ١٩٧٢ تحظر انتاج وتطوير واستخدام وتخزين وامتلاك الأسلحة البيولوجية وكذلك المعدات والأجهزة المصممة لاستخدام تلك الأسلحة لأغراض قتالية.. وفى مقدمة الدول الموقعة على تلك المعاهدة يأتى الاتحاد السوفييتى السابق والولايات المتحدة الأمريكية القوتان العظميان العالميتان. ومع حلول منتصف عام ١٩٩٦ أصبح عدد الدول الموقعة على تلك المعاهدة ١٣٧ دولة.. غير أن تحفظات عديدة تجرد تلك المعاهدة من أى معنى أو أهمية.

فالأسلحة البيولوجية - عمليا - لا يمكن توصيفها كالمدفع والبندقية والطائرة والصاروخ.

كما أن المواد الخام اللازمة لانتاج تلك الأسلحة يمكن تصنيعها عبر مختلف الشركات الكيماوية المتخصصة فى إنتاج الأدوية والبويات والجلود وغيرها.. وتلك الأسلحة زهيدة الثمن خلافا للأسلحة التقليدية الثقيلة كالصواريخ والدبابات والغواصات ومن ثم فإن أية دولة أو جماعة - بل أى شخص - يستطيع اقتناءها بسهولة.

وفضلا عن ذلك فإن عمليات



شحنها ونقلها عبر حدود الدول يتعذر مراقبتها أو كشفها - إن لم يكن مستحيلا - حيث يمكن لشخص ما بمفرده أن ينقلها داخل حافظة نقوده أو جيب معطفه بل حتى في علبة سجائره!

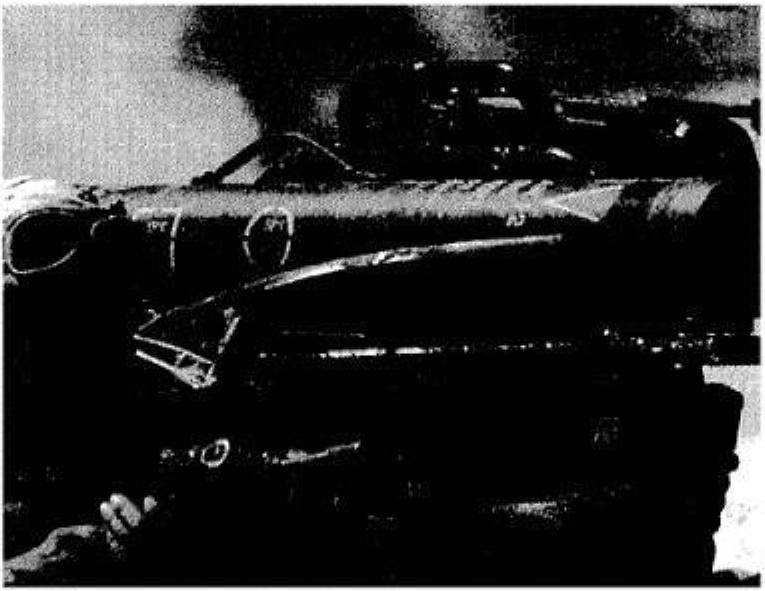
المعركة البيولوجية انقلاب جذري في المفاهيم والعقائد القتالية

وتكمن خطورة الأسلحة البيولوجية في قدرتها التدميرية واسعة النطاق حتى أن عدد الضحايا المقدر سقوطه في حال اندلاع حرب بيولوجية سيفوق اجمالي العدد الذي سقط خلال الحروب التي اندلعت على مدار التاريخ المعاصر عالمية كانت أو اقليمية نووية أو كيماوية!.

وخلافا للحروب التقليدية فإن الحرب البيولوجية تدور بين طرفين أحدهما جلي والآخر خفي.. فالعدو هنا مجرد كائنات حية متناهية الصغر لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة غير أنها شرسة وفتاكة لا تعرف معنى الهدنة ولا توقع على اتفاقيات وقف اطلاق النار!.

والمعركة البيولوجية هي معركة خارجة عن إطار الزمان والمكان فليس ثمة جبهة قتال معينة بل الساحة مفتوحة على مصراعيها ، وليست ثمة فترة زمنية محددة يمكن تأريخها بداية أو نهاية للمعركة ذلك أن الدولة التي تتعرض لهجوم بيولوجي لا تدرك حدوث ذلك في أغلب الأحيان والفترة الزمنية التي تحتاجها - لاكتشاف ذلك على ضوء سقوط وفيات وظهور أعراض مرضية مماثلة على عدد كبير من المواطنين ، ومن ثم الشروع في إزالة الآثار الناجمة من خلال علاج المصابين وتنظيم حملات تطعيم وقائية - فترة بغير منتهى ويستحيل خلالها الجزم بكسب المعركة أو خسارتها! .

ويزيد من خطورة الموقف أن مواجهة الأسلحة البيولوجية يتطلب من المدافعين ارتداء ملابس وأقنعة واقية وتلك في حد ذاتها مشكلة أخرى فوفقا للخبراء العسكريين فإن ارتداء مثل تلك الملابس والأقنعة الواقية تقلل من فعالية أداء القوات وتشل حركتها على نحو يماثل دخول الجندي إلى ساحة القتال ويده مربوطة خلف ظهره.. وتؤكد الدراسات أن معدل أداء الجندي ينخفض بنسبة خمسين في المائة بعد ست ساعات من ارتداء الملابس والأقنعة الواقية، وكلما طالت المدة انخفضت معدلات الأداء حتى يفقد الجندي تماما قدرته على الصمود والقتال مع ضرورة الأخذ بعين الاعتبار الظروف المناخية التي تدور فيها المعركة وفي مقدمتها درجات الحرارة وسرعة الرياح.



الأسلحة البيولوجية لها قدرة تدميرية هائلة قد تفوق الأسلحة النووية والكيميائية

على أن الدور الريادى فى إدارة هذه الحرب سيكون موكلا – أغلب الظن – إلى المؤسسات المدنية وليست العسكرية – كما جرت العادة – فجنود الحرب البيولوجية هم أساتذة الطب البشرى والشرعى والكيمياء الحيوية والأخصائيون فى علوم الأمراض والأوبئة (الباثولوجيون) وخبراء البيئة والممرضون بل وحتى قائدو سيارات الاسعاف، جميعهم هنا أهم من العسكريين وهو ما يشكل فى حد ذاته صراعا من نوع آخر يدور خلف الكواليس بين أفراد المؤسسات المدنية والمؤسسة العسكرية التى لم يتعود أعضاؤها من قبل على التنحى عن دور القيادة لدى نشوب حرب أو تلقى الأوامر من المدنيين!.

وإجمالا يمكننا القول بغير تجاوز أن الأسلحة البيولوجية كفيلة بإعادة تغيير شكل جبهات القتال مستقبلا. فيما تتطلب حتما إعادة صياغة الاستراتيجيات العسكرية والتكتيكات الحربية والعقائد القتالية برمتها. ■




ماذا
نعلم أطفالنا
فى القرن
الحادى والعشرين؟

بقلم
د.شبل بدران



إذا كان نظامنا التعليمى منذ نشأته الأولى قد ارتبط بالنظام السياسى، وكان أداة ناجحة فى تحقيق الطموحات الوطنية عبر فترات تاريخية طويلة، فإننا اليوم فى أمس الحاجة إلى تطوير جذرى فى بنية النظام التعليمى، ولاسيما البنية المعرفية ، بما يحقق مطالبنا الاجتماعية فى تكوين أجيال قادرة على إعمال العقل، ومؤمنة بأهمية التطور الاجتماعى ومتسلحة بمعارف وعلوم ليست جامدة ولا ساكنة.

والسؤال الآن، ما الذى يجب أن يتعلمه أبناؤنا فى الألفية الثالثة؟ وفى ضوء التحديات المحلية والاقليمية والعالمية، وفى ظل نظام رأسمالى عالمى جديد / قديم، يسعى نحو السيطرة والهيمنة على كافة مقدرات شعوبنا، وما هى المعارف والقيم والمهارات والخبرات اليومية والقدرات التى يجب أن يكتسبها طلاب الألفية الثالثة وعصر المعلومات؟ وثورة الاتصالات!

---

* أستاذ ورئيس قسم أصول التربية - كلية التربية جامعة الاسكندرية

ماذا نعلم أطفالنا

فى القرن الحادى والعشرين؟

يجدر بنا الآن قبل الخوض فى التعرف على ماذا يتعلم أبناؤنا الآن فى المدرسة فى ضوء التحديات التي تواجهنا والتى تتطلب بناء جديداً لشخصية المواطن المصرى، تنطوى على الاعتزاز بالوطن وقيمه وتراثه وعقيدته والعمل من أجل تنميته بإعمال فكره الواعى الناقد والمبدع، فى ضوء كل ذلك يجب علينا الآن أن نتعرف أولا على ملامح النظام التعليمى المصرى - واقع التعليم لأن هذه الملامح تساعدنا بشكل أساسي وجوهرى فى رسم صورة المستقبل من خلال التعرف على مناهجنا الدراسية الحالية.

ملامح النظام التعليمى

إن الواقع المعيش يشهد أزمة فى النظام التعليمي، وتتجلى تلك الأزمة فى مظاهر عديدة، منها: المعلم وكيفية إعداده وتكوينه وتدريبه، الابنية المدرسية وعدم صلاحيتها للقيام بالعملية التعليمية والعجز القائم فيها، ٢٧ ألف مدرسة تتطلب أكثر من ١٠٠ مليار جنيه، وكذا الادوات والتجهيزات المتاحة فى المدرسة، ويأتى على رأس تلك المظاهر، أزمة المناهج الدراسية والمقررات الدراسية والتى تحمل فى طياتها العديد من القيم والأفكار العاجزة عن التعامل مع الواقع أو التحديات التى تواجهنا.

إن نظام التعليم الحالى غير قادر على تكوين وبناء شخصيات حرة ناقدة قادرة على إستخدام العقل والمنهج العلمى فى التفكير والبحث، وذلك يعود بالدرجة الأولى إلى طبيعة المعرفة المقدمة للطلاب، وإلى اعتماد نظام التعليم التلقينى - التقليدى - القائم على حشو الاذهان بمعارف وعلوم لا علاقة لها بالواقع المعيش، فما يدور فى الواقع من قضايا ومشكلات وتفاعلات مغاير تماماً لما يقدم لطلابنا من خلال مناهجنا الدراسية.

والحديث عن قضية التلقين لا يتم ببساطة، فهى قضية ذات بعد سياسى بالدرجة الأولى، فثمة معلومات ومعارف توضع فى مناهج ومقررات دراسية - حسب المراحل الدراسية المختلفة - وضعها مختصون تم اصطفاؤهم واختيارهم بمعرفة القائمين على هذه المؤسسة التعليمية، فالذين يضعون المناهج الدراسية، يضعون معرفة محددة، معرفة معلومة سلفاً، فهم يختارون من التاريخ أشياء ويركزون على فترات محددة، ويهملون مراحل تاريخية عن عمد وقصد.

إذن فالمعرفة المقدمة للطلاب لتشكيل وعيهم معرفة محملة بمضامين أيديولوجية لهؤلاء الذين وضعوها، وهى تعد بشكل انتقائى ومنحاز من قبل واضعيها والمستفيدين منها، كما أن المعلم يعد فى نفس السياق بتقنيات وطرق تجعله معلماً تلقينياً، لا معلماً

محركاً وباعثاً للوعي ومتفاعلاً ومبتكراً .

ولعل القراءة السريعة لنظام التعليم المصرى منذ نشأته الأولى وإلى الآن تدلنا على أنه إلى جانب اعتماده على التلقين وتنمية الذاكرة الصماء مبتعداً عن تنمية ذاكرة الابداع، فإن عملية ادارته وتطويره تتم من خلال تصور هرمي للإدارة المدرسية والتعليمية، ويبدأ من الوزير وينتهي بالمعلم داخل جدران الفصل وفي المدرسة، نظام تكون فيه آلية صدور القرارات من أعلى إلى أسفل وفي اتجاه واحد، وتهميش وتغييب دور القاعدة المتمثلة في الطلاب وأولياء الامور وحتى المعلمون أنفسهم.

إن نظام التعليم يقوم على أحادية الفكر والتوجه، وكذلك أحادية في المعرفة الانسانية وتوزيعها على الطلاب بطريقة غير عادلة في أنواع عديدة من المدارس، حيث تسود معارف وثقافات النخب على حساب الثقافات الشعبية، وفي ظل التعددية السياسية والليبرالية الاقتصادية وثورة المعرفة والاتصالات لم يعد هذا النهج مقبولاً - من حيث تسييد ثقافة طبقة أو فئة على بقية الطبقات الاخرى في المجتمع، وذلك يؤكد عدم قدرة النظام التعليمي الحالي على الاستجابة للمتغيرات في الواقع.

تفعيل دور المدرسة

إن النظام التعليمي المناط به كمؤسسة اجتماعية مجتمعية وجدت بقصد تحقيق أهداف وغايات المجتمع في ضوء المتغيرات العالمية الجارية، العديد من المهام، لعل أبرزها تكوين وتشكيل الوعي والذهنية، لذا كانت المدرسة هي البنية المجتمعية التي تنعكس فيها كل تلك الرؤى. ولقد شهد المجتمع المصرى خلال العقد الأخير العديد من الطروحات حول تفعيل دور المدرسة في تكوين وبناء شخصيات مسلحة بالعلم وسعة الافق والقدرة على التفكير النقدي وطرح التناقضات، ولقد قامت وزارة التربية والتعليم خلال العقد المنصرم بعقد العديد من المؤتمرات «القومية» التي كانت تسعى في جوهرها إلى تطوير منظومة التعليم في مراحله المختلفة، وعلى مستويات متعددة، بدءاً بتكوين المعلم وتدريبه، وإعادة النظر في المناهج الدراسية لمرحلة التعليم الابتدائي والاعدادي ولقد تم بالفعل تغيير الكتب الدراسية لتلك المناهج خلال السنوات الخمس الماضية، إلا أننا فوجئنا بتصريحات السيد الدكتور وزير التربية والتعليم (الأهرام ٢٠٠١/١/٢٦) بتكوين لجنة عليا لمراجعة المناهج الدراسية التي لم يمر عليها عام أو عامان ويصرح بأنه: لايمكن الاستمرار في الاصرار على اعطاء أبنائنا كماً معرفياً أكبر من قدرات عمرهم، وأن البديل أمامنا هو تسليحهم بمفاتيح المعرفة والخبرات والقدرات والتحليل والبحث عن المعلومة ومهارة الربط بين الاشياء، لأن إصرارنا على أن نعطيهم كماً معرفياً والجمود أمام تلك التطورات والمستحدثات العلمية هو نوع من السباحة ضد التيار. وأضاف الدكتور وزير التربية والتعليم أن الكم المعرفي الذي يدرس حالياً لابنائنا يجب أن يعاد النظر فيه حيث أصبحت الاسرة المصرية تشعر بقسوة ووطأة التعليم على أطفالها، وقد آن الأوان أن نعيد البسمة للطفل المصرى وأن نعيد

ماذا نعلم أطفالنا

في القرن الحادي والعشرين؟

إلى أولادنا طفولتهم المفقودة». (الاهرام ٢٠٠١/٢/٨).

لجنة عليا للمراجعة

والنتيجة المنطقية المستخلصة من حديث الدكتور وزير التربية والتعليم في هذا السياق أن ما تم لم يكن يعبر عن الصورة الحقيقية، وأن ما تم قد أخفق في تحقيق الاهداف، من هنا لزم الامر تكوين لجنة عليا للمراجعة ولكن المؤسف أن ما تم قد تم بناء على تشكيل لجان وليس لجنة واحدة عليا .. ونخشى أن نصل إلى ذات النتيجة بعد خمس سنوات، وذلك يؤكد أن تطوير المناهج الدراسية من خلال مؤتمرات «قومية» ولجان عليا، لايؤدي إلى نتائج علمية أكيدة، لانه يغلب على تلك المؤتمرات الطابع السياسي المتضمن رفع شعارات ساكتة، وتشكيل لجان بهدف ملء الفضاء التربوي بحديث عن التطوير. إن الملاحظ على معظم الكتب الدراسية وجود أسماء معينة تتكرر في المراحل الدراسية، فمثلاً بالنسبة للدراسات الاجتماعية لمرحلة التعليم الاساسي (الابتدائي والاعدادي) من الصف الرابع إلى الثالث الاعدادي نجد اسم عضو هيئة تدريس وزوجته بجامعة عين شمس يؤلف لتلك المرحلة وهو في نفس الوقت يشغل منصب نائب مدير مركز تطوير المناهج ومناط به عملية المراجعة، وهكذا القصص والروايات تشير بأن عمليات التطوير تلك شكلية أكثر منها جذرية، كما أن عمليات التطوير تقتصر على الجانب المادي في إستيراد أجهزة كمبيوتر وحاسبات دون تنمية وتدريب للبشر الذين سيتعاملون مع تلك الاجهزة .

التمويل ، فمن ملامح نظامنا التعليمي عجز الموارد المالية المخصصة له للوفاء بحاجات الافراد والمجتمع، فعلى الرغم من أن ميزانية وزارة التربية والتعليم تربو على ١٨ مليار جنيه سنويا - أكثر من ٨٠٪ منها مرتبات ومكافآت - الا أن الاحتياج الحقيقي يصل إلى ٢٥ مليار جنيه سنوياً . كما أن العجز في الابنية المدرسية والمقدر بحوالي ٣٠ ألف مدرسة في حاجة إلى ١٠٠ مليار جنيه وأن الدولة لا تستطيع الا الوفاء بذلك هذا المبلغ ولذا لجأت إلى رجال الأعمال وآليات السوق في إتاحة التعليم كمشروع إستثماري وهناك توجه إلى بناء ٣ الاف مدرسة سنوياً وتقدر مصروفاتها الاولية بثمانية الاف جنيه تدفع مرة واحدة في بداية الالتحاق ومصروفات سنوية تقدر بحوالي ألفي جنيه مصري، وان تلك النوعية من المدارس ستقدم تعليماً راقياً يصل في مستواه إلى التعليم الاجنبي في الدول الاجنبية، ولعل التصريحات الرسمية خلال الشهرين المنصرمين تؤكد ذلك وتهيىء المجال والفضاء السياسي والتربوي بقبول تلك الآراء .

توجه لخصخصة التعليم

ففي جريدة الوفد (٢٠٠١/١/٣١) يؤكد الدكتور وزير التربية والتعليم أن الدروس الخصوصية دخلت «السوق السوداء» وأن هناك توجها لخصخصة التعليم التي تبدأ بـ ٣ آلاف مدرسة وفي تصريح للدكتور الوزير في جريدة (الاهرام ٢٠٠١/١/١٢) تشكيل لجنتين تضمان مختلف القوى الوطنية لبحث سبل تمويل عمليات تطوير التعليم، وفي تصريح آخر في جريدة الوفد (٢٠٠١/١/٢١) يؤكد سيادته وجود فجوة شديدة في الدعم الحكومي لتمويل التعليم حيث يعترف سيادته بتدني الانفاق على الطالب المصري مقارنة بالنسب العالمية، وأوضح الدكتور الوزير أن ما ينفق على الطالب المصري يبلغ ١٥٠ دولاراً مقابل ٥ آلاف و١٢ ألف دولار في الدول الأوروبية.

كل ذلك يدعم أن الدولة في طريقها إلى خصخصة مدارسنا وترك التعليم لآليات السوق، وذلك يأتي في نفس الوقت الذي نعلن فيه صباح مساء بأن التعليم قضية أمن قومي والمشروع الاكبر لمصر، وأن الاستقرار الاجتماعي وتماسك هوية الوطن لن يكون الا من خلال نظامي تعليمي قادر على ذلك، وأن التحديات العالمية والمحلية تستلزم منا الاهتمام بالتعليم بوصفه أحد أهم روافع التنمية والتقدم ومواجهة تلك التحديات، وذلك الأمر لا يخصنا وحدنا، بل أن الولايات المتحدة الامريكية زعيمة النظام الرأسمالي العالمي وصاحبة أكبر قوة ونفوذ وهيمنة في عالمنا المعاصر، تعطي التعليم أولوية قومية فوق كل الاولويات حيث نجد الرئيس الأمريكي المنتخب جورج بوش في يناير ٢٠٠١ يطالب الكونجرس الامريكي إعطاء أولوية خاصة لقرارات تطوير التعليم وذلك حتى يمكنه أن يحقق بعض وعوده الانتخابية في أقرب فرصة ممكنة، ولقد اختار الرئيس الجديد موضوع تطوير التعليم الذي يحظى بتأييد قيادات الحزب الديمقراطي لتفادي المواجهات التي يمكن أن تحدث عند مناقشة تخفيض الضرائب الامريكية بمقدار ١,٣ تريليون دولار، ولقد طالب الرئيس الامريكي الجديد جورج بوش باعتماد مبلغ ٤٧ مليار دولار لتطوير التعليم في الولايات المتحدة، أليس لنا في ذلك عبرة وعظة ؟

إن عملية تطوير المناهج الدراسية في نظامنا التعليمي بالصورة الشكلية التي تتم بها، ومن خلال لجان عليا الهدف منها وجود زخم إعلامي يملأ الفضاء التربوي بأحاديث التطوير، لن تجدي كثيراً، لأن الحادث أن هناك تطويراً مادياً في شراء أجهزة تكنولوجية قبل إحداث التطوير والتنمية البشرية، وأن صناعة المناهج في مصر يحتكرها قلة من البشر تدربوا على مهارات الحفظ والتلقين منذ سنوات. إننا في حاجة إلى ثورة حقيقية في تطوير مناهجنا الدراسية، لتحدد ماذا نعلم لأطفالنا في الألفية الثالثة؟، ومن هم القادرون على تحديد المعارف والعلوم والقيم وأنماط السلوك في ظل التحديات العالمية المشار إليها آنفاً. ■

حـــرية الكلام في العصر الرقمي

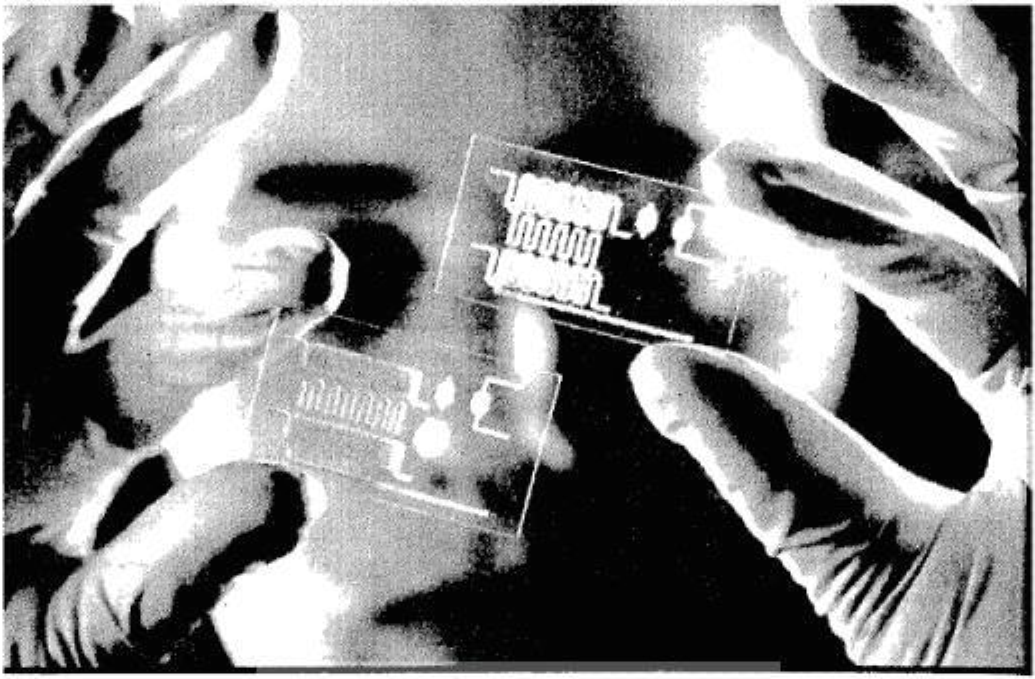
كيف تراقب الحكومات الإنترنت؟

بقلم
د. أحمد محمد صالح

هل الإنترنت يضمن ويدعم الديمقراطية ؟!

النقاد والسياسيون على حد سواء مغرمون جداً بهذا الادعاء ، لكنه بديهية فارغة وخطيرة في نفس الوقت فعلاً لدى الإنترنت نزعة وميول ديمقراطية قوية . فهي منتدى وساحة شاسعة تشجع العديد من الناس على التفاعل مع بعضهم البعض، فالشبكة تجعل من الممكن للمواطنين حول العالم المشاركة على الملأ في حوار عام . وهيكلها وبنيتها غير المركزية يساعد الأفراد على تجنب وتجاوز كل بوابات الرقابة والتحكم في تدفق المعلومات والسلع . وبحكم طبيعة الإنترنت ليس لها مالك أو ملاك يملكون البروتوكولات التقنية التي تجعل عمل الشبكة مقيداً بأغراض حكومية أو يتحكمون في درجة المصارحة والشفافية .

ومع ذلك فإن هذه الميزات التي توفرها الإنترنت يمكن التحكم فيها وتحديدها بواسطة شفرة وكود من خلال برامج معينة يتم من خلالها حجب ماهو غير مرغوب . وباختصار ستكون التكنولوجيا، في قلب صراعات السلطة المتنوعة في العصر الرقمي. ولا يجب أن نكون مندهشين لرؤية الحكومات والهيئات تحاول أن تكود وتشفر الشبكة لحفظ سلطتهم أو أرباحهم . لكن



التشفير والتكويد ليس كل شيء، حتى إذا أمكن أن نغلق ونتحكم ونلغى المميزات الديمقراطية للإنترنت، فإن التأثير السياسى الأساسى لهذه التكنولوجيا (أو أى تكنولوجيا أخرى) يعتمد على ثلاثة عوامل أولها التصميم التقنى للتكنولوجيا نفسها، ثانيا طريقة ومقصد استعمال التكنولوجيا، ثالثا البيئة الاجتماعية والثقافية والسياسية التى تنتشر فيها تلك التكنولوجيا. فالتصميم والاستعمال والبيئة، تستطيع من خلالها الإنترنت أن تقمع الديمقراطية، وأيضاً يمكنها تنمية وترقية الديمقراطية.

هل الإنترنت يمكن أن تكون جنة المقهورين فى الأرض؟!

ربما، تمكن الشبكة الأفراد أن يتحدثوا فى كل شيء، وتسمح لهم أن ينشروا رؤاهم فى كل مكان فى العالم من خلال عشرات الآلاف من الصحف الإخبارية الإلكترونية والبريد الإلكترونى، وتنشر أيضاً موسيقاهم من خلال الأشكال الجديدة لتخزين الموسيقى، وتسمح لهم بإنشاء مواقع لهم يقولون فيها بصراحة أفكارهم وهواجسهم وعلى مدار الـ ٢٤. فالفوائد السياسية واضحة تماماً فى الإنترنت. فى ١٩٩٦، على سبيل المثال، أعضاء المعارضة الصربية استعملوا الإنترنت لإذاعة برامج محطة الراديو المعارض للحكم، والتى كان قد أغلقها الرئيس سلوبودان ميلوسيفيتش. وانتشر صوت المحطة من الإنترنت حول العالم، وفى بداية ١٩٩٩ مع حملات قذف حلف شمال الأطلنطى، اضطر



حرية الكلام في العصر الرقمي

ميلوسيفيتش تحت الضغط الدولي أن يعيد فتح المحطة .

المعارضة على الأنترنت

في الصين ، لين هاي ، رجل أعمال يعمل في برامج الكمبيوتر ، تلقى حكما لمدة سنتين بسبب استخدامه البريد الإليكتروني في بث رسائل إلى ٣٠ ألف عنوان على الشبكة، إلى المعارضين والمنشقين خارج الصين ، ونشر عناوين بريدهم الإلكتروني في مجلة إلكترونية على الويب تدافع عن الديمقراطية . وفي سابقة أدانتها جماعات حقوق الإنسان الدولية ، بدأت في الصين لأول مرة هذه الأيام محاكمة مواطن أنشأ موقعاً على شبكة الإنترنت، وكان هوان كي، الذي يبلغ السادسة والثلاثين من العمر قد اعتقل في يونيو حزيران الماضي في مدينة تشن دو جنوب غربي الصين حيث يحاكم حالياً بتهمة محاولة تقويض سلطة الدولة من خلال نشره مقالات على موقع الإنترنت الخاص به ، تتحدث عن انتفاضة عام تسعة وثمانين الداعية إلى الديمقراطية، ويذكر أن جميع المقالات التى أثارت غضب السلطات لم يكتبها المتهم ولكنها أرسلت إليه من قبل زوار الموقع الذي يتم إدارته من خارج الصين في الوقت الحالي، وكان عدد من الصينيين قد تعرضوا للاعتقال سابقاً بسبب إرسالهم قوائم لعناوين البريد الإلكتروني إلى منظمات حقوق الإنسان خارج الصين. ويجدر بالذكر أنه بموجب قانون صدر في ديسمبر الماضي في الصين فإن النشاطات المعادية للدولة على شبكة الإنترنت تعد جريمة. ومن المعروف أن هناك إقبالا مرتفعاً على شبكة الإنترنت في الصين أدى إلى مضاعفة عدد مستخدمي الشبكة ليصل إلى نحو سبعة عشر مليون نسمة . وفي بورما ، حيث كل التكنولوچيا التفاعلية تحت السيطرة ، مات واحد من مؤيدي حركة الديمقراطية في السجن ، لأنه كان يستعمل ماكينة فاكس بدون رخصة.

والأمثلة السابقة لحكومات تستعمل الطريقة القديمة وهي القوة . لكن حتى بدون تدخل الحكومة ، فمنظر تكنولوچيا المعلومات الجديدة يوحي باختلاف حرية الكلام الديمقراطي التقليدي الذي نعرفه فالتفاخر بأن الإنترنت هي «سوق للأفكار» يفترض وجود منبر أو منتدى شعبي تذاع فيه الأفكار، ويحكم فيها على مصداقيتها، وليس على مصادرها . بالطبع الواقع في الإنترنت مختلف تماماً وهناك مستويات مختلفة للوصول إلى هذا السوق يعتمد دائماً على وضع المتحدث ومكانته ومدى ثروته (على سبيل المثال ، ليس أي شخص في قدرته أن يتحمل شراء الإعلانات لنشر رسالته عبر

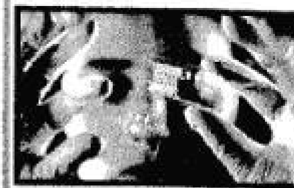
الويب)، علاوة على أن انتشار المعلومات وتكاثرها وانفجارها ، زاد من انتشار تكنولوجيات فلاتر وترشيح المعلومات ، وأصبح سوق الكلام فى الانترنت أكثر وحشية. وأصبح من المحتمل حتمية دفع مقابل مادى حتى يسمعك العالم بحرية . وفي عالم اليوم حيث يكون الانتباه نادرا بشكل متزايد ، فقدت في فضاء الإنترنت (السيبرسباس) أصوات الكثير من المستفيدين المبكرين للإنترنت سواء كانوا أفراداً أو مؤسسات صغيرة لا تربح من الإنترنت مثل محطات الإذاعة والموسيقى، التقليدية أو كوابل القنوات العامة كلهم غرقوا فى مزايدات من يدفع أكثر.

هل تستطيع الحكومات فرض سيطرتها على فضاء الإنترنت (السيبرسباس) ؟!

نفكر مرة ثانية . منذ عدة سنوات ، مؤيدو حقوق الحرية فى السيبرسباس، والمبدعون لتقنيات الإنترنت حاولوا جاهدين أن يجنبوا الإنترنت من الالتزام بلائحة حكومية صارمة بدفع وتشجيع تلك التفاعلات الفورية العلى الخط On-line interactions والتى تحدث من على بعد بين الحدود البعيدة ، وبعيدة تماماً عن متناول يد الحكومات. ليس فقط لأن اللائحة الحكومية غير شرعية، بل يقولون ببساطة انهم لا يمكن أن يفعلوا ذلك ، كدفاع ضد الرقابة واحتراما لحرية التعبير، وهو نقاش ومجادلة ماهرة. لولا أن جزءاً كبيراً من هذا النقاش غير حقيقي!.

لمسة ماكرة للحكومات المتسلطة

فبالإضافة إلى استخدام يد حديدية فى التحكم فيما يعرضه الإنترنت ، فإن الأمم المتسلطة أخذت بشكل متزايد تتبنى لمسة سيلكون ماكرة أكثر لكى تتحكم فيما يمكن أن يقرأه مواطنوها أو يسمعوه من تلك التفاعلات الفورية العلى الخط فى الإنترنت، من خلال برامج الفلترة وبرامج المرشحات وبروتوكولات الاتصالات التى تعتمد على اختيار نطاقات اتصال معينة . كل هذه اللمسات الإلكترونية تعاير محتويات الإنترنت وتضع عليها بطاقات الصلاحية أو عدم الصلاحية لتكون هناك إنترنت مرضى عنها من قبل الحكومات المتسلطة ، وهذا يجعل الرقابة الآن أسهل كثيراً من الرقابة فى العصر قبل الرقمى. فبدلا من مصادرة الكتب والنشرات سرا كما حدث أخيراً فى معرض الكتاب بالقاهرة، فالحكومات فى العصر الرقمى يمكنها ببساطة فرض رقابة على كل اتصالات الإنترنت عبر بوابة إليكترونية تعرف باسم (Proxy Server) وهى برامج خاصة تعترض سبيل المعلومات من بين المصدر والمستقبل لغرابتها ومنع استقبال مواد معينة .. تعمل هذه البوابات القوية كمناخل حديثة ، وتمنع أيضاً الهجوم الإلكترونى على مواقعها، لأن الإنترنت اليوم أصبحت إحدى الوسائل الجديدة فى الصراعات



حرية الكلام فى العصر الرقمى

السياسية التى تدور فى عالمنا المعاصر ، فقد شهدت السنوات القليلة الماضية، محاولات دولية لاختراق شبكات حكومية فى مختلف دول العالم ، مثل المحاولات الروسية لاختراق شبكات الوزارات الأمريكية، والهجمات المتبادلة بين الصين وتايوان على الشبكات الحكومية فى البلدين فى محاولة للحصول على المعلومات السرية، وفى اليابان دعت الحكومة إلى عقد اجتماع طارىء لاتخاذ إجراءات أمنية لحماية أنظمة الكمبيوتر الحكومية بعد أن تعرضت للتخريب من قبل متسللين استطاعوا النفاذ إلى مواقع حكومية على شبكة الإنترنت، وفى حالتين أخريين انتقد المتسللون الموقف اليابانى الرسمى من تاريخ الحروب اليابانية فى الصين . كما تم محو بيانات مهمة من الموقع الحكومى تتضمن إحصائيات عن تعداد السكان، ولا يختلف الأمر كثيراً فى الصراع الفلسطينى الإسرائيلى ، الذى بدأ يأخذ أشكال حروب إلكترونية متعددة بين المواقع العربية ، والمواقع الإسرائيلية على الإنترنت.

بوابات الكترونية مغربلة

ونشر فى نيويورك تايمز ، وأذاعت CNN ان الصين تستعمل تلك البوابات الإلكترونية المغربلة لمنع الكثير من صفقات البضائع الأجنبية التى تسعى المواقع المعارضة والمنشقة إلى دخولها الأراضى الصينية ، أحياناً ، وسنغافورة فرضت على شركات خدمات إنترنت استعمال برامج الفلترة والمرشحات التكنولوجية لمنع مواقع معينة للبورنوجرافك (الصور والأفلام الإباحية) ، ورغم ذلك بالطبع هناك دائماً طرق للتهرب من مثل هذه المكائد الإلكترونية، وتنجح فى تجنب البوابات المغربلة ، لكن النظم المتسلطة مع زيادة التدفق الحر الكلام عبر الإنترنت، وانتشار الحرية الرقمية مستبعد تماماً ان تستسلم بسهولة، والا ستفقد أهم صفة تميزها وهى التسلط.

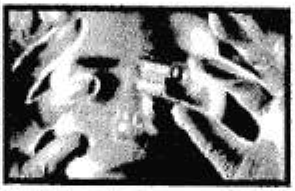
حتى فى دول غربية ليبرالية وضعت لوائح للإنترنت تقاضى بها المتبلدين وفاقدى الإحساس والحياء، فى ١٩٩٧، على سبيل المثال ، حكومة بافاريا فى المانيا حاكمت فيلكس سوم، الرئيس المحلى لشبكة لكومبسيرف للخدمة الفورية Online service Compu-servo ، لأن واحداً من المشتركين فى شبكة كومبسيرف استعملها للحصول على مواد إباحية غير قانونية ، على الرغم من أن شبكة كومبسيرف لم تنتج تلك المواد الإباحية ، ورئيسها وموظفوها لايستطيعون معرفة من يستعمل الشبكة للحصول على تلك المواد . ومع ذلك وجهت تهمة لفيلكس سوم بالاتجار فى

الأدب المكشوف . والولايات المتحدة فرضت قيودا شديدة على تطوير وتصدير أدوات التشفير، وفي أواخر عام ١٩٩٦، صنفت إدارة كلينتون أدوات التشفير والتكويد وفلاتر المعلومات كنوع جديد من الأسلحة، واعتبرت انتاجها نوعاً من إنتاج عتاد الحرب ، واعتبرت تصدى أو حمل تلك الأدوات من بلد لأخرى جريمة يعاقب عليها القانون. وقد حاولت واشنطن أيضاً، مع نجاح أقل، التحكم في المواد الجنسية عبر التفاعلات الفورية في الشبكة . ففي عام ١٩٩٧ ، المحكمة العليا هناك أصدرت قانون أدب الاتصالات ، لتقييد الكلام الغامض جداً والفاحش عبر الويب لدرجة أن الشخص الذي يضبط بنشر القبح عبر الشبكة سواء بالكلام أو نشر مواد جنسية كان يمكن أن يسجن.

تعامل العرب مع الإنترنت

من التقارير الأخيرة لمنظمة مراقبة حقوق الإنسان عام ٢٠٠٠ و٢٠٠١، واعتمادا على التقارير التي تصدرها الـ CNN, BBC ومعهد بانوس في لندن حول استخدام الإنترنت في العالم تبين أن المنطقة العربية تعاملت مع الإنترنت بعقلية محاكم التفتيش حيث المصادرة والمراقبة والمنع، في إيران مثلا برمجت وراقبت حجرات الدردشة في مواقعها بحيث تسمح فقط لعدد اثنين من المتحدثين يتكلمان إلى بعضهما البعض في كل مرة . (يظهر فيما يبدو ، السماح لثلاثة أشخاص يعتبر نوعا من المظاهرة يهدد الأمن العام ، حتى في الإنترنت)، في العراق خدمة الإنترنت التي تحتكرها وزارة الثقافة والإعلام فقط أتيحت للشعب العراقي لأول مرة في ٢٧ يوليو الماضي بافتتاح مقهى للإنترنت في بغداد ، وأعلنت السلطات أن هناك مراكز أخرى سيتم افتتاحها في مدن أخرى في المستقبل. إلا أن وزير النقل والاتصالات صرح بأن مستخدمي الإنترنت يمكنهم تصفح مواقع الشبكة التي لا تنتهك «مبادىء الدين الإسلامي» ولا تسىء إلى «القيم والأخلاقيات». إلا أن مستخدمي الشبكة في العراق منعوا من الدخول إلى نظم البريد الإلكتروني المعتمدة على الشبكة وغير الخاضعة للرقابة.

وكانت المملكة العربية السعودية ، والبحرين ، وتونس، والإمارات العربية المتحدة من الدول التي منعت الاتصال بواحد أو أكثر من مواقع شبكة الإنترنت المعنية بالشئون السياسية أو بحقوق الإنسان والتي تثير استياء السلطات . ففي السعودية كمثال أصبحت الإنترنت متاحة للجمهور في ديسمبر ١٩٩٨ بعد إضافة وسائل تقنية تسمح باستبعاد المواد التي تعتبرها السلطات ذات خطورة على أمن البلاد أو الأخلاقيات العامة . وتم تبرير ذلك رسمياً بأن «الحكومة السعودية من حقها حماية مجتمعها. ولا تريد أن تفتح الباب على مصراعيه بل تختار المادة المناسبة، وفي أغسطس الماضي، أغلقت السعودية



حرية الكلام فى العصر الرقمى

موقع «نوادى ياهو» والذى كان يضم نحو ٢٥٠ نادياً سعودياً يزيد عدد أعضائها على ٦٠ ألف عضو، تحت مزاعم أن معظم المواد كانت تتنافى مع القيم الدينية والاجتماعية والسياسية للمملكة». وفى إبريل الماضى أغلقت الحكومة السعودية مقهى للإنترنت فى مكة كان يرتاده الكثيرون من طلاب الجامعة. ووفقاً لما روته هيئة الإذاعة البريطانية نقلا عن صحيفة «أراب نيوز» كان سبب ذلك الإجراء هو الدعوى التى رفعت فى إحدى المحاكم وذكرت أن مقهى الإنترنت الخاص بالنساء فقط كان يستخدم فى «أغراض لا أخلاقية». ولوحظ أن ابناء الجزيرة العربية هم الأكثر تفاعلاً واستفادة من شبكة الانترنت، فلا تكاد منطقة أو مدينة أو قرية إلا وقامت بإعداد موقع لها تاركة وراءها إعلامها الرسمى دون اكتراث.

قرارات صارمة بذهنية بوليسية

لذلك صدرت هناك عدة قرارات صارمة بذهنية بوليسية ، تجعلنا نضحك حتى البكاء ، فنقرأ بعضاً من هذه القرارات:

١ - يلتزم كل مستخدمى الإنترنت بالامتناع عن نشر المعلومات التى تحتوى على كل ما يخالف الدولة أو نظامها ، وكل ما يمس كرامة رؤساء الدول أو رؤساء البعثات الدبلوماسية المعتمدين بالمملكة . كما يمنع نشر التقارير والأخبار التى لها مساس بسلامة القوات المسلحة كما يمنع نشر الأنظمة والاتفاقيات والمعاهدات، كما يمنع نشر ماينسب إلى المسئولين فى الدولة أو فى المؤسسات أو الهيئات» فهذه القرارات بدرجة من الوضوح الذى لا تحتاج إلى تعليق.

٢ - يقوم مقدمو خدمة الإنترنت بتجديد صلاحية الدخول على الإنترنت ..... وربط ذلك ببرامج متابعة وتدقيق تقوم بتسجيل الفترة الزمنية للاستخدام والعناوين التى تم الوصول إليها أو محاولة الوصول منها أو إليها وأحجام الملفات وأنواعها وهكذا مراقبة إلكترونية لجميع مستخدمى الإنترنت لمعرفة نواياهم ، ومطاردتهم فى المواقع التى يذهبون لها، وتحديد العناوين التى يحاول الفرد الوصول إليها، ومعرفة الملفات وأحجامها التى حملت من الموقع!!

٣ - يقوم مقدمو الخدمة بإعداد سجل وثائقى يدوى والكترونى يشتمل على معلومات شاملة عن المستفيدين النهائيين وعناوينهم وأرقام هواتفهم وأغراض الاستخدام وأرقام الحسابات الخاصة بالدخول على الإنترنت وتزويد

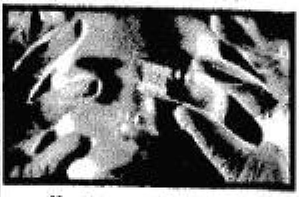
الجهات الأمنية بنسخة منها إذا لزم الأمر». اعتقد اننا لا نحتاج أى تعليق على تلك القرارات..

وفي تونس، أصبح في وسع التونسيين استخدام شبكة الإنترنت بسهولة أكبر من ذى قبل نظراً لانخفاض الأسعار وتسارع البت في الطلبات وفتح أول مراكز عامة للإنترنت. ولكن التشريعات التونسية المتعلقة بالإنترنت تنتهك حقوق الحرمة الشخصية للمستخدمين، كما أن الحكومة تعمد إلى منع المستخدمين فى تونس من الوصول إلى موقع منظمة العفو الدولية على شبكة الإنترنت. وقد أعرب التونسيون عن تخوفهم من تعرض مراسلاتهم عبر الإنترنت للمراقبة على غرار مايحدث لاتصالاتهم بالهاتف والفاكس.

وفي الذكرى العاشرة لتوحيد اليمن فى شهر مايو الماضى، عطلت الحكومة استخدام أجهزة الهاتف الدولى، والهواتف المحمولة، ووسائل النداء الإلكترونى، عدة أيام واستمر البطء الشديد مع ارتفاع التكاليف فى استخدام شبكة الإنترنت المتاحة عن طريق شركة حكومية واحدة فقط، كما منع ارتياد بعض مواقع الشبكة التى تتضمن مواد سياسية. وقيدت الحكومة اليمن استخدام الجمهور لشبكة الإنترنت من خلال استخدام برامج وسيطة لغربلة وحجب محتويات معينة على الشبكة عن المستخدم النهائى.

وفي سوريا تملك الدولة الصحف والإذاعة المسموعة والمرئية وتفرض عليها سيطرة صارمة؛ لكن البلاد شهدت خطوات نحو تقديم خدمة الإنترنت على نطاق محدود لبعض شرائح المجتمع السورى، وإدخال خدمة الهاتف المحمول. وفى ٢٥ إبريل الماضى ورد أن نحو ٣٥ مؤسسة تابعة للدولة، منها جامعات ووزارات، أصبحت متصلة بشبكة الإنترنت. وفى ١٥ يوليو الماضى قالت صحيفة «الثورة» الحكومية إن مؤسسة الاتصالات السورية ستبدأ فى تقديم خدمة الإنترنت لشركات القطاعين العام والخاص، وكذلك خدمة البريد الإلكترونى للأشخاص ذوى الصفة القانونية فقط. وأضاف أن تقديم خدمة البريد الإلكترونى يقتضى من المشترك أن يكون ذا وضع مهنى مثل الأطباء والصحفيين والمحامين. وأشار مقال الصحيفة أيضاً إلى أن مؤسسة الاتصالات ستراقب المشتركين عن كثب، قائلاً إنها ستكون هى الجهة الوحيدة المنوطة بتقديم الخدمة، وستقطعها عن أى مشترك يشفر ملفات أرسلت خارج الشبكة السورية.

أما في الأردن، ومصر، والمغرب، والجزائر، وبلدان أخري، لا توجد مؤشرات على ما يفيد بأن السلطات قيدت المحتوى السياسى للاتصالات بالإنترنت، وبذلك سمحت للمستخدمين المحليين بالاطلاع على معلومات محظورة فى وسائل الإعلام المحلية سواء المطبوعة أم المذاعة. غير أن



حرية الكلام فى العصر الرقمى

مستخدمى الشبكة فى بعض البلدان، مثل تونس والبحرين، أعربوا عن توجسهم من احتمال وجود رقابة حكومية على البريد الإلكترونى و«غرف الدردشة» السياسية . ويذكر ان مصر أغلقت موقعاً واحداً منذ عدة شهور لشركة دعاية مصرية تقدم خدمات الدعارة المختلفة.وفى منطقة كهذه، حيث تكاد جميع الحكومات تضيق على حرية التعبير بطرق متنوعة، اتبعت الكثير من السلطات منهجاً حذراً فى التعامل مع الإنترنت الذى يتيح للأفراد طريقة سهلة وسريعة وزهيدة التكلفة لتبادل المعلومات على نحو يتفادى رقابة الدولة . وقد لجأت حكومات المنطقة كما ذكرنا إلى طرق شتى لتقييد حرية المعلومات عبر الشبكة؛ فالمملكة العربية السعودية واليمن ودولة الإمارات العربية المتحدة فرضت رقابة عليها عبر برنامج وسيط ، وهى برامج خاصة تعترض سبيل المعلومات من بين المصادر والمستقبل لغربلتها ومنع استقبال مواد معينة. وفى كثير من البلدان، ومنها الأردن، بات استخدام الإنترنت بفضل سياسات الضرائب والاتصالات عن بعد باهظ التكلفة حتى لم يعد فى مقدور الكثيرين الانتفاع منه - سواء أكان ذلك أم لم يكن هو الهدف المقصود من تلك السياسات . أما تونس فقد سنت أكثر القوانين المنظمة لاستخدام الإنترنت تفصيلا فى المنطقة، وقد أعد فى جانبه الأكبر على نحو يضمن ألا تفلت الاتصالات عبر الشبكة من القيود الصارمة التى تفرضها الحكومة على حق مواطنيها فى ممارسة حرية النقد والتعبير عبر أجهزة الإعلام الأخرى . وفى معظم البلدان التى لم تصدر قوانين خاصة بالإنترنت ، كان للقيود المفروضة بحكم القانون أو الواقع على حرية القول والصحافة أثر هائل على المواد المتداولة عبر الشبكة خاصة فى المنتديات العامة مثل النشرات المفتوحة أو «حجرات الدردشة».

رقابة على اتصالات الانترنت

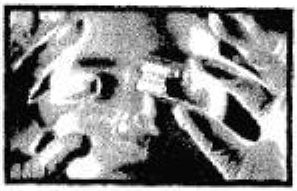
وفى منطقة درجت فيها الكثير من الحكومات على التنصت على هواتف المعارضين، يعتقد مستخدمو الإنترنت فى الكثير من البلدان، ومن بينها البحرين وتونس ، أن حكوماتهم تنتهك سرية مراسلاتهم عن طريق نظم مراقبة البريد الإلكترونى . وقد أمضى مواطن بحرينى أكثر من سنة فى السجن للاشتباه فى أنه يرسل معلومات «سياسية» لبعض المعارضين فى الخارج عبر البريد الإلكترونى . ويزيد على ذلك أن بعض الحكومات فى المنطقة أصبح شغلها الشاغل تتبع مواقع المعارضين

لها في الإنترنت ومهاجمة تلك المواقع وتدميرها، وأعرف موقعا معارضا يغير عنوانه في الإنترنت كل فترة، لكي يفلت من المتابعة الإلكترونية التي تقوم بها حكومته.

وهناك بعض حكومات المنطقة قد انتهجت موقفاً أقل تدخلا إزاء الإنترنت - رغم أنها تفرض قوانين تقيد وسائل التعبير الأخرى - مما أوجد بعض المفارقات الظاهرية في مصر والأردن حيث أصبحت الصحف أو المقالات التي منعتها الرقابة تأخذ طريقها بسرعة إلى شبكة الإنترنت ، وبات بوسع مستخدميها الاطلاع عليها وإرسالها إلى غيرهم دون أن تكون لذلك أي عواقب وهو ماحدث أخيراً في أزمة وزارة الثقافة المصرية التي منعت ثلاث روايات من النشر تحت مزاعم حماية الاخلاق ، وبسرعة شديدة وجدت هذه الروايات طريقها إلى النشر في الإنترنت، وأصبحت في متناول الجميع. ولم تتخذ الجزائر والمغرب والسلطة الفلسطينية أي إجراءات تذكر لفرض رقابة على محتويات الاتصالات عبر الإنترنت، مما جعل في متناول المستخدمين ثروة هائلة من المعلومات السياسية والمعلومات المتعلقة بحقوق الإنسان مما لاتستطيع الصحف أو وسائل الإعلام المحلية نشره.

حق الوصول للمعلومات الذكية

بعد هذه البانوراما السريعة، تبددت تماماً الأوهام التي كان يتصورها الكثيرون مع بدايات الإنترنت، بعدم قدرة أي حكومة أو سلطة منع أي فرد من الوصول لأي موقع في الإنترنت، ونزعم هنا أن الموضوع ليس الإنترنت كتكنولوجيا جديدة، بل الموضوع خصائص المجتمع نفسه على المستوى الثقافي والاجتماعي والاقتصادي وقبل كل ذلك خصائصه السياسية، فعندما يسيطر على أي مجتمع القهر السياسي، والتخلف الاجتماعي، والجمود الثقافي،والفقر الاقتصادي، ورجعية الفكر، ما الذي يمكن أن تفعله الإنترنت في هذا المجتمع؟! لذلك حاول العالم في أوائل التسعينات، وفي معهد أسبن بواشنطن، حاولوا التوصل إلى وثيقة دولية تتبناها الحكومات حول الحقوق والواجبات المتعلقة بالمعلومات، وجاءت مبادىء الوثيقة نتيجة مناقشات وابحاث لخبراء من مناطق العالم، وكان أول مبدأ هو حق الوصول والنفاذ إلى المعلومات الذكية ووجود بنية تحتية للاتصالات، وتفرع عن هذا المبدأ العام عدة مبادىء فرعية تتعلق بالاتصالية وسهولة الاقتناء والإلمام بأساسيات التعامل مع الكمبيوتر. والهدف من تلك الوثيقة ليس التحكم في الإنترنت بل الفهم للمبادىء الضمنية التي قد تتحكم في استخداماتنا للموارد العظيمة للمعلومات والاتصالات التي يعج بها العالم اليوم ، وظهرت هناك اتجاهات متعددة الأول يحبذ فرض المزيد من أشكال الحماية للتصدي لسوء الاستخدام المتوقع



حرية الكلام فى العصر الرقمى

والمحتمل، بينما يؤمن آخرون بأن الوسيلة الجديدة يجب أن تترك حرة لتواصل بروزها في مناخ طبيعي، ويرى البعض الثالث الحاجة إلى حماية المستخدم فى الوقت الذى يرى فيه البعض الرابع هذه التوجهات ألاعيب للتدخلات التنظيمية . لذلك هدفت الوثيقة لتبيان المساحات التي يتفق عليها الناس على إمكانية تطبيق هذه المبادىء ثم تترك للمجتمع والأفراد حرية تحديد أفضل الطرق لتطبيقها، فمثلا مبدأ المواطنة فإن المشاركة الأخلاقية في مجتمع المعلومات تفترض: أولا : أن الأفراد يتحلون بالمسئولية.

وثانيا: الاستفادة من أنظمة وخدمات المعلومات والاتصالات بالطرق التى تنسق والصالح العام.

وثالثاً: إقامة واستخدام أنظمة المعلومات والنفاذ إليها بالطرق التى لاتتسبب فى إلحاق الضرر بهذه النظم ومستخدميها.

ورابعا: أن نكون مشاركين معلوماتيين في المجتمع.

وخامساً : الصدق والكشف الأمين للمعلومات فى إطار حماية الخصوصية الفردية والمؤسسية.

وسادساً: الاشارة إلى المؤلف حينما تدعو الحاجة اتساقا مع الأعراف والتزامات التعاقدات.

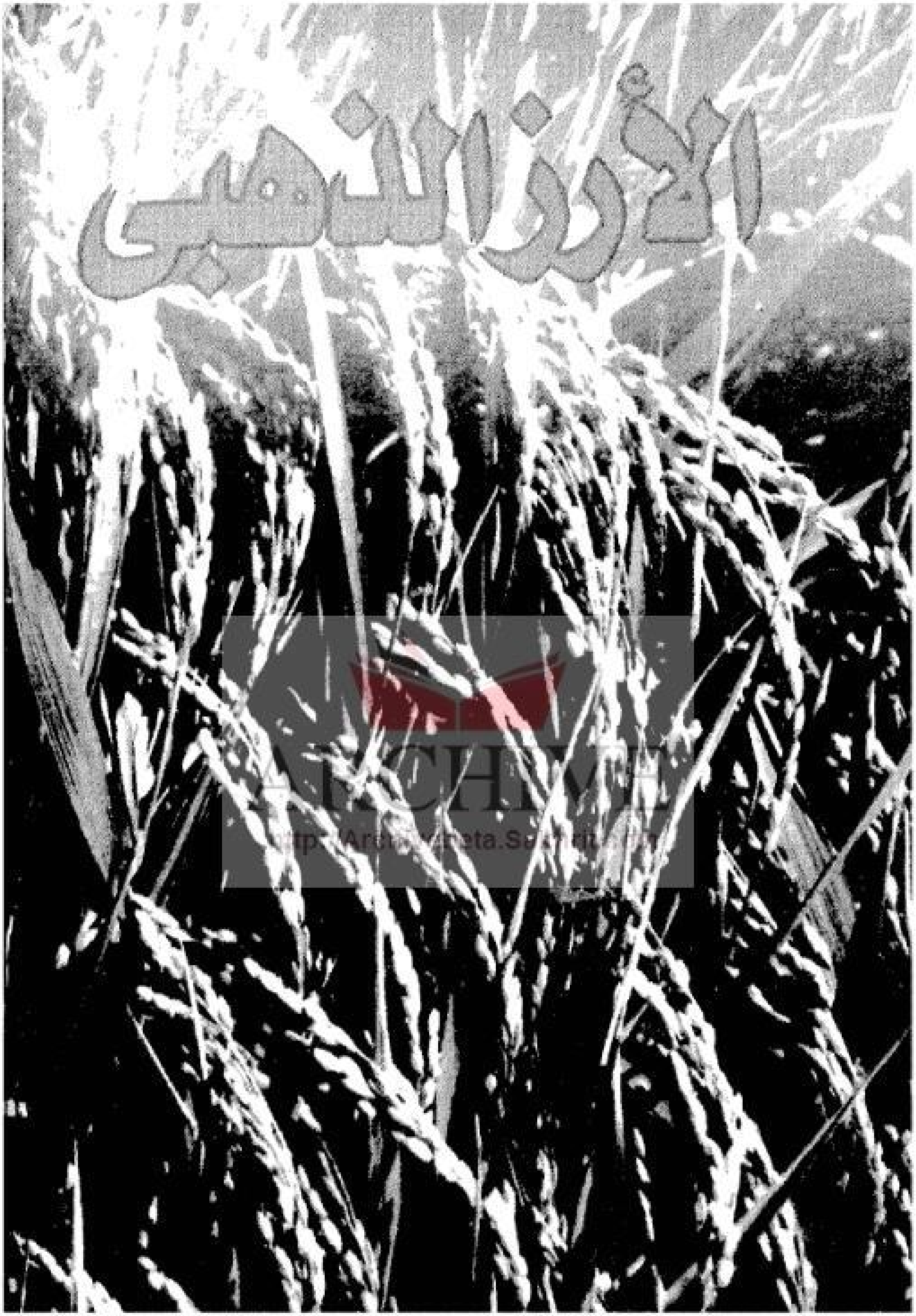
وسابعاً: احترام حقوق الآخرين فى الاختلاف عن رأى الجماعة. ففى كل حالة سابقة تختلف طريقة التطبيق من مجتمع للآخر. فمعظم المجتمعات تفرض عقوبات قانونية على إتلاف الممتلكات ولكن لا يوجد مجتمع من المحتمل أن يجرم شخصاً لكونه غير مشارك معلوماتيا.

تقنين حرية المعلومات

ويزداد الموقف صعوبة فى دول الجنوب حيث يتعمق فقر المعلومات عندما تضع بعض الحكومات رقابة على التدفق الحر للمعلومات عبر شبكة الإنترنت التى تمنح مستخدميها قدرات هائلة لممارسة حقهم فى التماس المعلومات والأفكار وتلقيها ونشرها بغض النظر عن الحدود الدولية. ولذا، بات من اللازم توفير الحماية الكاملة للاتصالات المباشرة بموجب الضمانات الدولية التى تكفل الحق فى حرية التعبير ، لأن حقوق الإنسان كل لا يتجزأ وهي تؤلف منظومة كلية من الخطر المساس بجزئية منها، فهى القيم الجوهرية التى تؤكد من خلالها أننا مجتمع إنساني، فالحق فى حرية الرأى والتعبير وتدفق الاتصالات والمعلومات على قدم المساس مع الحقوق الأخرى للإنسان، لذلك العالم حولنا يناقش منذ سنوات تقنين حرية وصول

المعلومات، وحماية حقوق المؤلفين وضمانات الاستقلال لناشرى الخدمات الإلكترونية ، وحرية التعبير عبر الشبكة، والتحكم الفعلى على ممارسة الاتصال، وتحديد قواعد المنافسة ، وشروط النفاذ إلى شبكات الاتصال القومية، ونظام التسعير للمنتجات المعلوماتية، وتحديد مقاييس الأشكال الجديدة للملكية الثقافية والفكرية، والحفاظ على سرية المعلومات، ومدى التدخل الحكومى، وكلها قضايا يجب أن تطرح للمناقشة بجدية فى منطقتنا العربية.

إن حماية الحق فى حرية التعبير عبر شبكة الإنترنت لايحتاج فقط وضع سياسات خاصة بهذه الشبكة تحترم حقوق الإنسان، بل يحتم أيضاً إيجاد بيئة تكفل حماية حرية التعبير بوجه عام. فالقيود التى تعانى منها شبكة الإنترنت فى كثير من البلدان العربية لاتنبع من اللوائح التى تنظم استخدامها بقدر ماهى نابعة من قوانين الصحافة والنشر والقوانين الخاصة بالتشهير، والمحاذير غير الرسمية السابقة على دخول الشبكة إلى المنطقة . ويشمل الحق فى حرية التعبير الحق فى الاتصال المباشر عبر شبكة الإنترنت، والحق فى طلب المعلومات وتلقيها وتداولها عبر الشبكة دون قيود تعسفية، والحق فى التخاطب مع الغير عبر الشبكة سواء بصورة سرية أم بدون الكشف عن الأسماء. وينبغى أيضاً أن تتخذ الحكومات التدابير المناسبة لتيسير سبل الانتفاع بوسائل الاتصال الإلكترونية أمام مواطنيها بتكلفة فى متناولهم جميعاً دون أى تمييز، ويجب أن تقع على عاتق المستخدمين النهائيين للإنترنت وحدهم مسئولية تحديد مايرغبون فى حجبه أو غربلته من المواد التى يستقبلونها هم أو أطفالهم عبر الإنترنت ، واختيار الوسائل التى تحقق ذلك ، حتى لا تكون مثل الإمبراطور فى الصين القديمة الذى يذهب إليه المخترع ، ويعرض عليه اختراعه، متفاخرا بمزاياه التى ستجعل الإمبراطور يطير فى السماء، ويعبر الجانب الآخر للبحار والجبال. فيأمر الإمبراطور بإعدام المخترع، لماذا؟! لأن الاختراع سيمكن الأعداء من تجاوز سور الصين العظيم وغزو البلاد ، تماماً مثل ماتفعله حكومات المنطقة التى تمنع وتراقب الإنترنت خوفا على الشباب من أفكار الجنس وصور البورنوجراف، وخوفا على تلويث عقول مواطنيها بأفكار الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، أو من يطالب الآن فى المنطقة بإحراق كتب وأفكار الآخرين خوفا على التراث والثقافة من الاختراق، أو من يكفر أفكار المجتهدين، كلهم مثل إمبراطور الصين القديمة. ■


الأرز الذهبي

بقلم
د. أحمد مستجير

فى كل ليلة يأوى إلى الفراش، جائعين، ثمانمائة مليون شخص. فى كل شهر يصاب بالعمى أربعون ألف طفل بسبب نقص فيتامين أ. فى كل عام يموت مليون ومائة ألف طفل بسبب نقص فيتامين أ مع الحصبة. نعم، يحدث كل هذا، فى عالمنا هذا، فى عصرنا هذا الذى نسميه عصر العلم. أما يستطيع هذا العلم أن يمد يد العون؟

فى يوم ١٢ أكتوبر ١٩٩٩ وصل تعداد البشر إلى ستة بلايين نسمة. دخلنا القرن الحادى والعشرين والأرض تحمل هذا العدد المهول من البشر. سيزداد تعدادنا بليونا بحلول عام ٢٠١٣، وبليونا آخر على عام ٢٠٢٠. كذا تقول تقارير الأمم المتحدة. من أين سيأتى الطعام لكل هذه الأفواه فى كوكب تشح فيه المياه وتتراجع فيه مساحات الأرض المزروعة؟ يتزايد البشر بمعدل يبلغ ١,٣٪ سنوياً، فإذا كان للوضع الغذائى أن يبقى على ما هو عليه الآن، فمن اللازم أن يزيد إنتاج الغذاء بنفس هذه النسبة. لكن الزيادة السنوية الحالية فى إنتاج الحبوب - الغذاء الرئيسى للبشر - تقل عن ١.٣٪، بل ومن المتوقع أن تتناقص هذه النسبة، خصوصاً فى مناطق مثل جنوب الصحراء الكبرى والشرق الأوسط. ألغير العلم الذى وهبه لنا الله نلتجىء؟

الثورة الخضراء الأولى والثانية

فى ستينات القرن العشرين قامت الثورة الخضراء الأولى، واستطاعت بطرق التربية التقليدية المرتكزة على العلم أن تنتج سلالات من القمح والأرز غزيرة المحصول بشكل مذهل، كان لها أثر كبير واضح على الأمن الغذائى فى بلاد كالهند وباكستان. لكن نجاح هذه السلالات كان كأفضل ما يكون فى البيئات المتميزة لدى كبار الزراع الذين يستطيعون توفير ماتحتاجه من إضافات كبيرة فى السماد والمبيدات والرعاية.

ثم قيض الله للإنسان فى عام ١٩٧٣ أن يكتشف تقنية الهندسة الوراثية، لتفتح أملاً جديداً فى ثورة خضراء ثانية يمكن أن تسهم فى حل مشكلة الجوع، وأن تتلافى مثالب الثورة الأولى. فإذا كانت الثورة الأولى هى ثورة «الكم» فإن الهندسة الوراثية والبيوتكنولوجيا هى فى الأساس ثورة



الأرز الذهبى

«الكيف» . وإذا لم تكن فوائد الثورة الأولى قد وصلت إلى الفلاح الفقير بالشكل الكامل ، فإن فؤاد الكيف يمكن أن تصله كاملة وفى هدوء، لتبقى. فى مقدور الثورة الجديدة أن تجعل الطعام المتاح أكثر وأثرى غذائياً. النبات المهندس وراثيا ليقاوم الآفات والأمراض ، مثلاً، سيرفع الإنتاج دون حاجة - أو بأقل حاجة - إلى المبيدات غالية الثمن التى قد يعجز الفلاح عن شرائها، والتى تلوث بيئته. نبات الكانولا (الشلجم) المحور وراثيا لرفع قيمته الغذائية والصحية والذى تحمل زيوته نسبة عالية من الأحماض الدهنية غير المشبعة سيعالج النقص الغذائى بتحسين نوعية المنتج المأكول دون - أو بأدنى - تكاليف إضافية .

ولقد كان تقبل الفلاح لسلالات الثورة الخضراء الأولى سريعاً ، كانت سلالات غزيرة الإنتاج، يمكنه على الفور أن يكتشف تفوقها على سلالاته القديمة، ومن ثم يدرب نفسه على اكتساب الخبرة اللازمة لإتقان زراعتها . أما الثورة الخضراء الجديدة فلن يتسنى له أن يكتشف مزاياها بسهولة . فكيف يكتشف قيمة سلالة جديدة تقاوم مرضاً معيناً إلا إذا تفشى المرض وأصبح وباء؟ وكيف له أن يربط بين القيمة الغذائية المتميزة للسلالة الجديدة وبين تحسين الصحة؟ من هنا جاءت أهمية وجود جهاز إعلامى قوى مساند، لتوعية المزارعين، خصوصاً بعد أن أفسد جشع الشركات صورة البيوتكنولوچيا فى أذهان الناس (أنظر للتذكرة مقالاً لهذا الكاتب عنوانه «بذور شيطانية» نشرته «الهلال» فى عدد نوفمبر ٢٠٠٠)، وبعد كل ماقامت به ، وتقوم، جماعات البيئيين من تشويه لقيمة البيوتكنولوچيا الحديثة.

وإذا كان لثورة البيوتكنولوچيا الحديثة أن تحارب الفقر ، فلابد لبحوثها أن تتوجه نحو محاصيل الغذاء الرئيسية للفقراء، التى لم تحظ حتى الآن بما تستحقه من عناية ، لأنها لا تغرى القطاع الخاص كثيراً وأن تعمل عليها لترفع قيمتها الغذائية وغلتها وإنتاجها . على العلماء - كما يقول البروفسور إينجو بوتريكوس - أن يعملوا على هذه النباتات، وألا يكتفوا بالحديث عنها!

الأرز : أهم محاصيل العالم

والأرز بلاشك هو أهم محاصيل الغذاء، فعليه يحيا نصف سكان العالم، وحبوب الأرز تخلو تماماً من البيتاكاروتين، المادة التى يصنع منها جسم الإنسان فيتامين أ. لا غرو إذن أن تكون مشكلة نقص فيتامين أ. هى أهم مشاكل سوء التغذية فى العالم ، تعانى منه شعوب ٢٦ دولة على الأقل تعيش على الأرز أساساً وتضم المناطق المكتظة بالسكان فى آسيا وأفريقيا وآمريكا اللاتينية. ولقد قدرت اليونيسيف أن تدعيم الغذاء بفيتامين أ. سيقلل من

خطر موت أطفال العالم الثالث بنسبة تبلغ ٢٣٪

يصنع نبات الأرز البيتاكاروتين طبيعياً في كل أجزائه - إلا الإندوسبرم، الجزء النشوى من حبوب الأرز الذى ناكله. تضرب حبوب الأرز بعد الحصاد لإزالة الغلاف الخارجي (السرس)، ثم تجرى عملية التبييض لإزالة الطبقة المحيطة بالإندوسبرم بهدف تحسين الطعم وتجنب التزنخ عند التخزين . ماذا لو أمكن أن ننتج أرزاً يحمل هذا الكاروتين فى الإندوسبرم؟

فكرة إنسانية وعلمية رائعة، شغلت البروفسور إينجو بوتريكوس، الأستاذ بمعهد علوم النبات فى زيوريخ، فوظف علمه فى خدمتها. تمكن عام ١٩٩٣ من الحصول على منحة من مؤسسة روكفيلر قيمتها مائة ألف دولار للبدء فى البحث ، وتحولت المنحة إلى مشروع مدته سبع سنوات بميزانية وصلت إلى ٢,٦ مليون دولار . ساندته الحكومة السويسرية والاتحاد الأوروبى.شكل بوتريكوس مع زميله الألمانى بيتر بيار فريقاً بحثياً استخدم الهندسة الوراثية فى نقل ثلاثة جينات إلى نبات الأرز بحيث ينتج البيتاكاروتين فى الإندوسبرم (بجانب جين واسم). ونجح الفريق فى إنتاج أرز له لون الكاروتين الأصفر: «الأرز الذهبى»، الذى لم يكن من الممكن أبداً أن يطور بطرق التربية التقليدية . وفى المؤتمر العالمى السادس عشر لعلم النبات المنعقد بسانت لويس فى أغسطس ١٩٩٩ أعلن بوتريكوس عن فتحه العلمى الكبير .

يقول بوتريكوس إن أرزه الذهبى لم تطوره شركة بل كان تمويله بالكامل من المال العام ، وبذا فلن يخلق أية صورة من صور التبعية ، وللفلاح أن يحفظ ماينتجه من بذور لاستخدامها كتقاو للموسم القادم . وهو يمثل حلاً مستديماً بلا تكاليف ويتجنب الآثار الجانبية المؤسفة للثورة الخضراء الأولى، إذ لايحتاج إلى مدخلات إضافية ومن ثم فلن يمنح أصحاب الأرض الأغنياء مزايا خاصة، ثم إنه لا يقلل التنوع البيولوجى أو الطبيعى ، وليس ثمة مايشير إلى أنه قد يتسبب فى أية آثار سلبية على البيئة أو على صحة المستهلك . (من الطريف هنا أن نضيف قول بوتريكوس : إن من بين أسباب نجاحه فى تحقيق هذا الفتح العلمى أنه كان ساذجاً متحمساً ، واعتقد فى نجاح العمل!!)

موقف البيئيين العجيب

عندما أعلن عن الأرز الذهبى، رحب به المجتمع العلمى وتناقلت أنباءه وسائل الإعلام العالمية، وهللت له منظمة الأغذية والزراعة (الفاو) ومنظمة الصحة العالمية. فمن ياترى سيعترض على أرز يمنح من ياكله - دون مقابل - جرعة إضافية ، أياً كان حجمها ، من فيتامين أ، يحتاجها جسمه؟ وضع هذا النصر البيئيين المعارضين للهندسة الوراثية فى موقف بالغ الصعوبة والحرج. أيتركون العمى ينتشر بين أطفال الفقراء والموت يحصد أرواحهم بالملايين فى العالم الثالث، من أجل فكرة سيطرت عليهم



الأرز الذهبى

ورسخت فى عقولهم ترفض الهندسة الوراثية؟ والبيئيون جماعة من القطط السمان نذروا أنفسهم لتحطيم التكنولوجيا التى ستفيد فقراء العالم. ولقد غدت حركتهم شرسة للغاية فى معارضة النباتات المحورة وراثياً : النباتات التى تضاعفت مساحات الأرض المزروعة بها ٢٥ ضعفاً خلال السنين الخمس الأخيرة لتصل الآن إلى نحو ١٠٥ ملايين فدان فى ١٣ دولة بقارات الأرض الخمس. والواقع أن هذه الحركة أرستقراطية المنشأ، ظهرت فى بلاد تتمتع بالرفاهية والترف، وتجد مدعميها دائماً فى المناصب الرفيعة، فأكبر معضديها فى بريطانيا هو الأمير تشارلس الذى أقسم ألا يمس المائدة الملكية طعام محور وراثياً (الأمر الذى أثار تونى بلير رئيس الوزراء ليقول «إن هذا موقف مضاد للعلم، فمثل هذه الأغذية ستكون ضرورية لتغذية شعوب العالم الثالث»)، وأكبر مناصريها فى أمريكا هو آل جور نائب الرئيس الأمريكى السابق كلينتون.

يقدس البيئيون البيئة، يؤلهونها، فكل من يتجاسر بالقول إن باستطاعتنا أن نتفهم الطبيعة، وأن ننابلها لمصلحتنا، يوسم على الفور بأنه يدنس المقدسات. هم يقولون «بمبدأ الحيطة»، هذا قسم أبو قراط بالنسبة لهم، يطبقونه على كل تكنولوجيا جديدة. لكن هذا المبدأ لا يقيم ثمن الحرص إذا زاد عن حده. هم يقولون ما معناه إنك إذا استيقظت فى الصباح ولم يكن لديك ما يؤكد أن يومك سيخلو من المنغصات فالأفضل أن تبقى طول النهار راقداً فى سريرك - والبقاء فى السرير طول اليوم كما نعرف له أيضاً مخاطره.

البيئيون ملتزمون بطرق التربية التقليدية للنباتات، وينسون أن هذه أيضاً قد تنتج سلالات «مؤذية». هناك مثلاً سلالة من البطاطس نتجت عن هذه الطرق اسمها لينيب Lenape ، ثم سحبت من السوق فى ستينات القرن الماضى عندما اتضح أنها تحمل مستويات عالية من توكسينات (سموم) تسمى جلوكوسيدات السولانيدين . وهناك أيضاً سلالة من الكرفس جاءت بطرق التربية التقليدية وتم التخلص منها فى الثمانينات لأنها تحتوى على تركيزات مرتفعة من السورالينات، وهذه مواد مهيجة تسبب طفحاً جلدياً لمن يتعرض لها.

ثار البيئيون إذن عند الإعلان عن الأرز الذهبى المهندس وراثياً . أذاعوا أن من يأكل هذا الأرز سيفقد نصف شعره كما سيصاب بالعجز الجنسى! قالوا إن ما بحبوب الأرز الذهبى من الكاروتين لايكفى حاجة الجسم فالثلاثمائة جرام من الأرز التى يتعاطاها الشخص البالغ فى اليوم لن توفر له إلى ٨٪ من حاجته اليومية من

فيتامين أ، وأن عليه أن يأكل ٩ كيلوجرامات يومياً لسد حاجته ! (حتى هذا الحساب خاطىء)، أما الأم المرضعة فيلزم أن تأكل ١٨ كيلوجراماً! (الأمر الذى يعنى ألا لزوم لتناول أى طعام لايقدم الحاجة اليومية بالكامل!!). أكدوا أن مايعد به الارز الذهبى ليس سوى وعود كاذبة، أن المشروع برمته خدعة دولية، أن المفروض أن تنفق أمواله فى البحث عن حل جذرى. تساءلوا متعجبين : كيف تتخيل علماء جادين، أو شركة ذات وزن، تحترم هذا التفكير؟ كتبوا أن الأرز الذهبى قد قدم على أنه الحل السريع الناجح لمشكلة صحية عالمية، وهو ليس كذلك، بل هو خداع فى خداع فى خداع! أما البروباجندة المدفوعة الأجر فلن تجدى إلا فى تعطيل المحاولات الحقيقية للوصول إلى الحلول الفعالة . شككوا فى قيمة هذا الأرز من الناحية الصحية فقالوا إن تحويل البيتاكاروتين إلى فيتامين أ، فى الجسم ثم نقله إلى الأنسجة التى تحتاجه، يتطلب غذاء فيه مايكفى من الدهون والبروتين ، فإذا كان الغذاء يفتقر إلى هذه المواد الغذائية ، أو إذا كان الفرد مصاباً بالإسهال - وهذه أمور شائعة فى الدول النامية - فلن يتمكن الفرد من الاستفادة من فيتامين أ بالارز الذهبى ! (صحيح أن الجسم يحتاج فعلا إلى الدهون ليمتص فيتامين ا، وإلى البروتين، فإذا كان كاروتين الأرز الذهبى لهذه الأسباب بلا فعالية، فلماذا ياترى لاتوقف البرامج الدولية لتزويد الفقراء بهذا الفيتامين؟). تساءلوا، لماذا لا نلجأ إلى النباتات الورقية الخضراء الثرية فى البيتاكاروتين ومنها الكثير جداً فى بيئات هؤلاء الفقراء؟ (فعلا، لماذا لا نلجأ إليها أيضاً، بجانب الأرز الذهبى؟). قالوا إن الطبقة الخارجية للبذور التى يتم التخلص منها عند تبييض الأرز تحتوى على الكاروتين ، فلماذا لايقدم الأرز للفقراء دون تبييض؟ (فليأكل الفقراء الأرز الذهبى أيضاً دون تبييض!!).

دفاع عن البيوتكنولوجيا

ليس بين المدافعين عن البيوتكنولوجيا من يدعي أن بها الحل لكل المشاكل التى تسبب الجوع فى العالم . لكن المؤكد أن مشكلة الجوع لا يمكن معالجتها دون مساعدة العلم. فإذا أنكرت «جرينبيس»، أو غيرها من منظمات البيئيين، على دول العالم النامى - حيث يعتمد أكثر من ٧٠٪ من الناس على الزراعة وينفقون معظم دخلهم على الطعام - إذا ما أنكرت عليهم الاستفادة من العلوم الحديثة بسبب إيديولوچية مضادة للتقدم والتطور، دون أن تقدم حلولاً بديلة لتحسين وزيادة إنتاج الطعام لعالم يتزايد سكانه، فإنها بذلك تكون قد تخلت عن مسئوليتها تجاه البشرية . إن صانعى الأرز الذهبى يطمحون إلى الوصول إلى أرز يحمل مايكفى من فيتامين أ. ليكون ذا أثر واضح على من يعانون من نقص هذا الفيتامين - لا أن يوفروا ١٠٠٪ من المقرر اليومى . هم يقولون إن هذا الأرز يوفر الآن بالفعل مايصل إلى ٢٠ - ٤٠٪ من هذا المقرر



الأرز الذهبى

اليومى إذا تعاطى الفرد ٣٠٠ جرام يومياً، ولكنهم يعملون لزيادة هذا التركيز، ولديهم من النتائج مايبشر، علينا فقط أن نتحلى بالصبر.

فى مؤتمر عقد فى بروكسل فى مايو ٢٠٠٠ عنوانه «الزراعة المستدامة فى الألفية الجديدة» قال أدريان دوبوك (من شركة زينيكا): إن مستويات التعبير عن طليعة فيتامين أ، والتى يهدف إليها مبتكرو الأرز الذهبى، والتى أنجزوها، تكفى لتوفير الحد الأدنى اللازم لمنع العمى عن ٥٠٠ ألف طفل سنوياً، ولخفض أمراض نقص التغذية التى تصيب ١٢٤ مليون طفل فى ست وعشرين دولة. وهذا كليتون يقول : إذا تمكنا من أن نوفر الكثير من هذا الأرز الذهبى - هذه السلالة من الأرز المحور وراثياً الغنية بفيتامين أ - فإننا قد ننقذ فى كل يوم ٤٠ ألف روح لأناس يموتون من سوء التغذية.

وأخيرا تراجعت جرينبيس

لكل هذه الأسباب الإنسانية والأخلاقية أجبرت جرينبيس أخيراً على أن تعد بألا تخرب حقول اختبار الأرز الذهبى. قالت إنه على الرغم من معارضتها الكاملة للنباتات المهندسة وراثياً ، إلا أنها ترى أن الأرز الذهبى الغنى بفيتامين أ، يعتبر استثناء بالنسبة لقانون المنظمة الذى يقضى «بالبحث عن مثل هذه النباتات وتدميرها». لن تكون حقول الأرز الذهبى المحور وراثياً هدفاً لأعمال جرينبيس.

مشاكل فى تسجيل البراءة

بعد أن طور بوتريكوس سلالة أرزه الذهبى كان عليه أن يبدأ فى اتخاذ الاجراءات لنقلها إلى مزارعى الكفاف، مجاناً ودون قيود . كتب زميله بيتر بيار طلباً لتسجيل براءة السلالة، وكانا سوياً قد قررا أن يتيحا التكنولوجيا لكل من يرغب. كان تمويل المشروع كله من المال العام، ومن ثم ظنا أن الأمر سيكون يسيراً. لكن المفوضية الأوروبية كانت قد وضعت بنداً فى اتفاق الدعم المالى مع بيتر تقول «إن للشركاء من الصناعيين فى مشروع (الكاروتين الاضافى) - الذى يشكل مشروع الأرز الذهبى جزءاً ضئيلاً منه - حقوقاً فى النتائج». كانت مساهمة الاتحاد الأوروبى على أية حال ضئيلة ولم تتم إلا قرب نهاية المشروع . لكنهما أدركا أن مهمة نقل التكنولوجيا إلى الدول النامية ، وتسجيل البراءات الدولية ، وحقوق الملكية الفكرية وملكية التقنيات التى استخدماها فى التجارب ، كل هذه كانت أموراً عسيرة تفوق قدراتهما الفردية. وبعد مفاوضات مرهقة تمكن العالمان من عقد صفقة مع الشركات الست التى تمتلك براءات وتراخيص التقنيات، بموجبها وافقت الشركات على منح التقنيات مجاناً للدول النامية، لتحتفظ هى بحقوق التسويق فى الولايات المتحدة ودول العالم الأول، على

أن يسرى ذلك أيضاً على كل مايلى من طلبات لاستعمال التقنية على نباتات المحاصيل الأخرى. وفى مايو ٢٠٠٠ قال ممثل شركة زينيكا مالكة الحقوق القانونية لاستخدام الأرز الذهبى «إن هذه هى المرة الأولى التى نتعاون فيها لنقل تكنولوجيا الغير إلى العالم النامى».

نقل الأرز الذهبى إلى العالم الثالث

ثم إن العالمين أنشأ «المجلس الإنسانى للأرز الذهبى» ليقوم بمهمة نقل التكنولوجيا إلى بلاد العالم الثالث وتسهيل تبادل المعلومات بين مشاريع هذا الأرز فى المناطق المختلفة من العالم، ودعم مراكز البحوث بأية دولة نامية تهتم به. وفى يناير ٢٠٠١ وصل الأرز الذهبى إلى المعهد الدولى لبحوث الأرز (إيرى IRRI) بالفلبين ليدخل كجزء من برنامج دولى لدراسته ونشره، كما وافق مجلس البحوث الزراعية بالهند على جلبه إلى الهند، وستعقد قريباً اتفاقية بهذا الشأن. ولقد عقدت بالفعل مثل هذه الاتفاقية مع عدد من المعاهد الزراعية فى جنوب شرقى آسيا والصين وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. لن يسلم الأرز إلا للمعاهد الحكومية كى تقوم بنقل صفة «اللون الأصفر» إلى سلالات الأرز المحلية.

(ربما كان لى هنا أن أضيف أن الدكتور أسامة الشيحى الأستاذ بكلية الزراعة جامعة القاهرة قد تمكن من أسابيع قليلة من الحصول على الجينات التى تطعم فى الأرز لتحويله إلى أرز ذهبى).

فى الختام

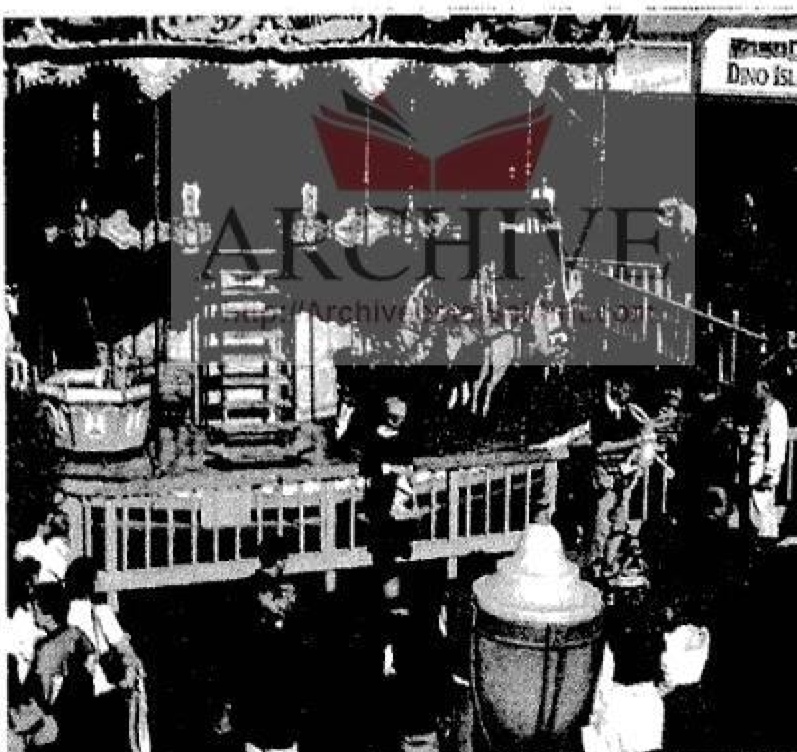
قبل أن أكتب الفقرة الأخيرة فى هذا المقال وصلتنى بالبريد الإلكترونى رسالة غريبة تاريخها ٦ مارس ٢٠٠١، عنوانها «مؤسس جرينبيس يعضد التكنولوچيا» - والرجل المشار إليه هو الإيكولوجى باتريك مور الذى عمل تسع سنوات رئيساً لجرينبيس كندا وسبع سنوات مديراً لجرينبيس الدولية. يقول مور : «كان من الممكن للجدل الدائر الآن حول القدر المطلوب من الأرز للوقاية من نقص فيتامين أ، أن يقود إلى سبل بحثية صحية لحل المشكلة لكن الهدف الحقيقى للمعارضين لم يكن سوى تشويه سمعة العلم والعلماء، ومفهوم البيوتكنولوچيا برمتها. فإذا كان ثمة قضايا تتعلق بنقل الأرز الذهبى إلى السوق فلابد من مناقشتها كتحد ، لا على أنها برهان يدين التكنولوچيا .. وإذا كان لدى جرينبيس أية معايير أخلاقية ، إذن لقدمت الملايين لحل أية مشكلة خطيرة تواجه الأرز الذهبى، أو لقامت على الأقل بتشجيع الوكالات الإنسانية على تقديم الدعم . لكنها جلست على الخطوط الخارجية لشقاء البشر تصوب سهامها نحو ابتكار رائع، لتقوض حلاً محتملاً لتراجيديا تشجب أمامها مأساة شيرنوبيل . إننى أتفق مع ماقاله إينجو بوتريكوس فى ١٦ فبراير ٢٠٠١ من أن كل من يخطط لتدمير حقول اختبار الأرز الذهبى لمنع اختباره وتطويره لخدمة البشرية ، إنما يرتكب جريمة ضد الإنسانية. ■

رسالة نيويورك

صلاح المراكبي

الأمريكيون

أكثر شعوب العالم استخداما للقوانين!



١٣٦

صفر ١٤٢٢هـ - أبريل ٢٠٠١م

● بعض القوانين معقولة جداً وبعضها تمثل قمة الجنون!

● من حق اللص أن يقاضيك لأنه أصيب خطأ في بيتك!

الحياة في الولايات المتحدة تتحرك وتدور أكثر من أي بلد في العالم.. ولا يوجد شيء في حياة الناس قابل للتأجيل! ولا أحد يتصور إذا اعتدي علي شيء من حقوقك، أنك ستبتلع المقلب.. وتسكت!..

فمع تراجع دور الدولة وتداخل مصالح الناس مالكين ومستهلكين، وبائعين ومشترين، ومعرفة الناس بالقوانين واعتمادهم في كل إجراءاتهم علي المحامين، وسرعة القضاء، وحسم التنفيذ، أصبح اللجوء إلي القضاء عملا يوميا لا يفسد العلاقات في المجتمع، بقدر ما يزيدها تنظيما واحتراما.

فالقوانين تدرك قوة الشركات الكبري، والسعي المفهوم للقطاع الخاص في الكسب والمنافسة، فتعمل بكل الطرق علي حماية المستهلك، وإعطائه المكانة الأولي في المجتمع.. فأنت تستطيع أن تعيد أي سلعة اشتريتها وتحصل علي نقودك كاملة، حتي لو كانت مستعملة وحتي لو كانت ممزقة أو مكسورة لأن القانون يفترض أنك اشتريتها لأنك تحتاج إليها.. ومن المنطق أنك تعيدها لأنها بدت لك غير صالحة للاستخدام.. حتي لو كنت أنت الذي افسدتها.. لأن الدخول بحثا عمن أفسدها، سيكون في غير صالح المستهلك لأنه الأضعف!!.

رسالة نيويورك

* من الطبيعي أن نفهم أن الصورة التي نشأ بها الشعب الأمريكي، قد جعلته على هذا النحو! فهم مهاجرون جاءوا من كل بلاد العالم.. لا يجمعهم تراث ولا فكر ولا لغة ولا تقاليد.. ثم أن البلاد التي جاءوا إليها وأقاموا فيها لايوجد لها تراث ولا تقاليد .. ربما الشئ الوحيد الذي بدأ يصبح قاعدة حياة وعمل، هو اللغة الانجليزية ، باعتبار أن المهاجرين الأوائل الذين جاءوها هربا أو طمعا أو طموحا كانوا من أوروبا.

بحكم هذه النشأة وهي بالاضافة إلى هذا فهي نشأة حديثة لا تصل إلى ثلاثمائة سنة، كان من الطبيعي أن يجمع هؤلاء جميعا حتى يعيشوا في سلام، شيء واحد هو القانون! ساعد على ذلك أن فرص الحياة والكسب على هذه الأرض ولا تزال كبيرة، والفرص الكبيرة تخلق المنافسة لا الصراع..

الشركة مسئولة

* المحامية الأمريكية الشهيرة «ديراهنسلر» ولها أكثر من كتاب تقول أن القانون الأمريكي وتفاعلاته في خلافات الناس وقضاياهم ، قد وضع أعظم فرصة انسانية لتحقيق الحرية، ونمو الاقتصاد ، لأنه أرسى قواعد من الاطمئنان والثقة والطموح في مجتمع استطاع ان يخلق جوا من النجاح الذي أصبح مثلا على مستوى العالم.

القاضي جاك ونستن - قاضي محكمة شرق نيويورك - ٧٨ سنة - خصص حياته القضائية للحصول على حقوق أكبر للفرد الامريكي في مواجهة الشركات والمؤسسات ومراكز الأعمال، استطاع أن يحصل على أحكام في قضية قتل، ليس فقط ضد القاتل، ولكن ضد مصنع الأسلحة الذي اشترى منه القاتل سلاحه، كما استطاع أن يحصل على تعويض من شركة سجاير أصيب أحد مدخني سجائرها بالسرطان، مؤكدا أن الاشارة على كل علبة سجائر بأنه ضار ويصيب بالسرطان، يؤكد مسئولية الشركة ولا يعفيها كما يبدو من المسئولية - لأنه ما دامت الشركة تعلم أنه ضار فلماذا تنتجه، ولماذا تصنع له علبا تغري بتصميمها وجمالها؟!.

ومن الطريف أن هذا القاضي يذهب إلى المحكمة بملابس عادية ولا يرتدي زي القضاة، وعباءتهم يريد أن يؤكد بذلك أنه مثل كل الناس، ولا يضيف إلى نفسه شكلا يوحي بالتميز أو الغموض، كما يريد أن يشعر الناس أن القانون ليس سلطة، بقدر ما هو خدمة يحصل عليها من يطلبها. انتقاده الوحيد هو أن ما يحصل عليه المحامون من أتعاب على مستوى الولايات المتحدة، أصبح يمثل مقابلا هائلا وخرافيا، فالمعروف أن المحامين هنا، يحصلون على ثروات تضعهم في قمة الأعمال المهنية، إضافة إلى الأطباء ومبرمجي الكمبيوتر ! لكنه يعتقد أن تولي المحامين لكل خطوات التقاضي وارتفاع أجورهم، يجعلهم ضمانا عمليا لتحقيق سرعة الحركة القضائية وتدفق العمل وحسن إنجازه..

أخطأ في لحظة!

* المحامية اليزابيث كابرسر تقول إنه مع الوقت تتراجع خلافات كثيرة كانت

معروفة فى الماضى وأصبحت فى حكم «العرف» الذى يعترف الجميع به.. كما تنشأ خلافات جديدة بحكم تجدد النشاطات فى الحياة الأمريكية وهذا أمر طبيعى، لأن مهمة القانون أن يحفظ التوازن الاقتصادى والاجتماعى فى حقوق الناس، وأن يقلل مظاهر التناقض، وأن يواكب سلاسة الحركة فى المجتمع.

وتقول أن وجود المحلفين فى المحاكم وان كان أمراً تقليديا قديما، الاّ أنه يجعل القاضى محكوما بالتوجهات الاجتماعية والرأى العام بين الناس لأن القانون وحده يشبه عملية رياضية لا تعرف شيئا عن الاحاسيس الانسانية أو مشاعر الجمهور.. كما أن الهدف الاسمى والنهائى للقانون هو تحقيق السلام الاجتماعى، وينظر إلى مرتكب الجريمة على أنه انسان أخطأ فى لحظة، وليس مجرما بالطبيعة . الاّ إذا كان كذلك بالفعل.

العلم المزعج

* فى ولاية ميريلاند المجاورة للعاصمة واشنطن، شكا أحد المواطنين لجاره أنه لا يستطيع أن ينام لأن صوت العلم الأمريكى الذى يرفعه الجار على سارية مرتفعة أمام بيته، مع شدة الرياح، يحدث ضربات عنيفة ومزعجة!.. لكن صاحب العلم أبى ولم يستجب للجار، باعتبار أنها حرية شخصية! تكررت شكوى الجار.. وخرج فى النهاية إلى العلم، فأنزله من السارية، وأشعل فيه النار وأحرقه.. ثم ذهب ليستريح وينام!!

رفع الرجل قضية على جاره.. عدد من المحلفين أدانوا الجار، فقد أحرق رمز البلاد.. وأهان مثلها الأعلى.. وأطاح بكل



الحياة فى سان فرانسيسكو

القيم الوطنية التى تملأ قلوب المواطنين بالعزة والفخار، وخاصة الشباب والأطفال!..

أغلب المحلفين حكموا ببراءة الجار، فالوطن هو المواطن، والوطن ليس هو تلك القطعة من القماش، ارتفعت أم لم ترتفع، بقيت أم احترقت، والعلم رمز لرفاهية المواطن وسعادته وراحته.

فإذا تسبب العلم فى ازعاج المواطن واقلاق راحته.. فلا شيء عليه أن يشكو.. وعلى الآخر أن يستجيب ! فإذا لم يستجب فليكن ما يكون، وليحترق العلم وليذهب إلى الجحيم!!

القضية لم تنته !

* خرج الجار بريئا.. لكن القضية لم تنته عند هذا الحد..! فقد ثارت ثائرة الرأى العام.. ونشرت الصحف مقالات وآراء.. ورفض الناس فى المجتمع الذى

رسالة نيويورك

يعيش فيه الجار أن يتعاملوا معه.. قالوا أن حكم المحكمة قد أفرغ القضية من دلالاتها الوطنية، فإذا كان العلم رمزا لا قيمة له إلى هذا الحد، فلماذا نتخذه في حياتنا واحتفالاتنا وحروبنا ونجاحاتنا قيمة نحني له رءوسنا، ونقبله، ولماذا نلف به جنازات الرجال الذين نقدرهم والشهداء.. إننا نتخذ الرموز في حياتنا لتصبح قيما نلتف حولها.. ونحن نعلم أبناءنا في المدارس أن العلم في مقدمة الجيش لابد أن يبقى مرفوعا.. فإذا سقط حامل العلم لا يجب أبدا أن يسقط العلم، وعلى جندي آخر أن يتقدم ليجعله مرفوعا دائما.. ولا يجب أن يتم انزال العلم أو تنكيسه إلا للاحداث الكبرى التي تصيب الوطن!

وكان أعقل الآراء وأرشدها قد قال أنه من حق الجار أن ينزعج، ومن حقه أن يشكو، وإذا كان الآخر لم يستجب، فقد كان عليه أن ينزل العلم.. ويضعه جانبا.. لا أن يحرقه.. فالمشكلة هي في حرق العلم لا في إنزاله!!.

مائة جرام!!

* أحد الركاب المسافرين في مطار ديترويت بولاية متشجان في الشمال الشرقي لامريكا.. معه حقيبتان.. والقانون يسمح له بحقيبتين تزن كل منهما ٧٠ رطلا، أي نحو ثلاثين كيلو جراما.. طلبت منه موظفة شركة الطيران أن ينقص من إحدى الحقيبتين مائة جرام!! لأنها زائدة!! ولما أبدى دهشته لتفاهة الأمر.. قالت إن راكبا آخر منذ فترة كانت حقيبته تزيد كيلو جراما عن الوزن القانوني.. وتصادف أن العامل الذي حاول نقلها إلى الطائرة أصيب ظهره وهو يحملها وسقط على الأرض، فلما وزنوها اكتشفوا الزيادة، فرفع قضية على شركة الطيران، وحصل على تعويض ٢٠٠ ألف دولار!!

قانون الليمون

* أغلب الولايات الأمريكية لديها قانون اسمه «Lemon Law» يسميه العرب هنا سخرية قانون الليمون، لكن معناه قانون الخطأ أو الفشل فإذا اشتريت سيارة من إحدى الوكالات.. وظهرت فيها أي مشكلة، وذهبت إلى الشركة لاصلاحها.. ولم يتم الاصلاح لثلاث مرات، فمن حقك إعادة السيارة للشركة والحصول على ثمنها الذي دفعته حتى لو كان ذلك بعد شرائها بسنوات!..

مسئولية الشركة

* السوق الأمريكية تستهلك ٤٠٪ من انتاج العالم في السيارات، ولذلك تحرص شركات السيارات العالمية على المنافسة في هذه السوق وخاصة الشركات اليابانية.. شركة Lexus اليابانية اكتشفت أن هناك خطأ في أحد موديلات سيارتها وكانت قد باعت منها بداية في إحدى الولايات، ولالتزامها بالقانون الأمريكي الذي يبقى على مسئولية الشركة على علاقتها بما باعته طول الوقت.. فقد أحضرت قطع الغيار البديلة في طائرة خاصة، ونشرت اعلانا تطلب فيه من المشترين أن يحضروا سياراتهم وأعطتهم سيارات مؤقتة.. حتى تم الاصلاح، وأعادوا لهم سياراتهم

مبرر كاف

* مالكة سيارة فورد أصيبت في



أناس من كل شعوب الأرض يعيشون في أمريكا حيث فرص العمل والكسب مازالت كبيرة

حادث، ولم يكن بالسيارة «إيرباج» التى تنطلق أوتوماتيكيا مع أى صدمة حماية لصدر الراكب.. رفعت قضية على الشركة.. وحصلت على تعويض نصف مليون دولار.. الغريب أن السيارة موديل قديم، ولم تكن الشركة ولا غيرها قد بدأت وضع الايرباج فى السيارات على الأطلاق، لكن الشركة عندما بدأ استعمال الايرباج قدمت خدمة اضافية مجانية لسيارات تم اختيارها عشوائيا من الموديلات القديمة - ومنها موديل سيارة هذه السيدة - وأضافت اليها الايرباج!

وكان هذا المبرر كافيا.. لتحصل على التعويض!.

رفض الجميع

* سيدة أخرى طلبت من شركة سيارات منذ شهرين أن تبيعها سيارة بدون الايرباج، لأنها لا تحتاجها، فهى كبيرة فى السن، وعظامها هشة، ونظرها ضعيف.. وهى تضطر إلى ضغط المقود إلى أقصى درجة فى الأمام.. وتقود السيارة ببطء شديد.. الشركة رفضت.. وطلبت منها موافقة المرور.. ورفض المرور!

المحل مسئول

* سيدة اشترت كوبا من القهوة من محل عام، وقادت سيارتها وهى تشرب القهوة، وبخطأ منها بالطبع سقطت القهوة على جسمها، فأحرقته.

الطبيب الذى عالجها أثبت أن درجة حرارة القهوة كانت على الأقل ٤٣ درجة.. والمفروض حسب القانون ألا تزيد عن ٤٠ درجة.. وربحت تعويضا ١٠٠ ألف دولار من المحل!.

كرسي في الخلف

* أنت لا تستطيع أن تحمل طفلك داخل سيارتك حتى لو لم تكن أنت الذى تقود السيارة، وكنت تجلس بجوار السائق أو حتى فى المقعد الخلفى!

رسالة نيويورك

لابد أن تضع الطفل في كرسي خاص، على المقعد الخلفي بالسيارة، وليس على الكرسي المجاور للسائق، وحتى لو كانت السيارة واقفة تماما.. ومن المفروغ منه بالطبع أن الجميع يستخدمون أحزمة المقاعد!

يمكن إعادته

* محلات «الهوم ديبو» التي تخصصت في كل ما يتصل بالبناء والانشاءات داخل المنزل وخارجه، تصنع لك على سبيل المثال الدهان الذي تطلبه بالمواصفات التي تطلبها خصيصا من أجلك.. وتسمح لك بأن تعيده كله أو ما يتبقى منه، وتستعيد مقابل ما تعيده للمحل.. مع أنه صنع من أجلك ولكل المواصفات التي حددتها!

ابنك يشكوك

* أنت لا تستطيع أن تضرب ابنك أو ابنتك لأي سبب، ولو رآك أحد.. أو شكاك ابنك.. فانك تعاقب! فإذا تكرر فيك هذا، فذلك معناه أنك لست أهلا لتربية ابنك.. فيأخذون منك الطفل إلى دار رعاية، أو إلى أسرة أخرى بديلة.. وعليك الانفاق عليه، واستعادته إذا أثبت أنك أصبحت أهلا لذلك.

مقدمة البرنامج عوقبت

* هنا بعض الولايات المنتجة زراعيا لا تسمح لك بدخولها - وأنت أمريكي قادم من ولاية مجاورة، ومعك حتى أصبع موز، لأنك تنافس انتاجها .

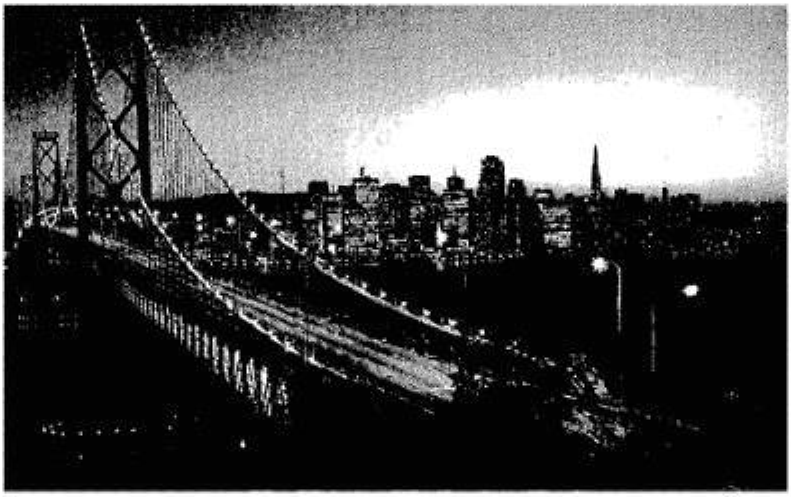
* جان جونز.. وهي مقدمة برنامج شهير هنا، من التي يسمونها «Talk Shows»، استضافت شخصا، قال في البرنامج كلاماً عن شخص آخر اعتبر مهينا له، عندما خرج من مبنى التليفزيون، وجد الشخص الآخر في انتظاره بمسدس.. ضربه وقتله!! صحيح أن القاتل عوقب.. لكن مقدمة البرنامج عوقبت أيضا.. لأنها سمحت بما قيل.. بما تسبب عنه حادث قتل!.

خيط الاسنان

* أنا شخصيا كانت عندي مشكلة في أسناني.. وأجريت عملية استلزمت الخياطة، حدث هذا خلال زيارة لي إلى كندا، وكان مطلوبا أن أفك الخياطة بعد أسبوع.. وعدت إلى أمريكا.. وحاولت بعد أسبوع الاتصال بعشرات الأطباء لمجرد فك الخيط.. وهي عملية تستطيع أي ممرضة أن تقوم بها.. رفض الجميع.. فالمسئولية.. في احتمال حدوث نزيف، وهو أمر كان واضحا أنه مستبعد.. وعرضت أن أقوم بالتوقيع بأنني مسئول عن أي نتيجة، وقال الجميع : وكيف توقع وأنت غير مسئول طبيا! واضطررت للسفر إلى كندا لفك الخيط.. لدى نفس الطبيب الذي أجرى العملية!؟.

انزلاق القدم

* أغرب هذه القوانين، أو أغباها كما يقول الأمريكيون ، هو أنه إذا حاول لص دخول بيتك، وأصابه أي ضرر، كأن انزلقت قدمه نتيجة وجود صابون على الأرض أو وجود سجادة غير مثبتة على أرض ناعمة.. فانك تكون مسئولا عن اصابته، هو يعاقب لأنه لص، وأنت تعاقب لأنك تسببت باهمالك في إصابته! لأنه أولا وأخيرا إنسان له حقوقه!؟



جسور حديثة وحياة عصرية واهتمام بوسائل المواصلات

والمعروف هنا بشكل عام، أنه لو إنزلقت قدم أى عابر فى الشارع أمام بيتك نتيجة وجود ثلج أو حجر فأنت مسئول فالمفروض أن ينظف كل مالك أمام بيته.. المستأجرون طبعا غير مسئولين، إلا إذا كنت مستأجرا للبيت كله!.

حارة خاصة

* فى أغلب الشوارع الرئيسية بالمدن الكبرى، توجد على يسار الشارع «حارة» Lane مخصصة لسار كل سيارة بها أكثر من راكب.. وهى عادة خالية، والسير فيها سريع.. الهدف من هذا التخصيص هو تشجيع الناس على الركوب الجماعى وهو مايسمونه هنا بالـ « -Carpool ing » حفاظا على نظافة البيئة الذى تلوثه كثرة السيارات المتحركة..

تنبيه رسمي

* القصص كثيرة.. والحكايات لا آخر لها.. لكن يبقى أطرفها ما نشرته الصحف هنا مؤخراً.. فمن العادة، ومع تعاملك مع أى موظف أو فى محل عام أن ينهى الآخر تقديم خدمته لك بقوله «أتمنى لك يوما طيبا..» « -Have a nice day».. حتى رجل المرور الذى يعطيك مخالفة، فإنه يقولها لك أيضا.. فهى تكاد تكون جزءا من التعامل اليومى فى الولايات المتحدة.. رسالة لقارىء نشرت فى إحدى الصحف، اعتبرتها سخرية من رجل المرور.. فتقرر من المسئولين بالمرور ألا يقولوها.. صدر بذلك تنبيه رسمى!

هناك أمور لا يجب المساس بها، أو الاقتراب منها، أهمها ألا تعامل أحدا بشكل معين، على أساس الدين، أو الجنس، أو اللون.. وأخيرا.. أتمنى للجميع يوما طيبا.. ! Have a nice day أو Have a nice Month.. ■



كيسنجر واسرائيل والعرب

بقلم
محمد حقى

نشر الصحفى البريطانى كريستوفر هيتشنز تحقيقا صحفيا فى مجلة «هاربرز» على صفحتين فى عددى فبراير ومارس، ودعمهما بالوثائق التاريخية ليثبت أن هنري كيسنجر ارتكب عدة جرائم قاتلة فى فيتنام يستحق عليها أن يحاكم كمجرم حرب ، وأثار التحقيق عددا من ردود الفعل المكبوتة . ولكن نظرا لأن كيسنجر صنع من نفسه ما يشبه الأبقار المقدسة . فلم يلق تحقيق هيتشنز الضجة التى يستحقها ، رغم أنه قال فى تحقيقه إن كيسنجر كان يعلم أن سياساته كان من شأنها مقتل عشرات الآلاف من الأبرياء ، ولكنه ضحى بهم فى سبيل تحقيق مآربه .

ومنذ فترة ، كتب المعلق اليهودى ريتشارد كوهين مقالا يرد فيه على كيسنجر ، الذى كان يومها يكتب سلسلة من المقالات - فى عهد الرئيس بيل كلينتون الديمقراطى - يدافع فيها عن الصين فى أعقاب حوادث تيينامين والمظاهرات الصاخبة التى تطالب بالحريات واحترام حقوق الإنسان فى الصين ، وقال كوهين : نريد أن نعرف من السيد كيسنجر ، هل يكتب لنا هذه المقالات بصفته واحدا من أهم خبراء الشئون الدولية ، أم بصفته محاميا عن الصين ، ويتلقى أجرا يعد بمئات الآلاف من الدولارات لتمثيل مصالح الصين فى الولايات المتحدة ، ومع حكومتها ومجالسها التشريعية .

وقال لى الصديق ستيفن روزنفلد ، وكان يومها نائبا لرئيس تحرير صفحة الرأى فى «الواشنطن بوست» إن كيسنجر مصاب «باسهال» كتابة ، وأنه يرسل للصحيفة عشرات المقالات ، ولكنهم لا ينشرون منها إلا واحدة من كل اثنى عشر مقالاً يبعث بها ، وأنهم يفعلون ذلك فقط إكراما للسيدة كاثرين براهام صاحبة الصحيفة ، التى يتمتع كيسنجر بحظوة عندها .

ولكن أحدا فى الولايات المتحدة كلها لم يسأل كيسنجر عما إذا كانت مواقفه وكتاباته تجاه الشرق الأوسط مردها إلى انتمائه الروحى والدينى لإسرائيل ، أم لمصلحة مالية فوق ذلك ، أم لأن الاسرائيليين يوفرون له قدرا من السلطة والسطوة والقوة والدعاية ، أم لسبب آخر ؟.

وقد كتب عن كيسنجر - عشرات من الكتاب والمحللين الفطاحل ، منهم المؤرخ النفسانى بروس مازيش والكاتب الشاكس سيمور هيرش ، والأخوة مارفن وبرنارد كالب ، وغيرهم . ولكن واحدا فقط هو الذى تناول فى فصل مهم من كتابه عن «سطوة اليهود» - وهو جفرى جولدبرج ، ابن السفير السابق لدى الأمم المتحدة آرثر جولدبرج ، صاحب التاريخ المأساوى مع العرب ،

كيسنجر واسرائيل والعرب



عن حقيقة دوافع كيسنجر تجاه العرب !

كيسنجر وتشكيل مصير اليهود

وكان جولدبرج يتحدث في هذا الفصل عن اليهود الأمريكيين الذين وصلوا إلى ذروة السلطة .

في الولايات المتحدة ، وقدموا خدمات لا تقدر بثمن لاسرائيل ، وقارن جولدبرج بينهم وبين قصة سيدنا يوسف في مصر ، ووصوله إلى قمة الهرم السياسي ، واستقباله لاخوته وتقديم خدمات هائلة لهم ، رغم أنهم كانوا يغارون منه وألقوه طفلاً في الجب وتركوه هناك ليموت .

وينقل جولدبرج عن أبا ايبان ، السياسي الاسرائيلي المخضرم المولود في جنوب افريقيا وعاش في مصر ابان الحرب العالمية الثانية أنه قال : اثنان من اليهود الأمريكيين وصلوا إلى القمة ومارسوا سلطة حقيقية وواسعة ، استطاعا أن يشكلا مصير الشعب اليهودي كله ، وهما : آرثر جولدبرج وهنري كيسنجر .

ويروي جولدبرج قصة ما حدث سنة ١٩٦٧ في الأمم المتحدة عندما كان والده - آرثر - سفيرا للولايات المتحدة لدى المنظمة الدولية في أعقاب حرب الأيام الستة ، وقال الكاتب إنه بينما كان الرئيس ليندون جونسون غارقا في متاهات فيتنام ، ناور جولدبرج خلال شهور لكي يحمي اسرائيل من أن تفقد على شاطىء النهر الشرقي لمدينة نيويورك (حيث يقع مبنى الأمم المتحدة) ما كسبته على أرض المعركة . وكانت النتيجة هي القرار ٢٤٢ . وكرر الكاتب القصة الشهيرة عن كيف أصر جولدبرج على حذف الحروف «ألف لام» "THE" من النص الانجليزي من القرار ، الأمر الذي فتح أمام إسرائيل الفرصة في أن تصر على اعتراف العرب بها قبل أن تناقش مبدأ الانسحاب ، وكيف شاءت الظروف أن ينغمس نيكسون تماما في قضية ووترجيت بحيث ترك الحرية الكاملة كيسنجر لكي يتصرف بمفرده ويطلق ارادته تماما في شئون الشرق الأوسط أثناء وبعد حرب سنة ١٩٧٣ .

ويدخل الكاتب في سفسطة ليفرق بين اليهود الذين يعملون في مراكز حساسة في الادارة ، وما إذا كانوا يتصرفون كيهود ، أم كجزء من المؤسسة الحكومية التي يعملون بها وضرب جولدبرج مثلا بفريق التفاوض الأمريكي الذين بدأوا رحلة الوساطة بين العرب واسرائيل تحت رئاسة جيمس بيكر وزير الخارجية الأسبق، وهم دينس روس مدير إدارة التخطيط السياسي بالخارجية ، ويعاونه دانييل كيرتزر - السفير الحالي في مصر - وآرون دافيد

ميهر . ويقابلهم في البيت الأبيض ريتشادر هاس ، بمجلس الأمن القومي .

وكانت النقطة التي أراد جولدبرج تأكيدها هو أن اسحق شامير وانصاره في أمريكا ، كانوا يعتبرون هذا الفريق من اليهود الذين يكرهون أنفسهم ، بل ويشيرون إليهم أحياناً «بالخونة» و«المرتدين الملحدين» لأنهم كانوا يطالبون بتجميد المستوطنات ، أما بقية قادة اليهود غير الليكوديين فقد كانوا يعتبرونهم حلفاء أوفياء يحاولون قيادة سفينة العلاقات الأمريكية الاسرائيلية بغاية الحذر بين بوش واسحق شامير ، وأنهم كانوا ملتزمين بأمن اسرائيل الذي كانوا يؤمنون بأن السلام وحده هو الذي يضمنه ، ثم قال إن هاس كان يهتم بداية بمصالح أمريكا أولا . وأنهم كانوا يؤمنون بأن دفع اسرائيل للتنازل كان لمساعدتها على الوصول إلى السلام مع جيرانها . غير أن هاس مر بتجربة «هودته - تماما» في ذلك اليوم من سبتمبر سنة ١٩٩١ الذي أدلى فيه بوش بخطاب «القوى العاتية» التي يقف وحده إزاءها ، بينما يحاولون هم الضغط على الكونجرس لتمرير توطين اليهود السوفيت دون التزام اسرائيل بتجميد المستوطنات .

كيسنجر ذراع نيكسون اليمنى

وكان جولدبرج يقصد بهذه المقدمة - التي نوجزها للغاية من عدة صفحات من كتابه أن يصل إلى شخصية هنري كيسنجر ، الذي قدم من جامعة هارفارد إلى واشنطن سنة ١٩٦٩ ليعمل كمستشار للأمن القومي مع نيكسون أعطى مهمة مركبة ، فمن ناحية وسعت مسئولياته إلى أبعد من أي مستشار للأمن القومي قبله ، ذلك أن هذه الوظيفة كان القصد منها قبل تعيين كيسنجر هو أن يكون ضابط مرور لتنسيق وصول الأفكار الخاصة بالشئون الخارجية من وزارات الخارجية والدفاع والمخابرات إلى البيت الأبيض ، ولكنه طلب منه أن يقوم بما هو أوسع من ذلك ، وهو أن يشترك في توجيه السياسة الخارجية واعادة تخيل دور «أمريكا في العالم» «فقد كان نيكسون لا يثق في وزارة الخارجية وبيروقراطيتها العتيقة ، وقرر أن يمارس هو دور وزير الخارجية بنفسه . وأصبح كيسنجر ذراعه اليمنى .

والمفارقة هنا أن جولدبرج يقول إن سلطات كيسنجر توقفت عند الشرق الأوسط وبقيت شئونها لدى وزارة الخارجية في يد صديق نيكسون القديم وليام روجرز وزير الخارجية يومها ولم يسمح له نيكسون بأي دور فيها قبل سنة ١٩٧١ ، بعد فشل مبادرة روجرز واقتنع نيكسون بأن أسلوب كيسنجر ربما نجح ، وهنا بدأ نفوذه في الصعود ، وعين وزيرا للخارجية بالإضافة إلى منصبه كمستشار للأمن القومي في أغسطس ١٩٧٣ .

وكتب كيسنجر في مذكراته سنة ١٩٧٩ ، في «سنوات البيت الأبيض» أن سنتي نيكسون الأولين كانت تحكمهما

كيسنجر واسرائيل والعرب



علاقة نيكسون «الغامضة» بوليام روجرز ، لا سيما وأنه - أى كيسنجر - كان يسحب البساط من تحته ويحول سلطاته إلى البيت الأبيض ، وترك له فقط مشكلة الشرق الأوسط وهي أعقد المشاكل وأقلها قبولا وطواعية للحل ، فضلا عن أن نيكسون كان يضمن سيطرته على الأمور بالإيقاع المستمر بين مستشاريه . والجدير بالذكر أن كيسنجر ذكر أكثر من مرة أن نيكسون كان يعتقد أنه يميل شخصيا بحدة نحو اسرائيل . وأيد ذلك الاستاذ والباحث وليام كوانت الذى قال إن نيكسون كان يردد كثيرا أن خلفية كيسنجر كيهودى تجعله مشبوها ، وظل مبعدا له عنها فترة طويلة .

وفى معرض الدفاع عن كيسنجر - وبقية اليهود الذين يخدمون فى مناصب عليا فى الولايات المتحدة - يذكر جولدبرج أن فوز اسرائيل فى حرب ١٩٦٧ ربما حقق لها حدوداً تضمن لها قدرا أكبر من الأمن والميزة والعمق الجغرافى . ولكنها عزلتها دبلوماسيا تماما عن بقية العالم ، ومن ثم لأنها لم تسمح لها أن تراجع افكارها التى تتعلق بالأرض والأمن ، وعليه فقد كانت تبحث دائما عن شخص يلعب دور «الخائن» ووجدته فى كيسنجر . وهو كلام موجه أساسا إلى الشعب الأمريكى الذى اعترف جولدبرج بأنهم كانوا يعتبرون كيسنجر صهيونيا ، وهذه التهمة التى وجهتها له اسرائيل ، أولا لأنه تلكأ فى امدادها بالسلاح فى الأيام الأربعة الأولى للحرب بسبب خسائرها الفادحة ، ثم قرار وقف اطلاق النار فى ٢٢ اكتوبر الذى لم يمكنهم من تحقيق أهدافهم بالكامل ، وأخيرا بسبب مفاوضاته بين اسرائيل ومصر وسوريا ، التى انتهت بالتنازل عن بعض الأراضى مقابل التزامات عربية على الورق (وهو تعبير جولدبرج) .

تفانى كيسنجر فى خدمة اسرائيل

ولكن جولدبرج أراد أن ينصف كيسنجر فقال إن الواقع هو أنه طلب امداد اسرائيل بالمعونة فى ٧ اكتوبر أى فى اليوم الثانى للحرب مباشرة ضد اعتراض كل زملائه فى الحكومة تقريبا . وكان كيسنجر يتعمد ارسال رسالة واضحة إلى الاتحاد السوفييتى ، وهو المنظور الثانى الذى قصد جولدبرج أن يحول الأنظار عن تفانى كيسنجر فى خدمة اسرائيل ، وأنه أنما كان يقوم بدوره بنظرة استراتيجية تجاه موسكو !

وكان تسلسل الأحداث طبقا لرواية جولدبرج هو أن اسرائيل لم تطلب مساعدة أمريكا قبل اليوم الرابع من الحرب عندما تجلت خسائر اسرائيل

ومحنتها . ففى فجر يوم ٩ اكتوبر ايقظ السفير سميحا دينتز كيسنجر فى منزله وطلب منه امداد اسرائيل بشحنات جوية فورية . ولكن الشاحنات الجوية العملاقة لم تبدأ فى الإقلاع قبل يوم ١٣ اكتوبر . وكانت هذه الأيام الأربعة محل أبحاث تاريخية مكثفة تتساءل : هل تلكأ كيسنجر فى عمليات النقل الجوى ، أم أن وزير الدفاع يومها جيمس شليسنجر ونائبه وليام كلمنتس هما اللذان تسببا فى التأخير .

ولكن كيسنجر نفسه كتب فى مذكراته سنة ١٩٨٢ «سنوات الزلزلة» أنه طلب هذه المعونة يوم ٧ اكتوبر .» غير أن أحدا فى واشنطن يومها كان يتوقع أن تصل خسائر اسرائيل إلى هذا الحد ، ولكنها عندما بدأت تصرخ ، بدت عدة عقبات فنية ، فقد اقترحت اسرائيل أن ترسل طائرات «العال» لشحن السلاح ولكنها لم تكن لديها طائرات كافية ، وخشى كيسنجر استخدام الطائرات العسكرية الأمريكية حتى لا يقدم العرب على استخدام سلاح النفط وحظره عن الغرب، فطلب استئجار طائرات شحن عملاقة ، ولم تكن هناك أى شركة مستعدة لارسال طائراتها إلى منطقة تجرى فيها معارك حربية وأخيرا عندما تكرر استخدام الطائرات الحربية الأمريكية ، رفضت البرتغال السماح لها بالطيران عبر أجوائها .

دوافع كيسنجر وسيكولوجيته

ولما كان يتحتم أن يتخذ القرار من أعلى ، فقد ركزت الأبحاث على من هو المسئول ، وفى كتاب سيرة حياة كيسنجر الذى كتبه والتر ايزاكسون ، ألصق الكاتب اليهودى التهمة بوليام كليمنتس على اعتبار أنه من رجال شركات النفط فى تكساس وأنه كان يتعاطف مع العرب ، وقال الكاتب أن أيزاكسون حمل المسئولية كذلك إلى شليسنجر وزير الدفاع . الذى اتهمه الكثيرون من غلاة اليهود بأن علاقته باسرائيل كانت مركبة لأنه ولد يهوديا ثم عمد كمسيحى وهو صبى وكل هؤلاء الذين يولودن يهودا ثم يتنصرون يعتبرهم غلاة اليهود بأنهم حاربوا اليهود فى تاريخهم كله ، ربما باستثناء بنجامين دزرائيلى ، الذى نصر وعمد وهو طفل ولكنه ظل يكافح من أجل اليهود حتى عندما كان ذلك غير مستحب وخطرا عليه ، على عكس كارل ماركس الذى نصره والداه وظل يضمر الكراهية لليهود طوال حياته !

غير أن جولدبرج يمضى فى سرد ما يراه من دوافع كيسنجر وسيكولوجيته أثناء الحرب ، فقال : إن كيسنجر نفسه قال إنه حاول تجنب استخدام الطائرات العسكرية الأمريكية حتى لا تنقطع الصلة تماما مع العرب : الأمر الذى كان يمكن أن يؤدى إلى استخدامهم لسلاح المقاطعة ومنع النفط وقد صدق حدسه فى ذلك .

غير أن نقاد كيسنجر (من غلاة اليهود طبعا) قالوا إن دوافعه كانت

كيسنجر واسرائيل والعرب



«شريرة» لأنه أراد أن تتلوى اسرائيل في البداية بينما تزحف ضدها القوات العربية لعدة أيام حتى يتمكن من تحطيم العقبة السيكولوجية في الشرق الأوسط ويخلق جوا جديداً ومناخا يصلح للتوصل إلى تسوية مبنية على التفاوض بعد انتهاء الحرب . ويقول الكاتب إنه لا يستبعد ذلك بناء على حسابات كيسنجر «الباردة» التي قد تتحمل بضعة آلاف من الضحايا . كما فعل في فيتنام وكمبوديا لتحقيق قدر من التوازن بين القوى يمكنه من التوصل إلى ما يريد .

والغريب أن أنصار كيسنجر تقدموا بنفس النظرية بالنسبة لوقف اطلاق النار في ٢٢ اكتوبر في سيناء ، حيث استطاعت اسرائيل تحويل دفة المعركة ، وعبرت قناة السويس ، والتفت حول الجيش الثالث ، الذى كان على الضفة الشرقية للقناة . وقد استدعى بريجنيف كيسنجر لمقابلته يوم ١٩ اكتوبر للتفاوض حول وقف أطلاق النار ، وذهب كيسنجر إلى موسكو وهو يعتقد أنه سيتفاوض من موقع القوة بدلا من البقاء في واشنطن التي كانت تمزقها فضيحة ووترجيت ، وذهب لأنه كان يعتقد أن ذلك سيعطيه فرصة لتعطيل وقف اطلاق النار لاعطاء فرصه لاسرائيل أن تستمر في تقدمها !

وهنا يتجلى غرض الكاتب في الخلاصة التالية .

«وقد كان هناك وجه قريب الشبه بين ما فعله كيسنجر في محادثات وقف اطلاق النار في موسكو وما فعله أرثر جولدبرج أثناء حرب الأيام الستة . فقد كانت المفاوضات تجري طبقا لما يراه كل طرف مواتيا لمصلحة الدولة التي يعتبرها تابعة وصديقة له (CLIENT) فإذا تعين أرخى وإذا هجمت تشدد . ولكن التشبه يتوقف هنا لان كيسنجر قبل وقف اطلاق النار يوم ٢١ قبل أن تتمكن اسرائيل من الالتفاف وعزل الجيش الثالث بالكامل» .

صاحب أكبر فضل على أمن اسرائيل

أما بقية التفاصيل . فقد كتب عنها المؤرخون والعسكريون والسياسيون من الجوانب الثلاثة أو الأربعة في الواقع بشكل أدق وأكثر حيادا من جولدبرج ، ولكن روايته لدوافع كيسنجر تأتي من منطلق هل كان وفيا ليهوديته ووفيا لاسرائيل أم لطموحاته الشخصية؟ - دون أن يذكر حرفا عن واجبه كأمريكي - وطنه الأصلى . بل إنه يقول إنه عندما أعلن الرئيس جيرالد فورد قرار «إعادة تقييم» علاقة أمريكا باسرائيل تفجرت مشاعر اسرائيل ويهود أمريكا ضد كيسنجر ، واتهموه مرة أخرى

بالتضحية باسرائيل ، ولكن جولدبرج يذكر له - في مجال الدفاع عنه يهوديا - أنه صاحب أكبر فضل على أمن اسرائيل . فلولا وقف اطلاق النار في ٢٢ اكتوبر ، لما جرت محادثات الكيلو ١٠١ ، ولا عقد مؤتمر جنيف في ديسمبر . الذي أتى بالمصريين والأردنيين إلى مائدة المفاوضات لأول مرة ولما وقعت اتفاقيات فصل القوات في سيناء ، ولما وقعت اتفاقية كامب دافيد ، ولبقيت اسرائيل في حالة حرب مع مصر، وهي الدولة العربية الوحيدة التي يمكن أن تهدد بقاء اسرائيل .

ويقول والواقع أن محاولات كيسنجر لاقرار السلام لاسرائيل لم تبدأ من حرب أكتوبر - وإنما بدأت منذ اللحظة الأولى التي تولى فيها نيكسون الحكم ، وبدأ كيسنجر حربه ضد وليام روجرز ووزارة الخارجية التي كان يعتبر يومها أن اتباع سياسة متوازنة بين اسرائيل واعدائها «الراديكاليين الثوريين» الموالية للسوفييت يؤدي إلى معاقبة اصدقاء أمريكا ومكافأة اعدائها وتقوية السوفيت والأفضل نبذ عملية السلام لفترة وتأييد اسرائيل بقوة لإرسال رسالة إلى العرب أنهم لا يستطيعون الحصول على أي شيء بمعارضة أمريكا أو ضد ارادتها.

وكان كيسنجر يردد دائما أن اسرائيل سند استراتيجي ورصيد لأمريكا وأن دعم أمريكا له ليس مجرد تأييد أدبي وأخلاقي، فإن دعم اسرائيل حتى النهاية من شأنه اضعاف الكرملين وتقوية نفوذ واشنطن في الشرق الأوسط

زيادة المعونة لإسرائيل

وهنا يضيف : وعندما نشبت المعارك سنة ١٩٧٠ بين الأردن ورجال المقاومة الفلسطينية ، وهددت سوريا بالتدخل ، ثم تراجعت أمام تهديدات اسرائيل ، ودفاع اسرائيل عن الأردن، وكسب كيسنجر نيكسون إلى صفه ، وكانت الأزمة كلها تدار من البيت الأبيض ، وأيدت رؤية كيسنجر الاستراتيجية التي تمسك بها على طول الوقت ، ثم بدأ كيسنجر في مقابلاته السرية التي كان نيكسون ملما بها ، وهي المقابلات التي أجراها سرا مع جولدا مائير والملك حسين على مائدة الإفطار .

وقد كانت هذه هي المقدمات التي دفعت نيكسون إلى اعطاء زمام المبادرة بالكامل على كيسنجر في سنة ١٩٧١ ، وإلى أن استقال نيكسون بعد فضيحة ووترجيت .

ومرة بعد مرة يدافع جولدبرج عن كيسنجر يهوديا ، فيقول على لسان بيتر رودمان ، مساعد كيسنجر يومها :

« لقد كان كيسنجر يعطف بكل مشاعره نحو اسرائيل ، ولكنه كان يميل إليها ايضا بعقله كرصيد قومي لأمريكا . ولم يكن نيكسون يكن أي مشاعر لاسرائيل ولكنه اشترى وجهة نظر كيسنجر الاستراتيجية»، ويمضي رودمان في تحليله قائلا : إن تغيير

كيسنجر واسرائيل والعرب



مصر الجانب الذى تقف معه ، وليكن من السوفييت إلى الولايات المتحدة ، كان أهم حدث خلال العشرين سنة الماضية ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى نيكسون وهنرى (يقصد كيسنجر) . ولكنهما لم يكونا فطنين بما فيه الكفاية ، والواقع أن السادات ذهب إلى الحرب فى اكتوبر ١٩٧٣ لأنه لم تعجبه تصرفاتنا وما كان يستطيع أن يدفعنا للاستجابة له أو لوجهة نظره إلا عندما قرر الدخول فى الحرب ، وقد عدنا إليه فعلا بعد حرب اكتوبر» .

ويختم جولبرج دفاعه عن كيسنجر بقوله : وقد ادرك كيسنجر حقيقة السادات وافاق للواقع فى أول اسبوع للحرب ومما رآه من شواهد على ما تستطيع القاهرة أن تفعله ، وهنا قام كيسنجر باهم خطوة فى تاريخ هذه المنطقة التى لم يلتفت إليها أحد أهم خطوة فى تاريخه كوزير للخارجية ، وهى رفع المعونة إلى اسرائيل إلى ٢,٢ مليار دولار سنويا ، أى إلى عنان السماء العليا ، وكان ذلك يوم ١٦ اكتوبر بحجة أن ذلك يدخل فى صميم العلاقات بين أمريكا والاتحاد السوفيتى ! (الباقى كما يقولون تاريخ!) .

والتاريخ أيضا ، فقد كان الكثيرون من الزملاء فى مصر يعيبون على السادات ترديده أحيانا كلمة : «صديقى هنرى» . ولكنه سئل فى آخر زيارة له ، وكان ذلك فى أغسطس ١٩٨١ ، فى نادى الصحافة القومى ، وكان السؤال هو آخر سؤال فى المؤتمر الصحفى : «هل تثق فى هنرى كيسنجر؟» ، وسكت السادات برهة ، ثم قال ضاحكا لقد قلت له يوما ، باللغة الألمانية ، مثلا ألمانيا يقول : «اذا اعطيته إصبعا فسيأخذ ذراعك كله» ! وفهم الناس غرض السادات !. ■

أقوال

«لا تكمن الحقيقة المطلقة لشخصية أمة من الأمم فى كيفية استجابتها للمحن وقت الحروب،وإنما فى كيفية تصديها لتحدى السلام»

ريتشارد نيكسون

« أحب الكتب لا لأنى زاهد فى الحياة ولكنى أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفى»

عباس محمود العقاد

لغويات

د. محمود فهمي حجازي

يتحدث رجال الإعلام والإدارة والسياسة كثيرا عن «المصداقية» وهي كلمة جديدة شائعة في الكتابات العربية المعاصرة. لم ترد هذه الكلمة في المعجمات القديمة، ولكن استخدامها المعاصر واضح الدلالة. نحن نطلب من ذلك المسئول أو من تلك الحكومة أن تكون المبادىء المعلنة مطابقة للسياسة أو الاجراءات أو القرارات حتى تكون هناك مصداقية.

بحث مجمع اللغة العربية هذه الكلمة من حيث حروفها الأصولية والصيغة والدلالة واتخذ في هذا الأمر قرارا في ضوء بحث لرئيس المجمع العلامة شوقي ضيف. هذه الكلمة من مادة عربية أصيلة (ص د ق)، اللغة العربية تعرف الصدق والصادق، وذكر لسان العرب لابن منظور كلمة مِصْدَاق في عبارات مثل: هذا مصداق هذا، أي ما يصدقه ويشهد بصدقه، ومن هنا كلمة مصداقية بزيادة اللاحقة المكونة للمصدر الصناعي (يّة)، وهي صيغة عربية صحيحة نعرفها في مئات الكلمات المعاصرة. ودلالة الكلمة واضحة، نطلب من حزب ما أو دولة ما المصداقية وأن تكون الأفعال مطابقة للأقوال، كما نفترض في الشخصيات العامة المصداقية مع المسئولية.

لقد ورد قرار - في كتاب مجمع اللغة العربية في الألفاظ والأساليب، القسم الثالث بإجازة استعمال كلمة مصداقية من حيث صيغتها من المصدر الصناعي، ومن حيث الدلالة الواضحة المرتبطة بالحروف الأصول (ص د ق) ومن حيث قبولها عند الكتاب المعاصرين. إنها كلمة جديدة لم يذكرها المعجم الوسيط في طبعاته التي صدرت ، وهي جديرة بأن تدخل بصيغتها ودلالتها المتداولة في الطبعة الرابعة منه، حتى يستخدمها الكُتّاب في ثقة وحتى لايشكك أحد في صحة هذه الكلمة من الجوانب اللغوية بعد أن أقرها مجمع اللغة العربية.



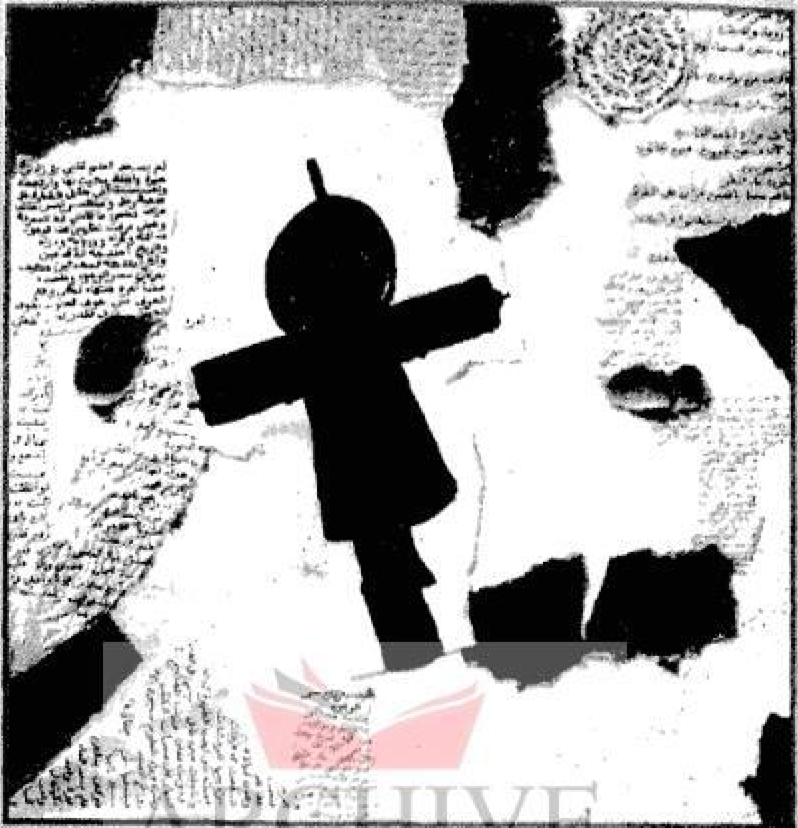
جولة المعارض

رؤى تشكيلية
بين الحداثة والتأصيل

بقلم
عزالدين نجيب

كنت على موعد مع الفنان والناقد الكبير محمود بقشيش لكى أهديه كتابى الجديد «فنانون وشهداء»، ولم يدر بخاطرى أنه نفسه سيكون بعد أيام معدودة أحد هؤلاء الشهداء! .. فقبل موعدنا تلقيت الخبر الأليم بسقوطه فجأة يوم ١٧ فبراير الماضى بإحدى محطات مترو الأنفاق مصابا بنزيف فى المخ، ليدخل غيبوبة مستمرة، ولينتقل من مستشفى إلى آخر، فى انتظار قرار بتحمل الدولة مسئولية علاجه على نفقتها دون جدوى، فى الوقت الذى تتناثر الأخبار فى الصحف بعكس ذلك، أما الفواتير الباهظة للمستشفى الاستثمارى الذى أدخل إليه فقد سددت بالكامل من ثمن اقتناء لوحاته، فوق ما عاناه فيها من إهمال.

لكن بعد صراع الفنان مع المرض لقى ربه فى صبيحة يوم ١٣ مارس بعد رحلة عطاء طويلة فى مجالات الفن والنقد.



مأساة الحلاج – زينب طاطا

وقد رأت أسرة تحرير «الهلال» ألا يغيب عن صفحات هذا العدد الباب الذي يكتبه محمود بقشيش بانتظام، تأكيدا لحضوره المعنوى حتى ولو غاب عنه قلمه وها أنا اليوم أكتب هذه المتابعات النقدية، متمثلا قلم صاحب «الجولة» داعيا له بالرحمة والمغفرة.

من القصدية .. إلي العضوية

تتفاوت آليات ودوافع الابداع من فنان إلى آخر تبعا لتكوينه الذاتى فنيا وفكريا ومزاجيا، بين معالجة العمل برؤية ذهنية واضحة وتصميم مسبق، متخذا خطا مستقيما متناميا يستجيب بوعى كامل لحوافز تحقيق تلك الرؤية، وبين البدء فى

جولة المعارض

العملية الفنية من حدس أو هاجس غامض لايوجهه وعي مباشر أو رؤية محددة، لتتخلق وتبزغ فوق السطح تدريجيا- بعد الملامسة الآنية العضوية له - ملامح كائن جمالي، وتتنامى بآلية التداعي الحر للأشكال.. وبين البدء في العملية الفنية انطلاقا من فكرة ذهنية غامضة ، سرعان ما تبحث عن تجسدها الجمالي خلال طقوس الممارسة الفنية، وقد يتم خلال هذه الممارسة تغيير مسار الفكرة الذهنية الأولى نحو مسارات أخرى لم تكن في حسبان الفنان، حيث يبدو مشدوداً لاقتناص اكتشافات الصدفة التي تفرزها المعالجة الفنية، وتوجهها لتاليف أشكال جمالية جديدة... وتلك جميعا بعض آليات الفنانين للوصول إلي عوالمهم ورؤاهم الفنية، التي تتراوح بين الحداثة والتأصيل.

في معارض الفترة الفصلية بين شهري فبراير ومارس الماضيين تتحقق هذه الرؤى جميعا، بين قاعات اخناتون ومركز الجزيرة وأتيليه القاهرة.

الهرم مفردة تشكيلية

في معرضه الأول بمصر بعد عودته من بعثته الدراسية بألمانيا، والذى أقيم أواخر فبراير الماضى بقاعة اخناتون، قدم الفنان حمدى آبو المعاطى، المدرس بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة، رؤية متكاملة اختار لها عنوان «الهرم مفردة تشكيلية». تحققت عبر تقنيات الحفر «الطباعة على قوالب الخشب»، والرسم بالحبر الصينى والتصوير بألوان الأكريليك، وفى هذا المعرض نجد بعض الجوانب المشتركة مع معارضه السابقة، أهمها الرمز، باستخدام تصميمات خطية، تطبيقا لرؤية فكرية مسبقة، مستعينا بعنصر أو أكثر يحمل دلالات معنوية، وهو هنا يتمثل فى رمز الهرم بدلالاته الحضارية وقيم الثبات والتوازن واكتناز الأسرار . لكنه يعمد إلى خلخلة هذا الثبات محققا نوعا من التوازن الحرج، عن طريق إطلاق الشكل الهرمى فى الفراغ وسط دوامات خطية، بل يعمد أحيانا إلى قلب الهرم على قمته لإيجاد توازن أكثر حرجا، بالتقابل الحاد بين قمم أكثر من هرم، أو بترديد شكل الهرم فوق مسطحات هندسية صماء تمزق سكونيتها حركة عاصفة من الأقواس والخطوط الحلزونية، تتقاطع مع مسطح الهرم وتلغى معنى الرصانة السكونية فيه، ليصبح قوة بث ديناميكية لاتكف عن إطلاق الذبذبات مثل طاقة كهرومغناطيسية مشعة، بما يوحى بمعنى جديد للحضارة المصرية ،

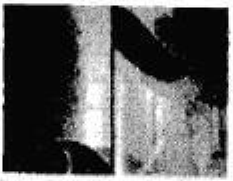
يمثل امتدادا وتواصلا بين الماضي والحاضر والمستقبل.

وإذا كانت طبيعة الفن تنفر من الأفكار المقولبة والأطر سابقة التجهيز، فقد نجا الفنان أبو المعاطي من ذلك، بإحالة «الموضوع» المحدد سلفا إلى «حالة تعبيرية» متجددة، تتوالد الشحنة الدرامية من داخلها توالدا ذاتيا. وتتكاثر بطاقة الابتكار الداخلي ، متجاوزة إطار الفكرة الذهنية بخلق ذلك التوتر الدائم على سطح اللوحات، عبر تفاعل خطوط الأهرام مع حركة الذبذبات القوسية والحلزونية للخطوط البينية. وهنا يتراجع «الموضوع» ليصبح «الشكل» في المقدمة ، لكنه شكل دال مكهرب بشحنة تعبير تسمح بالتأويل، الذي قد يختلف من مشاهد إلى آخر.. وفي ذلك تكمن قيمة الفن الحقيقية.

المزاج الذاتي والجماعة

وعلى العكس من ذلك، يأتي معرض الفنانة نازلي مدكور «رقم ٢١» في نفس الفترة ونفس المكان ، ليؤكد مسارها الجمالي الذي تمضي فيه منذ سنوات بعيدة، متطلعة إلى خلق رؤى حسية وكونية على سطح لوحات «تجريدية / تعبيرية» ، تساعد «الخامة» على إثراء نسيجها التصويري بملامسها البارزة والمتوترة ، دون وضع أفكار أو رؤى سابقة لبدء العملية الفنية، معطية للحالة الانفعالية وللشحنة التعبيرية الغامضة ثم للخامة البدائية الخشنة، أدوار البطولة في قيادة الوعي – أو اللاوعي الكامن داخل الفنانة -- نحو استكشاف رؤى طقوسية أو مناطق مجهولة في الطبيعة أو في داخل النفس البشرية، لكن ثمة عنصرا قياديا مهما لتلك العملية وهو ما تسميه الفنانة «المزاج الفني» الذي يسبق العمل ويقود مختلف مراحل تكوينه... «.. فاللوحة تبدأ بقذف وبعثرة شتات من الإرهاصات الوجدانية و الفكرية على المسطح الفارغ للوحة. وهذا الأسلوب في استهلاك العمل يساعد على شحذ طاقات الخيال اللاواعي – الجمعي أو الخاص – ويحقق مستوى أوليا من التطهر، كما يفيد في توفير الظروف المواتية لاستدعاء المصادفة، وعندئذ يتدخل العقل الواعي للفنان لاستجلاء الصور واستنطاقها، وفي هذه اللحظات النادرة من التوحد بين الوعي واللاوعي قد يلامس الفنان النبع اللانهائي للفن..» حسبما تكتب الفنانة عن تجربتها في مقدمة كتيب معرضها.

وقد يكون بوسعنا اكتشاف تأثرات فنية في أعمال نازلي ببعض منجزات الفن العالمي – والمحلي أيضا – مثل أعمال رمسيس يونان ومرحلة الجزار الأخيرة



جولة المعارض

المسماة بعالم الفضاء في الستينيات، وغيرهما من الفنانين المعاصرين، كما يمكن استنطاق لوحاتها بمعان ورؤى كونية أو ميتافيزيقية أو حداثية، لكنها هضمت ذلك كله وتركته يذوب ويتغلغل في نسيج لوحتها بحساسية عفوية مبطنة بوعي فكرى جيد لعملية الإبداع وغايته وخلفيته الاجتماعية..

هنا أجدني أقف مترددا أمام سيطرة المشهد التجريدى المطلق على لوحاتها، التى تحررت من ملامح الخصوصية المحلية على عكس معارضها السابقة حيث نلمس أثر بعض اتجاهات ما بعد الحداثة فى الغرب على معرضها الأخير، بتكريس هذه الاتجاهات لدور الخامة على حساب أية عناصر أخرى، وتغنيها بالحس البدائى الغفل فى الطبيعة، بل والحس الطقوسى المفرغ من مضمونه الأنثروبولوجى، والفنانة بذلك تنغمس - ربما بغير وعى - فى رؤية ذاتية مغلقة بعيدا عن اهتمامها السابق بجذورها المصرية وارتباطها بالمجتمع، وهو ما تلفت النظر إلى دوافعه فى مقدمة معرضها إذ تقول :

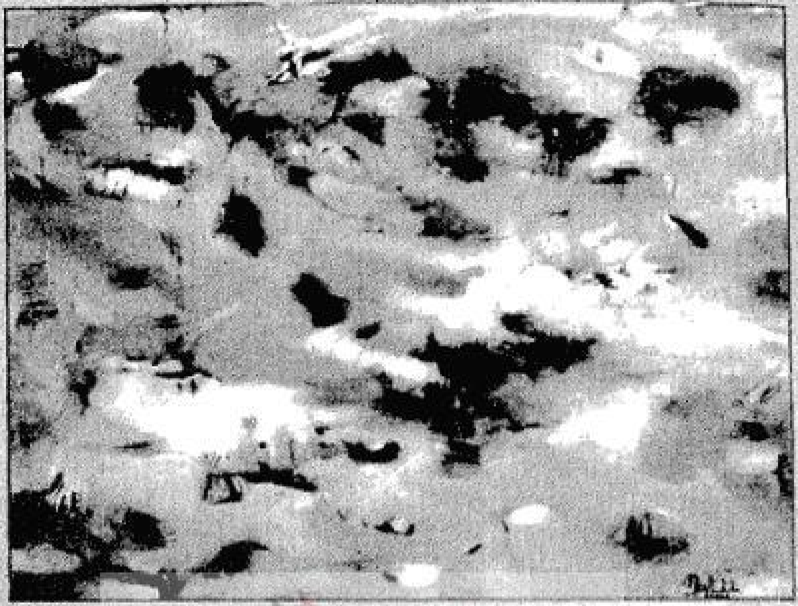
«إن انغماس الفنان فى الذاتية عادة ما ينبع من تراجع أمله فى الاندماج فى الجماعة والمساهمة فى تحديد مصيرها، وما ينتج عن ذلك من خيبة أمل أو التمرد أو رفض التواصل أو حتى السلبية الحالمة تجاه الواقع.» وهى مقولة صحيحة بالتأكيد.

فهل جاء معرضها الأخير تعبيرا عن هذه المعانى؟!

موائد أخرى للقرابين

وفى الوسط بين الاتجاهين السابقين، يأتى معرضان آخران أقيما لفنانين شابين مع فارق السن والخبرة بينهما: الأول معرض الفنان السكندرى محمد فتحى أبو النجا، الذى أقيم خلال شهر فبراير بمركز الجزيرة للفنون، والثانى معرض الفنان طارق زايد الذى أقيم فى أوائل شهر مارس بأتيليه القاهرة.

فتحى أبو النجا فنان يؤمن بأن الفن عملية تجريب مستمرة فى الخامة والشكل، بحثا عن تقنيات جديدة تعمق جذور الانتماء إلى الأرض المصرية، فبعد عدة معارض عالج فيها موضوعات مستمدة من طقوس الحياة والموت والبعث، على خلفية من ملامح الطبيعة والبيئة فى مصر، مستخدما الأسلوب التعبيرى الرمزى والألوان الزيتية على القماش، انغمس فى تجربة كانت مادتها أوراق البردى والورق



طقوس العبور - نازلي مدكور

المصنع يدويا من ألياف قطنية حسبما تعلم فى منحته الدراسية باليابان، واستمد من هذه الخبرة رؤى جمالية تعتمد على الملامس والألوان التى تعطى تأثير الجدران القديمة والمعالم الأثرية ونكهة الزمن والتاريخ، مازجا فى تشكيلاته بين التجريد والتشخيص، لتأتى تجربته الأخيرة مستلهمة من الأحجار الفرعونية التى كانت تعد كموائد للقرابين الجنائزية التى تصاحب المتوفى إلى يوم البعث.. لقد بدأ الفنان تجربته بالفكرة - أو لنقل بالفرضية الذهنية - وهى إعادة إنتاج هذه الموائد مستخدما مادة الورق المصنع يدويا، وتجسيمه حول أطر خشبية ليحاكى الموائد الأصلية، مضفيا عليها حس الطين المتآكل، وعبر الممارسة التشكيلية تتكشف أبعاد جمالية جديدة، فتبدو تلك المجسمات أقرب إلى أشكال نحتية صنعتها الطبيعة فجمعت بين الشواهد الجنائزية وبين الطواطم السحرية والأنماط المعمارية الضاربة فى القدم ولاتزال تحمل آثار الحريق والدخان، لكن الدلالة التعبيرية التى خرج بها الفنان تتجاوز هذه المنطلقات، نحو اسقاطات معنوية صاغها بحس شعرى فى دليل معرضه بقوله

«... من موائد قدمت للآلهة إلى بعث



جديد أكثر قوة ووفرة.. موائد تتواصل لتبث داخل روحى المغتربة شيئا من اليقين الصعب».

ويختم الفنان كلمته بسؤال حائر لاجواب له : لمن تقدم هذه القرابين ؟!

الشق والرتق ؟

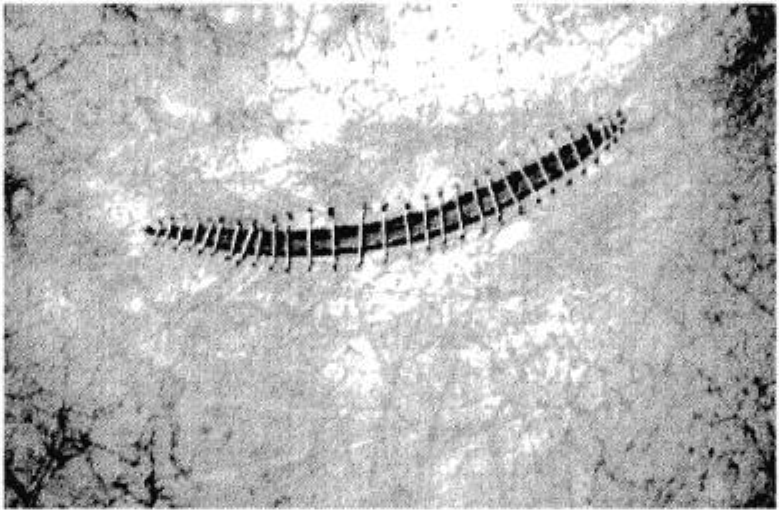
أما الفنان طارق زايد - الذى أقام من قبل عدة معارض بأتيليه القاهرة ثم غاب بعدها سنوات طويلة- فقد فاجأنا بمعرض صغير الأحجام لكنه كبير الأثر والقيمة.. إن التشققات والتجعدات اللونية على سطح الورق تنقلنا إلى عالم مخاتل مسكون بالغموض والسحر. لقد تقطرت ألوانه حتى صفت وشفت عن غلالات عنكبوتية ناعمة مغلفة بالأزرق اللازوردى والبنفسجى الوردى بأطيافهما النورانية، كانت تلك هى الفكرة الأولية التى انطلق منها الفنان، وكان ذلك هو الأثر النفسى الذى يريد الوصول إليه.

وفجأة شعر بنوع من عدم الصدق الفنى والنفسى ، فليس فى الواقع مثل هذا المناخ الرومانسى! .. هنا عمد إلى طعن كل لوحة بسكين فى مكان القلب منها، محدثا شقا قوسيا غائرا ، ربما يتصاعد تأويله عبر مستويات الاحساس والتلقى لدى كل مشاهد حتى يصل إلى الإيحاء بشق الأوزون فى طبقات الجو العليا ! .. ويبدو أن الفنان - بعدما فعل بلوحاته ما فعل حتى أدماها -- شعر بأن الجراح فى قلبه هو ، فسارع إلى رتقها بالإبرة والخيط الحقيقيين، علها تندمل وتحقق له وللمشاهد نوعا من التوازن المفقود!

وعلى مستوى الرؤية التشكيلية جاء هذا الرتق الغرائبى إضافة جمالية باتت هى نقطة الارتكاز الأساسية فى اللوحة ، وجواز مرورها بين محطات الحركة الفنية المزدحمة بكل التيارات، الباحثة بأى ثمن عن رؤى جديدة مبهرة. لكن مع نجاحه فى تلك اللوحات، فإنه لم يوفق بنفس القدر فى لوحاته التى ألصق فوقها أشرطة ورقية بيضاء بدت مفتعلة بلا عمق أو دلالة!

تجليات صوفية

وتنتهى الجولة بمعرض صغير أقيم بقاعة إنجى أفلاطون بأتيليه القاهرة فى فبراير الماضى، لم يتحدث عنه أحد، بالرغم من أنه حدث فنى مهم.. انه معرض الفنانة زينب ظاظا ، وربما قوبل بهذا الصمت لأن صاحبته اسم غير معروف بالحركة الفنية فى مصر، حيث علمت أنها تقيم بعاصمة أوربية منذ سنوات طويلة.



البعد الثالث - طارق زايد

المعرض يضم مجموعة تجليات صوفية مستوحاة من الشعراء الصوفيين أمثال ابن عربى والحلاج، ويمزج بين القصائد المكتوبة والرسوم التى تستلهم فنون الأطفال وتصاوير الكتب العربية والفارسية القديمة مثل أعمال يحيى الواسطى وبهزاد ، لكن الصياغة فى مجملها نسيج محكم يجمع بين عبق التراث ونقاء الفطرة وجرأة الطفل والحداثة الفنية.

إن الكتابات المسطرة على سطح اللوحة ليست موضوعا للقراءة ، بالرغم من أنها نصوص شعرية مهمة، بل هى إيقاعات بصرية ذات ملامس ومستويات، وتستخدم الفنانة أسلوب «الكولاج» وتباين آثار الخامات المختلفة فوق السطح، أما الأشكال المشخصة من بشر وحيوان وطير وشجر فهى آتية إلينا تواً من عالم الحلم والأسطورة، عميقة بأريج الزمن وبراءة الطفولة.

ولم أعجب حين علمت أن الفنانة هى ابنة أستاذنا الحكاء العظيم د.حسن ظاظا الذى كان موسوعة لتاريخ الفن والأساطير والفنون الحضارية والملاحم الشعرية من كل الأوطان، ولم تكن أجيال الطلاب والفنانين تمل الاستماع إليه بمختلف كليات الفنون .. وهكذا تشربت روح ابنته هذا الرحيق المدهش، فتجلى فى لوحاتها بكل هذه العذوبة! ■

كتاب وفيلم وأوسكار

بقلم
مصطفى درويش

نعيش عصر ثورة المعلومات، ومن الأكيد أن لها ايجابيات وسلبيات ، شأنها فى ذلك شأن جميع الثورات .

ولعل أهم سلبياتها، اغراقنا بطوفان من المعلومات، على نحو أصبح من الصعب معه تمحيصها، بحيث لا نختار منها إلا ما ينفعنا.

وفى مجال السينما، كان المخرج الايطالى «فيديريكو فيللينى» من اوائل المعبرين عن أزمتنا من جراء ذلك الطوفان، وما يحمله لنا من تهديد، وذلك من خلال اكثر من فيلم، لاسيما «صوت القمر» رائعته التى ختم بها مشواره مع الاطياف، وكانت بحق مسك الختام .

كل ذلك أقوله، كمدخل لمؤلف ضخم اسماه صاحبه «دافيد بوتنام» - «الحرب غير المعلنة.. الصراع من أجل التحكم فى صناعة الفيلم عالميا».

وبداية، من «بوتنام» هذا؟ هو منتج بريطاني، فاز بجائزة اوسكار عن اكثر من فيلم .

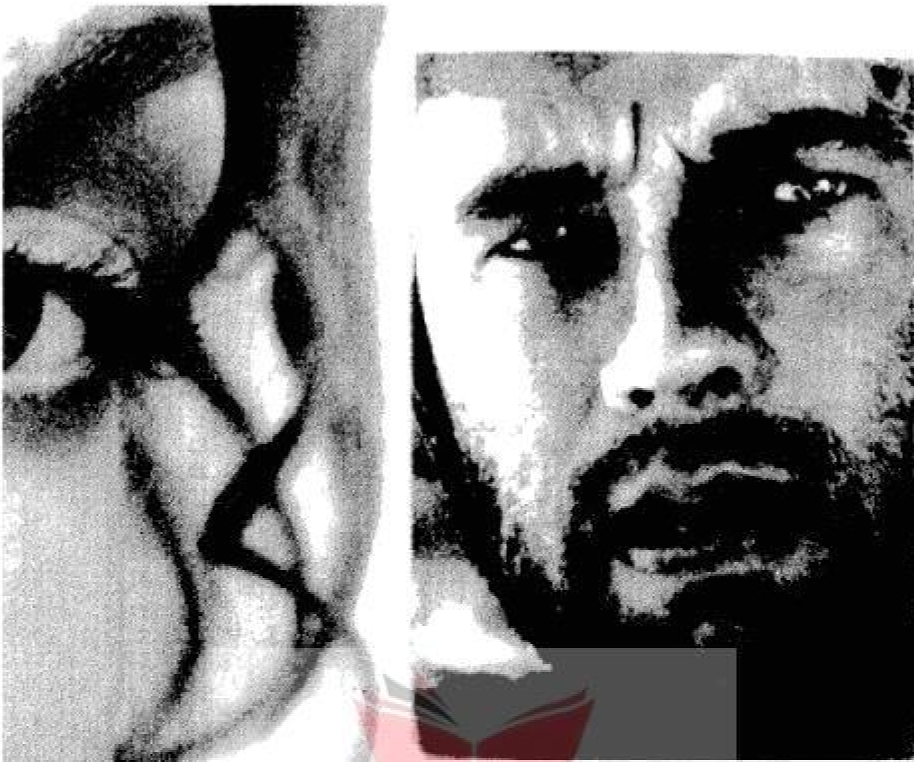
ومن بين الافلام التى قام بانتاجها، على امتداد اكثر من ربع قرن من عمر الزمان، اذكر على سبيل التمثيل «عربات النار»، «اكسبريس منتصف الليل» ، «الحقول القاتلة» و«الارسالية» .

وعلى غير عادة، عين عام ١٩٨٦، رئيسا لشركة كولومبيا، إحدى شركات هوليوود، القائمة على صناعة الأحلام.

وبفضل ذلك التعيين، كان أول أوربى برأس واحدة من تلك الشركات، المتحكمة فى صناعة السينما عالميا .

الأباطرة الجدد

غير أنه سرعان ما وقع الاصطدام بينه وبين أصحاب القرار من وراء الستار، واعنى بهم أباطرة هوليوود وبالتالى لم



توم هانكس هل يفوز بأوسكار ثالثة ؟!

يكن ثمة مناص من قيامه بتقديم استقالته، وعودته من حيث أتى، ولما يكن قد مضى على رئاسته لتلك الشركة (المملوكة الآن لشركة سونى)، سوى خمسة عشر شهراً. هذا، ولم تمض سوى أعوام معدودة على استقالته تلك، حتى كان المهتمون بمصير السينما يتجادلون حول الأفكار التى ضمنها كتابه النفيس.

والحق، انه عندما ظهر الكتاب، تلقاه النقاد أحسن لقاء، وقدموه الى القراء تقديما فيه من الحماس له، والاشادة به، الشىء الكثير.

ولا غرابة فى هذا، فبوتنام قد عرض فيه لصراع مرير، بدأ فور تحرك الصورة، قبل مائة عام، واستمر حتى هذه الساعة.

والشىء الأكيد، أن قطبى ذلك الصراع هما أوروبا وأمريكا، وبالتحديد الولايات المتحدة.

أرباح تفوق الخيال

أما مداره، فصناعة وتجارة أفلام، تقدر أرباحها حاليا، لا بدولارات تعدّ بالملايين، وانما تعد بالبلايين.

وهنا يساورنا سؤال، لمن كان الفوز



«ذهب مع الريح» من علامات هيمنة هوليوود

في ذلك الصراع، ومتى؟

وتجيء الاجابة قاطعة بأن الفوز كان من حظ الولايات المتحدة، وهوليوود بالتحديد.

فالمعركة من أجل الجمهور الامريكي، خرجت منها أوروبا خاسرة، وذلك قبيل اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى (١٩١٤).

والفضل في ذلك الفوز المبكر، انما يرجع الى عدة عوامل، من بينها نظام النجوم الذي ابتكره «ادولف زوكور» أحد بناة استديوهات بارامونت .

ولعل أهم نجوم تلك الفترة من عمر السينما، واكثرهم شهرة ومنزلة في قلوب الجماهير هم «ماري بيكفورد» و«ليليان جيش» و«شارلي شابلن» و«دوجلاس فيربانكس الكبير».

اختلال الميزان

وعلى كل، فبعد عقود من التنافس على الجمهور الاوربي، أخذ الميزان يميل شيئا فشيئا، لصالح السينما الامريكية، حتى انتهى الامر، قبل ثمانية عشر عاما، الى خروج صانعي الافلام الاوربيين من ساحة المعركة خاسرين والى تدهور وضعهم، حتى كاد الا يكون لهم رأي، ولا خيار في الحفاظ على السينما الاوربية، عفيّة قوية .

ولعلي في غنى عن ايراد الأمثلة التي جاء ذكرها في المؤلف للتدليل على خضوع السوق الاوربية لهيمنة هوليوود، فهي من

الكثرة، بحيث يعد ايرادها ضربا من العبث، ليس فيه غناء.

ومع ذلك، أرى من المفيد أن أذكر مثلا واحدا، على سبيل الاستثناء، وهو ذلك الخاص بالمواد المسموعة والمرئية الامريكية، وتصديرها الى أوروبا ففيما بين عامى ٨٤ و١٩٩٢ ، ارتفعت قيمة صادرات تلك المواد من ثلاثمائة وثلاثين مليون دولار الى ثلاثة بلايين وستمائة مليون دولار .

ومع مجىء عام ١٩٩٥ كان عجز ميزان الاتحاد الأوربى التجارى مع الولايات المتحدة، فى مجال تلك المواد، قد ارتفع الى ستة مليارات وثلاثمائة مليون دولار .

صعود وسقوط

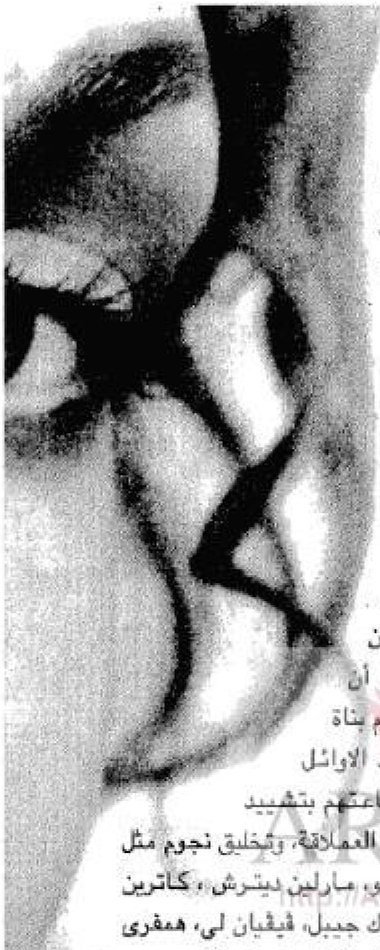
فما سر ذلك الصعود الأمريكى، وذلك السقوط الأوربى؟

كلاهما يرجع الى الجذور، الى أيام السينما الأولى، فالشىء الذى لاشك فيه أن الرواد الأوربيين الذين هاجروا الى أمريكا كانوا أسرع ممن آثروا عدم الهجرة من أوروبا، فى فهم وتمثل حقيقة تبدو بديهية الآن .

وهى أن الاعتبارات التجارية تماثل فى الأهمية الاعتبارات الفنية.

وبدون المزاوجة الخلاقة بينهما، لا يكتب للعمل السينمائى أى نجاح .

ومما ساعد على ذلك الفهم والتمثل، طريقة «فورد» فى العمل من أجل أكبر قدر من الانتاجية، تلك الطريقة المثلى، التى سادت بطول وعرض الولايات المتحدة، طوال الربع الأول من القرن



العشرين وكان نجاحها منقطع النظير، محل تقليد الصناعات الأخرى، غير صناعة السيارات، بما فى ذلك صناعة الأطياف ومهما يكن من أمر، فما أن رسخت أقدام بناة هوليوود الاوائل فتوسعت صناعتهم بتشييد الاستديوهات العملاقة، وتخليق نجوم مثل جريتا جاربو، مارلين ديترش، كاترين هيبورن، كلارك جيبل، ڤيڤيان لى، همفرى بوجارت ولورين باكال، وغيرهم كثير.

ما ان رسخت أقدامهم على هذا النحو، حتى عملوا جاهدين من أجل قفل أبواب السوق الأمريكية التى كانت تزداد ضخامة وتجانسا على مرّ الأعوام، دون هوادة فى وجه صانعى الأطياف الأوربيين.

وبفضل نجاحهم فى استعمار الخيال الامريكى، كما قال بحق المؤرخ الأمريكى «نيل جابلر» ، عملوا على تسويق أفلامهم فى مشارق الأرض ومغاربها.



«ماري بيكفورد» .. بداية نظام النجوم

ومن حين لآخر ، حاولت أوروبا مواجهة هجمة هوليوود الشرسة، والصمود لها، بشتى الوسائل غير أن محاولاتها باءت، دون استثناء بفشل ذريع.

والمطروح حاليا، أن يتعلم صانعو الأطياف الأوربيون من تجربة فشلهم على هذا النحو في حرب المائة عام، تلك الحرب غير المعلنة منذ مولد فن السينما.

ولكن كيف؟ هذا هو السؤال الذى حاول «بوتنام» أن يجد له جوابا .

فاذا ما انتقل الحديث بنا الى الفيلم فسنجد انفسنا أمام ظاهرة فريدة تنحصر فى أنه، وعلى امتداد الشهرين اللذين استهل بهما القرن الواحد والعشرين، لم يعرض خلالهما، عندنا هنا فى القاهرة التى تعد واحدة من أكبر مدن العالم، واكثرها تأثيرا، لم يعرض سوى فيلم واحد ذى مستوى رفيع، وذلك الفيلم هو «شاطئ النجاة» أو «وحيد فى الدنيا» لصاحبه المخرج «روبرت زيميكيس».

والحق فكل شىء فى فيلمه غريب، ومن غرائبه أنه كاد يكون فيلما صامتا . فعلى امتداد ساعة او يزيد لانسمع الا اصوات البحر والاشياء.

صوت الصمت

أما صوت بطل الفيلم «شك نولاند» ويؤدى دوره النجم «توم هانكس» ، فلا نسمعه ، لا لسبب سوى أنه يعيش وحيدا فى جزيرة صغيرة، تحاصرها أمواج



المحيط، ولا يؤنس وحدته فيها انسان، أو حتى حيوان. ومجيء «نولاند» الى تلك الجــزيرة لم يكن بمحض ارادته وانما قسرا، بمشيئة الاقدار .

فالأحداث تبدأ به في الولايات المتحدة (١٩٩٠)، حيث نراه قائما بتسليم طرد الى المرسل اليـه في مكان مـا بوسط الغرب الامريكي، ثم مسافرا جوا الى موسكو، حيث يعمل على دعم فرع شركة «فيديرال اكسبرس» واختصارها «فدكس» وفي عاصمة الاتحاد السوفييتي سابقا، لا يمكث طويلا فالوقت عنده من ذهب، وكل دقيقة من عمره يعمل لها الف حساب .

قوة القدر

وهاهو ذا، في أيام عـيـد الميلاد المفترجة، يلتقي، وهو في عجلة من امره، بحبيبة قلبه «كيللي فريز» - وتؤدي دورها «هيلين هانت» الفـائزة بأوسكار افضل ممثلة رئيسية قبل ثلاثة أعوام - يلتقي بها في بلدة «ممفيس» لقاء سريعا.

ثم يفترقان ، بعد أن يتبادلا الهدايا، هو يعطيـهـا دبلة الخطوبة، وهي تعطيـه ساعة جيب عائلية محفوظة في علبة ، ما أن تفتح حتى تطل منها صورة صغيرة لوجهها الصبوح، يشع براءة وجمالا .

ولقـد كـان من المفـروض أن يكون فراقهما قصيرا، لا يدوم سوى أيام، هي تلك التي سيقضيها في دورة تدريبية بأحد بلدان أمريكا اللاتينية، بعدها يعود الى «ممفيس»، حيث يحتفل الاثنان بعيد رأس السنة ثم يتزوجان ، ويعيشان في التبات والنبات .

غيـر أن فراقهما طال .. لماذا؟

لأن طائرة الشركة التي اسـتـقـلـهـا اسـقـطـهـا اعـصـــار وفيما عداه، لـم يـكـتـب لأحـــد من ركابها نجاة .

والآن ، نراه، وبعـــد أن قــذفت به أمــواج المحـيط الى شـاطـيء جزيرة، يصرخ مستنجدا، ولا من مجيب .

وعلى هذا الحال ، بقي في عزلة تامـة، أربعـة أعـوام، ولن أحكي كـيـف تحـدى «نولاند» الطبيعة، ولا كيف اشعل النار، ولا كيف تغلب على الوحدة، وقهر الزمان فذلك شيء يطول.

وانما اكـتـفي بأن اقـول بأن المخـرج «زيميكيس»، كان في عرضـه لمحنة «نولاند» متأثرا بلغة الموسيقى الى حد كبير .

فيلم وسيمفونية

ومن هنا، مـجيء فـيلمـه أقـرب الى سيمفونية مرئية، سمعية من أربع حركات.

فكم كـان ايقـاع الفـيلم سـريعـا، في

البداية ونحن نرى البطل يعيش متنقلا بالطائرة بين أمريكا وروسيا، متغنيا بالوقت، بوصفه اغلى شيء في الوجود.

وكم كان بطيئا، دون املال، والبطل يعيش وحيدا، بغير انيس، محاولا التغلب على محنته، تارة بمناجاة صورة حبيبته، وتارة اخرى بالحديث مع كرة مطاطية رسم عليها بدماء جرح تقاطيع وجه انسان

فاذا ما مرت الأيام أعواما بعد أعوام، وانتهى البطل، في اثنائها، من اعداد قارب نجاة بوسائل بدائية، لعله به يستطيع مغادرة الجزيرة اللعينة الى العالم المسكون عاد الايقاع سريعا متوترا، يعكس بذلك الاهوال التي تعرض لها، وهو وحيد، يواجه رياحا عاتية، وامواجا عالية كالجبال، وكائنات بحرية، تثير الفزع في القلوب.

ومع نجاته، رغم كل ذلك، من هذه الاهوال، ووصوله سالما الى بر الامان، يتهاوى الايقاع وشيئا فشيئا، يصير بطيئا، هامسا معبرا عن مشاعر الاحباط لدى «نولاند»، وهو في مفترق الطرق، يصارع نفسه، وقد استبان له ان عودة الزمن الجميل السابق على سقوط الطائرة، امر مستحيل.

تفان وتجل

وختاما تبقى لي ملحوظتان ..

اولاهما ان دور «هيلين هانت» قصير، كاد لا يحتل من زمن الفيلم سوى دقائق معدودات.

ومع ذلك، ارتضت، وهي من هي، أداءه رغم قصره، لا لشيء سوى أن «زيميكيس» الفائز بأوسكار أفضل مخرج عن فيلمه «فورست جامب» (١٩٩٤) هو صانع «وحيد في الدنيا»، وان «هانكس» الممثل الذي ستقف معه امام الكاميرا.

وفي اعتقادي، انه حتى ولو تقلص زمن وقوفها معه من دقائق الى ثوان، لما تراجعت عن قبولها للدور، وحماسها له حماسا شديدا. ومن الأكيد أن سلوكها هذا مثل يحتذى، ويا حبذا لو احتذى به نجومنا الكبار!!

أما الملحوظة الثانية فعن «هانكس» وبراعته في التعبير عن احاسيس «نولاند» المختلفة، قبل السقوط وبعده. وليس من شك ان هذه البراعة هي التي أهلته لأن يكون أحد الخمسة المبشرين بجائزة أوسكار أفضل ممثل رئيسي.

ومعروف عنه، أنه قد فاز بها مرتين، احدهما عن أدائه لدور محام مريض بالايدز في «فيلادلفيا» (١٩٩٣)، والأخرى عن أدائه لدور الانسان الطيب «فورست جامب» (١٩٩٤) ومنذ ذلك الفوز المبين، يكاد لا يمر عام دون ترشيحه لها.

لكل سؤال جواب

ولو كتب له أن يفوز في الليلة الكبيرة (٢٥ مارس) بالاوسكار الثالثة، فسيكون بذلك الوحيد الفائز بها ثلاث مرات.

وقد يتساءل البعض، وأين «جاك نيكلسون»؟ أليس له نفس الرصيد من جوائز اوسكار؟ ولا خلاف على ذلك، فهو الآخر قد فاز بها ثلاث مرات.

ولكن إحداها كانت عن ادائه لدور ثانوي في فيلم «شروط المحبة» (١٩٨٣).

ومن هنا، الاكتفاء بمنحه اوسكار





هيلين هانت متوجة بأوسكار وترضى بدور صغير!

افضل ممثل مساعد، فى حين ان الجوائز الثلاث الفائز بها «هانكس» وذلك فيما لو كتب له الفوز عن ادائه فى «وحيد فى الدنيا» فهى، ودون استثناء، عن ادائه لادوار رئيسية، استحق عنها اوسكار افضل ممثل رئيسى .

ولأننى لم اشاهد، حتى الآن، من افلام الممثلين الأربعة الآخرين المرشحين معه للاوسكار سوى «المصارع» بطولة «راسيل كرو» ، فلا استطيع أن اقطع ان تمثيله افضل من تمثيل الثلاثة الذين لم اشاهد افلامهم .

ولكننى استطيع ان اقطع بأن تمثيله يفضل تمثيل «كرو» فى تقمصه لشخصية الجنرال الرومانى الذى صار عبدا، فمصارعا .

ولو اقتصرت المنافسة بينهما، اى «هانكس» و«كرو» لكانت أوسكار من نصيب الأول دون جدال .

ومع ذلك، يبقى لى ان اقول ان رأيى هذا لا يعدو ان يكون اجتهادا، قد يصيب، وقد يخيب ليلة الخامس والعشرين من مارس.

ولكل مجتهد نصيب . ■



سعد الله ونوس
ورحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة

بقلم
مها محمود صالح

«نحن لا نصنع مسرحاً كي نثبت فقط أننا لاحقون بركب المدنية وأننا نعرف المسرح كسوانا.. إننا نصنع مسرحا لأننا نريد تغيير وتطوير عقلية، وتعميق وعي جماعي بالمصير التاريخي لنا جميعاً»..

سعد الله ونوس

كثيرون لم يتعرفوا على مسرح ونوس إلا عند تقديم بعض مسرحياته على خشبة المسرح المصرى فى الثمانينيات والتسعينيات، وذلك على الرغم من تفرد التجربة الفنية التى طرحها منذ كتابة أول أعماله المسرحية «ميدوزا تحدق فى الحياة» عام ١٩٦٣، حتى «طقوس الإشارات والتحولات» التى كانت آخر أعماله المسرحية، وذلك قبل وفاته فى القاهرة متأثرا بمرض

السرطان عام ١٩٩٧.

وتراث ونوس لا ينحصر في أعماله المسرحية، وإنما يضم أيضاً، وبنفس القدر من الأهمية، مقالات وحوارات تحمل وجهة نظر فيما يجب أن يكون عليه المسرح والدور الذي يمكن أن يلعبه في حياة الفرد والمجتمع.

يشير محمد دكروب في تقديمه لكتاب ونوس «بيانات لمسرح عربي جديد» إلى أن كتابات ونوس التنظيرية «من نوع تلك الكتابات الذهنية التأملية التي تخترع نظريات للمسرح، وللعمل الفني إجمالا، بعيداً عن التجربة نفسها، وبوهم أن هذا المنحى، التأملي، يجعل تلك النظريات صالحة لكل زمان ومكان». لذلك فإن فهم مسرح ونوس والتحاور معه لا يتأتى إلا بعد التعرف على تلك الكتابات النظرية والإحاطة بمنطلقاتها وأهدافها..

المسرح عند ونوس:

يمكننا أن نوضح ملامح مسرح التسييس الذي يتبناه ونوس، إن مفهوم التسييس هو كما جاء على لسان ونوس ص ١٠٨ «أننا نطرح المشكلة السياسية من خلال قوانينها العميقة وعلاقاتها المتشابكة داخل بنية المجتمع الاقتصادية والسياسية، ونحاول في الوقت نفسه استشفاف أفق تقدمي لحل هذه المشكلة». ويتلخص مسرح ونوس في:

أولا: البدء بالجمهور:

المسرح، عند ونوس، هو في الأصل «حدث اجتماعي» والظاهرة المسرحية في أبسط أشكالها هي متفرج وممثل وغياب



سعد الله ونوس



مسرح

أحد هذين العنصرين فقط هو الذى ينفى الظاهرة المسرحية، أما العناصر الأخرى التى تمت إضافتها عبر مراحل تطور هذه الظاهرة مثل النص والإخراج.. وغيرها، فإن غيابها لا يؤدى إلى نفى الظاهرة المسرحية «ص١٩-٢٠.

وإذا كان للجمهور هذه الأهمية القصوى فى الظاهرة المسرحية، فإنه من الأهمية بمكان أن يتم التعرف على هوية الجمهور الذى يخاطبه العمل المسرحى: ظروفه وقضاياه وطموحاته. وبناء على ذلك تتحدد الأفكار والمعانى التى يطمح العمل إلى توصيلها إلى ذلك الجمهور، وذلك فى إطار المفهوم السابق ذكره. يأتى بعد ذلك السؤال الذى يربط بين القضيتين السابقتين وهو عن أفضل الصيغ الفنية لتحقيق أعمق وأفضل تفاعل مع ذلك الجمهور ص١٨-٢٢.

أما من الناحية الجمالية فعلى المسرح، كما يرى ونوس، أن يتبنى أشكال اتصال جديدة ومبتكرة لا يوفرها دائماً التراث الموجود فى المسرح العالمى أو العربى، ص١٠٩.

ولا ينتهى دور المتفرج، فى رأى ونوس، عند تقديم العمل المسرحى بشكله المكتمل على خشبة المسرح، وإنما على المتفرج أن يدرك أهميته فى أى عرض مسرحى فهو ليس تلميذاً تملى عليه الأوامر، وإنما هو مسئول عن ممارسة.. حقه كاملاً فى رفض أو قبول ما يقدم له ص٤٢-٤٤.

ثانيا: المسرح عمل جماعي

وليس ذلك بمعنى أنه حصيلة تراكم مجموعة من الجهود الفردية وإنما معناه عند ونوس هو أن العمل المسرحى هو نتاج جهود مجموعة من الأفراد يملكون حداً كافياً من التجانس ووضوح الرؤية والحماس والقدرة على البحث. هؤلاء الأفراد سيملك كل منهم القدرة على العمل المتخصص فى أحد أوجه العمل المسرحى: كتابة، إخراج، أو تمثيل، والقدرة فى نفس الوقت على التحاور مع زملائه من ناحية ومع جمهورهم من ناحية أخرى، حتى يصلوا بالعرض المسرحى إلى أقصى درجات تماسكه وقدرته على التأثير . ص٢٥-٣٨.

ثالثا: ينبغي أن نشحن

المسرح الذى يبشر به ونوس يجب أن يكثف وعى المتفرج بالواقع الاجتماعى والسياسى حوله. إنه ليس

مسرحاً يهدف إلى تفريغ المتفرجين من عوامل النقمة والغضب بل على العكس هو «المسرح الذى لا يريح المتفرج أو ينفس عن كربته.. هو المسرح الذى يقلق، ويزيد المتفرج احتقاناً».

هذا المسرح له أهمية خاصة فى رأى ونوس فى الفترات التى يسود فيها الكبت أو «اللاتسييس» المنظم.

فالمسرح «..من خلال جماعيته، وعمله اليومى، وعلاقته الحاضرة والمباشرة مع الناس إنما يعطى الوهم بنشاط أو عمل سياسى» فكأنما المرء «يهز ولو جزئياً جدار اللاتسييس المعدنى» ص٤٠.

ولقد اخترت أن أقدم قراءة لأحد أعمال ونوس المسرحية كنموذج لمسرح التسييس الذى دعا إليه. وهذا العمل هو رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة ١٩٧٨ ويلاحظ أن المسرحية هى كتابة جديدة لنص بيتر فايس كيف تخلص السيد موكينبوت من آلامه، ولعله من المناسب أن نذكر هنا رأى ونوس القائل إن النص المقتبس هو نص يحاور زمناً مختلفاً وبيئة مختلفة وهو بذلك يعد نصا جديداً برؤية جديدة.

من الغفلة إلى اليقظة

هذه المسرحية واحدة من أكثر مسرحيات ونوس ارتباطاً وتمثيلاً لمفهوم التسييس الذى يدعو إليه. أما حنظلة فهو رجل بسيط يعمل عداد صرافة فى بنك الازدهار والتجارة، أى أنه يقوم بعد وتصنيف العملات الفضية فى البنك. ومن اللحظة الأولى تتبدى لنا شخصية حنظلة استسلامية الطابع، تكاد تكون بلا ملامح، تخيم عليها مرارة لعله هو نفسه لا يدركها، إنها شخصية سلبية غير قادرة على تخطى حدود ذاتها. أبوه هو حامد الحنظلى وأمه زنوب الصفراوى «لاحظ دلالة الأسماء» سنة ميلاده ضائعة، متزوج بلا ضنى، وزمرته الدموية «أى فصيلة دمه» سالبة. ولا هواية له إلا قراءة مجلة النجوم وهى مجلة تزيد من حالة التغييب التى يعيش فيها إذ لا تقدم له سوى التوقعات الفلكية للأبراج المختلفة، وهو بالمناسبة ينتمى لبرج الثور!.

ليس غريبا إذن أن تكون المبادئ التى تحكم هذه الشخصية العاجزة المنعزلة هى:» بينك وبين الجار سمك الجدار»، «والطاقة التى يأتيك منها الريح سدها واستريح»، «وامش الحيط الحيط وقل يارب السترة..»

تبدأ رحلة حنظلة من حال الغفلة إلى حال اليقظة عندما يتعرض، رغم سلبيته وعزلته، إلى القبض عليه فينزع من دفء حياته الرتيبة المطمئنة ويلقى به فى



مسرح

السجن. هناك يتعرض للضرب والإهانة حتى يفقد يوما بعد يوم قدرته على الاحتمال. عندها يضطر أن يخرج تحويشة العمر التي كان أهون عليه، حسب قوله، أن يقطع من لحمه من أن يبدد قرشاً منها، وذلك لكي يلفت نظر العدالة التي يبدو أنها مشغولة عنه! وعندما تصل الرشوة ليد طالبيها يتاح لحنظلة الخروج من السجن.

يخرج حنظلة آملا أن يعود إلى حياته الدافئة المطمئنة، لكنه بدلاً من ذلك يبدأ رحلته المؤلمة التي تصل إلى ذروتها في تلك اللحظة الكاشفة التي ينتقل فيها من الغفلة إلى اليقظة.

يترك حنظلة سجن الحكومة فيعود إلى بيته وهو يحلم بالعش الذي كان يجمعه بزوجته الحبيبة والأمسيات الجميلة التي كانا يقضيانها معاً. لكن الريح لا تأتي بما تشتهي السفن.. هكذا يدخل حنظلة بيته فتقابله زوجته بالشتائم والعراك، وينتهي لقاؤهما وقد أعلنت له أنها مسحته من حياتها. يقف حنظلة مشدوهاً مرتبكاً، وأمامه يقف عشيق زوجته لكنه لا يجرؤ أن يراه! هو في الحقيقة غير قادر على مواجهة تبعات تلك الرؤية «المعرفة».

ينطلق حنظلة بعد ذلك إلى مقر عمله حيث يقابله مدير البنك بفظاظة، ولا يكتفي برفض إعادته إلى وظيفته وإنما أيضاً يرسل في طلب الحارس ليرميه «مع القمامة في الشارع»..

يحاول حنظلة البحث عن مساعدة في مواجهة تلك المحن المتتالية فيلجأ أولاً إلى الطبيب الذي يسميه ونوس «الدكتور الاختصاصي في الطب البسيكو إعلامي» أي أنه رمز للإعلام الذي يعمل على تكريس الحالة التغييبية التي يعيشها حنظلة. بعد أن يقوم الطبيب بشكل كاريكاتيري بإجراء الكشف على المريض، يقوم بإجراء عملية جراحية تشبه غسيل المخ لاستئصال ما أسماه «كتلة عصيانية». لكن حالة حنظلة لا تتحسن، بل تزداد سوءاً إذ تنتابه حالات من الضحك الهستيري في اللحظات التي يتوقع فيها أن يبكي أو على الأقل يبدي بعض الجدية في استجابته للأحداث!.

بعد الطبيب، يتجه حنظلة إلى الدرويش بحثاً عن حل لمشكلته فما يكون من الأخير إلا أن يحذره من الأسئلة التي تقود إلى الضلال وينصحه بالرضا

وذكر الله ثم يكتب له حرزاً «حجاباً» يحميه من تلك الأسئلة التى يزرعها الشيطان فى عقله. لكن حنظلة وقد روعه ذلك العالم المفزع بعد خروجه من السجن، لا يستطيع أن يحمل نفسه على الرضا، وإن كان فى الوقت نفسه يجد صعوبة شديدة فى محاولة الفهم وما قد يجره عليه ذلك من تبعات.

وتستمر جولة حنظلة فى طرق الأبواب بحثا عن حل لمشكلته. إنه يلتقى بالمثقف الذى يغرقه فى مستنقع من الكلمات المتحذلقة التى لا تجدى نفعا، ثم يتوجه إلى جمعية التآخى الاجتماعى حيث تستقبله سيدة موقرة تلقى عليه محاضرة مسهبة عن ضرورة التسامح الاجتماعى، بعدها تحمله رزمة ثقيلة من المنشورات والمطبوعات، التى ينتهى أمرها على الأرض تحت أقدام حنظلة!

يتوجه حنظلة بعد ذلك إلى قسم «الرقابة الشعبية» بجريدة «الوطن» حيث يتلقاه سيد محترم يستمع إلى شكواه ويدون بعض النقاط ويتركه على وعد أنه سيجد مشكلته معروضة على صفحات عدد اليوم التالى من الجريدة وتظهر المشكلة فعلا على صفحات الجريدة، ولكن باعتبارها حكاية مسلية عن مشكلة عاطفية بين زوجين، يعرضها المحرر ثم ينتقل إلى «مشاكل المواطنين الجادة» على حد تعبيره . وعند هذه النقطة ينفجر غضب حنظلة، رغم طبيعته البليدة المستسلمة، فيصيح: «أصبحت مسخرة: الكل يسخر منى، ويضحك على ذقنى، واحد يدغدغنى والثانى يروعنى بالمعاصى والثالث يدوخنى بالأحاجى والرابع ينصحنى بالتسامح الاجتماعى، والخامس يحول مصائبى إلى قصة هزلية سخيفة».

ويخروج حنظلة من موقف الاستسلام والبلادة يبدأ تحوله الحقيقى من حال إلى حال، ويكتمل ذلك التحول فى آخر لقاءاته محاولا استعادة حقوقه المهدرة. يلجأ حنظلة للقاء ممثلى الحكومة الذين يتلقونه بعبارات تحيى أمله فى أن يلتقى، أخيراً، معاملة منصفة إذ يقولون بلهجة خطابية: «نحن هنا.. فى الليل والنهار، فى الطقس البارد وفى الطقس الحار، كى نرعى المواطنين رعاية الأم للطفل الرضيع».

لكن هذه العبارات المشجعة تفقد معناها وأعضاء الحكومة ليس فقط يتجاهلون شكاوى حنظلة وإنما أيضاً يحاولون تبرير وتمرير ما حدث له. يشكو حنظلة مثلاً من إلقاء القبض عليه دون وجه حق فينبرى الشرطى مجيباً: «عندما ينعس المواطن ينام مله جفنيه، ولماذا ينام المواطن مله جفنيه؟ لأن الحكومة ساهرة كالأم الحنون عليها أن تحفظ



مسرح

الشوارع هادئة والبيوت آمنة، ورقدة المواطن هانئة. ولهذا يتحتم علينا، أن نعتقل الشبهة وشبهة الشبهة، وأن نسحق الشغب وهو لا يزال في الخواطر والنوايا»، ويضيف الشرطي: «ما سمعناه منك أسعدنا، وأثلج صدورنا، لأنه البرهان على أن رجالنا الأشداء يؤدون واجبهم على أحسن وجه».

وبالتدريج يتكشف لحنظلة أن الجالسين أمامه ليسوا إلا أولئك الذين سبق لهم أن ظلموه أو استخفوا به وسلبوه حقوقه! إن الجالسين على المنصة أمامه ما هم إلا الشرطي، والطبيب، والدرويش، ورب العمل، ومعهم سكرتيرة هي زوجته الخائنة. وبهذا الاكتشاف يتم انتقال حنظلة من حال إلى حال فيقول: «أنا أدور حول نفسي... وهم.... أنفسهم متفقون كأفراد العصابة الواحدة يسخرون من المساكين أمثالي، ويعملون كي نبقى في الجهل والظلام... كانوا يسخرون مني دائماً وأنا غافل.. يضطهدونني، يسرقونني، يستغلونني وأنا غافل.. كانت حياتي السابقة كلها خدعة وينبغي أن تتوقف هذه الخدعة.. أستحق ما جرى لي».

عند هذه النقطة يدرك حنظلة أن «قولة امش الحيط الحيط وقل يارب السترة.. لا تقود إلى السترة» ويصبح مبدأه الجديد هو «كل ما حوله يعنيني لأن فيه مصيري»..

حرفوش والتسييس

ولم يكن حنظلة في رحلته الشاقة هذه وحيداً، وإنما لازمه فيها حرفوش الذي يكاد يكون نقيضه في كل شئ، فلا يوضح سذاجة حنظلة التي تكاد تصل إلى حد البلاهة، ولا بطء فهمه الذي يقترب من الغباء إلا ذكاء حرفوش وحيويته وأحياناً دهاؤه. إن حرفوش هو مزيج من فرفور يوسف إدريس وحكواتي التراث الشعبي، ففيه من فرفور ذكاؤه وخفة حركته وخفة دمه.. وهو وإن كان لا يحمل مطرقة مثل فرفور، إلا أنه في المقابل يملك لساناً حاداً يقوم بمحاورة حنظلة بذكاء حتى تكتمل رحلته إلى حال اليقظة، ومن ناحية أخرى يتميز حرفوش عن الحكواتي، كما يشير د.سمير سرحان في كتابه المسرح والتراث الشعبي ص ٨٨، بأنه «عنصر فعال يغني الحدث وليس مجرد راو يروي الأحداث وينظر إليها من الخارج أو يعلق عليها دون أن يكون له بها أدنى صلة».

حرفوش فى الحقيقة هو صوت وعى حنظلة المستلب وعقله الغائب، إنه يطرح على حنظلة الأسئلة التى كان يجب أن يطرحها على نفسه ويساعده على الوصول إلى الإجابات التى كان عاجزاً عن الوصول إليها بمفرده، فالتفكير لم يكن من عاداته والفهم على حد قول حنظلة «يحتاج إلى قوة خارقة أو تدريب طويل» مثلا يخرج حنظلة من منزله مروعا بعد أن طردته زوجته وهو لا يفهم، أو لا يجرؤ أن يفهم، لماذا حدث ذلك، بعدها يسأله حرفوش: «أمتأكد أنها بقيت وحدها؟» فيجيب حنظلة أن نعم، فيعاود حرفوش الاستفزاز: «أما لاحظت أن القدمين «وهما قدما العشيق تطلان من تحت لحاف السرير» لهما شاربان، وأنهما ترتديان قميصا وكلسونا... طبعا لم تشأ أن ترى، فأنت لا تدس أنفك فيما لا يعنيك»..

ويظل حرفوش يدفع حنظلة إلى تلك المواقف الكاشفة التى يعرى كل واحد منها واحداً من أوهامه. على سبيل المثال يقترح عليه حرفوش أن يذهب إلى الدرويش بحثا عن حل لمشكلته، فيقول: «أعتقد أن زيارته ستنفعك. وقد تجد لديه الحل الذى تبحث عنه». هو بالطبع يعرف أن ذلك ليس صحيحا، لكنه يدفع حنظلة لخوض التجربة ليصل إلى الفهم بنفسه. وعندما ينصح الدرويش « حنظلة بالرضى يظل حرفوش يستفز مشاعره بالتأكيد على ما يدعو إليه الدرويش وتكراره حتى يتساءل حنظلة: «من أين يأتى بالرضا بعد كل ما حدث؟». لكن حرفوش يستمر فى الاستفزاز: «لا تلحف فى السؤال، فإن السؤال يقود إلى الضلال. هذا ما قاله سيدنا الدرويش عندها ينفجر حنظلة قائلا: «هذه معاجزة. أفقد كل شئ، وتريدنى ألا أسأل من أين يأتى الرضا! منذ أن اعتدوا علىّ، لا أستطيع أن أرد الأسئلة. إنها تحفر رأسى كالمغارز..».

حرفوش إذن هو أداة التسييس الرئيسية فى النص، ومن المهم ملاحظة أن حرفوش يأخذ حنظلة بشئ من الشدة، والسبب كما نستنتجه من كلمات حرفوش: «لا ضحية بدون جلاد ولا جلاد بدون ضحية» إذن حنظلة مسئول عما آلت إليه أحواله، لقد رضى لنفسه موقف الضحية فلا لوم إذن على الجلاد! أما إذا كان حنظلة قد قرر أن يستعيد حقوقه فإن أول ما يجب عليه هو أن يخلع رداء الضحية أى أن يغير مظهر الذلة والانكسار الذى يتلبسه، فالعدالة على حد قول حرفوش «تنفر من الوجوه البالية الذليلة».

إن ما يحتاجه حنظلة حقاً هو أن يفهم ما يحدث حوله، وها هو حرفوش



يعلن للجمهور: «وخرج صاحبنا من السجن دجاجة منتوفة. هل نواسيه؟ لا ريب أن شيئاً من العطف والحنان يسعفه قليلا. لكن ما يسعفه أكثر هو أن يعرف أكثر. إذن لا تظنوا بي السوء لو أبديت نحوه بعض الخشونة».

والتوجه بالحديث إلى الجمهور ليس فقط مسألة شكلية هدفها كسر الإيهام المسرحي، وإنما هو أيضاً استدراج لكل متفرج لكي يرى نفسه وحياته على ضوء حياة حنظلة.

البناء المسرحي

يستخدم ونوس ما يمكن تسميته البناء العنقودي للأحداث. فكما تتجاور حبات العنب المتشابهة والمختلفة في أن لتكون عنقودا من العنب، يتكرر تعرض حنظلة للظلم والاضطهاد بصور وملابسات مختلفة ومضمون واحد. هذه الصور تتجاور بل تتراكم حتى تقدم للمتفرج صورة واضحة متعددة الجوانب لما تعرض له من الظلم. وهي على مستوى الحدث المسرحي تقود حنظلة إلى نوع من التصعيد النفسي الذي يؤدي به في النهاية إلى الوعي الكامل بالمأساة التي كان يعيش فيها والتي كان يراد له أن يستمر في العيش فيها لولا أن تداركه حرفوش بالمساعدة للوصول إلى حال اليقظة.

ورغم هذا البناء التكراري للأحداث فإن المتلقي لا يشعر بالملل فالمواقف المختلفة التي يتعرض لها حنظلة تتلاحق على خشبة المسرح في لوحات متتالية، لكل منها سياقها المكاني المختلف، فمرة في السجن ومرة في البيت، ثم في العمل وبعدها في عيادة الطبيب ثم عند الدرويش، أما تجربة حنظلة مع المثقف الحكيم وسيدة جمعية التآخي الاجتماعي وأخيرا قسم الرقابة الشعبية بجريدة الوطن فكلها يعرفها المتلقي من خلال السرد على لسان حنظلة وحرفوش.

وتتخذ كل واحدة من هذه اللوحات شكلا متماسكا بدون استطرادات في السرد أو تطويل في الحوار ويتم الانتقال من لوحة لأخرى بنعومة بعد أن يلتقي حنظلة وحرفوش في الهواء الطلق حيث يتم التعليق على الموقف السابق وتقديم المشاهد لما يحمله الموقف اللاحق. كذلك يمزج المؤلف بنعومة بين السرد والحوار على ألسنة شخصياته مما يساعد على عدم الإملال. ويكسر ونوس الإيهام المسرحي عن طريق إقامة ديكورات اللوحات المختلفة أثناء الحوارات السابقة

عليها، مثلا أثناء الحوار في مشهد البداية بين حنظلة وحرفوش يدخل ممثل فيقيد رجل حنظلة بسلسلة مثبتة بالأرض ثم يدفع أمامه حاجزاً من القضبان هو جدار الزنزانة، وهكذا تبدأ لوحة السجن.

رحلة حنظلة عمل مسرحي تسييسي

في ضوء ما أسلفناه من اعتقاد ونوس بضرورة تحديد رجل المسرح لجمهوره، نجد أنه قد اختار الإنسان العادي البسيط، الذي يمكن أن يرى في حنظلة جزءاً من نفسه، جمهورا لهذا العمل المسرحي. وهذا يستتبع بالضرورة أن يتناغم «شكل التعبير مع أفق المتفرج الثقافي من جهة والمضمون من جهة ثانية» «راجع بيانات لمسرح عربي جديد ص٢٥»..

في هذا الإطار يمكننا أن نتقبل سمة المباشرة التي تتميز بها المسرحية والتقريرية التي عبر بها المؤلف عن أفكاره، كذلك الميل إلى تقديم بعض الأحداث بشكل كاريكاتيري، الأحداث في عيادة الطبيب على سبيل المثال.

وفي نفس هذا الاطار تتبدى أهمية رسم شخصية حنظلة بشكل متوازن بحيث يتعاطف معه المتلقي لكن دون أن يتخلى عن إدراكه أنه «أي حنظلة» هو السبب فيما يعانيه، وهكذا يرثي المتلقي لحال حنظلة ولكنه يسخر بل وقد يتقزز منه في بعض الأحيان، ليس المطلوب إذن أن يتوحد المتلقي مع حنظلة وإنما فقط ينظر إليه نظرة فاحصة فيرى فيه جزءاً من نفسه.. بمشاكلها وأحلامها المجهضة أما الشخصيات الأخرى فهي ذات بعد واحد وذلك بغرض تضخيم السلبيات إلى حد قد يصل إلى المبالغة، وهي مبالغة مقصودة يهدف بها ونوس إلى تحقيق أقصى استنفار لعقل ومشاعر المتلقي بغية بناء وعيه. الخلاصة، كما يقول ونوس في حواره مع نبيل حفار، «ليست قيما يطرح على الخشبة فقط، وإنما فيما يتمخض عنه الجدل بين الصالة والخشبة» ص١٢٦

وإذ يبدأ حنظلة رحلة جديدة يتسلح خلالها بمحاولة فهم ما يدور حوله، فإن عليه أن يعي المشكلات المعقدة التي تواجه أمته العربية.. ولعل أكثر هذه المشكلات تعقيداً والحاحاً على الضمير العربي هي المشكلة الفلسطينية، ولقد قدم سعد الله ونوس طرحاً جديداً لهذه القضية المصيرية من خلال مسرحية «الاغتصاب» التي ستكون موضوع الجزء الثاني من حديثنا في الشهر القادم، عن مسرح التسييس عند سعد الله ونوس.. ■

السخرية

عنوان الحياة

بقلم
محمود قاسم

الانسان كائن ساخر..

ويقدر ما يسخر من نفسه ومن الآخرين، بقدر ما يسعى لتحقيق هذه السخرية فنيا، إما شفاهة، أو عن طريق ممارسة العديد من أشكال الآداب، الإنسان كائن ساخر أنه على قيد الحياة. وقد سعى إلى الفنون المختلفة كالشعر والقص.

وفي الفنون هناك المسرح والسينما، والفن التشكيلي. وفنون تعبيرية عديدة. وقد ظل إبداع الانسان اكثر صدقا كلما انتقد نفسه. مما يدل على معرفته التامة انه بشر محدود. مليء بالمسالب. كما انه عندما ينتقد، أو يسخر من الآخرين. فهذا يعنى انه قادر على مجابهتهم.



لم يعجب الفنان المصرى القديم بالذين يعزفون الموسيقى
فرسمهم كما تصورهم على هيئة حيوانات لا تفهم معنى الموسيقى



«ها أنذا .. جئت للتفاوض ومعى طاقم السكرتارية» رسم منشور فى جريدة «صديق الشعب»
عام ١٩٣٦ للفنان شانسل

السخرية
عنوان الحياة

والفن الساخر حالة علنية من المجابهة، ولابد من وجود طرف ما للسخرية منه إما أنا أو الآخر بدرجات متعددة. وقد تباينت الفنون المختلفة في قدرتها على السخرية. كانت الموسيقى اخفها. أما فنون التصوير، بشتى أشكالها. فهى الأكثر قدرة على جعل المرء يشعر بالسخرية متمثلة أمامه كأنها الكائن الحى.

ولم يجد الإنسان نفسه أكثر قدرة على السخرية منه عندما اتجه إلى الكاريكاتير والذى احتفلت الأوساط الثقافية مؤخرا بمرور مائتى عام على ظهوره كفن يحظى بشعبية ملحوظة بين مختلف الفنون المصورة ومرتبط بظهور الصحافة حيث خصصت مجلة «ستوريا» التاريخية الفرنسية ملفا خاصا في العدد الأخير أشارت فيه أن مصطلح caricatura هو إيطالى الأصل، وان كان له أصل لاتينى، وهو يعنى المبالغة في الوصف والمتتبع لتاريخ هذا الفن سوف يندهش من العمر القصير له، قياسا إلى كل الفنون الأخرى. وإذا كانت الطباعة قد ظهرت في القرن السادس عشر، فإن الكاريكاتير قد بدأ الظهور كفن شعبى فى اوائل القرن التاسع عشر. ويرجع ذلك المقام الأول الى أن الطباعة راحت تطور نفسها من خلال الكتب، ومن المعروف ان الفراعنة تركوا العشرات من الرسوم الساخرة على الجدران، كأول كاريكاتير فى العالم.

بدأ ذلك واضحا فى التطوير الذى حدث للكتاب، سواء من حيث الشكل الخارجى، او توضيب الصفحات الداخلية، وقد حدث ذلك ابان الفترة التى كان فيها الكاتب هو الإنسان الأكثر حظوة من الآخرين.

لكن فى نهاية القرن الثامن عشر تطورت الصحافة المطبوعة، كى تضم فى أروقتها الكثير من فنون الكتابة والإبداع البشرى. بعد ان كانت مجرد صحافة صماء منذ أن ابتدعها «رينودو» عام ١٦٣١.

وفى القرن التاسع عشر تطورت فنون الحفر، ووجد الرسامون انها الفرصة الذهبية لنقل رسومهم الى الناس. وكانت افضل هذه الأساليب هى المبالغة فى تصوير الأشخاص والأشياء . وهنا تولد فن جماهيرى جديد راح يجد فرسانه ومجالاته.

فى البداية، كانت عيون القراء تروح إلى العناوين الجذابة فى الصحف والمجلات، ثم بدأت تنجذب الى الصور



موسوليني يعاقب بريطانيا بالضرب على مؤخرتها ، غلاف للفنان روجر روا

الملحقة، التي صارت تلعب دورا في عملية القراءة، أكثر من ذي قبل. ولعبت الصورة الساخرة الدور الأكبر في لفت الانتباه فكما أشرنا فإن الإنسان مخلوق ساخر بطبعه.

الرسوم الساخرة والسياسة

وقد استخدمت الرسوم الساخرة أثناء الأحداث السياسية العظمى لتوصيل الأفكار بشكل أسرع ، وأقوى تأثيرا ، ومع بداية القرن التاسع عشر أدرك بعض الصحفيين اللامعين مدى قوة الكاريكاتير، فصدرت أول مجلة مرسومة بكامل صفحاتها وتلقفها الناس بكل حفاوة، مما شجع على انتشار هذا النوع من المطبوعات.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لم تخل مجلة أو جريدة من الرسوم الكاريكاتورية. وحرصت دوريات عديدة على إصدار ملاحق عديدة مزدانة بالرسوم الساخرة، حتى أصبح الكاريكاتير سمة عصر بأكمله.

وفي القرن العشرين، تهافت القراء لشراء المجلات والصحف المتخصصة في الرسوم الساخرة، مثل جريدة «البطة المربوطة» في فرنسا، وفي العديد من أنحاء العالم، بما فيها الوطن العربي الذي وجد فرسانه من الرسامين ، أمثال صاروخان، ورخا، وصلاح جاهين، وأسماء أخرى كثيرة.

وأهم ما في هذه الظاهرة أن تطور التصوير الفوتوجرافي، الذي استخدم في الصحافة بقوة ملحوظة،لم يؤثر على جاذبية الرسوم الساخرة وجماهيريتها. فهو الأكثر تعرضا لتعسف الرقابة خاصة في البلاد ذوات الأنظمة الديكتاتورية. وربما أن رسما واحدا كان له من التأثير ملايين الكلمات، وكم صودرت مطبوعات ، وأغلقت مؤسسات من أجل رسم لاذع ، مؤثر وقوي، كان الشخص المقصود بالرسم هو بلاشك صاحب سلطة ونفوذ . أما الشخص الذي تعرض للرقابة فهو صاحب رسالة.

قوة الكاريكاتير

لكن السؤال هو: لماذا يتسم الكاريكاتير بهذه القوة؟

عنوان الحياة

منذ البداية، رأى الفنان أن أهم شيء عند استخدام المبالغة هو أن يكون الرسم تحفيزياً، فعندما ترى رسما يقوم بتطويل أنفك أكثر من اللازم، فلاشك ان انفك به طول ما يجذب الانتباه، بل والسخرية. وعندما ستحس ان انفك يمكن ان يكون مصدر تهكم من الآخرين، فلابد أن تتحسسه ، أو أن تستنفر للشخص الذى كان اول من نبه إلى هذا . ومن الواضح ان كافة الفنانين الساخرين قد ساروا على خطى الفنان جاك كالو فى نهاية القرن الثامن عشر، حين ابدع شخصية «جوبى» ذا الرأس الكبيرة الموضوعة فوق جسد ضئيل للغاية.

فهذا التناقض الملحوظ، لابد أن يسبب اعلى قدر من الشعور الحاد بالسخرية من الشخص المرسوم ، خاصة اذا كان يمثل شخصا ذا هيبة. ويمكن رؤية نفس الرسم بمناظير مختلفة. فقد يؤدى التناقض الى عدم التناسق. وفى بعض الأحيان ينظر إلى الرأس الكبيرة كدليل على الذكاء الشديد للشخصية. وهنا لابد أن تنتفى سمة السخرية.

أى أن الكاريكاتير قد استخدم فى اتجاهين متناقضين: السخرية، والاطراء أو المديح. لكن لاشك أن الاستخدام الغالب لهذا الفن هو فى انه مسخ للكائنات التى تتناولها ، وهذا الامر صار سمة غالبة للشخصيات المأخوذة من الواقع.

وليست المبالغة هى الأداة الوحيدة التى استخدمت فى السخرية ، بل ايضا التشبيه بمخلوقات غير آدمية، خاصة الحيوانات، ورسوم تمثل ابليس. فالأسد يعكس ان الشخص المرسوم له صفات حميدة، وذيل الأفعى يعنى التحذير من الخطر الذى يكمن وراء هذه الشخصية، وأنه يجب الانتباه الى شرها.

عناصر قراءة الكاريكاتير

وتؤكد الباحثة د. هيلين دوتشينى أن قراءة أى رسم ساخر، يتطلب ثلاثة عناصر رئيسية: أولها أن معرفة الشخصية، خاصة اذا كانت من أصحاب المناصب الكبرى، وكيف يتصرف هؤلاء الأشخاص فى حياتهم الخاصة والعامة. وطبائعهم وقدرتهم على الاختيار. واهم شيء ان يكون الرسم قريباً من الهيئة العامة للشخصية، بحيث أنك عندما تراه تردد فى داخلك : «أنه هو.. أنا أعرفه» فالرسام الساخر هنا يلجأ إلى المباشرة، ويعرف أن الناس جميعا ترى رسمه دون حاجة إلى مذكرة



بسمارك يقفز فوق النساء عام ١٨٨١. كل امرأة منهن ترمز إلى دولة: ايطاليا، النمسا، روسيا، المفوضية الالمانية

تفسيرية.

أما العنصر الثانى، فإنه يتمثل فى ان كلا الطرفين - الفنان والمتلقى - يجب أن تكون لديهما معلومات متقاربة عن الموضوع، والشخصية، محل السخرية، كأن يعرفا مثلا أنه ديكتاتور، أو فنان، أو شخصية عامة. مما يسهل الفهم. فالمرء لا يمكنه السخرية بنفس القدر من إنسان لا يعرفه. بقدر ما هو يريد التشفى سخرية من شخص موجود دائما فى وعيه، وادراكه، فأنت مثلا لن تضحك من كاريكاتير يسخر من شخص بعيد فى أمريكا اللاتينية إلا اذا كان يذكرك بشخص قريب منك، بل انك بلا شك، سوف تضحك أكثر من رسم مباشر لهذا الشخص، عن الضحك من شخص بغيض يشبهه.

ونحن، عامة، نضحك سخرية على شخص معاصر، أى على قيد الحياة، أكثر مما نضحك على شخص فى ذمة التاريخ، وهذا يمثل العنصر الثالث، فالناس ليست لديها رغبة فى السخرية من الأموات، بقدر ما لديهم هذه الرغبة للسخرية من شخص موجود فى دائرة الأحداث. وفى الكاريكاتير السياسى فإن المرء لا يضحك من مسئول صار

خارج السلطة بقدر ما لديه الرغبة فى الضحك من المسئول الذى لايزال يصنع الأحداث.

اذن ، فقد ارتبطت السخرية من خلال الرسوم الكاريكاتيرية بالنقد السياسى، وايضا الاجتماعى والحياتى. فما السياسة سوى اول واجهة للحياة الاجتماعية. لذا فإن الناس تحب ان ترى فى الرسوم الساخرة ماتتمنى ان تراه فى الواقع. ففى التاريخ، مثلا كم رسم الفنان الساخر وجه رجل سياسة فوق جسم خروف يسوقه راعى غنم يمثل جموع الفلاحين والشعب ، مما يعكس رؤية الفنان لهذا السياسى، وايضا رغبة الناس فى مشاهدة هذا الشخص بنفس الشكل الذى تخيله الرسام.

وفى التاريخ حالات عديدة ساعدت فى زيادة شعبية الكاريكاتير، مثل رسم الملك لويس الخامس عشر اشبه بالدابة وقد اعتلاه واحد من الرعية. وهذا الرسم وغيره فى اواخر القرن الثامن عشر كان السبب فى أن يظهر الرقيب لأول مرة: «ممنوع .. ممنوع النشر»وهذا المنع ساعد فى زيادة الغليان الوطنى وأدى الى انفجار الثورة الفرنسية.

وقوانين المنع فى كل أنحاء العالم ارتبطت بسيادة الطاغية، وايضا اثناء الحروب الكبرى، والمقصود هنا بالطبع السخرية من الحاكم اذ انه اثناء الحروب تتجه كل جهود الرسام الساخر كى يمارس الاستهزاء من العدو. وقد بدا هذا واضحا بكل قوة أثناء الصراع العربى الاسرائيلى طوال اكثر من نصف قرن، حيث تم الاحتفاء ، سخرية ، بشكل منقطع النظير، من كل من جولدا مائير، ونتنياهو، وشارون بالطبع اكثر من كل رؤساء الوزارات فى اسرائيل.

وينطبق نفس الحال على الزعيم النازى ادولف هتلر، وفى امريكا اللاتينية الجنرال بينوشيه الذى ظلت ظلاله حاضرة، رغم ابتعاده عن المنصب السياسى . ذلك باختصار لانه لم يفقد كل قوته السابقة بتمتعه بالحصانة، وايضا لأن كل جرائمه لاتزال ماثلة امام الناس، ولم يدفع عقابه عنها بعد.

الكاريكاتير تنبأ بالمستقبل

وأهم ما فى الرسوم الساخرة هى قدرة الفنان على التنبؤ بالمستقبل. ففى فرنسا، تنبأ الرسام شانسيل بما سوف يفعله الطاغية هتلر بأوروبا، حيث نشر فى جريدة «صديق الشعب» فى ١٥ مارس ١٩٣٦ رسما ساخرا ترجم أحاسيس الناس هذا الرسم يظهر فيه أدولف مرتديا معطفه الثقيل، وقد تأبط



مسيح اسمه ديجول، كاريكاتير يصور فرنسا تحت الاحتلال ويبدو ديجول مغازلا لبني اسرائيل من اجل كسب الأنصار

حقيبة المفاوضات، متقدما نحو مفاوضيه مرددا: «جئت معى بطاقم السكرتارية».

وفى الصورة من الخلف جحافل الجيوش الألمانية تحمل رايات النازية.

جاء هذا الرسم المعبر البسيط ليقرأ افكار الناس، وليتنبأ بالمستقبل قبل أن يهجم هتلر على بولندا ومن بعدها اوروبا بثلاث سنوات ونيف.

ترى، مم كان يسخر هذا الرسم البالغ الصدق؟ هل كان يسخر من هتلر، وانه مهما تمت المفاوضات معه فانه رجل حرب؟ وهل يعنى الرسم التحذير الشديد من الطاغية الذى دمر اوروبا لسنوات عديدة فيما بعد؟

أم أن الرسم يعنى السخرية من الحكومات الأوروبية التى فتحت أبواب التفاوض مع الطاغية دون أن تأخذ فى الحسبان ان تكون اطقم السكرتارية، الخاصة بهذه الدول المفاوضة، من جيوش الدفاع ضد الجحافل النازية؟

أم أن السخرية امتدت إلى الشعوب التى لم تأخذ مسألة التنامى النازى مأخذ الجد الحقيقى؟

السخرية عنوان الحياة

على كل. فإن للكاريكاتير هنا رؤية خاصة لعصر وقارة، بل وللعالم أجمع، والطريف أن النقــــاد، والمحللين السياسيين والمؤرخين، قد نظروا فيما بعد الى هذا الرسم كأنه وثيقة تاريخية أكثر منه مجرد رسم تحذيرى عابر، وتم النظر الى المانيا من خلال الرسم على انها تقوم فى تلك الفترة بتغذية الاحلام التوسعية فى أوروبا على الأقل. ان لم يكن فى انحاء شتى. مثلما فيما بعد.

وفى التاريخ الحديث، كانت بعض الشخصيات بمثابة مادة محببه للرسامين الساخرين.ولم يكن هناك أوفر حظا على مستوى الكاريكاتير العالمى من الرئيسين شارل ديجول ، وبيل كلينتون. حيث كانت فضيحة مونيكا بمثابة المادة الشديدة الخصوبة التى اضحكت الناس فى كل انحاء العالم. فقد رأى الرسامون فى البلاد المناهضة للولايات المتحدة فرصة ذهبية للنيل من هيبتها فى شخص رئيسها الذى بدا مزكوما حتى أنفه بفضائح الفراش، ورأت مجلات وصفحات الكاريكاتير الجنسى الفرصة خصبة لتقديم سخرياتهم بشكل واقعى. اى مستمد من الواقع اكثر مما هو متخيل .

الفنان الساخر يتنافس مع الأحداث

اما الرئيس الثانى، فهو فى عيون ابناء شعبه بطل . شارك فى التحرير، وتقدم قواده لدخول باريس المحررة، ومع ذلك، فان رسومات الكاريكاتير التى رسمت عنه يمكن ان تتسع مساحاتها مجلدات، وموسوعات ضخمة فى عدد صفحاتها . انه شارل ديجول.

وديجول، على المستوى الجسمانى، عملاق، طويل الانف. له اذن مميزة، ومواقف سياسية مضيئة ، وتولى حكم البلاد فى ظروف شديدة الحساسية وديجول رئيس دولة، ومناضل، وكما تقول مجلة ستوريا فى عدد مارس ٢٠٠١، فإنه رغم ذلك بطل لمئات الألوف من الرسوم الساخرة. وقد ساعد على ذلك بالفعل مشاركته للاحداث المهمة التى عرفها العالم فى السنوات التى تولى خلالها مهام المرء عمل بها فى المسئولية.

فقد تم تصويره كملك متوج على عرش فرنسا ابتداء من اعتلائه الجمهورية الخامسة، ورسمه العديد من رسامى الكاريكاتير اشبه بالملك لويس الخامس عشر - اكثر الحكام القدامى تعرضا لسخرية الساخرين الأوائل - وقد بدا الوزراء والمفكرون الذين استعان بهم فى وزاراته ، ومنهم الأديب اندريه



مايو ١٩٦٨ : صار ديجول طاغية في مواجهة الثوار الشباب

مالرو، أشبه بالحرس الخاص الذين يتولون حمايته وليس مشاركته فى الحكم.

وقد استغل الرسامون الساخرون قوة صداقته لمالرو، فتعددت صور السخرية منهما اكثر من مرة حيث تم تصوير ديجول اقرب الى نابليون بونابرت فى خيلائه واقفا شامخا فى قصره الملكى، وقد تقزم مالرو الى حد ان اصبح طائراً ضئيل الحجم قيد عنقه بسلسلة امسكها ديجول بأطراف اصابعه، وبالاطراف الاخرى امسك صولجانه.

وعقب ثورة الشباب فى مايو ٦٨، رسمه الساخرون أقرب إلى هتلر فى الرسم السابق الاشارة اليه، فهو يقود، ضد الشباب، جيشا من رجال الأمن المدججين بالسلاح وقد حجز بين هذا الجيش، وبين شاب مصاب فى يده اليسرى، من أثر المواجهات مع الامن المتوحش، سور رقيق، بينما راح هذا الشاب النحيل الرقيق يروى شجرة ورد تنمو فى أرض قاحلة، اما وجه ديجول فبدو شديد الوضوح والقسوة.

ويحمل الرسم العديد من المعانى المتعلقة بمواجهة غيرت - فيما بعد - وجه اوروبا التى لم تتوقف عن الاحتفال - على حدة - بكل من الاثنين معا: شارل ديجول لمكانته فى التاريخ المعاصر، وثورة مايو، لما احدثته فى اوروبا ، وبقاع عديدة من العالم.

وهذا الرسم الساخر، يمثل الآن

عنوان الحياة

مرحلة تاريخية حساسة من العصر الحديث، كما يكشف ان الفنان الساخر لا يتصالح بسهولة مع الاحداث . بل انه اول من يصنع المواجهة.

ولو نظرنا الى الاحصائيات الخاصة بأعداد الرسوم الساخرة فسوف نرى ان الحاكم بشكل عام هو اكبر قدر من الاهتمام في كل انحاء العالم، ويكون الرسم به الكثير من الانتقاد في الدول الديمقراطية بينما يحصل الحاكم في الدول الاقل ديمقراطية ودول العالم الثالث بأقصى قدر من التبجيل، والتقديس. ويتم النظر اليه على انه مبعوث العناية الالهية ويبدو ذلك في رسوم كاريكاتيرية غير ساخرة لكن، ترى هل هذه الرسوم من فن الكاريكاتير، حتى وان رسمها فنانون بارعون للغاية؟

اما الشخص الثاني الذي حظى باكبر قدر من السخرية، او فلنقل المادة الخصبة من الرسم الكاريكاتيري فهو المرأة ، باعتبار انها أم صانعة حدث، او وراء كل صناع القرارات في العالم ، كما انها مادة خصبة، موحية ، في الرسوم الاباحية التي تمتلىء بها الصفحات المتخصصة، والعادية ، في كل انحاء الدنيا.

وعليه فان العلاقات الزوجية والعاطفية، وما يحوط بهما من تفاصيل، تصير بمثابة الفاكهة الرطبة في الرسوم الساخرة. خاصة ابان اختفاء القلاقل السياسية أو الاجتماعية.

ولكل بلد شخصياته الكاريكاتورية التي تظهر بشكل منتظم، او متقطع ، حسب التغيرات الاجتماعية والظروف المتباينة ، والمناخ الجوي. والاحوال الاقتصادية، والغريب ان الفنان هو اقل الشخصيات العامة تعرضا للسخرية في هذه الرسوم رغم وجوده بشكل مكثف امام الناس، ربما لأن اخباره واعماله الفنية، موجودة دوما امام الناس . وعلى سبيل المثال حادث الانفصال الذي تم في بداية عام ٢٠٠١ بين النجمين نيكول كيدمان وتوم كروز.

فكم من صور وتحليلات واخبار نشرت في كل انحاء العالم . لكن لا نذكر ان رسما ساخرا واحدا قد نشرته جهة ما في احدى المطبوعات يسخر من هذا الانفصال المفاجيء.

الكاريكاتير، في العالم، يختلف عنه في دول العالم الثالث، باعتبار ان الطغاة اقل عددا في الدول الديمقراطية لذا فان الكاريكاتير السياسي الحديث، كثيرا ما يسخر من زعماء الدول الاخرى ومن سياسات العالم الثالث اما الكاريكاتير الجنسي فهو الاكثر انتشارا ويليه الكاريكاتير الاجتماعي وان كان تأثيره اقل بشكل ملحوظ. ■

القمقم!!

قصة قصيرة

بقلم: محمد مستجاب

بريشة: محمد أبو طالب

ظلت ابتسامة الشمس كليلة مرهقة خارجة تواً من غرفة العمليات الجراحية، ثم لم يلبث النور أن تهالك بين أفواه الريح الصارخة، أغلقت النافذة مضطرباً وحاولت الاحتماء بالفراش أو التدخين أو دورة المياه، كيف يتسنى لى أن أسمع الموسيقى فى ذلك الصباح؟، ما كان لأحد أن يأكل أو يحتسى الحزن أو يضاجع الأمنيات ووجه العالم لايزال كالحاً، حتى علبة البن الصدئة - أو الصدىء - قاومت محاولتى فى فتحها، فلما - آخر الأمر انداحت تحت سطوة أصابعى: اتضح أن مسحوق البن قد التصق فى جدران العلبة صدأ جديداً، أول أمس ذهبت إلى أخى، شقيقى، استقبلنى بهدوئه الجميل، المبتسم، وما كدت - بعد إراقة أشواق وحب قديم، حب أخوى قديم، حب أبوى قديم - أن اقترب من تلك المسألة المرهقة: حتى رفع رأسه إلى السقف ثم إلى الأرض، كان متبرماً، تشاغل فى معابثة أصغر عياله، سألته عن زوجته فظل وجهه كالحاً، أنا لست أخاك فقط بل إنى أبوك أيضاً، وفى حاجة إلى بعض النقود، حملتك يا أخى فى صدرى وعلى



القمقم!!

أكتافي مستمتعاً بقدرتي الفائقة على الوفاء، لتكون في هذا الوضع المريح المرتاح، بعض النقود فإني أعاني من ضيق واختناق تعرفه جيداً، بعض النقود فألقى أخي بالطفل بعيداً ثم انخرط عابساً داخل المنزل، كان الطفل يحاول الاقتراب مني لأعابثه، بعد دقائق أطل وجه أخي لأراه لايزال عابساً قبل أن أرى ما في يده من نقود، وقفت هامساً – وكاذباً – أنني لا أقصد ذلك، ظلت غضون وجهه وارتباكة عيونه لا تصدقني، والله لا أقصد ذلك، لم تنجح ابتسامة واحدة في التسرب داخل غضون وجهه الكالح أو الكالحة، تمنيت لو أنني اندفعت إليه متشبثاً برقبته كي أقتله.

- ١ -

مع أني تجولت في شقتي – التي لا تصلح للتجول ، وحاولت تشغيل المسجل ليفح بموسيقى واحد من الفصول الأربعة لفيفالدي الإيطالي، وفشلت في العثور على سيجارة، مع أني دخلت دورة المياه مرتين دون حاجة أو غرض، فقد قررت أن أنصت للريح، صوته يأتي فحيحاً لثعبان يتسلق جدران الفؤاد، عليك الآن أن تعيد التفكير من جديد، وأكثر الوسائل مناسبة لك الآن أن تتسلق الجدران أو الحبال أو الحكايات أو الذكريات أو الأحزان أو موائد المطاعم، أنت الذي بددت كل الأحلام، أنت الذي يجب أن يحاكم كي تلتف الحبال حول رقبتك، تود من الآخرين مساعدتك وهم يبتسمون، كيف؟ حتى قطف الورود يوخز الأنامل فتفح الوجوه بالضيق، وأول مرة تحقق الابتسام فيها كانت يوم أن حصلت على مفاتيح مغارة على بابا، إنها كلمة السر الغائصة في الجوارح: افتح يا سمسم، نعم : افتح يا سمسم، وتتداح أبواب مغارة على بابا إلى الخلف مطلقة أجمل موسيقى ذات رونق مزعج في العالم، كانت كل صناديق اللؤلؤ والنقود مرتبة في باحة المغارة وكأنها خطوط زخرفة رقاب وأجنحة وذيول الطاووس، الحكمة أن تأخذ من هذه الكنوز ما تحتاجه فقط، أنت إنسان قاصر تحتاج لمن يكون وصياً عليك، اقفل يا سمسم فاشتريت كرتونة سجاير – عشر علب سجاير دفعة واحدة، وكيلو كباب، وزجاجة براندي – الروم أفضل، وقليلاً من الجرائد والكتب وكونشرتو العود

للأسبانى رودريجو، افتح يا سمسم: فاشتريت صديرياً من الصوف وكرتونة سجاير وزجاجة من الروم - البراندى أفضل، وحاولت الدخول إلى جسد جارتي زوجة الخياط أو نجلاء فتحى أو شهر زاد، كان عشيقها قد اختنق فى البحار تحت سطوة عاصفة مدمرة لينهمك الكمان فى الصراخ ملتاعاً على اللقاء الذى لن يتحقق، تسلل صوت خشن من بين فواصل الباب، لكنى ظللت غائصاً فى رحاب زجاجة الروم ذات الأمواج الطاغية، كادت رسوم عبد الهادي الجزار تتساقط على رقبتي، افتح يا سمسم، لكن سمسم لم يفتح، افتح يا سمسم فظل الجو خانقا خالياً من أي موسيقى أو رونق أو - حتى - حفيف الريح، كان الموقف بالغ الإحراج، المغارة مفتوحة والباب الصخرى منهار والصناديق ملقاة - ومحطمة - خالية من أية أثر لنقود أو معدن أو لؤلؤ، حاولت التقاط زجاجة الروم من الأرض.

- ٢ -

يكون مؤلماً أن تلجأ إلى أعدائك، أن تضع أمنياتك بين أيديهم، إنهم - هؤلاء الأصدقاء الألداء - الذين دمروا لك مغارة على بابا، كيف يتسنى لك أن تواجه المسائل وحدك، رئيسك - فى العمل - بليد العيون والوجه، وكالح أيضاً، رفاق المشرب الذين يميلون للمرح يمتلكون كل القرائح البليدة - والكالحة أيضاً، عليك أن تنسى أمك وأباك وأخاك، البعض مات، الكل مات، أنت فى حاجة إلى وصى يرعى شئونك، يتحكم فى شئونك، وكل الآفاق المفتوحة تحب الريح وتزهو بالأعاصير، فأحسست بطائر الرخ وقد حلق فى السموات العلا، وما كدت أتمنى حتى اندفع الرخ نحوى بمخالبه الشرسة كى يحملنى إلى تلك السموات الغامضة، اهتاج الفؤاد لكن المشهد كان طاغى الجمال، ولم تكن جزيرة السندباد بعيدة عنى، أسقطنى فيها الرخ فى نعومة رقائق نغمات عود حزين، فأى مملكة تكون أكثر بهاء وجلالاً، مما أنا فيه، الأشجار والطيور والانسياب والنسيم والشمس تنحنى ممتثلة كى أسمح لها بالغروب، والليل جاء مفعماً بالصمت والنجوم وأهازيج الشعر، عاودت الانحناء كى التقط زجاجة الويسكى، فاتضح لى أن سجائرى نفدت، فاضطر الفجر أن يعابث النور دون اهتمام بسقوطى من فوق السرير، فاكتسحت

القمقم !!

الصفاء موجات شرسة شديدة العبوس.

- ٣ -

لعل الدوائر المتداخلة تسمح لي بأن أهرب من كل هذا العبوس ، حتى موظف البنك نظر في الشيك ورفعه إلى أعلى بعيون - ظلت - عابسة، ثم إلى وجهي بعيون أكثر عبوساً، هل أقتله؟ ثمانية وثلاثون جنيها من بين أصابع وجه عابس لكنها تصلح لاختراق مكامن الحشرات، ولعل الجزيرة التي بددتها تعود إلى سندبادها، أنت لا تصلح للحياة - أقصد للتنفس - بمفردك، وعندما تتاح لك الفرصة كي تصبح سندباداً فعليك أن تصحب إلى جزيرتك أنثى جيدة: من بين شاشة التليفزيون أو السينما أو الشاشة الكبرى لأجساد المناطق الضيقة، ثم عليك أن تسعى إلى وصي ينظم لك...، دعك من كارثة الوصي الآن، كل الأوصياء عابثون عابسون، وذوو جلال أيضا.

حينئذ - وأثناء محاولتي الجلوس على المقعد - بدأت مسائلي تأخذ اتجاها مناسباً، دعك من النور والانشراح والتدخين وثمالة الزجاجات الفارغة، وانتبه، انتبه جيداً، ظللت جالساً على المقعد - أو في المقعد - وعيوني - المغلقة - ترنو إلى تداخلات الألوان المتسربة من بين الرموش، نعم ، إنه القمقم، القمقم، هذه الزجاجة الساحرة التي تعلو على جميع زجاجات البراندي والروم والويسكي والزبيب والنبيذ، إنها تصطف - هذه الزجاجات الفارغة المنمقة المزخرفة - في طابور طويل كسيح فاقد الهمة، أما القمقم فإنه نشيط يستجيب لك - أيها الواحد الوحيد المتوحد - دون وقوع في مأزق مغارة الكنوز أو جزيرة السندباد، ظلت زجاجة القمقم ملقاة على الأرض دون أية زخرفة، كانت فوهتها مغلقة بتلك السدادة الخالدة، والتي راعني أنها - الزجاجة أو السدادة - تنظر إلى أصابعي بابتسام أو امتثال أو سعادة، وتهامست الريح مع بعض النسيم لتصنع نوعاً من المشاكسة الحاقدة في خشب النافذة ، القمقم يخليك من الأوصياء ومن توالي سطوة التحكم العبوس المكفهر ، سوف أطلب من المارد - بمجرد أن يتشكل في انطلاق الدخان الخالد - أن يمنحني ما أريد : كل

مالذ وطاب من مأكولات ومشروبات - لا تنس المائدة ذاتها التى يخلو منها مسكنك، ثم عليه - هذا المارد - أن يحضر فى نهاية الوقت السعيد ليجمع فضلات المأكولات والمشروبات وأعقاب السجاير ومناديل الورق، ما الذى سوف أفعله بمناديل الورق دون أنثى؟؟

ثم : إن كارثة السعادة التى تحيق بمن يعيش وحيداً هى إعداد المأكولات وترتيبها وبعدها التصرف فى بقاياها، هذا - بالذات - ما يحتاجه اللوردات والباشوات والدوقات وأصحاب الهيلمان من الذين نراهم - دائما - يدورون حولهم ويمتثلون لأوامرهم وينحنون أمام علب السجاير الفارغة، والوجوه الجميلة تعزف سعادتها على ألحان الوجوه الأخرى التى تلتف حولها، لماذا فات على أمنياتى أن أمتلك القمقم؟؟

- ٤ -

فى اللحظة المأمولة اقتربت من القمقم، تشبثت أصابعى فى رأس الزجاجة ليستدير غطاؤها، لقد بدا صعباً شرساً لكنه لبىّ آهة الضغط الحارة، وانفتحت فوهة زجاجة القمقم ليندفع الدخان السحرى فى كل أركان الأرض، طارت الطواويس لتجذب الغربان إلى أوكار البلابل، تهلل وجه الجدران وبدأت تتراقص على وجيب الفؤاد، وارتعشت الملائكة متقافزة فوق اندفاع الدخان، ما صدقت أننى أستطيع الصمود بنفس القدرة التى واجهت بها انفتاح باب المغارة أو الهبوط الأزلى المرعب فوق وجه الجزيرة الخضراء، كان سقف المسكن قد استحال ذرى فى الأعالى متناثرة على وجه القمر الجميل، وبدأ المارد يتشكل فى الأفق رافعاً كل أحاسيسى إلى سراديب السماء : شبيك لبيك، عبدك بين يديك، شبيك .. لبيك.. عبدك وخادمك تحت أمرك .

وراق لى أن أستمتع قليلا بالإمعان فى وجه المارد العملاق الرائع .

لكن وجه المارد كان كالحاً، بالغ العبوس، وتضخمت غضون الوجه الكالح الشرس ليأمرنى من جديد: شبيك .. لبيك.

لكننى رفضت أن أعلن عن رغباتى، وأحنيت دماغى إلى صدرى متفادياً أن أتجاوب مع كل هذا العبوس.

ظللت صامتاً.

ولحظة الأمنيات الأخيرة تنزاح إلى الخلف حطاماً من حطب يابس.■

مما وعته الذاكرة



كيف ساهم الدكتور الأهوانى فى حملة التعريب

بقلم
وديع فلسطين

الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى (١٩٠٨-١٩٧٠) من أساتذة الفلسفة المعدودين ومن المتخصصين فى الفلسفة الإسلامية ، وله عشرات من المؤلفات والمترجمات تشهد له بطول الباع فى هذا الميدان وقد عمل أستاذا للفلسفة فى جامعة القاهرة سنوات طويلة ، وانتدب للتدريس ولإلقاء محاضرات فى عدد من البلدان العربية وفى الولايات المتحدة . وكان إلى ذلك نبيلا فى الخلق عف اللسان يتسم سلوكه بالمثالية ويعامل طلابه وزملاءه بإنسانية أصيلة . وكان من حسن حظى أن جاورنى فى السكنى قبل أن ينتقل من حى مصر الجديدة إلى حى المعادى .

هذه المؤهلات الرفيعة أهلته لاختياره بشخصه وبالاسم للعمل فى احدى الجامعات العربية ضمن مشروع التعريب الواسع الذى كانت تضطلع به الدولة هناك. فرحب الدكتور الأهوانى بهذا العرض ، وعده من أسباب التقدير العظيم لشخصه فلا يجوز له رفضه . وحزم أمره ، وسافر إلى العاصمة العربية التى استدعته ، ونزل فى أحد فنادقها .

ولم يكن مسموحا وقتها لمن يغادرون مصر أن يحملوا معهم أكثر مما يعادل خمسة جنيهات مصرية ، ولهذا طلب من المسئولين فى الجامعة عند وصوله أن يدفعوا له مبلغا تحت الحساب يواجه به مصروفات الإقامة فى الفندق والنثريات الضرورية . ولكنه فوجئ برفض هذا الطلب بحجة أنه لم يعين بعد ، فلا يحق له أن يطلب أموالا تحت الحساب . فقال للمسئولين : ها أنا أمامكم جئت إليكم بنفسى من بلادى فعينونى فى الجامعة . فقيل له : لابد قبل تعيينك من الاطلاع على شهاداتك الجامعية موثقة بالطريق الدبلوماسى الرسمى ، فهذا هو نظامنا . فقال لهم : ولم لم تطلبوا هذه الشهادات عندما تم اختيارى بالاسم وبناء على تاريخى الطويل المعروف ، ولو طلبتموها قبل سفرى من القاهرة لكان من اليسير تجهيزها إلى جانب جواز السفر وتصريح العمل وتأشيرة الدخول . فقيل له : هذا هو نظامنا ، ولن تعين إلا بعد استيفاء الشروط المقررة ، ولا سبيل إلى تجاوزها أو التهاون فيها .

وإزاء هذا ، أبرق الدكتور الأهوانى إلى زوجته فى القاهرة لكى تجهز الشهادات المطلوبة وتقوم بتوثيقها بالطريق الدبلوماسى وموافاته بها .

وفى هذه الأثناء كان الدكتور الأهوانى يتلقى من إدارة الفندق الفواتير الخاصة بإقامته ، وهو يمهلها ريثما يشرع فى تسلم راتبه . وللمرء أن يتصور الحالة النفسية السيئة التى استولت على الدكتور الأهوانى ، فهو يعانى من الغربة المريرة ، ومن البطالة بسبب تأخر قرار تعيينه ، ومن مطالبات الفندق ، ومن المعاملة غير الكريمة التى لقيها من الذين استدعوه . وما كان لشخصية شديدة الحساسية كالدكتور الأهوانى أن تحتمل كل هذا العناء ، ففاجأته وهو فى الفندق نوبة قلبية قضت عليه . وقامت إدارة الجامعة بنقل جثمانه إلى ثلاجة وإخطار زوجته بوفاته . وصعقت الزوجة المكلومة ، وعبثاً حاولت الحصول على تأشيرة للسفر إلى العاصمة العربية لاستصحاب جثمان زوجها ، وظلت خمسة عشر يوما تتردد على السفارة العربية وعلى وزارة الخارجية وتبعث بعشرات من البرقيات

دون طائل . وأخيرا شحن الجثمان إلى القاهرة ، فوصل ومعه فواتير الفندق التي لم تسدد .

وهكذا ساهم الدكتور العظيم أحمد فؤاد الأهواني في حملة التعريب !

الحساء المملوكي الأخضر

عندما أسندت رياسة هيئة الإصلاح الزراعي إلى المهندس سيد مرعي استعان بالصحفي محمد صبيح (١٩١٠ - ١٩٨٣) ليتولى إدارة العلاقات العامة في الهيئة ويشرف على مطبوعاتها ونشراتها بما له من خبرة طويلة في الصحافة والتأليف . ومن أسف أن محمد صبيح صاحب التاريخ الطويل في العمل السياسي وفي الصحافة وفي نشر عشرات من الكتب هو اليوم من مظاليم الصحافة ، فلا يذكره أحد ولا تسعى إليه أسباب التكريم في أعياد الصحافة والإعلام .

وذات يوم اتصل بي محمد صبيح قائلا إن وفدا من طلاب الجامعات الأمريكية يزور مصر للتعرف على أوجه الحياة المختلفة فيها ، وأنه ارتأى دعوة الوفد لتناول طعام الغداء في قصر تم الاستيلاء عليه وكان مملوكا في المرج لإحدى أميرات البيت المالك . ورجاني أن أقف معه في الترحيب بهذا الوفد لأن أعوانه في الإصلاح الزراعي لا يجيدون اللغة الانجليزية . ولما قلت لمحمد صبيح



سيد مرعي



محمد صبيح

إنني لا أعرف المكان ولا الطريق الذي يسلك للوصول إليه قال إنه سيدبر لي وسيلة مواصلات تنقلني إلى هناك .

فلبيت دعوته وذهبت إلى القصر ، حيث ألفيت مائدة ممتدة عامرة بصنوف وأشكال من الأطعمة المصرية ، ابتداء بالحمام المحشو إلى ورق العنب والكرنب المحشو إلى الأرز بالخلطة ، وقد روعي في اختيار الأصناف أن تكون مصرية صميمة .

وانتشر الطلاب والطالبات حول موائد مستديرة ، وكان كل منهم يغترف في صحفته ما يروق له من طعام أو ما يدعوه الفضول إلى تناوله من «غرائب» المأكولات المصرية . وكان مجلسي مع مجموعة من الطلاب والطالبات ، وعندما غرفت الملوخية في صحاف خاصة لهم ، تساءلوا عما يكون هذا اللون من الطعام . وهنا تدخل محمد صبيح قائلا : إن اسم هذا الطعام بالعربية هو «الملوخية» وهو تحريف لكلمة «الملوكية» أي أن الترجمة الصحيحة لاسم الملوخية هي «الحساء الملوكي الأخضر» ! وتذوق الطلاب هذا الطعام الملوكي وأعجبهم

بفضل التقلية المشهورة .

ولكن طالبة خبيثة خاطبت محمد صبيح قائلة : لقد طردتم الملك ، ومع ذلك تتمسكون بهذا الحساء الملوكى ؟ فرد عليها صبيح قائلا : صحيح ما تقولين ، ولكن الشعب انتزع حقه من الملوك وجعل هذا الحساء شعبيا !



عبد الرحمن البيلى

الوزير والثعبان

كان من عادتى أثناء عملى فى الصحافة أن أراجع صحف الصباح الصادرة باللغتين الانجليزية والفرنسية عسى أن أقع فى أى منها على خبر فات الصحف العربية أن تنشره ، أو أن أصادف تعليقا يستحق الرد عليه وذات صباح فتحت جريدة «الجورنال ديجيت» الناطقة باللغة الفرنسية فقرأت فيها خبرا طريفا مؤداه أن موظفى قسم الأرشيف بوزارة المالية اكتشفوا أن بين أضابير الملفات ثعبانا يصدر فحيحا ، ففزعوا أشد الفزع ، وأغلقوا الغرفة ورفضوا أن يزاولوا عملهم إلى أن يزول هذا الخطر . فاستعانت الوزارة برفاعى من سكان أبى رواش الذى جاء ومعه آلات العزف والطبل، واستطاع أن يسحر الثعبان فخرج من مكمنه وقبض عليه وتنفس الموظفون الصعداء ، ونظرا لأن الصحف العربية لم تشر إلى هذا الخبر . فقد ترجمته وعلقت عليه تعليقا ساخرا فى الجريدة التى كنت أعمل بها واخترت له عنوان «ثعبان فى وزارة المالية» ! واتفق قبيل ذلك أن كان هناك



إبراهيم ناجى



زوزو ماضى



زوزو نبيل



حسن توفيق

تعديل وزارى عين فيه المحامى عبدالرحمن البيلى وزيرا للمالية ، فتوهم الذين قرأوا عنوان «شعبان فى وزارة المالية» بمن فيهم الوزير نفسه أننى أقصده بالذات ، ولكن مطالعة الموضوع بددت هذا الوهم .

الشاعر إبراهيم ناجي والزوزوات !

الذين أرخوا للشاعر الدكتور إبراهيم ناجى ، ولا سيما صالح جودت ، زعموا أن بطلة ملحمة الأطلال هى واحدة من ثلاث ممثلات يحملن اسم زوزو ، وهن زوزو ماضى ، وزوزو نبيل وزوزو الحكيم وظنوا أنهم كشفوا بذلك عن سر أدبى دفين هم أول من اهتدى إليه .

ولكن الشاعر حسن توفيق ، الذى نشر المجموعة الكاملة لشعر ناجى وأتبعها بأعماله النثرية الكاملة أكد أن بطلة «الأطلال» هى عنايات محمود الطوير وكانت جارة لناجى فى حى شبرا الذى كان يقيم فيه فى شبابه ، وكانت هى حبه الأول ، إلا أن قيام أسرتها بتزويجها من شخص آخر حطم قلب ناجى ، فتفجرت شاعريته بملحمة «الأطلال» .

وقد اكتشف الشاعر حسن توفيق لإبراهيم ناجى مقالا قديما نشر فى مجلة «الاستوديو» فى عام ١٩٤٨ بعنوان «ثلاث زوزوات عرفتهن» أعاد إثبات نصه فى مجموعة «الأعمال النثرية الكاملة» .

ونظرا لطرافة هذا المقال أنقل منه آراء ناجى فى الزوزوات .

فقد قال عن زوزو ماضى : «عرفتها وهى أديبة صافية لم تشبها السينما بشائبة ، ولم ترنق حياتها أكدار الشاشة ، عرفتها وهى تستوحى البحر وتنظم فيه شعرا . قالت زوزو تناجى البحر :

عرفتك والمصيف عليك زاه
كقرن الشمس يضطرم اضطراما
عرفتك والشتاء يمد ظلا
وينشر فى جوانبك القتاما

هل تذكر هذا الشعر الآن فنانة السينما ، وهل تعاوده ، وهل تحن إليه ؟ إنها تحب كل شئ أزرق حتى رسائلها» .

وقال ناجى عن زوزو نبيل : «عرفت زوزو وهى فى مستهل جمالها وعنفوان رونقها ، عرفتها قبل أن تقبض عليها الإذاعة ، فتمرغ هذا الرونق فى تمثيلياتها وتقضى على اشراقها الفخم فى كواليس شارع علوى» .

أما زوزو الحكيم فقال عنها ناجى : «هى الأخرى أديبة صافية ، عرفتها قبل أن تنزلق إلى الشاشة . عرفتها وهى تكتب مذكراتها عن أدباء مصر جميعا ، وقرأت لها أجمل فصل قرأته فى حياتى عن زكى مبارك . عرفتها وهى تجاهد فى تعلم الفرنسية وتناضل لتتعلم الانجليزية وتقاتل لتكون أول فتاة مثقفة فى مصر ! فلما جرفتها السينما انتهت إلى «عفريت مراتى» فسكن العفريت بيتها ، ومن يدرى هل دبَّ إلى قلبها ؟

مسكينة زوزو .. إنها تحمل دماغا رهيبا وقلبا رقيقا طيبا » .

***

فهل يستنتج القارئ من هذه الأوصاف أن الشاعر ناجى كان متيما

بواحدة من الزوزوات ؟ ولا بأس أن أذكر أننى شاهدت زوزو ماضى على شاشة التليفزيون تعترف بأنها هى بطلة «الأطلال» .

ورحم الله الشاعر وكل بطلاته !

الشاعر أبو الوفا يرثي سيد قطب

كان الشاعر محمود أبو الوفا صديقا حميما للناقد الأدبى سيد قطب وبحكم هذه الصداقة كان سيد قطب يبعث من السجن برسائل إلى أبى الوفا أطلعنى عليها بنفسه .

وعندما توفى سيد قطب فى ظروفه المأساوية ، لم يستطع أبو الوفا أن يكتم حزنه عليه ، فرثاه بقصيدة نشرها فى ديوانه المجموع تحت عنوان «سيد» حتى لا تمتد إليها يد الرقيب ، قال فيها :

يا سيدا كان عندى
أعز من أصطفيه
يا طاهر الطرفين
من أمه لأبيه
يا أبعد الناس خلقا
عن كل فعل كريه
أخى ، ومن منك أولى
بكل وصف نزيه
وما ذكرنا عظيما
إلا رأيناك فيه

وختمها بقوله :

وما بكى أى عصر
إلا أعز بنيه



سيد قطب



عبد الرحمن شكرى

وقد صرح لى الشاعر قبل وفاته فى ٢٧ يناير ١٩٧٩ بأن أميط اللثام عن فحوى هذه القصيدة كى يعرف الناس أن هناك من يستطيع أن يعبر عن مشاعره فى لحظة الألم العظيم ، فلا يكتم شهادة ارتأى أنها شهادة حق فى صديق مأزوم

الشاعر عبدالرحمن شكرى يكتب بيسراه

عندما أصيب الشاعر عبدالرحمن شكرى (١٨٨٦ - ١٩٥٨) بفالج فى النصف الأيمن من جسمه ، عود نفسه على الكتابة بيسراه ، وبهذه اليد كتب ٣٢ مقالا بتوقيع ع ، ش (لأنه كان قد قرر اعتزال الحياة العامة) ونشرها فى مجلة «المقتطف» بين عامى ١٩٤٧ و ١٩٥١ بعنوان «نظرات فى النفس والحياة» تناول فيها قضايا الفكر فى الأدبين العربى والغربى ، وقد أوصانا بأن نحتفظ باسمه سرا فلا نفشى للقراء أنه كاتب هذه المقالات . ■



التكوين

دخلت مبنى وزارة الخارجية إنساناً فخرجت منه دبلوماسياً..

السفير شكرى فؤاد

ولدت بمدينة أسيوط عام ١٩٣٢، وكان أبى بعد زواجه قد استمر فى الإقامة بمنزل العائلة فى الحى القديم من المدينة كما جرت العادة حينئذ، خصوصا أن والده كان قد توفى منذ مدة طويلة وأصبح هو رب الأسرة، وهو منزل كبير واسع الأرجاء تقيم جدتى فى الطابق الأول منه وأقمنا نحن فى الطابق الثانى وقضيت فيه طفولة سعيدة لايكدرها شىء، فلما بلغت العاشرة من عمرى انتقلنا إلى منزل منفصل بأحد الأحياء الجديدة..



مع قسم الفلسفة بكلية الاداب عام ١٩٥٢ (الاول من اليمين)

أول ما يعلق بذاكرتي عن جدتي أنها سيدة في أواخر السبعينات من عمرها، كف بصرها وثقلت خطواتها تحت وطأة جسمها المكتنز باللحم والشحم فكانت تستعين في مشيتها بإحدى بناتها أو إحدى الخادمات لكنها كانت صافية الذهن حادة الذاكرة قوية الشخصية، وكنت الحفيد الأول لها من ابنها، فرأت فيّ امتدادا للعائلة ولزوجها الراحل وأحاطتني بالرعاية والعناية وأحبتني كثيرا فبادلتها حبا بحب وتعلقت بها وأصبحت أقضي أغلب يومي معها. وكانت سيدة كريمة محسنة لايكاد يخلو منزلها من طالبي الحاجات تعطف عليهم وتشملهم ببرها، وتحاول أن تخفف عنهم في أزماتهم ومعاناتهم وتستعين بي وأنا طفل صغير في مناولتهم ماتجود به عليهم من نقود أو ملابس أو طعام لأنال بركة دعواتهم وتمنياتهم الطيبة، وطبعني هذا منذ الصغر بمشاعر التعاطف مع المحتاجين والمقهورين ولازمتني هذه المشاعر حتى الكبر عندما تبلور ذلك فكريا فيما اعتنقت من مبادىء تنحاز الى الفقراء والمظلومين والمستغلين.

كان والدي قبل زواجه قد تحول من المذهب القبطي الأرثوذكسي إلى أحد المذاهب البروتستانتية فوقع هذا على جدتي وقوع الكارثة المروعة ويروون أنها ظلت أياما تنتحب وتنوح وهي تردد: «لو أنه أسلم لكان الأمر أهون عليّ، ثم ماذا أقول للقساوسة الذين يترددون عليّ ويطرحون البركة في البيت .. إلخ» فهي ارثوذكسية تقية متمسكة بطقوس الكنيسة وإن كان

إيمانها إيمان العجائز ، وكان القديس المفضل لديها هو مارجرجس تستعين بشفاعته على قضاء حوائجها والخروج من أزماتها كمرضها أو مرض أحد ابنائها فتكثر له من النذور قائلة بعفوية أن سزه باتع ولكنه يحب «البلص» أى الرشوة ، كما كانت ترسل عشية كل امتحان أدواتى المدرسية الى الكنيسة ليصلى عليها القسيس ويباركها ضمانا لنجاحى ولم أخيب ظنها فىّ أو فى صلوات القسيس، وحرصت جدتى على أن تنشئنى نشأة ارثوذكسية قويمة، تدعونى كلما زارها أحد رجال الدين ليصلى لى ويمنحنى بركته وترتب لى دائما من يصحبنى معه إلى الكنيسة، وتكرر لى دون ملل أننى ينبغى أن أصبح شماسا عندما أكبر، ولعل فى ذهنها أن يكون ذلك تكفيرا عن خطيئة والدى، فحفظت بعض مقاطع القداس أرددها باللغة القبطية دون فهم لأغلبها، ومع ذلك فعندما ماتت وكنت فى الثانية عشرة من عمرى بدأت مرات ترددى على الكنيسة تتباعد والتزامى بالطقوس يفتر بالتدريج، ولو أن العمر امتد بها الى يومنا هذا ورأت ما انتهى اليه مشروع الشماس الذى كانت تعدنى له وتدفعنى إليه لملأ الحزن قلبها.

التعليم :

بدأت دراستى على يد مدرسة خاصة تأتى إلى المنزل لتعلمنى القراءة والكتابة ومبادىء الحساب، وكانت وزارة المعارف العمومية قد افتتحت حديثا مدرسة «روضة أطفال أسيوط» وهى مدرسة مختلطة نموذجية يقوم بالتدريس فيها مدرسات مؤهلات أغلبهن جئن من القاهرة وكن شابات جميلات أنيقات على عكس مدرستى الخاصة التى كانت عانسا حرمت من أى مسحة جمال، والمدرسة حافلة تمر على الطلبة والطالبات لتأخذهم من منازلهم وتعيدهم إليها فى نهاية اليوم الدراسي وكان ذلك فتحا جديداً فى أسيوط فسماها الناس الروضة «أم حلزونة» والحلزونة هى الأتوبيس، أهلنى سني ومستوى دراستى للالتحاق بالسنة الثالثة روضة انتقلت بعدها إلى مدرسة أسيوط الابتدائية الأميرية ثم إلى أسيوط الثانوية الأميرية. كما كانت ... ى المدارس الحكومية فى ذلك



الوقت، وكانت المرحلة الثانوية خمس سنوات تنتهي بالشهادة التوجيهية التى حصلت عليها عام ١٩٤٨ .

كنت طالبا متوسط المستوى فى مراحل دراستى يأتى ترتيبى دائما في منتصف قائمة طلبة الفصل ولم أتفوق إلا فى اللغة العربية، وكنت استعين فى الشهر الأخير من سنوات دراستى الثانوية بدرس خصوصى فى مادة أو أكثر من المواد التى لا أجيدها فالاستعانة بالدروس الخصوصية قديمة كما ترى، وليست ظاهرة حديثة ولكنها كانت فى ذلك الوقت لاتشكل عبئا ماليا على الوالدين لتدنى أجور المدرسين، فإذا علمنا أن مصاريف الدراسة فى المرحلة الثانوية كانت عشرين جنيها فى العام فإن بضعة جنيهات اضافية فى آخر السنة الدراسية لم تكن مما يؤثر على ميزانية الأسرة أو يرهقها كما يحدث الآن.

اخترت عند انتقالى إلى السنة التوجيهية شعبة أدبى وبعد نجاحى التحقت بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) واتجهت فى دراستى بالكلية الى قسم الفلسفة ، وهى اختيارات جمعت السوء من أطرافه فى نظر البيئة الاجتماعية التى انتمى إليها : فبدلا من الالتحاق بشعبة العلوم لأصبح طبيبا أو مهندسا التحقت بشعبة أدبى، وبدلا من دخول كلية الحقوق بعد ذلك كما فعل أغلب زملائى ذهبت إلى كلية الآداب ومن بين أقسام الكلية المتعددة اخترت قسم



أيام الطفولة والصبا.. مع والدتى فى القاهرة مارس ١٩٣٦

الفلسفة الذى لايؤهل إلى مهنة واضحة المعالم أو مجزية من الناحية المادية، ناهيك عما يحيط بالفلسفة ودراستها من محاذير وشبهات، ومع ذلك فإن والدى لم يعترض على شىء من هذا كله اعتراضا جادا، وكان يترك لى ولأخوتى هامشا كبيرا من الحرية فيما نفعل ونختار ولايطالبنا إلا بالنجاح فى نهاية العام وهو أمر كان يبدو غريبا فى مجتمع محافظ تقليدى يخضع فيه الأبناء لرغبات الآباء دون مجادلة، فزاد ذلك من تقديرنا لأبى وحبنا له وحرصنا على رضائه وتجنب ماقد يسىء الى مشاعره .

القراءة :

لم أكن طالبا متفوقا كما أسلفت ، كذلك لم أشارك بنشاط فى الجمعيات المختلفة التى شكلها المدرسون مثل

جمعية الخطابة أو جمعية الرسم أو جمعية التمثيل .. إلخ ومع أننى مارست رياضات متعددة فى النادى فإننى لم أكن أبدا ضمن الفريق الأول لأى منها، أما شغفى فكان منذ البداية بالكتاب فأصبحت قارئا نهما سريع القراءة جيد الاستيعاب لا أترك كتابا يمكن أن أحصل عليه دون أن أقرأه قراءة متأنية، وتعددت قراءاتى وتنوعت على المسار أو النمط الذى ساد بين أبناء جيلى: كان أساتذة اللغة العربية فى أواخر المرحلة الابتدائية وبداية المرحلة الثانوية يشجعوننا ويحثوننا على قراءة كتب مصطفى لطفى المنفلوطى لتحسين أسلوبنا فى الانشاء وزيادة حصيلتنا من المفردات والتعبيرات الأدبية، وأول كتاب أذكر أننى قرأته بعد قصص



الأطفال وكتب كامل الكيلانى كان رواية ماجدولين التى ترجمها المنفلوطى. وجدتها فى مكتبة أبى الصغيرة التى تضم كتبا أغلبها دينية وقليلا من كتبه المدرسية والروايات، وبهرتنى ماجدولين بأسلوبها وأحداثها العاطفية المأساوية ومازلت استرجع حتى الآن فقرات من رسالة ماجدولين إلى ستيفن قبل انتحارها وهى تكرر «لم لم تعف عنى ياستيفن» أو ستيفن وهو يكتب لها قائلا «احقا يا مجدولين أن ماكان بيننا قد انقضى ..»، وكم اعدت قراءة هذه الرسائل وعيناى تفيضان بالدموع وقلبى يمزقه الأسى على هذا الحب الضائع، احببت المنفلوطى فاشتريت العبرات وبعض اجزاء النظرات ولكن ولعى كان برواياته مثل «الفضيلة» و«فى سبيل التاج» و«سيرانو دى برجراك». واغرانى «أصدقاء السوء»، كما كان يسميهم مدرس اللغة العربية، بقراءة روايات الجيب وأشهرها روايات ارسين لوبين فاقبلت عليها بشراهة اقرأ فى اليوم الواحد رواية أو اثنتين وكانت روايات الجيب شائعة بين الطلبة ولم يكن مصروفنا يسمح لنا بشراء كل مانسعى إلى قراءته فظهرت مكتبة تؤجر الرواية لمدة يومين مقابل مبلغ زهيد نتبادلها فيما بيننا ونقرؤها فى الخفاء لأن الوالدين والمدرسين يرون فى قراءتها انحرافا عن السلوك القويم الذى ينبغى أن يتحلى به الطالب المجد المهذب .

لم تكن قراءاتى مخططا لها فى



في مدرسة بنها الثانوية ..(الخامس الى اليمين من الصف الخلفي)

ذلك الحين فكنت اقرأ كل ما يقع في يدى ولا أذكر كيف انتقلت من روايات الجيب الى كتب أحمد الصاوى محمد مثل «المرأة لعبتها الرجل» و«أوروبا ترقص فوق بركان» ثم اكتشفت روايات جورجي زيدان التى حببت الى نفسي التاريخ الاسلامي وخلقت داخلى هذا الانحياز العاطفي، الذى يلازمني حتى الآن، إلى الإمام علي وشيعته، والإعجاب بثباتهم علي مايرونه حقهم، وقادني الاهتمام بالتاريخ الى كتب عبد الرحمن الرافعي ومنها الى السياسة وادبياتها ولم يشغلني هذا كله عن الأدب من نثر وشعر، وفي التوجيهية قرأت أول كتاب في الفلسفة وكان قصة الفلسفة اليونانية لأحمد أمين وزكي نجيب محمود فأعجبت به وقررت أن تكون الفلسفة هي تخصصي في دراستي الجامعية ولما انتقلت الى القاهرة والتحقت بكلية الآداب تفتحت امامي آفاق القراءة بلا حدود في الأدب والفلسفة والاجتماع والتاريخ والتراث .

القاهرة :

ذهبت إلى القاهرة صغيرا مع والدتي عدة مرات لا أذكر منها شيئا، فلما قامت الحرب العالمية الثانية انقطع أهل الصعيد عن السفر إلى القاهرة والاسكندرية، إلا لضرورة، خوفا من الغارات الجوية وبدأت حركة عكسية بالسفر من الوجه البحري والدلتا إلى مدن الصعيد هروبا من اخطار الحرب والغارات وكان القطار القادم الى أسيوط يحمل كل يوم مئات ممن كنا نسميهم «المهاجرين» الذين أتوا للاقامة عند أقاربهم وأصدقائهم حتى تنفرج الغمة، وبعد انتهاء الحرب ذهبت إلى



(اسرتي الصغيرة) قرينتي .. وابنتي وزوجها

مكتبة أواثنتين لبيع الكتب، فلما أقمت في القاهرة كانت هذه أكبر نقلة في حياتي أو أكبر صدمة حضارية كما يقولون الآن، دخلت كلية الآداب فكان أساتذتنا من الأسماء المرموقة التي نسمع عنها مثل الدكاترة عبدالرحمن بدوي وعثمان أمين وأحمد فؤاد الأهواني ويوسف مراد، ودرست علم الاجتماع على الدكتور علي عبدالواحد وافي وكان محاضرا موهوبا يرتجل محاضرته لمدة خمسين دقيقة فيسيطر على انتباهنا ولايتركنا إلا وقد ملأنا الإعجاب بطلاقته وبوضوح عبارته وصفاء ذهنه بالرغم من ملاحظاته الحادة أحيانا، وتعليقاته القاسية التي أذكر منها تعليقا له على بحث قدمه أحد الطلبة فأعاده إليه وقد كتب عليه «إذا كانت التفاهة امنيتك فقد بلغت اقصى امانيك» وتأثرت بالدكتور زكي نجيب محمود بهدوئه وتواضعه وكان يحاضرنا في الأخلاق والمنطق الرياضي والوضعية المنطقية وتحليل معاني الكلمات ورأيت في محاضراته فكرا جديدا فاعتنقته وبقيت فترة طويلة على اعجابي بالوضعية المنطقية حتى تحولت عنها الى آفاق أرحب .

كانت القاهرة بالنسبة لي عالما جديدا ألقيت بنفسي فيه ونهلت من مناهله العذبة والآسنة، بدلا من دار سينما واحدة أصبح أمامي عشرات الأفلام اختار منه ما أشاء، وبعد مسرح المدرسة للهواة الذي يقدم مسرحية ساذجة في نهاية العام فتحت امامي أبواب الفرق المسرحية المختلفة وحضرت حفلات الرقص والغناء والطرب ومباريات كرة قدم وترددت

القاهرة وحدى لأول مرة عام ١٩٤٧ مكافأة لى على النجاح فى شهادة الثقافة (السنة الرابعة الثانوية) ولايمكن أن انسى مشاعر الدهشة والروع التى انتابتنى عندما خرجت من محطة مصر إلى ميدان باب الحديد فوجت نفسى وسط الضجيج والزحام اللذين يموج بهما الميدان وعجبت للمئات من الرجال والنساء والأطفال والباعة يتدافعون فى كل مكان وتساءلت من اين اتى كل هؤلاء الناس وما وجهتهم، وكيف يعرفون طريقهم وسط الحافلات والسيارات وكيف تتقاطع عربات الترام والمترو مع الشوارع وفى وسط الميدان دون أن تتصادم، وخيل الى أن الأمر لايمكن أن يكون حقيقة تتكرر كل يوم فلا بد أنه مهرجان يحتفلون به أو أن هناك مولدا لأحد الأولياء فى مكان قريب مثل مولد سيدى جلال فى أسيوط أو موكبا بمناسبة لا أعرفها يشبه موكب رؤية هلال رمضان الذى كانت تزدحم فيه الشوارع لمشاهدة عربات الحرفيين المزينة بالورود، وانتابنى الوجل عندما فكرت فى أننى سأعيش فى هذه المدينة لسنوات قادمة ولابد لى أن أعرف طرقاتها ومسالكها وأن انتقل بين وسائل مواصلاتها، ومازالت رواسب هذه الصدمة المدهشة تعيش داخلى حتى الآن وتجعلنى انفر من الاماكن المزدحمة ويساورنى خوف دفين عند عبور مثل هذه الميادين.

وفى عام ١٩٤٨ سافرت إلى القاهرة بمفردى لالتحق هذه المرة بالجامعة، وغادرت أسيوط التى احتلت فى قلبى مكانة لاتشاركها فيها مدينة أخرى، قضيت فيها طفولتى وصباى ومطلع شبابى وهى من اسعد سنوات عمرى، وكانت اسيوط فى ذلك الوقت مدينة هادئة جميلة اهلها فى جملتهم محافظون فى سلوكهم الاجتماعى بها دار سينما واحدة تعرض فى النصف الأول من الأسبوع فيلما أجنبيا وفى النصف الثانى فيلما مصريا ولم يكن بها مسرح أو فرقة غنائية أو استعراضية ولم تكن قصور الثقافة قد ظهرت بعد ومصدر الاشعاع الثقافى الوحيد فيها هو «مكتبة البلدية» الغنية بكتبها ذات التجليد الفاخر وكانت تسمح بالاستعارة الخارجية، الى جانب



علىّ المتاحف ومعارض الفنون التشكيلية لأول مرة وكلها شئون جديدة على. ثم بدأت اسعى، مع اصدقائي، الى مقابلة رموز الحياة الثقافية فى ذلك الوقت من المفكرين والأدباء والشعراء فترددت على صالون العقاد عدة مرات ثم انقطعت وزرت طه حسين فى منزله أكثر من مرة وحرصت على ألا تفوتني محاضرة أو لقاء عام مع نجوم الفكر والسياسة. وفى هذا كله كنت مراقبا أكثر مني مشاركا .

وفى القاهرة بدأت أقرأ، إلى جانب الكتب، المجلات والدوريات التى كانت لاتصل الى أسيوط مثل «الكاتب المصرى» التي يرأس تحريرها طه حسين و«الكتاب» التي يرأس تحريرها عادل الغضبان و«الأداب البيروتية» وغيرها، ووجدت بين زملائى واصدقائى من يكتب الشعر أو القصة القصيرة ولم يكن ذلك مألوفا اثناء دراستى الثانوية عندما كنت اعتقد أن الكتابة حرفة لايقوى عليها إلا العباقرة وانصاف الآلهة .

وفى القاهرة ايضا تعرفت للمرة الأولى الى الشيوعية والشيوعيين، وكان الطلبة الذين يهتمون بالسياسة أثناء الدراسة الثانوية يتقاسمهم حزب الوفد وجماعة الاخوان المسلمون وكنا نقرأ أحيانا فى الصحف عن ضبط تنظيم شيوعى أو القبض على شيوعيين فى القاهرة أو الإسكندرية فإذا سألنا المدرسين عمن يكون هؤلاء الشيوعيون جاءت اجاباتهم غامضة مقتضبة محذرة فيذهب خيالنا مذاهب شتى ، فلما التقيت بهم وزاملتهم فى الجامعة وجدتهم بشرا مثلنا فكان هذا اكتشافا زادنى قربا منهم .

السياسة :

لم يكن لأبى اهتمام خاص بالسياسة أو الأحزاب المختلفة ولا أذكر أننى رأيته يتدخل فى نقاش أو جدل حزبى مع أحد ممن يترددون عليه، ولكن ابناء عمه انخرطوا فى العمل السياسى منذ البداية وانضموا للوفد وشاركوا فى ثورة ١٩١٩ لذلك كان الجو العام فى بيتنا وفديا دون نشاط يذكر، وعندما كنت استمع فى صغرى إلى الاصدقاء والأقارب يتحدثون عن اعمامى ودورهم فى الحركة الوطنية كان يملؤنى الإعجاب بهم والأمل فى



أن أصبح مثلهم وأسير على خطاهم وهكذا بدأ تطلعى الى المشاركة فى العمل السياسى.

تعرفت فى السنوات الأخيرة من المرحلة الثانوية الى زميل اسمه فتحى محمد أمين البيسرى نمت بينى وبينه صداقة حميمة وطيدة لم ينغصها منغص، والواقع أننى لا أستطيع أن أكتب عن سنوات تكوينى دون أن أذكر هذا الصديق الذى أدين له بالكثير فقد كان له أكبر تأثير على توجهاتى الفكرية والسياسية فى مطلع الفترة التى بدأت أشق فيها لنفسى طريقا أسير عليه خصوصا وأنه زاملنى أيضا فى كلية الآداب التى سبقنى إليها ، ومع أنه كان يكبرن بأقل من سنتين فقط فإنه عاملنى كأخ أصغر له فأخذ بيدى وغمرنى بمودته ولم يبخل على بالمشورة، وامتدت صداقتنا طوال حياته التى قضاها فى التدريس، كان نبيل الصفات يأخذ نفسه بقواعد اخلاقية صارمة لايحيد عنها، هادىء الطبع يعرض عن الصغائر ويترفع عن المجادلات والمشاحنات التى تدور بين الطلبة فى جدهم ولهوهم فلا تكاد تشعر بوجوده إلا عندما يخطىء احدهم فيتناول حزب الوفد أو أحد اقطابه بكلمة لاترضيه فإذا به ينقلب شخصا آخر غير الذى نعرفه فيفارقه هدوءه ويشتعل حماسا ويرتفع صوته وتحتد لهجته ولايقنع بأقل من انسحاب الخصم من أمامه، فقد كان وفديا صميما ثابتا على مبادئه، له معرفة كاملة بتاريخ الحزب وانجازاته، وبزعمائه ونضالهم الوطنى لايتوانى لحظة عن الدخول فى معركة دفاعا عن عقيدته، وكان وفاؤه لأصدقائه لايقل عن وفائه لمبادئه .

لما التحقت بكلية الآداب تعهدنى فتحى بالتثقيف السياسى فشاركت

السفير شكرى فـؤاد

- ولد فى أسيوط عام ١٩٣٢
- ليسانس آداب فلسفة جامعة القاهرة ١٩٥٢ .
- دبلوم معهد الصحافة جامعة القاهرة ١٩٥٥ .
- عمل بالتدريس من ١٩٥٢ حتى ١٩٥٨ .
- التحق بالسلك الدبلوماسى عام ١٩٥٨ وعمل فى سفاراتنا فى البرتغال وغانا وكمبوديا وبعثة مصر لدى الامم المتحدة فى جنيف.
- سفير مصر فى يوغوسلافيا من ١٩٨٥ حتى ١٩٨٩ ثم مدير ادارة التخطيط السياسى وادارة غرب أوربا بالخارجية .
- متزوج وله ابنة واحدة.

معه في نشاط لجنة الطلبة الوفديين بالكلية، وشهد النصف الثاني من عام ١٩٤٨ آخر أيام حكومة النقراشي الثانية التي انتهت باغتياله في ديسمبر من العام نفسه وتولى رئاسة الوزارة خلفا له ابراهيم عبدالهادي فاستمر في سياسة مناهضة وقمع الوفديين والشيوعيين والإخوان المسلمين وكانت الجامعة تموج بالإضرابات والغليان السياسي والمواجهات بين الطلبة والشرطة حتى قدم عبدالهادي استقالته في يوليو ١٩٤٩ وشكل حسين سري وزارته الائتلافية التي تلتها وزارته المحايدة في نوفمبر ١٩٤٩ وهي التي تولت اجراء الانتخابات العامة التي فاز فيها الوفد فوزا باهرا وحقق انتصارا كاسحا وكان يوم ٣ من يناير ١٩٥٠ الذي ظهرت فيه نتيجة التصويت يوم الفرح الشامل كما يقول الاستاذ طارق البشري في كتابه «الحركة السياسية في مصر» وامتلأت شوارع القاهرة لأيام عديدة بمظاهرات التهنئة والتأييد للوفد حتى شكل النحاس حكومته .

وكان سروري بنجاح الوفد كبيرا خصوصا أنني شاركت مع عشرات الطلبة الوفديين في المعركة الانتخابية بدائرة باب الشعرية التي فاز فيها مصطفى موسى، ومرشح الطلبة، على سيد جلال الذي كان يتمتع على المستوى الشخصي بشعبية كبيرة لما أسداه لأبناء دائرته من خدمات .

وأعجبت اثناء هذه الفترة بالطليعة الوفدية التي كانت تمثل يسار الوفد والتيار التقدمي فيه وبزعمائها امثال الدكتور مندور والدكتور عزيز فهمي ومصطفى موسى والدكتور رياض شمس ورفيق الطرزي. وكنت احرص على قراءة مايكتبه مفكرو الطليعة في صحف الوفد وتأثرت بآرائهم التي تربط بين الاستقلال الوطني والعدالة الاجتماعية وتقف الى جانب جماهير الشعب والطبقة العاملة ضد الاستغلال والاستبداد وتؤكد على سيادة الأمة والديمقراطية البرلمانية السليمة والتمسك بالدستور والحريات العامة ودور الأحزاب التي تقوم عليها الحياة السياسية في نظام دستوري برلماني كما كانت لهم في السياسة الخارجية مواقف رائدة في مهاجمة السيطرة الأجنبية ورفض سياسة الدفاع



المشترك، والدعوة إلى التضامن الدولى لمكافحة الاستعمار والتنبيه الى دور الولايات المتحدة التى تحاول أن ترث الهيمنة البريطانية والفرنسية علي المنطقة .

وفى صباح يوم ٢٣ من يوليو ١٩٥٢ استمعت من الإذاعة الى إعلان استيلاء الجيش على الحكم فطغى على شعور بالأسف والحزن والخوف من المستقبل ذلك أن ثقافتى السياسية التى تشكلت فى ظل الطليعة الوفدية وقراءاتى فى القانون الدستورى خصوصا كتابات الاستاذ الدكتور السيد صبرى جعلتنى اخشى الانقلابات العسكرية وأرى فيها كارثة تحل بالدول حديثة الاستقلال فتجهض تجربتها الديمقراطية الناشئة وتروج لأفكار اللاحزبية والإصلاح على يدى المستبد العادل والتنظيم السياسى الواحد والاستعانة بالتكنوقراط مقطوعى الصلة بالشعب وبالجماهير وقد نظرت إلى ماحدث فى ٢٣ من يوليو ١٩٥٢ حينئذ على أنه انقلاب عسكرى وقضاء على الحياة البرلمانية والحريات والديمقراطية وزاد من شعورى هذا موقف النظام الجديد المعادى لحزب الوفد وهو حزب الأغلبية، وجاءت أحداث مارس ١٩٥٤ لتزيدنى اقتناعا بهذا الرأى ونفورا من الحكم العسكرى، ومازلت حتى الآن أعجب كلما قرأت لبعض المفكرين انهم فرحوا عندما اعلنت ثورة يوليو، رحبوا باستيلاء الجيش على الحكم وحل البرلمان والاحزاب والغاء الدستور وكنت أرى ذلك ثمنا باهظا حتى إذا كان مقابله طرد الملك وصدور قوانين الإصلاح الزراعى .

وظل هذا الموقف من الثورة يلازمنى حتى بدأت معركة عبدالناصر ضد الاستعمار والتبعية، وبلغت أوجها بقرار تأميم قناة السويس وحرب ١٩٥٦ فبدأت أرى الجانب المضىء من ثورة يوليو ثم أخذ توجه عبدالناصر القومى العروبى يتحدد وتتضح معالمه وكنت قد بدأت الاتصال بكثير من الطلبة والدارسين العرب فى مصر لاسيما من سوريا والأردن ولبنان والعراق وكانوا ينقسمون بين حركة القوميين العرب والبعثيين فوجدت نفسى أقرب الى حزب البعث بسبب تبنيه للاشتراكية فى شعاراته فشاركت فى بعض نشاطات البعثيين فى مصر مع عدد من الأصدقاء المصريين ويقدر ما فرحنا بالوحدة ساءنا الاستمرار فى سياسة حل الأحزاب والاكتفاء بالتنظيم الرسمى الواحد فتفرق كل منا فى طريق حتى داهمنا الحزن بالانفصال عام ١٩٦١.

الصحافة :

حصلت على ليسانس الآداب عام ١٩٥٢ وليس فى ذهنى شىء واضح عما سأفعله بعد ذلك والواقع أننى لم أخطط ابدا لحياتى ومستقبلى على مدى طويل ولم أضع لنفسى غاية أو

هدفا مهنيا أسعى الى تحقيقه وأسير على الطريق الذى يأخذنى إليه بل كنت أقرر عند كل مفترق طرق فى حياتى السبيل الذى اسلكه، فبعد الحصول على التوجيهية وجدت اننى تلقيت كثيرا من الإجابات فى البيت وفى المدرسة ومن المدرسين ولكننى تمردت على الإجابات وبدأت ابحث عن الأسئلة وكانت الفلسفة امامى بابا مسحورا أريد أن أدخل منه إلى عالم ملىء بالأسرار والحوار والقلق والبحث فالتحقت بقسم الفلسفة دون أن أعرف ماذا سيكون من أمرى بعد ذلك.

وبعد التخرج فى الجامعة عينت مدرسا فى مدرسة بنها الثانوية فقبلت الوظيفة لأبقى فى القاهرة وقررت فى الوقت نفسه أن أبدأ دراسة جديدة تؤهلنى لمهنة أخرى تستهوينى وفكرت فى كلية الحقوق إلا أننى فضلت العمل بالصحافة فالتحقت بمعهد الصحافة والتحرير والترجمة فى كلية الآداب والدراسة فيه مسائية لاتتعارض مع مواعيد عملى بالمدرسة، ومدتها ثلاث سنوات، فكنت اسافر كل صباح الى بنها وأعود بعد الظهور الى المعهد حتى حصلت على الدبلوم عام ١٩٥٥ بدأت بعدها أسعى للعمل بإحدى الصحف ولم تكن لى علاقة خاصة بأحد من الوسط الصحفى لأن أغلب اساتذتنا فى المعهد كانوا من الأكاديميين الذين لايعملون فى مجال الصحافة اليومية أو الأسبوعية .

كان الاستاذ على أمين يكتب كل يوم فى جريدة الأخبار عن الصعود من القاع الى القمة بالجهد والعمل والكفاح وأن الطريق الى النجاح فى الصحافة هو العرق والدموع وليس الواسطة، وله فى ذلك قصص خيالية طريفة لايكف من ترديدها كما لايكف عن التأكيد على أن دار أخبار اليوم مفتوحة دائما للموهوبين والأكفاء - وكنت أظن نفسى واحدا منهم - فرأيت أن أختبر صدق مايقوله ويكتبه وأن أطرق باب العمل فى الدار رغم ماكان لى من تحفظات على صاحبيها لموقفهما السياسى السابق من حزب الوفد، توجهت لمقابلة الاستاذ على أمين من غير موعد سابق فلم أجده وعدت إليه مرة أخرى بعد أسبوع ولدهشتى قابلنى دون معرفة أو توصية وكان استقباله لى طيبا ودودا



مشجعا، والحق أنه أتاح لي فرصة كاملة طالما تمنيتها، فاخترت العمل في سكرتارية تحرير الأخبار وبدأت في اليوم التالي.

كان يتولى سكرتارية التحرير في الجريدة صحفيان يقتسمان بينهما العمل خلال أيام الأسبوع فكنت أجلس إلى كل منهما يشرح لي مايقوم به ويطلعني على جوانب عمل سكرتير التحرير والقواعد التي تحكمه ولم يضنا عليّ بخبرتهما، وبمرور الوقت أصبحت على دراية لابأس بها ولكني فشلت في أن اقحم نفسي على العمل ولم يترك لي أحد فرصة للقيام بشيء مما تعلمته، ولم يطلب مني أن اتولى مسئولية محددة وبقيت على هذا الحال فترة طويلة أصبحت بعدها كممثلي الأدوار الثانوية والكومبارس في المسرحيات، الذين يقفون على خشبة المسرح كل ليلة تراودهم أحلام بأن يختطف الموت بطل المسرحية فجأة أو أن يلم به مرض أو تصيبه كارثة تمنعه من الحضور فيتقدم أحدهم الصفوف ليعلن أنه يحفظ دور البطل ويستطيع القيام به ويوافق المخرج انقاذا للموقف فإذا بهذا الممثل المجهول يتفوق في أدائه على البطل نفسه وتصعد اسهمه في الفرقة لينتقل من أدوار الكومبارس الى مصاف الابطال، وبقيت اترقب اليوم الذي يتغيب فيه سكرتير التحرير لاقوم بعمله على أكمل وجه ولكن هذا اليوم لم يأت ابدا، وقضيت نحو عام استمتع بمراقبة مايدور حولي وبالنزول الى المطبعة ومتابعة عملية إعداد وإخراج الجريدة دون أن يكون لي دور في هذه كله، وأخيرا رضيت من الغنيمة بالاياب وتوقفت عن المحاولة أسفا واقنعت نفسي بأن طبيعتي الهادئة الخجولة لا تلائم العمل بالصحافة.

في مطلع عام ١٩٥٨، وبعد أكثر من خمس سنوات قضيتها في التدريس، أعلنت وزارة الخارجية عن امتحان مسابقة لتعيين ملحقين دبلوماسيين بها فتقدمت إليه، وقد رأيت في العمل الدبلوماسي أحد أشكال العمل السياسي الذي حرمت منه بعد حل الأحزاب، واجتزت الامتحان التحريري ثم الامتحان الشفهي والكشف الطبي بنجاح صدر بعدها قرار تعييني بالوزارة، وفي صباح اليوم الأول من شهر ديسمبر عام ١٩٥٨ توجهت إلى مبنى وزارة الخارجية بميدان التحرير فاستقبلني موظف بإدارة المستخدمين استكملت معه بعض الأوراق المطلوبة ثم قدم لي نسخة من نموذج استلام العمل بالوزارة فلما وقعت عليه وقف خلف مكتبه وشد قوامه كالمنتصر وصافحني بحرارة وهو يقول لي: «الآن فقط أصبحت دبلوماسيا في وزارة الخارجية، مبروك»، وبمرور السنين أدركت أنني دخلت مبنى وزارة الخارجية في صباح ذلك اليوم انسانا فخرجت منه دبلوماسيا، ولكن تلك قصة أخرى. ■

الابداع ليس له حدود

لا تزال قضية الوجود الجنسى للرجل والمرأة فى الأدب العربى .. تمثل مشكلة كبيرة للمحافظين والليبرالين على حد سواء .. وذلك لأن المحافظين يرون أنه من العيب وغير اللائق الدخول إلى مناقشة هذه التفصيلات العاطفية والجنسية بحرية واضحة .. وعلنية فى الأدب ؟!

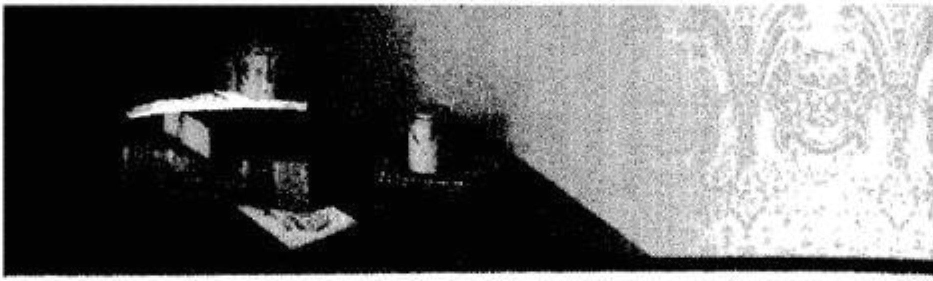
* أما الليبراليون فيرون أن عيب العيب ذاته يتمثل فى استمرار التمسك والعمل بهذه القيود والالتزامات ويطالبون .. بضرورة أن يفهم الجميع . محافظون وعاديون .. أن الإبداع ليس له حدود وهذه هى حقيقته ومجال تفرده ؟!

وهنا نشأت المشكلة بين المحافظين والليبراليين لكن بمطالعة المقال المهم للدكتور / ماهر شفيق فريد المنشور فى عدد مارس الماضى من مجلتنا القديرة الهلال «ماذا كتب العقاد ويحيى حقى ولطيفة الزيات فى الجنس» ؟. نراه .. قد قدم حلاً وسطاً لهذه المشكلة المتأججة ، رغم أنه لم يطلب ذلك صراحة وذلك عندما أتى سيادته / بنصوص قصيرة مقتطفة من إبداعات العمالقة الكبار - عباس العقاد - ابراهيم المازنى - يوسف الشارونى - ويحيى حقى وغيرهم فى قضية الجنس .

وفيها اتضح كيف يصح للأديب أن يتكلم فى كل المحرمات والمقدسات العاطفية والجنسية بحرية كاملة .. فى نفس الوقت الذى يحترم فيه حياء الآخرين ومشاعرهم وأذواقهم وذلك بتنقية ألفاظه وعباراته والابتعاد بهما عن مناطق السوقية .

لذا فتحية للدكتور / ماهر على هذا المقال المهم .. وكل الشكر للهلال على نشره .. والتطوير الرائع الأخير

ابراهيم شعبان مصطفى
جامعة المنوفية



غريب !

سادر في عتمة الدرب ، وأحلام الغريب
كوميض البرق ، ما إن تنجلي حتى تغيب
وتحيل الفجر وهْماً ، والدجى ظلا كئيب
فترى القلب خواء ، فيه لليأس دبيب

* * *

شاعر غنى على قيثارة الكون الرحيب
لحن عشق قد تسامى ، فيه يحتار اللبيب
عشق المجد ، وروح الشعر لو غنى تطيب
ونسيم الصبح يصفو ، وصدى اللحن يجيب

* * *

كم شدا للحب لكن ضيع الحب الحبيب
ورماه القوم - جهلاً - من بعيد أو قريب
أحرقوا فاه وكفيه ، بجمر ولهيب
فغدا الشاعر قلبا صامتا ، دون وجيب

* * *

مل ظلم الناس ، جهل الناس ، والعزم السليب
ومضت تذروه ريح اليأس في جو الغضيب
فانثنى يعطو (١) وحيداً ليس يلوي أو يجيب
ويزجي خطوه في القفر ، والقفر جديب

* * *

لو تراه الآن يهذي قلت : ذا شيء عجيب
لست تدري هل يقول الحق ، أم ليس يصيب
ليس يشجيه - وإن راق - غناء العندليب
هل ترى حقّ لقلب ، هذه طول النحيب
أن يرى شدو هزار ، مثل أصوات النعيب !

أماني حاتم بسيسو
عمان - الأردن

(١) يعطو : يمشي ببطء

منارة الثقافة العربية

التطور الذى لمسناه فى أعداد الهلال بدءا من يناير ٢٠٠١ هو فى واقع الأمر خير دليل على الدور التنويرى الذى تؤديه مجلة العرب الأولى، والتى خرجت من عباءتها كل المجلات الثقافية الأخرى ..

وبلا أية مجاملة فيبقى للهلال بريقها، وتبقى هى المنارة التى تضىء سماء الثقافة العربية، بكل ما تحمله إلينا مع مطلع كل شهر من وجبة ثقافية تتنوع فيها أقلام كبار الكتاب، وتحمل نبض التطور فى مجالات العلوم والتكنولوجيا.

وهذا التطور أتاح لإدارة تحريرها مواصلة العمل على إسعاد القارىء، وتحرص تماما على تقديم كل عدد من أعدادها يحمل جديداً، ويوصل إلينا ثقافة أدبية راقية.

إننى من على ضفاف الخليج من الإمارات العربية أهنىء دار الهلال وكل العاملين فى «الهلال» بهذا الجهد الكبير، وما وصلت إليه الهلال من تطوير.

أحمد فوزى

دبى - الإمارات العربية المتحدة

مع الهلال .. ٢٢٠

لحبى الشديد للقراءة الجادة عثرت على ضالتى قريبا منى متمثلة فى «الهلال» كنبع سخى للثقافة الجادة الشيقة فكان ارتباطى به منذ قرابة أربعة عقود، تابعت خلالها مراحل تطوره.

والغريب، أننى طوال هذه السنوات كنت أتطلع إلى «الهلال» وقد وقر فى ضميرى واستقر فى يقينى أنه أسمى من أن تطوله يدى بالتواصل معه أخذا وعطاء ويبدو أننى - لشدة أنانيتى - قد آثرت موقع الأخذ المتلقى. وأخيرا .. استطالت قامتى عندما فوجئت بأولى إسهاماتى الشعرية منشورة بعدد يناير ٢٠٠١.

وإن كان إيثارى لموقع الأخذ المتلقى لم يمنعنى من الحديث عن «الهلال» فى وسائل الإعلام الأخرى ففى ٢٠/٣/٢٠٠٠ حيث نشر لى بريد الأهرام مساهمة تحت عنوان «مصر ٢٠٠٠ فى عيونهم» أشرت فيها على عثورى على مقال فى هلال أكتوبر ٤٣ عن تنبؤات منشىء الهلال جرجى زيدان عما ستكون عليه مصر سنة ٢٠٠٠.

ولما كان «الهلال» هو صاحب السبق فلعلى أتوجه إليه بالسؤال الذى طرحته على كبار كتابنا ماذا ترون مصر والعالم سنة ٢١٠٠ م ليعيد طرحه على الجيل الحالى من كبار كتابه ومفكريه لنستشرف معاً



آفاق المستقبل من خلال إجاباتهم ونعيد بذلك تقليدا بدأه الهلال وأشرك فيه العديد من عمالقة الأدب والفكر من أمثال : توفيق الحكيم .. أمينة السعيد .. فكري أباظه .. أحمد بهاء الدين وغيرهم كثير .

مهندس محمد محمد أبو خشبه - دسوق

دفاع عن هنرى كورييل !

تناول د . فهمى عبد السلام في عدد فبراير ٢٠٠١ هنرى كورييل ، وهاجمه هجوما عنيفا حيث اتهمه بالعمالة الصهيونية ، والرجل لم يرتكب جرما أو يقترف ذنبا يعاقب عليه بهذا الإتهام الخطير !

والملاحظ بصفة عامة أن كورييل أعلن موافقته على قرار تقسيم فلسطين ، لأنه وجد فيه أحد الحلول العملية للمشكلة الفلسطينية ، فهذا ما نسعى إليه جاهدين لتحقيقه الآن بعد مرور أكثر من نصف قرن على حرب ١٩٤٨ ، ولا ينبغى أن نتهم كورييل بالعمالة الصهيونية إنما نتحى باللائمة عما حدث من أخطاء فى هذه الحرب التى لم يستعد لها العرب تماما .

د . صمويل لبيب سيحه
باحث تاريخى - المنيا

الهلال : ننشر رأى الدكتور صمويل بلا تعليق!

إسلامى

أنا الإسلام لى وطن وجدران وبنيان
وإيمانى لى حصن إذا ما جاء طوفان
فلا أرض هى الوطن ولا نهر وأفنان
ولا قصر به ترف ولا نخل ورمان
أنا الإسلام لى وطن وجدران وبنيان
أنا الايمان فى قلبى يجاهد كل كفران
يجاهد كل شيطان يجاهد كل عدوان
فوطنى كل منطقة بها الآذان عنوان
ووطنى كل منطقة لها الإسلام بنيان
أنا الإسلام لى وطن وجدران وبنيان

أحمد نادى بهلول - أسيوط

هل هناك خطر من التطور العلمي ؟!

حفلت الأعداد الأخيرة من مجلة الهلال بمقالات مهمة عن الثورات العلمية الحديثة كثورة الحاسبات والاتصالات والجينات والجينوم البشري وغيرها ، مما يجعل الكثيرين منا يتساءل عما يمكنه أن يسببه هذا التطور العلمي المذهل من تأثير خطير على مستقبل البشرية . ولى بعض الملاحظات من بينها :

* إن قدراتنا العقلية على إجراء العمليات الحسابية قد ضعفت بشكل ملموس ، نتيجة للتوسع في استخدام الحاسبات الألكترونية بدلا من عقولنا .

* القدرة على الحفظ والتذكر قد تراجعت أيضا نتيجة لانتشار أجهزة التسجيل ، فعلى سبيل المثال يستطيع الموسيقى الآن أن يدير شريط التسجيل وهو فى منزله ليحفظ اللحن والكلمات دون أن يرهق نفسه بالحفظ من مصدريهما .

* كما يمكنك الآن الحصول على أية معلومة أو خدمة من الكمبيوتر أو الانترنت وأنت قابع فى مكتبك دون الحاجة إلى البحث والتدقيق وبذل الجهد.

وفى مجال الصحة نجد تزايد ضعف البصر ، وقد ساهم العلاج الحديث فى اعتلال صحة الإنسان

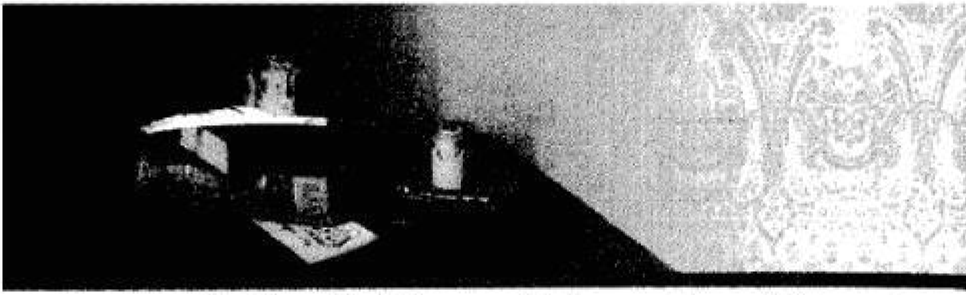
إن هذه ليست نظرة تشاؤمية بل هى تحذير لما يمكن أن يحدث مستقبلا ، فأنا أعداء النجاح ، هو أن يكون نجاحا بلا رقابة .

عادل شافعى الخطيب - القاهرة

الهلال : بالطبع رسالتك الطويلة أيها الصديق تناولت كل مستحدثات عصرنا ، ورأيت من وجهة نظرك أثرها السلبى على البشرية ، وربما تكون مقتنعا بكل ما تشير إليه .

لكن هل ترى أن آلاف العلماء القابعين فى معاملهم ليل نهار لم يقدموا دواء سحريا فعالا لأمراض كانت تفتك بالبشر ، ولم يقدموا حلولا ناجعة للتوصل إلى نظريات حديثة تسهل علينا أن ننطلق بالاقتصاد وبالثقافة وبالعلوم من خلال الحاسب الآلى وثورته المتصلة يوما بعد يوم .

لا يا صديقى .. فى مجال العلوم ، وخدمة قضايا الإنسان هناك تقدم مذهل يحقق للبشرية السعادة ، ولكن بشرط أن نعى الاستخدام الجيد والأمثل لهذه التكنولوجيا الجديد .



جفف دموعك

جفف دموعك يا قمر ... وانشر شموعك فى السحر
السحب غاصت فى السما ... والطير غودر فى الشجر
والخطب مل مع الخطا ... فوق المروج أو السطر
وتمرغت تحت الثرى ... أحلامنا بعد الغرر
والليل ساج سادر ... والسامرون ولا خبر

* * *

شمس العروبة حية ... وحبالهم سحر النظر
كفكف دموعك يا قمر ... واسمع دعاء من انتظر
واصل كفاحك واصطبر ... فالحق رائدك انتصر

سعيد عبد القوى محمد - بنى سويف

أصيلة

سكت الغريد لما ... صار فى وضع صعيب
إن بكى قالوا تغنى ... أو شكا قالوا : مريب
أو أراد العدل يعلو ... جعلوا الظلم النجيب
أو دعى للخير يسمو ... ألبسوا السر القشيب

* * *

كيف لا يهذى وتغدو رقة الشدو نعيب
وهو فى وكر سخيف ، وله سقف سليب
قطعوا منقاره جمهرا لكى لا يتغنى بالحبيب
قصقصوا أظفاره أنى له يحمى شقيقا أو قريب
إنه ومض ستره الغيم لكن لن يغيب

درهم جباري - سان فرانسسكو

من نوادر بشار بن برد

هو أحد شعراء العربية عاش فى أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى كان مكفوف البصر ورغم ذلك كان شاعرا موهوبا يمدح ويهجو وله الكثير من الحكايات والنوادر ، التى تدل على ظرفه وخفة ظله وكانت له جارية تدعى ربابة تقيم معه فى بيته وتقوم على خدمته قالت له يوما :

- أتمدح الخلفاء والامراء فى شعرك وتبخل علىّ ببيت أو بيتين
- أنهم يقدمون لى الدنانير والدراهم نظير مدحى له اما أنت فماذا تقدمين لى

– ألا أقوم على خدمتك فأعد لك الطعام وأنظف لك البيت .. فقال بشار :

ربابة ربة البيت   تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات   وديك حسن الصوت

كان التجار يهاجمون والد بشار لأنه تاجر صغير قليل الشأن فهاجمهم بشار في شعره وسخر منهم ولما شكوه إلى والده لامه على ذلك فقال له بشار : قل لهم يا أبي إن الله تعالى يقول : ليس من الأعمى حرج ..

كان بشار يوما بمجلس الخليفة وكان من بين الحاضرين خال الخليفة فسأل بشار :

– ما صناعتك يا رجل
– أثقب اللؤلؤ
– كيف وأنت مكفوف البصر ولا ترى
– أو يصح منك أن تسأل ضريرا يتكسب من شعره هذا السؤال ؟!

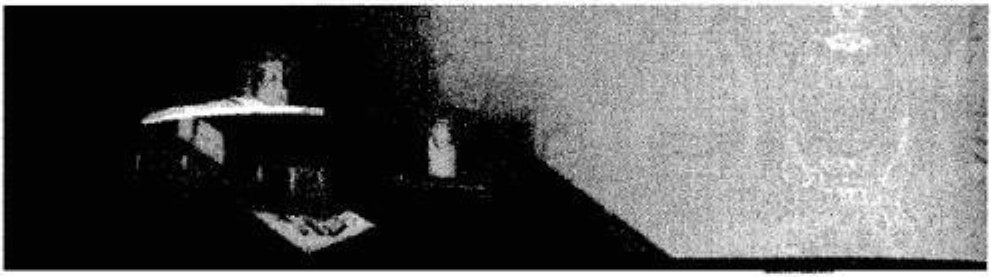
محمد أمين عيسوى – الاسماعيلية

أين المسرح الهادف ؟!

هناك روافد ثقافية كانت تزخر بالحيوية والنشاط وكانت تضيء حياتنا الفكرية والادبية والثقافية والفنية . وقد توقف عطاؤها ، بينما يمكن أن يكون وجودها اليوم متفقا ومكملا لمعطيات حياتنا الثقافية ولا يتعارض معها ، من ذلك

١ – مسرح الجيب الذى أنشيء إبان النهضة المسرحية فى الستينات ولم يعد أحد يذكره رغم ما قدم من أعمال تخاطب طليعة المثقفين ، وإعادة بعثه اليوم تشكل ضرورة ملحة حتى لا تسود مسرحيات «المقاولات» وحدها على الساحة المسرحية .

٢ – مسرح التليفزيون والذى أنشأه السيد بدير فى أوائل الستينات ، وقد قدم الكثير من عروضه فى الأقاليم فى إطار «القوافل الثقافية» وشملت هذه العروض مسرحيات واوبريتات غنائية متميزة إلا أنها في الوقت نفسه كانت ملائمة لاجتذاب أهل الريف نحوها ، وعرف عن طريق هذا المسرح الكثير من الفنانين الذين كانوا مغمورين قبل إنشائه . ويمكن أن يقال أن تنوع المواد الدرامية التى يقدمها التليفزيون من خلال قنواته المختلفة فيها الكفاية ، لكنى أقول



إن ذهاب قافلة ثقافية لمحافظة من المحافظات وارتباط جماهيرها بانتظار هذه القافلة وترقبها ثم مشاهدة عروضها واختلاط الجماهير بالفنانين يمكن أن يبعد هذه الجماهير عن مساوىء برامج «الدش» الرخيصة ، ويحفز مواهب الكتاب الذين يمكن أن يؤلفوا لمثل هذه (المهرجانات الفنية الشعبية) فى نوعيات درامية غير تقليدية .

يحيى محمد حسين
القاهرة - مصر الجديدة

الهلال :

تكمن مشكلة في التدهور الذى أصاب المسرح المصرى ، وعجزت كل محاولات بعثه من جديد ، وربما نسى الناس هذا الفن الجميل الذى أدى دورا مهما فى حياتنا .

إلى الأصدقاء

* الصديقة السورية خيرية السقة : وصلتنا رسالتك التى تتحدثين فيها عن كتابك أضواء على الحريم والسياسى وذكرت أنك قدمت نسخا من هذا الكتاب إلى عدد من المفكرين والمثقفين المصريين ومنهم د. جابر عصفور والشاعران فاروق شوشه وأحمد عبد المعطى حجازى ، والروائى بهاء طاهر ، وتبدين عتابا شديدا لأن أحدا من هؤلاء لم يكتب عن هذا الكتاب .. برجاء إرسال نسخة من كتابك إلينا ، وسوف نتناوله من خلال هذا الباب .

* الصديق : زكى ابراهيم السالم - الإحساء - السعودية وصلتنا رسالتك والتى تتضمن قصيدتين هما (فى ذكرى الجواهرى) و(الألم والحرقة والأمل) وسوف ننشر قصيدة فى العدد القادم بإذن الله .

* د . أحمد حافظ عبد الباقى - منيا القمح .. شكرا لك على مساهماتك ، ومواصلة كتاباتك لنا ، برجاء تحديد المقال أو الفكرة التى تود نشرها .

* الصديق : عاصم البرقوقى : كتبنا عدة مرات عن رسالتك خاصة التى تطالب فيها بأن يكون هناك عيد للضحك .. ولكن يا صديقى ما هى مقومات هذا العيد ؟!

وتحية للأصدقاء : محمد عثمان - المنصورة ، ابراهيم محمدين - الفيوم ، جمال بركات - الزقازيق ، يوسف الحرمى - الدوحة - قطر .

الكلمة الأخيرة



فى الجامعات.. وباء اسمه المذكرات !

د. الطاهر أحمد مكى

فى البدء كان المعلم، يتحلق حوله التلاميذ يلقى إليهم بالمشكلات، يحاورهم فيها، ويسمع منهم آراءهم، وعبر ذلك يقوّم ويوجه ويمنهج، ويهدى إلى المصادر، ثم يدفع بهم إلى الحياة وقد استقامت عندهم إمكانات البحث، ودربوا على طرائق التفكير، فيقل فى خطاهم الزلل والعثار.

وبينما الأستاذ يحاور ويحاضر، هناك من التلاميذ من يقيد ويدون، وقد يلتقى مع رفقته، فيعارضون بين ماكتبوا، ويصححون ما قد أخطأوا فيه، وقد يعرضونه على الأستاذ فيرضى عنه، أو يجرى بفكره بين سطوره اضافة أو حذفا أو تعديلا. وترك هذا المنهج مصادر أمهات حملت اسم «الأمالى» أو «المجالس» وهى شاهد حق وعدل على موسوعية الأستاذ وجدية التلميذ.

ثم كانت الجامعة الحديثة، لاتختلف عما كان عليه الحال قديما إلا فى وفرة المصادر والمراجع، وتأكيد الأستاذ على تلاميذه بالعودة إليها، فالحوار معه ومعها الطريق إلى أوسع ساحات العلم والفهم وتنمية ملكة التفكير والابتكار.

وجاء عصر جامعات الأعداد الكبيرة، بلا استعداد ولا إمكانات، فنسى الأساتذة فى جملتهم شيئا اسمه المحاضرة والحوار، وأن وظيفة الأستاذ اكتشاف المواهب وتشجيعها، وتعميق روح التأمل والنقد، ونسى الطلاب بدورهم، بطريقة أشد، أن هناك شيئا اسمه المصدر والمرجع والكتاب، وحل مكانها فى وجدانهم وذاكرتهم شئ اسمه المذكرة !.

والمذكرة نوع من التأليف المسرحى، يضعها صاحبها على عجل، اقتبسها فى جملتها من هذا الأستاذ أو ذاك، ويطبعها الطلاب وحدهم ويعددهم، يطبعها بأقل التكاليف، ويبيعها لتلاميذه بأغلى الأسعار، فإذا اطمأن إلى أنهم جميعا اشتروها، بدأ يحذف لهم صفحات من أولها، وأخرى من آخرها أو وسطها، ويبقى على القليل منها، بعد أن ينبه إلى المهم والأهم منها، ومايقرأ فحسب، وهكذا يضمن الطلاب المرور إلى الفرقة الأعلى

وقد لايملك طالب فقير ثمن المذكرة، والأستاذ يصر على أن تباع كلها، حينئذ يكتتب التلاميذ القادرون على شراء مايتبقى، حتى يرضى الأستاذ !.

ولأن المذكرة تطبع لعام واحد فقط، ولاتصلح لعام آخر، يتخلص منها الطلاب بعد الامتحان مباشرة، حتى ولو رسبوا لأن هناك مذكرة جديدة لكل عام.

سلام على أيام الكتاب النضرة، والأساتذة العظام، الذين لايتحولون مهما كانت الظروف، إلى وراقين يتاجرون بحاجة طلابهم، ويا أيها المشغولون بأمر مصر ومستقبلها، جامعاتنا من الداخل خراب فى خراب فتحركوا لإصلاحها، عافاكم الله !.


www.egyptair.com.eg
معنا..
الزمان و المكان ملك يديك
مصر للطيران
EGYPTAIR

الهلال

- المرأة والرجل وضياع الحقيقة
- الخديو إسماعيل المفترى عليه
- الفلاح المصري والإنترنت



قاهرة مطلع القرن العشرين





ذات الرداء الاصفر
للفنان أحمد صبرى



لوحة وفنان

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)،
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع - مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٨٦١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

سيد عبد المالك — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال - تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٧٠٠٠ ليرة - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس

مستقبل العولمة :



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وأفريقيا ٣٥ دولارا، باقى دول العالم ٤٥ دولارا.

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/3079 ٢٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

العام التاسع بعد المائة
صفر ١٤٢٢هـ - مايو ٢٠٠١م

الأبواب الثابتة



المجمع .. وضعف اللغة العربية !

أساتذة أجلاء.. مفكرون ومستشرقون من بلاد كثيرة، من أمريكا وآسيا وأفريقيا.. ومن كل أرجاء الوطن العربي، يحضرون كل عام مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة . ويبدأ نشاط الدورة السابعة والستين لهذا العام بخطب رنانة، وقصائد في مديح المجمع وتقريظ أعضائه الذين إنكبوا لسنوات طويلة بهدف الارتقاء باللغة العربية، وفي مواجهة الإهمال الذي لحق بها، سواء في أجهزة الإعلام ، أو عدم السيطرة على ما نراه من أسماء تطلق الآن مع التطور والتحديث، حيث أصبحت أسماء المحال التجارية .. تكتب بالانجليزية والفرنسية بحروف عربية، مثل «سوبرماركت» أو «جنتلمان» أو «هابي لاند» و«هابي دريم» دون أن نتوصل إلى السيطرة على هذه الظاهرة المنتشرة في كل أرجاء الوطن العربي، أو نتمكن من وضع القوانين التي تحد منها، وتؤكد احترام لغتنا القومية.

والسؤال المطروح: هل اللغة العربية في خطر؟ والاجابة بلا تردد: إن اللغة ليست في خطر، بل أصحاب هذه اللغة هم الذين في خطر، فليس هناك أخطر من أن يفقد الإنسان لغته، فيصبح بلا لسان، ويعيش بلسان مستعار والقضية تحتاج منا إلى وقفة، حيث كانت اللغة العربية في عهود إزدهارها تبرز في كتابات عدد من الكتاب والأدباء والشعراء في النصف الأول من القرن العشرين، فإذا أردنا أن نتعرف على سر هذا التفوق ، فينبغي أن نتصور خريطة التعليم التي تربوا عليها، حيث كانت أعداد الدارسين قليلة، ومدرسو اللغة العربية مختارون بعناية ، خاصة في كلية دار العلوم وأقسام اللغة العربية بكليات الآداب. وما نراه الآن في هذه الكليات . يجعلنا لا نتفاءل في الخروج من هذه الأزمة كما أن اللغة العربية في مناهجنا الدراسية، وصلت الى مكانة متدنية، مقارنة بالمواد الدراسية المختلفة، بصرف النظر عن عدد الحصص الدراسية، ذلك انه بمقارنة درجة

اللغة العربية بفروعها ـ مثلا ـ بدرجة مادة الرياضيات بفروعها، نجد تفوق الرياضيات ،، على الرغم من أن اللغة العربية مكون اساسي لكل متعلم ومثقف بينما الرياضيات لها أهميتها فى بعض التخصصات.

ولنا أن نتصور حجم مشكلة الأمية الثقافية لكثير من خريجى الجامعات فى وطننا العربى، والذين يجهلون فى كثير من الأحيان القواعد الصحيحة للغتنا القومية.

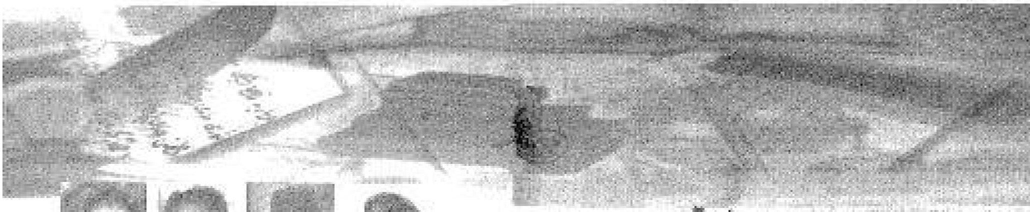
***

وإذا عدنا الى دور مجمع اللغة العربية، نجد جهودا تبذل فى تعريب العلوم والاهتمام بالمعاجم وغيرها، لكننا لا نرى أن أعمال المجمع تسير على خطط محددة فضلا عن أنها تعيش فى عزلة عن سائر المؤسسات ، الأمر الذى يحول دون وصول منجزات المجمع إلى الناس، وهذا يتطلب إعادة صياغة مفهوم المجامع اللغوية فى الوطن العربى ونظام عملها.

لكن الغريب أن اجتماعات المجمع فى كل دورة تستمر لمدة أسبوعين، ويخرج بتوصيات لا نعلم هل هناك قوة للقانون تستطيع تنفيذ ولو توصية واحدة من بين ١٨ توصية صدرت هذا العام، موجهة إلى كل الوزراء المعنيين فى الوطن العربى تقول: «يوصى المؤتمر باستخدام العربية السليمة فى جميع وسائل الإعلام ، لأنها اللغة القومية المشتركة بين الشعوب العربية، التى تجعل من شعوبها اتحادا عالميا أمام التكتلات الأجنبية».

ونظن أن هذه التوصية تحمل فى طياتها مأساتنا كشعوب عربية أضعفنا لغتنا وأهملناها .. وأصبح المجمعيون داخل جدران مغلقة يستجدون من خلال توصياتهم الموسمية أن نهتم باللغة العربية، وأن تعمل وزارات الاعلام فى جميع الشعوب العربية على إلغاء الثنائية بين اللغة العربية والعامية فى وسائل الإعلام ، وكذلك بين اللغة العربية واللغات الأجنبية فهل من مجيب يا عرب!! . ■

المحرر



حماية وثائقنا القومية

بقلم:
د. رءوف عباس

أثار مشروع قانون المحافظة على الوثائق الذى تقدمت به الحكومة الى البرلمان حملة صحفية واسعة شاركت فيها الصحف الحزبية والقومية، على السواء، انتهت بتجميد المشروع من جانب الحكومة لإتاحة الفرصة أمام أهل الاختصاص للمزيد من الدراسة، وهو ما يحدث الآن بالفعل.



محمد على — الملك فؤاد — د. محمود فهمى حجازى — محمد نجيب

وتعود قصة هذا المشروع الى عام ١٩٩١ عندما شكل الزميل الدكتور محمود فهمى حجازى (رئيس دار الكتب والوثائق عندئذ) لجنة ضمت مجموعة من الخبراء فى الوثائق والدراسات التاريخية والقانون، للنظر فى تطوير دار الوثائق القومية التى كانت فى حال يرثى لها، وظلت اللجنة تعمل بجد لمدة عامين، فحصت خلالهما واقع الدار، وما يمكن عمله للنهوض بها، وانتهت الى اقتراح خطة للتطوير من شقين أحدهما قصير المدى يعالج المسائل الملحة التى لا تحتاج الى اعتمادات مالية كبيرة وثانيهما طويل المدى يستغرق تحقيقه خمس سنوات، يضع الدار فى مصاف دور الوثائق القومية العالمية لو صدقت الهمم وتوفرت الاعتمادات المالية اللازمة لها، أو قل، إن شئت، توفر الوعى لدى الدولة بأهمية النهوض بدار الوثائق القومية باعتبارها مستودع ذاكرة الأمة الذى يضم خلاصة تجاربها.

الحفاظ على الوثائق

ولا يتسع المقام هنا لنضع بين يدى القارئ الكريم الخطوط المهمة لتلك الخطة، فذلك، رغم أهميته، يخرج عن إطار موضوع هذا المقال. ولكن ما نود الاشارة إليه هنا أن «لجنة تطوير دار الوثائق» أولت الحفاظ على وثائقنا القومية اهتماما كبيرا بعدما تبين لها أن مقتنيات الدار من الوثائق الخاصة بالقرن العشرين تكاد تكون معدومة لسببين: أولهما لأن الجهات السيادية فى الدولة (رئاسة الجمهورية، وزارة الخارجية، وزارة الدفاع، وزارة الداخلية) لا تهتم بتنفيذ نصوص لائحة المحفوظات الحكومية التى تقضى بضرورة انتقال الوثائق العامة للدولة الى دار

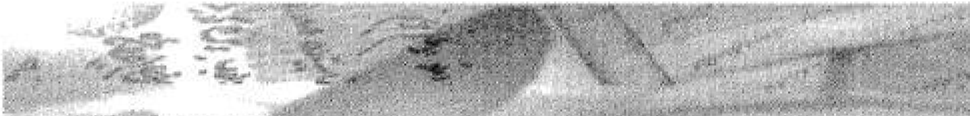
حماية وثائقنا القومية

الوثائق القومية بعد انقضاء مدة حفظها التى تحددها اللائحة بما لايزيد على خمسة عشر عاما، ثم تنظر فى أمر اتاحتها لجنة من خبراء دار الوثائق القومية وممثلين لجهة انتاج الوثيقة، فاذا تبين للجنة أن اتاحة الاطلاع عليها يعرض مصالح الدولة أو أمنها القومى للخطر تظل مغلقة عشرين عاما أخرى ثم تصبح بعدها متاحة للاطلاع، على النحو الذى يجرى العمل به فى الأرشيفات القومية فى مختلف دول العالم، وهو ما أخذ به المشرع فى القرار الجمهورى بقانونه الصادر فى ١٩٧٩ .

ونتج عن حجب الجهات السيادية لوثائقها عن دار الوثائق القومية ندرة الوثائق الخاصة بالقرن العشرين على نقيض وثائق القرون السابقة عليه وخاصة القرن التاسع عشر، فلا يوجد من وثائق القرن العشرين بالدار الا مجموعات محدودة جلبتها المصادفة المحضة الى الدار مثل مجموعة وثائق وزارة الدفاع المعروفة باسم «مجموعة مكتب المشير عبدالحكيم عامر»، وبعض وثائق الخارجية، وبعض تقارير الأمن (البوليس السياسى) قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ . وبعض تلك المجموعات جاءت الى الدار بسبب ضيق أماكن الحفظ فى الجهات التى أنتجتها أو أنقذتها المصادفة المحضة من الضياع، مثلما كانت الحال بالنسبة لتقارير الأمن التى كانت أصلا النسخة التى يرفعها البوليس السياسى الى القصر الملكى، وكانت ضمن أوراق مكتب رئيس الديوان الملكى ثم تقرر تسليمها لشركة راكتا لانتاج الورق لإعادة تدويرها، وعندما نمى ذلك الى علم أستاذنا الدكتور محمد أنيس ضمها لمركز تاريخ مصر المعاصر ثم استقرت بدار الوثائق القومية.

ندرة الوثائق

أما السبب الآخر لندرة وثائق القرن العشرين فهو الأخطر لأنه يؤدى الى اهدار أهم وثائق الدولة وتعرضها للضياع أو التلف أو حتى التسرب خارج البلاد. ونعنى بذلك قيام كبار المسئولين الذين يتولون مناصب وزارية أو غيرها من المناصب الكبرى فى الجهات السيادية المهمة، بحمل أوراق مكاتبهم معهم عند ترك مناصبهم باعتبارها «أوراقا خاصة» وهى - فى حقيقة الأمر - وثائق رسمية ربما كان بعضها يمثل النسخة اليتيمة من الوثيقة. وفضلا عما يتيحه استفحال هذه الظاهرة من اطمئنان المسئول الى تعذر محاسبته عما فعل أثناء توليه المنصب، فإن حمله لهذه الأوراق المهمة معه يترك خلفه فى وضع محير، ويؤدى الى حدوث اضطراب فى عملية صنع القرار لانعدام تراكم الخبرة التى لا تتوفر الا اذا بقيت الوثائق فى مكانها الطبيعى بأرشيف الجهة، وهناك أمثلة كثيرة لوثائق بحثت عنها وزارات مهمة فى ارشيفها عند الحاجة دون جدوى لأن بعض المسئولين



السابقين حملها معه عند تركه لمنصبه، وهو أمر لا يحدث الا فى بلادنا وربما فى غيرها من البلاد التى تقل عنا تقدما .

وقد يحافظ المسئول السابق على هذه الأوراق مابقى له من عمر، ولكن الأمر المؤكد أن مآلها الضياع عندما تنتقل لورثته، فقد يتم التخلص منها بالإتلاف، أو التصرف فيها بالبيع ، وبذلك قد تصل وثائقنا السرية الى أيدى أطراف يهمها إلحاق الضرر بمصالح بلادنا، وربما بأمنها القومى .

لذلك كان لابد أن تعمل «لجنة تطوير دار الوثائق» على وضع مشروع قانون للمحافظة على الوثائق استغرق اعداده نحو عام كامل درس خلاله خبراء اللجنة قوانين المحافظة على الوثائق فى الدول الكبرى (بريطانيا ـ الولايات المتحدة ـ فرنسا) وبعض الدول العربية (العراق ـ لبنان ـ الأردن ـ تونس ـ الجزائر) والمعايير والقواعد التى وضعها الاتحاد الدولى للأرشيف القومى، هذا فضلا عن دراسة أبعاد واقع الوثائق القومية عندنا. وانتهت اللجنة الى وضع مشروع قانون المحافظة على الوثائق الذى ضم ٢٨ مادة ، وكان ذلك عام ١٩٩٦ .

وقد راعت اللجنة الأخذ بما هو معمول به فى دور الوثائق القومية فى العالم من حيث اشتمال الوثائق التى تودع فى دار الوثائق القومية على الوثائق العامة والخاصة على السواء، أى وثائق الدولة ووثائق الهيئات الخاصة ذات القيمة التاريخية، كما حرصت على الزام الجهات العامة والخاصة بضرورة الرجوع الى دار الوثائق القومية قبل الاستغناء عن وثائقها بعد انقضاء مدة حفظها حتى تنظر دار الوثائق فى ضم ما له قيمة تاريخية منها الى مقتنياتها ، كذلك وضعت الضوابط الخاصة بضرورة قيام الافراد بإيداع ما قد يكون لديهم من وثائق ذات قيمة تاريخية لقاء تعويض مادي ونصت على تجريم من يمتنع عن ذلك .

وقطع مشروع القانون الذى وضعته اللجنة رحلة طولها أربع سنوات قبل أن يقره مجلس الوزراء ويقدمه للبرلمان، فقد خلالها القانون الكثير من وزنه، فأصبح نحيلا لايضم سوى ١٢ مادة واختلفت ملامحه كثيرا عن ملامح مشروع القانون الذي وضعته اللجنة، فقد سقطت منه خلال تلك الرحلة العجيبة ـ بمختلف المعايير ـ المواد التى تمثل جوهر قضية الحفاظ على الوثائق والتى تجعل من دار الوثائق «الأرشيف القومى المركزى» الذى يضم ذاكرة الأمة ومحصلة تجاربها، من ذلك استثناء بعض الجهات (وزارة الدفاع) من الخضوع لأحكامه، حقا لم يتضمن الاستثناء رئاسة الجمهورية أو الوزارات السيادية الأخرى، ولكن استثناء أى جهة من الالتزام بإيداع وثائقها دار الوثائق القومية بعد انقضاء مدة حفظها يوجد فجوات فى الأرشيف القومى ويقطع الطريق على دراسة تطور مصر، وخاصة اذا علمنا أن وثائق الجيش المصرى منذ محمد على حتى نهاية القرن التاسع عشر موجودة ضمن مقتنيات دار الوثائق القومية وكذلك الحال بالنسبة لوثائق مختلف الوزارات، فاذا استثنيت وزارة ما

حماية وثائقنا القومية

اليوم يمكن استثناء غيرها غدا، ولا يمكن ان تحتفظ الوزارات بكل ما تنتجه من وثائق دون أن تتخلص مما لا تجد نفسها فى حاجة الى الرجوع اليه من وثائق، وهنا يكمن خطر تبديد الوثائق التاريخية المهمة مادامت يد دار الوثائق القومية مغلولة بسبب استثناء بعض الجهات السيادية، ويفقد بذلك مشروع القانون الغرض الذى وضع من أجله، ويتم محو مساحات مهمة من ذاكرة الأمة .

وأسقط مشروع الحكومة مبدأ مهماً أخذت به «لجنة تطوير دار الوثائق» عند وضعها المشروع الأصلى للقانون، وهو حق المواطن فى الاطلاع على الوثائق المتاحة للاطلاع بالدار فى حدود اللوائح المنظمة لذلك.. وهو مبدأ معمول به فى بلاد العالم المتقدمة، فلا يسأل الراغب فى الاطلاع إلا عن بياناته الشخصية التي يكتبها في استمارة خاصة ثم هويته ، ويسمح له بالاطلاع فوراً ويسري العمل ببطاقة الاطلاع مدة عامين تجدد تلقائيا ، ولايسأل طالب الاطلاع عما يريد الاطلاع عليه الا من جانب الأمناء القائمين على خدمة رواد الدار. أما عندنا فلابد أن يكون راغب الاطلاع باحثا مسجلا للحصول على درجة علمية بإحدى الجامعات وأن يشفع طلبه بشهادة تدل على ذلك، ولابد من أن يحدد في طلب الاطلاع الموضوع الذى يبحث فيه.فلا يحق له أن يطلع على وثائق تبدو خارج اطار موضوع بحثه زمانا أو مكانا، وبعد أن يملأ استمارة طلب الاطلاع يقدمها مشفوعة بعدد من الصور الفوتوغرافية، وينتظر موافقة الأمن التى قد يستغرق الحصول عليها ثلاثة شهور أو أكثر، يسرى ذلك على طالب الاطلاع المصرى والأجنبى على السواء، وفضلا عما يمثله ذلك من تبديد للوقت والطاقة دون مبرر ، يجعلنا أضحوكة فى الأوساط العلمية الدولية، لأن ما يتاح الاطلاع عليه من وثائق بدور الوثائق العالمية لم يعد سرا ، واجراءات اتاحته للاطلاع يراعى فيها أن الاتاحة لا تمس مصالح الوطن أو أمنه القومى بسوء، وبذلك لايصبح تصريح الأمن القومى للباحث بالاطلاع أمرا ذا قيمة. ناهيك عما قد يحتاج الباحث الاطلاع عليه خارج حدود بحثه الزمانية والمكانية إذ عليه أن يتقدم بطلب جديد واجراءات أمن جديدة. ويضيع من وقته وعمره شهورا أخرى، أما من يطرق باب الدار طالبا الاطلاع على الوثائق بعد انتهاء فترة البحث والحصول على درجته العلمية فلابد أن يقدم ما يفيد قيامه باعداد بحث لهيئة علمية ما ، ثم يمر بمراحل الحصول على ترخيص الأمن.. الخ. فاذا احتاج الى مراجعة بعض ملفات وزارة الخارجية المودعة بالدار أو الرجوع الى أوراق مكتب المشير أو الرجوع الى وثائق مجلس الوزراء، فعليه الحصول على موافقة الجهة المعنية قبل أن يسمح له بالاطلاع حتى لو كان يحمل بطاقة اطلاع

من دار الوثائق القومية. لقد أحتاج باحث شاب حاصل على الدكتوراه أن يطلع على وثائق مجلس الوزراء، وعندما تقدم بالطلب الى الجهة المختصة بالمجلس رفض الموظف المسئول منحه الترخيص بالاطلاع لأنه مادام قد أصبح «دكتورا» فما حاجته الى البحث!!.

لهذا كان النص على حق المواطنين فى الاطلاع على الوثائق المتاحة أمرا مهما يتفق مع المبادئ المعمول بها فى الارشيفات القومية عالميا، ولكنه أسقط من مشروع الحكومة دون مبرر.

وأخذ مشروع القانون المقدم من الحكومة بمبدأ خطير وهو جعل الجهة المنتجة للوثيقة هى التى تحدد المدى الزمنى الذى يتاح بعده الاطلاع عليها، فجعل لسرية الوثائق درجتين فما صنف «سرى جدا» لا يسمح بالاطلاع عليه (بعد انتقاله الى دار الوثائق القومية) الا بعد خمسين عاما، وما صنف «سرى» لا يسمح بالاطلاع عليه الا بعد ثلاثين عاما، وهو مبدأ غير معمول به فى اى مكان فى العالم، فشتان بين درجة السرية التى تحددها جهة انتاج الوثيقة والاطلاع عليها بعد انقضاء مدة الخطر، لأن الظروف تتغير والزمن يمر، وما كان «محظورا» أو «سرى للغاية» أو «سرى» أو «خاص» عند وقت انتاج الوثيقة قد لا يصبح مبررا لحجبها عن الاطلاع فذلك أمره متروك لما تراه اللجنة الخاصة بذلك بعد انقضاء ثلاثين عاما من انتاج الوثيقة، فنحن نرى فى الارشيف القومى الأمريكى والأرشيف البريطانى وثائق مصنفة بأعلى درجات السرية متاحة للاطلاع بعد ثلاثين عاما، وأخرى مصنفة بأقل درجات السرية لا يسمح بالاطلاع عليها الا بعد مرور خمسين عاما، فالمعيار هنا هو مدى ما قد يسببه اتاحة الوثيقة من حرج للحكومة او اضرار بمصالح البلاد اذا سمح بالاطلاع عليها. ولدينا مثل طريف على ذلك فى الوثائق البريطانية اذ ظل الكثير من الوثائق الخاصة بالأردن والصادرة من الملك حسين مغلقا لمدة خمسين عاما رغم تواضع درجة سريته، لأن الملك ظل يحكم ردحا طويلا من الزمان واتاحة فرصة الاطلاع على خطاب أرسله لرئيس الوزراء البريطانى فى شأن ما قد يحرج الملك ويضر بالعلاقات الأردنية - البريطانية التقليدية.

أعلى درجات السرية

لقد كان أصحاب الانتقادات التى وجهت لمشروع القانون الذى تقدمت به الحكومة على حق عندما أبدوا تخوفهم من أن يصنف كل مسئول ما يريد اخفاءه من أمور بأعلى درجات السرية حتى لا يستطيع أحد كشف ما قد يكون وراء ذلك من وقائع فساد محتملة. وبغض النظر عن ذلك الاعتراض - على وجاهته - فإن حق الجهة المنتجة للوثيقة فى تحديد درجة السرية مكفول مادامت تنظمه اللوائح الخاصة المعمول بها بتلك الجهات، ولكن ليس من حق الجهة التى أنتجت الوثيقة أن تحدد مقدما المدى الزمنى للسرية الذى تستطيع بعد انقضائه دار الوثائق القومية اتاحة الاطلاع عليها .

وكان من الطبيعى فى مشروع قانون

حماية وثائقنا القومية

صيغ للمحافظة على الوثائق من أن يحتوى على مواد تجرم كل من يقدم على عمل من شأنه منع ايداع الوثائق مكانها الطبيعي وهو دار الوثائق القومية أو تبديد الوثائق أو اتلافها أو التصرف فيها، وكذلك تجريم كل من يفشى محتوى كل أو بعض الوثائق المصنفة على أنها سرية ممن يطلع على الوثائق بحكم عمله فى الجهة المنتجة لها أو من العاملين بدار الوثائق القومية بالنسبة للوثائق التى لازالت فى نطاق السرية ولا يسمح بالاطلاع عليها .

تغليظ العقوبات

ولكن من الملاحظ أن مشروع القانون الذى تقدمت به الحكومة بالغ فى تغليظ العقوبات، وتجاوز ما استقر عليه العرف التشريعى بأن جعل عقوبة السجن والغرامة متلازمتين رغم مخالفة ذلك لنصوص قانون العقوبات الذى يعطى القاضى المجال للحكم بالعقوبتين معا (السجن والغرامة) او بإحدى العقوبتين حسب ظروف القضية التى ينظرها ، من المعروف انه كلما غلظت العقوبة وضاق مجال الاختيار أمام القاضى فى الحالات التى لا يرتاح ضميره فيها الى توقيع عقوبة مبالغ فى تشددها ، غالبا ما يتجه القاضى الى الحكم بالبراءة. فتغليظ العقوبة قد يكون ضرره أكثر من نفعه، كما يعرض القانون ـ فى حالة اجازته على هذا النحو ـ الى البطلان لمجافاته للعرف التشريعى، وتناقضه مع المواد المشابهة بقانون العقوبات .

إن الحاجة ماسة إلى قانون المحافظة على الوثائق ولا يجب أن يتعطل اصداره أكثر من ذلك، فقد تأخر بما فيه الكفاية وضاع بسبب تأخر اصداره الكثير من الوثائق، وحال دار الوثائق مازالت تدعو للرثاء ، فهناك جهود مخلصة للنهوض بها واستكمال النقص فيها ، ولكن يحول دون تحقيق تلك الجهود لما تنشده من أهداف عجز الدار عن الحصول على وثائق الجهات السيادية، ويكفى أن يعلم القارئ الكريم أن ارشيف قصر القبة يتضمن وثائق الديوان الملكي منذ أيام الملك فؤاد مروراً بالملك فاروق، وعلى الأقل فترة حكم الرئيس جمال عبدالناصر فى العهد الجمهورى ورغم ذلك لا تستطيع دار الوثائق القومية الحصول على تلك الوثائق التى بدونها لا يمكن كتابة تاريخ مصر الحديث، ويضطر الباحثون الى الرجوع الى الوثائق البريطانية والأمريكية التى تتضمن ـ أحيانا ـ مذكرات ومراسلات تلقتها تلك الدول من الجهات السيادية فى الحكومة المصرية، بينما لا يستطيع الباحث أن يجد أصول تلك الوثائق بدار الوثائق القومية وأخشى ما أخشاه أن يكون قد تم الاستغناء عن هذه الوثائق «الراكدة» لصالح غيرها من الوثائق «النشطة» بسبب ضيق مساحة ارشيف قصر القبة، عندئذ يصبح فقدان هذه

الوثائق كارثة قومية بكل المعايير .

كذلك لابد من فك روابط تبعية دار المحفوظات العمومية بالقلعة من وزارة المالية (مصلحة الأموال المقررة) وتبيعها لدار الوثائق، فهي تضم وثائق على درجة بالغة من الأهمية منذ انشائها في عهد محمد على حتى الآن. وقد باءت محاولات البحث عن حل لهذه الازدواجية التي تعرض وثائقنا القومية للضياع دون جدوى، فقد درجت دار المحفوظات العمومية على التخلص من محتويات مخازن بأكملها (بعضها تصل مساحته الى ٢٠٠ متر مربع) باعتبارها أوراق (دشت) لا يتم الرجوع اليها منذ عقود، وبذلك يتم بيعها للتجار، وقد فوجئت دار الوثائق القومية بعرض من أحد تجار الاسكندرية لبيع مجموعة من الوثائق لها، وبعد الفحص اتضح انها عبارة عن أوراق وسجلات مساحة أطيان وتقارير من مصلحة الري ونصوص أحكام قضائية تحمل أختاما رسمية الى غير ذلك من وثائق بالغة الأهمية لدراسة تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي كان مقرها الأصلي دار المحفوظات العمومية، بيعت للرجل ولغيره كأوراق دشت مستغنى عنها، ولا يمكن معاقبة أحد بموجب القانون المعمول به حاليا، ولكن صدور قانون محكم الصياغة للمحافظة على الوثائق كفيل بتجريم كل محاولة لتبديد وثائقنا القومية .

ومهما بلغ القانون من الإحكام والدقة، فلابد من أن يصدر قانون آخر يحول دار الوثائق القومية من مصلحة تابعة لهيئة دار الكتب والوثائق الى جهاز قومي للوثائق يتبع سلطة السيادة، له وضع مماثل لوضع الجهاز المركزي للتعبئة والاحصاء أو الجهاز المركزي للتنظيم والادارة، ويجعل من ذلك الجهاز ارشيفا قوميا مركزيا تودع فيها جميع وثائق الدولة (بلا استثناء) ذات القيمة التاريخية، ولا يجوز لأي جهة أن تستغنى عن وثائقها بعد انتهاء مدد حفظها لديها دون الرجوع الى «الجهاز المركزي للوثائق القومية» لتقرر ضم ما له قيمة تاريخية منها والتوصية بالاستغناء عما لا تتوفر فيه هذه القيمة.

★★★

لقد خلد محمد علي باشا اسمه في التاريخ بأعماله ومن بينها انشاؤه لدار المحفوظات العمومية (١٨٢٩)، وكذلك فعل الملك فؤاد عندما أنشأ «دار الوثائق الملكية»، عام ١٩٢٧، والآن جاء دور الرئيس محمد حسني مبارك ليتوج أعماله بإنشاء «الجهاز المركزي للوثائق القومية»، صيانة لوثائقنا القومية، وحفاظا علي تاريخنا القومي بما يتناسب مع أمة عريقة تعيش القرن الحادي والعشرين وتواكب التطور العالمي في مجال الوثائق والمعلومات . ■

الأمانة العلمية

تأليفاً - تدريساً - تفنيداً

بقلم

د. محمد رجب البيومي

جاءني أستاذ كبير بإحدي الكليات الجامعية ساخطا كل السخط علي ما نشرته في الهلال عن الخيانات العلمية التي تقع من أدعياء التأليف، مؤكداً أن السمعة العلمية لمصر في العالم العربي تهتز بمثل هذه المقالات!، وإخواننا العرب يعرفون أن الأساتذة ليسوا من طراز واحد، فمنهم الأمين المتحرز- وما أكثر هؤلاء من قبل لا الآن - ومنهم الدعي المتسرع، كما أن طلاب العرب في جامعات مصر، يعرفون عنها ما يعرفه المصريون جميعا ويقدرون الفاضل لفضله، ويهزاون بالدعي لانحداره! ففيم الخوف من كتابة مقال صادق ليس فيه كلمة واحدة لفقها الخيال!.

قلت هذا لمحدثي، فقال ولماذا وقد اعترفت بوجود هؤلاء النابهين من الأصلاء لا تكتب عن محاسنهم كما كتبت عن مساوىء الآخرين؟

قلت يا سيدى إن الأصل فى أهل العلم أن يكونوا أمناء فإذا ساد هذا الأصل على سننه فهو المتوقع الذى لا يثير دهشة ولا يدعو إلى استغراب إنه أمر طبيعى كما تشرق الشمس صباحا من المشرق وتعود إلى ستارها فى المغرب، أما الذى يوجب الدهشة حقا فهو الشذوذ الطارئ فى هذه الخيانات المنكرة، وواجب



الشيخ مصطفى عبد الرازق



د. ابراهيم بيومي مدكور



الشيخ جاد الحق على جاد الحق

• هناك الكثير من الذين أنعم الله عليهم بسمو الخلق مع وثاقة العلم فضربوا أروع الأمثلة في أمانة القول، تأليفا وتدريسا وتقديما

الكتاب أن يشيروا إليها دون استحياء .

وقد بدئت على نحو متقطع فلم يكد يلتفت إليها أحد، ثم اتسع الخرق على الراقع فصارت ظاهرة مشهودة تحدث عنها الناس لسانا ويراعا أفنقول من بعد: إننا نسيء إلى مصر حين نشخص الداء ونلتمس الدواء!

وقد دعاني حديث صاحبي إلى أن أفكر في كتابة مقال، يتحدث عن الأمانة العلمية ليكون مثلا مرجوا للشبيبة العلمية المنطلقة، وليصبح بحقائقه السافرة داعيا إلى الاحتذاء منفرا من السطو والادعاء، وقد سبق لي أن أشرت إلى بعض ما سأتناوله، في صحف شتى فإذا اخترت مما ذكرت بعض ما يسعد القارئ ويدعو إلى الأسوة فقد بلغت ما أريد.

تأليفا

من أمثلة الأمانة العلمية التي أنكرها في مجال التأليف الجامعي، ما أقرره عن كتاب «الجغرافية التاريخية الاسلامية»، للأستاذ محمد أحمد حسونة بك أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وهو أول كتاب عربي في موضوعه، ومؤلفه مؤرخ فاضل له نشاطه في الادارة التربوية وفي التأليف، وكتبه المدرسية وغير المدرسية شاهدة بفضله وقد جاوز الستين قبل أن يخط كتابه سنة ١٩٥٠، وقد أسندت إليه الكلية تدريس مادة الجغرافية الإسلامية وهي مادة جديدة لم يكتب عنها شيء من قبل، فماذا صنع الأستاذ الأصيل، لقد كتب كتابه مشكورا فوفق إلى خير كثير، غمطه حقه حين قال في مقدمة الكتاب:

«ولما كنت عديم الخبرة بهذا الموضوع، فقد رجوت بعض علمائنا الفطاحل في الجغرافيا أن يكتبوا فيه ولو كانت كتاباتهم

الأمانة العلمية

عن العناصر المهمة ولكنهم اعتذروا بضيق الوقت وهو عذر حقيقي بسبب ما ينوءون به من مهام الدولة، ومن ثم عكفت على تتبع آثارهم، وجعلت أساس عملي رسالة قدمها الأستاذ حسن بك جوهر لنيل درجة الماجستير فاحتذيتها احتذاء يكاد يكون كليا، واستعنت بما كتبه سعادة الأستاذ مصطفى عامر بك وكيل وزارة المعارف وحضرة الأستاذ الدكتور عباس بك عمار، ولم أتورع عن الأخذ من كتابات هؤلاء الأعلام وكثيرا ما نقلت أفكارهم بأسلوبهم خشية أن أضل إذا أنا حاولت تغيير الصيغة التي اختاروها ورحم الله امرءا عرف حدود جهله ووقف عندها، فما ورد في هذه الوريقات من الصواب فمرده إلى هؤلاء العلماء وأمثالهم وما ورد من الخطأ فمرجعه إلى تقصيري، ورجائي أن يكون هذا الخطأ من الجسامة بحيث يحفز أحد هؤلاء المتخصصين على التأليف في موضوع حان الوقت لتدريسه».

هذا ما جاء في مقدمة الكتاب! أما الكتاب نفسه فذو جهد مشكور واضح، إذ تعرض المؤلف بإفاضة إلى الحديث عن جغرافية بلاد العرب وعن طرق القوافل بالجزيرة ثم عن الظروف الجغرافية التي هيأت فتح العراق وفارس فأتى بما لم يسبق إليه وانتقل إلى فتوح الشام ومصر وبلاد السودان والمغرب، فتحدث عن العوامل الجغرافية بما لم يشغل بال المؤرخين من قبل!! ويعد ذلك كله يصارح الأستاذ طلابه في الدراسات العليا وفي سنوات الكلية بأنه عديم الخبرة في الموضوع وقد رجا المختصين أن يؤلفوا فاعتذروا، وقد اعتمد على مؤلفاتهم وكان أحيانا ينقل العبارة بحروفها خشية أن يضل إذا لجأ إلى الاختصار أو البسط وأن أخطاءه من الجسامة بحيث يجب أن تدفع هؤلاء إلى الكتابة الصحيحة تلافيا لعثراته . هذا القول الباهر الرائع لم ينقص من قدر الأستاذ بل زاده تقديرا وسموا، ولولا أنه يعرف أمانة البحث وضرورة التنبيه إلى بعض ما قد يعتوره من نقص ما أسهب في تسجيل ما ينم عن قصوره وهو قصور متوهم.

لقد كان في استطاعة الرجل أن يكتفي بمثل قوله إن الموضوع جديد وقد انتفع بمؤلفات فلان وفلان ثم يسكت، فلا يتحدث عن جهله بالموضوع بدءا وأنه ينقل النص بحروفه كيلا يضل، كان في استطاعته أن يقول ذلك دون اعتراف بما تردد في داخله من معان يظنها المغرور أنها تسئ إلى فضله ولكن حرمة العلم وجلال الأستاذية وخطورة التبعة الخلقية لا الإدارية كل ذلك قد فرض عليه أن يتحدث عما عاني وكابد!. وقد أعطى بذلك - رحمه الله - درسا خلقيا وأحب الاحتذاء وهو درس عملي يفوق كثيرا من الدروس المسجلة في الكتب والمجلدات.

مقدمة ثانية

في سنة ١٩٤٧م زار أديب الشام الكبير الأستاذ على الطنطاوي رحمه الله القاهرة مندوبا عن وزارة العدل السورية لدراسة بعض القوانين المصرية، وكان

يزور إدارة مجلة الرسالة كثيرا كثيرا ولما كنت أعلم أنه ألف كتابا عن بشار بن برد ولم تكن كتب المازني والنويهي وغيرهما ظهرت بعد عن الشاعر العباسي، أردت أن يعطيني فكرة عن مستوى الشاعر إذ كنت مكلفا بإعداد بحث عنه في الكلية وانتظرت أن أسمع منه شيئا عن كتابه «بشار بن برد» ففاجأني بقوله:

إياك أن تعتمد على هذا الكتاب في شئ فكله أخطاء لأني نقلت روايات ثبت بطلانها ومدحت أبياتا لا تستحق المديح، وقد أوصيت من لديه نسخة منه في دمشق أن يحرقها حرقا، أو تريد أنت أن ترجع إليه في مصر.

تعجبت كثيرا مما سمعت لأن لهجة الأستاذ خيلت إليّ أنه يتحدث عن كتاب ألفه أكبر أعدائه وقلت إنه حديث بين اثنين فقط وسيقضي أثره.

ثم وقعت في يدي الطبعة الأخيرة من كتابه عن عمر بن الخطاب وأخذت قراءة مقدمتها فوجدته يقول عن الطبعة الأولى من كتابه:

«ولما رجعت إليه الآن وجدت فيه عيوبا لا يجوز معها أن يعاد طبعه منها أن فيه أخبارا باطلة لا أصل لها كقصة البطريق في الصفحة الثالثة والعشرين، وفيه أخبارا ضعيفة السند، وأخبارا مكررة معادة وألفاظا تنبو عن أذواق القراء وأفهامهم من غريب اللفظ أو معقد الأسلوب ووجدت فيه تطويلا لا داعي له واستطراداً يدعو إلى الإملال ووجدت تعليقاتي عليه تعليقات الشباب فلم أرتض أكثرها، فحذفت الباطل منها والموضوع ثم جئت إلى الأخبار فهذبتها، وطرحت من الكتاب ما هو تطويل وليس من صميم الموضوع .. ومن آثر أن ينظر فيه على ما فيه من العيوب التي نجد من الأمانة الإشارة إليها، والتحذير منها استطاع أن يعود إليه».

قرأت ذلك فقلت يا لله! ما هذه القسوة الدقيقة القاطعة كان في مقدرة الأستاذ أن يقول إن هذه الطبعة خلصت من أخطاء وقعت في الطبعة السابقة، وهذا يكفي كل الكفاية للإفصاح عما يريد ولكنه قاض عادل، وقد رأى من الأمانة أن يعلن كل ما في نفسه في وضوح سافر، وقد زاده هذا رفعة في نظر القارئ!

وحين ذهبت إلى جدة سنة ١٩٩٠ شرفت بلقاء الأستاذ في مجلس علمي مشهود وتطارحنا حديث الأدب والأدباء على نحو واسع ممتد ، والأستاذ الطنطاوي كالسيل الدافق إذا تحدث عن أعلام العصر الحديث وقد قلت له فيما قلت: أتذكر يا سيدي ما حدثتني به في القاهرة عن كتابك بشار بن برد إنك أعدت تماما في مقدمة كتابك عن عمر في طبعته الثانية ما قلته لي عن كتاب بشار! فضحك كثيرا، وقال: من يدري لعلي إذا طبعت كتابي طبعة ثالثة أقول في الطبعة الثانية ما قلت في الطبعة الأولى إلا أني لا أرضى عن نفسي! فيالها من عبرة لمن اعتبر!

تدريسا

يقول الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق متحدثا عن ذكرياته عن دروس الفلسفة بكلية الشريعة حين كان طالبا بها وذلك في كتاب رحلة إلى السنغال ص ٨٢:

الأمانة العلمية

«لقد قرأت الفلسفة ودرستها كمبادئ في السنة الأولى بكلية الشريعة وأذكر أن أستاذ الفلسفة كان يدعى الشيخ شبل يحيى وهو من خريجي الأزهر ومدرسة القضاء ودار العلوم جميعا لقد حاز ثلاث شهادات من ثلاثة معاهد!!

يقول الإمام «وكان الدكتور إبراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية الحالى فتيا تجاوز العشرين بسنوات قليلة، وكان يقوم بتدريس الفلسفة فى الفصول الأخرى، ومن الأشياء التى تحضرنى بامتنان عن الأستاذ شبل يحيى أنه كان يحضر دروس الدكتور إبراهيم مدكور جنبا إلى جنب مع الطلاب لكى يتعرف إلى المنهج الذى يدرسه الدكتور مدكور لطلابه والطريقة التى يتبعها فى توصيل الفكرة إلى أذهان الطلاب ثم يسعى الشيخ شبل بعد ذلك إلى أن يكون أكثر عطاء مع الطلاب فى الفصل الذى يدرس فيه».

ولهذا الكلام الذى قرره الأستاذ الأكبر تفصيل يوضح مغزاه، فقد كانت الفلسفة أحد الدروس المقررة على طلاب كلية الشريعة وقد استعانت بانتداب الدكتور مدكور من كلية الآداب وهو فى الوقت نفسه منتدب لتدريس المادة بدار العلوم! فلم يكن وقته يسمح بقدر كاف لتغطية الفصول، ولما كان الشيخ شبل قد درس الفلسفة بمدرستى القضاء ودار العلوم فقد رأت الكلية أن يقوم بتدريسها زميلا للدكتور مدكور، وقد فكر الشيخ فوجد أن الدكتور مدكور قد درس الفلسفة فى باريس وبعه أطول فلابد أن يفيض على طلابه بأكثر مما لديه، وقد أعد الدكتور مدكور مذكرة مطبوعة تضم خلاصة محاضراته وكان فيها غناء للشيخ إذ تيسرت له المادة مذللة مبسطة ولكنه أراد أن يعلم كل ما لدى الدكتور مدكور، فآثر أن يجلس مع الطلاب ليسمع كل ما يقول وليدونه فى كراسة معه وقد عجب الدكتور لسلوك زميله واعترف له أن الامتحان لا يخرج عن المذكرة وعليه أن يقتصر عليها فى درسه فلا يكلف نفسه مشقة الجلوس مع الطلاب، لاسيما أن طلابه فى الفصل المقابل سينظرون إليه نظرة لا ترفع من قدره أمامهم ولكن الشيخ شبل قرر فى اطمئنان أنه طالب عالم ويسره أن يعلم طلابه أن الدكتور مدكور وإن كان يصغره فى السن فهو أكبر منه علما، ولا غضاضة فى ذلك، وجعل من دأبه الحضور جالسا مع الطلاب وقد أراد الدكتور مدكور أن يكرمه فأحضر كرسيا بجواره ليجلس عليه الزميل فأبى الشيخ، وقال إن النتيجة واحدة وأن مجئ الكرسى لا يقدم ولا يؤخر فأنا مستمع مستفيد.

وأذكر أن أحد الأساتذة عرض على شيخ الكلية الأستاذ مأمون الشناوى - وقد صار شيخا للأزهر فيما بعد - أن يضم الفصلين معا فى محاضرة واحدة، مادام وقت الدكتور لا يسمح بأكثر مما اتفق عليه وهو حل طبيعى مريح، ولكن الشيخ مأمون رفض فى إصرار أن يكون عدد الطلاب فى المحاضرة ستين طالبا، وأن الواجب أن يعرف المدرس طلابه

واحدا واحدا، وأن ينظر إليهم فى اطمئنان ليعرف من أسارير وجوههم من فهم الدرس ومن تعثر ليعيد ما قال فيكفى أن يكون أمامه ثلاثون على أكثر تقدير. فهل يعلم الشيخ فى مرقده المطمئن بضريحه الهادئ أن مدرجات الجامعة الآن تجمع ألفين من الطلاب فى محاضرة واحدة، وأن الأستاذ لا يهمه أن ينظر فى وجوه الطلاب ليعرف الفاهم والغافل! بل لا يهمه أن يلقى الدرس بتمامه اكتفاء بعناصر يسردها سردا، ثم يحيل إلى المذكرة. أين كنا؟ وكيف أصبحنا؟

ولى مع الشيخ شبل يحيى موقف مماثل كدت أنساه لولا ما ذكره الإمام جاد الحق عنه إذ أعاد لى ماكان، وكأنه الآن لقد كان الأستاذ يتولى تدريس المنطق لنا بكلية اللغة العربية سنة ١٩٤٧ وقد سار لى ذكر بين الزملاء بأنى أنظم الشعر، وأنشر ما أكتب فى الصحف والمجلات. وفى ظهيرة يوم من الأيام رأيت الشيخ يتقدم إلىّ باسم الثغر، ويقول فى صوت هادئ: معى يابنى قصيدة شعرية نظمتها استجابة لإلحاح جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة كى ألقيها فى احتفال الهجرة فى الأسبوع القادم وأخشى أن يكون بها بعض الكسر العروضى أو القلق فى القافية (فتفضل) «هكذا» تفضل بمراجعتها واحذف منها ما لا ترتضيه فأنا لا أحب أن أحرج بين الجمهور!! سمعت هذا الكلام فدارت الأرض بى ووضعت يدى اليمنى على رأسى ويدى اليسرى على الجدار خلفى كيلا أقع!! طويلب صغير بالكلية يأتيه أستاذ كبير ليقول له صحح ما تراه خطأ فى قصيدتى!! لقد شاهد الرجل اندهاشى، فصحبنى إلى مقهى الكلية وطلب لى فنجان قهوة وقال فى مودة يا بنى الشعر موهبة وليس كسبا، وقد يملأ العالم طباق الأرض ثم لا يقدر أن يقول بيتا، والقوم قد ألحوا علىّ أن أنشد قصيدة فى حفل الهجرة لأنى نظمت أشياء مهملة من قبل لا أرضى عنها! ففيم انذهاشك؟ خذ القصيدة واقرأها وأحضرها إلىّ من الغد. فلم أجد من بد من الإذعان، وقد قرأت القصيدة فوجدت مستواها مشرفا، وليس بها من الكسر العروضى، أو القافية القلقة ما توهم، فألحقتها بأبيات من الوزن والقافية أشيد فيها بمقدرة الشاعر، ونبوغه وأكبر تواضعه المثالى، وحان اللقاء فأسمعته ما قلت فجعل يقبل الورقة التى كتبت فيها أبياتى، وقال شكرا، لقد أعدت إلى ثقتى. ولم أكن من قبل أعرف قصة درس الفلسفة التى أشار إليها الإمام الأكبر ولكنى حين طالعت ما قال، عرفت أن معدنه الخلقى الرائع نفيس نفيس، وأنه طبع على هذا النموذج الفريد، إننا نشهد الآن زملاء المادة الواحدة يلمز بعضهم بعضا فى المحاضرات أمام الطلاب، وبعضهم يحاول إيهام سامعيه بأنه وحده العالم المتخصص وأن الأقدار قد ساعدت هؤلاء فصاروا زملاء! نرى ذلك رأى العيان! فهل نجد فى هذا العصر من يحمل نفس الشيخ المتواضعة فيجلس طالبا فى محاضرة زميله ويدون ما قال، ليعيده على الطلاب.

«تقديما»

أما تقديم الكتب، فقد يكون موضع الحرج فى أكثر أموره، لأن من يطلب

الأمانة العلمية

المقدمة من المؤلفين ـ في أكثر أموره ـ لا يطلب نقدا. وإنما يطلب تقريظا، وقد لا يقنع بصفحة تكتب، بل يريد عدة صفحات، فماذا يفعل إنسان متحوز يقدر أمانة الكلمة. إذا جاءه مؤلف يرجو مقدمة لكتاب قد لا يكون في المرتبة اللائقة من الجدة والابتكار! قد يعتذر هذا الإنسان بدعوى الاشتغال بأمور لا تسمح التأجيل أو بتوعك في الصحة. مثلا، فينصرف الراجي وقد أسر من الألم ما لا يبديه! ولكن ما القول في إنسان يمنعه حياؤه من الاعتذار، ثم هو لا يرى فيما بين يديه من الصفحات جديدا يستأهل التقديم، هنا تقع المعادلة الصعبة كما يقولون!

لقد كان الحياء المفرط أظهر سمات الإمام العظيم حقا بخلقه وعلمه معا، الإمام مصطفى عبدالرازق شيخ الأزهر الأسبق، وقد قال عنه شقيقه الأستاذ الكبير على عبدالرازق في مقدمة كتاب «من آثار مصطفى عبدالرازق»:

«كان أخي مطبوعا منذ الطفولة على فطرة رقيقة، فهو لا يحب الأذى ولا العنف، وكان خلقه الحياء، والحياء خير كله، والرفق والحياء إذا استمكنا من نفس كما استمكنا من نفسه تولد عنهما من الفضائل ومكارم الأخلاق ما يرفع إلى أسمى الدرجات».

لقد كان الإمام الأكبر في مكتبه بالأزهر ذات صباح، فاستأذن عليه الأستاذ مصطفى الصاوي المدرس بالمعهد الديني، فقام له الشيخ واقفا كعادته مع كل زائر، عظم أو صغر، ثم قدم إليه الزائر كتابا صغيرا في «علم العروض» يشمل مقرر السنة الأولى بالمعهد الثانوي! كتاب مدرسي لا جديد فيه، وطلب أن يكتب الشيخ مقدمة للكتاب!!

لا أدرى ما الذي اعتمل في نفس الإمام الأكبر حين تصفح الأوراق فوجد كتابا مدرسيا يحمل قواعد مشتهرة يعرفها الدارسون جميعا ! لو كان الإمام غير مصطفى ، لقال للمؤلف: ماذا صنعت يا رجل؟ وماذا أضفت؟ ثم اعتذر ساخرا! ولكن حياء الشيخ الذي تحدث عنه شقيقه قد وقف حائلا دون أن يرفض المطلب غير المستساغ، وكأنه أدرك أن المدرس أزهري، ويحب أن ينال مجادة بتقديمه، فأخذ الكتاب، ووعده أن يكتب المقدمة، وودعه في ابتسام، ثم خلا بنفسه ليقرأ ما بين يديه، وليرعى أمانة البحث دون أن يكسر خاطر المؤلف ، فكتب مقدمة وجيزة تتجمع في هذه السطور.

«طلب الى فضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى الصاوي المدرس بمعهد القاهرة أن أكتب مقدمة لكتابه في العروض ، ومع أني درست العروض، وحفظت في عهد الطلب بعض فنونه المشهورة، وأديت فيه امتحان العالمية منذ عهد، ومع أني كنت أقول منذ شبابي شعرا، ولا أزال أميز بين المنظوم والمنثور، لكني اعترف أني لست عروضيا بالذوق، ولا أعتبر نفسي فنيا في العروض، وإذن فإني أرى من الجرأة أن أضع مقدمة لكتاب رجل فني يشتغل منذ سنوات كثيرة بتدريس العروض.

ولكن لا يسعنى إلا أن أثنى على أستاذ يضع مجهوده فى صورة كتاب يقدمه للناس، ليستفيدوا من ثمرة مجهوده من ناحية، وليستفيد هو مما قد يصل إليه من ملاحظات، وأعتقد أن هذه هى السبيل إلى بلوغ الكمال، لأن المؤلف يستطيع على هذا الوجه، أن يعيد طبع كتابه، فيوضح ويستكمل، وعلى هذا الاعتبار أشكر للأستاذ الفاضل مجهوده وإخلاصه لفنه، وأسأل الله أن يوفقه إلى الكمال والنجاح».

هذه هى المقدمة التى ترعى أمانة الحقيقة، فلا تجازف بتقريظ زائف، أو تميل إلى تجريح غير قاصد، مع ما أبانت عنه من تواضع أمام جليل يقول عن نفسه «انه لايزال يميز بين المنظوم والمنثور ويرى من الجرأة أن يقدم بكلمة عن كتاب ألفه مدرس متمرس!» واذا دلت هذه الكلمات على الأمانة العلمية فقد أنبأت عن حياء وأدب وذوق!

ومما أذكره عن الإمام الأكبر فى هذا الصدد أن الطالب محمد سلام مدكور الطالب بكلية الشريعة، وقد صار فيما بعد «الاستاذ الدكتور محمد سلام مدكور رئيس قسم الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة» كان قد ألف وهو فى السنة الثالثة بالكلية كتابا تحت عنوان «جمال الدين الأفغانى» وتقدم به إلى أحد أساتذته فى الكلية ليضع مقدمته فأشاح عنه معتذراً وتألم المؤلف فوقع فى خاطره أن يذهب إلى وزير الأوقاف الأستاذ الشيخ مصطفى عبدالرازق إذ يعلم من سماحته ما قد ييسر له أن يكتب مقدمة الكتاب، وقد حدثنى المؤلف رحمه الله، أنه ذهب بالكتاب قبل تجليده إلى الأستاذ، وقلبه يضطرب هيبة من لقائه، ولكنه قوبل بابتسام مشجع، فتقدم الطالب بالملازم الى الشيخ عارضا طلبة فى استحياء! وما كاد الرجل الكبير يرى اسم «جمال الدين الأفغانى» حتى استنار وجهه بابتسام خالب، وقال فى حب وود، وكأنه يخاطب ولده ممدوح، لقد أثلجت صدرى يا بنى حين تحدثت عن جمال الدين، وأنا أطمع فى كتاب آخر عن «محمد عبده» تعال غدا لتأخذ المقدمة.

ثم جاءت مقدمة قوية التفاؤل مبشرة بمستقبل للطالب فى عالم البحث العلمى ولم ينس الشيخ عند عودته لتسلم المقدمة أن يلاطفه بحديث مشجع. ثم يشير الى بعض ملاحظات لم يشأ أن يدونها ، قال الدكتور سلام، وقد نشرت اعلانا كبيرا عن الكتاب فى الصحف اليومية قلت فيه ان مقدمة الكتاب «بقلم مصطفى عبدالرازق» لأغيظ من تذمروا من قبل اذ طلبت منهم التقديم . فأبوا فى استخفاف!.

أما بعد

فهذه قصص موجزة عن أمانات علمية لنفر ممن أنعم الله عليهم بسمو الخلق مع وثاقة العلم فضربوا المثل فى أمانة القول تأليفا وتدريسا وتقديما،وهم بفضل الله كثيرون، ولعل لدى غيرى من الأمثلة أكثر مما لدى، وهنا يلزم التنويه بهذه المآثر، لأنها فى واقعها الملموس، ومشهدها المرموق مبعث فخر لمن يحملون مصابيح الهداية من قادة العلم، وأولى المروءة، كما أنها تصفع وجوه الانتهازيين ممن يحسبون أنفسهم على شىء، وهو ضعفاء مساكين عناهم المتنبى حين قال:

ومن جهلت نفسه قدره
رأى غيره منه ما لا يرى

قمة عمان

ومستقبل النظام العربى

بقلم :
د.أحمد يوسف أحمد

عقدت القمة العربية فى عمان فى مواجهة تحديات هائلة للنظام العربى، والواقع أن هذا ليس بجديد على القمم العربية، فالمتابع لهذه القمم منذ بدايتها فى أنشاص ١٩٤٦، وحتى آخر قمة انعقدت فى القاهرة فى ٢٠٠٠ قبل قمة عمان، سوف يجد أن هذه القمم قد انعقدت عادة لمواجهة أخطار حقيقية وشيكة على النظام العربى، أو لمواجهة كارثة ألمت بالفعل بهذا النظام، ولم يحدث مثلا أن قمة قد عقدت خصيصا لمتابعة عملية التكامل الاقتصادى العربى، أو لمناقشة قضية الثقافة العربية .. الخ .



غير أن قمة عمان الأخيرة فى مارس الماضى قد انفردت بسمة جديدة، تلك هى أنها أول قمة تنعقد بعد إقرار مبدأ دورية القمة فى وثيقة اعتبرت جزءا لا يتجزأ من الميثاق، ولذلك بدا أن الرأى العام العربى على اتساعه، والنخب العربية السياسية والفكرية بصفة خاصة يتطلعون جميعا بدرجة يعتد بها من الأمل فى أن تكون هذه القمة مختلفة. وبعد أن أنهت القمة أعمالها، وأصدرت بيانها الختامى وقراراتها لاشك أن درجة من الإحباط قد سادت أوساط الذين تفاءلوا بها ، ولعل هذا يثير سؤالا مهما حول طبيعة عمليات التقييم عامة والسياسى منها بصفة خاصة، إذ من الواضح أن هذه العمليات تتسم بنسبية ظاهرة، وعلى سبيل المثال فإن قمة عمان ٢٠٠١ لم تختلف عن قمة القاهرة ٢٠٠٠ فى خطابها السياسى المتشدد تجاه اسرائيل، أو موقفها من الولايات المتحدة الأمريكية، بل لعلها زادت فى هذا الصدد على موقف قمة القاهرة من قضية الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ونقل سفارات الدول إليها (وهو موقف عام لا يتجه لدولة بعينها، إن فهم بوضوح أنه يوجه رسالة للولايات المتحدة الأمريكية بالذات) نقول لعلها زادت تعبيرها عن الاستياء البالغ من الاعتراض الأمريكى فى مجلس الأمن على مشروع قرار الحماية الدولية للفلسطينيين، ومع ذلك فانه بينما قوبلت قرارات قمة القاهرة ٢٠٠٠ بحماس ظاهر صادفت قرارات قمة عام ٢٠٠١ لا مبالاة واضحة إن لم يكن إحباطا حقيقيا !

لغة القوة الهمجية

وفى محاولة للتفسير الموضوعى لتلك اللامبالاة أو هذا الاحباط يمكن للمرء أن يشير الى أكثر من احتمال، ومن هذه الاحتمالات مثلا أن الموقف بالنسبة للصراع العربى - الاسرائيلى تطور بين القمتين على نحو يجعله فى احتياج لمقاربة مختلفة، فقد سقط باراك وجاء شارون الى الحكم بسياسة لا تعرف إلا لغة القوة الهمجية، ولعل الشعور الذى يخالج الرأى العام العربى هو أن قرارات قمة عمان أيا كان إعجابنا بأحكامها الأخلاقية والقانونية على السياسة الاسرائيلية تقصر عن التأثير الفعلى فى مجريات الأمور ، والواقع أن هذه معضلة حقيقية تواجهها مؤسسة القمة العربية كطليعة للنظام العربى، فهذا النظام قد ارتضى منذ ١٩٨٢ خيار التسوية السياسية مع إسرائيل، والواضح الآن أن هذا الخيار يواجه مأزقا حقيقيا، وأن هذا المأزق لايمكن الخروج منه إلا بفعل مؤثر، تماما كما خرج عبدالناصر من مأزق مشابه بحرب الاستنزاف، والسادات بحرب أكتوبر ١٩٧٣، والشعب الفلسطينى بانتفاضة أواخر الثمانينات، وحزب الله بنضاله المسلح فى الجنوب، ولذلك فإن

قمة عمان

إحباط الرأى العام العربى ونخبه السياسية والفكرية مبرر مادامت القمة العربية غير قادرة حتى الآن على أن تضع فى ساحة الفعل ما يفضى الى خروج عربى جديد من المأزق .

قرض حسن !

بل لعل هذا الإحباط قد زاد عندما اكتشف المتابعون والمراقبون أن قرارا مهما لقمة القاهرة كقرار دعم الشعب الفلسطيني وانتفاضته بمليار دولار قد تقلص الى خمسة عشر مليونا من الدولارات تقدم شهريا لمدة أربعة شهور للسلطة الفلسطينية «كقرض حسن» بالاضافة الى الموافقة على تقديم مائة وثمانين مليون دولار أخرى على مدار ستة شهور لم يشر صراحة فى القرارات الى طبيعتها، وان كان يبدو من نافلة القول أنها ستكون بدورها «قرضا حسنا» ، ناهيك عن أننا لم نسمع بعد ذلك شيئا عن أى تنفيذ فعلى لهذه القرارات الغريبة.

ويبرر البعض ذلك الموقف بأن الجهات المانحة لا تثق فى السلطة الفلسطينية، وحسن انفاقها للمساعدات التى تقدم لها، وبعبارة أكثر صراحة فإنها تعتقد بوجود فساد مستشر فى أوساط هذه السلطة وحدها، ولو طبق هذا المعيار على كل من يتلقى مساعدة لما حصل أحد على شيء والأهم من ذلك هو الظرف الاستثنائى للشعب الفلسطيني، وأننا نستأمن السلطة الفلسطينية على مستقبل القضية برمتها ، ولا نستأمنها على مليار دولار، ناهيك عن أن ايجاد نظام صارم للتأكد من انفاق المساعدات فى وجهها الصحيح ليس بالأمر الصعب .

***

وثمة سبب آخر للإحباط الذى تولد بعد قمة عمان يرتبط بما آلت اليه جهودها لتحقيق المصالحة العراقية - الكويتية ، والواقع أن هناك من كانوا يعترضون أصلا على معالجة القمة لهذا الموضوع الشائك على أساس أنه يحرف القمة عن الموضوع الذى ينبغى أن تركز اهتمامها عليه، وهو دعم انتفاضة الشعب الفلسطيني، وهو رأى ينطوى فى تقديرى على مفارقة منطقية، فكيف نتصور امكانية الحديث عن موقف عربى مشترك تجاه اسرائيل وفى داخلنا خلاف خطير، كالخلاف العراقى - الكويتى، يمكن أن يجر المنطقة فى أى وقت الى مواجهات غير محسوبة تؤثر بالتأكيد على قدرتها على

تبنى موقف موحد تجاه أى قضية.

خطوة إيجابية

غير أن معظم الاحباط الذى تولد فى هذا الخصوص كان مصدره اخفاق القمة فى التوصل الى صيغة للحل توافق عليها الكويت، والعراق، والواقع أن تقييم أداء القمة فى هذا الصدد لا يجب أن يتم بهذا القدر من التبسيط، فلا يجب أن ننسى أولا أن مجرد فتح ملف «الحالة العراقية - الكويتية» بغرض تحقيق مصالحة بين الطرفين، وببذل كل هذه الجهود من أجل هذا الهدف هو أمر إيجابى فى حد ذاته. ألم يعجز العرب عن عقد قمة لمدة قاربت ست سنوات مابين أغسطس ١٩٩٠ ويونيو ١٩٩٦ بسبب آثار الغزو العراقى للكويت؟ ألم تعقد قمة القاهرة فى يونيو ١٩٩٦ لمواجهة التداعيات الناجمة عن تولى ناتانياهو الحكم فى اسرائيل دون توجيه دعوة للعراق أصلا على أساس أن ذلك سوف يفجر القمة من داخلها، أو يحرمها أصلا من حضور دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وربما تلك المتحالفة معها أيضا؟ لماذا اذن - فى الاطار السابق - لا يعتبر انعقاد قمة القاهرة فى اكتوبر ٢٠٠٠ بحضور العراق خطوة ايجابية فى طريق المصالحة؟ ولماذا لا يعتبر فتح الملف وبحثه بجدية فى قمة عمان خطوة ثانية أكثر ايجابية بكثير، خاصة وقد كان ممكنا - كما تم فى حالات أخرى كثيرة - التوصل الى صيغة عامة تعتمد مبدأ «الغموض البناء» ولا تعنى شيئا فى واقع الأمر، والحق أن هذه النقطة تحديدا يجب أن تحسب لقمة عمان، ذلك أن الاخفاق المستتر أخطر بكثير من الاخفاق الصريح، فالأول ينطوى على رسالة بأن المشكلة قد حلت، ولا داعى لبذل مزيد من الجهود، بينما الثانى يضع الجميع أمام مسئولياتهم، وأحسب أن مؤسسة القمة مطالبة من الآن فى شخص رئيسها أو لجنة متابعتها أو فيهما معا بمتابعة الملف العراقى - الكويتى بجهد دءوب حتى نصل الى قمة بيروت ٢٠٠٢ - وهذا ممكن - قادرين على انجاز مصالحة حقيقية.

***

ويبقى من الغريب أن النهج الذى تعاملت به قمة عمان مع القضايا المتعلقة بمستقبل النظام العربى لم يثر نقاشا واسعا مع أنها كانت مؤهلة أكثر من أية قمة أخرى سبقتها - بحكم أنها أصبحت مؤسسة من مؤسسات الجامعة - لتناول هذا الموضوع المصيرى. والواقع أن القمم العربية قد اهتمت به منذ قمة القاهرة ١٩٦٤ التى قررت دورية اجتماع القادة العرب سنويا، وانتهاء بقمة القاهرة ٢٠٠٠ التى نجحت أخيرا فى إقرار هذا المبدأ فى ملحق اعتبر جزءا لا يتجزأ من ميثاق الجامعة، أى أن النظام العربى احتاج إلى ما يزيد على ثلث القرن كى يقر مبدأ دورية القمة، كما أن نفس المدة قد مرت دون أن

قمة عمان

تنشأ محكمة العدل العربية التى أشار إليها الميثاق فى مادته التاسعة عشرة، ومر كذلك ما يقرب من نصف القرن على محاولة إنشاء سوق عربية مشتركة فى ١٩٥٧ دون أن ننجح حتى الآن فى استكمال منطقة التجارة الحرة العربية، وما يقرب من ربع القرن على وثائق قمة عمان ١٩٨٠ الطموحة باتجاه التكامل الاقتصادى العربى.

وفى الإطار السابق - للأسف - ينبغى النظر بحذر لقرارات قمة عمان ٢٠٠١ والتى تحدثت على نحو طيب عن اتحاد جمركى عربى، ومؤتمر اقتصادى عربى، وزيادة لفعالية الجهاز الفنى للأمانة العامة لجامعة الدول العربية، وتطوير الجامعة ذاتها.. الخ، وكلها دون شك أمور طيبة يجب أن ينظر إليها فى ضوء تبنى عملية المتابعة بصفة عامة فى قرارات القمم العربية المتتالية.

***

لم تهدف السطور السابقة بالتأكيد إلى أن تزيد من حالة الاحباط التى شاعت فى الأوساط العربية فى أعقاب اختتام قمة عمان الأخيرة لأعمالها.. بالعكس لقد تضمنت دفاعا عن نهج القمة فى التعامل مع الحالة العراقية - الكويتية، وتفاءلت على نحو موضوعى بإمكان حسم هذه القضية فى خلال المدة المتبقية على انعقاد القمة العربية التالية، غير أن مؤشرات العجز عن تغيير الواقع الراهن فى الصراع العربى الاسرائيلى واضحة، ومهمة التغيير تكاد تكون موكلة على سبيل الحصر للشعب الفلسطينى وحده، كما أن اهتمام قمة عمان بمستقبل النظام العربى خلا كغيرها من القمم من حس المتابعة والنظرة الشاملة.

وثمة مسئولية واجبة على النخب العربية السياسية والفكرية والرأى العام العربى عامة فى أن يمارسوا جميعا ضغوطا على مؤسسة القمة العربية بالدراسات الجادة والرأى الموضوعى من أجل أن تكون أكثر جسارة ونجاحا فى مواجهة ما يعترض مسارها من تحديات، فبدون مثل هذه المدخلات غير الرسمية فى النظام العربى، والتى أثبتت جدواها غير مرة سوف تبقى مؤسسة القمة العربية متحررة من أية ضغوط تساعدها على الارتقاء بأدائها نحو مستقبل أفضل للنظام العربى. ■

أقوال معاصرة

● «أمامنا مشوار طويل قبل أن نستطيع اللحاق بمستويات الديمقراطية لمعظم الدول الديمقراطية»

جيمي كارتر الرئيس الأسبق للولايات المتحدة

● «الغبى هو ذلك الشخص الذى لم ينجح فى كسب المليون مارك الأولى».

المليونير ماركو ابن ديكتاتور صربيا السابق سلوبودان ميلوسوفيتش

● «الغضب أسوأ مستشار للانسان».

جورج سوروس
رجل الأعمال العالمي

● «بداخلى طاقة على العطاء فى الفن لا يتخيلها أحد»

الفنانة أمينة رزق

● «أعتقد أن الحياة لا تطاق، لو أصبح العالم بدون فن».

ستيفن سودربرج
المخرج الفائز بالأوسكار عن فيلمه خيوط التهريب

● «نمر بمرحلة نواجه فيها خطر فقدان ثراء وتنوع الثقافة العالمية أمام خطر التوحد المتشابه»

بيتر سكارليت
مدير مركز السينماتيك الفرنسي
ومدير مهرجان سان فرنسسكو سابقا

● «الريف هو مصدر الحياة، واليوم الحياة معرضة لتغيرات مرفوضة»

المخرج المجري بيلا تار
صاحب فيلم تانجو الشيطان

● «آن للمثقف الداعية أن يصمت، فلم تعد المرحلة تتحمل ثرثرته الببغاوية ومهاراته الكلامية».

المفكر المغربي عبدالاله بلعزيز

● «إذا كان عرفات إرهابيا.. فماذا يكون شارون .. الأم تيريزا؟»

العقيد محمد دحلان
رئيس جهاز الأمن الوقائي الفلسطيني
في رده علي اتهام شارون لعرفات بأنه إرهابي

● «انتخاب شارون رئيسا أحد أفظع الأمور التى حدثت فى تاريخ اسرائيل، وينذر شرا مستطيرا».

يوسي بيلين
وزير العدل في حكومة باراك



جيمى كارتر



جورج سوروس



امينة رزق



تنويعات على نغم الشر

بقلم

جميل مطر

لا أصدق أن القرن العشرين أسوأ القرون . لا أصدق لأنى لا أريد أن أقبل بدون مناقشة الحملة المتصاعدة من جانب المتشائمين الذين يزعمون أنه كان أسوأ القرون على الإطلاق. يقولون إنه فى هذا القرن وقعت مذابح درسدن ونانكنج وناجازاكى ورواندا والحل النهائى ومعسكرات سبيلا وسيبريا والقفزة الكبرى إلى الأمام ، ومن حقنا اضافة فلسطين وفيتنام والجزائر وربما أيضا كارثة الأرمن وفى هذا القرن تحرك ملايين البشر متحملين مخاطر جمة وآلاماً شديدة بحثاً عن معيشة أفضل أو حياة أكثر أمناً . أعرف أن الحقائق بالفعل مذهلة وتدعم الرأى القائل بأن المتشائمين بين المفكرين وصانعى الرأى كانوا أكثر عدداً وأشد إقناعاً من المتفائلين الذين بدأ انحسارهم الفعلى فى نهاية العصر الفكتورى نسبة إلى الملكة فيكتوريا فى أواخر القرن التاسع عشر .

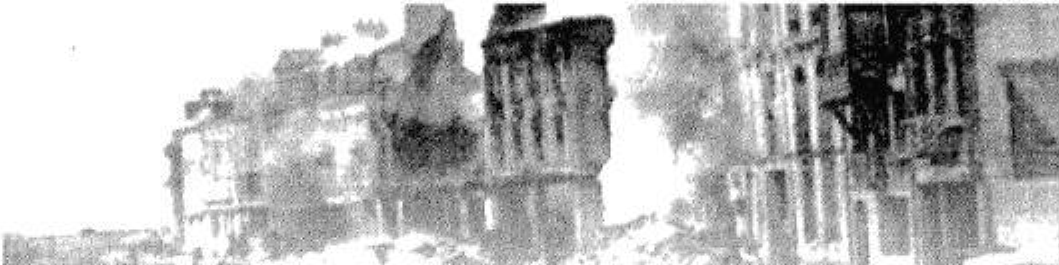


هتلر ستالين شارون ميلوسوفيتش

التأمل في هذا الجدل يثير قضايا مهمة آن أوان مناقشتها من جانب مفكري وصانعي الرأي في العالم غير الغربي . أقول هذا لأن التفاؤل والتشاؤم محوري الجدل هما في حقيقة الأمر متعلقان بالغرب . فالتفاؤل في القرن التاسع عشر جاء نتيجة لمرحلة توسع استعماري ورخاء اقتصادي وانتعاش علمي . ولذلك كانت الصدمة قوية عندما انتصرت اليابان على روسيا في مطلع القرن ولم تمض سنوات إلا واشتعلت الحرب العالمية الأولى التي ذهب ضحيتها عشرات الملايين من البشر. وبعد عقدين من انتهاء الحرب العالمية الأولى اشتعلت الحرب العالمية الثانية . تكفي هاتان الحربان لإثارة موجة من التشاؤم ، ناهيك عن أعمال الإبادة الجماعية . ولكننا لا نستطيع - ولا يجوز - التعميم فنقبل ما يقوله الغربيون عن القرن لمجرد أنهم هم الذين توصلوا إلى هذا الاعتقاد بعد مقارنة هذا القرن بقرن آخر كانوا فيه أسعد حالاً . القرن التاسع عشر الذي تفاءلوا فيه لأنهم توسعوا وهيمنوا هو نفسه القرن الذي عمت التعاسة فيه شعوب إفريقيا وآسيا لنفس السبب الدافع للتفاؤل في الغرب .. وهو الاستعمار والهيمنة الغربية .

قرن الإبداع والتقدم التكنولوجي

إلا أن الجدل القائم - رغم أنه غربي الدوافع والظواهر والممارسة - يمسنا مباشرة ، وستزداد أهميته النسبية لنا ، خاصة أن الأسباب التي دفعت الغرب إلى التشاؤم في القرن العشرين مازالت قائمة في القرن الحادي والعشرين . فالفجوة بين أغنياء العالم وفقرائهم تزداد اتساعاً ونوع



الفقر يزداد توحشا والسلاح الصغير يزداد وفرة وأسلحة الدمار الشامل تتنوع وتتزايد انتشاراً والحروب الأهلية لم تتوقف أو تقل عدداً . إن أى تحليل جاء بالتغييرات فى خريطة العنف فى العالم سوف يثبت أنه خلال عقدى الثمانينيات والتسعينيات نشبت حروب أهلية أكثر عدداً من تلك التى نشبت فى عقود أسبق . ففى هذين العقدين وحدهما نشبت حروب أهلية ، أو كانت ناشبة ، فى الصومال والسودان والجزائر والسنغال ونيجيريا وطاجكستان واليمن وأفغانستان وباكستان والفيلبين وأندونيسيا وكولومبيا ورواندا وأنجولا وسريلانكا وأندونيسيا والهند (كشمير) ، وفتن وصراعات طائفية وعرقية فى عدد آخر من الدول . كاد يصدق قول أحدهم أن الحرب تثير الغرائز والسلام يطفئها . ولذلك كان القرن فائراً وعامراً بالإبداع والتقدم التكنولوجى . ولا رد على هذا القول أفضل من إعادة الاطلاع على قائمة الدول التى انشغلت بالحروب . فباستثناء أوربا وأمريكا الشمالية ، لايبدو أن دولة أخرى استفادت من اشتعال غرائزها فأبدعت .

وفى وسط الجدل الدائر حالياً حول العنف وفلسفته ومنظومته الأخلاقية (أو اللا أخلاقية) .. صدر كتاب لجوناثان غلوفر بعنوان .. «الإنسانية .. تاريخ أخلاقى» يحكى تاريخ فظائع ارتكبها البشر خلال القرن العشرين ، ويقدم القصة الحقيقية لما يسمى بالحروب العادلة والحروب الضرورية ، وقائمة بالمشروعات القومية والاجتماعية العملاقة التى زهقت فى سبيل تنفيذها ملايين الأنفس . أما أهم ما يناقشه الكتاب فيدور حول السؤال المحورى الذى حارت الأجيال بين الإجابات - أو اجتهادات الإجابة - عنه ونصه يمكن أن يصاغ كما يلى «هل مسموح أن نقتل أبرياء فى سبيل إنقاذ حياة أبرياء ولكن أكثر عدداً ، مثل أن نقتل أبرياء فى سبيل إنهاء حرب لو استمرت لزهقت أرواح عدد أكبر من الناس» . ويقف وراء هذا السؤال ، عشرات الأسئلة . يتصدر هذه الأسئلة السؤال المتعلق بالعلاقة بين الإنسان والشر إذ سادت بين المفكرين على مدى القرون حكمة تقول إنه لاتوجد علاقة حتمية بين الاثنين أى أن الشر ليس إحدى طبائع البشر التى تنشأ مع الإنسان وتبقى به مدى حياته . إنما الشر تصنعه المؤسسات



التى يصنعها الإنسان ومنها المؤسسات السياسية . وقد تبنت اليونسكو هذه الحكمة وأصدرت إعلانها المشهور الذى استند إلى الحجة بأنه «غير صحيح علمياً أن الحرب أو غيرها من السلوكيات الحقيقية التى يمارسها البشر مبرمجة وراثياً فى طبيعتنا البشرية» .

صراع الموارد والوحوش

ويأتى غلوفر فى هذا الكتاب الجديد ليرفض كلمة الأزمنة وإعلان اليونسكو ويقول إنه إذا نظر الإنسان بتمعن فى داخله لوجد شيئا قبيحا ، أو وحشاً صغيراً قابعاً فى ركن من أركان جسده . ولا يحاول غلوفر بهذا الادعاء ، أو الدعوة نشر التشاؤم أو دعمه ، ولا إنعاش الأفكار والمبادىء الفاشية والنازية . إنما يحاول حسب قوله - أن يدفع كلاً منا لنبذل جهداً لقمع هذا الوحش أو ترويضه .. وغلوفر متأكد أن الإنسان قادر على الانتصار على هذا الوحش لأن كلاً منا فى داخله عدد لايحصى من الموارد الأخلاقية ، وعادة ما يستنفرها هذا الوحش القابع فى داخلنا كلما تحرك . وما التاريخ الإنسانى إلا صراع بين هذه الموارد الأخلاقية وهذه الوحوش .

أما الوحوش فهى الأنانية المتطرفة والسادية والاستمتاع بأحاديث ومشاهد العنف وخاصة القتل ، وتقاليد القبيلة أو العشيرة التى تضع مقام الجماعة فوق الفرد وتسمح للعداوات والضغائن بين الأشخاص لتتحول حروباً عمليات إبادة . ومن الوحوش اقتناع الأفراد بأن فى الاقتتال بين الشعوب ضرورة للتقدم ، وما يعرف بمصيدة هوبز ، أى الرغبة فى شن الهجوم على الجار قبل أن يبدأ هو فى الهجوم .. تحت مسميات الردع وخلافه . ثم انظر إلى هذه القيم الجديدة التى تنتشر بسرعة تكاد تكون خيالية . ففى رواية عن مصنع فاشل فى روسيا ، يقول مدير المصنع «لا أعرف كيف حدث هذا . (أى الفشل) أنا لا أسرق وأفلس مصنعي، وجارى يسرق ومصنعه مزدهر» . أو تأمل فى الحكمة الروسية القائلة بأن «الشعب الذى تعاطف مع إيفان المرعب لاتتوقع منه خيراً» . وكما أن الوحوش كثيرة فالموارد الأخلاقية أيضاً كثيرة ، ومنها التماهى مع الغير والتعاطف معه والاحترام ، ومنها عزوف الإنسان عن قتل إنسان هارب ، وتوقف الجنود فى ساحات القتال فجأة عن إطلاق النار على الأعداء . ومن الموارد



أيضاً الهوية الأخلاقية ، أي احترام الذات والنفس واستنفار الضمير ، ويشترك في صنع هذه الهوية الدين والثقافة الموروثة والمكتسبة وتقاليد المهنة أحياناً (مهنة الطب مثلاً) .

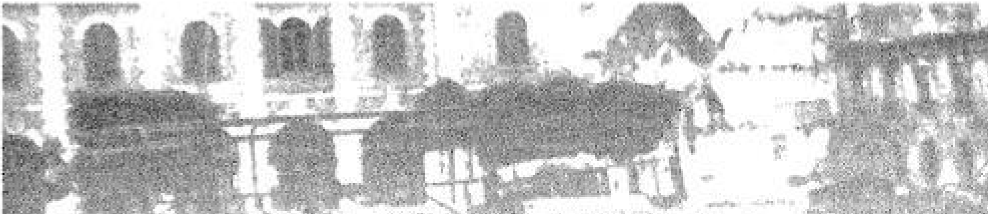
عجز الموارد الأخلاقية

ويلاحظ غروفر أن معظم شرور القرن العشرين مورست عندما أصيبت الموارد الأخلاقية بالعجز صدفة أو عن عمد ، ويلاحظ أيضاً أن معظم الفظائع التي ارتكبت جاءت مصحوبة برغبة متعمدة في الإهانة والتحقير ، وأن أموراً مثل التكنولوجيا تلعب دورا في زيادة أو انخفاض دور الشر عند الأفراد . ويضرب مثلاً بالطائرة والصواريخ التي أضعفت بشدة العطف كواحد من أهم الموارد الأخلاقية . فالعطف ينشأ ويتدعم بالاقتراب بين شخصين أو بين شخص وضحيته فتنحسر المسافة بينهما . فما بالنا بحالة الطيار أو الخبير العسكري الجالس أمام أزرار تطلق الصواريخ ، الذي لايرى ضحيته وجهاً لوجه ، بل وقد لايعرف عنه شيئاً . لايعرف إن كان طفلاً أم شيخاً أم شاباً ، وإن كان متزوجاً وعنده أطفال ، وإن كان يبادله الكراهية والعداء ، أو حتى قادراً عليهما .

والهوية الأخلاقية ، مثلها مثل أي هوية أخرى ، ليست ثابتة أو دائمة ، إنما تتغير ، بل وتزول فليس كل البشر قديسين ولن يكونوا . والمعروف أن الإنسان يكتسب هويته الأخلاقية ، أي يتعاطف مع أقرانه ويحزن لمصائبهم ويشاركهم أفراحهم من خلال وجوده وإختلاطه بجماعة بعينها . فإذا انهارت أخلاقيات الجماعة انهارت موارده الأخلاقية أو شحت . وقد يكون الفساد المثال الأبرز . إذ أنه حين يسود الفساد في جماعة ويصبح قيمة في حد ذاته تحت أي مسمى آخر يصير الإنسان ، عضو هذه الجماعة ، قابلاً للفساد مهما تعددت موارده الأخلاقية أو تعمقت . ولا يخفى أن في مصر الآن موجة جارفة من العبارات والشتائم البذيئة يتبادلها أفراد المجتمع في حياتهم العادية ، في مناسبة أو بغير مناسبة . مثل هذه الموجة كافية لتجرف أمامها كل أو معظم الموارد الأخلاقية عند المواطن العادي . وتجعله يتحول إلى ذرة من ذرات الانهيار الجماعي.

أزمة عالمية شديدة

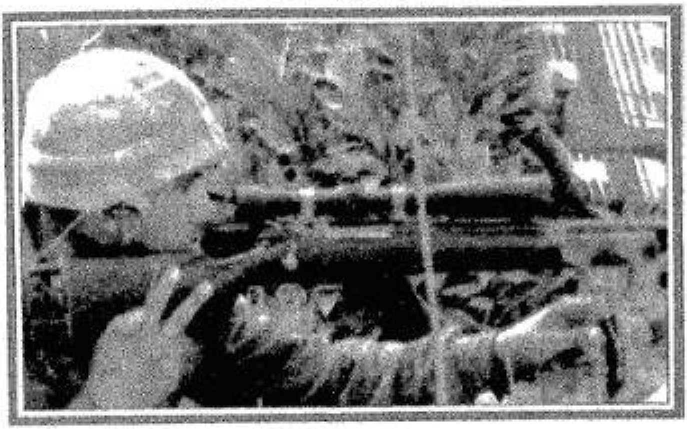
وكما أن الجماعة أو المؤسسة قادرة



على غرس الشر ودفع الإنسان لارتكابه أو ممارسته ، فإنها بنفس المنطق تستطيع كبح جماح الشر ، خاصة إذا كان على رأس الجماعة زعامة أو قيادة واعية لنوعية هذا الشر ومدى الخطر الذى يمثله لو ترك . يحكى مثلاً أن جون كينيدى تلقى من خرشوف ذات يوم عصيب من أيام أزمة عالمية شديدة تسبب فيها الاثنان أو الدولتان الأعظم ، رسالة جاء فيها ما معناه «أنت وأنا يجب علينا ألا نشد نهايات الحبل الذى ربطنا فى نهايته عقدة الحرب .. لأنه كلما اشتد ازدادت العقدة إحكاماً ، وقد يأتى يوم تصبح العقدة شديدة الإحكام إلى درجة يعجز عندها الفرد الذى عقد العقدة عن حلها . عندئذ يجب قطعها عن الحبل» . هذان الزعيمان تعرفا على موقع الشر وعلى طبيعته وسببه ، ولذلك كانا معاً الأقدر على إيقافه فى الوقت المناسب . وهو ما يؤكد أن الشر ينشأ على أيدى زعماء وقادة مجتمع وسياسيين وبإرادتهم . ويكاد مؤلف الكتاب يذهب فى اتهامه هذا إلى حد التلميح بأن أغلب الزعماء السياسيين يتسمون بغلظة القلوب وقسوتها ، أى أنهم يفتقرون إلى موارد أخلاقية كثيرة ، وربما كان هذا الافتقار شرطاً من شروط التأهل للقيادة ، أو لعله أول «مكتسب» يكتسبه الفرد بعد تقلده المنصب القيادى أو السياسى .

★ ★ ★

ألم يكن قائداً شريراً هذا الذى قرر أن يغير اسم أكبر سجن فى الأورجواى ليصبح «سجن الحرية» ، أو الآخر الذى أطلق على أكبر معسكر اعتقال فى شيلى اسم «معسكر الكرامة» ، أو الثالث الذى قرر أن يكون أشد سجون بلاده سوءاً وظلماً هو «سجن النهاية» . ثم ألا توجد قسوة متعمدة فى أن يصر رئيس جمهورية على أن تستخدم أجهزة إعلامه وصف الحالة متحدياً إرادة التغيير والموارد الأخلاقية للمجتمع ، أو يختار اسماً فيه كثير من التعالى أو العنف مثلما فعل الأمين العام الأسبق والأشهر للحزب الشيوعى السوفييتى حين اختار لنفسه اسم ستالين ومعناه رجل من الصلب ، وحين اختار زميل له اسم كاميتيف أى رجل من الحجر . والتاريخ حافل بقادة وسياسيين من نوع نيرون وهتلر وأريل شارون .. أبدعوا فى ابتكار تنويعات على نغم فضلوه .. ورددوه وطوروه فكان .. نغم الشر . ■



الأبحاث والدراسات تؤكد:

كراهية الإسرائيليين للعرب!!

بقلم
د. أحمد أبو زيد

في عدد سبتمبر عام ١٩٩٩ من (تقرير واشنطن عن شئون الشرق الاوسط) نشرت الكاتبة الصحفية مورين ميهان مقالاً عن الكتب الدراسية، وكتب الأطفال في إسرائيل وكيف أنها تساعد على اشعال النزعات العرقية ومشاعر الكراهية ضد الفلسطينيين والعرب. وقد اعتمدت في كتابة المقال على ملاحظاتها الشخصية وعلى عدد من الدراسات الميدانية والبحوث الاكاديمية التي أجراها باحثون وعلماء إسرائيليون قاموا أثناءها بفحص وتحليل مادة الكتب المدرسية وبخاصة كتب التاريخ والأدب العبرى.

وانتهوا من دراساتهم وبحوثهم إلى أن هذه الكتب تغرس فى نفوس الاطفال اليهود منذ سن مبكرة الخوف والحقد والكراهية والاستعلاء إزاء العرب الذين تصفهم هذه الكتب بأقبح الصفات ابتداء من القذارة والكسل، مرورا بالكذب والنفاق والجشع والخيانة، وانتهاء بالميل الى العنف والإرهاب والقتل وسفك الدماء لدرجة انهم كثيرا ما يلجأون الى اختطاف الاطفال اليهود الصغار وقتلهم لإشباع رغباتهم العدوانية البعيدة عن كل القيم الانسانية الرفيعة. وتذهب الكاتبة الى أن الهدف من اتباع هذا الأسلوب فى الكتابة عن العرب بعامة وعن الفلسطينيين بخاصة وإلحاق كل هذه الصفات السلبية بهم وإظهارهم بهذه الصورة الكريهة المتدنية هو إشاعة الخوف من الإنسان العربى والشك فى نواياه، وبالتالى الحض على ضرورة اتخاذ موقف الحيطة والحذر والعداء إزاءه طيلة الوقت بحيث يصبح ذلك جزءا أساسيا فى الثقافة الإسرائيلية. كذلك تذكر أن بعض مؤلفى هذه الكتب اعترفوا صراحة للباحثين بأنهم يتعمدون اللجوء الى هذا الأسلوب فى الكتابة حتى يمكن للأجيال التالية من اليهود ان يعدوا أنفسهم الإعداد اللازم للتعامل مع (الأعداء) فى المستقبل !.

نظرة العرب لليهود

وقد لا تختلف نظرة العرب الى اليهود فى إسرائيل اختلافا كبيرا عن رأى اليهود فى العرب. وهذا أمر طبيعى ومفهوم فى ظروف العداء المتبادل والناشىء فى الأصل عن سلب اليهود وطنا كاملا من العرب ثم وقوفهم موقف الغطرسة والتعنت من كل المحاولات لإيجاد تسوية (مُرضية) وإن تكن مجحفة للطرف الضعيف. ولكن الخطير هنا هو عملية تنشئة الأطفال اليهود منذ الصغر على الكراهية والشك، وإقامة الثقافة الإسرائيلية بالنسبة للأجيال التالية على أسس سلبية إزاء العرب وافتراض استمرار العداوة حتى ولو أمكن الوصول الى مثل تلك التسوية. ومما يلفت النظر فى هذه الكتب المدرسية على ما تقول مورين ميهان نفسها الإلحاح الشديد على حكاية التجاء العرب إلى خطف الأطفال اليهود وقتلهم . وقد يكون فى هذا الزعم - وهذا فى رأيى أنا - شىء من محاولة التبرير الاخلاقى - أو اللاأخلاقى - لتعمد الإسرائيليين انفسهم قتل أطفال الحجارة الفلسطينيين - وليس فقط الحاق الإصابات غير القاتلة بهم - وكذلك الاغارات الإسرائيلية على المدارس وقتل التلاميذ الصغار سواء فى لبنان (مذبحة قانا) أو فى مصر (مذبحة مدرسة بحر البقر الشهيرة) والتى كان أبرزها من حيث حجم اهتمام الإعلام العالمى بها هو قتل الطفل محمد الدرّة وهو يحتمى بأحضان ابيه مما أثار ولو إلى حين ضمير العالم قبل أن يعود

كـراهيـة الإسـرائيليين للعـرب

ذلك الضمير الى الاسترخاء، ربما بفعل الدعاية الصهيونية المضادة .

وتاريخ اليهود في كثير من البلاد مليء بالاخبار عن حوادث القتل التى قام بها اليهود عمدا ضد الاطفال غير اليهود بالاخص الاطفال المسيحيين . وقد شاعت فى مصر منذ سنوات طويلة بعض الحكايات عن اختطاف اليهود اطفال الاقباط بالذات وقتلهم واستخدام دمائهم فى صنع الفطائر اللازمة للاحتفال ببعض اعيادهم الدينية . وانتشار هذه الحكايات فى بلد مثل مصر حيث كان اليهود يعيشون فى وئام مع بقية فئات الشعب المختلفة لا يمكن ان يكون صادرا عن مشاعر معادية للسامية، وأنه قد يكون من المحتمل وجود أسباب موضوعية وراء هذه الحكايات التى كانت تؤلف على أى حال جزءا من الثقافة الشعبية فى ذلك الحين ، دون أن يكون هناك ما يؤيدها . ولكن إذا صدقتنى الذاكرة فإن المؤرخ الاستاذ الدكتور يونان لبيب رزق اشار فى بعض مقالاته الشائقة فى الأهرام إلى بعض الحوادث التى وقعت فى مصر فى القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين وأمكن تحديد الحاخام اليهودى الذى ارتكبها . ولذا فإن الأكثر احتمالا ان يكون هناك سبب متعلق ببعض المعتقدات اليهودية الشعبية وراء ارتكاب هذه الجرائم - إذا صدقت الأخبار - ضد الأطفال المسيحيين . وهذا هو على أية حال ماتؤكده معظم الكتابات الأجنبية التى تعرضت لهذا الموضوع والتى تشير الى وقوع احداث مماثلة فى الدول الأوربية وتضعها كلها تحت ما تسميه (القتل الشعائرى للأطفال) .

جرائم بشعة

ويبدو أن وقوع هذه الاحداث مسألة قديمة وأن اتهام اليهودية بارتكاب هذه الفظائع ضد الأطفال يرجع الى عدة قرون خلت . ولكن اول حادثة امكن إثباتها فى بريطانيا بالدليل القاطع يرجع إلى عام ١١٤٤ فى نوريتش وإن كان اشهر حادث اثار الرأى العام فى بريطانيا بحيث اعتبر الطفل القتيل من القديسين الشهداء كان فى عام ١٢٥٥ فى لينكولن ، وتعرف الجريمة باسم (مقتل القديس هيو الصغير) لأن الطفل الضحية خضع لعمليات التعذيب الشديد واستنزاف كل دمائه من جسمه قبل قتله ودفنه. وكانت هذه الحوادث الكثيرة سببا فى نفي اليهود من بريطانيا أيام الملك ادوارد الاول عام ١٢٩٢ . وفي كل هذه الأحداث كان يتم ختان الطفل ثم صلبه وإحداث بعض الجروح الغائرة العميقة فى انحاء معينة من الجسم مثل قطع الشرايين فى الصدغ الأيمن فى ثلاثة عشر

موضعا وفي الصدغ الايسر فى سبعة مواضع فقط وهكذا . ثم قتل الضحية بعد الحصول على آخر نقطة من الدماء فى الجسم ودفن الجثة بعد ذلك فى مكان بعيد عن المكان الذى ارتكبت فيه الجريمة. وفى حالة مقتل (القديس هيو الصغير) التى حدثت عام ١٢٥٥ امكن القبض على واحد وتسعين يهوديا بتهمة المشاركة فى العملية الشعائرية بشكل أو بآخر. وحكم بالاعدام على ثمانية عشر شخصا. ورفض الملك هنرى الثالث الصفح عن أى من رجال الدين الذين شاركوا فى تنفيذ العملية.

نظرة اليهود لأنفسهم ولغيرهم

وثمة جرائم كثيرة مشابهة يعتقد أن اليهود ارتكبوها ضد الاطفال المسيحيين فى مناطق مختلفة، من أوربا فى فترات مختلفة وتم اكتشاف بعضها فى اوائل القرن العشرين كما ان هناك أحداثا أخرى مماثلة حدثت فى روسيا قبل الحرب العالمية الاولى وفى المانيا حتى قدوم الحزب النازى الى الحكم وإن لم يكن تحديد مرتكبى هذه الجرائم أو نسبتها الى أشخاص معينين بالذات، ولذا كانت تلك الجرائم تنسب الى الطائفة اليهودية ككل والى رجال الدين اليهود بالذات. ومن الطبيعى ان يحاول اليهود الدفاع عن انفسهم ورد تلك الاتهامات الى المزاعم التى يثيرها المتطرفون المسيحيون واعداء السامية ضد اليهود بل انهم لم يترددوا فى اتهام ملوك بريطانيا انفسهم باختراع تلك المزاعم لابتزاز اليهود واستنزاف أموالهم . كلما تعرضت البلاد للأزمات الاقتصادية .

انما قد يكون لهذه الممارسات الشعائرية - لو صدقت . بعد آخر يتعلق بنظرة اليهود الى انفسهم وإلى الآخرين وبالاختلافات الجوهرية من وجهة نظرهم بين جسم الإنسان اليهودى وروحه واجسام غير اليهود وأرواحهم ، وهى نظرة تعبر عنها الايديولوجيات المتطرفة التى توجه الحركات الاصولية فى اسرائيل وتضع مبادىء اساسية للتمييز بين الالتزامات الاخلاقية ازاء اليهود وازاء غيرهم من اتباع الاديان والعقائد الأخرى. وتحمل كثيرا من الاستعلاء الذى يقرب من الاحتقار والازدراء لهؤلاء (الاغيار) لدرجة أن أحد هؤلاء الحاخامات الأصوليين فى إسرائيل وهو الحاخام كول يذهب إلى حد القول إن (الاختلاف بين روح الانسان اليهودى وارواح غير اليهود جميعا وعلى كافة المستويات اوسع وأعمق بكثير جدا من الاختلاف بين الروح البشرية وارواح البهائم .

حياة اليهودى لها قيمة مطلقة

وثمة اعتقاد بين بعض الفرق الدينية اليهودية فى أن الله خلق العالم كله فى الاصل من أجل اليهود وحدهم، وأن خلق غير اليهود من البشر كان مسألة ثانوية فحسب وأن من الصعب اجراء أى نوع من المقارنة بين الانسان اليهودى وغيره من البشر لأن الاثنين

كراهية الإسرائيليين للعرب

ينتميان الى فصيلتين أو حتى نوعين مختلفين تمام الاختلاف من الكائنات الحية لأن خلايا جسم الإنسان اليهودى فيها عنصر (الهى) لا يتوافر فى خلايا الآخرين، وأن الاولويات يجب أن تعطى دائما فى كل الاحوال لليهودى على غيره من الناس مهما ارتفعت منزلتهم ومكانتهم ،الدرجة انه إذا تعرض شخصان للغرق وكان احدهما يهوديا والآخر من (الاغيار) فإنه يجب البدء بانقاذ اليهودى حتى وإن كان الشخص الآخر اقرب الى الخطر والموت، وأنه فى حالة المريض اليهودى الذى يحتاج انقاذ حياته الى استبدال كبد سليم بالكبد المريض فإنه يمكن (قتل) أى شخص برىء يتصادف وجوده وانتزاع كبده لإنقاذ حياة الشخص اليهودى وهكذا . فحياة الانسان اليهودى لها قيمة مطلقة .

القتل وسيلة حياة

مثل هذه الأفكار المتطرفة التى تجد لها سندا من المعتقدات اليهودية قد تصلح اساسا لفهم اسباب ارتكاب اليهود فى اسرائيل جرائم القتل الوحشية ضد العرب وضد المسلمين حتى اثناء الصلاة وفى دور العبادة على ماحدث فى حادثة قتل المصلين فى الاقصى على يد اليهودى الإسرائيلى الامريكى الاصل باروخ جولد شتاين، والتى راح ضحيتها ثلاثون شخصا ولقى عمله الثناء من الحاخام اسحاق جنزبرج، كذلك قد تصلح هذه الافكار لتفسير تلك القسوة البالغة النابعة من الكراهية العميقة التى تدفع الجيش الإسرائيلى الى تعمد قتل اطفال الحجارة ، فالمعتقدات اليهودية تبرر هذا السلوك وتدعو اليه كوسيلة للمحافظة على حياة الإنسان اليهودى عن طريق إبادة الآخرين دون النظر الى أية اعتبارات انسانية أو أخلاقية . وفى ضوء هذه الافكار والمعتقدات لا يعتبر الاستيلاء على أرض فلسطين مجرد نوع من السرقة او السلب لوطن يملكه غير اليهود، وإنما هو فى آخر الامر نوع من التطهير للأرض وتمجيدها وتقديسها وتخليصها من المجال الشيطانى ونقلها الى المجال الإلهى .. حسب هذه المعتقدات .

وإزاء هذه الافكار لابد من أن نتساءل : أى نوع من السلام يمكن أن يتوقعه العرب مع الإسرائيليين الذين يلعب رجال الدين المتعصبون دورا مهما فى الحياة اليومية والسياسية على السواء، وهل يمكن التعايش مع مجتمع يؤمن فريق كبير من اعضائه بأنهم خلقوا من عناصر إلهية ينفردون بها دون بقية البشر الذين هم - فى رأى بعض رجال الدين اليهودى المتطرفين اقرب الى البهائم ؟ . ■

مستقبل الجامعة العربية

بقلم
عبدالرحمن شاكر

فى منتصف هذا الشهر، مايو سنة ٢٠٠١، تنتقل مسئولية الأمين العام لجامعة الدول العربية إلى السيد عمرو موسى، بقرار من مؤتمر القمة العربية الدورية الأولى التى انعقدت منذ أسابيع فى عمان، ويصحبها تكليف هو الأول من نوعه للأمين العام الجديد لجامعة الدول العربية، بأن يضع خطة لتطوير الجامعة وأساليب عملها!.



هناك إذن إقرار من كافة الدول التي تضمها الجامعة بأنها قد تقادمت وأصبحت بحاجة الى التطوير، كان أوله، والذى اتفق عليه فعلا، هو إقرار أن تنعقد قمتها بصفة دورية، كل عام على الأكثر، أسوة بسواها فى المنظمات الاقليمية، مثل منظمة الوحدة الأفريقية، والمؤتمر الإسلامى.

والحديث عن تطوير الجامعة العربية والحاجة إليه ليس بجديد، بل يثور كلما ثارت أزمة يتبدى فيها عجز الجامعة وأساليبها عن التحرك الفعال لعلاجها، وأصبح الحديث عن الحاجة إلى نظام عربى جديد، يتخطى الجامعة أو أوضاعها الحالية، يتردد فى أرجاء الوطن العربى.

فمن المعروف أن قرارات الجامعة العربية، لابد وأن تصدر بالاجماع، لكى تلتزم كل دولة من الدول المكونة لها بهذا القرار. وليس هناك قوة إلزام لدى الجامعة لأى من أعضائها، سوى اقتناع هذا العضو بتنفيذ ما اتفق عليه، أو الاستمرار فى تنفيذه، فإذا عدل عن ذلك، فلا يواجهه إلا اللوم الأدبى من جانب باقى الأعضاء!

كان هناك اقتراح قديم من ملك الأردن الراحل الملك حسين، بأن تكون قرارات الجامعة بالأغلبية، ولكن لم تتم الاستجابة لهذا الاقتراح، اقرارا بالواقع الذى يتمثل فى كون الأغلبية العددية لاتتوفر إلا للدول الصغرى فى الجامعة، سواء من حيث عدد السكان، والقوة العسكرية والاقتصادية والوزن الحضارى لها ، بحيث تصبح دولها «الكبرى» تحت رحمة تلك الأغلبية!

تاريخ من الفشل

كانت القضية الكبرى التي واجهتها جامعة الدول العربية بعد سنوات قلائل من إنشائها هى قضية فلسطين، التى صدر قرار بتقسيمها من الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٧، وانسحب منها الانتداب البريطانى فى عام ١٩٤٨، وأعلنت دولة اسرائيل فى العام ذاته، وقررت الدول العربية شن الحرب على العصابات الصهيونية فى فلسطين لمنع تنفيذ قرار التقسيم وانقاذ عروبة فلسطين ولكن الجيوش العربية منيت بالهزيمة فى تلك الحرب، بعد موافقتها على اتفاقية للهدنة، تدفقت خلالها الأسلحة على العصابات الصهيونية، التى خرقت الهدنة وشنت هجومها المعتاد على الجيوش العربية، وعقدت فى عام ١٩٤٩ اتفاقية جديدة للهدنة توسعت فيها الدولة الصهيونية الى أكبر بكثير مما كان قد قرره لها قرار التقسيم، الذى رفضه العرب وقت صدوره.

وبدأت مرحلة جديدة فى المنطقة العربية بقيام ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ فى مصر، وكان من أهم أسبابها الهزيمة التى سببها النظام الملكى السابق فى حرب فلسطين. وتبعتها سلسلة من الانقلابات العسكرية، أو الثورات المماثلة

فى عدد من الدول العربية، منها العراق وليبيا والسودان، وعملت ثورة ٢٣ يوليو على مساعدة الأقطار العربية التى كانت تحت الاحتلال الاستعمارى على التحرر من ربقته، وكانت كل دولة عربية تستقل يتم إلحاقها بجامعة الدول العربية فور طلبها ذلك حتى بلغ عددها حاليا اثنتين وعشرين دولة بعد أن بدأت عام ١٩٤٥ بسبع دول فحسب.

ولكن بقدر ما تزايد عدد الدول العربية المنضمة إلى الجامعة فى تلك الحقبة، إلا أنه شأنها فى الأوضاع العربية لم يتجاوز حد تسجيل عروبة الدول التى تنضم إليها! كان المشروع القومى الذى تتطلع إليه الجماهير العربية فى ذلك الحين، هو الوحدة العربية الكاملة، التى تستطيع أن تقهر العدو الصهيونى وأن تبنى دولة عربية موحدة كبرى، تستطيع أن تضاهى القوى الدولية العظمى فى العالم.

كانت مصر فى عهد جمال عبدالناصر هى رائدة هذا المشروع القومى الوحدوى الكبير. ورغم اخفاق تجربة الوحدة الأولى بينها وبين سوريا، إلا أن المشروع لم يتبدد، بل انقسمت حوله الدول العربية التى يضمها لواء الجامعة، خصوصا مع ارتباطه بالتوجه الاجتماعى الذى تمثل فى تطبيق صورة من التحول الاشتراكى، على غرار ما كان حادثا فى الاتحاد السوفييتى السابق والمنظومة الاشتراكية فى آسيا وشرق أوربا. وانقسم العالم العربى الى جبهتين: إحداهما ثورية ذات نزعة وحدوية اشتراكية، والأخرى محافظة ذات نزعة اقليمية متمسكة بالاقتصاد الحر أو الرأسمالى الطابع.

وأوشكت الجامعة العربية فى تلك الفترة أن تصبح غير ذات موضوع، اللهم بعض اجتماعات تتم فيها المعارك الكلامية بين الفريقين، حتى أفاقت على وقع الهزيمة المنكرة أمام العدو الصهيونى فى عام ١٩٦٧.

بدء عهد القمم

كان جمال عبدالناصر هو ذاته الذى دعا إلى عقد مؤتمر القمة العربى الأول فى الخرطوم بعد تلك الهزيمة، وفيها تمت


الرئيس عبد الناصر


الملك حسين


عمرو موسى

المصالحة بين الجبهتين الثورية والمحافظة فى العالم العربى لمواجهة كارثة الهزيمة، وتراجع المشروع الوحدوى الى حد كبير، وذلك لان مصر، وعدداً من الدول العربية الأخرى، أصبحت تواجهها مهمة وطنية جديدة هى «ازالة آثار العدوان» بما يعنى استرداد أراضيها التى احتلها العدو الصهيونى عام ١٩٦٧. وأصبحت على استعداد لقبول تسوية سلمية عن طريق الأمم المتحدة، مادامت تكفل لها استرداد أرضها المحتلة!

وتلكأت محاولات التسوية المنشودة رغم صدور قرارات بشأنها من الأمم المتحدة أهمها قرار ٢٤٢ الذى يقضى بانسحاب اسرائيل من الأراضى العربية المحتلة فى عام ١٩٦٧، حتى وقت حرب اكتوبر عام ١٩٧٣، بمبادرة من مصر وسوريا ، وبدأت بعدها مفاوضات جديدة للتسوية لم تفلح أى منها ، الا بعد توقيع مصر معاهدة صلح مع اسرائيل، استردت بموجبها أرضها المحتلة فى سيناء، ولكنها عوقبت من جانب سائر الدول العربية باتفاقها على تعليق عضوية مصر فى جامعة الدول العربية، ونقل مقر تلك الجامعة الى تونس، إلى أن لقى الرئيس السادات مصرعه فى عام ١٩٨١، وتولى بعده الرئيس الحالى محمد حسني مبارك الذى استطاع تحقيق المصالحة مع سائر الدول العربية وإعادة مصر الى الجامعة العربية، وإعادة مقر هذه الأخيرة الى القاهرة.

التجمعات الاقليمية.. ونكبة أخري

وبعد العودة المذكورة بدأت مرحلة من التجمعات الاقليمية فى عدد من الاقطار العربية المتقاربة جغرافيا والمتشابهة فى أوضاعها الداخلية، كان أهمها وانجحها هو مجلس التعاون الخليجي، ومحاولة ماتزال تتعثر حتى الآن للاتحاد المغاربى، أو ما يسمى بالمغرب الكبير.

ولكن فى الوقت ذاته شهد العالم تحولات دولية كبرى، منذ عام ١٩٨٥، حينما تولى ميخائيل جورباتشوف منصب السكرتير العام للحزب الشيوعى السوفييتي، فشرع يطبق ما سماه «البريسترويكا» او اعادة البناء» بدءا من اقرار الديمقراطية فى الاتحاد السوفييتى، بدلا من ديكاتورية الحزب الواحد، الى محاولة استدخال اقتصاد السوق على طريقة لينين فى «السياسة الاقتصادية الجديدة» وانسحاب الجيوش السوفييتية من افغانستان ومن دول شرق أوربا وسقوط حائط برلين، وإعادة توحيد ألمانيا، وانتهاء الحرب الباردة وسباق التسلح بين المعسكرين، حتى وصل الأمر إلى حل الاتحاد السوفييتى ذاته، وانتهى الانقسام الايديولوجى فى العالم، وأصبحت الديمقراطية والاقتصاد الحر، هى الايديولوجية السائدة فى العالم شرقه وغربه .

فى هذا الوقت بالذات، أقدمت دولة

عربية تنتمى الى ما كان يعتبر الجبهة الثورية فى الدول العربية وهى العراق على غزو دولة الكويت المجاورة واعلان ضمها اليها! وعجزت الجامعة العربية عن حل هذه المشكلة حتى انتهى الأمر إلى قيام قوات دولية بزعامة الولايات المتحدة الامريكية بشن الحرب على العراق واجباره على الانسحاب من الكويت!

والآن، وبعد عشر سنوات على تلك الحرب، مايزال الحصار مستمرا على العراق، ومازالت القوات الامريكية مرابطة فى الخليج، تشن هى وحليفتها بريطانيا الغارات الجوية على العراق كلما راق لها ذلك!

وفى الوقت ذاته اندلعت الانتفاضة الفلسطينية بسبب الاستفزاز الصهيونى المتمثل فى محاولة الاستيلاء على المسجد الأقصى، واستمرار العدو الصهيونى فى احتلال ما تبقى من وطن للفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة واستمرار السياسة الصهيونية فى جلب المهاجرين الجدد وتوطينهم فى الاراضى الفلسطينية، وحتى وقت كتابة هذه السطور تشن القوات الصهيونية الحرب بكل الوسائل البرية والبحرية والجوية على الشعب الفلسطينى الأعزل، وكأنها حرب جديدة لإعادة غزو فلسطين!

إزاء النكبتين القائمتين سواء بوجود القوات الأمريكية فى الخليج واستمرار حصارها للعراق وقصفه، والعدوان الهمجى الصهيونى على الشعب الفلسطينى، يعود المشروع القومى للوحدة العربية ليطل برأسه من جديد، ولكن فى صيغة ديمقراطية ، لا تقوم على الاستبداد ولا على تحكم حزب واحد، ولا حتى الالتفاف حول زعيم واحد، ولكن على أساس أن يكون المواطن العربى الحر فى كل مكان هو أساس هذه الوحدة ، التى يمليها أيضا أنها الاطار الوحيد الذى يمكن فى ظله للوطن العربى أن يتدارك ما فاته من تطور علمى واقتصادى فى عصر الثورة التكنولوجية وثورة المعلومات.

المطروح الآن فى الضمير العربى أن يكون أساس الوحدة العربية مؤتمر منتخب انتخابا حرا مباشرا من الجماهير العربية على غرار البرلمان الاوربى، وصولا الى ما يشبه الكونجرس الأمريكى، وخاصة وأن فكرة البرلمان الموحد قد جرى اقرارها بالنسبة للقارة الأفريقية فى قمتها المنعقدة فى سرت بليبيا فى العام الماضى، وغير معقول أن يكون الوطن العربى أكثر تخلفا فى هذا المجال أو أقل احتياجا لتلك الوحدة من أفريقيا.

.. فى اتجاه هذا الحلم الكبير، يكمن مستقبل جامعة الدول العربية فى عهدها الجديد!. ■

شخصية العدد

أفندينا فى المنفى

الحاكم الذى أفقر البلاد وأسعد العباد!

بقلم
محفوظ عبد الرحمن

من يستطيع أن يخترق ضباب الزمن ليتخيل كيف كان رجلا كالخديو إسماعيل فى عام ١٨٧٩؟

لكن هناك من الدلائل ما تجعلنا نرى أن الرجل قد أحس بالاجهاد من رحلة حكم متعبة دامت ستة عشر عاما، فلقد أشار مرات إلى استعداده للتنازل عن عرشه. حقاً نعرف أن إبداء هذا الاستعداد أمر يختلف تماما عن تنفيذه عند أصحاب الكراسى، لكن من ناحية أخرى لم يكن من مفردات حكام هذا الزمان التلويح بالاستقالة، فلقد كان فى يقينهم إنهم يحكمون بمد إلهى.

وكان إسماعيل الذى أدار معاركه بحماس كبير قد أحس بتعب أقرب إلى اليأس رغم إنه لم يكن قد وصل إلى سن الخمسين بعد.



الخديو
اسماعيل

كانت قضية الديون قد أدخلته في صراع مع أوربا التي كانت تتطلع إلى إحتلال مصر في موجة الاستعمار النشطة في ذلك الوقت.

وكان الخديو قد أصدر في ٢٢ أبريل من العام الذي أشرنا إليه وهو ١٨٧٩ مرسوما بتسوية الديون مبنيا على الروح الوطنية التي تبناها من شريف باشا ، والتي بلغت ذروتها في إزاحة الوزير البريطاني والوزير الفرنسي المفروضين على الوزارة أو النظارة بلغة العصر .

إسماعيل يواجه أوربا

وانهالت الاحتجاجات على المرسوم الذي يحافظ على مصالح أصحاب الديون وعلى الاستقلال الوطني خلال شهري مايو ويونيو من ألمانيا في البداية وكان هذا غريبا لأن ألمانيا لم تكن لها طموحات معروفة في الاستيلاء على مصر ، ولكن بسمارك المنتصر كان يريد أن يلعب دوراً عالميا . وبعد ألمانيا احتجت النمسا والمجر وانجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا. وهكذا بدا أن أوربا أعلنت الحرب على إسماعيل .

وكان أهون أشكال الحرب أن تلجأ إلى الباب العالي لتحصل على فرمان بعزل إسماعيل . وبالطبع كانت هناك سابقة وحيدة في أسرة محمد علي هي عزل محمد علي نفسه عام ١٨٤٠ في فرمان ظل للنهاية حبراً على ورق .



ويبدو أن الدول الأوربية تنبهت إلى أن حق العزل يعطى للسلطان العثمانى نفوذاً كان قد فقده فى مصر منذ زمن فحاولت الضغط على إسماعيل للتنازل عن العرش. ولكن إسماعيل حارب معركته إلى النهاية ، ورفض التنازل مشيراً إلى أن الأمر كله فى يد السلطان . وكان السلطان آنئذ هو عبدالحميد الثانى الذى لم يحب إسماعيل يوما . وكان ربما فكر إسماعيل فى أن السلطان يتوجب عليه أن يحافظ على هيبته أمام الدول الأوربية .

اسماعيل يتسلم فرمان عزله

ولكن عبدالحميد أصدر فى يوم الخميس ٢٦ يونيو ١٨٧٩ إرادة بخلع إسماعيل وتنصيب ابنه الأكبر محمد توفيق باشا خديو على مصر .



ومن الدلائل على إلحاح الدول الأوربية على خلع إسماعيل إنه فى ليلة ٢٤ يونيو أى قبل صدور قرار الخلع سمع قناصل انجلترا وفرنسا والمانيا شائعة بأن قرار الخلع صدر ، فتوجهوا إلى سراى الخديو ليلا ليخبروه بالأمر ، وأن السلطان قد ولى الأمير توفيق بدلا منه . وهذا يدل على لهفة أوربا على خلع الخديو ، تلك اللهفة التى أوصلت قناصلها إلى حد الجلافة .

ووصلت البرقية إلى قصر عابدين فى ضحى يوم ٢٦ يونيو وتسلمها زكى باشا التشرفاتى . وحاول أن يتخلص من مهمة تسليمها إلى الخديو بإعطائها إلى أحمد خيرى باشا المهردار - وهو أحد رجال الخديو المقربين ومن رجال الدولة بما تعنيه هذه الكلمة من معان ، وكان على شىء من التنور يليق برجال إسماعيل . ولكن خيرى باشا استهول المهمة .

وساقت الصدفة شريف باشا رئيس النظار ، فأعطوه البرقية ، ورأى الرجل أن واجبه يحتم عليه أن يسلم الخديو البرقية ، فصعد إلى الدور الثانى فى عابدين ، وقدم له البرقية . وبالطبع لم يفاجأ إسماعيل، لذلك بدا هادئاً . وطلب من شريف أن يذهب إلى سراى الإسماعيلية ليدعو له الخديو الجديد .

وكان توفيق قد وصلته برقية مماثلة . وصحب شريف إلى عابدين ، ولكنه صعد إلى أبيه وحده . وناداه أبوه «أفندينا» .

والبعض يحكى فى هذه المناسبة وفى مناسبات أخرى أن توفيق قبل يد والده أو حاول . والبعض يحكى أن إسماعيل قبل يد ابنه أو حاول . وقد يبدو هذا غريباً ، لكنه يبدو تجريداً لفكرة السلطة وأن الحاكم له كل التقدير حتى من أبيه . وربما

كان إسماعيل يحاول إعطاء ماضيه فى الحكم شرعية إذا كان حاول تقبيل يد ابنه أو يد حفيده كما قيل أيضا . وفى غالب الأمر هو أمر مستبعد .

إيطاليا ترحب بإسماعيل

وبعد أن واجه إسماعيل الكارثة الكبرى بدأ يواجه متاعب أخرى ربما بدت أفظع . فلقد اكتشف أن دنياه ضاقت حتى لايعرف أين يذهب . ذلك أن السلطان عبدالحميد رفض أن يعيش إسماعيل فى أسطنبول ولا فى أى مكان فى الدولة العثمانية ولم يكن أمام إسماعيل إلا الدول الأوربية التى أعلنت عليه كراهية أظن إنها مستمرة حتى الآن!

ولحسن حظ إسماعيل كانت علاقته بالأسرة المالكة الإيطالية علاقة طيبة . ولم تكن إيطاليا قد دخلت فى سياسة الضغط على إسماعيل . ولذلك رحب الملك فيكتور عمانويل بإسماعيل وخصص له أحد قصوره.

وفى يوم ٣٠ يونيو ترك إسماعيل القاهرة بالقطار متجها إلى الأسكندرية . وخرج موكب إسماعيل فى عربة ملكية وإلى يساره الخديو الجديد . وحول العربة الفرسان وصدحت الموسيقى تودع الخديو السابق .

وربما لم يدهش إسماعيل للوداع الشعبى الساخن . ولكن الجميع دهشوا له ، أما لأنه ليس من عادة الشعوب أن تودع بحرارة الحكام المهزومين ، وأما لأن إسماعيل كان فى أسوأ أوقاته . لكن إسماعيل الذى كان قد أغرق البلاد فى



السلطان عبد الحميد



الخديو توفيق

الديون كان قريبا من الناس بإنجازات كثيرة من شورى النواب إلى الكتبخانة إلى السكة الحديد إلى التخطيط العمرانى إلى شىء من الاستقلال إلى المنابر الثورية خاصة متاتيا الأفغانى ، حتى قيلت كلمة فى وداعه «إنه أفقر البلاد وأسعد العباد» فعبرت عن الحالة .

وفى المحطة عانق إسماعيل ولده عناق الوداع . ولعله كان يعرف إنه لن يراه بعدها . وأوصاه بكلمات صاغها البعض غالباً فيما بعد وهى كلمات تقليدية فيها شىء من الحكمة ووصل إسماعيل إلى نابولى وعاش فترة ظن إنها أسوأ فترات عمره . وظل يلح على السلطان أن يسمح له بالحياة فى أسطنبول . ويبدو أن السلطان أدرك أخيراً إنه خير له أن يجمع تحت بصره كل من يخيفونه بدءاً من إسماعيل وجمال الدين الأفغانى ، بدلا من أن يتركهم أحراراً فى أوربا .

وتوفى الخديو توفيق فى ٧ يناير ١٨٩٢ وهو فى الأربعين من عمره ، وتولى بعده ابنه عباس حلمى الثانى وهو دون سن الرشد . وبدأ الخديو الجديد



ثوريا يسعى للاستقلال وشارك الزعيم مصطفى كامل في كثير من أرائه ، ومن بينها أن الدولة العثمانية بما لها من سلطة أسمية هي سندها في الخلاص من الاحتلال البريطاني الذى نزل بالبلاد في عهد توفيق ولذلك فكر عباس في زيارة السلطان ليستمد منه العون على الكفاح ضد المستعمر .

لقاء حميم

وفي يوليو ١٨٩٣ أعلن الخديو عباس إنه سيسافر إلى الأستانة لتقديم الشكر للسلطان عبدالحميد الثاني على الموافقة على اختياره خديو مصر . وهو بالتأكيد يعرف أن الاختيار كان من الانجليز - كما قال كرومر فيما بعد - ولكنه أراد أن يحول العلاقة مع السلطان من علاقة شكلية إلى فعلية .



وكانت زيارة عباس للأستانة أول زيارة خديوية منذ زيارات جده إسماعيل ، لذلك خرج في ثلاث سفن هي «الفيوم» و«الشرقية» و«القاهرة» وتضم الحاشية ومائة من الأعيان .

وكانت هذه الزيارة هامة للخديو السابق إسماعيل الذى لم ينطفىء شوقه إلى مصر التي تركها قهراً. وركب زورقاً لكي يستقبل حفيده قبل أن يصل إلى أرض الأستانة التي عاملته - أى إسماعيل - بقسوة لم يتوقعها .

وماحدث متفق عليه بنسبة كبيرة . لكن الروايات تختلف داخل هذا الأتفاق .

عند أسفل سلم الباخرة وقف أحد الياورات يستقبل الخديو السابق ، الذى صعد السلم ليسلم على حفيده .

وهم الحفيد على إحدى الروايات بالنزول فكاد أن يتعثر فسنده الجد مما فجر حالة حميمية جعلت العيون تغرورق بالدموع . وأراد الحفيد - وهو الآن السلطة - أن يقبل يد جده ولكن جده لم يمكنه من هذا .

وصعدا إلى ظهر السفينة حيث دارت بينهما أحاديث لعل بينها رغبة إسماعيل أن يعود إلى مصر ليقضى فيها بقية أيامه.

دور الأعيان

وفي هذه الزيارة لعب الأعيان دوراً يكاد يكون مجهولا ، ذلك إنهم أتوا معهم بعريضة من المصريين تستنجد بالسلطان العثماني لينقذ مصر من الاحتلال البريطاني . وظاهرهم في مطالبهم جمال الدين الأفغاني الذى أصبح الآن ضيفاً على السلطان يمنحه ثمانية جنيهات شهرياً، ويحاصره بالبصاصين . ويتورط

فيما بعد - على ما يقال - بقتله أو التعجيل بموته .

ولا أعرف كيف كانت علاقة إسماعيل بالأفغاني في المنفى ، وهل كان يلتقيان أم أن كلا منهما كان مشغولا بأموره .

وكان إسماعيل حمى الأفغاني الذى لم يكن بالتأكد مناصراً له ، إلى حد أن قيل إنه دبر مؤامرة لاغتياله . ومع ذلك لم يطرد الأفغاني من مصر إلا في عهد توفيق .

وأراد الأفغاني أن يقابل السلطان الأعيان المصريين ، ولكن السلطان تنصل وأولم لهم وليمة . وأراد الأعيان أن يحتفظوا ببطاقات الدعوة على سبيل التذكار . ولكن السلطان لم يوافق على هذا . وهو سلوك غريب لايبدو مفهوما إلا من عبدالحميد الثاني . لكنه وافق على أهدائهم بعض الزهور . وكأنه أراد أن يقول أن مسانقته لاتتعدى عمر الزهور . وقال السفير البريطاني في الأستانة أن السلطان نصح الخديو بأن يفوض أمره إلى الله في أمر الاحتلال البريطاني ، وقال القائم بالأعمال أن الأعيان لم يقابلوا السلطان بل لم يقابلوا الخديو نفسه .

وطلب إسماعيل من حفيده أن يسمح له بالعودة إلى مصر ، فرحب بذلك . ولما عاد عرض الأمر على مجلس الوزراء فرفض . والبعض يحمل عباس مسئولية الرفض ، فلقد كان إسماعيل ذا شعبية كبيرة خلقت أسطورة احتمال عودته إلى الأريكة الخديوية . ومن الطريف أن نفس الأسطورة صاحبت عباس نفسه عندما عزل .



نوبار باشا



الخديو عباس حلمى

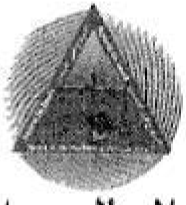
ويبدو أن نوبار باشا كان ذا ثأر لدى إسماعيل لذلك ظل يقاوم عودته إلى مصر بكل وسيلة .

وانهارت صحة إسماعيل إذ أدرك أن عودته صارت حلماً بعيد المنال ، وأنه صار سجين الأستانة لايرضى السلطان بسفره إلى أى مكان ، ولو للعلاج .

ولما ساءت حالة إسماعيل أرسل الخديو عباس الأمير أحمد فؤاد والأمير إبراهيم حلمى عمى عباس وولدى إسماعيل ليطمئنا عليه .

وفى احتضاره فى يناير ١٨٩٥ أوصى ولديه فؤاد وإبراهيم بأن يدفنوه فى مصر . ولما عادا بهذه الوصية بنى عباس قبر لجده فى مسجد الرفاعى .

وفي ٢ مارس ١٨٩٥ توفى إسماعيل فى قصره على البسفور الذى عاش فيه سبع سنوات سجين سلطان مستريب وكان قضى فى المنفى ستة عشر عاما كما قضى فى الحكم ستة عشر عاما ولما عاد جثمان «الرجل الذى أفقر البلاد وأسعد العباد» استقبله شعب مصر بحرارة فاقت وداعه . ■



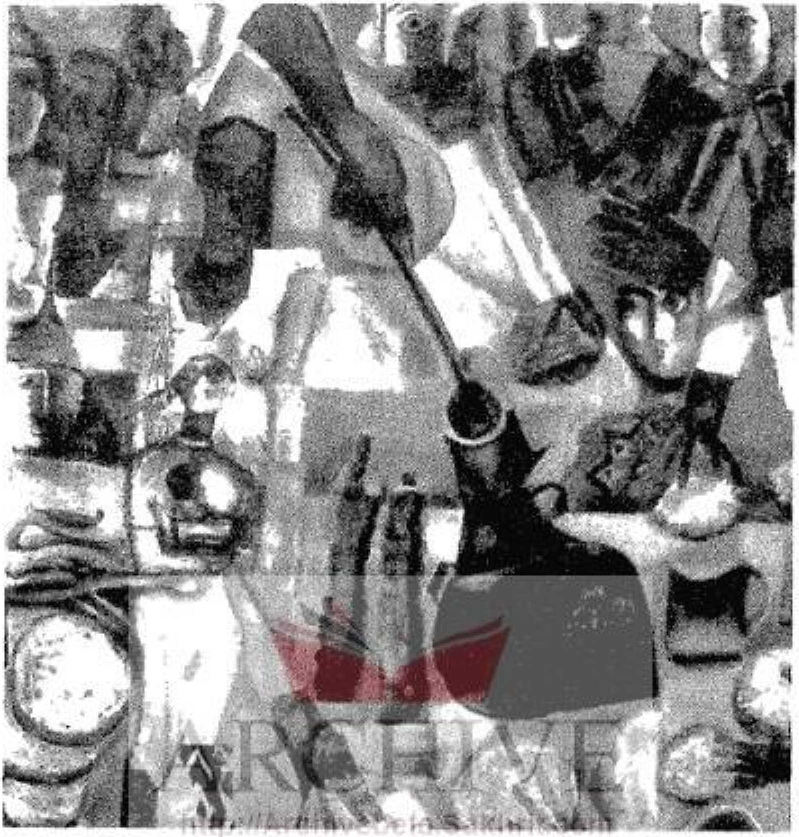
ملاحظات حول

بينالى القاهرة الثامن للفنون التشكيلية

بقلم
د. صبرى منصور

افتتح فى منتصف شهر مارس الماضى بينالى القاهرة الدولى للفنون التشكيلية فى دورته الثامنة، وتوزعت أعماله بين قاعات وزارة الثقافة جميعا - مركز الجزيرة للفنون، قصر الفنون، متحف الفن الحديث، مجمع الفنون، قاعة الهناجر، قاعة الأوبرا، وقد شاركت فيه إحدى وخمسون دولة بفنانيها الذين بلغ عددهم مائتين وثلاثين فنانا، تنوع إبداعهم ليشمل كل الأساليب والاتجاهات الفنية بدءا من الأساليب التقليدية وحتى التجارب التى هى أقرب إلى البدعة والطرافة.

ولا شك أن وزارة الثقافة قد وفرت كل الإمكانيات المتاحة لإنجاح هذا البينالى الذى يحمل اسم عاصمة مصر، فدعمت جوائزه لتبلغ جائزته الكبرى أربعين ألف جنيه، وخمس جوائز قيمة كل منها عشرون ألف جنيه، وسبع جوائز قيمة كل منها سبعة آلاف جنيه، وذلك بالإضافة إلى تكلفة استضافة الفنانين ومصاريف إقامتهم، فمجموع كل ذلك يشكل مبلغا لا بأس به بالمقارنة بميزانية مصر المحدودة، مما يعكس اهتمام الدولة بقيمة وأهمية النشاط الفنى التشكيلى، ويمنح مصر دورا مرموقا فى رعاية هذا الفن، وإتاحة الفرصة كى يكون



عمل المصور المصرى جورج البهجورى

وسيلة اتصال ثقافى وأداة حوار حضارى بين الأمم.

ظاهرة لافتة

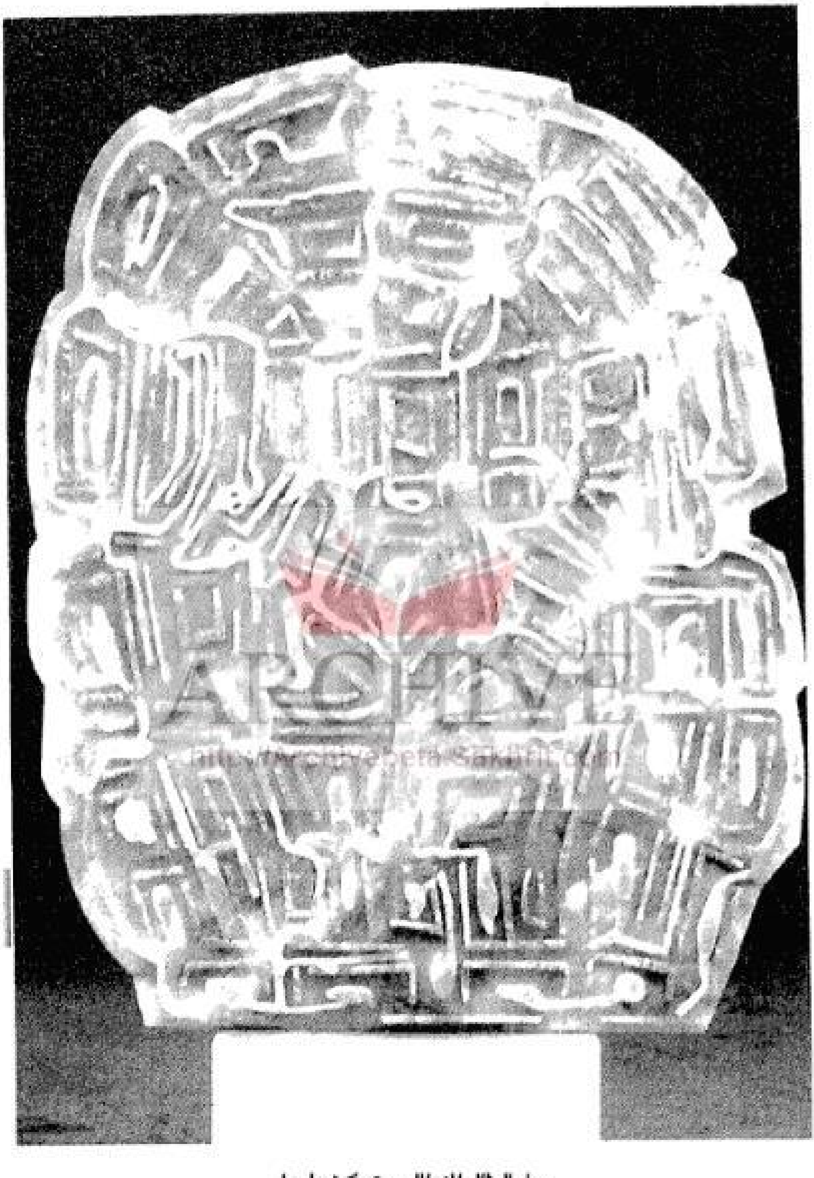
والظاهرة اللافتة للانتباه في هذه الدورة هى كثرة الأعمال الفنية التى اعتمدت على أفلام الفيديو، التى جاءت إما مكملة للعمل الفنى أو كانت أفلاما مستقلة بذاتها، مما يطرح تساؤلا عن مدى ارتباط هذه النوعية من الأفلام بمجال الفنون التشكيلية، فهى باعتمادها على التعبير بالصورة السينمائية المتحركة وتوالى المشاهد فيها فإنها تبلغ بالمشاهد ذروة معينة، وهى بهذا الاعتماد على عنصر الزمن فإنها تخرج عن دائرة الفن التشكيلى إلى دائرة تعبير مختلفة ليست أقل قيمة من الفن التشكيلى ولكنها لا

تنتمي إليه. ونضرب مثلا على ذلك بفيلم الفيديو للفنان الفرنسي « آلان ديكليرك» الذي يعرض مشاهد متوالية تؤدي إلى جريمة قتل، معتمدا في ذلك على عناصر التصوير السينمائي التسجيلي وصناعة الأفلام، وهو بهذا قد تحول إلى فيلم روائي قصير رغم اعتماده على الجماليات العالية للصور والمشاهد، وإيلائه اهتماما فائقا للعناصر التشكيلية فيها.

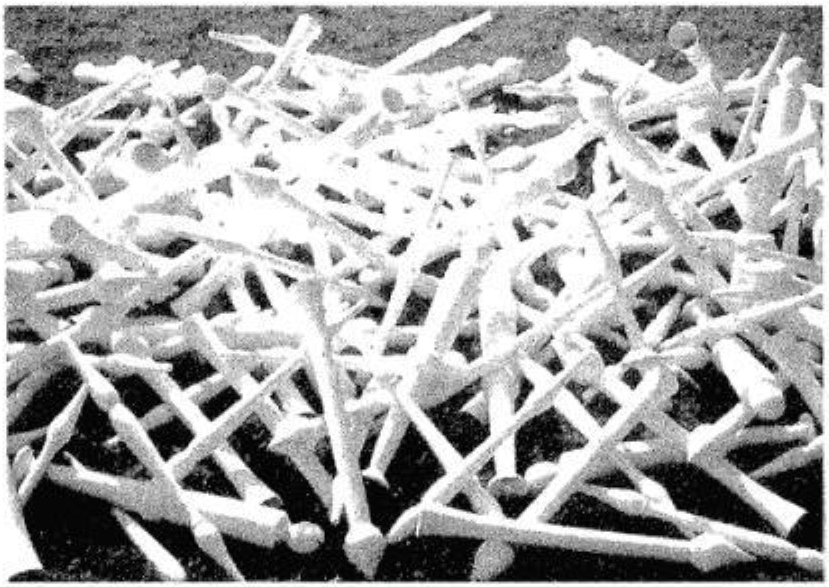
وصحيح أن الحدود بين الفنون تتلاشى، واستعارت بعض المجالات الفنية ملامح وسمات من فنون أخرى، ولكن لابد أن نحافظ على ذلك الخيط الرفيع الذي يفصل بين الفنون وبعضها، فإذا كان الفيديو - منذ سنوات عديدة - في أوربا وأمريكا قد دخل مشاركا للعمل الفني التشكيلي إلا أن مشاركته كانت بهدف الإضافة وإثراء جماليات هذا العمل بالضوء والإيهام بالحركة. أما الاتجاه نحو استقلال فيلم الفيديو واعتباره ابداعا تشكيليا في حد ذاته فنعتقد أنه نوع من الخلط، فمكانه بين وسائط التعبير الفنية الأخرى الأقرب إلى طبيعته وتقنياته التي تحتاج إلى فريق عمل - مصور ومونتير وموسيقي - وستكون طبيعة عمل صاحبه هو الإخراج. وفي أوربا تقام لمثل هذه النوعية الجديدة من الابداع الفني تجمعات خاصة بوسائل الاتصال والسينما، وفي سويسرا يقام مهرجان خاص بفن الفيديو في مدينة جنيف منذ سبع سنوات وكذلك في فرنسا وأمريكا، ويجب أن نتنبه في مصر إلى فصل فن الفيديو عن معارض الفن التشكيلي، ويمكن أن نقيم له نشاطا خاصا إذا أردنا الاهتمام به وإلقاء الضوء على نوعية جديدة ومستحدثة في مجال التعبير الفني، أما إذا لم نفعل ونتنبه فلنا أن نتخيل البينالي القادم وقد تحول إلى شاشات عرض وأفلام فيديو روائية أو تسجيلية وما يعنيه ذلك من إفناء لفنون التشكيل من نحت ورسم وتصوير وجرافيك، وربما سيكون لهذه الظاهرة اللافتة لتقدير فن الفيديو أثر على عديد من شباب الفنانين المصريين، بالإضافة إلى أن ذلك سيخلق بابا سهلا يدلف منه - تحت دعوى الحداثة - أولئك الذين يفتقدون الإمكانيات والمواهب والحساسية الفنية التشكيلية.

أخطار العولمة في مجال الفنون

ولعل هذا المعرض بما يقدمه من نماذج متنوعة لإبداع الإنسان في مناطق مختلفة من العالم تتباين ثقافاتها مما يسمح بعقد المقارنات والكشف عن مدى التأثر والتأثير في الإبداع الفني المعاصر، ومن السهل ملاحظة درجة عالية من التفوق الفني تحققه البلاد المتقدمة، أو النخبة الثقافية المتطورة التي تتسيد العالم في جميع المجالات اقتصادية كانت أو



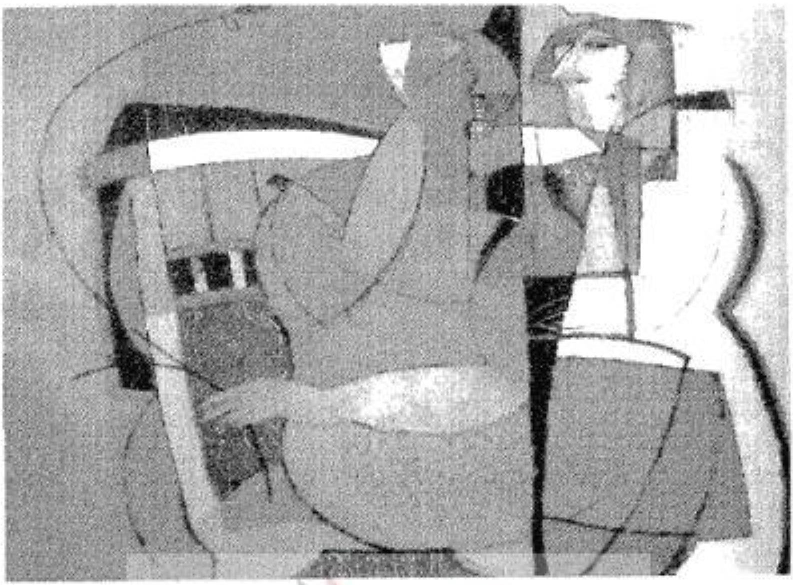
عمل للمثال الايطالي بيتروكوفساجرا



عمل للفنان الهولندى رمكوبوستوف

فنية، ومازال تأثيرها واضحا فى إبداع الدول النامية أو دول العالم الثالث. وكالعادة منذ سنوات عديدة تقدم أسبانيا وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا نماذج من الإبداع المتفوق الذى يشهد ببراعة فنانيه وقدراتهم على التجديد المستمر، وارتياد آفاق جديدة فى أعمالهم وهم يحققون التفوق عبر وسيلتين الأولى هى الحذق والمهارة الفنية فى السيطرة على عناصر التشكيل والتعامل بحساسية فائقة مع المسطحات المرسومة أو الأشكال المنحوتة، وكل ذلك يبدو واضحا حتى فى تلك الأعمال الفنية المغرقة فى التجريب والتحديث، والأمثلة على ذلك عديدة نذكر منها أعمال الفنانين الإسبانيين ماريانا مونيز وخوسى لويس باخاريس، وكذلك الفنان الإيطالى جيوسيب موديكا الذى استطاع أن يوفق - فى نوافذه الضخمة المرسومة - بين المعالجات الأكاديمية المرهفة والمبهرة وبين حداثة الشكل والتصميم، وكذلك المثال الإيطالى بيتروكو نساجرا بمنحوتاته المسطحة العملاقة، وأيضا المصورة الإنجليزية باتريشيا ميلينز بمجموعة أعمالها التى عالجت فيها اللون الأزرق بمهارة فائقة.

أما الوسيلة الثانية التى تحقق لفنانى هذه الدول التفوق والريادة فهى استفادتهم مما تحقق فى بلادهم من تطور صناعى وتكنولوجى أتاح لهم استخدام خامات جديدة ووفر لهم امكانية تقديم أعمال



عمل للفنان ابراهيم محمد بوسعد - البحرين

تعتمد على عناصر تكنولوجية معقدة أسهمت فى إثراء الإبداع التشكيلى ومنحته عناصر تعبيرية مبتكرة.

وإذا كان التفوق الفنى واضحا فى ابداع الدول المتقدمة فإن النظرة المتفحصة لإنتاج الدول الأقل تقدما أو النامية ومن بينها بالطبع الدول العربية والإفريقية والآسيوية - للكشف عن مظاهر التميز والاختلاف، تظهر لنا مدى التبعية والانسياق لفنون الغرب، وذلك ليس فقط فى اتجاهاته الحديثة والمعاصرة كفن الفيديو والعمل المركب، وإنما بدءا من مدارس الفن الحديثة المعروفة والتى توالى ظهورها منذ بدايات القرن العشرين كالسيريالية والتجريبية، وفنانو هذه الدول يبدون منساقين إلى اتباع نماذج جاهزة وطرق تأليف وصياغة فنية تم استخدامها من قبل، وذلك على الرغم من الموضوعات المحلية التى تناولوها وعبروا عنها فى أعمالهم.

وذلك يدفعنا إلى التنبيه إلى خطورة تلك السيادة والهيمنة الفنية على فنون العالم، ويدعونا إلى ضرورة التأكيد فى أنشطتنا الثقافية على مخاطر الاندفاع نحو مجاراة أساليب التعبير الأوربى، وعدم السعى نحو تخليق أساليب بديلة لها مقوماتها الذاتية واستقلاليتها الفنية، ولقد كان مناسبا فى رأينا وقد انشغلت النخبة الثقافية فى مصر خلال السنوات الماضية بالحديث عن مخاطر العولمة، وعبر الجميع

عن مخاوفهم من طمس ملامح الشخصية الثقافية المصرية، أن يكون محور البينالي لهذا العام هو الذاتية الثقافية وكيف يمكن للفنون التشكيلية أن تكون وعاء لها، فربما كان ذلك التكريس لموضوع الساعة بمثابة التنبيه لإحياء العوامل الإيجابية الخلاقة التي تدفع الفنانين في بلدنا وبلاد مثيلة في وضعنا الثقافي إلى تجسيد أساليب تشكيلية مستقلة ومتميزة تساهم في إثراء التجارب الفنية الأخرى، ولكي يكون هذا البينالي بالفعل بمثابة حوار حقيقي بين ثقافات متمايزة ومتنوعة.

تمثيل الدول في البينالي

بدأ بينالي القاهرة أولى دوراته في عام ١٩٨٤ تحت اسم بينالي الفن العربي، منطلقا من فكرة واضحة هي تجميع للرؤى الفنية الإبداعية على مستوى العالم العربي وضم أعمال فناني اثنتي عشرة دولة، مختلفا في ذلك عن بينالي الاسكندرية الذي كان مخصصا للدول المطلة على البحر الأبيض المتوسط العربية منها والأجنبية، وفي الدورة الثانية لبينالي القاهرة رؤى تطعيم المعرض بخمس دول أوربية ازداد عددها تباعا في الدورات اللاحقة متحولا بذلك إلى بينالي دولي، ولم يتم هذا التحول بناء على رؤية محددة واضحة تتسم بالاستقرار، ففي كل دورة تظهر مشاركات جديدة وتختفي مشاركات سابقة، وحين تفحص مدى الالتزام بمشاركات الدول في كل دورة فلن تجد سوى أسبانيا وسلطنة عمان وفلسطين وقبرص، وحين تتابع أسماء الدول فلن تستطيع أن تفهم لماذا يقع الاختيار على تلك الدولة وليس على أخرى، وخاصة إذا تم تجاهل دول معينة معروفة بفنونها ذات المستوى الرفيع مثل اليابان والمكسيك وجنوب أفريقيا بينما تدعى هذا العام بلاد مثل بوركينا فاسو وموريشيوس وجورجيا.

فإذا كنا قد ألغينا مبدأ اقتصار البينالي على الدول العربية أفلا يجب أن نضع مبدءا ثقافيا جديدا يهدف إلى عرض المستوى الرفيع من الفن التشكيلي العالمي باختيار الدول وفقا للتمثيل الجغرافي ومدى نضوج الفنون التشكيلية فيها في آن واحد، واعتمادا على ذلك فإنه يجب استبعاد البلاد التي مازالت فنونها في طور الولادة والنمو، سواء كانت تلك البلاد عربية أو أجنبية فليس المهم هو كثرة الأعمال المعروضة في البينالي، والدليل على ذلك هذا البينالي نفسه إذ ضم عشرات الأعمال التي ما كان يجب عرضها لهبوط مستواها وتدني قيمتها الفنية وعدم احتوائها على ما يستحق التأمل والمشاهدة، بل إنها في الواقع تسئ لمستوى البينالي الذي يجب أن يكون لديه حد أدنى لمستوى القيمة الفنية لا يتخطاه.

وعلينا في نفس الوقت أن نلتزم بدعوة نفس الدول التي يتم اختيارها في جميع


عمل الفنان الايطالى

الدورات، لأن البينالى بهذا الالتزام يؤكد على انتظامه واحترامه للتقاليد المرعية فى نظم إقامة هذه المحافل الدولية.

وقد جاء أيضا عدد الفنانين الممثلين لكل دولة غير خاضع لنظام بعينه فهناك دول مثلت بفنان واحد فقط مثل جمهورية التشيك والنرويج وإيران وباكستان بينما مثلت دولة محدودة فنيا مثل البحرين بأحد عشر فنانا، كما بلغ عدد فنانى السعودية سبعة عشر فنانا، وقد فاق عددهم بذلك عدد فنانى مصر وعددهم ثلاثة عشر فنانا.

كما أن توزيع أماكن العرض لم يمنح الفرصة المتكافئة للدول فى عرض أعمال فنانيها والبيناليات العالمية -حرصا على هذا التكافؤ- توضح فى دعوتها للدول المشاركة أماكن العرض المتاحة بالأمتار المربعة.

ولم يتضمن المعرض أجنحة واضحة للدول، وهناك أعمال عديدة لدول تفرقت أماكن عرضها وذلك يعوق بالطبع تكوين فكرة عامة عن مستوى كل دولة برؤية جميع أعمال فنانيها فى مكان واحد، وهو ما تحرص عليه أيضا البيناليات الكبرى بل إنها تخصص جائزة لأفضل جناح بما يحتويه عامة من أعمال وهى جائزة حصلت عليها مصر نفسها فى إحدى دورات بينالى فينيسيا.

لجنة التحكيم

ويأتى أسلوب تشكيل لجنة التحكيم دليلا على عدم الالتزام بقواعد ثابتة ومستقرة ومستمرة للبينالى فمن ناحية عدد أعضائها فقد تفاوت منذ بدء البينالى عام ١٩٨٤ فمرة تكون من خمسة عشر عضوا ومرة من ثمانية أعضاء، ثم من خمسة ثم من سبعة أعضاء. وفى الوقت الذى يفرض فيه المنطق - بحكم أن البينالى عالمى الطابع - ألا تمثل دولة بأكثر من عضو واحد، فإننا نجد فى هذه الدورة عضوين من اسبانيا وعضوين آخرين من إيطاليا، وهكذا يمكن أن تقوم البلدان - فى حالة اتفاق أصوات محكميها الأربعة - بتحكيم البينالى إذ يمثلون الأغلبية بين السبعة أعضاء، وإذا أضفنا إلى ذلك أن رئيس اللجنة عضو من فرنسا فإننا نستطيع القول بأن التقييم يصدر عن رؤية ثقافية تشكيلية واحدة هى الثقافة الأوربية. ولقد خلت لجنة التحكيم هذا العام من أى عضو ينتمى إلى الدول العربية رغم مشاركة جميع الدول العربية فيما عدا ليبيا.

وذلك يدعو إلى وضع نظام مستقر المبادئ التى تشكل على أساسها لجان التحكيم من ناحية عدد أعضائها وكذلك من ناحية تنوع تمثيلها الدول المشاركة مما يكفل عدالة أكثر من التقييم ويمنح الاطمئنان للدول المدعوة للمشاركة.

ضيوف الشرف

وكذلك من الظواهر اللافتة كثرة عدد ضيوف الشرف من الفنانين وقد بلغ ستة



جرافيك لنمورة حسن - باكستان

من بينهم فنانان إيطاليـــان، ولا شك أن اختيار ضيف واحد أجنبى وآخر مصرى كان له معنى أفضل، وفيه تكريم حقيقى للفنان المستضاف.

ولقد احتلت أعمال ضيوف الشرف مساحات شاسعة من البينالى وتم عرضها متناثرة بين الأعمال الفنية المشاركة، وقد أدى ذلك إلى طغيانها على أعمال باقى الفنانين أصحاب الحدث الأصليين وكان يجدر تجميع أعمال الضيوف فى مبنى أو مكان منفصل يستقل بعرض أعمالهم محافظة على عرض البينالى نفسه ومنعا للخلط وإرباك المشاهد.

أما عن توصيف ضيف الشرف فهو أيضا لم يكن واضحا، فهل هو الفنان صاحب التجربة الفنية المتميزة التى استقرت ملامحها واتضحت قيمتها؟ أم أنه الفنان الذى يمتلك إلى جانب هذه التجربة تاريخا عريضا وأدرك مرحلة سنية تحول بينه وبين المشاركة فى البيناليات كمتسابق تخضع أعماله للتحكيم والتقييم، فلا يبقى هناك مفر من دعوته كضيف شرف فى البينالى، لا ليعرض بعض أعماله الجديدة وإنما ليقدم بانوراما عريضة لإبداعه، ونماذج من تدرج تجربته وملامح من مشواره الفنى. ولعل هذا الرأى يصدق على الضيفين المصريين الفنان جورج البهجورى والفنان صالح رضا، فكلاهما مازال فى قمة عطائه وإبداعه، وكان الأجدر أن يمثلا بلدهما مشاركين، وكلنا يذكر مشاركة الفنانين الراحلين حامد ندا ومنير كنعان فى أول دورة لهذا البينالى ذلك إذا كنا نريد بالفعل أن نسمو بقيمة هذا الحدث الفنى الكبير ونسبغ عليه القيمة الرفيعة، تاركين لصالون الشباب الأشكال التجريبية التى لم تكتمل ملامحها والتى تسيدت المشاركة المصرية هذا العام.

الدعوات الخاصة

ولعل من أغرب الظواهر فى هذا البينالى ظاهرة الدعوات الخاصة، فبالإضافة إلى عدم وضوح معناها وهدفها فإنها لم تعتمد على نظام أو قاعدة. وإذا كان من المفهوم لهذه الدعوات هو اهتمام إدارة البينالى بضرورة وجود بعض الشخصيات ذات المستوى الفنى الرفيع لذلك فهى إذ تحرص على مشاركتها وخشية من عدم قيام الدولة المعنية باختيارها لتمثيلها فإنها توجه دعوة شخصية لها للمشاركة فى البينالى، وربما يكون ذلك مقبولا رغم عدم استحسانه لو تم فى أضيق الحدود الممكنة لما يمكن أن يسببه ذلك الاختيار من حساسيات للمشاركة عن طريق أجهزة الدولة المعنية، إذ يعنى أنهم غير كافين للتمثيل الجيد، ولهذا وجهت دعوة شخصية لمن هو أجدر منهم بالمشاركة. نضيف إلى ذلك أنه لم يتم الالتزام بمبدأ توجيه الدعوة الشخصية



تكوين للفنان كير على من بوركينا فاسو

للفنانين أصحاب التجارب الراسخة والمتميزة، إذ يتضح من سيرة حياة العديد منهم أنهم مازالوا فى بدايات تجربتهم الإبداعية ولقد تم توجيه دعوة شخصية لثلاثة وستين فنانا من دول مختلفة بنسبة أكبر من ربع عدد الفنانين العارضين، وحين تراجع كيف توزعت تلك الدعوات الشخصية على جميع الدول فستجد أنها لم توجه لأى فنان من أسبانيا أو الكويت أو المغرب أو أمريكا أو إيران أو هولندا بينما وجهت تلك الدعوة الشخصية لخمسة فنانين من البحرين بالإضافة إلى الخمسة الذين رشحتهم الدولة، أما السعودية فقد رشحت الدولة ثمانية فنانين بينما وجهت الدعوة الشخصية إلى تسعة فنانين آخرين، أما مصر فقد رشحت خمسة فنانين بينما وجهت الدعوة الشخصية إلى ثمانية فنانين آخرين.

ولقد أدى ذلك إلى خلط لم يكن له ما يبرره، فقد خلق تصنيفات فى البينالى ما بين ضيوف شرف وفنانين متميزين وجهت لهم دعوات شخصية وطبقة أخيرة من الفنانين الذين اختارتهم بلادهم لتمثيلها، وقد وضح هذا التقسيم فى دليل المعرض الذى تم إعداده وفقا لهذا التصنيف الذى نراه بدعة لا تنتمى إلى تقاليد البينالى المعروفة.

ملاحظات على العرض

ولقد كان يحسن العمل على تضييق نطاق عرض البينالى ليشمل قاعات قصر الفنون ومجمع الفنون، وترك قاعات مركز الفنون والهناجر والأوبرا للنشاط التشكيلى الذى يتزايد عاما بعد عام، وخاصة أن فترة البينالى تمتد إلى ثلاثة شهور تمثل ذروة نشاط الموسم الفنى كما أن التوسع الزائد - دون داع - بتخصيص القاعات الستة للبينالى قد أدى إلى وجود أماكن كثيرة مغلقة لعدم الحاجة إليها سواء فى مجمع الفنون أو فى قصر الفنون، كما أدى إلى وجود حوائط عرض خالية لدرجة أنه تم عرض إعلانات البينالى على حائط مستقل إلى جوار الأعمال الفنية بقاعة مركز الفنون وذلك حتى لا يترك الحائط خاليا.

كما أدى هذا التوسع أيضا إلى تخزين الأعمال الفنية بمتحف الفن الحديث طوال شهور عرض البينالى الثلاثة، وما فى ذلك من تعطيل لمرفق ثقافى حيوى له دوره فى خدمة الثقافة المصرية.

ويجب إعادة النظر فى المدة التى يستغرقها عرض البينالى، ففى رأينا أن مدة الشهور الثلاثة مدة طويلة، وربما كان الداعى لها الأمل فى أن يسمح الوقت الممتد لأفواج المتذوقين بالحضور وإتاحة الفرصة للرحلات الثقافية القادمة من الأقاليم ومن الدول العربية والأجنبية لمشاهدة المعرض الكبير، ولكننا إذا كنا نعرف وندرك أن ذلك لا يحدث ويعانى المعرض منذ الأسبوع الأول لافتتاحه من الاهمال واللامبالاة من الجمهور ومن

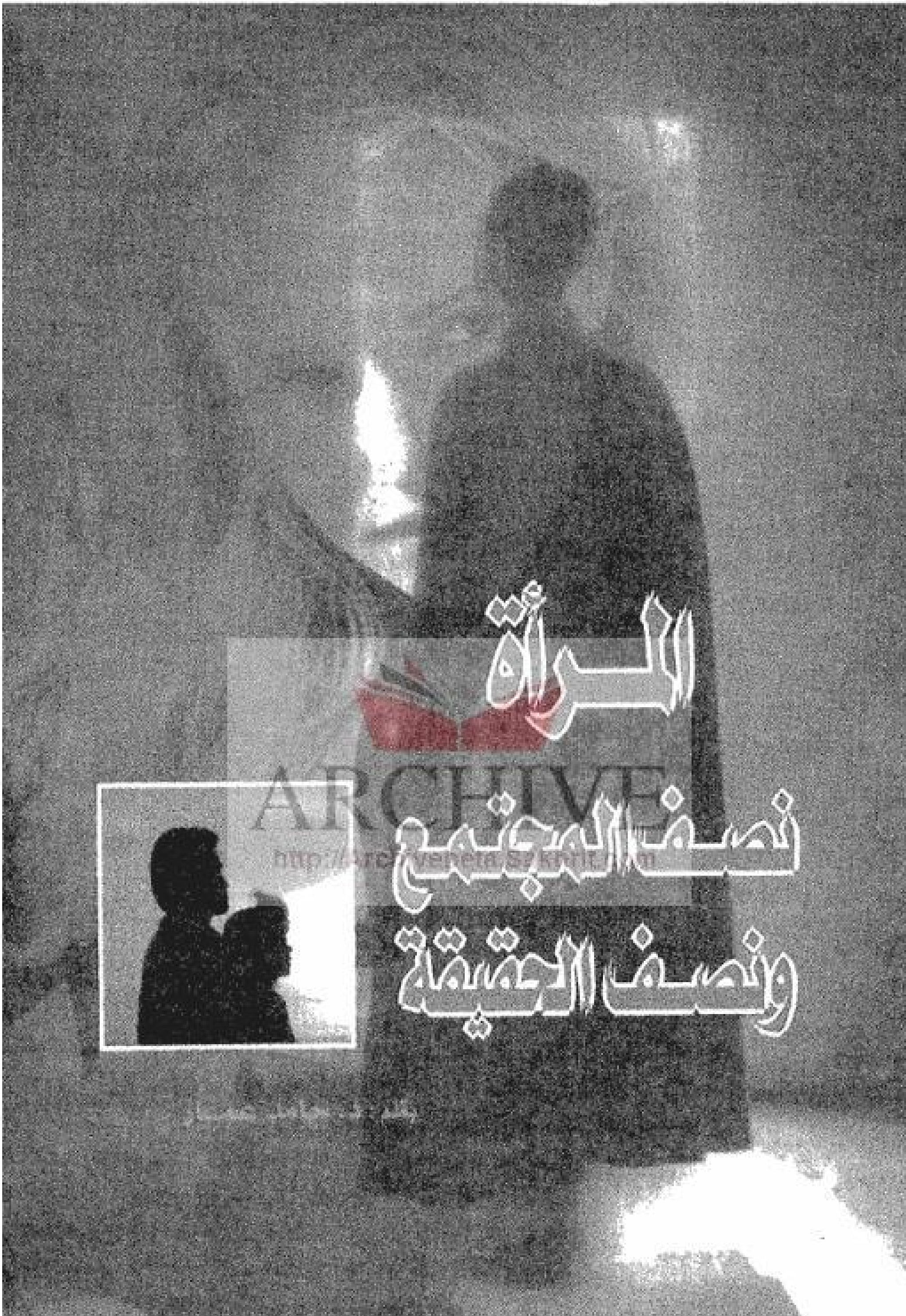
المثقفين المصريين فإنه يكون من الصواب ألا نطيل المدة أكثر من اللازم، ولنعمل في نفس الوقت على خلق الوسائل الكفيلة بجذب الجمهور وتحفيزه لمعايشة هذا الحدث الثقافي الضخم.

دليل البينالي وأسماء الأعمال

والبينالي دليل ضخم جيد الطباعة، لكنه للأسف مليء بالأخطاء، ودليل أي معرض هو وثيقة ثقافية تاريخية لها أهميتها أثناء المعرض وبعد انتهائه فالمعلومات المصاحبة عن الفنانين وسير حياتهم والمقدمات المكتوبة عن أجنحة الدول تعد مصدر تثقيف للمهتمين والمتابعين، لذلك كان يجب أن نوليه العناية والدقة الفائقة في تنظيمه ومراجعة مادته، وإذا صرفنا النظر عن أخطاء الترجمة والأخطاء اللغوية الصعبة فسنجد صفحتين خاصتين بفرنسا في أول الدليل وبعد حوالي خمسين صفحة نجد صفحة أخرى تكمل المعلومات عن الفنانين الفرنسيين، كما انتقلت إلى هذا الدليل ظاهرة تفشت في عديد من المعارض في مصر، فعند إعداد دليلها يتم نشر أي صور متاحة سواء كانت ستعرض أم لا، وذلك ما كان يجب ألا يحدث في دليل معرض له ثقله الفني مثل البينالي، إذ ضم ست صور للوحات الفنان جورج البهجوري لن تجد منها معروضا سوى لوحة واحدة.

أما أسماء الأعمال فقد تم تجاهلها في هذا البينالي، وصحيح أن العديد من الأساليب الحديثة لا تعطى أهمية لوضع اسم العمل الفني يأتي مفسرا وموضحا له، ولكن ذلك لا يعني عدم وضع الاسم حتى لو كان ذلك الاسم بدون عنوان فذلك الاختيار في حد ذاته له صلة ما بالعمل الفني، ومن المعروف أن أسماء الأعمال هي مداخل تساعد المتلقي في الاقتراب من العمل الفني وتمهد له السبيل بدرجة ما إلى تذوقه، ومن هنا كان يجب الحرص على احترام رغبة الفنان في تسمية عمله، وتوضيح ذلك بجانب العمل المعروض، ونشره في دليل المعرض كذلك، فمن غير المقبول أن نترك الأعمال هكذا مجهلة للمشاهدين يطلق عليها كل منهم ما شاء له من أسماء.

● وفي النهاية فإن كل تلك الملاحظات لا تقلل من قيمة الجهد الكبير الذي بذل في إقامة البينالي لكننا إذ نبديها برغبة مخلصة وصادقة في التحسين والارتقاء بهذا المهرجان الدولي ليبلغ أعلى درجة ممكنة من الكمال، فإننا واثقون من أن ذلك هو أيضا مسعى المركز القومي للفنون التشكيلية وعلى رأسه الفنان أحمد نوار بما عرف عنه من الجدية وحب الاتقان فلعل البينالي العاشر يأتي متلافيا لجوانب القصور، وبالغا المستوى الرفيع الذي ننشده جميعا لأنشطتنا الثقافية. ■


المرأة
نصف المجتمع
ونصف الحقيقة

هي المرأة وهي كـذلك نصف الوجـود علي هذا الكوكب، وفي فضائه، هي التي ما فتئت تناضل منذ الخليقة للاعتراف بكيانها وحقوقها، وقد أصبحت وغدت وأمست نصف المجتمع، ونصف الوجود، ونصف الحقيقة، وإنها جديرة بهذه المكانة في عالم اليوم والغد.
ومع تتابع المتغيرات وتبدل الأحوال، عبر الزمان والمكان، ومن خلال التفاعل المتبادل بينها وبين تصاريف السياسة والاقتصاد والمعرفة، أخذت مكانة المرأة تفرض نفسها كواقع موضوعي متجدد فاعل ومؤثر، بعد أن ظل زمانا ساكنا صامتا منفعلا، ويعزز هذا الواقع المتجدد حق المرأة وقدرتها علي المشاركة في صناعة الحاضر والمستقبل، منطلقا لا من مجرد كونها نصف المجتمع فحسب، بل الأهم والأفعل من كونها نصف الوجود، ونصف الحقيقة.

ولما كان تحرير المرأة من القيود التى تكبل حريتها نحو الفكر والفعل معيارا لتقدم الأمم، ورصيدا أصيلا لمشاركتها فى إدارة الحكم، دولة ومجتمعا، تكاثرت مؤتمرات المرأة تحت شعارات متعددة، سواء من قبل الحكومات أو الجمعيات النسائية أو منظمة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة، أو جامعة الدول العربية ومنظماتها النوعية. ويجئ مؤتمر قمة المرأة الذى شاركت فيه السيدات الأوليات فى الدول العربية - والمنعقد برئاسة السيدة الفاضلة حرم السيد رئيس جمهورية مصر العربية فى مطلع هذا العام - يجئ هذا المؤتمر دليلا قاطعا وعلامة بارزة على مدى الاهتمام البالغ الذى توليه الحكومات والمجتمع المدنى والهيئات الإقليمية العربية والمنظمات الدولية لقضايا المرأة، حقا وواجبا، للمشاركة فى جهود التنمية المستدامة، ومواجهة تحديات العولمة بفرصها وإمكاناتها التى تمتزج بمخاطرها وتحدياتها.

بيد أن معظم توصيات المؤتمرات، بل وكثيرا من أوراق العمل والدراسات تعالج مشكلات تلك الثلاثية المتشابكة لحقوق المرأة وواجباتها بصورة منبتة عن سياقها الثقافى التاريخى بعبقه وعبئه، وتنتهى إلى توصيات جزئية كثيرا ما يقال إنها عملية. بيد أنه فى الأغلب والأعم تغفل أو تتجاهل تلك التوصيات والاقتراحات لتنمية المرأة

المرأة

نصف المجتمع ونصف الحقيقة



ولإدماجها فى جهود التنمية، إطارا مهما من إطارات حركتها. وهو المتمثل فى تراثنا الثقافى المتراكم عبر العصور، والذى احتكر الرجل صياغاته وصناعاته ومضامينه وعلامات المرور فى مساراته. ولا تزال ضغوط هذا التراث تمثل قيدا، ظاهراً أحيانا، وخفيا أحيانا أخرى على المشاركة الحرة والإيجابية لتطوير المرأة لذاتها ولمجتمعها ولأمتها.

اضطراب السياق التاريخى الثقافى العام:

من المسلم به منهجيا أن قضايا المرأة سواء على المستوى المحلى أو القومى أو العالمى، شأنها شأن أية قضية مجتمعية أخرى، لا يمكن عزلها أو استقطاعها عن سياقها التاريخى أو عن محيطها الزمانى المكانى، أو عن حركة الثقافة العامة السائدة وقيمها، وما تضطرب به من تيارات جديدة تتدافع وتتصارع مع تلك القيم السائدة الراهنة وعاداتها وتقاليدها ومواضعاتها.

إن تاريخنا الثقافى الحى المتغلغل فى حاضرنا كثيرا ما يمثل عبئا على فكرنا وحركتنا الراهنة وعلى توجهاتنا المستقبلية. وإذا كانت سنة الله فى خلقه هى سنة التطور والتغير، إلا أنها تحدث بدرجات متفاوتة فى مسيرتها وإيقاعاتها وإطرادها. والحاصل أن حركة التغير بطيئة لدينا بل تشهد تذبذبا وتعثرا، وأحيانا نكوصا وارتدادا يتصارع فيه القديم مع الجديد فيصرعه، وينتكس الحاضر وتتجمد مسيرته. وتبرز ثنائيات الاستقطاب والصدام فيما عرف بإشكاليات الأصالة والمعاصرة، وبين ثقافة العلم وثقافة العادات والموروثات، وبين الاجتهاد المبدع والتحريم والتكفير، وبين الحداثة والغزو الثقافى. وهكذا دواليك نقطع خطوات فى مسيرة الفكر والعمل إلى الأمام لنرتد مرة أخرى إلى الوراء وإلى أسفل بصدد ما كان قد استقر من قيم الثقافة المتجددة، وبذلك تختل معادلة الوفاق الفكرى والسلوكى، وتفتح دفاتر الجدل وتتعطل العقلانية. وقد يترتب عليها إجهاض أو توقف الامتداد فى الحركة الديمقراطية والحقوق الإنسانية لكل إنسان رجلا كان أم امرأة.

وعبء التاريخ وثقافته غير المتصالح مع المتغيرات العيانية الجارية ظاهرة قد تعيق حركة المستقبل فى مسيرة جميع الحضارات الإنسانية، لكن بعضها قد

استطاع - ولا يزال - المضى فى طريقه النضالى ورؤيته المستقبلية، وأن ينهى معاركه مع تاريخه بالحوار تارة وبالفعل المؤثر فيه دائما وبتصور موضوعى وقراءة جدية لتراث الماضى، وبإشراقات علمية مضيئة وبصر نافذ فى قوانين التغير والتطوير واكتساب القوة والمنعة والنماء.

وفى حالة ثقافتنا العربية، يظل عبء التاريخ وثقافته مصدرا للقلق، كما تظل العلاقة بينه وبين الحاضر والمستقبل محيرة بين مد وجزر، تشدها ردود أفعال تتمثل فى تصور البعض لنموذج مثالى للماضى - كما لو كان واقعة واحدة خالية من الشوائب - يراد فرضه على الحاضر وتكراره فى امتداداته المستقبلية. كذلك تندفع التوجهات أحيانا نحو نماذج مختارة سواء من حضارات أجنبية متقدمة ومغايرة فى سياقاتها التاريخية. وبين نموذج الثقافة التاريخية المثالية والنموذج الثقافى الحضارى الأجنبى المقتبس، لا تنفك مجتمعاتنا العربية ونخبها الفكرية عن الوقوع فى حالات من الضياع والجمود والتأزم أحيانا إلى حد الإفلاس، وعدم القدرة على توليد قوة دافعة للحركة إلى الأمام، نقدا للماضى والحاضر، ومساندة لكل جهد ونضال نحو المستقبل.

وتصح أحيانا تلك المقولة التى ترى أن حركتنا تجد نفسها فى صراع متواصل بين جاهليتين، جاهلية الماضى وإحيائها، وجاهلية التقليد الأعمى للأجنبى الوافد واصطناع بريقه وتوهجه ومظاهر استهلاكه.

المرأة عبر التاريخ:

إذا ما تأملنا تطور الثقافة بعامة والثقافة العربية بخاصة عبر عصور التاريخ المتلاحقة فسوف يتولانا العجب حين ندرك أن بعض مفكرى الحضارات القديمة قد اعتبروا المرأة كما لو كانت من فصيلة الأسماك أو النباتات. وفى الحضارات القديمة كلها سواء البابلية أو الآشورية أو الإغريقية أو الرومانية أو الصينية أو المصرية كانت المرأة دائما قابعة فى الظل، وكأنما هى ضميرها الحضارى المذنب والمستتر وجوبا، فلا يتعدى محيط الإنجاب والعمل المنزلى. وفى تلك الحضارات كان تقسيم البشر فيها على أساس فئتين: الأحرار والعبيد، والأسياد والأتباع، والملوك والأباطرة ثم المحكومين والرعية، وعلية القوم والسفلة.

والمرأة فى جميع هذه الأحوال فى قاع الشطر الأدنى من تلك الثنائيات أو أنها خارجها لأنها من سقط المتاع، ولا وجود لها إلا فى حالات استثنائية نادرة ارتبطت بقداسة بعض نساء الفراعنة أو علاقات حميمة بالحاكم أو برئيس قبيلة له وقائع مشهورة فى الكر والفر.

وإذ ننتقل بسرعة إلى الحضارة العربية قبل ظهور الإسلام ليتحدد دور



المرأة
نصف المجتمع ونصف الحقيقة

المرأة فى أنها (تدفئ الضجيع وتروى الرضيع). وظاهرة وأد البنات أو حتى كراهية إنجابهن كانت من الأمور التى لا ينكرها المجتمع فى ذلك العصر. وقد صور القرآن الكريم خبر ولادة البنت فى الجاهلية بقوله تعالى: «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون».

ويأتى الإسلام - الدين الخاتم - فيخاطب القرآن الكريم المؤمنين والمؤمنات فى عشرات الآيات، ويؤكد أن الرجل والمرأة من أصل واحد: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)، وتمتلئ آيات الكتاب بتكريم المرأة وإعطائها من الحقوق والواجبات ما للرجل، يقول الحق تبارك وتعالى: (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا).

ويؤكد الرسول العظيم فى حديثه الشريف (إنما النساء شقائق الرجال).

وإذا كان هذا هو موقف الرسالة الخاتم وهداياتها المنيرة فى مكانة المرأة ومساواتها بالرجل، إلا أن تلك المكانة قد تشوهت مع عصور الخلافة منذ أن أصبحت ملكا عضودا، وتم تجاهل تعاليم الهدى السماوى، وطغت التصورات القبلية والذكورية والعصبية تدريجيا حتى وصلنا إلى خلافة سلاطين آل عثمان، فإذا بنا نقرأ عن الحريم والحرملك، وتتواصل هذه الرؤية الهابطة للمرأة، ويقتصر الحديث عن بطولات الرجال وضعف النساء، ونقرأ قول أم أحد الخلفاء مؤنبة ابنها وقد تهاوى ملكه:

لا تبك كالنساء ملكا مضاعا
لم تحافظ عليه مثل الرجال

وكأنما المحافظة على الوطن مسئولية الرجال وحدهم ولا شأن لها بالنساء.. ويجرى الفكر اللغوى مفاخرا بأن فى السويداء رجالا، وكأنما لا نجد فى السويداء نساء.

شيطانة أم ريحانة؟!

وفى هذا الإطار من ثقافتنا العربية فى ترسباتها التاريخية تكثر الثنائيات والمغايرات على أساس الجنس، تنسب للرجل الحكمة والتعقل والحزم والطموح والإحاطة بالكليات والقدرة على تحمل

مسئوليات الحكم والعدالة والإدارة، بينما تتسم المرأة بالعاطفة وسيطرة الغرائز والضعف والرقة والقناعة والرضا والاهتمام بالجزئيات لا بالكليات، وهى لذلك نسميها تأدبا الجنس اللطيف.

وقد أسهم فى هذه المفارقات وفى مكانة المرأة وأدوارها المجتمعية-المبررات التى سادت تزعم الاختلاف فى التكوين البيولوجى والذى ترتبت عليه اختلافات فى القدرات العقلية والتعبيرات الوجدانية والمظاهر السلوكية. وبينما دعمت تلك المفارقات اختبارات تحت مسوح العلمية فى سياقات مجتمعية وبيئية نمطية راكدة، فقد أظهرت تلك الاختبارات وغيرها عدم وجود فروق فى العمليات العقلية والذكاء والوجدان والسلوك وقدرات العمل بصورة مطلقة، اللهم إلا حين تتفاوت الظروف الاجتماعية والاقتصادية والقيم الثقافية السائدة لكل من الجنسين أو فى المجتمع بصورة عامة.

ومع ذلك فلا يزال الشاعر العربى فى حيرة من أمر المرأة، أهى ريحانة أم شيطانة، لكنه لم يلتفت إلى أنها أولا وأخيرا إنسانة.

ولا تزال مفاهيم تلك الفروق وتجلياتها اليومية ومبرراتها، قائمة فى كثير من مجتمعاتنا وبيئاتنا العربية، سواء فى فرص العمل أم فى أنواعه حين يقال إن لها أعمالا تناسب طبيعتها، وعليها أن تقتصر عليها. أما شئون الحكم والقيادة فى المؤسسات التشريعية والتنفيذية والقضائية فهى أجدر بالرجل، ولا تتسع للمرأة إلا بمقدار محدود من قبيل الرمز وإبراء الذمة فى كثير من الحالات. ومما يمكن ملاحظته فى هذا الصدد ما يقال عادة من تمجيد لدور المرأة كأم وكربة أسرة ومع ما لهذا الدور من أهمية بالغة إلا أنه يساق أحيانا لدغدغة مشاعر المرأة أو لصرف نظرها عن التطلع إلى مجالات أخرى خارج مهمات تربية الأطفال وخدمات البيت، مع أن هذه المهمات تقع فى دائرة مسئوليات كل من الرجل والمرأة تعاونا ومشاركة فى إدارة الأسرة.

ومن هذا القبيل أيضا ما يقال من مبررات حول ما أطلق عليه حرمان الأطفال من حنان الأمومة لانشغالها بأعمال خارج البيت مما لا يتيح لها الرعاية الكافية لأطفالها. ومع ذلك فإننا لا نتحدث عن (حرمان الأطفال من حنان الأبوة) نتيجة لعمل الرجل خارج البيت فكلا النوعين من الحنان من الحاجات الأساسية للنمو السليم للأطفال.

وقد أوضح كثير من الدراسات النفسية والتربوية أن أهمية شعور الطفل بالأمن والحنان والمحبة من الوالدين لا تتحدد أو تقاس بمدى طول الوقت أو عدد الساعات التى يقضيها بجواره أحدهما أو كليهما وإنما يتحدد بنوعية ومضمون



المرأة
نصف المجتمع ونصف الحقيقة

التفاعل الذى يجرى بينهما وبين الطفل فى حالة وجودهما معه، وما يدور بينهما من لعب أو تعامل باللعب ومن الحكايات والتحادث والاستجابة لحاجاته وتساؤلاته.

أكرر هنا أن العبء التاريخى لايزال مهيمنا أحيانا وكامنا أحيانا أخرى فى تراثنا الثقافى الخاص بالمرأة بالذات، ومع ما جرى فيه تغيرات وتحولات متعددة، إلا أن تلك التحولات ظلت بطيئة وسطحية أحيانا ومتأرجحة غالبا، لم يحسم من خلالها كثير من قضايا المرأة والتى يضطرب حولها النقاش حتى اليوم. ويتجلى ذلك على مختلف الأصعدة، ومن أمثلة تلك القضايا والإشكاليات العالقة:

أولا: طبيعة المرأة وتكوينها البيولوجى والنفسى والتى كثيرا ما يشار إليها بأنها كائن (ضعيف وعاطفى)، وفى رأى بعض العلماء يبدو مظهر أنوثتها فى بروز صدرها المتلئ بالعاطفة دون الحكمة التى اختص بها الرجل.

ويترتب على هذه الطبيعة أن تكون مطيعة سلبية فليس لها حق المبادأة حتى فى الزواج ويقول كاتب عملاق كالعقاد (إن الوضع السليم فى الزواج محصور فى أن تكون المرأة هى المطلوبة دائما، وأن الرجل يكون هو الطالب لها والساعى وراءها، ذلك لأنها إذا كانت الساعية فقدت أهم سماتها الفطرية فقد أقام الله تكوينها النفسى والجسمى على نحو يجعلها متعة للرجل أكثر من أن يكون الرجل متعة لها) وهكذا يحظى الرجل فى تكوين طبيعته بالخصائص الإيجابية بينما تحظى المرأة بالمضامين السلبية، وفى أحسن الحالات تمتلك بعض السمات التى هى أقل قيمة وتقديرا من وجهة نظر الرجل.

ثانيا: موقف المجتمع (الذكورى) من المكانة الاجتماعية للمرأة وهل لها كيان مستقل كإنسان؟ وهل لها حاجات ورغبات عامة وخاصة؟ وهل لها حق فى التعبير عن الرأى الشخصى والمبادأة فى تصريف أمورها؟، لكن ذلك الحق الإنسانى بل والإلهى تزعزعه بعض العادات وأفكار نفر من الفقهاء التى شاعت، بل واستقرت أحيانا، أعراف وتقاليد مجتمعية وتجد عادة ما يسندها من أقوال تتشح بالأثواب الفقهية. لقد ذهب بعض الفقهاء الأقدمين إلى أن على المرأة (ألا تصوم يوما واحدا إلا بإذن زوجها إلا لفريضة، ولا تقدم حسنة من بيته إلا بإذنه، فإن فعلت كان له الأجر، وعليها الوزر) كما أن عليها ألا تفرض عليه الإقامة فى بلد معين، أو تلزمه

السكن في شارع خاص (فهذا يرجع إلى تقديره هو لا إلى تقديرها هي. كما أن عليها ألا تمنعه نفسها ولو كان على ظهر بعير). كذلك عليها ألا تخرج من بيته إلا بإذنه ويقال لها إنها ملكة في بيتها، لكنها ملكة تنعدم شخصيتها ويختزل كيانها الاجتماعي ليصبح الرجل صاحب القرار المطلق والرأى الأول والأخير.

ثالثا: ما يتصل بحقوق المرأة وواجباتها القانونية والدستورية: وهنا نجد أن بعض أقطار الوطن العربي قد حرمت المرأة من حق الانتخاب والترشيح للمجالس النيابية بدعوى أن عضوية تلك المجالس هي نوع من الولاية، وليس للمرأة حق الولاية.

وتختلط هذه الصورة الاجتماعية للمرأة أحيانا في كثير من القضايا الأخرى منها قضية اختلاط المرأة بالرجل في أنشطة الحياة المختلفة. فالمرأة عورة في بعض التصورات، وهي مصدر الفتنة والإغراء في جميع الحالات، ومن ثم فإن اختلاطها بالرجل يكون مجالا غير مباح ويكون مجلبة لفساد الأخلاق ويتشعب من هذا ما ينبغي أن يكون عليه ما يناسبها من اللباس والزي، وهي قضية كثيرا ما تشغل تفكير الرجال في الجائز وغير الجائز في موضوع الزي الذي يعتبر في حدود الحشمة .بيد أن قضايا فتنة الرجال أو زيهم لا تدخل في الحسبان ولا في أي مناقشة في هذا الصدد وكثيرا ما يعتمد في قضايا الحقوق السياسية للمرأة على حديثين يساء تفسيرهما حين يتم ذلك خارج سياق النص وظروفه، ومضمون أحدهما هو أنه لا يفلح قوم ولوا أمورهم امرأة، وثانيهما ما يشير إلى أن النساء ناقصات عقل ودين. وقد قدم العلماء والفقهاء الذين يعيشون عصرهم تفسيرات مضيئة لسياق ومضمون هذين الحديثين بما يختلف تماما عن ظاهر معنى كل منهما كما يفهمه العامة، ولا يتسع المقام لتفصيل هذين التفسيرين.

وفي بعض الأقطار العربية كمصر نلحظ المشاركة المحدودة نسبيا للنساء في الإدلاء بأصواتهن، وبأعداد قليلة للغاية في الترشيح للنيابة. ويعزى ذلك في معظم الحالات إلى عدم اهتمام الأحزاب بمشاركة العنصر النسائي، أو بحكم قناعة المرأة بأن فرص النجاح لديها ضعيفة سواء نتيجة لبراعة المنافسين من الرجال في الساحة الانتخابية، أو لقناعتها بأن شقيقاتها من النساء يفضلن الإدلاء بأصواتهن للرجال.

أضف إلى ذلك شيوع الأمية بين النساء والتفاوت في الفرص التعليمية بين المرأة والرجل. ففي إحصاءات عام ٩٨ تبلغ نسبة الأمية في مصر للذكور (١٥ سنة فما فوق) حوالي ٣٨٪، و٦٢٪ للإناث، والنسب المناظرة في الأقطار العربية ٤٦٪



المرأة

نصف المجتمع ونصف الحقيقة

الذكور، وللإناث ٥٤٪.

ثم إن نسبة قيد الإناث إلى كل ١٠٠ من الذكور في التعليم الابتدائي في مصر بلغت ٩١٪ وفي الأقطار العربية المناظرة نفس النسبة. ووصلت في مصر في المرحلة الثانوية (إعدادي وثانوي) ٨٨٪ والعربية ٨٥٪، والمرحلة الجامعية في مصر ٦٤٪ والعربية المناظرة ٧٢٪.

ومع هذه الفروق التعليمية وتدني نسبها للجنسين عموما تتعثر يقظة الوعي والإدراك الكامل للحقوق والواجبات السياسية والاقتناع بممارستها. وفي بلد كمصر نالت المرأة حقوقها الدستورية في الانتخاب والترشيح منذ ١٩٥٦. ومع ذلك لم تزد نسبة اللاتي انتخبن أو تم تعيينهن في المجلسين النيابيين (الشعب والشورى) عام ٢٠٠٠ على ٤٪ من مجموع أعضائهما، بينما لم تتجاوز النسبة في الأقطار العربية ذات النظام النيابي التشريعي ٣٫٧٪ عام ٩٨. ومما هو جدير بالتنويه كظاهرة تستحق الالتفات والتشجيع نجاح سيدتين من محافظات الصعيد في انتخابات مجلس الشعب الأخيرة ٢٠٠١، وقد تحقق فوزهما بعد معركة ضارية من التنافس مع عدد من المرشحين من رجال الصعيد في كل من الدائرتين.

رابعا: دور المرأة في المجتمع : مع ما تحقق في مجال اشتغال المرأة في سوق العمل، إلا أنه لاتزال ثمة هواجس وتحفظات واستقطابات في حق العمل المطلق للمرأة. ولعل أهم عوامل ذلك التقدم - والمتعثر في كثير من الأقطار العربية - ما نالته المرأة من تعليم أتاح لها العمل في الجهاز الحكومي والقطاع العام والقطاع الخاص.

ومع أن حق المرأة في العمل من الحقوق الدستورية وأقرته القوانين المدنية، إلا أن نسبتها في مجمل قوة العمل لا تتعدى ٣٠٪ في مصر، وفي متوسط الأقطار العربية ٢٧٪ من جملة القوة العاملة مع أنها تصل إلى أعلى من ٤٠٪ في عدد من الدول النامية في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وتتراوح بين حد أعلى أقصى ٣٥٪ وأدنى ١٥٪ ولا تتضمن تلك النسب عمل المرأة بدون أجر خارج سوق العمل، كعملها في البيت أو في الحقل مع زوجها أو في الأعمال غير النظامية.

ومما يستحق الالتفات أن التقاليد والأعراف الثقافية كما سبقت الإشارة لا

تزال ترى أن بعض الوظائف أنسب لطبيعة المرأة عن غيرها، ومن ثم يجئ التركيز على فرصها فى سوق العمل وقطاعاته الحديثة فى مجالات الخدمات وبخاصة الصحة والتعليم، وامتدت أخيرا وبقدر محدود نسبيا إلى قطاعات الإعلام والفنون والمهن الطبية والهندسية والمصارف. كذلك تظل تلك التقاليد والمفاهيم الثقافية عائقا دون تكافؤ فرصها على أساس القدرات والكفاءات فى مجال كالإدارة العليا، حيث تمثل مصر أعلى نسبة فى هذا الموقع بين الأقطار العربية. ومع ذلك فإن النسبة لا تتجاوز ١٦٫٥٪ عام ٩٦ من مجموع الوظائف العليا فى حين أنها تصل إلى ما بين ٣٠٪ - ٥٠٪ فى الأقطار الصناعية. أضف إلى ذلك أن فى معظم الأقطار العربية هناك وظائف ليست متاحة للمرأة كمناصب القضاء المدنى، ورئاسة الجامعات (باستثناء الكويت حاليا) والمناصب الوزارية إلا فى حالات محدودة كتولى وزارات الشئون الاجتماعية والثقافة والبيئة، وهى كما نلحظ وظائف تعتبر ثقافيا من أقرب المهمات إلى طبيعة المرأة وعملها الأسرى فى المفاهيم التقليدية التراثية.

ومما يؤشر على التمثيل المنخفض للمرأة فى الوظائف الوزارية نسبة إلى جملة أعضاء الوزارة فى مصر عام ٩٦ حيث بلغت ٣٫١٪ كما بلغت ٠٫٩٪ فى المغرب، ٢٫٩٪ فى تونس، و٦٪ فى الأردن، بينما بلغت فى الأقطار الصناعية ما بين ١٥ - ٣١٪ وفى إسرائيل ١٣٪ ومتوسط دول أمريكا اللاتينية يصل إلى حوالى ١٠٪.

وهكذا تحتل المرأة العربية موقعا محدودا جدا على مستوى صناعة القرار، أو اتخاذه، ولاتزال بعض مفاهيم التراث تستدعى لتبرير ذلك ومساندته. وترتب على ذلك كله وضع حدود لمشاركتها الكاملة والفعالة فى مسيرة التنمية المجتمعية، أو فى التعبير عما تتطلبه حاجاتها التنموية والحياتية الخاصة. ■

كلمات عاشت

«يشعر الرجل بقوته فيغدق رحمته على المرأة . وتشعر المرأة بضعفها فتقسو على الرجل»

(برنارد شو)

«من خذلته أسرته .. لم تأت من الأباعد نصرته»

(أحمد شوقى)

«تجنب حب المرأة .. ولا تخف من كراهية الرجل»

(سقراط)

«دور المرأة يجب أن يظل دائما من خلال أولادها»

(تولستوى)



صفحات الحوادث

والتغيرات فى الشخصية المصرية

بقلم
عزة عزت

تتناول صفحات الحوادث فى الصحف المصرية كل يوم مزيدا من القضايا والحوادث الدخيلة على مجتمعنا، ونلحظ أن اختلاف هذه الحوادث وتباينها، جاء نتيجة التحولات الاقتصادية الحادة التى حدثت فى السنوات الثلاثين الأخيرة.

لكن هل ظل الشعب المصري كما هو دون تحول، رغم ما يتعرض له من هجمات إعلامية ضارية، وهل لم يصبه شيء من رزاز العولمة ، وإذا كان قد تحول ففي أي اتجاه كان هذا التحول وما مظاهره ؟

الحقيقة أن المتأمل لأنواع الجرائم في المجتمع المصري المعاصر ، سيدهشه أو سيصدمه تنوعها واختلاف أساليبها المبتكرة، والمختلفة من حيث الكم والكيف، عما كان قبل عدة عقود تقل عن أصابع اليد الواحدة، وحتي لا أكون من المغالين حاولت أن أستنطق الأفعال هذه المرة ولم أكتف بتحليل الأقوال والشفهيات : فقد يكون الفعل مختلفا عن القول، ولذا بدأت أجمع من صفحات الحوادث في عدد من الصحف اليومية (الصباحية والمسائية) عينة تمثل ما تنشره من حوادث يومية، وما تتابعه من حوادث مر علي وقوعها شهور.. أو حتي أعوام؛ لأقف علي دليل علمي ، قد يؤكد أو يدحض ما أدعيه من تحول في الشخصية المصرية، وكانت العينة مستقاة من شهور ثلاثة، ممثلة لنهاية القرن الماضي وبداية القرن الجديد (من أول نوفمبر - ديسمبر ٢٠٠٠ إلي نهاية يناير ٢٠٠١م)، عدد مفرداتها ١٥٠ حادثة وجريمة ومخالفة وجنحة.. تمس كل غال وعزيز في مصر ، بدءاً بالأسرة الصغيرة وانتهاء بالوطن.

الأزمات الطاحنة التي يعاني منها الشباب وفي مقدمتها البطالة وأزمة السكان ولدتا احساسا عميقاً بعدم الولاء لهذا الوطن

وقد ذهبت فى دراسات سابقة إلى أن الشخصية المصرية قد أصابها الكثير من التحول فى السنوات الثلاثين الماضية، الممثلة لنهايات القرن العشرين، وأننا ندخل القرن الجديد أو الألفية الجديدة بروح مختلفة عما كنا عليه عبر قرون، وقد قست هذه التحولات من خلال ما يجرى على ألسنة العامة من شفهيات متواترة - القديم منها والحديث - لأؤكد صدق ما أدعيه.. لكن الكثير من الباحثين وذوى الرأى قد اختلفوا مع ما ذهبت إليه من دعوى ، قائلين: بأن الشخصية المصرية مازالت بخير.. فلا داعى للقلق ، فالشخصية المصرية التى صمدت عبر قرون دون أن تتحول، لا يمكن أن يصيبها التحول فى ثلاثة عقود، وذلك لما تتسم به من الثبات والقدرة على التأثير فى الآخر.. دون أن تتأثر به، وهو ما تأكد عبر عمرها المديد.. رغم تعاقب صنوف من الحكام عليها، وتغير ديانتها ولغتها عدة مرات، وتراكم طبقات من الثقافات المختلفة على أرضها، بكل ما تركته من بصمات على شعبها، الذى أكد دوما أنه يصمد أمام أى غزو ثقافى أو حضارى وافد،



فالحضارات جميعا سادت ثم بادت وبقيت مصر وشعبها على عهدهم. شعبا ودوداً، طيبا وعفوياً، لأنه متدين، وهو يتمسك بالقديم من العادات والتقاليد والتراث لأنه عاشق للاستقرار، وهو شعب ذكي حكيم، وساخر فنان.

معظمنا يشعر بما يعترى الشخصية المصرية من تحول، وكلنا نتناول هذا التحول فى أحاديثنا التى بات يجللها مسحة من التحسر على الزمن الجميل، بكل ما فيه.. أيام زمان، وناس زمان، وأخلاق زمان، معللين ما حدث بأنه بتأثير من مقتضيات العصر، وبفعل الظروف الحياتية وصعوبات المعيشة، إلى جانب التأثر بالوافد والغريب من الأفكار والطروحات الوافدة من شاشات السينما والفضائيات، وشبكة الإنترنت، وشتى صنوف التأثير الإعلامي المستحدثة.. وأيا ما كان الدافع إلى التحول الملحوظ، والذى يجزم به الجميع تقريباً، فإن أهم ما يهمنا هنا هو الوقوف على مظاهر هذا التحول في أقصى صورها السلبية ؛ ردا على من يزعمون أن ما حدث مجرد تغير قشرى قد شاب السلوك اليومي.. ولم يطل السمات الأصيلة والجميلة فى الشعب المصري، وأن ما صدر عن هذا الشعب من أقوال مستحدثة تصورت - خطأ - أنها تعبر عن قيمه السائدة الآن، وقناعاته خلال العقود الثلاثة الأخيرة، وفلسفته الجديدة التى عبر عنها بمنحوتاته اللفظية المستحدثة، قد رأيت - خطأ أيضاً - أنها بدأت تنسخ ما كان سائداً من معان وقيم، كانت راسخة لقرون .. وكان يتمسك بها المصريون على اختلاف طبقاتهم المتباينة .

فإذا سلمنا جدلاً بأن وجهة النظر الأخرى هى الصحيحة، وأن ما نلاحظه ليس تحولا حقيقياً.. إلا فى أسلوب الخطاب، وفى الكلام وليس فى الفعل ، وفى الظاهر وليس فى العمق - أقول إذا سلمنا جدلا بذلك - فلابد أن نقيس درجة هذا التحول من خلال مؤشرات أخرى دالة عليه، ولتكن حركة المجتمع التى تنعكس على صفحات الصحف، خاصة صفحات الحوادث، التى قد يتضح منها مدى ما تبقى للمصرى المتدين، الودود، الطيب من هذه السمات ، وما هى الطبقة أو الطبقات الاجتماعية التى بلغ بها التحول مبلغ الانحراف والعنف والجريمة؟ وأصبحت أسماء أفرادها وصورهم تزين صفحات الحوادث!!.

أنواع الجرائم

هل صحيح أن أنواع الجرائم قد اختلفت، واتسمت بأسلوب أشد عنفاً؟؟ وهل صحيح أن المصرى الذكى الفهلوى ، الذى كان يتحايل على البسطاء من الناس منفرداً بهم: ليبيع لهم الترام أو العتبة ظل كما هو ، حالة فردية محدودة العدد؟؟ أم أنه تطور وتحول وازداد ذكاء وحنكة، واستخدم أساليب متطورة ، ولم يعد يكتفى بالضحك على البسطاء؟! بل أصبح «يضحك على ذقن» الدولة، وينهب



أموالها، ويتحايل على القانون، ويتنوع فى أساليب هذا التحايل ما بين استيلاء على المال العام، وعلى أراضى الدولة، وتهرب من الضرائب، وتهريب كل شىء بدءاً بالمستورد من البضائع، والأدوية، والمنشطات، والمهدئات، والمخدرات ، وانتهاء بتهريب الذهب والآثار!!!

هذا وقد خلصت من تحليلى لهذه الجرائم إلى أنها تتعلق بشكل مباشر بما أصاب المصرى من تحول فى سلوكه الذى كان يتسم بالودادة والطيبة والرومانسية، فتحول إلى عصبية واستفزاز دائم، وشجار، وعنف ، كما وأن الذكاء وما يتصل به من فهلوة قد زاد وفاض، ووصل إلى درجة النصب والاحتيال والتفنن فيهما، وحبه للاستقرار فى وطنه ، وانتمائه وولائه لهذا الوطن، تحول إلى رغبة عارمة فى الهروب منه بالهجرة أو بالتغييب العقلى بالإدمان، وما كان يتسم به من حذر تحول فى المقابل لما يحدث الآن من تهور ومجازفة، وما كان يتسم به من أمانة وخلق مهذب يعلم الله إلى أين آل مصيره، وما كان يتسم به من إتقان فى المقابل نراه اليوم تسيباً وفوضى وإهمالاً، وقد انحسرت هذه الجرائم فى ١٨ نوعا من الجرائم لا أقسمها كما يقسمها الشرطيون وفقاً لنوعيتها ودرجة مخالفتها للقانون.. ولكنى قسمتها لتخدم ما أرمى إليه من هدف، وهو قياس علاقتها بسمات المصريين، وقياس ما لحقهم من تحول، وما لحق علاقاتهم ببعضهم ، وبالمقربين منهم على وجه الخصوص من أهل وأصدقاء وجيران، ووفقاً لما كان نتاجاً لما حدث فى المجتمع من تحول اقتصادى، وأزمات طاحنة (بطالة - إسكان) .



العاطفى، الطيب، الودود

إذا أردنا تقديم ما تعكسه أو تشير إليه الحوادث والجرائم المتصلة بسمة مهمة فى الشخصية المصرية وهى الطيبة والرومانسية والودادة، وما يتسم به سلوك المصرى من البعد عن العنف، خاصة فى علاقته بأحبائه وأسرته وأهله وأصدقائه وجيرانه، وبمن يلتقى بهم فى يومه فى الشارع، ومن يحتك بهم فى حركته الدائبة سعيا وراء رزق أو قضاء لمهمة، فسنجد أن المصرى الرومانسى المحب الوله مازال على عهده - وإن كان ذلك نادرا - «ينتحر حرقا من أجل خطيبته التى انفصلت عنه».. حتى وإن خلا المكان من أى ملمح من ملامح الرومانسية وسط زحام القاهرة، ونجد أن هناك من يقتل زوجته بدافع الغيرة والشك، وأن المصرى المحب مازال يعتبر أن محبوبته أو زوجته أو شقيقته هى شىء مقدس.. التعرض له يمس شرفه، وهو أمر لا يقبله ويقابله بقتل المعتدى عليه.. بل إن المشاعر المتصلة بالعاطفة كحب أو كجنس كانت دافعاً لجرائم قتل عديدة فى أنحاء متفرقة من مصر عاصمتها وأقاليمها، ولم يختلف هذا السلوك بين عامل وعاطل ومحام .. بل ونجد أنه مازال هناك من الأصدقاء والأهل من يتحركون للذود عن الشرف، سواء فى صعيد مصر أو فى عاصمتها.

أما عن المصرى المشبوب العواطف والغرائز فسنجد أنه قد بدأ يرتكب العديد من جرائم الاغتصاب الجنسى وهتك العرض.. حتى مع الأطفال والعجائز، ويسلك فى ذلك سلوكاً عنيفاً لا يتسق وطبيعته السمحة الطيبة؛ ولعل دافعه فى ذلك رغبة متأججة لا تملك إمكانات الإشباع الشرعى والسوى ؛ بسبب أزمتى البطالة والإسكان.. وإن كانت مهمتنا هنا ليست التبرير بقدر كونها إقرارا للواقع، الذى ينفيه المسئولون الرسميون ويرجعونه إلى الانحرافات الشخصية الفردية، ويهونون من جريمة الاغتصاب بالذات ؛ بوصفها لا تشكل ظاهرة ، كما قال وزير الداخلية فى برنامج «حديث المدينة يوم عيد الشرطة ٢٠٠١/١/٢٥م»، مؤكدا ذلك رقمياً بأن : «جرائم الاغتصاب كانت ١٦ جريمة عام ١٩٩٧، وصلت إلى ٢١ عام٩٨ وإلى ٢٥ عام ٩٩، وهبطت إلى ٩ جرائم فقط عام ٢٠٠٠؛ أى أنها تشهد هبوطا وتزايدا متذبذبا، فى حين هى ١٢ مليون حالة على مستوى العالم، وهى فى أندونيسيا البلد الإسلامى الكبير تصل إلى ١٢٠٠ حالة سنويا» - وأيا ما كان هذا التهوين من الأمر - فهو فى تصورى مؤشر لما يعلن عنه من جرائم، وليس مؤشر لما تتعرض له الإناث شابات أو صغيرات من إنهاء لعذريتهن وبكارتهن النفسية والفسيولوجية أو لبراءتهن، ويخجل ذويهن من إعلان عنها بإبلاغ الشرطة، ويكتفين بالحسرة، أو يلجأ بعضهم للانتقام الشخصى.

أما عن المصرى الودود فى تعاملاته حلو المعشر، الذى يُغلب العاطفة على



طعنات «المنجل» مزقت شرايين القلب.. وضاع القتيل والقاتل !

المادة، الخلوق المهذب في تعامله مع أسرته وعائلته، فنلاحظ من واقع العينة أنه «يقتل شقيقه في مشادة بسبب ارتفاع صوت التليفزيون»، «ويقتل ابن عمه باشتراك مع صديق (غريب) للاستيلاء على نقوده» (مكذبا بذلك المثل القائل : وأنا وابن عمى ع الغريب)، وأن «الإبنة تلقى بوالدتها من الشرفة بعد أن توسعها ضربا» ، «وطالبة الثانوى تنصب وتدعى أنها سرقت بالإكراه ؛ لتستولى على مكافأة نهاية خدمة والدها»

وأن «غفير يقتل والده بسبب ميراث والده»، وأن هناك من «يقتل ابن عمته بسبب دين قيمته خمسة جنيهات»، وأن هناك من «تحجر على أمها وتجمع بين زوجين وترفض الحياة الزوجية الشرعية لحياة عرفية»، وأن هناك من «يطعن شقيقه ويضرب أمه للحصول على المال».

وإذا ما بحثنا عن الأسباب دون محاولة التبرير فسنجدها المادية وضعف صلة الرحم في أبسط الأحوال، وهي البطالة وانتشار الإدمان في أسوأها.

أما إذا وسعنا دائرة الحركة الإنسانية للمصرى الطيب ، في علاقته بمن حوله من جيران وأصدقاء فسنجد أن الازدحام والاحتكاك هو المولد الأساسى لمعظم المشاجرات التي تتسم بالعنف الحاد في الشارع المصرى ، الذى افتقد بسببها المصرى حسن عشرته لجيرانه، ومراعاته للحسنى ولأوامر دينه في ودهم ونجدتهم ، ناهيك عن تقديسه للصداقة الذى يكاد يصاب في مقتل، كما اتضح من الجرائم المتعلقة بهذا الأمر والتي تصل إلى حد «قتل الجار بسبب لعب الأطفال»، أو لأسباب واهية، وأن الكثيرين يلقون مصرعهم في



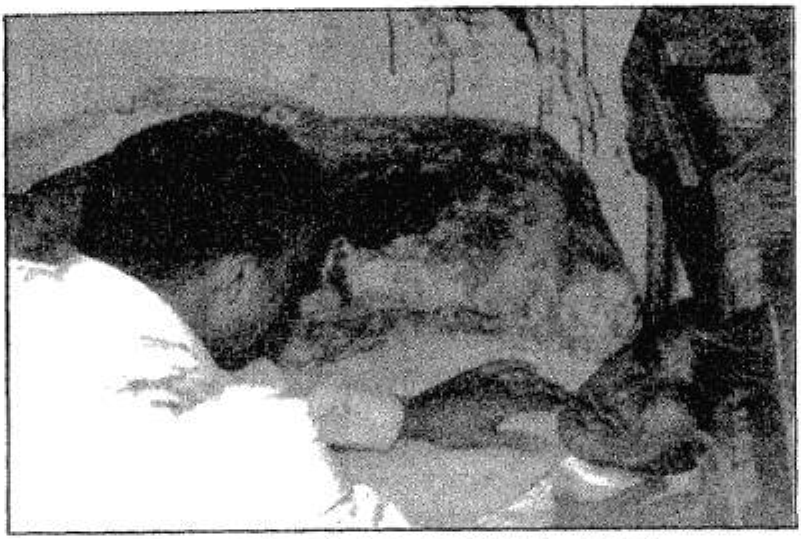
مشاجرات، وأن الجيران والأصدقاء لم يعودوا يكتفون بالقتل.. بل يمثلون بالجثث بسبب استعارة قميص أو جرعة مخدر، أو جلسة خمر، أو بسبب الاستفزاز والاستشاطة غضباً.. فأين المصرى الطيب من كل ذلك، ولا فرق هنا بين موظف، وأمين شرطة، وسائق، وبحار، ومحام، الكل يتصرف بالدرجة نفسها من العنف فى الشجار، الذى يصل إلى الضرب المفضى إلى الموت، أو القتل طعنا والتمثيل بالجثث، أو تعليقها فى هلب بحرى، أو إطلاق الرصاص.

ناهيك عن جرائم البلطجة التى أصبح يعج بها الشارع المصرى والتى تأخذ أحيانا طابع الحوادث الفردية، أو الجماعية المحدودة والمقصود بها شخص بعينه، وأحياناً أخرى تأخذ طابعا جماعياً «لإرهاب أهالى حى بأكمله ، عن طريق الهاربين من الأحكام، والمسجلين خطر، والمدمنين، والبلطجية المأجورين» ، كما حدث فى حى العصافرة بالإسكندرية «باستخدام السيوف والجنازير والمدى»، وما حدث أثناء الانتخابات البرلمانية الأخيرة فى معظم دوائر محافظة الشرقية، التى شارك فيها ١٠٣ من المأجورين، وغيرها كثير.. وإن كان تماديهم قد جاء بسبب سطوة المال وإمكانية شراء من يروع ويفزع الآمنين، وأيضا كرد فعل لما تمارسه الشرطة من عنف، بحجة الحزم والضبط والربط فى حين أن التمادى فيه فى غير مناسبة الانتخابات كان سبب غياب الوجود الأمنى الحازم فى الشارع المصرى، وفى الأحياء النائية والهادئة.

المصرى الخلوق الأمين

من المعروف أن المصرى المتدين الطيب خلوق وأمين، ومن الغريب حقا أن نرى المصريين العاديين - وليس اللصوص المحترفين - قد بدأوا يتخلون عن هذه السمات، ومصداق ذلك كم الجرائم التى كان الدافع لها بين الأصدقاء خيانة الأمانة.. سواء كانت دين، أو وديعة على سبيل الاستثمار أو المشاركة ، فإذا ما طالب بها صاحبها كان مصيره القتل، وتقطيع الجثة إلى أجزاء، أو الادعاء بأن المبالغ قد فقدت فى حوادث سرقة بالإكراه ، ناهيك عن سرقات الخادمات لمخدوميهم ، وهو أمر قد تزايد بشكل لافت.

هذا وقد يقول البعض أن السرقة وخيانة الأمانة أمر وارد منذ بدء الخليقة، وظاهرة عامة فى كل المجتمعات.. لكن الجديد فى الأمر الآن هو ما حدث من تحول فى طبيعة هذه الجرائم وكثرتها، واختلاف القائمين بها ما بين: تشكيل عصابى من طلاب الجامعات، و«جامعيين يسرقون ١٢ شركة كمبيوتر ، للانفاق على الإدمان»، و«سيدة زعيمة عصابة لسرقة السيارات الأجرة بالقوة، والاعتداء على سائقيها فى المناطق النائية»، و«موظف يشارك فى قتل والد صديقه لسرقته»، و«موظف كبير بجهة مهمة يسرق كراتين السيجار والسجائر المستوردة من السوبر ماركت»، ولعل



بعد أن قتل أبيه جاء ليمثل كيف قتله .. إنها جرائم دخيلة على مجتمعنا الآمن!!

أكثر هذه الحوادث فجاجة ودلالة على صدق ما أقول هو حادث السطو المسلح لسرقة بنك المراغة» وكأننا فى شيكاغو.. وليس فى مصر.

أما عن الجرائم التى تتصل بالأخلاقيات فحدث ولا حرج عن «٢٦ سيدة وفتاة من طالبات الجامعة يتزوجن من أجانب بعقود عرفية مخالفة للقانون، من خلال شقة تدار لهذا النشاط تتزعمها سيدة»، ناهيك عن ظاهرة الزواج العرفى المنتشرة فى الجامعات، والتى تناولتها باستفاضة وسائل الإعلام كبرامج، ودراما، وتحقيقات صحفية، ناهيك عن إدارة أوكار القمار ، وما يشاع عن الفنانات وتنشره تفصيلاً المجلات الفنية، ويرد أيضا فى صفحات الحوادث.

أما عن المصرى المتدين الذى يعتز بمقدساته الدينية فأيضاً لم يعد كما كان.. رغم المد الدينى القوى بكل أشكاله - المظهرية، والخيرية، أو حتى الإرهابية - فبرغم ذلك نلاحظ وجود بعض الجرائم ذات الطابع الفكرى مثل : قضية «المؤلف المغمور الذى تطاول على الأديان وعلى الذات الإلهية والرسول الكريم»، ناهيك عن الزوبعتين اللتين قامتا بسبب نشر وزارة الثقافة للغث من الأدب الماجن والمكشوف الذى لا يرعى حرمة المجتمع، والأدهى ما ثار من جدل ولغط حول حرية المبدعين فى هذا الصدد، والذى عكس وجود تيار إباحى مرحب بهذا اللون من التنفيس الجنسى، والتشجيع على نشره بحجة حرية الإبداع.. وحتى لو قلنا إن هذا الأمر ليس بجديد فالأدب المكشوف أمر عربى شائع كان يتداول سراً.. فالجديد هو



المجاهرة بتحبيذه، والمطالبة بدعمه، وعدم الحياء في المناقشة حوله.. أسوة بالراعية الأم أمريكا، التي تُصدر لنا بين الحين والآخر موضوعات فجة، تتناولها الصحف بجرأة من مثل: قضية طبية الذكر مونيكا ليونيسكي وفستانها الأزرق، ودواء العافية – الأزرق أيضاً – المسمى حبوب الفياجرا، وكلها أمور كانت سلفاً لا تناقش بهذه الفجاجة والقحة.

نهب المال العام

الأمر اللافت للنظر حقاً هو جرائم إهدار ونهب المال العام بالملايين، التي انتشرت، والتي رصدت أكبر عدد منها من خلال العينة، بكل أنواعها، بدءاً بالحصول على عمولة أو رشوة، والاستيلاء على أراضي الدولة، أو الحصول على قروض بنكية دون ضمانات والهرب بها، أو الاختلاس من أموال النقابات، أو جمع تبرعات كبيرة دون ترخيص رسمي وعدم إنفاقها في مصارفها، أو فرض أتاوات أو رشاوى شهرية حتى على جامعي القمامة من مسئولي الأحياء، أو التهرب الضريبي بالملايين أيضاً، من جانب أصحاب الملايين والمتربحين من رجال الأعمال والصناعة والسياحة والمحاجر، والجواهرجية، والفنانين، بالإضافة إلى الشركات التي تعمل لسنوات دون تراخيص، هروباً من أي إلتزامات حيال الحكومة أو أداء حق الدولة، ناهيك عن تهريب السلع المستوردة من ملابس إلى أدوية إلى مشغولات ذهبية، ومستلزمات طبية ومستحضرات تجميل، والمتاجرة في السلع الفاسدة، والمنتهية الصلاحية، والاستيلاء على بضائع بالملايين أيضا من القطاعين العام والخاص، والتلاعب بالزيادة في تحصيل الرسوم.. حتى بالنسبة لتصاريح العمل في مواسم الحج، والأنكى هو نوعية المتورطين في هذا القضايا من مثل: وكيل وزارة التربية السابق، وصاحب مركز بحثي عالمي مهم، ونواب برلمانيين، ومسئولين ورسميين كبار، ومديرو بنوك وشركات تأمين وأصحاب شركات كبرى، يتلاعبون بمال الشباب الحالم بالسفر والهجرة، والذي لم يجد السبيل بعد ليكون من الأثرياء الجدد، الذين يعلم الله وحده من أين لهم هذا؟!!.

ويقودنا الحديث عن انتفاء سمة محب للاستقرار ومنتمي بشدة لأرضه إلى تناول موضوع تحولها إلى كراهية ورفض ورغبة في الهروب بأي شكل.. ولو بالتغييب والانخراط في آفة الإدمان.. التي قد يقول البعض أنها عادة مصرية قديمة، عانت منها الأسر المصرية بشكل حاد عام ١٩٣٠، حينما انتشر شم الكوكايين، وأنه حتى بعد أن قضي عليها ظل الغالبية من المصريين يتعاطون الحشيش.. لكن هذا القول مردود عليه أيضاً بأن الإدمان الآن قد أصبح ظاهرة مدمرة لشباب مصر ورجالها، وأنها لأول مرة تدخل النساء والفتيات أيضا دائرة الإدمان الرهيبة ..



سطو مسلح على أموال البنوك فى وضح النهار!

بكل أنواعها الطبيعية والتخليقية، ولم يقف الأمر عند حد التعاطى والاتجار بل تعداه إلى الجلب والتهريب والتخليق والغش فيه، والأدهى والأمر الزراعة وبمساحات شاسعة لنباتات البانجو بالذات، وفى أراضى الدولة المخصصة للخريجين ، واشتراك الصيادلة فى هذه التجارة الرائجة دون وازع من ضمير ، أو شعور بفداحة ما يفعلونه بتدمير الأمة، وهم المنوط بهم مداواة أمراضها وتخفيف آلامها.

ويجدر بنا هنا الإشارة إلى أن الأزمات الطاحنة التى يعانى منها الشباب وفى مقدمتها البطالة وأزمة الإسكان قد ولدتا إحساساً عميقا بعدم الولاء لهذا الوطن، الذى لم يعد لا بل ويات يلفظهم ، حتى أن هناك بعض الجرائم التى تتسم بالعنف ولا تتسق وسمات المصرى الأصيل قد تسببت فيها هاتان الأزمتان تحديداً، وبلغت بالبعض إلى قطع صلات الرحم فى الصراع على السكن، و«القتل من أجل شقة» التى تورط فيها وكيل النائب العام، و«الشقيق الذى يطرد شقيقه من الشقة ، ليتزوج فيها فيختنق له عروسه»، ومن يلقون بوالديهم فى دور المسنين للانفراد بشقتهم والزواج فيها.. ناهيك عن كل الجرائم التى تنشب بين المتزوجين وما يشوبها من أساليب التحايل والتناحر والتقاضى حول شقة، وما تعج به المحاكم من قضايا وخلافات وصراعات حول الشقق والعقارات، وما شاب مجال الإسكان بالذات من حوادث الغش والمخالفات الصارخة ، والتحايل لاستغلال حاجة الناس إلى السكن، والرغبة فى الثراء السريع من خلال



الاستثمار فى قطاع الإسكان، الذى أدى إلى كوارث محققة راح ضحيتها المئات ، بسبب انهيار المبانى على رؤوس ساكنيها، عدا عن الخسارة المالية التى تقدر بالملايين .

الحذر المتقن

كلنا يعرف قدر ما يتسم به المصرى الفنان والصانع الماهر من حب للإتقان، ودقة فى الصنعة، وحرص على التدقيق فى كل شىء، تحسباً أو تخوفاً مما قد تأتى به الأيام، فالمصرى حذر بطبعه وغير مجازف، ومتأن فى كل أموره بحكم حياته الزراعية والنهرية، فهو ليس من الشعوب المغامرة.. ولكن أين هذا الحذر والحرص من كم الجرائم والحوادث التى تقع يومياً بسبب التهور والسرعة فى القيادة، والتى يروح ضحية لها الآلاف من الضحايا الأبرياء، ولا فرق بين جاهل ومتعلم فى هذا الصدد، ولا بين عاصمة مزدحمة ومدينة صغيرة، أو بين طريق ضيق وطريق سفر، أو بين كبرى علوى ومزلقان، فالصحف تطالعنا صباحية ومسائية بحوادث تصفها دائما بأنها وقعت بسبب «السرعة الجنونية، والتهور، والرعونة»، فهل هذه الصفات مصرية أصيلة؟!!

هذا ومن مكملات منظومة العجلة التى كان يرى المصرى فيها «الندامة»، برز الإهمال والتسيب والفوضى بدلاً من الاعتناء والنظام والتدقيق، ووقعت بسببهم الكثير من الجرائم، التى تسميها الصحف تجاوزا «حوادث قتل خطأ بسبب الإهمال الجسيم» ، ولا فرق فيها أيضا بين فئة أو مهنة وأخرى ، بدءاً بالإهمال فى المستشفيات وقتل المرضى من قبل الأطباء أو الممرضين، ومرورا بحرائق المصانع بسبب الخلل فى التخزين، وعدم مراعاة شروط الأمن الصناعى، وتباطؤ حضور قوات الإطفاء، وانهيار المنازل القديمة بسبب التواكل وإهمال قرارات التنكيس، وكوارث القطارات «الناجمة عن التقاعس عن غلق المزلقان»، أو مقتل طفلين فى الحمام بسبب إهمال والديهم، أو قتل طفلان آخران بسبب إطلاعهما برأسيهما من نافذة الترام، أو موجة الانفجارات بسبب تسرب الغاز ، أو مقتل الكثيرين بسبب كابل كهربائى مكشوف، أو بالوعة بدون غطاء، أو حقل ألغام غير مسيج بعناية.. وحتى «الموتى لم ينجوا من الإهمال بسبب سيارات نقل القمامة التى تلقى حمولاتها فتحاصرهم فى المقابر»، عدا عن الطامة الكبرى التى وقعت حينما فقدت القوات المسلحة ٢٠ من خيرة رجالها بسبب عدم التدقيق أو مراعاة أبسط قواعد الأمن ، بتسفيرهم على طائرة واحدة من الولايات المتحدة الأمريكية غرقت بهم وبغيرهم فى المحيط، ولم يكن غريبا التطاول الأمريكى واتهام مصر بأنها السبب؛ لأنهم يعرفون عنّا هذا الإهمال والتواكل، ولا يجب أن نستغرب هذا التطاول، ولا عجب فى أن

يصدقه عنا الآخرون!!!.

الذكى الفهلوى

ولا غرابة أن المصرى الذى دللنا على قدر ما حدث فى شخصيته من تحول فى اتجاه السلب ، نجده يحتفظ بسمة أصيلة فيه هى الذكاء.. ولكن وللأسف الشديد يوجهه وجهة سلبية، ويغالى فى الفهلوة كسمة فرعية طالما اتسم بها ، ودليلنا على ذلك كثرة جرائم النصب والاحتيال بشكل لافت ، وتنوع أساليبها، وأن النصاب لم يعد مجرد فرد ينصب على آخر أو حتى آخرين .. لا بل أصبح النصب يتم بواسطة مجموعات لخداع الآلاف، ولعل أشهر حادثة نصب تعرض لها الشعب المصرى كانت قضية توظيف الأموال، التى ألقى فيها معظم المصريين بكل ما يملكون ، فى أيدى حفنة من المغامرين، الذين لعبوا برغبتهم وحلمهم فى الثراء السريع مرتدين رداء الدين والتدين.. لكن جرائم النصب الآن برغم هذا الدرس القاسى مازالت مستمرة فى اللعب بأحلام الشباب الراغب فى السفر والهجرة ، فكم من «شركة وهمية تتاجر فى التأشيرات المزورة»، وكم من «شركة وهمية تستولى على بضائع بالملايين من أصحاب المصانع» ، فى ظل الركود السائد منذ فترة، وحتى النصابات من النساء اللاتى كن يخدعن الصائغين بسرقة بعض المشغولات أصبحن يخدعونهم فى ٥ كيلو ذهب.. كيف ؟!! العهدة على ما تنشره الصحف، المهم أن النصب زاد وأصبح بالملايين أى زاد كما وكيفاً!!. وفى هذه السمة نرصد التحول فى الدرجة والشدة.. وليس التحول إلى النقيض.. فهل يعنى هذا أن المصرى ازداد ذكاءً؟! أم إن ذكاءه قد توجه أكثر للشر؟؟!!.

هذه خلاصة رؤيتى لما يدور فى مصر من حوادث، وما يقع فيها من جرائم ، ولا أرى فارقا كبيراً بين الطبقات والفئات والمهن فى نسبة الانخراط أو التورط فى الجرائم فملائكة الرحمة مهملون، والصيادلة يشاركون فى ترويج المخدرات، والمحامون ووكلاء النائب العام يحتالون ويقتلون، ومربون أفاضل وضباط شرطة يتورطون فى تجارة المخدرات والإدمان، والأوراق قد اختلطت بشكل لا أدرى كيف سيعاد ترتيبها.. ولعل ذلك ما حدا بى إلى تحليل طبيعة ما يقع من حوادث وجرائم فى الشارع المصرى ، كمؤشر لما اعترى المصريين من تحول حاد وملحوظ.. ومن يختلف معى فى هذه الرؤية عليه أن يقرأ بعناية مفردات العينة التى اعتمدت عليها فى استخلاص هذه النتيجة، عله يستخلص منها عكس ما رأيت!!.

وإلى أن نلتقى مرة أخرى حول مؤشر آخر لقياس درجة التحول فى سمة مصرية أخرى، هى سمة «ساخر»، والتى سأستخلصها من خلال بريد القراء فى الصحف ، الذى أفرز عدداً لا بأس به من الكتاب الساخرين.. لكنها سخرية لا تدعو للضحك ، أو تدعو لضحك كالبكاء على ما يدور فى واقعنا المصرى العجيب !!. ■


الإنترنت
والفلاحون
والتنمية

نحن الآن في عام ٢٠٢٠، دخل واحد من الفلاحين في إحدى القرى المصرية مكتب مهندس المعرفة الزراعية، ولم يجد على مكتبه أى شيء، ولا حتى جهاز كمبيوتر مثل الجهاز الذى يملكه الفلاح فى منزله! وجلس الرجل أمام المهندس يعرض عليه مشكلته، ويحمل فى يده عينة من نبات القمح المصاب في أرضه، فيخرج المهندس من جيبه كمبيوتر فى حجم الكف، على شكل مفكرة أنيقة جذابة ومليئة «بالزرائر والسرائر»، ويمسك قلما غريب الشكل ويكتب فى المفكرة، التى سرعان ما يكتشف المزارع أنها ليست مفكرة من ورق ولكنها تتقبل الكتابة بخط اليد، ثم يستأذن المهندس في أن يلتقط لعينة القمح صورة بالكاميرا الفيديو، وإذا بالمهندس يستخدم نفس المفكرة الكمبيوتر للتصوير، وتأتى فى برهة على شاشة المفكرة إجابات عن أسئلة المزارع بالصوت والصورة وباللغة المحلية التى يفهمها المزارع.

فى أثناء ذلك تأتى إشارة من المفكرة العجيبة تدعو المهندس إلي دورة تدريبية، أو مؤتمر فى أمراض القمح، فينزعج المزارع ويهم بالاستئذان، فيعرض عليه المهندس أن يحضر معه المؤتمر دون أن يتحرك من مكانه، فهو مؤتمر بالفيديو من خلال الانترنت، وتبدأ وقائع المؤتمر، وها هو صوت وصورة مستر سميث خبير القمح الأمريكانى يجيء من حقله التجريبى فى تكساس، ويقاطعه د.واطسن خبير القمح فى غرب أوربا من مكتبه بلندن، ويعلق د.حسن من معمله بمركز البحوث الزراعية المصرى بالقاهرة، ثم يقاطعهم د. هاشيمور من اليابان ويتحدث من منزله فى طوكيو، الذى يدخل على الخط بلكنته اليابانية وملامح صورته المميزة، ومن إيطاليا يأتى صوت وصورة مدير هيئة الفاو (F.O.A) (منظمة التغذية والزراعة) ويكمل الحديث بلكنته الايطالية، ولكن المهندس والمزارع يفهمان كل ماجاء فى المؤتمر لأن الترجمة تأتى فورية،

وينتهى المؤتمر والمزارع لايكاد يصدق ما رأى بعينه أو سمع بأذنه! كل ذلك من تلك المفكرة الكمبيوتر، ومن أجل عينة القمح المصابة!. والآن نستيقظ جميعا من الحلم الذى كاد أن يصبح حقيقة فى بعض الدول الآن، نحن فقط سافرنا معا فى رحلة زمن لمدة عدة سنوات قليلة قادمة وكان معنا كمبيوتر المستقبل الذى تحول فعلا الآن إلى مركز اتصالات كامل، والآن نأتى إلى تحليل تلك القصة الحلم.

التحديات المخيفة فى القرن الجديد

البداية أن هناك أكثر من ١٫٣ بليون فرد فى العالم الواسع يعيشون فى فقر، وتقريبا ثلاثة أرباعهم يعيشون فى مناطق ريفية، وفعليا كلهم يعتمدون مباشرة أو بشكل غير مباشر على الزراعة فى حياتهم. بالرغم من عملية مواصلة التمدين، فإن حوالى ٣٫٢ بليون من الـ ٦ بلايين سكان العالم اليوم ريفيون وهم يمثلون حوالى ٥٣٪ من سكان العالم، وسوف تستمر نسبتهم على ثبات فى الـ ٣٠ سنة القادمة، ومجموع السكان الكلى النشيطون فى الزراعة حوالى ١٫٣ بليون ولن يتغير هذا الرقم كثيرا فى العشر سنوات القادمة، والكثير من الزراع أو الرعاة أو الآخرين الذين يعيشون على الغابات أو صيد الاسماك أو المعدمين يحتاجون إلى المساعدة فى انشطتهم الاقتصادية الصغيرة الحجم، ذات الانتاجية الضعيفة والعائد الهزيل، وإذا لم نستطع تحديد الأسباب الجذرية للفقر فى الريف، سوف يتزايد أعداد الفقراء فى الريف الذين يعيشون على هامش الحياة، وتتناقص فرصهم لحياة أفضل، ورغم التوقعات بأن يتناقص عدد الشعوب التى تعانى من نقص التغذية الى النصف تقريبا إلى مابعد عام ٢٠١٥ نتيجة جهود محاربة الجوع فى جميع دول العالم، والتى تعهدت بها كل البلدان كالتزام من المجتمع الدولى أثناء قمة الغذاء العالمية التى عقدت فى روما عام ١٩٩٦، فهناك أكثر من ٨٠٠ مليون فرد فى العالم لا يمتلك سبيلا إلى غذاء كاف يقابل احتياجاتهم، وفى عام ٢٠٢٥، سكان العالم قد يتجاوزون الـ ٨ بلايين واحتياجاتهم الغذائية قد تتضاعف خاصة فى الدول النامية تقريبا، فالفقر هو السبب الرئيسى لعدم الأمان الغذائى، والتواصل فى التقدم فى استئصال الفقر هو أحسن السبل إلى الأمن الغذائى، ومن زاوية أخرى معظم الدول فى العالم تتناقص فيها الأنشطة

الاقتصادية التي تعتمد على الزراعة، على الرغم من تزايد الطلب على إنتاج الطعام، فإن النسبة المئوية للسكان الذين يعيشون مباشرة على الزراعة مستمرة في التناقص خاصة في الدول النامية .

المعرفة مفتاح التنمية

ومع بداية القرن الحادى والعشرين أصبح سكان المناطق الريفية والنائية فى البلاد النامية يواجهون كثيرا من التحديات غير المتوقعة، التى نتجت عن عولمة الاقتصاد والتغييرات السياسية، بالاضافة إلى الأضرار التى لحقت بالبيئة، علاوة على الضغوط الديموجرافية، لذا أصبح من الأهمية بمكان لمواجهة هذه التحديات إدخال واستحداث نظم معلوماتية واتصالات حيوية توصل للريفيين وخاصة المزارعين منهم التكنولوجيا الجديدة والمعرفة، وإذا كان العالم يجب أن يعترف بخط التقسيم الرقمى وبحقيقة الفجوة الهائلة فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات بين الدول النامية والدول المتقدمة، يجب أيضا أن يعترف العالم بخط التقسيم الرقمى داخل كل دولة سواء كانت متقدمة أو نامية وأن المناطق الريفية والنائية فى كل دول العالم تعانى من نقص فى البنية التحتية لوسائل الاتصال، وبالحاجة الملحة للدول النامية للدخول فى مجتمع المعلومات بمزيد من القوة والسرعة، وأن البنية التحتية المتطورة في وسائل الاتصال بالمناطق الريفية هى مفتاح التنمية الريفية المتواصلة بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والبيئية والخدمية، وهذا ما أعلنته وثيقة أعدت من قبل منظمة الفاو والبنك الدولى، ونشرت أخيرا فى روما مارس ٢٠٠٠، تحت عنوان «النظم المعلوماتية والمعرفية الزراعية من أجل التنمية الريفية رؤية استراتيجية ومبادىء توجيهية».

وتؤكد فيها على أنه رغم اختلاف الفلسفة السياسية والاقتصادية بين دول العالم فى ممارستهم للتنمية الزراعية طوال القرن الماضى، إلا أن تلك التجارب فى التنمية الزراعية اتفقت على مقولة مهمة تنص على أن التنمية تستطيع أن تؤدى دورها، فى حالة وجود المعرفة، فالمعرفة تقود إلى التنمية، وأن النجاح فى التنمية الزراعية لمواجهة الجوع يستوجب تعليم السكان الريفيين، وإذا كنا قد اعتدنا على التفكير بأن زيادة الانتاج هو مفتاح التنمية والنمو، فإن الآن فى عصر المعلومات، تعتبر المعرفة ، والمعرفة فقط هى الحقيقة المهمة للتنمية، فالمعرفة وتطبيقاتها سوف تقود

العمليات المختلفة للتنمية وتؤدى إلى النمو ومقاومة الفقر والجوع، ويمثل ذلك الاستراتيجية الأساسية للقرن الحادى والعشرين، فالمعلومات والمعرفة تلعب دورا أساسيا فى ضمان الأمن الغذائى والتنمية الريفية المتواصلة. فتكنولوجيات المعلومات والاتصال، وخصوصا الانترنت، جعلت كل الأنشطة البشرية تعتمد تماما على المعلومات، وبما فيها من أنشطة التنمية الريفية والأمن الغذائى، وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات (ICT) وفرت فرصا جديدة للأفراد والمجتمعات ليس فقط كمستهلكين للمعلومات ولكن أيضا كمنتجين لتلك المعلومات من خلال التقارب والتكامل بين وسائط الإعلام المختلفة التي عظمت من سرعة الوصول إلى المعلومات، وخفضت من تكلفتها، حيث توفر ثورة المعلومات للدول النامية وبالأخص المناطق الريفية والنائية فيها فرصة درامية لاختراق المستقبل وإنهاء قرون مضت من التخلف والانعزالية، بشرط تقريب الفجوة التكنولوجية المعلوماتية بين الشمال والجنوب، ويجب على الدول النامية أن تستغل هذه الفرصة وبسرعة، وقد أثبت المستخدمون المبكرون للإنترنت فى الدول النامية أنهم يستطيعون تنمية وتطوير خدمات محلية متميزة ومصادر معرفة مناسبة محليا تتناسب وطبيعة وواقع مجتمعاتهم المحلية .

تكنولوجيات المعلومات والاتصال من أجل التنمية

ومنظمة التغذية والزراعة FAO كجهة مفوضة لتحسين حياة السكان الريفيين وتقديم الدعم للتنمية الزراعية تلعب دورا مهما وتاريخيا فى التأكيد على منافع وفوائد الإنترنت وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات التى تصل للريف عبر هيئات تنموية مختلفة تساعد حاليا فى مد خدمات الإنترنت الأهلية المنظمة فى الدول النامية، وهى التى رفعت شعار «الاتصال من أجل التنمية» كمدخل لخدمات الانترنت المساعدة وهو المدخل الذى يبدأ من حيث توجد احتياجات الناس فى المجتمعات المحلية الريفية والزراعية .

والدراسات التى قامت بها مؤسسات دولية مثل الفاو والبنك الدولى تظهر أن المعلومات والتعليم والتدريب، يتيح للزراع استخدام التكنولوجيا والمعارف الحديثة فى الزراعة، وأن كلا من التعليم الرسمى والتدريب والتعليم غير الرسمى مثل برامج تعليم الكبار وبرامج الإرشاد

الزراعى ذات تأثير فعال فى زيادة الإنتاجية الزراعية

وتكنولوجيا المعلومات تساعد فى تنمية الموارد البشرية من خلال استخدامها فى عمليات التعليم والصحة، والتغذية، وخدمات تحديد النسل، فتكنولوجيا المعلومات الجديدة يمكن أن تربط بين كل من المتعلمين والبحاث، والطلبة، وصانعى السياسات وبين مؤسساتهم سواء فى داخل البلاد أو خارجها، وهذه التكنولوجيات تعطى إمكانيات كبيرة للتعلم عن بعد، وللتعليم الجماهيرى عبر وسائل الإعلام الجماهيرى، ومشروعات البنك الدولى، أوضحت كيف يمكن لفنيين وقرويين ذوى معرفة منخفضة فى القراءة والكتابة، يستطيعون تعلم الجرافيك والاتصالات البصرية من خلال الكمبيوتر. فى فنزويلا تم توصيل خدمات الاتصالات والقمر الصناعى والانترنت للمناطق الريفية النائية مما مكن من توصيل الرسائل الاعلامية التى كانت تستغرق ٩٠ دقيقة فى وقت قصير للغاية.

فى زامبيا وزيمبابوى وفر الانترنت جميع المعلومات حول الأسواق لمشروعات التنمية الزراعية والأمن الغذائى، واستعملت الانترنت فى التحذير المبكر من المجاعات، ومساعدة متخذى القرار. ومن خلال الانترنت استطاعت السويد التغلب على العزلة الجغرافية التى تواجه المناطق الريفية النائية فيها بتقديم خدمات أساسية لتلك المناطق تتمثل فى توفير الدخول على قواعد البيانات الاقليمية والقومية، وتوفير الخدمات التعليمية وتسهيل خدمات الفاكس والبريد الإليكترونى من خلال الإنترنت لتلك المناطق.

فى الولايات المتحدة الأمريكية يتوفر للمناطق الريفية والنائية فيها كل الخدمات الزراعية والتعليمية والصحية والمعلوماتية من خلال ما يسمى بالحكومة الاليكترونية أى توفير الخدمات الحكومية من على بعد من خلال الانترنت، وبدأت فى مصر هذه الأيام تبث خدمات الحكومة الاليكترونية فى بداية متواضعة، ولكنها بداية تفتح الطريق لوصول الخدمات الحكومية بفعالية للمناطق الريفية والنائية، فى استراليا توجد شبكة مؤتمرات مرئية ومسموعة من خلال الإنترنت تغطى كل المناطق النائية والريفية لتقديم كل الخدمات الزراعية والتعليمية والصحية والثقافية. فى شيلى تخدم الإنترنت عبر منظمات الزراع هناك الريفيون، وتقدم لهم كل المعلومات عن المحاصيل المحلية والعالمية، ومواقيت زراعتها وأسعارها والأسواق والطقس والمعلومات والبرامج التدريبية والفنية واستخدام البريد الإليكترونى فى التواصل مع منظماتهم.

وفى ماليزيا يتوفر نظام معلوماتى

يسمى Klosks يقدم للريفيين والمنظمات غير الحكومية العاملة فى الريف والمناطق النائية كما هائلا من الخدمات المعلوماتية تشمل التليفون والفاكس ومكتبات الفيديو وتبث من خلالها كافة المعلومات فى مجالات الصحة والتدريب والتعليم، بيانات للأسواق والخدمات الحكومية والبريد كل مايحتاجون فى عصر المعلومات ويعتبر هناك محركا قويا للتنمية الريفية. وفى المكسيك وشيلى تقدم خدمة الإنترنت للمناطق الريفية عبر منظمات الزراع واتحاداتهم، وتقدم لهم كل الخدمات المعلوماتية الحياتية خاصة فى الزراعة والتسويق، الصحة والتعليم، وتنمية المشروعات الصغيرة. وقرأنا فى الصحف فى مصر هذه الأيام عن مناقصات لوزارة الاتصالات لإقامة شبكة اتصالية لتقديم الخدمات الصحية والثقافة السكانية، وشبكة أخرى تغطى كل الخدمات البريدية.

وتجب الإشارة هنا إلى أن مفهوم مراكز معلومات المجتمع المحلى، ليس بالمفهوم الحديث، ولكن الإنترنت هو الذى أتاح تسهيلات جديدة لبناء مراكز كثيرة فى المناطق الريفية، إذ أن السكان فى المناطق الريفية يستطيعون الحصول على معلومات من كثير من المنظمات التى يمكن أن يطلق عليها مفهوم مراكز معلومات المجتمع المحلى مثل المدارس، والمكتبات الريفية، المنظمات غير الحكومية المحلية، اتحادات المنتجين، مراكز المساجد والكنائس، الوحدات الصحية، مراكز تنظيم الأسرة إلخ. وكثير من تجارب دخول الإنترنت المناطق الريفية فى العالم تمت من خلال خريجى وطلاب الجامعات فى تلك المناطق الريفية لأن هؤلاء الطلاب والخريجين يتعرضون لمنافع الإنترنت فى مؤسساتهم التعليمية، فيتوفر لديهم الوعى والإدراك بأهميتها، فعلى سبيل المثال فى منطقة Hermosillo بالمكسيك استمر ثلاثة خريجين من الجامعة يقدمون من الإنترنت المعلومات الزراعية القيمة لأهالى تلك المنطقة الريفية لمدة ثمان سنوات بدون أجر، وفى شيلى امرأة شابة تخرجت حديثا من الجامعة، وبدون سابق خبرة فى الكمبيوتر، تدربت وأصبحت مسئولة عن تقديم المعلومات الزراعية الجديدة من الإنترنت لمنظمات الزراع. لذلك أوصت دراسات الفاو بأن يؤخذ فى الاعتبار ضرورة جذب الشباب من خريجى الجامعات والكليات للعمل فى التجارب الأولية والاسترشادية لتعميم خدمات الإنترنت للمنظمات والسكان فى الريف وخاصة فى الدول النامية، وتلك التجارب نحتاجها فى مصر، فهناك آلاف من خريجى الجامعات ذوى الأصول الريفية وعاطلين عن العمل، وأخص منهم خريجى

كليات الزراعة، وكليات الطب البيطرى أمامهم فرصة لعمل ما يسمى دكاكين الإنترنت بدعم حكومى ونشرها فى المناطق الريفية لتقديم كل المعلومات الزراعية والبيطرية الجديدة والثقافة السكانية والمعارف الحياتية المختلفة التى تسرع من عمليات تحديث الريف، فهناك الآن فى ريف مصر بعض الشباب من الأطباء البيطريين فتحوا عيادات إليكترونية عبارة عن مكان صغير به كمبيوتر وفيه برامج نظم خبيرة خاصة بالرعاية البيطرية، يحضر المزارع بحيوانه المصاب أمام حجرة الكشف ويشخص الطبيب الأعراض المرضية التى فحصها ويدخلها الكمبيوتر فتخرج روشتة العلاج.

البنية التحتية الاتصالية فى الريف

تشير الاحصاءات إلى أن كثافة خطوط التليفونات الريفية أصغر من ١ لكل ١٠٠٠ نسمة بل إن مساحات كبيرة من أقاليم الدول الأقل نموا بدون أى خطوط تليفونية، فهناك ٥٣٥٠٠٠ قرية فى الهند، و ١٥١٠٠٠ قرية فى أفريقيا و٥٨٠٠٠ قرية فى أندونسيا بدون أى خط تليفونى، وهو ما يترجم فى مصطلح «نقص البنية التحتية الاتصالية فى الريف»، وسد هذا النقص يحتاج إلى أموال طائلة لمساعدة الدول النامية فى بناء وتحسين شبكة اتصالاتها وتطوير تكنولوجيات الاتصال المرتبطة. فمسئولية بناء البنية التحتية الاتصالية صعبة ومكلفة على الوقت الطويل، خاصة مع وجود حقائق كالجوع وموت الأطفال. لكن البنك الدولى تبين دراساته أن الاستثمارات فى البنية التحتية الاتصالية تعود بفوائد مرتفعة ١٨٪ أو ٣٦٪ تحسب كفوائد غير مباشرة وتصبح مصدرا ثابتا من الدخل العام. ولكى تلحق الدول النامية بالدول الصناعية معلوماتيا يجب أن تنمو شبكتها الاتصالية مرتين أو ثلاثة أمثال متوسط النمو العالمى لشبكات الاتصال والمقدر بـ ٥٪ سنويا، وهذا يتطلب استثمارات جديدة وضخمة لتحديث تلك البنية فى هذه الدول، وقد قدر أنه فى عام ٢٠٠٥ سوف تنجز الدول النامية ٣٠٪ من مشروعاتها فى البنية التحتية الاتصالية بحوالى ٩٠٠ بليون دولار أمريكى، والعالم كله سينجز ويطور ١٦٪ من البنية الاتصالية بحوالى ٥٢٠ بليون دولار أمريكى.

والحلول يجب أن تكون فعالة ومنصفة، أولها الاهتمام بالمناطق الريفية وتحسين نوعية الحياة فيها، والعديد من الدول تضع استراتيجيات طموحة مسبقة لتنمية البنية التحتية لاتصالاتها المحلية، فالفلبين مثلا تستهدف خط تليفون لكل فرد يعيش فى قراها البالغ عددها ٤٠٠٠٠ قرية، الصين مثلا تأمل أن يكون لها أكثر من ١٤٠

مليون خط تليفوني حتى عام ٢٠٠١ . هذا وتعتبر مصر من أوائل الدول التي وعيت بأهمية البنية الأساسية للاتصالات، فانتشرت فيها خطوط التلغراف مع أول خطوط للسكك الحديدية، ثم غطت أغلب المدن المصرية قبل نهاية عصر اسماعيل باشا ١٨٧٨، ومهد ذلك لانتشار التليفونات فيما بعد ووصل عدد المشتركين عام ١٨٨٦ إلى ٨١٧ مشتركا مما يعتبر بمقياس العصر وقتها عددا كبيرا. فالاتصالات التليفونية في مصر لها تاريخ طويل يواكب دخول التليفون في الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا، ويحفزنا ذلك أن نذكر هنا بالكتلة البشرية الغاطسة الهائلة والتي تبلغ حوالي الخمسين مليونا من البشر والتي تكلم عنها كثيرا الدكتور رشدي سعيد في مقاله المهم الحقيقة والوهم في الواقع المصري، ووصفها اقتصاديا وثقافيا فهي تمثل الفقر بكل أبعاده، ويهمنا هنا أن هذه الكتلة الغاطسة من البشر في مصر والتي تحصل على حوالي ٢٦٪ من جملة الدخل القومي، ويمثلون ٨٦٪ من جملة سكان مصر، ويسكن منها حوالي ٥٦٪ من أسر هذه الشريحة في الريف والباقي في الأحياء الشعبية في المدن أو على أطرافها في مناطق عشوائية، كما أن هذه الكتلة الغاطسة ليس لدى أحد فيها أي تليفون خاص بل ويمكن القول إن هذه الكتلة الغاطسة محرومة كلية من استخدام التليفون، فمعظم القرى والأحياء التي يسكنونها ليس بها تليفونات عامة.

ويعتبر نقص البنية التحتية الاتصالية واحدا من أهم العوامل المهمة التي تقود السكان للهجرة من الريف للحضر، لدرجة أن المخططين للتنمية الريفية في دولة مثل كندا أكدوا على أن تحسين البنية الاتصالية في المناطق الريفية يأتي في المرتبة الأولى من حيث الأهمية وترتيب الحاجات لإحداث التنمية الريفية، بل إنها تأتي قبل تحسين الخدمات الصحية أو الخدمات التعليمية لأن توفر البنية التحتية الاتصالية هو العامل المؤثر في تفعيل الخدمات الصحية والتعليمية في المناطق الريفية، فنقص تلك البنية الاتصالية يؤدي إلى طرد الكفاءات العاملة من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية، وإذا كان نقص البنية التحتية الاتصالية في المناطق الريفية هو التحدي الأول المعيق لدخول الإنترنت المناطق الريفية، فالتحدي الثاني الذي يواجه تنمية الاستثمار في مجال التكنولوجيا في المناطق الريفية يتمثل في نقص المعرفة الثقافية والقدرة على تحديد أي من التجارب التنموية يمكن أن تنجح في منطقة بذاتها وهو ما يسمى بالتوافق المكاني، التحدي الثالث في تمويل التكنولوجيا ذاتها.

ولمواجهة النقص الواضح فى البنية التحتية الاتصالية للإنترنت فى المناطق الريفية والنائية، توصى البحوث فى هذا المجال بأنه يجب على الدول توفير منح وقروض ميسرة لتوفير المستلزمات لمولين لخدمات الإنترنت فى المناطق الريفية، وكفالة حرية استخدام الخدمة لمدة ثلاث سنوات لتشجيع القطاع الخاص، والمساعدة فى التدريب والتمويل وتنمية الوعى بالإنترنت، وتؤكد الدراسات أن هناك علاقة ارتباطية قوية بين تحسين نظم الاتصالات فى الدول النامية وبين سياسات الاتصالات القومية التى تفيد فى تحرير خدمات الاتصالات، ففى أوغندا وزامبيا وغانا هناك تزايد مستمر فى خدمة الإنترنت فى هذه الدول لأنها تبنت سياسات تحريرية لنظم الاتصال، ويذكر أيضا أن قرار الحكومة المصرية بدعم خدمات الإنترنت للقطاع الخاص، قد جاء نتيجة للانفجار فى خدمات الإنترنت والنمو الموازى له فى أعداد المستخدمين، فقد سمحت الحكومة المصرية بالترخيص بإقامة شركات تجارية تقدم خدمات الإنترنت فى مايو ١٩٩٦ وبدأت وقتها فورا ١١ شركة فى القاهرة وكذلك ثلاث شركات خاصة فى هرارى زيمبابوى، حيث تقدم هذه الشركات خدمة الإنترنت لمن يملك جهاز الكمبيوتر وخط تليفون. وكذلك نشأت عدة شركات صغيرة فى المراكز الحضرية تقدم خدمة الإنترنت لمن لا يملك جهاز كمبيوتر كما حدث فى المكسيك ومصر وماليزيا والسنغال، فكانت بدايات مشجعة للفاو أن تبدأ فى تلك الدول مشروعاتها البحثية الاسترشادية التى تكلمنا عنها لتقديم خدمة الإنترنت للمناطق الريفية لتدعيم التنمية الريفية المتواصلة.

وعلى الرغم من النمو السريع فى خدمات الإنترنت، فإن الوعى العام بفوائد الإنترنت الإيجابية مازال ضعيفا بالدول النامية، حيث توضح نتائج البحوث أن أغلبية مستخدمى الإنترنت فى الدول النامية يقعون تحت واحدة من المجموعة الآتية: خريجى الجامعات حديثى التخرج، المنظمات غير الحكومية الممولة دوليا، مشروعات التنمية الدولية من خلال الهيئات العامة، المنظمات الدولية، الوحدات الحكومية ذات الصلة بالهيئات العليا بالدولة، الجامعات والقطاع التعليمى بصفة عامة، الباحثين، الهيئات السياحية الحكومية والمحلية، الأفراد الذين يعيشون خارج مجتمعاتهم المحلية، المؤسسات الدينية ذات الانتماءات الدولية الهيئات الصحية، ووسائل الاعلام، وشركات الكمبيوتر والاتصالات.

وهناك طرق عديدة لتنمية الوعى بالإنترنت فى المناطق الريفية منها، حلقات المناقشة المحلية، وإنتاج وتوزيع شرائط فيديو حول أهمية واستعمال الإنترنت فى

الزراعة مثلا، تشجيع وإطلاق ونشر خدمات الإنترنت في المناطق الريفية مع التركيز على دور المنظمات غير الحكومية، وتعزيز خدمة التليفونات القائمة، تطبيق فكرة الإنترنت المتنقل internet buses وهى أتوبيسات الإنترنت لنقل التسهيلات التى يتيحها الإنترنت إلى المناطق الريفية النائية باستخدام تكنولوجيات الأقمار الصناعية.

ويستطيع الاستخدام المخطط للإنترنت فى الريف أن يساعد فى تبادل الخبرات بين السكان وتسهيل الحوار بين الريفيين والمخططين الحكوميين من بحاث زراعيين وفنيين، التنسيق بين جهود التنمية على المستوى المحلى والاقليمى والقومى، كما يمكن للإنترنت التغلب على المعيقات الناتجة عن الأمية واللغة والاختلافات الثقافية والعزلة الطبيعية من خلال نقل الصوت والصورة والحركة، وتوظيف ودمج وسائل الاتصال التقليدية مثل الفلكلور الشعبى، الاذاعة الريفية، وفيديو المشاركة فى الإنترنت.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإنترنت ليست هى البلسم الشافى والحل الوحيد لمشاكل التنمية الريفية فى مصر، ولكنها عامل فعال فى نجاحها لأن من خلال الإنترنت نقدم مصادر جيدة للمعلومات، وفتح قنوات اتصال بالمجتمعات الريفية النائية، وكسر الفجوة بين المخططين والمتخصصين فى عمليات التنمية والسكان الريفيين، وتتيح التفاعل بين الخبراء والريفيين، وتنمى العلاقات بين المنظمات التى تخدم فى الريف، ويستطيع الإنترنت بناء آليات تمكن من إجراء حوار بين القمة والقاعدة فى عمليات التنمية، والمشاركة فى المعرفة المحلية.

إرادة الفراعنة

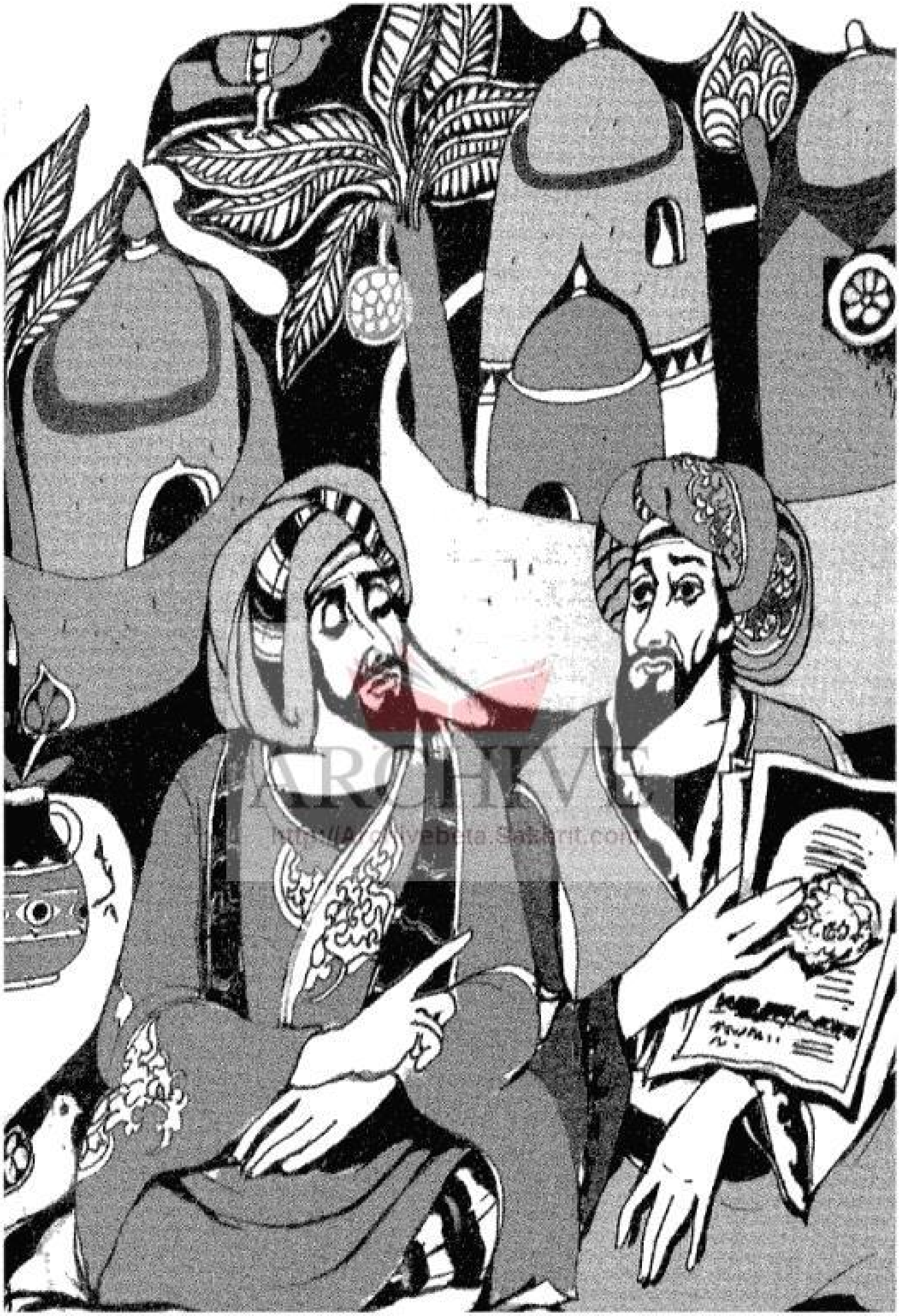
فحتى وقت قريب جدا كان يعتقد أن عمر الزراعة المصرية ١٨ ألف سنة منذ عام ١٦٢١٩ قبل الميلاد حيث أثبتت الحفريات ذلك فى وادى الكوبانية فى كوم أمبو، وأثار هذا الاكتشاف الكثير من الجدل والنقاش ليس هنا موضعها، لكن الشيء المؤكد أن الزراعة المصرية يمتد عمرها قبل هذا التاريخ بكثير، وأن التقدم الزراعى فى مصر الفرعونية كان بكل ما يعنيه مصطلح زراعة من رعاية أرض، ورى وصرف، وتربية حيوانات ومزارع سمكية وادخال واستيراد محاصيل جديدة... إلخ. والسؤال الآن كيف تم هذا التقدم الزراعى؟ إن الإجابة على هذا السؤال تستدعى الكثير من البحث والدراسة الدقيقة والمنقبة، ولكن لا يمكن الاختلاف على أن التقدم الزراعى فى مصر القديمة لابد أنه اقتضى نظاما إداريا واتصاليا وتعليميا وبحثيا، وتعاونا واتصالا أيضا بين الزراع أنفسهم،

وأيضا بينهم وبين العلماء في المعابد، فانعكست آثار هذا التنظيم في صورة تقدم زراعي ملحوظ في مصر الفرعونية.

إن الباحث المدقق والمنقب في تاريخ مصر القديمة لابد أن يعثر على الكثير من الدلائل والشواهد التي تؤكد وجود نوع من الاتصال بين الزراع والبحث الزراعي في مصر القديمة، لأنه لايمكن أن يكون هذا التقدم ناتجا من فراغ، وإذا كانت الكلمات السريعة السابقة ماهي إلا مجرد محاولة للوعي بالتاريخ، واستجماع لانطلاق! فهل أن الأوان لأحفاد هؤلاء الفراعنة أن يشحذوا ارادتهم لتوظيف تكنولوجيات المعلومات والاتصال من أجل التنمية الريفية والزراعية، وتوظيف الإنترنت للوصول للزراع الجدد في المشروعات الزراعية القومية الجديدة ليكونوا على اتصال دائم بتكنولوجيات الزراعة الجديدة، واسمع من يقول الآن علينا بمحو أمية الزراع أولا ! والرد على ذلك بسؤال هو كيف نوظف الإنترنت في الوصول لكل مكان في مصر مهما كان بعيدا لمحو أمية من يجهل الأبجدية الهجائية، وفي نفس الوقت نمحو أمية استعمال الكمبيوتر والانترنت في نفس اللحظة أيضا نوصل له التكنولوجيا الزراعية الجديدة، ونحقق ثلاثة أهداف بضربة واحدة.

ولا أحد يمكنه أن يتوقع للمزارعين الفقراء أو لسكان المناطق الريفية التي تعاني من تدني المستويات الاقتصادية والاجتماعية، أن يمتلكوا أجهزة الكمبيوتر وأجهزة الاتصال الرقمية الحديثة وخدمة الإنترنت كوسائل لتحسين حياتهم. لكن هناك الكثير من النظم المختلفة التي تخدم هؤلاء السكان عندما تتجمع مع بعضها في شكل شركات صغيرة ومتوسطة في المناطق الريفية، ويمكن لهذه الشركات أيضا أن تنتفع بالميزة التكنولوجية في تحسين الكثير من أوجه الحياة في المناطق الريفية. ويمكن هنا أن تلعب المنظمات الوسيطة مثل المنظمات الريفية غير الحكومية، والوحدات الصحية والوحدات الاجتماعية والبيطرية أن تجتمع معا في شكل شركات صغيرة ومتوسطة لتقديم خدمات الإنترنت أو بمعنى أدق توظيف تكنولوجيات الاتصالات والمعلومات في خدمة التنمية الريفية المتواصلة.

ولاشك أن المنظمات غير الحكومية يجب أن تلعب دورا مؤثرا ومزدوجا لنقل اهتمامات ومشاكل الريفيين إلى مستوى صناع القرار، فالمنظمات غير الحكومية كاتحادات الزراع والجمعيات التعاونية التي تخدم المجتمعات الريفية والزراعية أفضل العناصر المتاحة لتطوير وتدعيم خدمات الإنترنت والاتصالات والمعلومات بهذه المجتمعات. ■



أشهر مترجم فى التاريخ

حنين بن إسحاق

بقلم
حسين أحمد أمين

هو أشهر وأعظم مترجم عرفه التاريخ، وأبرز من أسهمت ترجماته فى إثراء الحضارة الإنسانية. لا لأنه ترجم مائتين وستين كتابا فى الطب والفلسفة والفلك والرياضة، وإنما لكونه أهم من نقل علوم الإغريق إلى العربية؛ ولأن ترجمته الدقيقة الواضحة الفذة لكتب بقراط وجالينوس فى الطب كان لها الفضل فى أن يصبح الأطباء العرب فى العصر الوسيط خير وريث لطب اليونان، وذوى أعمق تأثير فى الطب الأوروبى حتى القرن الثامن عشر؛ ولأنه أرسي دعائم صنعة الترجمة ووضع الشروط اللازم توافرها فى النقل السليم عن اللغات الأجنبية، بحيث يمكن القول بأن أسلوب تعامله مع اللغة فى ترجماته لا يختلف فى قليل أو كثير عن الأسلوب المتبع فى العصر الحديث.



حنين بن اسحاق

ولأنه أشار إلى طرق التحقق من صحة أو زيف نسبة الكتب إلى من زعم أنهم مؤلفوها؛ ولأنه اعتمد في ترجمته للعهد القديم من الكتاب المقدس إلى العربية على أصول يونانية هي أقدم بعدة قرون من تلك التي كانت في حوزة الأوروبيين، فساعدت ترجمته تلك مترجمي العهد القديم في أوروبا على التثبت من النص وتصحيح الترجمات المتداولة لذلك الكتاب على ضوئها؛ ولأن بعض ما ترجمه إلى العربية والسريانية من كتب الإغريق قد ضاعت أصوله اليونانية، فأصبح اعتماد الأوروبيين اعتماداً كليا علي ترجمات حنين لهذه الكتب في نقلهم إياها إلى اللاتينية ثم إلى اللغات الأوروبية الحديثة؛ ثم لأن أسلوب حياته، وسمو أخلاقه، وجهده الدءوب في الإنتاج والعمل، وحرصه الدائم على الارتقاء بمستوى اللغات التي درسها، والمؤلفات التي وضعها ، والترجمات التي اضطلع بها هو وابنه إسحاق وابن اخته وسائر تلامذته، هي خير ما يمكن للمؤلفين والمترجمين وسائر الناس أن يقتدوا به.

نشأته

ولد حنين بن اسحاق العبادي (بكسر العين وتخفيف الباء) عام ٨٠٨م (١٩٢ هـ) قبل عام واحد من وفاة هارون الرشيد. وكان مولده بمدينة الحيرة في العراق ، وهي مدينة عريقة القدم (بنيت قرب بابل في القرن السادس قبل الميلاد)، وتقع جنوبي بغداد، لا يفصلها عن الكوفة غير مساحة صحراوية ضيقة. وكثيرا ما ورد ذكر الحيرة في قصائد الشعراء وكتب المؤرخين العرب. فقد كانت مدينة غنية، ومركزا تجاريا هاما، وعاصمة للأمراء اللخميين الموالين للفرس، كما كانت قبيل ظهور الإسلام بؤرة سياسية المناطق الواقعة غربي وجنوبي نهر الفرات، ومقرا لأسقف النساطرة الذي كان يلقب بأسقف العرب.

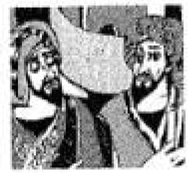
فأما أهلها فمسيحيون على مذهب فرقة النساطرة، ظلوا بعد ظهور الإسلام وانتشاره مخلصين لعقيدتهم وكنيستهم، رافضين الدخول في الدين الجديد، غالبيتهم من قبائل تنوخ، وطيء، وتغلب، وعدد من القبائل الصغيرة الأخرى.. وبفضل بذخ الأمراء اللخميين، واهتمام رجال الكنيسة النسطورية بنشر التعليم، اشتهر أهل الحيرة عند العرب بأنهم أهل شعر وعلم وفنون وصنائع. كما كان

سكانها المسيحيون أقدم مجتمع مسيحي عربي خالص، يلقبون بالعباد، ومنها نسبة العبادي في اسم حنين. ورغم اختلاف الانتماء القبلي لهؤلاء السكان، فقد اختفت بينهم بمرور الزمن النزاعات والعداوات، وأضحوا (عكس القبائل العربية الأخرى) جماعة متماسكة مترابطة بفضل المذهب الديني المشترك الذي حل لديهم محل مشاعر العصبية القبلية التقليدية.. كذلك اشتهر أهل الحيرة بالتجارة، وكان تجارها - ومنهم من كان يمتلك بها دورا وقصورا فاخرة - كثيرى السفر - حسنى السمعة بين كافة العرب، بل وكان العرب يرونهم خير وسيط بين المدن وبين عالم الصحراء، وقد وسعت كثرة الرحلات والصلات من مدارك أهل الحيرة وآفاقهم العقلية، ورفعت من مستوى الثقافة فيها.

فأما عن لغتهم فقد كانوا يستخدمون العربية في الحديث، والسريانية في الكتابة. وكانت السريانية هي اللغة التي يتلقى بها التلاميذ تعليمهم في المدارس التي ترعاها الكنائس والأديرة. ومع ذلك فقد كان للصفوة في الحيرة فضل تدوين أقدم تراث أدبي باللغة العربية، ولشعرائها فضل نظم القصائد شديدة الاختلاف في معانيها وأغراضها عن الشعر البدوي، وكان أبرزهم الشاعر الجاهلي عدى بن زيد.

كان والد حنين صيدليا ميسورا عُنى بأن يتقن ولده اللغتين العربية والسريانية في صباه إتقانا تاما، ثم أضاف إليهما حنين في شبابه لغتين أخريين هما اليونانية والفارسية، ويلاحظ أن حنينا، بعدما استقر به المقام في بغداد واشتغل بالترجمة، كانت ترجماته من اليونانية إلى السريانية أكثر منها إلى العربية، وذلك لسببين: الأول، أن عنايته اتجهت في المقام الأول إلى ترجمة المؤلفات الإغريقية في الطب والفلك والرياضة، فوجد أن اللغة العربية في زمنه فقيرة إلى المصطلحات العلمية المتعارف عليها، واللازمة لترجمة مثل تلك الكتب، وأن السريانية والفارسية، ناهيك عن اليونانية، أغنى من العربية بكثير بتلك المصطلحات، وقد كان سبيل حنين وتلامذته إلى الخروج من هذا المأزق فيما بعد هو أن يتجنبوا قدر الإمكان حرفية ترجمة المصطلحات، وبذل الجهد من أجل صياغات مصطلحات علمية جديدة باللغة العربية.

وأما السبب الثاني فهو أن حنينا كان يهتدي في نشاطه برغبات المتعاملين معه، وكان المسيحيون النساطرة في ذلك العصر أحرص الناس على ترجمة التراث اليوناني إلى السريانية لغة كنيستهم، وذلك



حنين بن اسحاق

لدواع لابد من ذكرها فيما يلي:

فالمعروف أن النساطرة هم أتباع نسطور الذى نصب بطريقا فى القسطنطينية عام ٤٢٨م.ثم أطيح به فى مجمع إفسوس عام ٤٣١ بسبب الخلاف الذى دب بين المسيحيين حول طبيعة المسيح. فطرد من حظيرة الكنيسة وحكم عليه بالنفى، وقد كان أن اتجه مناصروه شرقا، خاصة إلى فارس المعادية للروم، ثم أضحت النسطورية المذهب الرسمى للكنيسة فى الإمبراطورية الفارسية، كما انتشرت فى المناطق الشمالية للشام والعراق وشرقى تركيا، ثم بين القبائل العربية حتى اليمن وحضرموت، ففى الهند والصين، حتى باتت كنيستها أعظم الكنائس الشرقية نفوذاً، وحتى اعترف الخلفاء العباسيون ببطريقها رئيسا لكافة نصارى المشرق على اختلاف مذاهبهم.

وقد حرص علماء النساطرة ورجال الدين منهم منذ البداية على أن يكون لمذهبهم لاهوت وفلسفة مختلفان أشد الاختلاف عن لاهوت الكنيسة البيزنطية وفلسفتها فكان أن أقبلوا إقبالا عظيما على ترجمة كتب أرسطو وفلاسفة الأفلاطونية الحديثة إلى السريانية، ونسخها والتعليق عليها وتفسيرها، ونشرها بين المؤمنين على نطاق واسع، حتى تصبح مادتها من المنطق والميتافيزيقا أساسا للاهوت كنيستهم. ثم كان أن اتسع بعد ذلك نطاق اهتماماتهم حتى شمل جانب المنطق والميتافيزيقا مختلف علوم الإغريق، خاصة الطب. ومن حسن حظهم أن وافق نشاطهم هذا في ذروته بدء اهتمام خلفاء العصر العباسى الأول بتنشيط الحركة الثقافية فى دولتهم، وإقدامهم على تكليف من يثقون فى كفاءتهم بنقل علوم اليونان إلى العربية، وتأسيس «بيت الحكمة» فى بغداد عام ٨٣٢ ليكون البؤرة الرئيسية لذلك النشاط الذى ظل علماء المسيحيين النساطرة على مدى أربعة قرون أبرز القائمين عليه.

مع يوحنا بن ماسويه

كان حنين بن إسحاق فى الرابعة والعشرين وقت تأسيس الخليفة المأمون لبيت الحكمة. وكان قد سعى قبل ذلك إلى إتقان قواعد اللغة العربية التى قيل إنه قصد البصرة لدراستها، جالبا منها معه كتاب «العين» للخليل بن أحمد . أما ما زعمه ابن جُلْجُل وآخرون من أن حنينا التقى بالخليل، فزعم غير مقبول على ضوء

تاريخى ميلاد ووفاة كل من الخليل وحنين. وعلى أى حال فقد شهد كل من كتبوا سيرة حنين من المؤلفين العرب القدماء أنه ترك البصرة إلى بغداد «فصيحا لسنا ينظم الشعر بالعربية».

فأما عن كيف أتقن حنين اليونانية ذلك الاتقان المذهل، فيذكر شاهد عيان هو يوسف بن إبراهيم فى رواية جديرة بالتصديق. فهو يروى أن حنينا بدأ دراسة الطب فى بغداد على يوحنا بن ماسويه (٧٧٧ - ٨٥٧م) الذى ترجم بعض كتب الطب اليونانية لهارون الرشيد، ثم كان بعد ذلك طبيبا خاصا لكل من المأمون والمعتصم، ومديرا لبيت الحكمة، ولأهم مدرسة ببغداد لتعليم صناعة الطب.. ورغم أنه كان أيضا من المسيحيين النساطرة، فقد ضاق بعد مدة بحنين لكثرة أسئلته العويصة أثناء الدرس مما كان ابن ماسويه يعجز عن الإجابة عنها، كما كان يستنكر أن يدخل فى صناعة الطب أبناء التجار من أمثال حنين. وكثيرا ماكان يعبر عن غيظه بقوله له : «ما لأهل الحيرة وأبناء التجار والطب! أقعد على الطريق مع بضاعة تبيعها فإن ذلك أنفع لك من صناعتنا! وقد وصل الأمر فى النهاية إلى حد فصله إياه، فخرج حنين من مدرسته باكيا مكروبا.. وهنا اختفى حنين عن العاصمة لعدة سنوات تذكر المصادر أنه أقام خلالها بالإسكندرية بمصر ثم فى عدد من مدن الدولة البيزنطية. فلما عاد بعد ذلك إلى بغداد كان قد أتقن اللغة اليونانية تماما، لدرجة أنه كان يحفظ بها أجزاء طويلة من ملحمتى هوميروس، بالاضافة إلى ما اقتناه من مخطوطات يونانية فى كل من مصر والشام وفلسطين.

يقول يوسف بن إبراهيم: «دخلت يوما فى زمن المأمون على الطبيب جبرائيل بن بختيشوع، فوجدت عنده حنينا وقد ترجم له أقساما من كتاب لجالينوس فى التشريح، وجبرائيل يخاطبه بالتبجيل ويناديه بَرِبّن حنين (ربن أى المعلم) . وإذ تبين جبرائيل فى وجهى الدهشة لهذا التبجيل، قال لى : لا تستكثرن ما ترى من تبجيلى هذا الفتى. فوالله لئن امتد به العمر ليفضحن غيره من المترجمين . فلما خرجت إذا بحنين فى انتظارى بالباب، فناولنى نسخة مما ترجمه وقال: إدفع بهذه النسخة إلى يوحنا بن ماسويه ولا تخبره بمن ترجمها.. ففعلت ذلك من يومى. فلما قرأ ابن ماسويه تلك الفصول كثر تعجبه وقال: أترى المسيح أوحى فى دهرنا هذا إلى أحد؟! قلت: ما أوحى إلى أحد. ولا كان المسيح إلا أحد من يوحى إليهم. فقال: دعنى من هذا القول! ليس



حنين بن اسحاق

هذا إلا إخراج مؤيد بروح القدس. قلت : هذا إخراج حنين بن إسحاق الذى طردته من مجلسك وأمرته أن يقعد على الطريق ببضاعة يبيعها! فحلف ابن ماسويه أن ما قلت له محال، ثم صدق القول بعد ذلك، واستقبل حنينا فاعتذر وأحسن إليه، وأعاده إلى مدرسته، ولم يزل مبجلا له بعد ذلك.

نشاط فى ميدانى الترجمة والتأليف

عكف حنين، إلى جانب دراسة الطب، على الترجمة لابن ماسويه، فترجم له كتبا كثيرة، خاصة من مؤلفات جالينوس، بعضها إلى السريانية وبعضها إلى العربية. ثم كان أن سمع به الخليفة المأمون، فاستدعاه مكلفا إياه بأن ينقل كتب الحكماء اليونانيين إلى العربية، وبذل له من الأموال والعطايا شيئا كثيراً. وكان المأمون قد طلب من الإمبراطور البيزنطى أن يوافيه بمجموعة ضخمة من الكتب القديمة المخزونة فى بلاده، فأجابه إلى طلبه بعد تردد. فلما وصلت الكتب أمر المأمون حنينا بأن يترجم ما يقدر عليه منها، وأن يصحح ما ينقله غيره. وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما يترجمه من الكتب.. كما كانت ثمة وقتها جماعة من ثلاثة إخوة ، هم بنو موسى بن شاكر، تشرف على حركة مستقلة للترجمة وجلب المخطوطات من آسيا الصغرى إلى بغداد، وتخصص للمترجم خمسمائة دينار فى الشهر الواحد مقابل عمله، وكان من بين المترجمين لهم حنين بن إسحاق. وقد ذكر حنين أن الجماعة كلفته بالسفر إلى بلاد كثيرة، وأنه وصل إلى أقصى بلاد الروم فى طلب الكتب التى يهمه ترجمتها.

لم يذكر أحد من الذين كتبوا سيرته أنه عمل ببيت الحكمة. ويبدو لنا أن نشاطه كله كان بمثابة مشروع خاص، يعمل فيه معه ولده إسحاق ، وابن اخته حبيش، وتلميذ له هو عيسى بن يحيى. وحيث أن حبيشا وعيسى لم يكونا على دراية كافية باليونانية، فقد كانا يعدان ترجمات سريانية لما ينقله حنين من اليونانية إلى العربية، أو ترجمات عربية لما ينقله إلى السريانية، ثم يراجع حنين أو ابنه إسحاق ترجماتهم على الأصول اليونانية ويصححانها.

نهض حنين وصحبه، بترجمة عدد هائل من الكتب فى عهود تسعة من الخلفاء العباسيين (من المأمون إلى

المعتمد). وقد كان من أهم ما ترجمه حنين - كما ذكرنا - العهد القديم من الكتاب المقدس، وهى ترجمة وصفها المسعودى فى كتابه «التنبيه والإشراف» بأنها «أصح نسخ التوراة عند كثير من الناس» . وبين أيدينا رسالة كتبها حنين بعنوان «رسالة إلى على بن يحيى فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس وبعض ما لم يترجم»، ذكر فيها الترجمات المختلفة لمؤلفات جالينوس التى كانت معروفة فى زمنه. وقد أورد حنين قائمة بعناوين مائة وتسعة وعشرين كتابا لجالينوس، ترجم هو منها نحو مائة إما إلى السريانية أو العربية أو اللغتين معا. فإن كان أبوبكر الرازى ألف فيما بعد رسالة بعنوان «فى استدراك مابقى من كتب جالينوس مما لم يذكره حنين ولا جالينوس فى فهرسته»، فإنه يجدر بنا أن نذكر أن حنينا كتب رسالته بعد أن صادر الخليفة المتوكل مكتبته (كما سيجىء)، وهو ما ذكره فى الرسالة.. وقد عبر حنين عن اعتقاده أن عددا من الكتابات المنسوبة إلى جالينوس ليست من تأليفه وإنما نسبت إليه كذبا. وهو اعتقاد تقره نتائج تحريات العلماء فى العصر الحديث.

أورد حنين فى رسالته عددا من الملاحظات حول منهجه فى الترجمة فقد كان من دأبه أن يجمع كل ما يستطيع جمعه من مخطوطات يونانية للكتاب الواحد ويقارن بينها من أجل الوصول إلى نص كامل موثوق به قبل أن يشرع فى ترجمته. غير أن ثمة مأخذا واحدا يمكن للبعض أن يأخذه عليه، وهو أنه - شأنه فى ذلك شأن المترجمين المسيحيين فى عصره - كان يرى من واجبه استئصال كل أثر للوثنية من كتب الإغريق، كما فى حالة استعاضته عن ذكر آلهة الوثنين بذكر الله أو الملائكة. غير أن هذا الحذف لم ينتقص من القيمة العلمية لترجماته.

غير أن نشاط حنين لم يقتصر على الترجمة، فقد نهض بتأليف مائة وخمسة عشر كتابا، خاصة فى الطب، وأيضا فى الفلسفة، وعلم طبيعة الأرض، والظواهر الجوية، وعلوم الحيوان واللغة والدين. كذلك فإن له كتابا فى تاريخ العالم من آدم إلى عصر المتوكل. أما كتبه فى الطب فكثير منها فى صورة أسئلة وأجوبة، وأهمها كتاب «المسائل فى الطب» الذى ترجم فيما بعد إلى العبرية واللاتينية. كما أن ثمة ترجمتين إلى اللاتينية لكتابه «العشر مقالات فى العين». وله أيضا «فى الضوء وحقيقته»، و«نوادر الفلاسفة» الذي يحوى مجموعة من القصص والرسائل والأقوال الحكيمة المنسوبة إلى فلاسفة الإغريق، مع تعليق حنين عليها، وكتاب «فى كيفية إدراك



حنين بن اسحاق

حقيقة الديانة» ويتضمن ردودا ذكية حذرة على فقهاء المسلمين.

عاداته وأخلاقه

كان شديد الورع والتمسك بتعاليم دينه، يلبس زناره فى كافة المجالس التى يحضرها. ويقول ابن أبى أصيبعة فى كتابه «طبقات الأطباء» إن حنينا كان إذا فرغ من عمله اليومى «عاد إلى داره، فدخل الحمام فيصب الماء عليه، حتى إذا ما انتهى من الاستحمام التف برداء من قطيفة وقد أعد له وعاء من فضة فيه رطل شراب يشربه مع كعكة مفتوتة. ثم يقوم فيتبخر، ويقدم له طعامه ، وهو فروج كبير ورغيف ومرق ، ويشرب شرابا عتيقا. ولم يذق غير هذا طوال عمره. فإن اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامى والرمان والسفرجل».

وكان لطيف المعشر والشمائل دمث الخلق.. يقول عبيد الله بن جبرائيل بن ختيشوع فى كتابه «مناقب الأطباء» إن حنينا لما قوى أمره وانتشر ذكره بين الأطباء، أمر الخليفة باحضاره، «(لم يذكر عبيد الله ولا غيره ممن أوردوا هذه القصة فى حديثهم عن حنين اسم هذا الخليفة» ودفع إليه خمسين ألف درهم، فشكره حنين. قال الخليفة: أريدك أن تصف لى دواء يقتل عدوا نريد قتله سرا. فقال حنين: ياأمير المؤمنين، لم أتعلم إلا صناعة الأدوية النافعة، وما ظننت أن أمير المؤمنين سيطلب منى غيرها. فأمر الخليفة بحبسه، فمكث فى الحبس مدة يترجم ويفسر ويصنف، وهو غير مكترث بما هو فيه. فلما مرت المدة، استدعاه الخليفة وقال: لابد مما قلته لك. فإن أنت فعلت فقد فزت بهذا المال أمامك، وإن امتنعت قتلتك شر قتلة. قال حنين: قد قلت لأمير المؤمنين إنى لا أحسن إلا الشىء النافع، ولم أتعلم غيره. فإن اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليقتلنى». قال الخليفة: ما يمنعك؟ أجاب حنين: الدين وصناعة الطب. الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا، فكيف مع غير أعدائنا؟ وصناعة الطب تمنعنا من الإضرار بالناس لأن الغرض منها نفعهم. وفى رقاب الأطباء عهد مؤكد بأيمان مغلظة ألا يعطوا دواء قتالاً ولا ما يؤذى. فأمر الخليفة بالخلع فخلعت عليه، وخرج حنين من عنده وهو أحسن الناس حالا وجاها».

محنته فى عهد المتوكل

وسواء صحت هذه القصة أم لم تصح فإنه من المؤكد أن حنينا عانى الأمرين من نزوات الخليفة المتوكل الذى كان كبيرا لأطبائه، وأنه وقع فى عهده ضحية دسيسة حاكها له زملاء مسيحيون، إما حسدا منهم له، أو لرفضه عبادة الأيقونات

والتماثيل الدينية. وقد ألف حنين فى أواخر أيامه «رسالة فيما أصابنى من المحن والشدائد من الذين ناصبونى العداوة من أشرار أطباء زمانى المشهورين»، جاء فيها:

«لحقنى من أعدائى الجاحدين لحقى، الظالمين لى، من المحن والمصائب ما منعنى من النوم، وأشغلنى عن مهماتى. وكل ذلك من الحسد لى على علمى وما وهبه الله لى من علو المرتبة على أهل زمانى. وأكثر هؤلاء هم ممن علمتهم وأحسنت إليهم: كافأونى عوض المحاسن مساوىء بحسب ما أوجبته طباعهم. حتى ساءت بى الظنون وحتى كان يحصى على ألفاظى ويكثر اتهامى، وحتى أوقعوا بغضى فى نفوس سائر أهل الملل، فضلا عن أهل مذهبى، و حتى آلت القضية إلى أن بقيت محبوسا مدة من الزمان، لا تصل يدى إلى شىء من ذهب ولا فضة ولا كتاب ولا ورقة أنظر فيها.

«وكيف لا أبغض ويكثر حاسدى، ويكثر ثلبى فى مجالس ذوى المراتب، وتبذل الأموال من أجل قتلى ، ويعز من شتمنى، ويهان من أكرمنى، وهم الذين رأونى فوقهم، عالياً عليهم بالعلم والعمل، أنقل إليهم العلوم الفاخرة من لغات لا يحسنونها ولا يعرفون شيئا منها، فى عبارة حسنة فصيحة، لا استغلاق فيها ولا لحن. يسمعها من ليس صناعته الطب، ولا دراية له بالفلسفة، فيستحسنها ويعرف قدرها، ويفضل نقلى على نقل من قبلى. فإن كان سائر أهل الأدب، وإن اختلفت مللهم، محبين مكرمين لى، فإن هؤلاء الأطباء النصارى يرومون سفك دمى. فمرة يقولون: من حنين؟ إنما حنين ناقل لهذه الكتب ليأخذ على نقله الأجرة كما يأخذ الصناع الأجرة على صناعتهم، ولا فرق عندنا بينه وبينهم.. ثم ما له والكلام فى صناعة الطب، وما حرصه هذا على أن يقال عند حنين الطبيب، لا حنين الناقل، الأجود له لو أنه لزم صناعته وأمسك عن ذكر صناعتنا! فكنت كلما سمعت شيئا من هذا ضاق به صدرى، وهممت أن أقتل نفسى من الغيظ، لكنى كنت أكتمه فى صدرى ، علما منى بأن الحسد هو دافعهم، ولم يزل الحسد بين الناس قائما منذ قتل قابيل أخاه هابيل لأن الله لم يقبل قربانه وقبل قربان أخيه.

«ومن العجب أن أكثر هؤلاء إذا دهمهم مرض صعب قصدونى وطلبوا منى صفة الدواء.. ومع ذلك فإنى لا أشكو منهم إلى أحد . فإن قيل لى إنهم يسبونك وينتقصون منك فى مجالسهم ، أنفى ذلك وأظهر أنى غير مصدق لما يقال لى ، لأنى وهؤلاء تجمعنا ديانة واحدة ، وبلدة واحدة، وصناعة واحدة .

ثم يمضى حنين بن إسحاق فى



حنين بن اسحاق

رسالته فيروى « قصة المحنة الأخيرة القريبة » . وخلاصتها أن طبيبا نصرانيا للمتوكل حمل إلى الخليفة أيقونة بصورة مريم وفى حجرها المسيح الطفل وحولهما الملائكة . فأعجب المتوكل بها ، بينما أقبل الطبيب على الأيقونة يقبلها مرات عديدة فى خشوع . فسأله المتوكل : لم تقبلها ؟ فقال: يامولانا ، إذا لم أقبل صورة سيدة العالمين فمن أقبل ؟ قال الخليفة : أكل النصارى يفعلون هذا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إلا رجل زنديق فى خدمتك ، يكذب بالرسل ، هو حنين بن إسحاق . فأمر الخليفة بإحضار حنين . فلما دخل رأى الأيقونة بين يديه . قال له المتوكل : ما تقول فيها ؟ فأجاب : صورة جميلة . قال : أليس هذا ربكم وأمه ؟ فقال حنين : معاذ الله يا أمير المؤمنين ! وهل لله صورة أو يمكن تصويره ؟! ماهذه إلا صورة كغيرها مما نجده فى سائر المواضع . قال الخليفة: فهى لا تنفع ولا تضر ؟ أجاب حنين : لا تنفع ولا تضر . قال المتوكل : فيجوز للناس إذن أن يطأوها بأقدامهم وأن يبصقوا عليها ؟ قال : نعم . عندئذ صرخ الطبيب النصرانى قائلا : يبصقون على مريم أم سيدنا وعلى سيدنا المسيح؟!! لو قال هذا الكلام مسلم لن آله لأنه لا يعرف مقدار الصورة . غير أن حنينا هذا نصرانى جاهل وزنديق ، لو أراحنا أمير المؤمنين منه لأراح الدنيا وكشف عن الدين محنة عظيمة قال المتوكل : فما يسر النصارى أن أفعل به ؟ قال الطبيب : تُريح العالم منه . فأمر الخليفة بإحضار السوط والحبال ، فجرد حنين من ملابسه وضرب مائة سوط ، ثم أمر بحبسه والتضييق عليه ، وبمصادرة ما فى داره من أثاث وكتب وأموال .

يقول حنين :

« فأقمتُ معتقلا فى قصره ستة أشهر فى أسوأ ما يكون من الحال ، حتى صرت رحمة لمن رآنى . وكان يوجه إلىَّ كل بضعة أيام من يضربنى ويجدد لى العذاب ، فلم أزل على ما ذكرته حتى مرض أمير المؤمنين مرضاً خطيرا أقعده عن الحركة ، فيئس الأطباء منه ، ويئس هو أيضا من نفسه . ثم إذا بخادم للخليفة يأتينى يوما فى سجنى فيمضى بى إلى الحمام ، ويأمر بغسلى وتنظيفى ، ثم ألبسنى ثيابا فاخرة وأدخلنى على الخليفة وهو راقد فى سريره . فلما رآنى قال:

أشر علىَّ بما ترى فقد طالت علتى .

فأشرت عليه بأدوية زالت علته بتناوله إياها

فلما صلح حاله استدعاني وقال لي : أبشر يا حنين بكل ما تحب . فقد عظمت مرتبتك عندي ، وسأعوضك أضعاف ما كان لك ، وأرفعك على سائر أهل صناعتك . ثم إنه أمر بأن يحمل إلى داري سائر ماكنت محتاجا إليه من الأواني والفرش ، وردّ عليّ كتبي ، وأمر لي في كل شهر بخمسة عشر ألف درهم ، وأطلق لي الفائت من رزقي في وقت حبسي ، وصرت المقدم على سائر الأطباء عنده » .

ثم يختم حنين رسالته بقوله :

« وكان أعدائي الذين أوقعوا بي يأتونني بعد ذلك في داري إن كانت لهم حاجة عند أمير المؤمنين ، أو يستشيرونني في أمراض ألمت بهم وحاروا فيها ، فكنت أسارع في قضاء حوائجهم ، وأخلص لهم المودة ، ولم أكافئهم على شيء مما صنعوه بي ، فكان الناس يعجبون لما يرون مني .. وإنما ذكرت سائر ما تقدم ذكره ليعلم العاقل أن المحن قد تنزل بالعاقل والجاهل ، والقوي والضعيف ، والكبير والصغير ، فما سبيل العاقل أن ييأس من تفضل الله عليه بالخلاص مما ابتلي به ، بل أن يثق بخالقه ، ويزيد في تعظيمه وتمجيده .. فالحمد لله حمدا دائما إذ منّ على بتجديد الحياة ، وأظهرني على الظالمين لي » .

وقد ظل حنين بن إسحاق في منصب كبير الأطباء للخلفاء الخمسة الذين حكموا بعد المتوكل ، إلى أن توفى عام ٨٧٣ (٢٦٠ هـ) في خلافة المعتمد عن خمسة وستين عاما . وكان ابنه إسحاق من بعده خير خلف لخير سلف . ■

أقوال

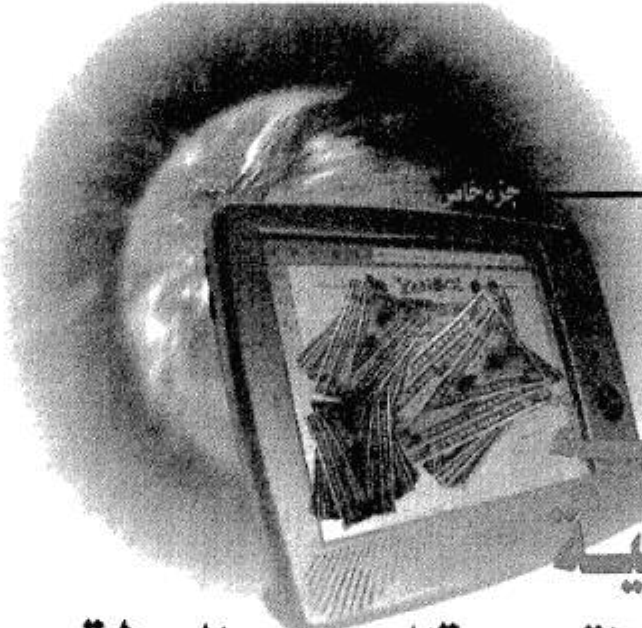
– الحب لايسأم ولا يمل ولا يعرف الفتور ولا يخاف الخفاق لكنه يلح حتى يظفر أو يفنى صاحبه

«طه حسين»

– الفن ليس سوى غرفة انتظار «الواقع » على أن يدخلها لكن قبل ذلك يجب ان يبدعها

«هنرى ميلر»

– المثل العليا نجوم لا يسعك أن تلمسها بيديك ولكنها كبوصلة البحار يتخذها المرء مرشداً له ويتبعها فيبلغ غايته



الدولة والتنمية

من عصر القومية إلى عصر العولمة

بقلم

د. جلال أمين

من الذى كان يتصور، منذ خمسين عاما، أن يحدث ما حدث لنظرتنا إلى الدولة ولدورها فى التنمية الاقتصادية؟

كان الجميع، منذ نصف قرن، يسلمون بأهمية هذا الدور، ويعتبرون هذا من قبيل المسلمات التى لا تحتاج إلى نقاش: على الدولة أن تقوم بدور حاسم فى تعبئة المدخرات والاستثمارات، أو على الأقل فى حفز الناس على الادخار والاستثمار، والدولة دون غيرها هى التى تستطيع النهوض بمشروعات البنية الأساسية: الطرق ووسائل المواصلات الأساسية، ومحطات الكهرباء، ومشروعات الرى والصرف، والمدارس والجامعات، ومراكز التدريب والمستشفيات، بل وقد يكون من الضرورى أيضا، من أجل إنجاح التنمية، القيام بإصلاح زراعى يعاد عن طريقه توزيع الأراضى الزراعية، وما يترتب عليه من عمليات الإرشاد الزراعى للنهوض بمستوى الإنتاجية الزراعية. ومن الذى يمكن أن يقوم بهذه المهمات كلها غير الدولة؟

كل الكتب الصادرة عن التنمية كانت تقول ذلك، باستثناءات نادرة كان يتجاهلها التيار السائد بين اقتصاديي التنمية، إذ كانوا يعتبرون من يقول بغير ذلك رجعيا ولا أمل في إصلاحه.

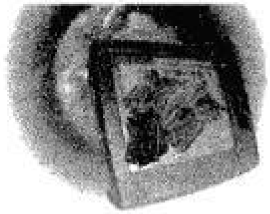
ولم يقتصر الأمر على كتب الاقتصاديين الأكاديميين، بل شمل أيضا المؤسسات الدولية الكبرى المعنية بالتنمية، وعلى رأسها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، كانت منظمات الأمم المتحدة منذ أواخر الأربعينات قد بدأت تقوم بتلك المهمة الخطيرة التي مازالت تمارسها حتى الآن وهي ما يمكن تسميته دون كثير من المبالغة «صناعة فكر التنمية»، فقد كانت منظمات الأمم المتحدة ، منذ أن بدأ الاهتمام بقضية التنمية منذ خمسين عاما أحد المصادر الأساسية للأفكار والتصورات المتعلقة بالتنمية والتخلف، فيتلقفها منها السياسيون والأكاديميون ووسائل الإعلام، وسرعان ما تروج وتنتشر وتصبح هي «الحكمة الشائعة» أي تصبح المسلمات التي يقبلها الجميع، وذلك ريثما تصدر من هذه المنظمات نفسها أفكار وتصورات جديدة، فتلقى الشيوع والرواج

حكومات العالم الثالث أصابها الوهن بسبب وقوعها في براثن الفساد

نفسه، وتصبح هي المسلمات التي تحل محل المسلمات القديمة.

مسلمات الخمسينات والستينات

كان من بين هذه المسلمات التي شاعت وراجت في الخمسينات والستينات من القرن العشرين أن على الدولة في البلاد المتخلفة مسئوليات خطيرة، وأن التنمية لا يمكن أن يقدر لها النجاح إلا بقيام الدولة بهذه المسئوليات. وكان من بين هذه المسئوليات والمهمات مهمة التخطيط. إذ ألا تتعلق التنمية بالمستقبل! وهل من الحكمة والرشاد أن يترك الإنسان مستقبله يتحدد بقوى لا ضابط لها؟ أليس من البديهي إذن (هكذا كان يقال في ذلك الوقت) أن تحزم الدولة أمرها وتضع أهداف التنمية لفترة زمنية مقبلة، ثم تحدد وسائلها وطريقة بلوغ هذه الأهداف؟ بل أليس من الأحكم والأكثر مدعاة للانضباط والأكثر ضمانا لبلوغ الأهداف أن يكون هذا التخطيط شاملا ومركزيا؟ إذ ما دام الأمر يتعلق بالسيطرة على المستقبل،



الدولة والتنميــــة

أليس من الأفضل أن تكــــون السيطرة شــاملة؟ أو ليس من باب الاحتياط أيضا وضمان الفعالية والنجاح أن تتركز سلطة اتخاذ القرارات الاقتصادية فى يد واحدة تعبر عن الآمال الموحدة للأمة، وتصب عندها كافة المعلومات، وتتوفر لديها كافة وسائل الالزام، بدلا من تشتيت سلطات اتخاذ القرارات، فتتعدد هذه القرارات وتتضارب، وتمارس كل هيئة سلطتها لتحقيق مصالح ضيقة قد تتعارض مع مصلحة الأمة ككل؟.

هذا هو نوع الفكر الذى كان سائدا فى الخمسينات والستينات فيما يتعلق بدور الدولة فى التنمية. وهو كما يرى القارىء عكس ما هو سائد الآن بالضبط.

وهدفى من هذا المقال أن أحاول تفسير هذا التحول، الذى يبدو وكأنه تحول من الشىء إلى نقيضه، ومن ثم يثير فى الذهن هذا السؤال: هل كان الأمر مجرد حماقة من الحماقات الإنسانية التى احتاج كشفها إلى بعض الوقت، عاد بعده الاقتصاديون إلى رشدهم وأدركوا خطأهم؟ (والرجوع إلى الحق، كما تعلم جيدا، هو دائما من الفضائل).

سوف أثير فى هذا المقال الشك فى صحة هذا الاعتقاد، فأحاول أن أبين أن الحالة هى أبعد ما تكون عن حالة «رجوع إلى الحق»، وإنما تتعلق بتغير الأفكار كلما تغيرت الظروف والأحوال.

***

أما انتشار فكرة أن للدولة دوراً أساسياً لابد أن تلعبه فى التنمية ، طوال الخمسينات والستينات، فليس من الصعب تفسيره. لقد تضافر لانتشار هذه الفكرة أكثر من سبب.

فمن ناحية كان العقدان التاليان مباشرة لانتهاء الحرب العالمية الثانية هما العصر الذهبى لدول العالم الثالث من حيث حصولها على الاستقلال السياسى. وكانت الحكومات الوطنية التى مارست مهام الحكم بعد هذا الاستقلال برأسها فى أغلب الأحوال الشخصيات نفسها التى قاومت الاستعمار وخاضت معارك التحرر منه. لم يكن هناك شك كبير إذن، لدى شعوب العالم الثالث، أن هذه الحكومات الوطنية الجديدة جديرة بخوض معارك التنمية والنهوض الاقتصادى كما أثبتت جدارتها فى معركة التحرر الوطنى. هكذا

بدا الأمر إذن سهلا وميسورا.

وقد دعم هذا الشعور ما ساد في العالم كله خلال هذين العقدين من تفاؤل بالمستقبل، ربما يرجع بعضه إلى التطلع إلى عالم جديد بعد مآسي الحرب العالمية الثانية، أو إلى ما شهده هذان العقدان في العالم الغربي من معدل غير مسبوق في النمو الاقتصادي السريع.

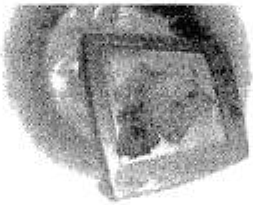
أثر تجربة الاتحاد السوفييتي

كان الاتحاد السوفييتي خلال هذين العقدين مصدر إلهام وعاملا من عوامل دعم هذا التفاؤل لدى شرائح واسعة من شعوب العالم الثالث المتطلعة إلى تحقيق نهضة اقتصادية. فها هي دولة كانت هي نفسها متخلفة من الناحية الاقتصادية تخلفا واضحا عن العالم الغربي، منذ فترة لا تزيد على ثلاثين عاما، فإذا بها تتحول في نهاية هذه الثلاثين عاما (١٩٢٠ - ١٩٥٠) إلى دولة عظمى تنافس أقوى دولة في العالم في القوة النووية والقدرة العسكرية، وتحقق معدلا مذهلا في النمو الاقتصادي خلال هذه الفترة، وتقدما باهرا في نشر التعليم والخدمات الصحية والارتفاع بمستويات المعيشة لغالبية شعبها. «إذا استطاعت روسيا تحقيق ذلك، فلماذا لا نستطيعه نحن؟»، هكذا قالت لنفسها شعوب العالم الثالث، ولكن روسيا حققت ذلك لا بالاعتماد على قوى السوق ولكن بالاعتماد على تدخل الدولة. لقد ابتدعت روسيا فكرة الخطة الخمسية، وحققت هذا النجاح الباهر بالتخطيط المركزي الشامل. فالظاهر إذن أن التنمية لا يحتاج نجاحها إلا لبعض الخطط الخمسية، تحدد الأهداف وترسم الوسائل الكفيلة بتحقيقها. فأي شيء أسهل من ذلك؟

احتكار الدولة كثيرا ما يكون أهون وأخف وطأة من الاحتكار الفردي

أثر الحرب الباردة

من ناحية أخرى كان هذان العقدان التاليان للحرب هما أيضاً فترة اشتداد الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي، وظهور سياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز، وقد دعمت هذه الظروف من قوة الدولة في العالم الثالث من أكثر من وجه. كانت هناك، من ناحية، بعض الدول القليلة من دول العالم الثالث، كالصين وكوبا وكوريا الشمالية، التي تبنت العقيدة الشيوعية فأوكلت أمر التنمية كلها إلى الدولة، وكانت هناك من ناحية



الدولة والتنميـــة

أخرى الدول الأكثر عددا المرتبطة ارتباطا حميما بالمصالح الأمريكية، كالغالبية العظمى من دول أمريكا اللاتينية، والتى استمرت تعتمد فى نموها الاقتصادى على قوى السوق، ولكن عدداً كبيراً من دول العالم الثالث، من إندونيسيا فى آسيا إلى الجزائر فى أفريقيا مروراً بيوغوسلافيا الأوروبية، تبنت سياسة عدم الانحياز، وتمتعت حكوماتها، لفترة من الزمن، بالقدرة على الاحتفاظ بمسافة واسعة بينها وبين كلتا القوتين العظميين، وقد سمح لها ذلك بتطبيق ما تراه من سياسات التنمية مما يتعارض مع مبدأ حرية السوق من ذلك فرض الحماية لصناعاتها الوطنية، والتقييد الصارم للواردات والتدخل الحازم فى سعر الصرف، واشتراط موافقة الدولة على مختلف أوجه النشاط الاقتصادى فى مجالات الاستثمار والبناء والتجارة.... إلخ ولم تجد الدول الكبرى فى الغرب، أو المؤسسات الدولية الدائرة فى فلكها، حاجة أو ضرورة للتدخل لمنع ذلك، إذ كان يكفى هذه الدول وهذه المؤسسات، فى تلك المرحلة، ألا تقع هذه الدول «غير المنحازة» تحت النفوذ السوفييتى وقوعا كاملا.

دور المعونات الأجنبية

كان التغلغل الاقتصادى للولايات المتحدة ودول الغرب عموما، وللمؤسسات الدولية الواقعة تحت نفوذها، فى دول العالم الثالث، يتخذ فى الأساس صورة «المعونات الأجنبية»، وكانت هذه المعونات، خلال الخمسينات والستينات، تمثل الجزء الأكبر من حركة رءوس الأموال بين الدول الغربية ودول العالم الثالث، تمييزا لها عن الاستثمارات الأجنبية الخاصة.

ولكن الجزء الأكبر من هذه المعونات الأجنبية كان يتكون من «معونات رسمية» أى أموال تعطيها حكومة لحكومة، سواء مباشرة، أو عن طريق هيئة دولية، الأمر الذى كان لابد أن يزيد من قدرة الدولة فى العالم الثالث، المتلقية للمعونة، على التدخل فى الحياة الاقتصادية.

أثر كينز

ولكن من المهم أيضاً أن نتذكر أن العالم الرأسمالى لم يكن هو نفسه، محصنا ضد فكرة تدخل الدولة فى الحياة الاقتصادية إذ فلنتذكر أن ربع القرن التالى للحرب العالمية الثانية «٤٥ - ١٩٧٠» كان يمثل العصر الذهبى لانتشار الكينزية التى توكل مهام أساسية للدولة فى إدارة دفة الاقتصاد القومى، للخروج

من الانكماش مرة ولمحاربة التضخم مرة أخرى، كما شهد هذان العقدان ازدهار فكرة «دولة الرفاهة» التى تدين بدورها للأفكار الكينزية من ناحية، وللأفكار الاشتراكية من ناحية أخرى، والتى كانت تعنى نهوض الدولة بمسئولية توفير الخدمات الأساسية للناس بصرف النظر عن مستوى دخولهم.

فى مثل هذه الظروف، الداخلية والخارجية، وفى هذا المناخ المشجع من كل ناحية على قيام الدولة بمهمات أساسية فى الاقتصاد القومى، كيف يمكن أن نتوقع غير هذا الذى حدث فى العالم الثالث؟

وهو شيوع الاعتقاد بأن التنمية لا يمكن أن تنجح بغير دور كبير للدولة، وإيمان راسخ بفائدة التخطيط الشامل بل وضرورته، وتأكيد مستمر لا على انسجام المصلحة الفردية مع المصلحة العامة بل على عجز الأفراد فى كثير من الأحيان عن تحقيق ما فيه مصلحة المجتمع ككل، وأنه لا يستطيع أن يحقق هذا إلا الدولة..

* * *

نحن نعرف جيداً أن المناخ السائد الآن هو عكس ذلك بالضبط، إن الذى يدعو الآن إلى توسيع دور الدولة فى الاقتصاد، أو يدافع عن القطاع العام، أو

ارتفعت معدلات البطالة داخل الدول الصناعية فضعفت النقابات العمالية

ينبس بلفظ التخطيط الاقتصادى، خاصة إذا كان من نوع التخطيط المركزى أو الشامل، أصبح يعامل معاملة المعتوه أو المصاب بلوثة، أو كالمتكلم بلغة غريبة على الأسماع، أو كالقادم من عصر سحيق من عصور الماضى، هكذا أصبحت قوة وسائل الإعلام وقدرتها على تشكيل الميول والأفكار بحيث أصبح باستطاعتها تحويل الأذهان من فكرة إلى فكرة، بمجرد الإلحاح على الفكرة الحديثة إلحاحاً مستمرا حتى ينسى الناس أن الأمر كان عكس ذلك بالضبط منذ سنوات قليلة.

يبدو الأمر غريباً بوجه خاص فيما يتعلق بالموضوع الذى نتكلم فيه الآن، لأنه لم تظهر فى الحقيقة أى حجة جديدة لصالح الاعتماد على قوى السوق وضد تدخل الدولة، كل ما يقال الآن لصالح هذا أو ضد ذاك سبق قوله منذ أكثر من مائتى عام، ويدور حول أهمية الحافز الفردى ومساوئ البيروقراطية. ولكننا كنا دائماً نعرف ذلك، من ناحية أخرى كان أنصار

الدولة والتنميـــة



تدخل الدولة يقولون إنه فى ظروف معينة تصبح مساوئ البيروقراطية أهون من مساوىء الاعتماد المطلق على قوى السوق، وأن احتكار الدولة كثيراً ما يكون أهون وأخف وطأة من الاحتكار الفردى، كل هذا ومثله كان دائماً معروفا ومشهوداً، فما الذى جد ليرجح كفة ضد أخرى؟

انحسار دور الدولة

حـــدث أن كل هذه الظروف التى ذكرتها، والتى كانت تشجع على ازدياد دور الدولة فى الاقتـصـاد، أصـابـهـا الانحسار والأفول، الاتحاد السوفييتى أصابه الضعف ثم سقط «ليس بالضرورة بسبب أن الدولة تدخلت أكثر من اللازم، كما يحلو لكثيرين أن يقولوا، بل ربما لأسباب مختلفة تماما»، والمعونات الأجنبية التى تعطى من دولة لأخرى حل محلها، أكثر فأكثر، الاستثمارات الأجنبية الخاصة.

وحركة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز أصابها الضعف بسبب ظهور سياسة الوفاق بين المعسكرين، ثم بسبب تدهور مركز الاتحاد السوفييتى ثم انتهاء الحرب الباردة كلية، وحكومات العالم الثالث أصابها الوهن بسبب هذا كل من ناحية، وبسبب وقوعها فى براثن الفساد الذى لا ينفصل انفصالا تاما، هو نفسه، عما يحدث فى ساحة العلاقات الدولية، بل قد يكون وثيق الصلة بها..

ولكن وراء كثير من هذه العوامل كان هناك ذلك العامل الحاسم: نمو الشركات العملاقة ومتعددة الجنسيات، وانتشار نشاطها حتى كاد يغطى الكرة الأرضية كلها، وقد طغت قوة هذه الشركات، فى كثير من المجالات على قوة الدولة، فى الداخل والخارج. فالدولة الوطنية لم تعد تستطيع التحكم فى نشاط هذه الشركات أو منعها من الخروج للبحث عن عمالة أرخص فى خارج حدودها، فارتفعت معدلات البطالة فى داخل الدول الصناعية، فضعفت النقابات العمالية وقلت قدرتها على المطالبة بحقوق جديدة للعمال، أو حتى على المحافظة على ما سبق لهم نيله من حقوق فى ظل دولة الرفاهية، وهذه الشركات العملاقة التى تريد أن تفتح أمامها الأبواب فى الخارج، أضعفت الدولة فى البلاد الأقل نموا بشتى الوسائل، إن

لم يكن بالرشوة ومنع المعونات والقروض، وبضغوط المؤسسات الدولية الخاضعة هى نفسها لنفوذ هذه الشركات، فبإفساد الحياة السياسية ولو إلى حد قلب الحكومة وجلب حكومة جديدة.

تخطيط للعالم بأسره

من الذى يجرؤ فى هذه الظروف أن يشكك فى أفضلية ترك كل شئ لقوى السوق لتفعل بنا ما تشاء؟ ألا يعنى التدخل فى قوى السوق الآن محاولة للسيطرة على هذه الشركات العملاقة؟

ومن الذى يستطيع ذلك أو حتى يجرؤ على محاولة القيام به؟

ومن الذى يجرؤ على امتداح نظام التخطيط؟ صحيح أن الشركات العملاقة تقوم هى نفسها بالتخطيط، بل وبتخطيط «مركزى» بكل معنى الكلمة، فهى تخطط للعالم بأسره من مركزها فى إحدى مدن المجتمع الصناعى، وهى تضع الأهداف كما تضع الوسائل و الوسائل تتراوح من التدخل فى أسواق العملات إلى تشجيع دولة على الهجوم علي دولة مجاورة... الخ.

ولكن هذا التخطيط «الحميد» شئ والتخطيط «الكريه» من جانب الدولة شئ آخر تماما، ومن الذى يجرؤ على انتقاد الاحتكار الذى تمارسه هذه الشركات؟ من

حركة عدم الانحياز أصابها الضعف بسبب ظهور سياسة الوفاق بين المعسكرين

المسموح به انتقاد احتكار الدولة، أما احتكار هذه الشركات فنقده غير مسموح به. ومن الذى يجرؤ على فتح موضوع الفساد الذى تمارسه هذه الشركات فى مختلف البلاد التى تمارس فيها نشاطها أو تريد دخولها؟ من الجائز بل ومن المطلوب التأكيد على الفساد الناتج عن تغلغل الدولة فى النشاط الاقتصادى، ولكن من غير الجائز الكلام عن غير ذلك من فساد..

هكذا وضعت لنا الشركات متعدية الجنسيات «جدول الأعمال» الجديد، الذى يحدد للاقتصاديين والكتاب فى موضوع التنمية ما يجوز لهم مناقشته وما لا يجوز، وكان جديرا بالاقتصاديين أن يدركوا أن الأمر لا يتعلق «بالرجوع إلى الحق» أو باكتشاف ما كانوا يرتكبونه من حماقات فعدلوا عنها، بل يتعلق فقط باستبدال جدول أعمال بجدول أعمال آخر، بما يتلاءم مع مصالح وأهواء آخر من يتحكم فى مصير العالم. ■

الغضب ضد مساوئ العولمة

بقلم
د. محمود مرتضى*

لعل هذه الانفجارات الاجتماعية التى جرى التعبير عنها فى المنتجع السويسرى ، الذى ضم منتداه في دافوس هذا العام ثلاثين رئيس دولة وحكومة وحوالى مائة وزير ومئات من رجال الأعمال والسياسيين، هى الحلقة الأخيرة فى سلسلة طويلة تمتد إلى بقاع كثيرة من العالم وتضم مئات الألوف من البشر من سياتل إلى واشنطن وملبورن ولندن وجنيف وبراج وباريس وبورتو اليجرى البرازيلية ثم نيس وغيرها .



(*) سفير مصر السابق في اليمن

وتشتمل حركة مقاومة الرأسمالية الكوكبية المتمثلة في العولمة وتجلياتها الاقتصادية والسياسية والثقافية والاتصالية، على جماعات متعددة ومتنوعة الخلفيات الفكرية والسياسية، كما يشارك فيها العمال النقابيون والمزارعون، وأنصار البيئة، ودعاة السلام، والحركات التعاونية، وبعض المنظمات النسائية، وممثلو المنظمات غير الحكومية المهتمة بحقوق الأنسان والديمقراطية، وجماعات الدفاع عن دول العالم الثالث، وإلى جانب الطلبة واساتذة الجامعة والأعلاميين وعناصر أساسية من الأنتلجنسيا الغربية.

وتكمن نقطة الاحتجاج الأساسية فيما تصنعه العولمة من نتائج تنعكس في زيادة الفقر واتساع البطالة، في الوقت الذي تستفيد فيه الاحتكارات الدولية. كما أن لائحة الاتهام تتوجه أساساً لمثلث (البنك الدولي - صندوق النقد - منظمة التجارة العالمية) كأدوات لصنع سياسات تحرير التجارة واسقاط الحدود، أو أدوات الهيمنة التي تمتص في الواقع دماء الشعوب الفقيرة.

وتستند هذه الاتجاهات الرافضة للهيمنة الاقتصادية على العالم إلى كتابات لأساتذة جامعيين ينتقدون دور المؤسسات الثلاث سالفة الذكر، ويبينون أسلوب الهيمنة الجديد الذي يسمح للبنك الدولي بصفة خاصة، بالتدخل في النشاط الإقتصادي للدول المقترضة، ويفرض عليها سياسات لاتهدف إلى مساعدة هذه الدول على الإصلاح الاقتصادي، بل على تحقيق أكبر عائد من الربح للبنك، فضلاً عن الهيمنة السياسية. وفي منشوراتهم يذكرون أن حجم تعامل هذا البنك يصل إلى تريليوني دولار، وأن الفائدة العائدة من هذه القروض تصل إلى ٣٥٪ تحصلها الولايات المتحدة لدورها الأكبر في عملية القروض ولتحقيق هيمنتها السياسية المترتبة على ذلك.

موت محقق للعالم الثالث

أما منظمة التجارة العالمية، فهي المنظمة التي تجسد الليبرالية الجديدة في صورتها المتطرفة. وهي تعني ضمن ما تعني - موتاً محققاً - للعالم الثالث، إذ تذكر الاحصاءات أن عدد سكان المعمورة نحو ستة مليارات، يعيش أكثر من ثلثهم في دول الجنوب، والغالبية العظمى منهم لاتعيش عيشة انسانية، والدليل على ذلك أن ١٣٪ فقط من سكان العالم ينفقون ٦٨٪ من الانتاج العالمي. انها عدم مساواة صارخة ورهيبة. والمؤسف أن منظمة التجارة العالمية هي الانتصار الساحق لدكتاتورية رأس المال في أبشع صورها، كما أن هذه الليبرالية الجديدة والسوق الرأسمالية الموحدة خلقا رأسمالية الغابة، التي تعني نهاية الدولة الوطنية والسيادة الشعبية ونهاية التنوير والقيم المصاحبة له، مثل التضامن والعدالة الاجتماعية، كما تعني أيضاً ضياع مائتي عام من الثورة الديمقراطية.



وتنظر العولمة إلى النتاج العالمى ، سواء أكان سلعة أو مادة استهلاك أو إحدى الخدمات، أو ابداعاً فكرياً ثقافياً ، أو هوية أو لغة ، وكيفما كان المنشأ والانتماء، نظرتها إلى البضائع التجارية التى تزيد أو تنخفض قيمتها ويغلو ويرخص سعرها بمقياس إقبال السوق العالمية عليها ، بعد أن يخضعها المتقايضون (بائعين ومشترين) لكسب رهان تعظيم الأرباح .

إن العولمة أو الكوكبية الرأسمالية لا ترحم المفلسين لأنها انشئت لخدمة (اوليجارشية) الأثرياء العالميين . فرأسمالية الشركات متعدية الجنسية (التى تعادل إيرادات أكبر خمسمائة ومنها ٤٣,٥ ٪ من مجموع الناتج المحلى الاجمالى فى العالم) تفرض سلطان رأس المال فوق سلطة الدول القومية .

وفى حركة العولمة تضافرت عدة عناصر بالغة الأهمية فى مقدمتها جميعا ثورة الاتصالات والمعلومات، اذ صار التحرك المتجاوز لكل الحدود الجغرافية ولمبادئ سيادة الدولة ، مباحاً، وصارت الحكومات أضعف من أن تقاوم هذه الاندفاعات الدولية . بل ومن الناحية الفعلية، صارت الحكومات تتبع سياسة ترضى تلك الشركات بما فى ذلك رفع الأعباء المختلفة عن كاهل الاستثمارات الرأسمالية ، فالقانون الأوحد الذى يحكم حركة رأس المال المتجاوز للقوميات هو الربح ، وحيث يكون الربح أكثر تتوجه المشروعات .

سلطة اقتصادية كاسحة

فالعولمة هى سلطة اقتصادية كاسحة دون أن تقابلها سلطة سياسية تعلو الدول القومية، وذلك على نقيض ما يسجله تاريخ الرأسمالية نفسه من أدوار مهمة للدولة القومية فى فرض ما يحد أو يخفف من الآثار السلبية لنشاط الرأسمالية بما يحفظ المجتمع ، ويساعد على أن يستمر النظام الرأسمالى مهذبا بالاجراءات السياسية، مثل تشريعات العمل ونظم التأمين الاجتماعى واشكال الديمقراطية النيابية واحترام حقوق الانسان ..... الخ .

وعليه ، ففى إطار العولمة قد ينساق كثير من الدول فى سباق نحو القاع أو الهاوية ، اذ أنها فى اطار التسابق إلى مزيد من الاعفاءات والحوافز والميزات النسبية التى تعرضها على المستثمر الأجنبى ، لجذب الاستثمارات العالمية، تجد نفسها فى مواجهة عجز متزايد فى إيراداتها ، كما أنها فى اطار الاستجابة لشروط العولمة ، تجد نفسها مضطرة إلى تقليص أو ايقاف الدعم لغير القادرين ، والغاء التأمين على المهمشين والافراد الأكثر تعرضاً للمخاطر. ويصبح الأمل الوحيد أمام الفقراء والبؤساء هو أن



يتذكرهم الأغنياء ، على حد تعبير توماس فريدمان .

إن التنين الالكترونى ذا الالف مخلب الذى تقوم عليه الرأسمالية الكوكبية قد تحول إلى وحش كاسر ، وحتى يتضح ذلك جلياً ، فان هذا التنين يتحكم فى نصف رأس المال العالمى من خلال ٢٥ سوقاً مالية تتعامل فى أكثر من عشرين تريليون دولار . ولا يقتصر تحكم هذا التنين على الأسواق المالية، ولكنه يضارب فيها ويزعزع احتياطياتها ويستنزف مواردها ، كما أن له ايضاً مؤسساته العقابية، التى يوكل اليها مهمة المراقبة والتلصص على الدول والمؤسسات والتسلل داخلها لمراقبة مدى التزامها بشروط العولمة وقوانينها ، فإذا ما عصت أو تلكأت أطلقت عليها كلاب الصيد تنهش اقتصادياتها ، وتبرز لها كروتاً حمراء تطاردها من السوق وتقوض مؤسساتها. ومن اللافت للنظر أن الشركات الخمس الكبرى فى مهنة المحاسبة الدولية مثلاً، شركات أمريكية تابعة التنين الالكترونى ، وأن من شروط العولمة الرئيسية أن تتم المراجعة المالية والاقتصادية فى إطار عالمى .

التنين الالكترونى ضد الصالح العام

ومن يرضى بشروط التنين وإدارته ، فانه يحصل على صكوك الغفران ، ويعطى شهادات صلاحية تمهد لمزيد من الاستثمارات الأجنبية والوجود العولى والشروط التى يمليها التنين الالكترونى نمطية واجبارية ، الخصخصة لكل الشركات المملوكة للدولة، وتحرير التجارة الداخلية والخارجية ، ورفع الحوافز الجمركية ، والحد من التضخم ، وتقليص قدرة البيروقراطية الحكومية ، والغاء كافة القيود على الاستثمارات الأجنبية وتحرير أسواق المال، واطلاق حرية الأجانب فى التملك ، والغاء الدعم ، وتحرير نظام التأمين والمعاشات وترك المسئولية فى ذلك للأفراد ، والنمطية فى نظام المحاسبة والمراجعة المالية الخاضعة للاشراف العولى .

ولا يخفى أن نظام العولمة لايفكر فيما نتعارف عليه فى مجتمعنا حول ما يطلق عليه أو ما اصطلح على تسميته (بالصالح العام) ، بل إن النظام الرأسمالى الكوكبى وصل الآن إلى درجة تصور فيها انه لايحتاج للصالح العام، كما أن التنين الالكترونى، فاق جشعه ونهمه كل الحدود لدرجة انه لا يعطى الاهمية للصالح العام.

وإذا كانت معظم بلدان العالم اليوم تدرك أن تسارع العولمة يعد العقبة الأكبر أمام تحقيق التنمية الاجتماعية ، كما تهدد العولمة البيئة وحقوق العاملين والمصالح المحلية واحتياجات الشعوب قبل كل شئ فان ذروة المأساة تتمثل فيما تؤدى اليه



العولمة من تعاظم الفجوة بين الأغنياء والفقراء، اذ أن مشكلة الفقر تظل هى التحدى الكبير الذى يواجه الحكومات فى البلاد النامية، حيث يعانى واحد من كل خمسة أفراد أبشع حالات الفقر . كما ان الفشل فى القضاء على الفقر أصبح يهدد الدول الغنية والفقيرة على السواء. اذ تتسع المسافة بين الأغنياء والفقراء حتى فى داخل الدول الغنية نفسها .

انتشار البطالة نتيجة العولمة

وحتى يتضح لنا مدى الهوة التى تفصل بين الأغنياء والفقراء ، فان املاك أغنى ثلاثة مليارديرات فى العالم تفوق كثيراً الاجمالى الكلى للناتج المحلى للبلدان الأقل تقدماً مجتمعة اضافة إلى ممتلكات سكانها المقدر عددهم بحوالى ٦٠٠ مليون نسمة . اما داخل الدول الصناعية المتقدمة ، ففى الولايات المتحدة التى تقود الرأسمالية الكوكبية ، بلغ التفاوت فى الدخول فيها مستوى لم تعرفه فى تاريخها ، اذ أصبح ٤ ٪ من الأمريكيين يملكون أكثر مما يملك ٥١ ٪ ممن هم أقل دخلاً ، مما تسبب فى شرخ اجتماعى هائل داخل المجتمع ازداد معه تآكل الطبقة الوسطى . ومما يفاقم من هذا الشرخ الاجتماعى أن من نتائج العولمة انتشار البطالة ، لأن كل تجديد تكنولوجى يرفع من انتاجية العمل ، يؤدى بالتالى إلى تسريح المزيد من العاملين، وتصيب البطالة أساساً الشباب (وبصفة خاصة من الاقليات العرقية) . وفى فرنسا ظهرت طبقة جديدة من العاطلين والباحثين عن العمل ، كما يتزايد اعداد المهددين بالبطالة، ووراءهم مئات الآلاف من الذين يعيشون دون مأوى ، ومئات الآلاف من الشحاذين، مما حدا بالرئيس شيراك إلى أن يقر بأن فرنسا مهددة بالانقسام إلى مجتمعين ، أولئك الذين يستفيدون مما توفره الثورة العلمية والتكنولوجية من ناحية ، وأولئك الذين يضارون منها ضرراً جسيماً من ناحية أخرى .

طبقة الواحد فى المائة تحكم العالم

وفى ضوء هذه الوضعية البائسة التى تطال جميع الدول غنيها وفقيرها معاً، يمكن القول أن طبقة عالمية جديدة هى طبقة الواحد فى المائة هى التى تحكم العالم فى عصرنا الراهن. أن الواحد فى المائة من كل مجتمع متقدم أو متخلف ، غنى أو فقير ، والتى تستحوذ على المال والتجارة والأعلام، هى التى تفرض سلطتها على التسعة والتسعين فى المائة الباقين . وطبقة الواحد فى المائة هذه هى طبقة عابرة للقارات ليست لها انتماءات قومية أو دينية أو عرقية ولا ولاءات لوطن، فهى موجودة فى واشنطن وباريس وجاكرتا وكولالمبور وموسكو وبكين



والقاهرة وطوكيو ومدريد وأوسلو وبرازافيل . فهي تتوحد وتتضامن وتتواصل عبر الكمبيوتر، وتتداول الأسهم وترفع من اسعار النفط أو تخفض اسعار النحاس وتبيع السلاح وتصنع القادة والزعماء وتسقط الأنظمة السياسية ، وتتسبب في افلاس دول أو شركات أو مصارف وهي تتربع على عروش الأعلام فتصنع الشريط والقرص والسي دي روم ، وتنتج برامج الكومبيوتر . هذه الطبقة هي في الحقيقة «العولمة» بكل قبحها وجبروتها ووحشيتها فالقاعدة التي تقوم عليها العولمة هي أن الأغنياء في المجتمعات الغنية يجب أن يحكموا العالم ، يتنافسون فيما بينهم، ويقمعون من يقف في طريقهم ، ويساعدهم في ذلك الأغنياء في الدول الفقيرة ، والآخرون يخدمون ويطيعون ويتحملون .

وفي مواجهة هذا الطوفان الكاسح ، والإعصار المدمر ، يكون من الطبيعي والمنطقي والضروري ، أن يتصدى ضحايا العولة في كل مكان منددين بغضب ضد عقيدة الربح والمنفعة .

وإذا كان من السابق لأوانه أن نتنبأ بما إذا كانت هذه الحركة الاحتجاجية الواسعة سوف تتبلور في مستقبل الأيام إلى تيار سياسي جديد أو سوف تنتهي بظهور حزب أو نظرية سياسية جديدة ، الا أن القدر المتيقن منه هو أن الوضع العام مأزوم وأن عصر العولة الجديد، لم يتمكن من بلوغ مشروع فكري وايديولوجي مقنع أو ذو وجه انساني مقبول . ■

مأثورات

+ روى أن الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه لقى كبيرا من كبراء فارس فقال له: من أحمد ملوككم سيرة؟ قال : أحمدهم سيرة « أنو شروان » فقال له: وما كان أغلب خصاله عليه قال: الحلم والاناة ، فقال له : هما توأمان ينتجهما علو الهمة .

– أيام الدهر ثلاثة يوم مضى لا يعود اليك، ويوم انت فيه لا يدوم عليك ، ويوم آت لا تدري ما حاله ولا تعرف من هم أهله .



مستقبل العولمة

جزء خاص

بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية

بقلم
د. محمد عمارة

منذ صك الإعلام الغربي مصطلح «العولمة»، وأحله محل مصطلح «النظام العالمي الجديد»، عقب انهيار الاتحاد السوفيتي، والمنظومة الشيوعية ١٩٩١م - وهناك خلط- في دوائرنا الفكرية والإعلامية- بين مصطلح «العولمة».. ومصطلح «العالمية» وهو خلط يزيف المضامين، ويخلط الأوراق التي لا يجوز فيها الاختلاط.. بل ويحول دون الحوار الجاد حول مفاهيم القضايا التي تعبر عنها هذه المصطلحات ومقاصدها.. الأمر الذي يستوجب البدء بتحرير وتحديد مضامين مصطلحي «العالمية» و«العولمة»، على وجه الخصوص.



فالعالمية نزعة إنسانية وتوجه نحو التفاعل بين الحضارات، والتلاقح بين الثقافات، والمقارنة بين الأنساق الفكرية، والتعاون والتساند والتكامل والتعارف بين الأمم والشعوب والدول، ترى العالم «منتدى حضارات، بينها مساحات كبيرة من «المشترك الإنسانى العام»، ولكل منها «هوية ثقافية تتميز بها»، ومصالح وطنية وقومية وحضارية واقتصادية وأمنية لابد من مراعاتها، فى إطار «توازن المصالح»، وليس «توازن القوى» بين هذه الأمم والحضارات..

وإذا كانت عين الفاحص لا تخطئ التمايز الحضارى فى هذا المنتدى العالمى، عندما ترى الخصوصيات الحضارية لكل من الصين والهند واليابان والغرب والإسلام - وغيرها من الحضارات - فإن عقل الباحث لا يخطئ أيضاً تميز بعض هذه الحضارات «بالمحلية» - مثل الهند والصين واليابان - بينما تميزت وتتميز كل من الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية بصلاحية التمدد العالمى، وإمكانات العطاء خارج الحدود الجغرافية التاريخية لشعوب هاتين الحضارتين.. تميزت بذلك النزوع العالمى الحضارة الأوربية - الغربية، منذ طورها الإغريقى -



كارل ماركس



هيجل

الرومانى.. وتميزت به الحضارة الإسلامية منذ أن خرجت من بين دفتى القرآن الكريم..

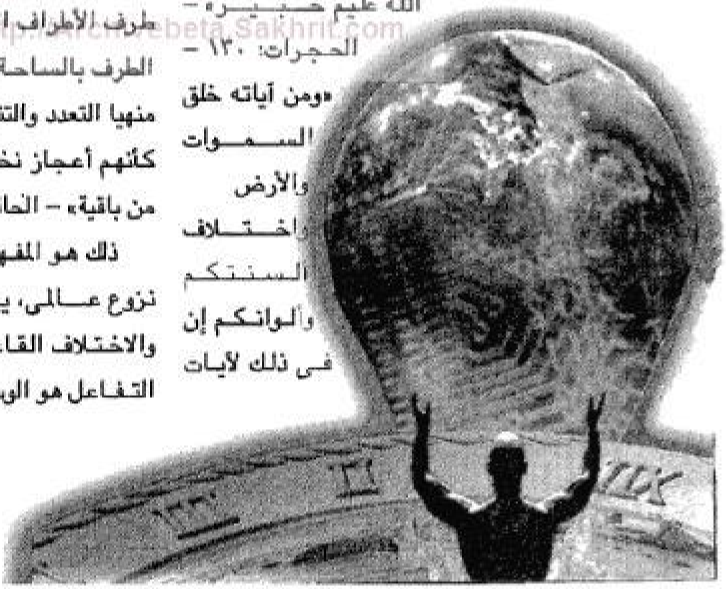
فمن القرآن الكريم ولدت مقومات الأمة الإسلامية الواحدة، وخرجت الصبغة الإسلامية لحضارة هذه الأمة، وجاءت عالميتها كثمرة من ثمرات عالمية الرسالة الإسلامية والشريعة الإسلامية، التى شاء الله، سبحانه وتعالى، أن يختم بها شرائع السماء إلى الإنسان.. ولهذه الحكمة جاء الحديث القرآنى عن هذه العالمية منذ العهد المكى للرسالة والدعوة «وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين» - يوسف:١٠٤- «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» - الأنبياء:١٠٧- «تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا» - الفرقان:١.. فكانت هذه الأمة الإسلامية وحضارتها دائمة التحقق حيثما امتدت تعاليم الإسلام وقيمه وثقافته، على

امتداد الزمان والمكان..

لكن هذه العالمية الإسلامية لا تعنى - فى الرؤية الإسلامية - انفراد الحضارة الإسلامية بالعالم، وإلغاءها للآخر الحضارى.. بل إنها تعنى التفاعل والتدافع والتسابق مع الآخر، فى ظل التأكيد على أن التعددية الحضارية والتنوع الثقافى والاختلاف فى الشعوب والأمم والقبائل.. وفى الألوان والأجناس والأعراق.. وفى الألسنة واللغات - ومن ثم القوميات -.. وفي الشرائع والملل الدينية.. وفى المناهج والمذاهب والثقافات والحضارات.. إن كل هذا التنوع والاختلاف هو القاعدة الطبيعية، والقانون التكوينى، والسنة الإلهية التى لا تبديل لها ولا تحويل.. «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير» - الحجرات: ١٣ - «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين» - الروم:٢٢- «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم» - هود: ١١٨ ١١٩- «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» - المائدة:٤٨.

فالناس سعيهم شتى «إن سعيكم لشتى» - الليل:٤- «ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات» - البقرة:١٤٨- و«التدافع» والحراك والتسابق هو سبيل رأب الصدع وتعديل الخلل وإعادة الميزان - الوسط .. العدل - إلى العلاقات بين الطبقات أو الأمم أو الحضارات «إدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم» - فصلت: ٣٤ وليس «الصراع» الذى يصرع فيه ويه طرف الأطراف الأخرى، فينفرد هذا الطرف بالساحة والثمرات والامتيازات، منهيا التعدد والتنوع والاختلاف.. «صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية» - الحاقة:٧-٨..

ذلك هو المفهوم الإسلامى للعالمية: نزوع عالمى، يرى التعدد والتنوع والاختلاف القاعدة والقانون، ويؤمن أن التفاعل هو الوسط العدل بين «العزلة»



وبين «التبعية»، فتصبح الصورة الحضارية للعالم هى صورة «منتدى الحضارات»..

ولقد تميز هذا المفهوم الإسلامى للعالمية عن المفهوم الغربى للعالمية، ليس فقط فى حقبتنا الراهنة - حقبة العولمة - وإنما منذ فجر الحضارة الأوربية الغربية.. «فالنزعة المركزية» لصيقة بالنموذج الحضارى الغربى، منذ العصر الرومانى، الذى رأى أصحابه أن الإنسان هو الرومانى الحر وحده، ومن عداه برابرة، وأن ما يتدين به الرومان هو الدين الوحيد، وما عداه واجب الاستئصال.. ولقد طبقوا هذه النزعة الواحدية المركزية فى عصر وثنيتهم بإبادة النصارى، بعد تشديد اليهود، وفى عهد نصرانيتهم باضطهاد المذاهب النصرانية المخالفة لمذهبهم الملكانى.. وامتد ذلك فيما عرف «بالحروب الدينية» بين مذاهب النصرانية - الكاثوليكية والبروتستانتية - التى امتدت منذ منتصف القرن السادس عشر وحتى العقود الأخيرة من القرن السابع عشر «١٥٦٢ - ١٦٨٨»، أى حتى عصر «التنوير»، والتى أبيد فيها نحو عشرة ملايين، أى ٤٠٪ من سكان وسط أوربا «١»!!..

ثم واصلت هذه «النزعة المركزية» الغربية صراعها مع الآخر طوال عصر

• العالمية نزعة إنسانية ترى العالم منتدى حضارات

• العولمة الغربية طور جديد على طريق النزعة المركزية الغربية والعالمية.

استعمار الغرب للأمم والبلاد والحضارات غير الغربية، وتم هذا الصراع والاستئصال على مختلف الصعد والميادين والجبهات - على الجبهة الفكرية بإبادة البنى التحتية للمواريث الفكرية لحضرات الشعوب المستعمرة «٢» - وعلى الجبهة القيمية، باختراق منظومة القيم الخاصة بالشعوب المستعمرة - وعلى الجبهة الثقافية بتغريب المستعمرات - وعلى الجبهة اللغوية، بفرنسة أو جلنزة ألسنة الشعوب المستعمرة - وعلى الجبهة الدينية، بتنصير العالم بالنصرانية الغربية - وعلى الجبهة الاقتصادية، بالنهب الاقتصادى الاستعمارى، الذى بنى رفاهية الغرب بالفائض الذى تحقق من إفقار الأمم والشعوب المستعمرة - وعلى الجبهة الأمنية، بتحويل العالم إلى هامش للأمن الأوربى والغربى، وتسخير الشعوب المستعمرة وإمكاناتها وقودا فى الحروب الاستعمارية، كما كان الرومان والفرس يصنعون - قديما - مع الغساسنة والمناذرة، فى النظام العالمى القديم!..

ذلك هو المفهوم الغرب «لعالمية»

حضارته الأوربية.. مفهوم الواحدية الحضارية الذى يرى أن الحضارة الغربية هى وحدها العالمية والإنسانية - بل هى وحدها «الحضارة» التى يجب أن تكون النموذج الوحيد للتحضر والتقدم.. والقالب الأوحد الذى يجب أن يصب فيه العالم جميعا..

بل لقد رأى الغرب - ولا يزال يرى - أن الصراع والصدام هو الخيار الرئيسى فى تحقيق هذه الواحدية الحضارية.. ولذلك بسبب «الصبغة الصراعية» التى تماهت فى بنية تكوين الحضارة الغربية، والتى أفصحت عنها - ثم بررت لها - النظريات الرئيسية التى صبغت فلسفة الأنوار الوضعية الأوربية وفكر الحداثة الغربية وثقافتها.

● فلسفة القوة والصراع والنفعية المتحللة من الأخلاق، هى جوهر فلسفة السياسة الميكافيلية - كما صاغها ميكيافيلى «١٤٦٩ - ١٥٢٧م» فى كتاب «الأمير».

● وفلسفة التاريخ عند هيجل «١٧٧٠ - ١٨٣١م» تقيم علاقات العصور على الصراع، الذى ينسخ فيه الجديد القديم..

● والداروينية - كما صاغها داروين «١٨٠٩ - ١٨٨٢م» فى «أصل الأنواع» - تجعل الصراع هو قانون التقدم والتطور فى عالم الحياء، فالبقاء للأصلح، والأقوى هو الأصلح للبقاء.. ونسخة للآخرين - الضعفاء - هو القانون!..

● وكذلك الحال فى الفكر الاجتماعى، والعلاقات بين الطبقات - عند ماركس «١٨١٧ - ١٨٨٣م» وغيره - وهو تطبيق للفلسفة الصراعية الداروينية والهيجلية فى الاجتماع - فالجديد يستأصل القديم، والطبقة الجندية يتم نموها على حساب فناء الطبقة السائدة.. و«العبودية» قد نسخت المشاعية البدائية.. ثم جاء الاقطاع فنسخ العبودية.. ثم جاءت الرأسمالية فنسخت الاقطاع.. ولقد بشرت الماركسية بنسخ الشيوعية وديكتاتورية البروليتاريا لليبرالية الرأسمالية..

وكأنما شعار هذه «الفلسفة الصراعية» - التى صبغت الحضارة الغربية - هو: «كلما دخلت أمة لعنت أختها» - الأعراف:٣٨-وأبادتها!

● وهذه النزعة المركزية الاستئصالية، هى التى جعلت حتى مفهوم «الإنسان» فى

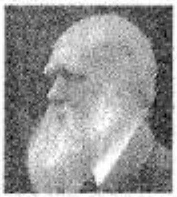


الحضارة الغربية – هو الإنسان الغربى وحده.. ثم جعلت هذا الإنسان الغربى – فى عصر الاستعمار – يمارس استئصال الآخر، الحضارى والثقافى – براحة عجيبة للضمير، هى أشبه ما تكون بموت الضمير!، لأنه يمارس ذلك الاستئصال «كرسالة» وكإعمال للقانون العلمى والطبيعى، الذى يحكم عالم الأحياء والاجتماع – فى عالم الحضارات والثقافات.. فاستئصال الشعوب – بالاستعمار الاستيطانى – فى أفريقيا وفلسطين – هو تمدن وتحضر لهذه البلاد!.. وتنصير المسلمين هو تحقيق «الخلاص» لأرواح هؤلاء الكفار المحرومين!.. وإزالة المواريث الحضارية للشعوب غير الأوروبية، هو تحرير لها من التخلف والرجعية والبدائية والجمود!!..

مفهوم العولمة:

وإذا كان هذا هو مفهوم «العالمية» – فى الرؤية الإسلامية.. وفى الرؤية الغربية – فما هو الجديد المفاهيمى الذى يطرحه مصطلح «العولمة» الذى طرأ على الساحة الفكرية منذ سنوات؟..

إن الجديد فى هذه العولمة الغربية – عن «العالمية الغربية» – هو جديد فى «الدرجة» وليس فى «النوع».. فنحن أمام تصاعد فى درجة النزعة المركزية الغربية..



تشارلز داروين

وتصاعد فى حدة التطبيق الغربى لهذه النزعة المركزية.. وأسباب هذا الجديد – جديد العولمة – هو التطورات الموضوعية الجديدة التى طرأت على العالم، ومن ثم على علاقة النظام الغربى بالعالم غير الغربى..

لقد مر الغرب فى علاقات أممه ودوله القومية بعضها بالبعض الآخر – منذ عصر التنوير – بمراحل عدة: مرحلة الحروب الدينية.. ومرحلة الحروب القومية.. ثم جاءت مرحلة الحروب الاستعمارية.. ثم شهدت العقود الأولى للقرن العشرين ذلك «الانشقاق الاجتماعى» بين الشمولية الشيوعية وبين الليبرالية الرأسمالية، فى قلب النموذج الحضارى الغربى.. ولقد شغل هذا الانشقاق والشقاق الاجتماعى واستنفد الكثير من الطاقات الصراعية لقوى النظم الغربية.. وانضم إليهما – نحو ربع قرن – صراع هذين القطبين مع الفاشية والنازية – وفى ظل هذه «الفرصة التاريخية» نمت حركات التحرر الوطنى فى البلاد المستعمرة، واستقلت الدول التى حققت استقلالها السياسى عقب

الحرب الاستعمارية العالمية الثانية من هامش الحرية الذى أتاحه لها الصراع الداخلى بين شقى الحضارة الغربية، فحققت - بعد الاستقلال السياسى - مقادير متفاوتة من التنمية الثقافية والاقتصادية والعسكرية..

صحيح أن التغريب كان تيارا ضاغطا على خيارات هذه الدول والشعوب.. لكن التناقض الرئيسى فى جسم الحضارة الغربية قد أتاح لشعوبنا مقادير من حرية الاختيار، فى اطار هذا التغريب، الذى مثل يومئذ «غواية الترغيب والترهيب».. لقد كان غواية، تستخدم أساليب الترغيب والترهيب.. لكن ظلت لنا معها مقادير لا بأس بها من حرية الاختيار..

فلما حدث وسقط النموذج الشمولى الماركسى - فى مطلع العقد الأخير من القرن العشرين - وتوحدت قبضة الحضارة الغربية كما لم تتوحد من قبل - منذ عصر التنوير الأوربي - وتزامن ذلك مع ما اقتضاه «الرعب والردع



النووى: من ضبط الغرب لتناقضاته الداخلية والاقتصادية عند حدود وسقف الصراع غير العنيف» واقترنت هذه اللحظة التاريخية بثورة متسارعة وغير مسبوقة فى تقنيات وسائل الاتصال - فى الفكر والثقافة والإعلام.. وفى المال والاقتصاد - كان ذلك الصعود الجديد لنزعة المركزية الغربية من طور «العالمية» - بمفهومها الغربى، الذى أشرنا إلى خصائصه - إلى طور «العولمة الغربية»، التى أرادت وتريد إلغاء «هامش الاختيار» الذى كانت تتمتع به الشعوب والأمم والحضارات غير الغربية، وإحلال مرحلة «الاجتياح» محل مرحلة «غواية الترغيب والترهيب»..

فالعولمة الغربية، هى طور جديد على طريق النزعة المركزية الغربية والعالمية، بمفهومها الغربى.. إنها طور الاجتياح الذى يطمع فى صب العالم داخل القالب الغربى - على مختلف الصعد والميادين: الاقتصادية .. والسياسية.. والقيمية.. والثقافية.. والعسكرية.. والتشريعية.. إلخ..إلخ.

إنها مرحلة «الطوفان الغربى»، الذى هو - فى الدعاوى الغربية - نهاية التاريخ.. ومن لم يركب فى سفينة النموذج الحضارى الغربى طوعا، فخطوط الصراع

والإكراه معه وضده تحددها خطوط الثقافات والحضارات!«٣».

وإذا كان «واقع» هذا الاجتياح العولمى الغربى، هو الشاهد على صدق التحليل والتوصيف.. فإن فى مصطلح «العولمة» شاهدا ودليلا، أيضاً..

فالعالمية - حتى بمفهومها الغربى - ونظرا لملابسات التناقضات التى صاحبتها، لم تكن تحرمنا من هامش اختيار.. أما هذه العولمة، التى مثلت وتمثل طور وحدة القبضة الغربية، وثورة التقنيات التى جعلت وتجعل العالم أشبه ما يكون بالقرية الكونية، مما يؤدى إلى تصاعد مخاطر الاختلالات فى موازين القوى على الأمم والحضارات المستضعفة.. أما هذه العولمة، فإن مصطلحها - حتى المصطلح - ينبئ هو الآخر عن هذا الجديد الذى تمثله..

فالصيغة الصرفية «فوعلة» غالبا ما تعنى الدمج المخطط والقسرى فى قالب واحد، ونفى التنوع والتعدد والاختلاف.. نفهم ذلك - وقد عرفناه وعانيناه - عندما اكتوت شعوبنا «بالفرنسة» والجلزنة والروسنة والأمركة والأسرلة.. إلخ فهى - أى العولمة - مرحلة الاجتياح الغربى - وخاصة الأمريكى - لصب العالم فى قالب النزعة المركزية الغربية، على نحو غير

● الحضارة الإسلامية ثمرة من ثمرات عالمية الشريعة الإسلامية

● العالمية الإسلامية تعنى التفاعل والتدافع والتسابق مع الآخر فى ظل التعددية الحضارية والتنوع الثقافى

مسبوق، وبدرجة لم يسبق لها مثيل، بفعل المستجدات الجديدة، فى بنية الحضارة الغربية - بتزايد «فرعونيتها» و«قارونيتها».. وبضبط تناقضاتها.. وبفعل مستجدات عالم التقنيات وسلطان المعلومات..

ذلك عن تحرير وتحديد مفاهيم المصطلحات..

الهوامش

«١» هاشم صالح «التنوير الأوربي ردة فعل للاقتتال المذهبي» - صحيفة «الشرق الأوسط» - لندن - في ٢٩/٢/٢٠٠٠م.

«٢» الجبرتي «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» ص٢١٠-٢١١ تحقيق: حسن محمد جوهر وعمر الدسوقى - طبعة القاهرة ١٩٦٩م.

«٣» انظر: د.محمد عمارة «الحضارات العالمية: تدافع أم صراع» - سلسلة «في التنوير الإسلامي» - طبعة نهضة مصر القاهرة ١٩٩٨م و«مخاطر العولمة على الهوية الثقافية» نفس السلسلة - والناشر - طبعة القاهرة ١٩٩٩م. ■

السينما

بين المهرجانات وفساد المعايير

بقلم
مصطفى درويش

لست أدرى كيف وجدتنى أحاور النفس قائلا : ها أنا ذا فى مطار نيووارك بولاية نيوجيرسى، على وشك مغادرة مدينة نيويورك، بعد زيارة لبلاد العم سام، هى الأولى، وربما الأخيرة، عائدا بعد ساعات إلى ألمانيا، ومنها بعد أيام إلى مصر.

فمن أين لى المال اللازم لسفر طويل، عبر المحيط، تزداد تكاليفه على مر الأعوام.

ومن أين لى العافية أمام زحف الشيخوخة، حتى أواجه بها مشاق سفر، تختلط فيه الأزمنة، على نحو ترتبك معه دورة الليل والنهار.

وما كنت أدرى فى لحظة الحوار تلك، أنه لن تمضى سوى بضعة أشهر، إلا وأرانى، معلقا بين الأرض والسماء، فى الطريق إلى نيويورك، لسبب لايخطر على البال، هو المشاركة فى فعاليات مهرجان الفيلم العربى الإيرانى، وفترة انعقاده لم تزد على ثلاثة أيام .. ومتى ؟

فى أثناء شهر فبراير، وبالتحديد أسبوعه الأخير أى فى عز شتاء قارس البرد، تتنازع أيامه ولياليه ثلوج ورياح، ولا أقول أعاصير .

ونيويورك ، حيث وول ستريت شارع المال والأعمال، وحيث برودواى شارع الملاهى بأضواء لافتات مايعرض فيه من مسرحيات وأفلام وقد تحول بها الليل إلى نهار، مدينة لاتنام .

صوت الموسيقى

وفى أثناء الأيام السبعة التى قضيتها



جوليا روبرتس مع الفائزين معها بالأوسكار

بتلك المدينة، شاهدت، علاوة على أفلام المهرجان، مسرحيتين موسيقيتين وفيلمين.

والمسرحيتان هما «شيكاغو» و«شبح الأوبرا».

والأولى صاحبها المخرج ومصمم الرقصات «بوب فوس» ذلك المبدع الذى امتعنا قبل وفاته بقليل رائعته، «كل هذا الجاز».

أما الثانية فصاحبها «فرانك لا لويه فيبر» ذلك الموسيقار الذى أمتعنا بأكثر من مسرحية موسيقية رائعة. أذكر من بينها على سبيل التمثيل «المسيح نجم أعظم»، «يوسف ومعطفه السحرى» «متعدد الألوان»، «قطط» و«شارع الغروب» المأخوذ عن فيلم بالاسم نفسه، أخرجه «بيلى ويلدر» قبل نصف قرن من عمر الزمان.

يبقى الفيلمان، وهما «النمر الواثب والتنين النائم» لصاحبه المخرج الصينى «انج لى» وهو من جزيرة تايوان، ومقيم فى الولايات المتحدة الآن.

و«هانيبال» لصاحبه «ريد لى سكوت» ذلك المخرج البريطانى الذى فاز فيلمه «المصارع» قبل بضعة أسابيع، بخمس جوائز أوسكار، من بينها جائزتا أفضل



النمر والتنين .. درة سينمائية

فيلم، وممثل رئيسى «راسيل كرو» .

و«المصارع» تدور أحداثه وجودا وعدما حول قائد رومانى «ماكسيموس» أيام حكم الإمبراطور الحكيم «ماركوس أوريليوس» تنكرت له الأقدار، فإذا به يتحدر من سيد إلى عبد، فمصارع، منتصر على «كومودوس» ذلك الإمبراطور المستبد الذى قتل أباه «أوريليوس» وأصدر أمرا بتصفية «ماكسيموس» جسديا، ولكن، ولأمر ما، كتبت له النجاة من موت مؤكد .

الرعب والدهشة

ويختلف «هانيبال» عن «المصارع» فى كل شىء فهو فيلم رعب، بطله «لكتر هانيبال» ذلك السفاح العشوائي المتعطش للدماء فى «صمت الحملان» ويؤدى دوره انطونى هوبكنز، الفائز بأوسكار أفضل ممثل رئيسى عن تقمصه لتلك الشخصية، قبل تسعة أعوام .

وبعض أحداث الفيلم تدور فى «فلورنسا» تلك المدينة الإيطالية الرائعة الجمال.

أما معظمها فيدور فى الولايات المتحدة ، حيث نرى مشاهد مرعبة يشيب من هولها الولدان، أنكر من بينها، منظر المليونير القعيد، المشوه وجهه على نحو لايظهر من معالمه شيئا، ويعيش لا لهدف سوى الانتقام من «هانيبال» .

ومنظر الخنازير المتوحشة، المدربة على افتراس الآدميين، وهى تلتهم ذلك المليونير.

وأخيرا وليس آخر منظر زميل «كلاريس» «جوليان مور» في المباحث الإتحادية، الذي ناصبها العداء، منظره و«هانيبال» يعذبه أمام «كلاريس» بشكل يثير القشعريرة في الأبدان.

ومما أثار دهشتي أن الفيلم، ورغم هذه المناظر، وهي بعض من كثير، لم يقصر عرضه في مصر على الكبار، خلافا لما حدث في بلاد العم سام.

وصاية

وفي اعتقادي أن إجازة عرضه دون تفرقة بين كبار وصغار إنما يرجع الى قيام الرقابة بتخفيف بعض المناظر المرعبة، حتى لاتعمل رخصة قصر عرضه علي الكبار .

في حين أن تلك الرخصة قد خولها القانون حماية للكبار والصغار على حد سواء .

فبفضلها يحمى الصغار من مشاهدة الأفلام التي من نوع «هانيبال» .

وفي الوقت نفسه لايحرم الكبار من مشاهدة مثل هذه الأفلام كاملة، غير منقوصة، وذلك بحكم أنهم راشدون، يستطيعون التمييز بين ماينفعهم ومايضرهم.

ومن ثم لا تحق الوصاية عليهم، بمقولة حمايتهم من أنفسهم .

والآن إلى «النمر والتنين».

بداية أرى من المفيد أن أذكر أنني عندما رأيته في نيويورك كان متكلما بلغته الأصلية، أي الصينية، وذلك رغم أن الجمهور الأمريكي معتاد على مشاهدة الأفلام الأجنبية، غير المتكلمة بلغته، مدبلجة بالإنجليزية كما أنه دخل معترك الصراع من أجل الفوز بجوائز أوسكار متكلما بالصينية، لا الإنجليزية، وبوصفه فيلما صينيا لحما ودما.



ولأنه من الأفلام القليلة التي يزداد الاستمتاع بها بصريا وسمعيا، كلما شوهد أكثر من مرة، فقد اسرعت بمشاهدته عند عرضه عندنا في القاهرة.

لغة الاستعمار

ولدهشتي وجدته متكلما لا بلغته الأصلية، وإنما بالإنجليزية، وكأن فهم الجمهور العادي للغة «الأنجلوسكسون» عن طريق السمع، يفوق فهمه للغة الصينيين.

لقد اشترط «انج لي» الابقاء على اللغة الصينية المتكلم بها أبطال الفيلم، لحكمة، هي الحفاظ علي الجو العام «للنمر والتنين» حيث تدور جميع الأحداث من البداية وحتي



كاترين زيتا جونز بطلة خيوط التهريب



راسيل كرو

النهاية على أرض الصين، ومن خلال أساطير وشخصيات صينية.

ورغم ذلك الشرط، جرى ترشيح «النمر والتنين» لعشر جوائز أوسكار، من بينها جائزتا أفضل فيلم وأفضل فيلم أجنبى. وترشيحه لهاتين الجائزتين معا، أمر لم يحدث فى تاريخ جوائز أوسكار إلا نادرا.

والحق، أنه لو كان توزيع تلك الجوائز يجرى بميزان دقيق، لما اكتفى بمنحه جوائز أفضل فيلم أجنبى وموسيقى تصويرية وتصميم مناظر وتصوير.

ولمنح، فوق هذا، جائزتا أفضل فيلم وإخراج فهو، يفضل بكثير، المصارع وخيوط التهريب الذى فاز صاحبه «ستيفن سودربرج» بجائزة أفضل مخرج.

ومن غرائب الترشيحات أنه أى «سودربرج» كان مرشحا لأوسكار أفضل مخرج عن فيلم آخر «ايرين بروكوفيتش» علاوة على «خيوط التهريب».

وعن أدائها لدور «بروكوفيتش» فازت «جوليا روبرتس» بجائزة أفضل ممثلة رئيسية.

وفوزها بتلك الجائزة، وترشيح «سودربرج» عن إخراجه لفيلمين، لا فيلم واحد، خروجا عن المعتاد، لايعنى ارتقاء مستوى إخراجه لأى منهما أو كليهما إلى مستوى إخراج «انج لى» لرائعته «النمر والتنين».

ومن البديهى أن التكريم، فى مجال





سوسن بدر فى الأبواب المغلقة

الجوائز، يجب أن يحسب على أساس الكيف، لا الكم، وإلا فسدت المعايير .

فـ «النمر والتنين» فيلم فريد، يندر أن يكون له مثيل .

وعندى أنه أفضل فيلم جادت به قريحة صانعى الأطياف، خلال العام الأخير من القرن العشرين.

وأغلب الظن أنه لن يكتب لنا أن نشاهد فيلما يرقى إلى منزلته فى أثناء العام الأول من القرن الواحد والعشرين، بل وربما لبضعة أعوام.

الصمت والصبر

وأعود إلى مهرجان الفيلم العربى والإيرانى لأقول إنه فى أيامه الثلاثة جرى عرض ستة عشر فيلما بين روائى وتسجيلى، وطويل وقصير .

وكان من بينها أفلام فلسطينية، أو بمعنى أصح أفلام عن فلسطين، أذكر منها الصبار لصاحبه «باتريك بورج» وهو أول فيلم لمخرجه الشاب، ذى الجنسية السويسرية، وفيه يعرض لمأساة الفلسطينيين المقيمين على أرض إسرائيل، حيث فقدوا ديارهم وقراهم التى جرى إزالتها، ولا دليل على أنه كان ثمة وجود لها سوى نبات الصبار.

ومن هنا اختيار «بورج» الصبار عنوانا لفيلمه الذى يعد بين الأفلام التى عرضت لمحنة الشعب الفلسطينى أكثرها طولا «٩٧ دقيقة» وأكثرها جدية والتزاما كما أذكر منها فيلم «محمود درويش ـ هذه اللغة من هذه الأرض».

وفيه تابع مخرجاه الفرنسيان «سيمون بيتون» و«الياس سانبار» رحلة الشاعر من الضفة الغربية إلى باريس، مرورا بالقاهرة وبيروت.

كما سلطا الأضواء على شعبيته، وعلى الأحاسيس الكامنة فى كلماته وقصائده المستوحاة من شقاء فقد أرض الآباء .

هذا، وفيما عدا فيلمين لبنانيين، أحدهما قصير «العلكة الحمراء» والآخر طويل «الاعصار» فيما عداهما، لم يكن ثمة حضور لأفلام من المشرق العربى.

فلا سينما العراق، ولا سوريا، ولا أية دولة من دول الخليج، كان لها حضور بأى فيلم فى المهرجان.

وفيما عدا «ليبيا» كان للسينما فى كل من مراكش والجزائر وتونس، حضور بثلاثة أفلام هى «مبروك» لصاحبه إدريس شويكة ، و«العيش فى النعيم» لصاحبه «بورلم غير بيجة» و«موسم الرجال» لصاحبته مفيدة تلاتلى، تلك المخرجة التونسية التى بدأت مشوارها مع صناعة الأطياف مؤلفة «مونتيرة» للأفلام ثم جاءتها الشهرة بفضل «صمت القصر» أول فيلم من ابداعها كمخرجة.

أين مصر؟

وإذا ما استثنينا فيلما مصريا صامتا «عشر دقائق» اسمه «الجوع كافر» «١٩٢٣» لصاحبه «محمد بيومى» أحد الرواد الأوائل الذين لعبوا دورا فى تمصير السينما، وذلك ابان عقد العشرينات، باستثنائه، لم يكن للسينما المصرية، بجلالة قدرها، وجود إلا بفضل فيلم يتيم «الأبواب المغلقة» لصاحبه عاطف حتاتة.

فى حين أن السينما الإيرانية كان لها حضور مشرف بثلاثة أفلام «الدائرة» لصاحبه «جعفر بناهى»، «صفصاف ورياح» لصاحبه «محمد على طالبى» و«يوم آخر» لصاحبه «بابك بيامى».

وبالفيلم الأخير، جرى اختتام عروض المهرجان ويتصدر الأفلام العربية من ناحية الموضوع والتناول الجاد له بلغة سينمائية جيدة، يتصدرها «العيش فى النعيم» و«الاعصار» .

النعيم الجحيم

وأحداث الفيلم الأول تدور على أرض فرنسا، فى ماض قريب، قبيل فوز الجزائر بالاستقلال، تتويجا لثورة تعرف بثورة المليون شهيد . وأرض الجزائر لاتظهر فى الفيلم إلا فى مشهد يتيم، نرى بفضله الحياة الرعوية فى واحة هادئة، تكاد تبتلعها الرمال، وفى احضانها ترعى الأغنام آمنة، مطمئنة .

ولم يستغرق ذلك المشهد سوى بضع ثوان .

وكان القصد من الزج به، هو تسليط الضوء على أسلوب معيشة بطل الفيلم، قبل مغادرته الجزائر، مهاجرا إلى أرض الميعاد.

وكيف أنه على النقيض تماما من اسلوب معيشته فى ضاحية «نانتير» على بعد بضعة أميال من باريس. .

فمن تلك المقابلة بين أسلوبى معيشته، يتضح لنا أنه انتقل من النور إلى الظلمات.

الواقع والوهم

فحوارى مدينة الصفيح بتلك الضاحية الباريسية حيث يعيش، حوار موحلة،

معتمة، وأسقف العشش تتسرب من خلال شقوقها مياه الأمطار، مفسدة الحياة والأشياء.

وتبلغ المعاناة ذروتها، عندما تطير الأسقف بتأثير الرياح العاتية.

وعندما يتعرض الجزائريون لارهاب الشرطة الفرنسية، متمثلا فى القبض، والضرب، والتنكيل.

والمدهش أن الفيلم قد اعطيت له امكانيات هائلة وحشدت له جموع غفيرة من الجزائريين.

ومع ذلك، رأيناها لم تصب بتوتر المسحور، بالوقوف لأول مرة أمام الكاميرا.

ولم تنطق بأنها تتحرك على خطوط مرسومة بالطباشير، بل بدا تحركها وكأنه تعبير تلقائي، الأمر الذي يذكرنا بفيلم «معركة الجزائر» لصاحبه المخرج الايطالي «جيل بونتكورفو».

غرائب وعجائب

ومن غرائب المهرجانات فى الوطن العربي، وأخص منها بالذكر أول مهرجان للسينما العربية فى إمارة البحرين «٢٠٠٠» من غرائبها الا يفوز «العيش فى النعيم» بجائزته الكبري، وبدلا منه يفوز بها «الأبواب المغلقة» بطولة سوسن بدر ومحمود حميدة .

فالفيلم المصرى، عكس الفيلم الجزائرى، يعانى من فقر الامكانات، ومن صوغ الحياة فى مصر، وفقا لرؤية جاهزة يغلب عليها الافتعال .



أما الفيلم الثانى «الاعصار» وصاحبه المخرج اللبنانى «سمير حبشى» فتاريخ إنتاجه إنما يرجع إلى العام الأول من عقد التسعينات، عندما عاد السلام إلى ربوع لبنان، بعد انتهاء حرب أهلية طائفية، تعد من أقذر الحروب داخل الوطن الواحد.

والغريب، أنه ورغم تناوله لضحايا تلك الحرب بأسلوب يقطر شعرا، فقد جرى منع عرضه فى لبنان زمنا طويلا.

فإذا ما أتيحت له فرصة العرض، روعى أن تكون فى أضيق الحدود.

وحتي فرصة العرض تلك لم تتح له فى أى بلد عربى آخر، على امتداد الوطن من الخليج إلى المحيط !!. ■

مسرح

قراءة فى مسرح سعد الله ونوس

مسرحية الاغتصاب

رؤية جديدة

«فى زمن المجازر، لا يوازى الشعور بالعقم، أن نشير إلى المجزرة، أو نتحدث عنها مواربة. يجب أن ينخرط المسرح فيها، أن يحقق دوره فى سياقها واحتمالاتها. دون ذلك لا يمكن تحاشى التمزق.. لا يمكن الفرار من هذا الإحساس الباهظ بالهامشية والعجز».

سعد الله ونوس

بقلم
مها محمود صالح

في حديثنا السابق عن مسرح ونوس تعرفنا على مفهوم التسييس الذى يتبناه هذا المسرح ويدعو إليه، كما تعرفنا على خصائصه والتى تتلخص فى ثلاثة مبادىء هى : البدء بالجمهور - المسرح عمل جماعى - ينبغى أن نشحن لا أن نفرغ.

كذلك قدمنا في حديثنا السابق مسرحية «رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة» كنموذج لمسرح ونوس أما حديثنا هذا الشهر فسيكون قراءة لمسرحية «الاغتصاب»، وذلك حتى تتكامل رؤيتنا لمسرح ونوس الذى لا يكتفي بتكثيف الوعي وإنما يتخطى ذلك إلى محاولة استشفاف الآفاق المستقبلية لهذا الواقع.

ومسرحية «الاغتصاب» سنة ١٩٩٠ هي إعادة كتابة لمسرحية «القصة المزدوجة للدكتور بالمي» للكاتب الأسباني بابيخو، ولعله من المناسب أن نشير إلى رأي ونوس الذي ذكرناه سابقا وهو أن النص المقتبس هو نص يحاور زمنا مختلفا وبيئة مختلفة وهو بذلك يعد نصا جديدا برؤية جديدة. (راجع سعد الله ونوس: الأعمال الكاملة، المجلد الثاني ص ٦٣، الأهالي، ١٩٩٦).

يقدم ونوس من خلال هذا العمل حكايتين تتداخلان وتتبادلان النمو، حكاية فلسطينية وأخرى إسرائيلية.

الحكاية الفلسطينية تضم إسماعيل الفلسطيني المنخرط في صفوف المقاومة الفلسطينية، وأخته «الفارعة»، وقد سميت بذلك الاسم لكثرة ترددها على سجن الفارعة لزيارة حبيبها السجين هناك، ثم «دلال» عروس «إسماعيل» الشابة التي تتزوجه رغم معارضة أهلها الأثرياء وهي لا تعرف شيئا عن انضمامه للمقاومة. أما الحكاية الإسرائيلية فتدور حول أسرة «إسحق» الذي يعمل في فرع الأمن الداخلي الذي يختص بالتعامل مع الفلسطينيين، وتضم أسرته زوجته «راحيل» وأمه «سارة» وطفله الصغير «دافيد».

يقع التماس بين الحكايتين عندما يتعرض «إسماعيل» للتعذيب على أيدي «إسحق» وزملائه الذين يتمادون في الضغط عليه ليس فقط بهدف الحصول عليه وإنما أيضا، وهو الأهم، بغرض كسر كبريائه. هكذا تنتهي حفلة التعذيب وقد تم تحطيم رجولة «إسماعيل» بينما تعرضت «دلال» للاغتصاب على أيدي زملاء



سعد الله ونوس

«إسحق». أما إسحق فهو حقا لا يشارك في الاغتصاب، ولكنه وقد أراد ألا يبدو أقل قسوة من زملائه، يتقدم نحو المرأة الضحية ممسكا شفرة يشق بها أثلاما في لحمها وينتهي به الأمر وقد قطع حلمة نهدها الأيسر.

بعد هذا الحدث الكاشف تتداخل الحكايتان وتبدأ الشخصيات الرئيسية في التحول في اتجاه مصائرها المحتومة. أما إسحق فإنه يصاب بعجز جنسي يفسره له الطبيب النفسي «ابراهام منوحين»، وهو يهودي ليس صهيونيا، بأنه نوع من عقاب النفس على الوحشية التي تعامل بها مع السجين وزوجته والعلاج الوحيد، في رأي «د. منوحين» هو «إما الإقرار بالجرم الرهيب أو الاقتناع المطلق بأن هذه الأعمال جديرة بالاحترام!».

وتبدأ الأسرة الإسرائيلية في الانهيار حيث تتعرض «راحيل» للاغتصاب على يد «جدعون»، زميل زوجها الذي ذهبت إليه آملة أنه يستطيع مساعدة زوجها في



مسرح

محنته، فتقرر الرحيل للحاق بعمتها في أمريكا. ويحاول «إسحق» الحصول على فرصة للعمل خارج إسرائيل حتى يصحب زوجته على أمل أن يتمكنا معا من اجتياز آلامهما، لكن «مائير» رئيسه في العمل يرفض إعطاءه تلك الأجازة ويتطور الحديث بينهما حتى يعلن إسحق: «اكتشفت ومن خلال جسدي، أن ما نفعله ليس مقنعا، وأن من نسميهم القتلة، لهم عيون ومشاعر، ويحسون بالظلم .. لم أعد متأكدا أن الحق كله إلى جانبنا». ويحتدم الحوار حتى ينتهي بمصرع «إسحق» على يد رئيسه وأبيه الروحي «مائير».

أما بالنسبة لشخصيات القصة الفلسطينية فإن «دلال» تخرج من تجربتها الرهيبة تتقد باليأس والغضب فتنضم إلى المقاومة وقد تحولت من امرأة ناعمة تغرق في بحر من الأمان الزائف إلى امرأة صلبة تشحذها رغبة عارمة في الانتقام ويملأها يقين أن «إما نحن وإما هم».

أما «إسماعيل» فإن جسده ينهار تحت وطأة التعذيب على أيدي «مائير» ورجاله وعندما يتسلم ذووه جثمانه تبدأ أحداث الانتفاضة الفلسطينية سنة ١٩٨٧ وتصاب «الفارعة» بطلقة رصاص تغيبها عن الوعي ثم تعود لتجد شرر الانتفاضة وهو ينطلق عبر الأراضي الفلسطينية من بيرزيت إلى غزة.. ومن الخليل إلى القدس.

الاغتصاب للأرض

إن لحظة اغتصاب «دلال»، التي هي في الحقيقة رمز للاغتصاب التاريخي للأرض العربية منذ ١٩٤٨، قد تطورت لتؤدي إلى انهيار الأسرة الإسرائيلية وتتنبىء بانهيار المجتمع الإسرائيلي إذا استمر الحال على ما هو عليه. بينما نفس تلك اللحظة أدت إلى تصعيد الوعي على الضفة الأخرى إلى الحد الذي أطلق شرارة الانتفاضة الفلسطينية الهادرة.

التسييس في الاغتصاب :

إذا كانت مسرحية «حنظلة» لسعد الله ونوس ، تهدف إلى إثارة الوعي بما يحدث في داخل المجتمع العربي فإن مسرحية «الاغتصاب» تحاول أن تبني وعيا جديدا بالواقع الذي يعيشه المجتمع الفلسطيني والمجتمع الإسرائيلي كل على حده من ناحية، وبحقيقة الصراع الدائر بينهما في تلك اللحظة من التاريخ، من ناحية أخرى.

المجتمع الفلسطيني :

إن أحداث الانتفاضة الأولى منذ سنوات ثم انتفاضة الأقصى التي اندلعت، ولازالت مشتعلة منذ شهور، تدفع المرء، بصرف النظر عن معتقداته وتوجهاته، إلى التساؤل عن حقيقة ما يحدث في الأرض المحتلة. عن الشعب الفلسطيني الذي ما أن يبدو وكأنه قد استكان في مواجهة الكيان الإسرائيلي المدجج بالسلاح والكراهية، حتى يندفع في مواجهات مفاجئة بعضها ذات أمد قصير، عمليات انتحارية مثلا، وبعضها أطول أمدا، مثل أحداث الانتفاضتين.

الدولة الحلم

إن ونوس من خلال «إسماعيل» و«الفارعة» و«دلال» يحاول أن يفهم ويساعدنا أن نفهم كيف تنبعث تلك القدرة

الأسطورية على المقاومة من أعماق الواقع الفلسطيني الكالح الظلمة. أما «إسماعيل» فإنه يمتلك حلما يكاد يقترب من الخيال أن تكون دولة تتسع للإسرائيليين والفلسطينيين معا، يتمتعون جميعا فيها بحقوق متساوية وحريات مكفولة. هذه الدولة الحلم ستقوم بالطبع على أرض الوطن الذي لم يعرف هو وأجداده سواه. يقول «إسماعيل» مخاطبا «مائير»: «هنا وطني وهذه أرضي.. منذ قرون وقرون ونحن نحيك مع هذه الأرض العلاقات والمواثيق. تبادلنا الترويض والملاينة، وشممتنا وشممناها. غذتنا أحياء وتغذت بنا أمواتا.. خلال قرون وقرون ونحن نعجن الطين والماء والهواء بخمائرنا. خمائر البشر الذين يحزنون ويفرحون ويثمرون.. وبهذا التخمر البطيء والمديد تتشكل الأوطان». وإذا كان «إسماعيل» قد استشهد فإن «الفارعة» لازالت هناك من بعده تجدل ذلك الحبل السري الذي يربطها بل يربطهم جميعا بأرض الوطن وبتاريخه! ها هي تخاطب الطفل الرضيع الذي تتولى رعايته بعد إبعاد أمه فتقول: «لا شيء يضاهي رائحة الخبز، إلا رائحة الأرض المروية. هاتان الرائحتان هما ألطف وأنبل روائح الكون. إنهما النعمة التي تغذي الشوق إلى البيت والحب والعمل». وهي في سياق آخر تحكي له صفحات مضيئة من تاريخ ذلك الوطن فتقول: «.. واحتل الصليبيون القدس، وأسسوا فيها الممالك والقلاع.. وظنوا أن الأمر استقام لهم.. لكن القائد صلاح الدين الأيوبي أعد عدة الحرب وانقض عليهم..».

إن الفارعة تقوم بدور أساسي في تسييس، أي تكثيف وعي، الشخصيات في الحكاية الفلسطينية. ها هي تحث دلال على الخروج من وهم العالم الآمن الذي تغرق فيه إلى الواقع القاسي فتقول لها: «إنه أمان كاذب. لم تغتصب إسرائيل بلادنا كي توفر لنا الأمان.. إن واقعنا مرعب. موت واعتقالات.. بيوت منسوفة وأطفال بلا أمهات أتريدين أن يولد طفلك بلا هوية وبلا أمل!.. في حالتنا، الانزواء عن المشاكل يعني الفناء البطيء.. ونحن لا نريد أن نفنى».

«الفارعة»، التي يعني اسمها الحاسرة والقوية أخت الرجال، هي روح المقاومة الفلسطينية التي لا تموت. تفقد الفارعة والدها في أيلول الأسود، ويدخل حبيبها المعتقل محكوما عليه بالسجن المؤبد، ويستشهد أخوها الأصغر، فلا يهتز حلمها بالوطن الحر المستقل، ولا تملك سوى الخيال تشحذه أملا في أن يكتسب كثافة الواقع. إنها نموذج المرأة الفلسطينية التي قد تقضي العمر تنتظر عودة الزوج أو الابن المعتقل بأمل لا يتزعزع في الغد: «حولنا الآلاف من النساء المنتظرات. ولكننا نتعلم كيف نصبر، وكيف نتهيأ للحظات الفرح القادمة».

قد تبدو الفارعة رمزا أكثر مما هي شخصية حقيقية، لكنني شخصيا لا أشك في إمكانية وجودها على أرض الواقع؛ فلولا وجود أمهات وزوجات مثل هذه الفارعة، لما أمكن للانتفاضة الفلسطينية أن تستمر لسنوات ثم تعاود الانفجار مرة أخرى منذ شهور!.

لكن الحكاية الفلسطينية لا تضم فقط



مسرح

أبطالا وحكماء اختاروا الحلم المستحيل، وإنما هناك أيضا من حاولوا التكيف مع الواقع أو حتى الاستفادة منه، وبعضهم نجح فى ذلك . هناك على سبيل المثال محمد الأخ الأكبر لإسماعيل الذى لم يستطع أن يسير فى طريق المقاومة المسلحة، واكتفى بأن يحيا حياة أسرية عادية مع امرأة يحبها هى سهام، ولكن ، على حد قول القارعة: «من يملك أن ينجو بسعادته فى هذه الظروف». إن السلطات تبعد سهام خارج الوطن، مما يدفع محمد إلى قبول العمل فى ورشة إسرائيلية أملا أن يهيىء له ذلك الحصول على الموافقة على طلب لم الشمل مع زوجته، لكنهم يطلبون منه، لكى يحقق أمله، أن يقوم بالتجسس على أهله المنضمين إلى المقاومة. يحاول محمد لكنه لا يستطيع فالنذالة كما يقول «تحتاج إلى قوة داخلية رهيبة».

النموذج الآخر لمن تكيفوا مع الوضع القائم بل واستفادوا منه هو السيد بشير البوسى والد دلال الذى يعيش فى قوقعة من الثراء والتجارة ولا يهمه إلا أمواله. هو نادرا ما يذكر إسرائيل، ولم يخف شماتته بعبد الناصر وأنصاره بعد هزيمة ٦٧. لقد رفض السيد بشير مصاهرة إسماعيل لفقره، وعندما أصرت ابنته على هذه الزيجة قاطعها. أما بعد اعتقال إسماعيل ودلال فقد أقسم أن يتبرأ من ابنته أمام الجميع خوفا من أن تسبب له متاعب مع السلطات!.

المجتمع الإسرائيلى

أما الوقع الإسرائيلى كما تقدمه الحكاية الإسرائيلية فهو واقع، رغم قوته الظاهرة وقسوته فى مواجهة الآخر، إلا أنه فى الواقع يحمل بذور انهياره الداخلى.

إن ضمير الحكاية الإسرائيلية وراويها هو د. أبراهام منوحين طبيب الأمراض العصبية الذى يعلن لإسحق أن العجز الجنسى الذى أصابه ما هو إلا عقاب له على ما اقترفه فى حق العربى إسماعيل وزوجته. يحكى د. منوحين عن شعوره عندما سمع القصة من إسحق ، فيقول: «حين روى لى ما فعلوه شعرت بالاعتلال، وبما يشبه التورط. كان يجرنى معه شاهدا على تاريخنا.. ما فعله لم يكن جريمة فردية تخصه وتخص علم الأخلاق، بل كان حدثا له مغزاه وأثره على تاريخنا جميعا». (حقا إن هذه الجريمة الفردية ما هى إلا رمز وإشارة إلى ذلك الاغتصاب الجماعى لوطن بأكمله!).

لا يستطيع د. منوحين إذن أن يلتزم بحياد الطبيب المعالج بل يغلبه النفور. ويستشف إسحق ذلك النفور فيتهم الطبيب أنه واحد من أولئك الذين «ليس لديهم ما يقدمونه لدولة إسرائيل إلا الوساوس والشكوك». د. منوحين لا ينكر التهمة بل ويعلن فخره بها : «نحن نفخر بوساوسنا لأنها حمتنا من البؤس الروحى الذى تغرق فيه دولتنا المعجزة». ويؤكد د. منوحين لإسحق أنه «فى تربيتنا الصهيونية يعلموننا الكراهية بصورة دعوية ولكنهم لا يبالون بالحدود التى يمكن أن تتحملها بنيتنا الإنسانية. إن الكراهية المطلقة هى الحد الذى يمكن أن يسوغ كل شىء»

ويمنع الاختلال، ولكن من هو الإنسان الذى يصير كراهية مطلقة ولا يتداعى؟».

ويخرج إسحق من العيادة وهو غير مقتنع بكلمات الطبيب، لكن جرثومة الشك التى زرعها الطبيب تظل تنخر فى عقله حتى تؤدى به إلى اكتشافات مرعبة . إن السجين العربى الذى سبق له أن حطم رجولته وانتهك جسد زوجته يعود من المستشفى ليموت بين يديه فى حفلة التعذيب الثانية. لقد تكشف له فى تلك اللحظة أن ذلك العربى : «لم يكن حشرة. ولم يكن قمامة نرميها فى المزبلة. كان رجلا له عينان مروعتان، ووجه تتكلم ملامحه وتصرخ. كان إنساناً».

ومع اكتشافه لإنسانية ضحيته تبدأ تساؤلات إسحق عن مشروعية ما يفعله هو وزملاؤه، ثم تتوالى الاكتشافات المرعبة لتقوض أركان العالم الآمن الذى أحاط به. يتبين لإسحق أن ماثير رئيسه فى العمل ما هو إلا رجل عاجز مثله لكنه يخفى هذا العجز خلف قناع من القسوة والترفع. أما أبوه، الذى لا يذكر منه إلا صورا غائمة، فقد قتله ماثير بأعصاب باردة لمجاهرته بالعداء للفكرة الصهيونية. وأخيرا فإن أمه سارة ليست إلا شريكة لماثير فى علاقة ظاهرها قوة بلا خطيئة ، وباطنها كذب وعقم وخواء!. وبمعرفة إسحق بواقعة اغتصاب زوجته يتأكد له صحة التساؤل الذى يطرحه أبراهام منوحين: «من هو الإنسان الذى يصير كراهية مطلقة ولا يتداعى؟»:

إن جدعون هو مثال حى ونموذج واضح لذلك التداعى حقا هو راض عن نفسه ولا يشكو من أى أعراض مرضية واضحة ، لكنه فى الواقع ينهار كإنسان. هو كما يصف نفسه لراحيل واحد من أجيال الصابرا الذين تعلموا أن «الرجل الفعلى لا يحتاج إلى أصدقاء» وعليه ألا يثق بأحد». ويضيف جدعون : «حين كنا صغارا علمونا أن نحذر الشفقة والحنان، وأن ننتزع ما نريده انتزاعا». إن جدعون هو صورة نموذجية للجندى الإسرائيلى الذى لا يتوانى، وقد تحول إلى كراهية مطلقة تجاه الإنسان الفلسطينى، عن استخدام السلاح فى مواجهة أى حركة عدائية ولو كانت لا تزيد عن حجر فى يد طفل فلسطينى! وهو لا يشعر بأى انتهاك لشرف جنديته عندما يصوب طلقات سلاحه على إنسان أعزل ولو كان طفلا فى حضن أبيه!

وإذا كان جدعون يمثل أجيال الصابرا أى الأجيال التى ولدت فى إسرائيل، فإنه من الضرورى أن نتعرف على ما يمكن تسميته الجيل المؤسس لدولة إسرائيل، ويمثله فى مسرحية الاغتصاب ماثير وسارة بنحاس. يعلن ماثير المزاعم الدينية التى تأسست عليها إسرائيل فيقول : «نحن هنا لأن الرب وعدنا، ولأن الرب أعطانا، ولأن الرب أقسم أن يسقط فى أيدينا كل أعدائنا. ولن تسقط كلمة واحدة مما كلم به الرب بنى إسرائيل». أما الأم سارة بنحاس فهى نموذج آخر لهذا الهوس الدينى المرضى الذى بنيت عليه إسرائيل . لقد هاجرت سارة إلى إسرائيل بصحبة زوجها جوزيف بنحاس. لكن بينما اندمجت هى فى المجتمع الجديد تميز هو بفتور استجابته التى تحولت إلى عداء مرير لكل ما آمنت به سارة: الحركة الصهيونية، والهجرة، والوطن القومى، وهذا خلق بينهما هوة أخذت تتسع يوما



بعد يوم. وتلتقى سارة بمائير فى أحد الكيبوتزات فى إسرائيل فترى فيه البطل الخارق الذى سيعيد مجد الدولة اليهودية! ويستغل مائير هوس سارة الدينى فيقنعها، مداريا بذلك عجزه الجنسى، الذى هو في الواقع رمز لعقمه الإنسانى أى عجزه عن التواصل والامتداد، يقنعها أنه لا داعى لأن تنفصل عن زوجها لأن العلاقة بينهما يجب أن تظل على طهارتها فمعجزة إسرائيل لن تبنيها إلا «قوة بلا خطيئة». وتسيطر على سارة أوهامها الدينية فلا تدرك التشويه الذى تلحقه بروح إبنها وهى تستعديه على العرب لتحقق به نموذج الكراهية المطلقة: «ما تفعلونه أقل مما أوصانا به الرب.. أوصانا الرب ألا نعفو عنهم، وأن نقتلهم رجلا وامرأة طفلا ورضيعا، بقرا وغنما، جملا وحمارا».

ومن السهل تبين التشابه بين سارة ومائير من ناحية وبعض الرموز الواقعية لجيل مؤسسى دولة إسرائيل من ناحية أخرى. على سبيل المثال فإن قارىء «اعترافات جولدا مائير» (ترجمة عزيز عزمى - مؤسسة دار التعاون ١٩٧٩) يمكنه بسهولة تمييز التشابه بين سارة وجولدا. كلتاهما على سبيل المثال ارتبطتا بزوجين لم يشاركاهما الحماس تجاه إقامة الدولة اليهودية. تقول جولدا مائير فى كتابها المذكور عن زوجها موريس : «.. بطبعه العاطفى كان أقل تأكدا من الصهيونية منى.. فكان يحلم بعالم يسوده السلام. أما الحكم الذاتى القومى فلم يكن يستثيره . ولم يكن يعتقد أن دولة ذات سيادة يمكن أن تخدم اليهود حقا» ص ٨١.

أما التشابه بين شخصية مائير وجولدا مائير فهو يتعدى مجرد التشابه فى الاسم إلى التشابه فى أسلوب التفكير . ها هو مائير يواجه إسماعيل قائلا: «من هم الفلسطينيون؟ لا يوجد فلسطينيون»، تماما كما قالت جولدا مائير جملتها الشهيرة : «لا يوجد شعب اسمه الشعب الفلسطينى» ص ٣٣ من المذكرات، سارة بنحاس إذن هى رمز للروح التى تأسست عليها الدولة اليهودية ، وعلينا ألا نغفل مقارنتها بالفارعة التى تمثل كما أسلفنا الروح الفلسطينية. إن «الفارعة» رغم اختيارها للكفاح ومقاومة الوجود الإسرائيلى مقاومة عسكرية ومدنية أيضا، ورغم ما تعرضت له من مآسى الاحتلال الإسرائيلى، فهى لا تسمح لغضبها أن يتحول إلى كراهية مطلقة. تخاطب الفارعة دلال قائلة : «لولا الصهيونية لما كانت بيننا وبين اليهود عداوة.. نحن مناضلون يا دلال، ولسنا قتلة. قضيتنا عادلة، وهدفنا هو أن ندحر الصهيونية، لا أن نقتل البشر». سارة بنحاس على الجانب الآخر لا تكتفى بإفساد حياة ابنها بل التضحية بها على مذبح أوهامها الدينية، وإنما تعمل أيضا على مصادرة الأمل فى المستقبل. إنها لا تكف عن تلقين حفيدها الرضيع دافيد قصة سميه داود «اليهودى» الذى واجه جوليات وانتصر عليه. كما أنها ترتل له المزامير التى تعزز توجهاتها العنصرية «تقلد سيفك على فخذك. وبجلالك اقتحم. شعوب تحتك يسقطون».

إن الفارعة وسارة كلاهما أم لكن

الأولى تدعو إلى الاحتفاء بالحياة بينما لا تتورع الثانية عن قتل الحياة! فلأى منهما ستكون الغلبة فى المستقبل؟!

كراهية مطلقة

وتنطوى شخصية جدعون وأيضا ماثير وسارة بنحاس على ما يشبه التحذير للمجتمع الإسرائيلى. فالإسرائيلى المدرب على الكراهية المطلقة فى مواجهة الأغيار يمكن أن يصبح كالوحش الكاسر الذى أطلق من عقاله . هذا الإنسان لن يجد حرجا فى التعامل بنفس القسوة واللاإنسانية مع أولئك الذين يفترض أنهم معه على الجانب نفسه. هكذا لا يجد جدعون غضاضة فى اغتصاب زوجة زميله فى العمل، ولا يتردد ماثير فى قتل تلميذه وربيبه إسحق برصاص مسدسه لأنه رفض أن يستمر فى قتل الأبرياء، تماما كما قتل والد إسحق منذ سنوات لأنه عبر عن رفضه للفكر الصهيونى. أما الأم سارة بنحاس فإنها وقد سيطرت عليها أساطيرها الدينية تتقبل ببرود، نظنه مرضيا ، مقتل ابنها على يد نبى حركتها ماثير باعتباره، أى ابنها ، كان ثمرة فاسدة يجب استئصالها.

وإذا كان نموذج سارة وماثير وجدعون هو الأعلى صوتا والأقوى تأثيرا فى المجتمع الإسرائيلى، فإن هناك نموذجا آخر يزعم سعد الله ونوس أنه موجود، وإن صعب تمييزه، وهو نموذج دكتور أبراهام منوحين. إن د. منوحين يربأ بنفسه عن استخراج النصوص الدينية من سياقها لتغذية نزعات عنصرية مريضة كما تفعل سارة وأمثالها ، وإنما هو يرى فى النص الدينى نبعا للحكمة ودافعا للتأمل. وقد أمده ذلك بالإضافة إلى ما أسماه ولاءه للعدالة بقوة روحية ساعدته أن يكون يهوديا ومعاديا للصهيونية فى وقت واحد. لقد رأى د. منوحين ببصيرته أن الرب لا يمكن أن يكون بهذه الصورة التى يروج لها الصهاينة، كما وردت على لسان إسماعيل .. «يصطفى العنصرى.. وتشغفه المضاربة على الشعوب والأراضى .. وتلذه رؤية المجازر».

ماذا عن المستقبل ؟

كانت «حفلة سمر من أجل ٥ حزيران» هى أول عمل مسرحى يكتبه ونوس فى إطار مسرح التسييس طامحا إلى إنجاز ما أسماه «الكلمة الفعل» وهى تلك التى «يتلازم ويندغم فى سياقها، حلم الثورة وفعل الثورة معا». كان الموضوع بالطبع هو هزيمة ١٩٦٧، أما الهاجس الرئيسى للنص فقد كان محاولة كشف وتعرية أوجه الخلل التى استشرت فى المجتمع العربى والتى أدت إلى تلك الهزيمة القاسية.

أما فى مسرحية «الاغتصاب»، التى كتبت بعد ما يزيد عن عشرين عاما من الهزيمة ومن كتابة «حفلة سمر..»، فإن ونوس يتناول مرة أخرى الصراع العربى الإسرائيلى ولكن بشكل أكثر درامية وتعقيدا، وهذا على كل حال يتفق مع ما طرأ على وقائع الصراع من تعقيدات وتحولات. لم تعد إسرائيل، كما كانت قبل حرب الأيام الستة، مجرد دولة دخيلة على المنطقة تتربص بالعرب وتحاول اقتلاعهم من أراضيهم. لقد أصبحت إسرائيل الدولة واقعا جغرافيا وسياسيا واقتصاديا يبدو وكأنه لا إمكانية للقضاء عليه. إن إسرائيل فى «الاغتصاب» هى كيان عنصرى توسعى ، قد لا يمكن إزالته، لكن من

مسرح



الضروري ترويضه ومقاومة عنصريته وميوله التوسعية، وذلك يستدعي محاولة الغوص داخل المجتمع الإسرائيلي وبذل الجهد لفهمه ، وكما رأينا فإن ونوس يحاول في هذا العمل المسرحي تلمس بعض النماذج الإنسانية التي تختلف عن الصورة النمطية للعدو الإسرائيلي. وهذه بدون شك، مغامرة!.

في الفصل الختامي «سفر الخاتمة» ومن خلال ما أسماه ونوس حوارا محتملا بينه وبين د. أبراهام منوحين يعلن ونوس تأكده من وجود شخصية نزيهة مثل هذه الشخصية ويؤكد في الوقت ذاته على تعدد الحواجز التي كان عليه أن يتخطاها حتى يستطيع أن يميز تلك الشخصية ويقدمها «.. الريبة التاريخية التي تمنع الاعتراف بوجودك. والغوغائية السياسية التي تحول دون تمييزك، وخوف المهزوم من الخديعة، ويرزخ الضحايا والجراح، وفوق هذا مكائد الشرطة وصائدي الجواسيس».

إن ونوس يخاطب في د. منوحين المثقف الإسرائيلي ويطالبه أن يكون الرائد الذي لا يكذب أهله فينبههم «أن الدروب التي يسلكونها خطيرة، وأن الصهيونية التي يستهدون بها ورطة».

ولكن هل يمكن حقا أن يخرج من المجتمع الإسرائيلي شخصيات تحاول أن تفضح قسوته وعنصريته كما فعلت راحيل أرملة إسحق التي يحثها د. منوحين على نشر ما جرى خارج إسرائيل قائلا: «لن نتواطأ معهم، ولن نسمح لهم بمصادرة المستقبل».

هل يمكن حقا أن يخرج من داخل المجتمع الإسرائيلي، الذي يتبنى الكراهية المطلقة تجاه العرب، من يعمل من أجل دولة مثل تلك التي عناها إسماعيل وهو يخاطب مائير قائلا : «.. دولة كريمة تتسع لي ولك. دولة حقوقنا فيها متساوية. وحرياتنا مكفولة». إن إسماعيل نفسه، صاحب الحلم، يدرك في اللحظات الأخيرة من حياته استحالة تحقيق ذلك الحلم، فيقول لمائير: «حقاً لا فائدة .. ستكون هناك حروب، تتلوها حروب، وستسفك دماء كثيرة حتى يحسم الصراع».

★★★

وكأنما كان ونوس يتنبأ بما يحدث الآن في المنطقة، والدماء الفلسطينية الطاهرة التي تسيل في الأرض المحتلة احتجاجاً على محاولات الحسم الظالمة التي تتبنى العنف أسلوباً لها!

★★★

يبدأ ظهور شخصيات الحكاية الإسرائيلية ، فيما يسميه المؤلف ترتيلة الافتتاح، على خلفية من أصوات انفجارات يقوم بها اليهود لنسف البيوت العربية، وسارة بنحاس تعلن عن إسرائيل التوراتية: «كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم. من البرية ولبنان، من النهر، نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم» تستمر الدعوة إلى العنف على ألسنة سارة وموشي ومائير الذي ينتهي به المشهد قائلاً : «عليكم ألا ترحموا حتى تدمروا نهائياً ما يسمى بالثقافة العربية التي سوف نبني حضارتنا على

أنقاضها». هكذا بنى مائير ورفاقه دولتهم على أشلاء العرب أصحاب الأرض، ولا زالوا يتبنون أسلوب العنف فى مواجهتهم. يقول مائير عندما يسمع عن أعمال احتجاجية فلسطينية: «.. لا حل إلا بالاستيطان المكثف والترويع.. علينا أن نضغط ونضغط حتى نجبرهم على الرحيل».

ولكن ألا يفهمون! أن العنف الإسرائيلى الذى بدأ على الأرض العربية حتى قبل أن تعلن الدولة العبرية قد دفع الآلاف من الفلسطينيين إلى الفرار من أراضيهم حينئذ، إلا أنه وبعد أكثر من خمسين عاما على قيام الدولة، لم ولن يؤدى إلى فرض أمر واقع مستقر يقبل فيه الفلسطينيون بوجود إسرائيل بشكلها الحالى!

ماذا علينا أن نفعل؟

لكن الحلم الفلسطينى بوطن حر مستقل لا يتطلب فقط تغييرا على الضفة الأخرى، وإنما يتطلب أيضا وأولا تغييرا داخليا فى المجتمع الفلسطينى والمجتمع العربى ككل، على مستوى الأفراد والحكومات. يقول ونوس مخاطبا د. منوحين: «إن الورطة على ضفتنا معقدة. وإن الخروج منها يقتضى نضالا مركبا وصعبا». إنه نضال الأفراد ضد أهوائهم ومصالحهم الشخصية الصغيرة وأيضا نضال الأنظمة ضد ميلها المتوارث إلى مع معارضيها بالقمع.

والنماذج السلبية فى الاغتصاب متعددة. هناك مثلاً حسين الصفدى الفدائى الشهيد الذى أثمرت قسوته على ابنه البكر محمد ضعفاً فى شخصيته جعله يرفض الانضمام إلى المقاومة ويكتفى بالبحث عن وسيلة لجمع الشمل على زوجته حتى لو كانت العمل فى إسرائيل. وهناك أبو قحطان متعهد العمل الذى يراوغ فى دفع المستحقات المالية لمواطنيه، فكأنما يدفعهم دفعاً للعمل فى إسرائيل.

أما الشعوب العربية فإن عليها ألا تكتفى بالكلمات. فإن الذين يواجهون طلقات الرصاص لن تفيدهم الأناشيد، لكن «بعض الدم والطحين» قد يعزز قدرتهم على الصمود والمقاومة!

فإذا نجحنا كأفراد وكأنظمة حاكمة فى هذا النضال، فإننا سنستطيع مواجهة من أسماهم ونوس «بعض امتدادات الصهيونية فى الوطن العربى».

★★★

إن حنظلة بعد انتقاله من حال الغفلة إلى حال اليقظة قد بدأ رحلة جديدة سلاحه فيها هو وعيه بما يدور حوله وهدفه هو المشاركة فى صنع مصيره. وهو بالتدريج يدرك أن مصيره مرتبط بمصائر مواطنيه فى كل البلاد العربية، وأن الصهيونية وامتداداتها فى الوطن العربى هى الخطر الحقيقى الذى يتربص به وبمستقبل المنطقة كلها. وذلك يلقى عليه مسئوليات جسيمة عليه أن يتحملها. ونحن لا نملك إلا أن نقول له ما قاله سعد الله ونوس فى سياق آخر:

«نحن محكومون بالأمل. وما يحدث لا يمكن أن يكون نهاية التاريخ». ■

قصة قصيرة

فى بهو الفندق العريق

بقلم : د. فهمى عبد السلام

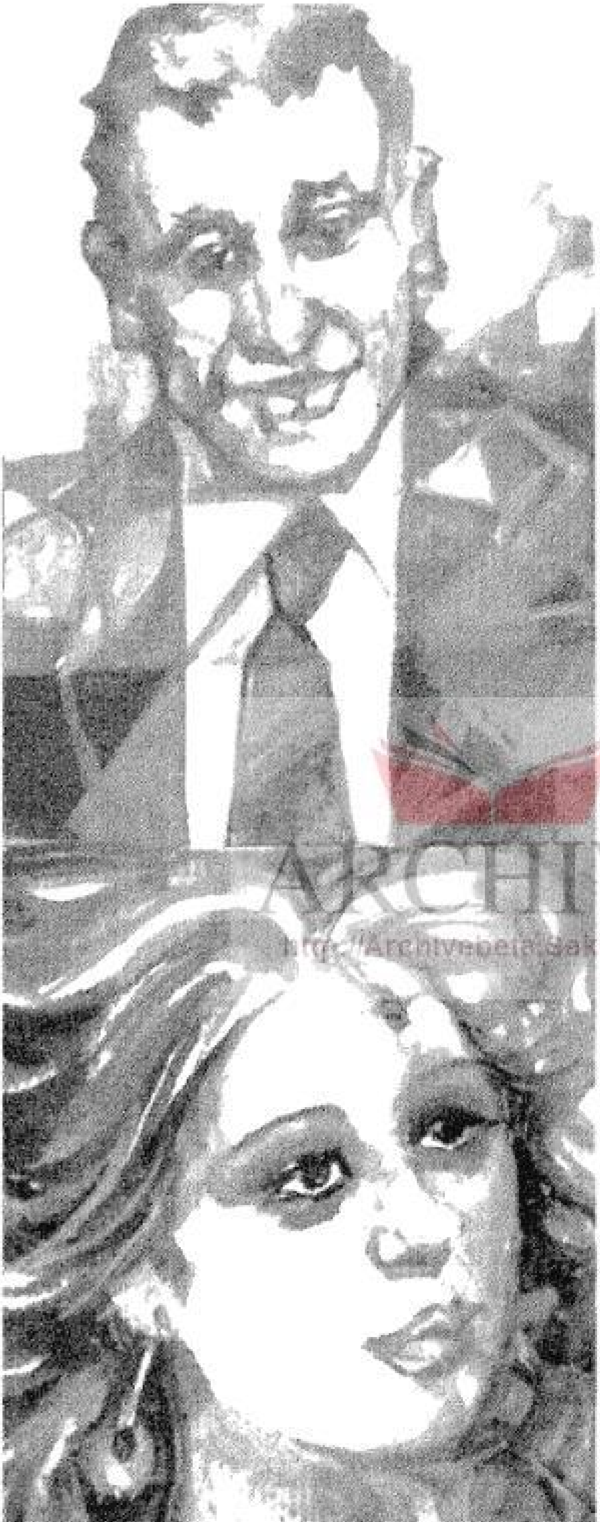
بريشة : سميحة حسنين

(١)

كل شىء حوله كان مصقولاً ولامعاً ، المشايات الحمراء الوثيرة، أعمدة النحاس اللامع التى تربط المشايات، الخشب الذى يغلف الجدران بلون البن المحروق ، الثريات الكريستال الفاخرة اللاتى يتدلين من السقف العالى ويبعثن الأضواء الصفراء التى راحت تنعكس من كل شىء فتبعث بريقاً ذهبياً ساحراً ، جلس فى المكان المعتاد فى بهو الفندق يتململ كالعادة كلما انتظرها.

كانت جلسته إلى جوار النافذة الضخمة، ومن خلال الستارة المخملية الأرجوانية كان بمقدوره أن يرى صفحة النيل الرمادية الداكنة، والسماء الحبلى بغيوم لنهار احترق ومات، وراحت قطرات المطر تسقط فى بطء على النافذة ، وفوق صفحة النيل الرمادية المهيبة، حلق طائران بالقرب من الماء.

كان كل شىء حوله يشى بهجران وشيك ، البهو الواسع الخالى من الزبائن، الغروب الحزين ، البيانو الضخم الجميل فى أقصى القاعة ، الجرسونات بستراتهم القرمزية وهم يسيرون بهدوء كى لايحدثوا جلبة، والنغمات التى إنسابت من البيانو والعازف الكهل القابع خلف البيانو، ونغمات أغنية مائدة وحيدة لشخص واحد. لم يكن فى البهو الواسع سواه ، إلا مائدة بعيدة، جلس عليها رجل وإمرأة ، كانا من بقايا الجاليات الأجنبية المنقرضة التى لم يكن ليخطئها ، كان الرجل يرتدى معطفاً وثيرا ، وكان كل شىء به مهندما، أنيقا ، المعطف الفاخر رباط العنق الأحمر الشعر الفضى المصفف بعناية، ولم تكن المرأة تقل عنه أناقة بشعرها الرمادى الجميل وبثيابها الفاخرة الأنيقة، وحينما راح يضيع الوقت وملل الانتظار بمراقبتهما، اكتشف أن الرجل والمرأة كانا فى حالة هيام لاتتناسب مع عمريهما، يتهامسان



ويمسكان أيديهما، ويميل عليها وتميل عليه، أعجبته هذه الحالة الرومانسية التى لم يتمكن الزمن من هزيمتها..

لماذا يبعث حبها فى قلبه كل هذه الكآبة ، هكذا سأل نفسه وهو يتذكر محاولاتها المضنية كى تتجاوز أصولها الطبقية ، حينما دعاها على الغذاء فى مطعم «بابريكا» أصرت على أن تستخدم الشوكة والسكين وهى تقطع الخبز، محاولاتها المستميتة للعمل كموظفة بالجامعة الأمريكية ، تذكر وجهها الجميل المؤلم الذى عصف به منذ عدة شهور، ولم يستطع أن يخرج من إساره حتى الآن، كان يستطيع استعادة ملامح الوجه الجميل من الذاكرة الذى حفظ تفاصيله عن ظهر قلب، الأنف الصغير المترفع، الوجنات المرتفعة قليلاً لتضفى سحراً إضافياً على العينين السوداوين الرائعتين، ألق العينين كأنه قمر كامل يسبح فى بحر عميق من السواد، البشرة النضرة وكأنها فاكهة صيفية، والصوت المبحوح العميق

الذى يوقف الدم فى العروق... كل هذا الجمال عصف به ذات مرة وإلى الأبد.

(٢)

نغمات البيانو تصدح فى البهو وكأنها بللورات فضية، صاحبة الوجه القاتل تجلس أمامه وقد تألق جمالها وتوهج تحت الأضواء الصفراء ، ألقت باعتذار واهن عن تأخرها وجلست واجمة وراحت تدخن سيجارة، وراح يراقب إصبع يدها الصغير اللطيف

- «بصى على الراجل والست إللى قاعدين هناك دول .. شوفى هايمنين على الآخر إزاى، كبار فى السن بس عايشين حاجة جميلة قوى»..

نظرت بعدم اهتمام وأردف هو:

- حاجة جميلة إن الإنسان يحب الحياة ويتعلق بيها.

أشاحت بوجهها ، وأدرك أن الكلام ليس على هواها، وتجمد وجهها الجميل وتمنى أن يعرف ماذا يدور فى رأسها ، وأن ينزع عنها هذا القناع القاسى ، وتنكر أنها طيلة



علاقتهما كانت حريصة على أن تقدم له هذا القناع القاسى الأليم.

كان عازف البيانو يعزف موسيقى أضواء المسرح عزفاً بارعاً ، وراح يحدثها عن هذه المقطوعة الحزينة الوحيدة التى ألفها شارلى شابلن ، وقال لها إن شابلن كان فناناً حزيناً ، وإن شابلن جاع وتشرد، ورأى أمه بعينيه وهم يأخذونها إلى مستشفى المجانين ، وقد فقدت عقلها بسبب الجوع والبؤس!

لم تعلق سوى بكلمة آه.. وشعر بأنه يثرثر بكلام فارغ ، وشعر بالحيرة فماذا يقول لها. أقلقه صمتها الطويل الذى ينذر بهجران وشيك لا طاقة له به، وراح يقلب لها الشاى وهو يتمنى أن يعرف ماذا يدور داخل رأسها ، وأفاق من شروده القلق على صوتها المبحوح العميق وهى تقول:

- أنا سمعت أنك ملحد ؟!

هكذا باغتته وهو يقدم لها الشاى، وضحك ضحكة بلا معنى ، فأردفت:

- الكلام ده صحيح ولا لا .. أنا رايحة التواليت !

ألقت بقذيفتها وراح يراقبها وهى تسير، الوسط النحيل، والجسد الجميل والمشية الواثقة التى تفيض سحرا وأنوثة ولا علاقة لها بإيمان أو بإلحاد ، وروج وبودرة ومساحيق وجه وبارفانات وعلى سنجة عشرة وجامعة أمريكية وفى الآخر استجواب عن التدين. ماذا يقول لها، منذ عدة أسابيع حينما حومت حول هذا الموضوع ، تحداها أن يتزوجا وأن يعيشا معاً فى منزله الريفى الذى ورثه عن أبويه، وأن يهجرا القاهرة ، وأن يفتتح عيادة شعبية وأن يهبا حياتهما لعلاج الفلاحين الفقراء فأصيبت بالهلع . تسأله الآن عن الإيمان ، بالجامعة الأمريكية ويمس حماصى تريد أن تنكر أدغال السيدة زينب والبيت الذى

تهدم من القدم، وشققتهم البائسة فى شارع فيصل بين الترع والمزارع ، وتنكر مساومات أمها له أنهم لن يساهموا فى أى شىء وأن زوجها السابق كان وغداً وأكل كل حقوقهما، وتنكر شقيقها الأكبر وقد غاب عن الوجـود وهو يأكل عصير المانجو بالملعقة زهاء نصف ساعة .

- ٣ -

عادت إلى مقعدها ، وكانت قد وضعت البودرة والمساحيق، فتألق جمالها وتوهج وشعر بألم ممض فى صدره وهى تسدد له نظرة ثاقبة جامدة ، ماذا يقول لها الآن، هل يقول لها أن كل ما تقوله عن إيمانه أم إلحاده ماهى إلا حجج فارغة ومحض هراء وأن المشكلة بينهما هى رغبتها أن يصارح أهله بأنه سيتزوج من مطلقة ،وأنه قال لها أنه سيخفى هذه المسألة وسيجعل أهله يعرفون فى الوقت المناسب، وأنه بعد موت أمه وأبيه ليس لأحد سلطان عليه ، لم يشأ أن يقول شيئا من هذا ، وشعر بابتذال أفكاره وبذاءة كل هذا الإلتواء.

فجأة إذا بامرأة تقتحم البهو ، إمرأة من نفس الجالية الأجنبية المنقرضة التى لم يكن ليخطئها ، وفى خطوات سريعة كانت قد وصلت إلى المرأة والرجل المتقدمين فى العمر ، وإذا بالقادمة الجديدة تهب كالإعصار وتنهال على الرجل والمرأة بالكلمات والصفعات وتخلع حذاءها وتنهال به على المرأة ، صراخ عنيف وهياج وبكاء هيسترى .

راحت المرأة القادمة تصرخ وتردد:

أختى مع زوجى أختى مع زوجى أختى مع زوجى!

خلال ثوان كان البهو الصامت قد ساده الهرج والمرج وامتلأ بالجرسونات ورجال الأمن وتم التحجيز بين المرأة والعاشقين.

- ٤ -

- أصل الدنيا مـا بقاش فيها إسلام.. لو فيه إسلام ماكنتش حاجة ردية زى دى حصلت ..

شعر فى نبرتها بأنها تتشفى فيه، وفى تقديره الخاطىء لغرام الشيوخ ، الذى أسفر عن مأساة أخلاقية فاجعة.

زفر زفرة حارة على هذا التباكى على الإسلام ، وتنكر رئيسها الشاب وهو يرمقه فى تعال جدير بمستر فى الجامعة الأمريكية ، ويقول «How do you do» ، هل هذا يندرج تحت بند السنة أم الفروض ، هل يقول لها إنه مر بفترة قلعة داهمته ولازالت تمزقه هل يقول لها عن رأى الدين فى تطلعاتها ، هل يدافع عن إيمانه.. ، لبث صامتاً وقد أدرك أن هذا اللقاء سيكون آخر عهده بها.

-٥-

سنوات عديدة والوجه الجميل القاسى لايفارق مخيلته، وكان يهنىء نفسه أنه مر أربعين يوما وهو يجاهد الحنين الذى يجرفه إليها ، تركته وقد تركت فى قلبه جرحاً لم يندمل ، وعندما ترامى إليه أنها طلقت بسبب الخيانة الزوجية ، وأنها إستعادت زوجها نفسه بعد ثلاثة أيام من واقعة الخيانة راح يتذكر الحنين الذى كاد أن يجرفه. ■



التصوف والحب

بقلم
حسن سليمان

فسيان عندي البعد والقرب والنوي
وما هابني قبضي ولا أبتغي بسطا
(الحسن الشوشترى)

«أنا عارف أعمالك، أنك لست بارداً ولا حاراً.
ليتك كنت بارداً أو حاراً.
هكذا لأنك فاتر، ولست بارداً ولا حاراً.
أنا مزمع أن أتقيأك من فمي
(الرؤية الثانية – الاصحاح الثالث – آية ١٥ الإنجيل)

قالت: أنا أعرف كل شيء.

قلت لها : أنت لا تعرفين شيئاً، فلا يعرف التصوف إلا من عرف الحب، ولا يعرف الحب إنسان جبان، يريد ألا يخسر دنياه فيخسر آخرته، إن الأمر ينتهى به المطاف دائماً مع التصوف إلى المحبة، ولابد أن تحتل فكرة الحب مكان الرغبة، ولا رهبة مع الله ، فالمحبة الألهية هى أبرز ظواهر العبادة فليس الحنين فقط أو الخوف دعامة للعبادة.

قالت: أنا أعرف هذا..

قلت لها : وهل تفهمينه؟ هل سمعت عن زين العابدين بن على بن الحسين اذ قال عن الصوفيين: «القوم إن عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، والآخرون إن عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار، لكن يوجد قوم يعبدون الله شكراً، وتلك عبادة الأحرار».

كان ابن مسلمة يكره أن يقول: «اللهم اعتقنى من النار»، فانما يعتق من النار من رجى الثواب من الله أو يقول: «تصدق على بالجنة» فالله يتصدق بالجنة على من يريدها.

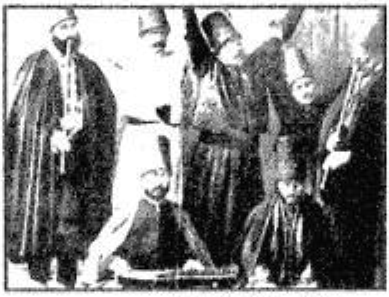
إنه الحب ياسيدتي اذ تصير معرفة الله تعالى هى الغاية، تقوم على أساس الفناء فيه أول الأمر.. ووصف «حبيب بن عامر الثابت» المتصوف بأنه: «الصابر فى ذات الله المحبوب»، وهذا يدل دلالة واضحة على فكرة الحب والفناء فى الذات الالهية، فمع محبة الله تعالى يكون احتمال الأذى ومهما عظم من الحب حباً صافياً، لأنه جزء من احتمال الأذى من الله تعالى، واحتمال ذلك هو الاتصال بين الخالق والمخلوق.

قالت : أنا لم أفهم شيئاً؟ كيف أربط بين الخالق والمخلوق فى آن واحد؟

قلت لها: أنت لا تفهمين شيئاً

إن الأمر مع الصوفى يحمله على نشدان الحقيقة خارج حدود العقل المحدود، والتحرى عنه فى عالم القلب اللامحدود.

قالت : أنا لا أفهم بالضبط سوى أن



التصوف والحب

المتصوف هو الذى يرتدى الملابس الصوفية البيضاء، ويعبد الله، ويقوم بالذكر، ويتمم التمارين الروحية، ويقول الورد.

قلت لها: لازلت لا تعرفين شيئاً، إن التصوف هو الجلوس مع الله بلا هم يشغلك، وأول فرض فرضه الله على خلقه هو المعرفة، والمعرفة عند الصوفيين لا تدرك إلا بالبصيرة، وهذا يأتى بعد تمارين طويلة مجهدة للذات البشرية، إنها وليدة الالهام، إنها الابصار بلا إحاطة، دون ادراك نهاية له، ولاقيمة لما هو فيه من حزن أو خوف أو فقر أو صبر أو جوع.

إن «السقطى» المتصوف وصل به الحال أن يسكر من حب الله فلا يضيق إلا إذا حس باتحاده معه.

قالت: وكيف أتحد معه؟

قلت لها: أنه يختلف من صوفى لآخر، وهو لا يبوح به، فان باح ضلّ.

قالت: إنى أعرف أن الصوفيين متشابهون.

قلت لها: أنت لا تعرفين شيئاً، إن التصوف مدارس متعددة هى بمثابة شعب لأصل واحد، أصل واحد تزدهر فيه نزعة المحبة، ولا تصوف دون حب، يجب أن تعرفى الحب أولاً، ومن عرف الحب عرف ربه، «فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه».

قالت: قد أفهم هذا، فهمت بعض الشيء، لكن من هم حتى تحبهم؟

قلت لها: إنهم قوم يتحابون بروح الله عز وجل من غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها بينهم، وجوههم نور وهم على منابر، لايخافون إن خاف الناس ولا يحزنون إن حزن الناس.

وأنت تخافين وتحزنين.

قالت: كيف عرفت؟

قلت لها: أنت لا تعرفين شيئا، هل وقفت بسرائرك بين يدى الله؟

قالت: وهل يجب أن أرتدى الصوف الأبيض كى أكون صوفية؟

ضحكت وأجبت: أنت لا تعرفين شيئاً، إنما لُقبوا بالصوفيين لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصُفة، الذين كانوا فى عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم). إن التصوف قديم قدم الانسان، والأديان جميعها عرفته فى مختلف حياة البشر الروحية، إن كل انسان يحمل فى ذاته نواة التصوف، لا تحتاج هذه النواة إلا لمن يتعهدها ويسهر عليها، قال «برجسون»: «إن كل انسان له شخصية صوفية تحتاج لمن يوقظها من ثُباتها». وحالة التصوف لا تولد أو تنشأ تحت تأثير عوامل اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، إنها ظاهرة نفسية خاصة، فما الذى دفع «نظير بن أدهم» أو «السرى السقطى» أو «المحاسبى» إلى التصوف، أهى الأوضاع

الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى كانت سائدة فى العصر الذى كانوا يعيشون فيه؟.

لقد كان الأول من كبار الملوك، وكان الثانى من كبار التجار، وكان الثالث من أثرياء الملاك، لكن تخلى كل واحد منهم عن الجاه والمال مفضلاً وجه الله، وحياة خالية من المجاهد مجردة من المفاتن.

قالت : لماذا تصر على الحب؟

قلت لها : أنت لا تعرفين شيئاً، يقول «الحلاج» : «ذات الله هى الحب»، أنه يردد ما ذهب إليه القدامى فى نظرية الحب لقد كانت غاية الحب القصوى عند أفلاطون هى الاتصال بالله، وهذا بالضبط ما ذهب إليه المتصوفة فى أقوالهم وأفعالهم، هل تعلمين أن من تجربتى، وأنا فى هذه السن أدركت ألا حب لإمرأة إلا اذا كانت مثقفة جداً؟ هل تعرفين أن الحب له ارتباط بالمعرفة؟ هكذا ربط المتصوفون الحب بالمعرفة، لكن «أفلاطون» كان أدق للحب إذ جعل له مراتب ومنازل، وكذلك كان شأن المتصوفة حينما حددوا منازل الحب الإلهى، ولافرق بين الحب الإلهى والحب الصادق لانصهار رجل وامرأة دون منفعة ذاتية، إنها مثلما قال «ابن حنبل» «ارادة حرة غير مشروطة، ولا تدخل للأب أو وصاية».

إن الحب يجب أن يكون متحرراً من طغيان المنافع، وما يؤكد هذا عرفه «الجنيد» الصوفى الكبير بأن المحبة هى ميل القلوب، إذ لا محبة لله إلا بعد أن يعرف المرء ميل قلبه لطرف آخر فى سموه، وهكذا ياسيدتى فعليك توجيه قلبك لله من غير تكلف. إن مشكلتك الحقيقية هى التكلف؟

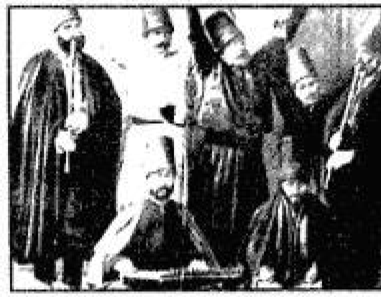
قالت: كيف عرفت ؟

قلت لها : أنت لا تعرفين شيئاً، فهل سمعت عن «عبدالله القرشى» الصوفى؟ إن حقيقة الحب أن تهبى كلك لمن أحببت فلا يبقى منك شيئاً، هل ملكت القدرة كى تهبى جزءاً حتى منك لمن أحببت؟ هل سمعت عن شيخ يدعى «الشبلى» الذى وصف المحبة بأنها تمحو من القلب كل شىء إلا المحبوب. هل انمحت منك نزعتك إلى التفاخر أو التظاهر؟ أو انقشعت عن نفسك رغبتك الدائمة لنيل إعجاب المحيطين؟

قالت: إنك هكذا خرجت عن الموضوع، فلم أعد أفهم شيئاً، إننا نتحدث عن التصوف.

قلت لها: إنه التصوف ، فالحب والتصوف وجهان لعملة واحدة، فلهما ارتباط بالباطن.. لقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «سألت الله عز وجل عن علم الباطن، فقال: «هو سر من أسرارى أجعله فى قلب عبدى، لا يقف عليه أحد من خلقى». وفى حديث آخر عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله قال: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه أحد إلا أهل المعرفة بالله».

سيدتى .. إن من يعرفون الله لا تعرفينهم، ويجب ألا يعرفهم أحد، فمن أباح ضلّ. أرددها دائماً. لماذا تحاولين دائماً أن تسترعى الانتباه إلى أنك صوفية؟ إن الصوفية أجلّ من أن تسمى وأدق من أن توصف، إنما هى كامنة



التصوف والحب

كمون النار في الحجر، إن قدحتيه أورى، وإن تركتيه توارى. هل فهمت الآن ؟

قالت : إني أحب.

قلت لها : الحب وليد التصورات المجنحة، تغذيه أحلام قلما تتحقق أنه بفضل هذه الإعلام يستمر ويحيا، لا ينتهي كوجبة «الساندوتش» فما الذي فعلتيه كي يتحقق وصالك؟

هل يعني الحب عندك إما أن تمتلكي وإلا فلا؟

إنك لا تعرفين شيئاً، الحب يعرف بالحياة، ولا يعلمه الآخرون لنا، إننا يجب أن نعرفه بأنفسنا، فقط إنها الخبرة والوفاء في طريق الحب هما اللتان تنمياه، الوفاء والإخلاص للمحبوب مهما حدث منه. أوهئ ولك أنه حدث منه تعفين عنه.

إنك لم تصلي بعد إلى السرائر، فحياة الحب يجب أن تبقى مغلقة ما بقيت طلاسم الحب مغلقة، يجب أن تبقى ساوية في معبد لا منافذ له، إننا نترك هذا المعبد وبنا ضراعة وورع، وفي محرابه نصلي، ولا نبالي من أي أحد مهما قرب منا الوعيد، إنك لم تركعي أبداً في هيكله، فالمرأة أعجز من أن تركع في هيكله. وإن انقشع كل شيء أمام بصيرتها تخشى توهج النور فتهرب، تفر دائماً من تذوق معنى الحياة كاملاً.

إن تذوق الحياة هو سبيل الاشراق، والاشراق سبيل الكشف، ومن الكشف ندعو الله الهداية.

قالت : من قال لك هذا؟

قلت لها : هذه الدنيا وما ملكت بيديك لابد أن تكون نشوة حب يموج بها القلب، لكنك مملوءة بأن ترني للعالم بمرآة ذاتك، وتحاولين أن تحلقي وريشك لم ينبت بعد.

في أعماقنا طاقة كامنة تنمو وتزدهر مع الحب والحب هو اللغز الموجه لأفكارنا، والحافز الخفي لمشاعرنا، وبدونه نعيش في تابوت هذه الطاقة. فلا هواء ولا سماء ولا أفق.

حينئذ فهو السجن خوفاً من الحرية، وهو القيد خوفاً من الانطلاق، إننا نفرض على ذاتنا هذا المصير الأليم لتأثير عاملين عامل فردي ينجم عن عجز الانسان، وعامل اجتماعي ينشأ من تحقيق التناغم بينه وبين المجتمع. وبعد ذلك يأتي تحقيق التناغم بين فرد وآخر. إن حياة الفنان الحقيقي ترتكز على هذه الركيزة، والفن هو رسالة قلب يخفق بالحب. وأخيراً ياسيدتي أقول عن المعرفة أن لها صلة وثيقة بما يجيش في أعماق صدر الانسان من همس نجوى وبث شكوى، وقد كانت الدافع الرئيسي لما يسمى بالشعر الغزلي الصوفي وغير الصوفي من شعر أصيل يمتلك رموزاً وأبعاداً تذهب بالانسان في رحلة من الذهاب والإياب أي في رحلة من نشوة صوفية، إنه دون هذا الحس المتدفق

الصوفي لدى الفنان تجعله واقفاً لا رائد له، تتقاذفه الأهواء المتضاربة والنزوات المتباينة يلتفت ذات اليمين وذات الشمال ليجد نوراً يهتدي به فلا يجد أمامه غير الظلمة المطبقة التي تتقاذفه من يأس إلى يأس لا خير فيه ، أو توقعه في ثُبات لا نفع معه، وفي غمرة تلك الحلكة للمثقف تتوقف دروب الحضارة، وتتعطل مدارك الفكرة، لأن القوة المبدعة في ذات الانسان تنكمش ثم تنكمش بينما يجب أن يكون لمدارك الفكر طريقاً آخر ليضفي نوراً على النور الكامن لدى بقية البشر مفجراً إياه.

إن كلامي هذا بمثابة تحذير وتخويف من أن يفقد المجتمع الانسجام كما فقد الاتزان بتسخير الفكر لخدمة مصلحة مادية مجردة أي تسييس الفكر نفسه، فهو يجب أن يكون لمصلحة مثالية مطلقة، فالفكر إن وضع في خدمة النفعية التي تمليها الانانية لا هم له في الحياة إلا تأمين أغراض الفنان المادية، هكذا يضيع الانسان بذلك دون أمل له فوق الأرض أو رجاء له في السماء.

إن الفكر المبدع الخلاق لا مكان له ولا وجود الآن، بل الذي نجده هو الفكر المبتذل الرخيص الذي لا رسالة تاريخية له، ولا مهمة انسانية ملقاة على عاتقه، انه لا أكثر ولا أقل من نتاج انسان يلهو بالزمن ولا ينظر إلى الحياة نظرة حقيقية خالدة، أبدية الازدهار.

الابداع الحقيقي هو المعول الهدام لذلك الطابع النفعي الذي وقع فيه وتحت وطأته كل المثقفين المصريين، ونحن الآن في غمرة حالكة حافلة بالخيبة الزاخرة بالقنوط، فيها يرتد الانسان مكتئباً إلى عالمه الذاتي متحرياً عن مثله الأعلى في عالم الذات، فيلف حول نفسه ويدور دون الوصول لشيء، إذ أنه فقد المثل الأصيل الذي يتمثل عنده في الحب خارج وجوده الذاتي، فنجده يرتد ليتأمل ثانية نفسه متأزماً أو كائناً عليها ليجد مخرجاً من هذه الحلقة المفزعة حتى إن لاح له ضياء يهتدي به إلي الحب الحقيقي ليعرف الانسان كيف يسير على هداه يفقده لينكمش ثانية على ذاته مكتئباً يائساً من كل شيء، إن العزلة الاختيارية ليست انطواءً، إنها وسيلة لكي تعرف النفس وجودها، وكل ما انطوى على هذا الوجود من خير وحقيقة وجمال، حتى لا تصبح المثل العليا حقيقة خارجة عنه، بل حقيقة داخله هو ، رغم أنه في ذات الوجود المترامي اللا متناهي يجد نفسه متكاملاً، ولا تكامل إلا بمثل هذا الحب حتى يحصل على ضالته المنشودة، فلا يتبرم من شيء، ولا يضجر من شيء، ذلك لأن الحياة تنطوي أمامه على أفق ذاتي، وعلى اضفاء نور الحقيقة الذي بداخله على هذا الأفق ليشع ويزدهر، فكل شيء في الحياة يصبح خليقاً بأن يُحب مادمت قد أنكرت الأنا (في ذاتك) حتى تؤتى بالقدرة المبدعة، وتظل مثل هذه القوى في اضطراب يدفعها ونور يتجدد من الأعماق فقط مع الحب، هل يمكن أن يكون هناك رائد بجسد الانسان غير قلبه؟

الانسان يؤمن بالحياة لأنه يؤمن بنفسه، هذه النفس التي هي أسمى شيء في الوجود، إنها الحقيقة أكيدة تتجلىّ لنا



التصوف والحب

متى تجلت أنفسنا، ومتى تجلّت هذه الحقيقة عرف الانسان كيف ينثر الخير، ويبعث الجمال، ويضفى على الوجود الحب.

«وهكذا فإن الحب البشرى هو البرزخ الوجودى للحب الألهى».

خطاب إلى سيدة صوفية:

سيدتى ..

لازالت الدنيا تستثيرك، ولن تكونى صوفية لو ظل الأمر هكذا، لكننى أنصحك حين تصحبى أحداً، فعليك أن تختاريه أميناً، غيوراً عليك وعلى دينك، فإن الأمين يحملك إلى الصدق، ولا تخاصمى صديقاً لانتهاء ما بينكما من نفع، لأن نفسك ليست ملكاً لك، هى ملك لخالقها، دعيه يحركها كيفما يشاء، واستغفريه كثيراً، عسى أن يغفر لك، ولا تنس أن الاستغفار فى الأسحار هو أعلى مراتب العبادة، يكون حقيقياً حين يحس العبد تقصيره فى جميع أفعاله فيستغفر منها.

أما الطمأنينة إلى الآخرين دون تمييز فهى عجز وتواكل ليست توكلاً كما تدّعين، لأن المتوكل هو الذى يرضى بحكم الله فيه، والأمر عندك ليس هكذا.

لقد وجهتك كثيراً، لكنك لم تفهمى، كان لابد أن تتحلى نفسك بالصفاء، وسريرتك بالنقاء المتجدد، لكننى كنت مخطئاً فى حسن ظنى بك، لأنه شرطاً كى يكون الفرد صافياً أن تكون أفعاله كلها خالية من الرياء، خالية من السعى نحو تحقيق المنافع الذاتية، وهذا ما لم تحاولى سماعه لمرة واحدة من نصحى لك . ربما كان علىّ أن أُذكرك مراراً بأن المحبة تبدأ من القبول، وأن المحب هو الذى يؤثر محبوبه على كل شىء» وعلى المرء أن يحتمل من معلمه ما لا يحتمل من والديه، لأن أبويه هما سبب وجوده الفانى، أما معلمه فهو سبب وجوده الباقى.

فإن تهيأت مشاعرك فى شكل ما ، وأحببت أحداً فى الله، فلا تبالى متى يكون اللقاء.

وتذكرى دائماً أنه حين يعفو المرء يجب ألا يذكر خباية من عفى عنه خاصة اذا كان من عفى عنه هو من يحب فالحب وجد مقيم يصهر النفس البشرية لتشرق وتتألق بتلك الوحدة العميقة التى تؤلف بين ظاهر وباطن الوجود لتوحد بين المحبين، لأنه غاية تصبو إلى الجمال المطلق الأذلى الذى ينشد بضراعة الناسك وصفاء الورع، ومثل هذا الحب هو نزوع إلى جمال لا يتحقق لمسه، انه فى ذاته غاية تتطلب من صاحبها الفناء فيها، وليس فى مقدور هذا الدرب من الجمال إلا بالتجلى والاشراق فيما يتوفر للانسان من صفاء غامض، يظهر فقط مع مثل هذا الحب، مع هذا تتحقق تجربة التوحد على أتم صورة، وأجمل شكل، ومع مثل هذا الحب يفيض

الجمال الباطنى للمحبوبة، الجمال الداخلى الذى يفيض على الشكل، ويصبح هو سر الجاذبية للطرف الآخر، إنه التقاء الذى تتحلى به النفس الشفافة.

فلا تكونى فاترة حين تعطى، لأن الحب تضحية من أجل العطاء، والمصلحة أنانية من أجل الأخذ، ولن تجتمع التضحية والمصلحة فى آن واحد. الحب ياسيدتي هو أسمى مراتب التوحد، وبدونه لا يتم الابداع، فالابداع الحقيقى ينعكس من الفنان وإليه ويرتد إلى المتلقى، الحب كالفن يؤثر فى الذات والآخرين ، وبذلك يتحقق التجاوب.

هما بمثابة جفاف وارتواء، استكفاء ولا استكفاء، والشوق موجود ومتدفق، حتى وإن ضلّ أحد الطرفين، ولا يمكن التوحد مع الله نهائياً إلا بتوحد المرء مع آخر، ثم توحده مع الكون نفسه ، وأخيراً يتم توحده مع الله لتحقق غاية العبودية، وغاية الحرية الكاملة. فالذاكرون لله فى ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره لأنه لا ذكر إلا ذكره طوال الليل والنهار، وبهذا يكون المرء معصوماً من الخواطر الفاسدة، وحركات أهل الغفلة.

تذكرى دائماً ..

إن كل مصيبة تصيب الفرد هى بمثابة امتحان جديد له.

إن ما يهمنى أن أهتدى إلي الطريق المستقيم، قالت العرافة فى قدس الأقداس حينما سألها «سقراط» عن الحكمة أجابته: «إعرف نفسك أولاً» . ولم تخرج كلمات كثيرة من أساتذة التصوف عن مثل هذا المعنى اذ قالوا ما يفيد: إعرف نفسك لكى تعرف الله.

فهل تعرفين نفسك ؟؟. ■

فــوائد

– في الصمت سبعة آلاف خير ، وقد اجتمع ذلك في سبع كلمات في كل منها ألف ، فالصمت عبادة من غير عناء وتعب ، وزينة من غير حلي ، وهيبة من غير سلطان ، وحصن من غير حائط ، والاستغناء عن الاعتذار لأحد ، والراحة ، وستر العيوب.

– سئل الاسكندر الأكبر عن أعدائه وأصدقائه قال: لقد استفدت من أعدائي أكثر مما انتفعت من أصدقائى .. لأن أعدائي كانوا يعيروننى ويكشفون لي عن عيوبي ، وبذلك انتبه الى الخطأ فأستدرجه . أما أصدقائي فكانوا يزينون لى الخطأ ويشجعوننى عليه فاللهم احفظنى من أصدقائى

إحتفـالا بمائة عـام على ميـلاده

محمد عبد الوهاب

صوته الحلو الرنان يخفف الأشجان عنا

فى ١٣ مارس الماضى كان عيد ميلاد عبدالوهاب. قالوا مرت مائة عام على مولده بحساب أنه من مواليد ١٩٠١ . لكن هذا تاريخ غير متيقن. وماذا يهم إن كان مولده منذ مائة عام أو ألف ؟. المهم أنه قد ولد وعاش وقدم فنا جميلا، بديعا، شجيا، مطربا لكل الأمة العربية، بل وكل أذن شرقية، ولكل شرائح الناس من المثقف والمتعلم و«القنزوح» إلى السائد والأمّى وابن البلد والفلاح والذى لا يجد قوت يومه. التاريخ المؤكد أن محمد عبدالوهاب رحل عن دنيانا يوم السبت ٤ مايو ١٩٩١ ، وهذا يعنى أنه قد مرت عشر سنوات على غيابه الجسدى، لكن فنه لم يغب عنا لحظة منذ أن أذاعوا خبر وفاته.





محمد عبد الوهاب

قابلت عبدالوهاب فى حياته ثلاث أو أربع مرات، منها مرتان فى مطلع عملى الصحفى عام ١٩٥٨ أو ١٩٥٩، قبل زواجه من السيدة نهلة القدسى، سجلت فيها جلسته مع الدكتور مصطفى محمود، الذى كان يعزف العود ويغنى، وعبدالوهاب يتكلم ويتفلسف، وكلاهما يقول للآخر «الله الله الله» إعجابا. فى تلك الجلسة كان عبدالوهاب متخليا عن تكلفه وحرصه الشديد على مظاهر الأناقة والتأنق، كان يأكل بيديه من طبق الفول - من دون وسوسة - على منضدة صغيرة فى غرفة المعيشة بعيدا عن صالونات بيته ومناطقه الرسمية. أذكره فى تلك الأمسية مرحا، ساخرا، متحررا من كل تحفظ فى إبداء رأيه، حتى أننى حين قلت لا أحب صوت عبدالحليم حافظ لأنه «مطجن»، بدا سعيدا برأيى مقهقها لوصفى. بعد ذلك رأيته فى مناسبة تقلده أحد أوسمة القطر السورى، فى حفل أقامه له الصديق الراحل الأديب سامى الدروبى سفير سوريا فى مصر عام ١٩٦٦ أو مطلع ١٩٦٧ - قبل هزيمة ٥ يونيه عام ١٩٦٧. وكان عبدالوهاب مبتسما مسرورا لكنه يلبس كل أدوات الدبلوماسية والرسمية وطقوس المراسم المحافظة والمتحفظة. فى ذلك الحفل، الذى كان يغص بالمثقفين والأدباء والصحفيين ونجوم السلطة، كانت هناك السيدة أم كلثوم تقف فى أحد الأركان مع ابن أختها، وعندما اندفعت إليها بحب لأصافحها، كبستنى كبسة سوداء، ولولا ثباتى لما مدت يدها إلى يدى الممدودة بالمصافحة، وكان كل همى فى ذلك الموقف المحرج أن أجد لنفسى انسحابا مشرفا من أمامها، وعندما هرعت إلى الأستاذ أحمد بهاء الدين فى مكان آخر فى الحفل أحكى له ما حدث، ضحك، سألته لماذا تضحك وأنا أكاد أموت غيظا من نفسى لأننى لولا جيشانى الفنى لما وقعت فى هذا المطب، فقال لى الفنان بهجت عثمان: «طبعا نضحك، حد يقرب من أم كلثوم يوم تكريم عبدالوهاب؟ تستاهلى!». بعد ذلك دعانى الأستاذ أحمد بهاء الدين إلى منزله لأداوى جراحى فى عشاء خاص أقامه على شرف أم كلثوم ودعا إليه محمد عبدالوهاب والأستاذ محمد حسنين هيكل والفنان بهجت عثمان، ولكن عقدتى من أم كلثوم كانت قد استحكمت ولم أقترب منها، بل أذكر أننى لم أنبسط فى ذلك العشاء ولم أنطلق بالكلام والمرح كعادتى فى بيت الأستاذ بهاء، وكانت صديقتى ديزى، زوجة الأستاذ بهاء، تروح وتجىء تسألنى: مالك؟ فينك، لسه مكبوسة؟.. الذى أذكره أن عبدالوهاب ظل مرسوما، وظلت شخصيته الودودة المرحة والمشاغبة



سيد درويش



ام كلثوم



احمد بهاء الدين

- التى رأيتها فى جلسته مع مصطفى محمود عام ١٩٥٨ أو ١٩٥٩ - مختفية داخل الصدفة الاجتماعية الصلدة الجامدة، لا تظهر أبدا إلا حين يأمن صدق الصحبة والصحاب.

★★★

ولدت وعبدالوهاب نهر جار، إذا نظرت خلفى لا أحدد بداية وإذا نظرت أمامى وجدته ممتدا، وإذا نظرت حولى كان محيطا بى من كل جانب، جيلى بالذات - مواليد الثلاثينيات - هو الجيل الذى عرف وألم بكل أطوار عبدالوهاب وارتبطت معظم لحظات حياته بأغنية أو نشيد من أغنيات وأناشيد عبدالوهاب. إنه بالنسبة إلىّ موسيقار ومغنى القرن العشرين بحق. فى مرحلة ما قلنا سيد درويش، ورغم عظمة سيد درويش وتقديرى لأدواره الفذة «أنا عشقت» و«أنا هويت» و«منيتى عز اصطبارى»، وحبى لصوته الشجى الذى لا يظن الكثيرون أنه من الأصوات الجميلة، إلا أن عبدالوهاب شىء آخر. ولقد كان عبدالوهاب ذكيا فى أنه لم يتورط فى فخ حمل تراث سيد درويش على أكتافه، بمعنى أنه كان معجبا به، ويعرفه ويعطى أحيانا نماذج من أعماله يغنيها بصوته فى حوارات إذاعية، لكنه لم يخضع للابتزاز بأنه من واجبه أن يخلد سيد درويش بصوته أو يحمل هم ومسئولية التعريف به والتنويه عنه. كان محمد عبدالوهاب مشغولا مائة فى المائة بمحمد عبدالوهاب. كان لديه مشروعه الموسيقى المختلف الذى نجح فى أن يحقق به المزج المتقن بين أصول النغم الشرقى ومحزاته المطربة، وبين اختياراته من الموسيقى الإنسانية العالمية: كلاسيكية، وروسية، ويونانية وأرمنية، وتركية، ولاتينية، بلا أدنى إحساس للأذن بالترقيع والقص واللزق والوصل. مزج منصهر سيال، تحسه منك قديما وعريقا، وإليك جديدا وطريفا. اتهموه بالاقتباس، وبالسرقة، وبالنقل، والحقيقة أنه كان يغمس ريشته فى كل الألوان بما يخدم ويضيف إلى لوحته التى لا يسيطر عليها إلا لونه هو شخصيا: لون محمد عبدالوهاب. وإذا



محمد عبدالوهاب

كان طه حسين ، فى الأدب، أزهريا درس فى السربون، لا سربونيا استشرق فى الأزهر، فإن عبدالوهاب فى الموسيقي مثل طه حسين فى الأدب: أزهرى، شرقى، عربي تذوق جيدا، واستمع جيدا لأرقى صنوف الموسيقى الغربية وخدم بها متطلبات الوجدان العربى والمصرى فى أدق مراحله التاريخية: الوطنية فى سنوات نهاية العشرينيات وكل الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات والستينيات من القرن العشرين.

★★★

غنى عبدالوهاب «للحب» وللفن، وللطبيعة، وللآثار، وللوطن، لم يغن سياسة، لكنه غنى لعاطفة الوطنية، «حب الوطن فرض عليّ، أفديه بروحى وعنية»، «أحب عيشة الحرية زى الطيور فوق الأغصان»، «أيها الخفاق فى مسرى الهوى»، «أخى جاوز الظالمون المدى»، «كنت فى صبرك مكره، كنت فى صمتك مرغم..» «سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق»، «هتف الداعي ونادى للجهاد أى بشرى..»، «مصر نادتنا فلبينا نداها»، «إلام الخلف بينكمو إلاما ، وهذى الضجة الكبرى علاما؟»، وحين ارغموه على غناء السياسة، خضع ونفذ ، لكن فنه لم يخضع فخرجت «دقت ساعة العمل الثورى» نشيدا راقصا مضحكا يدال على أن عبدالوهاب عصفور لا يجيد الغناء داخل الأقفاص. كان هناك غيره من يجيد «الخطابة» الموسيقية و«الهتاف» الغنائى، لذلك لم يفلح عبدالوهاب ـ رغم غنائه للملك ـ ان يكون مغنى الملك ويحصل على لقب «بك»، ولم يفلح ان يكون «الحظوة» المتماشية مع قرارات «مجلس قيادة الثورة»، ولقد ترك تلك «الحظوة» لعبدالحليم حافظ الذى كان جديرا بها، فلقد هتف كل المطلوب بما تقوى عليه الحنجرة، ولكن عندما غنى عبدالوهاب «كل ده كان ليه لما شفت عنيه. قال لى كام كلمة يشبهو النسمة فى ليالى الصيف.». فى حفل للقوات المسلحة فى مطلع حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، قال له عبدالناصر: «رجعت لنا شبابنا» ـ مع آن عبدالناصر كان وقتها فى شرخ شبابه ـ ولذلك حافظ العصر «اليوليوى» على مكانة عبدالوهاب بفنه الذى ظل مغنيا للأجيال، صوته ، الأنيق الجذاب، خفيف الظل، شديد الحضور، المتغلغل برومانسيته وحنوه فى أرجاء الروح، يكمل سياقه الموسيقى متضافرا معه، يشد بعضه بعضا فى شموخ وأصالة لا يستعاض عنهما، ولم يكن لعبدالوهاب أبدا أن يكون رمزا لأى سلطة أو بوقا لشعاراتها رغم أنه لم يناوىء ولم يتصادم، لكنه بذكائه وصدق فنه تمكن أن يظل ويحافظ على مكانته



محمد حسنين هيكل



نهلة القدسي



د. مصطفى محمود

جالسا على «عرش القلوب». المضحك أن شركات الاسطوانات القديمة «صوت سيده» وغيرها، كانت تكتب على اسطواناته «مطرب الملوك الاستاذ محمد عبدالوهاب» حتى تصححت الصيغة الى «مطرب الأجيال» لأنها الصدق والواقع والحقيقة.

★★★

تميز عصر عبدالوهاب بأصوات غنائية قوية ومؤثرة: عبدالمطلب، كارم محمود، محمد قنديل، عباس البليدى، محمد فوزى، فريد الأطرش، إسماعيل شبانة، عبدالغنى السيد، عبدالعزيز محمود، - «وأنا أرتب الأسماء وفقا لأفضليتها عندى» - وكان للجميع المجال والنصيب من النجاح والانتشار ، فلم يحجب حب الناس لعبد الوهاب حبهم للآخرين، ولم يلعب عبدالوهاب بنفوذه دور المؤذى لفرص الآخرين. كانت الساحة تستوعب الجميع وتشعر بثراء التنوع والاختلاف وترحب بالأنماط المتعددة، وتتسع لكل طابع حتى ولو كان غناء محمود شكوكو وإسماعيل ياسين.

★★★

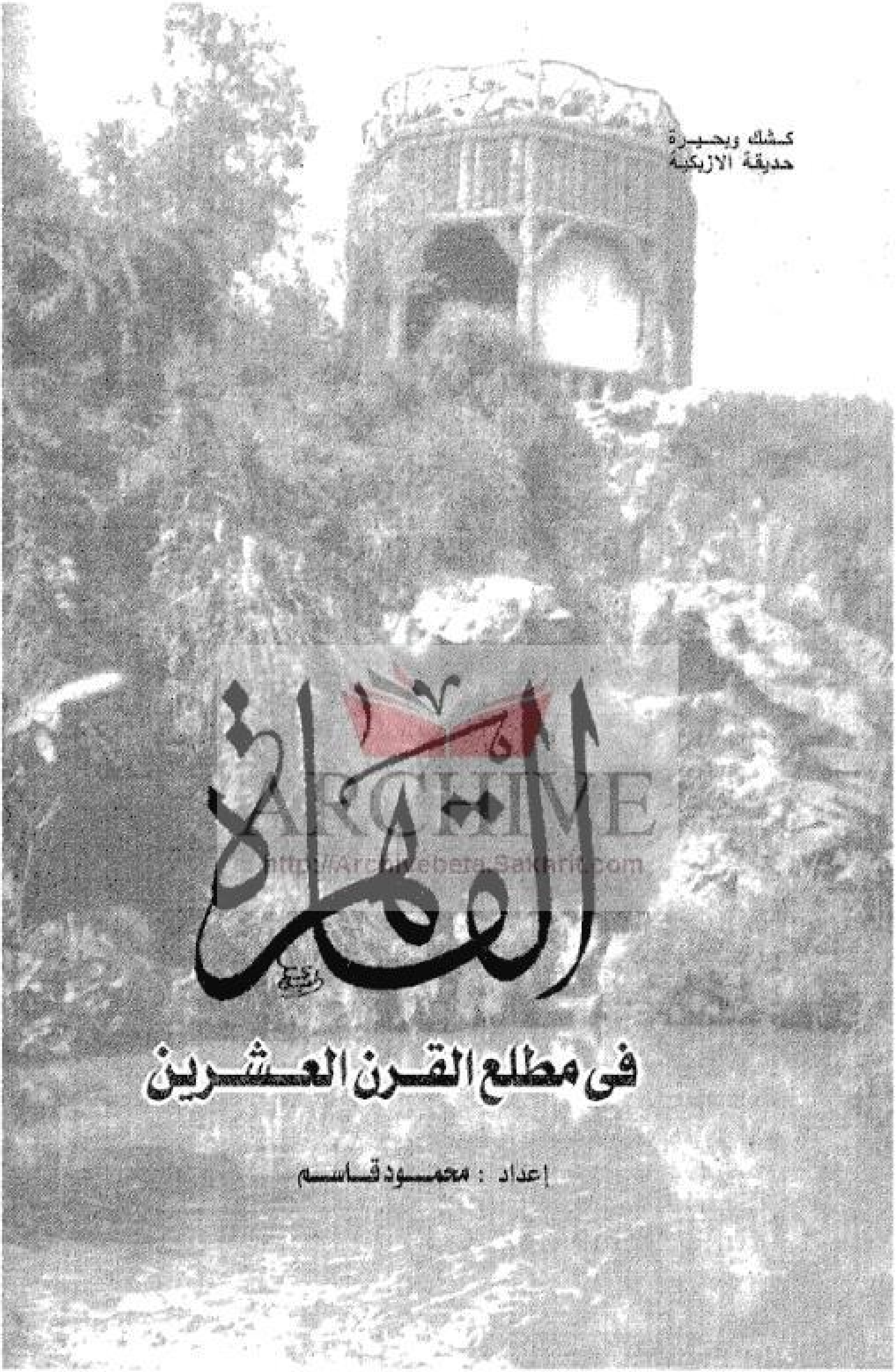
اشتريت أشرطة فيديو أفلام عبدالوهاب: «الوردة البيضاء» «يوم سعيد» «يحيا الحب» «ممنوع الحب» «دموع الحب» و«لست ملاكا» - فى نسخته الناقصة - و«رصاصة فى القلب» حين بدأت فى الاعتذار لابنتى الشابة عن «تمثيل» عبدالوهاب وأنه أساسا «الموسيقى» و«المغنى»، قالت لى: بالعكس أنا أجده ممثلا ظريفا غاية الظرف، خاصة وهو يقول فى فيلم «الوردة البيضاء» لزكى رستم:

«أرجوك ثبت كتفى، أنا مش مجرم!» . ضحكت. لأننى كنت فى قلبى أوافقها فى الرأى كل الموافقة.

★★★

رحم الله زعيم الغناء الخالد: الموسيقار محمد عبدالوهاب فى عيد ميلاده المئوى وفى ذكرى وفاته العاشرة.

ص.ك



القاهرة
فى مطلع القرن العشرين

إعداد : محمود قاسم

الحنين .. مرض يصيبنا جميعا دون أن تكون لدينا الرغبة في الشفاء منه و أعراض مرض الحنين هي الشوق الي الأمس .بأزمنته وأماكنه وقد صار القرن العشرون حالة متدفقة من الحنين . خاصة العشرينات التى أكدت كافة الأقلام أنها السنوات الأجمل في كافة مجالات الحياة عربيا، وعالميا وفي تلك السنوات تواصل العالم أكثر .. بعد نهاية الحرب العظمى. والي مصر، علي سبيل المثال، جاء أدباء العالم وعادوا إلي بلادهم كي يكتبوا عن هذه الرحلات

من هؤلاء الرجال الكاتب اليوناني نيقوس كازانتزاكيس وحول هذه الرحلة قدم الي مصر كتاباً شهيراً .

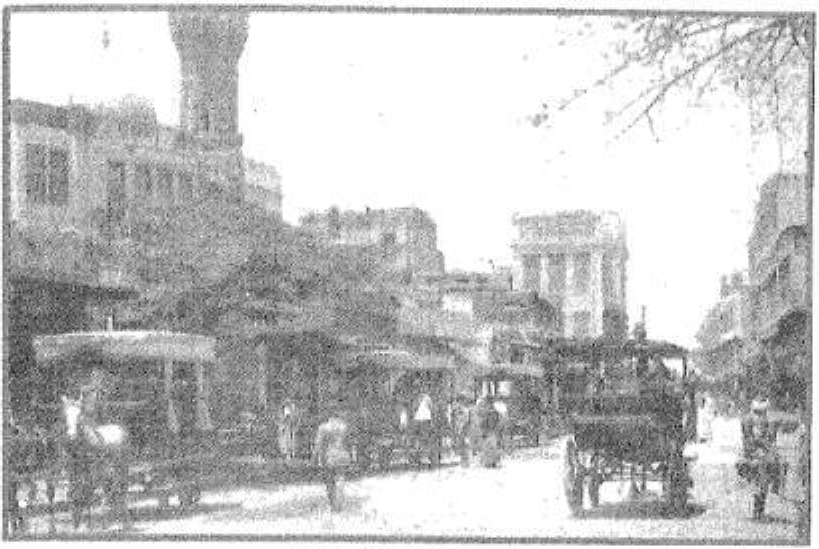
والكتاب هو رحلته التى قام بها إلى مصر عام ١٩٢٧ ، حيث سجلها فى كتاب بعنوان «ترحال»، نشر مرتين باللغة العربية الأولى فى مدينة عمان بالأردن عام ١٩٩٠، وهو الجزء الخاص بفلسطين، أما الجزء الخاص بمصر، فقد نشر تحت عنوان «رحلة إلى مصر» «الوادى وسيناء» عن كتاب «أدب ونقد» عام ١٩٩١، من ترجمة محمد الظاهر، ومنية سمارة .

و«نيكوس كازانتزاكيس» هو أهم أدباء القرن العشرين قاطبة فى الأدب اليونانى رغم عدم حصوله على جائزة، ورغم أن هذه الجائزة قد منحت لتلاميذ له، من أمثال «جورج سيفيريس» و«أورسيوس ايلينس» .

و«كازانتزاكيس» هو واحد من الأدباء اليونانيين الذين جذبتهم حضارة الشرق، بعضهم عاش هنا، معنا، فى مدننا، وكتب عن هذه المدن بعشق شديد مثل «كافافيس» و«سيركاس» والبعض الآخر جذبته المدن العربية، فتجول فيها فى الواقع، ونقل هذا التجوال إلى الكتب مثلما فعل «كازانتزاكيس» .

والكاتب مولود عام ١٨٨٨ ورحل عام ١٩٥٧ وقد ترجمت أعماله كلها إلى اللغة العربية عدة مرات عدا رواية واحدة ترجمت خارج مصر هى «الإغراء الأخير للسيد المسيح» ومن هذه الروايات الشهيرة «زوربا اليونانى» المنشورة عام ١٩٤٣، و«المسيح يصلب من جديد» عام ١٩٤٨، و«الحرية أو الموت» عام ١٩٥٣، و«الاخوة الأعداء» عام ١٩٥٤ ، وله مسرحية مشهورة بعنوان «ميلسا» عام ١٩٣٩ .

وأغلب هذه الأعمال تحول إلى أفلام سينمائية أمريكية ويونانية، أما كتابه «ترحال» فقد نشره عام ١٩٢٧، وأعيد طبعه عام ١٩٦١ ، بشكل منقح، أى بعد رحيل المؤلف بأربع سنوات.



شارع بولاق (فؤاد الأول) ٢٦ يوليو

ولأن رحلة الكاتب إلى مصر بالغة الأهمية، فإننا يمكن أن نتجول فيها أكثر من مرة، خاصة حديثه عن نهر النيل الذى يخترق المدن، والقرى، والنجوع، فصنع الحضارة الخالدة على شاطئيه، ثم حديثه فى فصل منفصل عن مدينة القاهرة، وأيضا عن مدينة الطور فى سيناء التى اطلق عليها اسم «ريثو» .

ومدينة القاهرة، ظلت فى مخيلة الكاتب دوما، مهما ابتعد عنها، حيث تحدث عنها أكثر من مرة، سواء فى الفصل الخاص بنهر النيل، أو بالفصل الخاص بالمدينة نفسها، ثم فى فصل تحت عنوان «الحياة المعاصرة» .

لذا .. سوف نتوقف عند هذه المدينة من خلال أكثر من منظور، المدينة هى كما أشرنا زارها الكاتب فى عيد الميلاد عام ١٩٣٦ .

يقول «كازانتزاكيس» عن المدينة من خلال إطلالة على نهر النيل : «هذا هو النغم العذب الذى كان ينبثق من مصر كلها، حيث طلعت عليه الشمس فى صباح اليوم الأول لوصولنا، لو أننى سافرت إلى مصر فى أيام القديس فرنسيس لكان بامكانى سماع الروح البشرية وهى تغنى غناءها الوثنى وتدعو المسيح كى يخلصها، ولو أننى سافرت فى أيام القوطية، لكان بإمكانى التمتع بهذا الهارمونى الجديد الذى ينبثق من الكنائس العملاقة الباردة وأمتلىء بالبهجة وأنا استمع إلى الصوت الهادىء .. للقساوسة وهم يباركون الفتى الإغريقى الموله، وهى يوغل فى غموض



نزهه بمنطقة الجزيرة

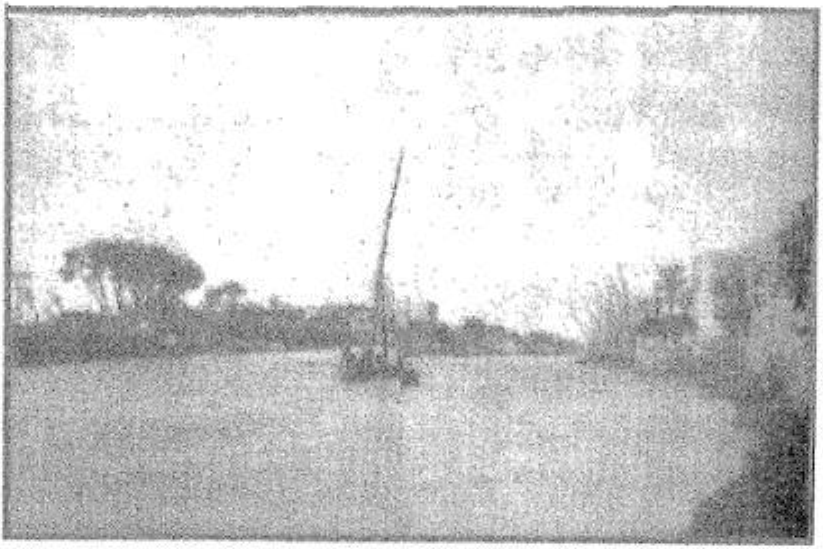
الحياة والموت».

أما عن حديث الكاتب عن المدينة من خلال فصل بعنوان «القاهرة» فإنه يقول:

«في شوارع القاهرة، كنت أتمتع برؤية المحصول الإنساني المعاصر للنيل، الفلاحون النحيلون الرشيقون، المرهقون من العمل والجوع، والأقباط، والبدو الطوال الصامتون المحزمون بالأحزمة، في عيونهم نظرات النسر الحادة، وممتلئون بالأنفة والكبرياء، والتنوح بنظراتهم المفترسة وشفاههم الغليظة، وعيونهم المكورة، ونسوة كحيلات العيون يرتدين الخلاخيل الفضية التي تعبق منها رائحة المسك والروث، كنت أرى أولئك الأوربيين الشاحبين كالمرضى، تحت حرارة الشمس العربية، الذين لفحت الشمس وجوههم وجعلتهم كالمصابين بالدراره.

الكاتب «نيكوس كازانتزاكيس» رأى المدينة من خلال شخوصها أكثر مما رآها من خلال أماكنها، أو معالمها القديمة، فهو لم يأت إلى مصر من أجل رؤية الآثار، رغم أن المجلة اليونانية التي أوفدته في هذا الترحال، طلبت منه الوقوف عند معالم مصر، وقد فعل ذلك في أضيق الحدود.

ويتحدث «كازانتزاكيس» عن الفتوات، بمنظور مختلف تماما عما جاء في العديد من روايات نجيب محفوظ، فهم أشخاص يركضون وهم يحملون محارق البخور البرونزية الخفيفة، يحثون الخطى، وهم يدخلون أو يخرجون من هذا الدكان أو ذاك، وعند هذا الوقت كانت الشمس قد



النيل فى منطقة مصر القديمة

بلغت الظهيرة، وكانت الشوارع قد امتلأت بالجلابيب ، وفاحت رائحة البهارات من أعماق السلال الصفراء، وامتلأت الشوارع المرصوفة بالفواكه، وروث الجمال، والأغنام، ومرت غانية طويلة القامة، متهتكة، وأخذت تسير بتمهل، ورائحة المسك تعبق منها، تاركة ملاءتها تتماوج على ركبتيها، ومرسلة ضحكاتها المتواصلة».

أغلب الظن أن «كازانتزاكيس» يقصد بالفتوات هنا، حملة المباخر، أو المجاذيب الذين يمرون على المحال، لنشر روائح البخور مقابل صدقة بسيطة، ويقول الكاتب عن القاهرة عام ١٩٢٧ وكأنها أيضا المدينة نفسها عام ٢٠٠١:

«هذه المدينة مثلها ، مثل أية مدينة شرقية، تملأ الرأس بالضجيج، والحيرة، ألوان، عطور، رجال ، نساء ، أفكار، وقضايا أخلاقية، ومشاكل اقتصادية، وكنت أحس بأن كل هذا الفوران السريع الزوال ينبض فى طمى النهر، وينضج تحت شمس إفريقيا الواسعة».

وفى حديثه عن مصر المعاصرة، عاد الكاتب ليعبر عن رؤيته فى المدينة وكما سنقتطف من فقرات ، فسوف نلاحظ أنه أيضا يهتم بالاشخاص أكثر من الأماكن، حيث يقول:

«لقد عدت إلى القاهرة إلى القلب النابض بالحيوية فى مصر الحديثة وكنت انطلق من الصباح حتى المساء، لأرى

رجال المال ورجال السياسة، ورجال الصحافة، و المثقفين، إنهم رجال متحمسون، ماكرون، وطنيون، وماكرون فى التحايل، وقد حاولت أن اطلع على الأمور بقدر ما أستطيع، ماهى الدوافع التى يتذرعون بها لإعادة انبثاق مصر الحديثة».

«كيف يستطيع العقل الشرقى أن يهضم ويتمثل الافكار الأوربية، الأهم من ذلك ماالذى ستتركه حمى مابعد الحرب العالمية الأولى، على ضفاف النيل، وماهى الصلة والعلاقة بين هذا الأمر، وبين الحقيقة الواقعية الرهيبة، والمجهولة لعصرها، ألا وهى حقيقة استيقاظ الشعوب الشرقية؟» .

وقد توقف «نيكوس كازانتزاكيس» طويلا عند التغيرات التى حدثت فى مصر، فبدا وهو الكاتب الملتزم، أكثر اهتماما بالتحولات الاجتماعية، من اهتمامه، فى هذه الفصول بشكل خاص بالتاريخ، وقد تبدو عباراته أحيانا كالمبضع، لكنه واقعى، وهو يردد :

«صحيح أنه لاتوجد حضارة شرقية الآن، وصحيح أن الإنسان الشرقى بسيط وساذج، وأن الزمن قد تجاوزه وهو غير متكيف مع الحياة المعاصرة، ولكن من أجل أن يبدع هذا الشرق حضارته الخاصة، فإنه يتحتم عليه أن يربط نفسه بفعل الضرورة بالغرب، عليه فى البداية أن يكمل مرافقه بالحضارة الغربية، وقد بدأ ببناء مرافقته، وتبنى وسائل التقنية الأوربية فى الإنتاج، الوسائل الجديدة فى الصناعة والتجارة، والوسائل التحليلية النقدية فى التفكير، وهو مصمم على تبنى الطريقة الشرقية فى الحياة جنبا الى جنب مع العلم الغربى».

ويقول الكاتب فى نهاية فصله عن القاهرة وهو يسوق كلمات أغنية مصرية قديمة، حفظت على ورق ثمين يسمى البرشمات:

تمتع بكل يوم . أدهن جسدك بالعطور
واجعل أنفك يتشمم الروائح المعطرة
واعقد باقة من اللوتس لحنجرتك،
ومجسد المحبوب الجالس بالقرب منك
اسمع للأغانى الآتية، واهرب من متاعبك ومسئولياتك . حتى تأزف الساعة التى سيأخذونك منها إلى ذلك المكان الهادىء الذى تحب وتذكر: «لا أحد يمكنه الرجوع من هذا المكان أبداء»

ويعلق الكاتب عن انطباعه النهائى :

«أما أنا الذى أحب القول الفصل «نعم» و«لا» فقد تمتعت بعمق، بهذين الوجهين لمصر:

الوجه الأخضر .

والوجه الصحراوى الرمادى. ■



رواية
عشيـــق الأم

الاشتباك مع الواقع على الطريقة السويسرية

بقلم
جميل عطية ابراهيم

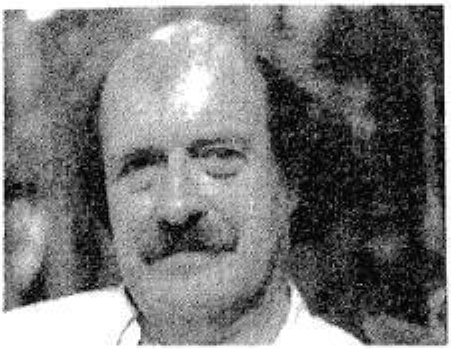
أحرزت رواية «عشيق الأم» للكاتب السويسرى «أورس فيدمر» والصادرة باللغة الألمانية قرب نهاية عام ٢٠٠٠ شهرة واسعة فى الأوساط النقدية والإعلامية ليس فى سويسرا وحدها ، ولكن فى ألمانيا والنمسا أيضا .. احتفل النقاد والمعلقون بهذه الرواية - صغيرة الحجم - فى كل وسائل الإعلام إلى درجة أنها وردت كمادة إعلامية فى نشرات الأخبار والتقارير الإخبارية المرئية والمسموعة ، إلى جانب الندوات النقدية التى أفردت لها عشرات الدراسات النقدية التى صدرت عنها إلى جانب التعليقات السريعة على الرواية .

والســــؤال هـو لماذا كل هذه الحفاوة برواية حجمها ١٣٠ صفحة ؟ وما هى القضايا المثيرة التى تفجرها هذه الرواية لتلفت الأنظار إليها فى الدول الناطقة بالألمانية بعد أيام قليلة من صدورها ؟

والإجابة على هذه الأسئلة تتلخص فى عدة كلمات : رواية «عشيق الأم» تشتبك مع الواقع السويسرى بقوة وتتعرض للأوساط الراقية وتكشف عن جوانب خفية من خلال الفن وليس من مدخل الإثارة أو الفضائح . وإذا انتقلنا من التعميم إلى التفصيل قلنا إن الرواية واردة على لسان راو محايد يروى حياة والدته «كلارا» وما صادفها من عثرات بطريقة حيادية بل وفى برود شديد أيضا على يد موسيقى يدعى «إدوين» . راو يقدم الأحداث بتواريخها كما وقعت . راو يقدم المأساة لنا ولا يعلق عليها . راو لايظهر تعاطفا أو إدانة . راو لايصدر أحكاما أخلاقية ولا يتحيز إلى والدته على حساب الآخرين . باختصار هو راو محايد يخبرنا بما وقع لوالدته كلارا على يد إدوين الذى استغلها أبشع استغلال ثم يتركها عندما ابتسمت الحياة له دون رحمة ولا شفقة .

صبى موسيقى وصبية فاتنة

والحكاية كما يقدمها الراوى تتلخص فى أن والدته فى صباها المبكر أو فى سنوات مراهقتها صادفها صبى موسيقى يدعى إدوين فتعلقت به وكانت صبية وفاتنة وثرية فتفرغت للعناية به والعمل من أجله - علمته الكثير وعملت



الكاتب السويسرى (أورس فيدمر)

له خادمة وسكرتيرة ومديرة أعمال وعشيقة أيضا .

وتقدم الرواية ما وقع لوالدته الصغيرة وما وقع لهذا الموسيقى الشاب الذى كان يكبرها بعدة سنوات قليلة مع كر السنين ذبلت الصبية المليحة مع كر الأيام بسبب هذا العشق وفقدت ثروتها وعرفت العوز والفاقة والحرمان بسبب هذا الصعلوك المتوحش إدوين بينما صعد نجمه فى سماء الفن كالشهاب فكل خطوة إلى الأمام كان إدوين يقطعها كانت تقابلها خطوة إلى الخلف فى حياة كلارا .

لقد افترس إدوين كلارا جسدا وروحا ومالا على نار بطيئة على مر السنين أكلها ولم ترجف له عين ثم لفظها عن طريق النسيان . بل والحقيقة المرة أنه لم يتوقف عندها منذ لحظة تعارفهما وكأنها وجدت لخدمته فقط .

كان إدوين مشغولا منذ صباه بتعلم فن قيادة الأوركسترا ليقدم رؤية جديدة لأعمال كبار المؤلفين الموسيقيين فى

رواية

عشيق الأم

العالم فى النصف الأول من القرن العشرين . ولم يهتم بكلارا فى سنوات كفاحه الأولى عندما كانت تقف إلى جانبه بمالها وشبابها ولم يكترث بما قدمته له عندما بزغ نجمه وتابع دراسته الموسيقية . يأخذ منها ولا يقدم الشكر أو المودة . لا يعرف سوى أنها منبع عطاء لاينضب وهى الفتاة الجميلة الثرية التى يتعلق بها الجميع بينما هو فقير صعلوك لايجد مأوى له فى الليل .

ومع صعوده السريع كالشهاب لم يعرف إدوين شيئا عما أصابها من علل وسقم أو فقدانها لثروتها أو مفارقتها الحياة .. واجهت الإجهاض بسبب نزواته ولم يعرف .

ويقدم الراوى لنا حكاية شيقة عن تعرف الصبية كلارا على إدوين ثم اهتمامها به شيئا فشيئا ثم متابعتها له وتقديمها له فى البداية الخدمات البسيطة ثم اندماجها كلية فى عالمه الموسيقى .

اهتمام بالنوتة الموسيقية

ومن جانب آخر وفى فصول منفصلة يقدم لنا الراوى بداية هذا الصبى الفقير الذى أتقن قراءة النوتة الموسيقية فى المدرسة لآلة موسيقية واحدة ودون أن يمتلك آلة موسيقية فى حياته ثم توقف عن الدراسة بسبب العوز والحاجة فيتفرغ إلى قراءة المدونات الموسيقية لعدة آلات موسيقية دون مساعدة من أحد ودون معرفة بأصول علم التأليف الموسيقى .

ويظل إدوين يضرب فى بحور الموسيقى عن جهل إلى حين تعرفه على موسيقى عجوز من عازفى الشوارع يتمتع بقدر ما من العلم والدراية بفنون التأليف والتوزيع الموسيقى . يعجب الرجل العجوز بموهبة هذا الشاب المعجزة ويرحب به فى بيته ويعطيه الدروس الموسيقية ومبادىء التأليف الموسيقى والتوزيع ويسمح له بالتدريب على البيانو القديم الذى يمتلكه والمبيت فى داره فى أوقات غيابه وينفق عليه ، ثم يعرفه على مكتبات المعاهد الموسيقية فى مدينة بازل ليحصل على المدونات الموسيقية ويقدمه لبعض الأساتذة . وبعد سنوات قليلة يقول له العجوز لقد علمتك كل ما عندى وليس لدى المزيد وأنت فى حاجة إلى أساتذة كبار ويكون إدوين قد وطد علاقته بالمعاهد الموسيقية فيبدأ فى جمع مجموعة من عازفى الشوارع لتكوين فرقة موسيقية لتقديم معزوفات عالمية فى كهوف العمارات . ويعمل إدوين جاهدا فى تعليم هؤلاء البسطاء أصول العزف الجماعى لأصعب المقطوعات التى يسعى لتقديمها بتفسيرات جديدة أيضا مخالفة لما هو شائع ويكون الموسيقى العجوز هو العازف الأول فى فرقته . ويظهر إدوين جلدا وصبرا فى التعليم وفى السيطرة على هذه الفرقة الصغيرة .

كلارا وإحياء الفرقة الموسيقية

وفى إحدى الحفلات تشاهد كلارا هذا القائد الشاب رث الثياب والخشن المسلك وتتعرف عليه وتمد له يد العون وتعلمه فنون اللبس وتكتب له الإعلانات عن حفلاته بيديها ، وتجمع له ما بدأت تكتبه الصحافة عن معزوفات هذه الفرقة وتقف فى الشباك لتحصل ثمن التذاكر وفى نهاية الحفل توزع العائد على الموسيقيين وإذا زادت النفقات سددت الفرق من جيبها .. وشيئا فشيئا تصبح جزءا من عالم هذه الفرقة الموسيقية أو شيئا فى عالم إدوين المشغول دوما بالمدونات الموسيقية الحديثة وكيفية الحصول عليها وتقديمها بطريقة فذة لاتسمح بها إمكانات فرقة عازفى الشوارع المتطوعين . إدوين فى حاجة إلى كبار العازفين العالميين لتقديم هذه الموسيقى الحديثة . والمقصود هنا بهذه الموسيقى الحديثة تلك الموسيقى التى نبعت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وغيرت من مفاهيم التأليف والتوزيع الموسيقى ومن روادها إيجور سترافنسكى وبيلا بارتوك وغيرهما من المؤلفين المحدثين. إدوين لم يكن يحلم بتقديم الموسيقى الشائعة أو المعروفة كان يبحث عن الجديد والعميق وهذه الموسيقى عسيرة الفهم والقراءة والتقديم لكنها العبقرية ياسيدى أو الجنون . ويعد زيارات إلى فرنسا وتقديم حفلات هناك بدأت هذه الفرقة تلفت أنظار النقاد وفى عام ١٩٢٩ يشكل إدوين فرقة موسيقية ويقدم معزوفات سترافنسكى وبارتوك ويدعوهما لحضور حفلاته وكل ذلك بفضل كلارا .

هل شخصية إدوين هذا القائد الموسيقى الفذ والموهوب والخشن السلوك من بنات أفكار الكاتب السويسرى أورس فيدمر المولود عام ١٩٣٨ فى مدينة بازل السويسرية حيث وقعت كل أحداث الرواية؟

حقيقة هى قليلة الأعمال الروائية التى تتناول حياة موسيقيين وتستغرق فى تفاصيل الموسيقى ، وهذه رواية مليئة بالتفاصيل الفنية الموسيقية خاصة دراسة الايقاعات المركبة التى أبدعها مؤلفو النصف الأول من القرن العشرين وأبدع إدوين فى تقديمها .

وفى الإجابة عن هذا التساؤل مربط الفرس كما يقال فشخصية إدوين كما وردت فى الرواية هى شخصية الموسيقار السويسرى بول زاخر وفقا للتواريخ والتفاصيل والأحداث . وبول زاخر وحتى وفاته قرب نهاية القرن العشرين كان نجما ساطعا فى سماء سويسرا ومن نجوم المجتمع العالمى .

إدوين فى الرواية أو بول زاخر فى الحقيقة يتزوج فجأة من مايا هوفمان شتالين التى آلت إليها ملكية شركة لاروش - وهى فتاة من نجوم المجتمع السويسرى وشركتها من حيتان الصناعة فى العالم وهى قد تفرغت لرعاية الفن والفنانين وإقامة المتاحف على نفقتها . وهكذا يستقر الموسيقار فى المرفأ المناسب لعبقريته منذ منتصف

رواية

عشيق الأم

القرن الماضي وحتى نهايته .

صعود فنان وتدهور روحي لكلارا

وهكذا تتعامل هذه الرواية مع الواقع الخشن وتقدمه في شفافية فالمأساة هنا أعظم وأعمق من البكاء وقد توقف كبار الانقد عند تقييم أورس فيدمر الفذ لقصة صعود الفنان وفي مقابلها قصة التدهور الروحي والعقلي والجسماني لكلارا . وهي أيضا شخصية حقيقية توصل بعض النقاد لمعرفتها وتحقيق شخصيتها وقد تعرف على شخصيتها بعض الأحياء من كبار السن في مدينة بازل .

ويقى تساؤل فج . هل كاتب الرواية أورس فيدمر ابن هذه السيدة ؟ قال فيدمر بالفم الملآن على التليفزيون إن السيدة كلارا ليست والدته . وألمح بعض النقاد في دراساتهم إلى أنها والدته . وهذا تساؤل في حاجة إلى تحقيق بعيدا عن النقد الأدبي . فهو لا يضيف شيئا إلى القيمة الأدبية للرواية وقد توقف عنده النقاد السويسريون في إشارات سريعة عابرة . أما النقاد الألمان فلم يشغلهم هذا التساؤل بالمرة وقال شيخهم رايش رانيتسكي : هذه رواية فذة تتناول حياة موسيقار عبقري وتقدم لنا قصة تدهور وتلاشي سيدة ، أما ما يتعلق بالطبقة الأرستقراطية في سويسرا وأحاديث الصالونات فهذه أمور لا علاقة لها بالرواية. وتوقف هذا الناقد المخضرم طويلا أمام شخصية الموسيقار إدوين وليس زاخر الحقيقي ، وقال إنه يعشق قراءة الروايات التي تتناول شخصيات الموسيقيين .

رواية «عشيق الأم» تثير قضايا عديدة حول الحقيقة والخيال ودور الكاتب . ولم يعلق أحد من شركة لاروش على الرواية ولم ترفع قضايا على المؤلف ولم يطارد صغار الصحافيين المؤلف لمعرفة علاقة الدم بينه وبين السيدة كلارا .

والخلاصة أن هذه الرواية قد كتبت على الطريقة السويسرية وكل ما جاء بها موثق والخيال يتبلور في شفافية القص وكان استقبال النقاد والقراء لها أيضا نابعا من تقاليد عريقة في تقبل الرأي الآخر .

ويقى لنا تعليقان أولهما يخص المؤلف فهو من الجيل الثالث من الكتاب «من مواليد ١٩٣٨» الذين يطلقون على ماكس فريش وفريدريك دورنمات صفة الجد كما يفعل جيل الستينات في مصر بالنسبة لأستاذنا نجيب محفوظ .

وثانيهما يتعلق ببعض أحداث الرواية حيث تتضمن الرواية واقعة غريبة وهي قدوم شاب زنجي من شمال أفريقيا إلى عائلة في وسط سويسرا ويقضي ليلة واحدة في ضيافتها أو ليلتين ويمنح إحدى بناتها اللون الغامق في ذريتها . وهنا نتوقف عن قول المزيد إلى حين قراءة هذه الرواية في روايات الهلال في الشهور المقبلة . ■

لغويات

د. محمود فهمى حجازى

هناك آراء متداولة عند بعض المهتمين باللغة العربية تجاه بعض الكلمات تجعل لها استخداما محدودا، وترفض هذه الآراء أى استخدام آخر. ويعتمدون فى هذا كله على ما ورد عن بعض النحاة ومن ذلك كلمة «كافة» هناك رأى بأن استخدامها الصحيح يقصر استخدامها على وظيفة نحوية محددة وهى أن تكون حالا، من ذلك مثلا ورود كلمة «كافة» فى القرآن الكريم (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة) كلمة «كافة» فى مثل هذا الاستخدام تكون حالا، ولا شك فى صحة هذا التركيب، الحال هنا ترد بهذه الصيغة ولا تعرّف أى لا تدخلها ال للتعريف، وتكون فى صيغة النكرة.

ولكن المشكلة أن بعض اللغويين رفض استخدام هذه الكلمة فى أى سياق آخر، كأن استخدامها الصحيح يقتصر على ذلك، ولكن واقع اللغة عند بعض الكتاب واللغويين الكبار فى إطار الحضارة العربية الإسلامية يعطى شواهد أخرى، من ذلك استخدام كلمة «كافة» معرفة، «الكافة» بمعنى الجميع ومنذ نحو ألف عام ذكر الجوهرى فى معجمه المعروف باسم الصحاح: «كلمة الكافة» وشرحها بأنها تعنى الجمع من الناس.

كما وردت كلمة «كافة» مضافة فى مقدمة كتاب من أهم كتب النحو العربى، وهو المفصل للزمخشرى، كان المؤلف هادفا إلى عمل كتاب محيط «بكافة الأبواب»، وهنا استخدام الكلمة معرفة بالإضافة.

وفى القرن العشرين طرح مجمع اللغة العربية مشكلة استخدام هذه الكلمة للبحث، وأعد شيخ المحققين عبدالسلام هارون - رحمة الله - بحثا فى استخدام الكلمة، تابع آراء النحاة من جانب ونصوص العربية من جانب آخر، وذكر قدرا من الشواهد اللغوية الموثقة تدل على أن ذلك القيد الصارم الذى ذكره بعض النحاة يمثل حقيقة جزئية. وانتهى البحث إلى إجازة استعمال كلمة «كافة» متصرفة تصرفا تاما وعلى أساس هذا البحث قرر مجمع اللغة العربية بالقاهرة جواز استعمال كلمة «كافة» فى الحال وغيرها معرفة ونكرة لا يقتصر استخدامها على أن تكون حالا، بل من الصحيح استخدام كلمة «الكافة» بمعنى الجميع. اللغة تجيز ذلك، ومجمع اللغة العربية وافق عليه. ■

في ندوة استراتيجية للثقافة العربية

دعوة للحفاظ على الشخصية القومية

اماني عبد الحميد

هل من الممكن إقامة حوار حقيقي يحترم التعدد والاختلاف بالرغم من تردى الأوضاع السياسية والاقتصادية لبعض الدول في ظل هيمنة النظام العالمي الجديد.. ؟،هل من الممكن تخطى حالة الذعر التي أثارها مصطلح العولمة نظرا لأهدافه الرامية إلى ضم البلاد الأقل حظا إليه وتحويلها إلى مجرد توابع؟ هل من الممكن خلق تيار فكرى جديد يعمل على إقامة حوار بين الثقافات المتعددة بدلا من إطلاق الصيحات التحذيرية، واتخاذ كافة التحصينات لحماية الشخصية القومية المهددة بالسيطرة الغربية «السطوة الأمريكية».. تساؤلات عديدة لاتزال مفتوحة أمام المفكرين والباحثين في جميع أنحاء العالم.

نادت بعض المجتمعات بضرورة الحد من الانفتاح الكامل على الثقافات الأكثر حظا من ناحية التقدم الثقافي والتكنولوجي والمعلوماتي لما قد يؤديه من اختراق لثقافاتها الوطنية وتراثها واستبدالها بثقافات وافدة أجنبية «الغزو الثقافي» وبالتالي فقدان هويتها وشخصيتها المميزة. وهل من الممكن استبدال مصطلح التدفق بالغزو خاصة أن مفهوم التدفق الثقافي بما يحمل معه من غزارة ثقافية تتدفق في الحضارة الأكثر تطورا أو إنتاجا نحو الحضارة

الثقافية الأقل تطورا والأكثر فقرا .. والذى قد يواجه برد فعل ذى اتجاهين.. أحدهما هو رد فعل القوقعة التى تتقوقع وتتغلف بصدفة لا تمتص أى تدفق ثقافى ولا يكون لديها سوى الرواسب المتكلسة على قشرتها الصدفية، فى حين يتخذ رد الفعل الآخر هيئة الإسفنجة التى تمتص التدفق الوافد إليها وقد يتغير لونها الثقافى لكنها لاتزال تحتفظ بكينونتها وهويتها الحقيقية فأين تقف ثقافتنا العربية؟ وهويتنا وقوميتنا؟ وإلى أى اتجاه تميل إلى رد الفعل الصدفى المتعلق، أم إلى رد الفعل الاسفنجي القادر على امتصاص أى تدفق ثقافى جديد؟

استراتيجية قوية

ومن منطلق احتياج مجتمعاتنا العربية لتبنى استراتيجية قوية ثقافية قادرة على مواجهة الرؤى والأفكار الجديدة التى تجوب العالم على رأسها «العولمة» ، نظمت اللجنة الوطنية المصرية للتربية والعلوم والثقافة ندوة جادة بعنوان «استراتيجية الثقافة العربية». أوائل الشهر الماضى بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة «أليكسو» استعرضت تقرير اللجنة العالمية المعنية بالثقافة والتنمية، وناقشت عدة محاور مثيرة للجدل تتعلق بقضية العولمة بما تحمله من معانى الهيمنة والسطوة الثقافية علاوة على نقد نظريتى «صدام الحضارات» ونهاية التاريخ» للمفكرين الأمريكيين صموئيل هانتجتون وفرانسيس فوكوياما. ودور وسائل الاتصال فى إثراء الثقافة العربية . كما تناولت محور الثقافة بوصفها عملية إنسانية حيث دارت المناقشات حول قضيتى الديمقراطية وحقوق الإنسان. ثم محور الثقافة وتفاعلها مع القطاعات الأخرى وموقعها داخل عصر المعلومات والثورة التكنولوجية ومحاور الثقافة والقوى البشرية «الطفل - الشباب» والدراسات والبحوث الثقافية من أجل التنمية خاصة فيما يتعلق بمفهوم «تصنيع الثقافة» وتنميتها وأخيرا محور التراث الثقافى والإبداع ومدى تشجيع ورعاية الابداع لتفعيل مشاركة المبدعين فى الحياة الثقافية.

وعلى الرغم من تنوع المحاور التى قامت عليها الندوة ومن أن الأبحاث المقدمة على قدر كبير من التعمق والفهم المستنير لما قد تواجهه أمتنا من تدفق ثقافى جارف إلا أن المداولات والمناقشات لم تخرج فى ختامها بأى ملامح حقيقية أو بصيغة واضحة تمكننا من رسم الاستراتيجية المنتظرة لثقافتنا العربية لمواجهة المخاطر المحدقة بها وحتى تتمكن من التعامل مع

الثقافات المختلفة.

فيما يلي نستعرض بعض الأبحاث المقدمة:

الثقافة العربية والعولمة

في ورقته البحثية أكد د. أحمد أبوزيد أن محاولات فرض التجانس الثقافي من خلال العولمة على المستوى العالمي أصبحت تواجه جهودا ضخمة لمقاومتها للتأكيد على الهويات الثقافية للشعوب أو ما يطلق عليه التمايز الثقافي. فمفهوم العولمة بما يدعو إليه من توحيد الأفكار والقيم وأنماط السلوك على مستوى ثقافات العالم كخطوة لإقرار الفهم المتبادل قد يخفى وراءه إمكانية تجريد الشعوب من مقوماتها الثقافية المتميزة والمتفردة لتتولى صياغتها وتشكيلها الشعوب الأكثر تقدما وبالتالي تهميش تلك الثقافات.

صدام أم تفاعل

كما ألقى د. ميلاد حنا الضوء على التوجهات الفكرية المضادة للآراء الأمريكية الخاصة بصدام الحضارات مثل مفاهيم «الحوار بين الحضارات» من أجل ترسيخ مفهوم «قبول الآخر» والاهتمام بمستقبل البشرية. موضحا أن عملية قبول الآخر بمميزاته وعيوبه تلحقها عملية «التحرك الايجابي» حيث إن القبول يقود إلى الحوار وبعدها التعارف ثم الصداقة ومن ثم تظهر «الأرضية المشتركة» أي أننا مختلفون ولو في أشياء بسيطة وهي في الواقع ميزة.

ثقافة الديمقراطية

ومن منطلق أن الديمقراطية شرط للتقدم يطلق د. محمد نور الدين فرحات دعوة للتفكير في الشروط المطلوب توافرها من أجل إشاعة مناخ من الثقافة الديمقراطية، ويتساءل عن كيفية حدوث ذلك، هل بإعادة صياغة نظام التعليم لتحث التربية على احترام الديمقراطية وحقوق الإنسان مكانا «بارزا» ؟ أم بالعمل على تجديد الفكر الديني؟ أم بتبلور طبقات اجتماعية ترتبط مصالحها بعملية التنمية الديمقراطية ؟ أم بتنشيط أدوار الأحزاب ومؤسسات المجتمع المدني الأخرى لتلعب دورا في إشاعة ثقافة الديمقراطية ؟ أم بكل ذلك ؟ أم بغير ذلك؟

تطرح الورقة المقدمة من د. محمد السيد سعيد وهي بعنوان: « نحو تنمية الصناعات الثقافية في مصر» قضية شائكة هي تصنيع الثقافة وخصوصيتها في مصر، وتلقى الضوء على الأبعاد التي تنطوي عليها القضية خاصة مع ما تتسم به البنية الثقافية من تناقض بين مدى

خصوصيتها والضعف البالغ الذى أصاب البنية الصناعية وافتقادها للديناميكية. حيث يرى أن مفهوم تصنيع الثقافة مفهوم حديث بيد أنه مفهوم غير متجانس مليء بالصراعات لكنه يحمل أصولا فكرية . فمن وجهة نظره يجب أن تكون الثقافة متعالية عن «التسويق» فعملية تحويل المبدع إلى مصنع أو تاجر من شأنها أن تحول عملية الإبداع برمتها إلى النقيض . فالرسالة الإبداعية هى رسالة بين المبدع والمتلقى دون أى وسيط تجارى يؤثر عليه كما يوضح أن افتقار البنية الصناعية والثقافية للديناميكية والتركيز الشديد على أسلوب التنميط فى الرسالة الإعلامية والتعليمية والسياسية أدى إلى انخفاض القدرة على خلق مبدعين جدد . لذا فإن ما يرمى إليه هو التأكيد على أن تصنيع الثقافة لا ينطوى بذاته على حل اشكاليات ومعضلات الحيوية الثقافية والتكنولوجية للمجتمع لكنه يوفر آلية حفز مناسبة تسهم فى حل هذه الاشكالية على المدى الطويل. وهو ما يتطلب توفير قوة دفع مناسبة الصناعات الثقافية فى بيئة تفتقر إلى التصنيع ويعوزها آليات التجديد الثقافية والتكنولوجية وعلى سبيل المثال الأزمات التى تهز أركان صناعات ثقافية قائمة بالفعل مثل السينما والأغنية.

أما د. هدى وصفى فقد تعرضت من خلال ورقتها لأهمية ورعاية الإبداع لتفعيل مشاركة المبدعين فى الحياة الثقافية. وقامت برصد بعض النقاط الهامة التى تمس جوهر القضية وهى:

١ - رصد الواقع الراهن للثقافة المصرية من نهاية القرن العشرين وتحديد اشكاليتها الاساسية والتحديات التى تواجهها.

٢ - تحديد الأهداف المبتغاة للعمل الثقافى فى القرن المقبل.

٣ - تحديد القضايا الأساسية للعمل الثقافى فى المرحلة القادمة.

٤ - اقتراح المشروعات المستقبلية الأساسية فى مختلف المجالات الثقافية فى مصر مع تحديد أولويات التنفيذ.

ويكشف د. محمد فتحى عبدالهادى أن الإنتاج الفكرى العربى المتاح من أشكال الكترونية لايزال محدودا ويعانى بعض الصعوبات أهمها أن الطابع الغالب عليها هو الطابع الدينى أو الطابع الترفيهى دون التوجه نحو الأعمال العلمية والتراثية وأعمال الموسوعات الضخمة لذا يدعو إلى الاهتمام بصناعة المعلومات بكل السبل على اعتبار أنها الصناعة الواعدة وأساس المجتمع المعلوماتى الحديث. ■

«معيد النعم ومبيد النقم»

للعلامة

تاج الدين السبكي

بقلم
صافى ناز كاظم

عالم فاضل معاصر من علماء مصر ومثقفيها الذين برزوا بمساهماتهم الأدبية والتربوية فى مطلع القرن العشرين، مع بروزهم فى إنكار الذات، تواروا حياء من تزكية أنفسهم، فتاهوا فى زحام النسيان وغمط الحق. أقصد بهذا المدخل الباحث والمترجم الأديب «محمد الصادق حسين بك»، الشقيق الأكبر لرائد طب العظام والأديب الدكتور «محمد كامل حسين» صاحب كتاب «قرية ظالمة». وقد ولد الأستاذ محمد الصادق حسين فى نهاية القرن ١٩، وتوفى عام ١٩٦٤، وشغل المناصب المهمة فى «وزارة المعارف العمومية»، بعد تخرجه فى المعلمين العليا، ثم سافر إلى لندن ودرس الاقتصاد وعاد ليعمل فى وزارة المالية حتى وصل إلى منصب «مراقب حسابات الحكومة».

لم تشغله مناصبه الوظيفية عن إنجاز العديد من الأبحاث الأدبية والأعمال الثقافية . شارك الأب قنواتى فى إعادة ترجمة «مزامير داوود» بصياغة شعرية لها مكانتها العالية، أما كتابه الممتع «البيت السُبكى، بيت علم فى دولتى المماليك»، فهو بلا شك من أهم إسهاماته فى تحقيق التراث، وتحت يدى صورة من هذا العمل النادر عليها إهداء بخطه إلى: «حضرة الأخ الفاضل الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك، المخلص محمد الصادق حسين، فبراير ١٩٤٨»، وهو صادر عن «دار الكاتب المصرى، شركة مساهمة مصرية، ١٩٤٨»، ويتصدره مقتطفان من كلام العلامة تاج الدين السبكى، الذى ولد بالقاهرة عام ٧٢٧ هـ ١٣٢٦م فى عصر السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون، وتوفى بالطاعون فى دمشق وهو فى الثالثة والأربعين، سنة ٧٧١ هـ، ١٣٦٩م فى سلطنة الأشرف زين الدين بن حسين ابن محمد بن قلاوون. نص المقتطف الأول تقييم ذاتى يقول فيه تاج الدين عن نفسه: «.. وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الإطلاق، لا يقدر أحد يرد علىّ هذه الكلمة..»

ويبلور مقتطفه الثانى جوهر جهاده واجتهاده إذ يقول: «الفلاح حر لا يد لآدمى عليه».

★★★

تمتد جذور الأستاذ «محمد الصادق حسين» فى بلدة «سُبك الضحاك» بالمنوفية، وهو يمت بقرابة وثيقة إلى عضو هيئة كبار العلماء الشيخ عبد اللطيف السبكى، شيخ الحنابلة فى مصر ورئيس لجنة الفتوى سابقا، ويمت كذلك بصلة قرابة إلى صديقه وزميله الأديب الروائى الرائد محمد فريد أبو حديد، من جهة جده لوالدته حفيدة الشيخ عفيف السبكى شيخ رواق الحنابلة بالجامع الأزهر الشريف. ولعل اهتمام «محمد الصادق حسين» بالعلامة تاج الدين السبكى، من القرن الرابع عشر الميلادى، قد بدأ من منطلق



● تاج الدين السبكى رجل من رجال الإصلاح فى مصر إضافة لعلمه ومكانته العالية.



«بلدياتى»، وإن أثبت بعد ذلك أنه ليس من بلدة «سبك الضحاك»، بل من «سبك العويضات» التى لا تزال تعرف عند العامة «بسبك الحد» أى «الأحد»، لكنه يعلو عن هذا المفهوم الضيق «البلديات» فتفهم أن افتخاره يعود إلى أن تاج الدين ووالده تقى الدين، علماء لهما شأنهما من المنوفية، من مصرا. وفى إهدائه يقدم بحثه إلى والده «محمد على حسين صاحب الفضل فى توجيه قراءتى العربية منذ صباى» وإلى «روح تلميذه خالى وأستاذى عبد الحكيم محمد صاحب هذا الفضل فى شبابى، أرشدنى رحمه الله إلى طائفة من الكتب صالحة منها: مُعيد النّعم ومُبيد النقم». ويوجه الشكر إلى «حضرات موظفى دار الكتب المصرية الذين لم يألوا جهداً فى إمدادى بالمصادر - مخطوطها ومصورها ومطبوعها - التى اعتمدت عليها فى هذا البحث».

★★★

يقع كتاب «البيت السبكى» فى ٩٦ صفحة: مقدمة وأربعة فصول: ١ - رجل وكتاب، ٢ - البيت السبكى، ٣ - سُبك وسُبك، ٤ - نسبة السبكية. يوضح محمد الصادق حسين خطة بحثه فى مقدمته كالتالى: «الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد فهذا بحث تاريخى فى السبكية، وهم تلك الأسرة المنوفية ذائعة الصيت فى دولتى المماليك، ممن أخرجت من الرجال الممتازين فى العلم وفى مناصب التدريس والقضاء.

وهو بحث أساسه كتاب: مُعيد النعم ومبيد النّقم، ومؤلفه تاج الدين السبكى، من حيث هو مصلح مصرى لمس نواحى الضعف فى حكومة الأتراك وفى طبقات الأمة لذاك العهد فتصدى لنقدها بصراحة وجرأة تدعوان إلى الإعجاب، ثم وصف وسائل الإصلاح وهى تدور حول قيام كل بواجبه فى دائرة عمله. حرك فىَّ الرغبة لهذا البحث، إعجابى بتاج الدين السبكى وما رأيته من أن مؤرخينا، وإن وفوه حقه واعترفوا بمكانته، من حيث هو فحل من فحول العلماء وإمام من أئمة الدين، لم يشيروا إليه من حيث هو رجال من رجال الإصلاح فى مصر، ولم يعنوا بمؤلفه الجليل فى هذا الموضوع وهو: مُعيد النعم ومُبيد النقم، ومن عنوا به من المستشرقين الذين كتبوا عن تاج الدين وغيره من السبكية، أخرجوا لنا مع دقة بحثهم صورة للكتاب ينقصها، فيما أرى، اللون المحلى، تنقصها الصبغة المصرية وعليها المعول فى إدراك الحقيقة. وقد شفعت هذا البحث باستقصاء أفراد السبكية رجالاً ونساء وذكر نبذة عن كل منهم بقدر ما تسمح المصادر التى تيسرت لى، فإنى رأيت من كتبوا عن السبكية قد اقتصروا على البارزين منهم، وفى المصادر التاريخية عدد لا يستهان به منهم وإن لم

يكونوا ككبارهم فأحببت أن تكون منهم مجموعة وافية. ثم بينت الصواب فى قرية سبك التى هم منها، وأنه خلاف ما جاء فى الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك طيب الله ثراه وجزاه عن أمته خيرا، واختتمت البحث بما قيل فى أن أصلهم من الخزرج. والله أسأل أن يكون بحثا موفقا . محمد الصادق حسين، الحلمية، خط المطرية فى يناير سنة ١٩٤٧».

★★★

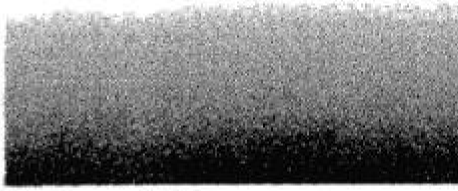
يظل الفصل الأول من «البيت السبكى»، هو بيت القصيد، رغم المعلومات الطريفة التى أوردها محمد الصادق حسين فى الفصول الثلاثة الباقية والتى منها أن كلمة «سبك» تعنى تمساح باللغة المصرية القديمة، والإسهاب فى توضيح الفروق بين «سبك الضحاك» التى هى «سبك الثلاثاء» و«سبك العويضات» التى هى «سبك الأحد».. إلخ.

★★★

يستغرق هذا الفصل الأول المعنون «رجل وكتاب» ٤٥ صفحة، أى ما يقرب من نصف الكتاب، وتتبدى فيه حماسة محمد الصادق حسين لإثبات كل سلبيات العصر المماليكى متكئا على ما بينه تاج الدين السبكى من مخالفات شرعية لأساليب الجور في ممارسات حكم ذلك العصر، وقد كان من الممكن أن نسايره فى غضبته التى أطلق فيها العنان لتحامله على ما أسماه «نقمة الحكم التركى»، بل ونعجب بشجاعته لتدوين غضبته إبان ذروة الحكم الملكى، المحسوب على العرق التركى، عام ١٩٤٧، ونشرها عام ١٩٤٨، لولا تلك الأسطر العجيبة التى أنهى بها الفصل بعد كلامه الثرى وبحثه الشيق عن تاج الدين السبكى، حين يقول: «.. هذا وقد زالت عن مصر نقمة الحكم التركى وصار العاملون فى حكومتها من أبنائها، وقيض الله لها من الفرنسيين والإنجليز

• الكتاب إثبات لسلبيات العصر المملوكى وسبل إصلاحها ورغم قدمه فهو أمثلة حية من وثيقة حقوق الإنسان التي يتباهى بها الغرب حديثا.

من ساس النيل حتى ضبطه وأمنت البلاد شر طغيانه وتقصيره، كما قيض لها من هؤلاء، وغيرهم من الغربيين من كفوها الكثير من شر الأوبئة والأمراض المتوطنة ومن أنقذوا ماليتها من الإفلاس حتى لم يكد يبقى علينا إلا الروتين. فهل شكرنا النعمة وأدى كل واجبه فيما نيط به من عمل؟ لا أظن . كأننا لا نزال نحن إلى أساليب السادة الأتراك والشراكسة: نفخة كذابة وإسراف فى المظاهر الخلابة وبعد عن الحقائق واشتغال كل امرىء بنفسه،



لايزال عاكفا عليها يعبدها ويرتكب الشناعات فى سبيل توفير مطالبها حتى صارت نفوسنا الصغيرة آلهتنا الحقيرة...»

ولاشك أن تاج الدين السبكى ، وهو يصارع الإدارة الجائرة فى دولة المماليك، لم يكن يقصد أن ينحاز لفرنجة عصره وما بعد عصره، بل كان يرجو أن يثوب الحاكم المسلم إلى قواعد الحكم الشرعية بدليل قوله: «إن الله لم يول السلطان على المسلمين ليكون رئيسا آكلاً شارباً مستريحا بل لينصر الدين ويعلى الكلمة...».

***

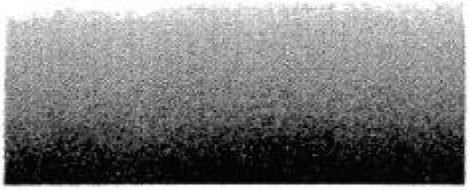
يصف «محمد الصادق حسين» كتاب «مُعيد النعم ومُبيد النِّقم» بأنه «كتيب صغير الحجم كبير القيمة». ويستنتج أن تاج الدين السبكى لم يكن قد أتم وضعه فى قالبه النهائى، اعتماداً على أنه لم يدون تاريخ الفراغ منه، وأن الطاعون عاجله فمات قبل أن يتمكن من مراجعته الأخيرة، وأنه ألفه بعد اثنين من أشهر مؤلفاته وهما: «جمع الجوامع» فى أصول الفقه وقد فرغ منه سنة ٧٦٠ هـ، و«طبقات الشافعية الكبرى» سنة ٧٦٦ هـ.

وينقسم «معيد النعم ومبيد النقم» إلى ثلاثة أقسام: ١ – مقدمة موجزة فى الباعث على تأليفه ونظرية المؤلف فيما يحفظ النعم ويعيدها إذا زالت، ٢ – خاتمة موجزة فى فوائد المحنة بإنزواء النِّعم، ٣ – أمثلة عملية تناول فيها تاج الدين، طبقات الأمة حكومة وشعبا وبيَّن ما على كل من واجبات.

وقد أورد تاج الدين فى مقدمته جوابه على من سأله عن كيفية استعادة نعمة دينية أو دنيوية فقدت، فقال: «طريقه أن يعرف من أين أتى فيتوب عنه ويعترف بما فى المحنة بذلك من الفوائد فيرضى بها.... فإن النعمة لاتزول سدى وإن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.. واعلم أنها لم تزل عنك إلا لإخلالك بالقيام بما يجب عليك من حقوقها...» ومن حقوق النعم الشكر، ويخصص للشكر أركانا ثلاثة: القلب، واللسان، والأفعال. ويوضح الشكر بالأفعال من خلال أمثلة فيقول: «... ونحن نرى أن نخص غالب الناس بأمثلة تستوعب معظم الوظائف التى استقرت عليها قواعد المسلمين فى هذا الزمان ونذكر ما يطالب به صاحب تلك الوظيفة ويخشى عليه سوء العاقبة بسبب التفريط فيما يكون موقظا من سنة الغفلة ومرشداً لعل الله سبحانه وتعالى ينفع به أقواما».

***

يستعرض الأستاذ محمد الصادق حسين لنا أمثلة تاج الدين السبكى. «المثال الأول شكر نعمة العينين، والثانى شكر نعمة الأذنين، ثم ينتقل بسرعة إلى سلسلة طويلة من الأمثلة بدأت بالمثال





محمد فريد أبو حديد(١٨٩٣-١٩٦٧)

الثالث وانتهت بالعاشر بعد المائة أو الرابع عشر بعد المائة - لاختلاف في النسخ... فإذا بها جل الكتاب، وإذا بها تتناول طبقات الحكومة والموظفين من الخليفة والسلطان فنازلا، وبعض طبقات الأمة إلى أن تصل إلى من يسميه... الشحاذ في الطرقات له........... ويقول بعد الفراغ من الأمثلة: والحاصل وهو المقصود أنه ما من عبد إلا ولله سبحانه عنده نعمة يجب أن ينظر إليها ويشكرها حق شكرها بقدر استطاعته حسبما وصفناه ولا يستحقرها ولا يربأ بنفسه عليها... فإن هو تلقاها بغير قبول ولم يعطها حقها خشى عليه زوالها عنه واحتياجه إليها ثم يطلبها فلا يجدها وإذا زالت فليعلم أن سبب زوالها تفريطه في القيام بحقها....

***

حين يضرب تاج الدين السبكي الأمثلة التي تخص رجال الحكومة في زمانه يقول في مثال رقم «٣»:.... كثيراً من الأتراك يميلون إلى أول شاك، وما ذلك إلا للغفلة المستولية على قلوبهم إلى أن صيرت قلوبهم كالأرض الترابية التي لم ترو بالماء فإذا أتاها ماء رويت سواء كان ذلك الماء صافيا أم كدراً ، زلالا بارداً أم كدراً حاراً، ثم إذا رويت وجاءها ماء آخر صاف حسن لم تشربه، وصار مانعا عليها فهذه هي القلوب الغافلة عن الحق». وفي المثال «٥»: يقول: «السلطان: إن الله لم يوله على المسلمين ليكون رئيساً آكلا شاربا مستريحا بل لينصر الدين ويعلي الكلمة. ومن وظائف السلطان أن ينظر في الإقطاعات ويضعها مواضعها..... فإن فرق الإقطاعات على مماليك اصطفاها وزينها بأنواع الملابس والزراكش المحرمة وافتخر بركوبها بين يديه وترك الذين ينفعون الإسلام جياعا في بيوتهم ثم سلبه الله النعمة وأخذ يبكي.... فيقال له يا أحمق أما علمت السبب، أو لست الجاني على نفسك؟، وإن استكثر على الفقراء ما

● يبهرنا المؤلف من على بعد سبعة قرون مضت بتوضيحه الفذ لمعنى «الحق» الذي ارتبكت دلالاته.

بأيديهم وتعرض لأوقاف وقفها أهل الخير، ممن تقدمه، عليهم، فهو بلاء على بلاء.. فإن ضم إلى ذلك أنه يبيعها بالبرطيل ويضعها في غير مستحقها فما يكون جزاؤه؟.

ومن وظائفه بيت مال المسلمين، وقد قرر الشارع المصارف فيه وجعل لكل مال قواماً وقدراً فإن تعدى هذا كله وصرفه في شهواته ولذاته وحسب أن الملك عبارة عن ذلك فلا يلم إلا نفسه... وإن أخذ يصرف الأموال على خواصه ومن يريد استمالة قلوبهم إليه لبقاء ملكه وأعجبه مدائح الشعراء لكرمه فذلك خرق. ولقد رأينا منهم - (يعني السلاطين والحكام) - من يعمر الجوامع ظانا أن ذلك من أعظم القرب فينبغي أن يفهم مثل هذا الملك أن إقامة جمعتين في بلد لا يجوز - إلا لضرورة - عند الشافعي وأكثر العلماء، فإن قال قد جوزها قوم قلنا له إذا فعلت ما هو واجب عليك عند الكل، فذاك الوقت افعل الجائز عند البعض، وأما أنك ترتكب ما نهى الله عنه وتترك ما أمر به ثم تريد أن تعمر الجوامع بأموال الرعايا ليقال هذا جامع فلان، فلا والله لن يتقبله الله تعالى أبداً» ثم يقول: «ومن أقبح البدع تقبيل الأرض بين يدى الملوك» وفي المثال ٩ عن : «الأستادار» - (وهو من يتكلم فى أقطاع الأمير مع الدواوين والفلاحين وغيرهم) - يقول: «... وعليه أن يرفق بأهل القرى ويؤدى أمانة الله التى علقها فى رقبته للفلاحين وغيرهم من رعية الأمير كما عليه أن يؤدى حق الأمير، بل إن هؤلاء أحوج من الأمير إلى الرفق بهم واعتماد الحق معهم». ويطلب من «كاتب السر» فى المثال ١٣، أن يقوم بإفهام الملك الأمور المكتوبة والتى يقوم «كاتب السر» بالتوقيع عليها عن الملك، ويقول: «.... فإن أكثر الملوك يعسر عليهم الفهم ويؤتون من قبل ذلك»!.

وفى المثال ١٦ عن «البريدية» يقول: «وكانت أئمة العدل لا تبرد البريد إلا لمهم من مهمات المسلمين، والآن أكثر ما تهلك خيول البريد وتساق للأغراض الدنيوية من شراء المماليك وجلب الجوارى والأمتعة، وإذا ركب فقيه فرس بريد أنكر عليه ذلك وقيل... البريد لا يساق إلا لمهمات السلطنة كأنهم يعنون بمهمات السلطنة ما اعتادوا من شراء مملوك مليح أو استدعاء مغن حسن الصوت أو خراب بيت شخص أنهى عنه ما لا صحة له... ومن حق البريدي أن لا يجهد الفرس بل يسوقها بقدر طاقتها وقد كثر منهم سوق الخيول السوق المزعج بحيث تهلك تحتهم، أفما علموا أنها خلق من خلق الله تعالى؟». ويقول فى ناظر الجيش: «ومن قبائح ديوان الجيش إلزامهم الفلاحين فى الإقطاعات بالفلاحة، والفلاح حر لا يد لآدمى عليه وهو أمير نفسه». وفى المثال ٢٢ يتحدث عن «الجمدارية: وأكثر ما يكونون صبيانا مرداً.. يكونون مع المخدوم حتى وقت

نومه. وقد تناهت الرغبة فيهم لاستيلاء شهوة المرد الملاح على قلوب أكثر أهل الدنيا، وصارت الجمدارية تتنوع فى الملابس المهيجة لشهوات البشرية ويتزينون فى ذلك على النساء، ويفتنون الناس بجمالهم، وحرام على جمدار أن ينصب نفسه لهذا الغرض وأن يتشبّه بالنساء فيما خلقن له وليس له أن يمكن مخدومه من أن يلوّط به ولا أن يقبله».

وفى المثال ٢٩ يأتى «الحاجب»: «فمن خطر له أنه إن لم يسفك الدماء بغير حق ويضرب المسلمين بلا ذنب لم تصلح أيامه، فعرّفه أنه باغ جهول أحمق حمار، دولته قريبة الزوال ومصيبته سريعة الوقوع، وهو شقى فى الدنيا والآخرة، وإذا أخذه الله لم يفلته... فإن قال حمار من هؤلاء من أين أعرف هذا - (يعنى القرآن وأحكامه) - وأنا عامى تركى لا أعرف كتاباً ولا سنّة قلنا له.. إذا كنت لا تعرف فاسأل أهل الذكر.... وإن عجزت عن الفهم، فما لك والدخول فى هذه الوظيفة؟، دعها!».

وفى المثال ٣٤ يعود ليوصى بالفلاحين: «الأجناد: فمن حق الله سبحانه وتعالى عليهم وشكر نعمته اللطف بالفلاحين، فلو شاء الله تعالى لقلب الفلاح جنديا والجندى فلاحاً، فإذا كان لا يشكر نعمة الله تعالى على أن رفعه على درجة الفلاح، فلا أقل من أن يكفى الفلاح شره وظلمه...» ولا ينسى مع الفلاحين البنائين، فيقول فى المثال ٧٤: «شاد العمائر، ومن حقه اللطف والرفق بالبنائين وأن لا يستعمل أحداً فوق طاقته ولا يجيعه، بل يمكنه من الأكل أو يطعمه.... وعليه أن يطلق سراحه وقت الصلوات فإنها لا تدخل فى الإجارة وما يعتمده بعضهم من تسخير البنائين وإجاعتهم وإعطائهم من الأجرة دون حقهم واستعمالهم فوق طاقتهم، من أقبح الحرمات وأشنع الجرأة على الله فى خلقه، وأقبح من ذلك أنهم يعتمدون فى بناء المساجد والمدارس، فليت شعرى بأى قربة يتقربون؟».

• أنجز العديد من الأبحاث الأدبية والأعمال الثقافية رغم مناصبه الوظيفية المتعددة

***

تلك أمثلة من وثيقة حقوق الإنسان، يثبت فيها تاج الدين السبكى أولاً حق الإنسان تجاه نفسه، ألا يظلمها بظلمه لأخيه الإنسان. فتاج الدين السبكى، العالم، والمدرس، والقاضى، والفقيه، والمرجع، يبهرنا من على بعد سبعة قرون مضت بتوضيحه الفذ لمعنى «الحق»، الذى ارتبكت دلالاته واختلطت سبله. ■

الدمعة السجينة



اهبطي.. اهبطي وكوني سجية
واستقري فوق السفوح النبية
أين يادمعتي العنيدة عمر
عشت فيه مع اللقاء هنيه
كلما.. كلما ترقرقت نشوى
وعبرت المسارب الخلفية
واعتزمت الهروب من ظلمة
الكهف سجينا هفا الى الحرية
وترددت في هبوطك حيرى
فارتقت المشارف الهدبية
وتدحرجت جمرة تتلظى
وحصاة على فمي ملحية
ثم أرخيت للغناء زماما
وتلاشيت في يديّ ضحية
كلما زرتني ولامست خدي
وتألقت نجمة فضية
صفّقت للقاء أجنحة الروح
ونامت أحزانها البشرية
واستحم الفؤاد في نبعك
الصافي وأرخي أعصابه الدموية
وتعرّى من الهجوم وليدا

شعر

جليلة رضا



هذه آخر قصيدة قدمتها الشاعرة الكبيرة جليلة رضا ، التى رحلت في صمت في منتصف شهر مارس الماضي ، بعد رحلة عطاء مديدة ، كانت فيها من أبرز الشاعرات العربيات ، حيث قدمت عطاء ثرياً تمثل في دواوينها « اللحن الباكي ، اللحن الثائر ، الاجنحة البيضاء ، صلاة الي الكلمة »...

وتجلّى قطيفة مخملية
وتغنى على لقائك حرا
وتغنى.. ويالها أغنية..!

●●●

فتعالى.. يادمعة فى عيونى
تتأبى.. عنيدة وعصية
أن روضى مستوحش وجديب
والمماشى مصفرة رملية
فاعبرى من خلال قضبانه السود
ورفى كنسمة فجرية
رطبى.. رطبى جفاف زهورى
وأعيدى دماءها الوردية
واسكبى طلك النقى عليها
وأريقى عطورك القدسية

●●●

لست ضعفا ولست دمعة ذل
بل إباء وكبرياء.. حييه
يا لكنز من الصفاء دفين
يا لنبع من راحة نفسية
إنت ريح تطوى الهشيم وتبقى
فى رياضى.. على جذوعى القوية..؟

شخصيات طواها النسيان

عرفت فى سكة الحياة عدداً من أهل الفكر الذين كان لهم ظهور في زمانهم، فلما غيبهم القدر فى برديه، طواهم النسيان ولم يعد أحد يذكرهم من الذين جاءوا فى أعقابهم، وأتناول فى هذه العجالة طائفة من هؤلاء الأعلام، لعل فى التذكير بفضلهم ما ينفع الناس.

بقلم
وديع فلسطين



د. أمير بقطر
محمد عطية الابراشي
د. راشد البراوي
نقولا يوسف
د. محمد علي الغتيت

الدكتور راشد البراوى

كان الدكتور راشد البراوى أستاذاً للاقتصاد بجامعة القاهرة، وكان من أشد الداعين إلى المذهب الاشتراكى حتى قام بترجمة كتاب «رأس المال» وهو انجيل الاشتراكية. وكان واسع النشاط، يلقى محاضراته فى كثرة من المنتديات، ويشارك فى المؤتمرات، وينشر فصوله فى الصحف معبراً عن آرائه فى القضايا العامة، فضلاً عن عكوفه على التأليف والترجمة حتى تجاوز عدد كتبه الخمسين، منها قاموس اقتصادى، بل إن بعض

كتبه طبع أربع طبعات وخمساً مثل كتابه «حرب البترول فى الشرق الأوسط».

وعند قيام الثورة، كان راشد البراوى من أوائل من احتفوا بها، فأصدر كتاباً طبع طبعتين عنوانه «حقيقة الانقلاب الأخير» ترجمه كذلك إلى اللغة الإنجليزية فلقى رواجاً واسعاً، وقد لمع نجمه مع مجىء الثورة، إذ عهد إليه فى إعداد قانون الإصلاح الزراعى، وعين عضواً فى مجلس الإنتاج القومى، واختير أول رئيس لمجلس إدارة البنك الصناعى، ولكن ، لأن الدهر قُلب ، فقد اتهم فى قضية خاصة بالبنك قُضى فيها بإدانته، وأمضى فى السجن سنوات . ولما أفرج عنه عين بقرار سرى مستشاراً اقتصاديا فى رياسة الجمهورية، وجهز له مكتب فى قصر عابدين، وهو وإن كان اغتبط لهذا الأمر إلا أنه صارحنى بأنه كان يتمنى أن يصدر قرار تعيينه علناً كرد شرف له. كما اختاره اتحاد نقابات العمال مستشاراً له. وانصرف فى سنى عمره الأخيرة إلى ترجمة عشرات من كتب الاقتصاد والسياسة، ولكن الغريب أن الدكتور البراوى الذى بدأ حياته ماركسياً صار المترجم الأول لبرنامج الكتب الأمريكية، بل ترجم كتاباً كبيراً عن الرئيس الأمريكى لندون جونسون، وتوفى البراوى فى ١٣ مايو ١٩٨٧ وكان قد فجع فى ابنه الوحيد الذى مات مختنقاً بالغاز فى حمام بيته فى حى فم الخليج قبل أن ينتقل إلى حى الزمالك.

محمد خليفة التونسى

سمعت مؤخراً أن رسالة علمية عن محمد خليفة التونسى (١٩١٥ - ١٩٨٨) نوقشت فى كلية دار العلوم ولو نُبهت بها لحرصت على شهود المناقشة العلنية لأن التونسى هو بدوره من مظاليم الأدب الذين نسوا أو كادوا ينسون .

كان محمد خليفة التونسى من المجموعة الصغيرة التى أحاطت بأستاذنا عباس محمود العقاد إحاطة السوار بالمعصم، وكان موضع سره وثقته فى آن معاً، وكان أديباً ممتازاً وعالماً لغوياً فقيها مما كان يؤهله لعضوية مجمع اللغة العربية لولا أنه اختار أن «ينفىء نفسه فى الكويت التى عاش فيها سنوات طوالاً إلى أن أدركته منيته فى ١١ يناير ١٩٨٨ فدفن هناك حسب وصيته. ومن أعمال التونسى المهمة ترجمته لكتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» ، وهو كتاب ترجمه كذلك العلامة اللبنانى عجاج نويهض (١٨٩٨ - ١٩٨٢) فى جزءين كبيرين . وللتونسى دراسات أدبية مطبوعة فى عدة كتب.

وقد التقيت به للمرة الأخيرة فى مؤتمر أدبى فى تونس عام ١٩٨٥ وكانت الشيخوخة قد حطت عليه بكلكلها حتى كان يجر ساقيه جرا وهو يمشى. ومما قاله لى آنذاك إنه فى اليوم الذى توفى فيه العقاد، استدعى من بيته على عجل - وكان يقضى فيه عطلته السنوية - فجاء للمشاركة فى ترتيبات الجنازة، ولاحظ وقتها أن عامر العقاد (ابن شقيق العقاد والمتوفى فى ١٩٨٥) يقلب فى أوراق عمه بحثاً عن ورقة معينة، فلما اهتدى

إليها قام بتمزيقها إلى قطع صغيرة، ولما سألت التونسى عن سر هذه الورقة قال إنه لا يعرف على وجه التأكيد ، ولكن لعلها خاصة بوصية كتبها العقاد أو بورقة عرفية أراد عامر اخفاءها. وبسبب ظروف الحزن والجنازة لم يحاول التونسى استيضاح عامر عن حقيقة هذه الورقة.

ومع أننى لا أحب أن أشارك فى ترويج شائعات لا أعرف حظها من الصدق، فالذى حدث بعد وفاة العقاد أن طلع علينا أنيس منصور بحكاية مؤداها أن العقاد كان متزوجا من ممرضة تعوده زواجاً عرفياً وأنه أنجب منها ابنة انتحرت حزناً على وفاة العقاد فى يوم رحيله.

ولأنه لا عيب فى الزواج - إن كان قد تم - فقد سمحت لنفسى أن أشير إلى هذه الواقعة منسوبة إلى أنيس منصور الذى يؤكدها، ولا أظن أنه كان يقصد «التشنيع» على العقاد.

الدكتور أمير بقطر

من يراجع أعداد مجلة «الهلال» على مدى فترة شبابها، يلاحظ أن الدكتور أمير بقطر (١٨٩٩ - ١٩٦٦) كان من أكثر الكتاب انتظاماً فى الكتابة فيها وفى أعدادها الممتازة. بل إن دار الهلال نشرت له ثلاثة كتب هى «لا تخف» و«٢٠ سنة فى غرفة الاعترافات» و«أنت وأنا : من أين جئنا»، هذا عدا كتبه الأخرى ومنها «كيف تتعلم لتعيش» و«اتجاهات حديثة فى التربية» و«دانيمركة ومدارسها الشعبية» و«التربية فى الشرق الأوسط العربى» وقد ترجمه عن رودريك ماثيوز ومتى عقراوى، وكتابه «التطور والتوسع فى التعليم فى مصر» وقد نشره باللغة الإنجليزية.

ومع أن أمير بقطر تخرج أصلاً من مدرسة الحقوق بالقاهرة، إلا أنه أولع بالتربية وعلم النفس فكان من أوائل المصريين والعرب الذين تخصصوا فى هذين العلمين حيث نال درجة الماجستير من جامعة كولمبيا فى عام ١٩٢٤ ودرجة الدكتوراه من نفس الجامعة فى عام ١٩٣٦.

وبمجرد عودته إلى مصر، اقترن اسمه بكلية التربية بالجامعة الأمريكية فكان مديراً لها ثم عميداً منذ عام ١٩٥٢ وإلى وفاته فى عام ١٩٦٦، وعن هذه الكلية أصدر مجلة فصلية اسمها «مجلة التربية الحديثة» حررها منذ عام ١٩٢٨ وإلى عام ١٩٦٦ وشاركه فى تحريرها المتخصصون فى علوم التربية وعلم النفس سواء من خريجى كليته أو من غيرهم.

وكانت كلية التربية تقدم دراسات مسائية لتأهيل المدرسين تربوياً ونفسياً وتمنحهم درجة البكالوريوس في التربية وعلم النفس بعد عامين من الدراسة المكثفة. فالتحق بالكلية كثيرون من المدرسين طلباً للتأهيل التربوي وأصبح عدد منهم وكلاء لوزارة المعارف.

وكان الدكتور أمير بقطر متزوجاً من سيدة إنجليزية لم ينجب منها وتوفيت قبله، فبقي يقيم بمفرده في شقة بعمارة قديمة في حي جاردن سيتي، وهي شقة كانت مطمع صاحب العمارة الذي كان راغباً في هدمها وتشييد ناطحة سحاب مكانها، وقد أدركت أمير بقطر الوفاة وهو يصطاف في ريف النمسا، فشحن جثمانه إلى القاهرة، ووري في مقابر مصر القديمة ، وبادر صاحب العمارة بالإبلاغ عن وفاة منْ لا وارث له، وعندئذ جاء مندوب بيت المال، وهو بنك ناصر، وأفرغوا الشقة من محتوياتها وباعوا الأمتعة بالمزاد العلني، أما المكتبة الخاصة بأمير بقطر التي أفنى العمر في جمع مفرداتها في علوم التربية وعلم النفس باللغة الإنجليزية ، فقد رأيتها مزجاة على سور حديقة الأزبكية يسومها كل مفلس!

وكان من بين مقتنياته لوحة زيتية رسمتها له زوجة رئيس الجامعة الأمريكية، فبيعت بدورها في سوق المزاد بأبخس الأسعار.

وكان طاهر الطناحي (١٩٠٢ - ١٩٦٧) صديقاً للدكتور أمير بقطر، وتوافق معي على أن نقيم له حفلاً لتأبينه، ونظم فعلاً قصيدة طويلة في رثائه قدمها إليّ لكي أقرأها باسمه لأنه كان مصاباً بفالج وخشي ألا يتمكن من إلقائها بنفسه، ولكن بسبب النكسة التي حدثت في عام ١٩٦٧ و«لا صوت يعلو على صوت المعركة» ألغيت جميع المناسبات الأدبية والاجتماعية، ومنها حفل التأبين الذي كنا نرتب له، وبقيت القصيدة عندي إلى هذا اليوم.

محمد أبوالفضل إبراهيم

منذ ما تخرج محمد أبو الفضل إبراهيم (١٩٠٥ - ١٩٨١) من كلية دار العلوم وقد اقترن اسمه بالتراث، سواء وهو يعمل في دار الكتب الوطنية أو وهو يقوم بتحقيق عشرات من كتب التراث الضخام، منها «تاريخ الطبري» و«معجم الأمثال» للميداني و«سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون» و«ديوان البهاء زهير» و«ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» و«ديوان النابغة الذبياني» و«إنباه الرواه على أنباه النحاة» و«سجع الحمام في حكم الإمام» وغيرها وغيرها، وكتاب واحد من هذه الكتب الشوامخ كان

يكفى لكى تسعى إليه عضوية مجمع اللغة ، ولكنها عزّت عليه.

كان أبو الفضل إبراهيم يعقد فى بيته - وهو جار لى - ندوة أسبوعية يؤمها كثيرون من الباحثين والعلماء والمستشرقين الذين كانوا يحرصون على حضورها للإفادة من علم أبى الفضل وللاتناس بصحبته وطيب معشره وخلقه، ولكن توافره الدوؤب على تحقيق كتب التراث عزله عن المجتمع، فكان قلما يغشى ندوة أو جمعية اللهم إلا إذا كانت عنايتها منصرفة إلى كتب التراث، ولعل هذا هو السبب الذى حرم أبا الفضل من شهرة يستحقها ومن جوائز تخطته إلى سواه من «الاجتماعيين».

محمد رشاد عبدالمطلب

عصامى لا يضارع فى تثقيف نفسه بنفسه حتى صار حجة فى كتب التراث يرجع إليه حتى ثقات الثقات من العلماء. عمل محمد رشاد عبدالمطلب (١٩١٧ - ١٩٧٥) فى الجامعة العربية وكيلاً لمعهد المخطوطات منذ إنشائه فكان أبصر من جميع العاملين فيه بكتب التراث ومواضعها فى المكتبات فى أنحاء العالم. طاف ببلدان شتى لتصوير المخطوطات المودعة فى خزائنها فكان يستقبل حيثما حل بكل ترحاب بسبب تمكنه من مادته وسعة معلوماته، ولكن علمه الواسع كان مكنوزاً فى صدره لا على سن قلمه، ولهذا لم يترك من المؤلفات إلا «فهرس العقد الفريد» و«فهرس مؤلفات العرب المخطوطة والمطبوعة فى الطب والصيدلة»، كما حقق كتاب «ذيول العبر فى خبر من غبر». ولو تفرغ لتحقيق المخطوطات لتفوق على كثيرين من الأقران.

كان بريده الخاص أكبر من كل بريد معهد المخطوطات، يوافيه من جميع أنحاء العالم من الراغبين فى الاستنارة بعلمه ومعارفه، ولم يكن يضن بها على أحد. فالمخطوطات وأخبارها على أطراف أصابعه أو هى فى واعيته الحية، يبهر بمعلوماته حتى المتخصصين ، وكان رشاد عبدالمطلب يحتفى بكل قاصد إليه من رجال المجامع وأساتذة الجامعات ومحققى كتب التراث، فيجدون فيه ضالتهم التى تغنيهم عن البحث والتنقيب، فعاش لغيره أكثر مما عاش لنفسه. ولو احتكر علمه وأفرزه فى تحقيق عشرات من المخطوطات لكان من أبرز المحققين وأنقهم وأصدقهم.

ومع أن اهتماماتى تنأى كثيراً عن اهتمامات رشاد عبدالمطلب، فقد كنت أجد منه الرغبة الصادقة فى المساعدة والتوجيه والتشجيع.

نقولا يوسف

عمدة الإسكندرية مع أنه من مواليد دمياط، ولكنه بقى على ولائه لمسقط رأسه إلى

آخر يوم في حياته، ولكن استقرار نقولا يوسف (١٩٠١ - ١٩٧٦) في الإسكندرية جعله محور الحركة الأدبية فيها، يجمع حوله أدباء الثغر على مدار العام، والأدباء المصطافين في أشهر الصيف . وإلى جانب اهتمامه بالأدب الروائي حيث أصدر رواية «إلهام» ومجموعتين قصصيتين هما «دنيا الناس» و«مواكب الناس» ، فقد أصدر كتابين ضخمين عن «أعلام دمياط» و«أعلام الإسكندرية».

ولأن نقولا يوسف كان تلميذاً للشاعر عبدالرحمن شكرى (١٨٨٦ - ١٩٥٨) وصديقا مقرباً منه، فقد أشرف على إصدار المجموعة الكاملة لشعر شكرى وقوامها سبعة دواوين نشرت في حياة الشاعر وديوان ثامن قام نقولا يوسف بجمع مفرداته من الصحف والمجلات . وأعانه في مراجعة الديوان والتقديم له أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومي. وقد أدهشنى أن أعرف أن المجلس الأعلى للثقافة قام مؤخرا بإعادة نشر ديوان شكرى المحقق أصلا، ولكن بتحقيق الشاعر فاروق شوشة!

كان نقولا يوسف على اتصال بريدى بعدد كبير من الأدباء في الداخل والخارج، وكذلك بالمستشرقين وكان يحتفظ بمجموعة من رسائل عبدالرحمن شكرى فنشرها في مجلة «الأدب» التي كان يصدرها الشيخ أمين الخولى (١٨٩٥ - ١٩٦٦) كما أن بعضاً من أصدقاء نقولا قام بنشر ما لديه من رسائله في مجلة «الأديب» اللبنانية بعد وفاته متأثرا باستسقاء الكبد.

كان نقولا متزوجاً من سيدة يونانية أنجبت له توأماً من الإناث ، ففجع بفقد إحداهما في صباها الباكر.

٢٠١ نجيب العقيقى

عمل نجيب العقيقى (١٩١٦ - ١٩٨١) اللبناني الجنسية في الإدارة الثقافية للجامعة العربية، ولكن الوظيفة لم تكن شاغله الوحيد، بل كان شاغله الانصراف إلى وضع الكتب الموسوعات، وأبرزها كتاب «المستشرقون» الذى صدرت طبعته الرابعة في ثلاثة أجزاء، وكتاب «من الأدب المقارن» الذى صدرت طبعته الثالثة في ثلاثة أجزاء، هذا عدا رواياته «أرض الله» و«برج بابل» و«تجفيف المستنقعات».

وعندما أحيل العقيقى إلى التقاعد من عمله في الجامعة العربية، آثر أن يقيم في القاهرة مكتفياً بزيارة قريته «كفر ذبيان» في جبل لبنان في فصل الصيف، على الرغم من أن المشروعات السياحية التي أقيمت حول القرية رفعت أسعار الأراضى التي يمتلكها هناك إلى رقم الملايين (طبعاً قبل انخفاض سعر الليرة اللبنانية حالياً).

ويكاد الجزء الثانى من كتاب «من الأدب المقارن» يكون المرجع الموثق الوحيد لسير الأدباء في مصر وسورية ولبنان والعراق والمهاجر الأمريكية وفلسطين والأردن، وكذلك للأدباء الذين صاروا يؤلفون كتبهم باللغات الأجنبية . ولأن الكتاب صدر في طبعته الثالثة في عام ١٩٧٦، أى منذ ربع قرن، فقد صارت مادته تحتاج إلى «تحديث» لأن هناك أدباء رحلوا وآخرين استجدوا . ولأن الآثار المنشورة أضيفت إليها آثار جديدة.

ولو مُد في عمر نجيب العقيقى ولم يخترمه الموت بأزمة قلبية في ٢٤ ديسمبر ١٩٨١ لأخرج لنا طبعات موسعة ومحققة من كتابيه المعلمين : «المستشرقون» و«من الأدب المقارن».

محمد عطية الإبراشى

كان محمد عطية الإبراشى (١٨٩٧ - ١٩٨١) أستاذاً مربياً جليلا يعمل مفتشاً في وزارة المعارف العمومية، وكان يهتم بصورة خاصة بكتب الأطفال فنشر عشرات منها تتفق مع كل مرحلة عمرية. كما كان من أوائل الدارسين لعلم النفس والمؤلفين فيه. وكنت أصادفه بوجهه السمح وابتسامته الحلوة وصوته الموسيقى، فلا أراه إلا عاكفا على التأليف والتصنيف، وقد شكا لى في المرة الأخيرة التى قابلته فيها من أن ناشرى كتبه باتوا يحاسبونه بواقع ٥ في المائة فقط من سعر الغلاف، وهى نسبة شديدة التواضع. كما كان يسألنى كلما لقينى عن تلميذه الوفى القاص الكبير يوسف جوهر.

محمد على الغتيت

عرفت القانونى اللامع محمد على الغتيت (المتوفى فى ١٢ يونيو ١٩٨٩) بعدما كانت الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها، وكان يعمل وقتها مستشاراً قانونياً لواحد من البنوك. وبمجرد أن انتهت الحرب، قرر أن يسافر إلى أوربا لزيارة البلدان التى كانت مسرحاً للقتال كى يستطيع فى ضوء مشاهداته وملاحظاته أن يتصور عالم ما بعد الحرب، وهى قضية كانت شغله الشاغل. وكنت أجلس معه ساعات طويلة نتحدث عن مصير العالم فى المستقبل، وكان هو متفائلاً فى حين كنت متشائماً. وقد عرضت لهذه المناقشات فى افتتاحيات الجريدة التى كنت أعمل بها. وقد نشر محمد على الغتيت كتاباً كبيراً عنوانه «الغرب والشرق من الحروب الصليبية إلى حرب السويس» .

رحم الله الجميع، ولا مات من خلف وراءه كتاباً مطبوعاً. ■

كتاب
الهلال
يقدم

سيرتي ومصر في القرن العشرين

بقلم
د. مصطفى سويف

يصدر
٥ مايو ٢٠٠١

روايات الهلال
تقدم

امرأة ما

بقلم
هالة البدري

تصدر
١٥ مايو ٢٠٠١

التكوين

كل ما يشغلني يرتبط بحقوق الملكية الفكرية في مجال المأثورات الشعبية

أحمد مرسي

مازلت أذكر ذلك اليوم من أيام الصيف ، وكأنه كان أمس أو أول أمس.. كنت أجلس الي جوار أبي - رحمه الله - علي المصطبة أمام بيتنا في القرية ، كعادته كل عصر ، وكعادة كثير من الكبار أثناء الصيف ..

كانت الأرض أمام البيت قد كنست ، ورشت بالماء كي لا يضايق التراب الذي تثيره أقدام المارة ، ومرور الماشية ، الجالسين علي المصطبة.. وكانت الحصيرة المعدة خصيصا لتتناسب طول المصطبة وعرضها قد فرشت.

كنت قد عدت من القاهرة لقضاء اجازة الصيف ، مع إسرتي ، كالعادة كل عام وكان يحلو لأبي أن يدعوني كي أجلس مع الكبار من الأعمام والأخوال وغيرهم ممن يرتادون جلسة العصر هذه.. كنت أجلس صامتا أستمع لما يدور من أحاديث وما يحكي من حكايات ونوادر وأخبار .. وحدث أن تأففت من التراب الذي اخذت تثيره الماشية العائدة من الحقول مع قرب غروب الشمس .. لم أكن أتصور ان أبي يلحظ تأففي أو ضجري، لانهماكه في الحديث مع الكبار ..





د. أحمد مرسي أثناء مناقشة إحدى الرسائل العلمية

وأذنت الشمس بالمغيب، وبدأ الجمع الموجود في التفرق للاستعداد لصلاة المغرب، والعودة الى البيوت لتناول العشاء.

وانتظر أبي حتى انصرف الجميع ليستوقفني قبل أن أدخل البيت وقال - وهو ما لا أنساه الى الآن - أنا شايفك قاعد يتْقلّق (قلقا متضجرا) من شوية التراب اللى البهايم حدفتهم (ألقتهم) علينا واحنا قاعدين .. اسمع (بلهجة غاضبة) التراب الي انت كنت عمال تتقلق منه ده.. لحم اكتاف ابوك منه. وهوه اللى بيأكلك وملبسك الهدوم (الملابس) اللى انت بتتعايق بيها فى مصر .. وإن ما احترمتوش (وإن لم تحترمه) مش هايبقى لك خير لا فى نفسك، ولا فى حد.. فاهم !!

أساس تكوينى

هل يمكنني القول أن تلك العبارات ظلت مختزنة في ذاكرتي، وأنها كانت الأساس في تكويني، وتوجيهي بعد ذلك دون قصد للتخصص في المأثورات الشعبية .. مأثورات أهلي من الناس العاديين الذين لايتأففون من «شوية تراب»، وإنما يخرجون من هذا التراب مايقيم الحياة، ويعمل على استمرارها ..

وهل كان لهذه العبارات أثر في مشاركتي بعد ذلك في العمل العام، والاهتمام بقضايا الوطن .. ربما ..

أعترف أنني أصبت بحيرة عميقة عندما طلب مني الصديق عاطف مصطفى زميل الدفعة مدير تحرير هذه المجلة المتميزة أن أكتب عن تكويني .. أي تكوين، فالكلمة كبيرة جداً غامضة جدا من وجهة

نظرى.. فعن أى تكوين أكتب.. عن التكوين منذ بداية الوعي - وعيى أنا بالطبع - حتى الآن .. أم عن التكوين المستمر الذى مازلت اقوم به ، وأعانى منه.. أم عما أطمح أن أكونه ، وقد يتحقق أو لا يتحقق ، فيما بقى لى من عمر ..

هل أكتب عن التكوين الإنسانى عامة، أم عن التكوين العلمي، أم عن التكوين السياسى، أم الوظيفى.. ام كل ذلك .. !!

وهل ينفصل الإنسانى عن السياسى عن العلمى.. أم أنها كلها جوانب متصلة يفضى بعضها الى بعض، ويسلم كل منها إلى الآخر ..

ظللت في حيرة شديدة، لا أعرف كيف أبدأ ، أو من أين أبدأ..؟!

وأمسكت القلم مرات ومرات محاولا أن أبدأ.. من أى نقطة .. أو من أى زاوية.. لكننى لم أستطع .. !!

تساؤلات !!

انتابنى الشعور نفسه وأنا أبدأ رحلتى مع الدراسة العلمية بعد انتهاء مرحلة الدراسة الجامعية الأولى ، عندما عينت معيدا، وكان على أن أدرس للحصول على الماجستير ، وأن أكتب رسالة للحصول على الدرجة ..

كانت الكتابة شيئا عسيرا مرهقا.. أجلس معتقدا أننى اهتديت إلى نقطة البداية.. فالمادة موجودة.. والخطة واضحة، والأدوات متوافرة مستكملة وأستاذى رحمه الله - يستحثنى على الكتابة .. لكن شيئا ما كان يجعلنى غير قادر على أن اكتب السطور الاولى، هل هو الخوف ؟! هل فى الرهبة باعتبارها التجربة الأولى؟! هل هو الإحساس بأننى مازال ينقصنى الكثير من المعرفة ومن التعمق فى الموضوع كى أبدأ الكتابة؟! لا أعرف .. !!

انتهيت آنذاك الى أننى يجب أن أجلس لأكتب وليكن ما يكون .. هذه هى المادة التى جمعتها .. وهذا هو ما حصلته.. وهذا هو ما فهمته .. وهذا هو ما انتهيت اليه.. وليحكم علىّ اساتذتى بما استحقه ..

كنت قد استشعرت سعادة بالغة عندما توصلت الى هذا القرار.. لكننى تبينت ان الوصول الى قرار ، رغم كل العناء والمشقة، يظل امرا سهلا، بالمقارنة بما ينبغى عمله لتحقيق القرار.. فلا الكلمات تطاوعنى ، وإذا طاوعتنى شعرت انها تخرج ماسخة بلا طعم، ثقيلة لا تعبر عما أريد ..

كنت أشعر أننى كمن يقف أمام مخزن ضخم هائل مليء بكل ما يخطر - وما لا



يخطر - على البال، قليل الحيلة ، عاجز عن ان يمد يده ليختار مايريد ، لما يريد..

أخرجني من حيرتي الحالية .. ما أخرجني من حيرة سابقة، صوت حنون باسم ساخر، هو صوت استاذي الدكتور عبد الحميد يونس - رحمه الله - قائلا ، ما كان قد قاله من قبل ليحفزني على البدء في كتابة رسالتي للماجستير يا واد (ياولد) اكتب.. انت لن تأتي - ولن يأتي غيرك - ببيضة الديك .. اكتب يا حصان (كان استاذي رحمه الله يستخدم كلمة حصان بديلا لكلمة اخرى) .. أكتب .. واخلص .. ولا تخف ..

ربما كان الأمر آنذاك خوفا، ورهبة بحكم السن وقلة الخبرة.. لكنه ليس كذلك الآن بالطبع .. ربما هو شيء آخر.. ربما هو الحيرة كما ذكرت.. وربما كان تساؤلا مشروعا عما إذا كان هناك ما يستحق الكتابة عنه فعلاً ..!!

هل يهم أحدا أنني ابن اسرة ريفية حرصت على تعليم ابنائها مهما كلفها ذلك؟!

اظن ان هناك ملايين مثلي ينطبق عليهم الأمر نفسه ..

هل يهم أحدا انني اصبحت استاذا جامعيا ؟! أظن ان هناك آلافا حققوا ذلك وتفوقوا فيه.. ولابد لكي يصلوا الى ماوصلوا اليه ان يكونوا قد قرأوا كثيرا، وأن يكونوا قد كتبوا وألفوا ، واتقنوا لغة - أو عدة لغات - اجنبية ، وسافروا شرقا وغربا .. وشمالا وجنوبا.. وأشرفوا على رسائل الماجستير والدكتوراه ، وناقشوا كثيرا منها أيضا.. وتخرج على ايديهم آلاف من الطلاب يملأون الدنيا، ويعملون في كل مكان .. ولابد ان كثيرين منهم قد استضافته برامج إذاعية وتليفزيونية، وشاركوا في مؤتمرات وندوات ولجان ومجالس وقدموا استشارات نفذ بعضها ولم ينفذ معظمها .. الخ.. وأن كل هذا شكل - ومازال يشكل - اركانا اساسية في تكوينهم وفي وصولهم الى ما وصلوا إليه ..

خبرات كثيرة

هذه مشكلة .. ثم إن هناك مشكلة أخرى لعلها تخصني وحدي.. وربما كانت تخص آخرين غيري أيضا .. وهي ترتبط بشعوري بأنني مازلت لم أحقق التكوين الذي حلمت به، ومازال يشغلني ..

ربما يبدو للوهلة الأولى أن تكويني قد اكتمل ، فأنا واحد من أقدم الاساتذة العاملين في الجامعات المصرية.. اشغل هذه الاستاذية منذ إحدى وعشرين سنة. وقد أتيح لي أن أحصل على خبرات كثيرة نتيجة لأعمال متعددة مارستها في سن مبكرة الى جانب عملي الجامعي .

لا شك أن عملي مستشارا ثقافيا لمصر في إيطاليا في أواخر السبعينات ، ثم في اسبانيا في أواخر الثمانينات قد اكسبني كثيرا من الخبرات ، واتاح لي أن اتعلم لغات لم افكر في تعلمها..

ولا شك أيضا أن عملي استاذا زائرا في بعض الجامعات الامريكية المتميزة، والأوروبية ، والعربية، قد علمني الكثير، واكسبني خبرات، ومهارات اسهمت في

التكوين

تعميق تكويني العلمي، ورؤيتي الإنسانية ، وفتح امامي آفاقا رحبة لم أكن أعرفها أو أتوقعها ..

كما أن مشاركتي في عشرات المؤتمرات العلمية والسياسية طوال مايزيد على ثلاثين عاما ومازال هذا قائما الى الآن قد صقلتني علميا .. وفتحت عيني وعقلي على الكثير .. اما العمل العام مع الشباب وبينهم وفي حقل الثقافة عامة طوال اكثر من ثلاثة عقود، علمني ، ومازال يعلمني .. وأثر ومازال يؤثر على رؤيتي في كثير من قضايا الوطن ، ومشكلاته ..

مثل شعبي أحبه !

أحب هذا المثل الشعبي المصري الذي يقول «اللي يحبي يقطعها جبال» أي أن الذي يحبو (أي يمشي على يديه وركبتيه كالطفل) ويظل يحبو، لابد أنه سيقطع الجبال.. احب هذا المثل، وأشعر بقدر هائل من الأسى والحزن ، عندما اسمع مثقفينا، وسياسيينا ، عندما يريدون ان يستحثوا همم من يتحدثون اليهم، وأن يبعثوا في نفوسهم الأمل، يستخدمون تلك العبارة التي تنسب الى ماوتسي تونج: «إن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة» وهي عبارة جميلة معبرة موحية دون شك، لكنها من وجهة نظري.. أقل كثيرا، من جميع النواحي من هذا المثل المصري الأصيل، الذي قاله مصري مجهول، لكنه عبر به عن جوهر الوجود المصري واستمراريته ..

ويمكن ان نستغرق هذه الصفحات في شرح ما يعبر عنه المثل رغم وضوحه الشديد .. وعلاقته بالثقافة المصرية، ودلالاته الإنسانية والتاريخية .. الخ .. لكن هذا ليس غرضنا هنا .. الآن على الاقل ..

أثر فيّ هذا المثل كثيرا .. فأكسبني إصرارا وتحديا وعنادا حتى مع نفسي .. كما كان دائما مترسبا في أعماقي.. عن وعي أو عن غير وعي.. كنت اشعر أنني في حاجة إليه.. ومازلت اشعر انني في حاجة اليه، وإلى ما يمثله من قيمة معنوية وسلوكية ..

والآن كيف أبدأ الحديث عن رحلة التكوين هذه ، ومن أين ؟!

المؤكد انني لن أتحدث عما قرأت أو شاهدت أو عما أثر فيّ من كتب قرأتها أو أماكن زرتها .. أو تجارب مررت بها .. لعلي افضل أن أتحدث عن بشر عن وكلما كنت قادرا على التواصل – غير المشروط – مع الناس تعلمت منهم ، وكلما تعلمت منهم – زادت قدرتك على التواصل معهم ، وهكذا ..

البشر .. الناس هم الأهم .. هم المدرسة .. والجامعة .. هم الحياة بكل ما فيها .. هم من قال عنهم المثل الشعبي المصري «جنة من غير ناس ماتنداس ... هم الذين يعطون للجنة معناها .. على حد قول المثل ..

«أناس» أثروا في اكثر مما أثرت



يوم حفل مجلة المواكب ويظهر في الصورة الدكتور يوسف خليف وزملاء الدفعة

الكتب وغيرها مما لابد أن تكون قد أثرت، فقد كنت - ومازلت الى حد ما - «فأر كتب» يقرض الكتب في أي تخصص وفي أي مجال ..!!

تعلمت أن الإنسان ليس مجرد وجود فيزيقي .. وإنما هو خلاصة تجارب وحيوات وخبرات .. كل إنسان - مهما كان عمره أو قدره أو موقعه - مكتبة حية مسموعة ومقروءة ، وهكذا علمني العمل في جمع المأثورات الشعبية الفولكلور ..

من هنا تحولت الى شيء اشبه بالاسفنجة التي تمتص كل ما يصل اليها ، رغم مظهرها الذي يبدو وكأنها لا تحمل شيئا بداخلها .. لكنك إذا عصرتها اخرجت بعض ما اختزنته ، ثم عادت لتمتص من جديد وهكذا .. ربما كنت في هذا مصريا أصيلا .. !!

ناس .. هم الجنة .. هم بالنسبة لي ما أنا عليه.. اسهموا على نحو أو آخر في صياغة حياتي وتكويني .. صوابا أو خطأ .. إيجابا او سلبا .. أذكر بعضا منهم هنا، ذلك أن المساحة المتاحة للكتابة لا تتسع للحديث عنهم جميعا ، ولا الزمان مناسب لذلك .

أبي ..

قرر أبي رحمه الله - ان يرسلني الى القاهرة لأتعلم في مدارسها ، فقد اكتشف أن الجيل السابق على من أبناء الاسرة لم يكملوا تعليمهم .. وكان تفسيره وهو صحيح ان السبب في ذلك انهم ظلوا قريبين من القرية متأثرين بها، يتفاخرون بأنهم أبناء ملاك أراض، لا حاجة بهم للتعليم ، وانعكست الصراعات الصغيرة بين العائلات عليهم، فانصرفوا عن التعليم، وتفرغوا للمهاترات والصراعات التي لا معنى لها .. كانت وجهة نظر أبي أنني إذا

بقيت في القرية ، فسينتهي بي الأمر الى نفس النهاية .. وكان هو يرى أن التعليم حياة ووجود .. لابد من أن يوفره لأبنائه .. ربما لأنه حرم من إكمال تعليمه لظروف خارجة عن إرادته .. وبسبب ظروف القرية وأسرته أيضا ..

مرت بنا ظروف صعبة ماديا .. بسبب ضعف إنتاج الأرض الزراعية التي نمتلكها .. ومرض أخ لي، هددت بعودتي - أنا وأخي الثاني - الى القرية توفيراً للنفقات .. ورفض أبي أن يستمع إلى نصيحة كبار الأسرة بأن نعود لنتعلم في عاصمة المحافظة القريبة من القرية.. وأصر على أن نستمر في القاهرة ..

سمعت هذا الحوار يدور ذات ليلة بين أبي وأمي ، في غرفتهما ، ليلا :

أمي : ياشيخ العرب (هكذا كان يلقب أبي) جلاليبك الصوف بقت (أصبحت) قديمة وماعدتش (ولم تعد) تنفع .. وانت بتروح (تذهب) تهني (تهنيء) وتعزي.. ومقامك كبير في البلد وحوالينا (وحولنا في القرى المجاورة) .. وأنا رايحة (ذاهبة) بكرة، مع سعد أخويا طنطا، باقول (اقترح) اقطعك لك حتتين صوف (أشترى لك قطعتي قماش صوف) تفصلهم جلاليب.. لاحسن عيب تلبس الجلاليب القديمة دى.. دى ماهياش مقامك (لا تليق بمقامك ومكانتك) .

أبي : اسمعي يا أم احمد.. أنا على المرسى.. بجلابية صوف أنا على المرسى.. بجلابية دمور (أرخص أنواع القماش الذي كان يرتديه الفلاحون أنذاك) أنا برضه علي المرسى .. بجلابية مهربدة (ممزقة) مرقعة، أنا على المرسى.. وفرى ياأم احمد الفلوس اللي هاتشترى بيها الجلاليب لأولادك اللي في مصر.. لأن دول ماحدش يعرفهم هناك .. وإن ماكانوش لابسين كويس ماحدش هايحترمهم .. نامي يا أم احمد ..

***

في صيف ١٩٦٠ وصلني بالقرية برقية من صديق لي تهنئني بأنني الأول على طلاب الفرقة الأولى بقسم اللغة العربية.. فرحت ، وفرح الأهل جميعا، ووزع الشربات على المهنئين .. لكن أبي لم يقل شيئا.. عبرت عن ضيقي لأمي.. فقد كنت أتوقع منه أن يهنئني سعيدا بما حققته .. لكن ذلك لم يحدث .. قالت أمي لتخفف من ضيقي ، إن أبي فرح سعيد بالطبع وإلا فمن الذى أتى بالشربات ، ومن الذى يستقبل الأهل الذين يأتون للتهنئة.. كنت أدرك كل ذلك بالطبع، لكنني انتظر من أبي - وكنت ومازلت اجله



التكوين

واحترمه ان يقول لى «مبروك» .

شاءت الصدفة ايضا أن استمع الى حوار بين أبى وأمى حول هذا الموضوع .

– أمى : ياسى على .. احمد صعبان عليه منك ..

– أبى : ليه .. خير ..

– أصل انت ماقلتلوش مبروك .

واقول له مبروك ليه ..

عشان نجح .

ليه هوه ما كانش عايز ينجح .

وسكتت أمى .. وتعجبت أنا .. ثم نمت.

فى الصباح وبعد أن انتهينا من الافطار.. وقبل أن أقوم لألقى الاصدقاء من ابناء الأعمام والأخوال كعادتنا كل يوم وجه إلى أبى الحديث قائلا :

– قل لى يا أحمد .

– نعم يا بابا ..

– انت ناقصك حاجة ..

– لا .. الحمد لله.. كتر خير حضرتك

– يعنى جيت فى يوم وقلت عايز بنطلون .. قلت لك لأ – لأ ماحصلش

قلت عايز قميص او شرز (بلوفر) او عايز تروح رحلة.. اولازمك حاجة قلت لك لا .. قلت عايز مصروف عشرة.. قلت لك لا .. كفاية خمسة ..

– لا يابابا .. كتر خير حضرتك .. بتقول لى لأ خد خمستاشر ..

– طيب .. لما يبقى مش ناقصك حاجة.. وعندك كل ما يلزمك وأكثر .. يبقى مطلوب منك إيه ..

– أذاكر

– ولما تذاكر .. مين اللى وفر لك إنك تقعد تذاكر ..

– حضرتك .

– يبقى مين اللى يشكر التاني ويبارك له . أنا اللى اشكر حضرتك .. و لم أنتظر حتى يكمل عبارته .. قاطعته ..

– لا أنا اللى اشكر حضرتك طبعا.. وأنا اللى أبارك لحضرتك ..

اظننى لست فى حاجة إلى بيان ما تحمله هذه المشاهد التى لا أنساها ، ولا تفارق مخيلتى من دروس وقيم .. لأننى إن فعلت اسأت من يقرأ ، واستهنت بقدرته على التماس ما بين السطور وهو واضح اشد الوضوح ..

أمـى

هذه السيدة الجميلة الطيبة.. التى تزوجته فى سن مبكرة جدا، وجاءت بى إلى الحياة وعمرها ستة عشر عاما ، ورحل عنها زوجها – أبى – وعمرها لما يتجاوز الخامسة والثلاثين ، تاركا لها ستة من الأبناء ، بين التاسعة عشرة والسادسة ، وأحدهم مريض بذلت هى مع أبيه كل ما استطاعا لعلاجه .

أعرف أننا جميعا نشيد بأمهاتنا، وأن كلا منا يعد أمه نموذجا فى التضحية .. وأنها تمثل الخير كله.. الأم مقدسة.. كل ذلك اعرفه.. لكن هذه السيدة التى باعت ما ورثته من ارض ، وما كانت تتزين به من مصاغ – مما يعد امانا للمرأة ، تقليديا ، فى مجتمعنا ، إزاء غدر الزمن أو الزوج او نكران الأبناء – كى نكمل تعليمنا ، وكى يعالج اخى، وكى لا يضطر أبى إلى

بيع أرضه ، مما يعد عارا، وفق نظرة القرويين الى من يفعل ذلك مهما كانت الاسباب ..

هذه السيدة التى اكتفت ، ومازالت ، بأقل القليل ، كي يصل ابناؤها الى ما حلمت به ، وما حلم به أبوهم .. رافعة الرأس ، كريمة على نفسها .. وعلى ابنائها ايضا .

هذه السيدة التى رأيتها لا تنام أياما وليالى .. تسند ابنها المريض الذى لا يستطيع أن يتحرك.. الى صدرها .. لاتتبرم ولا تشكو.. ولا تطلب .. من أين جاءت بهذه القوة ؟!.. من أين جاءت بهذا الرضا؟!.. ومن أين جاءت بهذا الصبر؟!

هل أنا فى حاجة إلى أن أذكر كيف أثر هذا فى تكوينى، وصياغة رؤيتى لنفسى ولغيرى؟!

أخى النجومى

هو هذا الأخ - رحمه الله - الذى كان مريضا بمرض معروف الاسم علميا، لكن اسبابه وكيفية مواجهته ، مازالت فيما اظن - مجهولة الى الآن .

كان اقرب إخوتى الى قلبى وعقلى ، ربما لأنه كان الأكثر حاجة إلى .. ولقد صحبته، بعد وفاة ابى ، طوال اثنين وعشرين عاما ، طفنا فيها على كبار الاطباء مصريين وغير مصريين، ودخلنا فيها كثيرا من المستشفيات لإجراء عمليات جراحية مختلفة ، يقطع فيها فى كل مرة قطعة من جسمه، ولا يتوقف المرض.. كان يسير على عكازين.. وكان يذهب الى المستشفى كمن يذهب إلى نزهة.. راضيا مبتسما.. لم يكن يسأله أحد عن حاله الا وسمع ردا واحدا لا يتغير رغم كل ما به وما يعانيه .. «الحمد لله» ..

رأيته خلال تلك السنوات الكثير الكثير.. مما جعلنى آكره عيادات الاطباء والمستشفيات ، وما جعلنى لا آخشى شيئا او أخاف شيئا، قدر خشيتى وخوفى من المرض.. الموت نفسه لا يخيفنى ... لا قيمة لمال او جاه او أى شىء إزاء المرض.. الذل هو المرض ..

عصمتنى علاقتى بأخى وصديقى وابنى النجومى من كثير مما كان يمكن ان أقع فيه من لهث وراء مال او جاه .. كان هو - ومازال - الضمير الذى يراقب ويوجه ويحمى ويخفف من عناء الحياة ، رغم كل معاناته هو .. فما نفع المال او الجاه .. أكان ايهما او هما معا سيعيدان إليه ساقه التى بترت تماما فى إحدى العمليات الكثيرة التى آجريت له .. أكان آحدهما او كلاهما قادرا على وقف زحف المرض.. أكان أحدهما او كلاهما قادرا على أن يخفف من وقع هذه العبارة التى اعتاد الأطباء ان يقولوها بعد فحصه بالانجليزية ، حتى لا يعرف اخى أو أمي طبيعة المرض .. It's almost hopeless case .. «إنها حالة ميئوس منها تقريبا ..

كثيرون علمونى وأثروا فى تكوينى .. أول



أثناء مناقشة رسالة الماجستير



أمي .. السيدة الطيبة التي ضحت كي تكمل تعليمنا

معلم لي .. الشيخ عوض أبو زرد.. شيخ الكُتاب في القرية - الخادمية «كفر الشيخ» - الذي علمني وعلم جيلي من أبناء القرية القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وجدول الضرب، وكان أبا ومعلما، ودودا بشوشا، صارما في آن واحد .. الأستاذ الكفراوي، مدرس من جيل من المدرسين، يصعب وصفه أو شكره .. قال لنا ذات يوم :

اسمع ياولد أنت وهوّه .. لما الواحد منكم يروح يشتري شقة فول أو طعمية «ساندوتش» طبعا بتاع الفول ها يلف له الشقة في ورقة جورنال «لم تكن الأكياس معروفة آنذاك» وأنت بتاكل .. ماترميش ورقة الجورنال .. بص فيها .. اقرأ .. يمكن تتعلم حاجة جديدة أو تستفيد معلومة تكبر دماغك، وتوسع مداركك .. وتخليك بني آدم..» .

الأستاذ محمود موسي ناظر المدرسة التوفيقية الثانوية .. أواخر الخمسينات

كنت تلميذا صغير السن، متفوقا، مزعجا، مدللا من جميع المدرسين، رغم «شقاوتي» فقد كان يشفع لي إزاء تلك «الشقاوة الطفولية» أن المدرسة كانت تعتمد عليّ اعتمادا كبيرا في الحصول على كأس أوائل الطلاب الذي كانت تقدمه الإذاعة آنذاك عن طريق عقد مسابقات بين مدارس مصر ..

لكن حدث ذات مرة أن تجاوزت حدود الشقاوة والازعاج المحتملين أو المسموح بهما، وقرر الأستاذ محمود موسى، ناظر المدرسة، حرماني من دخول المدرسة أسبوعا، وضرورة حضور أبي .. كانت أية عقوبة يمكن أن توقع عليّ، أو حتى الموت نفسه، أيسر عليّ من أن يعرف أبي بما

فعلت، ومايترتب على ذلك من حضوره الذى كنت أعرف ماذا يعنيه ذلك بالنسبة له .. انتابنى خوف شديد، وخرجت من حجرة الناظر باكيا .. لا أعرف ماذا أفعل؟! ذهبت إلى المدرس الذى يشرف على أوائل الطلاب، وحكيت له ماحدث باكيا معتذرا، مقسما ألا أعود لمثل مافعلت أبدا .. ورق المدرس لحالي، بعدما وجه إلى اللوم الضروري، وصحبني عائدين الى حجرة الناظر ليتوسط لديه فى الصفح عنى، والوعد بأن هذه آخر مرة . دخلنا إلى حجرة الناظر ودار الحوار التالي الذى مازلت أذكر تفاصيله كلمة كلمة .

المدرس : معلهش ياحضرة الناظر .. أحمد دا ولد كويس .. هوه شقى شوية ..

الناظر : الولد دا لازم يتأدب ..

– معلهش ياحضرة الناظر .. على ضمانتى المرة دى.

– مافيش معلهش .. فيه أدب .. فيه احترام .. دا ولد قليل الأدب ولازم يتربى.

– أنا مسئول عنه ياحضرة الناظر .. ومعلهش سامحه المرة دى.. وهوه هايمشى كويس بعد كده .. وإذا حصل منه حاجة بعد كده .. يتفصل نهائى .. ويعدين فيه حاجة مهمة ياحضرة الناظر .. احنا عندنا آخر مباراة على كاس أوائل الطلبة بعد يومين .. وحضرتك عارف .. أحمد دا بنعتمد عليه أد إيه .. من غيره نخسر الكاس ..

– نخسر الكاس يا أستاذ .. أنا مايشرفش المدرسة أن ولد زى ده قليل الأدب هوه اللى يخليها تكسب .. مش عايزين الكاس ولاعشر كاسات .. الولد دا لازم يعرف إن التلميذ تلميذ وإن المدرس مدرس .. وفيه حاجة اسمها كبير .. ويعرف يعنى إيه احترام الكبير .. واحترام اللى بيعلموه .. لازم يعرف يعنى إيه مدرسة .. لازم يجيب أبوه أو ولى أمره .. عشان يربيه أو يساعدنا فى تربيته .

– خلاص ياحضرة الناظر .. اعتبرنى ولى أمره .. واللى سيادتك تأمر بيه يتنفذ.

– خلاص ييجى المدرسة، ولابد من عقابه قدام زملاته .. عشان يبقى عبرة لغيره .. ومايشاركش فى أوائل الطلبة .. مايهمنيش الكاس .. إنما يهمنى الأخلاق .

خسرت المدرسة الكأس .. وكان يوما لاتنفع أى كلمة أعرفها فى وصف شعورى يومها بالحزن .. لكننى تعلمت من أستاذى محمود موسى رحمه الله إن كان فى رحابه، ومتعه الله بالصحة إذا كان حيا .. جزاء ماعلمني ..

أستاذي د. عبد الحميد يونس

أستاذى الدكتور عبد الحميد يونس .. الذى أدين له بالكثير .. فما أتاحه لى بصحبتى له سنين طويلة يحتاج إلى كتاب كامل .. ولا تفى به صفحات محدودة .. يكفى أن أذكر ماقاله لي ذات يوم – وأنا مازلت فى بداية الطريق – اسمع يا واد .. سأقول لك ما قاله لي من قبل أستاذى المرحوم الشيخ أمين «أمين الخولي» وضع

التكوين



ما سأقوله لك حلقة في أذنك .. احفظ هذه المعادلة جيدا .

ط = أ + ز.

فلما سألته عن معنى المعادلة . قال «الطالب يساوى الأستاذ زائد الزمن» إنك إذا أصبحت مثل أستاذك، فمعنى هذا أننا لانتقدم، وأننا «محلك سر» وإذا أصبحت أقل من أستاذك فهذه مصيبة، ومعنى هذا أن نرجع إلى الوراء .. إن عليك أن تكون خطوة بعد أستاذك .. تضيف إلى مافعله، وتبنى عليه .. هذا هو مايجب أن يكون .. وينبغى أن تعرف أن الأستاذ العظيم إنما يقوم به طالب عظيم..»

لا أظننى فى حاجة إلى التعليق !!

هل يمكن القول إن ماحكيته يشكل بعض أسس التكوين ... أظن ذلك !!

وسأستأذن فى القفز إلى تكوين حالى أحاوله، خاصة أنه بالنسبة لى على الصعيد الوطنى، وعلى الصعيد الشخصى أمر بالغ الأهمية لأنه يرتبط بالحاضر والمستقبل، خاصة فيما يثار الآن عن «العولمة» و«اتفاقيات الجات» ومايترتب على كل ذلك من تغيرات حادة ستشهدها المجتمعات الإنسانية، إن آجلا أو عاجلا .

والموضوع الذى يشغلنى الآن هو مايرتبط «بحقوق الملكية الفكرية فى مجال المأثورات الشعبية» فى إطار الاهتمام العالمي الآن بهذا الموضوع .

لقد بادرت الدول النامية، خلال العقود الأخيرة من القرن الماضى بالمطالبة بضرورة توفير الحماية لمواد الفولكلور والمعارف الشعبية، وهو ما نصطلح علميا فى ثقافتنا العربية على تسميتها «المأثورات الشعبية» وذلك عن طريق جمعها وتصنيفها وتوثيقها بهدف منع استغلالها دون مقابل .

وفى هذا المجال فإن هناك من يرى أن طبيعة المواد الفولكلورية ، والمعارف الشعبية «المأثورات الشعبية» باعتبارها كلها ميراثا ثقافيا، وتعبيرا عن شخصية وثقافة شعب معين أو جماعة معينة، وتعد فى حد ذاتها عائقا أساسيا أمام توفير الحماية بأشكالها التقليدية المعروفة.

ويأتى هذا فى المقام الأول - تبعا لوجهة النظر هذه - من أنه ليس هناك شخص بعينه يستطيع إدعاء ملكية هذه المواد، وطلب الحماية لها، على أساس أنها مجموعة أنظمة من الحقوق المتوارثة، تخص الشعب أو الجماعة .

هذا بالإضافة إلى أن هناك صعوبات سياسية وفنية كبرى تقف حائلا دون

د.أحمد مرسي

- خريج كلية الآداب جامعة القاهرة قسم اللغة العربية سنة ١٩٦٣
- يعد من أقدم الأساتذة العاملين فى الجامعات المصرية
- عمل مستشاراً ثقافيا لمصر فى ايطاليا أواخر السبعينات وفى أسبانيا أواخر الثمانينات
- عمل استاذا زائراً فى بعض الجامعات الأمريكية المتميزة والأوروبية والعربية
- شارك فى عشرات المؤتمرات العلمية والسياسية طوال مايزيد على ثلاثين عاما .

تحديد دقيق للمواد أو المصنفات الفولكلورية والمعارف الشعبية بجميع أشكالها، من جانب المتخصصين في كل مجال من المجالات التي تشملها هذه المصنفات وبالتالي يمكن إدراجها ضمن إطار قانوني يسمح بفرض عقوبات محددة على مايعتبر حقوقا للغير.

والحقيقة أن قضية حماية هذه المواد من القضايا الشائكة في مجال الحماية الفكرية، باعتبارها أولا : قضية ذات طبيعة عالمية، وثانيا : لوجود صعوبات متعددة ترتبط بتحديد صاحب الحق في الملكية الفكرية لهذه المواد، وثالثا: لأن هذه المواد ذات طبيعة خاصة تختلف عن غيرها من المواد والمصنفات الفكرية والفنية والعلمية التي تشملها قوانين حماية الملكية الفكرية.

إننا نرى أن هذه المشكلات والصعوبات ناشئة - في المقام الأول - من أن هذه المواد والتعبيرات المطلوب حمايتها، لم تجمع جمعا علميا منظما في بلدنا، وبالتالي لايوجد أرشيف يقوم على توثيق هذه المواد وحفظها وصونها، ومن هنا فإن الجهد ينبغي أن يكون مضاعفا لتجميع وحصر وتوثيق وتصنيف هذه المواد، ونعني بها مواد المأثورات الشعبية، التي لايختلف المتخصصون عليها، مهما اختلفت الثقافات والمجتمعات، وعلى ذلك فإن إنشاء الأرشيف يصبح هو الخطوة الأولى والأساسية لتحقيق الحماية والصون بالمعنى الأوسع والأشمل، قبل أن نتحدث عن الحماية القانونية ضد الانتهاب

وسوء الاستخدام، ونحن نرى أن هذا لن يتحقق دون أن يتفق - ولا نقول أن يجمع - المتخصصون في المأثورات الشعبية «الفولكلور والمعارف الشعبية» على تحديد واضح، على الأقل، في إطار الثقافة الوطنية التي ننتمي إليها، للمواد التي يرون أنها في حاجة إلى الحماية.

أما الخطوة الثانية من وجهة نظرنا فهي تحديد أكثر دقة للعناصر الجديرة بالحماية، وهنا لعلنا نطرح مجموعة من الأسئلة لمناقشاتها فربما ساعدت الاجابات التي يتم الاتفاق عليها في حل كثير من المشكلات العلمية، ومن ثم القانونية:

- هل الأجدر بالحماية المأثور الأقدم، وماهو معيار القدم؟

- هل الأجدر بالصون المأثورات الحية المتداولة بين الناس والتي يخشى عليها من الضياع نتيجة تأثير وسائل الاتصال الحديثة من راديو وتليفزيون .. إلخ .

هل يكون المعيار الأخلاقي مثلا محددا لما هو جدير بالحماية، دون النظر إلى أي اعتبار آخر؟

منذ عدة سنوات ، وأنا لايشغلني إلا التعرف على القوانين الخاصة بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة، وكل مايرتبط بالملكية الفكرية التي تعد من وجهة نظري أهم مافرضته اتفاقيات الجات.. وأحاول مع زملاء يقلقهم الأمر أن نصل إلى طريق نطمئن إليه، وإلى أنه سيؤدي بنا في النهاية إلى الحفاظ على مأثوراتنا الشعبية وحمايتها، وتأكيد ملكيتها لأصحابها الناس ..

وهنا تنشأ الصعوبة الكبرى التي نجتهد في ايجاد حل لها



أثنا اللقاء مع الملك خوان كارلوس ملك إسبانيا

إننا نقترح، قياسا، على ماورد في الاتفاقيات والقوانين الخاصة التى تنظم حقوق الملكية الفكرية مايلي:

أولا : مادامت ملكية الفولكلور والمعارف الشعبية «المأثورات الشعبية» ملكية عامة، لأنها بطبيعتها لاتخص فردا بعينه، ولايستطيع فرد أن يدعى ملكيته لها، وإنما هى ملكية للجماعة أو المجتمع، فإننا نقترح أن تكون الدولة باعتبارها الكيان السياسي والقانوني الممثل لأفراد المجتمع وكيلا لهؤلاء المؤلفين الشعبيين المجهولين، ممثلة فى أرشيف وطنى لهذه المأثورات تنشئه وتقوم على توفير الامكانات البشرية و المادية الضرورية للجمع والحفظ والتصنيف والأرشفة.

ثانيا : يترتب على إقرار هذا المبدأ، اعتبار المؤدين سواء كانوا رواة سير، أو مغنين شعبيين، أو رواة حكايات، أو صناعا شعبيين، أو معالجين شعبيين .. الخ، نوابا على المؤلف الأصلي، وتطبق عليهم فى هذا الصدد المواد القانونية المتضمنة فى قوانين حماية الملكية الفكرية وفى هذه الحالة من الضرور أن تتضمن القوانين المحلية للملكية الفكرية قواعد توزيع العوائد المادية، وفقا لنسب محددة، يشترك فيها الأرشيف والجامعون والمؤدون.

هذا آخر ماشغلني ويشغلني وماجعلني أقرأ، وأشارك فى حضور مؤتمرات، وورش عمل فيما يتصل بهذا الموضوع الحيوى الهام الذى يمس جوهر ذاتيتنا الثقافية .

وكل ما أرجوه أن يجد الاهتمام الذي يكافىء أهميته وخطورته. ■

أنت والهلال

مجلة العرب الاولى

نتوقف طويلا عند قضايا الثقافة التى تطرحها الهلال، وهذا التنوع الذى نشهده في الموضوعات المختارة التي تحقق لنا المتعة ونظل نقرآها على مدى شهر كامل في انتظار العدد الجديد، وما يحمله لنا من موضوعات أراها في غاية الاهمية لأنها تناقش قضايا معاصرة، نهتم بها نحن الشباب.. خاصة فى مجال الكمبيوتر والانترنت ، وتلك الموضوعات المهمة التي يتناولها الكاتب والعالم الكبير الدكتور أحمد مستجير ، ولابد أن أشيد بمقالات الدكتور مصطفى سويف الذى يفلسف لنا ما مر في حياة مصر من أحداث جسام، ورؤيته الثاقبة لهذه الأحداث وتعليقه عليها بشكل يؤكد لنا عمق نظرته وخبرته الطويلة كأستاذ جامعى له مؤلفاته التي يعتد بها.

لكن يأتى إلى صديقى يحدثنى، ترى هل زاد ثمن نسخة «الهلال» وياترى هل يعود إلى أسعاره القديمة وأتعجب .. كيف يتوقف عند ملاحظة كهذه ونسى أن يرى هذا التطور فى اختيار المادة، وتنوعها ، فضلا عن الاهتمام الشديد بالإخراج ونوع الورق، حتى أصبحت «الهلال» بحق هى مجلة العرب الأولى، تواصل دورها التنويرى.

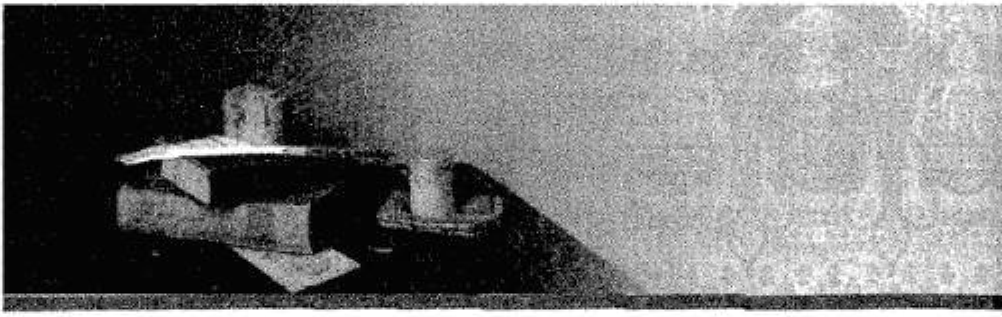
نود المزيد ونحرص على اقتنائها ، فالى الأمام.

صلاح المغربي
بلقاس - دقهلية

نور العيون



تطحن الحب وتطهو الأمسيات
فى فطائر
من مشاعر
تعصر التفاح ممزوجا بتعبير مسكر
وتصب الكأس عنبر
من حكاياها القديمة
وتحيل الليل ذى الستر الموشي
حلم شاعر
وبساتين جميلة
وخميلة
تحمى أفراخا وتلقى
بظلال من حنان
وتحيل الريح أنساما عليلة
وصباح اليوم يسعى
خطوها نحو الحياة



تمنح الأطفال أسباب الحياة
تمنح الدم لشريان الحياة
تنزف اليوم تفاصيل الحياة
تتهاوى قلعة الحب تسلم
بعد أن جفت ينابيع الحياة
فى العيون
لن تهون
استحالت دمعة بين الجفون
أصبحت فى العقل والقلب شجون
روحها فينا ودم القلب ينبض
لن تهون
كونها كل لجزئى
كونها نور العيون

د. حسنة عبد الحكيم عبدالله
كلية بنات عين شمس

فن الزجل والمونولوج

مجالات التعبير بالزجل رحبة واسعة قلما يتسع لها شعر الفصحى نظراً لارتباط الألفاظ العامية المستخدمة فيه بواقع حياتنا اليومية المعيشية، والتصاق هذه الألفاظ بمفاهيمنا مما يعطى لغة الزجل تفوقا فى مجال التعبير خاصة بالنسبة للذين لايستطيعون استيعاب شعر الفصحى . ومن هنا ارتبط فن الزجل بفن المونولوج.

وكان لفن الزجل إسهامات وطنية مؤثرة فى إذكاء الروح الوطنية إبان ثورة ١٩١٩، وكذلك فى المواقف الوطنية للشعب المصرى فى فترات تولى الحكومات المناوئة للروح الوطنية فى الكفاح ضد الانجليز قبل جلائهم عن مصر عام ١٩٥٢.

وأبرز زجالي التاريخ المعاصر بيرم التونسي وبديع خيرى ثم محمد مصطفى حمام وأبو بثينة وابن الليل وأبو السعود الابيارى وجليل البندارى، والأربعة الأخيرون يعدون من أبرز مؤلفي المونولوج خاصة فيما أداه اسماعيل ياسين وشكوكو وسعاد أحمد وثريا حلمى وغيرهم.

وكان توقف صدور مجلة (البعكوكة) راعية هذا الفن فى مصر فى أوائل الخمسينات ضربة قاصمة لهذا الفن الجميل إلى أن ظهر صلاح جاهين فى أواخر الخمسينات فانعشه بعض الشيء - حتى توفى .

يحيى محمود حسين
القاهرة - مصر الجديدة

حبيبتى

ياشمعة ضاءت لى كل الدجى
وتفتحت أزهارها برضاكى
وترنمت كل الطيور .. حبيبتى
غنت على أوتارها اهواكى
كل البلابل يعرفون لصوتك
دفئاً وألحاناً وعودا «باكى»
ياوردة بعثت أريج محبة
وتنفست كل الطيور هواكى
وترنم الكروان فيك بصوته
وتذكر الله الذى سواك
وتنفس الصبح المضىء بنوره
من لحظك الفتان والفتاك
صمت اللسان عن الكلام تأدباً
واهتزت الأغصان حين لقاكى
وترقرقت عيناى بالدمع الذى
يبيه قلب حبيبك المشتاق
وتسمرت قدماى فى دار الهوى
واستنشق القلب الغريم شذاكى

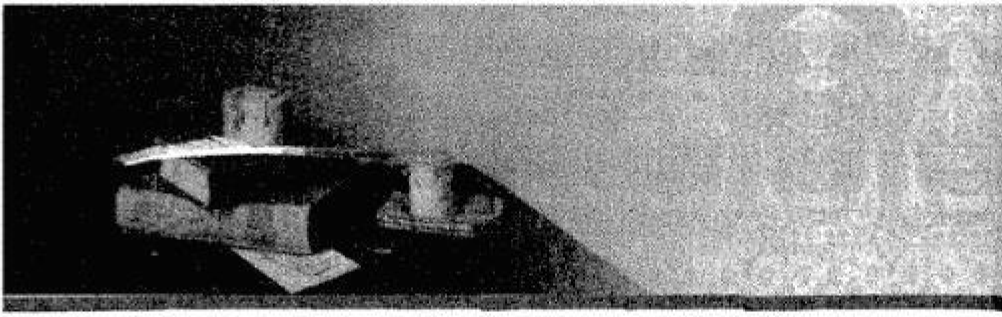
أحمد نادى بهلول
المندرة بحرى - ديروط

رحيل الفنان محمود بقشيش

فقدت الحركة الثقافية والتشكيلية العربية واحداً من أنبل فرسانها هو الفنان محمود بقشيش حيث كان نموذجا للفنان المؤمن حقا برسالته وبقضايا أمته.

حصل محمود بقشيش على جائزة الدولة التشجيعية فى الرسم عام ١٩٨٧، كما حصل على جائزة التحكيم فى الرسم فى بينالى القاهرة الدولى الرابع، عن لوحات مرسومة بأقلام الرابيدوجراف.

تضمنت كتاباته انحيازات وتوجهات ومعارك صريحة عشق منذ صغره خامة الأقلام الرصاص، وعدها خليقة بتحقيق وعدها المأمول بالحرية، فأقام لها معرضا كاملا بأتيليه القاهرة سنة ١٩٧٧، أطلق عليه اسما لافتا للنظر والانتباه ، هو العودة إلى



البدهيات، وكأني به يخوض معركة المفهوم والتأسيس، أو المادة والشكل ضد الصورة، حيث الصورة هي الشكل الأخير بلغة أرسطو، من هنا اكتشف بقشيش مدينة سيوه، وأطلالها القديمة المتداعية فى مطلع الثمانينات.

أسهم فى إصدار مجلة سنابل مع الشاعر محمد عفيفى مطر كما كانت كتاباته فى الهلال نوعاً من النقد الهادف البناء الذى ينير الطريق إلى جيل من الفنانين..

فسلاما على روح بقشيش الطاهرة بعد رحلة من العطاء فى مجالات الفن والثقافة.

أسامة عرابى - القاهرة

ذات مساء



من سبع سنين ذات مساء
كادت ترمينا الأقدار
بسهام الفرقة والاعصار
كادت تنفينا / تشطرنا
كى تصهرنا في بوتقة النسيان
تنفينا بقصر التيه
بقرب أشواك الصبار
كى نفقد أحلى امانينا
وحتي ننسى ماضينا
فتواجهنا بخطايانا الموءودة
وتمزقنا احلام الغد
فننسي حوار اغانينا
لكن قوانا اجتمعت
عادت ثم ائتلفت
من بعد خصام
صار يضام
عاد الحب يجمعنا
عن حب هم يضيع
فتلاشت أيدى الخطر الممتد
وراحت كسراب التيه

عصام شريف- الجيزة

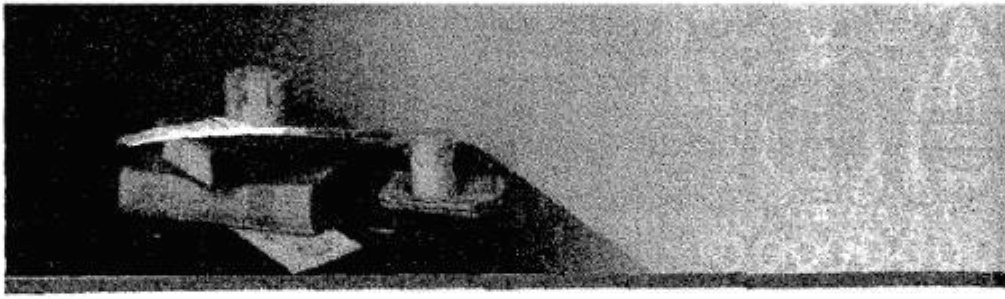
اقفل الراديو

قصة قصيرة

ليس من الأهمية فى شىء أن تكون الأزرار متحدة النوع، مادام واضحاً أن لون الجلباب واحد، تلك البقع الشاحبة التي تتعاون لترسم دائرة على كل كتف ، يستطيع المتأمل المدقق أن يكتشف أنها بفعل الطبيعة ... ما ألعن أن يدمن الإنسان طعاماً واحداً، ترى هل يشقى «البهوات» بأكلهم اللحم يومياً كما نشقى نحن بأكل الجبن ثلاث مرات يومياً معظم السنة، ومرتين يومياً في موسم نضج الباذنجان والفلفل ..؟... اللحم!!... أذكر بوضوح آخر مرة ذقته فيها .. يومها أعلن فى البلدة عن قدوم بعثة حكومية «لتعفير» بيوت الفلاحين ... كانت الحكومة وقتها تحارب القمل والبق والبراغيث اللعينة التى تمتص دماءنا فى شراهة «وتنط» بعيداً دون أن نتمكن من الإمساك بها .... يومها ... - يوم أن ذقت اللحم آخر مرة - ماتت عنز جارتنا أم العز بعد أن أكلت حشائش حملتها إليها صاحبتها من حقل مرشوش بالمبيدات الحكومية..

- ومازالت اللجنة الاقتصادية المشتركة المشكلة من الأحزاب السياسية تواصل اجتماعاتها للبحث عن بدائل إلغاء الدعم، ومن المنتظر أن ..

- اقفل الراديو ..
- فيه مباراة بعد النشرة يابا .
- فيه إيه ؟
- مباراة ....
- إيه؟
- لعب كورة يابا ...
- كورة إيه ؟ اقفل الراديو يا ابنى ......
- لا يابا ... اعمل معروف .... دى مباراة قومية.
- مين؟
- مصر هتلعب يابا ....
- ياابن الكلب ... هو احنا مافيش ورانا حاجة غير اللعب؟
- يابا ... اعمل معروف.



بعد غد السبت ... يكون قد حل موعد القسط الأسبوعي ..جنيه وريال من ثمن الجلباب، جنيه ونصف من ثمن الراديو ، الراديو ترف لم يكن لازماً لولا زوجتي المريضة التي تحتاج إلي تسلية، يقضي الولدان الكبيران يومهما في مقاومة اللطع في حقول القطن، وهي وحيدة في المنزل وهذا «المفعوص» ليس يعنيه شيء سوى اللعب ، المدارس تفسد الأطفال الآن، إنهم يعلمونهم في المدارس «الكورة» ويطلبون منهم شراء «فانلات» وهذا مايغيظني.

طبيبة الوحدة الصحية رفضت بقاء زوجتي في المستشفى نهائياً حجزتها أسبوعاً ثم طردتها فطابور المنتظرين الحجز أكبر من عدد سرر المستشفى، معظم المنتظرين دخول القسم الداخلي سينعمون بأكل الرز، لاأنسى طعمه يوم حجزوا زوجتي.

حتى البرشام الذي كانوا يوزعونه على المحجوزين قيل لنا إن فيه غذاء وشفاء وصحة..

– وتؤكد الحكومة أنه لامساس بمحدودي الدخل ... وأن الإجراءات التي يقترحها صندوق الـ ..

– يابا اعمل معروف سيب الراديو .. مصر هتلعب بعد النشرة.

هل تلعب مصر فعلاً؟ مؤكد أن هذا الولد يعبث بي ... إن الحكومة لايمكن أن تلعب أخواه الكبيران يكسبان لأنهما لم يلتحقا بالمدرسة أما هو فليس يهمه غير ...

– الله يخرب بيتكم ... كورنر تاني؟

– يخرب بيت مين يا ولد ؟

– الله حي .. هوب .... هوب .

– انت يابجم ؟

– يا مسهل .. ياللا ..

– ....

– يابا اعمل معروف سيب الراديو ... مصر بتلعب حلو ..

د. مصطفى رجب

المنفى .. المقيم

إلى المنفى من الوطن المقيم فى قلوب الملايين الشاعر الرقيق : أحمد مطر

إلى من تجلى بحسن النظر
وأبصر فينا جليل الخطر
فهبت ليوقظنا قائلاً:
ألا فانهضوا ياغفاة البشر
افيقوا فقد طال هذا الرقاد
أما للضمائر من مزدجر؟!
فقد عبثت في حمانا القرود
وسادوا علينا رعاة البقر
وحكامنا ثلة أقسمت
بألا تبالى بهذا الخبر
وأن تجعل الشعب خدامها
وعبادها، أو ندامى السمر

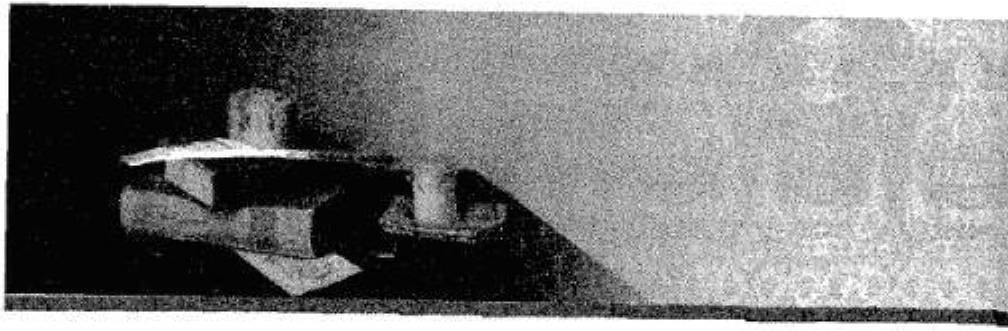
***

إلى من قوافيه نبض الفؤاد
وأحرفه للطغاة شرر
وأسلوبه إن بدا ساخرا
ولكنه من ثمين الدرر
يحن إلى الدار في لوعة
ويشتاق أغصانها والثمر
ويشتم أنسامها من بعيد
ورغم المسافات يطوى السفر
غريب ولكنه عاشق
لنهر الفرات وضوء القمر
يتوق إلى باسقات النخيل
وفى قلبه رائعات الصور

***

أخى، إننا فى زمان عجيب
وعيش مرير وعمر أمر
تقاذفنا الموج فى أبحر
وعن عمقها مالنا من مفر
على أننا لن نحيد الطريق
وفى أرضنا غيثكم يامطر!!
لك المجد ياأصدق الثائرين
ويامن لنا جاد فيه القدر
نفوك من الدار لم يعلموا
بأنهم المنفيون الآخر
وأنك فى كل قلب مقيم
وأنت تجود بأحلى الفكر

درهم جبارى
سان فرانسيسكو-أمريكا



من أجل ما تبقى من آثار دمياط

فى حياة كل أمة مدن تاريخية ساهمت فى تشكيل ملامح تاريخها، ويعد ثغر دمياط احدى هذه المدن التاريخية التى أثرت بموقعها الجغرافى المتميز ونشاطها الاقتصادى على حركة التاريخ المصرى السياسي والاقتصادى منذ أن كانت ميناء مصر الأول وأهم ثغور العالم الاسلامى. ونتيجة ذلك عانت دمياط من ويلات هجمات الروم على الشواطىء المصرية خلال القرون الهجرية الثلاثة الأولى بعد الفتح الاسلامى، كما كانت دمياط محطا لانظار أشد الحملات الصليبية شراسة (حملة جان دى بيرس ولويس التاسع) هذا بالاضافة إلى دورها التاريخى المهم فى العصر الرومانى والذى دلت عليه آثار تل البراشية المكتشفة حديثا بدمياط . وعلى الرغم من هذا الدور التاريخى المهم إلا أن الزائر لهذه المدينة العظيمة لايكاد يشعر بالثقل الحضارى والتاريخى لها وذلك لقلة آثارها الباقية مقارنة بالمدن التراثية المصرية (كرشيد وفوة والقاهرة والاسكندرية والاقصر) وغيرها وذلك لاندثار معظم آثار دمياط لظروف تاريخية وطبيعية كهدم دمياط عن آخرها فى عصر بيبرس للتخلص من خطر الحملات الصليبية وفترات اضمحلال دمياط والتى باعت خلالها الأوقاف تكايا ووكالات دمياط وهدمت منارات المساجد الأثرية دون التفكير حتى فى تصويرها.

ومأساة مسجد المعينى ذى الواجهة الصخرية العظيمة تحدث ولا حرج هذه التحفة التى ابدعتها الهندسة الاسلامية عام (١٣١٠م) فى عهد قلاوون عصر الفن والجمال تحول هذا المعهد الدينى والمسجد الشامخ إلى مأوى آمن للزواحف والحيوانات الضالة وذلك بعد هدم مناراته الاثرية واغلاقه منذ سنوات بعيدة والاكتفاء ببناء زاوية صغيرة للصلاة خلف المسجد الاصلى.

اعيدوا إلى دمياط مكانتها التاريخية الحقيقية اعيدوا آثارها وقصر ثقافتها المغلق اضمن لكم عائشة عبدالرحمن أخرى وعلى مشرفة آخر وغاياتى آخر وأبو فاشة وزكى نجيب محمود و.........و......... الخ.

محمد إبراهيم القبرصلى
دمياط

الكلمة الأخيرة

نظامنا التعليمي في أزمة



بقلم: د. عبد العظيم أنيس

مع الاعتذار للأستاذ الدكتور حسين كامل بهاء الدين ينبغي أن نعترف أن نظامنا التعليمي في أزمة. فرغم الجهد الكبير الذي يبذله الوزير في تحسين صورة التعليم، فإن الجو العام لأحوال المجتمع المصري من انفتاح (سداح مداح) وأزمة اقتصادية وبطالة وتغير في القيم.. إلخ، أقوى أثرا بالسالب على صورة التعليم من أي جهد يبذله الوزير. وإليك بعض مظاهر هذا التدهور الذي يراه الجميع وإن أنكره البعض:

● عودة المصروفات: وأنا أطلب من القارئ ألا يصدق هذا الحديث المجوج عن مجانية التعليم في مصر فطالب الابتدائي في المدرسة الحكومية (وهم أفقر شعب مصر) يدفع ٢٠ جنيها سنويا والاعدادي ٣٠ والثانوي ٤٠ جنيها أما المدارس التجريبية وهي مدارس الحكومة فيدفع التلميذ ٣٠٠ جنيه سنويا.

● وباء الدروس الخصوصية: عندما كنا تلاميذ كان هناك القليل من الدروس الخصوصية للتلاميذ الضعاف في مادة أو مادتين لكن ما هو موجود اليوم هو تعليم مواز لتعليم الوزارة في البيوت والشقق المستأجرة يكاد يساوي في أهميته - أو يفوق - جهد المدارس الحكومية، وأولياء الأمور يدفعون سنويا ٧ مليارات جنيه في الدروس الخصوصية، وهي أحد أسباب حالة الركود الاقتصادي في رأي بعض علماء الاقتصاد. والدروس الخصوصية تتم في كثير من الأحيان بمعرفة المسئولين في المناطق التعليمية والحزب الوطني في الأقاليم.

● تعليم أجنبي ضد التعليم الوطني: هناك العديد مما يسمى مدارس دولية أمريكية أو بريطانية أو فرنسية إلخ، وهي تدرس مناهج خاصة بها وليست المناهج الوطنية وكأننا لم يعد يكفينا أن يوجد منذ الطفولة تعليم ديني وتعليم مدني فأصبح لدينا تعليم أجنبي. حتى المدارس الخاصة مثل B.B.C تفخر أنها مدارس دولية!.

● تعليمنا تعليم طبقي: فأبناء الفقراء مصيرهم إلى المدارس الفنية التجارية والزراعية والصناعية وهناك نسبة غير صغيرة منهم تتسرب من التعليم الأساسي وخصوصا البنات وبدون فهم هذه الحقيقة يستحيل أن نفهم ظاهرة اشتغال الأطفال في سن مبكرة.

● تعليمنا لا يشجع على الابداع: ويتمثل هذا في سوء المناهج وضخامتها وعدم إعداد المعلم الكفؤ وبالتالي فتلميذنا هو تلميذ التلقين الذي يفشل غالبا عند الوصول إلى مرحلة الجامعة رغم الدرجات العالية في الثانوية العامة.

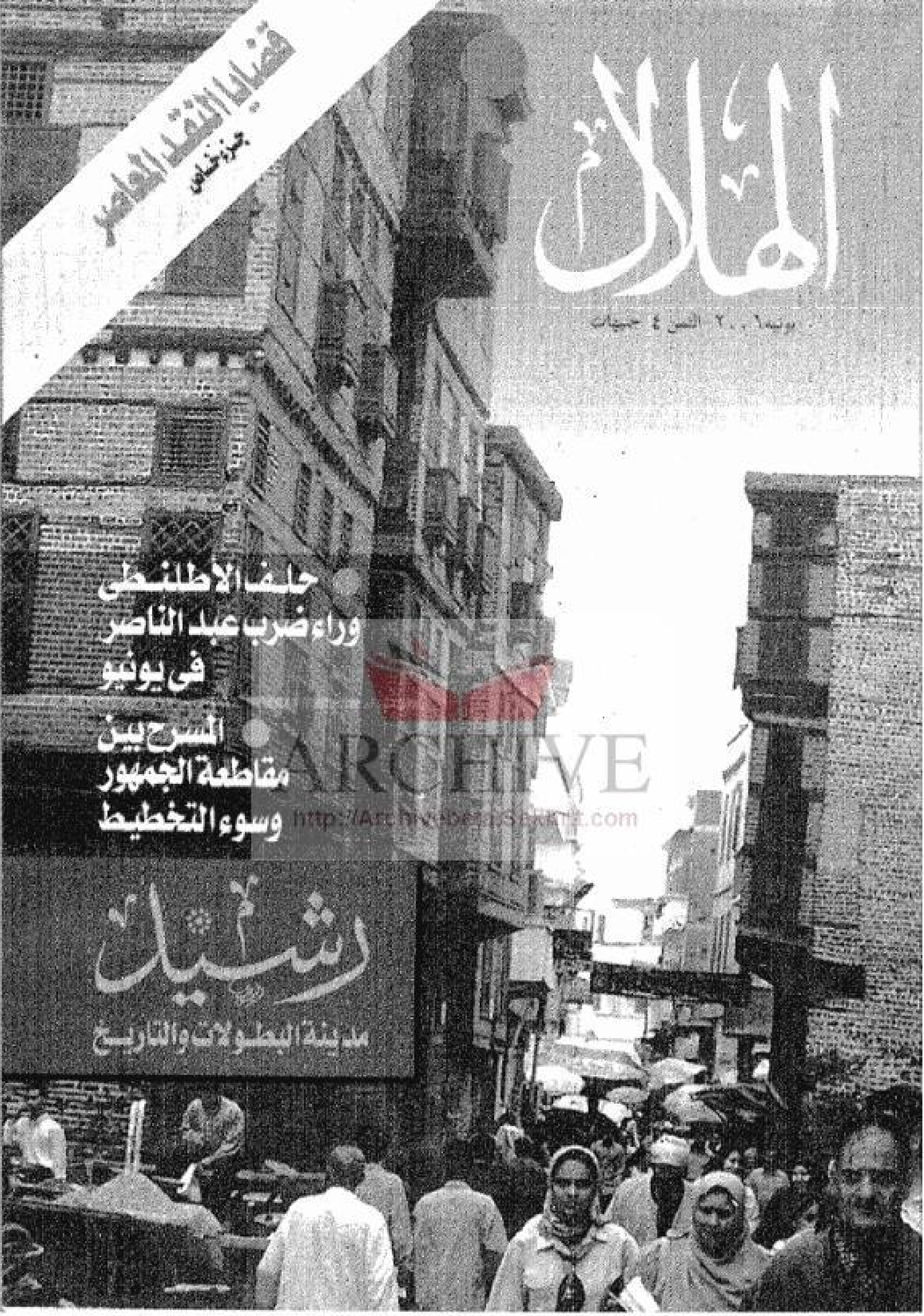
● انتشار ظاهرة الغش في الامتحانات العامة: وأخبار منطقة الحسينية في الشرقية مثال على ذلك والله أعلم ماذا يحدث في أقاصي الصعيد أو الواحات!.

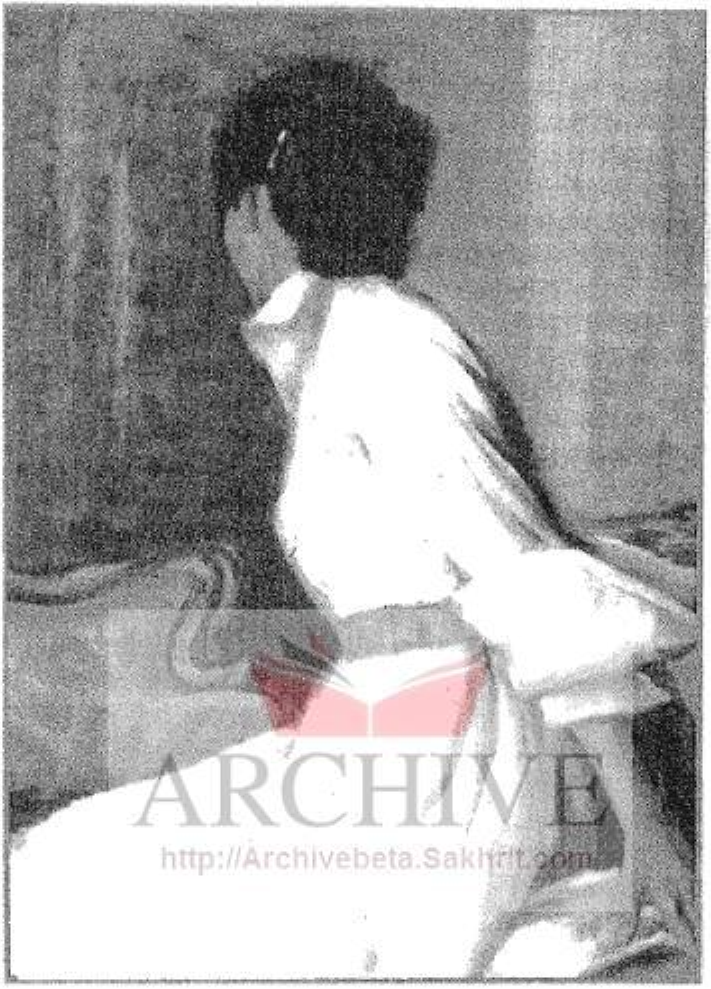
كيف نصلح تعليمنا إذن ونخرجه من أزماته؟ لا حل إلا بإصلاح أحوالنا كلها ومن بينها قطاع التعليم، بدلا من الاقتراحات الغريبة لرئيس الوزراء، التي تزيد من طبقية التعليم ولا ترضى إلا كبار الأثرياء.


مصر للطيران
EGYPTAIR


البورصة


الناشر
المؤسسة العربية الحديثة


الهلال
يونيه ٢٠٠٦ - الثمن ٤ جنيهات
قضايا النقد المعاصر
جزء خاص
حلف الأطلنطى وراء ضرب عبد الناصر فى يونيو
المسرح بين مقاطعة الجمهور وسوء التخطيط
رشيد
مدينة البطولات والتاريخ



لفتة..

للفنان صلاح طاهر



لوحة وفنان

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨٢ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

سيد عبد المالك — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال - تونس ٢ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٧٠٠٠ ليرة - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولارا. باقى دول العالم ٤٥ دولارا.

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص.ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

العام التاسع بعد المائة
ربيع أول ١٤٢٢هـ - يونيه ٢٠٠١م

قضايا النقد المعاصر

جزء خاص ....

الأبواب الثابتة



عزيزي القارئ

مكتبة الاسكندرية منارة للفكر الإنساني

بدأت الاستعدادات المكثفة للاحتفال بافتتاح مكتبة الاسكندرية، حيث أعلنت السيدة سوزان مبارك عن موعد الافتتاح فى ٢٣ابريل عام ٢٠٠٢ أى بعد أقل من عام واحد من الآن، ويضم مجلس الأمناء عددا من رموز العالم السياسية والفكرية والعلمية.

ومكتبة الاسكندرية القديمة أنشأها بطليموس بعد أن طلب منه الاسكندر الأكبر إنشاء مدينة الاسكندرية ومكتبتها ولتصبح أعظم مكتبات الأرض فى هذا الزمان، وإحدى عجائب الدنيا، حيث قدمت للحضارة الانسانية الثقافة والمعرفة وظلت تؤدى دورها الحضارى على الرغم من الدمار الذى لحق بها على مر العصور.

وفى سنة ٣٩١ ميلادية أحرق الامبراطور ثيودوسيوس الكتب التى كانت مخبأة فى «سرابيوم» الاسكندرية، وكان هذا إيذانا بنهاية دور هذا الصرح الشامل، وليتأكد لنا أن العرب حينما دخلوا الاسكندرية بعد فتح مصر سنة ٦٤٢ ميلادية ، كانت هذه المكتبة قد دمرت تماما، وأصبحت مجرد أسطورة !

وحينما بدأ التفكير فى انشاء هذه المكتبة من جديد سنة ١٩٧٢، كان كل العلماء والمفكرين ينادون بأن تكون مكتبة دولية، تليق بالمكتبة القديمة التى عرفها العالم كله، وتليق أيضا بتاريخ مدينة الاسكندرية العريق.

وقد دعا الرئيس حسنى مبارك فى عام ١٩٨٨ إلى اجتماع تأسيسى بمدينة أسوان لانشاء مكتبة الاسكندرية بحضور عدد كبير من ملوك ورؤساء العالم والذين وعدوا بتقديم كل الدعم المادى والفنى والكتب والوسائط المعرفية لهذا المشروع الثقافى الكبير، وقدموا بالفعل الكثير من هذه الإسهامات التى ساعدت على سرعة الانتهاء من هذا المشروع الضخم الذى سوف يتكلف نحو المائتى مليون دولار..

وفى كل يوم يمر نشهد جديدا فى هذه المنارة الثقافية، والتى سوف تفتح أبوابها من الخريف المقبل كما سيتم عقد مؤتمرات علمية وندوات ثقافية بها ابتداء من شهر أكتوبر القادم.

والمكتبة بتصميمها الحالى وإحيائها لقديمها الزاهر ستكون مأوى لأفئدة

العلماء والمفكرين والباحثين في كل أنحاء العالم، وبهذا تعود مصر إلى سيرتها الأولى، أن تكون مبدعة الثقافة ومهبط الأديان، وقاعدة العلم والإبداع في جميع أنحاء العالم.

وكل العلماء في جميع أنحاء العالم سوف يشهدون افتتاحها، وهي مزودة بأحدث ما أنتجه العلم الحديث من تقنيات تساعد المبدعين في كل فروع المعرفة من خلال المعهد الدولي للدراسات والمعلومات ومتحف الخطوط والآثار والمكتبة السمعية للمكفوفين وتلك المطبعة التي تنشر البحوث العلمية.

هي ليست مكتبة عادية ، وإنما ستكون مركزا للابحاث ومنارة للإشعاع العلمي.

فكل ما نتمناه أن نستعيد دور مكتبة الاسكندرية القديمة وجوهر الحضارة القديمة من خلال هذا المشروع العملاق، والذي يضم ملايين الكتب والوثائق والدوريات التي أتت من كل بلاد العالم المحبة للمعرفة، والتي تدعم هذا الصرح الثقافي العالمي.

إن إحياء مكتبة الاسكندرية والتي تعد مكونا ثقافيا وحضاريا لهذه المدينة العربية، يعد استلهاما للماضي في صورة حديثة والمكتبة الآن وهي تواجه عصر الانترنت والكمبيوتر حيث لم تعد المهمة في الكتاب ككتاب، ولكن أصبحت المعرفة الحديثة موجودة في أقراص الـ C.D، فقد أصبح من الممكن تخزين عشرات الكتب على C.D، صغير الحجم وهذا يختزل أشياء كثيرة، نستطيع من خلالها أن نطلع على ما نريد بأقل جهد ممكن.

وهذه الشخصيات العالمية، من علماء ومفكرين وندوات تقام بها وورش عمل تتواصل ليل نهار سوف تجعل من مكتبة الاسكندرية وبحق منارة، بل تعود إلى سيرتها الأولى احدى عجائب الدنيا في عصرنا الحديث .

ويبقى أن ننتظر هذا الحدث الثقافي المهم وأنظار الدنيا تتجه من جديد إلى الاسكندرية التي أرادها الاسكندر الأكبر أهم عواصم العالم.. ولم لا؟ فهي بحق الآن تعود إلى الازدهار من جديد بفضل تضافر كل الجهود المخلصة من الدولة ومن علماء مصر ومفكريها الذين يعملون بدأب لتعود الريادة الثقافية لنا في الانترنت وثورة المعلومات وثورة الاتصال والانفتاح على العالم.. ■

وقف العنف
أم
تصعيد المقاومة

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد



بين حين وآخر تقتحم حياتنا السياسية والفكرية مفردات ومصطلحات جديدة ذات دلالات ملتبسة، يبدأ استخدامها أولا كنوع من بالونات الاختبار، ثم تبدأ فى الشيوع والانتشار، إلى أن نعتاد عليها، ونجد بعد مدة - قصرت أم طالت - أننا - أو بعضنا على الأقل - أخذنا نرددها، ربما دون إدراك لمضامينها الحقيقية ، أو دون اتفاق على هذه المضامين.

وقد نذكر كيف تسلل لنا في
مناخ التسوية مع إسرائيل
مصطلح «ثقافة السلام»، وهو مصطلح لا
يختلف حول نبله إثنان، إذا نظر إليه
على نحو مجرد، غير أنه بوضعه في
السياق الذي أريد له من دوائر غير
عربية بالأساس يكشف عن غطاء فكري
رفيع لمقاصد خبيثة حاولت تحطيم
المناعة الذاتية للأمة العربية في مواجهة
صراعها الممتد مع إسرائيل.

ومنذ تولى أحد مجرمي الحرب
رئاسة مجلس الوزراء في إسرائيل أخذ
في الإلحاح على واحد من هذه
المصطلحات الذي اتخذ في الحالة
الراهنة شكل مطلب سياسي إسرائيلي
من الفلسطينيين، وهو ضرورة «وقف
العنف» كشرط لبدء المفاوضات، وإن
هي إلا أيام قليلة حتى بدأ المصطلح
يتردد في تصريحات سياسية رسمية
صادرة عن مسئولين في دول ومنظمات
دولية عديدة، غير أنه بدأ بعد ذلك يدخل
في بعض تصريحات سياسية عربية،
ربما كان مقصدها الرئيسي في حالات
النوايا الحسنة أن تبين الالتزام بتحقيق
الهدوء والاستقرار، كسبا لتعاطف دولي
لن يجيء، وعملا على حماية
الفلسطينيين من مغبة استمرار عنف
إسرائيلي لن توقفه أية تصريحات، لكن
الأمر كله لا يمكن أن يعالج على هذا
النحو المبسط والمباشر، ذلك أنه ينطوي
على أبعاد متداخلة متشابكة ينبغي
توضيحها، وثمة ملاحظات اربع
أساسية على الأقل يمكن تسجيلها
في سياق مناقشة مثل هذا المصطلح
المراوغ.

مساواة بين المجرم والضحية

الملاحظة الأولى التي تتبادر إلى
الذهن على الفور أن مصطلح «وقف
العنف» يمثل امتدادا لمنطق المساواة بين
المجرم والضحية، فعندما نصف عنفا
وقع بين اللص والمسروق دون أن نشير
إلى التباين الهائل في الهدف من العنف
الذي مارسه كل منهما، أو دونما أن
نسمي الأشياء بمسمياتها، فنقول إن
اللص قد اعتدى على المسروق بغرض
سلبه بعض أو كل ممتلكاته، وأن الأخير
إنما كان يدافع عن نفسه يكون تصويرنا
الموقف بعيدا كل البعد عن الدقة، ناهيك
عن الإنصاف.

ويذكرني هذا بمصطلح آخر شاع
في مرحلة ما قبل شارون كان يشير إلى
أن التقدم في جهود التسوية يتطلب
«تنازلات مؤلمة من الطرفين»، وعندما
كانت أطراف دولية تستخدم مثل هذا
المصطلح كان المرء يعزو هذا إما إلى
التحيز أو الجهل، أما عندما كانت
أطراف عربية رسمية أو غير رسمية
تستخدمه فإن الأمر بدا في حينه
مستعصيا على التفسير، ذلك أن



الفلسطينيين لم يعد لديهم أى «تنازل مؤلم» جديد يقدمونه بعد كل ما فرض عليهم من تنازلات ، كأنك تسأل شخصا يتعلق بحبل خشية السقوط المميت أن يتنازل لك عن هذا الحبل حتى يكون بمقدورك أن تنقذه.

حقيقة الأمر إذن أن الموقف الراهن وإن انطوى على عنف متبادل ومتصاعد إلا أن ثمة فارقا بنيويا هائلا بين «العنف الإسرائيلى» و«العنف الفلسطينى» إذا جاز التعبير، فالأول يمثل فعلا استعماريا فاضحا، والثانى يمثل مقاومة متواضعة لهذا الفعل، وهو موقف أكثر تعقيدا بكثير من أن يجسده مصطلح واحد شديد التبسيط كمصطلح وقف العنف.

جذور العنف

أما الملاحظة الثانية فتشير إلى عقم مصطلح «وقف العنف» فيما يتعلق بجذور الموقف الراهن، فهو - أى هذا الموقف - يعود إلى عقود تكاد تصل إلى قرن من الزمان من عنف استعمارى مباشر وغير مباشر طال الشعب الفلسطينى منذ أعلنت أرضه هدفا لمشروع بناء الدولة الصهيونية العبرية، وإذا كان البعض الآن يتحدث عن العنف المباشر الذى تسيل فيه دماء الطرفين على نحو غير متناسب بأى معيار من المعايير فإن التذكرة واجبة بعقود طويلة من العنف المباشر الذى ارتبط من حيث مصدره بالحركة الصهيونية فحسب، بل إن ثمة عنفا «بنيويا» أخطر قد ترتب على المشروع الصهيونى، وبالذات منذ تجسد فى شكل دولة منذ ١٩٤٨ تمثل فى تشريد ما يقرب من شعب بأكمله خارج وطنه، بحيث عاشت قطاعات واسعة منه فى ظل ظروف لعل ضحاياها أكثر عددا مئات المرات من ضحايا العنف المباشر الراهن، ذلك أن تدنى ظروف المعيشة من الناحية الاقتصادية والصحية .. الخ.. يبدو من منظور «العنف البنيوى» أشد خطرا على حياة الإنسان وأمنه واستقراره من الرصاصات التى تنطلق لتصيب الابرياء فى مقتل، وتصيبنا بدورنا بالانزعاج الشديد، مع أن هذه الرصاصات ليست إلا محاولة لحماية ما هو أخطر منها، وهو الأوضاع التى تحميها القوة المستترة وراء إطلاق النار على الأبرياء ، ومن هنا فإن مقاومة أسباب المرض تبدو أهم ألف مرة من التوقف عند أعراضه الظاهرية.

ومن عجب أن أحدا - وبالذات من القوى الدولية ذات الصلة - لم يناد بوقف العنف عندما كان الشعب الفلسطينى ساكنا صامتا بوقع الصدمة من الفعل

الصهيوني أو بسبب الأمل في حل عربي، ولم يبدأ الحديث عن وقف العنف إلا عندما بدا أن مقاومة الشعب الفلسطيني للعدوان الواقع عليه قد أخذت تسبب بعض الألم والضرر للمعتدي، ولذا يجب أن يكون واضحا أن المطالبة «بوقف العنف» في الظروف الراهنة تساوي المطالبة بوقف مقاومة الاستعمار والاحتلال والعدوان.

ما بعد العنف

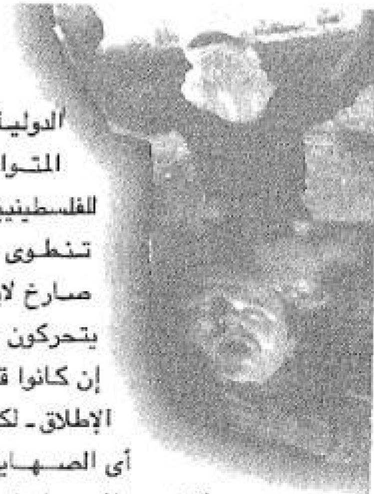
تشير الملاحظة الثالثة إلى أمر مهم يغيب عن أولئك الذين يطالبون بوقف العنف، فهم لا يهتمون كثيرا بما بعده، إن اهتموا على الإطلاق. بعبارة أخرى لنفترض أننا سنتفق على أن وقف العنف مطلوب، وأنه يخدم الأمن والاستقرار والسلام، ويحفظ دماء الأبرياء على جانبي الصراع.. إلى آخر كل هذه العبارات «الخيرة»، هنا نلاحظ أن أحدا لا يكلف نفسه مشقة النظر إلى ما هو أبعد من استئناف المفاوضات، فلا أحد يسأل عن أية مفاوضات نتحدث . وفي ظل أية موازين للقوى.

لقد انبثقت عملية التسوية التي تم وأدها في أيام باراك الأخيرة من إطار أوسلو الذي مثل لدى البعض أملا في التوصل إلى تسوية مقبولة، ولا نقول متوازنة، ناهيك عن أن تكون عادلة، لكن إسرائيل أثبتت في أشد حالاتها اعتدالا أن أقصى ما تستطيع أن تقدمه لا يمكن أن يصلح أساسا لمثل تلك التسوية، فهل يعقل أن تنجح المفاوضات بعد أن قدم الشعب الفلسطيني ما قدمه من تضحيات استنادا إلى ذات الأسس القديمة، وذلك بالإضافة إلى أن شارون لم يكتف بعدم الاعتراف بهذه الأسس، ولكنه نكص عنها، وارتد إلى مقولات استعمارية تقليدية من شأنها أن تقضي على أي أمل في نجاح المفاوضات بغرض إمكان وقف العنف.

وفي الواقع أن ما سبق يمثل المعضلة السياسية والأخلاقية التي ينطوي عليها مصطلح وقف العنف، فأنصار هذا المطلب يريدون من الفلسطينيين أن يتوقفوا عن ممارسة العنف «أي الدفاع عن النفس أو المقاومة» بدعوى الحرص على السلام الذي لن يكون في هذه الحالة سوى غلاف من الهدوء والسكينة للعنف البنيوي المستمر ضد الشعب الفلسطيني منذ ما يزيد على نصف قرن على أقل تقدير، ومن ثم فلن يكون سوى مرحلة مؤقتة تفضي إلى انفجار أشد خطرا بكثير مما نشهده حاليا.

وقف العنف والحماية الدولية

تنبثق الملاحظة الرابعة والأخيرة من أن مطالبة الدولة الصهيونية والقوى



الدولية المتحالفة أو المتواطئة معها للفلسطينيين بوقف العنف تنطوى على تناقض صارخ لايبدو أن العرب يتحركون على نحو كاف - إن كانوا قد تحركوا على الإطلاق - لكشفه ذلك أنهم - أى الصهاينة وحلفاءهم - يقفون بالمرصاد فى الوقت نفسه للمطلب الفلسطينى - العربى بالحماية الدولية للشعب الفلسطينى ، ذلك أنهم إن كانوا راغبين حقا فى وقف العنف فإن إحدى الآليات المضمونة لذلك تتمثل فى الاستجابة لمطلب الحماية الدولية، غير أنهم يريدون الحسنيين : الاحتلال ووقف العنف معا، فوجود قوات الحماية الدولية على الرغم من أنه سوف يحول دون أن يواصل الفلسطينيون مقاومتهم للاستعمار الصهيونى والاحتلال الإسرائيلى على نحو ما يجرى الآن فإنه سوف يكسب المسألة طابعا دوليا أكيدا قد يصعب النكوص عنه لاحقا، أو على الأقل ستبقى له دلالاته دائما.

وعلى الرغم من ضآلة الأمل فى أن تفضى الحماية الدولية إن تمت الى خطوات ايجابية أبعد من ذلك، طالما بقيت موازين القوى على ما هى عليه، فإن ثمة احتمالا فى أن تمثل مع خطوات أخرى تطورا إيجابيا فى الوضع الدبلوماسى الفلسطينى و العربى ، وكلها دلالات واحتمالات لا يمكن أن ترضى بها الدولة العبرية وحلفاؤها ، مفضلين جميعا أن تلقى الضحية بسلاحها، وتعترف بذنبها ، وترضى باستمرار الأسر، وانتظار الفتات الذى سيلقى به إليها على موائد التسوية الشوهاء.

إن الطريق المضمون لوقف العنف - إذا استخدمنا ذلك المصطلح المشبوه - هو رد الحقوق لأصحابها، وإذا كان ذلك مستحيلا بسبب طبيعة المشروع الصهيونى من ناحية ، وموازين القوى بينه وبين الفلسطينيين والعرب من ناحية أخرى فلن يكون هناك سبيل الآن أو مستقبلا سوى استمرار المقاومة المشروعة للاستعمار والاحتلال ، وذلك اذا استخدمنا المصطلحات الصحيحة، وبعدنا عن تبنى ذلك المصطلح المضلل المسمى بوقف العنف.

وعندما يطرح مطلب استمرار المقاومة بل وتصعيدها يتباكى البعض عادة على التكلفة البشرية والمادية الهائلة التى ينطوى عليها مثل هذا المطلب، متهمين المنادين به بالاستهتار بالأرواح البريئة للشعب الفلسطينى، ويلفت فريق آخر النظر من ناحية ثانية إلى الخلل

الفادح في ميزان القوى بين الفلسطينيين والإسرائيليين ، الأمر الذى سيفضى الى نتيجة محتومة لغير صالح الفلسطينيين والعرب.

وتنبثق المقولات السابقة - بافتراض حسن النية - من عدم إلمام كاف بخبرة حركات التحرر الوطنى المعاصرة، وطبيعة الموقف الاستعمارى- التحررى، ان الشعوب لا تناضل وتدفع الثمن الفادح من أجل حريتها لأن كاتبا أو سياسيا هنا أو هناك يدعوها إلى ذلك ، ولكنها تصل عادة إلى نقطة زمنية تدرك فيها أن التكاليف الفادحة التى ينطوى عليها النضال التحررى أهون بكثير من استمرار الوضع الاستعمارى، وهذا هو السبب الموضوعى لما رأيناه ونراه من بطولات قد تبدو غير مفهومة لدى البعض فى سياق حركة التحرر الفلسطينى الراهنة، تماما كما كان الأمر فى حركات تحرر وطنى سابقة.

ومن ناحية أخرى فإن التذكير مطلوب بأن حركات التحرر الوطنى قد انطلقت عادة فى إطار موازين للقوة المادية مختلة على نحو فادح لصالح المستعمر، ولذلك فإنها أبدعت دائما من الاساليب ما يتناسب وهذا الخلل فى موازين القوى، وليس صحيحا أن تلك الحركات قد لجأت دائما إلى اقصى صور الممارسة للقوة المادية، فبينما هزم الفيتناميون الأمريكيين بالقوة المسلحة تغلب غاندي على الإمبراطورية البريطانية بالمقاومة السلمية، والمهم أن حركات التحرر الوطني قد انتهت دائما بالانتصار على المستعمر على الرغم من الخلل الفادح فى ميزان القوى المادية لصالحه، ولندع مهمة تفسير هذه الظاهرة «كواجب منزلى» لأصحاب الحجج الفارغة علهم يدركون أسبابها التى أدركها وعى الشعوب منذ عقود طويلة من الزمن.

وختاما فإن الأهم من كل ما سبق أن امتناع الشعوب المستعمرة عن «ممارسة العنف» كما يقول المضللون «بفتح اللام الأولى أو بكسرها» لم يوفر فى أية خبرة استعمارية ماضية ضمانة من أي نوع ضد عنف المستعمر، ذلك أنه عرض أصيل من أعراض المرض الاستعمارى ، بل ان الممارسة المباشرة والبنيوية لهذا العنف كانت عادة هى المعول الذى هدم الأفكار المغلوطة عن مهادنة الاستعمار، فهل نطمع إذن إلى بلورة خطاب عربى سياسي يضع الأمور فى نصابها، ويستخدم المصطلحات الصحيحة فى وصف موقف ينطوى على تهديد حقيقى لأمن العرب ورخائهم حاضرا ومستقبلا؟. ■

الطريق الى هزيمة
يونيــــــو ١٩٦٧

حلف الأطلنطي وراء ضرب عبد الناصر ومحاولة تصفيته



بقلم
د. رءوف عباس

إن ما حدث فى ٥ يونيو ١٩٦٧ من هزيمة مشينة للعرب أتاحت للكيان الصهيوني فرصة إحتلال كامل التراب الفلسطيني إضافة إلى سيناء والجولان، كان نقطة تحول فى تاريخ أمتنا العربية، تحولت بموجبه إسرائيل إلى قوة إقليمية كبرى وتكرس دورها كقاعدة لحماية مصالح الغرب فى الشرق الأوسط. وطويت صفحة التيار القومي العربي. فانحسر على هامش المسرح السياسي بعد أن كان يتصدره، أو قل إن شئت انحسر دور مصر الإقليمي، فانكفأت على نفسها داخل حدودها تسعى لم شعث قواتها المسلحة، وإعادة بنائها لتحرير سيناء، وتبحث لنفسها عن دور جديد يتناسب مع عملية «التحجيم» التى فرضتها عليها هزيمة ١٩٦٧.

ولا يعني ذلك أن إسرائيل استطاعت وحدها أن تصفي الدور الإقليمي لمصر لصالحها، ولكنها كانت رأس الحربة للغرب في مشروع التصفية الذي بدأ التخطيط له في شتاء ١٩٦٤ في اجتماع عقده حلف الأطلنطي خصيصا بناء على طلب تركيا لوضع حد للمتاعب التي يثيرها عبدالناصر في منطقة الشرق الأوسط ضد مصالح الغرب ولذلك كانت ورقة العمل الرئيسية المقدمة للاجتماع من اعداد وزير الخارجية التركي وتحمل عنوان «تصفية عبدالناصر».

مصر وزعامة عبدالناصر

بعد مقدمة طويلة شرح فيها الجانب التركي الدور المشاكس لصالح الغرب الذي لعبته مصر بزعامة عبدالناصر منذ قيام الثورة وخاصة تحريضها لشعوب المنطقة ضد السيطرة الغربية ومقاومتها لسياسة الأحلاف، ثم تبنيها لحركة القومية العربية التي اشتد عودها بعد كسب عبدالناصر سياسيا من وراء حرب السويس ١٩٥٦، وما كان من قيام الوحدة بين مصر وسوريا التي قلبت الموازين الاستراتيجية في منطقة الشرق الأوسط، ورغم ضرب الوحدة، نجح عبدالناصر في أن يمد نفوذه ووجوده الاستراتيجي إلى اليمن بمناصرته لثورتها وتدخله العسكري هناك. وبذلك يضع عبدالناصر الغرب تحت رحمته، فهو يسيطر على قناة السويس وعلى البحر الأحمر، ومن ثم يتحكم في الطريق البحري الذي ينقل عبره البترول إلى الغرب، كما أن وجوده في اليمن يجعله المتحكم الفعلي في مناطق انتاج البترول لو ترك له الحبل على غاربه، فهو يستطيع أن يلحق ضررا كبيرا بالمصالح الغربية في المنطقة وخاصة أن لمصر علاقات وثيقة مع الاتحاد السوفييتي.

ومضت ورقة العمل التركية تحدد الأطراف العربية التي تخشى على وجودها من اتساع مساحة الدور الإقليمي لمصر بزعامة عبدالناصر، فذكر الأردن والسعودية وليبيا، كما لفت النظر إلى توتر العلاقات العراقية المصرية، والسورية - المصرية، ومن ثم فإن الوقت ملائم لتوجيه ضربة بجلاء عبدالناصر تقابل بالتأييد من البلاد العربية في المنطقة.

أما خطر عبدالناصر على المصالح الغربية في أفريقيا فلا حاجة لتأكيده فضلا عن تدخله غير المعلن في عدن وجنوب الجزيرة العربية والخليج.

وانتهت ورقة العمل التركية بإقتراح خطة للتخلص من عبدالناصر عن طريق تحويل الوجود المصري في اليمن إلى مستنقع يصعب الخروج منه طوعا،





الجيش المصرى وقت الاستعداد قبيل حرب يونيو

واتخاذه سبيلا لاستنزاف قوة مصر العسكرية واقتصادها الوطني، يلي ذلك مساعدة إسرائيل على القيام بعمل عسكرى كبير موجه ضد مصر في الوقت المناسب الذى يحدد على ضوء استنزاف القوة المصرية العسكرية والاقتصادية فى اليمن.

وثائق حلف الأطلنطي

وقد عقد مجلس حلف الأطلنطى ثلاث جلسات لمناقشة ورقة العمل التركية، أطلعت على محضر الجلسة الأولى منها في النسخة البريطانية من وثائق الاجتماع ، أما الجلستين الأخريين فلن يسمح بالاطلاع عليهما الا بعد مرور خمسين عاما «أى عام ٢٠١٤م».

وفى الجلسة الأولى «المتاح الإطلاع عليها» عارضت كل من اليونان وإيطاليا ما ذهب إليه الجانب التركى من أن عبدالناصر قد بلغ من الخطر حدا كبيرا على مصالح الشعوب يتطلب تصفيته بل ذهب الجانب اليونانى إلى حد استنكار اتهام عبدالناصر بالعمل فى الشرق الأوسط لصالح السوفييت، وأكد أن عبدالناصر حريص على استقلال بلاده وأنه ربما يكون قد تجاوز الخط الأحمر بتدخله في اليمن، ولكن هذا التدخل مؤقت، بل إن زعامة عبدالناصر تشكل عنصر استقرار سياسى فى المنطقة وأكد الجانب الإيطالى أن سياسة عبدالناصر تجاه الغرب تتسم بالاعتدال ، وأن سياسة مصر الخارجية متوازنة

فيما يتصل بالعلاقة مع كل من الغرب والاتحاد السوفييتي. أما الجانب الفرنسي فطالب بعدم التسرع في استخلاص النتائج قبل دراسة الوضع دراسة متأنية لأنه يرى أن المخاوف التركية لا تخلو من مبالغة لا مبرر لها.

تصفية عبدالناصر

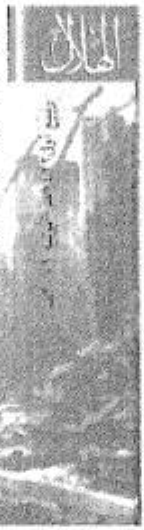
ونحن لا ندري ما تم التوصل إليه في الجلستين التاليتين اللتين تدخلان في نطاق السرية، ولكننا نعتقد أن فيهما تحديدا أكثر وضوحا لما استقر عليه الرأي بالنسبة لخطة «تصفية عبدالناصر» ولا ندري ما إذا كان جميع المشاركين في الاجتماع على علم بها، فذلك ما سنعرفه تماما عند الكشف عن الوثائق الخاصة بالجلستين، ولعل ما تمتاز به النسخة البريطانية من وثائق الأطلنطي اشتمالها على المشاورات الجانبية مع الجانب الأمريكي، واستطلاع آراء أصدقائها وحلفائها بالمنطقة ومن بينهم الملك حسين.

لعل ما جاء بملفي الجلستين من اتفاقات جانبية يتضمن سيناريو ما حدث في ٥ يونيو ١٩٦٧، خاصة أن بريطانيا كانت تواقة الى الثأر من عبدالناصر لما لحق بها وبهيبتها في المنطقة والعالم بعد فشلها في تحقيق أهداف حرب السويس ١٩٥٦.

ودليلنا على ذلك التصعيد المستمر للموقف ضد الوجود المصري في اليمن منذ ١٩٦٤ واستخدام المرتزقة من مختلف الجنسيات الأوربية، وعمليات نقل السلاح إلى اليمن التي فضحها الطيارون العرب، والانقسام الذي حدث بين قيادات الثورة اليمنية ذاتها، كل ذلك يبين بوضوح أن اقتراح تحويل اليمن إلى مستنقع يصعب الخروج منه بسلام يستهدف استنزاف قوة مصر العسكرية والاقتصادية قد تحقق بالفعل على مدى السنوات الثلاث ٦٤ - ١٩٦٧.

كذلك يتضح دور إسرائيل في التحرش بمصر في الإعلان عن مشروع تحويل مجرى نهر الأردن، بما ترتب عليه من تصعيد مستمر للتوتر، حاول عبدالناصر احتواءه عن طريق مؤتمرات القمة، فلم يكن الدخول في حرب ضد إسرائيل يوما ما على جدول أعمال عبدالناصر، بل صرح ذات مرة في خطاب علني أنه ليس مستعدا في الدخول في حرب ضد إسرائيل اذا سعت لجرنا إليها، ومن ثم كان التصعيد الإسرائيلي للموقف له دلالته باعتباره من المقترحات الأساسية التي أوردها الجانب التركي في خطة «تصفية عبدالناصر» التي عرضت على الاجتماع الوزاري لمجلس حلف الأطلنطي.

دليل آخر على تركيز الاتفاق على



اتخاذ إسرائيل رأس حربة لتنفيذ مخطط الغرب، الاتفاق الذى أبرمه رئيس الوزراء الإسرائيلى أشكول مع الرئيس الأمريكى «جونسون» الذى وافق الأخير بموجبه على تزويد إسرائيل بأسلحة تتضمن تفوقها على الدول الأربع المحيطة بها «مصر، وسوريا ولبنان والأردن» بنسبة ثلاثة أضعاف التسليح العربى، بعد أن كان الخط الثابت فى السياسة الأمريكية تحقيق توازن بين قوة إسرائيل العسكرية وجيرانها العرب، وأعلن «أشكول» فى مؤتمر صحفى أثناء الزيارة أن إسرائيل تريد أن تتوسع لتوفر مكانا لكل يهودى فى العالم حتى لو كان لا ينوى الهجرة إليها حاليا. وكان هذا استفزازا علنيا واضحا.

وفى غضون تلك الأيام اتخذ الكونجرس قرارا فى ٢٦ يناير ١٩٦٥ بوقف مبيعات القمح الأمريكى إلى مصر خدمة لهدف الاستنزاف الاقتصادى لمصر، لأن البديل الوحيد أمام الحكومة المصرية هو شراء حاجة البلاد من القمح من السوق العالمية بأسعار السوق، بينما كانت مبيعات القمح الأمريكى تتضمن تسهيلات ايجابية لصالح مصر، فكان ايقاف مبيعات القمح الأمريكى لمصر ضربا من الضغط لزيادة الأوضاع الاقتصادية حدة فى الوقت الذى ازداد فيه الانفاق على القوات المصرية فى اليمن زيادة مطردة.

كذلك قدمت ألمانيا الغربية لإسرائيل فى الأسبوع الأخير من ديسمبر ١٩٦٤ صفقة ضخمة من السلاح تضمنت مدرعات وطائرات ومدافع وقطع بحرية قيمتها مائة مليون دولار - هدية دون مقابل، وكان ذلك بايحاء من الولايات المتحدة الأمريكية وتحت رعايتها، مما فجر أزمة فى العلاقات المصرية - الألمانية كانت على درجة كبيرة من الحدة ولكن دلالة ذلك تعجل الولايات المتحدة لتحقيق التفوق العسكرى الإسرائيلى الساحق تمهيدا لقيام إسرائيل بلعب الدور الأخير فى خطة «تصفية عبدالناصر» أو تصفية الدور الإقليمى لمصر وتحقيق الحلم الصهيونى - الأمريكى.

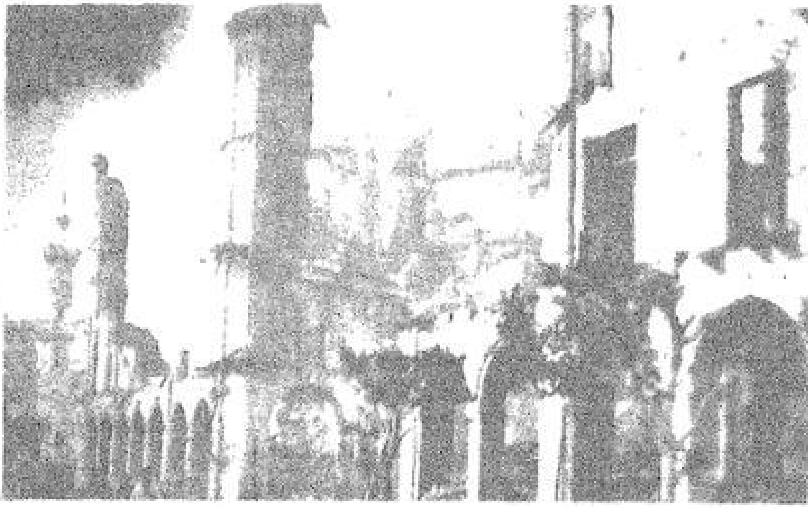
وفى تاريخ معاصر لذلك التاريخ تقريبا بدأت إسرائيل دخول النادى النووى ببناء مفاعل «ديمونة» وبذلك حسم التفوق العسكرى الإقليمى لصالحها، ولم يبق إلا الحصول على شهادة اعتراف بذلك على طريق شن حرب تلحق هزيمة مهينة بالعرب.

كانت المذكرة أو ورقة العمل التركية التى قدمت للمجلس الوزارى لحلف الأطلنطى فى شتاء ١٩٦٤ ترى أن نجاح إسرائيل فى إلحاق هزيمة بالعرب أو

احتلال أرض عربية، سوف يكشف ظهر عبدالناصر، ويقضى على شعبيته، ويدفعه إلى ترك منصبه أو يقوم البعض باسقاطه، ولكن لم يدر بخلد وزير خارجية تركيا الذى صاغ الورقة أن الهزيمة التى ستلحق بالعرب ستكون بالحجم الذى كانت عليه فى يونيو ١٩٦٧، واذا لم تكن الهزيمة قد حققت هدف التخلص من عبدالناصر بسبب تمسك الجماهير به ، فقد حققت الهزيمة الهدف الاستراتيجى الذى سعى إليه الغرب وهو تحجيم مصر، وتصفية دورها الإقليمى.

ولا يعنى نجاح خطة «تصفية عبدالناصر» أن نحمل أصحابها وحدهم وزر هزيمتنا فى يونيو ١٩٦٧، فلاشك أن عوامل داخلية كثيرة لعبت دورها الايجابى فى مساعدة الغرب على التخلص من دور مصر الإقليمى لتعيد ترتيب أولوياتها الاستراتيجية فى منطقة الشرق الأوسط فى مرحلة لها طابعها الخاص من مراحل حقبة الحرب الباردة.

ولعل ما يدعم ما نذهب إليه من أن هزيمة يونيو ١٩٦٧ تم إخراجها علي يد حلف الأطلنطى كفكرة ثم تبنتها الولايات المتحدة ولعبت دور المنتج لها بالتحالف مع إسرائيل وتركيا «صاحب المشروع»، وكان من الطبيعى أن تطلع عليها بعض أصدقائها العرب الذين يهمهم التخلص من كابوس عبدالناصر ، لعل ما يدعم ذلك كله ما ذكره محمد حسنين هيكل فى كتابه «الانفجار ١٩٦٧» من أن الصحفى البريطانى «انتونى بيرسوف» الذى كان يعد دراسة عن حادث سفينة التجسس الأمريكية «ليبرتى» التى أغرقها الطيران الإسرائيلى عمدا، اذ جاء بدراسته أن مدير إدارة العمليات بالمخابرات المركزية الامريكية عقد عدة اجتماعات عام ١٩٦٥ مع مسئولين من الموساد، لبحث متى وكيف يمكن التخلص من عبدالناصر، وأن رأيهم استقر علي امكانية تحقيق ذلك من خلال هزيمة عسكرية في مواجهة بين مصر وإسرائيل تضعه فى موقف لا يستطيع الانتصار فيه. فاذا تراجع أو هزم كانت نهايته. وأشار إلى أن عقد الاجتماعات استمر بين الطرفين في تل أبيب وفي واشنطن وحضر تلك الاجتماعات بعض ضباط الأركان الإسرائيليين وقد تقرر فى هذه الاجتماعات شن حرب يمكن احتواؤها بين مصر وإسرائيل لا تمتد إلي الأردن وسوريا، وتم الاتفاق على استغلال مواقف عبدالناصر المتشددة وتأييد السوفييت له، وكذلك الوضع فى سوريا لاثارة الرأى العام وتهيئته لقبول الحرب ، على أن تقع الحرب فى إطار

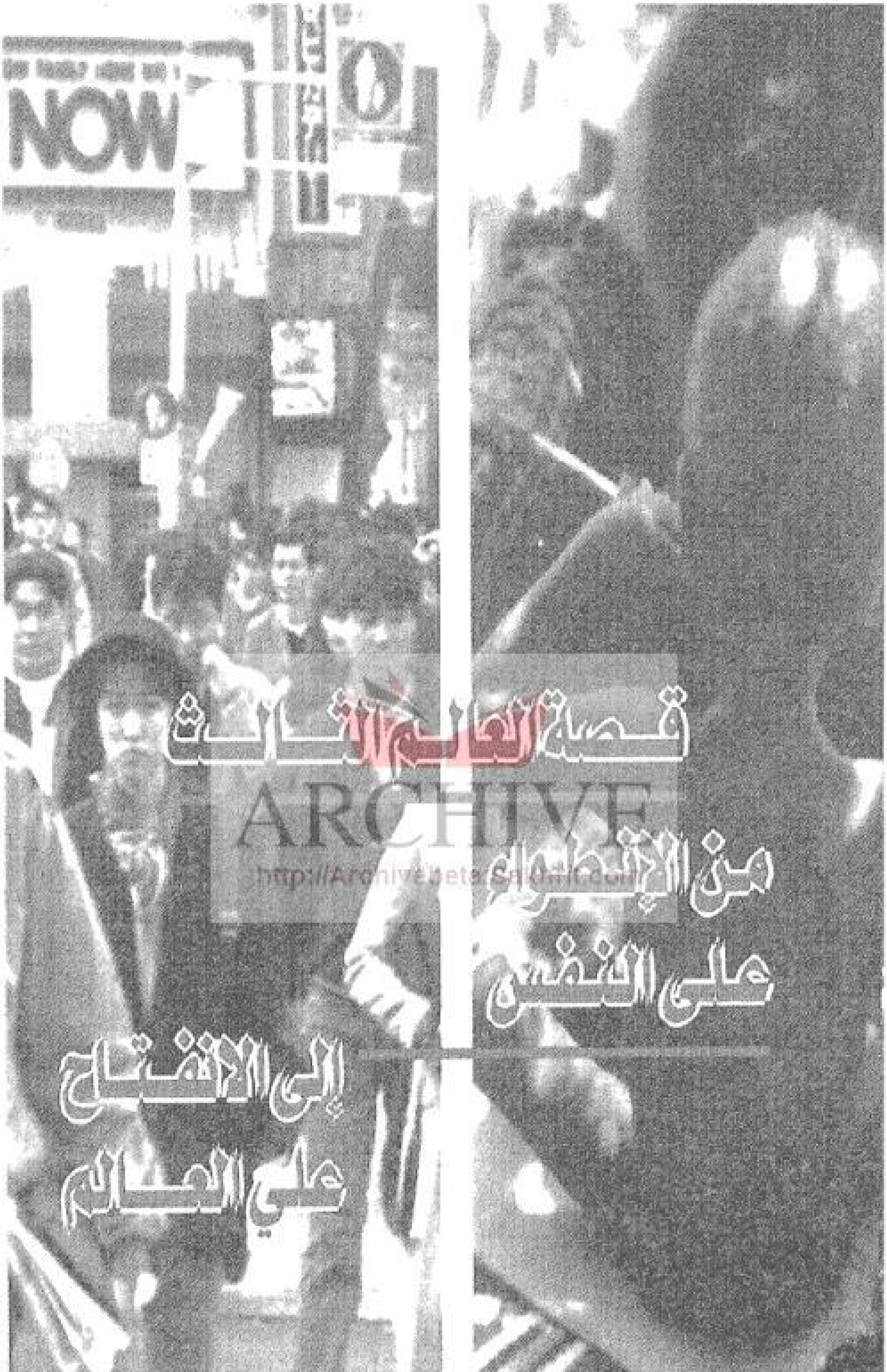


الجامع التوفيقى ببورسعيد أصابه الدمار من جراء العدوان الاسرائيلى سنه ١٩٦٧

يمكن احتواؤه مع الاحتفاظ بعلاقات وثيقة مع الحكام العرب الذين يتمنون التخلص من عبدالناصر مثل حسين وفيصل.

ويذكر هيكل نقلا عن بيرسون انه نظرا لأهمية خطة احتواء الحرب وتحديد اطارها بهزيمة مصر وحدها كان وجود السفينة «ليبرتى» لتضمن التزام الإسرائيليين بما تم الاتفاق عليه، ولكن إقدام إسرائيل على تنفيذ خطة تقوم على توسيع نطاق العمليات للاستيلاء على مجمل أرض فلسطين، وتقدمها السريع فى سيناء والجولان ، جعلها تقصف السفينة وتغرقها حتى لا تتحرك الولايات المتحدة لالزامها بما اتفق عليه غير ان الولايات المتحدة غفرت لحليفتها هذه الجريمة بعدما استطاعت أن تحقق ما لم يدر بخلد أمريكا، فاذا كانت إسرائيل قد استطاعت أن تفرض تفوقها الاقليمى، فقد نجحت فى تحجيم مصر وتصفية دورها الاقليمى وهو ما كانت تتمناه الولايات المتحدة الأمريكية.

ترى.. هل بدأ المشروع العدوانى على مائدة مجلس وزراء الأطلنطى ثم تبنته أمريكا ونفذته بالاشتراك مع اسرائيل أم أن أطرافا أخرى فى الحلف ساهمت فى المشروع ؟! إن كشف ما دار فى الاجتماعين الثانى والثالث لمجلس وزراء حلف الأطلنطى سيلقى الضوء على حقيقة الأمر وإن عام ٢٠١٤ لناظره قريب. ■


NOW
قصة العالم الثالث
من الانطواء على النفس
إلى الانفتاح على العالم

بقلم
د.جلال أمين

عندما بدأ الاهتمام بقضية التنمية الاقتصادية فى بلاد العالم الفقيرة، منذ نحو خمسين عاما، كان من الواضح للجميع أن عقبة أساسية فى وجه هذه التنمية تتمثل فى العلاقات الاقتصادية بين هذه البلاد والعالم الخارجى .كانت «التجارة الخارجية» تمثل مشكلة كبيرة وكان لابد من العثور على حل لها.

ذلك أنه كان من الواضح أنه متى بدأت الدولة تخطو أولى خطواتها فى التنمية السريعة فسوف تجد أن عليها استيراد أشياء جديدة وبكميات كبيرة، خاصة من السلع الإنتاجية أى من الآلات والمعدات والمواد الوسيطة اللازمة للتصنيع وكان التصنيع ينظر إليه وكأنه يكاد يكون مرادفا للتنمية الاقتصادية كلها. هذه السلع الإنتاجية كان لابد أن تستورد من الدول الصناعية المتقدمة التى تملك ناصية التكنولوجيا الحديثة والعلم والخبرة اللازمة لإنتاج هذه السلع. ولكن زيادة الاستيراد يتطلب بالضرورة زيادة التصدير، إذ من أين ستدفع تلك الدول الفقيرة ثمن ما تستورده من آلات ومعدات إلا من حصيلة ما تصدره من سلع وخدمات؟ نعم - هناك المنح والقروض التى يمكن أن تقدمها الدول الغنية للدول الفقيرة ، ولكن المنح قليلة ، ككل أنواع الإحسان، وهى إذا أعطيت فإنها تقترن عادة بشروط سياسية أو اقتصادية قد يكون من الأفضل تجنبها. والقروض يجب أن ترد، إن عاجلا أو أجلا.. وهى بالإضافة إلى ذلك تتطلب دفع فوائد، وبنفس العملات الأجنبية التى قدم بها القرض - ومن ثم فلابد، إن عاجلا أو آجلا، أن تزيد قدرة الدولة على التصدير لتسديد القروض ودفع فوائدها. وكل مثل هذا الاستثمارات الأجنبية الخاصة، التى لابد أن يثق أصحابها فى قدرة الدولة التى يأتون إليها على توفير العملات الأجنبية اللازمة لتحويل أرباحهم للخارج من ناحية، ولتحويل رءوس أموالهم نفسها متى قرروا العودة بها إلى بلادهم.

ما أصعب زيادة الصادرات:

ما العمل إذن؟ ما الذى لدى الدولة الفقيرة لتصدره؟ سلع صناعية؟ وهل يتصور أن السلع الصناعية الحديثة التى سوف تقوم بإنتاجها سيكون بإمكانها منافسة ما تنتجه الدول العريقة فى



التصنيع؟ صحيح أن لدينا سلعا كالمنسوجات والأحذية قد تكون قادرة على مثل هذه المنافسة، إذ أنها قديمة نسبيا في بلادنا ولدينا فيها خبرة أطول. ولكن هذه هي بالضبط السلع التي تفرض عليها الدول الصناعية الحماية، فلا نستطيع التغلغل في أسواقها الا بشق الأنفس. أما صادراتنا الزراعية فهي صادرات سيئة السمعة. إذ حتى نفترض أننا نستطيع زيادة إنتاجنا منها، فإن أسعارها مشهورة بالتقلب بين سنة وأخرى، فضلا عن صفة أخرى شرحها بوضوح تام، في مطلع الخمسينات، اقتصادي أرجنتيني هو «راؤول بريبيش» R.prebisch وهي ما عرف باتجاه معدل التبادل الدولي ضد مصلحة السلع الزراعية «والمواد الأولية عموما» ولصالح السلع الصناعية. ومعنى ذلك اتجاه النسبة بين أسعار السلع الزراعية وأسعار السلع الصناعية إلى الانخفاض على المدى الطويل، ومن ثم يكون على الدول المصدرة للسلع الزراعية أن تصدر أكثر فأكثر من أجل الحصول على نفس الكمية من الواردات ، وكأن عليها أن تجرى أسرع فأسرع لكى تظل ثابتة في نفس المكان.

لا عجب أن شاع في ذلك الوقت تعبير «العملات الصعبة» فقد كانت العملات الأجنبية «عملات صعبة حقا» ، خاصة عملات تلك الدول التي تحتاج لاستيراد المزيد من سلعها من أجل التصنيع.

ما أسهل ضغط الواردات

إذا كان كل هذا صحيحا، فقد بدا وكأنه ليس أمام الدول الفقيرة، إذا أرادت حقا أن تقوم بالتنمية الصناعية السريعة، إلا أن تضغط وارداتها الأخرى. «أي الواردات التي تعتبر ضرورية لاتمام عملية التصنيع» إلى أدنى قدر ممكن. فكل ما كان يستورد من سلع كمالية يجب أن يمنع استيراده أو تفرض عليه رسوم عالية للغاية حتى ينخفض استيراده إلى أقل حد ممكن. أما السلع الاستهلاكية الأخرى غير الكمالية، كالسلع الغذائية مثلا أو الملابس أو الورق أو الاثاث فإن كل ما يمكن إنتاجه محليا يجب بالفعل أن ينتج محليا، وبهذا يستخدم كل ما يمكن أن تحصل عليه من عملات صعبة في استيراد ما يلزم للتصنيع.

كان هذا الحل وما عرف باسم استراتيجية «التصنيع بالاحلال محل الواردات» Import Substitution Indul Strialization ويمكن تلخيص المقصود منها في كلمتين : «كل ما كنت تقوم باستيراده ويمكنك أن تستغنى عنه

فلتستغن عنه، فإذا كان لابد منه وكان يمكنك أن تنتج بديلا له محليا فلتنتجه محليا، فإذا كان لابد منه حقا ولا يمكن أن تنتجه محليا فلا بأس من استيراده، ولكن فلتحصل على تصريح بذلك من السلطات المختصة».

حظيت هذه الاستراتيجية بانتشار واسع طوال الخمسينات والستينات ، بل وحظيت أيضا بدرجة لا يستهان بها من التأييد والرضا حتى من جانب المؤسسات الاقتصادية والمالية الدولية نفسها. وقد ساعد على هذا الانتشار، عدا ما كان يواجه البلاد الفقيرة، من صعوبات في توفير العملات الأجنبية اللازمة للتصنيع عدة ظروف اقتصادية وسياسية داخلية ودولية . يهمنا الآن ان نذكرها.

كانت ذكرى الثلاثينات والحرب العالمية التي تلتها مازالت قريبة من الأذهان. ولكن ما الذي كانت تطبقه الدول الصناعية نفسها خلال الثلاثينات وخلال الحرب إلا هذه السياسة بعينها: سياسة الاحلال محل الواردات ؟ لقد كانت كل دولة خلال أزمة الثلاثينات تحمي سوقها الوطنية ضد الواردات من الدول الأخرى في محاولة لخلق فرص عمالة لعمالها المتبطلين . ثم طبقت نفس السياسة مضطرة في سنوات الحرب لصعوبة الاستيراد أصلا. فإذا كانت هذه السياسة جائزة ومشروعة في بعض الظروف حتى للدول الصناعية نفسها. فلماذا لا تكون مشروعة للدول التي تحاول اللحاق بها؟

كان هناك أيضا النموذج السوفييتي في التنمية، الذي كان لايزال خلال الخمسينات والستينات يتمتع بجاذبية كدول العالم الثالث، فقدها بالتدريج بعد ذلك. والنموذج السوفييتي كان يقدم مثالا ناجحا لدولة تحولت من دولة متخلفة إلى دولة عظمى بالانطواء على نفسها واغلاق أبوابها. والاعتماد على سوقها ومواردها المحلية، وضغطها للواردات إلى أقل مستوى ممكن .

أضف إلى ذلك أنه في تلك السنوات الأولى التي تلت بداية الاهتمام بتنمية العالم الثالث ، كانت الفكرة الشائعة أن دول العالم الثالث تبدأ من حيث بدأ العالم الصناعي قبل نحو مائتي عام فالعالم الثالث يحاول ان يحقق ثورته الصناعية، متأخرا بعض الشيء. ولكنه يحاول أن يقوم بنفس العمل ويكرر نفس التجربة التي بدأتها الدول الصناعية في أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر وهذه الدول الصناعية كان عليها بالضرورة ، في ذلك الوقت، أن تعتمد في الأساس على نفسها، إذ كانت تفعلشيئا جديدا لم يسبقها فيه أحد. صحيح أن آدم سميث والاقتصاديين الكلاسيكيين البريطانيين كانوا يتغنون بمزايا حرية التجارة، والتخصص، اي آن الأفضل أن تتخصص كل دولة في إنتاج ما تجيد



قصة العالم الثالث

إنتاجه من سلع وتستورد غيرها من الخارج.

ولكن بريطانيا في ذلك الوقت كانت تتمتع بحماية طبيعية ولا تخشى حرية الاستيراد لأنها كانت أكثر الدول تقدما، أما الدول الأقل تقدما في ذلك الوقت، كألمانيا والولايات المتحدة . فقد لجأت هي نفسها إلى تطبيق استراتيجية الاحلال محل الواردات، سواء أعلن اقتصاديوها ذلك صراحة، مثلما حدث في ألمانيا، أو كان الاقتصاديون يرددون ما يقوله الاقتصاديون البريطانيون، باعتباره منتهى الحكمة، بينما دولتهم تفعل العكس بالضبط، كما كان يحدث في الولايات المتحدة طوال القرن التاسع عشر.

ضغط الواردات يحظى بمباركة الجميع:

ولكن كان هناك سبب آخر ، قد يكون أهم من كل ما عداه . لانتشار استراتيجية الاحلال محل الواردات خلال الخمسينات والستينات، وهو سبب عملي بحت، ويتعلق باتجاه المصالح الاقتصادية السائدة . كانت أوربا خلال هذين العقدين منكفئة هي أيضا على نفسها، إذ ما كادت تتم عملية إعادة بناء ما دمرته الحرب في منتصف الخمسينات حتى انشغلت بتكوين السوق الأوربية المشتركة ، وكان اهتمامها بأسواق العالم الثالث . كمجال لتصريف سلعها، أقل بكثير مما اصبح بعد ذلك بعقد أو عقدين من الزمان. فيما يتعلق بالولايات المتحدة فقد كانت أسواق العالم الثالث.. كمجال لتصريف سلعها، أقل أهمية بكثير من السوق الأوربية ، وأقل أهمية بكثير كذلك مما أصبح لها فيما بعد. من الممكن اذن ان نقول إن انطواء العالم الثالث على نفسه في الخمسينات والستينات لم يكن يشكل مشكلة كبيرة ولا عائقا مهما أمام توسيع السوق أمام العالم الصناعي، إذ كانت السوق الأساسية والمرغوب فيها ومحل الأنظار هي سوق الدول الصناعية نفسها . نعم لقد دخلت الكوكاكولا والبيبسي كولا في دولة بعد أخرى من دول العالم الثالث في تلك الحقبة من الزمن، ولكن هذا الدخول إلى أسواق العالم الثالث لم يكن مسألة حياة أو موت في نظر هاتين الشركتين مثلما اصبح بعد ذلك بعقد أو عقدين من الزمان..وقل مثل هذا عن غيرهما من الشركات المتعدية الجنسيات، فعندما أصبح دخول أسواق العالم الثالث مسألة حياة أو موت فعلا، في نظر هذه الشركات ، لم يعد من الممكن السكوت أو الصبر على ما يسمى «باستراتيجية الاحلال محل الواردات».

هذا هو السبب الأساسي، فيما يظهر ، لاقامة هذا الاحتفال الصاخب باستراتيجية مناقضة تماما، وهي استراتيجية التصنيع (Export Pro-motion) عن طريق تشجيع الصادرات.

وهي استراتيجية تقوم، لا على الانطواء على النفس ، بل على الانفتاح على العالم فمنذ أوائل السبعينات بدأ الهجوم يشتد على سياسة الاحلال محل الواردات وأخذ اقتصادي بعد آخر ينضم إلي جوقة لا تعزف الا نغمة واحدة تدور حول الفكرة الآتية : «كانت سياسة الاحلال محل الواردات حماقة كبيرة أو على الأقل تجاوزها الزمن ولم تعد صالحة على الاطلاق. وعلى دول العالم الثالث الآن أن تفتح أبوابها على مصاريعها وتهجر الى الابد ذلك التوجه المريض الى الداخل . فتترك الاستيراد حرا طليقا.

أما ما تحتاجه من عملات أجنبية لتمويل هذا الاستيراد الذى لا يحده حد، فعليها تحقيقه عن طريق زيادة صادراتها.

احتجاج العالم الثالث

هذه الدعوة الجديدة لفتح الأبواب فجرت أصوات احتجاج من كل ركن من أركان العالم الثالث، وكان هذا الاحتجاج يتخذ صورة كهذه:

«صادراتنا؟ أين هى هذه الصادرات بالضبط؟ وأى صادرات تعنون؟ أنتم تعرفون ما نواجهه من صعوبات فى زيادة صادراتنا الزراعية والصناعية على السواء. صادراتنا الزراعية محدودة بأراضينا الزراعية المحدودة، والزيادة السريعة فى السكان تقلل بدورها من حجم المتاح للتصدير من هذه السلع الزراعية ولكن حتى لو امكننا زيادة الصادرات الزراعية فأنتم تعرفون ما تواجهه هذه الصادرات من اتجاه اسعارها الى الانخفاض بالمقارنة بأسعار ما نستورده منكم من سلع صناعية ، وذلك لأسباب كثيرة لا مجال للخوض فيها الآن، وعلى كل حال فأنتم أنفسكم تزيدون الطين بلة بحماية مزارعيكم ضد منافسة صادراتنا الزراعية .

أما صادراتنا الصناعية فمشكلتنا فيها أوهى وأعوص فكفاءتنا فيها منخفضة ، وأنتم لم تتركونا لشأننا مدة كافية نمارس فيها الحماية حتى تشب صناعاتنا على قدميها ، فأسرعتم بالضغط علينا من أجل فتح الأبواب، فوئدت بسرعة كثير من صناعاتنا التى كانت تبشر بالخير. تقولون «فلتركزوا على الصناعات كثيفة الاستخدام للعمل، كالمنسوجات والأحذية، فأنتم فيها أكفاء» ولكن نفاقكم فى هذا الأمر لا حد له، فهذه بالضبط هى السلع التى تفرضون فيها الحماية لصناعاتكم وتتحججون فى تبرير ذلك بمختلف الحجج. مرة تقولون إن ضغوط العاملين فى هذه الصناعات



عندكم اقوى مما تستطيعون مواجهته، ومرة تقولون اننا ندفع اجورا منخفضة لعمالنا لا يسمح به «الضمير الإنسانى» ومرة تقولون ان سبب كفاءتنا فى هذه الصناعات هو استغلالنا للاطفال الصغار وهذا عمل يتنافى مع حقوق الانسان فماذا نفعل معكم؟ وعلى أى حال، فلنفرض ان دول العالم الثالث كلها قد أخذت بنصيحتكم وشرعنا كلنا فى تصدير مثل هذه السلع إليكم، فهل يمكن حقا لأسواقكم ان تستوعب كل هذه الصادرات؟ ان ما يمكن لدولة واحدة ان تنجح فيه اذا قامت به وحدها، لا يمكن لعدد كبير من الدول أن تنجح فيه إذا قامت به كلها فى نفس الوقت.

إننا لا نقول إن سياسة التصنيع عن طريق زيادة الصادرات سياسة خاطئة، ولكننا نقول فقط إنها للأسف ، فى مثل الظروف التى نعيش فيها، غير ممكنة، ربما نجحت بعض دول جنوب شرقى أسيا فى زيادة صادراتها بشدة خلال العشرين عاما الماضية ولكن هذه الدول كانت تصدر في ظروف دولية مواتية بل كان هناك فى بعض الحالات اسباب سياسية وعلى أى حال فقد كانت مجموعة صغيرة من الدول، ما ينطبق عليها لا يمكن ان ينطبق على عدد كبير من دول العالم الثالث إذا حاولت كلها أن تزيد صادراتها الصناعية بسرعة فى نفس الوقت».

لا حياة لمن تنادى

كل هذه الحجج لم تفلح فى أن تثني عزم الداعين إلى سياسة الاعتماد على الصادرات والمهاجمين لسياسة الاحلال محل الواردات. واستمرت الحملة الدائمة لفتح أبواب التجارة تزداد قوة، يقوم بها الاقتصاديون من الأكاديميين والرسميين والمؤسسات الدولية وكأنهم على اتفاق تام على ما يجب عمله، وتنتهى هذه الحملة بنجاح باهر لهم جميعا يتمثل فى اتمام اتفاقية أورجواى فى سنة ١٩٩٤، والتوقيع عليها من عدد كبير من دول العالم، بما فيها دول كثيرة من العالم الثالث، وكأن هذه الخطوة الكبيرة نحو مزيد من تحرير التجارة وفتح الأبواب أمام الواردات والصادرات هى فى مصلحة البشرية كافة، وإذا بالجميع يشتركون فى التهليل لعصر «العولمة» ويصفقون فرحين «لقد انتهى عصر الانطواء على النفس، وجاء عصر الانفتاح على العالم».

ولكن حقيقة الأمر ليست بهذه البساطة.. فالاختلاف بين سياسة تشجيع الصادرات وسياسة الاحلال محل الواردات ليس فى الحقيقة اختلافا

بين الحق والباطل، بين الصواب والخطأ، بل هو في الحقيقة ليس الا خلافا بين القوي والضعيف.

تسمية الأشياء بغير اسمائها الحقيقية:

فأولا: يجب أن نلاحظ أن تسمية السياسة المضادة لسياسة الاحلال محل الواردات باسم «استراتيجية التصنيع عن طريق تشجيع الصادرات» ليست تسمية بريئة تماما. ذلك أن المقصود منها في الأساس ليس هو بالضبط تصنيع العالم الثالث، بل هو أن يفتح العالم الثالث أبوابه للاستيراد من الدول الصناعية. إنها في الأساس سياسة «تحرير الواردات»، وليست في الأساس «تشجيع الصادرات الصناعية» قد يقال ومن أين لدول العالم الثالث القدرة على زيادة وارداتها دون أن تزيد صادراتها الصناعية؟ الرد على هذا أن دول العالم الثالث لديها أشياء كثيرة يمكنها أن تبيعها لتسدد بثمنها قيمة وارداتها المتزايدة، ولكن هذا البيع ليس دائما في صالحها، هناك مثلا ثرواتها المعدنية، من بترول وفوسفات الى حديد خام.. إلخ.. مما كان يعقد عليه الأمل، في فترة الاحلال محل الواردات في أن يصبح أساسا لصناعات جديدة ولديها أيضا السياحة، أي أن دول العالم الثالث، بدلا من أن تصبح دولاً صناعية مثل غيرها، تتحول إلى دولة للفرجة، يأتي السياح من الدول الصناعية المتقدمة للاستجمام والراحة ومشاهدة الآثار. إن هذا ليس شيئا سيئا بالضرورة اذا تم في حدود معقولة لا تتحول معه نسبة كبيرة من العمالة في هذه الدول إلى الاشتغال بتقديم الخدمات، من مختلف الأنواع، للسياح.

ولكن دول العالم الثالث لديها أيضا أشياء أخرى يمكن لها بيعها، عدا الثروات الطبيعية والتاريخية، وهي الأصول الرأسمالية التي سبق لها بناؤها في فترات سابقة، هي في الأساس فترات «الاحلال محل الواردات» اني أعني بذلك ما يطلق عليه «الخصخصة»، وهي، إذا أردنا الحقيقة ليست في الأساس إلا بيع دول العالم الثالث لصناعاتها لرأس المال الأجنبي دون تمييز بين الرابح منها والخاسر، وبأثمان أقل من قيمتها الحقيقية، تحت ضغط ديون سبق لها الوقوع فيها بسبب تورطها اكثر من اللازم في الاستيراد وفتح الأبواب بلا ضابط أمام الواردات.

إن كل هذه الطرق (فيما عدا السياحة) لتسديد قيمة الواردات السابقة، ولدفع قيمة واردات جديدة، لا يمكن بالطبع أن تستمر إلى الأبد، ولكنها يمكن أن تستمر لأمد ليس بالقصير، وخلال هذه الفترة وحتى تستجد ظروف أخرى، يمكن ان يستمر الترويج لسياسة فتح أبواب الاستيراد على مصراعيها. تحت هذا



قصة العالم الثالث

الاسم الجذاب «سياسة تشجيع الصادرات».

الكفاءة.. الكفاءة:

ثانيا : إن حجج المدافعين عن سياسة تحرير الواردات والاعتماد فى تمويل ذلك على زيادة الصادرات والمهاجمين لسياسة الاحلال محل الواردات يمكن تلخيصها كلها فى كلمة واحدة هى «الكفاءة» إذ أليس من الاكفأ أن تنتج للعالم كله بدلا من أن تنتج لسوق دولتك الصغيرة؟ إنك إذا أنتجت للعالم الواسع أمكنك أن تزيد من حجم إنتاجك بما يسمح لك باغتنام مزايا الانتاج الكبير، وأن تتعرض للمناقشة من منتجين أقوياء فيحفزك هذا على التحسين المستمر فيرتفع مستوى كفاءتك. وأنت على أى حال ، اذا تخليت عن تلك الأسوار العالية التى تحمى بها صناعات غير كفؤة، سوف تتخصص فى انتاج ما أنت مؤهل له، أى تتمتع فيه بكفاءة عالية.

كل هذا صحيح، ولكن «الكفاءة» ليست كل شىء فى الحياة فإطلاق العنان لاعتبار الكفاءة دون غيرها. موقف دارويني قبيح لا يعنى فى النهاية الا الحكم بالموت على الجميع الا الأقوى، فبأى حق تحرم المزارع الصغير من الحياة لمجرد انه اقل كفاءة من الشركات العملاقة صاحبة المزارع الواسعة؟ ولماذا نجبر صاحب الورشة الصغيرة التى يشتغل فيها هو وأسرته على اغلاقها ليذهب للعمل، كعامل اجير، فى المصنع الكبير؟ هل يكفى لتبرير ذلك ان هذا المصنع الكبير يستطيع ان ينتج نفس السلعة بنفقة اقل؟ قد يقال ان فى هذا مصلحة المستهلك، ولكن الإنسان ليس مستهلكا فقط، ورضاه عن حياته ونفسه لا يأتى فقط من قدرته على شراء السلع بثمن أقل، بل يأتى من أشياء كثيرة أخرى من بينها قدرته على التعبير عن نفسه كمنتج ومن شعوره بالاستقلال والحرية ومن علاقاته بأسرته وقومه ، ناهيك بالطبع عما اذا كان لديه عمل يتكسب منه أو متبطلا.

ثم إن هذه الكفاءة التى لا يكف عن الكلام عنها أنصار حرية الاستيراد والتصدير، هى فقط نوع معين من الكفاءة، وهى الكفاءة الاقتصادية ، ولكنها ليست كل الكفاءة فأنا قد أكون اقل من غيرى فى الكفاءة الاقتصادية ولكن نمط حياتى قد يكون أجمل أو افضل. بأى حق مثلا تحرمنى من استخدام لغتى العربية لمجرد أنها ليست لغة رجال الأعمال «أو لغة «البيزنيس» ؟ ولماذا تجبرنى على أن أتعلم شيئا اسمه «علم التسويق» وهو لايزيد كثيرا عن فن خداع المستهلك؟ ولماذا تضطرنى لفتح

أسواقى لسلع تهدد صحتى وحياتى وحياة أولادى لمجرد انها أرخص أو أكبر؟

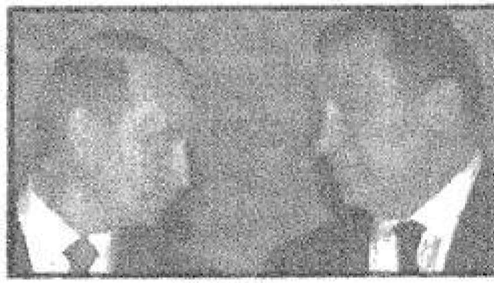
بل حتى بصرف النظر عن هذا وذاك، ما الذى يجعلك تحكم من مجرد النظر على مستوى كفاءتى الحالية بأنى سأظل كذلك إلى الأبد؟ لماذا لا تسمح لى ببعض الحماية ريثما ارفع من مستوى كفاءتى إلى المستوى الذى تطلبه، ثم تحكم على بعد ذلك؟ كما سبق أن فعلت كل الدول التى تعتبر اليوم فى عداد الدول المتقدمة: حمت نفسها اولا ولم تنفتح على العالم الخارجى الا بعد أن اطمأنت على قدرتها التنافسية. إن المنافسة قد تكون شيئا طيبا حقا ولكن بشرط ألا تتضمن عملية قتل. وفتح أبواب الاستيراد قبل الأوان قد لا يؤدى إلى زيادة الكفاءة بل الى الموت.

اختزال الحياة في بيع وشراء:

كل هذا الكلام لم ينجح فى إثناء عزم أنصار الانفتاح على العالم أو فى ردهم عن غيهم. فقد استمروا يرددون نفس الحجج بتصميم مدهش، بل وبتكرار من شأنه أن يبعث السأم فى النفوس. لولا ان احدا لا يستطيع ان يعترض طريقهم أو أن يصفهم بما يستحقون من أوصاف، ذلك ان لديهم كل الأسلحة وكل اللازم لكسب المعركة: البنادق والمال ووسائل الدعاية وغسيل المخ. وهم باستخدام هذا كله يستمرون فى تجميل القبيح، وفى اختزال الحياة كلها وكأنها ليست أكثر من عملية بيع وشراء. وهم يستخدمون اللغة ويصكون المصطلحات على النحو الذى يخدم مصالحهم مهما كان هذا الاستخدام مفضلا.. فرغبة الشعوب فى التمتع بالاستقلال وحرية الارادة وحماية ثقافتها القومية يسمونه «انطواء على النفس» inword looking وكأن هذه الشعوب مريضة نفسيا وتحتاج إلى علاج، وقتل الصناعات الوطنية لصالح صناعات الدول الأقوى يسمونه انفتاحا على العالم"out word looking" .

وكأن هذا هو التصرف الوحيد الذى ينتظر من شخصية سوية لا تخشى مواجهة الأخطار والتحديات، أو يسمونه تحريرا "Liberalization" بافتراض انه ليس هناك شيء افضل من الحرية والتحرير، حتى ولو كان تحريرا من الحماية التى يحتاجها الطرف الأضعف.

هذه هى النقطة التى بلغتها قصة العالم الثالث فى الوقت الحاضر ولكنها لحسن الحظ ليست بالضرورة نهاية المطاف. فتاريخ العلاقات الاقتصادية بين الدول يدلنا على انه مهما ظن القوى بنفسه الظنون ومهما اشتدت خيلاؤه وازداد اعجابه بنفسه ، فسوف يتصدى له بعد حين من هو أقوى منه، وهنا تحين فرصة الأطراف الأضعف للهرب بأنفسهم. المهم أن ينجح هؤلاء الضعفاء فى أن يؤجلوا لأطول مدة ممكنة ، تلك اللحظة التى ينقض فيها عليهم ملك الغابة الحالى لالتهامهم. ■



مبارك وبوتين



البابا يوحنا بولس

روسيا والعرب والتوازن المفقود

بقلم
عبدالرحمن شاكر

ردا على سؤال عما إذا كان يتوقع نشوب الحرب ما بين الدول العربية ودولة الكيان الصهيونى، رد أحد وزرائها بقوله إن الحرب كانت تنشب فى الماضى لوجود الاتحاد السوفييتى الذى كان يقوم بإمداد الدول العربية بالسلاح! ومعنى ذلك أن هذا الوزير يرى أن انتهاء هذا الوضع يعنى أن يكون فى وسع «دولته» التى لم ينقطع عنها مدد السلاح الأمريكى الوفير المتجدد المتطور باستمرار، أن تستمر فى عربدتها العسكرية كما يحلو لها، فى مأمن من أن تبادرها الدول العربية بالحرب لوقف تلك العربدة عند حدها.



خروشوف



جورباتشوف



يلتسين

من ذلك اكتسبت الزيارة التى قام بها الرئيس محمد حسنى مبارك أخيرا إلى روسيا الاتحادية أهمية كبرى، ومن حيث أشير فى تلك الزيارة إلى العلاقة التاريخية ما بين مصر والاتحاد السوفييتى السابق، فقد سمح بعض المراقبين لأنفسهم بتصور أن يكون موضوع السلاح، من بين ما تناولته المحادثات المصرية الروسية على ذلك المستوى الرفيع، خاصة أن القوات المصرية لايزال لديها رصيد من الأسلحة «السوفييتية» قد يحتاج إلى تجديد يجعله صالحا للاستعمال، بالإضافة إلى ما تملكه القوات المصرية من مصادر أخرى أهمها المصدر الأمريكى ذاته، مع احتمال بأن تكون الترسانة الروسية فى صنع السلاح، قد أدخلت أو ابتكرت هى الأخرى أنواعا جديدة من الأسلحة قد يكون فى صالح القوات المصرية أن تقتنى منها ما يلائم أغراضها الدفاعية مما لا توفره لها الترسانات العسكرية الأخرى التى تتعامل معها.

ذلك فضلا عن كون الأسلحة التى تملكها سوريا لايزال كلها أو معظمها من نتاج الترسانة السوفييتية السابقة والروسية حاليا. كل ذلك داخل فى إطار محاولة استعادة التوازن العسكرى المفقود ما بين الدول العربية والدولة الصهيونية، باعتبار أن هذا التوازن ضرورى فى واقع الأمر لكفكفة الغلواء الصهيونية والغطرسة والعربدة المتمثلة فى استمرار عدوانها على الشعب الفلسطينى وإنكار حقوقه، وتهديدها الموجه إلى لبنان الذى انسحبت منه، بما فى ذلك قصفها مؤخرا للرادار السورى فى لبنان بدعوى أن سوريا لاتزال تدعم المقاومة اللبنانية التى لاتزال بدورها تقوم بعمليات ضد الدولة الصهيونية نظرا لاستمرار احتلالها

لمزارع شبعا التى تعتبر جزءا من الأرض اللبنانية.

واستعادة التوازن العسكرى ما بين الدول العربية والدولة الصهيونية، من خلال تعاون جديد مع روسيا الاتحادية قد يكون واردا وبشكل مُلِحٍّ، مع وضع كافة المتغيرات التى طرأت على كلا الجهتين، سواء من حيث أوضاعها الداخلية، أو علاقاتها الدولية في الاعتبار، تحت شعار تحتمه الظروف المستجدة، مؤداه أنه لا عودة للماضي، ولكن لا بأس من المستقبل! .

قضايا شبه أيديولوجية!

وقد تكون لروسيا الاتحادية مصلحة اقتصادية مباشرة فى أن تبيع السلاح لمصر وسوريا ومن عداهما من الدول العربية. وقد تكون لها مصلحة سياسية فى ألا تنفرد الولايات المتحدة الأمريكية، مع انحيازها الواضح للدولة الصهيونية بمعالجة ما يسمى بقضية الصراع العربي الإسرائيلي فى الوقت الذى تعتبر فيه روسيا أحد راعيى ما يسمى بعملية السلام فى الشرق الأوسط، وتجريدها من القيام بأى دور، أو افتقاد هذا الدور فاعليته بالمرة فى غير صالح سمعتها ومكانتها التى تحاول حاليا استردادها كقوة دولية كبرى. وإذا كانت روسيا تضيق فى أوروبا بمحاولات توسعة حلف شمال الأطلنطى بحيث لا يشمل حلفاء سابقين لها مثل بولندا والمجر.. الخ فحسب، بل يحاول ان يمتد إلى ما كان جزءا من الاتحاد السوفييتى السابق مثل أوكرانيا، أقرب أشقائها إليها فى ذلك الاتحاد، الذى كان على نحو ما استمرارا للامبراطورية الروسية التقليدية! إذا كان كذلك، فالمشرق العربى والإسلامى، وما يسمى بالشرق الأوسط، هو ايضا بدوره جار لروسيا ومناطق نفوذ إمبراطوريتها السابقة مهما يكن اسمها! وليس من صالحها ان تنفرد الولايات المتحدة الأمريكية بالنفوذ فيه، واستفحال هذا النفوذ من خلال ركيزة خطيرة من نوع الكيان الصهيوني الذى تتركز وتتفاقم قدراته العسكرية، ويحاول ان يترجمها الى توسع اقليمي من ناحية، وتضخم ديموغرافى من ناحية أخرى من حيث يحلم شارون رئيس وزراء هذا الكيان بأن يهاجر إليه حتى سنة ٢٢٠٠ معظم يهود العالم! وبالطبع لن تكفى هؤلاء الرقعة الحالية المعترف بها دوليا للدولة الصهيونية، ولا الأرض المحتلة فى فلسطين والجولان

التي يتواصل فيهما الاستيطان ، بل لابد من اقتطاع مساحات جديدة في الأرض المجاورة وخاصة في منطقة الشام، فضلا عن حلمه المجنون الذي يراوده حاليا بل يحاول تنفيذه عاجلا وهو السماح لليهود بدخول الحرم القدسي الشريف رغم أنف المسلمين اذلالا للعالم العربي والإسلامي ، وإعلانا بأن الكيان الصهيوني قد اصبح هو الحقيقة الكبرى الرئيسية في هذه المنطقة من العالم!

العدل لا يتجزأ

إذا كانت روسيا سوف تعود بوزنها الكبير على نحو ما إلى المنطقة العربية الإسلامية، أو ما يسمي بالشرق الأوسط، فإن عودتها تلك ، يرجى لها أو يرتقب منها ان تصب في موازين العدالة الدولية المفقودة في المنطقة بحكم العربدة الصهيونية المستندة الى الدعم الأمريكي غير المحدود بمعنى أن يكون موقفها السياسي مطابقا للحد الأدني من مقتضيات تلك العدالة من منظور دولي، وهو ما يطالب به الفلسطينيون والدول العربية من انسحاب دولة الكيان الصهيوني من كافة الأراضي العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ وعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم ، طبقا لقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن

ويرتبط بذلك أيضا الموقف من العراق، التي لروسيا فيها مصالح متعددة اقتصادية واستراتيجية وخلافه، بحيث عليها أن تتخذ مواقف أكثر حزما في نصرة العدالة الدولية إزاء هذا القطر المغلوب على أمره أمريكيا، والذي يتعرض لعدوان مستمر سواء باستمرار العقوبات الدولية المفروضة عليه واستمرار الحصار والتجويع لشعبه، وتعرضه للقصف العشوائي من جانب الطائرات الأمريكية والبريطانية.

ولأن العدل الإنساني لا يتجزأ فقضايا العدالة الدولية المطروحة آنفا لها علاقة أيضا بالأوضاع الداخلية في الدول المعنية، بما فيها روسيا ذاتها، التي يلاحظ الآن أنها تحاول أن تفيق من آثار السياسة الانتحارية التي قادها إليها رئيسها السابق بوريس يلتسين، الذي أقدم على حل الاتحاد السوفييتي، ثم ألقى باقتصادها في هاوية ما يسمى العلاج بالصدمة، والتحول العشوائي نحو الرأسمالية مما أدى إلى استيلاء المافيا الجديدة، المتداخلة مع العصابات اليهودية محليا ودوليا للسيطرة على مقدرات البلاد الاقتصادية والسياسية والاعلامية ونهب الموارد على نحو شنيع، وإلقاء الجماهير العريضة فريسة للجوع والبطالة، مع تدني

القدرات الانتاجية لتلك البلاد ذات الموارد الهائلة، على نحو لم يعرف له التاريخ مثيلا.

لذلك كانت مشاركة روسيا في الثورة العالمية الجديدة على «الرأسمالية المتوحشة» التي التهمت الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي وشرق أوروبا، ظاهرة للعيان في عيد العمال في أول مايو . على نحو ما حدث في البلدان الرأسمالية العريقة ذاتها في بريطانيا العظمى والمانيا وفرنسا وكندا، فضلا عن المظاهرات التي شهدتها مدن امريكية من قبل، ضد الطغيان الرأسمالي المستفحل، والذي زاد الهوة بين من يملكون ومن لا يملكون، أفرادا وطبقات دولا، على نحو شنيع.

الوجه الإنساني للاشتراكية

في المظاهرات التي نظمها الحزب الشيوعي الروسي، والذي هو أكبر كتلة برلمانية في مجلس الدوما الروسي، كان يسير في مقدمة المتظاهرين تحت الأعلام الحمراء، وصور لينين وستالين، الرئيس السوفييتي السابق والأخير ميخائيل جورباتشوف . كان يشارك المتظاهرين في هتافاتهم المنادية بالعدالة الاجتماعية ولم يحاول احد من المتظاهرين إلى جواره أن يوجه اليه اهانة ما. أو يقول له أنت المسئول عما أصاب بلادنا من تحول عشوائي إلى الرأسمالية أدى إلى الحال المتدنية التي تحاول الخروج منها الآن، فالكل يعلم أو يحس بمضمون الشعار الذي سبق الاشارة إليه في هذا المقال، وهو أنه لا عودة إلى الماضي ، ولا يأس من المستقبل.

فحينما أقدم جورباتشوف في منتصف الثمانينات على اعلان سياسته في البريسترويكا، أي إعادة البناء، والجلاسنوست، أي الشفافية والمصارحة، وأقدم على إلغاء «ديكتاتورية البروليتاريا» المتمثلة في انفراد الحزب الشيوعي السوفييتي «المعروف باسم البلشفي» بالحكم والعمل السياسي، وقام بسحب القوات السوفييتية من أفغانستان ودول شرق أوروبا، وسمح بإعادة توحيد ألمانيا، وبحل حلف وارسو وإنهاء الحرب الباردة وسباق التسلح، إنما كان يهدف الى اعطاء الاشتراكية وجها إنسانيا، وانهاء الانقسام العالمي الذي كان يستنزف الموارد البشرية في سباق التسلح، وهو امر كان متوقعا ونودي به عقب إدانة نيكيتا خروشوف لسياسة سلفه ستالين

الاستبدادية فى المؤتمر العشرين للحزب البلشفى عام ١٩٥٦. (١)

لقد عبرت سيدة بريطانية مسنة كانت تشترك فى مظاهرات اول مايو فى لندن عن بعض مطالب مظاهرتها ضد الرأسمالية، حيث قالت: إن المسألة مسألة أولويات ، والأموال الطائلة التى تنفق على التسلح كان ينبغى أن توجه لرعاية الأطفال والأرامل، ورفع مستوى معيشة الجماهير بصفة عامة . هذا المطلب الذى لم يتحقق بعد انتهاء الحرب الباردة لحرص الرأسمالية «المتوحشة» على مكاسبها من صنع الأسلحة وتجارتها من ناحية، وسعيها الى الهيمنة العالمية بما تملكه من تلك الأسلحة من ناحية أخرى.

لقد حاول الجامدون من أعضاء الحزب الشيوعى السوفيتى الانقلاب على جورباتشوف وسياسته فى الجمع ما بين العدالة الاجتماعية والديمقراطية ، فأتاحوا الفرصة لعملاء الرأسمالية من أمثال يلتسين للاطاحة به، وحل الاتحاد السوفيتى الذى قال عنه احد عتاة الساسة الرأسماليين وهو الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون: إنه لو بقى الاتحاد السوفيتى إلى القرن الحادى والعشرين لأصبح المسلمون أغلبية فيه، لأن معدل المواليد فى المناطق الآسيوية الإسلامية هو ثمانية افراد لكل أسرة، بينما هو فى المناطق الأوروبية المسيحية طفل واحد لكل أسرة!

وليس جورباتشوف وحده هو من يثور الآن على الرأسمالية المتوحشة، بل إن صاحب هذا التعبير هو بابا الكاثوليك الحالى يوحنا بولس الثانى، الذى قام بدور فى تدمير النظم الشيوعية الاستبدادية فى شرق اوروبا لايقل عن دور جورباتشوف بتأييده الهائل لنقابة تضامن العمالية المستقلة فى بلده بولندا، ولكن بعد ان رأى ما أحدثه بها وبسواها التحول العشوائى إلى الرأسمالية، وتدنى مستوى معيشة الجماهير على نحو مروع، لم يتردد فى اطلاق هذا الوصف عليها واستنكار ممارساتها الأنانية الاستغلالية وبقى ان نقول: إن الحزب الشيوعى الروسى الجديد بزعامة زيوجانوف لايدعو إلى عودة ديكتاتورية البروليتاريا بل إلى الديمقراطية الاشتراكية ، التى هى أمل العالم فى الجمع ما بين الحرية والعدل الاجتماعى على مختلف الصعد الإنسانية محليا ودوليا! . ■

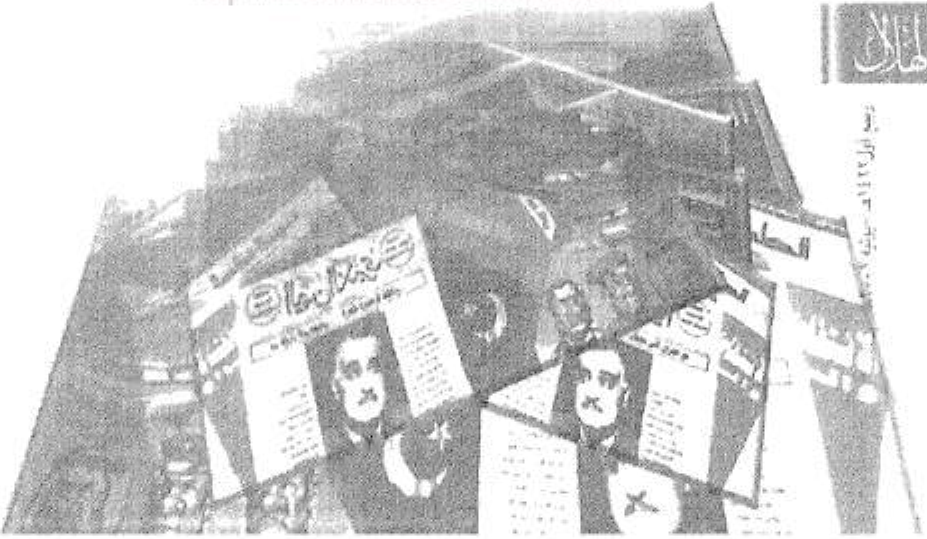
(١) انظر كتابى بعنوان «الثورة الاشتراكية العالمية» الصادر فى القاهرة عام ١٩٦١ .

أم المحارق .. ثقافية !

الصراع بين الكتاب الورقى والكتاب الإلكترونى

بقلم
جميل مطر

كنت مازلت طالباً بالجامعة عندما قبلت عرضاً للعمل فى حقل الكتب والمكتبات. وأظن أن الاختلاط بالكتب والوثائق فى هذه السن المبكرة خلّف آثارا لم تزل باقية. خلف مثلاً رغبة متجددة للدخول إلى مكتبة إذا صادفتنى فى الطريق واحدة، لا للقراءة أو شراء الكتب بقدر ماهو للاستمتاع برائحة الكتب الجديدة. فللكتب، عند وصولها، من المطبعة رائحة خاصة، وللمكتبة، تجارية أم عامة، رائحة لا تجدها فى دكان أو مخزن أو صالة عرض أخرى.



ثم تطورت العلاقة مع الكتاب وغيره من المطبوعات الورقية واستمرت دون أن يعكر صفوها علاقة أخرى حتى جاء يوم جلست فيه إلى جهاز كمبيوتر. فى هذا اليوم عرفت أننى بهذه الجلسة بدأت علاقة أخرى سوف تتسبب إن آجلاً أو عاجلاً فى خلخلة جانب مهم من جوانب الاستقرار فى حياتى. عرفت أن مكانة مصادرى الورقية سوف تنحسر لصالح مصادر غير ورقية، وأن جوانب من سلوكى سوف تتغير لصالح سلوكيات جديدة.

لذلك كان اهتمامى بكتاب صدر حديثاً تحت عنوان DOUBLE FOLD. وبالمناسبة لم أجد ترجمة مناسبة خفيفة على الأذن. فالترجمة الحرفية قد تكون «التعطيفة المزدوجة» أو «الطية المضاعفة» أو «الثنية المزدوجة».. إشارة إلى غلاف الكتاب المقوى.

أثار فضولى أمران، أولهما: حجم التغطية الإعلامية التى حصل عليها والعدد الكبير من دوريات الكتب التى نشرت عروضاً نقدية متفاوتة الترحيب والاعجاب والاعتراض والاحتجاج. أثار فضولى أيضاً بساطة موضوع الكتاب. فموضوعه من نوع الموضوعات التى يشعر الإنسان أنه كان يود دائماً كتابتها أو أنه بالفعل كاتبها. موضوع يشغل الكثيرين، وفى الوقت نفسه ولفرط الحديث عنها تبدو عند القراءة غير بالغة الأهمية فقد استهلكوها نقاشاً وجدلاً.

الموضوع هو «مذابح» الكتب والوثائق ومختلف السجلات الورقية. كلنا نعرف أن أمناء المكتبات العامة فى كل دول العالم وخاصة المتقدمة منها يجردون يومياً أرفف مكتباتهم من كتب ومجلات وجرائد راقدة فوقها ثم يقومون بتفسيخها، أو يذبحونها ذبحاً حسب تعبير «نيكولسون بيكر» مؤلف الكتاب الذى بين أيدينا، وتصويرها مصغرة على شرائح الميكروفيلم. هؤلاء «السيافون» يقولون إنهم يدمرون الكتب للحفاظ عليها. والمؤلف بيكر يقول هم يفعلون ما فعله الجيش الأمريكى فى فيتنام عندما «كان يدمر القرى ويذبح سكانها ويحرق مزارعها وبيوتها للحفاظ عليها». حتى أن التعبير بالانجليزية Destroy to Preserve صار شائعاً فى حقول أخرى. أصبح حراس الكتب والأمناء عليها سيافيها، وهو ما جعل إحدى الناقدات تصف ما يفعله أمناء المكتبات بكتبهم قبل تصويرها بأنه مثل عمل المقصلة. التى تذبح رقبة الكتاب وتنزع سلسلته الفقرية وتفصلها عن جسده.

التخلص من الكتب جريمة!

لا يخفى بيكر أنه منحاز فى هذه القضية لصالح المطبوعة فى شكلها الورقى، أى الأصلى. ويعتقد أنه يجب

الحفاظ عليها مهما كان تكلفة هذا الحفاظ. بل إنه يكاد يصل إلى هاوية التطرف فى كتابه حين يقرر أن التخلص من الوثائق والسجلات والكتب وكل المطبوعات الورقية بحجة ضيق المساحة جريمة. «وأنا منحاز.. وفى هذا الكتاب أتقمص شخصية المدعى فى قضية خطيرة، لقد تم ايقاظ المدعى فى داخلى، لأننا نفقد أشياء لن نستعيدها مرة أخرى، «فقد أعدم حوالى ٩٧٥٠٠٠ كتاب بعد تصويره على الميكروفيلم، وأعدمت مجموعات بلا حصر من الجرائد الورقية لا يمكن تعويضها. ويبدو أن المذبحة بدأت بالجرائد اليومية.

ويكاد القارىء يشعر بالمؤلف يتألم وهو يصرح أنهم - أى أمناء المكتبات - لا يتخذون قراراً فى شأن كل كتاب على حدة، إنما يذبحون صفاً وراء صف من الكتب من رف وراء رف من أرفف المكتبة. يتألم كما لو كان يصف عمليات إعدام بالجملة أو إبادة قبل التحقيق فى كل حالة على حدة. زعموا أن الكتب فى خطر. فالورق يتغير شكله أو تتآكل أطرافه، والحقيقة غير ذلك. الحقيقة هى أنهم يريدون أن يفسحوا مكاناً، يفعلون ما تفعله المكنسة الكهربائية، وما فعلته منذ أربعة قرون أو أكثر الحكومات حين طاردت كهنة الأديرة وتدخلت بحماسة لإعدام وثائق وسجلات أصلية كانت الأديرة تحتفظ بها، ثروة ورقية أعدمت ولن تسترد.

ويرد بيكر على أنصار ذبح الكتب وتصويرها بالميكروفيلم الذين يدفعون بأن الورق مهدد بالخطر. فبقليل من العناية وأحماض جديدة يمكن إطالة عمر الكتاب ثلاثمائة أو خمسمائة سنة أخرى، وأغلب الكتب التى أعدمت كانت بحالة جيدة، وعلى كل حال فالميكروفيلم ليس أفضل، إذ أن بقعاً تنتشر على النسخة بعد مرور سنوات فضلاً عن أن عملية التصوير والطباعة والحفظ باهظة التكلفة، أما الصيانة فأكثر كثيراً.

وقبل أن يصل بيكر إلى الحل الذى يقترحه وهو الجمع بين الاثنين أى الحفاظ على النسخة الورقية وتصويرها إن توفر المال اللازم والتكنولوجيا الرخيصة والمناسبة، اندفع نحو المبالغة من فرط حماسته وانحيازه. كتب يتهم المخابرات الأمريكية بأنها كانت الدافع والمحفز للمذبحة. فقد طرح مكتب الخدمات الاشتراكية OSS فى نهاية الحرب العالمية الثانية الفكرة، أى قبل أن ينجب وكالة المخابرات الأمريكية. ويقول أنه لاحظ أن معظم



مبشرى «التصغير» أى النقل إلى الميكروفيلم اشتغلوا فى وكالة المخابرات الأمريكية كأمناء مكتبة أو كمسئولين عن الوثائق أو كمستشارين. كذلك جلس على مجلس إدارة «المجلس القومى الأمريكى لموارد المكتبة» وهو أعلى هيئة مشرفة على حقل المكتبات فى أمريكا، ضباط سابقون وعملاء معروفون ومستشارون فى وكالة المخابرات الأمريكية. وبذلك جاء توقعى فى محله. فقد توقعت وأنا أقرأ لبيكر عن دور المخابرات الأمريكية أنه سيربط بين هذا الدور وبين شعار الإبادة الذى رفعه أمناء المكتبات. «دمر الكتاب لتنقذه». بل إنه ذهب إلى أبعد مما توقعت، إذ وجدته يكتب صارخاً أو لعله كان يصرخ كتابة «لقد وضعوا الكتب فى أفران الغاز. أقاموا لها محرقة HOLOCAUST» .

أشعر، وأظن أن كثيرين يشعرون بنفس الشعور، أن الكتاب مازال يمثل حلقة وصل أساسية تربطنا بالماضى. وأشعر أيضاً أن كتابى إن فقدته فلن يعود ولن يحل محله كتاب أو شىء آخر، فما بالك والكتاب قد دمر تدميرا. ورغم كل ما قيل ويقال عن الحفاظ على الكتاب بالميكروفيلم، لا أذكر أننى عدت إلى كتاب على الميكروفيلم لأقرأه أو أستعيد فقرات قرأتها من سنوات. فالكتاب بالنسبة لكثيرين أعرفهم ليس رائحة فحسب، وليس زاد علم ومعرفة وحسب، إنما هو أيضاً رفيق، يأخذه القارىء معه حيثما ذهب، إن شاء، فقد يأخذه معه إلى فراشه ويغفو عنه وهو على صدره راقد فى رقة وسكون. وأظن أن هؤلاء الكثيرين لايرضون بغير الكتاب رفيقاً فى أماكن لها قدسية خاصة أو أماكن لها خصوصية شبه مقدسة. نأخذه معنا فى هذه الأماكن ولاننأخذ جهاز ميكروفيلم، مهما بلغ إلحاح حاجتنا إلى معلومة أو قضية أو رفيق. نحن نهدى الكتب فى المناسبات الحميمة ونتلقى هدايا كتب، وتزداد سعادتنا مع كل كتاب مهدى. ولكن أحداً لن يهدينا ولن نهدى أحداً صورة فيلم على كتاب ومعها جهاز ميكروفيلم.

ورغم ذلك، أعرف أننا نعانى من بعض ما يعانى منه أمناء المكتبات. فقد اكتظت بيوتنا ومكاتبنا بالكتب ومطبوعات الورق، واحترنا ماذا نفعل بها وقد ملأت الأرفف ضعفاً وضعفين وثلاثة. وتراكمت الصحف القديمة على حالها أو فى قصاصات، ولا يخلو بيت أو مكتبة من مناوشات وتحرشات من وراء منظر الأرفف وأكوام الصحف والدوريات وقصاصاتها. وكثيراً ما يتردد السؤال ولايجد جواباً شافياً أو مريحاً، إذا كان الكتاب لم يمس على امتداد سنوات عشر أو عشرين فلماذا الاحتفاظ به؟.

هذا ما طرحه وبقوة أحد الذين تصدوا

لنيكولسون بيكر. وجه بيدر زين في مقال تحت عنوان «حياة وموت الكلمة»، سؤالاً إلى جميع القراء نصه كالآتي: كم كتاباً من كتب القرنين السادس عشر والسابع عشر اخترت لتقرأ خلال العام الأخير أو العقد الأخير، أو حتى خلال حياتك بأسرها؟ ويسأل، كم عدد الكتاب العظام في القرن العشرين الذين سيتذكرهم الناس في القرن الثاني والعشرين». ويجيب أن الغالبية العظمى من الكتب التي ينعيها بيكر بعد أن ذبحها أمناء المكتبات لتحويلها إلى نسخة ميكروفيلم لم يكن أحد يقرأها قبل ذبحها إلا نادراً. بيكر يعرف هذه الحقيقة. وأعداء الميكروفيلم والتكنولوجيا الرقمية يعرفونها. ومع ذلك خرج بيكر – كما يقول زين – بكتاب عن شيء لا أهمية له، ومن أجل هذا يستحق الإعجاب، ولكنه يستحق إعجاباً أكثر لأنه أثار زوبعة هائلة وعاصفة من الاهتمام والتعاطف والتأييد بين الجمهور والنقاد بسبب كتاب في موضوع غير ذي قيمة. لقد نجح بيكر في وضع موضوعه في صدارة «دورة حياة الأدب» ولا يتوقف زين عند هذا الحد. بل نراه في عرضه ونقده لكتاب بيكر يتحدى مفهومه للتاريخ، فيقول إن التاريخ ليس كياناً ساكناً يتكون من «ما حدث»، وإنما التاريخ سجل ديناميكي يتكون من «ما نتذكره وكيف نتذكره». فالإنسان يقوم كل لحظة بعملية تتميز بالانتقائية العميقة فلا يحتفظ في ذاكرته من خبراته وتجاربه الحياتية وقراءاته إلا ببعض قليل فقط ويتجاهل الباقي. نحن لا نتذكر .. ولن نتذكر.. إلا حجماً معيناً من المعلومات اخترناها بوعي كامل وأسقطنا أضعاف أضعافه فلا نتذكره.

ثم كتبت «إيلين شولينو»، وكانت هي التي أطلقت تعبير المقصلة على الطريقة التي يستخدمها أمناء المكتبات للتخلص من الكتب والوثائق الورقية، كتبت تعترف بأنه لا يوجد قانون في أمريكا، وربما في معظم الدول يجبر أمين مكتبة على الحفاظ على نسخة ورقية من كل كتاب ينشر، وتضيف أن مكتبة الكونجرس أشهر مكتبات العالم الحديث.. تحتفظ بنسختين من كل كتاب. ولكنها غير مجبرة على الاحتفاظ دائماً بواحدة من النسختين.

والمعروف أن مكتبة الكونجرس دمرت ٣٠٠.٠٠٠ كتاب في الفترة من ١٩٦٨ إلى ١٩٨٤ ثمنها عشرة ملايين دولار، ودمرت بقية مكتبات أمريكا في نفس المدة ٩٧٥٠٠٠ كتاب، وتلفت شولينو النظر إلى أن بيكر لم ينتبه



إلى أشياء أخرى فقدت ولا تستبدل، مثل الأصوات التى سجلت مبكراً جداً لهنود حمر على اسطوانات شمعية هى أيضاً مهددة بحرارة الجو أو الرطوبة أو الزيوت التى تفرزها مسام الاسطوانات. مهددة أيضاً أصوات مسجلة لرؤساء جمهورية فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى.

ويدافع أمين عام مكتبة الكونجرس عن عملية «تدمير الكتب للحفاظ عليها» فيقول إن المكتبة تستخدم حالياً مركبات كيماوية لإطالة عمر الكتب الراقدة على الأرفف إلى ٥٠٠ عام، وبالفعل أمكن علاج ٣٠٠ ٠٠٠ كتاب، وأن المكتبة تبنى حالياً مخزناً مكيف الهواء للدوريات والكتب على مساحة ١٠٠ هكتار فى ولاية ميريلاند. وقد حاول المستر بيللنجتون أمين مكتبة الكونجرس التقليل من حجم الأزمة الناتجة عن ازدحام المكتبات بالكتب وكذلك فعل آخرون مثل روبرت دانتون فى مقاله بعنوان «مذبحة الكتب الكبرى»، واستخدم فى دفاعه العبارة الأثيرة عند الصحفيين «جريدة اليوم هى المسودة الأولى للتاريخ»، ولاشىء (أكثر موتاً) من جريدة الأمس». ولكن الناقدة الأشد عنفاً على بيكر كانت السيدة «باتين» مديرة مكتبة جامعة كولومبيا، فهى التى تزعمت حركة «تطهير» الأرفف من الكتب وتحويلها إلى ميكروفيلم، وسعت لدى الكونجرس لإصدار تشريع مناسب وتخصيص التمويل اللازم، حتى أن بيكر أطلق عليها لقب «عدو الورق». وقد حصلت على جائزة من الرئيس كلينتون فى عام ١٩٩٩ تقديراً لجهودها للتخلص من التراث الورقى للإنسانية.

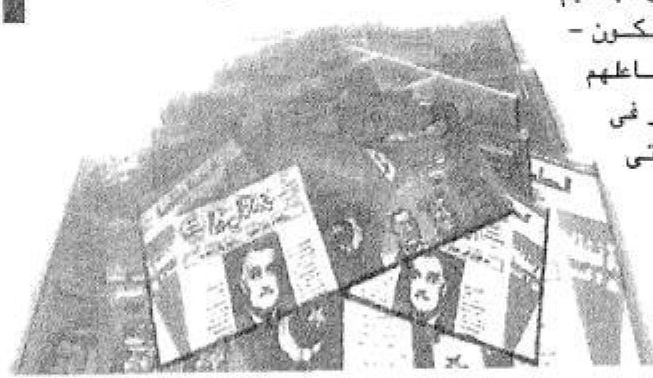
فقدنا الكثير وسنفقد أكثر. قابلت يوماً من يعلمنى قراءة الجريدة اليومية، ولم أزل التلميذ النجيب. أقرأ الصفحة الأولى باعتبارها خريطة الأمس. أتجول فيها من اليسار إلى اليمين، وأتوقف عند الصور، وأختار من العناوين ماوضع لى لأقرأه بتمهل وأخرى لأقرأها بسرعة. وعلمنى آخرون كيف أقرأ كتاباً فى تخصصى، وكتاباً فى غير تخصصى، ورواية فى كتاب. تعلمت وعلمت آخرين كيف يقلبون صفحات الكتاب، أين يبدأون وأين يتمهلون، وأين يتوقفون لالتقاط أنفاسهم أولشحن طاقة الاستمتاع أو الاستذكار. فقدنا الكثير من هذا وذاك، وسنفقد أكثر مع كل ساعة نقضيها أمام الكمبيوتر، تختلط أنفاسنا بأنفاسه، نقرأ ما يريد منا أن نقرأ.. ويقرأ ما يريد أن يقرأه فينا، وهو يعرف ماذا يريد.

وعلى كل حال لا أجد ما يدعو للتشاؤم. يكفى أنه فى وقت يخاف بيكر فيه على الكتاب أن يختفى، تنشأ، وتزداد انتشاراً، الدوريات المتخصصة فى عروض الكتب حتى أصبحت الدليل على حيوية

الثقافة في المجتمع. هاهي دوريات الكتب الأمريكية تثير على مستوى واسع قضية هذا الكتاب، وتثير أيضاً وعلى نفس المستوى قضية كتاب آخر لا يقل امتاعاً وعنوانه «أمة الوجبات السريعة».

بيكر محق في كثير مما كتب، والآخرون محقون في بعض ما كتبوا. وجدت نفسي متفقاً مع الآخرين عندما سألت نفسي السؤال التالي، هذه المقالة التي كتبتها وكدت أصل إلى نهايتها، إذا نشرت ولم تجد من يقرأها بعد ١٠٠ سنة أو ٢٠٠ سنة، ماذا يهم إن هي بقيت في طبعتها الورقية أو تحولت إلى فيلم أو طبعه .. رقمية؟ ثم وجدت نفسي أتوجه ناحية القضية الثقافية الأهم، أي ناحية المذبحة الأعظم، أو المحرقة الأكبر، أو أم المحارق حسب التعبير السائد هذه الأيام، فالمكتبات التي نزل عليها الكتاب الذي بين أيدينا بقسوة شديدة ليست في الحقيقة أكثر من مستودعات كتب، ومخازن للثقافة والعلوم والآداب، المكتبات لا تضع ولا تخلق ثقافة وعلوما وآدابا، المكتبات لا تروج لكاتب أو كتاب، والأمناء عليها، أي حراسها، هم حملة مشاعل مهمتهم عرض الكتاب بإلقاء الضوء المناسب عليه. وبالتأكيد لن تكون مهمتهم - ولا يجب أن تكون - استخدام مشاعلهم لاشعال النار في الكتب أو حتى تخفيض أو تكثيف الضوء على كتاب دون غيره، ومع ذلك ها نحن نرى أمناء المكتبات يقررون إن كان كتاباً يعيش في ذاكرتنا أو يموت على أرفف المكتبات موتاً طبيعياً أو مذبوحاً بمقصلة أو ممزقاً ومشفوطاً بمكنسة كهربائية.

ليسوا وحدهم على كل حال، إن الذي يقرر أن كتاباً سيعيش هم الناشرون والنقاد ومحلات بيع الكتب والقراء المحايدون، الناشرون يقررون إن كان كتاباً ينشر أو لا ينشر، أي أنهم يقررون أحياناً إعدام الكتاب وهو جنين. فمخطوطة الكتاب قد تكون عظيمة ولكنهم يرفضونها إن شعروا أنها لن تحقق الربح المناسب. وقد يقررون نشر كتاب حقاً عظيم، ويكتشفون بعد النشر أنه لم يحقق الربح المطلوب فيقومون بإعدام النسخ المتبقية. بمعنى آخر هم وحدهم يقررون حق أو إبادة كتاب لم يحقق هامش ربح كبير. وغير قليلة في التاريخ الأعمال العظيمة التي حققت هامشاً ضئيلاً من الربح .. فأعدمت. وغير قليلة كذلك الأعمال التي حققت هامشا ضئيلا من الربح وبقيت إلى يومنا هذا، نقرأها ونحافظ عليها، لأن ناشرين فضلوا أن يساهموا في إثراء وعي الإنسان وعقله.



أقوال معاصرة

«أقول رسميا بأن الاشتراكية ماتت ودفنت»

الرئيس الجزائري عبدالعزيز بوتفليقة

«أفضل خدمة البلاد من خلال تولي مسئولية القيام بدور ثقافي، بدلا من تولي الرئاسة مجددا»

الرئيس الايراني محمد خاتمي

«إسرائيل أهم صديق للولايات المتحدة»

الرئيس جورج دبليو بوش

«المثقفون العرب تعودوا مجرد الكلام»

د. عاطف العراقي

«اليساري اليوم يساري لا بما يعتقده، بل بما يرفضه، وهو العداء لليبرالية»

المفكر الفرنسي جان فرانسوا ريفيل

«المشكلة أن مصر تمشي وراء اليابان دون أن تحاول معرفة الى أين وصلنا»

نوتا هارا

أستاذ الأدب العربي في جامعة طوكيو

«الأدباء ليسوا رهبانا أو وعاظا، وفي تمردهم ما قد يفيد الأمة»

الدكتور منصور الحازمي

الناقد والأكاديمي والمؤلف السعودي

«الحضارات واحدة في أسسها ، فهي قائمة على تلبية حاجات الإنسان»

الدكتورة سلمي الخضراء الجيوسي

استاذة الأدب العربي

«أعداد كبيرة من المثقفين العرب تحولوا الى أدوات في أيدي الانظمة لتبرير ما يجرى، وليس لتغيير ما هم قائم»

الشاعر الفلسطيني سميح القاسم

«الهجرة تزحف على لبنان كالجراد، وتأتي على الأخضر واليابس»

المفكرة اللبنانية «زلفا صغير»



عبد العزيز بوتفليقة



جورج دبليو بوش



سميح القاسم

دائرة حوار

التجمع العربى ضرورة حياة

بقلم

محمد التهامى

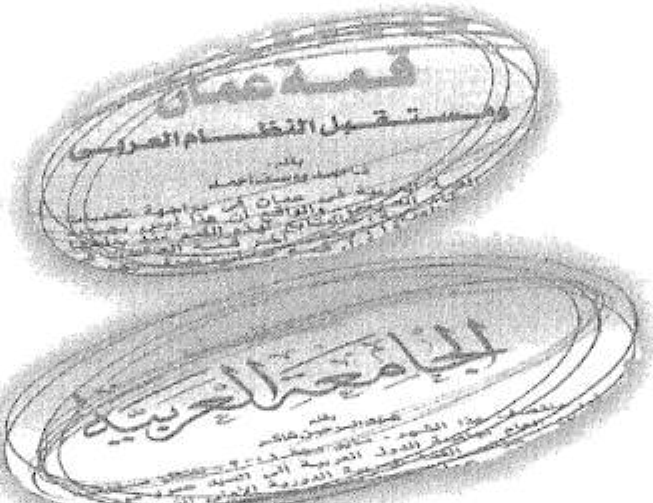
صحا الإدراك العربي أمام الأهوال الدائرة على أرض فلسطين مما يراه ويسمعه العالم صباح مساء من مذهلات صور العدوان وضياع الحقوق وهوان القيم وتخطي القرارات والقوانين والأعراف الدولية ونكوص الرأي العام العالمي عن الانتصار الفاعل لهذه القيم المهدرة.

وفي جو العولمة الخانق الذي يملأ سماء العالم كله عامة ويخيم على رأس الأمة العربية بشكل خاص حيث وضعتها الأقدار فى مواجهة دوامة العاصفة التى تهدد هويتها، وتنذر بزعزعة ثوابتها وتسلبها حتى اسمها لم يجد العرب مناصا من الاستماتة فى المحاولات الدائبة لحل مشاكلهم وجمع صفوفهم، وهم يرون أن الخرق قد اتسع على الراتق وأن أزماتهم أشد من قدراتهم المتاحة لحلها فاستصرخوا الجامعة العربية مؤسستهم القديمة ونجحوا فى أن يحولوا مجلسها إلى مؤتمر قمة سنوى دورى دائم ، لعله يتجاوز العقبات التى عرقلت الجامعة طويلا واهتدوا إلى أن يعقدوا مؤتمرا اقتصاديا يقدم قراراته للقمة على أمل أن يحرك الطاقات العربية المادية والبشرية الكبيرة المتوافرة لتتفاعل وتصبح طوق النجاة بعد أن ظلت زمنا طويلا حبيسة لوغاريتم غير مفهوم من التشتت الاقتصادى فى صغار الأمور وكبارها.

فقد ظل رجل الشارع العربى حتى الذى لم يشب عن الطوق يتساءل فى عفوية وبراءة فطرية: لماذا تستورد الدول العربية البن من البرازيل ولديها البن فى اليمن؟ ولماذا تستورد اللحوم من استراليا وأوربا وهى تحمل فيروسات جنون البقر والحمى القلاعية وعندها الماشية فى السودان والصومال؟ ولماذا تتاجر فى سجاجيد الصلاة والمسابح المصنوعة فى تايوان؟ ولماذا تستورد القمح ولديها الأرض الخصبة الشاسعة والماء الوفير فى السودان والعراق؟ ولماذا.. ولماذا..؟؟؟

حلم السوق العربية المشتركة

أما الآن فقد نضجت هذه التساؤلات وبلغت إلى : لماذا نجح الاتحاد الأوربى وقامت السوق الأوربية وألغيت القيود والحدود فى تنقلات البشر ورءوس الأموال بين دول مختلفة



اللغات والأصول العرقية؟ حتى بلغ الأمر بان تدعو ألمانيا إلى قيام دولة أوربية واحدة تضم حتى انجلترا وهي جزيرة منفصلة!.. لماذا تم هذا كله قبل أن تفعل الجامعة العربية شيئا ذا بال؟ أو تخطو السوق المشتركة العربية خطوة واحدة؟ وقد سبق موادها منظمات أوربا فضلا عن أنها تقوم بين دول تتحدث لغة واحدة وتتواصل دون فواصل طبيعية من جبال وبحار؟ .

ولن تطول الحيرة إلى أن يدرك السائل جوابه حيث يكتشف أن المنظمات العربية تحمل في نسيجها جراثيم معوقاتها فمنظمات الجامعة العربية تستلزم الاجماع لترى مشروعاتها النور، ويكفي اعتراض دولة واحدة ليقف المشروع أما الأوربية فتكفي الأغلبية لقيام المشروعات ونفاذها كما أن بعض الدول العربية تشترط موافقة مؤسساتها الدستورية على اشتراكها في المشروعات وكثيرا ما تعترض هذه المؤسسات.

ونعتقد أنه قد آن الأوان للتخلص من هذه المعوقات والتعلات ومبررات النكوص وخاصة وقد وثبت إسرائيل لتلقن العرب عواقب الوقوف والتعثر وتمد يدها بالشرق أوسطية بديلا عن العروبة لتسيطر التقنيات الحديثة الأمريكية والعالمية وتملك زمام الحركة الحضارية في هذه البقعة العربية الشاسعة الممتدة من الخليج إلى المحيط ، وتسخر أهلها بكل قدراتهم وامكانياتهم المادية والبشرية لتكون سوقا رائجة وبقرة حلوبا وبشرا خاضعا لآلهة التكنولوجيا والتقدم العلمي والتقني المسيطر ونرجع إلى أسواق النخاسة وتعاد مآسي الهنود الحمر.

وهكذا اتضح لكل ذي عينين أن الموجة الزاحفة من أرض فلسطين تتزامن مع مقدمات عواصف العولمة وكان لزاما أن تستيقظ الجامعة العربية وأن تتعدد وتتوالى مؤتمرات القمة وأن يعقد المؤتمر الاقتصادي العربي.

وأصبح واجبا على كل ذي طاقة أن يعرض فكره ورأيه ما وسعه وأن يمد يده ليفعل كل ما يستطيع وخاصة وقد حفلت وسائل الأعلام العربية وخاصة الفضائيات مع الأخبار التي لا تطاق عن ملحمة الانتفاضة.. حفلت بالتساؤلات المحيرة من العرب أفرادا وجماعات من كل مكان وكأن الناس يستنجد بعضهم بالبعض الآخر.

دائرة حوار

وقد حرصت مجلة «الهلال» على عادتها طيلة عمرها الخصب المديد على أن تخوض غمار الفكر وتستنفر عقول كبار الباحثين حول أخطر قضيتين معاصرتين هما أبعاد العولمة، والموقف الواجب منها والتجمع العربي والعبرة من ماضيه والحلم بمستقبله، وقد استغرق هذان الموضوعان الأغلبية الغالبة من مقالات عدد شهر مايو ٢٠٠١ والقضيتان متصلتان غاية الاتصال ومتفاعلتان تفاعلا وثيقا وتجر إحداهما الأخرى جرا.

ونبدأ بأن نقف أمام قضية التجمع العربي فقد كتب فيه في العدد نفسه الأستاذان الدكتور أحمد يوسف تحت عنوان «قمة عمان ومستقبل النظام العربي» والأستاذ عبدالرحمن شاكر تحت عنوان «مستقبل جامعة الدول العربية».

ونتمنى أن تواصل «الهلال» تبنيها لقضية التجمع العربي ومحاولة استثارة أفكار وآراء القادرين على الخوض فيها من جميع النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية إذ هي قضية العصر لا محالة، ثم تبسط هذه الأفكار والآراء على الساحة الواسعة للرأي العام العربي من أصغر قارئ إلى أكبر مسئول وتحاول أن تستصرخ القادرين على الحركة في أي مجال لتتحول الأفكار الناضجة إلى خطط عمل وبرامج إنتاج ومرتكزات وثوب إلى شواطئ الأمل. والهلال ولا شك جديرة بهذه الريادة التي أصبحت فرض عين على كل من يقف على ثغر من ثغور التنوير في هذا الظلام الدامس الذي إذا أخرج الإنسان يده فيه لم يكد يراها.

وفي مقال الدكتور أحمد يوسف بالهلال نظرة ثاقبة إلى مؤتمر قمة عمان وقراراته حول العدوان الإسرائيلي والموقف الأمريكي المحابي له والموقف العربي في مؤازرة الانتفاضة وكذلك الموقف من قضية العراق والكويت وخلص إلى أن القرارات لم تكن على مستوى تطلعات الشعب العربي، وأن الرأي العام العربي أصيب بالاحباط ولكن الايجابية فيه أنه كان إحباطا معلنا وليس مخدوعا بالتمويهات المضللة التي كانت تعلن أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان.

ويختتم الدكتور مقاله بالقول حرفياً : وثمة مسئولية واجبة على النخب العربية السياسية والفكرية والرأي العام العربي عامة في أن يمارسوا جميعا ضغوطا على مؤسسة القمة العربية بالدراسات الجادة والرأي الموضوعي من أجل أن تنجح القمة في الوصول بالنظام العربي إلى مستقبل أفضل.

أما الأستاذ عبدالرحمن شاكر فيستعرض تاريخ الجامعة العربية والمشروع القومي العربي و يخلص إلى أن المشروع القومي الجديد للوحدة العربية يجب أن يقوم على مؤتمر منتخب انتخابا حرا مباشراً من جماهير الأمة العربية على غرار البرلمان الأوربي والكونجرس الأمريكي وخاصة وأن هذه الفكرة جرى إقرارها بالنسبة للقارة الافريقية في مؤتمر «سرت» في ليبيا في العام الماضي.

ودعونا نلتقط الخيط فيما يتعلق بالنخب العربية وكيفية تحركها وفي هذا المجال نطالب الاتحادات العربية القائمة كاتحاد المحامين العرب واتحاد الصحفيين العرب واتحاد الغرف التجارية العربية واتحاد الجامعات العربية واتحاد البرلمانيين العرب واتحاد الكتاب العرب وغيرهم .. وغيرهم ... وكوسيلة متاحة فعلا لقيام تجمع شعبي عربي لعقد مؤتمر من أعضاء مجالس إدارات هذه الاتحادات تنبثق منه لجان تدرس مختلف القضايا العربية السياسية والاقتصادية والثقافية وتستعين هذه اللجان بكل الخبراء ومراكز البحث المتاحة

لتقدم إلى مؤتمر القمة خلاصة الفكر العربي المعاصر الحديث في مناهج عمل مدروسة ميسورة التنفيذ مبرأة من شطحات الخيال والعنتريات تتعامل مع الواقع والامكانيات المتاحة بمنطق عادل لا يجور على حق من الحقوق ولا يهمل واجبا من الواجبات بل يضع الكل على جميع المستويات أمام مسئوليتهم التاريخية .

شركات عربية عملاقة

وكمثال لهذا التحرك العربي العام وخاصة والمؤتمر الاقتصادى العربى على الأبواب نسأل الاقتصاديين العرب فى كل مكان أن يشبعوا نهم الشعب العربى ويدرسوا وسائل تحقيق أحلامه حول إمكانية قيام شركات انتاج عربية عملاقة تستثمر الطاقات العربية كلها بشكل عام يتعدى الحدود ويتركز حول العائد الاقتصادى الأمثل انتاجا وتسويقا بصرف النظر عن الحدود القطرية لمختلف الدول العربية .

وإنا نناشد هؤلاء العلماء الاقتصاديين أن يسارعوا إلى تسليط الأضواء على كل القضايا الاقتصادية المثارة والمطروحة على المؤتمر الاقتصادى مثل قضية السوق العربية المشتركة وقضية المناطق التجارية الحرة ، ويبينون أن هذه المشروعات على جدواها الاقتصادية الهامة جدا يجب أن تسبقها قضايا أكثر أهمية وهى المشروعات الانتاجية الزراعية والصناعية العربية العملاقة المشتركة . فهذه المشروعات هى ركيزة المشروعات التجارية وبدونها تظل التجارة البينية العربية مهما نظمت تدور فى فلك ٢٪ أو ٨٪ على أحسن الفروض إذ يجب أن تتوفر المنتجات لتقوم عليها التجارة .

ولذلك نتمنى على هؤلاء العلماء أن يبادروا إلى إعداد ونشر دراسات علمية واقعية منطقية لقيام الشركات العربية الانتاجية العملاقة على أساس تشريعات يتبناها المؤتمر الاقتصادى بحيث لا يخضع نشاطها للقوانين والاجراءات المحلية القطرية وبحيث تضمن هذه التشريعات العربية العامة الحقوق الكاملة لرأس المال المستثمر وللدولة صاحبة الموقع والدولة صاحبة المواد الخام وللعاملين فى المشروع وأن تضمن حرية التنقل لكل هذه العناصر بين الدول العربية المختلفة بدون أدنى شرط أو قيد ، وأن تتوفى العدالة المطلقة فى تبادل المنافع وتوزيع المسئوليات والواجبات والحقوق للجميع على سواء وأن تكفل ذلك كله بأسلوب حضارى رفيع يبعث الاطمئنان والرضائية ويدفع إلى إقبال الجميع على المساهمة بكل ما يستطاع لنجاح المشروعات بحيث تسود العدالة ولا يطغى عنصر على عنصر ويتحقق النفع العام .

وأن الرأى العام لرجل الشارع العربى وقد رأى نجاح المشروع العربى المشترك فى الأكاديمية البحرية العربية مثلا يسأل هؤلاء العلماء الكبار عن إمكانية أن تقوم صناعة بتروكيماويات عربية عملاقة على أساس مشروعات موحدة تتركز فى المكان الأكثر ملاءمة صناعياً وتجارياً ، ويتوفر لها من عناصر القوة مايجعلها تحطم قيود التسويق التى وضعتها فعلا أوربا أمامها وعلى غرارها تقوم مشروعات استغلال الحديد الخام الموجود فى مختلف الدول العربية وكذلك الفوسفات المتناثر هنا وهناك وأخيراً وليس آخراً المشروعات الزراعية فى مختلف المحاصيل زراعة وصناعة وتجارة كالقطن والقمح وغيرها كتربية الماشية ومنتجات اللحوم والألبان .. إلخ

وهذه أمثلة وغيرها الكثير والكثير مما لا يتوافر بهذا الشكل التراكمى إلا فى البلاد العربية على اتساع رقعتها وإذا تأخرنا فى استثمارها ستمتد إليها أيدى القراصنة الذين بدأ زحفهم وفى يدهم الامكانيات الهائلة .

إن المؤتمر الاقتصادى العربى على الأبواب وسيأتى بعده مؤتمر القمة العربية الدورى وأن هذه الأبواب مفتحة أمام النخبة العربية فى مختلف المجالات للبحث والدرس والاقتراح والنشر على الرأى العام . ■

لغتنا العربية

ماذا يراد بها؟!

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

الناس فى تفكيرهم وإحساسهم ومشاعرهم ونظرتهم للكون مرتبطون بالعادات التى اكتسبوها خلال ممارساتهم اللغوية.

«الفيلسوف الألمانى ولهم همبولدت»

اللغة دون نزاع أوضح خصائص الجنس البشرى، تمييزا له، ودلالة على طبيعته، وتأكيدا لدوره فى أنه أرقى الكائنات الحية على الأرض، هى مرآة العقل، وأداة الفكر، ووعاء المعرفة، وحجر الأساس الذى يقوم عليه المجتمع، وهى ظاهرة نفسية وفسيولوجية، ونشاط جماعي يولد من التفاعلات الاجتماعية، ويرتبط وثيقا بحاضر الجماعة التى تتكلمها وبتاريخها، تسمو بأهلها ومعهم، وتنحط بهم مع انحدارها وتخلفها، وتغطى آثارها مختلف جوانب الحياة، تربوية وثقافية، وسياسية واقتصادية وتقنية وعسكرية، ومع التقدم الهائل الذى بلغته تكنولوجيا المعلومات وأجهزة الإتصالات، تغلغلت آثارها فى أدق شرايين المجتمع وأخفاها، على نحو لم تعرفه في أى عصر من العصور الخوالي، وأصبح لها الصدارة لأنها أهم مقومات الذكاء الإنسانى ومصدر الذكاء الصناعى للحاسب الآلى، أداة المجتمع الرئيسية الآن.

وكلما بلغت الأمة درجات متقدمة في الرقي والتحضر والقوة ، بالغت في الاعتزاز بلغتها ، والحفاظ عليها ، وما يجرى في الدول الكبرى على أيامنا هذه ، أوربية وأسيوية ، شيوعية ورأسمالية ، شاهد ماثل لا يحتاج إلى ذكر أسماء .

مميزات اللغة الواحدة

بعضهم يحسب ، جهلا ، أو بسوء نية، أن اللغة مجرد أداة للتعبير الأدبي ، يحملون هذه المقولة ويشيعونها ، ويقفزون منها إلى الغاية التي تحركهم ، طائفية أو عرقية أو مذهبية : ومادام الأمر كذلك فليست هناك مشكلة ، أو هي يسيرة ، إذ يمكن التعبير بالعامية ، فهي أسهل وأيسر، وانطلاقا منها ، يسمون من يكتب الزجل ، مهما كان مستواه ، شاعرا كبيرا، ومن يحطم أبنية اللغة وقواعدها وأصولها مجدداً عظيما ، وهو تبسيط للأمور وراءه جهالة قاتمة ، موغلة في البلادة ، لأن للغة وانضباطها – والعامية غير منضبطة – دورها في شتى مناحي الحياة ، وسائر السياسة والاجتماع والفن وألمح إلى دورها في الاقتصاد.

إن الصراع الهائل الصامت الذي يدور الآن بين الولايات المتحدة واليابان في نطاق البرمجيات والسيطرة على سوقها يعود أساسا إلى اللغة، وما تتمتع به الأولى من ميزة وتفوق في السوق، مردهما شيوع الإنجليزية وبساطتها وسهولة تعلمها وتعليمها بالنسبة إلى اللغة اليابانية .

وتشعر أوربا الغربية الآن، وقد قطعت شوطا كبيرا في الطريق إلى وحدتها ، فلها برلمانها الموحد، يتم عن طريق الانتخاب الحر المباشر، ومجلس وزراء واحد، وسوق أوربية مشتركة، وحلف عسكري يوحد قواتها ، أن تعدد اللغات فيها ، وتنوعها بين دولها ، وربما في الدولة الواحدة ، يقف عقبة كأداء ، ويمثل صعوبة أساسية تحول دون انصهارها في كيان واحد، ويؤثر عن الاقتصادي الفرنسي مونتيني ، ويعد أبا السوق الأوربية المشتركة، قوله بعد سنوات من قيامها، وأدرك فداحة هذه الصعوبة قوله : «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لبدأت بتوحيد اللغة والثقافة» .

ولا تقف علاقة اللغة بعالم التكنولوجيا عند الطباعة والاتصالات والبرمجيات ، وإنما في الدور الخطير الذي سوف تلعبه في إحداث ثورة في عالم الحاسبات فالمتخصصون والشركات يتحدثون عن حاسب لغوى غايته الأولى كسر حاجز العزلة اللغوية التي تعاني منها اليابان ، ومعه تأمل في السيطرة على سوق المعلومات العالمي، وفيه يبدو تعامل تكنولوجيا المعلومات مع لغات العالم المتعددة عاملا حاسما في تحقيق هذه السيطرة ، ومع ذلك فإن خضوع اللغة لتقنيات العصر ودخولها في مصاف

العلوم المنضبطة أمر بالغ الصعوبة، لتعقدها وتشابك ظواهرها، اجتماعيا ونفسيا وتربويا وتشريحيا. ماذا يصنع الانسان فى أداة تستعصى على المنهجة والتنظيم، فى لغة، أى لغة، يقول عنها شيخ البلاغيين والنحويين العرب، عبد القاهر الجرجانى: «تبين فى لبسها، وتغمض فى سطورها، وتختصر حين تطنب، وتبين حين تختصر» وفيها ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد فى الإفادة».

لم يعد ثمة أدنى شك فى أن المعرفة قوة طريقها اللغة، والقوة معرفة يفرزها العلم، ومحصلة هذا كله مال وموارد وثروات، عمادها الحاسبات والمعلومات والشفرات والإشارات، تتبادلها المصارف والشركات فى معاملاتها المالية أليكترونيا، وما يحمله التفجر المعرفى فى طيات ضميره أشد هولا وعجبا، ويحلق بنا فى أودية من الخيال بلا حدود، وغد مجهول بلا شواطىء، والواقف يتفرج دون أن يقتحم أمواج هذا المحيط الهائل من الإمكانات تفوته الفرصة، ولا مكان له فى غد الاقوياء.

لقد فجرت تكنولوجيا المعلومات مشكلات اللغة على نحو لم يعرف من قبل، وبدت الحاجة ماسة إلى مراجعة شاملة متطورة لكثير من قضاياها، ووجد علماء اللغة وعلماء الحاسبات أنفسهم أمام تحد حقيقى، مصدره أن ما هو متاح حتى الآن من علم وتقنية لا يكفى لمواجهة المشكلات اللغوية فى الحاسب، ولا مناص من استخدام مناهج مبتكرة، وشق دروب علمية جديدة، فى مناطق لم يتطرق إليها العلم من قبل، مما أدى إلى إنشاء مراكز بحثية متخصصة فى الولايات المتحدة الأمريكية، والإتحاد السوفيتى، وفرنسا وألمانيا واليابان، وربما فى مناطق أخرى من العالم لم يصل خبرها إلىّ.

مشكلات اللغة العربية

أما مشكلات اللغة العربية فتبدو وكأن أحدا لا يفكر فيها، لأن واقعها المعيش، بحثا ودراسة وحديثا وإبداعاً، متدن بلا حدود، ومثل هذا الواقع لا يفكر أهله فى المستقبل، ولا يشغلهم الارتقاء، ولا يفكرون فى القيم العليا التى تعيش المجتمعات القوية عليها وبها، ولم نبذل حتى الآن جهدا يذكر فى التغلب على المشكلات التى نواجهها مع عصر الحاسبات، رغم كثرة هذه المشكلات، واختلافها عن قضايا اللغات الأخرى، وتتمثل فى مرونتها، واتساع مفرداتها، وتعدد معانيها، وتباين استخدامها، وتفشى مجازها، وحذفها، والكشف عن مضامين كناياتها، وبنية جملها ونصوصها، ونحن فى انتظار أن يحلها لنا غيرنا، وغيرنا لن يفعل، إنه يصمم الآلة لتخدم لغته، وعلى الآخرين أن يطوروا

لغاتهم لتوائم ما يصنعون ، وتفيد منه، وهو أمر قد ينتهي بها في نهاية المطاف إلى أن تصبح لغة أخرى .

جاءت معرفتنا بالحاسب في مصر متأخرة جدا، فمنذ حوالى خمسة عشر عاما كان الدكتور فتحي سرور وزيرا للتعليم ، وذهب في رحلة إلى الخارج عاد بعدها مبهورا بما رأى ، وبدأ يبشر: إن مصر يجب أن تدخل عصر الحاسبات ، مع أن العالم في ذلك الوقت كان قد تجاوز هذا العصر إلى مراحل علمية أخرى أكثر تقدما وخطراً : الليزر ، والاتصالات السريعة، والجينات ، أما الحاسب نفسه فقد أصبح في العالم المتقدم فأصبح جزءا من أثاث بيت ، ينظم للأسرة مواعيد تناول الطعام ، وألوانه ومكوناته ، وميزانية البيت وأوجه انفاقها ، ويعين الأطفال على المذاكرة والمراجعة ، وشبابها على البحث والدرس .. وترك الدكتور سرور وزارة التعليم ، وكل ما فعله في هذا الجانب تنبيهنا إلى هذا الجهاز الخطير .. شكرا له على أية حال .

وخلفه الدكتور حسين بهاء الدين فاهتم بالأمر، وأعطاه كل عنايته ، وأمد المدارس بآلاف الحاسبات، لكن المناخ السيء السائد جعل عائدها عدما ، فقد أرسلت مثلا إلى مدارس في قرى لم تصلها الكهرباء ، أو ليس فيها من يعرف كيف يستخدمها، وتعليمها ، أو لا يملك الأفق الواسع الذي يقدر خطرها ودورها ، أو يراها ترفا في مدارس لا تملك مرافق ، فظلت «عهدة» في الصناديق التي حملتها ، ولأن صناعة الحاسبات تتقدم وتتطور سنويا فقد أصبحت الآن متخلفة ، وربما تتهيأ المدارس لبيعها كهنة !

خارج منظومة التعليم العام هناك مؤسستان في مصر تهندسان للغة العربية، وتهتمان بها ، وموكول بهما التخطيط لكل ما يتصل باللغة العربية، تخطيطاً وتطويراً وحماية ، وتؤهلهما ثقافتهما وعلمائهما وتاريخهما لهذه المهمة : كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، ومجمع اللغة العربية . أما المجمع فلا يستخدم الحاسبات إلا في الإداريات ، ولم يوظفها علميا بعد ، وأما دار العلوم فلم تعرف على المستوى العلمي شيئاً اسمه الحاسبات إلا هذا العام ، على يد عميد زكي متطور ، منفتح الذهن ، واسع الأفق : أ.د. على أبو المكارم ، فقد أدخل هذا العام ، لأول مرة، الحواسب بكثرة وجعل لكل قسم علمي حاسبا ، وخصص قاعة لشبكة الإنترنت ، والأمر من قبل ومن بعد يحتاج إلى خطوات عملية : تدريب الأساتذة والمدرسين ومساعديهم

الحاسب الآلي في دار العلوم

على طريقة استخدام الحواسب، والإفادة من «الإنترنت» ، وأن يكون للمتمكن من هذا ميزة علمية وإدارية ومالية تحسب لصاحبها في مجال التقدير والترقيات .

وتبقى ملاحظة يجب أن يأخذها المهتمون بالأمر بعين الاعتبار : يرى بعض العلماء أن إخضاع اللغة لضوابط العلم الصارمة وهم خادع ، فلا الرياضيات ولا المنطق ولا الإحصاء يمكن أن يلم بهذا الكم الهائل من ظواهر اللغة المعقدة ، ولا تستطيع الآلة الصماء أن تحاكي ملكة اللغة بموروثها ومرادفاتها وشحنة الانفعالات الكامنة وراء كل صوت فيها ، فمهما كانت دقة الآلة وإحكامها ، ولكن إمكانات العقل البشرى في تخيلها وإبداعها لم تعد تهتم بكلمة المستحيل أو تقيم لها اعتبارا ، وترى من الحتم أن تتلاقى اللغة مع الحاسب، لأن اللغة تجسيد لما هو جوهري في الإنسان، نشاطه الذهنى بكل تجلياته ، وغاية الحاسب في النهاية أن يحاكي وظائف الانسان وقدراته الذهنية ، وتدرجه نحو هذا الالتقاء يتحقق في وثبات متتالية، وبلغ درجة عالية من التفاعل العلمي والتقنى ، من خلال تصميم لغات البرمجة ، وأساليب الذكاء الصناعى ، وما يتطلبه هذا من لغات برمجة تتسم بالقوة والمرونة معا، وتستهدى بالكثير من خصائص اللغات الإنسانية في تصميم هذه اللغات الاصطناعية ، التى تستخدمها نظم الآلات الخبيرة، التى تشخص الأمراض ، وتقدم الاستشارات الفنية والقانونية ، وبعضها يقوم بالتعليم الذاتى ، وكل هذه الحواسب تتطلب قدرة على الحوار مع الانسان الذى يستخدمها ، في لغة سهلة تقترب من لغته الطبيعية .

تخلف شديد!

تعاني اللغة العربية فيما يتصل بنظم الحاسبات تخلفا شديدا فى التنظير ، وهذه حقيقة لا مهرب من الاعتراف بها ، فقد وقفت دراسة النحو جديا على القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) تقريبا، وفي مجال فقه اللغة الحديث لم تتقدم خطوة واحدة بعد دراسات الدكتور إبراهيم أنيس فى الخمسينيات ، من أن الكثير من أساسيات علم اللغة الحديث تجد أصولها فى تراثنا اللغوى، وتحتاج فقط إلى من يكشف عنها، ويضعها فى صورة حديثة متطورة ، بعد أن دفعت تكنولوجيا المعلومات بالدرس اللغوى إلى آفاق بعيدة فى مجال التحليل والتنظير والترجمة الآلية . وهذا التخلف يعود إلى أمرين أساسيين ، أحدهما يتصل بالعقل العربى عامة، والمصرى خاصة ، والآخر يعود إلى مكانة اللغة فى المجتمع المصرى

يبدو تخلف العقل العربى إجمالا، والمصرى خاصة ، ظاهرة واضحة فى عصرنا . لقد انتهى زمن العلماء العظام ،

أو كـان ، فى مختلف المجالات، ولم يعد لدينا أفذاذ حتى فى المجال التطبيقى ، فضلا عن الابتداع ، ونعيش فى حياتنا العلمية على بقية من السلف الصالح ، تودعنا واحدا وراء الآخر ، دون أن يخلفهم فى تخصصاتهم وقدراتهم أحد ، وأحسب أن الأمر يحتاج إلى خبراء فى علم النفس والتاريخ والاجتماع ، يدرسون واقع الشخصية المصرية المعاصرة ، لمعرفة هذه الظاهرة الآن ، وردها إلى أسبابها ، وتشخيصها ، لعلنا نبدأ فى علاجها. نعم، أعرف من قوانين الحضارات أنها كائن حى، تولد وتنمو وتزدهر وتشيخ وتموت ، شأن كل الأحياء ، ولكنى أعرف أيضا أن نموها يتطلب وقتا ، وازدهارها يعمر طويلاً، ويجىء موتها بطيئا . أما حال اللغة العربية فى مصر فجد مختلف : نهضت سريعا ، وتألقت فى زمن قصير ، وأعطت ثمارا يانعة فى الأدب والفكر والسياسة ، ومهدت بشعرائها وكتابها وعلمائها ومفكريها لثورة عظيمة، كانت المثل والقدوة لتحرير منطقتنا كلها، وعمت بخيرها بنى عمومتنا وجيراننا ، ومن اتصل بنا أو التقى معنا فى الفكر أو العقيدة ، وبعد عقد واحد من قيامها بدأ كل شىء يتخلى عن القمة، ويأخذ طريقه إلى السفح : الأخلاق والانتماء والقيم ... واللغة ! . وجاء كل هذا ثمرة طبيعية لغياب الديمقراطية ، وغابت معها حرية الرأى ، وإحساس الانسان المصرى بذاته ، وأنه سيد بلده، فساد التواكل، وعدم الانتماء ، وهاجر المتميزون ، وسيطرت على مصائر الأمة قلة تتسم بالجهل ، وضيق الأفق، والنفور من المشورة ، تكره العلماء ، وتضيق بالمفكرين وأصحاب الرأى الحر ، وتحيط نفسها ببطانة ، متخلفة فاسدة تقدم لها من الرأى ما يدغدغ زهوها وعجبها ، ويرضى غرورها ونزواتها ، لا ما فيها خير أمنها وصلاحها ، وأدى ذلك ضرورة إلى حدوث انفصام بين السلطة والصفوة ، فتوقف العقل المصرى عن المغامرة العلمية ، فى الداخل على الأقل، ومع ركود الحياة اعتاد الناس التخلف ، كأنه قدرهم الذى لا مفر منه ، واستطاب الذين يهمهم الأمر هذا الواقع المريح ، ونسوا أن الموت هو أعلى درجات الراحة ، والقلة اليقظة ، من الصفوة الواعية، آثرت أن تغمض عينيها فى انتظار القارعة ، وما أدراك القارعة ، فقد بدت علائمها ، وتوافرت شرائطها، ومن خصائصها أنها تحل مفاجأة ، لا تعلم أحدا، ولا يعلم بموعدها إلا الله .

اللغة .. والطبقة الجديدة

والأمر الثانى يعود إلى تدنى اللغة العربية فى المجتمع المصرى، على نحو لا يعرفه تاريخها ، وتظلم الجامعات

لغتنا العربية

والمدارس والكتب والمناهج والمدرسين والأساتذة والنحو والصرف حين نرد إليهم الأمر ، فهذه الأشياء كلها عوارض داء وليست المرض نفسه .

البلاء كله يكمن فى الطبقة الجديدة ، فيما أرى، إنها وراء جل الشرور التى أصابت حياتنا، كونت ثرواتها الطائلة بوسائل قذرة ، من الاتجار فى الأغذية الفاسدة إلى نهب المصارف الوطنية، وفى طريقها إلى قمة الثروة تدوس على كل ما تعارف الناس على احترامه من تقاليد وعادات وأخلاق وأعراف وقيم، وتشترى بأموالها ضمائر الآخرين وصمتهم واحترامهم أيضا، وتخلق حولها مناخا يتوامم مع سلوكياتها ، وتبدو فيه متميزة عن كل ما حولها ، وهى فقيرة من أى ثقافة ، إن لم نقل معدمة، تعوض هذا باحتقار الثقافة القومية ، والتباهى بكل ما هو أجنبى ، فشركاتها تحمل أسماء أجنبية ، تكتب بحروف عربية حينا ، ولاتينية حينا آخر ، وزوجاتهم يضعن حملهن فى بلاد أوربية ، أو فى أمريكا، ليجىء المولود إلى الحياة ، وهو يحمل آليا جنسية البلد الذى رأى فيه الحياة لأول مرة، بلا تعقيدات ولا إجراءات ، وبحكم دورها فى المجتمع تؤثر على من حولها ، وطبقا لقوانين التقليد تصبح نموذجا للفقراء ، وللطبقة الأدنى، وهكذا تجد أسماء أجنبية ، على محلات صغيرة للبيع أو الشراء، أو الحرفيين ، فى الحوارى والأحياء الشعبية ، ويصبح البعد عن اللغة العربية رقيا ، والحرص عليها تخلفا ورجعية، وأمام هذا الزحف تراجعت قلاع العربية التقليدية ، واجتاح الوباء الإعلام ، وهو أخطر جهاز ، فى كل مستوياته ، مرئيا ومسموعا ومقروءاً فى التحرير والإعلان والحوار والندوات وفقدت الدولة سيطرتها على التعليم ، وأصبحت المدارس «كثوب ضم سبعين رقعة» على حد تعبير شاعر النيل حافظ ابراهيم ، فهناك مدارس تتبع شتى السفارات الأجنبية ، وتسير على مناهج التعليم فى أوطانها، وتقبل أبناء المصريين القادرين على دفع نفقاتها العالية، ومدارس أهلية بنفقات مرتفعة ، تتبع نظاما أجنبيا تتباهى به ، أمريكية وإنجليزية وفرنسية وألمانية ، وأخرى مثلها ، تسير على النهج المصرى، ولكنها تتخذ من اللغة الإنجليزية لسانا ، ومدارس تقيمها الوزارة تحمل اسم مدارس اللغات ، بنفقات أقل، وتعطى اللغات الأجنبية عناية أكبر، وفى هذه المدارس كلها، وبعضها لم أذكره ، وهى كثيرة ومتعددة ومتنوعة ، تنزوى العربية خجلا ، كتابا ومعلما ومادة وتلاميذ ، أمام زهو الأغنياء ، وخيلاء الرطانة .

قلعة شامخة

ويتجاوز الأمر التعليم العام إلى المستوى الجامعى، فهناك الجامعة الأمريكية، وكانت قبل نصف قرن أعلى من مدرسة ثانوية وأدنى من كلية ، فأصبحت قلعة شامخة للثقافة والقيم والأخلاق الأمريكية ، وسط قاهرة المعز ، وشارة زهو للأبناء والبنات والآباء أيضا ، وكلهم مصريون!

ونحن الآن فى الطريق إلى جامعة فرنسية ، وأخرى ألمانية ، والبقية تأتى! ولابد أن يكون المرء مغيبا ليصدق أن هؤلاء جاءوا لتعليم المصريين شفقة عليهم ، ورغبة فى النهوض بهم، لوجه الله والسيد المسيح وكل القديسين ، دون غاية أبعد من الرغبة فى عمل الخير!

ودخل الأغنياء المصريون اللعبة أيضا، هذه المرة رغبة فى الربح لا فى التميز ، فأقاموا الجامعات الأهلية، تفتح أبوابها لكل من لا تسمح لهم إمكاناتهم الذهنية والعقلية بدخول الجامعات الحكومية ، ماداموا يدفعون ، وفى خطوة غير مسبوقة ، بدأت الجامعات الرسمية تنشىء كليات أو أقسام فيها تدرس باللغة الإنجليزية ، فى الحقوق والتجارة والعلوم والإعلام ، مقابل مبالغ عالية، لا يستطيعها إلا الأغنياء ، وهكذا تتحول الجامعة شيئاً فشيئاً إلى نوعين : تعليم متواضع عليه قتامة الفقر وذل الحاجة يجرى باللغة العربية، وآخر لأبناء الذوات ، القادرين على دفع النفقات العالية، يتم باللغة الإنجليزية!

شموع مضيئة

وسط قساوة الواقع ، وكثافة الظلمة - تظل بعض الشموع مضيئة هناك ، خافتة ولكنها هادية : عودة الكتاتيب إلى الازدهار فى القرية المصرية، هذه الينابيع الثرة التى أمدتنا يوما برفاعة الطهطاوى ، وعلى مبارك ، ومصطفى لطفى المنفلوطى، وعباس العقاد، وطه حسين وآخرين كثيرين، وبعض قنوات الإذاعة التى تحرص على استخدام اللغة العربية دائما ، مثل صوت العرب، ومعظم المحطات العالمية التى تتوجه إلى العالم العربى ، ونجاح المسلسلات التاريخية التى حافظت على لغة العصر والشخوص التى تمثلها ، وفى مقدمتها مسلسل عمر ابن عبدالعزيز ، وتقبل الذوق العام للقصائد الفصيحة التى يغنيها كبار المطربين ومع ذلك كله ، فلا أمل فى أن تسترجع العربية عصورها الزاهرة فى مصر ، إلا إذا تغير المناخ جذريا وكله ، أما الترقيع والإصلاح الجزئى فلا يجدى نفعا. ■

كيف يملأ التعليم فجوة الانقسام الرقمى



بقلم
د. أحمد محمد صالح

التعلم شىء خطير جدا، والتعلم بدون عقيدة يعد جهداً ضائعاً، والفكر بدون تعلم يصبح محفوفا بالمخاطر، وإذا سألت الرجل الواقف على بوابة القرن الجديد أن يعطيك ضوءا ينير طريقك خلال المجهول فى القرن الحادى والعشرين، وقتها سوف يعطيك الرجل جهاز كمبيوتر متصلاً بالانترنت، لكن هذا الرجل الواقف على بوابة القرن لن يعطى جهاز الكمبيوتر لكل إنسان على كوكب الارض، بل سوف يعطيه لمن يملك مؤهلات إنتاجه، وتطويره، وتشغيله، وتوظيفه فى حل مشكلاته، بمعنى أدق هناك فرص غير متساوية بين سكان العالم للوصول للمعلومات وتوظيفها، وهو ما أطلقنا عليه فى مقال سابق فى الهلال «خط التقسيم الرقمي» The digital divide أو الانقسام الرقمي أو الفجوة الرقمية التى تفصل بين الذين يملكون المعلومات، وبين الذين لا يملكون، ويفهم كظاهرة متعددة الأبعاد، حيث يعكس التباينات والتفاوتات بين الدول الصناعية المتقدمة، والدول النامية، وفي نفس الوقت يعكس الفجوة بين أغنياء المعلومات وفقراء المعلومات فى الدولة الواحدة.

الهاوية الرقمية:

ونتيجة الانقسام الرقمي لن تشارك كل البلاد حول العالم بالتساوي في الانتقال الى الاقتصاد العالمي الجديد. وخط التقسيم الرقمي بين بلاد السوق الناشئة والمتقدمة هو الآن أكثر تشبيها بالهاوية الرقمية، لأن مستخدمي الإنترنت الذين يتركزون في الدول الصناعية يمثلون الآن الأغلبية الساحقة للنشاط الاقتصادي المتصل بالمعلومات وتكنولوجيات الاتصالات. لكن بين البلاد الصناعية نفسها يوجد خط تقسيم رقمي آخر، حيث تتصدر الولايات المتحدة وكندا والبلاد الاسكندنافية دول العالم الصناعي في تكنولوجيات المعلومات والاتصال، ووفقا لمؤشر مجتمع المعلومات لعام ٢٠٠١ يوجد تصنيف لأمم ٥٥ دولة تخصص جزءا من مواردها لتوفير البيئة التحتية الاتصالية، والتجهيزات اللازمة لتعميق اندماجها في عالم تكنولوجيات المعلومات. وقد اعتمد هذا المؤشر على عدة معايير منها: أولا مؤشر البنية التحتية الأساسية ويضم نسبة الطلبة الداخلين الى المرحلة الإعدادية ونسبة الداخلين الى المرحلة الثانوية، ونسبة الطلبة قراء الصحف، ومقدار حرية الصحافة والحريات المدنية المتوفرة. ثانيا مؤشر البنية التحتية الاتصالية والمعلوماتية ويضم نسبة خطوط التليفون لكل منزل، نسبة أعطال التليفون لكل خط، تكلفة المكالمة المحلية، نسبة اقتناء التليفزيون لكل فرد، نسبة اقتناء الراديو لكل فرد، نسبة اقتناء الفاكس لكل فرد. نسبة اقتناء التليفونات المحمولة لكل فرد، الاشتراك في المحطات التليفزيونية الخاصة (الكيبل). ثالثا مؤشر امتلاك أجهزة الكمبيوتر ويضم نسبة أجهزة الكمبيوتر الشخصية لكل فرد، نسبة أجهزة الكمبيوتر الشخصية المنزلية لكل بيت، نسبة أجهزة الكمبيوتر الشخصية الحكومية، نسبة أجهزة الكمبيوتر الشخصية الموجهة للمؤسسات التعليمية الكلية/ والطلاب، ومدى الانفاق على البرامج/ والأجهزة. رابعاً مؤشر البنية التحتية في قطاع الانترنت ويضم حجم التجارة الإلكترونية، عدد مستخدمي الانترنت منزليا، عدد مستخدمي الإنترنت تجاريا، عدد مستخدمي الإنترنت تعليميا. وفي ضوء تلك المقاييس صنفت الـ ٥٥ دولة الى دول عبرت خط التقسيم الرقمي من زمان، ودول لم تعبر حتى الآن هذا الخط، بالنسبة لدول المجموعة الأولى التي عبرت خط التقسيم الرقمي صنفت الى مجموعتين: الأولى دول متقدمة جدا في تكنولوجيا المعلومات، وتعيش فعلا عصر المعلومات، ويمكن تجاوزت خط التقسيم



الرقمي الى ما بعد عصر المعلومات وتضم ١٥ دولة على الترتيب هي: السويد، النرويج، فنلندا، الولايات المتحدة الأمريكية، سويسرا، استراليا، سنغافوره، هولندا، اليابان، كندا، المانيا، النمسا، هونج كونج.

المجموعة الثانية دول صناعية منطلقة جدا في تكنولوجيات المعلومات، وتعيش فعلا عصر المعلومات، وتضم ١٢ دولة مرتبة من ١٦ حتى ٢٧ وهي على الترتيب نيوزيلندا، بلجيكا، تايوان، كوريا، أيرلندا، فرنسا، إسرائيل، إيطاليا، أسبانيا، البرتغال، اليونان، جمهورية التشيك. أما بالنسبة لمجموعة الدول التي تعيش خلف خط التقسيم الرقمي فهي تصنف في مجموعتين أيضا: الأولى هي الدول التي تجرى فعلا نحو عبور خط التقسيم وتضم ١٦ دولة مرتبة من ٢٨ حتى ٤٣ وهي الإمارات، المجر، بولندا، الأرجنتين، ماليزيا، تشيلي، بلغاريا، رومانيا، كوستاريكا، بنما، جنوب افريقيا، فنزويلا، روسيا، تركيا، المكسيك، الأكوادور. والمجموعة الثانية والأخيرة هي الدول المتلكئة في عبور خط التقسيم وتضم ١٢ دولة مرتبة من ٤٤ حتى ٥٥ وهي على الترتيب: السعودية، البرازيل، كولومبيا، تايلاند، الفلبين، بيرو، الأردن، مصر، الصين، اندونيسيا، الهند، باكستان والآن هل لاحظت الفرق بين إسرائيل ومصر في تكنولوجيا المعلومات، الأولى تجاوزت خط التقسيم وترتيبها الـ٢٢ والثانية تعيش خلف خط التقسيم بمسافة كبيرة ومتلكئة في عبور الخط وترتيبها الـ٥١ من ٥٥ دولة!، وإذا كان خط التقسيم الرقمي يعكس الوصول الجائر غير المتساوي الى تكنولوجيا المعلومات والاتصال بين البلاد الفقيرة والغنية، وداخل البلد الواحد بين المميزين من الأغنياء والفقراء المعدمين، فهو يهدد أيضا بمضاعفة أعداد المجموعات المهمشة والمعدمين الى أبعد مدى ويتضمن ذلك فقراء ومعدمي الريف، وحجم الانقسام الرقمي في العالم كبير جدا، ومرتبط بخطوط التقسيم الأخرى؟! فمن تقرير التنمية البشرية للأمم المتحدة عام ١٩٩٨ يتضح أن بليون فرد في كوكب الأرض يعيش في فقر مدقع ويحاولون ان يعيشوا على أقل من دولار في اليوم، وهو ما يوازي سعر زجاجة مياه معدنية أو ثمن فنجان قهوة، أو نصف سندوتش هامبرجر.

وصنف التقرير دول العالم وفقا لمؤشرات أساسية هي طول العمر والتحصيل التعليمي ومستويات المعيشة مقاسا بنصيب الفرد من إجمالي الدخل المحلي. فالدول الصناعية متوسط العمر

المتوقع فيها أكبر من ٧٤ عاما مقابل ٦٢ عاما فى الدول النامية، ومعدلات تعلم البالغين تزيد على ٩٨٪ فى الدول الصناعية مقابل ٧٠٪ فى الدول النامية، ونصيب الفرد فى الدول الصناعية من إجمالى الدخل المحلى أكبر من ١٦ ألف دولار مقابل ٣ آلاف دولار فى الدول النامية. أما فى الدول الأقل فالعمر المتوقع ٦١ عاما، نسبة تعلم البالغين أقل من ٥٠٪، ونصيب الفرد من إجمالى الدخل المحلى حوالى ١٠٠٠دولار، فهناك تفاوت كبير، فيما يخص طول العمر، التعليم وإجمالى الدخل المحلى بين دول العالم على مستوى المؤشرات السابقة، وهناك أيضا تفاوت كبير فى درجة الوصول الى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فالمواطنون فى الدول الصناعية لديهم فرص كبيرة للغاية للوصول الى تكنولوجيا المعلومات، وتتوفر لديهم كل القدرات والمؤهلات فى توظيف تلك التكنولوجيا الجديدة فى العمليات والاغراض التعليمية بداية من ورق الطباعة حتى الإنترنت.

ويتضح من الإحصاءات الدولية أن أغلبية السكان فى العالم حتى الآن لم تستشعر وتلمس نتائج وأبعاد ثورة المعلومات، وأن الاقتصاديات الجديدة المنبثقة والتى تتميز بالاعتماد المتزايد والسريع على قيمة الإبداع القائم على المعلومات والمعرفة، تتمركز غالبا فى الدول المتقدمة، وبالتالى أغلبية الناس، خصوصا فى الدول النامية، لن تستفيد من فوائد الاقتصاد الرقمى الجديد، ويعتبر خط التقسيم الرقمى هو جزئيا نتيجة الانقسام المعرفى، (Knowledge divide) وهو فى نفس الوقت أيضا معوقا كبيرا للتغلب على مثل هذا الانقسام المعرفى، الناتج من الانتشار الواسع للأمية فى العالم وانخفاض جودة التعليم، وهما من أهم أسباب إعاقة مجهودات الدول النامية للتطور واستعمال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وفى نفس الوقت يعتبر الانقسام الرقمى معوقا كبيرا لتحسين الجودة التعليمية، ولتحقيق عدالة الوصول للمعلومات خاصة عندما يغيب نظام فعال لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فهى حلقات متصلة، لكل حلقة نتيجة وسبب.

ما العلاقة بين تكنولوجيات المعلومات والاتصالات والتعليم؟

ومن مؤشرات المقاييس السابقة يتضح جلياً أن التعليم هو أهم بنية أساسية لعبور خط التقسيم فالتعليم هو المفتاح الاستراتيجى الأساسى لإحداث التغييرات الضرورية التى تضمن التطور الاجتماعى والثقافى والاقتصادى وأيضا حماية البيئة

والأمن الغذائي. وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة توفر الفرص المتعة لمثل هذا التعليم. ولسوء الحظ، مثل هذه الفرص لا توزع بالتساوى بين سكان العالم، وفى هذا العصر، عصر العولمة والمعرفة المساندة للاقتصاديات الضخمة، هناك تقريبا ٨٠٠ مليون أمي بالغ، وتقريبا ١١٣ مليون طفل خارج المدرسة مركزين غالبا فى الدول الأقل نموا. والتى يتركز فيها أيضا أغلبية من الذين يعانون سوء التغذية، حوالى ٨٠٠ مليون فرد. والتعليم هنا يمكن أن يكون العامل الحاسم والفعال فى توزيع عادل ومتساو للمعرفة، وفى محاربة الفقر ونقص التغذية، لذا يجب من الآن أن يصل التعليم إلى كل البشر، وإذا لم ينجح العالم فى ذلك سوف تتزايد الفجوة الرقمية، وتكون النتيجة تفاوتات أضخم، ونزاعات متكررة - والمؤتمر العالمى من أجل التعليم للجميع، الذى عقد فى جومتين فى ١٩٩٠، نادى بمقابلة حاجات المعرفة الأساسية لكل الأطفال، والشباب والبالغين. ويمكن أن تساعد تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فى مواجهة هذا التحدى، لاسيما بتوسيع قاعدة التعليم الأساسى فى اتجاه المستبعدين من التعليم، وأيضا بتحسين حالة فصول التعليم.

والدراسات والتجارب التى أجريت فى السنوات الأخيرة تشير إلى إمكانيات وحدود تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فى تحقيق التعليم للجميع: فالتعليم الأساسى الجيد للدول النامية هو ما يتيح الفرصة للأعداد الكبيرة ويستجيب لحاجاتهم. انه إصدار عادل يراعى تكافؤ الفرص. وتستطيع تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فى بعض الحالات، أن تعوض وتكون بديل المدارس الابتدائية التقليدية فى توصيل التعليم الأساسى، على سبيل المثال، يمكن لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات أن تساعد السكان الذين لا يتوفر لديهم مدخل إلى التعليم أو لديهم تعليم ردىء الجودة. ولكن هذا، يتطلب موارد مالية وفيرة ومدرسين مدربين على استعمال الكمبيوترات فى الفصول، وكل ذلك غير متوفر فى الدول النامية، لذلك فالراديو هنا يكون أكثر ملاءمة فى ان تصل من خلاله خدمات التعليم الأساسى بتكاليف أكثر تواضعا من استخدام التليفزيون أو الكمبيوترات وتبين الدراسات أن استعمال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات لتدريب المدرسين ووكلاء التغيير فى كل مجالات التنمية يعتبر وسيلة أكثر اقتصادية واكثر تأثيرا فى الارتفاع بجودة التعليم بالمقارنة بالاستعمال المباشر لتكنولوجيا المعلومات

والاتصالات في التعليم الأساسي أو في محو الأمية بين البالغين، واتضح أيضا أن استعمال تكنولوجيات المعلومات والاتصالات في التعليم أكثر كفاءة وأنسب لمستويات التعليم العالية (مثل التعليم المهنى والثانوى والجامعات، والتدريب التجارى والصناعى والزراعى وتنمية الموارد البشرية) وبالمقارنة في توظيف تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في المدارس الابتدائية، والتعليم الأساسي، ومحددات ومعوقات إدخال الكمبيوتر في التعليم ليست في القصور المالى أو التقنى ولكن أيضا هناك محددات اجتماعية وتنظيمية، مثل الروتين، وفوبيا التكنولوجيا الجديدة، وصعوبة تغيير تقاليد فلسفة التعليم الباليه في الدول النامية مثل الحفظ والتلقين، وأشكال الامتحانات العتيقة.

وهناك بعض التجارب التى استعملت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في التعليم بتدعيم وإشراف الفاو مثل المشروع الذى سوف يبدأ قريبا في شيلى، بتدريس علوم التغذية في مقررات المدارس باستعمال الإنترنت . وبين التجارب التى تعنون تحت التعليم غير الرسمى تجربة «الاتصال من أجل التنمية » حيث استخدمت الإنترنت في توصيل المعارف والمهارات لصغار الحائزين من المزارعين، وتدريب وكلاء التغيير، وأثبتت التجربة نجاحا في أمريكا اللاتينية، وقريبا تنتشر التجربة خلال المنطقة وبعيداً إلى الصين مالى، أندونيسيا، جمهورية كوريا، الأرجنتين ،كوستاريكا، هندوراس والمكسيك. ومن تلك التجارب وغيرها تبين أن التعليم من على بعد يجب أن يقوم على أسباب حقيقية ومنطقية . وأن الأهداف التعليمية هى التى تقود قرارات التكنولوجيا وليس العكس ، وأن التكنولوجيا ليست نشاطا تعليميا، بل هى مجرد وسيلة وأداة لتحقيق الغاية. والتعليم عن بعد يجب أن يكون حساسا ومتكيفا للسياق السياسى والاجتماعى والثقافى والبيئى للمتعلمين، فقد يستهدف محترفين مدنيين مثقفين يستعملون أحدث تكنولوجيات الاتصالات ولديهم مهارة كبيرة في برامج الكمبيوتر، وقد يستهدف أيضا ريفيين أميين فقراء يفتقدون الكهرباء وخدمات الاتصالات مثل التليفون، ويفضل أن يعتمد التعليم عن بعد على إمكانيات البنية التحتية الاتصالية الحالية بطريقة تضمن استمراريته ، وذلك أفضل من محاولة مد بنية تحتية واتصالية جديدة إلى المتعلمين ، مهددة دائما بتوقف اعتماداتها المالية، ومبادرات التعليم عن بعد يجب أن تكون حذرة ومبتكرة في استعمالها للبنية التحتية المتاحة، فتكنولوجيا المعلومات

والاتصالات قد تكون مناسبة فى سياقات معينة وغير مناسبة فى سياقات أخرى . وفى التعليم من على بعد يجب إشراك المستهدفين فى عمليات التخطيط والتطبيق والتقييم، ويجب أن يكون على أساس فلسفة تربوية واضحة ونماذج إدارية سليمة.

واخيرا نقدم تلك العجالة السابقة للمسئولين فى مصر عن الدعوة لانشاء شبكة التعليم عن بعد، وفى حدود علمى ، قد بدأت الخطوات الفعلية فعلا لتنفيذها بالاتفاق مع بعض المؤسسات الدولية، ونذكر هنا أننا نعيش فى عالم فيه أكثر من بليون فرد يعيشون على أقل من دولار فى اليوم ، وان حوالى ٥٠ ٪ من الأسر المصرية تعيش تحت خط الفقر ، وحوالى ٦٠ ٪ نسبة أمية ، وإن إمكانيات تنمية تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فى مصر مشكوك فيها لغياب الشروط السياسية والاقتصادية والاجتماعية اللازمة لنموها وتوظيفها ، وأننا نحتاج فى مصر لكسر الحلقة المفرغة التى تربط بين خط الانقسام الرقمى وبقية الخطوط ، مثل ضعف جودة التعليم المقدم للمصريين ، وإنخفاض الدخل، ونقص الرعاية الصحية، وأمن غذائى ومائى مشكوك فى استمراره، وبنية تحتية غير كافية خاصة فى مجالات الاتصالات،فكلها عوائق رئيسية تقف حائلا أمام مشاركة أغلبية الناس فى الدول النامية ومنها مصر فى ثورة المعلومات والاتصالات، فهل نستطيع فى مصر أن نحول الانقسام الرقمى داخل الوطن إلى فرصة رقمية للتنمية؟!. ■

كلمات عاشت

● الاختلاف فى الرأى ينبغى ألا يؤدى إلى العداء، وإلا لكنت أنا وزوجتى من ألد الأعداء.

(غاندى)

● افعل شيئا واحدا فى المرة الواحدة وافعله كما لو كانت حياتك تتوقف عليه

(يوجين جرش)

● لسان العاقل وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه

(على بن أبى طالب)

● لا حرية بدون إرادة

(ديكارت)

لغويات

د. محمود فهمي حجازي

كلمة «التسييس» من الكلمات الجديدة التي لانجدها في المعاجم العربية المتداولة ، ولكن الكلمة مستخدمة بمعنى جعل الموضوع في إطار سياسي ، وكتبوا أيضا عن نزعة التسييس أو الاتجاه إلى التسييس بمعنى إعطاء الأمر طابعا سياسيا أو توجيه الموضوع توجيها سياسيا. ومشكلة هذه الكلمة أنها من المادة اللغوية «س و س» ، هذه المادة موجودة بالواو في المعاجم العربية : الفعل في الماضي ساس ، وفي المضارع يسوس . وصيغة المضارع دالة على أصل الكلمة وأنه بالواو .. وقد نظر مجمع اللغة العربية في مدى صحة كلمة تسييس في لجنة الألفاظ والأساليب.

إن كلمة سياسة عمرها تجاوز ألف سنة ، استخدمها السيرافي «المتوفي ٣٦٨هـ» وهو النحوي الكبير شارح كتاب سيبويه . وأثبت ذلك أبو حيان التوحيدي في كتابه «الإمتاع والمؤانسة »، كما وردت في الوقت نفسه في : «رسائل إخوان الصفا»، كتبوا عن السياسة الملوكية والسياسة البشرية وغير ذلك . واستقرت كلمة سياسة في اللغة العربية على مدى أكثر من ألف عام ، وإن كان استخدامها تفاوت من عصر لآخر . إن كلمة سياسة بالياء، وليست بالواو ، وإن كانت حروفها الأصول س و س . ولكن الكلمة استقرت وأصبحت من رصيد اللغة العربية.

ومن هنا كان منطلق قرار مجمع اللغة العربية بشأن كلمة التسييس بالياء، اعتمادا على وجود كلمة سياسة وقبولها عند الكتاب على مدى الزمن. إن هذا الرأي جعل التمييز بين كلمات متقاربة من حيث الحروف الأصول أمرا ضروريا ، وذلك لأداء المعاني المختلفة ولايجوز أن تختلط وتتداخل . التسويس من السوس الذي ينخر في الخشب وغيره ، هذا الكلمة بالواو . أما التسييس من السياسة ، وهذه الكلمة بالياء ، ولايجوز هنا خلط المفهومين في كلمة واحدة. ولهذا كان قرار مجمع اللغة العربية إجازة لكلمة تسييس لضرورة التفرقة الدلالية بين هذه الكلمة من جانب، وكلمة تسويس من الجانب الآخر. إن اللغة نظام هادف إلى التعبير عن الحياة والمفاهيم، وتمييز الدلالات أمر مهم . ولهذا أجاز مجمع اللغة العربية كلمات كثيرة في هذا الاطار.

في ذكرى المولد النبوي

مصطلح التاريخ النبوي

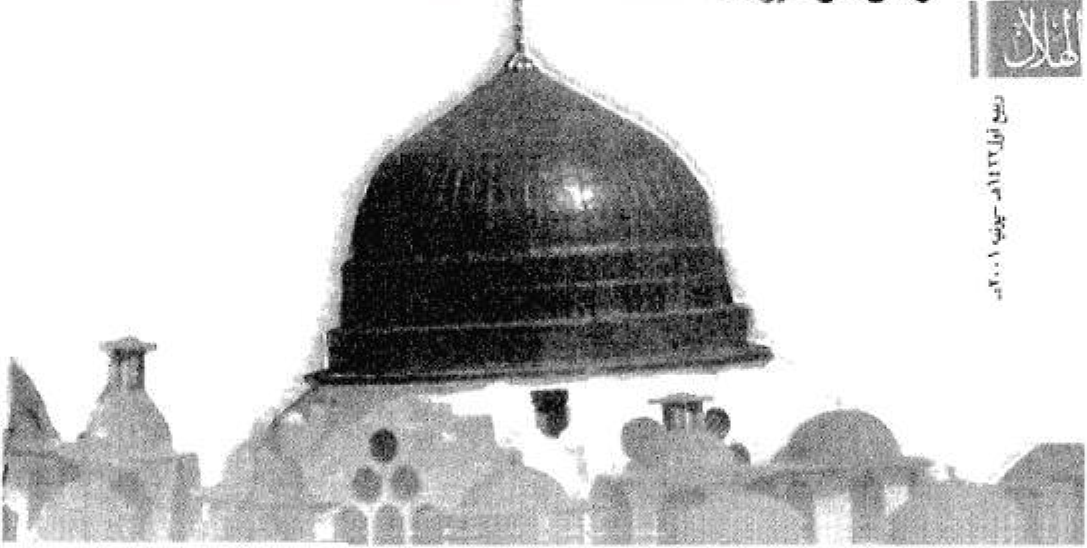
منهج يحتذيه المؤرخون

بقلم

د. محمد رجب البيومي

تصنعت الحلم، فلست بحليم، وأنا استمع لطبيب مشتهر فى طبه، يتحدث عن السنة المطهرة في تعاظم كان عليه أن يخفف منه إجلالاً لصاحب السنة الشريفة ، فأخذ يقول إن القرآن الكريم وحده هو مرجعه فى فهم الدين، وأن السنة تضم أحاديث موضوعة يعترف بها علماء الحديث أنفسهم، فلماذا ألتزم بها، وعلماؤها يشكون فيها، ؟

لم أشأ أن أناقشه مناقشة العلماء، لأن حديثه المشتط ينخفض به عن مكانة هؤلاء، فأردت أن أسأله كالمستفهم، فقلت له : هؤلاء العلماء الذين اعترفوا بوضع بعض الأحاديث، ألم يعترفوا بأكثر من تسعين في المائة مما روته كتب الحديث؟ فقال في حيرة : ماذا تعني؟ قلت: لماذا تجعل السنة الشريفة مرفوضة لديك مستدلا بشك علماء الحديث فى بعض مانسب للرسول، ولا تستدل على صحتها بتصديقهم للكثرة الكاثرة، مما روى عن رسول الله؟ مادمت تستند إلى مايقولون ، فاترك إذن الأحاديث الموضوعة كدليل لاتهام الأحاديث، وفتش عن غيرها!.





ورأيت الموقف يسمح لي بالاستطراد، فقلت إن اعتراف العلماء بهذه الأحاديث الموضوعة، يدل على أنهم أجهدوا أنفسهم في الفحص والتنقيب ، والجرح والتعديل، حتى ميزوا الطيب من الخبيث، وجعلوا القارىء مطمئنا لما أكدوه، وقد وثق الجمهور بما يقولون ، فاستمرت السنة الشريفة تبعث ضياءها للعالمين، فتؤازر القرآن الكريم في هداية المؤمنين.

إن مثل هذا المعترض يتكرر موقفه بين الحين والحين وتقوم الردود المفحمة في وجهه فلا يرتدع، بل إن عصابة من ذوى النيات المدخولة أرادت أن تلبس الحق بالباطل، فأعلنت أنها «قرآنية» لاتتبع غير القرآن، والذى يسمع هذا اللغو يتخيل أن القرآن شيء، والسنة المطهرة شيء آخر، والحقيقة أن السنة موضحة للقرآن، مفصلة لمجمله، شارحة لمراميه، فكيف يفترقان؟.

قلت لبعض من صدمني بقوله «أنا قرآني ولا أعرف الحديث»، أنت لست قرآنيا ! فقال محتجاً: وكيف؟ وأنا أرجع إلى القرآن، وأعترف أمامك بما جاء فيه ؟ قلت : لو رجعت إليه لاستمعت إلى قوله تعالى في محكم كتابه:

(١) وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله إن الله شديد العقاب (الحشر : ٧) وقوله (٢) وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون (النحل : ٤٤).

وقوله (٣) فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما» (النساء : ٦٥).

وقوله : ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا (النساء : ٥٩).

فالقرآن إذن يأمر بالرجوع إلى الرسول، وقد نزل القرآن فبين الرسول معانيه للناس، فكيف تخالف القرآن وتقول إنك قرآني ؟!

ثم قل لي : ألست تصلي ؟ فمن الذى بين لك فروض الصلاة وعدد ركعاتها ووقت أدائها! ألست تزكي؟ فمن الذى حدد لك مقدار الزكاة وميعادها ، وفي أي شيء تؤدي؟ ألست تصوم! فمن الذى شرح لك كيفية الصيام وشروطه ومبطلاته؟ ألست تحج؟ فمن الذى وضح لك مناسك الحج على سننها المعهودة؟ أسئلة لم تجد الجواب، ولكن سامعها تكبر على الإذعان.



خطأ الفكرة

وأكثر ما تؤتى الفكرة من ناحيتين، الأولى اعتناقها مبدئياً دون بحث، إذ يخطر الوهم في نفس الباحث، متجهاً إلى رأى معين، فيزاول البحث لا لينشد الحقيقة، بل ليلتمس ما يؤيد هذا الوهم من دلائل يجتهد في تصويبها مع ما بها من العوار، وهؤلاء الذين ينكرون حجية السنة قد سمعوا كلاماً زائفاً حول هذه الحجية، فآمنوا به، وأخذوا يتلمسون أسباب ترجيحه في عبارات تحتمل وجهين، أو في نص مريب قذف به قائله لحاجة مريضة، أو في حديث غاب عنه تأويله، فإذا وجدوا مايعارض اتجاههم أشاحوا عنه، وحاولوا إخفاءه، أما الناحية الثانية فالجهل الجاهل بطرق البحث، وادعاء المعرفة سفهاً دون دراية، وقد كانت التقوى الكاذبة من قبل هي وسيلة الادعاء والتباهي عند من يرون العبادة في إطلاق اللحية، وتقليب حبات المسبحة فينخدع بهم العوام، أما الآن فقد انتقل التباهي إلى العلم فأصبح أدعياؤه من الكثرة الكاثرة بحيث كاد الفضلاء يتوارون منكمشين، وكل سلاحهم الرجم بالظنون وتصعيد القشور.

ولكن الحق لايعدم النصير، وقد يكون هذا النصير ممن لايعتنقون الإسلام، ولكنه وجد الحق صريحاً فنادى به عن يقين، ومن هؤلاء الأستاذ الدكتور أسد رستم أستاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية حيث أصدر كتاباً في الأربعينيات تحت عنوان (مصطلح التاريخ) وقال في عنوانه «هو بحث في نقد الأصول، وتحرى الحقائق التاريخية وإيضاحها فيما يقابل ذلك من علم الحديث» وفكرة الكتاب التي يدور حولها هي ماقاله في المقدمة إذ نص على أن

«أول من نظم نقد الروايات التاريخية، ووضع القواعد لذلك، هم علماء الدين الإسلامي فإنهم اضطروا اضطرارا إلى الاعتناء بأقوال النبي وأفعاله، وتوزيع العدل فقالوا إن هو إلا وحي يوحى، ما تلى منه فهو القرآن، وما لم يتل فهو السنة. فانبروا لجمع الأحاديث ودرسها وتدقيقها، فاتحفوا علم التاريخ بقواعد لاتزال في أسسها وجوهرها محترمة في الأوساط العلمية حتى يومنا هذا، وهو ما سيتاح الاطلاع عليه في تضاعيف هذا الكتاب».

ثم قال بعد أن سرد اهتمامه بالتاريخ ودرس قواعده في جامعات الغرب، وتدريسها في جامعة بيروت، – قال: «لقد اضطررت أن أرجع إلى مصطلح الحديث لسببين أولهما الاستعانة باصطلاحات المحدثين،

وثانيهما ربط ما أضعه لأول مرة بما سبق تأليفه في عصور الأئمة المحدثين .. ومن أهم ماوجدت نسخة من رسالة القاضي عياض في علم المصطلح (طبعت هذه الرسالة فيما بعد) فاستنسختها وبدأت في درسها وتفهم معانيها فإذا هي من أنفس ماصنف في موضوعها. وقد سما بها القاضي عياض إلى أعلى درجات العلم في عصره، والواقع أنه ليس بإمكان أكابر رجال التاريخ اليوم أن يكتبوا أحسن منها في بعض نواحيها، وذلك على الرغم من مرور سبعة قرون عليها، فإن ماجاء فيها من مظاهر الدقة في التفكير، والاستنتاج تحت عنوان (تحرى الرواية والمجيء باللفظ) يضاهي ما ورد في الموضوع نفسه في كتب الفرنجة في أوربا وأمريكا، ولو أن مؤرخي أوربا في العصور الحديثة إطلعوا على مصنفات الأئمة المحدثين لما تأخروا في تأسيس علم الميثودولوجية حتى أواخر القرن الماضي، وبإمكاننا أن نصارح زملاءنا في الغرب، فنؤكد لهم بأن مايفاخرون به من هذا القبيل، نشأ وترعرع في بلادنا، ونحن أحق الناس بتعليمه، والعمل باسمه وقواعده، ولعلي أول من حاول أن يربط ما توصل إليه علماء الحديث بما وضعه علماء الغرب في هذا الحقل من العمل».

كتاب فخم يعرفه الدارسون

وكتاب (مصطلح التاريخ) يدل على أن الدكتور أسد رستم لم يكتف بقراءة رسالة القاضي عياض وحدها، والتعبير بالرسالة موهم اليوم، لأنه يوحي بأن المكتوب قدر محدود، أما هو في حقيقته فكتاب فخم يعرفه الدارسون، ويضعونه موضعه الجهير، وقد جرى القاضي على مصطلح عصره فسماه رسالة، أقول إن كتاب القاضي عياض كان باعثا حثيثاً للدكتور رستم دفعه إلى استيعاب كثير من المؤلفات الخاصة بمصطلح علم الحديث، فقرأ لأمثال ابن الصلاح وابن المبارك والشهرزوري وابن أبي حاتم الرازي، وأبي حامد الغزالي وابن تيمية وابن خلدون ومن قبلهم مالك بن أنس والشافعي وابن حنبل، قرأ هؤلاء قراءة المتأمل الدارس، فاكتشف كنوزا من التحقيق العلمي الدقيق دفعته إلى تأليف كتابه آملاً أن يتبع المؤرخون في منهجهم العلمي سبيل المحدثين فيما سطروه بكتب المصطلح، والكتاب حافل بالنصوص الصريحة التي تؤكد كفاح هؤلاء العلماء في تصحيح الحديث النبوي، وبيان صحيحه من موضوعه على نحو دقيق لا يجد أدنى مغمز!! فليت شعري أيجيء اليوم من لا يحسن قراءة نص واحد مما نقله الأستاذ

الدكتور أسد رستم ويقول إن الأحاديث موضوعة، وإنه قرآني، وهو لايفهم القرآن ولا الحديث! أى غرور هذا؟.

وحين ظهر الكتاب رحبت به الدوائر العلمية ورن صداه شرقاً وغرباً، وقد قال عنه الأستاذ على الطنطاوى بمجلة الرسالة (١٥/٧/١٩٤٠)م.

«هو أول كتاب في موضوعه في اللغة العربية، وقد نحا فيه المؤلف إلى تطبيق هذا العلم الجديد على قواعد مصطلح الحديث، واستعمال طرائقه، فكان هذا الكتاب تلخيصاً وافياً لمصطلح المحدثين، فضلا عن أنه ينقل إلى العربية علماً جديداً، وكان عمله فيه سنة حسنة، يكون من نتائجها وصل نهضتنا الجديدة بنهضة أجدادنا، وإقامة بناء الحاضر على أساس متين مما بنوا، وقد بحث فيه المؤلف عن «التقميش» أى جمع الأصول، وعن العلوم الموصلة، ويعنى بها وسائل المؤرخ، وعن نقد الأصول، وتنظيم العمل، وتفسير النص، ثم بحث فى العدالة والضبط، وتكلم عن سبق علماء الحديث فى هذا المضمار، وإثبات الحقائق المجردة، والربط والتأليف ، والاجتهاد، والتعليل، والإيضاح، والعرض».

وهذه كلها فصول ذات عناصر ونصوص تدل على تحرى أصحاب الحديث جانب الدقة فى الحكم، والعدالة في التجريح والصواب فى التعديل بما لا مزيد عليه، ولا أدرى لماذا لم ينهج المؤرخون من قبل نهج زملائهم المحدثين فيما سطروه من أنباء التاريخ، إن أمثال الطبرى وابن الأثير والمسعودى كانوا علماء قبل أن يكونوا مؤرخين، ومؤلفاتهم تشهد بإلمامهم الوافى بمصطلح الحديث، فلماذا لم يفطنوا إلى مافطن إليه ابن خلدون فيما بعد وباعدوا بين منهج المحدثين ومنهج المؤرخين؟ سؤال يبحث عن الجواب !

لقد أخذ الدكتور أحمد أمين في الجزء الثانى من ضحى الاسلام ص ٣٥٩ على المؤرخين، ضعف النقد لديهم، والتعصب لقبائلهم، وتلوين التاريخ ببعض العقائد، وهى مآخذ حقيقية كان الاتجاه إلى منهج المحدثين كافياً التخلص منها ، ولكن فهم الأوائل منهم لطريقة التدوين جاء مسيطراً على من تلوهم من التلاميذ، فصارت الرواية بإسنادها هى الهدف الرئيسى، ولا ننكر أن لهم نظرات نقدية فى بعض مادونوه، ولكنها قطرات تتلاشى فى محيط عجاج.

أسد رستم وثلاثون مؤلفا

وقد آن لنا أن نعرف بالدكتور أسد رستم، فننقل ماذكره الزركلى عنه فى كتاب (الاعلام) وهو كاف للإضاءة عن حياته العلمية، حيث يقول



بعد أن حدد وجوده مابين عامي (١٨٩٧ و١٩٦٥م) «أسد بن إبراهيم بن رستم، دكتور في الفلسفة ومؤرخ لبناني من العلماء بالوثائق مولده ومدفنه في الشوير، تعلم بالجامعة الأمريكية ببيروت، وتخرج بجامعة شيكاغو، وعاد فعين أستاذا بالجامعة الأمريكية ببيروت سنة ١٩٢٣، فأستاذا للتاريخ الشرقي سنة ١٩٢٧، وجمع لمكتبتها كتباً كثيرة، من الوثائق السياسية والاجتماعية والاقتصادية عن الأقطار الشامية في عهد الحكومة المصرية، ونشر منها خمسة مجلدات ضخمة وبقي منها ثلاث من المخطوطات»..

وبلغ ما أصدره منفرداً أو بالاشتراك مع البستاني ثلاثين مؤلفاً عدد الزركلي بعض أسمائها، ونكتفي بالإشارة إليها دون استرسال.

فالرجل ثبت مكين، له جهاده الكبير في دنيا البحث التاريخي الهادف، ومثله وقد اقتعد مكان أستاذ التاريخ في جامعة عريقة، لا يكتفي بترداد الذائع المشتهر، بل لابد أن يفكر في وضع أصول دقيقة يهتدي بها المؤرخون ليتخلصوا مما وجه إليهم من نقد، والذي يؤلف أكثر من ثلاثين كتابا بعد أن تلقى العلم في جامعات الغرب لابد أن يفكر في منهج يلتزم به في بحوثه التاريخية ويلزم به تلاميذه الذين يتواردون كل عام على الجامعة، وقد اتسع نظره العلمي إلى غير صحف التاريخ، فاهتدى إلى كتب المحدثين، ورأى من وسائل التوثيق، ما دعاه إلى احتذائها، وأسلوبه علمي دقيق موجز، حيث لم يشأ أن يسهب في شرح ما دعا إليه إسهاب الأديب الفياض، ولكنه نهج نهج العالم، حين رصد المقدمات، وسار بها إلى النتائج اللازمة في ظلال النصوص القاطعة، والقول الصريح.

مثال واضح

حين يتعرض الدكتور رستم لموضوع درسه المحدثون، وأفتوا فيه، فإنه قبل إتيانه نصوص المحدثين يمهد بما يجلو حديثهم للقارئ المعاصر، كي يكون على وعي دقيق لما سيتلوه من النصوص، فهو يبدأ مثلا باب «تحري النص، والمجيء باللفظ» بقوله: ص ٢٣.

وهذه مأثرة أخرى من مآثر علماء الحديث، فإنهم قالوا بالأمانة في نقل الحديث، وفرضوا وجوب تحري النص، لأجل الوقوف على اللفظ الأصلي، ومنهم من أبى أن يصلح الخطأ أو يقوم اللحن، واكتفى بإبداء رأيه فيه على الهامش.

ثم يأتي بنصوص للقاضي عياض، وللإمام مالك، تدل على هذا

المنحى، وفيها مايجيز التغيير في الأصل إذا ظهر الخطأ، مع النص على ماجاء بالأصل، ومالا يجيزه إطلاقاً مع التعليق بالهامش على خطأ الأصل. وكلاهما جائز ذو صواب ثم تنتهي بعد هذه النصوص إلى قوله ص ٣٤ .

هذا ما توصل إليه علماء الحديث في القرون الأولى، وهو المعول الآن عليه لدى المؤرخين المعاصرين، والفرق بين الاثنين أن المؤرخين المعاصرين يعممون قول المحدثين على الحديث وغيره من النصوص التاريخية ، أما المحدثون فقد اقتصروا فيما أوردوه من هذا القبيل على الحديث الشريف».

والمحدثون حين يقتصرون على الحديث في تطبيق ما رأوه من قواعد، لا ملامة عليهم في شيء، لأنهم ليسوا أصحاب سلطة يلزمون غيرهم من المؤرخين والإخباريين باتباعها، إنما اللوم على المؤرخين الذين أوضح لهم المحدثون سبيل البحث والفحص ولم يسلكوه.

صدى الكتاب

وحين صدر كتاب الدكتور أسد رستم في بيروت ، كان موضع انتباه المؤرخين في الجامعات العربية، حيث رأوا به من الجديد مايجب الالتفات إليه. فالدكتور حسن عثمان أستاذ التاريخ بجامعة الاسكندرية، اعتمد عليه في كتابه (منهج البحث التاريخي) وقال في مقدمة كتابه «إن الدكتور أسد رستم يقوم بتدريس منهج البحث التاريخي منذ سنوات في الجامعة الأمريكية ببيروت ، وقد نشر نتيجة دراسته في كتابه القيم «مصطلح التاريخ» وهو أول كتاب في اللغة العربية عن منهج البحث التاريخي بالمعنى العلمي الحديث».

وفي الفصل الثامن الذي عقده تحت عنوان (النقد الباطن السلبي) اعتمد اعتماداً واضحاً على ماذكره الدكتور رستم بشأن الفحص الداخلي والخارجي للنص ، وأشاد بجهد الدكتور أسد في إيضاح ذلك، وتابعه حين ذكر نصوصاً لشيوخ الحديث عن الخبر وعدالة الراوي، والجرح والتعديل، والرواية عن الشخص المجهول، والرواية عن الشخص المبتدع، وعن التائب من الكذب، وعمن أخذ على التحديث أجرا، وعمن عرف بالتساهل، وعن الألفاظ المستعملة في الجرح والتعديل، ناقلا عن الأئمة: الغزالي وابن الصلاح وابن أبي حاتم الرازي، ومشيرا إلى مانقله عن الدكتور أسد رستم، وهو بذلك يعتبر ميزان المصطلح من أقوى الموازين في تحري الخبر، والحكم على الرواية، ويدعو الدارسين إلى الاهتمام بمصطلح الحديث، وهو علم درسناه لأول مرة في السنة الأولى من القسم الثانوي بالأزهر الشريف، ثم اتسع في دراسته



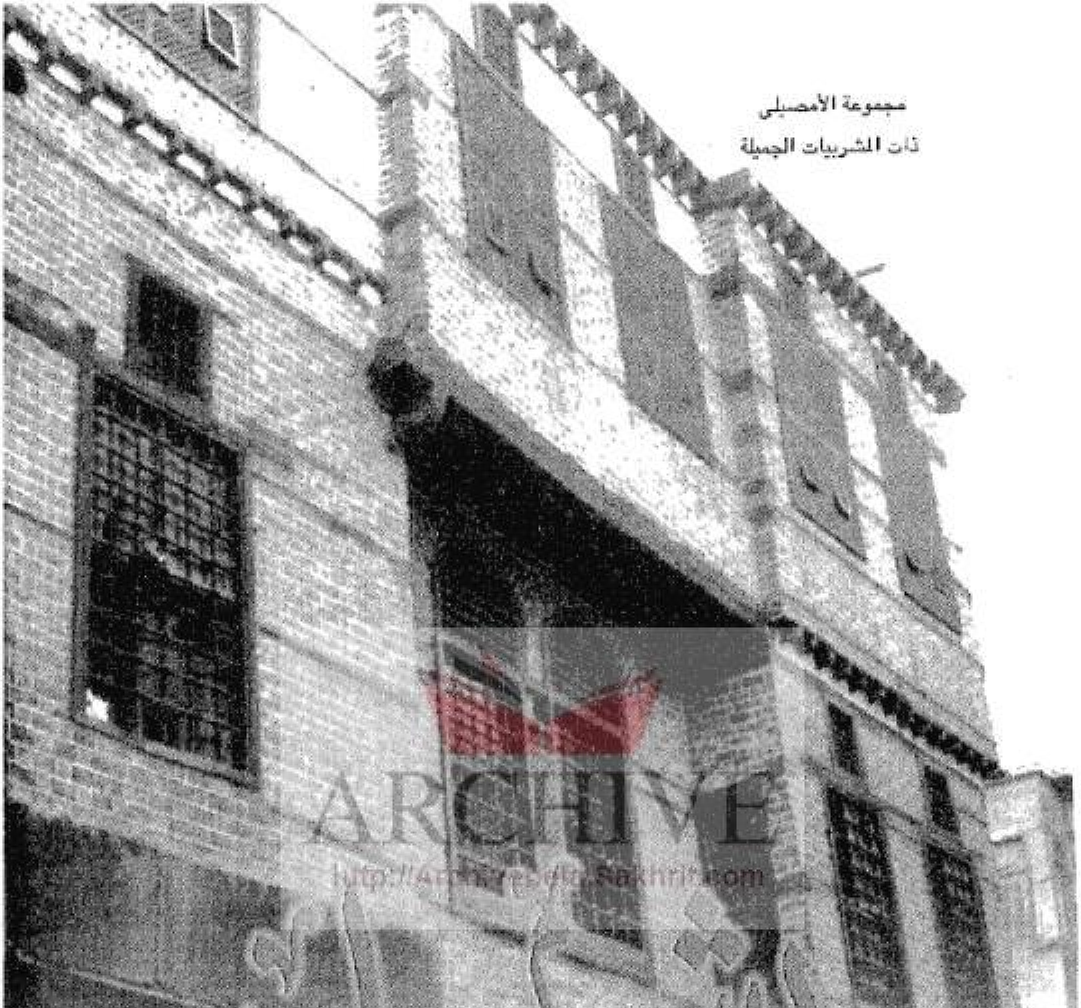
المتخصصون بكليات الشريعة الإسلامية الآن، وظهرت فيه كتب مبسوطة تناسب روح العصر، ولكنها في الوقت نفسه تدعو إلى مراجعة الأصول ومضم مابها من حقائق غالية هي عماد ذوى النظر من المؤرخين والمحدثين.

وعلى نحو مافعل الدكتور حسن عثمان قام الدكتور على سامى النشار في بحثه (المسلمون ومنهج البحث التاريخي) بالاستفادة من كتاب الدكتور أسد رستم، وقال بصدد حديثه عن جمع الأصول، إن عالما مسيحيا هو الدكتور أسد رستم قد أكد جهود المحدثين وأوضح فضلهم على التاريخ كما قال ، إن الدكتور رستم هو أول من توصل إلى تلك النظرات المقارنة بين مصطلح الحديث ومصطلح التاريخ، وفي حديثه عن الجرح والتعديل ذكر الدكتور النشار رأى الدكتور أسد رستم في ماكتبه القاضي عياض عن تحرى الألفاظ، وضرورة عدم التغيير، مرددا قوله «إن هذه الرسالة كأحسن ماكتبه علماء المناهج التاريخية في أوربا بعد كتابتها بقرون طوال».

وبعد :

أفليس من المخجل الفاضح أن يأتي غر من أعزاء المسلمين لايعرف شيئا عن الجهود المضنية التي كتبها علماء المصطلح، وما دار حولها من شروح وتحليلات ملأت عشرات الأسفار، وأصبحت خلاصتها ميزانا دقيقا لرصد الأخبار التاريخية، وكل مايروى عن العلم والعلماء في فن من الفنون، أليس من المخجل الفاضح أن يأتي هذا الغر فيقول إني لا أعتمد على الحديث لأنه موضوع، ثم يجمع حوله ذيولا من طرازه، يدفعهم إلى الخوض فيما لايعرفون عنه شيئا إذا طالعوه في مصادره، ولأميتهم الفاشية، وبعدهم الشاسع عن موارد العلم الصحيح! وقد يتجرأ فينشر مقالا في جريدة ليس بين القائمين عليها من يفهم شيئاً في علوم الثقافة الاسلامية، ويعد ذلك نصرا مؤزرا يدفع به إلى مصاف المجددين، وفي زمن التصوير الضوئي يطبع من المقال عشرات النسخ، ويرسلها إلى من يشاء كأنه يقول : هأنذا، وما درى أنه حين يهاجم الراسخ الثابت من الأصول إنما ينطح صخرة تفرى رأسه فريا فيتحول إلى ذرات.

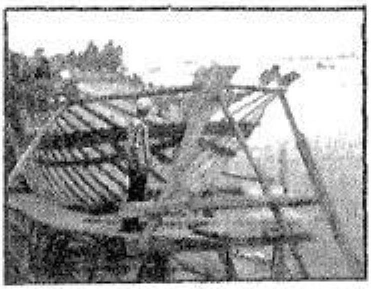
وقد نبح الكلب النجوم ودونها
مناذح تقصى ناظر المتأمل



مجموعة الأمصيلى
ذات المشربيات الجميلة

مدينة التاريخ والبطولات

تحقيق : امانى عبدالحميد   تصوير: شوقى مصطفى



صناعة مراكب الصيد على شاطئ النيل

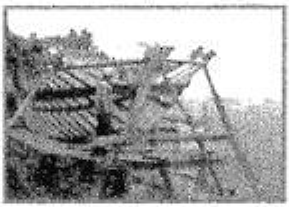
• أهدت إلى العالم أول قاموس عرفته البشرية من خلال حجر رشيد

• هزمت الإنجليز.. وظلت لفترة طويلة تحافظ على التراث الإنساني

• حاليا.. تعانى من الفقر والإهمال وحرفها الموروثة مهددة بالزوال

• تضم أكثر من ٤٠ موقعاً أثرياً من العصر العثماني

رشيد.. ثانى المدن الأثرية الإسلامية بعد القاهرة.. تعد متحفاً مفتوحاً للذاكرة المصرية.. شوارعها وبيوتها ومساجدها تحوم فيها حكايات ومرويات عصور مضت.. عاشت عصورا تاريخية متعاقبة توالت عليها حالات ازدهار وانحسار بدءا من الدولة المصرية القديمة وأسرتها الأولى حتى نهاية العصر العثمانى.. شاهد على أحداث دامية فى تاريخنا وأحداث نعتز بها.. أهدت العالم حجرها الأسود البازلتى مفتاحاً لفهم أقدم لغات العالم «الهيروغليفية» وأعادت اكتشاف أعظم حضارة عرفتها الإنسانية «الحضارة الفرعونية».



رشـــــيـد

أرضها شهدت انهزام جيوش الإنجليز عام ١٨٠٧، وشهدت زواج أشهر جنرالات الحملة الفرنسية «مينو» بجميلة الجميلات زبيدة البواب.. حصلت على جائزة التراث المعماري من منظمة المدن العربية في يناير ١٩٩٠ لتميزها وحفاظها على التراث الإنساني وصانت على مدى السنين الطراز الإسلامي العثماني المميز بالعقود والقباب والأعمدة والأسقف الخشبية المحلاة بالصدف والأخشاب المتداخلة برسوم هندسية والمشربيات حيث تضم ما يقرب من ٣٥٠ مشربية نادرة متقنة الصنع من خلال آثار ٢٢ منزلا و ١٢ مسجدا علاوة على طاحونة وحمام وبوابة وقلعة قايتباي.

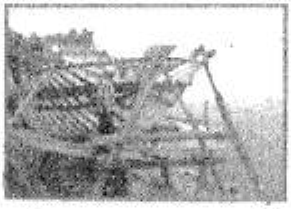
وهي صاحبة موقع فريد تحتضن النهر والبحر.. بعد رحلة طويلة قطعها نهر النيل من أواسط أفريقيا بطول ٥ آلاف كيلو متر ليصب مياهه في البحر الأبيض المتوسط، تقف عند الملتقى بغابات نخيلها.. كان يطلق عليها خلال العصر الفرعوني بفرع «البولبوتيني» أو اسم «بولبتين».. وخلال عهد الأسرة السادسة والعشرين أصبحت مقرا لصناعة العجلات الحربية.. وخلال العصر القبطي أطلق عليها «رشيت» كما أطلق عليها اسم «روزيتا».. ومع بدايات العصر الإسلامي تحولت إلى «رشيد» ونقلت إلى موقعها الحالي. بنى عليها الخليفة «المتوكل» حصنا عسكريا لكنه اندثر.. وبنى السلطان قنصوة الغوري سورا حول المدينة بقيت أطلال منه، كما جاء على لسان د. محمد عبدالعزيز مدير عام آثار وجه بحري وسيناء، مؤكداً أن رشيد تعتبر توءما لمدينة فوة.. تتبادلان موقع صدارة إقليم الدلتا، كما أن طرازها المعماري يحمل سمات طراز الوجه البحري المبني بالطوب الأحمر والأسود والمكحل بوصلة بيضاء. واشتهرت باستخدام المشربيات والقيشاني بأنواعه المغربي والتركي. وظلت مركزا للتجارة العالمية والميناء الأول في مصر خلال حكم الإمبراطورية العثمانية لقربها من العاصمة «استنبول»، وهي أحد العوامل التي ساعدت على بناء الخانات والشوادر لتخزين البضائع داخل الأدوار الأرضية للبيوت في رشيد. وقام المجلس الأعلى للآثار بالاشتراك في منظمة «متاحف بلا حدود» لاعتبار مدن القاهرة، رشيد، فوة مدنا أثرية مفتوحة تمثل آثار حوض البحر الأبيض المتوسط.. يتم افتتاحها في سبتمبر القادم، وفي الواقع نجد أن تحويل رشيد إلى متحف مفتوح يحتاج إلى مجهودات ضخمة من أجل إخلائها من ساكنيها وتحويل شوارعها للمشاة فقط لمنع دخول السيارات، إلى جانب ترميم كافة آثارها الموجودة حاليا والتي يعاني الكثير منها من الإهمال وتعوم فوق بحيرة من المياه الجوفية. وكان لابد لنا أن نقوم برحلة لزيارة المدينة لنتعرف عن كثب على آثارها ولنقدر قيمتها التاريخية حق تقدير.

متحف رشيد القومي

بطريق طويل متعرج يبلغ طوله حوالي ٥٥ كيلو مترا تركنا أنا وزميلي المصور مدينة دمنهور عاصمة محافظة البحيرة قاصدين مدينة رشيد.. ووسط طريق تحفه الأشجار على الجانبين تراءت لنا غابات النخيل التي تحيط بها.. وعند اقترابنا شيئا فشيئا شعرت بأن الزمن رجع بنا إلى الوراء ما يقرب من مائتي عام.. ومنذ دخولي المدينة قابلتنا شوارعها الضيقة العتيقة المتراصة عموديا فوق بعضها..



شباك الصيد ..صناعة مهددة
بالاندثار، يمتهنها كبار السن فقط



رشيد

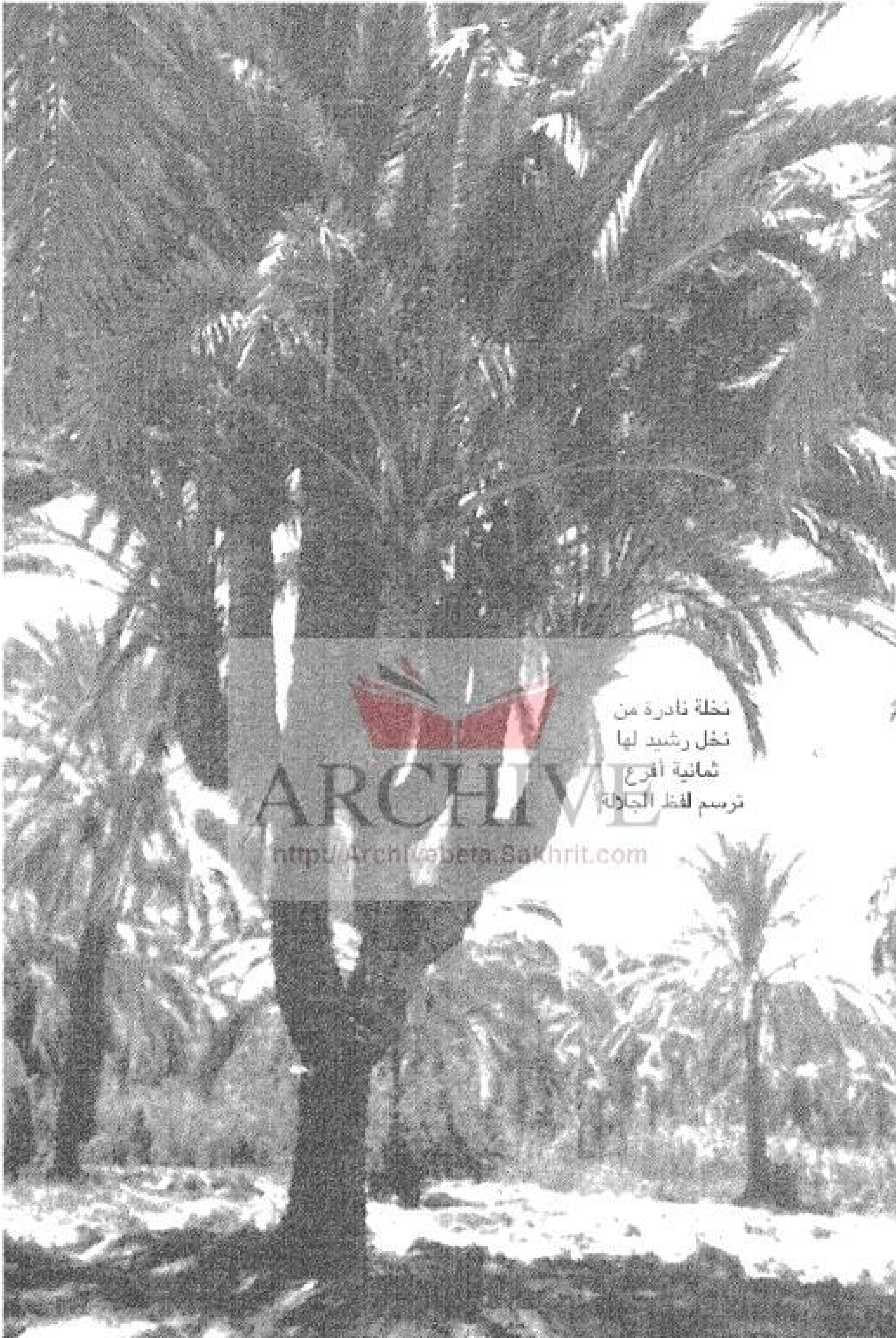
كل منها يحكي قصة تفوق الخيال.. إحداها عن وقوع الجنرال «مينو» قائد جيوش الحملة الفرنسية في غرام زبيدة غادة رشيد وزواجه بها في حفل فاخر أقيم داخل منزل الميزوني البواب.. وأخرى تخص أهالي رشيد وروحهم الشجاعة لكفاحهم ودفاعهم عن مدينتهم الصغيرة ضد جيوش الإنجليز.. وقمنا بجولة سيرا على الأقدام حاولنا أن نتلمس ملامح التاريخ داخل شوارع رشيد.. بدأنا رحلتنا بمتحف رشيد القومي الذى أقيم داخل أحد البيوت الإسلامية الأثرية وهو منزل «عرب كلي» الذى بني في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ويتكون من أربعة طوابق على الطراز التقليدي لمنازل رشيد.. وللأسف وجدناه خالي الوفاض فقد تم تخزين محتوياته تمهيدا لبدء أعمال الترميم داخله. وبسؤال مسئول العلاقات العامة بمجلس المدينة علمنا أن المتحف كان يضم وثيقة زواج زبيدة من الجنرال عبدالله مينو، ووثيقة معاهدة الجلاء التى قام بتوقيعها محمد على باشا وقائد الحملة الإنجليزية إلى جانب بعض أنواع الأسلحة التى استخدمت في مقاومة حملة «فريزر» بما فيها ملابس جنود الانكشاريين الأتراك.

شوارع لها تاريخ

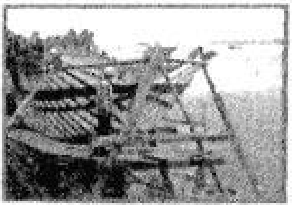
انتقلنا إلى شارع دهاليز الملك.. ضيق صغير تبدو عليه علامات الإهمال.. لكن تاريخه يمثل نقطة نور في تاريخ رشيد.. أكبر وأهم شوارعها يضم على جانبيه مساكن الأمراء المماليك خلال عصر محمد على باشا.. وشهد موقعة حملة «فريزر» الشهيرة عام ١٨٠٧م. حيث رسم الأهالي خطة محكمة للقضاء على جيش الأعداء الزاحف بمعاونة حاكم المدينة آنذاك على السلانكلي ونقيب الأشراف بها حسن كريت. استخدموا خلالها الخديعة.. فقام الأهالي الرجال والنساء والشباب والشيوخ بالاختباء فوق أسطح المنازل في انتظار إشارة البدء المتفق عليها.. وبعد رحلة شاقة قضاها جيش الإنجليز داخل منطقة الملاحات وبثقة كبيرة نتيجة احتلالهم مدينة الإسكندرية بسهولة .. دخل الجنود شارع دهاليز الملك يغريهم السكون الذى يخيم على المدينة وظلال المنازل تحجب عنهم أشعة الشمس الحارقة ويلفحهم الهواء الرطب في يوم حار.. ومن مئذنة مسجد زغلول ومع صيحة «الله أكبر.. الله أكبر» التى أطلقها المؤذن لا للصلاة إنما لإعلان الإشارة المتفق عليها وإيذانا ببدء المقاومة الشعبية.. لتشتعل المعركة بالأسلحة اليدوية البسيطة وباستخدام المياه والزيت المغلي.. والتى تغلبت على جحافل الجيش المسلح وقتلت أحد قواده الجنرال «ويكوب» على عتبة باب منزل «رمضان».

أما الآن فلم يتبق إلا ستة منازل أثرية.. وهي بيوت «بسيوني» – كوهية – الجمل – محارم – علوان .. أشهرها منزل ووكالة «علوان». حيث شهد لقاء الزعيم أحمد عرابي بعلوان بك كبير تجار رشيد خلال جولته بجميع محافظات مصر من أجل كسب مساندة الشعب له عام ١٨٨٢، كذلك منزل «رمضان» بيت أحد حكام رشيد في العصر العثماني وهو «عثمان خوجاه» الذى شهدت بوابته مقتل القائد الإنجليزى «ويكوب» كما اشتهر بوجود «جب» كان الحاكم يلقى فيه أعداءه .

ومن دهاليز الملك انتقلنا في اتجاه شارع قنديل حيث يضم مجموعة أثرية تمتاز بجمالها وحفاظها على الطراز



نخلة نادرة من
نخل رشيد لها
ثمانية أفرع
ترسم لفظ الجلالة



رشــــيد

المعماري .. يضم مسجد الشيخ قنديل ومنزل القناديلي ومنزل ثابت ومجموعة الأمصيلي ومنزل درع والمناديلي والبواب وجلال وطبق من أشهر تلك البيوت هو مجموعة الأمصيلي والتي تضم منزل الأمصيلي وحسيبة وطاحونة أبو شاهين .. حيث قام ببنائه عثمان أغا الطوبجي عام ١٢١٣ هـ، ١٨٠٧ م.. يمتاز بطرازه المعماري الرائع المعتمد على التشكيلات المطعمة بالصدف وسن الفيل، وبه أسقف خشبية مطرزة بنقوش عربية وأطباق نجمية، وتزينه مشربيات ذات أشكال هندسية وموجود بأسفلها فتحة تساعد النساء على رؤية الغير دون أن يراهن أحد. ويشتهر أيضا بوجود «دولاب أغاني» يتسع لاثنين من السيدات مزين بعقود مطعمة بالصدف. أما منزل حسيبة فهو ملحق بالأمصيلي ومخصص للخدم ويمتاز بوجود كميات كبيرة من الخرط الخشبي ويتوسطه «السرة» المخصصة لوضع قنديل للإنارة وبني عام ١٢٢٣ هـ / ١٨١٧م. وملحق بالمنزل طاحونة أبو شاهين والتي تعد النموذج الوحيد المتبقي من طواحين العصر العثماني المزدوجة ذات المدارين وهي صالحة للاستخدام حتى الآن.

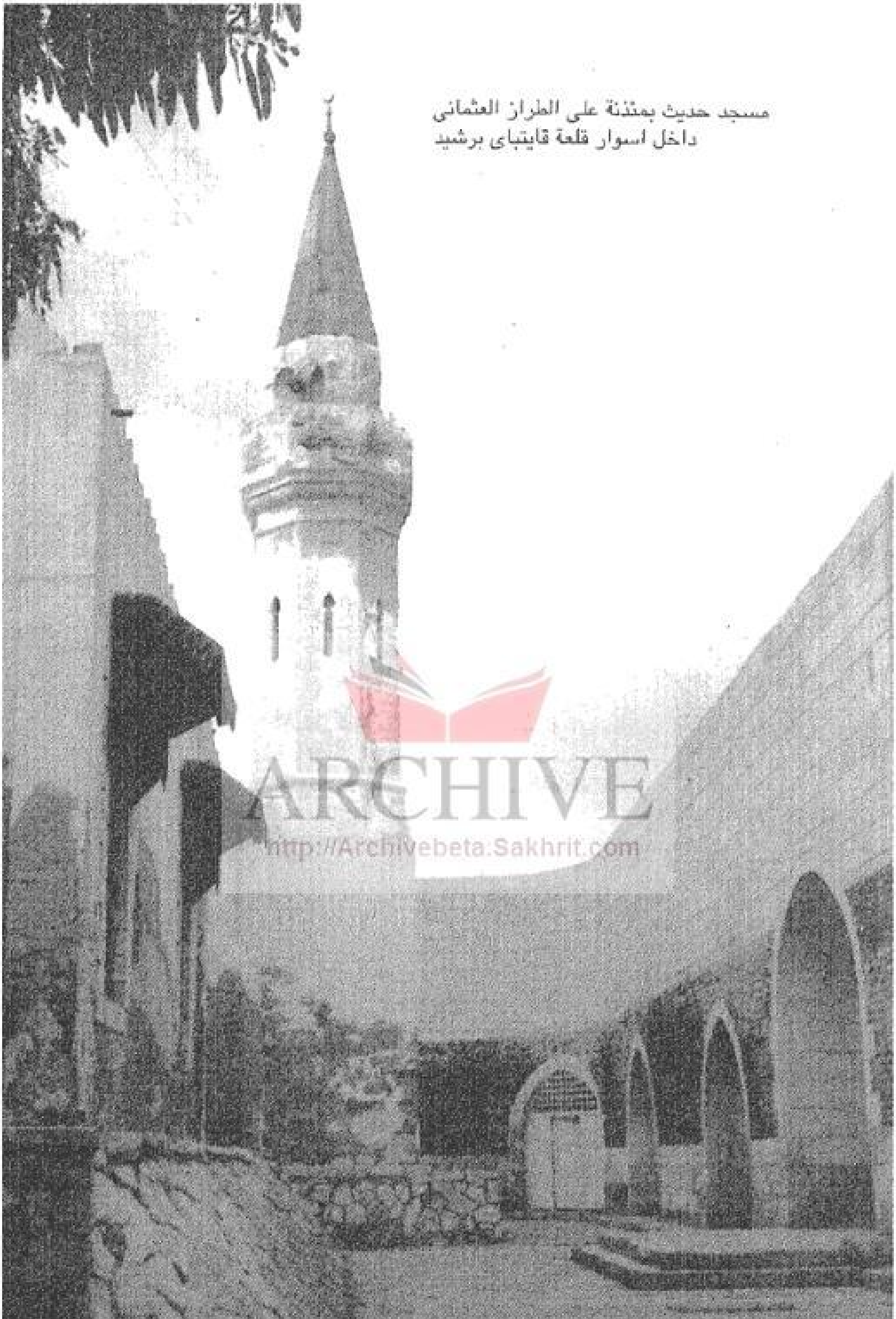
وداخل الشارع زرنا منزل البواب الذي بناه عبدالرحمن البواب عام ١١٢٣ هـ ويمتاز بشكل بواكيه المسماة «عجمي» ويذكر أنه المنزل الذي عاشت فيه زبيدة زوجة الجنرال «مينو» . كما يضم الشارع حمام «عزوز» الوحيد المتبقي والمبني أواخر القرن الثاني عشر الهجري والمميز بأرضياته الرخامية واستخدام القيشاني في تغطية نافورته وبجمال سقفه وهو عبارة عن مجموعة قباب تتخللها أطباق زجاجية للإنارة.

«زغلول» هزم «فريزر»

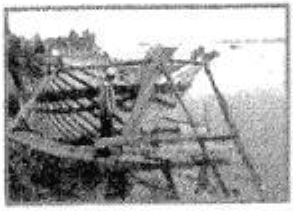
برغم صغر حجمها إلا أن رشيد تشتهر بوجود عدد كبير من المساجد الأثرية والتي يصل عددها إلى ١٢ مسجداً.. أشهرها وأكبرها مسجد «زغلول» الذي بناه زغلول مملوك السيد هارون عام ١٥٤٥ ميلادية على مساحة «٤٠٠٠ متر» ويحتوي على ٢٤٤ عموداً من الرخام والجرانيت وتحمل ٢٠٠ قبة صغيرة تمثل السقف المبني على الطراز العثماني.. احتل المسجد مكانة كبيرة بعد جامع الأزهر من حيث تأثيره في الحركة العلمية الدينية.. ومنه انطلقت كما ذكرنا سابقا إشارة بدء الانقضاض الشعبي على الحملة البريطانية.. وجاء انتقام الإنجليز بتحطيم إحدى مئذنتيه.. وحاله الآن حال مدينة رشيد حيث زحف التصدع والإهمال عليه بسرعة محبطة وتحول إلى بركة من المياه الراكدة خاصة مع هطول الأمطار طوال فصل الشتاء.

أما «مسجد» سيدي علي المحلي فيعتبر ثاني مساجد رشيد من حيث المساحة بني عام ١١٣٤ هـ ويشتهر بجمال الضريح الذي يتوسط المسجد.. ويقوم على ٩٩ عمودا. ويضم مكتبة تضم الكتب الإسلامية وبعض المصاحف المكتوبة بخط اليد ومخطوطات قديمة معظمها أوقفها «آل جارم» للمسجد ويبلغ عددها ٢٠٠٠ كتاب قديم.

وعلى شاطيء النيل وأول ما يقابل الزائر لدى دخوله رشيد يجذبك مسجد العباسي بعمارته المزركشة بالطوب الأحمر والأسود، بناه محمد بك طبوزادة عام ١٢٢٤ هـ/ ١٨٠٩ م ويحتوي على



مسجد حديث بمئذنة على الطراز العثمانى
داخل اسوار قلعة قايتباى برشيد



رشـــيد

نقوش خشبية مطعمة بالصدف على شكل نجوم بعدد فصول السنة مقسمة إلى أشهر.

أبومندور وكوم الأفراح

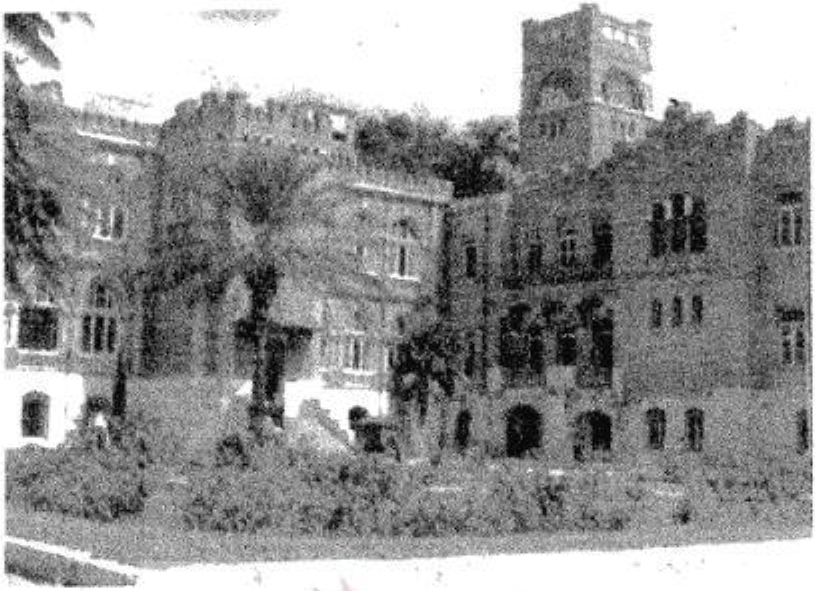
بفلوكة صغيرة أخذناها من أمام الميدان الرئيسى قمنا برحلة نيلية بمحاذاة الشاطىء لنصل إلى شبه جزيرة صغيرة تحيط بها مجموعة مزارع للنخيل ويعلوها تل يطلقون عليه «كوم الأفراح» بجوار موقع رشيد القديمة. ذلك التل الصغير يضم رفات أهالى رشيد والمدن القريبة.. وبرغم أنها مجموعة من المقابر من المفترض أن يخيم عليها الحزن لكن الأهالى أضفوا عليها صفة الفرح ولأن الموت عندهم عنوان للفرح بلقاء الله أسموها «كوم الأفراح».. اختاروا موقعها لارتفاعها عن مياه فيضانات النيل التى تتعاقب عليهم وتغمر بيوتهم ومقابرهم .. لذا اختاروها لينقلوا موتاهم بمراكب نيلية حتى كوم الأفراح.. وأسفلها بنى مسجد العارف بالله أبو النظر «أبو مندور» ويحكى أهالى المنطقة أنه أحد مواطنى كربلاء ومن سلالة على بن أبى طالب.. وهو مبنى على أربعة أعمدة من الرخام الأبيض المزخرفة بنقوش إسلامية.

أول قاموس عرفته البشرية

على بعد ستة كيلو مترات من المدينة وعلى الشاطىء الغربى للنيل فى منطقة برج رشيد.. شيد السلطان قايتباى قلعته كنموذج مصغر للحصن الداخلى لقلعته الشهيرة بالإسكندرية.. وبمصادفة تاريخية بحتة عثر فى عام ١٧٩٩م أحد ضباط الحملة الفرنسية بيير فرنسوا بوشار على حجر من البازلت الأسود عبارة عن لوحة منقوشة بثلاثة خطوط بين جدران أسوار القلعة خلال ترميمها وعمل تحصينات جديدة بها دون أن يجول بخاطره أنه الحجر الذى سيكشف سر الحضارة المصرية القديمة ويصبح أول قاموس عرفته البشرية على مر العصور. ظلت الحضارة الفرعونية مثارا للاهتمام والدهشة بفضل جلال آثارها وغرابة ديانتها كما يظهر جليا فى كتابات هيرودوت وديودور الصقلى واسترابوك وبلوتارك وأن انتشار الديانة المسيحية خلال القرن الرابع الميلادى إبان عهد الإمبراطورية الرومانية، وإغلاق «تيودوس» الأول عام ٣٩ جميع المعابد الوثنية أدى إلى انقراض الكهنة المصريين شيئا فشيئا.. ومع بداية القرن السادس الميلادى لم يعد يوجد أحد لديه القدرة على قراءة النصوص المنقوشة على الآثار أو المدونة على أوراق البردى. ولكن مع اكتشاف حجر رشيد فى أغسطس ١٧٩٩ وبنقوش تحمل نصا مرسوما للكهنة المصريين للاحتفال بذكرى تتويج بطليموس الخامس ملك مصر منذ عام ٢٠٥ وحتى ١٨٠ ق . م والمكتوب بثلاث لغات الهيروغليفية والديموطيقية (اللغة الشعبية فى مصر آنذاك) واليونانية توافر مفتاح لفهم اللغة المنسية منذ زمن طويل، وكان شامبليون أول من وضع قائمة كاملة بالحروف الهيروغليفية ومقابلها فى اللغة اليونانية. مما وفر الأساس اللازم لترجمة كل النصوص الهيروغليفية المصرية.

ما مصير الحرف والصناعات الموروثة ؟

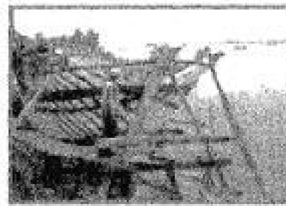
كما ذكرنا كانت رشيد تعيش أوج عصورها خلال العصر العثمانى على اعتبار أنها أقرب الثغور المصرية إلى «استنبول» حيث تقعان على خط طول



قصر الملك بإدفينا .. توأم قصر رأس التين



جامع أبو مندور .. ويبدو في الخلفية « كوم الأفراح»

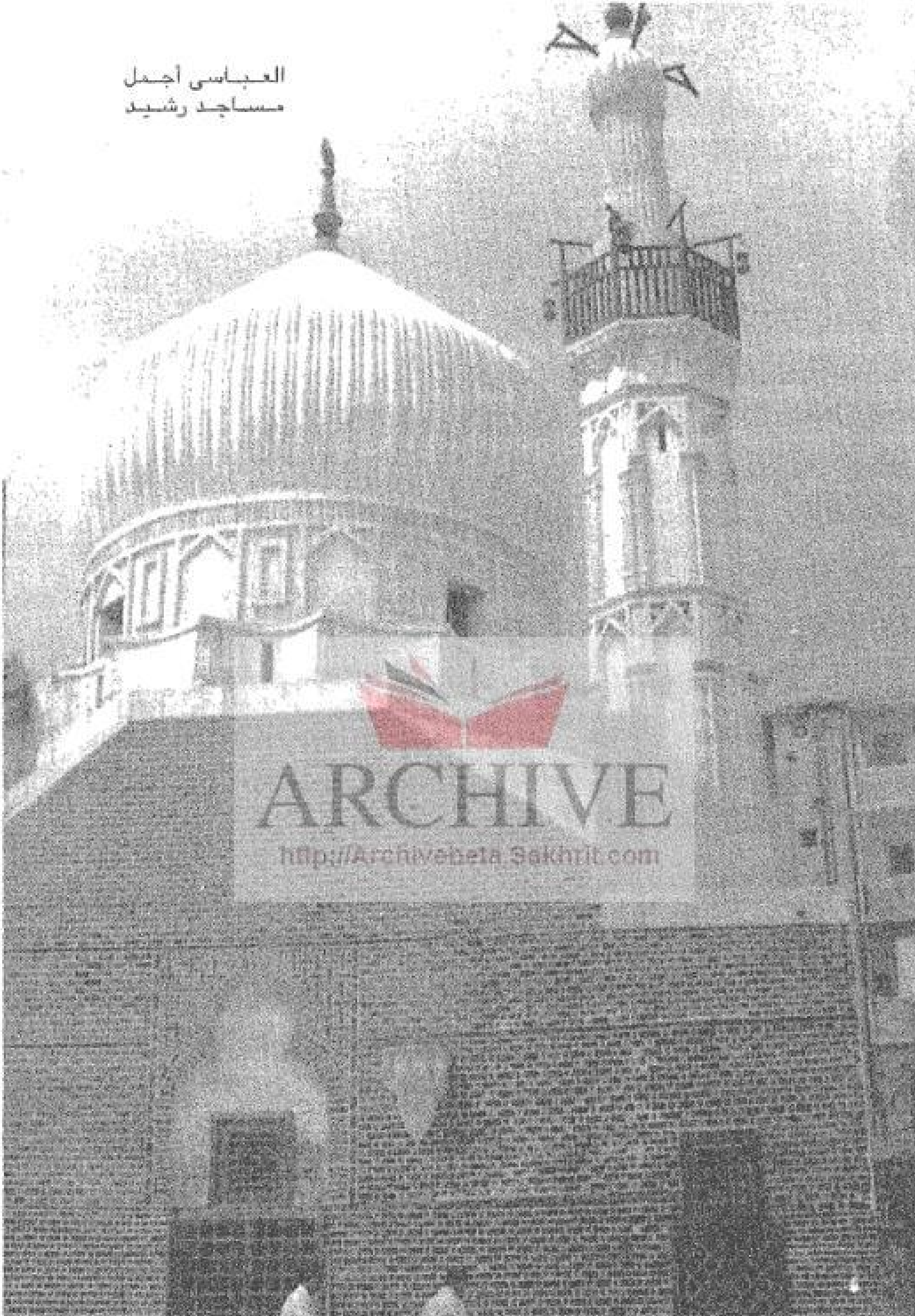


رشيد

واحد.. فلم تتوقف الحركة التجارية فى مينائها.. وكان لوجود مصب النهر واتصاله بالبحر الأبيض المتوسط أهمية فى انتشار مهن مثل صيد الأسماك وصناعة المراكب وغير ذلك من الحرف اليدوية الموروثة والمعتمدة عليها مثل صناعة الشباك والحبال وحركة الاتجار بالأسماك وتسويقها.. ولكن الواقع الحالى أصبح يختلف كثيرا عن الماضى.. فمهنة صيد الأسماك والتى يعمل بها حوالى «١٥ ألفا» من سكان رشيد أصبحت تعانى فالبحر لم يعد يطرح السمك كما كان فى الماضى وأصبحت المهنة لا تسد احتياجات الصيادين كما يقول «عم أحمد» أحد صيادى رشيد القدامى.. أما مهنة صناعة المراكب والسفن والتى يعمل بها حوالى عشر ورش متراصة بجوار بعضها على شاطىء النيل.. فلاتزال تقوم على أسلوب الطلب فقط وبالمواصفات التى يرتضيها المشترى .. الريس محمود عوض تعلم المهنة من أبيه عن جده يكسب من مهنته ما يكفيه ولكن ليس ما يكفى أبناءه الذين قد لا يبقون على ولائهم لمهنة والدهم.. ويرى أن صناعة أى مركب تستلزم أشجار التوت والكافور المعمرة والتى يصل عمرها من ٣٠ إلى ٥٠ سنة حتى يخرج مركب صيد متينا يحتمل مياه المالح «البحر» .. ولايزال كبار السن وعواجيز النساء حتى اليوم يمتهنون مهنة قديمة وهى صناعة شباك الصيد اليدوية وبرغم ظهور الشباك المصنعة آليا فإنهم يتمسكون بها ويصرون على مواصلة عملهم بدلا من الجلوس بلا عمل. وإن كانت كل المؤشرات تؤكد أن المهنة التى تعد من الحرف اليدوية قد أصبحت فى طريقها إلى الاندثار أيضا.. والصناعات اليدوية الأخرى والمهددة بالزوال صناعة الأقفاص من جريد النخيل نتيجة انتشار وسائل التعبئة البلاستيكية.

وبالرغم من ذلك فقد كانت هناك محاولات للحفاظ على بعض الحرف اليدوية ذات الأهمية التاريخية مثل إقامة معهد الحرف الأثرية داخل منزل ثابت الأثرى المبنى فى عام (١١٢١ هـ) بهدف تعليم الأجيال الجديدة حرفة خرط الأخشاب الخاصة بالمشربيات الإسلامية. كذلك إقامة مدرسة لتعليم الفتيات النسيج على النول وإنتاج أنواع من المشغولات النسيجية والسجاجيد.. وبالرغم من انخفاض جودة إنتاجها وافتقارها إلى الشكل الفنى المتقن إلا إنها محاولة تستحق الرعاية.

وفى نهاية جولتنا ونحن نودع مدينة رشيد نقف فى حيرة أمام هذا التناقض الغريب.. تناقض بين تاريخ طويل حافل بالكفاح والازدهار والتفرد وبين واقع مرير فقير لا يمت إلى الماضى بصلة.. ولا يسعنا سوى أن نطرح بعض التساؤلات هل من الممكن أن تتحول مدينة رشيد إلى مدينة أثرية مفتوحة تكون محط الأنظار وقبلة عشاق الجمال والتفرد؟ برغم حالة الإهمال التى تعيشها تلك المدينة القابعة عند ملتقى نهر النيل بالبحر الأبيض المتوسط وبرغم حالات الضياع التى تعيشها حرفها اليدوية والصناعات الحرفية الموروثة عن الجدود برغم كل شىء هل من الممكن أن يتحول الحلم إلى حقيقة؟ ■


العباسي أجمل
مساجد رشيد

شعر: سليم الرافعي   طرابلس لبنان

بالله .. ما أنت ؟ قل لي أيها العلم
نكبت .. نأبت آفاقنا ملطخة
ما أصغر الكون يخلو من أبوته
من نشوة الشمس حتى أصبحت مرقاً ؟
يا نحلة في الأعالي تاه عاشقها
هذا هو العرش عرش الله موئلنا
هذا هو الوتر العملاق [illegible]
عود من النحل غنانا .. [illegible]
ناجى السما .. وحياها لكيف [illegible]
إن الجذور [illegible]
أيصرخ الشرق [illegible]
ألم يلد واحد [illegible]
ناديت الأ[illegible] الوسنان في أجم
هي الحضارة لا يبجو أشعتها
فليشرق الشمس من صحرا مؤمنة
يقدس الكون إيمانا وتكرمة
زهر وعطر هما استشراف عاصفة
تلك الأبوة في التاريخ ما سلمت
يوحد القلم الأجيال مقتحما
لولا الشاعر في الأقوام ما نبضت

أقسمت فيك غموضا لست أحتشم
بالشمس تشحب أو بالليل تنبهم
أمي .. وأمي .. وأجدادي الذين هم
فإنني لا أرى والشمس تنقسم
لم يدر عاشقها ما تلهم القمم
تكتب القصة الأفراد .. ما زعموا
[illegible] والأشجان تضطرم
في [illegible] منه أو لا وعيا نعم
بالصبر والعاصفات الهوج تلتطم ؟
في [illegible] تولد الأمم
وكان [illegible] البؤس والألم
[illegible] الروم والعجم ؟
داس في موطد [illegible] المستغرق الأجم
إلا الذين نأوا عن ضوئها وعموا
بنت العلم .. منها ترفع الكلم
ليست الحضارة إلا الروح والكرم
في الشرق من عبقري الروح تلتئم
بالسيف يقطر لكن صاغها القلم
حدود أوطانها .. فالرأي يقتحم
لهم عروق .. ولا .. أرقام علم

قضايا النقد المعاصر .. ملف خاص

وظيفة النقد الأدبى

إبراهيم فتحى

مشهد الخطاب النقدى

د. صلاح فضل

النقد وحاضره الراهن فى الغرب

د. صبرى حافظ

النقد بين الالتزام السياسى واستقلال الفن

د. ماهر شفيق فريد

مسرحنا بين مقاطعة الجمهور والحلول الغائبة

مهدى الحسينى

قراءة نقدية لمسلسلات التليفزيون

د. عزة عزت

وظيفة النقد الأدبى

بقلم
ابراهيم فتحى

أمسى النقد الأدبى هدفا معتادا للهجوم والسخرية وخاصة من بعض الكتاب والشعراء. فالنقد غائب والنقد فى أزمة والنقد يستورد النظريات ولا يؤسس نظرية نقدية عربية. ويبدو أن الكثيرين قد حددوا إقامة النقد الأدبى كمواطن من الدرجة الثانية فى مملكة الأدب، فدوره أن يلاحق كل ما تقذفنا به المطابع من «إبداعات» وأن يقدم قراءة بريئة منزهة عن أى افتراضات نظرية أو أيديولوچية لشىء معزول مغلق على ذاته اسمه «النص»، قراءة تمضي مباشرة ودون وسائط عبر ومضات وحدوس وسوانح فورية إلى ذاتية المبدع المتجسدة فى لغة النص.

وقد عبر كاتب قصة فى إحدى الدوريات الثقافية بلهجة تعال مضحكة عن اشفاقه فى الندوات على النقاد المصريين كلهم وهم يتصببون عرقا فى محاولاتهم إخضاع النص إلى أحد المناهج. وسخر فى سطحية ودون مناقشة من المناهج النقدية جميعا التى يبدو أنها لا تروق له أو أنه لم يهتم بقراءة أى شىء عنها. سخر من البنيوية والتفكيكية والسيكولوجية ... إلخ مكتفيا برصها معا مصحوبة بضحكة هازئة. وبعد ذلك أبدى إعجابه بناقد عربى، وهو جدير حقا بالإعجاب، ولكن لماذا؟ لأن القاص يستمتع بنقده كما لو كان يستمع إلى موسيقى عذبة (!!)، ودون أن يعرف حتى أنه ينتمى إلى النقد الثقافى الذى يقدم تركيبا جدليا حافلا بالمصطلحات من بعض المناهج التى سخر منها القاص.

هل نحن أمام رأى يستحق النشر أو المناقشة؟ نحن فى الحقيقة أمام تحيز منتشر عند بعض الكتاب والشعراء ومخبرى الصفحات الثقافية والأدبية الذين انتقلوا إليها من تغطية أخبار الحوادث. ووظيفة النقد الأدبى الحقيقى عند هؤلاء مقصورة على التعليق الصحفى الواضح البسيط على آخر الإصدارات، يبرز تقييما يستحسن أن يكون إيجابيا فى اتجاهه العام، ومن الأفضل أن يكون مصحوبا بصورة فوتوغرافية للمبدع أو المبدعة.

فالنقد الأدبى هو فرع من فروع العلاقات العامة لصناعة النشر، لتلميع القلة المختارة من الأحياء أو الذين رحلوا حديثا باعتبارهم نجوما فردية متلألئة.

ولا يخلو الهجوم على الدراسات النقدية الجادة من التعبير عن حنين إلى أيام النقد المجيدة فى الماضى، أيام طه حسين والعقاد ومندور ولويس عوض. ويدل هذا التعبير الذى يمجد ماضى النقد الأدبى على أن أصحابه لم يقرءوا شيئا لهؤلاء الأعلام، فقد كان نقدهم يتجه فى عكس اتجاه معجبى آخر الزمان. لقد كان النقد الأدبى الحديث فرعا مهما من فروع النزعة الإنسانية الليبرالية المتجذرة فى الثورة الوطنية وأسهم فى إبداع قيم الفردية والحرية والاستقلال.



طه حسين



عباس محمود العقاد

نقد مدرسة الديوان

كان العقاد فى فترته «الثورية» الأولى معنيا بفكرة النهضة. ويقول الدكتور مصطفى ناصف فى «اللغة والبلاغة والميلاد الجديد»: إن النهضة فى نظر العقاد هى إرادة الحياة، وإرادة الحياة ليست هى إرادة البطالة والفراغ والمجانة. فلا غرابة إذا أنكر العقاد بعض البحث

اللغوى المتوارث فى شروح لغة الشعر وجهد القدماء فيما سموه باسم النقد والبلاغة، فهل تستطيع هذه الشروح أو هذه البلاغة أن تدعم الإحساس المرجو الذى نسميه باسم النهضة؟ ويمضى الدكتور مصطفى ناصف فى تتبعه العميق لمفهوم النقد عند العقاد. فهناك فلسفة حيوية كامنة وراء بحوث اللغة وشروحها، فالممارسة اللغوية والأدبية ينبغى عنده أن تخدم النهضة.

وكانت بواعث الحياة القوية خلاصة مرامى العقاد، والحياة القوية هى حياة التعبير الصادق الجميل، والحياة الضعيفة هى حياة التعبير الكاذب الشأن، وكان يقول لا فلاح لأمة لا تصحح فيها مقاييس الآداب، لأن الأمم التى تضل مقاييس آدابها تضل مقاييس حياتها، والأمم التى لا تعرف الشعور الحق مكتوبا مصورا لا تعرفه محسوسا عاملا. وقد طابق العقاد بين الحرية والجمال ويرضى عن كل شعر وكل بلاغة إذا هى خدمت حاجتنا إلى التحرر أو ألفت بين التحرر والالتزام بطريقة تعصم الإنسان من النزق والعبودية.

ويرى الدكتور مصطفى ناصف أن للعقاد نظرة إلى فن استعمال الكلمات، فالكلمات عنده ذات نشاط متنوع، وبعض الناس يقفون من هذا النشاط عند جانب واحد، ولكنه يعتقد أن نشاط الكلمات غامر فى سياقات حيوية. وأن للكلمة وحدة على الرغم من تشتتها أو تنوعها. واستعمال الشاعر للكلمات يوقظها أو يوقظ تاريخها ويجمعه فى نقطة واحدة لم تتح لها من قبل. فالكلمات التى يصنع منها الأدب مواقف إنسان وليس للكلمات وجود موضوعى بمعزل عن الإنسان، وحياة الكلمات هى نشاط وعينا. فالعقاد يختلف عن الذين يقولون الآن إن شئون التحليل اللغوى للنص الأدبى تستقيم بغير فلسفة أو بغير ملاحظات قائمة على استبطان الوجدان - مثل مدرسة النقد الجديد - فقد كانت العنبطة بالحياة التى يسميها أحيانا باسم الحرية، وأحيانا باسم الصدق أثيرة عنده، لا من أجل الخلاص من البلاغة فحسب، بل من أجل المجتمع العربى كله، ولم تكن النهضة أو البعث شيئا أكثر من تنمية هذه الحاسة وكشف العوائق المانعة.

ولكن العقاد عموما فى مرحلته الأولى لا يقصر دور الشعر على التعبير عن أى ذاتية فهو يهدف إلى أن يطبع فى وجدان السامع وفكره صورة واضحة مما انطبع فى نفس الشاعر الذى يمتاز على سواه بقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء. (الديوان ص ٢٠-٢١) فقد كانت خصوصية النقد الأدبى متكاملة مع موقف يرى للأدب دورا ثقافيا واعيا فى تحقيق النهضة.

وبناء الإنسان المتحرر من التبعيات العتيقة. ولم يقف النقد عند «متابعة» الإنتاج الصادر فى مصر والعالم العربى بل كان يدير المعارك مع اتجاهات هذا

الانتاج المرفوضة ويردها إلى جذورها، ويحاول إقامة افتراضات نظرية حول اللغة الأدبية وحول وظيفة الشعر.

ومن المعروف أن «مدرسة الديوان» كما كانت تسمى لم تكن تابعة لمؤسسات الدولة التعليمية أو السياسية وإن تكن تنتمي إلى الحركة الوطنية الديموقراطية عموما وإلى أشد أجنحتها تماسكا وجذرية. وقد أسهم العقاد في تعريف القراء عبر مطالعاته في الكتب والحياة بالمناهج الأدبية والفلسفية العالمية وبنقدها، وببعض رؤى كتاب وشعراء، ونقاد عالميين (كل ذلك في المرحلة الثورية الأولى).

وظيفة النقد عند طه حسين

وإذا انتقلنا إلى طه حسين فلن نجد داعيا للإطالة حوله، ومن المعروف أنه دعا إلى بحث علمي للأدب (منهج في الثورة الفكرية) يقوم على عدم الاستسلام لما قاله القدماء والشك في أقوالهم، بتبني منهج ديكارت في الموضوعية المتجردة من كل عاطفة أو هوى أو انحياز قومي أو ديني مسبق. وكان لهذا المنهج دوره في تأسيس فكر وضعي ليبرالي يواجه التفسيرات الغيبية للعالم. ويربط طه حسين بين النقد الأدبي وتاريخ الأدب، ويؤكد طه حسين دور تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية في تطور الأدب وتطور اللغة تطورا ملائما لمقتضيات الحياة التي يحياها أصحاب هذه اللغة ولم ير طه حسين في تأثر الأدب بما هو واقع خارجه شيئا معيبا يبعد الأدب عن نوعيته فلم يكن ينظر إلى العمل الأدبي باعتباره نصا في ذاته مستقلا عن كل ما عداه، كما لم ير العمل وثيقة اجتماعية أو تاريخية. فالعمل محصلة تفاعل بين الظواهر الاجتماعية والذاتية والإنسانية. ويذهب محمود أمين العالم إلى أن طه حسين كان يتناول الأدب في إطار رؤية متعددة الجوانب تجمع وتتراوح بين التناول التاريخي والتناول العقلي العلمي والتناول التحليلي والتناول الاجتماعي والتناول النفسي والتناول الذوقي والانطباعي والجمالي والقيمي عامة.



محمد مندور



لويس عوض

وإن لم نجد في تناوله «نظرية» أدبية محكمة البناء صارمة المنهج فإننا نجد إطارا متسقا موحدا في كتاباته، وهو إطار عام من تلك الرؤية التي تحرص على الحرية والليبرالية والكرامة الإنسانية، وإرادة الفعل والتغيير والتجدد والتفتح الإنساني.

النقد عند محمد مندور

وماذا عن وظيفة النقد الأدبي عند محمد مندور

ولويس عوض؟ إن ناقدا مدققا مثل صبري حافظ يختزل مساري محمد مندور ولويس عوض إلى «مقولات النقد الاجتماعي التي تعود تبسيطاتها وآليتها إلى القرن الماضي، دون إفادة من المناهج الحديثة في فرنسا أو انجلترا وأمريكا مثل مدرسة دي سوسير في حالة محمد مندور والنقد الجديد في حالة لويس عوض» (فصول يولية أغسطس سبتمبر ١٩٨٦ ص ٨٥) . ومن المفارقات أن محمد مندور لم يصل إلى النقد الاجتماعي على العكس مما يزعم صبري حافظ إلا بعد مروره بمرحلة جمالية خالصة في الأربعينات من هذا القرن. ففي «الميزان الجديد» ص ٧٥ يفند القول بأن الصدق في الأدب هو قياسه الوحيد، فهو عنده قول بدائي لأن الأدب أعمق من الصدق، فهو ليس تصويرا للواقع ولا تسقطا لأصداء الحياة، فهو خلق للصدق. فلم يكن مندور قد اكتشف بعد السياق الاجتماعي للأصول الجمالية في الأدب.

وقد أخذ مندور عن دي سوسير أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات. ويحصد د. أحمد ابراهيم الهواري ما يترتب على ذلك من أن المهم في العمل الأدبي ليس الألفاظ بذاتها بل الروابط التي تقام بينها أي ما أصبح يطلق عليه التشكيل الجمالي. وإذا كانت تلك الروابط هي المعاني المختلفة التي يعبر عنها الأديب، فعلى الناقد أن يوليها كل الاهتمام. فالأدب فن لغوي لا يمكن فهمه أو تقييمه إلا بتحليل علاقاته التي يتشكل خلالها بتفردها في كل عمل أدبي أي بصياغة متفردة. ويتحدد دور النقد في تمييز صياغة كل عمل من حيث هي في ذاتها أولا، ومقارنتها بغيرها ثانيا، وبعد هذه المرحلة الجمالية انتقل مندور إلى النقد الأيدلوجي في الخمسينيات والستينيات بمعنى خاص لكلمة أيديولوجية. فهو يعنى بها الالتزام بموقف واضح من القضايا الاجتماعية وبمعارك الشعب ومصير الإنسانية. ولكن المرحلة الجمالية لم تنقض دون تأثير فقد ظل مندور يكرر أن ما يجعل الأدب أدبا هو خصائص صياغته وظل في كل كتاباته النظرية يفرق بين العمل الأدبي والوثيقة الاجتماعية. وفي مرحلة النقد الأيديولوجي يأخذ مندور بنظرية الانعكاس في مفهومها الجدلي، ولا يأخذ بالشائعات التي تحيط بها وتفرض عليها الآلية. فالثقافة والفكر والأدب في المحل الأول انعكاس لواقع الحياة وتطورها ولكنه ليس انعكاسا سلبيا بل انعكاسا إيجابيا يأخذ من الحياة ثم يعطيها أكثر مما أخذ، وقد يسبق الأدب تطور الحياة أو يمهد له، فهو انعكاس خلاق (أحمد ابراهيم الهواري. نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر ١٩٧٨.

النقد عند لويس عوض

أما لويس عوض فقد تجاوز في كتابات النضج الفكرة التي كانت تسود مقدمة

بروميثيوس طليقا، عن تعبير الأشكال الأدبية تعبيرا مباشرا عن التطور الاقتصادي، وهو يدعو إلى أدب للحياة بدلا من أدب للمجتمع، وهذا الأدب للحياة هو أيضا أدب للإنسانية. وهو يقيم مصالحة بين اجتماعية الأدب واستقلاله الفني. وهو يعتبر أن مدرسة الأدب الهادف قد «عاشت» في أدبنا الجديد تسخره لشعارات الكفاح ولكفاح الشعارات. وحينما يواجه هذه المدرسة يتحدث عن حياة إنسانية ومعايير فنية فوق المجتمع والسياسة ولكنه حينما يواجه نزعات كلاسيكية أو شبه كلاسيكية يتحدث عن المجتمع وحدود العصر أنه يتساءل هل هناك ما يمكن أن نسميه الطبيعة الإنسانية، وهل هناك شعر ينفصل عن المجتمع أو عن العصر الذى «أفرزه»، وهل هناك إنسان مجرد (أو ذات فردية) إنسان أفلاطونى له صفات الثبات، ويجيب لويس عوض بأن الطبيعة الإنسانية (التجربة) ليس لها هذا الثبات المزعوم، وهناك عناصر في التكوين النفسي للإنسان وفى قدراته على التعبير بطيئة التغير، وعناصر أخرى سريعة التطور. ويصل من ذلك إلى أن ليس هناك ما يسمى الجوهر بالمعنى المطلق، لأن الجوهر نفسه يتغير والصيرورة هى الأساس وليس الثبات ويرفض انطلاقا من ذلك القول بجوهر ثابت للشعر.

والثورة الحقيقية فيما كان يسمى بالشعر الجديد عند لويس عوض هى اختلاف النظرة إلى العالم. وعنده أن الشاعر بعد أن كان يمسك بربابة ويتغنى بحالة وجدانية تحول إلى إنسان يعبر عن هموم الإنسانية أو هموم جيله فى فترة معينة. والشاعر ينقل وعينا من معالجة فردية لوجدان فردى إلى معالجة «فلسفية» لموضوع إنسانى أو قومى. ولويس عوض يؤكد أننا يجب ألا أن نركز على الشكل إلا من حيث قدرته على التعبير عن المضمون. وهو ليس مضمونا سابق التجهيز يأخذه الشاعر من حزب أو نظرية اجتماعية محددة.


مصطفى ناصف

التراث النقدى

ومن الواضح أن تراث النقد الأدبى فى مصر هو تراث شديد الفاعلية تآزر مع دور الإبداع فى خلق ملامح جديدة للشخصية الإنسانية الحرة، وفى تعميق طاقاتها الحسية والانفعالية والفكرية ضد كل قوى القهر، وفى اقتراع نماذج متعددة لتجسيد قدرات التشكيل بكل تنوعها، تشكيل المصير الإنسانى، والتشكيل اللغوى فى أجناس مختلفة توقظ الفنان داخل القارىء.


صبرى حافظ

وليس من الممكن النوم على هذا التراث النقدى أو

محاكاته فى عالم اليوم المتغير. وقد تعرضت المفاهيم الأساسية لهذا التراث لمعارضة قوية من جانب الإبداع الأدبى المحلى والنظريات النقدية الوافدة. ونتيجة لأن الأدب تعرض فى مجتمعات ترفع رايات الثورة الاشتراكية والقومية للقمع السياسى على نطاق العالم ولفرض الالتزام بالسلطة الحاكمة وأهدافها وأوهامها على الكتابة فقد كف الأدباء عن أن يرتضوا لأنفسهم التبعية وتغليف البضاعة السياسية. وأصبحت كلمات من قبيل السياسة والأيديولوجية والالتزام مرتبطة فى الأذهان بحركات اجتماعية وفكرية وحاولت تغيير العالم ولكنها حينما نجحت فى الوصول إلى السلطة أقامت بعد الثورة أنظمة قمعية خانقة. وفى المجال النقدى بدأت مناهج مختلفة فى الظهور تناوىء الوظيفة الاجتماعية للنقد «الشكلانية» وفى مصر عرفنا النقد الجديد عند مدرسة رشاد رشدى. وقد دعا إلى فصل النقد عن دراسة الخلفيات الاجتماعية والأفكار والسياسة وسيكولوجية المؤلف هادفا إلى تنقية النقد من الاهتمامات الخارجية وإلى تركيز كل على النص وحده. فهو يستكشف بنية العمل وليس أذهان المؤلفين أو استجابات القراء، أى أنه يدافع عن نظرية وحدة عضوية فى الأدب بدلا من تصور ثنائى للشكل والمضمون. ولكن ما قدمه رشاد رشدى فى كتابه «ما الأدب؟» (١٩٦٠) من تفسير متطرف أحادى الجانب لمدرسة النقد الجديد الأمريكية أثار معارضة محمد مندور وعبد القادر القط ومحمد غنيمى هلال. ولم يكن هؤلاء المعارضون رافضين لكل ما جاء به النقد الجديد من اهتمام بالقيم الجمالية وتجويد لكل ما جاء به النقد الجديد من اهتمام بالقيم الجمالية وتجويد للأدوات الفنية، فهم قد سبقوا رشاد رشدى إلى الاهتمام بها فى كتاباتهم، إنما كانت معارضتهم منصبة على الزعم بقطع الصلة بين الأعمال الأدبية ووظيفتها الاجتماعية ويرى بعض مؤرخى النقد الأدبى أن مدرسة النقد الجديد فى أمريكا عند بدايتها حددت للقراءة الفاحصة (أو اللصيقة أو الدقيقة) مهمة فحص البنية الأدبية وتقييمها. وهى تتألف عندهم من مركب موحد من العناصر النصية لغوية وبلاغية ودلالية. وتقوم تلك البنية على التوازن والانسجام.

وهذا الانسجام يتحقق بالتغلب على عناصر التوتر والصراع والإبهام والتناقض. أى أن هدف التحليل النقدى هو البنية الموحدة لعدد من التوترات والتباينات. فهى تمثل النوعية الخاصة بالأدب، وكلما تحقق إضفاء الانسجام على التوترات والتناقضات كان النص أجود ويتحقق هذا الإنسجام دراميا لا منطقيا بتوازن القوى. ويصل المعارضون لهذا الاتجاه الشكلانى إلى أن مفهومه عن تلك البنية العضوية المنسجمة للعمل الأدبى لم يكن مجرد مفهوم جمالى تقنى بل كان يعكس مفهومهم الأوسع «الإيديولوجى» عن المجتمع والثقافة عموما. فقد كان

النقاد الجدد الأوائل كما كان رشاد رشدي وأفراد مدرسته محافظي النزعة، وإن كان النقاد الجدد الأمريكيون الجنوبيون يرفضون المجتمع الصناعي الحديث الذي أدى إلى اغتراب الفرد الإنساني عن نفسه وعن عالمه فقد ملأهم الحنين إلى المجتمع السابق العضوي المنتظم الذي لم يتفكك ولم يضمحل. وكانت البنية المنسجمة المتوازنة بديلا ومهربا يوتوبيا من تناقضات العالم قبل أن تكون معايير أدبية وفي مصر كانت تلك الشكلانية الفنية آيديولوجية سياسية تقف مع رفض الصراع الاجتماعي المحتدم ضد القوى السائدة وتدعو إلى قيم التوازن والانسجام وكان اعتبار النص أيقونة لغوية تتوحد أجزاؤها وتتوازن تصوراتها ومواقفها ومعانيها يجمله رشاد رشدي بقوله : إن العمل الأدبي مماثل لسجادة من سجاد العجم. فهو سلعة من سلع الاستهلاك الترفي الفاخر مقصور استهلاكها على الصفوة. وفي أيام السادات كان رشاد رشدي من رموز السلطة الثقافية السياسية وقد كتب بعض «المسرحيات» التطبيقية لمنهج النقد الجديد، عن حل الصراعات التي يدبرها الأشرار وتحقق وحدة عضوية، ورخاء وسلاماً وراء رمز «فني» أسطوري شعري هو بطل الحرب والسلام. وكانت الوظيفة الجمالية قد تحولت بقدرة قادر إلى وظيفة لا علاقة لها بالجمال. وقد راج مفهوم «المعادل الموضوعي» عند بعض الشعراء والأدباء نقلا عن إليوت بواسطة رشاد رشدي، وهو يعني أن يقدم الأديب سلسلة من الأحداث أو وضعا معيناً، أي وسائل لا شخصية لتوصيل الشعور لكي يثير مثيله في المتلقي. وقد انتقد جابر عصفور هذا المفهوم موضحا أنه يقودنا منذ اللحظة الأولى إلى ماهو خارج عن النص ، وإلا ما كان هناك معنى لهذا «الجسم المحدد» الذي يعادل الوجدان المعين الذي يراد التعبير عنه، فمن يبحث عن هذا المعادل (بكسر الدال) لابد أن يبحث عن المعادل (بفتح الدال) ليتيقن من موضوعية التعادل بين الوجدان ومعادله الموضوعي، أي أنه يقيس منذ الوهلة الأولى النص بمقياس خارج عنه، بمقياس يردنا إلى منطقة الشعور في داخل الأديب وليس في داخل النص. ويذكر جابر عصفور بعض الاعتراضات التي وجهت إلى المعادل الموضوعي من قبيل أنه مفهوم آلي للإبداع وأنه عبوة جديدة لنظرية التعبير القديمة.



محمود أمين العالم



زكي نجيب محمود

المصالحة والحوار

وعلى أية حال إن مبادىء الإيمان التي كان يعلنها

أنصار النقد الجديد كان يتم التخلي عنها في التطبيق. وعند محمود الربيعي وعبد العزيز حمودة ورشيد العناني لم تعد الأسس البلاغية مثل المفارقة والتوتر والتناقض... إلخ تجريدات آلية تخنق قراءة النصوص بل أصبحت وسائل إجرائية لربط النص بالعالم وإبراز خصوصيته الأدبية في الوقت نفسه، وهم لا يختلفون كثيرا في الدراسات التطبيقية عن نقاد المنهج الاجتماعي والحضاري (عبد القادر القط، محمد شكري عياد)، ولم يعد النقاد الماركسيون في دراساتهم التطبيقية لا في تعقيباتهم السريعة يقفون عند المضمون بل يبرزون التشكيل الجمالي كمدخل للوصول إلى الدلالة (محمود العالم، عبد المنعم تليمة، سيد البحراوي)، وقد ساعد على «التقارب رغم الخلافات الخصبة بين المناهج أن النقاد في مصر لا ينتمون إلى «مؤسسة نقدية» ترعاها السلطة وتحدد لها وظيفتها . فهم موزعون بين الجامعات المختلفة وأقسام اللغات المختلفة ومبعثرون داخل الحركة الثقافية والأدبية بروافدها المختلفة. وليس للسلطة السياسية في مصر ولم يكن لها مذهب فلسفي أو أدبي تدعو إليه بل كان المعول عندها وما يزال ألا يناصبها الأدب أو النقد العداء المباشر. فأيام الناصرية لم يكن هناك خط ثقافي فلسفي نقدي محدد للسلطة، ولم تتبن الواقعية أو الواقعية الاشتراكية.

لقد كان في قمة «السلطة» الثقافية ثروت عكاشة ويوسف السباعي وسهير القلماوي وعزيز أباظة وزكي نجيب محمود. وكلنا نذكر موقف لجنة الشعر في المجلس الأعلى للفنون والآداب من شعر التفعيلة ومذكرتها عن «الشعراء القرامزة». وداخل السلطة والمؤسسة كانت هناك اتجاهات نقدية متعددة رومانسية وسيكولوجية وواقعية وتقليدية كلاسيكية وخاصة في الأجهزة التعليمية ولم تكن تلك التعددية بالشيء السيء. وقد دارت «المعارك» والمناظرات والحوارات الكثيرة. وكانت هناك تعددية في الإنتاج الأدبي أيضا. وحينما جاء البنيوية في الانتاج الأدبي أيضا. وحينما جاءت البنيوية من باريس بنزعتها الخلاصية العلمية، وشفراتها الكلية وجدت نغمة كبيرة في عيون بعض الأكاديميين ، ولكنها لم تكن اتجاها سائدا. وبعد فترة قصيرة من دخولها المتحف مع النقد الجديد في أوروبا وأمريكا لم يعد أحد من النقاد يتبناها تبنيا كاملا. وقد دار حوار «حاد» بين النقد الجديد والبنيوية وما بعدها بدأه عبد العزيز حمودة الذي لم يعد منغلقا داخل مسلمات النقد الجديد اللاهوتية. وقد ميز عبد العزيز حمودة بين الوصف اللغوي البنيوي والنوعية الأدبية والاستجابة الجمالية. وهو يرى أن النموذج اللغوي عاجز عن تحقيق المعنى. ولاشك في أن البنيوية قدمت استبصارات عميقة في فهم السرد

الروائى والقصصى وفى تحليل جانب من اللغة الشعرية، ولكن جانبها الشكلانى وجهازها المصطلحى وضع عوائق أمام النقد والقراء. وتتبع كتابات البنيويين «السابقين» تدلنا على أنهم جميعا يستخدمون اجراءات ذلك المنهج دون سجن للنص بين دفتى كتاب أو رفض لفاعليته الاجتماعية.

وطوال الصراع بين الاتجاهات النقدية المختلفة فى مصر حاول ممثلو المنهج الاجتماعى الإفادة من انجازات الشكلانية وإجراءاتها التحليلة، وخصصوا لها مشروعية جزئية يقومون بتعديلها وتحويلها داخل نطاق منهجهم الشامل، ومن ناحية مقابلة لم يرفض ممثلو الاتجاهات الشكلانية إقامة علاقات الدلالة بين النصوص الأدبية والواقع الاجتماعى والثقافى داخل الوظيفة الجمالية.

فالمشروع النقدى الأدبى، يتسع لنقد للحياة وللتجربة الإنسانية وللأذواق السائدة. وهو يدرس اللغة لا ككلمات محنطة فى قاموس أو تراكيب فى كتب النحو بل له وظيفة نقد اللغة الزائفة السائدة التى لم تعد اللغة اليومية البسيطة للناس فهى لغة يصنعها (كما يقول مؤلف كتاب موت الأدب ترجمة بدر الديب) مهندسو اللغة الجدد ومندوبو العلاقات العامة من الصحفيين فى وسائل الاتصال الجماهيرية والشخصيات التليفزيونية وصانعو النصوص الإعلامية، والبيروقراطيون ورجال التسويق والسياسيون لصب البشر فى قوالب جاهزة بمحض إرادتهم، وتقوم بتصنيع الواقع ليختار الناس أغلالهم بكل حرية، فالوقائع هى ما يظهر على شاشة التليفزيون وفى مانشتات الجرائد، والاحتياجات التى تخلقها هذه اللغة التى تتكلم فنيا ليست احتياجاتنا الحقيقية. هذه اللغة العمومية توحى بأن كل شىء يساند الأوضاع الراهنة فى العالم وهى جزء منه.



رشاد رشدى

مفاهيم وتصورات واستعارات

إن على النقاد والأدباء من جميع الاتجاهات أن يقوموا بدورهم فى تشكيل لغة أنقى للعشيرة، تنقذ التجربة المعاشة من قيود أن الأيديولوجية السائدة وتمكن البشر من أن يروا بأعينهم واقعهم الحقيقى بدلا من أن يستمدوا من صور وسائط الإعلام الجماهيرية دون وعى حسهم بالواقع وموقعهم فيه. ■



عبد القادر القط

مشهد الخطاب النقدى

بقلم
د. صلاح فضل

يروق لي أن أستخدم كلمة المشهد بدلاً من الصورة في وصف الخطاب النقدى اليوم ، ربما لأن المشهد منظومة مركبة من الصور المتحركة فى الزمان والمكان ، لا يقتصر على اللقطة الثابتة المنفردة كما توحى الصورة ، وربما لأن كلمة المشهد تضمر معنى الشهادة والمشاهدة معا ، فهى تحتضن الفعل والفاعل ، ولا تزعم تلك الحيدة الآلية التي يدعيها فعل التصوير الخارجى .

كما أن إضافة المشهد إلى الخطاب ليس مجرد استدعاء لمصطلح رائج لم يفقد نضارته وجدّته ، بل لأنه يشير إلى جملة الممارسات النقدية وما يحف بها من سياقات واستراتيجيات ، تشمل المرسل والمخاطبين وأوضاع النص وحالات التلقي وملابساته العديدة . أما اليوم فأعنى به المسافة الزمنية الواقعة فى الربع الأخير من القرن العشرين . هذا الفضاء الذى انبثقت فيه حركات النقد الحداثى وأثارت من التداعيات وموجات الإعجاب والاستنكار ما حرك مياه الفكر الأدبى المعاصر ، وغير وجه البحوث والدراسات فى الجامعات العربية ، وتسرب بمشقة إلى لغة الصحافة الأدبية ، لكنه تركز فى المقام الأول فى إنجاز كوكبة من النقاد العرب ، أصبحت لهم لغتهم المتميزة ، ورؤاهم الشاملة ، وفاعليتهم اللافتة .

أبرز اتجاهات الأمس

ومع أننا نتحدث أساسا عن اليوم ، غير أنه لابد من إطلالة سريعة على الأمس الذى يضاهيه فى الطول والامتلاء ، مقتصرين على الأمس القريب فحسب ، أى منذ منتصف القرن حتى مطلع السبعينيات ، لنرصد بإيجاز مكثف أبرز اتجاهاته وأعلامه ، وهى تدور فى ثلاث دوائر متماسة :

ـ النقد الاجتماعى الواقعى ، الماركسى حينا ، الوجودى حينا أخر ، الاشتراكى القومى فى معظم الحالات ، حيث يرتكز على مفهوم الالتزام ومنطق التطور التاريخى ، ويعنى بتوجيه الأدب لنقد الحياة والإسهام فى صياغة المستقبل الواعد لثقافة منتشية بانتصارها بقدر ما أصبحت موجوعة بانكساراتها ، ويمارسه نقاد محترفون لأول مرة ، لا يكتبون الأعمال الإبداعية ، من أمثال محمد مندور ولويس عوض ، ومحمود أمين العالم وحسين مروة وعلى الراعى وغيرهم .

ـ النقد الجامعى الذى يؤثر التركيز على ظواهر الأدب وجمالياته ويجرب المناهج النفسية فى تحليله ، مستفيدا من



على الراعى

النقد الجديد فى الغرب ومبشراً ببعض مبادئه ، ويمتد من رشاد رشدى ، ومدرسته « الإليوتية » إلى إحسان عباس وطريقته التوفيقية ، وغنيمى هلال فى رؤيته الموسوعية ، وعبدالقادر القط وهو يصوغ اتجاهه الوجدانى وعزالدين إسماعيل فى تجاربه الجمالية والنفسية الأولى ، ومصطفى ناصف فى مقارباته التأويلية المبكرة ، وغيرهم من هذا الجيل الوسيط .

ـ أما التيار الثالث فقد صنعه النقاد الصحفيون ، وهم يستقون منظوماتهم النظرية مما يفرزه أصحاب الاتجاهين السابقين ويكيفونها طبقا لمقتضيات السوق الأدبى بتحولاته السريعة ، ويمتلك بعضهم حضورا نقدياً فائقاً مثل أنور المعداوى ومن بعده جلال العشرى ورجاء النقاش

فى ذروة تألقه المبكر ، عندما كان يملك عين الصقر فيكتشف كبار المبدعين ويقدمهم للحياة الأدبية مثل محمود درويش والطيب صالح وغيرهما .

- ولا يمكن أن يكتمل مشهد هذا الأمس القريب إلا بمجموعة من الخطوط السريعة فى شكل ملاحظات أولية تتصل باستراتيجية النقد العربى عامة والسمات المميزة لإنتاج هذه الفترة بصفة خاصة ، حيث حافظ على التوازن بين حركة الواقع الأدبى وشبكة العلاقات التى تربطه بمصادره فى الفكر والحياة على النحو التالى :

١ - اعتبار التفاعل الخلاق مع الواقع التاريخى الراهن والانتاج الابداعى الذى يعبر عنه العنصر المهيمن فى وظيفة النقد الأدبى بحيث لا يقدم خطابا متجاوزاً ولا منفصماً ولا متعالياً ، حتى لدى أنصار الاتجاهات الجمالية التى تسعى لإعلاء شأن الجانب الفنى فى هذا الإبداع ذاته ، فالفكر الأدبى خطاب متوحد فى الإبداع والنقد .

٢ - ممارسة التواصل الحقيقى مع المعطيات السائدة فى النقد العالمى بكل ما تحمله من تيارات أيديولوجية وتطورات منهجية وتقنية دون أية حساسية ، فليس هناك تميز على مصدر دون آخر إلا بقدر ما ينصهر فى البوتقة العربية ، وكلما امتلك أحد النقاد أدوات أفضل للمعرفة كان أقوى تأثيراً وأبرز حضوراً ، على ميل واضح لدى أبناء هذا الجيل - باستثناء الأكاديميين - إلى إخفاء عدتهم المنهجية وتذويب أسماء مصادرهم تيسيراً على القراء .

٣ - الاعتداد بمنطق الحياة الأدبية الطبيعى فى تنمية الجذور القابلة للبعث من التراث النقدى دون وضعها فى إطار مضاد لما تتمخض عنه التطورات الجديدة ، بل إن الوعى المحدث هو الذى يعين على اكتشاف الموروث وإعادة رؤيته فى ضوء جديد ، سواء كان هذا الموروث عربياً أو عالمياً ، فكلمة « تراث الإنسانية » كانت تمتلك جاذبية خاصة يندرج فيها ما هو عربى بغيره دون شعور بالنقص أو العجز أو حاجة إلى التفرد والمطاولة .

زمن البنيوية وذريتها :

لم يصلنا من إرهاصات البنيوية التى كانت تتردد أصداؤها فى الفكر اللغوى

والأدبي سوى النقد الجديد في تركيزه على الجانب اللغوي للأدب ، والاقتصار على دراسة النصوص في حد ذاتها بطريقة جمالية إبان نشوتنا بالأيديولوجيا وافتتاننا بالفكر الوجودي والاشتراكي معا ، وانعزالنا نسبياً عن إيقاع التحولات العالمية في الخطاب النقدي بعد منتصف القرن ، مما جعل صدمة البنيوية قاسية على القارئ العربي الذي كان يستمرئ لذة اجترار المقولات الرائجة ، وضاعف من هذه الصدمة عدة عوامل من أبرزها:-

- حداثة المصطلحات البنيوية الجديدة، وكثافة مفاهيمها ، واعتمادها على ركائز علمية في اللسانيات والأنثروبولوجيا والفلسفة الظاهراتية لم تكن مألوفة في الخطاب العربي ، وتعدد الاجتهادات العربية في ترجمتها وتبيئتها بين المشرق العربي الذي كان يحتكر إنتاج المعرفة النقدية والمغرب الذي تقدم ليحتل موقعه في الخارطة الثقافية في العقود الأخيرة .

- الفطام الذي شرعت البنيوية في تطبيقه بصرامة على التيارات الأيديولوجية المهيمنة على التفكير العربي ، مما أحدث قطيعة قسرية مع الماضي القريب لم يستسغها غالبية أبناء الجيل السابق ، ولم يطيقوا نتائجها لأنها تمثل فصما لعلاقة الأدب بالمجتمع على مستوى التحضير المباشر لتصنع علاقة أخرى أكثر تعقيداً في تثوير الفكر الأدبي على ذاته وتجديد خلاياه .

- انحسار موجات الأساتذة النقاد المتخرجين في الجامعات الغربية ، خاصة في المشرق العربي أيضا ، وضعف الصلة باللغات الأجنبية ، مما جعل أجيال الباحثين تعتمد على الترجمات الركيكة الوسيطة ، وتفقد القدرة على صناعة مادتها البحثية من الدرجة الأولى ، الأمر الذي أحال الكثيرين منهم ، باستثناءات فذة ، إلى باحثين ونقاد من الدرجة الثانية يخلطون المعرفة ويخلطونها بما لديهم ، ويدافعون عن عجزهم بادعاء التعالي والرفض ، وافتعال الصراعات بين الأنا والآخر ، مما يعد نبرة غير مسبوقة في خطاب النقد الأدبي ، اقترنت بالتحولات الموجعة بعد انكسار المد القومي وتبدد حلم الوحدة وبروز الأصوليات الدينية التي تغذت من الإحباط ورفعت شعار العودة المستحيلة للوراء ، في ظل هذه التغيرات

الجذرية فى المناخ الثقافى أصبح الفكر الأدبى بشقيه النقدى والإبداعى عرضة للتهميش والاتهام، وساء ظن كثير من المثقفين فى صواب خياراتهم المنهجية باستثناء الطلائع التى تملك من المعرفة والبصيرة ما يجعلها فى موقف الريادة الفعلى.

على أن هذه الصفحة الجديدة فى الخطاب النقدى العربى فى اتساقها مع المنطق الذى يحكم حركته قد حققت عددا من المنجزات اللافتة بوسعنا أن نشير إلى أهم مرتكزاتها فى الجوانب التالية: ـ

– إعطاء الأولوية لإضاءة النصوص الأدبية فى ذاتها وتأمل آلياتها التقنية لاكتشاف وظائفها الجمالية فى المقام الأول، مما أدى إلى تحليل المستويات التعبيرية بكفاءة عالية لم تتوفر للنقاد من قبل، ويكفى أن نراجع مثلا نقد طه حسين للشعر لنجده فقيرا فى إدراكه لطبيعة اللغة الشعرية وكيفية إنتاج الدلالة فيها، يعتمد على الملاحظات البلاغية القديمة دون أن يعثر على أدوات تحليل منهجية تسمح له باشباع ما كان يتوق إليه من شرح وتفسير للظواهر الفنية التى يحدس بأهميتها دون أن يقدر على إدراجها فى منظومة معرفية شاملة، وكذلك فيما يتصل بنقد مندور للمسرح مثلا حيث يجتهد فى التقاط الخيوط الدقيقة لنسيجه دون أن يعثر على منوال يبرز عبره كيفية التحامها ودرجة كثافتها، فجاءت البنيوية بنظرياتها فى الشعرية والسرد لتقدم أجهزة متطورة من الاجراءات والمفاهيم كفيلة بتحليل الأبنية الأدبية واضاءة شبكات تعالقها النصى وتفسير مدى كفاءتها فى توظيف التقنيات التعبيرية والفنية.. على أن ذلك لا ينتقص من قدر طه حسين ومندور بقدر ما يشير إلى مظاهر التقدم المنهجى فى النقد بعدهما، وقد كان لهما فضل التبشير به والدعوة إليه، ولو كانا قد أدركا عصر البنيوية لكانا من ألمع من يأخذ بمعطياتها ويكيفها ويتحمس فى الافادة الرشيدة منها جريا على منطقهما فى استيعاب منجزات العصر والاضافة الخلاقة إليها.

– ولعل أبرز منجزات البنيوية هى التقليص الصارم لهيمنة الاتجاهات الأيديولوجية على الابداع الأدبى الذى كان يخضع لسطوتها ولا ننسى بمناسبة

ذكر مندور انه بعد أن دعا للشعر المهموس لانقاذ الشعر العربي من الخطابية الجارفة التي أعلت نبراته العامة والخاصة انتهى إلى تبني ما أسماه بالنقد الأيديولوجي الذي يضع رسالة الأدب في المقام الأول مقياسا لجودته وأعنف من ذلك ما انتهت إليه التيارات الماركسية والوجودية في اليسار العالمي، واتجاهات اليمين العربي من اعتبار الأدب مجرد دعاية ذكية لها تتوافق مع نظمها القيمية وكانت صدمة البنيوية في تنمية هذه التيارات كلها بالاصرار على موت المؤلف ونزع الادب.. بشكل مؤقت عند التحليل من سياقاته الاجتماعية في خطوة اشبه بعملية العزل التي تجرى عند تعقيم المريض عند إجراء عملية جراحية له - ضمانا لطاقتها من المؤثرات الخارجية قبل إعادة وصله بشرايين المجتمع مرة اخرى ليكتسب حيويته وفاعليته، ثم محاولة تلخيص نتائج هذا الفحص المجهري لأبنيته بطريقة تستبعد ما كان جهيرا وخارجيا وعديم الأدبية في كينونته.

- ومع أن كلمة «المنهج العلمي» كانت قد وظفت بكثرة لدى اصحاب التيارات الايديولوجية السابقة في النقد الماركسي والاجتماعي والتاريخي والنفسي ، غير أنها قد اكتسبت مع بداية الحركة البنيوية حتى الآن دلالة أكثر دقة وانتظاما ، حيث ارتبطت دراسة الادب بالفعل بمادته الأولية وهي اللغة، وأخذ النقد يوظف منجزات العلوم اللغوية في تنمية مقولاته وصناعة تصوراته كما أخذ يوظف نتائج بعض البحوث التجريبية في الذكاء الاصطناعي وعلوم النفس ليضيء آليات عمل الذاكرة وكيفية تخزينها للمعلومات ، خاصة تلك المعلومات الجمالية التي يرتكز عليها الأدب وكان التقدم الذى أحرزته مجموعة العلوم المتعلقة بالنسق المعرفي القريب من الادب هي «بنك» المعلومات والمصطلحات التي أخذ النقد يوظفها في حركة متنامية متراكمة ومع أن بعض النقاد قد أسرفوا على أنفسهم أحيانا في تمثيل النتائج التي يصلون إليها في جداول إحصائية ورسوم بيانية شارحة فإن ذلك قد اتخذ مادة للتنديد بهم والسخرية منهم ولم يكن قد لجأ إلى ذلك سوى بعض الشباب المفتونين بهذا الطابع الجديد للدقة العلمية دون امتلاك حقيقي

للوعي الفلسفي والقدرة التحليلية على قراءة الأرقام واستخلاص مؤشراتها ونتائجها في درس مادة مراوغة كثيرا ما كانت تتخذ لتبرير الشيء وضده في الآن ذاته.

كان هذا الطابع العلمي - المبالغ في قابليته للترجمة إلى نماذج رياضية - مصدرا لفضائح البنيوية عند صغار ممثليها لدى من لايزالون على ولائهم لمنطلقات المغالطة الأيديولوجية التقليدية، وبدلا من مطالبتهم بحسن توظيف الأشكال الرياضية والتعمق في شرح دلالتها وما يطرأ عليها من تغيرات وتعديلات حرصوا على اعتبار ذلك جريمة أدبية تقتل روح الشعر وتجافي طبيعة الأدب، وهم يخلطون عن سوء نية بين الأدب ودراسته، لأن منتج الأدب ذاته وهو الإنسان ليس أقل تعقيدا واستقصاء على الاختزال الرياضي ومع ذلك فإن مسعى العلم الانسان دائما هو تقديم صورة دقيقة عنه قادرة على احتواء المناطق المستعصية فيه للبحث والفهم والتمثيل البصري.

وقد أسفرت المناهج البنيوية في النقد العالمي والعربي معا، في حركة متناغمة ومتزامنة - عن أجيال منهجية جديدة التأمت مقولاتها النظرية لتدارك جوانب القصور لدى الأم، ثم أخذ ت تجرب اجراءاتها التطبيقية لتصحيح حركتها شأن التيارات العلمية الحية دائما بالافادة من الاتجاهات السابقة واللاحقة ، وكان من أبرزها النقد التفكيكي الذى عمد إلى خلخلة النظم الثابتة في الخطاب الفلسفي والأدبي وزرع التساؤل في صلبها وإثبات التأجيل الدائب للمعنى باستراتيجيات تحليلية تهدف إلى الكشف عن التناقض القائم وراء اليقينيات المزعومة، ومع كثرة من غمرتهم دوامة التفكيك لدينا واستخدموا بعض تقنياته فإن البحث العميق قد انتهى إلى ضيق هامشه في الثقافة العربية الى حد كبير وكان حظ الدراسات السيميولوجية في النقد العربي أكثر سعادة لكفاءتها في رصد الظواهر الثقافية في أطرها الشاملة عبر رصد منظومة العلامات التي تؤديها، وقد أثبتت فعاليتها الفائقة في اختراق الحواجز بين الاجناس الأدبية وإضاءة فنون المسرح والدراما التليفزيونية بربطها بما يتجانس

معـهـا من إشـارات ثقـافـيـة عـامـة، فـاسـتطاعت تطوير المناهج الاجتـمـاعـيـة ووضـعـهـا فى خدمة النصـوص المفـتـوحـة للأدب، وربمـا كـانت المـمـارسـات النقـدية «السيميائية » فى المغرب العربى مكافئة لما فعله النقاد المشارقة فى هذا الخصوص.

وربما كـانت البـحـوث الأسلوبـيـة التى طورت علوم البـلاغـة العـربـيـة القـديـمـة واستخدمت منجزات اللسانيات الحديثة ومعطيات الحواسب الآلية لرصد شبكات العلاقات النصية وتحديد معالمها الاسلوبية بدقة توشك أن تحقق مفـهـوم «البصمة الاسلوبيـة» من أنجح ما نجم عن البحوث البنيـوية فى الدراسـات الادبيـة العربيـة ، بحيث اصبحت الرسـائل الاكاديمية التى توظف الاسلوبيـة لبـحث الادب القـديـم والحديث تمثل جسدا متناميا متراكما يعطى للمعرفة الجامعية خـاصـة إطارا ناظمـا فـعـالا. على أن تيـارات القـراءة والتـأويل التى فتحت الباب واسعا لعودة لون من التاريخانية الجديدة، على أسس منهجية دقيقة قد استطاعت أن تلتقط علاقة النصوص بالقراء وآفاقهم المختلفة عبر المراحل العديدة، بما يجعل النقد يحتضن التأويل بدرجاته المختلفة، مطلقا حرية القارىء فى الفـهم وحق النص فى الضبط وأفق الثقافة في التوالد باتساق حقيقى يثرى الفكر الأدبى فى جملته.

وإذا كـانت هذه فى تقـديرى حـركـة المشـهـد النقدى اليوم فإن وضع النقاد المختلفين فى مـشـروعـاتهم وإمكاناتهم وطاقـاتـهم على هـامـشـهـا أو فى بؤرتهـا الجامعة يتطلب بحثا إشكاليا آخر يعكف على إنجازه شبان مـتـخـصـصـون فى الجامعات العربية من منظورهم العلمى، وأحسب أن طيف الناقد المعاصر لابد أن يكون قـد أطل على بعض مناطق هذا المشهد بحركة بطيئة أو سريعة، ليركب على خلفيـتـه صورته الخـاصـة، ويشكل مزاجـه ومسـعـاه دون أن يلتصق بأحد جوانبه . كل مـا أريد أن أؤكده هو أنهم جميعا لم ينحرفوا عن منطق الأجيال السابقة عليهم ولم يقصروا فى صياغة مشروعاتهم فى عمليات تركيبية متطورة جسدت عطاءهم المتميز والمتفاوت وأمدت الخطاب النقدى المعاصر بحيويته ونضرته وإشكالياته الساخنة. ■

النقد الأدبى وحاضره الراهن فى الغرب

بقلم
د. صبرى حافظ

يشكو الواقع الثقافي عندنا من أزمة نقدية خانقة، وهي في حقيقة الأمر أزمة معرفية وأزمة تعبيرية في المحل الأول. أزمة معرفية لأنها تسفر عن نقص معيب في المعرفة بما يدور في النقد الغربي، وتقاعس عن محاورة انجازاته بندية وبشكل خلاق. وأزمة تعبيرية لأن النقد يزدهر في مناخ الحرية الكاملة، والمناخ العربي مناخ يعاني من القهر والهوان والتبعية، ويفتقر للمشروع القومي الذي يحدد أولويات الثقافة ويدير حواراتها وفق هذه الأولويات. وإذا ما اجتمع نقص المعرفة مع انتفاء الحرية بالمعنى العميق لهذا المصطلح كان من الطبيعي أن يحس الجميع بالأزمة النقدية. لأن الفكر النقدي لايقتصر تأثيره على مجالات تطبيقه المحدودة في الآداب والفنون، وإنما يمتد إلى تكوين العقل النقدي الخلاق القادر على التعامل بشكل نقدي حر مع كل قضايا الواقع ومشاغله. بدلا من العقل القطيعي أو السلفي أو الذرائعي الذي يرتع في الساحة العربية في غياب العقل النقدي.

ولأن الواقع يكره الفراغ، ولذلك فإن غياب النقد الحقيقى سرعان ما يخلق فراغا يملأه النقد الشائه أو الزائف، والذى يحمل فى جميع قسماته ميسم العجز، وفكر الأزمة، ومعالم غياب المعرفة الحقة. ومن يقرأ ما تنشره الصحف المصرية بين الحين والآخر باعتباره نقدا يدرك حقيقة الأزمة التى تتجلى فى سيادة تلك اللغة العمياء كما يسميها الراحل الكبير غسان كنفانى. فقد

أعلن غسان كنفاني قبل أكثر من ثلاثين عاما في محاضرة بعنوان «أفكار عن التغيير واللغة العمياء» ألقاها في بيروت عام ١٩٦٨.

يقول غسان كنفاني: «لقد ولدت في المنطقة خلال السنوات العشر الماضية ما نستطيع أن نسميه لغة عمياء. وليس ثمة شيء يستخدم في حياتنا اليومية أكثر من هذه اللغة العمياء. لقد باتت الكلمات التي لاقيمة لها إلا إذا كانت معبرة، لاتعني شيئا على وجه التحديد. إن التعريف لم يعد موجودا. وبات لكل كاتب قاموسه الخاص، يستعمل كلماته على ضوء فهمه الخاص لها. وهو فهم غير متفق عليه، ولذلك فهي لاتعني شيئا ... يبدو أننا في حاجة ماسة إلى إعادة القيمة للكلمات، كتعاريف محددة تعني شيئا متفقا عليه، وهي خطوة كانت لازمة لجميع شعوب العالم في أواخر القرن التاسع عشر وهي على عتبة انطلاقها نحو العصر».(١)

ويربط غسان كنفاني هذه اللغة التطريبية العمياء بالهزيمة والعجز وسوء القصد. فقد «صار بالوسع أن يستخدم إنسان ما اللغة ليستر عجزه، أو ليخفي مقصده. وصار بين أيدينا الآن تراث من اللغة العمياء التي أفقدت الحوار قيمته الفعلية، ومن الممكن أن تستخدم لأغراض متناقضة في وقت واحد. إن الاختباء وراء غموض الكلمات هو سلاح أساسي للذي يشعر بعجزه عن تحقيق هدفه. أو الذي لا هدف على التحديد لديه». فالكلمات العاطلة من الدلالة ليست مجرد كلمات زائدة عن الحاجة فحسب، ولكنها أساسا وفي الوقت نفسه أدوات لتمييع الرؤية



فريدريك نيتشه

وطمس الحقيقة وتكريس العجز.

نقد باللغة العمياء

غير أن أهم إضافات غسان كنفاني في هذا المجال هو ربط هذه اللغة العمياء بفكر أعمى مثلها، يسميه بـ «الفكر الغنائي» الذي يستبدل الوضوح بالتغني، ويرشو غياب الهدف بالكلمات الطنانة التي ترضي الشاعرية الموجودة في أعماق كل منا دون أن تزيد في رؤياه. إن هذه اللغة العمياء قد تكون في نهاية التحليل مبعث اطمئنان أولئك الذين يخشون التغيير».

هذا الفكر الأعمى هو الذي يكشف لنا مدى تجذر الأزمة المعرفية في الواقع العربي، ومدى تفشي تجلياتها الفكرية في شتى مناحي حياتنا حتى اليوم. فما ينشر في كثير من صحفنا باسم النقد لاعلاقة له من قريب أو بعيد بالنقد. قد تكون له علاقة بتبادل المنافع، والمجاملات، وفي أحسن الأحوال بالتلخيصات المدرسية المتحذلقة للنصوص الأدبية، ولكن علاقته بالنقد الأدبي بالمعنى المعروف في الغرب منذ أرسطو وحتى اليوم واهية إلى أقصى حد. ليس فقط لأن هذا النقد ينم عن نقص فاضح في المعرفة بما يدور في مجال عمله وهو النقد الأدبي، ولكن أيضا لأن أغلب

هذا النقد مكتوب بتلك اللغة التى يسميها غسان كنفانى باللغة العمياء، وينطوى بسبب ذلك على فكر أعمى مثلها. وكلما قارنت ما أقرأه فى الصحف والدوريات المصرية والعربية من نقد، بما أقرأه فى الصحف والدوريات الانجليزية من نقد أدركت مدى عمق الازمة التى يعيشها النقد الأدبى عندنا.

ثراء النقد فى الغرب

فأنت تقرأ المقال النقدى فى الصحيفة العامة أو الدورية المتخصصة فى اللغة الانجليزية فتدرك أول ما تدرك ثراء هذا النقد المعرفي. لأنه لايزيد معلوماتك في الموضوع المطروح فحسب، ولكنه يرهف باستمرار عقلك النقدى إزاءه. أما إذا قرأت مقالا نقديا فى أى صحيفة مصرية أو عربية فستفاجأ بغياب أبسط المعلومات الضرورية لموضوعه، ناهيك عن العقل النقدى الفاعل فى المقال كله. وقد يكون الكاتب معذورا فى كثير من الحالات، لغياب الموسوعات التى تؤسس المعرفة وتوفرها، وتمكن الكاتب من الحصول على تواريخ ميلاد الكتاب ووفاتهم وتواريخ طبع كتبهم، وما رافق ظهورها من سياقات وأحداث بمجرد استشارتها، وتمكنه من تمحيص المعلومات الواردة فى الكتاب لنقود والتأكد من صحتها. فالثقافة العربية تعانى من غياب هذه الموسوعات وهى جميعها من أدوات الثقافة الثقيلة، جريا على التمييز فى الصناعة بين الصناعات الثقيلة والخفيفة. فثقافتنا تعانى من غياب مصادر الثقافة الثقيلة الحية فيها، بالرغم من أنها الثقافة التى اخترعت القواميس والموسوعات فى عصورها الزاهرة. وقد يتعلل الناقد بغياب أدوات الثقافة الثقيلة تلك، ولكن مسئوليته تظل فادحة فى أغلب الحالات لأن ما يتوفر له من معلومات بسيطة لايوفرها لقارئه، ولا يشعر بأنه مسؤول أزاءه. لأن معظم الكتابات النقدية تغيب فى طوايا تلك اللغة العمياء ولا يوفر كاتبها لقارئه أبسط المعارف التى يتطلبها من موضوعه. فكثيرا ما قرأت عن كتب دون أن يقدم لى ناقدها أبسط المعلومات عنها، عنوان الكتاب، وموقعه من انتاج مؤلفه، ومكانه فى المشهد الثقافى، وفى مسيرة الجنس الأدبى الذى ينتمى إليه. ناهيك عن من نشره، وثمن الكتاب وكيف تعثر عليه إن أردت الحصول عليه، وغير ذلك من المعلومات البسيطة والبديهية والتى يوفرها أى ناقد انجليزى لقارئه فى أى صحيفة أو دورية أسبوعية أو شهرية، ويوفر معها كذلك ثمن الكتاب وعدد صفحاته فى هامش أساسى فى نهاية كل مقال نقدى.

فقد اعتاد الناقد، حتى فى أكثر الصحف الانجليزية ضحالة وشعبية — ولكل صحيفة انجليزية ناقدها الأدبى، وناقدها المسرحي، وناقدها الموسيقى، وناقدها التشكيلي، وناقدها الأوبرالى، وناقدها التليفزيوني، ومراجعوا الكتب بها — على توفير هذه المعلومات البسيطة والأساسية لقارئه قبل تقديم أى رأى نقدى متخصص له. أما الدوريات المتخصصه فلكل منها فريق كامل للعمل فى هذه المجالات الأدبية والفنية المختلفة. لايقدم للقارئ خدمة جليلة فى مجالات تخصص كل منهم فحسب، ولكن يعمل على أن تظل ذاكرته الثقافية والتاريخية حية ومتقدة

باستمرار، حتى يشكل القارئ قوة من قوى المراقبة على مستوى الأداء النقدي. لأن القارئ الذى يعانى من فقدان الذاكرة . وواقعنا العربى كله يعانى من فقدان الذاكرة التاريخية منها والثقافية — لا يستطيع أن يقرأ قراءة نقدية تمحص ما تقرأ وتحكم عليه. ويقظة الذاكرة هى الأساس ليقظة الشعوب ولتطورها، فلانهضة لأى شعب يعانى من فقدان ذاكرته، تماما كما لايمكن لنا أن نتصور أن يتقدم فرد يعانى من الجهل وفقدان الذاكرة. لأنه لن يستطيع التمييز بين العدو والصديق، أو بين ما ينفعه وما يضره.

ولأن النقد فى الدوريات والمجلات المتخصصة على درجة عالية من الرقى، فإنه فى أكثر الصحف الشعبية ضحالة يتسم بالدقة والوضوح كذلك، ولا يستطيع النزول عن حد معين من الجدية واحترام المعرفة والقارىء. لأن هناك دائما فى كل ثقافة من الثقافات مسافة معينة بين أرقى ما تقدمه فى مجال من المجالات وأقل ما تقدمه جودة. فالمسافة بين السطح والقاع تحافظ دائما على نفسها. فكلما ارتفع مستوى أرقى ما تقدمه هذه الثقافة فى ميدان من الميادين كلما رفع معها أقل المستويات جودة فيه. بمعنى أنه كلما ارتفع السطح كلما شد معه القاع، لأنه لايمكن النزول عن حد معين. ولأن المسافة بين السطح والقاع فى الثقافة تحافظ على نفسها فى أغلب الأحيان إن لم تضق كلما ارتفع السطح وازدهى. أما إذا ما هبط السطح — كما هو الحال فى واقعنا المصرى — فإن القاع لايهبط فحسب إلى الحضيض، بل ترتع معه فى غياب الذاكرتين الثقافية والتاريخية — السلفية والخرافة والفكر المتخلف، ويتبنى بسهولة تصورات أعدائه ومفاهيمهم كذلك. وهذا هو السر مثلا فى أن الثقافة الانجليزية تنفق بسخاء من أموال الدولة على عدد من أرقى المسارح البريطانية برغم نجاح هذه المسارح الجماهيرى، لأن هذا هو سبيلها للحفاظ على رقى المسرح التجارى نفسه، والذى لايستطيع أن ينزل عن مستوى معين مادام هناك هذا المسرح الراقى الذى يقدمه المسرح القومى أو فرقة شكسبير الملكية. فإذا كان أرقى منبر ثقافى عندنا يتسم بالتخبط وتسود فيه اللغة العمياء، فلا يمكن أن ننتظر من أكثر المنابر ضحالة ألا يتورع عن الإسفاف والابتذال.

ثورة معرفية كاسحة

وحتى ندرك سر هذا الرقى فى تناول النقد لمختلف الفنون فى الصحافة والدوريات الأسبوعية الانجليزية، لابد لنا من معرفة الميراث النقدى المتخصص الذى تنهل منه، والذى يمنعها عمقه الفكرى من التردى إلى ما يتردى إليه النقد العربى عندنا من ضحالة وشللية ومجاملات وتبادل للمنافع. لأن ما انتاب النقد الأدبى فى القرن العشرين ليس أقل من ثورة معرفية كاسحة وغير مسبوقة، ولايمكن استيعابها فى مقال قصير من هذا النوع. فما أضافه هذا القرن إلى النقد الأدبى يعادل ما أنجزه النقد الأدبى منذ أرسطو وحتى نهاية القرن التاسع عشر مع استقصاءات سانت بيف وهيبوليت تين الفرنسية، إن لم يفقه. فقد بدأ هذا القرن

بمغامرة الشكليين الروس الشيقة، وما نجم عنها من استقصاء فيكتور شكلوفسكي، وفلاديمير بروب وميخائيل باختين اللامعة، وهي استقصاءات أسست دراسة الأدب على أسس أدبية خالصة، بعدما كان كل من الدراسات النقدية وعمليات التحقيب الأدبية تعتمد على منجزات العلوم الأخرى، سواء منها الطبيعية أو الاجتماعية. واهتمت بمعرفة ما يجعل نصا من النصوص أدبيا بينما لا يستحق نص آخر هذه الصفة، أي بما دعوه بأدبية الأدب. وأسست هذه الأدبية على قاعدة من التحليل الهيكلي واللغوي للأدب، وليس على قواعد مستقاة من علم النفس أو الاجتماع أو غيرهما. كما طور الشكليون الروس واحدة من أهم الإضافات النقدية في مجال تحليل النص السردي والحكايات الشعبية على السواء. وهي التفرقة المهمة بين ما دعوه بالـ fa-bula أي الحكاية التي يرويها أي نص سردي في ترتيب أحداثها التاريخي والـ sjuzhet أي العرض السردي لهذه الحكاية. وبترتيب لايخضع غالبا لتسلسل وقوع أحداثها التاريخي، ولا يمنح التفاصيل المختلفة للحكاية في سرده لها ثقلا متساويا مع ثقل هذه التفاصيل خارج السرد، بمعنى أن النص قد يخصص فقرة لأحداث استغرقت أعواما، بينما يخصص صفحات طويلة لأحداث لم تستغرق إلا دقائق أو ساعات. ومن خلال وعي الناقد بالجدل المستمر بين الحكاية والسرد يفك شفرات النص ويتعرف على دلالاته ورؤاه.

لكن أبرز إنجازات هذه المرحلة النقدية الباكرة من القرن العشرين قاطبة هي أعمال الناقد الكبير ميخائيل باختين (١٨٩٥-١٩٧٥)، والتي تشكل وحدها ثورة نقدية عارمة. فقد أسس باختين إنجازه النقدي على قاعدة صلبة من نظرية اللغة أولا في كتابه المهم (الماركسية وفلسفة اللغة)، ثم دخل بعده في حوار نقدي خلاق مع أفكار التشكليين الروس ورؤاهم، ودحض الكثير من أفكارهم الأساسية، مؤسسا من خلال هذا النقد تصورا جديدا للغة يختلف كثيرا عن تصور الشكليين، وعن تصور البنيويين فيما بعد، لأنه تصور لايفصل اللغة عن سياقها ولا عن الخطاب الذي تنتجه. وهذا التصور الحواري للغه والذي بلوره باختين في دراسته المهمة (شعرية ديستويفسكي) يعتمد على ازدواجية الصوت وحوارية الكلمة. وهو التصور الذي دخل به إلى ساحة الرواية فغير نقدها إلى الأبد. فلايمكن اليوم لأي نقد للرواية يستحق هذا المصطلح أن يتعامل مع النص الروائي دون الوعي بحواريته التي صاغها باختين في دراساته اللامعة عن (الرواية والملحمة) وعن (الخيال الحواري). فقد غيرت هذه الدراسات تصور النقد للرواية، ودخلت بها إلى مرحلة من النضج والعمق غير مسبوقتين.

نقد المسرح

ثم امتدت تأثيرات هذه المغامرة الروسية الكبيرة بفرعيها الشكلي لا الباختيني إلى براغ ومدرستها المرموقة التي برز منها يان موكاروفسكي(١٨٩١-١٩٧٥) وورمان ياكوبسون(١٨٩٦-١٩٨٢). فطور ماكاروفيسكي الأساس الإشاري المزدوج للتعامل مع المنتج

الثقافى كعلامة أو بالأحرى بنية متشابكة من العلامات. لها استقلالها النسبى وفعالياتها داخل العمل الفنى من ناحية، ولكنها تتعرض أثناء عمليات التوصيل والتأويل لعدد من التحويرات المهمة التى لايمكن التغاضى عنها فى التعامل مع العمل الفنى. واستطاع مكاروفيسكى بذلك الأساس الإشارى المكثف تطوير نقد المسرح والعلامة المسرحية بطريقة بدأ بها العرض المسرحى يحتل مكانة مرموقة فى نقد المسرح بعدما كان هذا النقد قاصرا فى الماضى على النص المسرحى وحده. كما طور من خلال هذا النقد جماليات جديدة للمسرح لايزال تأثيرها فاعلا فى نقد المسرح حتى اليوم. أما ياكوبسون فقد أصبح أبرز أعلام مدرستى الشكليين الروس وبراغ فى الغرب بسبب دراساته اللغوية، واستقصاءاته المهمة عن عمل اللغة وآليات عملية التوصيل من ناحية، وتطبيق هذا كله على نقد الشعر من ناحية أخرى. بصورة أصبح معها أحد مؤسسى المقترب البنيوى فى نقد الشعر فيما بعد.

وترافق هذا كله مع إنجازات تشارلز بيرس (١٨٣٩-١٩١٤) الأمريكى وفرديناند دى سوسير (١٨٥٧-١٩١٣) السويسرى، ولوى هيلمسليف (١٨٩٩-١٩٦٥) النرويجى اللغوية، وما ترتب عليها من مناهج نقدية وإضاءات لامعة لكيفية عمل اللغة فى النص الأدبى. وهى إنجازات تحتاج إلى وقفة إزاءها لأنها غيرت النقد الأدبى، ونتج عنها عدد من المقتربات المهمة من البنيوية وحتى التفكيكية. وقد ترافقت هذه الاجتهادات الثلاثة بمعزل عن بعضها البعض برغم اقتراب نتائجها من بعضها البعض. فقد غير هؤلاء اللغويين الثلاثة طبيعة دراسة اللغة، فتغير مع ذلك فهمنا لها، ولدورها فى عملية التوصيل والفهم، إذ يعد بيرس المؤسس الأول لعلم الإشاريات أو دراسة العلامات وواضع حجر الأساس للبنية الثلاثية للعلامة (إشارة، مشار إليه، دلالة)، وهو الأمر الذى سيتوصل إليه السويسرى دى سوسير بعد ذلك بسنوات دون معرفة بإنجازات بيرس الأمريكى. لأنه بدأ دراسته للغة بهذا الجانب الإشارى فيها، وتنبأ عام ١٨٦٧ بتأثير الإشارية المحتمل على دراسة الآداب والفنون والقانون، وهى كلها مجالات سرعان ما استفادت منها فيما بعد. واستطاع التمييز بين مجالات مختلفة للإشارة: مجالها الإيقونى، ومجالها التصنيفى، ومجالها الرمزى مما ساهم فى إرساء علم الإشاريات، أو السيميولوجيا كما يحلو للبعض، وتعميق مفاهيمه فيما بعد على يدى سوسير وهلمسليف.

تجديد الثقافة الغربية

وقد ترافق تأسيس هذه القاعدة اللغوية لعملية الاتصال فى علم كامل هو علم الإشاريات مع بزوغ مدرسة النقد الأدبى الجديد فى الولايات المتحدة والتى بدأت بإليوت وريتشاردز واستمرت مع ألان تيت ورانسوم وحتى كلينيث بروكس ونورثروب فراى. وقد كرست هذه الاستقصاءات النقدية جميعا، على اختلاف مقترباتها وتكامل هذه المقتربات معا مجموعة من الأدوات النقدية المرهفة للتعامل مع النصوص الأدبية باعتبارها منتجات لغوية فى المحل الأول لابد من فك

شفرات عمليات توليدها للمعنى وتوصيله قبل الحديث عن أى شىء آخر خارج العمل الأدبى. وكان هذا كله يدور بموازاة تبلور نقد أدبى يستلهم نظرية ماركس المادية الجدلية فى الاقتصاد السياسى والمجتمع من ناحية، وآخر يستلهم استقصاءات فرويد فى التحليل النفسى وتطبيقها على الأدب من ناحية أخرى، وثالث يستلهم الوجودية فى تأويلاتها الجدلية مع سارتر وكامى أو الظاهراتية مع ميرلو بونتى من ناحية ثالثة. وما أن انتصف القرن حتى اندلعت عملية تجديد واسعة فى شتى مناحى الثقافة الغربية، بدأتها البنيوية الفرنسية معتمدة على سيميولوجيا ياكوبسون وجريماس، وإضافات تشومسكى وبينڤينيست اللغوية المهمة، وتحليلات ليڤى ستراوس الأنثروبولوجية، واستقصاءات لاكان النفسية، وكتابات بروديل التاريخية أو بالأحرى الحضارية الشاملة. وبلغت هذه البنيوية ذروتها الأدبية فى إبداع رولان بارت النقدى اللامع وأعمال تلاميذه الموهوبين من جيرار جينيت إلى تزيڤتان تودوروف وجوليا كريستيڤا. وأثرت هذه البنيوية استقصاءات مابعد البنيوية، وما انطلق من رد فعل عليها على ثلاث محاور مختلفة: أولها محور ميشيل فوكو وأركيولوجيا المعرفة عنده والتى يدين فى الكثير منها إلى أستاذه جورج كانجوييم الأقل شهرة من تلميذه، ولكنه لايقل أهمية عنه بأى حال من الأحوال. وثانيها محور جاك ديريدا وإيمانيويل لاڤيناس ونظرية التفكيك التى أثرتها استقصاءات ديلوز الفلسفية الشيقة، وثالثها وأهمها جميعا فى اعتقادى هو محور بيير بورديو ونظريته عن مجال الانتاج الثقافى المعرفى المترع بشبكة بالغة التعقيد من علاقات القوى الرمزية والعنف الرمزى. وإذا كان المحور الأول يستمد إلهامه الفكرى من المفكر الإيطالى الكبير جيامباتيستا ڤيكو وكتابه (العلم الجديد) الذى نشر عام ١٧٤٤، بينما يستمد المحور الثانى إلهامه الفكرى من الفيلسوفين الألمانيين فريدريك نيتشه ومارتن هايديجر، فإن محور بورديو الثالث هو أكثر هذه المحاور استيعابا لأفضل ما فى البنيوية ومزاوجته مع أفضل ما فى الماركسية فى مزيج فكرى جديد بالغ العمق والحصافة.

وكان كل هذا يدور فى فرنسا فى موازاة موجة من الاستقصاءات الماركسية الشيقة التى بدأت قبل ذلك بالطبع مع جورج لوكاتش فى المجر وتلميذه النجيب لوسيان جولدمان وبنيويته التكوينية التى وضعت أسسا جديدة لعلم اجتماع الرواية، طوره بيير ماشارى فى نظريته المهمة عن الإنتاج الأدبى. وتطورت هذه الاستقصاءات كذلك مع لوى ألتوسير وألان تورين فى فرنسا، وڤالتر بنيامين وتيودور أدورنو ومدرسة فرانكفورت فى ألمانيا، وإرنستو لالكلو فى الأرجنتين، وفريدريك جيمسون فى أمريكا، وتيرى إيجيلتون فى بريطانيا، وإعجاز أحمد فى الهند. وموجة أخرى من الاستقصاءات التفكيكية الأمريكية عرفت باسم مدرسة ييل التى كان أبرز نقادها بول دى مان وهارولد بلوم وهيليس ميلر. وموجة ثالثة من النقد النسوى الذى انحدرت أغلب استقصاءاته من عباءة سيمون دي بوڤوار

وجنسها الثاني الفكرية. وهي العباءة التي خرج منها الجيل الأول من منظرى الفكر النسوى من الأسترالية جيرمين جرير، وحتى الأمريكيتين كيت ميليت ومارى إلمان. ثم أخذت تلك النزعة النسوية في النقد الأدبى عدة مناحي تحليلية وفكرية مختلفة مع جوليا كريستسفا وكاثرين كليما وهيلين سيكسوس ولوس إريجارى في فرنسا، وإيلين شووالتر وباربرا جونسون في الولايات المتحدة الأمريكية، وتوريل موى في النرويج، وساندرا جيلبرت وسوزان جوبار وكارول بيتمان في بريطانيا، وغيرهن.

إضافات إدوار سعيد

ولايمكن أن يكتمل الحديث عن ثورة النقد الأدبى في القرن العشرين دون الإشارة إلى آخر الإنجازات النقدية الكبيرة في هذا القرن، والتي يعتبرها البعض من أهمها جميعا، ألا وهي إضافات الناقد العربي الأمريكي الكبير إدوار سعيد. وما نجم عنها من تشكل تيارين نقديين جديدين: أولهما هو تيار نقد مابعد الاستعمار، وهو التيار الذي يمد جذوره في كتابات فرانز فانون والذي أخذ ينتشر انتشارا واسعا في حقل الدراسات النقدية والأدبية في العالم الناطق بالإنجليزية خاصة، وأنجب حتى الآن عددا من الأعلام المرموقين من هومي بابا وجياترى سبيفاك إلى بينيتا بارى ونيل لازاراس. وثانيهما هو تيار النقد الثقافي الذي يمزج إنجازات إدوار سعيد بإنجازات الناقد الانجليزى الشهير رايموند وليامز، والذى برز فيه عدد غير قليل من النقاد المعاصرين من ستيوارت هول وسايمون دورنج حتى فرانكو موريتي وإدوارد سوجا وبيتر بيرجر. وبالإضافة إلي إنجاز سعيد الكبير الذى أصبحت له الغلبة في حقل النقد الأدبى في الجامعات الغربية الآن، لابد ألا ننسى مدرسة القراءة والتلقي الألمانية والتي ركزت على استجابة القارئ، وعلى أفق التلقى وتوقعاته. وكان من أبرز أعلامها ومؤسسيها هانز رويرت ياويس وولفجانج إيسر في ألمانيا ثم أصبح لها مؤيدوها ومريدوها في الولايات المتحدة مثل ستانلي فيش ومايكل ريفاتير ونورمان هولاند، وسويسرا جورج بوليه وبريطانيا جين تومكينز وديفيد بليتش ووالتر ووكر. وتيار نقدى آخر يستمد مرجعيته الفلسفية من أعمال هانز جورج جادامر هو التيار التأويلي الهرمنيوطيقي وأبرز نقاده هما الفرنسيان جاستون باشلار وبول ريكور.

هذه الثورة النقدية الضخمة لايمكن الإحاطة بإنجازاتها في كتاب واحد، ناهيك عن مقال قصير مثل هذا هي التي تؤسس السقف النقدى الغربى المتميز بطريقة لاتسمح بأن ينحدر القاع إلى ما يدور عندنا من إسفاف نقدي. ومن الممكن أن نعود إلي تفاصيل هذه الثورة أو إلى جوانب من استقصاءاتها المهمة في مقالات قادمة حتى يستفيد النقد العربى معرفيا مما يدور فيها على الأقل.

هامش

(١) وهي محاضرة ألقيت في ١١ آذار (مارس) ١٩٦٨ ضمن سلسلة محاضرات لمناقشة هزيمة ١٩٦٧، ثم نشرت بعد أكثر من عشرين عاما في مجلة (الهدف) العدد ٩١٩ في ١٧ يوليو ١٩٨٨، ص ٤٦-٤٩، والعدد ٩٢٠ في ٢٤ يوليو ١٩٨٨، ص ٤٢-٤٥. ويود كاتب هذا المقال أن يشكر الصديقة الدكتورة فريال غزول التي لفتت نظره إلى هذا المقال المهم. ■

النقد

بين الالتزام السياسى واستقلال الفن

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

منذ ارتأى أفلاطون - وهو الشاعر العظيم صاحب أمثولة الكهف ، وأستاذ النثر اليونانى الذى لايبارى - أن يطرد الشعراء من جمهوريته، لما لهم من أثر ضار فى معنويات الشباب وصلابته، ومنذ رأى أرسطو فى «فن الشعر» أن للمأساة وظيفة سيكولوچية أساسا، تتمثل فى تطهير مشاعر النظارة من خلال انفعالى الخوف والشفقة، ومنذ ذهب هوراس فى رسالته التى تحمل الاسم نفسه إلى أن وظيفة الفن هى الامتاع والإرشاد معا - منذ ذلك كله تبلورت مسألة من أخطر مسائل فلسفة النقد الأدبى، وأكثرها استحواذا على عقول الباحثين عبر العصور، وهذه المسألة : هى أيكون المرجع فى الحكم الأدبى هو العمل الفنى فى ذاته مستقلا عن أى اعتبارات أخلاقية أو سياسية أو اجتماعية، أم أن للفنان رسالة نحو مجتمعه تتمثل فى تطويره وإزالة مساوئه والرقى بإنسانيته، ومن ثم لا يمكن للنقد - فى إصداره حكما على العمل الأدبى - أن يقتصر على جوانبه الفنية وحدها ؟ أو فلنقل - بلغة أقرب إلى رطانة عصرها - هل النقد ملتزم سياسيا (بأوسع معانى كلمة السياسة) أم أنه يدعو إلى استقلال الفن عن كل الاعتبارات الخارجية ؟.



شكسبير



كارل ماركس

● النقد الماركسى يبصر بأصول العمل وعلاقته بمجتمعه ورؤيته للعالم

● النقد الجديد يزيدنا علما بجماليات العمل بناء ونسيجا ، معماره الفنى ونسيجه اللغوى

بين هذين القطبين المتقابلين - وبينهما درجات كثيرة من اللون الرمادى ومحاولات التوفيق والمصالحة - ظل البندول النقدى يترجح مائلاً حينا إلى هذا الجانب وحينا إلى الجانب الآخر. ويمكن أن نرى أبلغ تمثيل للموقف الأول - موقف الالتزام - فى النقد الماركسى ، بينما نرى أحر دفاع عن استقلالية الفن فى النقد الأنجلو - أمريكى الجديد (وهو شديد الاختلاف عن «النقد الجديد» فى فرنسا). وعلى هذين المحورين، وما شب بينهما من خلاف فى الرأى وتباين فى التوجه نظرا وتطبيقا، يدور مقالنا .

النقد الماركسى

لنبدأ بالنقد الماركسى لأنه الأسبق زمنيا، ولأنه كان - حتى عهد قريب - أعمق أثرا إذ ساد الاتحاد السوفييتى والصين ودول الكتلة الشرقية (تبنى الاتحاد السوفييتى ، تحت ستالين ، مذهب الواقعية الاشتراكية منذ ١٩٣٤ : انظر مقالة غالى شكرى الكلاسيكية : «ودعنا ردانوف إلى غير رجعة»). ذهب ستالين إلى أن الأدباء هم مهندسو النفس البشرية، وردّ جورجى بليخانوف النقد الماركسى فى الاتحاد السوفييتى. وعلى نحو مسقبل ذهب تروتسكى - وهو مثقف عالى الذكاء أقرب إلى الطراز الأوروبى الغربى، وإن كان لايقل دموية عن خصمه الجورجى الجلف - فى كتاب «الأدب والثورة» (١٩٢٤) إلى أن وظيفة الأدباء



إنجلز

هى رفع لواء الثورة البروليتارية الدائمة ، وإقامة المجتمع اللاطبقى بعد أن يستنفد جهاز الدولة أغراضه ويذبل تلقائياً .

كان الناقد الروسى بلنسكى قد سبق، فى القرن التاسع عشر ، إلى إبراز الوظيفة الاجتماعية للأدب، ولكن هذه الوظيفة لم تتبلور إلا على يدى ماركس وانجلز . كان ماركس - فى مرحلته الباكرة على الأقل - مثقفاً هيومانيا رضع لبان الثقافة الغربية فى أصولها : هوميروس واسخولوس وشكسبير وجوته . وكانت لإنجلز استبصارات بارعة فى النقد الأدبى إذ لاحظ مثلا أن النظر والتطبيق عند كاتب كبلزاك يتصادمان : فهو نظريا يقف فى صف الملكية والرجعية ولكنه، فى أعماله ، لا يملك إلا أن يكشف النقاب عن فسادها وحتمية سقوطها . وفى كتابهما «العائلة المقدسة» (١٨٤٤) - لاحظ العنوان الساخر من مقدسات المسيحية إن نقدا رواية الكاتب الفرنسى يوچين سو «أسرار باريس» على نحو غدا نبراسا لكثير من النقاد التالين:

يركز النقاد الماركسيون على عدة قضايا أهمها : أصول الحساسية الجمالية وخصائصها ، الاغتراب الرأسمالى وتدمير القيم الجمالية ، الشيوعية ونهاية الاغتراب فى الفن ، القيم الطبقية فى الأدب، الاستقبال الطبقى للقيم الفنية، مشكلة الواقعية ، الأدب الهادف، التعبير عن القيم الإنسانية الأساسية وصمودها، الشكل والأسلوب (انظر د. رمسيس عوض، موقف ماركس وإنجلز من الآداب العالمية ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٨٤، ص ٥٢). وتسرى هذه الخيوط، بدرجات متفاوتة ، فى نقد جوركى وبرخت وڤالتر بنيامين وألتوسير وكودويل وجرامشى وجولدمان وماشيرى وإحلتون وإدجل ريكورد وريموند وليمز وغيرهم.

عند الماركسيين أن الأدب ، شكلاً ومضموناً على السواء ، عميق التأثر بالقوى التاريخية والاقتصادية والاجتماعية. ويذهب الناقد المجرى جورج لوكاتش، صاحب مفهوم «الواقعية النقدية»، إلى أن عمل عظماء الكتاب غير

الاشتراكيين (مثل بلزاك وولتر سكوت) يمكن أن يجاوز حدود أيديولوجية الكاتب ذاته ويكشف عن التوترات الأساسية في عصره (انظر مادة «النقد الماركسي» في : رفيق أكسفورد إلى الأدب الانجليزي، تحرير مرجريت درابل، مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٨٧). والمقصود بالأيديولوجية هنا : منظومة الأفكار والقيم والمعتقدات السياسية الكامنة في النص تحت السطح.

ومن مبادىء النقد الماركسي أنه ينبغي النظر إلى النص على ضوء علاقته بالنظرة الماركسية إلى التاريخ ، حيث فكرة الصراع الطبقي تحتل مكان الصدارة، والصلات وثيقة بين الأدب والتركيب الاقتصادي للمجتمع الذي انتجه.

ويذهب چون بك ومارتن كدول في كتابهما «المصطلحات الأدبية والنقد» (ماكميلان ١٩٨٧) إلى أن النقد الماركسي، في أكثر أشكاله فجاجة، يستبعد كل أدب باعتباره ترفا بورجوازيا يكتب فيه كتاب من الطبقة الوسطى عن مشكلات طبقتهم . ولكنه، في صوره الأرقى والأعمق، يكشف عن توقير لدور الفن في حياة الإنسان، وينظر إلى الفنان على أنه ناقد لمجتمعه، ينبغي الإصغاء إليه. وكان من الطبيعي أن يتركز اهتمام النقاد الماركسيين على الرواية الواقعية باعتبارها تقدم صورة بانورامية للمجتمع (انظر مثلا كتاب الناقد الماركسي الانجليزي رالف فوكس «الرواية والناس» ١٩٣٧).

والنقد الماركسي ، شأنه في ذلك شأن النقد النسويّ، معني بالقضايا الاجتماعية والسياسية التي يثيرها الأدب، إنه مدخل جذري لنزعة، يرمي إلى تغيير الطريقة التي يواجه بها المجتمع ذاته ، ويركز اهتمامه على محتوى العمل وعلى تقديم نقد ملتزم للقيم والأفكار التي يشف عنها صراحة أو ضمنا.

النقد الجديد

على نحو مغاير، بل يكاد يكون مناقضا، ينظر «النقد الجديد» إلى وظيفة الأدب، وطبيعة الخلق الفني، ومكونات العملية النقدية.

وأول من نحت مصطلح «النقد الجديد» هو الناقد الأمريكي ج. ا. سبنجارن في ١٩١٠، ثم مالبث ناقد أمريكي آخر - چون كرورانسوم - أن أصدر كتاباً بهذا الاسم في ١٩٤١ للإشارة إلى حركة نقدية بدأت تظهر في انجلترا والولايات المتحدة



جوته

الأمريكية عقب الحرب العالمية الأولى، ثم بلغت ذروتها في السنوات التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الثانية، وسادت المشهد النقدي في عقدي الأربعينيات والخمسينيات حتى أوائل الستينيات حين بدأت تنازعها مكان الصدارة اتجاهات أخرى كالبنيوية ثم التفكيكية. وأهم ممثلي النقد الجديد هم: ت. س. إليوت، أ. أ. ريتشاردز، ج. ك. رانسوم، وليم إمبسون، أيفور ونترز، ر. ب. بلاكمر، كنيث بيرك، ف. ر. ليفيز، آلن تيت، كلينث بروكس، روبرت بن وارن، و. ك. ويمزات.

وقد عمد النقاد الجدد إلى إعادة تقويم أدب الماضي، صراحة أو ضمنا، على ضوء الكتابة الحداثية المعاصرة، وتقويم أدب الحاضر على ضوء منجزات الماضي. آمنوا دائما بضرورة الالتصاق بالنص، ورفضوا النزعة الذاتية الرومانسية، وأقاموا (متابعين في ذلك إرفنج بابت الامريكي وت. و. هيوم الانجليزي) ضربا من الكلاسية الجديدة أميل إلى المحافظة الاجتماعية والسياسية والدينية، مع ثورية في الشكل والتقنية. هذا مافعله إليوت في «الغابة المقدسة» (١٩٢٠) وريتشاردز في «أصول النقد الأدبي» وإمبسون في «سبعة أنماط الابهام» (١٩٣٠) وليفيز في «إعادة تقويم» وتيت في «مقالات رجعية في الشعر والمجتمع» (١٩٣٦) وبروكس في «الإناء المحكم الصنع» (١٩٤٧) ورانسوم في «بدن العالم» (١٩٣٨) وغيرهم (انظر مقالة رون هورننج عن «النقد الجديد» في رفيق أكسفورد إلى شعر القرن العشرين، تحرير إيان هاملتن، مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٩٤).

أكد النقاد الجدد استقلال الأدب متابعين في ذلك إليوت الذي قرر أن القصيدة ينبغي أن تدرس باعتبارها قصيدة لا باعتبارها صفحة من حياة مؤلفها، ولا انعكاسا لظروف المجتمع، ولا وثيقة تاريخية أو نفسية - إن العمل الأدبي بناء لغوي يتحقق التوازن بين عناصره من طريق التوازي والتقابل والمفارقة والتورية الساخرة وتحميل الكلمات بكل ظلال المعنى، ولغته هي الرمز والصورة ليست لغة الشعر إشارية

تدل على موضوعات فى العالم الخارجى وإنما هى ذات وظيفة انفعالية، وأقضية!؟ الشعر - بتعبير ا. ا. رتشاردز - ليست إلا «أقضية زائفة».

وقد سعى النقاد الجدد إلى تحرير النقد من الانطباعية السطحية ، ومن ثم كان المنزع العلمى الصارم لدى ناقد مثل رتشاردز أحال فصوله الدراسية - فى كمبردج وغيرها - إلى معامل لاختبار قدرات الطلاب ، وعاداتهم فى القراءة ومدى فهمهم لنصوص حجب عنهم أسماء مؤلفيها. كذلك كانت فصول ليفينج الدراسية تدريبات مكثفة على «النقد التطبيقى» الدقيق ، بعيداً عن الإيماءات البلاغية العريضة أو التنظيم المجرد.

يقوم النقد الجديد على القراءة الوثيقة للنص ، والاهتمام بالفروق الدقيقة بين دلالات الكلمات وظلال معانيها ، وذلك على نحو ما كانت تفعل مدرسة «شرح النصوص» الفرنسية. واقترن هذا بتطبيق لعلم الدلالة (السيمانطيقا) على النص، كما فى نقد ا. ا. رتشاردز ووليم إمبسون.

والنقد الجديد يوجه النظر، مثلما فعلت الشكلانية الروسية من قبل، إلى «أدبية» النص - ما يجعله أدبا وليس شيئاً آخر - بصرف النظر عن مصادره أو خلفيته الاجتماعية أو تاريخ الأفكار الكامنة وراءه أو الآثار السياسية والاجتماعية التى قد تنجم عنه . إنه أشد اهتماماً باستكشاف بناء العمل منه بفحص عقل مبدعه وشخصيته، أو ردود أفعال قرائه المتنوعين، ليس هناك من ينكر أن العمل الأدبى قد كتبه، بطبيعة الحال، بشر ، وأنه قد تكون له آثار مختلفة فى البشر الذين يقرءونه، ولكن النقاد الجدد يعالجون الموضوع الأدبى فى حد ذاته أكثر مما يعالجون أصوله وآثاره - إنهم يصفونه من الناحية الشكلية لا من ناحية الجذور التى انبثقت ، أو الانفعالات التى يثيرها فى أنفس القراء.

هكذا عمد النقاد الجدد إلى تطهير النقد الأدبى من كافة الشوائب غير الأدبية، ومن ثم اتهموا - ظلما - بأنهم يفصلون الأدب عن الحياة. وهم يميزون بين الفن من ناحية والدين والأخلاق من ناحية أخرى (خلط ماثيو أرنولد فى العصر الفيكتورى بين هذين الأمرين).

ويرفع النقاد الجدد القواعد من نظرة عضوية إلى الأدب، رافضين ثنائية الشكل والمضمون، ويرون أن علم البلاغة القديم - بكل زخارفه الموشاة - قد أخفق فى التوحيد بين الأمرين . إنهم ينظرون إلى سياق العمل بأكمله، وما بينه من علاقات



روجيه جارودى

متفاعلة، ناظرين إلى كل كلمة فى العمل لا على انها تسهم فى السياق الكلى فحسب، وإنما على أنها تستمد معناها من موقعها!؟ فى هذا السياق . من هنا كان احتفالهم بمصطلحات من قبيل : التورية الساخرة، الابهام، المفارقة، التوتر، إلخ.. إشارة إلى غنى العمل الأدبى وتعقد نسيجه وتعدد مستوياته . إنهم مهتمون بالكلمات باعتبارها أنماطا من المعنى، والشكل الأدبى فى نظرهم هو تنظيم المعنى ذاته (انظر مادة «النقد الجديد» بقلم كليانث بروكس ، فى : موسوعة برنستون فى الشعر وفن الشعر، تحرير ألكس برمنجر، ماكميلان، طبعة ١٩٨٦).

رسم خريطة الشعر

أعاد النقاد الجدد رسم خريطة الشعر الانجليزى فعاد الشعراء الميتافيزيقيون فى القرن السابع عشر، والأوغسطيون فى القرن الثامن عشر، إلى مكان الصدارة ، على حين توارى ملتون والرومانسيون فى مطلع القرن التاسع عشر والفيكتوريون فى باقى القرن فى المؤخرة، وأصبح بن جونسون وجون دن ودريدم وبوب وهوبكنز هم العلامات الكبرى فى مسيرة الشعر الانجليزى، لادورد زورث وشلى وتنسون وبروانتج وسونبرن، كما فعل النقاد الأمريكيون شيئا مشابها بشعر بلادهم، فأصبحت إميلى وكنسن - الشاعرة المعتزلة هادئة النبرة - أقرب إلى الحاسبة الحديثة المتسمة بالتعقد الشعورى والابهام الفكرى والازدواج الوجدانى من وتمان ولندزى وساندبرج وأضرابهم من ذوى النبرة العالية والرسالة الاجتماعية. وبرز إلى المقدمة - من شعراء القرن العشرين - باوند وولاس ستيفنز وميريان مور باعتبارهم رافعى لواء الحداثة والمعبرين عن حساسية جديدة .

ركز النقاد الجدد ، كما هو طبيعى اهتمامهم على القصيدة الغنائية القصيرة أكثر مما ركزوه على فن الرواية أو المسرح (وإن عنى بعضهم بالمسرحية الشعرية عند شكسبير ومعاصريه). كانوا ينظرون إلى القصيدة بمعزل عما حولها : فهم لا يهتمون بنية كاتبها الأصلية (سموا ذلك : مغالطة النية) وإنما المهم هو الكلمات على

الصفحة، فى ترتيبها المرسوم. إن الشعر نوع خاص من اللغة، أو هو ، على الأقل - استخدام خاص للغة، يقول أشياء لايمكن أن تقال بأى طريقة أخرى ولا تقبل البسط أو الشرح النثرى ، ومن ثم كانت القصيدة ذات وحدة عضوية (وهو مفهوم يرتد بأصوله إلى كولردج، ومن قبله أرسطو). ووظيفة الناقد هى دراسة مبنى العمل أو تركيبه، وتحليل النسيج اللفظى المعقد للقصيدة، حيث ان معناه لايتكشف إلا من خلال مثل هذا التحليل الوثيق ، ومقارنتها بغيرها من القصائد حاضرا وماضيا.

وربما كان أفضل تلخيص لعقائد النقد الجديد هو ذلك الذى قدمه كليانث بروكس تحت عنوان «عقيدتى» فى مجلة «كينون رفيو» الأمريكية (السنة ١٣، العدد ١، شتاء ١٩٥١). ويقول بروكس:

- النقد الأدبى وصف وتقويم لموضوعه.

- الوظيفة الأولى للنقد هى مشكلة الوحدة . أعنى نوع الكل الذى يشكله العمل الأدبى أو يخفق فى تشكيله، وعلاقة الأجزاء المتنوعة ببعضها البعض فى بناء هذا الكل .

- العلاقات الشكلية فى العمل الأدبى قد تتضمن - ولكن من المؤكد أنها تجاوز علاقات المنطق.

- فى العمل الناجح لايمكن الفصل بين الشكل والمضمون.

- الشكل هو المعنى.

- الأدب ، فى النهاية ، مجازى ورمزى.

- العام والكلى لا يتحصل عليهما من طريق التجريد وإنما من خلال العينى والمخصص.

- ليس الأدب بديلا للدين.

- مادة الأدب ، كما يقول ألن تيت، هى «مشكلات معنوية محددة» ولكن ليس هدف الأدب هو إبراز درس معنوى.

- أصول النقد تحدد المنطقة ذات الصلة بالنقد الأدبى، ولكنها لاتشكل منهجا للاضطلاع بالنقد.

عود إلى النقد الماركسي

تلزمنى الأمانة - وأنا عدو الماركسية ، نصير النقد الجديد - أن أضيف أن النقد الماركسى، فى مراحله اللاحقة ، قد تخفف كثيراً من قيود الواقعية الاشتراكية ، والخطوط الحمراء للالتزام الحزبى، وتحرك نحو أفق أكثر إنسانية وأشد رحابة. رفعت الصين فى مهد ثورة ماو الثقافية شعار «دع مائة زهرة تتفتح» وأعلن نبورج عن ذوبان الدوجماطيقية. وفى هذا الصدد تبرز جهود فنانين كبار مثل جوركى



ت.س.إليوت

وبرخت، كما تبرز جهود ثلاثة نقاد أحدهم مجري، والآخر نمساوي والثالث فرنسي. أعني جورج لوكاتش، وإرنست فيشر، وروجيه جارودي.

فلوكاتش الذي دعي «أقدر تلاميذ ماركس الحديثين» و«أكثر النقاد الماركسيين ذكاء» و«أعظم الفلاسفة الماركسيين» يتناول في كتابه «معنى الواقعية المعاصرة» (١٩٥٧) أدباء من طراز إليوت وبيكيت وفوكنر وجويس فلا يهيل عليهم تراب الشتائم، وإنما يسعى بصبر وأمانة إلى ولوج عوالمهم وتفسير منحاهم الفني على ضوء اللحظة التاريخية والإطار الحضاري (انظر الترجمة العربية للكتاب بقلم د. أمين العيوطي، دار المعارف، ١٩٧١).

وإرنست فيشر (١٨٨٩ - ١٩٧٢) في كتابه «ضرورة الفن» المنشور لأول مرة في ألمانيا الشرقية عام ١٩٥٩ يتحدث عن وظيفة الفن، وبداياته الأولى، والفن والرأسمالية، والمضمون والشكل، وضياع الحقيقة واكتشافها، من منظور ماركسي رحيب جعل كتابه من أكثر الكتب الصادرة بعد الحرب العالمية الثانية تأثيرا. (انظر الترجمة العربية للكتاب بقلم أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١).

كتب الناقد البريطاني كنيث تاينان عن كتاب «ضرورة الفن» يقول:

«في هذا الكتاب الجديد المتحدي الذي ظهر في سلسلة «بليكان» يمسح إرنست فيشر، الشاعر والناقد النمساوي، تاريخ المنجزات الفنية بأكمله من خلال نظرة ماركسية. لقد كان الناس دائماً بحاجة إلى الفن: ولكن لما كانوا يحتاجون إليه؟ وما الذي صاغ الصور التي كانوا يشبعون بها حاجتهم؟ إن إجابات فيشر على هذه الأسئلة ينبغي أن تدرس وتناقش هنا بنفس الشراهة التي درست بها ونوقشت على ظهر القارة (الأوروبية).

والكتاب حافل بالدلائل على أن فيشر ماركسي تجريبي أكثر مما هو نظري، فأنت لاتشعر قط بأنه يقص أوجاعه على النحو الذي يجعلها تناسب نظرية. وهو يقول:

«إن الفن الجديد لا ينبع من المذاهب وإنما من الأعمال ، فأرسطو لم يسبق ... هوميروس وهزيود وإسخالوس وسفوكليس، وإنما استمد منهم نظرياته في علم الجمال».

لقد ظلت الماركسية بحاجة إلى أرسطو (خاص بها) زمنا طويلا . وإن شكوكي لتتجه إلى أنها قد وجدت في إرنست فيشر رجلها».

أما روجيه جارودي فقد شق دربا جديدا بكتابه «واقعية بلا ضفاف» (تقديم أرجون، ترجمة حليم طوسون، مراجعة فؤاد حداد، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٨) وذلك حين تحدث عن بكاسو وسان جون بيرس وكافكا، وكلهم فنانون كان الحزب الشيوعي ينظر إليهم بعين الشك، ويرى في تجاربهم الفنية الجريئة نزعة شكلية معادية للمجتمع ، فأعاد جارودي قراءتهم بمنظار جديد كشف عن القيم الإنسانية الحارة التي تنبض بها أعمالهم.

وعود إلى النقد الجديد

ومن ناحية أخرى نجد أن كثيرا من النقاد الجدد قد كفكفوا من غلواء نزعتهم الجمالية الباكرة فصاروا يوجهون مزيدا من الاهتمام إلى الرحم الثقافي الذي أنجب الأعمال الأدبية، وموروثها التاريخي (انظر مثلا كتاب بروكس عن فوكنر، روائي الجنوب الأمريكي) وإلى مسائل الأدب المقارن، والأنواع الأدبية، ودراسة الحبكة، ورسم الشخصية، وهو ما يتجلى في نقد الأرسطيين الجدد في شيكاغو (ر. كرين ووين بوث وزملائهما).

لقد أصبح كل من النقد الماركسي والنقد الجديد الآن جزءا من التاريخ، ومن ثم غدا بمقدورنا أن ننظر إليهما نظرة محايدة لاتتعسف. سنجد- من منظور اللحظة الراهنة - انهما وإن انشعبت بهما السبل يمكن أن يتعاونا على إلقاء الضوء على العمل الأدبي من زوايا مختلفة. النقد الماركسي يبصرنا بأصول العمل وعلاقته بمجتمعه، ورؤيته للعالم، وموقفه من صراع الطبقات؛ بينما النقد الجديد يزيدنا علما بجماليات العمل بناء ونسيجا، معماره الفني وتشكيله اللغوي، وذلك بدراسة الأدوات الفنية التي يتوسل بها كاتبه إلى نقل رؤيته للناس والأشياء، وكلا المنهجين مشروع ومطلوب، وإن مالت الكفة بالناقد - كما هو طبيعي - إلى هذا الجانب أو ذاك، وفقا لخلفيته ومعتقداته ومزاجه الفكري وتكوينه النفسي. ■

مسـرحـنا

بين مقاطعة الجمهور والحلول الغائبة

بقلم
مهدى الحسينى

يتلقى المواطن العربى معرفته الأولى بفن المسرح فى المدارس وفى الموالد والاحتفاليات الشعبية، ومراكز الشباب فى القرى والمدن الصغرى، والأحياء الفقيرة وبيوت الثقافة وقصورها، والجمعيات الخاضعة للشئون الاجتماعية ونوادى النقابات العمالية والمهنية، وفى المسرحيات الدينية بالكنائس، وفى المسرح الجامعى.




توفيق الحكيم


نعمان عاشور


الفريد فرج


صلاح عبد الصبور

● أصبح التمثيل التليفزيونى أهم من التمثيل المسرحى لأنه أقصر طريق الى الرواج والنجومية الزائفة

● تلنى الخدمات الثقافية والفنية وغياب التخطيط أصاب الإبداع بفقر مدقع أعاق طموح الأجيال

ولكن حدث فى النصف الثانى من السبعينيات خاصة « بعد مايسمى بانتفاضة الحرامية» ، أن سُلطت الجماعات السلفية على الحركة الجماهيرية كى تنحرف بها عن أهدافها العادلة المتعلقة بالحريات وحق الحياة الكريمة، والديمقراطية والاستقلال الاقتصادى والتحرر الوطنى، منتهزة حالة اليأس التى أحاقت بالناس حيث لم يصيبوا من نصر أكتوبر الحياة اللائقة الآمنة التى كانوا يبتغون أو يحلمون، بل أخذ الطفيليون والطبقة الجديدة ينشبون أظفارهم فى أبدانهم وحياتهم وعقولهم وأرواحهم وأموالهم، ومستغلة هزيمة الفكر الاشتراكى، الحقيقى منه والزائف، لتقدم لهم منظومة فكرية سلفية بديلة. «كان الفن أحد ضحاياها» كما قدمت لها الصحافة الرسمية وشبه الرسمية وقودا يوميا من الفضائح الصغيرة لعناصر من الوسط الفنى، وبعض قضايا لبعض فتيات الإعلان، وبعض الصور المكشوفة لبعض الفنانات المصريات والأجانب، مما يؤجج المشاعر البدائية الدنيا، والسانجة، الجماهير المأزومة بكل أنواع الأزمات، فيلهيهم عن البؤرة الرئيسية ويحيلهم إلى الاهتمامات الهامشية، كما دارت فى كواليس الحياة الاجتماعية للفنانين إغراءات مجهورة بأموال - لاندرى مصدرها - كى تتحجب بعض الفنانات اللواتى وصلن إلى سن اليأس «الفنى أو البيولوجى» وبعض الفنانين الذين لم يعودوا صالحين للعب دور الفتى الأول أو الثانى .. وإنما يفكرون فى قضاء شيخوخة سعيدة مما يتطلب الكثير من المال بعيدا عن متاعب العمل وواجبات النساء بعد استبدال الأدوار بالأوراد، وهاجم بعض كبار الوعاظ الذين تعدت اتصالاتهم حدود مصر الوسط الفنى والثقافى بشراسة مدهشة وحجج ملفقة تتذرع بالدين، وكأن هذا الوسط هو مصدر كل الشرور والمصائب، وكأنه السبب فى ارتفاع الأسعار وأزمات المواصلات والاتصالات والمرور وضعف أداء التعليم خاصة الجامعى وعدم تعيين

الخريجين وانحراف الفتيات «وكأن السبب ليس التأخر القسرى لسن الزواج وأزمة الإسكان وبطالة الشباب وغياب الثقافة عن الحياة اليومية وضعف الوعى السياسى والاجتماعي وغير ذلك من الأسباب» وإلى آخره من أزمات قديمة استفحلت فى السبعينيات والثمانينيات، والعجيب أن المسرح التجارى «القطاع الخاص» لم يحظ من جانب هؤلاء بأية هجوم أو استهجان، ولعل ذلك كان احتراما للإخوة السياح الخليجيين الذين كانوا يأمونه بكثافة مريحة .

وبعد ١٩٧٣ تم تجهيز الطائرات والاستوديوهات في الخليج وقبرص ولندن وميونخ وتونس وغيرها لاستقبال مئات الفنانين المصريين «المحبطين فنيا والمفلسين ماديا والمهددين بارتفاع الأسعار وتزايد المطالب المعيشية والاجتماعية» لاستغلالهم في إنتاج مسلسلات الجيم المعطشة والخاء المقعرة واللام المقلقلة يلوكونها بلهجة فجة ونطق غليظ في موضوعات تراثية لم يبق منها سوى الدشداشة والسيوف الخشبية، هذه الدراما البترولية أخلت بميزان القوى الأدبية والفنية، وبسببها تساوى صغار الكتاب مع أقلام توفيق الحكيم، ويوسف إدريس ، ونعمان عاشور، وألفريد فرج، وصلاح عبد الصبور، وميخائيل رومان، ونجيب سرور . كما تساوى صغار المخرجين مع توفيق صالح وكمال سليم، وصلاح أبو سيف ، وهنرى بركات، وكمال الشيخ، فصعدت أسماء لاتستحق الصعود، وأخذ الأقزام يتطاولون على العمالقة ماداموا يحملون حقائب «السامسونايت» ويرتدون الملابس اللامعة والساعات اليابانية ويركبون الطائرات ويهجرون بيئاتهم الشعبية الى أحياء الطبقة الجديدة والقديمة، وأصبح التمثيل التليفزيونى «أهم» من التمثيل المسرحى لأنه أقصر طريق الى الرواج والنجومية الزائفة وأرخص السبل إلى المال وحيث مجتمع محدثى النعم واللذائذ والمتع الصغيرة فهكذا حدث الخلل المتعمد في ميزان القيم الثقافية والمعايير الفنية فى وسطنا الفنى وفى حياتنا الاجتماعية، وتلك كانت ضربة في الصميم .

أشباه الهواة !

ومع أن حركة مسرح الأقاليم والجامعات والشباب، خاصة مسرح الثقافة الجماهيرية، قد نشطت في ذلك الوقت كرد فعل لهذا الانهيار للبنية المسرحية المصرية ممثلة في مسرح الدولة القاهرى ومسرح القطاع التجارى والصايف «وقد أنجزت بعض الإنجازات» إلا أنها - في النهاية - حركة هواة وأشباه هواة وأشباه محترفين، وهم - مع الأسف - معوقون بالضرورة بفعل البيروقراطية والفساد الإدارى والرقابة ورداءة المناخ العام، أضف إلي ذلك - وهو الأهم - أن الجماعات السلفية نجحت فى منع أغلب الأنشطة الفنية فى الأفراح والموالد والاحتفالات الشعبية والدينية الأمر الذى اضطر السلطات الى التدخل الأمنى فى كل التجمعات الشعبية .

كما كان العائدون من باكستان وأفغانستان والسودان والبوسنة وكوسوفو والخليج قد نجحوا فى منع الأنشطة الفنية والثقافية فى أغلب التجمعات الشعبية خاصة فى الأقاليم والمناطق البعيدة عن



المركز، فنصبوا أنفسهم رقباء قبل وبعد الرقابة الرسمية، محاكم تفتيش على كل مايقال وينشر ويعرض وأولوا اهتماما خاصا بكل مايتعلق بـ «العورة».

في هذه الأوقات العصيبة كافح كل من العصفوري، والشافعي، والجندي، والسلاموني، كتفا إلى كتف مع كل من أفلتوا من قبضة الفاشيست في الجامعات والأقاليم، ولكن يظل هذا الدور محدودا بحدود الأفراد والإمكانات المتاحة والمسموحات المباحة، في حين هاجر إلى المشرق والمغرب كل من كرم مطاوع، وسعد أردش، وأحمد عبد الحليم، وذهب ألفريد فرج إلى الشمال، ورحل مصطفى بهجت، ويوسف إدريس، ومحمود دياب، ونجيب سرور، ورومان، ونعمان عاشور .. الأمر الذي أخلى الميدان لأرباع الموهوبين

وفي هذه الحقبة أيضا أغلقت الجماعات السلفية وأنصارها قاعات المعارض والترفيه والملاعب والمسارح والمعامل وجمعيات النشاط العلمي والأدبي والفني في أغلب مدارس مصر بحجة إقامة بيوت الله .

وكذا ماحدث في مراكز الشباب والنوادي الرياضية والاجتماعية والجامعات حيث سيطر المتعصبون على مجالس الإدارات والاتحادات والنقابات العمالية والمهنية، فكانت الانحرافات عن اللوائح والقوانين والأهداف الأصلية لهذه المؤسسات الشعبية القاعدية، أما في الثقافة الجماهيرية فإن النشاط عموما كاد أن يكون صوريا، فرغم كثرة المسرحيات وتعدد المسميات، فإن أغلب العروض تكاد تكون لليلة واحدة فقط، ولو أراد المخرج أو المؤلف أو الفرقة غير ذلك، فإن سمعتهم الحسنة تصبح سيئة حيث تشن إدارة الموقع عليهم وعلى من يتعاون معهم حروبا أسوأ من أن نسميها حروبا نفسية، والأمر نفسه ينطبق على باقي الأنشطة، رغم هذا فقد كافح مثقفو وفنانو الثقافة الجماهيرية من أجل اثبات ذواتهم الفنية وتعميق رسالتهم الثقافية بمواصلة تقديم عروضهم ومعارضهم وإنتاجهم الفني والثقافي، فكان أن نجح البعض نسبيا في بعض المواقع وبعض المواسم وفي ظروف جد صعبة أو حالكة وهنا شكل مثقفو الأقاليم وفنانوها - خلال هذه الحقبة - ملمحا مميزا .

ولاشك أن فرق القرى والمدن الصغرى والأحياء الشعبية والنقابات والنوادي والجمعيات والمدارس والكنائس والجامعات تشكل قاعدة عريضة كفيلة بأن تمد المستوى الاحترافي بالمواهب البارزة والعناصر الماهرة والجادة، لذا كان يجب أن تنظم لهم دورات تدريبية وتعليمية وتثقيفية دورية ودائمة لتعليمهم أسس التمثيل والتأليف والشعر الدرامي المسرحي والتأليف الموسيقي والتصميم الحركي وفنون السينوجرافي وتقنياتها ومبادىء الإخراج المسرحي .. والتذوق الجمالي في بعديه الاجتماعي والإنساني غير أن تدني الخدمات الثقافية والفنية وغياب التخطيط على مستوى القاعدة واختناق مجاليها المكاني والزماني وفقر إمكاناتها المادية والمالية، وتراجع الحياة الفكرية والروحية بين بسطاء الناس أمام الردة الرجعية والتخريبية والسلفية، قد جعل الإبداع يصاب بفقر مدقع أعاق طموح الأجيال وقلل من اجتهادها وهدأ من ايقاع كفاحها وكلها أمور لايمكن استعادتها بغير دعم ومساندة المجتمع

ومؤسساته الأهلية والرسمية، ولا أقل من أن أسوق ملاحظة لمحتها في الانتخابات الأخيرة، وهي أن الثقافة والفنون لم يحظيا – في برامج الأحزاب – بقدر لائق من الاهتمام .

ثمة خلط وتعويق وعجز ذاتي في المنظومة التربوية والتعليمية والثقافية، قائمة على نظرة مريضة للفن – عمليا – على أن الفن حرام وعار وترفيه وترف وتسلية ، لاضرورة مطلقة لمشروع النهضة المصرية .

التعليم الأكاديمي للفنون المسرحية

بعد معهد التمثيل المسائي الذي كان لايلتحق به إلا الموهوبون فقط ولايتخرج فيه سوى فنانين، أثبت أغلبهم حضورا ممتازا على الساحة الفنية، تأسس المعهد العالي للفنون المسرحية في أكتوبر ١٩٥٨ تحت شعار أن «الموهبة وحدها لاتكفي»، وأنه لابد من تعليم منهجي متخصص، وأصبح لايقبل إلا طلابا حاصلين على الثانوية العامة ويخرج «فنانين» حاصلين على درجة البكالوريوس ، وهكذا أصبح معهد الفن، معهدا للشهادات مهمته – كما قال لي أحد عمدائه ذات مرة – تخريج مساعدي إخراج يلبون حاجة الإذاعة والتليفزيون وساعات الإرسال .. وليس بالضرورة أن يخرج فنانين، وهكذا ابتلعت «القوى العاملة» خريجيه ليصبحوا موظفين بدرجة فنانين أو فنانون بدرجة موظفين، لذا أصبح من النادر أن يخرج من بين صفوفه فنانين كبار من نوع نجيب سرور، وكرم مطاوع، وسميحة أيوب، وسناء جميل، الذين تخرجوا من المعهد المسائي، وإنما قام بتخريج تلاميذ نجباء ومواطنين مطيعين صالحين، مروضين .

أقسام المسرح بالجامعات

وفي آداب عين شمس تأسس قسم للأدب المسرحي والنقد، وكذا في آداب القاهرة، وفي آداب حلوان تأسس قسم للمسرح وكذا في جامعة الاسكندرية، وكثر عدد «الدكاترة» وزاد حملة الشهادات، ورغم هذا ازدادت حركة المسرح فقرا وجهلا وانهيارا وتدنيا، فلماذا ؟ هل هذا بسبب «زيادة العلم والمصطلحات» ؟ أم بسبب «وفرة الدكاترة» أم بسبب «توفر البعثات» ؟

في الماضي حين كانت الحركة الفنية تتميز بالموهبة والقوة، وكانت الدرجات العلمية معدودة على الأصابع والبعثات نادرة، وأشهر مبعوثين في أواخر الأربعينات كان نبيل الألفي، وحمدي غيث، تبعهم في أواخر الخمسينيات كل من كرم مطاوع، ونجيب سرور، وسعد أردش، وجلال الشرقاوي، ومن قبلهم مبعوث واحد فقط كل عشر سنوات «ومنهم من سافر ليدرس على حسابه الخاص» أي ثلاثة أشخاص بالإضافة الى يوسف وهبي، ومع ذلك كانت الحركة الفنية أكثر علما وخصوبة وموهبة، لأن «الرأي» و«الرسالة» و«الجمهور» و«الحرية» و«الوطن» و«الذوق الرفيع» أمور كانت في رءوسهم.

ولابد أن أشير أيضا إلى أنه بالإضافة إلى نقص وخلل في برامج هذه المعاهد والأقسام وفي اكتمال طاقم التدريس بما يتلاءم مع المواد الدراسية الضرورية التي يجب أن تتسم بالعمق وسعة الأفق ، هناك عجز فادح في أداء هذه الكيانات من ناحية التجهيزات وملاءمة المباني لتدريس





كرم مطاوع



سعد أردش



نجيب سرور



سمير العصفورى

فن شامل كفن المسرح، وكلها لاتفترق عن استعدادات المدارس الإعدادية، ابتداء من عجز المكتبات، حتى رداءة قاعات المحاضرات،

إن مبنى معهد الفن يجب أن يكون مزودا - الى جانب جمال طرازه - بمكتبات المدونات الطباعية والصوتية والمرئية من كل نوع ولون، فضلا عن قاعات الصوت «الإذاعة» والصورة «الفيديو والسينما» والأداء الحي «المسرح» وصالات الأداء الحركي والرقص، ومعمل للهجات، واتيليهات للتصميم والتشكيل، بالإضافة إلى المتاحف والمعارض الدائمة والحدائق والملاعب، وقاعات العروض المزودة بأحدث الأجهزة من كل المساحات والأنواع، وأن يتسع المبنى لكل سنوات الدراسة والدراسات العليا وحلقات البحث والتجريب والمؤتمرات، ولكل التخصصات والأنشطة، بحيث يسيطر المعهد العلمي على مادته، وألا يكون مجرد رد فعل لما يحدث في الحركة المسرحية المحلية والأجنبية خارجه .

وعدا قلة قليلة من الأساتذة المبدعين والأمناء، الذين لم يكتفوا بتدريس بعض الكتب المترجمة وبضع كراسات عبارة عن ملخصات قديمة ومذكرات منقولة ومحاضرات حائلة، وشذرات من أدوار تمثيلية مكررة ومستهلكة، أو كروكيات لمسارح ومسرحيات انتجت في الخارج، بل استطاع هؤلاء النابهون أن يصنعوا منهجهم الخاص، وأن يدمجوا ماحصلوا عليه بمجهوداتهم الذاتية مع مادرسوه في البعثات تلبية لحاجات الطلاب الفنية والمعرفية والعلمية على ضوء حياة الوطن والمواطنين والفن والجمال .

إننا ضد العلم الشكلي والمعرفة الزائفة، بهدف الحصول على «شهادات» و«ألقاب» لأغراض الوجاهة الاجتماعية والمال، وضد البعثات كمزية شخصية يحصل عليها المحظوظ أو المرضى عنه، إنما نحن مع العلم الحقيقي والمعرفة ذات المعنى والدلالة والفائدة، مع العلم المتوائم مع واقعنا وشخصيتنا التاريخية الوطنية، وضد البعثات طويلة الأجل في بلد واحد، لأنها تعزل المبعوث عن واقعه وشعبه ووطنه، فيعود عاجزا عن الانفعال بنا والوعي بخصوصيتنا وإدراك احتياجاتنا المادية والروحية والكفاح من أجل تحقيقها .

والوضع الآن لم يزل - كما قال هذا العميد السابق حين طالبته بتدريس علم الجمال - أن هذا المعهد لن يدرس أفكارا بل مهنا وحرفا - ورغم علمي أن بتلك

المعاهد مواد لعلم النفس والاجتماع والموسيقى والفنون الشعبية .. وحتى السيميوطيقا، ولكنها محض «ساعات» منفصلة عن منهج فكرى كلى وشامل، وعن تصور متكامل عن دور مسرحنا فى مجتمعنا. وهل نحن نريد مجرد حرفيين بدرجة مخرج أو ممثل أو مهندس ديكور؟ أم نحن نريد المفكر الفنان والفنان المفكر ؟ هل نريد لفنانينا أن ينافسوا معاهد أوربا وشرق آسيا والهند والولايات المتحدة وروسيا ؟ أم يقلدونها ؟ هل يغوصون فى أعماق تراثنا الثقافى والفولكلورى أم يتركونه نهبا للآخرين؟ هل يذهبون الى قلب افريقيا حيث جذور الحضارة المصرية؟ هل يزورون روما وأثينا حيث امتداد حضارتنا القديمة ؟ ماهى ينابيع فننا ومصادره؟ وماهو المرمى الإبداعى لكل مايبدعه فنانونا؟ ماهى السمة الفنية والجمالية الخصوصية التى تميزنا .. أم نظل مجرد نقلة وردود أفعال؟ هل نحتاج إلى بعثات العزلة الطويلة بعيدا عن الجمهور والواقع والوطن؟ أم نحن فى حاجة الى بعثات قصيرة الى مراكز الابداع المهمة فى أنحاء العالم، بعثات قصيرة مبرمجة وفق احتياجات خطة نهضوية واضحة؟

أسلوب الإنتاج

فى أطر متتالية اعتبارا من المؤسسة العامة للمسرح والسينما والفنون الشعبية إلى هيئة المسرح الى قطاعى المسرح والفنون الشعبية كان الإنتاج المسرحى لما يسمى بـ «القطاع العام».. ومن « مجنون بطه » و« سلك مقطوع » ومسرح الفرق التليفزيونية العشرة إلى الفنانين المتحدين وما أشبه كان مسرح ما يسمى بـ «القطاع الخاص» . بدأ الأول بهيمنة صارمة للدولة كرقيب ومنتج ومفكر ومروج «أى النقد» وبدأ الثانى فى ظل فكر تليفزيونى ترفيهى «امتدادا لساعة لقلبك وتكرار ردىء للفودفيلات القديمة» زاد نفوذه كنتيجة مباشرة لليأس والضياع الذى أعقب الهزيمة فى يونيو ١٩٦٧ .

يكاد القطاع الأول ينتج أعماله لمدينة القاهرة على الأغلب ويقدمها فى الدور المسرحية العامة التى لايتجاوز عدد مشاهدى الليلة الواحدة فيها ٤٠٠ مشاهد ولاتتجاوز أعداد العروض ٢٨ ليلة للمسرحية الواحدة وإذا ما تحققت هذه الأرقام فإنها تعتبر معجزة مع اعتبار أن الإيرادات القصوى لاتتجاوز ٢٥٪ من التكاليف المباشرة للعرض المسرحى الواحد هذا إذا غضضنا النظر عن التكاليف غير المنظورة وأن تليفزيون الدولة يمتنع عن شرائها، ومثل هذه العروض تخضع لكل أنواع الرقابة العامة والخاصة والذاتية ولابتزاز الصحافة الصفراء أيضا. أما القطاع الثانى فينتج أعماله للقاهرة والمصايف وغالبا الإسكندرية ويضع فى حسابه التكلفة والعائد وتغض «الرقابة» الطرف عن أشياء مشينة كثيرة على اعتبار أنها «مصنفات سياحية من إنتاج الملاهى» وينفق المنتج أموالا طائلة على نصوص التسلية الرخيصة التافهة ومايسمى بالنجوم «وهم فى الأغلب لايتقنون فن التمثيل وبعضهم فضل هجرة الفن لحساب المال والشهرة السهلة» كما يعتمد الممول على إعلانات فاضحة لمسرحيته طمعا فى بيعها لمحطات التليفزيون غير المصرية ولشركات الفيديو كى يتمتع بها الأشقاء فى الخليج، أو



يعتمد فى تمويله على صفقات عليها الكثير من الغبار مع كبار صغار الموظفين فى صيغة عجيبة أطلق عليها نظام المنتج المنفذ مرة ومسرح التليفزيون مرة أخرى.

وفى حين يتحرر المنتج الخاص من كل شىء حتى القوانين أحيانا، يلتف حول جسد مسرح الدولة الأغلبية البيروقراطية من الموظفين الماليين والإداريين والحقوقيين، ليستهلكوا قسما هائلا من ميزانية الإنتاج فى حين يمتنع التليفزيون عن تقديم أى تخفيض فى أجر الإعلان، ويشترط لنقل مسرحيات القطاع العام موافقة رقابته «المتشددة المتهاونة» وأن يكون هذا النقل .. بل والإذاعة بلا أى مقابل .

وبينما يستبعد المنتج الخاص كل مايتعلق بالمعايير الفنية والمهنية والحرفية والاجتماعية فهو المتصرف والمستبد الأوحد فى شئونه، لايوجد أى بعد ديمقراطى فى إدارة الفرق الحكومية أو دور العرض، وليس للكاتب العريق ولا المخرج الأصيل أى رأى فى كيفية تسيير الحياة المسرحية فى مصر.

إبتزاز المسئول!

وليس للمكاتب الفنية الصورية أى سلطة، فمدير المسرح أو الفرقة دكتاتور صغير ورئيس القطاع دكتاتور أكبر وهكذا تدار الأمور وفقا للأمزجة والمصالح والشائعات والعواطف الطائشة ، وليس لمجلس إدارة القطاع أى قيمة، ولا للجان الفرعية مثل لجان القراءة التى ترفض نصوصا فتنفذ وتقبل نصوصا فلا ترى النور أبدا ، ليس هناك أسس أو قواعد أو ميثاق شرف يتم الاطمئنان والتعامل بهما مع الفنانين والكتاب، بل يستطيع أى صحفى صغير قليل الثقافة والموهبة أن يبتز هذا المسئول أو ذاك بنصف مقال فيفرض نفسه مؤلفا ومخرجا ورقاصا وأن يفرض صديقته نجمة فى ضربة واحدة .. وإلا فإنه سوف ينشر النصف الثانى من مقاله الملىء بالأراجيف وأنصاف الحقائق.

وهكذا يفقد الفنانون الحقيقيون الثقة فى سير الأمور وفى هؤلاء الزملاء السابقين الذين صعدوا فتحولوا إلى كائنات أخرى، وهنا يتم استبعاد كُتاب المسرح المصرى التاريخيين الراحلين والأحياء، وهكذا ضاعت المنجزات الفنية الثمينة لكل من عزيز عيد و زكي طليمات وفتوح نشاطى وعبد الرحيم الزرقانى، والألفى وغيث وسرور وكرم مطاوع وأحمد عبدالحليم، وأصبح التأليف مهنة من لايعرفون القراءة والكتابة وغدا الإخراج مهنة من أخطأوا طريقهم إلى الفن، وأصبح التمثيل عمل من يستطيعون تدبير تبادل المنافع .

وفى قطاع الفنون الشعبية تجاهلوا أعمال سيد درويش، وبديع خيرى، وفؤاد الجزايرلى، وأحمد صدقى، ولم يعد أحد يستطيع إنتاج أعمال مثل «العشرة الطيبة»، و«القاهرة فى ألف عام»، و«الليلة العظيمة»، و«زباين جهنم» و«حمدان وبهانة» و«وداد الغازية»، و«الكل فى واحد»، ولم يعد لديهم إلا «الرائعة المدهشة المعجزة المشرقة» زكية زكريا !!

عجز المباني

لقد انحصرت مسارحنا فى القومى والطليعة والسلام والبالون والهناجر، أما باقى الـ ١٥ مليون مواطن الذين يقطنون العاصمة فلا أحد يسأل عنهم إلا عروض الهواة، ولم تبن الدولة مسرحا واحدا فى الأطراف كحلوان وشبرا الخيمة، والهرم،

وامبابة ، ومصر الجديدة، ومدينة نصر وعين شمس، كما تجاهلت خططنا السفر إلى أقاليم مصر، حتى أن عرضا محترما مثل «ناس النهر» من إنتاج الطليعة قد ووفق على سفره الى أسوان بصعوبة وبعد ضغط بذله الأستاذ مختار جمعه نائب النوبة بينما المفروض أن مهام القاهرة أن تقدم النماذج الفنية الى جمهور الأقاليم المتعطش الى فن مسرحي محترم.

كما لم تعد هناك فرق مسرحية، فكلها لافتات بلا مضمون، ولايوجد عرض واحد يكون ممثلوه من نفس الفرقة، فهناك تعاقدات وانتدابات وانتقالات، بينما لم يدرك المهيمنون على المسائل أن استقرار الفرق وتعايشها الفني معا كان أحد عناصر نجاح فرقة المسرح القومي في الستينيات فأنت حين تتعامل معها فإنك تتفاعل مع كيان حي متجانس له فكر وروح وطابع «توفيق الدقن وشفيق نور الدين وسميحة أيوب وسناء جميل وصلاح سرحان وعبدالسلام محمد.. الخ» .

الإبداع والنقد

طفت على التسعينات منظومة اليأس، ومقولة «محدش واخد منها حاجة»، وهنا لايقصدون «الدنيا» بل يعنون المكاسب الجائرة التي دستها الطبقة الجديدة الطفيلية في سراويلها من وراء الشعب . هي المقولة نفسها التي يمليها البنك الدولي وصندوق النقد على وكلائه وهذا نداء موجه للشعوب ألا تفكر – ولو بالفن – في تغيير الأوضاع، لذا كانت أغلب عروض التسعينات متشائمة بمسحة من نبل زائف ونبرة تراجيدية زائفة أو روح كوميدية ملفقة تجعل كل القيم السلبية والايجابية متساوية، وبعد انكشاف هذه الموجة ظهرت حالة جديدة تسمم برامجنا المسرحية: كثير من الكلام الفارغ حول الحداثة ومابعد الحداثة والتجريب وعدم العزلة عن الآخر «أرجو ألا يكون هذا الآخر هو إسرائيل» زائد كمية مهولة من العروض الصغيرة التافهة المتناثرة كالطفح الجلدي تتخذ أسماء «مثقفة للغاية» مثل تجربة ومداخلة وتنويعة.. إلخ من العناوين المتحذلقة المضللة، هذا التشرذم ضد فكرة النسق الثقافي ومفهوم الرسالة والمضمون والهدف على اعتبار أن هذه أفكار «شمولية» بائدة، وليست أفكارا كلية تشكل توجها كليا للأمة التي تسعى للنهضة، وفيما عدا عروض نادرة أفلتتها المصادفة البحتة أهدرت الأموال والطاقات والهموم العامة فيما لاطائل- للأمة وللفن – من ورائه . إننا في حاجة الى عروض كبيرة بكل المعاني تخاطب أعرض الجماهير وتثير أهم القضايا ولاتطرح إلا الجوهر .

ولقد لعبت الصحافة الصفراء دورا في «تغطية» كل هذا الهراء الذي مضى بنا من اليأس إلى التشرذم، وهذا الدور المشئوم والمشبوه ليس وليد الحقبة الأخيرة، فحسب، فإنه وعلى سبيل المثال لم تنجح مقالات المديح في مسرح رشاد رشدي وفي شخصه أن تعطى الحياة لمسرحه بعد موته .

ولعلنا نذكر حكاية «الفتى مهران» للشرقاوي وكرم مطاوع التي هاج ضدها ٩٩٪ ممن كانوا يمتهنون النقد بسبب أن الفتى قال للسلطان «لا تذهب بالجيش خارج مصر» قاموا بتحريض السلطات ١٩٦٦ «حين كان السجن الحربي فاتحا أشداقه» ضد الشاعر والمخرج، لولا أن السلطات أوعزت لموسى صبري أن يدافع





جلال الشرقاوى



سيد درويش



بديع خيرى



أحمد عبد الحليم

عنهما كفرصة لاظهار «سماحة» النظام، ورغم هذا فقد أعمل الرقيب «الحداد» مقصة في النص وقلمه الأسود في الإخراج ولم يعش العرض أكثر من ١٧ يوما أصبحت من السجل المشرف للمسرح القومي، فأين ذهب هؤلاء النقاد ؟ وأين ذهب الماء في وجوههم .

وأذكر أيضا أن اليوم الأول لعرض «ليلي والمجنون» صلاح عبدالصبور، والزرقاني قد عرضت على مسرح الطليعة فى الخميس السابق لـ ١٥ مايو فنشرت إحدى الصحف القومية مقالا لواحد ممن امتهنوا النقد يهاجم فيه المسرحية و كاتبها حتى كاد أن يدخله السجن، ولكنه - وياللعجب - كتب فى الخميس التالى يتحدث عن نبوءة عبدالصبور وفكره الحر !!

واليوم يقوم بعض الصحفيين بانتحال دور النقاد ويحتلون الصفحات ودور العرض ويطاردون الكتاب والفنانين الحقيقيين فالأمر بالنسبة لهم ليس فنا ولارسالة وإنما هو «لقمة عيش»

الجمهور الحقيقي غائب

كل هذا لأن أصحاب المصلحة الحقيقية دافعى الضرائب مقاطعون لمسرحنا التعس، ولهذا السبب نستغيث بهم، ونرجوهم أن يحضروا معنا وأن يطرحوا أحاسيسهم وأفكارهم، وأن تعلو أصواتهم وأن يزاحموا لا أن يقاطعوا و أن يخرجوا من سلبيتهم المعتزة بنفسها .

إنني أدهش كيف يقبل فنان مسرحى على نفسه أن يخاطب مقاعد خالية، أو يكتفى بمخاطبة جمهور غوغائى طفيلى لايزور المسرح إلا وبيده دعوة مجانية .

بينما هناك قوى اجتماعية هى التى تصنع الحياة فى مصر وهى القادرة على تغييرها إلى الديمقراطية والتنمية والنهضة والاستقلال ، وهم المهندسون والعلماء والبحاثة، والمحامون والقضاة والأطباء، ورجال الإدارة وأساتذة الجامعات والضباط وعمال الصناعة، والفلاحون المستديمون والقادة النقابيون والقاعدة العريضة من المثقفين وطلاب الجامعات، كم من هؤلاء يؤمون المسرح ؟ هم لب المجتمع وقوام الجمهور المأمول للمسرح المصري، فهل نكتب لهم وعنهم ومن أجلهم وهل نخرج ونمثل ونصمم ونعزف ماينعش أرواحهم ويذكى عقولهم وقلوبهم ؟، كيف نمضى فى خضم هذا القرن الجديد المليء بالصراعات القاسية الحاسمة والاختيارات المصيرية ؟. ■

قـــراءة نقـــديـــة لمســلسلات التليـفـزيون

انتقال الصراع من الشاشة الصغيرة إلى الحياة اليومية للمصريين ؟!

بقلم
د. عزة عزت

كلنا يعرف أن الدراما - أية دراما - تقوم علي فكرة الصراع، سواء كان ذلك الصراع يدور حول الحصول على شئ ذى قيمة حقيقية مطلقة، أو يدور حول الحصول على المال والجاه والسلطة .. وهى أشياء كان موضعها فى سلم القيم المصرية يأتى متأخرا .. لابل متأخرا جداً، والحق يقال إن المرء ليعجز عن تحديد أيهما كان أسبق؟ انقلاب السلم القيمى فى المجتمع المصرى وعلو قيمة المال والنفوذ ؟؟ أم العكس هو الصحيح، إذ بدأت الدراما تعلى من قيمة المال والسلطة والسطوة فوق القيم المطلقة على الشاشة ؟؟ ومنها انتقلت العدوى إلى الشارع المصري، أو الشخصية المصرية ؟!!



ولا فـــرق هنا بين دراما تليفزيونية ودراما سينمائية، فكلتاهما يطالعها المشاهد المصرى بكل ما تحويه من صراع إلى حد الاقتتال العنيف على الشاشة الصغيرة (شاشة التليفزيون)، التى أثبتت الأبحاث العلمية فى مجال الإعلام أن العامة من الناس تتعرض لما يقدم على الشاشة الصغيرة من دراما لمدة ست ساعات يوميا على الأقل، ويتعرضون وهم فى حالة استرخاء يسّمح بالتلقى السلبى، دون أدنى إعمال للذهن فيما يقدم، بما لايسمح بالتقويم والمناقشة بالرفض أو القبول .. المهم هو أن جرعة مكثفة من الدراما - الممثلة فى الأفلام والمسلسلات - يتلقاها المشاهد المصرى يوميا، يعد الصراع الحاد والعنيف هو البطل الأول فيها ويتكثيف شديد .

يحدث ذلك فى ظل أن الصراع لم يعد مقصوراً على مجرد شرير واحد villain كان يقصد به نذل أو وغد أو حد كرمز للشر المحرك للصراع، أو الذى يحرك الأحداث لتتصاعد نحو الصراع، وكان فى الأغلب الأعم شخصية كريهة ، أو كان كاتب الدراما والمخرج والممثلون المؤدون لها يحاولون أن يحددوا ملامح سلوكها ومظهرها وكل أبعادها كشخصية درامية بحيث يكرهها المشاهد من الوهلة الأولى،

وكانت تصرفات هذه الشخصية تنحصر غالباً فى الوقيعة بين المحبين، أو الدس بين الزملاء والصعود على أكتافهم ، أو التحايل بأساليب ماكرة أو داهية بمفهوم ساذج أحياناً، أو حتى محنك .. لكنه لايقاس بحال بما نراه الآن من دهاء يحار فيه إبليس نفسه .. ولا يقاس بما نراه اليوم على الشاشة من ألاعيب مافيا المال والأعمال، فى المسلسلات المصرية، قبل أن نتهم المسلسلات الأجنبية .

فالوغد أو النذل على الشاشة زمان كان يعمل منفردا، أو على الأقل فى إطار عصابة من الأشرار الذين لا يقاسون بأشرار هذا الزمان .. بل هم ملائكة أطهار قياسا بهم .. سواء فى الدراما التمثيلية أو فى دراما الحياة، وهنا أيضا يحار المرء فى تحديد أيهما كان سابقا للآخر ؟؟ وأيهما استقى مادته من الآخر ؟؟ هل الدراما التمثيلية هى التى تعكس ما يدور فى الحياة مضافاً إليه زخم من خيال المؤلفين وكتاب السيناريو ؟! أم أن الدراما هى التى قدمت للجمهور على الشاشة النماذج التى يتمثلها، ويتوحد معها، ويقلدها فى الحياة ؟!!

تصوير الواقع ورسالة الفن

أيا ما كان الأمر البيضة أولا أم الدجاجة ؟؟ المهم أنه قد وقع المحظور، واختلطت الأوراق ، ولانستطيع تفنيطها، لتحديد من الذى حاكى الآخر ؟ وأين الأصل وأين الصورة ؟؟ فربما أن الخطين قد سارا متوازيين ، فكتاب الدراما غالباً ما يستقون مادتهم بكل - أو بعض - عناصرها من الحياة، وينتقون شخصياتهم ممن يلتقون بهم سواء فى واقعهم المعاش فى البيت والشارع والعمل، أو حتى من صفحات الحوادث فى الصحف، ولا لوم عليهم فى ذلك فالفن مرآة للمجتمع، لابد أن يعكس ما فى هذا المجتمع .. وإلا ظل معزولا عنه وعن الجمهور الذى يشاهده .. لكن الفن عليه أيضا مهمة تجميل هذا الواقع، والسمو به، والارتقاء بالمجتمع على هذا الواقع الذميم، وتقديم النماذج المتنوعة والمختلفة، والقطاعات والطبقات كلها دون تركيز واضح على الغث والملوث، والمنحرف، والمدمن، والمجرم، والقاتل ، واللص ، والمرتشى، والمرأة الغانية الخائنة، والراقصة، والضالعة فى شتى صنوف الانحراف، والتى أصبحت تنافس الرجال فى كم ما تمارس من عنف وهيمنة فى مجالات المال والأعمال، أو عالم «البزنيس»، كما يسمونه .

كل هذا وما قلته حتى الآن يدور فى إطار العموميات دون تخصيص، أو ذكر العمل بعينه من الأعمال الدرامية، التى نستطيع أن نلقى باللوم عليها تحديدا، لنقول إنها تعد سبباً مباشراً، أو حتى تعد عنصراً مشاركا فيما حدث فى المجتمع المصرى من تغيير ، وما أصاب الشخصية

المصرية من تحول، لأن ما حدث كان نتاجاً لعوامل كثيرة اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية، وإعلامية . كانت الدراما عنصراً فرعيا فيها.. لكنه مؤثر بشكل فاعل، خاصة وأنه قد هب على الشخصية المصرية فى موجات متلاحقة من العنف والشر بكل ألوانه .

الاختراق الإعلامى

مما لاشك فيه أن الانفتاح على العالم اقتصاديا كان عنصراً أساسيا وفاعلا فيما حدث للمصريين .. لكن الخضوع للغزو الثقافى والاختراق الإعلامى، والرضوخ للهجمة الفضائية الشرسة ، التى يتعرض لها الشعب المصرى والعربى .. بل وكل شعوب العالم النامى ، والدول ذات الحضارات العريقة، أو الهويات المتميزة، هذه الهجمة بكل ما يتوافر لها من عوامل جذب، لها دورها الفاعل فيما يصيب الشخصية المصرية من تحول، وقد كانت البداية أو القيادة للسينما الهوليودية بكل ما لها من عناصر إبهار ، لفرض النموذج الأمريكى، وطراز الحياة الأمريكية بكل ما فيها من تناقض مع واقعنا الشرقى العربى الإسلامى، وما تلا ذلك من مسلسلات أجنبية شدت إليها جمهورا كبيراً من المشاهدين المصريين، بكل ما تحمله من سخف درامى، وصراع على أشياء دنيا وقيم وهمية لا تستحق.

ويكفى أن نذكر تدليلاً على ذلك مسلسلين فقط ممتدى الحلقات (مائة حلقة أو يزيد)، بما يعنيه ذلك من إلحاح إعلامى له تأثيره التراكمى على الفكر والسلوك، وهما مسلسل «فالكون كريست» و«الجرئ والجميلات»، اللذان قدمهما التليفزيون المصرى أو رد عليهما بسلسلة من مسلسلات «الهلس العائلى» و«الخلط المزوق »، فى مسلسلات تعتمد على الإبهار بالأزياء والممثلات الجميلات ، وديكورات القصور و«السفرجى أبو حزام » «من نوعية «هوانم جاردن سيتى» و«كلمات » وما سبقهما لنفس المؤلفة من مسلسلات الجوارى المنفلتات من القيود ، والحريم والحرملك .. وإن كانت هذه المسلسلات تمزج بعضاً من سلوكيات مرفوضة بتصرفات مهذبة مقبولة ، تمثل تقاليد طبقة منقرضة.. وعلى أى حال فإن هذه النوعية ليست مربط الفرس، أو العامل المحرك للتغير فى الشخصية المصرية .. لكنها وسيلة تغييب كان لها أثرها على الشخصية المصرية الراضية القانعة بالقليل، وسحبها إلى حلم الحياة المترفة كخطوة – لم يحسب مقدمو هذه النوعية من الدراما



حسابا لما يليها من خطوات - من حيث إمكانية تحقيق مثل هذه الحياة على أرض الواقع، بطرق مشروعة أو غير مشروعة، كما لم يحسبوا حساب إلهاب خيال المشاهدين من البسطاء والعامة برغبات هى بالنسبة لهم مستحيلة أو شبه مستحيلة، أو إثارة أحقادهم على هذه الفئة من البشر ، الذين يعيشون فى بلهنية.

هذا وقد أحدثت التأثير نفسه أيضا مسلسلات أخرى صورت حياة تجار المخدرات ومافيا الرشاوى والعمولات ورجال الأعمال، التى كان لها تأثير أبلغ وأعمق فى النفوس المتعطشة لحياة النعيم المقيم، الذى تراه على الشاشة الصغيرة ولا تستطيع تحقيق حلمها فى الثراء السريع .. بعد أن استثارت هذه النوعية من الدراما هذا الحلم بتوحش ، وأفقدت المصرى أحد أهم سماته الأصيلة وهى : الرضا والقناعة والصبر ، ومن ثمة التفريق الواضح بين الحلال والحرام من منطلق أن من أبرز سماته التدين .. التى تنبثق عنها سمات أخرى بارزة فى شخصية المصريين، ضربت أيضا فى مقتل بفعل عوامل اقتصادية، بعد اتباع سياسة الانفتاح، وبفعل نوعية أخرى من المسلسلات والأفلام التى أعلت من قيمة القوة فأفقدت المصرى الطيب المسالم المتسامح ملمحا مهما ملامحه .

سيادة قيم الهيمنة والقوة

مما سلف يمكننا القول بأن حلم الثراء ووهم الرفاهية ليسا الاتجاهين الوحيدين اللذين صدرتهما لنا أمريكا .. لكن هناك سلسلة من التوجهات التى صدرتها - ومازالت تصدرها - لنا مرة فى شكل موجة من أفلام العنف أو الـ Action ، التى بدأت بأفلام رعاة البقر Cowboys أوال western ، التى يتساقط فيها البشر كالذباب، بوابل من الرصاص دون ذنب جنوه .. إلا الرغبة فى حصول القتلة على الذهب ، أو الاستيلاء على الأرض، وقطعان الأبقار ،والخيول الوحشية وإرهاب الآمنين بكل ما تضمنته هذه الموجة من الأفلام من إساءة وتشويه لصورة شعب آمن هم الهنود الحمر - رغم أنهم سكان أمريكا الأصليون - وبكل ما تضمنه ذلك من ترويج لفكرة أو وهم الهيمنة بالقوة، وإعلائها كقيمة على قيم الحق والعدل، ثم تصفية رعاة البقر لبعضهم البعض بخسة ونذالة منقطعة النظير، بكل ما يعنيه ذلك من إعلاء وانتصار للشر على الخير فى الصراع، أو على الأقل هيمنة الشر وانتصاره على طول الخط وانتصار الخير فى الدقائق الأخيرة فقط، وقد حاولت السينما المصرية تقليد هذه الموجة أيضا ، دون مبرر مفهوم أو مستمد من واقع الحياة المصرية إلا أن يتربح أو يسترزق الطوخى



أشهر مصممي المعارك في السينما المصرية .

هذا ولابد من الإشارة هنا إلى أن السينما أو الدراما التليفزيونية الأمريكية - والحق يقال - كانتا صادقتين مع ما تريد أمريكا تحقيقه من توجهات لشعبها ولجمهورها في كل أنحاء العالم ، إذ كانتا تعكسان بحق ما يدور على أرضها من تحقيق للسيادة والهيمنة بالقوة، فأمريكا قامت كدولة بهذا الأسلوب الذي قدمته الشاشة، وثبت لدى المشاهدين هذا الأسلوب في تحقيق الأهداف بناء على أن الغلبة للأقوى.. ولكن ما علاقتنا نحن في مصر الأمة الراسخة عبر القرون بهذا الدرس المكرر في كل الأعمال الأمريكية !!؟

ولم تكتف أمريكا بهذه الموجة الرامية لتكريس قيمة القوة والعنف ، بل أتبعتها بموجة أفلام جيمس بوند ورامبو ومازينجر ، التي حاولت السينما المصرية تقليدها بصورة ركيكة ومهزوزة، في أفلام لها نفس الطابع العنيف، بدأت بأفلام حركة وعراك وقتال غير مبرر ، ولحقتها موجة من أفلام المطاردات بين عصابات المخدرات والتهريب ، التي سادت الإنتاج السينمائي المصري لفترة طويلة ، وتواكبت معها قلة من أفلام الضرب، التي تولى بطولتها بطلا كمال الأجسام والكونغ فو في مصر: الشحات مبروك ، ويوسف منصور، تقليداً لطيبي الذكر فندام وسلفستر استالوني وأرنولد شوزينجر واستيفن سيجال، الذين يحارب الواحد منهم أمة بمفرده، والنتيجة أن يعجب بهذه الأفلام ويقبل عليها الشباب المصري - دون وعي بما تطرح من قيم إعلاء للقوة الجسدية ، وبالتالي القوة الغاشمة بكل صورها - ويغرمون بنجومها، ويتمثلون الشخصيات السينمائية بكل ما تطرحه من قيم سلبية، ولا غرابة بعد هذا الزخم من الأفلام والمسلسلات سواء الأصلي منها أو التقليد - أن يتخلى المصريون عن كثير من سماتهم الشخصية .. سواء كان ذلك على مستوى المظهر والسلوك، أو على مستوى القناعات، أو تبني أفكار تعد دخيلة على الشخصية المصرية الودودة الطيبة الملتزمة بقيم مطلقة تعلى من قيمة الخير والحق والعدل، وتنحي أو تضع القوة والبطش والسطوة في آخر أولوياتها .

كل ذلك في إطار تنحية قيمة السلطة الأعلى التى يحترمها المصرى الأصيل والتى تعد من أبرز سماته الممثلة فى احترامه للأكبر . وللسلطة فى كل أشكالها سواء كانت سلطة أبوية أو السلطة الممثلة فى العمدة أو الشرطة أو الحاكم، فقد فاجأتنا الدراما المصرية - أفلام أو مسلسلات - بكم من الأعمال التى تحض على استخلاص الحق بالذراع (سلسلة أفلام عادل إمام) ، بعد أن يسيطر على العمل ككل سطوة القوة الغاشمة، وعجز الشرطة أو القضاء عن رد المظالم ، وإعادة الحق لأصحابه سواء كان ذلك من خلال تواطؤ الشرطة مع العمد ورجال المال والأعمال، وترابط مصالح كل هذه الفئات الممثلة للنفوذ والسطوة، أو لتورط بعض رجال الشرطة مع ذوى النفوذ والسطوة ، أو نتيجة تباطؤ الشرطة فى الوصول إلى الجاني، وظهورها فى آخر لحظات العمل الدرامي تهرول ببلاهة تجسد عليها «بعد خراب ملطا » أو لخضوع أفرادها لضغوط أصبحت محفوظة، من كثرة تكرارها فى معظم الأعمال الدرامية المصرية دون تحديد أو تخصيص لعمل بعينه .

المهم أنه نتيجة لهذه النوعية من الأعمال ترسخ فى ذهن جيل كامل من الشباب المصرى أن تخليص الحق يتم باستخدام كل فرد لإمكاناته ونفوذه ومصادر قوته ليحصل على حقه ، مما أشاع لوناً من الفوضى والبلطجة فى الشارع المصرى ، لابد من الاعتراف بأنه كان نتاجاً لكثرة ما تعرض له الجمهور من دراما محرضة على الانتقام بمنطق «الكونت دى مونت كريستو» أو «أمير الانتقام» والعودة بنا إلى عصور ما قبل النظم الشرطية والقضائية، متجاهلين أن المناخ العام مختلف وأن طبيعة الجمهور المصرى مختلفة، وأصبح الشارع المصرى يتميز بالعنف الذى لم يكن يوماً ما سمة مصرية بحال من الأحوال .

وللجنس قصة أخرى

أما عن فوضى العرى والجنس وفجاجته فحدّث ولاحرج، عما تقدمه الدراما الغربية بوجه عام، والأمريكية على وجه الخصوص، مما تنتجه السينما ويعرض التليفزيون المصرى بعضه ، ويعرض بعضاً من نماذجه المقلدة فى السينما المصرية بكل ما تحويه من تركيز على النماذج الشاذة والغريبة على مجتمعنا ، الذى يفترض أنه مجتمع متدين محافظ يحترم ما اتفق عليه العرف وأقرته التقاليد، ويتمسك بقيم تحض على الحياء والالتزام الأخلاقى، وإعلاء قيم الشرف بمفهومها الدقيق .. ومع ذلك تفوقت الأفلام المصرية على الغربية فى دعم

مفاهيم مغلوطة في هذا الصدد تمجد الراقصة الشريفة والمجرم أو القاتل المحترف والهاربين من العدالة بوصف أن لهم وجها آخر لا نعرفه، يتسم بسمات من النبل والشرف !! وغني عن الذكر سلسلة أفلام المخرج حسن الإمام ، وما قدمته مسلسلات التليفزيون أيضا من تمجيد للنجوم - ولا اعتراض منا على ذلك -إلا من حيث وجود تجاهل تام لرموز وقمم مصرية أخرى فى شتى مجالات الحياة العامة والعلم لم تحظ بهذا التقدير من الدراما التليفزيونية والسينمائية، وكأن مصر لم تنجب غير المطربات والراقصات وأهل الفن !!! أما بالنسبة لبرامج التليفزيون فحدث أيضا ولا حرج عن تمجيدها للفن والرياضة وأهلهما .. دون باقى الأعلام والقمم .

هذا على الرغم من أن السينما المصرية فى فترة المد الثورى ، التى استغرقت عقدى الخمسينيات والستينيات اللذين كان الإنتاج السينمائى فيهما تشرف عليه مؤسسة عامة لها توجهاتها وأهدافها الواضحة المحددة، قد أنتجت كما لا بأس به من الأفلام المتميزة فنيا وقيمياً، من حيث حضها على مبادئ ثورة يوليو (الاتحاد والنظام والعمل) ، أو الحث على التعاون بين الفئات المغلوبة على



أمرها، والتى قهرت طوال سنين ما قبل الثورة من العمال والصيادين والفلاحين ، فى مواجهة القوى المستغلة لجهدهم، وقد نجحت هذه الأفلام ، وأيضا مسلسلات التليفزيون فى بداياته فى بث روح جديدة فى الشخصية المصرية ، وفى السواد الأعظم من الشعب المصرى .

أما فيما تلى ذلك من عقود فقد تخبط الإنتاج السينمائى والتليفزيونى بين توجهات شتى ، لايجمعها رابط أو ضابط فمنها ما يمجد نضال الطبقات الكادحة، ومنها ما يمجد نضال الباشوات وحدبهم وحنوهم على الفقراء ، فى مقابل حقد وتطلع هؤلاء الفقراء ، وتدنى أخلاقياتهم كنتيجة مباشرة لأصولهم الوضيعة ، على حد تصور بعض كتاب الدراما التليفزيونية ، وفى مقدمة هؤلاء جميعا مسلسلات ثروت أباظة ، الممجدة لحقبة ما قبل الثورة ، والمنددة بكل ما تم بعدها من إنجازات وما اتخذ من قرارات ، من خلال دراما

متعالية على الأغلبية الساحقة من الشعب المصرى ، الممثلة الحقيقية لشخصيته الأصيلة، فى مقابل الطبقات الممثلة لبقايا الأرستقراطية التركية .

وهنا يجب ألا نغفل ما أحدثته هذه النوعية عن المسلسلات من بلبلة لدى الشباب - ممن لم يعيشوا فترة المد الثورى أو بدايات الثورة - إذ هدمت هذه المسلسلات والأفلام رموزها الوطنية، وصورتها على أنها أحلك أيام مصر، وأن الشعب المصرى إبانها كان يخوض فى برك الدم، وأن السجون والتجاوزات القانونية والتعدى على الحريات كانت السلوك اليومى للسلطة والمعاناة اليومية للشعب، وهنا أيضا لابد من التسليم بأن مثل هذه البلبلة والتخبط - سواء اتفقنا أو اختلفنا معه - قد أحدثت شرخا فى الشخصية المصرية، لسبب بسيط هو أن هذه الأعمال هدمت ما سبق ولم تقدم القدوة البديلة ، والرمز الذى يجب أن يحتذى ، فافتقد الشباب القدوة، وافتقد معها الولاء والانتماء لشخص أو لشئ أو حتى لوطن أو أرض ، ولعل تخلى المصرى عن اعتزازه بذاته كان نتيجة مباشرة لذلك .. اللهم إلا بارقات من آمال أعادت للشخصية المصرية توازنها واعتبارها، واعتزازها بذاتها من خلال بعض المسلسلات والأفلام السينمائية والتليفزيونية ، من مثل: «رأفت الهجان» و«دموع فى عيون وقحة» و«الثعلب» و«الحفار» رغم ركاكة تنفيذ الأخير - بالإضافة إلى عدد من المسلسلات المأخوذة عن ملفات المخابرات العامة، فى حين فشلت السينما والتليفزيون فى إنتاج عمل يرقى إلى مستوى حدث مثل نصر أكتوبر، أو أى من المعارك العسكرية المصرية فيما عدا «الطريق إلى إيلات»، وكأن البطولة المصرية قد انحسرت فقط فى مجال الجاسوسية والمخابرات.

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن التليفزيون قد تفوق على السينما فى مجال مهم هو مجال الدراما التاريخية، التى تمجد حقباً متعددة من تاريخ مصر الفرعونية ، والإسلامية والمتصلة بتاريخ مصر الحديث، وبعض رموز هذه الحقب، ناهيك عن الاعتزاز بكل الرموز العربية والإسلامية ، التى قدم فيها التليفزيون - ومازال - الكثير مما يحمد له من أعمال، كان لها أثرها في نفوس المشاهدين، مما يعتبر تعديلاً لكفة الميزان فى صالحه، وفى صالح الدور الذى يفترض أن يقوم به فى مجتمع نام يحتاج إلى كل ما يصقل شخصية أفراده ، ويدعم تمسكهم بقيمهم الأصيلة ويؤكد اعتزازهم بهويتهم.

وشعبية مميزة للتليفزيون

من كل ماسبق يمكننا القول بأن

السينما كان لها تأثير سلبي أكثر منه إيجابي، فيما يتعلق بهدم رموز ، وطرح قضايا لا تمثل الواقع المصري، بشكل أساء إلى الشخصية المصرية أكثر مما مجدها ، ولعل ذلك ما حدا بعدد من الباحثين إلى دراسة صورة المرأة في السينما المصرية ، وصورة رجل الشرطة فيها، وصورة رجل الدين، نظراً للشعور العام بأن السينما أساءت إلى هذه النماذج البشرية المشرفة في المجتمع المصري ، بشكل يخجل منه المصريون العاملون في الخارج، الذين يجابهون بأسئلة تستفسر عن حقيقة المرأة المصرية ، وهل هي حقا راقصة وخائنة و..و..و.. ؟؟!!.. لكن التليفزيون هو الوسيلة الإعلامية الأكثر تأثيراً الآن لأسباب عدة، أبرزها دخوله كل بيت ليس في مصر وحسب .. ولكن كل بيت عربي في كل بقاع الدنيا، بسبب السماوات المفتوحة، وانتشار القنوات الفضائية، الأمر الذي يحمل التليفزيون مسئولية أكبر في أن يكون مرآة للمجتمع المصري يعكس ما يدور فيه من أحداث .. دون مغالاة في تصيد الفج والشاذ من الأحداث والشخصيات .. ودون الخوض في المستنقعات فقط دون القمم .. كي يستطيع تقديم النماذج المشرفة، وتغطية شتى فئات المجتمع السلبي منها والإيجابي، وتحسين صورة هذه الفئات،



والعلو على الواقع للنهوض به .. دون أن تستغرقه الدراما المبنية على الصراع الحاد بين الأخوة وأبناء العمومة ، وصراع الأجيال بشكل دام بأسلوب يتعلم منه النشء قيما سلبية بأكثر من تعلمه قيماً إيجابية أصيلة، لذا فإن ما نراه اليوم من صراع أسري حاد لاشك أنه مردود مستقى مما يشاهده الناس على الشاشة.

***

فلتستق الدراما من المجتمع أفضل ما فيه من نماذج .. أو على الأقل توازن في الاختيار بين الغث والثمين، حتى لا تكرس السلبي وتطبع المجتمع كله بسماته، فالفن وظيفته السمو بالمجتمع وليس الهبوط به، وليس أدل على ذلك من التأثير التطهيري الذي أحدث عرض المسلسل الياباني «أوشين»، الذي لم يكرر التليفزيون المصري عرض مسلسل على غراره دون مبرر مفهوم!! وأيضا مسلسلات مثل : رأفت الهجان »و«أم كلثوم»و أفلام مثل : «الطريق إلى إيلات » ، و« ناصر ٥٦ ».

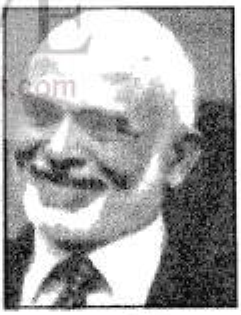
■

ذكريات المساء

بقلم
د. عبد العظيم انيس

ليس هذا عنوانا رومانسيا، وإنما أشير هنا إلى ذكرياتى فى صحيفة «المساء» المصرية وكنت قد أشرت فى مقال سابق بالهلال أننى عندما عدت من بريطانيا أثر العدوان الثلاثى على مصر فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ بعد أن استقلت من عملى فى لندن، اتصل بى الاستاذ خالد محيى الدين عارضا علىَ أن أعمل معه فى صحيفة المساء، فقبلت لأنه لم يكن أمامى من عمل آخر.

ولابد أنه فى تخمينى قد استأذن عبد الناصر قبل أن يتصل بى وأن عبد الناصر وافق على ذلك. واخترت أن أهتم بالشئون العربية فى صحيفة المساء.



الملك حسين



خالد محيى الدين



على صبرى

كانت تلك الفترة من تاريخ مصر مشرقة ومليئة بالآمال. لقد هزم العدوان الثلاثي واضطرت القوات الاسرائيلية إلى الإنسحاب من سيناء ومن قطاع غزة بعد أن دمرت خط السكه الحديد الذى يربط مصر بغزة، كما انسحبت القوات البريطانية والفرنسية من منطقة القنال. ولا شك أن الولايات المتحدة قد ضغطت على حلفاء العدوان الثلاثى للانسحاب بالإضافة إلى تهديد خروشوف بالتدخل العسكري إن لم يتم الانسحاب .

وكان موقف الولايات المتحدة هذا - وايزنهاور بالذات - يعود إلى أن بريطانيا وفرنسا أخفتا عن واشنطن تفاصيل مشروع العدوان الذى تم التوقيع عليه سرا فى معاهدة «سيفر».

ولم يغفر أيزنهاور لإيدن هذا العمل وكان التهديد بزعزعة الجنيه الاسترلينى فى الأسواق الدولية كافيا لا للانسحاب فحسب بل لإخراج إيدن من زعامة حزب المحافظين بعد ذلك، وبالطبع كانت أمام أمريكا فرصة ذهبية لكي تحل مكان القوى الاستعمارية الهرمة (بريطانيا وفرنسا) فى الشرق الأوسط، وهكذا بدأ تقديم «مشروع ايزنهاور» لملء الفراغ فى المنطقة كما يزعمون، بعد الانسحاب مباشرة.

وبالطبع كان عبد الناصر يدرك أهداف مشروع ايزنهاور ، لكنه فى ظنى كان فى حرج للدور الذى لعبته أمريكا فى تحقيق الانسحاب ، ولذلك آثر أن تبدأ الحملة على مشروع إيزنهاور فى صورة خطابات من الرأى العام إلى



لطفى واكد



عبد الرحمن الخميسى



سليمان النابلسى

جريدة الشعب (وكان الاستاذ لطفى واكد رئيسا لتحريرها آنذاك) تدين المشروع . وبالطبع كانت جريدة المساء ضد المشروع وكتبت فيها مقالات عديدة تدينه وتفضح مراميه . لكن هذا لم يكن كافيا إذ أراد هو أن تعرف واشنطن أن الشعب كله ضد المشروع.

وهكذا اتصل بى الاستاذ لطفى واكد ذات صباح وطلب أن أزوره فى مكتبه بصحيفة الشعب . فلما ذهبت وجدت على صبرى حاضرا الجلسة ولو أنه انصرف قبل انتهاء اللقاء . وقال لى لطفى واكد: إنه يريد من قوى اليسار أن تغرق جريدة الشعب بخطابات ضد مشروع إيزنهاور وأنه يطلب منى المعونة فى هذا . وبالفعل اتصلت بالعديد من قوى اليسار راجيا منهم إرسال خطابات إلى جريدة الشعب بإدانة مشروع إيزنهاور . ونشرت الجريدة بالفعل العديد من الخطابات الأمر الذى لعب دورا فى قتل المشروع فى المهد .

انتصارات الحركة الوطنية العربية

وبالطبع لم تسكت واشنطن ، خصوصا بعد أن تعددت انتصارات الحركة الوطنية العربية ، فطرد الجنرال جلوب من الاردن وحل محله على أبو نوار كقائد للجيش وتحركت الأحزاب الوطنية فى الأردن لتحقيق حكم وطنى برئاسة سليمان النابلسى حيث كان الكثير من زعماء الاحزاب الوطنية وزراء فى تلك الحكومة ومنهم على سبيل المثال شفيق أرشيدات للتعليم وعبد الحليم النمر للداخلية .... الخ .

على أن هذا التحول فى الأردن لم يظل طويلا إذ جرى انقلاب وزارى آخر وإن لم يكن انقلابا كاملا ، إذ ظل سليمان النابلسى وزيرا للخارجية بعد أن كان رئيسا للوزراء وظل عدد من وزرائه فى مواقعهم ، بينما تولى الرئاسة أحد الموالين للملك حسين .

كانت هذه بداية التهديد التركى بغزو سوريا من الشمال ، وكان التهديد جديا ولعبت الأحزاب المعادية للقومية العربية دورا فى اهتزاز الأوضاع فى سوريا باغتيال العقيد عدنان المالكى الذى كان يشغل منصبا حساسا فى الجيش السورى فيما أتذكر ، كل هذا كان فى سبتمبر سنة ١٩٥٧ .

واختار عبد الناصر أن يرسل وحدات من الجيش المصرى إلى اللاذقية واستقبلت تلك القوات استقبالا يفوق

الوصف فى سوريا . وكانت هذه هى الظروف التى سافرت فيها إلى سوريا موفدا من صحيفة المساء .

ومع أهمية البحث عن الوضع فى سوريا بعد وصول القوات المصرية ، إلاّ أننى أدركت أهمية زيارة عمان أيضا حيث كان الصراع على أشده بين الأحزاب الوطنية فى الأردن ورجال الملك حسين . وهكذا سافرت إلى عمان لقضاء ثلاثة أيام فقط ونزلنا فى فندق نادى عمان وكان يقيم به عدد من الوزراء الأردنيين الذين يعيشون أصلا خارج العاصمة ، وهكذا توثقت صلتى بعدد منهم من بينهم شفيق أرشيدات وعبد الحليم النابلسى. كما استعنت بالصديق حسن النابلسى لمقابلة سليمان النابلسى وفهم الأوضاع منه فوجدت منه عتابا على عبد الناصر لأنه يشتد فى رأيه فى معاملة الملك حسين . لكن الجو كان مكهربا خصوصا أن الأحزاب الوطنية قد قررت عقد مؤتمرها فى نابلس وكان الملك حسين مصمما على إفشال المؤتمر ومنع المقيمين من أعضائه فى عمان من السفر إلى نابلس ، إذ أنه حاصر مخارج عمان بقوات الشرطة .

وفى هذه الظروف حدث أغرب ما يمكن أن يحدث لصحفى خالى الذهن عن العمليات السرية . فقد اتصل بى الملحق العسكرى المصرى فى الفندق وطلب منى أن أمرّ عليه فى مكتبه فلما ذهبت إذ به يطلب منى أن أسافر إلى نابلس فورا ومعى اثنان من قيادة الحركة الوطنية فى سيارة من سيارات السفارة . ولما سألته كيف ستسمح الشرطة الاردنية بخروجنا من عمان أجاب ببساطة : لا تحمل هم ذلك ، وطلبت منه أن أعود إلى الفندق لاحضار بعض الملابس معى إلى نابلس ، ولكنه رفض ثم سألنى فجأة : هل تجيد إطلاق الرصاص ؟ فضحكت وقلت له إننى لم أمسك مسدسا طوال حياتى . فقال : إذن يذهب معك فاروق القاضى لأنه يجيد إطلاق النار .

السفر إلى نابلس

وهكذا سافرنا فى ظلام الليل إلى القدس ومعنا اثنان من قادة الاحزاب : فائق دراد الذى أصبح أمينا عاما للحزب الشيوعى الأردنى بعد وفاة فؤاد نصار ، والآخر هو عيسى مدانات أحد قيادات الحزب . وفى ظلام الليل لم أعرف من ركب معنا السيارة أنا وفاروق القاضى ، ولكن خطر فى بالى أنهما



رجلان في ملابس شبه نسائية ، وبالفعل عندما وصلت السيارة إلى نقطة التفتيش في مخارج عمان أبرزنا للشرطي جواز سفري وجواز سفر فاروق القاضي فأشار إلينا بالذهاب ، ولم أصدق أننا بهذه السهولة اخترقنا نقاط حصار الملك حسين ، وكان المطلوب منا هو توصيل الرجلين إلى منزل القنصل المصري في القدس ، ووصلنا بالفعل إلى منزله حوالي الساعة الثالثة صباحا فوجدناه في انتظارنا ورحب بنا غاية الترحيب ونمنا بضع ساعات في غرفة الجلوس ، ثم قمت أنا وفاروق القاضي بالسفر وحدنا إلى نابلس مارين برام الله حيث استرحنا في منزل كمال ناصر (الذي اغتاله الاسرائيليون في بيروت بعد ذلك بسنين طويلة) وتناولنا الغذاء في منزله ثم ودعناه إلى نابلس التي وصلناها في المساء ، ووجدت أن المنظمين للمؤتمر قد رتبوا لي النزول في منزل قدري طوقان ، فاتجهت من فوري إلى قاعة المؤتمر في نابلس حيث حضرت جلسته الختامية ، وقابلت د. عبد الرحمن شقير زعيم الجبهة الوطنية آنذاك وفؤاد نصار أمين عام الحزب الشيوعي الأردني وفهمي السلفيتي وبقية قادة الاحزاب الاردنية .

وربما يتيح لي الزمن أن أتحدث عن متعة الاقامة في بيت طوقان والاحاديث الجميلة التي دارت بيني وبين قدري طوقان والشاعرة فدوى طوقان وحافظ طوقان ، وكيف ظللنا نتحاور في الامور المختلفة حتى الصباح تقريبا .

وكان من الواضح لي أن الملك حسين يستعد لضربة ردا على قرارات الاحزاب الوطنية ، وبالفعل فلم أكد أعود إلى عمان وأنزل في نادي عمان حتى أعلن الملك حسين الأحكام العرفية وغير الوزارة بوزارة من الموالين له ، ومنع الخروج من نادي عمان بالأمر العسكري .. وبذلت السفارة المصرية جهودها للتصريح لي بمغادرة عمان . وبالفعل غادرت عمان إلى دمشق ، لكن عبد الرحمن الخميسي كان قد طير خبرا لجريدة الجمهورية باعتقالي في عمان . ولم يكن الخبر بالطبع صحيحا ، وعندما وصلت إلى دمشق وعلمت بالموضوع وسألت الخميسي لماذا فعلت هذا؟ أجاب وهو يضحك : من باب الاحتياط!.

التهديد التركي لسوريا

عندما وصلت إلى دمشق كانت أزمة التهديد التركي لسوريا في أشدها ، وكانت القوات المصرية قد أخذت

مواقعها فرأيت أن من المناسب أن أزور عددا من المدن السورية لاستكشاف الاستعدادات لمواجهة الغزو التركى المحتمل . وبالفعل ذهبت إلى المكتب الثاني (المخابرات) وقابلت عبد الحميد السراج (رئيسه آنذاك) وطلبت منه ترتيب التصريح لى بزيارة عدد من المواقع .. فى حمص واللاذقية وحلب ... الخ .

فرحب بذلك وأصدر لى تصريحا بزيارة هذه الاماكن ومقابلة قادتها . وعندما علم بعض الصحفيين المصريين فى دمشق بذلك أبدوا رغبتهم فى أن يكونوا معى. كان معنا فى السيارة حسن شاه الهاكع وأحمد سعيد مراسل وكالة الشرق الأوسط فى دمشق وصحفية ثالثة من أخبار اليوم هى فاطمة سعيد . وبالفعل غادرنا دمشق فى الفجر فى سيارة مكتوب على زجاجها الأمامى (صحافة مصرية) .

ومهما حاولت أن أصف حفاوة الشعب السورى بنا فلن أستطيع ، سوف أذكر قصة واحدة تشير إلى ذلك . عندما وصلنا إلى الميدان الرئيسى فى حمص أوقفنا بعض الأهالى وصمموا على أن ننزل لتناول الافطار فى منزل أحدهم : فلما أخبرناهم أننا تناولنا بعض الافطار فى السيارة ونحن فى الطريق وشكرناهم على كرمهم رفضوا الاستماع إلينا وحلف أحدهم بالطلاق أنه لابد من أن نتناول الافطار فى منزله ، وبالطبع رضخنا لهذا الكرم الحاتمى وأفطرنا مرة أخرى .

ثم ذهبنا بالسيارة إلى موقع القيادة حيث قابلنا الضابط السوريين والمصريين الذين رحبوا بنا ثم ذهبنا إلى مكتب محافظ حمص حيث واجهنا أعظم مفاجأة !

كان الزملاء المصريون معى قد اتفقوا على أن أتولى - باعتبارى أكبرهم سنا - تقديمهم إلى الجهات المختلفة التى نزورها . وقد قمت بهذا عند وصولنا لمكتب المحافظ ، فوجدت منه حفاوة شديدة بأحمد سعيد الذى معنا ظنا منه أنه أحمد سعيد المشرف على صوت العرب ، وأدركت بسرعة المشكلة وحاولت أن أشرح بهدوء للمحافظ أن الصحفى الذى معنا ليس أحمد سعيد صوت العرب . فإذ به ينفعل ويقول إن ما وصله من المكتب الثانى من أسماء لصحفيين مصريين من بينهم أحمد سعيد جعله يدعو شعب حمص للاجتماع



في الميدان الكبير بعد الظهر للاستماع إلي خطاب من أحمد سعيد صوت العرب

وبالفعل كانت الميكروفونات الثابتة والمتنقلة فى سيارات تدعو إلى اجتماع بعد الظهر لسماع أحمد سعيد . وأدركنا أننا فى ورطة ! ماذا نفعل ؟

حاولت أن أقنع أحمد سعيد الذى معنا فى الوفد أن يتكلم فرفض بإصرار وهدد بالعودة إلى دمشق فورا . قلت له : سوف أكتب لك الخطبة وما عليك إلا قراءتها فرفض . إنه شاب خجول لا يجيد الخطابة أمام الناس (وهو بالمناسبة أصبح وكيل التليفزيون المصرى بعد ذلك بسنين طويلة) .

وبالتالى فلم يكن هناك مفر من أن أتكلم أنا ، وأنا طبعا لست أحمد سعيد . ووقفنا فى شرفة المحافظة .. ممثلو الاحزاب الوطنية السورية ورجال الدين مسلمين ومسيحيين وبعض الضباط والصحفيين المصريين . وتكلم رجال سوريا أولا ثم عندما جاء الدور علينا لم تستمع الجماهير إلى اسم الشخص الذى سوف يتحدث لأن إطلاق النار من الأهالى ترحيبا قد غطى على كل شيء .

وبعد انتهاء الاحتفال نزلنا إلى السيارة لمغادرة حمص إلى اللاذقية فأصرت الجماهير السورية على إخراجي من السيارة للترحيب بى وتقبيلي ، وبعضهم لا شك قد أدرك أنى لست أحمد سعيد ، وإن كانت كلمتى قد سرتهم .

وقد اكتشفت بعد ذلك أن أهل حمص معروفون فى الشام بطيبتهم وسذاجتهم تماما كما نتحدث نحن عن أهل الشرقية الذين عزموا القطار أو عن الصعيدى الذى اشترى الترام . عرفت ذلك من عفيف البرزى قائد الجيش السورى آنذاك ، وعندما أخذنى بعد ذلك فى سيارته أنا وخالد محيى الدين لزيارة حمص مرة أخرى ألفيناه يضحك مع المحافظ ويعيد قصة أهل حمص مرة أخرى .

بعد وصولنا إلى اللاذقية كنت متلهفا للوصول إلى حلب إذ كان واضحا لى أن أولى معارك الجيش التركى - لو قرر الهجوم فعلا - سوف تكون فى حلب .

وفى حلب وجدت الاستعدادات العسكرية تجرى على قدم وساق.. حفر خنادق وإقامة استحكامات، وكانت قلعة حلب هي، المكان الذى تطل منه على ما



يجرى فى المدينة.

الغريب أننى وجدت من بين الضباط المصريين الذين كانوا يقومون بتدريب الميلشيات على أعمال المقاومة الضابط حسن صبرى الخولي (الذى أصبح فيما بعد المبعوث الشخصي للرئيس عبد الناصر في أعمال سياسية عربية كثيرة).

وكنت أعرف حسن صبرى الخولى من العباسية حيث نشأنا سويا وظللت على علاقة به بعد الثورة، لذا فرحت جدا بلقائه، وقد دبر - ترحيبا بنا - زيارة للحدود السورية التركية عبر الجبال الشاهقة والطرق الضيقة.

***

بقى أن أذكر أننى كنت أول صحفى مصرى يزور قطاع غزة بعد جلاء الإسرائيليين عنها وعودة الادارة المصرية (أعتقد أن ذلك تم فى يناير سنة ١٩٥٧). حيث أن الاسرائيليين دمروا خط السكة الحديد الذى كان يصل بين غزه والقنطرة شرق فلم يكن هناك مفر من تأجير تاكسى فى القنطرة شرق يأخذنى إلى غزة، وكان فى السيارة أناس آخرون ذاهبون إلى هناك وقبل وصولنا إلى غزة بنحو ربع الساعه فوجئنا برتل من السيارات يسد الطريق تماما. وعندما وصلنا إلى السد أدخل أحد الواقفين رأسه فى سيارتنا وسأل عني وعرفت بعد ذلك أنهم يمثلون وفدا من شباب غزه عرفوا لا أدرى كيف أنى قادم إلى غزة وأنهم خرجوا للترحيب بى، وقضيت أسبوعا فى غزة نزلت خلاله فى منزل جمال الصورانى وقابلت قيادات غزة الوطنية: حيدر عبد الشافى وجمال الصورانى ومعين بسيسو والبقية . وكنت أتناول الغداء يوميا فى أحد منازل أهل غزة ، وكان الغذاء التقليدى هو المنسف والكنافة النابلسية .

والمنسف هو طبق كبير من الأرز والعيش واللحم، ياكلونه بأيديهم على طريقة الاعراب. أما الكنافة النابلسية فهى من أجمل ما ذقت من الحلويات.

ومن نتائج هذه الزيارة أنى كتبت مقدمة ديوان معين بسيسو «مارد من السنابل» عن المقاومة التى نظمت ضد الاحتلال الاسرائيلى آنذاك وحتى اليوم لايزال الكثيرون من رجال غزة يزوروننى فى القاهرة ونتذكر سويا أيام هذه الزيارة الجميلة التى أوقدت حبى لأهل غزة ونضالها. ■



قضايا المرأة عبر التاريخ

بقلم
د. حامد عمار

نتابع فى هذا المقال توضيح الفجوات القائمة بين الواقع العيانى لأوضاع المرأة ومكانتها من ناحية ، وبين التصور الإنسانى المتطور عبر التاريخ من الناحية الأخرى .

وهى فى هذا التصور الأخير نصف المجتمع ديمغرافيا وحجما بشريا بفتاته وأعماره ، وهى كذلك نصف الوجود فى التناسل والتوالد وتجدد الحياة وتعاقب أجيالها ، كما أنها شريكة الرجل فى الفكر والرأى حيث يمثل منظورها نصف الحقيقة الذى يتكامل مع منظور النصف الآخر للرجل. وهكذا نرى المرأة نصف المجتمع ونصف الوجود ونصف الحقيقة كما أوضحنا فى المقال السابق. ومن ثم فإنها مع الرجل بالضرورة شريكة حياة ومصير على سطح هذا الكوكب، وقد يغدو ذلك واردا على سطح بعض الكواكب الأخرى فى مستقبل غير منظور .

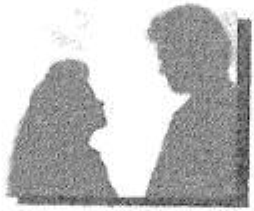
بيد أن هذا التطور الشامل لما تكتمل أبعاده فى ثقافتنا العربية، رغم ما حدث فى مدركاته ومفاهيمه من تطور تفاوتت تحولاته وانتقالاته عبر الزمان والمكان بفعل الاختلاف فيما يموج بهما من قوى وموارد اقتصادية واجتماعية وثقافية وتعليمية وقد يبرز التطور بصورة قاطعة جلية أحيانا، بينما نخاله فى صورة قلقة مترددة أحيانا أخرى ، كما نحسبه حركة مترجرجة بين التقدم والنكوص فى بعض اللحظات .

وفى أحوال الثقافة العربية على وجه الخصوص أشرنا إلى أن حركة التطور لم تندفع فى خط متصاعد ومتصل دوما وإلى الأمام، نتيجة لتأثير ما أطلقنا عليه فى مقالنا السابق مصطلح (عبء التاريخ الثقافى) على حركة المرأة العربية ومع ما لهذا العبء من تأثير على مجمل التطور الحضارى والحداثى فى أحوال المجتمعات العربية . إلا أنه كان أشد وطأة فى حركة جزرها أكثر من مدها على مسيرة التطور لدى المرأة العربية .

(*) سفير مصر السابق فى اليمن

وقد يقال إن المرأة العربية قد انتقلت عبر مراحل النهضة المجتمعية الحديثة خلال مواقع متلاحقة أكثر تقدما وإنسانية، وأفضل تقديرا واعتبارا ويتم رصد تلك النقلات والمفاخرة بها ضمن قائمة ما يعرف عادة باسم (مكاسب الحركة النسائية) وقد تصح هذه المقولة فى مجملها ، وليس فى إطلاقها وجميع مكوناتها فما تزال رواسب ورموز المفارقة بين الذكر والأنثى قابعة أو كامنة هنا وهناك، إذ إن التراث التاريخى لا يموت بسرعة مادامت مبررات وجوده موجودة وحتى لو وهنت حيويته، بل إنه لا يفتأ يطل فى الواقع بين الحين والآخر .

وما انفكت سمات تفوق الرجل على المرأة متجسدة فى بعض العادات والتقاليد ، وفى القوانين ، وفى الحقوق والواجبات، بل وحتى فى أفضليات الإنجاب ومع الإقرار بآثار ما تغير فى تضييق مساحة اللامساواة بينهما فى المكانة والدور الاجتماعى، إلا أن المفاضلة تظل قائمة لم تحسم حسما



مبدئياً إنسانيا قاطعا، ولنستمع إلى قول الشاعر :

وما التأنيث لاسم الشمس
عيب ولا التذكير فخر للهلال

ثم أليس هناك تصنيف من أجل المفارقة لما يسمى بالأدب النسائي والفن النسائي تمييزا لهما عن النتاج الذكوري ، إلى غير ذلك من الثنائيات التي أشرنا إليها في التمييز والتمايز بين الجنسين والحاصل أن كثيرا من التيارات الحداثية تحمل قدراً من غبار الماضي، وأن ما جرى من مياه التطور لم يخل من بعض طحالب التقاليد الراكدة. وفي عصر وحدة المعرفة وتكاملها وجدلية ديناميات تغيرها لم يعد ثمة مجال لثنائيات تتعايش في انفصال سكوني ووجودي وحقيقي. ومن أخطرها ثنائية الرجل والمرأة مع افتراض تدني مكانة المرأة في مجال المقارنة والأوضاع.

مسارات التطور وبقايا تشوهاتها :

على الصعيد الوطني والقومي والعالمي نلحظ انتقال قضايا المرأة عبر التاريخ في موجز المراحل التالية، حيث أخذ يبرز الاتجاه نحو :

١- النظرة الإنسانية للمرأة كما هو الموقف من إنسانية الرجل وهو ما ميزهما الله بها عن سائر المخلوقات .

٢- تحرير المرأة كيانا مستقلا لا كمجرد تابع للرجل ، وإنما شريكة حياة ومصير .

٣- مساواة موقع المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات لها ماله وعليها ما عليه.

٤- تكافؤ الفرص بين المرأة والرجل في المشاركة السياسية، والعمل والجزاء والخدمات .

٥- الإقرار بدور المرأة في عمليات التنمية وإسهامها في مختلف مجالاتها ومستوياتها كقوة تضيف إلى رصيد الطاقات الإنتاجية المجتمعية .

٦- إتاحة موقع للمرأة في صنع القرار وفي اتخاذه على المستوى المجتمعي العام وعلى مستوى وجهة نظرها واحتياجاتها النوعية الخاصة .

وقد استطاعت المرأة العربية عموما أن تتحرك في تاريخها الحديث إلى تقدم وتطور في جميع المراحل، لكننا نود أن نؤكد هنا مرة أخرى على أن هذا التقدم لا يزال عرضة لأزمات ثقافية، ومد وجزر، وحدود وشروط في الإقرار الكامل والاقتناع الحقيقي والملتزم به . وينعكس ذلك في كثير من مفاهيمنا وممارساتنا اليومية وفيما يدور في المجتمع من أحداث وسياسات ومؤسسات وقوانين، فضلا عن الاستقطاب والأزمات الثقافية بين من يرون أن المرأة قد اكتملت نضجا ، وغدت تلك المراحل حقا من حقوقها المستقرة الثابتة التي لا تنازل عنها، وبين فريق آخر يرى أن ثمة تحفظات وكوابح في معظم تلك المراحل أو في بعضها أو حتى فيها جميعها .

وقد أشرنا فيما سبق إلى بعض تلك المفاهيم والتشوهات الثقافية التي تعوق تمكين المرأة من أن تكون شريكة كاملة في الحقوق والواجبات للرجل، والإيمان بأنهما معا صانعان للحاضر والمستقبل والحاصل

أن بعض تلك المفاهيم والقيم والأحكام الثقافية الشعبية تنكر أو تتعامى عن تجسيدات الواقع، وما حدث من تطور فعلي في حياة مجتمعاتنا وما حققته المرأة من أدوار في صنع الحياة. ثم إنه إذا كانت بعض قطاعات المرأة في الشرائح الاجتماعية العليا قد استطاعت أن تكتسب سمات التطور الحضاري المشار إليه، فإن قطاعات أخرى كبيرة من شرائح الطبقة الوسطى والأدنى ومن الأسر الريفية والحرفية والعمالية لاتزال تتعثر وتضطرب في انتقالها من المرحلة الأولى. ومن الملاحظ كذلك أنه حتى بين نساء الشرائح العليا يحدث تردد وعدم اقتناع تام بالتطور في مختلف المراحل التي مرت بها المرأة عبر الحضارات الإنسانية وكثيراً ما تتشح هذه الأفكار بتصورات وعادات اجتماعية أو تبريرات فقهية سلفية كما أوردنا ، وهي في معظمها ليست من صحيح الدين. ومن بين أهم الصور والمعتقدات المتجسدة والعالقة في تلك الإشكاليات ما يلي:

١- اختلاط الجنسين في التعليم وفي العمل، ومظاهر عدم التقبل للاختلاط، أو الأصح المشاركة والتعاون، مما يعتبر من المحظورات في عدد من الأقطار العربية.

٢- حقوق المرأة في الزواج ،تكوين الأسرة ، وما يرتبط بذلك من قوانين الأحوال الشخصية التي لاتزال مجالاً للجدل والتغيير والمد والجزر منذ أكثر من نصف قرن في معظم الأقطار العربية .

٣- زي المرأة بين العورة والفتنة والحشمة، والتساؤل عن زي شرعي للمرأة وقضية الحجاب ، ومدى اتباع الموضات .

٤- عمل المرأة وقصره على مجالات معينة ، واعتبار مجالات أخرى غير مباحة لها ، بل يصل إلى الرأي بعدم إباحة عملها في سوق العمل، وتفضيل بقائها في البيت، وإذا كانت قد وصلت إلى معظم الأعمال والوظائف في بعض الأقطار، فإن أعمالا أخرى تظل غير مباحة لها بحكم العادات والتقاليد أو مبررات فقهية كالقضاء .

٥- التردد في مشاركة المرأة في الألعاب الرياضية والأنشطة الثقافية كالسينما والمسرح والموسيقى والغناء ، بل إن بعض ما أصاب تلك الأنشطة من تحريم أو كراهية قد يعزى إلى حد كبير لمشاركة المرأة فيها .

٦- أهلية المرأة للمشاركة السياسية وفي التمثيل النيابي ، ولعل دولة الكويت مثال واضح على مقاومة تلك المشاركة رغم ما حصلت عليه المرأة من تعليم ومستوى معيشي وحياتي متميز. ولعل ما يحدث من تطوير ديمقراطي للحياة في البحرين خلال الأسابيع القليلة الماضية يمثل خطوة رائعة نحو تحرير المرأة بصورة عامة ونحو تمتعها بحقوقها السياسية الكاملة شريكة للرجل في الحكم في الدولة والمجتمع ، وليس بمستبعد أن يكون للنموذج البحريني أثره في تطور الأقطار الخليجية الأخرى بما في ذلك المشاركة الكاملة في الحياة السياسية والديمقراطية .

٧- تحديد مراحل التعليم للبنت ومدى تمكينها من مواصلة تعليمها في المراحل الثانوية والجامعية ، ومن الملاحظ أن نسب التسرب أو الانقطاع عن التعليم بين الإناث أعلى من نسب الذكور .

٨- القيود الأسرية والمجتمعية على حرية الحركة والتنقل وتوظيف أوقاتها للمشاركة في صناعة الحاضر والمستقبل ، ولاتزال قضية حق المرأة في السفر بموافقة زوجها مثار نقاش فكري وفقهي

في مصر .

٩- مفهوم المرأة ذاتها عن قدرات وإمكانات جنسها ، وهذه من المفارقات التي نجد أنه في الوقت الذي تناضل فيه المرأة لاستكمال حقوقها الإنسانية تلقي رواسب التاريخ وأعبائه بظلالها الموحية لها بأن الرجل أقدر منها عندما يتطلب الأمر الاختبار لأي منهما في بعض المواقف .

١٠ - الحرمان من مصادر الثقافة وفتور استمرار الرغبة في التعليم والتعلم بعد التعليم الأساسي في كثير من الحالات وعلى الأخص بعد الزواج، والاقتصار على الأعمال المنزلية .

١١- تنظيم الإنجاب وفتراته، مما يمثل هما من هموم الأسرة، وهما من هموم المجتمع، وكثيرا ما تفقد المرأة مكانتها كزوجة إذا لم تنجب ، وقد يكون مصيرها إلى الطلاق .

١٢ - الضغوط والتوترات الناجمة عن ضرورة إنجاب الذكور للمرأة المتزوجة، مما يؤدي إلى تكرار الحمل حتى تنجب ولي العهد .

١٣ - تحرير عقل المرأة دون تحرير عقل الرجل . وتحرير عقل الرجل دون تحرير عقل المرأة .

١٤ - مظاهر الحداثة وارتباطها بمجالات الاستهلاك وحفلات الزواج وتقاليدها الباذخة والباهظة بالنسبة لجميع طبقات المجتمع .

تلك بعض الإشكاليات التي تحد من المشاركة الفعالة للمرأة في روح من الثقة والاقتدار والحرية مع الرجل في صنع الحياة على أرض الوطن العربي .

وإذا كان بعض النساء ممن ينتمين إلى الثقافة العالمية المتجددة من الشرائح الاجتماعية العليا قد استطعن أن يتجاوزن قيود تلك المفاهيم والتقاليد الثقافية التاريخية بدرجات متفاوتة إلا أنهن يعشن في بيئات لايرضيها في كثير من الأحوال التجاوزات في معيشة أولئك النساء المترفات ، ومن ثم تعتبر حياتهن تقليدا أعمى لانماط الحياة الأجنبية، وبذلك يتولد الاستقطاب الثقافي بين الفئتين وفي الوقت ذاته نجد أن معظم النساء ممن ينتمين إلى الثقافة التقليدية الجماهيرية لايزلن في ذلك الأفق الضيق من الإطار الثقافي، يفكرن ويتحركن في تشوهاته، وبخاصة حين تصاغ مبررات ذلك الأفق بمبررات فقهية ليست من صحيح الدين، أو من خلال مبررات خرافية أسطورية من أوهام التاريخ وممارسات العرف والمواضعات السائدة .

ومما لاشك فيه أن للأوضاع الاقتصادية والتعليمية دورا مهما في ترسيخ تلك المفاهيم سواء البيئات الفقيرة والمحرومة من مؤشرات التطور الحضاري الإنساني، أو من خلال الانخراط في تيارات التمدين ومظاهره للفئات القادرة في المدن، والتي تفتقد غير قليل من طقوسها إلى بعض صور الحياة الريفية أو بين الفئات محدودة الدخل عموما .

التوجهات المستقبلية لتنمية المرأة العربية :

سوف نركز هنا على التوجهات الثقافية دون تقليل من أهمية الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في تنمية المرأة العربية ، ومن بين أهم تلك التوجهات :

أولا : الوعي الحقيقي المدرك لأن تخلف المرأة بصورة عامة ملتحم ومتفاعل مع ما يشوب التنمية البشرية من قصور ومن ثم فإن هذا التخلف هو سبب ونتيجة

لتدني أحوال التنمية البشرية والتنمية الشاملة اقتصادياً واجتماعياً، ومن ثم يقتضي معالجة ذلك التخلف ضمن معالجة السياق العام للمجموعات الثقافية بمكوناتها التربوية والفكرية والإعلامية والدينية (الفقهية) والعادات الاجتماعية والمفاهيم والممارسات التقليدية.

ثانيا: الحديث عن البعد التربوي في المنظومة الثقافية لتنمية المرأة مجال واسع كثرت فيه الآراء والخبرات والدراسات التربوية تنظيرا وممارسة وسياسات ومؤسسات. ويعنينا هنا التركيز على تنمية قدرات المرأة الإنسانية بصورة متكاملة يعزز بعضها بعضا دون تضحية لبعضها على حساب البعض الآخر أو إنكار لإمكانيات وجود بعضها وطاقات نموه ونقصد بذلك تنمية جملة الطاقات والقدرات البدنية والعقلية والوجدانية والاجتماعية والمهارية والروحية، إلى أقصى مستوى يمكن أن تبلغه من نمو ونضج. وعلينا ألا نكبت أو نغفل نمو أي استعداد أو قدرة تظهر فيها البنت تميزا أو رغبة أو اهتماما، وتسويغ ذلك الإغفال على أنها ليست في حاجة لهذه القدرة في مستقبل حياتها، أو أنها سوف تصرفها عن أمور أخرى ترى التقاليد والثقافة السائدة أولويتها للبنت في تكوينها ومسيرة تعليمها واهتماماتها الحياتية.

ثالثا: توفير مختلف الخدمات الصحية والاجتماعية والبيئية للنمو السليم للمرأة، فضلا عن توفير حق العمل والمشاركة في المشروعات الإنتاجية والخدمية باعتبار العمل حقا وواجبا انسانيا، كما أنه مجال للتعلم والتدرب والوعي بحقوق المواطنة وواجباتها. وهذا يعني الالتزام بتمتع المرأة بكافة حقوق الإنسان التي أقرتها الشرائع السماوية، وشرعته حقوق الإنسان والاتفاقيات الدولية وبخاصة اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة وإقرار مساواتها بالرجل.

ولعل من الضروري في هذا الصدد أن نسوق المقولة الرائعة للإمام محمد عبده في تقريره بأن (الرجل والمرأة متساويان في الحقوق والأعمال، كما أنهما متماثلان في الذات والشعور والعقل. واعلموا أن الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة بيوتهم، إنما يلدون عبيدا لغيرهم).

رابعا: التطوير العلمي للفكر الثقافي السائد الذي يعتمد في مصدره إلى حد كبير على مفاهيم السلطة المهيمنة وموحياتها وتوجيهاتها سواء في نظام الحكم أو في الأسرة أو في المجتمع الصغير أو في مختلف مواقع الرئاسات ومصادر القوى المختلفة. والواقع أننا في حاجة إلى ساحة ثقافية تحترم العقل وتثق فيه وفي مناهجه وأخلاقياته العلمية، ثقافة تكشف ولا تزيف، ثقافة تظهر ولا تستتر نتمكن من خلالها مواجهة مشكلاتنا ومتابعة حركتنا بخطى وقدرات أكيدة وطيدة لإزاحة مختلف قوى التخلف وتوفير مساحات متزايدة لحرية الفكر والعمل وكرامة الإنسان، رجلا كان أم امرأة، ومن ثم يغدو المنهج العلمي بمختلف شروطه وأبعاده وعملياته هو العمود الفقري للفكر الثقافي السائد الذي يتيح فرص التجدد والإبداع للبشر والمؤسسات. وذلكم شرط من الشروط الرئيسية اللازمة للتحرير الكامل للمرأة العربية وللرجل العربي كذلك.

خامسا: وفي سياق هذا المناخ المتحرر بالعلم وبالثقة في النفس وبالمسئولية تبرز قضية المرأة على أنها تتضمن خيارات سياسية جديدة لابد من



اتخاذها لمواجهة قوى المقاومة والخيارات التقليدية القابعة. والمطلوب دوما أن يتسع دور المرأة في المشاركة الإيجابية كمواطن وكقوة عمل، تواجه تحديات التنمية ومطالبها فاعلة فيها ومنفعلة بها، تعطى لها وتأخذ منها دون عوائق، تنتج كما تستهلك، تفيد وتستفيد، تضغط وتنظم، تفكر وتخطط وتعبر، وتشارك الرجل في القرار والمسئولية. ومن ثم ينبغي أن تتحرك وتتطور قضايا المرأة مع غيرها من قضايا النهضة والتجديد لخلايا المجتمع العربي وتنمية طاقاته البشرية وتحسين مستويات معيشته، وترسيخ مبدأ العدل الاجتماعي وتكافؤ الفرص، واقتران الحق بالواجب، والقضاء على مشكلات الفقر والبطالة والجهالة.

وهذا يتطلب بالضرورة إيلاء اهتمام متمايز لقضايا المرأة في خصوصياتها الناجمة عن ظروف وأوضاع تاريخية ومجتمعية - وليس لطبيعتها البشرية - مما يستحق جهدا خاصا في الفهم والتشخيص والفعل، سواء في المجالات التعليمية أو الصحية أو الثقافية أو في الثقافة العلمية والدينية.

سادسا: الاهتمام الجاد بالمعالجة الرصينة الهادفة لقضايا المرأة في أجهزة الإعلام.وقنوات الثقافة وبخاصة في البرامج التليفزيونية من مختلف مصادر بثها بحيث لا تقتصر فيها البرامج الموجهة إلى الشرائح العليا والطبقة الوسطى فحسب، بل تتوازن وتمتد وبصورة أكثر جانبية ومضمونا إلى المرأة الفقيرة والمحرومة وأن تتناول مشكلاتها ومعالجتها. وعليها أن تأخذ في الحسبان البرامج الملائمة لمختلف مراحل عمر المرأة، طفلة وشابة وزوجة وأما وكهلة ومسنة. وعلى تلك البرامج أيضا أن تتناول قضايا المرأة العامة كمواطنة إلى جانب خصوصياتها مع الاهتمام بعرض وجهة نظر المرأة في مختلف القطاعات ودروب الحياة. وكما يقال بحق فالمرأة ليست نصف المجتمع فحسب، بل إن الأهم هو كونها نصف الوجود ونصف الحقيقة أيضا.

سابعا: النشر والتعريف على أوسع نطاق وبمختلف الوسائل الإعلامية والمنابر باجتهادات الفقهاء فيما يتصل بفقه المرأة. ومن هذا القبيل نشر كتيبات مبسطة ورسوم كاريكاتورية وصور لمضمون تلك الاجتهادات الفقهية.

وقد أشرت في كثير من فقرات هذا المقال إلى الأهمية القصوى للتخلص من عبء التاريخ والتقاليد والأعراف والمفاهيم الثقافية التي تمثل عائقا لمشاركة المرأة مشاركة فعالة في حياة أسرتها وفي مجالات العمل الوطني والإنمائي وأوضحت أن كثيراً من تلك المفاهيم الثقافية قد تلبس بغطاء فقهي ديني، مع أنه ليس من صحيح الدين، كما إن بعضه إنما هو من قبيل الخرافات والخزعبلات والأساطير الشعبية المتواترة من عصور تختلف في مطالبها وسياقاتها عن تحديات الحاضر والمستقبل التي تواجه الأمة العربية في الداخل ومن الخارج. ولعل قضايا التزمت في المعاملات والسلوك المفروضة على قطاعات كبيرة من سكان الريف وعلى

الفقراء بالذات من دعاوى الاتكالية، بل وعلى النخب النسائية أحيانا هى أمور يجرى تبريرها بقاعدة سد الذرائع أحيانا أو بالطبيعة البشرية الخاصة بالمرأة أحيانا أخرى، كما تسند كذلك إلى أحاديث أحادية أو غير صحيحة، فهل يعقل مثلا أن يتنبأ حديث نبوى شريف بأن معظم سكان النار من النساء. وهل يعقل أن يفهم حديث الرسول ﷺ «لن يفلح قوم ولوا أمرهم لامرأة» دون فهم لسياق الحديث وللظروف التى قيل فيها، كما بين ذلك كثير من العلماء. وهل يعقل أيضا أن يقال إنه (محظور شرعا على المرأة أن تكون قاضية لأن ذلك يتطلب كمال الرأى، وهى ناقصة عقل ودين؟) وتلك أمور فندها أيضا علماؤنا من المجتهدين الذين يعيشون عصرهم.

محاولات عالم أزهرى فى تحرير المرأة:

استرعى اهتمامنا أخيرا قضايا التجديد فى الفقه الإسلامى، ومن هؤلاء المجتهدين الشيخ عبد الحليم أبو شقة مؤلف كتاب (تحرير المرأة فى عصر الرسالة، دراسة جامعة لنصوص القرآن الكريم وصحيحى البخارى ومسلم) من ستة أجزاء: الجزء الأول عن «معالم شخصية المرأة المسلمة»، والثانى عن «مشاركة المرأة المسلمة فى الحياة الاجتماعية»، والثالث عن «حوارات مع المعارضين لمشاركة المرأة فى الحياة الاجتماعية» والرابع عن «لباس المرأة المسلمة وزينتها»، والخامس عن «مكانة المرأة المسلمة فى الأسرة» والسادس عن «الثقافة الجنسية للزوجين».

وقدم لهذا الكتاب فضيلة المرحوم الشيخ محمد الغزالى، مفتتحا تقديمه بقوله (وددت لو أن هذا الكتاب ظهر منذ عدة قرون، وعرض قضية المرأة فى المجتمع الإسلامى على هذا النحو الراشد، ذلك أن المسلمين انحرفوا عن تعاليم دينهم فى معاملة النساء وشاعت بينهم روايات مظلمة وأحاديث إما موضوعة أو قريبة من الوضع، انتهت بالمرأة إلى الجهل الطامس.. كان تعليم المرأة معصية، وكان ازدراء الأنوثة خلقا شائعا، والسطو على حقوقها المادية والأدبية هو العرف المستقر).

ويقرظ الكتاب أيضا فضيلة الدكتور يوسف القرضاوى بقوله (الكتاب يسير فى اتجاه التيسير ورفع الحرج والإعنات عن المرأة وسبب ذلك أن الاتجاه الذى ساد العالم الإسلامى قرونا هو اتجاه التزمت والتشديد على المرأة وسوء الظن بها، ويعزى ذلك التشديد إلى جهل الأكثرين بالنصوص الشرعية التى تتضمن التيسير من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، فضلا عن سوء فهمهم للنصوص التى عرفوها).

ويتابع فى تعريفه بالكتاب بأن الإسلام الذى يلتزم به المؤلف (ليس إسلام مذهب معين من المذاهب المتبوعة، ولا إسلام عصر من العصور التاريخية السالفة، ولا إسلام قطر من الأقطار الإسلامية المعروفة، إنه إسلام القرآن والسنة فحسب، ولذا حرص غاية الحرص ألا يكون استناده فى بحثه إلى أقوال فلان أو علان من العلماء، فكل عالم يؤخذ من كلامه ويترك مهما علا كعبه فى العلم أو الفتوى).

ولعله من المفيد أن نشير إلى بعض ما ورد فى الأجزاء الستة مما يوضح كيف طغى عبء التاريخ على مكانة المرأة فى الإسلام، وانتهى بنا إلى تلك الحقب المظلمة التى تردد فيها حديث زائف

يخالف ما ورد في القرآن والسنة الصحيحة والذى مضمونه «أنه أصلح للمرأة ألا ترى رجلا ولا يراها رجل» ولنقرأ للشيخ أبو شقة صور بعض النساء في عصر الرسالة، واجتهاداته في كثير من مواطن التزمت والتشدد الفقهي:

– النساء يطالبن الرسول ﷺ بمزيد من فرص التعلم.

– أم عطية تشارك زوجها في ست غزوات.

– مواجهة أم سلمة لعمر بن الخطاب يوم إنكاره على نساء النبي مراجعتهن للرسول ﷺ.

– حفصة بنت عمر تستدرك على عبد الله بن عمر.

– المرأة تتمسك بحقها في اختيار الزوج، وبحقها في مفارقته.

– زينب بنت المهاجر تحاور أبا بكر الصديق.

– المرأة المسلمة تستقبل الضيوف وفيهم رسول الله ﷺ وتقدم لهم الطعام.

– المرأة المسلمة تجلس مع زوجها ويشاركان الضيف طعام العشاء.

– المرأة المسلمة تخدم الضيوف الرجال في وليمة عرسها وتتحف الرسول بشراب طيب.

– كشف الوجه هو السائد في العهد النبوى وهو الأصل. أما النقاب فكان مجرد عادة من عادات التجمل عند بعض النساء قبل الإسلام وبعده.

– لم يفرض من طراز محدد بشأن اللباس، ولكن فرض ستر البدن، ولا جناح في تعدد الطرز حسب الظروف المناخية والاجتماعية، ولا صحة للحديث الذى يقرر أن من أهل النار (الكاسيات العاريات)، أى اللابسات لما يصف أو يشف.

– ثبت أن القرار في البيت الوارد في الآية الكريمة (وقرن في بيوتكن) والحجاب كانا من خصوصيات نساء النبي، كما ثبت أن كرائم الصحابيات لم يقتدين بأمهات المؤمنين.

– مشاركة المرأة المسلمة في الحياة الاجتماعية من سنة نبينا وسنة الأنبياء من قبله.

– إطراد لقاء المرأة بالرجال في عصر الرسالة في المجالات العامة والخاصة كان تيسيرا على المؤمنين والمؤمنات.

– مشاركة المرأة في مبايعة الرسول وفي العمل المهني وفي النشاط الاجتماعي والسياسي.

– حقوق الزوجين متماثلة، والآية الكريمة «ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة» والدرجة التي يندب الرجال إليها كما يقرر الإمام الطبرى هي (الصفح من الرجل لامرأته عن التقصير في بعض الواجب له عليها، وأداء كل الواجب لها عليه).

– ومن بين الآراء المضيئة لفضيلة الشيخ أبو شقة تقريره بأن (سد الذريعة قاعدة أصولية صحيحة، لكن وقع غلو في تطبيقها فحُرِّم كثير مما أحل الله، ومنعت المرأة من المشاركة الجادة في شئون المجتمع).

تلك بعض الاجتهادات الفقهية لعالم فاضل وقد يقبلها القارئ وقد لا يرضى عنها، لكنه اجتهاد في جميع الحالات، إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر.

ومن المهم أن هناك سعيا وفيرا في السنوات القليلة الماضية لاجتهادات تدعو إلى فقه متجدد وبخاصة في فقه المرأة امتدادا لاجتهادات الإمام محمد عبده، ولاشك أن انطلاقة هذه الحركة الاجتهادية إنما فرضتها المتغيرات والتعقيدات في

الحياة المعاصرة وتحدياتها. هذا فضلا عن اتساع أدوات المعرفة ومضامينها الجديدة والمتجددة التى فتحت آفاقا جديدة فى الفهم والرؤية والحكم. ومن المطلوب فى جميع الأحوال العمل على نشر هذه الاجتهادات التى تنزل النص على الواقع تفسيرا وتأويلا له، لتصل إلى أن الشرع حيث تكون مصلحة المسلمين، ومن أهم مصالح المسلمين حاضرا ومستقبلا مشاركة جميع المواطنين رجالا ونساء مشاركة فعالة فى حياة مجتمعهم طولا وعرضا وعمقا.

الاجتهاد فى دراسة التقاليد الاجتماعية الفاسدة:

لا جدال فى أن للاجتهاد الدينى دوره البالغ فى تحرير المرأة وتنمية قدراتها وتمكينها من المشاركة الفعالة فى حياتها وحياة أسرتها ومجتمعها، ويكمل ذلك الاجتهاد فى دراسة وفهم بعض المفاهيم والمعتقدات والتقاليد والممارسات الاجتماعية المعوقة لتنمية المرأة وفتح آفاقها المعرفية وتثقيفها للإلمام بشئون الدنيا ومتغيرات الحياة وسداد تفكيرها وسلامتها، مما يستحق التركيز عليه، ومن أمثلة ذلك عادة الختان، أو مقاومة أسباب تنظيم النسل، أو اللجوء إلى أنواع التداوى بالأحجبة والمزارات، وتلبس الجان للبشر وغيرها من الأمور الصحية والأسرية التى تسئ إلى المرأة فردا ومجتمعا.

أما بعد،

فتلك بعض الخواطر التى لا تتجه مباشرة إلى تحديد التحديات والتوصيات المكرورة مما تعج به المؤتمرات القطرية والعربية والدولية، وإنما هى محاولة لاستكشاف العوامل الثقافية الكامنة فى فضاء المرأة العربية والتى كثيرا ما يتم تجاهلها والقفز فوقها. واتجه سعينا فى مقالينا إلى أن نلقى مزيدا من الضوء للوعى بمخاطر عوامل ومضامين الثقافة التقليدية، وضرورة معالجتها والعمل على إزاحتها بفكر ثقافى جديد ومتجدد، وجهد دءوب لتهيئة الطريق وإضاءته من خلال برامج الثقافة الجماهيرية، وغيرها من برامج القوى الثقافية المؤثرة فى حياة الأفراد والمجتمع.

ومن ثم فإن هذا المنطق الثقافى فى تقديرنا وبخاصة فى أبعاده الاجتماعية والفقهية يمكن أن يتحقق من خلاله إنجاز أوفر وأخصب فيما يتخذ عادة من قرارات وتوصيات ووضع للاستراتيجيات والبرامج والمشروعات التعليمية والصحية والإنتاجية والخدمية فى إطار تنمية بشرية متكاملة. وفى إطار هذه المعالجة الثقافية تتعزز بصورة أفعل عوامل تحقيق أهداف التنمية الشاملة التى تتمحور حول تحقيق إنسانية الإنسان، رجلا وامرأة فى مسيرة مشتركة نحو الكرامة والتقدم والرخاء.

من مراجع هذا المقال:

١- الشيخ محمد أبو شقة، تحرير المرأة فى عصر الرسالة (٦ أجزاء).

٢- عبد المنعم النمر، الاجتهاد.

٣- حامد عمار، فى بناء الإنسان العربى.

٤- د. عبد المعطى بيومى، مقالات متفرقة فى المصور.

٥- د. إيناس طه، مقالات متفرقة فى الأهرام.

شخصية العدد

درية شفيق

بنت النيل

بقلم
أحمد السيد عوضين

عادت درية من فرنسا وهى تحمل شهادة الدكتوراه فى الفلسفة من «السوربون» ، متوهمة أن الأبواب ستكون مفتحة أمامها، وأن السبيل سوف يكون ميسرا لها لتبلغ ما ترى أنه أولى حقوقها، وكانت صدمتها الأولى فيما قوبل به طلبها بأن تعمل فى كلية الآداب بتدريس الفلسفة من رفض لسبب فى غاية الغرابة - فى نظرها على الأقل - وهو أنها سيدة جميلة وأنيقة ومتعطرة ، ولأول مرة تدرك أن الجمال قد أصبح عقبة فى سبيل بلوغ أحلامها.

وكذلك فإنها عندما وجهت نشاطها إلى الاتحاد النسائى الذى ترأسه أمها الروحية، وصاحبة الفضل الأكبر عليها: هدى شعراوى، فإنها لم يطل ارتباطها به طويلاً. فقد صدمت بجو غريب عليها ، تشيع فيه روح التآمر والدسائس من سائر «العضوات» - ربما غيرة منها - فما لبثت أن نفضت يدها منه، وانصرفت عنه رغم مافى ذلك من ألم لها، ومن إساءة تفسير بالنسبة لموقفها . إذ يظن بها أنها ناكرة للجميل، متنكرة لصاحبة الفضل عليها. وما هى فى الحقيقة على شىء من ذلك، فما كان دافعها سوى ايثارها العمل فى وضوح وإخلاص، وربما كانت فكرتها عن العمل الوطنى فى ذلك الوقت غير واضحة القسمات : لقد كانت رسالتها «التكميلية» - للحصول على درجة الدكتوراه - تدور حول الإسلام والمرأة ، ولكى تعد تلك الرسالة كان عليها أن تقرأ وتدرس كل ما كتب عن المرأة فى الإسلام من مكانة ، وعما هو مقرر لها من حقوق، وما هو مفروض عليها من واجبات، وعن علاقاتها



بالآخرين، وعن دورها فى المجتمع، وحقها فى العمل الشريف، والحياة الكريمة، بل وكان عليها أن تحيط بذلك كله من مصادره الأساسية : القرآن الكريم، والسنة المطهرة والمراجع الفقهية المعتمدة .. ولكن يبقى بعد ذلك أن الأمر لم يزد على الدراسة النظرية التى تعتمد على القراءة والمراجع ، وتقليب الرأى فيما تقرأ .. إذ لم تكن لها تجارب عملية فى الحياة الإجتماعية سوى تجربتها الشخصية التى إن كشفت عن إرادة صلبة، وعزيمة قوية إلا أنها لاتزيد على كونها - تجربة محدودة بمحيطها العائلى الذى اتسع قليلا ليشمل أسرتها وأسرة زوجها.



شخصية العدد

بسبب جمالها وأناقتها وتعطرها رفضت كلية الآداب تعيينها بقسم الفلسفة

حياة عائلية مستقرة

وكانت طوال دراستها توافى بعض الصحف والمجلات التى تصدر - فى مصر - بالفرنسية بمقالاتها ، فتنشرها لها، وتحمل آراءها وأفكارها التى كانت تدور حول المرأة وحقوقها وحول الوطن وأوضاعه، وبالطبع كان المجال أمامها محدودا لضيق الدائرة التى تطالع تلك الصحف والمجلات ، وقد استمرت محصورة فى اطار هذا النشاط المتواضع لفترة طويلة حتى أصبحت معروفة فى أوساط قراء ذلك النوع من الصحافة - كما أن الصحف اليومية كانت لا تفتأ تنشر أخبارها باعتبارها من الشخصيات الشهيرة فى المجتمع، بل وكانت تحرص على نشر صورتها مشيرة إلى ماتتميز به من أناقة ورشاقة، وطريقة متفردة فى إظهار حاجبيها على نحو يكاد يقارب رسم العدد (ثمانية وثمانين) وإن تباعد رقماه..!!

وكانت إلى حد ما تعيش حياة عائلية مستقرة : فزوجها يعمل أستاذاً فى الجامعة ، وهى تسكن فى عمارة متميزة فى حى الزمالك ، والحياة بالنسبة لها تمضى فى يسر وبساطة، وبخاصة لما كان يجمعها بزوجها من ود وتفاهم يساعدان على التغلب على كل ما يواجههما من مشاكل عائلية .

ومع ذلك فلم تكن فى أعماقها راضية عن وضعها. كان بداخلها طموح تحس أنه يدفعها لتبحث له عن متنفس، وكانت لديها طاقة تود أن تفرغها فى عمل نافع يعود خيره على الجميع - وجاءتها الفرصة فى صورة دعوة من الأميرة «شويكار» لتتولى إصدار مجلة «المرأة الجديدة» بالفرنسية ، ورغم أنها لم يسبق لها الاشتغال بالصحافة، ولم تكن لها أية خبرة فى هذا المجال - فإنها لم تتردد فى الموافقة على العرض رغم ماكانت تدركه من أن ذلك سوف يزيد من الهوة التى تبعدها عن «هدى شعراوى» وجماعتها ، بل يضعها موضع العداء منها، ولعل تحرقها إلى ألا تبقى طويلا فى الظل كان هو الدافع الأول لهذا القبول لمهمة رئاسة التحرير والعضوية الشرفية لمجلس إدارة

جمعية المرأة الجديدة (التى ترأسها الأميرة)، ولم تكن المهمة سهلة، وبخاصة لأن سائر العضوات كن من زوجات وبنات الأسر ذات المكانة الرفيعة في المجتمع ، ومن ثم لم يرحبن بتلك القادمة من الطبقة المتوسطة، وهي فوق هذا تتميز عنهن بجمالها فضلا عن ثقافتها ، ومع ذلك قررت أن تصمد فتواجه هذه المهمة المعقدة التي تؤديها في ظروف أشد تعقيدا ، وبخاصة لما أشاع عنها المغرضون من أنها تعمل ضد التيار الوطني المتزايد - في ذلك الوقت - غير أن ذلك كله لم يزدها إلا إصرارا على المضي في طريقها ... وأصدرت بالفعل مجلة «المرأة الجديدة».

ولعل أقسى سهام نقد وجهت إليها كان مصدرها ماهو قائم من تنافس يصل إلى درجة العداء بين جماعة «هدى شعراوى» وجماعة «الأميرة شويكار» فالأولى تمثل التيار الوطني، والكفاح الشعبي.. والثانية تمثل الطبقة الارستقراطية التي تتخذ من «العمل الاجتماعي» مجالا للظهور، وبخاصة لما هو معروف من أن الأميرة - مطلقة الملك الراحل ، فؤاد الأول - كانت تبحث لها عن دور ومكانة مستقلة ثراءها في تحقيق غاياتها، ومن ثم كانت المتقربات منها تدفعهن المصالح الشخصية ، والتي تنأى بهن عن أن تكون الأهداف الوطنية تمثل بالنسبة لهن هدفا واضحا.

«بنت النيل».. تثقيف للمرأة

ولم يكن ذلك خافيا على درية شفيق، كما أنه - في نفس الوقت - لم يكن مما يتفق مع طبيعتها ولا أهدافها .. مما أصابها بضيق، ومع ذلك فقد صبرت ، وواجهت الموقف .. غير أن ذلك لم يدعها تهمل ما وجه إليها من انتقادات، ولم يجعلها تغفل عن أن وضعها في مجلة وجمعية المرأة الجديدة إنما يبعدها عن الطبقات الشعبية ، ويدخلها ضمن طبقة أخرى - وهي طبقة تتلقى درية بغير ترحيب ، بل وباشمئزاز، وكان ذلك مما يؤجج من كراهية درية لتلك الطبقة . ومن هنا اتجه تفكير درية إلى أن تصدر مجلة «باللغة العربية»، واستعانت في ذلك برائد الصحافة الدكتور إبراهيم عبده ، وأصدرت بالفعل العدد الأول من مجلتها «بنت النيل» في نوفمبر عام ١٩٤٥ «لتكون أداة لتعليم المرأة المصرية والعربية بكل معنى الكلمة، أي العمل على تفتيح وعيها» (درية شفيق - امرأة مختلفة - ترجمة نهاد أحمد سالم - ص ١٤٦) - وقد حرصت درية على أن تضمن مجلتها أبحاثا ومقالات حول القضايا النسائية ، وحول الشئون الأسرية ، دون أن تغفل عن نشر صفحات عن الأزياء و«المودة» .. وقد وجدت المجلة إقبالاً أغنى درية عن أن تستمر في عملها «مفتشة وزارة المعارف» - فاستقالت من وظيفتها لتتفرغ لنشاطها في إصدار هاتين المجلتين .

وإذا كان د. إبراهيم عبده قد ساعدها على أن تسير بالمجلة قدما، فقد كان ساعده الأيمن في ذلك هو خليل صابات الذي كان مايزال طالبا بكلية الآداب ، ولكنه كان طالباً متميزاً - يجيد اللغتين الفرنسية والعربية كلتيهما - وقد حدد دوره الذي استمر طويلا، فقال : «عملت كسكرتير تحرير لدرية شفيق، أكتب وأترجم المواد للمجلة ولمجلة الأطفال «الكتكوت» التي أصدرتها درية أيضاً. وكانت هي تقرأ العربية وتتكلم العامية بطلاقة، ولكنها لاتستطيع أن تعرب عن أفكارها باللغة الفصحى مباشرة، فكنت أترجم ملاحظاتها وأفكارها إلى العربية



ثم يضعها الدكتور إبراهيم عبده فى شكلها النهائى» (المرجع السابق – ص ١٥١).

ولم تقف جهود درية عند إصدار مجلتها .. بل مضت تستجيب لما يوجه إليها من دعوات لزيارة الدول الأخرى، فزارت فلسطين – بل وألقت هناك محاضرة باللغة العربية، تتحدث عنها فتقول «وكم كانت دهشتى لما نجحت ولم أتعثر بسبب اللغة ، وقد شجعنى ذلك كثيرا» (المرجع المذكور – ص ١٥٤) .. كما أنها أخذت تتناول المسائل السياسية – فى مجلتها – فتتحدث عن القضايا السياسية ، والمشكلة الفلسطينية ، فضلا عن المشاكل الإجتماعية فراحت تطالب – فضلا عن جلاء قوات العدو من بلادنا – بجلاء آخر لا غنى عنه إلى جانب الاستقلال السياسى، وهو جلاء الفقر والمرض والجهل.

ويلغ من نجاح «بنت النيل» أن عرضت (دار الهلال) ضمها إليها على أن تبقى لدرية رئاسة التحرير ، ولكنها لم توافق ،

رسالة غير مألوفة تنبعث من ضباب التاريخ

ومع موت الأميرة شويكار فى عام ١٩٤٧ وتولى الأميرة فايزة – شقيقة الملك فاروق – رئاسة جمعية المرأة الجديدة تعرضت المجلة للتوقف ، إلا أن درية بادرت فنقلت الترخيص باسمها ، وتحملت وحدها مسئولية استمرار صدور تلك المجلة – إلى جانب مجلة بنت النيل – .. بل واكتسبت المجلة فى عهدها الجديد «سمعة محلية ودولية كمجلة ثقافية وأدبية رفيعة المستوى» وإن كان قراؤها قد اقتصروا على الصفوة الميسورة من الناطقين بالفرنسية فى مصر والشرق الأوسط ، وتتحدث درية عن مجلتها فى عهدها الجديد فتقول : «أردت أن أعطى المرأة طابعا خاصاً وتوجها فنياً، وكل عدد يكرس لجانب من جوانب التراث المصرى، ولشكل من أشكال الإبداع المصرى». (ص ١٥٨ – المرجع المذكور).

وقد مضت درية فى إصدارها لمجلتها العربية والفرنسية : فالمرأة الجديدة تركزت مهمتها فى كونها رسالة الشرق إلى الغرب تكشف له عن تطور «المرأة الجديدة» فى الشرق : وهكذا كتبت : «المرأة الجديدة رسالة ، رسالة غير مألوفة، تنبعث من ضباب التاريخ، وتتقدم نحو المستقبل ، رسالة تكشف عن كنوز مكنونة ، وترفع عن كاهل مصر عبء أسرار عديدة حملتها هى وحدها لمدة ستة آلاف سنة – رسالة تسبر غور الزمان ، وتكشف عن كنوز مجهولة لا حد لها .المرأة الجديدة رسالة فن أنطق الحجر، ونفخ فيه الحياة ، ولكنها أيضاً رسالة تكشف عما تغير فى مصر، وتكشف عن نهضتها» . (المرجع السابق – ص ١٦٠).

● أصدرت «بنت النيل» لتكون أداة لتعليم المرأة المصرية والعربية

أما «بنت النيل» فلم تكن تخاطب النساء وحدهن، بل كانت تخاطب المجتمع كله : رجاله ونساءه، شيوخه وأطفاله أغنياءه وفقراءه .. بل بلغ بها حرصها على أن تساهم فى حسن تربية النشء أصدرت مجلة للأطفال أسمتها «الكتكوت» – كان هدفها التربية من خلال التسلية (ص ١٦٢) .

الالتزام بالمنهج

ومع ذلك فقد كانت سهام النقد تلاحقها من كل جانب ، فهى فى نظر البعض متعالية ، ومتكلفة، وأشبه بعارضة أزياء منها بسيدة أعمال وهى فى نظر البعض الآخر خارجة على الدين ، وفى نظر أخريات يمينية لاتساير تيارات التقدم.. ولم تعبأ درية بشيء من ذلك كله، بل مضت فى طرقها واختطت لنفسها منهاجا تلتزمه ، وهو أن تخصص كل وقتها للعمل ، ولا تضيع وقتا للرد على الهجوم ، أو على مايطلق عليها خصومها من شائعات.

فى تلك الفترة توفيت هدى شعراوى عن ثمانية وستين عاما . وليس من شك أن درية تأثرت لوفاتها كثيراً، فقد عاشت تذكر لها أفضالها عليها، وتتمنى أن تعود إلى لقائها والعمل معها حتى أوشك ذلك الرجاء أن يتحقق ، وتحدد يوم «ثلاثاء» لتقوم درية بزيارة هدى هانم، إلا أن القدر لم يشأ لهذا اللقاء أن يتم، فقد جاءت الوفاة قبل موعد اللقاء بيوم أو يومين .. وقد انتهزت درية فرصة الحفل الذى أقيم فى ذكرى الأربعين لتلقى كلمة تعبر فيها عن عرفانها بأفضال هدى شعراوى وعلى الحركة النسائية بصفة عامة ، وتصفها بأنها «حاربت لتخلق مجتمعا أبياً ومثقفا» وتهيب بالحاضرين قائلة : «تذكروها حتى تفهموا ما أنتم مدينون به لها، فهى قد عاشت لكم، وماتت من أجلكم .. وأنا حريصة على أن يدفعنا حزننا إلى المضى فيما بدأته. فلا يكفى أن نذرف الدمع على هدى شعراوى فهى أكثر من ذلك. حافظوا على ذكراها العطرة بكفاحكم، فكلما تعلمت إمرأة القراءة والكتابة ، أو ذهبت إلى الجامعة ، أو وقفت تدافع فى محكمة ، أو نزلت الحقل تعمل، أو دخلت البرلمان يوما ، فإنها تحيى هدى شعراوى تحية أجدى من الدموع ومن النحيب لموتها» (المرجع المذكور – ص ١٦٧).

مؤتمر الاتحاد بنت النيل

ولم تشأ درية أن تقف بجهودها عند حدود الحلول الفردية أو المقالات الدورية بل قدرت أن الوقت مناسب لإحياء الحركة النسائية .. و انتخبت درية شفيق – رئيسة للإتحاد مدى الحياة، واختارت للإتحاد مجلسا تنفيذيا من شخصيات نسوية لها مكانتها.

وتقول مؤلفة سيرة درية شفيق أنه «مع حلول عام ١٩٤٨ بدأت رسالة بنت النيل تتغير وتتركز ، مما يوحى بأن درية بدأت تعبر عن نفسها وبوضوح دون رقابة من إبراهيم عبده أو من زوجها» – ص ١٨٠ – ومضت تكتب سلسلة من المقالات ذات النبرة السياسية الواضحة التى تحمل رسالة نضال نسائى «فهى تطالب الرجال المصريين بإفساح المجال للمرأة حتى تسهم فى الحياة العامة، مستندة إلي أن حرمان المرأة المتعلمة من حق يتمتع به الأميون من الرجال جريمة فى حق مصر، وسيظل المجتمع محروما من الديمقراطية طالما بقيت المرأة محرومة من كامل حقوقها السياسية ، والرجال الذين يقفون بين المرأة وبين

حقوقها هذه، إنما هم رجال لايحبون بلادهم إذ يحرمون مصر من خدمات أولئك النساء» (ص ١٨١).

ثم راحت تعدد أهداف «بنت النيل» على نحو أكثر تركيزا وتحديدا، عندما كتبت تقول «نحن لا نطالب بالعمل فى السياسة من خلال اتحاد بنت النيل ، فهذا ما يحدده الساسة، وكل من ينضم إلى الأحزاب السياسية - كل ما نطالب به هو المساواة فى الحقوق السياسية ، فليس لبنت النيل مآرب سياسية، فكل ما تأمله هو أن المرأة عندما تحصل على حقوقها السياسية ستستخدمها فى خدمة المجتمع حتى نضمن للأسرة حقوقها فى مواجهة مساوىء المجتمع، فلا طلاق دون تقدير واع لعواقبه ، ولا زواج من أجل المتعة وحدها، ولا أطفال مهجورين ، ولا جهل فى البيت أو فى العمل من شأنه أن يقضى على صحة المرأة وكيانها . فالمرأة تعانى من كل ذلك . وإن أردنا معالجة تلك الأمور فلابد أن نختار من يمثلنا من النساء، أو على الأقل - أن ننتخب من الرجال من يتعاطف مع قضيتنا ونحن نطالب بهذه الأهداف العادلة والتى ليست بأهداف سياسية» . (المرجع نفسه - ص ١٨٣).

دعوة للحقوق السياسية للمرأة

ولعل الحرص ، والخوف من إثارة مختلف التيارات ضدها هما اللذان دعياها إلى إعلان أن بنت النيل ليست لها أهداف سياسية ، وأن كل ماتطالب به هو أن تنال المرأة حقوقها وأن تحتل مكانتها ، وأن يتاح لها أن تؤدى رسالتها فى الحياة على نحو مثمر ومفيد تنعكس آثاره عليها، وعلى أسرتها ، وعلى مجتمعها الكبير..وبخاصة لأن تلك الفترة - أواخر الأربعينات - كانت تشهد صراعا سياسياً عنيفا وبخاصة بعد أن مر المجتمع بمأساة فلسطين، ثم اشتداد مظاهر العنف على أثر بروز التيارات المعارضة من مختلف الاتجاهات التى تتخذ العنف وسيلة لها .

وكأنما أرادت درية بذلك أن تجنب نفسها، وتجنب حركتها الإصلاحية شبهة الانضمام إلى التيار اليمينى المتشدد، أو إلى التيار اليسارى المتطرف، لأن كليهما كان موضع عداء بل ومحاربة وملاحقة من السلطات الحاكمة آنذاك بصفة مستمرة .. وبذلك تسنى لدرية أن تمضى فى سبيل مطالبتها بالحقوق السياسية للمرأة، حتى لقد سافرت - على نفقتها - فى صيف عام ١٩٤٩ إلى زيورخ لتسجل اتحاد بنت النيل لدى «المجلس الدولى للمرأة» - ثم كتبت تقول «مأساتنا أن العالم المتحضر لا يعرف عنا شيئاً ولا عن وضع المرأة أو دورها العظيم فى تنشئة



شخصية العدد

اكتسبت المجلة فى عهدها سمعة محلية ودولية كمجلة ثقافية وأدبية رفيعة المستوى

جيل جديد والإسهام فى بناء مصر الحديثة . لذلك قررت تسجيل اتحاد بنت النيل لدى المجلس الدولى للمرأة ، وأن أعلن للعالم تاريخ المرأة المصرية ، ودورها البارز فى حياة وادى النيل فى عصرنا الحديث» (عن المرجع السابق - ص ١٨٨).

وما أكثر ماتعرضت له درية شفيق - فى تلك الفترة - من هجمات ضارية حتى لقد ذهب بعضهم إلى أن وصفها بأنها «عميلة لأعداء بلادها» واتخذوا من مطالبتها بحقوق المرأة، ومناداتها بتخفيف عبء الحجاب، ومعالجة قضية الطلاق، والحد من تعدد الزوجات ومنح المرأة حق الانتخاب ودخول البرلمان - وسيلة للطعن عليها، وتحريف مقاصدها ، وأنها فى ذلك مدفوعة من قبل الاستعمار.

برنامج طموح للإصلاح الاجتماعى

غير أن ذلك كله لم يثن درية ، ولم يقلل من نشاطها، بل راحت توسع من رقعته فأعلنت عن برنامج طموح للإصلاح الإجتماعى يستهدف أساساً «النهوض بالمستوى الاجتماعى والثقافى للمرأة المصرية وإعدادها لحسن ممارسة حقوقها» (المرجع المذكور - ص١٩٥) ومن ثم كان اتجاهها لنساء الطبقة العاملة تقدم لهن خدمات عديدة، وتنظم لهن محاضرات وندوات عامة لرفع الوعى السياسى لدى المرأة بشأن حقوقها وبشأن القضايا الإجتماعية، ومن ذلك جهودها من أجل محو الأمية المتفشية بين الكثيرات من النساء فى مصر فى ذلك الوقت .. و استمر حرصها على السفر إلى أوروبا واقامتها العديد من الصلات الإجتماعية والثقافية فى كافة الأوساط المصرية والأجنبية ، مما حقق لها شهرة كبيرة كانت تساهم فى ازدياد من يحاربونها ولا يكفون عن الهجوم عليها وإن تنوعت دوافعهم إلى ذلك - فبعضها كان عن ضيق أفق يضيق بكل جديد، ويتعصب دائماً للقديم، وبعضها كان دافعه التنافس، والغيرة مما يحققه الآخرون من نجاحات، والبعض الآخر كان مرجعه ما كان يسود المجتمع من صراعات حزبية وطبقية وسياسية واجتماعية بما يدفع إلى إعلان الهجوم - بل الحرب - على كل «الآخرين».

وإذ أجريت انتخابات حرة أسفرت عن وزارة «للوفد» اختارها الشعب بإرادة حرة، فقد التقطت درية مما ورد على لسان رئيس الحكومة - مصطفى النحاس - فى أثناء حملته الإنتخابية - ما وعد به من تأييد لحقوق المرأة وأن من أهدافه منح المرأة المصرية حق الإنتخاب - وراحت درية فى مقالاتها تناشد رئيس الوفد بأن يفى بوعده، غير أن الأمر سرعان ما بدا لها أن تحقيقه غير ميسور فى وقت قريب. فراحت تخطط لعمل آخر: مظاهرة نسائية منظمة تقتحم البرلمان، وتعلن عن مطالب المرأة. وكان أن خططت لقيام تلك المظاهرة فأحسنت التخطيط. وهكذا اجتمعت - فى عصر يوم ١٩٥١/٢/١٩ - مع عضوات الإتحاد وغيرهن ممن انضممن لها، فى قاعة ايوارت بالجامعة الأمريكية، فما أن اكتمل حشدهن حتى انطلقن فى مظاهرة ضمت أكثر من ألف امرأة إلى البرلمان وقمن باقتحام أبوابه، ودخلن إلى أبهائه، مطالبات بحقوقهن السياسية حيث التقين بوكيل



المجلس وواجهنه بمطالبهن، فلم يبد ترحيبا، بل راح يلومهن على هذا الاقتحام المخالف للقانون.. فاتجهت درية إلى مكتب رئيس مجلس الشيوخ، الذى لم يكن حاضرا لوعكة ألمت به، فاتصلت به تليفونيا، وحدثته عن «المطالب» وذكرته بتفسيره للمادة الثالثة من الدستور التى تنص على أن كل المصريين متساوون فى الحقوق ولا تمييز بينهم، وكان أن وعدها خيرا وأنه سيتولى المسألة بنفسه.

حدث له صداه

وهكذا أعلنت درية - واتحادها - مطالب المرأة فى الحقوق السياسية فى قلب البرلمان، وهو الحدث الذى كان له صداه فى الصحافة المصرية، بل ووصل دويه إلى الصحافة العالمية، الأمر الذى دعا درية شفيق أن تطلب تحديد موعد لمقابلة رئيس الحكومة لمطالبته بتنفيذ ما سبق أن وعد به بشأن الإستجابة لتلك المطالب.

غير أنها فوجئت بحملة تصدر فتاوى دينية بحرمة ما تطالب به ومناقضته للدين، فما زادها ذلك إلا إصرارا على موقفها ومطالبها فانطلقت ترد وتناقش وتنشر آراء تؤيدها ترد إليها من شرق ومن غرب.

كما فوجئت برئيس الحكومة يرجىء مقابلتها - التى كان قد تحدد موعدها - كما فوجئت بتقديمها للمحاكمة «لإقتحامها مبنى البرلمان بطريقة غير قانونية»، وحضر معها نفر كبير من المحامين الذى تطوعوا للدفاع وكان على رأسهم مفيدة عبد الرحمن، وكانت المحكمة مظاهرة لفتت الأنظار إلى درية، وبنت النيل، ومطالب المرأة.

> أعلنت درية عن برنامج طموح يستهدف النهوض بالمستوى الاجتماعى والثقافى للمرأة المصرية

فرقة عسكرية من عضوات بنت النيل

وإذ اشتد المد الثورى فى تلك الأثناء تجاه الإنجليز المحتلين، وحدثت مصادمات عديدة مع جيش الإنجليز، وأعقب ذلك إعلان رئيس الحكومة إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦.. ولم تكن درية بعيدة عن ذلك المد الثورى، فقد كانت مقالاتها تترى بالتأييد، بل وراحت تدعو نساء مصر إلى الانضمام إلى صفوف المعركة، وأعلنت عن إنشاء أول فرقة عسكرية فى البلاد من الشابات - عضوات بنت النيل - للنضال مع الرجال، ولإعدادهن لأعمال التمريض وسائر الخدمات الميدانية، انضمت إليها أكثر من ألفى فتاة، كما راحت تجمع التبرعات لمساعدة أسر عمال القناة الذين فقدوا وظائفهم لتركهم «العمل فى معسكرات الجيش البريطانى».

ومع مطالع عام ١٩٥٢ اشتد الغضب الشعبى، ولم يعد

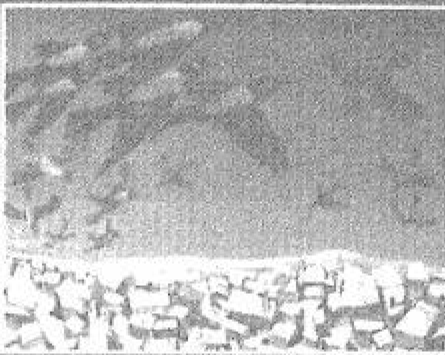
الغضب مقتصرا على المحتل، بل اتجه إلى الملك وإلى الحكومة بصفة عامة، واندست عناصر مخربة، وقد نظمت درية مظاهرة من الإتحاد، بل واختارت عشرين فتاة في زى عسكرى من كتيبتها، ورأت أن تكون مشاركتها بأن تحاصر بنك باركليز، وتحول بينه بين التعامل مع الجمهور لمدة يوم، واجتذبت مظاهرتها الكثيرين، بل وتداخل فيها عدد من الفوضويين الذين راحوا يطلقون الهتافات المحرضة على التعدى على البنك، فبادرت درية تمسك الزمام، وتحول دون اشتداد درجة العنف إلى أن جاءت قوات الأمن، فتداركت الأمر وألقت القبض على درية، إلا أنها أفرج عنها بعد قليل.

حق المرأة في الانتخابات

وكانت الكارثة التي ألمتها هي حريق ٢٦ يناير ١٩٥٢ - فقد ملأها الشعور بالأسى لتقديرها لعواقب الحادث السيئة، وبالفعل فقد سادت البلاد حالة قلق وعدم استقرار، وحل مجلس النواب، وتوقفت الحياة النيابية، وتعاقبت الحكومات فلم تكن تستقر إحداها في الحكم لأكثر من شهر أو شهرين، ومع ذلك فلم تركن درية إلى الهدوء، فما أن أعلن أحد رؤساء تلك الحكومات أنه بصدد إعادة النظر في القوانين الإنتخابية، حتى دعت إلى اجتماع لمجلس الإتحاد، واقترحت فيه أنه عندما يفتح باب الترشيح أن يتقدم بعض العضوات بأوراقهن دون التفات إلى ما تجرى به الأوضاع من قصر ذلك على الرجال، وكان سندها في ذلك - الذى أوضحته في طلبها - أن الدستور لم يفرق بين المصريين، فهم سواء - وبالفعل تقدمت درية بأوراقها للترشيح عن حى عابدين - ولم يزد تصرف جهة تلقى الطلبات عن أن رفعت أوراقها إلى وزير الداخلية الذى احتفظ بها طرفه إلى حين انتهاء موعد الترشيح، فأعادها مع تأشير بعدم القبول حيث أن القانون لا يعطى للمرأة ذلك الحق، فما كان منها إلا أن أعلنت ما حدث، ونشرت تفاصيله، وبادرت تطعن على هذا الإجراء أمام مجلس الدولة.

غير أن ذلك التصرف كان له صداه إذ تناولته الصحف، ودارت حوله مناقشات عديدة ما بين مؤيد ومعارض، بل وصدرت فتوى من المفتي تؤيد وجهة النظر المعارضة لمنح المرأة حق الإنتخاب، ولم تثن تلك الفتوى درية عن مواصلة المطالبة، والرد على معارضيها بمن فيهم المفتى، بل وتطوع الدكتور أحمد زكى بتفنيد ما ساقه المفتي من أسانيد، وخلص إلى تأكيد أنه ليس في الإسلام ما يحول دون تحقيق تلك المطالب، ومن هنا أعلنت درية شفيق أنها ستطعن بعدم دستورية استبعاد المرأة من الحياة السياسية وأنها ستمضى في معركتها إلى أن تحقق لها مطالبها..

وإذ قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، فقد تغير بقيامها مسار الأحداث، وكان لدرية شفيق منها أكثر من موقف - مما كان لذلك من انعكاسات شديدة الأثر والتأثير ليس فقط بالنسبة لنشاطها السياسى والاجتماعى، بل وعلى حياتها العائلية، ثم على وجودها ذاته. ■



حوار الأجيال في المشهد التشكيلي المصري

بقلم
عز الدين نجيب

من بين توابع بينالى القاهرة [illegible] مثل بينالى الخزف وترينالى الجرافيك، [illegible] المعارض الفردية للفنانين بقاعات الدولة لمدة شهرين متصلين كل عام، إذ تحتلها جميعا أجنحة البيناليات والترينالات، بل تفيض عنها لتحتل قاعات متحف الفن المصرى الحديث بالأوبرا. ما يجعل الحركة الفنية المصرية تحيا بلا ماض أو تاريخ؛ ولو بالنسبة للزوار والفنانين الأجانب المشاركين فى هذه المناسبات خلال فترة اقامتها ، واصبح هذا تقليدا سنويا تقترفه وزارة الثقافة بلا أى شعور بالإثم وهى تنفرد به وسط جميع دول العالم. بل على العكس من ذلك: نراها تفتخر بتميزها الحضارى عبر اقامة هذه المهرجانات، والحقيقة أنها تقتطع لإقامتها أغلب ميزانيات المعارض والمطبوعات والاحتفاليات ونفقات السفر والشحن والتأمين بالوزارة بما يحسب بالملايين ، وأن الفنانين المصريين يعانون الضيق والحصار والتمييز العنصرى فى كل موقع، وأننا لو بحثنا عن العائد



بعد هوجة الانفتاح والاعلام فإن نحن نبيرنادرة نعد على الأصابع من مشاهدى هذه الانشطة الدولية كل أسبوع فيصدق عليها القول : ضجيج ولا طحن !

لكن نهر الحركة الفنية أصبح من قوة التدفق والخصوبة بحيث يحفر مجراه خارج المؤسسة الرسمية، من خلال قاعات الجمعيات الأهلية أو التابعة للأفراد.. وهكذا نشطت حركة المعارض خلال شهر ابريل وأوائل شهر مايو الماضيين، من خلال قاعات مثل : الشموع، سفرخان، جرانت، خان المغربي، اكسترا، سلامة، مشربية، تاون هاوس، جميلة، أتيليه القاهرة، وقد نجت قاعة واحدة من القاعات الرسمية من هجوم الربيع الشامل للبينالي، وهي قاعة المركز المصرى للتعاون الثقافى الدولي بالزمالك، الشهيرة بقاعة الدبلوماسيين الاجانب، ربما لأنها أصغر من أن تستوعب بعض أجنحة البينالي.

جولة المعارض

واليوم نختار ثمانية من هذه المعارض، تمثل مختلف الأجيال والاتجاهات الفنية لنقدمها لقارئ «الهلال» .. وعلى غير العادة شهدت حركة معارض هذه الفترة غلبة انتاج شيوخ الفنانين، وتلاهم عددا شباب ثابت القدم في الساحة، وأخيرا بعض الشباب في أول الطريق.. لكن رؤاهم لا تتناقض أو تتصارع، بل تتحاور وتتكامل كلوحة تمثل الوجه الايجابي للحركة الفنية في مصر اليوم .

ممدوح عمار :

أول معارض شيوخ الفنانين كان للفنان ممدوح عمار (٧٣ سنة) بقاعة سفرخان بالزمالك، ويجمع عمار في معرضه طرفي رحلته الفنية الممتدة، فهناك مجموعة من أعمال السنوات العشر الأولى (من ١٩٥١ - ١٩٦١) وفي المقابل مجموعة أعمال سنة ٢٠٠٠، دون أن يقدم شيئا عن مراحله الوسيطة بين هاتين الفترتين، مفضلا أن يفرد لها معارض قادمة، ولعل حرصه الشديد على الاعلان عن استمرارية ابداعه الفني حتى اليوم كان وراء اختياره مجموعة ٢٠٠٠، قافزا على التسلسل الزمني لمراحله الفنية.

في أعمال المرحلة الأولى نجد كل ملامح النبوغ المبكر لممدوح عمار، التي تصل الى مستوى الأستاذية وتضعه في مصاف رواد الحداثة من جيل الجزار وندا ورافع، وتقارب بينه وبين عالمهم المضمخ ببخور العالم السفلي للمعتقدات الشعبية، من سحر وشعوذة وتقديس للأولياء وخضوع «للأسياد» ، لكنه يتميز عنهم بطلاقة خطية وجسارة لونية، وبقدر أقل من التحريف في ملامح المشخصات وعناصر الواقع الخارجي، ويستعيض عن ذلك باستخدام الدمى الذكية «الأراجوز» لتمارس اللعب وتتبادل الأدوار مع الانسان كما نجده أكثر ميلا الى رسم المناظر الخارجية، وان اختار مواقع غريبة مثل المقابر والأماكن المهجورة والموحشة والفضاءات الممتدة التي جاءت مزدحمة بمساحات لونية ضارية ، وهي أعمال توحي - في مجموعها - بنزعة تأملية و«حوشية» معا، تسعى لاكتشاف عالم مجهول .

ثم تأتي القفزة الأخيرة نحو لوحات «عمار» عام ٢٠٠٠، وقد نحا من خلالها منحى رمزيا، باستعارة عنصر الغراب وتوظيفه توظيفا دراميا، ليس من المنظور الشائع حول هذا الطائر كرمز للخراب والوحشة والعيش على الجيف، بل من منظور الحكمة والنظر الى الأشياء من بعيد متفلسفا حول شئون البشر، أو واقعا ضحية ظلمهم، أو دائرا في دوامتهم، أو منشغلا في شئون جنسه.. إننا نرى تكويناته العديدة للغربان، متراوحة بين لقاءات القمة لحكمائها، وبين التحليق في أسراب فوق المدينة التي تبدو كعلب الكبريت، وبين الوقوع ضحايا لبطش الانسان وتعليقه إياهم كالمشنوقين .. وفي كل الأحوال يحقق عمار من خلال شكل الغراب بلونيه الأسود والرمادي ايقاعا بصريا شديد التميز والحيوية، خالقا مساحة واسعة من الخيال لدى المشاهد، لاستحضار رؤى ذاتية من خلال العلاقة بين عالم الغربان وعالم البشر!

عمر النجدي :

وكان المعرض الآخر من شيوخ الفنانين للفنان عمر النجدي (٦٧ سنة) بقاعة جرانت بعابدين، وقد اختار مجموعة من انتاجه في التصوير خلال العامين الأخيرين، يواصل من خلالها عزف ألحانه الأساسية التي شكلت بنية


الرفاق - عمر النجدي

شخصيته الفنية، وهي في الحقيقة تنويعات على لحن أساسي واحد : هو البيئة والموروث الشعبي وحسن الطفولة، من منظور ابداعي معاصر .

فمن رحم الحارة، وميراث العمارة، وتجليات الزخرف الشعبي، ودفء العلاقة الأسرية ، وحس الابداع الفطري للأطفال والكبار، ومخزون المعتقدات والتقاليد، وعواطف الأنوثة والحب والأمومة، وتلقائية اللعب والنزوات البريئة، تبزغ كائنات النجدي وكأنها تأتي من عالم سحيق ومعاصر معا، عبقة بملمس الزمن على الجدران والأسطح ، متحررة من أناقة المحترفين وحذلقة الشكلانيين، لتتيح لأشخاصه وعناصره أقصى قدر من الانطلاق وحرية الحركة والتعبير، أو ما يمكن أن نسميه «العشوائية المحسوبة» ، حيث تحقق - داخل حدود المستطيل - نظاما جماليا خاصا، يجعل من وجوه الفتيات والأطفال، ومن الأعضاء البشرية والطيور والحيوانات والأواني والأرائك وحروف الكتابة وتشققات الجدران، علامات واشارات دلالية وايقاعية في آن واحد، وحسا بالكثافة والشفافية، وبالتركيب والتسطيح، وبالتماهي والمحدودية في الوقت ذاته.. واذا كان الخط بمنحنياته واستقامته، باتصاله وانقطاعه ، يمثل رابطة قوية تجمع التكوين،. واذا جاءت ملامس السطح الخشنة لتعطي للأعمال مذاق الزمن وحيوية النبض، فإن الألوان تشارك في هذه المنظومة، بانتمائها لألوان الأرض والجير والمقابر المصرية القديمة داخل الجبل، وكذلك باستيعابها لحركة تيار الشعور العفوي المتدفق داخل الفنان.

لكن يبقى السؤال : ما الجديد الذي أضافه النجدي من خلال هذا المعرض؟.. والحق أن الجديد قليل، قد ينحصر في مزيد من الجرأة في تشريح سطح اللوحة، وفي تداخل عناصرها بما يقترب أحيانا من التجريد، وفي عفوية الأداء بما يقترب من الدراسة التحضيرية ، وقد يكون صغر مساحة القاعة وطبيعتها الخاصة حاكما في اختيار الأعمال صغيرة الحجم البعيدة عن شطحات التجريب.

حافظ الراعي :

وتفاجئنا قاعة إكسترا بالزمالك بمعرض لفنان جاوز الثمانين من عمره دون أن تعرف الحركة الفنية في بلادنا عنه الا القليل جدا، هو حافظ الراعي، على الرغم من خصوبته الابداعية كما وكيفا حتى عام ٢٠٠٠، دون أن يفقد روح المثابرة وجرأة التجربة وتوهج الفطرة ونقاءها .

حافظ الراعي مصور مشحوذ الحواس تجاه الطبيعة بكل تجلياتها، بين المنظر الطبيعي وحياة الفلاحين والصيادين والحارة الشعبية ، لكنه لا يحاكي ذلك كله بأسلوب وصفي مباشر، بل يعيد صياغته بنزعة تحليلية تركيبية لعناصر الطبيعة والعمارة والبشر، مع ميل الى تشريح المساحات وتعشيقها بحس أقرب الى التكعيبية أو الشفافية البللورية، وقد يثقل على نفسه أحيانا بمحاولة تقديم دراسات تفصيلية للمشخصات الواقعية، فيكون ذلك على حساب النسب والقواعد التشريحية الصحيحة، لكنه ينجح أكثر في لوحاته التي تتداخل فيها العناصر بغير تفاصيل محددة، وكذلك في لوحاته عن الزهور والطبيعة الصامتة، ففيها وهج الألوان وانطلاق السجيّة المشرقة للفنان، أما لوحاته عن الصيادين أو عن فتيات أسوان والنوبة ومواكب الأفراح الريفية


تكوين : مصطفى الرزاز

فتمثل ذروة مسيرته الابداعية التى تمتد منذ عام ١٩٣٩ حين تخرج فى معهد ليوناردو دافنشى بالقاهرة، أو منذ عام ١٩٤٨ حين تخرج من القسم الحر بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة، حيث تتلمذ على أيدى الفنانين أحمد صبرى وكامل مصطفى وحسين بيكار.

إن حافظ الراعى نموذج للفنان الذى ابتلعته دوامة الوظيفة، حيث عمل منذ تخرجه رساما بمتحف التعليم، وظل يتدرج حتى أصبح موجها عاما بالتعليم الثانوى، وكم من مواهب كهذه جرفها تيار الوظيفة وقسوة الواقع.. لكن هاهو يثبت أن المواهب لا تضيع!

أحمد منيب :

وهذه موهبة أخرى أوشكت أعباء الوظيفة أن تبتلعها، لولا اصرار صاحبها على انقاذها بعد أن تحرر من نير هذه الوظيفة مؤخرا... فالفنان أحمد منيب - الذى أقام معرضه خلال شهر أبريل بقاعة الشموع بالمعادى - ظل مخلصا لوظيفته بوزارة القوى العاملة والهجرة حتى أصبح وكيلا للوزارة، وأحيل الى المعاش فى يناير ٢٠٠٠، لكنه ظل محتفظا برباط وثيق بعالم الفن، بالرغم من أنه لم يدرسه دراسة أكاديمية، حيث تخرج فى كلية الحقوق، بيد أن عشقه للفن فتح أمامه عوالم الإبداع عبر الممارسة والاطلاع، سيما خلال فترات مهامه الرسمية الممتدة خارج مصر عدة سنوات، مما هيأ له تأمل كنوز الفن العالمى خاصة الحركة الانطباعية التى صار من عشاقها ومريديها .

إن هناك خطا وهميا بين مرحلتى الهواية والاحتراف فى الابداع الفنى، فلا غنى لإحداهما عن الأخرى.. ذلك أن الفنان المحترف بغير قدر من روح الهواية والمغامرة التى تجعله ينتج للاستمتاع الذاتى ويستطيع أن يتمرد على ما حققه دون انتظار لمردود ، يصبح جهازا حاسبا حفيظا على التى حقق من خلالها نجاحه ووجوده ، والفنان الهاوى الذى يمارس فنه قانعا بامتاع نفسه أو امتاع الأخرين بما يحبون دون استنفار موهبته واختبارها على محكات عوالم الابداع لدى الأخرين، معرض للتجمد والتكرار النمطى كذلك .

وعند هذا الخط يقف أحمد منيب : موهبة قوية متدفقة مليئة بالطموح الى الوجود والتفاعل مع الحركة الفنية، والمجتمع بروح المحترفين، وفى الوقت نفسه يسجن هذه الموهبة فى قالب المدرسة الانطباعية الأوربية فى نهايات القرن التاسع عشر، دون أن يوظفها بذكاء لاستخلاص سمات الفرادة والتميز فى الطبيعة المصرية، على نحو ما فعل أسلافه من الانطباعيين المصريين مثل يوسف كامل وحسنى البنانى وكامل مصطفى وصبرى راغب وموريس فريد. لقد شغلته ذبذبة بقع الضوء واللون لدى التنقيطيين - مثل فان جوخ وسوراه وسيزلى - فجعل من لوحته شلالات من أطياف قوس قزح، لكن القليل منها يعكس روح الطبيعة المصرية ، إنه يصنع فردوسه الذاتى من مخزون عالم الأخرين، وهذا حقه، لكن من حقنا عليه أن يفك أسر هذه الموهبة الحبلى بخبرة كثيفة وقدرة على عمل توليف لونى بالغ الثراء!

مصطفى الرزاز:

عبر ثلاثيته الشهيرة بعناصر المرأة والطائر والحصان، يعود الفنان مصطفى الرزاز بمعرض جديد بقاعة خان المغربى بالزمالك، معتمدا على لوحات صغيرة الحجم للغاية، وان شمل بعض اللوحات



القرية - ابراهيم غزالة

الأكبر حجما حتى تقارب المتر المربع .

إن النظرة العابرة لأعمال الرزاز تجعل المشاهد يشعر وكأنه داخل قاعة ملأى بالوجوه الصينية، فلا يكاد يجد اختلافا بين ملامح الوجوه، لكن المتأمل المتابع لتجربته الفنية يدرك التمايز بين لوحاته حتى ولو ضمت نفس الشخوص والملامح والأشكال. إن لكل لوحة نسيجها الخاص، وكلمة «نسيج» ليست مجرد تشبيه أدبي/ مجازي، بل اعنى بها فعلا تأثير نسيج القماش في ملمس اللوحة، اذ يجرى الفنان فرشاته وخطوطه في متوازيات أفقية أو قوسية بموجات بالغة الدقة والرهافة، ما يجعلها تقترب من البصمة، وكثيرا ما يتم ذلك عن طريق الكشط من قشرة اللون، فيبدو لون الأرضية السابق ، ويتخلل اللون القديم مسام اللون المضاف مغطيا سطحا مخاتلا .

ولقد كانت المشكلة تكمن في ثبات الرزاز عند هذا النسق الذي تحول الى اطار يسجن رؤيته الفنية في قالب «الطقطوقة» المتكررة الايقاع، لولا اختلاف البصمة الملمسية. لكنه في معرضه الأخير أطلق العنان لبعض تكويناته وألوانه، وبقى بعضها الآخر على منواله القديم، أما الجديد فهو اللون البنى المحروق في وجوه فتياته اللاتى يحملن نكهة نوبية دافئة، وكذا التلاعب بالعيون الفرعونية المستطيلة الموارية كالشق الضيق أو كالأهلة الوليدة وهى تتغامز في ومضات متفرقة على سطح اللوحة، لقد استوى اللون في هذه اللوحات وتخلى عن الحلاوة الزخرفية الزائدة التى كانت سمة الأعمال السابقة للفنان .

منصور المنسي :

فن النحت هو الوسيط الذى يصعب خداع المشاهد من خلاله بموهبة زائفة، لأنه الأكثر ارتكازا على الحقيقة المجردة

جولة المعارض

للشكل في الفراغ، سيما لو تخلى الفنان عن عناصر المشابهة والمحاكاة لملامح الواقع المرئي، فيصل الى ذلك الجوهر النقي للكتلة كما تجلت في النحت المصرى القديم. لهذا يقل عدد النحاتين في العالم كله - وليس في مصر وحدها - حتى يبلغ حد الندرة، ويقل - أكثر - عدد المعارض الخاصة بالنحت، فهي - فوق تحدياتها الإبداعية والتقنية - باهظة التكلفة وعسيرة على الاقتناء، ما يجعل من تجربة النحات مسلسلا لا ينتهي من الخسارة والإحباط.

والفنان منصور المنسي لم يكتف بمواصلة خوض تجربة النحت وإقامة معارض متلاحقة لأعماله بالقاهرة، فيما يعمل ويقيم بمدينة أسيوط كمدرس بكلية التربية هناك، بل ينفذ أعماله مباشرة في أحجار الجرانيت والرخام، وقد أقام خلال شهر أبريل معرضه الجديد بأتيليه القاهرة من عشرات الكتل الجرانيتية والرخامية، في وقت يلجأ بعض النحاتين الى استخدام المواد الصناعية الهشة والنفايات الزائلة.

ولقد استهوى الشكل المجرد المصمت رؤية الفنان، بعد أن دأب - في تجاربه السابقة - على اللعب بالأشكال الحلزونية والمدببة الأطراف والتجاويف الغائرة.. إنه يتطلع هنا الى ذلك الجوهر النقي للكتلة الموحية بالأسرار وهي أقرب الى الطبيعة الغفل، فيبلغ درجة متقدمة في مضمار الحداثة، فيما يضرب بجذوره في أرض بلده وفي تقاليد النحت المصرى القديم، بما يحمله من قيم التأمل والخلود والايجاز البليغ.

وبقدر ما تميزت تماثيله الحجرية البيضاء، أخشى أن يكون قد خانه التوفيق في تماثيله التي تبدو وكأنها مدهونة باللون الأسود، فافتقدت - بلمعتها الشديدة تحت الضوء، وبرخص خامتها الأصلية - درجة النفاسة والأصالة للمنحوتات الحجرية في نفس القاعة، هذا بالرغم من أن المعالجة النحتية للشكل فيها لا تقل عن مثيلتها في الأعمال الحجرية

إبراهيم غزالة:

كثيرا ما ينخدع المشاهد عند الوقوف أمام بعض الأعمال الفنية ذات الشبه بالواقع الخارجي فيعتبرها أعمالا واقعية، فيما هي تنتحل قناع الواقع لتصل من ورائه الى «واقع آخر» مستقل عن الأصل، وهذا ما نسميه «الواقع الفني».

ومعرض ابراهيم غزالة الذي أقيم أوائل شهر مايو بقاعة المركز المصرى للتعاون الثقافي الدولي بالزمالك مثال واضح على ذلك، والفنان نفسه يشارك في الخدعة فيطلق عليه عنوان «مناظر مصرية» مهيئا المشاهد لرؤية مجموعة من المناظر الطبيعة، وهي بالفعل مشاهد من البيئة الريفية تشمل بيوتا وأشجارا ومدرجات طينية وأبراج حمام ونخيلا وبشرا على شاطىء النيل، لكن ذلك جميعه ليس الا «موضوعا» أو مبررا للفنان لصنع عالم جديد مواز لعالم الواقع، انه يصنع فردوسه الخاص من خلال بناء فسيفسائي ونغمي عن طريق البقع اللونية الوضاءة المتجاورة بنظام هندسي محكم يتصاعد ويتنامى عبر آلاف البقع اللونية المصفوفة ، فيخلق في النهاية «حالة غنائية صداحة» مستعينا بايقاعات النور والظل، وبجماليات العمارة الشعبية في النوبة والصعيد، وبنثريات الحياة اليومية في القرية وهي - بارتعاشاتها وذبذباتها اللونية - تصنع في النهاية «متتاليات موسيقية شعبية» بتوليف سيمفوني بين عدة ألحان تتداخل



جولة المعارض

وتتصاعد فى لحن أساسى كورالى الصدى.

وقد تغلب القصدية والاحكام الهندسى على بناء لوحاته، ولذلك تتميز عن المدرسة الانطباعية - التنقيطية - التى تقوم على الاسقاط العفوى اللحظى لضربات الفرشاة، لكنها - أى اللوحات - من ناحية أخرى، مهددة بأن تتحول الى تصميمات زخرفية متأنقة، بفعل هذا الاحكام الهندسى، لكن لعل التجربة تصل الى منتهاها فتكتسب نبضها العفوى، وتتخفف من أناقتها المترفة وحلاوتها اللونية الزائدة .

مجدى الكفراوى:

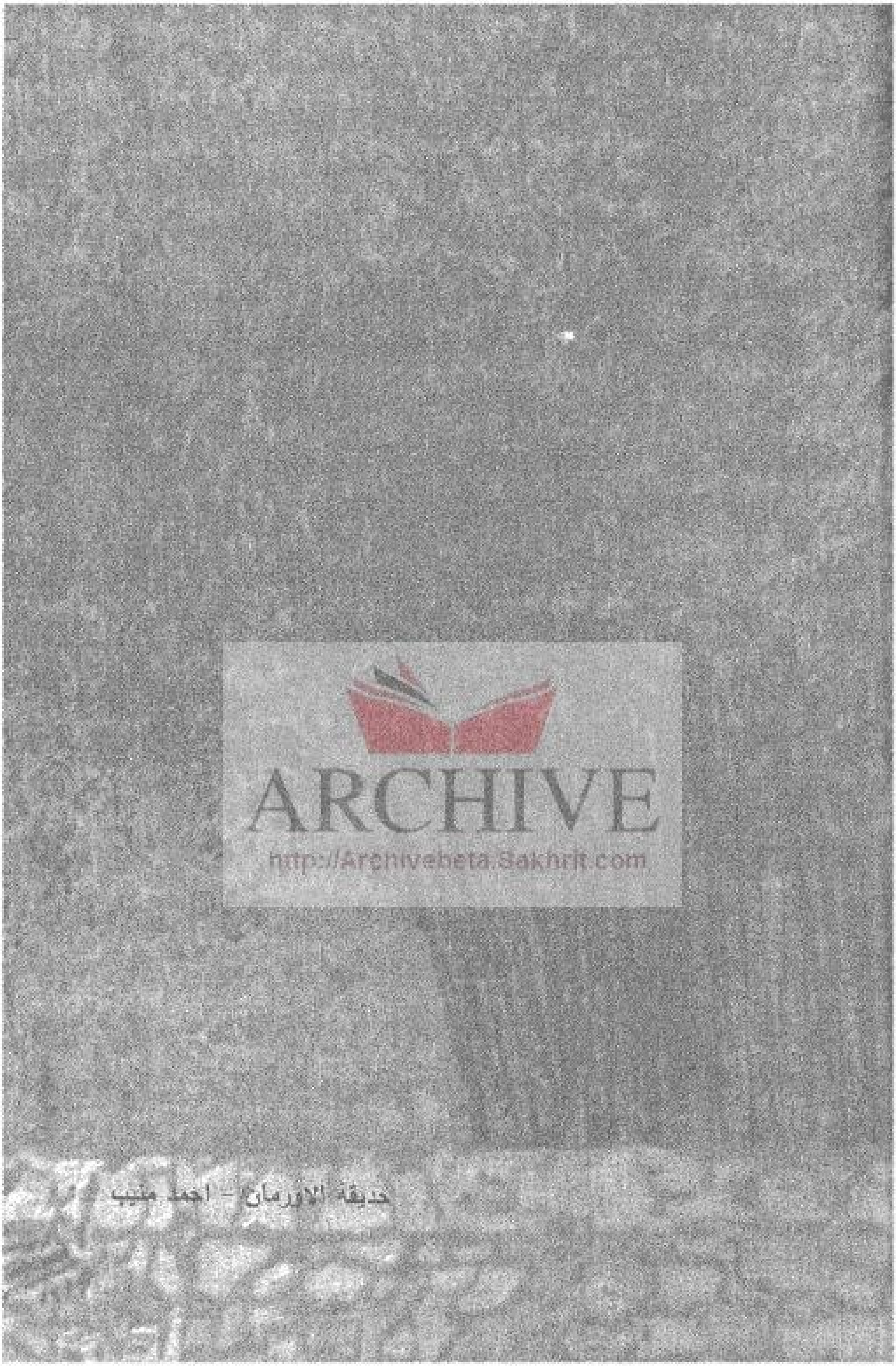
فى قاعة جميلة بالمعادى كان معرض الفنان الشاب مجدى الكفراوى فى التصوير الزيتى يوم ١٠ مايو، وهو معرضه الأول بالقاهرة بعد معارض سابقة بمحافظة الغربية منذ تخرجه فى كلية التربية الفنية.

انها حقا بشارة بميلاد فنان حقيقى يبحث بإخلاص ودأب عن «لغة وفكرة وموقف» للوحته، وليس عن بريق واثارة وصخب، كما اعتدنا فى معارض الشباب فى السنوات الأخيرة. انه ما يزال يحترم منطق «اللوحة» بمفهومه المتعارف عليه، دون أن يخضع للأساليب التقليدية، أو أن ينساق لمحاكاة عمياء لاتجاهات التغريب، فخرجت أعماله رصينة البناء متماسكة التكوين متصاعدة الايقاع متناغمة الألوان هامسة التعبير قادرة على مخاطبة مستويات التلقى المختلفة لدى المشاهدين، بما تملكه من احترام لعناصر الواقع وبما تحمله من مدركات رمزية وفكرية، ولعل الأيام تعجم عوده فيحقق مزيدا من السيطرة على أدواته الفنية.

خطوة واحدة:

تحت هذا العنوان أقيم معرض لثلاثة فنانين شباب بقاعة اتجى أفلاطون بأتيليه القاهرة فى شهر أبريل، من بينهم أختان توأمتان هما غادة وهبة خليفة، وثالثهما تامر شاهين. وبالرغم من أنهم من خريجى كلية الفنون الجميلة حديثا، فقد تخلصوا من تأثير الدراسة الأكاديمية «المقولبة»، وحاول كل منهم أن يشق طريقه باحثا عن رؤيته الأسلوبية الخاصة بأقصى قدر من الجرأة والعفوية والثقة بالنفس، وبالرغم من طموحهم الجارف للتحقق الفنى ، فإنهم لا يركبون موجة جيلهم اللاهث خلف جوائز صالون الشباب بالبحث عن الاثارة والتغريب عن طريق الخامات والتركيبات الاستفزازية ، فلديهم قناعة بأهمية الدراسة والتجريب انطلاقا من احترام سطح اللوحة ومدركات الرؤية، سواء كانت خارجية أو باطنية، لذا فإن الأختين غادة وهبة التحقتا لمدة عامين خلال وبعد تخرجهما من الكلية بالمرسم الحر لجمعية أصالة وشاركتا فى معارضها ، واليوم تتعاملان - ومعهما زميلهما تامر - مع القيم الفنية المجردة انطلاقا من الطبيعة، فيأتى التجريد أو الشحنة التعبيرية أو الدلالة الرمزية بسلاسة وبدون افتعال.

إنها حقا خطوة، لكنها من الجدية والثقة بحيث تحمل وعودا بميلاد فنانين ذوى أقدام راسخة! ■


حديقة الاورمان - احمد منيب



سينما تلهو وشعب يلعب

بقلم
مصطفى درويش

●● إذا سئلنا عن السينما المصرية خلال النصف الأول من السنة التى بدأت بها الألفية الثالثة والقرن الحادي والعشرون، فمن الحق علينا أن نقول أنها سينما تلهو ومرآة لشعب يلعب.

فباستثناء فيلم يتيم «أسرار البنات» لصاحبه مجدى أحمد على، ذلك المخرج الجاد، والاستثناء لا حكم له كما يقال، فجميع الأفلام الأخرى أقرب أن تكون معرّة، منها إلى أى شىء آخر.

وليس أدل على ذلك من أن أكثرها تحقيقا للايرادات، وبقاء فى دور العرض منذ العيد الكبير، وحتى كتابة هذه السطور هو «صعيدى رايح جاى» ●●

وعنده، وعند أفلام ثلاثة أخرى، أقف قليلا وبداية، فاثنان من بينها انتجتهما الدولة، من خلال مدينة الانتاج الاعلامي، التابعة للتليفزيون المصري، ذلك الصرح الذى ولد عملاقا.

وهما «يمين طلاق» و«العاشقان».

وابدأ بيمين طلاق لا لسبب سوى أن عرضه تصادف مع عرض الفيلم الأمريكي «التهريب».

وكلاهما لمخرج كبير، الأول صاحبه على عبدالخالق الذى بدأ مشواره مع الأطياف «بأغنية على الممر» (١٩٧٢) وبعده أخرج حوالى أربعين فيلما ومسلسلا تليفزيونيا لعل أهمها «العار» عن الاتجار بالمخدرات.

أما التهريب فصاحبه ستيفن سودر برج، وأحيانا يختلط الأمر على البعض، فيظنونه ستيفن سبيلبرج صاحب الفك المفترس، قائمة شندلر وحديقة الديناصورات.

وفى فيلميهما، يعرض المخرجان المصرى والأمريكى لمأساة إدمان المخدرات.

وسأكتفى هنا بعرض كل منهما باختصار، بادئا بالتهريب، وبكلمات قليلة تعرّف بصاحبه.

الشاب المعجزة

بهر «سودر برج» مهرجان كان، قبل ثلاث عشرة سنة بفيلمه الأول «جنس أكاذيب وشريط فيديو» فكان أن فاز، ولدهشة الكثير، بالجائزة الكبرى لذلك المهرجان (السعفة الذهبية)، وهو لايزال فى ريعان الشباب.



ومنذ ذلك الحدث الكبير لم يخرج سوى ثمانية أفلام معظمها لم يحقق نجاحا كبيرا، غير أن السنة الأخيرة من القرن العشرين كانت سنة سعد بالنسبة له، ذلك أن المقادير أتاحت فرصة القيام خلالها، باخراج هما «ايرين بروكوفيتش»

وأتاحت لكلاهما أن يحقق ايرادات فاقت المائة مليون دولار، وهو أمر لم يتحقق، من قبل، لأى فيلم له، بما فى ذلك فيلمه الفائز بسعفة مهرجان كان.

ومن دلائل السعد الأخرى ترشيح الفيلمين لأكثر من جائزة أوسكار.

«ايرين بروكوفيتش» لثلاث، من بينها، جائزة أفضل ممثلة رئيسية «جوليا روبرتس»، وبالفعل فازت بها، قبل أسابيع.

والتهريب لخمس جوائز، فاز منها بأربع، هى جوائز أفضل مخرج وممثل مساعد (بينيشيو ديل تورو) وسيناريو

مقتبس وتوليف (مونتاج).

وسودربرج يكاد يكون وحيد نوعه بين مخرجي مصنع الاحلام.

فله أسلوب متميز، تنفرد به أفلامه على نحو تبدو معه وكأنها أوروبية.

ولعل ذلك يفسر بعض الشيء الحماس الشديد لفيلمه الأول في «كان»، وعدم الاقبال على مشاهدة أفلامه اللاحقة في بلاد العم سام .

بداية مذهلة

وأول مشهد فى التهريب، يؤكد المنحى الفريد، غير المألوف فى سينما «سودربرج».

فكم غير قليل من لقطاته ذو طابع أوروبى ولانها كذلك، تمر أمام أعيننا، قبل أن نتيقن من أن ما نشاهده ليس الا فيلما أمريكيا فالأشخاص فى المشهد يتكلمون بالاسبانية، والصحراء تحاصرهم من كل جانب، والألوان يغلب عليها اللون البنى، والكاميرا تتحرك بينهم وبين اللورى الملىء بأكياس الهيروين، محمولة على كتف المخرج، الذى هو فى نفس الوقت مدير التصوير، وثمة طائرة محلقة فى الأفق، سرعان ما تحط على الطريق، ويخرج منها عسكر، بكامل السلاح وعلى أهبة الاستعداد.

بهذا المشهد تبدأ أولى قصص الفيلم، وهي ثلاثة، متداخلة، محكمة البناء.

وأحداثها تدور فى المنبع، أى حيث المكان الذى تعبر منه المخدرات المهربة، بكميات هائلة إلى الولايات المتحدة، أرض الميعاد ، مع اللذات.

ومكان العبور هذا ، هو باختصار الحدود بين الجارتين المكسيك والولايات.

وأحداث القصة الثانية تدور فى المصب، وبالتحديد «سان دييجو» بولاية كاليفورنيا، حيث العصابة، بشبكة أفرادها الذين يقومون بعمليات الاستيراد والتوزيع.

أما أحداث القصة الثالثة فتقع فى العاصمة واشنطن، حيث يعين البيت الأبيض مسئولا كبيرا مشرفا على هيئة منوطا بها مقاومة التهريب، ويؤدى دوره مايكل دوجلاس، النجم الفائز بأوسكار أفضل ممثل رئيسى عن أدائه فى فيلم «وول ستريت» (١٩٨٧) وتتداخل القصص الثلاث بفضل سيناريو مأخوذ عن مسلسل انجليزى بنفس اسم الفيلم، ومكون من أربع حلقات.

عسكر وحرامية

وتبدأ أحداث القصة الأولى بشرطيين يواجهان العصابات، عند الحدود بين المكسيك والولايات، ويؤدى دور أحدهما «بنيشيو دبل تورو».

وسرعان ما تقتحم المشهد طائرة حربية، يترجل منها جنرال مهيب فى الجيش ، مكلف بمحاربة التهريب.

غير أنه ، ومع تسلسل الاحداث، يبين أنه يعمل لحساب كارتل اجرامى قوى، يسعى إلى احتكار تهريب المخدرات إلى الولايات، وذلك لن يكون الا بالنجاح فى تصفية كارتل آخر منافس، بكل الوسائل بما فى ذلك التصفية الجسدية والارهاب والتعذيب .

وفى سان دييجو يعيش زعيم أحد الكارتلين الاجراميين، مع زوجته الحسناء

كاترين زيتا جونز وابنهما الصغير.

وتبدأ أحداث القصة الثانية مقبوضا عليه، فى قصره، وأمام زوجته الملتاعة، وذلك لانها لم تكن تعرف من أسرار ثرائه شيئا.

بيد أنها ما أن تعرف السر الكبير، وهو أن زوجها الرأس المدبر لأهم عمليات التهريب، حتى تنقلب امرأة شرسة.

وفى سبيل انقاذ صغيرها من الخطف، وربما القتل وانقاذ زوجها من آثار حبس مهين، تلجأ إلى استئجار قاتل محترف، مهمته اسكات صوت شاهد الاثبات الوحيد.

أولاد الأكابر

وتتداخل أحداث القصتين مع أحداث القصة الثالثة، حيث يكتشف المسئول الكبير، الواقف لتهريب المخدرات بالمرصاد، أن ابنته الوحيدة «اريكا كريستنسين» ، وقعت فريسة الادمان.

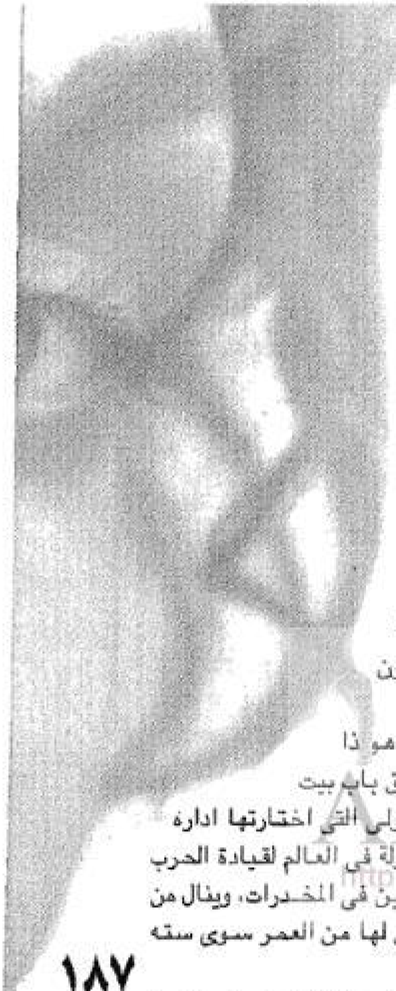
وبسببه سقطت فى مستنقع بيع الجسد، من أجل الحصول على بضع دولارات، تدفع ثمنا لشمة هيروين.

كل هذا فى فيلم واحد من مائة وخمسين دقيقة، تمر وكأنها ثوان.

ومن اعجازات السيناريو، تشابك احداث قصصه الثلاث، دون أن تلتقى شخصيات أى منها، ولو لقاء عابرا.

ولقد اختار «سودر برج» لبعض الأحداث طابعا تسجيليا، مما اضفى على الفيلم صبغة واقعية، قاسية إلى حد كبير.

كما اختار لكل قصة لونا خاصا، حتى يكون فى وسع المشاهد أن يفرق بين الأماكن المختلفة، دون كبير عناء.



يبقى لى أن أقول أنه، ورغم كل ما نعرفه، نحن المتفرجين، عن المخدرات وتجارتها وتعاطيها، وهو كثير، الا أن سودر برج، زاد بفضل فيلمه من معرفتنا لأبعاد مأساة الادمان، دون وعظ وارشاد.

فها هو ذا الادمان يطرق باب بيت الشخصية الأولى التى اختارتها ادارة أقوى وأغنى دولة فى العالم لقيادة الحرب ضد المتاجرين فى المخدرات، وينال من ابنته التى ليس لها من العمر سوى سته عشر ربيعا.

ويبدو من أحداث الفيلم بنهاياتها الفاجعة، أن تلك الحرب كما تقودها الولايات المتحدة مآلها الفشل الذريع.

انتصار الأشرار

فحجم المال الدائر فى تجارة المخدرات أزيد من حجمه فى أية تجارة أخرى، بما فى ذلك تجارة السلاح والمال الذى يملكه بارونات التهريب له قدرة فائقة على إفساد السلطة، رجالا ونساء، بكل وسائل الاغراء.



العاشقان فيلم عجوز



فيفي عبده بطلة يمين طلاق



كاترين زيتاجونز -امرأة قيصر المخدرات

وهم ، أي البارونات، يقاتلون من أجل الحفاظ على أرباحهم الخيالية بضراوة تفوق ضراوة حيوان الغاب.

فعلاوة على الترغيب ، لا يتورعون عن الترهيب.

كل ذلك عرضه، ولا أقول فضحه سودر برج في «التهريب».

بداية مخجلة

وإذا كان «سودر برج» قد استهل فيلمه بلقطات مذهلة فاللقطات التي استهل بها «يمين طلاق» كانت ، والحق يقال، مخجلة بسوقيتها وسوء تصويرها، إذ نشاهد فيها «تيسير فهمي» هي وزوجها يتشاجران ويتضاربان خارج شقتهما ، أمام الجيران.

وما هي إلا لحظات، حتى تنطلق من فم الزوج الغاضب عبارة «روحي وأنت طالقة» ، بعدها تتشرد تيسير، هي وصغيرها منه، إلى أن تعثر على مأوى في بيت صديقة «شادية عبدالحميد» زوجها، لسوء حظ تيسير، أو بمعنى أصح الصغير، زير نساء «أبو بكر عزت». هكذا بدأ فيلم علي عبدالخالق الأخير أما كيف انتهى، فبنداء على لسان الصغير، بعد أن صار شابا يافعا «نادر حسن» ، يقول فيه، والكاميرا مسلطة على وجهه، في لقطة كبيرة «أبغض الحلال عند الله الطلاق».

وفيما بين لقطات الاستهلال، وهي سابقة على العناوين، ولقطة الختام، حيث تحوّل «نادر» إلى مرشد لنا، يهدينا سواء السبيل.

فيما بينهما تجري أحداث يغلب عليها التلفيق والافتعال.



عبث عابث

ولن أحكي شيئا من تفصيل تلك الأحداث، وإنما أحكي خلاصتها في كثير جدا من الايجاز .

فلو حكيت تفصيلها ، لتنقلت من شيء سخيف إلى شيء أشد سخفا.

فتيسير المطلقة يشتهيها «أبو بكر» من أول نظرة، فيطلق «شادية»، ويتزوج «تيسير» فتتشرد «شادية» هي وابنها الوحيد، كما تشردت ، من قبل «تيسير».

أما لماذا طلق «أبو بكر» رغم أنه صائغ، واسع الثراء، ومن حقه شرعا الجمع بين «شادية» و«تيسير» ، زوجتين في الحلال ولماذا ارتضت الأخيرة أن تشرد صديقتها التي آوتها، وأن تهان ، فذلك لا نجد له أي تفسير منطقي في سيناريو «يسري الهياتمي» المليء بالثغرات.

القصد الاوحد من طلاقهما، وأن يكون لكليهما صغير ينحرف مع مرور الايام، فيصبح مدمنا، فمجرما محترفا، القصد منه التأكيد على فكرة تزعم بأن الطلاق شر،

مؤداه، بحكم اللزوم، انحراف الابناء.

ولم يكتف السيناريو، تأكيدا لتلك الفكرة، بشابين انحرفا بسبب طلاق الامهات، بل أضاف اليهما شابا ثالثا «ماهر عصام» انحرف هو الآخر، فسقط في هاوية الادمان، وأرجع انحرافه إلى شقيقته المطلقة هي الأخرى «فيفي عبده».

وعلاوة على ذلك فالسيناريو جعلها، أي «فيفي» مجرمة في عصابة تزييف للدولارات بزعامة «مصطفى متولي» الذي تهز أمامه «اردافها يمنة ويسرى من حين لأخر، وهو ممسك بالجوزة متغزلا.

وبطبيعة الحال أرجع السيناريو انحرافها إلى يمين طلاق أطلقه خليجي، عندما رفضت الاستجابة إلى طلبه التخلص من الجنين الذي في أحشائها، بالاجهاض.

وكل هذا الزيف والسخف، يجري عرضه أمام أعيننا، دون ذوق مهذب، من خلال مشاهد تعاطي كثيرة، بدءا من الجوزة، وانتهاء بالشم، مرورا بمشاهدة الأفلام الزرقاء مع الانفاس، لاقصد منها سوى التهريج الرخيص.

أما الصدق والاقتراب من الواقع ولو قليلا، فقل عليهما السلام!!

أيام حلوة

والآن إلى أول فيلم يخرجه نور الشريف «العاشقان».

ومما يعرف عن ذلك النجم أنه ليس مبتدئا في دنيا الاطياف، فله، حتى الآن، في مجال التمثيل السينمائي زهاء مائة وسبعين فيلما.

ومن المؤكد أن ذلك العدد الكبير من الأفلام كاف في حد ذاته، لأن يجعل من «نور» فنانا ناضجا.

ومع ذلك، فلم يأت في فيلمه بشيء يوحي بأنه استفاد من ذلك الكم من الأفلام.

فلغة السينما فيه عتيقة، أقرب إلى أن تكون لغة مدرسية لطالب مجتهد، لم يتعلم من لغة السينما سوى ألف بائها، ويعمل على تطبيق ما تعلمه بالحرف، دون ابتداع في استعمال اللغة، ودون ابتكار في الرؤى، كل ما هنالك قصة ملفقة، افتعلت أحداثها المؤلفة «كوثر هيكل»، وسيناريو أكثر تلفيقا وحوار غير متصل بما ينطق به لساننا، في أثناء ممارستنا لحياتنا يوميا، ولا حتى بهموم تلك الحياة، ما كان منها عاديا أو رومانسيا.

فموضوع الفيلم، عماده التلفيق جملة وتفصيلا.

ومن هنا ابتعاده عن الصدق كثيرا، وعدم اقترابه من الواقع الا قليلا.

باختصار العاشقان فيلم زائف، خال من الاهتمام بالهموم المعاشية الحقيقية، قوامه ادعاء، شديد الاملال، بانتهائه، ومع كلمة ختام، نتنفس الصعداء.

هذا عن الفيلمين اللذين انتجتهما الدولة، من خلال مدينة الانتاج الاعلامي، وياليتها ما أنتجتهما، فوفرت الوقت والمال، وجنبتنا احباطا، نحن في غنى عنه في هذه الأيام الحالكة السواد.

فإذا ما انتقلنا إلى الفيلمين الباقيين وهما «لو كان ده حلم» و«صعيدي رايح جاي»، والأخير أنجح أفلام السنة، حتى هذه الساعة، فسنجد أنفسنا أمام عملين



جنس .. اكاذيب وشريط فيديو اول فيلم لسودربرج

أحدهما أقرب إلى الكليبات، والآخر أقرب إلى مسرح على الكسار فى الربع الأول من القرن العشرين.

لو كان ده فيلم

والفيلم الأول من تأليف وإخراج طارق النهرى والراجح أنه ليس له رصيد لا فى دنيا التأليف ، ولا فى دنيا الاخراج.

وذلك لا يعنى أنه فنان دون ماض فى دنيا صناعة الأطياف.

فأغلب الظن أنه ذو ماض، ربما فى صناعة الكليبات، ولعله من جيل الشباب.

ومن هنا جنوحه إلى اختيار أبطال فيلمه من بين جيل جديد، ليس له سابق عهد بالسينما، أو عهده بها قريب، مثل «طارق لطفى» و«ماجد الكدوانى» و«أميرة فتحى».

وباستثناء الأخيرة ، فجميع من وقع عليهن اختيار «النهرى» لأداء الأدوار الرئيسية ليس بينهن واحدة، غير مبتدئة، وأثر ذلك انعكس على أدائهن الذى جاء مشوبا بالجمود والبرود فى أكثر الأحيان.

عشوائيات

وكل ذلك يهون لو كان قد جنح صاحب الفيلم إلى اقامته على سيناريو محكم البناء، وليس على سيناريو ملىء بعورات التخليط.

فأحداث فيلمه، وحتى منتصفه على وجه التقريب، يبدو منها، وكأننا مقبلون على مشاهدة ملهاة موسيقية، الجميع فيها يغنى، مشيدا بالعمل الحرّ، والكسب الحلال.

وبين الحين والحين تصاحب الغناء،

تشكيلات راقصة.

ولكن ما أن ينتصف الفيلم، حتى ينسى «النهرى» أنه من نوع الملهاة الموسيقية.

وإذا به فجأة يوقف الرقص والغناء، ويتحول بفيلمه إلى عمل ميلودرامى زاعق، قوامه جريمة اغتصاب.

ولسوء حظ «أميرة» يقع اختيار النهرى عليها لتكون فريسة ثلاثة ذئاب بشرية، أو ربما أربعة ذئاب.

أما لماذا لا أتذكر ما إذا كانوا ثلاثة أو أربعة، فذلك لان وقائع الاعداد للاغتصاب والشروع فيه، ثم ارتكابه، اختلط فيها الحابل بالنابل، لعيب جسيم فى السيناريو والتوليف (المونتاج).

وداعا للذوق السليم

وكانت أميرة، بعد الاغتصاب، فى أسوأ حالاتها من الناحية الجمالية، ولو كان النهرى يجيد لغة السينما، أو حتى يعرف مفرداتها مثل نور الشريف، ويريد الابقاء على صورتها فى ذاكرة المتفرجين، لحذف لقطات مدير التصوير «محمد حمدى» لوجهها، وقد شوهه اعتداء الذئاب غير أن شيئا من ذلك لم يحدث.

وكان لبقاء تلك اللقطات القبيحة أثر سيء علينا، نحن المتفرجين، ولعلها الشيء الوحيد المترسب على شاشة ذاكرتنا من فيلم ردىء، يندم المرء على الوقوع فى شرك مشاهدته.

صمت البحر

أما الفيلم الثانى فصاحبه مخرج مقلّ، ليس له رصيد من أفلام، على امتداد اثنى عشر عاما، سوى أربعة آخرها «الهجامة» (١٩٩٢)، إنه «محمد النجار» الذى ظل مختفيا عن الانظار، زهاء تسعة أعوام

ولان أفلامه الأربعة كانت توحى بإننا إزاء مخرج واعد، فقد أثار الدهشة، قيامه – بعد انقطاع أخباره زمنا طويلا – باخراج فيلم هزلى، جوهره التهريج، تحت اسم صعيدى رايح جاى، وبطله «هانى رمزى» أحسن رموز المسرح التجارى السائد، هذه الأيام.

ففى أولى لقطات الفيلم، نراه مؤديا دور مدرس تاريخ جديد، لتوه آت من الصعيد.

وبتكليف من ناظر المدرسة، يلقى كلمة يقدم فيها نفسه إلى الطلبة، بأسلوب يذكرنا بمدرسة المشاغبين.

سينما أم مسرح معلب

ومن هذه البداية، وحتى آخر اللقطات، حيث نراه فى الأقصر مع «نادين» والاثنان فى قمة السعادة، تحيط بهما آثار الفراعين، وأنا حائر اتساءل هل ما تراه عيناى على الشاشة عملا ينتسب إلى فن السينما، بمفردات لغته، ولو من بعيد.

أما ما تراه، لا يعدو أن يكون عملا مسرحيا معلبا، مرتدا فى كل شيء، خاصة طريقة الأداء، إلى المسرح القائم على الالحاح والمبالغة والزعيق والتشويح.

وأياما كان الامر، فقصة الفيلم، كما ألفها كاتب السيناريو «محمد صفاء عامر» إنما تدور أحداثها بين القاهرة وصعيد

مصر، حيث لا يزال يطلب الثأر للشرف المهان.

وبطل القصة يعيش في القاهرة، حيث يعمل مدرسا، ويسكن في شقة، حيث تطارده، وتغازله، إحدى بنات الجيران، ليل نهار، ودون حياء.

أما لماذا عاد إلى الصعيد، فذلك لان أباه العمدة «عبدالله فرغلي» قد جاءه الموت فجأة في حادث تصادم، وهو في طريق عودته من القاهرة إلى قريته، بعد صفقة عمر، بموجبها باع مقتنيات مقبرة أحد الفراعنة بمليون جنيه، أو ربما دولار.

ولأن العمدية من أمجاد أسرة «هاني» وعشيرته فقد فرض عليه أن يتولاها، حفاظا على تلك الأمجاد.

تلفيق وتكرار

ومن خلال سيناريو ضعيف، ظاهر التلفيق والافتقار إلى المنطق، نتابع رحلته في الصعيد، حيث يتهدده الموت، حيثما ذهب برصاص بنادق الاعداء.

والسؤال من هم هؤلاء الأعداء المتربصون له في كل مكان؟

إنهم أفراد عشيرة شيخ البلد «يوسف داود» المطالبون بالثأر له، لانه مات مقتولا، وأدلة الاتهام جميعها تشير إلى العمدة، بوصفه العقل المدبر لجناية قتله، وذلك قبل وفاته في الحادث الأليم.

وبدءا من عودته إلى الصعيد، والمطاردات تتكرر، مفتقدة التجديد.

وينحدر التلفيق إلى الحضيض، عندما تختطف مذيعة التليفزيون «نادين» ثم يجرى انقاذها بأسلوب أفلام التحريك «الكارتون».



الإقحام والافتقار والحق، أن دور «نادين» مقحم في الأحداث، شأنه في ذلك شأن دور الجارة المولعة بهاني، المقتحمة شقته في القاهرة، تراوده عن نفسه، كما يحلو لها، وفي كل مكان، وهو يأبى كسيدنا يوسف في سالف الزمان.

وهنا، لا يفوتني أن أشير إلى دور الأم لأقول أن «انعام سالوسة» أدته على النحو النمطي المعهود في رسم شخصية المرأة الصعيدية في الأفلام الهزلية التي تعرض لأسلوب الحياة في جنوب مصر، بشكل ساخر، مشوب بعنصرية مقيتة، تصور الصعايدة وكأنهم همج، لا يقيمون وزنا للحياة، ولا يتصرفون الا كما يتصرف البلهاء.

وإن يكون هذا الفيلم أكثر أفلام العام الجديد نجاحا لخير دليل على أننا أمة تلهو وشعب يلعب. ■

قصة قصيرة

ابتهال

قصة : د. محمد حسن غانم

بريشة : سميحة حسنين



كل حبال المودة تهرأت ، والجسور تحطمت ، ولم يبق إلا طريق الشوك غصباً أساق فيه إلى نهايته ، بغض النظر عن الدماء التى تسيل، والقلوب التى ستحترق .إذ أرسل لى والدى خلال العام الأول من الغربة أن أتعجل بالزواج ، وفى الخطاب التالى أخبرنى أنه قد عثر على العروس بنت الحلال والتى ستغزل معى خيوط الأيام والأحلام ، الليل فى الغربة طويل ، والريح دائما متقلبة تحمل الغبار والأتربة ، وتخترق القلب وحناياه بضراوة . فى لحظة جنونية أرسلت لوالدى التوكيل بأن يفعل كل ما يراه

فى صالحى . أمى تهدج صوتها فرحاً وهى تخبرنى عبر الهاتف أنها بذلك ستطمئن لأن الزوجة خير ونيس فى الغربة. تعد لك طعامك ، تسامرك فى الليل الطويل ، وتحكم عليك الغطاء حين تطيح به هواجسك الدموية، ضحكت حتى الأعماق وأنا اقول لها : بحسبك فأنا رجل وقد عبرت بالأمس سن الثلاثين ، غير أنها قاطعتنى بحدة : الأولاد مهما تقدم بهم العمر سيظلون فى نظرنا مجرد أطفال يستحقون الاهتمام .

- ٢ -

إلى المطار ذهبت . تفتت قلبى من الدق المتواصل فى انتظار العروس والتى لا أعرف عنها سوى النزر اليسير مشاعر مضطربة أغرقتنى وسط اللج المجهول . أديم النظر فى الصورة الفوتوغرافية .. أتساءل هل تنطبق الصورة مع الجسد النابض ، الطازج . أفقت حين انبعث الصوت الداخلي يعلن عن وصول الطائرة ، تمزقت تماما . أجلت النظر فى صفحة السماء طالبا من الله أن أعبر هذا الموقف بلا أدنى اضطراب.. عزائى الوحيد أنها ستكون مرتدية ملابس الزفاف ، وهذا فى حد ذاته علامة فارقة تجعلنى أقترب منها بلا أدنى تردد .

- ٣ -

غرقت فى بحور الحب حتى الثمالة . ثم أفقت على واقع مؤلم متشابك كخيوط العنكبوت . كنت أحاول استدراجها لكى تحدثنى عن حياتها إلا أنها طلبت منى أن أبدأ أنا .. فحدثتها عن الطفل الصغير الذى التزم وانتظم فى صفوف الكتاب ثم الدراسة ، وحاول رغم الصعاب أن يواصل حتى حصل على الشهادة الجامعية ثم لم يستسلم لغول البطالة ولعن الأيام الخوالى والتى تربعت فى قلوبنا هما وأشواكا . فالتحقت بالعمل فى عدة وظائف هامشية . ثم أتت فرصة السفر فانطلقت فى الاتوبيس البرى أعبر الفيافى وأقابل الغربة بثقة وامتنان فى الغد .

- ٤ -

حدثتنى عن الطفلة اللاهية الشقية والتى تسارع أمها - بعد وفاة والدها الثرى - إلى تلبية كل مطالبها . حتى الطهى لا تجيده . تطلب منى أن احضر الطعام جاهزا من المطاعم . تتأفف من مجرد ذكر «تقشير البصل» أو «تقصيص الثوم» أو الانتظار الممل حتى ينضج الطعام. حاولت فى الأيام الأولى أن أتجاهل هذا الاكتشاف المريع ، وكنت أدخل إلى المطبخ وأعد الطعام ، وهى تنتظرنى متعجلة أن أسرع ، غير أننى قد تساءلت بعد عدة أشهر . وإلى متى سيظل هذا الأمر؟!

تنتظرنى حتى أعود ، لحظتها أكون كخرقة بالية من عمل لا يرحم . فأبدل ملابسى . أكتم ثورات الغضب المتأجج أوارها بداخلى وأدخل إلى المطبخ أطهو الطعام . أتظاهر بالابتسام ، ثم بعد ذلك تتراكم الأوانى والصحون كالتل العاق فى حوض المطبخ لعدة أيام. حتى ثارت اعصابى ذات يوم، والشمس كانت كبقع الزيت الباهت فى الفضاء ، والامطار قد حولت أسفلت الشارع إلى وجه ملىء بالجدرى والنمش .

- لماذا إذن تزوجتينى؟

فردت بعفوية جارحة

- لأنك دفعت فىّ الكثير .

-٥-

أعود من العمل مرهقا، أحيانا لا أتناول الطعام ، أريد أن أنام ولو ساعة حتى أريح هذا الجسد الذى استعبد إلا أنها كانت تطلب منى

إبتهال
قصة قصيرة

ألا أنام بحجة أن الفراغ والهواء المكتوم قد حولا حياتها إلى جحيم . أتمالك أعصابى . نجوب الشوارع بلا هدف، ننزل إلى الأسواق .تتلمظ عيناها تطلب منى أن اشترى لها هذا وذاك من الذهب والثياب .. وإذا لم أفعل تتأفف بصوت عال ، تندب حظها، تتهمنى بالبخل والتقتير ، فأفعل على مضض وأحيانا بلا هدف ، حتى استيقظت على حقيقة أن هذه المرأة التى أضاجعها أحيانا لا تنتمى إلى ولا أنتمى إليها ، وقد ضبطت نفسى أتساءل .

- ما الذى تفعله هذه المرأة هنا فى شقتى ؟!

-٦-

مع الأيام انتفخ بطنها . تراقص بداخلى - رغم كل ذلك - الأب الرابض فىّ، قلت فى نفسى : فلتنهمر الأمطار دفقة واحدة ، ولعل المولود القادم يضفى على زوجتى تعقلا ونضجا . أحطتها بكل صنوف الرعاية . رفضت المراجعة فى مستشفى الولادة رغم حديثى المتواصل عن الخدمات الجيدة وأحدث الأجهزة . عند طبيبة خاصة انتظمت . بعد تسعة أشهر من الترقب والانتظار المحبب رزقنى الله بابتهال .

-٧-

الأمور ازدادت سوءا ، وحتى نظافة الشقة وترتيب السرير قد تبدد من سمائى بحجة أنها مشغولة طوال اليوم والليل بالبنت. ترفض إرضاعها من صدرها بحجة أنها تريد أن تحافظ على رشاقتها . تتعرض البنت لحالات من الاسهال والبرد الشديد والسعال الحاد المتواصل فآخذها إلى الأطباء فلا اعثر عليهم فى هذا الوقت الذى تجمع فيه النجوم خيوطها لتنام .

فارتبطت بي البنت . وربطت كآبة الواقع والغربة التي أنسجها من أعصابي في العمل والبيت .

– ٨ –

– لا مفر من الطلاق

هكذا أخذت أردد لنفسي بعد أن احتدم النقاش بيننا ذات ليلة ، وفقدت السيطرة على أعصابي ، فهويت على صدغها بكف يدي برفق . إلا أنها حولت هذا المشهد والذي كان من الممكن أن يمر دون أن تلحظه الرقابة إلي ما يشبه المأساة الاغريقية . إذ انهالت على صدغيها لطما وسبا وسط ذهولي وبكاء البنت . ثم في لحظة جنونية فتحت باب الشقة وصرخت بأعلى صوتها أن زوجها يضربها وعلى الناس أن تسرع حتى تنقذها من بين أنياب هذا الذئب .

– ٩ –

استقر القرار . من الغد ستذهب إلي مكتب الطيران لترحل في أقرب وقت . منذ أسبوع وأنا أرمي جسدي المنهمك على مرتبة متهرئة استلقت في نفور على أرضية الحجرة الأخرى. رغم أننا في شقة مكونة من غرفتين وصالة إلا أنني لم أعد التقي بها . والبنت هي التي تهلل لقدومي ، وتبكي حين أقوم مبكرا للذهاب إلى العمل . تستيقظ معي، تعد لي الحذاء والجورب . تحوطني برعاية تجعلني أتمزق وأنا استشرف المستقبل بمنغصاته . هذه البنت ستعيش مع أمها ثم نبدأ في خوض زلزال الطلاق وتداعياته .. وهذه البنت ما ذنبها وماذا سافعل بها ولها.

– ١٠ –

من الغد ستسافران

وقد قسوت على البنت في الأيام الأخيرة حتى لا تتشبث بي ، وحتى أنفض عن قلبي هذا الحب الكبير لها . سأصاب بالاكتئاب إذا مر يوم دون أن أراها . فلأحصن نفسي وأتظاهر بالقسوة ، حتى تكون لحظة الرحيل بلا دماء . حتي فوجئت وأنا مستلق على المرتبة المتهرئة في أرضية الغرفة الثانية بالباب يفتح على حذر . كنت ما بين النوم واليقظة . استيقظت تماما على يدين صغيرتين تحوطان بعنقي وبفم صغير يغرقني بالقبلات . وجدتها ابتهال .. قالت لي من بين دموعها .. «بابا أنا أحبك» تجاويت معها دموعي وتساءلت : هل هذه البنت ، في هذه السن تفهم المأساة . بغتة أضيء نور الحجرة وجدت زوجتي . سمعت الحوار . استلقت معنا على المرتبة . خيل لي أنها وعدتني من بين دموعها أنها ستتغير ، وأنها ودعت وإلى الأبد أيام النزق الأولى توسطتنا الطفلة فرحة مهللة . ولأول مرة أرى ضوء القمر يترقرق طربا من نافذة الحجرة ، ويغسل بضوئه الحنون وجوهنا المتعبة . ■

أسماء لها تاريخ

بقلم
وديـع فلسطين

الشاعرة جليلة رضا تغيب في صمت

غابت الشاعرة جليلة رضا فى صمت وانسحبت من دنيا الشعر والشعراء ، والأدب والأدباء دون أن يحس بها مجتمعنا الأدبى المنشغل بالصراعات والحزازات والصراع على القصاع، أدركتها المنية فى الثانى عشر من مارس ٢٠٠١ (وهى من مواليد ٣١ ديسمبر ١٩١٦) وقنعت الأسرة بنعى من خمسة أسطر فى صفحة الوفيات ضاع فى زحام المناعى ذات الأطر والمجاملات من ذوى المناصب والرتب الفخيمة ورجال المال والأعمال .

وقد وجمت عندما قرأت نعيها الحيى، وفزعت بآمالى إلى الكذب كالمتنبى وزاد من وجيعتى أننى قلبت بعد ذلك صفحات الأدب ومجلات الأدباء التى صدرت بعد يوم النعى عساى أقع فيها على ما يوحى بأن المجتمع الأدبى استشعر الفجيعة فى رحيل هذه الشاعرة الأصيلة، فلم أقع فيها على شئ وكأنما غياب شاعرة كانت آخر المبدعات في الشعر لايحرك ساكنا فى هذا المجتمع - الذى أكاد أصفه بالمزعوم - ولا ينبهه إلى الفجيعة المرة التى حاقت بدنيا الشعر ودنيا الأدب ودنيا الأخلاق والمثل العليا .



جليلة رضا



إبراهيم ناجى



عبد الله شمس الدين

غِبَّ وفاة الشاعر إبراهيم ناجي قررت رابطة الأدباء التى كان يرأسها وكنت وكيلها مع جمهرة من أصدقاء ناجي إقامة حفل حاشد لتأبينه ، واخترنا قاعة جمعية الشبان المسلمين للقيام بهذا الواجب . واصطف المؤبنون على المنصة فى صفين، وكان موضعي فى الصف الثانى خلف سيدة اتشحت بالسواد وأرسلت شعرها الفاحم الطويل وراء ظهرها، وهى سيدة كنا نراها للمرة الأولى، فحسبناها من كرائم سيدات الأسرة جاءت لتلقى باسمها كلمة شكر للمحتفين برحيل عميدها إبراهيم ناجي. ولما نادى عريف الحفل قائلاً: الشاعرة جليلة رضا تلقى قصيدتها فى رثاء ناجي، إشرأبت الأعناق إلى هذه الشاعرة المبتدئة فمن أين جاءت ؟ ومتى بدأت تقول الشعر ؟ وهل تراها تستطيع الصمود بشاعريتها الغضة فى هذا الجمع؟ إنها لمغامرة حقاً قد تكتب لها الخيبة!

ونهضت جليلة رضا بقامتها المشوقة ووجهها الذى عاف الألوان والأصباغ ، وألقت قصيدة من ذوب فؤادها أدركنا من عباراتها أنها كانت تعرف الشاعر إبراهيم ناجي، وأنها تعد نفسها تلميذة له، وها هى - وقد صدمتها وفاته المفاجئة - تسمعنا هذه الأبيات المبكيات. لقد خيبت ظنوننا وبددت خشيتنا، حيث دانت لها ملكة الشعر وقبضت على ناصيتها ، فأفحمت كل من تشكك فى شاعريتها ، وأنا منهم .

تلميذة ناجى

لم تدهشنا جليلة رضا بشاعريتها بقدر دهشتنا لمعرفة أنها تلميذة لناجي كنا وقتها فى رابطة الأدباء نكاد نعد الأنفاس على ناجي، ونكاد نعرف عنه كل ما يتصل بحياته الشعرية - لا الطبية طبعا - ومع ذلك ، فلم نسمع منه أبداً اسم جليلة رضا، ولا عرفنا أن له تلميذات يتعهدهن بالرعاية والتشجيع والحب. وظل هذا اللغز خافياً عنا إلى أن نشرت جليلة رضا سيرة حياتها فى سلسلة «كتاب الهلال» منذ بضع عشرة سنة ، وفيها أفصحت عن حكايتها مع ناجي. إذ كانت تقيم فى حى شبرا ، وكان ناجي يملك عيادة فى شارع شبرا على ناصية شارع ابن الفرات وقد زرته فيها كصديق لا كمريض - وعندما أعوز جليلة رضا مراجعة طبيب ليداويها

أسماء لها تاريخ



سلامة موسى



عادل كامل



نجيب محفوظ

من متاعبها الصحية اختارت غشيان عيادة الدكتور ناجي. وهناك صارحته بأنها تهوى الشعر، وأطلعته على بعض محاولاتها، فأخذ يوجهها ويشجعها ويدلها على المحجة فصارت تكثر من التردد على عيادته ، وصار هو يزداد اقترابا من شاعريتها وهى فى طور النضج والنماء . وكانت تجربتها الأولى فى الظهور أمام الملأهى الوقوف بين المؤبنين لتبكى بشعرها أستاذها الغالى الذى مهد لها الطريق، ولم يضن عليها بالسديد من الآراء والتوجيهات

ومنذ هذا التاريخ بدأت جليلة رضا تغشى منتديات الأدب ، وتجرب حظها فى نشر شعرها ولا سيما فى مجلة «العالم العربى» التى كان محررها أسعد حسنى يحتفى فيها بالشباب من الأدباء. ولكن جليلة رضا لم تمر بمرحلة التجريب والمحاولة ، بل وقفت راسخة القدمين منذ أول ظهورها أى أنها ولدت شاعرة مكتملة الأداء ، تحاذى الشاعرتين الكبيرتين جميلة العلايلى وروحية القلينى .

صخرة حطمت حياتها

ولئن كان الشعر بالنسبة لجليلة رضا مسلاة وترويحا عن النفس ، فقد عاندتها الأيام فى حياتها الشخصية التى تحملتها صابرة مؤمنة. كان زوجها الأول مستشاراً من رجال القضاء، وعاشت معه فى بحبوحة جميلة إلى أن رزقت - إلى جانب ابنتها الوفية ثريا - بابن متخلف عقليا وعلى هذه الصخرة تحطمت حياتها العائلية وكأنما هى المسئولة عن هذا الحظ العاثر وقد عاش هذا الطفل فى كنفها أكثر من أربعين عاماً ترعاه وتعالجه دون أن تستقيم أموره إلى أن فقدته فى حادث سيارة وهو فى شرخ الشباب، فاهتز لذلك كل حياتها اهتزازاً عنيفاً.

ولم تكن جليلة تجد عزاء لها إلا فى الشعر ، تنظمه وتطالع به الناس الذين لا يعرفون أن وراء هذا الشعر قلباً ينزف ومحنة قاسية تحملتها الشاعرة دون ضجر، وإن كانت أطياف هذه المحنة تتجلى فى دواوينها السبعة ومنها «الأجنحة البيضاء» و«اللحن الباكى» و«اللحن الثائر» و«العودة إلى المحارة» وغيرها وقد رشحتها شاعريتها لعضوية لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب فزاملت فيها كبار الشعراء ، ولم

تكن تتخلف عن جلسات اللجنة ولا عن اجتماعات رابطة الأدب الحديث فى عهد رائدها العظيم مصطفى عبد اللطيف السحرتى - وهى الرابطة التى خلفت رابطة الأدباء التى أنشأها الشاعر إبراهيم ناجى . بل لقد ألمحت فى مذكراتها إلى أنها انجذبت لشخصية السحرتى دون أن تفضى باسمه، واعتبرته خليفة لناجى فى رعاية شاعريتها والأخذ بيدها بل لقد كتب عن شاعريتها فصلا طويلا فى كتابه «شعر اليوم».

وفى لجنة الشعر التقت بالشاعر عبد الله شمس الدين - شاعر نشيد الله أكبر فوق كيد المعتدى - وهذا أسمعها من عبارات الغزل والمديح ما عزف به على أوتار قلبها . وإذ كانت تسعى جاهدة فى سبيل تحقيق السعادة المفقودة، فقد ارتضت أن تتزوجه إزاء إلحاحه المتواتر، وكانت تحسب أنها الزوجة الوحيدة فى حياته ولكنها فوجئت ذات يوم بسيدة عراقية تطرق باب بيتها ومعها جيش من البنين والبنات وقالت إنها زوجة شمس الدين ، وهؤلاء هم أولاده ،وكانت مفاجأة غير سعيدة لجليلة رضا التى اعتذرت لطارقة الباب قائلة إنها لاتسر بتحطيم هناءة أسرة، وطلبت الطلاق من الشاعر . ولكن يبدو أنها ظلت مسحورة به لأنها نشرت قصيدة فى مجلة الهلال جاء فيها ما مؤداه :نادنى من آخر الدنيا فألبى دعوتك. وواضح أنها كانت تقصد هذا الشاعر ، ربما لأنها - كشاعرة - وجدت فيه خير رفقة .

وفى سعيها الحثيث لإدخال السعادة إلى حياتها جربت بعد ذلك حظها بالزواج للمرة الثالثة من الصحفى محمد السوادى المحرر البرلمانى لجريدة «البلاغ» لصاحبها عبد القادر حمزة باشا وصاحب جريدة «السوادى» .وكان السوادى خارجا لتوه من السجن لاتهامه فى قضية سياسية، وكان بلا عمل وبلا صحة وبلا مال وبلا شباب. ولكن الشاعرة الصابرة تحملت هذا الرجل اشفاقا منها على تاريخه واحتراما لقلمه المتمكن فى التعليق على مناقشات مجلس النواب «تعليقا» لا يخلو من فكاهة ومداعبة و«قفشات» ولكن السوادى عزل جليلة رضا عن المجتمع الأدبى فلزمت دارها معظم الوقت ، وكفت عن غشيان مجالس الأدب ، وتحالفت عليها الأمراض وآثار الشيخوخة وكادت تنسى لولا ما كانت تنشره من شعرها فى الحين بعد الحين فى مجلة «الهلال»وفى مجلة «قافلة الزيت» وقد رعت جليلة رضا شيخوخة السوادى إلى أن لحق بربه .

ولئن كان الشعر هو الميدان الأصيل لجليلة رضا، فقد أصدرت إلى جانب دواوينها السبعة كتابا من جزءين فيه دراسات لدواوين الشعراء كتبتها بقلم نقدى بصير ذواقة للشعر.

وليت المجتمع الأدبى الجاحد يكفر عن جحوده بنشر المجموعة الكاملة لشعر جليلة رضا حتى لا يضيع بدوره فى سراديب النسيان

النقاد الأوائل لنجيب محفوظ

كانت بداية نجيب محفوظ بداية متواضعة وليس فى هذا عيب فقد احتفى المفكر سلامة موسى ونشر له بعضا من كتاباته الفلسفية فى «المجلة الجديدة» كما



عبد الحميد جودة السحار



علي أحمد باكثير



محمد عبد الحليم عبد الله

نشر له كتابا مترجما عن مصر القديمة، ولكن بدايته الحقيقية جاءت عندما انضم إلى «لجنة النشر للجامعيين» التى أنشأها الأديب عبد الحميد جودة السحار (برأس مال هو مجوهرات زوجته حسب اعترافه)، وهى لجنة كانت تضم فى أول الأمر السحار ونجيب محفوظ وعادل كامل وعلى أحمد باكثير ، وكان ذلك عام ١٩٤٣ قبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها كان الإظلام الحالك بسبب الحرب، وانخفاض عدد صفحات الصحف اليومية إلى أربع صفحات واقتصار الإذاعة على محطة واحدة ، وانخفاض الناس عن غشيان دور السينما والمقاهى بسبب صفارات الإنذار التى تطلق إيذاناً بوجود إغارة جوية تحتم على الناس اللجوء إلى المخابئ المعتمة تحت الأرض، هذه الظروف جميعا أورثت الناس ساعات طويلة من الفراغ فانتهزها أحمد الصاوى محمد الذى أخذ يصدر سلسلة شهرية من الكتب راجت رواجا كبيرا حتى قيل إنه اشترى ضيعة من إيرادها، فتشجع السحار بدوره على إصدار سلسلة من الكتب لأعضاء لجنة النشر للجامعيين ، وكان بعضهم قد فاز بجوائز عن رواياته من السيدة قوت القلوب الدمرداشية ووزارة المعارف، وهكذا توالى صدور مؤلفات أعضاء اللجنة قبل أن ينضم إليهم آخرون ومنهم محمد عبد الحليم عبد الله وأمين يوسف غراب وبعض كبار الكتاب مثل محمود تيمور بك وكامل كيلانى وسيد قطب ووداد سكاكينى وإبراهيم المصرى وغيرهم .

وقد تناول بعض النقاد أعمال أعضاء هذه اللجنة فكانوا رواداً فى التعريف بالمؤسسين الأربعة (السحار ومحفوظ وعادل كامل وباكثير) وذلك قبل أن يلتفت الأكاديميون والنقاد المحترفون والدارسون لآثارهم .

وفيما يتعلق بنجيب محفوظ، قام صديقنا على شلش باستقصاء النقاد الأوائل ، الذين عالجوا رواياته من واقع الصحف والمجلات المنشورة واثبت فى كتابه «نجيب محفوظ: الطريق والصدى» كلمات هؤلاء النقاد بترتيب ظهورها فى الصحف والمجلات الأدبية مع تاريخ كل

مقالة وموضع نشرها، وأعد قائمة بأسماء ١٤ ناقدا رتبهم وفقاً لترتيب ظهور مقالاتهم وهم : محمد جمال درويش ووديع فلسطين (الذى كتب ٥ مقالات عن نجيب محفوظ وتنبأ له فى إحداها بالوقوف على قدم المساواة مع كتاب الرواية العالميين) وسيد قطب وأحمد عبد الغفار ومحمد سعيد العريان وسهيل إدريس وأديب مروة ومحمد فهمى وغائب طعمة فرمان وأحمد صالح وأنور المعداوى وثروت أباظة وزكى المحاسنى ومحمد عبد الغنى حسن. وفاته مقال للروائى يوسف الشارونى نشر فى «مجلة علم النفس» فى شهر يناير ١٩٥٠ مما يجعله سابقا من حيث الترتيب على المعداوى.

وعندما فاز نجيب محفوظ بجائزة نوبل أعلن - وهو ما كرره غير مرة - أن أول من كتب عنه فى بداياته هو أنور المعداوى. وطبيعى أن هذا الكلام المرتجل لا يتفق مع الواقع الذى حسمه على شلش فى كتابه المذكور ، فالمعداوى هو الحادى عشر من النقاد، وإذ يسبقه الشارونى فيصبح الثانى عشر فى الترتيب .

والنوبلى معذور إذا كانت ذاكرته لم تستوعب إلا اسما واحداً وتنسى أسماء الذين لهم فضل الأولوية فى التعريف بنجيب محفوظ ، ولكن هذه المقولة غير الصحيحة باتت تتناقل على أقلام الكتاب وآخرهم نبيل فرج. فهل من مذكر للنقاد والدارسين الجدد بأن المعداوى سبقه أحد عشر ناقدا لنجيب محفوظ لايصح أن تهتضم حقوقهم الأدبية - إذ ليس لهم حقوق مادية كما هو معروف ؟

أول امرأة تدخل مجمعا عربيا

كان لمجمع اللغة العربية بدمشق السبق فى اختيار أول امرأة لعضويته، إذ أن جميع المجامع الأخرى مازالت موصدة أمام دخول المرأة .

فقد عينت الدكتورة ليلى الصباغ، وهى أستاذة تاريخ متخرجة من جامعات مصر، أول امرأة تنظم إلى عضوية مجمع دمشق، وهى خطوة قوبلت بالترحيب الكبير، ولعلها تفتح الباب أمام انضمام أخريات إلى المجامع العربية فى مصر والأردن والعراق والسودان وفى دار الحكمة فى تونس وفى الأكاديمية فى المغرب .

وكانت الدكتورة بنت الشاطئ والدكتورة سهير القلماوى قد حاولتا المرة بعد المرة اقتحام متاريس مجمع اللغة العربية بالقاهرة فلم تفلحا على جدارتهما الأمرة بالعضوية، مما ثبط همة غيرهما من النساء من محاولة الانضمام إلى مجمع الخالدين.

وليس فى قوانين المجامع نص صريح يمنع المرأة من التمتع بعضويتها، ولكن الأعراف شبه المستقرة جرت على أن المجامع للرجال وحدهم حتى وإن كانت أغلبية العاملين فى الجهاز الإدارى للمجمع من النساء - كما هو الشأن فى مجمع القاهرة .

أما وقد فتح مجمع دمشق الباب أمام المرأة، فلعله يشجع خليفات بنت الشاطىء وسهير القلماوى - إن وجدن - على تجربة حظوظهن، لاسيما وأن عضوية المجمع وإن



نزار قباني



سهير القلماوي



بنت الشاطئ

علت سن معظم أعضائها من الرجال - لاتشترط سنا معينة في المرشحين .

نزار قباني في الأندلس

عندما كان الطبيب الروائي السوري عبد السلام العجيلي وزيراً للخارجية في سورية ، عرف أن صديقه الشاعر نزار قباني غير سعيد في عمله في السفارة السورية في الصين ، فقرر استثناء من كل القواعد نقله إلى مدريد ليعيش في الأندلس ، فتزداد شاعريته توهجا في هذه الديار وكان نزار يصف الفترة التي قضاها مستشاراً في سفارة سورية في مدريد بأنها «المرحلة الوردية».

واتفق أن كان السفير السوري في مدريد هو الدكتور نادر الكزبري زوج الأديبة الكبيرة سلمى الحفار الكزبري فأصبحت السفارة منتدى أدبيا، وأصبح الحديث عن الشعر والأدب أغلب من الحديث عن السياسة ومشكلاتها . ولهذا أطلقت سلمى على هذه الفترة من حياتها بأنها مرحلة «الزمن الأخضر».

ومن أجمل الكتب التي تمزج بين ذكريات الأندلس وندوات الشعراء كتاب «ذكريات أسبانية وأندلسية مع نزار قباني ورسائله » الذي أصدرته الأديبة سلمى الحفار الكزبري لتروى فيه فترة من أحلى فترات العمر، ثم لتضيف إلى ذلك مجموعة من رسائل نزار - بخط يده - يسجل فيها خواطره ومشاعره وأحلامه ورؤاه وهو يعيش في الجو الأندلسي الحالم، وهي رسائل بقيت من ضنائن سلمى الحفار الكزبري إلى أن قررت الإفراج عنها لتغدو متعة مشاعة للقارئين، ومن أحلى القصائد التي استوحاها نزار من الأندلس وسجلتها سلمى في كتابها قصيدته الموسومة «إلى أندلسية» وفيها يقول انه اجتمع بفتاة من الأندلس سمراء ذات ملامح شرقية فلما سألته : من أين جئت ؟ قال : من دمشق التي تتجلى في ملامح وجهك وختمها بقوله :

يا ليت وارثتي الجميلة أدركت
أن الذين عنتهم أجدادي
عانقت فيها عندما ودعتها
رجلاً يسمى طارق بن زياد

كتاب الهلال

يقدم

من التواصل إلى التفاعل الحضاري

بقلم :

د. مجدي يوسف

يصدر

٥ يونيه - ٢٠٠١

روايات الهلال

تقدم

شرف كاتارينا بلوم الضائع

بقلم :

هاينريش بل

(نوبل ١٩٧١)

ترجمة : د. شحاته ياسين

تصدر

١٥ يونيه - ٢٠٠١



التكوين

أبي رسّخ لديّ مبدأ الانتماء وحب العلم

كمال بشر

بالنسبة للنشأة الأولى فأنا في الأصل ابن فلاح. وكان أبي فلاحا من الفلاحين الكبار ذوي المنزلة الاجتماعية والاقتصادية المرموقة في القرية. وتربيت في حجر والدي ووالدتي : فلاح عادي جدا في كل أنماط السلوك والتقاليد والأعراف أشاركهم في كل عمل يقومون به سواء في الحقل أو في المنزل، وظللت على هذه العادة إلى أن أتيت إلى القاهرة.

أما بخصوص النشأة التعليمية والتثقيفية فقد بدأت بالكُتّاب كعادة أبناء القرية آنذاك، كان ذلك في العشرينيات تقريبا حوالي عام ١٩٢٧-١٩٢٨، حين دُفع بي إلى كتاب الشيخ حسن في القرية ذاتها، وحاولت حفظ القرآن على يديه ولكني تركته بعد شهور قليلة لأسباب كثيرة منها قسوة زوجه على الأولاد طلاب الكُتّاب. حيث كانت تطلب منهم أن يقوموا بأعمال خارجة عن عملية القراءة والكتابة في القرآن الكريم، مثل جمع جريد النخل واستخلاص الخوص لصنع بعض الأدوات مثل «القفف» وما شابه ذلك.

حفظت القرآن في تسعة أشهر

نقلت بعد ذلك إلى ما يسمى بالمدارس الأولية حيث كانت في مركز دسوق مدرسة واحدة لا تتبع الحكومة ولكنها تشرف عليها، وكان صاحبها رجلا غنيا وخصص لها أوقافا للإنفاق عليها، ودرست فيها ثلاث سنوات، وفي صيف من الأصياف كان والدي يجلس مع زوج عمتي وأنا أرعى البهائم بجوارهما أمام البيت، فسمعت والدي يقول لزوج عمتي: «نعمل إيه في الولد ده يا شيخ علي» فقال جملة كتبت في السماء ولازمتني حتى صرت أحمل درجة الليسانس، قال: «نخرجه من المدرسة الأولية ويذهب إلى كتاب الشيخ محمود» وبالفعل خرجت من المدرسة إلى كتاب الشيخ محمود الذي كان شيخا عميقا عريقا حافظا مجيدا للقراءة والإقراء، فحفظت القرآن على يديه في تسعة أشهر وكانت وصية الشيخ على

لوالدى أن أدرس بالأزهر بعد حفظى للقرآن ثم أدخل دار العلوم وقد كان .

ذهبت إلى الأزهر وقضيت فيه أربع سنوات كاملة لأنتقل إلى الثانوية ووالدى لايعرف هذه الأشياء بالدقة الكافية، فأوصاه أحد الأصدقاء بألا يبعث بى إلى معهد طنطا الذى تتبعه منطقتنا لأن الطلبة فيه يغلب عليهم الشغب والمظاهرات - كما يقولون - ورأى أن يرسلنى إلى معهد الاسكندرية وتقدمت إليه وقبلت. وكان الذهاب إلى هناك مهمة عسيرة فى ذلك الوقت: كيف يصل الولد وكيف يعيش، وماذا يأكل وغير ذلك. اصطحبنى والدى إلى الاسكندرية عن طريق دمنهور.

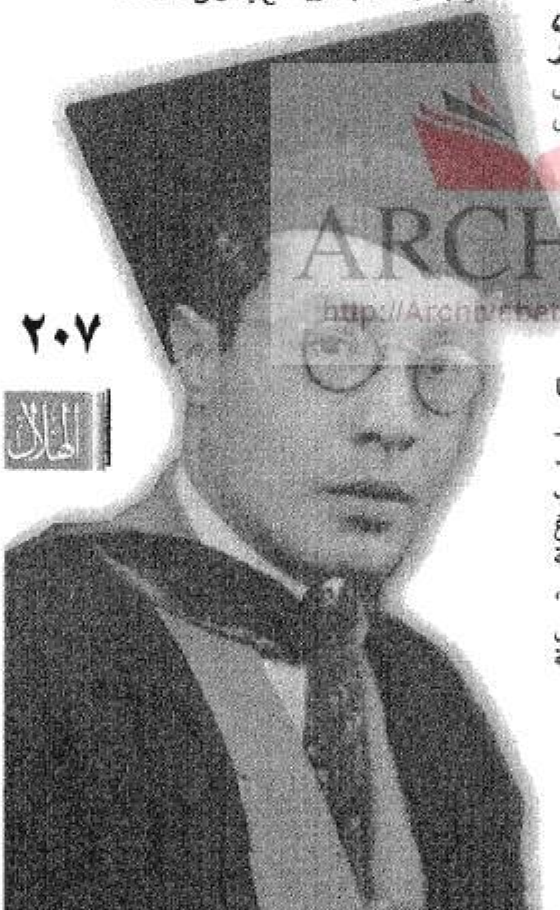
جلست مع القفة على عربة الخضار

عندما نزلنا فى المحطة فى حى محرم بك اكتشفنا أن المكان الذى سوف أعيش فيه «المسافر خانة» وهو سراية بجوار قصر رأس التين، والمسافة بين رأس التين ومحرم بك كبيرة جدا لايمكن أن يعبرها الانسان على قدميه ومعه الزوادة وهى قفة كبيرة جدا مثقلة بما فيها من الطعام الريفى، فطلب والدى من صاحب أحد «الحناطير» توصيلنا ولكنه طلب عشرة قروش وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت فرفض والدى، ووجد عربة خضار خالية يجرها صبى فطلب منه أن يوصلنا فطلب قرش صاغ فوافق، وأجلسنى مع القفة على العربة التى يبيع عليها هذا الصبى الخضار، وجرها الصبى ووالدى يمشى على الأرض طوال هذه المسافة هذه لفتة أبوية لا أنساها طوال حياتى.

كانت «المسافر خانة» هى مكان الإقامة والدراسة معا، حيث كنا ندرس فى الدور الثانى وننام فى الدور الأول، وقضيت هناك سنتين كاملتين حتى قامت الحرب العالمية الثانية، فانتقلنا إلى معهد طنطا الذى رأى والدى ألا أدخله فى البداية فقضيت هناك ثلاث سنوات وأخذت الشهادة الثانوية من الأزهر . وكان ترتيبى العاشر على مستوى القطر المصرى، وكان والدى قد توفى وأنا فى الاسكندرية حيث كنت استعد لامتحان السنة الثانية .

رحلتى إلى دار العلوم

بعد حصولى على الشهادة الثانوية الازهرية فكر الناس - بعد فقد والدى الذى كان يفكر لى - إلى أين أذهب وكنت أرغب أن أظل بالقرية مع إخوتى لأننا كنا



صغارا والعدد كبير، هكذا كان شعورى فأصرت الأسرة على أن أنتقل إلى الدراسة العليا فى مكان ما وكان أغلب الاتجاه إلى دار العلوم، كما قرر زوج عمتى منذ سنوات فأبيت أول الأمر وطلبت أن أدخل كلية أصول الدين لأننى كنت مغرما «بالعمامة والكاكولا» - الزى الأزهرى- فأصر أقاربى ، وأحضر والد زميل لى استمارات الالتحاق بدار العلوم لأدخلها انا وابنه محمد.

وتحت الضغط العائلى والمعارف تقدمت إلى دار العلوم التى كانت تحتاج إلى واسطة لدخولها، وقيل لنا لابد من دخول امتحانين أحدهما تحريرى من يجتازه يدخل الامتحان الشفوى، وهو عبارة عن لقاء مع بعض الأساتذة وأوصونا أن نقرأ كتب على الجارم فى البلاغة والنحو الواضح لكى نستعد للامتحان، وشاء الله أن أنجح ودخلت لقاء الشفوى وتعرفت فيه على استاذنا المرحوم على حسب الله استاذ الشريعة بالكلية آنذاك لأول مرة والذى كان له دور فى تكوينى.

رسب زميلى «محمد» الذى جئنا معا من البلد، ولكن هذا الزميل رحمه الله كان مصرا على دخول دار العلوم، فقضى سنة كاملة فى كلية الشريعة استعدادا للدخول فى العام القادم وبالفعل دخل دار العلوم بعد سنة من دخولى ، وقضينا أربع سنوات فيها.

دار العلوم والأزهر

كان الفرق بين الدراسة فى دار العلوم والأزهر ليس فى الكم وإنما فى الكيف فالمادة الازهرية راسخة فى الأذهان، ولكنها شبه جامدة فى أذهاننا أى كنا نستعيدها حفظا، فصقلت دار العلوم هذه المواد أو حاولت أن تفسرها أكثر، وكانت الدراسة فيها تشتمل على اللغة الانجليزية وبعض المواد غير الازهرية مثل الكيمياء والرسم وكان مادة نجاح ورسوب وكذلك الأشغال اليدوية والخط.

وكان اسم دار العلوم مناظرا لدار الفنون فى الأستانة، وقد أنشأها على مبارك لهدف أساسى وهو تخريج معلمى اللغة العربية، وبدايتها كانت دار علوم فعلا فيها الطب والزراعة والهندسة واللغة العربية والشريعة. وعلى مبارك كان يحضر بعض المحاضرات بنفسه، وكان مقرها آنذاك فى جامع فاضل باشا فى شارع بورسعيد بالسيدة زينب، وانتقلت فى أكثر من مكان فكانت فى البراموني، وانتقلت إلى جوار مدرسة السنية، ثم بالقرب من المدرسة القربية بباب اللوق، واستقرت لفترة طويلة فى المنيرة من عام ١٨٩٩ - ١٩٠٠ حتى ١٩٨٠ حيث استقرت فى جامعة القاهرة .

دار العلوم من مدرسة إلى كلية

فى هذه الاثناء كانت دار العلوم التى دخلتها مدرسة تابعة لوزارة المعارف لا كلية، وفى السنة الرابعة فكر أحد الزملاء النبغاء وهو محمد حامد الأفندى: لم لا نلحق دار العلوم بالجامعة

التكوين





بعد الحصول علي الماجستير في لندن ١٩٥٢

وتصير كلية لها حقوق الكليات من بعثات ودراسات عليا إلخ.

وطالبنا بذلك فعلا، وكونا لجنة من الطلاب تمر على أعضاء مجلس النواب الذى يسمى الآن مجلس الشعب لاقناعهم بالفكرة، وعارضتنا الوزارة بشدة، قمنا بالاضراب أكثر من نصف العام على فترات حسب الظروف، نسأل مرة ونترك أخرى حتى جاءت الليلة الفاصلة اعتصمنا بالكلية وكنا حوالى ثمانين طالبا، ونعلم جيدا، أن الاعتصام ممنوع، فى هذه الليلة وأذكر انها كانت ليلة أم كلثوم أى مساء الخميس اتصل أحد الزملاء من مكتب وكيل الكلية بالحكمدار (مدير الأمن الآن) وأخبره اننا معتصمون وسوف نحرق الكلية، فما هى إلا لحظات ووجدنا الكلية محاطة بالجنود ولسوء الحظ انطفأ النور بالكلية ليس بفعل فاعل، والباب مغلق فاقتحم الجنود الكلية وجمعونا وأخذونا إلى قسم السيدة زينب بعد أن أعطوا كلا منا «علقة» ساخنة وحققوا معنا حتى الصباح ووزعونا على عدة أقسام وكان نصيبى قسم الخليفة، وأذكر أننى كان معى كتاب «نشأة اللغة عند الانسان والطفل» لاستاذنا عبد الواحد وافى

د.كمال بشر

فى سطور

- من مواليد قرية محطة دباى - دسوق - كفر الشيخ
- أول خريجى دار العلوم بعد تحويلها إلي كلية١٩٤٦ ماجستير ودكتوراه من انجلترا.
- استاذ ورئيس قسم علم اللغة والدراسات السامية والشرقية لمدة تسعة عشر عاما.
- عميد كلية دار العلوم ١٩٧٣ - ١٩٧٥.
- من أهم مؤلفاته تسعة كتب اهمها «دراسات فى علم اللغة» «علم الأصوات» «اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم».
- حاصل على جائزة الدولة التقديرية ووسام العلوم والفنون من الطبقتين الأولى والثانية.
- عضو بالعديد من الهيئات والمجامع العلمية والمجالس القومية.
- رئيس جمعية حماة اللغة العربية.

أذاكر فيه بجوار المراحيض حيث وضعونا، ثم نقلنا إلى السجن وكنا خمسة فى مكان لايزيد على متر × متر، وجلسنا عدة أيام، ولكن الزملاء فى الخارج قاموا بأعمال بطولية منها الاتصال بالجهات العليا وببعض أعضاء مجلس النواب، وقاموا بمظاهرات كبيرة وكانوا يأتون لنا بالطعام لدرجة أن السمك الذى كان يقدم لنا ونحن فى السجن لم أذق مثله فى حياتى .

ونتيجة لجهود عديدة صدر المرسوم الملكى فى ٢٤ ابريل ١٩٤٦ بضم دار العلوم إلى جامعة فؤاد الأول « القاهرة الان » على أن تبقى محتفظة باسمها التاريخى، وخرجنا من السجن وانضممنا إلى الطلبة، وحينئذ قُرر لدار العلوم ما يقرر لكل الكليات، ومن حظى أننى كنت أول الخريجين فى أول سنة يحصل عليها طالب دار العلوم على درجة الليسانس، ومن هنا دخلت دار العلوم عالم البعثات وكنت أحد أبنائها الحاصلين على بعثة إلى انجلترا، وكان من قبلنا الدكتور على الجندى رحمه الله والدكتور محمد الكفراوى فى انجلترا الأن والدكتور محمد حلمى رحمه الله ومن الاحياء الدكتور عبد الرحمن أيوب والدكتور تمام حسان.

قرأت خبر بعثتى فى الشارع

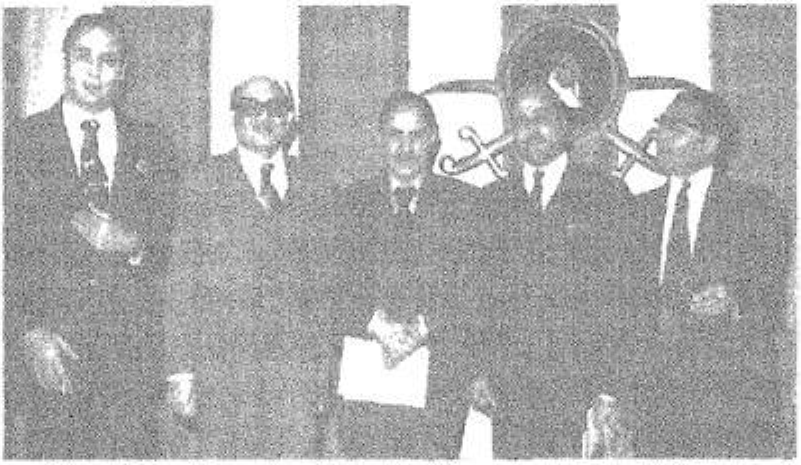
بعد الليسانس التحقت بالمعهد العالى للمعلمين وكان يقع بجوار دار العلوم، ويقضى فيه الطالب عامين لتهيئته مدرسا وبالفعل تخرجت وعينت فى مدرسة الأورمان وكنا نقوم بالتدريس للمرحلتين الابتدائية والثانوية معا فلم تكن توجد المرحلة الاعدادية بعد، وجاءت البعثة فى هذه الأثناء وأذكر أنها قُررت لى فى ٨ نوفمبر عام ١٩٤٨ وقرأتها فى الأهرام وأنا أمشى فى الشارع. وتقرر السفر إلى انجلترا على سفينة انجليزية وكان معنا مجموعة من الشباب من الكليات المختلفة وأذكر منهم الصديق المرحوم عبد المنعم الصاوى رحمه الله وكان ذاهبا للندن ليكون مراسلا لجريدة المصرى (الوفد الآن).

ومن أطرف المواقف التى شهدتها انه عندما سمعت القرية أننى ذاهب إلى انجلترا قامت الدنيا ولم تقعد ابتهاجا وفرحا بل خرجت القرى المجاورة أيضا احتفاء بى وتم توزيع الشربات والشاى والقهوة طوال خمسة عشر يوما حتى يوم السفر، وعند السفر اجتمعت الآلاف ولا أقول المئات لتوديعى، وأرادوا توديعى إلى السفينة ولكن طُلب منهم ألا يثقلوا على أنفسهم، وعلى الرغم من ذلك فقد وصل معى إلى ميناء بورسعيد خمسون رجلا من أهالى وأعيان القرية والقرى المجاورة وفيهم عمدتان، فلك أن تتصور كم عدد الرجال الذين قاموا بتوديعى ابتداء من قريتى محلة دياى مرورا بطنطا فالقاهرة فبورسعيد .

وكان دخولى السفينة مشكلة حيث اننى لا أجيد اللغة الانجليزية فكيف

الدكتور





ندوة خبراء اللغة العربية بالرياض مارس ٧٧ من اليمين د.كمال بشر ورمضان عبدالتواب ود.شكري فيصل و د. شكري عياد ، والأستاذ فايق فهيم

أعرف مكانى أو كيف أتفاهم فقام بالمهمة ابن عم لى وهو أخو زوجتي، ومن عجب اننى لم أشعر بما فى الحقائب التى أحملها معى فى الرحلة حتى وقعت فى ورطة فى محطة ثاوث هامبتون فى انجلترا ولذلك قصة طريفة.

خذ معك هدية!

استاذى الدكتور عبد العزيز عبد المجيد رحمه الله استاذ المنطق فى دار العلوم قال لى: يا كمال انت ذاهب إلى انجلترا؟ قلت: نعم ، قال: يابنى الناس هناك خارجون من الحرب فلو أخذت معك هدية لفرحوا بك . قلت: وماذا تقترح؟ قال: بعض الارز والفاصوليا الجافة وحينما أبديت هذه الرغبة لوالدتي أرسلت إلى الاسكندرية وطلبت من أحد الأصدقاء أن يشترى لنا حقيبتين الواحدة: متر ونصف × متر وملأت إحداهما كاملة بالارز والفاصوليا وأنا لم أشعر بها مطلقا طوال الرحلة لاننى لم أكن أحملها ولكن طابور المودعين كان يتناوب حملها . حتى وصلت إلى ثاوث هامبتون فأحسست بالمشكلة، واكتشفت انه لايمكن لأى انسان على وجه الأرض حمل الحقيبة ووقفت حائرا ، فشعرت بى إحدى السيدات الانجليزيات وطلبت أن تحمل عنى الحقيبة الخفيفة التى بها ملابسى على أن أتصرف أنا فى الحقيبة الكبيرة وفعلا جررتها إلى محطة القطار، ولكن كيف لى أن أرفعها إلى القطار والقطار يطلق صفارته استعدادا للانطلاق فما كان من عبد المنعم الصاوى إلا أن قال : يا كمال ميل الحقيبة واركبها ففعلت، فقام بجرى أنا والحقيبة ودخلنا عربة القطار معا. ووصلنا لندن واستقبلنا بعض الزملاء وأقمت بضعة أيام ثم توجهت إلى مكتب البعثات لتسليم نفسى.

إنت منهم؟!

ذهبت إلى مكتب رئيس البعثات وكانت السكرتيرة مس جاكوب تعرف العربية لانها عملت فى قصر الملك فاروق قبل ذلك. وحينما نظرت إلىَّ قالت: «إنت منهم»، ففهمت على الفور ماذا تقصد

تعنى انني لا أجيد اللغة الانجليزية فقلت نعم. فطلبت منى ألا أنتظر فى لندن يوما واحدا وحينما تساءلت عن السبب أشارت إلى وجود المطعم المصرى أسفلنا وبه كل ما لذ وطاب وبالتالى فلن أتعلم الانجليزية مطلقا، وبالفعل حينما خرجت من مكتب رئيس البعثات فوجئت بها تقول لقد أعددت لك العدة لمغادرة لندن اذهب للدكتور كامل الباقر والذى كان رئيس جامعة أم درمان فى السودان فيما بعد وكان فى بعثة على حساب الملك فاروق، قالت هو فى بلدة تدعى توركى بلدة بعيدة عن لندن، وفعلا ذهبت الى هناك وحضرت دورة في اللغة الانجليزية ولكنها لم تفدنى كثيراً، فأشار علىّ أحد الاساتذة أن أتوجه إلى بلدة جلفرد لأن هناك مدرسة جيدة للأجانب وقد كان.

أسعد أيام حياتى

استقبلتنى على محطة جرين مان السيدة التى سأقيم عندها مع زوجها. وقضيت عندهما تسعة أشهر هى أسعد أيام حياتى على الاطلاق. وفى «جلفرد» تعلمت اللغة الانجليزية لا من الكتب ولكن طبقا للقاعدة التى وضعتها أنا حديثا «اسمع وأسمع» بمعنى أن تسمع اللغة التى تود أن تتعلمها وأن تتكلم هذه اللغة جهرا، أن تسمع نفسك وتُسمع الناس وقد أتت هذه القاعدة أكلها. كما كان للرجل والمرأة دور فى تعليمى اللغة فقد كان الرجل يعمل زمارا فى الكنيسة وطلب اصطحابنا معه أنا وزملائى أحدهما من الهند الصينية والآخر من بلجيكا – إلى الكنيسة يوم الأحد ، فكنا نذهب معه واستمعت إلى الأغانى وكم دمعت عيناى عند سماع هذه الأغانى المصحوبة بالموسيقى والأصوات المتسقة المتزنة الراقية الرقيقة، حتى إننى قلت فى نفسى آنذاك لم لا يكون لنا نوع من الأغانى العامة نغنيها فى الميادين إن لم تكن فى المساجد، لأن الأغنية الجماعية فى غاية الأهمية لتوحيد الذهن والفكر والاتجاه». ودرجنا على هذه المدة تسعة أشهر ثم عدت إلى لندن وقابلنى الدكتور تمام حسان وهو فى التخصص نفسه فأخذ بيدى للأستاذ الذى سأتعامل معه فى دراستى وبدأت مرحلتى الدراسية مع الماجستير والدكتوراة والتى استمرت سبعة أعوام بالتمام والكمال.

الأدوار المؤثرة فى حياتى

الدور الأول لوالدى فقد كان فلاحا ذكيا إلى أقصى حد، حتى إن فقيه القرية قال: لم يرد علىّ مثل هذا الرجل فى ذكائه وحفظ القرآن وفهمه. وكان الرجل مرموقا فى قريته وله كلمة، يصحبنى دائما حتى صنع منى صديقا فى كل حله وترحاله، وفى وقت الفراغ كنت أجلس بجانبه على «الدكة» وأرى ما يصنع وما يقول وما يتعامل به مع الناس فأخذت شيئا من هذه القيم والمبادئ الأصيلة وكان رحمه الله يصلى الفجر ويقرأ سورتين كاملتين ، ثم يذهب إلى الحقل، فقلت له يوما: لماذا تذهب إلى الحقل يا أبى كل يوم؟ .قال : «يابنى

التكوين





في مؤتمر مجمع اللغة العربية يسلم علي الدكتور مصطفي كمال حلمي

الغيظ بيفرح بصاحبه». هذا ما رسخ فيّ مبدأ الانتماء.

في الازهر في المعهد الديني رزقت بمجموعة من الاساتذة في غاية العمق والاخلاص والصدق رحمهم الله جميعا أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

الشيخ حفني الذي قال لنا في الحصة الأولى في المعهد الابتدائي في درس النحو: يا أولاد هل معكم كراسات قلنا له : لا يا شيخ نحن معنا الكتاب قال: لا إنني حين أشرح يا أبنائي أقول كلاما خارج الكتاب وخارج المقرر فعليكم أن تكتبوا ما أقول وأنشد يقول:

العلم صيد والكتابة قيده

قيد صيودك بالحبال الواثقة

وكان الرجل يشرح ويخرج عن المقرر بفائدة عظيمة وعمق كبير وفي طوال العام.

في السنة الثالثة رزقنا بشيخ فاضل لايقل عن سابقه فضلا وعلما وإخلاصا وصدقا الشيخ عبد الرحمن جلال كان يدرس لنا المطالعة، ومن عجب انه كان يدرس لنا في هذه السن المبكرة «نهج البلاغة» المنسوب لعلي بن أبي طالب الذي لو قدمته الآن لطالب الماجستير في اللغة العربية لايستطيع أن يصحح سطورا منه، وهذا الكتاب مازال عندي بالمكتبة وبه بخط يدي التعليقات التي كنت أسمعها من هذا الشيخ العظيم الذي علمنا كيف ننطق الكلمة وكيف وكيف.. ومن عظيم قدري انه حينما علم انني حضرت من انجلترا ومعي الدكتوراه جاء إلى الكلية ليقابلني ويسلم عليّ.

وفي الاسكندرية أيام الدراسة بالأزهر درسّ لنا الشيخ محمد الديب كان كله إخلاصا وصدقاً وأمانة وكان أستاذ الفقه الحنفي المنتمي أنا إليه يشرح ويقول: اقرأ يا كمال، كل درس يشرحه يقرأ من المتن وعلى أحد الطلاب أن يقوم بقراءته، فكان هذا دوراً آخر على تعويد اللسان على النطق السليم،

وعلى تفعيل هذا السحر المسمى جهاز النطق.

انتقلنا إلى طنطا في السنة الثالثة، وكان استاذ النحو الشيخ على رسلان وكان ضعيف البصر، ولكنه قوى البصيرة عميق العقل والذهن ومسيطر على تخصصه ومادته وهى النحو العربي، وكان المقرر كتاب « أوضح المسالك» لابن هشام وهو كتاب أشبه بعناوين قواعد اللغة العربية أى لايدخل في التفاصيل وإنما يأتى بالزبد وبالأساسيات والجوهريات حتى أن ابن هشام نفسه حينما يريد الائتناس بأقوال ابن مالك في الألفية لا يأتى إلا بالنقطة المعينة المتصلة بهذه القاعدة فقط. وفى حصة النحو هذه كل يوم يعد الشيخ مشكلة إعرابية في ذهنه ويدخل الفصل ويقول من يعرب يا أولاد بيتا من الشعر الجاهلى أو غيره فكنت من المبادرين للقيام بهذه المسئولية.

ومن هذه اللحظة بدأ ميلى للدراسات اللغوية - في إحدى المرات قال: أنت لا تكتفى بالتوضيح اذهب واقرأ التصريح، والتصريح هو شرح للتوضيح وهو كتاب كبير من عدة أجزاء وفيه شرح الشرح، فاستهوانى هذا الأسلوب في الأخذ والرد والجدل والتعليق والإضافة والزيادة والتخطئة والتصويب إلخ بدأت التفت إلى اللغة بسبب هذه التجربة وهذه الخبرة.

انتقلت إلى السنة الخامسة وكان أستاذى الشيخ أحمد الخطيب في النحو والشيخ دويدار في البلاغة ولقد كان الشيخ أحمد الخطيب بارعا واسع المعرفة بالنحو، فأوصانا بأن نقرأ كتابا لم يكن في ثانوية الأزهر آنذاك وهو كتاب «الأشمونى» وكان مقررأ على الكليات في ذلك الوقت فعجل الرجل بنا لنقرأ هذا الكتاب فازداد حبى للنحو والدراسات اللغوية وتعرفت «حاشية الصبان» وهى من أهم الحواشى في النحو العربى على الإطلاق.

ثم انتقلت إلى دار العلوم حيث وجدت بها عددا من الأساتذة أخص منهم بالذكر الأستاذ على حسب الله. والذى كان منضبطا يطلب أن تجيب بمنطقية وعقلانية لا بحفظ وإرسال الكلام ارسالا، فقد لاحظت فيه هذا ولذلك سرت على نهجه حتى هذه اللحظة: أين تضع النقطة وأين تضع الفاصلة، وأين تبدأ؟ وكيف تجيب من نفسك انا كنت مستوعبا وأخذت منه كل هذا.

كان يدرس لنا علم التوحيد المسمى الآن بعلم الكلام وهذا العلم من أصعب العلوم ومازال أصعبها حتى هذه اللحظة ويشاركنى في هذا بعض الدارسين وهى فعلا مادة صعبة وكان عدد الناجحين ضئيلا لدرجة أن بعض الطلاب ظل يرسب في هذه المادة حتى توفاه الله، أنا لا أنسى هذا . وفقنى الله وأخذت تقريبا الدرجة النهائية في الامتحان التحريرى فما كان من الرجل إلا أن سأل عنى في إدارة الكلية وأرسل لى خطابا على عنوانى: أنا أريد أن أراك فجئت إلى

التكوين





الرئيس حسني مبارك يسلمه وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولي - يوليو ١٩٩٥

الكلية وقابلته في الوقت الذي حدده فقال: يا ابني انك أخذت درجة لم أعطها لأحد منذ ثلاثين سنة.. أريد أن أقدم لك هدية قلت: بكل الشكر قال: هل اشتريت الكتاب قلت نعم قال: فلتأخذ ثمنه قلت: لا يا أستاذنا. فقال إذن سأعطيك كتابا آخر هدية وكتب عليه صفحة كاملة في أول الكتاب منها كلمة لم أكن أعرفها حتى ذاك الوقت وهي إلى التلميذ النابه، كلمة «النابه» أنا أعرف النبيه لكن كلمة النابه كانت أول مرة تدخل ذاكرتي، ومازالت المذكرة في دولاب أمي حتى هذه اللحظة التي نحن فيها محتفظا به مع بقية الأشياء الغالية.

عندما انتقلنا للمعهد العالي للتربية لحقنا استاذنا الدكتور عبد العزيز عبد المجيد وكان استاذا في دار العلوم ومنتدبا في بعض المواد في معهد التربية فتبناني وأخذ يعاونني في علوم النفس والتربية حتى استطعت أن أعرف بعض المصطلحات وبعض الحوارات وأن أعرف شيئا عما يجول في نفس الانسان من زاوية علماء النفس فأفادني.

ثم جاءت البعثة وصنعت ما صنعت ووفقت إلى رجل وهو استاذنا العظيم، وأنا أصر استاذنا العظيم «فيرث» والذي أشرف علي في الماجستير والدكتوراه هذا الرجل كان لايفرق في معاملته للطلاب بين الانجليز والأجانب في كل الأحوال. كان النظام أن نحضر محاضرات دائمة منتظمة طوال الوقت ونحن في فترة الماجستير. ولذلك أنا أقول للحكومة المصرية لا يصح أن نقصر البعثات على طلبة الدكتوراة بل العكس يجب أن نرسلهم في درجة الماجستير أولا لأن درجة الماجستير هي التي تصنع الباحث والدارس من المناقشات والاطلاعات والمحاورات والنجاح مرة والرسوب أخرى، أما طالب الدكتوراة فيذهب إلى المكتبة ويعمل. وقد

نادبت بهذا أكثر من مرة «أيها الناس اجعلوا البعثات للماجستير قبل الدكتوراة وهى أهم لأن الطالب هناك يكتسب الحالة الاجتماعية والحالة العلمية ويأخذ الحوار ويأخذ المناقشات والاعتماد والثقة بالنفس والاطلاع على المراجع وهى تجربة ودربة وخبرة عظيمة جدا »

كانت الدراسة تجري على محورين: محاضرات منتظمة، وكان أستاذنا العظيم «فيرث» يقدم لنا محاضرة يوم الاربعاء لمدة ساعتين عندما تنتهى من المحاضرة نوزع حسب تخصص كل واحد منا وحسب قدرته العلمية، مجموعة مع المعيد فلان وأخرى مع المدرس فلان هذا الذى نوزع عليه كانت وظيفته الاشراف على السيمنار، وهو ما يطلق عليه الآن «قاعة البحث» يجلس إلينا ويقرر على كل منا موضوعا معينا لتقديمه فى اجتماع المجموعة فى يوم كذا الساعة كذا ليناقشنا ويوجهنا. هذا هو الذى ربانا وعلمنا الانجليزية والتفكير اللغوى وغير التفكير اللغوى وأجدت اللغة الانجليزية، حتى إن أستاذة من هيئة التدريس حينما قدمت لها أوراق الماجستير لمراجعتها قالت لى لغتك الانجليزية جيدة جدا إذن أنت لغتك العربية جيدة جدا. قلت لها فعلا هذا هو رأيي من يجيد اللغة الأم يجيد اللغة الأجنبية، هذه قاعدة لا أنساها ولذلك أقول للأولاد عندما تتعلمون لغة أجنبية يجب أن تكونوا على معرفة مناسبة باللغة العربية لأن القواعد الأساسية متشابهة فى المقدرة اللغوية عند الانسان.

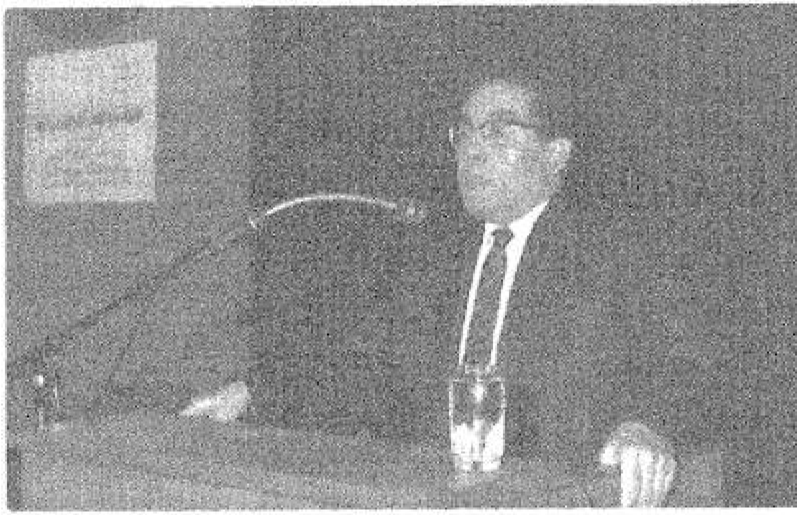
حصيلة التكوين

حصيلة التكوين عدد من الكتب، منها ستة كتب أعدت طبعها وتنقيحها ومراجعتها وتصحيح ما فيها من هنات أو تجاوزات والباقيات على الطريق وهى «دراسات فى علم اللغة» «علم اللغة الاجتماعي» «علم الأصوات» «خاطرات مؤتلفات فى اللغة والثقافة» ثم «اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم» ثم كتاب مترجم عن الانجليزية سميته «دور الكلمة فى اللغة» والآن أراجع كتابا آخر يسمى «فن الكلام» ولدى ثلاثة كتب جاهزة للمراجعة إذا كان فى العمر بقية أما البحوث فهى كثيرة.

وكانت هذه الكتب محصلة رجوعي إلى دار العلوم حيث رجعت مدرسا فأستاذا مساعدا فأستاذا وتوليت وكالة الكلية عاما واحدا عام ٧٢ ثم عميدا عام ٧٣ لمدة ثلاث سنوات، وأستاذا ورئيس قسم اللغة والدراسات السامية والشرقية لمدة تسعة عشر عاما كاملة، وكانت حياتي كلها سعادة وطموحاً وكلما تقدم الزمن تعمق الفكر والمعلومات. أنا الآن أستاذ غير متفرغ ولكنى أقدم الآن انتاجنا علميا أكثر مما مضى، لأننى الآن أنصرف إلى عملى وأكتب، وفى الوقت نفسه أحاضر فى معهد الدراسات والبحوث العربية التابع لجامعة الدول

التكوين





يلقي إحدى المحاضرات في الموسم الثقافي لوزارة التربية والتعليم - الدوحة ١٩٨٤

العربية وأنا مستشار اللغة العربية فى معاهد التدريب الإذاعى والتليفزيونى، وألقى محاضرات لا تقل عن خمسين أو ستين ساعة فى الدورة الواحدة و٩٥٪ من مذيعى الاذاعة والتليفزيون بدءا برؤساء الاذاعة، بالذات الاستاذ عمر بطيشة ورئيسة التليفزيون الاستاذة ميرفت رجب، كل هؤلاء حضروا أمامى وحاضرتهم. وأنا عضو فى مجلس الثقافة وفى مجلس التربية والتعليم بالمجالس القومية المتخصصة، وعضو مجمع اللغة العربية وعضو المجمع العلمى المصرى ورئيس جمعية حماة اللغة العربية التى أنشئت حديثا.

التقديرات

أما عن التقديرات التى نلتها فقد درست فى جامعات العالم العربى فى السعودية وقطر والكويت وكنت منتدبا لتدريس اللغة العربية للمذيعين فى إذاعة وتليفزيون أبو ظبى من ١٩٧٨ إلى ١٩٩٥ تقريبا وناقشت رسائل كثيرة فى الاردن والسعودية والكويت وغيرها من الدول العربية.

كنت أنا والدكتور تمام حسان أول من حصل على جائزة صدام فى الدراسات اللغوية سنة ١٩٨٨ وهى أول جائزة فى العالم العربى، وحصلت على وسام العلوم والفنون من الدرجتين الأولى والثانية ، ثم على جائزة الدولة التقديرية وسلمنى السيد الرئيس محمد حسنى مبارك بنفسه الوسام.

وبعد هذا الطوفان من الكلام فان حصيلة هذا كله ثقافة عجيبة أحمد الله عليها ثقافة ريفية أصيلة وثقافة دينية عربية عميقة وثقافة متنورة مصقولة فى دار العلوم ثم ثقافة أجنبية محترمة ذات تخصص عال وتفكير حر صنعت ما وصلت إليه والحمد لله. ■

كيف نحفظ وثائقنا القومية

أثار د. رءوف عباس قضية حماية وثائقنا القومية فى عدد مايو من الهلال ٢٠٠١..

وإننى استأذنكم واستأذن أستاذنا الجليل فى أن أقدم فى عجالة مدى أهمية الحفاظ على وثائقنا القومية وحمايتها فى ظل الثورة المعلوماتية وبعد أن أصبحت السموات فتوحة والقنوات منتشرة، قد غطت أركان الدنيا الأربعة .

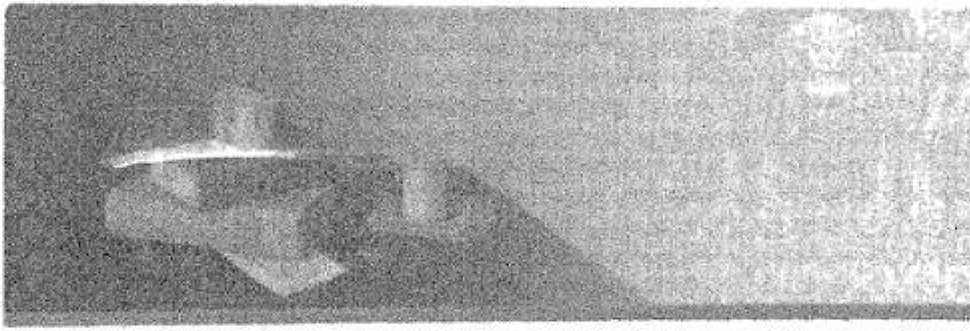
ومن هذا المنطلق، يتعين علينا أن نكون على قناعة تامة بأدوات هذا العصر الذى نعايشه لتطوير وحماية وثائقنا القومية وكذلك دور حفظها. ووضع قوانين حاسمة ومرنة فى آن ، حفاظا على تراثنا القومي وتاريخنا .

وحول الفكرة ذاتها، فان راحلنا الكريم الدكتور محمد أنيس المشرف على مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر إبان السبعينيات من القرن العشرين جزاه الله خيرا عندما انقذ تقارير الأمن فى نسختها الأصلية التى كان يرفعها البوليس السياسى إلى القصر الملكى قبل تسليمها لشركة (راكتا) لانتاج الورق - لإعادة طبخها وتدويرها ـ!! وذلك عندما ضمها إلى مركز تاريخ مصر المعاصر ثم استقرت بدار الوثائق القومية!! ويحتم علينا أن ننقذ دار الوثائق القومية على وجه السرعة، لأنها فى حال يرثى لها وتلك قضية تثير الفزع فى صفوف المؤرخين والباحثين المصريين وتضطرهم إلى الالتجاء لدور الوثائق البريطانية أو الأمريكية ناهيك عما يتجشمه الباحث من جهد ونفقات باهظة، والوثائق التى تتبع تلك الأماكن لا تخلو من سلبيات واخفاء بعض الحقائق الهامة ويتعين على المسئولين عن تلك الدور دار الوثائق القومية المصرية بذل قصارى الجهد بتحويلها من مصلحة تابعة لهيئة دار الكتب والوثائق إلى جهاز مركزى للوثائق القومية يتبع سلطة السيادة على غرار الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء!!

د.صموئيل لبيب سيحه
باحث تاريخي - المنيا

إلى أمى

إلى أمى، إلى قلب	يجاور نبضه نبضى
أحس بلوعة الأشجا	ن، فى قلبى، ولم أفض
نشوه، وهذه الأقدا	ر، فى رفع وفى خفض
ويبقى حضنك دفئا	يجمعنا إلى بعض
نشانا فى اغتراب لا	نرى فى الليل من ومض



وتــاقت نفسنــا لسمــا ءأحــلام، بــلا ارض
فكنت بظلمــة الليــلا ت، نجمــا سائــرا، يمضي
وأرضــا ملؤهــا الآمــا ل، ذات الطــول والعــرض
فمــا توفيـك، مــر الدهــ ر، إلا الغيـض مــن فيـض
إلـى عينيـك يــا أمــي ثنــاء علــه يرضـي

أماني حاتم بسيسو - الأردن

مؤسسة الفكر العربي لاستعادة مكانة الأمة العربية

تراثنا العربي يحتاج إلي من يرعاه ، وأمتنا العربية تمتلك من الفكر والعلوم الإنسانية ما يجعلني أتساءل .. لماذا لا نري دورا فاعلا من الأفراد والمؤسسات تجاه هذا الفكر الذى استفاد منه الغرب واندفع يحقق نجاحات فى جميع الميادين ، ونحن محلك سر؟

علاء عبد العظيم -طوخ -قليوبية

الهلال : أطمئن القارىء بأنه فور تلقينا لرسالته هذه وصلتنا دعوة من «مؤسسة الفكر العربى» وهى مبادرة تضامنية بين الفكر والمال للنهوض بالأمة العربية واستعادة مكانها اللائق بين الأمم. وعلمنا بأن الاجتماع الأول لهذه المؤسسة سيبدأ فى الثاني من يونيو ، ونظرة سريعة على المؤسسين ومن بينهم أصحاب السمو والسادة والسيدات خالد الفيصل بن عبد العزيز، وبكر محمد بن لادن، وبهية الحريري، وجمعه الماجد ، وسعاد الصباح ، وعبد العزيز البابطين ، ومانع سعيد العتيبة ،ومحمد القباج ، وسلمان بن حمد آل خليفة.

المؤسسون ٢٣ من كبار الشخصيات العربية المتهمة بالفكر الذين يحققون مقولة أن يصبح المال فى خدمة الفكر..

وهي خطوة مهمة من اجل نهضة عربية فكرية وثقافية نرجو لها الازدهار والنجاح

رحيل الأم

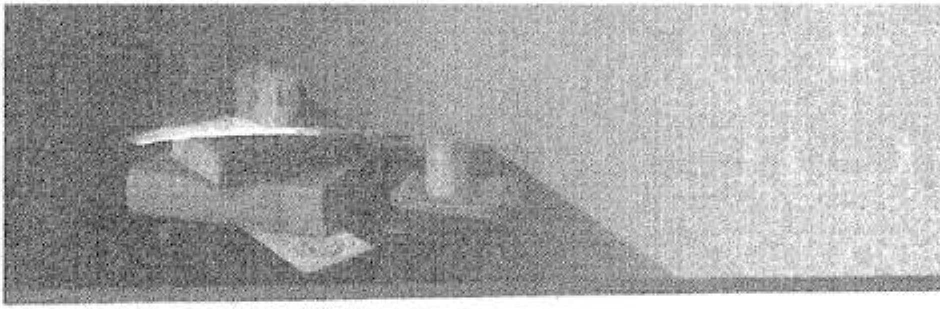
تطحن الحب وتطهو الأمسيات
فى فطائر .. من مشاعر
تعصر التفاح ممزوجا بتعبير مسكر
وتصبب الكأس عنبر
من حكاياها القديمة
وتحيل الليل ذا الستر الموشى
حلم شاعر

وبساتين جميلة
وخميلة
تحمى أفراخا وتلقى
بظلال من حنان
وتحيل الريح أنساما عليلة
وصباح اليوم يسعى خطوها
نحو الحياه
تمنح الأطفال أسباب الحياة
تمنح الدم لشريان الحياة
تنزف اليوم تفاصيل الحياة
تتهاوى قلعة الحب تسلم
بعد أن جفت ينابيع الحياة
فى العيون
لن تهون
استحالت دمعة بين الجفون
أصبحت فى العقل والقلب شجون
لن تهون
روحها فينا ودم القلب ينبض
لن تهون
كونها كلا لجزئى
كونها نور العيون

د. حسنه عبد الحكيم عبد الله
كلية بنات عين شمس

المرأة نصف الحقيقة

هل يحق لصحفية شبه مغمورة مثلى ان تدعى ان عالما جليلا مثل د. حامد عمار تاثر أو اقتبس فكرة عبرت عنها فى إحدى مقالاتها؟ بل وأن تزعم أنه اقتبس نفس اللفظ التى تدعى انها قامت بنحته؟!



هذا بالضبط ما أريد قوله

فأنا أصر أنى صاحبة الفكرة التى وردت فى مقال د. عمار بل وصاحبة اللفظ نفسه الذى استخدمه فى مقاله المنشور بمجلة الهلال.

فقد كتبت قبل أربع سنوات مقالة فى جريدة الأهرام حيث أعمل بعنوان المرأة نصف الحقيقة نشرت بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٩٩٦ قلت فيها بالضبط ما قاله د. عمار فى مقالته بعنوان «المرأة نصف المجتمع ونصف الحقيقة» والمنشورة فى مجلة الهلال فى مايو ٢٠٠١.

وقد ذكرت فى مقالتى انه ليس مهما ان تكون المرأة نصف المجتمع ولكن الأهم ان تكون نصف الحقيقة.

وأوضحت أن للمرأة رؤية خاصة بمقدورها ان تضيفها للعالم وتساءلت لماذا يراود المرء احيانا شعور ساخر مؤداه هبها لم تكن نصف المجتمع فهل كان عليها فى هذه الحالة ان تذهب إلى الجحيم؟!

وعبرت فى مقالتى عن عدم ارتياحى لعبارة أن المرأة نصف المجتمع أو بمعنى ادق عن عدم ارتياحى لعبارة أن علينا أن نهتم بالمرأة لأنها نصف المجتمع وقلت إنه ربما تكون التداعيات الكمية التى تحملها العبارة هى وراء الإحساس بالضيق، أو هذا الشعور بأن علينا أن نسوق مبررات خارج المرأة ككيان وانسان لنبرز اهتمامنا بها. وأكدت على أن الأهم أن المرأة نصف الحقيقة.

وهذه النقطة الأخيرة هى بالضبط ما قاله د. عمار فى مقاله فى الهلال التى حملت نفس العنوان!

وفى الحقيقة انى حين تصفحت مجلة الهلال الأخيرة فرحت بوجود المقالة عن المرأة من عالم كبير مثل د. عمار ولكن حين قرأت العنوان - أقصد عنوان المقالة دهشت وتحولت الدهشة إلى صدمة حين فرغت من قراءة المقالة دون أن أجد اى اشارة للمصدر ولو فى الهامش!

د. إيناس طه

الهلال: ننشر وجهة نظر الكاتبة حول مقال د. حامد عمار عملا بحرية الرأى، وننتظر من عالمنا الجليل د. حامد التعليق على ما جاء فى هذا الرأى.

الحجارة النووية

يا أيها الحجر السماوى انطلق كقذيفة نـووية .. كن خـالـدا

كـن فى بـلاد البرتقـال قتيبة بـردى يؤيـد طـائرا متمـردا

والنيل أيضا والفرات ودجلة وصوارم من مكة مدت يدا
قد فجر الحجر المخضب دمعتى فاهتزت الفيحاء من هول الصدى
شتان بين حجارة وقنابل أين التكافؤ فى صراع أرعدا؟
يا طفل غزة يا شموخ عروبتى هل من دمائك قطرة هل من ندى
لست الوحيد، أنا هنا فى جلق ألقي الحجارة صوب أحداق العدا
قد سجل التاريخ إسمك فى السما ورثتك أسياف الشهامة والفدا
ورثتك بكر فى الخيام ووائل بدم الرمال أرى القصائد كالمدى
إن البلاد لنا فلا تخش القنا ستموت مزهوا وتبعث أمردا
سينير زيتون وتزهر قبة سبزور رهبان الكنيسة أحمدا
النصر دوما كالسلافة أحمر سل كل من مروا على درب الهدى
هل يكبح الأوغاد سيلا جارفا؟ رعد الجنان أتى به كى يزبدا

د. هيثم الحويج العمر - دمشق

من التراث العربى

كان مقاتل بن حسان واليا على البصرة وذات يوم سأله احدهم عن مسألة فقال له مقاتل:

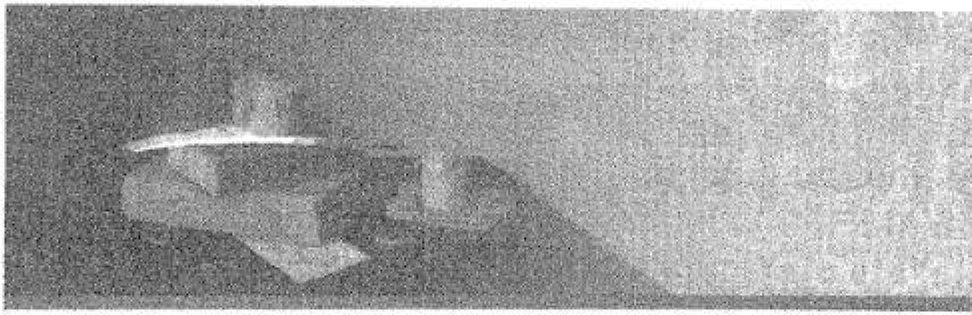
- لا أعرف.
- كيف لا تعرف وأنت والى المدينة.
- وما فى ذلك ان الثور أعظم من الحمار ومع ذلك لا يستطيع ان يجرى مثله.
- ومن منا هذا ومن منا ذاك.
- انا أنبلهما وأعظمهما أى الثور.

وفد عروة بن أزينه على هشام بن عبد الملك وشكى اليه حاجته ورقة حاله فقال له هشام: كيف تشكو الحاجة وانت القائل:

لقد علمت وما الإسراف من خلقى
ان الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى اليه فيعيينى تطلبه
وان قعدت أتانى ليس يعيينى

قال عروة: نعم قلت ذلك

قال هشام: وتأتى من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق



قال عروه: اني وعظت فابلغت وصدقت.. ثم تركه وانصرف فلما كان الليل لم يستطع هشام النوم لما فعله مع عروه ورده دون ان يعطيه شيئاً فلما كان الصباح ارسل اليه مع رسول الف دينار فقال له عروه : قل لهشام كيف رأيت قولي: ان الذى هو رزقى سوف يأتينى فلزمت دارى فأتانى رزقى حيث كنت.

محمد أمين العيسوى- الاسماعيلية

إبحـــــار..

أنا يا فتاتى
من جذور عاطفية
فتشت عن شريان وجدى
فى دهاليز الهيام
وفى خيام (العامرية)
فتشت فى الأحراش
فى كل اتجاه
فى سنا الأحلام
فى عبق الجنان النرجسية
أنا يافتاتى
قد عبرت إلى تواريخ الحنين
وللمدارات الجوانح
والشموس العسجدية

عبد الناصر أحمد الجوهرى
دكرنس - دقهلية

الموسيقار محمد عبد الوهاب

بتوقيع ص. ك نشرت مجلة الهلال بعدد مايو ٢٠٠١ مقالا عن الموسيقار محمد عبد الوهاب بمناسبة مرور مائة عام على ميلاده، وهو يتناول بعض النواحى المهمه فى حياة هذا الفنان العظيم، منها أنه نجح فى تحقيق المزج بين الموسيقى الشرقية والموسيقى العالمية، وانه أتهم بالسطو على بعض الألحان الغربية، ومنها أيضا أنه لم يكن يجيد التمثيل.

وبالنسبة للأمر الأول فإن الكثير منا يعتقد أن سبب نجاحه فى هذا المزج يعود إلى أنه أدخل بعض الآلات الغربية كالجيتار والسكسفون والترومبيت وغيرها إلى التخت

الشرقي وأنه قد اهتم بالهارموني والتوزيع الموسيقي، إلا أن ذلك في رأيي لم يكن السبب الوحيد، بل ان السبب الأهم هو أنه كان يعمد بمقدرة فائقة إلى الانتقال من مقام شرقي شديد الحساسية إلى مقام آخر غربي بحت، ويتجلى هذا في عملين على وجه التحديد، الأول هو أوبريت مجنون ليلى الذى استهله بمقدمة شرقية من مقام الحجاز، ليتحول منه بسلاسه إلى عدة مقامات غربية أبرزها مقام رى ماجير وبنفس السرعة يتحول به إلى مقام البياتي من درجة رى وهو مقام شرقي أصيل والغريب أنه أنهى الأوبريت بمقام النوى أثر بعد تصويره بصعوبه على مقام رى الكبير أيضا

والعمل الثاني هو أغنية إنسى الدنيا وريح بالك، حيث بدأها بمقام البياتي ليلج بعدها المقام رى الكبير باداء جميل لآلة جيتار الهاواى وتنتهي الأغنية بمقام الكورد عشيران وهو مقام يختلف تماما عن مقام البياتي الذى استهل به الأغنية.

ويلاحظ أن هذه المحاولات التي تتكرر كثيرا بعد ذلك قد واكبت التحاق عبد الوهاب بالمعهد الايطالي للموسيقي في مطلع شبابه.

وبالنسبة لاتهامه بالسطو فإنه قد رد بنفسه على هذا الاتهام بمقولة عبقرية حيث قال:

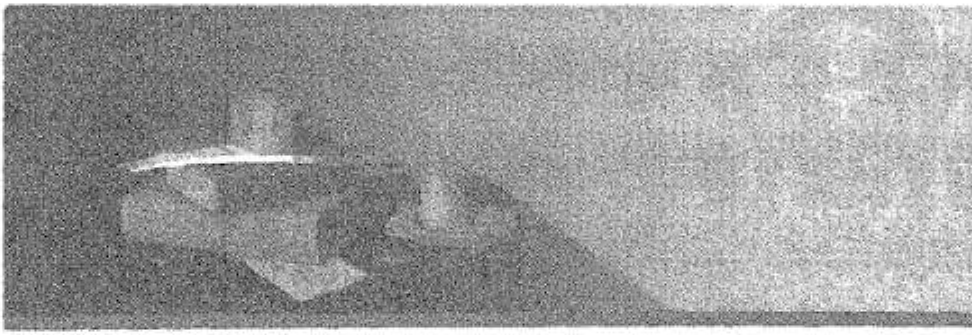
•إني كالنحلة التي تنهل من رحيق الأزهار من كل لون لتخرج منها بعد ذلك شهدا ذا مذاق خاص.

أما فيما يتعلق بقدرته التمثيلية فقد يكون صحيحا أنه لم يكن ناجحا بالنسبة لفيلميه الأولين الا أن فيلما كفيلم رصاصة في القلب أرى أنه قد سبق عصره بتلقائيته وطبيعيته وعدم المبالغة في الانفعالات في ظل حوار رشيق.

عادل شافعي الخطيب

ولو للخلق أسماع

علـى إشبـاع مـن جـاعـوا	طـوال العـمـر إجمـاع
وهـذا الحـال لا شـبـع	ولا رى لـمن ضـاعـوا
هنـا إخـوانـنـا عـاشـوا	ومـا فى العـيـش إشبـاع
فـلا عـيش ولا مـوت	لإخـوان لنـا جـاعـوا
وضـاعـوا العـمـر فى الدنيـا	وهـم جـوع وأوجـاع
كـم اجـتـمـعـوا بـلا جـدوى	فكـل الجـمـع أطمـاع
كـثـيـرا حـاولوا حـلا	بـدا سهـلا ومـا استطاعوا



وكم قالت قيادات … لها في القول إبداع
تقول وقولها يحلو … كأن القول إرضاع
ولايجدي هنا قول … يقال العمر ويذاع
وقول عدونا فعل … له صوت وإسماع
سلاما.. كلنا صمت … وأنظار وأسماع
أمن فعل لما قلتم … أم الأقوال أنواع؟!
أفيقوا يا أئمتنا … وراعوا أمة راعوا
شبعنا من طموحات … إلى سلم وقد باعوا
لنا أعداؤنا رصدوا … وهم للحرب صناع
وكم مكروا وكم غدروا … وراعونا وما ارتاعوا
نريد الرد في نحر … كما في نحرنا شاعوا
نكيل لهم كما كالوا … فذا صاع وذا صاع
نموت ولا نرى ذلا … له كالنار إخضاع
نرى استشهادنا حلا … به للنصر إسراع

حسن أبو الغيط

ردود سريعة

– عاصم فريد البرقوقي الاسكندرية : فكرتك التي طرحتها عن أملك في أن يصبح هناك «عيد للضحك في مصر» باعتبار أن الابتسامة هي الطريق إلى الحب والأمل والتوازن النفسي فكرة طريفة.

– عمارة الهاشمي الطيب (الجزائر) .. يمكنكم الكتابة مباشرة إلى قسم الاشتراكات بدار الهلال لتزويدكم بالأعداد المطلوبة من مجلة الهلال.

– نادر شفيق أسعد : قصتك القصيرة «الأحلام تعيد الأساطير لمبدعيها» جيدة الأسلوب، وتعالج فكرة جديدة وتنبئ عن موهبة حقيقية في المستقبل.

– حسن منتصر : مقالكم عن معنى المشروع القومي يتضمن أفكارا تعليمية وتربوية طيبة أما فكرتك بخصوص تغيير نظام الامتحانات على ضوء التجربة العينية فهي فكرة تحتاج لدراسة واسعة للبحث عن مدى امكانية تطبيقها في مصر من عدمه.

إلى قراء الهلال الأعزاء تسعدنا رسائلكم ومشاعركم الفياضة نحو الهلال وكنا نود نشر كل مايرد منكم إلا أن محدودية صفحات أنت والهلال. تحتم علينا نشر رسائلكم تباعا، فمعذرة لكل من تأجل نشر رسالته إلى الأعداد القادمة.

إعادة اختراع العجلة



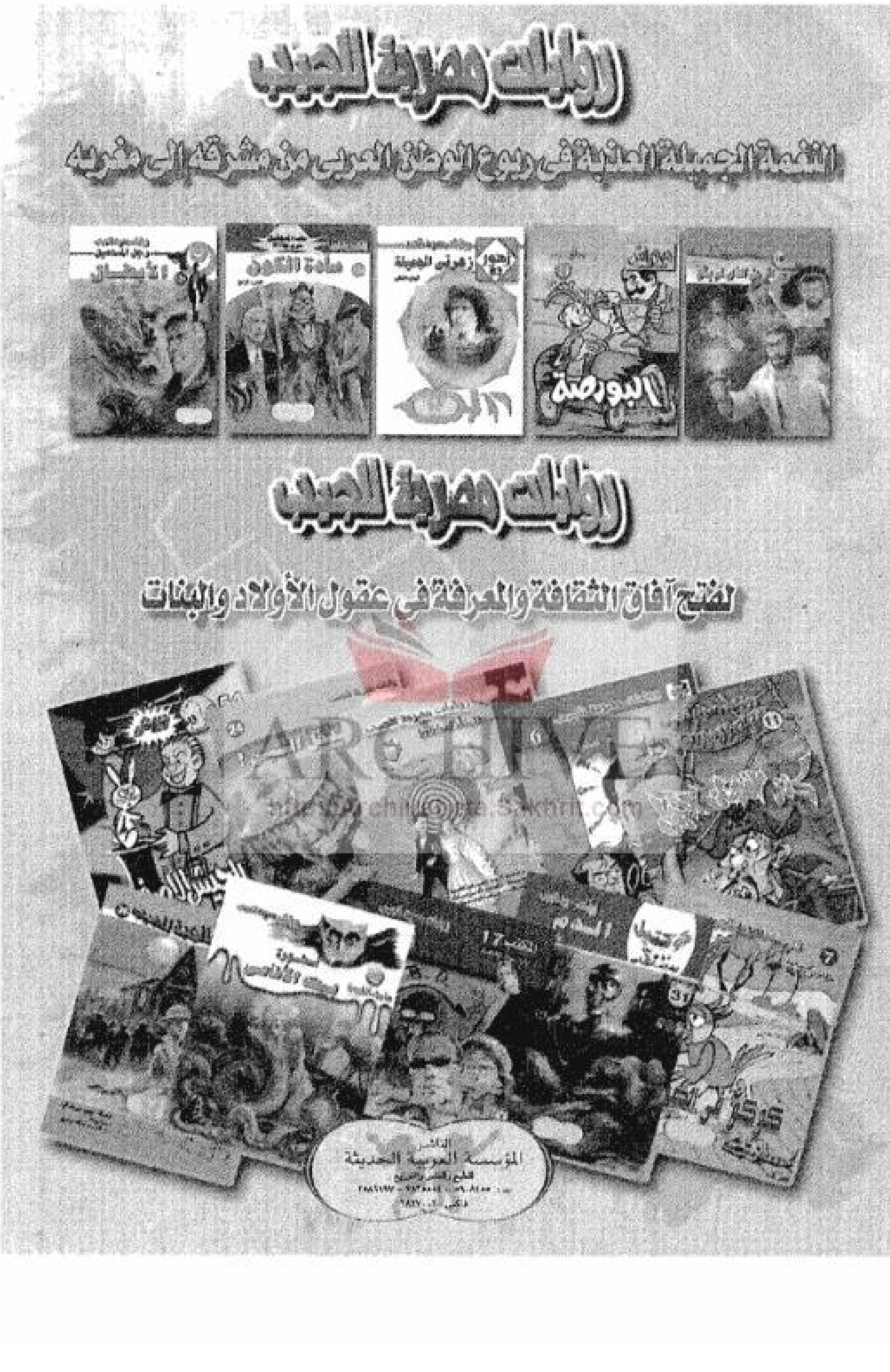
بقلم: د. مصطفى سويف

كان إمبذوقليس واحدا من كبار الكبار بين فلاسفة الإغريق، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وهو العصر الذي عاش فيه غيره من الكبار، بارمينيدس، وهيراقليطس، وأنكسجولاس.. إلخ. وقد عرف عن إمبذوقليس مذهبه في حركة التاريخ الكوني، وهو ما عرف باسم «العود الأبدي»؛ فالكون مكون من عناصر. والعناصر تحركها قوتان متعارضتان هما التجاذب والتنافر، وتمضي القوتان كل في طريقها، فالتجاذب يعمل على تجميع العناصر فتتجمع معاً حتى إذا اكتمل التجميع بدأ التنافر يفعل فعله في بعثرة العناصر، حتى إذا اكتملت البعثرة أو التفريق عاد التجاذب يعمل عمله، وهكذا دواليك، حركة دائبة هي «العود الأبدي».

وقد رأيت فيما يشبه الكشف أو الحدس النافذ أن هذا النموذج يصلح لتفسير حركة مجتمعنا المصري في كثير من تجلياتها؛ وسوف أضرب للقارىء على ذلك مثالين اثنين، لا على سبيل الحصر ولكن على سبيل توضيح الرؤية وتجسيمها. أما المثال الأول فأختاره من تاريخ واحدة من مؤسساتنا المهمة، وهي المؤسسة الجامعية؛ فقد عرفنا الجامعة أصلا وهي تأخذ بنظام الانتخاب لعمداء الكليات، ينتخبون من بين أساتذة كلياتهم، ويقوم بانتخابهم زملاؤهم الأساتذة في هذه الكليات. ثم إذا بالحكومة تلغي القانون المنظم لهذا الركن من أركان الحياة الجامعية وذلك في أعقاب ثورة سنة ١٩٥٢، وتحل محله قانونا يقضي بتعيين العمداء، ينفرد بتعيينهم وزير التربية والتعليم، ومضت الأمور على هذا النحو حتى سنة ١٩٧٢، ثم إذا بالحكومة تلغي هذا القانون وتحل محله قانونا آخر يقضي بالعودة إلى انتخاب العمداء، فعادت الجامعات إلى الانتخاب، حتى كانت سنة ١٩٩٤، ثم إذا بالحكومة تلغي هذا القانون لتحل محله قانونا يعود بالجامعة إلى نظام تعيين العمداء، ينفرد بتعيينهم وزير التعليم، وهكذا دواليك في المثال الأول.

وأما المثال الثاني فأختاره خاصا بالأحزاب؛ فقد عرفت مصر تكوين الأحزاب بصورة متبلورة مع عشرينيات القرن الماضي، جاء هذا مواكبا لثورة سنة ١٩١٩ وما تداعى بعدها من أحداث سياسية. ثم إذا بالحكومة تلغي الأحزاب في أعقاب ثورة سنة ١٩٥٢، وينفرد الحاكم بعملية التسييس في حكم البلاد. ومضت الأمور على هذا النحو حتى سنة ١٩٧٤، ثم إذا بالحكومة تدعو إلى تكوين الأحزاب. وعاد المواطنون يكونون الأحزاب. وهكذا دواليك في المثال الثاني. وثمة أمثلة أخرى عديدة أستطيع أن أضربها لتجسيم مذهب «العود الأبدي» كما صاغه لنا إمبذوقليس. (من هذا القبيل ما حدث ويحدث في ميدان مكافحة المخدرات، وما حدث ويحدث في تنظيم العمل في مدارس التربية والتعليم،... إلخ)، ولكني أعفي القارىء من حشو الكلام، وأكتفي بالمثالين اللذين ضربتهما، فهما يوضحان إلى درجة التجسيم ما قصدته باختيار نموذج العود الأبدي، وهو ما يعادل في مأثورات أحاديثنا اليومية «إعادة اختراع العجلة». وللقارىء بعد ذلك أن يستنتج مما قدمت ما يشاء من نتائج ودلالات سياسية واجتماعية وحضارية.


مصر للطيران
EGYPT AIR
يسرها أن تعلن عن إعادة تشغيل رحلاتها من وإلى
مطار النزهة بالإسكندرية
بطرازي الإيرباص ٣٢٠ والبوينج ٧٣٧
كما تعلن عن رحلاتها التالية خلال موسم صيف ٢٠٠١
الإسكندرية / بيروت / الإسكندرية الأربعاء
الإسكندرية / جدة / الإسكندرية
الإسكندرية / الرياض / الإسكندرية الخميس
الإسكندرية / الظهران / الإسكندرية الخميس
الإسكندرية / الكويت / الإسكندرية الخميس / الجمعة
الإسكندرية / الدوحة / الإسكندرية الاثنين
الإسكندرية / الدوحة / البحرين / الإسكندرية الخميس
الإسكندرية / مسقط / الإسكندرية الأربعاء
الإسكندرية / العين / الإسكندرية الثلاثاء
الإسكندرية / بنغازي / الإسكندرية الأربعاء
الإسكندرية / أثينا / الإسكندرية الأحد / الأربعاء
كما تعلن عن تشغيل الرحلات التالية
من مطار برج العرب بطراز الإيرباص ٦٠٠
الإسكندرية / أبوظبي / الإسكندرية الثلاثاء
الإسكندرية / دبي / الإسكندرية الأربعاء
مصر للطيران
www.egyptair.com.eg



روايات مصرية للجيب
النغمة الجميلة العذبة في ربوع الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه
البورصة
روايات مصرية للجيب
تفتح آفاق الثقافة والمعرفة في عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

الهلال

يوليه ٢٠٠١ • الثمن ٤ جنيهات

عبد الناصر كما رأيته

من عصر الأفندية
إلى عصر الدكاترة

بهجت عثمان
ورسالة لم تصل إليه



عربة الحنطور في التاريخ





لوحة: نبوية بالرداء المشجر
للفنان محمود سعيد

لوحة وفنان

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

سيد عبد المالك — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١.٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١.٥ ريال - تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٧٠٠٠ ليرة - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢.٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



الغلاف بريشة الفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وأفريقيا ٥٠ دولارا، باقي دول العالم ٥٠ دولارا.

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص.ب رقم ٢٩٨٣٢ - الصفاة - الكويت ص/13079 ٤٧١٤١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.



العام التاسع بعد المائة
ربيع ثاني ١٤٢٢هـ - يوليه ٢٠٠١م

الأبواب الثابتة



الإعــلام .. وتكريم العلماء

●● نحتفل كل عام بعيد الإعلاميين ، ويواكب هذا الاحتفال ضجة كبيرة حول ريادتنا في هذا المجال ، ووصولنا إلى مستوى لم نكن نحلم به ، ويتم استعراض الجهود المبذولة من قبل وزارة الإعلام في مجال البث التليفزيوني وعدد القنوات الجديدة التي تضاف من أجل أن تتواصل مسيرة الإعلام الناجحة ، خاصة أن لدينا قمرين صناعيين يؤديان دوراً مهماً ورائداً في المنطقة العربية كلها !

ونزعم أن محطات تليفزيونية يعلن عنها ولا يراها أحد ، ومن بينها القنوات التعليمية والرياضية والتى تحتاج بالضرورة إلى « ديكودر » رقمي لابد من دفع مبلغ من المال ، لا يقدر عليه سوى من لديهم القدرة على تحمل مثل هذه النفقات ، وبالتالى يحرم المشاهدون من عامة الشعب من هذه المحطات الجديدة التى ترصد لها الميزانيات الضخمة ، ولابد من أن الشعب دافع الضرائب يساهم فيها !! واسألوا عشاق الرياضة في مصر - الآن - الذين لا يمكنهم مشاهدة مباريات كأس العالم للشباب ، لأن قناة الرياضة قد اشتراها مستثمر عربى مهم ، وحرم على الشعب المصرى الكادح مشاهدة فريقنا للشباب فى الأرجنتين إلا إذا قام كل من يملك طبقا فى بيته (دش) بدفع اشتراك لكى نشاهد أبناءنا وهم يلعبون فى بطولة كأس العالم للشباب ، والتى تصل إليها فى العادة كل عدة سنوات ، ولا تستطيع الدولة أن توفر من ميزانيتها [illegible] ألف دولار لنقل مباريات هذه الدورة الدولية ، وتركت الشعب الكادح الذى يبحث عن متعة يسيرة تسعده لهؤلاء الذين غزوا قمرنا الصناعى واستولوا على أهم قنواته بما لديهم من مال وفير ، يزيد ويتضخم من قوت شعبنا الكادح .

وتزداد نبرة الحديث عن التطور فى برامج التليفزيون خاصة تلك البرامج السياسية التى قلدناها من المحطات العربية الأخرى ، لتظهر لنا باهتة ، لم يبذل الجهد الكافى لدراسة كيفية الاستفادة منها وتقديمها بشكل مشوق وغير نمطي ، ولم نعد نملك زمام المبادرة التى عرفت عن المبدعين في مصر ، وانسقنا وراء بعض المحطات التي تعمل أحيانا - على شق الرأى العام مع أن مهمة التليفزيون هى خلق تيار يتوحد حول القضايا الوطنية والنهضة فى كافة المجالات وزيادة الاستثمارات وزيادة الإنتاج .

هى كلمة حق نقولها لكى نراجع أنفسنا ، ويعود المشاهد من خلال المؤشر إلى قنواتنا المحلية وتلك القنوات الجديدة التى أعلن عنها أخيرا ، ونرجو مراعاة تقديمها لمن لا يستطيعون أن يتوفر لديهم « ديكودر » ويبقى أن نطرح سؤالا مهماً ، وهو كيف يواجه تليفزيوننا تلك القناة العربية الاسرائيلية التى بدأوا يعلنون عن افتتاحها قريباً !

* * *

●● جاء الاعلان عن أسماء الفائزين بجائزة مبارك فى العلوم والعلوم التكنولوجية المتقدمة

وجوائز الدولة التقديرية والتشجيعية وجوائز التفوق لعام ٢٠٠١ ، وجوائز البحوث البيئية والتربية البيئية، بمثابة تقدير وتكريم للعلم والعلماء ، وليبرز وجه مصر الحقيقى ، من خلال علمائها الجادين ، الذين قدموا لبلدهم خلاصة فكرهم وخبرتهم وعلمهم .

وكان على رأس المكرمين الدكتور محمد الظواهرى أستاذ الأمراض الجلدية ، والدكتور محمد غنيم مدير مركز أمراض الكلى والمسالك البولية بجامعة المنصورة ، وفازا بجائزة مبارك فى العلوم التكنولوجية المتقدمة ، وحصل كل منهما على ١٠٠ ألف جنيه .

لم يكن التكريم لهذين العالمين مفاجأة للجميع ، فلكل منهما باع كبير فى مجال تخصصه ، ونعلم جميعا هذا الدور الرائد الذى يقوم به الدكتور الظواهرى فى مجال تخصصه المهم وكيف يأتيه المرضى من كل بلاد الوطن العربى ، ويظل ساهرا للكشف على مرضاه كل ليلة حتى تظهر خيوط الفجر ، بلا كلل أو تهاون ، وأحبه رواده ، ونالوا الشفاء على يديه وظلوا يحملون أجمل الذكريات ، برغم الانتظار الطويل حتى يصلوا إلى دورهم فى الكشف الطبى .

وظل لما يزيد على نصف قرن من الزمان ، ومازال الطبيب والعالم يؤدى دوره ، وسيظل المئات يقفون كل يوم فى طابور الشفاء على يد الظواهرى أحد أساطين الطب فى هذا التخصص المهم .

أما الدكتور محمد غنيم والذى حول مركز أمراض الكلى بمدينة المنصورة إلى مركز عالمى ، يحضر إليه كبار الشخصيات ، بل رؤساء بعض الدول الإفريقية للاستشفاء ، فهو يعد ظاهرة فى زماننا الذى يندر فيه الإخلاص والتفانى والشجاعة ..

بفضل علمه وشجاعته فى اتخاذ القرارات الحاسمة نجحت تجربته وأصبح يعد من أبرز أطباء العالم ، هو والفريق الذى يحمل معه بتناغم وحب ومهارة يرددها كل من يذهب إلى هذا الصرح الطبى الكبير ..

ومن خلال هذا المركز تغير مفهوم المستشفى الحكومى السائد بمعنى توفير كل سبل الراحة للمريض وعلاجه مجانا وبشكل علمى منظم ، فضلا عن ارسال عدد كبير من الأطباء فى تخصصات مختلفة إلى المراكز الطبية فى العالم للارتقاء بمستواهم الطبى ، حتى أنه يخدم الآن حوالى ١٤ مليون مواطن فى محافظات شمال وشرق الدلتا .

وقد ابتكر مركز الكلى أساليب جديدة فى الجراحات من بينها استبدال المثانة بجزء من الأمعاء .

ولأن مصر بخير ، والجهد الخلاق يتواصل ويستمر فقد حصل أربعة من أساتذة مركز الكلى بالمنصورة على جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية لهذا العام .

وتبقى التحية واجبة لكل من د . الظواهرى ود . غنيم وأضرابهما ممن يسهمون بجهدهم العلمى من أجل الوطن . ■

المحـــــرر

مشهد

النقد الأدبي

في الثقافة العربية الراهنة

قول أول

بقلم
د. عبد المنعم تليمه

يصعب علي الراصد أن يصوغ بيانا واضحا لمشهد النقد الأدبي في ثقافاتنا الراهنة في مقال محدود المساحة، وتزداد الصعوبة إذا طمح هذا الراصد أن يضع هذا المشهد علي خريطة النقد المعاصر في الدوائر والبيئات العلمية والفكرية العالمية. بيد أننا يمكن أن ننهض بالأمر إذا تواضعنا في طموحنا فوقفنا هاهنا عند المعالم الكبرى دون أن نشغل قارئنا بالتفصيلات والتوثيقات الأكاديمية. ونجعل الأمر - تيسيرا - في مرتكزات ثلاثة: ننظر في أولها إلى ما يجرى في ساحة الابداع ودرسه في عالم اليوم، وننظر في ثانيها إلي ما يجرى في ثقافتنا العربية الراهنة في دائرة درس الفن ونقده، ونحاول في المحور الثالث أن نضع بين أيدى القارئين رؤية قابلة للمحاورة.

نميز منذ الآن بين حركتين عظميين في التاريخ الإنساني الحديث كانت أولاهما مهادا للثانية، حركة وضع الفروض الحديثة لنشوء علوم الإنسان والمجتمع في القرن الماضي وفيها غلبت الأيديولوجيا على العلم، وحركة الأسس المعاصرة الراهنة لتأصيل وتأسيس هذه العلوم وفيها يغلب العلم على الأيديولوجيا، نهضت الحركة الأولى على طائفة من المبادىء الفكرية والفلسفية العامة مدارها مواجهة الأرسطية والكنسية بالعقلانية والبراجماتية، ومواجهة

الثنائية والتضاد بالعضوية والتجاور، واستلهام مبدأ (التطور) من نتائج العلوم البيولوجية والطبيعية للقول بأن لكل شيء تاريخا. وأمدت هذه المبادىء الفكر الفنى بمعظم فروضه الفكرية والمنهجية الحديثة: ابتداء من فروض عن الحلم واللاشعور الفردى والجمعى وطبيعة السلوك السوى والمرضى، ومرورا بالشعيرة والمعتقد والاسطورة، وطبيعة المجتمع البدائى وانتهاء بمفاهيم الصراع والتغير فى الثقافة والمجتمع. وأمدت نتائج تلك المبادىء - منهجيا واجرائيا - الفكر الفنى بقدر من الضبط فى التحقيق والاستقصاء وأحيانا فى الاستقراء والتجريب.

لكن الفرض الفكرى والجمالى فى هذه الحركة ذهب إلى نقيضين بعيدين: ذهب أولا - إلى تناقض العقل مع الوجدان، وألح على أن المعرفة الحقة إنما هى المعرفة الوجدانية (الفنية)، وجعل المعرفة الفنية مغيرة للمعرفة الحسية والمعرفة العقلية جميعا، وجعل الموقف الفنى من الحقيقة مناقضا للموقف العلمى منها.. أسس على هذا أن الفن نتاج ذاتى خالص مستلهم من قوى متعالية غير مرئية، وأن للفن وجودا علويا غامضا، وأن الابداع نشاط مبهم صادر عن أغوار يصعب سبر كنهها لأن وراءه قوى علوية وحدسية ونفسية مجهولة وذهب - ثانيا - إلى أن الفن تعبير عن المجتمع والحياة والعصر والبيئة.. إلخ. ونشأت حول هذه المفهومات مناهج تاريخية واجتماعية فى الفن تفتش عن أثر (الحياة العامة) للمجتمع والعصر فى (الحياة الخاصة) للفنان، وتفتش عن أثر (الظروف) الاجتماعية والفكرية والسياسية فى (الحياة الفنية). وهذا يخاصم الأساس الفلسفى للحركة الذى يغلو فى الاعتداد بالذاتية حتى ليجعل العمل الفنى (وثيقة نفسية)، بينما القول هنا يغلو فى جعل هذا العمل صدى لتأثيرات خارجية تتلقاها ذات الفنان المبدعة تلقيا سلبيا حتى لتصير الأعمال الفنية أدلة وثائقية تفيد فى درس ظروف المجتمع وشواهد على ما يجرى فى العصر.. إلخ.

أما الحركة العظمى الثانية فى التاريخ البشرى الحديث فهى الصياغات الفكرية والفلسفية المبدئة والمواكبة لثورة ما بعد الصناعة. هذه الحركة ليست تيارا أو مدرسة أو اتجاها، إنما هى حركة استراتيجية تعكس مرحلة تاريخية بأسرها، وتضم فى إهابها كثرة من مدارس العلم والفكر والابداع، لقد نشأ - فى العقود الأخيرة - وضع ثقافى



عباس العقاد



محمد مندور

مشهد النقد الأدبي

فريد غير مسبوق فى التاريخ البشرى، يمكن للراصد أن يحدد له ملمحين عامين: الأول اتساع آفاق المادة الثقافية بأن طالت ما كان - فى عصور خلت - فى نطاق المحاذير والمحظورات أو فى نطاق المجهولات. والثانى تعدد طرق البحث العلمى ومناهج النظر الفكرى وأساليب التشكيل، وما تأسس على هذا من تعدد الاجراءات والنظريات ومن تعدد التيارات والاتجاهات والمدارس وما تأسس على هذا كله من تمايز وتداخل وتآزر وصراع فى كافة حقول العلم والبحث والفكر وبين كافة أنواع الفنون والآداب. بدأ البشر ينظمون الحياة على أسس جديدة، وبدأ العلم يطول كل ظاهرة فيقننها، وبدأ الفكر يطول كل مجهول فيفسره، وبدأ الابداع يطول كل سريرة فيشكلها. هنا تتراجع العقلانية الحازمة أمام الابداعية آفاق لا متناهية فى الانتقال من الوصف إلى الخلق ومن الصياغات والمقولات الفكرية الجامدة إلى الابداع الفكرى المتجدد تفتيشا عن الواقع الحق الذى وراءه القهر ويبدده التجزؤ ومزقه التفصيل. من ثم يتراجع - فى الفكر الجمالى - التحكم الأيديولوجى الصارم ويتأسس على هذا التراجع خفوت الآلية والحرفية والمرآوية والمباشرة. كذلك يتراجع حمل الظاهرة الفنية على غيرها من الظواهر وابداع أسس علمية لتفسير هذه الظاهرة فى ذاتها وفى علاقاتها. ويمكن القول - من جهة الفكر الجمالى - أن هذه الحركة العظمى قد دفعت (الحداثة) إلى ما بعدها، فشهدت التجديد الفلسفى الواسع فى الكانتية الجديدة، والهيجلية الجديدة والماركسية الجديدة، وشهدت عمل هذا التجديد الفلسفى مع نضج علم اللغة ونتائجه فى مفهومات البنية والتفكيك وفى مبادىء البلاغة الجديدة والبحث الأسلوبى.

***

وقد صدر الفكر التجديدى فى النهضة العربية الراهنة عن تلك الفروض الحديثة التى صاغتها الحركة الأولى العظمى فى التفكير العالمى الحديث. وقدم كل تيار فكرى عربى - فى حقل الأدب - واحدا من تلك الفروض رآه يتصدر غيره، فقدم فريق (الحياة الإنسانية)، وقدم ثان (البيئة)، وقدم ثالث (المجتمع)، وقدم رابع (العصر)، وقدم خامس (شخصية المبدع).. إلخ. ويقع الراصد على كل هذه المقولات فى فكرنا الأدبى الحديث بتفاوت فى قوة العبارة عن هذه المقولة أو تلك بين هذا الرائد أو ذاك، ويتفاوت فى صدارة كل مقولة بين طور وآخر من أطوار هذه النهضة العربية الحديثة. كذلك فان هذا الرصد يمكن أن يقع على هيمنة مقولة (العصر) فى كتابات طه حسين التى قدم فيها فرائد الشعر العربى منذ معلقة طرفة ابن العبد إلى ابداعات الاحيائيين والرومانسيين العرب فى هذا القرن العشرين، بل أن هذه المقولة تجد تجليها المتكامل فى دراساته الموسعة فى شعر المتنبى وأبى العلاء، وهيمنت مقولة (الشخصية) فى كتابات عباس محمود العقاد التى حملت دعوته النقدية النظرية

إلى ما سماه المذهب الشعرى الجديد وكذلك التى تبدت فى تناوله لشعر المحدثين منذ بدء النهضة إلى أحمد شوقي، بل أن هذه المقولة تجد تجليها التكامل في دراستيه الموسعتين عن أبى نواس وابن الرومى. وهيمنت مقولة (البيئة). فى كتابات أمين الخولى التى فتشت عن خصائص تميز الأدب العربى فى مصر حتى لقد نشأ لهذا الأمر درس وكرسى فى الجامعة، بل لقد تجاوز أمين الخولى ميدان الابداع الأدبى فراح يفتش عن مثل تلك الخصائص فى عمل البلاغيين والنحاة بمصر الإسلامية .

كذلك هيمنت مقولة (المجتمع) على كتابات محمد مندور فى مرحلته الثانية عندما وضع خريطة لمدارس الشعر العربى الحديث على أسس من هذه المقولة، وعندما تناول أعمالا لتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ خاصة. ولن يجد هذا الراصد كل ذلك فى صورة نقية فى كتابات هؤلاء الأعلام، وإنما نتحدث عن الغالب فى تصور كل منهم وفى تصورات تلاميذهم ومن أخذوا عنهم ونهجوا نهجهم. وسنرى فى موضع تال من حديثنا هذا أن كل تلك الفروض أو المقولات على قدر عظيم من الغموض الذى قد يشير بصورة عامة إلى علاقات الظاهرة الأدبية لكنه لا يعين على بيان علاقاتها، وبيان هذا نبديه فى موضعه. إنما نحن ها هنا الآن لنقف على تصور هذه الحركة العربية المجددة لتاريخ الأمة الابداعي. وننص فى هذا الشأن أن هذه الحركة العربية المجددة لم تصل إلى (خطة) تستوعب تاريخنا الإبداعي، وخاصة تاريخنا الأدبى .

لم تتصور هذه الحركة عملية التفاعل التاريخى الكبير بين ثقافات المنطقة وحضاراتها منذ بدء تاريخها المعروف إلى يوم الناس هذا، وإنما تصورت أن تلك الثقافات والحضارات قد انقطع تواصلها بالفتح العربى الإسلامى الذى يبدأ به - فى هذا التصور - تاريخ جديد، وكان من شأنه تصور عملية التفاعل أن يجعل الفتح العربى الإسلامى بداية لمرحلة من مراحل تاريخ واحد، وكان من شأنه كذلك أن يجعل تاريخ الأمة الإبداعى واحدا يضم منجز كل تلك الثقافات والحضارات بكل مراحل تفاعلها وآخرها المرحلة العربية الإسلامية.

لكن الحركة العربية المجددة تبدأ بالتاريخ الابداعى - نخص الابداع العربى هنا - بأقدم النصوص الإبداعية باللغة العربية، أى قبل الإسلام بنحو قرنين، وترى آداب الشعوب الأمم المتفاعلة فى المنطقة منجزا توقف وانقطع بعد الفتح، كأنه ابداع (أجنبى). ولم ينج من هذا التصور غلاة القوميين المحليين من أصحاب الفرعونية والفينيقية وغيرهما الذين أرادوا (إحياء) موروثاتهم القديمة كما كانت باعتبارها حقيقة أوطانهم، ولم ينظروا إلى تلك الموروثات باعتبارها مراحل من تاريخ واحد يضم مراحل أخرى ويتمادى إلى الآن، ولا باعتبارها عناصر تتفاعل مع غيرها فى تكوين تاريخى ثقافى جديد لاتزال حركته جارية. وحتى وقوف الحركة العربية المجددة عند الفتح العربى وما بعده لم يحمل تصورا كاملا لحركة هذا التاريخ من الوجهة

الاستراتيجية التي تجعل هذه الحركة في ثلاث انتقالات كبرى، صعود يستغرق القرون الهجرية الخمسة الأولى، وخمود يستغرق العصر العربي الوسيط، ونهوض في هذين القرنين الأخيرين. إنما قدمت هذه الحركة العربية المجددة تاريخ الأدب العربي جزئيا مبددا. حددت - في هذا التقديم- (عصور) الأدب العربي بقيام الدول والدويلات وسقوطها، بل حددته بكبار الحوادث في هذه الدولة أو تلك، بل لقد حددته - أحيانا - بسنوات بأعيانها. وليس التأثير الاستشراقي بعيدا عن هذا التصور التجزيئي المبدد. ذلك أن الفكر الغربي عامة عندما يتصور تاريخ بلاده العام والثقافي. فإنما يتصور حركة هذا التاريخ في اتجاهها نحو نضج الجماعة في دولتها القومية الحديثة، كما يتصور حركة تاريخ الجماعة الثقافي في اتجاهها نحو العلمانية والعقلانية في المفهومات العصرية التي استقرت في الفكر التاريخي والاستراتيجي.

مغالطات الفكر الغربي

لكن هذا الفكر الغربي ذاته يكون له شأن آخر عندما يتصور التاريخ العربي والبنية الثقافية العربية، وعندما يتصدى للتأريخ لهما. إنه يتصور أن الإسلام قد أوقف تواصل الثقافات والحضارات القديمة في المنطقة العربية، بل لقد حاول الإسلام - في هذا التصور الغربي - محو تلك الثقافات والحضارات، كذلك يتصور هذا الفكر الغربي أن تاريخ شعوب المنطقة العربية بعد الإسلام هو تاريخ ينهض على القبائل والمذاهب والفرق الدينية. إن عصور التاريخ العربي الإسلامي العام والثقافي جميعا إنما يتحدد - في هذا التصور - بقيام أو أفول دويلات أسسها قبلية أو مذهبية. وأوسع مدى في تصور هذا الفكر الغربي الاستشراقي للتاريخ العربي الإسلامي كان في القرون الثالث والرابع والخامس الهجري، عندما برزت في هذا التاريخ ثلاث خلافات كبرى؛ عباسية سنية في المشرق، وفاطمية شيعية في الشام ومصر والمغرب، وأموية سنية في الأندلس. وحتى هذا المدى الواسع قد نهض لدى المستشرقين على أسس قبلية ومذهبية.

وهكذا أخذت حركة التجديد العربي - لأسباب مختلفة - بما أخذت به حركة الاستشراق والفكر الغربي عامة من أسس للتاريخ العام وللبنية الإبداعية العربية خاصة. ففي الحركتين جميعا تواصل مراحل التاريخ الواحد، وتفاعل شعوب اتجاه أمة واحدة، وتجادل ثقافات في اتجاه بنية ثقافية هي وعاء لعناصر متنوعة .. وها هنا تتبدى دقيقة من دقائق هذا الأمر. وذلك أن رواد التجديد العربي في ثقافتنا الحديثة قد سعوا إلى وضع الأدب العربي في سياق الأدب الإنساني، ورأوا أن هذا الأدب العربي أولى الآداب بالدرس المقارن لصلاته التاريخية بالآداب العالمية الكبرى قديمة ووسيطة، فجعلوا الأدب العربي - مكانا وزمانا - متلقيا لآداب الحضارات القديمة، موصلا إلى - ومؤثرا في - آداب الحضارات الوسيطة. ولقد

كان هذا سبيل طه حسين - إمام هؤلاء الرواد غير مدافع - الذى فتح الباب عريضا للدرس الأدبى المقارن، وكان من خطواته المبكرة أن جعل الأدب العربى فى المرتبة الثانية بين الآداب القديمة الخمسة الكبرى وهى الأدب اليونانى والأدب العربى والأدب اللاتينى والأدب الفارسى والأدب الهندى. ولا ريب فى أن هذا النظر، وإن كان عاما وعريضا ، قد كان جديدا فى بابه. بيد أن المقارنة فى هذه الدقيقة التى تقف عندها فى هذا الأمر، قد تبدت عندما طمح بعض الدارسين إلى نتائج تعين فى تحديد مكانة الأدب العربى بين الآداب القديمة الكبرى وصلاته التاريخية بهذه الآداب دون حركة موازية - وربما سابقة - لتحديد مراحل تاريخ هذا الأدب العربى ذاته، منذ أقدم الأزمنة الفرعونية والآشورية.. إلخ، انتهاء بالمرحلة العربية الإسلامية التى تعد - فى هذا النظر - آخر مراحل تاريخ هذه الأمة.

***

ويصوغ كاتب هذه السطور - ساعيا إلى الحوار - خطته الفكرية والجمالية فى محاور محددة: إن ابداعنا قطعة عزيزة من تاريخ الابداع البشرى، يحمل العناصر المحلية والبيئية والاجتماعية كما يحمل عناصر انسانية عامة باقية. فالأدب العربي - وهو جانب واحد من موروثنا الابداعى - له خصوصيته الحضارية والقومية ، ولغة هذا الأدب جمالياتها وخصائصها التعبيرية والفنية هو السبيل إلى تحديد مكان ابداعنا في تاريخ الابداع الإنسانى عامة. أما اضافتنا الراهنة فسبيلها جهد علمى مرموق يضاف إلى جهود غيرنا لتأسيس العلم الجديد. - إن كل أمة تسعى اليوم إلى المشاركة بجهد متميز فى حضارة تنحو إلى أن تكون واحدة، لكن أية أمة لا تسعى إلى (نظرية) أو (عام) خاص بها، فلا يمكن القول اليوم أو غدا أن ثمة نظرية أو (فلسفة) هندية أو ألمانية أو أمريكية أو عربية.. إلخ . كان ذلك قائما فى العصور القديمة والوسيطة عندما كانت الحضارات حلقات متميزة شبه مغلقة، فكانت هناك فلسفة اغريقية وصينية وهندية وفرعونية ... إلخ، ولا تعنى الحضارة الواحدة فلسفة واحدة أو نظرية واحدة أو منهجا واحدا، بل على العكس ، يشهد العالم اليوم تنوعا هائلا فى الاجتهادات النظرية والاجراءات المنهجية وطرائق البحث والنظر لكن شيئا من ذلك لا يتسمى باسم بلد أو اقليم ولا ينسب إلى أمة واحدة (أبدعته) ويتصل



نجيب محفوظ



توفيق الحكيم

مشهد النقد الأدبي

هذا المحور بكيفية نفي التطابق بين تاريخ الأمة العام وتاريخها الإبداعي، وما دمنا بصدد بناء التاريخ الابداعي لأمتنا على أسس جديدة، بدهي أن تاريخ الأمة - عاما وابداعيا - واحد في انتقالاته الأساسية، وعلى هذا فإن الصلة بين الوجهين أصل، غير أنها ليست صلة تطابق. هي أصل لأن العلم يحدد ما هو تاريخي في حياة المجتمعات بالمراحل الاستراتيجية الكبرى أي بالانتقالات التاريخية الأساسية من مرحلة تميزها علاقات اجتماعية إلى مرحلة قائمة على علاقات اجتماعية أخرى، ويحدد أن المثل الجمالي الأعلى يفصح عن جمالية مرحلة تاريخية كاملة من حياة المجتمع ولا يتغير هذا المثل تغيراً حقيقيا إلا بتغير هذه المرحلة.

إن الفنان ينتج آثاره في ظل ظروف محددة من تطور جماعته من حيث أدوات العمل الاجتماعي وخاماته وعاداته وعلاقاته ومن حيث (تقسيمه) والتخصص فيه، كذلك فإن التشكيلات الجمالية والتقاليد الفنية ليست منعزلة عن سعي الجماعة إلى تثبيت خبرتها التكنولوجية والاجتماعية في أسلوب وإطار. لكن الصلة - كما سلف - ليست صلة تطابق. ثمة مشكلات نظرية ومنهجية يجد مؤرخ الفن أن عمله متوقف على صياغتها صياغة فكرية وعلمية صحيحة. وفي مقدمة هذه المشكلات الاستقلال النسبي لتطور صور الثقافة، بل لتطور كل صورة من صورها. وفي مقدمة هذه المشكلات فيما يتصل بالإبداع خصوصية الظاهرة الفنية بين صور الثقافة المختلفة. الأساس المنهجي هنا أن الفن يتعامل مع (مادته) تعاملا (خاصا) يجعل للظاهرة الفنية نوعيتها المتميزة وقانون تطور خاص، لا يتطابق والقوانين التاريخية على الرغم من عمله وفق حقائقها العامة.

هذا الأساس المنهجي معين على بيان مراحل تاريخ الفن وعلل تطوره أو تخلفه وبيان الحاجات الجمالية المؤدية إلى نشوء الأنواع الفنية وعلل تطور هذه الأنواع أو انقراضها أو تعدلها أو استمرارها في غيرها.. إلخ. وبيان المبادىء والأصول الجمالية لنشوء المدارس والنظريات والاتجاهات والأساليب الفنية.. إلخ. وثمة دقيقة من دقائق تاريخ الفن تتصل بمفهومي (التطور) و(التقدم) في هذا التاريخ التطور معناه (التغير) والتقدم معناه (التغير إلى الأفضل)، والفن يتطور لكنه لا يتقدم، وبطبيعة الحال فإن تغير الواقع والتقدم الإنساني عامة قد أثر تأثيرا عميقا في مجرى التطور الفني، إذ أمد الفنون بخبرة واسعة بالمادة وخصائصها وطاقاتها، وبخبرة تكتيكية مساعدة في التنفيذ والتشكيل والعرض، وبتراكم معرفي كبير.. إلخ. ولقد أتاح كل ذلك للفنون أن تتنوع وأن تتعاون وأن تتداخل. كما أن كل ذلك قد (عقد) الخبرة والمدارك الجمالية وصقلها. وقد أفضى كل هذا إلى أن يكون نموذج الواقع في الفن نموذجا (مركبا). غير أن الفيصل في الموقف الفني ليس التركيب أو البساطة في

طراق أداء هذا الموقف وتوصيله، وإنما الفيصل هو القدرة على التشكيل، ولا يحدد هذه القدرة تركيب ولا بساطة في الأداء، إنما تحددها (طاقة) الفنان المبدع نفسه. ورب موال (بسيط) يبدعه فلاح أمي في قرية نائية من قرى مصر أقدر على هذا التشكيل من عمل (مركب) وقفت وراءه كل خبرة التكنيك وتعقيده، والشعر المعاصر أكثر (تطورا) من الشعر القديم، لاعتماده - الشعر المعاصر - بناء الصورة المركبة والعنصرين القصصي والدرامي ، لكن هذا الشعر ليس أكثر (تقدما) من الشعر القديم. إن تطور الفن يتبدى في البحث الدائب عن تشكيل يلائم التعميم الجمالي لوضع تاريخي اجتماعي بعينه. ويتخذ هذا البحث صورة نشأة أنواع فنية جديدة، وانقراض أنواع أخرى، وسيادة نماذج إنسانية بعينها، وطراق في البناء والأداء ونظريات ومدارس فنية، ومناهج نقدية وجمالية .. إلخ. إن الحديث هنا ليس (أفضل) من القديم ولا أرقى منه وإنما هو أكثر ملاءمة لتشكيل تعميم جمالي جديد. ولهذا يحل القانون العلمي الحديث محل القانون العلمي القديم، أما في الفن فإن الحديث لا يجب القديم ولا ينفيه أو يقوم مقامه.

علاقة الفن بالواقع

ويتصل المحور الثالث بفهم محرر للصلة الجمالية بالواقع، ومن ثم لعلاقة الفن بالواقع. وكان هذا المبحث يعتمد تقليديا على أسس في نظرية المعرفة مدارها الانعكاس، بينما مدار هذا البحث في محورنا الثالث هذا: الموازاة الرمزية . الفن موازاة رمزية للواقع. ولقد اعتمد هذا المحور - منذ ربع قرن - مصطلح الموازاة الرمزية ليتجاوز طلب (الواقع في الفن) الذي يشي بالمراوية والفوتوغرافية والتماس (صورة) الواقع في الفن ، إلى طلب (الفن في الواقع) الذي يسعى إلى بيان خصوصية الظاهرة الفنية والتماس (دور) الفن في الواقع. وينهض هذا المحور على مفهومات أربعة: الجمال والفن والواقع والمجتمع. إن الماهية الاجتماعية لعلاقات البشر بالطبيعة نشأت في بعض الصياغات الفكرية وهما يقصر الواقع على المجتمع بينما الصحيح أن الواقع ينتظم الطبيعي والاجتماعي. كذلك فإن الماهية الجمالية للفن تنشيء في بعض الصياغات الفكرية وهما يقصر الجمال على الفن بينما الصحيح أن الجمال يوجد في الفن وفي غيره من الظواهر والأحياء والأشياء. إن الواقع أعم من المجتمع وإن الجمال أعم من الفن. إن الواقع معنى شامل فهو يتضمن المادي والإنساني، وإدراكه محكوم بمستوى الخبرة التكنيكية وطبيعة العلاقات الاجتماعية ولذا فإن هذا الإدراك نسبي لأنه تاريخي . وبهذا التصور فإن الواقع من حولنا يبرز في كل مرحلة من مراحل التطور جوانب جديدة ومظاهر وظواهر لا تقف عند غاية ولا تحدها نهاية . إن الواقع ليس ثابتا بل هو في تطور دائب، كما أن جزئياته وظواهره ليست مرصوصة معزولة عن بعضها ، بل هي متشابكة ومتداخلة ومترابطة ومتبادلة التأثير والتأثر. الواقع حركة متطورة موارة، والفن عمل خاص لا يخضع لظاهر

هذه الحركة، بل إنه ليلمح جامعا بين عناصرها الباطنية ويكشف عن مغزى هذا الجامع وجوهره، والفنان منتج متخصص، لكنه لا يخضع كغيره من المنتجين خضوعا كاملا لشروط تقسيم العمل والتخصص فيه. هو موهوب في هذا الجانب من النشاط الاجتماعي، وخصوصية عمله تجعله يتميز عن غيره من المنتجين لكنه لا يمتاز عليهم. والفن - لأنه عمل متحرر من الظاهر والمرئي ومن الجزئي والعرضي - يشد من اللحظة ما ترهص به من مستقبل فينبيء ويتنبأ. يكتشف بين الحالات والمواقف والأشياء جوامع لا تراها كل عين، يكتشف من الماثل صورة المثال. وعناصر الأصالة والذاتية والفنائية شروط لازمة في كل عمل فني، لأن هذا العمل الخاص نتاج إنسان له أشواقه ورؤاه ومواقفه وأحلامه. كل هذا يساعد في بيان خصوصية الفن بين الظواهر الثقافية والنشاطات الإنسانية. إن الفن الفقير وحده هو الذي يقف عند (عكس) لحظته التاريخية، بينما يجعل الفن العظيم هذه اللحظة واحدة من لحظات الإنسانية. إن الخوالد في الفن هي ثمرة مجتمعاتها، وهي في الوقت نفسه ذات دلالة إنسانية عامة تمنحها البقاء والخلود.

ويتصل المحور الرابع بالنص. النص الأدبي كيفية خاصة في التعامل مع أداة عامة وهي اللغة. وفي بيان هذا الأمر - كما سيأتي - خلاف عريض مع غلاة الأخلاقيين من ناحية، ومع غلاة الشكليين من ناحية ثانية. إن غلاة الأخلاقيين يسألون: لم أنشأ الشاعر قصيدته، طالبين (معنى) مفارقا لتشكيله، وهنا تضيع (الكيفية) التي هي جوهر الشعر. أما غلاة الشكليين فيسألون: كيف أنشأ الشاعر قصيدته، طالبين بناء شكليا مفارقا لسياقه التاريخي الاجتماعي، وهنا تضيع (بنية الموقف) وهي الدلالة النهائية لبنية التشكيل. أما محورنا الرابع فيرى أن مشكل الشاعر - الكاتب المبدع الأدبي عامة - ليس مشكل توصيل وإنما هو مشكل تشكيل. إنه لا يتوجه بمعنى مسبق يسعى إلى توصيله كما أنه لا يتوجه إلى غرض يسعى إلى التعبير عنه. ولكن توجهه إنما إلى أن يثير في اللغة طاقاتها الخالقة حتى يكمل له التشكيل الجمالي الذي يوازي به رمزيا واقعه النفسي والفكري والروحي والاجتماعي. ولبنية التشكيل دلالتها النهائية في بنية الموقف. ولا يمكن الفصل بين البنيتين لأن من جدلهما تنشأ وحدة القصيدة والعمل الأدبي عامة. إن فضاء النص تشغله ثلاثة عناصر: أولها ذات الشاعر حيث تسعى إلى الإفصاح عن موقف هو ثمرة التجادل بين ما هو ذاتي من أحلام ورؤى وما هو موضوعي من شرط تاريخي اجتماعي وثانيها مطلق الشعر، حيث يسعى (الشعر) - حركة خلق - إلى التحقق مؤسسا على التقاليد والأشكال الشعرية المتواترة ومزلزلا ومعدلا لها ومضيفا إليها في آن واحد. وثالثها اللغة حيث تسعى إلى التحقيق بالتشكيل الجمالي الذي يتخطى المألوف اللغوي إلى غير المألوف

المبدع. وليست هذه العناصر الثلاثة متوازية، بل إنها متعانقة ومتداخلة ومتفاعلة ومتجادلة. إن الشاعر يلوذ بعين خياله يقع بها على ما لا تراه كل عين، ثم يشكل باللغة جسدا - نصا - ما سطع وضاء في خياله . ومدار المحاكمة النقدية ليس ما تصور الشاعر بعين خياله ، وإنما ما صور وشكل بأدائه . وليس الأمر طرفين الموقف والتشكيل - إنما الأمر عملية واحدة، تشكيل جمالي موقف فالشأن كل الشأن- للتشكيل .

إن الموقف لا يبين - حتى لصاحبه الفنان - إلا بعد تشكيله، ومن هنا فإن العملية النقدية - في هذا المنظور لا تنتهي ببيان موقف للفنان إلا بتمام درس اجراءات التشكيلية وطرائق البناء والأداء في عمله. وكل قول نقدي لا ينهض على قرائن تشكيلية هو من ذات الناقد وليس من عمل الفنان . وهنا أيضا تبدو إحدى الدقائق الجمالية المهمة . فقد رأينا المحور الثالث يتجاوز الانعكاس المرآوي، وهنا نرى أن هذا المحور الرابع يتجاوز ثنائية (الشكل والمضمون). وقد يرى راء أن ما يعتمده هذا المحور من أن النص (تشكيل جمالي لموقف) يوجد ثنائية جديدة هي ثنائية : التشكيل والموقف . وليس هذا بشيء، لأن مذهبنا إنما يعني - في البدء وفي الانتهاء - أن النص تشكيل ، ينتهي مع آخر وحدة من وحداته إلى موقف. بمعنى أن التشكيل عماد النص والفيصل في (وجوده)، وأن الموقف ثمرة لهذا التشكيل وليس طرفا موازيا له في ثنائية جديدة تحل محل الثنائية القديمة: شكل ومضمون . ولابد في هذا الشأن من النص على أمرين: أولهما أن عمل الفنان إنما يرتد جملة وتفصيلا إلى اقتداره التشكيلي. وليس معنى الاقتدار (الحذق) - الذي ينتظم درجة استيعاب تقاليد النوع الفني وتشكيلاته المتواترة - وحده، بل معناه هذا الحذق موجها بموهبة مغزاها العميق أن الفنان (يرى) واقعه مشكلا. وثانيهما أن (موقف) الفنان إنما يرتد إلى طائفة معقدة من العناصر والمكونات الموضوعية والذاتية ، والاجتماعية والفردية، الفكرية والوجدانية ، الماثلة والمثالية، ولما كان موقف الإنسان - فنانا وغير فنان - يمكن أن (يقرر) بوسائل إشارية وتعبيرية لا نهائية ، فإن الموقف في الفن لا يمكن أن (يبين) إلا بوسائل تشكيلية جمالية. من هنا كان المدار في قراءة النص التشكيل، مذاهبه وطرائقه وأساليبه وإجراءاته. ■



طه حسين



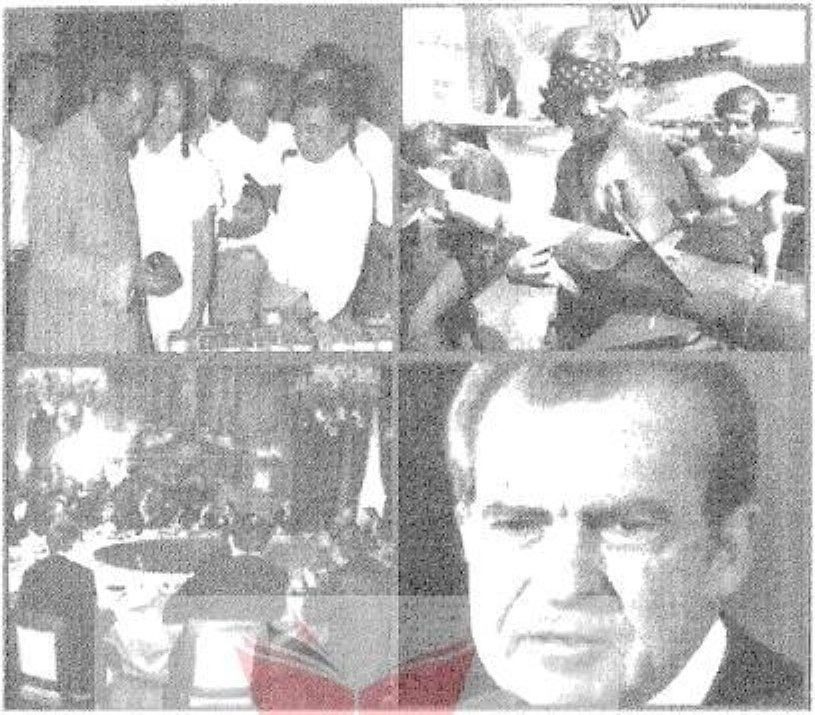
أمين الخولي

جاءت السبعينيات

فاختفى المغامرون وقامت المؤسسات

بقلم
د. مصطفى سويف

المتأمل في عقد السبعينيات كما جرى على العالم مقارنا بعقد الستينيات «في القرن العشرين» يجد أن السمة الغالبة على أحداث السبعينيات أنها لم تكن هوجاء كأحداث الستينيات، بل كانت أكثر انضباطاً، وأقرب إلى القيام على حسابات أجرتها نفوس باردة وعقول محنكة، وكأنها تصلح ما أفسد الدهر، وكان اللاعبين الأساسيين أصاب كل منهم قدرا معقولا من المعرفة اليقينية بالخطوط الحمراء التي يضعها الآخرون «الأعداء والحلفاء والمحايدون»، كما أصاب قدرا من التعقل والحكمة في التخطيط لخطواته مسبقا بدلا من الاندفاع ثم التراجع في مدي زمني قصير «كما فعل كروشتشيف في الستينيات عندما قرر إرسال الصواريخ السوفييتية إلى كوبا ثم عاد فقرر سحبها في خلال شهور أمام تهديدات كنيدى بالحرب، وكما فعل كنيدى نفسه عندما اندفع فاحتضن مغامرة الكوبيين المنشقين لغزو كوبا ثم تراجع عن الاحتضان وفشلت المغامرة»، أو كأن العمل المؤسسي أخذ يسترد عافيته ليحل محل مغامرات المغامرين من الزعماء خاصة والسياسيين عامة، أو كأن اللحظة التاريخية في الستينيات استدعت وجود زعماء مغامرين لإحداث تحولات كيفية بصورة لا تناسب طبيعة عمل المؤسسات، فلما جاءت السبعينيات اختفت الحاجة إلى المغامرين وآن الأوان لتنهض المؤسسات بمهامها.



أن أحداث السبعينيات كانت أفضل أو أسوأ من سابقتها، ولا أنها كانت أقرب إلى الصوب أو أمعن فى الخطأ، فهذه كلها أحكام لا معنى لها فى سياق هذه النظرة التحليلية الشاملة التى أنهض بتقديمها فى هذا المقال.

السبعينيات المبكرة

وقد رأيت أن أقتصر بالحديث الراهن على أحداث السبعينيات المبكرة لأسباب متعددة يأتى فى مقدمتها الحرص على الوقوف عند بعض الأمور مفصلة وإبراز دلالتها كما عايشناها، ومرة أخرى أعود إلى مفهوم السيناريوهات الذى استخدمته فى حديث سابق «عن الستينيات»، فأنا أستخدم هذا المفهوم لأننى لم أجد أفضل منه لإضفاء قالب تنظيمى على الأحداث المتلاحقة للعقد، فهو «أى هذا المفهوم» يربط بين الأحداث بطريقة تجعل منها حلقات فى سلسلة «أو سلاسل» لها نقطة بدء، ولها توجه، ولها هدف بعيد، ولها كذلك مراحل تمر بها فى السبيل إلى الهدف البعيد، وبعبارة أخرى فإن مفهوم السيناريو يقسم الأحداث إلى

جاءت السبعينيات

مجموعات لكل منها معنى محدد إلى درجة معقولة، ثم يضاف إلى ذلك أن من المزايا المهمة لمفهوم السيناريو أن يفرض على الذهن التفكير فيما نسميه بالأدوار التى تقوم بها قوى فاعلة «كأشخاص أو كمؤسسات»، وهذا ما يجعل الأحداث أفعالا، لأن الفرق الرئيسى بين الحدث والفعل هو فى الإسناد إلى فاعل «مصدر إطلاق الفعل والتخطيط له ولتشابكاته»، وهو أمر يضاعف قدرتنا على فهم مادار فى المرحلة التاريخية التى نحن بصددها.

من هذا المنطلق وجدتنى أدرك عقد السبعينيات وأعايشه باعتباره قسمة بين أربعة سيناريوهات، يتعلق أحدها بحرب فيتنام، ويتعلق الثانى بما حدث من تقارب حثيث بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين الشعبية، والثالث بمحاسبة نيكسون رئيس الولايات المتحدة وإبعاده عن منصب الرئاسة، والرابع عن السوق الأوروبية المشتركة، هذه السيناريوهات هى التى ستنتظم حديثى عن السبعينيات المبكرة، لأنها تكاد تستوعب مصادر الطاقة المحركة لأحداث تلك الفترة التاريخية ولأنها بدت لى ذات فاعلية تتجاوز حدودها الزمنية. وتبقى بعد ذلك ملاحظتان، أولاهما تتعلق بالسيناريو الرابع، فقد رأيت ألا أشمله فى حديثى الراهن لأن أحداثه كانت منخفضة القامة إذا قورنت بأحداث السيناريوهات الثلاثة الأخرى، فرأيت تأجيل الكلام عنها حتى ترتفع قامتها إلى أكثر مما كانت عليه.. والملاحظة الثانية تتناول ما عايشناه من أحداث عالمية أخرى قامت خارج نطاق السيناريوهات التى ذكرناها، وربما جاز الجمع بينها تحت بطاقة خاصة باسم «فعاليات الضمير الإنسانى العام»، وذلك فى مقابل أحداث السيناريوهات الثلاثة التى ذكرناها والتى تقع منطقيا تحت فئة «فعاليات ما بين الدول»، وسوف أتناول فعاليات الضمير هذه باقتضاب فى الفقرات الأخيرة من هذا الحدث، على أمل أن أتناولها فى مقبل الأيام بحديث جدير بحاضرها ومستقبلها.

السيناريو الأول:
حرب فيتنام:

لعل القارئ يذكر أن حرب فيتنام بدأت نذرها مع بداية عقد الستينيات، واستمر التصعيد فيها حتى نهاية ذلك العقد، والتصعيد هنا يشير إلى مزيد من تورط الحكومة الأمريكية «برئاسة لندون جونسون» فى القتال، وأضيف إلى ذلك تصعيد آخر يتمثل فى تنامى مظاهر

الاحتجاج داخل المجتمع الأمريكي المدنى ضد سياسة حكومته فى هذا الصدد، وحان موعد الانتخابات الأمريكية الرئاسية فى نوفمبر ١٩٦٨ وسقط جونسون ومعه الديمقراطيون، ونجح نيكسون ومعه الجمهوريون، وتوقعنا وتوقعت شرائح عريضة فى المجتمع الأمريكى أن يتجه الجمهوريون إلى انهاء هذه الحرب، ولكن إدارة نيكسون ازدادت تورطا فيها، واندلعت لذلك واحدة من أخطر المظاهرات فى أمريكا ضد الحرب، وقتل فى تلك المظاهرات عدد كبير من الطلاب، وهو أمر ما أيسر أن تتحمله الحكومات فى الدول النامية، حيث تسعيرة الأفراد مبخوسة أصلا، ولكن من العسير جداً أن تتحمله الحكومات فى دول العالم المتقدم، ويبدأ السيناريو الذى نحن بصدده مع بداية عقد السبعينيات بغضب شديد تعبر عنه العديد من منابر الرأى العام الأمريكي «والعالمى»، فيستجيب نيكسون لهذه الضغوط بأن يعلن عن خطوة أولى فى الطريق إلى تخفيض القوات الأمريكية فى فيتنام. ويحسن هنا أن نلقى بعض الضوء على الضغوط العالمية، ففى فبراير ١٩٧٢ ينعقد مؤتمر فى باريس يشارك فيه ١٢٠٠ ألف ومائتا مندوب عن أربع وثمانين دولة للنظر فى كيفية إعادة السلام إلى فيتنام، وفى بادئ الأمر لا تستجيب حكومة نيكسون بل تحاول المناورة، فتعلن فى أبريل من ذات السنة عن اتجاه قاذفات القنابل الأمريكية إلى قصف مدن فيتنام الشمالية لأنها هى المسئولة عن استمرار الحرب فى فيتنام الجنوبية «كأن إرادة الحرب تنطلق من الشمال أما وقائع الحرب نفسها فتجرى فى الجنوب».

وإمعانا فى المناورة يعلن نيكسون بعد ذلك بشهر واحد أنه قرر فرض الحصار على سواحل فيتنام الشمالية، غير أن هذه المناورة من نيكسون لا تلبث أن تغضب الكونجرس الأمريكي لأنها تنطوى على استنزاف هائل للأموال الأمريكية، وإذا بمجلس الشيوخ الأمريكى يصدر قراراً بالغ الدلالة وذلك فى الثالث من أغسطس بوقف ميزانية حرب فيتنام، ويصدر أمراً صريحا إلى نيكسون وإدارته بإعادة القوات الأمريكية من فيتنام فى غضون مدة أقصاها أربعة شهور. هكذا!

وأذكر أننى عايشت هذا النبأ فى تلك الأيام وقد انبثقت فى نفسى معاينة تشبه الكشف الصوفي! وظلت تتردد فى نفسى عبارات من قبيل: عندما يجد الجد تستجمع المؤسسة التشريعية إرادتها وتعلن قرارها «أن الأمر فوق الحكومة». كم من دروس فى مثل هذا القرار،

جاءت السبعينيات

دروس إلى الدول النامية، إلى مواطنيها، وسياسييها، ومؤسساتها!! وانصاعت حكومة نيكسون لقرار مجلس الشيوخ، وأصدرت أوامرها بالإعداد لعودة القوات الأمريكية إلى أمريكا، وبدأت الترويج في الوقت نفسه لما أسمته «ثمنة الحرب في ڤيتنام، وأعلن فى أوائل فبراير سنة ١٩٧٣ عن عودة آخر الوحدات الأمريكية إلى أرض الوطن. لكن حكومة نيكسون عادت إلى المناورة مرة أخرى، فقد استمرت فى غاراتها على كمبوديا «الملاصقة لڤيتنام»، وإذا بالكونجرس الأمريكى يصدر قراراً جديداً «فى أول يوليه سنة ١٩٧٣» بإيقاف جميع الغارات الجوية على كمبوديا قبل منتصف أغسطس، وفعلا أعلنت الحكومة فى هذا الموعد عن إيقاف الغارات الجوية على كمبوديا، أما بقية القصة فقد اكتملت على النحو الآتى:

خرجت القوات الأمريكية من الهند الصينية، ولكن الخبراء الأمريكيين بقوا هناك وقدموا المشورة والعتاد للڤيتناميين الموالين لهم، غير أن هؤلاء لم يصمدوا أمام هجمات الڤيتكونج وحلفائهم، ولا أمام هجمات الخمير الحمر وكمبوديا، ولا أمام زحف الباثيت لاو فى لاوس. وفى آخر أبريل خرج الخبراء الأمريكان، هم ومن استطاع الالتصاق بهم من عملائهم من أهل البلاد، وكان هذا الخروج مفاجئا «وقد تذكرته منذ شهور عندما خرج الإسرائيليون من جنوب لبنان وخرج معهم من استطاع الالتصاق بهم من عملائهم من أهل لبنان!»، وكان هذا التاريخ هو تاريخ استسلام سايجون، عاصمة ڤيتنام الجنوبية، للڤيتكونج «الشيوعيين» والمتحالفين معهم من سائر الفصائل الوطنية.

وأنا أذكر الآن سلاسل الخواطر والتأملات التى اثارتها فى نفسى أحداث هذا السيناريو وأنا أعايشه أثناء مسيرته، وقد استوقفتنى آنذاك عناصر متعددة: خداع السياسيين لجماهير الشعب، نيكسون «بعد جونسون» فى مواجهة الشعب الأمريكى، ونيكسون فى مواجهة ممثلى الشعب فى الكونجرس. وربما اتخذت من هاتين الوقفتين منطلقا للتفكير فى علاقة الأخلاق بالعمل السياسى، وتبلور ذلك عندى «مع عناصر أخرى من سلوكيات سياسيين آخرين فى الخارج وفى مصر على حد سواء» فى حديث تحدثت به مع عدد من المريدين حول الفروق الجذرية بين منظومة القيم الأخلاقية المعمول بها فى

ممارسة العلم ونظيرتها المعمول بها فى العمل السياسي.. الخ . وكانت لى كذلك وقفة أخرى فى السياق نفسه تدور حول أهمية أن تكون المؤسسة التشريعية قوية فعلا لا قولا فحسب، بمعنى أن تكون ذات سلطان يعلو فوق كلمة السلطة التنفيذية، فقد كبحت المؤسسة التشريعية جماح السلطة التنفيذية بقيادة نيكسون ورجاله عن التمادى فى مغامرة بدت عليها كثير من الدلائل على فساد الفكر والفعل، وقد عاد إلى هذا الخاطر نفسه فى منتصف الثمانينيات عندما بلغ تورط القوات السوفيتية فى أفغانستان الحد الذى عجل «معْ عوامل أخرى» بانهيار الاتحاد السوفييتى كنظام/دولة. وبنظرة استرجاعية قلت لنفسى عندئذ ربما كان قرار الكونجرس الأمريكي «كنموذج تفعيلى لمبدأ الفصل بين السلطات» بسرعة إخراج القوات الأمريكية من بؤرة الاستنزاف فى الهند الصينية قرارا بالغ الحكمة فى إنقاذ النظام الأمريكي من التردى فى هاوية مأساوية، أو هكذا تكون الاستفادة بالعبرة من دروس التاريخ...

السيناريو الثانى

عايشت السيناريو الثانى والدهشة لا تكاد تفارقنى، ظللت أرقب كيف كانت الولايات المتحدة الأمريكية تنسج رخيوط التقارب مع الصين الشعبية، بمثابرة، وتؤدة، وكفاءة، فى الوقت الذى كانت تزداد فيه دوامات الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتى عنفا وكثافة، وكذلك فى الوقت الذى كانت تتزايد فيه مظاهر التباعد والجفوة بين الاتحاد السوفييتى والصين . وقد تحدثت فى مقال سابق عن المراحل المبكرة للأزمة بين الدولتين العظميين الاشتراكيتين وأن الأوان فى المقال الراهن لمواصلة هذا الحديث، ففى مارس سنة ١٩٧١ قررت الولايات المتحدة رفع الحظر الذى كانت قد فرضته على مواطنيها بعدم القيام برحلات سياحية إلى الصين، ثم بعد شهر واحد أعلنت حكومة نيكسون تحرير التجارة مع الصين. وفى الشهر نفسه كان فريق أمريكى لكرة الطاولة يزور الصين ليتبارى مع فريق مناظر له هناك «وقد استقبله شواين لاى شخصيا، وهو الرجل الثانى فى النظام بعد ماو! ولكن هكذا يؤدى السياسيون أدوارهم سواء كانوا فى هذا النظام أوذاك»، وفى أكتوبر من العام نفسه أعطت الولايات المتحدة الضوء الأخضر لأمين عام الأمم المتحدة فدعا الصين الشعبية لاحتلال مقعدها فى المنظمة وفى مجلس الأمن، لتحل بذلك محل تايوان التى كانت تتربع على هذا المقعد حتى ذلك الوقت بمباركة من الولايات المتحدة وتواطؤ من حلفائها. ثم فى فبراير سنة ١٩٧٢ قام

نيكسون شخصيا بزيارة الصين، حيث استقبله ماوتسي تونج، وتحدث الإعلام الغربي عندئذ عن لقاء القرن العشرين، وحدثت بعد ذلك أحداث كثيرة في الولايات المتحدة وفي الصين، ولكن ما يهمنا رصده ومتابعته في سياق هذا السيناريو الثاني أن نيكسون أزيح عن كرسي الرئاسة «وهو ما سنتحدث عنه في إطار السيناريو الثالث» وجاء بعده جيرالد فورد، ومرة أخرى قام جيرالد فورد في نوفمبر سنة ١٩٧٥ بزيارة الصين حيث استقبله ماوتسي تونج؛ قلت مخاطبا نفسي: تغير الرجال وبقيت الخطوط السياسية العريضة ثابتة، لأنها خطوط تضعها مؤسسات لا نزوات حكام/ أفراد ودوائر لصيقة بهم مهمتها أن تشم الريح من أين تأتي، وتقول آمين.

السيناريو الثالث

أما هذا السيناريو فيتناول السياسة الداخلية الأمريكية؛ ومع ذلك فقد ذاعت له أصداء وجلبة على نطاق العالم، كان السيناريو يحمل عنوان فضيحة ووترجيت. وقد فجرت هذه الفضيحة جريدة الواشنطن بوست، وخلاصتها أن عملية تجسس وتنصت على الحزب الديمقراطي كان يجري الاعداد لها بوساطة مجموعة من الرجال المقربين إلى نيكسون «الذين أشرفوا على إدارة حملته الانتخابية» وأن نيكسون نفسه كان على علم بهذه الفضيحة وقد باركها، وفي الوقت ذاته عرف أن نيكسون كان قد أقام في جميع أركان البيت الأبيض نظاما للتسجيل الصوتي المتواصل. وحرك الحزب الديمقراطي الدعوى الجنائية ضد نيكسون، وطلبت سلطات التحقيق إلى هذا الأخير تسليم الشرائط المسجلة في البيت الأبيض «وكان ذلك في يوليه سنة ١٩٧٣»، وامتنع نيكسون في بادئ الأمر عن تلبية الطلب، وبدأ الصراع يتصاعد بينه من ناحية وسلطات التحقيق من ناحية أخرى، ثم انتهت هذه الجولة بتسليم الشرائط حيث طلب تسليمها واكتشف المحقق أنه حدث تلاعب في الشرائط قبل التسليم، وذلك بحذف جزء منها. وفي أول مارس سنة ١٩٧٤ صدر قرار باتهام أربعة من رجال الرئيس في القضية، واستمر جهاز التحقيق يطلب الأجزاء المختفية من الشرائط المسجلة، وبعد تسويف ومجادلات اضطر نيكسون في آخر أبريل سنة ١٩٧٤ إلى تسليم الأجزاء المقتطعة.

وفي ٢٧ يوليه سنة ١٩٧٤ أعلن

الكونجرس توجيه الاتهام إلي نيكسون شخصيا بتعمد تضليل العدالة، وإساءة استعمال السلطة، والكذب فى الشهادة، وأعلن حينئذ عن البدء في اتخاذ خطوات نحو المحاكمة والعزل، وفي السادس من أغسطس أى بعد أيام فقط من توجيه الاتهام اجتمع عدد من حكماء الحزب الجمهورى «الأعضاء فى الكونجرس» ونصحوا نيكسون بالاستقالة. وبعد يومين اثنين من تلقيه هذه النصيحة وجه نيكسون خطابا إلى الشعب الأمريكى «بالتليفزيون» أعلن فيه أنه يستقيل من منصبه كرئيس للجمهورية، وتولى الرئاسة جيرالد فورد، وبعد شهر أى فى سبتمبر سنة ١٩٧٤ أعلن فورد عفوا رئاسيا عن كل ما ارتكبه نيكسون من جرائم أثناء فترة رئاسته، وأسدل الستار على أحداث السيناريو الثالث.

وقرأت فى تسلسل الأحداث على هذا النحو عندئذ دروساً بالغة العمق والتشعب، ولكني أكتفى باستخلاص درس واحد من بينها، وأكتفى بعبارة واحدة تفصح عن هذا الدرس، كان نيكسون فى السلطة عندما ووجه بالمساءلة القضائية، ثم بالاتهام، ثم بالإعداد للمحاكمة، لم ينتظر أصحاب الحق الخاص والحق العام حتى يبتعد الرجل عن كرسى السلطة لكى ينهالوا عليه بالقيل والقال وسوء المآل، وتشاء الأقدار أن أكون فى واشنطون فى منتصف مايو سنة ١٩٧٤ مدعوا من السلطات الأمريكية لكى أدلى بشهادة علمية أمام إحدى لجان الكونجرس الخاصة بتعديل التشريعات الجنائية «وكان معى فى إطار هذه الدعوة نفسها خمسة عشر باحثا من مختلف أنحاء العالم ممن عرفوا بكثرة بحوثهم المنشورة عن تعاطى المخدرات». فأتيح لى أثناء هذه الزيارة أن أستمع إلى الكثير حول هذا السيناريو الثالث، واصطحبنى بعضهم إلى مبنى ضخم، وقال لى هذا هو مبنى ووترجيت الذي تدور حوله التحقيقات مع الرئيس ورجاله. واستمتعت وأنا أحاول أن أعى الدرس جيداً، وأشهد أن الرجل كان يتحدث ببساطة وبصوت عادي، فلم يهمس ولم يتلفت حوله قبل أن ينبس بهذا الكلام!

فعاليات الضمير الإنساني العام

يسترعى الانتباه فى الأحداث التى تقع تحت هذا العنوان أنها لا تجرى مجرى الأحداث السياسية التى تستوعبها السيناريوهات التى تكلمنا عنها، فإذا كانت أحداث تلك السيناريوهات تعتبر من قبيل التكتيك «أى الأحداث قريبة المرامى»، فما سنتحدث عنه فى هذا القسم الأخير من

جاءت السبعينيات

المقال يعتبر من قبيل الاستراتيجيات «بعيدة المرامى». وإذا كانت أحداث السيناريوهات ترتبط بخدمات عابرة ذات طبيعة أنانية/حزبية، أو فئوية، فأحداث فعاليات الضمير العام تتجاوز ذلك كله حتى ولو كان الفاعل المباشر فى حالتها داعية بعينه ومن ورائه حزب أو فئة بذاتها، وقد تحققت فى السبعينيات المبكرة فعاليات متعددة من هذا القبيل تشي بحركة ذات دلالة تقع باسم الإنسانية جمعاء.

ففي ديسمبر سنة ١٩٧٣ قررت منظمة العفو الدولية عقد مؤتمر فى باريس للدعوة إلى القضاء على التعذيب بشتى صوره ومستوياته. وفى إيطاليا أباحت المحكمة الدستورية الاجهاض لدواع طبية «وكان ذلك فى فبراير سنة ١٩٧٥»، ومن قبل أجرى استفتاء شعبى فى إيطاليا حول الطلاق وتقرر العمل به «وكان ذلك فى مايو سنة ١٩٧٤».

ومن قبل كذلك منح حق الانتخاب على المستوى الفيدرالى للمرأة فى سويسرا، «فى فبراير سنة١٩٧١»، كما أقدمت الكنيسة الانجليكانية لأول مرة فى تاريخها «في نوفمبر من العام نفسه» على تنصيب امرأتين كأساقفة...

وأنا أتساءل الآن: أين مساحة «الالتقاء بين العام والوطني والخاص» أو ما أسميته في مقالات سابقة نقاط التماس بين هذه المجالات الثلاثة؟ أما الالتقاء مع المجال الوطني فأؤجل تقديمه إلى حديث مقبل. وأما الالتقاء مع الخاص فأجيز لنفسى تناوله الآن باقتضاب، فقد تخلق لى مع إرهاصات السبعينيات دور لم أعرفه من قبل، وهو دور المشاركة الايجابية فى هذه الفعاليات للضمير العام، فقد دعتنى هيئة الصحة العالمية للمشاركة فى اجتماع يعقد فى مقرها فى جنيف فى الأسبوع الأول من ديسمبر سنة ١٩٧٠، يحضره عدد محدود من الخبراء فى بحوث تعاطى المخدرات، ولبيت الدعوة وشاركت في الاجتماع فعلا. وكان هذا أول خروج لى من مصر لكى أقدم ما قد يكون لدى من علم وخبرة، مع علم وخبرات مجموعة من الباحثين دعوا للغرض نفسه من أنحاء العالم المختلفة. كانت رحلاتى السابقة إلى الخارج تهدف معظمها إلى مزيد من التعلم، أما هذه الرحلة فكانت أولى الرحلات لكى أضع علمى فى خدمة الآخرين، وتوالت الرحلات بعد ذلك من هذا القبيل، وكان معظمها باسم هيئة الصحة العالمية التى شرفتنى في مايو سنة ١٩٧١ بالتعيين

عضوا دائماً فى لجنة الخبراء الدائمين لبحوث التعاطى، وبقيت فى هذه العضوية حتى مايو سنة ١٩٩٥، وأتاح لى ذلك حركة واسعة النطاق فى دول العالم خارج مصر، وأتاح لى أن أرى أحداث مصر وأحداث العالم من زوايا ومسافات متعددة، وكنت كثيراً ما أجدنى منساقا «وأنا فى غمرة هذا الاجتماع أو ذاك مع علماء من شتى الجنسيات» إلى الشعور شديد التبلور بالجذر المشترك الذى يجمع بيننا وهو النشاط العلمى الذى لا هدف له إلا تجميع العلم وتعظيم أثره فى مشروع كبير للتوجيه والعلاج والوقاية، تجميع العلم وشحذ كفاءته ليكون سندا للضمير الإنسانى العام فى مواجهة بعض الشر. وفى أوج ما يقتضيه ذلك من نشاط علمى مكثف داخل رأسى واختلاط مكثف بالعلماء من كل الأنحاء، وانشغال فى الوقت نفسه بهموم العالم السياسية، كانت تفجأنى من حين لآخر محصلة ذلك كله، بالمقارنة بين أخلاقيات الممارسة فى حقل العمل وأخلاقيات الممارسة فى عالم السياسة. ■

كلمات عاشت

– الانسان حر فى اتجاهه حتى تتدخل فيه أمره قوى خارجية أسميها أحياناً القوى الإلهية.

توفيق الحكيم

– أريد أن تهب علينا ثقافات كل الأمم، ولكنى أنكر على أى منها أن تقتلعنى من جذورى.

غاندي

–الفن صورة من صور التمرد الإنسانى .

ألبير كامي

– احذر أن تسخر من أحلام الشباب فإن السخرية منها عارض من أعراض مرض الشيخوخة يسميه المرضى بالحكمة.

شكسبير

– من رفع نفسه فوق قدرها صارت محبوبة عن نيل كمالها .

الفارابى



كتاب في الكراهية

بقلم
طارق البشرى

(١)

هذا كتاب أعرضه، بسبب أن صدري ضاق به ضيقاً شديداً، أقول ذلك لأن هذا الضيق الشديد نادر معي وغريب عني، وقد اعتدت أن استمع إلى كل قول، وإن أقرأ أي وجهة نظر. وقد يجذبني إلى إكمال قراءتها بعدها عن وجهة نظري، وذلك سعيا مني لاستطلاع هذا المنظور المخالف، أو شوقاً مني لمعرفة الآليات التي تتوالد بها هذه الوجهة المخالفة.

ولكن هذا الكتاب ضاقت مداخله عني، ووجدته لا يتيح لي أدنى وجود بين سطوره ولا بين صفحاته التي تشارف الخمسمائة صفحة. والكتاب عنوانه «وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها» وهو من «إعداد الراهب القمص انطونيوس الأنطوني» ورد عليه اسم المطبعة «دار الطباعة القومية - الفجالة» وإن رقم الإيداع هو ٩٨٣٦/٩٥، ولكنني لم أر الكتاب ولم أقرأه إلا من نحو ثلاثة أشهر. ولا أعرف مدى سعة تداوله بين من يعنيهم موضوعه، وإن كنت أعرف بالتوقع مبلغ الضرر الذي يحدث منه للوطنية وللكنيسة وللتاريخ، أي تاريخ المصريين.

إننا نعترف بالروايات التى ترددت فى الستينات، أن الرئيس جمال عبد الناصر، لما قرأ كتاب «معالم فى الطريق» للأستاذ المفكر سيد قطب، أدرك أن ثمة تنظيما سياسياً سريا معادياً نشأ بموجب هذا الكتاب، أو أن تنظيما هو فى سبيل النشوء بموجب هذا الفكر الذى تضمنه الكتاب.

وعندما عثرت على نسخة من كتاب سيد قطب بعد نحو عامين من مصادرته، قرأته وفى ذهنى السؤال عما إذا كان من الممكن استخلاص وجود حركة سياسية تنظيمية من كتاب ثقافى يتحدث عن قضايا مجردة لا يشير إلى النظام السياسى القائم ولا إلى سياساته، ولا إلى ما يشتبك فيه من مسائل ومعارك سياسية واجتماعية، ولا إلى ما يدعو إليه من برامج وخطط وأهداف، ولا إلى ما يهاجمه هذا النظام من أوضاع سابقة أو حاضرة. وحتى إن كان كاتبه سيد قطب ذا فكر سياسى وماض سياسى، فإن الطابع الغالب على فكره وحركته هو أنه أديب ومفكر وليس حركيا ولا منظما.

تراءت لى الاجابة على سؤالى وقتها لا فى المعانى المباشرة لعبارات الكتاب، فقرات وفصولا، ولكن فى التشكل الذهنى والوجدانى الذى يخرج به قارئ الكتاب من قراءته كله. والكتاب لا يقول لقارئه أرفض هذا النظام وحارب هذه الدعوة، وخاصم هذا الحاكم وهاجم هذه الاوضاع، ولكنه ينتهى بالقارئ إلى أن «هذه الجماعة ليست جماعتك، وهذه الأمة ليست أمتك، وهذا المجتمع ليس مجتمعك» ويقول له «إنك أنت الصواب والكل خطأ، وأنت الثابت والكل نابت وطارئ». وكما لو كان يقول له «انفصل يا أخي، بل افترق، بل ابتعد»، «إياك أن تندمج، بل إياك أن ترتبط، بل إياك، بل إياك حتى أن تتصل».

ومن هنا فى ظنى جاء التوجس والقلق الذى شعر به حاكم البلاد ورأس النظام فى ذلك الوقت البعيد فى ١٩٦٥. ورغم الاختلاف البين بين كتاب وكتاب فهو ذاته التوجس والقلق الذى استشعرته وأنا اقرأ كتاب الراهب القمص انطونيوس الانطوني، عن «وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها» ولم أعد على بينة من أن مفهوم «الوطنية» الذى يعنيه المؤلف عندما وضعه على عنوان كتابه، هو ذاته مفهوم «الوطنية» الذى أعرفه ونتداوله فى كتاباتنا.

(٢)

نقطة أخرى أسوقها فى البداية، فإذا كان من أهم العناصر التى تتشكل وفقا لها الجماعات السياسية والحضارية، هو ما يعود إلى الاتصال الجغرافى وإلى التاريخ المشترك، فضلا عن اللغة والجانب الثقافى، فإن الأثر الجغرافي هو فى تقديرى أثر «جامد» لأن الجغرافيا لا تتغير، والجماعات يتنوع تشكلها عبر التاريخ بين انفصال واندماج، ويبقى الاتصال الجغرافى شبه ثابت، فلا يتأثر إلا بتنمية حركة النقل والاتصال. فالجغرافيا عنصر مساعد، وهو لا يكفى تفسيراً لاندماج أو لانفصال، وباستثناء البحار والمحيطات والصحارى البيد والجبال الشاهقة، نجد أن الفواصل الجغرافية تصلح متصلات جغرافية، وأن وظائفها تغيرت بين وصل وفصل بفعل السعى الانسانى والتقريرات البشرية، ولا أجد المناسبة ملائمة للاستطراد فى ذكر الامثلة.

كتاب في الكراهية

أما عنصر التاريخ فأظن أنه العنصر الأكثر مرونة والأحسم فعلا والأقوى تأثيراً لأنه يتضمن خاصتين ، فهو أحداث وقعت ويرد تتابعها في صيرورة ، وإذا كانت وقائع الماضي يستحيل أن تتغير أو تتعدل، فإن التاريخ ليس هو أحداث الماضي ولكنه «ادراكنا» نحن لهذه الاحداث وإدراكنا لتسلسلها ولتتابعها ولما يربط بينها بروابط السبب والنتيجة ، وإدراكنا كذلك للعبرة من الحدث والدروس المستفادة منه، وكل ذلك إدراك يقوم على أسس ثقافية ، ولذلك فإن صياغة التاريخ تتغير وتتعدل من هذه الزوايا الادراكية الثقافية .

لذلك فإن التاريخ ، كما أنه مؤثر وفاعل في تشكل الجماعة السياسية وهو عنصر مهم من العناصر المؤسسة لها ، إلا أنه متأثر ومنفعل ايضا عندما تعاد صياغة أحداثه وتفسيرها وفقا لنظرة تتبنى دعوة سياسية معينة ، أو طبقا لرغبة جماعة في الانفصال عن جماعة أشمل أو الاندماج فيها . وإذا كان التاريخ ادراكا ، فإن افعل نشاط سياسي للانفصال عن جماعة أشمل هو تقوية الجانب الإدراكي لدى الجماعة الاصغر التي يراد فصلها ، بأن لها تاريخا منفصلا ومتميزاً مع فصل وقائع هذه الجماعة عن غيرها . وياحبذا إن تضمن هذا الأمر إعادة تفسير للوقائع بما يترك الانطباع بخضوع الجماعة محل دعوى الانفصال لاضطهاد لا يرجا زواله إلا بالمفارقة .

تزاحمت هذه المعاني علي ، منذ نحو خمس سنوات ، وأنا أشاهد متحف النوبة الذي أقيم في مدينة أسوان ، والمتحف جميل جدا متسع الارجاء بفضاء فسيح وطرز معمارية غاية في الصفاء والتلاؤم مع البيئة وإشاعة الهدوء والطمأنينة . والفن الجميل يولد الفرح في القلوب ويشحذ الذكاء ويبعث النشاط حتى في الجسم العليل . ولكني رغم ذلك كله اعتراني التوجس والقلق .

المتحف يفصل تاريخ النوبة عن تاريخ مصر ، من أيام الفارعين حتى اليوم ، بل من قبل الفراعين ، منذ العصر الحجري ونحوه . وهو يحدد مكانه الاقليمي من إقليم قنا شمالا ثم يتجه إلى الجنوب ، ويفصل وقائع هذا الاقليم عن شمال قنا حتى البحر المتوسط ، وتكاد ألا يتركز لنا بصر ولا فكر بأن ثمة انتماءات أشمل تضم النوبيين إلى غيرهم ، مصريين أو عربا أو مسلمين أو مسيحيين من قبل ، وتتابع فترات التاريخ «النوبي» من مجد الفراعنة النوبيين ابناء هذا الاقليم ، إلى ما آل إليه الوضع الآن في صورة امرأة عجوز بائسة تصنع الخبز أمام «فرن بلدي» ، والعالم المحيط كله هو «خارج» .

وفيما سمعت فإن المتحف شيد بمعونة فنية ومالية من اليونسكو وبعض بلاد شمال أوروبا ، وتحت إشراف وزارة الثقافة المصرية . ورغم أن الوزارة تخصصها وحرفتها الثقافة إلا أنها لم تدرك الأثر «الثقافي» لفصل التاريخ بين جنوب مصر وشمالها ، وأن أقوى ما يدافع به عن الوزارة هنا أنها لم تدرك ولم تفهم الأثر النفسي والادراكي العميق لفصل التاريخ ، فصل تاريخ جماعة عن جماعة وأثر ذلك في التشكل السياسي للجماعات في المستقبل .

(٣)

مع استصحاب الملاحظتين السابقتين، تجرى متابعة الكتاب الذى بين أيدينا . وهو ان كان يتكلم عن تاريخ الكنيسة القبطية بإطلاق ، إلا أنه خص ستمائة سنة الأولى من هذا التاريخ قبل الفتح العربى الاسلامى ، خصها بأربعين صفحة (من ص ١٢ إلى ص ٥٢) ، بينما خص السنوات الأربعمائة وألف التالية بباقى الكتاب كله حتى صفحة ٤٨٣ . ويقارن ذلك مثلا بكتاب إيريس حبيب المصرى الذى ظهر فى ستة أجزاء بعنوان «قصة الكنيسة القبطية» إذ اشتملت مرحلة ما قبل الاسلام نحو جزء ونصف الجزء، واشتملت المرحلة المعاصرة للاسلام نحو اربعة اجزاء ونصف الجزء، وكذلك الخريدة النفيسة للانبا ايسيذوروس وهو من جزءين ، كل منهما فى نحو ٥٩٠ صفحة ، وشمل الأول منهما تاريخ الكنيسة حتى نهاية القرن السادس الميلادى ، أى قبل الفتح العربى الاسلامى ، وشمل الثانى منهما تاريخ الكنيسة من بداية القرن السابع حتى القرن العشرين ، وكتاب تاريخ الأمة القبطية عن خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر ، الذى أعدته لجنة التاريخ القبطى فى ٢٦٠ صفحة ، منها ١٢٧ صفحة عن مرحلة ما قبل الاسلام

نحن طبعا لا نقيس التاريخ بنسبة عدد السنوات إلى عدد الصفحات ولكننا نستدل من نسب التركيز فى مراحل معينة إلى المعانى المراد تأكيدها . وأن التركيز على المراحل الأولى مفهومة دواعيه ، ذلك لأنها المراحل التأسيسية فى الفكر والعقيدة وهى كانت كذلك بالنسبة للكتب القبطية ، وبخاصة مرحلة مؤتمر نيقية فى سنة ٣٢٥ ومرحلة مؤتمر خلقيدونيا فى سنة ٤٥١ ومن هذين تقوم الدعامات الاستقلالية للكنيسة المصرية وتقوم مقاومة الشعب المصرى ضد الحكم الرومانى وسيطرته السياسية والثقافية .

لكن مؤلف الكتاب الذى نعرضه لم ير الوطنية فيما رآه ايريس حبيب المصرى ولا فيما رآه صاحب الخريدة النفيسة ولا فيما رآته لجنة التاريخ القبطى . انما رآها فيما اتبع فيه جاك تاجر مؤلف كتاب «أقباط ومسلمون» فى ١٩٥١ الذى خص كتابه بالفترة «منذ الفتح العربى حتى عام ١٩٢٢ م» كما ذكر فى عنوانه . وجاك تاجر مدير المكتبة بالقصر الملكى وقتها لم يكن مسلما ولا قبطيا ، وظن بتصريحه بذلك فى فاتحة كتابه أنه يضمن حيدته لدى القارىء ، ولم يتنبه إلى أن هذا الضمان لا يشمل إبراءه من تهمة الوقيعة بين المواطنين المصريين . ونحن نلحظ أن أكثر ما رجع إليه كتاب «وطنية الكنيسة ....» هو كتاب جاك تاجر ، وهو أكثر الكتب ترددا فى الهوامش .

(٤)

من نحو ثلاث سنوات ، كان قانون الاضطهاد الامريكى قد صدر ، الذى يتيح للولايات المتحدة إمكان ممارسة ما تدعيه من هيمنة على بعض البلاد باسم منع اضطهاد الاقليات وكفالة الحريات الدينية، وبدأت وقتها صحيفة «وطنى» بنشر مقالات يكتبها رئيس التحرير عن وجوه الصعاب التى يواجهها الاقباط فى مصر ويدعو لإنشاء ما اسماه «لجنة الحكماء» لتنظر فى هذه الامور ، ويكتب تباعا قوائم بأسماء من ينضمون إلى

كتاب فى الكراهية

هذه اللجنة ، عشرات عشرات كل اسبوع .

وقد تابعت الصحيفة وقتها متابعة أسبوعية ، وفى واحد من هذه الأعداد ، قرأت عن محاضرة ألقاها بدعوة من الصحيفة أحد الكتاب المعروفين وعلق عليها المعلقون ومنهم رئيس التحرير الذى ذكر (مما نشر وقتها) أن مرت عليهم اربعة عشر قرنا من الاضطهاد .

وهنا توقفت وساءلت نفسى ثم ساءلت غيرى، إن كانت أربعة عشر قرنا من الاضطهاد ، فالاضطهاد قرين الاسلام لا ينفك عنه ، والسيد المذكور لم يترك لنا ولو عشر سنوات من الحقبة الاسلامية لم يشملها الاضطهاد ، فماذا نصنع معه ، وما نصنع مع أنفسنا ، هل هو يطلب منا أن نترك وصفنا الاسلامى نحن المواطنين المصريين .

أقول ذلك لأن الكتاب الذى بين أيدينا ، تتلخص صفحاته الخمسمائة فى تلك العبارة المختصرة التى وردت على لسان رئيس تحرير صحيفة «وطنى» وهو يتابع الدول والحكومات التى حكمت مصر منذ الفتح ، من مرحلة الولاة والتبعية المباشرة لدولة الخلافة إلى الدولة الطولونية فالإخشيدية فالفاطمية فالأيوبية فدولتى المماليك فالعثمانية فالدولة الحديثة . ويعتمد فى وقائع الفتح وما تلاها على كتاب يوحنا النقيوسى ، رغم عدم مصداقية الكتاب وتراجمه فى رأى عدد من المؤرخين، ويسقط وقائع لقاء عمرو بن العاص مع البطريرك بنيامين ، وهو اللقاء الذى وصفه ساويرس بن المقفع فى تاريخ البطاركة واعتمد عليه د . وليم سليمان فى حديثه عن لقاء الاسلام والمسيحية على أرض مصر ، ويتهم المسلمين العرب بأنهم من أحرق مكتبة الاسكندرية ، رغم أن كتاب الفرد باتلر كان من ضمن مراجعه ، وأفرد بتلر فصلا لهذه المسألة مبرئا منها المسلمين لاسباب سبعة شرحها بإفاضة ، وفيها أن المكتبة لم تكن موجودة فى القرن السابع الميلادى الذى فتحت فيه مصر ، وأن قصة إحراق العرب للمكتبة لم تظهر إلا بعد خمسة قرون ، وأن وقائع القصة كما حققها بتلر هى مجرد سخافات .

ويذكر مؤلف الكتاب الذى نعرضه أن الفتح العربى جرى من رجال البادية ، وأن الخلفاء والولاه المسلمين كانوا ذوى نظرة مادية ، ومنهم عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ويشير إلى هؤلاء الخلفاء بقوله «تلك الروح المادية الجشعة» .

وهو مثلا يذكر أن ابن طولون تكلم المؤرخون عن عدله، ولكنه يتساءل من أين أتى بالأموال التى أقام بها ما أقام من منشآت ومنها المسجد الكبير ، ثم يشير إلى احتمال أن يرد المال مما كان يفرض الحاكم من غرامات باهظة على بطريرك الاقباط . ثم يشير إلى تمييز ابن طولون للاتراك على سائر المسلمين ، وتمييزه المسيحيين الروم (الملكانيين) على سائر النصارى وبهذه الإشارة كان ينبغى أن يشتط وصف اضطهاد ابن طولون للمسيحيين ، لأن التفرقة شملت المسلمين كما شملت المسيحيين .

وبهذه المناسبة يتعين تحرير مسألة «الاضطهاد الدينى» لنعرف متى يصدق هذا الوصف ومتى لا يصدق :

فإن سوء معاملة الحاكم المسلم للمسيحيين وغيرهم بما يشمل المسلمين أو بعضهم لا يعتبر اضطهادا دينيا للمسيحيين. انما ينسب الى ظلم حاكم لمحكوميه .

وأن سوء معاملة الحاكم المسلم لبعض المسيحيين لفريق منهم أو مذهب دون فريق أو مذهب آخر ، فإن ذلك يرد فى مجال تأليب الطوائف بعضها على بعض مما يدخل فى اطار السياسة وأساليبها وليس اضطهاد للمسيحيين.

وأن المبالغة فى جباية الضرائب لا تنسب بذاتها إلى الاضطهاد الدينى إلا إذا ظهر انحصار هذه المبالغة فى فئة دينية دون غيرها ، إنما ينسب إلى الظلم والاستغلال .

وإن قمع الثورات كذلك لا ينسب بذاته إلى اضطهاد دينى، وإلا قيل إن الحكام المسلمين كانوا يضطهدون المسلمين اضطهادا دينيا . فما من حاكم ثار الناس عليه إلى قمعهم ما استطاع .

ونحن إذا أخرجنا الأحداث التى من هذه الانواع ، لا يكاد يبقى لدينا من مادة هذا الكتاب إلا النزر اليسير ، وأغلب ما سجله الكتاب يتعلق بجباية الضرائب . فهو يذكر مثلا أن الاخشيدى اضطهد الاقباط «وابتز منهم أموالا كثيرة..» ثم نعرف بعد ذلك أن فيضان النيل نقص سنوات متوالية فضلا عن هجوم النوبيين على مصر، وهو لا يجد فى هذه الأحداث مدعاة لزيادة الجباية دون أن يعتبر ذلك اضطهادا . وهو لا يكفيه لنفى تهمة الاضطهاد أن يعين الاخشيد وزيراً له قبطياً هو أبو اليمن قزمان بن مينا ، ولا أن الاعياد القبطية كانت تقام بصورة رائعة كما يذكر .

وعن الفاطميين يلخص سياستهم خلال مائتى سنة من حكمهم ، فى أنها تقلبت «من التسامح الكامل إلى الاضطهاد الشنيع» والحاكم بأمر الله يصفه بأنه اضطهد المسيحيين ، ولا يعفى الحاكم عند المؤلف من هذا الوصف أن الحاكم «صب جام غضبه على المسلمين السنيين» وانه وجه عبارات تنال من أبى بكر وعمر وعثمان .

والملاحظ هنا أن المؤلف عندما يعتبر سوء المعاملة للقبط أمرا ذا تميز عن سوء المعاملة الذى يتبع مع غيرهم ، لا يفقد روح الموضوعية فقط، ولكنه يكشف عن أنه يعتبر الاقباط جماعة منفصلة عن الشعب المحكوم بفئاته وطوائفه ومذاهبه الأخرى . إن المؤلف بذلك يفرز تاريخ القبط وحدهم ويميزه ويعزله عن أن يكون مدمجاً فى عامة المحكومين . وهذا الصنيع هو الخطر الذى نريد أن نرشد إليه ، إن فرز تاريخ جماعة شعبية هو محاولة لإنشاء ادراك متميز بوجود أمه منفصلة. وبهذا القصد يجرى فرز وقائع القبط وحدها وافرادها عن غيرها من وقائع المصريين .

وهذا الفرز نلحظه فى كل صفحات التاريخ . فاحتراق مدينة الفسطاط القديمة كان «كارثة شديدة للأقباط» ولا يرد فى ذهن المؤلف أنه كان كارثة شديدة ايضا على غير الاقباط ، وهو يقول إن القبط صاروا معدمين ، ولا يرد بخاطره أن المسلمين فى الظروف ذاتها صاروا معدمين ايضا .

وهكذا نجد أن القرون تمر تلو القرون منذ الفتح العربى الاسلامى لمصر، ولا نجد فى الكتاب إلا هذه النغمات تتردد فى كل صفحة وفى كل فقرة عن الاضطهاد والظلم والكوارث التى تلحق بالأقباط ، ولا يهم إن كان

لهم مشاركون فيها .

والسؤال الذى يبقى معلقا ، هل يمكن أن يقوم تاريخ لأمه لا يعتمد إلا على وقائع الاضطهاد وسوء المعاملة والكوارث . إن ذلك وحده فى ظنى يولد الكراهية وهى وحدها عنصر هدم ، ولكنه لا يشيد أمه ولا ينشئها ولا يبعثها وحده .

(٥)

بهذا الأسلوب الذى يتبعه المؤلف ، تولدت لديه أحكام تاريخية منفصلة عن الاحكام العامة التى نعرفها عن تاريخنا المصرى . فإن صلاح الدين الأيوبى أول ما يقول المؤلف عنه إنه «بدأ حكمه كوزير باتخاذ سياسية عدائية تجاه الأقباط ..» وذكر فى ترجمته للبطريرك مرقس الثالث أن من أشهر المظالم والمتاعب التى حاقت بالكنيسة وبالأقباط «اضطهاد الوزير يوسف صلاح الدين للنصارى» وأنه شجع رعاع المسلمين على اغتصاب عدة كنائس وتحويلها إلى مساجد .

بدأ حديثه عن العهد الايوبى بأنه لا يمكن الحديث عنه «دون أن نتكلم عن الصليبيون » (هكذا) وقال «بالنسبة للاقباط كانت الحروب الصليبية من أكبر الكوارث التى حلت بهم وبالمسيحيين الشرقيين ، حقا إنهم لم ينعموا بالراحة طوال العصور الاسلامية ، ولم يتوقعوا أبدا أن ينعموا بالمساواة مع جيرانهم المسلمين «وهكذا بهذه العبارة المركزة وضع الاقباط بعيدا عن هذه الحروب، وأنهم ليسوا طرفا فيها ، وانهم طرف ثالث بين الصليبيين وبين المسلمين (جيران الاقباط) ، وأن القبط لم ينعموا قط بالراحة طوال العصور الاسلامية .

ولذلك فصلاح الدين لا يخوض معاركه ضد الصليبيين وهو معبر عن شعب منه الاقباط . بل إن صلاح الدين كان «مسلما متدينا ، وما إن تولى السلطة حتى أمر بطرد الاقباط من الدواوين .» ثم يقول بعدها مباشرة «لكنه اضطر إلى إلغاء هذا الاجراء فيما بعد ....» ثم يقول بعدها مباشرة «لكنه أذل القبط علانية ..» ثم ينتقل إلى القول بأن صلاح الدين ارسل «حملة لتاديب مملكة النوبة المسيحية ، وللقضاء على العناصر القبطية القوية فى صعيد مصر الأعلى» . ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن «سماحة صلاح الدين نحو الاقباط ، وأنه منحهم «دير السلطان» بالقدس وأعادهم إلى الوظائف العليا وأن كاتم سر صلاح الدين كان من الاقباط ، وهو الشيخ الرئيسى صفى الدولة ابن ابى المعالى ، فضلا عن نحو عشرة آخرين ذكرهم المؤلف نفسه ومنهم رئيس لديوان الجيش وكاتب للجيش أو آمين على الخزانة وأموال الدولة على عهد سلاطين من بنى أيوب.

ونحن هنا أمام تاريخ جماعة منفصل تماما ، فى معاييره وتقييمه وأحكامه ، عن تاريخ الجماعة الاشمل التى تحيا معها أو تحيا بجوارها كما يؤثر المؤلف أن يقول ، فضلا عن ادعاءات تكذبها وقائع الكتاب ذاته .

وبالنسبة لدولة المماليك البحرية ، يشير إلى أن عصرهم «كان كارثة عظمى على الاقباط» ويزيد على ذلك أن المسلمين المصريين تعاطفوا مع المماليك لرابطة الدين ، وأن مشاعر الحقد ملأت «نفوس فريق من المواطنين ضد الأقباط»

ثم يقول إن اقباطاً شغلوا مراكز كبيرة في الدولة في هذا العهد «ولكن الحاقدين من عامة الشعب كان يظهر غضبهم بمجرد ما يروا قبطيا له نفوذ ..» ثم يقول إن السلاطين كانوا يعتبرون القبط جزءاً من الامة . ومن هنا يبدو ميل المؤلف إلى تحويل المشكل من اضطهاد السلطة للأقباط إلى كراهية المصريين المسلمين لهم . ثم يعود بعد ذلك ويقول إنه صدر مرسوم يحرم استخدام الاقباط في دواوين الحكومة ويتحدث عن «الكوارث» و «المصائب» التي حلت بهم ، حتى من «الوزير القبطي المرتد عن دينه .. » وأن «الاقباط لم يسلموا من قساوة (السلطان قلاوون) ومن قساوة المسلمين ..» .

وأنا هنا لا أناقش وقائع التاريخ ولا اختلف مع الكاتب في حجية الوقائع أو في تفسيرها والتعرف على دوافعها ، ومن السهل تبين أن المماليك عندما يعتمدون على أفراد طائفة معينة في جباية الضرائب والمبالغة في ذلك ، أن يتخذوا هذه الطائفة بمثابة «طبقة عازلة» أو «فئة عازلة» يتحول ضدها سخط الجماهير ، وهذا أسلوب مشتهر في السياسات المتبعة قديما وحديثا . ولكنني لا أقصد بالحديث الذى اكتبه الآن أن احقق وقائع تاريخية ولا أن افسرها ، ولكنني أعرض لما ذكره المؤلف من خلال التناقضات التى تورط فيها . بحيث إنه جعل كتابه محض كتاب في الكراهية ، كراهية فريق من المصريين ضد فريق ، وهذا ما صور به الماضي ويريد أن يبثه في الحاضر لكي تحكم الكراهية مستقبل هذه الأمة . وليقوى لدى القبطي شعور غلاب بأن سبب بؤسه الماضي وسبب خوفه المستقبل هو من وجود المواطنين المسلمين .

ولذلك لم يكتب عن فترة السنوات الستمائة الأولى ، لأن ما لاقاه الأقباط فيها من الحكم الروماني الوثني أو من الحكم الروماني المسيحي الملكاني ، نحن نعلم من كتابات المؤرخين المسيحيين أنه يفوق ما حدث بعد الاسلام ، من حيث حوادث الاضطهاد حتى بدأت السنة القبطية بسنة الشهداء ، وحتى كان البطريرك أبو الميامن (بنيامين) بطريرك الاقباط هاربا لسنين عدة عند الفتح العربي الاسلامي لمصر ، لكن المؤلف إن كان ذكر كل ذلك بالتفصيل الذى التزمه عن الكتابه بعد الفتح العربي الاسلامي ، لكان أفسد هدفه وهو عزل الاقباط من المواطنين المصريين الحاليين عن مواطنيهم من المصريين المسلمين ، أو كان قد أوصل قارئه إلى فكرة أن الاضطهاد قدر تاريخي ضد الاقباط ، سواء من الوثنيين أو من المسيحيين الذين يلونهم أو من المسلمين الذى يلونهم .

ثم يرد بعد ذلك الحديث عن دولة المماليك الشراكسة التي يذكر المؤلف أنها «لم تكن هذه الدولة أحسن حالا من الأولى، بل كانت أشر منها، فتم على يدها خراب البلاد وعم الشقاء» وأن عدد الاقباط «نقص كثيرا جدا بسبب مظالم الحكام والآفات الربانية من جهة وإقبال الكثير منهم على الاسلام ، إما طوعا أو كرها ..»

وكذلك الحال بالنسبة للدولة العثمانية

(٦)

هذا الفصل للجماعة القبطية عن «جيرانهم المسلمين» ينعكس بطبيعة

كتاب في الكراهية

الحال على حديث المؤلف عن الحملة الفرنسية على مصر ، فهو يبدأ حديثه عنها بأن ظلم الحكام كان اشتد فى مصر ، ولحق الرعايا الاجانب مما اغضب الدول الاجنبية «واقتنص نابليون هذه الفرصة واعتبرها سببا أضافه إلي الأسباب الأخرى لتحقيق حلمه بغزو مصر وضمها الى الامبراطورية الفرنسية» فلم يجد المؤلف ما يدعو للتعيين من أسباب الحملة إلا السبب الذى يبرر قيامها وغزوها لمصر من الناحية الانسانية والاخلاقية، ولم يذكر الاسباب الأخرى التى اجملها وهى تتعلق بالاستعمار.

ثم يصف وقائع الغزو يقول إن خبر قدوم العساكر الفرنسية لما شاع «اختل النظام وسادت الفوضى وكثر اللصوص وقطاع الطرق في البلاد وهاج سكان القاهرة وماجوا وهجموا على بيوت وكنائس النصارى الاقباط والسوريين والافرنج والاروام بدعوى البحث عما فيها من الاسلحة ..»

ثم يقول إنه على رغم أن الحملة الفرنسية استمرت فترة قصيرة ، حوالى ثلاث سنوات ، «إلا أنها فترة مهمة فى التاريخ القبطى والكنسى والمصرى لعدة أسباب:

أولا . أنها أول محاولة منذ الحروب الصليبية قامت بها دولة غير مسلمة لغزو وادى النيل .

ثانيا : أول مرة منذ الفتح العربى تحكم مصر دولة مسيحية .

ثالثا ..»

ثم يتحدث عن معاملة نابليون للاقباط، فلأنه كان «متشبعا بروح المساواة والإخاء فقد أبى أن يقع فريق من الشعب تحت نير الاضطهاد ..» ولكنه لم يهتم بأن يعطى الاقباط حريتهم دفعة واحدة . ثم يتكلم عن ايذاء المسلمين للأقباط ، وهو ينكر أن الاقباط قاموا ضد المسلمين بروح انتقامية ، ولكنه يرى من المحتمل أن يكون القبط وجدوا فى «قدوم الفرنسيين ابناء دينهم ما يلطف عن مصيرهم وما يخلصهم من هذا الحكم التركى الفاسد ، ويخلصهم من القومية الاسلامية التى اصطنعتها الخلافة» .

ويلخص ما اسماه «دروس الحملة الفرنسية» بأنها : «أولا أن احتقار المسلمين للاقباط جعل التفاهم بين هذين العنصرين من أعسر الامور .

ثانيا : أن وجود أمة مسيحية فى مصر اساءت إلى العلاقات بين الاقباط والمسلمين .. ثالثا : أن الاقباط الذين اضطهدهم المماليك واحتقروهم اصبحوا يرحبون بأمم أوروبا المسيحية على شرط أن تكون هذه الأمم منزهة عن كل غرض دينى» ولم يظهر معنى هذا الشرط ، هل يريد المؤلف أن يرحب بالاحتلال الاوروبى المسيحى بشرط أن يكون منزها عن المسيحية أى منزها عن الخلافات الدينية المسيحية القديمة .

على أنه كان من الطبيعى أيضا أن يجد المؤلف فى الجنرال يعقوب شخصية قيادية باعتبار أنه «أول قبطى ألف جيشا قبطيا بقيادته» ثم يسجل تعاون يعقوب بجيشه مع الفرنسيين ومنح الفرنسيين له رتبة قائد واشتغاله مع الجنرال كليبر، ومنح الجنرال مينو له رتبة الجنرال ، وأنه إذا كان عمل على استتباب الأمر

للفرنسيين المحتلين ، فإن الثوار على هذا الحكم كانوا يرجعون الحكم التركى ولا معنى لأن يوصف هو بالخيانة ويوصفوا هم بالوطنية ، ولم يلحظ المؤلف أنه فى عرضه التاريخى كله كان يشير إلى الخلافات السلبية مع المواطنين المسلمين وليس إلى «الحكم التركى» فقط . وهو ذاته عندما تكلم عن محمد على ، وهو تركى - يذكر أن محمد على كان يحمى الاقباط من المسلمين وأن المسلمين كانوا غاضبين على محمد على لما حظى به الاقباط فى عهده ومحمد على تركى، ولكن المؤلف فى الحقيقة لا يميز بين تركى وبين مصرى مسلم.

(٧)

لا أريد أن استطرد أكثر من ذلك لبيان «روح الكتاب» ولا أريد أن أقارن بين مادة الكتاب والمادة التاريخية التى توجد فى المراجع الأصلية لكل مرحلة ، ولا أن أقارن بين صيغة الكتاب وصيغة غيره من كتابات الكثير من الاقباط الذين عرضوا لهذه المادة ، ولا أريد أن اثير الجدل حول عدد كبير من وقائع الكتاب ومدى حجيتها التاريخية ومدى نسبتها إلى اوضاع زمانها ، ومدى صحة التفسير الذى أخرج الكتاب به هذه الوقائع . لا اريد ذلك لأن أيا من ذلك أو كله يتعلق بالحوار العلمى الهادىء لعمل مقروء يفترض المتحاور أنه يتضمن الحد الأدنى من مراعاة الموضوعية العلمية ، وأنه «يستحق» الحوار العلمى.

واستغفر الله أن يشير حديثى السابق الى «الطعن فى الكتاب» ، ولكن ما أريد أن أبينه ، أن الكتاب لم يرد أن يكشف حقيقة موضوعية محللة ومفسرة ومحققة ومنسوبة إلى زمانها فى ذلك كله ، أى أنه لم يرد أن يكون هدفه «التعليم» ، إنما كان هدفه فى ظنى «التربية» أى ترسيخ عدد من المسلمات تكون هى قاعدة التشكل الوجدانى لدى القارىء ، وبهذه المسلمات تتحدد مواصفات «الأنا» الذاتية لدى الجماعة المعنية ، وترسخ الشعور بالخوف القلق والهواجس المؤرقة تجاه المناخ العام الذى يحيط بهذه الجماعة التى يتوجه إليها الكتاب ويخاطبها .

وهذا ما يعبر عنه الكتاب صراحة فى مقدمته إذ يقول إن الكتاب يعكس أحداث التاريخ «ويوضح للأقباط سلالة المصريين القدماء كيف اصبحوا أقلية فى بلدهم» ولماذا تدهورت قوميتهم وانقرضت لغتهم «ثم يقول فى المقدمة ذاتها إنه لا يهدف أن يزكى «نار عداءات قديمة» ، ولكنه يستطرد على الفور قائلا «إن الاهواء الدينية فى الشرق لم تفقد حدتها بين المسلمين والاقباط، وإن كانت فاترة فى الظاهر فإن القلق المكبوت مازال جاثما ، رغم التصريحات الرسمية» ثم يشير إلى أن نخبة من المسلمين يحبذون «بعث الامبراطورية العربية القديمة ..» ، ولا يخفى على القارىء دلالة «العداءات القديمة» ولا أن لفظ «الشرق» يقصد به مصر لأنه يتكلم عن العلاقة بين المسلمين والاقباط ، ولا أن العداء القديم لم تخب حدته وإن كان فاترا ، وأن القلق مكبوت وجاثم .

ويشهد أن الكتاب كتاب تربية وليس كتاب علم ولا كتاب تعليم ، إن عدد التناقضات فى الاحداث ودلالاتها كبير جدا ، فهو مثلا يقول إن عمرو بن العاص عين المقوقس حاكما على الاسكندرية ، ثم يقول إن عمرو منع

استعمال أهل الذمة (ص٥٥و٦٩) والمقوقس كان ايام عمر ولم يحل المؤلف هذا التناقض . ويقول إن عمرو بن العاص كان عربيا بدويا ووجد مالا كثيرا بمصر فاختلسه ، ثم يقول عنه إنه نظم جميع النواحي الادارية والمدنية ، ونال القبط في عهده راحة لم ينالوها منذ زمن وخفف عنهم الضرائب (ص ٥٦ ، ٥٧) ولم يلحظ أن من يختلس لا يخفف الضرائب ، وكان سبب اختلافه مع عمر يتعلق بما نسميه الآن السياسة المالية . ثم يقول إن كانوا يجهلون فن الحكم (ص٦٥) ونسى أنه قال عن عمرو إنه نظم الادارة والنواحي المدنية . والأمثلة لا يتسع المجال لذكرها .

وثمة أخطاء تاريخية ، فهو يقدر عدد المصريين الاقباط وقت الفتح العربي بنحو خمسة وعشرين مليون نسمة (ص ٦٥) ، قدرها حسبما استخلص من بعض بيانات المؤرخين عن مقدار الجزية المحصلة ، ولم يسأل نفسه من أين كانوا يأكلون ، والجزء الأكبر من شمال الدلتا كان مستنقعات والأرض تروى بري الحياض وتسقى مرة واحدة وتزرع محصولا واحدا . ومصر لم تبلغ الخمسة وعشرين مليونا إلا في تعداد ١٩٦٠ بعد أن شقت الترع والمصارف واستصلحت الأراضي وصارت إلى انتاج خمسة محاصيل في كل سنتين ، كما اسست مصانع ومدن وغير ذلك . كما أن متوسط الاعمار في مصر حتى الثلاثينات من القرن العشرين كان ٢٧ سنة ، فكيف كان هذا المتوسط قبل اكتشاف الامراض وتركيب الادوية منذ ثلاثة عشر قرنا . لقد كان كل هدف المؤلف أن ينقل إلى القارىء غير المدقق الشعور بأن الفتح العربي الاسلامي أمات الشعب المصري ، ولم يلتفت إلى ما يقتضيه المنطق والنظر العلمي.

ثم يتكلم عن التحول إلى الاسلام ، بسبب قسوة جباية الضرائب ، ولم يلحظ أن شعب الاقباط الذي قدم التضحيات الباهظة مئات من السنين لاختلاف عقيدته عن عقيدة حكامه الروم ، إن شعبا كهذا يثور التساؤل كيف يغير دينه لمجرد أن يتخفف من الضرائب . كان يتعين الرد على هذا السؤال مع بحث هذه المشكلة ، إن كان يريد أن يخاطب عقل قارئه ولا يقف عند حدود الإثارة الوجدانية لمشاعر الكراهية والمقت .

إن كل قضايا المجتمع ووقائع التاريخ وعذابات البشر على مر الحقب والدهور ، حولها المؤلف إلى أفعال موجهة من المسلمين حكاما ومحكومين ضد الأقباط ، فظلم الحكام في فرض الضرائب هو عمل ضد الاقباط، وقمع الدول للثورات الشعبية هو عمل موجه ضد الاقباط ، وغزوات بدو ضد سكان الحضر هي أعمال ضد القبط، بل إن ما يعتبره من مظالم الحكام ضد الاقباط أو البطاركة التي جرت بوشاية من أقباط آخرين ضمها إلى الرصيد العام للاضطهاد ، وحتى تمييز الحكام المسلمين للمسيحيين الملكانيين ضد اقباط الكنيسة المصرية ضمه إلى هذا الرصيد العام .

والأمر كله أمر حض على الكراهية والبغض ، بغض شامل وعام ومطبق .

(٨)

النقطة الأخيرة التي أود أن أشير

إليها وقد ورد ذكرها في المقدمة باعتبارها من اهداف وضع الكتاب ، ثم يرد الحديث عنها بعد ذلك ، وهو مسألة اللغة القبطية .

نحن نعلم الاسلام دخل إلى العديد من الشعوب الآسيوية والافريقية ، وأن الفتوحات العربية شملت العديد من الدول الآسيوية والافريقية ، وأن بعضا من هذه الشعوب غير لغته إلى العربية وبعضها لم يغيرها وإن كان تأثر باللغة العربية من حيث المفردات وبعض التراكيب أو من حيث الحرف العربي للكتابة ، والعربية ايضا تأثرت بالمفردات اللغوية للبلاد والشعوب التي تعاملت معها وتعايشت مئات من السنين .

وموضوع اللغة القبطية ، بدأت اهتم بمغزاه منذ لاحظت أن صحيفة وطني تفرد لتعليم اللغة القبطية بابا فيها كل اسبوع ، من حيث الألفاظ والمعاني والاستعمال ، وأنها تتوجه بهذه الدروس لا إلى المتخصصين الباحثين الذين يهمهم تعلمها لما ينفعهم في بحوثهم التاريخية أو اللغوية أو الادبية، ولكنها تتوجه في التعليم إلى القارىء العادي ، وتقدم بها العبارات التي يمكن استخدامها في لغة التخاطب اليومي .

والحال أن ما يجمع المواطنين المصريين أو المواطنين العرب بعامة ، هو اللغة العربية التي تجمعهم مع اختلاف الاديان وتقوم لهم بذلك جامعا قوميا يشكل دائرة لجماعة سياسية . فإذا حرص نفر من جماعة دينية على إحياء لغة لهم قديمة تركوها من نحو عشرة قرون ، فإن ذلك يفيد أن لهذا النفر هدفا يتعلق بفصل هذه الجماعة عن الجماعات الوطنية الاشمل .

والكتاب يثير موضوع اللغة القبطية ، ويذكر أنها كانت لغة التخاطب حتى القرن السابع عشر ، وأنها بقيت حتى القرن الثامن عشر (ص ٢٣٧ - ٢٣٩) ، ويمكن بذلك للقارىء أن يتصور إمكان العودة إليها لصغر الفترة التاريخية التي تركت فيها ، وذلك رغم أن ساويرس بن المقفع اسقف الاشمونين كتب كتابه الشهير عن تاريخ البطاركة في القرن العاشر الميلادي باللغة العربية ، ودل ذلك على أن العربية صارت لغة الاقباط في الاديرة في هذا الوقت البعيد، وأنها حلت بذلك محل القبطية . وأن ألف سنة في عمر لغة لهي مدة بالغة الطول ، تكاد تفوق في طولها ما تميزت به أي من اللغات الاوروبية الحديثة (فرنسية أو ايطالية أو المانية أو غيرها).

وصارت أساسا لنشوء قومي لجماعة سياسية ومجالا للاعتزاز والشعور بالانتماء .

لذلك لا أكاد أعرف وجهة نظر لأولئك الذين يحاولون بعث اللغة القبطية الآن وهي غريبة حتى عن تراث المسيحيين والمفكرين منهم على هذا المدى الطويل .

(٩)

وفي النهاية ، أكاد لا أعرف أحقية للكاتب في أن يسجل في بدايات كتابه إهداء له للانبا شنودة الثالث يقول له فيه إن هذا الكتاب يهديه له «قبسا من علمه الغزير ونبتا من غرسه النامي» .

لأن الانبا شنودة الثالث الذي نعرفه لا تقوم المعاني التي يروجها هذا الكتاب هي قبس من علمه ولا نبت من غرسه ، ونحن نعرفه وطنيا غيورا محبا لمواطنيه المسلمين منتميا معهم لمصريتهم .

ويبقى السؤال الذي يتردد لديّ بعد قراءة هذا الكتاب . هل من الصواب أن نربي أبناءنا على الكراهية والخوف ؟

الحمد لله ■

دائرة حوار



الهلال
ربيع ثاني ١٤٢٢هـ - يوليه ٢٠٠١م

حديث فى ....

علوم الدين وعلوم الحياة

بقلم
د. صلاح قنصوه

تتربص بنا اليوم متغيرات عالمية عاصفة قضت على رأسمالية الدولة التى سادت النظم الشمولية جميعا على اختلاف أيديولوجياتها، كما أدت الى خلخلة «الاحتكار» فى كل شيء. وفتحت المنافذ والمعابر بين البشر كافة، بحيث لا يمكن أن يأوى أى منا الى سلطة ما تعصمه من خوض المنافسة فى كل شئون الحياة، فكرا وسلوكا.

وقد ضمتنى جلسة الى صديق تحاورت معه حول ما يحدق بنا من مخاطر فى ظل هذا الأفق الشامل. وكان الحديث عن الشأن الدينى .

سألنى محدثى: ألسنا نؤمن بأن لا كهانة فى الاسلام؟.

فقلت بلى، فقال: إذن فما بال هؤلاء الذين توظفهم الدولة للإمامة، والفتوى، وإقامة الشعائر؟ وليس لهم من عمل، أو صنعة، أو تخصص آخر يكسبون به عيشهم لخدمة أنفسهم، وأسرهم، ومجتمعهم. وليس بينهم وبين غيرهم ممن يخدمون أديانهم بصوفهم كهنة، إلا أن الدولة هى التى تختارهم، وتعدهم، وتدربهم، وتوظفهم بحيث يخضعون لقائمة المرتبات والحوافز والترقيات التى يخضع لها غيرهم من الموظفين. إذن فهم رجال دين (أى كهنة) ورجال دولة فى الوقت نفسه. ألا يثير ذلك تساؤلا ممن يؤمنون بأن لا كهانة فى الاسلام! فعاجلته بالرد، خشية أن يمعن فى شططه، بأن من يعمل فى شئون الدين لخدمة أمة المسلمين ليس رجل دين، أى ليس كاهنا، ولا يرسم كذلك من سلطة دينية ما، بل هو من علماء المسلمين الذين يسرى عليهم ما يسرى على علماء البحث العلمى بدرجاته العلمية ومراتبه الوظيفية . وهنا تطامن غلواء محدثى قائلا : هذا حق، فهم يحملون درجات العالمية (بكسر الميم نسبة الى العالم أى رجل العلم) على مراتبها ومستوياتها حتى الدكتوراه. كما أن النخبة منهم «يعينون» فى مجلس أعلى للعلماء، والباحثين هو « مجمع البحوث الاسلامية». والذين لم يسعدهم الحظ أو آثروا العمل بالقطاع الخاص الدينى يحظى أو يحتفظ بأحد ألقاب ثلاثة، فهو إما مفكر، أو كاتب، أو داعية، ويضاف إليه وصف «إسلامى».

وعندئذ تساءل فى حيرة: لماذا يختص مثقف مسلم بهذا الوصف دون سائر المثقفين المسلمين؟.

وكانت إجابتى حاضرة جاهزة، وهى أنهم، بخلاف غيرهم من المسلمين قد



حباهم الله بقسط وافر من علوم الدين، فأصبحوا فقهاء مما يعنى بالعربية علماء.

فقال صاحبى: أفهم ما تقصد اليه اذا ما كان ما تحفل به الصحف وبرامج الاذاعة والتليفزيون من ردود على أسئلة القراء والمستمعين والمشاهدين فيما انبهم عليهم فى شئون عباداتهم ومعاملاتهم، وإن كنت أجد فيه أحيانا اختلافا كثيرا بين الآراء، فلقد قرأت من قبل أن فضيلة المفتى السابق أباح أرباح البنوك، بينما حرمها فضيلة شيخ الأزهر السابق بوصفها ربا آنذاك، وكذلك اختلف الرأى حول ختان الاناث، فقد أعلن فضيلة شيخ الأزهر السابق فتواه الشهيرة: «الختان واجب على الرجال والنساء، وأنه لو اجتمع أهل بلدة على ترك الختان، حاربهم الامام (أى الحاكم) كما لو تركوا الأذان». واستطرد محدثى قائلا : اننى أعلم أن المسلمين الذين يسكنون الى جوار الحرمين الشريفين فى السعودية لايختتنون الإناث، ولم أسمع بأن حربا قد نشبت هناك لذلك السبب. كما أن مشكلة تدمير التماثيل فى أفغانستان ليست ببعيدة، وربما يقترن بها تحريم التصوير، فناً كان أو فوتوغرافيا خشية مضاهاة خلق الله. وعلى أية حال فالأمثلة تقصر عن الإحصاء والحصر. فإذا ما كانت علوما، فكيف نفسر ذلك الاختلاف؟

فأعانني الله سبحانه فى الرد عليه بسندين اثنين؛ يصعد أولهما فى الزمن الى ابن خلدون فى القرن الرابع عشر الميلادى، ويرد الثانى الى فضيلة الدكتور طنطاوى عندما كان مفتيا للديار المصرية فى صحيفة الأهرام ٢٠/٢/١٩٩٦. فقد أقر ابن خلدون بحتمية ذلك الاختلاف بين الفقهاء (العلماء) وذلك «بضرورة أن الأدلة غالبها من النصوص، وهى بلغة العرب، وفى اقتضاءات ألفاظها للكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف، وأيضا، فالسنة مختلفة الطرق فى الثبوت، وتتعارض فى الأكثر أحكامها فتحتاج الى الترجيح وهو مختلف أيضا. فالأدلة من غير النصوص مختلف فيها، وأيضا فالوقائع المتجددة لا تفى بها النصوص، وماكان منها غير ظاهر فى المنصوص فيحمل على منصوص آخر لمشابهة بينهما، وهذه كلها اشارات للخلاف ضرورته الوقوع».

تدوين السنة

أما فضيلة الدكتور طنطاوى فيرد الاختلاف بالنسبة للأحاديث النبوية الى

اختلاف الفقهاء في فهم المقصود من الحديث، وتفاوتهم فيما يحفظونه من السنة النبوية، واختلافهم في العمل بما يصل اليهم من أحاديث، فقد يصل الحديث الى أحدهم من طريق لا يثق برواته فلا يعمل به، لأنه يظن برواته أو أحدهم الخطأ أو عدم الحفظ، وقد يصل بالطريق نفسه الى آخر فيعمل به لوثوقه بجميع رواته.. ومن الأمثلة على ذلك الأحاديث التي وردت في اثبات الشفعة، عمل بها الأحناف ولم يعمل بها غيرهم. والخلاصة أن الفقهاء يتفاوتون في اشتراطهم العمل بالحديث، فمنهم من يتشدد في ذلك، ومنهم من هو أقل تشددا لاسيما بعد أن ظهر الوضاعون الذين نسبوا الى الرسول ما لم يقله، وقد فعلوا ذلك لأسباب متعددة منها الخلافات السياسية أو الدينية، ومنها العصبية للجنس أو القبيلة، ومنها التقرب للخلفاء والأمراء. وكذلك يرد ذلك الاختلاف الى عدم تدوين السنة في العهد النبوي وفي عهود الصحابة. وكذلك اختلاف البيئات والعادات والعرف، باختلاف الأقطار الاسلامية وتباعدها، فإن كثيرا من الأحكام لا يهتدى اليها الا على ضوء تحقيق المصلحة ودرء المفسدة، فإذا ما اختلفت المصالح باختلاف البلاد والبيئات، اختلفت الأحكام تبعا لها، وقد غير الامام الشافعي كثيرا من آرائه حين انتقل الى مصر، لما رآه فيها من عادات لم يشهدها في العراق والحجاز.

فقال لي محدثي، بمناسبة ذكرك لصحيفة الأهرام ، فإني قد قرأت فيها للكاتب الصحفي عبده مباشر ٢٠٠٠/١٢/٣ تحت عنوان «تنقية كتب التراث.. لماذا» يقول : «كل الذين هاجموا الدين الاسلامي أو حاولوا تشويهه، وكل من سيسعى مستقبلا لارتياد هذا الطريق ما عليه الا أن يقرأ في كتب التراث ليختار منها أسانيده التي تدعم فكره وموقفه ووجهة نظره، ومع وضوح هذه الحقيقة، فإن علماء الدين الاسلامي المتشددين منهم وغير المتشددين، اقتصر جهدهم على اطلاق الحملات ضد من هاجموا وعملوا على تشويه الدين الاسلامي، ولم يفكروا في اعادة النظر في كتب التراث لتنقيتها من الشوائب ومن كل ما يتعارض مع نصوص القرآن والمنطق. وكما هو معروف فان هذا التراث ليس نصا الهيا بل هو عمل من أعمال بشر، وأيا كان أوزانهم أو أقدارهم أو تاريخهم فإنهم جميعا ليسوا من المعصومين ، ولا يمكن أن تكون أعمالهم معصومة بأية صورة من الصور» ثم يعدد الاستاذ عبده مباشر الأمثلة من البخاري ومسلم



والترمذى وابن حنبل والطبرى والبيهقى وابن حزم وابن ماجة وابى داود وغيرهم، أمثلة لا يمكن أن يقبلها عقل مؤمن بالقرآن الكريم أو صاحب حس سليم .

فقلت له ذكرتني بعبارة مأثورة اعتدنا أن نقولها عندما يُستدرك على ما نقول : «يعنى غلطنا فى البخارى» ! بل إن كثيرا من بسطاء أهل الريف يخشون من القسم كذبا بالبخارى ولا يستحون من القسم بالمصحف !

فرد عليَّ: بل أذكرك بما هو أفدح، فعندما ناقش الدكتور مصطفى محمود، وهو من هو فى صدق ايمانه وحسن اسلامه، مسألة الاعتماد على ما يروى من أحاديث، وهو لا يقصد بذلك انكار السنة أو انكار صحة ما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم، بل يتشكك فى صدق الرواة، وموهبتهم فى الحفظ، ومقدرتهم العقلية، بحيث لا يقبل الا ما يوافقه القرآن الكريم والمنطق السليم لكى يصدق ما يروى أو ينكره، عندئذ قامت قيامة العلماء، وخصصت خطبة الجمعة لأسابيع طويلة للتهجم عليه، واعلان كفره، طبعا دون ذكر اسمه .

التزود بعلوم الدين

فقلت له لأحسم ذلك الموقف الذى التبس على صاحبى، ليس لأحد أن يتحدث فى الاسلام دون أن يتزود بعلوم الدين التى يدرسّها الأزهر الشريف، وليس لمصطفى محمود أو لغيره أن يحدث أمرا فى الاسلام، ويصطنع الاجتهاد، وهو فارغ اليد من علوم اللغة، والفقه والقرآن ناسخه ومنسوخه، والحديث : صحيحه وحسنه وضعيفه، الى آخر سلسلة علوم الدين. فاستوقفنى ليسأل: ماشأن الناسخ والمنسوخ، أليس القرآن كله هو الذكر الحكيم؟؟ فقلت أصبت، ولكنها مادة تدرس لطلاب الازهر ليحفظونها يقسّم فيها القرآن الى محكم، وناسخ ومنسوخ (أى ملغى!) . والغريب أن المنسوخ فى نظرهم هو كل ما يتعلق بالصبر، والرحمة، والمعاملة بالحسنى، وغيرها من هدى القرآن، ويزعمون أنها نسخت بما يسمونه (آية السيف) والسيف لفظ لم يرد فى القرآن قط بل هى آية تأمر بقتل المشركين أينما وجدوا، ويدخل أهل الكتاب فى المشركين الا اذا دفعوا الجزية.. فخذ مثلا : من المنسوخ : «إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون» «الزمر»، «الحكم لله العلى

الكبير» (غافر) فآية السيف تنسخ معنى الحكم فى الدنيا. «ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن» «السجدة» نسختها آية السيف، «فاصبر على ما يقولون» «ق» نسخ الصبر بآية السيف، «واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا» (الطور) كذلك، «وأن ليس للإنسان الا ما سعى» «النجم» نسخ ذلك بقوله تعالى «والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم» فلولا هذه الآية، كما يقولون، لبطلت الشفاعة، «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وانزل اليكم» «العنكبوت» نسخت بآية السيف، «ادفع بالتى هى أحسن» «المؤمنين»، «فاصفح الصفح الجميل» «الحجر» «وان جنحوا للسلم فاجنح لها» «الانفال» كلها منسوخة ملغاة الا فى التلاوة بفعل آية السيف! ومن هنا فإن الموافقة على هذه الآراء لا تجعل من القرآن الكريم كتاب هداية، بقدر مايصبح بيان اعلان بالحرب. كما أن المنطق البسيط ينكر علينا ان نعتقد ان الله يعدل عن حكم إلى آخر وهو العليم الخبير. أما ما ورد بشأن النسخ فى القرآن فمرده، والله أعلم، الى بعض ما نزل من قبل فى التوراة وليس فى القرآن نفسه. أقول هذا وأنا موقن بأن كثيرا من «علماء» الدين لا يقرونني عليه.

أنس بن مالك والمنصور

وعاد صاحبى يسأل عن اجتهاد د. مصطفى محمود وهو يكاد يجاريه فيما ذهب اليه. هل كان اسلام المسلمين ناقصا حتى منتصف القرن الثالث الهجرى الذى ظهرت فيه الأحاديث وصحيحا البخارى ومسلم، وهل أدرك عمر بن عبدالعزيز، الذى طلب لأول مرة تدوين الأحاديث فى نهاية القرن الثالث، أن ايمان المسلمين منقوص.

فقلت له كلا، فإن السابقين الى جمع الأحاديث وبيان السنة لم يكونوا على يقين ثابت مما صنعوا بحيث يحملوا كافة المسلمين على الأخذ برواياتهم، فهذا مالك بن أنس، يعترض على الخليفة العباسى المنصور عندما أراد منه أن يجمع المسلمين على مافى «موطأ» مالك من أحكام، كما جمع عثمان بن عفان المسلمين على مصحف واحد، وقال له: «لا تفعل يا أمير المؤمنين».

فتساءل محدثى، اذا كان الأمر امر اجتهاد يختلف البعض فيه عن البعض الآخر، فيصيب بعضهم، ويخطىء آخر على أساس من الحجة والبرهان، فلماذا



اذن نطالع فى وسائل الاعلام ونسمع من خطباء المساجد ما يكشف عن نبرة حادة تفيض بالاتهام والوعيد، فضلا عن التشكيك فى نوايا البشر والتفتيش فى ضمائرهم توطئة لتكفيرهم واغراء السلطة أو الغوغاء بهم . فأنا أقرأ مثلا فى الأهرام (٢٠٠١/٥/٢١) لأحد أساتذة الأزهر مقالا مقتضبا يطالب فيه تحت عنوان «دعاة الفتنة» بالاعتقال والقتل لمن لديهم فكر منحرف لا ينفع معه الحوار، ولا يفيد معه الجدل، ولا يمكن معالجته الا بالعزل التام أو الموت الزؤام». ويقول أيضا «إن سلاح النقد لا يمكن أن يحل محل نقد السلاح»، ثم يستشهد بقول القرآن الكريم، فى غير موضعه بطبيعة الحال.. «فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم، واولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا» وكان يقصد بهؤلاء مايسميهم بسدنة الفكر الدخيل ودعاة التغريب». ثم اقرأ لفضيلة أمين مجمع البحوث الاسلامية، وهو يوجه خطابه لأحد أساتذة الأزهر الذى تجاسر وناقش آراء د. زغلول النجار فى روز اليوسف (٢٠٠١/٦/٩) : «ارفعوا ايديكم عن زغلول النجار». ياطلاب المجد الأجوف انتهوا خيرا لكم، هوجم الازهر الشريف بشراسة فما سمعنا لكم ركزا.. سعار الحق يعمى ويصم، زغلول النجار داعية وإن ورمت أنوفكم!».

بل إن أكثر ما نسمع من مجمع البحوث الاسلامية هو اخبار الحظر والمصادرة والتحريم، ولم نعلم انه انتج بحوثا او تدارس موضوعا مما يشغل الناس فى حياتهم فكرا أو سلوكا. فاجتهاداته فى معظمها سلبية، ولم نسمع له ركزا (أى حديثا خافتا) وعملا ايجابيا واحدا يتمثل فى اضافة أو ابداع يلق بمجمع للبحوث، وليس ادارة للرقابة، أو المضبوطات لا تدرك ان «الانترنت» وغيره ينشر كل ما يصادر. وبدلا من آلاف القراء يقبل عليه الملايين فى كل مكان فى العالم، وبما ان ادارة للرقابة أو المضبوطات ليس من وظيفتها رد الحجة بالحجة أو مناقشة الفكر بالفكر، فحسبها التعامل مع «جسم الجريمة» وتحويل «جسد» المتهم وليس عقله، الى جهات الضبط والتحقيق والمحاكمة وبعدها السجن أو القتل.

بيان معنى العلوم الدينية

ووافقت صاحبى على مشروعية تساؤله ودهشته، وذكرت له أن ما يحدث اليوم عندما كان يحدث ما يحاكيه فى

العصور الوسطى فى أوروبا قبل نهضتها، فقد اجتمع لرجال الدين السلطة الزمنية والدينية، فكانوا أولى الأمر فى الحكم السياسي، والرأى العلمي، والافتاء الدينى، ولم يكنْ لكتاب أن يتداوله الناس إلاّ اذا كان ممهورا بعبارة لاتينية هى : nihil obstat التى تعني «لا مانع» . وتنبيء تلك العبارة عن تأشيرة ادارية لا يملك توقيعها الا من كان له النفوذ، والصلاحية، والسلطان. وهى بعينها ما يصنعه مجمع البحوث الاسلامية، الذى تعرض عليه كل شئون الحياة علمية، أو فنية، أو فكرية وغيرها، اللهم الا الشئون السياسية لأن أعضاءه ينعمون بحظوة القيادات السياسية التى أصدرت أوامرها بتعيينهم، أو فوضتها للقيادات الدينية التى سبق أن اختارتها القيادات السياسية. ومما يثير التساؤل فى هذا الصدد أمران الأول : أن عرض الشئون والوقائع، التى يستأذن المجمع فى اجازتها او حظرها يتم معظمها باعتماد مرجعيته لاجتهادات قديمة تقف غالبا او عادة عند القرن الثالث الهجرى، وحبذا لو ازدانت بأسماء بدوية لم تعد تستعمل اليوم مثل بلتعه، وخثعمة، وعكرمة.. وذلك تأكيدا للرأى القائل بأن الكلام كلما أوغل فى القدم، توثق ثبوته وتعمق تقديسه.. وربما يرد ذلك، بين أسباب أخرى كثيرة، الى أن معظم أعضاء المجمع من علماء الازهر الشريف، وقد وقفت مواد دراستهم ونصوصهم عند هذه الفترة القديمة، ومن ثم فهم يجيدون حفظها وتوظيفها. ولكنهم سرعان ما يفتون فى كل شيء.

والأمر الثانى هو التاريخ الممتد منذ الدولة الأموية لهيمنة السلطة أو الدولة على علماء الدين، وقد يفلت بضعة أفراد من ذلك ويدفعون ثمن استقلالهم. ولكن ظلت «المؤسسة» الدينية نفسها فى حضانة السلطة السياسية وتحت رعايتها كاحدى مؤسسات الدولة التعليمية ، أو العلمية ، أو الإدارية أحيانا، ولابد من الاعتراف الصريح بالمكانة المرموقة للمتخصصين في شئون الدين.. غير أن المفارقة تبدى فى أنهم يتجاوزون ذلك التخصص أو يتوسعون فيه عندما يعلنون أحكامهم فى كل شئون الفكر والفن والسلوك، ليس بوسائل الحوار، بل باشهار سيف التكفير والتفريق بين الازواج كاجراء تمهيدى لما هو أخطر وأنكى .

وهنا سألنى محدثى وكيف الخروج من هذا الوضع التاريخي؟ فكان جوابى الحل أو المسيرة نحو الخروج خطوتان، الأولي نظرية، والثانية عملية.

فأما الأولى فهى بيان معنى العلوم



دائرة حوار

الدينية ونصيبها من «العلمية»، كما ندركها فى العلوم الطبيعية والدينية والاجتماعية ، لكى نكون على بينة من أمور ديننا ومعاشنا .

فيقف على رأس تلك العلوم علم أصول الدين (أو الكلام أو التوحيد) وموضوعه أو هدفه اثبات العقائد الايمانية بالأدلة العقلية، أو الدفاع عنها ولكن تحت مظلة الايمان المسبق بالنص. فهو لا يصعد من التجارب والوقائع لكى يبلغ نتيجة عامة كما يصنع العلم بل يبدأ بالنص المسلم له ليستخرج منه تصورا عقليا معينا، وفهما خاصا للعقيدة. ولقد تعددت وتناحرت فرق أهل الكلام حول تلك القضايا رغم احتكامها جميعا الى النصوص الشرعية، ولم يقف النزاع عند الجدل، بل تعداه الي سفك الدماء بتكفير كل منها للأخرى واتهامها بالزندقة أو المروق .

واذا كانت الشريعة هى أحكام الله فى أفعال العباد المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والاباحة، فإن علم الفقه هو معرفة تلك الأحكام، وهى معرفة انسانية يصيبها ما يصيب قدرات الانسان من تفاوت واختلاف، وصحة وفساد. وقد ذكرنا من قبل أسباب الاختلاف فى الاجتهاد .

أما علم اصول الفقه، فهو النظر فى الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف أى هو المنطق الذى يضع القواعد لاستنباط الأحكام من الادلة الشرعية جميعا. ولقد استخدم الاصوليون كافة مصادر التشريع، ومنها القرآن والسنة والاجماع والقياس، وكذلك المصالح المرسلة، والاستحسان ، وشرع من قبلنا، والعرف.. الخ والمهم فى كل هذا الا يتعارض مع «مقصود» الكتاب والسنة. فالاستحسان مثلا باب واسع جدا وهو يستخدم اذا ما كانت الوقائع الجديدة قد دل على حكمها نص أو اجماع، ولكن موجب عموم النص او القياس فيها يؤدى الى تفويت مصلحة أو جلب مفسدة، فيعدل عن هذا الحكم الى حكم آخر لدليل يقضى ذلك العدول (حروب الردة، عام الرمادة، سهم المؤلفة قلوبهم، فرض الضرائب، طريقة استخلاف عمر تدخل فى هذا الباب ..) فاذا كان القياس كاشفا لحكم الأصل فى الفرع عند الاشتراك فى علة واحدة ، فإن الاستحسان ترك لحكم كان يجب أن يطبق علي واقعة ما لضرورة أو حاجة.. وشرح ذلك أن المسلمين بعد وفاة

الرســول وعنـدمــا واجــهــوا مطالب ومشكلات جديدة بادروها بحلول جسورة وجديدة أيضا، ولم تكن ثمة خشية على ايمـانهم العـمـيق.. ومن ثم اكـتـسـبت ممارســاتهم عند من جــاء بـعــدهـم ثـوب التوقير والتقديس. ومن هنا جاء علم أصول الفقه ليصدق على اجتهاداتهم ويبحث عن تسويغ منهجي لهم ولمن يأتي بعـدهم. ودليلنا على ذلك أن أصــحــاب أصول الفقه عندما يبسطون مصادرهم ويثبتون جدارتهم لايجدون لها تأييدا الا في ممارسات السلف وحدهم. فالطريق الفعلي معكوس . فالبشر يخوضون الممارسة أولا ثم يأتي دور التسويغ والتقعيد من بعدها. غير أن المسألة تبدو أحيانا وكأنها على العكس من ذلك فعمر بن الخطاب صنع كذا استحسانا أو استـصـحـابا الى غـيـر ذلك من المصطلحات الاصولية الجديدة مما يوهم بأن ثمة قواعد شرعية جاهزة ومنصوص عليها . والواقع ان الأصل هو الممارسة وليس التطبيق، فالقاعدة ليست محددة صريحة لتطبق، بل الممارسة الفعلية هي التي تنشيء القاعدة فيما بعد في أغلب الأحيان، وهكذا نجد أن القواعد المنتزعة من الممارسة ليست على مستوى واحد، كما أنها ليست على اتفاق لأن الممارسة مواقف متعارضة من الوضاع متعددة متغيرة.

شرح النصوص

وهناك أيضا علوم القرآن، والحديث، والفرائض (أي المواريث)، وهي جميعا علوم تعـتـمـد على الحـفـظ وشـرح النصوص، ولا تبحث خارج النص لأنها لا تعنى باكتشاف جديد بقدر مايهمها الاطمئنان الى ثبوت النص وبيان المعايير التي ينبغي ان يلتزم بها المؤمن المكلف.

فليست اذن قراءة لظواهر الطبيعة والانسان والمجتمع كما يفعل العلم المعاصر، بل قراءة النصوص المتعلقة بالدين، واتقــان فـهـمـا وتأويلهـا واستخلاص أحكامها .

ولا تنهض هذه «العلوم» الدينية، على «الموضـوعـيـة» العلمـيـة، ليس بالمعنى الخلقي، بل المعنى المنهـجي، فـهـذه الموضوعية تعني إجرائيا احراز الاتفاق بين الباحثين المختلفين في الرأي، عندما يزاولون نفس الاجراءات المنهجية دون الاهابة بشروط مسبقة قد تتعلق بالعقيدة الدينية أو القـومـيـة، أو السـيـاسـيـة أو غيرها مما لا يمكن حسم النزاع فيه بالبحث العلمي. وينبغي لنا لكي ننصف المؤسسة الدينية أن نؤكد أن رجالها أنفسهم ينكرون «علمية» تخصصاتهم عندما يعمدون أغلب الأحيان الى اغلاق



باب الحوار وحسم القضايا بالحظر والتحريم. ولا أحسب أن من بين أدوات العلوم الأخرى ذلك المعيار، أو ذلك السلاح، الا ما كان يحدث فى الاتحاد السوفييتي السابق عندما عوملت الماركسية كدين وعلم عام يهيمن على سائر العلوم والاكتشافات.

ومهما يكن من أمر، فإن اختلاف الاجتهادات المتفاوتة فى «العلوم» الدينية يمكن فهمها منطقيا اذا ماطبقنا عليها مايسمى فى مناهج بحث الرياضيات بالنسق الاستنباطى (أو الاكسيوماتيك axiomatic) وهو التى يتجلى بوضوح فى الهندسة، فهو يبدأ من مقدمات هى التعريفات والمباديء والمسلمات (أو المصادرات) ثم يستنبط منها ما يلزم عنها بالضرورة المنطقية من نظريات برهانية وهى التى نسميها نظريات أو مبرهنات الهندسة theorems والتى تختلف عن النظرية العرفانية heary فى علوم الطبيعة والمجتمع. فيأتى المجتهد (أو عالم الدين) فيضع ما يختاره ويؤثره من مقدمات تختلف عن مقدمات غيره من المجتهدين، ثم يستنبط منها بالمنطق الخالص ما يترتب علي قبول صحتها. ويأتي غيره فيضع مقدمات مختلفة، فيبلغ نتائج مختلفة. وهذا هو الشأن فى الاختلاف بين هندسة اقليدس، وهندسة ريمان، وهندسة لوباخفسكي فقد بدأ كل منهم بمقدمات مختلفة عن طبيعة السطح يتأدى منها الى نتائج مختلفة فإذا كان مجموع زوايا المثلث قائمتين الى اقليدس فهى أقل من ذلك عند واحد منهما وأكثر من ذلك عند الآخر. كما أن الخطين المتوازيين يتقابلان عند امتدادهما بخلاف مايذهب اليه اقليدس. وعلينا أن نختار ما يلائمنا من هذه الهندسات، ولا نتقاتل حولها.

نتائج الاجتهادات

ومثال ذلك فى العلوم الدينية أن من يبدأ مقدماته من آية السيف سيصل بمنطق يقينى الى نتائج الاجتهادات او فتاوى تختلف تماما عما يبدأ مقدماته بالايات التى زعم أصحاب الناسخ والمنسوخ نسخ معانيها أو حكمها.

فالدين اساسي علينا أن نبني من فوقه، ولكن دون أن يكون هو البناء نفسه. وهو حافز على العلم دون أن يكون هو نظرية من بين نظريات العلم. وهو باعث على اطلاق طاقاتنا لنصنع ماهو أفضل فيما نختار من بين بدائل عديدة دون أن يكون هو نفسه أحد هذه

البدائل فلا نقول هناك زراعة اسلامية، وسياسة اسلامية، واقتصاد اسلامي . وعلم نفس اسلامي.. الخ لأننا اذا خلطنا بين هذه المجالات والمستويات صدق علينا المثل المشهور: يشير الحكيم الى القمر، فينظر الأبله الى الاصبع !

فقال محدثي، فهمت ، ولكن ما الحل العملي؟ فأجبته، هنا فقط يمكن أن نفتح الطريق أمام ما يتمناه الجميع ويتحدثون عنه وهو التجديد فى الفكر الدينى. فإذا ما زحنا العقبة الرئيسية انكشف الطريق أمامنا فسيحا واعدا .

وينبغي أن نعترف قبل كل شيء بأن الحال فى التعليم الدينى على ماهو عليه لا يبشر بهذا التجديد. فإن مايلزمنا هو أن نوثق بين مايسمى بعلوم الدين التى تدرس حتى اليوم كمادة للحفظ والشرح على المتون والاستنباط الجاهز سلفا، وبين مجالات حياتنا بأسرها. وذلك بشرط واحد ، أن يبدأ التخصص أو التضلع في علوم الدين بعد أن يكون المرء قد تعلم ، وتخصص، وتدرب، وعمل فى شأن من شئون الدنيا والحياة . ثم له من بعد ذلك أن يعكف على الاطلاع الواسع فى تلك العلوم التى تزوده بها معاهد أو كليات ينفق عليها أهل البر والتطوع ولا تكون تابعة للوائح المالية الحكومية. ومن ثم تحقق فعلا لا قولا «ليس فى الاسلام رجال دين أو كهنة» وبذلك نستعيد مجد السلف الصالح من الأئمة العظام الذين كانوا يأكلون من كد عملهم ولا يخافون فى الله لومة لائم ولا يخضعون لترغيب او ترهيب .

ومن قبيل ذلك نطمئن الى أن اجتهاداتهم على صلة وثيقة بما يجرى فى الحياة الراهنة ولا تكون مجرد قياس او مماثلة على حياة عاشها القدماء، ولم تعد مطابقة لما نحياه اليوم. وعندئذ يتيسر السبيل الى عقد الحوار بين مختلف الاجتهادات التي تعرضها كل وسائل الاعلام دون أن يزعم أصحابها سلطة خاصة أو مكانة يمتازون بها على غيرهم من عباد الله .

والواقع أن الإيمان الاسلامى باليوم الآخر الذى يملكه الله سبحانه وحده لأنه مالك يوم الدين، هذا الايمان لايليق أن يغتصبه البعض للحكم على البعض الآخر فى الحياة الدنيا ، وهو الذى يعصمنا من الحرب الأهلية غير المعلنة بين المواطنين .

فالاختلافات فى الاجتهاد لا يمكن لأحد أن ينصّب نفسه فيها حاكما يقضى بينها باسم الله، وان كان له أن يحكم فيها باسم المصلحة التي يراها، ويتحمل مسئولية حكمه فى دنياه ، وذلك لأن الله «يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» «البقرة». ■

أبعاد العولمة وميادينها

بقلم
د. محمد عمارة



٥٢
الهلال
ربيع ثاني ١٤٢٢هـ - يوليه ٢٠٠١م

لأن العولمة هى الاجتياح الغربى - بزعامة أمريكية - لصب العالم فى قالب الحضارة المهيمنة.. فإن هذا الاجتياح الطوفانى لا يترك ميدانا من الميادين إلا ويريد أن يطاله ويحتويه.. وخاصة إذا وجد فيه «فراغا» يغرى بالاحتواء..

ففى الاقتصاد: هناك عولمة الخلل الفاحش، الذى تمثله الليبرالية الرأسمالية المتوحشة، بين الشمال والجنوب.. والذي بلغ - فى الظلم الاجتماعى - أفقا غير مسبوق.

فأبناء حضارة الشمال - الذين بنوا رفاهية مجتمعاتهم الغربية على فائض النهب الاستعمارى العالمى.. والذين يمثلون اليوم ٢٠٪ من سكان المعمورة - يملكون ويستهلكون ٨٦٪ من الانتاج العالمى.. حتى أن ٢٢٥ فردا منهم يملكون ما يوازى ملكية ٢,٥ مليار من أبناء الجنوب - أى قرابة نصف البشرية -!.. بل إن ثلاثة أفراد فى أمريكا تبلغ ثروتهم مثل ٤٨ دولة من أعضاء الأمم المتحدة - أي نحو ثلث أعضاء المنظمة العالمية-!..

ومثل هذا الخلل الجنونى في الملكية نجده فى الانفاق .. فـ:

٧٨٠ بليونا من الدولارات هى حجم الانفاق «العالمى» على التسلح وأدوات الدمار.. و٤٠٠ بليون من الدولارات هى حجم الانفاق «العالمى» على المخدرات.. و١٠٥ بليونات من الدولارات تنفق على الخمور والكحوليات فى أوربا وحدها.. و٦٧ بليونا من الدولارات تنفق على القطط والكلاب المنزلية فى أوربا وأمريكا وحدهما!..

أى أن مجموع ما ينفق على هذا السفه والدمار يبلغ ١,٤٤٢ بليونا - من الدولارات.. بينما مجموع الانفاق العالمى على كل من الصحة والتعليم والغذاء لا يتجاوز ١٩ بليونا - للتعليم ستة بلايين.. وللغذاء والصحة ثلاثة عشر بليونا -!!

الأمر الذى يجعل هذا الاقتصاد «العالمى»، الذى يريدون عولمته، بإزالة الحدود الحمائية للاقتصادات والصناعات والتجارات الوطنية لدول الجنوب مقبرة لاقتصاداتنا، ومأتما للرشد الاقتصادى، ناهيك عن العدالة الاجتماعية!..

وإذا كانت أولى نتائج هذا الخلل الفاحش - الذى يجعل ٢٠٪ من أبناء الشمال يستهلكون ٨٦٪ من الانتاج العالمى، بينما يعيش ٨٠٪ من البشر على ١٤٪ من الانتاج العالمى - إذا

كانت أولى نتائج هذا الخلل هى انعدام، القدرة الشرائية لأغلبية البشرية.. فلقد دفع ذلك رؤوس الأموال العالمية- التى لا هم لها سوى اللهاث وراء تعظيم الأرباح - إلى التوجه نحو الميادين الطفيلية، بدلا من المبادين الإنتاجية والخدمية.. فغير تجارات المخدرات - وغسيل الأموال القذرة - وشبكات تجارة الدعارة - فى النساء والفتيات والغلمان.. والتى أصبحت - فى بعض البلاد - من المصادر الأساسية «للدخل القومى»!، وتكاد «العمالة» فيها تفوق العمالة فى الصناعات الإنتاجية الأساسية!-.. غير هذه الميادين المدمرة لإنسانية الإنسان، توجهت أغلبية رؤوس الأموال العالمية - ١٠٠ تريليون دولار أى ٩٧٪ من حجم الأموال السائلة - إلى السمسرة والمضاربات، بينما الموظف فى الإنتاج والتجارة هو ٣٠٥ تريليونات دولار، فقط لا غير!..

وعلى حين ارتفع حجم التجارة السلعية العالمية من ٢٥ تريليون دولار، ١٩٩٠م إلى ٣٨ تريليون دولار ١٩٩٨م.. فإن حجم التجارة فى الأوراق المالية - أى المضاربات غير المنتجة - بل والمدمرة - قد ارتفع فى ذات المدة من ١٥ تريليون دولار الى ١٨٠ تريليون - والتريليون هو بليون - أى أن هذه التجارة المدمرة والطفيلية قد بلغت، فى ظل العولمة ١٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار!..

وبسبب من الحجم الديناصورى لصناعة السلاح وتجارته، فى هذا الاقتصاد «العالمى»، فلقد بلغ حجم العقول العلمية الموظفة فى صناعة السلاح والدمار - بشكل مباشر أو غير مباشر - ٩٠٪ من عقول علماء العالم!..

وإذا كانت ديون «العالم الثالث» - أى ٨٠٪ من البشرية - قد بلغت عام ١٩٩٧م ١.٩٥٠ مليارا من الدولارات.. تقتطع فوائدها - مجردا - أربعة أضعاف ما تنفقه دول «العالم الثالث» على الصحة والتعليم مجتمعين.. فإن صورة هذه المأساة لا تفهم إلا إذا علمنا أن الشركات متعددة الجنسيات ومتعدية القارات - التى تعولم هذا الاقتصاد «العالمى» - تقترض الدولارات من «وال ستريت» - حى المال والأعمال فى أمريكا - بفائدة قدرها ٦٪ ثم تقرض هذه الدولارات لبلاد الجنوب بفائدة تتراوح ما بين ٢٠٪ و ٥٠٪ !!.. الأمر الذى جعل استدانة الجنوب من الشمال تبلغ حد تمويل الجنوب للشمال، لا العكس، وتنمية الجنوب للشمال، بدلا من العكس.. فقرض قصير الأجل لمصر، بلغت قيمته أربعة ملايين دولار، أصبحت قيمته الإجمالية - مع الفوائد - عند اكتمال سداده ٢٢مليونا !!..

والمعونات الأمريكية لمصر، خلال الفترة من ١٩٧٥م إلى ١٩٨٣م، قد بلغت حوالي ٨٠٥ مليارات من الدولارات، وتم انفاقها على ثلاثة برامج أساسية هي ١- الاستيراد السلعي ٢- والمشروعات ٣- وفائض الحاصلات الزراعية.. فكانت نتيجتها الحقيقة: فائدة أمريكا، لا مصر.. فاستعاد البرنامجان الأول والثالث ٥٧.٢ من إجمالي المعونات، صبت في صالح السوق الأمريكي - انتاجا وتشغيلا - فتم دعم الصناعة الأمريكية - (البرنامج السلعي) بـ ٣٣.١ من حجم المعونة -.. وتم دعم المزارعين الأمريكان - (برنامج فائض الحاصلات الزراعية) بـ ٢٤.١ من حجم المعونة -.. وأخذ «الخبراء» الأمريكان ما بقي من المعونة.. ففي تطوير «ميناء الأدبية» - بالسويس - ضمن (برنامج المشاريع) - بلغت أجور «الخبراء» الأمريكان ١٣ مليونا من الدولارات - أي ٦٥٪ من إجمالي تكلفة المشروع! - وأجر «الخبير» الأمريكي بمصر هو أربعة أضعاف أجره في وطنه أمريكا!!- كما بلغت تكاليف الدراسة الأمريكية لمشروع الصرف الصحي بالإسكندرية ٥٧٪ من جملة القرض الأمريكي الموجه للمشروع!!..

وذلك فضلا عن: قصر المعونات على المشروعات غير الإنتاجية، وبالذات تلك التي تخدم تطبيع العلاقات مع إسرائيل.. والتي تخدم تحديد النسل - إذ بلغت نسبتها إلى معونات قطاع الصحة ٥١.١٪!! .

فهي لا تقف فقط عند «إماتة» الإنتاج الحقيقي والتنمية الحقيقية.. وإنما ينطبق عليها المثل القائل: «موت.. وخراب ديار»! ومع كل هذا الخراب، فإن هذه الديون ترهن إرادة الأمة لدى صانع القرار الأمريكي، وتحول الاستقلال الوطني إلى مجرد علم ونشيد..

تلك هي المقصلة الاقتصادية التي يريدون عولمتها!..

العولمة السياسية:

وغير البعد الاقتصادي للعولمة.. هناك البعد السياسي، الذي يهمش دور المنظمات الدولية لحساب تعظيم الهيمنة العالمية لمؤسسات الدولة الأمريكية «فمجلس الأمن القومي الأمريكي» يكاد أن يحل محل «مجلس الأمن الدولي»!..

وقضايا وشئون العالم الإسلامي قد عهد بها إلى «لوبي» يهودي أمريكي! والسيادة الوطنية لحكومات الدول القطرية والقومية - تلك التي أكدتها المواثيق الدولية - تتآكل لحساب التدخل الأمريكي والأطلنطي، ولحساب تعظيم سيادة العولمة الأمريكية على حساب السيادات الوطنية والقومية لدول الجنوب .. وفي انتقاص هذه السيادة الوطنية

للدول تستغل «أوراق» الأقليات النصرانية والقومية في العالم الإسلامي، وتبلور وتمول شرائح من غلاة العلمانيين المتغربين في بلادنا للتبشير بهذه الاتجاهات، حتى ليكتب كاتب نصراني في صحيفة يسارية مجاهرا بتأييده للتدخل الأمريكي «الدولي» في شئون مصر الداخلية، بدعوى «أن المطالبة بممارسة ضغوط دولية على الدول من أجل المحافظة على حقوق مواطنيها واحترام المواثيق الدولية هو أمر مشروع تماما داخليا وخارجيا .. ولا عجب في هذا فنحن نعيش في عصر الدولة ناقصة السيادة، وهذا أحد أهم أوجه ظاهرة الكونية ... »!!

بل ويدافع عن هذا التفريط العجيب في السيادة الوطنية - سيادتنا نحن فقط، وليست سيادة قوى الهيمنة، التى احترفت وتحترف العنصرية واضطهاد الأمم والشعوب!- يدافع عن هذا التفريط، وينظر له «التقرير الاستراتيجي العربي»، التي تصدره - بتمويل أجنبي !- «مؤسسة الأهرام» - في مصر - والذي يشرف على إصداره «مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية » - بالمؤسسة - والخاضع لتوجهات «تطبيع» العلاقات مع إسرائيل ، والرضا بالتسوية الأمريكية للصراع العربي - الصهيوني !..

هكذا تتحول «السياسة الأمريكية » إلى « السياسة العالمية »… ويصبح لعولمة السياسة، وانتقاص السيادة ، والتدخل في شئوننا الداخلية، دعاة وكتاب ودراسات وأدبيات !..

العولمة التشريعية :

ويدعم هذه العولمة السياسية، ويقنن لها، «عولمة تشريعية» يمارسها الكونجرس الأمريكي، الذي لم تعد تشريعاته وقفا عند حدوده الوطنية، كما هو شأن كل برلمانات الدنيا .. وأصل اختصاصاتها - وإنما أخذ - هذا الكونجرس - يشرع للعالم بأسره .. فيصدر القوانين التي تصنف الدول إلى: دول سافلة، وأخرى طيبة! .. ودول إرهابية، وأخرى مسالمة ! .. ودول محاصرة، وأخرى غير محاصرة ! .. ودول يجوز فيها الاستثمار، وأخرى تفرض عليها المقاطعة !.. ودول تضطهد الأقليات الدينية، فتستحق العقاب الأمريكي والعالمي، ودول بريئة من هذا الاتهام !.. ودول يستحق انسانها التمتع بحقوق الإنسان، ومنها حق تقرير المصير، حتى ولو كان تعدادها أقل من مليون - في تيمور الشرقية» - وأخرى لا يستحق إنسانها شيئا من ذلك، حتى ولو بلغ تعدادها عشرات الملايين - كما هو الحال في كشمير والفلبين وبورما والبوسنة وكوسوفا وفلسطين!..

ومثل ذلك الحال مع حق الإنسان فى أن يحكم بالقانون الذى يريد فعولمة العلمانية اللادينية، واستخدام «أوراق» الأقليات غير المسلمة فى فرضها على الأغلبيات المسلمة هو «شرعة العولمة» بينما اختيار الشعوب المسلمة الاحتكام إلى شريعتها الإسلامية هو «التطرف المحظور، والأصولية المرذولة»، التى تبرر التدخل الخارجي في شئون تلك الشعوب!..

بل وتصل هذه «العولمة التشريعية» إلى حد إصدار القوانين الأمريكية، واعتماد الميزانيات العلنية لتغيير نظم الحكم التى لا ترضى عنها العولمة الأمريكية !.. مثل إصدار الكونجرس الأمريكى «لقانون تحرير العراق»!.. أى قلب نظام الحكم فى بلد عضو بالأمم المتحدة !..

العولمة العسكرية:

وغير هذه العولمة الاقتصادية .. والسياسية .. والتشريعية .. هناك «العولمة العسكرية» التى تفرض كل ألوان وأبعاد العولمة على من تحدثه نفسه بالتمرد أو العصيان .. فمن لم تردعه التحذيرات .. والعقوبات تردعه الصواريخ والمقاتلات !..

وإذا كان شاذا - بكل المقاييس - أن تأتى الطائرات الأمريكية والبريطانية عبر القارات ومن وراء المحيطات لتضرب شعب العراق ومنشآته «بحجة الدفاع عن النفس - نفس الذين وطنهم وراء القارات والمحيطات ؟!!- فإن هذا الشذوذ يتم تقنينه وعولمته، عندما تجتمع دول حلف الأطلنطي فى عيده الخمسينى - بأمريكا - فى إبريل ١٩٩٩م.

فهذا الحلف الذى تكون فى إبريل ١٩٤٩م - فى ظل النظام العالمى ثنائى القطبية - نص ميثاقه على أن مهامه خاصة بالدفاع عن «أرض الدول المشتركة فيه».. لكن العولمة العسكرية قد غيرت مهام هذا الحلف وطورتها، فجعلتها «الدفاع عن «مصالح» - وليس فقط «أرض» - الدول المشتركة فيه» .. فامتدت الذراع العسكرية للعولمة الغربية - تحت القيادة الأمريكية - إلى حيث يريدون .. وأصبحت مبررات «من مثل» «الأصولية الإسلامية» و«التطرف» و«اضطهاد الأقليات المسيحية» و«أسلحة الدمار الشامل» و«برامج التسلح النووى» - والتى جعلتها العولمة من خصائص الدول العربية والإسلامية دون غيرها من الدول ؟! -.. أصبحت هذه «المبررات» أبوابا مشرعة للتدخل العسكرى العولمى فى شئون الدول المتمردة على بيت الطاعة الأمريكى !.. ■

مذكرات عربجى

عربة الحنطور

فى تاريخ مصر

بقلم
د. محمد رجب البيومى





قال لى بعض الزملاء أتعرف أن أحد رجال الشرطة فى عهد الاحتلال الإنجليزى يحمل رتبة (جاويش) ألف كتاباً قيماً عن المواكب المصرية يعد من أهم المراجع فى بابه، وقد احتوى على كثير من العادات والتقاليد الشعبية محتشدة مسببة، وكأنه باحث اجتماعى كبير؟ ثم قال عقب ذلك: أيستطيع جاويش مصرى أن يكتب مثل هذا الكتاب، وهو ابن الوطن الذى يعرف عاداته وأحواله دون جهد ما؟ قلت يا أخى: إذا كان رجال الشرطة من الانجليز لا يحصى لهم عدداً فهل قدموا جميعا من المؤلفات ما كتب صاحب المواكب؟ أو أنه استثناء يمثل القدوة؟ ولماذا تقيس المواطن المصرى به، ونحن نعرف أن المساكين من هؤلاء، كان أكثرهم من الفقراء الذين لا يقرءون ولا يكتبون، وليس مع أحدهم عشرون جنيها يفتدى بها نفسه من بلاء الجهادية فى عصر الاحتلال! حين كان العمل سخرة حكومية لا واجبا وطنيا !! . إن هذا الاستثناء الخارق الذى تمتع به الشاويش الانجليزى حين كتب مؤلفه عن المواكب قد يجد مثله ولكن ليس فى رجال الشرطة، بل فى قادة العساكر ممن يسمون «بالعربجية»، ولى تسمية تلك سنذكرها ظاهرا على هؤلاء الكادحين!



لقد وجد فى هؤلاء من كتب
مذكراته الشائقة ونشرها
تباعا فى مجلة (الكشكول) فلاقت رواجا
واحتفاء! حتى ظن بعض الناس أن
الكاتب أديب ينتحل مهنة (الحوذى) ولكن
الأستاذ فكرى أباظة كتب مقدمة المقالات
حين جمعت فى كتاب، وأعلن معرفته
الشخصية بالكاتب الذى كان يسوق
العربة كثيرا لتحمله إلى مقر عمله
بالصحافة أو المحاكم! فإذا كان
الشاويش الإنجليزى قد أبدع فى بابه
وهو شرطى متواضع الثقافة! فقد أبدع
(الحوذى)! المصرى إبداعا يماثل إبداعه،
ولكن الكاتب الانجليزىُ كتب مؤلفه
بالإنجليزية فلاقى صدىً هناك، ثم شغف
به من ترجمه إلى اللغة العربية فزاد
انتلاقا وسطوعا! أما المؤلف العربىّ فما
يكاد أحد من العامةُ وبعض الخاصة
يقرأ عنوانه (مذكرات عربجى) حتى يمط
شفته ساخرا، وكأنه يقول (أعوذ بالله!)
ولم أر من خصّ الكتاب من رجال
الاجتماع بنظرة عابرة، إذ لا أطمع فى
دراسة فاحصة، وهو معلم من معالم
التاريخ الاجتماعى فى حقبة خطيرة من
سنوات الاحتلال! مع أن مقدمة الأستاذ
فكرى أباظة قد تلفت النظر إليه إذا
احتاج هؤلاء الباحثون إلى من يلفت
أنظارهم فى ميدان تخصصهم الحفيل.

من مقدمة فكرى أباظة

عزيزى الأسطى حنفى

إن لك علينا أفضالا لا ننساها، لأنك
لست (حوذيا) فقط، بل أنت «فيلسوف»،
والفلسفة مبجلة فى حد ذاتها، برفع
النظر عن حيثية المتصفين بها، دعنى
أهنئك من صميم فؤادى، لو كان
كرباجك كقلمك لفاخرنا بك أعظم
الأسطوات فى جميع القارات.

يمينا يا أسطى، لست أحابيك ولا
أداجيك، إنما أقرر الواقع، لقد لدغت
بكرباجك العظيم، ظهور المتهتكين
والمتهتكات، وقديما كان الكرباج أداة
التهذيب والتأديب، ولكنّ كرباج العهد
الغابر كان يسيل الدم ولايجرح النفس،
أما كرباجك أنت فلا يسيل الدماء، ولكن
يجرح النفوس، ونحن إنما نريد معالجة
الأرواح لا الأبدان فشكرا لك يا طبيب
النفوس، ولا تفكر كثيرا فى الأزمة، فما
دمت فيلسوفا فليكن جيبك فاضيا كقلبك،
إن أمة حوذيتها مثلك لجديرة بأن تركض
ركضا إلى مطامعها، فحضر الملازم
بسرعة لينتفع الجمهور، وأنا فى
انتظارك فلا تتأخر علىّ».

هذا بعض ما قاله فكرى أباظة وقد
تبرع ببعض المال ليطبع الكتاب، فصار
تاريخا هاما لمعلم من معالم
الحياة الاجتماعية فى
النصف الأول من القرن
العشرين، هذا المعلم هو



(عربة الحنطور).

ثورة الحنطور

لم يعرف الحنطور في مصر إلا في أوائل القرن التاسع عشر، مع أنه عرف في فرنسا القرن السابع عشر، وقد نقله الولاة من أبناء محمد علي إلى مصر ليكون مركبا خاصا بالأسرة، وكان المركب في درجة عالية من الأبهة والفخامة، يختار له سواقون من الأوربيين أو الترك يلبسون أجمل الأزياء البراقة اللامعة، وكأنهم في حفلات الأعراس، على حين يجرى أمام المركبة نفر من العدائين الشباب ذوى الأجسام الممتلئة، وبأيديهم العصيّ ليفسحوا الطريق! ولا أدرى أى طريق يفسحون، والعامة لا يجرءون على النظر من بُعد، فضلا عن الوقوف أمام الركب الميمون، وعربات النساء ذات طابع خاص فهى مغلقة الأبواب، ولكن النوافذ الزجاجية تكشف ما وراء الباب، ويختار قادتها من الشباب الصباح، وقد عرفوا سلفا أين ستذهب المركبة بذوات الحسن والجاه، ويظلّون أمام المنزل مهما طالت الزيارة! ثمّ رأى الوزراء ومن يليهم من الحكام أن يصطنعوا الحنطور على نحو أقل روعة! فشاع لدى هؤلاء، وانتقل الأمر إلى العامة، فنزل الحنطور عن أبهته إلى حيث نعرفه من التواضع، وأصبح الوسيلة المريحة للانتقال، وحين أنشئ أول خط للترام سنة ١٨٩٥ ثار السواقون، وألفوا مظاهرة كبرى اتجهت إلى دار الوزارة لتعلن احتجاج هؤلاء على قطع العيش، ووُجد من الصحافيين من كتب المقالات صداً عن ركوب الترام، موضحا خطره على المارة حين يحصد آلاف الأرواح، ولكنّ الزوبعة كانت في فنجان، فأصبح الترام منافسا، ولكنه لم يقض على سطوة الحنطور، لأن الموسرين عزفوا عنه تباهيا بالمركب الخاص، وتباعدا عن رجل الشارع، وظل الحنطور وسيلة سهلة للانتقال، مع مزاحمة السيارة له. ولكن بنسبة محدودة لم تطفئ من بريقه! وفي بعض عهوده الزاهرة، في العقود الأولى من القرن العشرين كتب الأسطى حنفي هذه المذكرات، وقد نشرت مطبوعة سنة ١٣٤١ هـ، وأنا أرحب بهذا التاريخ الهجرى الذى اختاره المؤلف دون سواه.

الثورة المصرية

قيام الثورة المصرية بالنسبة لمؤلف الكتاب كان حدثا هاما لموافقته شعوره الوطني الخاص بكراهة الاحتلال من ناحية، ولإضراب عمال الترام، وتخريب القضبان الحديدية التي يسير عليها، فيضطر الجمهور إلى اتخاذ الحنطور إذ هو الوسيلة السهلة للانتقال، يقول المؤلف بعد أن كنا نتطلّع للزبون من بعيد. ونقول تركب يابيه. أصبح التزاحم علينا شديدا، لدرجة أننا نرفض أكثر مما نقبل، ولنا فراسة في الراكب نعرف قدره الماديّ تماما بالتجربة فنسعف الجواد، ونهمل البخيل، وكانت فرصة عرفت بها

كبراء القوم حين انتقل بهم من بيت الأمة منزل الزعيم سعد إلى كلوب محمد على، وذلك لا يمنع من وقوع الطرائف السخيفة إن جاز هذا التعبير فالوجيه فلان يركب قاصدا بيت الأمة، ويقول لى انتظر حتى أنهى الزيارة وأعود لتحملنى ثانية. وتكون النتيجة أن يخرج من الباب الخلفى. ولا يدفع الأجرة. وقد عرفت - هكذا يقول المؤلف - هذا الصنف ففى مرّة قال لى أحدهم انتظرنى هنا، فسارعت إلى الباب الخلفى ووجدته يخرج منه. فأخذت بخناقه، وقلت له : حرام يا بيك!

وأغرب من هذا أن يتجه الأسطى حنفى مع رجل بهى الطلعة، نابه الاسم إلى بيت الزعيم سعد زغلول ليبدى له مشاعر الإخلاص ويذّم معارضيه، ثم ينقله فجأة إلى بيت عدلى باشا، فيكرر الاسطوانة ذاتها ناعيا سعد زغلول ومؤيدا موقف رئيس الأحرار، يفعل ذلك مرات كثيرة فى الأسبوع الواحد، وفى مرة قال لى (هكذا يقول المؤلف) بصوت هادىء بعد زيارة بيت الأمة، هيا إلى عدلى باشا، فأردت أن أتأكد فقلت له عدلى باشا يا بيه! فصرخ فى وجهى: اخفض صوتك يا أبله أتريد أن يسمعك أحد، فيعلم أنّى ذاهب لعدلى باشا وينتقل الخبر لسعد باشا! وقد طال مكوثه فى بيت عدلى، فأرسلت إليه، أنا متعجّل، وأريد الذهاب، ورفعتُ صوتى، فخرج غاضبا، وأعطانى الأجرة، ولولا أنه خشى أن أعلن نفاقه أمام الناس، ما اهتم باسترضائى! وليس وحده صاحب هذا الرياء، فله نظراء.

أمّا جنود الاحتلال، من سفلة الإنجليز، فقد كانوا وباء على الناس جميعا، يقتحمون المتاجر ويأكلون فى المطاعم دون أجر، ويستعبدون أصحاب الحناطير، ومن عصى منهم ضربوه وأحرقوا العربة حينا، وصحبوا الحصان إلى حيث لا يعلم صاحبه عنه شيئا، وليس هناك من يقف أمامهم، فالأمر أمرهم لذلك تحمّل منهم المؤلف ما جعله يلتهب غضبا وغيظا، وأكثر تنقلاتهم المزعجة بالليل، ذهابا إلى الخمارات والحانات وأماكن البغاء والمومسات!.

يقول المؤلف (إذا خطر لك أن تتعرض لأحدهم طالبا حقك أعطاك إياه لكما وضربا، وجعلك تتعلم آداب المطالبة بالطريقة الإنجليزية)، وأذكر أن شاعر البادية الأستاذ الكبير محمد عبد المطلب وصف هؤلاء الأوغاد فى قصيدته الشهيرة عن الحرب العظمى. فقال ما يكمّل الصورة تماما، نظم ذلك بأسلوبه البدوىّ الرصين - مما قد يصعب مغزاه على قارىء اليوم، ولكنّى أنقل طرفا منه حيث قال:



تبصرْ خليلي هل ترى من كتائب
دُلِفنَ بها كالسيل من كل مَوْدِق
سراعا إلى الحانات تحسبهم بها
نعاماً تمشىّ رزْدقا خلف رزدق
يُهولك مرآها إذا اصطخبتْ بهم
مواخير تجلو فاسقات لفُسّقِ
إذا أجلبوا فيها حَسبت ضفادعا
تجاوبنْ إيقاعاً على صوْت نقنَق

أخطار سائق

أشار الأستاذ فكرى أباظة فى المقدمة إلى إعجابه بكرباج المؤلف الذى مزق به ظهور المتهتكين والمتهتكات، وحين أردت أن أشير إلى بعض ما قاله فى هذا النطاق تخوفت أن أنحدر بالقلم إلى بعض ما لا يليق، ولكنّى وجدت جرائد اليوم تنشر من فضائح هؤلاء الذوات فى فنادقهم الرفيعة ما تشيب له الرءوس، حتى كان القتل إحدى النهايات المتوقعة لهذه المساخر الدنيئة، فإذا كان الحاضر أشد هولا من الماضي، وقد عرفه الناس جميعا، فلماذا لا أختار بعض الأمثلة التي تكون موضعا للألم والحسرة، إن لم تكن مجالاً للعظة والاعتبار على أنى سأوجز، فالإسهاب شاق مرير.

هذا رجل يعتبر لدى الرأى العام من الوجهاء بمركزه السياسي، وقلمه الصحفي، وظهوره الدائم فى أرقى المجتمعات ، يصحب المؤلف المضطر إلى مكان معيَن، فيقف أمام المنزل، لتنزل منه سيدة حذرة، فتجلس جواره ويأمر السائق بالذهاب إلى بيت آخر، فتدخل السيدة، ويظل الوجيه المحترم مع السائق مدة قد تطول، حتى تخرج السيدة، فيصحبها القوّاد ثانية إلى منزلها، ويعطى السائق أجرا كبيرا فوق ما اعتاده أما هو (القوّاد الكبير) فقد أخذ الكثير، ونجح فى إحكام اللقاء! .

وهذه سيدة تخرج من المنزل محتشمة، لا يُرى شيء من ملامح وجهها ، وقد غطت جسمها بملاءة سوداء قد حجبت الرأس والقدم معا، فتأمره بالذهاب إلى مكان معيَن، حتى إذا انتقل السائق من الحيّ الذى تسكنه، نظر فوجد السيدة المحتشمة. قد ألقت عباءتها السوداء، ونزعت غطاء الرأس، وأبدت ملبساً شفافاً. يكشف الساقين والصدر وما تحت الركبة. وأخرجت من الحقيبة ما تصلح به وجهها وشعرها وحاجبيها، والسائق مدهوش يسألها ماذا صنعت؟ فتصرخ فى وجهه: مالك أنت! ستأخذ الأجرة مضاعفة، وحين أنزل عليك أن تنتظر حتى أعود، وتمضى الرحلة إلى غايتها فيتلقاها شاب مخنّث، يصحبها إلى الجزيرة فى ظلال الشجر، والعربة من بعيد، ينتظر صاحبها، حتى تعود الخليعة الماجنة، فتعطيه الأجر السخّي وتعود إلى العباءة السوداء، وينظر السائق إلى العربة فلا يجد إلاّ سواداً فى سواد! حتى تصل إلى المنزل بسلامة الله!

وفى بعض المناسبات السياسية حين

تندلع المظاهرات، ويسير الشباب الحر هاتفا بالاستقلال، وتمتلىء العربات بالمتظاهرين الذين يشاركون في الموكب، تأتي عربة المؤلف وبها سيدة يظنها من المتحمسات، لأنها تحمل العلم المصرى، ولكن (الشاطر محمد) كما سماه المؤلف، يقفز إلى العربة فجأة، وهو يقول يحيا الاستقلال التام، ويهمس في أذنها: أين تذهبين فيعرف المكان، وينزل صائحا، يحيا سعد، وهي تقول في لهجة نسويَة يحيا الاستقلال، وتمضى العربة إلى مكانها، ليجد «الشاطر محمد» في الانتظار.

أما السيدات التي يذهبن بهن إلى دور القمار وما بعد القمار فحديث المؤلف عنهم موجع، وقد بسط العذر لنفسه حين قال أنا أكسب عيشى، وليس لى من طريق غير العربة؟ فأنا أشوف كثيرا من هذا القوّاد أوذالك! .

شاويش الأمن

وما كتبه المؤلف عن الشاويش المحترم ذى البدلة الصفراء، والشوارب المفتولة، والعين المتنمرة، يضحك الثكلى، فبعد أن يذكر كيف ركبت العاشقة مع حبيبها، وبعد أن سجل من كلمات الغرام ما لا يذكر في مجلة الهلال، ذهب بهما إلى المحل المختار تحت أشجار حدائق القبة، وترك العربة لهما وجلس غير بعيد فجاء الشاويش صائحا زاعقا يرفع يده على وجهه، ويقول : يا بن المركوب: أين عربتك، فيشير إليها، فينهض سريعا، وقد ضرب الأرض بحذائه ضربات قوية كأنه يقلع حجارة مستعصية من جبل وعر، حتى رأى العاشقين، فصاح الله الله!! وهنا يخرج له العاشق ورقة مالية ذات مائة قرش! فيبتسم ويقول: استتروا تحت الشجر قبل أن يراكم الناس!

ثم يرمق السائق بنظرة ذات مفهوم خاص

ومن المفارقات التي شاهدها المؤلف مع الشاويش نفسه، أنّه صحب ضابط شرطة مع صديقته إلى المكان ذاته بحدائق القبة. وترك العربة لهما ليجلس غير بعيد، وجاء الشاويش زاعقا صائحا، يرفع يده ليبطش بالسائق ويقول له أين العربة يا ابن الكلب؟

فابتسم السائق، وقال له في غير اكتراث: اذهب ياعم، هذه هي: فهرول ضاربا الأرض بقدمه ، ثم اقتحم العربة ورفع الستارة المرخاة على الباب، ونظر فصعق وكاد يهوى، ثم تحامل على نفسه، ووقف يقول له متلجلجا حين رأى ضابط البوليس، والنجمة الصفراء فوق كتفه! أسف يا سعادة البيه ! أسف يا سعادة البيه! ابن الكلب العربجى لم يقل لى شىء عن سعادتك! العفو يا سعادة البيه! ثم أرخى



الستارة، وتقدّم للسائق يقول له، لك يوم، بكره تشوف!!

الكوكايين

من أوجع وأفجع ما جاء فى هذه المذكرات، ماكتبه الحوذى النابغة عن تجار الكوكايين ، وهو ممّا يصوّر مجتمعنا اليوم، كأن التاريخ يعيد نفسه، وسأنقل ما قاله حرفياً، ليكشف هذا النابغة بقوله فى الأمس، ما يختبىء لدينا اليوم من مآسٍ، مآسى الكبار الصّغار، الأغنياء الفقراء، الشرفاء المجرمين!

يقول الأسطى حنفى: ببعض التصرّف!

«لقد رأيت بعينى تجار الكوكايين فى بيوت وعمارات لا يسع الإنسان منا إلا أن يقف أمامها وقفة الاحترام والخشوع لأنه يظن مثلا وبعض الظن إثم أن الغش والخداع لايعيشان تحت هذه الأسقف الفاخرة، فإذا بى أعرف من بوابى هذه البيوت وخدمها، أن أسيادهم يعيشون من تجارة المخدرات وقد قال أحد هؤلاء البوابين عن سيده.

«يلبس نضيف، ياكل نضيف، يركب نضيف، مناخيره في السما، لكن اسمه وسخ، ويده وسخه! تصور معى أيها القارئ مدينة القاهرة، وقد أرخى الليل سدوله، ودقت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، وصدر الأمر إلىّ أن أتوجه إلى شارع قصر النيل، وأقف أمام الأجزخانة المشبوهة، ومعى جماعة منهم موظفون كبار، يحرسهم فتوة وبلطجى، وموظف صغير فى المحكمة شاب مفتول الذراعين كلهم يدقّون على شبّاك الأجزخانة، والبائع يتدلّل ويتباطأ، والجمهور مهوس، وكلّ يصبرُ أخاه، ويصيح أحدهم فى هذا الكرب: هدئوا أخلاقكم كلها ساعة ونشّم!!

ثم فتح البائع الشباك، وأمام الشرطى - وهو أحد الزبائن ولكن بالمجان - استمر التوزيع، ولهذه الأجزخانة نظائر فى أعظم أحياء القاهرة! أين الحكمدار؟ أين الداخلية؟ أين قسم عابدين؟ وبعيد عنا يقف جندى البوليس ويبدأ عمله بعد انتهاء الزفة، ليأخذ الأجر على السكوت!».

هذا كلام الأسطى حنفى، وما يحتاج إلى تعليق، وكأن الحظ قد عاكسه لصراحته فيما ينشر ويذيع، فقد داهمته سيارة حافلة فقتلت الحصان، ومزقت العربة، ورمته جريحا لا يعى، فحمل إلى القصر العينى، وكان على ابراهيم باشا مدير القصر يعرفه من مقالاته، فرعاه حتى خرج مبتور الأصابع، لا يستطيع مزاولة عمله، وإن استطاع فأين العربة والحصان!

لقد صار الحوذى مؤرخا، ولكنه لم يأت بجديد عن عهده، فالناس هم الناس فى كل عهد، وعلى من يغضب أن يستمع قول أبى العلاء.

هذى طباع الناس معروضة
فوافقوا العالم أو فارقوا

■

ماذا حدث للمصريين؟

من عصر «الأفندية» .. إلى عصر «الدكاترة»

بقلم

د. جلال أمين

أرجو من القارىء أن يفتح أى صحيفة مصرية أو مجلة، يومية أو أسبوعية أو شهرية، أو أى قناة تليفزيونية، أو أن يستمع إلى أى إذاعة مصرية، وأن يحصى عدد أصحاب الدكتوراة، سواء من الكتاب أو المشتركين فى الندوات أو المعلقين على الأحداث، أو من الوزراء والمسئولين، فسوف يجد أن عددهم المطلق وكذلك نسبتهم إلى مجموع الكتاب أو المسئولين، أكبر مما يمكن أن يجده فى كثير من بلاد العالم الأخرى، المتقدمة والمتخلفة على السواء .

والظاهرة مهمة وجديرة بالانتباه، لأنها ليست ظاهرة صحية مائة بالمائة، بل إن جوانب سيئة للغاية تكشف عن حقائق غير مبهجة فى المجتمع المصرى



هناك أولا تلك الحقيقة البسيطة وهى أنه ليس كل من كان ضليعا فى العلم قادرا على توصيل علمه للناس.. ووسائل الاعلام، من صحافة وتليفزيون وإذاعة، المفروض أن تخاطب الجمهور الواسع وتتطلب أسلوبا فى المخاطبة يختلف عن المطلوب فى مخاطبة الطالب فى مدرج الجامعة أو قارىء الكتاب المتخصص. ولكن كثيرا جدا من حملة الدكتوراة ممن تتكرر أسماؤهم فى وسائل الاعلام المصرية، مهما كانوا ضليعين فى علمهم، لا يملكون هذه القدرة على إفهام الجماهير، ومن ثم تمتلىء الصحف والندوات المنشورة أو المذاعة بالطلاسم غير المفهومة، سواء تعلق الأمر بأزمة مصر الاقتصادية، أو بآثار العولمة، أو بمشكلات ما بعد الحداثة .. إلخ.

الخداع بالدكتوراه

الأسوأ من هذا أن كثيرا من هؤلاء الكتّاب من حملة الدكتوراة كثيرا ما يبدون وكأنهم، وقد أدركوا هذه الحقيقة البسيطة التى ذكرتها حالا، بدلا من أن ينسحبوا من الساحة بشرف، راحوا يستغلونها لصالحهم على حساب القراء والمستمعين المساكين. فحامل الدكتوراه يستطيع، فى ظل عجز القارىء عن متابعته أو فهم ما يقول، أن يملأ صفحة كاملة من أى جريدة بكلام يبدو عميقا وخطيرا، دون أن يحتوى على فكرة نيّرة واحدة. فهو إما يقول كلاما سبق لغيره قوله عشرات المرات، أو يكرر ما يتضمنه أى كتاب مبتدىء فى أوليات العلم الذى حصل فيه على الدكتوراة، أو يقرر بديهيات معروفة للجميع، خبرها متضمن فى مبتدئها، ولكنه يقول كل ذلك بلغة صعبة، يتعمد أن يكون من المستحيل فهمها على القارىء غير المتخصص، ويملأ مقاله بالمصطلحات التى يفترض بغير حق أن القارىء يعرف معناها، ويترجم المصطلح الأجنبى ترجمة حرفية تزيده إبهاما، مع أنه كان بإمكانه بتصرف بسيط أو إضافة كلمة صغيرة هنا أو هناك أن يجعل الصعب سهلا وأقرب إلى فهم القارىء العربى. والكاتب يفعل كل ذلك عمداً إذ لو لم يفعل ذلك لانفضح أمره، ولاتضح للقارىء ألا شىء هناك فى الحقيقة وراء ما يقول، فالكلام معاد أو معروف للكافة أو غير صحيح من أصله. فى مثل هذه الحالة يكون ذكر لقب الدكتوراه مقترنا باسم الكاتب وسيلة فعّالة لإخفاء ضعف المقال وخوائه، بل قد يكون الوسيلة الوحيدة لجعل نشر المقال ممكنا أصلا، إذا يظن القارىء (بل وربما رئيس التحرير نفسه) أن كلاما يصدر من دكتور كهذا لا يمكن أن يكون خاليا من المضمون أو تافها، بل الأرجح أن يكون الخطأ خطأ القارىء



الذى عجز عن فهم ما يقرأ إما بسبب غبائه الطبيعى أو قلة حصيلته من العلم.

وهناك طرق عديدة أخرى يستخدمها مثل هذا الكاتب للتمويه على القارىء وخداعه. ففضلا عن كثرة استخدام المصطلحات الصعبة وإساءة ترجمتها، لابأس من وضع اللفظ الأجنبى مباشرة كما هو، بحروفه الأجنبية أو المعربّة، ولابأس من الاكثار من ذكر اسماء كتب أجانب لم يسمع عنهم القارىء ولا ينتظر أن يسمع عنهم، أو ذكر اسماء كتب أجنبية صدرت حديثا، أو الاشارة إلى حضور الكاتب لندوة أو مؤتمر ويذكر أن هذه الندوة أو المؤتمر قد ضما صفوة من أكبر كتاب العالم (مما لا بد أن يفهم منه أن كاتب المقال هو أيضا من هذه الصفوة) أو الاكثار من الاشارة إلى بعض الأفكار الحديثة التى شاع ترددها على أسماع الناس (كالحداثة وما بعد الحداثة مثلا) دون أن يقوم الكاتب بشرح ما يقصد بها .. إلخ.

رجل العلم ورجل السياسة

الظاهرة موجودة أيضا بين الوزراء وكبار المسئولين إذ أصبح من النادر أن تجد وزيرا أو رئيسا للوزراء فى مصر من غير حملة الدكتوراة ، وكذلك فيمن يتولون مناصب مهمة فى مختلف الوزارات والهيئات والمؤسسات، بما فى ذلك وزارات كالتموين والأوقاف، ناهيك بالطبع عن وزارات الاقتصاد والتخطيط والمالية وقطاع الأعمال مما لم يعد من المتصور أن يشغلها شخص غير دكتور .. قد يقال: وما العيب فى ذلك ؟ ألا يعنى هذا الارتفاع فى المستوى العلمى ارتفاعا فى مستوى أداء الوزراء والمسئولين؟ ولكن الحقيقة هى غير ذلك للأسف، فى معظم الأحوال. فإذا تحقق بالفعل أداء أفضل فى مثل هذه المناصب بسبب الدكتوراة، فالأرجح أن يكون هذا مصادفة نادرة يصعب أن تتكرر ، بل والأرجح أن يكون نجاح صاحب الدكتوراه فى منصب الوزارة أو رئاسة الوزارة سببه ليس بالضبط أنه رجل علم، بل العكس بالضبط، أى أن يكون رجلا أخطأ الطريق من البداية إذ لم يكن رجل علم فى الأصل بل كان مؤهلا من البداية للقيام بأعمال من نوع مختلف تماما.

ذلك أن من الغنى عن البيان أن منصب الوزير أو رئيس الوزراء منصب سياسى وإدارى يتطلب مواهب وكفاءات لا صلة لها من قريب أو بعيد بما يتطلبه التفوق العلمى. فالنجاح فى السياسة والادارة يتطلب سرعة فى البت والحزم والقدرة على فهم البواعث الحقيقية



لتصرفات الناس واختلاف مصالحهم وأهوائهم، وعلى التعامل معهم وفق هذا الفهم، بينما العالم بطبعه قد يتردد طويلا قبل أن يصل إلى قرار، وقد يرى الجوانب المتضادة فى كل قضية فيزيده هذا ترددا، وهو أنجح فى حل مشكلة منطقية منه فى حل المشاكل الشخصية أو الادارية. وبينما السياسى مغامر ومقامر بطبعه . يفضل العالم قادة المسالمة ويكره الخروج على المألوف فى أمور الحياة اليومية، إذ يعكّر هذا صفو تفكيره ويحرفه عن مسار بحثه. وبينما لا يتورع السياسى عادة عن ممارسة بعض الرذائل الصغيرة أو الكبيرة، كالكذب أو النكوص عن الوعد أو خيانة الصديق، يستنكف العالم عادة ذلك أو لا يجد القدرة على ارتكابه. لذلك كله، وأكثر منه، كثيرا ما يكون شغل صاحب الدكتوراة لمنصب سياسى كبير، إذا كان عالما حقيقيا وليس عالما مزيفا، خسارة للعلم دون أن يكون مكسبا للسياسة .

هذه الظاهرة المتفشية فى مصر، إن كان لها مثيل فى دولة أخرى، فى الغرب أو فى الشرق، فإنى لا أعرفه، بل ولا أعرف لها مثيلا حتى فى الدول العربية الأخرى، ففيما أعرفه من بلاد العالم، من أمريكا إلى اليابان، ومن المكسيك إلى الهند، لا تفتح شهادة الدكتوراة الأبواب لصاحبها بهذه السهولة، وإنما يحتل المناصب السياسية سياسيون، ويكتب فى الصحف والمجلات من أثبت أن له قلما مطلوبا من جمهور القراء، ويظهر فى التليفزيون والإذاعة من يحسن الحديث وينطق كلاما مفهوما. فإذا حدث وأن كان أحد من هؤلاء السياسيين أو الكتّاب يحمل بالفعل شهادة الدكتوراة، لم يكن من المهم ذكر ذلك، بل كان من الأفضل حتى عدم ذكره، خاصة إذا كانت المهمة التى يقوم بها صاحبها، فى السياسة أو الاعلام، لا تفيد كثيرا من حصوله على هذه الشهادة.

لم تكن مصر دائما كذلك

ولكن من المهم أيضا أن نلاحظ أن هذه الظاهرة هى أيضا حديثة نسبيا فى مصر نفسها. فقبل نصف قرن، أى قبل منتصف القرن العشرين، كان من النادر أن تجد فى مصر وزيرا حاملا للدكتوراه، على كثرة الوزراء المتميزين فى ذلك الوقت. فما أعظم ، مثلا وزراء المعارف الذين عرفتهم مصر قبل ١٩٥٠ ممن لم يحصلوا مع الدكتوراة، وفيهم سعد زغلول نفسه، ناهيك عن وزراء الأشغال أو الصحة. وأما فى الثقافة والاعلام فيكفى أن أذكّر القارئ بأسماء روّاد الثقافة المصرية فى العقود الأولى من ذلك القرن وحملة مشاعل الفكر والتجديد حتى منتصف القرن، إذ كانت الغالبية العظمى منهم من غير حملة الدكتوراة. العقاد . توفيق الحكيم والمازنى لم يحصلوا على الدكتوراه، بل



ماذا حدث للمصريين؟

كان من أسباب نجاح توفيق الحكيم فى الأدب فشله فى الحصول على الدكتوراه فى القانون فى باريس رغم محاولته ذلك خضوعا لإلحاح أبيه.. وأحمد أمين لم يحصل إلا على الدكتوراه الفخرية بعد أن نشر أهم أعماله بدون دكتوراه. كان هذا هو حال روّاد الفكر والثقافة فى مصر فى النصف الأول من القرن، وكان هذا، من باب أولى، حال كبار المساهمين فى الكتابة الصحفية وفى الإذاعة . ففى النقد الأدبى كان أكثرهم شهرة وأكبرهم موهبة، باستثناء الدكتور محمد مندور، لا يحملون هذا اللقب ، كأنور المعداوى وسيد قطب وسعيد العريان بالاضافة إلى العقاد والمازنى بالطبع . وفى الكتابة السياسية والاجتماعية لم يكن فكرى أباظة أو محمد التابعى أو مصطفى وعلى أمين من حملة الدكتوراه ، ولا شعر الناس أو شعروا هم بأنهم كانوا فى حاجة إلى حملها.

بل يلاحظ أن من كان من هؤلاء الروّاد فى الفكر والنقد والكتابة السياسية حاصلا على الدكتوراة بالفعل كثيرا ما كان يتجنب ذكر اسمه مقترنا بلقب دكتور، إما زهداً فيها أو اقتناعاً منه أن مقامه لا يتوقف عليها، أو إدراكا منه أن من قبيل الخداع استخدام هذا اللقب إلى جانب اسمه إذا كان يكتب فى موضوع لا علاقة بينه وبين موضوع تخصصه الذى حصل فيه على الدكتوراة، إذ قد يتوهم القارىء فى هذه الحالة أن الكاتب له خبرة خاصة بهذا الموضوع يتميز بها عن غيره، دون أن يكون هذا صحيحا. هكذا نجد أن طه حسين مثلا نادرا ما وضع لقب الدكتور إلى جانب اسمه على ما ينشر من مقالات بل ولا حتى على كتبه. وكذلك الدكتور محمد حسين هيكل، إذ لم يكن للموضوعات التى يكتبان فيها عادة صلة قريبة بموضوع الدكتوراة كان الدكتور زكى مبارك حريصا على استخدام اللقب، بل كان أحيانا يؤكد على حصوله على أكثر من دكتوراه مما جعله يُدعى أحيانا بالدكاترة زكي مبارك. ولكن زكى مبارك كان ، على علوّ قدره وكفاءته حانقاً أشد الحنق على الأساتذة الجامعيين الذين كان يعتبر نفسه أفضل من كثيرين منهم. وكان لاذع الهجاء دائم الثورة والهجوم مما أحفظ هؤلاء عليه فاندفع فى المباهاة بعدد شهادات الدكتوراة التى حصل عليها.

تفسير الظاهرة

كيف نفسر انتشار هذه الظاهرة التى تحمل بعض سمات الوباء؟ أول ما يتبادر إلى الذهن هو بالطبع أن حملة



الدكتوراه عندنا زادوا في الثلاثين أو الأربعين سنة الأخيرة زيادة كبيرة وغير مسبوقة، كنتيجة طبيعية لانتشار التعليم الجامعي من ناحية، وميل جامعاتنا إلى التساهل في منح هذه الدرجة مع مرور الأيام من ناحية أخرى، ومع التوسع في البعثات الحكومية حتى نهاية الستينات، ثم ازدياد عدد المنح المقدمة من مؤسسات أوربية وأمريكية بعد ذلك. ولكن هذا التفسير لا يغني كثيرا . فهو لا ينفع في تفسير الاقبال على تعيين حملة الدكتوراة في مناصب ليسوا مؤهلين لها في الحقيقة، كمناصب الوزارة ورئاسة الوزارة، ولا في تفسير انتشار أصحاب الدكتوراة في وسائل الاعلام للقيام بمهام لا يتمتع معظمهم بكفاءة أو موهبة خاصة في أدائها .

ثورة ١٩٥٢ وأصحاب الدكتوراه

لديّ تفسيران آخران، أقرب إلى الحقيقة في رأيي، أحدهما يتعلق بتولي الوزارة، والآخر يتعلق بوسائل الاعلام.

أما تولي الوزارة فالأمر وثيق الصلة بما أحدثته ثورة ١٩٥٢ من انقطاع في مسيرة الحياة الحزبية في مصر. كان الترشيح للوزارة قبل ١٩٥٢ يتوقف على الحزب الذي يتولى الحكم، فلا يأتي للوزارة إلا من ثبت ولاؤه لهذا الحزب وكان عضوا نشيطا فيه، ولم يكن هذا يتطلب بالطبع الحصول على الدكتوراه.

فلما قامت الثورة استبعدت الأحزاب كلية من الحياة السياسية نشأ فراغ كبير لم يكن من السهل ملؤه. كانت تولية الوزارة وبعض المسئوليات الكبيرة لضباط الجيش هو أسهل الحلول وأقربها إلى الذهن، في ظروف ثورية تحتاج إلى سرعة الحسم والجرأة في اتخاذ القرارات، ولكن هناك وزارات تحتاج إلى أصحاب كفاءات من نوع مختلف لا تتوفر في ضباط الجيش، كالاقتصاد والمالية والتعليم والصحة والعدل والثقافة .. إلخ، ولم يكن من بين أصدقاء قادة الثورة أو معارفهم كثير من هؤلاء .

كان لابد أن ينصرف الذهن إلى أساتذة الجامعات، وكان هذا مبنيا على افتراضين: الأول أن أستاذ الجامعة لابد بحكم ما يحمله من شهادة الدكتوراه أن يكون «صاحب خبرة» أي يمتلك الكفاءة اللازمة لإدارة الوزارة «الفنية» ، والثاني أنه لابد أن يكون من بين أساتذة الجامعة من يؤمن بأهداف الثورة. ولكن ما أكثر ما خيبت الأيام الأمل في كلا الناحيتين. فخبرة أساتذة الجامعة وعلمه قد يصلحان في مدرج الجامعة وليس في الوزارة، وإيمان بعض أساتذة الجامعة بمبادىء الثورة قد يكون أقرب إلى التمثيل منه إلى الحقيقة .

في السبعينات ظهر سبب جديد لزيادة الطلب على حملة الدكتوراه لشغل المناصب السياسية. ذلك أن الروح



الثورية التي سادت في الخمسينات والستينات بدأ يعتريها الضعف والذبول في أعقاب الاعتداء الاسرائيلي في ١٩٦٧، ثم، وعلي الأخص، بعد وفاة جمال عبدالناصر . ولم يعد الولاء لمبادىء الثورة مبررا كافيا لاعتلاء المناصب الكبيرة، بل وربما كان سببا لتضييق فرص اعتلاء هذه المناصب. وهكذا بينما كان من الممكن جدا لرجل بلا دكتوراه أن يمثل منصبا كبيرا في الخمسينات والستينات إذا ثبت ولاؤه لمبادىء الثورة، كما كان هذا ممكنا أيضا في الثلاثينات والأربعينات إذا ثبت ولاء الرجل لحزب من الأحزاب المهمة، لم يعد هذا ولا ذاك طريقين من طرق الصعود السياسي ابتداء من السبعينات . بل تحولت مهمة الوزراء وكبار المسئولين من مهمة «سياسية» إلي مهمة «تكنوقراطية» بحتة، ومن ثم زاد الطلب على أشخاص عديمي اللون من الناحية السياسية ومن حيث طبيعة الولاء والانتماء فإذا كان المطلوب هو رجل ليس له لون سياسي يميّزه عن غيره فقد ينفع لقب الدكتور في إضفاء بعض الجاذبية عليه عندما يعلن على الجماهير نبأ اختياره للمنصب الكبير.

دور الجماهير الفقيرة

إن هذا العامل نفسه (انحسار السياسة وصعود التكنوقراطية) يمكن أن يلقي بعض الضوء أيضا على انتشار حملة الدكتوراه في الصحف والمجلات وسائر وسائل الاعلام. فمادام الانتماء السياسي الواضح لم يعد مطلوبا فلا بأس من استكتاب الدكاترة. ولكن أظن أن هناك عاملا آخر وراء شيوع أصحاب الدكتوراة في وسائل الاعلام، ويتعلق بما طرأ من تغير على الجمهور الذى تخاطبه وسائل الاعلام.

فمن المهم أن نلاحظ الفارق الكبير بين جمهور الصحف والمجلات، بل والإذاعة أيضا، في الثلاثينات والأربعينات، وبين جمهورها في الثمانينات والتسعينات . يجب ألا ننسى كم كانت ضآلة نسبة المتعلمين وخريجي الجامعات منذ خمسين عاما بالمقارنة بنسبتهم اليوم، كما يجب ألا ننسى الفارق بين مستوى التعليم الذى كان يلقاه الناس حينئذ، ومستوى التعليم الآن. كان قراء الصحف والمجلات والمستمعون للأحاديث الإذاعية، منذ خمسين أو ستين عاما، على مستوى ثقافي أرقى بكثير، ويملكون قدرة أكبر بدرجة ملحوظة على التمييز بين الغث والسمين، سواء من حيث أسلوب الكتابة



أو مضمون ما يكتب. جمهور وسائل الاعلام اليوم أضعف بكثير من حيث حاسته النقدية والقدرة على هذا التمييز، ومن ثم فإنه إذا كان معيار النجاح والصعود فى مجال النشر والكتابة، منذ خمسين عاما، هو أساس الجودة والامتياز، فقد أصبح من الممكن جدا اليوم أن يمثل كاتب مكانا ثابتا على مر السنين، فى الصحيفة أو المجلة أو الإذاعة (والآن فى التليفزيون أيضا) دون أن تكون مساهمته على مستوى عالٍ من الجودة والامتياز. إذا كان الأمر كذلك، فإن لقب الدكتوراه، يصبح من الممكن استخدامه كوسيلة للتمويه والخداع، بدرجة لم تكن ممكنة منذ خمسين أو ستين عاما. بل إنه فى مناخ ثقافى وتعليمى من هذا النوع، يصبح من السهل أن يتخدع المسئولون عن الصحيفة أو المجلة أو البرنامج الإذاعى أو التليفزيونى، هم أنفسهم، بأن الكاتب أو المتكلم يحمل لقب الدكتوراه، فيفسحون له المجال دون أن يفطنوا إلى ضعف قدراته سواء على ابتكار فكرة جديدة أو على توصيل أفكاره للناس.

قيمة الدكتوراه وقيمة النقود

عندما شاع إذن أن لقب الدكتور قادر على فتح كثير من الأبواب المغلقة، وأنه بصرف النظر عن قدرات صاحبه الحقيقية، يمكن أن يجلب منافع لا يستهان بها، من حيث المنصب والنفوذ والشهرة، ومن ثم من حيث جلب المكسب المادى أيضا، زادت لهفة الناس على الحصول على اللقب، بل وسمح البعض لأنفسهم بأن يقرنوا أسماءهم باللقب دون أن يكونوا قد حصلوا على الشهادة بالفعل وقد اعتمد هؤلاء على افتراضين كلاهما صحيح : الأول أنه لن يطلب أحد منهم كلما وصفوا أنفسهم بأنهم دكاترة بأن يبرزوا له الشهادة الدالة على حصولهم بالفعل على هذا اللقب. والافتراض الثانى أن تكرار نفس الخبر فى وسائل الاعلام يمكن أن يحوِّل الكذبة إلى حقيقة، ومن ثم فإنه مع تكرار ذكر الاسم مقروناً بلقب دكتور فى صحيفة بعد أخرى وفى ندوة تليفزيونية إثر ندوة يألف الناس الأمر وتكرره الصحف ووسائل الاعلام الأخرى كأنه حقيقة فيصبح حقيقة.

كانت النتيجة الحتمية لزيادة استخدام اللقب على هذا النحو أن انخفضت بالتدريج قيمته، بالضبط مثلما حدث لقيمة النقود. بل كثيرا ما يحدث الآن أن ينادى شخص شخصا آخر لا يعرفه، بقوله «يادكتور..» بدلا من النداء الشائع قبل خمسين عاما «ياأفندى» أو «يابيه..» وربما لا يمضى وقت طويل حتى يفقد اللقب أى ميزة فى أعين الناس ويصبح على الكاتب فى الصحيفة أو المتحدث فى الإذاعة أو التليفزيون أن يبحث له عن طريقة أخرى لخداع الناس. ■



هكذا رأيت

جمال عبد الناصر

البرق الذى أتى وغير ومضى !!

بقلم
محفوظ عبد الرحمن

كانت كفر الشيخ آنذاك مديرية جديدة ، انتقلنا إليها . وكانت حديثة التحول بعد أن كان نشاطها الرئيسى أنها «تفتيش» ملكى بمعنى أنها إقطاعية من إقطاعيات الملك فاروق . وكانت ثورة يوليو قامت منذ شهور . وكان الاجماع على رفض النظام القديم الذى شارك الكل فى نقده حتى بعض أركانه . ولكن لم يكن هناك نفس الاجماع على النظام الجديد الذى اتخذ اسم «الحركة المباركة» ولم يكن قد اتخذ شعار الثورة بعد . وكان الشعار الذى اتخذته مقبولا ، وإن أثار استهزاء من يقتربون من الثقافة والسياسة .





شخصية العدد

وفيما بعد عندما نشأت صداقة بيني وبين المستشرق الأمريكي الدكتور جويل جوردن JOEL GORDON وجدته كتب كتابا بعنوان NASSER'S BIESSED MOVEMENT وأحسست فى العنوان برنة سخرية لم ينكرها فى إحدى جلسات الصفاء ، وربما ما شجعه على الاعتراف بها انه كان قد غير كثيراً من آرائه التى نشرت فى عام ١٩٩٢ وبعد أن عاش فى مصر عاما يلتقى بالمثقفين والفنانين والمؤرخين المصريين .

ولم يكن المشهد الذى احكى لكم عنه مهيباً : كان بعض أعضاء مجلس الثورة وكنا نعرف منهم البكباشي جمال عبدالناصر كما كنا نعرف حتى قبل ٢٣ يوليو القائمقام أنور السادات بتاريخه الوطنى وكان آنذاك يثير اهتمامنا كشباب تحت العشرين بأناقته المتميزة . وكان معظمنا يركز على ثياب القائمقام أكثر من تركيزه على قادة الحركة الجديدة .

● الأخلاق والتراحم كانتا جزءا من تكوين جمال عبدالناصر

ورأيت المشهد بالمصادفة ، أظن أننى كنت خارجاً مع زملائى من المدرسة وكنا آنذاك - أو ربما قبلها أو بعدها - نتندر بأن المسئولين المحليين أتوا بالفلاحين ووضعوهم فى سيارات نقل . لكى يهتفوا وإذ بهم يهتفون بحياة مصطفى باشا النحاس زعيم الأمة . وكان كل منا يؤكد أنه حضر الواقعة بنفسه ويحكى كيف أن المأمور استخدم عصاه لتعديل مسار الهتاف لكن للحقيقة لم أتأكد أن هذه الواقعة حدثت ، وإن كانت من الطرافة بحيث أننا حكيناها جميعا .

ومنعنا كبرياء سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة من أن نقف لنصفق لهؤلاء الضباط وهم يعبرون الطريق على أقدامهم من مكان إلى مكان ودون حرس حقيقى ، وخلال السنوات القليلة التالية رأيت جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر فى إحدى دور سينما وسط القاهرة دون حراسة . وبعد العرض تركا المكان فى سيارة صغيرة يقودها عامر . وفى نفس الفترة تقريبا كدت اصطدم بزكريا محيى الدين وهو يتمشى قريبا من ميدان التحرير وأيضا كان يسير دون حراسة .

وكان هذا المشهد الذى ليس مهيباً هو المشهد الذى رأيت



عبد الحكيم عامر



زكريا محيي الدين

فيه جمال عبدالناصر لأول وآخر مرة .

لكنني بمعان أخرى رأيت جمال عبدالناصر آلاف المرات.

الذين كانوا يهتمون بالسياسة مثلنا رفضوا هؤلاء العسكر الذين أتوا بما أسموه : حركتهم المباركة . وكان خيالنا عن الآتين مختلفا . كان الناس جميعا يتوقعون التغيير وبتعبير أدق كانوا يتوقعون الثورة . لم يكن هناك خلاف على هذا بين كل القوى الوطنية على اختلاف اتجاهاتها ، بل وبين القوى غير الوطنية .

وفيما بعد ـ في الخمسينيات ـ قابلت دزمند ستيوارت وأجريت معه لقاء لإحدى المجلات عن حرب ١٩٥٦ التي انتقدها بشدة رغم جنسيته البريطانية وتحدث في لقائي معه ـ وقرأته له بعد سنوات . عن زيارته للقاهرة في عام ١٩٤٩، وكان قد أتى من بغداد حيث كان يعمل استاذاً في الجامعة ، وأتى لقضاء إجازة الربيع . وفي طريقه إلى فندق سميراميس رأى أقواس النصر ـ هكذا كتب ـ مرفوعة للأبطال البواسل العائدين من معركة الفالوجة . وبالتأكيد لم يكن يعرف ـ آنذاك ـ أن أركان حرب الكتيبة هو جمال عبدالناصر .

وقبل أن يمضي أياماً قال لصديقه الدكتور زكي نجيب محمود كما كتب فيما بعد

ـ إن بلدكم على أبواب ثورة في المستقبل القريب . فمتى تحدث ؟

ورغم أن الدكتور زكي نجيب محمود راوغ ستيوارت بعض الوقت إلا أنه وافقه على أن شيئاً سيحدث واستبعد كل القوى التي طرحها لقيادة التغيير ، وبينها الجيش على أساس أن الجيش هو حليف الملك .

وكنا في قلق أن يقوم الضباط بالتغيير ، وإن كان في الاذهان أحمد عرابي ومحمود سامي البارودي ومحمد عبيد وعزيز المصري . وكان لكل منا زعيم غامض في رأسه يتوهم انه سيقود الثورة الآتية أو التي كانت قد أتت فعلا وأنا أتذكر المشهد الذي لم يكن مهيباً !

تحولات كثيرة

وفيما بعد حدثت تحولات كثيرة أتوقف عند ظاهرتين منها ، الأولى أن « الخلاف » أو « العداء » أحياناً بين قوة وطنية ما وبين ثورة يوليو لم يصل إلى خط النهاية أو



شخصية العدد

التناقض التام . بل كان يبدو أحيانا أنهما يقفان على نفس الأرض ، مثلما حدث بين الشيوعيين والناصريين وحتى مع استشهاد شهدى عطية وهو حدث مأساوى مازال يوجع القلب لم تنفصم عرى الماركسيين مع ثورة يوليو .

أما الظاهرة الثانية فهى تحول عدد كبير من المثقفين بالذات من موقف الانتقاد لثورة يوليو ولجمال عبدالناصر إلى المعسكر الآخر بعد وفاة جمال عبدالناصر فى ١٩٧٠ .

وفي رأيى أن ذلك حدث لأن استكشاف أفكار وآراء جمال عبدالناصر استغرق وقتاً طويلاً امتد من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى الآن ، إذ لم يكن له مثل الماركسيين أو الاشتراكيين أو الاخوان المسلمين أو حتى بعض الليبراليين نظرية واضحة محددة مكتوبة . لم يكن لديه الكتاب الذى يرجع إليه إذا حدثت أزمة ، أو اختلفت الآراء . وكان هذا موضع نقد وصل إلى حد اتهام الناصرية بالتوفيقية. وأوافق على أن عبدالناصر لم يكن يمتلك «كتاب الحكمة » الذى يعود إليه إذا ادلهمت الأمور . لكننى أتساءل : لماذا كان كل ما فعله جمال عبدالناصر خلال ثمانية عشر عاما بل وخلال الفترات التى عرفنا بعضها قبل ٥٢ . لماذا كل هذا يسير فى نسق واحد ، وليس فيه أى تناقض يلفت النظر ؟

● قضية النفاق الاجتماعى شغلت حيزاً كبيراً من فكره

المد العربى الثورى

لقد عاش جمال عبدالناصر أهم الأحداث التى عاشها زعيم عربى : اعلان النظام الجمهورى - تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى - مجانية التعليم - جلاء القوات البريطانية بعد ٧٤ عاما من الاحتلال - العدوان الثلاثى على مصر - المد العربى الثورى - ثورات اليمن والجزائر والعراق وليبيا - الاحساس العام بالكبرياء القومى - الوحدة مع سوريا - الانفصال - تأميم الشركات الكبرى - حركة التحرر العالمى - الوهج الثقافى - بناء السد العالى - هزيمة يونيو - التنحى - إعادة بناء القوات المسلحة.

وبعض هذه الأحداث يتناقض مع الآخر . ومع ذلك كان تفكير وسلوك عبدالناصر يؤكد أن لديه رؤية واضحة محددة . وأظن أنه خرج بهذا عن القاعدة التى توجب على السياسى أن تكون لديه



عزيز المصرى



زكى نجيب محمود

نظرية سياسية مكتوبة قبل أن يدخل الى عالم السياسة . وانه فعلا كانت لديه نظرية سياسية لم تكن مكتوبة لكنها كانت فى وجدانه .

من « النكت » التى خرجت من دائرة عبدالناصر انه كان يعمل معه موظف اسمه فاروق وكان ينتظر مولوداً ، وكان عبدالناصر يهتم بالحياة العائلية لمن حوله، فسأله عن المولود المنتظر ، فأجابه «فاروق» بأنه وصل . وهنأه عبدالناصر وسأله عن اسمه فقال له . جمال . وعندئذ قال له عبدالناصر ضاحكاً . إنك مثل أبيك منافق !.

والنفاق يشغل حيزاً كبيراً من رسائل جمال عبدالناصر التي ستنشر قريباً فى مذكرات سامى شرف « كنت هناك » وقد سمح لى أن أطل إطلالة سريعة على هذه الرسائل فوجدت بين ماوجدت أنه مشغول جداً بقضية النفاق ، ويفسر بها سوء حالته فى الجيش حيث كان الضباط الكبار يتوقعون النفاق من الضباط الأصغر ، ورفض عبدالناصر أن ينافق أحداً . ولذلك تعرض للكثير من المتاعب . وفى الرسائل التى كان يكتبها لأقرب أصدقائه إليه حسن النشار وهى كثيرة ، وتكاد تكون يومية يشكو دائماً من ظاهرة النفاق ويفسر بها سوء الأحوال حوله .

***

والأخلاق العامة جزء من تكوين جمال عبدالناصر ، فلم يستطع أحد أن يقترب من ذمته المالية رغم أنه كان يستطيع أن يملك ما لم يملكه أحد . وميراثه الذى لم يتجاوز ثلاثة آلاف جنيه يثير شفقة الفقراء فى عصره ، بل والفقراء فى زماننا هذا . ومن بين ميراثه – وأعتذر لسامى شرف إذ تعود ذاكرتى مرة ثانية للإطلالة على كتابه ـ عشر حلل . وكانت هذه الحلل هى التى يقابل بها الملوك والأمراء والرؤساء ، وكان يختار ألوانها بحيث لا يميزها أحد ، فيكشف قلة عددها . ولا أنوى هنا أن أقول إن عبدالناصر كان نسيجا وحده في هذا بل كان من نتاج عصر فيه من يحترم التقشف . واذكر وزيراً فى تلك الفترة ناداه شخص في الشارع ، ثم شرح له أنه ميزه من ثيابه ، ويعنى هذا أنه لا يغيرها ، واعتبر الوزير ما قاله صاحبه مديحاً .

وفى كثير من بيوت أصحاب الأسماء اللامعة كانت لا تحوى إلا أبسط الأشياء الضرورية . وكانت الفخامة والوجاهة والثراء مصدر فخر كما يحدث فى أى وقت ، ولكن



كان هناك من لا يخجله أن يفتقد إلى هذا ، بل على العكس يحس أن ذلك يتوافق مع آرائه فى الحياة ، وأنه يدل على نزاهته .

الإيمان بالفقراء

وربما كان أهم سمات « أيديولوجية » عبدالناصر غير المكتوبة إيمانه بالفقراء . وهناك قصص كثيرة غير « رسمية » تشى بوجدانه فى هذا . من بينها ما حدث له من عمال برج العرب الذين لم يعرفوه ، فجلس وتحدث معهم وعلق على ذلك فيما بعد : هؤلاء الذين لم نعرفهم ونحس بهم ونصلح حالهم ونصل إليهم لن نكون قد حققنا هدفنا من الثورة .

وأم جودة كانت سيدة تعمل فى بيت أسرة جمال عبدالناصر ثم اعتزلت العمل وعادت إلى قريتها . وبعد سنوات طويلة فوجئت أن أحد أبناء الأسرة قد صار مشهوراً ، وأنه الآن أصبح رئيساً للجمهورية . فطلبت من أحدهم أن يكتب له رسالة تطلب منه فيها أن يصلح من حالها . وقرأ جمال عبدالناصر الرسالة . وكان يقرأ رسائل كثيرة وبالذات التى تذكر موقفاً شخصياً ، وأمر أن يرسل لها مبلغ شهرى من حسابه الخاص .

● كان عبد الناصر نصير الفقراء لدى السلطة لإيمانه الكامل بالعدالة الاجتماعية

العدالة الاجتماعية

وقد يرى البعض فى هذا عطفا «ملكياً» ، لكن دوافع عبدالناصر كانت مختلفة . ولم يكن يتذكر أم جودة إلا بالكاد ، لكنه قال: إنها امرأة عملت ، وتستحق أن نحترمها فى شيخوختها. ولا شك لدى فى أن هذا يتفجر من إيمانه بالعدالة الاجتماعية .

وأظنه ـ كما أشرت وكما سأشير ـ إلى أنه ابن عصره فى ذلك ، فلقد كانت فكرة العدالة الاجتماعية تشغل الناس بدءا من التفكير الدينى (خالد محمد خالد) إلى الاشتراكية الفابية (سلامة موسى) إلى الاشتراكية الطوباوية (أحمد حسين) إلى الماركسية بتنظيماتها المختلفة . ولذلك لا ندهش لإيمان جمال عبدالناصر بالعدالة الاجتماعية . ولكن الذى ربما ندهش له أن هذا الإيمان ظل مستمرا طول فترة الحكم. وفى ظروف مختلفة كانت زيادة صغيرة فى الاسعار تبدو ضرورية ، ولكن جمال عبدالناصر كان يتصدى لها بقوة ، وكان يشرح لهم آثار هذه الزيادة على أسرة فقيرة

بالورق والقلم ، وكأنه كان محامى الفقراء لدى السلطة .

وقبل البدء فى هذا الحديث الذى لا أستطيع أن أصنفه - كنت دائما أرى التكوين الحقيقى لفكر جمال عبدالناصر كان فى ١٩٤٨ مع عبوره أرض فلسطين ثم حصاره فى الفالوجه إلى عودته .



سامى شرف



مصطفى النحاس

ومازلت أرى أن هذه أكبر فترة أثرت فيه ، وإن كان زعمنا أن هذه أكبر فترة أو ليست أكبر فترة تكون أحياناً من باب الحدس أكبر من الواقع .

ولكن لا ينكر أحد فترة الفالوجة . فها هو شاب فى الثلاثين من عمره يحمل سلاحه ويتجه إلى فلسطين ليوقع الاسرائيليين المغتصبين . ولكنه وهو يعبر الحدود يضطر أن يتوجه عند نقطة حدود فيها قوة بريطانية ، إذ أن بريطانيا كما يعرف الكافة كانوا يحتلون مصر أنذاك ، ولابد أن الضابط الشاب الذكى القلق سأل نفسه : هل نحن قادرون فعلا على تحرير فلسطين إذا كنا نحن أنفسنا لا نملك الحرية .

وأظن أن ما حدث ظل شوكة فى حلقه يحاول أن يستلها ، فلا يمكن أن تبدأ طريق الحرية وهناك من يمتلك أنت نفسك وهناك رأى أن مصر مصران . مصر عبدالناصر وزملاؤه الذين يحاربون ، ومصر التى تدير المعركة من العاصمة لا تعرف ما يحدث ، وأحيانا لا تأبه له .

وبالتأكيد رأى المؤامرات حوله فلقد حوصرت كتيبته فى الفالوجة ، وتعرضت للإبادة ، ليس لأن هؤلاء هزموا هؤلاء ، ولكن لأن هناك كانت مؤامرة يشارك فيها الأعداء والأصدقاء لتدمير هذه القوات . ولو أننا قرأنا كتاب هيكل « العروش والجيوش » بشئ من التمعن لوجدنا الخطوط موجودة تحت سطور المؤامرة .

ولم يكن الأمر ليخفى عن الضابط الذكى القلق .

ومازالت هذه الفترة غامضة وتستحق البحث ، فلقد كانت هناك صداقات غير مفصلة بأهل المنطقة التى أزالتها إسرائيل من الخريطة ، وأزالت فيها اسم الفالوجة !

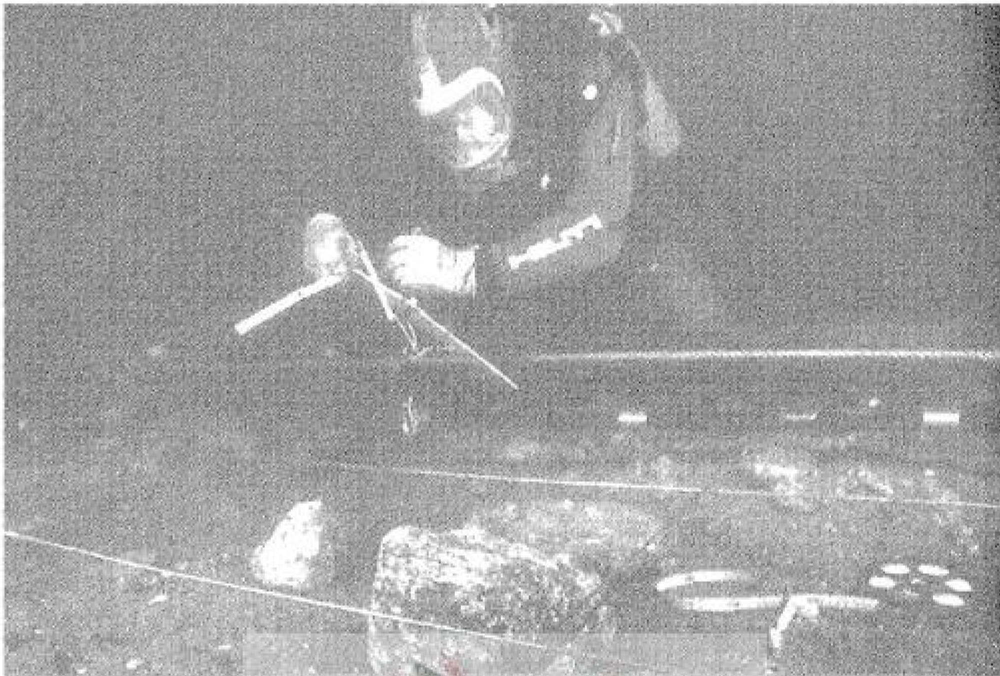
هكذا رأيت عبدالناصر . وهذا لا يعنى بالطبع اننى رأيته رأى العين ، وأيضا لا يعنى أننى رأيته كما يجب .. إنما هى محاولة . وسيظل عبدالناصر شاغلنا دهوراً طويلة ، فلقد كان البرق الذى أتى وغير ومضى . ■



الهلال
ربيع ثاني ١٤٢٢هـ - يوليه ٢٠٠١م

اكتشاف هيراكليون أهم مدن العصر البطلمي

تحقيق
امانى عبد الحميد



شهد القرن العشرون اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون دون أن يمسها بشر.. وها هو القرن الحادي والعشرون يشهد اكتشافا جديداً.. موقع مدينة «هيراكليون» تحت شواطئ أبي قير، أهم مدن العصر البطلمي والتي تعود تسميتها إلى اسم الإله هرقل المعبود الإغريقي.. والميناء المتحكم في مدخل فرع النيل المندثر الذي كان يطلق عليه «الكانوبي» علاوة على اكتشاف لوحة «نقراطيس» وبعض التماثيل الضخمة التي توضح شكل الحياة داخل المدينة وموقع معبد هيراكليون الشهير.

ظلت مدينة الإسكندرية على مدى تاريخها مرآة العالم وبلورته التي تعكس تراث شعوبه.. كانت ولا تزال الأسطورة التي تثير طموحات وفضول علماء الآثار وآمال المؤرخين وتداعب خيال الأدباء والشعراء وتلهمهم بجمالها وتستحوذ على عقولهم.. «عاصمة الذكريات» كما قال عنها لورانس دوريل في «رباعيات الإسكندرية».. وكانت على الدوام متحفاً مفتوحاً وصورة مصغرة للعالم القديم.. قبلة المغامرين والرحالة والتجار.. ونقطة امتزاج الغرب والشرق.. قال عنها الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو «الإسكندرية هي مسقط رأس الحضارة الغربية والدائرة المحددة للغة العالم المعاصر».....

اكتشاف آثار العصر البطلمي

وتأتينا الأنباء عن اكتشاف أهم آثار العصر البطلمي بخليج أبي قير والتي تشير إلى موقع مدينة

هيراكليون الغارقة

«هيراكليون» على بعد ٦ر٥ كيلو متر من ساحل الخليج.. بعد أن ظلت طوال ٢٣٠٠ عام غارقة في مياه البحر مجهولة الموقع.. لتتوج مجهودات ظلت مستمرة في البحث والتنقيب عن آثار الإسكندرية الغارقة تحت الماء قرابة عشر سنوات متواصلة..

وتداعب من جديد أحلام الكثير من العلماء ومحبى الإسكندرية وهواة البحث عن الآثار في العالم.

بعد تسع سنوات من المسح الأثرى لمياة خليج «أبى قير» تمكنت البعثة المصرية - الفرنسية المشتركة من اكتشاف موقعين أثريين تحت سطح البحر.. الموقع الأول على بعد ٢ كيلو متر من شاطئ «أبى قير» وهو موقع مدينة «مينوتس» التى كانت مخصصة لعبادة الإله «سيرابيس» والإلهة «ايزيس» والتى وجد فيها آثار للأسرتين السادسة والعشرين والثلاثين فى وقت سابق. الموقع الثانى هو موقع مدينة «هيراكليون» نسبة للإله الإغريقى «هرقل» والتى تبعد ٤ كيلو مترات عن موقع «مينوتس».

آلاف من القطع الأثرية المكتشفة

وقد تمكن فريق العمل الذى يضم ١٢ غواصا أثريا فرنسيا وعشرة غواصين أثريين مصريين في تحديد مواقع الآلاف من القطع الأثرية ما بين لوحات وتماثيل وعملات من البرونز يرجع أغلبها إلى العصر البطلمى، وعملتين من الذهب وقطع من الحلى الذهبية وأدوات المعيشة والفخار والتمائم، علاوة على اكتشاف حطام عشر سفن قديمة غارقة..

الأمر الذى أذهل العاملين ويبشر بكشوف مستقبلية غنية.

اشتمل فريق العمل عدداً من القطع الأثرية الموجودة داخل مدينة «هيراكليون» الغارقة، أهمها «لوحة نقراطيس» من الجرانيت الأسود ويبلغ ارتفاعها «١٩٥سم» وهى من أندر ما عثر عليه حتى الآن، وهى نسخة طبق الأصل من «لوحة نقراطيس» الشهيرة والتى عثر عليها بمنطقة «كوم جعيف» شمال الدلتا عام ١٨٩٩ وموجودة بالمتحف المصرى حاليا، وهو الموقع الذى كان يحمل اسم مدينة «نقراطيس» قديما وكان مقراً للتجار الإغريق خلال العصر الفرعونى، واللوحة عبارة عن نقوش أول قرارات الملك نقتانبو الأول «٣٧٨ - ٣٦٢ ق.م» وتحدد نسبة واحد إلى عشرة من الضرائب المفروضة على تجار الإغريق وأنشطتهم، والتى تؤول إلى خزانة - معبد الإلهة «نيت» وأن توضع اللوحة عند مدخل الميناء عند مدخل بحر الإغريق عند مدينة «تونيس» - الميناء الإجبارى لدخول السفن الأجنبية إلى مصر خلال العصر البطلمى. وكان هيرودوت قد ذكر عندما زار مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد أن ميناء مدينة «هيراكليون» تمر به السفن التى تحمل البضائع غير المصرية وتدفع رسوماً للعبور أما السفن الأجنبية فعليها التوقف فى الميناء قبل أن تبحر صوب مدينة «نقراطيس» حيث وجد اللوحة الأولى.

العثور على تماثيل عملاقة

ومن الاكتشافات الجديدة العثور

لوحة نقراتيس أو لوحة الجمارك
المغطاة بالنقوش الهيروغليفية
الدقيقة لحظة انتشالها



هيراكليون الغارقة

على ثلاثة تماثيل ضخمة يصل ارتفاعها إلى خمسة أمتار.. وتشير الدلائل إلى أن اكتشافها يبين موقع معبد هيراكليون الشهير، فالتماثيل من الجرانيت الوردى.. اثنان يمثلان أحد الملوك وإحدى الملكات والثالث يعد من أندر ما عثر عليه حيث يمثل المعبود جعبى «جابى» إله النيل والفيضان، وإلى جوارهم اكتشف ناووس ضخم من حجر الجرانيت الوردى عليه نقوش تمثل الإله «آمون محب» صورة المعبود «آمون» فى مدينة «هيراكليون» وآمون أهم المعبودات خلال العصر البطلمى فهو يعطى للفرعون وضعا قانونيا لبقاء ملكه «على أرض مصر» حيث كان الإله الشرعى للملك والملك ابنا له.. فاتبع الإغريق نهج الفراعنة القدماء فشبهوا «آمون» بـ«زيوس» وابنه «خونسو» بـ«هرقل» لإعطاء الملك الطبيعة الشرعية للبقاء فى الملك..

ومن الأساطير التى رواها هيرودوت عن مدينة «هيراكليون» أنها كانوا يطلقون عليها اسم مدينة «الخطايا»، وكانت وجهة الزوار فى جميع أنحاء العالم القديم خاصة شرق البحر المتوسط الذين يعبدون الإلهة «إيزيس».

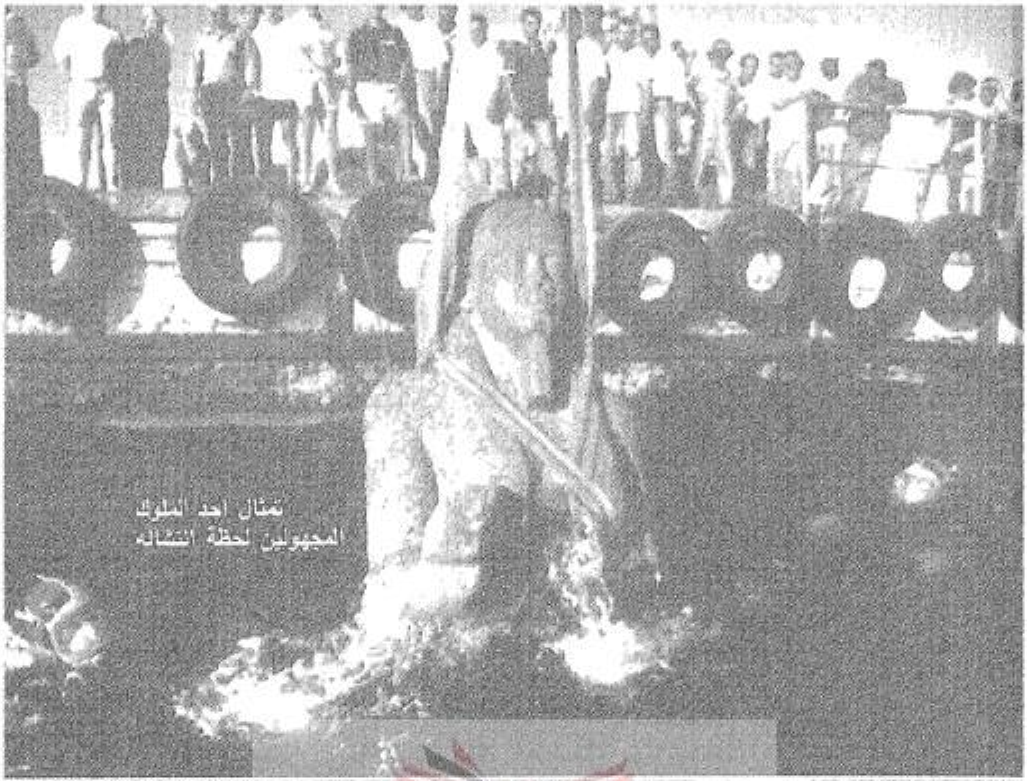
وأن ملك أسبارطة «مينلوس» قد نزل إلى مينائها برفقه زوجته «هيلين» ملكة طروادة.. ولكن «باريس» ابن برايم ملك طروادة قام باختطافها مما أشعل فتيل حروب طروادة الشهيرة خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد وموضوع إلياذة هومير.. والتى تقول أسطورتها أن «كانوبيس» قائد أسطول ملك اسبارطة «مينلوس» أسس المدينة لدى عودته من حرب طروادة وتحوله إلى إله..

أسرار تحت المياه

ولاتزال مياه الإسكندرية تحتفظ بالعديد من أسرارها فقد ذكر استرابون فى كتابه الشهير «الجغرافيا» أن نحو ٣٥ مدينة غارقة تحت مياه البحر من الإسكندرية إلى السلوم.. لذا فمن المنتظر أن تقوم وزارة الثقافة والمجلس الأعلى للآثار بإجراء مسح شامل للشواطئ المصرية من رفح حتى السلوم وشواطئ البحر الأحمر بأحدث الوسائل التكنولوجية أملاً فى اكتشاف المزيد من الآثار الغارقة، ولعمل خريطة شاملة للآثار.

كما سيتم تحديد الآثار التى يتوجب انتشالها والأخرى التى يجب أن تبقى تحت الماء حفاظا عليها كما يرى المتخصصون الأثريون وإقامة متحف غارق تحت سطح الماء...

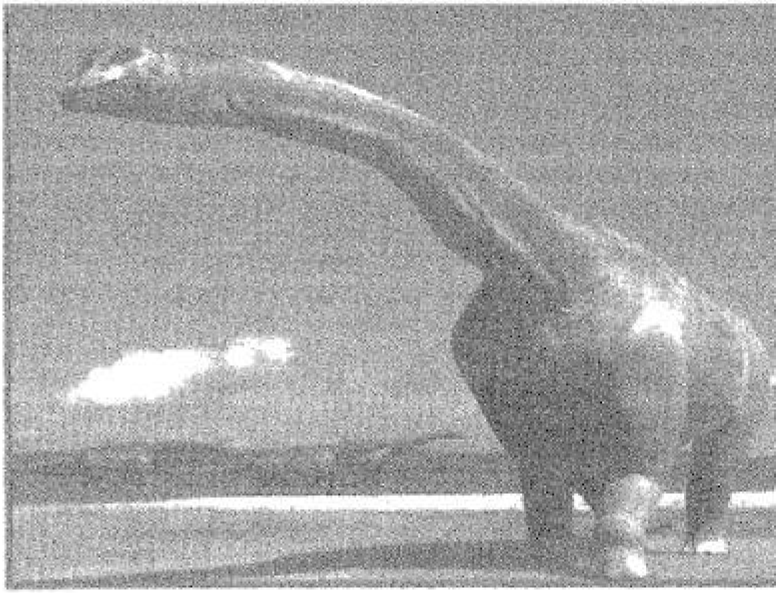
وبرغم الاكتشافات ظل سر اختفاء مدينتى مينوتس وهيراكليون وآثارهما لغزاً يحير العلماء.. هل كان بفعل زلزال مدمر أدى إلى غرقهما تحت الماء.. أم بسبب انهيار أرضى أو زحف أمواج المد البحرى عليهما.. كلها حقائق غير مؤكدة.. وأيا كان القدر الذى أطاح بالمدينتين فإنه نفس القدر الذى أطاح بالحى الملكى فى الاسكندرية.. الحى الذى ضم قصر كليوباترة وشهد أروع قصة غرام وقعت فى التاريخ بين مارك انطونيو وكليوباترة ملكة مصر. ■



تمثال احد الملوك
المجهولين لحظة انتشاله

وزير الثقافة يتأمل تمثال ايزيس بعد انتشاله من المياه





عن العلم والإعلام ودينصور الواحة البحرية

بقلم
د.رشدى سعيد

الهلال
ربيع الآخر ١٤٢٢هـ - يوليو ٢٠٠١م

شهد مبدأ شهر يونيه من هذا العام حملة دعائية هائلة شاركت فيها الكثير من وسائل الإعلام العالمية لإبراز كشف تم فى صحراء الواحة البحرية بأرض مصر لبقايا ديناصور ضخم الجثة عاش فيها منذ ٩٤ مليون سنة، وجاء في الأخبار أن هذا الحيوان القديم كان من أضخم الديناصورات جثة فقد بلغ طوله بين ٢٧ و٣٠ مترا ووزنه بين ٦٠ إلى ٧٠ طنا وأنه كان يعيش على النبات الذي كان كثيفا فى هذه المنطقة التى كانت تحد شاطىء بحر قديم كان يغطيها فى هذا الزمن البعيد .

وقد أثار نشر هذا الكشف فى صدر نشرات الأخبار العالمية وفى الصفحات الأولى من كبريات الصحف العالمية الاهتمام والتساؤلات بشأن أهميته ومغزاه والظروف المحيطة به فقد بدا للكثيرين صعوبة تصديق أن يكون هذا الكشف الظاهر علي سطح الأرض قد فات على المئات من المشتغلين بعلوم الأرض الذين جابوا صحراواتها وعرفوها خلال المائة عام الأخيرة . وقد زادت التساؤلات بسبب حجم الحملة الدعائية الكبيرة التى صاحبت الكشف الذى بدا مماثلا للكثير من الكشوف الأخرى التي تحدث كل يوم وتمر على الناس مرور الكرام .ولم يغير نشر نتائج هذا البحث فى مجلة Science أشهر الجرائد العلمية من هذه التساؤلات ذلك لأنه على الرغم من أن هذا النشر قد اعطى للكشف احتراما وطابع القبول العلمى إلا أن الكثيرين قد نازعتهم الشكوك فى أن يكون النشر حتى فى هذه المجلة الشهيرة والمعروفة جزءا من الحملة الدعائية المصاحبة .

والكشف كما أعلن عنه صحيح وموثق فهو يتناول عظام ديناصور آخر استخرجت بعض عظامه من طبقة من الصخور الحاملة للعظام والمعروفة للمشتغلين بعلوم الأرض فى مصر كانت قد استخرجت منها ومنذ سنوات طويلة عظام ديناصور آخر وحيوانات كثيرة أخرى ، وهذه الطبقة الغنية بالعظام توجد بأدنى جبل الدست بصحراء الواحة البحرية، وقد كشف عنها وتم استخراج الكثير من بقايا الحيوانات القديمة منها منذ أكثر من مائة عام بواسطة العالم الألمانى «شترومر فون ريشنباخ» من جامعة ميونيخ، وكان هذا العالم الألمانى نشطا فى البحث عن بقايا الحفريات الفقارية القديمة بصحارى مصر التى جابها منذ مبدأ القرن العشرين وحتى نشوب الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ والتى وجدها فى مناطق مختلفة من صحارى مصر حملها معه إلى ميونيخ حيث عكف على دراستها حتى وفاته فى منتصف ثلاثينيات القرن العشرين . وقد نشر «شترومر» نتائج أبحاثه عن طبقة عظام البحرية فى مجلد ضخم صدر فى سنة ١٩١٤، وفى هذا المؤلف الضخم نشر «شترومر» وصفا كاملا لصخور جبل

الدست الذى استخرج من طبقته السفلى عظام أول ديناصور اكتشف فى مصر أسـمـاه Spinosaurus aegyptiacus وعندما جئت لأكتب كتابى جيولوجية مـصـر فى سنة ١٩٦٢ رأيت أن وصف «شترومر» لتتابع صخور هذا الجبل من الكمال والأهمية بحيث أنى قررت أن اتخذها نموذجا لصخور العصر الذى ترسبت فيه لكل شمال مصر، كما أنى قررت أن أبرز كشف الديناصور وقمت بتسمية الطبقة السفلى من هذا التتابع والتى استخرجت منها عظامه بطبقة الديناصور .

الديناصور آكل اللحوم

ومن الحيوانات الأخرى التى وصفها «شترومر» من هذه الطبقة أسماك وبرمائيات وثعابين وتماسيح، وسلاحف وغير ذلك من الحيوان وكذا العديد من النباتات القديمة . ولم يكن الديناصور الذى اكتشفه «شترومر» صغيرا فقد كان ضخما وصل طوله الى مابين ٢٠ و٢٥ مترا ووزنه الى مابين ٤٥ و٥٠ طنا - كما أنه كان يختلف عن النوع الجديد المكتشف فى أنه كان أكلا للحوم، وقد بين «شترومر» فى بحثه المنشور فى سنة ١٩١٤ أن هذه المجموعة الفريدة من الحيوانات التى اكتشف بقايا عظامها فى هذه الطبقة كانت تعيش بجوار شاطىء بحر قديم غنى بنباتات المناطق الحارة . وقدر «شترومر» أن هذه المجموعة من الأحياء تنتمى إلى العصر السينومانى من الحقب الكرتياوى وهو العمر الصحيح الذى لازال مقبولا حتى اليوم بين المشتغلين بعلوم الأرض .. ومن الجدير بالذكر أن مجموعة الحفريات التى جمعها «شترومر» وحملها معه إلى متحف ميونيخ قد فقدت عندما تم تدمير هذا المتحف فى إحدى الغارات الجوية للحلفاء فى سنة ١٩٤٤ خلال الحرب العالمية الثانية .

ويضع العرض السابق الكشف الجديد فى وضعه الصحيح ويعطى لبعثة جامعة بنسلفانيا التى قامت به ما يحقها من تقدير لما أضافته إلى قائمة الحفريات المعروفة من منطقة طبقة عظام الواحة البحرية . ولكن هذا العرض الذى بينته على الحقائق التى أعلنت عن هذا الكشف لايشرح دوافع الحملة الدعائية الكبيرة التى صاحبت هذا الكشف والتى يمكن أن يتسقطها المرء بالنظر الى قائمة مؤلفى المقال العلمى الذى نشر عن هذا الكشف فى مجلة Science

والمكتوب بقلم ثمانية من المشتغلين بالعلم ، الأسماء الخمسة الأولى منهم من طلبة الدراسات العليا بجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة والذين يبدو أنهم كونوا عصب البعثة التي قامت بدراسة طبقة الديناصور بالواحة البحرية، والمؤلف الأول من بين هؤلاء هو «جوشوا سميث» الذي استضافته شاشات التليفزيون والذي قام بالإعلان عن الكشف والذي يبدو أنه المسئول عن ايجاد التمويل للبعثة، والمؤلف السادس للمقال هو الأستاذ «روبرت جيجنجال» الأستاذ بالجامعة نفسها وهو من هواة الجيولوجيا المصرية منذ أن كتب رسالته لدرجة الدكتوراه التي حصل عليها من جامعة «بيل» عن جيولوجية منطقة النوبة منذ أكثر من أربعين عاما مضت ، وهو دائم التردد على مصر والكتابة عن جيولوجيتها في موضوعات يتراوح وزنها بين الخفيف والمتوسط، أما المؤلف الثامن والأخير للمقال فهو يسرى عطية أخصائي الحفريات بالمتحف الجيولوجي المصرى والذي يبدو أنه لم يستشر بشأن هذا المقال الذي أقحم اسمه عليه ، كما يظهر ذلك في إعلانه عن هذا الكشف في القاهرة وتسجيل احتجاجه على الإعلان الذي تم في الخارج عنه وعلى نشر نتائجه دون إذن مسبق من هيئة المساحة الجيولوجية المصرية الراعية للبعثة كما نصت الاتفاقية التي أبرمتها البعثة مع هذه الهيئة.

إعلان بلا ترتيب

ويبدو لي أن البعثة لم يكن أمامها من خيار غير الإعلان عن هذا الكشف بالطريقة التي تم ترتيبها لها حتى وإن كسر هذا الإعلان اتفاقها مع هيئة المساحة الجيولوجية المصرية ، ذلك لأن البعثة كانت قد ارتبطت مع من مولوها والذي عرف الآن أنهم من الشركات الأمريكية العاملة في حقل إنتاج الأفلام والتسلية على اعطاء حق الكشف والإعلان عنه وإخراج فيلم عن نتائجه تحت عنوان «الديناصورات المفقودة في صحراء مصر» لها ، وقد أعلنت شركة كوزموس الممول الأكبر للبعثة عن أنها ستقوم بتوزيع الفيلم بعد عرضه الأول على قناة A&E التليفزيونية الشهيرة في سنة ٢٠٠٢ - وتملك ستوديوهات كوزموس السيدة «آن دروبان» أرملة «كارل ساجان» عالم الفلك الذي نال شهرة كبيرة في حياته بسبب مؤلفاته في تبسيط العلوم . ولهذه السيدة وزن كبير

في ميدان الإعلام الذى تم الوصول الى مختلف وسائله فى سهولة للقيام بالحملة الدعائية الكبيرة عن الكشف والإعلان عن الفيلم الذى سيتم إخراجه عنه - وفى ظنى أن هذه الترتيبات لم تكن معروفة لهيئة المساحة الجيولوجية والتى لابد أنها ستنظر بعناية أكبر فى كل اتفاق مقبل مع البعثات الأجنبية التى تتوافد على مصر للبحث عن آثارها أو حفرياتها . ومن الأمور التى لم تتضح حتى الآن مكان المستقر النهائى للعظام والحفريات التى استخرجتها البعثة والتى ظهرت على شاشات التليفزيون فى معامل الولايات المتحدة ولايعرف بالضبط إن كانت هذه العظام والحفريات قد خرجت من مصر على سبيل الإعارة أم أنها ستبقى بها على الدوام، وفى مصر قانون يحرم خروج أى من هذه الحفريات إلا بموافقة هيئة المساحة الجيولوجية .

والعبرة التى يمكن أن يخرج بها المرء من قصة ديناصور الواحة البحرية هى أن هذه القصة هى فى الحقيقة قصة البحث العلمى الحديث بعد أن أدخل فى نظام اقتصاديات السوق وأجبر المشتغلين به على البحث عن مصادر لتمويل أبحاثهم من أى مكان يمكن أن يمدهم به - وهذا العالم الجديد يختلف اختلافا كليا عن العالم الذى عاصره باحث علمى مثل «شترومر فون ريشنباخ» الذى لم يحظ كشفه العظيم عن حفريات البحرية القديمة منذ قرن مضى بأى إعلان على الرغم من أنه كان كشفا رائدا وأكثر أهمية وأجل شأنا من الكشف الجديد كما أنه حدث فى صحارى كان الوصول إليها صعبا والعيش فيها وعرا . كان العلم وحتى سبعينيات القرن العشرين ينأى عن الإعلان وكان المشتغلون بالعلم لايسعون إليه فقد كانت بحوثهم ممولة من الحكومات أو المؤسسات شبه الحكومية أو الأوقاف الخاصة التى أوقفت لتأصيل العلم وعلى أساس استحقاقها وليس على أساس امكانات تسويتها أو قدرتها على التسلية . كان الإعلان فى ذلك الوقت ممجوجا يتفاداه المشتغلون بالعلم ويترفعون عنه ولايسعون إليه فقد دلت تجربتهم على أن مثل هذا السعى دائما يؤدى إلى علم ردىء - فما أبعد الليلة عن البارحة ! . ■

أقوال معاصرة

● «أحيانا أعتقد أن السياسة المعاصرة أصبحت مؤامرة ضد قدرة الإنسان على الفهم».

«رئيس وزراء بريطانيا تونى بلير»



د. مصطفى سويف

● «تعلمت أن آخر محطة يمكنني الوصول إليها في تعاملي مع الآخرين هي أنني لست وصيا على أحد»..

د.مصطفى سويف

● «التجربة الشعرية الحقيقية لابد من صياغة لغوية توازيها».

الشاعر اللبناني بول شاؤول

● «علينا ألا نهدم المستقبل من أجل الابقاء على الحاضر»

د.كمال درويش

وزير الاقتصاد التركى



فيصل الحسيني

● «الزعيم هو الذى يقول لشعبه ما يجب أن يسمعه لا ما يجب أن يسمعه»..

المناضل الفلسطيني الراحل

فيصل الحسيني

● «الوطن إنسان يحب أرض أجداده، أما القومي فإنسان يحتقر أراضى أجداد الآخرين».

الرئيس الألماني يوهانس راو



بهاء طاهر

● «لا يمكن أن نتجاهل حقيقة أن الملايين من سكان العالم يعيشون على أقل من دولار يوميا، لا يمكن الانتظار بأننا لا نراهم».

الرئيس المكسيكي ڤينستي فوكس

● «خلل أن يهتم المجتمع بقدمه، لا بعقله»..

الأديب بهاء طاهر

● «دون اقامة أنظمة تحترم حقوق الإنسان العربى وتقدسها لا يمكن للامة العربية أن تعانق النهضة مجدداً»

الكاتب التونسي خالد شوكات

رسالة روما

الحوار المصرى الايطالى خطوة نحو عالم متوسطى افضل

بقلم

د. محمود على مكى

مع مفتتح الألفية الثالثة الذى نعيشه فى هذه السنة تشهد الإنسانية أبرز ظاهرة للتفاعل بين الشعوب، وهى الحوار الذى أصبح العالم كله على وعى متنام بضرورته، حتى إن هيئة الأمم المتحدة قد جعلته شعاراً لهذه السنة (٢٠٠١). والحوار المقصود يشمل كل نواحى الحياة: السياسية والاقتصادية والثقافية. فحل المشكلات السياسية منذ انتهاء الحرب الباردة لم يعد رهيناً بالقوة العسكرية التى تبين فشلها فى إنهاء النزاعات بين الشعوب، فقد ثبت أنه ليس هناك من طريق لإقرار السلام الذى نسعى إليه إلا بالتفاوض. وفى عالم الاقتصاد نجد العالم يتجه الآن إلى التكتلات التى تضم مجموعات من الشعوب تربط بينها مصالح مشتركة لمواجهة مايهددها من خطر السيطرة التى تحاول فرضها الدول الغنية أو الشركات المتعددة الجنسيات على البلاد الفقيرة. ولكن كان من الضرورى أن يتم الحوار أولاً بين الفقراء لكى يقيموا جبهة تستطيع بعد ذلك أن تواجه - أيضاً بالحوار - مجموعة البلاد الغنية، والمواجهة لاتعنى بالضرورة الصراع، بل يمكن عن طريق التفاهم الحفاظ على مصالح كل من الفريقين، ولا يتم ذلك إلا بتعرف المشكلات الناجمة عن الفقر والغنى. ويخطىء من يظن أن الفقر وحده هو المتسبب فى الأزمات، فالغنى أيضاً يعانى من أمثالها، وإن كانت من نوع آخر.



د. محمود علي مكي يلقي بحثه في مؤتمر الاكاديمية المصرية بروما

وليس هناك شك في أن الحوار الحضاري أو الثقافي بمعناه الواسع هو الذي يمكن أن يمهد لنجاح ما أشرنا إليه من حوارات سياسية واقتصادية، فعن طريقه الذي يستند إلى الإيمان بالتعددية واحترام الرأي الآخر وحقه في الاختلاف والحفاظ على هويته يمكن أن نصل إلى مجتمع إنساني يسوده التفاهم ويظلله السلام.

على أن الحوار الحضاري ينبغي أن يتم على مراحل ، تبدأ بالحضارات المتجاورة التي ربطت بينها علاقات تاريخية ، ثم تتسع دائرة الحوار حتى تشمل عالمنا الذي أصبح بفضل التقدم العلمي والتكنولوجي أكثر ترابطاً وتبادلاً للتأثير والتأثر مما كان عليه في أي زمان مضى.

البحر المتوسط ، جامع الحضارات

ولعل البلاد المطلة على شواطيء البحر المتوسط هي أوضح مثل لذلك التفاعل الحضاري العميق الذي بدأ منذ فجر التاريخ، وهي مقيمة حضارات تعاقبت وأسلم بعضها الزمام لبعض ، فتأسس منها صرح شاركت كل حضارة في مهمة بنائه. كانت البداية في مصر القديمة التي جاورتها وتفاعلت معها حضارات الشرق القديمة، وعنها أخذ اليونانيون الذين شاركهم المصريون أيضاً في إثراء ثقافتهم، قبل أن يسلموا القيادة للرومان. واتسعت دولة هؤلاء فشملت إبان قوتهم حوض البحر المتوسط كله، ثم ورثت حضارتهم دولة الإسلام التي تجاوزت حدود هذا البحر إلى مايجاورها شرقاً حتى الهند

وأواسط آسيا . واستوعب العرب في ظل الإسلام كل ماسبقهم من ثقافات الفرس والهند إلى جانب التراث الإغريقي والروماني . وتحول البحر المتوسط ما بين القرن الثامن والثاني عشر إلى بحيرة عربية . وعلى أساس ما أخذته أوربا عن المسلمين أقامت بناء نهضتها الحديثة منذ القرن الرابع عشر وخلال العصور التالية حينما امتدت إلى العالم الأمريكي الجديد . وكان لإيطاليا وشبه جزيرة إيبريا الدور الأكبر في استيعاب الثقافة العربية الأولى عن طريق الوجود العربي الإسلامي في صقلية وجنوب إيطاليا، والثانية عن طريق وراثتها للحضارة الأندلسية التي استمرت على أرضها على مدى نحو عشرة قرون، ثم لحقت بهاتين البيئتين فرنسا التي استفادت من جارتيها الأوروبيتين.

ومن هنا تعددت الحوارات الثقافية خلال السنوات الأخيرة بين هذه البلاد المتوسطة. ففي إسبانيا تم عدد كبير من الملتقيات فيما سمي بحوار الأديان الذي يجري كل سنتين في ألكالا دي إينارس على مقربة من مدريد. والحوار الثقافي الثلاثي الذي تعقد دوراته منذ الثمانينيات في طليطلة، والحوار الإسلامي المسيحي الذي عقد سنة ١٩٩٩ في لقنت، والحوار المتوسطي العام في برشلونة. وقد كان لهذه الملتقيات آثارها الإيجابية في مزيد من تفهم الحضارة الإسلامية والاعتزاز بتراثها الأندلسي من قبل الجماهير الإسبانية ، إذ لم يقتصر ذلك على أقلية من رجال الفكر والثقافة، كما أعانت على مزيد من تعريف الجمهور العربي بمنجزات الثقافة والأدب المكتوب بالإسبانية لا في اسبانيا وحدها، بل كذلك بما أبدعه المفكرون والكتاب في عالم أمريكا اللاتينية.

وقد تجاوز الحوار الحضاري عالم البحر المتوسط إلى بلاد أخرى مجاورة في القارة الأسيوية، ومن أبرزها إيران التي كانت مهداً لحضارة امتدت من تاريخها القديم إلى انتمائها لعالم الإسلام. وكان من ثمرات هذا التواصل مؤتمر الحوار الرباعي بين مصر وإيران واليونان وإيطاليا الذي عقد بمبادرة من الحكومة الإيرانية في ٤ و٥ ديسمبر ١٩٩٩ ، وكان قد سبقه لقاء تمهيدي تم في مدينة دلفي اليونانية في ٢٦و٢٧ ابريل . وفي هذين اللقاءين طرحت موضوعات تشكل جوانب من مساهمات هذه البلاد في بناء حضارة عالمنا الحديث .

إيطاليا ومصر : حوار حضاري متصل

لسنا في حاجة إلى بيان الصلات التاريخية بين مصر وإيطاليا في العصور القديمة، وإنما تكفينا الإشارة إلى أن مصر كانت خلال حقبة من تاريخها جزءاً من الإمبراطورية الرومانية، ومع ذلك فإن تأثيرها

الحضارى كان قوياً دائماً، تجلى فى العقيدة والفن، وهما جوهر الحضارة، وحينما فتح العرب مصر فى أوائل القرن السابع الميلادى تحولت إلى قاعدة للامتداد الإسلامى نحو الغرب، فمنها توجهت الحملات التى لم تلبث بعد أقل من قرن أن ضمت إلى عالم الإسلام كل شمال أفريقيا والأندلس، وفى أوائل القرن التاسع استطاع بنو الأغلب أمراء إفريقية (تونس) أن يمدوا سلطانهم إلى جزيرة صقلية وإلى المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة الإيطالية المعروفة بقلورية Calabria . وأدى ذلك وما صحبه من هجرات الأندلسيين إلى تعرب هذه المناطق وازدهار الثقافة العربية فيها على مدى ثلاثة قرون. وعند قيام الدولة الفاطمية التى خلفت إمارة الأغالبة أصبحت صقلية وما والاها من جنوبى إيطاليا ولاية تابعة للفاطميين فى المغرب ثم فى مصر. على أن هذه التبعية لم تكن مجرد خضوع سياسى بقدر ماكانت تفاعلاً حضارياً بما يعنيه ذلك من تبادل المؤثرات. فالمعز لدين الله حينما شرع فى فتح مصر قادماً من تونس وكّل مهمة الفتح لأكفأ قواده جوهر الصقلى، ولم يكن جوهر مجرد قائد عسكرى، ولربما كان أيضاً رجل دولة على جانب كبير من القدرة السياسية والاهتمام بشئون العمران، فهو الذى بنىَ القاهرة سنة ٩٦٩ واتخذها عاصمة للخلافة بدلاً من الفسطاط، وهو الذى أنشأ الجامع الأزهر الذى تحول إلى مركز من أكبر مراكز الإشعاع الثقافى والفكرى الإسلامى، واستمر منذ ذلك التاريخ يؤدى رسالته العلمية حتى اليوم.

أما صقلية فقد أصبحت هى وما يجاورها من الولايات الإيطالية تابعة لمصر: يعين ولاتها من قبل الخليفة الفاطمى. وأعقب ذلك تبادل التيارات الفكرية والأدبية بين الجانبين. ولم تنقطع هذه الصلات حتى بعد استيلاء الملوك النورمنديين على صقلية، إذ رأى هؤلاء الملوك أنفسهم يحكمون شعباً يدين أكثره بالإسلام، ويتخذ من الثقافة العربية غذاءً روحياً له. فتشبعوا هم أنفسهم بالثقافة العربية ، وأدى بهم ذلك إلى بسط جو من التسامح تعايش فيه المسلمون والمسيحيون فى وئام. وفى ظل هذا الجو شهدت صقلية - شأنها فى ذلك كشأن الأندلس - حركة نشيطة لترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية، مما أصبح عماداً للنهضة القادمة التى حمل لواءها الإيطاليون. ومن هنا لم يكن من الغريب أن من أول ماعنى الإيطاليون بنشره بعد أن عرفت الطباعة كان عدداً من الكتب العربية ، منها كتاب «نزهة المشتاق» للإدريسى الذى يعد أعظم الجغرافيين فى عالم العصور الوسطى. وجدير بالذكر أن الإدريسى ألف هذا الكتاب فى بلاط الملك النورمندى رجاء (روجيرو Ruggiero) الثانى الذى استدعاه إلى بلاطه ، وقدم له كل مايعينه على إنجاز عمله الكبير.

رسالة روما

ولم تنقطع الصلات التجارية طوال القرون التالية بين مصر الأيوبية والمملوكية والجمهوريات الإيطالية التى نشأت فى البندقية وجنوة ونابلى حتى الفتح العثمانى فى أوائل القرن السادس عشر.

فإذا انتقلنا إلى مطلع نهضتنا المصرية فى أيام محمد على رأينا أن أول البعثات التى وجهها عاهل مصر الكبير إلى أوربا كانت إلى إيطاليا. ومن هنا كان قدوم كثير من الإيطاليين إلى مصر حتى أصبحت لهم جالية من أكبر الجاليات الأوربية فى بلادنا. ومن مظاهر هذه المعايشة أن من أكبر شعراء إيطاليا الذين أثروا فى مسيرة الشعر الأوربى الحديث اثنين من أبناء تلك الجالية، وقد ولد كلاهما فى الإسكندرية وقضيا فيها صباهما وشبابهما: أولهما فيليبو مارينيتى Filipo T. Marinetti (١٨٧٦ - ١٩٤٤) الذى نادى بمذهب جديد فى الشعر سماه «المستقبلية» (Futurismo)، وكان وسطاً بين الرمزية والسيريالية. والثانى هو جوسيبى أونجاريتى Giuseppe Ungaretti (١٨٨٨ - ١٩٧٠)، وكان شاعراً ومترجماً وأستاذاً للأدب الإيطالى، وكان يتابع فى إبداعه الشعراء الفرنسيين: أبو لينير ومالارميه وفاليرى.

وكلا الشاعرين الإيطاليين من أكثر الشعراء ثورة على المواصفات والتقاليد.

مؤتمر الطبيعة والعلوم والمجتمع فى عالم البحر المتوسط:

خلال السنوات الأخيرة تعددت الملتقيات التى تجمع بين بلاد الجماعة الأوربية والعالم العربى. وكان بعضها يتخذ طابعاً جماعياً يضم دول المجموعتين، وبعضها ثنائى بين بلدين من كل منهما. فمن النوع الأول الندوة الدولية التى نظمتها اللجنة الإيطالية الوطنية لليونسكو بعنوان «الطبيعة والعلوم والمجتمع فى بلاد البحر المتوسط بين القرنين التاسع والرابع عشر الميلاديين. وقد عقد فى مدينة كوسنزا Cosenza فى كالابريا جنوب إيطاليا فى يومى ٢٦و٢٧ ابريل ١٩٩٩. وشارك فيه متخصصون فى تاريخ العلوم من المغرب وتونس ومصر.

تكريم كارليا سارنيللى

للاستشراق الإيطالى تاريخ طويل بدأ منذ ازدهرت الدراسات العربية فى صقلية وفى سائر أنحاء إيطاليا فى ظل حكم النورمنديين بين القرن الحادى عشر والثالث عشر الميلاديين. وفى أوائل القرن العشرين استعانت الجامعة المصرية القديمة منذ إنشائها بعدد من كبار المستشرقين الإيطاليين نذكر منهم الأميركايتانى وسانتللانا وكارلو نالينو الذى وصفه الأستاذ محمود شاكر بأنه كان فصيح التعبير بالعربية التى كان يلقى بها محاضراته. وناهيك بهذه من شهادة من جانب مثل هذا الشيخ الجليل.



د. أيمن فؤاد سيد وكليليا سارنيللي ود. محمود مكي في حفل تكريم كليليا سارنيللي - نابلي ٢٧ مارس ٢٠٠١

من ثمرات هذا الغرس الطيب كليليا سارنيللي تشركوا Clelia Sarnelli Cercua ، تلك الباحثة التي عاشت صباها وشبابها، وأتقنت العربية الفصيحة والدارجة المصرية حتى أصبحت تتحدث بها كأهلها .وكان والدها طبيباً مشهوراً تولى على مدى سنوات طويلة إدارة المستشفى الإيطالى بالقاهرة . وكان إلى جانب مكانته في ممارسة مهنته قد استهوته كتب الطب العربي، فألف في دراسة بعضها وتحقيقها العديد من الأبحاث . أما ابنته كليليا فقد أعدت رسالتها للماجستير في كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٥٧، وكانت في موضوع «مجاهد العامري» وابنه «إقبال الدولة» وهما من ملوك الطوائف في الأندلس، وكانت مملكتهما في مدينة دانية قد امتدت إلى جزر البليار وجزيرة سردانية. وتوالت بعد ذلك جهود هذه المستشرقة في خدمة الدراسات العربية حتى أصبحت من أعلام معهد الدراسات الشرقية في مدينة نابلي.

وبمناسبة بلوغها سن التقاعد قام هذا المعهد بين ٢٥ و٢٧ مارس الماضى بإقامة احتفال دولى كبير تعبيراً عن تكريمها وتقديراً لعطائها العلمي. وشارك في هذا الاحتفال إلى جوار زملائها وتلاميذها بعض عارفي فضلها من العرب ، أذكر منهم الباحث المغربي بوتشيش ومن مصر الدكتور أيمن فؤاد سيد الذى قدم بحثاً حول التراث العربي المخطوط، وكاتب هذه السطور الذى دار بحثه حول بيت بنى أمية في المشرق والأندلس، بين دمشق وقرطبة. وشارك في المؤتمر عدد كبير من الباحثين الإيطاليين الذين تناولوا بالتحليل والدراسة جهود المستشرقة الجليلة.

مؤتمر الأكاديمية المصرية بروما

وكان آخر الملتقيات المصرية

رسالة روما

الإيطالية على الصعيد الثقافي هو مؤتمر «حوار الأدب العربي مع الثقافة الإيطالية» الذى انعقد فى روما فى يومى ١٧ و١٨ مايو الماضى بمبادرة من وزارة الثقافة المصرية فى رحاب الأكاديمية المصرية فى العاصمة الإيطالية.

الأكاديمية المصرية من أقدم المؤسسات الثقافية وأعرقها تاريخاً، وهى تشغل قصراً بالغ الروعة فى ضاحية فيللا بورجيزى الجميلة التى يحتشد فيها كثير من المعاهد الأجنبية، ولا سيما المهتمة بالفن فى مختلف تجلياته.

غير بعيد عن الأكاديمية ينتصب تمثال رائع لأمير شعرائنا أحمد شوقى، ولعله التمثال الوحيد الذى يقف شاهداً فى أوروبا على إبداع الكلمة الشعرية العربية . أما الأكاديمية المصرية فقد كان الهدف الأساسى من إقامتها هو رعاية الفنانين التشكيليين الموفدين إلى إيطاليا ، هذا البلد الذى كان على مدى تاريخه تربة خصبة لجميع ألوان الفن . وقد كان من توفيق وزارة الثقافة ومدير الأكاديمية الحالى الدكتور فاروق الجبالى مد نشاطها حتى تتسع لسائر فروع الثقافة.

ومن هنا كان تنظيم هذا المؤتمر الأخير تحت الشعار المذكور الذى يتحدث عن الثقافة والأدب . وكان افتتاحه يوم ١٧ مايو بكلمة من الدكتور فاروق الجبالى، وأعقبتها كلمة السفير المصرى الأستاذ نهاد عبداللطيف تحدث فيها عن العلاقات الوثيقة التى تربط مصر بإيطاليا على مدى التاريخ ، ولست أملك هنا إلا توجيه التحية لسفيرنا فى روما الذى يتحدث الإيطالية بطلاقة أكسبته إعجاب الحاضرين مما يدل على تقدير الأوساط الإيطالية له، فما أكثر ما توثق إجادة اللغة الروابط الإنسانية بين السفير ومن يتعامل معهم فى البلد الذى يمثل دولته فيه، ويعينه ذلك على رعاية وخدمة أفضل لمواطنيه.

وتحدث الدكتور أحمد عتمان أستاذ اليونانية واللاتينية فى جامعة القاهرة ومقرر المؤتمر عن أهداف الملتقى واستشراف آفاق المستقبل فى العلاقات الثقافية الإيطالية المصرية.

وتوالت بعد ذلك الأبحاث على مدى يومى المؤتمر . أما من الجانب المصرى فقد تعددت أبحاث أعضائه بقدر تنوع تخصصات أعضائه:

قدم الدكتور أحمد عتمان عرضاً لتبادل الثقافات بين الغرب وأوروبا عبر حلقتى الاتصال الرئيسيتين : الأندلس وصقلية.

والدكتور أحمد فؤاد باشا عميد كلية العلوم بجامعة القاهرة عن ترجمات المؤلفات العربية العلمية إلى اللاتينية، منوهاً بأكثر هذه المؤلفات فضلاً فى تطوير العلوم والارتقاء بها خلال عصر النهضة وما تلاه من عصور.

والمخرج المسرحى الأستاذ سعد أردش الأستاذ بأكاديمية الفنون عن حركة الترجمة بين المسرح الإيطالى والمصرى.

والدكتور حسن فرغل مدير الأكاديمية الأسبق وممثل وزارة التعليم العالى عن الأدب الإيطالى ومدى التعريف به ونشره بين جمهور المثقفين المصريين.

والدكتور محمود مكى عن ظاهرة طريفة، هى وفود شاعر إسكندرى هو ابن قلاقس الذى عاصر أواخر العصر الفاطمى ورحلته التى وفد فيها على صقلية وهى تحت حكم النورمنديين، فمدح كبراءها المسلمين وملكها النورمندى غليلم الثانى ورجال دولته، وشعره الذى لا يزال حتى اليوم منقوشاً على قصر الملك فى مدينة بلرم (باليرمو) عاصمة الجزيرة.

وأما الجانب الإيطالى فقد شاركت منه كليليا سارنيللى التى كان بحثها عن ترجمات روايات نجيب محفوظ إلى الإيطالية، ومما يذكر أنها هى نفسها قد كانت من أول المساهمين فى ترجمة بعض روايات أديبنا الكبير والإشراف على ترجمة أعمال أخرى.

وتحدثت فرانشسكا كوراو عن حكايات جحا بطل الأدب الشعبى المصرى وانعكاسات هذه الحكايات على الأدب الإيطالى فى جزيرة صقلية. ولهذه الباحثة كتاب جمعت فيه منتخبات الشعراء العرب الصقليين وترجمتها إلى الإيطالية.

وإيزابيلا كاميرا التى قدمت دراسة مسحية عامة عن الأدب الحديث فى مصر ومدى التعريف به فى إيطاليا.

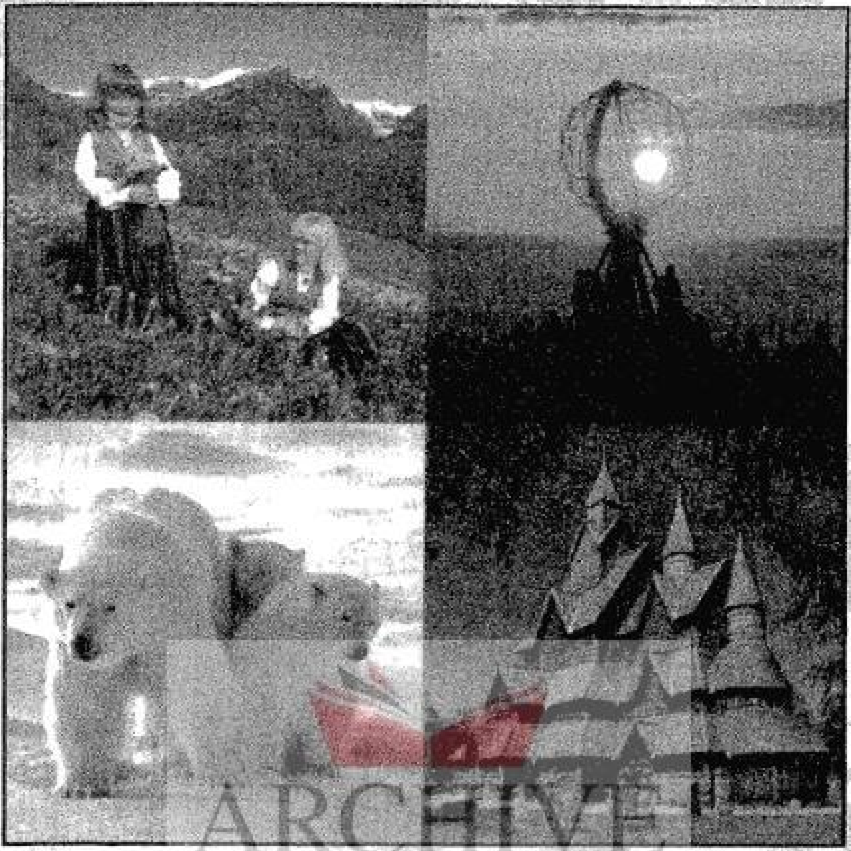
ودانيلا أمالدى عن الأصول العربية للأدب الإيطالى القديم فى العصور الوسطى وعصر النهضة.

وكانت كل جلسة تختتم بحوار طويل ممتع بين الجمهور والمحاضرين، وكان من بين من شاركوا فى الحوار العالم الكبير جوفانى أومان الذى يبدو فى حديثه بالعربية كما لو كان مصرياً خالصاً بحكم قضائه شطراً كبيراً من حياته فى مصر منذ طفولته.

وهكذا غطى المؤتمر آفاق اللقاء بين ثقافتى مصر وإيطاليا وأدبهما منذ أقدم العصور حتى اليوم.

وانتهى المؤتمر بتوصيات اتفق عليها الجانبان يدعوان فيها إلى مزيد من توثيق العلاقات الأدبية والعلمية والفنية بين البلدين، وذلك عن طريق تبادل الأساتذة والطلبة وتشجيع الترجمة بين اللغتين، وإلى أن تكفل الجهات الثقافية والأكاديمية فى البلدين استمرار هذه الملتقيات بشكل دورى كل سنتين على أن يعقد المؤتمر مرة فى مصر ومرة فى إيطاليا، وأن يعتبر المشتركون فى المؤتمر بمثابة جماعة تأسيسية يمكن بعد ذلك أن تتسع لتضم أعضاء آخرين.

وبهذه التوصيات اختتم المؤتمر الذى نرجو أن يكون فاتحة لتعاون ثقافى أوسع بين بلدين كانا مهداً لحضارتين من أعرق حضارات البشرية. ■



١٠٢
الهلال

رسالة النرويج

وقائع رحلة إلى نهاية العالم

بقلم
مصطفى درويش

ما كان يمكن أن يرد على البال أن أكون فى صحبة أعز الناس إلى قلبى ، الشقيقة الوحيدة هيام ، والابن الوحيد هشام ، وزوجته إيڤا ، والقطار السريع يطوى بنا الأرض طيا بين نجاد ووهاد ألمانيا حتى وصل بنا إلى مرفأ بريمر، حيث كنا على موعد مع سفينة ضخمة فخمة ، أبحرت بنا بعد بضع ساعات إلى مملكة النرويج لا جنوبا ، كالمعتاد ، حيث اوسلو العاصمة ، وإنما شمالا ، وتحديدا أقصى شمال المملكة ، حيث يوجد منحدر صخرى شاهق ، يعرف براس الشمال .

وقد عرف بذلك الاسم لأنه أقرب نقطة من يابسة أوروبا إلى القطب الشمالى .

وهذا يعنى أنه أقرب إليه حتى من بلاد شتاؤها قاس ، قارس البرودة ، مثل روسيا وفنلندا .

بل وحتى أقرب إليه من ولاية الاسكا فى أمريكا الشماليه .

واستطرد هنا قليلا لأقول إن مساحة تلك الولاية تعادل خمس مساحة الولايات المتحدة .

ورغم ذلك ، فبسبب مناخها الشديد البرودة ، على مدار العام ، لا يزيد سكانها على نصف مليون نسمة .

ومن سخرية الأقدار ، أنه حتى الربع الثالث من القرن التاسع عشر بقيت «الاسكا» ملكا خالصا لروسيا القيصرية ، إلى أن انتقلت ملكيتها إلى الولايات المتحدة فى أثناء عام ١٩٦٧ ، بموجب صفقة لم تكلف العم سام سوى سبعة ملايين وازدادت مائتا ألف دولار .

وأعود ، بعد هذا الاستطراد الشارح إلى السفينة ، لأقول إنها حتى تصل إلى غايتها شمالا ، وبالتحديد مرفأ «هونينجسفاج» ، قريبا من «بحر بيرنس» ، حيث غرقت خلال العام الأخير من القرن العشرين ، الغواصة الروسية «كورسك» ، دون أن ينجو أحد من بحارتها البواسل .

كان عليها ، حتى يتحقق لها ذلك ، أن تقطع حوالى ألف وخمسمائة كيلو متر ، عابرة بذلك الحد الفاصل بين بحر الشمال جنوبا ، وبحر النرويج شمالا ، ومن بعده المدار القطبى .

وبفضل ذلك العبور ، تتجاوز السفينة جزيرة ايسلاندا (أرض الجليد) شمال شرقى اسكتلندا ، تتجاوزها بمئات الكيلومترات .

مرارة الظنين

وأول ما استرعى انتباهى ، وأنا على وشك الصعود إلى ظهر السفينة أن اسمها «ماكسيم جوركى» ، إذن هى روسية ، بل

وسوفييتية ، وقت أن كان الاتحاد السوفييتي قلعة صامدة ، أو هكذا ذهب بنا الظن إلى حين .

وإلا فبماذا تفسر تلك التسمية الغريبة بالنسبة لسفينة جل ركابها من الألمان .

فجوركى ، وتعنى فى اللغة الروسية «المر» واحد من الكتاب الثوريين الذين مهدوا بأقلامهم لثورة أكتوبر (١٩١٧) ، وأشادوا بها وبانجازاتها .

وقد ظل على ولائه لتلك الثورة ، حتى جاءه الموت فى منتصف عقد الثلاثينات (١٩٣٦) .

وتعد روايته «الأم» واحدة من أمهات الأدب الثورى .

وفى أثناء الحكم السوفييتي جرت ترجمتها إلى لغة السينما أكثر من مرة، أولاها فى فيلم صامت أخرجه «بودوفكين» تحت اسم «الأم ١٩٠٥» ، وذلك فى أثناء الفترة الذهبية من تاريخ السينما السوفييتية (١٩٢٦) ، وفى فترة سرعان ما وأدتها دكتاتورية ستالين ، وما صاحبها من عنف ثورى ، وعبادة مقيتة للفرد ، جنحا بأجهزة دولة العمال والفلاحين إلى اقتراف جرائم بشعة ، يشيب من هولها الولدان .

سفن لها تاريخ

هذا ، ولم تمر سوى سويعات على انطلاق السفينة من المرفأ الألمانى إلى بحر الشمال ، حتى تبين لى وأنا بين أدوارها أتنزه فى الردهات والقاعات ، أنها من السفن القليلة التى لها تاريخ ، فهى صناعة ألمانية متينة

وفى البداية كان اسمها «هامبورج»، وكان يستقلها أصحاب الأعمال وأثرياء الألمان فى رحلاتهم إلى ألمانيا ذهابا وإيابا .

غير أنه مع حلول السفر جوا محل السفر بحرا ، أفلست الشركة المالكة لها .

ولأمر ما ، انتقلت ملكيتها إلى إحدى شركات القطاع العام السائد فى الاتحاد السوفييتي ، حيث جرى تغيير اسمها إلى «ماكسيم جوركى» .

ولقد تصادف ، وعقد الثمانينات ، على وشك الرحيل أن عقد على سطحها لقاء قمة مالطة بين الرئيس الأمريكى الأسبق جورج بوش ، وجورباتشوف آخر رئيس للاتحاد السوفييتي .

ويعد تاريخيا آخر لقاء قمة بين رئيسى الدولتين العظميين ، ذلك أنه بعد انفضاضه بقليل ، اختفى الاتحاد السوفييتي من الوجود ، دون اطلاق رصاصة واحدة .

انتصار العولمة

وبعد حين من ذلك الاختفاء ، انتقل حق استغلال السفينة تجاريا ، وإدارتها إلى شركة سياحة ألمانية .

ومع هذا التغيير ، إذا بها تمخر عباب البحار ، وعلى ساريتها يرفرف علم ليبيريا ، وعلى سطحها يعمل طاقم بحارة وعمال ، معظم افراده من اوكرانيا وعندى انه ليس أدل على العولمة وانتصارها ، ولو الى



الشمس لا تغرب في رأس الشمال

حين ، من ذلك المصير .

ومثلما كان الهدف الرئيسي من رحلتنا ، نحن الأربعة ، في ربوع اسكتلندا ، هو الوصول إلى جزيرة «اصطفا» الصغيرة ، حيث كهف فنجال، ذلك الكهف الذي حرص الموسيقار الألماني «فيلكس مندلسون» على زيارته ، قبل مائة وثمانية وستين عاما ، ثم التعبير عن انفعاله به بافتتاحيته رائعة ، تعد ، بحق ، من درر الموسيقى العالمية .

هدف الرحلة

كان الهدف الرئيسي من رحلتنا إلى النرويج هو الوصول إلى رأس الشمال ، والوقوف فوق المنحدر الصخري الشاهق ، حيث نشاهد ، ونحن في منتصف الليل ، الشمس ساطعة ، لا تزال .

وإلى عهد قريب كان الوصول إلى رأس الشمال أمرا صعب المنال .

ولكن الأيام التي استغرقتها الرحلة إليه بالسفينة ، وهي ثلاثة لا تزيد ، مرت مريحة ، ممتعة ، لم أبال أثناءها بالدنيا أتنتهي غدا ، أم لا تنتهي أبدا .

ولا غرابة في هذا الشعور ، فقد تخللتها ، ونحن في منتصف الطريق ، زيارة عابرة لوادي فلام ، حيث مر بنا قطار مزركش ، وسط مروج وجبال ، ثلوجها قد ساحت ، ولم تكد .

وشلالات تهدر بمياه عذبة كست الأرض بساطا من سندس أخضر .

وشمس ترسل خيوطا من دفء ونور ، لا تلبث أن تستحيل إلى نسيج من نضرة ذات ألوان .

وعلى كل ، فما أن وصلت بنا السفينة إلى بر السلام في مرفأ هوننيسفاج ، حتى أسرعنا بمغادرتها ، إلى حيث توجد حافلات أنيقة ، سارت بنا في طريق مستو ، دون مطبات ، وسط جبال جرداء سوداء ، مزدانة ، ببقع ثلجية ، ناصعة البياض .

الواحة

وبعد أقل من ساعة ، تخللتها زيارة لمكان ناء ، يعيش فيه نفر قليل من السكان الأصليين ، وصلت بنا الحافلات إلى مبنى حديث، توافرت فيه كل وسائل الراحة والإمتاع ، بما في ذلك قاعتا مسرح وسينما ، حيث شاهدنا فيلما تسجيليا قصيرا ، أو بمعنى أصح ستة أفلام عن الفصول الأربعة في رأس الشمال ، جرى عرضها متناغمة على نحو مذهل ، وفي وقت واحد على شاشة عريضة ، بواسطة ستة أجهزة فيديو وطبعا كان أحب تلك الفصول إلى نفسي ، الربيع القصير العمر بنغمة الجميل ، وانتظام ذلك النغم الحياة جميعا ، في بحر ، أو أرض ، أو سماء .

وكانت المفاجأة الكبرى ، عند الخروج من دفء المبنى إلى سطح المنحدر ، على ارتفاع ثلاثمائة وسبعة أمتار ، إلى حيث يوجد نصب ، على شكل كرة أرضية ، يرمز بها إلى رأس الشمال .

جهنم البيضاء

لقد كان ، والحق يقال ، خروجا إلى فراغ قارس البرد ، ليس في وسع





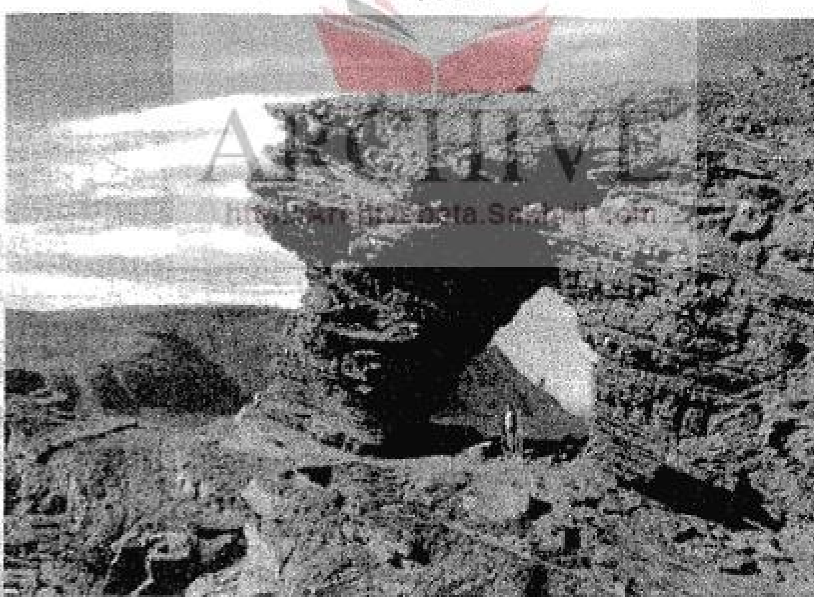
شمس منتصف الليل

خليج فيورد الساحر





شلالات بالاتفات



صخرة كيركيورس

الإنسان احتماله ولو لبضع دقائق بل قل ولو لبضع ثوان .

ومع ذلك ، فبرد المكان ، لم يحل بين أكثرنا وبين الذهاب إلى نهاية العالم ، إلى حيث النصب ، والتقاط صور ثابتة ومتحركة له ، ولشمس منتصف الليل ، تلك الشمس التى لاتشاهد ساطعة والنهار لايزال ، إلا بدءا من الرابع عشر من مايو وحتى الثلاثين من يوليو .

الشروق والغروب

ففى هذه الفترة القصيرة من السنة لا يعقب الليل والنهار ، كما هو الحال عندنا ، بل يستمر النهار طوال ساعات اليوم ، لأن الشمس لا تغرب أبدا ورغم أننى ، وأنا صبى ، كنت طالبا محبا لمادة الجغرافيا ، إلا أن الفكرة القائلة بأن الشمس ، وهى تتأرجح شمالا وجنوبا ، على كرتنا الأرضية الضئيلة القليلة ، تمكث فى بعض أجزائها القريبة من القطبين الشمالى والجنوبى، ساطعة شهورا ، لا تختفى خلالها من السماء أبدا ، تلك الفكرة لم يكن فى وسعى أن استسيغها ، وآية ذلك ترديدى دوما ، لما جرى فى مجلس الإمام أبو حنيفة من حوار بينه وبين رجل مهيب دار على النحو الآتى :

أما من سؤال أو حكمة تتعلمها منك

قال الرجل

متى يفطر الصائم

فقال الامام متماسكا ، فى انتظار المفاجآت

إذا غربت الشمس

وإذا بالرجل يقول:

وإذا لم تغرب الشمس

قال الامام:

إذا لم تغرب الشمس يمد أبو حنيفة رجله ومدها فى وجه الشيخ المجهول

وأيا ما كان الأمر فى هذا ، فبعد أن رأيت الشمس لا تغيب رأى العين ، غادرت السفينة المرفأ ، عائدة بنا جنوبا إلى أماكن فى ربوع النرويج أكثر دفئا، متنقلة بنا بين مدن ملونة كقوس قزح ، وجبال تناطح السحاب ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، وخلجان اسمها «فيوردات» بالنرويجية ، تخلب بجلال مشاهدها الطبيعية العقول قبل الأبصار .

وكلما أبحرت بنا جنوبا نحو برجن ثانى مدن النرويج (وسكانها ربع مليون نسمة فقط) ، وفيها ولد الموسيقار «ادوارد جريج» حيث أبدع ألحانا امتعت آذان الملايين كلما أطل علينا الليل باستحياء .

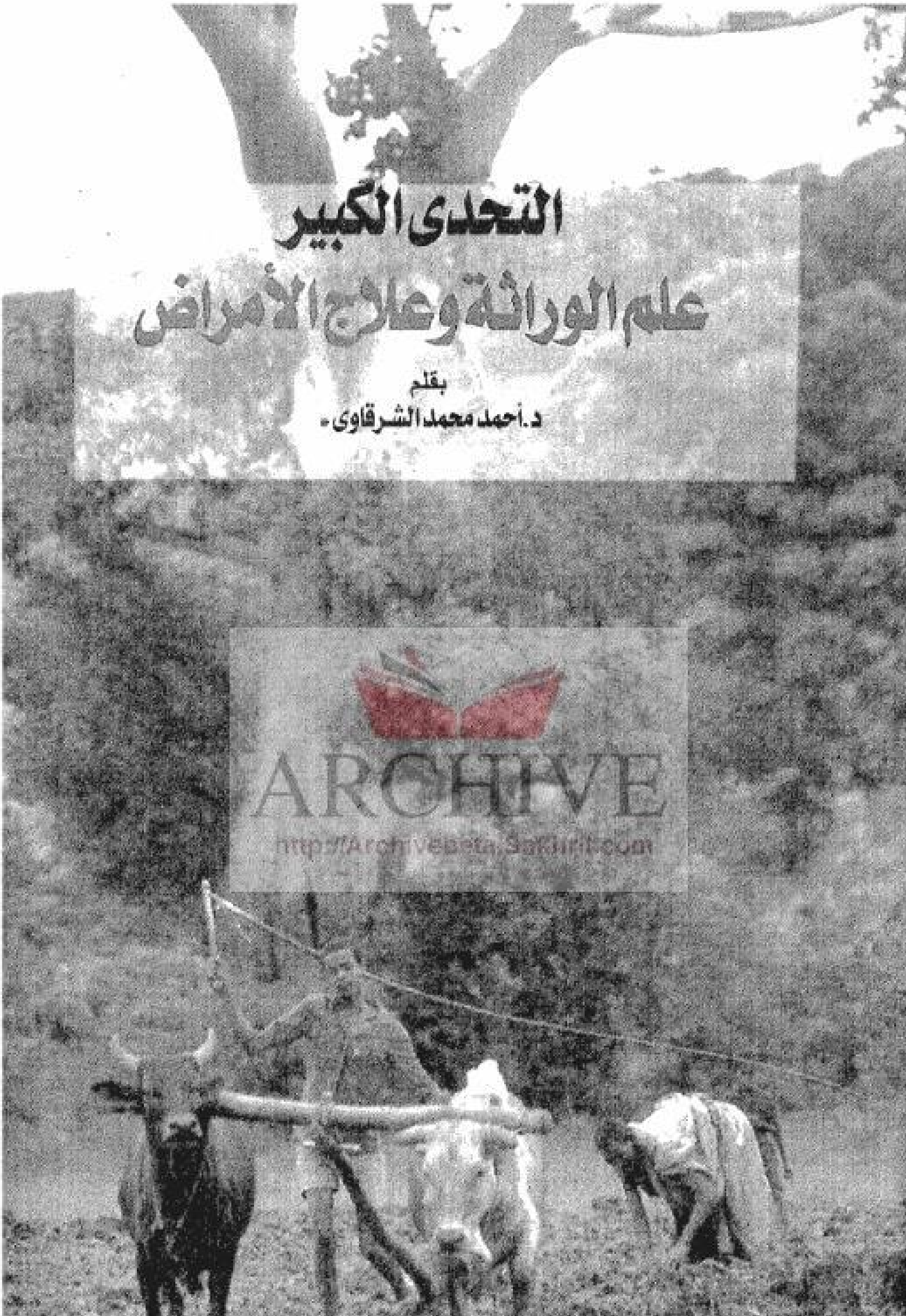
وما إن رست فى ميناء تلك المدينة الصغيرة الساحرة ، حتى عادت الأفلاك سيرتها الأولى ، عادت الشمس إلى الغروب ، وأعقب الليل النهار . ■

التحدى الكبير

علم الوراثة وعلاج الأمراض

بقلم

د. أحمد محمد الشرقاوى



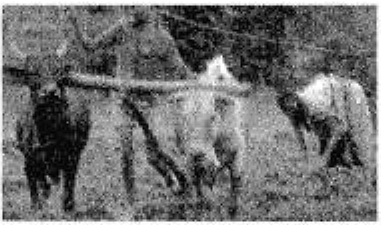
البيوتكنولوجي مجموعة من الآليات الحديثة التي توظف الاكتشافات البيولوجية لتحقيق طموحات الانسان ويأتي ضمن هذه المجموعة زراعة الخلايا والأنسجة، التطعيم الجيني والكلونة (الاستنساخ).

إن من أضخم تحديات القرن الحالي توفير الطعام للبلايين من بني البشر. وتشير الاحصائيات الحديثة إلى أن ثمانمائة مليون نفس تبيت يوميا دون عشاء، يبلغ تعداد البشر في الوقت الراهن مايزيد على ستة بلايين. استغرق زيادة البليون الثاني مائة وثلاثة وعشرين عاما، واستغرق زيادة البليون الأخير أحد عشر عاما فقط. هذا ويقدر عدد النفوس بعد عشرين عاما بثمانية بلايين، ويبلغ معدل زيادة النفوس ١ر٣ ٪ سنويا ولاترقى الزيادة السنوية في الغذاء إلى هذا الرقم ومن ثم فنحن نواجه تحديا ضخما .

في تقرير للبنك الدولي بشر بأن التقنيات الحديثة ومنها الهندسة الوراثية تشكل مكونا مهما في زيادة المنتج الزراعي، ويمكن عند استعمالها بكفاءة من إطعام ثلاثة آلاف مليون نسمة باستخدام المساحة نفسها وذات الكمية من المياه المتاحة، ازدادت المساحات المزروعة بنباتات معدلة وراثيا في السنوات الخمس الأخيرة خمسا وعشرين مرة فأصبحت ١٠٥ ملايين فدان في ١٣ دولة في القارات الخمس، تشكل الدول النامية سبعين بالمائة من تعداد سكان العالم ومن الملح أن يتضاعف إنتاج الغذاء مرة على الأقل خلال الخمس والعشرين سنة القادمة.

بلغ التحسين الوراثي للمحاصيل المهمة أقصاه في الستينات من القرن الماضي واستطاعت دول كثيرة كالهند مثلا أن تكتفي من احتياجاتها من القمح والأرز باستخدام مجموعة من الأساليب عرفت في حينها بالثورة الخضراء الأولى، وتتطلب هذه الأساليب كلفة باهظة للتقاوي المنتقاة، الأسمدة، مقاومة الآفات والإدارة والتسويق، ونظرا لعدم توفر رءوس الأموال اللازمة فقد تقاعس العديد من الدول الأفريقية عن الدخول في دهاليز هذه الثورة الجامحة، وعلى النقيض فإن الثورة الخضراء الثانية والتي نحن بصدد التبشير بامكاناتها فقد جاءت

*الاستاذ بكلية الزراعة -جامعة القاهرة



التحدى الكبير

مختلفة تماما فهى موجهة للفلاح البسيط وتعنى بالكيف لا بالكم.

لعل من سمات دول العالم الثالث أنها تخسر من ١٥ إلى ٢٠ بالمائة من المنتج الزراعى أثناء التداول الخاطىء لنقل الخضر والفاكهة لقد أوجدت التقنيات الحديثة جينات تعطل من عمليات التسوية السريعة مما يطيل من العمر الافتراضى للثمار، ثلاثة أسابيع للطماطم مثلا.

وبالمثل فنحن نخسر مابين ١٥ إلى ٢٠٪ من المنتج الزراعى من جراء الحشرات والآفات، ومرة أخرى تعد هذه السمة من سمات الدول النامية، لقد اتضح أن للنبات القدرة على إنتاج بروتينات لها علاقة بالدفاع استجابة للإصابة الأولية من بينها الفيتو الكسين والكايتينيز وغيرهما. ثمة جينات تحرك التعبير الزائد وتجعل النبات مقاوما للأمراض الفطرية والبكتيرية، وبالإضافة فإن ميكانيكية الموت المبرمج للخلية حول نقطة الغزو تعوق تطور المرض وانتشاره وحصره في منطقة محدودة. نستطيع أن نحفز الجهاز المناعى للنبات حتى يدافع عن ذاته أو يمكننا أن نزوده بمجموعة من الجينات تؤدي الغرض نفسه .

البيوتكنولوجيا والغذاء كما ونوعا

يعتمد نصف سكان العالم على أقل تقدير على استخدام الأرز كغذاء أساسى وقد أفادت الثورة الجينية فى تزويد الأرز بعوامل إنتاج فيتامين(أ) (الأرز الذهبى) والذى يؤدى نقصه إلى فقدان النظر واضطرابات عصبية.

يعانى مائتا مليون طفل أفريقى من نقص الحديد فى غذائهم ولقد أمكن أخيرا إضافة جين الفيريتين إلى الأرز ليصل محتواه من الحديد إلى ثلاثة أضعاف.

وبالمثل تعتمد العديد من دول أفريقيا على البقوليات التى ينقصها أحماض أمينية مكبرتة (سيستيين وميثيونين) والتى إن زودت بها تجعلها تضاهى البروتينات الحيوانية، لقد كان من الصعب أو المستحيل أن نزود الفول وفول الصويا بهذه الأحماض الأمينية العزيزة بطرق التربية التقليدية. أمكن نقل هذه الصفات من البندق البرازيلى ومن عباد الشمس.

وبالمثل ثمة مرض ينتشر في دول أفريقيا يدعى الفافيزم favism يسبب تكسر كرات الدم الحمراء ويؤدى إلى أنيميا ويسببه مركبات فيسين والكونفيسين الموجودة بالبقوليات ونقص الجين الخاص بإنتاج إنزيم جلوكوز ٦ - فوسفات دى هايدر وجينيز بالأطفال، لقد أمكن من خلال التكنولوجيا الحيوية تفصيل سلالات من الفول تحتوى على كم ضئيل جدا من المركبين المذكورين وسيمكنان فى القريب العاجل وعندما ينتهى برنامج الجينوم البشرى من التعرف على مكان وجود الجين الخاص للإنزيم المعطوب بالإنسان وتصحيحه أو تبديله.

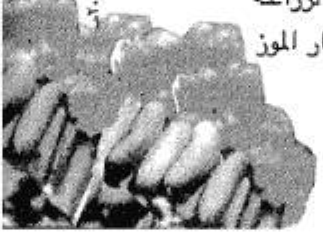
البيوتكنولوجيا والنموذج الإفريقى

نشأ نخيل الزيت فى غرب أفريقيا وأمكن تحسينه بالأساليب الحديثة كما من حيث محصول زيت وكيفا من حيث الأحماض الدهنية غير المشبعة وكذلك اختزال طول النخلة لتسهيل عملية جمع الثمار، غنى عن الذكر أن التربية بالجنس تستهلك وقتا طويلا وأن النتائج المرجوة لاتتضح قبل ١٥ - ٢٠ سنة، وهنا تأتى ميزة زراعة الأنسجة ليس فقط لتركيز أفراد ذوى صفات اقتصادية مميزة ولكن أيضا لإكثار نواتج التهجين بين النوع الإفريقي والنوع الأمريكى بأسلوب الخلايا منزوعة الجدر (البروتوبلاست) والتى تجمع بين الصفات المرغوبة من كلا النوعين.

وبالمثل فإن نخيل جوز الهند يمكن تكثيره من خلال زراعة الأنسجة والخلايا والانتفاع بجينات غريبة، إن الأصناف المكثرة بهذا الأسلوب يبلغ محصولها خمسة أضعاف الأصناف المحلية كما أنها خالية من الأمراض الفيروسية.

ويعتبر البن بنوعيه من النباتات أفريقية المنشأ (أرابيكا) و (روباستا). يعانى النوع الأول من فطر صدأ الأوراق الذى يهدد هذا المحصول الاقتصادى المهم، أما النوع الآخر فهو متحمل لهذا المرض، إن التهجين بين الصنفين كلاسيكي ومراقبة الأجيال الانعزالية يستغرق من ٣٥ - ٤٠ عاما لقد جاءت تقنية اندماج البرتوبلاست فى الوقت المناسب للوصول إلى هجين (أرابوستا) مقاوم للفطر ذى طعم ألذ وكافيين أقل مما يناسب ذوق المستهلك.

من المحاصيل الإفريقية التى استجابت بشدة لزراعة الأنسجة أشجار الموز





التحدى الكبير

والباباظ. إذا كان من الضرورى أن تطور محاصيل الغذاء فى أفريقيا فيلزم كذلك الاهتمام بالمنتجات غير الغذائية وعلى رأسها الأخشاب، سيمكن عما قريب تفصيل الأشجار (الكافور مثلا) بما يرضى طموحات الصناع، ستعدل الأشجار وراثيا من حيث المتانة، الكثافة، اللون، الشكل ونمط الألياف، هذا بالإضافة إلى النمو السريع ومقاومة الآفات وتحمل الجفاف والصقيع.

لقد أصبحت الأشجار بؤرة اهتمام فى المفاوضات المعنية بالطقس لقدرتها على اختزان الكربون ومن ثم إبطاء ظاهرة الاحتباس الحرارى.

البيئة

إن من أهم إنجازات الثورة الخضراء الثانية أنها تعنى بالحفاظ على البيئة بأسلوب الزراعة البيولوجية وهذه تلائم تماما ظروف العالم الثالث، هنا لاتستعمل الكيماويات بأنواعها سواء للتسميد أو الوقاية والمقاومة وعليه تجرى أغلب العمليات الزراعية يدويا ومن ثم تساهم فى حل مشكلة البطالة.

الصحة

يبدو أن معامل الصيدلة (الفارماكوبيا) سوف تنتقل من المدن إلى المزارع والأمثلة عليها كثيرة، فاكسينات مولجة فى ثمار الموز والبطاطس والطماطم وأبقار تنتج أجساما مضادة لأمراض آدمية مستعصية، ومن المعروف أن دول العالم الثالث تستعمل اللقاحات بكثرة لمواجهة الأمراض الوبائية والمتوطنة، إن أغلب هذه البلدان لاتنتج هذه اللقاحات لما تحتاجه من تقنيات عالية الحداثة وأموال طائلة، ولأن ظروف التجميد والتبريد اللازمة لنقل هذه اللقاحات غير كفء فيكون توزيعها متواضعا للغاية، ومن ثم جاءت فكرة تجهيز النباتات المستعملة بكثرة بلقاحات ضد الكوليرا، السعار، وفى المستقبل القريب للملاريا، البلهارسيا والإيدز، وبالمثل فقد تمكنت شركة أجريسيتس من استنباط بذور الصويا مجهزة بأجسام مضادة لسرطان الثدى والقولون، يكون التعاون بين الوراثيين من جانب والأطباء من الجانب الآخر ضروريا لحل العديد من

المشاكل التى تواجه إنجاح مثل هذه اللقاحات، وعلى أقل تقدير فإن استخدام هذه اللقاحات لحيوانات المزرعة سيوفر مبالغ طائلة تصرف فى الوقت الحالى على تحصين الماشية والدواجن.

التنوع البيولوجى

يستلزم الحفاظ على التنوع البيولوجى حماية العديد من الأنواع التى قلت أعدادها وقاربت على الاندثار كالدب القطبى ودب الكوالا، هذا وقد استحدثت التقنيات الجديدة أساليب مميزة فى هذا المجال كحفظ الحيامن والبويضات والأجنة وحبوب اللقاح والأنسجة تحت تبريد وتجميد يصل إلى – ١٩٧م. هذا وقد نشطت الدول المختلفة فى إنشاء بنوك لحفظ الخلايا الجنسية يبلغ عددها سبعة عشر بالولايات المتحدة الأمريكية، يوجد بنك تحت الإنشاء بمركز البحوث الزراعية وزارة الزراعة المصرية وآخر بأديس أبابا – أثيوبيا وثالث بنيروبى كينيا ورابع بنيجيريا، ومن الضرورى أن نشير ونحن بهذا الصدد إلى أن أفريقيا غنية بشدة بمواردها الجينية والتى تتهافت عليها شركات الهندسة الوراثية.

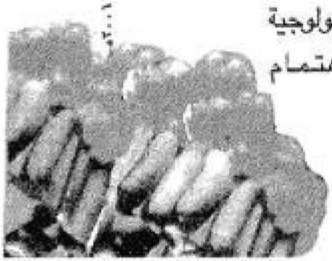
هذا وتقسم الدول النامية إلى:

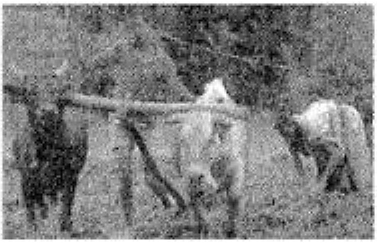
أ–دول تبدى بعض الاهتمام دون اشتراك مباشر فى أساليب التكنولوجيا الحديثة.

ب – دول أنشأت أساسيات إقليمية للتكنولوجيا مع بعض البرامج للتقنيات البسيطة ولو أنها تراقب عن كثب ما يحدث فى هذا المجال فى دول العالم الآخر، ويبدو أن العديد من دول العالم الثالث حريصة على السير قدما بخطى متلاحقة ومتسارعة كلما أمكن خصوصا فى التقنيات الزراعية الحديثة، ويبدو كذلك أن الكثير من هذه الدول قد تعلمت درسا من الماضى القريب عندما تخلفت فى الدخول الى عصر الكهرباء والذرة .

نماذج أخرى

ثمة نماذج مضيئة لدول نامية استطاعت أن تدلى بدلوها فى محيط البيوتكنولوجيا وعلى رأسها الهند، يتميز النموذج الهندى بأنه استطاع أن يوظف البحث العلمى بصيغة موجهة، غنى عن الذكر أن عدد نفوس الهند يزيد على البليون وأنها اكتفت ذاتيا من الحبوب منذ منتصف الستينيات عندما اهتمت ومارست تطبيقات الثورة الزراعية الأولى، لقد انتفعت الهند بورقة رابحة وهى رخص الأجور وأن ثلثى سكان الهند يعملون بالزراعة ومن ثم فقد جاءت زراعة الأنسجة والزراعة البيولوجية (الذكية) من أوائل اهتمام





التحدى الكبير

الهند فقد صدرت للخارج عشرة ملايين نبتة من القرنفل والجيرانيوم، الموز والفلفل عام ١٩٩٥ ويقينا أن هذا العدد يبلغ مائة مليون نبتة حاليا، وبالاضافة فقد طورت الهند بروتوكولا لتكثير أشجار الصندل، الكافور، الخيزران والمانجو، ومن الملامح المهمة هذا الصدد أن الهند قد أنهت أخيرا رسم خريطة الجينوم لديدان الحرير.

أما الصين فقد اهتمت اهتماما خاصا بزراعة المتوك و بمعنى آخر حبوب اللقاح وهى خلايا أحادية العدد الكروموسومى، وهى فى حد ذاتها إثبات أن نسخة واحدة من كل جين كافية لأن تعطى عند التمايز والتكشف كائنا حيا مماثلا لنوعه. يمكن عند تضاعف أنسجة أحادية أن تعطى كائنا متماثل الأليلات وهذا مرغوب لمربى النبات ويستحدث بالطرق التقليدية ويستهلك وقتا طويلا، أنتجت الصين أربعين نوعا من النباتات بهذا الأسلوب منها الذرة، القمح، البنجر وكذلك الأرز، زرعت الصين ٧٥٠ ألف فدان من البطاطس خالية من الفيروس تضاعف فيها المحصول مائتين بالمائة كما أنتجت أصنافاً جديدة من قصب السكر فى أربع سنوات بدلا من عشر عندما تستخدم الأساليب الكلاسيكية .

أهدرت حتى الآن خمسمائة مليون فدان من أشجار الغابات وهى تشكل عشرين بالمائة من مساحة غابات العالم، كما أهدرت عشرون بالمائة من أجود الأراضى، وتعتبر أفريقيا مستوردا رئيسيا للحبوب وتقدر مساحة الأرض المستعملة للزراعة بأفريقيا خمسمائة مليون فدان وهذه تشكل ٢٥٪ من مساحة الأراضى الكلية، ومن الضرورى أن تستوعب دول العالم الثالث وعلى رأسها قارتنا السمراء أن المعرفة العلمية تشكل ثمانين بالمائة من اقتصاديات الدول المتقدمة وأن العشرين بالمائة المتبقية هي المواد الخام، تلزم أن تعقد مقارنة مع دول العالم النامى التى تعتمد اعتمادا كبيرا على تصدير المواد الخام. تعتبر التقنيات الحديثة سلعة ذات عائد كبير. تقدر قيمة النعجة دوللى بخمسة ملايين جنيه استرلينى ويقدر جرذ يحمل جينات إفراط السمنة بعشرين مليون دولار أمريكى . ■

قصيدة حب

شعر

أماني حاتم بسيسو

سـألتني حين ضـاقت بي حـياتي   وانطوى حلمي، فـمـا عـادت رؤاه

أي روح لم تكن يومـا شـريدا!   أي قلب لم يذق مـر الشكاه!

أوت القلب، إذا القلب إليـهـا   مـثل طيـر، ضل في الأفق هداه

وبنت لي في فـضـاء الروح قـصـراً   بعد عـيش مـقـفـر وسط الفلاه

ورعت روحي، إذا الروح لديـهـا   كـأسـيـر طاب في الأسر بقاه

فـإذا القـيـد كـتـرياق شفى   جـرح قلب لم يكن يشـفي أساه

***

سـاءلتني : بم تفـديني، ألا   قلت يا أصـدق حب في هواه

قلت: بالمال، فـقـالت: ليس يكفي   قلت: بالغالي، فـقـالت: بالحـياه

قلت: روحي طوع أمـرك أمـرت   ودمي الميثـاق، مـا لي من سواه

مـرت الأيام والأعـوام تترى   ورغـيـد العيش ينسينا شقـاه

كلمـا قل اقـتـداري واصطبـاري   عـدت أرجـو الحب، أو بعض نداه

فـإذا الحب تعـاويذ لروحي   ورفـيـق في رواحي والغـداه

***

لست أدري .. كم زمـانا قد تقضى   مـذ تولى طيـفـهـا عني وتاه

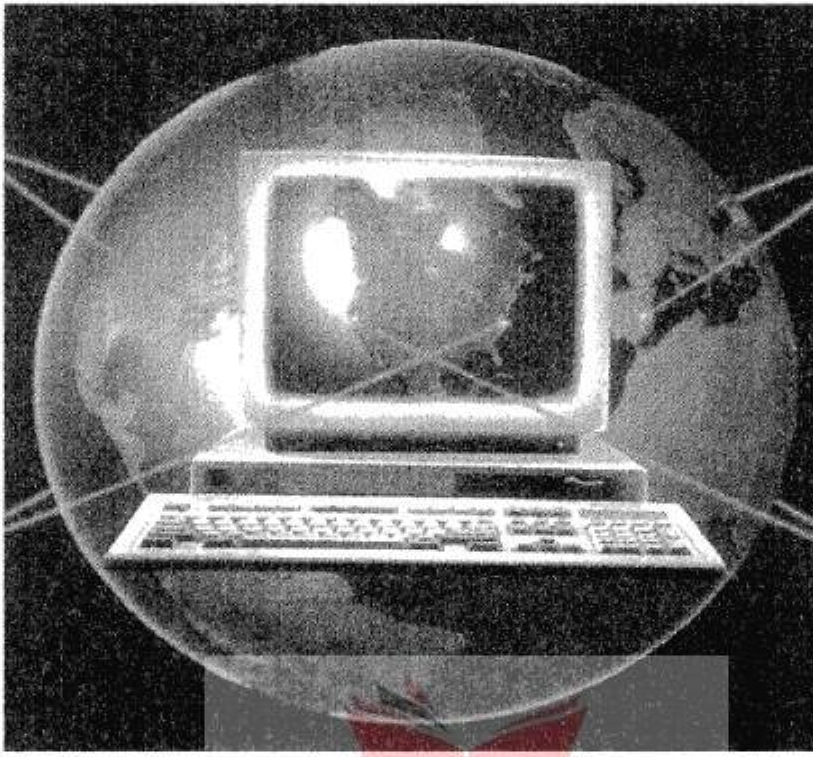
لم أعـد أذكـر ذاك العـهـد إلا   مـثلمـا يذكـر مـيت مـا بناه

لم أعـد أبصـر بالعـين سوى   مـا أرادوا لي - يقـيـنا - أن أراه

واسـتـذل لرق هامي، فـهـوى   وهوى إذ ذاك تجـمي من سـمـاه

كل مـا أذكـر في يوم النوى   أن جبني كـان قد أغرى الطغاه

هل عـرفـتم أي حب كنت أعني؟   إنه حب بلادي، لا سـواه



العرب في مجتمع الإنترنت

١١٨

ربيع ثاني ١٤٢٢هـ - يوليه ٢٠٠١م

بقلم
د. أحمد محمد صالح

كريستوفر ديكي في مجلة Newsweek باللغة العربية (أبريل ٢٠٠١) كتب يقول : «في شوارع القاهرة القديمة الضيقة، في الأزقة حيث يسير الشحاذون بترهل بين أكوام القمامة وحيث ينفث العاطلون من الرجال دخان الشيشة، وينفض الدجاج الغبار بأجنحته، هنا في الحارة تزدهر تلك الحرفة التقليدية في كتابة الخطابات. شيماء محمد البالغة ١٩ عاما، تطبع الخطابات لكل من يدفع. كانت الخطابات تطبع بآلة طباعة يدوية. أما اليوم فهي تستخدم جهاز كمبيوتر. وتتوقع خلال شهرين أن تكون قد أدخلت «الإنترنت». وقد تكون شيماء اليوم أدخلت فعلا الانترنت، وفتحت مجالا جديدا لكتابة الخطابات وإرسالها عبر البريد الإليكتروني لمن يدفع أكثر طبعا، لكن السؤال هل وصول الإنترنت لشيماء هو تعبير حقيقي لمجتمع الإنترنت في مصر؟!.

في أهرام الجمعة ١١ - ٥ - ٢٠٠١ قرأنا أن كلية الآداب جامعة القاهرة، نوقشت فيها حديثا رسالة دكتوراه مقدمة من الباحث يحيى جاد الله إبراهيم جاد الله تحت عنوان «الإفادة من الإنترنت في مصر» نعرف منها أن مصر انضمت إلى شبكة الإنترنت في عام ١٩٩٣ مما جعلها في مؤخرة الدول التي لم تبادر إلى الإسراع للإفادة والمشاركة في عصر الشبكات والاتصالات.

مجتمع الإنترنت في مصر

ومجتمع الإنترنت في مصر مؤهل تأهيلا جامعيا بنسبة ٩٢٪، وأن عددا محدودا للغاية غير مؤهلين بنسبة ٨٪، حيث إنهم لايزالون بالدراسة، كما أن ١٠٪ منهم حاصلون على درجة الدبلوم العالي بعد المرحلة الجامعية الأولى، وأن ٣٢.٢٪ حاصلون على درجة الماجستير، و١٩.٦٪ حاصلون على درجة الدكتوراه، ومعظم هؤلاء يحتاجون إلى المعلومات في مجالات تخصصاتهم، وأعمالهم لترقية أنفسهم، والاطلاع على ماهو جديد وحديث وحصل ٣٤٪ من مجتمع الدراسة على دورات تدريبية في مجالات عديدة على رأسها الحاسب الآلي، وهذا يدل على حرص فئات المجتمع على انتشار مهارات استخدام وتعلم الحاسبات الآلية فيما بينهم وفي إنجاز أعمالهم. ويجيد مجتمع الإنترنت في مصر مجموعة من اللغات في مقدمتها اللغة الإنجليزية تليها الفرنسية فالألمانية، ثم الأسبانية، واليابانية، والصينية، والإيطالية، والهندية، والعبرية، والفارسية، والأردية. كما أن اللغة الإنجليزية قاسم مشترك مع لغات أخرى مثل الفرنسية، والألمانية، والأسبانية، ويتكون مجتمع الإنترنت في مصر من ٥٦.٣٥٪ ذكور و ٤٣.٦٥٪ إناث مما يفيد بأن عدد الذكور أكبر من عدد الإناث. وأعرب مجتمع الإنترنت في مصر - مجتمع الدراسة - عن وجود ارتباط بين تخصصاتهم وأعمالهم بنسبة ٨١.٢٥٪ بينما أعرب ١٨.٧٥٪ عن عدم وجود هذا



العرب

في مجتمع الإنترنت

الارتباط بين تخصصاتهم، وما يقومون به من أعمال، ويشترك ٨٥٪ من مجتمع الدراسة في عضوية اتحادات وهيئات مهنية مصرية وعربية، ودولية، بينما ١٥٪ منهم لا يشتركون في هذه الاتحادات، والهيئات و ٥٢.٨٪ من مجتمع الدراسة لهم أنشطة واهتمامات بحثية كالتأليف والترجمة والبحث، بينما ٤٧.٢٪ ليست لديهم تلك الاهتمامات. وغياب الإعلام الواعي والهادف حول شبكة الإنترنت للتعريف بها وخدماتها ومقوماتها، وأشكالها وتراوح ساعات الإفادة من الإنترنت من جانب مجتمع الدراسة المصري بين نصف ساعة، وأكثر من ٥١ ساعة أسبوعيا. وإذا عرفنا أن عدد مستعملي الإنترنت في مصر يدور حوالي ٦٠٠ ألف، معنى ذلك أن هناك نخبة متعلمة ضئيلة جدا تمثل مجتمع الإنترنت في مصر. لكن ماذا عن مجتمع الإنترنت في العالم؟

تواريخ مهمة في تكنولوجيا المعلومات

إن إحصائية واحدة أفضل من ألف كلمة، وقد تساعدنا الإحصائيات الآتية على فهم أبعاد وحقائق مجتمع الإنترنت في العالم، ونبدأ بأهم تواريخ في مسيرة تطور تكنولوجيات المعلومات والاتصالات، فمنذ ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، اخترع العداد (abacus) الحجري في بابل، ومنذ حوالي ٥٠٠ سنة قبل الميلاد اخترع عداد الخرز والأسلاك في مصر. وفي عام ٨٠٠ م - طرح العالم المسلم محمد بن موسى الخوارزمي مفاهيم مهمة للغاية هي الصفر والخوارزميات. وفي ١٦٤٢ م - اخترع بليز باسكال آلة تعتمد على دولاب يدور بطريقة ميكانيكية، وتستطيع هذه الآلة التي سميت باسم باسكالين (Pascalene) القيام بعمليات الجمع والطرح لأعداد يصل عدد خاناتها إلى ثمانية. وفي عام ١٨٣٣ م - صمم تشارلز بابيج الآلة التحليلية (Analytical Engine)، وهي آلة حاسبة ميكانيكية، يمكنها القيام بعدد كبير من الوظائف الرياضية. وعام ١٨٥٤م - طور عالم رياضيات بريطاني يدعى جورج بول نظاما للاستدلال المنطقي والرمزي عرف باسم الجبر البولياني أو جبر المنطق (Boolean algebra)، وكان هذا النظام هو الأساس الذي استند إليه تصميم دارات الكمبيوتر. وفي عام ١٩٣٩ م - طور كل من جون أتاناسوف وجون بيري أول كمبيوتر رقمي أسموه ABC، وكان هذا الكمبيوتر مخصصا لأغراض معينة. وعام ١٩٤٦ م - ظهر أول كمبيوتر إلكتروني ضخم عرف باسم إنياك (ENIAC). وبعدها في ١٩٤٧ - طور كل من جون باردين، ووالتر براتاين، ووليام شوكلي أول ترانزستور. وفي ١٩٥١ م - اخترع كل من جاي فورستر وبوب إيفيرير أول كمبيوتر يقوم بالمعالجة في الزمن الحقيقي عرف باسم ويرلويند (Whirlwind)، وفي سنة ١٩٦٤ م - طور كل من جون كيميني وتوماس كورتز لغة برمجة يمكن تعلمها بسهولة، وقد عرفت باسم بيسيك (BASIC). ومع بداية ١٩٦٩ م - بدأت أربا (ARPA) ببناء أول شبكة اتصالات لا مركزية عرفت باسم أربانيت ARPANET. وفي عام ١٩٧٣ م - طور كل من بوب كان

وفينت سيرت مجموعة بروتوكولات التحكم بالإرسال / بروتوكول الإنترنت (TCP/IP) ، وهو المفهوم الذى قامت على أساسه شبكة الإنترنت. وفى منتصف عام ١٩٩١ م - وضع تيم بيرنرز لى مفاهيم شبكة الويب العالمية (WWW)، وهى إحدى خدمات الإنترنت التى تتيح لمستخدمى الإنترنت التنقل بين صفحات الويب عبر استخدام الروابط الفائقة hyperlinks. وأخيرا فى عام ١٩٩٣ م - طرحت إن سى أس اى (NCSA) مستعرض موزاييك (Mosaic Browser)، وهو أول مستعرض للويب يستخدم الرسوم. وتستمر المسيرة!!

لغات العالم على الإنترنت

وبينت الإحصائيات التى قامت بها مؤسسات علمية مثل global Reach لمتابعة مجتمع الإنترنت ، إن تعداد مجتمع الإنترنت فى العالم كله هو ٣٩١ مليون مستخدم حتى ٣١ مارس عام ٢٠٠١، ويتوقع أن يبلغوا حوالى ٧٧٤ مليون مستخدم عام ٢٠٠٣، وفى مجتمع الإنترنت ٥ .٤٧٪ من مجموع محتوى الإنترنت يتكلم الإنجليزية، ٥ .٥٢٪ من محتوى الإنترنت يتكلم غير الإنجليزية وموزع إلى مجموعتين : الأولى تمثل (٩ .٢٨٪) لغات أوربية غير إنجليزية موزعة على المانية ١ .٦٪ - والأسبانية ٥ .٤٪ - والفرنسية ٧ .٣٪- الإيطالية ١ .٣٪ - والبرتغالية ٥ .٢٪ - الروسية ٣ .٢٪ - والهولندية ١ .٢٪ - ولغات مجموعة الدول الأسكندنافية «سويد - نرويج - دانمارك - فنلندا» ٢ .٢٪ - وبقية اللغات الأوربية مثل السلوفانية والبولندية والتركية واليونانية والمجرية ولغات مناطق السلوفاك وكاتالونيا ورومانيا وتشيك وأيسلندى كلها نسب لا تذكر وأقل من الواحد الصحيح وأقرب للصفر. والمجموعة الثانية هى اللغات الاسيوية وتمثل ٦ .٢٣٪ وهى الصينية ٩٪ - اليابانية ٦ .٨٪ - الكورية ٤ .٤٪ - اللغة العربية ٦ .٠٪. معنى هذه الأرقام أنه حتى يوم ٣١ مارس عام ٢٠٠١ كانت ومازالت اللغة الإنجليزية مسيطرة تماما على محتوى الإنترنت ، وهى نتيجة مباشرة للنشأة الأمريكية للإنترنت، وتحديدا فى مؤسستها العسكرية «البنتاجون» ، التى جعلتها إلى حد بعيد، أمريكية الوجه واليد واللسان والفكر. واتضح أيضا بصورة جلية أن اللغة العربية فى الإنترنت نسبتها ضعيفة للغاية فهى ستة أجزاء من الواحد الصحيح، وجدير بالذكر أن عدد مستخدمى الإنترنت فى العالم العربى حتى ٣١ مارس ٢٠٠١ يبلغون حوالى ٥٣ .٢ مليون مستخدم ويتوقع أن يصلوا إلى ٦ ملايين فى عام ٢٠٠٣ ، لكن هناك إحصائيات أخرى لمجتمع إنترنت العرب.

إنترنت العرب

فوفقا للمسح الإحصائى الذى أجرته بوابة عجيب وفيزا إنترناشيونال، فقد بلغ عدد مستخدمى الإنترنت فى البلدان العربية فى مارس ٢٠٠١ حوالى ٥٤ .٢ مليون ، وأحرزت دولة الإمارات العربية (٤ .٢٤٪ نسبة المستخدمين لعدد السكان) وفقا للمسح الذى أجرته وحدة أبحاث عجيب، معدلات الاستخدام الأعلى يليها على الترتيب التنازلى البحرين ٦٧ .١٦٪، قطر ٢٧ .١٠٪، الكويت ٢٥ .٨٪ ، لبنان ٥٦ .٦٪، الأردن ٥٧ .٤٪، فلسطين ٥٣ .٣٪، عمان ٣٦ .٣٪ ، تونس ٨٩ .٢٪، السعودية ٥٩ .٢٪، مصر ٨٢ .٠٪، المغرب ٧٣ .٠٪، الجزائر ٦٠ .٠٪، ليبيا ٤٠ .٠٪ ، سوريا ١٨ .٠٪، اليمن ٠٨ .٠٪، السودان



العرب
فى مجتمع الإنترنت

٠,٠٨٪، العـــراق ٠,٠٦٪. هذا ومن المتوقع مع نهاية ٢٠٠١، أن يتخطى عدد المستخدمين العرب للإنترنت حاجز الخمسة ملايين مستخدم والتى تشكل ٢٪ تقريبا من إجمالى عدد السكان، كما يتوقع أن يصل عددهم بين ١٠ و ١٢ مليونا مع نهاية ٢٠٠٢ فى الدول العربية. وجدير بالذكر هنا أنه يتوقع أن يصل عدد المستخدمين للإنترنت فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠٠٥ حوالى ٩٦ مليونا. وحققت دولة الإمارات العربية المتحدة فى الوقت ذاته المرتبة ٢٢ عالميا فى نسبة مستخدمى إنترنت إلى عدد السكان، متخطية بذلك دول أوربا الجنوبيـــة والوسطى، بل وبعضا من الدول الصناعية المتقدمة، مثل فرنسا، ويتضح تماما بمقارنة نسبة مستخدمى الإنترنت بين الدول العربية والمتقدمة، مدى فجوة الانقسام الرقمى الكبيرة التي يقع فيها العالم العربي، بل يتضح أيضا مرتبة مصر المتواضعة جدا فيما يتعلق بنسبة المستخدمين لعدد السكان بين الدول العربية ودول العالم. والإنترنت كم هى كبيرة؟! وتنمو بسرعة؟! فيذكر أن الإنترنت فيها الآن أكثر من ٤٠ مليون موقع، وهى تتضاعف بسرعة متزايدة، والعرب لهم فيها حوالى ٣٠ ألف موقع فقط لا غير وهى نسبة لا تذكر. ومن أهم معوقات انتشار الإنترنت فى المنطقة العربية، فى رأى كريستوفر ديكى هو طبيعة أنظمة الحكم فى تلك الدول التى ترتاب دائما فى الإنترنت. وحتى تلك الانظمة التى تعمل جاهدة من أجل التكيف مع المتغيرات الجديدة مثل مصر، فهى غير مستعدة أن تفقد السيطرة على الحاضر من أجل المستقبل، وبالنسبة إلى الكثيرين فى العالم العربى فإن فكرة الإنترنت هى فكرة مشكوك فيها. فالحكام الأوتوقراطيون فى الوطن العربى لديهم تاريخ حافل وطويل فى فرض الجهل على مواطنيهم، فقبل خمسة قرون رفض السلاطين العثمانيون ثورة جوتنبيرج التى اكتسحت أوربا، ومنعوا الطباعة الحديثة ٢٣٥ سنة، ويكافح العرب منذ ذلك التاريخ من أجل اغلاق الفجوة ولكن الكثير من الأمراء والملوك والرؤساء الذين يحكمون مدى الحياة يرتابون فى الإنترنت اليوم كما ارتاب السلاطين العثمانيون فى آلة الطباعة المتنقلة حينذاك، إنهم يتلكأون. فى الوقت الذى يتقدم فيه الغرب بسرعة فى توظيف الإنترنت اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا، فإن الأنظمة العربية قد تفرض بكل سهولة على العالم العربي بأن يظل رازحا فى الجانب المظلم من الانقسام الرقمي، اعتقادا منها أن ذلك يضمن استمرارها. وتبين أيضا أن ٤٠٪ من المستخدمين العرب للإنترنت يتجهون نحو المواقع العالمية، التى تستخدم الإنجليزية، لندرة المواقع العربية الغنية بالمعلومات والخدمات، واتضح ندرة استخدام الإنترنت من قبل نساء العرب، والأطفال، والفتيان من طلاب المراحل المتوسطة، وما قبل، بينما تزيد نسبة الجامعيين المستخدمين للإنترنت. ومن حيث استخدامات الإنترنت من قبل المستخدمين العرب، اتضح أن ٧١٪ يستعملونها فى الاتصالات الهاتفية والبريد الإليكترونى، و٦٤٪ بحثا عن المعلومات، ٦٣٪ فى الدراسة والتعليم، ٤٢٪ فى التسلية

والترفيه، ٣٩٪ فى المحادثة والتخاطب ، ٣٧٪ فى جلب برامج الالعاب، ٣٥٪ فى قــراءة الصــحف، ٢٣٪ فى العــمل والتجارة، ١٧٪ فى التسوق والشراء. والأرقام السابقة تبين ان الاستعمال الأســاسي للإنتــرنت بين العــرب هو الحوار والكلام الإليكتروني . فالإنترنت من أرقى وأخطر تكنولوجيات العصر إذا أحسن توظيفها.

ملامح مجتمع الإنترنت العالمي

ومن طرائف إحصائيات مجتمع الإنترنت ، هل تتذكرون تقرير ستار عن فضيحة كلينتون ومونيكا عندما نشر فى الإنتــرنت لأول مــرة تكالب عليه مستخدمو الإنترنت فى العالم لدرجة أن أخــذت من التــقــرير حــوالي مليــون وسبعمائة ألف نسخة بعد أول يومين فقط من نشره فى الإنترنت . وتبين أن أكثر من ٢٥٪ من تجارة التجزئة فى العــالم تتم الآن من خــلال الإنتــرنت، ٧٨٪ من صحفيي العالم على اتصال بالإنتــرنت، ويتــوقع فى عــام ٢٠١٠ أن تستــخــدم الإنترنت فى الإحصــاءات والتعداد السكاني الرسمي في الولايات المتحدة الأمريكيـة . يتوقع ارتفـاع الإنفاق العالمي على خدمات تكنولوجيا المعلومات الى ١.٤ تريليون دولار مع نهاية هذا العام، عدد صفحات الويب فى عام ٢٠٠٠ أكثر من مليار صفحة، تضــاعــفت الآن، نســبــة الإناث بين مستخدمي الإنترنت في العالم حوالى ٣٨.٥٪ مقابل ٦١.٥٪ ذكور، أكثر المشــاكل أهمــيــة ، والتي تواجــه مستخدمي الإنترنت فى العالم مشكلة اختراق الخصوصية ٣٠٪ ثم مشكلة الرقابة على محتويات الإنترنت ٢٤٪، صعوبة وإرهاق الملاحة بين صفحات الإنترنت ١٧٪ ، ضعف سرعة المودم وبالتالي بطء الإنتــــرنت ٦٦٪، واتضح أن ٧١٪ لم يغيروا متصفحات الإنترنت القديمة، ٤٦٪ من المستخدمين أنشأوا لهم صفحات ويب خاصة بهم ، اكثر من ٨٠٪ قالوا إن الويب والإميل email قد أصبحت تكنولوجيات لا غنى عنا ، و ٨٥٪ يستعملون الإنترنت يوميا، وإذا كان الرجال يهتمون بما تفعله المرأة وهي تمارس دردشــة الإنتــرنت، اتضح من الدراســات المسحية فى الإنترنت ان معظم النساء لا يشعرن بالاشباع أو الاقتناع خلال الدردشة، واتضح أن المرأة غالبا ما تأكل الفواكه أثناء الدردشة في الإنترنت، وكانت أكثر الفواكه استعمالا أثناء الدردشة الموز والتفاح وأقلهم العنب، وإذا جمعت اعمار مستعملي الإنترنت في العالم تكون النتيجة حوالى ٦ مليارات عام . هذا يعني أن مجموع أعمارنا أكبر كثيراً من عمر الأرض. طبعا باستبعاد الأجداد والجدات لأنهم لم يكونوا على الخط في الإنترنت. وإذا فرضنا أن عمولة البنك فى المعاملات العادية ١.٠٧ دولار، فتكلفة عمولة البنك عندما تتم صفقة عبر الإنترنت لا تتــجــاوز ٠.٠١ دولار. فى عــام ١٩٩٨ تم إرسال ٣.٤ تريليون رسالة بريد إليكتروني، سلمت الى ٨١ مليــون مســتــخــدم بريد اليكتروني فى الولايات المتحدة، يعنى أكثر من ٦.٥ مليون رسالة في الدقيقة. وبعض الناس، خصوصا هؤلاء الذين يعملون فى مجال التكنولوجيا المعلوماتية ، يصلهم ما يزيد على ٢٠٠ رسالة إليكترونية في اليوم . وعدد رسائل البريد الإليكتروني التى أرسلت عــام ٢٠٠٠ حــوالى ٦.٩ تريليــون رســالة. ويشــاهد ٤٠٪ من مســتــخــدمي الإنتــرنت التليفزيون وشاشات الكمبيوتر الشخصي فى وقت واحد، كابلات التليفون تحت البحر تقدر بـ ١٨٦.٠٠٠ ميل فى عــام ١٩٩٧، مــعــدل النمو لمرور البيانات على هذه الكابلات كان ٩٠٪ وقتها، هذه الارقام تضاعفت الآن، فى



العرب
فى مجتمع الإنترنت

١٩٩٤، ٣٥٪ من المدارس الداخلية الأمريكية كان متصلا بالإنترنت ، فى ١٩٩٦ كان ٦٥٪ من المدارس الداخلية الأمريكية متصلا بالإنترنت، الآن جميع مدارس الولايات المتحدة الأمريكية متصلة بالإنترنت، الإعلانات التجارية على موقع الإنترنت تجذب فقط ١٦٪ من المستخدمين ، ويتذكر ١٢٪ من الناس إعلانات الإنترنت فى حين يتذكر ١٠٪ من الناس إعلانات التليفزيون. هناك ٦ لغات مختلفة على موقع إنترنت فاتيكان ، ويوجد ٢٠ قسيسا على الخط فى الولايات المتحدة الأمريكية يستقبلون اعترافات الخاطئين و٧١٪ من مستخدمى نسيج الويب يستعملون مواقع البحث لايجاد مواقع الإنترنت و ٨ ,٩٪ منهم يعتمدون فى البحث على الأصدقاء والأقارب، ثم الجرائد والمجلات (٥ ,٨٪) ، الروابط من مواقع الإنترنت الأخرى (٤ ,٨٪)، التليفزيون (٦ ,٣٪) وطبع أدلة الإنترنت (٣ ,٢٪). تتصدر شكاوى النصب جرائم الإنترنت فحتى ٦ مارس عام ٢٠٠١ كان هناك ١٤٠٠٠٢ شكوى حول نصب الإنترنت وهى تمثل ١ ,٦٤٪ من كل الشكاوى.

التجارة الإليكترونية والعرب

لكى نتفهم أهمية ومعنى وحجم إحصاءات التجارة الإليكترونية ، يجب أن نبسط مفهومها للكثيرين الذين يختلط عليهم الأمر. التجارة الإليكترونية (e-commerce) هى مزاولة النشاط التجارى عبر أنظمة الكمبيوتر والشبكات (مثلا، عبر الإنترنت) وشبكة نظام اللوحات الإخبارية، ولا تقتصر التجارة الإليكترونية على عمليات البيع، بل تتعدى ذلك لتشمل عمليات الإعلان التجارى، وتبادل البيانات إليكترونيا، وأنظمة نقطة البيع (POS sys-tems) ويرتبط نمو التجارة الإليكترونية بنمو تقنيات الحركات المالية وضمان أمنها. ولأن معظم نشاطات التجارة الإليكترونية يتم عبر الإنترنت، فإنه يطلق عليها - جوازا - اسم التجارة عبر الإنترنت (Internet commerce وIcommerce) وتنقسم التجارة الإليكترونية إلى ثلاثة أنواع: تجارة إليكترونية بين الشركات والشركات (B2B - business to business). وتجارة إليكترونية بين الشركات والزبائن (B2C - business to consumers) مثل التجارة الإليكترونية بين شركات البيع على الإنترنت وزبائنها المستهلكين وتجارة اليكترونية بين الزبائن والزبائن (C2C - consumers to consumers) مثل موقع ebay الذى يشكل منطقة حرة لتواصل الزبائن العارضين والراغبين فى الاقتناء أو المبادلة . يعود ظهور نظام تبادل البيانات إليكترونيا إلى اكثر من عقدين ، وقد شكل ظهوره النواة التى قامت عليها التجارة الإليكترونية، إذ انطلقت معه عمليات إرسال واستقبال طلبات الشراء، ونقل بيانات الدفع وغيرها. أما البداية الفعلية للتجارة الإليكترونية، فقد كانت مرافقة للانتشار الهائل للإنترنت «منتصف التسعينيات» وقد تحسنت الكثير من فعالياتها بعد ظهور الويب التى اسهمت فى تقديم واجهات استخدام مواتية للمستخدم . وقد كانت اولى فعاليات التجارة الإليكترونية على الإنترنت هى لوحات الإعلان التى كانت تستند الى نظام اللوحات الإخبارية . فقد لفتت هذه اللوحات النظر إلى

الإنترنت التي أصبحت وسيلة إعلامية عالمية اقتصادية الكلفة. وشيئا فشيئا تحولت الإنترنت إلى ساحة للأعمال والتجارة الإليكترونية . والنقود الإليكترونية أو الرقمية digital mon-ey أو digital cash أو e - cash أو money - هي مصطلحات تشير إلى الطرق الإليكترونية المختلفة التي تتيح للشخص ان يدفع مقابل ما يشتريه من السلع (goods) والخدمات (services) والمعلومات (information) وذلك بوساطة مجموعة من الأرقام التي تنقل من كمبيوتر الى آخر، وتكون صادرة عن بنك معين وتكافيء قيمة نقدية حقيقية «فعلية»، وتتميز النقود الإليكترونية بأنها قابلة للاستخدام لمرات عديدة، والمحفظة الإليكترونية هي برنامج ينظم عمليات الدفع بواسطة البطاقات الائتمانية، (credit cards) إذ تحفظ بيانات البطاقات الائتمانية في صيغة مشفرة على القرص الصلب العائد لصاحب البطاقات «يتجنب الشخص بذلك حفظ بياناته الشخصية على الويب» وعند قيام صاحب المحفظة بعمليات شراء عبر الإنترنت «من جهات تدعم نوع محفظته الإليكترونية» يقوم برنامج المحفظة بإنجاز عملية التحويل من البطاقات الإليكترونية الموجودة لديه إلى حساب الجهة المستفيدة «البائع». ويرى الخبراء ان التجارة الإليكترونية ليست صرعة عابرة، وتشهد لها في ذلك آثارها على مختلف القطاعات التجارية والعلمية وغيرها. أما آفاق المستقبل فتشير – رغم بعض التقلبات والتذبذبات ـ إلى أن من المتوقع انخراط المزيد من الجهات التجارية في عالم التجارة الإليكترونية الذي سيتسع اكثر، ولا سيما بعد ان ظهر دور التجارة الإليكترونية في إتاحة الفرصة للشركات الصغيرة ان تنافس الشركات الكبيرة العريقة. وان كانت التجارة الإليكترونية لن تحل محل التجارة التقليدية الا انها ستواصل تطورها المرافق لنمو الإنترنت، وتزايد الحاجة الى مواقع بيع إليكترونية (online shoppers)، وتبين الإحصاءات أن أعداد المستخدمين الذين يشترون ويبيعون عبر التجارة الإليكترونية في العالم عام ٢٠٠٠ هي ٤١.٢ مليون في الولايات المتحدة الأمريكية، واليابان ١٨.٩ مليون ، المانيا ١٧.٨ مليون، الصين ١٥.٦ مليون ، فرنسا ٢.٧ مليون، كوريا ١.٢ مليون ، إيطاليا ٩٢٤ الفا أسبانيا ٧٥٣ ألفا. ويتوقع ان تصل هذه الأرقام في عام ٢٠٠٣ كالتالي ٧٢.١ مليون ، ٤٧.٢ مليون، ٤١.٩ مليون ، ٢٤.٧ مليون، ٩.٩ مليون، ٥.٤ مليون ، ٧.٥ مليون ، ٧.٢ مليون على الترتيب. والسؤال أين العرب؟ نسبة العرب الذين يشترون ويبيعون عبر الإنترنت نسبة لا تذكر وتدور حول ٤٠ الف مستخدم . وفي دراسة جادة قامت بها مجلة انترنت العالم العربي، ومنشورة في المواقع التالية www.DITnet.co.ae www.law-mag.co.ae، يتبين منها ان التجارة الإليكترونية في بلاد العرب امامها معوقات وتحديات متعددة منها: ضعف وهشاشة البنية التحتية الاتصالية في الدول العربية بوجه عام، وضعف انتشار الكمبيوتر ، وانتشار الامية الهجائية بالكمبيوتر ، وانخفاض نسبة الوعي بأهمية الإنترنت التعليمية والثقافية والسياسية والاقتصادية والعلمية والسياحية، وعدم إجادة الانجليزية ، وندرة المواقع العربية، وضعف انتشار الإنترنت في العالم العربي وقد يكون ذا تأثير سلبي اذا كنا نتكلم عن التجارة الالكترونية بين الدول العربية ، لكنه خاطيء



العرب في مجتمع الإنترنت

عندما نتحدث عن التصدير الإليكتروني الى البلاد المتقدمة حيث تنتشر إنترنت هناك على نطاق واسع ويشترى الكثير سلعا عن طريقها. لذلك فالعقبة الرئيسية هي الفهم القاصر لأهمية التجارة الإليكترونية ومقوماتها من قبل أصحاب الأعمال العرب. وينعكس ذلك في ندرة مواقع التجارة الإليكترونية العربية خاصة الموجهة للدول المتقدمة، وقصور الموجود منها عن تحقيق المتطلبات الاساسية للتجارة الألكترونية، عدم وجود مواقع لشركات الاعمال - المعلنين المحتملين ، وعدم فهم شركات التجارة الإليكترونية، عدم وجود مواقع لشركات الاعمال - المعلنين المحتملين، وعدم فهم شركات الاعمال لأهمية الاعلان الإليكتروني والنقص في جاهزية مواقع الويب في الدول العربية لتخديم الاعلان الإليكتروني وعدم تخصيص ميزانيات اعلان في مواقع الانترنت. ومازلنا بعيدين عن فهم طبيعة الفرص التجارية التي تولدتها إنترنت. فمواقع التجارة العربية لاتزال هامشية، وبعيدة عن توفر الشروط المطلوبة لنجاح هذا النوع المبتكر من التجارة ورغم أن البنوك تلعب دورا مركزيا ومحوريا في تنشيط التجارة الإليكترونية الا ان مواقفها المترددة والمتفاوتة لها دور سلبي في ابطاء حركة هذه التجارة. وأهم المعوقات التي تعوق انتشار التعاملات البنكية العربية عبر الشبكة هي عدم توافر حلول ذات واجهات استخدام سهلة تتيح انجاز العمليات ببساطة وكفاءة وتتكامل مع الأنظمة، والحلول المتوفرة في البنوك وتضمن في نفس الوقت درجة الأمان والسرية المطلوبتين من البنك والعميل على سواء ، التكلفة المرتفعة لبناء المواقع التجارية، وضيق استخدام وانتشار البطاقة الائتمانية، والتناقض بين رؤية أصحاب المتاجر الإليكترونية العربية، والمشترين العرب عبر الإنترنت كلها تمثل معوقات للتجارة الإليكترونية العربية. وهناك أيضا معوقات اجتماعية وثقافية منها التجاهل الكبير للغة العربية في الإنترنت ، حتى المواقع التي انشأتها مؤسسات عربية معظم نصوصها بالانجليزية، ونسبة العربية الى الانجليزية فيها ١ : ١٠٠٠، حيث يقدر عدد مواقع الويب في البلدان العربية ما بين ٧٠٠٠ و ٩٠٠٠ موقع يستخدم اكثر من ٨٠/ منها الانجليزية مع بداية عام ١٩٩٩، وتلعب عوامل التخلف الاقتصادي والتكنولوجي والتقاليد الاجتماعية السائدة في الدول العربية دورا معوقا للتجارة الاليكترونية العربية، مثل اعتبار زيارة مراكز التسوق من قبل الكثير من العائلات بمثابة نزهة، علاوة على أهمية رؤية البضائع وفحصها عن قرب ولمسها قبل عملية الشراء، لكن هناك بعض جوانب التقاليد الاجتماعية السائدة مشجعة للتجارة الإليكترونية العربية فالتفاوت الكبير في مستوى التطور بين المدن العربية الكبيرة الممثلة بمراكز التسوق الكبيرة من جهة والمدن العربية الصغيرة والارياف الفقيرة بهذا النوع من مراكز التسوق يلعب دورا ايجابيا في التسوق الإليكتروني العربي. وأيضا البنية العربية الاجتماعية المحافظة

والتى تحد من حرية المرأة فى الذهاب بمفردها الى مراكز التسوق يمكن ان تلعب دورا ايجابيا فى نمو التجارة الإليكترونية العربية. وهناك ايضا عدم جاهزية المستخدمين لممارسة التجارة الاليكترونية، وعوامل السرية والأمان، ونقص الخبرة لدى بعض المزودين وغالبية المستخدمين على السواء، وعدم تعود مستخدمى انترنت العرب على هذا الأسلوب فى الشراء. كلها عوامل اجتماعية قد تعيق التجارة الإليكترونية العربية ، علاوة على قيمة الحرص على الخصوصية تقف احيانا كمعوق للتجارة الإليكترونية حيث ان بعض محلات البيع عبر الإنترنت تطلب من المتسوقين الادلاء بمعلومات شخصية كجزء من اجراءات الصفقة الأمر الذى يثير قلق البعض على المصير الذى ستؤول إليه المعلومات التى يبوحون بها، فتصاعد المخاوف تجاه انتهاك الخصوصيات الشخصية يعد حاليا من ابرز العوائق امام نمو التجارة الإليكترونية العربية.

ان التجارة الإليكترونية تنمو بسرعة كبيرة فى البلدان المتقدمة، وهى تمثل الاقتصاد الرقمى الجديد ولا مفر منها أمام بلدان العالم الاخرى وان اهمال تنمية التجارة الإليكترونية لن يصرف مستخدمى انترنت العرب عن التسوق عبر الإنترنت بل سيدفعهم للتوجه بشكل شبه تام نحو متاجر الانترنت العالمية، وعلينا المشاركة فى وضع القواعد الناظمة للتجارة الإليكترونية العالمية، وعلى الحكومات واصحاب المتاجر الإليكترونية العربية التعاون على وضع قواعد لتشجيع وتنظيم التجارة الإليكترونية بين الدول العربية، والحصول على حصة مناسبة من السوق العالمية، من خلال ضرورة دعم التجارة الإليكترونية العربية المتجهة من داخل الدول العربية الى خارجها «التصدير» والتجارة الإليكترونية العربية البينية، والتجارة الإليكترونية المحلية واذا لم يتم ذلك فسوف تضر التجارة الإليكترونية بالاقتصاديات العربية بدلا من افادتها وهنا يجب ان يتم تدريس آليات واقتصاديات وخصائص وقوانين التجارة الإليكترونية فى المدارس والجامعات، والا ننسى أن عالم إنترنت مفتوح، ويتيح الفرص أمام أصحاب العقول، ولن يكون بإمكاننا مقاطعة الإنترنت اذا وجدنا انها تقدم مصالح الدول المتقدمة على مصالحنا لأن المقاطعة ستلحق بنا ضررا كبيرا، وسنكون اشبه بمن يفرض حصارا اقتصاديا على ذاته.

المصادر الاحصائية :

1 - Teledensity : International Telecommunication Union (ITU)

2 - Internet Penetration (DIT Group except for North Amercia .NeilsenNet netratings UK-NOP France Mediangel Germany Gfk Morocco SANGONet

3 - Internet Industry Almanac (Computer Industry Almanac)

4 - Intemet AL Alam AL ArabiArabic Language (Edition) July 1999 Published by Dabbagh Information Technology .(DIT) ■

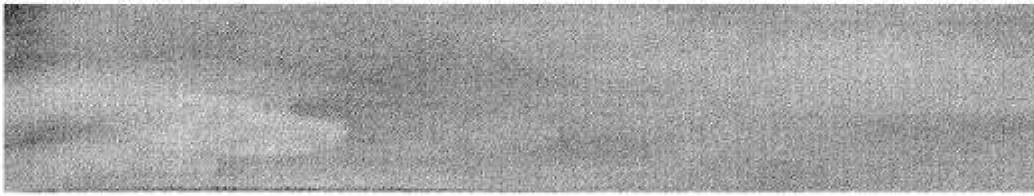
التصوف والحب

بقلم
حسن سليمان

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
فـاذا أبصـرتني أبصرته ... وإذا أبصـرته أبصـرتنا
«الحلاج»

حـقـيـقـتي همت بها ... ومـا رآهـا نظرى
«الشيخ الأكبر»

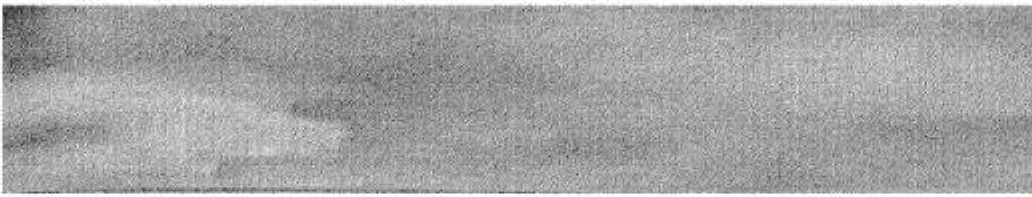
●● قال «جوته»: «إن حياة الفنان ورسالته رسالة قلب يخفق بالحب». هذا الحب لابد منه ولا غنى عنه، فهو رسالة الإنسان المقدسة فى هذه الحياة، وإذا نظرنا نظرة فاحصة إلى أعماق عقلنا الباطن لوجدنا أن الحب هو الدافع الرئيسى للفنان أو الصوفى، بحيث نستطيع القول بأن كل حركة من حركاتنا وسكنة من سكناتنا هى وليدة الحب نفسه، إذ يبعث الحب فينا انفعالات نفسية متراكدة تتآلف من تناقضها وحدته سواء كان ذلك فى الشك أم فى اليـقين.. فى اليـأس أم فى الأمل ●●



كل هذه المظاهر فى امتداداتها ليست إلا نتيجة طبيعية للحب الذى يعتلى فى قلوبنا، ويضطرب فى جوانحنا، وكل كبت يطويه الكائن الحى فى أعماق عقله الباطن يرجع معظمه إلى عدم تحقيق الرغبة الجامحة التى تروى الحياة بالإحساس، وتجعله شواظ من لهب، لا يكبت الانسان هذه الرغبة إلا إذا فقد القدرة على الحب من الناحيتين المعنوية والجسدية معاً، أو إذا كان المجتمع الذى يعيش فيه لا يقر هذه الرغبة، ولا يستجيب لها، فالانسان يفقدها رويداً.. رويدا، لا زهداً فيها، بل عجزاً عن الاحساس بها، والذى يزهد فى الحب هو إنسان أخفق فيه لعجزه عن أن يحب، وحينئذ فاستحالة أن يوجد فنان أو صوفى كبير تبنى حياته على كبت واحتياجات لرغبات لم يمكنه تحقيقها.

من هنا فالصوفى الورع المتقشف الذى يحيا فى دنيا غير دنيا الناس، لا يمكن أن يكون هو الانسان الذى يحب مرة فيفر هارباً، لأنه لم يظفر بما كان يصبو إليه وبالتالى فهو ليس الرجل الذى





يحب ويظل يحب دون أن يدرى أو يعلم كيف يحب، وكيف يستجيب للحب، أو كيف يحافظ عليه؟ وهنا يبدع لعجزه رموزاً فى عالم اللانهائيات ويستبدل مشاعره بمشاعر أخرى داخل إبداعه، إن هذا الانسان الذى يكبت رغبة الحب تحت تأثير عامل فردى أو اجتماعى يجد فى العكوف على الذات والانطواء ظناً منه أنه الحل، لكنه ضياع لنفسه.. يهرب من ذاته راغباً إلى ذات أوسع وأرحب.. إلى شىء خيالى يفنى فيه، ويتلاشى فى آفاقه، حتى يجد لرغبته الزاخرة منفذاً، وبذلك يتحول الاحباط النفسى إلى إحساس آخر، الذى قد يترجمه هذا الإنسان إلى تصوف صوفى كاتب، يفيض بانفعالات الطقوس الصوفية، وبما يسمى بالتذوق والهتك، والتشوق والسكر، وهكذا عبر حنين مكبوت فى الذات متلهف دائماً، لا يرتوى ولا يشبع نجده يجعل للمادة وليس للمطلق معنى ، فهو مازال فى أعماقه يهفو إلى الجمال الجسدى ، لأنه شىء كامن فى أعماقه لم يتحقق ، ولم يصل إلى أن يكون رمزاً مثالياً سامياً، إذاً فالارتواء الكامل من الحب البشرى المتكامل المنصهر لابد منه كى نصل إلى الحب الصوفى اللانهائى، كذلك فالفنان لا يستطيع إبداع فنه لو لم تكن له صورة مثالية فى خاطره، مثل هذه الصورة لن تتأتى أبداً من حرمان ولا عن عجز جنسى ، هذا الجمال الذى تكون فى أعماق الفنان عن طريق الحب المادى الملموس حتى وصل إلى حب مطلق محسوس يستقر فى أعماق الفنان، وهو بالضبط نفس الجمال المستقر فى أعماق الصوفى، إذ ليست تصوراته وهماً، وإنما هى وليدة حقيقة أكيدة، لأن التأثر بالجمال لا يمكن ارجاعه إلى الأصل كما يقول «كورن فيلد»: «إلا إذا حصل على النشوة الانسانية».

أقول إنها حالة من الوجد تلم بالصوفى والفنان وتحمله إلى كونه جزءاً لا يتجزأ من السماء ومن الشجر ومن الوجود نفسه، إنه الوجد الذى يدفع بعض الصوفيين إلى أن يكملوا هذه النشوة بوجد صوفى يحملهم إلى الرقص.

* * *

من الانطواء على النفس عرفت وجودى، بل قل حاولت أن أدرك هذا الوجود من خير وحقيقة وجمال، لم يعد مثلى الأعلى حقيقة خارجة عنى، بل حقيقة قائمة فىّ أنا، أنا ذلك الكائن الضئيل الحقير اللامتناهى فى نفس الوقت، ومنذ أن أدركت هذا عثرت على ضالتى المنشودة، فلم أتبرم من شىء، ولم أضجر من شىء، ذلك لأن الحياة انطوت فى أفقى

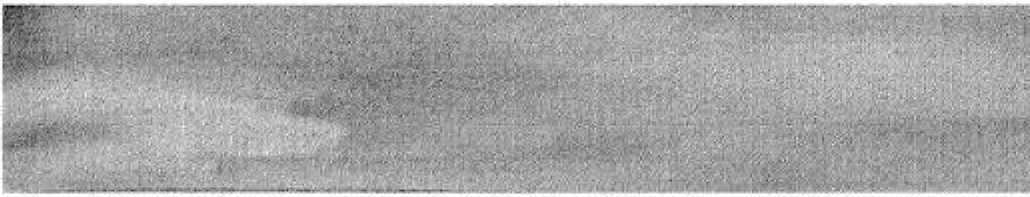
اللامتناهى الذى لن أصل إليه أبداً، وما علىّ إلا إضفاء النور على هذا الأفق ليشع ويزدهر، فما من شيء أحسه من هذا الوجود اللاملموس إلا وخليق بأن يُحب، لأنى جزء منه ، بل هو الدافع إلى ما أوتيت به من قدرة مبدعة.

* * *

من صومعة ذاتي عرفت مكاناً يُغش بصرى، فتلمست طريقى، لا رائد لى سوى قلبي، فإذا بى أؤمن بالحياة، ومع إيمانى بالحياة آمنت بنفسى، وآمنت أن الحياة حقيقة أكيدة تتجلى لنا متى تجلت لنا نفوسنا، وإن تجلت هذه الحقيقة عرف الانسان كيف ينثر الخير، ويبعث الجمال، ويضفى على الوجود الحب الذى لا يكتمل إلا بانصهار طرف مع طرف آخر.

إن الصوفى لو عاش فكرته أو أراد أن يجعل منها قاعدة عملية لدنياه لصارت حياته جديرة بالعناية، فهو حتماً سيصل إلى التجريد الصوفى كرياضة روحية ترمى إلى تطهير النفس وتحريرها من سلطان الغرائز والرغبات هو فى جوهره انعتاق من الحيوان الكامن فى ذات الانسان، والسمو بالنفس إلى مثالياته العليا التى يتصورها فى وجدانه، فالصوفى فى حالته هذه يسعى نحو تحقيق مثل عليا منشودة، وحينما يعتقد الصوفى بأن المثل الأعلى حلّ فيه، يعتقد أن مثل هذا الحل هبط من السماء إلى الأرض، وأضفى عليه صفة بشرية، وهى حالة مثل التى كانت تدفع «نيجنسكى» راقص الباليه المشهور قبل أن يندفع إلى خشبة المسرح ليصيح قائلاً: «أنا اله .. أنا اله».

لكنّ هناك نوعاً آخر من الصوفية، وهو نوع من النزعة الصوفية التى يؤمن كثير من الصوفيين بحيلولة الروح الالهية فى أعماقهم، إذ إن الصوفى يتطلع بنظره إلى السماء صافياً إلى الوجود كله قدوة، وحتى حالة فنائه فى هذا الوجود لا يعتبر نفسه مثلاً أعلى ، بل هو صورة من صوره، ، ومن هنا ندرك الأسباب التى حملت بعض المتصوفة إلى إنكار نزعة «الحلاج» أى «النزعة الحلولية»، فقد دعا الحلاج إلى الآله الانسانى، لا إلى الانسان الآلهى، وبذلك عرض نفسه لنقد كثير من المتصوفين الذين لا يذهبون هذا المذهب، لكنّ معظم المحبين والفنانين يحسون بالاله فى أعماقهم، من هنا فالشيخ «الشعرانى» (رحمه الله) أدرك هذا فى كتابه «طبقات الصوفية الكبرى». إن من لا إلمام له بمصطلحات أهل الطريق قد ينكر عليهم نظرهم إلى الأشياء، بل ويجدها كفراً، فقد يقول الصوفى: «حقيقة التقوى هى ترك التقوى» وقد يقول المحب: حقيقة الحب هى



ترك الحب، وقد يقول: حقيقة التوبة هي التوبة من التوبة. ومثل هذا الكلام مدعاة إلى تفكير، ولكني أجده العمق نفسه، أجده مدعاة إلى التأمل وإلى التدريب الروحي. فالصوفي يذهب في تكسير ما يُعرض عليه إلى مذاهب غير مألوفة، ومسالك غير معروفة فيخيل إلى الناس أن ما جاء به الصوفي بدعة، وهو هنا بالضبط مثل المحب الذي يختلط عليه الأمر، ومثل هذا الكلام كما يقول «الشعراني» مدعاة إلى تكفير صاحبه إذا حملناه على معناه الظاهري لا على معناه الباطني، و«الشعراني» لا يأتي بشرع جديد، لكن يأتي بفهم جديد، مثل هذا الفهم كان نكبة فيما سبق لبعض الصوفيين، وكثير من مفكري العالم من مختلف الجنسيات.

* * *

والحقيقة أن الحب العميق الذي يصل إلى أسمى مراتب الوجود هو الذي يفجر الحب الالهي، كالحب الروحي الذي يصل الانسان بالاله ويحدوه إلى الاتحاد به والتلاشي فيه، وهو من جراء تأمله في المحبوب دون أن يراه لينتهي به المطاف إلى شوق لا تخبو جذوته، إذ يقف بالمحب إلى حدود اللامتناهي فتتكشف أمام ناظريه آفاق الفكرة المدخمة بالعاطفة المشبوبة فإذا به والعاطفة المشبوبة شيئاً واحداً، فتبدو فكرته بأنها عاجزة عن البيان لأنه نفسه أصبح شوقاً، لافرق بينه وبينها.

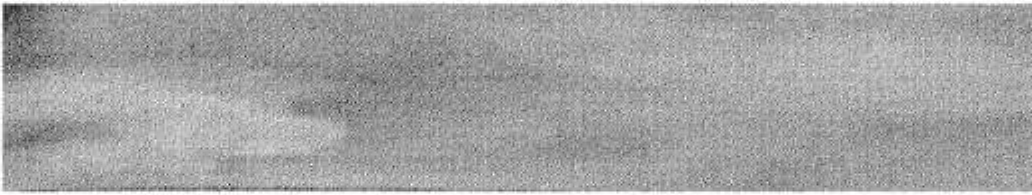
* * *

تحدثنا عن الصوفية.. لكن السؤال المطروح الآن.

هل يمكن لأي فرد أن يكون صوفياً؟

أشك في هذا .. فحقيقة العلم كما قال أحد الشيوخ: «ما كشف عن السرائر». والمرأة لا تكشف أبداً عن سريرتها. لقد كان «الخضري» تلميذاً لابن «سُريج»، وكان ابن «سُريج» تلميذاً «للمازني»، و«المازني» تلميذاً للامام «الشافعي». وتعتقد جماعة الشيخ الكبير «بايزيد» كان مريداً «لجعفر الصادق» - رضي الله عنه - كان جعفر الصادق يدعوه «بايزيد السقّاء»، فالمريد لا يكون إلا على مذهب شيخه، ولا يجوز مخالفته في أي شيء من الاعتقاد أو الحركات، ومن ترك شيخه أو أستاذه ضلّ، بالضبط كما يترك الملاكم مدربه أو الرياضي مدربه.

فالقول إن اعتراف الفنان أو الصوفي بأن كل شخص أفضل منه أمر طيب جداً، والقول بترك الاعتراض في جميع الأحوال طريق حسن جداً، وأنه لمن الأقرب إلى الصواب لمن يتبع عثرات الآخرين أن ينشغل بإصلاح نفسه أولاً، ولا يمكن أن



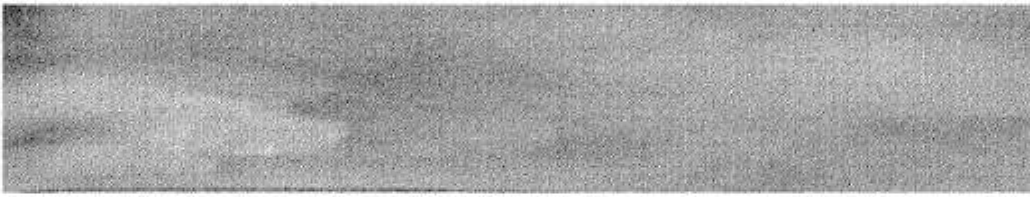
يتـأتى هذا إلا بالولاء للاسـتـاذ أو الشيخ، لأنه يهديه إلى كيف يسأل الله سبحانه وتعالى، أن يقرب الجميع إلى طريق رضـاه، وقـد قـال الشـيخ «أبو سـعـيـد» عن الشـيخ «أبو الفضل» إن المائة وأربعة وعشرين ألف رسول الذين أرسلوا إلى الناس بُعثوا ليعظوا بكلمة واحـدة ، وهي لا تخـرج عن . «الله»، واستغفروا فيها حتى وإن لم ترددوا كلمة الله». فالذين يستمعون إلى هذه الكلمة يجب أن يرددوها حتى يصير كيانهم كله هذه الكلمة، فإن تغلغلت في نفوسهم، واستغرقوا فيها تحرروا، وطبعت على قلوبهم، فأصبحوا في غنى عن قولها، وهذا دائماً ما حدث مع كبار الفنانين والموسيقيين .قـال الشيخ «أبوسعيد»: «لقد استولى عليّ هذا القول حتى حرمني النوم طوال الليل» . قـال «ميكانيل أنجلو»: «ارسم أيها الرسام ولا تتحدث». ولم تخرج هذه الجملة الصوفية عن كلمات هذه الآية القرآنية: «قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون».

إن الأمر يبدأ من الآية القرآنية: «إذا أراد الله بعبد خيراً دلّه على ذل نفسه». ولا طريق لذل النفس إلا عن طريق العمل المتواصل في الفن والوجد المقيم في القلب من الحب. ◦

في البداية يهتدي الصوفي إلى باب التوبة فيتوب ويسترضي خصمه ثم يعمل على اذلال النفس ، ويتقبل جميع الآلام ويسعى إلى راحة الناس بقدر المستطاع، ويزيد كل يوم في جهوده ويوجب على نفسه أشياء جديدة، ويمتنع عن اللقمة الحرام، ويقوم الليل، وقلما يتكىء على الأرض، بل ينام وهو جالس. ولا يتكىء على شيء، ولا يسأل أحداً شيئاً، بل هو مستسلم لإرادة الله، ولا يذهب إلى السوق، لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال: «إن أسوأ الأماكن السوق» لكن المقام الأخير في الصوفية بعد كل هذه المجهودات والعبادات والآلام والامتهان والتحقير، وإذلال الصوفي لنفسه، ينتهي به الأمر إلى الآية الكريمة: «ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق».

إن كل هذه التمارين انما تصل إلى أن يصل إلى ما يسمى بالحق وكثيراً ما يصل الأمر بالكثيرين إلى حالة أشبه بالبلبلة الفكرية والحيرة، وانكار الحقيقة رغم ايمانهم بها.

والحقيقة التي لا مفر منها، والتي يجب أن نؤكد عليها: إن اقامة الفرائض دون فناء النفس في المعبود لا قيمة له، فإذا كان المرء موجوداً، فانه موجود، والله موجود، إذاً هناك تفرقة بين العابد والمعبود، وهذا يفقد الكثير من معنى



التوحيد. لذلك يجب أن تفنى نفسك فى ذاتك حتى يتأكد فناء نفسك مع المعبود، وحرام عليك أن تتحدث إلى أحد سوى الله، تحدث إليه فى صمت، فمن أباح ضلّ. فأنت لن تكون عبداً لله ما لم تتحرر من نفسك، ويجب أن تتذكر دائماً: ألا فائدة لله فيك، ولا حاجة له إليك.

وهناك أصل متعارف عليه عند كل الصوفيين ، وهو أن الكل واحد، والواحد كل ، ولا يوجد خلاف بين جميع الصوفيين، ولا يدخل فى هذا كل من كان زيفاً مظهره كالصوفية، وإذا كانت ألفاظ الشيوخ تختلف من حيث العبارة، فإن المعانى كلها واحدة، وكل من كان مقبولاً عند شيخ، يكون مقبولاً لدى الجميع ، ومن كان مردوداً عند واحد، يكون مردوداً عند الجميع.

إن نصيب المرء من التوحيد والاشارة والعبارة ناقص فليس لوجود الحق تعالى اشارة وعبارة، وإذا سأل أحد، من هو الله؟ فهذا كفر ، لا تقل أعرفه، لأن هذا شرك، ولا تقل لا أعرفه فهذا كفر.

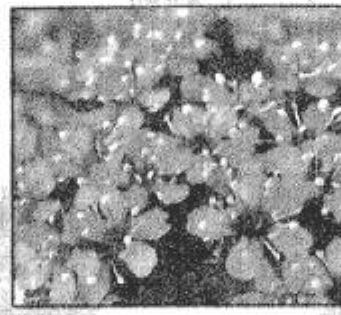
لقد عرفنا الله لذاته وألوهيته بفضله، إن غاية العبادة، هى العبادة، وغاية الحب هى الحب، وغاية الفن هى الفن. قال الشيخ «أبو سعيد» : «يا الهى..!!! بعد أن حدث أن واحداً منهم ظهر شىء من كراماته دون قصد، فدعا الله (سبحانه وتعالى) قائلاً: «ياالهى.. لقد اطلع الناس على ما بينى وبينك فانزع اللهم روحى، فليس لى قدرة على تحمل الناس، لانهم سوف يشغلوني عنك»، ومات فى الحال.

إن المشايخ الحق يخفون أنفسهم ولا يجهرون بحبهم لله أو عبادتهم له، كذلك المحب الحقيقى، أو الفنان الحقيقى فالمشايخ لا يجتهدون فى إظهار كراماتهم، بل يسعون إلى اخفائها :

قال «أبوسعيد» . «إنكم تقرءون الأوراد، وتصلون من أجل ثواب الآخرة، وطلب المنزلة، وهذا من أجل أنفسكم، وإذا كنتم تريدون الخير لطلبتموه من أجل حبكم وفنائكم فى الله، اللهم أجعل كل عذاب سوف تعذبه لعبادك من نصيبى أنا، حتى آخذ حقى كاملاً منه».

وأخيراً أنهى كلماتي بكلمة فى التوحيد قالها الرسول «صلى الله عليه وسلم»: «سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته».

إن كثيراً من الأفعال تفعل على أنها عبادة لله من : نُسك وحب وفن، والحقيقة أنها دون فناء واخلاص فهى ليست أكثر من ادعاء وتظاهر وهوى بالنفس، فمادام حب الله غايته نهى النفس عن الهوى، إنها أشياء يجب أن تُغلق فمك عنها إلى الأبد، حتى لا يبقى منك أو منها شىء. ■



أنعم الله

شعــر

محيي الديـن عطية

ترى كيف تشدو بالدعاء البلابل
وبالذكر والتسبيح تغدو وتقبل

ومن علّم السحب البكاء تضرعا
وكيف استجابت بالسجود السنابل

ومادام كل الكون لله ذاكراً
فما بالنا نحن الألى فيه نغفل

وما بال أقوام تعامت قلوبهم
وأجسادهم في أنعم الله ترفل

فإن كنت قد أوتيت نبعا من الهدى
فروّى به دنياك دوماً وتنهل

فكم من حبيس في الضلالة جيثما
سعى ضاربا في الأرض مسعاه باطل

وكم من عليل يشتهي النبض قلبه
يسير الهوينى للردى وهو ذاهل

وكم معدم لا يملك الخبز مطعما
فصحراؤه عطشى وواديه قاحل

ورب الذي يؤتى قصوراً وضيعة
عقيم فريد حوله الصمت قاتل

ألا إن دقات القلوب رسائل
لمن يحسن الإنصات منا ويعقل

انتخابات الدائرة السادسة

بقلم
د. عبدالعظيم أنيس

اتجهت الثورة إلى إجراءات انتخابية لأول مرة بعد انتهاء العدوان الثلاثى وهزيمة أهدافه . وتحدد شهر يوليو سنة ١٩٥٧ موعدا لإجراء الانتخابات . وبالطبع لم تكن هناك أحزاب رسمية تتقدم لدخول هذه الانتخابات ، وإنما يتقدم الأفراد الراغبون فى دخولها إلى لجنة يرأسها عبدالناصر وتضم فى عضويتها عبدالحكيم عامر وزكريا محيى الدين وكمال الدين حسين فيما أذكر .

ولقد تقدم إلى هذه اللجنة عدد من اليساريين المعروفين طالبين الترشيح فرفضتهم ، وتقدمت أنا بطلبى إلى اللجنة ، فوافقت اللجنة على ترشيحى لمجلس النواب . وكان سبب الموافقة فيما أعتقد هو موقفى فى بريطانيا عند تأميم القناة ، مدافعا عن التأميم فى اجتماعات بريطانية مختلفة كان آخرها الاجتماع الحاشد فى ميدان الطرف الأغر فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦.

وقد اخترت أن أتقدم للدائرة السادسة (الوايلى) لأن أهلى جميعا من عائلة الأب أو الأم يقيمون فى العباسية طوال حياتهم. وقد نشأت فى العباسية وتعلمت فى مدارسها ، حتى كلية العلوم التى التحقت بها جامعيا كانت فى العباسية آنذاك .

وتجمست لترشيحي كل فصائل اليسار في مصر باستثناء جماعة «حدتو» التي اختارت أن تؤيد في هذه الدائرة عاملا من عمال الترام (عبدالعزيز مصطفى) وقيل حينذاك أنهم قرروا تأييده لأنه عضو في تنظيمهم ، بينما قال الشيخ مبارك بعد ذلك بسنوات طويلة في ذكرياته أنهم أيدوا عبدالعزيز مصطفى لأنه عامل ، أي أنهم فضلوا العامل على المثقف وهي حجة سخيفة أمام أي فكر يساري عاقل .

ولقد بلغ حماس المثقفين لترشيحي أن وقع عدد من كبار المثقفين بيانا يعلنون فيه تأييدي ويدعون الناس في الدائرة السادسة إلى الوقوف معي . ومن هؤلاء أتذكر أسماء إحسان عبدالقدوس رئيس تحرير روزاليوسف وكامل الشناوي رئيس تحرير الجمهورية وأحمد بهاء الدين الكاتب المعروف والدكتور لويس عوض . ومع أنني لم أسع للحصول على توقيع نجيب محفوظ إلا أنني عندما كنت أزور بعض المنازل في منطقة « بين الجناين » حيث كان يسكن هو آنذاك أفاجأ بمن يخبرني من السكان أن الأستاذ نجيب محفوظ قد زارهم بيتا بيتا مؤكدا عليهم أهمية انتخابي . وبالطبع كان لمثل هذا الخبر تأثير عظيم في قلبي وتقدير أعظم في نفسي ، مع أننا حتى ذلك الوقت لم نكن على صلة قريبة من الناحية الشخصية وإن كان قد أهداني ثلاثيته عندما صدرت .

وتحمس أيضا لترشيحي الطلاب العرب في الجامعات المصرية من فلسطينيين وأردنيين وسوريين ولبنانيين ويمنيين حتى أن اجتماعاتي الانتخابية لم تكن تخلو في يوم من الأيام من حضورهم وهتافاتهم ، مما خلق جواً عربياً احتفالياً في الدائرة السادسة .

موقف مضاد !

وقد أصبح من الواضح لي بعد أيام من النشاط الجماهيري في الدائرة أن هناك قوى في الدولة تقف ضد انتخابي ، اتضح هذا من مضايقات البوليس لي ورفض التصريح بعقد الاجتماعات أو اشتراط عدم استعمال الميكروفونات، حتى عندما بدأ زملائي في جريدة المساء في التبرع المالي لمساعدتي اتصل أحد المسئولين بخالي محيي الدين رئيس التحرير طالبا التوقف عن ذلك .

وعندما نظمت اجتماعا جماهيريا واسعا في ميدان الوايلية قرب يوم الانتخابات أخذ بعض رجال الحكومة وزملاء من « حدتو » الذين كانوا يناصرون عبدالعزيز مصطفى يتصلون بالناس هاتفيا أو بالمقابلة يثنونهم عن حضور المؤتمر بحجة أن بعض الاشرار سوف يلقون « ماء نار » على وجوه من يحضرون. ومع ذلك فقد حضر الكثيرون وكان يجلس معي على المنصة أحمد بهاء الدين، ولويس عوض ود . عبدالمجيد أبوحجلة (من قيادات الأردن آنذاك) وآخرون لا أتذكرهم ، وامتلأ السرادق



بآلاف من أهل الدائرة والزائرين . وابتدأ الاجتماع بكلمة جامعة منى ومن الآخرين . فلما أدرك البوليس أن مساعيهم باءت بالفشل هجموا بالقوة على السرادق وأمعنوا فى ضرب الناس لإخراجهم من السرادق ، بل لقد حاولوا الوصول إلىّ بهدف الاعتداء أيضا لولا أن عددا من الزملاء أحاطوا بى وأخرجونى سالما من باب خلفى ، ولا أنسى فى هذا الصدد الدور الكبير الذى لعبته الفنانة العظيمة محسنة توفيق التى كانت آنذاك طالبة فى الثانوية العامة شديدة الحماس لانتخابى .

وقد تبين يوم الانتخاب أننى حصلت - رغم كل ماحدث - على أعلى أصوات ضمن تسعة كانوا مرشحين فى تلك الدائرة، منهم الممثل سراج منير . لقد حصلت على أكثر من خمسة آلاف صوت ويلينى بعد ذلك عبدالعزيز مصطفى الذى حصل على ألفى صوت .

وحيث إن عدد الأصوات فى الدائرة كان حوالى ١٢ ألف صوت ، فقد كان لابد من الاعادة بينى وبين عبدالعزيز مصطفى.

ولما كانت وزارة الداخلية تعلم أن غالبية أهل الدائرة يؤيدوننى ، فقد لجأت إلى استبدال صناديق الانتخاب بصناديق أخرى أدخلت إلى قسم الوايلى فى المساء باعتبارها أنها الصناديق الحقيقية .

وكنت قد اتفقت مع بعض أنصارى على مراقبة القسم ليلا خوفا من حدوث هذا وكانت النتيجة أن قبض عليهم وضربوا ضرباً مبرحاً ومنهم رشدى خليل رحمه الله .

وأعتقد أن أكبر خطأ وقعت فيه أننى لم أتمم على الصناديق كما يفعل بعض المرشحين ، خصوصاً أن بعض أنصارى طردوا من اللجان الفرعية خلال الانتخابات .

ومن المصادفات الغريبة أننى بعد هذه الأحداث بسنوات عدة وكنت معتقلا آنذاك بسجن الواحات ، قابلت بالصدفة رجلا كان مشتركا فى عملية تبديل الصناديق وحكى لى تفاصيل القصة وقال لى: إنه كان آسفا على ذلك ولكنها كانت تعليمات لابد من تنفيذها .

لقد كنت ذاهبا من سجن الواحات إلى مستشفى بأسيوط للعلاج ، وحضرت سيارة بها ضابط ومخبر وسائق طبعا . وكان الضابط يجلس إلى جانب السائق بينما جلست أنا والمخبر فى السيارة البوكس فى الخلف وفى الطريق بدأت الدردشة العادية مع المخبر إلى أن سألنى إن كنت أذكره . قلت : لا أبدا . فضحك وقال: إنه كان فى قسم الوايلى عام ١٩٥٧ وحكى لى قصة الصناديق التى استبدلت فى الدائرة



السادسة لإسقاطي وإنجاح عبدالعزيز مصطفى .

أتذكر أنه في اليوم الذي هجم فيه البوليس على الاجتماع الجماهيري قبل الانتخابات بأيام قليلة ذهبت بعد الحادث إلى جريدة الجمهورية وقابلت كامل الشناوي - (وكان صديقا حميما لي وواحدا من أنصاري) وحكيت له ما حدث . وبينما نحن نتحدث في الموضوع دخل إلى الغرفة أنور السادات (وكان أنذاك رئيس مجلس إدارة الجمهورية) وطلب مني كامل الشناوي أن أعيد القصة أمام أنور السادات ففعلت ، فقال أنور السادات بعد برهة : أكتب تقريراً بما حدث وسأرفعه إلى الرئيس عبدالناصر وأعطاني كامل الشناوي بعض الأوراق فأخذت في كتابة القصة كاملة وأنا في حالة انفعال كامل .

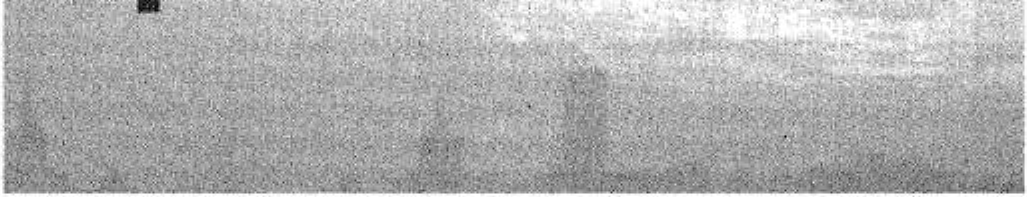
ولا أدري حتى اليوم إن كان ما كتبته قد وصل عبدالناصر حقا ! وكل ما أعرفه ما حكاه خالد محيي الدين لي بعد ذلك عند لقائه بعبدالناصر من أنه عاتبه على الأقوال السائرة أنذاك بتزوير انتخابات الدائرة السادسة ، لكن خالد محيي الدين تمسك بصحة هذه الأقوال وقدم لعبدالناصر أمثلة على هذا التزوير . فمثلا في إحدى الشياخات الفرعية كان هناك من أقاربي حوالي ١٢ شخصا ذهبوا جميعا لانتخابي في الاعادة بينما النتائج في هذه الشياخة تقول أني حصلت على ٤ أصوات فقط !.

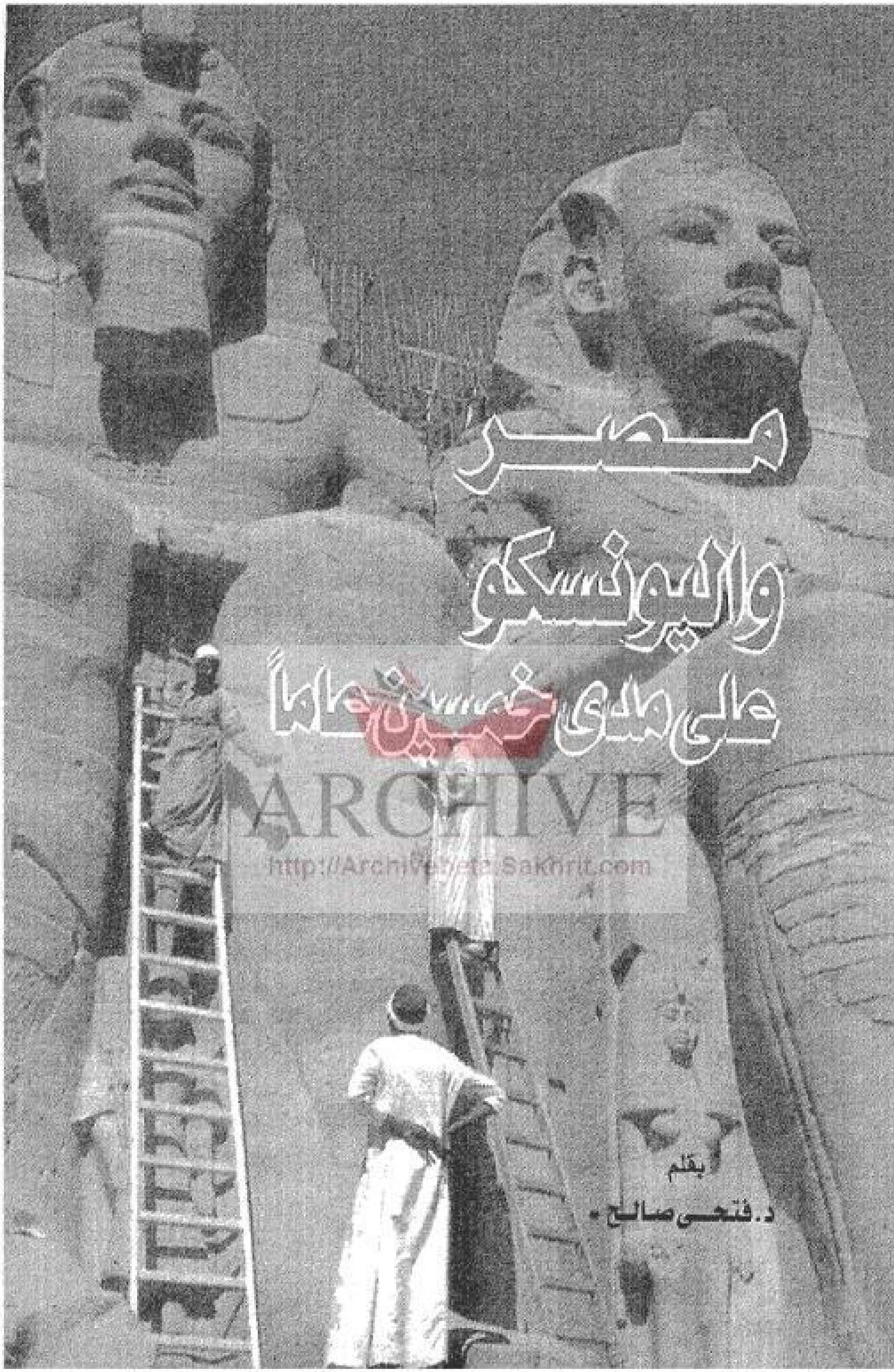
المهم أن هذه الانتخابات وما حدث فيها قد خلقت جوا من الريبة بيني وبين عبدالناصر ، حتى أنه أخذ يستمع لبعض القيادات البعثية ، وخصوصا ميشيل عفلق الذي لم يكن يحبني وكنت أبادله نفس المشاعر .

حدث أن كتبت مقالاً في صحيفة المساء استخدمت فيه تعبير (الحركة الوطنية العربية) فإذا بميشيل عفلق يقنع عبدالناصر أنني معاد للقومية العربية ، واتصل عبدالناصر بخالد محيي الدين مهددا باعتقالي . وقد دافع خالد عني دفاعاً مجيداً ، وكنت بالمصادفة في غرفته عندما حدث اتصال عبدالناصر به. وفي النهاية أمر أن أتوقف عن الكتابة .

واتفق خالد معي على أن أستمر في الكتابة دون توقيع ، فكنت أكتب المقال بتوقيع «مراقب» ، ومن يعود إلى صحيفة المساء عام ١٩٥٨ سوف يرى العديد من المقالات بهذا التوقيع .

واستمر الحال على هذا المنوال حتى حملة أول يناير سنة ١٩٥٩ الشهيرة التي تم فيها اعتقال المئات من اليساريين وكنت منهم ، وعندما فتشوا منزلي لم يجدوا فيه غير بيان كنا نجمع عليه التوقيعات يطالب الرئيس عبدالناصر بالديمقراطية السياسية .




مصر
واليونسكو
على مدى خمسين عاماً
بقلم
د. فتحي صالح
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

علاقة مصر باليونسكو علاقة خاصة جداً، فمصر من أوائل الدول التى وقعت على ميثاق اليونسكو. ومصر كانت بها أول حملة دولية لإنقاذ آثار، وهي حملة إنقاذ آثار النوبة تبعتها بعد ذلك خمسون حملة عالمية أخرى لليونسكو. وكان آخر هذه الحملات، مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية.

ومصر من الدول القليلة التي حظيت بمقعد بالمجلس التنفيذى للمنظمة منذ إنشاء المنظمة حتى الآن (ما عدا فترات صغيرة).

وفي هذه المقالة نلقى الضوء على الجوانب المختلفة لهذه العلاقة الفريدة.

شعرت شعوب العالم، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٥، بمسيس الحاجة إلى إيجاد كيان دولى يجمع الدول المختلفة فى مجتمع عالمى يكون من واجباته بحث القضايا الدولية المختلفة. ومن هنا تأسست منظمة الأمم المتحدة والتى عكس ميثاقها هذا الإحساس العالمى بالخروج من كارثة الحربين العالميتين الأولى والثانية على ما يلى:

«نحن شعوب الأمم المتحدة قد عقدنا العزم على حماية الأجيال القادمة من ويلات الحرب التى ولدت، مرتان فى حياتنا، حزناً كبيراً للبشرية، ونؤكد إيماننا بإرساء قواعد حقوق الإنسان وبحق الفرد فى العيش فى كرامة وفى مساواة الحقوق بين الرجل والمرأة والشعوب كبيرها وصغيرها».

وقد كان لهذه المنظمة الصفة السياسية فيما يشبه مجمع لوزارات الخارجية فى العالم. فكانت الخطوة التالية هو إنشاء كيانات دولية أخرى تابعة لمنظمة الأمم المتحدة ومتخصصة فى المجالات الأخرى للدول غير المجال السياسي. فكانت المنظمة العالمية للزراعة IFAO، المنظمة الدولية للعمل ILO والمنظمة الدولية لرعاية الطفولة UNI-SEF وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية UNDP وغيره وغيره، وأخيراً منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة UNESCO التى نحن بصدد التحدث عنها وعن علاقتها بمصر فى هذا المقال. وقد أعلن عن قيام هذه المنظمة فى لندن فى ١٦ نوفمبر عام ١٩٤٥ يبدأ ميثاق

• مدير المركز القومى لتوثيق التراث الحضارى والطبيعي وسفير مصر السابق لدى اليونسكو.

مصر واليونسكو

هذه المنظمة بجملة بالغة التأثير وهى :

«لما كانت الحروب تتولد فى عقول البشر، ففى عقولهم يجب أن تبنى حصون السلام».. وتنتهى بالتعبير التالى: «تنشىء الدول بموجب هذا الميثاق منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، لكى تسعى عن طريق تعاون أمم العالم فى ميادين التربية والعلوم والثقافة، إلى بلوغ أهداف السلم الدولى، وتحقيق الصالح المشترك للجنس البشرى، وهى الأهداف التى أنشئت من أجلها منظمة الأمم المتحدة والتى ينادى بها ميثاقها».

وعند إنشاء المنظمة، وقع على ميثاقها ٢٨ دولة. وكانت مصر من أوائل الدول التى وقعت على هذا الميثاق. وقد وصل عدد الدول المشتركة فى المنظمة فى وقتنا الحالى ١٨٦ دولة.

ومما هو واضح من اسم المنظمة فإنها تعنى بثلاثة جوانب وهى التربية والعلوم والثقافة، وان كان قد رسخ فى ذهن الأفراد بصفة عامة، أن هذه المنظمة تعنى بالثقافة فقط. وذلك لارتباط اسم هذه المنظمة بحدث تاريخى هام أعطى لهذه المنظمة اسما خاصا وأهمية خاصة وهو حملة إنقاذ آثار النوبة بصفة عامة وإنقاذ معبدى أبوسنبل بصفة خاصة. ولذا فعندما كان لى شرف تمثيل مصر فى هذه المنظمة، كنت أردد بين الوفود بأنه «مثلما اليونسكو فضل على مصر فى المساهمة فى إنقاذ آثار النوبة، فإن لمصر فضلا على اليونسكو فى إعطاء الشهرة والمكانة المناسبة فى الحفاظ على التراث العالمى لليونسكو» ولذلك قصة طويلة سأرويها هنا .

اليونسكو وحملة إنقاذ آثار النوبة

بدأت هذه القصة فى أعقاب اضطلاع الدكتور ثروت عكاشة بمهام وزارة الثقافة والإرشاد القومى فى شهر نوفمبر عام ١٩٥٨ حين زاره السفير الأمريكى فى القاهرة يصحبه مستر روريمر مدير متحف المتروبوليتان بنيويورك الذى بادره قائلاً : «جئت أشترى واحداً أو اثنين من معابد النوبة المحكوم عليها بالغرق بعد بناء السد العالى».

فرد عليه: «إنه لجدير بمتحف المتروبوليتان أن يبادر بالعون العلمى لإنقاذ هذا التراث الإنسانى بدلاً من التفكير فى شرائه».

وقد قام الدكتور ثروت عكاشة بعد هذه المقابلة برحلة إلى منطقة النوبة

استمرت أسبوعين تنقل فيها من معبد إلى آخر، وفزع عندما اكتشف أن ما كان يجرى هناك كان مقصوراً على تسجيل وتوثيق هذه المعابد وحصر بعض المواقع الأثرية فحسب، على أساس أن هذا الجهد هو كل ما تتسع له إمكانيات الدولة حينذاك.

وكان قد سبق ذلك فى عام ١٩٥٤ تكوين بعثة، عندما بدأ التفكير فى مشروع السد العالى، ضمت عدداً من علماء الآثار والمهندسين المصريين، لوضع تقرير عن وضع آثار بلاد النوبة. ووضعت البعثة فيها تقريراً عن الأماكن الأثرية التى ستغمرها المياه والمناطق التى ترى إجراء أعمال حفر وتنقيب بها، ودرست احتمال إمكان إنقاذ عدد محدود من المعابد. وقد نشر هذا التقرير فى يونيو عام ١٩٥٥ بلغات ثلاث هى العربية والفرنسية والإنجليزية تحت عنوان «تقرير عن آثار النوبة المعرضة لأن تغمرها مياه السد العالى».

فى ذلك الوقت وقع حدث مهم فى الحقل الأثرى، هو اتفاق وزارة التربية والتعليم المصرية أثناء ولاية السيد كمال الدين حسين مع منظمة اليونسكو فى مايو ١٩٥٥ للتعاون فى تسجيل الآثار المصرية وما عليها من نقوش ونصوص عن طريق إنشاء مركز خاص لتسجيل ودراسة تاريخ الفن والحضارة.

ويقول الدكتور ثروت عكاشة فى مذكراته عن هذا الموضوع: «هكذا كانت الصورة فى أواخر عام ١٩٥٨: خطوات جادة لإنشاء السد العالى وتسجيلات لآثار النوبة، وأيد مكتوفة أمام الخطر المحدق بآثار النوبة الغالية، وحيرة عميقة فى النفوس أمام هذا التساؤل: كيف لثورة يوليو ١٩٥٢ أن تشترى رخاء المستقبل بالتفريط فى معالم خالدة من تراث الماضى؟ وكيف يكون مستقبلنا مشرقاً إلا إذا كان امتداداً لماضينا العريق؟».

عزم الدكتور ثروت عكاشة على الاتصال بمدير منظمة اليونسكو ليستوضحه الرأى فى هذا الموضوع ويعلم منه مدى العون الذى تستطيع المنظمة أن تمنحه لمصر فيما إذا قدر لنا أن نأخذ فى إنقاذ هذه المعابد. فانتهز فرصة وجود مساعد المدير العام المسيو رينيه ماهيه فى أديس أبابا، فاتصل به ليلقاه فى طريق عودته إلى باريس، فكان هذا اللقاء فى مطلع شهر يناير ١٩٥٩ بالقاهرة بين موعد طائرتين نظراً لارتباطه بالتزام



رسمي في اليوم التالي بمقر المنظمة بباريس.

وقد اصطحبه الدكتور ثروت عكاشة إلى مكتبه بقصر عابدين حيث قام بإعداد خريطة لمجرى النيل من وادي حلفا جنوبا حتى أسوان شمالاً مبيناً فيها المعابد السبعة عشرة المنتشرة على ضفتي النيل لتكون تحت بصر رينيه ماهيه، وكذا عرض عليه صوراً فوتوغرافية مكبرة لكل معبد على حدة كي تكشف له عن أهمية الدور الذي يمكن أن تؤديه منظمة اليونسكو إذا ما شاركت في تنفيذ مشروع قد يغدو أعظم إسهاماتها في الميدان الثقافي، وهو إنقاذ معابد النوبة وآثارها التي تشمخ بين أروع وأخلد ما صنعته يد الإنسان منذ فجر التاريخ البشري. وطلب الدكتور ثروت عكاشة من مسيو ماهيه أن تعد منظمة اليونسكو حملة دولية لإنقاذ هذه الآثار تجمع فيها المساهمات المادية والعلمية.

ومضى مسيو رينيه ماهيه إلى باريس بعد أن وعد أنه في خلال ثمان وأربعين ساعة سيعرض الاقتراح على السنيور فيتورينو المدير العام لليونسكو ويفيد بعدها بما يستقر عليه الرأي.

ولم تكد تمضي اثنتا عشرة ساعة حتى اتصل رينيه ماهيه من باريس بالدكتور ثروت عكاشة يفيد أنه قد عرض الموضوع على المدير العام. وأن السنيور فيتورينو أبدى اقتناعه بالمشروع، وبأنه على استعداد لعرضه على المجلس التنفيذي لليونسكو إذا ما تسلم طلباً رسمياً من الحكومة المصرية.

وتوالت الأحداث ففي أبريل ١٩٥٩طلبت الحكومة المصرية رسمياً من اليونسكو المساعدة في إنقاذ آثار النوبة المهددة بالغرق بفعل تكوين بحيرة السد العالي.

وفي يناير ١٩٦٠ بدأ العمل في بناء السد العالي، تلا ذلك في مارس من نفس العام أن أصدر مدير عام اليونسكو نداء للمجتمع الدولي للمساهمة في إنقاذ آثار النوبة . وفي يونيو عام ١٩٦٣ أقرت الحكومة المصرية اختيار المشروع الهندسي الثالث لإنقاذ معبدي أبوسنبل والذي يقوم على تقطيع المعابد إلى عدة أحجار وإعادة تركيبها على مستوى أعلى (وذلك بعد رفض المشروعين الأولين والذي كان الأول يقوم على بناء سد حول المعبدين في موقعهما، والثاني يقوم على نقل المعبد ككتلة واحدة).



مكتبة الاسكندرية .. قلعة من قلاع مصر الحضارية

وفي ابريل عام ١٩٦٤، بدأ تنفيذ مشروع نقل معبدى أبوسنبل، وفى عام ١٩٧٠ انتهى العمل فى السد العالى، وفى مارس ١٩٨٠ كانت نهاية الحملة الدولية لإنقاذ آثار النوبة، هذا وقد بلغت تكاليف هذه الحملة حوالى ٧٠ مليون دولار ساهمت مصر فيها بعشرين مليون دولار.

وفي زيارة للسيد رينيه ماهيه إلى القاهرة أعلن:

«إن مصر هى أول دولة فى العالم خطرت لها فكرة اللجوء إلى منظمة دولية إيماناً منها بأن أعظم كنوز أرضها التاريخية والأثرية يؤلف جزءاً من تراث الإنسانية، وأن اليونسكو من أجل ذلك بادر فقبل القيام بمهمة فريدة كان الكثيرون يعدونها مستحيلة».

مركز التراث العالمى W. H. C

فى أعقاب النجاح المنقطع النظير لحملة إنقاذ آثار النوبة، تولد فى المجتمع الدولى فكرة المسئولية الدولية عن الحفاظ على التراث البشرى الموجود فى أنحاء العالم والذى له الصفة العالمية. ومن ثم ففى عام ١٩٧٢، وأثناء انعقاد المؤتمر العام لليونسكو، تم اعتماد الاتفاقية الدولية لحماية التراث العالمى الحضارى والطبيعى والذى كانت مصر من أوائل الدول



التى قامت بالتوقيع عليها. وفى العام نفسه تم انشاء «مركز التراث العالمى» التابع لليونسكو والذى يتولى إدارة تطبيق هذه الاتفاقية. وكان من أهم الأعمال المنوط بها لهذا المركز هو إنشاء ما يسمى «بقائمة التراث العالمى»، وهى قائمة تضم المواقع الأثرية والطبيعية الموجودة فى بلدان العالم المختلفة، والتى لها طابع عالمى مميز.

وقد وضعت معايير مختلفة يتم عن طريقها اختيار هذه المواقع الأثرية والطبيعية وتكونت لجنة من ٢١ دولة تسمى «لجنة التراث العالمى» يتم انتخابها من بين الدول الأعضاء فى المنظمة، وتقوم اللجنة بتلقى الترشيحات من الدول المختلفة لوضع المواقع المرشحة تحت هذه القائمة، وتقوم بالحكم على مطابقتها للمعايير العالمية التى وضعت للاختيار ، ومن ثم يتم الموافقة على المواقع التى تفى بهذه المعايير لتضم بصفة نهائية على قائمة التراث العالمى.

ووضع أى موقع تحت قائمة التراث العالمى يمثل شرفاً للدولة المتقدمة بهذا الموقع ويعطى هذا الموقع قيمة خاصة، وكما أن وضع أى موقع على قائمة التراث العالمى يضع مسئوليات للمجتمع الدولى تجاه هذا الموقع، فإنه يضع أيضاً مسئوليات على الدولة المالكة تجاه الحفاظ على هذا الموقع وطريقة إدارته والتعامل معه .

المواقع المصرية على قائمة التراث العالمى لليونسكو

كانت مصر من أوائل الدول التى حظيت بوضع بعض من مواقعها الأثرية على قائمة التراث العالمى، فقد تم فى عام ١٩٧٩ وضع خمسة مواقع دفعة واحدة وهى تعتبر من أضخم وأهم المواقع فى العالم التى تم رصدها على هذه القائمة. والمواقع المصرية هى :

منطقة آثار منف

وهى تشمل مساحة ضخمة تمتد ابتداءً من هضبة أهرامات الجيزة حتى منطقة آثار دهشور. وهى تشمل أربع مناطق آثار فرعونية وهى : منطقة آثار هضبة الجيزة، منطقة آثار سقارة، منطقة آثار أبوصير، منطقة آثار دهشور.

وغنى عن القول أن كل من هذه المناطق الأربع تحظى بجانب وجود الأهرامات بها، على مئات من المعابد والمقابر، كما يقرب عدد الأهرامات الموجودة بهذه المنطقة وحدها حوالى مائة هرم.

منطقة آثار طيبة

وهى المنطقة التى تشمل مدينة الأقصر ببريها الشرقى والغربى والتى تعتبر أعظم تجمع أثرى فى العالم.

وتشمل هذه المنطقة معبدي الأقصر والكرنك في البر الشرقي بجانب وادي الملوك ووادي الملكات ومعبد حتشبسوت ومدينة هابو والرمسيوم في البر الغربي، هذا بالإضافة إلى العديد من المعابد والمقابر الهامة الأخرى، يمثل كل أثر من هذه الآثار قيمة حضارية وتراثية فريدة للبشرية.

منطقة آثار النوبة

وهي منطقة ممتدة على طول حوالي ثلاثمائة كيلو متر في جنوب البلاد ابتداء من منطقة أبوسنبل جنوباً بمعبديها الشهيرين إلى معبد فيلة بأسوان شمالاً، وتشتمل على حوالي عشرين معبداً ذات قيمة تاريخية خاصة ، وكما ذكر سابقاً فإن هذه المنطقة الأثرية بالذات تمثل قيمة خاصة لمنظمة اليونسكو، حيث أنها تمثل أول حملة دولية لإنقاذ أثر عالمي، وتمثل نشأة فكرة المسئولية الدولية عن حماية الآثار وكانت الباعث على إنشاء مركز التراث العالمي.

منطقة القاهرة التاريخية

وهي تشمل الآثار الإسلامية والقبطية الموجودة بالقاهرة التاريخية والتي تربو على ٦٠٠ أثر والموجودة أساساً في تجمعات القاهرة الفاطمية ومحور الصليبة والقلعة، وكذلك منطقة الفسطاط والتي يرجع تاريخها إلى حوالي ألف وخمسمائة عام مضت وهي تعتبر في حد ذاتها أكبر تجميع في أي دولة في العالم لآثار إسلامية في منطقة واحدة.

دير أبو مينا

وهو دير مسيحي أثري من القرن الثالث الميلادي يقع على الساحل الشمالي غرب مدينة الإسكندرية ويمثل قيمة خاصة للتراث المسيحي القبطي في مصر.

هذا وقد بلغ عدد المواقع المسجلة من دول العالم المختلفة على قائمة التراث العالمي حتى الآن حوالي ٧٠٠ موقع.

ومما هو جدير بالذكر أن مصر تقوم الآن بترشيح مناطق أخرى لإضافتها إلى قائمة التراث العالمي وكذلك لإضافة بعض المناطق في قائمة التراث الطبيعي والذي ليس لنا فيه أي موقع حتى الآن.

من إنقاذ معبد أبو سنبل إلى مكتبة الإسكندرية

هذا وقد توالت مشروعات اليونسكو في مجال الثقافة مع الحكومة المصرية إلى أن كان آخرها مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية والذي يهدف إلى إحياء هذا الصرح العلمي والثقافي الذي تم بناؤه في القرن



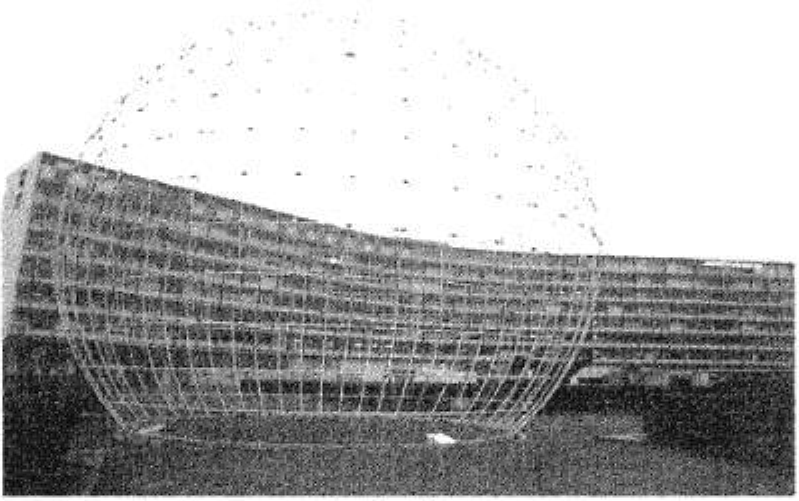
الرابع قبل الميلاد واختفى إثر حريق كبير أثناء فترة الاحتلال الروماني لمصر والتي كانت تعتبر بحق منارة للعلم والمعرفة لمنطقة حوض البحر المتوسط، ولذا كان هذا المشروع الرائد لليونسكو لإحياء هذه المكتبة بهدف بناء مكتبة عالمية عامة وحديثة تكون مركزاً للثقافة والعلوم والبحث العلمي. على أن توفر هذه المكتبة للدارسين من أنحاء العالم مجموعات من المراجع التي تركز على حضارة الإسكندرية بصفة خاصة والحضارة المصرية بصفة عامة، والحضارات القديمة والحديثة المتصلة بالمنطقة.

وبهذا الغرض تم عقد اجتماع عالمي بمدينة أسوان في ١٢ فبراير ١٩٩٠، حضره العديد من رؤساء الدول والشخصيات الدولية الهامة لإصدار «بيان أسوان» الشهير والخاص بهذا المشروع، وقد كان من بين الموقعين على هذا البيان السيدة سوزان مبارك حرم السيد رئيس الجمهورية والرئيس ميتران رئيس جمهورية فرنسا والملكة نور من الأردن والشيخ زايد بن سلطان آل نهيان أمير دولة الإمارات والأمير ترك بن عبدالعزيز آل سعود من السعودية والأميرة كارولين من موناكو ومدام ميلينا ميركوري من اليونان والملكة صوفيا من أسبانيا.

وقد تم، إثر توقيع البيان، حصول المشروع على منح تقدر قيمتها بحوالى ٦٥ مليون دولار لبدء المشروع الذى بدأ تنفيذه فى عام ١٩٩١ والذى ينتظر أن يتم افتتاحه فى ٢٣ أبريل عام ٢٠٠٢.

اليونسكو ومجالاته المختلفة

وبين هاتين الحملتين الكبيرتين، فلليونسكو العديد من الإسهامات الثقافية الأخرى، ولكن دعنا نلقى الضوء أيضاً على اليونسكو فى مجالات تخصصه الأخرى وهى التربية والعلوم، فقد حظيت مصر بمكانة خاصة مع اليونسكو فى مجال نشر برنامج القراءة للجميع والذى كان لمصر السبق فى نشر هذا البرنامج حتى أنها أخذت كمثال للدول الأخرى، وأقيمت العديد من ورش العمل الدولية للاستفادة من التجربة المصرية. ويكفى أن مصر قد حازت فى خلال عام واحد على سبيل المثال وهو عام ١٩٩٨/١٩٩٩ على ثلاث جوائز لليونسكو فى مجالاته المختلفة، ففى مجال التربية حازت مصر على جائزة



مبنى اليونسكو بباريس

محو الأمية وفى مجال العلوم حازت مصر على جائزة أحسن برنامج علمى للتنمية البيئية لمحمية العميد بالساحل الشمالى وفى مجال الثقافة حازت مصر على جائزة سيمون بوليفار للفكر الثقافى. كما أقام اليونسكو فى نفس العام احتفاليتين هامتين الأولى لتكريم الدكتور ثروت عكاشة بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على انتهاء مشروع إنقاذ آثار النوبة واحتفالية أخرى استمرت لمدة ثلاثة أيام لإحياء ذكرى عميد الأدب العربى الدكتور/ طه حسين، حيث أقيم معرض لصوره النادرة مع الشخصيات العالمية وكذلك تم عرض العديد من الأفلام التى أخذت عن قصصه كما تم إجراء ندوات عن أدبه وعن ثقافته بين مصر وفرنسا.

وفى النهاية فإننا نؤكد على العلاقة الخاصة بين منظمة اليونسكو والحكومة المصرية والتى برزت فى مشروع إنقاذ آثار النوبة وامتدت على مدى خمسين عاماً فى مجالات اليونسكو المختلفة من تربية وعلوم وثقافة لتتوج فى العام القادم بإذن الله بافتتاح مكتبة الإسكندرية. ■



من فيض يحيى حقى ..

صاحب القنديل وتأملاته الدينية

بقلم
مها محمود صالح



من بين ثمانية وعشرين كتابا لأستاذنا يحيى حقى أشرف على جمعها فؤاد دوارة وأصدرتها هيئة الكتاب يجئ هذا الكتاب الصغير تحت عنوان «من فيض الكريم» ليقدم وجها آخر من كتابات يحيى حقى . الكتاب تبعا لتقسيم المعد، يحوى مجموعة مقالات أدبية نشر معظمها فى جريدتى «التعاون» و«المساء» على مدى أعوام الستينات وبداية السبعينات، وتضم كما جاء على الغلاف الأخير للكتاب بعض التأملات الدينية تحت عناوين متعددة.

الكتاب إذن يجمع بين الأدب والدين، فماذا يا ترى يكتب يحيى حقى الأديب المولع بتأمل أحوال البشر واستكناه ما يدور فى نفوسهم فى تأملاته الدينية؟

إن هذا الاهتمام برصد تحولات البشر يتبدى فى تلك المقالات التى يخصصها المؤلف للحديث عن النبى (ﷺ) .

لقد كتب الكثيرون عن المصطفى (ﷺ) كتبوا عن سيرته وحياته، أو عن أفكاره وكلماته ، كتبوا عنه كصاحب دعوة أو قائد عظيم وهم فى ذلك كله مستندون إلى ما نقله آخرون من أوصافه وما روى من أحداث حياته . أما يحيى حقى فهو يهتم بتلك اللحظة التى تحول فيها محمد بن عبدالله إلى محمد خاتم الأنبياء ، تلك اللحظة التى اعتاد المؤرخون وكتاب السيرة أن يكتبوا عنها باقتضاب ما معناه أن الرسول كان يذهب قبل نزول الوحى للتعبد فى غار حراء.

أما يحيى حقى فإنه يحاول أن يتلمس تلك المشاعر التى اعترته فى عزلته فى الغار، وهواجسه التى لابد أنها تحولت بالتدريج إلى يقين فى وجود نسق باطنى تنتظم فيه كل الموجودات رغم ما يبدو بينها من اختلاف ظاهرى، وذلك حتى نزل عليه الوحى فعلا، يقول المؤلف عن لحظات التأمل التى عرفها النبى فى الغار: «كنت تشهد من قبل النملة والعنكبوت والنحلة الشاردة يحسبها الناس كماً مضيعا مخلوقة عبثا، أما وأنت تتأملها فى الكهف يوما بعد آخر فستراها تسعى على نهج مرسوم ولها لغة لم يتكشف لك بعد قاموسها ..» ص ٧٥ وتمضى الأيام بالرسول الكريم وهو ماض فى تأملاته حتى بدأت المرئيات تسفر لك شيئا فشيئا ، والأسرارُ تدنو إليك أنيسة بك لتكشف لك عن وجهها، كان سعيها إليك أول الأمر بطيئا وعلى استحياء ثم أخذ يسرع إليك بجرأة الأليف على الأليف..» ص٧٥.

ويقف يحيى حقى عند بعض صفات النبى (ﷺ) محاولا أن يفسرها حسب ظروف حياته.. « اليتيم هو الذى لقنك معنى الصبر.. فكان الصبر رأس صفاتك.. واليتم هو الذى جللك بالحياء والرقة والعطف على المساكين والضعفاء ..ولم لا أقول أيضا إن اليتم هو الذى دفعك إلى رعى الغنم فأتاح لك أن تخلو نفسك للطبيعة وأن تتأمل فى الوحدة بديع صنع الله.. » ص٢٣

اليتم إذن فى رأى المؤلف هو البوتقة التى انصهر فى داخلها جوهر النبى ليصبح قادرا على تحمل تبعات الرسالة التى اصطفاه بها رب العالمين.

نماذج للتدين

وافتتان يحيى حقى بالبشر، والذى

جعله يقدم لنا عملا جميلا تحت عنوان «ناس فى الظل»، يدعوه فى هذا الكتاب إلى أن يقدم لنا مفهومه عن معنى التدين من خلال شخصيات إنسانية لا يخفى افتتانه بها. ففى مقال تحت عنوان «إبن البلد منشورا من قبره» نتعرف مع المؤلف على رجلين دفنا لمدة أربع وعشرين ساعة، فى حادثة حقيقية تحت أنقاض عمارة كبيرة سقطت فوقهما فى الإسكندرية. أحدهما صاحب شقة فى تلك العمارة والثانى كهربائى استدعاه صاحب الشقة لإصلاح عطل لحق بنجفة فى منزله.

يعلن يحيى حقى عن إعجابه بهذين الشابين وما دار بينهما من حديث فى تلك اللحظات العصيبة.

أما صاحب الشقة، الذى قدر له أن يلقى حتفه قبل أن تصل إليه يد الانقاذ، فإنه على حد تعبير المؤلف: «فى حضن الموت غير مبال بنفسه، ولا بأسرته هل هى ماتت أم عاشت، لا يتفجع ولا يتأوه، إن همه الوحيد هو أن يستغفر قبل أن يموت من ذنب استحضاره لهذا الكهربائى الغلبان إلى شقته». ص١٣٧

أما الكهربائى فإنه لا يعقب على اعتذار صاحبه إلا بكلمتين «أذكر ربك»!

أما مقاله القصصى بعنوان «لا تخف من الجنون» ففيه يقدم لنا يحيى حقى رجلا يعمل خفيرا لعمارة فى طور البناء على وعد من صاحب العمارة أن يكون هو بوابها عندما يتم التشطيب لكن الرجل يحنث بوعده ويعين آخر بدلا منه ويهرع الراوى إلى عم محفوظ الخفير ليسأله فى جزع عما ينوى أن يفعله فيجيب الرجل ببساطة: «أتحسب أن الله خلقنى لينسانى»!

يقول الراوى واصفا الرجل وهو يبتعد بخطى ثابتة «كأنه ذاهب للوفاء بموعد مضروب منذ الأزل مع صاحب عمارة ناطحة للسحاب.. تتسع لأهل الأرض جميعا لا تصد طالبا لسكن، سيكون هو بوابها». ص١٤٤

ليس التدين إذن، كما تدلنا الأمثلة السابقة مجرد طقوس نمارسها أو ألفاظ نرددها وقد فتحت لنا الدنيا ذراعيها وأسعدتنا بعطاياها، وإنما هو أيضا قدرة على الثبات على العقيدة والتمسك بها فى لحظات الاختبار القاسية التى قد تحرمنا مما اعتدنا أن نعتبره من حقوقنا المكتسبة، الرزق مثلا، أو حتى الحياة نفسها!

رمضان مروض الوحوش!

وترتبط بعض تأملات المؤلف بمناسبات ومواسم دينية معينة مثل رمضان وليلة القدر والحج والأعياد.

أما رمضان فيسميه المؤلف «مروض الوحوش» لقدرته على تغيير طبائع البشر وعاداتهم. والوحش المقصود هو

رجل ابتلى بداء شرب الخمر فهو يتحول من رجل سمح طيب كما يعرفه الناس بالنهار إلى وحش لا حد لقدرته على المفاجأة، على نشر الفوضى على الاعتداء فإذا جاء رمضان لا تذوق شفته قطرة خمر، يلزم داره وسط عياله يقيم سفرتهم أمام الباب، يدعو كل من يمر ليشاركه نعمة الله عليه».

وبالطبع، فإن التغيير ليس فقط لصاحبنا السكير وإنما هو فى الحقيقة يطرأ على أفراد الأسرة جميعا.

إن رمضان على حد تعبير المؤلف هو الذى «سينفرد بانتزاع الأسرة من التشتيت ويلم فى البيت شملها على مائدة الإفطار. ص٤٠

مطر قبيل الغروب:

تحت هذا العنوان يحدثنا يحيى حقى عن ذكرياته عن تأدية فريضة الحج عندما كان يعمل فى القنصلية المصرية فى جدة. أما المطر فقد هطل على الحجاج قبل غروب شمس يوم عرفات من ذلك العام فاستبشر به الحجاج ورأوا فيه علامة رحمة.

يحكى المؤلف كيف تغير حالهم فى القنصلية مع بداية موسم الحج، من الملل والرتابة إلى زحام شديد مقترن بالعجلة: «السيل العرم (الحجاج) بلغ فجاة مدينة جدة، أغرقها، نفذ إلى أضيق شق فى أصغر جحر فيها، كتلة متماسكة من اللحم البشرى تكدست عليها، يقذفها البر والبحر، من جميع أجناس المسلمين، من أقصى الأرض إلى أقصاها ..» ص١٠٤

وينضم المؤلف وقد تخلى عن إرادته إلى ذلك السيل ليؤدى فريضة الحج «إن هذا التيار العرم هو الذى حملنى وساقنى معه إلى مكة، فى سيارة ، حيث طفنا وسعينا، ومن مكة إلى عرفات فى تدفق يهد الجبل حتى طلع على فجر اليوم الموعود، فى ساحة عرفات فرأيت كيف يكون يوم الحشر، وكيف يجأر الناس جميعا وكأنما من حنجرة واحدة بإعلان التوبة وطلب المغفرة». ص١٠٦

ورغم الزحام والعجلة فإن شخصية يحيى حقى المتأملة لا تتخلى عن طبيعتها اللاقطة لأحوال من حوله من البشر. ففى مقال تحت عنوان «مذكرات عابر سبيل فى موسم الحج» نشر عام ١٩٢٩ فى مجلة الرابطة الشرقية يحدثنا المؤلف عن الطريق بين جدة «ثغر الحجاز» ومكة «قبلة المسلمين» وعن نوعيات من الحجاج من مناطق مختلفة :الهند، أفريقيا، شعب جاوة وغيرهم.

***

وكعادته يقدم لنا يحيى حقى أعماله بلغة ساحرة تجمع بين درجات الفصحى والعامية بشكل متناسق متكامل يعطى أعماله عبقا مميزا وحميمية، مما يجعل قارئه يشعر وكأنه يحدثه حديثا خاصا بينما هو فى واقع الأمر ليس إلا واحدا من عدد لا يحصى من القراء. ■



الروائى النرويجى كنوت همسن

ورائعتاه «الجوع» و«نمو التربة»

بقلم
د. السيد أمين شلبى

على عكس غيره من الكتاب النرويجيين مثل هنريك إبسن، وبيرنسون، تختلف حياة كنوت همسن Knut Humsun (١٨٥٩ - ١٩٥٢)، من حيث افتقاره لعلاقات وصلات عائلية تسانده أو لفرص تعليم رسمى منتظم بحيث قيل إنه أعظم كاتب بروليتارى فى النرويج، ويبدو هذا من تنوع ومشقة الأعمال التى شغلها : مدرس، عامل بناء، عامل مزرعة. ولعل نوع الحياة تلك هى التى قادته إلى السفر إلى أمريكا عام ١٨٨٨ حيث عمل وتنقل بين أجزائها وسجل خلال ذلك انطباعاته عن الحياة الأمريكية وضمنها كتابه الذى صدر عام ١٨٨٩ عن «الحياة الثقافية فى أمريكا الحديثة»، وهو العمل الذى قدمه ككاتب يبشر بمستقبل كبير، ومما لفت نظر مؤرخيه فى انطباعاته عن الحياة الأمريكية الحديثة عن «خطايا أمريكا»، والتى رآها فى قلق وتململ أهلها الذى يدمر سلامهم الداخلى.

غير أن قصة حياة همسن بعد ذلك هى قصة كتبه ورواياته التى ظهرت على مدى التسعة والأربعين عاماً الأخيرة من حياته، والتى كان يحتاج لكى يكتبها إلى انطباعات جديدة لذلك كان عليه أن يسافر بشكل دائم وأن تصبح حياته «طيران فى أنحاء الأرض لا سلام فيه»، ولعل أكثر فترات حياته ككاتب خصوبة وإنتاجا هى الحقبة التى تقع بين أعوام ١٨٨٨ - ١٨٩٨ .. فى هذه الحقبة كتب أخطر رواياته : «نمو التربة: Growth of the soil ، «جوع» Hunger ، وروايته My stries وهى الرواية التى جذبت اهتمام العديد من الكتاب المعاصرين ليس فقط بسبب شخصيتها الرئيسية وأحلامها وقصصها العجيبة أو بسبب ثروتها التى لاتنفد من الأفكار، ولكن أيضاً بسبب سحر لغتها والتى تحولت فى أكثر الأحداث اكتئابا إلى أغنية، ثم روايته Pan والتى كتب همسن عنها إلى أحد أصدقائه فى ديسمبر ١٨٩٣ «إن كتابى الجديد سيكون شيئاً جميلاً، لن تجد فيه مجادلات عنيفة، وإنما أناس يعيشون فى بيئة طبيعية غريبة»، وروايته «فكتوريا» ١٨٩٨، والتى تعتبر واحدة من أعظم قصص الحب فى الأدب العالمى وأحلى روايات همسن.

أشهر رواياته

غير أنه مع تميز أعمال همسن فى مجموعها، إلا أن أكثرها تميزاً والتى دعمت مكانته الأدبية هى روايته «جوع»، فرغم مرور أكثر من مائة عام على صدورها، لأنها صمدت للزمن بشكل رائع وأثبتت أنها واحدة من الأعمال النادرة التى غيرت مجرى الرواية وبشكل يقول معه النقاد إنه إذا لم تظهر هذه الرواية فان الأدب الأوربى كما نعرفه اليوم ربما كان سيبدو مختلفا . إن من معظم الجوانب فى رواية «جوع» أنها تذكرنا بسخافة العديد من اهتماماتنا اليومية وتوقظنا بما تثيره فينا من خجل من الأسلوب والطريقة التى نبدد بها الكثير من حياتنا مثل القلق على صحتنا، ونظام طعامنا، وانشغالنا بما يفكر فيه الآخرون عنا، وهى تذكرنا ، بالمدى الذى ندمن فيه الاهتمام بأنفسنا وبأمننا. ومن هنا فإن الرواية تعلو بنا. وهى إذ لا تشجع الأوهام، فإنها تحث على حب الحياة لذاتها. وقد يفسر هذا كيف أن رواية عمرها أكثر من مائة عام مازالت تقرأ بشغف وتقدير ليس فقط فى النطاق الجامعي والأكاديمي بل من ملايين الناس العاديين الذين يقرأون لسبب بسيط وهو بهجة ومتعة القراءة.

وفى تقدير النقاد أن أحد أسباب قوة «جوع» هو أنها تختزل عشر سنوات من الحياة الحقيقية والبائسة إلى عدة شهور. وقد كانت السنوات العشر من الجوع والعمل الجسدى الشاق. التى عاناها همسن شبيهة فى تأثيرها بالفترة التى قضاها دستويفسكى فى سيبريا حيث أرشدته التجربة بشكل قاس إلى نفسه، وكثفت خياله، وجعلته أكثر من مجرد «كاتب»، فقد أجبرته على أن يتوغل فى أعماقه، وقد سجل همسن تجربة «جوع» ساعة بساعة، وعاما بعد عام كما تابع مسيرتها بعناية وكأنه فلك داخلى. لقد كان لديه مثل الجواهرجى نظارة مكبرة على عينيه بحيث جعل قارئه دائماً مشدوها باستمرار بالتفاصيل الدقيقة التى تصور ذكاء شخصيته وحدة هذا الذكاء . فإن يكون بطل عملك أذكى شخصية تتصورها هى فكرة يونانية أكثر منها مسيحية ، وأحب اليونانيون أبطالاً يمتلكون قوة أعظم من الشخصية وذكاء أقوى، بهذا المعنى تشترك رواية «جوع»، مع التراجيديات القديمة والشعر القديم فى صفة يونانية أخرى وهى المرح والبهجة الغريبة وبشكل لافت للنظر. ومن الغريب أن تعتبر رواية مثل «جوع» كتابا مبهجاً ولكنها الحقيقة. فالمزاج المصاحب لها هو الفرح المتولد من مراقبة الذكاء وخاصة ذلك الذى يبتدى حتى فى وقت الأزمة الحقيقية.

ثقته فى الطبقة الوسطى

وحين صدرت «جوع» عام ١٨٩٠، كان همسن فى الواحدة والثلاثين من عمره، وحيث أدهشت كل إنسان بسرعة وحدة نثرها وجعلت اللغة النرويجية تبدو كلغة شابة وهو مالم يحققه همسن الأب بالكثير من المشقة ، ومثلما تقول الكثير من الشهادات فقد كان يعمل طوال الليل وحتى الفجر ويمزق كل ما كتبه أو يقذف به من النافذة . ويلاحظ أن «جوع» بها صفة تذكرنا بروايات هيمنجواى فهى ليست كتابا فى الاحتجاج الاجتماعى، وليست صرخة ضد مجتمع يعرف هذا النوع من الجوع . ويفسر نقاد همسن ذلك بأنه لم يكن لديه ثقة كاملة فى الطبقة الوسطى على العكس من إميل زولا الذى كان يثق فى هذه الطبقة وهو يهاجمها ، وكان يعتقد أنه إذا ما كشف عن ظلم ما فإن الطبقة الوسطى، سوف تصححها.. أما همسن فإن خبرته ، المبكرة بالطبقة الوسطى جعلته لا يثق فيها ، وكشخص ناجح رآها لغاتك الحياة الدافقة والغريزة المليئة بالحيوية والحماس كان يؤمن بها.

ويسجل نقاد همسن أيمانا مشوقا يسرى فى كل الرواية وبصورة تكاد تصل إلى حد الإيمان القائم على الخرافة . ولا تشعر الشخصية الرئيسية فى «جوع» بأى

شفقة تجاه نفسها ، كما لا نشعر نحن أيضاً بذلك، لأن ثمة شعورا عبر الرؤية أن مجاعة البطل مدبرة بشكل ما وبلا وعي وأنه بطريقة ما قد اختار عبر اللا وعي هذه المعاناة . إنه يطيع اللاوعي، ويظل في جوعه رغم المعاناة حتى يختبر التجربة التي يجب أن يعيشها أو يتعلم ما يجب عليه أن يتعلمه.

بين رواية جوع والجريمة والعقاب

ويجري إيزاك سنجر Isaac Bashevis singer مقارنة بين رواية «جوع» وبطلها، وبين رواية دوستويفسكي «الجريمة والعقاب» وبطلها «راسكو لينكوف»، وكلاهما قد عاني من الحاجة الشديدة. وكلاهما مبتدىء في الأدب، وكلاهما عصبي بشكل حاد ويكاد يقف على حافة الجنون، وكلاهما ارستوقراطي في الروح بل ويمكن القول إنهما نيتشويون رغم أن نيتشه كان لايزال طالبا حين كتب دوستويفسكي كلاسيكيته، غير أنه رغم تشابهما فإن البطلين مختلفان بشكل أساسي، إن راسكو لينكوف عميق الجذور في روسيا والشئون الروسية . ومن الظواهر اللافتة أنه حين يذكر راسكو لينكوف المحقق بإمكانية هربه من روسيا لايبدى المحقق اهتماما بذلك مشيرا إلى أن أشخاصاً مثل راسكو لينكوف لايهربون.. إنه مشدود إلي روسيا . أما بطل همسن فقد انتهى إلى التحاقه بطاقم باخرة متجهة إلى البحار السبع في الوقت الذي تحرر راسكو لينكوف بفترة الأشغال الشاقة في سيبيريا مصحوبا بمحبوبته سونيا وروح من البعث الديني، وفي الوقت الذي كان راسكو لينكوف يبحث عن تصفية حسابه مع الله كان أبطال همسن في خصام وشجار مع القدر، وبمعنى ما فإن بطل «جوع» يشن اضراب جوع ضد المصير ، ويبدو وكأنه يقول «إما أن يبعثني الإلهام أو أني سوف أنهى حياتي..» ولكن المصير لا يزوده بالالهام ولا يدعه يموت . إنه ينجو دائماً بفعل مؤقت .. أن ينشر مقالا أو صورة ويتلقى بعض كرونات .. ثم تبدأ المحنة مرة أخرى.

بين رواية جوع والروايات الأخرى

ورغم أن همسن يذكر دائما على أنه مؤلف «جوع» فإن هذه التسمية في مجموعها ليست دقيقة، ذلك أن روايته الأولى، فيما عدا بعض التفاصيل، تختلف بشكل ملحوظ عن بعض أعماله الأخيرة. فالملمح الأساسي الذي تشترك فيه «جوع» بوضح مع العديد من روايات همسن الأخرى هو تركيزها على شخصية تتميز بقدر كبير من الفردية مثلما تفعل معظم روايات همسن الأولى وخاصة : ١٨٩٤ pam ١٨٩٢ Mgstrues وهذا

الفرد على درجة كبيرة من الحساسية ولكن هنا ينتهى التشابه بين «جوع» ، وبين روايات همسن التالية لها مباشرة، ذلك أن الشخصية المركزية فى «جوع» هى شخصيات غير طبيعية بالمعنى المتطرف للكلمة، إنه بطل دوستويفسكى مريض فى الجسد والروح وحيث فرضت آلام الجوع الممزقة على حياته الباطنية سلسلة من الهلوسات المحمومة والعصبية الضعيفة.

مكانته الأدبية

وعلى الرغم من اتفاق النقاد على أن رواية كنوت همسن «جوع» التى ظهرت عام ١٩٨٠ هى التى دعمت مكانته الأدبية وأنها ، رغم مرور مائة عام على صدورها، قد صمدت للزمن واثبتت أنها واحدة من الأعمال النادرة التى غيرت مجرى الرواية وجعلت النقاد يقولون إنه إذا لم تظهر هذه الرواية فإن الأدب الأوربى كما نعرفه اليوم ربما كان سيبدو شيئاً مختلفاً، على الرغم من ذلك كتب همسن لناشره فى صيف عام ١٩١٦ يخطره بأنه منغمس فى كتابة رواية «ستكون تحديا لجيل بأكمله» ، وفعلا حين ظهرت روايته «نمو التربة» The Growth of the Soil .

رواية نمو التربة

عام ١٩١٧ اثبت نجاحها فى النرويج وفى كل بلد تقريباً أنها عمل عظيم وتحد لجيل . وحين نال همسن جائزة نوبل للأدب عام ١٩٢٠ كانت أساساً على هذه الرواية وكان ثمة اتفاق فى الرأى على جدارتها واستحقاقها، وكانت لهجتها الإيجابية المتفائلة واضحة بما فيه الكفاية لكى تلبى أكثر الشروط صرامة لما اشترطه نوبل منح جائزة الأدب لمثل هذه الأعمال التى تعكس أساساً ميولا مثالية. إنها قصة بسيطة تلك التى تكشف عنها «نمو التربة» ، القصة البسيطة لرجل بسيط اسمه ايزاك الذى جاء أولا بمفرده إلى قفر غير مأهول ، وبالعمل الشاق والمتواصل نجح فى حرث التربة وبناء مزرعة سيلارنا والتى أصبحت تنتج له ولعائلته كل ضرورات الحياة. إنها قصة النعمة التى حلت فى تعاون وثيق مع الطبيعة . وتقول لنا الرواية بعد متابعتنا لعمل ايزاك الرائد لعدة سنوات «إن القفر كان قابلا للسكن ولكن أحدا لم يتعرف عليه ، ثم حلت عليه البركة ونشأت فيه الحياة من حلم طويل - وثمة كائنات بشرية عاشت هناك ولعب الأطفال حول المنازل وامتلأت الغابة بعيداً كبيرة ورحيمة حتى المرتفعات الخضراء..». غير أن الطبيعة لم تكن دائماً مبتسمة ورحيمة فقد حل الجفاف والفصول العجاف إلا أنه فى المدى الطويل كانت مستعدة لأن تتعاون مع الناس ذوى المثابرة العنيدة . إنها الحضارة وليست الطبيعة التى تأتى بشكل تدريجى بالوباء إلى

حياة الانسان ، ورغم هذا فقد كانت لدى ايزاك الصلابة التى يستطيع أن يصمد بها أمام الآفات المفسدة للحضارة وإن كانت عائلته ليست بنفس القوة.

تطوره الفنى والفكرى

إن الانتصار الفني المحض الذى حصل عليه همسن فى روايته يكمن بشكل كبير ربما فى قدرته على أن يخفض الحياة إلى أبسط أشكالها وعناصرها الأولية ... إن أحداث القصة تبدو متواضعة مثل شخصياتها ، متواضعة وإن كانت رئيسية لأنها تتعامل ببساطة مباشرة ومقتضبة مع مثل هذه الظواهر الطبيعية مثل الميلاد والنمو والموت أو كسب الإنسان لقوته بعرق جبينه وبإحساس لا يخطئ بما هو ملائم فضلا عن أن همسن لم يكن يحيط هذه الوظائف الرئيسية للحياة بالبهرجة العاطفية التى يلجأ إليها الروائى متواضع القيمة. ولم يكن تأكيد همسن على العلاقة بين الانسان والتربة مدفوعاً أو تعبيرا عن الحنين إلى الماضى الرومانسى. ويوحى تحليل روايات همسن الأولى أن «نمو التربة» هى نتيجة طبيعية لتطوره الفنى والفكرى فى السنوات التى سبقت كتابتها، وهنا يجب أن نتذكر أن همسن قد تحول عام ١٩١١ إلى مزارع حيث استقر فى مزرعة رورنلاد ولم يغادرها حتى العام الذى نشرت فيه «نمو التربة»، عام ١٩١٧ ، وانتقاله إلى مزرعة أخرى أكثر بعدا فى الجنوب فى لادفيك وهو نمط الحياة والفكر والعمل الذى يذكر بأيام تولوستوى فى ياسينا بوليانا.

العلاقة بين الرجل والمرأة

إن المشكلات التى تعالجها «نمو التربة» هى مشكلات ذات طابع عالمى وموجودة فى كل مكان وزمان ... إنها ببساطة قصة الإنسان وليست قصة إنسان معين وهو يعمل مع الطبيعة ، كما إنها تحكى النضال البطولى بين التجليات الخارجية للطبيعة وبين تجاوزات الحضارة الصناعية الحديثة . لقد تحدث الكثير من النقاد عن الصفحات العظيمة «لنمو التربة» خاصة الصفحات الافتتاحية والختامية للرواية والتى تعطى نغمة لهذا السمو البطولى لقصة مزرعة سيلارناء، ورغم هذا فإن هذه الصفحات قد لاتبدو فى نظر البعض أكثر الأجزاء خلاقة فى الرواية ، وبالنسبة لهؤلاء فإن ما هو أكثر جمالا هو الأسلوب الذى تناول به همسن حديثه فى روايته ويركز فيه على العلاقة بين الرجل والمرأة ، أو ايزاك وانجر وخلال لحظات من التوتر الداخلى العميق والصراع الكامن العنيف . فليس فى أى موضع آخر من «نمو التربة»، ولا فى أى من روايات همسن الأخرى حول هذا الموضوع ، نرى همس وهو

على هذه الدرجة من التعاطف العميق والفهم والرقة أو همسن الذى كان فناناً أكثر حساسية . فى أول هذين الحدثين يقدم لنا همسن وصفاً مقتضباً رقيقاً لانجذاب انجر وايزاك بعضهما لبعض بشكل غريزى شأن الحيوانات التى تستشعر الخطر ، وخلال هذه الشهور التى قضتها انجر فى السجن لأنها خنقت الطفل الذى ولد بشفة مشوهة، وبعد نقاش ملىء بالتساؤل والدهشة والاستعداد للفهم من جانب ايزاك والنوم الطفولى من جانب انجر ادى هذا النقاش «... إلى حب عظيم ، حب جامع، حيث انجذب أحدهما للآخر فى وقت الخطر . لقد امتلأت انجر بعذوبة يائسة نحوه، وشعر رفيقها ، حامل الأعباء المتعثر برغبة جشعة ولا نهائية لها فى نفسه...». أما الحدث الثانى فهو المعاملة المتفهمة من جانب ايزاك لتمرد أنثوى من انجر بعد عودتها من السجن حيث تعلمت بعض الأساليب الخطرة للحضارة . لقد بدت متمردة من لحظة للحظة ولكنها لم تكن أبدا بشكل شرير لقد كانت ، فى التحليل الأخير ، طفلة صحية للطبيعة وبصورة لا تجعل منها شريرة أو فاسدة أو يخمد فيها الضمير. وأمام اعتراف بسيط جاءت به فى مساء ما لايزال رجلها الطيب المتفهم ذهب إلى قلب الموضوع حين استخلص ببساطة «أن أحدا منا لا يستطيع أن يكون كما ينبغى أن يكون»، أما انجر فقد ردت على هذا القدر من الفهم والتسامح بقولها «إني لم أكن أبغى أن أكون هكذا نحوك .. وإنى لآسفة على ذلك ، وقد حركت هذه الكلمات ايزاك ومسته وأراد أن يريحها «.. ليس هناك ما تبكى من أجله ياعزيزتى .. إن أحدا منا لا يستطيع أن يكون كما يجب أن يكون». وهكذا مرت متاعب انجر ، لقد تغلبت عليها ولكنها حافظت على ساعات عبادتها ووجدت لها ملاذا فيها . وقد أصبحت الآن تعمل بمشقة أكثر وصبر وترى ايزاك مختلفا عن غيره من الرجال وهى لا تريد أحدا آخر غيره . هذا التعاطف الإنسانى الرقيق الشامل ، والمستعد لأن يغفر وينسى ، لا يستطيع أن يحمل ضغينة أو أن يصدر حكما نهائيا . وهذا هو الوضع الأخلاقى المؤثر الذى بلغه ايزاك بطريقته الهادئة البسيطة المتلعثة ، ولم يكن فى هذا الموقف بطولة زائفة ، أو شىء رخيص أو مسرحى ، فقط رجل يؤمن بوجود الصواب والخطأ ولكنه لا يؤمن أن الخطأ يجب أن يذكر لفترة طويلة ، أو يطول التفكير فيه لأن الطبيعة نفسها سوف تقيم التوازن بين الخير والشر وتقدم فى النهاية حكمها على الإنسان أو الحيوان.

وبروح من انسانية ايزاك الحكيمة والصحيحة، تنطبق كلمات همسن وحكمه على كل شخصيات الرواية الضعيفة والتى تفتقر إلى البراعة فى التصرف . غير أن ثمة شخصيتين فقط فى الرواية لم يحمل لهما

همسن أى تعاطف : أولاً ، فراو هيردهال ،الداعية لمساواة المرأة والرجل والتى تشغل نفسها بالأفكار التقدمية أكثر من واجباتها الواضحة والمباشرة كأم.

وثانياً ، آزارسون التاجر المغامر فى التنمية الصناعية ويفشل بشكل يائس، إن هاتين الشخصيتين يمثلان آفة الحضارة وأكثر صورها المريضة ولذلك تعرضوا لسخرية همسن الحادة أينما ظهروا فى صفحات الرواية.

الأسلوب

تبقى كلمة عن اسلوب همسن فى «نمو التربة». إن طابعه المميز هو المباشرة والاقتضاب البسيط ونغمته تقترب من السمو الملحمى، وقد بلغ همسن هذا النمط البطولى بدون اللجوء إلى الأساليب الأدبية التقليدية ، لذلك جاء أسلوبه معبرا ومختصرا ومحكما ولم يهبط إلى المستوى الشائع والمبتذل وسيكون من المستحيل على القارىء أن ينسى الأسلوب الرقيق والجليل والسمو البطولى الذى يبدو فى المشاهد الافتتاحية والختامية «لنمو التربة»، وهو الأسلوب الذى اكتسب إلى حد بعيد البساطة الملائمة والمدهشة وعشرات من الصفحات الأخرى فى الرواية التى كان لها نفس التأثير والفعالية. إن سر هذا الانتصار الأسلوبى هو أن همسن لم يفقد أبدا النظر فى العالم الخارجى الذى تتحرك فيه قصصه. إنه عالم بسيط طبيعى متميز منفرد بذاته والناس فى هذا العالم ليسوا مقصرين أو محنكين أو متكلفين، إنهم يسعون لأهدافهم البسيطة ويؤدون واجباتهم اليومية . إنهم يتعاملون مع ظاهرة الميلاد والموت باعتبارها ظاهرة كل يوم .. وكان همسن يحتفظ بكل هذا فى فكره بشكل دائم ويلائم أسلوبه لعالم مزرعته البدائى . لذلك سوف يدرك أى قارىء متفحص لرواية «نمو التربة» بوضوح ما يتميز به نثر همسن البسيط والمباشر من طابع شعرى خاص بها . إنه ينتمى لهذا الجنس من الشعر الذى أسماه وردثورث «بشعر الحياة العادية». ومع هذا لم يكن أسلوب همسن فى روايته دائما شاعريا بالمعنى الرقيق المليء بالغموض والأسرار .. لقد كان لشخصياته الرئيسية مثل هذه اللحظات النادرة ذات المضمون الروحى الذى لا تفسير له ، فإلى حد كبير كانت أقدامهم تقف بثبات على التربة وكانت اهتماماتهم المادية والعقلية مباشرة ذات طابع أرضى أصيل ، لذلك كان عمل الإنسان الشاق دائماً فى روايته : إيزاك فى عمله فى الحقول ، وانجر بين أوانيها مشغولة دائماً فى حظيرة البقرة ، والنمو الخصب للحبوب فى مزرعة سيلارنا، والخضراوات ، وخاصة البطاطس النبات المتواضع الوديع خفيض الجناح. ■

رحلة

بهجت عثمان

ورسالة لم أبعث بها إليه

بقلم

علاء الديب



اليوم : تغير بعد غياب بهجت . سواء التقينا أو تهاتفنا . كان بهجت يصنع اليوم .

صديق :

- هل عاد لهذه الحروف عندما تجمع نفس المعنى ؟، لماذا أكتب الآن إذن . لا أحد يقرأ بعيون بهجت التي كلت وتعبت .

الهلال
ربيع الثاني ١٤٢٢هـ - يوليه ٢٠٠١م

لم يكن بالنسبة لي رسام كاريكاتير ، أو صانع كتب أطفال أو نحاتا مثل ما كان في صباه - رغم أنه كل هؤلاء بذائقة خاصة ومتفردة كان بالنسبة لي كيانا من المشاعر والأحاسيس يمور ويغلي أحيانا ، وأحيانا يشف ويصفو كنسيم عصر صيف في القاهرة القديمة . في

سنوات غابرة ، سنوات الجاهلية شربنا أنا وبهجت كثيراً . كان الغريب المشترك ، هو كأننا كنا نبحث عن حل ما في قاع الزجاجة احتجاجاً أو رفضاً أو هروبا سمه ما شئت لكنه لم يكن أبدا مع بهجت فسادا ربما كان عذابا . وعلى الرغم من أنهم يقولون إن الشراب يظهر ما في النفس من شرور فلم أر في نفس بهجت شراً واحداً ، أو نقيصة مشينة يقول لي



١٦٣
الهلال
ربيع ثاني ١٤٢٢هـ - يونيه ٢٠٠١م

رحلة بهجت عثمان

عندما أدخل فى أنفاقى «أنت المنتحر الحى» ، والغريب أننا كنا نضحك .

* * *

بعد رحلة طويلة مع الجرائد والمجلات ، ومع الفنون التى يعرفها ، محاولا أن يكسب عيشه بشرف واحترام ، محاولاً فى الداخل أو الخارج أو فى بطن الحوت . لم يجد بهجت بداً من أن يقيم من نفسه لنفسه ، مؤسسة خاصة . معارضة ، خارج التقسيمة ، وأن يصنع من نفسه بديلا فنيا حيا للجرائد والمجلات التى ظلت تصدر تحت الرقابة ووفقا للتعليمات .

وطنى ، مصرى ، عربى ، متطرف ، متطهر ، مزايد ، لا يرى سوى « أبيض وأسود » . رغم عشقه وفهمه للألوان . صنع لنفسه نشرة أخبار خاصة به ، وتعليق يومى على ما يذاع فى الراديو والتلفزيون ، وازعم أن نشرته جيدة ، واسعة الانتشار .

* * *

رغم مرض السكر المتوحش الذى سكن جسده مبكرا ، فإن معجزة بهجت كانت قدر النشاط والحيوية التى ظل محتفظا بها حتى النهاية . حضوره ، وأداؤه الشخصى الفريد ، الذى ينبع من رغبة أصيلة فى إسعاد الآخرين ، وتوصيل البهجة إليهم .

يصبح بهجت فى بيتنا ، بعد الفجر بقليل « عم بكير.. بياع الفطير » حاملا للأولاد ولنا ، فطيراً ساخناً ـ محلى بالسكر

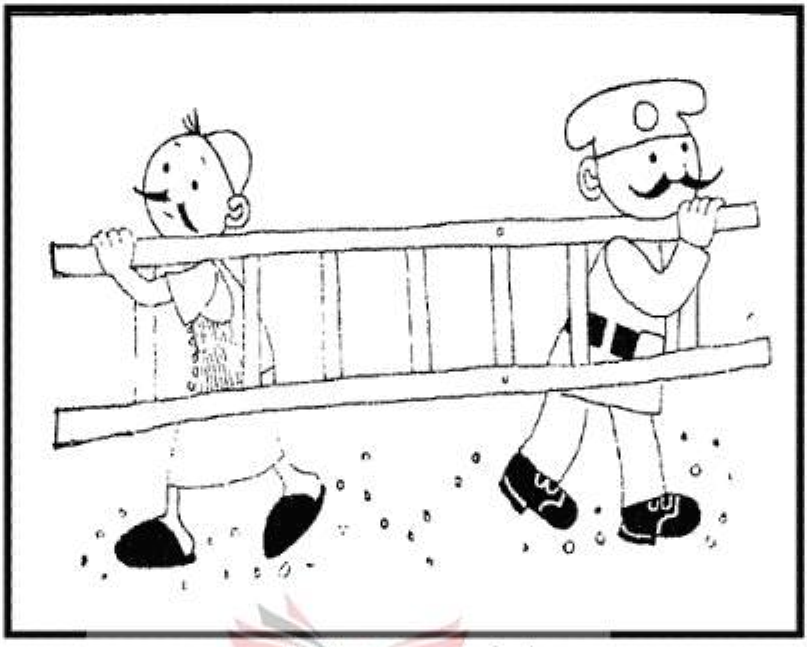
من فى الحياة سيمنحنا هذه البهجة مرة أخرى ! أحسب أن رحلة بهجت ، كانت محاولة لأن يعود طفلا . صفحته ناصعة البياض .

* * *

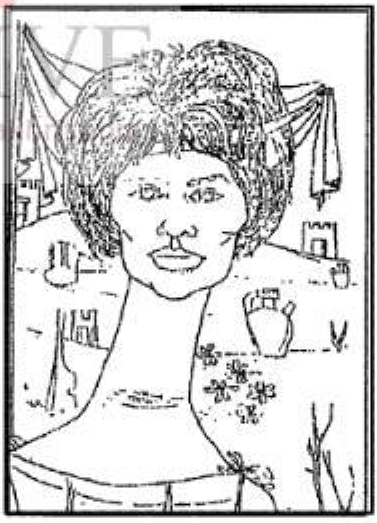
من أهم الأشياء فى رحلة بهجت هو زواجه المبكر من بدر حماده : الفنانة صانعة العرائس التى صنعت مع ناجى شاكر أجمل أيام مسرح العرائس المصرى . صممت بدر ـ أيضا ـ حياة بهجت ، وبيته ، وأولاده : هشام ووليد اللذين صنعا على عيون الفن والمحبة ، فى بيت من أجمل البيوت المصرية التى دخلتها .

راقبت جسده يزداد نحولا ، وروحه تزداد احتراقا لكى يفعل شيئا . لكنه كان دائما واحة . لم يكن كل هذا أبدا سراباً .

تتلمذ بهجت على يد الأستاذ أحمد بهاء الدين ، ليس فى السياسة بقدر ما فى : الالتزام ، والأخلاق والذوق كان يكن لبهاء قدراً كبيراً من الاكبار والتنزيه وعاش مع الأستاذ بهاء قدر المستطاع محنته الأخيرة، ومن كلمات الاستاذ بهاء التى بقيت مع بهجت « كفاية دوشة بقه » ! هل كان يقصد كل شئ ؟!



أحد أعمال بهجت في فن الكاريكاتير



رسم وجه «بدر» زوجته طوال عمره



غلاف رواية «عرس بغل» من أعمال بهجت

رحلة بهجت عثمان

* * *

أكثر الأخوة العرب الذين عرفتهم في حياتي ، عرفتهم عن طريق بهجت . بداية من « فيروز » حتى صديقنا المصرى اللبنانى الأصيل : محمد بكرى ، من المغرب إلى اليمن . من بنى نيس ، ومنيف إلى سلمان الفهد ، وطلال سلمان ... كلهم رغم البعد والاختلاف ، كانوا دائما حاضرين عند بهجت . رغم الحواجز والحدود . الكل مدين لبهجت بلحظات نادرة من العطاء والتواصل الانسانى . لا يعرفها إلا هو .

* * *

من أغرب التجارب التى مررت بها مع بهجت هى تجربة « التنظيم الطليعى » فقد جمعتنا رفقة لفترة هناك كان بهجت يسميه « الكعك » . نسبة إلى علب « الكعك » التى صاروا يوزعونها علينا فى المناسبات . كانت محنة ، كشفت لنا أن فى واقعنا أقواما من الانتهازية والوصولية ، والمصالح المادية المجردة ما شاب له الفؤاد وشعر الرأس ، ظل بهجت يتابع عن قرب ذلك المسلسل الغريب المضحك ، يراقبه وهو يتصاعد حتى يسيطر على كل شئ .

فى العمل كما فى الحياة أراد بهجت أن يصنع لنفسه مفردات جميلة يتعامل معها ، بدلا عن كل المطروح فى الأسواق . فقضى أغلب سنواته الأخيرة يصنع للأطفال حلما خاصا . أقام فى خياله «جالية للمصريين فى مصر » تضم الجالية كل الغرباء الذين لا يسيرون فى تيار الفساد الأساسى الذى يسرى إلى الذوق والأخلاق. وأزعم - أيضا - أن جاليه بهجت شهدت تدافعا على العضوية . توقف بهجت عن رسم الكاريكاتير - كما كان يقول - عندما صار الواقع أكثر اضحاكا وغرابة .

قرر أن «الديكتاتورية» هى أصل البلاء . فأخذ يقيم جمهورية « بهجاتيا » العليا التى هو حاكمها المطلق الأوحد وصاحب كل الألقاب والمحاسن والمعجزات والشرور.

الحرية : هى محرك بهجت الأساسى ، هى محور روحه وصلب حياته . إذا لم يستطع الانسان أن يعيش حريته فعلى من يصب غضبه . إلا على نفسه ، وعلى أقرب الناس إليه . حبه الشخصى والخاص للأستاذ نجيب محفوظ . وإعجابه المخصوص بعدد من أعماله : ظاهرة تكشف عن قراءة حقيقية ، حية ، حصلها لنفسه بالقراءة المستمرة فى الرواية والفن. لا أستطيع أن أنسى الكتاب الذى قدمه لى بهجت بعنوان : « مديح الظل » يحكى تجربة دخول الكهرباء إلى قرى ومدن اليابان . كان يتحدث عن الصفحات وعما فيها ، فترى كم هى صافية



روح هذا الكائن ورحبة .

* * *

بهجت : أمازلت تضحك لو قلت لك «كم كنت أبغى أن تقول رثائي » أو « أجمل التاريخ كان غدا .. » أو «من أجل بعد بعد غد أفضل» .. أما زلت تضحك ؟ غلبتني يا بهجت مرة أخرى .. فها نحن لم نتحدث إلا عنك !

* * *

رب عوضنا فى ولديه هشام ووليد خيراً منه .

وأرع تلاميذه ومحبيه الذين لا حضن لهم .

أمنحه - هو - بعضاً من الرضى عن النفس الذى ظل يبحث عنه طوال عمره،

رب أدخله بسلام إلى محبتك . ■

جولة المعارض

موسم التكريم في الحركة التشكيلية

بقلم
عزالدين نجيب

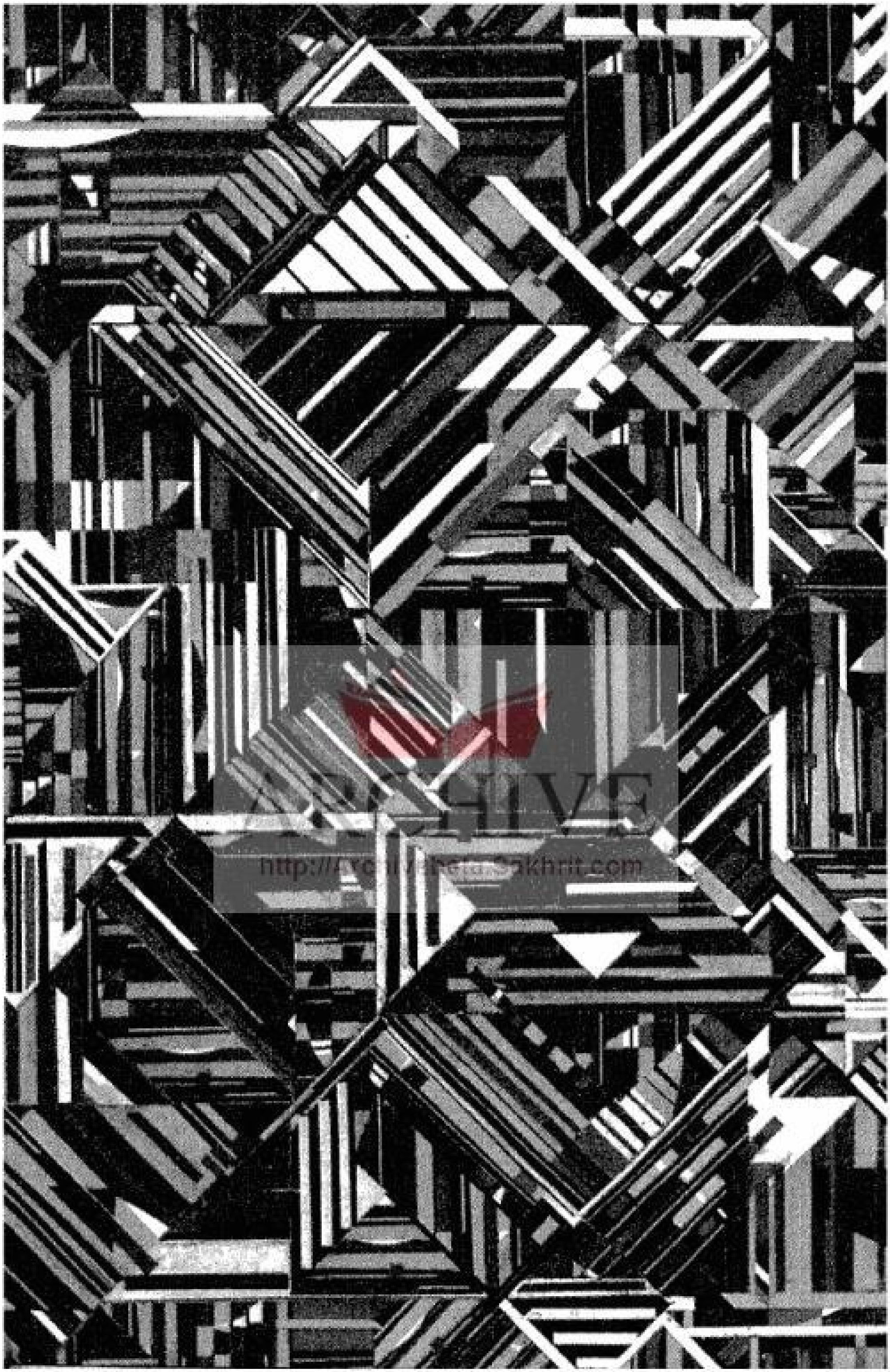
الوفاء .. صفة باتت نادرة فى زماننا الذى اغتربت فيه القيم، لكنها - مع ذلك - صفة ممكنة التحقق، وقادرة - مع ندرتها - على إثبات أنها القاعدة وليست الاستثناء، وعلى إضاءة الطريق أمام الأجيال الجديدة بالقدوة الحسنة، من خلال الرموز التى يتم تكريمها وتسليط الضوء على انجازاتها من الأجيال السابقة.

خلال الشهر الماضى شهدت الحركة الفنية بالقاهرة عددا من احتفاليات التكريم لكوكبة من الفنانين والنقاد، بعضهم غاب عن عالمنا تاركا تراثا يلفه الصمت، وأكثرهم أحياء ملأوا حياتنا بعطائهم الإبداعى أو النقدى، وقد شاركت فى هذه الاحتفاليات جهات حكومية وأهلية، من المجلس الأعلى للثقافة، إلى قاعات عرض خاصة، إلى بعض أسر الراحلين، إلى جمعية النقاد، فبدا الأمر وكأنه - أو هكذا نأمل أن يكون - صحوة قومية مفاجئة، تستعيد وعى الحركة الفنية بتاريخها القريب، وتضع روادها المنسيين فى المكان اللائق بهم.

ولم يتوقف - فى الوقت ذاته - قطار الإبداع الحديث عن انطلاقه، حاملا نتاج مختلف الأجيال والاتجاهات الفنية، فشهد الشهر مجموعة من المعارض الجديدة، حملت آمالا قوية فى تعميق مجرى نهر الإبداع بالأصالة والانتماء والقيم الحقيقية، خاصة بالنسبة للفنانين الشباب الذين تعانى روافدهم من الضحالة.. واليوم نعرض لثلاثة معارض من بينها .. حسبما سمحت به المساحة.

ولنبدأ باحتفاليات التكريم.

كولاج - منير كنعان



موسم التكريم

● رواد .. ونقاد

الاحتفالية الأولى كانت فى ٣٠ مايو بالمجلس الأعلى للثقافة، نظمتها لجنة الفنون التشكيلية فى إطار سياسة المجلس التى تنفذها لجانه المختلفة فى شتى فروع الفن والثقافة، حتى فاقت قدرة الجمهور على المتابعة، وبدت أحيانا صورا مكررة من بعضها البعض، نكاد نعرف مقدما ما سوف يقال من كلمات التقريظ والمجاملة. ولقد بلغ عدد المكرمين (وجميعهم أحياء أمد الله فى أعمارهم) اثنى عشر فنانا وناقدا . من أجيال وتخصصات ومدارس فكرية وفنية شتى.. هم:

حامد سعيد (١٩٠٨)، زينب عبدالحميد (١٩١٩)، عبدالله جوهر (١٩١٦)، غالب خاطر (١٩٢٢)، فاطمة العرارجى (١٩٢٣)، قدرى نخلة (١٩٣٢)، كمال الجويلى (١٩٢١)، كوكب يوسف (١٩٠٩)، محمد الشعراوى (١٩١٦)، سعد القاضى (١٩٢١)، ممدوح عمار (١٩٢٨)، نعيم عطية (١٩٢٧).

وقد حاولت أن أعرف على أى أساس تم اختيار هذه المجموعة بالذات، خاصة وأن هناك العديد من الأسماء التى لم تحظ بالتكريم من أى جهة.. فلم أعرف، ورجعت إلى الكتالوج الذى طبع بهذه المناسبة فى ٨٣ صفحة تضم مقالات عن جميع المكرمين وسيرهم الذاتية بأقلام أعضاء لجنة الفنون التشكيلية (وكأن الأمر لا يخص أحدا غير اللجنة!) فلم أخرج بشىء!.. وهو أمر كان من الضرورى - ومن السهل أيضا - توضيحه، أعنى الأسس التى تم عليها الاختيار، مع التسليم بأن الأسماء المختارة تنم عن التاريخ الحافل لأصحابها بالعطاء ، كما كان من المهم الإشارة إلى أن هذه مجرد بداية سوف تتبعها خطوات أخرى فى الأعوام القادمة.

أما من حيث التنظيم فقد كان روتينيا لا ينم عن الطبيعة الفنية الخاصة للمناسبة، غلب عليه الأداء الخطابى عالى النبرة فى تقديم الناقد محمد حمزة لكل شخصية مع موجات التصفيق الحادة، وكان أجدى أن يتضمن الحفل عرضا موجزا بالفيديو أو بالشرائح الضوئية على الأقل لصور من مراحل حياة هؤلاء المكرمين وأبرز أعمالهم مع كلمات قصيرة بصوت كل منهم، كشهادات حية أمام الحاضرين، وبينهم كثرة من الشباب ومن غير المتخصصين ممن لا يعرفون هذه الشخصيات، ولا يشفع لهذا القصور إقامة معرض لأعمال المكرمين بمتحف الفن الحديث، لأن الحفل المقام بمقر المجلس هو إطار الاحتفالية، فكأن المعرض اقيم خارج الإطار!

ومع ذلك شملت السعادة المكرمين وأسرهم، لدفء المشاعر التى أحاطهم بها الحاضرون، ما يعطى الأمل فى أن تكون احتفاليات الأعوام القادمة أكثر تنظيما وفائدة.

● حصاد سفرخان

الاحتفالية الثانية اقيمت بقاعة



مراكب القمر-أحمد عبد الكريم

سفرخان بالزمالك أواخر شهر مايو وامتدت حتى منتصف يونيو، لعدد من أعلام الفن مثل : هدايت، محمد ناجى، عفت ناجى، إنجى أفلاطون، جاذبية سرى، يوسف سيده، فؤاد كامل، حامد عبدالله، كمال خليفة، وديع المهدى، صلاح عبدالكريم، ممدوح عمار.. وغيرهم.. إلى جانب بعض الفنانين الأرمن الذين عاشوا فى مصر منذ أوائل القرن الماضى مثل دميرجيان وأنا بوجيجيان. وجاءت الأعمال المعروضة لهذه الكوكبة كنماذج مختارة من المعارض التى أقامتها القاعة على امتداد الموسم الفنى المنقضى.

لقد خطت قاعات العرض الخاصة بمصر فى السنوات الأخيرة - ومنها سفرخان - خطوات واسعة تجاه الكشف عن «المسكوت عنه» من إبداعات الأجيال الماضية، ونجحت فى رد الاعتبار إليها والارتفاع بأسعارها أضعافا مضاعفة، ما خلق سوقا تنافسية قوية للفن، ووعيا جديدا بذلك التراث لدى مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية، وتعريفا للأجيال الجديدة بجوانب كانت خافية عليهم فى تاريخ الفن المصرى الحديث.. وتلك مهمة ثقافية قصرت فى القيام بها أجهزة وزارة الثقافة.

وعلى ضيق مساحة القاعة ، فقد جاء ازدحامها بأعمال هؤلاء الفنانين تعبيرا عن التلاحم بين مراحل ومدارس الفن المختلفة للمبدعين المصريين طوال

موسم التكريم

ما يقرب من القرن، ولم نشعر بالتنافر بينهم، بل بالتكامل والتواصل والثراء.

● عايدة .. والخنانى

الاحتفالية الثالثة أقامتها الفنانة عايدة عبدالكريم لزوجها الفنان الراحل زكريا الخنانى (رائد فن المجسمات الزجاجية) فى ذكرى رحيله الأولى بعد أن خصصت مرسمه كمتحف للجمهور تحت إشراف وزارة الثقافة، ويضم أعمالها فى النحت الخزفي والتشكيل الزجاجي بجانب أعمال الخنانى.

ويمثل المتحف - بعمارته المتميزة بأسلوب المهندس حسن فتحي وموقعه الفريد على طريق سقارة - سياحة ترويحية ووجدانية عميقة، وسط مساحات من الخضرة والأشجار والامتداد الريفى الفسيح، حيث تتناثر القطع البللورية والخزفية فى الهواء الطلق وسط هذا المدى وكأنها أبناء الطبيعة، سيما أن الأسلوب الفنى للأعمال ينبع أساسا من قيم الطبيعة المجردة ومن سجيتها الفطرية، إنها توحى بذلك التوالد الذاتى لتشكيلات النباتات والصخور والأعشاب البحرية والكائنات الحية من حيوانات وطيور وأسماك، وتستقطب بداخلها إشعاعات الضوء التى تتفاعل - أو تتغازل - مع تضاريس الزجاج بألوانها المتداخلة ونتوءاتها الغرائبية.

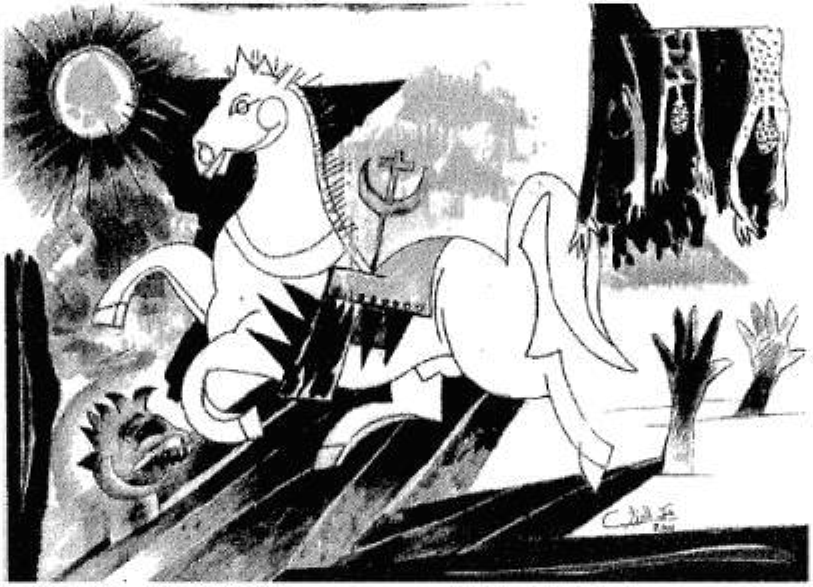
لقد ملأ زكريا الخنانى حياتنا الفنية بسحر منحوتاته البللورية التى قام بتشكيلها وحرقها بتقنيات مبتكرة تمتد بجذورها إلى تقاليد الزجاج الفرعونى ، وقد عمق موهبته الفطرية بدراسة تخصصية فى تقنيات الزجاج عام ١٩٦٥ ثم استكملها بدراسة للمواد الحرارية بالجامعة الأمريكية والمركز القومي للبحوث، وبدأ، منذ ذلك الوقت المبكر ، يمارس إبداعه المتفرد وغير المسبوق فى مصر على مدى عشرات السنين، زاهدا معتزلا فى مرسمه وأمام أفرانه، حتى حقق لنفسه مكانة دولية مرموقة بين فرنسا وألمانيا وسويسرا وأمريكا، عبر معارض خاصة وجماعية ومؤتمرات ومحاضرات ومقتنيات لأعماله فى شتى متاحف العالم.

وها هى زوجته الوفية تواصل رحلة رفيق العمر بموهبتها المتميزة فى الخزف والنحت، وتضيف إلى اهتماماتها التشكيل بالزجاج بأسلوب زوجها نفسه مع إضفاء شخصيتها الخاصة، التى تحتفى أكثر بالحس الإنسانى والإيقاعات الراقصة للفتيات والطيور والحيوانات، معبرة عن روح شاعرية شفافة.

وها هى ذى قد كسبت الحركة الفنية متحفا نوعيا جديدا بالجهود الذاتية لأصحابه دون أن تتحمل الدولة شيئا، ويبقى فقط أن تفتح السبل للجمهور للتزود من مكنونه الجميل.

● كنعان .. وبقشيش .. والمؤسسة الرسمية .

آخر احتفاليتين للتكريم خلال الشهر الماضى كانت أولاهما للفنان منير كنعان (١٩١٩ - ١٩٩٩) والثانية للفنان الناقد محمود بقشيش (١٩٣٩ - ٢٠٠١)..



القدس - رفقي الرزاز

لكن شتان بين الاحتفاليتين!

لقد شملت احتفالية كنعان معرضا لجميع مراحله الفنية بقاعات قصر الفنون بالأوبرا ومتحف الفن الحديث لمدة شهر كامل، وسبقه عقد مؤتمر صحفى وحفل استقبال بأحد الفنادق الكبرى، وقام صندوق التنمية الثقافية بطبع كتالوج فاخر يضم نماذج ملونة من لوحاته تمثل كل مراحله الفنية، وحضر حفل الافتتاح عدة وزراء ورؤساء تحرير الصحف الحاليين والسابقين وكذلك أمين عام جامعة الدول العربية، وسط حشد ضم مئات المثقفين والإعلاميين ، الذين ظلوا أياما متواصلة يتسابقون لتغطية هذا الحدث عبر قنوات التليفزيون ومحطات الإذاعة وصفحات الصحف.

أما احتفالية بقشيش فلم تزد عن ندوة متواضعة بمكتبة القاهرة بالزمالك، حضرها عدد قليل جدا من أقارب الفنان الراحل ومحبيه، وتحدث فيها بعض أعضاء جمعية نقاد الفن التشكيلى، ولم تسجلها أية كاميرا أو ميكروفون إذاعى!

فهل سبب هذا الفارق الهائل بين الاحتفاليتين يكمن فى القيمة التى يمثلها كل من الفنانين الراحلين؟.. لا أظن أن منصفا يقول بذلك، فقد تسابق كبار النقاد والفنانين فى الإشادة بفن وكتابات بقشيش إلى حد وضعه فى مقدمة النخبة المعدودة من المبدعين المجددين فى المجالين، إذن فأين يكمن السبب فى هذا التمييز الأليم بين رجلين كلاهما فى رحاب الله والتاريخ؟

أعتقد أنه يكمن فيمن وراء كل من الاحتفاليتين، فالأولى وقفت وراءها الدولة بكل رموزها وإمكاناتها (بالقرار والمال والمكان والنفوذ)، ومعها كل آلات الصحافة والإعلام بجبروتها في تشكيل الرأي العام، أما الثانية فلم يكن وراءها غير وخزة ضمير بعض زملاء محمود بقشيش في جمعية النقاد، حركتهم للقيام «بالواجب» الذي تأخر قيامهم به منذ رحيله قبل أربعة أشهر، فكانت الندوة نوعا من إراحة الضمير وتبرئة الذمة، دون أن يجتهدوا حتى في استخدام إمكاناتهم غير القليلة في التجهيز اللائق والحشد اللازم والمساهمة الجادة في الكشف عن تراث المحتفى به من لوحات وكتابات، خلال الإعداد لإقامة معرض شامل لأعماله، وجمع إنتاجه النقدي وتوثيقه ودفعه إلى المطبعة.

ولا أقصد بتبني السلطة اليوم لكنعان أنه كان رجلها المعبر عن توجهاتها، بل لعل العكس هو الصحيح، فقد اختار على امتداد رحلته الفنية الطويلة أن يتبع صوته الخاص، بل المعارض لصوت الفن الرسمي، وبالرغم من عمله الطويل داخل آلة الإعلام الرسمي فلم يسمح لها قط بأن تلتهمه أو تحوله إلى بوق لها أو إلى أداة لتزييف وعي الجماهير، كان دائما ضمن الطليعة المتمردة، وكان دافعه هو الصدق مع نفسه والمشاركة في حركة التقدم بطريقته الخاصة بعيدا عن التكتلات والمواقف اللافتة، وقد ظل كنعان حتى قبل رحيله بقليل يعاني من شعور مرير بتهميشه وإغماط حقه، لكن الحقيقة أن الأجهزة الثقافية الرسمية التي تسعى منذ وقت طويل لتسييد اتجاه فني بعينه، وجدت في كنعان النموذج الذي يثبت مصداقيه اتجاهها، دون أن يكون فنه محل طعن في أصالته من خصومهم، أو اتهام بتبعيته العمياء للفنون الأوروبية المناقضة لثقافتنا القومية، وبذلك يكون كنعان قد قدم لهذه «المؤسسة الرسمية» - دون أن يقصد - صك المشروعية لاتجاهها، وكانت مهمتها اليوم أن تستثمر هذا الصك بتعبئة وحشد أعلام المجتمع وقمم الدولة، بل وجامعة الدول العربية لمباركة دورها «القومي» في التنوير الثقافي.

أما محمود بقشيش فماذا قدم لهذه «المؤسسة» حتى تتبناه؟.. قدم انتقادات لاذعة لسياستها بين الحين والآخر، وكان شبحا يقلق أصحاب الاقطاعيات فيها، ولو حتى بصمته الذي اشتهر به، كما أنه كان بلا سند بين قيادات الصحافة والإعلام ليحيي ذكراه، أما دراساته النقدية فإن رموز «المؤسسة» لا يفوتون فرصة للحط من قيمتها ومن قيمة أي إنتاج نقدي في مصر فيما عداهم، اللهم إلا إذا أشاد النقاد بأعمالهم!

لذا فأنا لا ألوم «المؤسسة»، على موقفها من محمود بقشيش، بل أعترف لها أنها تحملت نفقات دفنه بعد بقائه في غيبوبة الموت أربعة وعشرين يوما وهو لا يجد من يسدد فواتير غيبوبته في المستشفيات مع نزيف المخ. لكن

١٧٥

الهلال

ربيع ثاني ١٤٢٢هـ - يوليو ٢٠٠١م



المسئولية تقع على من يفترض أنه منهم وهم منه، أعنى زملاءه النقاد والفنانين، الذين حتى لم يكلفوا أنفسهم مشقة الحضور للمشاركة فى تكريمه، حتى من استثمر منهم رحيله للمزايدة على الجميع بالإعلان عن حملة صحفية لبيع لوحاته لصالح ابنته، ثم لم يظهر لهم أثر!.

والسؤال الآن : هل يستطيع زملاء بقشيش أن يخرجوا ذكراه من مدافن «المؤسسة» بعمل حقيقى ومسئوليات محددة؟.. أم يظل كل منهم يتحرك بقدم فى المؤسسة وأخرى فى الشوارع الخلفية للحركة الفنية، حيث يلعنون ليلا ما يمتدحونه نهارا؟!

... وننتقل إلى جولة المعارض.

● عبدالكريم ووجع الحنين !

بقاعة بيكاسو بالزمالك أقيم فى الأسبوع الأخير من مايو المعرض الثانى خلال هذا العام للفنان أحمد عبدالكريم، بعد معرضه بأتيليه القاهرة فى أبريل الماضى الذى كان يحمل عنوان «تباين الأزمنة»، أما معرضه الأخير فكان تحت عنوان «مراكب القمر».

عبد الكريم فنان موجوع بالحنين، وقد أشعل فيه هذا الوجع اغترابه سنوات ممتدة بإحدى البلاد العربية على غير قناعة نفسية بالبقاء فيها، ودأب على ترجمة هذا الحنين فى لوحاته خلال غربته، عبر استرجاع رموز الماضى وألعاب الطفولة، ولخص هذه الرموز والألعاب فى الهرم والنخلة والطائر العايق والحصان الحلاوة والمركب الورق، وعالجها فوق سطوح لوحاته أو مجسماته بحس بدائى فطرى يحمل نبض الطفولة وعفويتها، كما يحمل جرأة التجريب التقنى، المتمردة على أقانيم المدارس ومرجعيات الأساتذة والكهنة، وربما قادته هذه الجرأة التجريبية - فى بعض الفترات - إلى الأساليب التجميعية / العشوائية التى شاعت فى اتجاهات ما بعد الحداثة، بعيدا عن البحث فى دوافع ظهورها فى موطنها الغربى، لكن موهبته ذات الطبيعة المتمردة على القوالب سابقة التجهيز كانت تعصمه من الانسياق طويلا خلف هذه العشوائيات، مدعوما بفكر متجدد يضرب بجذوره فى التاريخ الحضارى المصرى، ما جعله يتنقل من تجربة إلى أخرى، مستدعيا رموزا من الحضارة الفرعونية والفن الشعبى، على نحو ما فعل فى معرض العام الماضى حول «فكرة التحول»، مستعينا بقناع اخناتون كرمز للتوحيد وبمومياء الطائر كرمز للخلود والتجدد، وبالحصان المزركش كرمز للمزاج الشعبى والأصالة العربية، وفى معرضه قبل الأخير «تباين الأزمنة» جازف ببناء هرم مجسم يقف مقلوبا فوق قمته، تعبيرا عن اختلال القيم فى زماننا وعن قدرة مصر - رغم ذلك - على الاحتفاظ بتوازنها الصعب.

وفى معرضه الأخير «مراكب القمر» يستعيد ألحان الطفولة البريئة، بإطلاق مراكبه الورقية وسط تيجان النخيل فى جو من الحلم الرومانسى، كما يستعيد حساسيته المرهفة فى الرسم بالحبر الأسود لوجوه وأشخاص ريفيين بحس

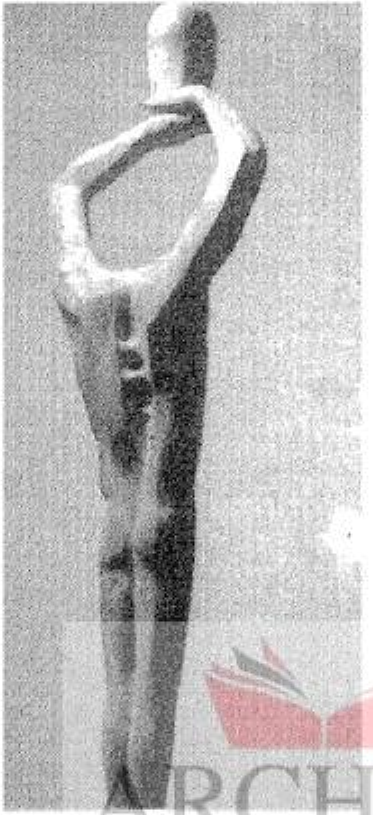
تعبيري متمكن، ويبزغ في معرضه عنصر جديد لأول مرة وهو العروسة، التي أضفت مزيدا من الطزاجة والبراءة الفطرية على معرضه، فكأنه بهذا الحس الرومانسي والطفولي يركز في نفوسنا حلاوة الحنين وينفض عنها أوجاعه!

● حسام غريبة .. والانعتاق من الجاذبية الأرضية

وفي مركز الجزيرة للفنون أقيم في أول يونيو معرض النحت للمثال الكبير حسام غريبة، وبالرغم من أنه فنان مخضرم راسخ القدم منذ تخرج في كلية الفنون الجميلة بالقاهرة عام ١٩٦٢، فإن هذا هو معرضه الأول بالقاهرة، بعد أن عاش خارج بلده أكثر من ربع قرن، يعمل بإحدى الدول العربية، واستطاع خلالها أن يحمي روحه المبدعة من التآكل والذوبان.

هذا المعرض يرد الاعتبار إلى فن النحت، بعد أن اجتاحته واكتسحته رياح ما بعد الحداثة وكادت تخرجه من تصنيفات الفن، حتى بات طرازا رجعيا أشبه بالطربوش!.. أو تحول إلى مجسمات عشوائية مهجنة بالخامات الوضيعة وسقط المتاع، وإلى أشكال مجردة عجفاء «تتقصع» في الفراغ بغير احتشام أو مشاعر إنسانية، لقد غرب الإنسان عن كل هذه التشكيلات تحت شعار الحداثة، في حمى اللحاق بالاتجاهات «العالمية».

جاءت منحوتاته لتذكرنا بالبديهيات التي لا يستقيم النحت في غيابها: الحس الإنساني هو روح الفن، الطبيعة هي منبع الرؤية، الكتلة تلد الفراغ والفراغ يلد الكتلة، والحركة تتولد عن تزاوجهما



لوحة تمثال الشهيد - حسام غريب

وجدلهما، فيما يشتركون جميعا في ولادة الفكرة، التي لا يستغني عنها أي عمل فني حتى لو كان تجسيدا لشكل مجرد، أما الابتكار والحداثة فلا يأتيان عن طريق نفي أو تجاهل هذه الأسس المحورية، بل يأتيان بالقدرة على استخلاص الجديد من عناصر الطبيعة، بعد تحليلها وإعادة صياغتها، بفكر يتوازى ويتحاور معها ولا يهدمها، ويأتيان بتفجير الشحنة التعبيرية داخل

الكتلة، حتى تمتلك الفراغ وتتلاعب به وتنشيء من خلاله أشكالا وعلاقات بصرية، ويأتيان - أخيرا - بإطلاق الخيال والرؤى والرموز من داخل الفنان عبر تجليات الشكل وإيقاعه النغمي.

فوق هذه الأركان قامت تماثيل حسام غربية ، متخايلة أمامنا وملتبسة بين الواقع واللاواقع، تحترم الجسم البشري وتتغنى به لكنها لا تقع أسيرة لجماله المثالي حسب المقاييس الإغريقية، بل تتحرر من القواعد التشريحية وتحتفظ بليونته الانسيابية وبإيقاعاته القوسية، وتستولد من تشابكات الأذرع والسيقان عبر أوضاع حركة الأجسام المتقابلة أو المتعاكسة أو «المتشقلبة» فتحات هوائية وفراغات بينية تصبح بدورها أشكالا سلبية أو نقاط ارتكاز فوقية في الجزء العلوي للتمثال، تعمل على انعتاق كتلته من الجاذبية الأرضية وإطلاقها والتحليق بها في الفضاء، محققة للإنسان سموا روحانيا يتجاوز المحسوس نحو المطلق.

وليس مهما بعد ذلك إذا كان موضوع هذه المنحوتات هو أكروبات السيرك أو الأسرة أو الأمومة أو الرقص أو حتى الشهيد، فقد انتقل بنا الفنان ، بذكاء تحليلاته وتحويراته وتفريغاته للكتلة عبر فضاءات مفتوحة، من أسر الموضوع المحدود إلى رحابة المضمون المطلق، متجاوزا حواجز المدارس والزمان والمكان.

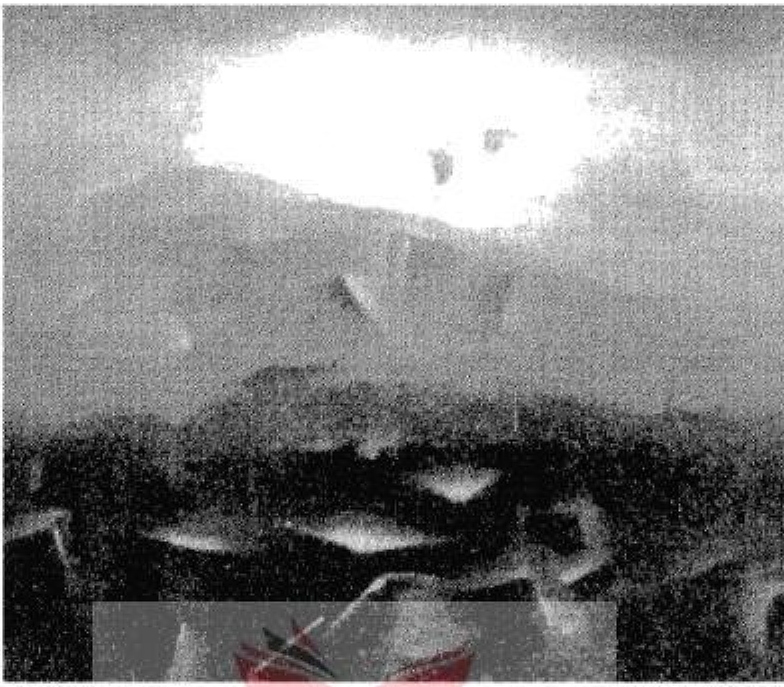
ولعل هذه السمات جميعا ترشح أعمال حسام غربية للتكبير في أحجام صرحية تقام بالحدائق والميادين، لتساهم في ملء الفراغ الرهيب في حياتنا الذي احتلته البلاليص الفخارية القبيحة على أيدي مقاولي تجميل الميادين والمتربحين من ورائها!

● رفقي الرزاز.. والقدس

وفي قاعة المركز المصري للتعاون الثقافي الدولي بالزمالك كان معرض الفنان رفقي الرزاز، الذي تعودنا في أعماله السابقة على استلهامه الخاص للرموز الشعبية بحس تعبيري لا يسعى إلى الزينة والتزويق، بل تغلفه خشونة فطرية لا تخلو من الضراوة.

في هذا المعرض يفاجئنا بتخصيصه للتعبير عن قضية القدس، وتبدو جميع اللوحات كدراسات تحضيرية للوحة الجدارية الضخمة التي تصدرت القاعة، وهي تمثل ملحمة درامية للاستشهاد والمقاومة ولثورة الشعب الفلسطيني الشجاع، متخذا من الحصان العربي رمزا للانطلاق والعزة والتجاوز، وهو حصان جامح مندفع محلق مدجج بالسلاح، يتخطى المسخ الوحشي الرابض للعدوان، فيما يجر عجلة الزمن أو عجلة رمسيس، ويتجه نحو قرص الشمس المشع بالأمل، وقبة الصخرة تتألق في الخلفية كرمز لا يغيب.

وقد نسترجع من خلال لوحات رفقي ظلالا من لوحات الحرب الشهيرة لبيكاسو وعلى رأسها «الجورنيكا»، فبالإضافة إلى تشابه الرموز بينهما (مثل الحصان والأيدي الممدودة وقرص



احد أعمال الفنان الراحل محمود بقشيش

الشمس الذى يذكرنا بمصباح الجرونيكا)، فإن الألوان فى لوحة القدس تكاد تقتصر على الأسود ودرجاته، مع تنغيمات إضافية من الأزرق والأصفر، لكن الشحنة الدرامية التى نشعر بزلزالها فى «الجورنيكا» نجدها فى «القدس» هادئة أقرب إلى الرومانسية، وربما كان حرص الفنان على الإيقاع النغمى المختال للحصان بخطوطه الرشيقة وراء هذا الهدوء، لكن ذلك لايعيب عمله، وقد يغفر له هذا الهدوء اهتمامه بتأكيد الأمل وحتمية الانتصار.

لكن ما أود التنبيه إليه هو ما يبدو على اللوحات من سمة التحضير، حيث تفتقر إلى ثراء السطح بالملامس والألوان، وإلى تفاعل المشخصات مع بعضها البعض بالتحليل والتركيب للخطوط والمساحات، لكن يبقى لرفقى الرزاز شرف التعبير عن هذا الموضوع فى هذه الفترة المصيرية العصيبة، التى تُستنفر فيها كل قوى المشاركة، وكأنما جاء هذا المعرض نيابة عن ضمائر الفنانين المصريين جميعاً بهموم أخرى!!.

■

لغويات

د. محمود فهمي حجازي

كانت مصر من البلدان التي أدخلت «القطار» في وقت مبكر جدا بالمقارنة بأكثر دول العالم، وعرفنا هذه الكلمة لذلك المعنى الجديد تسمية لتلك الوسيلة التي لم يكن أحد يعرفها في العالم كله قبل القرن التاسع عشر . ومع دخول مزيد من القطارات في تتابع زمني منظم على نحو ما يحدث في قطار الأنفاق في داخل المدن الكبرى ظهرت الحاجة الى كلمة دالة. فكانت كلمة «تقاطر» ، وكتبوا عن نظام التقاطر وفترات التقاطر.

كلمة تقاطر لا وجود لها في المعاجم المتداولة بهذا المعنى الجديد وإن كانت قديمة في العربية ومعاجمها . الفعل تقاطر تذكره المعاجم في مجال حركة البشر، تقاطر القوم بمعنى جاءوا متتابعين واحدا بعد الآخر. وهذا المعنى العربي القديم نجده أيضا في حركة الإبل التي تتابع بعضها وراء بعض على نسق واحد. والمصدر تقاطر وارد بهذا المعنى، ووصف المطر بأنه دائم التقاطر أي دائم ، تتابع القطرات بعضها وراء بعض. وهذا المعنى يرتبط بالتتابع بين البشر أو الإبل أو المطر.

وعندما نظر مجمع اللغة العربية في كلمة تقاطر في مجال القطارات وتتابعها كتب الأستاذ الدكتور كمال بشر بحثا في هذه الكلمة، ووافق المجمع عليها. هنا استخدام كلمة عربية قديمة لدلالة جديدة في سياق حضاري حديث . كان العرب قديما يعرفون كلمة قطار للدلالة على قطار الإبل التي تكون في مجموعة واحدة وتنتظم في خط واحد، فأخذنا هذه الكلمة وأطلقناها على هذا النوع الجديد من المواصلات من باب التغير الدلالي. وعرفنا أيضا «القاطرة» التي تسحب العربات خلفها، واستخدمنا كلمة «مقطورة» في سياق الشاحنات والسيارات في حالات محددة. وأصبحنا نتحدث أيضا عن التتابع بكلمة تقاطر للدلالة على انتظام القطارات في نسق زمني محدد.

ولهذا كله اجاز مجمع اللغة العربية الاستخدام الجديد لكلمة «تقاطر» كما أجاز من قبل كلمة «قطار» . المعاني هنا جديدة، عرف العرب قديما هذه الكلمات في سياق حياتهم البدوية، ونعرفها اليوم في مجال حضاري جديد، وهو وسائل المواصلات الجماهيرية الحديثة. وهكذا حياة اللغة العربية، التغير الدلالي يتيح لنا أن نعبر عن الجديد، وهناك كلمات عربية كثيرة حدث فيها هذا التغير الدلالي، نجدها في المعاجم القديمة بمعنى يختلف عن استخدامها الحديث. وهذه الدلالات الجديدة جديرة بأن تستوعبها حركة تأليف المعجمات الحديثة، وهذا ما ينشده المثقفون ويعمل مجمع اللغة العربية من أجل تحقيقه.

إيزابيل أبرهارد

كاتبة فرنسية
ماتت في أحضان العرب

بقلم
محمود قاسم



لايفهم المرأة سوى امرأة مثلها ..
بهذا المفهوم راحت الكاتبة الفرنسية المعروفة أدموند شارل رو تفتش فى خفايا حياة الكاتبة والمستشرقة المعروفة إيزابيل إبرهارد التى عشقت الشرق وأحبته ، وعاشت فيه ، وارتدت ثوبه ، وآمنت بدينه ، بل وأعتنقته .

إيزابيل أبرهارد



يهمنا قبل أن نتحدث عن الكتاب الذي نشرته أدموند شارل - رو أن نشير إلى المؤلفة التي أعدت هذه الدراسة . فهي إحدى الكاتبات المميزات في الأدب الفرنسي المعاصر . نشرت كتابها الأول تحت عنوان «انس بالريمو» الذي حصلت به على جائزة جونكور في عام ١٩٦٦ . وهي كاتبة مقلة في أعمالها . فقد أعدت دراسة حول عارضة الأزياء المعروفة «كوكوشانيل» تحت عنوان «امرأة غير عادية» ثم ظلت تبحث سنوات في حياة المستشرقة «إيزابيل ابرهارد» ونشرت حولها كتابها «رغبة الشرق» الذي قدمته دار نشر جراسيه .. وهي نفس الدار الذي طرحت في السوق كتاب «كتابات فوق الرمل» لإيزابيل ابرهارد نفسها وهو الجزء الأول من الأعمال الكاملة للمستشرقة التي ولدت في سويسرا في عام ١٨٧٧ في عائلة من أصل روسي .. وماتت في عام ١٩٠٤ عن عمر يناهز السابعة والعشرين .

قبل أن تموت إيزابيل إبرهارد بأيام قليلة كتبت في يومياتها أنه لم يوجد «الشخص الذي عاش مثلما عشت . (فقد كنت أحيا يوما بيوم) وقد دفعني هذا إلى الطريق الذي اخترته لنفسي . فإلى هذا الحد كانت مسألة وجودي بالغة الأهمية» .

وتقول الكاتبة إن حياة إيزابيل قد ارتبطت بالمصادفة والمغامرة . لكن كتاباتها تبرهن لنا عكس ذلك . فلم تكن إيزابيل تترك لنفسها فرصة اتخاذ القرار. ولكنها كانت تتجه بشكل غريزي نحو الحدث . وقد ساعدها في ذلك طبيعتها وسماتها العامة .

بداية غامضة

مثل هذه المرأة كانت ذات بداية غامضة . فلم يعرف أحد من يكون أبوها الحقيقي . قيل أنه طبيب تركي . ولكن الدلائل تشير أنه الروسي الكسندر تروفيموفسكي الذي كان وصيا عليها ومعلما لها . وقيل أنه قد تبناها وأعطاها اسمه .وحباها برعاية خاصة لم يحظ بها أولاده الشرعيون . وقد علمها كيف تواجه صعوبات الحياة . ولولا ما تعلمته منه ما أمكنها اختراق الصحراء العربية وأن تحيا حياة سهلة في الجزائر وتونس وهي تنفض عن نفسها كافة ألوان الزخرفة والبهرجة وأجواء الأرستقراطية التي عاشت فيها . فقد أوعز لها أن تتصرف كرجل . بل وأن ترتدي ملابس

رجال ليس فقط في منزلها . ولكن عندما توجد بين الناس . فقد تعلمت أنها يمكن أن تتصرف بحرية أكثر كلما ارتدت ملابس الصبية والرجال.

وفي طفولتها قام الأب بشراء حصان لابنته ، وراح يعلمها كيف تستخدمه . وقد استفادت تماما من الفروسية التي تعلمتها وهي تخترق رمال الصحراء فيما بعد . وهو الذي علمها قراءة وكتابة اللغة العربية الفصحي . والغريب أن الأب لم يكن يسمح لايزابيل أن تتصل قط بالسويسريين اللذين يعيشان فيما بينهم . كما كان يكن إزدراء ملحوظا لأبناء الطبقة الراقية التي ينتمي إليها .

وعندما شبت إيزابيل عن الطوق ، صحبتها أمها إلى الجزائر . وهناك أعلنت الأم وابنتها أعتناقهما الدين الإسلامي . وفيما بعد أصيبت الأم بمرض دفع الأب للحضور إلى شمال أفريقيا . وهناك وجد ابنته مصابة بحالة من الجنون والصرع نتيجة لعدم مقدرتها على الوقوف بجوار أمها في محنتها الصحية .

حياة على سجيتها

وفيما بعد سافرت إيزابيل إلى تونس لقضاء فترة نقاهة على حساب السلطات الفرنسية وهناك راحت تعيش على سجيتها . فقد كان الآخرون يتعاملون معها على أنها صبي . لذا خالطت الرجال ، وتعاطت المكيفات ، ونامت في المقاهي وسط جنود الاحتلال .

وعندما مات أبوها في سويسرا أكتشفت أن عليها أن تترك كل مظاهر الفخامة التي أتيحت لها ، وعادت مرة أخرى إلى تونس دون أن تكون لديها أدنى فكرة عما يمكنها أن تفعله . أو عما ينتظرها . فلم يكن معها من النقود سوى القليل الذي أخذ يتناقص يوما وراء آخر .. وفكرت في السفر إلى مارسيليا حيث التقت هناك بأخيها الذي وجدته معدما أكثر منها . فعادت خائبة ، خاوية الوفاض . وارتحلت إلى مدن عديدة لتفتش عن مصدر مالي في جينيف وباريس . وفي العاصمة الفرنسية قررت أن تصبح كاتبة.

وفي باريس ابتسمت لها الأمور بشكل ملحوظ خاصة حين التقت بالماركيزة مور التي مات زوجها في ظروف غامضة أثناء حملة عسكرية في جنوب تونس . وقد كانت الماركيزة تود أن تعرف الظروف التي مات فيها زوجها ورأت أن إيزابيل هي الشخص المناسب الذي يقوم بهذه المهمة . ووقعتا معا إتفاقا بأن تقوم الفتاة بالعودة إلى تونس . وبالفعل فقد بذلت إيزابيل كافة مساعيها لمعرفة أسباب مصرع الماركيز واكتشفت أنه مات منتحرا.

إيزابيل أبرهارد



بداية الكتابة

ساعدتها تلك الرحلة على الاسترخاء . وأن تخلو كثيرا إلى نفسها فى الصحراء . كما أن السيولة المادية قد ساعدت بدورها فى أن تتحول إلى الكاتبة التى طالما كانت تنشدها . ففى مدينة العواد الجزائرية أجرت منزلا . وبدأت تكتب فيه.

وقد واجهت الكاتبة بعض المتاعب مع السلطات الفرنسية التى تعاملت معها بحذر . فقد تصورها جنود الاحتلال جاسوسة . وراحوا يراقبونها بشدة لكن أحداً لم يستطع أن يتوصل إلى شىء ملموس بل إن حادثا غريبا جعلها بعيدة أكثر عن هؤلاء الفرنسيين ، حينما حاول أحد الوطنيين أن يشج رأسها بسيفه فأصابها فى ذراعها . وعندما قبضت السلطات على الرجل ابرأته إيزابيل فأصبح صديقا لها .. ولأن الرجل لم يكن مرغوبا فيه بالمرة فإن السلطات الفرنسية حاولت ابعادهما عن الجزائر قدر الإمكان .. وهنا قدم الرجل ويدعى سليمان طلبا للسماح له بالزواج منها . وعندما رفضت السلطات لم تجد الفتاة أمامها سوى العودة إلى فرنسا مرة أخرى . وهناك علمت أن السلطات قد قبضت على سليمان وقدمته إلى المحاكمة.

وقد قدمت إيزابيل العديد من الاحتجاجات من أجل إطلاق سراح سليمان لكن كل محاولاتها باءت بالفشل . وكان عليها مواجهة مشكلة جديدة وهى أن النقود التى أخذتها من الماركيزة مور قد نفدت فرضيت بمرتب بسيط فى أحد الأعمال المتواضعة . وعادت مرة أخرى إلى التأليف والابداع . وكانت تكتب إلى سليمان خطابات عديدة وهو فى السجن . واعتبرت هذه الرسائل بمثابة تراث أدبى بالغ الرقى .

زواج واستقرار

وعندما أطلقت السلطات سبيل سليمان أبحرا إلى مارسيليا ، وسرعان ما أعلنا زواجهما بعد لقاء حار للغاية . وقد تم عقد قرانهما فى مسجد مارسيليا فى عام ١٩٠٢ . وفيما بعد ، عاد العروسان إلى الجزائر مرة أخرى . وراحت إيزابيل تجرى الإتصالات بالعديد من الناشرين . واستطاعت أن تنشر كتابها الأول «الأخبار» . وقد آمن الناشر باروكان أنه أمام شخصية موهوبة . لذا راح يطلب منها كتابة المقالات بشكل متتابع . وقد ساعد ذلك العروسان أن يتخلصا من العثرات

المالية التي كانا يواجهانها . وقد أثار هذا الموقف قوات الاحتلال الفرنسية فراحت تترقب سلوكها وتحاول الإيقاع بها . فسعت أولا لابعاد زوجها عنها وإرساله إلى الجنوب . وأصابت الحمى الزوجة وهى تعانى من وحدتها . وعندما تماثلت للشفاء راحت تكتب عن أخبار وسلوك الجيش الفرنسي في الجزائر . ولم يكن هذا أمراً يسر الفرنسيين بالمرة

سافرت إيزابيل بعد ذلك إلى مدينة عين الصفرا في المغرب . وهناك عاشت تجربة قاسية ، فقد كانت تنام ليلا في المقاهي . وكتبت حول هذه التجربة تقول : «هناك شيء مايشدني إلى هذا العالم . ترى هل أنا امرأة ثائرة . يالها من فرحة أن يقع المرء على شيء يشير بهجته . فيرفض العبودية . والتشرذم . ويعبر الحياة وهو يشعر بحريته كأنه عصفور يحلق في الفضاء» .

اختيار طريق التصوف

وإذا كانت السيرة التي كتبتها أدموند شارل - رو حول إيزابيل إبرهارد قد تناولت السنوات التي تنحصر بين ١٨٧٧ و١٨٩٩ . فإن سيرة حياة الكاتبة بالغة الاثارة . ففي العامين الأخيرين من حياتها اختارت طريق التصوف . وفي مطلع صيف عام ١٩٠٤ توجهت إلى مدينة قندسا المغربية من أجل الالتقاء بالمتصوفين في المدينة خاصة المترددين على زاوية «سيدى إبراهيم ولد محمد» . وهذا المكان ملتقى سنوى للمتصوفين الذين يأتون من كل فج بشمال أفريقيا . وفي تلك السنوات كانت تلك المنطقة تشهد توترات متلاحقة مع الاستعمار الفرنسي . لذا تم القبض على إيزابيل ، ووضعت في سجن خاص لمدة أسبوع من قبل رجال سيدى إبراهيم الذين تصوروها جاسوسة تعمل لحساب الفرنسيين . ثم ما لبثوا أن أطلقوا سراحها ، وكان السجن قاسيا عليها ببرودته في أثناء الليل فأصابتها حمى شديدة ما لبثت أن أسلمتها إلى بارئها .

وفي أثناء فترة السجن عكفت إيزابيل على الكتابة : «يخيل إليّ إنني أدخل حياتي وأنا أعبر أرضا مجهولة» .

شهدت هذه الأيام التي مرضت فيها حالة غريبة من عشق الكتابة . وتركت وراءها تراثا كبيرا لم تبدأ دور النشر في تقديمه إلا بعد وفاتها بأربعة أعوام .

فلولا صديقها الناشر باروكان لما أمكن جمع كل هذا التراث الأدبي الرائع ففي عام ١٩٠٨ نشر باروكان «يوميات» إيزابيل . وفي عام ١٩٤٤ نشر رينيه لوى دويون كتابها «في بلاد الرمل» . وهو نفس الكتاب الذى أعادت نشره دار جراسيه هذا العام معلنة عن قرب نشر الأعمال الكاملة لإيزابيل ابرهارد للمرة الأولى . ■

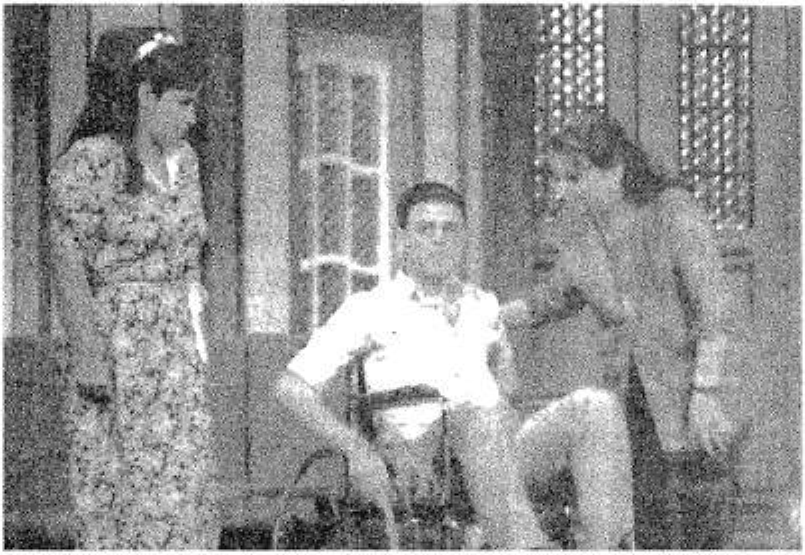


مسرح الدم والدموع والميلودراما

والناس اللى فى التالت

بقلم
مهدى الحسينى

شكل حضور الفنانة الكبيرة سميحة أيوب على منصة مسرح الأزبكية ، ومن حولها نخبة من ألمع ممثلى المسرح فى مصر ، أداء يتسم - فى عمومه - بالجدية والرصانة والعمق والنفاذ والوعى ، حالة تذكرنا بحال الفن المسرحى حين كان القومى «فرقة» ذات ملمح وأسلوب وأثر وتقاليد ووحدة ، لا عقداً منفرطاً ولا شراذم كالحة لملمها مخرج من هنا وهناك ، كما شكل الحضور المكثف لجمهور رفيع المستوى - حتى أن حقق العرض ايراداً غير مسبوق تجاوز تكلفته بكثير - الوجه الآخر للمعادلة !! هذا الحضور المدهش - رغم الحر والامتحانات يشكل سؤالا كبيراً لابد من الاجابة عليه .



مشهد من «الناس اللى فى التالت»

ومن عالم الرائد الراحل نعمان عاشور ، الذى تميز برسم شخصيات مصرية بحتة من الطبقة الوسطى الصغيرة ، فى صورتها اليومية ، بعيداً عن التجريدات والمطلقات ، انطلق الكاتب التلفزيونى المعروف «أسامة عكاشة » ليصور أزمة - أو أزمات - أسرة قاهرية مكونة من الست وداد « سميحة أيوب » أرملة تعيش مع ثلاثة من الأبناء الذكور : الأول سعيد « عبد العزيز مخيون » يعمل مديراً للتحقيقات بإحدى المؤسسات ، والثانى وحيد «فاروق الفيشاوى » تخرج من الهندسة ليفر من عالم البطالة إلى دولة خليجية ، والثالث هانى «سيد شفيق» معوق على كرسى متحرك برئ وثابه ، ثم الأخت الوسطى رباب « عفاف حمدى » عانس تعمل بشهادتها المتوسطة فى مكتب بريد وتعانى من الانكسار والانكماش الاجتماعى ، بالإضافة إلى رقيه أو وسيلة « خادم - نرمين كمال » يتضح بعد ذلك أنها أختهم من أبيهم من زوجة ثانية مجهولة، أما العم مهيب « رشوان توفيق » صديق الأسرة العجوز القديم .. فيسكن فى حجرة مقتطعة من شقة الأسرة الأصلية .

والمفترض أن الأسرة تستعد لاستقبال الابن الأكبر عائداً من حفل زفافه بصحبة منال« رباب ممتاز » عروسه وزميلته فى العمل ، وبعد دخولهما حجرة العرس ، يفاجأ الجميع بعودة المهندس وحيد من الغربة ، وبعد



أن اجتمع شمل الأسرة وتفجر المشاكل بينهم بكافة أنواعها ، فإن طرقاً شديداً على باب الشقة المطلة على ميدان رمسيس بالدور الثالث ، يسفر عن اقتحام الشرطة للأسرة بحجة تأمين موكب « الرئيس » وضيفه الكبير . وهنا تبدأ مرحلة أخرى من العرض يتبادل فيها الضابطان « رياض الخولى » للتحقيق النفسى والفكرى و « ياسر على ماهر » للتحقيق القانونى والسياسى ، يساعدهما مخبران شديدا المراس هما عباس «محمد توفيق » وجعيصة « محمد الباز » .. عمليات التفتيش والتحقيق والمواجهة والتعذيب .. وإدارة كل شئ .

وإزاء التداخل الشديد بين جميع الشخصيات .. والاشتباك المعقد بين الأحداث وبين الواقع والتاريخ الملئ بالأسرار والمفارقات والمواجهات ، كان من الضرورى أن نتأمل معانى أغلب شخوص العرض .. شخصية بعد أخرى .. وأن نحلل ما أمكننا من عناصره الفنية .

وداد

عادة ما يكون الغموض فنياً ، ولكن الأمر هنا يبدو على شئ من الضبابية والخلط ، فمن تكون هذه السيدة ؟ ما تعليمها ؟ ما ثقافتها ؟ ماذا تعمل ؟ تزوجت سياسيا وهى تكره السياسة ، ورحل الزوج بعد أحداث ١٩٧٧ ، أى بعد تخرج سعيد بأربع أو خمس سنوات ، وقبل حصول وحيد على الثانوى ، وكانت رباب بالاعدادى . تولى الحقوقى مسئولية الانفاق على الأسرة ، فهل يكفى مرتبه منذ ١٩٧٧ إلى جانب معاش الأب بالإضافة إلى إيجار حجرة العم مهيب ؟ ان مصروفات وحيد طالب الهندسة ولدة خمس سنوات كفيلة بخراب بيت بأكمله ، فما بال باقى المصروفات ؟ ما الحال بأسرة بهذه المواصفات ؟ ومن أين أتت هذه السيدة بلغتها ومنطقها ووعيها الاجتماعى ؟ والتى كانت تختلف جذريا مع زوجها لأنه يعمل بالسياسة .

وداد هذه بقدر حنانها الفياض نحو هانى ابنها الأصغر الذى تحمل داخلها عقدة ذنب تجاهه .. فإنها لا تتورع عن نعته بالكسيح !!

وبقدر وعيها بـ (حالة) ابنها سعيد ، ربما لأنه تحمل عبء الانفاق على الأسرة فإنها تهمل أزمة وحيدتها رباب ولا تحاول إيجاد حل لها ، وفى حين تواجه وحيد فى أنانيته لأنه يتحداها ويجرح مشاعرها ، فإنها لا تواجه أنانيتها تجاه ابنة زوجها .. بل تصل بها القسوة إلى الحد الذى تستعبدها فيه وتنكر عليها حقوقها القانونية والانسانية وتزوجها من شخص تعلم مسبقا أنه تاجر مخدرات



سميحة أيوب



اسامه انور عكاشة

.. وبعد أن سُجن أرادت أن تزوجها من قهوجي ، هل هذا نوع من الانتقام من زوجها الراحل حين علمت من مهيب قصة الفتاة اليتيمة ؟ كل هذه أسئلة على الكاتب الدرامي أن يضعها أمامه حين يبدع مثل هذه الشخصية المسرحية ، فلابد من أن يكون لصفاتها مصادر يقتنع بها المشاهد أو يدرك بحدسه أنها موجودة في محيط حياته وتجاربه ، دون حاجة إلى تحايل أو خداع ، فهي بالضرورة متضمنة وخفية حين يصوغها المؤلف فناً ، فإن أهملها جاءت الشخصية باهتة ومضطربة وغير منطقية ، وأن كشفها جاءت الشخصية فجة ومباشرة وغير مقبولة ، فأعظم الفن إخفاء الفن . والسؤال هنا عما إذا كانت الشخصية الدرامية تقوم على الوحدة والتناقض والعكس ، فهل التناقضات هنا يمكن أن تجمعها وحدة ؟ إنني لأظن أن الفنانة القديرة بخبرتها الواسعة وتجربتها العميقة قد أدركت هذا الأمر الذي أثر على حضورها كشخصية لا كممثلة ، فبذلت أقصى ما في طاقتها حتى تهب اتساقاً - ولو خارجياً - لشخصية وداد .

يوسف زغلول

غائب حاضر حضوراً يشكل الأحداث ويحركها ، مناضل وطني قديم ، لعب دوراً بارزاً في حركة الفدائيين في قناة السويس ١٩٥١/٥٠ ، رفيق كفاح مع مهيب ، خرج من الكفاح فاقداً كليته وطحاله وجزءاً من كبده ووظيفته كمهندس ري . ولكن ثمة قصة - في النص والعرض - متناقضة وعجيبة ، فيقول ابنه سعيد أن الانجليز سجنوه من ١٩٥١ حتى عام ١٩٥٤ ، هل كان الانجليز يملكون سجوناً في مصر حينها؟ أم هذه الحكاية أكذوبة؟ أم أن الانجليز سجنوه في معسكراتهم وفي موضع آخر يقول المؤلف أنه توقف عن السياسة سنة ١٩٥٢ !! وسلم أسلحة النضال لحكومة الثورة التي أعادته لعمله ومنحته ترقية ونيشاناً وحياة بينما لم تسأل فيه حكومة الوفد وكيف وقد كان سجيناً ؟ المهم أنه لم يترك أثراً في ذريته اللهم ذلك الأثر الباهت المبتور في شخصية سعيد فضلاً عن مسدس صغير كي يستخدمه الضابط للضغط على الأسرة ، تزوج امرأة أخرى سراً وتوفيت ، انجب منها طفلة كان عمرها أربع سنوات حين أحضرها لوداد وأخبرها أنها ابنة عمه ، وهكذا قبل (المناضل) وقبلت الزوجة أن تستذل



الطفلة البريئة فى خدمة الأسرة أكثر من ربع قرن ، أى منذ توقف عن العمل السياسي وحتى وفاته ١٩٧٧ حافظا سره المشين في صدره ، لا يعرفه إلا صديقه المتواطئ الاستاذ مهيب . إذن كيف لمناضل وطنى سابق ، ذاق السجن والاصابة من أجل مبادئه أن يرتكب هذه الجريمة النكراء في حق طفلة من لحمه ودمه ؟ هذا الأب نفسه أفسد ابنه الأوسط بالتدليل دون سبب مفهوم أو ميزة بينما كان سعيد هو الأولى .. فهو الذى حفظ تاريخه وذكرياته وحمل شيئا من أفكاره .

سعيد

هذا الشخص المثالى العنيف الرقيق لماذا انكسر ؟ حين كان طالبا بالجامعة شارك فى مظاهرات ٦٨، ٧٢، وحين تخرج وتوظف شارك فى مظاهرات ٧٧، والنص المنشور يثبت أن عمره أربعون عاما ، لذا نستطيع أن نستنتج أن الأحداث تدور عام ١٩٩٠ ، ولقد آثر سعيد الصمت بعد (علقة) فى معتقل القلعة بسبب دوره فى انتفاضة الحرامية وبعد وفاة أبيه تفرغ لرعاية الأسرة ، غير أنه فى عام ٨٨ كتب مذكرة لمجلس الادارة عن الانحرافات فى المؤسسة ، ولكن رئيسه استدعاه وهدده ورفض تهديده .. وتم تخييره بين السكوت أو الاستقالة وكان المنطقى هو السكوت بالطبع ، إلى هنا يبدو الأمر منطقيا : شخص يرث الحس الوطني من والده ، تدفعه الأحداث للمشاركة فى الاحتجاج والمعارضة ، تقوم السلطات باعتقاله وتعذيبه فيهجر السياسة ، ولكن لأن العرق دساس فانه يكتب مذكرة قانونية سنة ١٩٩٥ لإدارته عن مخالفات وانحرافات ، فيواجهه رئيسه بالعنف البارد والتهديد يكون إزاءه هو الطرف الأضعف ، فيعرف وزنه ، فيؤثر الصمت . أما ما بعد ذلك فهذا ما أراد به الكاتب أن يلطخ به شرف هذه الشخصية المهزومة فى معارك خاضها إزاء خصوم أقوى منه بما لا يقاس . كان من الممكن أن يصبح هذا السقوط منطقيا دراميا ، لو كان عكاشة قد دسَّ لنا مبكراً فى بنية الشخصية وصميمها ثقباً ما .. ثقباً صغيراً يظل يتسع مع الزمن والأحداث حتى يكشف فى النهاية عن جرح وقيح ، أما كيف يتحول هذا الرجل الطيب ، الذى ضحى في سبيل أسرته وشعبه ووطنه ، إلى قواد ومجرم خلال عامين بدون سبب درامى فهذا قرار مجحف من المؤلف . إن هذه الصيغة أشبه بسب علنى أو اغتيال معنوى غادر بلا مبرر ، الأمر الذى جعل الممثل مخيون يضيف إلى الشخصية (غير المرسومة جيداً) ألفاظاً وإيماءات من عندياته ، ولعله خلط بين شخصه كفنان .. وبين شخصيته



فاروق الفيشاوى



عبد العزيز مخيون

على المسرح ، حين أحس بالعار الجائر الذى كلل هام شخصية سعيد دون ارادتها الدرامية .

وحيـــد

تخرج من الهندسة عام ١٩٨٤ ، عانى بطالة الخريجين ، بعد ذلك استولى على قطعة أرض صغيرة تركها الوالد للأسرة ، أنشأ فوقها مشروعا وفشل (لماذا ؟ ان شخصا يملك كل هذا القدر من الأنانية والغل لجدير أن ينجح فى ظل الأوضاع القائمة التى ترحب بمثل هذا النوع من البشر) وكيف لشخص فشل مشروعه الأول ، ثم فشل مشروعه فى الخليج أن يظهر هذا القدر من التماسك أمام ضغط رجال السلطة ؟ لماذا لم (يتفاهم) معهم ؟ فهو الذى نهب أخته وخطيبها ، وخاطب أخاه الأكبر الذى ساهم فى الانفاق على تعليمه بما لا يليق بل وعاداه بلا مبرر ، وواجه أمه بما يجرح متحديا إياها رأسا برأس ، وتحدث عن أبيه - الذى دلله وفضله - بما لا يصح ، كما لم يعمل بالسياسة رعبا بعد أن شهد المباحث تجرجر والده أمام عينيه ويضربونه وهو ينزف دما (يقول الكاتب أن وحيداً رأى أباه يعذب وهو لم يزل طفلاً !! مات؟ وقد توقف يوسف عن السياسة قبل أن يولد؟) .. وأخيراً هو يكره العم مهيب الذى جاور الأسرة وساعدها لأنه طلب يد الأم أربع مرات فى الحلال ، وفى حين برأ سعيد ساحة المباحث من شبهة الوقيعة بينه وبين منال ، كان وحيد يكشفهم ويشاغبهم ويناورهم .. بل وفضل العودة من حيث أتى على الاستجابة لاغراءاتهم السخية !! إن مثل هذه الشخصية هى الأوفق للانهيار والتسليم إلى حد الرشوة والقوادة ، لو كان الكاتب قد اختارها بدلا من سعيد . لكن لماذا أحدث أسامة هذا الخلط الذى أظنه جاء متعمداً كى يتفق مع أحكامه وأغراضه المسبقة ؟ لماذا وضع هذا مكان ذاك؟ لقد لعبت خبرة «الفيشاوى» ومقدرته الفنية دوراً مؤثراً فى تفويت هذه المغالطة على الجمهور .

العم مهيب

هذا العجوز الخرف ، الكريم المضحى بغرض ، والغرض هو العيش بقرب الأرملة ولو فى حجرة مجاورة يدفع لهم فيها إيجارا سخياً ، والذى يحمل لهم عواطف مطرطشة لقاء أن يلقى اعتباراً من هذه الأسرة المأزومة ، ولكنه يبوح بأسرار رفيقه الشخصية الشائنة أملا فى الحصول على قلب وداد



، ويحجب عقد الشقة عن وسيلة (وفية) صاحبة الحق أملا في الحصول عليه ، هذا اللزج الذي رفضته المرأة أربع مرات ، ولكنه يفضل أن يترك شقته الرخيصة ليبقى بجانب المحبوبة الممتعة ، وكل هذا جميل لصياغة شخصية درامية ، وحدة وتناقض ، ولكن المؤلف يسوق لنا مفاخر مهبب على لسانه حين يتحدث عن منظمة اليد السوداء ومنظمة حادا شوش ، وكيف اختبأ عند عزيز فهمي (يسار الوفد) وذهبا معا إلى الدكتور ماهر (من أنصار المحور) والدكتور النقراشي (على علاقة قوية بالسراي) وجاءهم النحاس باشا (زعيم الأغلبية الوطنية) وفي هذه السطور تظهر قصدية النص بوضوح: فمنظمة اليد السوداء انتهت قبل رحيل سعد زغلول ، ولا يوجد منظمة شيوعية اسمها حاداشوش ، أما الزعماء الأربعة الذين ذكرهم ، فمن الصعوبة بمكان أن يجتمعوا سويا .!! وحين يطلق مهبب فجأة طلقة من مسدسه المخبأ في جيب الروب (من أين؟ ولماذا؟) مظهراً تعاطفه مع هاني صنوه والقعيد مثله حين هاجمته الشرطة بقسوة ، فإن الطلقة تطيش وهو يصيح أنه هو ذلك الارهابي المطلوب ، وهنا يقدمه النص كضحية مزيفة ! لقد أبدع رشوان توفيق في تصوير هذه البالونة المشوهة .

رباب

هذه العانس المتوسطة في كل شئ ، ابنة المناضل القديم والأم القديسة شقيقة الثوري وشقيقة المهندس والآخر الشاعر الرومانسي وصديقة الشغالة . هل يمكن أن تكون هي البريئة بين كل هؤلاء ؟ ألم يصبها أحد منهم بشئ من صفاته ؟ هي حقا غريبة عن الجميع بلا مزية ، ولا تتسق نوعيا مع أي نوع من أنواعهم ، فلماذا رسمها الكاتب على هذا النحو ؟ لابد وأن يكون للأسرة ضحية بلا مقاومة ، وهاهي رباب التي اجتهدت الممثلة المتمرسة عفاف حمدي أن تجد فيها شحما أو لحما ، فاكتفت بأن أدت ما عليها وفي أقصى الحدود الممكنة ، ولعلها ساءلت نفسها كثيراً .. لماذا هذا الخنوع؟ ولماذا هذه الهزيمة بلا معركة؟ لماذا لم تنحرف - مثلا - وكل الظروف مهيأة ؟

وسيلة

أو وفية كما يقول النص المنشور وهذا أنسب ، لأنها عبدة من عبيد البيوت ، يأخذونها طفلة لم يجف على شفتيها لبن الرضاع ويتركونها خرقة بلا نفع ، أو لا يتركونها ولا تتركهم ، فهذا هو (النظام) الذي أقرت به في النهاية بعد تمرد قصير سرعان ما خمد ، وليس ذنب الممثلة الموهوبة نرمين كمال أن الشخصية التي تمثلها أريد بها الذلة





رشوان توفيق — رياض الخولى

والمسكنة ، فقد تابعت بوعى وثبات كل مراحل الدور بكل منحنياته ومراحله .. ولا منطقية وضعيته.

هانى

أو الممثل الصاعد سيد شفيق الذى التزم مقعده ودوره إلى حد مثالى ، رغم أن قصة إصابته تبدو غير مقنعة ، ورغم أن حفاظه على نقائه وبراءته ١٠٠٪ فى هذا الجو العفن يبدو أمراً مجافياً للواقع والمنطق ، لذا لم يحدد النص مستوى تعليمه أو مهنته ، فهل يقبل (برئ) مثله أن يظل عالة على أسرته لمدة ربع قرن ؟ هل يقبل رجل فى سن النضج والحيوية أن يبقى بلا تعليم أو عمل أو زواج ؟ وما هى أشعاره تلك التى وضعها المؤلف على لسانه ؟ إنها ليست أكثر من صوت خفاش مشوه ينعى خراباً!! أين هى الرومانسية المزعومة ؟ هل هو رمز لآخر الأجيال المصرية ؟ أم ماذا؟

منال

أو الصاعدة أيضا رباب ممتاز التى لم يعرض النص لمأساتها ؟ فهى ابنة لأسرة ذهبت إلى الخليج من أجل المال (لماذا؟) وهى بحكم عملها كسكرتيرة صغيرة فى مؤسسة كبرى لمدير ذى نفوذ ، فهى مرشحة دائما كعشيقة مجانية أو مومس بالحوافز (من الجانى؟ ومن المذنب؟ ومن المجنى عليه؟) واكتفى النص بإدانتها من الألف إلى الياء ، بينما لم يسأل عكاشة نفسه من المسئول أولا عن (تغريب) الشعب المصرى ، وتفكيك الأسرة المصرية ، وعدم تفرغ أهل منال وبقائهم لتربيتها والحفاظ عليها ، لقد اكتفى الكاتب بتقديمها (هكذا) دونما تسبيب ، ولأنه لا يوجد شئ فى الدنيا يوجد (هكذا) فإن هذه الشخصية المبتذلة ـ بقرار من المؤلف ـ فى حاجة إلى فهم وتفسير ، ولكن فى حدود الدور ووعى الممثلة فقد قامت ـ فيما أظن ـ بكل ما طلبه منها فحققت الأثر الذى طلبه منها المؤلف والمخرج .

رباعى المباحث

الضابطان والمخبران ، لماذا نجحوا فى مهمتهم (أدوارهم) ؟ ذلك أنهم كانوا يهبون الجمهور مشاعر تتراوح بين الراحة بعد الشفاء من أدرانه التى فتحت بلا رحمة فى جسد هذه الأسرة العفنة، فهى ـ فى نظر المؤلف ـ هى الخصم وليس الجلادين ، كانوا يمنحون الجمهور مشاعر التفوق على هؤلاء السفلة ، كانوا يمنحونه الشماتة فالسعادة ، فالجميع يستأهلون ماناله من احتقار وعذاب ، كخدمة جليلة قدمت



لهم مجانا فى زمن قياسى ، دون خسائر تذكر ، اللهم بعض الدم وقليل من الدموع ، لماذا بدا المحققون أمام أسرة أراد المؤلف بها أن يدب فيها العفن ، لذا فهي تستأهل مصيرها غير مأسوف عليها، هم يملكون الحقيقة والنقاء بينما الأسرة لا تملك إلا كل ما هو زائف ووضيع ، وما عليها إلا أن تتوارى خجلا بدلا من جرأة الحديث عن «نضال» أو «ماض وطنى شريف » أو غير ذلك من الشعارات الجوفاء !!

أدار عكاشة عمليات الكشف والتحليل والإدانة والاعترافات القسرية والاختيارية بقليل من الضغط والقسوة والتهديد ، ولم تخرج الشرطة ليلتها إلا بقضية يسيرة لمجون خرف ، ولا بأس أن يستخدم المحققان بضع أكاذيب صغيرة للإيقاع بـ (الخصم) إلا أن ذلك ليس عجزاً منهم ، فهم يملكون التاريخ والحرية والمصير .

ولكن ألم يسأل المؤلف نفسه عن مدى انطباق نظرية الأوانى المستطرقة على الجميع ، فهؤلاء الضباط من نفس المجتمع ونفس الظروف ونفس الطبقة تقريبا أو بمعنى آخر : أليس من المحتمل أن يكون لديهم ولدى أسرهم نفس النقائص ونفس العيوب ؟ لماذا يكون أحد الجانبين ملوثا وعفنا والجانب الآخر طاهراً ونقياً؟ لقد أدى رياض الخولى دوره بحيوية ومهارة ووعى بأبعاد هذه الشخصية التى اختصها المؤلف بالتحقيق النفسى والفكرى ؟ أما ياسر على ماهر فقد خرج عن إهاب الشخصية بعد أن أجادها فى الليالى الأولى للعرض حين لجأ إلى الكاريكاتير والمبالغة ففقد خطره وأهميته ، أما المخبران محمد توفيق ومحمد الباز فقد كانا مخبرين حقا .

المخرج

نفذ محمد عمر كل ما ورد فى النص عدا إضافتين هما إظهار تمثال رمسيس من الباب الأوسط الخلفى (أى الشرفة) ، وأجرى تعديلات (شرشرية) على الديكور فحوله إلى ما يشبه حجز شرطى أو غرفة مأمور ، ولست أدرى ما ضرورة حضور البطل العظيم رمسيس الثانى هنا؟ هل أحضره المخرج ليشهد كل هذا العار الذى ارتكبه الطرفان : الأسرة والشرطة ؟ أما من ناحية المنظر فثمة لبس ، فالمفروض أن الشرفة فى اتجاه الصالة (الجمهور) حيث يكون تمثال رمسيس ، فهل هو خلف الشقة أم أمامها ؟ خاصة وأن هنا يذهب بكرسيه بعيداً ليشم الهواء البارد من الشرفة (الحائط الرابع) بينما المفروض أن الشرطة اقتحمت الشقة لتأمين موكب الرئيس وضيفه ففى أى اتجاه يتحركون؟ الأمام أم الخلف ؟ المسألة

غير واضحة . أم أن التمثيل الجيد يغطى كل الثغرات ؟ ثم لماذا هذه التغييرات (التعبيرية) فى ديكور طبيعى عبارة عن صالة واسعة تنفتح على أبواب الحجرات الثلاث والشقة والشرفة والحمام والمطبخ (جدرانها مغطاة بورق حائط قديم) فتتحول المقاعد الى (علقانات) تعذيب وسلاحليك وكلابشات وسلاسل معلقة !!؟

الحل فى يد المخرج إذا كانت له حرية ألا يتبع تعليمات المؤلف : وهو أن يكون العرض بلا حوائط والتعذيب بلا آلات ، خاصة وأن مساحة الصالة / الخشبة غير مقنعة من حيث تصويرها لحالة الضيق والاختناق والزحام الذى تشكو منه الأسرة . أما فى حالة تجريد الديكور فإنه سوف يؤدى وظيفة أرقى فيما يتعلق بالمفهوم ، وهى أن يعبر عن المكان (مصر) وأن يوحى بالعالم (العالم الثالث) وليس عن شقة بعينها .

ولا شك أن المؤلف التليفزيونى و... هدى وصفى قدما عونا فعالا للمخرج فى تجميع كل هذه العناصر الفنية المؤثرة فى صالح العرض ، فاستطاع أن يستفيد من هذا « الكاست » الرفيع ، وأن يقدم شكلا معقولا للحركة (الميزانسين) بغض النظر عن التزيدات فيما يسمى بالاستعراضات والأشعار والموسيقى والاضاءة ، وتلك كان من الممكن النظر إليها نظرة أخرى فى حال انفتاح المنظر المسرحى .

سر الطبخة

لقد لعبت الحرفة الميلودرامية التى أتقنها المؤلف التلفزيونى أسامة عكاشة دورها ، فهو يقفز على الثغرات المميتة فى بناء الشخصية الدرامية المسرحية بأحداث ساخنة وفواجع فاضحة ، فالأب مات بعد ٢٥ سنة من التوقف عن النضال الوطنى هى عمر ابنه الأصغر تاركا وراءه فتاة عمرها ١٧ سنة ماتت أمها ، وعلى هذا المنوال تفجرت أحداث العرض مغفلة أى منطق أو مصداقية ، بين الشرير (ظاهريا) هو الشرطة التى لا ترحم .. إلى انتصار ساذج وواه للخير فى شخص القعيد هانى الذى لا حول له ولا قوة .. وبينهما سقط الكثير من (الذبائح) والاعتذار هنا ليوسف وهبى ، ولكن المؤلف لا ينسى هاجس الجنس فى صيغته الفورفلية المفضلة ألا وهى العلاقة الجنسية المحبطة بين العم مهيب الثورى الزائف و الأرملة الأنانية ، كذا العلاقة الثلاثية التى لصقت الابن الأكبر سعيد وبين منال مشروع زواجه الفاشل وعشيقها عادل رئيسه فى العمل ، كل هذا فى إطار بوليسى ملىء بالاثارة والمفاجآت .

ولكن تحضرنى قاعدة علمية تفصل بين ما هو تلفزيونى وبين ما هو مسرحى وتفرق بينهما ، وهو أن كل كلمة أو قطعة ديكور أو زى أو نغمة ، أو حركة أو غير ذلك مما يوضع ويجرى على خشبة



المسرح ، وله نفس معناه ، وليس له أى إحالة إلى غيره ، هو أمر لا يخص المسرح ، بل يخص التلفزيون فى صورته الطبيعية أو الواقعية ، ذلك أن الكرسى فى الفن المسرحي ليس كرسيا فقط بل من الممكن أن يكون كرسياً للعرش أو للاعدام ، أو للنكوص عن النهوض ، ونفس الأمر ينطبق على كل ما يسمع ويرى ويتحرك على خشبة المسرح ، فإذا ما أوحت المسرحية لكل بعالم غير عالمها فهى مسرحية ، وإما إذا لم تملك هذه القدرة على الايحاء فهى ليست كذلك.

الناس اللى فى التالت

قلنا إن أحداث النص تدور فى شقة بميدان رمسيس بالقاهرة سنة ١٩٩٠ ، وذلك أمر أكيد تبيناه من واقع النص والعرض ، ومعنى هذا أن الحقبة - من حيث الاجراءات - قد اختلفت ، بل تغيرت منذ سنة ١٩٧٠ وانتخابات سنة ١٩٧١ ، وتوالت الاختلافات حتى قيل ان الانتخابات تتم الآن تحت الاشراف التام للقضاء ، ولندع الحديث جانبا عن المعارضة والأحزاب والمستقلين ، وصحف المعارضة والصحافة البيضاء والحمراء والخضراء والصفراء ، المهم أن الصورة التى قدم بها المؤلف الشرطة ليست على هذا النحو من ناحية الشكل على الأقل ، إلا فى ظل حكم عبدالناصر ومراكز القوى والتنظيم الطليعى والسجون الحربية والاعتقالات إلى أجل غير مسمى أو فى التعامل مع الجماعات السلفية المعتدية المسلحة ، وبغض النظر - مؤقتا - عن رأينا فى كل هذا ، فإن المؤلف نقل - بخفة قلم - أسلوبا فى الحكم من حقبة إلى أخرى ، فنحن هنا إزاء أسرة ليس لها أساس من الواقع والحقيقة أو المنطق ، وانما هى من (توليف) عكاشة ، لكى يثبت بها مقولاته المسبقة ، خاصة حين الحديث عن أن النضال الوطنى قبل ٥٢ عبارة عن زيف وهراء ، ولهذا لم يخضع الكاتب شخصياته لأسس رسم الشخصية الدرامية بأبعادها الثلاثة المعروفة ومن حيث ضرورة اتساقها الداخلى وسلامة البنية الشكلية والموضوعية، واتساقها مع الأحداث الماضية والحاضرة ، وكأن هذا هو حال كل الأسر المصرية فى حاجة إلى مشارط الشرطة كى تفجر قيحها وصديدها ، وكأننا فى حاجة إلى حاكم عسكرى ليحكم كل فرد وكل أسرة وكل جماعة ليرشدها سواء السبيل ، وزد على ذلك هجاء المثقفين (دول أحسن ناس يتفاهموا) الأمر الذى يفقدنا الأمل فى شعبنا ، فنحن شعب من الخطاه الذين يستأهلون كل ما حدث ويحدث لهم على يد حكامهم . فما الهدف ؟ التوعية أم الترويع. ■

جريدة الصباح

قصة
سلوى بكر
ريشة
محمد حجي

قرأتها بسيطة وتكاد أنساها بالكاد، ولا تعرف سبب مواظبة زوجها لجريدة الصباح، منذ أن تزوجته قبل ثلاثين سنة وظمس ... الأوراق الإسماعيلية التي يقرأها زوجها ... قبل مغادرته إلى العمل لا تتغير، ... تحسب من الدنيا ويسير كل ما حوله ولا يستمع إلى ما تقوله حتى لو وقفت فوق رأسه وزالت عليه. أدركت أنه عندما سقط حجر من شرفة بيته القديم ذات يوم كان وقتها جالسا يقرأ جريدة الصباح، ولم ينتبه إلا عندما زعق عباس الكريمي بحزم ما فيه وقال له: إلحق يا أستاذ عبد الكريم ... الراقصة ...

١٩٩



ساعتها جاءت هي مسرعة من الداخل وطلت من الشرفة بينما وقف هو ينظر بلا مبالاة إلى الحجر الصغير المتساقط من سور الشرفة والجريدة بيده وكأن شيئا لم يحدث ، فخرجت عن طورها وصرخت فيه: «سيب الزفت من يدك ورد على الرجل.. لازم تتصرف فى البلكونة قبل ما تقع وتعمل لنا مصيبة..

بعد ذلك أثارت موضوع الجريدة المزمن، وطالبته مجدداً بالتخلى عنها لأنها مضيعة للوقت والمال، والأجدى له ولهم صرف وقته فى شغل بعد الظهر والفلوس فى فاكهة تفرح العيال وتفيد ابدانهم، ثم أن كثرة قراءته الجرنال تجعله عصبياً ولا يركز أبدا، لكن صوتها . بح. وروحها طلعت من كثرة الكلام



فى الجدوى الاقتصادية لهذه الجريدة، فنظريتها هى: «إن الجرائد فلوس مسفوحة على الأرض، وكلامها فارغ وتهويل وكله كذب فى كذب ، أما نظريته هو التى كانت تأتيها فى صورة رد مفحم ونهائى «يعنى أنا على يدك من البيت للشغل ومن الشغل للبيت» لا روحه لقهوة ولا سيجارة وكأس، يعنى الجورنال هو مزاجى الوحيد.. خلاص.. أتركيه لى وحلى عنى. الحقيقة إنها لا تتركه أبداً، بل تمرر عدة ايام لتثير المسألة من جديد، تنتهز فرصة قراءته لسرقة من سرقات الحكومة، أو خبر عن رفع الاسعار أو ضريبة جديدة مفروضة، يصرخ وينفخ ويزفر على إثرها لتقول له: «والله كلام الجرايد كله يفور الدم ويرفع الضغط، قلتها أحسن، والأفيد أنك تشرب بفلوسها عصير قصب يروق دمك ويغسل كلاويك بدل الدواء.

لكن دأبها الاستنكارى على رفض الجريدة، لم يمنع من إصرارها على تحويلها إلى شيء نافع ومفيد عملاً بقاعدة، وهذا اضعف الإيمان فهى تستخدمها فى تلميع الزجاج أحيانا وترشى بكومة منها بائع الخضار الذى يمارس نشاطه على ناصية الشارع فى محاولة فاشلة دوما ليعطيها أفضل ما لديه.. ثم إنها تطوى

أكثر الأخبار السياسية خطورة وإثارة على صفحة الوفيات وأخبار الحوادث، ثم تضع فوقهم نقطتين كيروسين وتدخل مطويتها بين اللحم والهدوم لواحد من العيال، يكون قد بدأ يسعل، وذلك حتى لا لا يتطور الدور وتنزل الكحة على صدره وتضطر للذهاب به إلى الدكتور لا قدر الله.

أما الفائدة الكبرى من الجرنال من وجهة نظرها، فهي أكل الفسيخ والرنجة عليه يوم شم النسيم ولم الظفر عليه ورميه مرة واحدة، وطوال شهور الصيف يصبح ذلك الذي لا فائدة منه أفضل وسيلة لتقطيف أوراق الملوخية على أوراقه، ولا يمنع ذلك من التطلع إلى ما فيه احيانا والتعليق بعبارات من نوع «صباح عجزت خالص يا عبدالكريم.. صورتها كانت فى الجورنال شفتها لما قطفت الملوخية عليه.. وكانت فى التليفزيون من يومين.. لكن فى الجورنال صورتها أكبر».

وهكذا استطاعت طوال ثلاثين سنة ان تتكيف مع الجرنال مثلما تكيفت مع عبدالكريم وشخيره وزعيقه في الأولاد، وإصراره على زيارة أمه مرة كل أسبوع باثنين كيلو فاكهة، بل واعتبرت جريدة الصباح قضاء لا راد له مثل فساد الحكومة والدروس الخصوصية



وغسيل جارتها المبلول الذى يشر ماءه دوما على غسيلها الناشف المعلق على حبال الشرفة لكن فى أواخر حياتها، تغير موقفها جذرياً من جريدة الصباح عندما اخبرها ابنها الاوسط بينما كان ابوه لا يرفع بصره عن الجرنال وهى تناوله فنجان القهوة، إذ قال:

- قولوا لى مبروك .. اتعينت فى الجورنال وسأستلم الشغل بكره إن شاء الله.

بعد ذلك ولسنوات محدودة هى ما تبقى من عمرها كانت تناول بائع الخضار رزمة الجرائد القديمة وتقول بسعادة وافتخار

- خلى بالك.. ابنى حسن كاتب فيهم.. ■

الفضل يعود إلى أمى التى علمتنى مبادئ القراءة

نصار عبد الله

قدر لى أن أعرف أساساً كشاعر، وإن كنت لا أدرى على وجه التحديد متى بدأت علاقتى بالشعر ومتى بدا شغفى به، لكن من المؤكد أنها بدأت متلازمة مع شغفى بالمعرفة... عندما أدركت منذ وقت مبكر جداً أن فى العالم أسراراً بعينها تعجز اللغة العادية عن البوح بها، بل إنها تعجز أصلا عن حملها وتوصيلها إلى من يعنيه أمرها ولو من باب: «الحمار الذى يحمل أسفاراً» فالحمار الذى يحمل الأسفار، هو على أضعف الإيمان أمين على الأسفار التى يحملها حتى وإن تكن هذه الأمانة إجبارية يفرضها عليه عجزه عن تعديل وتغيير محتوياتها، أما اللغة العادية التى نتخاطب بها أو حتى تلك التى نصوغ بها أبحاث العلم والفلسفة (لغة النثر)، فهى عندما تحاول حمل وتوصيل تلك الأسرار فإنها تزيفها بالضرورة، لأنها - كلما حملتها - سطحتها على مستوى سطوحها هى فافقدتها ما بها من التضاريس، أو صبتها فى قوالبها هى، تلك التى ليست بحال من الأحوال نفس قوالب أسرار الكون.



لا أدرى على وجه التحديد متى بدأت هذه الرؤية فى التبلور، لكن من المؤكد أن بذورها الأولى قد بذرت بشكل مبهم فى ملعب الطفولة الذى لم يكن بالنسبة لى ملعباً أو مرتعاً على الإطلاق، أو إن شئتا مزيداً من الدقة والأمانة فهو لم يكن ملعباً خالصاً، وإنما هو حقبة من العمر فيها من أسباب الجد أكثر مما فيها من أسباب اللهو، وفيها من أسباب الحزن أكثر مما فيها من أسباب السرور، وفيها من دواعى الخوف أكثر مما فيها من أسباب الإحساس بالأمان، وفيها من الأسئلة الملغزة المحيرة أضعاف أضعاف مافيها من الأجوبة الشافية (إن جاز أن يقال إن هناك أجوبة شافية أصلاً).



أثناء الدراسة الثانوية



فى الخدمة العسكرية ٦٨-٧٤

خلاف حول اسمى!

لقد ولدت – كما تقول شهادة ميلادى يوم الرابع والعشرين من ديسمبر عام ١٩٤٥ – وكما قيل لى فيما بعد – ، فإن التاريخ الذى قيد فيه ميلادى هو التاريخ الحقيقى لمولدى، خلافا لما كان شائعاً فى الصعيد فى ذلك الوقت من تأخير قيد المولود إلى مابعد ميلاده بأسابيع فى أفضل الحالات، أو بسنوات عديدة كما فى حالات أخرى كثيرة، وقد كان الدافع إلى تأخير قيد المولود يرجع فى أغلب الحالات إلى رغبة الأسرة فى أن يكون الابن قد اشتد عوده حين يحين موعد التحاقه بالمدرسة فيكون بذلك أكثر قدرة على الدفاع عن نفسه ضد أى عدوان قد يقع عليه، أما إذا كانت أسرته ليست ممن يدفعون بأبنائهم إلى التعليم فإن الدافع إلى تأخير قيد ميلاده فى هذه الحالة هو محاولة التهرب من تجنيده دون أن تضطر إلى دفع «البدلية»، حيث تنتظر الأسرة إلى أن ترزق بمولود جديد فإن كان ذكرا أطلقت عليه نفس اسم المولود السابق (غير المقيد)، وحين يحين موعد التجنيد تدفع الأسرة بواحد فقط من أبنائها إلى الجندية حيث يؤدى الخدمة ويحصل على شهادة مدون فيها اسمه (يستفيد منها سائر إخوته الذين يحملون نفس الاسم)!!

صراع من أجل الحق!

كان ميلادى فى مدينة فى صعيد مصر اسمها «البدارى» (محافظة أسيوط) يعرفها المتخصصون فى التاريخ



نصار عبد الله فوق مرتفعات سيرودي بولورادو - كولومبيا ٢٠٠٠

القديم بأنها مهد لحضارة من أقدم الحضارات على مستوى العالم كله، وأنها واحدة من النقاط القليلة التى انبثقت منها الحضارة البشرية، ومع هذا فإن هذه البقعة من بقاع مصر شأنها فى ذلك شأن الكثير من بقاع الصعيد سرعان ماتشربت بشكل غريب ومذهل بالثقافة الوافدة من الجزيرة العربية، بحيث أصبحت هذه الثقافة هى الغالبة على طابعها المميز، ولاتزال البدارى إلى الآن تعيش نوعا من الحياة القبائلية (تحت مسمى العائلات)، التى لا تختلف في جوهرها عن تقاليد القبائل العربية .. وفي مقدمتها الاحتكام - كلما أمكن - إلى شريعتها الخاصة لا إلى شريعة الدولة المركزية ... وعلى مدى التاريخ كانت سلطة العائلات تتأرجح صعودا وهبوطا فى تناسب عكسى مع سلطة الدولة المركزية، فكلما أحكمت الدولة قبضتها انكمشت قبضة القبيلة أو العائلة، والعكس صحيح،.. وفى سنوات طفولتى الأولى كنت أسمع أن الأمم المتحدة قد أدرجت البدارى فى إحصائية لها باعتبارها ثانى مدينة فى العالم بعد شيكاغو من حيث معدل جرائم القتل، وكنت أعجب لهذه الإحصائية مثل غيرى من أبناء البدارى الذين لايرون فى إزهاق عشرات الأرواح أسبوعياً - وربما يومياً - فى بعض الحالات، لايرون فى هذا جرائم قتل على الإطلاق..! إن هى إلا خسائر بشرية تمنى بها بعض العائلات فى صراعها ضد عائلات أخرى من أجل الحق والعدل!! أما جرائم القتل الجديرة بهذا الاسم فهى ترتكب فى أمريكا أو فى بلاد



مع لويس عوض وجابر عصفور وأمل دنقل - الغرفة رقم ٨ معهد الأورام - ١٩٨٢

أخرى، وأما فى بلدنا فهى محدودة إلى أقصى حدا.. وبغض النظر عن أى من الوصــفين هو الأدق، أهو وصف الأمم المتـحـدة، الذى تؤيده الحكومـة فى القـاهرة، ويؤيده مـركـز الشـرطة فى البدارى، ومحكمة الجنايات فى أسيوط، أم هو وصف أهالى البدارى أنفسهم لمن يموتون، وصفـهم إياهم بأنهم ضـحـايا قتال لا ضحايا جريمة، بغض النظر عن أى من الوصفين هو الأدق فقد كان هذا هو الدرس الأول الذى تعلمتـه فى كـيف أن الحـقـيـقـة يتم تزييـفـهـا من خـلال استخدام اللغة ، وأن اللغة فى جوهرها - أقصد لغة النثر - وسيلة للتضليل لا للتنوير ، وإن الفن بوجه عام والشـعـر الذى ماهو إلا جنس من أجناسه يقع منه مـوقع البـؤرة، هو وحـده القـادر على تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية، لأنه فى الحقيقة لايسميها ، بل يقدم جوهرها حيـا نابضـا، إنه يقـدم جـوهرها الذى لايستطيع الوصول إليه سواه.

***

كـان الخـلاف بين جـدى وجـدتى ينعكس سلبـا على العـلاقـة بين والدى ووالدتى، ويتـرك ظلاله القـاتمة الثـقيلة بطبيعة الحال على الأبناء... كانت جدتى تتهم شقيقها دائماً بأنه قد أقام نفسه وصيا على أموال بنتها الوحيدة اليتيمة (والدتى) لكى يأكل هذه الأموال بالباطل، وأنه قد نجح فى ذلك أيما نجاح!، وابتلع فى جـوفـه مـئـات من الأفـدنة هى تركـة زوجـهـا المرحوم والد بنتها اليـتيـمـة.. وكان جدى لأبى يرد عليها بحجة لم تكن تخلو فى حينها من بعض الوجاهة وهى

أنها وإن كانت قد أنجبت بنتا واحدة يتيمة، فإن الله لم يرزقه كذلك من البنين الذكور إلا بولد واحد، ولما كان هذا الولد قد أصبح زوجا لهذه البنت، فإن كل التركة سوف تؤول إلى أبنائهما، ومن ثم فسوف يعود الحق تلقائياً إلى أصحابه بافتراض أن ثمة حقا قد ضاع أصلا!.. وقد كان من الممكن لهذه الحجة أن تظل محتفظة بما لها من وجاهة لولا حدوث بعض الأحداث اللاحقة منها زواج أبي فيما بعد بأخرى، ومنها كذلك أن شيئاً لم يكن متوقعاً اسمه الإصلاح الزراعي جاء بعد ذلك ليأخذ كل شيء!!

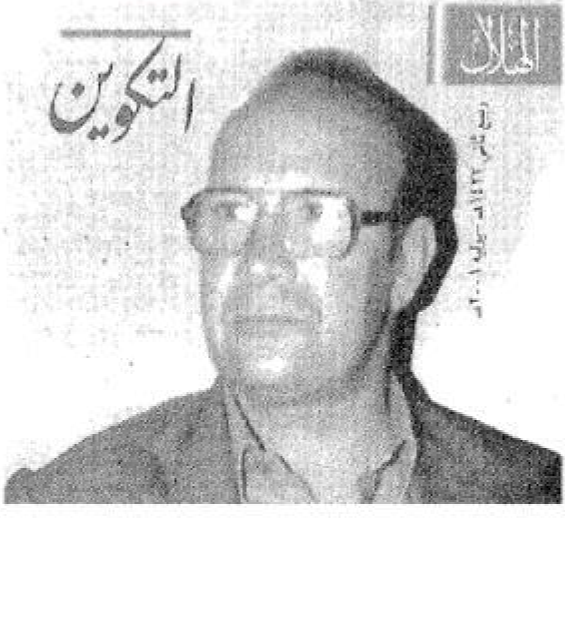
«مسيرة التمصير»

كان جدى لوالدتي مزارعا مستنيراً كثير القراءة بدليل المكتبة التى تركها فى بيتنا القديم، والتى كانت مكتبة متنوعة حافلة رغم أنه نال قدراً محدوداً جداً من التعليم الأزهرى، ومن مظاهر استنارته أنه - كما قيل لى فيما بعد - كان واحداً من المؤمنين بأهمية تعليم المرأة، ولهذا السبب فقد كان عاقدا العزم على تعليم بنته الوحيدة (والدتى)، إلى أقصى مرحلة يمكن أن تصل إليها فتاة مصرية في تلك الفترة المبكرة من القرن العشرين، غير أن وفاته المفاجئة قد أحبطت هذا المشروع حيث أخرجت والدتى من المدرسة الإبتدائية، وأجبرت على البقاء في البيت أعواماً فى انتظار أن تبلغ سنا مناسبة لكى تزف إلى أبى.

ورغم أن جدى لوالدتى كان مزارعا إلا أن الزراعة لم تكن مصدر رزقه الوحيد، فقد كان يمارس نوعاً غريباً من التجارة، يتمثل فى استئجار مساحات ضخمة من الأرض الزراعية بسعر الجملة من ملاكها الخواجات غير المقيمين، لكى يقوم بتجزئتها وتأجيرها إلى صغار المستأجرين من أبناء البدارى بسعر القطاعى، وكان الفارق فى السعرين كافيا لكى يشترى فى كل عام عشرات الأفدنة من أرض الخواجات. وكان المنافس الوحيد له فى هذه التجارة هو جدى لأبى الذى أكمل فيما بعد ما يمكن أن نطلق عليه ولو على سبيل المجاز «مسيرة التمصير»!

بداية عشقى للشعر

حين التحقت بمدرسة البدارى النموذجية وأنا دون الخامسة بقليل،كنت قادراً - حتى قبل أن أدخل المدرسة بالفعل - على قراءة الكلمات المكتوبة بالأحرف الكبيرة فى الكتاب التعليمى الشهير الذى عرفه جيلنا وهو كتاب



«وزن ... أخـذ»، والفـضل فى ذلك إلى والدتى التى بدأت تعليمى بنفسها مبادىء القراءة فى سن مبكرة، والتى غرست فى نفسى عادة القراءة، حيث كانت تهرع بمجرد فراغها من أعمال المنزل إلى كتب السيرة النبوية أو إلى المصحف الشريف الذى كان يبهرنى إيقاعه الساحر البديع ... وفى السنوات الأولى من الدراسـة كنت أصغى إلى المدرس وهو يطلب منا أن نردد وراءه فى طابور الصباح بإيقاع مـخـتلف عن إيقـاع القـرآن، لكنه بدوره ساحر بديع :

نموت ..نموت

ويحيا الملك

وكانت الكلمات على بساطتها توحى لى بجنود يتقدمون بصفوف منتظمة، انتظام ماعرفت بعد ذلك أنه تفعيلة المتقارب: فعولن، فعولن وفجأة يسقط الصف مـيـتـاً، وتنقطع الرتابة التى تصنعها التفعيلة المكتملة المتكررة، وينتصب الملك حيا:

فعولن فعو!

ثم كان يوم كنا نردد فيه كعادتنا : — نموت نموت ويحيا الملك، حين دوت خارج المدرسة هتافات تلاميذ المدرسة الثانوية:—

فليسقط هذا الملك الفاسد

فليخلع هذا الملك الفاسد

الموت الموت لهذا الملك الفاسد

لحظتها أحسست بالإيقاع كأنه مطارق سريعة تهوى على الملك الشامخ فيهتز!!

أظننى أدركت على نحو ما ، وإن يكن إدراكى مبهما وغامضا فى ذلك الوقت ، أن الإيقاع الصوتى قادر على تطوير الصورة التى ترسمها الدلالات المباشرة للألفاظ وأنه يمتزج بها ليكونا معا دلالة أبعد وأعمق.

***

حين أصبحت قادرا على القراءة بسهولة ويسر أياً ما كان حجم الحروف التى تكتب بها الكلمات، وكان هذا بعد دخولى المدرسة بعامين تقريباً، بدأت علاقة جديدة تنشأ بينى وبين المعرفة بوجه عام، وبينى وبين الشعر بوجه خاص، لم تكن أسرتى تسمح لى بالذهاب إلى المدرسة والعودة منها إلا فى صحبة أحد الخدم وقد كان هذا يشعرنى بالحرج الشديد، ولم تكن تسمح لى بالخروج من المنزل بعد عودتى من المدرسة، وكان هذا يشعرنى بقدر كبير من الضيق، ولم تكن تسمح لى بمشاركة أقرانى فى لهوهم، وكان هذا يشعرنى بقدر فادح من الحسرة. ولم يكن أمامى من ملاذ إلا القراءة، ولحسن الحظ أننى شغفت بها شغفا شديداً، رغم أنها لم تكن تمثل بالنسبة لى عزاء كافيا عما كنت أحس به من فقدان الحرية، الذى يرجع فى جانب منه إلى فقدان الأمان فى بيت كله تناحر وشجار، وفى مدينة،

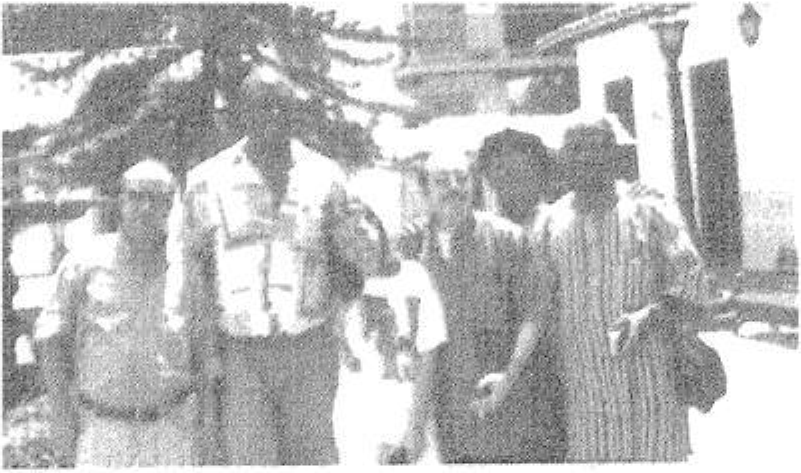


في ندوة شعرية دولية

كثيراً ما كانت شوارعها تشهد معارك دامية، يسقط فيها أحيانا برصاص المتقاتلين بعض المارة في الطريق الذين لا ناقة لهم في المعركة ولا جمل..

المكتبة.. بداية التكوين

في تلك الفترة المبكرة من حياتي أقبلت على المكتبة العامرة التي كانت في بيتنا، وكان جزء منها من آثار جدي لأمي، في حين كان جزء آخر منها من مقتنيات أبي، أما الجزء الثالث فقد كان من مقتنيات أخي نجيب الذي كان يكبرني بنحو تسعة أعوام، والذي هاجر فيما بعد إلى البرازيل وأصبح أستاذاً شهيراً لعلوم الوراثة في جامعتها الإتحادية، والذي كان في ذلك الوقت مواظبا على اقتناء عدد من السلاسل الشهيرة مثل سلسلة «كتاب الجيب» التي كانت تقدم في بعض أعدادها روائع الأدب العالمي في حين كانت تقدم في أعداد أخرى روايات بوليسية مثل روايات أرسين لوبين لموريس لبلان، وشرلوك هولز للسير آرثر كونان دويل، وهركيول بوارو لأجاثا كريستي، كذلك سلسلة «كتب للجميع» التي كانت تقدم أعمالا أدبية في بعض أعدادها أو أعمالا سياسية أو تاريخية أو ثقافية عامة في أعداد أخرى، ومجلة «كتابي» التي كان يصدرها الأستاذ حلمي مراد ويقدم فيها عروضا وملخصات لأهم الكتب العالمية، والكتاب الذهبي، الذي كان يقتصر على نشر الإبداعات المصرية والذي قرأت فيه أول مرة بعض أعمال نجيب محفوظ ويوسف إدريس، كذلك «روايات الهلال» و«كتاب الهلال» اللذان مازالا يصدران إلى الآن، وكان من بين ما فتنت به إذ



مع مجموعة من الشعراء العالميين - كولومبيا ٢٠٠٠

ذاك، هي تلك القصائد التي كتبها أمير الشعراء أحمد شوقي على لسان الطير والحيوان، وأعتقد أنها ظلت كامنة في أعماقي تشكل جزءاً أساسيا من طبيعة تصوري للعلاقات بين البشر، إلى أن قدر لها في النهاية أن تكون رافدا مهما من الروافد التي جعلتني أكتب مجموعة القصائد التي ضمها ديواني الأخير «قصائد للصغار والكبار»، وفي مرحلة الدراسة الإعدادية والثانوية بمدرسة البداري، كانت مكتبة المدرسة موردا اضافيا من موارد المعرفة، ففي تلك المكتبة التي كانت مكتبة غنية جداً بالقياس إلى أية مكتبة إعدادية أو ثانوية معاصرة... في تلك المكتبة قرأت لأول مرة أعمال نازك الملائكة ومحمود حسن إسماعيل ابن قرية النخيلة التي تبعد عن البداري عشرة كيلو مترات فقط، إذا عبرنا ضفة النيل الشرقية حيث تقع البداري إلى ضفته الغربية حيث تقع النخيلة، وقرأت أعمال ملك عبدالعزيز، والكثير من كتابات الدكتور محمد مندور التي كان يستشهد في بعضها بأعمال ملك عبدالعزيز كما قرأت في مكتبة البداري عددا كبيراً من الكتب المبسطة للعلوم التي شغفت بها شغفا لا يقل عن شغفي بالشعر، وكان أغلبها مترجما عن الإنجليزية أو الروسية، من بينها كتب مازلت أذكر موضوعاتها ومحتوياتها إلى يومنا هذا ومنها على سبيل المثال كتاب «متعة الرياضي»، تأليف لانسلوت هوجن وكتاب «واحد .. أثنان.. ما لانهاية»، وهو كتاب ممتع في الرياضيات لمؤلف روسي مازلت أذكر اسمه وهو جورج

جامو، و«عجائب الكيمياء» و«تجارب مسلية فى الفيزياء»، وكلاهما فيما أذكر مترجم عن الروسية «والكون يزداد اتساعاً» للدكتور على مصطفى مشرفة.. الخ.

كما قرأت في الوقت نفسه عدداً من مسرحيات توفيق الحكيم، ومن روايات نجيب محفوظ، ومن كتب العقاد وطه حسين، التى لم تكن موجودة فى مكتبة بيتنا، وكم كان زهوى بين زملائى فى ذلك الوقت عندما أرسلت إلى العقاد سؤالا أجاب عنه في يومياته الشهيرة التى كان ينشرها إذ ذاك بجريدة الأخبار، وقد استهل إجابته بامتداحى قبل أن يتطرق بعد ذلك إلى موضوع السؤال، غير أنى أعترف بأنى وإن كنت قد فهمت المديح حينذاك لكننى لم أستوعب الإجابة!.. وفى تلك المكتبة أيضاً قرأت بعض أعداد مجلة الأدب التى كان يصدرها الشيخ أمين الخولى، وأرسلت إليها بعض الأشعار والقصص الساذجة التى نشر لى شئ منها «غالبا على سبيل التشجيع»، وعندما انتقلت فيما بعد إلى الدراسة بالقاهرة كان الشيخ أمين الخولى من أوائل الذين سعيت إلى لقائهم، وقد ترك لقائى الأول به أثرا بالغا فى نفسى، حيث بهرنى بعمق تفكيره، وقوة منطقه، وإلمامه الواسع بمعطيات العصر، ومنجزات العلم، إلى حد خيل لى معه أنى أرى عالما فى الفيزياء النووية، آثر لعلة ما أن يتنكر فيضع على رأسه عمامة ويلبس كاكولة!، كما شهدت أواخر تلك المرحلة من مراحل التكوين «مرحلة الدراسة الثانوية»، شهدت تطورا مهما فى صلتى بالمعرفة عندما وضعت لنفسى برنامجا ذاتيا للإرتفاع بمستوى إجادتى للغة الإنجليزية وكان هذا البرنامج يقوم أساساً على محاولة ترجمة بعض الروايات الانجليزية المبسطة التى كانت تصدرها دار لونج مان ثم مقارنة ترجمتي بما كان متوفرا فى مكتبة المدرسة من ترجمة لبعضها، ثم كففت عن الترجمة بعد ذلك حين اطمأننت إلى أن فهمي للنص الانجليزى لا بأس به، ومضيت فى مطالعة تلك السلسلة البديعة التى تعرفت من خلالها على بعض أعمال شارلز ديكنز وجورج استيفنسون، وجين أوستن، وشارلوت وإميلى برونتى، كما عرفت مسرح شكسبير من خلال ذلك التبسيط الشهير لأعماله الذى قام به الاخوان ماري وشارك لام وقد هيأتنى الأعمال المبسطة لأن أقدم فيما بعد فى بعض الحالات على اقتحام النصوص الأصلية، وأن أدرك الفارق الكبير بين من يعتمد على لغة واحدة فى تكوينه الثقافى ومن يعتمد على أكثر من لغة.

إننى لايمكن أن أترك هذه المرحلة من مراحل التكوين دون أن أشير إلى أمين المكتبة الأستاذ جادالله فرغلى،

الذى هو نموذج نادر الوجود من أمناء المكتبات فقد كان - رحمه الله - يطلب إلى المترددين على المكتبة أن يلخصوا ما قرأوه ، وكان يختبرهم بنفسه فى موضوع كل كتاب قاموا باستعارته ، فإذا تبين له أنهم قد أعادوه بدون قراءة عاقبهم على ذلك أشد العقاب ، جزاء لهم على تفويت فرصة غيرهم ممن يبرهنون على أنهم أكثر جدية.

قرار صائب

حصلت على الثانوية العامة «القسم العلمى» عام ١٩٦٢، وقد كان مجموعى يؤهلنى إذ ذاك للإلتحاق بإحدى كليتى القمة: الفنية العسكرية، أو الاقتصاد والعلوم السياسية، غير أننى وقد كنت ما أزال شغوفا بالرياضيات والعلوم الطبيعية قررت أن ألتحق بكلية العلوم، وقد نفذت هذا القرار بالفعل، والتحقت بكلية العلوم جامعة أسيوط، لكننى للأسف الشديد لم أصمد طويلا أمام سخرية الساخرين ولوم اللائمين واشفاق المشفقين علىّ من مغبة هذا القرار «الطائش من وجهة نظرهم»، فما هى إلا أسابيع حتى حولت أوراقى إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، والحقيقة أن ما دعانى إلى أن أترك كلية العلوم بالإضافة إلى ما سبق، وربما أهم مما سبق أن ثمة هاتفا داخليا كان يدعونى إلى التحويل إلى كلية لا نظير لها فى أسيوط، فتكون بذلك ذريعة وحجة، وأى ذريعة وحجة، لأن أعيش فى القاهرة، ويتاح لى الفرصة أن أرى من سمعت بهم وقرأت لهم وانبهرت بهم، وقد كان.

***

لم تكن الدراسة فى كلية الاقتصاد ممتعة على الإطلاق، ومما زاد الطين بلة بالنسبة لى أنى اخترت شعبة الاقتصاد ظنا منى أنها لابد ستشتمل على دراسة الرياضيات التى كنت أحبها، فإذا بها لا تحتوى من الرياضيات إلا على مادة واحدة هى الرياضة البحتة، أما المواد المحاسبية فهى ليست أكثر من عمليات طرح وجمع، وأما بقية العلوم الاقتصادية فقد وجدت أغلبها شديد الجفاف، باستثناء تلك العلوم التى تقع على الهامش بين الاقتصاد والعلوم الأخرى، كالتاريخ الاقتصادى، والتنمية، والفكر الاقتصادى، ومع هذا فقد عوضنى عن هذا الجفاف الشديد فى دراستى بكلية الاقتصاد، أنى وجدت فيها عالما كاملا: من الفن والفكر والثقافة يتمثل فى نشاطها الطلابى المتكامل . كان هناك المسرح، والشعر، والموسيقى، والفن التشكيلى، والصحافة الجامعية رفيعة المستوى، والتجمعات الفكرية الجادة، وقد كان من أهم هذه التجمعات جمعية الفكر الاشتراكى التى أسهمت فى تأسيسها بالاشتراك مع مجموعة من الزملاء المتحمسين للتأصيل النظرى للتجربة الاشتراكية التى كانت تعيشها



مع الممثل والمخرج المسرحي والشاعر النيوزلندي آلين برنتون

مصر إذ ذاك. أذكر منهم على الدين هلال ومصطفى الفقى ونادية سالم ومحمد عبدالشفيع عيسى وحاتم القرنشاوى ومحمد عونى على ومنير فكرى ميخائيل الذى كان شديد الحماس لجمعية الفكر الاشتراكى إلى حد أننا كنا نطلق عليه على سبيل التندر منير فكرى اشتراكى! ثم انضم إلينا فيما بعد من الأجيال اللاحقة من الزملاء أسامة الغزالي حرب وأمل الشاذلى وأسماء محمود المليجى وعفاف على عزت، أما بالنسبة للمسرح فمازلت أذكر إلى الآن عدداً من نجومه فى كلية الاقتصاد فى تلك الفترة: محمد أمين السيوى، حسن عبدالرحيم، محمد السيد ندا، شوقى أبو على، أسامة التاجى، عصام رفعت، هالة الحديدى، سامية مشالى، مدحت الشوربجى.....الخ.

ومن نجوم الشعر مازلت أذكر: عبدالرحمن غنيم، محيى محمود، محيى الدين عبدالرحمن، محمد السيد ندا «الذى كان يجمع بين الشعر والعزف على العود والتمثيل والغناء»، وقد استنت زميلتنا الشاعرة نادية سالم «رحمها الله» سنة ثقافية حميدة، حين قامت فى أحد الأعوام بتنظيم مسابقة شعرية، ضمن مهرجان شعرى حافل جمع بين شعراء الكلية وألمع شعراء مصر في ذلك الوقت، ثم تولت بعدها هذه المهمة فى العام التالى زميلتنا أمل الشاذلى ثم بعد ذلك منى ذو الفقار. إننى لا أدرى لماذا توقف أغلب شعراء كلية الاقتصاد عن



في ندوة شعرية دولية عام ١٩٨٢

العطاء بعد تخرجهم رغم أنهم في مجملهم كانوا بالنسبة إلى أعمارهم يكتبون شعرا على مستوى كبير من الجودة، بل إن مجلة رفيعة المستوى كانت في ذلك الوقت تلعب دورا بالغ الأهمية والتأثير في الحياة الثقافية العربية، وأعني بها مجلة الآداب البيروتية، كانت تحتفي بأعمال الكثيرين منهم، وكنت واحدا من الذين نشرت مجلة الآداب أعمالهم، حين كان النشر فيها لأول مرة يمنح صاحبه شهادة لها مصداقيتها بمولده الأدبي؟!

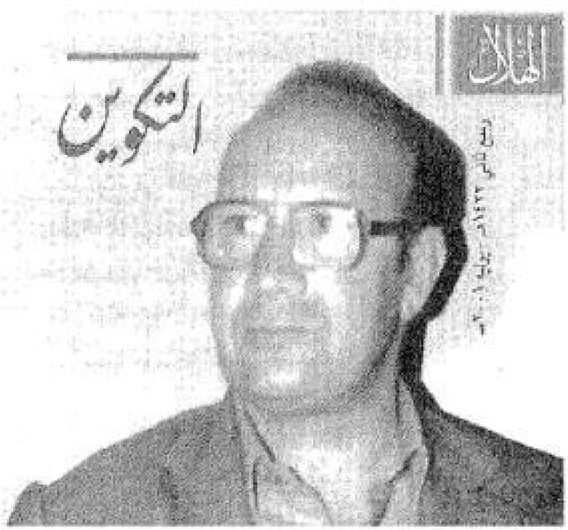
لا أدرى لماذا توقف أغلب شعراء الكلية عن العطاء بعد تخرجهم، ولماذا انقضت سنوات طويلة بعد تخرج دفعتنا، فصلت بيننا وبين شاعرتين هامتين هما سعاد الصباح وميسون صقر، ثم توقفت الكلية عن العطاء بعد ذلك، وما حدث في الشعر حدث في المسرح حيث انقضت سنوات طويلة قبل أن يتخرج فنان قدير مثل ممدوح عبدالعليم؟!

أما في مجال الإعلام والصحافة فقد تواصلت الأجيال بشكل متدفق، بدءا من عبدالعال الباقوري، ومحمد أبو الحديد، وعصام رفعت، ومحمد الوكيل، وأمل الشاذلي، وهالة الحديدي، ورءوف حافظ، وسميحة دحروج، ونزيرة الأفندي زملائنا في الدراسة، مرورا بالأجيال التالية المتعاقبة التي جاءت بعد ذلك أمثال: درية شرف الدين، ويوسف شريف رزق الله، وثروت مكي، ومحمد سعيد، وعادل حمودة، وعبدالقادر

شـهـيب، وعـبـد الفـتـاح على .. الخ، بالإضـافـة إلى مـعظم أعـضـاء مـركـز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام الذين يجمعون بين كونهم إعلاميين، وكونهم باحثين ومحللين ذوى مستوى رفيع.

دور مهم للجمعية الأدبية

خلال سنوات الدراسـة، كنت أكـثـر من التـردد، على الصـالونات والمنتـديات الأدبية التي كانت تذخر بها القاهرة في تلك الحقبة، فبالإضافة إلى زيارتي لندوة «الأمناء»، التي كـانت تنعـقـد بشـارع الجمهورية ولقائي بالشيخ أمين الخولي الذي سلفت الاشـارة إليـه، فـقـد زرت صـالون العـقـاد وأجـريت مـعـه حـوارا نشـرته بمجلة النصـر التي كـان يشـرف عليها مجموعة من عشاق الصحافة بكلية الاقتصاد، أذكر منهم مصطفى كـمـال أحـمـد ومـحـمـد أبو الحـديد على وعبداللطيف الحنفي، وقد بدأت «النصر» كمجلة حائط ثم تحولت إلى مجلة تطبع بالأوفـسـت في بدايات ظهـوره، حـيث أفردت جـانبـا من مسـاحـتـهـا للإبداع



الشعرى لشعراء الكلية، وقد كان أغلب هذه الإبداعات ذا مستوى فنى رفيع كما سلفت الإشـارة، وبالإضـافـة إلى ندوة الأمناء وندوة العقاد، فـقد ترددت أكثر من مـرة على رابطة الأدب الحـديث، ونادى القصة، غير أن المنتدى الأدبى الذى ترك أثرا كبيراً ومهما فى نفسى تمثل فى الجمعية الأدبية المصرية، التى قدر لى فيما بعد أن أصبح واحدا من أعضاء مجلس إدارتها، وأن أعيش حقبة ازدهارها، ثم انكسارها، الذى تعاصر مع انكسار وذبول الحياة الثقافية فى مصر بوجه عام.

عندمـا انتظمت فى التـردد على الجمعية الأدبية قبيل منتصف الستينيات «عـام ١٩٦٣ أو ١٩٦٤»، كـانت هذه الجمعية هى بؤرة الحياة الثقافية الحقيقية فى مصر، فقد كانت تضم مجموعة من أهم المبدعين والنقاد الذى ساهموا مساهمة حقيقية فى تشكيل ملامح حركة إبداعية ونقدية أصيلة، ذات توجه عربى وإنسانى مستقل ومتحرر وأصيل، لا تكبله الشعارات السياسية السطحية التى أتسمت بها المرحلة، ولا يربط نفسه بتيار إيديولوجى بعينه من تلك التيارات التى حفلت بها كذلك تلك الحـقـبـة، وإن كـان هذا لم يحل بين الجمعية وبين أن تستضيف فى ندواتها المنتظمة مبدعين ونقاداً ممن ينتمون إلى سائر التيارات.

كان «دينامو» الجمعية وأشد مؤسسيها حماسا لها، هو الأديب والإعلامى المعروف فاروق خورشيد الذى كان عضوا دائماً فى سائر مجالس إدارتها المتعاقبة، ومن بين الذين شغلوا أعضاء مجلس الإدارة أكثر من مرة كذلك كل من: د.عبدالقادر القط، د.حسين نصار، د. عز الدين إسماعيل، د.عبدالعزيز الدالى، صلاح عبدالصبور، عبدالرحمن فهمى، د.عونى عبدالرءوف، محمد عبدالواحد. كانت الجمعية تعقد ندوة أسبوعية مساء كل ثلاثاء فى مقرها بشارع قولة بعابدين، بالإضافة إلى لقاء يومى بين أعضائها، يقضونه غالبا ما بين لعب الشطرنج وما بين الحديث فى شتى الموضوعات، وقد كنت فى البداية أحرص على حضور ندواتها الأسبوعية، ثم أصبحت بعد ذلك أتردد على الكثير من لقاءاتها اليومية.

ومن خلال الجمعية انعقدت صداقات متينة بينى وبين عدد كبيرٍ من أعضائها مازلت أحرص عليها مع بقى منهم على قيد الحياة إلى يومنا هذا، وأذكر بمزيد من الحزن من رحل منهم إلى جوار ربه: فمن الشعراء الذين من خلالها ربطتنى على المستوى الإنسانى صلة وثيقة بهم، والذين أعتقد أننى قد استفدت فى الوقت ذاته - بشكل أو بآخر من تجارب

الدكتور نصار عبدالله

ولد فى مدينة البدارى، محافظة أسيوط ١٩٤٥/١٢/٢٤.

حصل على بكالوريوس الاقتصاد «كلية الاقتصاد والعلوم السياسية» جامعة القاهرة مايو ١٩٦٦، وعلى ليسانس الآداب فى الفلسفة وعلم النفس «كلية الآداب - جامعة القاهرة» ١٩٧١م، ثم على ليسانس الحقوق - كلية حقوق جامعة القاهرة ١٩٧٨م. وماجستير الفلسفة - كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٧م. ثم على درجة الدكتوراه فى الفلسفة - كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٨٢م.

عمل بالجامعة حيث عمل مدرسا مساعداً بقسم الفلسفة كلية الآداب بسوهاج، «١٩٧٨-١٩٨٢م» ثم مدرسا بالقسم ذاته «١٩٨٢-١٩٨٧»، فأستاذا مساعدا «١٩٨٧-١٩٩٥م»، ثم أستاذا ورئيسا للقسم منذ عام ١٩٩٥ وحتى الآن.

أهم الجوائز والأوسمة التى حصل عليها:

١- جائزة الدولة التشجيعية ١٩٨٢م.

٢- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ١٩٨٢م.

٣- الجائزة العربية للتأليف المسرحى ١٩٩٥م.

٤- جائزة كافافيس للشعر العربى - اليونان ١٩٩٥م.



فى مدينة ميدلين-كولومبيا

بعضهم الشعرية أذكر كلا من: صلاح عبدالصبور، وأمل دنقل، ومحمد إبراهيم أبو سنة، وبدر توفيق، ومحمد مهران السيد، وملك عبدالعزيز وحسن توفيق، ومن الروائيين وكتاب القصة: «عبدالرحمن فهمى، وفاروق خورشيد، وبهاء طاهر، ومن كتاب المسرح وعاشقيه: ميخائيل رومان، وعبدالغفار مكاوى، ومن كتاب السيناريو: محمد عبدالواحد والسيد الغضبان، ومن النقاد: شكرى عياد وعبدالقادر القط وعز الدين إسماعيل وحسين نصار.

كان جواز مرورى إلى عضوية الجمعية الأدبية هو ما نشرته لى مجلة الآداب البيروتية من أعمال، وكانت مجلة الآداب فى ذلك الوقت تسير على سنة حميدة تتمثل فى نقد وتقييم ما ينشر فى كل عدد منها فى باب خاص يتضمنه العدد التالى عنوان «قرأت العدد الماضى من الآداب»، وفى كثير من الحالات كان الذى يكتب النقد والتقييم واحدا من أعضاء الجمعية الأدبية المصرية.

***

تخرجت فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية عام ١٩٦٦، بتقدير لا بأس به هو «جيد»، وإن كنت كثيرا ما أتصور أنى راسب لا محالة لما كنت أشعر به من مقت لأغلب المواد التى كنت أدرسها، والتى لم يكن أمامى بد من مواصلة الدراسة فيها إلى نهاية المطاف، حتى لا أفقد هدرا سنوات من عمرى إذا ما خطر لى أن أصحح المسيرة وأن أترك



مع الشاعر الزيمبابوى موسى سامورا

الكلية وأبدأ من جديد، ومع هذا فسرعان ما تبين لى أن تصحيح المسيرة قدر محتوم حتى ولو بعد التخرج! ففى عام ١٩٦٧ عينت بإدارة الرقابة على الائتمان بالبنك المركزى المصرى، وكم كان أثقله وأبغضه إلى نفسى من عمل، ثم قدر لى أن أنقل من هذه الإدارة الكريهة بالنسبة لى، إلى إدارة البحوث الاقتصادية التى لم تكن تخلو مما أعده مزايا مهمة تخفف على نفسى وطأة البحث الاقتصادى، وفى مقدمة تلك المزايا هو ذلك الكم الكبير من الصحف والمجلات الاقتصادية الأجنبية التى كانت معظم أعدادها لا تصل إلى القارئ العادى نتيجة للرقابة الصارمة على الصحافة، لكن الرقيب لم يكن يطول البنك المركزى لحسن الحظ.. ولن لا يعلم فإن المجلات والصحف الاقتصادية الأجنبية مثل الإيكونومست والفينانشيال تايمز ليست اقتصادية خالصة، إذ أنها تشتمل على أبواب للفنون والآداب تتجاوز كما وكيفا فى بعض الحالات ما كانت تقدمه فى ذلك الوقت مجلاتنا الأدبية المتخصصة! ومع هذا فقد كنت أشعر بالفزع الشديد كلما تصورت نفسى موظفا إلى الأبد فى بنك، حتى لو كان هذا البنك هو البنك المركزى بكل مزاياه المالية وغير المالية، أيا ما كان المركز الذى سأتبوأه يوما ما فيه. وهكذا قر قرارى على الانتساب إلى كلية الآداب قسم الفلسفة، وقد كان، حيث تخرجت منها وواصلت دراساتى العليا بها التى أهلتنى للعمل بالجامعة حيث أعمل الآن.... ■

الهلال أول من أشارت إلي عملية «هبرون»

كانت مفاجأة أن أطالع فى عدد يونيو من مجلة «الكتب وجهات نظر» مقالا يستعرض فيه الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل كتاب «عملية هبرون» أو Operation Hebron ، وهو ذاته الكتاب الذى قامت كاتبة هذه السطور بتقديمه لقراء مجلة الهلال عدد مارس ٢٠٠١ تحت عنوان «عميل الموساد فى البيت الأبيض».

والحق أن من لفت نظرى إلى هذا الكتاب المهم هو الاستاذ مصطفى نبيل رئيس تحرير مجلة «الهلال» الذى قرأ عن الكتاب، ورأى - محقا - أن من واجب الهلال أن يقدم للقارىء العربى هذا الكتاب الذى يتناول جانبا غامضا فى العلاقة بين امريكا واسرائيل، وكلفنى رئيس التحرير بالبحث عن الكتاب، وهكذا قمت بالبحث فى مواقع البحث المختلفة على شبكة الانترنت حتى استطعت تحديد عنوان الكتاب والناشر من خلال موقع Amazon وهو واحد من أهم مواقع تسويق الكتب على الإنترنت.

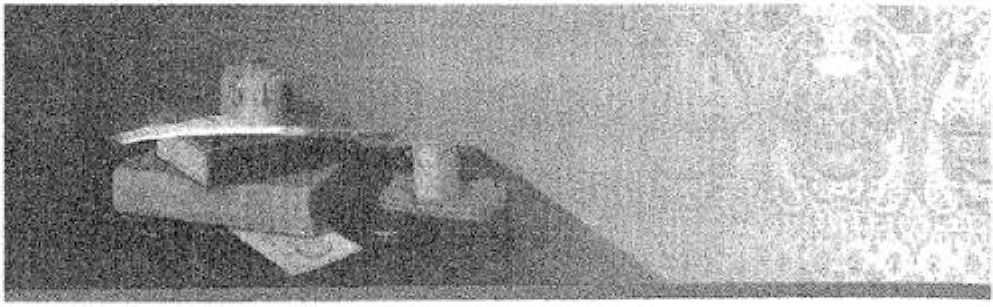
وتم الحصول على نسخة من الكتاب من الولايات المتحدة. وتفرغت ما يقرب من اسبوعين لقراءته، وتسجيل الملاحظات الأولية عليه ، ثم الكتابة عنه بحيث لا اغرق القارىء فى تفاصيل الاحداث وإنما أعبر معه إلى خلاصة الرؤية التى يطرحها المؤلف.

واستكمالا لاهتمام «الهلال» بإتاحة هذا الكتاب المهم للقارىء العربى، فقد اقترح علىّ رئيس التحرير ترجمة الكتاب لكننى اضطررت آسفة - للاعتذار لضيق الوقت وأظن أن «الهلال» قد عهد بالكتاب إلى من يمكنه القيام بترجمته بكفاءة فى فترة زمنية قصيرة.

مها محمود صالح
كاتبة

لحظة .. وليدة هذا القتاد

حين تمر عليك.. مساء
عربات الكارو
مثقلة بالأشلاء
والخيل حزين يترنح
فوق الحدوة آثار دماء



فاغمض عينيك طويلا
كن مبتسما
أنت بكوكبنا الباهي
وطن الشهداء

عبدالناصر أحمد الجوهري
دكرنس - دقهلية

ألا ليت الشباب يعود

لا لأخبرة بما فعل المشيب بي.. ولكن لأعود طالب علم بين جنبات دار العلوم عندما كانت في شارع المبتديان مع مطلع الستينات من القرن الماضي.. فلقد كان لمقال أستاذي الدكتور كمال بشر في عدد الهلال يونيه ٢٠٠١ عن بواكير تكوينه صدى عميق التأثير في نفسي عاد بي إلى الوراء سنوات وسنوات وأجلسني أمامه في قاعات دار العلوم مستمعا يطربني إلقاؤه بنبرات صوته المتميزة وحفاظه على مخارج العربية السليمة، وعمق تفكيره وتسلسله، ومتانة نسجه، واتساع جوانبه، وأنها أفكار لم تسبق.

ودار العلوم - ولست مغاليا - مع بداية الستينات كانت صرحا للعربية برجالاتها العظام، ويحق لنا أن نتباهى طلاب ذلك الوقت بأننا جلسنا نتلقى العلم على يد الأساتذة - دون ترتيب - ولكن حسبما طل على من الذاكرة ولضيق مساحة الكتابة .. الدكتور إبراهيم أنيس، الدكتور أحمد أحمد بدوي، الدكتور علي محمد الجندي، الشاعر علي الجندي، الأستاذ عمر الدسوقي، الدكتور أحمد الحوفي، الأستاذ علي النجدي ناصف، الدكتور أحمد هيكل، الدكتور عبدالحكيم بلبع، الدكتور إبراهيم العدوي، الدكتور محمد الغنيمي هلال، الدكتور تمام حسان، الشيخ علي الخفيف، الشيخ علي حسب الله، الشيخ محمد الزفزاف، الدكتور مصطفى زيد، الأستاذ عطية الصوالحي، أستاذ المحققين عبدالسلام هارون، وغيرهم وغيرهم قمم شامخة وثوابت راسيات كل منهم صرح شامخ في مجال تخصصه، لم يغب عن خاطري شخصهم، أعادني إليهم مقال أستاذي الدكتور كمال بشر. «رحم الله من رحل، وأطال وبارك في حياة من لايزال يثري العربية بأبحاثه وفيض عطائه».

محمد السيد نمير
مدير عام مدرسة ادكو الثانوية للبنات
ادكو - بحيرة

وثائق الأطلنطي وعبدالناصر

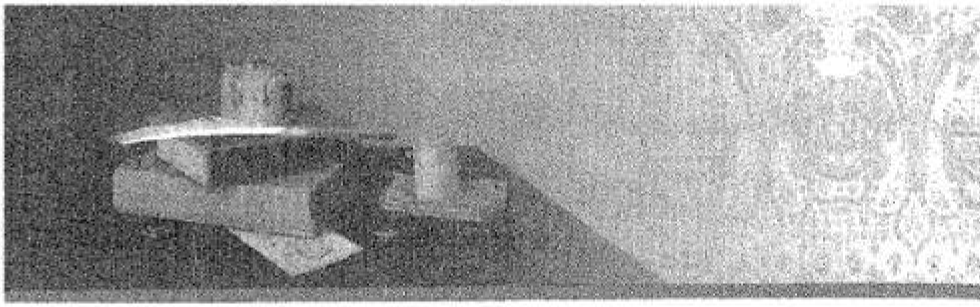
إن مقال د. رءوف عباس في عدد يونيه من الهلال ٢٠٠١، جذب انتباهي بشدة، الذي جاء تحت عنوان «الطريق الى هزيمة يونيو ١٩٦٧».. لأن ذكرى النكسة تثير في نفسي ذكريات أليمة اعتصرت كل وطني منا سواء في مصر أو في انحاء العالم العربي، ويتزامن هذا المقال بعد مرور أربعة وثلاثين عاما على تلك الهزيمة النكراء.. وقرابة نصف قرن على ثورة ٢٣ يوليو ..

واستأذنكم واستأذن استاذنا الجليل في أن اعرض في عجالة سريعة وجهة نظري التاريخية وانطباعي على تلك الهزيمة المروعة..!!

المعروف في أوساط المؤرخين أن اكتشاف الوقائع التاريخية لا يتأتى إلا إذا عرفت أسبابها، لارتباطها بعضها ببعض ويؤثر هذا بالتالي على طبيعة التفكير التاريخي، وهو ما استند اليه د. رءوف عباس في مقاله المشار إليه عند اطلاعه على إحدى وثائق حلف الأطلنطي ، النسخة البريطانية، على حين أن ثمة وثيقتين أخريين محظور نشرهما إلا بحلول عام ٢٠١٤ م . !! ونستشف من خلال الوثيقة البريطانية أن تخطيطا لتصفية عبدالناصر ولتقويض سياسته ، لا لشيء سوى انه انتهج سياسة ترمي إلى حركة التحرر الوطني، وكان له دور بارز وفعال فيها، إلى حد انها تحولت آنذاك الى قوة عالمية لتقليص السيطرة الاستعمارية ودك قواعدها في بقاع كثيرة من عالمنا المعاصر، ولهذا لم يجد الاستعمار بدا من أن يتربص الدوائر بحركة التحرر الوطني، حيث سنحت الفرصة لإسرائيل ، رأس الحربة في المنطقة العربية للإطاحة بدور مصر القيادي في حركة القومية العربية ممثلا ذلك في شخص «عبدالناصر» !! مفجر ثورة يوليو ١٩٥٢!!

ومن هذا المنطلق، استخدم خصوم عبدالناصر اسلوب تصفية القومية العربية وطمس معالمها بغية تصفية دور عبدالناصر وتحجيمه، ونجحوا في ذلك!! وظهر ذلك جليا في اجهاض الوحدة المصرية السورية بحدوث الانفصال ١٩٦١.. ومن ثم لم يأمن عبدالناصر لتلك المؤامرات والدسائس الخسيسة!!

وتأسيسا على ذلك، أخذ عبدالناصر يرنو الى اليمن ولمساندة الثورة اليمنية آنذاك للتحكم في مضيق باب المندب، وهو منطقة استراتيجية مهمة وعند اغلاقه في



وجه إسرائيل يقوض دعائمها اقتصاديا وعسكريا.!!

والحقيقة التي لا خلاف عليها، أن شعب مصر هب هبته العارمة بطول البلاد وعرضها يرفض الهزيمة والاستسلام وقد التف هذا الشعب المناضل حول الزعيم الذى تجاوب مع تلك المشاعر المتدفقة، وهكذا أطلق شعاره القوى «ما أخذ بالقوة .. لا يسترد بغير القوة»

د. صموئيل لبيب سيحة
«باحث تاريخي - المنيا»

ليس يظلم من ثأر

ضحك المدى
والصبح أسفر، أو بدا
والأرض صارت كالبساط ممهدا
حفر تسلقت الذرا
قمم توسدت الثرى
وتلاشت الأشياء حتى لا ترى
لا معجب لا مزدرى
والتائه الحيران أخلد وانتشى
وكأنما الدنيا سدى
فى كل يوم يهبط الإنسان من خلد العلى.
ويظن أنه قد علا
ياسلم الأشياء يجذبنا إلى لا منتهى
ويزين الآمال حتى لم تعد تجدى النهى
تجرى، ونجرى خلفها
فإذا بلغنا بعضها أو جلها
فإذا وصلنا..
رد عن أبصارنا ستر الكرى
وأنت بصائرنا.. على مهل
تراجع ما جرى
يا أيها المصلوب فى الدنيا
أما حان القيام؟!
قم يا مخلص، ولتدر خد الحسام
فالأعور الدجال.. دجال.
وفى معاركه انتصر
ونسل قابيل انفجر
ما عاد للموتى حفر
والصالحون يرحلون إلى سقر
وجنود روما فى الديار..
«وليس يظلم من ثأر».
الليل أدبر وانحسر
وبدت لنكرها سقر
والحق حصحص وانتصر
حتى لقد شق القمر
بعث الولى المنتظر
وعنت له كل البشر
طفل وفى يده حجر
أخذ المبادرة القدر
والنجم لبى والشجر
وظل عبدالمطلب
يعيد مأساة العرب
يقول: لبى إبلى وحسب
للبيت رب..
للبيت رب

قاسم محمد حرب
زبداني - لبنان

النديم .. والندامة!

من اعظم الآفات التى هى ام الكبائر وأصل الخبائث الخمر التى تذهب عقل المرء ومروءته فتحسن له القبيح وتقبح له الحسن يقول ابو نواس:

أسقني حتى تراني
حسن عندى القبيح

وقال : أسقنى كأس حميا
تترك الشيخ صبيأ
وتريه الغى رشدا
وتريه الرشد غيا

وقال شاعر بعد توبته عن الخمر:

تركت النبيذ وأصحابه
وصرت قريبا لمن عابه
شراب يضل سبيل الرشاد
ويفتح للشر أبوابه

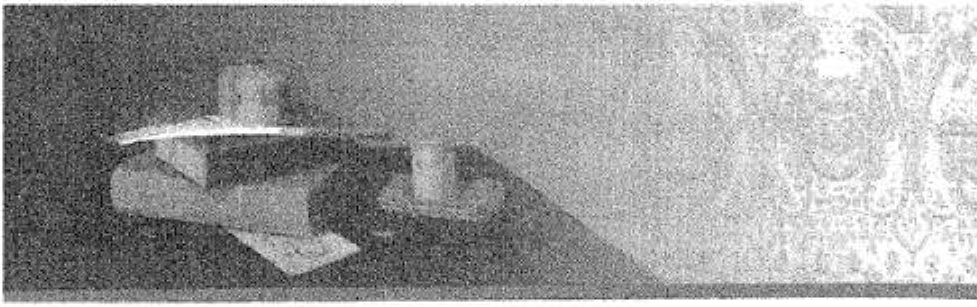
ويقال لمشارك الرجل الشراب النديم وهو من الندامة لأن من سكر أتى وتكلم بما يندم عليه.

وهذا شاعر يصف شارب الخمر قائلا:

أرى كل قوم يحفظون حريمهم
وليس لأصحاب النبيذ حريم
أخاهم مادامت الكأس بينهم
وكلهم رث الجمال سؤوم
اذا جئتهم حيوك ألفا ورحبوا
واذا غبت عنهم ساعة فذميم

وقال قصى بن كلاب لبنيه:

اجتنبوا الخمر فإنها تتلف الأبدان وتفسد الأذهان، قيل لعدى بن حاتم: مالك لا تشرب الخمر؟، قال: ولم اشرب ما يذهب بعقلي، قال عبدالعزيز بن مروان لنصيب بن رباح: هل لك في الخمر؟، قال: وكيف يكون لى فيم يفرق بين عقلى



ولساني. وكما تذهب الكأس بالبيان وتفرق بين العقل واللسان فإنها تغير وتشوه المنظر..

محمد أمين عيسوي
الاسماعيلية

أشرقت نوراً

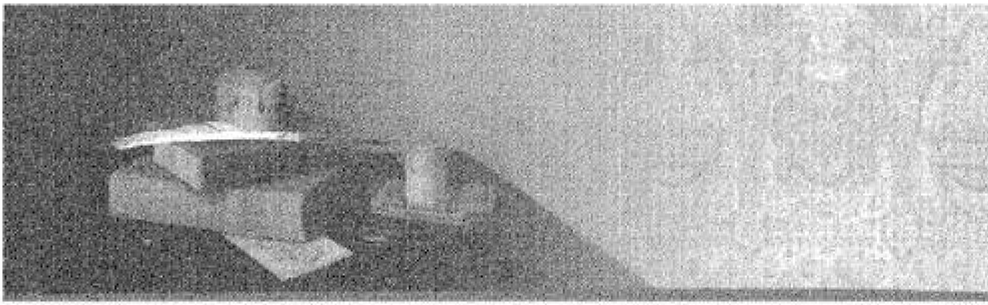
أشـــرقت نوراً ضـــاء كل ظلام ... وسطعت فـجـرا ايهـا المقدام
ورويت قـومـا من حنان مـحـبـة ... فـحـصدت زرعا طيبا وسلاما
قد كنت حلما قبل مبعثك الذى ... جـــئت به يا هادم الأصنام
انت الذى بالعدل تأمر والتقى ... والخـيـر والإحـسان والإكرام
والبـر تنشـده وتعـشق فـعله ... واللين وقت اللين دون كــلام
والمسك فى شفتيك نال مفازة ... والماء نهـر نبـعـه الإبهـام
أبكيت جذع النخل حين هجرته ... والجـذع حن اليك يا بسـام
والنور فى عـينيك يظهر لامعا ... فترى الضـيـاء يعم كل زمـام
والكون يسطع بالضـياء لمنهج ... ملأ البلاد مهـابة ومـقـام
فترى العدالة فى المشارق تسطع ... وترى المغارب ضياء من إسلام
وترى الضـيـاء بكل أرض ساطع ... من دين أحـمـد صاحب الإكرام
كـرمـه ربه حين خلق النسمة ... نطق البـيـان ومـا نطق أوهام
ماضل صاحبكم وما يوما غوى ... بل كـان وحـيـا ناطقـا بكلام
علمـــــه ربه كل علم طيب ... بل ظاهرا فـوق الرسل وهمـام
وترى الشجاعة حين يذكر اسمه ... يحـمـر وجـهـه عند كل حـرام
أوصـانا بالتقـوى وبالعمل الذى ... يرضى الاله ويجلب الإنعـام
يا خير من صعد السماء بليلة ... ألقى عليـه الرب خـيـر كـلام
قـد سطر القلم الذى فى لوحـه ... نور النبى الطاهر المقـدام
وتنبـأ الرهـبـان أنه أحـمـد ... بل جـاء اسـمـه خـاتما وخـتام
وتلذذ العـربان طهـر عـدالة ... قـدسـيـة تصـفـو لهـا الأيام
يارب هذا النور أمـسى قلعـة ... من فـعلنا نحن بنى الإسـلام

أحمد نادى بهلول
ديروط . اسيوط

سلوا السيوف

سلوا السيوف على العدا ... ما للردى إلا الردى
طالت معاناة البلا ... د ولا نزال تبلدا
إني أنا صوت لكم ... معكم أعاني من عدا
إنا وقود ها هنا ... كم ذا نعاني موقدا
سلوا على أعدائنا ... كل الذي قد أغمدا
آمالنا أحلامنا ... كل المنى تمضي سدى
كم حاصروا أرواحنا ... كم كسّروا منا يدا
كم أزهقوا كم أزهقوا ... بالنار عمرا والمدى
لا ترفقوا ابدا بهم ... شدوا على من شددا
هيا الى الخيل اركبوا ... نادى الصهيل ونددا
هيا ولا تتباطأوا ... إن التباطؤ للردى
أبناء يعرب إنكم ... خبر تناسى المبتدا
خانوا العهود جميعها ... لا يحفظون تعهدا
إن اليهود على المدى ... يتمردون على الهدى
لا تركنوا ابدا لهم ... كونوا عليهم جلمدا
خانوا جميع الأنبيا ... فيهم وخانوا احمدا
هم أهل غدر في الورى ... فيهم أرى كل العدا
كم يفعلون بنا هنا ... من غير ما أدنى صدى
ردوا عليهم كيدهم ... بتوحد كونوا يدا
ردوا عليهم وافتدوا ... لله دينا يفتدى
لا تخشوا النار التي ... معهم فلن تتوقدا
وشهادة في الله لا ... تخشى سلوا مستشهدا
كم من نعيم للشهيد ... فلا تهابوا مشهدا
لابد من نصر لنا ... وعد.. فكونوا موعدا

حسن أبو الغيط



النقد العربي القديم

الأستاذ إبراهيم فتحى «يغمط النقد العربي القديم - عبدالقاهر خاصة - حقه»، وجميع من ذكرهم بدءا بالعقاد وانتهاء بعبد العزيز حمودة «العائد» قد تتلمذوا من قريب أو من بعيد بالعظيم العظيم الإمام مجد الدين أبى بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجانى النحوى المتوفى إما ٤٧١ هـ وإما ٤٧٤ هـ . وهو نفسه «الاستاذ ابراهيم» قد تأثر به دون أن يوليه حقه «نظرية العلاقات السياقية - هى خلاصة النظم»، ولو ان د. محمود الربيعى كان بمصر ولم يكن فى مهمة علمية حتى اغسطس القادم فرب رأى اخر يكون له؟!!!

د. سامي منير عامر
الاسكندرية

د. رجب البيومي والأمانة العلمية

اشكر أ.د. رجب البيومى على مقالاته الرائعة عن ضرورة الأمانة العلمية في اعداد مجلة الهلال القيمة. إن غياب الأمانة العلمية من الجامعات المصرية أحد الأسباب الرئيسية لتدهورها وانهيار التعليم في مصر بصفة عامة . ومن الغريب ان يصبح المطالب بضرورة اتباع الامانة العلمية كالغريب الذى يتحدث بلغة غير مفهومة مع أن الامانة بصفة عامة من واجبات المؤمن الصادق. وشكرا ونرجو المزيد من الكتابات حول هذا الموضوع ولدى الكثير من الأمثلة الحية بالأدلة اقدمها الى من يهمه الأمر.

د: محمود عبدالرءوف كامل
مدرس الإعلام بجامعة المنوفية

ردود سريعة

إسلام عوض: نشكرك على رسالتك ومحاولاتك الشعرية فى باريس مهد الفن و«انعتاق» تبشر بموهبة تحتاج للمزيد من القراءة والدراسة والصقل حتى تصل لمرحلة النضج الفنى .

عبدالفتاح عبدالرحمن الجمل: نحيي مشاعركم الطيبة انت ومجموعة من شعراء الدقهلية ، والدعوة لكل مؤتمرات وندوات واحتفاليات المجلس الاعلى للثقافة دعوة عامة مفتوحة فتابعوها في الجرائد اليومية.

صلاح جميل سعد «غزة - الزيتون»: وصلتنا قصتان قصيرتان لك هما: «صرخة الحياة» و«عودة» وهما محاولتان تبشران بموهبة قصصية طيبة. تحتاج للمزيد من القراءة والمحاولات الجادة حتى تتلافى كل الثغرات الفنية واللغوية والاسلوبية فى كتاباتك الواعدة ومرحبا بك.

الكلمة الأخيرة

ثورة يوليو



بقلم : محمد عودة

في صباح يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ كان المستر هنري بايرود مدير مكتب الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الامريكية قد أعد مذكرة وافية إلى وزير الخارجية المستر دين اتسيسون يوصي فيها بأن تمارس الحكومة الامريكية ما تستطيعه من الضغط علي الحكومة البريطانية لتوافق علي الاعتراف للملك فاروق باللقب الذى يصر ويلح عليه وهو لقب ملك مصر والسودان.. وأن ذلك هو المخرج الوحيد للموقف المستعصي فى مصر والذى يتفاقم كل يوم وقد يمتد أثره على المنطقة ويهدد بكل الاحتمالات.

وكان الملك فاروق يحظى بعطف الادارة الامريكية منذ صدامه التاريخي مع البريطانيين في حادث ٤ فبراير وتضاعف اعجاب السفير الأمريكي بجلالته وبلغ ذروته بعد إعلان الاحكام العرفية واقالة وزارة الوفد واعتقال المخربين ومحاكمتهم وتصفية الاضطراب والشغب فى منطقة القنال.

وكان السفير الأمريكي كافرى أحد أبرع السفراء الأمريكيين وأهمهم.

وانتقل السفير كافرى إلى مصر ليكمل المهمة والشرق الأوسط هو «البطن الناعم» لروسيا وهو عنق العالم كما سماه ايزنهاور وقاعدته وعاصمته مصر، ولن يكتمل حصار الشيوعية والاتحاد السوفييتي بغير حلف يكمله..

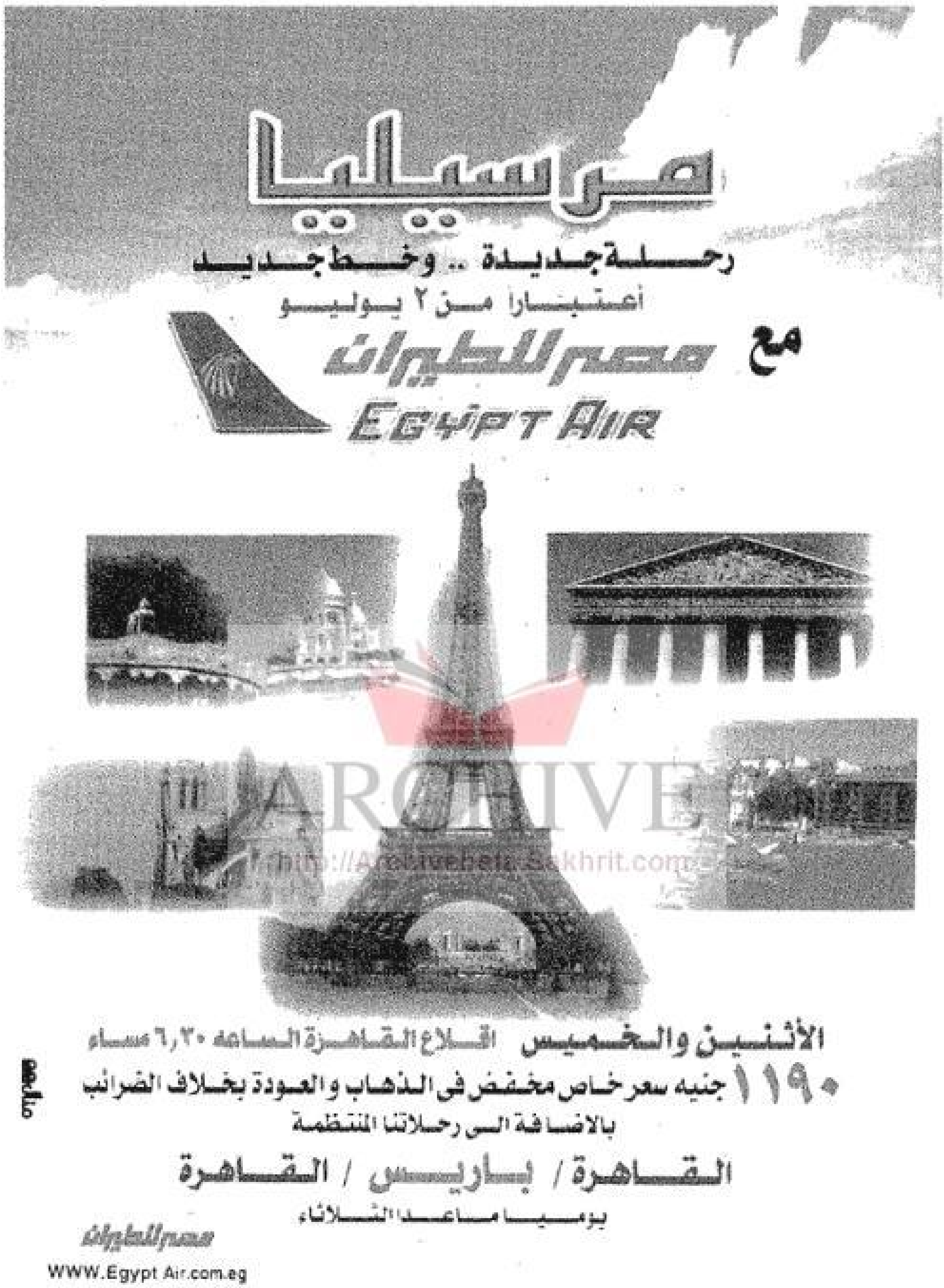
ووجد السفير كافرى في جلالة الملك فاروق «رجل الأقدار» الذى يحقق المهمة.

وتأكيدا لذلك دعا جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود إلى مصر.. واحتفى به احتفالا باذخا وتعاهدت كل الاطراف على أن الخطر هو الشيوعية وبعد حريق القاهرة مباشرة، وبناء علي توصية مشددة وعاجلة من السفير الامريكي فى القاهرة، عقد مجلس الأمن القومي الأمريكي اجتماعا استثنائيا طارئا اتخذ فيه قرارا كان الأول من نوعه وهو تدريب وتسليح فرقتين من البوليس الخاص لحماية عرش جلالته، وهذه الفرق هي التى تخصصت فى القيام بالانقلابات العسكرية وحماية النظم التى تدين بالولاء للشمال!

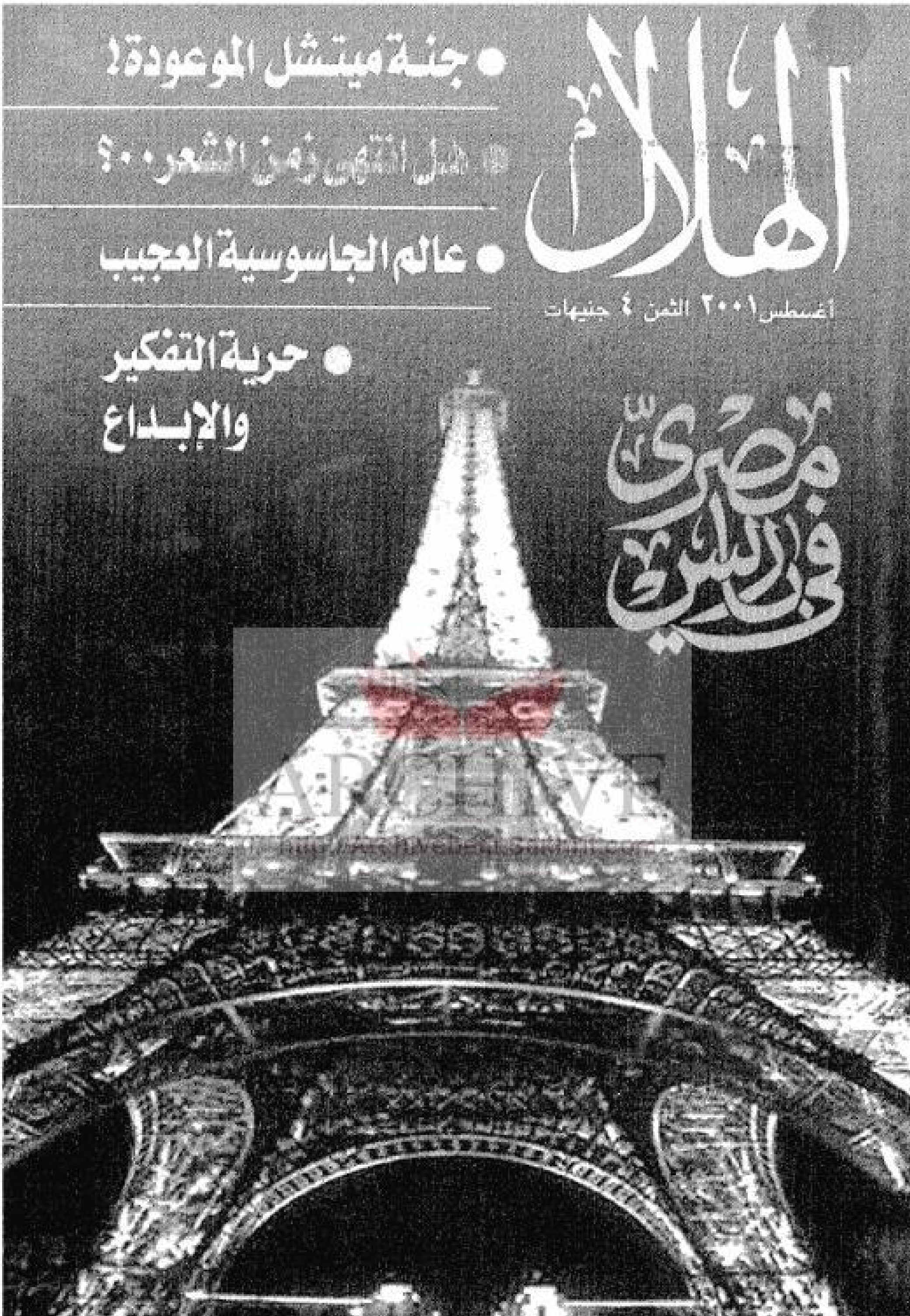
وبينما كان المستر هنرى بايرود يناقش وزير الخارجية فى مذكرته صباح يوم ٢٣ يوليو، دق باب السفارة ضابطان مصريان لكي يبلغا الملحق العسكرى أن الجيش المصرى استولى على السلطة وأن الأمن مستتب والرعايا الامريكيين فى أمان تام.

وكانت الصدمة قاصمة لابرع السفراء وأجهزت عليه.. وتوالت الاحداث.. وغرقت فى بورسعيد اكبر امبراطورية شر فى التاريخ الحديث وانتهى عصر امتد خمسة قرون سمي عصر السيادة الأوروبية وابتدعت الولايات المتحدة نظرية باسم إيزنهاور تقول ان هناك فراغا لابد أن يملأ.

وسخر عبدالناصر وأعلن أن الفراغ عقولهم وأرواحهم فقط.


مرسيليا
رحلة جديدة .. وخط جديد
اعتبارا من ٢ يوليو
مع مصر للطيران
EGYPT AIR
الأثنين والخميس اقلاع القاهرة الساعه ٦,٣٠ مساء
١١٩٠ جنيه سعر خاص مخفض فى الذهاب والعودة بخلاف الضرائب
بالاضافة الى رحلاتنا المنتظمة
القاهرة / باريس / القاهرة
يوميا ما عدا الثلاثاء
مصر للطيران
WWW.Egypt Air.com.eg


أجمل أوقات الفراغ تقضيها
مع باقة من أمتع القصص والروايات
روايات مصرية للجيب
معشوقة شباب العالم العربي
من مشرقه إلى مغربه
المغامرة الكبرى
عملية خط النار
المقاتل المزدوج
المؤسسة العربية الحديثة
تأليف مصري ١٠٠٪
لا ترجمة لا اقتباس لا تقليد


الهلال
أغسطس ٢٠٠١ الثمن ٤ جنيهات
• جنة ميتشل الموعودة؟
• هل انتهى زمن الشعر..؟
• عالم الجاسوسية العجيب
• حرية التفكير والإبداع
مصري في باريس



لوحة: مسيرة التعمير

للفنان حامد ندا



حامد ندا فنان نشأ فى حى شعبى ، تأثر فنه بالحياة الطبيعية.. وارتبط خلال دراسته بجماعة الفن المعاصر، ومن أبرز أهدافها تأمل الطبيعة والتعمق فى أشكالها ، أثرى الحياة الفنية المصرية بلوحاته .

لوحة وفنان

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفنى

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفنى

سيد عبد المالك — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١.٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبى/ أبوظبى ١٥ درهما - سلطنة عمان ١.٥ ريال - تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٧٠٠٠ ليرة - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢.٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



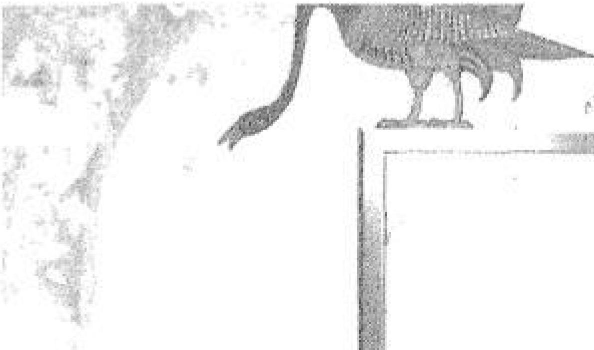
الغلاف تصميم الفنان

محمد أبو طالب

الإشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص.ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.



العام التاسع بعد المائة
جماد أول ١٤٢٢هـ - أغسطس ٢٠٠٦م

الأبواب الثابتة



عزيزى القارئ

العقل والوجدان

تظهر الدوائر الثقافية الغربية اهتماماً كبيراً لظاهرة تراجع الفنون والعلوم الاجتماعية ، والذى صاحب التطور السريع للعلوم والتكنولوجيا .

وتدور المناقشات حول خطورة هذه الظاهرة وأسبابها ، ويتساءل المتحاورون .. أين اليوم العمالقة الكبار فى مجالات الفنون المتعددة ؟ فأين ملاحم الأعمال الروائية العظيمة ، مثل ما قدمه مارك توين أو تشارلز ديكنز أو تولستوى أو ديستويفسكى أو تشيكوف أو جيته وغيرهم وغيرهم من الكتاب العظام .. ؟ وأين الأعمال الموسيقية البديعة مثل أعمال تشايكوفسكى أو موزار أو بتهوفن أو رحمانينوف وغيرهم .. ؟ وأين الشعراء والمسرحيون من شكسبير إلى ويتمان .. ؟ وأين الرسامون والمثالون من أمثال مايكل أنجلو أو دافنشى الذين أثروا المتاحف بتماثيلهم وألوانهم وظلالهم من أمثال ماتيس وجويا وفان جوخ .. ؟

ويتساءلون .. أين توارت القمم الفنية عقب نهاية الحرب العالمية الثانية..؟، ولا يفوتهم ملاحظة أنه مع تراجع الفن يتزايد النقد، ويتحول الكثير من المبدعين إلى نقاد ، ويتحول الروائيون إلى كتاب سيناريو وحوار أفلام ، ويعمل الفنانون التشكيليون فى تصميم الشكل الخارجى للمنتجات المختلفة ، ويعملون فى تصميم الديكورات أو الأزياء أو إخراج الكتب والمطبوعات .

وربما ساهم فى استفحال هذه الظاهرة الجديدة انفجار ثورة المعلومات وتطور أدوات الاتصال الحديثة ، وسيطرة أنواع جديدة من الفنون على المتلقين ، مثل السينما والتليفزيون مما ساهم فى هذا التراجع لصالح هذه الأشكال الجديدة.

والأهم من ذلك هو التطور السريع للتكنولوجيا، وزيادة إيقاع الحياة، وما وقع من خلل بين العقل والوجدان، وسبق العقل الوجدان، وسبقت المخترعات الحديثة

قدرة الإنسان على التوافق معها، فتراجعت النظريات الفلسفية، وتلاشت أو كادت الكثير من القيم، وغلب ما هو مادى على ما هو معنوى، وافتقدت الفنون للطاقة الروحية الضرورية لتجلياتها، وحدث ما نراه فى الغرب من تشويه للقيم الثقافية، وازدياد الغموض الذى يقلل من الطاقة الخلاقة للفنان ..

ولعل ظهور مدارس مثل الحداثة، وما بعد الحداثة، والبنيوية والتفكيكية وغيرها من المدارس الفنية الغامضة وهذه المدارس هى التعبير الصادق عن هذه الأزمة وطبيعتها.

فكلما زاد التطور التقنى والعلمى زاد بؤس الإنسان المعاصر وقلة حيلته، وزادت الحاجة إلى أعمال فنية تخاطب وجدانه، لذلك ظهرت فى بريطانيا سلسلة ثقافية جديدة، تقدم للقارئ العام العلوم المختلفة بأقلام كبار الكتاب الحاصلين على جائزة نوبل وبأسعار فى متناول الجميع، ولا توجد سلسلة فنية وأدبية موازية.

ولدينا المسألة عكسية ، فالحياة الثقافية تعانى من نقص الكتب العلمية، فنسبة الكتب العلمية إلى غيرها من الكتب جد ضئيلة ، كما تؤكد أرقام اليونسكو ، والكتب العلمية، القليلة ، إما كتب مدرسية أو كتب مترجمة ..

وجاءت مكتبة الأسرة لكى توفر الكتب التى تتناول الفن والعلوم الاجتماعية المختلفة بأسعار فى متناول إمكانيات القارىء .

وتبقى المقارنة بين الشرق والغرب، أن الكتب العلمية هى السائدة هناك، والكتب فى الفن والأدب هى السائدة هنا، فتقتير هنا وإفراط هناك .

والتوازن سواء فى الشرق أو فى الغرب، بين العلم والفن أو العقل والوجدان، هدف يجب السعى إليه هنا وهناك . ■

المحـــــرر




جنة ميتشل الموعودة!

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

كنت قد تحدثت فى مقال سابق عن مفاهيم مغلوطة - كمفهوم وقف العنف - يروج لها فى الصراع العربى - الاسرائيلى ، ويصل الأمر بشأنها إلى أن أطرافاً عربية - بل وفلسطينية أحياناً - تتبناها ، مع أنها لا يمكن أن ترد ضمن العناصر التى ينبغى أن يتكون منها الخطاب السياسى العربى - الفلسطينى ، وأود فى السطور التالية أن أثير قضية مشابهة تتعلق بتقرير لجنة تقصى حقائق مؤتمر شرم الشيخ الذى انعقد فى اكتوبر ٢٠٠٠ ، والمعروف بتقرير ميتشل ، ذلك أن حديث كل الأطراف المعنية وغير المعنية ينصب الآن على هذا التقرير وكأنه طريق الحل الغائب الذى نريد أن نضع عملية التسوية المفقودة فى مساره حتى تنصلح الأمور ، وتنفرج الأزمة ، ولأن المواطن العربى العادى لم يتح له أن يقرأ نص هذا التقرير فقد يتصور أنه أتى بالحل الوسط الذى وافقت عليه كل الأطراف ، ومن ثم فهو مدخل حقيقى للأمل فى تسوية مستقرة ، ولذلك فمن الضرورى أن تتم محاولة لتقديم رؤية تحليلية نقدية لذلك التقرير .





جنة ميتشل الموعودة

لعل أول ما يلفت النظر في تقرير ميتشل أنه يعكس بحق واقع العولمة السياسية بمعنى «الأمركة» – بغض النظر عن اتفاقنا مع هذا المعنى من عدمه – فقد رأس جورج ميتشل اللجنة مع أنه مجرد عضو ورئيس سابق للأغلبية فى مجلس الشيوخ الأمريكي ، بينما ضمت اللجنة رئيس جمهورية سابق هو سليمان ديميريل (الرئيس التركي السابق) ، وخافيير سولانا الممثل الأعلى لسياسة الأمن والتعاون فى الاتحاد الأوربي ، وتوربيان ياجلاند وزير خارجية النرويج ، علما بأن اللجنة ضمت عضواً أمريكياً ثانيا هو وارين رودمان العضو السابق فى مجلس الشيوخ الأمريكي ، بينما لم تضم ممثلاً للأمم المتحدة على الرغم من مشاركتها فى مؤتمر شرم الشيخ ، ولعل ذلك يمثل مؤشراً على مكانتها الحقيقية فى ظل النظام العالمي الراهن .

وهكذا لم تضم اللجنة من خارج «قيادات النظام الرأسمالي العالمي» سوى سليمان ديميريل الذى كان رئيساً لشعب مسلم ذى نظام حكم علماني ودولة عضو فى حلف الأطلنطي ذات علاقة وثيقة بإسرائيل توجد مؤشرات على أنها تكاد ترقى إلى علاقة تحالف عسكرى ، ومع ذلك وعلى الرغم من هذه البنية بالغة التحيز للجنة تجدر الإشارة إلى أن التقرير قد تضمن حداً أدنى من المواقف التي يمكن أن توصف بأنها موضوعية ، وإن كان ذلك قد تم على استحياء ، ويعنى هذا أن الآليات القانونية وشبه القانونية قادرة على التوصل إلي حد أدنى من الحقيقة ، وإن كانت ترجمة ما تصل إليه من نتائج على أرض الواقع تبقى مسألة أخرى .

تسجيل أمين ومفاهيم خاطئة

ثمة ملاحظة ثانية على تقرير ميتشل تنبثق من روايته للأحداث أو تقييمه لها ، والواقع أن التقرير قد تضمن عرضاً أميناً لوجهتي النظر الفلسطينية والإسرائيلية حول تطور الأوضاع منذ توقيع اتفاقية أوسلو ١٩٩٣ وبصفة خاصة منذ قمة كامب ديفيد الأمريكية – الاسرائيلية – الفلسطينية الأخيرة وما تلاها من أحداث انتفاضة الأقصى ، وقد مكن هذا النهج اللجنة في بعض الأحيان من أن تضمن تقريرها بعض العبارات المنصفة عن الوضع الفلسطيني كقولها مثلاً «يبدو

واضحاً أن بعض الإسرائيليين لا يستوعبون الإذلال والإحباط الذى يتحمله الفلسطينيون بشكل يومى نتيجة اضطرارهم للعيش مع نتائج الاحتلال المدعوم بوجود قوات عسكرية إسرائيلية ومستوطنات مغروسة فى وسطهم ، ولا يفهمون إصرار الفلسطينيين على الحصول على الاستقلال وتقرير مصير حقيقى» .

صحيح أن التقرير قد تحدث عن أن «بعض الاسرائيليين » فقط هم الذين يبدو أنهم لا يفهمون الحالة الفلسطينية ، وصحيح أيضا أنه أضاف بعد ذلك أن بعض الفلسطينيين أيضا «لا يتفهمون مدى الخوف الذى يخلقونه فى أوساط الشعب الاسرائيلى مما يضعف إيمانهم بإمكانية التعايش» ، ولكن يبقى التقييم السابق للوضع الفلسطينى فى ظل ما سبقت الإشارة إليه بخصوص ظروف نشأة اللجنة وطبيعة تركيبها معقولاً .

ومع ذلك تجدر الإشارة إلى أن تقرير اللجنة ينطوى فى هذا الصدد على تناقص قد لا يكون واضحاً من الوهلة الأولى ، فعلى الرغم من تقييمه السابق للوضع الفلسطينى مستخدماً ألفاظاً مثل الاحتلال والمستوطنات وحق تقرير المصير مما يشير إلى فهم حقيقى لطبيعة الصراع إلا أنه يتحدث فى مواضع أخرى عما أسماه «بالتاريخ الطويل والجوار» . تاريخ طويل بخصوص ماذا ؟ وأى جوار ؟ لا أحد يدرى . ويتحدث كذلك عن أن «شعبين لهما كبرياء يقتسمان الأرض والمصير ، وقد أدت ادعاءاتهما وخلافاتهما الدينية إلى صراع مستعر» ، ولو أن أحداً لا يعرف شيئاً عن أبجديات الصراع العربى - الإسرائيلى قد قرأ هذه العبارة لتصور أننا إزاء موقف «حرب أهلية» مادام هناك شعبان يقتسمان الأرض ، ولسنا إزاء موقف استعمارى كما أكد التقرير نفسه فى موضع آخر . كما سيتصور أن الصراع بين الإسرائيليين والفلسطينيين صراع دينى ، وهو تكييف أبعد ما يكون عن الحقيقة ، فهو صراع سياسى أساسه فعل استعمارى لا يكفى أن من قام به من اليهود لوصفه بأنه صراع دينى ، فضلاً عن أنه لا يوجد حتى الآن أى مطلب عربى - فلسطينى ينصرف إلى مسألة تتعلق بالديانة اليهودية ، وقد وصل الأمر بالتقرير فى تكييفه للصراع على أنه دينى إلى مطالبة الطرفين الإسرائيلى والفلسطينى «بصوغ مبادرة مشتركة لنزع السمة المذهبية عن خلافهما السياسى» .

وقد ثابرت اللجنة فى تقييمها لأسباب الانتفاضة على منجها المحايد ، فرفضت أن تكون زيارة شارون هى سبب تفجرها ، ونفت فى الوقت نفسه أن تكون مخططة من جانب السلطة الفلسطينية ، ومع ذلك



جنة ميتشل الموعودة

فقد أشار التقرير إلى ما يمكن اعتباره «صحوة خجولة وغير مباشرة» عندما ذكر بعد نفيه لأن تكون زيارة شارون هى سبب انتفاضة الأقصى أن توقيت الزيارة «لم يكن موفقاً» ، وكان بالإمكان التنبؤ بما يمكن أن تسببه من استفزاز ، وحقاً تنبأ بنتائجها أولئك الذين طلبوا منع الزيارة ، والأمر الأكثر أهمية هو الأحداث التى تلت:

قرار الشرطة الإسرائيلية يوم ٢٩ سبتمبر باستخدام وسائل فتاكة ضد المتظاهرين الفلسطينيين ، وما ترتب على ذلك من فشل - كما أشرنا سابقاً - لدى الطرفين فى ممارسة الضبط ، وهو ما يعنى أن الزيارة كانت استفزازاً متوقع النتائج ، وأن التعامل مع هذه النتائج من قبل الشرطة الاسرائيلية مسئول عن الأحداث اللاحقة . وبالإضافة إلى هذا اعتبرت اللجنة بحق «أن جذور العنف الحالى تمتد أكثر عمقاً ، دون أن تجرؤ على أن تتحدث بحرف واحد عن هذه الجذور ، وإن كان فهمها السابق للصراع وطبيعته يجعلنا نتوقع أنها لو كانت قد فعلت لما أتت بجديد على مضمون التقرير

الأضلاع الثلاثة للحل المقترح

نصل فى الملاحظة الثالثة على تقرير ميتشل إلى النهج الذى اقترحه للحل ، وهو نهج يستند إلى أضلاع ثلاثة : وقف العنف - بناء الثقة - استئناف المفاوضات ، ويصعب موضوعياً الفصل بين مقترحات التقرير المتعلقة بوقف العنف وبناء الثقة ، ولذلك فسنعرض لهما سوياً ثم نأتى إلى النقطة الخاصة باستئناف المفاوضات بعد ذلك .

بداية ينبغى التذكير بأن التقرير ينطلق فى مقترحاته - من ذلك المفهوم الخاطىء المتعلق بوقف العنف دونما تمييز بين المجرم والضحية ، وقد اقترح بشأنه - أى بشأن وقف العنف - وبناء الثقة حزمة من الإجراءات ، وقد يُختلف كثيراً حول مدى كفاية وتوازن هذه الحزمة ، وقد ندين بشدة وصفه من خلالها للنضال التحررى الفلسطينى بالإرهاب ، ومطالبته بالتعاون الأمنى بين حكومة يرأسها مجرم حرب كشارون وبين السلطة الفلسطينية ، وقد نستنكر تبنيه المبطن للموقف الإسرائيلى من نشر القوات الدولية ، وقد نتشكك على نحو هائل فى الدعوة إلى مسئولية

اسرائيلية - فلسطينية مشتركة عن الأماكن المقدسة ، وقد نهلل لدعوة التقرير إلى تجميد عملية الاستيطان بما فى ذلك التوسع في القائم منها ، وقد نرحب بحذر بدعوته إلى انسحاب الجيش الإسرائيلى إلى مواقعه قبل يوم ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ وكذلك إلى تقييد العنف ضد الفلسطينيين ، غير أنه يبقى واضحاً على وجه الإجمال أن التقرير يحاول إعادة الأمور إلى الوضع الذى كانت عليه قبل الانتفاضة ، وهو - أى ذلك الوضع - المسئول أصلاً عن تفجر الانتفاضة ، أى أن التقرير بهذا ليس سوى إضافة إلى سياسات الحلقات المفرغة التى أوصلتنا إلى ما نحن فيه .

صحيح أن التقرير - بالإضافة إلى اجراءات وقف العنف وبناء الثقة - أقر بموقف السلطة الفلسطينية القائل بأن التنسيق الأمنى يمثل صعوبة سياسية فى غياب سياق سياسى مناسب ، كما أقر بخشية السلطة الفلسطينية من أن الحكومة الإسرائيلية بعد أن تضمن التنسيق الأمنى قد لا تكون مستعدة للتعامل مباشرة مع الاهتمامات السياسية الفلسطينية ، ومن ثم عبر التقرير بوضوح عن إيمان أعضاء اللجنة «بأن التعاون الأمنى لا يمكن أن يستمر طويلاً إذا تم تأجيل المفاوضات الجدية بشكل غير منطقى أو معقول» ، وأكد ذات المعنى فى خاتمته بقوله : «إننا نكرر اعتقادنا بأن الجهد الكامل من أجل وقف العنف ، والعودة الفورية للتعاون الأمنى ، وتبادل إجراءات بناء الثقة هى أمور شديدة الأهمية من أجل استئناف المفاوضات ، ولكن أياً من هذه الخطوات لن يتمكن من الصمود طويلاً دون العودة إلى مفاوضات جادة» ، وهو فهم سياسى سليم يحسب للتقرير ، لكن اللجنة رأت - وقد تكون محقة فيما رأته بحكم نطاق اختصاصها - أنها ليست مفوضة لإعطاء وصفات حول مسار أو أسس أو جدول المفاوضات ، ولذلك اكتفت بالتشديد على ضرورة عدم تأجيلها أكثر مما يجب ، وأن تكون تعبيراً عن روح الحلول الوسط والمصالحة والشراكة ، وأن تستند إلى الاتفاقات الموقعة والتفاهمات المتبادلة ، وخلصت اللجنة إلى أن الطرفين إذا لم يفعلا هذا فسوف يواجهان احتمال أن يستمرا فى القتال سنوات طويلة .

ويعنى ماسبق أن تقرير ميتشل - بغض النظر عن رأينا فيه - لا يقدم مشروعاً لحل أو حتى تسوية ، ولكنه يحاول أن يعيد قطار التسوية إلى قضبان سبق أن اتضح من الخبرة الماضية أنها مفككة . بعبارة أخرى فإن التقرير يريد أن يوقف الانتفاضة الفلسطينية والأعمال المضادة لها من الجانب الاسرائيلى ،



جنة ميتشل الموعودة

ويعيد التعاون الأمني بين الطرفين . ويفترض تحقيق هذا الهدف أن يكون الطرفان أمينين في رغبتهما في التوصل إلى تسوية ، وهو ما لا يتوفر بوضوح من وجهة نظرنا كعرب على الجانب الاسرائيلى ، ويفترض تحقيق هذا الهدف كذلك أن يكون المناخ الإقليمى والعالمى مواتياً ، وهو أيضا افتراض غير قائم حتى الآن بدليل أن فترة التهدئة تحولت إلى عملية هزلية بعد أن أقر وزير الخارجية الأمريكى بأن الحكم الأوحد فيها هو شارون .

غير أن الأهم من كل ما سبق أن مقترحات التقرير بفرض نجاحها سوف تعيد الطرفين إلى مائدة المفاوضات بعد أن تعقد الموقف أكثر نتيجة ما قدمه الشعب الفلسطينى من تضحيات هائلة ، وما تحمله الطرف الإسرائيلى من تكلفة تعتبر عالية نسبياً بالمعايير الإسرائيلية ، وفى ظل سياسات استعمارية إسرائيلية لم تتبدل حتى الآن ، ومن ثم فهى مازالت بحاجة إلى مزيد من الفعل من جانب حركة التحرر الفلسطينى حتى يقتنع صانعو تلك السياسات الاستعمارية بأن تكلفتها قد تجاوزت عائدها ، وبالتالى يتعين العدول عنها وإحلال سياسات بديلة محلها على النحو الذى يستجيب للمطالب الفلسطينية المشروعة ، وهى -- أى عملية العدول عن السياسات الاستعمارية - مسألة حدثت بشكل نمطى فى كل تجارب الاستعمار / التحرر الوطنى المعاصرة، وإن اختلفت آليات حدوثها وفقا لمدى واسع، بين التحرك الدبلوماسى والنضال شبه العسكرى والعسكرى .

* * *

الخلاصة إذن أن تقرير ميتشل لا يقدم جنة موعودة إلى الحد الذى يجعل كل الأطراف تتحدث عن تنفيذه الكامل والأمين ، وكأنه هو الذى سيأتى بالحل الناجع الذى ضل طريقه طويلا إلى الصراع العربى - الاسرائيلى ، وإنما هو - أى التقرير - تحرك بفرض نجاحه يفضى بنا إلى العودة إلى الجلوس فوق فوهة بركان يغلى بغضب فلسطينى وعربى حذر عقلاء كثيرون من أن انفجاره سوف يكون مدوياً . من هنا فإننا مطالبون جميعا - فلسطينيين وعرباً - بالبحث عن والاتفاق على نهج جديد لإدارة الصراع مع اسرائيل ، وتلك مسألة أخرى . ■

أقوال معاصرة

«استمرار تحويل الأراضى الزراعية إلى أراضى بناء كارثة سندفع ثمنها غاليا».

الأديب نجيب محفوظ



بشار الاسد

«من دون الوصول إلى قبول الرأى الآخر، أى مظهر ديمقراطى هو مظهر وهمى، وغير حقيقى».

الرئيس السورى بشار الأسد

«فى ثقافة الخوف لا مكان إلا للكره والألم، ولا مكان للعواطف الراقية».

من محاضرة للدكتور عبدالرازق عيد فى منتدى الاتاسى

«مهمة السلطة أن توفر مناخ الحرية وحماية الابداع من هجمات التعصب والجهل».

المفكر السودانى محمد إبراهيم الشوش



إدوارد سعيد

«لغة الإبداع فى كل أمة لا تحيا إلا بحريها المتواصلة على كل ما هو مؤسس سياسة وثقافة»

الشاعر أدونيس

«الوضع الآن، وصل إلى عداء عميق بين الحكومات العربية ومواطنيها، يمكنها تهديد المواطن الفرد بما يشبه السحق التام».

الدكتور ادوارد سعيد

«العالم دفع قبلا ثمن الحنين اليسارى إلي مستقبل لن يأتى، والآن يراد تدفيعه ثمن الحنين إلى ماض لن يعود».

المفكر اللبنانى حازم صايغة



تابو مبيكي

«التحدى الآن هو الاقتصاد الجديد الخاص بالمعرفة والمعلومات».

ريكاردو لاجوس، تابو مبيكى رئيسا جمهوريتى شيلى وجنوب أفريقيا، وجوران بيرسون رئيس وزراء السويد

«التقدم فى السن أفضل لأنه يجعلنا نتخلص من شعورنا بالقلق نحو مظهرنا، ندرك عندئذ أننا نضيع وقتا فى العناية بشكلنا، فنفكر فى جوهر حياتنا».

النجمة الفرنسية سوفى مارسو



١٦

الهلال

مجرمو الحرب أعداء الإنسانية

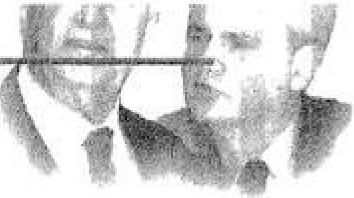
بقلم
د. أحمد ابو زيد

فى استفتاء مفتوح قامت به مجلة نيوستيتسمان البريطانية ، ونشرت نتائجه على الإنترنت خلال الأسبوع الأخير من شهر يونيو الماضى (عام ٢٠٠١) حول إمكان اعتبار إرييل شارون رئيس وزراء إسرائيل مجرم حرب ، أبدى ٨٦ ٪ من القراء رأيهم الإيجابى إزاء توجيه الاتهام إليه ، بينما رفض ١٢ ٪ من القراء توجيه التهمة إليه ولم يكشف ٢ ٪ من القراء عن رأيهم بصراحة . وتمثل نتيجة هذا الاستفتاء موقفا إيجابيا للرأى العام البريطانى المستنير من أعمال القتل الجماعى، التى ارتكبها الجيش الإسرائيلى بأوامر من شارون وبخاصة حين كان وزيرا للدفاع فى الثمانينات، واعتباره مسئولا مسئولية مباشرة وكاملة عن المذابح التى ارتكبت حينذاك، وضرورة تقديمه للمحاكمة أسوة بما يحدث الآن مع الرئيس اليوغوسلافى السابق سلوبودان ميلوسيفيتش .

بل إن هذه النتيجة تكشف من بعض الوجوه عن نوع التحول الإيجابى الذى يمكن أن يطرأ على الرأى العام العالمى حين تتكشف الأمور على حقيقتها وتنهار دعاوى الزيف التى تحملها أساليب الدعاية المغرضة الكاذبة التى تخفى حقائق الأوضاع . كما أنها تعبر عن الاهتمام المتزايد بضرورة إقرار العدالة الدولية ضد أعمال الإبادة الجماعية وأساليب التطهير العرقى والدينى التى تلجأ إليها بعض الدول المتحاربة ضد المدنيين الأبرياء، بما يتعارض مع قوانين الحرب واتفاقيات جنيف بهذا الصدد .

مجازر صبرا وشاتيلا

وقد جاءت عملية الاستفتاء عقب إذاعة التليفزيون البريطاني برنامجه الشهير الذى أحدث ضجة عالمية حول مجازر صابرا وشاتيلا التى ارتكبتها الميليشيات اللبنانية الموالية لإسرائيل ضد الفلسطينيين اللاجئين فى تلك المخيمات ، وقد تم تنفيذ تلك المذابح بإيعاز من شارون وزير الدفاع الإسرائيلى فى ذلك الحين وتحت الحماية المباشرة من الجيش الإسرائيلى نفسه ، وقد أظهر ذلك البرنامج - حسب ما جاءت به وسائل



الإعلام المختلفة مسئولية شارون عن تلك المذابح الجماعية التى ترقى إلى عمليات إبادة الجنس البشرى ، وقد أثار البرنامج موجة من الغضب الهيستيرى فى إسرائيل وبين يهود العالم لفداحة التهمة التى تلحق العار بإسرائيل واليهود مما دفعهم إلى بذل الجهود المكثفة لنفى التهمة عن رئيس الوزراء والعمل على إسدال ستار النسيان على البرنامج ذاته واتهام التليفزيون البريطانى بمعاداة السامية ، وهى التهمة الجاهزة التى يستخدمها اليهود فى مثل هذه المناسبات . وقد يمكن لجامعة الدول العربية فى عهدها الجديد أن تبذل الجهد للحصول على نسخة من ذلك البرنامج ونشره على القنوات التليفزيونية العديدة التى تملكها الدول العربية والإسلامية وغيرها من الدول الصديقة للتعريف بما حدث بالضبط والكشف عن أبعاد الجريمة، وعن طبيعة المجتمع الإسرائيلى وأخلاقيات بعض المسئولين السياسيين والعسكريين الإسرائيليين والتجائهم إلى نفس أسلوب الإبادة البشرية الذى تعرض له اليهود أنفسهم تحت الحكم النازى وأنه ليس ثمة فارق فى الحقيقة بين الإسرائيليين والألمان النازيين فى هذا المجال . فالمماثلة واضحة والمبدأ اللا أخلاقى الذى يبيح القتل الجماعى والإبادة واحد فى الحالتين ، ولا عبرة بالفارق الكبير بين أعداد الضحايا فى المذابح الجماعية فى ألمانيا وفلسطين مادام الهدف واحدا وهو الإبادة الجماعية وحرمان الآخرين من حق الحياة وإزالتهم من الوجود .

عنصرية متطرفة !

ويتمتع أرييل شارون برصيد ضخم فى سجل المذابح البشرية الجماعية الذى تراكمت فيه الأحداث خلال نصف قرن ابتداء من الخمسينات من القرن العشرين، وكلها أحداث تكشف عن نزعته العنصرية المتطرفة . ففى عام ١٩٥٣ قاد بنفسه الوحدات التى مارست عمليات القتل على الفلسطينيين فى غزة والأردن والتى بلغت ذروتها فى مذبحة قرية قبية فى الضفة الغربية وقُتل فيها ما يزيد على الستين مدنيا من الشيوخ والأطفال والنساء كما هدم أثناءها اثنان وأربعون منزلا وإحدى المدارس ومسجد القرية ، وقد بلغ من وحشية عمليات القتل والتدمير أن مراسل مجلة «التايم» الأمريكية كتب حينئذ يقول إن أوامر شارون لجنوده كانت صريحة بضرورة إطلاق النار على الجميع بغير تمييز وأنه (أى المراسل) كان يسمع رغم أصوات الانفجارات المدوية صرخات الضحايا من البشر أثناء احتضارهم .

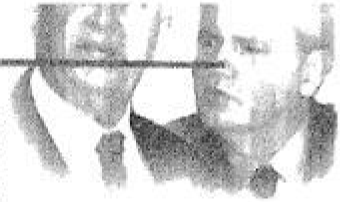
والمثال الثانى الصارخ الذى يكشف عن نزعات شارون الدموية للقتل والإبادة

هو ما حدث مع حصار بيروت الغربية عام ١٩٨٢ حين كان وزيرا للدفاع . فقد حاصرت قواته بيروت الغربية لمدة ثلاثة أشهر بحجة وجود الفدائيين الفلسطينيين يعيشون فى استخفاء بين الأهالى المدنيين ولذا حق العقاب عليهم جميعا . وقد ذكرت جريدة الواشنطون بوست المعروفة بانحيازها الكامل لإسرائيل أن قوات شارون فرضت على المدينة عقوبة شاملة ومركزة بطريقة أشاعت الرعب بين الجميع. وفى ١٦ أغسطس من نفس السنة (١٩٨٢) كتبت جريدة الهيرالدتربيون أن بيروت أصبحت مدينة من الأطلال يسودها الموت والدمار .

أما المثال الثالث على هذه الدموية الصارخة فهو ما أشارت إليه تلك البانوراما المأساوية التى عرضها التليفزيون البريطانى حول المذابح المروعة التى حدثت فى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين فى صابرا وشاتيلا خلال الأيام الثلاثة من ١٦ - ١٨ سبتمبر عام ١٩٨٢ أيضا . حين قامت الميليشيات الموالية لإسرائيل باقتحام تلك المخيمات بإيعاز من شارون ومارست تحت حماية الجيش الإسرائيلى عمليات القتل والذبح بحيث وصل عدد القتلى خلال اثنتين وستين ساعة حوالى الألفين من الجنسين ومن كل الأعمار . وقد حاول شارون التنصل من المسئولية وإلقائها على الميليشيات اللبنانية العميلة وحدها . ولكن لجنة التحقيق الإسرائيلية التى نظرت فى المسألة تحت ضغط الرأى العام العالمى حملته فى فبراير عام ١٩٨٣ (المسئولية غير المباشرة) عن تلك المذابح ، ثم جاءت بعض التحليلات العسكرية فى أمريكا لكى تلقى عليه عام ١٩٨٥ بالمسئولية الكاملة عن تلك المذابح .

شارون مجرم حرب

ولقد كان من نتائج إذاعة ذلك البرنامج فى التليفزيون البريطانى أن تقدم أحد المحامين العرب نيابة عن بعض العائلات التى أضيرت من تلك المذابح بدعوى ضد شارون لمحاكمته أمام المحاكم البلچيكية حيث يبيح القانون البلچيكى رفع مثل هذه الدعاوى أمام قضائه الذى ينظر فى الجرائم التى ترتكب ضد الإنسانية . وقد قام مكتب المدعى العام البلچيكى بتحويل الدعوى بالفعل إلى قاضى التحقيق لإبداء الرأى فيها والإدلاء بما إذا كانت هناك أدلة ثابتة تبرر محاكمة شارون كمجرم حرب . وقد يكون فى هذه الخطوة ما يشجع الدول العربية على اتخاذ مواقف إيجابية حازمة إزاء هذه الممارسات الإسرائيلية التى يبدو أن رئيس الوزراء شارون لايزال يؤمن بجدواها فى التعامل مع الفلسطينيين ومع العرب بوجه عام ، وأيا ما يكون القرار الذى قد يصل إليه قاضى التحقيق البلچيكى فالمهم هو أن جرائم شارون أثيرت على النطاق العالمى ،



وقـد تتـفـاعل الأمور بسرعة لو أحسن العرب الإفـادة من الأوضاع المالية الملائمة ومن اهتمام الرأى العام العالمى بمتابعة مثل هذه الجرائم والتحمس لمحاكمة مرتكبيها باعتبارهم أعداء للإنسانية ، وهذا أمر لم يكن مألوفا حتى عهد غير بعيد .

والواقع أن محاكمة (مجرمى الحرب) لم تحتل مكانا بارزا فى تاريخ العدالة الدولية إلا منذ محاكمات نورمبرج وصدور الأحكام الرادعة ضد الجرائم التى ارتكبتها ألمانيا النازية أثناء الحرب العالمية الثانية . بل إن مفهوم (جرائم الحرب) بالمعنى السائد الآن مفهوم حديث نسبيا لدرجة أنه بعد الحرب العالمية الأولى قامت الدعوة لمحاكمة قيصر ألمانيا فيلهلم الثانى وإعدامه لمسئوليته عن الحرب وعن المذابح والخسائر المادية والبشرية التى تكبدها المجتمع الإنسانى بوجه عام ، ولكن هذه الدعوة لم تجد القبول الكافى بدعوى أنه ليس من العدل أن يتحمل الأفراد مسئولية سياسة الدول التى ينتمون إليها ، وبذلك أفلت القيصر من المحاكمة والإدانة والعقاب واستطاع أن يذهب إلى منفاه فى هولندا، وقد تغيرت هذه الأوضاع الآن على ما تؤكده الأحداث التى أدت إلى القبض على ميلوسيفيتش وترحيله إلى لاهاى حيث تعقد المحكمة التى تنظر فى تحديد مصيره .

قواعد المحاكمة

وقد أرست محاكمات نورمبرج القواعد والخطوات والمعايير التى ينبغى اتباعها فى محاكمة المتهمين بارتكاب جرائم الحرب وهى القواعد التى نتابعها الآن فى محاكمة ميلوسيفيتش . وقد يفلح بعض هؤلاء (المجرمين) فى الإفلات من المحاكمة لسبب أو آخر ولكن الرأى العام العالمى يلاحقهم بالإدانة دائما وفى هذه الملاحقة والمطاردة نوع من العقوبة القاسية ، وحتى فى الحالات التى يتمكن فيها الشخص المتهم بارتكاب هذه الجرائم من الهروب والتنكر والتخفى فإن هذا السلوك هو أيضا شكل من أشكال العقاب الذى يوقعه المجرم على نفسه بنفسه كما أن فيه اعترافا ضمنيا منه بفداحة ما ارتكبه من آثام ، وقد يصل الأمر ببعض الذين يرتكبون جرائم القتل والتعذيب والإبادة الجماعية تنفيذا للأوامر المفروضة عليهم من رؤسائهم أن يعترفوا علنا وعلى الرأى العالمى بتلك الجرائم ويرون فى ذلك الاعتراف تكفيرا عما ارتكبوه وإراحة لضمائرهم . وفى حادثة مشهودة وطريفة لجأ أربعة من الجنود اليابانيين الذين اشتركوا فى غزو اليابان للصين إلى الاعتراف بجرائمهم على الانترنت حتى تصل هذه الاعترافات إلى كل انحاء العالم دون أن تخضع للرقابة أو المصادرة أو الحذف والتعديل ، وينتمى هؤلاء الجنود

الأربعة إلى فئة المحاربين اليابانيين الذين يطلق عليهم اسم (العائدون من الصين) ، وقد اشتركوا في تنفيذ العملية المعروفة باسم (مذابح نانكنج) وذلك حين أباح القادة العسكريون لقواتهم دخول تلك القرية وقتل رجالها واستباحة نسائها وبذلك تم قتل أكثر من ستة آلاف من الذكور واغتصاب عدة آلاف من الإناث خلال ستة أسابيع . ولكن مما قد يكون له مغزى في هذه الحالة بالذات أن الهيئة التي وقفت وراء هذه الاعترافات التي تمت في أغسطس ١٩٩٨ كانت هي (متحف التسامح)، التابع لمركز سايمون فيزنتال في أمريكا ، وأن الذي تولى الإشراف على العملية كان أحد رجال الدين اليهود وهو الحاخام أبراهام كوبر ، وأن مركز سايمون فيزنتال نفسه يهتم بمشكلات التفرقة العنصرية والعرقية في أمريكا ودراسة تاريخ الهولوكوست كما أنه هو صاحب موقع الانترنت الذي تمت من خلاله هذه الاعترافات . فهل يهتم متحف التسامح في ذلك المركز بتتبع ما يرتكبه شارون والإسرائيليون في حق الفلسطينيين .

تقديم شارون للمحاكمة

وجرائم الحرب ليست جرائم عادية يرتكبها فرد أو أفراد من حيث هم أفراد ضد أفراد آخرين وإنما هي جرائم جماعية مرسومة ومقصودة وهادفة وتقوم بها دولة ممثلة في قواتها العسكرية المحاربة ضد مجتمع آخر أو شعب آخر وثقافة أخرى وإن كان فعل القتل أو التعذيب أو الاغتصاب أو الإبادة يقع على أفراد هم الضحايا الذين يوجه إليهم ذلك الفعل وهم في العادة من المدنيين . وهذا هو البعد الذي يجب أن يؤخذ في الاعتبار في أية مطالبة . بتقديم أرييل شارون للمحاكمة أمام محكمة مجرمي الحرب الدولية . فأرييل شارون يمثل في كل الحالات التي ارتكبها أو أمر بارتكابها مجتمعا وثقافة ودينا وأيديولوجيا ونظرة عامة إلى الذات وإلى الآخرين ، ومن هنا تجئ فداحة الجرائم التي ارتكبها ضد المدنيين هو وقواته والقوات الموالية لإسرائيل .

ويصرف النظر عما إذا كان شارون سيقدم للمحاكمة بالفعل أم يفلت من المحاكمة والمؤاخذة نتيجة تدخل بعض القوى أو لاعتبارات سياسية معينة فإن مجرد التعريف بتلك الجرائم على النطاق العالمي هو تسجيل لجانب من التاريخ البشري الذي يجب إبرازه بحيث تتوارثه الأجيال القادمة سواء من اليهود أم من العرب أم من غيرهم لإدراك مدى تعارض هذه الجرائم مع القيم الإنسانية الرفيعة ومع حق الإنسان في الحياة ، وقد يساعد ذلك على الحد من نوازع الحقد والشر وأعمال العنف والقتل الجماعي لإبادة الآخرين تحت زعم المحافظة على ذاتية وكيان الجماعة التي ينتمي إليها هؤلاء المجرمون ويتصرفون باسمها وتحت رعايتها . ■

كتابة التاريخ المعاصر



جمال عبد الناصر



انور السادات



أحمد عرابي



مصطفى النحاس

بقلم
د. محمد رجب البيومي

يحمل كل إنسان في نفسه - صغر أو كبر - بذرة المؤرخ، لذلك نجد الأمي الساذج يجلس إليك متحدثا عن أدوار حياته، فيسلسل الحديث وفق تفكيره، ويقتضب في أمور، ويتسع في أمور، وفق ما يتصوره معليا من قدره لدى سامعه، وبهذه البذرة المستكنة في النفس اندفع كثير من رجال الصف الثاني والصف الثالث يسجلون مذكراتهم السياسية، وكل يحاول ما يحاوله الأمي الساذج من اقتضاب الحديث في أمور، واتساعه في أمور أخرى وفق ما يتصوره معليا من قدره، ولم نر في هؤلاء من سمح لنفسه أن يعترف بخطأ واحد، فكل ما تخيله مما قام به من أعمال صفحة ناصعة لا في تاريخه وحده، بل في تاريخ مصر، وقد يتعارض متحدثان في وصف مسألة واحدة تحدد باليوم والساعة.



فيلم ناصر ٥٦ .. هل تقدم رؤية حقيقية للأحداث؟

والتناقض أمر متوقع فى تفسير الأحداث. إذ يرى كل محلل وجهة مناقضة لما يراه غيره، ولكن التناقض فى الواقعة نفسها لا فى تفسيرها، مما يحتم أن يكون أحد المتحدثين كاذبا عن يقين، ومن البديهى أن هذه المذكرات ليست من التاريخ الحقيقى فى شىء. ولكنها شهادة يعرضها شاهد عيان، ليأخذ بها القاضى أو يدع، وإذن فالذين يتوهمون أنهم بما كتبوه فى مذكراتهم السياسية قد كتبوا صفحة من التاريخ واهمون، ومن المؤسف أن نجد من يشيد بهم من الكتاب، ويعد ما كتبوه جلاءً حاسما لأمور مشتبهة تضل فيها العقول !

وكان الأولى بهؤلاء أن يشيدوا بالمذكرات على أنها وجهة نظر فحسب، ولكن الجو العام الذى غمر مصر منذ نصف قرن، قد أباح ما لا يباح، ومن هذا المباح التقريظ اللا نهائى لأمور لاتزال موضع ألالتباس.

والحق أن التاريخ مظلوم من كاتبى المذكرات ومن الذين يكتبون التاريخ من أساتذة الجامعة وسواهم معا، فأصحاب المذكرات يريدون أن يدحضوا ما قد يوجه إليهم من الشبهات، وأساتذة التاريخ الجامعيين - بالنسبة إلى الكثرة - لا إلى الجميع غير مؤهلين للكتابة التاريخية

الصحيحة، لأن أكثر رؤساء أقسام التاريخ فى الكليات التى تمتد فى جنبات الجمهورية شرقا وغربا، قد تولوا مناصبهم بما يشبه القضاء والقدر إذ حفظوا المذكرات، ونالوا أعلى الدرجات ثم كتبوا الرسائل التى ينخفض مستواها عن المتوقع المنشود ففازت بأعلى الدرجات، وعينوا مدرسين وترقى بهم الأمر حتى صاروا أساتذة التاريخ! فماذا تطلب من هؤلاء أمام أحداث متراكبة، وأقوال متعارضة، وأبواق نافخة! إنك لن تجد غير ما يتردد فى الصحف، جُمع مزقا إلى مزق، حتى استوى كتابا يوزع على الطلاب، وقد قيل فى التعريف بصاحبه إنه أستاذ التاريخ الحديث!

فرية مموهة وافتراء صارخ

ونرجع إلى الوراء قليلا، فنذكر أن الثورة ما كادت تثبت وجودها، حتى انبرى بعض أساتذة التاريخ يتزلفون فيما يكتبون إلى ما يسمى بالعهد الجديد، وماذا يقول أستاذ التاريخ المتزلف إلى عهد راهن يرجو خيره غير أنه يلعن عهدا بائدا لا يخاف شره، هنا انطلقت الأبواق الزاعقة تعلن أن تاريخ مصر لم يكتب على وجهه الصحيح، وأن أمانة التاريخ الحديث تحتم على رجاله أن يكتبوه من جديد، ولن تكون الكتابة المتزلفة غير طعن لاذع فى كل من ولى مصر من أسرة محمد على، ومن الحق أن نذكر أن من قاموا بالثورة لم يكن من همهم أن يطعنوا فى محمد على وسعيد وإسماعيل وفؤاد، بل كان الهم الأول لديهم أن يوجه الطعن إلى فاروق باعتباره الرمز المناهض، والمحتمل أن يرجع إلى عرشه ثانية! ولكنهم حين وجدوا المتزلفين يمتدون بالطعن إلى الأصل وفروعه رأوا فى ذلك ما يرضيهم، وهنا اندفعت الافتراءات الكاذبة التى لا يصدقها عقل تُساق فى الجرائد والمجلات ثم فى الكتب التى تضم أراجيف الجرائد والمجلات، وأضرب المثال بمفتر أثم زعم أن الملك فؤاد أراد أن يعتنق المسيحية، قبل توليته العرش ليصبح ملكا على ألبانيا، ووجه الغرابة فى هذه الفرية المموهة، أن ألبانيا دولة إسلامية، فليس من المعقول أن يغير مسلم دينه ليرأس قوما يدينون بعقيدته، وإذا كانت للملك فؤاد أخطاؤه، فليس من بينها مجافاته للدين، بل إنه الذى سمح للأزهر أن ينشىء كلياته الثلاث وقد حرص على حضور الاحتفال بإنشاء كل كلية على حدة، فكان الملك ووزراؤه من خلفه من شهود الاحتفال المشهود، وقد تكرر ثلاث مرات، وفى مناسبة قريبة زار الملك كليتى الشريعة واللغة العربية بالبرامونى قريبا من عابدين، وتنقل بين الفصول مستمعا

لأساتذة المواد المختلفة، والجرائد لهذا العهد مليئة بصوره التذكارية في هذا المجال! ثم يقال بعد ذلك إنه همَّ باعتناق المسيحية ليكون ملكا على الألبان.

ولم يقتصر الإرجاف على الملوك والأمراء، بل امتد إلى الزعماء الأطهار من أمثال أحمد عرابى وسعد زغلول ومصطفى النحاس، وأذكر أنى قرأت فى المصور تحت عنوان (حاجة تكسف) لكاتب ذى شهرة فى أمسه يقول بعد أن تحدث عن جمال عبدالناصر إن أحد الكاتبين يقرنه بأحمد عرابى، ! واقتران عبدالناصر بأحمد عرابي (حاجة تكسف) فمن هو عرابي هذا!

نبش الماضي غير مفيد

أما مصطفى النحاس العظيم فقد ظل على مدى ثلاثة أشهر متوالية يسمع فى مقدمة تمثيلية مسلسلة هذه العبارة منسوبة إليه (أقبل يدك يا مولاى)! وقل ما شئت فى شعور أعظم زعيم مخلص فى عهده، وهو يسمع الافتراء الصارخ على جهده كل يوم فى حلقات كاذبة مخترعة ! وهو شيخ مريض ! فماذا تسمى هذا؟

ثم زلزلت الأرض زلزالها يوم رجفت الراجفة بهزيمة يونيو الكارثة، وطالب الشعب جميعه بمعرفة أسباب الفضيحة النكراء، وهو مطلب ضرورى لابد من الاستجابة له، ولكن الذين دأبوا على تشويه أعمال عرابى وسعد والنحاس وجدوا لديهم الجرأة فى أن يقولوا : لننظر إلى المستقبل ، لا نريد نبش الماضى، نبش الماضى لا يفيد غير المحتل الذى سيطر على سيناء وثلاث محافظات! هنا فقط يكون نبش الماضى غير مفيد! وماذا كان عملكم من قبل غير نبش الماضى لتشويهه لا لتسجيله كما كان! لقد زعمتم كتابة التاريخ فانتهيتم إلى أن مصر قبل الثورة كانت لاشىء، ثم جاءت الحركة المباركة فولدت مصر من العدم، وحرمتم الاحتفال بذكرى أمثال سعد ومصطفى النحاس وطلعت حرب وحسن البنا، كيلا تنتصب قامة جوار قامة الرئيس عبدالناصر، بل إن مؤلفى الكتب المدرسية قد أفرطوا إفراطا بالغا فى تسجيل أعمال الثورة، ولكن هذه المبالغة قد فضحتهم فضيحة نكراء! إذ أن أول ما سجلوه فى الكتب المدرسية التى تتوالى عاما بعد عام هو أن الذى قام بالثورة عبدالناصر! والتلاميذ جميعا يعرفون أن الذى قام بقيادة الثورة هو محمد نجيب وظل اسمه بارزا ساطعا فى مجريات الأحداث قرابة عامين! أيرى التلاميذ زعامة محمد نجيب رأى العيان، ثم يجيء المؤلفون فلا يذكرون له اسما ! لو كانوا عقلاء لقالوا على الأقل قد مهد لها الرئيس نجيب، ثم قادها عبدالناصر! ومن المنتظر أن يسأل التلاميذ عن إغفال محمد نجيب، فيجدوا الإجابة فيما لفقه مؤرخو

الثقة من أباطيل: فحواها أن الرجل كان ظلاً كخيال المآتة، فلم يكن له غير اسمه! وإذا لم يكن له غير اسمه؟ فماذا يفعل الاسم المجرد من كل عمل! هذا مثل للحقائق الضائعة التى أدركها التلميذ الناشيء فى مدرسته، فقل فى الحقائق الخافية التى كان يدركها الفاقهون، ويعلمون تأثيرها المرير ثم لا يتكلمون! قل فيها ما تشاء.

أأقول شيئا آخر من صور هذا الزيف، لقد أصدر أحد أساتذة كلية الآداب كتاباً عن فلاسفة الإسلام ، تحدث فيه عن الكندى والفارابى، وابن سينا وابن رشد ثم عن جمال عبدالناصر مؤلف (فلسفة الثورة) وطبيعى أن الرئيس عبدالناصر لم يكن له فى هذا البهتان، ولم يفكر ساعة واحدة فى أن يكون من فلاسفة الإسلام، ولكن موجة التزلف قد بلغت أقصى درجات ارتفاعها فى هذا العمل، والمؤلف رجل فاضل كما اعتقد، وقد سألت عما جره إلى هذا الوبال ، فقيل لى : إن اتهامات لحقته بأنه ليس من مؤيدى العهد، وأن العيون قد أخذت تراقبه، فأراد ان يدفع عن نفسه بما صنع، تقية وخداعا! لئن كان الأمر كذلك، فهى مأساة أخرى، مأساة أستاذ جامعى للفلسفة لا يجد السبيل إلى الأمن إلا بالنفاق! ثم ماذا ؟ أعترف للقارىء أن القلم قد ساقنى إلى ما كنت أريد أن أبدأ به، حتى لكأنه هو الذى يسيرنى ، ولست أنا الذى أسيره، ولعل ذلك بعض ما عناه محرر الهلال حين يقول فى مقدمة المقالات، بقلم فلان إشارة إلى سيطرة القلم ونفوذه، لقد كنت أريد فى هذا المقال أن أجيب عن سؤالين هما صدى لما تردد حينا بين المفكرين، هذان السؤالان هما هل تؤلف لجنة لكتابة التاريخ؟ ومتى يجوز أن نبدأ كتابة التاريخ المعاصر؟

لجنة لكتابة التاريخ

أما أن تؤلف لجنة لكتابة التاريخ، فهذا ما دعا إليه الداعون منذ قامت الثورة، دعوا إليه حين زعموا أن تاريخ مصر لم يكتب على وجهه الصحيح ، وأن الواجب تدارك ما فات، فتؤلف لجنة من أهل الثقة، أهل الثقة لا أهل الكتابة لتقوم بكتابة التاريخ على حقيقته! ومن توفيق الله ألا يتم لهذه اللجنة تأليف ولا عمل، لأن الذين رشحوا أنفسهم لهذا العمل وقع بأسهم بينهم، وحاول كل واحد أن يكون الفارس المجلى، فسقطوا جميعا، وبقى أن نسأل متى احتاجت كتابة تاريخ مصر إلى لجنة، إنا نعلم أن مصر الفرعونية قد نهض بكتابة تاريخها من المصرين كتاب أفاضل لم تكن لهم لجنة خاصة من أمثال على بهجت وسليم حسن وعبدالقادر حمزة وأحمد بدوى ولهذا الأخير فضل على

مثلى فقد قدم التاريخ الفرعونى فى صورة أدبية ممتازة تحت عنوان «فى موكب الشمس» دفعتنى إلى قراءة مطربة شائقة بعد أن أوجعتنى موسوعة سليم حسن التى تحتاج إلى متخصص لا إلى قارىء هاو متعجل، ولا أنكر ما كتبه الأجانب من الأوروبيين وهم كثير كثير إذ لم أقرأ منه شيئا، ثم تاريخ مصر فى عهد البطالسة لم تكتبه لجنة وإنما بدأ بكتابته من المصريين علم مفرد هو الدكتور ابراهيم نصحى، وأبلى فى هذا المجال بلاء لم ينهض بمثله سواه، ويؤسفنى أننى لم أقرأ شيئا من تاريخ مصر فى عهد الرومان سوى ما كتبه الدكتور الفريد بتلر فى كتابه (فتح مصر) الذى ترجمه الأديب المكين الأستاذ محمد فريد أبو حديد، وهذا قصور أو تقصير قد يكون سببه أن الذائع قليل لا يمسك رمقا، أما تاريخ مصر الإسلامية فقل ما شئت فى كوكبة سيارة تبتدىء بالكندى وابن عبدالحكم والبلوى ثم يتألق ضياؤها فى العصر المملوكى حيث تسطع، أسماء مثل ابن خلدون والمقريزى وابن تغرى بردى وابن حجر والعينى والسخاوى والسيوطى وابن إياس، وأكثرهم كان معاصراً لزميله. ولكنه لم يشترك معه فى تأليف، بل انفرد كل مؤرخ بما كتب ولو ألف سلطان مملوكى لجنة لكتابة التاريخ من هؤلاء ما كتبوا شيئا يحسب له حساب، ثم جاء الجبرتى ممهداً للعصر الحديث، حيث انفرد بكتابة حلقاته المتتابعة من بعد مؤرخ واحد، هو عبدالرحمن الرافعى، وهذا الرجل دعى فى ابتداء عهد الثورة إلى تنقيح ما كتب توهما من الداعى الذى لم يقرأ أنه كتب ما لا يعتقد.

فأجابه فى صرامة أنه كتب كل ما عَنّ له دون أن يخضع لتأثير أحد، وقد قال فى عهد الملك فؤاد عنه وعن والده إسماعيل ما كان موضع ألم للقصر، ولكنه لم يواجه باعتراض! أعلم أن الرافعى رحمه الله كان من أبرز أعضاء الحزب الوطنى، وقد دعاه ذلك إلى منابذة سعد وخليفته فى بعض ما كتب، ولكنها منابذة من يرى الرأى عن اعتقاد حزبى يؤمن به وليست منابذة وصولى يكتب ليرضى عنه سيده فيغدق عليه من الجاه والمال ما يرتضيه؟

من يكتب التاريخ ؟

فإذا كان تاريخ مصر فى مداه المتطاول قد سلم إلينا متصلاً مسلسلا دون أن تنهض به لجنة من أهل الثقة فلماذا ندعو إلى تأليف اللجان وممّن؟ من المصفقين الهتافين .

أما متى يجوز أن يكتب التاريخ فإن أصحاب الدعوة إلى عدم نبش الماضى حين عرفوا أنهم لا يجدون سامعا يذعن، أخذوا يستشهدون بدور الأرشيف التاريخية . تلك التى لا تفتح أبوابها

للباحثين فى مشاكل السياسة إلا بعد انقضاء نصف قرن صونا لأسرار عسكرية أو اقتصادية أو سياسية تتأثر الدولة بإذاعتها ، وإذا كانت الحكومات قد تنشر بعض الوثائق قبل انقضاء هذا الأمد ، فإن فيما تنشره ما تتأكد عدم ضرره ، وهكذا تظل الوثائق مكتوفة حتى يأتى جيلٌ آخر يعمد إلى دراستها دراسة محايدة، كما أن مرور نصف قرن يخفف من وقع الأحداث على من لم يكونوا يتوقعونها، لأن الجيل الراهن لا يستشعر حساسية أبناء الجيل الماضى ، ومن الحق أن نذكر أن هذا الرأى يجد المعارضة لأن الأسرار السياسة الآن فى عهد الإعلام الممثل فى الصحافة والإذاعة والقنوات الفضائية لم تعد ملكا لدولة واحدة ، فالأسرار التى يتحتم كتمانها فى الصين واليابان مثلا تجد الإذاعة الكاشفة فى أوروبا وأمريكا فتنقل فورا إلى الإعلام فى الصين واليابان !

وحين تقارن بين الرأيين المختلفين، رأى من يرى الإذاعة الفورية، ومن يرى الانتظار نصف قرن، فإننا نعلم الفرق بين الكاتب المتحزب، والكاتب المنهجى ، فالكاتب المتحزب يكون كلامه دائماً موضع الشك، وينتظر قارئه الرأى الآخر من مناوئيه أما الكاتب المنهجى فالأصل فيه أن يكون محايداً، لأن الثقة فيه تجعله لايبتغى غير الصواب، وإذا أفاد انقطاع الزمن من ناحية فإنه يضرّ من ناحية أخرى، هى البعد المباشر عن ملابسة الأحداث، ومن هنا كانت رواية المؤرخ المعاصر أكثر قبولا ممن يليه إذا افترض فيه الحياد، وليس وحده فى هذا المجال فله زملاؤه يشاركونه البحث . ولكن فى غير لجنة يعينها السياسيون من ذوى الثقة - وسيذكرون ما فاته ، وما قد يقع فيه من أحكام تجد المخالفة، وبالنقاش المتبادل تنجلى الحقائق على وجه سافر، وقد رأينا من هؤلاء من أصابوا فى الكثير وأخطأوا فى القليل، فتدارك النقد الصائب مافاتهم فى هدو. لا يعرف الضجيج ، وهب أننا سنقف بالدراسة السياسية نصف قرن ، فهل نقف بالدراسات الاجتماعية والاقتصادية هذا المدى ، وهى ذات تأثر شديد بالوضع السياسى بل انها قد تكون نتيجة محتومة له . وهنا تكون الكتابة السياسية أمرا لا يقبل الابطاء، وأقرب مثل نقدمه على صحوة النقد السياسى المعاصر دون إمهال، ما قرأناه عن الحرب العالمية الثانية إذ ما كادت سحائبها تنقشع حتى شرعت الأقلام فى شتى أنحاء المعمورة تشرح أسباب الهزيمة عند قوم ، وأسباب الانتصار عند آخرين، وتحطمت تبعا لذلك أصنام مقدسة كتبت عنها عشرات الكتبِ تمجيدا ومباهاة من قبل، وترجمت هذه الكتب إلى شتى لغات

العالم بحيث صارت أخبار هتلر وموسوليني تزعج الناس إزعاجاً لطرقها المتكرر دون انقطاع ، فلما هزم الزعيمان الفاشلان، لم تغن عنهما هذه الأكداس المكدسة من كتب التمجيد والإطراء ، بل أصبحت لعنة على من كتبوها متزلفين، وبعد أن أخذوا مكان الصدارة في عالم الضوء والإبهار؟؟ تهاووا كما تختفي الخفافيش عن الأنظار، ومنهم من قدم إلى المحاكمة لأنه زيف الحقائق واختلق الاساطير تمجيداً لم أرهقوا الناس بالبلاد، فلم يجد عذراً بيديه ! وأكبر ما هزّ النفوس أن الدراسات الجامعية في إيطاليا وألمانيا كانت أكبر نصير لحركات التهريج السياسي ، إذ جعل الأساتذة يتلقفون كل ما يقوله الإعلام الخادع، فيجعلونه موضع الدراسة التي تنتهي بالتأييد المطلق، ولا أنكر أن رجالا من هؤلاء لم يتحملوا هذا النفاق ، ففروا هاربين إلى دول الحلفاء حين واجههم الخطر المبيد ، لأن الطاغية من هؤلاء كان يعد كل نقد يوجه إلى طغيانه خيانة سافرة للأمة وعمالة للأعداء فهو الأمة ، والأمة هو دون اختلاف .

تزييف التاريخ

أما القاصمة الكبرى فهي الأفلام السينمائية التي أخذت تزيف التاريخ دون حياء ، والتي جند لها عشرات المصفقين من ذوي الأغراض ، فقبّحت الحسن ، وحسّنت القبيح ، وكيلا نخوض في لجاجة يندفع فيها القول ، وقد اختلط الحق بالباطل ، فلا يسفر وجه النهار عن صباح، أقدم مثالاً ينحسم به الأمر على وجه لا يقبل الخلاف ، فأقول ماذا تقولون في كاتب سينمائي يكتب فيلما عنوانه (خالد بن الوليد قبل سنة ثمانٍ من الهجرة) فيأتي بكل مواقف الكفر التي شنها خالد على الإسلام في مكة وبدر وأحد والخندق ويجعله كافرا أي كافر ! ثم يسكت عن ذلك! ألا يكون هذا العمل جريمة نكراء في حق سيف الله المسلول! وإذا كان ذلك كذلك ، فماذا تقولون في فيلم عبدالناصر ٥٦ الذي لفق ما لفق من الأعمال ، ثم سكت عن الفظائع التي أدت إلى فضيحة ١٩٦٧.

أيكون الكاتب قد قدم للقارىء حقيقة عن الرجل اجتباه واصطفاه. ألا يعلم حق العلم أن الكارثة التي هزت الدنيا سنة ١٩٦٧ كان سببها الأول أننا اعتقدنا أننا أنتصرنا في سنة ٥٦.. ولو أخذنا العبرة من الأحداث لما كان العرب اليوم في أسوأ مآل!

إن القلم أمانة ، ومن أمانة القلم أن نذكر كل شئ كما كان ، لا أن نغضي عن كثير مما كان !

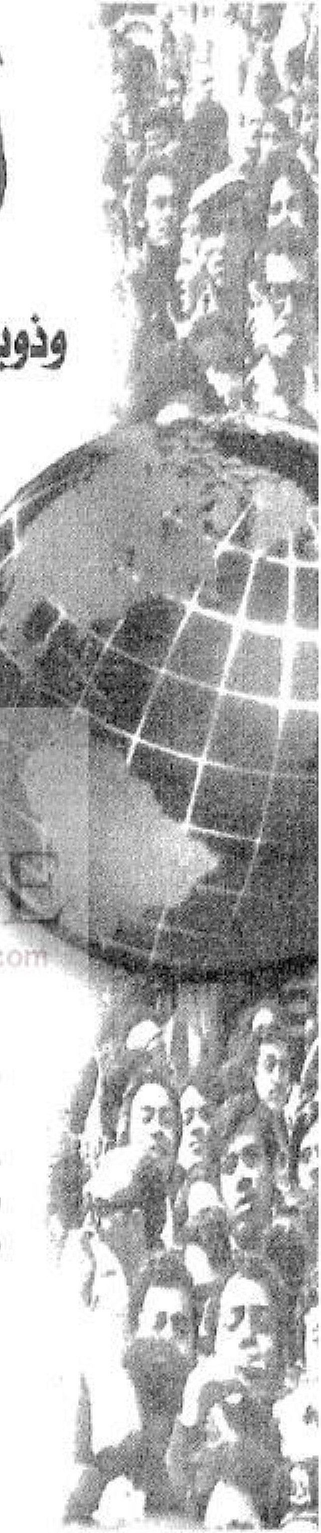
لعمري لقد أيقظت من كان نائماً
وأسمعت من كانت لـه أذنـان!

■

العولمة

وذوبان الحضارات في الحضارة الغربية !!

بقلم
د. محمد عمارة



إذا كانت العولمة العسكرية هي أداة «التأبيد» للعولمة الاقتصادية والسياسية والتشريعية فإن عولمة القيم والثقافة هي سبيل «التأبيد» لذوبان الحضارات غير الغربية في النموذج الحضاري الغربي .. فاحتلال العقل كان دائما وأبدا السبيل لتأبيد احتلال الأرض ونهب الثروة، دونما حاجة إلى نفقات القواعد العسكرية وتكاليف الجيوش !!

وإذا نحن شئنا أن نضرب الأمثال - في إشارات موجزة - على نماذج لعولمة منظومة القيم الغربية، والثقافة الغربية، ونمط الحياة الأمريكي، من خلال صياغة هذه المنظومة القيمية في مواثيق يتم عولمتها باسم الأمم المتحدة، وعبر مؤتمرات «دولية» تعقد تحت علم المنظمة الدولية .. فإن في وثيقة «برنامج عمل مؤتمر السكان والتنمية» الذي عقد بالقاهرة ٥ - ١٥ سبتمبر ١٩٩٤م - تكفي - هذه الوثيقة وزيادة لتجسيد معنى عولمة القيم الغربية، وفرضها على مختلف الأمم والشعوب والدول والحضارات والمعتقدات والثقافات .

فالأسرة قيمة من القيم الإسلامية - بل والإنسانية - و على صلاحها يبنى صلاح الأمة والاجتماع، والحفاظ عليها فطرة إنسانية فطر الله عليها الفطر السوية .. ولهذه الأسرة مفهوم إسلامي يقيمها على الزواج الشرعي الذي يحقق الاختصاص بين ذكر وأنثى، لتضم بعد ذلك البنين والبنات والحفدة، في ظل علاقات وواجبات وحقوق الأبوة والأمومة والبنوة، وفق منظومة من القيم الإسلامية جعلت وتجعل هذه «المؤسسة - الأسرة» واحة السكن والسكينة والمودة والرحمة، المحكومة بالميثاق الغليظ ، ميثاق الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

عولمة التحلل والتفكك الأسرى

لكن وثيقة مؤتمر السكان تسعى لعولمة التحلل والتفكك الأسرى، الذى نخر وينخر في عظام المجتمعات الغربية - التي عزفت عن «الزواج» واستبدلته «بالرفقة» والتى أصبح ٤٠٪ من طفولتها تولد خارج الأسر الشرعية أى عن طريق الزنا، و٥٠٪ من هؤلاء الأطفال يعيشون خارج الأسر الشرعية - أى مع «رفيق» الأم أو «رفيقة» الأب - والتى يهدد الانقراض العديد من شعوبها بعد عدة عقود .. وتهدد الشيخوخة الكثير من هذه الشعوب بعد عدة سنوات .. تسعى وثيقة مؤتمر السكان لعولمة منظومة القيم الغربية المدمرة للأسرة، فتدعو - صراحة وبإلحاح الحكومات والمنظمات الحكومية الدولية، والمنظمات غير الحكومية المعنية، ووكالات التمويل، والمؤسسات البحثية إلى إعطاء أولوية للبحوث الحيوية المتعلقة بتغيير الهياكل الأسرية» .

العولمة العسكرية أداة التأييد للعولمة الاقتصادية والسياسية والتشريعية

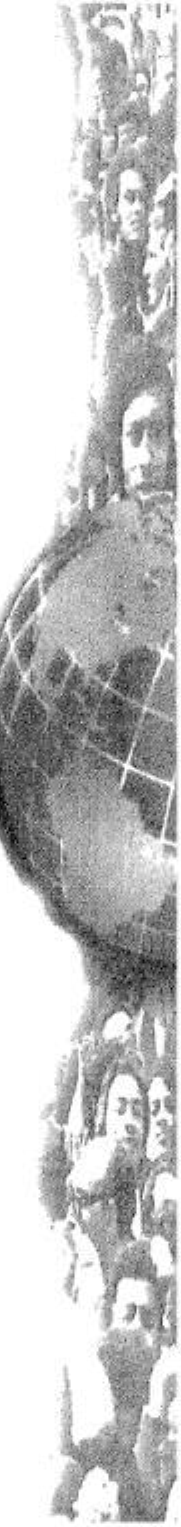
ولا تدع هذه الوثيقة أمر «تغيير الهياكل الأسرية» للظنون والاجتهادات .. وإنما تتحدث عن «اقتران» لايقوم على «الزواج» وهو مايشيع فى العلاقات المحرمة دينيا بين رجلين، أو امرأتين عند الشواذ - بل وتتجاوز «إباحة» ذلك إلى ترتيب «الحقوق» لهذه الأنواع من «الأسرة» فتقول : «وينبغى القضاء على أشكال التمييز فى السياسات المتعلقة .. بالزواج وأشكال الاقتران الأخرى ..» وتدخل فى عداد الأسرة، ذات الحقوق: الأعداد الكبيرة من الأفراد غير المتزوجين والناشطين جنسيا» .

فنحن أمام عولمة مفهوم «للأسرة» لايقف بها عند حدود «الزواج» و«الأزواج» بل يدخل فيها كل الأفراد الناشطين جنسيا، ومن كل الأعمار .. وهو مفهوم غربي، أصبح متعارفا عليه في الغرب، قننته برلمانات، بل وتبنته كنائس، واقتربنا من أن نقرأ له «لاهوتا – لا دينيا» ؟

تمكين المرأة واستقلالها

وإذا كان الإسلام قد سن سنة «المساواة» بين الإناث والذكور، في الخلق والتكريم والتكليف والحساب والجزاء، مع الحرص على توزيع للعمل يحافظ على فطرة التمايز بين الذكورة والأنوثة، فجعل هذه المساواة هي «مساواة الشقين المتكاملين، وليس الندين المتماثلين» حفاظا على دواعي الاقتران والشوق والسعادة للنوع الإنساني .. فإن وثيقة مؤتمر السكان تسعى إلى انقلاب في علاقات المرأة بالرجل .. فبدلا من تبني مصطلح «المساواة» تتحدث عن «تمكين المرأة» وبدلا من توزيع العمل بين الرجال والنساء وفق فطرة وطبيعة الذكورة والأنوثة – وهي التي أشار إليها حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .. فالرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم. والمرأة راعية في بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم .. ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» .. رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد .. بدلا من هذا التوزيع الفطري للعمل بين النساء والرجال، تدعو الوثيقة الى دمج الرجل في المنزل، ودمج المرأة في المجتمع دمجا كاملا فتقول «ويتعين على الحكومات والزعماء الوطنيين والمجتمعيين أن يشجعوا مشاركة الرجل الكاملة في تنظيم الأسرة وتربية الأطفال والعمل المنزلي .. وتمكين المرأة واستقلالها وإدماجها بشكل تام في الحياة المجتمعية» .

وإذا كانت العفة قيمة من القيم الإسلامية – بل والإنسانية – وإذا كان الإحصان بالزواج الشرعي هو السبيل لتحويل الغرائز الجنسية والأشواق والعاطفية الى حياة بناءة وراقية في المجتمع السوي .. فإن وثيقة مؤتمر السكان تتحدث عن «المتعة الجنسية المأمونة والمسئولة» وليس عن «المتعة الجنسية الشرعية والمشروعة والحلال» فمصطلح «الصحة الجنسية» الذي هو أكثر المصطلحات تكرارا في هذه الوثيقة يعني «تكامل الجوانب الجسدية



والعاطفية والعقلية والاجتماعية للوجود الجنسي، بأساليب إثرائية تبرز الشخصية وتقوى التفاهم والحب، وفق نهج إيجابي تجاه النشاط الجنسي البشرى».

العفة خطر للسلام العالمي

مع اعتبار هذا النشاط الجنسي البشرى حقا طبيعيا وإنسانيا عاما من حقوق الجسد، كالغذاء، وغير مقصور على المتزوجين زواجا شرعيا .. فهو نبض الوثيقة «حق لجميع الأزواج والأفراد - (لاحظ الأفراد) - سواء كان امرأة أو رجلا أو مراهقا أو مراهقة .. وينبغي أن تسعى جميع البلدان إلى توفير هذه الحقوق لجميع الأفراد، من جميع الأعمار، في أسرع وقت ممكن ، وفى موعد لايتجاوز عام ٢٠١٥».

أى والله !! هذا هو نص الوثيقة، يستنفر العالم لتوفير حقوق الإباحية الجنسية لكل الناشطين جنسيا، من كل الأعمار، فى أسرع وقت ممكن، وفي موعد لايتجاوز ٢٠١٥م.. حتى ليظن المرء، وهو يقرأ هذا الاستنفار، أن العفة قد غدت التهديد الأخطر للسلام العالمي.

احتلال العقل هو السبيل لتأبيد احتلال الأرض ونهب الثروة

ولهذه «القيم» الغربية، تحدثت الوثيقة عن «السلوك الجنسي المسئول» وليس عن «السلوك الجنسي الشرعي أو الحلال» وذلك من أجل الوقاية من الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية .. فالهدف هو تشجيع - «لاحظ تشجيع» - التطوير المناسب للنشاط الجنسي المسئول بما يسمح بوجود علاقات المساواة والاحترام المتبادل بين الجنسين ويسهم فى تحسين نوعية حياة الأفراد» .

فالمتعة الجنسية عالية المستوى، هي حق للجميع بشرط أن تكون الممارسة الجنسية مسئولة، وقائمة على التراضي والاحترام، تحسينا لنوعية حياة الأفراد.

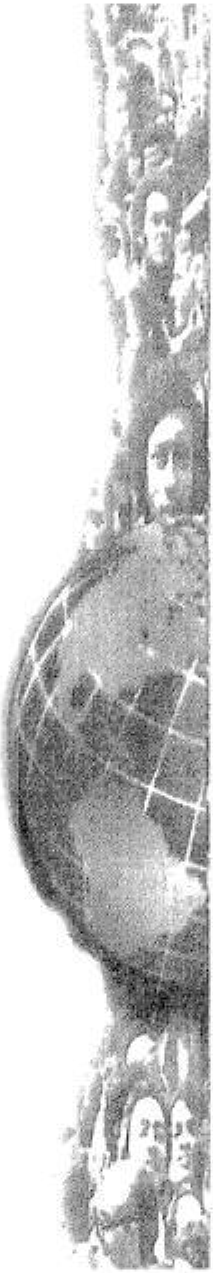
وإذا كان الاحصان، بالزواج المبكر، هو مما يحافظ على قيمة العفة، وييسر الاستمتاع الشرعي والحلال بالعلاقات العاطفية والجنسية بين الأزواج، فإن وثيقة مؤتمر السكان تسعى لعولمة منظومة القيم الغربية، التى غدت تحرم وتجرم الزواج المبكر، وتدعو إلى اعتماد «البدائل» التي تصرف عن هذا الزواج المبكر «فالهدف هو الحيلولة دون حدوث الزيجات المبكرة .. وعلى الحكومات أن تزيد السن الأدنى عند الزواج حيثما اقتضى الأمر .. ولاسيما بإتاحة بدائل تغنى عن الزواج المبكر» .

وفي ذات الوقت تتيح الزنا كبديل لهذا الزواج المبكر !! فلقد أفردت هذه الوثيقة حيزا كبيرا ولافتا للنظر - للحديث عن حقوق المراهقين والمراهقات الناشطين جنسيا في المعاشرات الجنسية، بل وفي الحمل، والإجهاض الآمن، وتنظيم الأسرة «فالهدف هو الوفاء بالاحتياجات الخاصة بالمراهقين والشباب وخاصة الشابات .. والخدمات عالية الجودة في مجال الرعاية الصحية والجنسية والتناسلية .. كيما يتعاملوا مع نشاطهم الجنسي بطريقة ايجابية ومسئولة .. وحماية وتعزيز حقوق المراهقين في التربية والمعلومات والرعاية المتصلة بالصحة الجنسية والتناسلية .. وأن تخفض عدد حالات حمل المراهقات تخفيضا كبيرا .. فالمراهقون الناشطون جنسيا يحتاجون نوعا خاصا من المعلومات والمشورة والخدمات فيما يتعلق بتنظيم الأسرة .. كما أن المراهقات اللاتي يحملن يحتجن إلى دعم خاص من أسرهن ومجتمعهن المحلي خلال فترة الحمل ورعاية الطفولة المبكرة .. ولذلك، يتعين على البرامج إشراك وتدريب كل من يتسنى لهم توفير التوجيه للمراهقين فيما يتعلق بالسلوك الجنسي والتناسلي المسئول، وخاصة الأبوين، والأسر، وأيضا المجتمعات المحلية، والمؤسسات الدينية، ووسائل الإعلام، وجماعات الأقران. وينبغي أن تعمل الحكومات على محاربة التمييز ضد الحوامل الشابات».

أي والله .. تدعو وثيقة مؤتمر السكان إلى استنفار الدنيا، بما في ذلك المؤسسات الدينية لتوفير «حقوق» الزنا للمراهقين وكذلك حقوق الحمل والإجهاض الآمن وتنظيم الأسرة .. بعد حمايتهم من «الزواج المبكر».

★★★

ذلكم هو نموذج عولمة قيم التفكك الأسري، والانحلال الجنسي - الغربية - وفرضها على العالم، باسم الأمم المتحدة، ومن خلال وثيقة المؤتمر الدولي للسكان والتنمية .. هذه الوثيقة التي ربطت بين عولمة القيم وعولمة الاقتصاد .. فقالت: «ويؤكد المؤتمر الدولي للسكان والتنمية من جديد الحاجة إلى إدماج البلاد ذات الاقتصاديات التي تمر بمرحلة انتقال



- «أى التى كانت اشتراكية» فضلا عن جميع البلدان الأخرى فى الاقتصاد العالمى دمجا كاملا» .

وإذا كانت بعض البلاد - وخاصة الإسلامية - قد تحفظت على بعض فقرات هذه الوثيقة - التزاما بقيمها الإسلامية، واستجابة للحملة الإسلامية التى قادها الأزهر الشريف ضد الإباحية التى شاعت فيها - فإن الصياغة الخبيثة لهذه الوثيقة قد أجهضت هذه التحفظات عندما جعلت «حقوق السيادة لكل أمة» محكومة «بالمعايير الدولية لحقوق الإنسان» والتى هى المعايير الغربية، التى تجعل الحرية الجنسية الطوعية والمسئولة من حقوق هذا الإنسان، كما يشهد الفكر والتطبيق فى الواقع الذى نعيش فيه !! وبذلك غدت الوثيقة ملزمة للجميع، بما فى ذلك الدول التى تحفظت على بعض فقراتها، وتوالت فى نصوصها العبارات التى تقول - مثلا- «ينبغى للحكومات :

أ - أن تلتزم على أعلى مستوى سياسى بتحقيق الغايات والأهداف الواردة فى برنامج العمل .

ب - وأن تقوم بدور قيادى فى تنسيق أعمال المتابعة ورصدها وتقييمها .

- وينبغى إعمال الضمانات وآليات التعاون الدولية لكفالة تنفيذ هذه التدابير.

تسعى وثيقة مؤتمر السكان لعولمة منظومة القيم الغربية المدمرة للأسرة.

- وإن وضع وتنفيذ السياسات السكانية حق سيادى لكل أمة، يتمشى مع القوانين الوطنية، ويمتثل للمعايير الدولية لحقوق الإنسان » فسيادة الأمة، وقوانينها الوطنية ، لابد أن تمتثل فى النهاية، للمعايير الغربية لحقوق الإنسان .. ومنها هذه الحقوق ، التى قررتها هذه الوثيقة ، فى الإباحية والتفكك الأسرى والانحلال !

ويشهد على حقيقة هذا «الإلزام» أن بلدا مثل مصر - التى عقد فى عاصمتها هذا المؤتمر - كانت فى مقدمة البلاد الإسلامية التى تحفظت على العديد من فقرات وثيقته .. ومع ذلك، وجدنا تقرير الجمعيات النسائية المصرية، التى شاركت فى مؤتمر المرأة العربية - بعمان : الأردن - فبراير ٢٠٠٠ يتحدث عن «جهود الجمعيات الأهلية المصرية لتنفيذ مقررات بكين» ويعترف هذا التقرير

بأن أنشطة هذه الجمعيات قد انصبت على التنفيذ لوثيقة مؤتمر السكان ١٩٩٤م ووثيقة مؤتمر بكين - الخاص بالمرأة - ١٩٩٥م .. وأن صدور القانون المصرى الجديد للأحوال الشخصية - يناير ٢٠٠٠م وتكوين «المجلس القومي للمرأة» فبراير ٢٠٠٠م هما استجابة لوثائق تلك المؤتمرات.

وثائق العولمة هى المرجعية

ولعل فى ذلك التفسير لعدم ورود كلمة «الأسرة» مجرد الكلمة فى أهداف المجلس الأحادى عشر، ولا فى لجانه الإحدى عشرة!! ومع ذلك فهو مجلس قومى للمرأة، فى بلد مسلم، ينص دستوره على أن الإسلام هو دين الدولة وأن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع والقانون .. وبدلا من ذلك تتحدث وثائق تكوين المجلس عن دمج المرأة فى التنمية الاجتماعية، فتفصح عن أن وثائق العولمة القيمية هى المرجعية، وليست المنظومة القيمية للإسلام!

بل إن الذين تابعوا بوعى احتفالات الجمعيات النسائية فى العالم الإسلامى بيوم المرأة العالمى ، فى ٨ مارس ٢٠٠٠م سيجدون أن جميع هذه الأنشطة والاحتفالات قد تمت تحت شعار «تمكين المرأة ودمجها فى التنمية الاجتماعية» وهى الصيغة التى صكها مؤتمر القاهرة، ومؤتمر بكين.

فوثائق هذين المؤتمرين قد غدت المرجعية، رغم نصوص الدساتير والقوانين فى بلاد الإسلام .. ورغم تحفظات الحكومات الإسلامية على بعض ماجاء فى هذه الوثائق من فقرات .. بل إن قوانيننا تعدل، أو تجرى المطالبات بتعديلها لتتسق مع ما جاء فى هذه الوثائق من قيم وأهداف ! ذلك أن وثيقة مؤتمر السكان قد جعلت «المعايير الدولية لحقوق الإنسان» - وهى غربية فى الأساس - المرجعية التى يجب أن تمتثل لها «سيادة الأمم وقوانينها الوطنية» فغدت عولمة القيم الغربية المرجعية التى توضع الآن فى الممارسة والتطبيق . ■



لغويات

د. محمود فهمي حجازي

يكثر استخدام كلمة (تفويج) فى موسم الحج وكذلك فى تكوين المجموعات السياحية وحركتها فى مجموعات كبيرة منظمة ، نجد من يكتب أو يعمل فى تفويج الحجاج أو تفويج المسافرين ، بمعنى توزيع العدد الكبير منهم فى مجموعات ، يعرف كل منها بكلمة فوج. وكلمة تفويج لم ترد فى المعاجم العربية المتداولة ، ولكنها تعد استعمالا حديثا بصيغة المصدر . وقد نظر مجمع اللغة العربية فى مدى صحة هذه الكلمة ، وكتب الأستاذ الدكتور كمال بشر بحثا فى هذه الكلمة ، ووافق المجمع على ذلك .

مشكلة هذه الكلمة تكمن فى عدم ورودها فى المعاجم العربية ، غير أن مادتها اللغوية (ف و ج) أصيلة فيها . ومن هذه المادة كلمات كثيرة ، منها الفوج بمعنى الجماعة أو الطائفة من الناس . وفى القرآن الكريم (يدخلون في دين الله أفواجا) بمعنى أنهم كانوا يدخلون فى جماعات فكانت القبيلة كلها تدخل في الإسلام مجتمعة . كلمة تفويج بوزن عربي هو تفعيل وهو وزن من أوزان المصادر . وعلى هذا الأساس نظر مجمع اللغة العربية ، فأقر تلك الكلمة : مادتها عربية ووزنها عربي .

تكونت هذه الكلمة بطريقة التوليد ، أي أنها من تلك الكلمات الجارية على النسق العربي ، وإن كانت المعاجم التى سجلت الاستخدام القديم لم تثبتها ولاتوجد في هذه الكلمة مشكلة دلالية ، بل إن دلالة الكلمة الجديدة تتصل اتصالا وثيقا بدلالة المادة والكلمات المعروفة المأخوذة عنها . المادة (ف و ج) والكلمات (فوج وأفواج) تدل على الجماعات ، والكلمة المولدة (تفويج) تعني تكوين جماعات من الحجاج والمسافرين . وهو معنى فيه قدر من التخصيص ، فنحن لا نسمي كل جماعة فوجا ، ويكاد الاستخدام يقصر ذلك على جماعات محددة العدد تتحرك إلى الأماكن المقدسة أو إلى المواقع الأثرية . ولهذا كله كان قرار مجمع اللغة العربية إقراراً لكلمة (التفويج) . إن هذا التوليد الجديد يدخل من باب تكملة المادة اللغوية ، المادة أصيلة والوزن أصيل ، والجديد هنا يكمن فى تلك الموافقة على تلك الكلمة لتتخذ مكانها إلى جانب كلمات أخرى من المادة اللغوية نفسها .

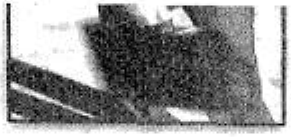

ERIC JORDAN
OPERATION HEBRON
الحقيقة
والخيال
في
عالم الجاسوسية
بقلم
جميل مطر

في سهول يوركاشير الخضراء بشمال إنجلترا، ينتشر على امتداد البصر عدد كبير من كرات عظيمة الحجم بيضاء اللون، وتحت كل كـرة يختـفي لاقط في شكل صحن فضائي، وكل صحن من هذه الصحون يبدو مسلطاً في اتجاه قمر اصطناعي بعينه. وعلى مساحة آلاف الأفدنة تتناثر بيوت، داخل كل منها عدد غير قليل من أجهزة الكمبيوتر والاستقبال.

ويحيط بهذه الأفدنة أسوار عالية وحرس مسلح لمنع الناس من الاقتراب. هنا في مينويث هيل Menuith Hill أنشيء أهم موقع للأسرار في العالم. ففي هذا الموقع تقوم أكبر محطة استماع في العالم، ومنها تتنصت وكالة الأمن القومي الأمريكي NSA على ملايين الاتصالات الهاتفية والبرقية ووسائل البريد الالكتروني عبر الإنترنت وغيرها من وسائل الاتصال.

أما الوكالة ذاتها فتقع في فورت ميد Fort Meade على الطريق الموصلة من واشنطن إلى بالتيمور. يعمل بها في المقر الرئيسي وفروع في الخارج حوالي ٣٨٠٠٠ موظف بين مدني وعسكري. مقارنة بوكالة المخابرات الأمريكية التي لا يعمل بها أكثر من ١٧٠٠٠ موظف. ويمكن لنا أن نتصور ببساطة حجم وكالة الأمن القومي من تفاصيل أذيعت أخيراً. إذ يقال أن موظفي الوكالة يشربون ٢٠٠ جالون حساء في اليوم، ويتبرعون بحوالي ٦٥٠٠ رطل Pint دم في العام، ويعدمون ١١٠٠٠ ورقة سرية سنوياً تتحول داخل الوكالة إلى عجينة تشتريها شركة قطاع خاص تقوم بتصنيع العلب الكارتونية التي تباع فيها البيتزا. ويسكن الموظف في مدينة صغيرة محاطة بأماكن انتظار السيارات تسع ١٧٠٠٠ سيارة. هذه التفاصيل وغيرها احتلت فصلاً كاملاً من كتاب صدر حديثاً بعنوان جهاز الأسرار للمؤلف جيمس بامفورد. ولا أريد هنا أن أستطرد في التفاصيل.

وبعضها كما قلت يبدو غير مهم أو يبدو سخيفاً إلى درجة مملة. ولكني، وأنا أمتنع عن سرد التفاصيل أكون في الواقع قد تناقضت تناقضاً حاداً مع فلسفة الوكالة التي نتحدث عنها، إذ يقوم التخابر، كالصحافة في بعض جوانبها، على مبدأ أنه لاتوجد معلومة غير مهمة أو



سخيفة. كل المعلومات مهمة حتى يثبت العكس.

قانون المراقبة الاستخبارية

وبالفعل، فلا شك أنه من الأهمية بمكان للباحثين وأجهزة المخابرات المنافسة المعلومة التى وردت فى هذا الكتاب والتى تبين أن أحد مبانى الوكالة يحتوى على أشرطة تسجيل مسجل عليها كل المعلومات التى حصلت عليها الوكالة من أرجاء الكرة الأرضية. وفى مبنى آخر تحتفظ الوكالة بما يزيد على ١٢٩ مليون وثيقة، بعضها يعود لأكثر من ربع قرن. وتضم الوكالة خليطاً فريداً من المتخصصين فى تحليل المعلومات، والهندسة، والعلوم الفيزيائية، والرياضيات، واللغات، وعلوم الكمبيوتر، وباحثين وخبراء فى العلاقات العامة، والأمن، وتدفق المعلومات والإدارة. وتتضح أهميتها بالنسبة لغيرها من أجهزة المخابرات ليس فقط من عدد العاملين بها أو الميزانية المخصصة وإنما من ستار السرية التى أحاطت به نفسها على مر السنين رغم محاولات مستميتة من جانب أجهزة رسمية وتشريعية أخرى وأجهزة إعلامية فى أمريكا وخارجها للحصول على معلومات عنها.

نعرف مثلاً أن عشرات الكتب صدرت وكانت تقترب من حقيقة وجوهر العمل فى وكالة المخابرات الأمريكية، بينما لم يصدر عن وكالة الأمن القومى إلاّ عدد محدود، ومعظمه صدر حديثاً جداً وآخرها هذا الكتاب الذى بين أيدينا بعنوان Body of Secrets.

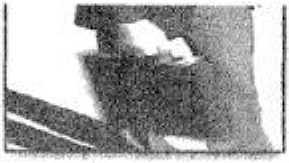
فى واقع الأمر لم يكن بأمريكا إلا قليلون جداً الذين قرأوا شيئاً عن هذه الوكالة حتى عام ١٩٨٢ عندما صدر أول كتاب يؤكد وجودها ويحكى القليل جداً عنها. بل إن الكونجرس الأمريكى نفسه لم يكن يناقش أمراً من أمورها حتى وقع المحظور وتسربت معلومات تتهم الحكومة الأمريكية بالتنصت على الاتصالات التليفونية فى أمريكا مستخدمة الإمكانات المتاحة لوكالة الأمن القومى. ولم يتمكن الكونجرس من إجراء التحقيق بشكل مناسب وبالفعل تم حفظ التحقيق ولكن بعد أن أنشأ لجنتين مختصتين بشئون أجهزة المخابرات وعمليات التجسس إحداهما فى مجلس النواب والأخرى فى مجلس الشيوخ. وفى ١٩٧٨ أصدر الكونجرس قانون المراقبة الاستخباراتية

الذى يسمح لأجهزة أمريكية بالتنصت على سفارات ومقار دبلوماسية أجنبية أو أمريكية وعلى مؤسسات فى الخارج. والتنصت على مواطنين آمريكيين بشرط الحصول على إذن مسبق من محكمة أمريكية . واحتجت الوكالة بحجة أن المعلومات التى تجمعها تتصف بسرية بالغة ولايجوز أن تعرض فى شهادة أو تحقيق أمام قضاة ومحامين. واضطر الكونجرس تحت ضغط هائل من الوكالة ووكالات تجسس أخرى أن ينشىء محكمة فيدرالية خاصة أطلق عليها اسم محكمة المراقبة الاستخباراتية الأجنبية، وهذه تتلقى شكاوى المواطنين، ورغم ذلك، وحتى وقت قريب، لم تعرض على المحكمة قضية واحدة ضد الوكالة. ولتفادى هذه المشكلات القانونية والإحراج أمام الرأى العام الأمريكى قررت وكالة الأمن القومى الاعتماد على قرينتها فى المملكة المتحدة والمعروفة باسم القيادة العامة للاتصالات الحكومية GCHQ لتقوم بالتنصت على المواطنين الأمريكيين نيابة عنها وبذلك تخلصت من الملاحقة القانونية فى الولايات المتحدة.

★ ★ ★

تقدم وكالة الأمن القومى نفسها للرأى العام على أنها الجهة الأمريكية المختصة بقطاع الشفرة، فهى التى تنسق وتدير وتمارس الأنشطة بالغة التخصص فى هذا القطاع بهدف حماية نظم المعلومات الأمريكية، وإنتاج معلومات استخباراتية أجنبية. وتعتمد الوكالة على التكنولوجيا الرفيعة جداً فى تحليل البيانات ومراقبة وسائل الاتصال، فضلاً عن أنها واحدة من أهم المراكز الأمريكية المتخصصة فى تحليل اللغات والبحوث الأجنبية. وفى مذكرة التعريف بنفسها التى تظهر على شاشة الإنترنت فى الموقع الذى يحمل اسم الوكالة، تقول : إنها، أى الوكالة، الجهاز الذى يستخدم أكبر عدد من علماء الرياضيات فى الولايات المتحدة، وربما فى العالم بأسره، وأن هؤلاء العلماء يساهمون مباشرة فى المهمتين اللتين تقوم بهما الوكالة، إحداهما تصميم نسق شفرية لحماية أنظمة المعلومات الأمريكية، وثانيتهما : البحث عن نقاط الضعف فى أنظمة وشفرة الخصوم. ويتبع الوكالة مدرسة للتدريب على صناعة الشفرة، ويتلقى التدريب فيها إلى جانب موظفى الوكالة موظفون من وزارة الدفاع.

وتختار الوكالة من بين موظفيها مرشحين للحصول على الدكتوراه من جامعات أمريكية متميزة وتلقى دروسا فى



كليات الحرب الأمريكية.

وتتحدث البيانات التى تصدرها الوكالة عن تاريخ إنشائها وتطورها، فتقول: إن أصل الوكالة يعود إلى أيام الحرب العالمية الثانية عندما كسرت الولايات المتحدة الشفرة العسكرية اليابانية وعلمت عندئذ أن اليابان كانت تخطط لغزو جزر ميدواى فى المحيط الهادى.

تسببت هذه المعلومة الاستخباراتية فى هزيمة الأسطول اليابانى. وعندها نشأ تعبير Signet أى «مخابرات الإشارات» كفرع مستقل ورئيسى من فروع الاستخبارات. وتقول الوكالة فى تبرير وجودها : إنه مع تقدم التكنولوجيا أصبح «أمن أنظمة المعلومات» مهمة بالغة الخطورة، وبخاصة فى دولة عظمى مثل الولايات المتحدة تتعدد فيها الأدوار التى تقوم بها أجهزة الحكومة وتتشابك إتصالاتها والرسائل المتبادلة بينها.

فاتيكان عالم الجاسوسية

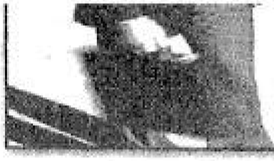
ولكن ما لا تقوله البيانات الرسمية الصادرة عن الوكالة أكثر كثيراً وأشد خطورة لا تأتى مثلاً على ذكر القرار الرئاسى الذى أنشأها فى عام ١٩٥٢ ووقع عليه الرئيس الأسبق هارى ترومان . وأحاطت السرية بالقرار كما أحاطت بالوكالة، حتى أنه كان يقال : إن NSA هى الحروف الأولى للكلمات الإنجليزية No Such Agency أى بما معناه لا توجد وكالة بهذا الاسم. وظل الأمر كذلك حتى ١٩٨٢ حين أصدر جيمس بامفورد كتابه الأول بعنوان قصر الألغاز أو الأحجية . The Puzzle Palace . وهو الكتاب الذى مازال الكثيرون يعتبرونه المرجع الأساسى عن الوكالة. والآن يقدم كتابه الثانى الذى يمكن اعتباره كتاباً جديداً فى الموضوع وليس مجرد طبعة ثانية منقحة بسبب ضخامة المعلومات الواردة فيه عن أنشطة الوكالة ولما احتواه من فن صحفى ممتاز. ويصف بامفورد الوكالة بأنها «فاتيكان عالم الجاسوسية» بسبب اعتمادها على السرية المطلقة والثروة الهائلة من المعلومات التى تجمعها وتشفرها أو تحل شفرتها وتحللها. وقد اكتشف المؤلف أن موظفى وكالة الأمن القومى يحتقرون موظفى وكالة المخابرات الأمريكية CIA الذين مازالوا يعتمدون على أساليب عتيقة فى التجسس تعتمد على استخدام العنف أحياناً والتى اشتهرت منذ عقود أو قرون بأساليب العباءة والخنجر Cloak & Dagger .

وينقل عن أحد موظفي وكالة الأمن القومي قوله : «إن وكالة المخابرات الأمريكية متميزة في سرقة مذكرة من على مكتب رئيس وزراء، ولكنها لا تتميز في أي شيء آخر».

ويكرر بامفورد ما تقوله الآن وكالة الأمن عن ظروف نشأتها، وبخاصة قصة كسر شفرة البحرية اليابانية مما تسبب في إلحاق الهزيمة بالأسطول الياباني الذي أعد لغزو جزر ميدواي . ولكنه يقدم إضافتين ، إحداهما التلميح إلى الخلاف الكامن بين الجاسوسية الأمريكية والجاسوسية البريطانية حول أصل التجسس الإلكتروني والشفري وظروف نشأته، حيث يعتبر الإنجليز أنفسهم الرواد في هذا الحقل بحصولهم على وثائق آلة التشفير الألمانية -Enig ma من بطن غواصة ألمانية غرقت أمام حيفا، وكسر شفرتها، وهو ما كشف للحلفاء عن مواقع الغواصات الألمانية وبالتالي سهل عمليات اصطيادها. بينما يعتبر الأمريكيون أنفسهم الرواد بقصتهم عن كسر شفرة البحرية اليابانية، وبالإدعاء - عن طريق أفلام سينمائية وروايات - أن الأسطول الأمريكي هو الذي استولى على الآلة الألمانية الشهيرة، أما الإضافة الثانية فهي التلميح بأنه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لم تحقق وكالة الأمن القومي إنجازاً يذكر لصالح الجاسوسية الأمريكية والأمن القومي الأمريكي، رغم الأهمية الكبرى التي احتلتها عمليات التنصت الإلكتروني وتقدم تكنولوجياتها.

في بداية الخمسينات تحولت وكالة الأمن القومي إلى استخدام طائرات التجسس بعد أن فشلت الوكالة في كسر شفرة الاتصالات السوفيتية، وكان الهدف من الطائرات تسجيل إشارات الرادار والبحث عن ثقوب في الأمن القومي السوفييتي. ولم يتردد السوفييت من إطلاق النار على هذه الطائرات. ويحكي المؤلف قصة إسقاط الطائرة U-2 في عام ١٩٦٠ ، وكيف أن الرئيس دوايت أيزنهاور أصدر أوامره لجميع موظفي البيت الأبيض بأن يقسموا زورا اليمين على أنهم لا يعرفون شيئاً عن موضوع هذه الطائرة، وصلة الرئيس بأوامر التكليف الصادرة لهذه الرحلات الاستخباراتية فوق أراضي دول أخرى.

وقد وصف بعض المعلقين هذا الموقف من جانب البيت الأبيض بأنه لا يليق بمكانة الولايات المتحدة والمبادىء التي تبشر بها، إلا أنه تبين فيمابعد أن عمليات خارجية خطيرة مثل تدبير الانقلاب



العسكري على حكومة سلفادور أليندي في شيلي الذي جاء بأوجستو بينوشيه إلى الحكم كانت تتم بعلم وموافقة رئيس الدولة. وفي كل الأحوال لم يعترف رئيس واحد بأنه كان يعرف . رونالد ريجان لم يعترف بدوره في عمليات الكونترا ضد حكومة الساندنيستا في نيكاراجوا، ولم يعترف الرئيس كلينتون بدوره في تشجيع الفساد والدكتاتورية في عهد فوجيموري رئيس بيرو، ولم يعترف الرئيس بوش الأول وغيره من الرؤساء بدورهم في الحروب الأهلية في كولومبيا وبيرو وأكوادور وفي عمليات إبادة المثقفين الليبراليين اليساريين في الأرجنتين وفي شيلي، ووسط آسيا، والتبت، وجنوب آسيا وبخاصة في إندونيسيا والفيلبين، وفي أفريقيا وبخاصة في الكنغو ومنطقة البحيرات.

***

والمؤكد أن القليل جداً من نشاط وكالة الأمن القومي الأمريكي تسرب، وبعضه من نوع إسقاط طائرة التجسس «يو تو U2» التي سقطت فوق الاتحاد السوفيتي، كان له وقع الفضيحة أو الصاعقة. آخرها وقعت عندما اصطدمت طائرة تجسس إلكتروني تابعة لوكالة الأمن القومي بطائرة مقاتلة صينية فوق مياه بحر الصين الجنوبي، واضطرت الطائرة الأمريكية للهبوط في جزيرة هاينان الصينية على متنها ضباط وخبراء من موظفي الوكالة. ولم تكن عمليات التجسس الأمريكية التي تقوم بها الوكالة في سماء الصين وبحارها الجنوبية والشرقية وفي جمهوريات وسط آسيا الإسلامية وفي اليابان والمياه الدولية المتاخمة للمياه الصينية، لم تكن هذه العمليات خافية عن الصين، كما لم تكن مثيلاتها خافية عن الاتحاد السوفييتي، وأظن أن تجاهل كل من الاتحاد السوفييتي والصين لهما على امتداد عقود طويلة يعود إلى أن الدولتين، مثل غيرهما من الدول ، لم تتخيلا حقيقة نوع وحجم الأنشطة التي تقوم بها الوكالة، أما وقد أصبحت الوكالة خطرا حقيقيا يهدد سلامة جميع الدول الكبرى بل ويهدد أمن اقتصاداتها وشركاتها وأعضاء النخب السياسية جمعاء، لم يعد ممكنا الاستمرار في إدعاء الجهل بأنشطتها.

نظرية المؤامرة

الفضيحة الأكبر المتصلة بالوكالة كانت عملية قصف - بقصد إغراق -

باخرة التجسس الأمريكية «ليبرتي» فى المياه الدولية المتاخمة للعريش على الشاطىء الشمالى بشبه جزيرة سيناء عصر يوم ٨ يونيو ١٩٦٧، وقد أمكن وقتها تفادى تداعيات الفضيحة. ولكنها ما فتئت تعود بين الوقت والآخر، والأسئلة التى طرحتها محاولة إغراق الباخرة لم يقابلها حتى الآن اجابات باستثناء الاتهام بالعداء للسامية. وهذا بالضبط هو ما حدث لبامفورد مؤلف الكتاب الذى نناقشه هنا، فقد كتب أحد المعلقين فى جريدة نيويورك تايمس يقول: «إن أضعف ما فى كتاب بامفورد روايته عن أبشع حادثة فى تاريخ وكالة الأمن الأمريكى، وهى حادثة الهجوم على سفينة التجسس ليبرتى، فقد كلف رؤساء الأركان الوكالة الأمريكية بإرسال باخرة تجسس الى منطقة الحرب فى الشرق الأوسط لتجمع معلومات استخباراتية عن الوجود العسكرى السوفييتى فى مصر، وانقسم الرأى حول دوافع الهجوم الإسرائيلى على الباخرة، هل كانت «حادثا مؤسفا» أم كما قال اصحاب نظرية المؤامرة والبحارة الأحياء أنه كان عملا متعمدا وبدم بارد من جانب الإسرائيليين بهدف اخفاء معلومات خطيرة جمعتها السفينة، وأغلبها معلومات تتعلق، كما يقول أعداء إسرائيل بعمليات إبادة أربعمائة أسير مصرى فى سيناء فى أول وثانى أيام الحرب، وتؤكد فى الوقت ان القيادة السياسية الإسرائيلية كانت تعلم بالتفاصيل ومشتركة فى الجريمة.

ويضيف المعلق فى جريدة نيويورك تايمس بأن المؤلف لم يكتف باتهام إسرائيل بهذه التهمة البشعة بل أنه اتهم ايضا البيت الأبيض والكونجرس بمحاولة التغطية على الموضوع» ولا يناقش المعلق ما جاء به المؤلف من أسانيد وتفاصيل عن «المؤامرة فى واشنطن ومنها التأخير المتعمد فى ابلاغ الرسالة الصادرة من السفينة إلى قائد الأسطول الأمريكى فى إيطاليا لإنقاذها. ورفض الكونجرس مناقشة الموضوع من اساسه. وكيف ان الرئيس جونسون لم يرد على تليفونات الوكالة إليه فى ذلك اليوم، ولا يخفى المعلق كراهيته لمؤلف الكتاب وهو ينقل بالنص ما كتبه عن «تعامل إسرائيل مع منتقديها باعتبارهم معادين للسامية وأن لا احد فى البيت الابيض او فى مجلس الشيوخ حيث



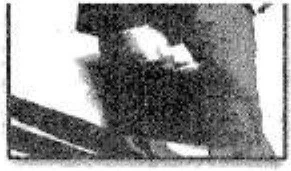
ذوى الركب الضعيفة يريد اغضاب الجماعات المؤيدة لاسرائيل ويفقد التبرعات الانتخابية ولكنه لا ينقل عنه مثلا ما جاء في الكتاب عن أن تعليمات قصف السفينة ليبرتي كانت تقضي بأن لا يخرج بحار واحد من السفينة حيا يرزق. ودليل المؤلف على ذلك أن القصف تم باستخدام رشاشات كانت تصطاد بحارة السفينة وهم يستقلون القوارب المطاطية او يلقون بأنفسهم في البحر، فضلا عن ان الطائرات استخدمت خمس طوربيدات بهدف نسف السفينة كلية وإغراقها في اقل وقت ممكن بكل اجهزتها واوراقها وتسجيلاتها. ويشير المؤلف إلى انه بعد ساعتين ونصف من الهجوم او في الساعة الرابعة والربع، قامت القيادة العسكرية الإسرائيلية بابلاغ الملحق البحرى الأمريكى بالسفارة الأمريكية بتل أبيب أن هجوما وقع على السفينة ليبرتي نتيجة خطأ، أما في واشنطن فقد انتهى التحقيق إلى عبارة مازالت القيادات العسكرية والسياسية الأمريكية تستخدمها وهى «مأساة محيرة».

وعلى كل حال لم يتوقف بامفورد في كتابه عند المعلومات المتاحة ولكنه قدم تفاصيل أكثر عن الاتصالات والاوامر التى صدرت في واشنطن في شأن الباخرة بينما هى تقصف. واورد معلومات حديثة من التحقيق الذى جرى في عام ١٩٩٨. ومنها مثلا ما جاء عن أن قائد الأسطول الأمريكى في المتوسط الادميرال Ceis وصلته أوامر من واشنطن بإعادة جميع الطائرات التى أقلعت من حاملات الطائرات الأمريكية لانقاذ السفينة ليبرتي. جاء عن الأدميرال عاد إلى الاتصال بماكنمارا وكان وزيرا للدفاع ليحتج على هذا الأمر وتصادف أن الاتصال تم بين الأدميرال وماكنمارا في مكتب الرئيس جونسون بالبيت الأبيض الذى «انتزع سماعة التليفون من يد ماكنمارا وصرخ في قائد اسطول المتوسط قائلا: انا لا يهمنى إن غرقت السفينة. المهم ان لا أحد يعود ويحرج حلفانى الاسرائيليين. كما ينقل المؤلف بامفورد عن وثائق وكالة الامن القومى اتصالا تم بين لويس كورديللو

نائب رئيس الوكالة ومسئول في هيئة الأركان العامة الأمريكية للاستفسار عن مصير المعلومات والوثائق الموجودة في بطن السفينة ليبرتي، فقيل له: «إن جهات في واشنطن ترغب في اغراق ليبرتي حتى لا يتوجه صحفيون إلى موقعها ويشعلون الغضب في الرأى العام الأمريكي ضد إسرائيل.

ثم جاء ليتصدر الدفاع عن بامفورد توماس باورز في مقال نشرته له مجلة نيويورك بوك ريفيو المتخصصة في عروض الكتب «عدد ٢١ يونيو ٢٠٠١» يقول باورز :إن بامفورد «أعاد فتح صندوق الديدان الذى يحمل اسم إغراق السفينة ليبرتي.. وتوقع ان بامفورد سوف يتعرض لانتقادات عنيفة واتهامات بمعاداة السامية خاصة إذا استمر يطالب بفتح تحقيق جديد يستند هذه المرة إلى ارشيف وكالة الأمن صاحبة السفينة.

تكشف هذه القصة الفضيحة عن جانب آخر وهو ضخامة خسائر وكالة الأمن القومى إذا قورنت بخسائر وكالة أخرى مثل وكالة المخابرات المركزية، الأمر الذى يؤكد الشعور لدى موظفي وكالة الأمن القومي بأنهم احق بالتمجيد وليس ضباط المخابرات المركزية الذين يحصلون بالفعل على معظم اهتمام الرأى العام والكونجرس . فوكالة الأمن القومي توظف عددا هائلا من الموظفين موزعين على جيش خاص، وسلاح بحرى خاص، وسلاح جوى خاص.. لا علاقة لاى منها بالأسلحة المقابلة لها في القوات المسلحة الأمريكية، الى جانب الخبراء الفنيين من السلك المدني. ولا شك في ان الخسائر البشرية بين ضباط وموظفي وكالة الأمن القومى أكثر كثيرا من خسائر وكالات المخابرات الأخرى ومنها Cia فقد سقطت عشرات من طائرات التجسس التابعة لوكالة الأمن فوق الاتحاد السوفييتى وفي بحر الصين وعلى متنها مئات الموظفين والفنيين، وفي عام ١٩٦٨ أسرت كوريا الشمالية سفينة التجسس بويبلو pueblo واضطرت الوكالة إلى استخدام طيارين من تايوان للطيران فوق الصين للتقليل من الخسائر في ارواح الأمريكيين.. ويقول الزائرون لمقر الوكالة قرب واشنطن أنهم شاهدوا لوحة من الجرانيت داخل مبنى العمليات منقوشة عليها عبارة



خدموا فى صمت وعلى اللوحة ١٥٢ اسما. بينما يقابل الزائرين لوكالة المخابرات الامريكية حائط مسجل عليه ٧٧ اسما لعملاء ماتوا خلال قيامهم بمهام تجسس.

***

تقوم فلسفة التنصت التى ينبنى عليها عمل وكالة الأمن القومي على فكرة بالغة البساطة. فقد اكتشف المتنصتون الرواد ان التنصت على اتصالات كبار الشخصيات السياسية العسكرية والامنية لا يفيد كثيرا لاسباب متعددة، اهمها ان هؤلاء الكبار متنبهون الى ان وسائل اتصالاتهم تخضع لرقابة اجهزة أمن صديقة ومعادية وبالتالى فهم حريصون على عمل كل ما من شأنه ان يعقد الرسالة ويجعل قراءتها امرا بالغ الصعوبة.. ولما كانت كل رسالة مهمة ستنتهى حتما عند افراد اقل اهمية فى الكادر الوظيفى، حيث ان تنفيذ المهام يقوم به عادة افراد من هذا النوع . فمن المنطقى ان العائد من التنصت على هؤلاء الصغار العاديين سوف يكون اكبر كثيرا من عائد التنصت على كبار القوم، من هنا بدأ التوجه فى وكالة الأمن القومى الأمريكى نحو توسيع شبكة الاستماع والتنصت حتى كاد يصدق عليها أنها تغطى فعلا جميع الناس. ويضربون المثل عادة بقرار استراتيجى مثل نقل قواعد الصواريخ من موقع إلى موقع آخر، او قرار ادخال صاروخ جديد الى الخدمة. هذا القرار ستناقشه القيادات بطبيعة الحال في ظل تكتم بالغ، ولكن فى النهاية فإن الوحدة الصغيرة التى ستتولى تنفيذ هذا القرار ستتعامل معه بدرجة شفرة أقل تعقيدا، أو بدون شفرة على الاطلاق.

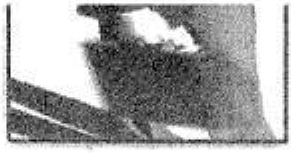
هنا على هذا المستوى - مستوى العمال والخدمة والسائقين والزوجات والأطفال والجنود العاديين والأصدقاء والصديقات والعشيقات - يكون عائد التنصت مرتفعا جدا ومجديا . لذلك لم تتأخر وكالة الأمن القومى عن التنصت على جميع الاتصالات السلكية واللاسلكية التى يكون احد طرفيها مواطنا أمريكيا. ويطلق على هذا البرنامج الاسم الرمزى شامروك.. وبعدها توسعت الوكالة فى نشاطها فصارت تغطى العالم بأسره، عن طريق شبكة ايشيلون التى تربط بين

اقمار اصطناعية تدار ارضيا من نيوزيلنده. واستراليا وبريطانيا ومن مواقع فرعية اخرى مثل قبرص. وهو ما كشفته أخيرا حادثة هجوم نظمته جمعيات اهلية قبرصية ضد موقع للاتصالات مقام فى قاعدة عسكرية بريطانية فى قبرص.. ومن مهامه دعم عمليات التنصت على الاتصالات الاقليمية فى الشرق الاوسط. ويقول بامفورد نفسه :إنه توجد مبالغة فى القول بأن وكالة الأمن القومى تتنصت على جميع المحادثات السلكية والاليكترونية .. ولكن ما يحدث هو ان نظام ايشيلون مصمم بشكل يسمح بتصفية المحادثات بعد فرزها واختيار المهم منها حسب معايير معينة. ولذلك - وحسب رأيه - فليس كل الناس وبخاصة الأمريكيين يخضعون للتنصت بصفة مستمرة.

فشل التنبؤ بالقنبلة الذرية

إن التقدم الالكترونى وبالذات على صعيد الاتصالات الرقمية Digital والتى صار يستخدمها مهربو المخدرات وعصابات تهريب السلاح وغسيل الأموال، جعل من المستحيل على الوكالة ان تتنصت على نفس العدد من الناس الذى كانت تتنصت عليه فى الماضى. بل إنه يقال :إن فشل وكالة الأمن القومى الأمريكية فى التنبؤ بتجربة القنبلة النووية فى الهند فى مايو ١٩٩٨ يعود إلى أن اجهزة الأمن الهندية كانت تستخدم التشفير الرقمى فى نظم اتصالاتها العسكرية. ومن ذلك الحين يبدو أن الوكالة التى كثيرا ما احتقرت الجاسوسية المباشرة، اى التى تعتمد على اشخاص، قبلت ان تستخدم خبرات وكالة المخابرات الامريكية cia لزرع أدوات تنصت فى اجهزة كومبيوتر، ورشوة بعض موظفى الاتصالات فى الدول الأجنبية ، خصوصا وقد أصبحت التكنولوجيا المتقدمة عدوا للوكالة بعد ان كانت حليفتها الأعظم ومصدر تفوقها وامتيازها.

لم تكن مصادفة صدور كتاب بامفورد فى الوقت نفسه الذى شنت فيه المؤسسات الأوروبية حملة انتقاد شديدة ضد عمليات التنصت والجاسوسية التى تقوم بها الولايات المتحدة ضد مسئولين ومؤسسات وافراد عاديين فى أوروبا، إذ حدث فى شهر فبراير من العام الماضى ان نشر تقرير صادر عن البرلمان الأوروبى يؤكد أن شبكة تجسس أمريكية تتنصت على مليارات المكالمات التليفونية ومراسلات

الفاكس والبريد الالكتروني التى يتبادلها الأوروبيون ويقول التقرير: إن مؤسسات تجارية متعددة فى أوروبا فقدت صفقات مهمة وتفقد مليارات الدولارات سنويا كنتيجة لجاسوسية الشركات، وهو التعبير الذى يطلقونه على الاستعمالات الجديدة للجاسوسية الامريكية. وأحدث التقرير صدى واسعا.. فقد علقت اليزابث جيجو وزيرة ثقافة فرنسا بأنه يجب على المسئول الأوروبى من الآن فصاعداً ان يكون اكثر حذرا فى بث البيانات. هذه البيانات يجب الا تحتوى على معلومات جديدة، خاصة اذا كانت تبث عبر اقمار اصطناعية، أما تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا فقد أنكر صحة ما ورد فى التقرير قائلا: إن كلمة لا هى اقصر الاجابات على هذا التقرير. إن هذه الأمور تحكمها قواعد صارمة للغاية، وهذه القواعد ستطبق دائما بكل دقة، ومع ذلك فقد نشرت الصحف الالمانية خلاصة دراسة اعدتها الحكومة جاء فيها أن المخابرات الامريكية مازالت تعمل على اراضى المانيا بنشاط كبير، وانه يوجد فى المانيا حاليا حوالي ١٢٠٠٠ ضابط مخابرات امريكي بينما كان عددهم لا يتجاوز ٢٠٠٠ فى زمن الحرب الباردة وتضيف الصحف أنه يوجد فى ضواحى قرية باد ايبلنج الواقعة فى المنطقة الخلابة جنوب ميونخ كرتان هائلتان تعود ملكيتهما إلى وكالة الأمن القومي الأمريكي منذ ايام الحرب الباردة داخل موقع شديد الاتساع كانت تتم من خلاله عمليات التجسس على الجنود السوفييت، وتردد الصحف العبارة التى كاد يكررها الدبلوماسيون الامريكيون تعليقا على ما يقوم به موظفو الوكالة الامريكية هناك فى هذه المحطة.. كانوا يسمعون أسنان الجنود السوفييت وهى تصطك من البرد فى أوكرانيا، ولم تهدأ الحملة الإعلامية فى أوروبا بل تصاعدت بعد أن نشرت صحيفة لوموند الفرنسية مقالات تحت العنوان المثير «كيف تتجسس عليك الولايات المتحدة» وشكل البرلمان الاوروبى لجنة للتحقيق ذهبت منذ اسابيع قليلة الى الولايات المتحدة وعادت خائبة الامل اذ رفضت جميع الجهات الرسمية استقبالها.

ما لايعرفه الكثيرون ان تقرير

البرلمان الأوروبى أعده صحفى يدعى دنكان كامبل، وقد كتب فى مكان آخر يقول: إن معظم الاتصالات الدولية عبر الانترنت تتحول إلى الولايات المتحدة عبر تسعة مواقع تديرها وكالة الأمن القومى الأمريكى، وهذه المواقع قادرة على ان تسجل على اشرطة بلايين الرسائل فى كل ساعة . المشكلة - كانت ومازالت - فى الجانب الأخلاقى الذى يجسده السؤال عما اذا كان يليق بدولة عظمى ان تتجسس على حلفائها فى زمن السلم، وعلى مواطنيها المواطنين فى الدولة الحليفة، وهل يليق بدولة عظمى تتمسك بتقاليد حقوق الإنسان واحترام حياته الخاصة ان تتنصت على اتصالاته وتفاصيل معيشته وتحركاته.

وقد حدث قبل ان تثور ثائرة البرلمان الأوروبى ان ظهر كتاب لكاتب مغمور من نيوزيلندة وكان عنوانه «القوة السرية» واستند المؤلف الى شهادات حية من خمسين موظفا يعملون فى وكالة الامن القومى النيوزيلندية ccsb تحدث هؤلاء عن برنامج ايشيلون واجمعوا على انه مبرمج اصلا ليتعامل مع اهداف غير عسكرية، مثل الحكومات والمنظمات والشركات والافراد فى جميع دول العالم، ويقول نيكى هاجر مؤلف القوة السرية : إن أجهزة الكمبيوتر فى شبكة ايشيلون تقوم بفرز الرسائل واستخلاص المهم منها فى نفس وقت استلام الرسالة. ويطلقون فى الوكالة على اجهزة الكمبيوتر هذه كلمة القواميس وكلها يتصل ببعضه ويعمل بتناغم كامل. ولم يخف الموظفون النيوزيلنديون حقيقة ان محطة دايهوباى فى جنوب نيوزيلندة تختص باتصالات اليابان جميعا سواء كانت رسائل فاكس او بريد اليكترونى او هاتف سلكى او هاتف لاسلكى.

لم أجد عبارة تتناسب مع هذا الوضع فى سباق التجسس الاليكترونى وهيمنة الجاسوسية الامريكية واختراقها الخصوصيات الفردية وخرقها لحقوق الإنسان والدول والجماعات. افضل من العبارة التى وصف بها احد النواب الأوروبيين البرلمان خلال الجلسة التى استمع فيها البرلمان الأوروبى إلى شهادة الصحفى البريطانى كامبل بكل تفاصيلها المثيرة، قال.. كانت اشبه بصالة سينما تعرض احد افلام جيمس بوند. ■

كل يغنى على ليلاه

نظريات التنمية فى خمسة قرون

بقلم
د. جلال أمين

من بين مصطلحات علم الاقتصاد الحديث هناك كلمتان يعرفهما الناس جميعاً، المتخصص فى الاقتصاد أو غير المتخصص، بل وسواء كان الشخص متعلما أو غير متعلم، وهما العرض والطلب. فكثير من الناس، حتى من غير المتعلمين، يمكن أن يقولوا لك بحق : إن سبب ارتفاع سعر سلعة أو انخفاضه هو العرض والطلب، فيرتفع سعر السلعة إذا انخفض المعروض منها أو زاد الطلب عليها، والعكس بالعكس.

ولكن ليس السعر فقط هو الذى يتوقف على العرض والطلب بل وحجم الانتاج أيضاً. فهناك شيئان يمكن إذا توفرا أن يحفزا المنتجين على زيادة الانتاج: إما أن يكون المشترون على استعداد لشراء المزيد «وهذا هو جانب الطلب» أو أن تكون نفقة الانتاج قد انخفضت لأى سبب «وهذا هو جانب العرض».

والأمر منطقى تماما وليس فيه أى غرابة. فالمنتجون، سواء فى ظل الرأسمالية أو الاشتراكية، لن يزيدوا انتاجهم إلا إذا زادت الرغبة فى الشراء «الطلب» أو أصبح الانتاج أكثر سهولة أى أقل نفقة «العرض». والعكس صحيح أيضاً: هناك شيئان يمكن أن يؤديا إلى تخفيض الانتاج، إما أن يقلل الناس من طلبهم، أو أن تزيد نفقات الانتاج فتقل القدرة عليه.

التنمية الاقتصادية بين العرض والطلب :

ولكن إذا كان هذا صحيحا، فليس

هناك أى خطأ فى القول بأن التنمية الاقتصادية تتوقف هى أيضاً، على ظروف الطلب والعرض، بل وليس هناك شئ آخر يؤثر فى التنمية غير ظروف الطلب والعرض، فالتنمية الاقتصادية هى فى نهاية الأمر زيادة الانتاج القومى، وما قلناه حالا عن انتاج سلعة بعينها، ينطبق أيضاً على الانتاج القومى، كلاهما يميلان إلى الزيادة مع زيادة الطلب أو انخفاض نفقة الانتاج، وكلاهما يميلان إلى النقصان مع انخفاض الطلب أو ارتفاع النفقات.

صحيح أن الاقتصاديين وعلماء الاجتماع والسياسة كثيراً ما يشيرون إلى عوامل تؤثر فى التنمية، قد نظن لأول وهلة أنها عوامل أخرى غير العرض والطلب، مثل مدى حماس الناس للتنمية، أو مدى كسل العمال أو نشاطهم، أو مدى التشاؤم أو التفاؤل الذى يشعر به المستثمرون الوطنيون أو الأجانب، أو المناخ السياسى السائد، هل هو مستقر أو غير مستقر، أو ما إذا كانت الدولة ديمقراطية أو غير ديمقراطية.. إلخ ولكن قليلا من التأمل يبين لنا أن كل هذه العوامل لا تؤثر على التنمية إلا من خلال تأثيرها إما على الطلب، أو على نفقات الانتاج «أى على ظروف العرض» أو على الاثنين معاً. فكسل العمال أو نشاطهم ينعكس على نفقة الانتاج، وكذلك مدى التشاؤم أو التفاؤل لدى المستثمرين يؤثر بدوره على نفقة الانتاج، إذ أن معدل الربح الأدنى الذى يصر المنتجون على الحصول عليه أعلى فى حالة التشاؤم منه فى حالة التفاؤل، والمناخ السياسى السائد يؤثر فى حجم الطلب كما يؤثر فى نفقات الانتاج، إذ قد يقلل الناس انفاقهم أو يزيدونه إذا توقعوا تغيرا سياسيا معينا، وقد تصبح المخاطرة التي يتوقعها المنتجون كبيرة أو صغيرة، نتيجة للمناخ السياسى السائد، ومن ثم يصرون أيضاً على معدل أعلى للربح للتعويض عن هذه المخاطرة، مما يعتبره الاقتصاديون عنصرا من عناصر النفقات.

وقد دأب الاقتصاديون منذ فترة طويلة تقسيم نفقات الانتاج إلى أربعة عناصر: الريع، وهو ثمن خدمة الأرض، والأجور وهى ثمن خدمة العمل، والفائدة، وهى ثمن خدمة رأس المال، والربح، وهو ثمن خدمة رب العمل «أو المنظم كما يسميه الاقتصاديون أحيانا». صحيح أن هناك جزءاً من الربح لا يعتبر جزءا من النفقة (وهو ما يسميه الاقتصاديون أحيانا «الربح غير العادى») بل هو ما زاد من الايرادات على النفقات، ولكن هناك جزءا آخر من الربح يدخله الاقتصاديون كعنصر من عناصر نفقة الانتاج، ويسمونه أحيانا الربح العادى أو الحد الأدنى من الربح، وهو ما يصر المنتج على الحصول عليه «أو بعبارة أدق، ما يصر على توقع الحصول عليه» حتى يقبل الشروع فى الانتاج، أى أن ذلك الدخل الذى يعتبره المنتج الحد الأدنى اللازم لتعويضه عن المشقة والمخاطرة اللتين يتحملهما فى

سبيل الانتاج.

نستخلص من كل هذا أن من الممكن القول، دون خشية الخطأ، أن التنمية الاقتصادية تتوقف على خمسة عوامل: الاول يتعلق بحجم الطلب «فكلما زاد الطلب مع بقاء الأشياء الاخرى على حالها ارتفع معدل التنمية الاقتصادية»، وأما العوامل الأربعة الاخرى فتتعلق بمستوى النفقات: أي مدى توافر الأرض الزراعية والمواد الطبيعية الأخرى «ومستوى انتاجيتها وخصوبتها»، ومدى توافر عنصر العمل الإنساني «ومستوى انتاجيته ، مما يتأثر بعوامل عديدة فيها مستوى التعليم والتدريب»، ومدى توافر رأس المال «ومستوى إنتاجية مما تتوقف أساسا على نوع التكنولوجيا المستخدمة»، ومدى توافر أرباب العمل «المنظمين» الاكفاء، المستعدين للمخاطرة والقادرين على اتخاذ قرارات رشيدة

بحث عن الحقيقة أم تعبير عن مصالح؟

قد يبدو التعبير عن عوامل التنمية الاقتصادية بهذه الصورة مبالغة فى التبسيط ولكنه ليس تعبيراً خاطئا. وغرضى من التعبير عن عوامل التنمية بهذه الصورة هو أن أحاول أن أبين للقارئ كيف أن جميع نظريات التنمية الاقتصادية التى عرفها الفكر الاقتصادى خلال القرون الخمسة الماضية، أى منذ أن نشأ فكر اقتصادى على الاطلاق، كانت كلها تؤكد على واحد أو أكثر من هذه العوامل الخمسة، ولكن هذا التأكيد على عامل دون غيره كان دائماً محكوما بتغير المصالح السائدة. فالانتقال من التأكيد على عامل معين إلى التأكيد على غيره لم يكن الدافع الاساسى إليه، فى رأيى، اكتشاف لحقيقة كانت غائبة، بل كان الدافع الاساسى إليه تغير طرأ على المصالح السائدة، بحيث أصبح التأكيد على عامل دون غيره مناسبا لخدمة هذه المصالح أكثر من غيره.

والامر لا يقتصر على التغير فى السياسة الاقتصادية سواء المطبقة بالفعل أو التى ينادى بها الاقتصاديون، بل إنه ينطبق أيضاً على النظريات «العلمية» نفسها.

كل شئ يتوقف على حجم الطلب:

فلنبدأ بعنصر «الطلب»، أى حجم ما يكون المجتمع على استعداد لانفاقه على ما ينتجه من سلع وخدمات. إن هذا العنصر لم يحظ بالاهتمام والتأكيد، كعنصر أساسى فى تحديد معدل النمو الاقتصادى إلا فى حقبتين من حقب تاريخ الفكر الاقتصادى، إحداهما هى الحقبة الكينزية، نسبة إلى الاقتصاد الانجليزى الشهير، جون مينراد كينز، والتى استمرت فترة لا تزيد كثيراً عن ثلاثة عقود «١٩٣٦/١٩٧٠» والأخرى هى حقبة أطول كثيراً وأقدم بكثير من الحقبة الكينزية، وهى الحقبة المعروفة فى الفكر الاقتصاد «بعصر التجاريين»، الذى ساد

فى أوروبا لمدة تقترب من ثلاثة قرون «١٥٠٠/١٧٦٠م».

أما كينز فقد قال صراحة : إن حجم الانتاج يتوقف على حجم الطلب الكلى، وأما التجاريون فقد قالوا ما يمكن أن يفهم على هذا النحو أيضاً، إذ علقوا أهمية كبيرة فى تنمية ثروة الأمة على حجم ما لديها من ذهب وفضة والذهب والفضة كانا يكوّنان نقود ذلك الزمان، وكلما زادت كمية النقود مال الطلب الى الزيادة . إذن فكينز من ناحية والتجاريون من ناحية أخرى،كلاهما قالا بأهمية أن يزيد الناس إنفاقهم، إذ أن هذا سوف يشجع على زيادة الانتاج. فلا عجب أن عبر كينز عن اعجابه الشديد بالتجاريين رغم أنه يفصل بينهما قرنان أو أكثر. ولكن المهم الآن أن نلاحظ الشبه بين الظروف الاقتصادية التى نشأت فيها النظريتان. كينز كان يكتب عندما كانت البطالة شائعة والمصانع مغلقة، وكان كل شئ كان يتوقف على زيادة حجم الإنفاق، أى حجم الطلب، فتبدأ المصانع فى الانتاج من جديد ويجد المتبطلون عملا. أما التجاريون فكانوا يكتبون في عصر ما قبل الثورة الصناعية، حينما كانت التجارة هي المصدر الأساسى لنموالثروة وليس الصناعة أو الزراعة والتجار لا يخافون من شئ أكثر من خوفهم من الكساد، أى ألا تجد السلع المعروضة من يشتريها. فهم أيضا كانوا يجدون أن الطلب هو المحرك الأساسى للتنمية، وقلة الطلب هى العائق الأساسى أمام استمرارها.

الأرض الزراعية أم رأس المال؟

أتت بعد التجاريين نظريتان شهيرتان فى علم الاقتصاد، إحداهما سادت فى فرنسا لمدة لا تزيد على عشرين عاما (١٧٥٠/١٧٧٠) والأخرى فى انجلترا لمدة تقرب من مائة عام (١٧٧٦/١٨٧٠). أما الأولى، وهى نظرية «الطبيعية» (أو الفيزيوقراط) فكانت تقول إن العنصر الأساسى فى التنمية هو الأرض الزراعية، وأما الثانية، وهى النظرية المعروفة بالكلاسيكية أو التقليدية، فكانت تقول : إن العنصر الأساسى هو رأس المال. إن فى هذا القول تبسيط شديد ولكنى لا أبعد عن الحقيقة حينما أقول : إن الطبيعيين اعتبروا أن المصدر الحقيقى الوحيد للثروة هو الأرض الزراعية، وأن كل ما عدا الزراعة من أعمال اقتصادية(صناعية أو تجارية) لا يزيد دورها إما عن إعادة تشكيل ما أنتجته الأرض(الصناعة) أو عن نقل منتجات الأرض من مكان إلى آخر(التجارة) ،وأما النظرية التقليدية الانجليزية فكانت تقول : إن المحرك الأساسى للنمو هو تراكم رأس المال. فالأرض ثابتة بطبيعتها، وكل زيادة فى إنتاجها أو انتاجيتها إنما يعود الفضل فيه إلى رأس المال. والعمال لا يوظفون إلا بوجود رأس المال الذى يخلق الطلب عليهم. فكيف تحدث التنمية إلا بمزيد من الادخار والاستثمار؟

إن هذا الكلام أو ذاك ليس كلاما فى السياسة الاقتصادية (وإن استتبع كل منهما سياسة اقتصادية معينة) بل هو كلام في صميم النظرية الاقتصادية. ولكن النظريتين متعارضتان، وسبب التعارض ليس هو إن إحداهما كانت أكثر حكمة أو دقة من الأخرى، بل سببه اختلاف الظروف والأحوال والمصالح. فالطبيعيون كانوا يكتبون قبل قيام الثورة الصناعية، وكانوا أقرب فى مزاجهم وعلاقاتهم الاجتماعية إلى الارستقراطية الفرنسية التي تعتمد فى ثرائها على الزراعة. أما الاقتصاديون الكلاسيك فكانوا يكتبون في غمار الثورة الصناعية فى انجلترا، حيث تتصاعد مداخن المصانع الجديدة وتبنى الآلات الحديثة يوما بعد يوم، وكانوا فى الأساس من المهنيين الأقرب فى مزاجهم وعلاقاتهم الاجتماعية إلى الطبقة الوسطى وثيقة الصلة بالصناعة. لا عجب أن قال الأولون : إن الزراعة هى مصدر كل ثروة، وقال الآخرون: بل رأس المال.

ماذا عن العمل الإنساني؟

من الطريف أن نلاحظ أن العمل الإنساني، الذى قد يبدو أجدر من غيره بالتأكيد عليه باعتباره العنصر الأساسى فى التنمية، لم يحظ بهذا التأكيد، طوال هذا التاريخ الطويل لأفكار التنمية ونظرياتها، إلا لماما واستثناء. إنى لا أنكر أن الاقتصاديين التقليديين الانجليز كانوا يعون جيداً أن الفضل الأساسى في أى انتاج لابد أن يعود إلى العمل الإنساني، إما مباشرة أو بطريق غير مباشر، وأن لكل منهم اشارات وعبارات تحمل هذا المعنى بوضوح، ولكن صياغتهم كلهم لعوامل التنمية الاقتصادية كانت تعطى مكان الصدارة لرأس المال، سواء باعتباره المحرك الأساسى لأى تنمية اقتصادية، بل وحتى باعتبازه المحرك الأساسى لأى نمو فى السكان، ومن ثم في قوة العمل . إذ أن العمال أنفسهم لا يزيد عددهم إلا إذا زاد السكان، والسكان لا يزيدون إلا إذا زاد مستوى الأجور على الحد الأدنى اللازم للمعيشة «أو هكذا كانوا يعتقدون» ومستوى الأجور لا يزيد إلا بتراكم رأس المال.

طبعاً كان هناك الاشتراكيون، ولكن الاشتراكيين حتى نهاية القرن التاسع عشر على الأقل، وباستثناء ماركس وحده، لم يساهموا مساهمة مهمة فى النظرية الاقتصادية، بل كانوا يعبرون عن عواطف إنسانية أو آمال سياسية دون أن يخوضوا في مشكلات علم الاقتصاد وماركس كان خارج «المؤسسة»، ولم يسمح لافكاره بأن تعبر أسوار المؤسسة التعليمية والجامعات التى اقتصرت على تدريس أفكار الاقتصاديين التقليديين أو التقليديين المحدثين(النيوكلاسيك)، وقد دأبت هذه المؤسسة على أعتبار ماركس(مهيجا سياسياً) لا يليق أن تدرس أفكاره من بين ما يدرس من «نظريات محترقة» فلما تبنت الثورة الروسية الأفكار الماركسية فى نهاية الحرب العالمية الأولى، وتبنتها دول أوروبا

الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية، «بسبب انتصار روسيا والحلفاء فى الحرب»، وكذلك تبنتها بعض دول العالم الثالث، كالصين وكوريا الشمالية وكوبا، صدرت بالفعل كتب مدرسية وجامعية، من موسكو إلى وارسو، وكذلك من بكين إلى هافانا، تشيد بالعمل باعتباره المصدر الأساسى «أو حتى الوحيد» لأى ثروة وأى تنمية، ومع ذلك استمرت الجامعات الأوروبية والأمريكية محصنة تماما ضد هذا الفكر «الغريب»، وظلت تدرس لطلبتها، بما فى ذلك طلبة العالم الثالث، الوافدين إليها، إن العنصر الأساسى فى التنمية هو رأس المال.

كان هذا هو الحال عندما ذهبنا لدراسة التنمية الاقتصادية فى الجامعات الأوروبية والأمريكية فى الخمسينات والستينات، فقد كانت كتب التنمية الصادرة في هذه الفترة تكاد تعتبر تراكم رأس المال مرادفا لعملية التنمية كلها. وقد كانت هذه هى الفترة التى تصاعدت فيها أهمية المعونات الأجنبية كوسيلة من وسائل "اصطياد" الدول المتخلفة أو البادئة فى النمو، فكان من المهم إعلاء شأن رأس المال وإعطاؤه الأولوية، إذ كان هذا ضروريا لتبرير المعونات الأجنبية وتأكيد دورها.

حدث انقطاع قصير فى هذا التركيز على رأس المال فى أوائل السبعينات من القرن العشرين، عندما خرج بعض الاقتصاديين الكبار يردون الاعتبار لعنصر العمل الإنسانى، ويقولون إن رفع كفاءة هذا العنصر قد يزيد فى أهميته للتنمية عن زيادة تراكم رأس المال، وإن كان هؤلاء الاقتصاديون قد اضطروا من أجل تدعيم موقفهم فى مواجهة التيار الكاسح الذى كان يؤكد على رأس المال، أن يسموا الانفاق على تحسين ظروف العمل وزيادة كفاءته، استثمارا فى «رأس المال البشرى»، إذ لم يكن من المتصور أن يقبل أحد نقل التأكيد من رأس المال إلى العمل إلا باعتبار العمل الإنسانى نوعا من أنواع رأس المال! كان هذا هو الوقت الذى زاد فيه الحديث على هدف إشباع الحاجات الأساسية وعن هدف خلق فرص كافية للعمالة كبديل لهدف رفع معدل نمو الناتج القومى، وهو تغير يتفق مع هذا التأكيد الجديد على عنصر العمل.

لم يكن هناك أى مبرر منطقى للانتقال من التأكيد على رأس المال إلى التأكيد على عنصر العمل، ومن ثم فالأرجح أن يكون السبب الأساسى وراء هذا الانتقال هو تحول فى التفضيلات وإعادة ترتيب الأولويات. فبعد ربع قرن من النمو السريع فى الناتج القومى، فى الدول المتقدمة والمتخلفة على السواء ثار التساؤل عن جدوى هذا النمو السريع إذا اقترن بمشكلات اجتماعية وإنسانية خطيرة، كما فى الدول المتقدمة، أو إذا اقترن بثبات أو تدهور حالة الفقراء، كما فى الدول المتخلفة. كانت هذه هي الفترة التى شهدت ثورة الشباب على المجتمع الاستهلاكى فى أوروبا وأمريكا، والتى شهدت رفع شعار

إشباع الحاجات الأساسية في الدول الأقل نموا. فالتغير في النظرية كان تابعا على الأرجح، للتغير في الأهداف وليس العكس.

ابتداء من أواخر السبعينات ظهر تأكيد جديد، في كتابات التنمية، على أهمية دور الاستثمارات الأجنبية الخاصة في الإسراع بمعدل التنمية، وهو تحول اقترن بزيادة دور الشركات متعدية الجنسيات في الاقتصاد العالمي. وكأن هذا التأكيد على دور الاستثمارات الأجنبية الخاصة كان نوعا من عمليات "الترويج" لنشاط هذه الشركات وتسهيل نفاذها إلى الأسواق الخارجية، سواء في بلاد العالم الأقل أو الأكثر نموا.

لا، بل المهم هو اتخاذ القرارات الرشيدة

بقي لدينا عنصر واحد من العناصر المؤثرة في التنمية لم يأت ذكره في استعراضنا السابق. لقد رأينا كيف حلت فترة من الزمن بعد أخرى ساد فيها التأكيد على عنصر بعد آخر من عناصر التنمية: الطلب مرة، والأرض مرة، ورأس المال مرة (إما في صورة معونات خارجية أو في صورة استثمارات أجنبية خاصة)، والعمل الانساني مرة، فماذا عن العنصر الأخير الذي يتعلق بدروب رب العمل أو المنظم، أو دعنا نسميه الآن دور «اتخاذ القرارات الاقتصادية الرشيدة»، سواء تعلق باتخاذ قرار بالمغامرة باقامة مشروع اقتصادي ابتداء، أو باتخاذ القرارات اللازمة لإدارة هذا المشروع. فمن الواضح أن التنمية الاقتصادية يمكن أن تنجح أو تفشل (مع بقاء الأشياء الأخرى على حالها) بسبب توفر أو غياب هذا العنصر، فمهما كان حظ الدولة من الموارد الزراعية أو المعدنية الوفيرة، ومن العمل الماهر والمدرب، ومن موارد رأس المال ومن حجم كبير للسكان وطلب وفير على منتجاتها، فإن كل هذه المزايا يمكن أن تضيعها قرارات اقتصادية طائشة، ولكن القرارات الرشيدة أو الطائشة يمكن أن تصدر من الأفراد أو من الدولة، ومن ثم فإن اصطلاح "رب العمل" أو "التنظيم"، إذا استخدم بصدد الكلام عن التنمية الاقتصادية، يجب أن يؤخذ بالمعنيين أو على مستويين: مستوى المشروع الفردي ومستوى الدولة ككل. فالتنمية الاقتصادية قد تنجح أو تفشل إما بسبب رشاد أو طيش المنظمين وأرباب العمل الأفراد، أو بسبب رشاد أو طيش المنظم أو المخطط الحكومي، أي الدولة.

وقد ظل الاقتصاديون يهملون دروب رب العمل(أو دور اتخاذ القرارات الرشيدة)في التنمية فترة طويلة، بل لقد ظلوا يتجاهلونه، حتى كعنصر من عناصر الانتاج، حتى قرب نهاية القرن التاسع عشر. كان رب العمل قبل ذلك يعتبر هو وصاحب رأس المال شخصا واحدا، وكان هذا مفهوما تماما طالما كان حجم المشروع، صغيرا بحيث يكون مالك المشروع هو صاحب رأس المال ومتخذ القرارات الأساسية بشأنه في نفس

الوقت.

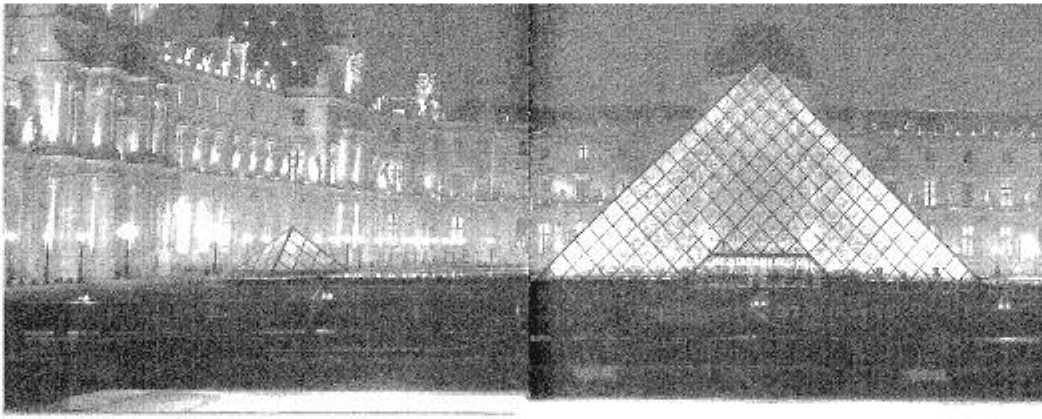
ولم تظهر الحاجة إلي تمييز رب العمل عن الرأسمالى إلا عندما أصبح من الشائع انفصال الملكية عن الادارة، خاصة مع انتشار الشركات المساهمة، أو التجاء مالك المشروع إلى الاقتراض لتمويل المشروع، فهنا أيضا أصبح رأس المال يأتي من مصدر مختلف عن الشخص الذي يقوم بإدارة المشروع وباتخاذ القرارات الأساسية بشأنه. هنا كان لابد من الاعتراف بدور رب العمل كعنصر مستقل من عناصر الانتاج.

أما اعتبار رب العمل واتخاذ القرارات الاقتصادية الأساسية عاملا مهما فى التنمية فقد تأخر عن هذا كثيرا، إذ باستثناء المساهمة اليتيمة لجوزيف شومبيتر(J.Schumpeter) فى ١٩١٢، عندما نشر كتابا يؤكد فيه أن رب العمل هو أهم عوامل التنمية، استمر هذا العنصر لا يحظى باهتمام كبير حتى أوائل الثمانينات من القرن العشرين، عندما بدأ الكلام يكثر عن ضرورة "التصحيح الهيكلى" و"الخصخصة" و"التثبيت الاقتصادى" وضرورة تصحيح نظام الأسعار وضبط معدل التضخم وتقليص يد الدولة فى الاقتصاد.. إلى آخر بنود تلك الوصفة التي دأب البنك الدولي وصندوق النقد الدولي على النصح بها كشرط أساسي لنجاح التنمية الاقتصادية السريعة. ولكن هذه الاجراءات كلها ليست إلا من قبيل "ترشيد القرارات الاقتصادية"، وهو عنصر قد يتوفر أو لا يتوفر مع عناصر التنمية الأخرى، كرأس مال والأرض والعمل الإنساني وحجم الطلب على منتجات الدولة. كان ظهور هذا التأكيد على دور ترشيد القرارات الاقتصادية مقترنا بالتأكيد على دور الاستثمارات الأجنبية الخاصة، فكلا الأمرين أصبحا ينظر إليهما على أنهما الشرطان الأساسيان للتنمية السريعة.

فأى شئ أنسب من التأكيد على هذا وذاك فى عصر الشركات متعدية الجنسيات؟ إنها هى التى تقوم بالاستثمارات الأجنبية الخاصة، وهى المستفيدة من سياسات التصحيح الهيكلى والتثبيت الاقتصادى ومن تقليص يد الدولة فى الاقتصاد وهى المشتركة فى صفقات الخصخصة، وهى التى تدخل من الأبواب التى تتكرر الدعوة إلى فتحها تحت اسم "سياسة الباب المفتوح" أو "سياسة الانفتاح".

كل يغني علي ليلاه:

وهكذا نجد مرة أخرى أن نظريات التنمية الاقتصادية مهما ظن أصحابها أنها نظريات محايدة لا يدفعها إلى الوجود إلا المحاولات الدوبة للكشف عن الحقيقة وتصحيح أخطاء سابقة، إنما هى نظريات "منحازة"، ولا يدفعها إلى الوجود والانتشار إلا المصالح القوية. وهى لا تحل دائما محل نظريات «خاطئة» أو أبعد منها عن الحقيقة، بل كثيراً ما تحل محل نظريات لها نفس الدرجة من الوجاهة النظرية والاتساق المنطقي ولكنها لم تعد تعبر عن أقوى المصالح وأشدها بأسا. ■



مصرى فى باريس

بقلم
مصطفى نبيل

ليست هذه هي المرة الأولى التي أزور فيها باريس.. ورغم تلك الزيارات المتكررة، لم أكتب عنها، لعل ذلك لأني وقعت تحت تأثير فتنتها، وربما لأنني لم أجد الوقت الكافي لتأمل أحوالها، وربما لكثرة ما كتب عنها بأقلام كبار الكتاب.

تعتز باريس بأنها مدينة النور، ففيها المعاهد العلمية والمتاحف والمعارض والمسارح، ما لا يوجد في غيرها، وما تعايشه ثمرة مئات السنين تراكم خلالها جهد أهلها وخبرتهم وما ابتكرته عقولهم ووجدانهم. ولا يمكن أن تتجنب الإحساس بالتاريخ، فهي تحتفي برموزها من القادة والعلماء، ومعظم شوارعها يحمل أسماء هؤلاء العظماء، وهي الأسماء التي لا تتغير بتغير الحاكمين كما يحدث عندنا.

ولا يملك من يتجول في أحيائها وشوارعها إلا أن يقف مشدوها معجباً من تلك المدينة الجميلة، وتظهر حوله أبعاد ثلاثة، البعد الفني والبعد الإنساني والبعد التاريخي ويحيط به الجمال والذوق الرفيع، ولا تبحث عن شيء إلا وتجده، الفنادق والمطاعم والمقاهي، ومراكز البحث والمكتبات حتى أماكن اللهو في حي بيجال وغابات بولونيا.

فماذا تختار لكي تقدمه للقارئ؟ السياسي أم الثقافي؟ الفن أم العلم؟ المتاحف أم المسارح؟. ففيها الكثير مما يجذب الاهتمام، جمال الحاضر ومؤشرات المستقبل والسعي المستمر إلى التجديد والابتكار وارتياد المجهول مع التوازن الدقيق بين القديم والجديد.

ولعل مركز بومبيدو هو نموذج على

ذلك والذى يعكس استمرار باريس كمركز علمي متقدم، وأنها حققت مركزاً متقدماً في سباق عواصم العالم، وفيه تدرك إيقاع الزمن السريع، ومن لا يجرى ولا يجدف بسواعد قوية ضد التيار، فسوف يعود إلى الوراء ويسبقه الآخرون، وجاء بعد «بومبيدو» «ميتران» الذى أقام في الألفية الثانية قوس نصر جديد في الديفانس وعجلة دوارة في الكونكورد، على أن تكون مع قوس بونابرت على محور واحد.

وإن كانت «طوكيو» و«نيويورك» وسان فرانسيسكو» أكثر تطورا من الناحية المادية، فإن باريس تتميز بذلك البعد الإنساني والفني الذى لا تتمتع به هذه المدن، فاختارت «باريس» أن تكون عاصمة العالم الثقافية، وأصبحت مقراً لليونسكو وقام فيها معهد العالم العربي والذى لا يكف عن النشاط في وجود الدكتور «ناصر الأنصاري» ، وحافظت باريس على دورها الثقافي على مر الأيام.

وقام سكان باريس لضمان السبق بإقامة نظام اتصالات سريعة بكل عواصم العالم، وإقامة نظام بنكي كفء وسريع، وحركة مرور سريعة ومريحة، وتكاد تكون هي العاصمة الوحيدة التى لديها شيء من كل شيء، لذا لم يكن غريبا أن تستقبل سبعين مليون سائح خلال العام الماضي.

عند زيارتي كانت حدائق باريس وشوارعها في أحلى مواسمها ، فبوادر الربيع تطل على أشجارها، والشتاء لم يغب تماماً ، وتورق الأشجار من جديد بألوان متعددة، وتظهر في اليوم الواحد الفصول الأربعة، الحر والبرد والمطر.

وأجمل مدن الدنيا، ترك بصمته عليها مهندس عبقري هو البارون «هوسمان» الذى أطلقوا اسمه على شارع من أجمل شوارع باريس، وهو الذى صمم «البوليفار» أي الشارع الواسع الذى تظلله الأشجار، وهو الذى خطط الميادين وزينها، وإليه يعود الفضل في تخطيط ميدان «الكونكورد» الذى تزينه المسلة المصرية، وهو الذى أنشأ شارع «الشانزليزيه» – أشهر وأجمل شوارع باريس – وهو الذى خطط ميدان «الإتوال» والشوارع العديدة التي تصب فيه.

النظافة والذوق في كل مكان، في الشوارع والحدائق العامة المنتشرة في أحياء باريس العشرين، والدليل على الاهتمام الشديد بالنظافة نظافة سوق الخضراوات والأسماك، فبعد نقل سوق الخضراوات من وسط باريس وإنشاء السوق الجديدة ، شيدوه على أحدث الطرق، المخازن والمرافق تحت الأرض، ولا ترى فيها مخلفات وأصبح النجاح في الحفاظ على نظافة السوق هو معيار نجاح بلدية باريس .

باريس يتكلم عربي !

يتنامى إلى سمعك على الدوام الكلمات العربية، فباريس تضم أعدادا كبيرة من العرب وخاصة الجزائريين والمغاربة والتونسيين والذين يعيش بعضهم في أحياء بكاملها، وأصبحت مقصد عدد من المصريين، وهناك مهن ثلاث يعمل فيها المصريون النقاشة والسباكة وتجارة الخضراوات، وتحتاج كل من هذه المهن إلى جهد كبير .

الناعم في باريس بين القديم والجديد ◄



مصرى فى باريس

قصة مدينتين

وأصبح المصريون يفضلون باريس على لندن وخسرت لندن دورها كمركز مهم من مراكز العالم، لارتفاع أسعارها وفقدت جاذبيتها، بعد أن كان عدد من المصريين يفضلونها لمعرفتهم اللغة الإنجليزية.

وباريس مؤهلة لكى تكون العاصمة الأولى فى أوروبا، فبعد الحروب الطاحنة التى نشبت بين الدول الأوربية، قامت الوحدة الأوربية بخطوات ثابتة، واشتعلت المنافسة بين كل من «باريس» و«لندن» و«روما» و«برلين» واختارت «إنجلترا» الالتحاق بالولايات المتحدة عبر الأطلنطى، وبقيت المنافسة التقليدية بين «فرنسا» و«ألمانيا»، واستعانت «فرنسا» بارتباطاتها الفرانكفونية، واستعانت «ألمانيا» بإقامة علاقات وثيقة مع دول أوربا الشرقية وبعض الدول الآسيوية مثل «الصين» و«اليابان».

ونجحت «فرنسا» فى لعب دور رئيسى فى الوحدة الأوربية، وارتفعت أسعار العقارات بها، وزادت السياحة إليها بعد إزالة القيود على التنقل بين الدول الأوربية .

ويساعد «باريس» على إحراز قصب السبق أنه لا يتم أى تغيير فى باريس بصورة عشوائية بل يسبقه مناقشات واسعة وعميقة، يدلى المتخصصون خلالها بآرائهم ، فمثلا إدخال ناطحات السحاب الصماء، سبقها تحذير الكثيرين من تأثير ذلك على الشخصية التاريخية المعمارية لباريس، وقال «بومبيدو» أيامها «على أهل «باريس» أن يختاروا بين أن تكون مدينتهم متحفاً، أو تظل عاصمة كبرى فى العالم»، واستقر الجدل على تحديد أماكن خاصة تقوم فيها ناطحات السحاب، للحفاظ على الطابع التاريخى لباريس، وقامت مبانى مثل برج «مانهاتن» وبرج «مونبرناس» وناطحات سحاب ذات عمارة مميزة فى حى الديفانس.

وتشتد فى باريس مقاومة رموز الثقافة الأمريكية، ووضعوا العقوبات على من يستبدل اللغة الفرنسية باللغة الإنجليزية .

ويدهشك أن تعرف أنه إذا أراد صاحب منزل أن يهدم بيته، فعليه عدم المساس بواجهة البيت الذى يعطى الطابع الخاص للشارع الذى يقع فيه، ويسمح له بالتغيير خلف الواجهة .

ولا يسع المرء سوى أن يتساءل حول ما يلحظه من كفاءة عالية فى الأداء، فالجميع يعمل مثل خلية النحل، والكل يؤدى ما عليه، يحب العامل عمله ويتقنه، فما هى القوة المعنوية وراء ذلك، إنه شعور العامل بالعدل، وأن النظم والقيم والمؤسسات القائمة من اختياره وتعمل لصالحه، وجاء ذلك بعد أن استقرت لدى المواطن هذه النظم والقيم والمؤسسات. فالحكومة ليست للقهر وليست مجرد جابية للضرائب، ولكنها تقود نظاما اجتماعياً عادلاً يضم تحت مظلته الجميع.

وأى حكم أو نظام يمكن أن يحقق الاستقرار عن طريق العادة أو القوة، ولكنه يفقد القدرة على المبادرة والابتكار، ويحضرنى تلك الصورة التى صورها قلم الكاتب الساخر «محمد عفيفى» بقوله.. سيارة خربة، ولكنها تسير.. وتساءل: كيف؟ وأجاب.. لأنها على منحدر!.



تمثال يرمز للجسد عند الاغريق

أى أنه حكم القوة لا الرضا، وهو استمرار لا استقرار . فإيمان الشعب بالقيم والنظم والمؤسسات هو جوهر التقدم . ففى فرنسا قد تتغير الأحزاب وتتبدل الوزارات ولكن السياسة العامة ثابتة لا تتبدل عناصرها، وتوجهاتها متفق عليها، وتشتعل المنافسة الحادة بين «شيراك» و«جوسبان»، وتقوم الاضرابات بين وقت وآخر . ويظل الاتفاق العام على المصالح العليا .

المبنى والمغزى

هذا ما دلتنى عليه تلك الزيارات المتعددة لباريس، ومازلت أحمل ذكريات هذه الزيارات، يوم صحبنى إلى قصر «فرساى» الصديق أمين يسرى الذى كان يعمل فى السفارة المصرية بباريس ، وهو القصر الذى يرمز إلى أن القهر مهما طال لا يستمر ، وأدى ترف الخاصة للثورة الفرنسية .

والغريب أن هذا القصر قام بتقليده العديد من بلدان العالم، وأبرز هذه القصور قصر «سان بطرسبرج» فى روسيا ، قلدت مبناه وتجاهلت مغزاه، فقامت الثورة الروسية.

شاهدت القصر الذى يقع جنوب باريس، وهو فى حقيقته قطعة فنية ساهم فيه المعماريون والمثالون والرسامون، كما أحسن منسقو الحدائق تصميم الحدائق التى تمتد عشرات الأفدنة، كل نبتة فيه تتناغم مع الأخرى، وتجد رحيق كل فنون العصر.

أقام ملوك فرنسا المتعاقبين فى هذه المنطقة أكواخا للصيد، وبنى لويس الثالث عشر كوخاً صغيراً فى الغابات القريبة من مدينة فرساى، ولا يحيط بالكوخ سوى الغابات، ثم اختار لويس الرابع عشر هذا المكان لكى يشيد قصراً يلجأ إليه للترويح عن النفس، ومن العسير تفسير اختيار لويس لهذا المكان، وربما أراد أن يظهر أنه يستطيع أن يقهر الطبيعة، وأن يحول مكاناً قفراً موحشاً إلى قطعة من الجنة، ولكن إذا كان قد قهر الطبيعة فقد قهرته الثورة الفرنسية.

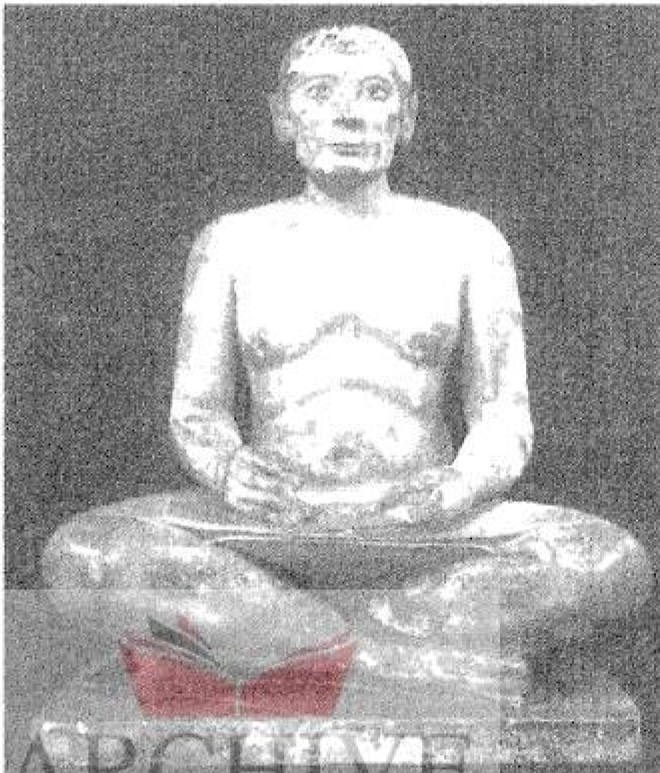
وعمل «لويس» على أن يطغى فرساى على كل قصور النبلاء، وعلى أن يكون مقراً للحفلات بأبهتها وفخامتها، وكلف المهندس المعمارى «لوفو» بتصميم قصر يفوق أى قصر آخر، وصمم فى القصر «قاعة المرايا» التى شهدت الكثير من الوقائع التاريخية ووقعت فيها عدة معاهدات مهمة.. ووصف أحد المعاصرين.. «يجمع الملك حوله كبار القوم الذين جاءوا يأخذهم العجب من رونق القصر وعظمة صاحبه، ويسرعون إلى أوطانهم ويقلدونه».

وشرح مرافقى.. «قام لونوتر صاحب الشهرة الكبيرة بتخطيط الحدائق التى تحيط بالقصر، وقام بتنسيقها وتحتوى على مدرجات ونافورات وأحواض أزهار نادرة ومساحات شاسعة من الخضرة والألوان المختلفة.

وداخل القصر عدد كبير من تماثيل أبوالهول وقيل إن مارى انطوانيت أظهرت شغفا كبيرا بمصر وتاريخها ، وأمرت بإحضار عدد من الآثار المصرية إلى قصر فرساى.

أحدب نوتردام

وننتقل من القصور والحدائق إلى قاعات العلم والمكتبات ودور العبادة، فى زيارة إلى جامعة السوربون مازلت اذكر



الكاتب المصري في قسم مصر الفرعونية أهم أقسام متحف اللوفر

تفاصيلها ، صحبني فيها الصديق د. محمود عبدالفضيل الذي كان يدرس بها الاقتصاد.. هنا ترى كيف يقف العلم وراء التطور والتجديد، نظام الجامعة واستقلالها، وطرق البحث والامكانيات الكبيرة التي تقدم للباحثين فهنا المحرك الحقيقي للتقدم في العصر الحديث، وبعد أن تجولنا في مكتبات ومعامل كليات جامعة السوربون انتهى بنا المطاف إلى كنيسة نوتردام التي تحتل قمة تل، مما يتيح رؤية برجها العالي من مسافة بعيدة، وتلحظ جمال أبوابها المنحوتة وروعة هذه الابواب، التي لا يفوقها سوى نوافذها وألوانها العجيبة، وقد أقيمت أيام لويس التاسع الذي تم أسره في المنصورة، وتصاب بالأسى عندما تقارن هذه الكنيسة بالآثار التي أقيمت في نفس الفترة في مصر، وترى الزجاج المعشق بألوانه الحمراء والزرقاء والخضراء والذي يتألق ويتغير مع ساعات النهار المختلفة، وترى داخلها لوحات تحكي قصصاً من الكتاب المقدس رسمها الفنانون على الزجاج تكاد تبلغ حد الإعجاز.

وهذه الكنيسة شكلت خلفية رواية فيكتور هوجو «أحدب نوتردام» التي كانت من أجمل ما قدمته السينما.

ولا يفوتني كلما زرت باريس أن أقضي وقتا ثمينا في متحف اللوفر، ولا

مصرى فى باريس

تصدق من يدعى أنه يمكن لك أن تحيط بمحتوياته في يوم واحد أو زيارة واحدة بل يحتاج الزائر إلى عدة مرات حتى يحيط ببعض ما يضم من ذخائر فنية، وزيارته متاحة للغني والفقير، فكان المتحف يفتح أبوابه مجانا يوم الأحد من كل أسبوع، ثم أصبح يسمح بدخوله مجانا يوم الأحد الأول من كل شهر.

ومتحف «اللوفر» بحق هو أعظم متاحف الدنيا، فهو ليس مجرد متحف وإنما هو مجموعة كبيرة من المتاحف، لم تنشأ مرة واحدة، وكانت بدايته عندما خصص الملك «فرانسوا الأول» حديقة واسعة من قصره لإقامة متحف صغير يضم التحف الفنية التى كان يملكها، ويقدر عدد القطع الفنية التى جلبها نابليون لفرنسا خلال حروبه بنحو ٢٥ ألف قطعة فنية بين لوحات وتماثيل وأعمال فنية وآثار تاريخية من كل لون وشكل وعصر.

ومعروف أن كلا من بلجيكا وهولندا وألمانيا وايطاليا والنمسا وبولندا وروسيا استردت ٥٢٣٣ قطعة من متحف اللوفر

فهل تسترد مصر بعض آثارها، وخاصة أن القسم المصرى في اللوفر هو أكبر الأقسام وأكثرها ثراء ففيه ٧٥٠٠ قطعة ما بين تماثيل ولوحات ومجموعات أثرية معروضة فى ٢٦ قاعة.

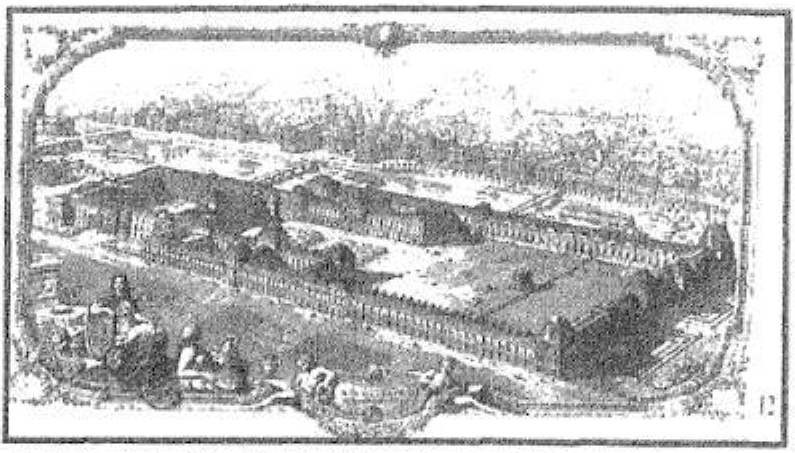
وصف مصر

وشهدت العلاقات المصرية الفرنسية صور متعاكسة بين التدهور والازدهار، يعود البعض بهذه العلاقات إلى أزمنة بعيدة تعود إلي واقعة تاريخية ضاربة فى القدم ومازالت فى الضمير الأوربى، عندما وصل العرب بقيادة «عبدالرحمن الغافقى» إلى «جبال البرانس» فى جنوب فرنسا، ووصل العرب إلى مدينة «تور» على نهر اللوار، ودارت أخطر المعارك فى تاريخ أوربا عام ٧٣٦م التى صد الهجوم خلالها شارل مارتل.

وجاءت بعدها الحلقة التالية فى تاريخ العلاقات خلال الحروب الصليبية وهزيمة القوات الفرنسية وأسر لويس التاسع عام ١٢٤٩م فى المنصورة، وهو نفسه الملك الذى أسس جامعة السوربون ككلية لدراسة اللاهوت.

ثم تأتى الحملة الفرنسية التى قادها بونابرت على مصر ، وتميزت هذه الحملة بوجود ١٦٧ عالماً بينهم مونج عالم الرياضيات الشهير، ولأول مرة يصحب جيش معه دائرة معارف، ويقال جاءت الحملة الفرنسية بالمدفع والمطبعة، وذهب المدفع وبقيت المطبعة ، وهو قول غير صحيح فقد رحلت المطبعة والمدفع معاً، ولكنها تركت أثراً عميقا فى التاريخ، ولم يكن كتاب «وصف مصر» سيرى النور إلا بعد أن حطم «نيلسون» قائد الأسطول البريطاني الأسطول الفرنسي، فعكف أعضاء لجنة العلوم والفنون على «نقل فنون أوروبا إلى شعب نصف متخلف (!) ونصف متحضر (!)».. كما كتب «جومار»..

بعدها استعان محمد على بعدد من الفرنسيين مثل «سليمان باشا الفرنساوى» الذى ساهم فى تدريب الجيش، والذى أصبح الجد الأكبر للملك فاروق آخر ملوك مصر، كما استعان بـ «كلوت بك» الذى أشرف على إنشاء مدرسة الطب، و«باسكال كوستا» وغيرهم، وأرسل محمد على الهدايا إلى ملك فرنسا



لوحة يعود تاريخها إلى عام ١٨٥٢ في عهد نابليون الثالث تظهر القصر الذى أصبح متحف اللوفر

«هنري العاشر» ومنها أول زرافة تصل إلى فرنسا والمسلة المنتصبة فى ميدان الكونكورد ، ورغم ذلك لم تتردد فرنسا فى الاشتراك مع بريطانيا فى تحطيم أسطول محمد علي فى نافارين!.

كشف الهيروغليفية

ومن الصفحات المشرقة ما قام به «شامبليون» عندما ولد علم جديد بفضل باحث عبقري، ألقى الضوء على التاريخ المصرى القديم، وجعل الآثار المصرية تفصح عن أسرارها ، وهو الذى صاح بصوت متهدج أمام معبد الكرنك «لسنا في أوربا سوى أقزام، لا يوجد شعب عرف فن العمارة بهذه الفخامة والمهابة مثلما فعل المصريون فالإبداع الذى يحلق عاليا فى أوربا يسقط عاجزا تحت أقدام بهو الأعمدة في الكرنك».

ومن أيامها أصبحت مصر الفرعونية محاطة بهالة من السحر والغموض لدى الفرنسيين ، فهى التى ذكرت فى الكتاب المقدس ٦٨٠ مرة.

وصف فرنسا بعد وصف مصر

وكما قدم شامبليون إحدى الصفحات المشرقة فى العلاقات المصرية الفرنسية كذلك فعل «رفاعة رافع الطهطاوى» مساهما فى الإطلال على التجربة الأوربية، فكما أسس «شامبليون» علم المصريات ونجح فى كشف أسرار اللغة الهيروغليفية، قام رفاعة بفك طلاسم الحضارة الأوربية وقدم للقارىء فى الشرق صورة فرنسا باعتبارها عاصمة الحضارة الأوربية.

وقد اشتعلت المعارك الفكرية حول الأصالة والمعاصرة، والوافد والموروث، ومواجهة الغزو الثقافى، رغم أن رفاعة قد حسمها عندما تناول فى أعماله هذه المواجهة ، ووصل إلى النغمة الصحيحة والمعادلة المتوازنة، وأنه من الضرورى التفاعل مع ثقافة العصر، ولم يكن عند حديثه عن الحضارة الأوربية مجرد ناقل لما يراه، وإنما كان يناقش ويحلل ويعلل ويقارن، وكان يقظ الذهن عميق النظر، نافذ البصيرة ولم يكتف بالمقارنة ولكن

يرسم معالم الطريق، وهذه هى بعض لمحات من هذا العمل الكبير.

نادى فى كتابه بضرورة العمل على اللحاق بالدول الأوربية ونقل مشاهداته وخبرته خلال رحلته إلى باريس وكتابه تخليص الابريز (الذهب) هو بحق أهم وثيقة أدبية فى مصر فى النصف الأول، من القرن التاسع عشر: «عبثا تبحث عن كتاب آخر فى عصر محمد على (٤٠ سنة) يستحق القراءة»، فرحلته كانت عملية وصل بين الشرق والغرب، بين مصر وفرنسا قام بكتابته ليكون نافعاً فى كشف النقاب عن محيا هذه البقاع.. فمن أول الزمن حتى الآن لم يظهر شىء بالعربية فى تاريخ باريس.

تتعرف من خلاله على الحضارة الأوربية، يؤكد الشيخ فى مقدمته.. «فى ذكر ما يظهر لى من سبب ارتحالنا إلى هذه البلاد، والبعيدة عنا غاية الابتعاد.. هى تفوق هذه البلاد وبراعة أهلها فى العلوم البرانية والفنون والصنائع.، والرغبة فى جلب هذه المعارف إلى الديار الإسلامية وخلو ممالك الإسلام منه.. ويضيف «فكلما تقادم الزمن فى الصعود، رأيت تأخر الناس فى الصنايع البشرية والعلوم الدينية، وكلما نزلت ونظرت إلى الزمن فى الهبوط، رأيت ترقيهم وتقدمهم.. وبهذا الترقى، وقياس درجاته، وحساب البعد فى الحالة الأصلية والقرب منها، انقسم الخلق إلى عدة مراتب، الهمل المتوحش، والبرابرة الخشنين، وأهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن».

وحاولت الايجاز وارتكاب السهولة فى التعبير حتى يمكن لكل الناس الورود إلى حياضه ويحض على الترحال فالدر والمسك لا يشرفان ما لم يفارقا وطنهما ومعدنهما.

ويقول «قويت شوكة الإفرنج ببراعتهم وتدبيرهم ، بل وعدلهم ومعرفتهم فى الحروب وتنوعهم واختراعهم فيها.. ولا ينكر منصف أن بلاد الإفرنج فى غاية البراعة فى العلوم الحكمية وهى أعلاها فى التبحر، من ذلك بلاد الانجليز والفرنسيس والنمسا، فإن حكماءها فاتوا الحكماء المتقدمين ، وهدف الشيخ نقل حضارة العصر الحية، ورغم ذلك يحتفظ بزيه الشرقى ولا يغيره، ويحافظ على عاداته الشرقية، يستوعب كل ما يراه وينقله إلى شعبه، يسير فى دروب باريس ويتساءل.. لماذا تأخر المسلمون؟.. ولماذا تقدم غيرهم؟ ويكتشف معنى المواطنة وضرورة المساواة بين المواطنين.

ولم يقتصر على مجرد التعريف ببلاد الفرنسيس بل حث الشرق على الأخذ بأسباب الرقى، يقارن ويلتقط الفروق ويحللها، ويرى التشابه بين ثورة ١٨٣٠ فى باريس والتى شهد أحداثها وبين ثورة همام فى الصعيد. فتقف مصر خلفية ما يرى، ويقارن بين ما يراه وما عليه حال بلاده.. «ومن الأمور المستحسنة أنهم يضعون مجارى تحت الارض توصل ماء النهر إلى حمامات وسط المدينة، أو إلى صهاريج بهندسة مكملة، فانظر سهولة هذا مع ملء صهاريج مصر بحمل الجمال».

أو وهو يقول: «شتان بين ماء النيل وماء السين من جهة الطعم وغيره، فإن ماء النيل لو كانت العادة جرت بترويقه قبل استعماله، كما هى العادة فى ماء نهر

المسلة المصرية في ميدان الكونكورد اشهر ميادين باريس





محمد علي



رفاعة الطهطاوي



مصطفي كامل

السين لكان من أعظم الأدوية»، ويحلم قائلاً: «لو تعهدت مصر - (القاهرة) وتوفرت فيها أدوات العمران، لكانت سلطانة المدن ورئيسة بلاد الدنيا، فمصر أم الدنيا».

المدينة الساحرة

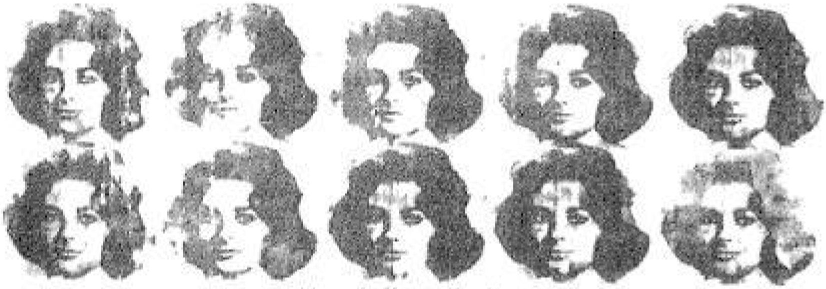
وعندما أخذت أتجول في باريس أبحث خلال جولاتي عن تلك المدينة الساحرة التي قدمها رفاعة،، وأقارن بينها وبين باريس المعاصرة.. لقد تغيرت باريس رفاعة، ولم يتبق من مبانى باريس القديمة، أي ما قبل الثورة الفرنسية إلا القليل من المبانى، وفيها من الجديد اللاحق الشيء الكثير، فعلى الضفة الشمالية من نهر السين لا يوجد من القديم الذى شاهده رفاعة، سوى مبنى الانفالية الذى يحفظ رفاة نابليون، والبانتيون الذى يرقد فيها العظماء أمثال «فولتير» و«روسو»، وقصر اللوكسمبرج الذى شيد فى عصر «لويس الثالث عشر» وبقى الحى اللاتينى بمقاهيه ودروبه، كما بقيت كنيسة نوتردام، وبقى على الجانب الآخر من نهر السين ميدان «فوج» ومتحف اللوفر وتمثال جان دارك بجوار حدائق التويليرى التى أعجب بها رفاعة وتجول بين أشجارها.

وقام بهدم المبانى التاريخية لويس نابليون الذى نصب نفسه إمبراطوراً عام ١٨٥٢، وفى ظل حكمه اختفى ما يزيد على نصف باريس التاريخية، لتحل محلها شوارع متسعة، ترتفع على جانبيها أشجار باسقة، وقصد من وراء ذلك طى صفحة الماضى واختفاء الأزقة التى كانت مرتعاً للثوار.

ومن يقلب صفحات كتاب «الشيخ» يدرك أن قيام مصر الحديثة هى من نتاج حركة ثقافية كان رفاعة أحد روادها، ويعود له الفضل فى تحقيق النقلة الفكرية فى البلاد، وكتابه يعكس الاهتمام بالآخر والسعى للتعرف على حضارته، ويؤكد أن أسباب محمد على لإرسال المبعوثين إلى الغرب هى الرغبة فى نقل هذه المعارف إلى الديار الإسلامية لخلوها منها..».

«قويت شوكة الإفرنج ببراعتهم وتدبيرهم، بل وعدلهم ومعرفتهم فى الحروب، وتنوعهم واختراعهم فيها».

وكأن صوته يأتى مناسباً اليوم بعد أكثر من قرنين، يقول: «تفضل باريز (باريس) على لندرة (لندن) بصحة هوائها، وطبيعة الأهل، وبقلة الغلاء، وكمال راحة الغرباء، وحظهم وانبساطهم مع أهلها، فالغالب على أهلها البشاشة ومراعاة خاطر الغرباء»، ويتحدث فى أكثر من موضع عن المرأة الفرنسية، يقول:



لوحة من الفن الحديث لأليزابيث تايلور

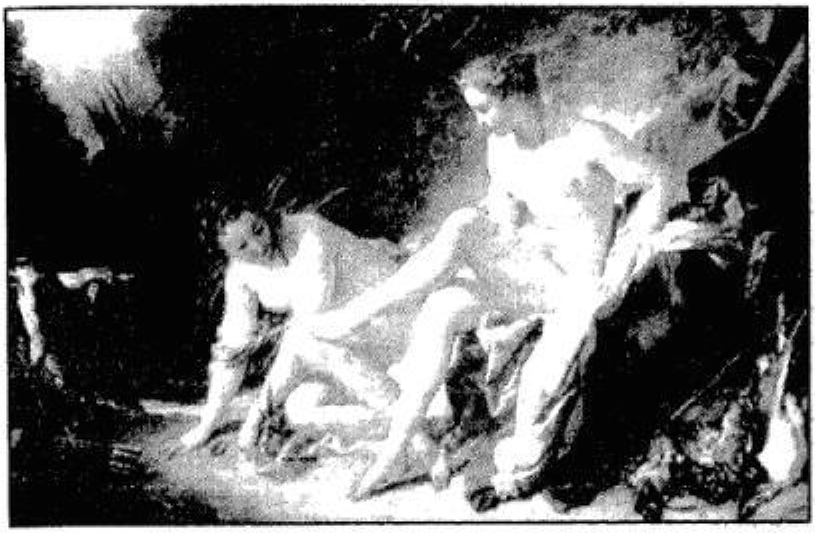
«عادة نساء هذه البلاد كشف الوجه والرأس والنحر وما تحته والقفا وما تحته واليدين إلى قرب المنكبين، والعادة أن البيع والشراء بالأصالة للنساء، والرجال عندهم عبيد النساء، سواء كن جميلات أم لا.. ولا يظن الإفرنج بنسائهم ظناً سيئاً.. مع أن هفواتهن كثيرة» ويقول «من خصالهم الرديئة، قلة عفاف كثير من نسائهم وعدم غيرة رجالهم، ويقول في موضع آخر.. «إن للنساء تآليف عظيمة، ومنهن مترجمات للكتب مع حسن العبارات وسبكها وجودتها».

وفي باريس .. «خمسة وسبعون ميداناً» ولها ثمانية وخمسون باباً، يسهل رش ميدان متسع وقت الحر، فإنهم يصنعون دناً عظيما ذا عجلات، ويمشون العجلة بالخيل، وله بزابيز تدفع الماء بقوة، وترش قطعة كبيرة في نحو ربع ساعة.. ومصرنا أولى بها لغلبة حرها..».

وظلت كلمة الحرية ملتبسة عند الشيخ .. يقول : «ما يسمونه الحرية هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف».. فالنواب الذين يختارهم الشعب كانوا على أيام الشيخ يدخلون المجلس النيابي بعد بلوغهم سن الأربعين على أن يملك عقارات تبلغ ضرائبها ألف فرنك في السنة.

ويحكي عن المسرح قائلاً: «أعظم السبكتاكل في مدينة باريس الأوبرا - والتي مازالت تقف اليوم شامخة - وفيها أعظم الآلاتية وأهل الرقص، وفيها الغناء على الآلات والرقص بإشارات كإشارات الاخرس التي تدل على أمور عجيبة .. وأهل باريس أغنياء جداً حتى أن المتوسط منهم أغنى من تاجر عظيم من تجار القاهرة.. يدفعون الميرى عن طيب خاطر.. وإذا مشى الوزير في الطريق لا تعرفه من غيره، والعسكرى في مصر له عدة خدم (!).. ويقول «لا تتوهم أن علماء الفرنسيس هم من القسوس (القساوسة)، لأن القسوس علماء في الدين فقط، وقد يوجد بين القساوسة من هو عالم أيضا.

أما ما يطلق عليه اسم العلماء ، فهو من له معرفة في العلوم العقلية، فإذا قيل في فرنسا هذا عالم، لا يفهم منه أنه يعرف دينه، بل أنه يعرف علما من العلوم، وسيظهر لك فضل هؤلاء في العلوم عن عداهم، وبذلك تعرف خلو بلادنا من كثير منها، وأن الجامع الأزهر المعمور بمصر وجامع بنى أميه بالشام، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بفاس ، ومدارس



لوحة فرنسية في متحف اللوفر رسمت عام ١٧٤٢ لمدام بومبادور: الغانية التي لعبت دورا خطيرا في الحياة السياسية

بخاري ونحو ذلك كلها زاهرة بالعلوم النقلية وبعض العقلية».

ومازالت أقواله تحتاج لمن يدرك ويعمل بما يناسب منها.

قطعة من أوربا

نعود إلى الصور المتعاكسة في العلاقات المصرية الفرنسية، ويدور التاريخ دورته ويأتي الخديو اسماعيل الذي تعلم في فرنسا ضمن بعثة الأنجال، ويستعين بالفرنسيين في كل المجالات، ويستقبل الإمبراطورة أوجيني في حفل افتتاح قناة السويس، ويستعين بالفرنسيين في إعادة تخطيط قاهرة اسماعيل، ولم يشفع له ذلك كله، ويقف ممثل فرنسا في صندوق الدين مع ممثل بريطانيا ويعملان على عزل إسماعيل.

وعقب الاحتلال البريطاني لمصر، انتشرت الثقافة الفرنسية، وأيدت فرنسا الحركة الوطنية، ومن الصفحات المهمة ما قامت به «جوليت آدم» في تأييد «مصطفى كامل» وإيصال صوته إلى الدوائر الغربية، ولكن سرعان ما عقد الاتفاق الودي بين فرنسا وانجلترا عام ١٩٠٤، الذي يقضي بأن تسلم فرنسا لانجلترا باحتلال مصر، على أن تسلم بريطانيا لفرنسا باحتلال المغرب.!.. وتوقف كل دعم للحركة الوطنية المصرية.

وما حدث عقب ذلك قريب العهد، وكانت أقسى فصوله اشتراك فرنسا في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، وكانت المرة الثالثة التي يقتحم فيها الجنود الفرنسيون حدود مصر، الأولى عام ١٢٤٩ تحت قيادة سان لوى (لويس التاسع)، والثانية بقيادة بونابرت عام ١٧٩٨.

ومازلنا مطالبين بالوصول إلى صيغة تعزل السياسي عن الثقافي، وهي الصيغة التي تساعد على التفاعل مع العصر الجديد والاستفادة من التقدم الهائل الذي يشهده العالم المعاصر... ■

لوحة للفنان ماتيس في مركز بومبيدو ◄



حرية التفكير والإبداع

«.. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» من الأدباء والشعراء وتابعيهم المثقفين

بقلم
د. كمال دسوقى *

بالاستثناء الذى ورد على الآيات الأخيرة من سورة الشعراء الذى يصلح معيارا للفصل فى تجاوز حرية الرأى والتعبير أو الالتزام بها - الآية ٢٢٤ «والشعراء يتبعهم الغاوون» وماتبعها من تعليل : ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون - يمكن التعميم على ماجاء بهمزية افتتاح لزوميات أبى العلاء عن الأدباء من قوله بنفس المعنى:

وما أدب الأقوام فى كل معشر
إلى المين إلا معشر أدباء

حيث يمكن استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيرا، وانتصروا من بعد ماظلموا .. فحكمة القياس فى الحالين اشتراكهما فى العلة وهى غواية الشعراء تابعيهم بشيطان الشعر، ودعوة الأدباء قومهم وعشيرتهم إلى مآدب الكذب وإبطال الحق وإحقاق الباطل.

* عضو مجمع اللغة العربية



عبد العزيز البشرى



علي الجارم

وكما كان سياق بيت شعر أبي العلاء مذب الكذب والضلال التي يقيمونها لأقوامهم استطرادا لأبيات الهمزية التي مطلعها :

أولو الفضل في أوطانهم غرباء
تشذ وتنأى عنهم القرباء

وهي التي تقول :

تواصل حبل النسل مابين آدم
وبيني، ولم يوصل بلامي باء

على الولد يجني والد، ولو أنهم
قضاة على أقوامهم خطباء

وزادك بعدا عن بنيك وزادهم
عليك حقودا أنهم نجباء

تذكرة بما جاء في لاميته الشهيرة من سفاهات تطاول الحقير على العظيم ومناطحة الصغير الكبير :

وطاولت الأرض السماء سفاهة
وجادلت الشهب الحصا والجنادل

وقال السها للشمس أنت خفية
وقال الدجى ياصبح لونك حائل

فقد كان سياق استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ماظلموا من غواية الشعراء لأتباعهم باللغو في كل فن من فنون الكلام كما قال ابن عباس وابن مجاهد وغيرهما، وهم يخوضون - كما قال الحسن البصري - في أوديتهم التي يهيمون فيها «مرة في شتيمة فلان ومرة في مديح فلان» وفي قول قتادة «يمدح الشاعر قوما بباطل ويذم قوما بباطل» أما عن قول الآية «وأنهم يقولون مالا يفعلون» فيشير ابن عباس إلى أن الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم فيتكثرون بما ليس لهم .

استثناءات ثلاثة

وأما عن استثناء هؤلاء المؤمنين الذاكرين الله المستنصرين به من الشعراء فقد نزل به الروح الأمين لطمأنة شعراء الإسلام حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، الذين جاءوا رسول الله باكين يقولون : «لقد علم الله حين أنزل هذه الآية أننا شعراء فتلا عليهم الاستثناءات الثلاثة واحدا واحدا وهم ينصتون ويقول هو : أنتم تذكرون الله في كلامكم وفي شعركم، وتردون على الكفار ماكانوا يهجون به المؤمنين - ففي الحديث الشريف إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والقسم بأن مايرمي به الشعراء الكفار كأنه رمي النبال» .. كي يعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» فالآية عامة في الشعراء

وفى غيرهم - فى الكافرين وفى المشركين . الذين اتهموا الرسول بأن قرآنه قول ساحر أو تنزلت به الجان والشياطين .

وأما عن كون مناسبة استثناء المؤمنين من الشعراء كما هو معروف الرد على الكفار الذين زعموا أن القرآن تنزلت به الشياطين وأنه قول شاعر أو سحر كاهن .. فيقول الله على لسان نبيه: هل أنبئكم على من تنزل الشياطين، تنزل على كل أفاك أثيم، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون، فهؤلاء هم الذين يسترقون السمع وينصتون للكلمة من علم الغيب فيزيدون عليها مائة كلمة ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس ليحدثوا بها فيصدقهم الناس فى كل ماقالوه بسبب صدق تلك الكلمة التى سمعت من السماء - مصداقا لسؤال عائشة رضى الله عنها النبى صلى الله عليه وسلم عن حقيقة الكهان وهم يحدثون الناس بما سيكون ورده عليها بأن كلمة حق يسمعونها يخطفها الجنى فيقرقرها فى أذن وليه كقرقرة الدجاج فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة . ومسترقو السمع هؤلاء بعضهم فوق بعض، كل يلقيها إلى من تحته، فالآخر لمن تحته حتى تصل إلى لسان الكاهن أو الساحر - وإذا لم يدركه الشهاب فيحرقه كذب معها مائة كذبة، ليقال : أليس قد قال لنا كذا فى يوم كذا، فيصدق بتلك الكلمة التى اختطفت سمعا من السماء .

حدود الإبداع وشروطه

قصارى القول فيما يتجادل حوله باستماتة الكتاب من الأدباء الروائيين والشعراء - وكان الإنسان أكثر شيء جدلا - فى شأن حدود حرية الإبداع وشروطها - كون القيمة الجمالية هى المعيار «الأوحد» للحكم على الأعمال الإبداعية، باعتبار «الثقافة الرفيعة هى الأداة الفعالة لمقاومة مكائد المتطرفين «الأهالى ٢٠٠١/١/١٧» وفى دفاع وزير الثقافة الحار عن تداعيات أزمة قصور الثقافة بأنه «لا سلطان لأحد على وزارتى، ولا دخل للأزهر ولا لغيره بهذا الموضوع، فنحن الذين ننشر مانحدده ونرضاه» والرد عليه بـ «نعم للإبداع الحقيقى، ولا لقلة الأدب» «الوفد ١٨ يناير ٢٠٠١» ، فالقيمة الجمالية للإبداع هى مناط الثقافة الرفيعة - لا باعتبارها أداة فعالة لمقاومة مكائد المتطرفين، بل لكونها مدعاة للتفاؤل والفرح بحيوية المثقفين مادامت لاتلحق الضرر بالأدب الحقيقى «نجيب محفوظ أخبار الأدب ٢٠٠١/١/٢١» .

هناك تصادم إذن بين الثقافة الرفيعة والأدب الحقيقى، لأن القيمة الجمالية للإبداع ليست ملكا خاصا للمبدع، بل لجمهور المجتمع المتلقى للإبداع، وحيث إن مادة فنون القول تفكير ذاتى يعبر به الشاعر والروائى

والأديب عن أحاسيسه ومشاعره هو، فلا سلطان لأحد عليه إلا إذا فكر بصوت عال وجاهر بآرائه، ووجداناته فتناقلها الرواة وسارت بإذاعتها الركبان - حيث لابد وقد تحول التفكير الصامت إلى تعبير ناطق مسموع أو مقروء أن يتوافق أو يتنافى مع آراء الآخرين ووجداناتهم الذاتية لكل منهم أيضا فى إطار الموضوعية الجماعية لمعايير الرأى العام وضوابط التفكير والتعبير المستحسنة والمستهجنة، فإن يكن الأصل فى قرض الشعر، ومن ثم التغنى به للترويح عن النفس، تعبيرا عن الإحساس بالجمال فى الطبيعة والاستمتاع بالحياة، وهما مناجاة النفس بأهازيج وترانيم وألحان عاطفية أو إيقاعات وجدانية، فالعلنية فيها تفسدها بجعلها غير صادقة، كما تخرج بها من الهواية إلى الاحتراف - كمدح الشعراء للخلفاء كى ينعموا عليهم - حتى فى تغزل الشاعر بمحبوبته وتشبيبه بها الذى كان يؤدى بشعراء الهوى العذرى إلى الحرمان من المحبوبة لأنه أساء إليها وفضحها بذكر محاسنها وإفشاء سر تعلقه بها ورسله إليها وربما لقائه بها فى غفلة من قومها .

الفصل بين حرية الإبداع وحرية التعبير

حرية الإبداع إذن شىء، وحرية التعبير شىء آخر، الأولى مكفولة بلا نزاع للمبدع مادام لم يفصح عنها أو يجاهر بها قبل أن يستوفى حقوق المؤلف أو يسجل لنفسه دون غيره براءة اختراعه أو حقوق ملكيته الفكرية الفنية والقانونية، بما يخول له مقاضاة من يدعى عليه بالسطو على أفكاره أو اقتباس ابتكاراته وإبداعاته، أما إذا تعجل الشهرة واستبق التميّز وتقرير الذات بإفشاء فكرته أو الإفضاء بجدة وابتكار عمله الفنى أو الأدبى، فإن حرية تعبيره هذه تفسد عليه قصده أن يتميز أو يحوز قصب السبق، إذ لايستطيع أن يمنع غيره من منازعته التفكير فى نفس الأمر بتوارد الخواطر وربما الأسبقية فى الإبداع مع الاحتفاظ بالحق وعدم النشر. وحين ينقسم المثقفون - وهم هنا الرواة والتابعون «الغاوون» بين مناصر لهذا ومعارض لذاك، ولايراد إرجاع الفتنة لتآمر سياسى حزبى عقائدى - رسمى أو شعبى - يقال بحق إنه كان على المبدع أن يتحوط لنفسه أثناء تفرغه لعمله الفنى - فيتفادى الشطط أو التبذل وخدش الحياء الاجتماعى أو جرح المعتقدات وهدم المقدسات، فلا يلقى بنفسه فى جحيم التهلكة ويوقع زملاءه الأدباء والمفكرين فى أتون الخلافات المدمرة ويحرج المسئولين عن الثقافة بدفاعهم عن حرية التعبير أو الاتحادات والنقابات بمطالبتها بالإفراج عن العمل المصادر ومؤلفه - تضامنا معه بحكم الزمالة والمصير المشترك فى علاقة

المثقفين بالسلطة المختصة بالرقابة .

بهذا يتحقق استقرار نوازع الإيمان وعمل الصالحات وذكر الله .. فى ضمير ووجدان الشاعر والأديب كرقيب ذاتى وهو يهيم فى وديان إبداعاته وتجلياته التى يخوض شيطان وحيه وإلهامه فى مدح فلان وذم فلان، وإبطال حق أو إحقاق باطل، والتفاخر بأقوال وأفعال يتكثر بها من «الغاوين» فمهما يصح أن أعذب الشعر أكذبه، وأن الشعراء يتبعهم الغاوون، وما روى الدارقطنى والبيهقى والحاكم عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله عن الشعر إنه «كلام حسنه حسن، وقبيحه قبيح»، فهو حتى لو اقترن - بالغناء - كما سنرى - لاغنى عنه لإزالة الفتور وسآمة القلب، إذ يشير السهر وردى إلى ماصح فى السنن من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان له شعراء يصغى إليهم فى المسجد، وأن التشبيهات والاستعارات التى استمع إليها فى إنشاد كعب قصيدة بانت سعاد لم ينكرها «إلا فى تشبيه الريقة بالخمر» حيث لاينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم، وهو مباح ما لم يكن فيه غش أو هجاء أو أذى لمسلم، بل هو سنة فى العرس ونحوه مما يكون فيه الأمر بالطاعة والحث على مكارم الأخلاق والزهد فى الدنيا والإعراض عن الشهوات والحب الإلهى عند المتصوفة .

الغناء من فطرة الناس

وليس رفع الصوت بالشعر فى الغناء مباحا فقط بقدر ماهو جزء من فطرة الناس ومباهجهم بالحياة ونشاطهم للعمل فحداء الإبل طوال قطع مفاوز السفر ، وغناء النساء لتسكين صغارهن، ولعب البنات بعرائسهن، والشدو بالأراجيز فى رفع حمل ثقيل، كل هذا اعتاد الناس عليه بالفطرة لبراءته وخلوه من المعصية، حتى ترقيق الشعر إظهارا للصنعة يقول الأذرعى عنه إنه يجب القطع بأن تسمية من لايدرى من هى وذكر محاسنها الظاهرة والشوق والمحبة من غير فحش ولاريبة لايقدح فى قائله - بخلاف تشبيب الشعراء بليلى وسلمى وهند والرباب - بل إن تناشد الأشعار فى المسجد غير منهى عنه إذا كان فيه خير - ولم ينه عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا لتحريم هجو محرم أو صفة خمر أو ذكر نساء أو مرد أو مدح ظالم أو افتخار.. هذا الفحش محرم فى المسجد مهما يكن حاصلا خارجه من قصد ابن اسحق خمر الجنة أو ريق المحبوب أو فواتح الحق على خلائقه .. مما هو شعر مذموم قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم من رأيتموه ينشد فى المسجد شعرا فقولوا له : فض الله فاك - ثلاث مرات - والحديث الذى تأوله أبو عبيدة على مايتشاغل به أهل المسجد : لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا .

لذا لاندرى على وجه التحقيق لم

يؤدى انتصار كبار الكتاب والمثقفين المفكرين «المبدعين» الموثوقين ومطالبتهم بالافراج عن الإبداع المصادر إلى المبالغة فى تحدى السلطات وهى لاتفعل أكثر من محاولة تهدئة الخواطر وطمأنة الشعور العام الثائر على انتهاك الحرمات وخدش الحياء أو هدم المعتقدات وتسفيه المقدسات .. بالرجوع إلى التراث لاستخلاص حالات شاذة من المجددين التنويريين - كأبى نواس - لم ينكر عليهم كبار أساتذة الأدب العربى ومؤرخيه جسارتهم فى وصف الخمر أو انحرافهم إلى الغزل بالمذكر، بل أعطوهم حقهم كمجددين بهذه الخمريات والغلاميات فى وصف الحياة المضرية المتغيرة من البداوة إلى الترف فى العصر العباسى، ففى ملحق «البستان» الخاص بأخبار الأدب «٤ فبراير ٢٠٠١» نجد على ثمانى صفحات كبار العناوين الضخمة التالية «أبو نواس فى مصر : من اللجوء الى المصادرة، المنتخب من أدب العرب المقرر على السنتين الرابعة والخامسة الثانويتين «طبع عام ١٩٣١» جمعه وشرحه طه حسين، أحمد الاسكندرى، أحمد أمين، على الجارم، عبدالعزيز البشرى، أحمد ضيف .. وعلى صفحة ١٩ نص ماجاء فى خطاب تاريخ الأدب العربى المقرر على المدارس الثانوية العليا «طبعة ٢٤/١٩٤٤» تأليف أحمد حسن الزيات، نماذج مختارة من شعر أبى نواس أيضا: قال فى الخمر، وقال أيضا.. وعلى الصفحتين العشرين والحادية والعشرين : كتاب تاريخ الأدب العربى لتلاميذ السنتين الثالثة والرابعة من المدارس الثانوية - ألفه الأساتذة أحمد الاسكندرى ، أحمد أمين، على الجارم، عبدالعزيز البشرى، د.أحمد ضيف، حيث نجد تقديما لأبى نواس الى الدارسين كشاعر اشتهر بلقب الجاد الماجن كما يلى :

حالات شاذة من التراث

إنه يتبين من اضطراب أقواله فى تاريخه هو لنفسه عن نسبه ونشأته كونه أول الأمر فارسيا ومن أبناء الأكاسرة، فانتسابه بعد ذلك لمضر ثم هجاؤها وانتسابه يمنيا وافتخاره باليمن ثم الاعتراف بأنه من مواليهم، وعلى هذا الزعم الأخير استقرت معرفة الناس به منذ كان جده مولى والى خراسان زمن بنى أمية، وأبوه من أهل دمشق ينتقل الى الأهواز ويتزوج فارسية تدعى جلبان ارتحلا به إلى البصرة وهو صبى فحفظ الأدب والشعر إلى أن تلقفه حين قدم إلى البصرة الشاعر الكوفى الماجن الخليع والبة بن الحباب فأغراه بالغزل والمجون وعلى التكسب بالشعر من مدح الرؤساء والحكام تارة وهجائهم تارة أخرى، ثم خرج به الى الكوفة على علمائها أبى عبيدة وخلف الأحمر حيث ضاق أهل البصرة هنا وهناك بفجوره

واستهتاره وهو لا يكف عن التشبيب بجواريهم وغلمانهم والمجاهرة بوصف مجالس شرابهم وندمانها وسقاتها - مما لم يكن مألوفا لدى العامة أو الخاصة - إلى أن انتهى به بما جنه على جارية الثقفى جنان «التى لم تبادله الحب لاشتهاره بالغزل بالمذكر» إلى تشديد النكير عليه وعلى شيطان شعره وفسوقه، وإلى التماس سعة العيش والاستمتاع بالملذات المحرمة باللجوء الى مصر وعامل الرشيد عليها الخصيب حيث يافته بالمديح ليحصل منه كل يوم على ألف دينار ويجاهر فى لامبالاة واستهتار بمنادمته له فى شرب الخمر، وحين يثور العامة عليه ويصارحه الوالى بأنه لا مقام له بعد بمصر ينطلق لاسكاتهم فيصعد منبر الجامع الكبير ليسخر من الوالى ومن أمير المؤمنين والرعية ثم يخرج محملا بغنيمته من أموال بيت مال المسلمين وأديرة الأقباط الذين كان يشرب الخمر بها ليعيش عيشة رغدة هانئة .

وجه الافتتان بأبي نواس

فقول ما وجه الإعجاب والافتتان بأبى نواس وهذه سيرته من الشعوبية وتجهيل الأصل والتكسب من الفسق والفجور والمجاهرة بالشذوذ والانحراف، مهما يكن أن كبار مؤلفى مقررات تاريخ الأدب منذ مطلع القرن لم يكن لهم أن يغفلوا دوره فى وصف التغير الذى طرأ على الحياة العربية فى انتقالها من البداوة إلى التحضر، فهم لم يقصدوا بطبيعة الحال أن يحببوا الناشئة فى هذا الفسق والفجور كتحضر وتنوير... ومهما يكن أن أستاذنا الكبير التقى النقى الورع وهو يسمى أبا نواس الشاعر المجدد قد قال إن أبرز نواحيه فى التجديد وصف اللذائذ فى الحياة الواقعية والإفاضة فى الحديث عن الخمر والغلمان والاستمتاع بهما - مقابل فلسفة أبى العتاهية فى الزهد - وأنه أبدع فى تصوير الخمر وتشبيهها وفعلها فى النفس، كما أبدع فى كل مايتصل بها من نديم وساق وكأس وخمار، وكذلك أبدع فى وصف مجلسها وما فيه من ريحان وأزهار وطرب وغناء وجوار وغلمان يشربها صرفا وممزوجة وفى السر والجهر .. كذلك كان شأنه فى الغزل بالمذكر - هل هو منشىء هذا الباب وفاتحه على مصراعيه؟ لقد فشا حب الغلمان والحديث عنهم فى عصر أبى نواس أكثر مما كان عصر بشار، فكان أبو نواس أصدق معبر عن هذا المرض الاجتماعى لتهتكه وفجوره «حتى إن زبيدة لخوفها على الأمين منه اتخذت له سربا من الجوارى فى زى الغلمان» .. فقد عقب مؤرخ الأدب العربى الكبير أحمد أمين على ذلك بقوله إن فكاهته الحلوة ونادرته العذبة ومجونه المرح الذى يثير العجب والضحك هو الذى كان يفوت جرأته على القيم والتقاليد والأخلاق التى لا ترعى لأى منها حرمة

ولا ذمــة، وكل ذلك باسم الفن والأدب، وإنه إذا كان قد شرع للصوفية الغزل والخمريات كحب إلهي تعبيرا عن العشق والوجـــد فلم يكن ذلك إلا كناية عن الروحـانيـة في سلوك طريق التـجـرد والفناء في ذات المحبوب .

بين بشار وأبي نواس

ونتساءل في استـغـراب لماذا لم يدرك كـبـار الكتـاب عن أبي نواس في ملحق «البستان» اعتبار الأستاذ أحمد أمين أن المجدد الأول التنويري قبل أبي نواس هو بشـار بن برد الذي اسـتـحق لقب زعيم المحدثين لاستطاعته أن يصور بفنه الحياة الاجتماعية الجديدة في العصر العباسي تصويرا دقيقا من حيث اختلافها عما كانت عليه حتى الدولة الأموية في جميع مناحيها من جد ولهو، سياسة وعلم، شعوبية عصبيات ومذاهب قبلية وطائفية أساغها العامة وتغنوا بها ووجدوا فيها التعبير الصادق عما يحسون به من تغير؟ فليست الخمريات في ذاتها هي مـا بـه صـار أبو نواس عبقريا بقدر ما أن المجاهرة بمعاقرتها والمباهاة بعدم الاقلاع عن السكر مهما حبس ونفي - وإلا فإن وصف مفعولها الروحاني لدى الصوفية أبلغ وأحب، كما أن الغزل بالمذكر ليس جديدا، فهو في الشعر الغنائي حتى اليوم أكثر بلاغة في مـخاطبة المحبوبة واحترام أنوثتها وعواطفها وهي ماثلة أمام العـاشق الولهان - وهو ضرورة أحيانا لإخفاء ما بالنفس من خشية الحرمان من المحبوبة لدى شـعـراء الهـوى العـذري، بل من استنكار المجتمع لذلك الهوى في مثل حال الداخلين في الإسلام من أصحاب الديانات الأخرى كابن سهل الأندلسي الذي يقول عنه الدكتور احسان عباس في تقديم ديوانه «دار صادر، بيروت، ١٩٦٧ ، ص ٣٧ -ص٣٨» إن أكثر غزل ابن سهل توجه إلى الغلمان حتى قلَّ أن نجد فيه غزلا بالمؤنث، فأشعاره الغزلية تدل على أن حـبـه لم يبق وقـفـا على موسى، إذ تغزل بغلام اسمه محمد وقال في ذلك :

شريعة موسى عطلت بمحمد

هديت ولولا الله ماكنت اهتدي

وهو في إحدى قصائده يمدح من يكنى بأبي بكر، وفي أخـرى غـلام بني الحسن بن علي، وفي ثالثة يرثي ابن غالب ويعزي ابنه أبا بكر محمدا، وفي إحدى موشحاته يمدح أبا العـيش التلمساني، لكن أين ؟ في سبتة أم تلمسان أم في موطن آخر، وهل كنية أبي العيش تدل على أنه يهودي؟ إن هذه الموشحات والأغزال الغلمانية مما بعد الفترة الاشبيلية استمرار في هذا اللون من الذوق والنزعة ذو دلالة عميقة على طبيعة الشاعر ونفسيته التي «في دراسة مبكرة لي أسميته بها الشاعر الذليل- مقابل تسمية صاحب الغارات والغزوات ابن أبي ربيعة على خدور عشيقاته الشاعر الجسور». ■

دور الدين فى حياتنا

بقلم

د. عبدالحكيم بدران

عودنا د. صلاح قنصوة في الندوات الكثيرة التى يشارك فيها محاولا دائما أن يخفى حقيقة أفكاره وأن يتهكم ويسخر، والكثيرون يرتاحون لعباراته الساخرة وبعد أن يؤدى الغرض من تهكمه يستدرك ليقول إنه متدين ويؤمن بالله. وفي كثير من الأحيان يتهم الآخرين بأنهم يدخلون في ضمائر الكتاب ويخونونهم أو يكفرونهم.

ولقد سمعناها مع الضجة التى أثيرت حول وليمة أعشاب البحر التى شحنت وزارة الثقافة كل طاقاتها لتدافع عنها. ولكن مع الروايات الثلاث الأخرى تأسف وزارة الثقافة لإصدارها ومع الوليمة تنهال الاتهامات على الجهة التى تقرر عدم نشر بعض الكتب المسيئة للمجتمع، ومع الروايات الثلاث تخرس الألسنة التى تكلمت كثيرا فى المرة الأولى.

ومع قضايا تأويل المقدسات، ترفع دعاوى الردة والفصل بين الأزواج، وتعلو الأصوات مرة أخرى ضد الاتهام بالتكفير، وانطلاق القوى الظلامية... والمعركة دائما ذات طابع واحد.. الابداع إلى أى حد، والتأويل تحت أى شروط، والضوابط التى تحكم الأمرين.

ويرى قنصوة أن المسئول الأول والأخير عن إشعال الإثارة فى مثل هذه الأحداث، هم جماعة السلف الجهلاء المتسلطين بدون وجه حق على رقاب العباد. وصلاح قنصوة يدعى أن لهؤلاء الغلبة والسطوة، مما جعله يجد صعوبة كبيرة فى نشر مقالاته هذا ما يذيعه، ونحن لا نعلق على ادعائه.

ولنبدأ المقال من أوله لنجد قنصوة يريد أن ينفى مصطلح «رجل دين» من


حديث فى ....

...وم الدين وعلوم الحـ...

بقلم

د. صلاح قنصوه

تتربص بنا اليوم متغيرات عالمية عاصفة قضت على رأسمالية الدولة التى سادت النظم الشمولية جميعا على اختلاف ايديولوجياتها، كما ادت الى خلخلة الاحتكار فى كل شىء، وفتحت المنافذ والمعابر بين البشر كافة، بحيث لا يمكن أن يأوى اى منا الى سلطة ما تحصنه من خوض المنافسة فى كل شئون الحياة، فكرا وسلوكا.

وقد ضمتنى جلسة الى صديق تحاورت معه حول ما يحدق بنا من مخاطر فى ظل هذا الافق الشامل. وكان الحديث عن الشأن الدينى.

اللغة العربية بدعوى أنه لا كهنوت فى الاسلام، وأن من يشغل نفسه بأمور الدين يطلق عليه لفظ «عالم». وأنا لا أدرى ما ماهية قنصوة فى مقاله، أهو عالم دين، أم رجل دين، ولا أرى أنه هذا أو ذاك، فمن هو إذن؟!، ولماذا يترك قنصوة فلسفة العلم الذى بدأ بها حياته الاكاديمية، ويقف بها عند العام ١٩٦٧م، ولا يستمر فى فلسفة الجمال وهو الذى يشار إليه بالبنان فى هذا المجال فى مصرنا المحروسة.

علماؤنا الطبيعيون فى معاملهم يتعاملون مع الجزيئات والأجهزة والكائنات الحية، ولا يلتفتون كثيرا أو قليلا إلى ما يقوله حسن حنفى أو نصر حامد أبوزيد أو سيد القمنى أو عشماوى، أو إلى من يردون على هؤلاء، ولا يدركون ما يدور حول الروايات وقصة الابداع، والمجتمع فى أشد الحاجة لبحث مشكلات البحث العلمى، والتعليم، ولماذا لم يصل علماؤنا بالبحث العلمى فى مصر إلى مستوى عالمى، والمواطن العادى فى حاجة إلى تنمية التذوق بالجمال لديه، وعندها سيستطيع أن يميز بين القبيح والجميل فى الرواية والأدب والشعر والفلسفة وعلوم الدين، كلما زادت رقعة العلم، انكمشت مساحة الجهل، وهذا ما حدث بالفعل فى أوربا القرن الثامن عشر والتاسع عشر، انطلق العلم الحديث بفضل فلاسفة فى العلم لا رجال فى الدين، ولم يصبح فى حالة ضعف أمام موجة التدين التى هبت لتناهض العلم فى بدايته فى القرن السابع عشر، والآن وفى مجتمع غربى قوى لا يخشى أحد من رجال الدين أو تسلطهم هذا إن استطاعوا.

نحو فكر فلسفى قوى

أما فى مصر عجز علماؤنا ومفكرونا

أن يقتحموا ميادين الفكر المعاصر، فأخذوا ينقلون تارة عن الوجودية، وأخرى عن البنيوية ولم يحدث أن كونوا سياقا لفكر فلسفي قوى ينجح فى نقل المجتمع من حالة متردية إلى حالة من الرقي، نبتغيها جميعا ولا تعرف الطريق للوصول إليها، وهذه حكاية ليست جديدة فلقد بدأت مع بداية القرن، مع مفكرين عظام ورواد كبار كان من ضمنهم طه حسين، وحسين هيكل، ولطفي السيد، وزكى نجيب محمود - والقائمة طويلة.

قال هؤلاء أدبا وشعرا ونثرا وفلسفة وحكايات طويلة وعريضة، كلها بعدت عن التراث، وفى بعض الأحيان، كما ذهب العلم متخلفا كثيرا عن الأدب والفلسفة فى ثقافتنا.

يعترف زكي نجيب محمود بأنه أهمل التراث، حتى كانت إعارته لجامعة الكويت، وهناك وجد نفسه فى جو آخر يتشيع لتراث الأمة، فأدرك مدى خطئه، فأخذ يلملم بعض أطرافه بعد فوات الأوان، وفى كتاب آخر يعترف بأن فكره لم يكن يتعدى حدود مصر، فلقد عجز عن فهم القومية العربية - هكذا كان فيلسوف الأمة.

الاسلام لا يقر الاعتراف

أما حسين هيكل فيقول: والمصريون والشرقيون لم يفطنوا بما يجب من الدقة إلى هذا الاتصال التاريخى بين الدين والعلم والفلسفة والأدب فى الغرب، والذين فتنوا بأدب الغرب، هؤلاء وأولئك خيل لهم أنهم قديرون على نقل صورة الأدب إلى الشرق كما هى، فخيل إليهم أن فى الشرق كنيسة ككنيسة الغرب، وأن ما انتهى إليه النضال بين الدولة والكنيسة فى الغرب يجب أن يبدأوا عنده حملتهم على هذه الكنيسة الموهومة فى الشرق، وخيل إليهم أنه يجب الفصل بين الكنيسة والدولة على نحو ما حدث فى فرنسا واعترف أن خواطر كهذه جالت بنفسى فى أوقات متفاوتة ولكنى إذ فكرت وفكرت رأيت تاريخ الحضارة فى الشرق غير تاريخها فى الغرب، ورأيت الحضارة الإسلامية لا تعرف شيئا اسمه الكنيسة، لأن الاسلام لا يقر الاعتراف، ولا يقر سلطة القساوسة ورجال الدين وإنما يقر «إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

ولم يبرىء محمد نور رئيس النيابة طه حسين من أخطائه فى معالجة المشكلة الدينية وعلاقتها بالشعر الجاهلى، ولكنه فقط برأ هذه الأخطاء برغبة الباحث فى عمل علمي يحق له من خلاله أن يفعل ما يشاء، وعليه فلم يدنه ويقدمه للمحاكمة.

أيكفى ما قدمنا عن فكر الرواد ليرى القارىء أصل الداء الذى يحاول قنصوة أن يعبث به، وكما راح رواد ثقافة القرن الماضى فى طريق آخر غير طريق رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده، يذهب قنصوة ومعه الجيل الجديد ورثة الرواد الأوائل لينقل لنا عن عبده مباشر وطنطاوى ومصطفى محمود ويترك كل علماء الدين المتنورين.

وهنا يثار السؤال، هل يسير قنصوة على طريق حسن حنفى، وعلى مبروك، ونصر حامد أبوزيد، وسيد القمنى وعشماوى وآخرين ، أم أنه حقيقة عقلية

متفردة وخاصة، ويستحق انتباهاً أكثر.

تأويل النص الى ما لا نهاية

ولكن ما قاله قنصوة حول الاختلاف بشأن بعض الأحاديث النبوية لا جديد فيه – والأمر الخطير هو ما يتعلق بالنص القرآني، وما قاله عن الناسخ والمنسوخ، وعلوم الدين التي اقترحها، كل هذا لن يحل مشكلة حاول أن يفتعلها، وهي موضوعية العلوم الدينية، والعلوم الدينية كأي علم من العلوم الانسانية لا يمكن قياسها بمعايير العلوم الطبيعية، ومهما كان الأمر، فكل عالم في المجال يضع مقدماته كما يتراءى له حسب منهجية ينفرد بها، وبالتالي سنصل في النهاية إلى نتائج متباينة لا حد لها. وهو بالفعل ما يتفق مع مسألة تأويل النص، وتأويل التأويل، وهكذا إلى ما لا نهاية. وهنا نجد أنفسنا أمام واقعة خطيرة إذا أردنا أن نطبق نظريات النقد الأدبي على النص المقدس، فسوف ينتهي الأمر بانهياره تماما إن طبيعة الدين، تختلف عن طبيعة العلم – ومهما نقل عن علوم الدين فإن الدين بالنسبة للانسان عاديا أم عالما إيماني في الأساس يتصل بالقلب، وينير طريق العقل الذي ينبغي أن يعمل على أساس من الأخلاق والقيم والمثل قوي، بعكس ما يقول «كانت» على أن ما لا يثبته العلم، لا يكون محل الاعتماد، والله من ضمن أمور أخرى لا يثبته العلم أو العقل، وبالتالي فهو يرى أن الأخلاق تأتي أولا ثم نبدأ التفكير في الدين.

على كل حال إذا (كان الدين لا تنطبق عليه قوانين العلم الصارمة، فلماذا لا يكون الحكم فيه للجماعة – والحكم هنا أكثر صدقا منه في حالة حكم الفرد، وهنا سوف نتهم بأننا نخنق الابداع، ولكن ، هل نحن أبدعنا في كل شيء ولم يبق إلا الابداع في الدين، نعم يجب أن نبدع في الدين، ولكن إذا أبدعنا أولا في اختراع أدوات الدراسات الدينية، ولم ننقل عن الغرب هذه الأدوات، وحينما يقول قنصوة إننا أمام متغيرات عالمية عاصفة قضت على رأسمالية الدولة التي سادت النظم الشمولية جميعا، على اختلاف أيديولوجياتها، يتغافل عن العاصفة الأعتى التي هزت فكر التنوير كله بما فيه عقلانية «كانت» ووضعية «كونت» – إلخ.

اختلاف الاجتهادات المتفاوتة

ولا وجه للمقارنة البتة بين الاسلام والماركسية ، فيما يختص بالحظر والتحريم، وفي هذا المقام يستعرض الكاتب علمه الغزير وهو يحدثنا عن فهم اختلاف الاجتهادات المتفاوتة، إذا ما طبقنا عليها ما يسمى في مناهج بحث الرياضيات .. إلى أن يقول «وهي التي نسميها نظريات مبرهنات للهندسة وهي التي تختلف عن النظرية العرفانية في علوم الطبيعة والمجتمعة».

وهنا يخلص صاحبنا إلي نتيجة مفادها أن الدين أساس علينا أن نبني فوقه – ولكن دون أن يكون هو البناء نفسه، وهو حافز على العلم دون أن يكون هو نظرية من بين نظريات العلم، كل هذا لا يمنع من أن نحرم ونحظر في شئون الدين، في الدين في الأساس الذي نبني عليه؟! ومن أين أتي قنصوة بالخلاصة التي اغتصبها ليقول لنا في نهاية المقال «والواقع أن الايمان الاسلامي باليوم

الآخر الذى يملكه سبحانه وحده لأنه مالك يوم الدين، هذا الإيمان لا يليق أن يغتصبه أحد للحكم على البعض الآخر فى الحياة الدنيا، وهو الذى يعصمنا من الحرب الأهلية غير المعلنة بين المواطنين».

هل هذا معقول، هل يصح أن نسكت على هؤلاء؟ ولا أحد يعلم ما تبطن وتخفى الصدور، هذا عظيم إذا راح قنصوة فى تدينه يستقر فى كهف أو محراب يتعبد الخالق وحده، وهو حر فى طريقة تعبده، أما أن يخرج علينا فرد ما أو حتى عالم ما يقول لنا عكس الحقيقة ويتعسف فى المقولات ، فلا نصارعه ونقارعه الحجة بالحجة، فهذا رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه، واستغفر الله لى ولكم ؟!

اجتهادات فردية بحجة الابداع

ويقول قنصوة «فالاختلاف فى الاجتهادات لا يمكن لأحد أن ينصب نفسه فيها حاكما يقضى بينها باسم الله» - لا أحد يحكم باسبحان الله - هل هذا منطق أم علم أم ماذا ؟ ولماذا إذن نقيم المحكمة الدستورية العليا، حتى تفصل فى حدود الدستور، ولا أحد له الحق فى نقض الدستور ومواده، الكل يلتزم بنصوصه، وليس فى الأمر اجتهادات وإلا ضاع القضاء، الدستور مقدس، أما الدين فهو معرض للاجتهادات والتباينات، ونرجع مرة أخرى لنقول ما الدين ؟ فليأت لنا التراث باجتهاداته المختلفة، وخرافاته المتباينة ، ولكن فى النهاية يبقى الأساس القويم الذى نحتكم إليه جميعا، وكما يقول الرسول الكريم «تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبدا، كتاب الله وسنتى» ولنترك سنة الرسول حتى تخلص من الشوائب، أما كتاب الله فلا تمس نصوصه بحجة أو بأخرى، كما لا يمس دستور البلاد وإذا كان يمكن أن يعدل الدستور، فلا مجال أن يمس كتاب الله فهو دستور أبدى.. وهنا بيت القصيد، قرآن منزل من عند الله، وهو أساس الدين الذى نبنى عليه، أو اجتهادات فردية بحجة الابداع وسلطة العقل، ولا سلطة فوق سلطة العقل. وهنا نخلط كثيرا بين العلم والدين .. وعلينا أن نؤكد أن دور الدين فى حضارتنا لم يتعارض أبدا مع التقدم العلمى والتقنى بل إنه كان الحائز له.

وفى الغرب يؤكد بلانك العالم الفيزيائى الكبير هذا وهو يتكلم عن العلاقة بين العلم والدين يعتنق الرأى القائل إنه لا يوجد تناقض بين الاثنين، وإن العلم والدين يمكنهما بالطبع الالتقاء.

ويفترض بلانك أن الدين والعلم ينتميان إلى مجالين مختلفين جدا من الحقيقة، إن العلم يهتم بالناحية المادية الموضوعية من العالم، إنه يضعنا أمام واجبنا وهو عمل مقولات صحيحة حول هذه الحقيقة الموضوعية ، وفهم علاقاتها المختلفة، ولكن الدين يهتم بعالم القيم ، هنا يدور الحديث حول ما يجب أن يكون وعما يجب فعله، وليس عما هو كائن بالفعل. ■

شخصية العدد

شوقي ضيف

عطاء بلا حدود في مجال الفكر العربي

بقلم
د. محمود علي مكي

شوقي ضيف والجائزة

تبأ الموسم الذي أصاب الأوساط الثقافية في مصر والعالم العربي كله خلال هذه السنة بصدمة عنيفة هو الجرم الفادح الذي ارتكب في حق أستاذنا وأستاذ الأجيال الدكتور شوقي ضيف حينما أخطأته - للمرة الثانية - جائزة مبارك للأدب العربي . وليكن واضحا منذ البداية أننا لانعترض علي منح الجائزة للأستاذ أنيس منصور، فهو مفكر وأديب كبير ذو قلم رشيق وثقافة واسعة تؤهله لنيل هذا التكريم. وإنما اعتراضنا علي تجاهل شوقي ضيف، ذلك العالم الأديب الذي يعد أعلي قمم الثقافة العربية، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وقد كان في وسع هيئة التحكيم التي تمنح الجائزة أن تبدأ بمنحها أولا لشوقي ضيف، ثم تجد بعد ذلك متسعا لمنحها في دورة تالية لغيره من كبار الأدباء والكتاب ممن لم تخل منهم الساحة الثقافية أبدا في مصر .





شخصية العدد

ولست أراني فيما أقول إلا معبرا عما يشعر به المشتغلون بالأدب ودراساته فى مصر وفى العالم العربى كله إزاء ماحدث، وهو ما تردد فى كثير من التعليقات التى أعقبت إعلان النبأ وحفلت بها الصحف فى كل مكان . ويكفى أن أشير من آخر هذه التعليقات إلى الملف الكامل الذى أفردته صحيفة «أخبار الأدب» فى عددها المؤرخ فى أول يوليه ٢٠٠١ تحت عنوان «شوقي ضيف لمن لايعرفه» وهو يتضمن حوارا شائقا مع أستاذنا الكبير أداره الأديب الصحفى مصطفى عبد الله، ومقالات لبعض تلاميذ شوقي ضيف ومريديه، وموجزا لسيرته الذاتية، بالإضافة الى مقال له حول اللغة العربية وازدهارها فى القرن العشرين ومستقبلها الذى يبشر بمزيد من الازدهار . على أن لدىَّ اعتراضا على العنوان الذى وضعته الصحيفة للملف المذكور، إلا إذا كان مقصودا بصفته ضربا من ضروب السخرية أو ما كان يدعى فى المصطلحات البلاغية القديمة بـ «تجاهل العارف» ، إذ لا أعتقد أن هناك فى عالمنا العربى من «لايعرف» شوقى ضيف، إلا إذا لم تكن تربطه بالثقافة العربية أدنى علاقة.

● د. شوقى ضيف أعلى قمم الثقافة العربية خلال النصف الثانى من القرن العشرين

وأشهد أني جبت العالم العربى من أقصى مشرقه فى العراق والكويت إلى أقصى مغربه أستاذا معارا وزائرا أو مشاركا فى مؤتمرات وندوات، فلم يخل بلد من هذه البلاد من عدد كبير من أساتذة الجامعات فيه أو من أبنائه ومثقفيه كانوا تلاميذ مباشرين لشوقى ضيف أو غير مباشرين من قراء كتبه والمستفيدين من دراساته، ولم تقتصر معرفة شوقى ضيف على عالمنا العربى، بل وسعت أيضا آفاقا فسيحة من عالم الإسلام ومن الأقطار الشرقية الآسيوية، فقد ترجم كتابه فى «النقد» إلى اللغة الإيرانية، وأعدت الباحثة الإيرانية شكوه السادات حسينى رسالة علمية قدمتها لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة الإسلامية فى طهران فى موضوع «آراء شوقى ضيف النحوية والبلاغية» وقد نشرت هذه الرسالة وأصبحت فى متناول الباحثين، كما ترجم كتابه فى «الأدب العربى المعاصر» إلى اللغة الصينية، واعتمدت أقسام اللغة العربية فى الجامعات اليابانية على دراساته فى تاريخ الأدب العربى وعلى منهجه فى تيسير النحو وتجديده.

وخلال إقامتى الطويلة فى إسبانيا وزياراتى للعواصم الأوروبية

وفى أمريكا بشطريها الشمالى والجنوبى كنت أرى كتب شوقى ضيف ذخيرة ثمينة تقتنيها مكتبات جامعاتها حيث تعد من أهم مراجع المستشرقين هناك، ولايخلو كتاب من كتبهم من اعتماد على مؤلفاته فى تاريخ الأدب العربى وفى اللغة العربية بفروعها المختلفة من دراسات قرآنية أو بلاغية أو نحوية .

شهادة أستاذ للأدب الانجليزي

وإذا كان المستشرقون الأوربيون هم الذين كان لهم السبق فى إحياء تراثنا العربى ونشره ودراسته فقد عرف شوقى ضيف كيف يرد هذا الدين، وتكفينى فى ذلك شهادة أستاذ جليل لآداب اللغة الانجليزية هو الدكتور ماهر شفيق فريد الذى يقول فى مقال له بعنوان «نهاية سطوة المستشرقين» :

«عندى أن أول مايرمز إليه «شوقى ضيف» هو اعتدال النظر وسلامة الميزان وقيامه على أسس راسخة من العلم والذوق والدربة بحيث لاتجمح به الأهواء. لقد برىء شوقى ضيف من داءين مخامرين لا أدرى أيهما شر من صاحبه : داء الاستخذاء الذليل أمام الثقافة الغربية من جهة، وداء الاستعلاء الأثيم على هذه الثقافة والانكفاء الى ماض لاشك فى عظمته، ولكن لاشك أيضا فى أنه لم يعد يفى بكل ما جاء به عصرنا من جديد المعطيات من جهة أخرى . شوقى ضيف يمثل الثقافة العربية الناضجة حين تقف شامخة واثقة بذاتها، لا تعشى منها العينان إزاء أنوار حضارة غربية، ولاتنبهر بأضواء الماضى الذى يضفى عليه البعد الزمنى حرمة بل قداسة، لقد جاوزنا معه وبه مرحلة الانبهار بآراء المستشرقين، كما جاوزنا مرحلة الوقوف الجامد عند مقولات الأقدمين، قرأ شوقى ضيف هذا كله وتمثله، وأعمل فيه عقله الناقد، ثم خرج بمركبه الخاص، وهو مركب مصرى عربى إنسانى، هذا درسه الأول، وربما كان درسا خلقيا بقدر ماهو علمى» .

حول التاريخ للأدب العربي

التأليف فى تاريخ الأدب العربى لون من ألوان الكتابة لم يظهر بصورته التى نعرفها اليوم إلا فى أواخر القرن التاسع عشر، وقد يبدو هذا غريبا لما نعرفه من شدة عناية العرب بالتاريخ من ناحية، ومن ناحية أخرى بالأدب وتراجم المشتغلين به مما ألف فيه القدماء كتبا بالغة الضخامة مثل الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ومعجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان وما ألحق به من ذيول وكتب طبقات الشعراء والكتاب، وهى كتب تقدم مادة وفيرة تعين على تتبع المسار الأدبى للأمة العربية، ولكنها لاتسلك فى باب «تاريخ الأدب» ولهذا ذكرنا أن التأليف المنهجى لكتابة تاريخ شامل للأدب العربى لم يظهر إلا مع نهضتنا الحديثة بصفته ثمرة من ثمرات اتصال ثقافتنا العربية بالثقافة الأوربية خلال القرن التاسع عشر .

وكان للمستشرقين الأوربيين الفضل فى النهوض بكتابة التواريخ الأولى للأدب العربى على نهج تاريخهم لآدابهم القومية، فكان أول المؤلفين فيه المستشرق النمسوى جوزيف هامر بورجشتال «١٧٧٤ – ١٨٥٦» إذ نشر بالألمانية مؤلفا بالغ الضخامة بعنوان «تاريخ الأدب العربى» فى سبعة مجلدات «١٨٥٠ – ١٨٥٦» وكان يرجع فى هذا



التاريخ الى التراث المخطوط، إذ لم يكن قد نشر من النصوص العربية حتى أيامه إلا أقل القليل . وتلا هذا المؤلف مستشرق نمسوى آخر هو البارون فون كريمر «١٨٢٨ - ١٨٨٩» الذى نشر كتابه عن «تاريخ الحضارة فى الشرق فى ظل الخلفاء» فى مجلدين «فينا ١٨٧٧» ثم توالت بعد ذلك خلال السنوات التالية كتب أخرى لمستشرقين أوربيين تتفاوت استيعابا وقيمة حتى نشر الألمانى كارل بروكلمان «١٨٦٨ - ١٩٥٦» الطبعة الأولى من كتابه الجامع «تاريخ الأدب العربي» فى سنة ١٨٩٨، ثم أتبعه بطبعات متوالية وإضافات وملاحق حتى سنة ١٩٤٩.

وأما فى العالم العربى فربما كان أول من حاول التأريخ للأدب العربى تأريخا بهذا المفهوم الحديث هو حسن توفيق العدل أستاذ تاريخ الأدب فى دار العلوم «١٨٦٢ - ١٩٠٤» وكانت محاضراته قد جمعت بعد وفاته فى سنة ١٩٠٦ فى كتاب بعنوان «تاريخ آداب اللغة العربية» ثم كتب جرجى زيدان كتابا بهذا العنوان نفسه كان اعتماده فيه على بروكلمان وطبع فى سنة ١٩١١. وقد قام شوقى ضيف بمراجعة طبعته الثانية منقحا لها ومعلقا عليها . وخلال الربع الأول من القرن العشرين تتوالى كتب فى هذا الموضوع كان الهدف منها سد حاجة المتعلمين فهى تعليمية الطابع، وكان المختصر منها يستخدم فى المدارس الثانوية والمطول كان يدرس فى دار العلوم أو معاهد المعلمين أو مدرسة القضاء الشرعى .

يمثل شوقى ضيف الثقافة العربية بشموخها وذاتها الواثقة

طه حسين وتاريخ الأدب العربى

حينما فتحت الجامعة المصرية القديمة أبوابها فى سنة ١٩٠٨ شرع القائمون عليها فى استقدام عدد من كبار المستشرقين الأوربيين ليدرسوا تاريخ الأدب العربى، وكان من أبرزهم الإيطاليان «إجناتسيو جويدى» و«كارلو نالينو» «١٨٧٢ - ١٩٣٨» الذى كان يحاضر باللغة العربية، ثم الفرنسى «جاستون فييت» وعلى هؤلاء درس طه حسين قبل أن يوفد مبعوثا لإتمام دراسته فى فرنسا، أما خلال سنوات البعثة «١٩١٤ - ١٩١٩» فقد زادت معرفته بالمناهج الأوربية فى تاريخ الأدب ونقده، ونضج تصوره لما ينبغى أن يكون عليه من ينتدب للتأليف فيه . وكان تأثره كبيرا بأستاذه جوستاف لانسون «١٨٥٧ - ١٩٣٤» صاحب كتاب «تاريخ الأدب الفرنسى» .

وخلال السنوات التى قضاها طه حسين فى التدريس بالجامعة

المصرية الجديدة التى تحولت الى مؤسسة رسمية فى سنة ١٩٢٥ يشرع فى إلقاء محاضراته عن الأدب العربى، وهى المحاضرات التى جمعها فى كتاب «فى الشعر الجاهلى» ثم عاد لتقديمه فى سنة ١٩٢٧ بعنوان «فى الأدب الجاهلى» ،وفى مدخل هذا الكتاب يتساءل طه حسين : «متى يوجد تاريخ للآداب العربية ؟» ويقول إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضى أولا معرفة الشروط التى يجب توافرها فى المؤرخ الأدبى، وهى فى تصوره : أن يتوفر لديه ذوق أدبى رفيع، وأن يكون على حظ كبير من العلوم الأدبية، وأن تسبق عمله جهود علمية متفرقة تهيئ له المادة الأولية، وهذه الجهود متنوعة منها مايتصل باستكشاف النصوص وتحقيقها وتفسيرها وخدمتها بعدد كبير من العلوم المتصلة بالأدب من لغة ونحو وصرف وبيان، ثم يحدد العوائق التى تحول بيننا وبين كتابة تاريخ أدبى جدير بهذا الاسم هى : أن كثيرا من النصوص القديمة لم يحقق ولم يفسر بل ولم يستكشف بعد، وأنه لم يتم حتى الآن تدوين فقه اللغة العربية كما حدث بالنسبة اللغات الأوربية، وأن الباحثين لم يعنوا بوضع معاجم تاريخية موثقة، وأن شخصيات الشعراء والكتاب والعلماء مازالت مجهولة أو شبه مجهولة، وأن التاريخ السياسى للأمة العربية لم يكتب بعد، وكذلك التاريخ الفنى وتاريخ المذاهب والآراء.

وقد خلص طه حسين بعد تعداد هذه العوائق إلى نتيجة هى أنه ما لم تنجز هذه المهمات فإنه لن يكون من اليسير كتابة تاريخ أدب عربى جدير بهذا الاسم، ويقول فى النهاية : «إن هذا الجيل الذى نعيش فيه لن يستطيع أن ينتج تاريخ الآداب العربية» . فهو يعد ذلك مشروعا سابقا لأوانه لأن الظروف المهيئة للإقدام على هذا العمل لم تتوافر بعد .

شوقى ضيف ينجز مشروع طه حسين

الذى يقرأ كلمات طه حسين التى أسلفنا تسطيرها يخيل إليه أنه لابد أن يمضى زمن طويل حتى يمكن الاضطلاع بكتابة تاريخ للأدب العربى . صحيح أن كتابة تواريخ للأدب العربى لم تنقطع منذ أن كتب طه حسين تلك الكلمات إذ كانت الحاجة ماسة إليها للوفاء بمطالب التدريس فى المدارس وفى الجامعة، ولكن الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع لم تكن إلا تكرارا جامدا للمؤلفات المدرسية السابقة، ثم إذا بنا نفاجأ بعد سنوات قليلة بأن واحدا من تلاميذ طه حسين نفسه – ولاشك فى أنه أنجبهم جميعا – هو الذى يتمكن فى حياة أستاذه من النهوض بتحقيق مشروعه على نحو ما كان يأمل وبعد أن استعد له بمتطلباته وأدواته، ولم يكن هذا التلميذ إلا شوقى ضيف الذى بدأ فى تحقيق المشروع الضخم فى سنة ١٩٦٠ حينما استهل مجموعة «تاريخ الأدب العربى» بإصدار المجلد الأول منها وهو الخاص بالأدب الجاهلى . وفى تقديمه لهذا الكتاب يرسم خطته فى الكتابة، مقسما هذا التاريخ الى العصور التالية:

١ – العصر الجاهلى .
٢ – العصر الإسلامى بشقيه : صدر الاسلام والعصر الأموى «بين ١و١٣٢ هـ».
٣ – العصر العباسى الأول «بين ١٣٢ و٢٣٢» .

٤ – العصر العباسي الثاني «بين ٢٣٢ و٣٣٤هـ» .
٥ – عصر الدول والإمارات : الجزيرة العربية والعراق وإيران.
٦– عصر الدول والإمارات : الشام .
٧ – عصر الدول والإمارات : مصر.
٨ – عصر الدول والإمارات : الأندلس.
٩ – عصر الدول والإمارات : ليبيا وتونس وصقلية.
١٠ – عصر الدول والإمارات : الجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا والسودان.



شخصية العدد

ويلاحظ أن عصر الدول والإمارات الذي ينتظم المجلدات الستة الأخيرة والموزع على الأقطار العربية يبدأ من سنة ٣٣٤ التي فقدت الدولة الإسلامية فيها وحدتها وينتهي بمشارف العصر الحديث مع الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١٣هـ «١٧٩٨» .

وهكذا نرى في هذه المجموعة أوفى تاريخ للأدب العربي منذ العصر الجاهلي حتى بداية العصر الحديث ، على مدى نحو خمسة عشر قرنا، وقد استغرق إتمام هذا المشروع نحو أربعين عاما، وبلغت جملة صفحات هذه الموسوعة الضخمة أكثر من سبعة آلاف صفحة، وزادت طبعات بعض مجلداتها على عشرين طبعة مما يدل على مدى انتشارها وحاجة القراء إليها .

● له مساهمات في تحقيق التراث المخطوط تعد نماذج تحتذى

وأما الأدب الحديث والمعاصر فقد تناوله شوقي ضيف في عديد من الكتب بينها ماهو دراسات تحليلية لعدد من أعلام الشعراء المعاصرين في مختلف البلاد العربية مثل كتابيه «دراسات في الشعر العربي المعاصر» و«الأدب العربي المعاصر في مصر» وفيه يترجم لعشرة من كبار الشعراء وعشرة من الكتاب في فنون النثر المختلفة من مقالة ومسرحية وأدب قصصي . ومن هذه الكتب دراسات مفردة لبعض الشعراء المصريين مثل كتابيه عن «البارودي رائد الشعر الحديث» و«شوقي شاعر العصر الحديث» وكتابه عن العقاد سيرته ونتاجه الأدبي مع تحليل لثمانية من دواوينه الشعرية . وهو بهذه الكتب يكمل دائرة تاريخ الأدب منذ الجاهلية حتى عصرنا الحاضر.

دراسات في ظواهر فنية في الأدب العربي

وهناك طائفة من كتب شوقي ضيف تتناول ظواهر فنية في أدبنا العربي رأى أن يختصها بالدراسة، من أولها «الفن ومذاهبه

فى الشعر العربى» وهو رسالته التى نال بها درجة الدكتوراه، وقد ثنّى عليها بكتابه الذى يستكمل به صورة الأدب العربى، وهو «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» وفى كلا الكتابين منهج جديد لتبين المذاهب الفنية وتطورها فى الإبداع الأدبى بشطريه، ومنها «الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية» و«التطور والتجديد فى الشعر الأموى» وفى الكتابين يصحح الفكرة السائدة حول تاريخ الشعر وكون أولي محاولات تجديده هى التى ظهرت فى العصر العباسى، إذ يثبت أن هذا التجديد إنما بدأ بقوة فى العصر الأموى. ومنها «الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور» وفيه يثبت أيضا خطأ الفكرة الشائعة فى أن الشعر العربى كان دائما مرتبطا بالسلطة والطبقة الحاكمة والعليا فى المجتمع، وإنما كان تعبيرا صادقا عن مشاعر الشعوب فى أفراحها وآلامها. وكتاب «الحب العذرى عند العرب» وفيه عرض تحليلى لما كتبه المؤلفون الإغريق والعرب حول ظاهرة الحب وأنواعه الحسى والعفيف والروحى، ويخص بالذكر الجاحظ وابن سينا ومحمد ابن داود الأصبهانى، وابن حزم ، ويقارن بين كتاباتهم وبعض ماكتبه مؤلفون أوربيون محدثون وكتاب «الفكاهة فى مصر» حيث يستعرض هذه الظاهرة التى تميز الشعب المصرى ويتتبع انعكاسها على الأدب شعره ونثره .

وطائفة أخرى من الكتب تعالج فنون الأدب العربى المختلفة : المقامة من بديع الزمان الهمذانى إلى اليازجى والمويلحى، والترجمة الشخصية، والرحلات، والرثاء، والبطولة والتعبير عنها فى الشعر من العصر الجاهلى حتى الحروب الصليبية.

ولم يكن شوقى ضيف مؤرخا للأدب فحسب، بل كان أيضا ناقدا له فى هذا الميدان أبحاث زاوج فيها بين التنظير والدراسات التطبيقية، منها كتابه «النقد» وهو الذى ترجم إلى الإيرانية، و«فى النقد الأدبى» و«فصول فى الشعر ونقده» و«البحث الأدبى : طبيعته ومناهجه وأصوله ومصادره» وهو كتاب يشهد بما أوتيه من سعة اطلاع وتعمق فى معرفة مناهج البحث القديمة والحديثة، العربية والغربية على السواء.

دراسات فى النحو واللغة

وإذا كانت جهود شوقى ضيف قد أحاطت بتاريخ الأدب العربى وبما يتصل به من دراسات نقدية فإنه لم يخل علوم العربية الأخرى من اهتمامه، وانعكس ذلك فى كتابيه اللذين يعدان أساسين فى علمين لا غنى عنهما لدراسى الأدب أو النقد، وهما «البلاغة : تطور وتاريخ» و«المدارس النحوية» وفيهما يصحح كذلك كثيرا من الأحكام السائدة الجارية فى الكتب السابقة .

وقد كان اهتمام شوقى ضيف بالنحو والعربى موازيا لعنايته بالأدب ، وإذا كان قد أرخ للنحو ومدارسه فى كتابه الذى أشرنا إليه فإنه منذ حقق كتاب ابن مضاء اللخمى «الرد على النحاة» قد لاحظ مايشكله تدريس النحو من صعوبات بالنسبة للمتعلمين، بسبب مادخل كتب النحو ولاسيما فى العصور المتأخرة من تعقيدات وفروض وهمية وتمارين غير عملية، وكان هذا هو منطلقه فى كتابه «تجديد النحو» وفيه تصنيف جديد للنحو العربى يقوم على تنسيق أبوابه، بحيث يستغنى عما لايحتاج إليه الناشئة مثل



شخصية العدد

الإعراب التقديرى والزوائد الكثيرة التى تشتت فكر المتعلمين، والصيغ الشاذة التى لاتكاد توجد فى واقع الاستخدام اللغوى، وفي كتابه الآخر «تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا» يصوغ منهجا جديدا لتدريس القواعد النحوية يمكن المتعلمين من التعبير العربى السليم بغير مشقة، وقد أخذت وزارة التربية ببعض المبادىء الواردة فى الكتابين السالفين، ولو أنها اتبعت منهج شوقي ضيف الجديد برمته في تدريس النحو لوفرت كثيرا من جهد مدرسي اللغة العربية وذللت أمامهم صعوبات هذه المادة التى مازلنا نعانى منها حتى على مستوى طلبة الجامعات، ويلحق بالكتابين المذكورين كتاب ثالث هو «تيسيرات نحوية» وفيه يضيف عددا آخر من المباحث التي تعين على تصحيح بعض القواعد وإثبات صحة عدد من صيغ التعبير التى يظن أنها خاطئة وهى سليمة لايضيق بها منطق العربية وذوقها، وتسويغ ألفاظ عامية وهى سليمة ذات أصول عربية فصيحة، وكثير مما أقترحه الدكتور شوقى ضيف فى هذا الكتاب كان ثمرة لجهوده فى لجنتى الأصول والألفاظ والأساليب فى مجمع اللغة العربية، وقد أقرها مجلس المجمع ومؤتمره السنوى الذى يضم الأعضاء من مختلف البلاد العربية.

● تحتل الدراسات الاسلامية مساحة واسعة من نتاج شوقى ضيف

في الدراسات الإسلامية

والدراسات الإسلامية فى نتاج شوقى ضيف تحتل مساحة واسعة كان من أجلها تفسيره «الوجيز» للقرآن الكريم، وفيه يقدم تفسيرا كاملا لكتاب الله العزيز فى لغة سهلة واضحة، وهو كتاب يمكن أن يغنى القارىء عن كتب التفسير المطولة ويعينه على تذوق البيان القرآني، مع الإحاطة بما فى آيات الذكر الحكيم من هدى وإرشاد، ويلى ذلك كتابه عن «عالمية الإسلام» وفيه يبين بالأدلة الواضحة أن الإسلام دين عالمي للبشرية، دين عقلاني يعانق العلم، ويتمسك بالعدل والمساواة والفضائل، ويدعو للتعايش بين البشر، وينادى بالحرية وحقوق الإنسان، ولما يمثله هذا الكتاب من عرض يعد أوفى ماكتب عن صورة الإسلام المشرقة - تمت ترجمته للإنجليزية والفرنسية، وتجرى الآن ترجمته إلى لغات أخرى . ويلحق بهذا الكتاب أيضا كتاب «الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة» وهو يتبع منهجا طريفا هو عرض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية حول مختلف عناصر الحضارة والتعقيب عليها

ببيان الأسس الإلهية لهذه العناصر فى العقيدة والعبادات والفضائل لاجتماعية والخلقية . وآخر هذه المؤلفات كتاب «القسم فى القرآن الكريم» وفيه يبين الحكمة فى شيوع أسلوب القسم فى كتاب الله، ثم طرق التعبير عنه سواء قسمه جل جلاله بذاته أو بالظواهر الكونية وبالإنسان ومايتصل به.

ويكمل هذه الدراسات الإسلامية كتاب ليس جديدا فى موضوعه وإنما هو جديد فى طريقة تناوله للموضوع، وهو «محمد خاتم المرسلين» فهو سيرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والسيرة النبوية لا حصر لما كتب فيها قديما وحديثا، غير أن ماكتبه شوقى ضيف ليس مجرد سرد لأحداث هذه السيرة كما نرى لدى الكثيرين، وإنما هو دراسة يتوقف فيها عند كل من معالمها ليستخلص منها المثل والعبرة، وهو فى أثناء ذلك يصحح كثيرا من بعض مايرد فى كتب السيرة المتداولة من روايات خاطئة أو تأويلات بعيدة عن الصواب .

فى تحقيق النصوص التراثية

وللدكتور شوقى ضيف مساهمات فى تحقيق التراث المخطوط تعد نماذج تحتذى، بما فيها من الدقة والتثبيت وخدمة الكتاب المحقق بما يحتاج إليه من التعليقات التى تضىء النص وتعرف بما يتضمنه من أعلام أو نحوها، وكان مستهل عمله فى هذا الميدان هو تحقيقه لكتاب النحوى الأندلسى ابن مضاء اللخمى «الرد على النحاة» الذى يعد ثورة على المناهج النحوية المألوفة . وقد استوحى محقق الكتاب منه كثيرا من الأفكار التى بسطها فى كتبه الخاصة بتجديد النحو وتيسيره ويلى ذلك عمله الرائع فى تحقيق كتاب «المغرب فى حلى المغرب» لابن سعيد الاندلسى، وكان جهده فيه أشبه بترميم أثر قديم قد بليت أكثر أجزائه، إذ لم تبق من هذا الكتاب إلا قطع غير متسقة، بالإضافة إلى أن أوراقه كانت مضطربة الترقيم وقد صدر هذا الكتاب الذى يعد موسوعة أندلسية ضخمة فى مجلدين كبيرين يحتويان على تراجم لأكثر من خمسمائة شاعر وكاتب وعالم، مع مختارات من نتاجهم الأدبى والفكرى.

ومن المؤلفات الأندلسية التى اضطلع شوقى ضيف بتحقيقها رسالة «نقط العروس فى تواريخ الخلفاء» للإمام ابن حزم القرطبى، وفيها على إيجازها طرائف حول تفاصيل من حيوات الخلفاء والأمراء فى المشرق والأندلس لا نكاد نجدها فى مصدر آخر، ومنها كتاب من أجل ما ألف فى السيرة النبوية هو «الدرر فى اختصار المغازى والسير» لأبى عمر ابن عبد البر النمرى الذى يعد من أكبر حفاظ الأندلس وفقهائها ، وهو يمثل طريقة الأندلسيين ومنهجهم فى كتابة السيرة، وفيه مايخالف ماكتبه المشارقة بحكم اختلاف أسانيدهم ورواياتهم ومن هنا كون هذا الكتاب إضافة جديدة لها قيمتها فى الموضوع .

ومن أجمل ماقدمه شوقى ضيف فى هذا الميدان تحقيقه لكتاب «السبعة فى القراءات» لأبى بكر ابن مجاهد «توفى ٣٢٤ هـ» الذى كان شيخ قراء كتاب الله فى القرنين الثالث والرابع الهجريين .. وفيه اختار المؤلف تلك القراءات السبع المتواترة التى تعد أشهر القراءات وأصحها، وذلك عن طول النص القرآنى من أوله إلى آخره، مع بيان الاختلافات



شخصية العدد

في تلك القراءات والتعليق عليها .

وشارك شوقي ضيف في تحقيق كتب غير هذه مع زملاء آخرين، نذكر منها القسم المصرى من كتاب «فريدة القصر» لابن العماد الأصبهاني الذى صدر في جزءين، وهو يضم تراجم لشعراء وكتاب ينتمون للعصر الفاطمى وبداية العصر الأيوبى وكذلك «رسائل الوزير الكاتب الصاحب بن عباد» «ت ٣٨٥ هـ» وهو الذى يعد مع ابن العميد أكبر كتاب الدولة البويهية في إيران، وتصور هذه الرسائل الأحداث التاريخية ومايتصل بشئون الدولة وسياسة الحكم في أيامه .

***

ومن كتب شوقي ضيف الأخرى التى تعد من إبداعاته الأدبية سيرته الذاتية التى كتبها بعنوان «معى» في مجلدين، وفيهما يستعرض حياته منذ مولده وعلى مدى أطوار حياته، والأحداث التى عاصرها، وما انعقد بينه وبين أساتذته وتلاميذه من علاقات وصداقات، ورحلاته إلى الخارج، وجهوده في التدريس والتأليف، يسوق ذلك في أسلوب شائق وفي تواضع نستشف منه أبعاد شخصيته إنسانا ومربيا وعالما لايأخذه الزهو بنفسه ولا التمدح بمنجزاته، ومنها «محاضرات مجمعية» وهو كتاب يضم ما ألقاه من أبحاث في مؤتمرات مجمع اللغة العربية ، و«مجمع اللغة العربية في خمسين عاما» وفيه يعرض تاريخ المجامع ومجمع اللغة العربية ونظامه وإنتاجه وما أصدره من قرارات في أصول اللغة والألفاظ والأساليب وغير ذلك من إصدارات المجمع الذى يشرف برياسته، وفي كتاب «من المشرق والمغرب» مجموعة من الأبحاث الأخرى في موضوعات متنوعة بعضها متصل بالمشرق وأخرى بالمغرب والأندلس .

● لم يسع أبدا لمنصب بل سعت إليه المناصب والجوائز سعيا

شوقي ضيف : أمة وحده

منذ عشر سنوات كتبت على صفحة مجلة «الهلال» «عدد سبتمبر ١٩٩١» وأنا في معرض الحديث عن مجال واحد من المجالات التى حظيت بعناية أستاذنا شوقي ضيف وهو تاريخ آداب اللغة العربية، ولم يكن قد صدر من هذه السلسلة إلا سبعة مجلدات .

«إن مجموع هذا الإنتاج يمثل موسوعة كبرى ربما استكثرت على جيل أو فريق من الباحثين، فما بالك وهي جهد رجل واحد،

أخلص للعلم فأخلص له العلم وأحسن جزاءه» .

فإذا أضفنا إلى هذا ماكتبه في مختلف فروع اللغة والأدب لما كان لنا إلا أن نذكر قول أبي نواس :

وليس لله بمستنكر

أن يجمع العالم في واحد

ولم يكن من الغريب في مثل هذا التجرد للعلم الذي هو أشبه بتجرد المتصوفة أن يتبوأ شوقي ضيف ماتبوأ من مكانة قل إن تتاح لعالم آخر، ولا أن ينال التقدير والإجلال من كل من عرفه أو قرأ له، ففي الجامعة أصبح أستاذا لكرسي آداب اللغة العربية سنة ١٩٥٦ ثم رئيسا لهذا القسم سنة ١٩٦٨ ، وظل يضطلع بالتدريس أستاذا متفرغا وغير متفرغ حتى اليوم، وخلال هذه السنوات التي تجاوزت الستين سنة منذ عُين معيدا في كلية الآداب حتى اليوم تخرج على يديه مئات من حملة الماجستير والدكتوراه في مصر والعالم العربي ممن يشغلون اليوم درجات الأستاذية في الجامعات.

وأما مجمع اللغة العربية فقد بدأت صلته به في سنة ١٩٣٥ حينما عين محررا فيه عقب تخرجه في الجامعة وفي سنة ١٩٧٦ انتخب عضوا عاملا في المجمع، ثم أمينا عاما له في سنة ١٩٨٨، ونائبا للرئيس سنة ١٩٩٢، وفي ١٩٩٦ انتخب رئيسا له، وتجدد انتخابه في السنة الماضية، كما كفلت له مكانته رياسة اتحاد مجامع اللغة العربية .

وأما الجوائز فقد حظي بأرقاها : جائزة الدولة التقديرية في الآداب من مصر سنة ١٩٧٩ ثم جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي سنة ١٩٨٣ .

والذي يلفت النظر في مسيرة شوقي ضيف العلمية التي لم نذكر إلا أطرافا منها أنه لم يسع أبدا لأي منصب، بل سعت إليه المناصب والجوائز سعيا، وهو منقطع إلى عمله في صمت وزهد، حتى ليبدو أنه كان المعنيّ بقول أبي العتاهية «ومعذرة إذا كنا قد تصرفنا فيه بإبدال لفظ بلفظ» :

أتته «المناصب» منقادة

إليه تجرر أذيالها

فلم تك تصلح إلا له

ولم يك يصلح إلا لها

وفي النهاية لا أملك إلا أن أقول : لقد خسر شوقي في الظاهر الجائزة الكبيرة على مدى سنتين متواليتين .. غير أني أتساءل : من هو الخاسر في الحقيقة؟ ■

البطل الشيوعى فى الرواية المصرية المعاصرة

منصور باهي

فى ميرامار نجيب محفوظ

الشر المجانى وعاهات العمل السرى

«لماذا يتقدم بنا العمر ولماذا يعذب البعض بعض البعض؟» (ماريان - ميرامار)

بقلم
د. فهمي عبد السلام

(١)

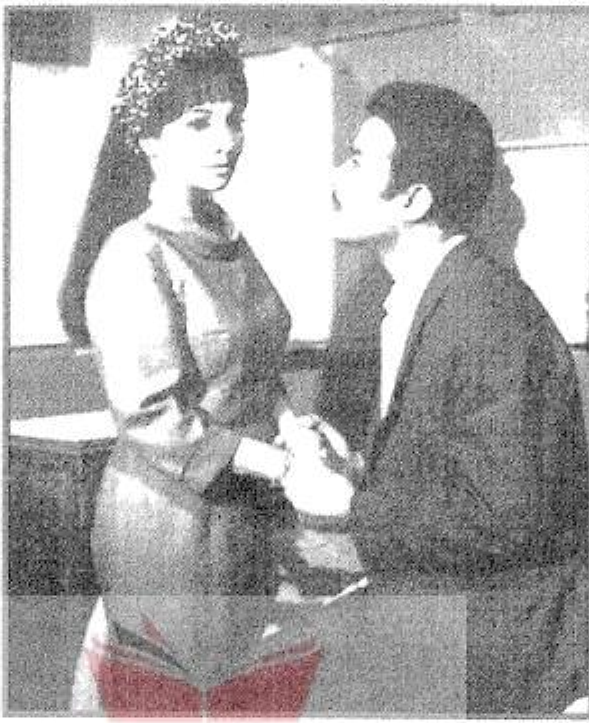
الحلم بالعدالة كان ومازال حلماً يراود خيال الانسان عبر العصور والأجيال، والشيوعية في أعماق أعماقها هي دعوة للعدل وتحطيم الطبقية البغيضة، وبعد انتصار الاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية أصبحت الماركسية (المرادفة لكلمة العدالة) فكرة شديدة الإغراء والجاذبية لآلاف من الحالمين بالعدالة في طول الأرض وعرضها، ولم تكن بلادنا بمعزل عن العالم، وعرفت مصر الحلقات والتنظيمات الشيوعية السرية، وفي أواخر





نجيب محفوظ





شادية مع يوسف شعبان في مشهد من فيلم (ميرامار)

الاربعينيات كون الشيوعيون المصريون رافداً مهماً من روافد الحركة الوطنية المصرية، وبينما راحت الخلايا الشيوعية تدعو إلي تقويض السلطة الحاكمة بكل الطرق، كان من الطبيعي ان تقبض السلطة علي الشيوعيين، وبقدر ما كان الصدام بين الشيوعية المصرية والسلطة الملكية صداماً هيناً، متناسبا مع طبيعة تلك السلطة المتآكلة، بقدر ما كان صدام الشيوعيين المصريين مع السلطة الثورية (ثورة يوليو) صداماً خشناً، ذلك الصدام الذى بلغت ذروته في حملة الاعتقالات الشهيرة في شتاء عام ١٩٥٩.





ولم يكن الأدب المصرى - شأن كل أدب حقيقى بعيداً عن الواقع المصرى بآماله وبخيبات آماله، وفى أواخر الأربعينيات ظهر نموذج البطل الثورى الشيوعى لأول مرة، فى رواية لويس عوض الوحيدة «العنقاء» فأبدع لويس عوض شخصية حسن مفتاح المدهشة، الذى يحتسى البراندى القوى الردئ، ويرى بعين الخيال وهو يحلم بأعمدة النور فى الشوارع، وقد حولها الى مشانق للرجعية والبرجوازية (ونلاحظ كم يبلغ هذا الحلم من دموية إذا ما أحصينا عدد أعمدة النور فى شوارع القاهرة).. وبعد عشرة أعوام تقريباً ظهر البطل الشيوعى ثانية فى رواية د. يوسف إدريس «البيضاء»، وهو يحذرنا من البارودى زعيم التنظيم الاعمى القلب والبصيرة.

شهادات حية لعصر مضى

وبعد عشرة أعوام أخرى، قدم لنا الاستاذ الكبير نجيب محفوظ شخصية «منصور باهى» المدهشة فى رواية «ميرامار» ذلك الشيوعى الشاب الملفوظ من الرفاق والكاره لنفسه وللحياة كلها، وبعد عشرة أعوامٍ فى بداية الثمانينيات قدم فتحى غانم رائعته الجميلة «حكاية تو»، التى تستند على واقعة استشهاد المناضل الشيوعى الراحل «شهدى عطية» من التعذيب الوحشى فى معتقل الأوردى ليقدم لنا بشاعة الثمن الذى ينبغى على المناضل أن يدفعه لسلطة تؤمن بإذلال الخصوم والتنكيل بهم.

.. نحن الآن فى مطلع ألفية ثالثة، شمس الشيوعية الدولية قد أفلت وغربت وأصبحت الشيوعية مجرد تاريخ إذا أردنا أن نشعر بروح التاريخ ونبضه علينا بالأدب، ولحسن الحظ أن اربعة من اهم كتابنا توقفوا عند شخصية الشيوعى الذى يعمل تحت الأرض، فأبدعوا لنا تلك الدرر الثمينة التى تعتبر بمثابة شهادات حية لعصر مضى وانقضى.

(٢)

فى هذه الدراسة سنحاول إلقاء بعض الاضواء على شخصية منصور باهى التى أبدعها كاتبنا الكبير، ومازلت حتى هذه اللحظة اتذكر كيف اذهلتنى تلك الشخصية عندما قرأت «ميرامار» للمرة الأولى منذ سنوات بعيدة ، ذلك الماركسى الذى يحمل عذابات الدنيا كلها على كاهله، فمنصور باهى هو القتيل، والقاتل، وهو

الضحية والجلاد انه معذب عذابات لا حدود لها، وهذا المعذب لا يتورع عن تعذيب الآخرين بلا رحمة، فالصورة التى رسمها الكاتب لبطله منصور باهى صورة شائهة شديدة السواد وشديدة التعقيد، فهو ذلك الشيوعى الذى يتم القبض على رفاقه فى التنظيم ويتم الزج بهم فى غياهب المعتقلات، فيقوم منصور باهى بغواية درية زوجة زعيم التنظيم، ويغرر بها كى تطلب من الزعيم المعتقل، أن يطلقها ، فيذعن الزعيم لطلب الزوجة الخائنة، فإذا بمنصور باهى يتخلى عنها يتركها الى الفضيحة والضياع فى نذالة لا يمكن وصفها ، مع ملاحظة ان الزعيم هو الصديق الحميم والمعلم لبطلنا العجيب منصور باهى.

وقبل أن نغرق فى متاهة منصور باهى، تعتبر رواية ميرامار بمثابة قطعة استاذ دانت له الصنعة فراح يصول ويجول فى الشكل الروائى كما يشاء، فالشكل الروائى فى ميرامار يعتمد على وقوع احداث ما لمجموعة من الشخصيات فتروى كل شخصية تلك الأحداث من زاويتها الخاصة، هذا الشكل (Form) أسسه لورانس داريل فى جداريته الرائعة رباعيات الاسكندرية، وأبرز اخطاره هو الوقوع فى التكرار والملل، وكما اجتاز لورانس داريل هوة الملل والتكرار فى رباعيته الخالدة، اجتازها استاذنا فى براعة واقتدار، وكما وقع داريل فى اسر الاسكندرية وجعلها مسرحاً لأحداث رباعيته الرائعة، وقع نجيب محفوظ اسيراً للاسكندرية بجمالها الخلاب، ولننظر كيف يتغزل استاذنا فى الاسكندرية على لسان عامر وجدى:

«.... الاسكندرية اخيراً.

... الاسكندرية قطر الندى، نفثة السحابة البيضاء، مهبط الشعاع المغسول بماء السماء وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع».

جعل نجيب محفوظ من بنسيون ميرامار المنسى فى محطة الرمل مسرحاً لاحداث الرواية والبنسيون المنسى الذى ولت أيامه مملوك لماريان، تلك اليونانية العجوز التى عاشت فى الاسكندرية منذ مطلع القرن، واقتحمت الأحداث السياسية العاصفة حياتها، ففقدت فى الثورة الأولى (١٩١٩) زوجها الضابط الانجليزى، وفى الثورة الثانية (١٩٥٢) فقدت ماريان ثروتها.

قدرة هائلة على التكثيف

فى بنسيون ميرامار يغوص بنا نجيب محفوظ عميقاً داخل عوالم أبطاله الخمسة نزلاء البنسيون المنسى، لنتعرف على أدق



خلجاتهم ، ويقدم لنا كل منهم نفسه وروآه وأحزانه وآماله ومخاوفه .

من القراءة الأولى للعمل، سنكتشف اهتمام نجيب محفوظ، وتعاطفه مع شخصية عامر وجدى، انه شيخ فان يحمل على كاهله العجوز ذكريات حياة صاخبة هادرة تبددت وكأنها العدم، أخذ الزمن منه الاهل والصحة، والاصدقاء، والمعارف والنفوذ، ولت أيامه فلم يتبق له إلا الذكريات والمخاوف، ولم يكن تعاطف الكاتب الكبير مع الوفدى الذى غلبته الدنيا على أمره هى المرة الأولى التى يعبر خلالها نجيب محفوظ عن هواه للوفد القديم، فـ «عيسى الدباغ» بطل «السمان والخريف»، ذلك الوفدى الذى سطت الثورة على نفوذه وخطيبته، حينما ضاقت به الدنيا على رحابتها لم يجد سوى تمثال سعد زغلول فى الرمل، كى يشكو إليه قلة حيلته وهوانه على الدنيا فلاذ بالتمثال فى مشهد تراجيدى غاية فى الروعة والتأثير والايجاز، والقدرة الهائلة على التكثيف ملمح مهم فى رواية ميرامار، وكما يقول شكسبير ان فى الايجاز نصف البلاغة، سنرى كيف راح عامر وجدى يجتر ذكرياته فى تداعيات كأنها البروق فى نصاعتها وفى وميضها الكاشف. فنعرف عن الأزهرى الشاب الذى استخف به الطرب، فصاحب الشيخ على محمود وزكريا أحمد وسيد درويش ، معبراً بذلك عن حب اصيل جارف للحياة، ثم الطرد من الأزهر كعقاب صارم، والجهاد والبطولة والوطنية فى ثورة ١٩، والامجاد الصحفية كصحفى وفدى شديد الالتصاق بالزعيم ومديح سعد زغلول لمقالة كتبها عامر وجدى حين يقول له سعد زغلول:

«انت كلب هذه الامة الخافك» كان سعد ينطق القاف كافاً. ومداعبة الاصحاب له حينما يرونه فيحيونه قائلين مرحبا بكلب الامة.

لكن كل هذه الامجاد لم تشفع للصحفى الكبير عامر وجدى وهو يتقدم لخطوبة فتاة خان جعفر، صورة تذكارية نشوة الحب المشبوب المرتطم بخيبة الأمل، وسأنقل هذه الفقرة التى وصل التكثيف فيها والقدرة البلاغية الهائلة عند نجيب محفوظ إلى ذروتها .

«العمامة واللحية البيضاء وقسوة الشفتين وهما تلفظان بـ «لا» فتقضى فى تعصب أعمى على الحب الذى هبط إلى الدنيا قبل الاديان بمليون سنة.

وقبض على المسبحة ثم استطرد: يا بني كنت منا، جاورت الازهر زمناً ثم طردت من الازهر أنت تذكر..!؟

- مولاى ذلك تاريخ قد انقضى، لأنه الأسباب كان يحق الطرد، شاب هزه الشباب فاشترك في تخت مطرب ذات ليلة أو طرح عدة أسئلة ببراءة.

بمثل هذه التداعيات يمضي بنا الاستاذ نجيب مع عامر وجدى الوفدى العجوز الطيب القلب، يبدأ به الرواية وينهي به الرواية ، حيث يجيش الوجد بصدر عامر وجدى العجوز، فراح يقرأ سورة الرحمن وبين البداية والنهاية، لا يمكن إلا ان نحب عامر وجدى وأن نتوحد مع أحزانه النبيلة.

(٣)

إذا كان الكاتب الكبير قد أولى عناية كبيرة بشخصية عامر وجدى، وتعاطف معها، سنجد أنه أولى منصور باهي نفس العناية، والاهتمام إلا ان مشاعر نجيب محفوظ عند منصور باهي تأرجحت بين العطف عليه وبين الإدانة الكاملة.. ففي الفصل الثالث يوضح لنا نجيب محفوظ أن سوداوية ونذالة منصور باهي وإن كانت محيرة إلا انها لم تأت من فراغ.

إنه ذلك الشاب الحساس النبيل الرغبات الذى جذبته شعارات اليسار في سنوات الشباب بجموحها وباندفاعاتها فانضم الى خلية شيوعية سرية تحت زعامة فوزى استاذ الاقتصاد السياسى بالجامعة والذى اصبح بالنسبة الى منصور باهي بمثابة الصديق الحميم والزعيم، وما أن يتخرج منصور من الجامعة حتى يقوم شقيقه الاكبر اللواء في الداخلية بقمع منصور وقهره، ويجبره على أن يترك التنظيم «الوكر» بتعبير اللواء فيذعن منصور ويهجر الرفاق.

هذه الطعنة النجلاء كانت أول مسيرة الخراب النفسي الذى سيغرق فيه بطل نجيب محفوظ ، فقد وقع «منصور» بين مطرقة الشقيق المستبد وبين سندان الرفاق، فما ان عرف الرفاق بهجران منصور حتى سددوا اليه الطعنة الجديدة، فقد وسموه بالخيانة وبالتجسس عليهم لحساب شقيقه اللواء، وهذا الاتهام الشنيع سمة من سمات العمل السرى وواحد من أسوأ آفاته ، فهو سيف مسلط على رقاب الجميع، صحيح أن العمل السرى في ظل سلطة قمعية متوحشة يتطلب مراعاة قواعد الأمان، وأن العمل السرى يقترن بالخوف وما يتبعه من احباط وعدوان ، إلا ان المغالاة كانت تنتج عنها ممارسات قاسية ، وممارسات تصل إلى درجة الفكاهة، فعلى سبيل المثال ما كتبه الاستاذ محمد سيد أحمد في مقال





رائع بجريدة الاهالى بعنوان «صيغة جديدة للتكفير والهجرة» حينما كان معتقلا كيسارى فى الواحات على ما أذكر فكتب انه لاحظ ان أحد الرفاق يرفض الحديث أو المشاركة مع بقية المعتقلين ويعيش فى عزلة كاملة ويتجنبهم كما يتجنب السليم الأجرب؛ لأنهم مباحث بالطبع ، فقال له الاستاذ محمد سيد أحمد مستنكراً هذا السلوك العجيب الشاذ.

العمل السرى

«يعنى الدولة اعتقلت كل هذه الالوف من الناس وحبستهم هنا تمثيل فى تمثيل علشان تتجسس عليك لوحدك».

لاشك ان حكم الخيانة كان له وقع أليم على منصور باهى الهاملتى الطابع، واستجمع منصور شجاعته متمرداً على تسلط شقيق اللواء، وحاول العودة الى صفوف الرفاق مرة أخرى، لكنهم قالوها له وفى وجهه بلا مواربة وبلا تجميل انت عائد لتتجسس علينا ، وكان من الممكن ان يطوى منصور هذه الصفحة إلى الأبد ، وأن يحيا حياة طبيعية، لكن دخول الحمام غير الخروج منه، فالعمل السرى له غواية أشبه بالنداهة، والانخراط فيه يتحول الى ما يشبه الادمان، ومن انخرط فى العمل السرى من أصحاب النفوس النبيلة ذات مرة، وإذا ما تم اجباره على الاعتزال فيشعر بالخواء والضياع وانعدام المعنى فى الحياة، وجاء منصور باهى الى منفاه الاختيارى فى الاسكندرية محطماً من الاتهام الظالم ومن قسوة الرفاق ومن استبداد الشقيق، وفوق كل هذا بآلام المدمن المحروم.

وذات ليلة اثناء تسكع منصور باهى فى شوارع الاسكندرية يلمح فى الطريق زعيمه السابق والصديق الحميم الذى هجره ظلما، وتنتاب منصور نوبة من الحنين أن يدعو فوزى الى قدح من القهوة، روح جميلة ووفاء العيش والملح والصداقة ، فماذا كانت نتيجة اللقاء، كان من الممكن ان يكون اللقاء جميلاً بين رفاق قدامى فرقت بينهم السبل، لكن فوزى حول اللقاء الى تراشق كئيب بالاتهامات ، فحينما قال له فوزى انهم لم يرونه منذ ان تخرج، فى مواربة معرضاً بهروب منصور . فرد منصور محاولاً التهرب من الكلمات السامة وعبور هذه النقطة الشائكة فقال بعض المتاعب صادفتنى،



عاهة التراشق بالاتهامات

كــان من الممكن ان يغــيــر فــوزى الموضــوع وان يراعى الضــعف الانســانى للصديق القديم، لكن ها هى شراسة فوزى تتبدى وهى شراسة لا يستطيع المرء ان يتعاطف معها، وها هو يسدد لمنصور طعنة جديدة فيقول قد يكون من الحكمة ان يستمر فى عمل لا يناسبه.

فى «لا يناسبه» هذه تعريض واضح بضـعف منصـور الذى لا يليق بالرجـال، وها هو منصـور الجـريح يرد على تحـيـة فوزى بأحسن منها فيرد قائلاً:

– وقد لا يستمر فى العمل أيضا إذا كف عن الايمان به . فيجهز عليه فوزى قائلاً:

– قيل إن أخاك..

هذه معايرة واضحة بضعف منصور..

تلك عاهة جديدة من عاهات العمل السرى رصدها كاتبنا الكبير فى أجواء الخلايا السـرية، عـاهة التـراشق السـام بأقسى الاتهامات وأبشعها ، بلا مراعاة لضـعف انسـانى لابد وأن يعترى البـعض منا، وبعـد هذا اللقـاء الكئيب بين رفـاق الأمس، يتم القـبض على الرفـاق ، ومـرة أخرى يتلقى منصور الاتهام الظالم بأنه هو من ارشد البوليس عليهم، وتزداد محن منصور باهى الممزق بين الاتهام الظالم بالخيانة وشعوره بالضعف المشين حيال الواجب، لأنه لو كان رجلاً حقيقياً لاستمر فى العمل وكان مكانه معهم فى المعتقل.

فى هذا الجو السوداوى، التعس المليء بالاحـبـاط والاتهـامـات والتـراشق السـام بالكلمات الموجعة، يستعيد منصور باهى ذكريات حبه القديم لدرية التى احبها قبل فــوزى، وإذا بمنصـــور المثــقل القلب بالاحزان، يستدرج درية ويستغل خواء حياتها، ويمعن فى التفنن فى غوايتها ، وعندما تستجيب يتخلى عنها، ولا أحد يعلم سبباً لهذا الشر المجانى؟ ، هل كان يريد الانتـقـام من فـوزى؟ لم يكن هذا واضـحـاً، هل كان ينتقم من نفسه؟ وما ذنب درية الحمقاء التى صدقته، هل كان شـعـوره بالهـوان يدفـعـه إلى المزيد من الحضـيض حتى يسـتـريح، ومـتى كـان الحضـيض يأتى بالراحـة، لقـد شـاهد الاستاذ نجيب محفوظ هذه العاهات الناتجة عن العمل السرى فى ظل سلطة قمعية متوحشة ، فدمرت النفوس، فجعلت من القـتيل قـاتلاً ومن الضـحـيـة جلاداً، رأيناهم جميعاً كما رآهم استاذنا الكبير، وكما حرنا فى شأنهم احتار الاستاذ، لكنه رصدهم فى شـخـصـيـة منصـور باهى الرائعـة المدهشـة، وجـعلنا كلمـا رأينا أحدهم وشعرنا بالدهشة نتذكر منصور باهى.. ■



العقاد

بين سيد قطب وزكى نجيب محمود

بقلم

د. محمد أحمد العزب •

- ١ -

يثير شعر العقاد إشكالية نقدية لا تزال فى حاجة إلى تأمل زواياها وأبعادها ، حتى نضعها فى إطارها الصحيح ... لأن شعر العقاد يتسم بكثير من الفكرية الواضحة فى كثير من نماذجه ، حتى إن بعضا من أشد حوارييه من النقاد والأدباء والمفكرين لايستطيعون إنكار هذا الجانب الفكرى الذى يتكىء فى شعره على درجة واضحة من الوعى المتيقظ ، والتأمل التجريدى ، والتجارب المنطقية ، التى تنفى غالبا ما يتطلبه الشعر من رفرفة وانطلاق وتظليل وسبحات ... ولكن الأمر ليس على هذا النحو من الإجماع الذى قد يتخيل أن كل نقاد العقاد الشاعر يأخذون عليه غلبة الجانب التفكيرى فى شعره ، ويدلفون بالتالى من هذا المدخل إلى إدانة الشعر والشاعر على السواء .



• عميد كلية اللغة العربية السابق بالمنصورة.

عظمة شعر العقاد تكمن فى قدرته على التفكير بالشعر



زكي نجيب محمود



سيد قطب

هناك نقاد يرون أن عظمة شعر العقاد تكمن في قدرته على التفكير بالشعر، وأن هذا الجانب الفكرى فى شعره يمنحه نوعا من الخصوصية الفنية الممتازة التى تجعله ليس مجرد مرور عائم على سطوح الأشياء، وإنما مجاسدة وكشف لبواطن البواطن فى هذه الأشياء ومن هنا يوصف شعر العقاد - بما هو شعر مفكر - بكثير من صفات الرصانة والصلابة والعمق والسموق ... أو هو اقتراب من حدُّ الشعر العظيم كما يحدده العقاد ذاته فى هذه المقولة : (وحدُّ الشاعر العظيم عندى هو أن تتجلى فى شعره صورة كاملة للطبيعة بجمالها وجلالها وعلانيتها وأسرارها ، أو أن يستخلص من مجموعة كلامه فلسفة للحياة ومذهب فى حقائقها وفروضها ، أيا كان هذا المذهب ، وأيا كانت الغاية الملحوظة فيه) - (مطالعات ١٩٧) .

وبين هذين الاتجاهين فى تناول الظاهرة الشعرية عند العقاد ، يظل المجال مفتوحا لعديد من الاجتهادات فى هذا الصدد ، وتظل الكلمة الأخيرة فى شعر العقاد - وفى سائر الشعر - احتمالا غير وارد بالضرورة ، لأن الفن الحقيقى هو الذى يثير أكبر كم من الأسئلة ، ويفتح عيوننا النقدية باستمرار على مستوى من الفهم بعد مستوى ، ربما لأن أعماق هذا الفن أبعد من أن تصل إليها بضربة معول واحدة .

وقد اخترنا فى هذه الدراسة أن نقف شعر العقاد بين منهجين فى النقد : منهج فنى يعالج الظاهرة الشعرية من وجهة جمالية ترتكز فى مجملها على الاحساس بالنص ، ثم على تأمل جماليات هذا النص من حيث هو بناء لغوى يحمل فى طياته تجربة نابضة ... ومنهج فلسفى يعالج الظاهرة الشعرية من وجهة أخرى، ترتكز فى مجملها على الاحساس بالنص كذلك ، ثم على محاولة ربط هذا النص كجزء بكلية

الحركة الكونية ، من خلال تأويل مقولاته وأبنيته ، وأيضا من خلال إقامة نوع من التعادل بينه وبين نوعيات من التصاميم الفنية الأخرى التي تنهض جميعها في النهاية بعبء إقامة حوار جمالي مع سائر الأشياء والأحياء .

أما المنهج الأول فيمثله الناقد العربي الراحل (سيد قطب) .. وأما المنهج الثاني فيمثله الناقد العربي الكبير (الدكتور زكي نجيب محمود) .. وسنرى أن كلا من الناقدين يحاول تبرير العقاد الشاعر من وجهة خاصة ، ترتكز عند سيد قطب على الحس الجمالي ، وعند زكي نجيب محمود على الحس الفلسفي ، ولكنهما يلتقيان في النهاية على اجتهاد جاد في شعر العقاد ، لايهمنا أن يكون اجتهادا مع هذه النوعية الشعرية أو ضدها ، بقدر ما يهمنا أن يكون اجتهادا مسلحا برؤية نقدية ثاقبة ، وأيضا بطوية نفسية نظيفة .

– ٢ –

وسيد قطب يرى أن العقاد الشاعر يتميز دائما بالحضور وبالوعي وبالوضوح ، ومن ثم فإن للمجهول عنده نصيبا أقل من الضئيل ، حتى في هذا القدر فهو محكوم عنده بكونه فكرة واعية لا مجهولا ضبابيا ... ويذهب إلى أنه من هذه الينابيع يتفجر شعر العقاد ، فيكثر فيه تصوير النفس والفكر والمنطق ، بعيدا عن تأمل الإنطلاقات والظلال .. وإن كانت الحيوية المتدفقة والحبكة الرصينة والعمق الدقيق والصدق النفسي في هذا الشعر المفكر تعوضه كثيرا عن الرفرفة الطليقة ، وعن الإيقاع المتموج ، وعن الانطلاق الهائم ، وعن السبحات التائهة ... ومن هنا فإن هذه الحيوية الدافقة تبلغ بشعر العقاد – كما يرى – ذروة التوفيق إذا أتيحت له بكم يؤهله لبلوغ مثل هذه الذروة.

ويقرر سيد قطب أن الإيقاع في شعر العقاد يبدو محددا رصينا ، لا طلاقة فيه، ولا مدى للتموجات والرقص وتمرد الاندفاع ، ومن ثم فقد يجوز القول بأن كثيرا من شعر العقاد يمكن أن يضاف إلى رصيده من التجريد الذهني والتأمل النثري ، وليس إلى رصيده من الإبداع الشعري والتحليق الخيالي .

وإذا كان الشعر ليس فقط مجرد التعبير عن اللوعة اللاعجة ، وإنما هو كذلك التعبير عن الطلاقة والمرح والتعبير عن الشجي الخافت ، والتعبير عن ألوان شتى من هذه الآفاق .. فإن حدود الشعر – كما يرى سيد قطب تتجسد في أن الشعر لايحدده الموضوع الذي يقال فيه ، ولكن تحدده درجة الشعور بهذا الموضوع وطريقة التعبير عن هذا الشعور ، وهذا هو ما كان ينبغي أن يتوافر في شعر العقاد

.. (فأيما احساس استجاش النفس ، ورفع نبضها عن النبض العادى اليومي ، وجعلها تحس بالوهج أو الإنطلاق أو الرفرفة أو السبح فى عوالم مجهولة ، وخلصها - ولو لحظة - من الوعى الكامل أو الصحو المتيقظ ، فهو إحساس شعرى) .

هذا مجمل الرؤية النقدية التي واجه بها سيد قطب شعرالعقاد الشاعر ، ثم أفضى بعد هذه الرؤيه إلى إجراء نقدى تطبيقى حلل فيه نماذج من شعر العقاد ، ورضى عن بعضها ورفض بعضها الآخر ، دون أن نستشعر فى أى لحظة نوعا من مرارة الحقد ، أو نوعا من تسيب المجاملة .

- ٣ -

أما الدكتور زكى نجيب محمود فيتناول شعر العقاد من وجهة فلسفية نحس بإيقاعها منذ أول السطور .. ونعنى هنا بالوجهة الفلسفية محاولته فى رد الجزئى إلى مكانه فى الكلى ، والمحدود إلى سياقه فى اللامحدود ، والخاص إلى موقعة فى العام .. أى رد الظاهرة الشعرية إلى مناطها من حركة التعبير الشمولى عن الحياة والأشياء والمابعد .

ولأن سمة الشعر العظيم - كما يرى الناقد - تكمن فى أن يستحيل البصر موحيا إلى البصيرة ، والحس محركا لقوة الخيال ، والمحدود منتهيا إلى اللامحدود .. فان شعر العقاد يعد فى الشعر العظيم لأنه يجتاز هذه السمات: أى لأنه يعبر بالمتلقى من الخاص إلى العام ، ومن الآنى إلى اللازمنى .. وهذا هو ما يميزه عن غيره من الشعر .

ويحاول الدكتور زكى نجيب أن يضىء شعر الشخصية بهذا الفهم النقدى المرهف الذى ينضح إيحاء .. فإذا قيل أن الشاعر الحق يصور الحياة ، فليس التصوير المقصود هنا تصوير المرآة للواقف أمامها ، بل هو تصوير المثال الثابت للجزئية الطارئة حتى تلحق به ولا تظل مجرد جزئية منفصلة .

وكذلك ينهض شعر العقاد شاهدا على الشعر الذى يعكس صورة شاعره ولا يعكسها معا ، لأن الشعر الذى يعكس شاعره شعر ردىء ، ولأن الشعر الذى يعكس شاعره (فقط) شعر ردىء كذلك ، وما هكذا شعر العقاد ، إنه يطل من خلاله على الكون ، فهو موجود وغائب معا فى نفسى القصيدة ، محدود ومطلق فى نفس العمل الفنى ، ومن هنا تتأكد العلاقة الصحيحة بين الشعر والشاعر : الشعر كعمل إبداعي يخاطب الكون ، والشاعر كمفرد ينطوى فى النهاية على معنى الجمع .. ومن هنا كذلك تلوح الأشياء الحسية فى شعر العقاد غير مقصودة لذاتها ، وإنما لتجسيد المعانى والأفكار

وأمواج النفس .

وكإجراء نقدى يتناول الدكتور زكى نجيب محمود نماذج من شعر العقاد ليدلل بها على قضيته - ففى قصيدته (العُقاب الهرم) مثلا ، تتجسد هذه الملامح الفنية ، (فاللقطة الحسية هنا هى عقاب زالت عنه قوة شبابه فجثم على الأرض عاجزا عن النهوض والتحويم فى أقطار السماء كما كان يفعل إبان عنفوانه ، ويتلفت الشاعر حوله . فإذا صرصور ناشط بوثباته ، وإذا طائر القطا يصيح ، أما شيخ الطيور فقد حطمته السنون ، ولم يعد له من حياته الا الحطام، لكن واعجبا لعينيه الواهنتين ، مازالتا ترهبان بغاث الطير فتفر هاربة لاتقوى على مجرد النظر إلى صاحب السطوة حتى بعد أن زالت عنه سطوته ... هذه هى الصورة المرئية المحسوسة ، يرسمها الشاعر بتفصيلاتها رسما يوحى للقارىء أشد إيحاء بالصورة الخالدة المتكررة فى شتى الكائنات وعلى مر العصور : صورة المجد المخوف المهيب المرهوب الجناب ، تذهب مع الأيام قوته المادية ، لكن تبقى له آثار الهيبة الماضية يخشع لها الرائى راضيا أو كارها) .

وإذن فلا غرابة أن يكون شعر العقاد - كما يري الدكتور زكى نجيب محمود - أقرب شىء إلى فن العمارة والنحت ، فلا الفكرة عنده قريبة المنال ، ولا المادة سهلة التشكيل ، إنه يرغم المادة إرغاما حتى تستوى على النحو الذى يريده هو لها ، كما يرغم المثَّال قطعة الجرانيت على التشكل بالصورة التى يبتغيها لها ، فهى التى تطاوعه ، وأما هو فلا يطاوعها إلا بالمقدار الذى يبرز طبيعتها وصلابتها .

ويحاول الدكتور زكى نجيب أن يجرد الحديث النقدى تجريداً يشارف به روح التفلسف الشامل ، فإذا كانت هناك حدود نقدية بين ما نطلق عليه (الجليل) وما نطلق عليه (الجميل) كما يقول ، فإن شعر العقاد أدخل فى باب (الجليل) منه فى باب (الجميل) ، لأن فيه قوة ، وصحوا ، وعزما، وكبرياء وجدا ، فلا عجب أن يمس ديوانه العابثون فيتركوه قائلين . هذه فلسفة وليست شعرا .

— ٤ —

وبهذه الرؤية الجمالية التى حددها سيد قطب لشعر العقاد ، وبهذه الرؤية الفلسفية التى حددها زكى نجيب محمود لشعر العقاد أيضا ، نجد أنه على الرغم من تباين المنهجين النقديين ، يظل شعر العقاد مناط الأعجاب والتقدير هنا وهناك . وإن كان ذلك لم يمنع بالطبع من مؤاخذات نقدية تستدرك على مثل هذا الشعر نسبانه أحيانا بدائه أنه شعر ، وخوضه فى مقولات تجريبية أو منطقية ،

بصيغة فكرية تقريرية وليس بصيغة شعرية تخييلية ..

على أننا نسارع بالقول بأن من حق الشعر أن يخوض فى شتى آفاق الإحساس والفكر ، وأن يحمل فى طياته كل رؤى التعميق والاستقصاء ، ولكن بشرط أن يظل شعرا قادرا على امتلاك قارئه من خلال اشعال نوع من الحرائق العاطفية في وجدانه المتلقى ، وإقامة جسور واصلة بينه وبين سرائر الأشياء والأحياء .

وإذا كان سيد قطب رفض جانب التقرير والمباشرة وتعقيل الأحاسيس فى شعر العقاد ، فقد كان على حق تماما في هذه القضية ، لأن مهمة الشعر تكمن في التخييل أكثر مما تكمن فى التحقيق ... ومن حق الناقد أن يرفض فى أى شعر هذا النوع من التحديد الإيقاعى الممل ، وأن يدعو باستمرار إلى نوعية من الإيقاع الراقص المتدفق ... كما أن من حق الناقد أن يدعو الشعر إلى اقتحام المجاهيل وخطاب الماضى والحاضر والمستقبل . لا أن يظل شاهدا على المتواتر والآنى والمعروف ... وهذا كله قد أشار إليه سيد قطب في تضويئه لشاعرية العقاد الشاعر ، دون أن تحجزه عن مقولة الحق علاقته الوطيدة المعروفة به . وولاؤه الصادق الحميم له .

ولكن الدكتور زكى نجيب محمود - مع التسليم بأصالة رؤيته النقدية لشعر العقاد وشاعريته معا - آثر جانب الدفاع المطلق عن شاعره الأثير ، فبرّره جميعا ، دون أن يتلبث قليلا أو كثيرا عند بعض مزالق الإبداع فى شعر العقاد .. فبرر أحجام الكم الفكرى فى شعره ، وبرر تجريداته الفلسفية ، وبرر العمدية المقصودة في تطويع المادة وليس في إذابتها ، أو حتى على الأقل جعلها خلفية فلسفية ينزع عنها الشعر وهو قابض على أساسية التخييل والغياب ... ولكن ذلك لايطفىء من بريق هذه الرؤية النقدية الثاقبة ، ولا يقلل من قيمة الجهد النقدى في العبور من مجرد التحديق الجزئى فى النص ، إلى محاولة امتلاك رؤية شمولية تجعل من الشعر إبداعا صميما ، وليس مجرد مقازلة للأشياء بالكلمات .

وإذن فنحن مع هذين المنهجين فى دراسة شعر العقاد أمام نوع من المحاولات الجادة المثقفة ، التى تحترم عقل القارىء وإبداع الفنان ، وتبذل من معاناة الفهم قدرا مساويا أو يوشك أن يكون مساويا لمعاناة الفنان فى تشكيل عمله الفنى ، وأيضا لمعاناة المتلقى فى محاولته لقراءة النص قراءة تجعل منه ربما رمزا ، وربما معادلا ، وربما كونا لغويا يومئ إلى الكون الحى بلا حدود .. وهذا هو المدخل الحقيقى إلى فن قادر على إثرائنا من الداخل ، وإضاءة عيوننا بفرحة الكشف ، ونشوة الامتلاء !!!. ■

التصوف والحب

بقلم
حسن سليمان

قيل لمعروف الكرخى أخبرنا عن المحبة، أى شىء هى؟ قال: يا أخى ليست المحبة هى التى تعلم للناس، وانما هى تعليم الحبيب كيف يحب !!

ورسالة سيدنا محمد - دون ريب - أهم جوانبها الحب، وكان لدى سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - جانب كبير من الصوفية إذ بتعبيره يحس الله قريباً، ويحسه بعيداً متعالياً عن الكون موجوداً فيه، فهو فى نفس الوقت الذى فيه نور السموات والأرض، هو الموجود الذى يتصرف فى الكون، هو: كذلك موجود فى روح الانسان، إذ قال تعالى: «وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب»، قال أيضاً: «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد».

إن الله كان بالنسبة لنا اله علم الكلام، ومن هنا أصبحت جمهرة المفكرين من متديني المسلمين متصوفى النزعة ولن يكون فى الاستطاعة تعريف مفهوم يضم كل خفايا الشعور الدينى المستكين فى قلب كل فرد، فحقيقة الصوفية الحقيقية هى أن الأفعال التى تقع على الصوفى يجب ألا يعلمها أحد إلا الله، وأن تكون علاقته مع ربه على نحو لا يعلمه أحد إلا الله وحده.

قال «أبو الحسن بن حمزة»: التصوف ألا تملك شيئاً ولا يملكك شىء».

كذلك قال «النورى»: «ليس التصوف برسوم ولا علوم، ولكنه أخلاق».

أى إن كانت هناك قاعدة سلوكية لشخص فهى نتاج لمجهوده العنيف، وإن كان هناك علم فهو نتاج تعلمه، أما الصوفية فعلى خلاف ذلك، انها نهج تفكير



يوافق قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم- «تخلقوا بأخلاق الله». وأخلاق الله لن يمكن الوصول إليها بأسباب من القواعد ولا بأسباب من العلم، بل هي حب أكيد في محاولة منه للوصول إلى حق الحقيقة.

شروط التوبة ثلاثة

قال «الشبلي»: «التصوف هو ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك». والصوفي يجب أن يبدأ رحلته بغية البحث عن ربه، وقد نفى نفسه من كل الشوائب، حينئذ : فهو سالك يتقدم في مقامات رتيبة خلال طريق يهدف إلى الفناء في الحق، وهذا لا يخرج كثيراً عن أنه كان الطريق السليم لمعظم المتصوفين، لكن هذا الطريق لا يمكن أن يكون سليماً إذا اقتصر فقط على المجاهدات والعبادات والرياضات، بل يجب أن يكون كنازلة تنزل بالقلوب حتى تذيب الظلمة التي في أعماقك رويداً.. رويداً، ويحل دائماً انتباه القلب عن رقدة الغفلة، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحال، فإذا فكر بقلبه في سوء ما يصنع، وأبصر ما يفعل من قبيح الأفعال سنحت في قلبه إرادة التوبة والاقلاع عن قبيح المعاملة، وشروط التوبة حتى تصح ثلاثة هي : الندم على ما فُعل من مخالفات، وترك الزلة في الحال، والعزم على ألا يعود إلى مثل ما فعل من معاص، فإن لم يستطع أن يلزم

نفسه بذلك توجه إلى الله، ورحمة الله واسعة. ويقال إن صوفيا مشهوراً تاب سبعين مرة، وانتكس في الأسر في كل مرة، وقبل أن يعقد توبته الأخيرة مات وهذا يلغي فكرة التوبة.

وإن كان لابد من التوبة فيجب أن تأتي بنية صافية كاملة لا عبث فيها ولا تراجع، إذ أنه قبل محاولة التوبة لابد أن يصر صاحب التوبة على أن يترك نفسه كاملة وراء ظهره كميلاد جديد له، وأن يتخلى عن جميع مآربه الذاتية سواء ما اتصل بحاضر أيامه أو مستقبلها، فوجهته «الله» لذاته فحسب، فإن من يعبد الله ابتغاء شيء فانه يعبد نفسه من دون الله، ولا يتأتى هذا إلا بمراقبة دقيقة لقلبه وجمع دائم لشتات فكره، وصرف ذاته عن كل هم، ان الأمر لن يخرج عن جلد المرء لنفسه بصورة مستمرة، انها تلك المعركة التي عدَّها النبي - صلى الله عليه وسلم - أشق من الجهاد، وأجدر من المثوبة، الأمر ليس سهلاً حتى يصل المرء إلى صفاء كامل مصدره الحب.

إن الصوفي الذي استأصل رغباته ونزواته يقال عنه في اصطلاحهم أنه بلغ درجة الرضا والتوكل، والتوكل في أدق مدلولاته يستلزم نبذ كل ارادة شخصية، قال «أبو تراب النخشبي» حين سئل عن التوكل: «التوكل طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية والاطمئنان إلى الكفاية، فإن أعطى شكر، وإن منع صبر، راضياً موافقاً للقدر»!

وثمة طائفة خاصة من قدامى الصوفية جعلوا من التوكل علماً عليهم وطبقوه في جهد طاقتهم على حياتهم الخاصة إلى درجة أنهم شطوا بحيث إذا مرض مريض مثلاً لا يأخذ الدواء، فهم يسلموا أنفسهم تماماً لعناية الله.

***

إن الذكر ليس هو الذكر الى يمارسه الآن مدَّعي الصوفية إذ جمع كثير من الصوفيين خلاصة الأمر في قولهم: «أدنى الذكر أن تنسى ما دونه ونهاية الذكر أن يغيب الذاكر في الذكر عن الذكر».. وهي كلمات للقوشيري، وقد اعتاد «النوري» أن يراقب نفسه أتم مراقبة صامتة إلى درجة ألا تتحرك شعرة من جسمه، قال إنه تعلم تلك العادة من قطة كانت ترقب جحر فار، وأنها كانت أكثر منه سكونا : وهو خاشع تمام الخشوع لله، فقرر أن يكون خشوعه مماثل لذلك السكون.

إن حصول المرء على السكون الباطني، والصمت المطبق له ظاهرياً وباطنياً بداية معالم لاختيار الصوفي، وهو ينافي فكرة أن يذهب رجل مجهول إلى مدعي الصوفية، ويأخذ عليه عهد، فهناك

كثير من الرياضيات التمهيدية للصوفي، ولابد أن يؤدي ما يراد منه صابراً أشهر وسنيناً حتى إن منحه شيخه الخرقة التي تتخذ علامة ظاهرة على أن الصوفي قد اجتاز الدرجات الأولى من سلم الطريق، وقد استعاضوا عن طقس منح الخرقة الآن بشيء آخر ليس لي حق البوح به، عليه بعد ذلك أن يتقدم في خطى وطيدة صوب النور منصتاً إلى سريرته، وإلى حدسه أكثر من انصاته لعقله، إنه هنا كالمسافر الذي نال منه عناء السفر فتاه عن الوعي، وفجأة يبهره ضوء الشمس ونور اليقين الذي يرى به القلب ربه هو شعاع من نور الله ذاته، وفي هذه الحالة فالحب نفسه منحة من الله أو شعاع من نور الله إن كان حباً صادقاً لإنسان آخر .

ومفسرو الصوفية يفسرون «سورة النور» التي فيها: «الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري».

ليست هذه المشكاة إلا قلب المؤمن أو المحب، والمحب الحقيقي حديثه نور وأعماله نور، وهو يسير في نور، وفي هذا يقول أبو «يزيد البسطامي» : من وعظ بالديمومة فلابد له أن يشتمل على مصباحها، فإذا تطهر القلب من الأدناس الرذيلة والأفكار الآثمة هجم عليه نور اليقين وجعله مرآة مجلوة، ومن هنا جاء قول بعض العارفين: «إذا عصيت قلبي عصيت ربي».

إن مثل هذا الكلام لا يخرج عن تأكيد ارتباط الحب البشري بالحب الإلهي .

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : استفت قلبك، وإن أفتاك المفتون» ، وذلك شيء خير من تلقي الدين بالتعلم، وما يؤكد ارتباط الحب كذلك بالتصوف أن كثيراً من الصوفيين يذهبون إلى أنك يجب أن تعبد الله كأنك تراه.

المحب الحقيقي حديثه نور

قال سهل بن عبدالله التوستري : «لو أن واحداً أقفل عينيه عن الله برهة فلن يهتدي طول عمره»، لأن اعتبار غير الله توكل على غيره، ومن ترك لرحمة غير رحمة الله فقد هلك، وهذا يناقض تصرفات مدعي الصوفية الآن، إذ يقسمون بعض أوقاتهم بين طقوس لا معنى لها من : الحضرة... إلى الذكر... وحضور درس الشيخ الذي لا معنى له، بينما حقيقة الأمر – في جوهرها – هي علاقة ذاتية جداً ، تدوم مع المرء طوال يوم بأكمله، وحتى أثناء قيامه بالعمل فالله موجود بداخله ومعه.

إذن تتحقق كلمات تأتي على ألسنة الكثير من الصوفية مثل: الجذب.. الفناء..

الوجد.. السماع .. الذوق والغيبة، وكثيراً - إن لم يكن دائماً - يصحب الفناء فقد الاحساس، كأن يتلاشى المرء فى الوجود كله، وهذا هو غاية الفناء، لكن قلة من الصوفيين وصلوا إلى تلك الدرجة من الشفافية.

قال «جلال الدين الرومى»: «تطهروا من جميع صفات النفس حتى تروا وجودكم النورانى، نعم.. ترون فى قلوبكم علم النبى دون كتاب، ودون معلم أو مرشد».

تأتى هذه المعرفة بالإشراق والانكشاف والالهام، فيقول الصوفى: «انظر إلى قلبك لأن ملكوت السموات والأرض فيك».

هذا الكلام يُنسب إلى على بن أبى طالب.

إن المعرفة المباشرة لله قائمة على انكشاف أو رؤية جذبية وليست نتيجة بحث عقلى، بل هى تتوقف فى الأصل على رضوان الله ومشيئته يسبقها منحه إياها لهؤلاء الذين خلقهم وأعدهم لتلقيها، ومهما حاولنا فنحن لن نستطيع أن ندرك إلا القدر اليسير عن الوجود، وعن الرب العظيم الذى نبحث عنه. إن معرفة ذاته فوق طاقة الادراك، فيقول بعض المتصوفة: «ان مبلغ علمنا به أننا لا نعلمه» . أما رأيى أنا . فان المعرفة الحقيقية لن تأتى أبداً إلا بعد أن يتطهر القلب بالحب، حينئذ فهى تُعطى للمختارين فقط الذين غُسلت أرواحهم وأجسادهم بالنور الخالد.

إن حلاوة التأمل تتأتى حينما تملأ النفس نشوى تنتهى معها مجاهدة النفس، ويتضاءل بجانبها كل طقس من طقوس العبادة.

***

يعلن ابن عربى أن ليس دين أرفع من دين الحب، والشوق إلى الله، والصوفى الصادق يرحب بدين الحب على أى صورة تُبدى، إن الحب من حيث هو حب للجميع.. ولى .. ولكم، له حقيقة واحدة، غير أن المحبين مختلفون ، لكنهم يختلفون فى نظرتهم وفى الشروط، وفى اللوازم، لكن الأسباب واحدة، والله تعالى ما جعل البعض يهيم بآخر، وابتلاهم بحب أمثالهم إلا ليقيموا بهم الحجج على من ادّعى محبته، ولم يهم فى حبه هيمان هؤلاء، أى جعلهم مقياساً للحب الإلهى، وكم ذهب الحب بعقول المحبين .

«الأعمال الصالحة مهما كانت عظيمة لا تساوى شروى نقير انعرت عن الحب».

بل ويذهب «الجامى» إلى أبعد من ذلك إذ يقول: «لا تصف وجهك ، حتى عن الحب الترابى مادام الحب الترابى سيرفعك إلى الحق».

لكننا لابد ألا ننسى أن الحب كالمعرفة

هو في ذاته منحة ربانية يعطيها الله لمن صفت نفوسهم، وأرهفت عواطفهم، وهو ليس شيئاً يُنال، ولو أن البشر جميعاً أرادوا تحصيل الحب ما استطاعوا، ولو جاهدوا غاية الجهد في صرفه ما وسعهم ذلك، ومحبي الله الحقيقيون يشعرون بأن حب الله لهم يملأ جوانحهم.

قال «أبو يزيد» . «توهمت أني أذكره وأعرفه، وأحبه وأطلبه، فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري، ومعرفته سبقت معرفتي، ومحبته أقدم من محبتي، وطلبه لي سبق طلبي له».

يقول «الشبلي»: «لأن تحس بأنك واحد مع الله خير من عبادة الناس جميعاً من بدء الدنيا إلى غايتها». أي أن الحب هو البداية وهو الغاية التي يصعب الوصول إليها، وهو الطريق في نفس الوقت.

يقول جلال الدين الرومي: «ما لم أتوجه بقلبي إليك أعد صلاتي غير جديرة بأن تُعد صلاة» .

وقد قيل إن الحب أخيراً : إلهام رباني للروح يقهرها على أن تتعرف طبيعتها، وأن تتعرف ما وجدت من أجله، والروح أسبق موجودات الله جميعاً، عاشت وتحركت، وأصبح لها فيه وجود، فقبل أن يُخلق العالم كانت خلال ظهورها الترابي كغريب في منفى يحن دائماً إلى العودة لداره.

قال «أبو سعيد بن أبو الخير»: «لا تود روحي إلا أن تتحد بك، سأسلها عن جسدي على وجه من الوجوه».

إن بين المحبين الذين ملأ الحب قلوبهم حتى أصبح نور الله هو هاديهم، كثيرين عاشوا وماتوا مغمورين لا يعرفهم إلا قلة من الناس، بل هم أنفسهم لا يعرفون فضل حالهم، وهم في كل حال مستورين عن أنفسهم، وعن كل الناس منكرين حتى لكراماتهم إن حدث ذلك، لكن أكثر الصوفيين لا يقعون في مثل هذه النشوة من الحب والتوحد مع الكون التي تحدثنا عنها إلا وهم في حالة أقرب من السكر، أي حين يكون العابد قد وصل إلى القبضة الربانية، فشخصيته حينئذ تكون فيما يشبه الغيبوبة، وإن ظهر هذا الاحساس أو جهر بين الناس بشيء من علاقته أو حبه لله فعليه أن يعاقب نفسه أشد العقاب، فمن أباح بحبه ضل ، وهم أبعد الناس هؤلاء المحبين عن التظاهر أو التفاخر بعلاقتهم مع الله. بل أكثر من ذلك يبتعدون . كل البعد عن مدعى الصوفية وطقوسها الكاذبة من حلقات ذكر وورد وخلافه ، ويرفضون بشدة زيارة المقابر حتى وصل الأمر بعلاء الدين العطار إلى أن قال: «إلام تُعبد قبور الأولياء.. اشغل نفسك بأعمالهم تكن من الناجين». ■

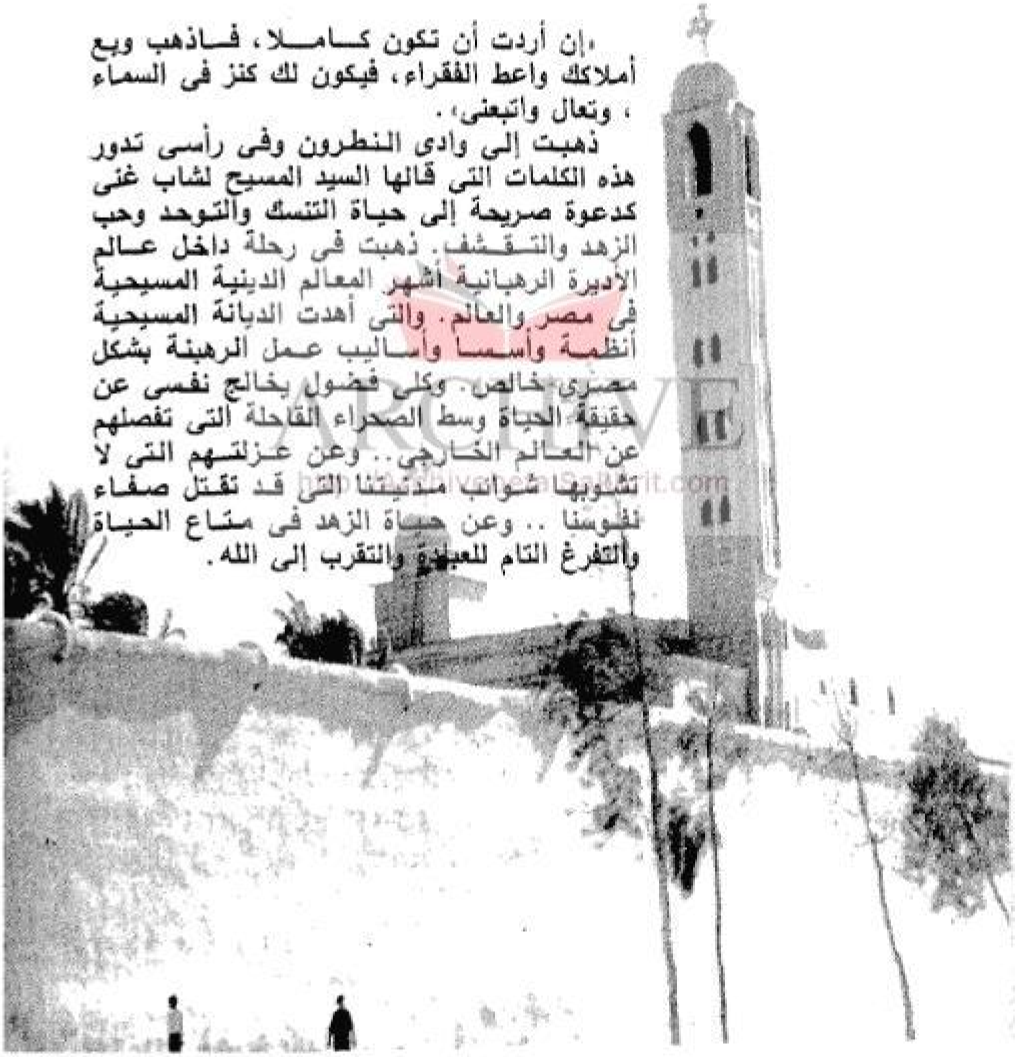
وادى النطرون

أشهر المعالم المسيحية فى مصر والعالم

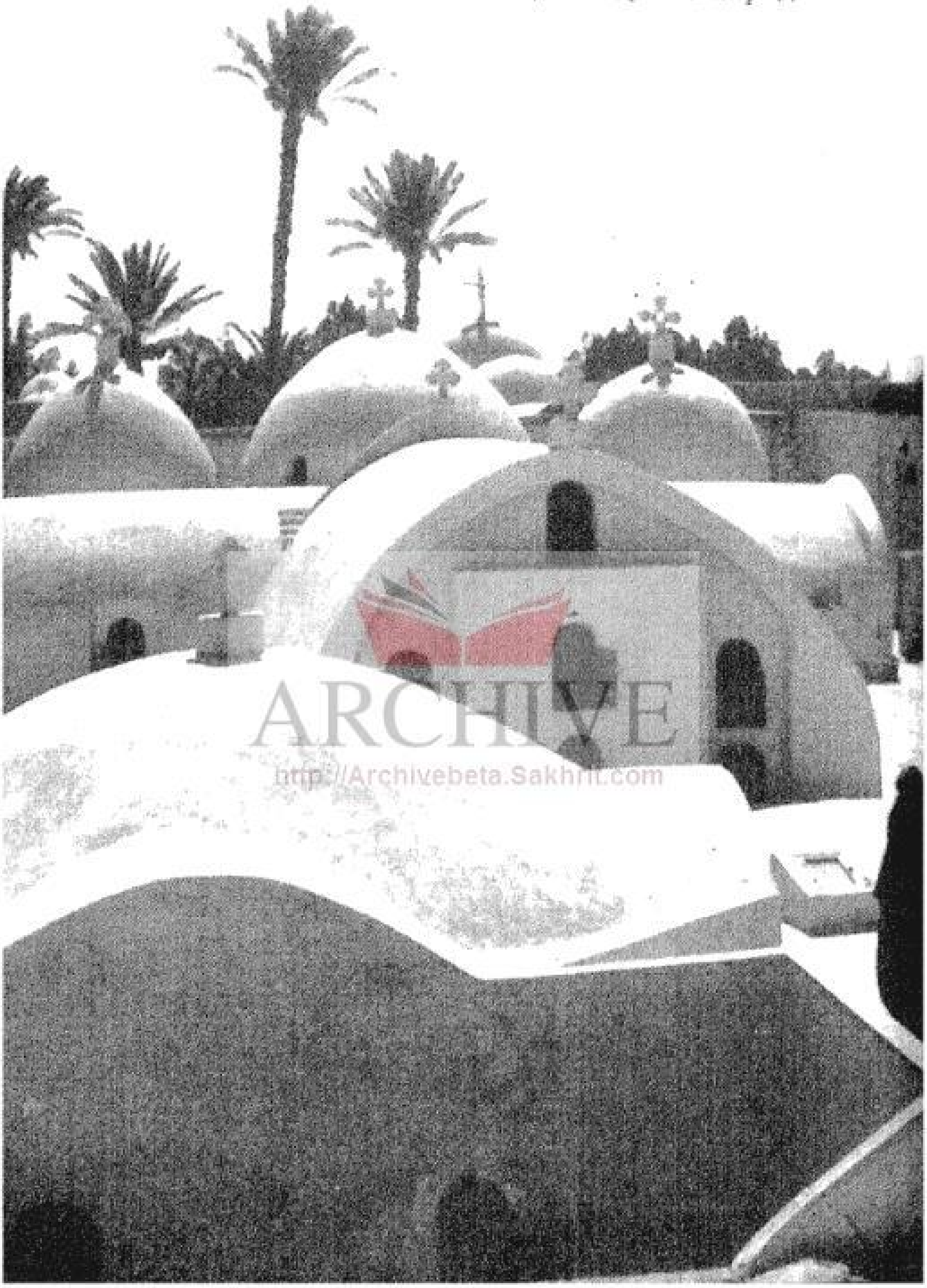
تحقيق : أمانى عبد الحميد ● تصوير : شوقى مصطفى

«إن أردت أن تكون كاملا، فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء، فيكون لك كنز فى السماء، وتعال واتبعنى».

ذهبت إلى وادى النطرون وفى رأسى تدور هذه الكلمات التى قالها السيد المسيح لشاب غنى كدعوة صريحة إلى حياة التنسك والتوحد وحب الزهد والتقشف. ذهبت فى رحلة داخل عالم الأديرة الرهبانية أشهر المعالم الدينية المسيحية فى مصر والعالم. والتى أهدت الديانة المسيحية أنظمة وأسسا وأساليب عمل الرهبنة بشكل مصرى خالص. وكلى فضول يخالج نفسى عن حقيقة الحياة وسط الصحراء القاحلة التى تفصلهم عن العالم الخارجى.. وعن عزلتهم التى لا تشوبها شوائب مدنيتنا التى قد تقتل صفاء نفوسنا .. وعن حياة الزهد فى متاع الحياة والتفرغ التام للعبادة والتقرب إلى الله.



القباب التي تميز أديرة الوادي يعلوها الصليب



لم يكن في مخليتي أن برية «شيهات» - كما كان يطلق على الوادي قديما، الصحراء التي تحاكي عنها الرحالة - لم يترك الزمن أي لمسات على رمالها أو على أسوار أديرتها الراقدة فوق التلال. برغم مرور أكثر من ١٧ قرنا من الزمان على حياة التنسك داخلها. فتقاليد المكان لاتزال مرعية لم تضمحل ولم تندثر تماما، كالمناظر التي تحيط بها . فالحياة هنا تبدو في مظهرها الخارجي وكأنها لم تتغير منذ فجر الرهبانية.

البحث عن الأمان

وادي النطرون.. مثل على مدى التاريخ بوابة العبور لأراضي الدلتا القديمة.. وظل بمرور الزمان شاهدا على حركات التاريخ فاعلا ومؤثرا فيها.. بوركت أرضه بمرور العائلة المقدسة خلال رحلة هروبها من بطش الرومان بحثا عن الأمان.. كما كانت أرضه بمثابة خط الدفاع الأول عن مصر في عهد الفراعنة لصد هجمات الغزاة القادمين من ناحية الغرب. أرضه كانت المنبع الرئيسي لمادة النطرون التي استخدمها الفراعنة في عمليات التحنيط.. أطلق عليه البطالمة «سخت همام» أي «حقل الملح».

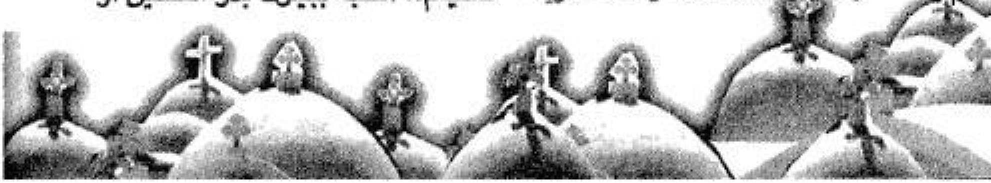
واحتضنت تلاله وصحاريه

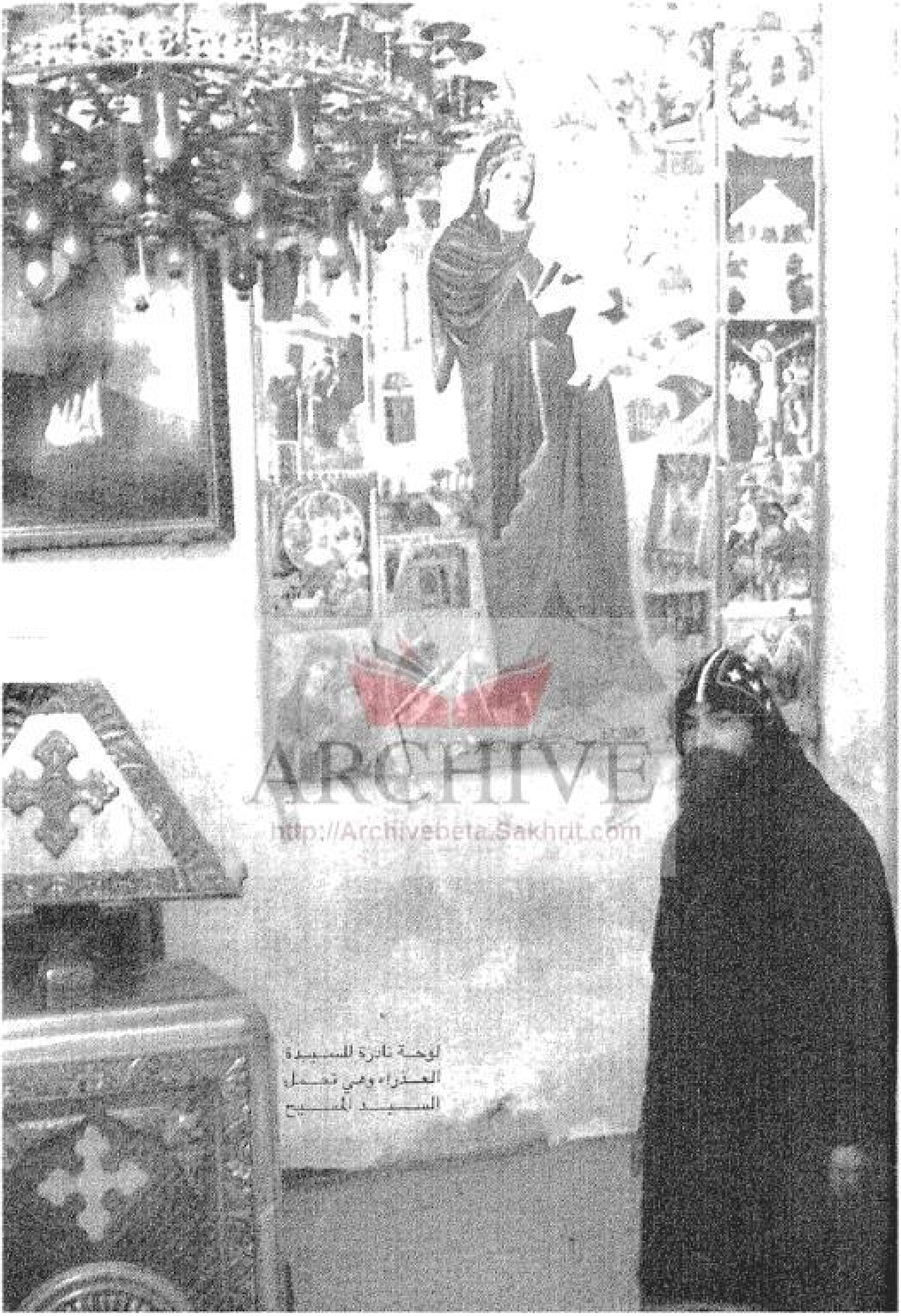
• حافظت الأديرة على التراث القبطي على مدى ١٧ قرنا من الزمان

الرهبان الفارين بدينهم المسيحي الجديد خلال عهد الامبراطورية الرومانية الوثنية. كما شهدت ترحيب الأقباط المصريين بالفتح الإسلامي وخروجهم مرحبين بعمرو بن العاص أثناء اتجاهه من الفسطاط الى الاسكندرية مارا بالوادي.

مدينة صغيرة

على بعد ١٢٥ كيلو مترا من القاهرة وعند منطقة «الرست هاوس» وصلنا إلى مدخل مركز وادي النطرون التابع لمحافظة البحيرة.. وبطريق طوله حوالي ١٥ كيلو مترا اصطفت المحال التجارية على جانبي الطريق، والتي تبدو أقرب إلى الدكاكين الصغيرة تعرض منتجات ورش النجارة أو محال بيع البويات أو الحدايد أو الأدوات الصحية البسيطة، وبالرغم من الصبغة التجارية التي اصطبغ بها الشارع الرئيسي للمدينة إلا أن المظهر العام يميل إلى البساطة التي قد تصل إلى حد الفقر أكثر من أي شيء آخر. تصميم المنازل يشبه تصميم بيوت بدو الصحراء بعد استقرارهم وتركهم للخيام.. أشبه ببيوت بدو العلمين أو





لوحة نادرة للسيدة
العذراء وهي تحمل
السيد المسيح

مرسى مطروح أو حتى العريش. وهى عبارة عن مبنى مكون من غرفة أو غرفتين على الأكثر يحيطه حوش ويلتف حوله سور مبنى بأحجار جلبها السكان من الصحارى المحيطة .. ويرغم مظاهر الفقر لم يمنع هذا أصحاب بعض البيوت من اقتناء «الدش» أو أطباق استقبال ارسال الأقمار الصناعية.. مما يدل على أن مظاهر رقة الحال قد تكون خداعة بعض الشيء.. وبمجرد الانتهاء من تأمل المدينة وصفوف بيوتها المتراصة على جانبى الطريق.. بدت لنا الصحراء مرة أخرى بنقائها.. فعادت إلينا السكينة التى افتقدناها طوال عشر دقائق اجتزنا خلالها مدينة وادى النطرون.. ووسط تناسق متناه ممتد بين اللون الأصفر للصحراء وتلالها الرملية واللون الأخضر لحقول النخيل وشجر الزيتون.. تطالعنا أديرة وادى النطرون الأربعة تحت الشمس الساطعة التى تضىء عزلة رهبانها.. تذكرت قصص الجنيات والأساطير التى تحكى عن الكنوز المخبأة والمدفونة أسفل كل دير من الذهب والفضة .. لكن الحقيقة تجلت بعد زيارة الأديرة.. فالكنز الحقيقى يكمن فى الأيقونات التى جسدت اللحظات الرائقة فى تاريخ المسيحية المصرية.. وفى الكتب والمخطوطات داخل مكتبة كل دير.. وأسوار الأديرة وحوائطها الشامخة المصطبغة بلون الصحراء ويحكى كل حجر منها قصة بطولة شهيد.. فسر أديرة وادى النطرون ليس مدفونا تحت رمالها بل يكمن فى حفاظها على تقاليد الرهبانية فى مصر والعالم أجمع.

الرهبانية المصرية

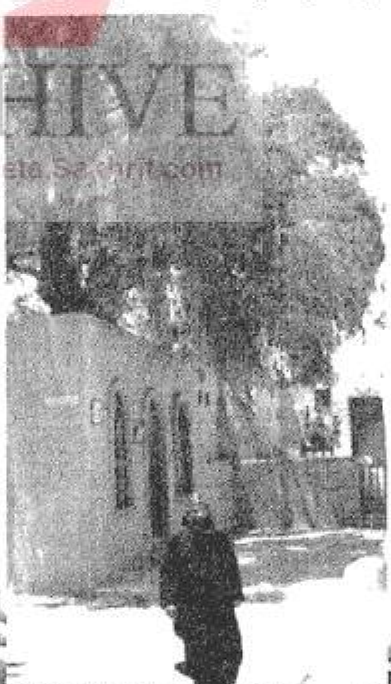
لا أحد يستطيع أن ينكر الدور الكبير الذى قامت به مصر فى سبيل إهداء عالم المسيحية فى الشرق والغرب نظام الرهبانية وحياة الدير... ويشرح لنا كتاب الدكتور رأفت عبدالحميد «الفكر المصرى فى العصر المسيحى» أن الاضطهاد الذى مارسه أباطرة الرومان الوثنيون ضد الأقباط كان عاملا رئيسيا فى انتشار الرهبانية والجوء إلى الصحراء ، ولم يختف الاضطهاد فى أعقاب اتجاه الامبراطورية الرومانية إلى المسيحية ، بل تزايد بسبب الاختلافات المذهبية. ووصلت إلى ذروتها أثناء عصر الإمبراطور «دقلديانوس» الذى اشتهر عصره بعصر الشهداء، والذى اتخذت الكنيسة تقويمها القبطى من بدايته تخليدا لذكرى شهداء التعذيب والاضطهاد، وعلى يد القديس انطونيوس الذى يعتبر الرائد الأول



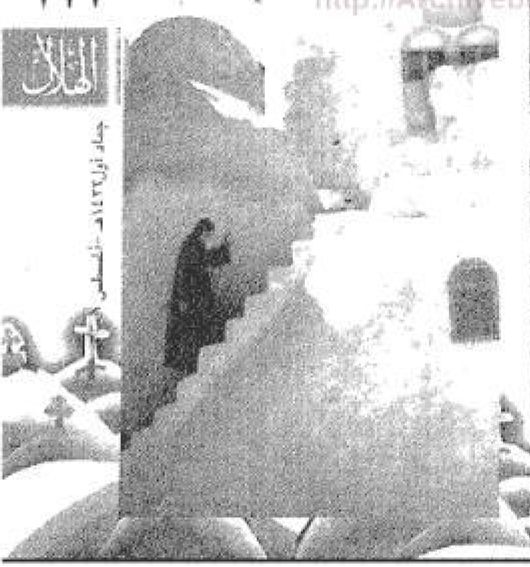


السيد المسيح يطل على الداخلين الي كنيسة العذراء الأثرية بدير السريان

شجرة التمر هندي مثمرة منذ ١٧ قرنا داخل الدير



المباني اصطبغت بلون الصحراء داخل دير الانبا بيشوى



للرهبانية ومن قبله القديس بولا، بدأت الرهبنة بنظام العزلة المطلقة داخل الصحراء.. حيث يقوم الراهب بحفر قلايته «كلمة يونانية تعنى الخلوة الصغيرة» داخل الجبل ليقيم فيها بشكل فردى ليعبد الله، كما شارك «باخوميسيوس» أحد الجنود المصريين بعد ترك الجندية والاعتزال مع رفاقه فى الصحراء فى وضع نظم الحياة النسكية الجماعية مستغلا خبرته العسكرية ومن مصر انتشرت حياة التنسك إلى العالم. فادخلها الى سوريا عام ١٣٠ م تلميذ الانبا أنطونيوس القديس «هلارمون»، وإلى العراق نقلها القديس «أوجن» أوائل القرن الرابع الميلادى. والى الغرب نقلها الأنبا «أثناسيوس» و«ايزودور» وعبر ايطاليا فى ٣٤٠ م كما أوضح كتاب «من صحراء العرب والأديرة الشرقية» للمؤلفين لبيب حبشى وزكى تاوضروس.

العصر الذهبى للوادى

ويعتبر الراهب أمون مؤسس أديرة جبل «نيتريا» أول مكان قصده النساك فى منطقة وادى النطرون.. ويذكر «بلاديوس» الأسقف اليونانى الذى تنسك فى مصر وجاءها عام ٣٩٩ م فى كتابه «بستان الرهبان» أنه يوجد حوالى ٥٠ ديرا يجتمع فيها ما يقرب من ٥ آلاف راهب يعيشون فرادى أو مقسمين إلى شراذم تتألف من راهبين أو ثلاثة.. بخلاف حوالى ٦٠٠ راهب يعيشون فرادى فى الصحراء. ويصف لنا كتاب «تاريخ الرهبنة والديرية» الحياة داخل الأديرة، حيث يقوم على التقشف الشديد. طعامهم القليل من الخبز وبعض الملح والماء، يفطرون عند غروب الشمس ويمضون لياليهم ساهرين فى صلوات طويلة والتزام الصمت وتحاشى التحدث مع الآخرين.

ويبلغ عدد الصلوات الرهبانية سبع، ثلاث منها أثناء النهار ، وأربع أخرى خلال فترات الليل. واعتبر عصر القديس الأنبا مكاريوس الكبير مؤسس حياة الرهبانية فى برية «شيهات» ومنشىء دير «أبو مقاره العصر الذهبى للوادى. وانطلاقا من مقولة بولس الرسول «أن من لا يعمل لا يأكل» اجتهد الرهبان داخل الأديرة بالعمل اليدوى كوسيلة لكسب العيش مثل صناعة السلال وبيعها وضفر السعف والليف لعمل الحبال، واستغل بعضهم فى غزل ونسج الكتان اللازم لصنع ملابسهم ، علاوة على العمل فى الزراعة والتنظيف وتقديم الطعام.

طرز معمارية ومعالم واحدة

تركنا مدينة وادى النطرون واتخذنا طريقنا صعودا باتجاه الأديرة الرهبانية فى قلب الصحراء وهى (دير



الأنبا بيشوى، السريان، البراموس، أبو مقار) ومع دخولنا الأديرة والتجول بها بدت لنا معالمها وطرزها المعمارية والإنشائية قريبة الشبه ببعضها البعض إلى حد ما.. فكل دير يحتوى على عدد من القلالى التى يقيم بها الرهبان يمارسون فيها عزلتهم وحياتهم الخاصة وتتكون من غرفة أو غرفتين، إحداهما لاستقبال الزوار والأخرى للراهب لا يدخلها أحد . بخلاف القلالى المحفورة فى الصخر أو فى قلب الصحراء المجاورة للدير. ويحتضن كل دير عدد من الكنائس يصل عددها الى أكثر من سبع كنائس كما هو الحال فى دير البراموس. وتحمل طرزا معمارية متقاربة معظمها يسبق تاريخ انشائها تاريخ إنشاء الدير والحصن معا. فمع بداية حركة الرهبانية اعتزل النساك داخل صوامعهم وقلاليهم فرادى. لا يخرجون منها الا يومى السبت والأحد لإقامة الصلاة الجماعية داخل الكنيسة.. ومع تزايد هجمات قطاع الطرق التف حول الكنيسة السور الضخم وبنى داخله الحصن المنيع. وداخل كل دير بلا استثناء توجد كنيسة تحمل اسم الملاك ميخائيل، حيث يعتبره الآباء حارسهم كما توجد كنيسة تحمل اسم السيدة

• تضم أديرة الوادى أجمل وأقدم اللوحات والرسومات القبطية على مر التاريخ

العذراء، أقدمها وأجملها الكنيسة الموجودة داخل دير السريان . كما أوضح لنا الراهب يعقوب السريانى خلال الزيارة . وتشترك الأديرة بوجود الأبراج أو ما يطلق عليها المنارة أو أبراج الجرس يعلوها الصليب منفصلة عن البناء الرئيسي، وفى الاصل تحمل النور ليرشد السائرين فى الظلام»، وهو تعبير سرى عن وضع الكنيسة فى العالم» كما يرى الأب متى المسكين فى كتابه «الرهبنة القبطية فى عصر الأنبا مقار» وبأسوارها العالية تميل الأديرة فى شكلها إلى شكل الحصون أو القلاع حيث يصل ارتفاع اسوارها الى ١٣ مترا ويصل عرضها الى ٣.٥ متر. أما الداخل فهى عبارة عن ارتداد فى حائط السور مسافة متر واحد ومن داخل الارتداد توجد فتحة سرية تغلق بباب من كتل الخشب المغطاة بشرائط حديدية. وتوجد داخل السور فتحته «المطعمة» فوق المدخل، وكانت تستعمل قديما لادخال الرهبان عقب سد باب المدخل فى الخارج بالحجارة.. وظلت تستعمل حتى وقت قريب لاستطلاع



الزوار أو من أجل انزال الطعام والخبز للذين يقصدون الدير طلبا للمئونة ويحتوى كل دير على قنطرة خشبية قديمة متحركة تشبه الجسر الخشبي.. يرجع تاريخها الى نشأة الحصن داخل الدير.. وظيفتها فصل مبنى الحصن عن البوابة والأسوار الخارجية فى حالة الهجوم على الدير.

وملحق بكل دير ما يحتاج إليه الرهبان لتسيير حياتهم اليومية دون الحاجة للعالم الخارجي مثل معصرة الحبوب والزيتون وآبار المياه الجوفية لرى الزرع وخزانات المياه ، والمخبز لتجهيز الخبز للرهبان، كما تحتوى الأديرة على مكتبة زاخرة بالمخطوطات والكتب التاريخية واللاهوتية والطقسية، وتعتبر مكتبة دير البراموس من أقدم مكتبات الأديرة حيث تضم حوالى ٤٧٢ مخطوطا و ٢٨٩ مطبوعا أغلبها دينى تم نسخه من عهد الأنبا كيرلس الخامس.

دير الأنبا بيشوى

أشهر أديرة الوادى يرجع تاريخ إنشائه الى القرن الرابع الميلادى ومنشىء الدير هو الأنبا بيشوى تلميذ القديس مكاريوس أحد زعماء النسك فى الوادي. ومن تلاميذه الراهب «بأفرايم» الناسك السورى الذى غرس عكازه بجوار قلاية الأنبا بيشوى .. وبعد فترة نمت وأورقت وأصبحت شجرة للتمر هندى لاتزال مزهرة حتى الآن خارج الهيكل القبلي للكنيسة داخل دير السريان. وداخل اسوار الدير تجد اشجار الكروم والنخيل والرمان والزيتون والنبق وتزرع الخضراوات . ويذكر لنا الراهب القس «هابيل» خلال لقائه معنا ان الدير يضم «الأنبل» وهو منبر أثرى يعود تاريخه الى القرن الرابع عشر، ويضم بئر الشهداء حيث غسل البربر سيوفهم بمياهه بعد قيامهم بغارتهم الشهيرة على دير ابو مقار وارتكابهم مذبحة الـ ٤٩ شهيدا.

دير السريان

عقب خروجنا من دير الأنبا بيشوى اتجهنا نحو دير السيدة العذراء المشهور بالسريان.. سرنا عدة دقائق حتى بدا لنا الدير فوق هضبة صغيرة اسفله السهول الخضراء وأشجار النخيل كقلعة صفراء يتخيل الزائر انها مشيدة من الرمال بناها أحد هواة بناء القلاع على رمال شاطىء البحر.

حوائطها انسيابية فى مواجهة أفق الصحراء.. وباستقبال حار رحب بنا رهبان الدير بقيادة رئيس الدير الأنبا متاؤس الذى يعطيك الاحساس بالوقار والهدوء.. حكى لنا تاريخ أجمل اديرة





الطاحونة توجد في كل دير
لطحن الحبوب وعصر الزيتون

الوادي. ويحتوي على زخارف جصية نادرة داخل كنيسة العذراء أهم وأقدم الآثار الباقية فى الدير.. الى جانب الأحجبة الخشبية ذات الحشوات المطعمة والأبواب ذات الحشوات المنقوشة برسوم بارزة دقيقة والمصنوعة من خشب الصنوبر.. مثل «باب الرموز» الذى يرجع تاريخ إنشائه الى عام ٩١٤ م ويعبر عن العلاقة بين كنيستى الاسكندرية والإنطاكية.. ويشرح بأسلوب رمزى المراحل التى مرت بها الكنيسة منذ بداية المسيحية وحتى نهاية العالم.. كما تتزين قباب الكنيسة بلوحات جصية «فريسكا» بألوان زاهية تعود الى القرن الثالث عشر الميلادى وقد قامت بعثة معهد الآثار الفرنسى بالاشتراك مع المجلس الاعلى للآثار عام ١٩٩١ باكتشاف لوحة فريسكا أسفل أحدى لوحات قباب الكنيسة واضحة المعالم.. ويؤكد الخبراء انها تحمل أجمل منظر للسيدة العذراء ومعها الملاك غبريال وأشعياء وموسى وحزقيال ودانيال الأنبياء لا مثيل لها فى العالم، حيث تجسد ملابس وتسريحات الشعر منذ ظهور السيد المسيح مرورا بعصور متعاقبة. وقد أرجع الخبراء تاريخها إلى أبعد من القرن السابع الميلادى، كما اكتشفت البعثة الهولندية أن الرسومات الحائطية بالكنيسة ما هى إلا عبارة عن طبقات محارة فوق بعضها قد يصل عددها إلى خمس طبقات متراصة تحمل كل طبقة رسومات يرجع تاريخها الى فترات متوالية تبدأ بالرسومات القبطية فى القرن السابع وتنتهى برسومات سريانية فى القرن الثالث عشر.

دير البراموس

يعرف بدير الروم نسبة للأميرين الاخوين مكسيموس ودوماديوس ابنى ملك الروم «لانديوس» اللذين حضرا من سوريا الى الأنبا مكاريوس الكبير بهدف الترهبن عنده.

ويضم حوالى سبع كنائس اقدمها كنيسة السيدة العذراء التي يتوسطها حوض «اللقان» كأغلب الكنائس هناك، حيث يملأ بالماء يوم خميس العهد من كل عام ويغسل فيه الكاهن أرجل الزوار اقتداء بما فعله السيد المسيح مع تلاميذه . كما توجد فى الدير كنائس تحمل اسم مارجرجس والأمير تادرس ويوحنا المعمدان كما أوضح لنا الأب ماكيس البراموسي.

دير الأنبا مقار

جنوب شرق دير الأنبا بيشوى والسريان وعلى مساحة فدانين و ٢٢ قيراطا تقريبا، أقيم أغنى أديرة وادى



النطرون يحتوى على أروع الآثار المسيحية، أهمها التابوت الموجود فى كنيسة أبو مقار ويحتوى على رفات عشرة من الآباء البطاركة، وكما يوجد أجساد التسعة والأربعين شيخا الشهداء فى مذبحة البربر مدفونة بكنيسة الشيوخ والتابوت الرخامى الذى يحمل رفات القديسة هيلاريا ابنة الملك زينون التى تنكرت فى زى الرجال وترهبنت بالدير ودفنت فى أرضية قصره القديم.

وإن كانت أهمية الدير ترجع الى دوره فى اتمام عملية الرسامة والتقديس .. فمن العادات المتبعة عند انتخاب البطريرك للكرسى المرقسى كان لابد بعد تكريسه فى الاسكندرية ان يتوجه بعدها مباشرة الى دير الأنبا مقار من أجل اتمام رسامته نظرا لأهميته التاريخية كما جاء فى كتاب الدكتور رءوف حبيب السابق ذكره.

ويحتوى الدير على كنيسة الأنبا مكاريوس تضم خمسة هياكل أهمها هيكل «بنيامين» تعتبر قبته من ابدع واتقن ما بنى فى وادى النطرون. كما أن منزلته سامية حيث يتحتم على كل بطريرك ان يصلى فيه بعد رسامته. كذلك يقام حفل تقديس الميرون به. وغير مصرح لأى كاهن أن يصلى فيه

• بوركت أرض الوادى بمرور العائلة المقدسة خلال هروبها من بطش الرومان

إلا من رسم عليه. واشتهر الدير منذ القدم بما كان يحويه من طائفة من النساخ المهرة فى نسخ الخط القبطى والعربى ويتفننون فى رسم الحروف على أشكال طيور جميلة وفى صنع ألوان الحبر البراقة.

وفى نهاية رحلتنا لفت نظرى سيدة عجوز تنتظر امام باب الدير وبسؤالها عن سبب زيارتها للأديرة.. نظرت لى باستنكار قائلة «الحياة قاسية لا ترحم والرزق قليل لا يكفى العيش على الكفاف .. جئت بأحد أبنائى ليدخل سلك الرهبانية عله يجد حياة أفضل داخل الدير وأكثر راحة عما نعيشها فى الخارج» لم أجد ما أقوله لها.. فحياة الرهبنة أساسها زهد وتقشف. ولم يكن هدفها ان تتحول الى حياة مريحة اكثر رفاهية من العالم الخارجى.. ولكن يبدو ان الاوضاع تغيرت فى وقتنا هذا.. وأصبحت أسوار الأديرة وعزلة رهبانها أرحم كثيرا من الحياة فى مجتمعنا المدنى الحديث! ■





الرأسمالية

وتأجيل ثورة المعلومات

بقلم

د.أحمد محمد صالح

هل تتذكرون؟! بداية عام ١٩٩٩ حين زاد الكلام بشكل ملحوظ فى وسائل الإعلام المعولم حول مشكلة الصفرين فى عام ٢٠٠٠، وكانت كل المعالجات تتعامل مع القضية كأمر واقع، وتقر بحتمية وجوب ظهور هذه المشكلة، وكأنها قدر على البشرية، وتبحث فى الحلول التقنية لها؟ ومر عام ٢٠٠٠، ودخلنا عام ٢٠٠١ ولم تحدث المخاوف والكوارث التى توقعتها وسائل الإعلام المعولم، بعد أن تكلف العالم مئات المليارات من الدولارات لمعالجة ومواجهة تلك المشكلة. وكان السؤال الذى يؤرقنى دائما ماهى الحقيقة وراء تلك الأزمة؟ خاصة وقد شاركت بالكتابة والتحليل للتحذير من تلك الأزمة.

فمنذ أكثر من ١٨ شهرا كان العالم كله يتوقع كوارث فى جميع القطاعات بسبب مشكلة صفرين الكمبيوتر، وانتظر خبراء الكمبيوتر؟! بقلق وصول سنة ٢٠٠٠، ولم تصل الفوضى المتنبأة أبدا لدرجة الكارثة، وكان السؤال الذى طرح هل هى كارثة نجح العالم فى تجنبها؟ أو هى خدعة عالمية صممت لتعظيم ثروات خبراء الكمبيوتر؟! فى منتصف الليل فى ٣١ يناير ١٩٩٩ كانت الملايين من الناس تحتفل بالعام الجديد، لكن آخرين كثيرين كانوا يجلسون بقلق أمام



محطات الكمبيوتر ينتظرون وصول نهاية العالم بسبب مشكلة سنة ألفين الرّهيبة - ودقت الساعة منتصف الليل كما ينبغي و ... لاشيء حدث، لا أزمة عالمية، لا تسرب إشعاعي، لا كارثة اقتصادية، واستمرّ العالم يلفّ ويدور كما هو! ولكن كانت هناك حوادث صغيرة، فبينما كانت الفوضى غير منتشرة، عجزت بعض الكمبيوترات في التعرف على السنة ٢٠٠٠، وكانت جمهورية جامبيا الصغيرة في غرب إفريقيا من بين الدول القليلة التي تعرضت لما يعرف بآفة الألفية، إذ يقول مركز أقيم خصيصا في واشنطن لمراقبة تأثير هذه المشكلة في أرجاء العالم إن انقطاعات كبيرة في الطاقة هددت قطاع الطاقة في جامبيا، وفي قطاعات النقل الجوي والبحري والمالية والخدمات الحكومية، والضرائب، والجمارك، وأشار مركز مراقبة آفة الألفية إلى أنه لايمكن نسبة جميع المشاكل إلى آفة الألفية، فمنها ما سببه عدم قدرة بعض أجهزة الكمبيوتر على تغيير التاريخ من ١٩٩٩ إلى ٢٠٠٠، ومع ذلك يقول الخبراء إن المشاكل التي واجهتها جامبيا، فاقمها تأخر المساعدات الدولية التي وعدت بها الجمهورية من أجل تهيئتها للتغيير الذي سيحدث، وفي أماكن العالم الأخرى تنفس الكثير الصعداء بعد عجز آفة الألفية عن إصابتهم، وأعرب الخبراء في جميع أنحاء العالم عن ارتياحهم لعدم تعرض أجهزة الكمبيوتر في المواقع الحساسة لخلل بسبب التحول الى عام ألفين، وقد أنفقت آلاف الملايين من الدولارات في الفترة السابقة على حلول عام ٢٠٠٠ لتحديث برامج الكمبيوتر بغية تفادي انهيار الخدمات الأساسية، كما عمل مسئولون عسكريون أمريكيون وروس بنجاح للحيلولة دون وقوع خطأ في برامج إطلاق الصواريخ النووية، وجرى الانتقال من عام ٩٩ إلى عام ٢٠٠٠ دون مشاكل تذكر في نظام مراقبة حركة الملاحة الجوية في الولايات المتحدة وهو من أكثر المجالات حساسية..

وبالرغم من المخاوف من أن الدول النامية ستكون أكثر عرضة لخطر انهيار أنظمة الكمبيوتر بسبب الانتقال إلى عام ألفين، فإنه لم ترد أي أنباء عن مشاكل كبيرة في أجهزة الكمبيوتر في القارة الأفريقية ومنطقة الشرق الأوسط، وقد انتقل كثير من الدول الأفريقية إلى العام ألفين دون مشاكل تذكر. إلا أن المسئولين في الدول الأفريقية يقولون إنه يتعين التريث بعض الوقت قبل الجزم بأن الخطر قد زال، وقد أعلنت الدول الآسيوية والأوروبية بعد دخولها الألفية الجديدة، أن أيا من المخاوف التي كانت متوقعة لم تحدث في





الصين وروسيا، وكانت الصين قد أعربت عن ثقتها في وقت سابق من ذلك، حين أكد مسئولو الطيران المدنى أن الطائرات الصينية ستحلق فى السماء مع أول دقائق الألفية الجديدة.

مليارات لمشكلة الألفية

وكان القلق يساور الكثيرين حول التأثيرات المحتملة لآفة الألفية على الترسانة النووية الروسية، لكن قائد القوة الصاروخية الروسية الجنرال فلاديمير ياكوفليف قال إن الجهود التى بذلت فى سبيل تجنب الوقوع فى مشاكل من هذا النوع قد أتت ثمارها. وأفادت الأنباء الواردة من اليابان بأن أجهزة المراقبة قد تعطلت فى مفاعلين نوويين، لكن لم يثبت حتى الآن ما إذا كانت لهذه الأعطال علاقة بخلل الألفية، وكانت دول العالم قد أنفقت مليارات الدولارات لتعديل أنظمة الكمبيوتر حتى تتغلب على مشكلة الألفية ، وحتى تضمن أن تعمل الخدمات الحيوية بشكل عادى مع انتقال العالم إلى الألفية الثالثة.ومع ذلك فإن الانتقال السهل إلى الصفرين لم يمنع الخبراء من التحذير من احتمال، وقوع مشاكل، ويقولون إن أى تأثير سلبى لآفة الألفية لايقتصر على لحظة التغير الزمنى، بل فى، أى وقت يقرأ جهاز الكمبيوتر سنة ألفين خطأ . فهل كانت آفة سنة ٢٠٠٠ هى مجرد حملة إعلانية فى أجهزة الإعلام لإرعاب الناس وإبقائهم منتبهين إلى الراديو والتليفزيون والصحف؟! ربما ومستحيل فى أى وقت أن نعرف المدى الحقيقى لمشكلة سنة ألفين ببساطة، لكن ربما، كان النجاح الكبير للتعاون العالمى، والتفاهم، كان له أثره الواضح فى تجنب تلك الكارثة؟ لكن كم الكلفة التى دفعها العالم لتجنب تلك الكارثة حتى الآن، قدر بعض الخبراء التكلفة الكلية لإصلاح تلك المشكلة بين ٢٠٠ بليون دولار إلى ٦٠٠ بليون دولار فى كل أنحاء العالم. بريطانيا لوحدها دفعت ٣١ بليون دولار، الخطوط الجوية البريطانية، على سبيل المثال أنفقت ١٠٠ مليون دولار على مشكلة صفرى الكمبيوتر، وإذا حسبت فقط التعويضات والتكاليف القانونية لمشكلة الألفية يظهر فورا رقم التريليون دولار ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار، لكن، هناك التكاليف الطويلة الأجل، فهى أعلى كثيرا، حيث يعتقد بعض المحللين المتشائمين أن هناك ٤٠٪ فرصة ركود عالمى لمدة ١٢ - ٢٤ شهرا، وهو ما يحدث الآن فى العالم وكان يمكن لتلك المئات من المليارات أن تسرع وتعمق ثورة المعلومات، وتساهم فى سد فجوة الانقسام الرقمى التى يعانى منها العالم، بالطبع، كان هناك بعض الفائزين!



من هم؟ ومن المسئول عن مشكلة الصفرين! وكيف نشأت؟ وهل هى فعلا مشكلة كانت حتمية الظهور؟ ولماذا لم يتم حلها مع ثورة الكمبيوتر الضخمة فى الثمانينات! ولماذا استمرت حتى التسعينات؟ وماهى آثارها الاقتصادية والاجتماعية؟ كنت أشعر بالريبة، وان هناك شيئا ناقصا يتجاهل الجميع الاعتراف به! وظلت تلك المشاعر مسيطرة وضاغطة على تفكيرى، حتى وجدت أثناء سفرى المعرفى فى الإنترنت عدة كتب وتقارير اليكترونية صادرة فى العامين الأخيرين، تقدم معالجة جديدة تبرز الأسباب الأصيلة لمشكلة الصفرين التى كانت حديث العالم فى أواخر عام ١٩٩٩.

آفة القرن الجديد

كان من المفترض عند دق الساعة الثانية عشرة فى يوم ٣١ ديسمبر عام ١٩٩٩ حدوث فوضى هائلة فى المعلومات المخزنة والعمليات الإليكترونية التى تجرى بواسطة أجهزة الكمبيوتر المنتشرة حاليا فى العالم، قد تقود إلى انهيار تجارى وإغلاق العديد من الشركات الكبرى أبوابها، وربما إلى كساد اقتصادى عالمى، وأطلقوا على هذه المشكلة فى الولايات المتحدة الأمريكية اسم آفة القرن القادم أو جرثومة الألفية القادمة Millmmium Bug. ومصطلح Bug فى علوم الكمبيوتر يعنى خطأ برمجة، غير معروف وقت ظهوره، وهو خطأ طارىء مفاجىء، غير قابل للتكهن به، ويحدث بالمصادفة، وهو نادر الحدوث، ولايمكن إدراكه وفهم كل مايتعلق به إلا عندما يحدث، فهل فعلا كانت مشكلة الكمبيوتر عام ٢٠٠٠ هى آفة القرن الجديد Bug كما يدعون فى البلدان الرأسمالية؟! حتى زعماؤهم عندما اجتمعوا فى ١٧ مايو ١٩٩٨ فى برمنجهام بانجلترا، وصفوا تلك المشكلة بأنها Bug ، أنهم يخدعون العالم أجمع بوصف المشكلة بأنها خطأ برمجي طارىء Bug لكى يتنصلوا من مسئولية إصلاح ما أحدثته الرأسمالية بنفسها، فالمشكلة ليست نتيجة خطأ برمجة فى الكمبيوتر، بل أن السبب الجذرى لها هى المنافسة الرأسمالية الشديدة بين الشركات فى استعمال رقمين فقط فى حساب التاريخ بالكمبيوتر توفيرا لمساحات التخزين، وتوفيرا للتكاليف والعمالة وسعيا لتعظيم الأرباح. وانتشر هذا الاتجاه بسرعة بين الشركات وأصبح مقياسا صدقته الحكومات وسلمت به، وأصبح توفير مساحة خانتين للرقمين التاريخ على الكمبيوتر مثل خدعة صغيرة بريئة تعكس طمع الرأسمالية التاريخى القديم، بأن يعظموا أرباحهم بأى طريقة وبأقل تكلفة، وعلى فترة الأربعين سنة الماضية، كان كل سطر يكتب فى أى برنامج للكمبيوتر،

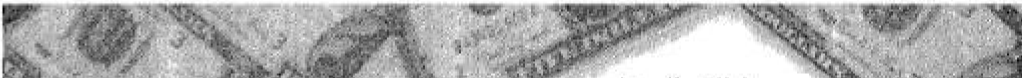




يستعمل المبرمج رقمين فقط في حساب التاريخ، بدلا من استعمال أربع خانات، اثنتان تشيران إلى القرن نفسه، معتمدين أن كل الناس تعرف أنه القرن العشرون، فالرأسمالية وضعت بنفسها نغما أرضيا في امبراطوريتهم الرأسمالية، تصديقا لمقولة أن الرأسمالية تحمل معها أسباب تدميرها، وصانعو الأرباح في البلدان الرأسمالية هم الأكثر إدراكا ومعرفة في كيفية إنجاز أهدافهم، فاستعملوا تكنولوجيات الكمبيوتر في مضاعفة أرباحهم، وهم يعرفون جيدا ومنذ فترة طويلة ما سوف تسببه مشكلة صفري الكمبيوتر من فوضى في الألفية الجديدة، وكانوا جاهزين بحلول لها مع مطلع عام ١٩٩٩ لمن يدفع ثمنها، وفعلا دفع العالم مئات المليارات لتجنب آثار تلك الخدعة. فمشكلة تغيير التاريخ في عام ٢٠٠٠ ظهرت مبكرا في أوائل السبعينات عندما دخلت برامج الكمبيوتر في صناعة البنوك، ووقعت مشاكل في تسديد الحسابات والديون لـ ٣٠ سنة القادمة، وحتى في الخمس عشرة سنة الماضية ، كان المبرمجون لبرامج الكمبيوتر في أنحاء العالم وبجنسياتهم المتعددة يصنعون برامجهم، وهم يشيرون إلى الفوضى المتوقعة من مشكلة خانتي التاريخ، ولكنهم استمروا في تصميم برامجهم معتمدين على رقمين فقط في حساب التاريخ، حتى لايفقدوا وظائفهم وسط هذا الجنون المتسارع لجمع الأرباح، والمنافسة الشديدة.

أدوات تصليح التاريخ صناعة جديدة

وحقيقة الأمر أن الشركات الكبيرة لبرامج الكمبيوتر طمأنت زبائنها من خلال دعاية مكثفة، بأنه في إمكانها تزويدهم بحل تقني لمواجهة هذه المشكلة، وفاض السوق وعج بتنويعات لاتنتهي من برامج الكمبيوتر التي بكبسة واحدة على زر لوحة المفاتيح تعالج مشكلة تغيير تاريخ القرن الجديد أتوماتيكيا، ونمت صناعة أدوات تصليح التاريخ، ولكن إذا كانت هذه الأدوات البرامجية التي تساعد مبرمجي الكمبيوتر في تحديد وتصليح التاريخ، فإن كل خط كودي مكتوب في أي برنامج يحتاج إلى شهور لاختبار التغييرات التي تطرأ عليه، وفرص النجاح أمامها مرتبطة بمنظومة النظام ككل. فهذه الأدوات والبرامج التي تصلح التاريخ تزود باعة البرامج بفرص جديدة في الاستفادة من الأزمة وتعظيم أرباحهم مرة أخرى، وطبعا لانتوقع من الباعة بنقد بضاعتهم وإظهار عيوبها أمام زبائن ينوحون ويشكون، فمن السخرية الشديدة أن هؤلاء الباعة هم الذين خلقوا المشكلة، وهم الذين



...جبروا العالم على دفع المليارات لمواجهتها .. وهنا يقول دكتور ادوارد ياردينى DR. Edward Yardeni وهو من أكبر الاقتصاديين فى الولايات المتحدة الأمريكية مصداقية: «لايوجد حل سحرى لهذه المشكلة، ومن السخرية أن المستثمرين لا يعتقدون ذلك بجدية، ويعتبروننى أمزح، فالثقة الزائدة فى الابداع الأمريكى تجعلهم يقررون أنها فعلا مشكلة ولكنها سوف تحل فى وقتها، وفعلا انتظر العالم كله الحل السحرى الذى خرج من تحت قبعة العم سام فى آخر وقت، لأن الرأسماليين أراد كل منهم أن يتفوق على الآخر، ويعظم أرباحه أقصى تعظيم خلال فترة الأزمة، وهم دائما يخدعون بعضهم البعض من خلال السوق الحرة، فالمنافسة تقتل المنافسة dog - eat - dog وكالعادة انتبهت هوليود لمشكلة عام ٢٠٠٠ ليس لأن هوليود تستطيع أن تحل هذه المشكلة، بل لاستغلالها واستثمارها، واشترت فعلا شركة أخوان وارنير Warner Brother حقوق عمل فيلم حول مشكلة عام ٢٠٠٠، وطبعا كانت قصة مثيرة جدا تحكى أن العالم كله وقع فى أزمة تاريخ القرن الجديد، وعمت الفوضى والاضطرابات أنحاء المعمورة.

السوبرمان الأمريكى

وجاء الإنقاذ فى آخر لحظة على يد السوبر مان الأمريكى، هكذا تتصرف الرأسمالية دائما وكالعادة تستغل كل أزمة تواجه العالم كله لتحقيق مكاسبها، فالشركات الكبيرة لاتهتم بالعاملين أو الزبائن كبنى آدميين بل تهتم بهم كمصدر للربح، فالاهتمام مركز دائما على الأرباح وليس على البضاعة نفسها، ودائما الانتاج هو الذريعة الأساسية للرأسمالية، وانتجت أزمة تاريخ عام ٢٠٠٠ أنواعا مختلفة من المشاهد، وأصبحت صناعة مشهورة، ومن أسرع الصناعات التى نمت الآن فى الدول الرأسمالية، وخاصة فى الولايات الوحدة الأمريكية، وأصبح لها مؤلفو كتب ومراجع عنها، البعض يلوح بالحلول، والآخر ينذر بالأخطار، وحملات إعلامية عنيفة سيطر عليها التشاؤم واحيانا التفاؤل، وغالبا الجزع والخوف من المشكلة، ودعونا باختصار نلقى الضوء بعمق على بعض أسباب الأزمة.

فمن كتاب صدر عام ١٩٩٧ فى الولايات المتحدة الأمريكية تحت عنوان أزمة البرمجيات عام ٢٠٠٠ The Year 2000 software Crisis وأعد الكتاب اثنان من المؤلفين الأول هو وليام ولريتش William ulrich وهو رئيس شركة استشارية فى استراتيجيات التكنولوجيا عام ٢٠٠٠، ورئيس مايسمى بمجلس سنة ٢٠٠٠، والثانى هو ايان هايس Ian Hayes وهو ناصح ومستشار





لشركات عديدة فى الولايات المتحدة الأمريكية حول بدائل حلول مشكلة عام ٢٠٠٠، قالا فى كتابهما: إن تحديد وتمثيل تاريخ السنة فى رقمين كان شعورا واتجاها عاما دائما بين مصممى نظم الكمبيوتر فى الثلاثين سنة الماضية، وأن أول مقالة معروفة ومشهورة حول مشكلة تاريخ عام ٢٠٠٠ ظهرت فى سنة ١٩٨٤، ونشرت فى مجلة عالم الكمبيوتر «Computer world» بأمريكا، ومؤلفها كان محللا لنظم الكمبيوتر، وخسر وظيفته بسبب هذه المقالة، حيث طرد من شركته لإثارته هذا الموضوع أمام إدارتها.

خداع العالم

هكذا كان الاتجاه العام بين مصممى برامج الكمبيوتر، ومصممى نظم المعلوماتية، فالذى كان يحذر من عواقب مشكلة كتابة التاريخ فى خانتين فقط فى برامج الكمبيوتر منذ أكثر من ٣٠ سنة، كان مصيره مثل مصير صاحبنا صاحب أول مقال حول المشكلة، فكل مايهم أصحاب العمل هو الربح، والربح فقط وليس ما سوف يحدث للناس فى العالم أجمع. والغريب أن السلطات التنفيذية والصناعية فى الولايات المتحدة الأمريكية حتى وقت قريب جدا كانت تسد أذنيها تماما عن سماع أى شىء حول المشكلة، حتى حكومات البلدان الرأسمالية المتقدمة، وأكبر خمسين شركة كمبيوتر عالمية متخصصة فى البرامج أو فى عتاد الكمبيوتر، كانت أكثر تأييدا لحكاية الرقمين لأنها تصنع ارباحا أكثر، وتخدع العالم كله، وفى الحقيقة فإن الرغبة اللانهائية لصناع الأرباح فى المجتمعات الرأسمالية لم تسمح لهم بالانفاق على تصحيح المشكلة فى أولها، وتبين الاحصاءات العالمية أن ٢٥٪ إلى ٥٠٪ من المؤسسات المختلفة التى تمت فيه الأتوماتية بالكامل فى أنحاء العالم دفعت المليارات لتوليف أجهزتها لتساير عام ٢٠٠٠ بسبب مشكلة التاريخ، وكان لذلك تأثير سلبى على الاقتصاد العالمى ظهرت نتائجه الآن! لكن ماهو الاقتصاد العالمى ولمن؟! من المؤكد أنه اقتصاد صناع الأرباح وليس اقتصاد الناس العاديين؟! وقد اعترف Capers Jones وهو رئيس ومؤسس شركة لابحاث وإنتاج برامج الكمبيوتر SPR فى الولايات المتحدة الأمريكية قد اعترف هذا الخبير بالتأثير الاقتصادى لمشكلة تاريخ عام ٢٠٠٠، وأصدر كتابا عام ١٩٩٧ عنوانه «برامج مشكلة تاريخ عام ٢٠٠٠ التكلفة والنتائج» حذر فيه من الأخطار الناتجة من مشكلة تاريخ عام ٢٠٠٠ وأنها سوف تؤثر على تطبيقات برامج الكمبيوتر لمدة خمسين سنة قادمة، وعلى ذلك من



...قنا أن نعلن ونلوم الطمع التاريخي للرأسمالية في أنها السبب المباشر في خديعة تاريخ عام ٢٠٠٠، وبدلا من محاولات تغطية تلك الأطماع تحت مزاعم أن المشكلة خطأ برمجي Bug ولصياغة فورمات التاريخ بطريقة كلاسيكية كان يجب أن تتوافر مساحة تخزين تتسع لأربعة أرقام في أربع خانات في تحديد السنة، لكن الأمور ليست في أيدي المبرمجين، الذين لايستطيعون اتخاذ هذا القرار، بل يتم ذلك بواسطة صناع القرار أنفسهم، وهم في نفس الوقت صناع الأرباح القائمين على اتخاذ القرارات التي تقلل التكلفة وتعظم الأرباح. والآن يتكرر السيناريو ، وتصدق توقعات الأزمة الاقتصادية التي نتجت من آثار خدعة صفري الكمبيوتر، وتقلصت السيولة في شركات الإنترنت والكمبيوتر، طبعا بعد أن دفعت المليارات في خدعة سنة ٢٠٠٠، لدرجة أن ظهرت بعض الدعوات لتأجيل ثورة المعلومات، وتأجيل ثورة الإنترنت، وبدأت تظهر تقارير في وسائل الإعلام المعلوم مثل CNN, BBC تشكك في ثورة المعلومات والإنترنت، وتقول أن الإنترنت عندما ظهرت، ظن الكثيرون أنها ستقلب قواعد اللعبة وأصولها رأسا على عقب وأن أساليب إدارة الأعمال وانجازها تتعرض لثورة بعيدة الآثار ولكن شيئا من هذا لم يحدث، وحتى إذا حدث في بعض الأحيان، لايعتقد الكثيرون الآن أن هذا الوضع سيستمر لفترة طويلة فشركات الإنترنت التي عرفت بظاهرة الدوت كوم تشهر إفلاسها بالجملة، ومؤشرات الأسهم التقنية والعلمية تنزلق بسرعة إلى أدنى مستويات لها.

صورة قاتمة

والابتكار الجديد المعروف باسم الواب الذي يمكن حامل الهاتف النقال من الوصول إلى شبكة الإنترنت من خلاله يعاني من كساد شديد، ولايلقى جزءا ضئيلا من الإقبال الذي كان متوقعا وإذا أمعنا النظر فسنجد الصورة أكثر قتامة ففي الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر الماضي انخفض مؤشر نازداك إلى أدنى من ٢٦٠٠ نقطة أي نصف القيمة التي كان قد وصل إليها في مارس العام الماضي يعتقد البعض أنه سيواصل انخفاضه، ونفس القول ينطبق على مؤشر الأسهم التقنية في بريطانيا الذي انخفض بمقدار النصف، ومن ناحية أخرى أعلنت شركة ألتافيستا الأمريكية العملاقة عن عزمها تسريح مائتي شخص أي خمسة وعشرين بالمائة من موظفيها بسبب تضاؤل الطلب على الإعلانات عبر الإنترنت، وفي هذه الأثناء قالت شركة أن بي سي الإخبارية للإنترنت إنها تنوي إلغاء ١٥٠ وظيفة، أي حوالي ثلاثين في المائة من قوتها



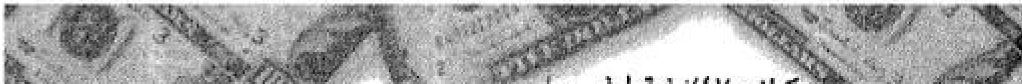
العاملة، للأسباب ذاتها يأتى ذلك بعد يوم واحد من إعلان شبكة التليفزيون الإخبارية الأمريكية سى إن إن عن خطتها تسريح أربعمائة شخص. ويأتى إعلان سى إن إن فى وقت عصيب تمر به معظم المؤسسات الإعلامية إثر النمو البطىء الذى حققه مجال الإعلانات والدعاية فقد انتعش مجال الإعلان خلال بداية عام ألفين عقب الأداء القوى لشركات الإنترنت أو مايدعى بشركات الدوت كوم قبل أن يعلن عدد كبير منها إفلاسه فى نهاية العام الماضى، وتواجه شركة ليتس باى إت دوت كوم التى تملك أربعة عشر فرعا فى أوروبا حاليا دعوى قضائية بالإفلاس، لذا فإن التوقعات ببطء الاقتصاد العالمى جعلت شركات مهمة تراجع ميزانياتها المخصصة للإعلانات، ويتوقع أن يتراجع النمو أيضا فى مجال الإعلانات على الإنترنت مقارنة بأداء العام الماضى، وهو المورد الوحيد لعدد كبير من المواقع الإخبارية على الإنترنت، فثلث شركات الإنترنت تقريبا والمتعارف على تسميتها «دوت كوم» ستعانى من نقص شديد فى السيولة بحلول نهاية هذا العام، وإن شركات الإنترنت غارقة فى مصاعب مالية كبيرة وإن ٨٤٪ منها سجلت خسائر مادية فى الربع الثالث من العام الماضى. وفى



الربع ذاته فقدت شركات الإنترنت، أكثر من مليارى دولار من سيولتها أى ما يوازى المبلغ الذى خسرته فى الربع الذى سبقه وتشير الدراسات إلى أن النفقات المالية تزداد على العديد من الشركات بمقدار ما تنخفض كمية السيولة لديها، فى حين ظل الدخول إلى الأسواق محدودا..

الرأسمالية تقتل نفسها

والآن هل رأيتهم كيف تقتل الرأسمالية نفسها نتيجة الطمع والمنافسة على تعظيم الأرباح، فثورة المعلومات وثورة الإنترنت التى صنعتها الرأسمالية نفسها، والتى كانت من المفترض أنها لصالح البشرية، الآن الرأسمالية نفسها تؤجل مسيرة ثورة المعلومات والإنترنت نتيجة الأزمات المتوالية التى تواجهها شركات الكمبيوتر والإنترنت بسبب الطمع التاريخى للرأسمالية، من خلال سيطرة فلسفة السوق والطبيعة التجارية على الإنترنت، فبعد أن كانت الإنترنت ملعبا للعلماء فقط فى عام ١٩٧٠ ثم توسعت وأصبحت مصدرا اكاديميا عاما حتى نهاية ١٩٩٢، أخيرا تحولت الإنترنت فى ١٩٩٣ إلى بنية تحتية للمعلومات التجارية، خاصة بعد انتشار شبكة الويب WWW . وارتفعت بشدة نسبة عناوين الإنترنت التى تنتهى بكوم com أو نيت net لدلالة على القطاع الخاص، فشكلت هذه العناوين نسبة ٧٩٪ من مجموع عناوين الإنترنت فى عام ١٩٩٩ بعد



أن كانت ٤٧٪ فقط في عام ١٩٩٥، وفي نفس الفترة انخفض نصيب القطاع العام الذي تمثله العناوين التي تنتهي بحروف مثل: int, gov, edu, mil من ٤٨٪ إلى ١٧٪، وانخفض أيضا نصيب المنظمات التي لاتسعى للربح من ٥٪ إلى ٢٪ في الفترة نفسها.

وينتظر العالم الآن ولادة مايعرف بالجيل الثاني للإنترنت وهو يختلف تماما عن عمليات الدخول والوصول المتاحة في الإنترنت، والتي تبيح كل ماهو سلبي وإيجابي على الشبكة، ومع تزايد قيمة تكنولوجيات المعلومات وشدة التنافس الرأسمالي حول قيمتها ودورها، سوف يختفي تماما الدخول المجاني إلى الجيل الثاني من شبكة الإنترنت، الذي سيتم فيه التحكم في المعلومات، وتقليل مساحة التنوع، وسيضطر المستخدمون لدفع قيمة تدفق الخدمات والمعلومات على الإنترنت بعد أن كانوا يستخدمونها مجانا، نتيجة الطابع التجاري والتنافس الساعي إلى تعظيم الربح بأي ثمن، فارتفعت الأعمال التجارية إلى وضع السيطرة التام على الإنترنت.

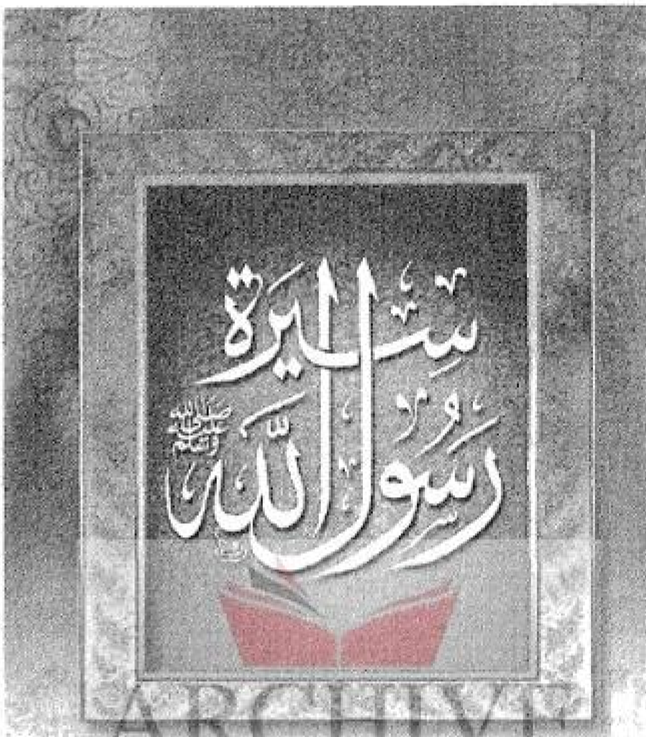
الانترنت لصالح البشرية

وانتعشت تجارة البيانات الشخصية والعناوين البريدية الخاصة عبر الإنترنت، وأصبحت واحدا من ضحايا هذه التجارة، فمنذ حوالي سنتين كان صندوق البريد الإليكتروني الخاص بي يمتليء بالنشرات والمجلات العلمية وعناوين الكتب الجديدة، وطلبات من طلاب أجانب في دول اسلامية للتسجيل في الدراسات العليا، ورسائل من زملاء في نفس التخصص الأكاديمي من دول مختلفة نتبادل فيها البحوث والدراسات والأفكار، والآن يفيض صندوقي البريدي بنشرات تجارية وإعلانات عن كل شيء تتصوره من الحلويات والسيارات حتى الكلاب والقطط، وأدوات الجنس، ومسابقات كيف تكسب المليون؟! وصورا لنساء جميلات ورجال لا أعرفهم! طبعا توصلوا لعنواني عبر تجارة البيانات الشخصية التي تتم بين الشركات! ولكن يبدو بالفعل أنه من المرجح جدا - وإن كان لم يثبت بعد - أن التغير المهم في الإنترنت قد أبعد المتحمسين الأكاديميين الأوائل له. وهكذا تصبح الرأسمالية وما تضمنه من فلسفة سوق تقوم على تعظيم الربح بأي ثمن، مثل الدبة التي قتلت صاحبها، لكن القتيل هنا هو الإنترنت! الذي إذا أحسن توظيفه لصالح كل البشرية، سوف تكون أداة فعالة لمحاربة الفقر والجوع والجهل في العالم كله وسيواجه العالم تحديات كبرى لنشر الديمقراطية الرقمية، وسد فجوة الانقسام الرقمي المتزايدة بقوة وشدة بين شمال وجنوب والعالم نتيجة الطمع التاريخي للرأسمالية . ■

كتاب جديد في نقد معارف قديمة

بقلم
د. محمد سليم العوا

أحصى العلامة الدكتور صلاح الدين المنجِّد، في كتابه الذى لم يسبق إلى تأليف مثله: «معجم ما ألف عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم-» (دار الكتاب الجديد، بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م) من كتب السيرة النبوية ٣٠٣ كتب، ومن كتب المغازى والفتوح النبوية ٦٤ كتاباً. ووصف عمله فى هذا الكتاب فقال عنه: «ولا أزعم أنه تضمن كل شىء، ولكنه حوى جل ما يحتاج إليه الدارس، أو يسعف العالم والطالب» وقال: «كنت أحاول الإحاطة والشمول، وأتمنى ألا يفوتنى اسم كتاب . ولكنى رأيت أن ذلك الكمال لا يدرك، ولو قضيت ما تبقى من عمرى فى ذلك لما انتهيت. فما ألف عن رسول الله، لا يحد» . ثم لما ختم الكتاب قال: «بعد صف هذا المعجم تجمع لدينا أسماء مؤلفات أخرى، قديمة وحديثة، لم نستطع ضمها إليه. فنرجو أن نخرجها فى ذيل له ، إن شاء الله، مع بعض الاستدراك» . والواقع أن كل الكتب، التى وردت أسماؤها وأسماء مؤلفيها وتواريخ نشرها - إن كانت مطبوعة - وأماكن وجود المخطوط منها، فى هذا المعجم النفيس بصفحاته التى جاوزت ٤٠٠ صفحة، تعتبر على نحو من الأنحاء كتباً فى السيرة النبوية .وليس التقسيم الذى صنعه المصنف له إلا لتقريب البحث وتسهيل العثور على الكتاب المراد .



د. محمود علي مراد

لذلك لا تصيب الدهشة أحدا إذا طلعت المطابع على الناس كل يوم بكتاب جديد في السيرة النبوية، بل يعتبرون ذلك استمراراً لاهتمام المسلمين بنبيهم العظيم- صلى الله عليه وسلم- وتقريب سيرته إلى الأجيال المتوالية من هذه الأمة التي أمنت بخاتمة رسالات السماء إلى الأرض: الرسالة الإسلامية .

وهذا الاهتمام قديم، يدل عليه دلالة واضحة كم المؤلفات المتداولة في كل عصر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويكفي القارىء أن يتأمل فيما قاله العلامة

محمد بن يوسف الدمشقي الشامي (ت ٩٤٢هـ) من أنه انتخب كتابه «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» المعروف بالسيرة الشامية، من أكثر من ثلاثمائة كتاب. وليس لذلك من سبب إلا الرغبة في التحقيق الدقيق لكل واقعة، والفحص عن صحة كل خبر والمقارنة بين الروايات المتعددة للموقف الواحد.

وقد صدر عن دار الهلال مؤخراً كتاب جديد عن سيرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بهذا العنوان، من وضع الدكتور محمود على مراد. والكتاب كان فى الأصل رسالة تقدم بها المؤلف للحصول على درجة الدكتوراة، فى التاريخ، من جامعة السوربون الجديدة فى باريس ونوقش فيها فى ١٩٩٧/٩/٢٩.

ومع أن عنوان الكتاب هو «سيرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإنه فى الواقع لا يقدم لنا السيرة النبوية، ولا جزء منها، وإنما يقدم دراسة انتقادية للتسجيل التاريخى للفترة المكية من حياة رسول الله - صلى الله عليه وسلم- الذى أورده ابن إسحاق (ت ١٥٠ هـ) فى سيرته التى هذبها ابن هشام (ت ٢١٨ هـ)، وهى من حيث الشهرة والذيوع، أوسع كتب السيرة النبوية حظا مع أنها ليست أقدمها تأليفاً. فقد سبقتها عدة كتب فى المغازى ضمت معلومات كثيرة قيمة عن السيرة النبوية من أهمها مغازى عروة بن الزبير (ت ٩٣ هـ) التى حققها صديقنا العلامة الدكتور محمد مصطفى الأعظمى ونشرها مكتب التربية العربى لدول الخليج فى الرياض سنة ١٩٨١، ومنها مغازى سهل بن أبى حثمة (ت ٤١ هـ على الراجح) وهو كتاب لايزال مخطوطاً، ومنها المغازى لمحمد بن مسلم الزهرى (ت ١٢٤ هـ) الذى نشره العالم المحقق الأستاذ سهيل زكار فى بيروت سنة ١٩٨١. ولكن شهرة كتاب ابن إسحاق فاقت شهرة تلك الكتب جميعاً، واعتنى به المؤرخون المسلمون اختصاراً وتهذيباً ونظماً وشرحاً على النحو الذى يتضح من مراجعة قائمة كتب السيرة التى أعدها العلامة الدكتور صلاح الدين المنجد فى المعجم.

وقد استغرقت دراسة الدكتور محمود مراد أكثر من خمسمائة صفحة من القطع المتوسط، واحتوت على فهرس شديد الإجمال لموضوعاتها، وكان حقيقاً بها أن تضم فهارس متعددة للآيات والأحاديث والأعلام وغيرها حتى يمكن للقارىء أن يحسن الاستفادة منها والرجوع إليها ، فهى بوضعها الذى نشرت به لا يستفيد منها ولا يعرف حقيقة محتواها إلاّ من قرأها كاملة.

والدراسة التى يضمها كتاب الدكتور محمود مراد دراسة مثيرة جداً، حافلة بما يدعو إلى التأمل والمراجعة ، ويبعث فى نفس الباحث الرغبة الجادة فى التأكد من صحة النتائج التى ينتهى إليها الدكتور مراد ويعرضها على قارئه.

هدف الدراسة هو تقديم نقد تحليلى لبنية ومحتوى سيرة ابن إسحاق التى



يصفها بأنها إحدى «عدستى النظارة التى ظل الناس ينظرون بها خلال اثنى عشر قرناً» (هى عمر كتاب السيرة الذى ينتقده يوم بدأ دراسته له) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (ص٤). والمؤلف يستشعر فى بداية كتابه مدى المخاطرة التى يقدم عليها من يدرس السيرة النبوية، بالطريقة التى يدرسها هو بها. فهو يقول: «ترددت طويلا قبل الإقدام على هذه المخاطرة، وكان التحدى مخيفاً، لكنى وجدت من شجعنى على قبوله، وقد قبلته» (ص٧).

والقارىء يشعر أن من حقه على المؤلف الكريم أن يطلعه على حقيقة هذا الذى شجعه على قبول التحدى المخيف، فقد يكون فى معرفته فوائد كثيرة تصب فى مصلحة التقدير الصحيح للعمل الذى قدمه الدكتور مراد.

***

ولست أريد فى هذا العرض الوجيز، لهذا الكتاب الجديد، أن أقف القارىء على تفاصيل الآراء التى انتهى إليها المؤلف ولا على النتائج المذهلة التى توصل إليها، فقد وصفها هو نفسه بأنها سيكون لها «وقع القنبلة النووية إذا قدمت فى رسالة أو كتاب واحد» ص ١٧ من كتاب الدكتور إبراهيم عوض. إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية، وقد أهدانى نسخة منه - مشكورا - الدكتور محمود مراد نفسه».

وإنما الذى عنانى منذ قرأت كتاب الدكتور مراد - قبل نشره - هو مسألة المنهج الذى اختطه لبحثه والوسيلة الأساسية التى اعتمد عليها فى التوصل إلى نتائجه، وهذا هو الذى أحاول هنا أن أسجل أهم ملاحظاتى عليه:

الملاحظة الأولى: تتعلق بمنهج النظر فى السيرة، ليس فى سيرة ابن اسحاق التى هذبها ابن هشام وحدها، ولكن فى أى كتاب من كتب السيرة: إن السيرة تاريخ، أى رواية، وهى تاريخ للشخصية الأولى فى الإسلام، رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولايجوز أن يقبل من هذه الرواية التاريخية، إلا ما كان صحيح السند، رواه العدول الضابطون الذين تقبل روايتهم وفق المعايير المتفق عليها - أو المقبولة بوجه عام - عند علماء الحديث.

ولكن الدكتور محمود مراد فضل على هذا المنهج منهجا آخر هو عرض رواية السيرة التى ضمها كتاب ابن اسحاق على القرآن الكريم، وهو يقر فى مقدمة

دراسته أن الإشارات القرآنية الى أحداث السيرة قليلة ولكنه مع ذلك يعتمد عليه في نقد الرواية التاريخية للسيرة النبوية باعتباره نزل قطعا في عهد الرسول، وباعتباره أساس رسالته «ص٩» .

وهو عندما يختار الاعتماد على القرآن الكريم يجعل عمدته فيه هو الترتيب الذي يدعى المستشرق «بلاشير» أنه ترتيب النزول ! ومع الثقة البالغة التي تبدو للقارئ، وهو يقف على كلام الدكتور محمود مراد عن هذا الترتيب الذي صنعه «بلاشير» «ص٨» فإنه يفاجأ عندما يصل إلى نهاية البحث بالدكتور مراد نفسه يقول : «لو إنني استخدمت في عملي ترتيب السور التاريخي كما يستخلص من المصحف أو ، على سبيل المثال، من ترتيب فـ م باريخا، وهو أحدث من ترتيب بلاشير، لترددت قطعا في اتخاذ بعض المواقف وفي استخلاص بعض النتائج التي تتضمنها هذه الدراسة «ص٥٠٩».

والقارئ يستطيع أن يكون على يقين أن الدكتور مراد لو استخدم منهج النقد التاريخي الذي اهتدى إليه المحدثون ومارس على أساسه نقد السند ونقد المتن - كما فعل ابن قيم الجوزية مثلا في كتابه المنار المنيف في معرفة الصحيح من الضعيف - لكان قد توصل إلى نتائج أخرى سوى التي توصل إليها فعلا، وسوى التي توقع أن يكون قد استخلصها لو اتبع - فقط - ترتيبا آخر صنعه مستشرق آخر للقرآن الكريم بحسب نزوله، أو لو اتبع الترتيب المذكور في المصاحف المصرية «مصحف الملك فؤاد» لنزول السور والآيات.

إن هذه الملحوظة حول منهج اعتماد الترتيب التاريخي المزعوم للقرآن الكريم تلقى ظلا كثيفا على سلامة النتائج التي توصل إليها الدكتور مراد في بحثه كله، وتدعو إلى إعادة النظر فيها لمعرفة الفوارق بينها وبين ما كان يمكن الانتهاء إليه - لو اتبعت إحدى الطريقتين الأخريين - اللتين أشار إليهما هو نفسه، في ترتيب القرآن الكريم .

أحقاد قديمة

الملاحظة الثانية : ان الدكتور محمود مراد ينطلق في بحثه من افتراض أن ابن إسحاق لم تكن تحركه إلا أحقاد قديمة موجهة نحو أهل مكة لأن خالد بن الوليد كان قد أسر جده في فتوح العراق، ولأنه عاش في المدينة فلم يكن يستطيع أن ينظر إلى قريش وأهل مكة إلا من خلال آراء مواطنيه المسبقة، وأنه كان أسير شرف طوقه به الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور عندما وثق به فكلفه بكتابة تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يكن بوسعه أن يكتب كتابة موضوعيه أصلا .

والواقع أن هذه الأمور الثلاثة ليست سوى استنتاجات تحتاج إلى أدلة تسندها

من ترجمة ابن اسحاق نفسه، ومن التحقق من نظرة أهل المدينة الى أهل مكة ، ومن الحقائق التي ساقها ابن اسحاق في كتابه ليتبين هل كانت «موضوعية» أم كانت متأثرة بثقة العباسيين فيه؟

فأما ترجمة ابن اسحاق فيكفى أن يرجع طالبها الي الكتاب الفريد فى تراجم العلماء والفقهاء والحكام «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي، لقد ترجم الذهبى لابن إسحاق فى الجزء السابع من كتابه «طبعة مؤسسة الرسالة ص ٣٣»، فقال عنه أنه «العلامة الحافظ الإخبارى صاحب السيرة النبوية» وإنه ينتسب بالولاء إلى بنى المطلب بن عبد مناف لأن جده الذى سبى فى فتح العراق على يد خالد بن الوليد رضى الله عنه كان مولى لقيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، ومن هنا قيل لابن اسحاق إنه قرشي ولاء، ولإقامته فى المدينة قيل إنه مدني، ونقل الحافظ الذهبي قول يحيي بن معين - أحد أئمة الجرح والتعديل - عن ابن اسحاق إنه كان «ثقة حسن الحديث» وقول ابن شهاب الزهرى «لايزال بالمدينة علم ما بقى هذا - يعني ابن اسحاق» وقول علي بن المديني - أحد الأئمة الحفاظ الأعلام - «مدار حديث رسول الله على ستة - فذكرهم ، ثم قال: فصار علم الستة عند اثنى عشر، أحدهم محمد بن إسحاق» وسئل ابن شهاب الزهرى عن كتابه فى المغازى فقال هذا - يعني ابن إسحاق - أعلم الناس بها أى بالمغازى وذكر الذهبى نحو هذا الثناء عن أكثر من عشرين من أئمة الحديث العلماء الحفاظ وقال الذهبى عنه قد كان علامة فى المغازى ، وذكر المغازى فى كلام هؤلاء الأئمة هو من قبيل الإشارة بالجزء إلى الكل فإن المغازى جزء من علم السيرة النبوية فالمقصود هو علمه بالسيرة كلها لا بهذا الجزء وحده منها.

ولم يقدح أحد من الأئمة فى ابن إسحاق اللهم إلا ما كان من الإمام مالك، وهو كلام رد عليه البخارى نفسه (سير أعلام النبلاء ص٤٠) وكفى بذلك دليلا على عدم تأثيره لو كان صحيح النسبة إلى مالك.

وقال الإمام أبو زرعة الدمشقي: ابن إسحاق رجل قد اجتمع الكبراء من أهل العلم علي الأخذ عنه.. وقد اختبره أهل الحديث فرأوا صدقا وخيرا وقد استغرقت ترجمته في سير أعلام النبلاء أكثر من عشرين صفحة لا يخرج القارئ لها بتهمة قادحة فى علمه أو عدالته بل فيها ثناء جم من جمع من الأئمة عليه، وشهادة صالحة له.

وأما أهل المدينة وكيف كانوا ينظرون إلى أهل مكة فيكفي أن نذكر قول الله تبارك وتعالي فيهم: «والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» (الحشر: ٩)

فما هى آراء مواطني ابن إسحاق (أى أهل المدينة) المسبقة عن أهل مكة التى

لم يكن يستطيع أن ينظر إلى قريش والمكيين عامة إلا من خلالها، كما يقول الدكتور مراد (ص٢٤)؟ وما هو تأثير ولادته ونشأته فى المدينة (ص٨٠٥) على موضوعيته فى كتاب السيرة أو على أمانته وصدقه؟.

دعاية للعباسيين

لقد انتهى منهج الدكتور محمود مراد به إلى أن يتهم ابن إسحاق بالاصطناع المقترن بالتزوير للأحداث التى تخدم دعايته للعباسيين (!) وبالتلاعب بالقرآن الكريم والإغفال المقصود لبعض آياته، وسرقت آيات مدنية (بحسب ترتيب بلاشير للنزول) وجعلها فى شأن بيعة العقبة الأولى والحق أن هذه التهم هى محصلة المنهج الذى اتبعه الدكتور محمود مراد للنظر فى السيرة النبوية. أما منهج المحدثين المنضبط بمعايير نقد الرجال ونقد المتون ومعرفة الصحيح من السقيم، فقد أدى بالإمام الحافظ الذهبى إلى أن يقول عن سيرة ابن إسحاق: وأشار يحيى القطان إلى ما فى السيرة من الواهى من الشعر، ومن بعض الآثار المنقطعة المنكرة فلو حذف منها ذلك لحسنت، وثم أحاديث جمة ومن حجة فى الصحاح والمسانيد مما يتعلق بالسيرة والمغازى ينبغى أن تضم إليها وترتب، وقد فعل غالب هذا الإمام أبو بكر البيهقى فى دلائل النبوة (سير أعلام النبلاء ص٥٢)!

وأما حديث ابن إسحاق عن العباسيين فقد عقب على توهم الدكتور محمود مراد فى شأنه الدكتور إبراهيم عوض فى كتابه إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية فى مواضع متعددة (ص٢٣ و٢٧ و٢٨ و٢٢ و٢٤ و٢٥ و٣٦ و٣٧ و٣٩ و٤٠ - ٤٨) وفى هذه التعقيبات ما يؤدى إلى ضرورة إعادة الدكتور مراد النظر فى النتيجة التى انتهى إليها من أن ابن إسحاق لم يكتب سيرة نبوية وإنما كتب دعاية عباسية (ص ٥٠١ و٥٠٢).

ترجيحات ظنية

الملاحظة الثالثة: أن الذى انتهى إليه الدكتور محمود مراد فى جميع فصول كتابه هى ترجيحات ظنية لا يقوم عليها دليل تاريخى واحد ومن أظهر الأمثلة لذلك حديثه (ص٢٠٤ - ٢١٤) فى تحليله للفترة الثانية من حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى مكة، فهو ينفى حماية أبى طالب للنبى صلى الله عليه وسلم مستدلا بأن الله الذى حماه بالمعجزات لا يحتاج إلى حماية آدمية وبأنه ليس فى الإمكان أن يكون سادة قريش قد طلبوا تسليم محمد إليهم ليقتلوه لأنه لم يكن فى مكة سلطة مركزية مختصة بالمحاكمة فى القضايا الجنائية تملك إصدار الأحكام أو تنفيذها ، ولأنه ليس من المتصور أن تحمى القبيلة شخصا منشقا عن ديانتها ولأن قريشا لم يطلبوا من أى قبيلة تسليم من أسلم من أبنائها فلماذا يختصون النبى

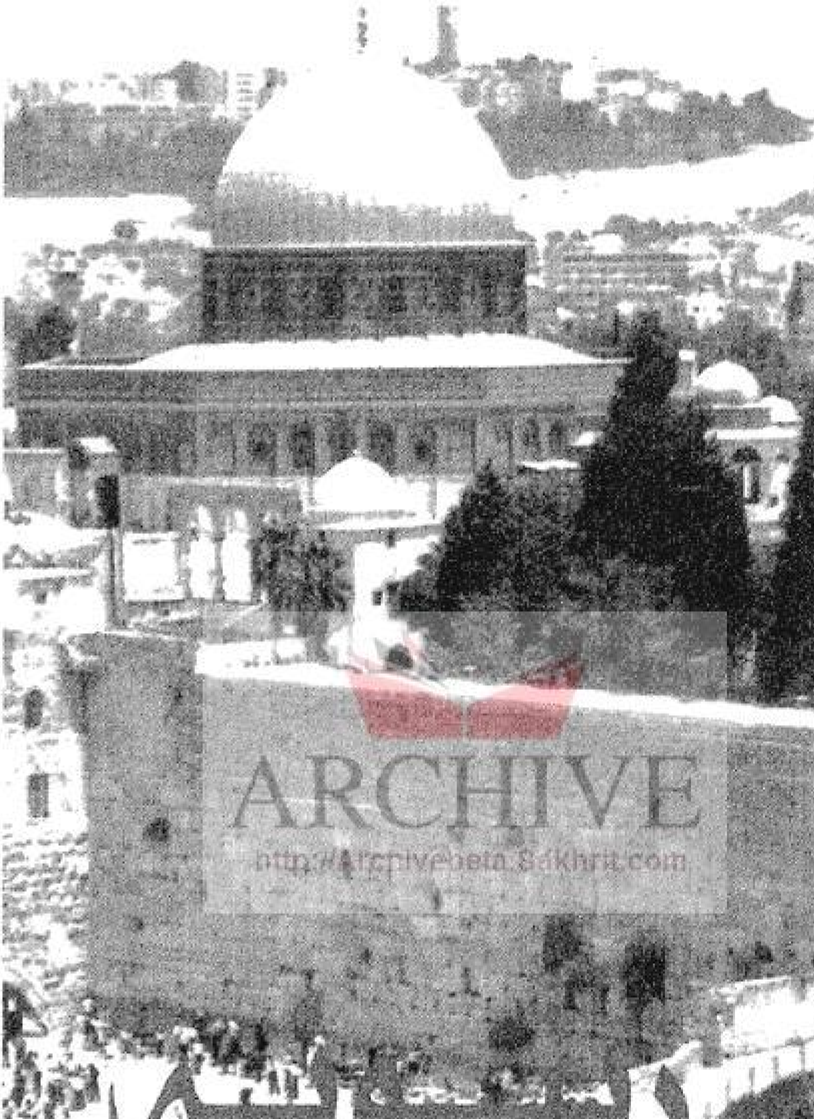
بهذا الطلب» وهو يرى أن الهجرة إلى الحبشة على الأرجح كانت نفيا مولته ونظمته وأشرفت عليه قريش، وأنه كانت هناك أغلب الظن هجرات أخرى للمسلمين، وأنه لابد أن الرسول والمسلمين أخرجوا من المسجد الحرام طوال الفترة المكية.

وهكذا يستغرق تحليل الدكتور محمود مراد فى استنتاجات يحسبها منطقية - وقد تكون كذلك - لكنه لا يوقفنا على حظ هذه الاستنتاجات من الحقيقة التاريخية التى هى وحدها محل النظر وسبيل الإقناع بدقة ابن إسحاق أو تساهله وصحة سيرته أو فسادها.

الملاحظة الرابعة: أن القرآن الكريم ليس كتابا فى التاريخ أو سجلا لأحداث الحياة النبوية حتى يمكن الاعتماد عليه وحده - كما فعل الدكتور محمود مراد، لاستخراج الصورة الصحيحة للسيرة النبوية، على الافتراض الجدلي أن الصورة التى تقدمها كتب السيرة التى بين أيدينا - وجل أصحابها عيال على ابن إسحاق - هى صورة مزورة مختلقة يتلاعب صاحبها بالقرآن الكريم ويزور التاريخ ويتحكم فى اختياراته التى يرمى بها إلى تمجيد العباسيين وقد أحسن الدكتور مراد صنعا وأنصف، حين قال فى خاتمة بحثه: لقد علقت على وثيقة تاريخية لكننى لم أقم بعمل المؤرخ وقال : «الآراء التى أبديتها والنتائج التى خلصت إليها فى هذه الدراسة لا قيمة لها إلا فى حدود موضوعها لا غير، أى الجزء الذى يتناول الفترة المكية وسيرة ابن إسحاق - ابن هشام، مع استخدام ترتيب سور القرآن الكريم الذى وضعه ريجى بلاشير كأداة عمل (ص ٥٠٨) . ولا شك فى أن مجال البحث عن السيرة النبوية مثل مجال البحث فى أية مرحلة من مراحل التاريخ الإنسانى - لايزال متسعا - كما يقول الدكتور مراد - لكن ولوج هذا المجال المتسع بمنهج ما يؤدى إلى نتائج بعينها، وولوجه بمنهج آخر يقود إلى نتائج سواها.

والدكتور محمود مراد مدعو قطعا إلى إعادة النظر فى منهجه وإلى التأكد من صحة أداته الوحيدة (ترتيب بلاشير التاريخى المزعوم لنزول القرآن) وسوف يقوده ذلك قطعا إلى نتائج تخالف ما انتهت إليه دراسته التى نشرتها دار الهلال.

وخلافى - فى المنهج وتطبيقاته - مع الدكتور محمود على مراد يجعلنى أدعو القراء والعلماء المتخصصين فى السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى إلى النظر فى كتابه، وتتبع تفاصيل استنتاجاته، ومناقشة أسانيده المنطقية من مثل ما وصفه بأنه من غير المتصور و«لابد» و«من المعقول» وما إليها، لأن الحقيقة بنت البحث وثمرة المناقشة اللذان يجب أن يتما مع الاحترام الكامل لكل ذى رأى مهما بدا رأيه بعيدا عما نظن نحن أنه الصواب وحده والله - تعالى اسمه - أعلم وأحكم. ■



152

زيتونة

شعر: سليم الرافعي - طرابلس - لبنان

أضـــاء الدجى زيتـــونة تتنضَّـــر
تدفق منهـــا النجم والنجم يعـصــر
تحــــدثنى أن الإرادة فـى الثـــرى
من الملأ الأعلى تفـــيض وتصــدر
مــحمَّلة حـبَّاتهــا عـبـقـريـة
تسـيل دمـــاً زيتـــاً وضــوءاً ينوِّر
بدت نجـمـــة فى الأرض ترنو بطرفـهـا
إلى النجم فى العليـــاء لا تتـحـيَّـر
تراب ومـــاء واللقــاء علي الهـوى
فلولا الهـوى المجـبـول مـا ذاع «عـبـقـر»
ومن كلمـات المجـد تيـجـان أيكة
وهامـــات أغـصـــان وقـدٌ ومـئـزر
ومن جـسـد التـاريخ أعـشـاش أمـة..
ومملكة الصــوت الذى ليس يقـهـر
تسـاورنى أحـلامـهـا حين ترتقى
بحمل مضىء.. والطموح مصور
أليس ارتفـــاع الغـصن آية لوعـة
أليس الندى من دمـعـه يتـحـدَّر؟
يميل بروح الحب عــــود مــؤمَّل
عناق الفـضـاء الطلق والعـود أخـضـر
إلى وطن فــوق التـــراب وعــالم
من الضــــوء لايفـنى ولا يتـنـكَّر
وليـست أحـاديث السـمـو خـرافـة
ولكنهـا الأعــمـاق فى الصـمت تجأر
ويا حـبـة الزيتــون يا نجـمـة الدجى
على الأرض .. هل يعلو التـراب ويطهـر؟
وهل سطعت حـبـــات زيت وأبدعت
قـوارير كـادت من لظى تتـسـعَّـر؟
تريدين مـجـدا يسـتـضـاء بنوره
على خجل .. والمجد كالجمـر أحـمـر..
وهل نحن الا كـالقـوارير تنتـمى
إلى ضـوء نار .. حـينمـا نتكسـر؟

إنسانيات الموسيقى وهمجيات اللاموسيقى

بقلم
فرج العنترى



قد يبدو هذا العنوان غريبا لأول وهلة، غير أنه يتناول موضوعا موثقا وفى غاية من وضوح الأهمية عن ضرورة السلامة لبيئتنا الموسيقية بمختلف زواياها الاجتماعية والتربوية والصحية والنفسية والانتاجية، لا من مجرد التهويمات والتخيل، وإنما على مرتكزات من أسس علمية لمراجع التخصص الواردة فى سياقه، ومن سخونات المغزى والمضمون لعناوين الرصد التى تناولته بها الصحافة القومية فيما يلى من ترتيب الملاحقات .

● «الصخب والضجيج فى حفلاتنا الموسيقية» فى العدد الرابع من المجلة الموسيقية لسنة ١٩٧٤.

● «الذين ينشرون التشنجات كل ليلة فى ملاهى القاهرة» فى عدد جريدة الاهرام ليوم ٣٠ مارس سنة ١٩٧٦.

● «التلوث النغمى فى موسيقانا» فى العدد ١٥٦٥ من مجلة الكواكب فى أغسطس سنة ١٩٨١.

● «التصفيق المأجور لموسيقانا» فى العدد ١٥٦٦ من مجلة الكواكب فى أغسطس سنة ١٩٨١.

● «آداب الانصات فى دور العبادة» فى عدد جريدة الأهرام ليوم ٢٥ يوليو سنة ١٩٨٤.

● «حماية الناس من تلوث الهواء والضوضاء» فى تصريح الدكتور عاطف عبيد لجريدة الأهرام ١٩ يونيه سنة ١٩٨٩.

● «الضوضاء والأمراض» فى عدد جريدة الأهرام ليوم ١٢ مارس سنة ١٩٩٠.

● «رؤية هادئة لصخب الغناء فى القاهرة» فى جريدة الأنباء الكويتية يوم ٨ ديسمبر سنة ١٩٩٢.

● «انتشار الموسيقى الصاخبة يزيد فى نسبة الإصابة بالصمم» فى جريدة الشرق الأوسط يوم ٨ أغسطس سنة ١٩٩٥.

● «الموسيقى الصاخبة خطر يتهدد

«الضوضاء من أهم مسببات أمراض العصر للقلب والشرايين والأورام ونقص المناعة

الشباب بأمراض القلب» فى جريدة الشرق الأوسط يوم ٨ ديسمبر سنة ١٩٩٨.

معايير الفن الانسانى المصرى

وإذن فلن يكون علينا الا زيادة التوكيد على إثبات الفرق الشاسع الذى عرفناه فيما بين مذاق الفن الموسيقى فعلا وبين لظى وشوشرات الضجيج، والا على الشهادة بأن عناصر الموسيقى بطبيعتها تتقوم بأنغام ذات عذوبة سائغة مطلوبة ومرجوة، فى حين أن هول الضجيج ليس سوى سعار فى التصويت المزمجر بصواعق هدامة، وبما أثبتته لنا الخلاصة المنطقية والواقعية فى أن للموسيقى ألحانا صافيات وهارمونيات ودودة وتنظيما ايقاعيا لائق التناسب، وبأن «للاموسيقى» هدفا بسبق الاصرار والترصد فى فرم أعصاب خلق الله من السامعين، وفى إصاباتهم بأمراض عصرية أقلها الصداع المزمن الذى تروجه تكوينات قد «تموسقت» فى غفلة من حراسة قيم ومعايير الفن الانسانى المصرى المعاصر، وهى بالذات شراذم لطواقم قد تحررت نشاطاتها تماما من وجوب ضوابط التشكيل، ومن مراعاة لياقة الأداء، ومن كل إساغة انسانية لتذوق الجماليات، وبحيث ما عاد من النادر فى

ظل رواجها أن يستبد بسمع الناس في بيئتنا أي زيد، وأي عمرو، وبمصاحبة له تتلمذ مفرداتها من أي تهجين لأي أصوات، وبأي آلات لا تخضع لمقررات التناسب العددي والنوعي، وإنما بالكثرة الكاثرة من أدوات الدعم الهياجي ببطاريات الإيقاع الهجومي بكل من طبول الدهلة والترابكة، وبأنواع البنادير والدفوف، ومن معدنيات الصاجات وأقراص النحاسيات وعقود الجلاجل، فإلى المؤازرة بفصيلة من حناجر الزغاريد، ومثلها من رجال التصفيق، وأخيرا بتشويحات لأيدي «مايسترو الوحدة ونص» كعداد تاكسيات القاهرة مع ركابها!!

فإذا ما انضاف إلى مثل هذا التشكيل - وكما هو الحادث غالبا - آلة جيتار وأورج ونفخيات السكسفون، ونحاسيات الترومبيت، وبالتفعيل لبعض الحركات البهلوانية من القيام والقعود لإصدار أية ارتجالات تتأورب أو تتأمرك خارج النص إن كان ثمة أي نص أصلا!! كان على سمع السامعين أن يتحمل كل تصويت لهذا التهجين الناعر الذاعر في كامل بجاحاته بمكبرات الصوت، ومن خلف حنجرة مسكينة تمارس أداءها بشق الأنفس، وإنما بمؤازرة من طواقم التشجيع المأجورة لتسخين الجو في مواقع الحفلات وفي داخل صالات الاستماع بسخائم الزعيق، وبفضائح الاستحسان بالصفير، وبطلب إعادة الأنغام - أو هي الألغام!! في رذالات ممجوجة طوال العرض الناشز، وأصلا لترويج أنشطة وكلاء الفنانين ومقاولي الحفلات في إمكانيات تصعيد عملائهم على سلالم من هتاف المأجورين، ولكي ينطلي على البلهاء ابتلاع هذا الأسلوب بأنه هو بالذات - جملة وتفصيلا - أحدث صيحات التمدن في تجهيز وتقديم وتذوق الفن الموسيقي المصري العصري !!

فعاليات الأداء الخاص جدا

وواقع الحال أننا لو أسقطنا من أرصدة حسابنا الاجتماعي كل الفاعليات لنوع الأداء «الخاص جدا» لفرق الليالي السياحية في صالات شارع الهرم وما أشبه، فإننا مع كامل الإقرار بجهدها في ترضية الزبائن طوعا أو كرها، لا ولن نستطيع أن نصرف أنظار الضمير الفني والاجتماعي عن أفاعيل التشكيلات الفوضوية التي انطلقت تمارس تلوثها النغمي في مدن الوطن وأريافه سواء بأدائها الحي أو عن طريق تسجيلاتها للإذاعة وللتليفزيون ولشركات أشرطة الكاسيت، بل وما عاد في طاقة الصبر قدرة على تحمل مصيبة المصائب التي حلت أخيرا بسلامة وحصانة أداء الفرق النحاسية الرسمية للدولة في واجبات مراسم الاستقبالات والتوديعات، ولمختلف احتفالات



الوطن بأعياده القومية ومناسباته التاريخية، وهذا، في حين أننا نجد نفس المراسم في عواصم الحضارة تعزف لحن «سلامنا الوطني» بكل جلال الصدح التعبيري وخالص التنغيم الرنان، وبعيدا تماما عن أي من أدنى تشويهات الشنشنة أو من الخشخشة أو حتى من العوعوة التي تنفلت من ضبط شفاه العازفين على أبواق الآلات، أو مما عساه أن ينشأ من عدم انضباط الارسال الاذاعي أو حتى منهما معا !!

* * *

وهكذا إذن بتنا وأصبحنا نعايش اضطرادا في اتساع نشر الوباء الاستماعي الناشز في أنحاء بلادنا من أقصاها إلى أقصاها، وبسوابق ولواحق من التضخيم الصوتي ومن سوء السلوك الاستماعي بصفير الإعجاب وهتافات المأجورين، وبخطورة الحال الذي تعرض فيه ذوقنا الفني والتربوي والاجتماعي لمصائب من شأنها المؤكد علميا أن تسحق فينا مقومات الحس والتذوق الجمالي، وأن تقضي على سلامة الصحة النفسية والبدنية لتعدادنا العام، وبما صار يحتم على البقية المتوفرة من انسانية يقظتنا أن تنهض فورا بحملة استنفار تخصصية علما وفنا وتشريعا للوقاية الكاملة والدائمة إذ إن مصرنا بطول تاريخها الحضاري الذي نتباهى به دائما مع الرواة هي أصلا بلد الذوق والفن وتربية القدوة الحسنة !!

كشفت الفحوص الطبية عن خطورة مكبرات الصوت على أجهزة جسم الانسان العضوية والعصبية

أخطار التلوث الموسيقي

ومع أن العديد من لجان البحث والمؤتمرات لا تنفك تنعقد للنظر في توقي كافة الاخطار المهددة لسلامة البيئة، فإن مؤتمرا نوعيا واحدا هو الذي لم ينعقد به في شأن توقي اخطار التلوث الموسيقي بالكافي من مندوبي جميع الوزارات والهيئات والمرافق المعنية وأساسا من أخصائيي علوم النفس، والاجتماع، والصحة الوقائية، وهندسة الصوت، والتذوق الموسيقي، لتقرير اللازم في مواجهة فوضى تشكيلات الطواقم الموسيقية، وسوءات تخديم مكبرات الصوت في كل من المساحات المفتوحة والمسقوفة، ولردع الخروج على أبيات الاستماع بفضائح الصفير الفاجر وبالهتافات المجوجة، وهذا مع العلم المؤكد بحثيا وتجريبيا بأن نوع هذا التلوث وملحقاته هو الذي يعمل بالذات على سد منافذ الاحاسيس المرفهة، وبالتالي على تزكية خمول التعامل مع شتى مواقف الحياة بنوع من برودة التبلد الكثيف بدلا من رد الفعل الايجابي النشط والمتكافئ، ولنا قطعا أن نسترشد في لجان المعالجة بنتائج البحوث التخصصية التي كشفت بجلاء عن خطورات الكمّ الناشز والمتضخم

من فوضويات التنغيم التي ثبت أنها توقع سامعيها في مهالك الاصابة بأمراض التوترات النفسية والبدنية معا !!!

حقيقة التأثير الموسيقي

وفيما يتعلق بحقيقة التأثير الموسيقي لأنواع المنغومات الإنسانية على حيوية الكيان الآدمي، يمكننا أن نعاود القراءة عن مغزى التجربة الألمانية المشهورة التي تضمنها كتاب الاستاذ ايهاب الأزهري - المرحوم - عن «الاذاعة وبناء الانسان»: (سلسلة اقرأ ، رقم ٤٢٨، أغسطس سنة ١٩٧٨) في أن علماء الألمان جاءوا بشاب من أشهر الابطال في سباق الحواجز، وقالوا له إنهم سيصورون له فيلما سينمائيا يعرضونه في جميع أنحاء العالم عن براعته في العدو، وعن أسلوب حياته الذي يتبعه لكي يحتفظ دائما بقدراته الرياضية الفذة، ثم حدثوه حديثا طويلا عن أهمية هذا الفيلم بالنسبة له كعداء ينتظره مستقبل باهر على كل المستويات الرياضية وأيضا بالنسبة لوطنه ألمانيا.. وبعد أن امتلأ هذا الشاب حماسا وأمضى في التدريب أياما لكي يضرب الرقم القياسي في سرعة تخطيه للحواجز، وبعد أن صحبته الكاميرات في كل تدريباته، وفي داخل بيته وخارجه مع أسرته وأخوته وأصدقائه وحبيبته، جاء اليوم المشهود وبدا فيه أن هذا الشاب كان مليئا بالرغبة أمام مشجعيه في تحطيم كل الارقام القياسية، غير أن العلماء قبل إشارة البدء كانوا قد دسوا على كتف ملابسه جهازا دقيقا للاستقبال الاذاعي، وما أن بدأ حتى عمدوا إلى أن يرسلوا عبر هذا الجهاز نوعا من الموسيقى الخافتة والبطيئة في ايقاعها ثم حرصوا بعد انتهاء شوطه على ألا يعلنوا له أنه قد تأخر سبع ثوان كاملة على تسجيل الرقم الذي كان قد حازه من عام مضى. وبعد أن استراح لمدة ربع ساعة، أخبروه بأنهم يرغبون في إعادة تصوير بعض المناظر تحت نفس الظروف، وأعطوا له إشارة الابتداء، غير أنهم تعمدوا أن يرسلوا له أيضا موسيقى خافتة ولكنها سريعة الايقاع، فاستطاع بغير أن يعي أمر هذه الموسيقى أن يحقق رقمه السابق بكل سهولة !! وبذلك أثبتوا علميا وواقعيا أن للموسيقى أثرا على فيزيقية وروح الفرد، وعلى كل إيقاع الحيوية فيه. وبالتالي، وعلى هدى هذه التجربة أفادوا بلادهم من أهمية الإرسال الاذاعي لنوع الموسيقى النشطة - لا الممطوطة ولا الموجوعة - أثناء العمل، ومن تقديم نوعها البطيء والرخو في أوقات الاسترواح. وهكذا أكدت هذه التجربة العلمية الألمانية على أن الفيلسوف أفلاطون كان على حق حين قال : «إن مجرد الانتقال من المقام الدوري dorian إلى



المقام الليدى Lydian خليق بان يجلب انهيارا اجتماعيا» وأن كونفشيوس العظيم قد أصاب بدوره كبد الحقيقة حين قال . «لست أبالى بمن يسن للناس قوانينهم قدر اهتمامى بمن ينظم لهم أغانيهم» !!

أخطار التجاوز

وأما عن أخطار التجاوز لطاقة استماع الكائن البشرى الطبيعية التى قضت بأنه لا ينبغى أن يتجاوز حد النغمة الخفيضة مستوى ٢٠ ذبذبة فى الثانية ، ولا أعلى النغمات لمستوى ٢٠٠٠٠ ذبذبة فى الثانية ، وبأن أي تجاوز لهذه الحدود المأمونة سيكون بالقطع من شأن مخلوقات أخرى أو على كوكب آخر ، وبأنه تبعا لهذه الطاقة المحسوبة ينبغى أن تتساب المعزوفات وتتغنى إمكانات الحناجر كيما تظل الموسيقى موسيقى ، ظهر أن المخالفة بحسب ما كشفت عنه التجارب والفحوص الطبية أثبتت أن تعرض السمع البشرى لمستوى ٥٥ ديسى بل Decibel (أى بوحدة قياس الضجيج !!) إنما يؤدى إلى جعل نوم المتلقى مستعصيا وإلى أن يستيقظ منهوك القوى ، وأن التعرض لتأثير المستوى البالغ ٩٠ ديسى بل ، هو الذى يوقع كيان المتلقى المسكين فى دائرة من مصائب أمراض التوتر النفسى كالقرحة ، وضغط الدم ، وغيرهما !! (راجع الصفحات ٢٠ - ٣٠ فى كتابنا عن «النقد والتذوق والموسيقى») .

«أجهزة الووكمان أداة تهديد حقيقي لسلامة السمع بعاهة الصمم»

وفى نفس دائرة الخطورة لهذا التأثير التجاوزى توصل أحد الباحثين إلى أن تأثير مكبرات الصوت فى إرسال حفلة موسيقية أقيمت بمدينة لوزان فى سويسرا من مستوى ١١٥ ديسى بل ، وعلى بعد مسافة أمتار ثلاثة من موقع أول صفوف السامعين ، قد وصل إليهم تأثيره فى مستوى ١١٨ ديسى بل ، وتسبب هذا التضخيم الاذاعى فى اصابة عدد تراوح بين المائة والمائتين من المستمعين بعطب سمعى لا يرجى شفاؤه ، وفى احتمال الاصابة بالتدمير المزمن لنهايات أطراف الأعصاب السمعية لكل الذين حضروا هذا الحفل !! (المرجع السابق) .

التحذير الوقائى

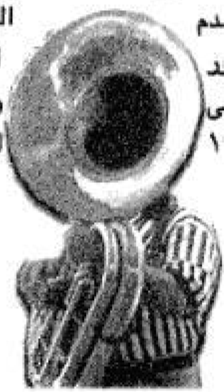
وكذلك ثبت مما أجراه الدكتور جمال جوردان فى مصر من التجارب والفحوص على بعض «مطربى الجاز!!» وسامعيهم، أنهم جميعا قد تعرضوا للإصابة بمرض ضغط الدم المرتفع مما دعاه إلى التحذير الوقائى من خطورة هذا الأسلوب فى عدد أهرام ٢٠ مارس ١٩٧٦.

ومن زاوية النقد والتذوق الموسيقى أشار قلمى فى عددين متواليين من مجلة الكواكب تحت العنوانين : «التصفيق

المأجور» و«التلوث النغمي بمصر» إلى مدى خطورات هذا الوباء وإلى ضرورة تحاشي مصائبه . وكذلك جاءنا في عدد أهرام ١٩ يونيو ١٩٨٩ تصريح للدكتور عاطف عبيد - وزير شئون مجلس الوزراء والتنمية الادارية حينذاك - بأنه قد تم اعداد ثلاثة مشروعات بقوانين لحماية الناس من تلوث الهواء ومن الضوضاء بعد أن تحولت القاهرة في وصف سيادته «إلي ما يشبه أرض المعركة الحربية التى تنطلق عليها قذائف المدافع ليل نهار» ، وها هي قذائف الضجيج من مكبرات الصوت في البيوت وفي الشوارع ومن فوضى تهجينات وتضخيمات الأداء لطواقم «التموسق» بمستوى زعيق السيارات ، لا تزال سادرة في دك أسماع القاهريين المقهورين ، ولفرم أعصابهم ليل نهار ، ولعلنا نقتدى بما سبقتنا اليه بعض الدول في إنشائها لمراكز البحث التخصصي في توقى أخطار الضجيج بأنواعه ومنها بالذات في فيينا - وبمعاونة من اليونسكو - «معهد مدياكلت» لدراسة السمعيات ، وأيضا «مشروع البيئة الصوتية العالمية» في مدينة فانكوفر بكندا (المرجع السابق ص٢١). وعلاوة على كل ما تقدم وتوكيدا له كتب الدكتور الاخصائى عزالدين الدنشارى في أهرام ١٢ مارس سنة ١٩٩٠ بعنوان تحذيرى عن «الضوضاء والأمراض» أن المؤثرات السلبية في الانسان للضوضاء بأنواعها سواء فيما يتعلق بصحته ، أو بعلاقاته الاجتماعية ، أو بطاقته الانتاجية ثابتة الاصابة اذ إن ما تسببه الضوضاء من إزعاج لا يلبث أن يمتد تلقائيا ليؤثر أيضا في كل من أحواله النفسية ، والحسية والعصبية والعضوية وبذلك كله صارت الضوضاء من أهم مسببات «أمراض العصر» للقلب والشرايين والأورام ، ونقص المناعة فضلا عن أمراض السمع ، وفي المقابل أشار سيادته إلى نتائج الدراسات التى أجراها العلماء على العديد من أهالي الجنوب الشرقي للسودان الذى يتوفر فيه الهدوء والبعد عن أى ضجيج بأن عجائز السبعين والثمانين وحتى التسعين عاما يتمتعون هناك بجهاز سمعي طبيعي يتكافأ تماما مع سمع النضارة والفتوة للشباب الناهض .

تهديد حقيقى لسلامة السمع

وكذلك قرأنا للاستاذ المهندس محمد السيد أرناؤوط في ثنايا كتابه عن «الانسان وتلوث البيئة» (ط٢ - مكتبة الاسرة سنة ٢٠٠٠) عن أن اصدارات ما أصبح يسمى «فرق الموسيقى الحديثة» قد تسببت في إحداث الكثير من ضوضاء الازعاج وأن تضخيم مكبرات الصوت لها يدرجها في قائمة أهم



المؤثرات على أجهزة جسم الانسان العضوية والعصبية ، وأن نتائج الفحوص الطبية قد كشفت عن حقيقة خطورتها على كل أجهزة الجسم ووظائفه العضوية والعصبية والنفسية ، وذلك تبعا لانها تتسبب أولا في استثارة الجهاز العصبي الذي ينقل تأثيره إلى القلب وإلى الأوعية الدموية والغدد ، فإلى مراكز الاحساس بالألم وبالسرور فينعكس كل ذلك بعدم قدرة المرء على التركيز ، ويضعف كفاءته في الإنجاز ، وبالتراخي في ردود الافعال عند الخطر ، وهذا عدا ما أشار اليه سيادته من تحذير بأن أجهزة الارسال الموسيقى التي توضع على الأذن - الؤو كمان الشبابي !! تعتبر أداة تهديد حقيقي لسلامة السمع بعصبية عامة الصمم !!

ومن المؤكد أن النتائج التي أسفرت عنها أبحاث عالم النفس الأمريكي پ . ج . زومباردو P. G. Zombardo هي التي دقت الناقوس الدولي بخطورات الأمراض الاجتماعية لظاهرة التلوث الضوضائي Noise or Sound pullution كأحد عناصر البيئة وما أسفرت عنه من استزراع بعض القيم السالبة التي انحدر اليها بعض سكان المدن ، ومنها موسيقى الصخب التي أصبحت تجتذب المزيد من الشباب والمعروف أن أبحاث هذا العالم التي قامت على دراساته الميدانية لكل من

●مصر على مدار تاريخها الحضاري بلد الذوق والفن وتربية القدوة الحسنة

ظواهر «الغفلية ANONYMITY» و«العدوانية AGGRESSION» ، ولحوادث التخريب في المرافق والممتلكات العامة والخاصة بدون سبب واضح فيما يعرف بمصطلح «الوندلة VANDAL-ISM» ، قد اسفرت له عن أن الضغوط الحضارية في شتى المدن الأمريكية «قد تسببت في تحويل الامريكيين إلى جماعة من القتلة وسفاكي الدماء (راجع الدكتور محمد عبدالرحمن الشرنوبي في مقاله عن «بيئة العصر بين البقاء والفناء» - مجلة عالم الفكر الكويتية - عدد يناير وفبراير ومارس سنة ١٩٧٧) ، وذلك تبعا للحوادث التي رصدتها بحوثه لأعمال المخربين خلال العام ١٩٦٧ من تدمير ٣٦٠،٠٠٠ تليفون عمومي بمدينة نيويورك وحدها ، ومن تحطيم ٢٠٢٧١٧ نافذة مدرسية بجانب القيام باتلاف العديد من مواقف السيارات العمومية وبحوادث الاعتداء على السيارات التي بلغت نحوا من ٢٣ حالة خلال ثلاثة أيام لا غير ، وبغير سبب وأمام المارة ، وفي وضح النهار !! (المرجع السابع) ، واللهم اكف يقظتنا الفنية ، والاجتماعية ، والوقائية شرور هذا الانزلاق إلى مهاوي هذا التأمرك ضجيجا ، واستماعا ، ومسلكا ، يا أرحم الراحمين !! ■



حلاوة .. وشقاوة

نهاية حلم جميل

بقلم
مصطفى درويش

كانت فريدة ليس لها مثيل من قريب، ولا من بعيد بين جميع ممثلات السينما العربية، من الخليج إلى المحيط.

كانت بسحر جمالها وحيويتها، كالمعنى الذى يحس القلب ويعجز، فلا يفصح عنه اللسان.

ومن هنا الافتتان، وكثرة الألقاب التي أطلقوها عليها، منذ أن أسند إليها «هنرى بركات»، الدور النسائى الأول فى فيلمه «حسن ونعيمة» ١٩٥٩ وأكثر تلك الألقاب شيوعا كان سندريلا الشاشة، والفتاة الشقية .

والثابت الذى لا سبيل إلى دفعه أنها ظلت تجمع بين صفتى البراءة والشقاوة، زمنا طويلا .

ولا غرابة فى هذا عليها وأعنى بها «سعاد حسنى» وقد ولدت عام ١٩٤٣ فى أم مدن الوطن العربى ، وترعرعت فى أحضان أسرة، الفن شاغلها الشاغل،



فضلا عن أن خطواتها الأولى في عالم الفن الفسيح، بدأت مبكرة، وذلك بالمشاركة في أعمال إذاعية، ولما يكن لها من العمر سوى ثلاثة أعوام.

ومما ميزها، شبه انفرادها بوجه مصري، جميل بسام، تقاطيعه جاءت، وبالعجب، مطابقة لمواصفات ابتدعها مصنع الأحلام في هوليوود، منذ أصبح له القول الفصل في صناعة الأطياف، وهي مواصفات إن لم تتوافر في الوجه مهما كان رائع الجمال، فصاحبته لن يكتب لها الصعود إلى مصاف النجوم ذوي المنزلة العالمية وذلك بأية حال من الأحوال.

ومن المؤكد، أن الكاميرا قد وقعت في حبها، ومن أول نظرة.

مواهب متعددة

ولعلها الوحيدة التي كان في وسعها الجمع بين التمثيل والرقص، والغناء، علاوة على البراعة في أداء أدوار الملهاة والمأساة، على حد سواء.

فهي، وكما قيل عنها بحق، كانت ذات ألف وجه، وكان في وسعها التمثيل بالعينين، بحيث تعبر بهما دون أجزاء الجسم الأخرى، عن مكنون الذات.

ومع ذلك وباستثناء «بركات» لم يصادفها التوفيق في اختيار مخرجي أفلامها، فلأكثر من ثمانية أعوام، لم تظهر إلا في أعمال سينمائية لمخرجين من الدرجة الثانية، وربما الثالثة، أو لمخرجين جفت مواهبهم على وجه أفقدهم قدرة العطاء.

معبودة الجماهير

وكيفما كان أمر أفلام تلك الأعوام، فيقينا أو ما يقرب من اليقين أنه، بفضلها، لاسيما ما كان منها إنتاج عام ١٩٦٦، وشاركها فيها بطولتها رشدي أباظة بحضوره المذهل، وأخص منها بالذكر «شقاوة رجالة» لحسام الدين مصطفى و«صغيرة على الحب» و«جناب السفير» لنيازي مصطفى، «مبكى العشاق» لحسن الصيفي، بفضلها ازداد تعلق الناس بها، وأصبحت معبودة الجماهير، مما أهلها لأن تكون نجمة، يتنافس عليها كبار المخرجين، أمثال «صلاح أبو سيف» «كمال الشيخ» «يوسف شاهين» «حسن الإمام» و«عاطف سالم».

بل إن رائدا مثل أحمد بدرخان لم يسلم هو الآخر من روح تلك المنافسة فختم حياته السينمائية بفيلم «نادية» ١٩٦٩ الذي أسند بطولتها لسعاد.

بداية ونهاية

ومن بين هؤلاء المخرجين المتنافسين، أقف قليلا عند كل من أبو سيف، وشاهين لأقول إن الأول أخرج لها فيلمين، خلال عامين متعاقبين، هما «القاهرة ٣٠» ١٩٦٦ عن قصة لنجيب محفوظ، و«الزوجة الثانية» ١٩٦٧ عن قصة لأحمد رشدي



سندريلا الشاشة مع حسين فهمي في مشهد من «خلي بالك من زوزو»

صالح، وهو أنجح أفلامه مع سعاد.

وتمر الأيام، أعواما بعد أعوام، ولأمر تشاء لها الأقدار أن توافق رائد الواقعية على أداء دور جاسوسة فارسية مدسوسة على الإسلام في فيلم «القادسية» ١٩٧٩ عن سيناريو مبتكر لمحفوظ عبد الرحمن، صاحب أم كلثوم المسلسل التليفزيوني الشهير.

ومما يعرف عن ذلك الفيلم أن نظام البعث العراقي، كان وراء إنتاجه، تمهيدا للعدوان على إيران .

ولعله مما يفيد القاريء، ويضعه في الصورة كما يقال، الإشارة إلى فشل القادسية فشلا ذريعا حيثما جرى عرضه.

ومن علامات فشله إنه لم تتح له فرصة عرض في القاهرة، عاصمة السينما العربية إلا في دار واحدة، من دور الدرجة الثانية، وأين؟ في حي شبرا!

ولم تكن سعاد أسعد حظا مع شاهين، فالفيلمان اللذان أخرجهما لها، وهما «الاختيار» ١٩٧١ عن قصة لنجيب محفوظ، و«الناس والنيل» ١٩٧٢ عن ملحمة بناء السد العالي، كلاهما لم يحقق نجاحا يذكر، بل إن ثانيهما كان كارثة فنية وتجارية بكل المعايير .

وعلى العكس من ذلك تماما، كانت أفلامها الثلاثة مع «الشيخ» وهي «بئر الحرمان» ١٩٦٩ «غروب وشروق» ١٩٧٠، و«على من نطلق الرصاص» ١٩٧٥، عن سيناريو مبتكر لرأفت



الميهى، فنصيبه من النجاح كان كبيرا.

وكذلك الأمر بالنسبة لفيلمها مع عاطف سالم «أين عقلى؟» ١٩٧٤.

ولكن أيا من تلك الأفلام لم يصعد بمنزلتها الى أعلى عليين كما صعد بها فيلم موسيقى ميلودرامى «خللى بالك من زوزو» لصاحبه حسن الإمام.

فلقد حقق نجاحا فاق كل التوقعات، ربما لايضارعه فيه سوى أفلام معدودة فى تاريخ السينما المصرية، اذكر من بينها على سبيل التمثيل «ليلى» ١٩٤٢ لتوجو مزراحى و«غرام وانتقام» ١٩٤٤ ليوسف وهبى، و«أبى فوق الشجرة» ١٩٦٩ لحسين كمال.

ومن غرائب فيلم «الإمام» الأخرى قيام سعاد ولأول مرة فى تاريخ السينما المصرية، بأداء دور فتاة جامعية، شقية، هى التى تبدأ مغازلة من تحب، حتى توقعه فى شراكها، رغم أنه ينتسب إلى عائلة كبيرة، ذات جاه ومال.

بعد السقوط

وبينما هى فى أوج مجدها، تزوجت من ابن مخرج فيلمها «نادية» المخرج الشاب على بدرخان.

هذا، وبفضل زواجهما، وحتى بعد طلاقهما، وزواجها من ماهر عواد كاتب سيناريو فيلمها «الدرجة الثالثة» ١٩٨٨ لصاحبه شريف عرفه، أخرج بدرخان لها ستة أفلام بدأت «بالحب الذى كان» ١٩٧٣، وانتهت بـ «الراعى والنساء» ١٩٩١ ذلك الفيلم الذى فازت عنه بجائزة أحسن ممثلة رئيسية فى المهرجان القومى للسينما.

ولم يكن فوزها بها بالاجماع، بل كان محل اعتراض شديد من جانب رئيس لجنة التحكيم.

وأيا ما كان الأمر فى هذا الاعتراض وأسبابه فبالراعى والنساء، ختمت سعاد مشوارها مع الأطياف.

فهى، من بعد فشله، امتنعت عن الظهور على الشاشة، مؤثرة الاعتزال، ولما تزل فى سن العطاء.

انتصار الظلام

وفى لندن، بعيدا عن الوطن والأضواء، انكفأت على نفسها، فعاشت وحيدة، متشائمة، يائسة ومع التشاؤم واليأس حاصرها الظلام، وأخذت العلة تسعى إليها، وأخذت هى تستبطىء الموت، حتى إذا تقدمت العلة، فغيرت من شكلها، ومن جسمها، آثرت الموت سبيلا للخلاص الأخير، واختارته فى الشهر المشئوم، شهر يونيو «حزيران».

وعندما طيرت وكالات الأنباء الخبر الفاجع، خبر اختفائها عن دنيانا، لم يكن يعرض من الأفلام المصرية الجديدة على الشاشات بطول وعرض مصر المحروسة، سوى «جلا جلا» و«اتفرج ياسلام» ويالها من نهاية بائسة لحلم جميل. ■

حكايات
عزبة محروس

بقلم
د. ماجدة بركة



مشهد من « حكايات عزبة محروس »

«سعيد الفرماوى» موهبة مصرية شاملة ولكنها مطمورة. شمس دافئة يخبئها الضباب اللندنى، وربما يحميها فى آن واحد من الضياع يكتب الفرماوى شعر العامية بنفس يضاهى كبار من كتبوا فى هذا الفن، ويرسم الكاريكاتير فيضارع جهابذته، ويكتب «المونودراما» ويؤديها بحضور وخفة ظل وشجن يحسده عليها ممثلون من ذوى الباع الطويل فى هذا الفن.

كتب «الفرماوى» وجسد مونودراما مسرحية جميلة لفتت نظر جمهور مصرى متعطش للفن الجميل جاء يملأ قاعة «صلاح عبد الصبور» فى مسرح «الطليعة»، التى اكتظت بهذا الجمهور الذى جاء بعضه لحضور المسرحية للمرة الثانية أو الثالثة أو الرابعة، رغم أن أحداً من قبل لم يكن يسمع عن هذا الفنان الكبير والمغمور فى آن واحد!.

أليست هذه مفارقة؟ أليس هذا دليلاً على كنز حى من الثروات البشرية التى يختزنها هذا الوطن الذى نشكو من حالة الاضمحلال التى يعانيها فنون سينمائية ومسرحية وغنائية مما نتباكى عليه ليل نهار؟ وأليست المفارقة أن هيئة هذا الرجل الخمسينية تدل على أنه وصل إلى هذه السن حاملاً هذه الموهبة الجديرة بالاعتراف قبل أن يعرفه أى منا؟ وهل هذا هو خطأ سعيد الفرماوى الذى لم ينشر ديواناً أو كتاباً واحداً، باستثناء بعض الرسوم الكاريكاتيرية فى جريدة الجمهورية أم كان هذا هو ما جناه عليه مناخ عام لم يكن مواتياً حين كان «الفرماوى» يجاهد لا لكى يعرفنا بموهبته ولكن ليحميها من الذبول والاندثار؟

مونودراما «حكايات عزبة محروس» التى كتبها «الفرماوى» تمثل بحق الشوق الإنسانى للزمن الضائع، أو «الزمن الجميل». إنه الحنين للماضى فى الزمن، والحنين لذكريات الطفولة، ثم إنه ولاشك حنين المغترب إلى الوطن، وإن كنت علمت أن «الفرماوى» قد حول بيته اللندنى إلى قطعة من أرض مصر وأبى هو بنفسه التفرنج مظهراً ومخبراً فصار نموذجاً للصميمية المصرية وإن عاش خارج الديار.

شوق إنساني للزمن الضائع

إن الصور الفوتوغرافية التى تشكل خيطاً من خيوط عرض الفرماوى لأفراح «عزبة محروس» الشعبية وموالد أوليائها هى عمل أنثروبولوجى حقيقى يضع بسطاء الناس فى أدوار البطولة ويقترب من وجوههم وتعبيراتها فيجعل لها

حضوراً قوياً. ولطالما شعرت من قبل وأنا أنظر إلى صور قديمة لمدينة القاهرة ومدن أخرى فى مصر أن الصورة كانت تركز على المكان: على الميدان أو الساحة أو الجسر أو حتى الاحتفال، ولكن بنظرة فوقية أو متباعدة يظهر فيها أصحاب الجلابيب كديكور مسرحى، أو كمحض جلابيب وعمامات بيضاء لا تكاد تميز وجوه أصحابها.

وعلى الأغلب، فإن ملتقطى هذه الصور كانوا من الأجانب الذين لم يقتربوا من روح هذا الشعب فلم يفهموها وبالتالى فلم يحاولوا إظهارها. أما «الفرماوى» فحساسيته وفهمه يظهران فى تلك الصور التى إما هو ملتقطها أو منتقيها، مثل مشهد موكب زفة العروس بطرحتها البيضاء «المكشكشة» وهى راكبة فوق الحصان وحولها الرجال والصبايا «المتحزمات» يرقصن. وأنت تكاد تلمس واحداً واحداً من هؤلاء الضيوف لمس البنان، رغم أن الصورة ملتقطة فى الستينات وتكاد الصورة «تنطق» بصوت أغاني الأفراح الشعبية التي يشير «الفرماوى» إلى بعضها أثناء العرض المسرحى متتبعاً ما يقال منها «لاستدراج» العريس قبل الخطبة ثم لابتزازه أثناءها فى احتفالية الفرح، حتى تنقلب الآية بعد أن وقعت الفاس فى الراس بعد الزواج أى منذ «ياحنا يا مشرفنا» إلى ... «ولع الوابور ياحزين على أمك».

و«عزبة محروس» تلك التي يحكى لنا الحكواتى سعيد حكايتها هى هى «بهية».. أى أنها أحد «جينات» مصر الحاملة لكل صفاتها وملامحها، وهى «بهية» فى أحد تجلياتها الزمنية بالذات، أى خلال حقبتى الخمسينات والستينات التى يحمل لها الكاتب حنيناً خاصاً ظهر ضمن ما ظهر فى ذلك المشهد الذى عزف فيه «الفرماوى» الناى إلى جانب صورة عبد الناصر. تلك الصورة التى تلقاها من الرئيس الراحل ممهورة بتوقيعه، حين أرسل يشكو له ظلم «الشيخ حشاد» مدرس اللغة العربية وضربه المتكرر له بالفلكة. ويلفت نظرك ذلك الحب الذى صور لنا به الفرماوى شخصية الشيخ حشاد رغم مرارة وقع الضرب على نفسه فى طفولته. نعم صور لنا «الفرماوى» الشيخ حشاد والشيخ بيومى المزجى وقاودى وسائر شخصيات طفولته، فكما أنه رسام كاريكاتير بارع، فقد رسم شخصياته بالكلمات رسماً وتقمصها بنفس البراعة أداءً.

وطن يصبح منفى

أثبت هذا العرض أن قالب الحكواتى هو قالب حى، وأن ما يلزمه هو مضمون متجدد يشد الناس. والمضمون الذى أعطاه «سعيد الفرماوى» للنص هو من ذوب القلب، لأنه من قماشة العمر. فكل هذه الحكاوى حقيقية كما قال باستثناء

الكهربائى «تاودى» الذى صار ولياً بعد أن مشى من فوق قبة الجامع فى الهواء واختفى فى جوف الليل! ولكن ولهذا السبب ذاته، مضافاً إليه شوقى إلى رؤية المزيد من أعمال هذا الفنان المتنوع المواهب، أتساءل إن كان بمقدوره أن يجد مَعيناً آخر ليغترف منه المزيد من الفن الحقيقى الجميل ليتمعنا به.

ردد الفرماوى فى المسرحية عبارة «وحشنا بيتنا قوى»، بيته الذى قفل عائداً إليه ليقابل أمه فوجد - قبل أن يدخل - البويات والدهانات قد طمست خربشات الطفولة على الحيطان - ومحت الهوية والذاكرة - فترك لأمه كلمتين فى رسالة يطلب منها فيها أن تقابله فى أى «بيت» آخر، فقد أصبحت كل البيوت سواء! كذلك فلابد أن «الفرماوى» قد حمل الوطن والهوية والذاكرة وخربشات الطفولة والصبا إلى بيته اللبنى، ليدلنا على مأساة المصرى حين يصبح وطنه منفاه ويصبح قلباً بحجم الكف هو القمقم الذى يحتبس فيه هذا الوطن الكبير. فليقابل أمه فى هذا البيت - الوطن - أو ذاك فقد صار الأمر سيان.

ويصعب على المرء أن يختم حديثه عن هذه «المونودراما» دون أن يشكر المخرج المتميز «عصام السيد» الذى يشعر المرء أنه أخرجها بروح «صداقة العمر» لمبدعها، محافظاً على البساطة المؤثرة الواجبة لعرض من هذا النوع، كما يصعب على المرء ألا يشيد بهذا الصوت المصرى الحنون والملامح المصرية الصرفة للفنانة «هالة الصباغ» التى صاحبت بورتريهات وحكاوى «عزبت محروس» - كما كان يكتبها بعض أهلها - فأكدت معنى «بهية» المتأبية على «الزمن الذى يشيب وهى شابة»!

محو الهوية والذاكرة

أما «الولد الفرماوى» الذى يبحث عن «بهية الستينات»، عن أمه التى عاد إليها ولم يلقها، ووجد بيتهم غير البيت، ووجد «وسعاية المركز» وقد تحولت إلى جراج «وكشك موسيقى» وقد تحول إلى «سوبر ماركت»! فله الله.

ختاماً، يجب ألا ينخدع القارىء بحديثى عن الحنين والوطن الضائع والمفتقد فيظن - لا سمح الله - أنه بصدد «بكائية»، فما أبعد ذلك عن حقيقة هذا العرض الساخر الذى يفترق من سليقة هذا الشعب الذى يحول أشجانه نكاتاً وضحكات، فتغرورق عيوننا بالدموع، لكن من الضحك.

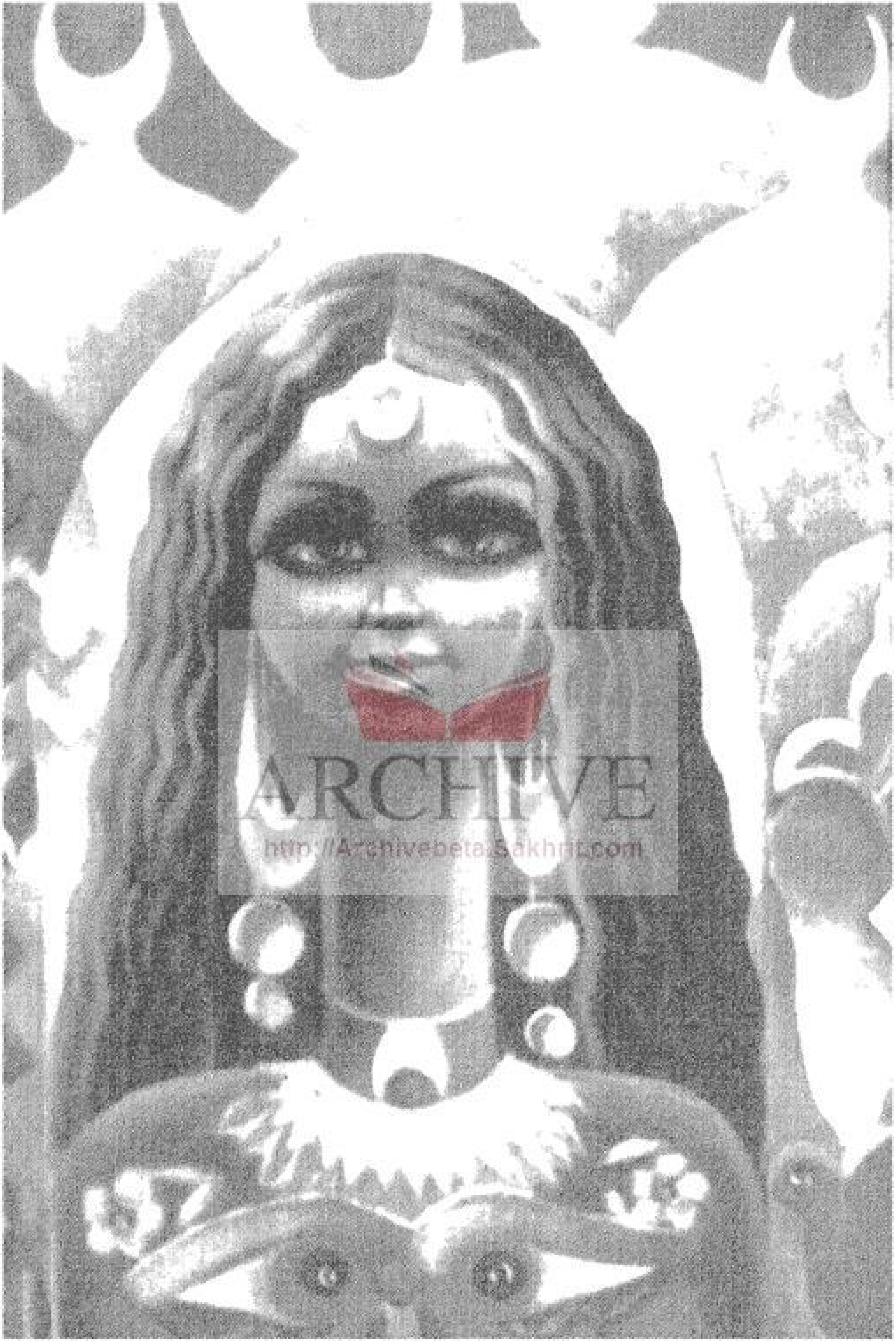
وتحية لمسرح الطليعة.. ذلك المسرح الصغير الحميم الذى شاهدنا فيه أهم ما اجتذب أفئدتنا فى العامين الماضيين وحتى الآن. شاهدنا فيه «مخدة الكحل» للمخرج المتميز انتصار عبد الفتاح ثم «الأرنب الاسود» لعصام السيد. ■

استلهام التراث في رؤى الأجيال

بقلم
عز الدين نجيب

شغلت قضية استلهام التراث في الفن المصرى المعاصر مساحة واسعة امتدت منذ فجر الحركة الفنية في القرن الماضى حتى الآن، وتنوعت الاجتهادات فيها على أرضية شاسعة، بين الالتصاق بمنابع التراث عبر مراحله المختلفة (حضارته وشعبه) إلى حد الولاء المطلق والنقل المباشر، وبين استخلاص رموزه وأشكاله الظاهرية، إكتفاء بالإيحاء بحس التراث وطابع الهوية، وبينهما تنويعات عديدة تتجاذب قربا أو بعدا من كلا القطبين، ولم تكن هذه الاجتهادات تتم على أرض مفروشة بالورود على طول الخط، بل كثيرا ما وجهت بموجات الرفض والاتهام بالسلفية والرجعية وفقر المواهب والعجز عن التجديد، والانغلاق أمام مستجدات الابداع وتيارات الحداثة، احتماء بشاطئ الأمان أو تملقا للذوق السائد، فيما كان مستلهمو التراث يردون على خصومهم متهمين إياهم بالتبعية العمياء للثقافة الغربية، والانسلاخ عن هويتهم والسعى إلى تذويبها في تيار القوى الدولية المهيمنة .. باسم الحداثة!

فتاة نوبية - سهام طمان



ولاشك أن الحركة الفنية شهدت على امتدادها اجتهادات كثيرة صبت في قنوات امتزجت فيها مياه الجانبين، فجاءت نتائجها رؤى أصيلة تنتمي إلى أصحابها كمبدعين مسكونين بجذوة الروح المصرية، وليس كأسرى مستسلمين لهذا الاتجاه أو ذاك، وكانت خمائرها المبكرة على أيدي بعض الرواد الأوائل أمثال مختار وناجي وسعيد وعياد، ثم على أيدي جيل الأربعينيات من رواد الجماعات الفنية الشابة آنذاك، أمثال الجزار وندا ورافع وعويس وسيدة والخادم (في التصوير) ولحقت بهم كوكبة من المبدعين في النحت والخزف أمثال السجيني وعثمان وعبدالمولى والصدر، وانضوت في ركابهم مواهب الفنانات المتنورات: عفت ناجي وتحية حليم وزينب عبدالحميد وإنجي أفلاطون وجاذبية سري، وتوالت من بعد هؤلاء وأولئك أجيال ورؤى زاوجت بين الحداثة والتراث، وأسست للمدرسة المصرية الصميمة، التي عايشت روح العصر بغير نعرة إقليمية أو مركب نقص ثقافي تجاه الفنون الغربية، ومن بين رموزها في العقود الأخيرة: الحسين فوزي، كمال أمين، سعد كامل، الجبالي، مريم عبدالعليم (في الحفر)، ومحمود موسى، ومحيي الدين طاهر، أحمد عبدالوهاب، فاروق ابراهيم (في النحت)، وسيد عبدالرسول، خميس شحاتة، عمر النجدي، صلاح طاهر، صلاح عبدالكريم، طه حسين، رمزي مصطفى، علي دسوقي، سوسن عامر، سعيد العدوي (في الرسم والتصوير)، ونبيل درويش، محيي الدين حسين، حنفي (في الخزف).. وخرجت من عباءاتهم أجيال ومواهب جديدة ، أثرت - ومازال - حركتنا الفنية بإبداعاتها.

محاكاة التراث استثمار لدواعي سياسية

والمتابع لرحلة الشروق والتوهج والغروب لهذه السبيكة النادرة من الأصالة والمعاصرة يلاحظ أنها ارتبطت بالخط البياني لبحث الأمة عن ذاتها، واستمساكها بهويتها في خضم التحولات السياسية والاجتماعية الكبرى، وبلغت ذروة تحققها الصحي بغير خصومة مع ثقافة الغرب وفنون الحداثة عندما كانت الأمة ممتلئة بالثقة في نفسها وهويتها، مع توفر الاستقرار الاجتماعي وصعود مشروع النهوض القومي، لكن النتائج الفنية لهذا البحث بدت عصبية مفتعلة قليلة الابداع، مصحوبة بضجيج الدعاية في مراحل الانكسار الوطني وغياب المشروع

النهضوى الشامل للأمة، وقد يكون الاقبال على محاكاة التراث فى هذه الظروف استثماراً لدواعى سياحية ورواج إقتصادى أكثر منه بحثا عن إجابات لأسئلة إبداعية وثقافية حول الهوية.

وفى السنوات الأخيرة شهدت الساحة الفنية أنماطا عدة لكل هذه التوجهات، حول التراث وعلاقته برؤى العصر الحديث وتحديات مابعد الحداثة وزحف العولة، واليوم نعرض لثلاث رؤى فنية عبر ثلاثة معارض شاهدها الجمهور بالقاهرة أخيرا، بين قاعة المركز الثقافى المصرى للتعاون الدولى بالزمالك، وقاعات أتيليه القاهرة للفنانين والكتاب، لفنانين ينتمون لجيلين متباعدين (بين سن الخمسينيات وسن العشرينيات) تتراوح أعمالهم بين الخبرة الطويلة المكتسبة فى إعادة إنتاج التراث، وبين النزوع الشبابى نحو استلهامه من منظور ذاتى لكنه يقتفى أثر من سبقوا إلى هذا الاتجاه من فنانين فى أجيال سابقة. ولن يكون عرضنا لهم على أساس التتابع الزمنى لتواريخ العرض، بل على أساس توالى الأجيال من الأكبر إلى الأصغر.

حسن غنيم .. وأناقة التجويد

الفنان حسن غنيم (٥٣ سنة) حسم اختياره قبل ربع قرن فى استلهام البيئة والتراث الاسلامى، كانت بشاراته الأولى فى التصوير الزيتى خلال السبعينيات مستقاة من الحياة الريفية والشعبية، متأثرا بمناخ مدينته دسوق شمال الدلتا، التى تجمع بين طبيعة المدينة الزراعية والتجارية والدينية، وتخيم عليها طقوس الاحتفال بولى الله سيدى ابراهيم الدسوقى، وعلى الرغم من أنه دخل عالم الفن من غير بوابة الأكاديمية (حيث تخرج فى كلية التجارة عام ١٩٧٥)، فإن تجربته الفنية نحت منحى أكاديميا قبل وبعد دراسته الجامعية، هكذا كانت لوحات السبعينيات تعج بمشاهد الباعة المتجولين ومناظر الطبيعة الريفية وعربات الفاكهة بمسحة تسجيلية مهندسة بصرامة، ولعل تلك المسحة «الهندسية الصارمة» هى ما استبقاه من تلك المرحلة عبر مسيرته الفنية حتى اليوم، وإن اختلف قانون الرؤية وفلسفة الجمال وأسلوب التقنية.

فى معرضه الاستعادى الشامل لهذه المسيرة، تجنب حسن غنيم أن يعرض نماذج من أعمال مرحلته الأولى (التأسيسية)، ورأيى أن عرضها كان ضروريا لاكمال دورة النمو الطبيعى لرؤيته بالنسبة لدارس تجربته الفنية، حيث كانت تلك المرحلة معمل التفريخ لما حققه من كشف خاص به وحده فى

التعامل مع التراث الإسلامي.

لقد قامت تلك التجربة، المتصلة في خط بياني متصاعد بغير مطبات على منهج تحليل الأشكال الهندسية خاصة الدائرة والمربع، لقد قادته إليها «الرصّة» الهندسية المحكمة لثمار البرتقال فوق عربات الباعة، وهو لم ينظر إليها كثمار ناضجة مكتنزة بالعصير الحلو، بل كتتابع إيقاعي ضمن منظومة هندسية متصاعدة الصفوف، ويمكننا أن نلاحظ بسهولة درجة التشابه بين صفوف البرتقالات المستديرة في لوحاته القديمة، وبين صفوف البكرات الخشبية المخروطة على شكل كرات مستديرة بنوافذ المشربية في أعماله التالية، وبين صفوف القدور الكروية المتراصة والهائمة في فضاء سرمدي خلال مرحلة لاحقة، بل بينها وبين الانتفاضات الكروية المتراتبة والمتوازية والمتقابلة لأهلّة المآذن في لوحاته الأحدث.

الضوء يبزغ من اللوحة

وإذا كان إحساسه الروحاني العفوي - المتأثر بمناخ الصوفية العبق بطقوس الاحتفال بمولد الولي ابراهيم الدسوقي - قد وجهه إلى هذه الوجهة بغير وعي في البداية، فإنه سرعان ما اتجه بوعي إلى دراسة الفلسفة التي يقوم عليها الفن الإسلامي بتجلياتها في التطبيق العملي، خاصة في فنون الخرط والتعشيق للوحدات الخشبية وفق قانون المتواليات الرياضية اللانهائية للوحدة الهندسية و صولا إلى المطلق، ومرورا بشبكة معقدة العلاقات بين الخطوط والدوائر والمربعات المتقاطعة، وقد كانت لوحاته مهددة بالوقوع أسيرة النمطية المتكررة أو الرتابة الميكانيكية أو النزعة التصميمية العملية التي تناسب المنتجات الحرفية، لولا أنه اكتشف عنصر الضوء ، وجعله يبزغ من داخل اللوحة، بل من داخل الوحدات الزخرفية المتوالية، وأخيرا جعله ينبثق من داخل مئات الكرات المتجاورة والمتصاعدة نحو المستويات العليا للوحة، عن طريق إحالتها إلى أجرام بللورية شفافة تختزن الأضواء الملونة وتعكسها في ومضات خاطفة، وأخذ يشكل من خلل حركتها المتصلة إيقاعات بصرية أخاذة، تجمع بين التصميم المحكم للشكل التجريدي الاسلامي، وبين النزعة الحداثية في مدرسة الـ (أوب آرت) أو الحركة البصرية، التي تقف على قمتها إبداعات الفنان المجري الأصل والفرنسي الإقامة فازاريللي الذي سبق

العروستان والفارس
ايناس الهندي



بدوره إلى استلهام الزخارف العربية.

غير أن ثمة مايستوقف الناقد أمام هذه التجربة الفريدة لحسن غنيم، فإذا كان قد نجح على مدى ربع قرن في المحافظة على توازنه الحرج فوق الحبل المشدود بين الزخرفة التقليدية المتوارثة وبين الجماليات المعاصرة، فإنه يبدو اليوم واقفا فوق منتصف الحبل مستعيدا مهاراته الحاذقة دون اضافة إلى ما أنجزه، مكتفيا بأناقة التجويد والتقنية العالية والتلاعب بالوحدات الهندسية فوق السطح، وقد يطعمها ببعض القطع الخشبية المجسمة، في محاولة لتجاوز النمط الذى صنعه لنفسه فانحبس فيه! وظنى أنه قادر على تجاوزه بجسارة المبدع الذى شق طريقه بعصامية نادرة على امتداد رحلته الخصبة.

سهام طمان .. وإعادة إنتاج التراث

كانت المأثورات الشعبية معينا اغترف منه فنانون بلا حصر على مدار القرن الماضى، ومازال هذا المعين قادرا على إلهام أجيال جديدة، بل وحفزها للدراسة والتنقيب - بوسائل البحث العلمى - عن أصوله وتجلياته وحركة انتقاله وتغيره من بيئة إلى أخرى ومن وظيفة إلى أخرى، عبر حوار الثقافات والفلكلور بين المجتمعات.

والفنانة سهام طمان تقرن بين الإبداع الفنى والبحث العلمى للموروث الشعبى المصرى، فمنذ تخرجها عام ١٩٧٤ فى كلية التربية الفنية بالزمالك لم تتوقف عن بحثها الفنى والأكاديمى، حتى حصلت على درجة الماجستير أخيرا فى هذا المجال بالتوازى مع انتاجها الفنى الذى استلهمت فيه شتى عناصر ذلك المخزون، وها هى تحضّر حاليا لرسالة الدكتوراه فى الاتجاه نفسه، وكان معرضها الأخير بأتيليه القاهرة تحت عنوان شعرى جميل هو «مرايا الفؤاد».

يشعر المشاهد لأعمالها - بعد قليل من التأمل - أنه تم الاستيلاء عليه ولاسبيل أمامه لمقاومة هذا الفيض الجارف من تجليات المأثورات الشعبية، والمرء ليس بحاجة - أصلا - لمقاومة هذا الفيض، بل إنه يترك نفسه طواعية للرسالة البصرية الأخاذة، برموزها وألوانها وخطوطها وتشكيلاتها الفطرية، وسرعان ماتنتقل الرسالة من العين إلى الفؤاد، فتلمس بداخله مخزون الذكريات الذى يحتويه كل مصرى على امتداد وادى النيل، من رسوم الوشم فى الأسواق، وزخارف على الجدران فى مواسم الحج، وتشكيلات بيوت النوبة، ووحدات

الحصير الملون والكليم اليدوى، وبورتريهات ست الحسن والجمال وعرائس المولد ذات الكرانيش المستديرة، وعصافير الجنة المجنحة، وأصص الورد بفروعها المزهرة والفرسان بالسيوف على الأحصنة الحلاوة، والعازفات والراقصات والصبايا الملاح، ورموز السحر والحظ والخصوبة والحب، وزخارف قماش الستائر وأزياء الفلاحات، وأباريق السبوع للوليد وأكف العروس ليلة الحنة، وتصاوير الملاحم والقصص الدينية التى تحفل بها أسواق القرى والأحياء الشعبية..

بين المعتقد التراثي ورؤى الشعر والرمز

هذا هو «العالم الخام» للوحات سهام طمان .، فما هو الابداع الذى ينسب إليها إذن؟.. غير أن سؤال الفن لايبدأ بـ «ماذا» لأن أى موضوع - أو حتى مضمون - قد تم استخدامه على امتداد تاريخ الفن وأصبح ملكا للجميع، لكن السؤال ينبغى أن يبدأ بـ «كيف» .. لأن قياس إبداعية الفنان يستند إلى الرؤية الجمالية والأسلوب الخاص الذى يتناول به مادته الخام . ولقد كانت التجربة السابقة فى لوحات سهام تكاد تقتصر على جمع المادة وتصفيفها فى نسق أقرب إلى رؤية الفنان الشعبى وحسه الساذج ، ما كان يضفى على أعمالها قدرا من البراءة والحلاوة ، لكن بقدر أقل من الاجتهاد لإعادة الصياغة بحسها الفردى الخلاق. وهذا هو ما حاولت تداركه فى معرضها الأخير، إذ أخذت التجمعات التراكمية للمادة الخام الفلكلورية تختزل لصالح عناصر محدودة اتخذت موقع الصدارة ما أتاح لها حرية التنفس على حيز اللوحة، وأفسح لها مجالا حول المشخصات للعب «بالموتيف» الزخرفى ونشره بوضوح أقل كخلفية جرافيكية تشكل إيقاعا موسيقيا شعبيا يبرز العنصر الأمامى للوحة، وفوق ذلك ، فإن هذا الاختزال فتح الطريق أمام الفنانة لعقد أواصر العلاقة بين المعتقد التراثي وبين رؤى الشعر والرمز، مثلما نرى فى لوحة «البراق» حيث نجد الفتاة هى الحصان والملكة والطاووس والطائر المحلق فى آن واحد، وقد عولجت بأسلوب المدرسة «المستقبلية» التى تسجل ذبذبات حركة الخطوط خارج الشكل ، وتخلق مجالا مغناطيسيا مرتعشا حول العنصر المتحرك فلا يكف عن توليد الطاقة، ناهيك عن البعد الرمزى المعاصر لمعنى التحرر والإنطلاق .. وقد أعادت الفنانة إنتاج مشاهد بعض السير والملاحم الشعبية بمفهوم يشارف السريالية، لكن من

منظور جمعى لا من منظور فردى سيكولوجى تبعا للمدرسة الأوربية، فتواصلت بذلك مع اجتهادات فنانينا الرواد فى هذا الاتجاه لكن هذه النماذج تظل استثناءات معدودة وسط المعرض لاتغير من القاعدة.

ويبقى أن تسعى الفنانة بدأب نحو تأكيد استقلاليتها عن العناصر التراثية المستهلكة، ونحو التحرر من سيطرة الطلاوة الزخرفية والتصفيفات السيمترية لتنتقل من المحاكاة إلى الاستلهام والموازاة، فتختصر الطريق إلى رؤى العصر.

إيناس .. وهمس الأشياء

تأخذنا الفنانة الشابة إيناس الهندى، خريجة عام ١٩٩٨ من كلية الفنون الجميلة بالقاهرة قسم التصوير، عبر لوحات معرضها الفردى الأول بأتيليه القاهرة، إلى عالم ذاتى محض، لكنه ملىء بعناصر مشتركة فى الذاكرة الجمعية للمصريين ، ويتراءى خلالها الحس التراثى كخلفية أو كصدى بعيد، نستظهره بمخيلتنا من بين عناصر وشخصيات تعيش معنا فى حياتنا اليومية، لها عبق منزلى أليف، تتناثر فى هذا العالم هنا وهناك أشياء قد تذكرنا بطفولتنا وجذورنا الشعبية، مثل عروسة قطنية من تلك التى يلعب بها الأطفال الفقراء، أو عروسة ورقية تحرقها النسوة إتقاء لعين الحسود أو قلة السبوع ذات الشموع والغربال الذى يهزون فيه الطفل الوليد، أو إبريق نحاس صدىء، أو قبقاب خشبى غليظ يذكرنا بقبقاب جامد ندا فى لوحاته المبكرة فى الأربعينيات .. وقد تستحضر الفنانة من ذاكرة الفن المصرى الحديث مقاطع مستنسخة من لوحات عبدالهادى الجزار (مثل لوحة المجنون الأخضر)، أو قطه الأسود فى بورتريه «إيميه عازار» وقد استعاضت عن وجهه بوجه غارق فى اللون الأزرق، معبرة عن حبها المتجذر فى الأعماق لهذا الفنان الراحل.

إننا هنا إزاء «حالة استبطانية» لروح التراث الشعبى، ليس بمعناه التحفى أو العقائدى أو الزخرفى المتداول، بل بمعناه الحى المتعايش مع حياة الإنسان، ليتم توظيفه دراميا وشعريا تأكيداً لحالة نفسية معينة. إن لوحات «إيناس» إنعكاس لحس تعبيرى مرهف كالوتر المشدود، لكنه لايؤتى صوتا حادا، بل همسا ناعما أقرب إلى الربابة أو الدندنة الذاتية، إنها تضفى على الأشياء التراثية (التى تتخذ منها موضوعا للطبيعة الصامتة) نبضا إنسانيا، وتقيم فيما بينها حوارا يجرى

قلة السبوع
إيناس الهندى



بلغة الأشكال والألوان، فإذا جاءت التكوينات - بالنسبة لنا كمشاهدين - بلا دلالة مباشرة يتفق عليها الجميع، فقد أضفى حضورها التعبيرى القوى حسا غامضا بالسكينة والأمان ،نابعا من استقرار تكوينها وترابط عناصرها ودفء ألوانها وثراء ملمسها، وربما كان نابعا كذلك مما تخفيه الفنانة من حزن دفين يشف عن نفس تستشعر الوحدة وتهفو إلى التواصل الانساني.

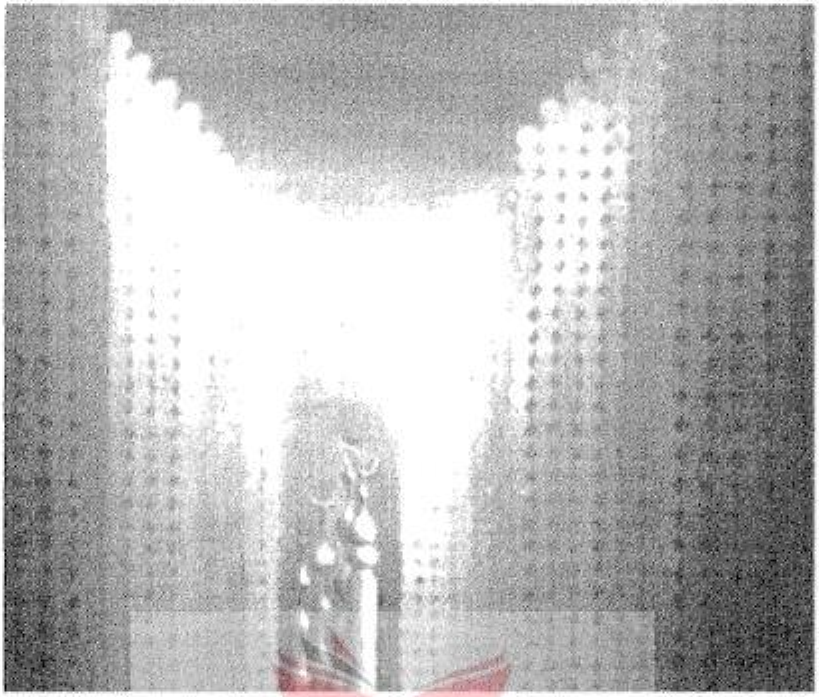
قد تؤكد هذا المعنى لوحة «الزهور البيضاء» التى نرى فيها أوراق الياسمين الصغيرة نابتة بهشاشة فى ذؤابات أغصان سوداء تخرج من إناء زجاجى، وفى أعلى يمين الخلفية صورة لفتاة وحيدة مستعارة من عالم الفنان «ديجا»، وفى أسفل اليسار تمثال لشخصين متعانقين، وعلى الأرض قوقعة وغصنان منكسران!

نفس تهفو للتواصل الانسانى

أما بللورة المعرض فهى لوحة «العروستان والفارس» .. إن العروسة القطنية تتخذ مكان الصدارة وقد استلقت فى ركن الحجرة مرتدية فستانها المزركش، فيما يبدو وجهها ممسوح الملامح، ومن خلفها علقت فوق الجدار الأيسر عروسة ورقية بيضاء كحارس أمين، وعلى الجدار الأيمن رسم لفتى يمتطى حصانا أبيض يغرق نصفه الأسفل فى الظل، لكنه يتخايل أمامنا وكأنه يمتطى هلالا أو يقود قاربا ذا مقدمة على شكل هلال، وفوق ضلع الصورة وشم فلكلورى لنخلة وعصفورين.

هذا التكوين الأسطورى يضمر من الأسرار أكثر مما يظهر، ويكتنز من رموز التراث الشعبى مايثير الخيال ويدفع الى السؤال، فلا يجعلنا أمامه متلقين سلبيين، بل يدعونا لنكون مشاركين فى إيجاد المعنى والدلالة له، ويقدر اختلاف الإجابات على السؤال الذى تطرحه علينا اللوحة يكون ثراؤها وتجددها من زمن إلى آخر، لكن يبقى ماتتفق عليه الأذواق المرهفة هو بناؤها الراسخ وحركتها الديناميكية وألوانها المتقابلة المنسجمة بين الساخن والبارد، وتكوينها الغرائبى الذى يحفر مكانه فى الذاكرة.

وثمة لوحتان هما آخر ما أنتجته الفنانة فى المعرض ، قد تمثلان نقطة تحول نحو رؤية جديدة ماتزال فى طور التشكل، وهما تتشابهان فى عناصر التكوين، الذى يعتمد فى كل منهما على شكل دفتر كبير مفتوح، ونستطيع أن نقرأ على إحدى صفحاته (فى اللوحة الأولى) كلمات حقيقية تعنى العبور والنصر فى حرب أكتوبر المجيدة، وفى الصفحة المقابلة نرى مشهد اجتياز



نحو السماء - حسن غنيم

الدبابات البرمائية لقناة السويس واختراق خط بارليف، ويبدو التكوين وكأنه مرسوم فى كراسة رسم قديمة، وقد تناثرت حول الكراسة وثائق عديدة حول هذا الحدث، أما اللوحة الثانية فتبدو على صفحتى الكراسة المفتوحة أشكالا كخرائط لجزر متناثرة، تحف بها وتنتشر فوقها رموز وكتابات وإشارات سحرية، تعكس حالة من التمزق المحفوف بالخطر وجو اللوحتين فى مجمله مغلف بالغموض والقدم والتآكل بفعل الزمن.

والاختلاف الذى نلاحظه فيهما عن بقية لوحات المعرض لايتمثل فى الموضوع والدلالة فحسب، بل كذلك فى أسلوب البناء، الذى يلامس تخوم التجريد، ويستعيد مظهر «الكولاج»، محدثا درجة كبيرة من التشتت البصرى نتيجة لتشتت عناصر التكوين، خاصة فى اللوحة الثانية.

فهل تستشرف هاتان اللوحتان رؤية الفنانة للوطن بين عام ١٩٧٣ واليوم؟! ■



الجنرال العادل

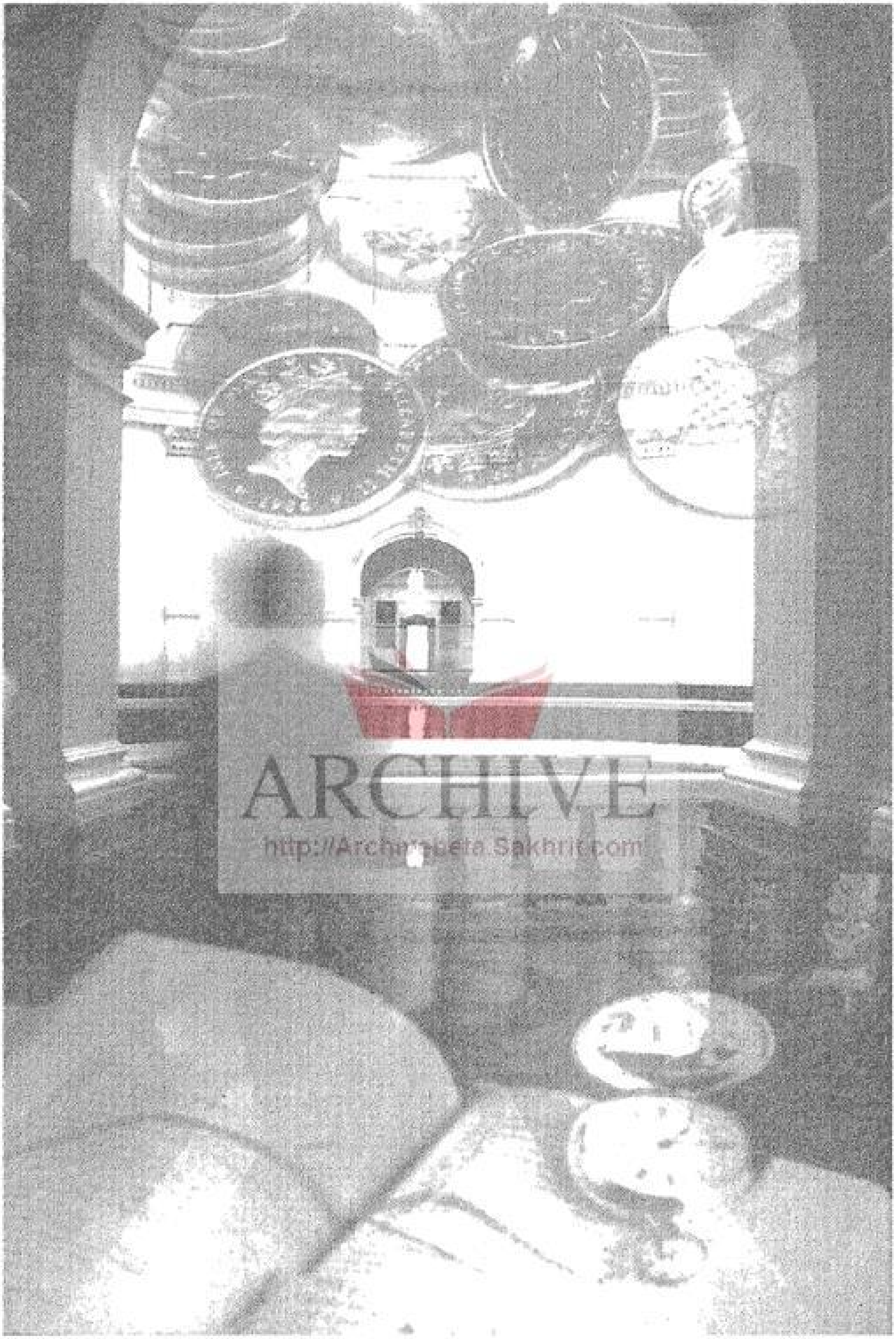
قصـــة : محفوظ عبد الرحمن

الجنـرال أول مـن يستيقظ فى دولتـه . تلك عـادة لا نعرف سببها، والشائعة التى تقول إنه يسبق الجميع فى اليقظة خوفا من أن يقفز أحدهم إلى الكرسى هى شائعة غير صحيحة أو على الأقل مبالغ فيها.

ولأن الجنـــرال يستيقظ مبكرا فالمعاون يستيقظ أيضا مبكرا. ليس هذا فقط فلقد غير المعاون من نفسه تماما لكى يكون كالجنرال بدءا من حبه للون الأصفر، إلى كـراهيتـه للنسـاء النحيلات.

ووضع المعـــاون الأوراق أمـام الجنرال، بدت كالتل. أخذ يقرؤها، بعضها بتمعن ، وبعضها يوقع عليه فورا . والمعاون لا يستطيع أن يتحرك من أمامه، فقد يحتاجه فى سؤال، ومن الصعوبة أن يقف دون أن يتحرك، فأية حركة قد تزعج سيده.

وتوقف الجنرال عند إحدى الأوراق . وحدس المعاون أنها حكم الإعدام



وتوقع أن يطيل النظر إليها ، فلقد أصيب سيده في الشهور الأخيرة باللين في الطباع ، الأمر الذي أزعجه كثيرا، لولا أن أحدا لم يلاحظ ذلك، أو على الأقل هذا ما يرجوه.

حدث ما توقعه ، فلقد أمسك الورقة بيده وأشار بها متسائلا:

- ما هذا؟

لم يتقدم حذاء المعاون خطوة، لكن وجهه تقدم شبرا، وحاول أن يشرح القضية لكن سيده قاطعه:

- الاسمان متشابهان.
- إنهما أخوان.
- هذا يشي بأنها أسرة معادية.
- هما آخر الرجال في هذه الأسرة.

قطب الجنرال وسأل مستاء:

- أعدمناها كلها؟!

لكن المعاون سمح لحذائه أن يتقدم خطوة ويقول في انفعال مبطن بالرقة والعفوية:

- لسنا في هذه



القسوة . بعض أفراد هذه الأسرة محبوس . وبعضهم خارج البلاد إما منفيون أو هاربون وبعضهم وأقسم على صحة ما أقول: مات ميتة طبيعية.

تراجع الجنرال في كرسيه . أدرك المعاون أن الأمر لن يمر بسهولة ، وأن سيده يبالغ في ليونته وكان الجنرال يتأمل فكرة الإعدام طول حياته يراها قاسية . قال ذات مرة في صدر أيام حكمه لزميله الكولونيل:

- ما أبشع أن تقتل أحدا!

رد عليه بسرعة:

- الأبشع هو أن يقتلك أحد!

آنئذ برقت المسألة أمامه واضحة : إما أن تكون قاتلا أو مقتولا. وعندما حكم على الكولونيل بالإعدام كان قد أدرك الحقيقة، وكان الكولونيل قد عرف أنه أدرك الحقيقة! لكن ظلت فكرة القتل هي أسوأ ما يعيش معه منذ أن تولى. كان يتمنى دائما ألا تكون بين أوراق الصباح ورقة فيها حكم بالإعدام . وكاد أن يطلب منهم أن يأتوا بهذه الأوراق في المساء ، لكنه خشي على المساء من قسوتها.

تأوه الجنرال وقال:

لماذا لا يفهم الناس حسن نوايانا؟

وارتبك المعاون ، فهو لا يعرف هل يسأله سيده أو يحدث نفسه ولو أنه أجاب وهو لا يسأله سيستاء منه ومثل هذه الأشياء هي التي جعلت لقاء الصباح ليس أمتع لحظات العمر، رغم أنه يكون آنئذ قريبا من سيده حتى يحس أنفاسه.

وعندما سأله الجنرال عن أحد الأسباب الكثيرة التي ألح لها في موقف

الناس منهم أدرك أنه قال شيئا وسارع المعاون يقول إن السبب هو جهل الناس وانتشار الأمية.

فلو قضينا على الأمية أدرك الناس نبل أهدافنا.

مازال يحوم حول فكرة محو الأمية لم يحكم هذه البلاد أفضل منه لولا رغبته في محو الأمية.

- مولاى . محو الأمية لا يحل الأزمة، فانصاف المتعلمين أكثر جهلا، وأيضا أكثر معارضة.

- كأننا مضطرون لما نفعل!

- وهل في ذلك شدة؟!

قال المعاون لنفسه إن هذا اليوم لن يمر على خير. لقد بدأ بداية سيئة ويوم كهذا لن تكون نهايته أفضل.

وقف الجنرال فاستعاذ المعاون همسا بالله، وأخذ يسير في الغرفة الكبيرة وواجه معاونه في أسى:

- أليس مريرا أن تعيش وحولك الكراهية؟!

- يكفينا حب الأغلبية.

- أيحبوننا؟

- هناك ألف دليل على هذا.

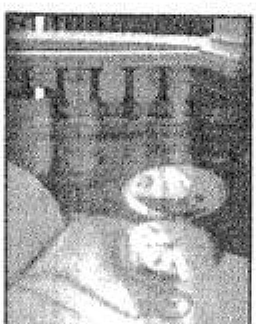
ولاحظ أن الجنرال عندما عاد إلى مكتبه كان ضعيفا واهي الخطا، وكل ذلك من أجل شخصين فقط. ماذا حدث؟ كيف تغير إلى هذا الحد؟!

فتش الجنرال في الأوراق كأنه يريد احضار أشخاصها.

وغمغم أن الأم على قيد الحياة وعجز المعاون عن الفهم الأم على قيد الحياة أو ماتت ما الفرق؟

- ألا يشغلك أمر هذه الأم؟

- يشغلني أمر الوطن كله.



- ولم يعرف المعاون هل وصلت رسالته إلى سيده أم ظل مأخوذا بأوهامه فالمهم هو الوطن المهم بقاؤهم . أما اثنان وأم أو ألف ومائة أم، فشئ لا يجب أن يشغلهم.

أشار له الجنرال أن يجلس واتسعت حدقتا المعاون دهشة. لم يحدث أن جلس أبدا في لقاء الصباح إنه جزء من الطقس مستحيل التخلي عنه لكن الجنرال طلب منه أن يجلس، بل أمره في حدة واضطر أن يجلس، وهو يحس أن عالمه يتهاوى هاهو سيده يرق إلى حد أنه يأس لموت شابين ثم يطلب منه أن يجلس في حضرته ممزقا العرف القائم بينهما ولعلها لا تكون البداية، وينهار كل شئ وهو في يقينه أنه ما طلب جلوسه إلا لأمر جلل.

تلك الأم ألا نستطيع أن نعاملها بشئ من الحنو، فهي أم على أية حال حتى ولو كانت أما لهذين الشقيين وفي نفس

الوقت الذى نرضيها نرضى أيضا القانون؟!

كانت الحالة أسوأ من توقع المعاون:

- ما يطلبه مولاى فوق إدراكى!

وانتشى الجنرال لأن فكرته فوق ادراك معاونه الأريب، وأحس أنه فى أوان الالهام، تلك اللحظات التى تبهر معاونه ورجاله وشعبه.

وقفز الجنرال يسير مفكرا وبالطبع قفز المعاون واقفا وأشار له أن يظل جالسا لكن المعاون خشى أن ينفذ أمره هذه المرة.

كان يتكلم ويطيح بذراعيه فى الهواء وتمنى لو أنه كان أمام الكاميرات ليثبت لأمته أنه عندما يفكر فإنه يفكر أفضل من أى شخص آخر.

هذه الأم تفقد ولدين فى يوم واحد، بل فى لحظة واحدة. سنهون عليها الأمر وننفذ الحكم فى أحدهما ونعفو عن الآخر. السؤال الآن من الذى نقتله ومن الذى



نحييه بالطبع نستطيع نحن أن نختار، لكن ألا ترى أنها ستكون مجاملة لطيفة لو أننا تركنا مهمة الاختيار للأم هى التى ستحدد من نعفو عنه من الولدين ما رأيك فى الفكرة؟

قال المعاون إنه منذ سليمان الحكيم لم يصل إنسان إلى مثل هذه الفكرة العبقرية . وقال فى نفسه لعلها لا تكون بداية الانهيار.

وبنفسه رسم الجنرال ما سيحدث: فى البداية سيعلن حكم الإعدام وينتظرون حتى تستوعب الأم الخبر المفجع . عندئذ يتحرك المعاون ورجاله إلى بيت الأم . ينقلون لها رحمة الجنرال الذى عفا عن أحد الولدين . ويترك للأم أن تختار من تشاء.

أوصى المعاون بأن يكون رفيقا، وأمره أن يحمل معه هدية للأم، فالهدايا سفارات للمحبة هكذا قال.

وانتظر الجنرال حتى يتم المعاون مهمته الفذة كان أحيانا يتخيل ماذا ستفعل الأم أو ماذا تقول ثم يجدها أمام الكاميرات وهى تثنى على عدل الجنرال، وكيف أعاد إليها فى لحظة ابنا من عالم الموت . وسيقلب المحطات فيجد نفسه عبر العالم فى بزته الأنيقة ونياشينه المهيبة . لن يحبه شعبه فقط، بل ستكون دعاية عالمية أفضل من أية دعاية قاموا بها من أجله.

وهو يضع قدميه على المكتب مسترخيا جاءت الصفة إلى رأسه : الجنرال العادل . وكاد أن يصيح فرحا . إنها التسمية التى كان يتمناها طويلا . ولقد جاءت له دون جهد، ذلك

لأنه ملهم لم يستطع معاونه الذى يستمتع بالمنصب لأنه يفكر له أن يقول فكرة فى مستوى فكرته . يا إلهى هذا هو العدل . هو تهبط عليه الأفكار ولذلك فهو الجنرال . والحمد لله إن الأفكار التى تهبط عليه طيبة . فها هو فى يومه السعيد هذا ينقذ شابا من الموت . ولم ينتظر المعاون ورجاله ، فلقد كانت الأبواب مفتوحة لرؤيتهم ولولا أن الجنرال كان مدربا على أن يرى الآخرين ما يريد أن يروه، لرآه فضوليا على معرفة ما حدث.

قال معاون المعاون: كانت الأم عند ذهابنا فى أسوأ الأحوال . والبيت غارق فى الكآبة. بل والشارع كله.

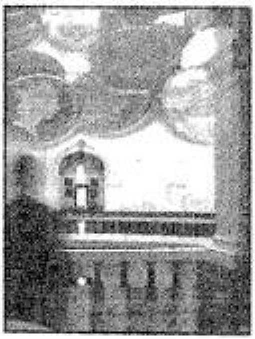
قال المعاون لنفسه إن معاونه السافل يريد أن يتقرب من الجنرال على حسابه، وقرر أن يخلص منه فى أول فرصة.

قال المعاون لسيده إن المرأة كانت زائغة العينين لا يهمها حضورهم . وحتى لم تركز فيما يقوله لها إلا بعد أن اكتشفت أنها كسبت أحد ابنيها.

اعتدل الجنرال فى غبطة، فها هى فكرته العبقرية على وشك أن تتألق.

وقاطع معاون المعاون سيده المعاون وقال إن الأم البائسة بدت مرتبكة أشد الارتباك ، وأنها اختارت فجأة أحد الولدين . لكنها انقلبت فجأة إلى الآخر، ولكن انقلابها لم يدم سوى لحظة فعادت إلى الأول لكنها عادت مرة أخرى فاختارت الثانى.

قال المعاون لنفسه: السافل يريد أن يسرق



القصة، فليسرقها الغبى لا يعرف أن الكلام أمام الجنرال سلاح ذو حدين.

- وفى النهاية جنت المرأة!

ونظر الجنرال إلى معاون المعاون فى غضب، وأثلجت النظرة صدر المعاون:

- كيف سمحتم لها بأن تجن؟

وغرق فى كرسيه وقد أحس بالتعاسة ها هى فكرته العبقرية تموت بين يدى امرأة لم يرها قط ومعاونين أغبياء.

اقترب المعاون قدر حذاء وحاول أن يختار اللحظة المناسبة.

مولاى، لقد عفونا عن الولد لتفرح قلب الأم ولكن بعد جنون الأم، أصبح هذا العفو إسرافا لا معنى له . ولذلك أقترح أن نعود إلى ما كنا عليه، ونعدم الولدين غدا صباحا.

ونظر الجنرال بعيدا، وربما كانت عيناه تبحثان عن اللقب الضائع: الجنرال العادل. ■

هل انتهى زمن الشعر؟!

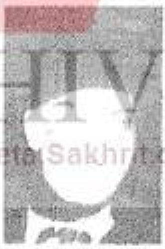
بقلم
د. محمد عبد المنعم خفاجى

أصبح من العسير أن تجد جمهرة الشعراء ناشراً لديوان شعر، ولقد ضاق ذرعا الشاعر المهجرى الكبير إلياس فرحات (١٩٧٣) بديوانه المخطوط «مطلع الشتاء» لعدم وجود ناشر له ، فبعث به إلى على رجاء أن يصدر من رابطة الأدب الحديث ، التى كرمته فى دارها فى مارس من عام ١٩٥٩ واستجابت الرابطة له ، فصدر الديوان فى ربيع عام ١٩٦٨ .

والناشرون هم مقياس الرأى الأدبى العام، ومعنى ذلك أن الشعر لا يلقى تشجيعا من قرائه ، وأن الشاعر لا ينال الاهتمام من جمهور أمته، وإذا كان النتاج الأدبى والثقافى يلقى القليل من الاهتمام ، فإن الابداع الشعرى أصبح لا يلقى منه قليلا أو كثيرا ، فهل انتهى زمن الشعر اليوم ؟



البارودى



العقاد



المازنى



إلياس فرحات

أقول : كلا ، لم ينته دور الشعر فى حياتنا المعاصرة بمادياتها وضوضائها وسعيها نحو العلم والتكنولوجيا ، ولن ينتهى أبداً ، لأن الشعر هو لغة العاطفة، وهو التعبير الجميل عن أدق مشاعر الانسان ، وهو النغم الشجى فى سمع إنسان العصر ،

وهو الحلم الهامس فى شفاه الزمن، والنشيد العذب فى ثغر الحياة، ومحال أن يعيش الانسان بعقله وحده، أو أن يلغى عواطفه المهورة بشتى الانفعالات والذكريات، ومحال أن لا ينصت الإنسان إلى ندائها ، وألاّ يتحدث عنها وإليها .

فماذا حدث للشعر إذن ؟

هل هى بلبلة العصر والألسنة والمذاهب والمدارس والتيارات ؟ ، أو هل هى مسئوليات الانسان السابح فى تيار الحياة الجارف ، أو هل هى لغة الأرقام والاحصائيات التى لم نعد نألف شيئاً سواها ، ولا نحب الاستماع إلا إليها ؟

وكيف إذن يعبر المحب الهيمان عن اشجانه فى السحر ؟

وكيف يغنى الصياد فى زورقه السابح وسط التيار ؟

وكيف يشدو بالليل السائر المكدود فى الصحراء والقمر تتلألأ أشعته الساحرة فى وسط السماء ؟

كيف للمحزون أن يتأوه ، وللمحروم أن يتضرع ، وللأم أن تغنى لولدها، وللعامل أن يرفع صوته ليخفف عن نفسه عناء العمل؟ وماذا يقول عاشق للطبيعة وهو واقف أمام زهرة فى الروض يناجيها وتناجيه ، أو أمام هزار يغنى فوق فنن ؟

وإلا فمن علم البدر كيف يتألق ، والغدير كيف يترقرق؟

شعر هام بالطبيعة

وإذا كان الشعر فى الغرب فى القرن الثامن عشر شعراً كلاسيكياً ، لأنه شعر التقليد والإحياء للآداب القديمة


أحمد شوقى


حافظ ابراهيم


على محمود طه


أحمد زكى أبو شادى

الاغريقية واللاتينية ، ولأنه شعر الصياغة وبلاغة التعبير ، ولأنه شعر المناهج والقواعد المرعية فى اللغة والأدب واستلهام التراث القديم واتخاذه نموذجا يحتذى ، ولأنه شعر العقل الذى يضحى فيه الشاعر بعاطفته غالبا فى سبيل الدقائق الذهنية والوثبات الفكرية .

فإن الشعر الذى طار على جناح القرن التاسع عشر وحمل شعار تحطيم الأصول الكلاسيكية ، والدعوة إلى الرجوع للذوق والعاطفة والالهام ، هو الشعر الرومانسى الذى يغذيه التيار العاطفى بالطابع الذاتى الوجدانى ، وبالمشاعر الرقيقة الحالمة ، هو الشعر الذى هام بالطبيعة ، وعاش فى أحضان الريف، وترنم بجماله الحر المنطلق من قيود الحضارة ، وهو الشعر الغنائى العاطفى ، الذى التزم البساطة فى كل شىء ، وترك النفس على سجيتها ،

وعانق الفطرة والطبع الخالص .

وبحكم التأثر والتأثير عرف الشعراء العرب في العقد الثاني من القرن العشرين لغة الرومانسيين الشعراء في الغرب، وأخذوا عنهم ، وحاكوهم في كل ما ينظمون من قصيد ، وسبق مطران وشكري والعقاد والمازني إلى الدعوة للرومانسية وتلاهم شعراء مدرسة ابوللو، وحمل الدعوة ذاتها شعراء المهجر فقالوا الشعر الوجداني الذاتي، شعر العاطفة المشبوبة .

ولقد ازدهر الشعر العربي في النصف الأول من القرن العشرين في ظلال الكلاسيكية والرومانسية أيما ازدهار فظهر شوقي وحافظ ومحرم ومطران وشكري والعقاد والمازني وابو شادي وناجي وعلي محمود طه والشابي والتيجاني وبشير واحمد فتحي والصيرفي وصالح جودت ومختار الوكيل وعامر بحيري والعديد من الشعراء الرومانسيين الحالمين، في نهضة شعرية لم تعرفها العربية خلال عصور عديدة ، وهكذا عاش الشعر في ظلال مدرسة البعث والإحياء، ثم مدرسة الديوان، فمدرسة ابوللو فمدرسة شعراء المهجر في نهضة شامخة .

أما مدرسة البعث والإحياء فعاشت في ظلال روادها البارودي ثم شوقي وحافظ ومحرم ومطران أجمل أيامها ، حيث مجد الشعر ومجد الشاعر معا . وهذه المدرسة هي مدرسة العمودية أو قل الكلاسيكية ، وعندما قال شوقي بيته المشهور :

جانبتني ثوبها العصى وقالت
أنتم الناس أيها الشعراء

كان يعني ذلك حقا ، ويرى الانسان لا يتمثل إلا في الشاعر وحده ، وكان شوقي شاعر العبقرية كما يقول الزيات ، وشاعر الالهام كما رآه الرافعي ، وكان منحة أجيال كما يقول د. علي العناني.

ولم يلق الشعر العربي الحديث مجداً كالمجد الذي عاش فيه على يدي أحمد شوقي .

بين أغراض القدماء وتجديد المحدثين

لقد حمل لواء الشعر أربعين عاما والشعراء يسيرون وراءه في جميع الأقطار العربية كما يقول د. أحمد ضيف ، وفاخر به جيله الأجيال كلها كما يقول شيخ العروبة أحمد زكي باشا .

ونبه الجيل كله بشوقي كما يقول الشاعر علي محمود طه وكانت طاقة شوقي الفنية ضخمة فموسيقاه في جملتها اعذب من موسيقى أكبر شعراء العربية كالمتنبي ، كما يقول رائد ابوللو د. أحمد زكي ابو شادي . ولقد فاق شوقي شعراء عصره ومن قبلهم من بعد القرن الرابع الهجري بمعانيه المبتكرة كما يقول أحمد الاسكندري ، وناهيك بعبقرية شوقي التي كانت كمنجم الماس يمتلىء بالثراء والعطاء بلا حدود .

وشوقي جمع بين أغراض القدماء

وتجديد المحدثين، فكتب في أغراض جديدة من الاجتماع والسياسة والوطنية والقومية وعبر عن شتى النزاعات الاسلامية والانسانية وأجاد في وصف الطبيعة وفي شعر الحكمة والخمريات والحب وفي شعر الوصف عامة ونظم الشعر التاريخي والملحمي ونظم المسرحية والقصة الشعرية وجدد في بناء الشعر تجديدا لم يشهده عصر قبل عصره، وشعره في وصف الآثار الفرعونية والاسلامية ، بل شعره الاسلامي كله، مرحلة متقدمة في الشعر العربي الحديث ، وفاق في موسيقاه البحتري والمتنبي وابن زيدون والشريف الرضي ، وقد تابعه في هذه الموسيقى المبدعون في عصره كناجي وعلي محمود طه وصالح جودت، وسواهم .

ومن عجب أن الرافعي الذي فتن بشاعرية شوقي وهو في القمة كان قد هاجمه وهو في منتصف حياته الشعرية، فكتب عام ١٩٠٥ في «مجلة الثريا» مقالا مستعار التوقيع ، قسم فيه الشعراء إلى طبقات ثلاث :

الأولى :أجعل فيها البارودي والكاظمي وحافظا والرافعي نفسه .

والثانية : أجعل فيها صبري وشوقي ومطران وحفني ناصف والبكري .

والثالثة : أجعل فيها المنفلوطي وأحمد محرم والكاشف وأحمد نسيم .

ودارت معركة نقدية كبيرة آنذاك حول هذا الهجوم السافر على شوقي ، وسار الزمن وجاءت مدرسة الديوان وهاجمت شوقيا ومدرسته هجوما حادا انتصارا منها للرومانسية وهدما للكلاسيكية ، وصدر عام ١٩٢١ كتاب الديوان يحمل صور هذا الهجوم العنيف : أما مدرسة ابوللو فدعت للرومانسية واحترمت الكلاسيكية وأعلامها وتراثها ولم تمش على أشلاء جرحى هذا الهجوم ، ايمانا منها بالروح الانساني وبأن الشعر يحتمل أن يعيش في نطاقه مدارس كثيرة ، وتمشي في ظلاله تيارات مختلفة عكس ما يقوله شعراء الحداثة اليوم .

الشعر في ظلال الرومانسية

مع ذلك كله فقد نهض الشعر الغنائي في ظلال الرومانسية لأنه شعر ذاتي لا موضوعي ، وتكونت الوحدة العضوية للقصيدة ، وظهرت شخصية الشاعر في شعره ، وردد شكري بيته المشهور :

الا ياطائر الفردو
س إن الشعر وجدان

وصار شعر الحلم والرؤيا الابداعية وشعر الذكرى والعاطفة والوجدان والشعر الذاتي على كل ثغر وكل لسان .

وعشنا بعد شوقي والديوان وابوللو فترة عصيبة كان الصدى فيها للواقعية والرمزية والسيريالية وما إلى ذلك كله من مذاهب وتيارات ، قادت خطى الشعر إلى الشعر الجديد أو الشعر الحر على حد سواء ، وأصبح الشعر على ايديهم أشبه بلغة الحياة اليومية ، ولم يستطع شعراء الواقعية أن يفصحوا عن وجدان شاعر ، ولا أن يعبروا عن عاطفته ، ولا عن نزاعات جماهيره ومشاعرهم .

وتوالت طبقات شعراء مدرسة الشعر

الحر ، طبقة بعد طبقة ، وكلما بعدت طبقة من الطبقات عن التراث واستلهامه، تحول الشعر على ألسنتها إلى عامية وتقريرية ، وإلى لغة جافة مغرقة فى الرمز والتعقيد والاغراب ، حتى لم تعد قصيدة الشعر تجرى على اللسان ، ولم تعد صالحة للغناء .. يقول أحمد عبد المعطى حجازى أحد شعراء التجديد :

«أعظم الشعراء الذين احدثوا اضافات جوهرية غيرت وجه الشعر فعلوا ذلك من خلال متابعة الأجيال السابقة عليهم بينما لم يتحقق شىء على أيدى من ألقوا بذورهم فى أرض غير مستصلحة ، هل نريد أن تكتب قصيدة من عدم ؟

لا يمكن أن أضيف إلا إذا استفدت الخبرة الفنية للأجيال السابقة .. ومع أن هذا الشاعر يساير خطى شعراء مدرسة الشعر الحر إلا أنه يعلن أنه لا يقبل تعبير قصيدة النثر، ويقول : إنه منذ خمسة عشر عاما لا توجد حركة شعرية على الاطلاق .

وحين ملأ شعراء الحداثة شعرهم بكل ما هو خروج على أعرافنا وتقاليدنا وتراثنا وفكرنا العربى الاسلامى ، جاءت الدعوة إلى الشعر الاسلامى والأدب الاسلامى ، وهى فى مجملها عودة إلى أن يظل الابداع الشعرى والأدبى فى عطائه الفكرى للحياة المعاصرة، شكلا ومضمونا ، وأن يكون المضمون الاسلامى هو الغاية التى يتبلور حولها كل ألوان هذا الابداع شعراء وأدباء .

إن تراثنا الشعرى يتمثل فى القصيدة العربية العمودية ، التى ورثناها عن امرىء القيس وحسان وجرير والبحترى والمتنبى والبارودى وشوقى واضرابهم ، من الشعراء الذين أغنوا الشعر العربى، ولقحوه بالأخيلة الأصيلة ، وبالموسيقى المأثورة .

فكل هذا التراث الشعرى الأصيل جزء من كيان القصيدة العربية ، التى لا تسمى قصيدة شعرية عند جمهرة النقاد حتى تكون أبياتها من بحر شعرى واحد ، وحتى تلتزم فيها قافية واحدة ، وإن كان شعراؤنا المعاصرون يتأثرون بتأثير الرغبة فى التجديد، وتسهيلا على أنفسهم من قيود الفن والتزاماته ،



حفني ناصف — المنفلوطي

أحمد محرم — طه حسين

أجازوا لأنفسهم أن تشتمل القصيدة على عدة أوزان إذا تعددت مواقفها وأفكارها ، ونظموا من ذلك بعض قصائد ، من أشهرها قصيدة «الشاعر والسلطان الجائر» لايليا أبى ماضى ، وأجازوا كذلك تعدد قوافى القصيدة الواحدة مجازاة لفن الموشحات الاندلسية ، وتحرروا من سلطان القافية ، وجعل الكثير منهم لكل مقطع فى القصيدة قافية ، إذا كان كل مقطع يمثل تياراً فكريا متميزاً .

القيود الفنية للشعر العمودي

ولا يزال للقصيدة العمودية سلطانها الكبير ، لموسيقاها المؤثرة ، ونغمها الموقع ، وجمالها الفنى الأخاذ ، والفن هو الفن لابد فيه من القيود، والمثل الفرنسى السائد يقول : «لا يحيا الفن بغير القيود» . فمن خلال القيود الفنية تظهر عبقرية الشاعر وموهبته الأصيلة ، وعمق تكوينه الفنى المتميز .

ومع ذلك ففى تراثنا فى الشعر : نظام الأرجوزة ، والموشحة ، وعكس البحور المعروفة ، والأوزان التى أحدثها المولدون ، وفيه كذلك الكثير مما أضيف إلى هذا التراث فى مختلف العصور وبخاصة فى عصرنا الحديث من تنويع القافية، وتنويع الوزن فى القصيدة الواحدة، مع بقاء الروح الشعرى الأصيل للقصيدة، وهيكلها العربى العمودى ذى التأثير الموسيقى ، مما يكاد يبلغ بأشكال القصيدة الشعرية إلى ألف وزن من أوزان الشعر .

وحين بدأت مدارسنا الجديدة تدعو إلى التجديد فى القصيدة الشعرية، رأينا مطران ومدرستى الديوان وأبو للو يدعون إلى الشعر المرسل والشعر الحر، لتصبح القصيدة العربية كما زعموا أكثر مرونة وطواعية فى يدى الشاعر ، وليمكن استخدامها فى الشعر القصصى والمسرحى والملحمى الطويل النفس ، ولتكون أكثر تعبيرا عن ذاتية الشاعر ومشاعره العميقة ، وكان شوقى يرد عليهم بما صنع من تطويعه للقصيدة العمودية حيث جعلها صالحة للشعر القصصى والمسرحى ، وكذلك فعل ابو ماضى وعزيز أباظة وغيرهما ، والقافية لم تحل بين الشعر العربى فى القديم والحديث وبين ظهور الملاحم فيه ، وبين أيدينا ملحمة حافظ ابراهيم العمودية ، وملحمة أحمد محرم المشهورة» «الالياذة الاسلامية» وغيرها .. فالشاعر الموهوب لا تعوقه أبدا قيود الوزن والقافية كما يقول الدكتور أبو شادى فى مقدمة ديوانه «الينبوع» .

وجمهور الداعين باسم التجديد ، تحدثوا عن هذا التجديد ، وإن لم يحددوه، ومن بينهم بعض الكلاسيكيين : كالزهاوى والرصافى ، وكثير من الرومانسيين كمطران وشكرى والمازنى وغيرهم ، ودعا أحمد أمين إلى التجديد فى عنصرى الوزن والمعنى .

ورأى الزهاوى أن القافية فى القصيدة تمثل حركة النادب فى نهاية كل مقطع من مقاطع حزنه ، ورأى الدكتور زكى المحاسنى فى كتابه «نظرات فى أدبنا المعاصر» «أن وحدة القافية فى القصيدة العربية تشبه شكل البيداء العربية التى تمتد ساحة منها

وراء ساحة فى تماثل كامل يشبهه سرد القصيدة العربية الجاهلية ، وهناك شاعر من رواد النهضة الشعرية فى فرنسا هو «لويس أرجوان» نظم بعض شعره على نهج قريب من النهج الشعرى العربى، وعد ذلك كشفا جديدا ، فقسم بيته إلى مصراعين، وقفاهما تقفيه عربية .

الخروج على الاوزان الشعريه

والدعوة إلى الشعر الحر من بعض نقاد الثلث الأول من القرن العشرين تأثرت فى أكثر الأمر بمذهب الشاعر الامريكى «والت هوتمان» الذى هجر الأوزان فى معظم شعره ، وكذلك لم يهتم بالقافية ، ووجه جل اهتمامه إلى الايقاع الشعرى . وكان بعض الشعراء فى أوروبا قد شكوا فى ضرورة الوزن للشعر ، وإن لم يلق رأيهم ذلك أنصاراً كثيرين إلا فى الولايات المتحدة وفى بلجيكا ، أما فى انجلترا وفرنسا فلم يصادفوا نجاحا يذكر .

والخروج على الوزن الشعرى مع ملاحظة تنغيمات موسيقية خاصة هو ما يسمى شعراً حراً عند أبى شادى والسحرتى الذى يقول : ليس الشعر الحر ضرباً من الفوضى ، بل إنه له صناعة فنية تخلق ايقاعات موسيقية ، وإن خالفت الايقاعات الموروثة ، ثم صار الشعر الحر فى رأى نازك الملائكة فى كتابها «قضايا الشعر المعاصر» لا يطلق إلا على تنويع التفعيلات فى اسطر القصيدة ، ولباكثير ومحمد فريد أبى حديد وسهير القلماوى والمازنى وابى شادى والشابى وغيرهم تجارب كثيرة تمثل اولية الشعر الحر .

ومن الشعراء الذين ينظمون الشعر الحر من يتأثرون بالطريقة القديمة ، فيلتزمون فى أحيان كثيرة القافية ، كنزار والفيتورى ، ومنهم من يتركها كنازك والسياب والبياتى فى أغلب شعرهم .

وكان للدكتور طه حسين رأى فى الشعر الجديد ، عبر عنه فى أحاديث مختلفة له ، نشرت فى أمهات المجلات الأدبية .

يقول الدكتور طه حسين أن النزعة إلى التجديد فى الاوزان والقوافى دعوة غير منكورة وغير جديدة ، فقد سبق إلى التجديد شعراء من العرب ومن غير العرب وانما الجدير بالبحث فى الشعر الجديد هو البحث عن توافر الاسس التى يجب أن تراعى فى الفن الشعرى، والخصائص التى ينبغى أن تتحقق فيه ، ولا يمكن أن تعد هذا الجديد شعراً إلا إذا قام على تلك الأسس ، وتوافرت فيه تلك الخصائص .

ونشر طه حسين ذلك فى مجلة الآداب البيروتية عدد فبراير عام ١٩٥٧ فى مقال يؤكد رأيه هذا ، وقال فيه : إنى لا أرى بهذا التجديد من أوزان الشعر وقوافيه بأسا ، ولا على الشباب المجددين أن ينحرفوا عن عمود الشعر . فليس عمود الشعر وحيا نزل من السماء ، وقديما خالف أبو تمام عمود الشعر ، وضاق به المحافظون أشد الضيق ولست أرفض الشعر لأنه انحرف عن عمود الشعر القديم أو خالف الاوزان التى

احصاها الخليل ، وإنما أرفضه حين يقصر فى أمرين .

أولهما : أن يكون عربيا لا يدركه فساد اللغة ، والاسفاف فى اللفظ ، وقديما قال أرسطو : يجب قبل كل شيء أن تتكلم اليونانية ، فلنقل : يجب قبل كل شيء أن نتكلم العربية .

ثم كرر د . طه حسين هذا الرأى نفسه بعد سنوات ثلاث من مقاله السابق ، وذلك فى مقال له عن الشعر الجديد نشر فى مجلة الأديب البيروتية فى عدد مايو ١٩٦٠ ، جاء فى خاتمته : فليتوكل على الله شبابنا الشعراء ، ولينشئوا لنا شعرا حرا أو مقيداً ، جديداً أو حديثا ولكن ليكن هذا الشعر شعرا .

وحين كان العقاد فى مطالع حياته الادبية يشجع الشعر المرسل الخالى من القافية والشعر المتعدد القوافى ، ويقول : «إن أوزاننا وقوافينا أضيق من أن تنفسح لأغراض شاعر تفتحت مغالق نفسه، وقرأ الشعر الغربى ، فرأى كيف ترحب أوزانهم بالأقاصيص المطولة والأناشيد المختلفة ، وكيف تلين فى أيديهم القوالب الشعرية فيودعونها ما لا قدرة لشاعر عربى على وضعه فى غير النثر .. عاد يردد هذا الرأى فيما بعد وذكر أنه هو وصديقه المازنى كانا يشايعان زميلهما شكرى، بالرأى فى إهمال القافية دون استطابة إهمال القافية بالأذن ، وأنه هو نظم القصائد الكثار من شتى القوافى ، ولكنه طواها كلها ، لأنه لم يستسغها ، وأشار إلى أنه يوم كتب مقدمة الجزء الأول من ديوان المازنى ورحب فيها بهذه النزعات التجديدية ومنها الشعر المرسل وذلك عام ١٩١٤ ، كان يظن أن الأذن ستألفها ، ولكنه إلى اليوم لا يزال ينقبض لاختلاف القوافى بين البيت والبيت عن الاسترسال فى السماع، وذكر أن سليقة الشعر العربى تنفر من إلغاء القافية كل النفور .

إمارة الشعر لمن؟

وإذا كان أمير الشعراء أحمد شوقى (١٨٦٨ - ١٩٣٢) فى ظلال العمودية والكلاسيكية قد جمع الشعراء من كل مكان على مذهب فنى واحد ، وخط القصيدة الشعرية خطوطا واضحة . بنى عليها حاضر الشعر ومستقبله ، حتى بايعه الشعراء جميعا بامارة الشعر العربى فى حفل عام عقد بدار الاوبرا الملكية المصرية عام ١٩٢٧ وأنشد حافظ قصيدته المشهورة فيه :

أمير القوافى قد أتيت مبايعا
وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

فإننا لا نجد اليوم شاعرا مثل شوقى يصنع صنيعه ، ويجمع الشعراء كما أجمعهم شوقى على فكر فنى واحد فى الشعر، ولو وجدناه لاسرعنا بمبايعته بامارة الشعر مرة أخرى .

ومن عظمة شاعرية شوقى أنه لم يستطع شاعر من معاصريه أن يدعى أنه أولى من شوقى بامارة الشعر .

وإذا كان عصرنا وديمقراطية الحياة المعاصرة يأبيان أن تنصب على الشعراء أميرا ، فإن ماضينا الشعرى القديم يحفل بأمراء للشعراء العرب فى شتى العصور.

قالوا عن امرىء القيس أنه أمير شعراء العصر الجاهلى

وعن حسان أنه أمير الشعراء

المخضرمين .

وعن جرير ، وعن بشار وعن أبي تمام وعن المتنبي أن كلا منهم أميرا للشعر في عصره .

وبعد أن بويع شوقي بامارة الشعر استقر الامر قليلا ثم مات شوقي بعد تنصيبه أمير للشعراء بخمسة أعوام، وكان حافظ قد انتقل إلي دار البقاء قبله بشهور ، فكتب د . طه حسين يقول. إن امارة الشعراء قد انتقلت بعد وفاة شوقي إلى العراق، وهو يقصد الزهاوي والرصافي، ولما قيل لطه حسين : وأين مطران قال : إنه مذهب آخر في الشعر غير مذهب شوقي وحافظ .

على أننا نجد في تراثنا القديم أن نقادنا القدماء لم ينصبوا شاعراً واحداً أميرا على الشعراء ، بل كانوا يرشحون في كل عصر ثلاثة من الشعراء لزعامة الشعر فيه

امرؤ القيس والنابغة وزهير في العصر الجاهلي

حسان وكعب بن مالك وابن رواحه في عصر المخضرمين

جرير والفرزدق والأخطل في العصر الاموي

بشار وابو نواس ومسلم في القرن الثاني الهجري

ابو تمام وابو العتاهية وعلي بن الجهم في القرن الثالث

البحتري وابن الرومي وابن المعتز في القرن الثالث أيضاً

المتنبي وأبو نواس وابن هانئ الاندلسي في القرن الرابع

أبو العلاء والشريف الرضي وابن زيدون في القرن الخامس .

وهكذا إلى العصر الحديث حيث شوقي وحافظ ومحرم ، وتتوالي الطبقات من شعر مدارس البعث، والديوان ، وابوللو، والمهجر ، طبقة بعد طبقة ، وكل طبقة يتزعمها ثلاثة شعراء :

الديوان : شكري والعقاد والمازني

وابوللو : ابو شادي وناجي وعلى محمود طه .

والمهجر : جبران ونعيمة وإيليا أبو ماضي

لنرحب بالتجديد ، ولكنا نقول : يجب أن يكون هذا التجديد شعرا عربيا قبل



ابراهيم ناجي



صلاح عبد الصبور



جبران خليل جبران



ايليا ابو ماضي

كل شيء ، الشعر الحر ، لا بأس بالشعر الحر ، ولكن ليكن اللون المقبول منه هو ما التزم بالتفعيلة العروضية كوحدة أساسية في البناء الفني للقصيدة ، وإن اختلف عدد هذه التفعيلات بين بيت وآخر

الشعر الحر موضة قديمة

وها هي ذي حركة الشعر الحر، في أمريكا التي تزعمتها الشاعرة «امي لويل» زعيمة مدرسة التصويريين ، والتي اهتمت بالصورة الشعرية ، ودعت إلى إيقاعات موسيقية جديدة للتعبير في الحالات الجديدة ، ورأت أن الشعر الحر أفضل ألوان الإبداع الشعري ، باعتباره أطوع في التعبير عن ذاتية الشاعر .

قد وجد من ينكر عليها كل ذلك من شعراء ونقاد ، من بينهم الناقد الأمريكي لويس انترمير الذي نادى في كتابه «الشعر الأمريكي المعاصر» بالثورة على الشعر الحر ، ورأى أنه في تياره يضيع الأصيل والجيد من الابداع الشعري وسط الركام الهائل من القصائد الهزيلة التي لا تكاد تفترق عن النثر، مما جعل النقاد وفي أمريكا يهاجمون الشعراء التصويريين ويتهمونهم بالهرطقة، وينادون بوجوب حماية مستقبل الشعر والأدب من اتجاههم الهدام ، للشكل الفني في الشعر .

ويقول هذا الناقد الكبير «لويس انترمير» :

أن الكثير من شعراء امريكا المعاصرين قد عدلوا عن الدعوة إلى الخروج على القوالب الشعرية المألوفة ، بل إن الشاعرة «أمي لويل» نفسها قد عادت في انتاجها الشعري الأخير إلى استعمال القوالب التقليدية ومنها السوناتا وقالب الثنائيات ، ففي الشعر الانجليزي اوزان شعرية (مثل البحور في الشعر العربي) ، ومن هذه الأوزان قالب السوناتا ، وقالب الثنائيات .

ويقول أيضا : إن موجة الشعر الحر اصبحت موضة قديمة في الشعر الامريكي وأن عودة الشعراء الامريكان إلى الاشكال التقليدية للشعر كانت بدافع الرغبة إلى التجديد ، أي أن الرجوع إلى القديم كان بدافع البحث عن الجديد ، وحين لم يجدوا في الشعر الحر جديد عادوا إلى القديم حتى لا يصبحوا اسرى نظرية ثابتة . والعيب في الشعر الحر هو أنه سهل الاستسلام ليد الشاعر ، بينما يستمتع الفنان المبدع بتشكيل المادة شبه الصلبة التي يحس بها صانع التمثال في لحظة الابداع حين ينجح في تطويع الصخر ونحته طبقا للصورة التي تدور في خياله .

ايها السادة : ولماذا الشعر الحر ؟ والشعر العمودي ينتظم في حقله الكثير من البحور ذات التفعيلات المختلفة .. بينما الشعر الحر يقيد الشاعر في بحور قليلة هي التي تتكون من تفعيلة واحدة متكررة وهي سبعة بحور .

ومن البديهي أن شعراء الجيل الأول ممن كتبوا الشعر الحر ، كنزار والفيتوري وكيلاني حسن سند قد احتفلوا بموسيقية التفعيلية وتكرار القافية . ■

وجوه غابت وما غابت

بقلم
وديع فلسطين

كان الأديب الراحل عباس حافظ (١٨٩٦ - ١٩٥٩) يقول «إن الأدباء يموتون فطيساً». فقلة منهم هي التي تستأثر باهتمام الباحثين بعد رحيلهم، أما الكثرة الكاثرة فيغلفها النسيان ربما إلى يوم الدين. فإن جاز لذاكرة الأمة أن تنسى من يمكن أن يطلق عليهم اسم «عوام الأدباء» فليس بجائز أن تهمل ذكرى الكبار من أعلام الباحثين والمفكرين وحملة المشاعل أمام أجيال وأجيال من الذين صاروا من بعدهم أفذاذاً معدودين.

وقد رحل من فترة قريبة ثلاثة من كبار أعلام الأمة العربية دون أن يلقوا أدنى اهتمام من صحافتنا السيارة والمتخصصة، ولا صادفوا من التقدير ما يصادفه المشتغلون بالفن أو اللاعبون بأقدامهم في حلبات الكرة أو الذين يشترون بأموالهم صفحات كاملة مجللة بالسواد في الصحف. وهؤلاء الأعلام الثلاثة هم الدكتور قسطنطين زريق وعلامة الجزيرة العربية الشيخ حمد الجاسر والعلامة العراقي إبراهيم السامرائي، وكان من توفيق ربيّ أنني عرفت ثلاثتهم، وعرفت قبل ذلك فضلهم في خدمة القضايا الفكرية والثقافية والعلمية لأمتنا العربية.



قسطنطين زريق　　حمد الجاسر　　ابراهيم السامرائي

ويقتضيني واجب الوفاء أن أعرف بهؤلاء الأعلام الثلاثة، وهم في غير حاجة إلى تعريف لو كان هناك منصفون يعرفون القيمة الحقيقية للرجال البنائين.

الدكتور قسطنطين زريق

لبناني من أصل سوري، ولد في دمشق في ١٨ ابريل ١٩٠٩ وتلقى تعليمه العالي في جامعتي شيكاغو وبرنستن في الولايات المتحدة، وظفر من الأخيرة بدرجة الدكتوراة. وشغل في سوريا مناصب تربوية وسياسية، فكان رئيساً للجامعة السورية (جامعة دمشق الآن) ووزيراً مفوضاً لسوريا في واشنطن ومثل سوريا في مفاوضات إنشاء الأمم المتحدة في سان فرنسسكو في عام ١٩٤٥ ثم انتقل إلى لبنان فعمل أستاذاً للتاريخ في الجامعة الأمريكية ثم اختير نائباً لرئيسها ورئيساً لها بالوكالة، وشارك في أنشطة علمية كثيرة منها عضويته في مجمع اللغة العربية بدمشق ورياسته لمؤسسة الدراسات الفلسطينية وعضويته في مجلس تحرير «الموسوعة العربية الميسرة» ونشر طائفة كبيرة من الكتب باللغتين العربية والانجليزية. وعرف باتجاهه القومي الأصيل الذي لم يتزعزع أمام نكبات الأمة العربية. وكان أول من ألف كتاباً بعد نكبة فلسطين بعنوان «معنى النكبة» ففتح الباب أمام غيره من الباحثين الذين أصدروا عدداً من الكتب حول النكبة وآثارها. وعاد هو إلى إصدار كتاب آخر بعنوان «معنى النكبة مجدداً».

ومن مؤلفاته الأخرى «نحن والتاريخ» و«الوعي القومي» و«في معترك الحضارة» و«أي غد؟» و«هذا العصر المتفجر» و«ما العمل» كما حقق كتاب «تهذيب الأخلاق» لابن مسكويه. وقد نشرت المجموعة الكاملة لآثاره في أربعة مجلدات بعنوان «الأعمال الفكرية العامة».

كان الدكتور زريق يدرك أن رسالة الأستاذ الأكاديمي لا تقتصر على إصدار المؤلفات العلمية التي قد يكون عدد قرائها محدوداً نسبياً، ولهذا كان يحرص على النزول إلى سواد الناس بما ينشره من آراء في الصحف السيارة عن التربية والتعليم ومستقبل الجامعات والوعي القومي وغير ذلك من الموضوعات التي

تدخل فى نطاق اهتمامه من تاريخية وحضارية ومستقبلية.

وقد التقيت بالدكتور قسطنطين زريق للمرة الأخيرة فى بيروت فى أكتوبر ١٩٩٩ حيث كانت لكلينا مشاركة فى مهرجان «مى زيادة»، وكان يعانى من مرض الشلل الرعاش (باركنستين) ولكنه كان حاضر الذهن برغم التسعين من العمر. وقد ضرب لى موعداً لزيارته فى بيته، ولكن طارئاً صحياً أكرهنى على اختصار زيارتى لبيروت، ففاتتنى هذه الفرصة التى لا سبيل إلى تعويضها. ولا بأس أن أذكر، للتدليل على أخلاقيات هذا الرجل العظيم، أنه كان يتابع ما كنت أنشره فى جريدة «الحياة اللندنية» من «أحاديث مستطردة» عن الأعلام الذين عرفتهم فى رحلة العمر وقال لى من قبيل التشجيع والإطراء «أنت تمثل ذاكرة الأمة الحية» - وهو وصف لا أزعمه ولا أدعيه .

وعندما بلغ التسعين من العمر ناشده العلامة الدكتور إحسان عباس على صفحات الصحف بأن يسجل ذكرياته، ولكنه لم يستجب لهذه الدعوة حتى ينأى بنفسه عن التفاخر بصنائعه والتحدث عن نفسه بصيغة «أنا» وهى صيغة كان ينفر منها دائماً .

وبعد وفاة الدكتور قسطنطين زريق فى بيروت فى ١٢ أغسطس ٢٠٠٠، انتهزت الجامعة الأمريكية فرصة احتفالها بالذكرى الرابعة والثلاثين بعد المائة لآبائها المؤسسين - وهى ذكرى تأسيس الجامعة فى ٣ ديسمبر ١٨٦٦ - فأهدت هذا الحفل إلى «المفكر و الكاتب القومى العروبى الراحل البروفسير قسطنطين زريق» بحضور كريمته الدكتورة هدى زريق عميدة كلية العلوم الصحية بالجامعة.

وقد وصفه صديقه وزميله المؤرخ الدكتور نقولا زيادة - أطال الله بقاءه - بقوله «كان قسطنطين زريق قوى الأمل بأمته. مات والأمل يحدوه. فليحاول تلاميذه والمشاركون فى آرائه، كل بقدر استطاعته، العمل لا الصراخ. فقد قتلنا هذا ونحن بحاجة إلى ذاك».

علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر

ولد الشيخ حمد الجاسر فى نجد فى عام ١٩١٠ ودرس فى المعاهد السعودية متخصصاً فى القضاء الشرعى، ولكن عصاميّته التى أخذها عن الشيوخ الذين تلقى عنهم العلم وسّعت اهتماماته بتاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها وأنسابها، فتسنى له أن يصدر طائفة كبيرة من الكتب بين مؤلف ومحقق، وصار حجة حاسمة فى كل ما يتعلق بالجزيرة العربية، حتى أنه سجل مآخذ كثيرة على المستشرقين الذين وضعوا دراسات عن

السعودية، وفي طليعتهم المستشرق عبدالله فيلبي (١٨٨٥ - ١٩٦٠) وغيره من الرحالة الأجانب الذين زاروا جزيرة العرب.

وقد أحصى له الأديب الأردني أحمد العلاونة في كتابه «حمد الجاسر: جغرافي الجزيرة العربية ومؤرخها ونسّابتها» ٢٧ كتاباً مؤلفاً و٣٢ كتاباً محققاً و٦ كتب في المراجعات والتصحيف.

وكان في باكورة حياته قد أصدر مجلة «اليمامة» ، كما رأس تحرير جريدة «الرياض» ولكنه تخلى عن العمل الصحفي اليومي وأصدر مجلة فصلية محترمة اسمها «العرب».

وانتخب الشيخ حمد الجاسر عضواً في مجمعي القاهرة ودمشق، وقام برحلات واسعة في أنحاء العالم سجّل ملاحظاته عليها في كتاب «رحلات حمد الجاسر للبحث عن التراث»، وأصدر طائفة من المعاجم الجغرافية ومعاجم لأسماء الخيل والقبائل، كما كانت له نظرات في معاجم اللغة العربية واستدراكات على ما ورد فيها.

ومن مؤلفاته «ابن عربي موحّد الحكم الأموي في نجد» و«أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع» و«إطلالة على العالم الفسيح بين الشرق والغرب» و«باهلة: القبيلة المفترى عليها» و«بلاد ينبع» و«جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد» وغيرها وغيرها.

وعندما انتخب عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بمصر في عام ١٩٥٨ استقبله الدكتور عبدالوهاب عزام - (١٨٨٤ - ١٩٥٩) بقوله «الأستاذ المحتفل به عالم ثبت خبير بمواضع الجزيرة العربية ومعالمها، وسيجد الأدباء والمؤرخون والجغرافيون غناءً وفائدة حين ينشر كتبه».

ويقول عنه الدكتور محمد مهدي علام (١٩٠٠ - ١٩٩٢) الأمين العام لمجمع القاهرة إن «المجمع يعول عليه تعويلاً كبيراً في تحقيق أسماء البلدان والأماكن بالجزيرة العربية، وبالأنساب حيث تفوق درايته بها دراية أي عالم في المملكة، ولذلك فهو دائم المساهمة في أعمال المجمع بصفة دورية».

وتقديراً من السعودية لعلم الشيخ حمد الجاسر منحته جائزة فيصل العالمية. وبعد وفاته في سبتمبر ٢٠٠٠ قررت الحكومة السعودية تحويل خزانة كتبه العامرة إلى مؤسسة وطنية، مع الاستمرار في إصدار مجلة «العرب».

وكان الشيخ الجاسر ، برغم شيخوخته وهزال صحته، يحرص على حضور المؤتمر السنوي لمجمع القاهرة،

ولم يتخلف عنه إلاّ فى العامين الأخيرين، فكنت أسعد بتجديد اللقاء معه دون أن تخذله ذاكرته .

العلامة العراقى

الدكتور إبراهيم السامرائى

كان آخر لقاء لى مع العلامة إبراهيم السامرائى فى المؤتمر الأخير لمجمع القاهرة، وكان - على عهده دائماً - جم النشاط موفور الصحة. ومع ذلك قال لى إنه يعّد للنشر آخر دواوينه وعنوانه «قبل الرحيل» . ولّما قلت له: ولم تتعجل الرحيل، قال إن الثمانين التى بلّغتها تنذرنى بقرب النهاية. وسافر من القاهرة إلى عَمان فى الأردن حيث آثر الاستقرار، وفى يوم ٢٥ ابريل ٢٠٠١ شارك فى أعمال المجمع الأردنى بنشاطه المعهود، ولكنه استشعر شيئاً من التعب، فنقل إلى المستشفى وتوفى قبل الوصول إليه. ومات ودفن غريباً عن وطنه ولم يمش فى جنازته إلاّ قلة من عارفى فضله.

والعلامة إبراهيم السامرائى مولود فى العراق فى عام ١٩٢٠ حيث تلقى دراساته التمهيدية، ثم سافر إلى باريس لمتابعة دراسته العليا وظفر من جامعة السوربون بدرجة الدكتوراة. وعاد إلى بلاده ليعمل فيها فى التدريس الجامعى، فلمّا بلغ سن التقاعد اختار أن يواصل رسالته الجامعية فى الوطن العربى العريض، فعمل فى جامعات بيروت وتونس وصنعاء والجزائر والمغرب والسودان وليبيا والأردن التى ألقى فيها عصا التسيار. وأختير عضواً فى جميع المجامع العربية وفى المجمع الهندى أما مجمع العراق فضن عليه بعضويته.

والدكتور السامرائى طائفة من المؤلفات والترجمات والمعاجم، حيث استخرج للمتنبى وللجاحظ معجمين للألفاظ المتداولة فى كتاباتهما وأصدر «معجم الفرائد» و«المعجم الوجيز فى مصطلحات الإعلام» بثلاث لغات و«معجم ودراسات فى العربية المعاصرة»، ومن مؤلفاته «دراسات فى اللغة» و«الأعلام العربية» و«رسائل فى اللغة» و«لغة الشعر بين جيلين» و«لفيف وأشتات»، كما حقق «نزهة الألباء فى طبقات الأدباء» لابن الأنبارى و«ديوان عروة بن حزام» و«ديوان القطامى» و«ديوان قيس بن الخطيم» والدواوين الثلاثة حققت بالاشتراك مع الدكتور أحمد مطلوب وحقق كذلك «كشف النقاب عن الأسماء والألقاب» لابن الجوزى. وله ديوان ضخم عنوانه «حنين إلى الكلم الضائع».

ولعل فى هذه الإلمامة السريعة بهؤلاء الأعلام الثقات ما يؤكد لنا مدى تقصير

صحفنا الأدبية فى الالتفات إلى حياتهم وآثارهم بعدما ودعوا الدنيا.

جائزة أدبية بمليون ليرة لبنانية

أعلن الشاعر اللبنانى سعيد عقل (المولود عام ١٩١٢) عن جائزة رصد لها مبلغ مليون ليرة لبنانية تمنح لمن يحفظ وينشد غيباً خمس صفحات من مسرحية «عشتريم» التى ألفها وذلك «لتعويد القراء على وزن الشعر وجماله ومن خلالهما قراءة معانى الحضارة ولبنان».

الأوديسية - مجلة شعرية

بعد توقف فترة عن الصدور استأنفت مجلة «الأوديسيه» الشعرية صدورها فى لبنان، وهى مجلة يرأس تحريرها الشاعر هنرى زغيب ومديرة تحريرها الأديبة منى غزال.

وقد تضمن العدد الجديد قصائد لشاعرات من بلدان عربية مختلفة، منهن لميعة عباس عمارة من العراق وباسمه بطولى من لبنان وعائشة الخواجا الرازم من الأردن وندى الحاج من لبنان وهيفاء اليافى من السعودية، عدا قصائد لشعراء منهم سعيد عقل ومحمد الفيتورى وإلياس لحود وموسى معلوف وغيرهم. وفى العدد مسرحية عنوانها «غابة الضوء» للأخوان رحبانى.

الأدب النسائى

الأديبات المصريات بنت الشاطىء ونعمات أحمد فؤاد ونبيلة إبراهيم وشريفة فتحى ومنيرة توفيق والسوريات سلمى الحفار الكزبرى وطلعت الرفاعى وغادة السمان واللبنانية ليلى بعلبكى والعراقية نازك الملائكة والفلسطينية سحر خليفة والأردنية ثريا ملحس والسودانية فاطمة عبدالمحمود والسعودية سميرة خاشقجى كن موضوع دراسة جديدة لأدبهن وشعرهن اضطلعت بها الأديبة لوسى يعقوب فى كتابها «لغة الأدب والشعر فى كتابات المرأة العربية». وطبيعى ألا تتسع الدراسة لكل الأديبات العربيات، حيث افتقدنا فيها نماذج من تونس والمغرب والخليج، ولكن المؤكد أن الباحثة لوسى يعقوب بذلت جهداً مقدوراً فى سبيل تناول هذه الشريحة الوضاءة من الأديبات العربيات، فبينت خصائص كل منهن، وأومأت إلى الملامح البارزة فى كتاباتهن، مما قد لا يجتمع فى كتاب بعينه.

وتقول لوسى يعقوب فى تقديمها لكتابها إنها «تعرضت فى اختياراتها للأديبات العربيات أن تعبر كل واحدة منهن بلغتها المميزة عن ثورة أنثى تعشق بلدها، وثورة أنثى تعشق حريتها. وتحرر كيانها، وثورة أنثى حرة كريمة تناضل من أجل كرامتها». ■

المبدع هو الناقد الأول لعمله الفني

يوسف الشاروني

في شبابي المبكر قرأت كتابا بقلم مؤلف أمريكي عنوانه «كيف تكسب الأصدقاء؟» كان من بين نصائحه أن الحديث عن النفس غير جذاب، وأن الآخرين يفضلون أن نستمع إليهم بدلا من أن يستمعوا إلينا. من يومها تجنبت بقدر المستطاع أن أستخدم ضمير المتكلم إلا إذا كان ضمير إحدى شخصياتي القصصية، هنا اكتشفت أن ضمير المتكلم ليس منفراً إلى هذا الحد وأنه أحيانا يكون ضميراً جذاباً لأن الآخرين يستمتعون أيضا بالاطلاع على سير غيرهم وخصوصياتهم كلما أمكن ذلك. من هنا كان باب الاعترافات في الصحافة من أكثر الأبواب جذبا للقراء. وقد استخدمت هذا الضمير من قبل عندما تحدثت مرة عن «تجربتي» مع القصة القصيرة، ومع النقد الأدبي مرة أخرى، كما استخدمته في كثير من حواراتي التي كانت ذاكرتي وأنا أهم بكتابة هذا التكوين الموجز.

طفولتي كانت موزعة بين المدينة والريف حتى نهاية الدراسة الثانوية، الأشهر التسعة في القاهرة، وشهور الإجازة الصيفية الثلاثة في قريتنا «جزيرة شارونة» بمحافظة المنيا بصعيد مصر حيث كان يعيش جدي وجدتي لأمي. ولم يكن ارتياد شاطيء البحر المتوسط قد




أنور المعداوى


فؤاد دواره

أصبح عرفا بعد فى مصر فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى . وقد وصفت هذه الجزيرة الريفية فى قصتى «الثأر» حيث كانت شبه جزيرة – قبل بناء السد العالى – طوال فصول الخريف والشتاء والربيع، تحيطها مياه النيل من ثلاث جهات، أما الجهة الرابعة فيكون المجرى فيها خلال هذه الفصول مليئا بالرمال الناعمة، يتيح لأطفال القرية اللهو فيها بأمان لاسيما فى الليالى القمرية، ثم يأتى فيضان النيل كل صيف فيركب الجزيرة على حد تعبير أهلها، ويمتلىء الخور بالماء لتصبح شبه الجزيرة جزيرة مهددة بالغرق، وإن لم تعد مهددة بلصوص الجبل الذين يغيرون عليها خلال الخور الجاف أثناء الفصول الثلاثة الأخرى. وكان هذا الخور الرملى الناعم ملعب طفولتنا فى أمسيات الصيف القمرية. ومازلت أذكر كيف كان شباب القرية – بل وصبيانها – يقومون على حراسة ما أقاموه من جسور حول قريتهم من غدر ماء الفيضان وتسلله إلى بيوتهم. فإذا انحسر الماء كان طمى النيل قد غطى الأرض ممايوفر على الأهالى ريها وتسميدها ويجعلها من أخصب الأراضى الزراعية.

وأذكر أن أخى يعقوب استوحى فى سن مبكرة موضوع حراسة الشباب لجسور قريتنا حتى لا تغرق، فى قصة له من قصص الأطفال، وقدمها لإحدى المسابقات، لكن الدكتورة «سهير القلماوى» – رحمها الله – استبعدتها على أساس أنها منقولة عن إحدى القصص الهولندية حيث تقام حراسة مشابهة فى ظروف مشابهة.

وفى هذه الزيارات الصيفية استمعت واستمتعت بأساطير القرية ومواويلها، ومخاوفى ومخاوف أهلها وقلقهم وكفاحهم وطموحاتهم، وعايشت أعراسهم وأفراح ختان ذكورهم وأحزان فراق أحبابهم، وبهذا اكتملت فى وجدانى معايشة مصر فى طفولتى – حيث تختزن الذكريات فيما تحت الوعى –.ريفها مثل حضرها.

شغف مبكر بالأدب

وأذكر أننى بدأت أتعامل مع الكتب فى وقت مبكر، ربما كان فى سن الثالثة عشرة، فى إجازة الصيف، بين الأولى والثانية الثانوية «فلم تكن هناك وقتئذ مرحلة إعدادية».

وجدتني شغوفا في هذه السن بالأدب العربي. وكانت في بيتنا مكتبة تجمع بين الناحيتين الدينية والأدبية. ومن الكتب التي استوقفتني كتاب «كليلة ودمنة»، وكتاب «مجاني الأدب في حدائق العرب» للأب لويس شيخو اليسوعي، وهو كتاب يضم مختارات من النوادر العربية الطريفة ومقطوعات من الشعر العربي في مختلف الأغراض كنت أحاول حفظها. وقد انعكست هذه القراءة في محاولات فيما بعد لصياغة النادرة العربية بأسلوب معاصر فيما أطلقت عليه «قصص في دقائق» أو «قصص قصيرة جداً»، إذ كانت هذه محاولة لربط القصة العربية الحديثة بجذورها القديمة عن طريق استلهام النادرة العربية. كما كان من بين الكتب في مكتبة والدي كتاب «سياحة الحاج» المترجم عن الإنجليزية لجون بانيان الذي كتبه في السجن في القرن السابع عشر الميلادي، وفيه يروي قصة سياحة المؤمن في عالم الظلام من أجل الوصول إلى المدينة السماوية، وبعد تغلبه على مجموعة من المغريات والعقبات يعبر نهر النسيان «أي الموت»، ثم تلحق به زوجته وأولاده في الجزء الثاني من الكتاب. وقد ألحت على فكرة السياحة وما يبذل فيها من مجهود للوصول إلى الهدف في عديد من قصصي ودراساتي، وهو هدف تواضع في العصر الحديث حتى أصبح يتصل بمطالب الحياة الضرورية كالحب والعمل السكن.

وفي السنوات التالية بدأت أقرأ ماكان يصدر في سلسلة «روايات الجيب»، وهي تتراوح بين روايات بوليسية وأخرى بأقلام كبار الكتاب العالميين مثل تولستوي، ودستويوفسكي، وهول كين، ورايدرهاجرد، وموريس لابلان، وآرثر كونان دويل. وكنت أدون في مفكرة صغيرة كل كتاب أقرؤه وعدد صفحاته، حتي أعرف حصيلة ما قرأت في نهاية الإجازة الصيفية، وأذكر أنها وصلت في إحدى هذه الإجازات إلى ثمانين كتاباً وهو رقم يعبر عن مدى شهوة القراءة في هذه السن.

وقبل دخولي الجامعة كنت قد بدأت أقرأ عن طريق الاستعارة من المكتبات العامة، ومكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة - التي كنت بالقسم العربي بها والذي ألغي فيما بعد وحصلت منه على التوجيهية «الثانوية العامة الآن» - لكتابنا العرب المعاصرين مثل طه حسين، العقاد، ميخائيل نعيمة، سلامة موسى، محمد حسين هيكل، توفيق الحكيم، إبراهيم المازني، جبران خليل جبران، حسين عفيف المحامي، وترجمات في المقتطف من شعر طاغور، ومما لاشك فيه أنني استوحيت قالب ما أطلقت عليه «النثر الغنائي» في «المساء الأخير» من هؤلاء الكتّاب الثلاثة



في مكتبة الشاروني مع د. نعيم عطية وكاتب الرحلات حسين قدري

الأخيرين. كما كنت أقرأ في مجلة المقتطف أيضا المقالات العلمية التي كان يكتبها في المقدمة فؤاد صروف عن التركيب الذرى ونظرية الكوانتم والنظرية النسبية وغيرها.

وفي المرحلة الجامعية اتسعت اهتماماتي الفنية بحيث شملت الفنون التشكيلية والموسيقى، فتعرفت على الموسيقى الغربية عن طريق جماعة الجرامافون التي كان يشرف عليها أستاذ شاب للغة الإنجليزية في كلية الآداب هو الدكتور لويس عوض، وكان وقتها قد عاد لتوه من بعثته في انجلترا قبل أن يحصل على الدكتوراه بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية. واعتقد أن هذا الشغف بالموسيقى ترك أثره في اهتمامي بالشكل في العمل الفني. لأن السيمفونية تتألف من نغمة أساسية ثم تنويعات لهذه النغمة، أي أنها تصنع تاريخها الداخلي أو ذاكرتها الخاصة بها. من هنا تعلمت أن العمل الفني يمكن أن يخلق تاريخه الخاص به، وبأنه يمكن لفكرة فيه أو لجملة أن تتردد في أوله ثم تعود في آخره لتعطى إيحاء آخر.

أما بالنسبة للفن التشكيلي فقد أثارني بوجه خاص جويا في لوحاته التي يقدم فيها الفزع الإنساني إلى جانب اتصالي بالحركة السيريالية أو الفوقعية التي ظهرت في مصر أثناء الحرب العالمية الثانية، والتي أشرت إليها في كتابي «اللامعقول في الأدب المعاصر».

وقد ترك هذا الفن التشكيلي أثره على قصصي المبكرة، فيما أسميته «تحطيم قواعد المنظور» في الأدب، أي

التمرد على الأساليب التقليدية التى كانت تكتب بها القصة إذ ذاك، ثم على الاسلوب الواقعى الذى كان له الرواج فى القصة منذ بداية الخمسينيات. من هنا كان اتجاهى فى كتابة القصة مختلفا عن الاتجاهين التقليدى والواقعى.

بين الحلم والتجربة

وفي فترة الدراسة الجامعية بدأت أجرب إمكاناتي التعبيرية، حاولت كتابة الشعر الموزون المقفي، والقصة القصيرة، والدراسة الأدبية التي خصصت لها كراسة كتبت عليها «مطالعات أدبية » ، وربما كنت متأثرا في هذا العنوان بعنوان مشابه للعقاد، كما كتبت الرواية التي نقلت بعض فصولها من روايات أخرى حيث لم تكن لى خبرة كافية بالحياة، كما كتبت يومياتي التي اعتبرتها مدرستي التعبيرية التجريبية حيث كنت أكتب في حرية معبراً عن أي خاطر يطوف بي، أو مشاعر عانيتها أثناء تعاملي مع الآخرين، أو انفعال، أو صدى قراءاتي.. إلخ، وقد اختزنت بعض ما يصلح من هذه اليوميات للنشر فيما بعد في الجزء الأخير من «المساء الأخير » الذى كان عنوانه «بين الحلم والتجربة».

ولقد كانت فترة دراستي الجامعية هى نفس فترة الحرب العالمية الثانية مابين ١٩٤١ - ١٩٤٥ (الحرب العالمية الثانية كانت بين عامى ١٩٣٩ - ١٩٤٥). معنى هذا أن سنة تخرجى من الجامعة كانت هى نفس السنة التى انتهت فيها الحرب، وهى نفس السنة التى بدأت أتأهب فيها للكتابة والنشر. وجدت نفسى أواجه عالما يتنفس الصعداء بانتهاء الحرب، لكنه ينوء بعبء مشاكل ما بعد الحرب. وكانت مشكلة العالم العربى فى مختلف أقطاره هى أحلام الاستقلال بعد هذه الحرب وبعد تغير ظروف الدول التى كانت تدخل فى نطاق نفوذها، لهذا كانت فترة غليان سياسى واجتماعي معا.

كما أنه فى أثناء الحرب العالمية الثانية حجبت الثقافة الأوربية عن مصر لعدم تيسر وصولها، فما أن انتهت الحرب حتى تدفقت على مصر الثقافات والاتجاهات الفنية التى تخمرت فى أوربا أثناء الحرب، وذلك عن أكثر من طريق: كالكتب والبعثات والأساتذة الأجانب الموفدين. وكانت مجلة «الكاتب المصرى» التى ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية ورأس تحريرها الدكتور طه حسين أحد المنابر البارزة لتقديم هذه الألوان الجديدة. فقرأنا مقالات طه حسين عن سارتر، وكامى، وكافكا، وريتشارد رايت. كما قرأنا مقالات لويس عوض عن إليوت، وجيمس جويس، ود. هـ لورنس، وألدوس هكسلي وغيرهم من الكتاب المعاصرين في ذلك الوقت مما دفعنا إلى

أن نقرأهم فى كتبهم الأصلية.

لقد أحسست بمدى تشابك العالم واضطرابه، وسهولة وسائل الاتصال الحديثة بين أجزائه وما يضطرم فيه من قلاقل وتمرد وثورات، وأن اللحظة الزمانية الواحدة يمكن أن تضم بالنسبة للفرد أكثر من تناقض بسبب سرعة وسائل الاتصال، وأن عليّ كفنان أن أقدم ذلك كله من خلال العمل الفني بحيث أنقله إلى وجدان القارىء كما هو فى وجدانى. من هنا جاء إدراكى أن الشكل التقليدى يضيق عن استيعاب هذا المضمون المتفجر. وقد حاولت النشر فى بداية حياتى الأدبية فى أشهر مجلة فى ذلك الوقت هى مجلة «الرسالة» التى كان يصدرها أحمد حسن الزيات، لكنها أوصدت صفحاتها أمام هذا الناشىء المجهول، وكان لى زميل مغربى بقسم الفلسفة الذى تخرجت فيه اسمه أبو مدين الشافعى يعد للحصول على درجة الماجستير أو الدكتوراه كان ينشر فى مجلة «الأديب» البيروتية لصاحبها ألبير أديب، فتطوع مشكورا بإرسال أول قصة نشرتها الأديب لى، وتتالى بعدها نشر ماكان مخزونا من قصص ونثر غنائى، حتى أن إحدى المجلات المصرية نقلت مقطوعة مما كنت أنشره على صفحات «الأديب» وذكرت أنها للأديب اللبنانى يوسف الشارونى. وعن طريق مجلة «الأديب» استطاع اسمى أن يقتحم مجلة «الرسالة»، لكن عن طريق الهجوم على ما أكتب. فقد كتب الأستاذ أنور المعداوى - وكان من أبرز نقاد عصره - بتاريخ ٢٨ مارس ١٩٤٩ مقالا بعنوان «اقرأ معى هذه الكلمات» يعلق فيه على إحدى مقطوعات «المساء الأخير» المنشورة فى «الأديب» قائلا إنها لأديب مصرى إسمه يوسف الشارونى لم يجد مكانا فى القاهرة المعزية لنشر هذا «التهجيص».

وقد تزاملنا - أنور المعداوى رحمه الله وأنا - فى مجلس إدارة تحرير مجلة «المجلة» فى الستينيات بعد ذلك حين رأس تحريرها يحيى حقى، وضحكنا عندما ذكرته بما كتب.

وبمناسبة يحيى حقى فقد طلب منى أن أتعاون معه فى تحرير مجلة المجلة فى الستينيات، كان هو رئيس التحرير، ومجلس التحرير يتكون من أنور المعداوى وفؤاد دوارة وأنا.

وكان يحيى حقى قد سبق أن ناقشنى فى مجموعة قصصى «رسالة إلى امرأة» فى برنامج «النقاد» بالبرنامج الثانى أو البرنامج الثقافى الآن بإذاعة القاهرة. وكنا حديثى التعرف، فجلسنا بعد المناقشة فى أحد مقاهى القاهرة، وإذا به يسألنى: «هل أنت متزوج؟»، قلت له «نعم» قال : «وكم عندك من الأبناء؟» قلت : «اثنان» ثم سكت . فسألته : «لماذا تسأل» قال «قرأت قصة «الرجل والمزرعة»» (وهى قصة زوجين عقيمين يكافحان من أجل إنجاب طفل لهما ومحاولة الرجل إخصاب زوجته كما

ينحصب مزرعته، وتدور القصة حول تتويج هذا الكفاح بوصول هذا الوليد في إحدى الليالي بعد سبع سنوات من العقم) فظننتك عقيما. فلما قرأت قصة «آخر العنقود» (وتدور حول أسرة كثيرة النسل تحاول وقف هذا السيل) ظننتك كثير العيال. وبعد هذه المناقشة كتب يحيي حقي مقالا عن المجموعة نشره في كتابه «خطوات في النقد» أعلن فيه أنني أستاذ في القصة ولكنني جزار التشبيه، لأنه لم يعثر في المجموعة كلها إلا على تشبيهين: بيضاء كاللبن، وسمينة كالبطة، في قصة «الرجل والمزرعة» بالذات، فكان ردي أن عنوان القصة نفسه قائم على تشبيه المرأة بالمزرعة، وأن التشبيهات موجودة لكنها لاتبرز لأنها موظفة فنيا ونابعة من داخل العمل، وليست مفروضة عليه من الخارج.

أسير الحرية

لقد قررت في بدء حياتي أن أمارس الأدب كمجرد هواية أركبها ولا تركبني، بمعنى أن أترك نفسي في سجيتها.. أقرأ حين أجد كتابا ممتعا يشدني إلى قراءته، أقدمه لغيري إذا وجدت فيه ما يشجعني على ذلك دون أي اعتبارات أخرى، فإذا ألحت على قصة أن أكتبها أذعنت لإلحاحها، إلا أنني ما لبثت أن وجدتني أسير ما ظننته حريتي. إذ أصبحت أمام الآخرين أمثل نمطا معينا في الحياة يرون من حقهم أن يعاملوني على أساسه، ومن هنا جاء جانب كبير من إنتاجي نتيجة لما يعهد به الآخرون إليّ - وهذه الكلمات مثال على ذلك - فالأديب في عصر الإعلام ووسائل الاتصال الجماهيرية من إذاعة وتليفزيون وصحافة أحيانا لايختار لنفسه بمقدار ما يختار له الآخرون.

وفي حياة كل إنسان ألغاز كثيرة من المتعذر تفسيرها، فمثلا لماذا يصبح شخص تاجرا وآخر أديبا، بل ولماذا يصبح شخص شاعراً وآخر قصاصا وهم إخوة في بيئة واحدة. وقد حدث مثل هذا في أسرتنا، فلي شقيق رجل أعمال هو أصغرنا مفيد، أقول إنه يعيش في الفضاء ونحن نعيش على الأرض لأنه مولع باستخدام شبكة المعلومات، ليس مجرد استخدام سلبي بل وإبداعي أيضا. وآخران هما كاتب الأطفال يعقوب الشاروني والناقد التشكيلي الدكتور صبحي الشاروني. ومن الألغاز التي لا أستطيع أن أفسرها أنني أعتبر النقد «غرما» لاغُنْم فيه، وأن نقد الناقد عمر مضاف إلى عمر المبدع مخصوم من عمره هو، ومع ذلك قد كتبت من النقد أضعاف ما كتبت من إبداع قصصي.

ومن خلال تجربتي اكتشفت أن الإبداع والنقد عمليتان متجاورتان، وأن المبدع هو الناقد الأول لعمله الفني. في أثناء الإبداع تتداخل العمليتان، عندما



في احتفالية العيد الماسي بميلاد الشاروني بين جابر عصفور وفاروق خورشيد

أنتهى من كتابة قصة أعيد قراءتها لأقدم كلمة أو أؤخر أخرى، وربما أحذف أو أضيف جملة، وقد أغير مكان الفقرات، تماما كما يحدث فى عملية المونتاج السينمائى. ويجب أن تكون خلطة الإبداع ونقد الإبداع بنسبة دقيقة معينة حتى تستساغ، فغياب الوعى النقدى كثيرا ما يؤدى إلى بدائية العمل الإبداعى وسذاجته، وكثرته تؤدى إلى تغلب جرعة الفكر عليه بحيث يبتعد عن تلقائية العمل الإبداعى، كالطفل الذى يبكى ثم يرى نفسه فى المرآة فيتوقف. لهذا أستطيع أن أقول إننى كمبدع ربما أفدت منى كناقد فى جانب الكيف، وخسرت فى الوقت نفسه فى جانب الكم، وربما كسبت فى العمق ما قد أكون خسرته فى التلقائية.

ولقد حاولت طوال مسيرتى الأدبية أن أقترب بالنقد من العملية الإبداعية، فكثير من دراساتى النقدية عبارة عن إعادة صياغة للعمل الأدبى الذى أتعرض له تتخلله رؤيتى، لأننى أراعى فى كتاباتى النقدية أن من لم يقرأ العمل الأدبى المتناول يستطيع أن يتتبع ماكتبت، والذى قرأه يجد شيئا جديدا فيما أكتبه، وأعتقد أن ذروة التقاء الإبداع بالنقد كانت قصتى «زيطة صانع العاهات» و«مصرع عباس الحلو» المستلهمتين من رواية «زقاق المدق» لنجيب محفوظ، حيث أوضحت القصتان كيف يكون تناول هاتين الشخصيتين فى قصة قصيرة بعد أن تم إبداعهما فى رواية طويلة، وكيف اختلفت الرؤية نتيجة اختلاف كل من الكاتب والقالب الأدبى معا.

ولا تختلف العملية النقدية عندى

كثيرا عن العملية الإبداعية، فأنا أبدأ أولا بمجهود إرادى أثناء قراءة العمل الأدبى، وإذا كان البعض يلجأ إلى وسائل مزاجية للاندماج فيما يقرأ - ابتداء من احتساء القهوة وتدخين السجائر على سبيل المثال إلى ماهو أكثر تغييبا للوعى - فإنى ألجأ إلى وسائل أدبية وذلك بمعاودة قراءة العمل وقراءة الأعمال السابقة للمؤلف نفسه إن وجدت، وربما فى الأدب الأجنبى، كل هذا لا يلبث أن ينقلني من حالة المجهود الإرادى إلى حالة الاندماج الوجدانى، تماما كالإنسان الذى تقابله لأول مرة فى حياتك فلا تعرف عنه إلا شكله الخارجى بحيث لاتستطيع معرفته إذا استدعيت إلى شهادة ما. فإذا داومت على الاتصال به وتوثقت علاقتكما فإنه لا يلبث أن يكشف لك عن أسرار لا يبوح بها إلا لمستحقها. وهكذا تخلق صداقتى للعمل الأدبى - ولشخصياتي القصصية أيضا - ما يمكن تسميته بالرؤية الإبداعية، وهى رؤية لا يمكن أن تتحقق إلا عن طريق هذا الاندماج الوجدانى - تدعمه دربة سابقة - والذى يكشف عما لا يمكن كشفه بأية وسيلة أخرى.

ولقد كان مدخلى إلى التراث، بعد قراءاتى السابقة فيه - هو القيام بسياحة بين الكتب التى درست ظاهرة الحب مثل «طوق الحمامة لابن حزم، وذم الهوى لابن الجوزى، وروضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية، وذلك حتى أكشف لنفسي ولغيرى أن لغتنا العربية تستطيع أن تعبر عن أدق العواطف بأرق الألفاظ. فقدمت للقارىء العربى المعاصر مثل هذه المؤلفات بحيث يتعرف بسهولة على كنوز تراثه. كما درسوا الصداقة واعتبروها أفضل من الحب.

مزاعم المستشرقين

وعندما دعيت إلى هولندا عام ١٩٨١/١٩٨٢ من إحدى المؤسسات العلمية قمت بإلقاء محاضرات على طلبة قسم اللغة العربية بجامعة لايدن حول موضوع «الحكاية فى التراث العربى»، وذلك تبديدا لما يقوله بعض المستشرقين - وسايرهم فى ذلك بعض أبنائنا العرب - إن العقلية العربية لم تعرف القصة لأن صحراءهم منبسطة. وكان أساس دراستي تنظيرا نقديا يقوم على تقسيم الأدب إلى مراحل طبقا لطريقة توصيله: مرحلة الأدب الشفاهى، فمرحلة المطبعة، فمرحلة وسائل الاتصال الجماهيرى كالإذاعة والتليفزيون، فمرحلة الشريط السمعي والبصرى، فمرحلة الإنترنت، ولكل مرحلة من هذه المراحل سماتها التي تنعكس على الشكل الأدبى بسبب طريقة التوصيل المستخدمة، مما شرحته بتفصيل فى كتابى «مع الدراما». وعلى هذا الأساس فإن العرب - شأنهم شأن الغرب - قد عرفوا القصة الشفاهية فى

نفس الوقت تقريبا، أما القصة بمعناها الحديث فلم يعرفها الغرب إلا بعد اكتشاف المطبعة، وعرفناها نحن فى شرقنا العربى بعد انتقال المطبعة إلينا - فالقصة الحديثة ابنة المطبعة أدق من القول إنها ابنة الغرب.

ومما أفدته من مكتبة جامعة لايدن حصولى على بعض كتب التراث غير المنتشرة لدينا مثل كتابى «عجائب الهند» و«أخبار الصين والهند»، وهما كتابان تراثيان يتناولان رحلات العرب ملاحين وتجاراً ومهاجرين فى المحيط الهندى. وإذا كان كتاب «أخبار الصين والهند» قد كُتب فى القرن الثالث الهجرى، فإن كتاب «عجائب الهند» قد نُشر فى القرن الرابع الهجرى وهو نفس القرن الذى وردت فيه أول إشارة إلى ألف ليلة وليلة فى كتاب «مروج الذهب» للمسعودى، مما يرجح أنهما من مصدر واحد. وقد اهتم الهولنديون والفرنسيون بالتعاون بترجمة هذين الكتابين إلى اللغة الفرنسية وعمل حواش لهما وتعليقات وكشافات. وقد استفدت من هذه الجهود وأضفت ما استطعت الحصول عليه من معلومات جديدة، وقمت بكتابة مقدمة للكتابين، وإعداد مجموعة من الكشافات، بحيث أصبح الكتابان فى متناول القارىء العربى بطريقة علمية سهلة الاستيعاب، وقد نشرت «عجائب الهند» عام ١٩٩٠، بينما نشرت «أخبار الصين والهند» عام ١٩٩٩.

وفى بداية الثمانينات وصلت إلى سلطنة عمان لأول مرة، ولم أكن أعرف عنها إلا القليل، لكننى ما لبثت أن وجدتنى أمام منجم بكر مليء بالكنوز أغترف منه على المستويين : مستوى الرواية الشفاهية، ومستوى المطبعة، ويتمثل ذلك فى الكتاب بصفة رئيسية بحيث أحسست بأننى قد استرجعت شبابى، فقد كنت وصلت إلى مرحلة تشبع بالقراءة جعلتنى لا أجد إلا القليل من الجديد فيها، لكننى ما أن استمعت إلى بعض القصص الشعبى العمانى أثناء جولاتى المحدودة فى الريف العمانى، وما أن بدأت بالاطلاع على المكتبة العمانية التى كونتها فى سنوات النهضة - ومعظمها كتب تراثية فقهية وشعرية وتاريخية - وزارتا الإعلام، والتراث القومى، والثقافة، حتى عادت إلىّ فرحة الاكتشاف والحصول على الجديد، وهى فرحة لا يعرفها إلا الشباب، وتقل تدريجيا كلما تقدم العمر بالإنسان عندما تزداد خبرته فتقل دهشته. وهكذا أخصبت ذهنى تجربتى فى عُمان فأوحت إلىّ بفكرة أكثر من كتاب يتضمن ما اكتشفته لنفسى وأحرص أن يعرفه الآخرون.

وحين غادرت سلطنة عمان فى نهاية ١٩٩٢ - بعد تسع سنوات من الإقامة شبه الدائمة - كانت حصيلة ما نشرته عنها ستة كتب، غير البرامج الإذاعية والتليفزيونية التى تدور حول التراث العمانى.

وقد لاحظت تميز العالم الروائي للأديب العُماني سعود بن سعد المظفر بسمات فرضها الموقع الجغرافي لسلطنة عمان - وربما لدول الخليج بوجه عام التي تقع في غرب آسيا - فقضية الصراع بين الشرق والغرب التي تناولها الكثير من أدبائنا منذ رحلة علي مبارك، مرورا بـ «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم، و«قنديل أم هاشم» ليحيى حقي و«موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب الصالح، و«الحي اللاتيني» لسهيل إدريس، و«أصوات» لسليمان فياض.... إلى آخر تلك الأعمال، نجد أن سعود المظفر عند تناوله هذا الموضوع في أكثر من رواية من رواياته أضاف عنصراً ثالثا في هذا الصراع، هو العنصر الآسيوي الوافد، والذي يعتبر في هذه الدول أخطر من الوافد أو الغازي الأوروبي الذي قد يأتي ويذهب بعد فترة كأنه القشرة، كما حدث مع البرتغاليين الذين احتلوا فترة موانيء عمان ثم جلوا عنها دون اختلاط بالشعب. أما الوافد الآسيوي فيتغلغل في البنية التحتية لأنهم يعملون سائقين ومربيات وسكرتيرات وخدما بل كثيرا ما تحدث علاقات زواج ومصاهرة.

من قيم الثورة إلى قيم الثروة

لقد وُلد جيلنا في العشرينيات من هذا القرن وبرز أدبيا في الخمسينيات بقوة الدفع الذاتي سنوات المحنة العربية. وهو يسبح ضد التيار، تنوشه سلطات من فوق وسلطات من تحت، وتنافسه وسائل لا قبل له بمقاومتها، كالإذاعة والتليفزيون، إما أن يلبي إغراءاتها أو تزيحه جانبا ليصبح صوتا صارخا في البرية. كنا نكتب بحماس معتقدين أننا بأقلامنا سنغير العالم، سنطوره إلى الأفضل، سنضع أطراف أقلامنا على نقاط الضعف في مجتمعنا، سيجد المطحونون أنفسهم في سطورنا، وأن القصة وسيلة جماهيرية، والابنة الشرعية لعصر المطبعة. لهذا كنا حريصين على أن نكتب فناً وليس خطبــاً ولا وعظاً، بعضنا كان فنه تلقائياً، وبعضنا كان فنه محسوبا، لكن معظمنا اتفق - ودون اتفاق - على ألا يتصارع فنه ورسالته، بل يتلاحمان بحيث يختفي كل منهما في الآخر.

وهكذا بدأنا نكتب لكي نغير العالم، فانتهينا لأن نجد العالم هو الذي يغيرنا. لهذا أعلنت أكثر من مرة أن جيلنا فشل في التغيير وإن نجح بعضنا في التعبير.

في بدايتنا الأدبية كنا كأبطال السير الشعبية لنا هدف واضح محدد نحلم بتحقيقه، وانتهينا كأبطال المآسي الإغريقية، كل منا نفسه منقسمة على نفسه، وقد اختلط الخير بالشر والليل بالنهار. هجرنا قيم الثورة إلى قيم الثروة.



مع الباحثة الانجليزية كيت دانيلز الحاصلة على الدكتوراه في موضوع (الأنا الآخر) في قصص يوسف الشاروني من كلية الدراسات الأوربية والشرقية بجامعة لندن

من مدن طرقها هدوء وطمأنينة إلى غابات أسمنتية أكلت ماحولها من لون أخضر، وازدحمت طرقها بالقلق والخطر، الأمانة غباوة، والفهلوة شطارة، ونحن نتساءل: هل كل ما كتبناه باطل وقبض الريح؟ ونحن نلقى اللغز الذى يؤرقنا على كل من نلتمس عنده جواباً: من الذى أزاح دور الأدب جانباً حتى أصبح هامشيا إلى هذا الحد، وحتى لكأننا نحن فى مجتمع انفصل فيه الرأس عن الجسد: لاعجب أن كتبت قصتى قبل الأخيرة «الوقائع الغريبة لانفصال رأس ميم».

الغربة الأخرى التى عاناها جيلنا غربة وسيلة اتصالنا، المطبعة كانت لاتزال ملكة وسائل الاتصال فى الأربعينيات وبداية الخمسينيات، وإن كانت الإذاعة قد بدأت تزحزحها عن عرشها، وشيئا فشيئا ما لبثت الكلمة المسموعة فالكلمة المرئية أن أرغمت الكلمة المطبوعة على القيام بدور ثانوى متواضع لاسيما الأدبية منها. تضاءلت دائرتها حتى كادت تنتهى إلى أن يقرأ الأدباء بعضهم البعض، ولا تصل كلمتنا إلى الأجيال التالية إلا لمن كان منهم يريد أن يتعلم الكتابة ليقفز إلى وسائل الإعلام الجماهيرية حيث الأضواء أشد إبهارا والعائد الأدبى والمادى أكثر إغراء . فلم يعد سبيل الأديب إلى الجمهور العريض إلا عبر هذا الوسيط.

وكنا نرقب هذا التحول بعضنا يتجاهله، وبعضنا يرفضه، وبعضنا يتفهمه، فهذه طبيعة العصر، فجماهير المتلقين الواسعة، جماهير الاستماع إلى

شاعر الربابة على المقهى فى العصر الشفاهى، ثم جماهير الكلمة المقروءة فى عصر المطبعة، قد آن لها أن تتحول الآن إلى جماهير صندوق العجائب السحرى، تستسلم له فى استرخاء، تفتحه حين تشاء، تغلقه حين تشاء، وتختزنه فى أشرطتها مؤجلة الفرجة عليها إلى أن تتأهب لذلك فى وقت قد يأتى وقد لا يأتى، يملأون بها أرفف مكتباتهم كما كان آباؤهم - وربما أجدادهم - يملأون رفوف مكتباتهم كتباً ومخطوطات . فلم يعد من سبيل إلى الجمهور العريض إلا عبر هذا الوسيط.

إننى أؤمن بارتباط الفن بالنبوءة وأن الفنان الحقيقى لديه قرون استشعار، أشبه بزرقاء اليمامة التى أبصرت أعداءها وهم مقبلون على بعد ثلاثة أيام من مدينتها، فلم يصدقها أهلها، فلما اقتحم الأعداء المدينة كان أول ما فعلوه أن فقأوا عينيها اللتين بهما أبصرتهم وأنذرت عبثا قومها. فى قصتى «الحذاء» المنشورة عام ١٩٥١ تنبؤ بما وقع فى مصر من ثورة ١٩٥٢، فالبطل ساع يرتق حذاءه من حين لآخر، حتى جاء يوم أضرب فيه عمال المواصلات واضطر أن يعود إلى بيته سائرا لتواجه قدماه معركتهما مع حذائه بعد أن رتقه الإسكافى يحذره بأنها المرة الأخيرة، فكل رتق طلائع لفتق أخطر ولابد من حذاء جديد، وفى «نظرية الجلدة الفاسدة» التى كتبتها قبل عام ١٩٦٧ تنبؤ بما وقع من نكسة، فلكى نصنع صاروخا يصل إلى القمر يجب ألا يُفقد سطل أو مكنسة من مخزن إحدى المصالح أو الشركات سرقة أو إهمالا، فالذى يساهم فى إطلاق صاروخ بهذه الدقة هو والد أو ابن شقيق حارس هذا

يوسف الشارونى

- ولد فى ١٤ اكتوبر ١٩٢٤
- حصل على ليسانس الآداب - قسم الفلسفة، جامعة القاهرة ١٩٤٥
- تدرج بالعمل فى المجلس الأعلى للثقافة حتى أصبح وكيلا للوزارة به
-نشر حوالى أربعين كتابا ما بين قصة ودراسة أدبية ، وتعريفا وتقديما للتراث، وكتابا فى النثر الغنائى.
-رئيس نادي القصة - القاهرة
-حصل على جائزة الدولة التشجيعية فى القصة القصيرة ، وجائزة الدولة التشجيعية في الدراسة الادبية، وجائزة الدولة التقديرية فى الأدب.

المخزن، وفي قصة «الأم والوحش» تنبؤ بإنتصارنا الجزئي عام ١٩٧٣، فالأم دافعت عن طفلها ضد الوحش الذي حاول افتراسه بأن فقأت عينه بسلاحها البدائي - غصن شجرة. وإن لم تقتله، بينما بُترت ثلاثة أصابع من يدها. أما الآن فإن قصصي الأخيرة عناوينها «من تاريخ حياة مؤخرة»، «الوقائع الغريبة لانفصال رأس ميم» وأخيرا «الضحك حتى البكاء» أليست قمة المفارقة الساخرة أن المثقف العربي أصبح محاصرا بين طرفي كماشة يداعبان عنقه: إرهاب فساد، وإرهاب جهل ، ولا مكسب للعالم العربي إلا تراجعه من خريطة العالم لحساب آخرين يتربصون به.

وقد حصلت أثناء حياتي الوظيفية على منحة تفرغ وبدخل أعلى، لكنني لم أجرؤ أن أنفذ ماسعيت للحصول عليه ونجحت فيه. كان مكتبي بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالزمالك (المجلس الأعلى للثقافة الآن بمبنى الأوبرا) خلية نحل بالنسبة للأدباء والفنانين: كبارهم ممن يتمتعون بعضوية لجان المجلس ويأتون لقضاء مصالحهم، وشبابهم ممن يسعون لنشر إنتاجهم أو التقدم لما تعلن عنه لجان المجلس من مسابقات. وكان احتكاكي بالحياة العملية، والإنسان العادي يهبني منابع لاتنفد للإبداع، لهذا أجلت إحالتي إلى التقاعد سنوات بالعمل في وزارة الإعلام بسلطنة عمان، وعندما تركت دنيا الوظائف كنت أظن منطقيا أنني سأجد وقتا أكثر من الفراغ للقراءة والكتابة، لكن واقعيا كان الأمر عكس ذلك تماما. كانت الوظيفة تنظم لي وقتي، وربما يرجع ذلك إلى أنها أصبحت عادة لي على مدى سبعة وأربعين عاما، لم أكن خلالها موظفا فقط بل ورب أسرة تشغلني شئون تعليم أولادي وعلاجهم وتربيتهم، وقد أحالوني هم الآن أيضا بزواجهم إلى التقاعد، وإن كانت السعادة بالأحفاد تفوق السعادة بالأبناء، ربما لأن كل نصيب الأجداد من الأحفاد هو الاستمتاع بلحظات مرحهم ومتابعة نموهم العقلي بينما الآباء - بالإضافة إلى تلك المتع - يتحملون هموم تربيتهم . لهذا فإنني لا أبالغ إذا قلت إن وقتي بعد ترك الوظيفة أصبح أضيق مما كان قبلها.

ولقد عاونتني شريكة حياتي وناقدتي الأولى على مدى نصف قرن - هي عمر زواجنا - على كتابة كل كلمة نشرتها وقد قاربت الخمسين كتابا.

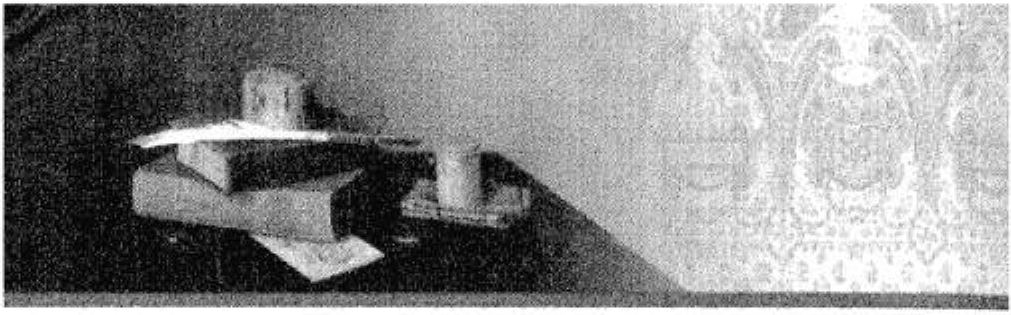
إن تكوين الإنسان مستمر من لحظة ميلاده حتى لحظة رحيله، لهذا فإنني حين قدمت سيرتي الذاتية التي دفعتها للنشر مؤخرا تحت عنوان «ومضات الذاكرة» ذكرت أنها نص مفتوح قابل للإضافة لا ينتهي إلا برحيل صاحبه. ■

الهلال مرآة الفكر العربي

عندما يقرأ المرء الأعداد الاخيرة من الهلال يتيقن ان هذا الصرح الثقافى الشامخ على الأرض المصرية سوف يكتب له الصمود والبقاء فى مواجهة عاديات الزمان، وتعود الذكرى بكاتب هذه السطور إلى أكثر من خمس وثلاثين سنة مضت، عندما كان طالبا بكلية الحقوق، جامعة القاهرة، فى النصف الثانى من الستينات، وقد نشأت علاقة حب وانتماء.. علاقة حميمية بينه وبين «الهلال»، ومنذ ذلك الحين وهو يواظب ويثابر على متابعة وقراءة الهلال شهريا قارئا يقظا واعيا مهتما برسالة مجلته الأثيرة لديه، القريبة الى عقله ووجدانه، لأنه قد استقر فى ضميره منذ ذلك الحين ان الهلال هى مرآة الفكر العربى فى اصالته ومعاصرته. وترسخ فى وعيه بحق ان من لا يقرأ الهلال لا يحسب فى زمرة المثقفين. وكيف لا وهو الذى عرف من خلال صفحات الهلال ابداعات اعلام الفكر وقادة الرأى فى مصر والعالم العربى: طه حسين، عباس محمود العقاد، توفيق الحكيم، نجيب محفوظ، ابراهيم عبدالقادر المازنى، عبدالعزيز البشرى، وشوقى وحافظ. ومن العلماء على مصطفى مشرفه، واحمد زكى ، وعبدالحليم منتصر، وغيرهم فى مجالات الآداب والفنون والعلوم، وحب كاتب هذه السطور ان مكتبته الخاصة تضم مجلدات نادرة من مجلة الهلال، واعدادا تاريخية اصدرتها دار الهلال فى مناسبات عديدة، فضلا عن مجلدات الهلال من سنة ١٩٤٧ الى سنة ٢٠٠١، وقد بادلته مجلة الهلال حبا بحب وفتحت صفحاتها منذ الثمانينات لإسهاماته ، وعندما يقرأ الشيخ ابن الثالثة والخمسين اعداد مجلة الهلال الاخيرة، يستشعر بأنه قد عاد الى شباب العشرين قويا فتيا قادرا على استشراف آفاق الغد. ويتساءل الشيخ فى خلوته مع كتبه وأعداد مجلته الأثيرة لماذا لا يصدر الهلال سلسلة جديدة من اصداراته بعنوان «تراث الهلال» يعرض من خلاله كنوزه الفكرية والثقافية فى مائة عام واكثر. ويتساءل الشيخ ايضا لماذا لا يكتب من عاش مع الهلال وعاصره تجربته الذاتية ، واجيال بعد اجيال نهلت من نبعه وارتوت بفضله فحققت انجازات بلا حدود فى عالم المعرفة والثقافة.

ان الوفاء والتقدير والاجلال لكل من ساهم فى تحرير الهلال فى مسيرته الظافرة على مدى مائة عام أو أكثر يقتضينا ان نذكرهم بالذكر الطيب والثناء الجميل لما اسدوه لثقافتنا العربية المعاصرة ، وبنفس القدر نذكر أسرة الهلال المعاصر وقد اخذت على عاتقها رسالة التجديد والانطلاق الى افاق غير محدودة حملا للامانة واستكمالا لرسالة الهلال المتجددة دائما.

عمرو عبدالمنعم حمودة



سنعبر الموت أبطالا

أحجار غزة جمر والهوا شرر ... فتيان غزة صخر سار ينهمر
ياغيم غزة أرعد برق زوبعة ... موت مداها إذ الأحجار تنتشر
أطفال يعرب هبوا من أسرتهم ... جيش الصغار مع الأشجار ينتصر
في كل يوم شهيد فوق راجية ... لكنه إلق الفردوس والسحر
أمي دعيني.. أنا للرمس نرجسة ... لا تحزني إن دعاني الرمس والمطر
لا تلطمي إن رأيت السيف في كبدى ... قد يصبح السيف أعلاما بها صور
رضعت نارا فكيف النار تصرعني ... وكيف أبكي وفي اعماقي الظفر؟
قريش قربي يحييني ويكلؤني ... وتغلب عني بميني، خلفه مضر
والقدس قالت تقدم صوب مئذنة ... تجرى دماها.. تقدم إنك الصعر«١»
حجارة الحق موسيقا مدوية ... في الشرق مطرية، في الغرب تنتشر
أستنهض الهمم العذراء دامية ... ناديت صحبي أيا قيس أيا عمر
في كل درب لنا فخر ومأثرة ... في كل شعب لنا وكر سيزدهر
أزقتي كثر والرعد في عضدي ... والترب والعرب والزيتون والعير
سنعبر الموت فتيانا فيا وطني ... يا موطن الورد قد حياك من عبروا

«١» الكبرياء.

د. هيثم الحويج العمر - دمشق

الدكتوراه .. والوجاهة!

• أحيي «الدكتور» جلال أمين على مقاله المنشور بعدد يوليو ٢٠٠١ تحت عنوان «ماذا حدث للمصريين؟» الذى تحدث فيه عن الجوانب السلبية لظاهرة استخدام لقب دكتور لكل من هب ودب، وقد أوحى لى المقال بالملاحظات التالية:

• لم تكن هذه الظاهرة سائدة فى مصر قبل نكسة ٦٧، فقد رأت السلطة فى ذلك الحين بعد موجة من النقد الذاتي - أنه لابد من الاستعانة برجال العلم من أساتذة الجامعات لتولى المناصب المهمة فى الدولة بعد أن كان معظم الوزراء هم من ضباط الجيش، ثم رسخت هذه القاعدة واتسعت الدائرة لتصبح ظاهرة اجتماعية كما نراها الآن.

• البعض يحصل على شهادة الدكتوراه من قبيل الوجاهة فأنا أعرف صديقا يبدأ اسمه بثلاثة ألقاب مختلفة هي اللواء الدكتور المستشار فلان، وآخر شاعر يصر على أن يبدأ اسمه بلقب دكتور مع أن لفظ الشاعر أفضل.

● احيانا تمنح هذه الشهادة على سبيل التكريم، مثلما حدث مع رياض السنباطى وعبدالوهاب، بل إن الأخير قد ارتدى ايضا الحلة العسكرية حين منح رتبه لواء، بعد ان قام بتوزيع النشيد الوطنى لمصر بلادى بلادى، رغم أن أفضل الألقاب التى يمكن ان تمنح لهذين العبقريين فى رأيى هو لقب الموسيقار «فقط».

● وبشىء من التحليل يمكن ان نفسر هذه الظاهرة ، فالشعب المصرى عامة هو من الشعوب المحبة للمظاهر، وهذا راجع إلى طبيعة تكوينه التى تدخل فيها أخلاط مختلفة منها الاجريجي والشامي والتركى.. الخ. وقد عمق ذلك فيه الاحساس بالتميز، ونلاحظ ذلك حتى فى الوقوف فى «طابور العيش» حيث تجد دائما من يحاول تخطيك.

فالأمر لا يعود فقط إلى الرغبة فى استخدام الألقاب الرنانة لتحقيق مصلحة مباشرة بل هو تعبير عن الرغبة فى التميز.

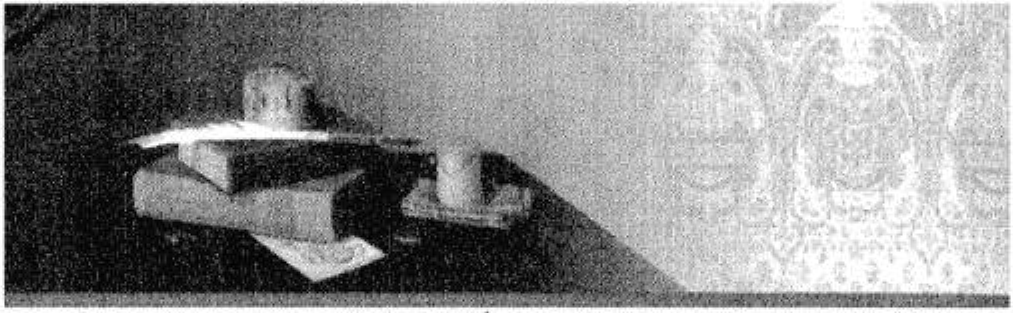
عادل شافعى الخطيب

سلوا السيوف

سلوا السيوف على العدا
إنا وقود ها هنا
سلوا على أعدائنا
آمالنا أحلامنا
كم حاصروا أرواحنا
كم أرهقوا كم أزهقوا
لا ترفقوا ابدا بهم
هيا إلى الخيل اركبوا
هيا ولا تتباطأوا
لا تركنوا أبدا لهم
خانوا جميع الأنبيا
هم أهل غدر فى الورى
كم يفعلون بنا هنا
ردوا عليهم كيدهم
لابد من نصر لنا

ما للردى إلا الردى
كم ذا نعانى موقدا
كل الذى قد اغمدا
كل المنى تمضى سدى
كم كسروا منا يدا
بالنار عمرا والمدى
شدوا على من شددا
نادى الصهيل ونددا
ان التباطؤ للردى
كونوا عليهم جلمدا
فيهم وخانوا أحمدا
فيهم أرى كل العدا
من غير ما أدنى صدى
بتوحد كونوا يدا
وعد.. فكونوا موعدا

حسن أبو الغيط



رحيل أديب

فقدت مصر الأديب الموسوعي كمال الدين رضوان في ٢٠٠١/٤/٣٠ عن عمر يناهز ٧٣ عاما وهو كاتب قصاص وأديب متميز له لغة خاصة بعالمه الإنساني الرحب الذي يتخذه فيه إثراء قصصه.

ولد في حي منيل الروضة بالقاهرة عام ١٩٢٨ لابوين من دمياط كان الوالد ناظراً لمدرسة ثانوية وتلقى تعليمه الأولى في مدرسة فؤاد الأول بالعباسية وتخرج في كلية التجارة بجامعة القاهرة ١٩٥٢ حيث درس الاقتصاد واجرى دراساته العليا في هولندا وايطاليا وانجلترا، وزار كل دول العالم يجيد اللغة الانجليزية والروسية والفرنسية تبدو ملامح المصرية في كتاباته ويغوص في اعماق الانسان المصرى وللاديب الكبير اربعة اصدارات «عش من اجلى» ١٩٥٢ «شارع التياترو» ١٩٦٠، «الربيع والخريف»، «قصص قصيرة» ١٩٧٠ ، «عالم الاخرين» قصص قصيرة ١٩٧٧ تتكون من خمس قصص قصيرة في ٢٨٥ صفحة.

ففي قصة المكان يتحدث عن القهوة العالية والصبي والمعلم الذي يدير المقهى وطوائف البشر المتمردين على هذا المكان ونجد لغة القاص عالية من حيث التصريفات اللغوية والبلاغية والحبكة الفنية والرمز والسخرية اللاذعة وتحت الطبع له رواية اهل الزمان الواحد حشد لها كل الملكات الفنية والذهنية.

رجب عبدالحكيم بيومي الخولي
القاهرة - المعصرة

تصويب

أرسل إلينا الدكتور صلاح قنصوه بأنه قد وقع خطأ في موضوعه «حديث في علوم الدين وعلوم الحياة» حيث ورد أن « ... وهل أدرك عمر بن عبد العزيز الذى طلب لأول مرة تدوين الأحاديث في نهاية القرن الثالث ...» وصحتها نهاية القرن الأول.
كما ورد «ولا تنهض هذه العلوم الدينية» وصحتها العلوم الانسانية لذا لزم التنويه.

أنت والهلال

(١) روائح حزن

تضحك
يساقط من ضحكتها
عشاق قتلي
ومواسم ورد مهزوم
ودماء بنفسج
وبهيج
مبتهج أبهج
والعسل الممتزج حديثا
برضاب فلوذج
وبنات يغضين بكاء
ويسرن يرتلن الأمواج،
علي لحن مياه العوسج
وأنا في آخر أركاني
أتشمم عطر مباهجها
مختلطا .. بروائح حزن!

عزت الطيرى

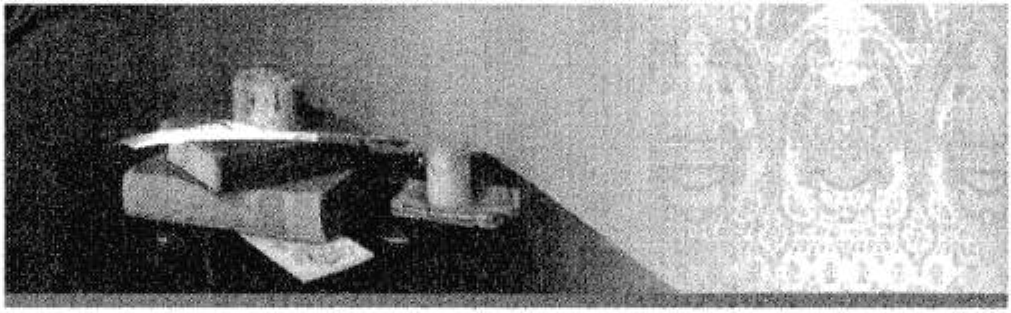
حكمة العرب

● قال الشاعر

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته
تطلب الربح مما فيه خسـران
اقبل على النفس واستكمل فضائلها
فأنت بالنفس لا بالجسم انسان

● غضب السلطان على الطغرائى الشاعر فأمر بشده الى شجرة ورميه بالسهام وقبل أن يبدأ رميه بالسهام انشد:

ولقد اقول لمن يسدد سهمه
نحـوى وأطراف المنايـا شرع
والموت فى لحظات احور طرفه



دونى وقلبى دونه يتقطع

بالله فتش عن فؤادى هل يرى

فيه لغيرى هوى الاحبه موضع

اهوى به لو لم يكن فى طيه

عهد الحبيب وسره المستودع

وعندما سمع السلطان ما قاله الطغرائي رق له وعفى عنه.

•ذكر الكثير من دارسي الادب ان أبا نواس يأتي في مقدمة شعراء الحكمة وان كان هو القائل:

أسقني حتى تراني

أرى الديك احسبه حمارا

وهو نفسه الشاعر الحكيم الذي قال عنه الرشيد : لو قيل للدنيا صفي نفسك لذكرت قول ابى نواس فيها:

أرى كل حى هالك وابن هالك

وذو نسب فى الهالكين عريق

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت

له عن عدو فى ثياب صديق

•قال معاوية لعرابة بن أوس: بم سدت قومك قال: لست بسيدهم لكنى رجل منهم

قال له معاوية. بل انت السيد فيهم فقال: اعطيت فى نائبتهم وحلمت عن سفيههم وشددت على يد حليمهم فمن فعل منهم مثل فعلي فهو مثلي ومن قصر عنه فأنا افضل منه ومن تجاوزه فهو افضل مني.. ومن المواقف التى أعلت منزلة عرابة فى قومه انه قدم يوما من سفر فلقى رجل غريبا عن المدينة فسأله: لم تركت بلدك وجئت الى هنا؟ قال الرجل: سنة مهلكة اكلت اللحم وأذابت الشحم فجئت التمس شيئا لي ولأهل بيتى فأعطاه عرابة كل ما ملكت يداه فقال الرجال:

رأيت عرابة الأوسى يسمو

الى الخيرات منقطع القرين

اذا ما شيء رفع لمجد

تلقاه عـرابـة باليمـين

محمد أمين عيسوي
الاسماعيلية

أنت والهلال

عودة إلى النقد ومدارسه الفنية

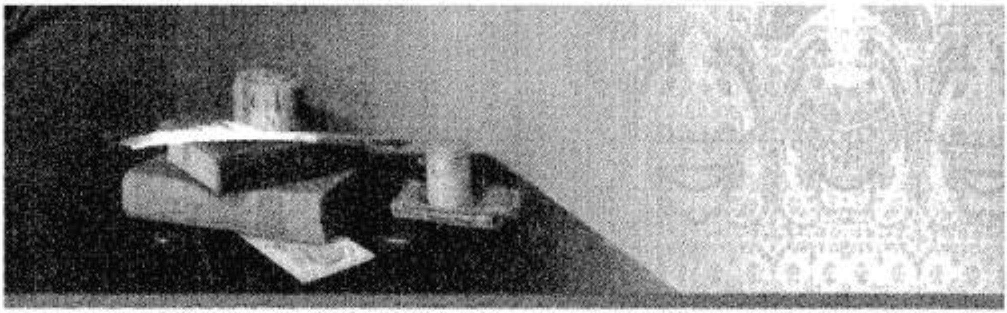
بعد هذا الملف الجميل الذى قرأناه فى الهلال فى عدد يونيه عادت الآمال الينا من جديد، وأصبح لدينا احساس بأن عودة النقد إلى الساحة الأدبية ممكنه، بعد أن غاب النقد عنا طويلا، ولم نعد نرى تلك المعارك النقدية المؤثرة والمهمة في أدبنا العربى بين مشاهير النقاد، ونتذكر على سبيل المثال الناقد انور المعداوى والدكتور محمد مندور، والدكتور غنيمى هلال واسماء كثيرة أضاءت سماء أدبنا العربى.

إننى أتمنى أن تواصل مجلتكم دورها الريادى فى إلقاء الضوء مرة أخرى على فن جميل أزعم انه اندثر أو لم يعد له دور. سوى ما نراه من حين لآخر فى الملاحق الأدبية اليسيرة التى تصدرها الصحف وللاسف هو ليس بنقد بقدر ما هو مدح صديق لصديق عن كتاب اصدره ، او رواية، وبالتالى انتفت هنا الفائدة التى كنا نجنيها من وراء النقد الهادف والذى يتعلم منه الأبناء الشبان ياليت الصحوة تعود الى أبناء الأمة، ليعود للنقد الأدبى دوره، ولتعود الثقافة العربية الى مجدها بين الثقافات الأوربية، كما يحدث فى منتصف القرن العشرين وتحديدا حتى ٥ يونيو ١٩٦٧.

سيف الدين فيصل كمال -الجيزة

للوجد فضاءات .. شتى

ريفية
وترصع الهندام بالأشواق دوما
قرطها الفضى فى عنق الدجى
ينداح فى حضن النسائم
وقوامها الممشوق
مياسا
أتى كالبرق
هز جنادل الأطياف
أوكار الحمائم
ولعطرها بين الروابى
موسم
تخشاه كل خمائلى
مازال يفرش بالذرا
يغشى البراعم



أطيارها المتاعة الأصداء
في روض الرؤى
تحتلني
وتهدهد الوجدان
تستل الطلاسم
يا أيها القلب المزركش بالجوى
ها أنت تنقش بالحنين
صبابتي

عبدالناصر الجوهري - دكرنس - دقهلية

إلي الأصدقاء

وصلتنا هذه المساهمة من الصديق عارف غنام - طلخا دقهلية وهي عبارة عن أوبريت عنوانه «ولادي» وهي نوع من الزجل، واعتدنا أن ننشر الشعر الفصيح والحر، ولكونه يحمل فكرة ننشر منه هذا المقطع:

يا ولاد النيل الأسمر	بيكو الحلم ح يكبر
بكفاحكوا راح يتفسر	والعمر يصبح أخضر
عدّي يا نيل	عدّي وفوت
شق الرملة	هات لي القوت

كما وصلتنا رسائل عديدة من الأصدقاء تحمل قصائد شعرية وقصصا قصيرة وتعقيبات على ما نشر في الهلال في الأعداد الماضية، وسوف ننشر تباعا المناسب منها:

- «القديسة» قصة حسام عبدالعزيز.
- و«العصر» قصة سليم عبدالرحمن سيد.
- بكائية الى عصفور ليبيا ترجمة د. طاهر تونسي.

كما وصلت رسائل عديدة من القراء نذكر منهم: محمود عزمي - ابراهيم الفلال - عصام السعيد الطنطاوي - عاطف عبدالرحمن - فايزة احمد - خالد يحيى نويش - احمد عبدالقادر - ابراهيم علي محمد - محمد الملي «باحث تونسي».. وغيرهم.

من هو المثقف؟



بقلم : د. صلاح قنصوه

تشيع بيننا دلالة متساهلة لما نسميه «بالمثقف» لأنها اشتقاق من الثقافة التي تقابل Culture بمفهومها الضيق الذي يشير إلى سعة الاطلاع، والالمام بالشئون العامة، والقدرة على تذوق الفنون مما ينتمي بأسره إلى أنشطة وزارة الاعلام والثقافة. بينما هو في الأصل الأجنبي intellectual، وهو مصطلح لم يظهر في أوربا إلا حديثا. ومن ثم كان له دلالته الخاصة التي تميزه عن متحضر أو متمدين civilized، أو جيد التعليم well- learned، أو واسع الاطلاع well- read، أو صاحب ثقافة Cul- tured، وإلا أنت أية لفظة سابقة معنى «المثقف» لديهم في الغرب. فهو إذن مصطلح جديد لم يكن قائما قبل أن تزدهر الرأسمالية، ويبرز المجتمع المدني في ظل غلبة المشروع الحر في الاقتصاد والتعددية السياسية، والتمثيل النيابي، وتداول السلطة بين الاحزاب.

ومن هنا نشأ اصطلاح «المثقفين» أو «الانتلجنسيا» ليعبر عن القادة الفكريين أو العقليين للمجتمع المدني الذين يتبادلون المواقع مع رجال الدولة وأعضاء السلطة إذا ما عادوا إلى المجتمع المدني مرة أخرى.

ومعنى هذا أن «المثقف» ليس «وصفا» لشخص يحتفظ به على الدوام، بل هو «دور» يحتفظ به اذا ما كان مازال خارج السلطة، ويفقده إذا انضم إليها. وربما استنكر البعض أن يفقد «المثقف» ثقافته اذا ما اندرج في صفوف السلطة ! فالواقع أن ما نسميه «مثقفا» يكون كذلك إذا ما كان يناقش بحرية، ويختار ما يشاء من مواقف أو وجهات نظر، على حين أنه يلتزم مرغما بتنفيذ برنامج الحكومة متى كان أحد عناصرها. ولا ينبغي أن ننسى أن ما نسميه مثقفا ليس مجرد « صاحب ثقافة» كما أسلفنا، فالترجمة العربية هي التي أدت إلى ذلك اللبس كما أن البرنامج الذي يجري تنفيذه هو حصيلة سابقة لجهود «مثقفين» أحرار قبل أن يصبح بعضهم فيما بعد أعضاء أو موظفين، أو بالأحرى، تروسا في آلة الحكم. فهكذا تتواصل الدورة في البلدان التي يكون لأصوات الناخبين الذين يطالعون ويناقشون اجتهادات المثقفين، يكون لها الحسم في اسقاط برامج معينة أو انجاح غيرها.

أما في بلادنا فقد ألفنا أن نستخدم مصطلحات وتسميات جرى استيرادها من الغرب دون مضمونها الحقيقي وقبل توافر شروط انجازها. فالدولة منذ بدايات القرن التاسع عشر قد أممت معظم شئون الفكر والاجتهاد السياسي بحيث يعمل الجميع إلى حد كبير في جهاز الدولة، فلا يملكون حرية الحركة والمناورة إلا في هامش نحيل، بعيدا عن إغراءات السلطة لتشغيلهم تكنوقراطيين أو موظفين في العلاقات العامة للترويج لكل موقف أو قرار، بل إن دستورنا يسمح للموظفين بعضوية المجلس التشريعي الذي يحاسب الحكومة!.

فالمثقف إذن «دور» يتحدد بموقع صاحبه وموقفه من الشأن العام، ولا يتعين بغزارة معرفته. ■



مصر للطيران
تعلن عن
تخصيص خدمة تليفونية جديدة للجمهور
٣٩٠٣٤٤٤ (ستة خطوط) من ١٠ ص حتى ٥ م
سرعة الرد على استفساراتكم فى الحجز و تأكيد الحجز
و معرفة اسعار و مواعيد الرحلات
كن لمكاتب السياحة الاتصال بارقام
٣٦١٢٢٥٢ - ٣٦١٤٧٨١
٣٩٥٨٦٢٥
الاستعلام عن اقلاع ووصول الطائرات
٦٣٥٠٢٦٠ - ٦٣٥٠٢٧٠
٦٣٥٤٤٠٠ استعلامات المطار
EGYPTAIR
www.egyptair.com.eg



روايات مصرية للجيب
أجمل أوقات الفراغ تقضيها
مع باقة من أمتع القصص والروايات
الجرثومة
المنافسة الكبرى
لغز كرة الثلج
روايات مصرية للجيب
معشوقة شباب العالم العربي
من مشرقه إلى مغربه
معركة بين النجوم
روايات الجيب
قضية الدقائق الأخيرة
المكتب 17
عملية خط النار
المقاتل المزدوج
المؤسسة العربية الحديثة
تأليف مصري ١٠٠٪
لا ترجمة لا اقتباس لا تقليد

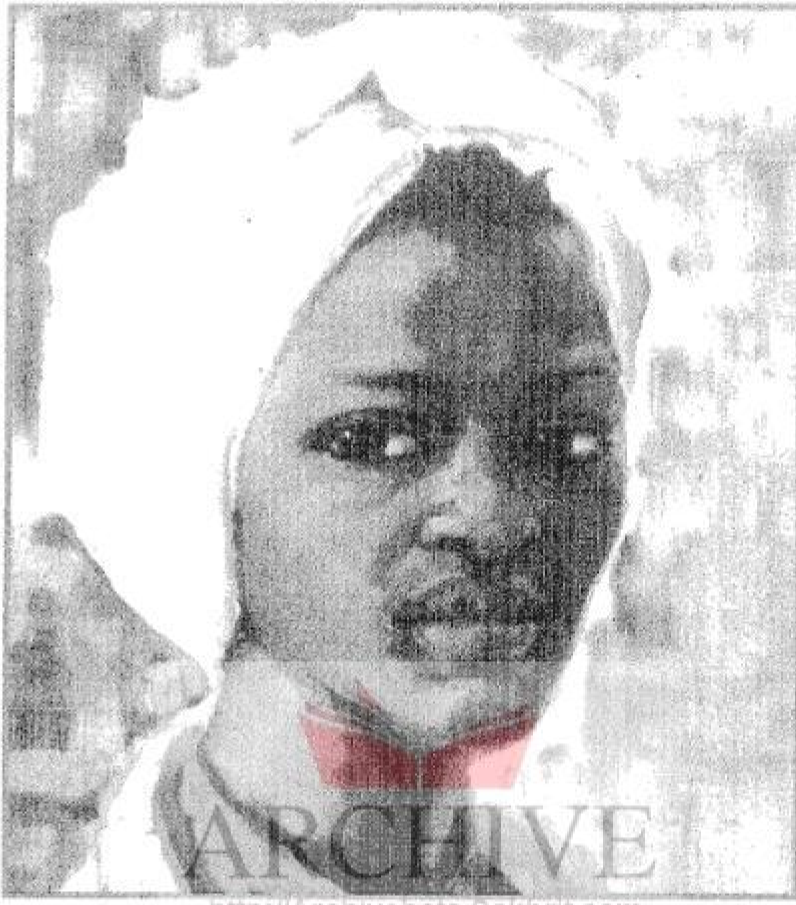
الهلال

سبتمبر ٢٠٠١ - الثمن ٤ جنيهات

- اختراق إسرائيل للإعلام العربى
- البطل الشيوعى فى الرواية المصرية
- هل للاشتراكية مستقبل؟!

الخطر يهدد المتحف الإسلامى





لوحة : إمرأة زنجية

للفنان: صلاح طاهر



لوحة وفنان

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨٦ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

سيد عبد المالك — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١.٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا
البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١.٥ ريال - تونس ٤
دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار -
إيطاليا ٧٠٠٠ ليرة - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢.٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



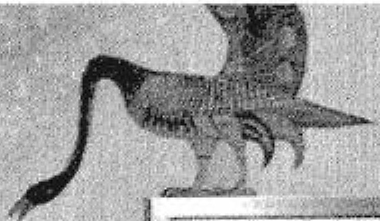
الغلاف تصميم الفنان

محمد أبو طالب

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٣٥ دولارا، باقى دول العالم ٤٥ دولارا.

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص.ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.



العام العاشر بعد المائة
جمادى آخر ١٤٢٢هـ - سبتمبر ٢٠٠١م

الأبواب الثابتة



عام جديد فى حياة الهلال

تواصل «الهلال» عطاءها فى مجال الفكر والثقافة بتأييد من القراء والمثقفين فى مصر والعالم العربى، وتعد المجلة الوحيدة التى استمرت تقدم هذا العطاء المتجدد على مدى مائة وتسع سنوات لم تتوقف خلالها أبدا، فضلا عن أنها مع عدد قليل جدا من المجلات الثقافية فى العالم كله مازالت مستمرة حتى الآن.

وابتداء من هذا العدد تدخل عامها العاشر بعد المائة، وهى أكثر صلابة وبقوة بفضل الطفرة النوعية فى الإخراج والتحرير والتى بدأت من يناير ٢٠٠١، وحصلت على الجائزة من معرض القاهرة الدولى للكتاب فى الشهر التالى مباشرة وتسلمها رئيس مجلس إدارة دار الهلال من الرئيس حسنى مبارك أمام حشد كبير من مثقفى مصر.

ومنذ ظهور العدد الأول فى سبتمبر ١٨٩٢ استمرت رحلة العطاء للقيام بدورها التنويرى والفكرى فى حياة مصر والأمة العربية، حتى أن العديد من كبار مؤرخى الصحافة الأدبية والثقافية قد اعتبروا أن مجلة الهلال تعد بحق السجل الدقيق لتطوير الحياة الفكرية والثقافية العربية على مدى أكثر من قرن من الزمان، ومازالت هذه النبوءة تزيد الهلال إصرارا على أداء دورها المحورى من خلال ما تقدمه من فكر وإبداع سواء من خلال المقالات والدراسات المتميزة فى شتى ألوان المعرفة، أو الملاحق والأعداد الخاصة التى كان لها فضل السبق، حيث خصصت أعداداً لعميد الأدب العربى طه حسين، وللأديب الكبير عباس محمود العقاد، ، ولصاحب نوبل الأديب الكبير نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور وغيرهم.

وإذا قلبنا صفحات «الهلال» منذ صدورها حتى الآن، فسوف نجد أنها لم تكتف بالقضايا الفكرية والثقافية فقط، بل شاركت فى تناول القضايا التعليمية والاجتماعية والسياسية بشكل أو بآخر، خاصة قضايا التعليم وحرية المرأة والفن والعلم، والوحدة الوطنية فضلا عن قضايا الحرية والاستقلال التى واكبتها «الهلال»

منذ الاحتلال الأجنبي لمصر والبلاد العربية، حتى قضايا التحرر الوطني والاستقلال، وكانت خلالها منبرا للحرية والتقدم.

وقد برزت على صفحات الهلال على مدى عقود صدورها أبرز أسماء أعلام الأدب والفكر والثقافة في العالم العربي من أمثال د. طه حسين ، العقاد، د. زكي مبارك، أحمد أمين، سلامة موسى، جبران خليل جبران ، ميخائيل نعيمة ، مصطفى صادق الرافعي الذين حملوا رايات الفكر والثقافة والتنوير، وأثروا حياتنا الفكرية والثقافية وجاءت من بعدهم أسماء سطعت في عالم الفكر والثقافة: د. زكي نجيب محمود، د. شكري عياد، د. سهير القلماوي، د. عبد الحميد يونس، محمود أمين العالم، كامل زهيري وأسماء كثيرة أسهمت بمقالاتها على مدى عقود ليتواصل القارىء مع الثقافات والتيارات المتعددة في مجالي الفكر والفلسفة.

ولأن «الهلال» ناقشت أهم القضايا منذ صدورها فقد طالبت بحقوق المرأة في التعليم عام ١٨٩٤ وقبل دعوة قاسم أمين، وكتبت عن السينما سنة ١٨٩٥ قبل أن يعرض أي فيلم سينمائي في مصر، وطالبت بالعفو عن الزعيم أحمد عرابي عام ١٨٩٦ ، ونشرت سيرة عرابي بقلمه سنة ١٩٠١ وغير ذلك من الموضوعات التي كانت الهلال دائما سباقة في طرحها وتناولها حتى وقتنا هذا، حيث لم تقتصر على قضايا الأدب، بل تتنوع الموضوعات وتتناول الفكر الاقتصادي وتطور الفنون، وإلقاء الضوء على القضايا المعاصرة بأقلام كبار المتخصصين من المفكرين وأساتذة الجامعات المصرية والعربية.

عزيزي القارىء..

ونحن نبدأ عاما جديدا من عمر «الهلال» تعاهدك على تقديم كل جديد في مجال الفكر والإبداع لنواصل مسيرة العطاء التي تتحقق بفضل رضاك عما نبذله من جهد يحقق المتعة الذهنية والفائدة.■

المحـــــرر

ثورة المعلومات
وأثرها على الفن والثقافة

بقلم
د. فاروق وهبة «*»

يدلو إنسان العصر بدلوه، فى تيار الزمن الجارف، نحو المستقبل السريع المتغير، تاركا أحداث العصر القائت، تدلف إلى الخلف، متطلعا إلى ذلك الفكر الذى ينقل بحذق روحا وثابة، وملامح وجه آخر، ولنفس تعتمل بكل مقومات المتغيرات التى حدثت فى العالم فى النصف الأخير من هذا القرن.

ويعد التغير الحادث من جراء الوثبات المتلاحقة لثورة المعلومات، أكبر الأحداث المهمة فى وجه الثقافة والفكر والفن فى هذا الوقت، ذلك التغيير من أهم أهدافه، توثيق اللغة المعبرة عن روح العصر، والتوصل إلى المفردات الفنية لهذه اللغة، وما كان العلم وما أحدثه من متغيرات فى الفكر الثقافى الإنسانى عامة، إلا أحد الأسس المحورية للانطلاق إلى الأمام، وتعد نظرية الاحتمالات فى الإحصاء والرياضة البحتة، أحد العوامل التى ألقت بظلالها على تطور الفكر فى مجال الفنون عامة والفن التشكيلى خاصة، مما أدى إلى التوصل إلى أبعاد فكرية مهمة فى مجال الفنون، وكانت كل هذه المتغيرات سريعة ومتلاحقة دعت كل القوى الفكرية لبحث أصولها من جديد، فقد دقت الطبول لتعلن الصحوة لإعادة الحسابات فيما قد تصل إليه النفس البشرية، من تمسك بمقومات ذات أو أطروحة هوية، شريطة أن تستطيع العدو وسط التلاحق، والتغير. وتستطيع كل الحسابات أن تتفاقم وتتعقد لأن تخلص الإنسان من ظلمة عصور التوقف والتخلف والانغلاق وذلك تحسبا لأن ندخل المستقبل لسنا أغرابا عنه ولكننا

«*» مدير الاكاديمية المصرية في روما



الطبيعة والسياحة ١٩٩٦ - من أعمال فاروق وهبه

ثورة المعلومات

وأثرها على الفن والثقافة

متملكون لدرجة الوعى التى تضعنا على أبعاده الحقيقية.

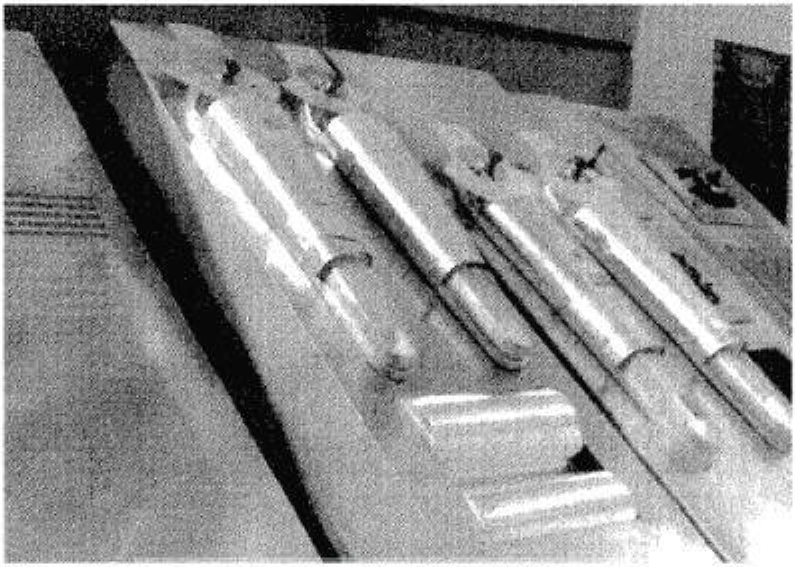
المتغيرات السياسية

لاشك أن الحديث عن ثورة المعلومات فى نهاية هذا القرن، وبحث أثرها على مستقبل الفن والثقافة، يدعونا إلى بحث جميع الأسباب التى أدت إلى هذه المتغيرات، والتى أهمها المتغيرات السياسية الحادثة فى نهاية هذا القرن، فقد تغير وجه العالم بوقائع مهمة ، أهمها انهيار النظم الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفييتى، والاتحاد اليوغسلافى، واختفاء الكتلة الشرقية، وتصدع النظم والأفكار والمؤسسات والاحلام المرتبطة بها، وعودة البلاد الشيوعية أو معظمها إلى النظام الديمقراطى والاقتصاد الحر، هذه الوقائع وتوابعها كانت زلزالا عالميا غير مسار التاريخ، وقد رأى «آلان مانك» المفكر الفرنسى ، أن الكتلة الشرقية التى كانت أكبر مشروع صنعه عقل الإنسان فى هذا القرن، تفككت كما تفككت الإمبراطورية الرومانية فى القرن الخامس الميلادى، وكانت هى الأخرى، أكبر مشروع صنعه عقل الإنسان فى العصور القديمة، وكما تحولت الإمبراطورية الرومانية إلى ممالك وإمارات اقطاعية كانت طوال العصور الوسطى مسرحا للانشقاقات والصراعات والحروب العرقية والدينية والمذهبية، حدث هذا أيضا بعد انهيار الكتلة الشرقية أو الإمبراطورية السوفييتية .

ويرى بعض المفكرين، أن الذى يحدث الآن من متغيرات، يعنى نهاية التاريخ، لأن انهيار اليوتوبيا الشرقية، يعد انتصارا نهائيا للحضارة الغربية، ومادامت الحضارة الغربية انتصرت فى العالم كله، فقد اكملت دورتها، ولم يعد لها مطمح فوق هذا المطمح، وإذن فقد انتهى التاريخ، ولن يكون الاستمرار إلا نوعا من التكرار . أما الرأى الذى قدمه المفكر الفرنسى، «آلان مانك» فيعنى أن المتغيرات الحديثة فى نهاية القرن قد أحدثت اجتياحا للجوع والإيدز فى العالم الآن، كما اجتاح الجوع والتتر العصور الوسطى وهذه مشابهات يقصد بها أن العالم الآن يرتد إلى عصور تشبه العصور الوسطى فى كل شىء، وهناك رأى آخر ينظر إلى ماحدث نظرة أخرى فى أن انهيار الإمبراطورية السوفييتية هو انهيار للنظم الشمولية المتخلفة عن العصور الوسطى وهو انتصار للديمقراطية وحقوق الإنسان، وهو أيضا خروج من الفكرة الواحدة الجامدة إلى التعدد والحوار، فهو فى النهاية انتصار للعقل والحداثة .

ثورة المعلومات

يدور الآن حوار عالمى ثرى حول مستقبل الثقافة فى القرن الحادى والعشرين، بدأ فى الوقت نفسه فى الولايات المتحدة وفى أوروبا الغربية، خصوصا فى فرنسا وألمانيا وفى شرق



آلة جنى القطن - خيال علمى

وجنوب شرق آسيا ويسود رأى بين العديد من الآراء يقول بأن العالم فى أشد الحاجة إلى ثقافة جديدة كتلك التى جاءت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، ويطرح آخرون انطباعا بأن مايحدث الآن فى أقوى مجتمع من المجتمعات المتنقلة من الصناعة التقليدية إلى صناعة الخدمات والمعلومات أى فى الولايات المتحدة، حيث ينبىء الحال بتطورات خطيرة فى مجال الثقافة، وأخطر المؤشرات التى أفرزتها مرحلة الانتقال، من مجتمع الصناعة إلى مجتمع الخدمات والمعلومات، مايبرز فى ظاهرة قيام شركات الفيديو والمعلومات بشراء أكبر دور النشر فى الولايات المتحدة مثل دار نشر «سيمون» و«ماكميلان» وهذه بعض معالم مرحلة ما بعد الحرب الباردة التى لاتختلف كثيرا فى جوهرها عن مراحل أعقبت حروبا كثيرة سابقة، إنها المرحلة التى تمثل فى حقيقة الأمر الرحم الذى تنضج فى داخله بذرة القرن الحادى والعشرين.

تكنولوجيا المعلومات

ظهرت فى السنوات الخمس الأخيرة تطورات جديدة فى مجال الحاسب الآلى تنبىء بتبدل كبير فى هذا المجال وتنبىء بأن الأيام القادمة سوف تشهد فى مجال علم الاتصال والمعلومات نتائج هائلة فى مجال نظام الواقع التخيلى .

ونظم الواقع التخيلى عبارة عن مجموعة من برامج الحاسب الآلى يمكنها التفاعل مع حاسة أو أكثر من

ثورة المعلومات

وأثرها على الفن والثقافة

حواس الإنسان، كالسمع والبصر واللمس عن طريق عدة من التجهيزات الخاصة مثل قفاز البيانات وهو مزود بأجهزة استشعار يتيح لمن يرتديه إمكانية لمس وتحريك الصور والنماذج المعروضة من خلال جهاز الحاسب الآلي، وجهاز العرض المثبت على الرأس، وهو عبارة عن خوذة مثبتة عليها نظارة مكونة من شاشتين تليفزيونيتين، توضعان أمام عيني الشخص فيستطيع رؤية الصور والنماذج المعدة بواسطة برنامج الحاسب الآلي مجسمة تماما كما يراها في الواقع الفعلي وأيضا سماعات للرأس يصل من خلالها الصوت إلى أذن الشخص مجسما، وأخيرا جهاز جديد يطلق عليه «الأرضية الحساسة عالية الثبات»، وهو عبارة عن جهاز ينقل إلى برنامج الحاسب الآلي موضع أقدام الشخص، واتجاه حركته لتتضمن برنامج الحاسب، كل هذه التجهيزات والبرامج تتكامل فيما بينها لتحقيق هدف أساسي وهو إقناع الشخص بأن مايعرضه الحاسب الآلي، ليس مجرد برنامج كمبيوتر، ولكنه نماذج حقيقية وواقعية.

إن معظم نظم الواقع التخيلي قد جاءت لتزيل الحاجز بين الإنسان والحاسب الآلي، اعتمادا على أنواع متطورة من الأجهزة الإلكترونية، وما وفرته الوسائل السريعة للمعلومات من سرعة هائلة في إرسال واستقبال المعلومات، مما ساعد في تحويل الشخص المتعامل مع جهاز الحاسب الآلي من مجرد مستخدم يقف أمام شاشته ليتعامل مع برامجه المختلفة إلى مشارك في هذه البرامج، ويكون أساسا من مكوناتها، يمشي ويجري بل ويطير داخلها.

وقد استخدمت بالفعل تكنولوجيا نظم الواقع التخيلي في تطبيقات عديدة في كثير من المجالات، كان في مقدمتها مجال الفضاء، وقد غزت أيضا مجال اختيار الأعمال الأدبية كالرواية والمشاركة في أحداثها كبطل أساسي من أبطالها، وفي مجال العمارة والهندسة، وطرحت إحدى شركات الحاسبات أحد برامج نظم الواقع التخيلي ليستخدم في مجال تصميم واختبار السيارات، وتصميم المباني والعمارات في شكل مجسم ثلاثي الأبعاد يستطيع المصمم التجوال في داخل طوابق المبنى وتحريك الأعمدة الخرسانية وإزاحة بعض منها حتى يصل إلى التصميم النهائي، وأيضا في استئصال الأورام في مجال الطب.

وبهذه النظم كانت تكنولوجيا الواقع التخيلي التي تفيد بأنه في بداية القرن القادم ما من مجال من مجالات الحياة إلا وكانت هذه النظم على رأسه.

ونظام الواقع التخيلي هذا يدعنا نفكر ثانيا في كون الحاسبات والكمبيوتر أدوات في مجال الفن التشكيلي

الفراشات - أزهار المستقبل



ثورة المعلومات

وأثرها على الفن والثقافة

للاستخدام لتحقيق الأفكار وتنفيذ الابتكار، ثم ماذا بعد؟ فالأداة تطورت ووفرت على المبدع مشقة معاناة البحث عن الأدوات بل استطاعت أن تختصر الوقت لتجهيز الفنان معنويا لحالة الإبداع فقط وهذا أيضا يعد تطويرا للوسائل التى تحيط بالعملية الإبداعية، ولكن كل هذا يقف عند الحالة الكلية الشاملة للإبداع ولايستطيع أن يتخطى، أو حتى يتدخل فى تحديد الزمن أو الوقت أو ميعاد الإبداع، ولكنه يظل وسيلة تنتظر إرادة الفنان، ويمكننا القول بأن نظام الواقع التخيلى يجهز الحياة برمتها بحيث تصبح مواتية للفنان فى ظروف أسهل تساعده لأن يستجمع قواه الإبداعية فى حالات تتناسب معها ولا تعوقها أو تعرقلها .

أدى ذلك إلى تبدل مسارات الفكر الإنسانى وظهور نظريات فى الفلسفة وعلم الجمال وعلم النفس، غير الذى كان يطرح فى نهاية القرن الماضى أو منتصف هذا القرن، وقد أدت سرعة التغير والتبدل فى مجال الفكر والثقافة فى السنوات الخمس الماضية أكثر مما حدث من متغيرات فى الخمسين سنة الأخيرة، ومؤدى هذا اتساع دائرة الفكر والثقافة لمواجهة المستقبل وتحديد ملامح الفكر الإنسانى فى الزمن المقبل.

و أصبح جليا فى هذا العصر أننا مضينا قدما إلى الأمام، فقد تخطى الإنسان مرحلة السحر والطقوس الدينية الى العقل والمنطق، ومن الفزع الخرافى إلى الثقة الفعالة ومن الجهل المحدود إلى المعرفة ذات الطابع العام ومن المرض إلى الصحة، ومن الحتمية الميكانيكية إلى الشك المتفائل، حيث نعيش اليوم أفضل العوالم الممكنة فى هذه المرحلة الحالية من ارتقاء البشر، فكل فرد فى العالم الآن يمتلك بيديه من القوة أكثر مما كان يملكه أى امبراطور رومانى، ويعيش بيننا من العلماء الذين منحونا هذه القوة أعداد كبيرة تزيد علي كل العلماء الذين عاشوا على امتداد التاريخ كله، ويبدو أن الطريق نحو التقدم يتجه تأكيدا نحو الأمام وصعودا نحو مزيد من الاكتشافات والإبداع، ومنذ الوهلة الأولى نرى العلم هو الرحم الذى يخرج منه هذا التراكم المعرفى لرفعة شأن الإنسان ومستقبله .

الفوضى «الإنتروبيا» *ANTROBIA* ونظرية الاحتمالات

إن الطاقة عبارة عن حركة عشوائية للجزيئات فى المادة فهى تتحرك جيئة وذهابا فى حالة فوضى كبيرة ولاتتأثر بحركة الجوار، أما فى حالة الشغل الميكانيكى فإن الجزيئات تتحرك جميعها بسرعات متساوية، ومتجهة فى الاتجاه نفسه، بمعنى أن تحويل الطاقة الحرارية إلى شكل ميكانيكى، معناه إعادة النظام لحالة الفوضى الموجودة.

ويمكن الدلالة على ذلك بتصور



ثورة المعلومات وأثرها على الفن والثقافة

تشكيلى بسيط نسوقه لتوضيح إمكانية إحلال قيم الشكل على النظرية المطروحة، فلو وضعنا كرات ملونة وعدة كرات شفافة داخل صندوق وحركنا هذا الصندوق عدة مرات، لوجدنا اختلاط الكرات بشكل عشوائى ونرى أنه من العسير علينا تحويل حالة النظام السابقة إلى ما كانت عليه، بعد أن انتابتها الفوضى العشوائية بتحريك الصندوق واختلاط الكرات، وبالتالى لايمكننا تحويل الفوضى العشوائية إلى نظام إلا بعد بذل جهد جهيد.

أشعة الليزر

نفترض أنه لدينا مجموعة من الذرات المتشابهة القادرة على امتصاص وانبعاث إشعاع بتردد، فكل ذرة لها مستويات من الطاقة الكمية الخاصة بها، وتستطيع الذرة الانتقال من مناسيب الطاقة بامتصاص أمر انبعاث الطاقة على شكل «فوتونات» (الفوتون: هو وحدة قياس الطاقة فى ميكانيكا الكم) . وامتصاص «الفوتون» يزيد من طاقة الذرة، بينما انبعاث «فوتون» ينقص من طاقتها، ولقد تعرف «أينشتين» على ثلاث عمليات يتم فيها الإشعاع، فمنها اشعاع ممتص بالتحريض واشعاع منبعث بالتحريض واشعاع منبعث تلقائيا، وهنا يعنينا الاشعاع المنبعث بالتحريض والذى يستخدم كعمل فنى

المفردات الفنية

بناء على ماورد من متغيرات، فى مصادر التفكير، المستمدة من التطورات العلمية . وآخر ما وصل إليه العلم فى عصرنا هذا، نجد أن الفن التشكيلى استطاع أن يعدل فى كثير من المنطلقات الفكرية الخاصة به، وذلك لبناء عمل فنى يعتمد على أفكار لها أساس علمى، بعيدا عن بساطة الرؤية وعشوائياتها، وقد استطعنا أن نرى انطلاقا من نظرية الاحتمالات العلمية وكيفية الاستفادة من بنودها فى خلق ركائز فكرية يستند عليها التفكير فى تصميم العمل الفنى وبنائه من خلال : فكرة الاحتمال، وفيض الكتلة والتدفق الجزئى والفوضى والتنظيم، كل هذه الركائز وغيرها مثل نظرية المجال وتفتيت الذرة وكيفية الاستفادة بها فى البناء الفنى الذى نتجت عنه فكرة تكرار الوحدة، ونظرية الكل والجزء، التى نتجت عنها امكانية تجزئة العمل الفنى، وتجزئة الصورة الواحدة بحيث يصبح كل جزء، هو كل متكامل ولكنه جزء من كل، وقد أنتج هذا وجود أعمال تتكون من جزئيات تكون فى مجموعها عملا فنيا متكاملا، وقد استخدمت هذه الأفكار فى تغيير شكل التفكير فى بناء العمل الفنى، حتى أننا نجد فى المعارض الفنية أعمالا تنطلق فى تصميماتها من مبدأ مخالف لكل التصورات السابقة فى بناء العمل الفنى، مثل الأعمال المركبة، وفن تشكيل

الجسد، و«فن الأرض» ، وفن الحدث، والفن الفقير، وغيرها من المتغيرات الفنية وشكل البناء في العملية الابتكارية. ونستطيع أن نقول إن كل ما يحدث الآن وما حدث في فكر الفن التشكيلي هو بمثابة مفردات فنية للأبجدية العامة . واجرومية اللغة في الفن المعاصر، لها دلالات قوية على تدخل الفكر العلمي في البناء الإبداعي، ولكن لنا أن نقول أيضا في المقابل الآخر إن العملية الإبداعية تستفيد في مجال التحضير لها، وفي مجال الإعداد من العلم ومن كل مجالات التقدم التكنولوجي في العصر الحديث، واكتشافات الخامات الحديثة، ولكن تبقى العملية الإبداعية، في حالة الإبداع ذاتها بعيدة عن أن تقنن أو أن تؤطر داخل نظريات أو داخل برامج مهما كانت الظروف المحيطة بها ولكن كل مايحدث هو الوسيط الذي يجعل العملية الإبداعية في قمة الظروف المتاحة التي تخول لها أفضل النتائج ومن خلال تلك المفردات الفنية سوف نختار بعض الاتجاهات التي تفرض نفسها جليا في حركة العروض الفنية العالمية.

العمل المركب *Instelation*

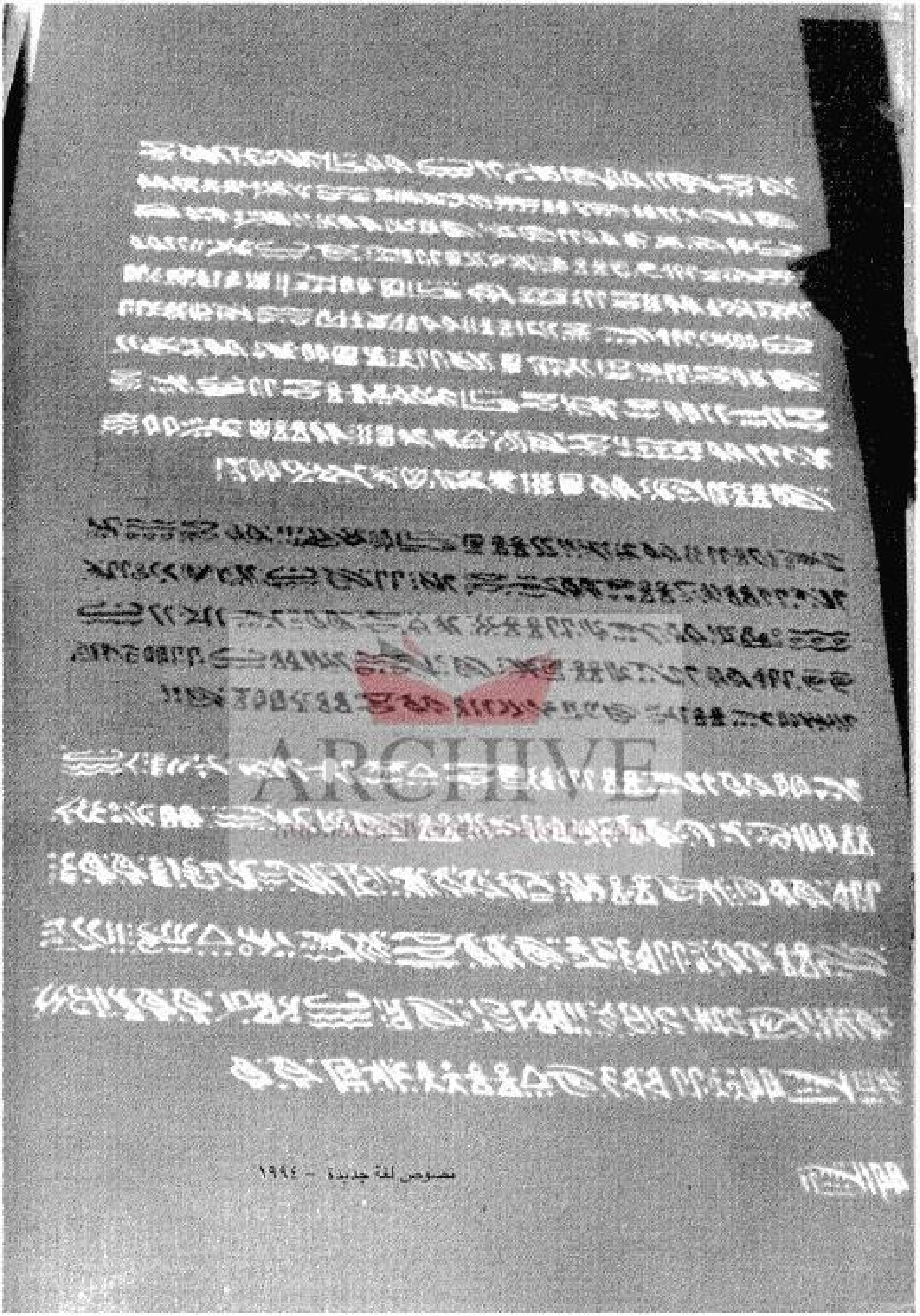
هو العمل الفني الذي يعتمد بشكل كبير على قدرة الفنان على الاكتشاف للخامات والمشغولات سابقة التجهيز، ومحاولاته التجريبية في تعايش كل هذه الموجودات والخامات في تصور إبداعي جديد يحقق وجهة نظر الفنان، وكثيرا ما يأتي العمل المركب لحل فراغ المكان، بتصورات الفنان وباكتشافاته للخامات التي قد تكون معدة لغرض آخر ولكن الفنان يحقق في اتساقها معا اثباتا معرفيا وإبداعيا لرؤيته الفنية. وقد يستخدم الفنان مع الخامات الموسيقى والضوء.

فن الحدث *Actionism Acton*

بدأه «جوزيف بويز» ألمانيا «جونتر بروس» النمسا «إيف كلين» فرنسا، «بيرو مانسوتي» ايطاليا، «أوتومول» النمسا، «هيرمان نيتش» النمسا، «الفونس شيلينج» ، «رودلف شفارس كوجلر» النمسا . وقد كانت بداية هذا الاتجاه في سنة ١٩٥٠ حتى تألق في عام ١٩٧٠ وانتشر كاتجاه في العالم بعد ذلك.

يعتمد الاتجاه على الفكر المستمد إلى حد كبير من العمل الدرامي المسرحي، فيمكن اعتبار أي واقع يكتشفه الفنان بما فيه من جمهور أو أشخاص وموجودات في حالة حركة طبيعية وعامة، نوعا من أنواع فن الحدث ، أو «فن الأداء» Performance، لمجرد أن يكتشفه الفنان، وفن الأداء منتشر الآن في المعارض الدولية الحديثة.

وما ورد من اتجاهات على سبيل المثال، يعد علامة مهمة من علامات اعتبار المدارس والاتجاهات الفنية في الفن المعاصر في مفردات للغة ولاجرومية الفن، تضاف تباعا إلى الأبجدية العامة للتفكير، وعلى كل فنان



نصوص لغة جديدة – ١٩٩٤

في المستقبل أن ينهل منها لكي يكون جملته ويقول كلمته .

أبعاد الفكر في العمل الفني

مرت التجربة الفنية عبر العصور بأشكال عدة، كانت معيارا لمستوى وعي الفنان ذاته، وقد كان تطور هذه التجربة مرهونا بالأحداث التي تحدث حول الفنان، من تقدم علمي واجتماعي وأخلاقي، وكان التطور حسيسا في مجمل التجربة إلى أن جاء القرن العشرون ذلك الذي تطور فيه الفكر الفني أضعاف ما حدث في كل الأزمنة الماضية، ويعد التطور الحادث في الفكر التشكيلي في العشرين سنة الأخيرة، يعادل كل التطورات في ماضي التجربة الفنية، ونجد أن ردود الفعل للتقدم العلمي محسوسة بشكل كبير على مدى التجارب الفنية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين مثل اكتشاف الكاميرا يعقبها، التأثيرية والوحشية والتعبيرية ، اكتشاف السينما يعقبها، المستقبلية، تأثير نظريات الفيزياء على التفكير في بناء وتصميم العمل الفني، يعقبه العمل المركب، وهكذا تمر أبعاد الفكر بردود فعل للواقع المعاش وظروف الحياة المعاصرة والمتغيرات العلمية والتكنولوجية، والسرعة التي تنتاب العقل البشري من تبدل وتغير.

تصورات المستقبل

هذه فكرة مبسطة عن مايحدث من متغيرات في الفكر التشكيلي للتجربة الإبداعية ، في عصرنا هذا . وماتم في الحقبة الأخيرة منه، فهل لايطرح هذا سؤالا ملحا فيما تكون عليه تصورات المستقبل، لشكل الفن التشكيلي الذي يطرح نفسه في القرن الحادي والعشرين.

إن الاحتمال قائم ويدلل عليه مادار في السنوات العشر الأخيرة من تجارب، «فينيسيا ٩٠، ودكيومينتا ٩٢، وفينيسيا ٨٨، ودكيومينتا ٨٥...» وهكذا نجد أن الفن التشكيلي يمر بفترة تغيير كبيرة وفترة بحث عن لغة ومفردات جديدة، معتمدا أساسا على فكرة تغير القيمة وعدم ثباتها، وعليه فيمكن هدم أية أفكار لها خاصية الثبات، أو الارتكاز بغية رفض الجمود والتوقف، ويلعب التجريب دورا كبيرا في صبغ التجارب الفنية في المعارض، وأحيانا مايصل عبث الفنان إلى اقصاء القيمة جانبا، واختيار الخامات والمثيرات التي تعد فاقدة للمعايير الفنية فيما يدعى «الكتش» Kitch Art فما هو التصور لفن المستقبل؟ الهدم لإعادة البناء، فقد الاعتداد بالقيمة، وفقد الاعتداد بالثبات، تفوق مبدأ البحث، التجريب كدعامة أساسية في تحديد شكل المستقبل الفني، التجربة الفنية إضافة على الفكر، وليست لها صفة البقاء، نبذ فكرة الخلود. هذا هو مسار الفكر فيما يحدث سواء اتفقنا معه أو لم نتفق ولكن علينا الانتظار للغد لعلنا نتفق أو نختلف. ■

اختراق إسرائيل للإعلام العربى

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

تجرى فى الآونة الراهنة معركة مصيرية على الأرض الفلسطينية تهم جميع العرب ، لأنها ببساطة تحدد من المنظور الاستراتيجى الكيفية التى سينتقلون بها من الحاضر إلى المستقبل ، ومع ذلك فإن بعض العرب على الأقل يبدو غير مكترث بهذه المعركة أو مبال بها ، ومن مظاهر عدم الاكتراث هذا الاستخفاف الذى نتعامل به مع قضية التطبيع الإعلامى مع إسرائيل ، وبالذات فى قطاع الفضائيات العربية ، على الرغم من الآثار الفادحة المتوقعة لمثل هذا التطبيع إن ظل يتطور على النحو الذى وقع فى الماضى.

ثلاثة دوافع للتأمل :

لعل ما دفعنى إلى تناول موضوع التطبيع الإعلامى مع إسرائيل يمكن أن يُرد إلى أسباب ثلاثة ، ولعلى أبدأ بالسبب المباشر وهو تعرضى فى الشهر الماضى لتجربة شخصية دعيت





شارون



عرفات

فيها للاشتراك فى برنامج تليفزيونى معروف يبث على الهواء من إحدى الفضائيات العربية المشهورة حول الأوضاع الراهنة فى الصراع العربى - الإسرائيلى. وبعد أن تم ترتيب كل ما يتعلق بإجراءات السفر الذى كان قد تبقى على موعده أقل من يوم إذا بمعد البرنامج يبلغنى بأنه قد تأكد نهائيا أن شريكى فى البرنامج هو «فلان»، وهو واحد من القيادات السياسية الإسرائيلية الوسيطة فى مدينة القدس. وعلى الرغم من المفاجأة فقد أبلغته على الفور بأنه لم تسبق لى معرفة أن ثمة تفكيراً من الأصل فى أن يكون هناك مشارك إسرائيلى فى البرنامج، وأننى لا أخشى مثل هذا الحوار . بل أعتبره فرصة ذهبية لفضح وتفنيد السياسة الإسرائيلية، غير أننى أعتبر البرنامج على هذا النحو تطبيعاً إعلامياً صريحاً مع دولة معادية لى كمواطن عربى، ولست مستعداً من الناحية النفسية ناهيك عن المبدئية لأن أشارك فيه، بغض النظر عن جدوى هذا التطبيع من عدمه. شكرته على أنه أبلغنى بذلك قبل سفرى فأتاح لى أن أتصرف على هذا النحو الذى أراه سليماً.

وبعد هذه التطورات المتلاحقة التى وقعت كلها فى أقل من أربع وعشرين ساعة، بدءاً من الدعوة وحتى الاعتذار عن عدم تلبيتها قفز السبب الثانى الذى دعانى إلى تناول هذا الموضوع إلى ذهنى فى شكل خاطر مُلح. أليس غريباً بعض الشىء أنه فى الوقت الذى نتحدث فيه عن قصور الأداء الإعلامى العربى فى مواجهة إسرائيل عامة، وفى الموقف الحالى خاصة، أننا بدلاً من أن نواجه إسرائيل فى الساحة العالمية ندعوها لتواجهنا فى الساحة العربية؟ أى أننا بعبارة أخرى بدلاً من أن نحاول اختراق الساحة العالمية باستخدام وسائل الإعلام لفضح السياسة الإسرائيلية،

ومحاولة زيادة المساندة الدولية لقضيتنا من ثم نفتح أبواب الساحة العربية للصوت الإسرائيلي، ونتيح له الفرصة لعرض هذه السياسة بأفضل طريقة ممكنة ، وكأننا مراقبون محايدون في صراع لا يعنينا.

وتذكرت بطبيعة الحال أن ثمة من ينظرون إلى الأمر نظرة مختلفة بين صفوفنا العربية: إلى متى نظل نحاور أنفسنا ولا نسمع إلا صوتنا؟ ألم نقبل من حيث المبدأ التسوية السياسية مع إسرائيل؟ فلماذا لا نستمع لهم ونحاورهم لعل ذلك أن يصل بنا إلى أفكار مفيدة حول مثل هذه التسوية؟ ورأيت أن الأمر على هذا النحو يثير إشكالية لابد من التصدي لها، وأحسب أن مناقشة متأنية وموضوعية وشاملة لهذه المسألة لم تتم، وهنا قفز السبب الثالث بدوره إلى ذهني، فقد تزامنت هذه الأحداث والخواطر مع انعقاد اجتماع لوزراء الإعلام العرب في رحاب جامعة الدول العربية في الشهر الماضي (أغسطس/ آب ٢٠٠١) لمواصلة بحث الاستراتيجية الإعلامية في مواجهة إسرائيل.

وقد لفت نظري أن الاجتماع الذي شغل نفسه بقضايا عديدة مهمة لم يهتم بهذه القضية من قريب أو بعيد، مع أنها لا تقل أهمية في رأيي عما بحثه من قضايا، بل لعلها بأحد المعايير تفوقها جميعاً من حيث الأهمية، بقدر ما تتعلق بتماسك الرأي العام العربي في مواجهة إسرائيل، فكيف نحاول أصلاً مخاطبة العالم الخارجي برسالة إعلامية محددة تتعلق بالصراع العربي - الإسرائيلي إذا لم يكن لنا موقف موحد في هذا الخصوص، أو على الأقل موقف يعكس أغلبية واضحة متماسكة في أوساط الرأي العام العربي بعد هذا كله أعود بالذاكرة إلى الخلف في سياحة زمنية قصيرة لمتابعة سريعة لتطور التطبيع الإعلامي مع إسرائيل في التليفزيونات العربية بصفة خاصة.

تطور التطبيع الإعلامي مع إسرائيل:

لست إعلامياً ولا مؤرخاً بحكم التخصص الأكاديمي أو المهنة العملية، ومع ذلك فإنني مشاهد دؤوب لعدد من الفضائيات العربية بقدر من الانتظام يسمح لي بالإدعاء بأنني أشاهد عينة ممثلة للمادة الإعلامية التي تقدمها هذه



الفضائيات فيما يتعلق بالصراع العربي – الإسرائيلي، ومن هذه النافذة أحسب أنني أستطيع أن أتابع تطور التطبيع الإعلامي مع إسرائيل.

في البدء تمت خطوة إرسال مراسلين للتليفزيونات العربية (بعضها وليس كلها بطبيعة الحال) إلى إسرائيل والأراضي الفلسطينية المحتلة، وربما أمكن فهم هذا التطور في حالة دول عربية كمصر والأردن باتت ترتبط بمعاهدات رسمية مع إسرائيل، وربما أيضا أمكن الاستماع إلى منطق القائلين بأننا بهذه الطريقة نعرف عدونا من الداخل ، مع العلم بأن ثمة ملاحظات عديدة يمكن أن ترد على هذه المقولة سوف نأتي إليها لاحقاً، كذلك ربما أمكن الاتفاق مع القائلين بأن وجود أولئك المراسلين في الأراضي الفلسطينية المحتلة بالذات يتيح نقل صورة حقيقية عن معاناة أهلنا في تلك الأراضي دون تزييف من جانب أجهزة الإعلام الإسرائيلية أو الغربية، وسرعان ما امتدت خطوة إرسال مراسلين عرب إلى إسرائيل والأراضي الفلسطينية المحتلة بغرض التغطية التليفزيونية للأحداث إلى فضائيات عربية لا ترتبط دولها باتفاقات من أي نوع مع إسرائيل، وقد يقال أن بعض هذه الفضائيات خاص لا يتبع دولاً بعينها، وهو قول قد ينصب على النواحي القانونية فقط دون السياسية.

ومن ناحية أخرى بدأ التطبيع بمراسل عربي يقف في أراضي فلسطين المحتلة منذ ١٩٤٨ أو ١٩٦٧ ، وينقل لنا الأحداث ووجهة نظره عنها. وقد يلتقي بهذا المواطن الفلسطيني أو ذاك ليعبر بدوره عن وجهة نظره فيما يجري، ثم انتقلت الممارسات التطبيعية إلى استضافة ممثلين لمن يسمون بقوى السلام في إسرائيل، ليقولوا كلاما يبدو متسقاً مع المطالب العربية والفلسطينية في عملية التسوية، وإن كان العارفون بجوهر المواقف الإسرائيلية يعلمون أنه – أي ذلك الكلام – ليس متطابقاً بحال مع وجهة النظر العربية ، بل إن ثمة تناقضا كاملا بينهما في قضايا كالقدس وعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم، وفي مرحلة ثالثة بدأ ساسة وأكاديميون إسرائيليون مراوغون يظهرون على شاشات تليفزيون عربية ليقولوا كلاماً لا معنى له عن الجوار والتعايش والسلام، وكأننا نحن الذين نحتاج دروساً في هذه الموضوعات، ولعلهم حسبوا أن الكرم العربي غير المبرر، والمتمثل في دعوتهم لمخاطبة الرأي العام العربي عبر شاشات تليفزيون عربية ينطوي على قدر من الغفلة. وبالتالي فثمة احتمال أن تكون هذه الغفلة غير مقتصرة على من خطط لاستضافتهم، وأن تكون من ثم ممتدة إلى المشاهدين العرب أو على الأقل قطاعات منهم بما يبرر قول أي كلام لهؤلاء المشاهدين. وفي مرحلة أخيرة بدأ الساسة والأكاديميون الإسرائيليون العاديون، والذين يعبرون عن أقصى وجهات النظر الإسرائيلية تطرفاً يظهرون في

فضائيات عربية ليروجوا فى صراحة لا تخلو من وقاحة للسياسة الإسرائيلية ومبرراتها ، ويهاجموا محدثيهم من العرب، ويرموا الفلسطينيين بالإرهاب، إلى آخر هذه السلسلة المتوقعة من المواقف الإسرائيلية النمطية.

جدوى التطبيع :

تأملت كل ما سبق، وحاولت أن أضع نفسى فى مكان المتحمسين للتطبيع الإعلامى مع إسرائيل، وأن أتعرف على حججهم ، ولعل أقوى هذه الحجج - والتى تتوالد عنها بقية الحجج يتمثل فى مقولة: «اعرف عدوك»، وهى مقولة لا بأس بها فى ذاتها، وإن كانت معرفة العدو لا تتم بهذه الطريقة بالضرورة، بل لعله من المسلم به أنها ليست أكثر الطرق كفاءة وفاعلية لمعرفة العدو، وهى تتطلب على أية حال كفاءات إعلامية لم تتوفر دائما للقيام بهذه المهمة، كما أن تطور التطبيع الإعلامى على النحو السابق بيانه حرك المسألة برمتها من هدف «اعرف عدوك» إلى حالة أخرى هى «دع عدوك يقتحم ساحتك، ويعرفك بنفسه بطريقته»، وفى كثير من الأحيان التى شاهدت فيها مراسلين عرباً يحاولون أن «يعرفونا بعدونا» كان ميزان القوى فى «المعلومات» بينهم وبين محدثيهم من الإسرائيليين مختلاً للغاية، بحيث اقتصر الأمر على ذكر وجهات نظر أولئك الإسرائيليين ببساطة دون أن يعلق عليها أحد، ولا مانع من أن يبدأ المراسل طرحه للموضوع بطريقة عاطفية ملتهبة «تدغدغ» مشاعرنا القومية، لكن المتحدث الإسرائيلى يرد بهدوء «وموضوعية» على نحو يبدو معه أن الحجج العربية فارغة من المضمون، وفى استضافات لممثلين للأحزاب السياسية الإسرائيلية فى آخر انتخابات تشريعية جرت فى إسرائيل فى أحد البرامج التليفزيونية العربية ترك هؤلاء يدعون أنهم يعملون من أجل السلام، ولم يوجد من يردهم إلى الصواب، ويذكرهم بأفعالهم المستمرة، والتى ستبقى فى ذاكرتنا أبد الدهر، وفى البرنامج الذى اعتذرت عن عدم المشاركة فيه، وحرصت لاحقاً على أن أتابعه لاحظت أن السياسى الإسرائيلى يرد بقوة على حجج المشارك العربى فى البرنامج، ويرميه بالجهل بالتاريخ، ويسخر من صفة الخبير التى تتلو اسمه فلا يعلق المشارك العربى، ويرد - أى المشارك



الإسرائيلي - على وصف شارون بالإرهابي بأن عرفات هو الإرهابي الذي يمتلىء سجله بقتل قيادات فلسطينية عديدة (لاحظ ذكاء المتحدث الإسرائيلي الذي لم يشر إلى ضحايا إسرائيليين لما أسماه بالإرهاب الفلسطيني في محاولة لاثبات أن «الإرهاب» سمة بنيوية في السلوك الفلسطيني حتى أنه يتجه إلى الذات الفلسطينية)، ويعدد نفس المشارك الإسرائيلي عناصر للسياسة الإسرائيلية على نحو مغلوط لم يتكفل أحد بالرد عليه أو تفنيده.

وهكذا تبدو مسألة التطبيع الإعلامي مع إسرائيل عبثية إلى حد بعيد، فليس هناك من شيء واحد نكسبه منها: تغطية إخبارية مصورة لما يجرى فى إسرائيل؟ نستطيع أن نحصل عليها من محطات التليفزيون العالمية على نحو أكفأ. وجهات نظر إسرائيلية نعرفها تماماً، ونعرف الأفعال الحقيقية التي تجعل من وجهات النظر هذه كلاماً أجوف، ثم إننا نتحدث عن مقاطعة تامة لإسرائيل على الأقل فى ظل حكومة شارون. أفلا تكون المقاطعة الإعلامية جزءا من هذه المقاطعة الشاملة؟

ومن ناحية أخرى فإن الكفاءة غير المكتملة في أحيان ليست بالقليلة لمن يديرون عملية التطبيع الإعلامي مع إسرائيل من الجانب العربي، والذكاء الحاد لبعض المشاركين من الطرف الإسرائيلي في طرح وجهة نظره قد يسببان بلبلة غير مرغوبة فى الظروف الراهنة لدى قطاعات من الجماهير العربية في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى التماسك لمواجهة العدوان الإسرائيلي على الأمة العربية بأسرها، وهذا فضلا عن أن مجرد ظهور إسرائيليين في برامج التليفزيون العربية هو جزء من تعويد المواطن العربي على التطبيع مع إسرائيل، وعلى أنها بتركيبتها الحالية، وسياساتها الراهنة جزء من حقائق المنطقة لا مفر من التعامل معه.

ما العمل ؟

أعتقد أن مسألة التطبيع الإعلامي مع إسرائيل تنطوى على قدر يعتد به من الخطورة إن كنا نفكر فى مواجهة شاملة ومدروسة للسياسة الإسرائيلية فى مرحلتها الراهنة، ذلك أن تفاقم هذا التطبيع ينذر بتفاقم مماثل لكافة المثالب التى سبقت الإشارة إليها، ومن هنا فإن ثمة معالجة مطلوبة لهذه المسألة، ولا نريد لهذه المعالجة أن تتسم بعاطفية لا تخلو من بلاهة فى بعض الإحيان، ولذلك فإننى أختتم هذه التأملات بطرح ثلاثة اقتراحات محددة للنقاش على النحو التالي:

١ - العمل على إدخال الموضوع فى جدول أعمال الاجتماع القادم لمجلس وزراء الإعلام العرب، خاصة وأن مواجهة التطبيع الإعلامي مع إسرائيل بالمعنى

السابق يمكن فعلاً أن تتم بقرار، ويمكن متابعة الالتزام بتنفيذ هذا القرار بسهولة. بعبارة أخرى فإن قرار إنتاج عمل تليفزيوني لمساندة الانتفاضة الفلسطينية على سبيل المثال قد يتعرض لصعوبات تعوق خروجه إلى حيز التنفيذ لنقص في التمويل، أو خلاف في وجهات النظر، وقد ينفذ على نحو غير مكتمل أو حتى مشوه لتردٍ في الكفاءة . لكن وقف التطبيع السابق بيانه لا يحتاج إلى أكثر من قرار بوقف استضافة إسرائيليين في برامج تليفزيونية عربية، وهذا ممكن تنفيذه بسهولة.

٢ - العمل على طرح المسألة على أوساط ثقافية - وبالذات إعلامية - عربية واسعة لتبين الرأى المهني فيها، ويا حبذا لو أجريت استطلاعات للرأى بين المواطنين العرب تجاه هذه الظاهرة، حتى لا يبدو أننا نريد احتكار التفكير بالنيابة عنهم، ويا حبذا كذلك لو اهتم بها بعض من شباب الأكاديميين الإعلاميين العرب في دراساتهم ، بما في ذلك البحوث التى يتقدمون بها للحصول على درجة الماجستير أو الدكتوراه.

٣ - العمل على أن تصل نتيجة الحوار على الصعيدين الرسمي وغير الرسمي إلى «قواعد للسلوك» في هذا الصدد ما بين المنع الكامل إذا أمكن - على الأقل إلى أن تنتهى المرحلة الراهنة من السياسات الإسرائيلية، أو الإجازة بشروط، كأن يكتفى بالمراسلين الإعلاميين العرب في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وأن يكون هؤلاء من أبناء هذه الأراضي ذاتها، وكأن يكتفى في استضافة إسرائيليين في برامج إعلامية عربية باستضافة أولئك الذين لا يثور أدنى شك في تأييدهم للمطالب العربية والفلسطينية في عملية التسوية على الأقل، وفي ظل إعداد عربي لتلك البرامج يتسم بالكفاءة تخطيطاً وتنفيذاً، أما ترك الحبل على الغارب لعدد متزايد من الأكاديميين والسياسيين الإسرائيليين ليدخلوا بيوتنا من خلال شاشات التليفزيون بمقولات مكذوبة، أو على أحسن الفروض مراوغة فلن يكون سوى حلقة جديدة من حلقات العبث في الموقف العربي من معركة مصيرية تحتاج منا إلى حشد كل ما نملك من طاقات حفاظاً على حاضرنا من التآكل وعلى مستقبلنا من الضياع.



أقوال معاصرة

● افريقيا مأساة، وفى نفس الوقت تحد .

د. هنرى كيسنجر

من كتابه الأخير هل أمريكا فى حاجة إلى سياسة خارجية

● تجاهل الاختراعات التقنية الطبية والزراعية أو المعلوماتية يعنى فقدان فرص التقدم المتاحة للفقراء.

مارك مالوك براون

مدير برنامج الامم المتحدة الانمائى

● بسبب ضعفها تشكل روسيا خطرا متزايداً

روبن ليم

استاذ السياسات الدولية بجامعة نازان باليابان

● نحن النساء أشد الناس عداوة لأنفسنا، نشأنا أسيرات فكر يزعم ان الاعمال المهمة لا يستطيع أداءها سوى الرجال.

كاترين جراهام

صاحبة الواشنطن بوست والنيوزويك

● عندما يكون فى امكاننا إضاءة بارقة أمل يمكننا القول بأننا نجحنا فى مهمتنا.

دانيل ميتران

رئيسة مؤسسة فرنسا - حريات المعنية بحقوق الانسان

● الواقع الثقافى متدهور ومحاصر بشبكات المنافع وغياب الضمير.

الشاعر محمد ابراهيم ابو سنة

● الموسيقى علم وابداع قبل أن تكون فنا.

د. وليد غلمية

رئيس المعهد الوطنى العالى للموسيقى الكونسرفتوار فى لبنان

● المرأة اللبنانية مريضة بالتطور وبعيدة عن التراث.

مصممة الأزياء اللبنانية بابو لحود سعادة

● لا يوجد شئ يمكن أن يجعلني اعتزل التمثيل، إلا اذا داهمتنى شاحنة أو منتج أو ناقد.

النجم الامريكى جاك ليمون

الذى داهمه السرطان فأودى بحياته قبل شهرين



هنرى كيسنجر



محمد ابراهيم ابو سنة



جاك ليمون



الصهيونية هل هى نزعة عنصرية ؟!

بقلم
د. أحمد أبو زيد

عقد في ٣١ أغسطس وبداية هذا الشهر مؤتمر مكافحة العنصرية بمدينة «ديربان» بجنوب إفريقيا والتي تطرح الدول العربية والاسلامية من خلاله إدراج الصهيونية باعتبارها نوعا من أنواع العنصرية وتعتبر الولايات المتحدة والغرب ذلك معاداة للسامية.

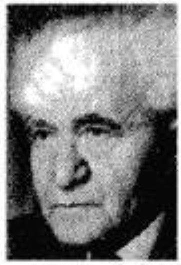
وهذا المقال يتناول حقوق الإنسان، والموقف الأمريكي من الصهيونية

تثير معارضة الإدارة الأمريكية لمناقشة موضوع العلاقة بين الصهيونية والتمييز العنصرى و إذا ماكانت الصهيونية نزعة عنصرية دهشة بعض المفكرين الذين لايزالون متأثرين بوهم أن المجتمع الأمريكي هو النموذج المثالي للمجتمع المفتوح الذى يعلى دائما من شان الفرد، والذى يتيح المناقشة والنقد بغير حدود ويدعو إلى الديمقراطية ويحافظ على حقوق الانسان بحيث يتبنى الدعوة إلى ضرورة مراعاة هذه الحقوق على مستوى العالم ويسمح لنفسه بالتدخل في شئون الدول الأخرى ويخضعها للتفتيش والمحاسبة على مايتصور أنه خروج على حقوق الأقليات، ويعطى لنفسه الحق فى إصدار الأحكام وفرض العقوبات على الدول التى ترى الإدارة الأمريكية أنها تتجاهل هذه الحقوق حسب المعايير التى وضعتها هيئة الأمم المتحدة وحسب التفسيرات التى تعطيها الإدارة الأمريكية لهذه المعايير.

فرغم كل هذه الإدعاءات التى تتمسك بها أمريكا وتطبقها على الدول الأخرى فإنها لاتجد غضاضة فى أن ترفض علانية مناقشة موضوع التمييز العنصرى حين يصل الأمر إلى حدود اسرائيل والصهيونية، ولاتجد بأسا فى أن تتعرض سمعتها للاساءة على المستوى العالمى حين تأبى مناقشة موضوع العلاقة بين الصهيونية والعنصرية فى المؤتمر العالمى ضد العنصرية الذى يعقد فى دربان بجنوب أفريقيا فى الفترة بين ٢٨ أغسطس و٧ سبتمبر الجاري وتهدد بمقاطعة المؤتمر كما فعلت من قبل وذلك على أمل أن تؤدى هذه المقاطعة إلى فشل المؤتمر من ناحية وعدم الإلتزام بأية مقررات، أو توصيات، قد يصل إليها فيما يتعلق بمساواة الصهيونية بالعنصرية.

تأثير اللوبى اليهودى

وهذا الموقف من أمريكا يعكس قوة وفاعلية الضغوط اليهودية داخل الولايات المتحدة وتأثير اللوبى اليهودى فى اتخاذ القرار السياسى بل إن هذا التأثير قد يصل إلى حد التحكم فى اختيار رئيس الدولة نفسه، وقد لعبت أمريكا دورا أساسيا - أو لعله الدور الأساسى - فى



بن جوريون



بوش

الضغط على الأمم المتحدة فى ١٧ ديسمبر ١٩٩١ لكى تشطب القرار الذى كانت قد أصدرته فى ١٠ نوفمبر ١٩٧٥ بمساواة الصهيونية بالعنصرية، ولذا فإن موقفها المعارض لمؤتمر «دربان» خطوة منطقية على الطريق الذى تسير فيه أمريكا لمؤازرة اسرائيل حتى وإن كان فى ذلك خروج على القيم الانسانية والأخلاقية التى ترفع أمريكا شعاراتها وتطالب دول العالم (باستثناء اسرائيل) بمراعاتها ، بل إنه قد يمكن فهم موقف أمريكا من هذه المسألة فى ضوء تاريخها هى ذاتها ونزعاتها العنصرية التى لاتزال قائمة على مستوى الحياة اليومية والتعامل بين الناس رغم كل القوانين التى تؤكد انتهاء سياسة التمييز العنصرى، وإسرائيل من هذه الناحية تعتبر امتدادا لأمريكا أو صورة مصغرة منها بل إن امريكا ترى نفسها وتاريخها مجسدة فى اسرائيل

ومن هنا يجيء ذلك التعاطف اللامحدود .

والغريب بل والطريف في الأمر هو أنه في الوقت الذي تقف فيه أمريكا هذا الموقف خشية أن تؤدي مناقشة الموضوع في المؤتمر إلى إدانة الصهيونية يقوم عدد من المفكرين والباحثين اليهود ومن الإسرائيليين بالكتابة حول النزعة العنصرية الواضحة في الصهيونية ، وفي سلوك الإسرائيليين نحو الفلسطينيين المسلمين والمسيحيين على السواء واتباع أساليب في التعامل وبخاصة في وقت اشتداد الأزمات لاتختلف كثيرا عن الأساليب التي كان النازيون يتبعونها في التعامل مع اليهود في الحياة اليومية .

تميز اليهودي الغربي

وتتجلى هذه النزعة العنصرية فيما تذهب إليه الصهيونية من أن لليهود رسالة إنسانية يحملها اليهود الغربيون (الاشكناز) بالذات لتدعيم سيادة الأخلاقيات، والمبادىء اليهودية وبالتالي سيادة اليهود على كل من عداهم (الأغيار) باعتبارهم يمثلون درجة أدنى من تلك التي يشغلها اليهود في سلم التكوين البشري . وهذه المنزلة الرفيعة يتميز بها الانسان اليهودي الغربي ليس فقط على غير اليهود بل وأيضا على اليهودي الشرقي الذى ينتمي إلى أوربا الشرقية أو الشرق الأوسط وآسيا وأفريقيا باستثناء جنوب أفريقيا التي تمثل الحضارة الغربية وعقلية الانسان الأوربي ومبادئه وقيمه الأخلاقية والاجتماعية . وواضح من ذلك أن الصهيونية، وهي نتاج غربي في المحل الأول، تنظر إلى الشعوب بل والأديان الأخرى - ولاتستثني من ذلك اليهود الشرقيين - بنظرة الاستعلاء التي تسيطر على الثقافة الغربية إزاء الثقافات الأخرى اللاغربية. وقد دفع هذا الموقف الذى تقفه الصيهونية من اليهود الشرقيين الى أن يعتبر بعض الكتاب اليهود الصهيونية نزعة لا سامية تقوم على احتقار جانب من اليهود بدعوى عدم الوصول إلى نفس المرتبة من الرقي الذهني والثقافي والأخلاقي التي وصل إليها اليهود الغربيون الذين وضعوا أسس الصهيونية ومبادئها . والمفارقة هنا هي أن الصهيونية كانت تعتبر نفسها دائما هي الدرع القوى الذى يحمي اليهود من النزعات والاتجاهات الشريرة التي يحملها أعداء السامية ضدهم فإذا بها هي نفسها تحمل مثل هذه النزعات والاتجاهات نحو اليهود الشرقيين بل وكثيرا ما كانت تضحي

بيهود شرق أوربا من أجل تحقيق بعض المكاسب السياسية التى تؤدى إلى قيام الوطن اليهودى القومى فى فلسطين .

وتنطلق الصهيونية كنتاج فكرى وسياسى غربى من نفس منطق الاستعمار ونظرته إلى الشعوب التى خضعت للسيطرة الغربية لدرجة أن الصهيونية تنظر إلى اليهود الشرقيين على أنهم (كائنات طفيلية) قد يحتاج الأمر إلى القضاء عليهم للارتفاع بمستوى (الجنس) وذلك إذا اخفقت الجهود فى اخراجهم من (صناديق القمامة) التى يؤلفون هم أنفسهم محتوياتها ومكوناتها . ولم يكن هدف الصهيونية هو مجرد تحقيق وطن قومى لليهود وإنما أن يكون هذا الوطن - وهذه مسألة مهمة - صورة من المجتمع الغربى المتقدم الذى يتحكم فى الشعوب الأخرى الأقل منه تقدما ورقيا، وتنعكس هذه الأيديولوجيا الاستعمارية داخل اسرائيل نفسها حيث يعامل اليهود الاشكيناز اليهود الشرقيين بما فى ذلك اليهود المهاجرين من البلاد العربية معاملة الزنوج فى أمريكا على أيدى البيض، وإذا كانت القوانين فى اسرئيل تمنع التفرقة فى المعاملة من الناحية الرسمية فإن الأمر يختلف عن ذلك تماما فى الحياة الواقعية وفى التعامل اليومى.

وهذا معناه أنه على الرغم من أن هجرة اليهود الشرقيين إلى إسرائيل اسهمت اسهاما كبيرا فى تحقيق أهداف الصهيونية من اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين فإن الصهيونية التى ترتبط أساسا باليهود الغربيين ترى فى اليهود الشرقيين مصدرا لتهديد الثقافة والقيم والمبادىء الغربية التى تريد الصهيونية إرساءها، بحيث ترتبط اسرائيل ثقافيا وفكريا وسياسيا بالغرب حتى وإن كانت تقوم وسط عالم شرقى (متخلف) قد تفلح أو لاتفلح فى إصلاحه والارتقاء به عن المستويات الدنيا التى يلتصق بها . وقد وصف بن جوريون اليهود الشرقيين عام ١٩٦٤ بأنهم جماعات تفتقر إلى أبسط أنواع المعرفة الاولية وليس لديهم أى قدر من التربية اليهودية أو الانسانية بل إن رجلا مثل أبا إيبان الذى كانت خلفيته أكاديمية محترمة كان يقول إنه يتعين على إسرائيل أن تعمل على غرس الروح الغربية فى نفس هؤلاء اليهود الشرقيين وألا تسمح لهم أبدا بأن يهبطوا بها إلى مستوى الشعوب الشرقية الذى كان يراه مستوى غير

طبيعي، وإن رسالة اسرائيل على هذا الاساس نحو اليهود الشرقيين هى تحويلهم إلى صورة اليهود الغربيين (الاشكيناز).

وينظر اليهود إلى المسيحية كدين وعقيدة بنفس نظرة الاستعلاء التى تكشف عن العنصرية التى ترفع الصهيونية من شأنها وتعمل على ترسيخها بمختلف الطرق والأساليب رغم محاولات الانكار والتمويه . بل إن موقف اليهود من المسيحية يكشف عن مدى الكراهية المتأصلة فى نفوسهم والتى قد يكون لها أسبابها التاريخية القديمة التى بلغت ذروتها فى حادث صلب السيد المسيح عليه السلام، ولكن هذه الكراهية كثيرا ما تتعدى حتى الوقت الحالى كل الحدود المعقولة لدرجة أن الاستاذ إسرائيل - شاحاك مؤسس رابطة حقوق الانسان فى اسرائيل يقول أن احتقار الرموز الدينية المسيحية وعدم مراعاة قداستها يعتبران من الواجبات التى ينبغى الالتزام بها فى الديانة اليهودية القديمة التى تحتم على الإنسان اليهودى الملتزم بأن (يبصق) على الصليب رمز المسيحية بل وعلى الكنائس المسيحية إذا سار بجوارها ، بل إن هذه الكراهية كثيرا ما تؤدى إلى تصرفات تثير السخرية ولكن لها دلالتها ومغزاها وبخاصة حين تصدر هذه التصرفات من الدولة وعلى المستوى الرسمي، من ذلك مثلا أن اسرائيل كانت قد أصدرت منذ سنوات قليلة مجموعة من طوابع البريد التى تحمل بعض الصور للمناطق الأثرية والسياحية، ومنها طابع يحمل صورة إحدى الكنائس القديمة العامة التى يعلوها الصليب بطبيعة الحال، وقد حرصت الدولة على أن يظهر الصليب بصورة مصغرة بشكل مبالغ فيه بحيث لايكاد يرى بسهولة، ومع ذلك ثارت ثائرة رجال الدين اليهود والمتعصبين لظهور الصليب فى عمل تصدره الدولة مما اضطر الحكومة إلى سحب ذلك الطابع من السوق وتغييره وإعادة إصداره بعد حذف صورة الصليب تماما من أعلى الكنيسة، وهذا الموقف من المسيحية يفسر لنا مدى الضيق الذى يشعر به اليهود لوجود بيت المقدس وهو موضع تقديس واحترام من المسلمين والمسيحيين على السواء ورغبتهم فى هدمه وإزالته تماما من الوجود بزعم وجود الهيكل الثانى أسفل الموقع الذى يشغله المسجد .

وقد وصل الأمر باليهود فى اسرائيل - أو على الأقل بفريق منهم إلى حد الاحتجاج الذى يصل إلى

الرفض والاعتراض على استخدام العلامة الحسابية المقبولة دوليا للرمز إلى عملية الجمع (علامة +) لأنها هى ذاتها رمز الصليب المسيحى اضطرت الدولة إلى أن تصدر للتلاميذ فى المدارس الدينية والطوائف الدينية المتعصبة كتبا للحساب استبدلت فيها علامة ⊥ بعلامة + زائد فى عمليات الجمع، وكان الاعتراض على العلامة الحسابية المعروفة فى كل انحاء العالم ناجما من الخوف من أن يشجع التعود على هذه العلامة الحسابية على اعتناق المسيحية بدلا من اليهودية ، وإن كان السبب الحقيقى كما يقول بعض الدارسين اليهود أنفسهم هو أن اعتياد الأطفال منذ الصغر على هذه العلامة قد يقلل من الشعور بالكراهية ضد المسيحية

●●●

هذه الأمثلة وغيرها كثير جدا تبين لنا مدى التعصب والتحامل لدى اليهود ضد (الأغيار) كبشر وثقافات وديانات وهى مشاعر عملت الصهيونية على تغذيتها كوسيلة لتمييز اليهود عن بقية الشعوب والجماعات، ومع ذلك تأبى الولايات المتحدة على العالم أن يبحث مسألة العلاقة بين الصهيونية والعنصرية

الصهيونية

استجابة منها لضغوط الصهيونية العالمية وليهود أمريكا . ومن الطبيعى أن يصل هذا التمييز العنصرى ذروته فى اسرائيل ضد العرب المسلمين والمسيحيين بل وضد العرب اليهود أيضا الذين لا يفترقون من المسلمين والمسيحيين! إلا من حيث الديانة . والصهيونية نفسها تفرق مع ذلك بين العربى المسلم الشرير بطبعه والعربى اليهودى الطيب بطبعه وأنه يتعين على اسرائيل ازاء ذلك أن تضطلع بتطهير وتنقية اليهود الشرقيين من (عروبتهم) ومن الخطيئة الأولى الكبرى وهى الانتماء إلى الشرق . وهذه كلها أمور ينبغى أن تكون حاضرة دائما فى الأذهان أثناء التعامل مع اسرائيل الدولة والناس الذين يجسدون مع استثناءات بطبيعة الحال - الصهيونية بمبادئها وتعاليمها ونظرتها المتعصبة إلى العالم اللا غربى وبوجه أخص إلى الشرق العربى الذى ترى فيه نموذجا للتخلف والذي يهدد بذلك (التخلف) نفسه المدنية الغربية التى تريد الصهيونية تطبيقها بحذافيرها فى إسرائيل.



سهى بشارة والمناضلة كفاح

بقلم
أمين يسرى

قلت لصاحبى: هل قرأت تصريحات نائب الرئيس الامريكي التى نشرتها صحف هذا الصباح وفيها يبرر قرار حكومة إسرائيل الاستمرار فى سياسة اغتيال قادة مقاومة الاحتلال، ويعتبر ذلك من قبيل استباق تحاشى الأخطار وبالتالى يندرج ضمن مبررات الدفاع عن النفس؟

فوجئت بصاحبى يقول: لقد توقفت عن قراءة الصحف كلية منذ عدة أشهر فما فائدة أن نقرأ أخبارا مكررة عن شهداء انتفاضة الأقصى وتزايد شراسة جنود الاحتلال؟ دون ان نقرأ عن رد فعل عربى يتناسب مع هذا العدوان الغاشم؟ ثم تطلع إلى السماء وأخذ يتلو ابياتا للشاعر نزار قبانى:

انا منذ خمسين عاما
أراقب حال العرب
وهم يرعدون ولا يمطرون
وهم يدخلون الحروب ولا يخرجون
وهم يعلكون جلود البلاغة علكا
ولا يهضمون
أنا منذ خمسين عاما
أراقب حال العرب.. إلى آخر القصيدة

ثم أردف قائلا: الأزمان تحاصرنا. مواكب الشهداء تقتل النخوة فينا الأمة محاصرة .. الأزمات فاقت قدرتي على تحملها .. لكن الأسوأ اننا نريد ونرغب ونقدر ان نعبر عما يجيش في صدورنا .. ولكن ان فعلنا سنتهم باننا نهدد الامن والاستقرار.. فالافضل ألا نقرأ الصحف وألا نسمع نشرات الاخبار حتى لا نموت حسرة على فراشنا.

وكما فوجئت بكلمات صاحبي الذي أعرف انه قارىء نهم وانه منشغل بالسياسة حتى قبل أن يلتحق بالسلك الدبلوماسي الذي لم يغير من طباعه فبقي على صلاته بأحزاب وتنظيمات سياسية وان حرمته قيود الوظيفة عن الانتماء الى أي منها، فقد فوجيء صاحبي بطلبي منه الاذن بالانصراف وغادرت مسرعا دون التفات مني لمحاولاته لاستبقائي. فكلماته نبهتني إلى أني على موعد مهم مع سهى بشارة عبر صفحات كتابها «مقاومة» الذي أشتريته اثناء وجودي في باريس .

وفي طريقي إلي منزلي سألت نفسي عن الصلة بين ما سمعته من صاحبي وبين كتاب «مقاومة» . وهي بالتأكيد صلة وثيقة. فسيرتها الذاتية وما روته عن عشر سنوات قضتها في معتقل الخيام هو خير رد على كلمات نزار:

اذا أعلنوا ذات يوم وفاة العرب
ففي أي مقبرة سيدفنوني

ارهاصات قدوم المخلص

فالعرب لم يموتوا ولن يموتوا.. ولهم بنات كسهى بشارة وسناء محيدلي والآنسة كفاح. بل عشرات البنات اللاتي شاركن سهى وكفاح في معتقل الخيام إلى جانب بنين ضمهم ذات المعتقل. بل ان الاعداد المتزايدة يوميا من شهداء الانتفاضة الذين تركوا المئات من الامهات الثكلى والزوجات الارامل والأطفال الأيتام هم دليل قاطع على ان العرب ليسوا حكومات وأنظمة تكتفي بالالحاح على وقف العنف دون ان تفرق بين المستعمر المعتدي وبين العربي صاحب الأرض المغتصبة وان استمرار الانتفاضة واستمرار المقاومة هي ارهاصات على قرب قدوم «المخلص» الذي سيأتي عن قريب ليقود امته في نضالها نحو الحرية. بل أن حالة الاكتئاب والتشاؤم والاحباط الذي أصاب صاحبي وجعله يعزف عن قراءة الصحف وسماع نشرات الأخبار لدليل آخر على إرهاصات قرب قدوم هذا «المخلص» فالزعماء كالانبياء يسبق مقدمهم الشعور بالحاجة إليهم والمقاومة والاحباط كلاهما ينبيء عن مخاض مولد هذا «المخلص» . هكذا يقول لنا التاريخ فلا جان دارك قد هبطت فجأة من السماء ولا انشقت الأرض واخرجتها راكبة فرسها. ولا منديلا.. ولا سعد زغلول ولا مصطفى كامل ولا جمال عبدالناصر إلا نبت ارض كانت في حالة مخاض. وليست أرض العرب بأسوأ مما كانت عليه أرض الصين يوم كان حاكمها الاجنبي يطعمها الافيون ومع ذلك ولدت ماوتسي تونج. وليس هذا اغراق في

التفاؤل. فقراءة التاريخ وقراءة مذكرات سهى بشارة تحديدا وسيرتها الذاتية وعشر سنوات في معتقل الخيام وقراءة يوميات الانتفاضة والعمليات الاستشهادية يجعلنا - او بالاحرى كان من المفروض ان يجعل الولايات المتحدة تصدق - ان تحذيرات الحكومات العربية التي توصف بالمعتدلة بان استمرار المقاومة في مواجهة شراسة العدوان يجعلها معرضة للسقوط ويجعل اقتراب مولد «المخلص» وشيكا.

مولد سهى

سهى بشارة ولدت في الخامس عشر من شهر يونيو «حزيران» عام ١٩٦٧. وفي هذا اليوم كانت الجيوش المصرية والاردنية والسورية تجرجر اذيال الهزيمة على يد الجيش الاسرائيلي. وكان جمال عبدالناصر في هذه اللحظة بالذات - لحظة ولادة سهى - يقدم خطاب التنحي الى شعب مصاب بالذهول من رؤية رئيسه الأسطوري يتهاوى «ولئن ولدت في يوم هزيمة للعالم العربي فقد أتت تسميتي سهى - وتعني النجمة - تيمنا وطلبا للأمل».

«ولدت في دير ميماس وهي قرية وادعة في جنوب لبنان وهي قرية مسيحية وعائلتنا من الطائفة الأرثوذكسية واسم عائلتنا العربي ينبىء بالبشارة التي أعلنها الملاك لمريم العذراء».

ولئن كانت القرية بعيدة عن بيروت فإنها مالبثت على مرمى حجر من اسرائيل. وكان يكفي المرء ان يسلك الطريق التي تجتاز القرية إلى خارجها حتى يبلغ إلى أول خط حدودي قائم على بضعة كيلو مترات فحسب. ولم يكن بمقدور أي من سكان دير ميماس أن يعاين من بعيد أراضي الإسرائيليين أو بيوتهم، وكان يلزم الراغب منا في هذه الرؤية أن يتسلق القمة التي تفصلنا عنهم. غير أن ما كان يباعد بيني وبين الإسرائيليين مشاعر صادقة تنامت في كياني منذ سنوات طفولتي الأولى التي تلازمت مع فترة عصيبة مرت بها البلاد العربية وهي مازالت إلى اليوم تؤمل النفس بطرد الإسرائيليين من فلسطين المحتلة».

لكن سهى تبدأ وهي بعد فتاة صغيرة بالتعرف على الإسرائيليين ليس من واقع حكايات جدتها ولكن من واقع ما كانت تتعرض لها قريتها من عدوان. فبعد ان كانت الحدود بين إسرائيل ولبنان تنعم بالهدوء النسبي على امتداد عقدين تقريبا من العام ١٩٤٩ إلى ١٩٦٧ فقد أخذت بالقبول منذ ذلك الحين. ذلك أن منظمة التحرير الفلسطينية جعلت تكثف من عملياتها العسكرية انطلاقا من لبنان الذي بات عرضة لغارات إسرائيل.

صورة الإسرائيليين

وتقول سهى: إنه اذا كان من اليسير أن اتبين صورة الإسرائيليين في ذهني لفرط ما كانت جدتي تروي لنا من حكايات عنهم ولأعمال القصف التي تعرضت لها دير ميماس من قبلهم عام ١٩٧٣، فإنه كان من العسير على أن

ارسم للفلسطينيين صورة معلومة. اذ لم أعرف فلسطينيين في طفولتي ولا في فتوتي غير أني كنت أعرف أنهم طردوا من أرضهم وأنهم ينتظرون أن تكون لديهم القدرة على استردادها. ومع ذلك ظلت صورتهم في خيالي غامضة بل ملتبسة وما كنت أعرف مخيمات للفلسطينيين والقضية الفلسطينية لم تكن تمسني مباشرة. وانما كنت لا أزال اعدهم لبنانيين شأن الآخرين.. وكان اسم عرفات لا يبدو لي مألوفا غاية الألفة.

وكان لحادثة غامضة في بداية الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٦ ان تشوه الفلسطينيين في عيني لأمد طويل.. لكن فيما بعد ولزمن متأخر تبينت لي الحقائق الفاضحة. فقريبي عفيف لم يقتل على يد أحد الفلسطينيين وانما على يد لبناني كان اراد أن ينتقم لاختفاء أخيه على يد كتائبيين وكان يظن ان قريبي عفيفي هو الذي اقدم على اغتياله وفي نهاية الامر تبين ان هذا المختفي لم يقتل فقد توارى عن الأنظار وانخرط من تلقاء نفسه في معسكر الكتائب واقترف اعمالا لصالحهم.

وانقضت سنة قبل ان اكتشف الفلسطينيين وقضيتهم وعلى حقيقتهم ولكن بظروف مختلفة تماما عن الماضي البعيد. ذلك يوم عاينتهم وهم يحوطون هذه المرة بنعش أحد اقرباني وكان يدعى «خالد» فرأيتهم يشكلون من حوله كوكبة الشرف ويؤدون التحية للشهيد في نعشه على انه فقيد الثورة الفلسطينية نفسها. ذلك ان اعدادا من الشبان اللبنانيين أخذت تنخرط في صفوف الفدائيين حالما تبين لها ان هؤلاء يقاتلون الإسرائيليين الذين دخلوا جنوب البلاد وامعنوا فيها غزوا وارهابا وقتلا. وكان قريبي خالد واحدا منهم. وقر رأي منظمة التحرير الفلسطينية ان تجري للشهيد مراسم تشييع استثنائية. فانطلقت ذلك اليوم تظاهرة ضخمة في بيروت الغربية غير بعيد عن منزل الشهيد. اما انا فوقفت اتابع ذلك المشهد واعاين الفصول المؤثرة التي تتوالى امامي. فرأيت الشبان الفلسطينيين وهم يسيرون في العرض العسكري ضاربين الأرض باقدامهم على الايقاع نفسه. وكان شبان آخرون يحملون صورا مكبرة هي رسوم لشهدائهم. وينثرون الزهر الاسود والابيض والاحمر والأخضر بالوان علمهم الفلسطيني. وهكذا تسنى لي أن اكتشف علما وقضية وشعبا.

رعاية جيش الاحتلال

ولم يطل الأمر حتى صارت دير ميماس جزءا من الحزام الأمني الذي اقتطعه جيش الدفاع الإسرائيلي من البلاد وجعله حرزا له. وبذلك بلغت في صميم نفسي إلى حتمية راسخة وهي ان للبنان عدوا واحدا ومحتلا واحدا الا وهو إسرائيل. وفي ادراكي ان الحرب الأهلية هي محصلة طبيعية لما كنا فيه. ذلك ان السلطات الاسرائيلية في نظري كانت ولا تزال منذ عقود طويلة تتبع

الاستراتيجية نفسها والتي تقضي بأحتلال جنوب لبنان، وتوسيع حدود إسرائيل على الدوام كلما امكن ذلك . وكان هدف هذه السلطات واضحا وهو تفجير الوضع في لبنان ليتسنى لها ضم المزيد من الأراضي وبغية تحسين موقع الدولة العبرية بتوسيع أرجائها.

وجاء الخامس عشر من شهر يونيو / حزيران في العام ١٩٨٢ والذي بلغت فيه الخامسة عشرة من عمري. ورغم اني لم احتفل يوما بعيد ميلادى فإنه في هذا التاريخ بالذات لم يكن جديرا بأى احتفال . وكنا نعد العدة لمغادرة بيتنا في اتجاه منفى آخر في الجنوب . وكان اعدائي على مدى نظري الإسرائيليون يعسكرون لدى بوابة مدينتي منتصرين.

عملية ما يسمى «بسلامة الجليل» التى امتدت حتى مدينة بيروت.. واشتد التوتر بل راح يزداد كلما تقدمت ارتال الدبابات الاسرائيلية لتحتل كل اجزاء العاصمة.

لاح بريق الأمل

يقينا في القرية الى نهاية نوفمبر / تشرين الثاني. وكلما حاولت ان أشعل غضبي عاودني التفكير في إسرائيل وفي واجبي كلبنانية في مواجهة عدوانها. وكانت بشرى ولادة جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية في السادس عشر من شهر سبتمبر / ايلول قد غمرت كياني فرحا. وقلت في سري: أخيرا لاح بريق الأمل.

ولم تمض اسابيع قليلة حتى وافانا والدى الى القرية.. وكان حصار بيروت الغربية احدث فيه عميق الاثر فقد عاش مع بعض رفاقه مرارة الأحد الاسود حين تواصل القصف على منطقة بيروت الغربية على مدى أربع وعشرين ساعة متواصلة بلا توقف.

غير أن الكلمات الاشد ايلاما كانت تلك التى وصف بها والدي مخيمي صبرا وشاتيلا والمجازر التي ارتكبتها فيهما ضد سكان هذين المخيمين الواقعين جنوب بيروت. الاف من الاشخاص لقوا مصرعهم في هذه المذابح التى كان الاسرائيليون مجرد شاهدين فيها لكونهم يراقبون مداخلهما وسرعان ما حملت اسرائيل وحلفاؤها وميليشيات سعد حداد والقوات اللبنانية والكتائب المسئولية كاملة.

النضال دونه الكثير من الصعوبات ولأجله يضحي بالكثير من الامور.. ولئن كنت سالمة في طويتي فإن العملية الانتحارية الأولى التى نفذتها فتاة لبنانية في القطاع المحتل عام ١٩٨٥ سناء محيدلي ذات الثمانية عشر ربيعا شاءت ان تفجر بنفسها القنبلة التى كانت تحملها لدى مرور دورية اسرائيلية فان هذا المثال الذى صفعني جعلني مستعدة للنضال. و لم يكن يشغلني سوى أمر واحد الدخول في المقاومة.. فمنذ الاعلان عن ولادة جبهة المقاومة اللبنانية في السادس عشر من شهر سبتمبر/ ايلول في العام ١٩٨٢ كففت عن الضياع وعرفت سبيلي.

لكن بقى السؤال ماذا يقتضى ان اعمل وفى اى ظروف ومع من؟ لم أكن أعرف جوابا عن هذه التساؤلات.

التفاصيل بعد ذلك كثيرة، وتستغرق صفحات.. ولكن منذ يوليو من العام ١٩٨٧ بات نصب عينى سهى بشارة خطة محددة للغاية وهى تتمثل فى أهداف ثلاثة: رجال الامن فى جيش لبنان الجنوبى والإسرائيليين وانطوان لحد شخصيا الذى حل محل سعد حداد فى قيادة جيش لبنان الجنوبى.

واهتدت سهى بشارة فى النهاية الى فتاة مع المقاومة التى اختارت لهذه العملية اسما حركيا هو «زهرة الجنوب».

ومضت العملية فى طريقها المرسوم بدقة واستطاعت سهى أن توطد صلاتها بالسيدة منيرفا زوج انطوان لحد وأصبح ترددها على المنزل أمرا معتادا ولاحت لها يوما الفرصة لقتل انطوان لحد ولكنها لم تفعل رغم انها كانت على مقربة منه وفى داخل منزله فقد أدار لى قائد الميليشيا ظهره وأخذ يلتهم طعامه.. «واحترت فى امرى الفرصة سانحة.. ومثالية وفى حوزتى سلاح وهو يدير لى ظهره ادخلت يدى فى المحفظة التى احملها الى جانبى.. واخرجت.. منديلا تحسست حجم المسدس الثقيل لصق خاصرى غير اننى ألفيتنى عاجزة عن التماسك ليس هكذا.. ليس وهو يتناول طعامه.. ايا يكن.. ليس من الخلف من الظهر . وفى لحظات غادرت المنزل». هذه اخلاق زهرة الجنوب وهذه اخلاق المقاومة.. القتل لا يكون من الخلف من الظهر وهو يتناول طعامه.. الى ان جاءت الفرصة وما أصعب اصطناعها.

كيف نفذت العملية

صباح الاثنين ارتديت بنطلونا ازرق وقميصا ابيض وامكننى الدخول إلى ذلك البيت الجميل الذى يقيم فيه الزوجان من دون ان تثير ريبه احدهم أو شكه.. وفى البيت التقت سهى مع زوجته وصديقة لها اسبانية وكانتا فى الحديقة، وفيما بعد وفى قاعة الاستقبال وافانا انطوان لحد. وجهت نظرى صوب ساعة الجدار كانت الساعة لم تبلغ الثامنة مساء بعد.. وبدا انطوان لحد الجالس عن يمينى يواصل كلامه. وللحظة وقع نظره علىّ واخذ يرمقنى بشىء من الفضول.. جذبت نحوى الحقيبة الموضوعة تحت قدمى.. وكنت هادئة هدوءا غريبا.. دسست يدى فى الفتحة مشيرة الى زوجته بانى أحضرت لها المفاتيح والشرائط المسجلة التى طلبتها. وفى خفية عن الأنظار قبضت يداى بشدة على اخمص المسدس.. وفيما انا جالسه.. اخرجت قبضتى المسلحة بالمسدس من الحقيبة.. وببرودة اعصاب وللحال صوبت بذراعى اليمنى نحو قائد الميليشيا واسندت معصمى بيسراى. وعلى التخمين صوبت نحو القلب:

وضغطت على الزناد للمرة الأولى. وظننت نفسى أرى الطلقة وهى تخترق سترة الثياب الكاكية لقائد الحرب هذا. فما كان من انطوان لحد الا ان قفز على

قدميه مذهولا وسمعت شتيمه تخرج من بين شفتيه «بنت الكلب».. فأطلقت ثانية.. وهنا سقط أرضا... تم لى ما أردت ونجحت فى القيام بعمليتى.

نقلت سهى الى معتقل الخيام وكان عمرها الحادية والعشرين. وهو معتقل أنشىء فى عام ١٩٨٥ فيما كان سابقا معسكرا قديما لقوات الانتداب الفرنسى وذلك ليكون بديلا عن معتقلى انصار «١» وانصار «٢» اللذين اخلاهما الإسرائيليون بعد انسحابهم الجزئى من لبنان لسنوات ثلاث خلت. ويقوم المعتقل على مرتفع شامخ واستراتيجى هو لصالح المنطقة المحتلة وبعيدا عن ساحات المعارك وقريبا من إسرائيل. ويوم نزلت فيه سهى عام ١٩٨٨ بعد العملية كان صيته قد ذاع.. وبالطبع ظلت الدولة العبرية تنكر وجوده كما انكر جيش لبنان الجنوبى معرفته به مرارا.. وكان معتقل الخيام مثاليا لإسرائيل ولمكاسبها منه اذ لا وجود فيه لعدالة أو قضاء أو قضاة ولا لمحاميه.. فى معتقل الخيام السجناء مفكرون ومحجوبون بل تراهم محذوفين من عالم الاحياء وبسهولة تامة.

معتقل الخيام

فضلا عن ذلك فان خروج المرء من معتقل الخيام حيا ليس بالامر المؤكد ولاسيما النساء السجينات ذلك ان الحياة اليومية فى معتقل الخيام كفيلة بان تتلف أعظم السجناء بنية. ويكمن هذا الامر جزئيا فى المناخ المحيط بالمعتقل. فلما كان الاخير يقوم جنوب لبنان وفى مرتفع جبال حرمون فهو خانق صيفا جليديا فى الشتاء.. وكانت تتف المعلومات المستقاة من هنا وهناك قد نبهت المنظمات المدافعة عن حقوق الانسان الى وجود انتهاكات مريعة فيه فسارى الى تصنيفه فى سجلات العار خاصتها وفى المرتبة التى يستحقها. والحال أن انتفاء اى وضع قانونى من المنطقة المحتلة والذى يتعارض مع توجهات الأمم المتحدة كان يحول على الدوام دون تحقيق مهمات الاستطلاع الانسانية او زيارات المنظمات غير الحكومية للمعتقل الخيام من قبل المؤسسات الدولية حتى ان اللجنة الدولية للصليب الاحمر نفسها لم يكن يؤذن لها برؤية المعتقلين فى هذا المعتقل.

كان هذا المعتقل جحيما الا انه على حد وصف سهى جحيم انفرادى وسرى، وليس من الهين عرض ما تعرضت له سهى فى هذا المعتقل على مدى عشر سنوات، ليس فقط لما اسهبت فى عرضه فى كتابها واستغرق عشرات الصفحات لكن ايضا لان التفاصيل مؤلمة لأى قارىء الى المدى الذى اصابنى بخليط من الخوف والاكتئاب والحزن والحقد على القائمين على أمر هذا المعتقل وظلت هذه المشاعر تسيطر على ولم يخفف من آثارها الا ما نشرته اثناء القراءة احدى الصحف عن اتجاه النية لتحويل هذا المعتقل الى متحف ومزار يجسد الهولوكوست الإسرائيلى للمعتقلين العرب، ويبقى رمزا حيا فى الذاكرة العربية إلى جانب متحف قانا على وحشية الذين اقمنا معهم سلاما موثقا فى معاهدات دولية!

كفاح .. وضروب من الشجاعة!

في الحمام وجدت سهى قطعة من الكرتون عذراء تماما!! وراحت تقلبها دون ان تجد فيها شيئا وبعد ان وجهتها صوب النور توصلت سهى الى قراءة لبعض الكلمات التشجيع منقوشة على سطح الكرتون بواسطة قطعة من حديد. انها كلمة مختصرة تبدى فيها احداهن دعمها لسهى. وعرفت فيما بعد انها للمعتقلة كفاح التي تصفها سهى بانها ليست معتقلة بشأن الأخريات . انها مقاتلة مثلي كانت اسرت والسلاح في يدها من خلال عملية قامت بها ضد اسرائيل. وكفاح ليست لبنانية انما هي فلسطينية . كبرت كفاح في مخيمات صبرا وشاتيلا في بيروت.. وكانت هناك في العام ١٩٨٢ يوم اجتاحت المكان على حين غرة القوات اللبنانية بعد اجتياح اسرائيل بيروت . كانت لاتزال في الثانية عشرة من عمرها حين حصلت المجازر التي حصدت ثلاثة من اخوتها وتجاوزتها فبقيت على قيد الحياة.. ولما بلغت السابعة عشرة التزمت القتال ضد إسرائيل الى جانب المقاتلين الفلسطينيين وذهبت في عملية الرابع والعشرين من اكتوبر عام ١٩٨٨ .

«...ولدى وصولي الى المعتقل لم يكن اسم كفاح غريبا عني فقد تسنى لي ان احيط علما بالعملية التي شاركت فيها حتى ان هذه العملية كانت محط اهتمامي البالغ، لاحباطها اولا، وللغليان في المشاعر الذي أحدثته في المنطقة المحتلة حتى انها حملتني على تأجيل عمليتي خمسة عشر يوما أخرى.

وفي معتقل الخيام كانت كفاح عرضة للتعذيب الوحشي بيد انها صمدت حياله وقد بدت لي ثابتة العزم وذكية وامكنني تميزها بطرفة عين. ذات عينين حزينتين وابتسامة باهرة، جميلة ونشيطة ولطالما تغزل بها الشباب قبل اعتقالها. هي مسلمة، مؤمنة، وملتزمة بايمانها، وتضع الحجاب، جاهدة في اتباع الهدى».

..«ومنذ التقينا في الزنزانة نفسها لم تزل صداقتنا تزداد متانة ورسوخا حتى صرنا ولا شيء يفصل بيننا كان لدينا الكثير من الامور المشتركة كانت كلتانا ذات روح وثابة شابة ومقتنعة بما تقوم به.

وحين وجدنا معا بين اقامتين في الحبس الانفرادي تكلمنا كثيرا ولم تكف عن التحدث في امور لا تسعها الدنيا. تحدثنا عن كل منا.. عن احلامنا وعن امنياتنا وجعلنا نقابل حكاياتنا احدانا في مقابلة الاخرى فروت لي كفاح كيف انها تلقت في اثناء سجنها في إسرائيل والدهشة تغمر كيانها مساعدة من إحدى «عدواتها» اذ لما كانت لاتزال في إسرائيل وصارت تستجوب بوتيرة مهلكة وتقاسي الأمرين خطر لها ان تفيد من وقفة بين الاستجواب والتعذيب وسألت حارسة في السجن ان تعطيها رشفة ماء غير أن الاخيرة مضت دون ان تلتفت اليها او تجيبها بالكلام ثم عادت سرا - وفي يدها ربع ليمونه وانتظرت حتى عصرت صديقتي ماء الليمون في فمها وعادت لتأكل جلدته كاملة. حينئذ اخبرتها كيف اني حرمت من الماء ثلاثة ايام متواصلة قضيتها في الحبس الانفرادي

وكيف كنت مصممة على امر طالما كنت انفر منه بكل قواي. ان اطلب الماء من حارستي اللبنانية والتي كانت ترفض دوما ان تنيلني اياه.

وبخلاف كل المعتقلات كنا انا وكفاح نعرف الدواعي التي نحن بسببها في معتقل الخيام. لقد اخترنا ذلك، ورغم هذا كنا جاهدتين في عدم انفصالنا احدانا عن الاخرى. واستمرت رفقتنا طويلا ست سنوات بمحنها وبصداقتنا كذلك. ولا أزال اذكر يوم الثالث من اغسطس ١٩٩٤ فقد صار تحريرها عبئا على الإسرائيليين وامرا ملحا فبعد انقضاء سنة على ابرام اتفاق اوسلو جاهد الفلسطينيون في الحصول من شركائهم الجدد على صكوك لتحرير النساء الفلسطينيات المعتقلات في سجونهم.

خرجت كفاح وبقيت سهى

وحين خرجت كفاح كنت اقبع هاهنا في الحبس الانفرادي ولمدة جديدة ولكني كنت على ثقة من ان وجودنا في المعتقل هو استمرار للمعركة التي يخوض غمارها المقاتلون خارج المعتقل.

وكان ان ثبتني في هذه القناعة وصول معتقلة جديدة عام ١٩٩٦ . فقد اكتشفت في حنان صديقة جديدة ومناضلة بكل ما في الكلمة من معنى واذا كانت رفيقتي الأولى «كفاح» مؤتمنة على حكاية كفاح الفلسطينيين ضد إسرائيل فان شخص «حنان» يبرز قيام حركة سياسية جديدة وصاعدة في المجتمع اللبناني عنيت بها «حزب الله» ولقد بات هذا الفريق الجذري المنغرس في صفوف الطائفة الشيعية يوما بعد يوم من اعتى اعداء الجنود الإسرائيليين ومرتزقتهم من اللبنانيين حتى انه اي هذا الفريق وعد بدحر الإسرائيليين وفعل..

ولعب القدر لعبته فجاءت حنان ووضعت في زنزانة كفاح، التي لم تجد وهي المعتبرة شيوعية ومسيحية أي صعوبة في اقامة علاقة متينة وعميقة مع هذه المناضلة الثابتة في عزمها، ومرت الايام الى جانب حنان.. نقضيها في حديث السياسة والغناء. وعرفتها بمارسيل خليفة واغانيه الملتزمة وبالمقابل جعلت تعلمني أناشيد حزب الله العسكرية.

على ان مرض حنان وتوالي زياراتها للمستشفى اطلق سبيل حنان بناء على ملف طبي متراكم ذلك ان حنان باتت عبئا على جهاز الأمن الذي راح ينفر من تحمل معتقلة تكثر روحاتها وجيئاتها الى المستشفى في مرجعيون وها انا اضيع ولمرة أخرى صديقة غالية.

لم تتح لي الوحشة في معتقل الخيام والانفراد داخل زنازينه ان افهم تماما أن اطلاق سراحي من الاسر صار الهدف الذي تسعى إليه العديد من لجان الدعم التي انشئت في الشرق الاوسط وفي فرنسا.

وفي الثالث من ايلول / سبتمبر ١٩٩٨ وكانت الساعة تشير الى الثامنة هذا الصباح حين دخلت حارسة تدعى عليا وقالت. هيئي اغراضك. واصبحت

فـجـأة واثقـة اننى سـوف يفـرج عنى.. وبعـد اجـراءات.. هـا أنـا مـحـررة.. وفى السـيـارة اعطتنى مندوبة الصليب الاحـمـر الهـاتف الخليوى خـاصـتـهـا لأتصل بوالدتى فكان حديثنا يفيض بهجة وتواعدنا على اللقاء بعد قليل. نعم ماما انا فى حال جيدة الى اللقاء قريبا..»

تحرر الجنوب وسقوط المعتقل

وفى الرابع والعشرين من مايو عام ٢٠٠٠ تحرر الجنوب اللبنانى وسقطت أسوار معتقل الخيام بالايدى العزلاء، وبقبضات القرويين الذين ظلوا طوال هذه السنين مسكونين بصرخات المعذبين الصادرة من المعتقل وراحت صفوف المدنيين تتوافد الى المعتقل. وراح المحررون يدكون ابواب الزنازين محطمين كل الاقفال وقد أعادوا الروح الى الرجال والنساء الذين بدوا متعبين ومندهشين لهذا التحول التاريخى الذى يجرى امام عيونهم.

وبعد زيارتى لمعتقل الخيام وعودتى الى قريتى دير ميماس حيث لم تكن قدماى قد وطئتها منذ عمليتى فى العام ١٩٨٨ صرت انقل خطوى ووقتى بين كل من لبنان قريبا من عائلتى وباريس.. وواصلت مراسلة عزيزتى كفاح التى تزوجت من لبنانى وباتت تحيا فى بيروت مع ولديها الصبى ويدعى ايمن والفتاة وتدعى سهى.. على اسمى.

كذلك عدت والتقيت بحنان التى غدت هى وزوجها يناضلان فى صفوف حزب الله وصار لهما ولد اطلقا عليه اسم عباس.

واليوم يحدث أن امضى بخيالى بطرفة عين وبسبب ظرف تافه الى ذلك الموضع الى أرض الزنزانة وللحظة فقط. ليس ما يشغلنى هذه الذاكرة ذاكرتى. إنما تشغلنى ذاكرة شعب بأسره ومستقبله، تشغلنى روح المقاومة فيه. ذلك ان ما قمت به هو لأجل اطفال الغد ولأجل هذه الساعة الهشة التى لايسعنا فيها ان نراهم يلعبون او نسمع اصداء صراخهم اللاهى فى الأرجاء او هم يستظلون فى شجرة ولا يمكن المرء ان يقدر ثمن الحرية الا حين تنعدم من حوله.

بهذه الكلمات أنهت بسهى بشارة كتابها. وما أظننى وفقت فى عرضه وعذرى انه ليس كتاب مؤلف. ليس فيه خيال. ليس عملا ادبيا او رواية انما هى مشاعر انسانة قضت عشر سنوات فى معتقل الجحيم وما خط قلمها سوى هذه المشاعر الانسانية نحو رفيقاتها فى ذات المعتقل. وخير ما نفعله فى ظروف انتفاضة الاقصى ان نقرأ هذا الكتاب لننمى فى ارواحنا الرغبة والقدرة على ان يكون كل منا مقاومة ضد هذا المحتل الغاصب. وما أجدر بالمنظمات التى تعنى بحقوق المرأة ان تسهل وضعه بين ايدى كل امرأة وكل رجل. فتلك هى المساواه الحقة فى نشدان الحرية. ■

الصحافة
بين الرذائل والفضائل

بقلم
د. محمد رجب البيومي

توجع الشاعر القديم منذ أربعة عشر قرنا حين قال عن أصحابه:

إذا رأوا سبّة طاروا بها فرحا
عني وما علموا من صالح دفنوا

ويظهر أن المسألة غريزية تلازم البشرية منذ حظيت بالوجود إلي يوم يقوم الناس لرب العالمين، فنحن الآن نشهد من تطبيقها العملي ما يجعلها حقيقة لا شك فيها، ولعلماء النفس أن يختلقوا لها من التبريرات ما لا يعجزهم في شئ أما نحن فنستنطق الواقع الملموس حين نكون في مجلس من المجالس كبر أصحابه أم صغروا ثم يأتي حديث مكرمة من المكارم لإنسان فاضل فيمر الحديث عابرا لا تعقيب عليه، بل تري في بعض الوجوه ما يدل علي التبرم القابض وكأن هذا المتبرم المنقبض يستشعر أن مدح غيره هو في ذاته انتقاص له إذ لم يأت بما أوتي هذا الكريم من فضل. أما إذا ذكرت هنة من الهنات تلصق بمن نعرف أو بمن نجهل فالأسماع متيقظة والافواه منطلقة والتعقيبات لا تقف عن حد، ثم ينتقل الأمر إلي مجالس شتي حتي يصبح وكأنه حدث الأحداث أليس شاعرنا القديم قد عبر عن واقعنا أصدق تعبير!.

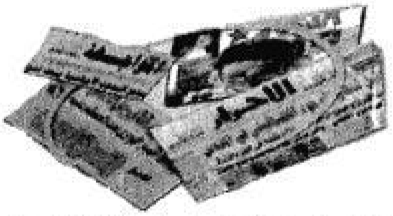


ونـنـتقل إلى صـحافتنا الذائعة فنجد الأمر لا يختلف لبيها عن وضعه في المجالس العامة فقد يقوم محسن كريم بمأثرة نبيلة تدل على عراقة ونبل ودين، فلا تجد خبرا عنها، بل من المؤسف حقا أن تجد الخبر قد امتد إلى من ليس يسـتـحق الاشـادة وإذا أردت الدليل على ذلك فلتقرأ ما تكتبه الصحف عن افتتاح مسجد أو مدرسة أو معهد ديني أو مستشفى تبرع بنفقاتها كلها أرضا وبناء ورصيدا موقوفا للعمال إنسان ميسور فاضل فإنك تجد في حفلة الافتتاح صورة الوزير والمحافظ وأعيان البلدة من نواب ورؤسـاء إدارات وتجـد الوصف المسهب لهؤلاء ثم تجد في سطر واحد يكاد يتوارى عن استحياء.

(وقد تبرع بالمركز الحاج فلان) أما من الحـاج فـلان، ومـاذا أنفق، وكـيف جاهد وكابد حتى استوى الصرح على سوقه فهذا ما لا تجد له أثرا، بل ربما انطلقت الألسنة الحاقدة لتفترى الكذب على الشرفاء فتتهم المحسن الجواد بأنه تاجر في المحرمات وأراد أن يستغفر عن ذنبه! هذا ما سمعته بأذني وهو كذب صـريح يدل على خـسـاسـة نفس قـد انحدرت إلى مستنقع من العفن الوبيء!

أمثلة من صحافة الفضائل

أضــرب مـثـالا آخـر! كلنا نقـرأ صفحات الحوادث التي لا تنقطع مزودة بالصـور وأسمـاء الشـهود، وتعليـقـات



الفهماء من المحللين حتى ليأخذ الحدث المنكر صفحة تامة بأكملها ثم يعاد النشر إذا جد جديد من العثور على شاهد أو وجود وثيقة دالة! ولكن مأثرة رائعة لطالبين نبيلين فى مدرسة تجارية عثرا على مائة وخمسين ألف دولار فتقدما بها إلى السفارة اليابانية عن طريق ناظر المدرسة الذى وجد المال فى يده عن طريق التلميذين الواعدين ووجد فى الأوراق اسم السائحة المسكينة وموطنها فاتصل بسفارة بلدها، لتحضر كى تتسلم ما يخصها وكانت فى حالة من الانهيار التام فلما جاءها البشير جرى الدم فى الجسم الهامد وهرعت إلى المدرسة لتقدم للتلميذين ماتعورف عليه من المكافأة المالية فرفضا كل الرفض! رفضا خمسة عشر ألف دولار عن طواعية لأنهما قاما بواجب الإنسانية التى لا يحتاج القيام به إلى مكافأة!. وحين علم السيد الوزير بذلك كرم التلميذين وأثنى على أخلاق مصر التى تجلت فى سلوكهما وكل ذلك جاء فى عدة سطور نشرتها الصحف أفما كان الأجدر أن تنشر فى كل الصحف دون استثناء صفحة كاملة تشيد بطهارة هذين الناشئين الكريمين كما ينتقل المحرر إلى منزلى الطالبين، ويأخذ حديثا وصورة للوالدين والأسرة تشجيعا لهذا العمل المبرور!. إن الصحف تنتقل يوم ظهور نتيجة الثانوية إلى منازل الأوائل وتظهر صور الأب والأم والإخوة مع الطالب الفائز! وهذا محمود فى ذاته! ولكن النجاح الخلقى الرائع أهم وآثر من النجاح العلمى الذى أخذ بالدروس والتلقين الأصم دون جدارة ملموسة! ودع الصحافة واسأل كيف مضت فى صمتها الإذاعة مرئية ومسموعة أليس عقد ندوة مع أساتذة أفاضل لتكريم هذين الطالبين أولى من حديث تافه عن ممثل ناشئ، أو ما يشبه دعاية رخيصة يقوم بها مذيع ليسأل ممثلة لم تعرف بعد ماذا تأكل ومن أين تشترى الملبس وقد نشرت جريدة الوفد انتقادا مرا لمذيعة تسأل ممثلة ناشئة عن صحة كلبها وأين يعالج!.

القدماء أبعد نظرا وأنقى فطرة

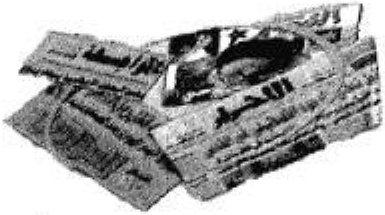
لقد ذكرنى ما كتبته عن أهمال الحديث عن الكرماء من رجال الخير بقصة كتبها الروائى الروسى الأشهر (أنطون تشيكوف) يقول فيها على لسان البطل وهو مهندس مكافح مغمور «إننى أنشأت قنطرة عظيمة فى بلدة كذا، وأقيم افتتاح كبير لها فى محفل مشهود، وألقيت الخطب والمقالات وجعلت انتظر أن يذكر أحدا اسمى واتخيل الأبصار متطلعة نحوى، ولكن لم أر شيئا مما توهمت ثم شوهدت حركة غير عادية فى الجمهور تبعها كثير من الهرج والمرج وماج المكان واضطرب فقلت فى نفسى ربما تنبه القوم إلىّ وهموا بالاحتفال بى، ولكنى علمت أن

ممثلة جميلة محدودة الطاقة تتبعها حاشية من أسرى الغرام قد شرفت الحفل، فجذبت الأنظار وانتهى الحفل وخرجت جميع الصحف تتحدث عن المهرجان وحضور صاحب الفخامة محافظ المدينة، وتشريف الممثلة الطائرة الصيت في حلة ارجوانية لفتت الأنظار مع صور للمحافظ والأعيان والممثلة ودون ذكر ما لمن أنشأ القنطرة!!»

أليس ما ذكره انطون تشيكوف شبيها بما يحدث الآن؟. لقد كان القدماء من المفكرين أبعد نظرا، وأنقى فطرة حين خصوا قصص الفضائل بكتب مستقلة، لتكون موضع الاحتذاء الخلقي، لأن كتب الأخلاق النظرية ذات تأثير محدود إذ لا يتعدى نفعها إلى العامة من القراء أما كتب القصص الخلقية فذات رواج نافع بين العامة والخاصة، وأمامنا كتب (المكافأة وحسن العقبى) (والمستجاد من فعلات الأجواد) و(الفرج بعد الشدة) و(المحاسن والأضداد هذه المؤلفات يطالعها الناشئ وغير الناشئ فتعطيه من الدروس الواقعية ما يرتفع بمستواه إلى ما نرجو من السلوك الحميد وكم كان جميلا من وزارة التربية والتعليم لو أنها صورت الطالبين الأمينين عبدالرحمن فوزى، وجيوزيف رشدى اللذين أشرت إلى صنيعهما الحميد من قبل في جلسة مع السيد وزير التربية والتعليم، ثم أرسلت نسخا من هذه الصور إلى المدارس المصرية لتعلق في صحف الحائط بالمدرسة فيقرأ كل تلميذ ما صنع زميلاه النبيلان، ويلمس من اهتمام الوزارة بإذاعة حديثهما الكريم ما يجعله مشرئبا إلى مثل هذا الصنيع وبذلك تعطى الدرس العملى الناجع للناشئة المسكينة التى لا تسمع ولا ترى إلا فجائع السرقة وشنائع الاغتصاب، وأهوال الجرائم في الأسرة الواحدة التى يكون أبطالها الابن والزوج والأخ والأم والأب! وهى فظائع لاتكاد تصدق لولا أنها واقع ملموس!

حديث آسن عن صحافة الرذائل

وهنا أطوى الحديث العاطر عن نشر الفضائل إلى حديث آسن عن نشر الرذائل، ولست في حاجة إلى أن أبرز بشاعة هذا الشر المستطير بعد أن اتسع الخرق على الراقع فيما اقترفته جريدة النبأ، وكم تحدثت عن هذا الانحدار في مقالات سابقة، فلم أجد غير الاستعلاء من قوم يلوكون الكذب حين يقولون نحن ننشر الحقائق ولا نخترعها جاهلين قول الله عز وجل: «إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون»، ومعروف بداهة أن من الحقائق ما لا يذاع ومن ينكر ذلك لا يجيز لأحد أن يتحدث عن بيته بما لا يليق، ولكنه يرتكب الموبق وراء ابتزاز مالى هو والسحت الحرام سواء بسواء، وقد كانت الصحافة في النصف الأول من القرن الماضى أشرف اتجاها، وأنبل غرضا مما انحدرت إليه في أخريات القرن الماضى



وأضرب المثل لذلك بما تحدث به الأستاذ محمود الشرقاوى فى مجلة الرسالة يوم رحيل الأستاذ عبدالقادر حمزة صاحب جريدة البلاغ، حيث تورط محرر شاب بصفحة السينما والمسرح فى الجريدة فأشار إلى ممثلة ناشئة بما قد يفهم فيه بعض الانتقاص عند من يدقق، لأن المسألة لم تخرج عن التلميح إلى الصريح وقرأ الأستاذ عبدالقادر حمزة ما كتبه المحرر الناشئ فغضب غضبا ارتجت له جوانب الدار، وأمر بفصل المحرر دون إمهال، وتشفع المتشفعون بأن العبارة موهمة فقط وليست صريحة، فأصر على الفصل، وقال الأستاذ: إن البلاغ تصدر لتعطى دروسا فى الأخلاق لا لتكون مجالا للوشايات هكذا كان صاحب جريدة البلاغ وكذلك كان محمد توفيق دياب فى الجهاد وأمين الرافعى فى الأخبار ومحمد فريد وجدى فى الدستور ومحمد حسين هيكل فى السياسة فخلف من بعدهم خلف لا يكتفون بذكر الشنائع بل يضيفون إليها بهتانا عظيما لتقع أسوأ المواقع من النفوس وقد يكون لدينا اليوم من رؤساء التحرير من يحتذى حذو ذوى الفضل ولكن الكارثة كانت طامة حيث أخذت صفحات الحوادث فى الجرائد اليومية تتسابق فى نشر الفضائح وكأنها مجال للتبريز.

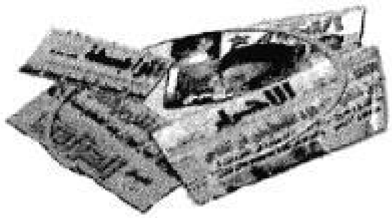
فواحش ثلاثية مزدوجة

يقول الإمام محمد أبو زهرة فى مقال عن هذه الانحدارات، إن الفاحشة المعلنة تتضمن ثلاث فواحش مزدوجة فاحشة الارتكاب، وفاحشة الإعلان وفاحشة إيذاء الأقربين، وقد صدق الأستاذ فى تحديد هذه الفواحش، أما فاحشة الارتكاب فمجال المؤاخذة عليها هو القضاء إذ لا يمكن أن يفر المجرم بجريمته دون عقاب، وهذا بديهى لا يختلف فيه اثنان، وأما فاحشة الإعلان فأهون ما يقال عنها: إنها مثل بارز لفقد الحياء من المجتمع بأثره لأن المجتمع الذى ينام ويصبح على أنباء الجرائم المنكرة، تهون لديه فداحة الجريمة ويعتبرها شيئا طبيعيا لا شذوذ فيه، وتزيد الكارثة حين تنسب جرائم الرشوة والنهب والسرقة إلى الكبار من علية القوم، وهذا هو المشاهد الملموس عيانا دون التباس، وقد ضاعت قيمة الرأى العام فى مصر للأسف، وأقولها صريحا إذ نرى المرتشى والسارق والناهب من الكبار يقع فى العار الشنيع، ثم يقابل من العامة والخاصة بالتبجيل والاحترام فلو كان لدينا رأى عام سديد، لقوبل هؤلاء الناهبون المرتشون بالازدراء، فلا يجدون الاحترام والتبجيل حيث يذهبون ولكن المجرم من هؤلاء يظل فى الحبس أياما ثم يخرج فيقابل بالإجلال وكأنه كان بريئا مظلوما. إن ضياع الرأى

العام فى مصر هو أكبر مشجع على
النهب الغاصب، والرشوة المنكرة، بل هو
الذى جعل الجريمة تسمى بغير اسمها
فهى أحيانا من «السلبيات!» هذه
السلبية التى تذكر فى مجال التبرير
وضعا للفظ فى غير موضعه لأن الموقف
السلبى هو الذى لا ينتج شيئا أما إذا
اقترف المجرم ما يدعو إلى الردع
الصادع فكيف يأتى بالسلبيات على أن
الذين يزرعون هذه المعانى الخادعة فى
النفوس يعلمون حقيقة ما يأفكون،
ولكنهم يحاولون أن يضللوا الرأى العام
وقد نجحوا فى المحاولة فأصبح الرأى
العام عندنا باطل الأباطيل ورمادا تذروه
الرياح!.

إيذاء الأقربين أنكى وأفجع

وأما الفاحشة الثالثة وهى فاحشة
إيذاء الأقربين فأنكى وأفجع وأوجع إذ
قد يكون الإنسان آمنا فى سربه ممتعا
بالسمعة الطيبة بين زملائه سعيدا
بانتسابه إلى أسرة شريفة طيبة، ثم
تخرج الجريدة اليومية بفضيحة لأبيه أو
أخيه أو عمه وقد تكون فضيحة واهية
الأساس، لفقها ملفق، وصدقها موتور،
فكتبت عنها العناوين الخادعة وجرت
تحتها الأنهار الكاذبة ثم ازدانت بالصور
المريبة!، والقضية لم تعرض على القضاء
بعد ولم يقل فيها العدل كلمته التى تحق
الحق وتبطل الباطل! ماذا يصنع هذا
الإنسان المسكين فى مجتمعه، وقد أخذه
الرعد من كل مكان؟ وجاء الشامتون فى
صور المتسائلين، وفى عيونهم ما ينم
على التشفى، لأن تربيتنا المعاصرة ليست
لها صلة ما بتعاليم الإسلام، فهى لا تدفع
السيئة بالحسنة، ولا تمهد السبيل للعذر
أن لاحت وجوهه، ولا تسمع اللغو فتعرض
عنه مارة به مرور الكرام، هذه التربية
الوصولية ساعدت على خلق العداوات،
وانتهزت أدنى فرصة للتشفى والمكيدة،
مرة ثانية ماذا يصنع هذا الإنسان
المسكين فى بلاء صب عليه صبا دون أن
تقترفه يداه، أذكر فى مجال الاستشهاد
حادثة رأيتها رأى العين، فلم يحدثنى بها
أحد، وكان خطرها أكبر من أن يوصف
فقد شاءت ظروف قاهرة أن ينتحر
موظف كبير لأمر يخصه ونشرت الجريدة
اليومية حادث الانتحار واسم المنتحر
وكيفية الانتحار، وفوجئ الأهل من أولاد
مسئولين وأصهار ذوى مكانة بالحادث
وامتلأ السرادق بالمعزين ولكن العزاء
تحول بلسان الحال إلى اتهام فكل معز
أخذ يسأل عن سبب الانتحار، ويقول دون
مجاملة لم تركتم هذا البائس وآخر يظهر
الشماتة المقنعة فى أسئلة تحرج أهل
الميت، حتى وجدوا أنفسهم وكأنهم قتلة
سفاحون!. وإذا كان هؤلاء المتطفلون قد
تجاوزوا الحد فى أسئلتهم المنكرة
وتطلعهم الماكر، فإن الجريدة التى نشرت
الخبر لم تراع مصلحة ما فى نشره
فليس المنتحر مختلسا وليس مجرما
يطالب بحق، حتى تعين الجريدة القضاء
على إيضاح التهمة ولكنه رجل محترم
شغل وظيفة كبيرة فى الدولة إذ كان وكيل
وزارة ولم يأت فى حياته بما يريبه ثم



حلت عليه اللعنة فى ساعة ضعف فقد فيها زمام نفسه فأساء إلى ذاته ولم تتعد الإساءة ذوى قربيا. الذين أحسوا بتعاطفهم معه. أفلم يكن الأولى أن نستر الاسم وألاّ نضاعف مأساة الأقرباء، ويكفى أن الصاعقة قد نزلت على رءوسهم حين فوجئوا بما لا يتوقعون! أين المشاركة الوجدانية التى تبعث على التراحم وأين المسئولية التى توجب على الصحيفة أن تكون ربة حنان ومواساة!

ضرر الإسهاب فى وصف الجريمة

وناحية أخرى هى الإسهاب فى وصف الجريمة وكأن المحرر يكتب حلقات سينمائية ذات فصول، هذا الإسهاب مما يتسابق فيه المخبرون إلى روايات قد تكون من نسج الخيال، وليست مما حصل فعلا لأن مراسل الجريدة يسأل من حوله من الناس ويكتب الإجابة وكأنها حق لا مرية فيه، وقد يكون المسئول لا يدرى شيئا وإنما سمع التفصيل عن شاهد رأى الصغير فجعله كبيرا، وسمح له خياله أن يشتط. هذا الإسهاب المنكر فى تفصيل جزئيات الجريمة يفتح باب الشر أمام القارئ المتهيئ للإجرام فيكون بمثابة أستاذ يلقى الدرس فى تخطيط المأثم واقتراف الشرور وليس الأمر موقوفا على الصحافة وحدها، بل تعداها إلى مسلسلات الإذاعة وقد نشر الأستاذ الإمام محمد أبو زهرة بمجلة لواء الإسلام الصادرة فى شوال سنة ١٣٧٤هـ خلاصة مقال لقاض فاضل نشره بالأهرام قال فيه «بصفتى عضوا بغرفة الاتهام التى نظرت قضية (..... فلان) الذى قتل زوجته، لاحظت من مطالعة أوراق الدعوى أن المتهم قام بارتكاب جريمته وإخفاء معالمها بطريقة هى (طبق الأصل) من التمثيلية التى قامت الإذاعة بإذاعتها تحت عنوان (راحت مع التيار) ومن المؤسف أن أجد الإذاعة المصرية دائبة فى الفترة الأخيرة على إذاعة تمثيليات إجرامية من شأنها أن تعلم الكافة بطريقة شبه عملية أصول فن الإجرام، وتنفيذ الجرائم وإخفاء معالمها، بدلا من أن تسعى من جانبها إلى المحافظة على الأمن العام، ومنع الجرائم وأن تبعد عن الأذهان فكرة الجريمة، ألا يجدر بالإذاعة أن تكف عن إذاعة مثل هذه التمثيليات بعد أن ظهرت نتائجها الفادحة» والفكرة التى دارت حولها التمثيلية وهى قتل الزوجة ثم تقطيع أجزائها قطعا صغيرة، ووضعها فى لفائف مختلفة وحمل كل لفافة إلى مكان بعيد عن سابقه! هذه الفكرة التى تناولتها التمثيلية ورأتها الإذاعة بابا للفن الروائى الشائق، هى التى قام بها المتهم تماما، وقد اعترف بأن التمثيلية كانت أستاذه الموجه. لقد شن الدكتور

عبدالحميد سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين فى الثلاثينات حملة راشدة على القصص البوليسية التى تترجم إلى قراء العربية مفصلة وقائع عصابات شيكاغو ورأى أن المجتمع المصرى بعيد عن هذه الأحداث فلا يجوز أن تترجم وقائعها فى قصص مثيرة، فماذا عسى أن يقول لو امتد به الأجل، وعلم أن المجتمع المصرى قد وجد المرشد الناصح لا من القصص البوليسية بل من صفحات الحوادث فى الجرائد وتمثيليات الإجرام فى الإذاعة!. لقد طف الكيل، لقد طف الكيل، كما يقول رسول الله!

فظائع الإجرام فى الأسرة الواحدة

ولننظر الآن إلى ما امتلأت به الصحف من حوادث الإجرام فى الأسرة الواحدة إننا لانزال نروع بفظائع القتل بين الزوج والزوجة، والابن والوالد، والبنت والأم من ذوى الصلات المشتبكة الواشجة بأمتن الأعراق وتكرار هذه المآسى على صفحات الجرائد جعلها شيئا طبيعيا يقرؤه الإنسان فلا يثير دهشته نظرا لاعتياده الملح!. وقد كانت الأسرة فى الجيل الماضى من التماسك والالتحام بحيث لا تمثل الجريمة الخاصة بها شيئا يكاد يذكر وإذا وقع حادث فى هذا المدار كان موضع الاستغراب والدهشة ولكن الأقلام التى بارك الله فيها، قد جعلت تنتقص سلطة الأب، وتعده مثالا لمجتمع متخلف، والتمثيليات التى تحمل أسماء (العيال كبرت) قد ألحت على إسقاط هيبة الكبير، وطالبت بنشوز الصغير، وتحول الوالد الراعى صاحب الكسب والإنفاق فى نظر هؤلاء الأغرار إلى سجان رهيب، وشبح متخلف، كما تحولت الزوجة المطيعة إلى أمة من الإماء أهدرت مكانتها، ولم تأخذ حريتها فى التبرج والسفور والاختلاط وأدى ذلك كله إلى نزق الزواج العرفى بين الطالبات، وقيام جماعات الشذوذ الجنسى التى تنتمى إلى أبناء اليسار ومن يقال عنهم (الذوات) ولازالت أقلام التجديد الزائف تعصف بكل وضع شريف يقره الخلق ويفرضه الدين.. إن إذاعة الفضائل أعظم أثرا فى بناء الخلق الكريم ونشر الرذائل أهول فتكا بالأمم من الزلازل والبراكين وفى إذاعة الفضائل حفز للهمم، وبعث للعزائم وقد ذكر المحسن الكريم الأستاذ سيد جلال رحمه الله أنه أنشأ مستشفى باب الشعرية متأثرا بما قام به أبناء صيدناوى من إقامة مستشفاهم الكبير، فكان السابق محل احتذاء للاحق كما أن السكوت عن الرذائل يمحو خطرها ويضائل شأنها. وقد كان الأشراف فى الجاهلية - وهى الجاهلية - يترفعون فى أحاديثهم عن ذكر القابح، ويرونها قاذورات لا تتلطخ بها مجالس السادات، حتى ليقول قائلهم فى رثاء أخيه.

إذا ما تراءاه الرجال تحفظوا
فلم يذكروا العزراء وهو قريب!

■



ادم سميث



كارل ماركس

أسئلة الاقتصاديين وإجاباتهم

بقلم

د. جلال أمين

تُروى هذه القصة الطريفة عن أستاذة الاقتصاد البريطانية الشهيرة جون روبنسون (Joan Robinson)، وهى أن زميلا لها فى نفس جامعتها (جامعة كامبردج)، وهو أستاذ للرياضيات قال لها باندهاش شديد:

«لقد لاحظت على أسئلة الامتحانات التى تضعونها لطلبة الاقتصاد أنها لا تكاد تتغير بين عام لآخر، بل لعلها هى نفس الأسئلة تكررونها عاما بعد عام. بينما نحن الرياضيين لابد أن نغير الأسئلة باستمرار حتى لا يكون من الممكن للطالب النجاح فى الامتحان بمجرد حفظ إجابات الأسئلة الماضية. فكيف تستطيعون، أنتم الاقتصاديين، أن تميزوا بين الطالب النجيب وغير النجيب وأسئلتكم ثابتة لا تتغير؟ أجابته الأستاذة روبنسون ضاحكة: «صحيح أننا لا نغير الأسئلة من عام لآخر، وذلك لسبب بسيط جداً، وهو أننا نغير الأجوبة!».

ستة اقتصاديين وسبعة آراء:

كانت الأستاذة الكبيرة تشير بالطبع، وبشىء من السخرية بلا شك، إلى أن الاقتصاديين يغيرون رأيهم باستمرار فى القضايا الاقتصادية، سواء فيما يتعلق بالسياسة الاقتصادية الواجبة الاتباع، أو حتى فيما يتعلق بالنظرية الاقتصادية نفسها. فهم مرة ينادون بتواصل الدولة فى الاقتصاد ومرة يطالبونها بعدم التدخل. مرة يحبذون توازن الموازنة العامة ومرة يفضلون عدم توازنها. ولكن حتى فيما يتعلق بمسألة أساسية من مسائل النظرية الاقتصادية، وهى مسألة العوامل المحددة للثمن، تجدهم مرة يقولون إن ثمن السلعة يتحدد طبقا لما بذل فيها من عمل، ومرة يقولون إنه يتحدد طبقا لما تجلبه السلعة من منفعة، ومرة ثالثة يقولون: بل يتحدد ثمن السلعة بالعرض والطالب. والله أعلم بما سيقولونه فى ذلك بعد عشرين أو ثلاثين سنة. لا عجب أن قال الاقتصادى الانجليزى المعروف جون ميناردكينز (J.M. Keynes) أنك إذا طلبت من ستة من الاقتصاديين أن يخبروك برأيهم فى قضية ما، حصلت منهم على سبعة آراء!

نعم لاشك أن اجابات الاقتصاديين دائمة التغير، ولكن هذا ليس كل الحقيقة. بل الحقيقة هى أن الاقتصاديين يغيرون إجاباتهم ويغيرون أسئلتهم أيضا. وهذا الشق الثانى من الحقيقة لا يقل أهمية عن شقها الأول، وهو بالضبط ما أريد أن أبينه للقارىء ببعض التفصيل فى هذا المقال، أى ميل الاقتصاديين إلى تغيير أسئلتهم من عصر إلى عصر، فهو أمر ملىء بالعبر ويدعو لبعض العجب والكثير من التأمل.

خذ مثلا هذا السؤال الشهير عن العوامل التى تحدد ثمن السلعة وهو السؤال الذى تشكل الاجابة عنه ما يعرف بنظرية الثمن أو القيمة، والذى يعتبر الآن من أهم الأسئلة فى علم الاقتصاد. ألا يدعو إلى الاستغراب أن أكثر من ألفى سنة من الفكر الإنسانى مرت دون أن يهتم أحد من المفكرين أن يسأل هذا السؤال؟ فالمفكرون اليونانيون العظام، رغم اهتمامهم بمختلف قضايا الفكر الإنسانى، بل وببعض المسائل ذات الصلة بالاقتصاد أيضا، لم يبدوا أى اهتمام بالسؤال عن العوامل المحددة للثمن وقل مثل هذا عن مفكرى الرومان ومفكرى العصور الوسطى. كان هؤلاء جميعا، من أفلاطون فى القرن الرابع قبل الميلاد، حتى سانت توماس الأكوينى فى القرن الثالث عشر بعد الميلاد «أى لمدة سبعة عشر قرنا» إذا تكلموا فى أى شىء له علاقة بالاقتصاد حولوا القضية على الفور إلى قضية أخلاقية: هل يجوز

هذا الأمر أو لا يجوز؟ هل اقتضاء فائدة على القروض أمر أخلاقي أو غير أخلاقي؟ متى يكون الأجر عادلا أو غير عادل؟.. وهكذا. وعندما جاء بعد ذلك الكتاب المعروفون باسم «التجاريين» ابتداء من القرن الخامس عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر، وكتبوا فى مسائل اقتصادية، لم ينشغلوا ، هم أيضا، بهذه القضية، قضية تحديد الأثمان، بل لم يثيروها إطلاقا، وإنما كان السؤال الذى شغلهم هو: كيف تزيد الدولة مما تملكه من ذهب وفضة؟

بين مصدر الثروة وثمن السلع

فى منتصف القرن الثامن عشر ظهرت فى فرنسا مدرسة فى علم الاقتصاد اسمها «مدرسة الطبيعيين»، ولكن أصحابها أيضا لم يسألوا أنفسهم: ما الذى يحدد أثمان السلع؟ بل أثاروا السؤال: ماهو المصدر الأساسى للثروة، والذى يمكن أن يرد إليه كل ما تنتجه الدولة من سلع؟ وكيف يجرى تداول هذه السلع من طبقة اجتماعية الى أخرى؟

وهكذا يمكن أن نذكر أمثلة عديدة على تغيير الاقتصاديين لأسئلتهم من عصر إلى عصر. فالاقتصاديون التقليديون الانجليز، منذ ظهر كتاب آدم سميث فى ١٧٧٦ وحتى سنة ١٨٧٠، كان أهم ما يشغلهم هو السؤال عن عوامل زيادة ثروة الأمم، وعما يمكن أن يضع حدا لهذه الزيادة «وهو ما نسميه الآن عوامل النمو الاقتصادى»، ولكن الاقتصاديين التالين لهم «من ١٨٧٠ إلى ١٩٣٦» لم يعتبروا هذا السؤال مهما ، إذ اعتبروا النمو الاقتصادى واستمراره بمعدل سريع، من قبيل المسلمات ، ومن ثم لا يجوز القلق بشأنه . وعندما كتب كينز كتابه الشهير فى ١٩٣٦، كان السؤال الذى يقلقه يتعلق بالعوامل التى تحدد مستوى العمالة الكاملة، بسبب شيوع البطالة وقتها. أما السؤال عن عوامل تحديد الثمن فقد أهمله كينز تماما ولم يعتبره جديرا باهتمامه، بل لقد قالت عنه تلميذته جون روبنسون انه لم ير داعيا لانفاق العشرين دقيقة من وقته التى كانت تلزمه لكى يفهم نظرية الثمن حق الفهم ويتخذ موقفا منها. فلما جاء عصر التضخم الجامح فى السبعينات حول الاقتصاديون اهتمامهم من السؤال عن العوامل المحددة لحجم العمالة والبطالة، الى السؤال عن عوامل التضخم والطرق المثلى لعلاجه.

هل هو أمر طبيعي ؟

قد لا يجد القارئ أي شيء غريب فى هذا التغيير المستمر، من جانب الاقتصاديين، لما يطرحونه من أسئلة. إذ قد يبدو من الطبيعى أن يثير الذهن، أسئلة مختلفة كلما حلت ظروف مختلفة وإنما الذى قد يجده القارئ مدهشا حقا هو تغيير الاقتصاديين المستمر لما يقدمونه من إجابات على السؤال الواحد. إن هذا هو ما كانت الأستاذة جون روبنسون تسخر منه فى قولها الذى بدأت به هذا المقال فعلماء الطبيعة والكيمياء مثلا ناهيك عن

المشتغلين بالرياضيات، لا يقدمون لنا إجابات مختلفة على نفس السؤال، كلما مضى عصر وجاء عصر جديد.

إنهم قد يزيدون اجاباتهم دقة أو شمولا، ولكنهم لا يغيرون إجابتهم من أساسها من عصر الى عصر.

لقد أشرت من قبل الى تغير اجابة الاقتصاديين على السؤال: ما الذى يحدد الثمن؟ من القول بأن الذى يحدد ثمن السلعة هي كمية العمل المبذول فى إنتاجها، الى القول بأنها كمية المنفعة التى تجلبها لمشتريها، إلى القول بأن الثمن يتحدد بالعرض والطلب. ولكن حتى هذه الاجابة الأخيرة «العرض والطلب» . التى نميل اليوم الى أعتبارها الاجابة النهائية والقول الفصل الذى لاشك فى صحته، حتى هذه الاجابة كان الماركسيون حتى وقت قريب «ولازال بعضهم» يرفضونها ويفضلون عليها نظرية ماركس التى تحدد الثمن الى العمل. بل انى لا استغرب أبدا أن تحل محل نظرية العرض والطلب السائدة الآن بعد عقدين من الزمن أو أكثر ، نظرية تقلل بكثير من أهمية الطلب وتؤكد على قدرة المنتج او البائع على فرض ما يراه من أثمان، وذلك عندما يتحول المستهلكون. أكثر حتى مما نراه الآن. إلى عجينة طيعة فى يد المنتجين والبائعين يفعلون بهم ما يشاءون. فحينئذ سيظهر جليا أن الطلب نفسه أصبح من العوامل التى تحددها إرادة المنتج أو البائع، وبهذا يفقد الطلب كثيرا من استقلاله كعنصر من عناصر تحديد الأثمان.. والأمر هنا قد يصبح شبيها بما كان عليه الحال فى ظل الدولة الشمولية التى تتخذ كل القرارات الاقتصادية المهمة، فهي التى تحدد ما هى السلع المنتجة وكمياتها وتوزيعها، ومن ثم فهى التى تحدد العرض وهى التى تحدد الطلب. ومن ثم يصبح القول، فى ظل مثل هذه الدولة، فإن الأسعار يحددها العرض والطلب أقل دقة من القول بأن الأسعار تحددها الدولة. قد نعود الى مثل هذه الحالة فى المستقبل. ولكن بدلا من أن يكون محدد الأثمان هو الدولة، يصبح هو الشركات العملاقة متعددة الجنسيات.

الاقتصاديون وأطباء الأسنان

قد يقول القارئ، إنه حتى هذا التغير المستمر فيما يقدمه الاقتصاديون من إجابات، طبيعي أيضا ومفهوم. فكلما تغيرت ظروف المجتمع وأحواله لابد أن تتغير معها، ليس فقط الأسئلة التى تشغل الأذهان، بل والاجابات أيضا.

فالاجابة التى يقدمها الاقتصادى وتكون صحيحة فى عصر، قد لا تصح في عصر آخر. بعكس الحال فى علم الطبيعة أو الكيمياء، إذ أن الخصائص المادية للظواهر الطبيعية والكيميائية لا تتغير من وقت لآخر أو بين بلد وآخر، أو على الأقل لا تتغير بقدر ما تتميز به

الظواهر الاقتصادية. فالاقتصادى إذن لا يغير جلده ولونه، كما انه لا يناقض نفسه، بل هو فقط يقول النظرية المناسبة فى الوقت المناسب.

وكم كنت أود أن أؤيد هذا القول، وأبدى نفس التعاطف مع الاقتصاديين، حتى وهم يغيرون آراءهم بين وقت وآخر ولكن يمنعنى من ذلك ما نراه من إصرار الاقتصاديين، كلما قدموا لنا اجابة جديدة، على الزعم بأنهم يقدمون لنا اجابة صالحة لكل زمان ومكان، وانهم اكتشفوا خطأ السابقين وهاهم يصححون لهم أخطاءهم، لقد فعل هذا آدم سميث مؤسس علم الاقتصاد، فى القرن الثامن عشر، مثلما فعله كينز فى القرن العشرين. الأول قدم نظريته على أنها صالحة لكل العصور، والثانى سمى كتابه الشهير «النظرية العامة» ظنا منه بأنها نظرية عامة حقا أى صالحة لكل زمان ومكان.

ولكن الحقيقة، فيما يبدو، هى أن على الاقتصاديين أن يحاولوا أن يكونوا أكثر تواضعا فى المستقبل، وعليهم، كما قال كينز نفسه فى لحظة كان يشعر فيها بتواضع حميد، أن ينظروا الى انفسهم على أنهم يحتلون مركزا مماثلا، لا لمركز عالم الطبيعة او عالم الكيمياء أو عالم وظائف الأعضاء، بل مماثلا لمركز طبيب الأسنان الذى لاتتجاوز امكانياته القدرة على خلع ضرس فاسد أو على تنظيف ضرس آخر وإجراء عملية حشو له، وهى مهمة تحتاج إلى «حرفى» أكثر مما تحتاج الى «عالم». كما أن متطلباتها لابد أن تختلف من مريض لآخر. ■

أقوال

* سقوط الإنسان ليس فشلاً .. وإنما الفشل أن يبقى حيث سقط» «دانتون»

* لقى ابن جامع ابراهيم المواصلى، وكانا من أقطاب الغناء فى العصر العباسى، فقال ابن جامع: «رأيت كأنى وإياك فى ركاب واحد، ثم سقطت أنت حتى كدت تلتصق بالأرض وعلا الشق (الجزء) الذى أنا فيه، ففسرت هذا بأن صيتى سيعلو عليك فى الغناء ..» فقال إبراهيم الموصلى: الرؤيا حق والتأويل باطل .. إننى وإياك كنا فى ميزان، فرجحت كفتى وشالت (ارتفعت) كفتك».

لغويات

● يقال «هذا أمر لا يليق بك».، أى لا يصلح لك، أو لا يجمل بك أن تفعله.. واللياقة أصلها لصوق الشئ وإمساكه، فقولهم: لا يليق بك.. معناه لا يمسك بك ولا يلصق ولا يعلق بك.. ومنه قول المتنبى:

وما لاقنى بلد بعدكم
ولا اعتضت من رب نعماى ربا

ويعنى قوله: «مالاقنى» ما أمسكنى ولا التصق بى.. فهو غير لائق بى.

● تصف العامة الشخص المتعطل أو المتشرد فى الطرقات بأنه «صايع»، «والصائع» كلمة عربية.. وصاع القوم أى تعاركوا وحمل بعضهم على بعض، وصاعت النحل تفرقت فى الهواء وتباعدت هنا وهناك.. ومن ذلك قول أمير الشعراء شوقى:

وأقبلت الوفود عليه تترى
كسرب النحل فى الثمرات صاعا

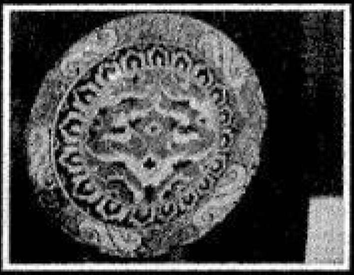
● حين يعلن عن وقف إطلاق النار فى معركة من المعارك يقولون: «وضعت الحرب أوزارها» أى أثقالها أى الأسلحة وأصل الأوزار ما يحمله الإنسان من ثقل على ظهره أو كاهله، فسميت الأسلحة أوزارا لأن الناس يحملونها والمفرد وزر بكسر الواو.. وفى القرآن الكريم «ولا تزر وازرة وزر أخرى».. أى لا تحمل ثقل أخرى.. أى لا يؤخذ إنسان بذنب إنسان آخر.

● جاء فى القرآن الكريم: «إنى أرانى أعصر خمرا»، أى استخراج الخمر من العنب.. وكانت العرب تستعمل كلمة «الخمر» بمعنى «العنب» والعنب بمعنى الخمر.. حكى الأصمعى عن بعضهم قال: لقيت أعرابيا فصيحا ومعه عنب فقلت له: ما معك؟ قال «خمر» أى عنب.. وقال الشاعر المعاصر:

بعثت فينا الكئوس الطربا
أغناء نستقى أم عنبا؟

يعنى أن الطرب ينبعث فى النفس من الكئوس كأنما العنب أو الخمر غناء مذاب يملؤها ونحن نستقيه!

● يقال للمغضوب عليه: «اذهب إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم» وأم قشعم هى ناقة لرجل عربى قديم نفرت فألقت رحلها فى النار التى يستدفئ عليها القوم، فسارت مثلا.. ويقابلها عند الافرنج قولهم: «إذهب للجحيم».



افتتحه الرئيس حسنى مبارك عام ١٩٨٣ وتتم تجزئته عام ٢٠٠١

الخطر يهدد متحف الفن الإسلامى!

تحقيق: أمانى عبد الحميد ● تصوير: شوقى مصطفى

وزير الثقافة يقول لـ «الهلال»:

أقمنا متحف الخزف كبالون اختبار لفكرة إقامة متاحف نوعية!

متحف الفن الإسلامى.. صاحب أكبر رصيد من القطع الأثرية الإسلامية على مستوى العالم (١٠٢ ألف قطعة أثرية).. مقتنياته من أروع السجاجيد الشرقية القديمة والمشكاوات المموهة بالمينا علاوة على التحف الخشبية التى يرجع تاريخها إلى العصور الأولى للحضارة الإسلامية، يقف المتحف الإسلامى أمام مفترق الطرق والمصير المجهول.. أمام إمكانية نقله إلى دار الوثائق القديمة داخل قلعة صلاح الدين، أو احتمال تجزئته إلى أكثر من متحف نوعى يتخصص كل واحد منها فى فن من الفنون الإسلامية (سجاد - عملات نقدية - نسيج)



كتلة من الحجر عليها رنك (ختم) الأسد البارز للظاهر بيبرس

رئيس المجلس الأعلى للآثار:

من الأفضل السعى إلى تحويل المبانى الأثرية المرممة إلى متاحف لعرض الكم الكبير من المخزون الأثرى لدينا

كما ينتظر تحديد مصيره ونصيبه من مشروع تطوير المتاحف الذى تتبناه وزارة الثقافة والمجلس الأعلى للآثار، وذلك إما عن طريق الترميم أو استغلال المبانى الأثرية المتاحة وتحويلها إلى متاحف جديدة.

فهل سيظل المتحف الإسلامى قابعا فى مبناه الأثرى بباب الخلق؟، أم سيتحول إلى متحفين أحدهما داخل أسوار قلعة صلاح الدين والآخر فى باب الخلق؟، أم أن مقتنياته ستشكل كل مجموعة منها متحفا منفصلا، ليكون لدينا أكثر من متحف إسلامى.

متحف الفن الاسلامى

تساؤلات عديدة تدور حول مستقبل هذا المتحف العريق

فى ظل الظروف التى تحيط بمبناه فى الوقت الراهن.. وبداية نشير إلى أن مبنى المتحف بباب الخلق يعانى من تدهور شديد .. فالواجهة الخارجية غطى جمالها التراب.. وحديقة المتحف التى أقامها الدكتور أحمد قدرى رئيس هيئة الآثار السابق وخصصها لتكون حديقة عرض متحفية للقطع الضخمة تم تدميرها بالكامل.و قاعات العرض اختفت منها الستائر القطيفة التى كانت تظلل القاعات وتحجب الحرارة وضوء الشمس، وتسمح بدخول الهواء المتجدد، كما اختفت الشبابيك ذات الطراز الإسلامى وتبدلت بالشبابيك الحديثة المصنوعة من الالومنيوم مما أثر بالسلب على طبيعة الأجواء داخل المتحف، حيث كانت درجات الحرارة داخل المبنى لاتتعدى ٢٦ أو ٢٧ درجة مئوية فى أشد أيام الصيف حرارة، كما أن المعروضات مكدسة داخل قاعات العرض بشكل يجعل الزائر يتوه وسط ذلك الكم الهائل من الآثار المتراصة بجوار بعضها داخل الفترينات، فهل يتخيل أحد أن يتم عرض مابين ٦٠ إلى ٧٠ قطعة خزفية داخل فترينة واحدة، مساحتها تقل عن ٢٠ × ٢٠ مترا مربعا المفروض أن تسلط عليها الأضواء بشكل يبرز جمال القطعة الأثرية ولايضرها، وذلك طبقا لما أكده الدكتور رفعت عبدالعظيم مدير متحف الفن الإسلامى.

انفجار الأزمة

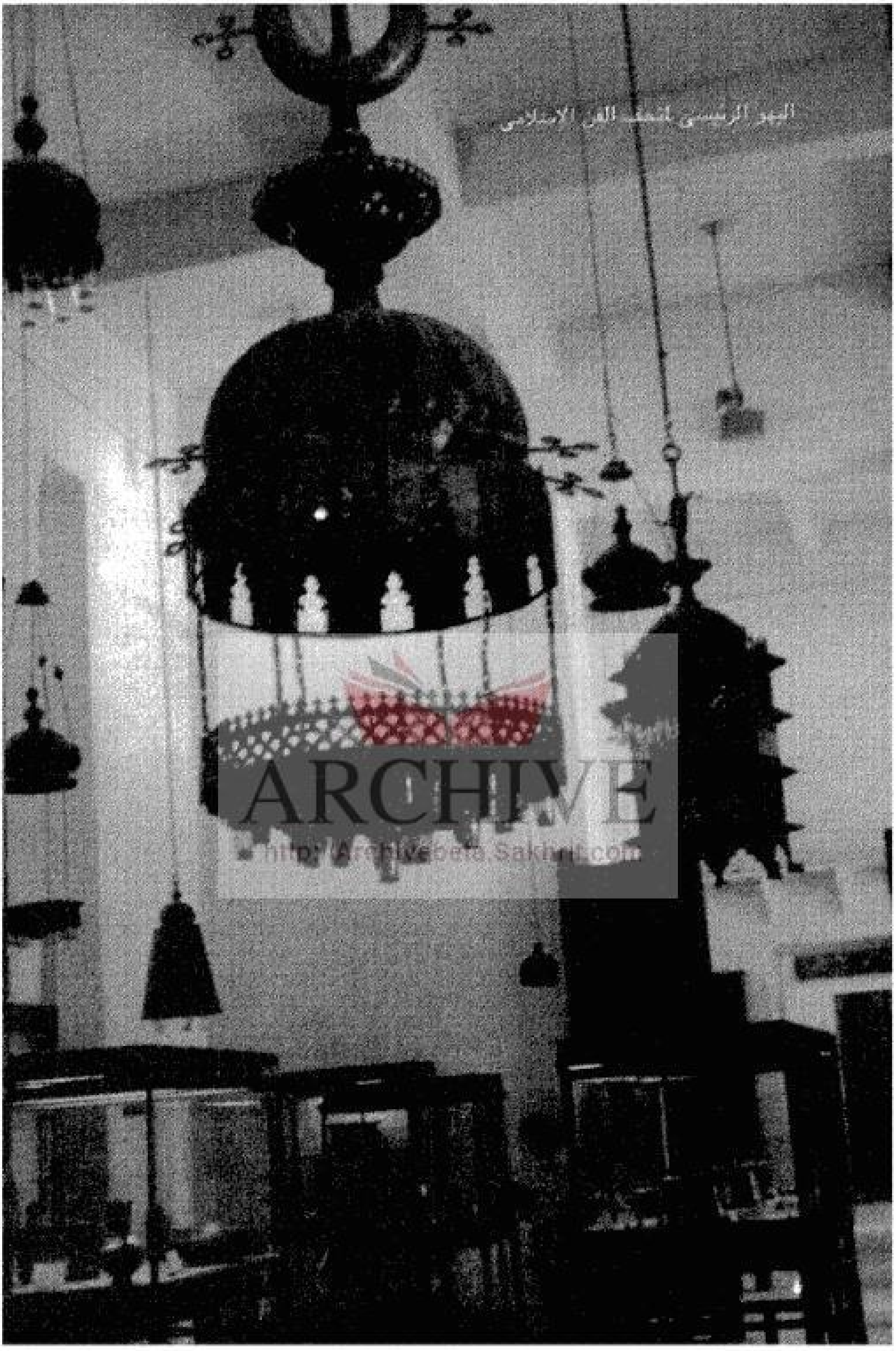
وبالرغم من الأوضاع السيئة، إلا أن أزمة المتحف الحقيقية تفجرت فى أعقاب صدور قرار عودة دار الكتب القومية إلى مبنى متحف الفن الإسلامى لتحتل الدور الأول منه، وإخلاء قاعتى النسيج والسجاد اللتين كانتا بالدور العلوى.. وتصل الأمور إلى ذروتها ببدء أعمال تطوير وترميم الدور المخصص لدار الكتب فقط دون النظر للدور الأرضى المخصص للمتحف.. وكان من ضمن خطة التطوير إقامة أو خلق دور مسروق، «ميزانين» على مستويات مختلفة، وللأسف تم ذلك بتكوينات معدنية قبيحة الشكل لاتتلاءم والتصميم الداخلى للمبنى.. خاصة مع استخدام مادة «الحديد» لبناء أرضية الميزانين وربطهما بسلالم حديدية لتوصل دار الكتب بالدور المسروق ومن ثم بالدور الارضى المخصص للمتحف.. كل ذلك تم باستخدام أشكال وأنماط غريبة لاتنسجم مع الوظيفة المعمارية الأثرية للمبنى علاوة على المسامير والمفصلات المعدنية التى تخترق الحوائط دون اهتمام بالطراز المعمارى القديم، والمعروف أن مبنى متحف الفن الإسلامى ودار الكتب القومية مبنى أثرى يخضع للمجلس الأعلى للآثار.. حيث تم بناؤه فى عام ١٩٠٣ وشهد أعمال ترميم متعددة آخرها كان فى عام ١٩٨٣ .

ويبدو أن الخطة المقترحة لإضافة جزء بديل عما انتزع لصالح مكتبة دار الكتب ، لم تكن كافية، فطرحت وزارة الثقافة مشروع نقل أجزاء منه إلى القلعة

لكن ما لم تحسب الوزارة حسابه هو رد الفعل الغاضب للرأى العام بين قطاعات عريضة من المتعصبين لهذا المشروع نظرا لما يمثله مكان المتحف ومبناه الأثرى من قيمة حضارية فى حد ذاتها.

مشروع جديد

وعن تفاصيل المشروع الجديد كان لنا


البهو الرئيسى بمتحف الفن الاسلامى

متحف الفن الاسلامي

لقاء مع الدكتور عادل مختار رئيس قطاع المتاحف داخل المجلس الأعلى للآثار.. أكد أنه يوجد مشروع لإقامة متحف جديد للفن الإسلامي داخل قلعة صلاح الدين بجوار المتحف الحربي، حيث من المقرر إقامته بمقر دار الوثائق القديمة، فى إطار خطة قومية لتطوير المتاحف، والمبنى مكون من ثلاثة أدوار كل دور مساحته تصل إلى (٢٠٠٠ متر مربع) ويخصص للعرض النوعى للآثار الإسلامية مثل قاعات عرض للسجاد/ العملات النقدية ...)، ويستغرق إعداد المتحف عامين متتالين حتى يتم افتتاح المتحف الجديد، فى حين سيخصص المبنى القديم بباب الخلق لعناصر فنون العمارة الإسلامية، وأوضح أن سيناريو العرض المتحفى أشرفت عليه لجنة مشتركة من الأثريين والمهندسين وخبراء فى الآثار. ويبرز تساؤل مهم.. لماذا لايظل متحف الفن الإسلامى وحدة متكاملة داخل مبنى واحد ذى تصميم معمارى ينتمى للطراز الإسلامى وتصبح مقتنياته سواء ذات طبيعة العرض النوعى أو العرض المتحفى الضخم فى مكان واحد بما يتيح للزائر التعرف على معالم الفن الإسلامى.. ودون الحاجة إلى التنقل مابين القلعة وباب الخلق، وفى المقابل تنتقل دار الكتب القومية، الدار المعنية بالحفاظ على تراث مصر فى المخطوطات والوثائق إلى مقر دار الوثائق القديمة داخل القلعة؟، وأطرح ذلك التساؤل وأنا أعلم أن المبنى قد تم تصميمه ليكون مقرا لدار الكتب القومية (دار الكتبخانة الخديوية) ومتحف الفن الإسلامى:. على اعتبار أنه قرار صدر منذ مايقرب من عام ١٩٠٢ .

مازال السؤال حائرا

لذا توجهت بالسؤال للدكتور جاب الله على جاب الله رئيس المجلس الأعلى للآثار من أجل مزيد من الفهم للوضع الحالى للمتحف.. فأوضح أن متحف الفن الإسلامى كان قد استعار فى دار الكتب قاعة ضخمة فى الدور الأول لعرض مقتنياته من السجاد والمنسوجات، وذلك عند انتقال دار الكتب إلى مبنى هيئة الكتاب المطل على كورنيش النيل.. ولكن مع مشروع تطوير دار الكتب الذى ترعاه السيدة سوزان مبارك استعادت الدار الدور المخصص لها.. مؤكدا أنه لايجوز من الناحية القانونية أن يضم المجلس الأعلى للآثار الدور الأول ليتبع المتحف نظرا لأن دار الكتب هيئة مستقلة

وعن عملية خلق أدوار مسروقة باستخدام مواد الحديد التى لاتتلاءم وطبيعة المبنى الداخلية، أكد الدكتور جاب الله أنه فى أى مكان فى العالم يجب الحفاظ على واجهة المبانى التاريخية ولكن من الممكن استغلال الفراغات داخل المبنى بشكل أفضل، وضرب مثلا بمدينة القيروان حيث تحافظ الحكومة التونسية على مبنى القصبة القديم بأسواره وبواباته لكن فى الداخل من الممكن أن نجد مطعما أو فندقا.. قد استخدمنا فكرة الدور المسروق داخل المتحف المصرى.. خاصة مع ارتفاع السقف إلى ٨ أمتار فى متحف الفن الإسلامى، كذلك البيوت القديمة فمن الممكن استغلالها بما يتناسب مع وظيفتها التاريخية، وعن عملية نقل المتحف الإسلامى أكد أن مبنى المتحف الحالى لايستوعب سوى ٦ آلاف قطعة أثرية فقط فى حين ترقد فى المخازن حوالى ٩٦ ألف قطعة تحتاج للعرض.. لذا فمن الأفضل أن

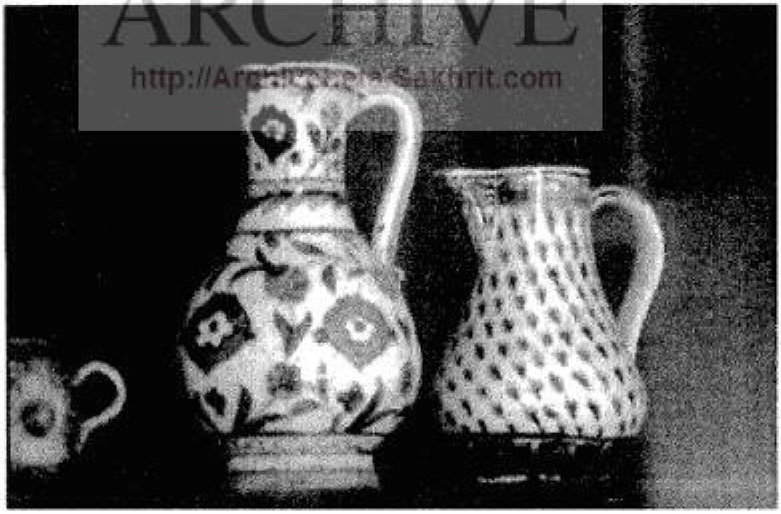
تسعى إلى تحويل المبانى الأثرية التى خضعت لعمليات الترميم إلى متاحف لعرض ذلك الكم من المخزون الأثرى، وليكن لدينا أكثر من متحف للفنون الإسلامية، وعن المتاحف النوعية أوضح أن مصر تمتلك أكبر رصيد فى السجاد الشرقى الأثرى لذا يسعى المجلس الأعلى للآثار فى إطار خطة تطوير المتاحف إلى إقامة متحف متخصص فى السجاد الشرقى على غرار متحف الخزف الإسلامى بالزمالك، وفى النهاية أكد على وجود مشروع تحت الدراسة لتطوير وتحديث مبنى باب الخلق من خلال ترميم المبنى وتغيير أسلوب العرض والإضاءة وإضافة بعض الإجراءات التأمينية لحماية المبنى من الحرائق ومن السرقة.

ولايزال السؤال يطرح نفسه.. بما أن دار الكتب القومية والمجلس الأعلى للآثار جهتان مستقلتان لكنهما تتبعان وزارة الثقافة.. فإن الوزارة تعتبر الجهة التى فى يدها قرار نقل دار الكتب إلى القلعة، والإبقاء على متحف الفن الإسلامى داخل مبناه الذى يتلاءم مع طبيعته الفنية وبالتالى الحفاظ على وحدته دون الحاجة إلى تجزئته .. كما أن انتقال دار الكتب إلى دار الوثائق بالقلعة لن يمثل أى فرق أو ضرر عليها فى ظل المشروع الضخم لتطوير قلعة صلاح الدين أما عملية الإبقاء على المتحف الإسلامى مكانه فمن شأنها المحافظة على وحدته خاصة أن مبنى باب الخلق من المبانى الأثرية القليلة التى مازالت مستخدمة من أجل الغرض الذى صممت من أجله بخلاف الآثار الإسلامية الأخرى المخصصة لغير أغراض العبادة، وكما هو الحال فى المتحف المصرى.

وماذا تقول وزارة الثقافة؟

وبالرغم من معرفة تفاصيل المشروعات المقترحة لتطوير متحف الفنى الاسلامى لاتزال التساؤلات تلح بشدة حول وجهة نظر وزارة الثقافة وعلى رأسها السيد فاروق

أوانى خزفية متأثرة بفنون آسيا الصغرى



متحف الفن الاسلامى

حسنى والذى يحمل الافكار والاحلام عن الشكل النهائى لما سيكون عليه متحف الفن الإسلامى ... وعند اللقاء به اعترف الوزير أنه شعر بالخزى الشديد لدى زيارته للمتحف كمسئول عن المؤسسة الثقافية في مصر.. ونتيجة لذلك أطلق فكرة إقامة متحف للخزف الإسلامى «كبالون اختبار» لفكرة إقامة متاحف نوعية يكون الهدف الرئيسى منها إبراز عظمة الأشياء بدلا من الدخول فى سوق متحفى يتوه داخله الزائر، ويخرج منه مشوش الذهن.. ولمعرفة إمكانية تطبيقها ومدى إقبال الجمهورعليها .. ويؤكد الوزير أن نجاح الفكرة دفعنا إلى التمسك بفكرة إقامة عدد من المتاحف الإسلامية المتخصصة فى إطار خطة التطوير المقترحة .

وعن السبب الحقيقى وراء اختيار قلعة صلاح الدين ومقر دار الوثائق القديمة ليكون متحفا للفن الاسلامى أوضح أن القلعة تستقبل مالايقل عن ١٧ ألف زائر يوميا وقال : لماذا لا نستفيد من هذه الاعداد الضخمة لزيارة المتحف الجديد؟ وليكن لدينا عدد من المتاحف الاسلامية ... وأكد أنه يحلم باقامة متحف متخصص للأبواب الإسلامية القديمة موضحا أن «لدينا عددا من الابواب الأثرية الجميلة عند مداخل البيوت والمساجد والخانقاوات وغيرها من الاماكن الأثرية لكنها للاسف «مهانة» فهناك من يكتب عليها «محمد جدع» على سبيل المثال أو ينزع عنها مقابضها أو الزخارف النحاسية التى تزينها فلماذا لا نقوم بعمل نموذج للأبواب الأثرية لوضعه داخل الأثر .وننقل الباب الاصلى داخل متحف متخصص من أجل الحفاظ عليه خاصة أن عمرها قد يصل إلى ٨٠٠ عام أو أكثر .

وعن فكرة تجزئة المتحف الحالي أوضح فاروق حسنى أن إقامة متحف إسلامى واحد من شأنه أن يقلل عدد الزائرين فى حين أن عملية تجزئة واقامة متاحف متخصصة قد تدفع محبى الآثار إلى العودة مرة أخرى للاستمتاع بباقى ملامح الفن الاسلامى .

أما إقامة الأدوار المسروقة داخل المنبر الأثرى بباب الخلق فقد دافع عنها على اعتبار أن «لكل زمان بصماته الفنية .ومع بدايه القرن الواحد والعشرين نحاول أن نضع بصماتنا ..عن طريق عمل كولاج أو جمع بين الحديث والقديم بشكل جمالي».. وضرب مثالا على ذلك بالكولاج الذى أصر عليه وزير الثقافة الفرنسي السابق جاك لوند داخل متحف اللوفر العريق بباريس عن طريق إقامة الهرم الزجاج داخل البهو الرئيسى أمام المبنى الأثرى القديم للمتحف .. وبرغم الاحلام والأفكار الجميلة التى تدعو إلى التفاؤل إلا أن متحف الفن الإسلامى يحتاج إلى أكثر من مجرد فكره طيبه أو حلم جميل فعمليات الكولاج بين القديم والحديث قد لا تنجح بالضرورة داخل العرض المتحفى .

طرز فنية متنوعة

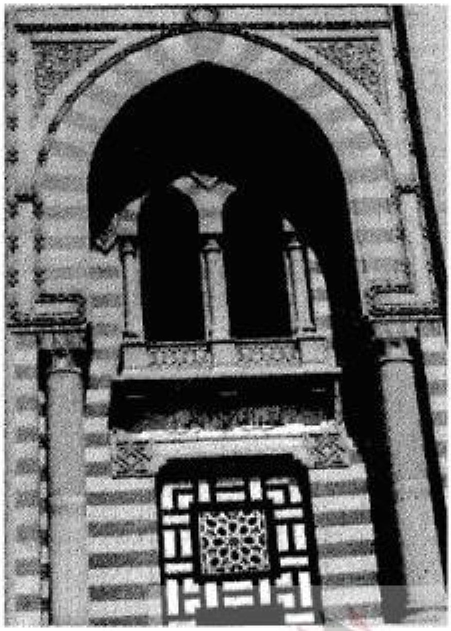
وبالرغم من الصعاب التى يواجهها المتحف إلا أنه لايزال يلعب دور المترجم الصادق لتاريخ الأمم الإسلامية بما يحويه من بدائع التحف والمخطوطات والمنسوجات الأثرية، ومن داخل قاعات المتحف حاولنا التعرف على ملامح الطرز الفنية المختلفة، حدثنا عنها الدكتور رفعت، بدءا بالطراز الأموى على اعتبار أنه أول الطرز فى الفن الإسلامي، نشأ متأثرا بالأساليب الفنية

سانية وبالثقافة البيزنطية، ومن أجمل التحف الأموية إبريق مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، ويعتبر تحفة برونزية لامثيل لها فى العالم، تبرز المصادر التى استقى منها الفن الإسلامي معالمه، الإبريق يتخذ شكل الديك تأثرا بالفنون الزرادشتية، أما يده فعلى هيئة ثعبان ذى أذنين وعلى رأسه تقف أربعة طيور ترمز للعناصر المكونة للكون «الماء - التراب - الريح - الشمس»، أما اليد فبها زخارف تعود للحضارة البيزنطية وأسفلها رسم غائر لسمكتين تأثرا بالفنون القبطية القديمة، وكان الإبريق قد دفن مع صاحبه عندما أهيل التراب على آخر خلفاء بنى أمية ومعه حاجياته فى قرية «أبوصير الملق» بالقرب من الفيوم فى أعقاب نهاية الخلافة الأموية (٤١ - ١٣٢ هـ - ٦٦١ - ٧٥٠ م).

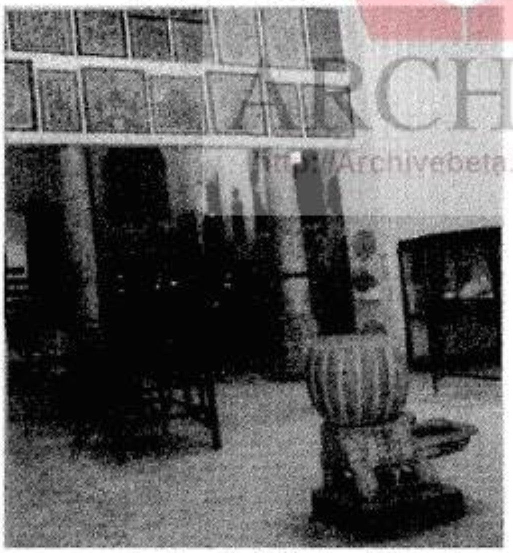
ومن أقدم الآثار الموجودة فى المتحف شاهد قبر من الحجر الرملى عليه كتابة غائرة بالخط الكوفى باسم المتوفى عبدالرحمن بن جبر الحجرى بتاريخ الوفاة فى جمادى الثانى سنة ٣١ هـ.

أما الطراز العباسي ثانى الطرز الفنية فقد غلبت عليه الأساليب الفنية الإيرانية كما هو الحال فى الأدب والحياة الاجتماعية ويعتبر أول مرحلة واضحة فى تاريخ الفن الإسلامي، بلغ أوج عظمته فى القرن الثالث الهجرى، ولكن سرعان ماتطرق إليه الضعف حين وهن سلطان الحكومة المركزية العباسية، وبدأت الاقاليم الإسلامية تنسلخ عنها، مما أدى إلى الاستقلال الفني أيضا، اشتهر بنوع من الخزف ذى البريق المعدنى.

ومن التحف الجميلة صحن من الخزف ذى بريق معدنى حافته ذات فصوص يتوسطه رسم غزال وتحيط به زخارف



واجهة المتحف الخارجية تبرز جمال العمارة الإسلامية

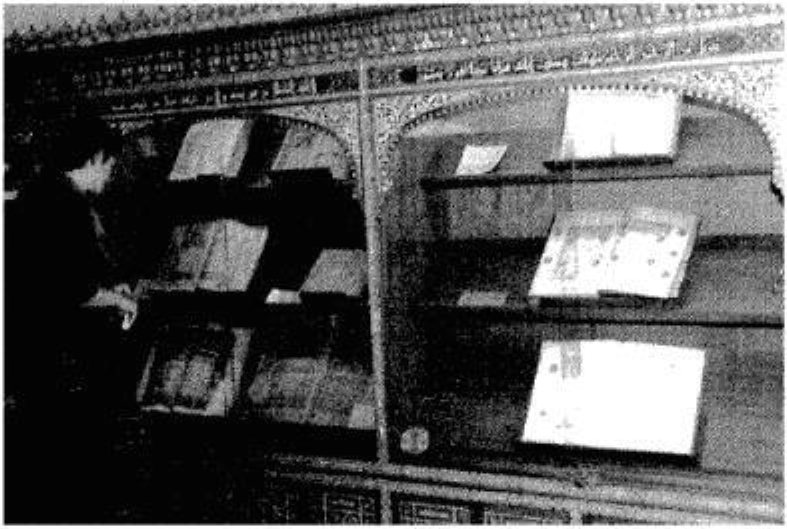


معروضات إسلامية .. ويظهر فى اعلى الصورة شبابيك من الجص المعشق بالزجاج الملون من العصر الفاطمي

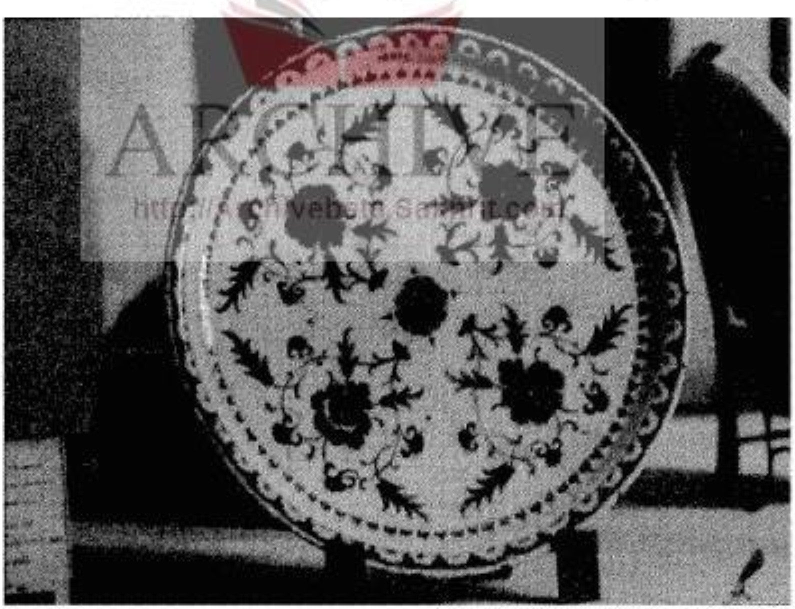
متحف الفن الاسلامى

نباتية مجدولة، وبجواره سلطانية من نوع ميناثي عليها رسم لأمير متوج يحيط به أتباعه، مصدرهما إيران القرن السابع الهجرى.

أما الطراز الفاطمي، الذي ازدهر في مصر وسوريا في أعقاب فتح الفاطميين مصر عام ٣٥٨ هـ ، فقد تمثل فى فنون التصوير ورسوم الإنسان والحيوان، ومن أشهر آثار الطراز باب القصر الفاطمى الغربى، أحد القصرين اللذين بناهما جوهر الصقلى مع بناء القاهرة، وبنى بينهما الجامع الأزهر، الباب يمثل بداية ظهور الزخارف الآدمية والحيوانية في فنون الزخرفة الإسلامية، فالحشوات الخشبية تمتلىء بالزخارف الآدمية كعامل العلم، عازف العود والصياد. كذلك يوجد داخل المتحف محراب ضريح السيدة رقية بنت سيدنا على ابن عم الرسول، مصنوع من خشب الأرو، وحشواته من خشب الساج الهندى وخشب الزيتون وعليه أشرطة ونقوش بالخط الكوفى المزهر، وذكرت بعض المصادر التاريخية أن السيدة «علم» زوجة الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله هى التى أمرت بصناعته، ويعتبر العصر المملوكي أزهى العصور في تاريخ الفنون الإسلامية فى مصر، فلقد شهد اقبالا متزايدا على صناعة التحف النفيسة، فاهتموا بصناعة التحف النحاسية المكونة بالذهب والفضة مثل «الطشت الخاص بالملك الصالح نجم الدين أيوب»، الموجود بالمتحف، كما برع المماليك فى صناعة الزجاج وتجلى ذلك فى صناعة المشكاوات المموهة بالمينا ـ وهى مادة زجاجية ملونة ترسم بها الزخارف على سطح المشكاة وتثبت عليها في الفرن كما يضم المتحف أكبر مجموعة مشكاوات فى العالم، أشهرها مشكاة باسم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، وأخرى باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون وعثر عليها فى مدرسة السلطان الناصر ويرجع تاريخها إلى ٦٩٨ هـ، ومن الأبواب الجميلة داخل المتحف باب خانقاة شمس الدين سنقر الطويل، باب من الحديد المصفح بالبرونز على هيئة زخارف أشبه بزخارف السجاد الشرقى ذى الزخارف النباتية كما يبدو من بعيد ولكن عند الاقتراب تتخذ الأشكال الزخرفية هيئة حيوانية متداخلة مثل النمر والحمار والماعز.. وهو ينتمى إلى القرن الثامن الهجرى، كذلك باب ضريح الإمام الشافعى، وينتمى للقرن السابع الهجرى، لكن من أجمل التحف التى تنتمى للطراز المملوكى خوذة من الصلب تتكون من جزءين، العلوى منها عليه زخارف هندسية والسفلى عليه شريطان من الكتابة المذهبة أحدهما عبارة عن آية الكرسي والاخر أسماء العشرة المبشرين بالجنة ويعود تاريخها للقرن العاشر الهجرى، السادس عشر الميلادى كذلك شمعدان من النحاس مخلف بالذهب والفضة يعود إلى عصر السلطان الظاهر بيبرس فى القرن السابع الهجرى، واهتم الفنان في العصر الأيوبى والمملوكى بصنع شبابيك القلل وتزيينها بزخارف نباتية وحيوانية وآدمية. مثال الزخارف الحيوانية «الفيل ـ أرنب ـ أسد ـ طاووس» ويرجع ذلك مع بداية العصر الفاطمى لكن مع بداية العصر الأيوبى ازدهر فن التخريم أو الزنتك أو المخرمات، وفى العصر المملوكى استخدموا بعض المقولات مثل «عفوا تعفوا» أو «مال عابد»، وتعتبر صناعة شبابيك القلل دليلا على أن

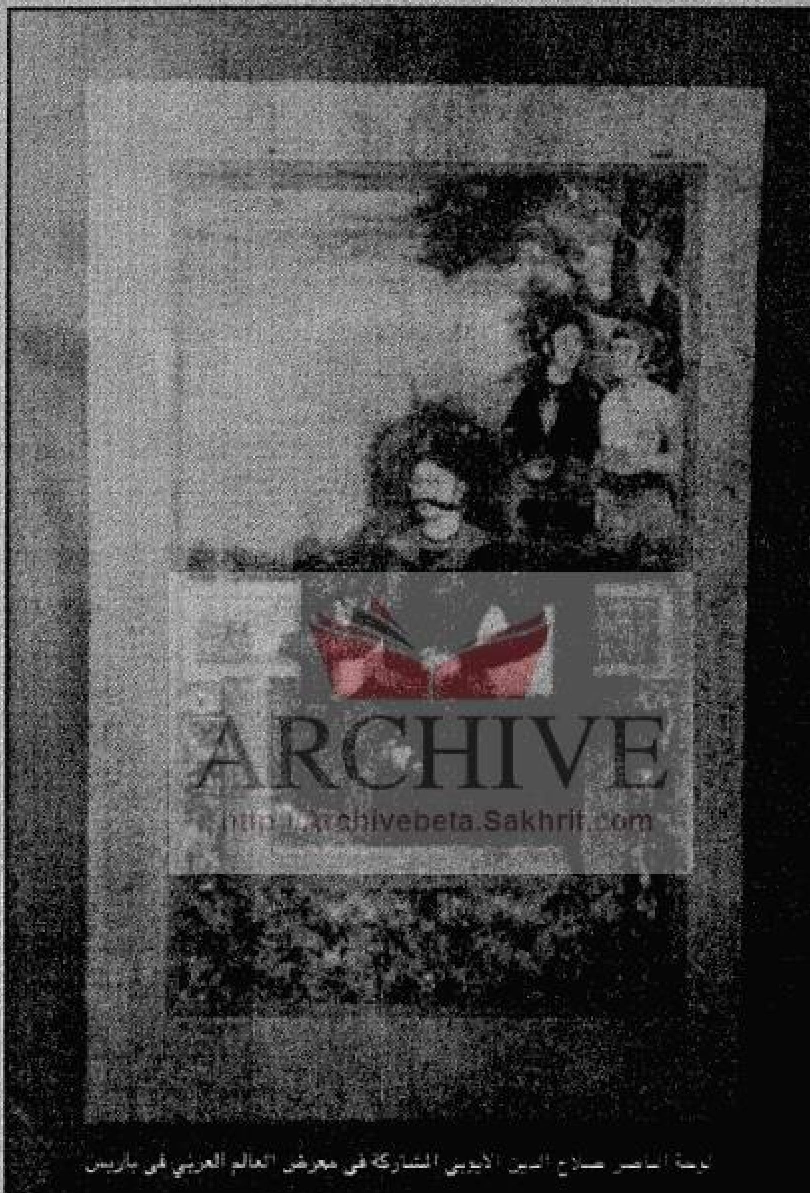


مجموعة مصاحف من العصر التركي تعود الى القرن الثالث عشر الهجري



صحن من الخزف يرجع الى القرن العاشر الهجري

متحف الفن الاسلامى



لوحة الناصر صلاح الدين الأيوبي المشاركة في معرض العالم العربي في باريس

٦٨
الهلال
جمادى الآخر ١٤٢٢هـ - سبتمبر ٢٠٠١م

المسلمين الفنانين كانوا يعملون أحيانا من أجل الفن نفسه.

أما الطراز العثماني، فقد اهتم بالدرجة الأولى بالسلاح والدروع والسيوف، كما اتسمت فنونه بالبذخ، فلجأ إلى استخدام المعادن الثمينة مثل الذهب والفضة الخالصين، واستخدموا المجوهرات والأحجار الكريمة في ترصيع الأباريق والشمعدانات المصنوعة من الفضة الخالصة، ويعرض المتحف سيف السلطان سليمان القانوني أشهر السلاطين العثمانيين كذلك سيف محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر القبائل الجرمانية في العصور الوسطى، وبعض المصاحف الشريفة المكتوبة بخط اليد ومذهبة بألوان الذهب والتي تعود إلى القرن الثالث عشر هجريا، كما يضم مجموعة من الشبابيك المطعمة بالزجاج الملون والتي تسمى قمريات أو شمسيات.. والتي استخدمت كأسلوب للإضاءة يمتاز بالجمال، واستعانوا بزخارف على هيئة طاووس أو مدخل أحد القصور أو كتابات أو زهور وأشجار السرو التي تدل على استمرار الحياة، وجدواها على مداخل المقابر العثمانية، لاعتبارها رمزا للحياة.

سجاد من كل مكان

ويحتوى المتحف على مجموعة ضخمة فريدة من السجاد الشرقي، ويفتخر بمجموعته من السجاد الإيراني والتركي فضلا عن سجاد بلاد القوقاز وآسيا ومصر.. والمعروف أن سجاد إيران أكثر منتجات إيران الفنية انتشارا في العالم نظرا لجمال ألوانه وتناسقها وحسن توزيعها، علاوة على متانة الصناعة والعناية بالصوف ونظافته كما كانت خيوط الذهب والفضة والحرير تدخل في صناعة السجاجيد الشاهانية النفيسة،

ولعل أعظم السجاد الإيراني شهرة السجاجيد ذات الصرة أو الجامة والتي كانت تصنع في تبريز وكاشان، ويرجع أحسنها إلى القرن العاشر الهجري.

وداخل إحدى القاعات التي امتلأت بالمشكاوات والصحون والأباريق والأطباق التي يرجع تاريخها إلى العصر التركي.. قابلت رانيا مصطفى متخصصة في ترميم السجاد الشرقي حيث تقوم بإعداد رسالة ماجستير عن السجاد القوقازي بوجه خاص، تجلس أمام سجادة ضخمة تصل مساحتها إلى ٣،٥ × ٥،٤ م مربع تقريبا ذات ألوان زاهية وتعمل على ترميمها منذ حوالي أربعة أشهر، وبسؤالي عن نوع السجادة التي بين يديها، أكدت أنها تميل إلى الطراز الإيراني أكثر منها إلى القوقازي، لأن العمال المهرة في القوقاز هاجروا إلى إيران خلال القرن الثامن عشر الميلادي وأضفوا أسلوبهم الفني على السجاد الإيراني خاصة السجاد ذا الخيوط الصوفية، وحدثتني عن مراحل ترميم السجاد القديم، عن طريق عدة خطوات أولاها مرحلة تثبيت السجادة بالتل أي عمل شبكة لها للحفاظ عليها خاصة الأجزاء المتهالكة منها، ثم يتم غسلها بالمياه المقطرة ونوع من الصابون المتعادل، ثم تجفيفها بالفوط والبشاكير، وعندما تجف تبدأ عملية الترميم.. بأخذ عينات من الخيوط لمعرفة نوعها وألوانها ونوع الصبغة المستخدمة، وعند الانتهاء يتم تثبيت السجادة على شاسيه من الخشب أو الألومنيوم وتغطيته بطبقة من الكتان المعقم، وتصبح جاهزة للعرض.

وفي نهاية جولتي خرجت والأمل يملأ نفسي لأعود مرة أخرى لأجد ذلك الكنز المدفون قد انقشع عنه التراب وعاد إليه بهاؤه البراق. ■



٧٠
الهلال

دائرة حوار

هل للاشتراكية مستقبل؟

بقلم

مصطفى الحسينى

هل نستطيع الشروع في الإجابة عن التساؤل عما إذا كان للاشتراكية مستقبل دون مراجعة تاريخ القرن العشرين؟ فمع القرن الذي شهد انتصار أول ثورة اشتراكية في التاريخ، علي سدس مساحة الكرة الأرضية، ثم شهد انتشارها لتعم شرق أوربا، ثم اتسعت رقعتها لتشمل الصين التي تضم خمس سكان العالم، ولتمتد إلى أصقاع أخري في جنوب شرق آسيا: كوريا وفيتنام ولاوس وكمبوديا، بل داعب حلم الاشتراكية العديد من بلدان العالم الثالث، التي حصلت علي استقلالها أو عمقته وأكدته في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

ثم مع اقتراب ذلك القرن من نهايته كان ذلك كله قد ذهب هباء وقبض الريح، على النحو الذى يجعل هذا التساؤل حول علاقة الاشتراكية بالمستقبل مطروحا، ولا يعزى عن هذا ما قد يقوله البعض من أن النظام الاشتراكى مازال قائما فى الصين ولدى بعض جيرانها حيث يعيش أكثر من خمس سكان الأرض، إذ لا يكاد أحد يرى صلة يرتكن إليها بين ما هو جار فى هذه البلدان وبين الاشتراكية.

بدأ ذلك القرن وأكثر من ٧٠٪ من سكان العالم يعيشون تحت وطأة الاستعمار، وتعداد الدول المستقلة يحصى بالعشرات الصغرى، فعندما تأسست «الأمم المتحدة» عقب الحرب العالمية الثانية لم يكن ذلك التعداد يصل إلى الخمسين (٤٦ دولة)، بينما تضم المنظمة الدولية الآن ما يقرب من ١٩٠ دولة.

طموح الدول حديثة الاستقلال

ولدت تلك الموجة الاستقلالية فى مخاض عسير أعقب الحرب العالمية الأولى، ثم اشتد زخمها بعد الحرب العالمية الثانية، وقد انعشت آمالا فى عالم أكثر تكافؤا وعدلا وسعادة، وعلا طموح «الدول حديثة الاستقلال» فى خمسينيات وستينيات القرن الماضى حتى راودتها الآمال فى تعزيز استقلالها وتعميقه بالاستقلال الاقتصادى والنمو والرخاء، فى نظام اقتصادى دولى جديد، لكن تلك الآمال لم تلبث حتى انداحت، وبقى الاستقلال الوطنى فى أحوال كثيرة مجرد أعلام وأناشيد وطنية ومقاعد فى المنظمات الدولية وأصوات، وانطوى ما كان قد تحقق من الاستقلال تحت أجنحة عاتية لنوع جديد من التبعية أسلحته الديون و«المعونات» وهيمنة التكنولوجيا المتقدمة، ومع ما تحقق فى «العالم الثالث» من نمو محدود فى

الاقتصاد ومستويات المعيشة والصحة والتعليم، فإن الهوة بينه وبين «العالم الأول» الصناعي الرأسمالي ، اتسعت ومازالت تتسع، وأصبحت معاملات التجارة الدولية – أي المقياس النسبي بين أسعار المواد الخام والسلع المصنوعة – أشد جورا، وأخذ العالم الأول يتحرك نحو الاستغناء عن العالم الثالث إلا فيما يحتاجه من خامات استراتيجية يتناقص تنوعها ، خصوصا بعد أن حققت له الثورة العلمية التكنولوجية توفيرات ضخمة في استخدام المواد الخام، إلى قدرات متزايدة على «تخليق» المواد. وبعد أن أدى الفقر النسبي المتزايد للعالم الثالث إلى أن يفقد اغراءه حتى باعتباره سوقا لمنتجات المتقدمين، وتحولت مساحة ذلك السوق فيه إلى أداة لتعميق انقسام مجتمعاته، أخذت شرائحه «الميسورة» تلتحق استهلاكيا وروحيا بالعالم الأول ، بينما تشكل تلك الشرائح كل ما لدى العالم الثالث من نخبة يفترض فيها أن تقود مسيرته نحو الحرية والرخاء والسعادة ، فإذا بها تهجره وتهاجر منه بآمالها أو أطماعها، وأيضا بطاقاتها المبدعة التي يتزايد توظفها في خدمة العالم الأول.

بل إن ما شهده ذلك القرن مما يمكن تسميته «ثورة الغذاء» حيث كذبت ممكنات الزراعة نظرية مالتوس حول انهيار التوازن بين تزايد سكان العالم وبين قدرته على إطعامهم، فأصبحت الصين – مثلا – قادرة على إطعام خُمس سكان العالم مما لا يزيد عن ٤٪ من مساحة أراضيه المروية، وأصبح المزارع الأمريكي الواحد قادرا على إطعام حوالي المائتين من سكان المدن، فإن هذا لم يبعد شبح المجاعات التي تحصد الملايين.

قرن الثورات المتعددة

عدا عن «الثورة الاشتراكية» التي شهد القرن المنصرم انتصارها وانكسارها ما بين مطلعه وختامه، شهد ذلك القرن ثورات أخرى أهم ما يميزها أن مادتها وموضوعها هو الأشياء وليس الناس، فهناك «ثورة المواصلات» و«الثورة العلمية التكنولوجية». وبالطبع ، لا محل لإنكار فعلهما الثوري في حياة الناس – من تقريب المسافات وتصغير العالم بفضل الأولى، واستكناه الكثير مما كان مغلقا من عوامل الطبيعة ومادة الكون.

لكنهما ثورتان تخلوان من المثل، بل إن المفارقة بين الثورة العلمية التكنولوجية وبين الثورة الزراعية والثورة الصناعية أنه بينما استوجبت هاتان أوسع قدر من مشاركة الناس، فإن ثورة العلم والتكنولوجيا تتميز بأنها ثورة تحققها وتسيطر عليها نخبة صغيرة وتزداد صغرا ، وتؤكد نتائجها في تطورها زيادة سيطرة هذه النخبة على مقدرات الإنسانية .

ويؤدي ما تحققه هذه الثورة من تطور في التكنولوجيا إلى نتائج اجتماعية تعزز مواقع صفوة محدودة

العدد في المجتمعات كلها، فهي من ناحية تبلغ من التعقيد وتتطلب من التخصص ما يؤدي إلى تناقص مضطرد في أعداد القادرين على استيعاب أدواتها، وبالتالي ينكمش في المجتمعات حجم «العالمين» وتتسع قواعد الذين تقتصر علاقتهم بها على التلقي إن لم يكن النظر إليها عن بعد وفي وجل بل إن الأمر قد لا يقف عند حدود هذه التفاوتات وما تطويه من مسافات . بل إن الامر لا يقف قطعا هنا، فما يترتب عليه وما لم يكن متخيلا حتى زمن قريب قد أصبح ماثلا أمامنا وان كنا لم نستوعب وجوده بعد، بل نكاد ننكره، ان ما يترتب على هذه التفاوتات هو وبلغة واضحة عودة الرقيق إلى نظام المجتمعات، ولن تقتصر هذه العودة على ما نراه حتى الآن رغم بشاعته، أي استرقاق النساء والأطفال لاستغلالهم في ما أصبح يعرف باسم «صناعة الجنس»، وهو اسم لم يصك عبثا أو من طرافة المفارقة، إنما غرضه هو ببساطة اضفاء الشرعية على هذا اللون البشع من الاستغلال وفي نطاق علاقة استرقاق، وهي «صناعة» لا تخجل أصوات «رصينة» في الغرب الغني من المطالبة باعتبارها نشاطاً اقتصاديا شرعيا، حتى أن مجلة «رصينة» ومحافظة هي الإيكونوميست البريطانية تنبأت منذ حوالي سنتين بأن يدخل كبار القوادين في علاقات مصاهرة مع العائلات المالكة، «وليس بعد أن يقوموا بـ تنظيف أموالهم» فحسب، وإنما بعد أن تصبح مهنتهم شرعية تتكون عن طريقها ثروات «مشروعة» ومراكز اجتماعية محترمة .»(*)

من القمع الجسدي إلى القمع النفسي

على مستوى آخر، تؤدي التطورات العلمية والتكنولوجية إلى زيادة المساحة التي تشغلها المسلمات في حياة الناس، ويقل فيها ما يخضع للتقدير والرأي والتفضيل وما يقبل الجدل. وهي المواهب الفضلى للعقل البشري، حتى أنه يمكن تصور أن يؤدي تطور التكنولوجيا الذي لا يمكن وقفه إلى نوع جديد من الفاشية، يقوم على القمع الذهني والنفسي بديلا عن القمع الجسدي الذي عرفته البشرية وتعاني منه حتى الآن . بل إن الخيال العلمي، وهو البشير أو النذير بما هو آت في تطور العلم، يتصور قدرة علمية على زرع الأفكار في الأدمغة وعلى ضخ الانفعالات إلى المراكز العصبية للإنسان باستخدام إشعاعات تصدر من مراكز تحكم وتوجيه لا تراها الضحية.

وعلى مستوى ثالث ، قد يؤدي تطور التكنولوجيا إلى الانحطاط بقيمة الإنسان عن طريق تغير الوظيفة التاريخية للآلات ، ومن كونها امتدادات واضافات لقدرات الإنسان الذهنية والعضلية ، لتصبح الإنسانية أمام خطر أن يصبح الإنسان امتدادا لقدرات الآلة .

وعلى مستوى رابع، قد يؤدي تطور التكنولوجيا إلى تفكك الحياة الاجتماعية

(*) قالت المجلة إن أشهر قواد في الشرق الأوسط قد استثمر بعض أمواله في تأسيس مصرف.

على نحو من شأنه أن يؤدى إلى انهيار المجتمعات. وتلك نتيجة متصورة (إن لم تكن ماثلة) لما تؤدى إليه التكنولوجيا من اضعاف أواصر التواصل الإنسانى وتزايد الميول الفردية والفردانية والانفرادية. بل إن واحدا من أبرز الرواد الأوائل لعلوم الكمبيوتر الأمريكيين - جوزيف روزيناوم - يحذر من انتشار البلادة النفسية فى الأجيال التالية. وذلك أن الكثير من معالم الحياة سوف يتحول إلى رموز واشارات وأرقام على شاشة الكمبيوتر. ويقول إنه - مثلا - قد يتحول ضحايا المجاعات فى الكوارث الطبيعية والحروب ليس حتى إلى مجرد أرقام ورموز. إنما إلى مجرد عناصر فى معادلات تقوم بها أجهزة الكمبيوتر ولا تثير فى من يتعامل معها أى إحساس بالمأساة الإنسانية.

واقع الأمر أننا نرى الآن ما هو غير قليل من هذه التصورات. فالديموقراطية - مثلا - تتحول فى الفهم الذى تجرى إشاعته إلى ما يعرفه القانونيون بأنه «مبدأ سلطان الإرادة» والإرادة هنا هى إرادة الفرد الذى له أن يحدد ما يريد وأن يسعى إلى تحقيقه مسلحا بقدرته. فإذا كانت تلك القدرة «علمية تكنولوجية» اكتسبت إرادة الفرد قدرة متزايدة على قهر إرادات الآخرين غير المتمكنين من أدوات ثورة العلم والتكنولوجيا.

هول ثورة العلم والتكنولوجيا

السمة التى تميز «ثورة المواصلات» و«ثورة العلم والتكنولوجيا» هى الهول. فمن هولها أن خطوها الذى بدأ حثيثا مع منتصف القرن الماضى أو حوله، أخذ يتسارع باضطراد جعل محاولة رصد معالمه تفوق اللهاث، بل أصبحت قدرة المؤسسات بما تحشد من جهود وأدوات قاصرة عن متابعة ما يجرى فيها.

من هول هذا الاندفاع أنه يجرى تحت أعيننا وأبصارنا منذ سنوات غير ملحوظ إلا ممن يعتمد الملاحظة ويجعلها همه ومهمته، إذ لا يلبث انجاز مبهر من انجازاتها أن يصبح جزءا من الواقع المعتاد، وقبل هذا يكون قد لحقه إنجاز مبهر آخر، بل ويكون قد دخل دور الاعتياد، أو ربما كان الذين يعيشون التغير يتساقون عنه فلا يرصدونه، وقديما قالوا إن آفة الناس الاعتياد، إلا أنه أيضا من أسرار قدرتهم على البقاء.

ومن هول هذا الاندفاع أيضا أنه رغم أن كل ما يستجد فى مجال العلوم إنما يبنى على ما تراكم ويتبلور على مدى القرون، من فيثاغورس وأرشميدس، إلى ابن الهيثم وابن سينا، إلى جاليليو ونيوتن إلى أينشتين، فإن تقدير مؤرخى العلوم أن ما تراكم من ثمار العلوم فى السنوات الثلاثين الأخيرة من القرن العشرين يفوق حجما وقيمة ما تراكم منها على مدى تلك القرون المديدة الغابرة، ولعل من دلائل ذلك أن «الثورة الزراعية» أى اكتشاف الإنسان الزراعة وانتشارها واستقرارها كمصدر لحياته على اتساع اليابسة، قد استغرق ما يقدر بتسعة آلاف سنة، وأن الثورة الصناعية، استغرق تصميمها

واستقرارها حيث نشأت وبقيت ما بين قرنين إلى ثلاثة، بينما هذه «الثورة العلمية التكنولوجية» قد عمت في ثلاثين سنة، وأصبحت هي علامة العصر.

ومن هول هذه الثورة أيضا أنها تبني على ما مضى أنساقاً جديدة، لكن العلم لا يلبث أن يكتشف أن ما يبنى من إنساق جديدة لم يكتمل، وأن كل مسعى إلى تكملته يكشف فجوات وفراغات، تصبح هي بذاتها بداية لأنساق جديدة في العالم. لذلك فإن ما يميز هذه الثورة، انها تكشف أن معرفة الإنسان بالكون وما فيه وما يحكمه من قوانين وبحركه، لم تكن يوما أوسع مما هي اليوم، بينما لم يكن نقصها في أي وقت أوضح، وهذا ما يعطي للاندفاع زخما جديدا.

تأثير سلبي للثورتين

لو نظرنا إلى هاتين «الثورتين» اللتين شغلتا النصف الثاني من القرن العشرين، لوجدنا أنهما بقدر ما حققتا بتقدم العلوم من خير للإنسان، بقدر ما حملتا إليه من مخاطر.

فالأولى منهما - ثورة المواصلات، أضافت إلى حيوية الإنسان، جعلته أقدر على الافادة من وقته الذي صار أثمن وعلى الاستفادة منه، وبها أصبح مفترضا أن «تعميم الرخاء» بسرعة النقل أيسر، ففي بداية ذلك القرن كانت رحلة افتراضية حول الكرة الأرضية تستغرق شهرين كاملين باستخدام أحدث وسائل المواصلات آنذاك - القطار والسفينة التي يحركها البخار، أما الآن فإن هذه الرحلة تستغرق يوما واحدا بالطائرة التي تفوق سرعتها سرعة الصوت، ويتنبأ خبراء الطيران، بأنها - في وقت قد لا يكون بعيدا - قد لا تستغرق أكثر من دقائق، بطائرات تخترق الغلاف الجوي للكرة الأرضية خروجا ودخولا.

على أن ثورة المواصلات هذه، ورغم أنها حققت هذه الحيوية، ورغم سهولة النقل فان العالم لم يعمه الرخاء، لأن المسألة ليست الوسائل، انما هي إرادات القوى على أن هذا القصور ليس كل شيء.

فليست ثورة المواصلات خيرا كلها، فالطلقة أو القذيفة هي أيضا من وسائل المواصلات التي أصابتها تلك الثورة. إذ تنقل إرادة من أطلقها ورسالة منه إلى هدف «هو شخص آخر أو شيء من متاعه، أو نظام حكم أو أمة، والطلقة جعلتها ثورة المواصلات صاروخا عابرا للقارات يحمل رأسا نووية، وقاذفة استراتيجية نووية، يختزن العالم منهما ومن رؤوسهما وحمولتهما ما يكفي لتدميره، ناسه وعمرانه، مرات عديدة.

فإذا كانت ثورة المواصلات، قد أدت إلى تصغير العالم وتوحيده، فإنها أيضا أنتجت ما يهدده بالدمار، وعلى نحو نهائي وحاسم وغير مسبوق.

وفي وجه آخر من ثورة المواصلات هذه، والذي يسمى ثورة الاتصالات، انهارت حدود الدول وتداعت أسيجة الأمم، فالكلمة والصورة تنتقلان من ركن في الأرض إلى ركن آخر قصي في ما لا

يكاد يكون زمنا يدرك بالحواس، ومن محاسن هذا أن تقلصت الحواجز من طريق المعرفة . وأن عزلة الأمم بعضها عن بعض باتت مستحيلة، وأن الناس على اختلاف الأعراق والحضارات واللغات والسحن أصبحوا أقدر على التواصل، انما إن أتيحت لهم الأدوات.

لكن هذا يعني أيضا أن المحافظة على تمايز الثقافات القومية وعلى نموها على قاعدة من تراثها أصبح أكثر صعوبة، وأصبح الأقوياء الأغنياء - الأقدر على البث والارسال - قادرين على العدوان على ثقافات غيرهم ووجدانهم دون رادع يذكر.

ماذا يحدث إذا مات الموت؟

أدت الثورة العلمية التكنولوجية التي استغرقت العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي إلى ثورة أخرى شهدها مطلع هذا القرن، مرماها اكتشافات كبرى شهدناها هذا العام في طبيعة الإنسان ذاته . جسده ودماغه - مادة الدماغ وآلة فكره التي ليست مجرد ما تحويه الجمجمة من مادة الدماغ فالعقل معنى له ارتباط غير معلوم بعد بتلك المادة.

في الجسد تتلخص تلك الثورة الجديدة في اكتشاف «الجينوم»، أي ذلك النسيج المعقد المركب المتداخل المتراكب من الخلايا التي إليها مرجع صفات الإنسان الفرد وخواصه، بدءا من نفخ النبض فيها حتى دبيب البلى والموت.

على أن الاكتشاف لا يكتفي بالطموح إلى مجرد التعرف ، بل يرمي إلى التصحيح والتعديل، بل وإلى كبح عوامل البلى حتى يصل قلقا متوجسا إلى السؤال - وماذا سيحدث إذا مات الموت؟

أما في الدماغ ، فالمرمى هو معرفة كيف يعمل؟

وليس السؤال هينا . فهول جوابه لا تصلح في وصفه سوى لغة الأساطير. لأن هذا هو سر الأسرار الذي طارده الإنسان دون طائل منذ أن وعي وجوده حتى اليوم.

إنها محاولة الاكتشاف التجريبي لما هو العقل.

وهذه هي الثورة الفيزيو - بيو - نيورولوجية ، أي بأقرب كلمات عربية إلى المعاني : الثورة الجسمانية - الوظائفية - العصبية .

ومن شأن هذه الثورة أن تشعل غرور الإنسان حتى يبلغ مبلغا، الأرجح - حتى الآن - أن لا يطيقه.

رغم وقوع هذا الكشف العلمي الخطير في حقل جسم الإنسان : خلاياه ومكوناتها ووظائفها وعلاقاتها وما يؤدي إليه هذا كله في أحوال هذا الجسم ومصيره ، فإن آثار هذا الكشف تمتد إلى مجالات بعيدة عن ظاهرة التعلق به، إلى مجالات الاجتماع والاقتصاد والسياسة والأخلاق.

على هذا النحو، فإن هذا الكشف العلمي الأخير ، أي الثورة الجديدة الفيزيو - بيو - نيورولوجية، التي سيكون هذا الكشف هو مفجرها.

تختلف عما سبق أن عرفه التاريخ الإنسانى من ثورات، من حيث أن كل ما سبق فى هذا السبيل كان موزعا بين التغيرات فى الأشياء والتغيرات فى المجتمعات، يتبادل النوعان التأثير.

هذه ليست ثورة فى الأشياء كما كانت الحال فى الثورات الزراعية ثم الصناعية ثم العلمية التكنولوجية، فموقعها هو الجسم البشرى الذى لا يندرج فى عداد الأشياء، وموضوعها علاقاته مع ذاته أو بالدقة علاقة مكوناته ببعضها البعض.

كذلك، هى ليست ثورة فى المجتمعات من حيث أن حقلها - تجارب وكشوفا ونتائج - لم يكن اجتماع البشر.

لكن معقد تحديدها وتعريفها هو كون الإنسان - بجسده وعقله - هو الفاعل الرئيسى فى المجتمعات.

أى أنها ليست ثورة فى الأشياء تتفاعل مع اجتماع الناس تبادلا للتأثير، لكنها ثورة فى التعرف على هذا الفاعل الرئيسى، أى أن فعل هذه الثورة فى اجتماع الناس هو إلى الامتداد أقرب منه إلى التأثير.

يتحقق ذلك الامتداد عندما يتحقق الربط ما بين «الجينوم» الذى هو فردى وبيولوجى وعصبى، وما بين المجتمع الذى هو جمعى وبيئى واجتماعى.

ولسوف يتحقق هذا الربط - عندما يتحقق - على خلفية من ذلك السعى الإنسانى الملح والحثيث لفهم الطبيعة البشرية.

الطبيعة البشرية ومزيج من التقابلات

وإلى أن بدأت الخطوات الأولى نحو اكتشاف ذلك «الجينوم» كان البحث فى الطبيعة البشرية فلسفيا وأخلاقيا، مداره التقابل بين الخير والشر، بين الطمع والزهد، بين الإيثار والأنانية، إلى آخر مثل هذه الثنائيات الأخلاقية - السلوكية. وكانت أدوات هذا البحث تجرى ما بين التأمل الفلسفى والمنطقى وبين ملاحظة سلوك أفراد الناس فى علاقاتهم مع سواهم الذين يسمى مجموعهم وينتظم مجتمعا، والذى هو بالضرورة محكوم بتفاعل العلاقات فيه والذى يسمى البيئة الاجتماعية. يدخل ضمن البيئة الاجتماعية التفاعل بين الرغبة والمكنة، بين الحاجة والقدرة، بين التطلع والانجاز، بين المنى والواقع، بين الوفرة والندرة، بين التنافس والتعاون، بين التصالح والتصارع، إلى آخر مثل هذه الثنائيات المتقابلة، دون أن تكون متنافية.

أمام الفلاسفة وعلماء الاجتماع والنفس، لم تكن تلك الثنائيات اختيارات أى أن الطبيعة البشرية حيال أى منها لم تكن تدور عندهم مدار التنافى بين إمّا وإما، إنما أن الطبيعة البشرية هى مزيج من تلك التقابلات، تختلف النسب فيه من فرد إلى فرد، إنما يشكل «متوسطها» ذلك المفهوم عن الطبيعة البشرية دون أن يكون ثمة اتفاق على طريقة لحساب ذلك «المتوسط» ومنه نجم ذلك التباين الذى عبرت عنه النظريات السياسية.

فالنظرية التقليدية أو الأساسية ترى

فى الحرص على البقاء غريزة حاكمة ومقياس تحديد لاختيار أفراد الناس وجماعاتهم المزيج من تلك الخصائص المتقابلة الذى يوفر القدرة على البقاء أو يعززها أو يرجحها. وبعد الاتفاق على محورية الحرص على البقاء يبدأ الخلاف، فمثلا، رأى فلاسفة اليمين أن النزوع إلى التملك هو مقياس التحديد الذى ينبنى على الحرص على البقاء، بينما رأى فلاسفة اليسار أنه بعد الحرص على البقاء ، فإن الطبيعة البشرية عجينة طيعة تشكلها الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وما تبنى من مؤسسات ، أى تشكلها البيئة الاجتماعية.

كانت هذه هى الحدود والآفاق فى فهم الطبيعة البشرية ، إلى أن بدأ الخطو على درب اكتشاف «الجينوم» .

بين الفيزياء والبيولوجيا البشرية

مع تزايد فهم علماء الجهاز العصبى للإنسان لكيفية عمل الدماغ ، وتزايد فهم علماء الوراثة لعمل كل من المورثات، بدأ يداعب العلماء الأمل أو يغرر بهم الوهم بإمكان تغيير الطبيعة البشرية ما أن يتحقق التعرف عليها . أما هذا التعرف فيأتى - فى ظنهم حتى الآن - عن طريق الربط بين فهم كيفية عمل الجهاز العصبى وعمل المورثات من ناحية وبين العلوم الاجتماعية من الناحية الأخرى، الأمر الذى يؤدى إلى الكشف عما بين تلك العناصر البيولوجية والنيورولوجية وما بين السلوك البشرى من روابط السببية.

وفى ذلك الاعتقاد أو الظن أن من شأنه أن ينقل دراسة السلوك البشرى من حقول الفلسفة والأخلاق والعلوم النفسية والاجتماعية إلى حقل العلوم الاختبارية، وأن ينطبق هذا على ما هو جمعي وما هو فردي.

وفى ذلك الاعتقاد أو الظن أيضا ، أننا بهذه الاكتشافات الأخيرة والخطيرة قد أصبحنا على شفا فهم قوانين التفاعل بين البيولوجيا والبيئة الاجتماعية.

تلك العلاقة بين الفيزياء والبيولوجيا البشرية وبين المجتمع موجودة فى التفكير الراهن والسائد، والذى يسبق منشوءه وانتشاره الكشوف العلمية الأخيرة من قبيل صلاحية الرجال والنساء لوظائف دون أخرى .

لكن تلك العلاقة بين الفيزياء والبيولوجيا البشرية وبين المجتمع - فى التفكير الراهن والسائد، - تمتد إلى مجالات أوسع من التمييز على أساس تنوع الناس بيولوجياً إلى ذكر وأنثى. على سبيل المثال، من يذهبون إلى أن معالجة الجريمة مسألة تتعلق بالسياسة الاجتماعية ، ومن يذهبون إلى أنها مجال القوانين العقابية ، هنا فريق يغلب البيئة على البيولوجيا، بينما يرجح الفريق الثانى العكس.

على أن المسألة مازالت أوسع من هذا، ولعلنا نستعيد الجدل الذى فجره فى الصيف الماضى رئيس جنوب أفريقيا

تامبو مبيكي عندما طرح في مؤتمر يبحث في انتشار مرض نقص المناعة المكتسبة في افريقيا، أن ذلك التفشي يرجع إلى الفقر.

نجحت الأيديولوجيا السائدة عالميا في تصوير مبيكي في صورة الديماجوجي الذي يحاول تسييس الوباء الذي هو مسألة طبية ذات أصول بيولوجية.

ما طرحه الرئيس الأفريقي لا يعدو أن يكون إرجاع أسباب تدهور صحة الناس إلى أسباب اقتصادية - اجتماعية - سياسية، تهيىء البيئة البيولوجية لانتشار الفيروسات وتمكنها من أجسام الناس. لكن مبيكي كان يطرح هذه المسألة على مستوى عدالة ظلم النظام الدولي ، فكان عقابه ما لقي من استهجان واستخفاف.

وعلى خلاف هذا الانكار والاستنكار لما طرحه مبيكي ، تحاول العلوم الطبية البيولوجية المبنية على الكشوف العلمية الجديدة خلق حقائق اجتماعية جديدة، بل أن نخلق أنواعا جديدة من الكائنات الاجتماعية، وهو أمر يثير مسائل أخلاقية عويصة.

مثلا : الأنواع والطرق التي استجدت لعلاج عقم النساء والرجال تطرح أسئلة مهمة حول مفهوم القربى، فهل يكون الوليد الذي نتج عن زرع حيوان منوي كان مختزنا دون معرفة بالرجل الذي أفرزه في رحم امرأة ، هل يكون ذلك الوليد أخا لمن سبق أن ولدتهم تلك الأم، ناهيك عن المحاولة الجارية لإحداث تلاقح مخبري بين اثنين من الحيوانات المنوية لذكرين من المثليين جنسيا، ثم زرع الحيوان المنوي الناتج عن ذلك التلاقح في بويضة مختزنة لا تعرف المرأة التي أفرزتها ، ثم تزرع تلك البويضة في رحم امرأة، لتضع - فيما بعد - وليدا ينسب إلى اثنين من الآباء ، وليس إلى أم وأب كما عرفت الحياة الإنسانية حتى تاريخه.

بل إن نواتج هذه الثورة البيولوجية تطرح أسئلة إخلاقية عن قيمة الإنسان وليس مجرد حقوقه .

ما هو المبرر الأخلاقي لتحويل أعضاء جسم الإنسان إلى سلعة ؟

وإذا كان هذا قد أصبح - منذ زمن - بالنسبة لأعضاء جسم الإنسان التي لا تشكل «ذاته»، فما هو شأن التجارة في مورثات الإنسان ؟ وما الذي يشكل «ذات» الإنسان ؟ هل يمكن وضع خريطة لما قد يجوز تحويله وما لا يجوز تحويله من جسم الإنسان إلى سلعة ؟

ثم هل يمكن أن نتصور أن يتجه الإنسان إلى الخلود بالمعنى الجسماني والبيولوجي، إن لم يكن ببدنه ذاته، فعن طريق المستنسخين عنه بعد أن توصلت الهندسة الوراثية إلى هذه القدرة؟ ما هي عواقب هذا «الخلود» إن تحقق؟ وكيف يمكن أن توصف - أو تقوم - العلاقة بين الشخص المستنسخ وبين أبناء من أصله الذين ولدوا قبل استنساخه؟

تفاوت القدرات الذاتية

لم يكن ثمة خروج على المألوف أن يلتقط المشتغلون بالشئون السياسية،

د ـاهبها وممارساتها، الكشف عن الجينوم البشري وكيفية عمل الدماغ ليدرجوها ضمن أدواتهم، ويشيعون توقعات بأن هذا سيوفر أو سيسهم بتوفير النصيب الأكبر من الإجابة على أسئلة من قبيل هل يرجع التفاوت في حظوظ الأفراد إلى النظام الاجتماعي - الاقتصادي - السياسي ام إلى تفاوت قدراتهم الذاتية التي ترجع إلى تكوينهم على أساس طبيعة ما في خلاياهم من مورثات وتناسبها وتشكلها؟. هل صحيح أن بعض الناس يولدون كسالى أو خاملين؟ وهل يؤدي الجواب عن مثل هذه الأسئلة إلى تثبيت دور الدولة في إعادة توزيع الناتج الاجتماعي أم ينفيه؟ هل أن تشكلات المورثات تقع في أساس التمايز بين الجماعات البشرية التي تتشارك كل منها في أنماط معينة من السلوك؟

هنا، يجب أن يؤخذ في الحسبان أنه إذا كانت إجابات مثل هذه الأسئلة تعتمد على فهم «الجينوم» وطريقة عمل الدماغ، فإن الإجابات ستحاط بما للحقائق العالمية من حصانة، وستخرج من مجال تفاوت الاجتهادات المبنية على تنوع المنابع الفلسفية والاعتقادية.

سيتطرق هذا بالضرورة، ليس فقط إلى تمايز الناس على قاعدة الجنس والعرق، وإنما قد تجري محاولات - الحقيقة أنها بدأت - لإرجاع الميول - من قبيل تفضيل الهدوء على الضجيج أو العكس، ترجيح التأمل على المجادلة، الميل إلى الاستقرار، أو الترحال، الحرص على ممارسة الطقوس الدينية أو الانصراف عنها، ارجاع هذه كلها إلى المورثات.

وهل تؤدي توجهات من هذا القبيل بالضرورة إلى أحكام معيارية اخلاقية من قبيل: أفضل وأسوأ؟

هل يؤدي الإقرار باختلافات مصدرها المورثات إلى الاقرار بعدم قابليتها للتغيير، بسبب عدم إمكانه أو عدم جوازه، أو بسبب عدم جدواه؟

وهل يؤدي الاقرار بذلك النوع من الاختلافات إلى قصرها على الأفراد وأم إلى تعميمها على جماعات تتباين باشتراك كل منها في تشكل معين للمورثات؟ وهل ينطوي اقرار من هذا النوع على اقرار آخر بوجود تفاوتات داخل كل من تلك الجماعات؟

الملكية الفردية وحرية السوق

في عالم يأخذ المتفوقون فيه بالديمقراطية الليبرالية القائمة على الملكية الفردية وحرية السوق، ويعتمدونها «ايديولوجيا مقدامة» لها أن تسود العالم، هل يكون ثمة مغزى لتعميم التمايز الجمعي على قاعدة من تباين تشكلات المورثات؟ أليس مجتمع الديمقراطية الليبرالية وقوانينها - الملكية الفرد وحرية السوق - «مجتمعا حرا» يعامل الناس باعتبارهم أفرادا وليس كأعضاء في جماعات؟

وألا يوجه التمايز بين الناس - أفرادا أو أعضاء، في جماعات - ضربة

قاصمة إلى مبدأ المساواة بين الناس دون تفرقة» وهو المبدأ الذى اعتبر من أهم ركائز العصر الحديث، خصوصا وأن التمايز يستند إلى حقيقة علمية تقع خارج مطال الجدل؟

وماذا سيحدث عندما يثبت (إذا ثبت) ان انخفاض مستوى الذكاء يرجع إلى المورثات، وأنه هو الذى يؤدى إلى الفقر وليس العكس كما هو سائد؟

وماذا سيحدث - خصوصا فى مجتمعات الديمقراطية الليبرالية - إذا ثبت أن ما يعتبر الآن «غير لائق» اجتماعيا وسياسيا ، ليس شيئا أقل من «حقيقة علمية»؟ من قبيل القول إن السود - مثلا - أقل ذكاء، وأكثر خمولا وأضعف همة من البيض؟

الخطر الذى يجب أن نترقبه هو أن تدخل مجال الاجتماع الانسانى «حتمية وراثية».

مقتضى الحتمية الوراثية هو انكار تأثير البيئة اجتماعية كانت أم طبيعية، ومؤدى هذا إشاعة الإقرار بتوزع الناس إلى فئات، ومستويات حسب تشكل مورثاتهم. ومنه أن النظريات العرقية التى سبق أن انتحلت صفة العلمية ثم انهارت عندما انكشف زيف دعاواها، قد تجد أساسا علميا يعتمد على ما هو مشترك من تشكل المورثات.

ومن شأن هذا أن يؤدى إلى اقرار عام بأمور من قبيل أن انتشار مرض نقص المناعة المكتسبة فى أفريقيا يرجع إلى تشكل مورثات سكانها وليس إلى الظروف البيئية والاقتصادية الاجتماعية والصحية التى تخلق بيئة موائمة لانتشار الفيروس المسبب لهذا المرض.

أما على النطاق الأوسع، فقد يقال إن انقسام مجتمعات العالم إلى فقيرة ومتخلفة وغنية ومتقدمة، يرجع أيضا إلى تفاوت تشكل المورثات فى أبدان أغلبية السكان هنا وهناك.

وهو ما يعيدنا إلى النظام الدولى الذى يعاد تشكيله بينما كشوف هذه الثورة العلمية الجديدة والخطيرة تتوالى وتترى وتتبلور وتصبح عنصرا مهما فى البيئة الفكرية التى يقوم عليها ذلك النظام.

هل سنكتشف ذات يوم قريب أن تضافر كل من الثورة العلمية التكنولوجية والثورة الفيزيو - بيو - نيورولوجية وقفا عليهما يبشر أو ينذر بثورة كبرى ثالثة فى حياة الناس وعلاقاتهم - ثورة قد تجوز تسميتها «الثورة الفردية»، تضرب الاجتماع وتستبقى هياكل العمران؟

وعندئذ، هل يكون للاشتراكية مستقبل؟

وأليس علينا أن نسأل أنفسنا عن الصلة - وجودا أو عدما - بين الثورة العلمية التكنولوجية ، وما أصاب الاشتراكية ؟ . ■

دائرة حوار


كتاب جديد في نقد معارف قديمة

بقلم د. محمد سليم العوا

عن نقد سيرة ابن اسحاق

بقلم
د. محمود علي مراد

□□ ردا علي المقال الذي نشر في العدد الماضي للدكتور محمد سليم العوا بعنوان "كتاب جديد في نقد معارف قديمة" ننشر هذا المقال.

حين قرأ الأستاذ الدكتور محمد سليم العوا كتابى فى نقد سيرة ابن اسحاق الذى أصدرته دار الهلال منذ شهور قليلة، لم يخرج منه بأنه حملة علمانية جديدة على الإسلام، ولا بأنى حصلت على درجة الدكتوراه - التى هو ترجمة لها - كمكافأة لى على الإساءة إلى الإسلام، ولا بأن مجموعة من المستشرقين جندونى لكتابته، ولا بأنى بوق أردد ما تدبره الجامعات الأوروبية لمحو الإسلام من الوجود ولزعزعة عقيدة الشعب المسلم فى أصول دينه وفروعه، ولا بأنى عدو للدين أحاول بعث الخلافات المذهبية والقبلية بين العباسيين والقرشيين، ولا بأن أعداء الإسلام من المبشرين والمستشرقين من أمثال لامانس وبرنارد لويس وجولدزيهر ورينان لم يبلغوا فى جرأتهم على الإساءة للإسلام عشر معشار مابلغته، وهذا جزء من الاتهامات التى جرت بها أقلام بعض من علقوا على كتابى فى الصحف المصرية.

ولكن الذى خرج به الدكتور العوا، كما يذكر فى مقاله الذى صدر فى عدد أغسطس ٢٠٠١ من مجلة الهلال الغراء بعنوان «كتاب جديد في نقد معارف قديمة» ، هو أن كتابي «دراسة مثيرة جداً، حافلة بما يدعو إلى التأمل والمراجعة، وتبعث في نفس الباحث الرغبة الجادة فى التأكد من صحة النتائج» التى انتهيت إليها.

رد الاتهامات

وقبل أن أتعرض لهذا المقال، أود أن أوضح بعض الأمور للأخوة الذين وجهوا إلىّ الاتهامات التى ذكرتها:

١ - نقد سيرة ابن اسحاق لايصلح وسيلة لخدمة أغراض أعداء الإسلام من المستشرقين فى الكيد لهذا الدين. فإن هؤلاء الأعداء يشددون في كتاباتهم على تأكيد علم ابن إسحاق وصدقه ونزاهته، بالقوة ذاتها التى نجدها عند كتاب المسلمين، وذلك لأن جانبا كبيراً من مطاعنهم ضد الإسلام ورسوله مبنى على ما ذكره ابن إسحاق فى سيرته، وهذا ولاشك هو السبب الذى من أجله لم يؤلف فى الغرب كتاب واحد فى نقد سيرة ابن إسحاق.

٢ - ليس هناك ، بين المستشرقين اليهود ولا بين المبشرين ، من نقد مصادر السيرة النبوية - مثلى - ليثبت أن من كتبوها غضوا من قدر الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان



الله عليهم ، ولا من قال - مثلى إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بالقرآن الكريم وبأصحابه أعلى هامة من جده ومن عمه ومن كل عظماء مكة والجزيرة العربية . وأنه كان رسول سلام لا رسول حرب، ولا من ابتغى من نقده إزالة ما علق بالسيرة من شوائب على يد ابن إسحاق.

٣ - إننى لم أكن أسعى، حين أقدمت على كتابة رسالتى ، وقد جاوزت السبعين من عمرى ولم يبق بينى وبين القبر سوى شبرين، لتحقيق مغنم دنيوى من وظيفة أو ترقية أو غيرهما. فقد غمرنى الله بالفضل والنعم فى جميع مراحل حياتى، وأفاء على من كل خير فوق ما استحق ، وأغنانى عن التماس الحظوة عند الناس. وإذا كنت قد قدمت رسالتى لجامعة فرنسية لا لجامعة مصرية، فذلك لأننى أقيم فى أوروبا، ثم لأن الجامعات المصرية تشترط فيمن يتقدم لنيل درجة الدكتوراه منها فى الدراسات العربية والإسلامية أن يكون حاصلاً على ليسانس فى اللغة العربية أو فى التاريخ (ولم أكن أملك مثل هذا الليسانس فقد درست

القانون والادب الإنجليزى، والجامعات الفرنسية لاتشترط مثل هذا الشرط.

وأعود إلى مقال الدكتور العوا فأقول إن الدكتور دعا القراء والعلماء المتخصصين في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي إلى النظر فى كتابى وتتبع تفاصيل استنتاجاتي ومناقشة أسانيدي المنطقية. ولكنه أبدى في الوقت ذاته عدداً من الملحوظات أرد عليها بما يأتي:

أولا: يسأل الدكتور عمن شجعنى على قبول التحدى الذى كان يمثله اختيارى لموضوع الرسالة، وجوابي هو أنهم نفر من أصدقائى فى مصر وخارجها - وكلهم مسلمون - ممن كنت أعرض عليهم ما قلته فى تمهيد رسالتي من أن سيرة ابن إسحاق هي مصدر السمات الخمس التى بدت لى غريبة فيما كتب عن السيرة النبوية بأقلام كتابنا المحدثين.

لماذا بلاشير؟

ثانياً: يظن الدكتور أننى اخترت ترتيب بلاشير لسور القرآن لثقتى البالغة فى هذا الترتيب. والواقع غير ذلك. إن اختيارى له لم يجيء نتيجة مقارنة عقدتها بينه وبين تراتيب غيره من علماء المسلمين ومن المستشرقين، وإنما جاء نزولا على اعتبارات أخرى هى أنه أشهر المستشرقين، فى البلد الذى سجلت فيه رسالتى، والوحيد بينهم الذى جمع بين ترتيب السور وترجمة القرآن الكريم وكتب دراسة قيمة عن القرآن وألف كتابا صغيرا عن رسولنا الكريم وآخر عن بعض المشكلات التى تثيرها كتابة سيرته. وقد كان، علاوة على ذلك، أستاذاً بجامعة السوربون القديمة التى تفرعت عنها الجامعة التى قدمت إليها رسالتى. ولم يعرف عن الأستاذ بلاشير أنه يعادى الإسلام، وكانت الجامعات المصرية تدعوه كأستاذ زائر لإلقاء محاضرات فيها. ولو أنى قدمت رسالتى إلى جامعات فى إنجلترا أو فى ألمانيا أو فى إيطاليا لاخترت ترتيبا للسور وضعه أشهر مستشرق فى كل بلد من هذه البلاد. ولو قدمتها فى مصر لاخترت آخر ترتيب وضع بالعربية من التراتيب الثمانية الموجودة.

المنهج

ثالثاً: يرى د. العوا أننى لو استخدمت المنهج الذى اهتدى إليه المحدثون ومارست على أساسه نقد السند ونقد المتن، كما فعل ابن قيم الجوزية، لتوصلت إلى نتائج أخرى سوى التى توصلت إليها فعلاً. وهذا صحيح. ولكن المنهج الذى اتبعته لا يخلو هو الآخر من

مزايا . فقد استخدمت فيه ما رأيته مناسباً من العلوم والمعارف التي تلقيتها في دور العلم . وخلاصة تجارب المهن المختلفة التي اشتغلت بها في المحاكم كموظف صغير ثم في البنوك ثم في مجال الترجمة وفي التدريس الجامعي..

واستخدمت فيها أيضاً حصيلة ما اطلعت عليه في عمري الطويل في الكتب ووسائل الإعلام من أحوال الأمم والشعوب، واتصالي بالثقافات والعقليات والديانات والايديولوجيات المختلفة، وتجوالي بين البلدان شرقا وغربا.

والمنهج الذي اتبعته هو الآتي : قسمت الفترة المكية إلى خمس فترات فرعية، وتناولت بالنسبة لكل فترة من هذه الفترات الخمس كل عنصر من العناصر الثلاثة التي تتكون منها السيرة، وهي السرد التاريخي، والشعر، وتقديم الاقتباسات القرآنية، وفحصته بدقة وحللته تحليلا عقلياً وقابلت بعض أجزائه ببعض وخرجت من تحليل كل عنصر بنتائج سجلتها على حدة..

كانت هذه هي المرحلة الأولى من عملي. وكانت هناك مرحلة ثانية تتحصل في ثلاث عمليات هي، أولا، استخراج السور التي لم يشر إليها مؤلف السيرة، طبقاً لترتيب بلاشير، التي نزلت في كل فترة من الفترات الفرعية (وهي عملية تقريبية ليس لها ضوابط أكيدة في أي من التراتيب). وثاني العمليات هي تلخيص هذه السور، وثالثا هي مقارنة هذا الملخص بالنتائج التي خرجت بها من تحليل عناصر السيرة الثلاثة .

منهجي إذن هو منهج النقد الداخلي للنص، الذي لايستعين بوسائل خارجية ماعدا الخلفية التاريخية التي وردت في المقدمة، وهو منهج معروف ومعمول به في فروع شتى من العلوم الإنسانية، وفي مجال القانون، كما يعرف الأستاذ.

أين الأدلة ؟

رابعاً : يقول د. العوا إن استنتاجاتي بشأن الأغراض التي توخاها ابن إسحاق من كتابة سيرته تحتاج إلى أدلة تسندها من ترجمة ابن إسحاق نفسه، ومن التحقق من نظرة أهل المدينة إلي أهل مكة ، ومن الحقائق التي ساقها ابن اسحاق في كتابه وهذه مسألة هامة تحتاج إلى رأى مفصل أوجز نقاطه فيما يلي

١ - حديثي عن هذه الأغراض ترتب على الاكتشاف الأكبر الذي قادني إليه النص، وهو أن سيرة ابن إسحاق ليست سيرة للرسول صلى الله عليه وسلم . وليس هذا استنتاجاً ولكن حقيقة يدركها بسهولة كل من يدقق النظر في السيرة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهر فيها كشخصية ثانوية . أما دور البطل فتقوم به قبيلة الرسول ﷺ والخليفة العباسي من بداية البعثة حتى موت أبي طالب ، ويقوم بعد ذلك أهل المدينة على مراحل آخرها بيعة العقبة الثانية . كذلك قبل مؤلف السيرة يظهر الرسول صلى

الله عليه وسلم وقد جرد من القرآن، وأنت إن نزعت القرآن عن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبق منه سوى كونه رجلا من بنى عبد المطلب، وهذا فى رأيى - هو ما أراده مؤلفنا.

٢ - قولى إن سيرة ابن إسحاق كتاب دعاية للخليفة العباسى، الذى كان يستمد شرعية خلافته من انتمائه لقبيلة الرسول صلى الله عليه وسلم ، يستند إلى شواهد موجودة كلها فى النص أو فى الخلفية التاريخية التى أوردتها فى المقدمة. ويصدق القول ذاته على ماذهبت إليه من أن ابن إسحاق أراد أن يعلى من قدر مواطنيه أهل المدينة على حساب أهل مكة (أى قريش)، ومن أنه استخدم السيرة للانتقام من خالد بن الوليد. وأدلتى فى هذا جميعه، وإن كانت ترجيحية ، كما يقول الدكتور ، أدلة عقلية ترتب النتائج على الأسباب.

٣ - لقد مكننى المنهج الذى استخدمته فى تحليل النص من الاستغناء عن ترجمة ابن إسحاق. فإذا كان فى النص تناقض أو تهافت أو تعتيم أو اختلاق أو تزوير فى مسألة من المسائل، فإن مايثبت عندى بالتحليل أرجح عندى من كل الشهادات التى تطرى ابن إسحاق وتثنى عليه وتقرر أنه عالم موثوق بكلامه . على أنى أود أن ألاحظ فى هذا الصدد أن الدكتور زودنى بحجة إضافية ضد سيرة ابن اسحاق هى رأى يحيى القطان فى شأنها ، الذى نقله الإمام الحافظ . إن إشارة يحيى القطان إلى ما فى هذه السيرة «من الواهى من الشعر ومن بعض الآثار المنكرة، فلو حذف ذلك منها لحسنت»، دلالة على محاولات بذلها ابن إسحاق أو بذلت عن طريقه لتزوير السيرة بانتحال الشعر واصطناع الأنباء . وكل مافعلته أنا فى عملى هو أن فصلت، بالدليل، ما أجمله يحيى القطان، مع فارق هو أن ماتكشف لى من ذلك أكثر مما تكشف له.

٤ - فيما يتعلق بنظرة أهل المدينة إلى أهل مكة، ليسمح لى الدكتور بأن استرعى عنايته إلى أن الآية التاسعة من سورة الحشر التى يستشهد بها ، وإن كانت تصور الحقيقة القرآنية، لا تصور ما آلت إليه هذه النظرة فى الفترة التى كتب فيها ابن إسحاق سيرته ، وهى التى تعنينا فى هذا البحث، والتى أصبح فيها العرب عموماً وقريش بوجه خاص ، أعداء للخلافة العباسية ، وهذه النظرة موجودة أيضاً فى نص ابن إسحاق.

افتراض خطئى

٥ - إذا افترضنا جدلاً أن استنتاجاتى بشأن العوامل التى تأثر بها ابن إسحاق فى كتابته لحديث الفترة

المكية خط كلها ، فإن إثبات خطبها لا ينهى مشكلة الموضوع الرئيسى الذى هو أن سيرة ابن إسحاق ليست سيرة حقيقية للرسول عليه الصلاة والسلام . ويتعين على من يخطئنى أن يجيب عن عشرات الأسئلة التى طرحتها فى كتابى، والتى أختار منها هنا ما يأتى

- لماذا لم يصف ابن إسحاق محمدا صلى الله عليه وسلم بأنه أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم وخص بهذا الوصف جده عبدالمطلب؟

- لماذا لم يصف محمدا بالكامل وخص بهذا الوصف سويد بن صامت، من أهل المدينة؟

- لماذا جعل مؤلف السيرة القصص التى تمجد عبدالمطلب (أبرهة وزمزم والنذر) تشغل من السيرة أكثر من عشرة أمثال الحيز المخصص فيها للرسول صلى الله عليه وسلم؟

- لماذا جعل شعر أبى طالب - المنحول - يشغل أكثر من عشرة أمثال الحيز الذى يشغله كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

- لماذا لم يسلم من بنى عبد المطلب وبنى هاشم ، الذين يدعى النص أنهم شملوا الرسول صلى الله عليه وسلم بحمايتهم، غير على وجعفر وحمزة خلال الفترة المكية كلها وحتى فتح مكة؟

- لماذا لم يتحدث النص سوى عن ستة من هذه القبيلة الكبيرة هم هؤلاء، وأبوطالب والعباس؟

- كيف حمى أبو طالب ابن أخيه ولم يحم ابنه من الهجرة إلى الحبشة؟

- لماذا حمت قبيلة الرسول الكافرة محمدا صلى الله عليه وسلم فى الوقت الذى وثبت قبائل قريش الأخرى على مسلميها تعذبهم لتفتنهم عن دينهم؟

- لماذا لم ينجح مسلمو الحبشة فى هداية واحد من الأحباش إلى الإسلام غير النجاشى.

- لماذا فصل ابن إسحاق الرسول صلى الله عليه وسلم عن صحابته فى حديث الفترة؟

- لماذا لم يتحدث عن الهزات العميقة التى أحدثها نزول ثلاث أرباع القرآن الكريم فى مكة على الناس وعلى الأسس التى كان يقوم عليها مجتمعهم وحياتهم؟

- لماذا خصص ابن إسحاق أربع صفحات للحديث عن مخازى الوليد بن المغيرة أبى خالد بن الوليد، فى الوقت الذى لم يخصص فيه صفحة واحدة لحديث الدعوة؟

- لماذا أوقف مؤلفنا تاريخ الرسول ومكة عند موت أبى طالب، ولم يتحدث عن القرآن الذى نزل، ولا عن تفاقم الصراع بين المسلمين والنظام القائم إلى الدرجة التى حملت الرسول والمسلمين على الهجرة؟

- لماذا لا نقرأ في حديث الفترة المكية قصيدة واحدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

القرآن ليس كتاب تاريخ

خامساً : يقول د. العوا إن القرآن الكريم ليس كتاباً في التاريخ أو سجلا لأحداث الحياة النبوية حتى يمكن الاعتماد عليه وحده لاستخراج الصورة الصحيحة للسيرة النبوية. وأنا اتفق معه تماماً في هذا الرأي. وإذا كنت قد اخترت القرآن الكريم مرجعاً وحيداً في عملي فما ذلك إلا لأن حجم رسالة الدكتوراه الذي كان عليّ أن ألتزم حدوده لم يكن يسمح بمعالجة موضوعي من أكثر من منظور. وأنا حين قلت في آخر سطرين من رسالتي إن غاية ما أطمح إليه هو أن أكون قد أثبت أن مجال البحث في هذا الميدان جد متسع، إنما كنت أعني أني لم أحط بكل جوانب الموضوع، ولا استنفدت كل إمكانيات البحث فيه، بل بدأت محاولة تمنيت أن تفتح الطريق لمحاولات أخرى يعتمد فيها على تراتيب لسور القرآن الكريم غير ترتيب بلاشير، أو على مجموعات الحديث، أو على كتب السيرة السابقة عليها أو اللاحقة لها، أو باتباع منهج ابن القيم الجوزية أو غيره من علمائنا الأجلاء. ومن المقطوع به أن هذه الدراسات إذا تمت ستدخل تعديلات قليلة أو كثيرة على استنتاجاتي، وهذا ما جعلني أحرص على تقرير أن قيمة عملي قيمة نسبية، فهذه هي طبيعة البحث العلمي: اللاحق فيه يصحح السابق.

أمنية

وأمنيتي هذه تسير في الاتجاه ذاته الذي تسير فيه ملحوظة وردت في مقدمة طبعة السيرة التي اعتمدت عليها، والتي مر على صدورها أكثر من نصف قرن، وأعني بها الطبعة التي حققها الأساتذة: مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي، وهم يقولون فيها.

«هذا (أي نقد تراث السالفين ولا سيما ما يتصل منه بعلم السير) ما حرمه هذا العلم في جميع أدواره السالفة إلى ما قبل إيامنا هذه بقليل، إذ رأينا الإيمان بأن في السيرة أخبارا لا تتصل بالحق في قليل ولا كثير ، تصحبه الجرأة، ثم الإقدام، ورأينا فكرة جديدة تجري بها أقلام مجددة ، يتناول أصحابها الخبر أو الخبرين من السيرة، مما كان يتخذ مطعنا علينا في شخص النبي صلى الله عليه وسلم ، أو ما يتصل به، فخلصوه مما لصق به مما ليس منه. وأقاموا حوله سياجا من الحجج والبراهين، صح بها وأصبح حجة على الطاعنين فيه».

■



آراء النقاد وآفاق المستقبل

بقلم
محمد التهامي

فيما نعتقد كان الدافع لمجلة الهلال الغراء إلى أن تفرد فى عدد شهر يونيو ٢٠٠١ بابا خاصا لقضايا النقد المعاصر (ص ٨٨ - ١٤٤) استكتبت فيه عددا من كبار النقاد المعاصرين الذين لآرائهم وزن كبير يدفع إلى تعميق النظر فى هذه الآراء تأييداً لرسالة الهلال التنويرية الدائبة.

وبدأت الهلال بمقال الأستاذ إبراهيم فتحي عن «وظيفة النقد الأدبي» وقد قال عن دراية في توصيف حصيلة النقد الأدبي والحركة الأدبية عامة في مستهل القرن: «لقد كان النقد الأدبي الحديث فرعا مهما من فروع النزعة الإنسانية الليبرالية المتجذرة في الثورة الوطنية وأسهم في إبداع قيم الفردية والحرية والاستقلال» وقال في موضع آخر« إن تراث النقد الأدبي في مصر هو تراث شديد الفاعلية تآزر مع دور الابداع في خلق ملامح جديدة للشخصية الإنسانية الحرة وفي تعميق طاقاتها» وقد طاف الكاتب بمقدرة بالحركة النقدية بمدارسها وفرسانها المعروفين مع عناية مبررة بالعقاد الذي أورد قوله: «إن الأمم التي تضل مقاييس آدابها تضل مقاييس حياتها» ولا يخفى ما في هذي المقولة من ترسيخ لأثر الحركة الأدبية في الحركة الحضارية عامة، وقد أشار إلى موقفين للعقاد: موقفه التجديدي في مدرسة الديوان، وموقفه الذي أشار إليه دون أن يذكر اسمه فقد كان العقاد مقرر لجنة الشعر بالمجلس الأعلى التي رفضت شعر التفعيلة، ولكنه لم يتوقف طويلا عند الموقفين مع أن تركيز الأضواء على موقفي العقاد بتفصيل كان أحرى به أن يتيح عنصرا فاعلا في الكشف عن مسار الحركة الأدبية والنقدية المعاصرة وقد نعود إلي ذلك .

ويختتم الكاتب مقاله بصيحته: «إن على النقاد والأدباء من جميع الاتجاهات» أن يقوموا بدورهم في تشكيل لغة أنقى للعشيرة» وهذا هو بيت القصيد ومربط الفرس كما يقولون.

مشهد الخطاب النقدي

وهو ما حاول الاقتراب منه بمقدرة الأستاذ الدكتور صلاح فضل في مقاله : «مشهد الخطاب النقدي» حيث بدأ كنطاس بارع، يعرف أبعاد مهمته بتشريح القضية وتسليط الضوء على الشريحة النقدية في الربع الأخير من القرن العشرين، وقال عنها بتفاؤل شديد أنها حركت مياه الفكر الأدبي المعاصر، ولعل مبعث تفاؤله أنه يبحث في الدراسات الجامعية، وهو معذور لأنه يقلب في بضاعته وبضاعة تلاميذه، التي لا تتعدى محيط الجامعة إلا بمقدار ولا تنطلق إلى المحيط العام كما فعل النقد والابداع الأدبي في الفترة السابقة، ثم يعود على طريقته في التشريح إلى الوراء قليلا ليسلط الأضواء على الشريحة من منتصف القرن الماضي إلى مطلع السبعينيات، ليعرض اتجاهاتها واعلامها وتياراتها في إطار أن الفكر الأدبي خطاب يتوحد في الابداع والنقد، ثم يخلص إلى أنه ليس هناك تمييز على مصدر دون آخر إلا بقدر ما ينصهر في البوتقة العربية، ثم ينتقل إلى زمن البنيوية وذريتها، وعلى عادته في التفاؤل فيقول إن الصفحة الجديدة في الخطاب النقدي العربي قد حققت عددا من المنجزات، وكنطاس بارع يحاول إخراج جنين متعسر الولادة يلمس بمشرطه القضية في منتهى

الرفق فــفى الوقت الذى يقـول فـيـه إن الكفـاءة الأدبية العالية المعاصرة لم تتـوفـر لطه حـسـين ومندور، إلا أنه يعــود فيقول عنهما أنهما لو كانا قد أدركا عصر البنيوية لكانا من ألمع من يأخذ بمقتضياتها.



وظيفة النقد الأدب

تسليط الضوء على الحركة الأدبية

والذى يهم أن تتـواصل أبحـاث الدكتور صلاح وغيره على هذا النحو من الدقــة وتقليب الآراء المخـتلفـة لأصـحـاب جـمـيع المدارس لتسليط الأضـواء على الحـركـة الأدبيــة من جـمـيع زواياها ولا يكتفى بقوله فى نهاية المقال: «إن الأمر يتطلب بحثا إشكاليا أخر يقف على انجازه شبان متخصصون».

وكنا نتـمنى أن يطيل الاسـتـاذ إبراهيم فـتـحى تناوله لموقفى العقاد كداعية للتجديد فى مدرسة الديوان، وداعية للتريث فى موقفه كمقرر للجنة الشـعـر التى وقفت فى وجـه الشـعـر التفعيلة، وقد كنت عضوا بهذه اللجنة ورأيت العقاد يحيل قصيدة التفعيلة المعـروضـة، وأغلب ظنى أنهـا كـانت قـصـيـدة «من أب مـصـرى للرئيس ترومان» .. لعبد الرحمن الشرقاوى، إلى لجنة النثر ولم تغن المعـارضـة خـافـتـة الصـوت ومنها على أحـمـد باكثير وكاتب هذه السطور شيئا فقد كان العقاد مسيطرا .

إن تقصى موقفى العقاد قد يجيب على بعض التساؤلات المحيرة، مثل لماذا انطلق الابداع الثـقـافى العـربى فى مستهل النهضة وامتزج بالابداع الأجنبى الذى انصـهـر فى البـوتقـة العـربيـة، وشـاع ذلك كله بين المتلقين العرب؟ وهل هذا مرجعه إلى أن الثـقـافـة الأجنبـيـة كـانت هادئة منطقية الخطوات ميسورة المصالحة والاخـتـلاط؟ ثم لماذا تـغـيـر مـوقف العقاد بعد ذلك فى لجنة الشعر؟ وهل يمكن أن نرجع هذا إلى أن الثـقـافـة الاجنبـيـة أخذت تثب بانطلاق شديد نحو العولمة، فاصبح الاقتراب منها دون أن نتسلح جيدا لها خطرا علينا وعلى ثقافتنا ووجودنا فأخذ العقاد يتحسب فى خطواته الثورية.

ولعل العقاد نفسه يساعدنا على الاقتراب من الصواب حين يقول فى كتابه «دراسات فى المذاهب الادبية والاجتماعية» (ص٩): «وقد تبين أن الهوية الواقـيـة كـانت ألزم للعـالم العربى فى هذا الدور «النصف الثانى من القرن العشـرين» مما كـانت فى جـمـيع الأدوار الماضـيـة منذ ابتداء النهضـة فى العـصـر الحديث، فإن الدعوات العالمية خليقة أن تجور على كيان القومية وأن تؤول بها إلى فناء كــفناء المغلوب فى الغــالب» ولعل الشىء الذى لم يصرح به العقاد هو أن المد القــومى العــربى فى أوائل القــرن كـان أقـوى منه فى أواخـره، وازدادت المسـألة تعـقـيـدا إذ قـوى

الهجوم من جانب، وتراجع الدفاع من جانب آخر، فاختل التعامل ووجب أن نعود الى اقتراح الدكتور صلاح فضل بإجراء بحث إشكالى آخر يتوفر عليه شبان متخصصون . مطلوب منهم محاولة الاجابة على تساؤلات عديدة منها ماهو موقف الحداثة عندنا اليوم؟ وماهى أبعاد الحداثة التى انصهرت فى البوتقة العربية؟ وهل يمكن أن تضيف الحداثة العربية ولو نذرا يسيرا الى الحداثة العالمية يبرر وجودها كابداع لذات مستقلة؟ ولماذا كان الابداع الأدبى العربى فى مستهل القرن أكثر انتشارا بين الجماهير عنه فى أواخره ؟ وأين يقع الخلل إذا وجد وما السبيل إلى علاجه؟ وماذا عن الموقف من الأصالة والمعاصرة؟ وهل سيظل أنصار الاصالة على توقعهم الذاتى والانغلاق أمام الوافد؟ وانصار المعاصرة على التشبث بالوافد بحذافيره.. ثم تدور المعارك بين الجانبين ولا تنتهى فيملها المتلقى، وينصرف عن الابداع كله وتتعرض ثقافتنا للضياع أم أن الأمر أصبح يحتاج إلى أن يتغير العنوان فيصبح الأصالة المعاصرة مع حذف حرف العطف وجعل المعاصرة صفة للأصالة؟ حينذاك سينتهى صراعنا ونتفرغ لثقافتنا.

النقد الأدبي وحاضره الراهن في الغرب

فإذا انتقلنا إلى الناقد الثالث وهو



الدكتور صبرى حافظ وعنوان مقاله: «النقد الأدبى وحاضره الراهن فى الغرب» فقد التزم بعنوان المقال وأوفاه حقه فهو يقول: «إن ما انتاب النقد الأدبى فى القرن العشرين ليس أقل من ثورة معرفية كاسحة وغير مسبوقة ولا يمكن استيعابها فى مقال . فما أضافه هذا القرن الى النقد الأدبى يعادل ما انجزه النقد الأدبى منذ أرسطو إلى القرن التاسع عشر» وهو هنا يتفق مع ما سبقت الاشارة اليه من أبعاد الأزمة النقدية العربية المعاصرة من حيث أن أحد جوانب القضية أن النقد العالمى انطلق واسعا وسريعا وغير محدود. فى الوقت الذى تعثر فيه الموقف النقدى والابداعى العربى.

ولكى يدخل الدكتور صبرى إلى موضوعه تناول فى مقدمة ضافية الوضع النقدى العربى وآثار عدة قضايا مهمة واتفق مع جمهور النقاد على أن: «الفكر النقدى لا يقتصر تأثيره على مجالات تطبيقه المحدودة فى الآداب والفنون، وانما يمتد إلى تكوين العقل النقدى الخلاق القادر على التعامل بشكل نقدى حر مع كل قضايا الواقع » وهو هنا يضيف صوتا مؤيدا لحملة مجلة الهلال بضرورة الاهتمام بدراسة وعرض أبعاد الحركة النقدية ولكن الدكتور صبرى فى وهج ايمانه القومى وغيرته الشديدة تنطلق أحلامه إلى أن يتطلب من النقد العربى،أن يتحاور فى انجازاته مع النقد العالمى بندية

وبشكل خلاق، وبديهي أن هذا هو حلمنا جميعا الذي نبحث عن وسائل تحقيقه ونقلب الأمر علي وجوهه ونتفق معه في قوله «إننا نفتقر للمشروع القومي الذي يحدد أولويات الثقافة ويدير حواراتها وفق هذه الأولويات!! ونجد أنه يقترب معه في قوله «إننا نفتقر للمشروع القومي الذي يحدد أولويات الثقافة ويدير حواراتها وفق هذه الأولويات، ونجد انه يقترب جدا من قول الدكتور صلاح فضل : إن الأمر يتطلب بحثا إشكاليا يتوفر عليه شبان متخصصون».

ويمضي الدكتور صبري فيصب جام غضبه على ما سماه اللغة العمياء والفكر الغنائي والكلمات الطنانة وغيرها مما تنوء به ثقافتنا المعاصرة وهو هنا يناقض التفاؤل الظاهر في مقال الدكتور صلاح فضل لأن كلا منهما ينظر في الأمر من زاويته.

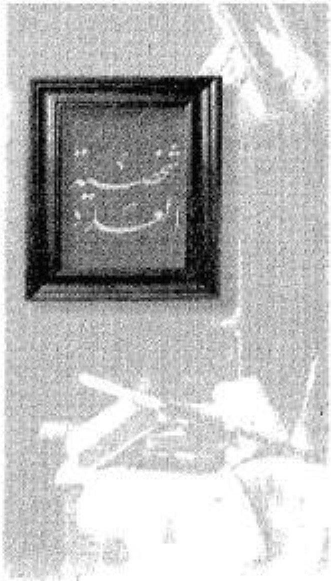
النقد بين الالتزام السياسي واستقلال الفن

أما الاستاذ الدكتور ماهر شفيق فريد فكان عنوان مقاله: «النقد بين الالتزام السياسي واستقلال الفن» وهو كما يبدو قد اختار عنصرا أساسيا فعالا من أدق عناصر النقد وأشدها خصوصية وتكاد النظرة العامة السريعة إليه تباعد بينه وبين موضوعنا الأساسي، وهو الحركة الثقافية العربية المعاصرة وتضافر النقد والابداع في تحديد مسارها وتصويبه، ودفعه الى الفعالية المؤثرة في الثقافة العالمية، على أساس احتفاظه بالهوية العربية المتميزة.

ولكن الدكتور ماهر شفيق ببراعة العالم الحداثي دخل من فتحة منظار الليزر إلى عالم النقد الواسع، واحاط بجوانبه المتعددة، وشرح موقف الالتزام في النقد الماركسي، واستقلالية الفن في النقد الانجليزي والأمريكي الجديد، وفعل في هذين الاتجاهين تفعيلا علميا محيطا بكل دقائق الموضوعين، وأكثر من ضرب الأمثلة وتسليط الأضواء على الاتجاهات المختلفة، وانتهى إلى التقارب بينهما، وضرب مثلا بثلاثة نقاد كبار أحدهما مجري وهو جورج لوكاتش، والثاني نمساوي وهو أرنست فيشر والثالث فرنسي وهو روجيه جارودي، وقد أورد فقرة من كتاب أرنست فيشر «ضرورة الفن» يقول عنها الناقد البريطاني كنيث تاينان: «لقد كان الناس دائما بحاجة إلى الفن.. ولكن لماذا كانوا يحتاجون إليه؟ وما الذي صاغ الصور التي كانوا يشبعون بها حاجاتهم.. إن إجابات فيشر على هذه الاسئلة ينبغي أن تدرس وتناقش باهتمام كبير».

وبهذه الفقرة يقترب الدكتور ماهر شفيق من موضوعنا السابق الاشارة اليه ويتفق مع جموع النقاد على ضرورة مواصلة البحث والدرس.

فهل يا ترى تواصل مجلة الهلال المسيرة؟.. أغلب الظن أنها ستفعل.



د. رأفت عبد الحميد
مشكاة الآداب التى انطفأت

بقلم
د. اسحق عبيد *

فى الخامس والعشرين من يونيو الماضى انتقل إلى جوار ربه الأستاذ الدكتور رأفت عبد الحميد البسطويسى عميد كلية الآداب جامعة عين شمس وأستاذ تاريخ العصور الوسطى المرموق بها. وأصيب الأهل والخلان والمريدون فى كل الأروقة العلمية بما يشبه الذهول من هول الصدمة، فلقد رحل هذا العالم النبيل دون وداع فجأة، إذ كان حتى ليلة رحيله يعمل فى بيته الصغير وحبه الأول والأخير - كلية الآداب - حتى الرابعة بعد الظهر، دون كلل أو ملل، رغم أننا كنا نتوسل إليه دوما أن يرفق بنفسه ويأخذ فسحة من التقاط الأنفاس. ولكنها همة ابن النيل الأصيل الذى يضع الواجب والصالح العام فوق كل اعتبار، ويغالب الإرهاق والعرق بضمير لا يعرف الكسل أو التراخى، وكنت كلما عاتبته على ذلك يذكرنى برؤية العلامة عبد الرحمن بن خلدون بأن للبشر أعمارا كأعمار الأمم والحضارات، وإن هى طالت أو قصرت «فلكل أجل كتاب».

* أستاذ التاريخ بكلية الآداب - عين شمس





كان رأفت عبد الحميد قدوة حسنة ليس فقط لتلاميذه ومريديه وإنما لكل زملائه والعاملين معه على مختلف المستويات العلمية والإدارية. ولا نتحدث عن تواضعه الجم وعفة لسانه، ونظافة القلب واليد جميعا، فهى أمثولة فى كل دروب جامعة عين شمس.

لقد عرفته معيداً، فمدرساً مساعداً، فمدرساً، فأستاذاً، فوكيلا للكلية، ثم عميداً لها. وطوال هذه السلسلة التاريخية الطويلة بقى «صاحبى» ورفيق عمرى هو هو، متسقاً مع ذاته، دائم الابتسامة، شديد الإيمان بالله عندما شرُف كرسى العمادة به منذ سنوات أربع إزداد تواضعا على تواضعه، وتعففاً على تعففه. كل هذا ولم يعرف قلمه السكون. فلقد ظل وهو فى هذا الزحام الإدارى يبدع وينتج ليثرى المكتبة العربية بفكره وأدبه وفلسفته وأسلوبه الفريد.

● كان علمه بريئاً من الجهل ومسلكه عريا من الرياء وقوله موشحا بالصواب

تخصص د. رأفت منذ وقت باكر فى الشخصية المصرية وعبقرية مصر، التى حافظت على هويتها وذاتيتها رغم عوادى الزمن وتحرشات الطامعين. فلم تهتز أرض الكنانة من هجمة ذى القرنين أو حرائق قيصر، وإنما استأنست هذا وذاك، حتى صار فى الإمكان أن نقول «فى مصر يصبح الفاعل مفعولاً به». ولا غرابة فى هذا، فأرض النهر الخالد هى فجر الضمير، وساحة الحضارة، وهى من قبل ومن بعد البوتقة التى تنصهر بداخلها كل التيارات الوافدة من شرق أو غرب أو من شمال أو جنوب!

موسوعة حضارية تاريخية

ومن يقلب فى مؤلفات رأفت عبد الحميد يجد نفسه أمام موسوعة حضارية تاريخية، تضم بين دفتيها - عالم حوض البحر الأبيض المتوسط، أثينا وروما، مدرسة الاسكندرية، بيزنطة ومدينة مدائنها القسطنطينية. ومن خلال هذا وذاك نلتقى بشوامخ الفكر والفلسفة فى العالم القديم ثم العصر الوسيط، وهم عمد الحضارة فى تقديره الواعى، جنباً إلى جنب مع أهل السياسة والحكم، وفى هذا السجل الحافل نلتقى وجها لوجه مع عمالقة العالمين القديم



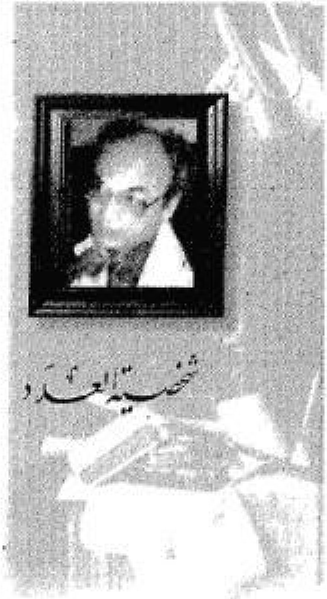
د. رأفت عبد الحميد
مع د. اسحق عبيد

والوسيط. ولرافت عبد الحميد موهبة فذة في رسم صور شخصياته. فهو أقرب إلى الفنان التشكيلي في إبراز ملامح أبطال رواياته: فهناك قيصر، وأوكتافيان، وكليوباترا، وقسطنطين الكبير، وجوليان المرتد، وجستنيان، وهرقل، جنبا إلى جنب مع القديس أثاناسيوس بطل مجمع نيقيا اللاهوتي (٣٢٥م)، والانبا أنطونيوس كوكب البرية، وأفلوطين ابن الصعيد معلم الأفلاطونية المحدثة، وأوريجانوس ومعلمه كلمنت السكندري اللذان صالحا بين الفلسفة واللاهوت، وجعلا من مدرسة الإسكندرية منارة للفكر والاستنارة في كل ربوع البحر الأبيض المتوسط، وقبل كل هذا وذاك هناك إيزيس أم الصابرين التي نهلت من منابعها أفروديت وعشتار والأم العظمى (Mater Magna) لحضارات الشرق والغرب جميعا

جائزة أحسن كتاب في الفكر

وفي معرض الكتاب الدولي لسنة ٢٠٠١م فاز كتاب الأستاذ الدكتور رأفت عبد الحميد بعنوان «الفكر المصري في العصر المسيحي» بجائزة أحسن كتاب في الفكر، وكرمته الأمة المصرية في شخص رئيسها محمد حسني مبارك في احتفالية معرض القاهرة للكتاب في حفل مهيب جمع صفوة مثقفي ومفكري هذه الأمة المباركة.

وقد كان لي مع صديقي فاروق القاضي، والأستاذة الدكتورة منى مكرم عبيد، والأستاذ الدكتور ميلاد حنا شرف مناقشة محتوى هذا الكتاب الفذ في سراي السادس من أكتوبر، ضمن فعاليات هذا المهرجان الثقافي العظيم، وكان يوماً تاريخيا بمعنى الكلمة، حيث المداخلات والتعقيبات، ولكننا كنا في «مأدبة أفلاطونية» أو «سمبوزيوم» كما يقول أهل المعرفة ، وكان نجم الجلسة المتألق صاحب الكتاب. رأفت



عبد الحميد نفسه (*)

وكان رأفت عبد الحميد - عاشقاً للتراث العربي الإسلامي. ولا غرابة في ذلك فهو ابن لعالم جليل من علماء الأزهر الشريف هو المغفور له الشيخ عبد الحميد البسطويسي. وكان الجميع يرجعون إليه لأخذ رأيه في الثقات من المؤرخين، من الطبرى إلى ابن الأثير، إلى ابن خلدون، إلى المقريزى، وصولاً إلى الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في العصر الحديث.

ومع أنه كان متخصصاً في تاريخ العصور الوسطى، والعصر البيزنطي على وجه التحديد (٣٣٠ - ١٤٥٣م)، إلا أن رؤيته للتاريخ كانت رؤية المؤرخ الفيلسوف الذى ينظر، إلى التاريخ العالمي نظرة شمولية (جشتالت Gestalt)، بحيث لا تُفْهم الإقليمية أو المحلية إلا من خلال الإطلالة الأوسع على خريطة العالم الكبرى. والتحول من عصر إلى عصر عند المؤرخ رأفت عبد الحميد لا تحدده الأحداث السياسية الكبرى بقدر ما ترسم معالمه الأفكار والفلسفات السائدة، وعلى هذا فإن تواريخ الفقيد الجليل تواريخ في الحضارة وليست أرشيفاً لأزمنات أو حوليات أو أسر حاكمة أو دويلات تسقط وأخرى تقوم!

● أثرى المكتبة العربية بفكره وأدبه وفلسفته وأسلوبه الفريد

رؤية موسوعية

ومن واقع هذه الرؤية الموسوعية جاء اختيار د. رأفت عبد الحميد - إلى جانب عمادة كلية الآداب جامعة عين شمس - مديراً لمركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس، ومديراً لمركز

(*) بدأنا هذه الندوة بسطور تعكس هموم المشتغلين بعلم التاريخ

«أين زهرة المدائن بابل
بل أين منفُ الفراعين الأوائل
بادتْ مشاعل الحضارة إلى رسوم وطُلول
كالورود تساقطت من حسرة الخريف والذُبول!
ثم ها أنذا أقلب في وريقات الزمان
مع ألفية تتراقص على فوهة البركان
أبكى على الراحلين حيناً من وجعة البعاد
وأخرى أكفكف الدمع بمنديل المراد!»

الحضارات بجامعة عين شمس أيضا، وعضوا بلجنة التاريخ بالمجلس الاعلى للثقافة، وعضوا باتحاد المؤرخين العرب، وعضوا بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ورئيسا لسمنار التاريخ الوسيط والإسلامي بجامعة عين شمس، ورغم كل هذه الاعباء التي لايطيقها إلا الابطال فإنه ما كان يتأخر دقيقة واحدة عن مواعيده ومسئولياته. وإني أعلم عن قرب أنه كان يقضي معظم أيام الدراسة في جنبات كلية الآداب لا يهدأ.

ومريدوه ينتشرون في كل ربع من ربوع الدلتا وفي كل نجع من نجوع الصعيد، فله العشرات بل المئات من التلاميذ الأوفياء، من خلال اشرافه العلمي على رسائلهم في الماجستير والدكتوراه، وهم الآن أعضاء لهيئات التدريس في مختلف جامعات مصر من أسوان إلى الاسكندرية.

وللعالم الفقيد العديد من المؤلفات والبحوث التي عالجت أهم القضايا في التاريخ البيزنطي ومصادره، وفي تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، وفي ملامح الشخصية المصرية عبر العصور اليونانية والرومانية والبيزنطية

ونذكر هنا بعض هذه المؤلفات على سبيل المثال لا الحصر.

- الدولة والكنيسة، أربعة أجزاء، القاهرة ١٩٨٢ - ١٩٨٤ .
- العالم البيزنطي (ج. هسي) ترجمة وتعليق، القاهرة ١٩٨٢.
- الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب، القاهرة ١٩٨٣.
- السمو البابوي بين النظرية والتطبيق، القاهرة ١٩٨٥.
- بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، القاهرة ١٩٩٧.
- الفكر المصري في العصر المسيحي، القاهرة ٢٠٠٠/٢٠٠١

لقد كان علم رأفت عبد الحميد بريئاً من الجهل، وكان مسلكه عرياً من الرياء، وكان قوله موشحا بالصواب، وكانت حاله دائرة مع الحق.

كانت غاية رفيق عمري في هذه الدار العاجلة معقودة بالأمثل فالأمثل، وكان طوال عمره مُزدانا بثوب العفة والعصمة، ولم يكن صاحبي ممن سَهَا عن باطن ما لربه عليه بظاهر ما له عنده. ولهذا فإن الله سبحانه وتعالى قد أخذ بيده، وآواه إلى كنف نعمته ، ونقله حميداً إلى منازل رحمته. ■

الحقيقة عن
ثورة يوليو ١٩٥٢

قراءة فى «رواية» عبد المحسن أبو النور

بقلم
د. عاصم الدسوقى

فى ظل غياب الوثائق الرسمية لثورة يوليو ١٩٥٢ أو تغييبها عمدا تظل المذكرات الخاصة للضباط الأحرار ولمن اشترك فى العمل السياسى من غيرهم من المدنيين المراجع المتاحة للتوصل إلى بعض حقائق الموضوع . ولأن المذكرات عند أصحابها تختلط بالذكريات وتتغلب فيها الذات على الموضوع والعاطفة على العقل أحيانا، تظل مصدرا «مشبوها» عند الذين ينشدون الحقيقة الحقيقية، تجعلهم يتعاملون معها بقدر كبير من الحذر والحيطة ورغم هذا فإن المذكرات - الذكريات - لا تخلو من أهمية فإذا كانت الوثائق هي جملة البيانات ومضابط الجلسات والقرارات والأوامر والرسائل.. إلخ، فإن المذكرات تنقل لنا انطباعات كاتبها عن الشخصيات أبطال الوقائع من حيث لغة الحوار بينها، وانفعالاتها فى المواقف، وأحاديث الصالونات والتعليقات العابرة ، وغير ذلك من وصف يضفى روحا على الوقائع الجافة وتنقل القارئ إلى أجوائها وتساعده على استيعابها.



ورواية عبدالمحسن أبو النور تتضمن قدرا كبيرا من الوقائع والانطباعات التي تساعد كثيرا على تفسير مسار الثورة، وتفسير خلافات قادتها حول الخطوات الكبرى المصيرية ومن ثم اختفاء شخصيات من دائرة الضوء وبروز أخرى. وتغطى مذكراته فترة طويلة من تاريخ مصر منذ التحاقه بالكلية الحربية ١٩٣٧ وحتى اعتقاله فى مايو ١٩٧١ وسجنه ثم الإفراج عنه فى مطلع ١٩٧٥ . ولأنه تجنب فى مذكراته ذكر «ما لم يشارك فيه بنفسه أو لم يكن حاضرا حدوثه» فقد جاءت بعض وقائع الثورة عنده بشكل عابر، وجاء بعضها الآخر بشكل مكثف وخاصة أزمة مارس ١٩٥٤ ووحدة مصر وسوريا ١٩٥٨ - ١٩٦١ وحرب يونيه ١٩٦٧ ومايو ١٩٧١.

العجز العسكري والسياسي

شأن غالبية جيل الأربعينيات من أبناء الطبقة الوسطى المهمومين بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية أدرك عبدالمحسن أبو النور مبكرا وطأة الوجود الانجليزى فى مصر، وهو لايزال بعد طالبا بالكلية الحربية رغم معاهدة التحالف والصداقة المصرية الانجليزية ١٩٣٦ إن لم يكن بمقتضاها مما اتضح له فى تصرفات البعثة البريطانية العسكرية فى الجيش وفى يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ الشهير ، حتى إذا اندلع الصراع فى فلسطين بعد قرار تقسيم ١٩٤٧ كان أبو النور حاكما لمنطقة الخليل وقائدا للدفاع عنها . وفى الحرب اكتشف حقيقة العجز العسكرى والسياسى . وفى حديثه ما يربط بين وقائع حرب فلسطين وبين التفكير المباشر فى الثورة وتشكيل تنظيم الضباط الأحرار بقيادة جمال عبدالناصر بعد عودة المحاصرين من الفالوجا فى ١٠ مارس ١٩٤٩ وكان عبدالناصر أحد المحاصرين

ورغم أن الغالبية العظمى من الضباط الأحرار من أبناء الطبقة الوسطى بشرائحها المختلفة وقلة محدودة من أبناء «الطبقة فوق المتوسطة» ممن كانوا يعرفون وسط الضباط بأولاد الذوات، إلا أنهم لم يكونوا من نسيج



عبد الناصر و محمد نجيب وبينهما السنهوري باشا

فكرى واحد فى التوجهات الاجتماعية والسياسية، فالبعض يؤمن بالرأسمالية، والبعض بالشيوعية ، والبعض الآخر من الإخوان المسلمين . لكن الجميع كما يؤكد أبو النور كانوا يؤمنون بضرورة اقتلاع الفساد السياسى وتحقيق عدالة اجتماعية بعيدا عن الأحزاب السياسية. وعلى هذا لم تحاول قيادة التنظيم وضع برنامج متكامل للإصلاح حتى لا يكون سببا للفرقة بين الضباط.

فلما قامت الثورة وأصبحت حقيقة واقعة لعبت هذه الاختلافات دورها فى شق الصفوف وكانت كامنة وبدأت تسفر عن وجهها منذ تشكل مجلس قيادة الثورة وانكشف أعضاء التنظيم للجميع، إذ اعترض البعض على انضمام أنور السادات وعبدالمنعم أمين للمجلس لأنه لم يكن لهما شأن كبير فى التنظيم . وحيث أن الثورة قامت من الجيش فقد رأت بعض الرتب الكبيرة أنها أحق بعضوية المجلس من صغار الضباط مع أن أصحاب هذه الرتب لم يكونوا من



عناق بين عبد الناصر وشكرى القوتلى

التنظيم!! وكانت هذه الرتب الكبيرة وراء أول حركة مضادة فى صفوف الجيش فى سلاح المدفعية بزعامة رشاد مهنا (١٥ مارس ١٩٥٣) لتشكيل مجلس قيادة الثورة بالانتخاب وانضم إليه كل من على النكلاوى من سلاح الفرسان وحسنى الدمنهورى من المشاة ولم يكونا من الضباط الأحرار.

الصراع على السلطة

على أن الأزمة الكبرى التى واجهت الثورة فى أول أيامها العلاقة بين محمد نجيب الذى ظهر للجماهير قائدا للثورة وبين جمال عبدالناصر مؤسس التنظيم حيث وصلت ذروتها بتقديم نجيب استقالته فى ٢٤ فبراير ١٩٥٤ وانتهت بعد تسعة أشهر بإعفائه من كل مناصبه فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ . والحق أن كل من تناول أيام ثورة يوليو عرض لهذه الأزمة تحت عنوان الصراع بين الديمقراطية التى يمثلها نجيب والدكتاتورية التى يمثلها ناصر ولقد سيطر هذا المفهوم على كل الكتابات والأحاديث وشاع بين جمهرة

المثقفين أن إقصاء نجيب هزيمة للديمقراطية.

غير أن رواية عبدالمحسن أبو النور في هذا الخصوص توضح أن الأزمة لم تكن لها علاقة بين الديمقراطية والدكتاتورية بقدر ما كانت صراعا على السلطة بين من صنعوا الثورة وبين من صنعته الثورة . وفي هذا الخصوص يذكر أن نجيب كان يتصرف في مجلس قيادة الثورة على أساس الرتب العسكرية ووجوب طاعة الصغير للكبير طاعة عمياء مما أثار المجلس . وسرعان ما تسربت أخبار هذه التصرفات إلى القوى السياسية المدنية خارج المجلس من الإخوان المسلمين والوفد والشيوعيين الذين أرسلوا لنجيب مؤيدين وناصحين إياه بالتخلص من مجلس قيادة الثورة وإعادة الحياة الحزبية . وتلك هي الظروف التي عاد فيها أبو النور إلى قيادة الحرس الجمهوري لمراقبة نجيب، وهي ذات الظروف التي تم فيها الاتصال بين الإخوان المسلمين والسفارة البريطانية لقلب نظام الحكم ، ومن هنا جاء قرار حل الجماعة في يناير ١٩٥٤ ثم ما كان من تقديم نجيب استقالته في ٢٤ فبراير ١٩٥٤.

وتكشف المذكرات حقيقة ما حدث في الأيام الثلاثة بين استقالة نجيب وعودته في ٢٧ فبراير، ودور أبو النور في إحكام الحراسة حول منزل نجيب بكتيبة من المشاة بدلا من الحرس الجمهوري المتعاطف مع نجيب . وفي تلك الأيام الثلاثة الغامضة في تاريخ مصر كان الصراع على أشده بين فصائل الثوار والقوى السياسية القديمة، وتفنن كل منها في اصطناع أساليب المواجهة والمناورة . وكانت البداية من سلاح الفرسان الذي طالب بعودة نجيب ، وقيام خالد محيي الدين بتشكيل الوزارة وعودة الحياة النيابية واستقالة مجلس قيادة الثورة . غير أن باقي الضباط الأحرار من باقي أسلحة الجيش اجتمعوا وقرروا رفض مطالب سلاح الفرسان حتى لو قبلها مجلس قيادة الثورة كما قرروا محاصرة سلاح الفرسان بوحدات من المشاة وبمدفعية مضادة للدبابات. وعندما قبل مجلس قيادة الثورة مطالب سلاح الفرسان وذهب خالد محيي الدين ليبلغ نجيب وقفل عائدا إلى المجلس كان الحصار قد ضرب حول سلاح الفرسان فجر يوم ٢٧ فبراير. وحدث أن انطلقت طلقة من مدفع مضاد للدبابات بشارع الخليفة المأمون من أحد الجنود عن غير قصد، وكأنها كانت إشارة بدء إذ حلقت على أثرها طائرات فوق معسكر الفرسان وهنا تماسك مجلس قيادة الثورة وطلب الأعضاء من خالد محيي الدين أن يذهب إلى سلاح الفرسان ويطلب منهم التسليم قبل الساعة الثامنة صباحا بل لقد حاول

بعض الضباط التحرش بخالد. وانتهى الأمر بعودة نجيب (٢٧ فبراير) على أساس تلبية طلباته.

غير أن الأزمة لم تنته عند هذا الحد إذ كانت النار لاتزال مشتعلة تحت الرماد وجميع الأطراف تستعد لجولة أخرى.. ففي يوم ٥ مارس صدرت القرارات الشهيرة استجابة لمطالب نجيب: انتخاب لجنة لاقرار دستور وبموجبه يعاد تشكيل الأحزاب ويكون لمجلس قيادة الثورة سلطة سيادية . ولكن في الأيام التالية عاد نجيب وطلب سلطة تعطيه حق الاعتراض على قرارات مجلس الثورة ومجلس الوزراء وأن تكون له سلطة تعيين قيادات الجيش فأصبح رئيسا للجمهورية ولمجلس الوزراء ولمجلس قيادة الثورة وانفتح باب الهجوم على الضباط الأحرار في الصحف مرددة كلام محمد نجيب وخاصة جريدة المصرى (أحمد أبو الفتح)، وكان نجيب بعد عودته قد طالب الضباط بترك السياسة للمدنيين (خطابه بنادى الضباط في ٤ مارس ١٩٥٤). وهكذا استمر الهجوم على الضباط وعلى مجلس قيادة الثورة في الصحف خاصة بعد إلغاء الرقابة عليها (٦ مارس) وتلك هي الظروف التى صدرت فيها قرارات ٢٥ مارس بإعطاء فترة انتقال أربعة أشهر يعلن في نهايتها حل مجلس الثورة على ألا يكون أعضاؤه حزبا سياسيا، وعودة الأحزاب السياسية وانتخاب جمعية تأسيسية لها سلطة المجلس النيابى تنتخب رئيس الجمهورية.

وهنا تحرك جمال عبدالناصر بسرعة حتى يفوت الفرصة على مخطط الثورة المضادة إذ نراه يبعد الضباط الذين أظهروا تعاطفا مع الأحزاب ويفرج عن الضباط الأحرار الذين سبق اعتقالهم، ويزور حسن الهضيبى مرشد الإخوان المسلمين ويتفق معه على عودة الجماعة لنشاطها، ثم يحدث إضراب عمال النقل في ٢٧ مارس تأييدا للثورة، ويسيطر جمال عبدالناصر على الموقف في أقل من ثلاثة أيام فيقدم على خطوات أخرى لمواجهة أية احتمالات قادمة بدأت بتطهير الصحف، ومحاكمة المسئولين عن الفساد السياسى في العهد الملكى (٥ ابريل) وحرمان الوزراء السابقين من حقوقهم السياسية، وحل مجلس نقابة الصحفيين (١٥ ابريل) وكانت هذه الاجراءات كفيلة بتجميد نشاط محمد نجيب إذ أصبح وحيدا دون معاونين وبعد توقيع اتفاقية الجلاء مع الانجليز في ١٩ أكتوبر لم يعد هناك سبب يدعو للابقاء على نجيب فتقرر إعفاؤه من جميع مناصبه في ١٤ نوفمبر وتحديد اقامته . وبهذا خلصت الثورة لأصحابها الحقيقيين بعد شهور من المرارة والعنت.

وحدة لم تكتمل!

في سبتمبر ١٩٥٦ عين أبو النور



عبد الناصر في إحدى زياراته لسوريا أثناء الوحدة

ملحقا عسكريا في سوريا ثم مديرا لفرع القيادة المشتركة . وهناك شهد خطوات التقارب السوري - المصري حتى قيام الوحدة بين البلدين في فبراير ١٩٥٨. ويؤكد على أن عبدالناصر لم يكن يرحب بوحدة فورية بل كان يرى أن خطوة من هذا النوع يلزمها خمس سنوات يتم فيها تنفيذ اجراءات للعمل المشترك عسكريا واقتصاديا وماليا وتوحيد السياسة الخارجية على أنه بمجرد الإعلان في سوريا (١٨ نوفمبر ١٩٥٧) عن المطالبة بإقامة اتحاد فيدرالي مع مصر تحركت الولايات المتحدة الأمريكية لمنع هذا التقارب وأوعزت إلى الملك سعود ليبذل جهوده لإفشال هذه الخطوة . وعلى هذا سافر إلى دمشق مستشاره الشيخ يوسف ياسين، وهو من أصل سوري، محاولا إخافة شكري القوتلي من خطة عبدالناصر في إقامة امبراطورية موالية للاتحاد السوفييتي. وقد حضر أبو النور لقاءات الشيخ مع القيادات السورية التي انتهت برفض طلب السعودية بل لقد طالبوا



عبد المحسن أبو النور يتحدث إلى عبد الحكيم عامر .. ويظهر في الصورة زكريا محيي الدين

السعودية بالانضمام إلى الاتحاد غير أن الملك سعود لم ييأس ففي ١٩ فبراير ١٩٥٨ وقبل الاستفتاء على الوحدة شعبيا اتصل أسعد ابراهيم (شقيق زوجة الملك) بعبدالحميد السراج ليبلغه بأن الملك مستعد لدفع مائة مليون جنيه استرليني حتى لا تتم الوحدة. ثم كان ما هو معروف من دفع مليوني جنيه استرليني للسراج على ثلاثة شيكات وأصبح عبدالمحسن أبو النور في الدولة الجديدة معاونا لقائد الجيش الأول ومقره دمشق حتى يونيه ١٩٦٠ . وقبل أن يغادر سوريا إلى مصر شعر ببوادر الانفصال وأرجعه إلى الوزراء البعثيين الذين لم يتمكنوا من الانفراد بالأمور في سوريا فأخذوا يطلقون الشائعات والافتراءات ويضخمون صغائر الأمور.

في سبتمبر ١٩٦٠ وبعد أن عاد أبو النور من سوريا عين محافظا لبني سويف ثم وزيرا للاصلاح الزراعي، وأنذاك وقعت هزيمة يونيه ١٩٦٧ . على أن أهم ما في هذا الجزء من المذكرات ما دار بعد

الهزيمة من حديث حول تغيير أداء الحكم، وكان أبو النور قد ترك الاصلاح الزراعي وعين قائدا للمقاومة الشعبية وتولى أمانة الاتحاد الاشتراكي خلفا لعلي صبري الذي عين وزيرا للادارة المحلية. وفي هذا الخصوص يذكر أنه عرض على عبدالناصر أن يتكون الاتحاد الاشتراكي من حزبين أحدهما يميني برئاسة زكريا محيي الدين والآخر يساري برئاسة علي صبري ويدخل الحزبان انتخابات مجلس الأمة ببرنامج واضح ومن يفوز بالأغلبية يتولى الحكم والآخر يمثل المعارضة. وقد وافقه عبدالناصر على أن يعرض الأمر على اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكي. وعند العرض فوجئ بمعارضة شديدة وكان أول المعارضين السادات الذي قال «أنت عايز تودي البلد في داهية وتدخلها في متاهات داخلية واحنا بنعد البلد للمعركة».

أبو النور والسادات

أما الفصل الأخير من المذكرات وهو أكبر الفصول حجما فقد خصصه أبو النور لصداقته بالسادات التي انتهت به إلى المعتقل، وفي البداية نراه يضع علامات استفهام أمام تصرفات معينة للسادات منذ عودته إلى الجيش (١٩٥٠) ثم أخذ يركز حديثه على أسباب الخلاف بين السادات وبين أعضاء اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي فيقول إن السادات بدأ يتجه للانفراد



السادات يتفقد القوات وبجواره الفريق فؤاد عزيز غالي

بالأمور، وأن الخلاف الأساسي معه كان حول موعد الدخول في معركة لتحرير سيناء، وفي يوم ١٣ مايو ١٩٧١ الذي تقرر فيه أن يعرض عليه الفريق محمد فوزي قرار المعركة ليوقع عليه التقطت المخابرات العامة حديثا تم بين جوزيف سيسيكو نائب وزير الخارجية الأمريكي وكان في زيارة لمصر وبين القائم بالأعمال في السفارة الأمريكية وفيها يقول سيسيكو إن السادات قال له «إنه سيتخلص من وزير الحربية (محمد فوزي) ووزير الخارجية (محمود رياض) لأنهما يضغطان عليه لدخول المعركة وأنه يريد حلا سلميا تساعده أمريكا في الوصول إليه.»

ويعتقد أبو النور أن تحالفا تم بين محمد حسنين هيكل والسادات ساعده



عبد المحسن أبو النور يتسلم قلادة الجمهورية من عبد الناصر

على الانفراد بالحكم، إذ اجتمع الاثنان على كراهية اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكى أما مظاهر هذا التحالف فتتمثل فى مقالة كتبها هيكل فى ٦ نوفمبر ١٩٧٠ بعنوان «عبدالناصر ليس أسطورة» انتهى فيها إلى أن السادات يمكن أن يملأ الفراغ الذى تركه عبدالناصر دون أن يتمسك بحرفية مبادئه والمظهر الثانى قيام هيكل بتعديل صيغة المبادرة التى أعلنها السادات فى ٤ فبراير ١٩٧١ بانسحاب جزئى لإسرائيل من شرق القناة مقابل تطهير القناة وإعادتها للملاحة، وأضاف التعديل أن المبادرة لا تعنى حلا جزئيا أو منفردا بل ترتبط بالانسحاب الكامل من جميع الأراضى العربية . والمظهر الثالث مقالة هيكل فى ١٢ مارس ١٩٧١ «تحية للرجال» التى اعتبرت تعجيزا للدخول فى معركة حربية واستحالة انتصار القوات المسلحة . وأما المظهر الرابع قيام هيكل بتعديل صيغة خطاب السادات فى ١٥ مايو ١٩٧١ الذى أعلن فيه ضرب مراكز القوة، وكان السادات يريد تبرير ضربته بأن مجموعة على صبرى كانت ترفض أن يقابل روجرز لكن هيكل قال له بلاش روجرز.. ولكن قل من أجل الديموقراطية أى أنهم يريدون دكتاتورية وأنت تريد ديموقراطية.

وبعد.. إن هذه المذكرات تضاف إلي قائمة المذكرات الطويلة التي نشرها بعض الضباط الأحرار وآخرون من الذين كانوا في دائرة العمل السياسي أو بالقرب منها، وتبقي مصدرا محتملا للتأريخ لثورة يوليه حتي يفرج عن وثائقها إذا كانت موجودة لتتحقق درجة من التوازن.

ويبقي السؤال.. أين الصواب وأين الخطأ في كل ما نقرأ.. وكيف نحكم عليه.. هل نحكم بالعقل أم بالمصلحة؟.. أين الحقيقة وأين الخيال.. أم سنظل نجري وراء سراب الحقيقة في صحراء الوهم. ■



عادل حسين فى المعتقل

بقلم
د. رشدى سعيد

فقدت مصر في شهر مارس «آذار» سنة ٢٠٠١ برحيل عادل حسين أمين عام حزب العمل واحدا من أخلص أبنائها الذين قضوا عمرهم في خدمتها وضحوا بكل غال من أجل أن يروها مزدهرة مستقلة موفورة الكرامة وذات دور إقليمي مؤثر.. وكان عادل حسين واحدا من الناشطين السياسيين ذوي القدرة التنظيمية الهائلة والذين كرسوا حياتهم للعمل السياسي والتعبئة الشعبية من أجل تحقيق هذه الأهداف..

وقد عرفت عادل حسين فى صدر شبابه عندما كان طالبا بكلية العلوم بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٥١ عندما بدأت عملى كأستاذ بها فقد كان واحدا من القليلين الذين كانوا يدرسون علم الچيولوجيا ويحرص على حضور المحاضرات التى كنت قد بدأت فى إلقائها لطلاب السنة الثالثة فى ذلك العام ، ويهتم بها ويكثر من التردد على مكتبى لاستفهام ما عصى عليه منها وكان عام ١٩٥١ عاما شديد الاضطراب فى حياة مصر التى كانت تغلى فيه غضبا من استمرار بقاء جيش الاحتلال الانجليزى بها ومن فساد الحكم واستبداد الملك ، وتعيش الأزمة الكبرى التى حلت بها وبالعرب جميعاً بنجاح عصابات الصهاينة فى هزيمة الجيوش العربية وانشاء دولة اسرائيل - كان الغضب عارما والطلاب في طليعة الغاضبين يضربون ويتظاهرون ويصطدمون مع قوات الشرطة فتغلق الجامعة لبعض الوقت ، وعندما يعاد فتحها وأستأنف محاضراتى بها كنت ألاحظ غياب عادل حسين من بين صفوف الطلاب فقد كان يساق إلى السجن كواحد من قادة طلاب اليسار الذين كانوا على قوائم المشتبه فيهم فى كل الحكومات التى عملت مع الملك او مع الثورة التى خلفتها بعد ذلك بعام واحد، وكان عادل حسين يعود إلينا

بعد الافراج عنه من سجنه الذى تكرر مرات كثيرة على طوال سنوات دراسته هو وزميله طالب الجيولوجيا الآخر المرحوم وليم صادق صليب، وعندما يتصادف ان يكونا مسجونين وقت امتحان اخر السنة فقد كان يساقان الى الكلية وهما حليقا الشعور ومرتديان بدلة السجن لكى يؤديا الامتحان الذى كنا نعده لهما فى حجرة خاصة عليها حراسة مشددة وكان منظر هذين الطالبين وهما يؤديان الامتحان على هذه الصورة يثير فى الحزن والغضب بسبب حال بلدى التى كانت تعامل أذكى طالبين وأكثرهم وسامة وامتلاء بالحياة هذه المعاملة دون أن تستفيد منهما أو أن تترك لهما فرصة للتعبير عن آرائهما.

رؤية عادل للثورة

وطالت سنوات الدراسة مع عادل حسين فلما تخرج دخل السجن مع غيره من اليساريين فى سنة ١٩٥٩ ولم يخرج منه الا بعد ذلك بخمس سنوات كاملة وفى هذه المدة اختلفت رؤية عادل حسين للثورة التى أصبحت جديرة بالتأييد بسبب مواقفها الصعبة ضد الاستعمار وبسبب قيامها بعمليات التأميم وتقاربها مع الاتحاد السوفييتي وأخذ يكتب لى عن رؤيته الجديدة هذه من السجن فى رسائل كان يهربها إلى، وكنت خلال هذه الفترة قد اصبحت عضوا فى لجنة إعداد الميثاق الوطنى ثم عضوا فى مجلس الشعب. وهذه الرسائل كانت تصل مكتبى بطريقة سرية، والتى وجدت ثلاثة منها محفوظة فى احد ملفاتى القديمة والمنسية بمنزلى بالقاهرة كان عادل حسين يبتعد فيها من الايدلوچيات الجامدة لليسار ويصبح أكثر براجماتية ورغبة فى ان يجد الطريق الذى يمكن به تعبئة الجماهير وراء الثورة لتعزيز كفاحها لبناء مجتمع الكفاية والعدل الذى شعر انها كانت تنشده.

السياسة المصرية والتبعية

وعندما خرج عادل حسين من السجن فى سنة ١٩٦٤ عمل بالصحافة فى جريدة الأخبار وكان كثيراً ما يزورنى لبحثنى للكتابة فى موضوع تنمية ثروات مصر الطبيعية لنشره فيها. وكنت استجيب له بسبب رغبتى فى زيادة وتوثيق معرفتى به فقد رأيته شخصا مخلصا وقادرا على إدارة الحوار الموضوعى عن مشاكل مصر كان واعيا بها وعن طريق الخروج منها والتى كان يؤمن بأن مصر قادرة على السير فيها دون الحاجة الى أن تحنى رأسها لأحد.. وقد دخل عادل حسين بعد سنوات قليلة من خروجه من السجن فى معارك فرضت عليه عندما تغيرت وجهات السياسة المصرية مع تولى الرئيس انور السادات سدة الحكم وهى التوجهات التى شعر أنها ستجر مصر الى التبعية والتى وصفها فى كتابه المرجع «الاقتصاد المصرى من الاستقلال الى التبعية ١٩٧٤ - ١٩٧٩» أنها كانت «كارثة على مصر

والوطن العربي» . وفي هذا الكتاب الذي تصل صفحاته الى قرابة الألف والذي استغرق إعداده ثلاث سنوات كاملة وصدر في بيروت سنة ١٩٨٠ ثم في مصر في سنة ١٩٨١ كلام كثير وموثق عن الأحداث التي أعادت مصر الى التبعية بعد الفترة القصيرة التي حاولت ان تنهض بحياتها في نسق مستقل، وقد تابع الكتاب بالتحليل كيف ضبط الأداء الاقتصادي المصري وكيف خططت الجهات الخارجية لاعادة تشكيل هيكله حتى يمكن ادارته خارج مصر.

عودة للنسق المستقل

وفي تقديري ان اعداد هذا الكتاب كان من احد الأسباب التي اقنعت عادل حسين بأن تغيير هذا التوجه والعودة بمصر الى النسق المستقل سيتطلب عملا شعبيا واسعا رأى أن تحقيقه عن طريق تنظيمات اليسار التي كان يتعاطف معها مستحيلا . ووجد عادل ان الاسلام السياسي قد يكون الطريق الأسهل للوصول الى قلب الشعب فانتقل الى تياره ولعل من الأسباب التي سهلت عليه عملية الانتقال هذه ظهور حزب العمل على الساحة السياسية وهو الحزب الذي كان إحياء لحركة مصر الفتاة التي أسسها شقيقة الاكبر احمد حسين في اول الثلاثينات القرن العشرين ، والتي لعبت دورا مهما في مصر قبل الثورة وأخذت منحى اسلاميا في اخر اربعينات القرن العشرين قبل حلها وقد التحق عادل حسين بالفعل بهذا الحزب الجديد حتى أصبح أمينه العام .

الدين والسياسة

وقد اختلفت مع عادل حسين بسبب هذا الانتقال فقد كنت ولا ازال من المعارضين لاقحام الدين في السياسة ليس فقط بسبب الاتجاهات الدكتاتورية التي لابد وان يفرزها أي حكم يتمسك بما يراه مقدسا التي لا تسمح بالاختلاف وبسبب احترامي الشديد للدين والذي لا اريد ان أراه يزج به ويصبح مجالا للخلاف فيما يمكن ان يتخذ باسمه من قرارات او اجراءات تخص الموضوعات الزمنية.. وقد اثبتت التجربة العملية فشل كل التجارب قديمها وحديثها التي اتخذت - الدين اساسا للحكم وجميعها سببت من المآسي الكثير - وبالاضافة الى ذلك فإن رؤيتي للدين كراع للحياة الروحية للانسان تجعلني اطلب بأن يصبح مصانا وفوق كل اختلاف وملاذا للناس وداعيا للرحمة والتكافل بينهم.

وعلى الرغم من هذا الاختلاف الأساسي في التوجه السياسي فقد حافظت على علاقتي الطيبة مع عادل حسين فقد كان هناك الكثير مما كنت اجده مشتركا معه فقد كانت أهدافنا واحدة وان اختلفت طرقنا. كان رحمه الله صلبا في مواقفه الوطنية ومستعدا للتضحية من اجلها - وكان بحق فارسا من فرسان مشروع النهضة الكبير الذي صاحب حركات الاستقلال الوطني في جميع البلاد العربية. ■

مستقبل الثقافة فى مصر

التعليم باللغة الأجنبية

بقلم
د.سعيد اسماعيل على

منذ أوائل السبعينيات بدأت مصر تشهد تدافعا متزايدا عاما بعد عام نحو التنادى بأن يتعلم أبناؤنا المقررات الدراسية المختلفة باللغة الأجنبية عموما ، وتحديدا باللغة الانجليزية ، ونتيجة لهذا بدأ الزحف غير المقدس نحو كل منشأة تعليمية توفر هذا الغرض ، ووقفت الجامعة الأمريكية بين كل المنشآت التعليمية فى مصر على سدة العرش وكأنها إعلان بموقع الولايات المتحدة الأمريكية على خريطة علاقاتنا بدول العالم الخارجى ، وكان المناخ المجتمعى العام مما شجع على هذا ، بل وفرضه فرضا ، فقد بدأت مصر تشهد التحول الكبير من المجتمع الذى تقوم فلسفة الدولة فيه على التوجيه الكلى الشامل وفقا لما كانت تنادى به «الاشتراكية» المعلنة إلى مجتمع آخر يترك أمر الاقتصاد إلى القطاع الخاص ، فضلا عن التعددية الحزبية ، والتحول من الارتباط بكتلة منظومة ما كان يسمى بالدول الاشتراكية إلى الارتباط بالعالم الغربى الرأسمالى وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية .





أحمد
لطفى السيد



عبدالقادر
المـــازنى

كانت الحجة الأساسية التى تستند إليه هذه الحركة فى التعليم هو أن اللغة الانجليزية هى لغة العلوم المعاصرة والتقدم المطرد منذ عقود طويلة ، وسوف تستمر كذلك لفترات أخرى الله وحده هو الذى يعلم مداها ، حتى لقد أصبح البعض يسميها باللغة الكوكبية ، فكما أن هناك عولة فى السياسة وفى الاقتصاد وفى الثقافة ، فإن اللغة الانجليزية هى المؤشر لكل ذلك ، أما اللغة العربية ، فهى عاجزة - كما تصور أصحاب هذا الاتجاه فى معظمهم - عن استيعاب منجزات العلوم والتكنولوجيات المستحدثة ، وهى أقرب لأن تكون لغة اداب ، وأشعار وخطابة أكثر منها لغة علم

وعلى الفور عندما أسمع مثل هذا أو أقرؤه يقفز إلى الذاكرة ما حرص عليه محمد على فى أوائل القرن التاسع عشر ، عندما كانت مصر خالية تماما من أى مفردة من مفردات العلوم الحديثة ، وخالية تماما ممن يعرفون شيئا منها ، وخالية تماما من أى معهد تعليمى يعلمها ، ومع ذلك فقد كان الرجل غير العربى ، الألبانى ، الأمى على وعى واضح بضرورة أن يتم تعليم العلوم الحديثة للتلاميذ المصريين مترجمة إلى اللغة العربية ، وأن تنقل أمهات الكتب العلمية إلى اللغة العربية ، وأن يتخصص أعضاء البعثات المرسلة إلى الخارج فى هذه العلوم الحديثة ، وهكذا لم نجد بينهم مبعوثا واحدا فى أى من العلوم الإنسانية ، ولم نجد من بين مائة واثنى عشر كتاباً تمت ترجمتها كتاباً واحدا فى العلوم الإنسانية ، وإن كنا لا نقصد أن هذه العلوم ليست من العلوم الحديثة .

كما قفز إلى الذاكرة أيضا صور لا حصر لها من الجهود العملية والكتابية ، قامت على أيدى زعماء الفكر ، والثقافة والسياسة فى مصر طوال فترة الاحتلال البريطانى من أجل العودة إلى تعليم العلوم باللغة العربية ، حيث كان الاحتلال قد استطاع أن يجعل التعليم باللغة الأجنبية وخاصة الانجليزية ، حتى توجت هذه الجهود ببدء تحقيق هذا المطلب

الوطنى عام ١٩٠٧ ، واطرد فى تناميه ، حتى خلص تعليم المرحلة الأولى بصفة خاصة من تعليم اللغة الأجنبية ، لا فقط كلغة تعليم ، بل كلغة قائمة بذاتها ، فى عهد ثورة يوليو .

وكان المنطق الذى تستند إليه هذه الدعوة الوطنية أن اللغة الوطنية هى أحد أركان ثالوث الهوية الوطنية ، وأولها العقيدة ، وثانيها اللغة ، وثالثها التاريخ الوطنى . وإذا تأملنا فى التجربة الإسرائيلية فسوف نجد هذا الثالوث واضحا فى الأركان التى قامت عليها هذه الدولة ، ولست بحاجة إلى الإشارة إلى أمثلة ونماذج من وجود العقيدة الدينية فى كل صغيرة وكبيرة فى المسيرة العامة لها ، وكذلك بالنسبة للتاريخ ، أما اللغة فقد حرصوا على إحياء العبرية ، تلك اللغة الميتة منذ ما يقرب من ألفى عام .

كان وجه الزيف فى الدعوة المشجعة للغة الأجنبية أنها تصورت أمرا لا يقول به أحد ، فليس هناك من يجرؤ على التقليل من أهمية تعلم اللغة الأجنبية ، لكن المعارضة والنقد ينصبان على التعليم بها ، وبالتالى فلابد من التمييز بين تعليم اللغة الأجنبية والتعليم بها ، الأولى تعنى أن نعلم التلاميذ اللغة الأجنبية باعتبارها لغة فى حد ذاتها ، أما الثانية فتعنى أن نعلم مختلف المقررات بهذه اللغة لا باللغة العربية ، كذلك وجه الاعتراض ينصب على الفترة التى يمكن البدء فيها بتعليم اللغة الأجنبية

لقد تحدثنا فى هذا وكتبنا الكثير عبر سنوات عدة ، ومع ذلك نشهد التيار العروبى لغة مستمر فى إنحساره بكل الأسف وبكل الأسى ، حتى كدنا ننطق بهذه العبارة المؤسفة «مفيش فايدة»!

مكانة اللغة العربية

ثم إذا بى أقرأ مقالا لطه حسين فى صحيفة الأهرام بعنوان «تكوين الصفوة» نشر فى الثانى من شهر مارس من عام ١٩٣٩ ، ويدفعنى هذا المقال إلى قراءات أخرى لهذا المفكر العملاق حول القضية نفسها ، فيشد من أزرى ، وتعود الحمية مرة أخرى والعزم على استمرار الحديث والكتابة والدعوة إلى أن تعود إلى لغتنا العربية مكانتها كلغة تعليم .

إن وجه الأهمية فيما كتبه طه حسين أن الرجل محسوب على التيار التغريبى ، والذى يرى الخير كل الخير فى أن نخترق بكل ما نملك من طاقة من الثقافة الغربية ، والرجل كما هو معروف للكافة عارف ودارس للغة أجنبية شهيرة هى اللغة الفرنسية ، وبالتالى فليس معرضا لذلك الاتهام الذى يرفعه البعض فى وجه الداعين للتعليم بالعربية ، بأن الدافع لهذا ربما يرجع إلى العجز الذى يعانى منه البعض فى اللغة الأجنبية ، فماذا كتب طه حسين فى هذا المقال ؟ لقد كتب قائلا :

«فكثير من الناس يريدون أن يشيع

العلم باللغات الأجنبية فى مصر ويظنون أن هذا هو سبيل الثقافة ، فنحب أن يعلم هؤلاء الناس أن شيوع اللغات الأجنبية فى مصر لا بأس به ، ولعل فيه خيرا كثيرا ، ولكنه ليس هو السبيل المستقيمة المنتجة إلى الثقافة ، وإنما السبيل أن تنتقل الثقافة الأجنبية للمصريين فى لغاتهم وأن يلتمسوها فى أى لغة أخرى ، إنما اللغات الأجنبية أدوات للاستزادة من العلم لا لتحصيل الضرورى منه» !

وبالفعل فقد شهدنا فى النصف الأول من القرن العشرين حركة ترجمة ، وإن توجهت أكثر إلى كتابات فى غير العلوم الطبيعية والكيميائية أو الرياضية والهندسية ، على أساس أن هذا طريق مهم لتثقيف اللغة العربية وإثرائها بالأفكار والمصطلحات التى أستحدثتها العلوم الحديثة .

وأشار طه حسين إلى واحد مثل الجاحظ ، فلقد كان هذا الرجل مثقفا بمعايير عصره ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، على الرغم من أنه لم يكن يعرف اليونانية ولا السريانية ، أو الفارسية ، أو الهندية ، وهى أهم لغات العلم والثقافة قديما ، لكنه كان على دراية كافية بما فى ثقافات هذه اللغات من معارف ومعلومات ، لأن العرب والمسلمين كانوا حريصين أشد ما يكون الحرص على ترجمة العديد من مصادر العلم والثقافة فى الحضارات اليونانية والفارسية والهندية إلى اللغة العربية .

وإذا كنا نؤكد على الخشية على هويتنا القومية من هذا الإنحسار للغتنا العربية ، فها هو عميد الأدب العربى ، يؤكد على هذا بقوله :

«وما دمنا نعتمد على اللغة الأجنبية لنحصل من طريقها الضرورى من العلم والثقافة ، فنحن عيال على الأجنبى ، ونحن مقصرون فى ذات أنفسنا وفى ذات لغتنا ، وفى ذات وطنيتنا .

وبعبارات صريحة واضحة يعلن طه حسين السبيل الصحيحة إلى النهوض الثقافى :

«... ثم إنى أطلب شيئا أهم من ذلك ، أطلب أن تكون لغتنا وأدبنا العربى أساسا لكل ثقافة صحيحة ممتازة» .

ثم يصل إلى الذروة حقا بذلك التقرير الخطير ، بل وبذلك الإنهام والتحذير :

«كل ثقافة لا تعتمد على اللغة الوطنية ليست إلا ثقافة مستعارة ، والذى لايعرف لغة وطنه غير مثقف ، وأخشى أن أقول أنى أشك فى رجولته شكا كبيرا» .

يا سبحان الله ! إلى هذا الحد ياشيخنا الكبير ؟

وبطبيعة الحال فإن شيخنا الكبير لايقصد معرفة العربية أى معرفة ، وإنما هى المعرفة القائمة على الوعى والإدراك لمقوماتها وأساسياتها ، أما هذا الذى يجرى ألسنة كثيرين وتجرى به أقلامهم

فلا ينطبق عليه وصف «المعرفة» بأى حال من الأحوال .

وإذا كنا نشكو مر الشكوى من أن تلاميذنا لايحسنون لغتهم العربية ، ونشير بإصبع الإتهام أحيانا إلى هذه اللغة نفسها ، أحيانا ما نتهم مناهجها وكتبها ، وأحيانا أخرى ما نوجه الإتهام إلى أن المعلمين أنفسهم لا يحسنونها ، وفاقد الشيء لايعطيه ، وأحيانا ما نرى أن كل هذه المصادر مجتمعة هى المتهم الرئيسى ، فإن الذى يستوقفنا حقا أن هذا هو نفسه الذى أشار إليه طه حسين فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» ، والذى صدر عام ١٩٣٨ أى وقت أن كان كتاب الصحف والمجلات هم : طه حسين نفسه ، والعقاد ، ولطفى السيد ، والرافعى ، والمازنى ، وهيكل ، والبشرى ، ومصطفى وعلى عبدالرازق ، وتوفيق دياب ، وأحمد أمين ، ومنصور فهمى ، وزكى مبارك ، وغيرهم من عمالقة الأدب واللغة والثقافة ، فماذا كان يمكن أن يكتب الرجل لو بعث حيا اليوم واطلع على ما يكتب ووزنه بميزان اللغة العربية السليمة ؟.

ولو فرضنا جدلا أنه لم يحدث تدهور ، فما دلالة أن تكون قضية اليوم هى نفسها القضية التى كانت مثار تفكير وجدل ونقاش منذ أكثر من ستين عاما ؟ إن الإجابة عن مثل هذا التساؤل لابد أن تفزعنا حقا ، وإلا فإن هذا يعنى أن السيرة الفكرية والتعليمية لم تخط إلى أمام وإنها إما أن تكون قد سارت بإتجاه خلفى ، أو ظلت فى مكانها لم تتعداه !

ولعل تفسير طه حسين الضعف البادى فى اللغة العربية لدى تلاميذنا ومعلمينا يلقى الضوء على مشكلة مازلنا نواجهها فى وقتنا الحاضر ، يقول مفكرنا فى مستقبل الثقافة : «إن التلميذ لايكاد يدخل المدرسة حتى تتلقفه اللغة الأجنبية فتستغرق من وقته وجهده ونشاطه ما هو خليق أن ينفق فى تعلم اللغة الوطنية وإتقان غيرها من المواد التى تتصل بالثقافة الوطنية» .

ومن هنا يبرز السؤال الذى كان من حسن الحظ أن طه حسين وضعه فى الاعتبار : متى إذن يمكن تعليم اللغة الأجنبية ؟

الثقافة الوطنية أولا

إن إجابتنا اليوم ، والتى ننفذها بالفعل ، أن تعليم اللغة الأجنبية يمكن أن يبدأ حتى قبل بدء المرحلة الابتدائية ، فى مرحلة رياض الأطفال ! فإلى أى حد يعد هذا أمرا سليما من حيث الرأى العلمى التربوى والنفسى ، ثم من الناحية اللغوية نفسها ؟

هنا يجيب طه حسين فى كتابه : «أما نحن فجوابنا فى ذلك قاطع وصريح ، وهو أن اللغة الأجنبية لا ينبغى أن تدرس فى هذا القسم من التعليم العام (يقصد التعليم الابتدائى) ... وإنما يجب أن



أحمد أمين



العقاد

يخلص هذا القسم ... للثقافة الوطنية الخاصة إذا أردنا أن نخلص نفس الصبى لوطنه وأن تشتد الصلة بينه وبين هذا الوطن .. إذن فسند مفكرنا هنا هو التفكير فى المصلحة الوطنية ، من منظور ثقافى يراه علم من أعلام الثقافة والفكر ، على أساس أن تعليم المرحلة الأولى هو بمثابة « الجذر» الشجرة .. لابد أن يكون واحدا لجميع المواطنين، ثم يمكن لهم أن يتفرعوا بعد ذلك ما شاء لهم التفرع فى مراحل التعليم المتأخر. وفى هذه المرحلة التعليمية الأولى لابد أن يكون التعليم كله متصلا بكل ما هو أساسى فى التكوين الوطنى، وليس فى هذا التكوين لغة أجنبية وإنما هى اللغة الوطنية!

وإذا كانت هذه الفتوى تمثل اجتهادا فكريا لطه حسين، فإننا نجد أن العلم التربوى والنفسى يسندها أيضا، ففى عام ١٩٤٥، وعقب انتهاء الحرب العالمية مباشرة، عقدت رابطة التربية الحديثة مؤتمرا علميا لمناقشة بعض قضايا التعليم، وكان مما استقر عليه الرأى هذه الفتوى التى قال بها أحد الخبراء الأجانب د. وست فى كتاب له بعنوان «Learing to read a Foreign Language» والتى تذهب إلى أن:

«إنه ليس لدى الطفل المتوسط من القدرة ولا من الغرض ما يمكنه من تعلم لغة أجنبية تعلما مفيدا من غير أن يضحى بلغته القومية ويضعفها ... وغنى عن البيان أنه من العبث أن نحاول أن نعلم الأطفال قراءة لغة أجنبية قبل أن نتأكد من استطاعتهم قراءة لغتهم القومية قراءة طلقة».

ومن هنا فإن المؤتمر خلص إلى القول:

إن التبكير بتدريس اللغة الاجنبية فى الوقت الذى لم يتمكن فيه التلميذ من لغته القومية يضحى باللغة القومية فى سبيل اللغة الأجنبية . ص ٦٦ من كتاب المؤتمر.

من الشخصيات التى شاركت فى هذا المؤتمر : أحمد لطفى السيد د. محمد صلاح الدين د. أحمد زكى د. ابراهيم بيومى مدكور د. على مصطفى مشرفة ، محمد فريد أبو حديد، وغيرهم من ذوى

المقامات العالية فى العلم والثقافة والسياسة، ممن كانوا يعرفون اللغة الاجنبية بدرجة عالية من التفوق ، لكنهم باعتبارهم يمثلون ضمير الأمة أقروا هذه الفتوى العلمية الهامة.

وقد ادعى البعض أن القيام فى مدارس مصرية بتعليم أطفالنا لغة أجنبية منذ بدء تعليمهم إنما أمر يتم مثله فى المدارس الغربية، وخاصة فى أوروبا حيث يتعلم الطفل الأوروبى لغة أو لغات أخرى أجنبية، وقد ناقش طه حسين هذا الادعاء بشئ من التفصيل، وكان مما خلص اليه:

١- أن الطفل الاوروبى يتلقى لغته الوطنية من أبيه وأمه وأهله وفى كل ركن من أركان حياته، بينما نجد أن طفلنا لايتعامل باللغة العربية مع مجتمعه الخاص أو العام، حيث يتعامل بالعامية، ولذا تعتبر اللغة العربية بالنسبة له لغة أجنبية!

٢- أن هناك بين اللغات الأوروبية من التوافق والاقتراب ما ييسر دراستها على الاطفال الأوروبيين، ولا يوجد، كما هو معروف، أى توافق أو تشابه بين العربية واللغات الأجنبية ما ييسر تعلمهما معا فى وقت واحد.

إن وجود مدارس خاصة للغات ربما أمر يكون امرا طبيعيا ما دمنا قد ارتضينا هذه الفلسفة التى تقوم على المبادرات الفردية والخصخصة، وإفساح المجال للقطاع الخاص فى التعليم لكن ما يصعب تقبله أن تدخل الدولة منافسة للقطاع الخاص فى هذا الشأن ذلك أن هذا القطاع يحركه الربح بالدرجة الأولى بينما الدولة تحركها أو هكذا المفروض دوافع أخرى هى المصلحة الوطنية والحفاظ على الهوية القومية، فهى الحارسة على اللغة القومية وهى الحامية لها ، ومع ذلك فقد دخلت أرض الملعب بدءا من أواخر عام ١٩٧٩ بينما المتوقع أن تكون نموذجا وقدوة للقطاع الخاص فى الحفاظ على ركن أساسى من أركان الذاتية الحضارية لهذه الأمة.

فلقد صدر قرار وزارى رقم (٣) فى الأول من نوفمبر بالبدء بإنشاء ما سمى بالمدارس التجريبية للتعليم بلغة أجنبية.

أطرف ما فى الموضوع أن هذا القرار صدر استنادا إلى قانون صدر فيما بعد فكأنه صدر لاضفاء الشرعية على ما تم تقريره وتنفيذه بالفعل كيف؟

فلقد نصت المادة الثالثة من القانون ١٣٩ لسنة ١٩٨١ على : ويجوز تحصيل رسوم مقابل خدمات إضافية تؤدى التلاميذ.

إما الخدمة الإضافية هذه فهى التعليم باللغة الأجنبية، وحتى يمكن الالتفاف حول النص الدستورى الشهير الذى يقرر أن التعليم مجانى فى جميع مراحل التعليم وتكفله الدولة.

وفى المادة التاسعة من القانون نجد:

لوزير التعليم.. أن يقرر إنشاء مدارس تجريبية وأن يضع شروط وقواعد القبول بها وتنظم الدراسة والامتحانات فيها وتتخذ هذه المدارس مجالا لتطبيق التجارب التعليمية تمهيدا لتعميمها.

وإذا كانت المدارس قد صدر قرار بها قبل صدور القانون المصرح بذلك بعامين مما يتيح الفرصة للطعن فى هذا القرار فإن القانون نفسه يعطى الشرعية لتحصيل المصروفات تحت ادعاء أن هذه المدارس تقوم بإجراء تجارب تعليمية. والذى أؤكده لكل قارئ أن هذا غير صحيح وليدلنى أى إنسان على تجربة تعليمية بالمعنى الذى نعرفه فى العلوم التربوية والنفسية جرت منذ أن ظهرت هذه المدارس عام ١٩٧٩، وإنما هى مجرد حيلة لتقرير المصروفات ولكى تتيح هذه النوعية من المدارس نهجا مغايرا لتعلم العلوم باللغة الاجنبية لا بلغة الوطن.!

وإذا كان صاحب المدرسة الخاصة له منطقه فى تحصيل مصروفات من التلاميذ، حيث أنه يخصص رأسمالا من ماله الخاص يريد أن يعود عليه بالنفع فكيف تنفق وزارة التربية من المال العام الذى هو مال أهالى التلاميذ، ثم تتعامل معهم بنفس منطق صاحب المدرسة الاستثمارية فتطلب منهم مصروفات كبيرة، بحجة أنها تقدم خدمة تعليمية متميزة؟

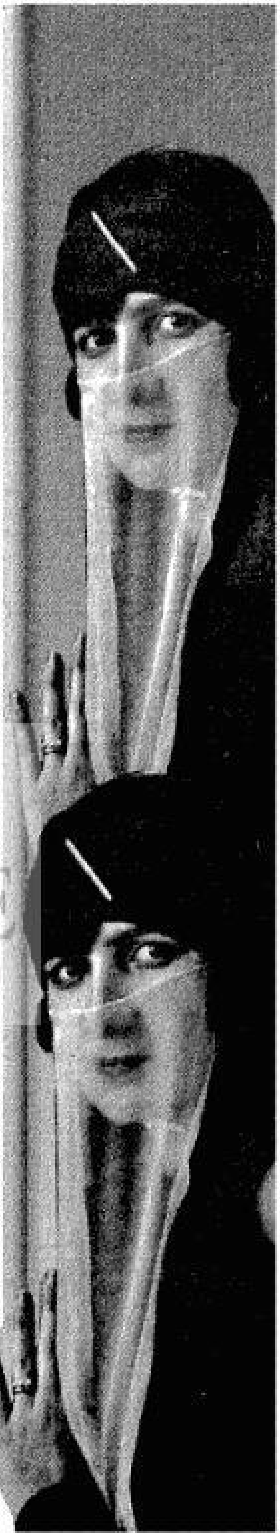
لو أن المدارس الحكومية تقدم الخدمة التعليمية وفقا للشروط الأساسية للتعليم الصحيح، لما كانت هناك حاجة أصلا لظهور مثل هذه المدارس الخاصة باللغات فلماذا تتقاعس وزارة التربية عن تقديم الخدمة التعليمية الصحيحة فى مدارسها، فإذا ما قدمتها بالفعل فى بعض المدارس، طالبت التلاميذ بأن يدفعوا ثمن هذه الخدمة.؟

ولو عرف القارئ خريطة توزيع المدارس الحكومية للغات لعرف أنها ليست لخدمة جمهور الفقراء، فهى تتركز بالدرجة الأولى فى القاهرة وعدد محدود من عواصم المحافظات الكبرى، وفى داخل القاهرة نفسها، على سبيل المثال، تجد أنها تكثر فى الأحياء التى يسكنها الموسرون بنسبة تفوق غيرها من الأحياء الأخرى!

إننا نكتب هذا الذى نكتبه لا على سبيل التنديد والهجوم، ولكنه على سبيل التنبيه والتحذير.. التنبيه إلى إننا نقيم بعض صور تعليمنا على أسس غير سليمة، فكريا وعلميا ووطنيا والتحذير.. من أن هذا يسئ إلى حاضر وطننا، مصر ويهدد مستقبلها ولقد تعمدت أن استعين بأفكار طه حسين، المحسوب على التيار التغريبى، حتى لا يبادر أحد فيتهمنا بالتعصب وضيق الأفق والتخلف، فالمسألة هى دقة بصر بحقيقة الأمر. ونقاء دافعية توافرتا لدى مفكر عملاق حاولنا أن نستند إليها فقد تصغى اليها أذن واعية. ■

المرأة والرجل عند رفاعة الطهطاوى

بقلم
مها محمود صالح



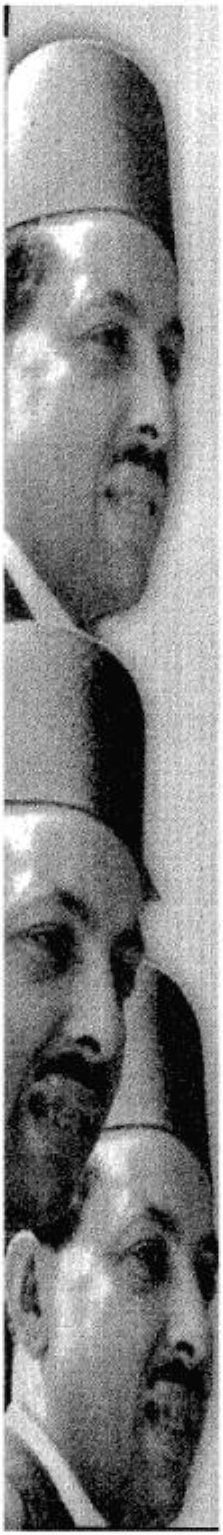
يعتبر قاسم أمين، بحق، صاحب أول دعوة واضحة وقوية تقوم على رؤية متكاملة لتحرير المرأة وذلك فى كتابيه الشهيرين «تحرير المرأة» ١٨٩٩، ثم «المرأة الجديدة» ١٩٠٠.

لكن ريادة قاسم أمين لا تنفى أن تلك الرؤية الواضحة المفضلة التى عبر عنها قاسم أمين فى كتابيه كان لها جذور ومقدمات فى أعمال غيره ممن سبقوه من أصحاب قلم فى القرن التاسع عشر، قرن بداية الاتصال بالغرب وحضارته بعد طول انقطاع.



قاسم أمين





وفى الصفحات التالية محاولة لتلمس بدايات طرح موضوع المرأة كما جاء فى أعمال رفاعة الطهطاوى، أحد أهم أعلام القرن التاسع عشر، قبل أن يأخذ شكلاً أكثر تبلوراً على يد قاسم أمين.

ويمكن تقسيم رأى الطهطاوى فى المرأة إلى قسمين: الأول رأيه فى المرأة الفرنسية والأوربية قياساً من خلال بعثته إلى فرنسا وقد عبر عنها فى كتابه «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز»، ثم رأيه فى المرأة الشرقية وما يجب أن تكون عليه أحوالها وقد عبر عن ذلك بشكل أساسى فى كتابه «المرشد الأمين للبنات والبنين».(١)

نساء باريز!

أما رأى الطهطاوى فى المرأة الفرنسية فيمكن إيجازه فى أنه يحاول النظر إليها بموضوعية من خلال قيم العصر والمجتمع الذى تعيش فيه، وليس من خلال قيمه هو وعادات مجتمعه. مثلاً هو يتحدث عن زى النساء فى فرنسا فيقول: «ومن عوائدهن فى أيام الحر كشف الأشياء الظاهرية من البدن،



رفاعة الطهطاوى

فيكشفن من الرأس إلى ما فوق الثدى، حتى أنه يمكن أن يظهر ظهرهن، وفى ليالى الرقص يخلعن عن أذرعتهن، وبالجملة، فلا يعد ذلك من الأمور المخلة عند أهل هذه البلاد». ويتبع الطهطاوى هذا الوصف لملابس النساء بملاحظة طريفة تدل على قوة ملاحظته وخفة دمه! يقول الطهطاوى: «... ولكن لا يمكن لهم أبداً كشف شىء من الرجلين، بل هن دائما لابسات للجرابات الساترة للساقين،

١ – الكتابان يضمهما الجزء الثانى من الأعمال الكاملة للطهطاوي تحت عنوان «السياسة والوطنية والتربية»، دراسة وتحقيق محمد عمارة الناشر . المؤسسة العربية للدراسات والنشر وهو الكتاب الذي ستشير اليه أرقام الصفحات المتضمنة في الدراسة.



خصوصاً في الخروج إلى الطرق، وفي الحقيقة سيقانهن غير عظيمة أصلاً..!!» ص١١٨.

كذلك يتحدث الطهطاوي عما يسميه «الحال بالنسبة لعفة النساء في فرنسا» فيقول: «وحيث أن كثيراً ما يقع السؤال من جميع الناس عن حالة النساء عند الافرنج كشفنا عن حالهن الغطاء، وملخص ذلك أيضا أن وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سترهن، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة، والتعود على محبة واحد دون غيره، وعدم التشريك في المحبة، والالتئام بين الزوجين» ص٢٥٨. معنى هذا أن الطهطاوي يرى أن العفة لا تنتج عن ستر المرأة أو كشفها وإنما تنبع من حسن تربيتها، وهو معنى سيشير إليه قاسم أمين بتفصيل وإسهاب عند حديثه عن الحجاب.

ويذكر الطهطاوي عن نساء باريس أنهن يسافرن وحدهن أو بصحبة رجال أجانب عنهن وذلك لولعهن « بحب المعارف والوقوف على أسرار الكائنات والبحث عنها..» ص١١٠. ويستطرد رفاعة الطهطاوي قائلا.. «.. ففي نساء الفرنساوية ذوات العرض، ومنهن من هي بضد ذلك، وهو الأغلب»!

ويحاول الطهطاوي تناول الأمر بموضوعية بصرف النظر عن رأيه الشخصي فيقدم اجتهاداً في تفسير ذلك نابعا من قيم المجتمع الفرنسي فيقول: «...{وذلك} لاستيلاء فن العشق في فرنسا على قلوب غالب الناس، ذكوراً واناثاً، وعشقهم معلل لأنهم لا يصدقون بأنه يكون لغير ذلك، إلا أنه قد يقع بين الشاب والشابة فيعقبه الزواج».ص١١٠ ويعلق د.لويس عوض على كلمات الطهطاوي قائلاً: إن الأخير يرى أن «شيوع التفريط ليس مجرد فساد ولكنه ظاهرة اجتماعية «معللة» بأن الزواج عند الفرنسيين لا يكون إلا بعد حب (انظر كتاب المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث للدكتور لويس عوض ص١٧).

وإذا كان الطهطاوي يحاول إلتماس العذر لما يشيع في المجتمع الفرنسي من «تفريط» فإنه أيضا لا يخفي إعجابه بالمرأة الفرنسية المثقفة إذ يقول: «... فإن للنساء تآليف عظيمة، ومنهن مترجمات للكتب من لغة إلى أخرى مع حسن العبارات وسبكها وجودتها، ومنهم من

يتمثل بانشائها ومراسلاتها المستغربة. ومن هنا يظهر لك أن قول بعض أرباب الأمثال: جمال المرء عقله، وجمال المرأة لسانها لا يليق بتلك البلاد، فإنه يسأل فيها عن عقل المرأة وقريحتها وفهمها وعن معرفتها» ص٨٩.

المرأة فى مصر:

أما رأى الطهطاوى فى المرأة المصرية وما يجب أن تكون عليه أحوالها فهو يتضح أكثر ما يتضح فى كتابه: «المرشد الأمين للبنات والبنين».

وفى تقديمه لهذا الكتاب يمتدح الطهطاوى أعمال الخديو اسماعيل مشيراً إلى ما قام به من تخصيص المدارس للفتيات أسوة بالفتيان، يقول الطهطاوى:

«ففى أيام دولته السعيدة كم جدد بمصر من محاسن العصر المفيدة،.... فقد سوى فى اكتساب المعارف بين الفريقين (البنات والبنين)، ولم يجعل العلم كالإرث للذكر مثل حظ الأنثيين، فبهذا سوق المعارف المشتركة قد قامت، وطريق العوارف للجنسين استقامت، وليل جهل النساء جلاه فجر المعارف، وفخر تمتعهن بالطوائف واللطائف، فقد... خصهن بمدارس كالصبيان يخرجن بها من حيز العدم إلى الوجدان،....» ويمضى الطهطاوى فى



الخديو اسماعيل

حديثه مشيراً إلى أنه قد كتب ذلك الكتاب بناء على تكليف من حسين باشا كامل الذى كان مشرفاً آنذاك على ديوان المدارس.ص٢٧٣.

فى هذا الكتاب يؤكد الطهطاوى على المساواة بين المرأة والرجل فيقول: «إنها... مثله سواء بسواء، أعضاؤها كأعضائه، وحاجتها كحاجته، وحواسها الظاهرة والباطنة كحواسه وصفاتها كصفاته، حتى كانت تنتظم الأنثى فى سلك الرجال. أو ليس أن ناسوت الرجل والمرأة. فى الخلقة على حد سواء، وهيكلهما مستوفى الترتيب والتنظيم وتناسب الحركات والأعضاء،....» ص ٢٥٦.

يضيف الطهطاوى بعد ذلك ما يراه من الصفات المميزة للمرأة، وهى فى جوهرها صفات شكلية، منها مثلاً أن «قامتها دون قامة الرجل،



وخاصرتها أنحف من خاصرته وأرشق منها، ورأسها بالنسبة لبدنها أقل حجماً من رأسه...» ص٣٥٦.

ويمضي المؤلف في وصف ما يراه من تميز المرأة حتى يصل إلى ما يراه من اختلاف في الامكانات والقدرات حيث يقول:... «ولكن مجموع عضلاتها قليل الانبساط والتمدد فبهذا لم تكن مستعدة لأن تشترك مع الرجل في الأشغال الشاقة كالحرث والحرب والركض والحب، وأما من حيث قوة أعصابها فهي دقيقة الحواس، سريعة الإحساس، وبدقة حواسها القوية التأثير السريعة الانفعال لا تطول مدة الإحساس عندها ولا تمكث كإحساس الرجل» ص ٣٥٧.

ويضيف في موضع آخر: «ومما يوجد في الأنثى قوة الصفات العقلية، وحدة الإحساس والإدراك على وجه قوي قويم...» ص ٣٥٩.

ولا تعليق لنا على كلام الطهطاوي إلا أنه فقط يصف ما عليه حال المرأة دون أن يجيب، أو حتى يطرح السؤال المهم، وهو: «هل هذه الاختلافات التي تتميز بها المرأة ترجع لطبيعة خلقية في المرأة أم أنها صفات اكتسبتها المرأة اجتماعياً حتى يتسنى لها القيام بما يتوقعه المجتمع منها من مسئوليات وواجبات؟.

الرجل والمرأة عند الطهطاوي إذن متساويان وإن اختلفا، وهو معنى سيعبر عنه فيما بعد قاسم أمين بدقة وإحكام في كتابه «المرأة الجديدة» قائلاً: «لا نريد بهذا التساوي أن كل قوة في المرأة تساوي كل قوة في الرجل وكل ملكة فيها تساوي كل ملكة فيه، ولكنا نريد أن مجموع قواها وملكاتها يكافيء مجموع قواه وملكاته وإن كان يوجد خلاف [أو اختلاف] كبير بينهما لان مجرد الخلاف لا يوجب نقص أحد المتخالفين [أو المختلفين] عن الآخر» (أنظر «تحرير المرأة والمرأة الجديدة». المركز العربي للبحث والنشر . القاهرة ١٩٨٤).

تعليم المرأة

يرى الطهطاوي ضرورة تعليم البنات القراءة والكتابة والحساب وغير ذلك من العلوم، وذلك لتحقيق أهداف متعددة منها حسن معاشرة الأزواج، تعاطي الأعمال المختلفة عند الضرورة، ولتكوين



قدوة لأطفالها.

ويؤكد الطهطاوى أن تعليم البنات نفعه أكبر من ضرره بل «لا ضرر له أصلاً»، ثم هو يورد كثيراً مما روى فى كتب الأحاديث عن نساء تعلمن الكتابة والقراءة فى عهد الرسول (ﷺ) ومن تبعه من الخلفاء.

ويضيف المؤلف «... إن حصول النساء على ملكة القراءة، والكتابة، وعلى التخلق بالأخلاق الحميدة، والاطلاع على المعارف المفيدة، هو أجمل صفات الكمال وهو أشوق للرجال المتربين من الجمال، فالأدب للمرأة يغنى عن الجمال لكن الجمال لا يغنى عن الأدب» ص ٢٩٢ - ٢٩٥.

المرأة والسياسة

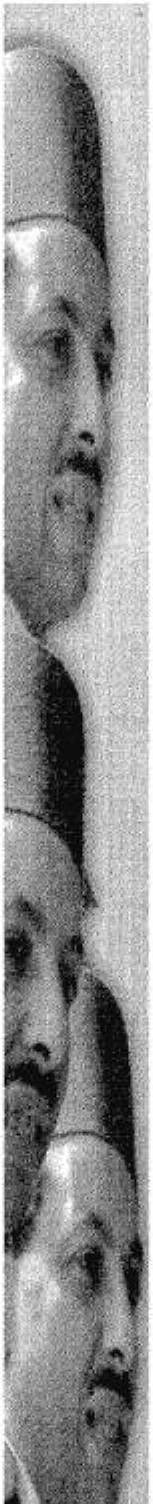
يخصص الطهطاوى صفحات طويلة لاستعراض حياة نساء تولين الملك فى بلاد العرب وغيرهم مثل بلقيس والزباء وكليوباترا وهو يتحدث عنهن فى إعجاب لا يخفى فيقول:«.... كلهن أحرزن حسن التدبير والإدارة، وأقمن البراهين على لياقة النساء لمناصب السلطنة». ص٤٤٩ فكأنما هو يدعو إلى إعادة النظر والتقصى فى أسباب منع المرأة من تولى الملك.

«فى الزواج والتسرى» يورد حديثاً طويلاً يصعب معه استخلاص رأى



السلطان حسين كامل

محدد منه، فهو يكثر من استخدام الشعر وغيره من التراث العربى مثل النوادر والطرف وكثيراً ما تكون العناوين المستخدمة طموحة بالمقارنة بما يأتى تحتها من معان وأفكار. مثلاً من عناوين هذا الجزء «فى الكلام عن المحبة والصداقة بين الزوجين» وهو عنوان يوحى بمفهوم يتعلق بأهمية الصداقة بين الزوجين لكن حديث المؤلف تحت هذا العنوان ليس إلا تعريف للحب وأحوال العشق مع الاستشهاد بأبيات من الشعر القديم وحكايات العشاق.ص٥٥١ - ٥٦١. ومن ذلك أيضاً الفقرة المعنونة «اشتراط العدل عند التعدد»، ففى أولها ذكر لآيات قرآنية وأحاديث نبوية تشترط العدل بين الزوجات ثم استشهاد بأبيات من الشعر وبعدها ذكر بعض



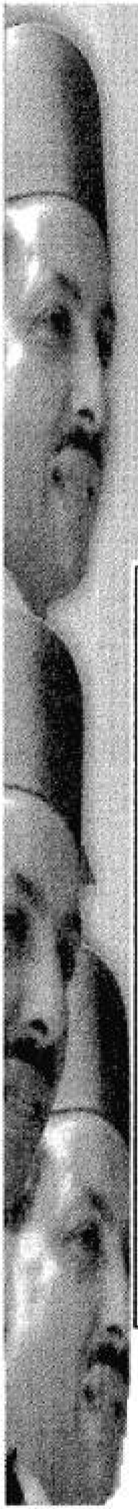
القصص التراثية والمرويات التي تتعلق بالزواج بشكل عام:ص ٤٩٩ - ٥٠٠.

أما تزويج البنت بمن تحب فهو عنوان آخر يقول الطهطاوى تحته: «ومن أحسن الإحسان إلى البنات تزويجهن إلى من هوينه وأحببنه» ثم ينصرف إلى ذكر حكاية من التراث فى هذه الموضوع. ص ٧٤٦.

ومن تلك الفقرات واحدة نراها تعبر عن رأى الطهطاوى فى العلاقة الزوجية وإن لم يكن عنوانها واضحاً وهو «الاحترام» يقول الطهطاوى فى هذه الفقرة: «... الواسطة الوحيدة فى استدامة الود بين الزوجين.. هى وجوم الاحترام والاجلال بين النساء والرجال، وهناك شروط مؤكدة، وأسباب لدعائم المحبة موطدة، وهى أن يجتهدا فى تحبيبهما لبعضهما حباً تاماً، وأن لا يذم أحدهما الآخر فى غيبته، وأن لا يغضبا فى وقت واحد، وأن لا يكلم أحدهما الآخر بصوت عال، وأن يخضع كل منهما لإرادة الآخر، الرجل بالحب والمرأة بالطاعة...» ويمضى الطهطاوى فى ذكر تفاصيل ما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الزوجين المتحابين، وهى تفاصيل لا تخلو من طرافة وإن كنا لا نملك إلا التأكيد على أهميتها! يقول الطهطاوى: «... وأن لا يحوج أحدهما الآخر إلى تكرار الطلب فى حاجة،... وأن لأيُبَكِّت أحدهما الآخر، وأن لا يفارق أحدهما الآخر ولو يوماً واحداً من دون أن يودعه بكلمة محبة لكى يتفكره بها مدة الغياب، وأن لا يلتقيا من دون ترحيب، وأن لا يدعا الشمس تغرب على غضب أو زلة»... ويختم الطهطاوى نصيحته بالتنبيه على أنها موجهة لكلا الزوجين معاً، فكأنما هو يؤكد على المساواة بين الزوجين فى الحقوق والواجبات داخل علاقة الزواج.ص٥٦٢.

لقد قدم رفاعة الطهطاوى من خلال كتابه «المرشد الأمين للبنات والبنين» أفكاراً تقدمية بالنسبة لعصره، وإن كانت أحياناً مضمرة أو متضمنة فى نصوص شعرية وحكايات تراثية تخفف من حدتها. وذلك مع البعد عن انتقاد المجتمع المصرى بالتحديد، ولعل ذلك تبرره طبيعة كتابه ككتاب تعليم رسمى. هذا بالطبع لا ينفى التوجه التقدمى للطهطاوى، يكفى، من ناحية الموضوع،





أنه فى هذا الكتاب الموجه لتعليم البنات والبنين تكلم عن الحب وأماراته وعلاماته مثلاً، ولعله يجدر بنا فى هذا السياق أن نشير إلى الاستنارة التى تميز بها الطهطاوى، حتى فى حياته الشخصية، فقد قرأنا فى الصحف من سنوات قليلة أن وثيقة زواج الطهطاوى كانت تتضمن وعداً يقطعه على نفسه لزوجته ألا يتزوج عليها زوجة أخرى.

أما اللغة الى استخدمها الطهطاوى فى كتابيه فهى تمثل بداية التحول من الأسلوب المثقل بالمحسنات البديعية والزخرفة اللفظية إلى أسلوب أكثر بساطة فى التعبير لكنه فى الوقت ذاته كان امتداداً لكتابات من سبقوه ، وذلك من حيث تعدد الموضوعات فى الكتاب الواحد واستعراضها بشكل منفصل بدون التزام بالربط بين الأفكار أو بذل مجهود للانتقال بنعومة من واحدة إلى أخرى. ■

قالوا عن المرأة

– «لا يمنع العقل أو الخلق أن تظفر المرأة بما تشاء من الحقوق السياسية أو الحقوق الاجتماعية التى تتغير وتتبدل مع نظم الثروة ونظم المجتمع وأساليب المعاملات»

عباس محمود العقاد

– « ليست العبرة في الجمال الشائع، بالغا ما بلغ من حسن التكوين.. العبرة فى سر الجمال وروحه ومعناه .. وسر جمالك هو العاطفة ، وروحه هو الألم ، ومعناه هو الحب..»

الرسام الاسباني جويا

– «متى استنفدت فى ظلك كل قوى حبي، وكل قوى فرحى ، وكل قوى حياتى ، ثم غافلنى القدر فأسلمنى الى الموت بالرغم منى فسأرقد فى مثواى الأخير ساكن النفس ، هادىء القلب ، مستريح الضمير .. سأرقد يا فتاتى ، يا ابنتى يا أختى ، فى ظلمات الغد الأبدى ، وأنا أبتسم وأنظر الى عينيك»

الروائي الروسي مكسيم جوركى



حب وحرب في بيرل هاربر

بين القاهرة وباريس

بقلم
مصطفى درويش

ما أن عدت في الأيام الأخيرة من شهر مايو من الرحلة إلي أقصي شمال مملكة النرويج حيث شاهدت الشمس في كبد السماء، لا تغرب أبدا، حتي وجدتني آخذا في الإعداد لرحلة إلي باريس قبل أيام من الاحتفال بثورة الرابع عشر من يوليه تلك الثورة التى ألهبت الحماس بشعار الحرية والمساواة والإخاء.



وفيما بين رحلتي النرويج وفرنسا، لم أشاهد في القاهرة حيث أقيم سوى خمسة أفلام ليس بينها أيام السادات لا لسبب سوى أن عرضه بطول وعرض البلاد، قد جرى قبل سفري إلى باريس بأيام والأفلام الخمسة هي بيرل هاربر، الوعد، جلا جلا، السلم والثعبان، واتفرج يا سلام.

ورغم أن إقامتي في باريس أثناء الاحتفال بالثورة الفرنسية التي بدأت بيضاء وانتهت حمراء متعطشة للدماء، لم تتجاوز سبعة أيام، إلا أنني شاهدت خلالها خمسة أفلام.

وهذا يعني أن الأفلام التي شاهدتها خلال الأربعين يوما التي مكثتها في القاهرة عددها يعادل ما شاهدته في باريس خلال سبعة أيام.

ولا تفسير لذلك إلا بقلة عدد المعروض من الأفلام في القاهرة، وكثرته في باريس فعددها عندنا كان عند مغادرتي القاهرة أقل من أصابع اليدين، في حين أنه كان عندما لمست قدماي أرض فرنسا يعد بالمئات.

ومن هنا صعوبة الاختيار في مدينة كباريس، حيث الثقافة السينمائية محل رعاية الحكام وتقدير المحكومين.

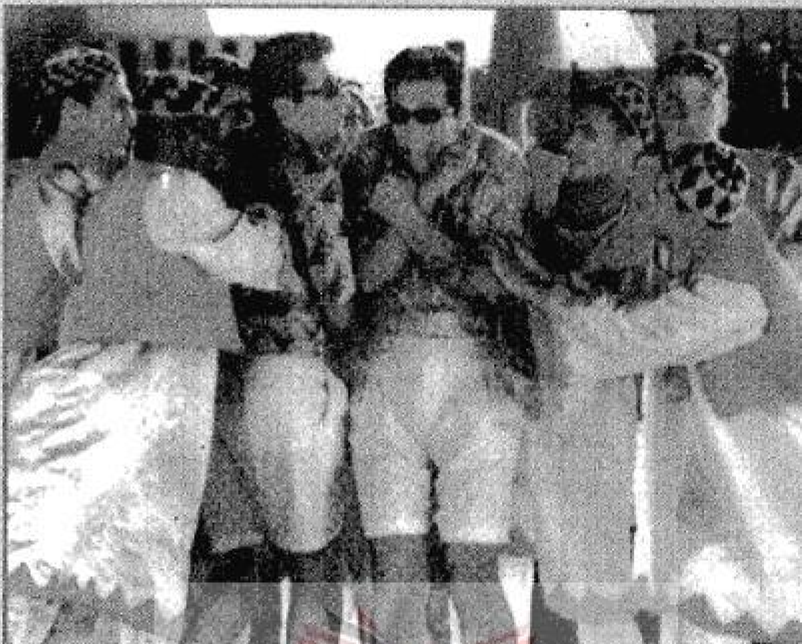
وسهولته عندنا حيث يكاد ينعدم الاختيار نظرا لقلة ما يعرض من أفلام لاسيما في أثناء فصل الصيف وشهر رمضان.

ومن بين الأفلام الخمسة التي شاهدتها قبل سفري إلى باريس، اكتفي بالوقوف قليلا عند فيلمين أحدهما أمريكي بيرل هاربر والآخر مصري اتفرج يا سلام.

الجريمة والعقاب

المعروف تاريخيا أن بيرل هاربر (مرفأ اللؤلؤ) الواقع بجزيرة «أواهو» التابعة لمجموعة جزر هاواي قد تعرض في تمام الساعة الثامنة إلا خمس دقائق من صباح يوم الأحد الموافق السابع من ديسمبر لعام ١٩٤١ تعرض لعدوان ياباني غادر، زج بالولايات المتحدة في أتون الحرب العالمية الثانية التي انتهت باستسلام اليابان وفيلم بيرل هاربر الذي يعرض لذلك العدوان بمناسبة ذكراه الستين، إنما يعرض له من خلال قصة يتداخل فيها الواقع بالخيال، والحب والحرب، وأحداثها تبدأ في مستهل عقد الثلاثينات وبطلا الفيلم «ريف ماكولي وداني ووكر» لايزالان غلامين صديقين لا يشغل بالهما سوى التعلق بالتحليق جوا إلى درجة العشق، والحلم بالطيران يوما في أجواء الفضاء وتمر الأيام أعواما بعد أعوام فإذا ما كان يحلمان به يتحقق وإذا بهما عام ١٩٤١ نسران في سلاح الطيران.

قبل ذلك، وفي أثناء الكشف الطبي على «ريف» (بن افليك) قبل قبوله متطوعا



لقطة من فيلم «افرح يا سلام»

فى ذلك السلاح وهو كشف عسير كاد يسقط فيه، تعرف على الممرضة التى أجرته «افلين جونسون» وتؤدى دورها الممثلة الانجليزية «كيت بيكنسيل».

من أول نظرة

وما أن التقت عيناه بعينيها، حتى وقع حبها فى قلبه وهى بدورها، ولحسن حظه، وقع حبه فى قلبها غير أن سعادتهما بذلك الحب من أول نظرة لم تدم سوى ساعات معدودات لا لسبب سوى أن الواجب كان يناديه من مكان بعيد وراء المحيط حيث كان سلاح الطيران الملكى يحارب فى السماء معركة بريطانيا ضد غارات طائرات ألمانيا الهتلرية وبينما هو فى بريطانيا يحارب فى الجو متطوعا من أجل حماية الديمقراطية ضد خطر النازية، جرى نقل صديق عمره دانى (جوش هارتنيت) وحبيبة قلبه إيفلين إلى بيرل هاربر هو ضمن سرب من النسور وهى ضمن فوج من الممرضات.

حنين وإحباط

ولن أحكى كيف وقع قلب دانى بدوره فى حب إيفلين ولا لماذا ارتضته حبيبا بديلا لريف، فذلك شئ يطول وإنما اكتفى بأن أقول بأنه لدى عودة ريف إلى وطنه وقع اختياره على بيرل هاربر مكانا لعمله فى سلاح الطيران الأمريكى لماذا؟ حتى يكون قريبا من صديق العمر، وحبيبة القلب التى لولا صورتها مرسومة فى الفؤاد لما كان فى وسعه التغلب على محنة ادخلته خطأ فى عداد الأموات، وكم كان ألمه وغضبه عندما اكتشف أن



الطائرات تدمر ميناء بيرل هاربر

الحبيبة الغالية لم تصن العهد، وتعيش مع صديق عمره حبا آخر أنساها ساعات الماضي الجميل.

الأرض الخراب

وهنا والفيلم في منتصفه أي بعد عرض دام تسعين دقيقة انعطف السيناريو وهو من تأليف كاتب سيناريو فيلم القلب الشجاع فإذا به يتحول بالأحداث من حب متأجج العواطف إلى حرب ضروس يشيب من هولها الولدان. فها هي ذي الطائرات اليابانية تدك الجزيرة حيث قاعدة الاسطول الأمريكي في بيرل هاربر تدكها دكا ولا تتركها بعد أقل من ساعتين إلا أرضا خرابا مخلفة وراءها آلاف الجنود والبحارة الأمريكيين بين قتيل وجريح وعشرات الطائرات جاثمة على الأرض حطاما، وأغلب قطع الأسطول غارقة والبارجة اريزونا مفخرة البحرية الأمريكية مقبرة تحت الماء لألف بحار أو يزيد.

وعلى كل فبفضل هذه الانعطافة التحم حب الأبطال الثلاثة بأحداث الحرب، في نسيج متكامل بلغ ذروته في غارة انتقامية شبه انتحارية على العاصمة اليابانية طوكيو شارك فيها ريف وداني تحت قيادة الكولونيل جيمي دوليتل ويؤدي دوره النجم اليك بالدوين.

يوم الحساب

ومن المعروف تاريخيا أن تلك الغارة حدثت بناء على إصرار فرانكلين روزفلت الرئيس الأمريكي المريض بشلل الأطفال وقد تقمص شخصيته بجدارة في الفيلم جون





أنجلينا جولي نجمة صاعدة واعدة

هاني رمزي

فويجت ذلك النجم المتوج بجائزة أوسكار أفضل ممثل رئيسي عن أدائه أمام جين فوندا في فيلم العودة إلى الوطن حيث لعب دور مجند عائد مشلولا من حرب فيتنام .

أما لماذا ذلك الإصرار والأمر بالاغارة على عاصمة امبراطورية الشمس المشرقة فذلك لرفع الروح المعنوية لدى الشعب الأمريكي مع توصيل رسالة إلى العسكريين اليابانيين مفادها أن الطائرات الأمريكية في وسعها أن تطول قلب اليابان، وأن يوم الحساب العسير لا ريب آت. وفعلا لم تمر سوى أربعة أعوام إلا قليلا على العدوان إلا وكانت هيروشيما وناجازاكي ضحيتين لقنبلتين نوويتين والشعب الياباني يسمع لأول مرة صوت الامبراطور هيروهيتو، معلنا استسلام اليابان.

ومما يلاحظ على بيرل هاربر وهو للمخرج مايكل بي أنه من نوع الانتاج الكبير المبهر بمؤثراته الخاصة وما أكثرها في لقطات الهجوم جوا على الميناء وما صاحبه من دمار والسؤال لماذا جرى انتاجه في هذه الأيام بالذات، وبتكلفة وصلت إلى مائة وعشرين مليون من عزيز الدولارات؟ في اعتقادي أن الهدف الرئيسي من انتاجه هو إعداد الرأي العام الأمريكي لقبول انفاق مئات المليارات على إقامة الدرع الصاروخي المقول بأنه سيحمي الولايات المتحدة من أي عدوان

عبط الأفلام

والآن إلى «اتفرج يا سلام» أول ما يسترعي النظر وعناوين ذلك الفيلم تظهر تباعا على الشاشة انه ينتسب إلى اتحاد الاذاعة والتليفزيون مدينة الانتاج الاعلامي ومما يعرف عن أفلام تلك المدينة أن أمر معظمها قد دبر بليل وأن عددا منها تقرر عدم عرضه في دور السينما، اكتفاء بعرضها خلسة على الشاشة الصغيرة وذلك لانحطاط



مستواها فنيا، على نحو يصعب معه إن لم يكن يستحيل أن تحقق ربحا، وكان «اتفرج يا سلام» من بين تلك الأفلام ولكن حدث بعد ثلاثة أعوام من انتاجه أمر لم يكن في الحسبان.

حدث أن تحول هاني رمزي أحد ممثليه من مضحك مغمور إلى نجم شباك وذلك بفضل فيلمين أحدهما تقمص فيه شخصية امرأة تشبها بتوني كيرتس، أو بالرائع الراحل جاك ليمون في «البعض يحبها ساخنة» والآخر تقمص فيه شخصية صعيدي رايح جاي.

وكان من آثار ذلك التحول المفاجئ الافراج عن «اتفرج يا سلام» بأمل أن يقبل على مشاهدته محبو هاني وعددهم حسب ما افصحت عنه ايرادات صعيدي رايح جاي لا يقل عن عدد المعجبين بهنيدي وعلاء ولي الدين.

وعكس توقعات أصحاب قرار الافراج لم يتحقق النجاح المنشود لاتفرج يا سلام.

أما لماذا جاءت ايراداته مخيبة لما علقه مصدرو القرار من آمال كبار، فذلك لعيب جسيم شاب السيناريو والاخراج معا وأبدأ باخراج محمد القليوبي لأقول إنه وكما وصفه بحق أحد النقاد من ذلك النوع الذي ينتمي إلى سينما المحفوظات العامة. أعني بذلك أن اخراج الفيلم ذو طابع مدرسي يليق بطالب في معهد السينما حافظ كالببغاء لألف باء صناعة الأفلام.

نوم العقل

ومدهش أن يحدث ذلك لا ريب غير أن ما يضاعف الدهشة أن صاحب الفيلم من فئة قليلة عندنا جنحت دون أي رصيد إلى اعتبار نفسه في منزلة مخرجين كبار أذكر من بينهم على سبيل التمثيل «اكيرا كيروساوا» و «فيديريكو فيلليني»، «ومارتين سكورزي». فاتفرج يا سلام والحق يقال ليس فيه شئ من روح أي واحد من هؤلاء الكبار، ولا حتى ممن هم أقل منزلة في السينما العالمية الأصح أن فيه بعضا من روح حسن الصيفي وحسن الامام دون خفة دم الأخير!!

والآن إلى السيناريو وصاحبه محمد صفاء عامر لأقول أنه يدور حول ثلاثة أصدقاء عاطلين أولهم ماجد المصري وتحبه حنان ترك ابنة الجيران ومن فرط حبها له تطارده دون حياء وثانيهم هاني يعثر على فرصة عمل في أحد منتجعات البحر الأحمر.

أما ثالثهم مصطفى شعبان فيمكث في القاهرة عاطلا منسيا من المخرج في أكثر الأحيان، ونظرا لضيق سبل العيش في القاهرة قرر المصري اللحاق بصديقه هاني، وكاتب السيناريو والمخرج المدرسي،

كلاهما لجأ في عرضه للعلاقة بين المصري وهاني، وصاحب المنتجع يوسف داوود وابنته عبير صبري إلى طريقة الكاريكاتور الفكاهي مع إضافة رقصات وأغان جماعية سيئة التنفيذ، في أكثر من حين وإذن فالمفروض أننا إزاء فيلم فكاهي ومع ذلك فكم كان الفيلم ثقيل الظل وكم كانت الضحكات في دار السينما أقل من القليل.

ولو استمر الفيلم هكذا فكاهيا ثقيلا وأحيانا موسيقيا رديئا لهان الأمر ولكن صاحبيه أرادا له أن يكون فيلما سياسيا مناضلا من أجل أم القضايا.

النعام والنسناس

فكان أن أقحما قصة امرأة أمريكية مسنة نسيها الأتوبيس السياحي وحيدة وسط كثبان الرمال وها هي ذي تعاني مستغيثة وما من منقذ سوى المصري الذي تصادف أن سمع أنينها فأسرع بانتشالها من براثن موت أكيد وتعود العجوز الواسعة الثراء إلى أمريكا حيث كتبت وصيتها ثم أسلمت الروح وكان نصيب المصري من الوصية خمسين مليون دولار وبطبيعة الحال كاد يطير من السعادة وأعد نفسه لحياة لذيذة تعوض ما فات.

ولكن الفرحة بالثروة التي هبطت عليه من السماء لم تدم طويلا فسرعان ما تبين عند قراءة شروط الوصية أن صاحبتها يهودية متآمرة وآية ذلك أنها أوصت بخمسين مليون دولار للوكالة اليهودية وبثلاثة وخمسين مليون دولار للجيش الاسرائيلي.

وكان على المصري أن يختار بين ثراء مرتبط بشروط صهيونية وفقر يحفظ له العزة والكرامة وطبعا اختار الفقر، مضحيا بالملايين وسط فرح الأهل والخلان مصحوبا بالطبل والمزمار وليس ثمة ما يقال عن هذا العبث العابث بعقولنا وكأننا أطفال بغير منطق يزن الأمور سوى ترديد القول وكم ذا بالسينما المصرية من مضحكات ولكنه ضحك كالبكاء!!

وانتقل إلى ما شاهدته في باريس لأقول بداية أنه تصادف أن وصلت إليها مساء الأربعاء وهو اليوم المحدد لطرح الأفلام الجديدة وما أكثرها في مدينة النور وكان أمراً مفاجئا أن يكون من بين الجديد فيلم تتقاسم بطولته انجيلينا جولي مع انطونيو باندراس أما لماذا كان عرض فيلمها واسمه «الخطيئة الأولى» بدءا من الحادي عشر من يوليو أمرا مفاجئا فذلك لأنه وقبل هذا التاريخ بأربعة عشر يوما كان قد بدأ عرض فيلم المغامرات «لارا كروفت - غازية القبر» بطولة انجيلينا جولي وينادي عليها انجي باختصار.

وليس مألوفا أن يجري عرض فيلمين لنفس النجمة أو النجم في وقت واحد أو متقارب والراجح أن أصحاب الخطيئة الأولى لم يخرجوا عن المألوف إلا لسبب هو انتهاز فرصة الدعاية لانجي في فيلم لارا كروفت الذي بلغت تكلفته نحو مائة مليون دولار بأمل أن تسهم في نجاح فيلمهم الأرفع شأنا.

بنت هلال

وانجي ابنة جون فوجت الذي لعب دور الرئيس روزفلت في بيرل هربر ولقد ورثت عن أبيها شفتين ممتلئتين وولعا بالتمثيل ومن ثمار ولعها هذا فوزها بأوسكار أفضل ممثلة مساعدة، عن أدائها



جولي الجميلة في «مهمة مستحيلة»

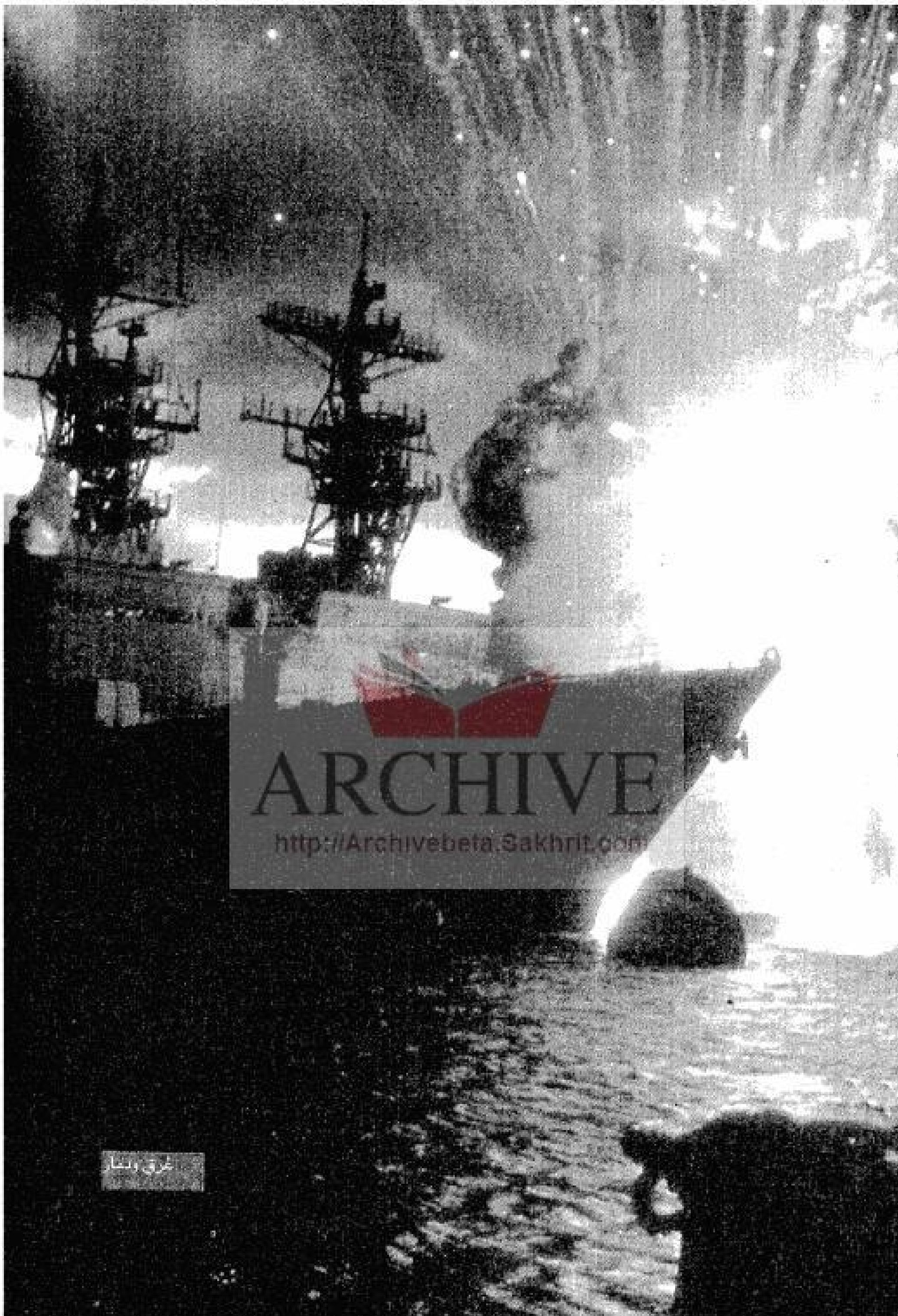
فى فيلم «فتاة معوقة» ١٩٩٩ ولما يكن لها من العمر سوى خمسة وعشرين عاما.

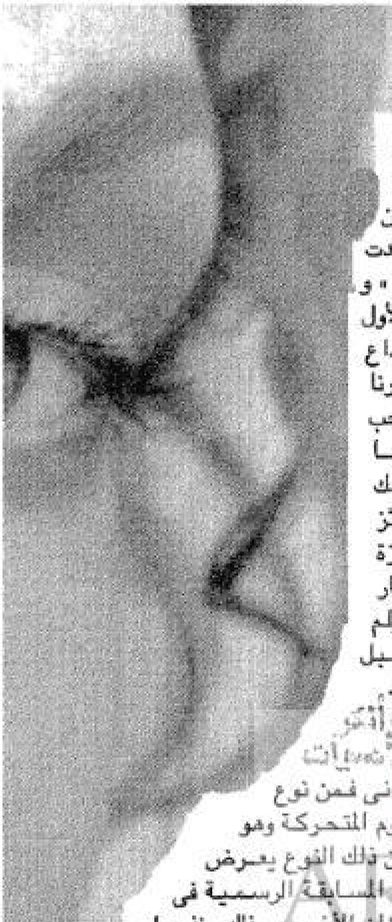
ولأول مرة تلعب أمام أبيها فى لارا كروفت وكما فى الحياة تلعب دور ابنته المتنصحة بحكمته. ورغم الدعاية المكثفة للفيلم وبطلته ومخرجه الانجليزى سيمون وست رغم ذلك آثرت ألا أشـاهده فى باريس لا لسـبب سـوى أن عـرضـه في القاهرة أمر أكيد لأنه فيلم عيالى مأخوذ عن لعبة فيديو بنفس الاسم فضـلا عن أنه ليس من ذلك النوع من الأفلام المليئ بمشاهد جريئة تؤرق منام الرقباء.

ملحوظة: يعرض الآن فى القاهرة تحت اسم «الجـمـيلة فى مـهـمـة مستحيلة!!» وآثرت أن أشاهد بدلا منه الخطيئة الأولى لصاحبه المخرج مايكل كريستوفر . هذا وفيلمه مأخوذ عن رواية للأديب وليم ايريسن، وهو نفس الأديب الذى أبدع المخرج الراحل فرانسوا تريفو فيلمين عن روايتين له هما العروس ترتدى السواد ١٩٦٧ وفاتنة المسيسيبى ١٩٦٩.

أم الخطايا

والخطيئة الأولى تدور أحداثه فى كوبا ابان القرن التاسع عشر وتبدأ بكذبة كبرى تنتهى ببطليه انجى وباندراس وقد انحدر بهـمـا الحال حتى أوصلهـمـا إلى أسـفل سافلين ، وانجى تلعب فى الفيلم دور امرأة ذباحة ولن أحكى كيف أوقعت باندراس فى حبائلها لعدم جدوى ذلك فالفيلم لن يرخص بعرضه عندنا كاملا غير منقوص لصعوبة ذلك ولا أقول استحالته فمشهد انجى





وباندراس وهما فى فراش الزوجية عاريان تماما، وفى أوضاع تشكيلية رائعة التكوين ذلك المشهد وحده كفيل بارتعاد فرائص الرقباء إلى يوم الدين!

أيام مجهدة وممتعة

تبقى الأفلام الأربعة الأخرى وهى حسب أسبقية الرؤية لها تبدأ بفيلم «حجرة الابن» الفائز بالسعفة الذهبية فى مهرجان كان الأخير وهو من تأليف وإخراج وتمثيل نانى موريتى وليس من شك فى أنه يستحق بجدارة تتويجه بجائزة ذلك المهرجان ويا حبذا لو جرى عرضه على سينمائيينا فى دروس خصوصية حتى يتعلموا كيف تصنع الأفلام وتنتهى بـ «القيامة الآن» لصاحبه فرانسيس فورد كوبولا مبدع ثلاثية الأب الروحى.

وقد سبق لى أن شاهدت القيامة الآن فى لندن، قبل ٢٢ عاما ووقتها كان هو الآخر متوجا بسعفة كان الذهبية أما لماذا ورغم ضيق الوقت عدت إلى مشاهدته فذلك لأن كوبولا أضاف إليه بضعة مشاهد كان قد قام باستبعادها فى أثناء عملية التوليف وبفضل ذلك طال عرض الفيلم إلى ثلاث ساعات ازدادت عشرين دقيقة.

ومرة ثانية جرى عرض الفيلم فى نسخته الجديدة المطولة قبل بضعة أسابيع فى أيام مهرجان كان الأخير ورغم أن إعادة عرض فيلم سبق عرضه فى كان أمر غير مسبوق إلا أنه قوبل بالاستحسان ، ولا غرابة فى هذا لأن القيامة الآن فيلم دامغ لعدوان العسكرية الأمريكية على شعب فيتنام وفى دمغه لها ولوحشيتها لا ينهض إلى مستواه أى فيلم آخر ولو من قريب وفيما بين الرائعتين حجرة الابن والقيامة الآن شاهدت «مالينا» و«شوك» . والأول من ابداع جيسبى تورناتورى صاحب سينما باراديزو ذلك الفيلم الفائز بجائزة أوسكار أفضل فيلم أجنبى، قبل عشرة أعوام.

أجمل وأذكى الأصوات

أما الثانى فمن نوع أفلام الرسوم المتحركة وهو أول فيلم من ذلك النوع يعرض ضمن أفلام المسابقة الرسمية فى مهرجان كان الأخير، وذلك منذ عام ١٩٧٤ وأبطاله ثلاثة أميرة ووحش وحمار وهم يتكلمون بأصوات نجوم كبار وممتع حقا أن نسمع الأميرة تتكلم بصوت النجمة الفاتنة كاميرون دياز وأن نسمع النجم الأسمر معبرا بصوته عن أفكار الحمار و.

وختاما فهذه وجبتى من الأفلام خلال سبعة أيام ولا شك فى أنها لا تغنى ولا تسمن من جوع إلى الأفلام ومع ذلك فأنا قانع بها، لأن القناعة كنز لا يفنى، كما يقال!! . ■

الإبداع المعمارى وتكويناته الاسطورية



انطونيو جاودي

بقلم
د. صبرى منصور

●● رغم ما هو معروف من أن العمارة هى أم الفنون ، غير أن وظيفتها النفعية ظلت قيداً يعوق حرية المعمارى، ويمنعه من التحليق بعيداً فى آفاق الخيال، ليخلق ما يعن له من أشكال وما تجود به قريحته الإبداعية من تصميمات . إلا أن أنطونيو جاودى ذلك المعمارى الإسبانى الشهير قد استطاع أن يحيل تصميماته المعمارية إلى فن خالص، لا تنتقص قيمته وظيفته والغرض من انشائه، فهو أقرب إلى عالم الإبداع التشكيلى، بتكويناته النحتية الأسطورية، وتشكيلاته وألوانه المستدعاة من عالم الخيال، والممزوجة بعناصر تاريخية وثقافية ذات روافد عديدة ، نجد من بينها الفن العربى الأندلسى، وفن الباروك، والفن القوطى وملامح الفن الجديد الذى ظهر فى عصر انطونيو جاودى ●●



منزل النزوة – سانتاندير

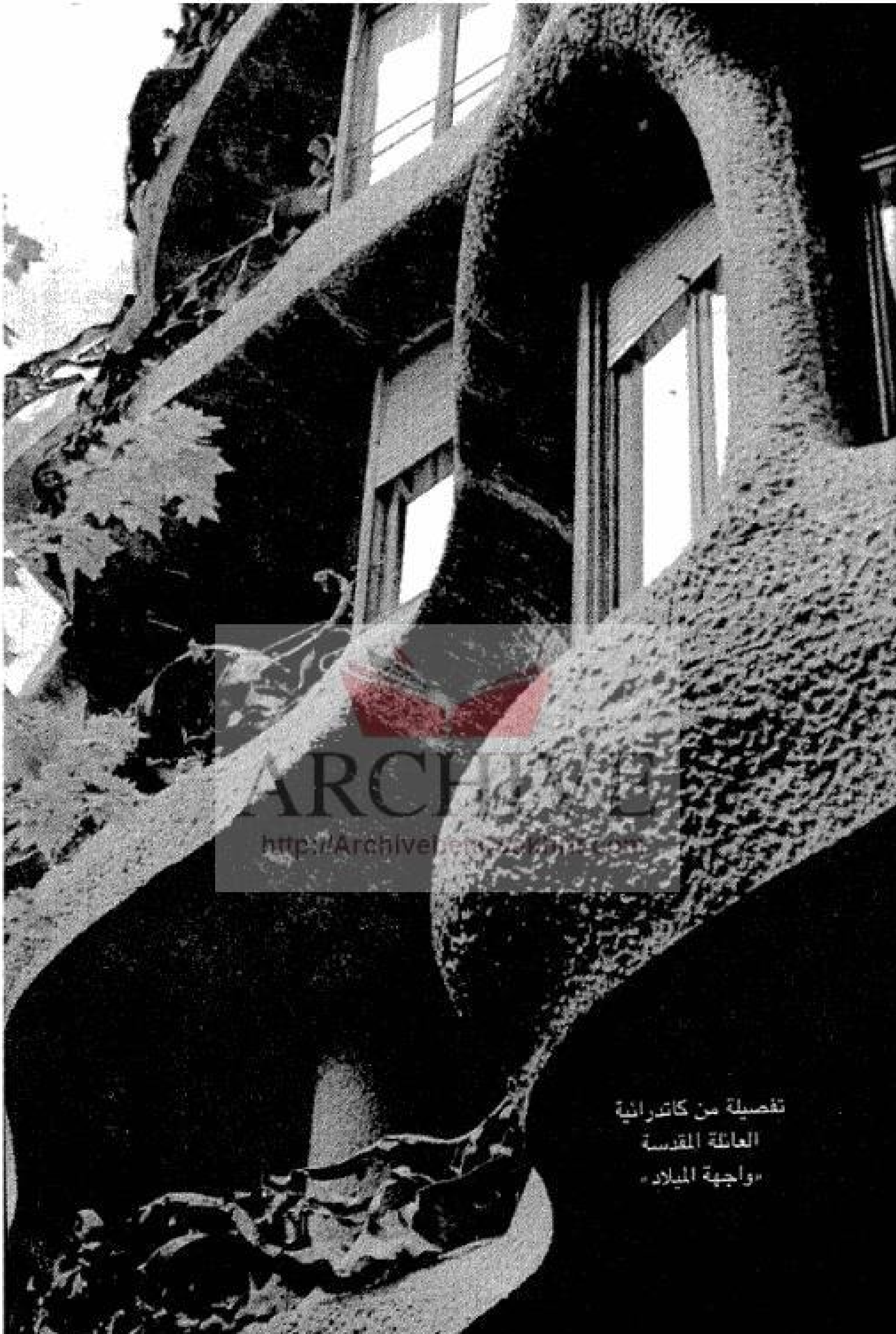
الإبداع المعماري

ولد جاودى فى ٢٥ يونيو عام ١٨٥٢ فى بلدة «ريو» من إقليم كتالونيا (وعاصمته برشلونه) وينحدر من عائلة ذات مستوى اجتماعى بسيط، فقد كان والده وجده وجده الأكبر يعملون فى مجال الفخار، وهو ما انعكس على عمارة جاودى فيما بعد، وأثر فى ميله وإحساسه بجمال التشكيل، ولجوئه إلى استخدام الفخار فى مناسبات عديدة كمنبع للأشكال التى يشيدها فى الفراغ متصلة بعمارته، كما كان لنشأته الريفية المتواضعة تأثير فى تكوين شخصيته البسيطة المتواضعة التى تنأى عن الافتعال وتعزف عن إغراءات الدعاية والشهرة.

الفن الجديد (آرت نوفو Art Nouveau)

ويعد جاودى واحداً من أهم روّاد هذا الاتجاه الذى ظهر فى أوربا فى أواخر القرن التاسع عشر، تلك الفترة التى كانت عصر تفوق وازدهار اقتصادى نتيجة للتحول الصناعى، لكن الفنانين والكتاب لم يكونوا راضين عن الفن السائد آنذاك، وكانت العمارة قد دخلت فى روتين أجوف، وشيدت الكتل المعمارية الضخمة للتجمعات السكنية والمصانع والمبانى الحكومية فى المدن الواسعة بطرز معمارية متعددة مثل طراز عصر النهضة أو الباروك أو القوطى أو الكلاسيكى الجديد، مع لصق أشكال زخرفية مأخوذة من الكتب الخاصة بالطرز التاريخية، فقد كان المهندسون المعماريون مقيدين بتلك الطرز محاولين العثور على الطراز المناسب للمبانى الجديدة التى استحدثها التطور الصناعى والتجارى والثقافى ، مثل مبانى المجالس النيابية والمحلية ودور الأوبرا ومسارح الدولة والمتاحف ومحطات السكك الحديدية والفنادق الكبرى، ولم يكن لهذه المبانى نموذج معروف سابق فى تاريخ العمارة لذلك ساد المنحى الانتقائى التاريخى .

ومع ازدياد الوعى بعبثية هذه التوجهات، بالإضافة إلى ما لوحظ من تدهور الحرف الفنية بسبب غلبة الإنتاج الصناعى الآلى وما ينتجه من زخارف مبهرجة ورخيصة بوفرة شديدة ، كل ذلك كان حافزاً لرجال مثل «جون رسكين» «وويليام موريس» الإنجليزيين لكى يطلقا دعوتهما بضرورة السعى نحو إيجاد نوع من المواءمة الكاملة بين الفن والحرف، وقد انتشرت أفكارهما بسرعة، مما ساعد الناس على تذوق الفنون الأصيلة والبسيطة، كما كان رسكين وموريس يعتقدان بأنه يمكن تحديث الفن بالعودة إلى العصور الوسطى، ويشتاقان إلى نوع جديد من الفن مؤسس على شعور جديد وبتصميم جديد، وذلك بما يمكن أن تمنحه كل مادة أو خامة من إمكانيات، وكتب رسكين عام ١٩٤٩: «نحن لسنا فى حاجة إلى طراز معمارى معروف، فأشكال



تفصيلة من كاتدرائية
العائلة المقدسة
«واجهة الميلاد»

العمارة أصبحت معروفة لنا بما فيه الكفاية».

وربما كان للشرق أيضا نصيب في ولادة الفن الجديد، وذلك ما نلحظه في تصميمات المهندس البلجيكي «فيكتور هورات» (١٨٦١ - ١٩٤١) فقد كانت خطوة موفقة نحو تأكيد ملامح التحديث ووضع الأسس الجمالية للفن الجديد، فقد تعلم هورات في اليابان كيف ينبذ التماثل (السيمترية) وكيف يستحدث الخطوط المنحنية التي تسود الفن الشرقي، وقد دمج هذه الخطوط بمهارة مع المتطلبات الحديثة.

وهكذا بات واضحاً منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن هناك عمارة حديثة تتخلق بالاعتماد على الفن الجميل من ناحية، وعلى الهندسة والحرف الفنية من ناحية أخرى.

أسلوب جاودي

ولقد وفر هذا الاتجاه - الذي أخذ يؤكد معالمه في الفن الجديد - المناخ الملائم لازدهار عبقرية جاودي الذي استطاع أن يجسد معالم هذا الفن في صورة نقية، وأن يظهر براعته في استخدام جماليات الخط المنحني، وأن يستحدث مواداً وخامات جديدة ليدمجها دمجاً عضوياً في عمارته مثل الطوب والقرميد والسيراميك وقطع الفسيفساء وأشكال الفخار والنحت وتصميمات الزجاج المؤلف بالرصاص وكذلك الحديد، وقد أنجز جاودي في حياته التي امتدت حتى عام ١٩٢٦ ثلاثة عشر عملاً معمارياً، كل واحد منها يقدم حلولاً جديدة وصيغا معمارية مبتكرة ، ولكنه في الوقت نفسه يشي بمعالم شخصية جاودي وأسلوبه الفني الفريد الذي استلهمه من طرز مختلفة أخضعها لرؤيته الفنية وصنع منها تلك العمارة الأسطورية التي احتلت مكانة شديدة التميز في تاريخ فن العمارة الحديث.

منزل ڤيثنز ١٨٨٥ - ١٨٨٧

وهناك عدة عوامل مهمة في تشييد هذا المنزل (وكان مخصصاً لقضاء الصيف لتاجر القيشاني مانويل ڤيثنز)، العامل الأول وكان على المستوى الشخصي، إذ أنها كانت المرة الأولى التي يكلف بها جاودي تكليفاً شخصياً من عميل، والعامل الثاني ذو أهمية في تاريخ العمارة، ففي الوقت نفسه الذي بدأ فيه جاودي العمل في هذا المنزل كان قد بدأ أيضاً في كاتدرائية العائلة المقدسة بكل ما يعنيه ذلك من تداعيات التأثيرات الدينية، كما أنه في حوالي هذا التاريخ أيضاً كانت معالم الحداثة المعمارية تظهر بولادة الفن الجديد.

وقد استلهم جاودي أسلوبه في تصميم المنزل من معالم العمارة العربية، والعمارة العربية المسيحية محاولاً للمرة الأولى العثور على مخرج ومنفذ لعمارة انتقائية مختلفة ومتميزة، وربما كان هذا



منزل فيثنز

المنزل البداية الأولى لأسلوب جاودى الذى أخذ يتضح فيما تلته من أعمال معمارية.

منزل النزوة -- سانتاندير ١٨٨٣ - ١٨٨٥

وهو محاولة من جاودى للمزج بين فن القرون الوسطى والعصر الذهبى لعمارة إقليم كتالونيا، مع جلال وجمال المنازل الشرقية، فهو يشابه إلى حد كبير العمارة العربية.

كاتدرائية العائلة المقدسة ١٨٨٤ - ١٩٢٦

وهى أهم أعمال جاودى وأكثرها شهرة على مستوى العالم، وأصبحت أعمدتها على الواجهة الشرقية (واجهة الميلاد) علاقة مميزة ورمزاً لبرشلونة.

ولقد ظل جاودى يعمل فى هذه الكنيسة أكثر من أربعين عاماً. كما أنه ظل يعمل بها حتى آخر أيام حياته. وقد أنجز فيها واجهة الميلاد التى تحمل قيمة فنية عالية، واختزلت عمارتها فى رمزية نقية، وعلى الرغم من أنه قد استوحى فى تصميمه للكاتدرائية الطراز القوطى إلا أنه قد حذف منه كل الأشكال والتركيبات الزائدة، فاحتفظ بالنوافذ القوطية ولكنه خفف من صرامة أشكالها بإضافة عناصر دائرية لها. ومع أن الأبراج ذات أهمية خاصة لكن الجزء الأسفل من الواجهة الذى يحتوى على مشاهد ميلاد السيد المسيح تظهر سيطرة دينية عمقت من الرؤية الكاثوليكية واجتذبت المشاهدين وأحيت لديهم الحافز الدينى. وهى بلا شك أكثر أعمال جاودى شعبية وتقديراً لدى الجمهور الذى تنتقل إليه تلك الروح الصافية والمخلصة والخيالية التى تعكسها التشكيلات والتكوينات وعشرات التماثيل التى أبدعها جاودى وملأ بها واجهته. فكانت الأبواب الثلاثة الرئيسية للواجهة يتصفها باب الإحسان أو المحبة وهو أكبرهم ويمثل ميلاد السيد المسيح، وعلى يساره يوجد باب الأمل وفيه تمثيل نحتى يوضح ذبح هيرود لأطفال اليهود ومشهد الهروب إلى مصر، ثم باب الإيمان على اليمين وفيه مناظر من الكتاب المقدس.

ولم ير جاودى بنفسه اكتمال الواجهة الشرقية، فعند وفاته لم يكن قد انتهى سوى من ثلاثة من الأبراج الأربعة ومعظم الواجهة، وترك الباقى مجرد تصميمات ونموذج من الجبس دُمّر أثناء الحرب الأهلية الإسبانية ثم جرى ترميمه بعد ذلك، ولكن التصميمات ظلت تحمل بصمة جاودى الفنية.

منزل ميلا ١٩٠٦ - ١٩١٠

استخدم جاودى فى هذا المجمع السكنى أفكاره الإنشائية والجمالية بتحرر تام من البعد التاريخى، وهو يعدّ نقطة مهمة فى التطور الجمالى لفن العمارة، وفيه أيضا تظهر براعة وعبقرية جاودى التى لا تنفد مع قدرة فائقة على الخلق


كاتدرائية العائلة المقدسة
ببرشلونة

الإبداع المعماري

والابداع، كما تتجسد فيه فلسفته في التعرف على الطبيعة لاكتشاف قوانينها من أجل استخدام هذه القوانين في عمل إبداعي يوازيها، وقد جاء هذا المنزل عرضاً معمارياً وتشكيلياً لمفهوم جاودي عن الطبيعة، وقد وصفه أحد الكتاب بقوله: «إنه جبل تم بناؤه بأيدي رجل».

ولقد تحول الفن الجديد في هذا المنزل من زخرفة على السطح إلى إيجاد شكل نحتي، فالمنزل يبدو كمخلوق حيّ يتلوى، يتحد فيه المعقول والخيالي في آن واحد. كما أن هذه الجروف المعمارية الضخمة بحركتها الملتفة الهائلة على الواجهة تبدو مثل أمواج البحر الساكنة، وقد زينت بالنباتات المتسلقة والزهور تستدعى إلى الذهن لمسات من ألوان مختلفة تجعل العمارة أكثر اقتراباً من الطبيعة وتؤكد التعبير القوى للرومانتيكية.

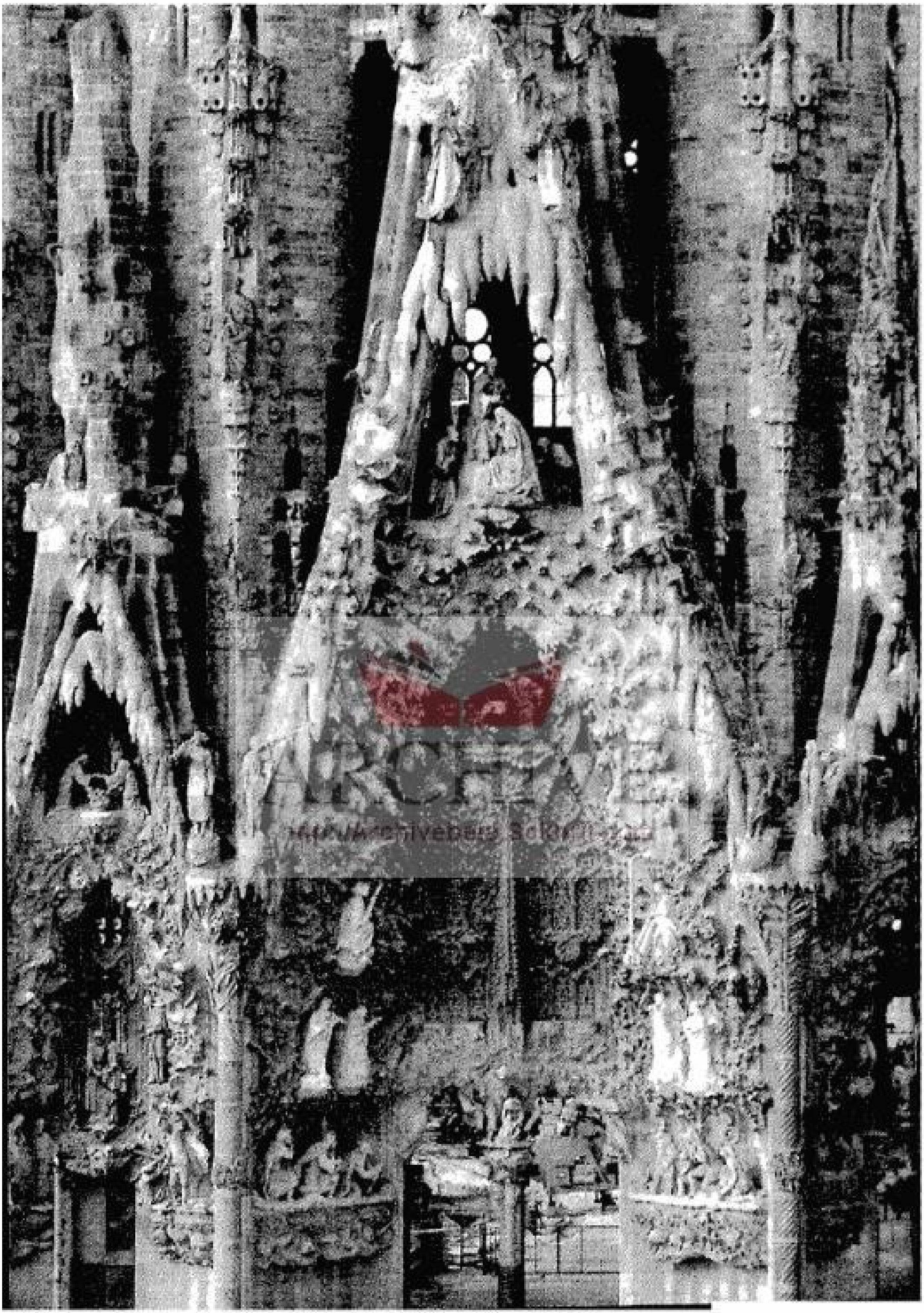
وأهم ما في هذا المنزل هو أن جاودى قد حطم عمارة الواجهة بلجوئه إلى العمارة بدون واجهة، ويمبنى لا يعتمد على قواعد تقليدية، ومحكوم فقط بالنزعة الطبيعية باستلهام الشكل الطبيعي.

شهرة جاودي

نادراً ما بلغ أحد المعماريين - باستثناء لوكوربوزييه وفرانك لويد رايت - تلك المنزلة الثقافية السامقة التى بلغها جاودى كأحد العباقرة المبدعين على مرّ التاريخ، فلقد اكتسب شعبية وتقديراً على مستوى العالم بماثل ما بلغه كبار فنانى العصر الحديث أمثال بيكاسو وسيزان وفان جوخ وسلفادور دالي، وقد ألف عنه حوالى ستين كتاباً طبع منها نصف مليون نسخة، وكتبت عنه حوالي ألفى مقالة صحفية، وأنتج عن أعماله عشرون فيلماً، وزار المعارض التى اقيمت لأعماله منذ عام ١٩١٠ ملايين المشاهدين، ويتوافد مئات الآلاف من الزوار الأجانب سنوياً على برشلونة خصيصاً من أجل مشاهدة انجازاته المعمارية وخاصة كاتدرائية العائلة المقدسة.

وكما يحدث في كل شيء في عصر الثقافة الاستهلاكية، فقد تم اختزال ظاهرة جاودى وامكانياته ليتحول إلي مجرد رمز، فاصبح هو فقط مهندس كاتدرائية العائلة المقدسة، أو كأن الكاتدرائية هي أهمّ عمل لجاودي أو عمله المميز الوحيد، وتلك فكرة مزيفة، إذ أن الشخص الذى يقترب بعمق من عالم جاودى المعمارى سوف يكتشف القيمة الحقيقية لفنه ومدى ثراء وتنوع أسلوبه المعمارى الفريد الذى استطاع أن ينسجه بعبقريته من خيوط عدة. ذلك الأسلوب الذى سيظل دائما أحد الانجازات الخالدة فى فن العمارة على مرّ الأزمان والعصور. ■

تفصيلة من منزل ميلا ◄







فن القلوب الصافية

بقلم
عز الدين نجيب

في البدء كان الفن ضربا من ضروب السحر، أو من سعي الإنسان البدائي للكشف عن المجهول والسيطرة عليه. إن ميراث الكهوف الأثرية في فرنسا وأسبانيا - وغيرهما - من الرسوم البدائية فوق الصخور، وكذا ميراث القبائل الأفريقية والمكسيكية وأهل الإسكيمو من المنحوتات والأقنعة والدروع والرموز، يعطينا مؤشرا ساطعا لهذه الكشوف الابداعية السحرية المبكرة، قبل أن تتحول - وبعد أن تحولت أيضا - إلي طقوس ومعتقدات و تابوهات، وثوابت دينية، تشكل مسار وعي الجماعات البشرية بالوجود ومحاولاتها لامتلاك أسراره حيث كان علي مبدع تلك الأعمال أن يري ببصيرته ما لا تراه عيون الجماعة وأن يختزل بريشته وأزميله قوة الظواهر في الطبيعة والإنسان والحيوان، عبر أشكال وتضاريس لا تحاكي الواقع أو نسبه التشريحية، لكنها تحتوي سره العميق وتسيطر عليه وتسخره لإرادة صانعه (الفنان/ الكاهن).



تكوين لشخص مفرغ من
المعدن للفنان محمد يوسف

والمدهش أنه بعد مرور الآلاف من السنين على إنتاج هذه الأعمال، التى لم يقصد بها أن تكون فنا أو زينة، والتى كان يقوم بها غالبا ساحر أو كاهن، أصبحت من أقوى مصادر الإلهام لاتجاهات الفن فى القرن العشرين، منذ أنجز بابلو بيكاسو لوحته الشهيرة فتيات «أفينيون» عام ١٩٠٧، مستوحيا أسلوبها التكعيبى من الأقنعة الأفريقية بعيدا بالطبع عن مضمونها السحرى والعقائدى. ولقد أدرك هذا الفنان العبقرى تلك العلاقة الوثيقة بين فن الرجل البدائى وفن الطفل ذلك أن كليهما يرسم وينحت ما يعرفه ويقتنع به وليس ما يراه، وأن كليهما يمتلك قلبا مثل اسفنجة مشبعة بالأحاسيس الخام البريئة، ما أن تلامسه حتى يقطر، مكنونه صافيا بغير افتعال بالرغم مما يبدو على ظاهره من سذاجة فكان فن الطفل والرجل البدائى منبع إلهامه الذى لا ينضب، وكانت تلك الفطرة البدائية المتدفقة كالخام النقى من شريان القلب إلى طرف الريشة أو الإزميل بغير قواعد مصطنعة هى السمة التى تألق من خلالها نجمه، حتى صار أسطورة القرن العشرين.

الفن مذاق السحر

غير أن ثمة أشخاصا أوتوا قبسا مما اختزنته قرائح أسلافهم البدائيين منذ آلاف السنين، وقبسا مما تختزنه قرائح وقلوب الأطفال الموهوبين فى كل زمان ومكان، ويمتزج هذا وذاك داخل مواهب هؤلاء الأشخاص، فينتج من إبداعهم فن له مذاق السحر وعبق الأسطورة وخيال الطفل وبراءته، مع وعى فطرى بوحدة الكائنات وصيرورة الوجود.

وكثيرا ما يتطابق إبداعهم مع بعض رؤى الحداثة فى الفن المعاصر، بشطحاتها وجنونها وقد لا يكون أحدهم قد رأى عملا من أعمال هذه الاتجاهات الحديثة النابعة من ثقافة أوربية لم يتح لهم الاتصال بها على الإطلاق، وقد لا يكون صاحب هذه الموهبة الموغلة، فى عالم الفنون البدائية قد رأى فى حياته ولو صورة لعمل من أعمالها الفنية، مما يطرح أمامنا السؤال كاللغز: كيف تتواصل أو تتناقل رؤى ومستويات الوعى الثقافى بين مواهب لا رابط بينها من عصر أو ثقافة أو جنس أو عقيدة أو وسيلة إطلاع؟ وهل ثمة تيارات «أنثروبولوجية» غير مرئية فى رواسب التطور البشرى يمكن أن تختزل هذه الحواجز عبر الزمان والمكان والشعوب والأفراد؟ والأكثر مدعاة للدهشة أن تلك المواهب لا تفرق- حين تحل بأصحابها- بين شخص مثقف وشخص جاهل، فنرى المثقف الدارس وقد تقمص بغير افتعال حالة من حالات الوعى البدائى بالوجود البكر، واتخذ من نسيج هذا الوعى البدائى كساء جماليا بالغ الصدق، بنفس القدر الذى يبدو عليه وعى الفنان الأمى الذى لم يدخل فى حياته مدرسة أو معرضا أو متحفا.

ثقافة تقليدية متوارثة

ويهـمنى أن أفـرق هنا بين هذه الفنون، النابعة من فيوض ذاتية قد تَمُتّ بصلات قرابة لفنون وثقافات بدائية قديمة، وبين فنون نابعة من فلكلور محلى أو موروث شعبى معاش، وإن جمع بينهما أن «الجماعة» هى التى صنعت الأنماط والرموز التى يستخدمها كل منهما، إنما يكمن الفرق بينهما فى أن الأولى تعكس رؤية ذاتية خاصة بصاحبها وحده، منبتة الصلة بدوافع نشوء أشكالها الفنية فى مصادرها القديمة التى قد يجهلها الفنان المعاصر تماما، بينما الثانية استطراد حديث لثقافة تقليدية متوارثة تبدعها الجماعة الشعبية فى بيئة معينة ويعكس الفنان المعاصر روحها الجمعية وحسها القومى.

وفى الشهر الماضى شهدت القاهرة معرضا بقاعة «تاون هاوس» لاثنين من الفنانين يمثلان ذلك الفن النابع من قلوب صافية - ولا أقول خالية - ومن فطرة طفولية موصولة بفنون بدائية عتيقة وقد جمع بينهما فن النحت والانتماء إلى نفس الجيل، حيث أن كلاً منهما الآن يقترب من سن التسعين، وإن باعدت بينهما المستويات الاجتماعية والتعليمية والثقافية، وكذلك نوع الخامات المستعملة فى النحت.

الأول هو محمد محمود يوسف والثانى هو محمود اللبان - وكان كل منهما قد أصاب قدرا من الشهرة والاهتمام من الأوساط الفنية والإعلان فى الستينات والسبعينات ثم طواهما النسيان وضغوط الحياة، شأن الكثير من رموزنا التى لا تملك خيوط الاتصال بالمؤسسات أو منافذ الإعلام ومن المحزن أن القاعة التى تذكرتهما وأقامت لهما المعرض يملكها رجل أجنبى، يتعامل مع الحياة الفنية بمصر منذ سنوات قليلة، وليس من مهامه أن ينوب عن ضميرنا الثقافى فى إزاحة تراب النسيان عن الموهوبين والمغمورين بل يفترض أن دافعه الأساسى هو الربح، هذا إذا لم نأخذ بما يردده البعض عن وجود دوافع أخرى تتعلق بالتوجيهات الفنية الغربية التى يراد زرعها وترويجها فى مصر باسم الحداثة وقد جاء المعرض - على أية حال - فى توقيت ميت، حيث هجر المهتمون بالفن القاهرة إلى المصايف هربا من قيظ أغسطس، مما يدعو إلى الظن بأن المعرض مجرد محاولة لملء فراغ القاعة فى هذا الوقت بدلا من تركها خالية!.

محمد يوسف والفرح بالحياة

إن أعمال محمد يوسف تكوينات لمشخصات مفرغة داخل ألواح الحديد، أو مشكلة فى الفضاء بأسياخ الصلب، وفى الحالتين تمثل هذه التكوينات حالة من الحركة المتبادلة بين الشكل والفراغ، والشكل فى الحالة الأولى (حالة التفريغ داخل اللوح المسطح) هو الفراغ ذاته، أى ما يتم حذفه من ساحة اللوح الحديدى، بعكس الشكل فى الحالة الثانية إذ تؤلف حركة الأسياخ تكوين

الأشخاص والعناصر وتشترك الحالتان في نفى المفهوم التقليدى للنحت، وهو مفهوم الكتلة فى الفراغ، حيث لا توجد بين أعمال الفنان أى كتلة مصمتة أو مجوفة، ولا حتى الإيهام بذلك.

هكذا تصبح أمام الفنان مهمة صعبة، وهى شغل الفراغ بالحركة البصرية الناتجة عن الإيقاع المتناغم للفراغات داخل المساحات المصمتة أو بين الأسياخ وشرائح الصلب الرقيقة لتخلق ديناميكية لا تعرف السكون وأنت تنظر إليها من أية زاوية بل تراها تتجدد وتتغير فى إيقاع سريع كلما تحركت حولها.

لقد فرضت الخامة - بالطبع - الشكل الجمالى النابع منها فليس من السهل أن يشكل الفنان عمله من كتلة حديدية صماء كى يحصل على أجرام لها رسوخ النحت كما استقر فى الأذهان فجاء توظيفه للشرائح والأسياخ والرقائق المفرغة متوافقا مع طبيعتها، بحذف العناصر التشخيصية من المسطح وتطويع الأسياخ فى خطوط ومنحنيات رشيقة كأنها الخطوط الخارجية التى تحدد الأجسام لكنها تصل إلى أبصارنا بغير حاجة إلى تجسيم أو إلى سد ما بينها من فراغات وتعطى استمرارية الخطوط المستقيمة والمنحنية والزجزاجية إيقاعا نغميا راقصا، بالرغم من خلوه من العناصر الزخرفية المعتادة ذلك أن هدف العمل الفنى هنا ليس التطريب بإيقاعات منتظمة ومكررة، بل هو التعبير عن حالة أو معنى أما تكويناته القائمة على تفريغ الأشخاص والعناصر من السطح الحديدى فأغلبها يعتمد على المنحنيات والأقواس وهى تدور فى حركة ناعمة سريعة التدفق، متناسبة مع الحركة الواقعية لمجموعات الأشخاص أو مع ملامح الوجوه التى تذكرنا بالأقنعة الأفريقية.

عرائس الأحلام وأعياد الطبيعة

هنا نصل إلى العالم الذى تمتلئ به أعمال محمد يوسف، إنه يذكرنا - على نحو ما - برسوم الكهوف بما تحتويه من مشاهد الصيد والرموز السحرية والأقنعة الطقوسية لكنه عالم أقرب إلى الفنتازيا الفرحة بالحياة منه إلى الطوطمية أو الطلسمية المرتبطة بالعقائد الوثنية، فكأننا نعيش من خلاله مع عرائس الأحلام وأعياد الطبيعة ونحن لا نجد تطابقا بين تكويناته وعناصره وبين مثيلاتها فى الفنون البدائية، لكننا نستشعر هذه القرابة استشعارا غامضا، لأن ذاتية الفنان تضع بصمتها الخاصة على عمله أكثر من تأثير الحس الجمعى، مما يجعل إبداعه أقرب إلى فردية الفنان المعاصر، ويجعل تأثره استلهاما للفنون البدائية والرسوم الشرقية مثلما فعل بيكاسو وماتيس مع اختلاف الوسيط التشكيلى بينهم بالطبع.

ومن المثير أن نعلم أن الفنان محمد



تمثال من الجبس
للفنان محمود اللبان

يوسف هو في الأصل فنان أكاديمي دارس، بل كان أستاذا رائدا لأجيال عديدة من خريجي كلية الفنون التطبيقية التي درس فيها هو شخصيا قبل أن يستكمل دراساته العليا بانجلترا منذ عام ١٩٣٥ متخصصا في التصميم بخامة الحديد، ليعود عام ١٩٣٩ فيؤسس بالكلية قسما للأثاث والإنشاءات المعدنية والحديد المطروق. ونعرف من سجل سيرته الذاتية أنه حصل عام ١٩٤٩ على الميدالية الذهبية بالمعرض الصناعي الزراعي، كما شارك في بينالي الاسكندرية الدولي خلال دورات ١٩٥٧، ١٩٦٠، ١٩٦٥. وشارك كذلك في مؤتمرات علمية بتقديم العديد من الأبحاث الأكاديمية وترجم بعض الكتب الشهيرة في فنون التصميم لكبار النقاد لكن كل ذلك لم يؤثر في حسه الفطري وتلقائيته الطفولية اللذين ينبعان من معين غائر في الأعماق يمتد إلى فنون الانسان البدائي، وهو بذلك يؤكد ما ذكرناه في البداية حول إمكان حلول مثل هذه المواهب الموصولة بحالة الوجود البكر، في شخص دارس ومثقف مثلما يمكن أن تحل في شخص فطري بسيط.

وفي اعتقادي أن مثل هذا الفنان لو عاش في بلد متقدم يقدر قيمة الفنان لكان له شأن آخر، خاصة وأن أعماله بطبيعتها ذات جانب وظيفي في العمارة والنوافذ والفتحات والفراغات المعمارية مما يوسع من قاعدة انتشار أعماله ويحقق له المستوى الاقتصادي الذي يليق به. لكن ماذا نقول؟.. إننا في مصر!

محمود اللبان..
التوحد مع الكائنات

في القاعة المقابلة كانت تنتشر التماثيل الصغيرة والمتوسطة المصنوعة من الجبس للفنان محمود اللبان، محلقة في عالمها الأسطوري وخيالاتها الخرافية، وقد امتزج فيها الانسان والحيوان والطير في توحد وجودي آسر، فلا نعرف إذا كنا أمام فنان يعيش بمصر في القرن الحادي والعشرين، أم أمام أعمال سحرية من طقوس القبائل البدائية من الهنود الحمر أو المكسيك أو افريقيا! بل لعلنا نستخرج منها إشراقات من المتصوفة المسلمين تشي بتواصل الكائنات وحلولها المتبادل بين كائن وآخر بما يصل إلى التوحد مع الوجود والمطلق.

غير أن الحقيقة الوحيدة المؤكدة هي أن محمود اللبان لم يغادر منطقة الغورية طوال سنوات عمره المديد، ولم يمارس طوال حياته أي عمل قبل أن يكتشف موهبته في النحت فجأة وهو يقترب من سن الستين - إلا صناعة الألبان، التي اشتق منها لقبه اللهم إلا حين تطوع فترة من الوقت لخدمة مسجد الإمام الحسين ومريديه، فعاش في رحاب الشهيد وعبق القداسة، متجردا من كل النوازع الدنيوية، متوحدا مع فرق الصوفية، ذاكرا وهائما ومتجذبا.

وقد أتيح لي أن أشهد بداياته الأولى

فى النحت أوائل السبعينيات حيث كنت أتردد على مسكن الثنائى الشهير: الفنان الشيخ إمام عيسى والشاعر أحمد فؤاد نجم فى حارة «خوش قدم» أو «حوش آدم» كما ينطقها أهل الغورية. كان اللبان أحد المجذوبين إلى عالمهما، وقد سبقه إليهما فنان فطرى آخر هو محمد على، وقد تكشفت موهبته فى الرسم فجأة بعد سنوات من ممارسة دور قائد الكورس وضابط الإيقاع فى حفلات الشيخ.

كان حظ محمد على أفضل من حظ اللبان، لأنه كان يملك حجرة صغيرة وسريرا ينام عليه، وما يكفيه ليأكل ويدخن أما اللبان فكان مأواه عربة بطاطا فى الحارة غطاها بستارة وجعل منها حجرة نومه ومعاشه ومرسمه، وأما الرزق فكان يأتيه من قروش أصحاب المقاهى ثمنا لمواقد الفحم التى يصنعها من الجبس لمدخنى الشيشة والجوزة، وقد زينها ببعض الرسوم الساذجة التى يحفرها على جوانبها، حتى رآها بعض «الأفندية» الأغراب عن الحارة فراحوا يشترونها بلهفة كتحفة فنية، عندئذ أمسكت يده الجنية بدلا من القروش لأول مرة!

تماثيل اللبان فى عربة بطاطا

كان المناخ الثورى الذى صنعته حركة الطلبة الغاضبين آنذاك على الأوضاع والسلطة قد جعل من هذه الحارة ذات البيوت المتهالكة قبلة المثقفين المعذبين بهزيمة ١٩٦٧ والحالمين بالخلاص والتغيير لأنها موطن زعيمى الثوار الصعاليك (الشيخ والشاعر) اللذين أصبحا- ومعهما الرسام والنحات -رموزا للصمود والمقاومة، وبقدر ما كانت عربة البطاطا تتسع لتماثيل «اللبان» وأحلامه من خلال الحب الكبير الذى أحاطه به الثوار الرومانسيون من الطلبة والصحفيين والكتاب والفنانين والصعاليك. كانت حجرتا «شقة حوش آدم» المتصدعتان من عصر العثمانيين تتسعان لدوى الأغانى النارية وشجن دقات عود «الشيخ إمام» وإيقاعات قصائد الشاعر «نجم» ودفوف الرسام «محمد على» غير أن الحجرتين كانتا تبقيان مغلقتين أغلب شهور السنة لأن أصحابهما يكونون فى ضيافة السجون السياسية!

لم يكن «اللبان» مثلهم منغمسا فى النشاط الثورى، لكنه كان كالعصفور المحلق حول عالمهم، أو بالأحرى كان أحد الدراويش المجذوبة قلوبهم إليه بحب لا يخضع لسلطة العقل أو الشعار، تماما مثلما كان أيام خدمته لمسجد الحسين، لكن حب المثقفين لتماثيله واقتنائهم لها ولو بقروش أو جنيهات قليلة جعله يشعر لأول مرة بقيمته كإنسان «لأن كلمة فنان لم تكن قد دخلت بعد قاموسه اللغوى، ولم يكن يدرك مضمونها الحقيقى حتى فتح النحت أمامه عالما من الحرية والحلم بامتلاك العالم.

وبقدر ما امتلك من الوعى بذاته



تكوين - محمد يوسف

وبالظروف من حوله ويدور الانسان في تغييرها. فقد آثر دائما أن يعيش في دنياه الخاصة بعيدا عن صخب الشعارات الثورية التي لم يكن يفهم أغلبها. كان يمكن أن يتغنى مع المنتشين بأغاني الشيخ حتى الفجر، وأن يحلم معهم بالعدل والحرية والتغيير، لكنه لم يكن يشعر بحريته الحقيقية إلا حين يعود إلى صومعته الصغيرة، ويشكل في أنصاف كرات الكاوتشوك الصغيرة والكبيرة- ذلك الاختراع البدائي الذي تفتق عنه ذهنه - قطعه النحتية العجيبة من عجينة الجبس التي يحفرها بسكينة بعد جفافها، ثم يجمعها ويلصق كلا منها بالأخرى، حتى تصبح في النهاية كائنا مكتملا ومدهشا قد يجمع بين شخص ذي لحية مدببة وعيون طفل وجناحي طائر يهم بالطيران ويطلق عليه اسم «هوشي منه» وقد يكون كائنا خرافيا آخر بوجه ملائكي وجسم مكعب موشوم بالرموز السحرية، ويطلق عليه اسم «جيفارا» وقد يكون مسلة شامخة تتصاعد على جوانبها الطيور والحيوانات والسلاحف والأقنعة الضاحكة في سخرية ويطلق عليه: «العدالة».

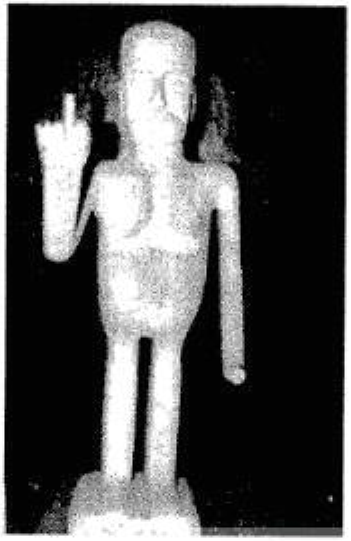
تلك كانت المرات القليلة التي عبرت فيها تماثيله عن فكرة، لكنه في الحقيقة كان يعبر عن معنى أكثر شمولا في إدراك كنه الوجود كان معنيا - بشكل خاص - بفكرة الصيرورة من خلال الخصوبة الذكرية، حتى بدت من كثرة إلحاحه عليها في تماثيل عديدة كمعتقد ديني، ويكاد تعبيره عنها أن يتجاوز خيال النحات الأفريقي الذي جسد هذه الفكرة من خلال الأخشاب، بل يكاد المشاهد الذي لم تسبق له معرفة «اللبان» أن يجزم وهو يشاهد تماثيله - أنه أطلع على مثل هذه المنحوتات الأفريقية، بما فيها من أقنعة ورموز وحلول زخرفية لكن أنى له ذلك وهو لم يعرف الطريق يوما إلى أي مكان خارج منطقة الحسين والغورية ولم يدخل في حياته مدرسة أو رأى كتابا؟!

أتطور إزاي

وأتاحت لي وظيفتي آنذاك أن أخصص له حجرة بقصر المسافرخانة يمارس فيها النحت شأنه شأن الفنانين الحاصلين على مراسم هنا كمنحة من

الدولة، وأن أساعده فى الحصول على منحة أخرى للتفرغ للفن من وزارة الثقافة، لكنها - بعد عام واحد من حصوله عليها - سحبتها منه بحجة أنه لم يتطور خلال هذه السنة، وظل الرجل يردد حائرا طوال الشهور اللاحقة «اتطور إزاى؟!» إلى أن سحبوا منه المرسم نفسه عام ١٩٧٦، وعاد إلى الحارة يعيش وينتج فى دكان صغير نجح فى تأجيره بغير حماية إلا من مورد ضئيل من هيئة قصور الثقافة بعد أن نجح أهل الخير فى إلحاقه بالعمل بها، وقد أخذت الهيئة منه معرضا يضم عددا كبيرا من تماثيله ليطوف بالأقاليم ولم يعرف مصيره حتى اليوم!

وحين زرت معرضه الأخير - بعد ربع قرن من مغادرته مرسمه بالمسافرخانة - أحسست أننى تركته بالأمس فقط، فها هى نفس الأعمال التى طالما عايشتها من خلال إنتاجها بالقصر قبل أن يحترق، لم يضف إليها أعمالا تذكر، بما يعنى أنه توقف عن الانتاج وهو أمر متوقع فى ظل الظروف غير الإنسانية التى يعيش فيها، والتى لا تكاد توفر له الحد الأدنى للحياة الكريمة خاصة وقد تقدم به العمر وليس هناك من يرعاه.. لكن أعماله المعروضة أهدت إلىّ نفس النفحة التى تأتى من خارج الزمان والمكان، حاملة مزيجا من السحر والأسطورة وروح الطفل وتجليات الصوفية خاصة تلك القطط الشاخصة نحوك بوجوه مستديرة وبأسرار لا تبوح بها، وتحار أمامها، فلا هى حيوان ولا إنسان ولا طير ولا زواحف، لكنها



• تمثال محمد اللبان، من عمل يده

بيسمتها الغامضة المشرقة تجعل قلبك وخيالك ينفتحان لها وتشعر أنك تعرفها وأنها تعرفك منذ زمن بعيد.

فأين هى القلوب التى تتفتح اليوم لتحتضن محمود اللبان وتحميه من غدر الزمان مثلما فعل الناقد الكبير رجاء النقاش عام ١٩٦٨ حين استضاف أول معرض له فى بهو دار الهلال، وأتى له بالنحات الكبير الراحل جمال السجينى ليفتتح المعرض ويقدمه إلى الصحافة والرأى العام، وسط حشد من نجوم السينما ومشاهير المجتمع الذين تسابقوا على اقتناء أعماله وأشعروه بقيمته؟!

لكن هيهات أن يعود الزمان!. ■



الغضب والشباب والحب

مسرح أم تليفزيون ؟!

بقلم
مهدى الحسينى

سحر المسرح. إن الأمل ليحدونا أن نلقاه ذات ليلة فى مسرح ما .. وفى عرض ما، فنخرج مستمتعين بالأثر الفنى (الفكرى والنفسى) المطلوب، وهو يكمن فى أن ماتراه على منصة العرض هو ما لا ندركه مباشرة بالسمع أو بالبصر .

فالحرف يشير الي آلاف الكلمات والجمل والعبارات، والحركة توحي بموجات من السكنات والحركات، والكتلة مهما دقت او صغرت فإنها تجسد كتلا أخري ومساحات وأشكالا بلا نهاية، وبقعة الضوء قد تشي بأنهار من الظلال والنور، واللون الواحد يستدعي في خيالنا «باليتة» من الألوان، والصوت قد يعبر عن الصمت أو الهمس أو عن هدير من الأصوات، والنغمة تعزف في وجداننا أوركسترا كاملا والفعل يثير أفعالا أخري تحدث في الجانب الآخر أو كان من الممكن أن تحدث، والشخصية تمثل شخوصا أخر، والمعني يصيب عشرات المعاني، وايقاع العرض يعكس ايقاع حياة بأكملها، والذكري تطوف بعوالم أخري من الذكريات، والفكر يفجر فكرا أبعد مدي وصدي.

وتقاس قيمة أى مسرحية ومدى ثرائها وبقائها، بمقدار اتساع هذا العالم وعمقه وكثافته الذى يمكن أن تثيره فى نفوس مشاهديها وصانعيها سواء. إن المسرحية الحقيقية تبدأ فور الانتهاء من مشاهدة صورتها، تبدأ كنسمة أو كتيار جارف أو كعاصفة أو كذكرى وتنتهى الى حفر غائر لا ينمحى فى عقل ووجدان وروح المشاهد.. ربما لا تفارقه إلا عندما يفارق هو .. المسرح الكبير.

إذن لا يمكن تلقى مايدور على المسرح ـ اذا كان مسرحا حقا ـ كما هو بصورته الظاهرة أى العرض ، فاذا ظل «كما هو» فكأننا لم نفعل أى شيء.. أى اننا لم نبدع فنا. هذا المقياس ضرورة مطلقة فى التعرف على فن المسرح من عدمه، ففى حياتنا المسرحية تستشرى عروض مسرحية كثيرة تنتمى للمدرسة الطبيعية على نحو فج وهزيل ، والى المدرسة الواقعية المباشرة بلا روح ولا خيال ولا أحلام ، وأما البعض الذين أرادوا التخلص من تلك الرثاثة ، فانهم جنحوا الي الافتعال والمغالطة والمراهقة والتقليد والتيه فكريا واجتماعيا وقوميا وانسانيا، وبين هذين الخطرين يغامر الفنانون الحقيقيون ـ ما أمكنهم ـ من أجل روح الشعر وجوهر الفلسفة وأبدية الجمال .

أولاد الغضب والحب

تجلت مهارة الكاتب كرم النجار فى الكتابة التليفزيونية لأكثر من ثلاثين عاما، وداعب التأليف المسرحى وفنون المسرح الأخرى منذ كان طالبا ثانويا بمدينة المحلة الكبرى ولكن لأن فن المسرح غالبا لا يحتفل الا بهؤلاء الذين يذوبون عشقا فى محرابه، فاننى أتساءل هل كتب كرم لهذا الفن الجليل وفقا لمقتضياته؟ أم وفقا لحرفيات التليفزيون؟

ولكى لا نظلم حرفيات الدراما التليفزيونية، فإنها رغم تعجلها وطابعها الاستهلاكى، فإن لها أسسا أصبحت

رصينة وراسخة تخضع لاعتبارات علم الاتصال الجماهيرى وتقنية الكتابة الدرامية (المكان . الزمان. الموضوع . الحدث . الشخصيات. الصراع . الحبكة. البداية والوسط والنهاية) ولا بأس من بعض المهارات والمؤثرات الاخرى (المفاجأة الدرامية. الانقلاب الدرامي. المفارقة الدرامية.. اى الاثارة) كما تفيد من مكتسبات التكنولوجيا فى مجالات التصوير والاضاءة والخدع والمونتاج وحرفية الطباعة، ولكن كرم لم يفدنا هنا بشىء مما تعلمه ومارسه فى مجال التليفزيون، كما لم يدرك الفارق الجوهرى بين عالم الكتابة التليفزيونية وبين عالم الكتابة المسرحية، من حيث التكثيف والاختزال والقدرة على الاحالة الى عالم ما بعد العرض المسرحى المشهود. غير أنه من الملاحظ أن بسبب الضغط المتزايد لساعات الارسال المطولة والمتنقلة بين قنوات التليفزيون المتعددة على أعصاب وحواس المشاهدين، فإن الذوق التليفزيونى أصبح هو الذوق العام الغالب والمسيطر،


كرم النجار


داليا ابراهيم

خاصة فى غياب عروض مسرحية واعية وناضجة وجميلة.

روح شبابية ولكن ..

أراد المخرج «ناصر عبدالمنعم» أن يكسب عرضه طابعا وملمسا شبابيا بخفة الحركة وحيويتها وتدفق الايقاع وسرعته وبالرقص من تصميم «عادل عوض» والموسيقى من ألحان «خالد البكرى» و«جمال رشاد» والغناء من كلمات «كوثر مصطفى» و«ابراهيم عبدالفتاح» وشفافية المنظر المسرحي وجماله للمصممة «مهيرة دراز» وملابس «نعيمة عجمى» ، كما استعان بألوان من النكتة والشغب والمناكفة وحوار رغم رشاقته فانه متناثر بلا نهر، فضلا عن التوزيع الحيوى لرسم الحركة فى أركان وزوايا متغيرة دوما عبر مساحة المنصة دون لفت للأنظار مميزا بين البؤرة الرئيسية المطلوبة وبين البؤر الهامشية، ساعده على انجاز كل ذلك انه استعان بفرقة الرقص كجزء من (مجاميع) العرض، كما نجح فى تكوين فرقة شبابية بحق اكبرهم سنا الممثل القدير «احمد راتب» بوزنه الجماهيرى المعروف وحرفته الأدائية المشهودة، وكذا خفة ظل الكوميديان الصاعد «سيد الرومى» بالاضافة الى البريق الأخاذ والحضور الباهر للفنانة الشاملة «أنوشكا» فضلا عن القدرات المتنوعة لباقى الممثلين: «صفاء جلال، عماد الراهب، داليا ابراهيم، ولبنى راتب.. بالاضافة الى الفتى

الأول محمد نجاتي، (حاليا فتحي عبدالوهاب). كل هؤلاء كانوا كفيلين - بفضل المخرج - أن يحبكوا (الطبخة) فلا ندرى هل هى كوميديا موسيقية، أم مسرحية منوعات، أم أوبريت ، أم مسرحية استعراضية، أم دراما يتخللها شيء من الرقص والموسيقى والغناء؟!! أم أن الأمر جاء (هكذا) ؟ إن القصد فى اختيار شكل الصياغة وطرازها ضرورة للذوق والانسجام والتجانس بين فقرات العرض وعناصره، كما أن عدم وضوح الشكل الفنى راجع - كما أظن - الى خلل خلقى فى بنية الخلق الفنى ذاته. لكن ثمة شيء ما .. ايجابى فى ثنايا النص والعرض، انتى خلت صورا تعبيرية ذات طابع بريختى، لكنها - للأسف - مرت دون أن يتوقف النقد ازاءها وهو محق، ذلك لأنها كانت باهتة، كما أنها لم تعتمد كـ(اسلوب) فنى محدد ومستهدف كانجاز من الدرجة الأولى لصالح المؤلف والمخرج معا، أعنى بذلك تلك اللوحات الثلاث اللواتى عبرت سياق النص والعرض وهم لوحة (المصنع) ولوحة (القشلاق) ولوحة (المحاكمة).. لقد دلفت الى السياق العام بسلاسة ومهارة، لكن لما لم تدعمهم ضرورة درامية، ولم يكن لهم اثر (حتمى) يذكر فى السياق، لذا فانها مرت كأجزاء عادية فى مسرحية مفككة الأوصال هزيلة البناء، بينما كان من الممكن أن يحدث العكس، فى حال



احمد راتب



محمد نجاتي

اعتماد المؤلف والمخرج مثل هذه الصور الدرامية التعبيرية المبتكرة كصيغة اساسية للعرض ككل، فهكذا كان فى الامكان حسم قضية (ميوعة) الشكل الفنى للعرض وعدم اندراجه تحت شكل فنى أو نوع مسرحى ما.

العرض لا المسرحية ..

تدور أحداث العرض - ولا أقول المسرحية - فى مدينة ساحلية سياحية: الغردقة فى النص وشرم الشيخ فى العرض. عن مخرج مسرحى معروف زهد الحياة الفنية والاجتماعية فى القاهرة وذهب الى هذا المكان لينشىء فرقة مسرحية جديدة من كافة النواحى، وتحدد يوم وساعة للتجمع والاختبار فى كواليس مسرح القرية السياحية، وبالفعل حضر أفراد وجماعات (فرقة رقص وفرقة موسيقية) للاختبار، ومن الملاحظ ان الشخصيات (مؤلفة) بقرار من المؤلف، ولم تدفعها (طبيعتها) ولا (الواقع) الى هذا المكان وهذا العمل، ذلك لأنها شخصيات بلا جذور ولا مسببات أو مبررات باهتة غير ثلاثية الأبعاد ، رسمت بعجالة كى



أحمد راتب بين انوشكا ومحمد نجاتي في مشهد من العرض

يحقق المؤلف منها أغراضا وأفكارا بعينها، تتحدث بلسانه وتحمل آراءه، وكأنه حوار يدور داخل المؤلف ويود ترديده بصوت مسموع، لا حوار الشخصيات مع ذواتها ومع غيرها، واذا اعتبرنا شخصية (المخرج) هى نفسها شخصية كرم النجار، فاننا نستطيع ان نستثنيها من هذا الحكم، وان نتعامل معها كشخصية درامية (حامل الرأى)، كما لم يهتم الكاتب بتبرير اختياره للغردقة (كما فى النص) ولشرم الشيخ (كما فى العرض) كمكان لأحداثه، فالطبيعة السكانية لهذه المدن السياحية غير متجذرة وغير مستقرة، فالسكان الأصليون من بدو وصيادين ومهاجرين مستقرين من وادى النيل مهمشون، وفى الأغلب هم مواطنون من الدرجة الثالثة أو الثانية، والوافدون يعملون في مهن سياحية مثل الفندقة وخدمة السائحين، وهى مهن غير أصيلة وغير مستقرة ولا تشكل حالة سكانية ثابتة، اذن من الصعب قبول فكرة تكوين فرقة مسرحية كبيرة ومستقرة وثابتة من شباب هذه الفئات الاجتماعية، واذن كيف نصدق مقولة أن هذا المخرج جاء الى (هنا) كي يكون فريقا مسرحيا ينافس به فرق القاهرة المحترفة؟ وممن؟ من سكرتيرة مريضة نفسيا بلا أهل؟ وطالبة ثانوية عامة مشردة لا نعرف كيف أتت الى هذا المنتجع؟ ومرمطون حامل بكالوريوس زراعة؟ ومرشد سياحى للوفود الاسرائيلية؟ وعامل وعاملة فى مصنع ملابس في الوادى جاءا ليشكلا

معا ثنائى من طبال طفيلى وراقصة رخيصة؟ وشاب أرعن هارب من دكتاتورية والده ضابط الشرطة؟ ثم ابنة مليونير لها مهارات (أنوشكا) فى الغناء والرقص؟. ان هؤلاء لا يمكن ان يقدموا تمثيلا لأزمة الشباب فى مصر ، ولا تجمعهم وحدة موضوعية وبالتالى درامية، بل هم شرذمة المصادفة والعشوائية ولا يمكن تكوين فرقة مسرحية منهم، فلا تجانس ولا خبرة ولا ثقافة ولا علم ولا موهبة ولا قدرات! ثم من الذى يحتضن مثل هذه الفرقة ويمولها ؟ وما تكاليف الانتاج ومن يدفع الاجور وكم؟ واين هو الجمهور الكثيف المتجدد فى قرية سياحية؟ ومن سوف ينفق عليها ويؤجر لها مسرحا فى القاهرة بعمل من التأليف الجماعى واخراج الاستاذ مصطفى؟ انها مجموعة فاقدة القدرة على الاقناع ولا تعبر عن شيء ولا تمثل احدا الا نفسها. اذن هذا المخرج اما دجال واما معتوه واهم واما هاو وساذج!!

ومن المفارقات ان الفتى المغامر الغامض الباهت الهارب من جحيم والده الشرطى.. يطرح أمورا وقضايا ومعلومات تليق بشخص درس فى منظمة سياسية ويتحول الى قائد ثورى ذى مهارات انقلابية وحركات درامية جاهزة تمكنه من الاستيلاء على قياد المجموعة من مؤسسها اى المخرج، بل ويقيم له محاكمة - وهو الهارب المطارد المضطرب - مستخدما ضده ملفا معلوماتيا من قصاصات الصحف والمذكرات والذكريات لا ندرى كيف ومن أين أتى بها!!، وأيضا له جاذبية جنسية جعلت البطلة المليونيرة تقع فى غرامه وكأنه : بدر لاما وأنور وجدى ورشدى أباظة وأحمد رمزى ومحمد فوزى وشكرى سرحان وعبدالحليم حافظ، وأسامة الغزالي حرب.. فى ضربة واحدة!! إن هناك قانونا اسمه قانون اتساق السمات النفسية والمادية فى بناء الشخصية الدرامية وصياغتها .. هذا القانون غائب فى كثير من شخصيات العرض وعلى رأسها شخصية الشاب وجدى والمخرج مصطفى والمليونيرة الجميلة الطيبة الواعية الفاتكة الرقاصة المغنية نيران .. الخ .. الخ .. ويسعفنى هنا المثل الساير : «كدب مساوى.. ولا صدق مفركش». غير ان الفن لا يحتاج الى الكذب ولا الى الفركشة.. بل يحتاج الى الصدق المساوى.. اى الجوهر المشع.. والصدق فى الفن يعنى سبيكة الفكر والخيال.

السياسة

وبلغة السياسة استطيع أن ألخص الغرض السياسى - الذى لم يتحقق - للنص والعرض، وهو ادارة حوار او صراع بين جيل الهزيمة ممثلا فى شخصية المخرج مصطفى (ولواء الشرطة والد الشاب المتمرد.. وهو غائب عن

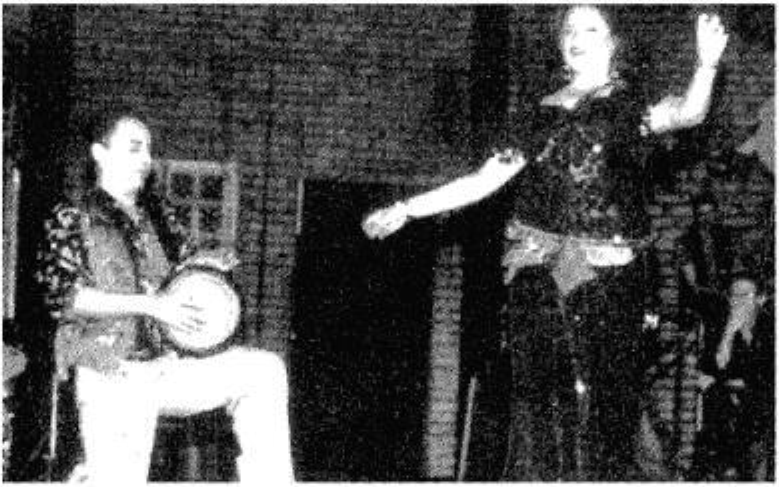
المسرح) .. وبين جيل أكتوبر الذى يمثله مجموعة الشباب نيران ووجدى وعبلة وريهام وحسنى وسوسن والآخرين، وخلال مسيرة العرض (ولا أقول الصراع لأنه غير واضح وغير درامى ولا يحكمه منهج او فكر) تطرح موضوعات وأفكار كثيرة لم تحسم.. ففى نهاية الفصل الاول تدور مشاكسة بين المخرج والشاب المتمرد حول التصويت الديمقراطى (هل ياكلون ام لا) فالمخرج يتهم الفتى بمحاولة السيطرة على زملائه فيدافع الآخر عن نفسه بأنه ديمقراطى وأخذ الأصوات، فيرد عليه مصطفى أنه أخذها فى لحظة جوع.. ودى مش ديمقراطية، فيسخر منه الفتى يعنى انت معترف ان الناس لازم تشبع الاول عشان تقدر تقول رأيها.. ويبقى رأى حر؟ فيوافقه غريمه!! هذه الفكرة الخطيرة يسوقها العرض بخفة (واستخفاف بعقولنا) متجاهلا ان قرار الرغيف فى يد من يملك قرار الحرية، وان الجماهير تطالب بالحرية حتى تستطيع الحصول على الرغيف ضمن ما تريد من حقوق، وان الدكتاتور يحرم الناس من الحرية حتى لا تطالب بالرغيف وغيره. وهنا يردد العرض مقولة فاشية تبرر للدكتاتور ان يحكم الجوعى الى الابد .. لأن الحرية الانسانية اولاً واخيرا .

ولو تفرس الكاتب فى مكونات شخصية سلطان خريج آداب عبرى الذى يعمل مرشداً سياحياً والتى لم يستكمل صياغتها لوجد ان هذا الفتى اقام علاقة زواج عرفى سرية مع الفتاة عبلة وسقط فى علاقة حب ذيلية مع المليونيرة نيران زميلته السابقة فى الكلية، ابنة المليونير (غانم عبدالفتاح) الذى غنم من الانفتاح ، وحين يحاصر فانه (ياكل) نسخته من وثيقة الزواج العرفى.. ثم يترافع عن نفسه كشخص مأزوم ومحاصر ومعزول.. ولكننا لا نرى صلة درامية بين قيامه بارشاد الوفود السياحية الاسرائيلية وبين هذه المكونات، لذا نجد أن شخصية هذا الفتى فرصة افلتت من المؤلف فحققت حضورا باهتا رغم أن امكانيات الممثل (الراهب) جيدة.

رغم هذا فالعرض - رغم انف صانعيه - كشف عن حسابات اجتماعية وسياسية لم تصف بعد.. فالهزيمة لم تندمل جروحها ابدا وحرب أكتوبر لم تحسم كل القضايا ولم تداو الجروح الغائرة القديمة بل فتحت - بالانفتاح - جروحا نازفة وصديدا ، وكل ما كسبناه هو قيام العلاقة الغرامية بين الفاتنة نيران ابنة المليونير الانفتاحى صاحب فيلا البيت الابيض والفتى المتمرد وجدى تلك الشخصية المفتعلة الزائفة والذى سلم نفسه للشرطة كارهابى لم يرهب أحدا.

الي المخرج ..

كيف استطعت ان تستخلص عرضا

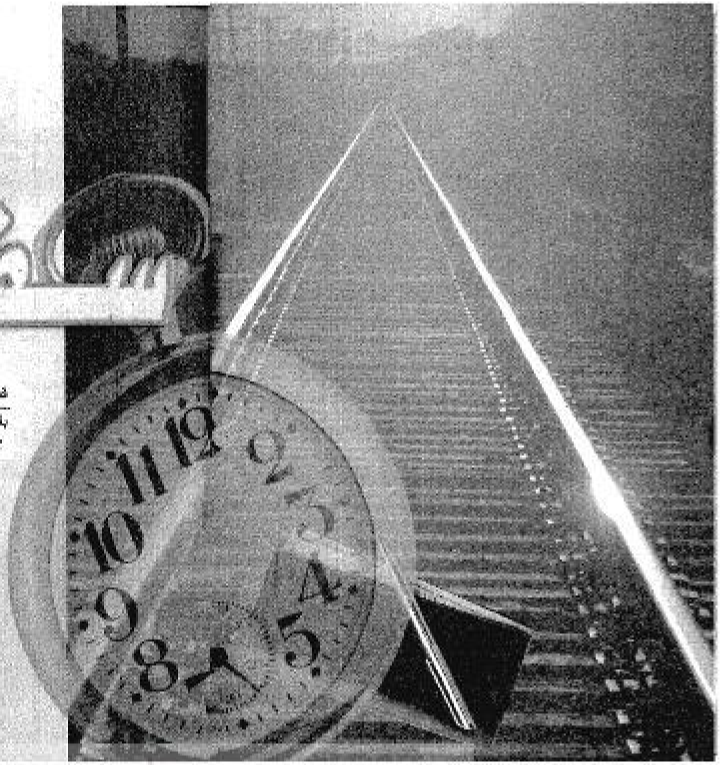


لبنى أحمد راتب مع عماد الراهب في أحد المشاهد

من هذا النص ضبابي الرؤى باهت الشخصيات ضعيف الحدث متداعي البناء حيث لا يوجد نقد جدي وعلمي لفترة الخمسين سنة الماضية؟ كنا نتوقع مواجهة عميقة وواضحة ومؤثرة بين فكر يوليو كما يزكيه أعمق مفكريه، وبين الفكر الليبرالي الوطني كما يمثله المخلصون لفكر ١٩١٩. كنا نتمنى ان تزيل هذا التعارض الظاهر بين جيل عاني الهزيمة دون أن يكون سببا لها وبين جيل ولد بعد أكتوبر فلم يجن ثمارها. قد تبدو هذه الأماني مجرد امان نظرية، ولكنني اظن ان حلولها الفنية المتعة كامنة في ثنايا هذا النص المتناثر بلا سياق، وممكنة داخل هذه المجموعة الفنية الجميلة التي جمعتها لعرضك- رغم انهم تراوحوا في الاداء بين التليفزيونية والمسرحية مثلما كان النص ذلك لو أنك صبرت على (اختمار) العمل ولو أن جلساتك مع المؤلف كانت أكثر وأجدى وأعمق.

أمل

فرص هائلة ضائعة .. امكانيات كبيرة مهدرة، جانب من الجمهور يجيء الى المسرح على أمل ثم يعود خائب الرجاء، بعض النقد الجاد يساند بعض العروض بمنطق «شيء» أفضل من «لا شيء» فلعل «العارضين» يراعون واجبات الفن في صياغة «العروض» المقبلة. بعض الفنانين يستجيبون اثناء «الحوار» فهل يستجيبون في الابداع؟ الأمر يستدعي كثيرا من الصبر ولأمد طويل. ■

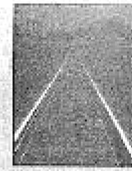


سفر

قصة قصيرة

بقلم
جمال الغيطاني

الباب مفتوح في مواجهة
الآخر غير المغلق، ضغطت
الجرس متواجهة إلى الخلف.
تبتسم الدكتورة ساهرة.
مودة بادية ..
«تفضل .. تفضل»
عبرت المدخل إلى الصالة
مطرقا. قبل جلوسي إلى
المقعد المستطيل ظهرت
السيدة فائقة، زميلتها
رفقة. ساهرة أكبرهن سنا.
أما فائقة فتبدو أطولهن
وأكثرهن حضورا وجهتها
البصر المجرب، ثلاثتهن في
العمل، متماسكة اللون، بنية
التطلع الأثرية الحضرية. لو
أطلقت على سمعتي لوجهت
إليها بالحديث، ولمن إلى
زميلتها لكنني آثرت التوجه
فقصدتهن معظم الوقت. مع
التفاتة تبدو استثنائية لكنها
مركزة محملة بالمعنى
والشفرات، التي أتمنى فهمها
وإدراكها والرد عليها .. فهل
أن الخاطر الذي يمسني،
هل سألقاهن مرة أخرى؟
تلحقني السلسلة بادية.
حقيبتان في الركن، مغلقتان
ما يتبقى فراغ الشقة التي
سيشغلها مستأجرون جدد.
منضدة بسيطة حولها أربعة





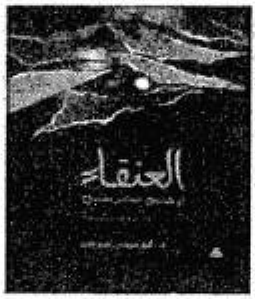




البطل الشيوعى فى الرواية المصرية المعاصرة



د. لويس عوض



غلاف الرواية

العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح

بقلم
د. فهمى عبد السلام

تاريخ حسن مفتاح تاريخ العنف والقسوة والمشانق فى كل ميدان
أنا البداية أنا النهاية .. أنا حسن مفتاح صانع اللجنة المركزية

حسن مفتاح - العنقاء

(١)

●● رواية العنقاء هى الرواية الوحيدة التى كتبها د. لويس عوض (١٩٤٧) ، تعتبر بمثابة وثيقة بالغة الأهمية عن حياة الشيوعيين المصريين فى نهاية الأربعينيات، والرواية الجميلة السابقة لزمانها ترسم لنا بدقة شديدة لوحة حية لحياة الماركسيين فى ذلك الزمان، فهى ترصد لنا كيف كانوا يفكرون ويتحاورون وماذا كان يشغلهم ولماذا كانوا يتخاصمون وتسجل لنا أحلامهم وآمالهم وخلجات أنفاسهم وواقعهم اليومى المعاش بأدق التفاصيل الحية الجميلة ●●

وبطل الرواية المحورى هو حسن مفتاح سكرتير عام اللجنة المركزية لتنظيم ماركسى سرى، وهو العقل المدبر لها ومحركها الأول. وحسن مفتاح يصدق عليه قول ديستويفسكى العظيم على لسان أحد شياطينه «لقد التهمته الفكرة». فالفكرة الثورية الماركسية التهمت حسن مفتاح التهاماً، فهو يصيح فى لحظات اليأس قائلاً «لقد قتلنى كارل ماركس.. لقد قتلنى كارل ماركس » ثم يستدرك لما فى قوله من شطط فيصيح «لقد قتلت نفسى .. لقد قتلت نفسى». وإذا ما شعر بالسعادة لإنجاز ثورى حققه فهو يغنى نشيد الأممية. وإذا شعر بأن سياط الجنس تجلده وهو الشاب الذى تجاوز الثلاثين عاماً ببضع شهور، وهو ينظر إلى القاهرة النائمة فى منتصف الليل، فيفكر كالآتى أن منتصف الليل هو الوقت الذى تمارس خلاله البورجوازية الكبيرة (الهرم الزمالك المعادى) الجنس، أم البورجوازية المتوسطة التى تعيش فى (هليوبوليس والدقى والعباسية)، فهى تحب السهر خارج البيت لكنها لا تملك ثمن السهر بالخارج فتتظاهر بمكارم الأخلاق لكى تعزى نفسها عن عجزها، وتمارس الجنس فى العاشرة. ثم يكمل حسن مفتاح تنظيره الجنسى الطبقى الغريب، أن هذه المواعيد منتظمة يؤثر فيها التوقيت الصيفى والتوقيت الشتوى، لأن البورجوازية بكل طبقاتها تتقيد بالساعة فى كل ما تعمل. أما البروليتاريا فتتناسل مبكراً (باب الشعرية ، بولاق ، المعصرة) لأنها مضطرة للاستيقاظ مبكراً للعمل. أما الأرستقراطية (جاردن سيتى) فهى لا تبدأ الحب إلا فى الثانية صباحاً شتاء وفى الرابعة صباحاً صيفاً . ثم ها هو يعدل عن آرائه بعد أن يراها أقل تشدداً مما ينبغى فينهال بالإدانة على

البورجوازية التي لا يهمها الحب، فهي طبقة تشتغل بالمال وبجمعه وتحصي خسائرها وهي في السرير بدلاً من أن تحصي القبلات، ولا تخصص للحب إلا ليلة واحدة لا تتجاوزها وهي ليلة الجمعة. ثم ها هو يضن بتلك الليلة على البورجوازية فيلغيها، ويذهب إلى أن البورجوازية جيلان، جيل قديم مهدم يجد السبيل إلى الحب لكنه لا يقوى عليه وجيل جديد يقوى على الحب لكنه لا يجد السبيل إليه. ويندهش المرء لهذا الشطط والذي يعود إلى هياج حسن مفتاح، فراح يبوب طبقات المجتمع طبقة فطبقة تبويباً جنسياً لا علاقة له بأرض الواقع.

تدريب على القسوة

ويصحبنا لويس عوض كي نتعرف على بقية الزملاء في اللجنة المركزية، وأولهم نعيم ،كان نعيم قبل الانضمام إلى التنظيم على يد حسن مفتاح ساخطاً ناقماً على المجتمع، وكان نعيم يعبر عن سخطه القوي بوسيلة غاية في الغرابة، إذ كان يمثل مع عدد من الرسامين والشعراء المتمردين صباح كل يوم جمعة عند سفح الهرم الأكبر ليبولوا عليه جماعة (!!)، وكان نعيم يرسل الخطابات غير الموقعة إلى أقطاب البلاد ليسبهم بكلمتين من فاحش القول، وكان يستخدم التليفون بعد منتصف الليل ليزعج الوزراء بالشتائم الفاحشة، وكان يجلس على مقاهي القاهرة ليلاً ونهاراً ليحب البنات أزواجاً أزواجاً. هكذا كانت حياة نعيم قبل أن يضمه حسن مفتاح إلى التنظيم، وبعد عام من الترويض والتشذيب بالعنف تارة وباللين تارة أخرى، أصبح نعيم أقرب إلى الواقع ولايثور، لكن إذا ثار عصف كأنه بركان أو زلزال . وبدلاً من التبول الجماعي على الهرم، أصبح نعيم يؤدي كل صباح تدريبه اليومي الرهيب، فيصنع شخوصاً من الصلصال يقوم بشنق واحد منهم كل يوم، حتى يدرب نفسه على القسوة في انتظار يوم الثورة. وكان حسن يدخر نعيم لأيام مقبلة حاسمة في تاريخ مصر.

بخلاف نعيم هناك الزميلة سعدية الطويل الواقعة في حب الزميل بطرس. قلادة. وهي تحب بطرس وبطرس يحبها، لكن سعدية كتمت حبها وسحقت قلبها وبصقت عليه (!!)، لأن بطرس قلادة وهو المادي الجدلي في كل شيء إلا في حب سعدية، فإذا به يظهر كمثالي، أي أنه يؤمن بالمادية الديالكتيكية نظرياً ولا يطبقها عملياً، فلم يتحرر بعد من قيود الدين فيشهر إسلامه ويتزوج منها. أما بطرس قلادة فكانت له وجهة نظر أخرى، فهو وإن كان لا يؤمن بالمسيحية إلا أنه يؤمن بالمسيح (...)، وهو لا يستطيع أن يتخلى عن دينه ، وإذا كان أجداده قد احترقوا في الزيت المغلي ودخلوا جبوب

الأسود ليتمسكوا بتقاليدهم عشرين قرناً من الزمان، فبطرس قلادة لا يستطيع تحمل تبعة هذا التخلي، والدين عند بطرس قلادة شكليات لكنه لا يستطيع إلا أن يتمسك بهذه الشكليات. أما الحل عند بطرس قلادة فهو أن يحتفظ كل منهما بشكلياته (دينه)، وأن يتحديا معاً أوضاع المجتمع وأن يتزوجا بغير عقد إلا بكلمة الشرف وحدها، وأن يحرجا الدولة بأبناء لا دين لهم حتى يؤسس الزواج المدني في البلاد.

حسن .. الجاسوس الجميل

أما رأي حسن مفتاح في المشكلة أن الممثلين والممثلات كانوا أكثر شجاعة من الشيوعيين، فقد حلوا تلك المشكلة بالمخالة (المرافقة غير الشرعية)، ولم تجد سعدية الطويل الشجاعة الكافية لكي تحرج الدولة بالأبناء الذين لا دين لهم، فسحقت سعدية قلبها وبصقت عليه، وسحق بطرس قلبه وبصق عليه ، فعاش بطرس عزباً بقية حياته، وعاشت سعدية بلا زواج وبلا رجل، فعاشا بلا قلب، يلتقيان بحكم العمل، ويقتضبان كل حديث لا علاقة له بالعمل، ويتكلفان الخلق المطلق، وقد يضعفان لحظة كلما انفردا ويمسك بطرس بذراع سعدية، فتطرق سعدية أمام أنفاسه المضطربة، لكنهما يثوبان فيفر كل منهما مخافة أن .. (..).

ولم تكن حالة سعدية الطويل وبطرس قلادة، ذلك الغرام البائس المشوب بالرطان الأيديولوجي هي حالة الحب الوحيدة في اللجنة المركزية، فعنايات ممدوح الزميلة وعضوة اللجنة المركزية غارقة لشوشتها في حب المكافح القديم أحمد عزمي، لكن اللجنة المركزية رأت أن أحمد عزمي جاسوس للشرطة، فنهت اللجنة المركزية الزميلة عنايات كي لا تربط حياتها بأحمد عزمي، الذي يطلق عليه حسن مفتاح لقب الجاسوس الجميل، فانصاعت عنايات لأوامر اللجنة المركزية، وكتمت هواها وحطمت قلبها وبصقت عليه وصارت تتدرب على أنواع القسوة حتى تستطيع مواجهة حياة السجون.

(٢)

... ينتزع حسن مفتاح من أعضاء اللجنة المركزية موافقتهم على الوحدة مع عدد من التنظيمات الأخرى. وحسن ورفاقه لديهم قناعة لا تتزحزح أن المستقبل القريب للشيوعية، وبلغت هذه القناعة عند البعض ممن كانوا ينتوون الانتحار، لدرجة تأجيل الانتحار انتظاراً للثورة الاجتماعية المقبلة وأسباب الوحدة ترتبط بالثورة المقبلة. فحسن مفتاح يريد التحرش بالإخوان المسلمين، ويريد غزو حزب الوفد للاستفادة من جماهيريته الواسعة، كيف سيتحرش بالإخوان وكيف

سيغزو حزب الوفد بـ ٢٠٠ خلية عدد أعضائها ١٠٠٠ نصفهم على الأقل ناقصون فى الوعي. ومن خلال الحجج والبراهين التى يفندها حسن مفتاح نستطيع أن نتعرف على الاتهامات المتبادلة بين المنظمات المختلفة، فجماعة على علوى تقوم بتنقيح الماركسية فتوجه إليهم جماعة مفتاح الاتهام «بالتحريفية»، فترد عليهم جماعة على علوى بأن جماعة مفتاح «متزمتون وجهلة». أما جماعة التطور فتتهم الجماعتين (مفتاح وعلى علوى) بأنهم جماعات من المهاويس ومن المخربين، وجماعة مفتاح وعلى علوى يرون أن جماعة التطور مجموعة من الجبناء، وأنهم فى حذر دائم لا يليق بمناضلين، وانهم لا يثقون فى الطبيعة الإنسانية، وفوق هذا وذاك فجماعة التطور يمقتون العنف مقتاً غريزياً.

وخلال ذلك الاجتماع التاريخي، الذى احتسى خلاله حسن مفتاح زجاجة من البراندى، ها هو ينجح بالظفر بموافقة اللجنة المركزية على الوحدة، فيخرج حسن مفتاح منتشياً بالانتصار التاريخي، ومن فرط سعادته يلامس أعمدة المصابيح بيده، ويغنى نشيد الأممية، ويفكر فى أمره وأمر اللجنة المركزية والأمجاد التى حققها هو حسن مفتاح، حققها بعبقريته التى لا ينكرها إلا جاحد، لقد خلق اللجنة المركزية خلقاً من العدم، وشكلها على شاكلته، قبل أن ينضم إليهم كانت الجماعة تمرح فيها الجواسيس وتتمزق من الخلافات والشقاقات، فطهرها حسن أولاً من المتجسسين ثم من المنحلين ثم علمهم النظام كيف يكون. وكما خلق اللجنة المركزية وبعثها من العدم، ها هو يقوم بالوحدة، وبعدها سيحكم اللجنة المركزية للحزب الموحد، ومن خلاله سيحكم مصر، وسيكتب التاريخ اسم حسن مفتاح بحروف من ضياء، ومصر التى ماتت منذ عصر مينا ستبعث من جديد، وسيسجل التاريخ أن التاريخ المصرى انتهى عند مينا وابتدأ عند حسن مفتاح ..

خواء روحى

على الرغم من هذه الأمجاد فإن حسن مفتاح يشعر بخواء روحه ويشعر بأن حياته أبعد ما تكون عن الطبيعة السوية فهو بلا حياة خاصة يأنس اليها وترطب من جفاف حياته، فلا الكفاح كاف ولا اللجنة المركزية كافية ولا كؤوس البراندى كافية لتملأ خواء روحه، إنه رقم فى خلية ، وإعلان فى حائط، فكرة فى الأذهان، أما الإنسان ، اللحم صاحب الحقوق، المادة المشتاقة إلى الحياة فلا وجود لها، فبطرس قلادة شبح من الأشباح، وسعدية الطويل شبح من

الأشباح ونعيم شبح من الأشباح، ظلال وأشباح يعيش معها، وحسن مفتاح بينها هو الظل الأكبر والشبح الأكبر. وفي لحظة من لحظات الصدق النادرة يستعيد حسن مفتاح سيرة عشرات الظلال والأشباح الذين صاغ حياتهم وجففها مثلما جفت روحه .

فمجموعة بين السرايات، كانت مجموعة من أربعة من طلاب الأقاليم وفدوا إلى القاهرة للدراسة بالجامعة، كانوا يسكنون معاً في شقة فقيرة في حي بين السرايات راضين بقذارتها، يخرجون بالجلابيب وبالقباقيب وقد حملوا الأطباق دون تحرج إلى بائع الفول المرابط بجوار مصنع البيرة، وكانوا يطبخون الطعام بأنفسهم لأنهم لم يكونوا يملكون أجر الطاهي، وكانوا سعداء لا يتذمرون، وكانوا يجتمعون في المطبخ البائس حول الحلة يستذكرون تاريخ البطالة أو المفردات اللاتينية دون أن تغيب الحلة عن عيونهم كي لا يتلف الأرز أو تحترق البطاطس، وكانوا يضاجعون سكينة بائعة اللبن ويحبون طالبات الكلية حباً أفلاطونياً، وكانوا يقترضون القروش ويقرضون القروش وقد يجوعون أياماً فلا يعبأون ، كانوا راضين بما هم فيه من حياة بسيطة يختلط فيها شعر شكسبير برائحة الطعمية، ويجتمع فيها الغرام القرتري بالعفن المتراكم على جلباب سكينة، فما أن دخلوا محيط حسن مفتاح حتى تبدلوا من حال إلى حال. فزال عنهم مرحهم الساذج وحلت محله سخرية مريرة سوداء متصلة، وأصبح العفن على جلباب سكينة يزداد ويبدو أشد عفناً مما كان، وإذا حب عزيزة وبهية واعتماد وأنجيل يصبح وفقاً لمعاييرهم الجديدة رومانتيكية مريضة، فكفوا عن بائعة اللبن وعن حب البنات جميعاً، خوت قلوبهم وجفت ولم يعد فيها مجال إلا البحث عن مشكلات النوع الإنساني.

هذا ما فعله حسن مفتاح في جماعة بين السرايات، وغيرهم وغيرهم، لقد ملأ مقاهي القاهرة ومنتدياتها بفتيان لا حديث لهم إلا عن إضرابات العمال، ويغلمان يتشاحنون على ماهية التكتيك وماهية الإستراتيجية بدلاً من أن يتشاحنوا على بنات الجيران، وبشبان يتخاصمون في الثورة العالمية بدلاً من أن يتخاصموا في لقمة العيش.

(٢)

في تلك الليلة التي يشعر خلالها بطلنا حسن مفتاح بخواء حياته ، يفكر في النساء الثلاثة اللاتي يرتبط بهن بعلاقات ما، أولاهن والأقرب إليه طبقياً هي عايدة علم المدرسة الشابة الطيبة القلب، وسجاياها كثيرة فعايدة علم تحبه، وهي تستطيع أن تجود بقرش لسائل

جائع، وهى قادرة على أن تثور لأجل ترقية تخطوها فيها للمحسوبية، وتستطيع أن تبكى لمصاب صديق وتذهب إلى حديقة الحيوان للنزهة، لكن عايدة علم كونها إبنة للبورجوازية الصغيرة فتجتمع بها كل عيوب تلك الطبقة، فهى تخاف كلام الناس خوفاً صبيانيا وهى تصدع بأوامر أبيها مهما كانت مجحفة، ولا تفهم كيف يثور الأبناء على الآباء، وهى لا تتأخر فى الشارع بعد الثامنة إذا كانت بمفردها، وهى تحب أن تتعلم الرقص لكنها تحجم عن المبادرة، وهى تحب أن تقبل لكن خوفها مما وراء القبلات يجعلها تجزع، هذه العيوب كلها تجعل حسن مفتاح يستبعد عايدة علم كزوجة . وحسن مفتاح البعيد عن الواقع والغارق فى النظرية وفى التنقيب عن مقالب البورجوازيات، تكوينه العجيب يجعله يرى مستقبله كزوج لعايدة علم، فإن تزوجها سيشعر بالخواء بعد شهر العسل بقليل، سيشعر بالخواء لأنها ستحدثه عن سعر الطماطم الذى زاد وعن الكواء الذى حرق القميص وعن البواب الذى لم يرد بقية الريال، وسيشعر بالوحدة الكبرى، وستطلب منه أن يكف عن الكفاح ، وهذا هو المستحيل، فحسن مفتاح خارج اللجنة المركزية مثل الصفر على الشمال، ومثل السمكة خارج الماء.

وحينما يترامى إلى علم حسن مفتاح أن عايدة علم ستتزوج مدرس زميل لها، يعلق حسن مفتاح على الزيجة بأن عايدة علم تبحث عن الاستقرار، وستتزوج من الاستقرار، وسيعيش الاستقرار معها نصف قرن، سوف تعود إلى المنزل لتجد الاستقرار يجلس على فوتيه، وعندما تتهيأ للنوم ستجد الاستقرار بأردافه الثقيلة جالساً فى المكتب ليصحح كراريس التلاميذ، ولن تحدث حركة فى بيتها إلا يوم الخميس، وستكون أكبر مشاكلها أن حماتها تستمرىء إهانتها، وسيكثر حولها الأولاد، وستستقيل من المدرسة، وستقطع آخر ما يربطها بالعالم الخارجى، وستستقر أخيراً بين أربعة جدران، وستضيق باستقرارها، وستضرب أطفالها من هذا الضيق، وحينما ترى وجه زوجها عشرين عاماً متصلة ستزهد الحياة، وستتمنى الموت لنفسها، لكن الموت لن يجىء ، سيأتى ضغط الدم.. ثم يقول حسن مفتاح لقد أنقذتنى المقادير..

الطموح والسعى إليه

الحقيقة أن ما يراه حسن مفتاح بشعاً كل هذه البشاعة يراه شعبنا بمثابة «سنة الحياة» وطموح يسعى إليه الجميع، الرجل ينجب ليحمل الابناء تقاليد الآباء، والنساء ينجبن ليحققن الأمومة الغالية، وتضحيات الآباء

والأمهات فى سبيل أولادهن معنى سامى نبيل تهتدى إليه الإنسانية بدون عناء، وإذا كانت عايدة علم حريصة على سمعتها ولا ترقص ولا تتبادل القبلات وتطليع والدها(فشعبنا يرى هذه الخصال سجايا حميدة، ولأن مفتاح مولع بالتنظير، سنجده يقارن بين البروليتاريا الموعودة بالجنة الأرضية، وبين البورجوازية المدانة دائماً وأبداً فى عرف كل المفاتيح. فالبرجوازية هنا هى عايدة علم التى من شدة سوقيتها لا تبحث إلا عن الاستقرار الزائف العفن والزواج والأبناء)، أما البروليتاريا مجسدة فى امرأة ترتبط بعلاقة مع حسن مفتاح، فهى الخادمة ندى، فندى تحب حسن مفتاح، وهى الوحيدة التى زارته حينما كان معتقلاً، وهى الوحيدة التى عندما كان مطلوباً منه أن يسدد الكفالة، باعت ندى سوارها الوحيد، وحينما لم يكف ثمن السوار، باعت ندى نفسها ودفعت الكفالة، وإذا تزوجها حسن مفتاح، فلن تطلب منه أن يكف عن الكفاح، وستكافح ندى معه، إن خدمة ندى لقضية البروليتاريا لن تزيد عن تنظيف حذائه ولو كانت تعرف القراءة والكتابة لتزوجها لكنها للأسف أمية غافلة.

وكما استبعد حسن مفتاح عايدة علم، يستبعد ندى، ولم يتبق لديه سوى مونا ربيع لقد أحبها حسن مفتاح كما أحبته، أحب بعضهما البعض ذلك الحب العاصف المدمر، وحدث ذلك عندما قابلها حسن فى معرض الإنتركونتيننتال، تناقشا زهاء النصف ساعة فى شئون التكعيبية، وبعدها تأكدا كلاهما أنهما خلقا لبعضهما البعض، ومونا ربيع إذا تزوجها ستكافح معه، ولن تطلب منه أن يعتزل السياسة، ويناقش حسن مفتاح قصته مع مونا ربيع على ضوء المادية الجدلية، فيفكر أن الموضوع هو حياته العامة، نقيض الموضوع هو حياته الخاصة ، مركب الموضوع هو مونا ربيع، فمعها سيجد الحب وسيجد الكفاح. لكن المشكلة أن مونا ربيع متزوجة من ربيع بك عبدالسلام الأرستقراطى خريج أكسفورد، ويشعر حسن مفتاح بالحزن العميق، لأنه هو الذى سيكتب التاريخ، هو الذى سيصنع التاريخ، يجد نفسه عاجزاً عن محو وثيقة زواج. ويشعر بالأسى وهو يجد نفسه يتأرجح بين مكنسة ندى وبين كريسلر مونا ربيع.

لقد اجتاحها حسن بعبقريته، وحبهما العاصف المدمر جعل مونا ربيع تقدم على قتل عبدالسلام بك، أصبحت تكرهه كراهية مريرة، ووصلت بها الكراهية لدرجة أنها شرعت فى قتله، لقد اشترت الزرنيخ الكافى لقتل أسرة ربيع كلها ، وذهبت إلى السراى التى تعيش فيها مع

زوجها، كان كل شيء حولها يقول لها قتليه، الجدران قالت لها اقتليه، المدفأة قالت لها اقتليه والسقف المنخفض والباركيه العاري والفوتيل كلها قالت اقتليه، وجلست تمتص الويسكي، وعندما جاء زوجها فتحت له الحقيبة وجعلته يرى السم الذي كانت ستدسه له، فروع عبدالسلام بك وطلقها، كي تتفرغ لعبقري الثورة حسن مفتاح.

(٤)

وكما أقام حسن مفتاح اللجنة المركزية، نجح في توحيد المنظمات الشيوعية، الذين كانوا يصفون بعضهم البعض بالهوسين والمخربين والجبناء والرعاديد. إلى آخره، اجتمعوا أخيراً تحت راية حسن مفتاح، واستقر عزمه من شدة نرجسيته أن يكون يوم الثورة العظيم هو يوم ١٠ نوفمبر، لا لشيء إلا لتخليد ذكرى لقائه التاريخي مع مونا ربيع، والتاريخ سيذكر هذا بكثير من الاهتمام. وبخصوص تحديد ذلك اليوم نعرف أن ما فعله حسن مفتاح مع الزميل رامز، وكان حسن يشعر بأن شعبية رامز تتزايد خصوصاً عند الكوادر الوسطى، ولاحظ أن رامز كثيراً ما راح يجادل حسن ويفند آراءه علناً، وتكررت المسألة مما كان يهدد انفراد حسن مفتاح بالقرار، الأمر الذي جعل حسن يشعر بالمنق حيال رامز، وفي جلسة علنية أعلن حسن مفتاح إن فجر اليوم العظيم سيأتي في ١٠ نوفمبر عام ٤٧، فإذا برامز يعترض قائلا أن ١١ يوليو هو اليوم الأنسب، يقول حسن ١٠ نوفمبر فيرد رامز ١١ يوليو، قبل ذلك كان شفيق رامز متورطاً في شيك بدون رصيد ، وكاد الشقيق أن يتم حبسه، وحينما أطلع رامز الزميل حسن بالأمر فأشار حسن عليه بأن يأخذ ٢٠٠ جنيه من نقود اللجنة المركزية (كانت في حوزة رامز) ، وأن يفك ضائقة الشقيق إلى حين ميسرة، فأخذها رامز ولم تأت الميسرة، وأثناء الجدل على تحديد يوم الثورة، وعندما شعر حسن بالغيظ الشديد من نجومية رامز التي تتصاعد ، مال حسن على رامز ، وهمس في أذنه قائلاً: إن لم تسحب اقتراحك حول ١١ يوليو وإذا لم تقر بأن يوم ١٠ نوفمبر هو الأنسب علانية، سأعلن للزملاء أنك اختلست ٢٠٠ جنيه من فلوس اللجنة المركزية. فأسقط في يد رامز، الذي انكسر وأعلن للزملاء في مذلة وانكسار أليم أنه يتراجع عن موقفه ويعلن موافقته أن يوم ١٠ نوفمبر هو اليوم المثالي للثورة، وذلك وفقاً لمراجعات قام بها واكتشفها فجأة ..

رغم أن السقوط الأخلاقي لا يمكن

تبريره، لكن حسن مفتاح دائماً يجد المبررات الكافية بقلب مطمئن وضمير خال، ماذا لو حدث العكس، وانتصر رامز، هنا لابد أن ينسحب حسن مفتاح تاركاً اللجنة والتنظيم كله لرامز، ماذا سيحدث بعدها؟ سيتم حل اللجنة لا محالة، سيتشاجر اعضاؤها في المذهبيات، وهم في واقع الأمر يتشاجرون على النفوذ، لأنهم زملاء متساوون بالفعل، وهم بحاجة إلى شخصية ناجحة ومرنة معاً، يحتاجون إلى شخصية أقوى من شخصياتهم، يلتفون حولها ويرضون بالولاء لها، شخصية تتقدمهم في حمل التبعات فتتقدمهم في نيل الجزاء، وهل هناك سواه!!

(٥)

ويأتي الإعداد لليوم العظيم، فيعد حسن مفتاح مصر بالمشانق، اليوم الأول ألف رجل سوف يتم شنقهم، وفي اليوم التالي ألف آخرون .. ، والمشانق في كل ميدان، وهو لا يريد تلك اللجنة المركزية، لا يريد مفكرين ساخطين، إنه في حاجة إلى بطانة من القتلة والسفاحين وسيعلم هذا الشعب الوديع كيف تكون القسوة، سيعلمهم كيف يقزقزون اللب وهم يشاهدون تنفيذ أحكام الشنق، الموت لأعداء الشعب العارفين، الموت لمن يقولون مفيش فايدة، الموت للسكارى والحشاشين الذين يريدون أن يخلعوا عن أنفسهم تبعات الكفاح فيبعثون اليأس ويصيحون «مفيش فايدة» . والتركة ثقيلة والميراث عفن والمهام غفيرة، والموت لأعداء الشعب العامدين ، أما أعداء الشعب الغافلين مثل جالسي المقاهي والرقعاء، فلهم المجالد، يتصارعون حتى الموت حتى يتسلى الشعب الذى استيقظ.

عمل رائع جميل سابق لزمانه، كتابة حميمة، لغة جميلة وإيقاع محموم وقدرة عالية على البناء وخيال خصب يختلط فيه الواقع بالخيال، يموت حسن مفتاح موتاً عبثياً ويعيش في جسد آخر ، ويدبر المجازر ويستند على القسوة، حميمة، ولسوء الحظ أن العمل لم ير النور بعد كتابته، فقد ظل ٢٠ عاماً في الأدراج، ولو رأى النور في حينه لغير مجرى الرواية العربية كما قال توفيق الحكيم، وكما ظلم لويس عوض عمله الجميل، ظلمت الرواية بعد نشرها، بتجاهلها تجاهلاً تاماً وكأنها التابو، وهذا التجاهل الظالم أتى لأسباب لا تخفى كما يقولون على القارىء اللبيب.

■

إعادة الاعتبار للويس عوض بعد إحدى عشرة سنة من وفاته

بقلم
نبيل فرح

فى الذكرى الحادية عشرة على وفاة لويس عوض، يعقد المجلس الأعلى للثقافة، فيما بين ٢٩ سبتمبر وأول أكتوبر ٢٠٠١، مؤتمرا علميا عن المشروع الثقافى للويس عوض.

وليس من السهل الحديث عن لويس عوض ، أو عن كتبه الخمسين ، المؤلفة والمترجمة ، فى مساحة محدودة ، لكثرة القيم والأفكار التى تزخر بها حياته وأعماله ، ويقترن بها اسمه فى حياتنا الثقافية ، سواء قبل ثورة ١٩٥٢ ، أو بعدها .


١٨٥
الهلال
«مذكرات طالب بعثة»

ويمكن إجمال هذه القيم والأفكار في الحرية، والديمقراطية، والعدالة الاجتماعية والمعرفة، والنقد، والتجديد، والتحديث، والرقي المدني.



ومن أجل هذه الغايات، المناهضة للجمود والتقليد والعشائرية والفاشية والعزلة والتعصب، كانت كتابات لويس عوض النقدية والفنية، وكانت ترجماته لكل الأشكال الأدبية، وكانت أبحاثه المتوهجة عن تاريخ مصر، التي تعد بمكانتها المتقدمة عقل وعضد وقلب العالم العربي، وجزءا من تاريخ العالم.

وموقف لويس عوض من ثورة ١٩٥٢ يتسق مع تفكيره السياسي والاجتماعي عن الدولة المدنية الحديثة، وجوهره رفضه القاطع لغياب المنهج في مسيرة هذه الثورة التي اعتمدت، في اختطاط طريقها، على التجربة والخطأ، واتخذت من القرارات الاستثنائية لما يتناقض مع تراث مصر العظيم في الديمقراطية، قبل أن يتناقض مع كل شرع.

وأعمال لويس عوض في الترجمة بما صحبها من مقدمات عميقة، لم تكن سوى وجه واحد من وجوهه العديدة.

أما الوجوه الأخرى فأحدها الكتابة بالعامية المصرية في أكثر من كتاب، بهدف أن يجعل منها لغة أدبية كاللغة الفصحى وليس بديلا عن الفصحى على نحو ما أصبحت الإيطالية، على يد دانتي وهي عامية اللاتينية، لغة أدبية رفيعة المستوى.

رائد الشعر الحر وقصيدة النثر

ولويس عوض يعتبر بديوانه «بلوتولاند وقصائد أخرى من شعر الخاصة» (١٩٤٧)، رائد الشعر الحر، شعر التفعيلة قبل بدر شاكر السياب ونازك الملائكة في العراق لحركة الشعر الحر.

كما يعتبر لويس عوض، بما قدمه من شعر منثور، بلا وزن وبلا قافية، في هذا الديوان من رواد قصيدة النثر.

وتحت تأثير هذه الريادة، كان لويس عوض أكثر النقاد احتفالا بحسين عفيف، شاعر قصيدة النثر، وبأعماله الفنية التي تتمثل في عشرة دواوين، لم تنل تقدير أحد سواه.

ولاشك أن ثقافة لويس عوض الأجنبية المتبحرة، هي التي مكنته من ادراك قيمة التحرر من عمود الشعر، سواء بشعر التفعيلة أو الشعر المنثور، وعلى التعرف على طاقته

الكامنة، وعلى تجاربه اللانهائية ، فى تراث الشعر الإنسانى، ومحاولة تأصيله فى ثقافتنا العربية، ايمانا منه بأن الايقاع ، كاللغة والصور والأبنية وكل الأوضاع والأشكال المادية والجمالية ، ليست شيئا ثابتا أو جامدا أو مطلقا أو نمطيا ، وانما هو قابل للتطور والتغير والخروج على التماثل والتعادل واطراد الوحدات والتكرار، والانتظام الرتيب، جلاء للمعنى، واستجابة للعمق الإنسانى، وللدلالة التاريخية.

وعلى كثرة ما كتب عن لويس عوض ، فلم يتعرض أحد لثقافته الموسوعية التى تحيط بالتراث الإنسانى احاطة قل نظيرها، مستخدما فى هذه الاحاطة اللغة الانجليزية التى يكتب بها بنفس الرقعة التى كتب بها العربية، إلى جانب اجادته للفرنسية واللاتينية واليونانية.

ولن يريد أن يتحقق من هذه الحقيقة ، ومن علمه الغزير ، وحجم استيعابه للمعلومات ، عليه أن يراجع كتب لويس عوض.

احتفاله بالأدب الشعبي

وقليل من يعرف أن لويس عوض كان من أوائل الذين دعوا- منذ عودته من البعثة فى أول الأربعينيات - إلى جمع ودراسة الأدب الشعبى والفلكلور، باعتباره الصورة المعبرة عن عقل ووجدان وضمير وأخلاق وعادات ومعتقدات الشخصية المصرية، وعن شعائرها وطقوسها ازاء الحياة والموت ، وغيرها من المعانى التى يفيض بها هذا الأدب المجهول المؤلف، ويلتقى به مع آداب الشعوب الأخرى، ومع كل ما يحيط به. على مستوى التاريخ، ومستوى العصر.

وكان لويس عوض يتابع باهتمام ملحوظ كل الجهود التى تبذل فى هذا المجال ، بل وشارك بنفسه ، أثناء الحرب العالمية الثانية، فى هذه الجهود ، بما جمعه من الشعر الشعبى من الفلاحين فى المنيا .

ويحوى كتابه «دراسات أدبية» (١٩٨٩) تجربة من هذا القبيل عن موال «ناعسة وأيوب» سجلها لويس عوض فى منطقة سنهور القبلية فى الفيوم بصوت شاعر شبه أمى فى الخمسين من عمره، يدعى شعبان عويس إبراهيم، ترافقه فى الانشاد على نقر حق صفيح امرأة فى الأربعين من عمرها ، تدعى نجاة سالم.

وإذا كان احتفال لويس عوض بالأدب الشعبى يشغل هذا الحين،

خوفا من أن تمحو المدنية والتحديث هذا التراث الشعبي، فهل كانت دعوته لدراسة الفنون الشعبية كالسيرك والسامر والأكروبات وغيرها يحمل من الادراك ما يمكن لهذه الفنون أن تثرى الابداع ، وفي مقدمته المسرح؟

أم أن ثقافته الغربية كانت تمضي في اتجاه، بينما تمضي هذه الفنون البدائية في اتجاه آخر، إيمانا منه بأن القوالب التقليدية القديمة، وهي قوالب محلية تقيد أو تشل المضمون الإنساني العام، وتحول بينه وبين الانفتاح على المحيط الإنساني.

ويعتبر لويس عوض من أكثر النقاد قدرة على أن يقرأ ويتتبع في آداب العالم القديم والحديث منشأ النصوص التي يتناولها بالدراسة والتحليل، وعلى أن يضع يده على جذورها ونموها ومقابلاتها ووشائجها واشاراتها وأدلتها الداخلية التي تومىء إلى علاقاتها بنصوص أخرى ، وتواريخ أخرى.

حول التأثير والتأثر

وكتابه «أسطورة أورست والملاحم العربية» (١٩٦٨) يكشف العلاقات بين ثلاثية الأوريستيا للكاتب اليوناني أسخيليوس وبين ملحمة الزير سالم



العربية، وقصة ايزيس وأوزوريس الفرعونية، حيث الجوهر واحد، جوهر انتقام الابن لأبيه، أو الأخ لأخيه، والقالب الخارجي وحده هو المتغير.

ويقضينا التقييم الموضوعي أن نقرر أن في بعض أقوال لويس عوض وأوصافه وأحكامه عن وحدة الفكر الإنساني نسبة من التعسف لا تتحملها المقدمات التي يعرضها. كما أن النفي المطلق من قبل نقاده لكل تأثر وتأثير ، لا يقل تعسفا عن تعسف لويس عوض، مما يحتم مراجعة كل ما كتبه عن هذه الوحدة الإنسانية، ومراجعة ما أثاره من كتابات عن الخصوصية المكتملة بحد ذاتها.

والحق أن قارىء لويس عوض لا يستطيع أن يسلم بكل ما كتبه، لأنه كان أحيانا يلقى بأحكام سريعة، لا تليق بمفكر كبير مثله، ما كان أغناه عنها ، كحكمة القاطع على إحدى مسرحيات الكاتب المسرحي «ميخائيل رومان» وهي مسرحية «الدخان» التي افتتح بها المسرح القومي موسم ١٩٦٢ - ١٩٦٣ بأنها أردأ نص عرض على المسرح المصري منذ سنوات وسنوات.

ولأن زاده المسرحى كان كلاسيكياته الأدبية، من مسرح اليونان إلى المسرح الاليزابيثى إلى العصر الحديث. فلم يكن لويس عوض يتعاطف مع صيحات الفن المعاصر التى تتعامل مع النص الأدبى كأحد عناصر العرض. وهى صيحات تعرف باسم المسرح الحي، أو المسرح الجماعي، أو المسرح المرتجل، وعجز عن فهم فلسفته فى خلع كل الأقنعة، وفى التأليف الفورى المتغير غير المكتوب فى نصوص، واعتبر انتاجه الذى يشترك فيه الجمهور خارج نطاق هذا الفن، واعتبر الدفاع عنه قضية خاسرة.

الأدب فى سبيل الحياة

ولا يكاد كتاب من كتب لويس عوض النقدية يخلو من حديث عن الثقافة الاشتراكية ، أو عن الثقافة والثورة والتفاعل الحضارى، وأساس ما يطرحه فيها ارتباط الأدب بالمجتمع، ليس المجتمع المغلق على ذاته، ولكن المجتمع الذى لا تنفصل فيه القومية عن الروح الإنسانية.

ولهذا رفع لويس عوض فى مطلع الخمسينيات شعار «الأدب فى سبيل الحياة» ، لكى يجمع البعدين القومى والإنسانى ويضع الشخصية القومية فى سياق الإنسانية أو العالمية، محافظا على حقوقها المدنية فى النظم الاشتراكية، ضد كل أشكال المهانة التى تمارسها النظم الرأسمالية.

ومع أن هناك من هو أسبق من لويس عوض فى رفع هذا الشعار، مثل سلامة موسى وأمين الخولى ومحمد مفيد الشوباشى، إلا أن أحدا منهم لم يطرح هذه الدعوة بالقوة التى طرحها بها لويس عوض. بفضل عمق ثقافته الفنية ، وعمق ارتباطه بواقع بلاده والعالم، وتمسكه بالتكليف أو الرسالة الاجتماعية دون أن يقع فى خطأ تسخير الابداع لهذا التكليف أو خضوعه لهذه الرسالة .

وبهذه الرؤية التى تتوازن فيها جزئيات الصورة مع كلياتها، ولا تجور فيها الأيديولوجيا والمضمون على الجمال والفن، أو يطغى الجمال والفن على الأيديولوجيا والمضمون، تتكامل تجربة لويس عوض فى كل تجلياتها التى تعمق تيار الحياة فى الابداع المعاصر، بمثل ما تعمقه فى التراث.

■

قراءة جديدة لكتاب قديم

«أمير» مكيافللى

بقلم
فوزية مهران



الدراما التاريخية التى يعيشها العالم الآن تجعلنا جميعا شهودا ومدانين، نتتبع بقلق وفزع ما يجرى على خشبة المسرح من أحداث، وتجتاحنا مشاعر أسى وندم لأننا أغمضنا عيوننا عن كثير .. وصمتنا عن مقدمات كانت لابد أن تقود إلى تلك النتائج المحزنة .

تتداعى أمامنا صور وأحداث من التاريخ القريب والبعيد.. ترد إلينا بعض «حالات» معينة تنذر بالخطر والتفجير.. تبرز شخصيات وأبطال أرادوا أن يغيروا مجرى التاريخ واستطاعوا أن يلهموا حياتنا وآخرين تنكبوا الطريق وتهاوت مقاصدهم وتجاوزتهم حركة التاريخ والظروف الاجتماعية التى خرجوا منها .

(لقد تعلم اسكندر الاكبر على يدى «أرسطو» وبرزت براعته الحربية حقا واستفاد بكل التقدم المحيط به وسار فى اتجاه الوحدة السياسية لشرق البحر المتوسط وارتفع بثمرة جهود وعمل آلاف من البشر لم يذكر التاريخ شيئا عنهم - ومات بفعل مستشاريه والبطانة المحيطة به) ما علاقة الحاكم والفيلسوف والمفكر فى عصرنا الحديث؟

قالوا إن أفلاطون مثالى وخيالى عندما نادى «بالحاكم الفيلسوف» وأرسطو مادى عندما قال إن «السعادة» هى هدف الإنسان والسياسة - الإنسان يمكن أن يناضل وطريق النضال نفسه يشعره بالغبطة والعمل من أجل الآخرين .

وبرز أمامى كتاب .. الساسة فى العالم والقواد والحكام كلهم قرأوه.. والكثير منهم يفسره حسب هواه - والمفارقة الأعظم أن الكل يرمى به الآخر ويصمه بالانتهازية السياسية فيه.

كتاب «الأمير» لمكيافللى .. كتاب ممتع ومثير .. جذاب ولعنة .. مرجع فى فلسفة التاريخ، بوصلة بحرية لفن السياسة (يشير إلى أسلم اتجاه فى أوقات الشدة والعواصف واحتدام الصراع وضرورة الإصلاح والتغيير)، أو هو «ميكروفيلم» بلغة العصر الحديث مسجل عليها خلاصة معرفة مكيافللى لمحتوى مادة التاريخ، ونظرة تحليلية لوقائعه. يضع مسرحه بوحدة درامية تجعل من حركة التاريخ عرضا أخاذا مؤرقا، وتشير إلى لحظات التفجير والتنوير.

حكمة تصلح للجميع ويفيد منها الإنسان البسيط.

كثر ذكره فى هذه الأيام - الكتاب وصاحبه - الكل يصف الآخر بتلك العبارة اللعنة «الغاية تبرر الوسيلة» والتى تفوقت على ذكر الكتاب والمؤلف، وذاع صيتها فى القديم والحديث، وأخذت مبتورة هكذا ، مقطوعة عن السياق الذى وردت فيه - لأنها صادفت هوى فى نفس كل منهم .

مكيافللى قدم نفسه هدية على مسرح السياسة - هو للتناقض إلى أقصى حد.

يطلب من الأمير أن يكون محبوبا ومرهوبا فى الوقت نفسه، صلبا ومتفهما، جريئا وحذرا. (من الضرورى أن يكون الأمير محبوبا من الشعب - لا يأمن مصيره من يبدأ بالبغضاء ويتسم بالعداوة والمقت) .

ولابد بالأخذ بمبدأ العلم والمعرفة - دراسة الواقع والتاريخ، أن يكون ملما بطبيعة شعبه - الدين هو الاستراتيجية الثقيلة والعلم هو التكنيك العملى - (كلما زاد العلم زاد التقدم والقوة والأمن الداخلى) .

والدول كالأشخاص عندما تبعد عن المنطق السليم والمعرفة عندما تتخلى عن الواجب تنال عقابها - بعض الدول الغنية تنعم بآثار التكنولوچيا وتجلبها من الخارج لزيادة جرعة الترف والاسترخاء، ولكن كل ذلك إلى زوال مالم ينفذ الاسلوب العلمى والتفكير العلمى فى إدارة شئون الحياة).

يقول إن الحياة مليئة بالمتناقضات، وفى المعيشة العادية قد تحل مشكلة لنواجه بمشكلة أخرى تتطلب حلا.

- المهم هو البراعة والقدرة على فهم طبيعة المشاكل واختيار الحلول الأقل ضررا وخطرا.

هل مازال أحد يعتقد أن أحداث العالم



تحكمها «الصدفة» والبطولة فيها أحيانا «للحظ»؟

اعتقاد مريح وشائع وسط التغيرات المذهلة التى تحدث باستمرار، ولكن من المؤكد أيضا أن الناس بذكائهم وإعمال تفكيرهم يمكنهم تغيير حظهم.

يشبه مكيافللى الصدفة بنهر هائج يجتاح فيضانه السهول والوديان، ويقتلع الأشجار والمبانى ويغير طبيعة المكان – كل شىء يستسلم لثورته ونحره، ولكن عندما يهدأ النهر يمكن للناس أن يفكروا ويعملوا ويحتاطوا للمستقبل، وبذلك تقام السدود والحواجز، وتشق الترع ويتحول مجرى النهر.

الأمير ليس كالبطة

يكرر فكرة أن «الحروب هى الفن الوحيد اللازم لمن يتقلد شئون الحكم».

ويمكن فى عصرنا الحديث أن نقول إنها «السياسة» وفن إدارة الصراع وتنظيم أحوال الناس.

أما من يهمل الحركة ويستسلم لحياة الترف أو الاسترخاء والقعود فإنه سريعا ما يفقد كل شىء «الأمير لا يقبع مثل البطة المسالمة أبدا».

«وهل من المعقول أن يبقى رجل غير مسلح بين رجال مسلحين؟»

– أو يوجد من لايدرك أن حالة السلم لا تدوم – الأمور فى تغير مستمر وعلينا أن نمارس رياضة الاستعداد للدفاع والهجوم وقت السلم – من الطبيعى أن يفكر الناس فى العواصف فى جو السكون.

(قال لى قائد بحرى مبدع إنه يدرب جنده ويجرى مناورة غرق والجو فى البحر صفو وجميل) .

ينصح «الأمير» بالرياضة الذهنية والبدنية .

أن يذهب فى رحلات الصيد والقنص ليعود نفسه على تحمل المشاق والتدرب على المقاومة والمواجهة .. ثم التعرف على طبيعة أرضه وموطنه.

المعرفة هى أهم ما يتسلح به القائد والأمير.

(حتى مع تطور أسلحة القتال، وخطط حرب الكواكب والنجوم تبقى هذه المعرفة ضرورية وهامة).

لابد من الدراسة والقراءة فى كل فنون العلم والفكر، يقرأ سيرة القدماء ليدرب عقله على المواجهة وحسن التصرف والأداء، واستلهام الموقف البعيد والقريب.

(حتى المسرح يفيد منه الأمير، كثيرا ما تتعرض لمواقف وكوارث حقيقية، وتبرق بين يدنا لحظات تحول وتطور كبير على المستوى الشامل والعام) الحكيم والمفكر والفيلسوف جدير بمنصب القيادة ومجلس الحكم – والمعرفة هى أثمن عدة للنجاح والانتصار.

قراءة الاحتمالات

يحدثنا مكيافللى عن قائد قديم كان لايكف عن التفكير فى تصور معارك ومواقف ويمعن التفكير فى التخطيط لها ومواجهتها والخروج منها حتى فى لحظات الراحة أو جولات النزهة مع الأصدقاء وجو الأحاديث.

يمكن أن يتوقف بهم فجأة ويسألهم – لو جاءنا العدو من فوق هذا الجبل –

وقواتنا بالوادى كيف تكون لنا الغلبة؟ أو الاحتفاظ بمواقعنا، أو تنظيم عملية انسحاب.

(حركة تمشيط للذهن والمخيلة بدلا من تركها للترهل.)

كان يضع بين يدى الأصدقاء كافة الاحتمالات، ويعرض تقديرا للموقف بدقة ويستمع لوجهة نظرهم ويسوق حججه أمامهم ويستلهم أفكارا جديدة من مناقشتهم - وقد قيل إنه لم يصادف خلال معاركه الحقيقية أى موقف لم يكن على استعداد له من قبل.

(ويبدو أن ميكافيلي لايزال مصدر إلهام لبعض أنواع اللعب العصرية بعض اللعب الالكترونية تصور لك معركة وتعطى لك أكثر من عشرة احتمالات للانتصار وعليك أن تجرب وتختار وأن تنفذ العملية بلا أخطاء حتى يكتب لك الفوز أو النجاة).

لعنة التاريخ حلت بمكيافللى وكتابه الشهير

صار رمزا للسياسة الانتهازية، والمنطق العملى النفعى البعيد عن الموقف الأخلاقى.

تتداعى المعانى مع نصيحته السامة - إن الغاية تبرر الوسيلة - وانسحبت العبارة الشائعة على تاريخ حياته وأعماله وأدانته بالانتهازية فى الفكر والحياة .

إلى حد أنها هددت القيمة الحقيقية لكتابه الهام - وعندما يقترب منه أحد ينظر إليه بفكرة مسبقة، وحكم قاطع.

وتساءل بعض الباحثين والمؤرخين، ما الذى يدعوه أصلا إلى إهداء كتابه إلى أمير عظيم؟

هل كان يرجو مصلحة شخصية .. مجدا .. شهرة .. منصبا .. يكون من أهل الثقة .. من مجموعة المستشارين؟.

(ولماذا لا نقول إنه يريد أن يضمن السلامة لنفسه وكتابه - فآثر أن يهديه للأمير بدلا من المجوهرات والتحف الثمينة المتعارف عليها فى الإهداء بين العظماء - يقدم شيئا جديدا منافسا - عصارة فكر، وجهدا فى تحليل وتصوير سير الأولين ورصدا لحركة وعبرة التاريخ).

- ربما أراد البقاء لنفسه ومؤلفه بدل أن يحرق أو يصادر ويتعرض لكيدة الترويج لأفكار غريبة ولا يلقى مصير المكتشفين والمخترعين الأوائل عندما تعرضوا لعقوبة الحرق كالسحرة والمشعوذين - مثل برونو وجاليليو - لذلك قدمه كهدية فائقة لأمير يرجو أن يرتفع به ويستفيد، ويصل الكتاب إلى منزلة عالية فيقبل عليه الجميع وتعم الفائدة.

«هدية تجعل سموكم تدركوا فى وقت قصير كل تلك الأشياء التى تعلمتها فى زمن طويل وتجشمت فى سبيل البحث عنها واتقائها أهوالا من التعب والفقر وسوء الحال».

- ربما يلفت نظر الأمير أيضا إلى حالة المفكرين والباحثين والكتاب .

«الغاية تبرر الوسيلة»

جاءت العبارة فى سياق الحديث ولا تعبر عن موقف من الحياة، ينصح الأمير إذا لم يكن يتصف بكل المزايا الأخلاقية فالأفضل أن يتظاهر بالتحلى بها ويهدف حقيقة إلى استقرار الدولة وستبدو وسائله مشروعة للغاية لأن العامة تحكمهم قاعدة أساسية وهى أن الغاية تبرر الوسيلة .

إنه يطلب من القائد والأمير، أيا كانت



وسيلته فى الوصول إلى الحكم أو الاختيار، على أسنة الرماح أم بالصدفة وضربة حظ أن يكون حكيما، مفكرا، يتمتع بصفات أخلاقية، ويزيد من قدراته وقوته بحسن اختيار معاونيه ومستشاريه، ومن أهل العلم والمعرفة.

وأن تكون غايته التقدم بشعبه والمحافظة على أرضه والانتصار فى معارك الداخل والخارج، (ربما هو يسدى النصح هكذا للأمير وليفتح ذهن العامة بعد ذلك للتفريق بين الحقيقة والخداع) وكل هذه الأفكار يجب أن تصاغ فى أسلوب النصح الراقى الجليل وبصراحة عارمة (وقد يستفيد الأمير ويطور من أسلوبه وقد تكتشف العامة الحقيقة) يتبع الاسلوب الواقعي، وتصوير الحقيقة الموضوعية وربطها بالواقع الفعلي.

وليس صورة الجمهوريات الخيالية حيث البطل المنقذ المخلص.

وقال إن حديثه عن الجمهوريات يأتى فى مواضع أخرى ويبدو أنه حسن الذوق أو الخوف جعله لا يخوض فى هذا الجانب - وإن كان فى الحقيقة قد ضمن حديثه للأمير كل ما يصلح شئون الحكم والبلاد، والأمير هو الحاكم والقائد والحكيم.

وكان متقدما فى تفكيره فلم يتوقف لدى نظرية «الرجل العظيم» الذى يحول مجرى التاريخ ويرتكب المعجزات ولكن حديثه موجه منذ البداية «إلى أولئك الذين يحسنون الفهم والإدراك» وحديثه لأمير نابه لديه الإرادة ودقة الملاحظة والفهم العميق يطالبه بإقامة قواته المسلحة والاشراف على تدريبها وإعدادها، ويصر أنه يحقق مجده بقوة الجيش وجودة القوانين والارتباط بالحلفاء.

يقول للأمير إن اختياره لوزرائه ومعاونيه يعبر عنه، ويعطى صورة كاملة من طريقة تفكيره واسلوبه - ولابد أن يتحلوا بالأمانة والكفاءة والإخلاص. (لأنهم واجهته .. ومرآته الحقيقية .. وصورته المرئية بين الناس..) يدعوه إلى اختبار صغير ليعرف من لا يصلحون له أو تولى شئون الناس.. إذا وجد الواحد منهم يهتم بمصالحه الشخصية أكثر من منفعة الدولة والأمير، وذلك يعني بالطبع أن الوزير يجب أن يهتم بالصالح العام أكثر من مصلحته الشخصية وذلك يدعم استقرار الحكم نفسه ومركز الأمير. من الضرورى للقائد أن تكون لديه القدرة على معرفة الخير والشر، الصواب والخطأ «وإن لم يكن لديه الابداع الفكرى فلا أقل من الإبداع النقدى - ليقيم الأحوال وتشجع الحسن ويبعد الردئ».

إياك والنفاق

يعلن أن الزهو والإعجاب بالأعمال طبيعة بشرية وميل غريزى فى الإنسان ويحب أن يمدح بما يقوم به، لكنه يحذر الأمير من ذلك الوباء الفتاك الذى قهر الممالك والرجال وهو النفاق.

وعلى الأمير أن يبعد المنافقين وألا يعطى أذنه للمداحين، ويختار لنفسه مجلسا من الحكماء - ويكون لهم وحدهم «حرية» النقاش.

وهذه سقطة فى رؤية الأشياء، وإن كانت مستمدة من نظرية «الصفوة» أو

مجلس الفلاسفة والعلماء الذين لهم وحدهم حق «حرية» التفكير.

(وفى عالمنا الحديث يمكن أن تلعب الصحافة الحرة والبرلمان هذا الدور التنويرى للأمير) وعلى الأمير الماهر.. توجيه الأسئلة بذكاء.. وتكون له خطة وهدف من السؤال ويجب أن يتحلى بالصبر وحسن الاستماع ليدير الأجوبة برأسه ويصل إلى تصور أو قرار ولا يطرح المشكلة برمتها وحتى لا يتفوق عليه أحد المستشارين ويشاركه السلطان.

(تحققت هذه النبوءة أيضا فى عصرنا الحديث. «إن كيسنجر» - الأيقونة الحية لدرسة مكيافللى - سرق الأضواء من نيكسون وتبدى هو العبقرى الذى يدير سياسة الولايات المتحدة الأمريكية بفكر جديد وتألم نيكسون كثيرا لهذا وكتب فى مذكراته «لست أدرى لماذا ينسب الناس لى أى فشل فى السياسة الخارجية فى حين ينسب لكيسنجر كل النجاح».

الأخلاق مسألة نظر

ينحنى مكيافللى أمام الأمير - وكأنه بذلك يثبت التهمة التى أحاطت به ووصمته بالانتهازية عبر التاريخ.

يهمس للأمير «أنه ليس من الضرورى التحلى بكل الصفات الأخلاقية ولكن من الضرورى التظاهر بالتحلى بها - بل وتبلغ بى الجرأة إلى حد القول إن الحرص على بعض هذا الصفات الأخلاقية إنما هو مسلك خطر، ولكن التظاهر بها مفيد».

- يعنى أنه من الضرورى التظاهر بالوفاء والإخلاص والتدين - ومن المناسب أن تكون كذلك بالفعل ولكن من الضرورى أن تضع فى ذهنك أنك عند اللزوم يمكن أن تتحول إلى النقيض.

«يجب ألا تنفر من خير ممكن وألا تنكص عن شر ضرورى ليتحقق لك النصر».

يزين سبل التظاهر - وإن كان يلفت النظر إلى واجب التحلى بالأخلاق - مجرد رداء يخلعه الإنسان عند الصراع والقتال.

يهون الأمر تماما «الناس تحب أن تراك كما تبدو لهم - قليل من يدركون حقيقتك وهؤلاء يترددون بالاختلاف مع رأى الأغلبية السائد والدعم بالسلطة والنفوذ - إذ تحكم تصرف الناس قاعدة أساسية وهى أن الغاية تبرر الوسيلة».

«فليهدف الأمير إلى استقرار الدولة تبدو بعد ذلك وسائله مشروعة ونبيلة - لأن العامة يقتنعون دائما بظواهر الأمور».

ينصحك ميكافيلى من خلال الأمير ألا تكون طيبا - الطيب يعانى ويحزن غالبا - واستخدم معرفتك أو لا تستخدمها حسب الظروف.

من وجهة النظر العملية يجب أن يكون القائد قاسيا ويأخذ من يخطئون بالشدة - ذلك أفضل من الفوضى ومن أن يعانى الجميع من التسيب لفرط الطيبة أو التردد «التردد آفة فظيعة تؤدى إلى خسائر مروعة».

(إذن الصفات التى تقدم للأمير، ليست صفات فردية أو شخصية تنبثق من مفهوم الفضيلة والرذيلة وتحقيق السعادة.. ولكن يمكننى القول إنها صفات سياسية.. مقومات جماعية، توضع لتنفيذ المصلحة العامة وتنظم معيشة الناس).

أعظم القلاع تبنى فى قلوب الناس

صاحب كتاب الأمير ومنظر عمليات السياسة والحروب يؤكد أن القائد لايقدر



أمور الحاضر فحسب.. بل يضع تصورا للمستقبل، ويجيد استقراء الأحداث والإعداد لما قد يتعرض له من شرور.

«رجل الدولة الحكيم يجب أيضا أن يتجنب اندلاع حرب قد يصعب الانتصار فيها».

إن من عادة القواد والأمراء تشييد القلاع والحصون – ولها مزايا وعيوب – تصد الهجوم وتحمي الدفاع، وقد تغرى الغزاة والطامعين «لذلك أحيي كل من بنى قلعة أو حصنا.. وأشكر من أزال سدا وقلاعا.. أنعي فقط من يظن أن القلعة أو الحصن يمكن أن يحميه».

ثم يقدم أثمن ما لديه «إن أعظم القلاع والحصون تلك التي تبنى في قلوب الناس» وبذلك يلقى بعمق الحكمة وخلاصة التجربة، ورحيق درس التاريخ.

درة نفيسة .. تكمن فيها الحقيقة.. وتتجلى ذروة الموقف السليم ولست أدرى لماذا لم تشتهر مثل مقولة التبرير وتنتشر في القلوب والعقول وفوق قاعات الحكم وصفحات التاريخ.

وها هو قد ربط السياسة بالأخلاق.

عصر مكيافللي تكثر فيه الغزوات والهجمات والحروب.. وحتى عصرنا الحديث مازالت تنقض علينا الغزوات المفاجئة، والصراعات المريبة، تحدث كتاب الأمير عن قواعد الدولة الحديثة..

وعن القوات المسلحة – أساس عماد المجتمعات.

– توجد أنواع كثيرة من القوات – المرتزقة والمختلطة والمساعدة .

ولكن القاعدة الذهبية أن تتولى «قواتك» الوطنية الدفاع عن موطنك.

– لابد أن تتمسك بواجب الدفاع والمقاومة ولا يصح الهروب – اسلوب إدارة الصراع إما بالقانون أو استعمال القوة .

– الأول جدير بالإنسانية، والثاني شريعة الغاب – ومازال منطق العصر يفرض علينا استخدام القوة!

«البراعة أن تجيد استخدام الاسلوبين معا».

مازال مكيافللي يدور بحكمته على مر العصور .

«من الأفضل أن تكون ثعلبا لتحمي نفسك من الخداع.. وتكون أسدا لتخيف الذئاب».

– وأنت غير مضطر للوفاء بالعهود والمواثيق مع من لا يحافظون على عهودهم.

كتاب ونبوءة .. أسلوب للحكم والحرب قاموس عصرى وقديم .. أسطورة تظهر كل حين بشكل جديد

أخذ منه ريشيليو .. وبسمارك وفردريك الأكبر .. موسوليني وهتلر.. ماركس ولينين.. ستالين.. وكيسنجر والجميع (كيسنجر الأيقونة الحية لتعاليم مكيافللي) تعاليم للمتحضر والهمجي.. الإنسان العام ورجل الدولة.

ومفارقة درامية وتاريخية بين بناء القلاع والحصون.. ومد جسور المحبة والثقة إلى القلوب. ■



شعر
ماجدة بركة

ما كنت يا بيروت تستعصين في البحر
حين ابتلت [illegible]
ما كان [illegible] تنتظرين [illegible] الفجر
حين سالت [illegible] لا تلبس سوى غلالة شفافة من شتاء
حين [illegible] الفجر
[illegible] نوح والتقطت القمر
[illegible] بيروت
[illegible] حجر بيوتك حجرا حجر
وعند المساء [illegible] السهر
أين طاشت رصاصات [illegible] بالقيد والانصار
[illegible] بالرعب والكارثة
هل كانت بيوتك تزرع الرعد في دهاليزك الدامسة
و[illegible] مع [illegible] الشوق النار
ألم يطفئها ارتطام الموج باليابسة
[illegible] أم [illegible] في [illegible] النهار
ثم [illegible] من [illegible] من الفل والأزهار
[illegible] إلى حين
تشرد في كل الاتجاهات
[illegible] بالنصر والابتهال
شرقا [illegible] الظل غربا (وظل السؤال)
غربا [illegible] في المرآة الفينيقية الدامسة
[illegible] الشمال

فارسان يترجلان

إجتهد في هذه الأسطر أن أتدارك تقصيرى مع أديبين كبيرين غيبهم الموت قبل فترة قريبة دون أن تتهيأ لى فرصة إيفائهما حقهما من التقدير والإشادة. وما أكثر الذين يغيبون من حياتنا الأدبية دون أن يذكرهم الأحياء بكلمة وفاء.

بقلم
وديع فلسطين


صقر بن سلطان القاسمي


د.بدوي طبانة

الشيخ صقر بن سلطان القاسمي

أما الأديب الأول فهو الشيخ صقر بن سلطان القاسمي صاحب دواوين «وحى الحق» و«فى جنة الحب» و«لهب الحنين» عدا ديوانه المجموع الذي قدم له استاذنا الدكتور مصطفى الشكعة كنت إذّاك فى بدايات البدايات من عمرى، أكاد أتلمس طريقى فى الحياة العامة واتحسس خطواتى غير الواثقة فى دروب الحياة جميعا وفى ميادين الأدب والفكر بخاصة عندما هاتفنى استاذى وصديقى المجاهد العربى الكبير محمد على الطاهر المكنى بأبى الحسن، وأنبأنى بأنه تلقى برسمى مظروفا فيه كتاب من الشارقة. فقلت له إننى لا أعرف فى الشارقة أحداً ولابد أن هناك خطأ فى العنوان، فكان جوابه: ولكن فى الشارقة من يعرفك، ولم يقع فى العنوان أى تحريف. وسألته عمن يكون مرسل الكتاب، فقال: حاكم الشارقة وملحقاتها! وحسبت أخانا

الطاهر يمزح ، وإن كنت لم أعهده إلا جاداً كل الجد صارما كثير الجهامة . فسألته عما إذا كان قد فض المظروف وعرف محتوياته ، فأجاب بأنه يمقت الرقابة والرقباء مقت التحريم ، فكيف يتلصص على رسالة باسمي وردت على عنوان مكتبه . ثم استطرد قائلاً : الأرجح أن فيه ديواناً جديداً للشاعر لأنني تلقيت نسخة من هذا الديوان بعنوان «وحي الحق» واستوضحته عما إذا كان هذا الشاعر يعمل في ديوان الحاكم، فقال: أجل ، فهو هو الحاكم نفسه !

تلقاء هذا الكم من الألغاز بل المفاجآت ، هرعت الى مكتب الطاهر حيث قدم اليّ مظروفا معنونا بخط الحاكم يضم ديوان «وحي الحق» وقد جلد تجليدا فاخرا وطرز باهداء كريم من صاحبه يحمل تاريخ ٢٦/٩/١٩٥٥ . وعدت اسأل الطاهر: وكيف عرفني هذا الرجل ، وعرف أن الوصول إليّ يكون عن طريقك ؟ فأجاب: هذا الرجل حاكم فريد من نوعه في عالمنا العربي كله فهو يوزع وقته بين تسيير دولاب الحكم والاشتغال بالأدب شعراً ونثراً وهو يعرف أدباء العرب جميعا، إما بأشخاصهم أو بأسمائهم ، ومؤكد أنه يعرفك من كتاباتك في «المقطم» و «المقتطف» و «الرسالة» و «الأديب» وسواها ، كما أنه يعرف أن مكتبي هو «دوار العمدة» و العمدة يعرف الناس جميعا.

بعد بضع سنين زار الشيخ صقر بن سلطان القاسمي القاهرة، وآثر أن يقيم في بيت عادي في إحدى عمائر الدقي رافضا أن ينزل في قصر من القصور التي كانت إذّاك قد خلت من سكانيها. واتصل بي أخي الشيخ الدكتور احمد الشرباصي – وهو بدوره من المغبونين في حياتنا الأدبية – قائلاً إن الشيخ صقر يريد أن يراك . فقلت له إنني لم أطلب لقاءه ، وأعرف أنه لابد مرتبط بمواعيد رسمية مع المسئولين ، فما موضعي أنا من الإعراب ؟ فقال إن الشيخ صقر رجاه أن أصحبه في الزيارة ، وحدد لنا موعداً فذهبنا سوياً، الشيخ الشرباصي والمرحوم الأديب رضوان ابراهيم وأستاذنا الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي. ولما ألممنا بباب البيت نهض الشيخ صقر يحيينا معانقا مقبلا مرحبا محتفيا، مما اورثني خجلا شديدا، وقضينا معه بعض الوقت . ولما هممنا بالانصراف اصر على إطالة مجلسنا قائلا إن الوقت الذي ينفقه مع الادباء هو أحب الاوقات لديه ، وإنه كثيرا ما يرجيء ارتباطاته السياسية ليطيل مجلسه مع الادباء. وودعناه وكأن بيننا ألفة عمر وحوارات قرون .

عرفت الشيخ صقر وهو في أبهة الحكم ، فلم أر لهذه الأبهة أثرا في حياته أو في مسلكه أو في إنسانيته المصفاة ، وعرفته وهو بمنأى عن وجاهة الدست، فلم أنس فيه تغييرا لا في المظهر ولا في المخبر ، فهو هو العربي

فارسان يترجلان

الأصيل الشهم الشريف ، وهو هو الأديب الشاعر المغرد بأعذب الالحان . لم تغادره سراوته ولا نهاوته ولا شفافية روحه في أيام العسرى وعرفته بعد السجن المرير، وكان تسع سنين وليس تسعة اشهر مثل استاذنا العقاد، فحافظ الشيخ صقر على كل ماعرفناه فيه من فضائل ومآثر، بل لقد ازدادت صورته في عيوننا عظمة لأنه استطاع ان يقهر حتى القهر، وأن يخرج مرتفع الهامة منتصب القامة متعالى الكرامة . تسع سنين لم ير فيها وجه الشمس في بلد لا شكوى للناس فيه إلا من وقدة الشمس طوال النهار وعلى مدار العام.

نفض الشيخ صقر غبار السجن لكى يقضى بقية عمره ، حتى وهو شبه منفى نفيا ذاتيا، سفيرا للعروبة جمعاء في بيته القاهرى، في الدقى أولا، ثم في مصر الجديدة. وفي هذا البيت العامر رأينا أبا سلطان مواطنا في امارة صغيرة ترى بالكاد على الخارطة الجغرافية ، بل مواطناً عربيا تمتد «قبيلته» من الخليج الى المحيط وتتسع رؤيته فتلغى التخوم والحواجز التى وزعت العرب بين تسميات كثيرة لدول متفرقة قال فيها الشاعر المهجرى الياس فرحات :

إذا كانت الدولات عشراً ليعرب

فكم دولة تستوعب الصين والهند ؟

في بيت أبى سلطان رأينا وجوه امتنا العربية كلها، رأيناها تعرف لصاحب البيت منزلته وتدين له فوق الإعجاب والاعزاز بالحب والولاء. وسمعنا في محضره شعرا في كل قضية من قضايا العرب ، وسمعنا كذلك شعراً في أجمل المعاني الإنسانية وأكرمها . وكلنا في محضره أفراد أسرة واحدة ، هو عميدها — بل خادمها — وهو رابطة العقد فيها، وكل من أمّ مجلس ابي سلطان ، راعته هذه الرابطة الإنسانية الوثقى التى تصل ما بين اعضائها.

وقد توفى الشيخ صقر بن سلطان القاسمي عن ٦٩ عاماً ، فهو من مواليد ١٩٢٤ وادركته منيته في القاهرة في ٩ ديسمبر ١٩٩٣.

الدكتور بدوي طبانة

أما الشخصية الثانية فهي شخصية استاذنا الدكتور بدوى طبانة المتوفى في ١٧ فبراير ٢٠٠٠ عن ثمانين عاما ونيف

كان استاذاً في مدرسة واسعة اكبر من مدارس التعليم ومعاهد العلم، لأن استاذيته كانت آمرة وعلمه كان غزيرا وفضله كان أكبر من أن تحصره هذه الكلمات العليلة .

عرفت الدكتور بدوى طبانة في الاربعينات ، وكان عائدا لتوه من العراق حيث أفاض بعلمه السابغ على ابناء هذا

القطر وبناته ايضا . وكنت إذاك صحفياً يتطفل على الأدب، وليست لي قبه أي منزلة مهما تواضع امرها، فلقيت من الدكتور طبانة من الحفاوة والحب والتشجيع ما جعلني اتعلق به وأحرص على الاغتراف من معين علمه ومحبته ، وهو لم يضن عليّ بالعطف والتوجيه والرعاية، وهي نعم سعدت باستراوحها عمراً مديداً، ومازلت اسعد اليوم باستذكار فصولها المترعات بعدما غادرنا بدوى طبانة الى جنة الخلد مبكياً على حلو شمائله ، مخلفا لنا الحزن الممض على مفارقته فى وقت كان مرجواً فيه لمزيد من العطاء الأدبي والود الصافي.

أخذ الحياة مأخذ جد منذ ما أهل نفسه بأعلي الدرجات الجامعية ، وجعل من فنون الضاد رسالة تسنية يضطلع بها استاذا جامعيا ، ومؤلفا اكاديميا، وسفيرا للعلم فى ديارات العرب، ومجمعيا شامخا فى محفل الخالدين المخلدين. كان ناقدا بصيرا، وإن تجاهله مؤرخو النقد الادبى لأنه لم يتمذهب بمذاهبهم التفكيكية والتشكيلية والتكعيبية والبنائية والكمبيوترية واللوغاريتمية ، فكان ناصراً للبيان العربى ، سواء بشخصه وبأسلوبه الناصع ، أو بالمصنفات الثمينة التى وضعها . وكان عمدة فى البلاغة وحسبك معجمه الرقيع القدر الذى ليس له مثيل فى الماضي او الحاضر، وكان بصيرا بالشعر ، بل شاعرا وإن لم يجمع شعره فى ديوان . وكان سباقا الى اجتراح الدراسات البكر عن اديبات العراق وعن معروف الرصافي وعن القمم الشعرية المعاصرة فى الوطن العربى مثل حافظ جميل ومحمود حسن اسماعيل وأحمد زكى أبى شادى وعمر أبى ريشة وأحمد محرم وزكى قنصل وصقر القاسمى وحازم سعيد ويوسف عز الدين . وكان بميزانه العادل خير من أنصف ادباء السعودية وشعراءها . وكان قبل ذلك وبعد ذلك قد درس بكثير من العمق والفهم والوضوح مذاهب النقد الادبى عند العرب وأعلامه وتياراته ، وشرح معلقات العرب، وسجل سير الاعلام من امثال الصاحب بن عباد وقدامة بن جعفر وأبى هلال العسكرى، ورصد السرقات الادبية. هذا الى جانب ما حققه من كتب التراث مثل «المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر» لضياء الدين ابن الأثير، و«الفلك الدائر على المثل السائر» لابن ابى الحديد ، وحقق حلقة من كتاب «فريدة القصر وخريدة العصر» للعماد الاصفهانى وإن لم تنشر بعد .

هذا ميراث ضخم محض به الدكتور بدوى طبانه المشتغلين بالادب ودارسيه ، وهو بأصالته وموسوعيته يفرض نفسه فرضا فى حياتنا الفكرية المعاصرة .

قال لى الاديب العراقى الكبير جعفر الخليلى (١٩٠٤ - ١٩٨٥) إن كثيرين من المصريين عملوا فى العراق مددا متفاوتة ، ولكن العراقيين لايذكرون منهم

فارسان يترجلان

إلا زكي مبارك (١٨٩٥-١٩٥٢) وأحمد حسن الزيات (١٨٨٥-١٩٦٨) وعبد الرزاق السنهوري (١٨٩٥ - ١٩٧١) وخليل صابات (١٩١٩ - ٢٠٠١) ومحمد مصطفى الماحي (١٨٩٥-١٩٧٦) وبدوي طبانة ، لأن هؤلاء العلماء هم الذين تركوا بآثارهم وبشخصياتهم أجمل الذكريات في نفوس العراقيين ، إذ أنهم لم يقتصروا على اداء عملهم فى نطاق مرسوم، بل جالوا فى العراق يسهمون فى انشطته الثقافية والعلمية بكل صدق وتفانٍ، فكانوا بحق رسلا ينبعثون الى حمل رسالاتهم بأريحية نفس وبإيمان فطري عميق بقيمة الفكر باعتباره العروة الوثقى فى تأصيل العروبة الحقة .

وليس ادل على أن الدكتور بدوي طبانة كان صاحب رسالة من أنه ، وقد علت سنه وضعف بصره وتحالفت عليه أمراض الشيخوخة وصار يتحرك مستندا الى ذراع والى عكازه ، وبعدما هزته فجيعة رحيل الزوجة الامينة.. أصرَّ مع ذلك على أن يواصل عمله فى التدريس الجامعي لفائدة النشء الجديد من طلابه، وأن ينتظم فى حضور جلسات المجمع ليشارك فى مناقشاته برأيه الخمير، وما كان أحراه ان يتقاعد وينشد راحته الشخصية بعد عمر قضاه فى خدمة أمته دون كلل أو ملل أو مَنٍّ .

وبكل عرفان بالجميل ، أذكر لأستاذنا بدوي طبانة أنه أكرمني بعبارات سخية سجلها فى كتبه «التيارات المعاصرة في النقد الادبى» و «البيان العربي و كوكبة من شعراء العصر» وما كنت لأحلم بأن يطوق عنقى بكل هذا الفضل ، وهو هو الأستاذ الكبير الجليل .

وقصاراي فى هذا المقام أن أحني الرأس إجلالا لأستاذ مهر الضاد دررا كثيرة على مدى ستين عاماً ، فكان فى بلاغتها من أبلغ المعاصرين، وكان في بيانها رب بيان ، وكان فى كل أدبها المرجع الموثق العمدة المكين .

القروي كمال بشر

لم يخف الدكتور بشر فى « تكوينه» أنه فلاح ابن فلاح، وهو ما تبينته منه عندما رأيته للمرة الأولى حوالي عام ١٩٤٨ كنت في ذلك الوقت أعمل محرراً في جريدة المقطم . وباب غرفتي مفتوح دائما لا يقف عليه موظف أمن ولا سكرتيرة ولا موظف استقبال مهمتهم الاساسية إبعاد الناس عن لقاء المحرر المسئول . ولعل الدكتور بشر نسى هذه الواقعة الطريفة ، حيث لمحت بباب غرفتي شابا عليه كل ملامح الريف يهم بالدخول وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، فرحبت به وكان يحمل معه رسالة إليَّ من زميلنا عبد المنعم الصاوي الذى كان يعمل وقتها ملحقا صحفيا فى لندن .

ولما فضضت الرسالة ، عرفت منها ان الطالب كمال بشر يدرس في لندن للحصول على درجة الماجستير وأنه يطلب معاونتي في جزء من هذه الرسالة الجامعية ولما استوضحت الطالب مقصده قال إنه أكمل رسالة الماجستير ولكن ينقصه فصل عن الطباعة العربية وأبناط العناوين في الصحف ورجاني أن أساعده في إعداد هذا الجزء ، ثم استدرك قائلا: وحبذا لو أعددته باللغة الانجليزية تسهيلا لمهمتي . فوعدته بإنجاز هذا الموضوع في اليوم التالي مع ارفاق نماذج من عناوين الصحف تمثل الابناط المستخدمة فيها . وفي صباح اليوم التالي زارني الطالب وهو «آخر لخمة» فقدمت له الموضوع المطلوب حيث شكرني بعبارات متلعثمة وانصرف . وبعد يومين عاد الطالب الى زيارتي وهو أكثر تردداً وخجلاً ، وصارحني بأنه ضيع الموضوع ورجاني أن أعيد كتابته . فقلت له على مضض انني لم احتفظ بصورة منه ، ولكنني مع ذلك سأعده من جديد ليكون جاهزا في اليوم التالي. ومر عليّ صباح اليوم التالي وتسلم الموضوع ولسانه اكثر تلعثما وهو يلهج بالشكر وبعد يومين توجهت الى مكتبي في الجريدة فأخبرني البواب أن شابا قرويا مر بعد الظهر وترك لي سبتاً جاء به من الريف غطاه بجريدة . ولما كشفت عن السبت تبينت أنه يحتوي على مسحوق كعك ريفي، وأن اسرابا من النمل رعت فيه فحولت الكعك «المزعوم» الى مسحوق من الدقيق . ولأن كمال بشر لم يترك لي عنوانه في مصر أو في انجلترا فقد قصرت في شكره على هديته « المنكوبة» ! .

ودارت الأيام - وكنت على موعد في قاعة اساتذة كلية دار العلوم مع الدكتور احمد الحوفي (١٩١٠ - ١٩٨٣) في مقر الكلية القديم بالمنيرة. وكان جالسا معه زميل من الاساتذة فلما دخلت القاعة حياني الدكتور الحوفي ثم قدمني الى زميله الدكتور كمال بشر الذي امطرني بقبلاته وعناقه .. وقلت للدكتور بشر انني مدين لك بشكر متأخر على هديتك من مسحوق الكعك ، اذ سبقني النمل الى استطابته والتهامه ! وضحك كلانا. ثم اخبرني انه عندما أعد رسالة الماجستير الحق بها الموضوع الذي كتبته له دون ان يشير الى صاحبه . وعندما سأله الاستاذ المشرف عمن اعد هذا الموضوع قال إنه صديق في مصر وسألوه ولم لم تشكره في المقدمة جريا على الأصول الإكاديمية ؟ فقال : لم أكن اظن أن هذا ضروري ولكنهم علقوا منحه درجة الماجستير حتى يثبت شكره في المقدمة . وقال الدكتور بشر انه استجاب لهم بمنتهى السرور وفاء بالعرف الاكاديمي وإقراراً بفضل شخص قدم له يدا ... ■

المكتبة هى عالمى الذى تعرفت منه على كل المعارف

أحمد بهجت

●● ولدت فى نهاية ليل خريفى بارد، فأصبحت عاشقا لليل والشتاء، هل هناك علاقة مع الليل بين من يولدون تحت جناحه ؟.. لا أعرف على وجه التحديد.. كل ما أعرفه أننى فى الصيف أقاسى من راجمات الصهد ومدفعية الرطوبة .. وأعيش طوال الصيف فى انتظار مجىء الشتاء. كانت أمى تنتمى إلى الطبقة البورجوازية، وهى الطبقة التى تعيش فى المدن وتستقبل كل الرياح الوافدة من أوربا، أما أبى فكان ينتمى لطبقة الفلاحين الميسورى الحال من ملاك الأراضى الزراعية .. وكان أبى يعمل مدرسا فى المدارس الثانوية وكان جدى، وهو شيخ بلد فى الدقهلية تسمى ميت فارس، كان جدى يحلم بحفيد ●●

وقد صرح ذات يوم أمام أبى وأمى بأنه إذا ولد له حفيد فسوف يتكرم عليه بخمسة أفدنة من أجود الطين، وسيكتب هذه الأفدنة باسمه .

فلما تحقق الحلم وولدت، واجهت الأسرة جدى بما قاله فادعى فى البداية أنه لا يسمع جيدا بأذنيه، فلما استمر الهجوم عليه صرح تصريحا عموميا قال فيه إن كل فدادينه ملك لهذا الحفيد، وهو يديرها له أثناء حياته، وبعد الموت يحلها ربنا، وبهذا التملص الرائع خرج جدى من تصريحه الأول ، وظللت أنا فقيرا لا أملك طينا ولا يملكني الطين.

سأكتشف فيما بعد أن سر مجيئى إلي العالم هو الأحلام.. كانت أمي تحلم بى قبل أن أولد.. فقد مات لها ولد قبلى، وكانت تظن أنها لن تنجب بعده.. وقد بلغت ثقتها فى أحلامها انها صنعت ملابسى قبل أن تحمل بى وقبل أن أولد.. كانت تتمنى فى قلبها أن أصير طبيبا شهيرا عندما أكبر.

أما حلم أبى فكان يختلف.. إنه يريد وريثا للعرش رغم عدم وجود عرش، أما داخله فكان يحلم أن يصير ابنه قاضيا مثل خاله محمد على رشدى .

أمـــا جـــدى لأبى فكان يريد أن يورثنى عدة أفدنة من أجود الأرض، ثم سحب عرضه بعد أن ولدت.

سيدة ذات تقاليد

أما جدتى لأمى فكانت حبى الكبير فى هذا العـالم، كـانت تريدنى لأنهـا تريدنى، لم تكن تراني طبـيـبـا ولا قـاضـيـا، ولا كـانت تشـغل نفسـهـا بمستقبل بعيد.. وربما كانت تدرك أنها لن تعيش لترى هذا الأمل البعيد، ولهذا اكتفت بحلم بسيط هو «أنا»..

لم يكن جدى يربى لحيته رغم أنه كان شيـخـا من خريجي الأزهر، ولكنه انصرف عن العلم إلى الزراعة، وكـان انسانا مرحا لا يكف عن السخرية ولا يغـادره الضـحك من أي شيء ومن كل شيء، وأحسب أنني ورثت في جيناتي نظرته الساخرة إلى الأمور أما أمي فكانت سيدة مدهشة، مثلما كانت أما عظيمة بنفس المقدار..

باختـصـار .. كانت سيدة من أصحاب التقاليد..

وكانت لها تقاليدها فى كل شيء، فى الأثاث والطعام والحديث والتعبير عن المشـاعـر والجلوس والكلام وكل شيء..

كـانت تملك بيـانو تعـزف عليـه الموسيقى أحيـانا، وبسـبب حبـهـا للموسيقى أحببت الموسيقى.

إن في كـونشـرتو البيـانو الأول لشوبان أمومة تحتضن المشاعر الكونية كما تحتضن الام طفلها.

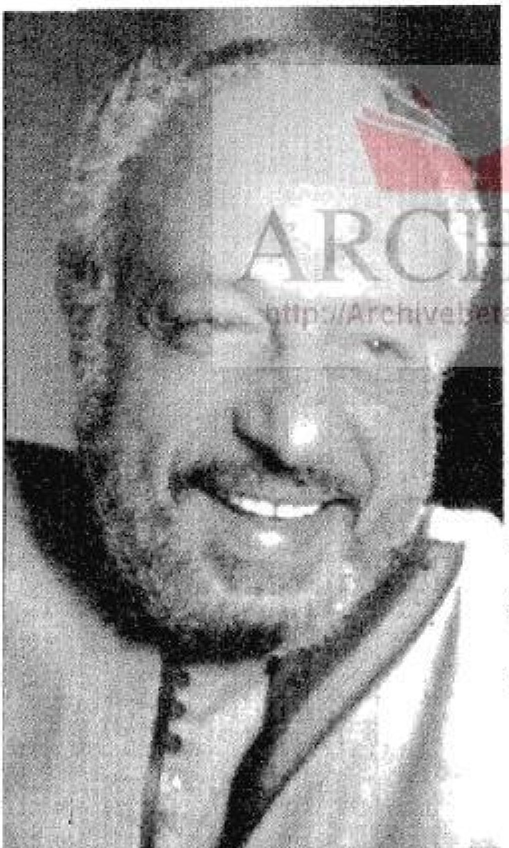
وأحيانا أفكر .. كانت نساء الطبقة الوسطى يتجهزن بعدة غرف وكـان وجود البيانو فى الجهاز مسألة حيوية وطبيعية.. ولا نقاش فيها ولا جدل .

أيضـا كـان في جهاز امي مكتبة تضمها غرفة مكتب.. وكانت هذه الغرفة هى عالم أبى ... وبعدها صارت جزءا من عالمنا ..

لا أذكر من طفولتى حتى صار عمرى ثلاث سنوات سوى مشهد واحد، وأذكره مثل حلم غارق فى الضباب.

شاطىء بحر طويل لعله البحر الأبيض فى الاسكندرية.. عربة أطفال يجلس فيها طفل يرتدى رداء من الصوف المشغول من رأسه إلى قدميه.. والدنيا نهاية شتاء أو بداية شتاء .. وإن كانت الشمس ساطعة..

أمي تقف وراء العربة وتدفعـهـا على الكورنيش أمام البحر.. هذا كل ما أذكره



التكوين



مع توفيق الحكيم

من طفولتي الأولي، ولست أعرف لماذا لم تحتفظ ذاكرتي بغير هذا المشهد.. إن الصورة جزء من عالمي الداخلي، واذكر أنني سألت أمي يوما..

– هل عشنا في الاسكندرية..؟

قالت : نعم .. كان أبوك يعمل مدرسا هناك .

سألتها : هل كانت عندي عربة أطفال؟ هل كان لدى رداء من الصوف المشغول..؟

قالت : نعم .. أنا نسجته لك

أين ذهبت عربة الأطفال؟ أين ذهب الرداء الصوفي؟ وأين ذهبت أمي ؟

اختفى الثلاثة بالموت على ثلاث مراحل متعاقبة..

لم يعد باقيا سوى البحر ..



جدتي .. حبي الكبير، وجدي الذي ورثت عنه النظرة الساخرة للأمور

كنت شيئا مختلفا

في طفولتي كان هناك البحر والعربة والرداء وأمي، لم يكن احساسي يومئذ يستطيع التمييز بيني وبين العربة والبحر والصوف، كنت أحس إنني أنا البحر والعربة والصوف ، وقد وقفنا معا نأمل أن يرتفع الحجاب عن وجه السر.

وأحيانا أخرى كنت احس أنني شيء يختلف عن كل ما أراه، وأحيانا كنت أحس أنني اتلقى قبلات مبللة بعطر البحر، حين يقع علي وجهي رذاذ البحر الذى

يتناثر من الموج ثم يتكسر على منطقة صخرية ومن الغريب أني لا أذكر وجه أمي في هذا المشهد.

أذكر ملمس الصوف واحس بحركة العربة ولكنني لا أذكر وجوها بما في ذلك وجهي نفسه.

كانت الصورة تخلو تماما من البشر، لم يكن فيها غير كائنات وعناصر ومن بين هذه الكائنات كان البحر أضخمها.

هل وقعت في حب البحر منذ هذا التاريخ أم أن لهذا الحب تاريخا سابقا يرجع إلى الأيام التي كان فيها عرشه على الماء.

***

بقيت صلتي بالبحر موصولة .. أليس هو الجد الأول للبشرية؟ وحين كبرت كنت أرقب أمواجه المتدافعة.. إن كل موجة مقبلة تبدو وكأنها تريد ان تقول شيئا ما .. شيئا بالغ الأهمية والخطورة.. ولكن هذا الشيء من الجمال والكمال بحيث يعجز البحر عن تحويله إلى كلمات، ومن ثم يكتفي بانقلاب موجاته وانسياحها على الشاطيء..

إن الموجة تضرب الشاطيء ثم يرهقها الغضب فتنداح عائدة، تهدأ وتنسحب، ثم تبدأ رحلة العودة إلى البحر حيث تذوب في موجة ثانية.. ويتكرر المشهد بلا توقف ولا تغيير، وكلما فتح الموج فمه المائي ليقول السر أدرك أن السر أعظم من أي كلمات .. ويطبق البحر فمه على السر.

كنت طفلا لا يعي ، فيما بعد عندما أكبر واحدق في البحر سأسمع قوله تعالى «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداه.

دور المكتبة في المعرفة

على نهايات الطفولة وبداية المراهقة.

كنا نعيش في شبرا.. كان اسمها يومئذ حدائق شبرا ..

كنا نسكن في شقة في الدور الثاني، وكانت هذه الشقة تتكون من خمس غرفات.. غرفة للطعام وغرفتان للنوم وغرفة صالون ، وغرفة مكتب يفتح على فراندة واسعة وله باب خاص للدخول والخروج وله باب آخر يفتح على الشقة.

كان أثاث غرفة المكتب يتكون من مكتب ضخم أمامه كرسيان من الجلد، ومعهما في الغرفة كنبة من الجلد... أما الحائط فكانت تحتله مكتبة ضخمة لها ثلاثة أبواب.. بابان جانبيان من الخشب وباب عريض في الوسط من الزجاج ..

وكانت هناك وراقة من النوع الذي يدور بحيث تلتقط الكتاب الذي تريده منها بدل أن تقوم .

كانت معظم كتب هذه المكتبة في التاريخ والجغرافيا واللغة الانجليزية.. وبعض المؤلفات المصرية.

وبسبب وجود هذه المكتبة.. اتيح لي أن اتعرف على العالم الخارجي ..

كنت طفلا انطوائيا كثيرا ما يقاسي من احتقان اللوز، ومن هنا فقد حاولت ملء فراغي بالقراءة.

وكانت مكتبة أبي أصعب من أن أحاول قراءتها ... وفي ذلك الوقت .. كانت هناك سلسلة تظهر تحت اسم «روايات الجيب» .

وكانت روايات الجيب تركز على الرواية البوليسية من جانبيها جانب اللصوص وجانب الشرطة.

من جانب اللصوص كانت هناك شخصية أرسين لوبين اللص الشريف، ومن جانب الشرطة كان شرلوك هولز، ومساعده واطسن.



مع عبد الوهاب وياسمين الخيام



مع سلطان فى البيت

رسم الكاتب الفرنسي موريس لبلان شخصية اللص الشريف كبطل كان يأخذ من الأغنياء ويعطي الفقراء..

أما السير آرثر كونان دويل فقد رسم شخصية شرلوك هولمز كمحقق في حوادث القتل وكعقلية لا يشق لها غبار.

وكانت الرواية تباع بقرش صاغ، فإذا قرأتها ورددتها إلى البائع دفعت قرش تعريفه.

كان عمري لا يزيد على عشر سنوات حين أدمنت قراءة هذه الروايات ..

روايات على مائدة الطعام

ومن خلال هذه السلسلة التي كان المترجم الأول فيها هو الأستاذ عمر عبدالعزيز أمين، تعلم أبناء جيلنا كيف يطلق العنان لخياله ويعيش في عالم يختلف كل الاختلاف عن الواقع.. وفي هذه السلسلة قرأت معظم ما كتبه الروائيون عن الثورة الفرنسية.. والغريب أنهم كانوا في صف النبلاء لا الشعب الثائر.

وقرأت مغامرات الفرسان الثلاثة، وعايشت الصراع بين باردليان وفوستا.

وقرأت أحزان الشيطان، وتاه عقلي مع رواية «هي التي ينبغي أن تطاع».

ويمكن القول بأنني أدمنت هذا النوع من القراءة ، ولاحظ أبي ذلك.

وامسك يوما برواية أقرؤها وقال لي :

– ماذا تقرأ ؟

ثم قلب فيها قليلا وقال لي هذا النوع من الروايات كلام فارغ .. لماذا لا تحاول القراءة في مكتبتي ..

لم يكن الوقت قد حان بعد .. ولم أكن اتفق مع أبي في نظرته لهذه الروايات.. انها ليست كلاما فارغاً كما يقول .. ويبدو أن أبي قرأ ما يجول في خاطري فقال:

– هذه الروايات كالسلاطة على مائدة الطعام.. هل تأكل السلاطة فقط وتترك بقية الطعام .. هذا ما تفعله الآن ..

فيما بعد .. سأعرف أن أبي على حق، وأن هذه الروايات لا يمكن ضمها للأدب الرفيع ونقدها على هذا الأساس، انما هي روايات هدفها التسلية.. ورغم ذلك فإن لها جانبا إيجابيا هو جانب الخيال المتوقد الرائع الذي تثيره والعوالم المدهشة التي تتناولها والنفسيات المختلفة التي تعرض صورها على القارئ.

ولقد جاء على وقت كنت أتصور فيه أن الجنة كرسي وثير في شرفة قصر يطل على نهر، وجوار هذا الكرسي مكتبة فيها مئات الكتب.. وأنا جالس اقرأ دون هموم، ودون إزعاج، بعيدا عن مشاغل الحياة وأعبائها ..

مشاوير مع الجامعة

وعلى أيامنا كانت الثانوية تسمى التوجيهية، وقد حصلت عليها بمجموع ٦١,٥٪ قسم علمي.. وكان هذا في أيامنا مجموعا كبيرا.

كان هذا المجموع يضمن لي دخول كلية الهندسة جامعة عين شمس أو كلية الطب بجامعة الإسكندرية، أو كلية الحقوق بجامعة عين شمس. وقد رفضت العائلة أن التحق بكلية طب الإسكندرية لأنني سأعيش وحدي هناك، وسألعب بذيلي ولن أفلح.. وهكذا بقي أمامي كلية الهندسة أو كلية الحقوق ..

وقد دخلت الهندسة يوما واحدا واستمعت إلى المحاضرات طوال هذا اليوم، ووجدت نفسي أمام طلاسم بدت لي ألغازا بغير حل كانت ميولي أدبية بحتة.. ودخلت كلية الحقوق وحضرت محاضرة فيها ففهمت ما قيل رغم أنني



على المقهى مع بعض الأصدقاء



فى رحلة الى روسيا بعد الانفتاح



مع ابراهيم نافع

استثقلت ظلها ..

كنت أكتب القصة في هذه الفترة، وتعرفت للمرة الأولى على الأدب المصرى بمحض الصدفة..

عثرت فى مكتبة أبى على رواية أهل الكهف لتوفيق الحكيم.. وقرأت الرواية فأشعلت داخلى قنديلا منورا ..

أعجبنى أسلوب الحكيم الذى يبدو كأنه السهل الممتنع، وشدنى حواره المدهش الراقى البسيط، وأعجبنى هذا التناول الجديد لقصة وردت أصلا فى القرآن الكريم..

بعدها قرأت لتوفيق الحكيم كتاب «محمد»، بعدها صرت من عشاق الحكيم..

كان عباس العقاد مقررا علينا فى المدارس بكتابه عبقرية عمر، ولم أكن استسيغ أسلوبه العربى الصعب، ومن هنا كان احساسى به هو عدم الرضا.. وربما جاءنى هذا الاحساس لأن الكتاب مقرر علينا، فهو إذن جزء من كتب المدرسة، وهى كتب بغيضة وليست مثل القراءة الحرة التى تختار فيها ما تقرأ وتدع فيها ما لا تحب ..

عرفتنى الدين بشكل أعمق

فيما بعد .. سأفهم العقاد واقدره واقرأ معظم كتبه واعتبره رجلا كتب فى الإسلام ما لم يكتبه أحد.. وكان درعا يصد عنه وسهما يدافع عن عقائده بشجاعة وحب وعلم ..

وفى هذه الفترة اتيح لى بمحض الصدفة أو الحظ الحسن أن أتعرف على الدين بشكل أعمق ..

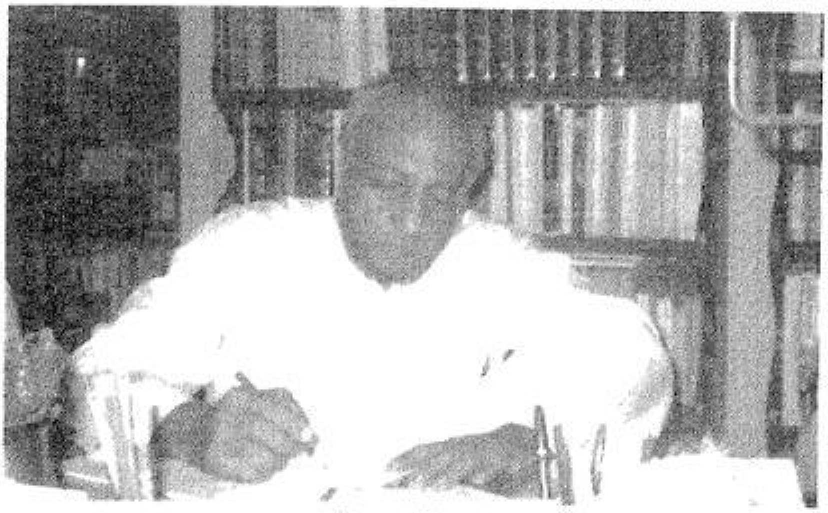
كان لى صديق اسمه عطية، وكان أبوه صاحب دكان للبقالة، وكنت أقف أحيانا مع صديقى فى الدكان واشترك معه فى البيع، وكان يبيع الجبنة والحلاوة والزيتون، وما شاكل ذلك، ولاحظت أنه يلف ما يبيعه فى ورق مجلة الإسلام.. وقلت له - لو احضرت لك مجموعة من الصحف، فهل تعطينى هذه المجلة.. ووافق عطية وصحبت اعداد المجلة إلى بيتى .. وبدأت اقرأ فيها فانبهرت، كانت تبدأ بشرح آيات من القرآن، ثم تتحدث عن حديث صحيح، ثم تورد شيئا من تاريخ الإسلام، بعد ذلك كانت تمتلىء بمقالات تشرح الإسلام شرحا مضيئا باهرا، وكان الواضح أن محرريها من الشيوخ كانوا يدركون روح الإسلام كما يدركون نصوصه وشعائره وكان هذا أول اهتمام لى بالإسلام.. وهو اهتمام بدأ مبكرا ولكنه لم يظهر فيما اكتبه الا بعد فترة من الزمن ..

***

ولقد كان افلاس مجلة الإسلام وبيع اعدادها للبقالين اشارة كافية إلى الأزمة التى تمر بها الثقافة المصرية فى ذاك الوقت .. بعد ان اتيت على الكتب التى استهوتنى فى مكتبة أبى، بدأت أقرأ بشكل مكثف تاريخ مصر الفرعونية ..

كنت يومئذ أعمل بالصحافة تحت التمرين، ولم يكن كتاب الاستاذ سليم حسن موجودا كما هو الحال اليوم، انما كانت هناك عدة نسخ منه فى دار الكتب.

وهكذا كنت اتوجه كل يوم إلى دار الكتب - وكانت يومئذ فى باب الخلق - واطلب جزءا من اجزاء الكتاب وهو يقع فيما يقارب عشرين جزءا.. وانكفىء على قراءته حتى يحين موعد اغلاق الدار، فانصرف لأكرر فى اليوم الثانى ما فعلته بالامس ..



مع القلم والأوراق فى المكتب

كيف دخلت الصحافة؟

إن لهذا قصة ..

كان لى ثلاثة أخوال، محمد على رشدى وزير العدل السابق والمحامى بعد ذلك، ورشاد رشدى الذى كان أول من عرفنى على أنطون بافلوفتش تشيخوف، واللواء عبدالمنعم رشدى ضابط البوليس.. وكان خالى على رشدى هو مثلى الأعلى فى كثير من الاشياء، ورغم أن الأمل كان أن اتخرج من كلية الحقوق والتحق بمكتب خالى وكان واحدا من أكبر المكاتب فى العاصمة .. ولكن هذا الامل لم يتحقق ، فقد استولت الصحافة علىّ تماما..

كنت أكتب قصصا قصيرة فى ذلك الوقت وتصورت أن الصحافة يمكن أن تنشر لى قصصا كمشاهير الكتاب، وذهبت بقصتين إلى الاستاذ موسى صبرى فى الاخبار.. واخذ منى القصتين وقال لى تعال بعد شهر أكون قد قرأتهما..

عدت بعد شهر فقال لى تعال بعد شهر آخر ..

وذهبت إليه عالما أنه يزحلقنى فقال لى - لك اسلوب فى الأدب، ولكننا لا ننشر الا للأسماء المعروفة.. هل تحب العمل فى الصحافة؟

قلت له : ولكننى لا اعرف ماذا أعمل فى الصحافة .

قال لى : سنعلمك ..

وكانت هذه هى البداية فى مجلة الجيل الجديد .. وكان رئيسا لى فى هذه الفترة الكاتب الساخر أحمد رجب .

***

واسنادا للفضل إلى أهله، كان خالى د. رشاد رشدى هو الذى عرفنى على تشيخوف.. وهو كاتب لا يستطيع القارىء أن يفلت من حبه أو الاعجاب الشديد به..

إن مؤلفاته تشرب من نهر الابتكار، والتنوع الدائم. فليس هناك من وتيرة واحدة، ولا تكرار دائم، وليس هناك من قصتين متشابهتين لا في الاشخاص، ولا في الحوادث.. وهو يطرق موضوعات لم يطرقها مؤلف من قبله، حتى ليخيل اليك انه يملك حاسة تمكنه من أن يرى ويسمع ويشعر باشياء لم نحلم نحن بوجودها، وإن كانت تمر تحت انظارنا دون أن نحس بها .

ولقد كتب في احدى رسائله يقول «ان هدف القصة هو الحقيقة الصادقة والمطلقة».

وقد حقق تشيخوف هذا الهدف إلى درجة بعيدة، الامر الذي يجعل منه سيد القصة القصيرة بلا منازع. مثلما كان ديستويفسكي سيد الرواية الطويلة..

عرف تشيخوف كيف ينفذ إلى أعماق النفس الإنسانية، وكيف يعطف عليها ويخفف من قسوة الحكم الذي سيصدره القارئ، على انهيارها إذا كان مقدرا عليها أن تنهار.

كان الناس جميعا أصدقاء تشيخوف.. الفلاحون والعمال والتجار والكهان والمعلمون وضباط الجيش وموظفو الحكومة صغارا كانوا أم كبارا، رجالا أم نساء أم اطفالا.. كان هؤلاء جميعا اصدقاء لتشيخوف..

وهو يحدثنا عن كل شيء في الحياة.. إنه يتحدث عن العربات والفجر والاكواخ، والثلج والخيل والنهر والاصدقاء والخصوم، مثلما يتحدث عن الموت والعار

أحمد بهجت

- من مواليد القاهرة
- خريج كلية الحقوق
- عمل بالصحافة في مجلة الجيل الجديد في الاخبار عام ٥٦
- في عام ٥٧ عمل مع الاستاذ أحمد بهاء الدين في مجلة صباح الخير
- انتقل للعمل بالاهرام من عام ١٩٤٩
- عمل رئيسا لتحرير مجلة الاذاعة والتليفزيون ست سنوات
- كتب حوالى أربعين كتابا مابين المؤلفة والمترجمة وكتب الأطفال، منها: أنبياء الله (٢٤ طبعة)- قصص الحيوان في القرآن (أربع طبعات ، وترجم الى اللغة الهندية) - رحلة الى افريقيا - قناة السويس شريان من دم المصريين و من كتب الأطفال قصص القرآن المصورة(ثلاث طبعات).
- نال وسام الفنون والعلوم من الطبقة الأولى من الرئيس مبارك منذ تسع سنوات ، كما حصل عليه عن سيناريو وحوار فيلم السادات هذا العام.

ترجمت بعض كتبه الى سبع لغات .



أخواتي وأحد أبنائي

والظلم.

وفي فن تشيخوف سخرية مبطنة تتوارى في ثياب الجد وهدفها ان توقظ الخاملين والنائمين.

يقول احد النقاد عن تشيخوف :

ان أول ما يبرز في قصص تشيخوف هو تلك الحوادث البسيطة التي تطفو فوق السطور في عذوبة ملموسة، كروح حزينة تشعر باضطرابات الحياة وهمومها، وتلك المعلومات ، بل تلك اللوحات التي يستوحيها من الحياة اليومية، والتي تفسر نزوات النفس مرسومة بريشة بارعة ترى من ورائها اغوار النفس الحقيقية، وعواطف الإنسان الكئيبة، وتحملك على التفكير في الحقيقة الصادقة والحياة الإنسانية.

وكان في رسمه صور الحزن والدموع والمآسي رحب الصدر لا تخفى عليه لمسة الفكاهة، وكثيرا ما تجد هذه اللمسة سائدة في أكثر المواقف المفجعة.

دور واعٍ لليقظة العربية

لابد من التنويه هنا بالدور الواعي الذي قامت به دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية..

لقد قامت هذه الدار بترجمة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر، ومن خلال مترجميها الاكفاء قرأنا هذا الأدب..

وأذكر أن أول من ترجم تشيخوف في العالم العربي كان فؤاد أيوب وسهيل أيوب..

بعد ذلك دخل الاستاذ سامي الدروبي الذي ترجم ديستويفسكي وهم يقولون عن المترجم إنه خائن، إشارة إلى أنه خلال الترجمة يمكن أن يفلت روح النص الأصلي..

ولقد كان سامي الدروبي مترجما رائعا يحتفظ في ترجمته بجمال النص وروح الموضوع.

***

مضت قراءتي للشعر العربي والأدب العربي إلى جوار قراءتي للأدب الروسي.. وهو أدب بلغ ذروته في القرن التاسع عشر على يد مجموعة من الكتاب مثل تولستوي وجوجول وديستويفسكي

وتشـيـخـوف وبوشكين وليـرمـونتـوف وغيرهم.

فتح لي هؤلاء الكتاب آفاقا جديدة في فـهم الانسـان والحنو على ضـعـفـه البشري ومعرفة حقيقته.

وقد لعب ديستويفسكي في حياتي دورا يشبـه الدور الذي لعبه في حياة الناقد الروسي برديائيف.. مع اختلاف الثقافة يقول الناقد:إن ديستويفسكي أثار فيه من الحماسة والنشوة ما لم يثره كاتب أو فيلسوف آخر.. وهو يقول عنه:

«كنت في كل مراحل حياتي أقسم الناس قسمين

أولـئـك الـذيـن تـأثـروا بـروح ديستويفسكي، وأولئك الذين كانوا عن هذه الروح غرباء».

وهذا هو موقفي تقريبا..

إنني اعتبر الأدب الروسي مدرسة حتمية لمن يشتغل بالفكر أو يحترف الأدب.. وهي مدرسة يعني عدم دخولها حـرمـان الانسـان من اجل صـفـاتـه الانسانية..

***

بدأت أعمل في الصحافة مع موسى صـبـري وعلي أمين في مـجلة الجـيل الجديد في الأخبار ، كان هذا سنة ٥٦.

سنة ٥٧ انـتـقلت إلى العـمـل مع الاسـتـاذ أحـمـد بهـاء الدين في مـجلة صباح الخير..

سنة ١٩٥٩ انتقلت إلى العـمل مع الاستاذ محمد حسنين هيكل في الأهرام وخـلال عـملي في الأهرام اعرت للعمل رئـيـسـا لـتـحـرير مـجلة الإذاعـة والتليفزيون.. واستمرت هذه الفترة ست سنوات .. أمـا بـقـيـة سنوات العـمـر فقضيتها في الأهرام عاملا بالصحافة والكتابة..

والمعروف أن الصحافة يمكن أن تكون رسالة، ويمكن أن تكون حرفة لتوفير لقمة العيش، وفي تصوري أن الصحافة رسالة مهمتها وضع الحقائق تحت أعين الناس وزيادة وعيهم .

وقد حـاولت جـهـدي أن أؤدي واجبي كصحفي يرى أن الصحافة رسالة.. ولست أعرف هل نجحت في هذا أم لا؟

***

وسوف يلاحظ القارىء في كتاباتي وجـود تيارين ربما ظهـرا للنظرة العجلى متناقضين..

تيار من السخرية التي تنبه ولا تجرح، وتيار ديني تشرب جذوره من الصوفية.

وأحب أن أشير في موضوع الصوفية أنني انحنيت عليها ونهلت منها كأدب من آداب التراث .. لا كدين أو طريقة صوفية وليس صدفة أن معظم الصوفية شعراء أو كتّاب أو فلاسفة..

وهم في تصوري يحملون نفسيات فنية شكلت داخلهم الدين بشكل خـاص تقـوم أعمدته على أساس الحب إلى درجة فناء الصوفي عن نفسه وقيامه بالحق وحده.

بقي سؤال أخير عن سنوات التكوين..

سـأتـحـدث هنا عن سنوات التكوين بالنسبة للكاتب، ورأيي أنها لا تقتصر على فترة الشباب والرجولة والكهولة، انما يجب أن تمتد حتى تنتهي الحياة ذاتها وتطوى الصحف . ■

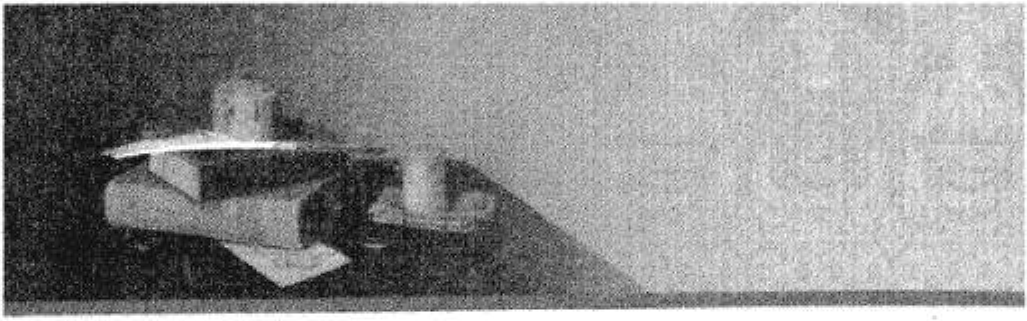
الآثار وجذب السياحة

طالعت بشغف زائد ما جاء في عدد أغسطس ٢٠٠١، تحقيق الاستاذة أماني عبدالحميد تحت عنوان «وادي النطرون - اشهر المعالم المسيحية فى مصر والعالم..» وهو رائع حقا ومما أضفى على ذلك التحقيق رونقا وجمالا تلك الصور غاية الإبداع لأيقونات نادرة.

وفى إطار الفكرة ذاتها، لا يفوتني أن أنوه إلى أن الأديان الإلهية على اختلافها، انما جاءت للتأليف بين الناس، واصلاح الفاسد من عاداتهم ومعتقداتهم، ولذا يتعين علينا عدم تأويلها بالتفريق.. والعداوة، ونجعلها مانعا من التراحم والتواد، وهذا يبدو جليا بين ثنايا التحقيق المشار إليه، خاصة أن الدير ظل مؤسسة تربوية منهجها الأساسي هو انه قد يكون مع الفقر عزاء، ورجاء وسكينة..

وإنني، أمل في أن يتعاون المجلس الأعلى للآثار في مصر مشكورا مع بعثات عالمية لاستكمال البحث والتنقيب عن الآثار القبطية التي لم يكشف النقاب عنها بعد، خصوصا أن ثمة مناطق أخرى زاخرة بتلك الآثار لم تمتد اليها يد البحث خاصة في منطقة «الباجوات» في الواحات الخارجة بالوادي الجديد، لأن هذه الآثار هي بحق عامل جذب قوى للسياحة لانها اشهر المعالم السياحية في مصر، ونحن طرقنا ابواب ألفية جديدة، ولعل يد التوفيق تقود كل من يعمل في هذا الحقل سواء بالبحث والتنقيب او التحقيق هنا وهناك، حفاظا على هذا التراث الذى حافظت عليه الاديرة على مدى سبعة عشر قرنا من الزمان

د. صموئيل لبيب سيحة
باحث تاريخي - المنيا



كانت هنا

كانت هنا
كانت هنا
كالحلم أيام المنى
أتنفس الجو الذى تتنفس
ولروحها عطر يجر هوى النفوس المزمنا
وإذا أتت كان المكان عيون من يتجسس
مازالت الآثار حتى اليوم منها ههنا
ولقد مضت عشر من السنوات لحا كالسنا
وأنا انا
وأنا أنا
أتى إلى هذا المقام بكل عام والها أتحسس
أتسمع الأبواب والجدران كيف توسوس؟
لا ترفعى صوتا لكى أتبينا
إنى لأسمع كل همس يهمس
إنى لأبصر مشيها والخطو والقد الطويل
ووقوفها الفتان فى عز النخيل
وتلفت الغزلان تدرى انها خلق جميل
وجمالها يدعو القلوب لأن تميل
فهى المروعة وهى كالمرتاب
وتحوطها الأتراب
كالحلى الذى عنه غنى
كانت هنا

ومضى الزمان وأهله
بل أهلنا
وأنا أنا
وأنا أنا
مازلت وحدى أحرس
لا يعلم الناس الذى كان الفؤاد - ولم يزل - متضمنا
كانت هنا

محمد خليل الزروق
بنغازي - ليبيا

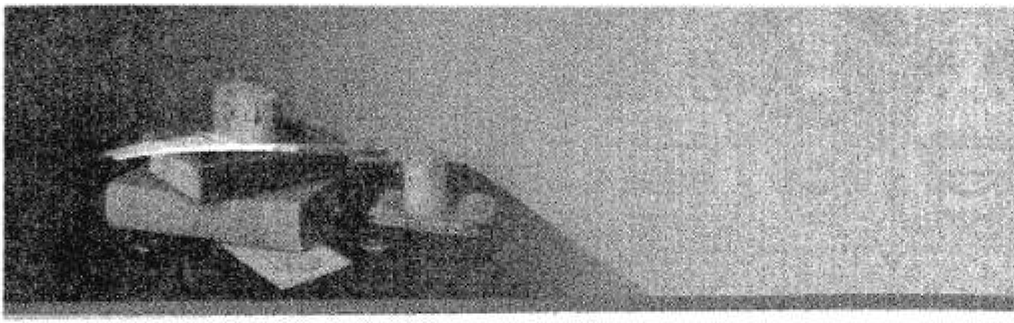
لغات العالم الأخرى

نشرت جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠٠١/٦/٢٠ خبرا تحت عنوان «لغات العالم تنقرض» ومفاده أن منظمة دولية تعنى بمتابعة الاتجاهات والميول المختلفة فى العالم قد نوهت إلى تقرير أعده معهد وولد ووتسن من أن نهاية القرن الحادى والعشرين قد تشهد انقراض ما بين ٥٠٪ و٩٠٪ من إجمالى عدد اللغات المستخدمة فى العالم حاليا.

وجدير بالذكر أن مجلة الهلال قد سبقت هذه المنظمة الدولية وغيرها من المنظمات فى استشراف هذه الحقيقة وذلك من واقع ما نشرته فى عدد ديسمبر ٢٠٠٠ تحت عنوان «مع أدب الرحلات» وبالتحديد فى البند الأخير من المقال الذى يقول:

«لم تعد اللغة حاجزا، وفى تقديرى أن اللغات تتقلص الآن بين الشعوب، وليس من المستبعد ان تسود العالم فى نهاية هذا القرن لغتان أو ثلاث فقط».

عادل شافي الخطيب



حديث .. آخر للقصيد

نام القصيد على جنبيه معتكفا ظنوا جميعا بأن الشيب أجهده

زفوا طبول العزا والغيظ منتفخ وكفنوا (وتدا) كم كان يغمده

صحا القصيد على الأصوات منتبها كيف الموات وعشت العمر عسجده

مالى ومالى ابنلاجى والصبا قدر دعوا (العروض) فهذا الفيض موعده

قبلى أنا كانت الدنيا مؤرَّقة والآن طيرى على الأشجار ينشده

شعر عبدالناصر احمد الجوهرى

دكرنس ـ دقهلية

فى ذكرى سعد حامد

ولد سعد الدين حامد يوسف فى حدائق القبة فى ١٩٢٦/١١/٢٣ تلقى تعليمه بالمدارس المصرية وعمل بوزارة الحربية، ونشر قصته الأولى ليلته الأولى فى مجلة الـ ٢٠ قصة ١٩٤١ التى كان يصدرها محمود كامل المحامى واتبعها بقصص أخرى نشرها فى مجلات الاثنين - الفن - الشهر - العربى - الاذاعة - الاديب - القصة - آخر ساعة - الرسالة - الثقافة - صباح الخير - وغيرها عمل محررا بجريدة الجمهورية من ١٩٥٤ الى ١٩٧٤ وكتب القصة فى جريدة الشعب ١٩٥٦ : ١٩٥٩ وجريدة المساء العدد الاسبوعى ١٩٦٠ ـ ١٩٦٤ وبلغ ما كتبه ٥٠٠ قصة قصيرة نشرها فى ١٨ مجموعة منها : ارواح هائمة - تيار الحياة - امرأة وحيدة - وجهان للخطيئة - آمال ضائعة - امسية للحب - رمال على الشاطىء - أقصر الطريق - ليل وحنان - بقايا عطر وغيرها.

ترجمت بعض قصصه الى الانجليزية والفرنسية والروسية حصل على الميدالية الذهبية من المجلس الأعلى للفنون والاداب ١٩٥٧.

وصدرت له رواية البحث فى النسيان ١٩٧٣.

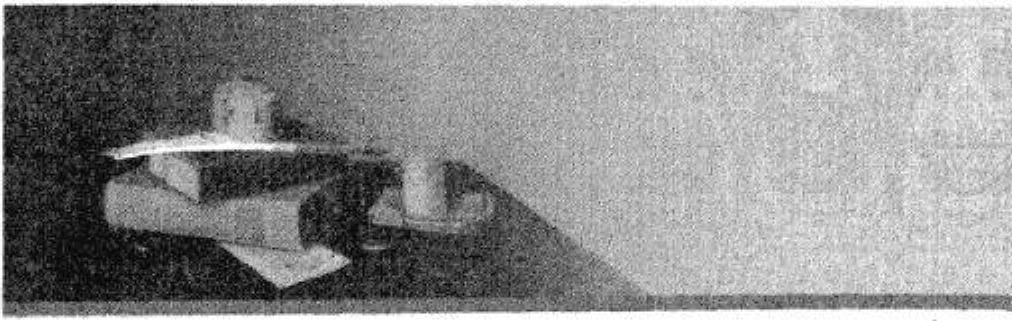
نشرت عنه دراسات بأقلام كبار النقاد :د. بنت الشاطىء - محمود تيمور - سلامة موسى - وفؤاد دوارة - عبد العزيز الدسوقى وغيرهم
ولقد انتقل الى رحمة الله فى ١٩٩٤/٨/١ عن ٧٣ عاما

رجب عبدالحكيم بيومي
حلوان - المعصرة

ربما سحج الأمر

يالوعتى من ظالم
أضنى البشر
أبحرت فيه بزورقى
وأخذت أقتات
المحال وأرتقى
جسر الخطر!!
ويدق أعماقى الحنين
فالنار تجرى فى ثنايا
العاشقين
والأرض تبحث عن مطر؟!
لكننى دون الورى
أدمنت عشقى للجمال
حلقت فى دنيا المنى
كى أقتفى ذاك الأثر
وهناك فى ركن بعيد
حيث الغياهب والرؤى
قالت تعال
وانتظر
وتباعدت والجرح
يبكى مهجتى
والزهر يروى
للخمائل قصتى
يروى حكاية من
تعانده الحياة
ويرتضى طول السفر؟!
وأظل أشدو
رغم أنات الوتر
أدعو الاله مرددا
يا من تجيب المبتلى
هون على قلبى
تباريح القدر

حاتم عبدالمحسن غيث
الدقهلية



ذق لهيب الجرح

مــزقــوهم إربا كى يطعــمــوا ... ألم الطعنة أولاد الهــمــج
عــرفــوهم:أن هذى أرضنا ... ويانا نفــتــديها بالمهج
ويانا لانبــالى غــدرهم ... إن مــعنا الله يأتى بالفــرج
اجعلوا الاحجار شهبا تلتهمهم ... حــولوا التــربة زلزالا يرج
اشعلوا الرهبة فى أحشـانهم ... ارسلوها لدمــاهم تمتــزج
يا شــبابا يشرق النصر بهم ... ويرى كــالصــبح لما انبلج
فــبكمو نرجع حــقــا سلبوه ... واخــتــفى عنا بدرب منعــرج
وبكم نستــر عرضا فــضحوه ... ونغطى عــار قــادات همج
إن قلبى يا أحــبــانى مــعكم ... ولسانى فى دعــانى قــد لهج
لكم العــزة والنصــرة يامن ... تبذلوا أرواحكم دون حــرج

درهم جبارى
سان فرانسيسكو

عصر الدكاترة

لم أفهم ماذا يقصد د. جلال أمين بمقاله فى الهلال يوليه ٢٠٠١ المعنون «ماذا حدث للمصريين من عصر الأفندية الى عصر الدكاترة؟» فإذا كان يقصد كثرة أعداد الحاصلين على الدكتوراة أكثر من اللازم فى مصر. فإن الاحصاءات تقول بعكس ذلك حيث إن نسبتهم إلى عدد السكان أقل من ١٩٪ للحاصلين على ماجستير ودكتوراه معاً حسبما ورد فى أحد الأعمدة بالأهرام منذ ما يقرب من عام وهى نسبة ضئيلة مقارنة بعدد السكان

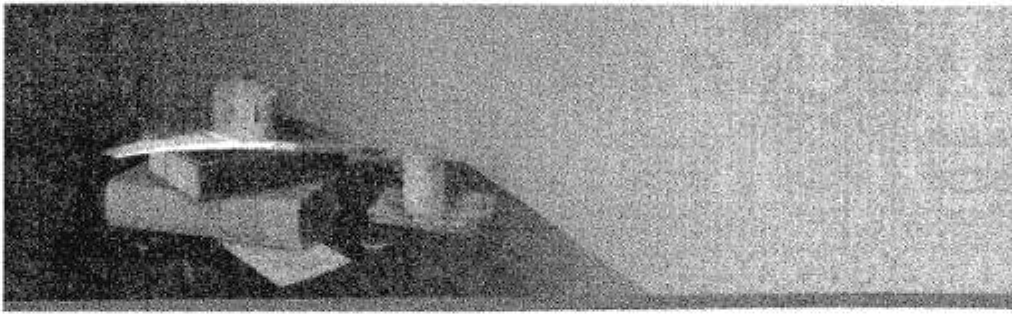
وبمثيلاتنا من الدول النامية! أما إذا كان سيادته يقصد انخفاض المستوى العلمي للحاصلين على الدكتوراه عن ذى قبل، فلا توجد لدينا بحوث علمية تؤيد ذلك، ويرى البعض أن بحوث الدكتوراه الآن أفضل مما سبق. ونرجو أن تجرى البحوث العلمية التى تتناول هذه القضية من جميع جوانبها، ونتمنى أن نرى اليوم الذى تزيد فيه نسبة الحاصلين على الدكتوراه فى مصر الى ان تقف فى مصاف الدول المتقدمة.

د. محمود عبدالرءوف كامل
مدرس الإعلام بجامعة المنوفية

نظرات فى الرياضة

ختام نهمل وقتنا المأمولا ... ليغوص فى بحر الضياع قتيلا
إن الرياضة كالرياض إذا نمت ... غناء تعبق أنكحوها النيلا
فإذا تهاوت كالصحارى قد غدت ... السعد طلقها ثلاثا قيلا
فمليكة الألعاب أطبق سطوها ... كرة تصادر للانام عقولا
وبسحرها مس يكهرب جمعهم ... بدر الحصافة أشبعوه أفولا
نعم الرياضة أن اراك بمعول ... تستل كنزا بالثرى مجبولا
تقضى فراغك غارساً أو زارعا ... يسقى جبينك جنة وحقولا
تنمى بأرضك كرمة مخضرة ... وأمام بيتك نعنا وبقولا

أبو النصر التميمى
الخليل - فلسطين



ردود سريعة

* عقيل بن ناجي المسكين - المملكة السعودية:

نشكركم على ثقتكم الغالية فى الهلال، أما بالنسبة لكتابكم «المشهد الثقافى الراهن فى المملكة العربية السعودية» فمجلة الهلال حريصة على التنويه بكل ما يصلها من اصدارات ولا يؤخر ذلك سوى كثرة المواد المعدة للنشر.

* محمد السيد نمير - ادكو - بحيرة:

نشكركم على تصويبكم بما جاء فى مقال الاستاذ حسن سليمان عن التصوف والحب بخصوص الخلط بين القول «اذا اراد الله بعبد خيرا دله على نفسه» وبين أيات القرآن الكريم.

* محمد شبل: بخصوص مقالكم عن «ثوابت الامة ماهى» نعتذر عن عدم نشره لانه نشر بعدد ١٩ اغسطس من مجلة اكتوبر.

* حسام مصطفى ابراهيم - شربين: محاولاتك القصصية تبشر بموهبة طيبة

* محمد هشام عبية - شربين : قصتك القصيرة جدا محاولة واعدة.

* د. محمود عبدالقادر محمود الاسكندرية : قصتك «العصفور» جيدة

* حسن ابو الغيط : وصلتنا مجموعة جيدة من قصائدك نأمل فى ان تأخذ دورها فى النشر

* محمد عبدالخالق شربي - المنصورة : قصيدتك «من قلبى» جيدة

الكلمة الأخيرة

الخلاص بالفن



بقلم : د. عبدالمنعم تليمة

تعب كلها الحياة .

فلا يزال البشر، بعد تطور إنسانى طويل عبر آلاف – بل ملايين السنين – تسود علاقات آحادهم آفات وشرور من مكر وخديعة وابتزاز وخيانة، ولاتزال العلاقات فى كل مجتمع تعانى التناحرات الطائفية والعرقية والطبقية بما تثمره هذه التناحرات من قهر سياسى وقمع وبطالة وفساد، ولاتزال الأبنية الثقافية والقومية والحضارية تتصادم بما يثمره هذا التصادم من حروب مدمرة وهيمنة معتدية ظالمة واضطراب شامل، بل لاتزال البشرية عاجزة عن مواجهة عنفوان الطبيعة الذى يتبدى فى الأوبئة القاتلة والأمراض المتوحشة والفيضانات الكاسحة والزلازل والبراكين المخربة... إلخ.

بيد أن من قوى الإنسان وطاقاته ونشاطه ما يجعل الحياة متصلة والاستمرار ممكناً والعيش محتملاً، وقاعدة تلك القوى والطاقات والنشاطات: الابداع الفنى. ذلك أن طاقة الابداع لدى البشر هى جوهر طبيعتهم، ذلك الجوهر الذى يميزهم عن سائر المخلوقات من أحياء وأشياء، ولذلك فإن تحقق ذلك الجوهر هو الذى يمكن البشر من مواجهة كل عوامل تعطل حياتهم على ظهر هذا الكوكب الأرضى.

إن الفن لا يعيد إنتاج حياة الناس اليومية والعادية، إنه لا يعكس واقع حياتهم وصورة عالمهم عكساً آلياً مرآوياً، وإنما هو يخلق لهم واقعاً موازياً رمزياً للواقع والعالم المعيشين. هذا الموازى الرمزى يحد من الواقع الراهن الماثل واقعاً منشوداً مثالاً هو الذى يسعى البشر إلى بنائه وتحقيقه. إن الفن ليس ثمرة لوهم فردوسى محال لكنه ثمرة لخيال نشط يصوغ أشواق البشر وآمالهم وخططهم وهم يناضلون فى اتجاه واقع ممكن وعالم عادل سالم إنسانى نبيل. من هنا فإن البشر أجمعين فنانون، فالانسان هو الكائن الفنان، فالمبدع والمتلقى يلتقيان: المبدع يصوغ ويشكل فإذا تم له عمله صاح صيحة الفرح الكونى العظيم وصيحة الانتصار على الانكسار، والمتلقى ذو الذائقة المدربة والاتصال الصحيح بالفن الحق ينتهى من تلقى العمل بذات الصيحتين، صيحة الفرح وصيحة الانتصار، فالمبدع – إذن – والفنان شريكان، عند الماهية والمهمة يلتقيان، وفى هذه المرحلة الراهنة من التطور الإنسانى الطويل صار تحرير عمل المبدع وتدريب ذائقة المتلقى حقا ثابتا من حقوق الإنسان.

فى هذه المرحلة الراهنة يتبدى الوعى حثيثاً بأهمية توفير أوسع الحريات للابداع لتحريره من كل مايعطل توهج جوهر الإنسان وتحققه، كما يتبدى الوعى بأهمية توفير أرفع التدريبات لكل إنسان، التدريب المنهجى المنظم لذائقته الجمالية وتوفير اتصاله الصحيح بالخوالد من كل الموروثات وبالمستحدثات الجديدة من إبداع كل الثقافات.

ها هنا يصير الفن – إبداعاً وتلقياً – حقاً من حقوق كل أحد، كحقه فى الماء والهواء.



بطاقة ماستر كارد مصر للطيران
البنك الأهلى المصرى الذهبية
أكبر خصومات على تذاكر السفر بهذه الدرجات :
• خصم يصل إلى ٥٠% للدرجة الأولى .
• خصم يصل إلى ٤٠% لدرجة رجال الأعمال .
• خصم يصل إلى ٣٠% للدرجة السياحية .
أكبر خصومات على المشتريات و الخدمات :
• خصم يبدأ من ٥% على مشترياتك بهذه البطاقة من السوق الحرة أو على متن الطائرة .
• خصم يبدأ من ١٠% على بعض الخدمات العلاجية بمستشفى مصر للطيران .
هدايا شهرية .. تذاكر دولية :
فرصة للفوز بتذكرتين دوليتين فى سحب شهرى
EGYPTAIR
الأسماء الكبيرة .. مزاياها كبيرة
مصر للطيران
EGYPTAIR
MasterCard
البنك الأهلى المصرى
NATIONAL BANK OF EGYPT


روايات مصرية للجيب
النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه
روايات مصرية للجيب
لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات
البورصة
المؤسسة العربية الحديثة

الهلال

هذا زمن
الحق الضائع

أكتوبر ٢٠٠١ - الثمن ٤ جنيهات

لايعرفُ فيه مقتولٌ مَنْ قاتِلُهُ ومتى قتله
ورؤوسُ الناس على جثث الحيوانات
ورؤوسُ الحيواناتِ على جثث الناس
فتحسس رأسك!
فتحسس رأسك!

عشرون عاما على رحيل
صلاح عبد الصبور
جزء خاص



أمريكا..
الانتقام
بدلا من
العدل!



لوحة : مقهى فى أسوان
للفنان : راغب عياد



لوحة وفنان

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات ص.ب: ٦٧ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال - تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٧٠٠٠ ليرة - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



الغلاف تصميم الفنان

محمد أبو طالب

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

العام العاشر بعد المائة
رجب ١٤٢٢هـ - أكتوبر ٢٠٠١م

الأبواب الثابتة



عزيزى القارئ

العدل والانتقام

عندما وقعت الواقعة، وتحولت الطائرات المدنية إلى صواريخ كروز ذات توجيه بالغ الدقة في التصويب، والتي أصابت رموز القوة الأمريكية، و قضت على حياة آلاف الأبرياء، وقف العالم على مفترق طرق وأعلنت الولايات المتحدة بداية الحرب العالمية الثالثة!

وهي أغرب الحروب، فالعدو مجهول أو بالأحرى هو كالأشباح يظهر ويختفي، وليس الطرف الثاني من الحرب جيوشا نظامية أو قواعد عسكرية، بل جماعات ساحة عملها هذا العالم الواسع .

وأظهرت هذه العملية الإمكانيات والقدرات الفنية العالية التى استخدمها الارهابيون .

وتحضرني هنا إحدى حكايات جحا المشهورة عندما شاهده أحد المارة يبحث باهتمام عن شيء مفقود في ظل ضوء ساطع.. فسأله: ما الذى تبحث عنه ياجحا ، وأين فقدته؟ فتذكر ما ضاع منه وأشار الى مكان مظلم وأجاب «هناك» وعاد وسأله الرجل: ولماذا إذن تبحث هنا ولا تبحث هناك؟! فأجاب جحا : «كيف أبحث في مكان مظلم، لا يمكن أن اعثر فيه على ما أريد!» .

ومنذ فترة يتناول أصحاب الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية مسألة يعتبرونها أخطر ما سيواجه العالم فى القرن الحادى والعشرين ، عندما تصبح الحكومات أكثر قوة وتملك أحدث وسائل السيطرة على الشعوب سواء بالنسبة لاستخدام الأجهزة الفنية الدقيقة، واستخدامها نتائج ثورة الاتصالات والمعلومات ، وعندها سيتحالف الأشرار ويقوم مثلث الخطر، الارهاب والجريمة المنظمة وتجار المخدرات، وتقوم من هؤلاء مجموعات صغيرة عالية الكفاءة، ويستخدمون الأسلحة غير التقليدية وهى الالكترونية أو الجرثومية أو الذرية، وهى التى ستجعلها ثورة المعلومات متوفرة لمن يطلبها، ويهددون دول العالم كبيرها وصغيرها، قويها وضعيفها، يستخدمون التكنولوجيا المتقدمة، ويفرضون شروطهم، وتنتج هذه الشروط من تحالف الشر والعبقرية، وتحالف التعصب والتقنية.

هذا هو الخطر الذى يتنبأ به الباحثون، والذى جاءت أحداث نيويورك وواشنطن لتقدم نموذجا حيا عليه .

يقول أحد هؤلاء الكتاب وهو الكاتب الامريكي المعروف ألفين توفلر فى كتابه «الحرب وضد الحرب» ما نصه.. «أكتب هذا الكتاب من أجل كل أبرياء الغد، الذين سيقتلون بأسباب لا يعرفونها ولا يفهمونها» .

إنه يتناول مواجهة الحرب والعنف فى ظروف صعبة نخلقها بأنفسنا ونحن نتجه الى المستقبل، ويضيف :

«لا يمكن ان ننقذ البشر من هذا الخطر الذى يتهددنا، إلا إذا قضينا على الجوع، وعالجنا التلوث، وقدمنا تكنولوجيا نظيفة تخدم البشرية.

وعندما يقبل أبناء هذا القرن الجديد التنوع بكل صوره: تعدد الثقافات والحضارات، اختلاف العادات والتقاليد للشعوب، فهذا التعدد والاختلاف هو سمة القرن الجديد، وهو الذى يساهم فى تشكيل ملامح المستقبل» .

يقول وكأن الكاتب يرى بعين المستقبل أبراج مركز التجارة العالمية وهى تتهاوى، والطائرة الصاروخ التى تصطدم بمبنى البنتاجون .. «إن طريقة معالجتنا للعنف المتفجر هى التى ستحدد مصير الأجيال المقبلة، وهل سيحيا أبناؤنا أم يموتون ضحايا ».

وسبق ان توصل ماكنمارا وزير الدفاع الأسبق فى كتابه «جوهر الأمن» إلى نتائج مشابهة عندما قال: «ان القوة التى وصلت الى منتهاها بالتسلح النووى لا تؤدى الى تحقيق الأمن». فالأمن بمعناه الشامل يرتكز على الحكمة والعدل والحرية للكافة، والمساهمة فى تحقيق التنمية فى دول العالم المختلفة».

وعلى أمريكا اليوم أن تعيد حساباتها، وبدلا من أن تنطلق المدافع والطائرات والصواريخ. وبدلا من تقسيم العالم، وبدلا من إشعال الحرب العالمية الثالثة ، بدلا من كل ذلك تقف ضد القهر وضد الظلم . ■

المحـــــــرر



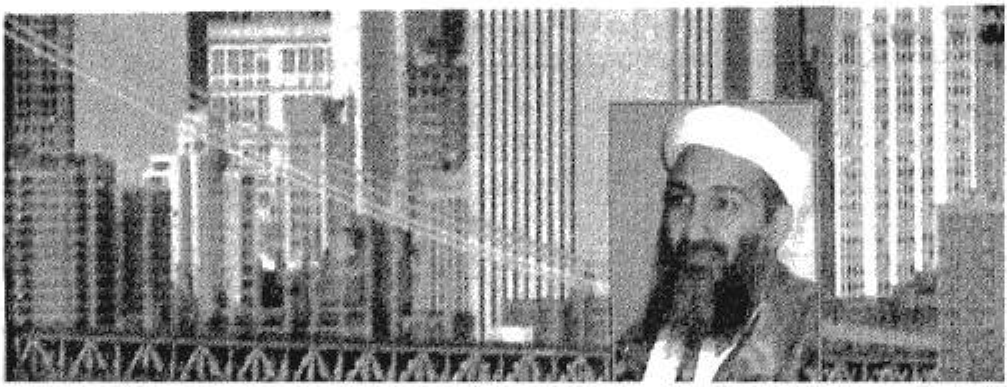
من المسئول

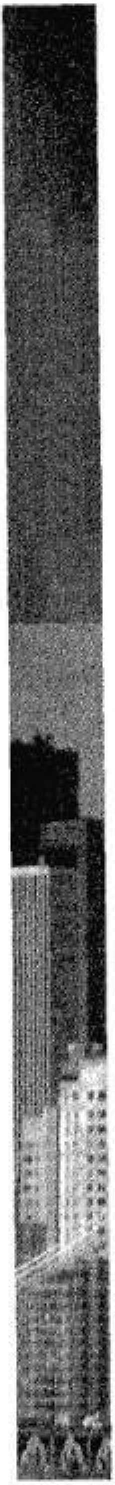
عن وصول المتطرفين الى الحكم فى أفغانستان؟

وعن التطرف والارهاب فى مصر؟

بقلم

حسين أحمد أمين





كان الأحرى بالولايات المتحدة قبل أن تشير بأصبع الاتهام الى هذه الجهة أو تلك، باعتبارها المسئولة عن الأحداث الرهيبة التى وقعت فى نيويورك وواشنطن يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر، أن تتأمل مليا، وفى شجاعة، فيما اذا كانت هى ذاتها تتحمل شطرا عظيما من المسئولية عما وقع فى عقر دارها. وهو ما يذكرنا بالمثل العربى عن الذبابة التى صاحت: من يوصلنى الى العسل وله قرش؟، فلما وصلت اليه لصقت به ولم تستطع فكاكا، فصاحت: «من يخلصنى منه وله قرشان؟!».

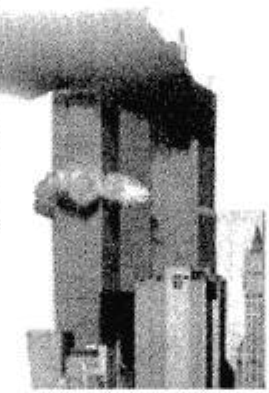
ينطبق هذا المثل على الولايات المتحدة فى تورطها فى حرب فيتنام لمدة تسع سنوات (١٩٦٤ - ١٩٧٣)، وعلى الاتحاد السوفييتى فى تورطه فى أفغانستان لمدة تسع سنوات (١٩٧٩ - ١٩٨٨)، وعلى كل من الولايات المتحدة وعدد من الدول الإسلامية (من بينها مصر والجزائر) فى مساندتها ودعمها للثوريين الإسلاميين فى حربهم ضد القوات السوفييتية وقوات النظام الماركسى الموالى للاتحاد السوفييتى فى أفغانستان.

الخانقة الافغانية

فى عام ١٩٧٣ أطاحت ثورة بيضاء بالنظام الملكى فى افغانستان، وأعلن قيام النظام الجمهورى برئاسة الجنرال محمد داود. غير أنه ما مرت خمس سنوات حتى وقع انقلاب آخر يتزعمه الماركسيون، فاستولى نور الدين تراقى على الحكم بمساندة الاتحاد السوفييتى، وهو ما دفع المسلمين الأفغان إلى التمرد فى المناطق الجبلية فى الشمال الشرقى من أفغانستان أولا، ثم فى بعض الاقاليم المتاخمة لباكستان المتعاطفة مع تمردهم، ثم انتشر التمرد الى الداخل حتى بلغ العاصمة كابول ذاتها. وقد أزعج السوفييت انتشار مشاعر الكراهية لهم لدى مختلف الطبقات والقبائل، واغضبهم عجز حكومة تراقى عجزا فاضحا عن قمع المتمردين. فإذا هم يدبرون خلال ١٩٧٩ انقلابا عسكريا ضد الرئيس تراقى (لقى مصرعه أثناءه)، وأحلوا مكانه حفيظ الله أمين الذى بدا هو الآخر عاجزا عن قمع الثورة، فأطاحوا به وقتلوه خلال العام نفسه، ثم لم يروا بدا من التدخل

بأنفسهم، فبعثوا بثلاثين ألف جندي سوفييتي الى أفغانستان في أواخر ديسمبر ١٩٧٩، وأقاموا في كابول حكومة عميلة، ونصبوا بابراك كارمال رئيسا للجمهورية.

وكما أن الولايات المتحدة بدأت وجودها في فيتنام الجنوبية عام ١٩٦٣ بسبعة عشر ألفا من الخبراء العسكريين الأمريكيين، ثم اضطرت عام ١٩٦٥ الى إيفاد ٧٥ ألف جندي أمريكي لمحاربة الشماليين والفيتوكونج، حتى وصل عدد أفراد القوات الأمريكية عام ١٩٦٨ الى ٥١٠.٠٠٠ جندي، كذلك فشل الثلاثون ألف جندي سوفييتي في قمع تمرد الأفغان (خاصة بعد تفاقم المشكلات السياسية والاقتصادية خلال السنوات التالية لتدخلهم)، فاضطر الرئيس ليونيد برجينيف الى زيادة القوة العسكرية السوفيتية في أفغانستان من ثلاثين ألفا في ديسمبر ١٩٧٩، الى ٨٥ ألفا في اكتوبر ١٩٨٠، ثم وصل العدد الى ١١٠.٠٠٠ في نهاية ١٩٨٨. ومع ذلك فقد استمرت القلاقل ومظاهرات الطلبة والاضرابات العامة، واتسع نطاق ظاهرة



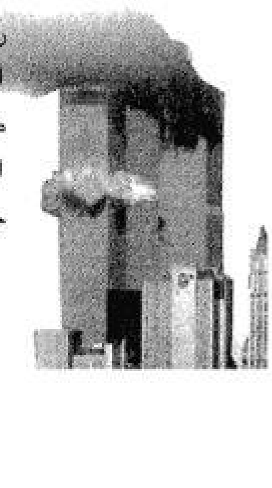
اختطاف او اختفاء او فرار الجنود السوفييت العاملين هناك، كما زاد عدد الفارين الأفغان من الخدمة في الجيش (الذي تناقص حجمه من ٨٠.٠٠٠ وقت التدخل السوفييتي الى ٣٢.٠٠٠ بعد التدخل بستة اشهر فقط)، علما بأن معظمهم كانوا يفرون بأسلحتهم للانضمام الى الثوار. كذلك استمر دون توقف هروب اهالي القرى الأفغانية الى دولة باكستان الاسلامية، حتى وصل عدد الفارين في سبتمبر ١٩٨٠ الى تسعمائة ألف أفغاني، اي ما يعادل ٦٪ من مجموعة سكان افغانستان.

وقد تكرر في افغانستان نفس الوضع الجزائري خلال سنوات الثورة على الاستعمار الفرنسي (وهي ثورة دامت هي أيضا تسع سنوات). فإذا كان لابد في الجزائر من راية واحدة تجمع حولها الجميع، لم يكن بالإمكان او المستحب ان تكون راية العروبة هي راية المجاهدين، فكان أن دشن الجهاد ضد الفرنسيين باسم الانتماء الإسلامي الذي يجمع بين العرب والبربر. كذلك كانت أفغانستان قبل قيام الحكم الماركسي مجرد مجموعة من القبائل المتناحرة معظم الوقت، ولم يكن ولاء أفرادها للأمة الافغانية في مجموعها، وانما هو للقرية او العشيرة او العائلة.

غير أن الغزو السوفييتى اسهم دون شك فى التوحيد بين القبائل وازالة الخلافات بينهـا، لا فى سـبـيل تحـرير الدولة الافغانية والدفاع عن استقلالها ، وانما فى سبيل تحرير المسلمين الافغان من حكم «الكفـرة» . وهكذا ارتبط الجـهـاد الأفغـانى منذ البداية بالدفـاع عن راية الاسلام. وهو مفهوم سرعان ما دخل فى وعى معظم أفراد الشعوب الاسلامية خارج أفغانستان، وهم الذين لا نعرف ان أحـدا منهم - بالرغم من تعـاطف الغالبية مع فيتنام الشمالية والفيتكونج فى حربهما ضد الامريكيين - فكّر فى التطوع فى الحـرب الفـيتنامـيـة ضـد الولايات المتحدة، فى حين مسّت الحرب الأفغـانية فى نفوسهم وترا حساسا، وأثارت شعورهم بالغيرة على العقيدة. ولم يكن قد مر عام ٠واحد على الغزو السوفييتى لأفغانستان حين اجتمع فى اسـلام اباد (عـام ١٩٨٠) مـؤتمر وزراء خـارجيـة الدول الاسـلاميـة الذى أدان الاحتـلال السـوفييتى بقـوة، ودعـا الى تكاتف الشعوب والحكومات الاسلامية ضـده، واسـتـخـدام كـافـة الوسـائل لاستئصاله.. وقد كـانت هذه الدعوة بمثـابة اعطاء الضـوء الأخـضـر لتدفق المتطوعين من مـخـتلف أنحـاء العـالم الإسـلامى للاشتـراك مع أفـراد الشـعب الأفـغـانى فى الجـهـاد ضـد المعـتـدين السوفييت .

فأما السوفييت أنفسهم فإنه بتفاقم ورطتهم ومتاعبهم فى أفغانستان، ارتفعت عقيرتهم تنسب القلاقل وأعمال التمرد، لا الى وجودهم فيها ، ولا الى رغبة الشعب الافغانى فى التخلص من حكمهم وحكم عملائهم، وانما الى «المخربين» الوافدين عن طريق باكـسـتـان (وكـان من بينهم اسامة بن لادن)، والى دسـائس الولايات المتحدة المناصرة بقوة لهؤلاء «المخربين».. وقـد كـان فى هذا الاتهـام جـانب من الحقيقة، لا الحقيقة كلها . فباكستان الإسلامية كانت تخشى خشية عظيمة على استـقـلالهـا وكيـانهـا من وجـود السـوفـيـيت على حدودها، ووجـود نظام شيوعى على باب دارها، خـاصـة مع ادراكها مدى تعاطف الاتحاد السوفييتى مع الهند فى صـراعـهـا المسـتـمـر مع باكسـتـان حول كشـمـيـر وغيـرها من القضايا . وفى مقابل ذلك كانت الولايات المتحدة والصين تشجعان باكستان على اتخـاذ مـوقف مناضل مـعـاد للوجـود السـوفـييـتى على أرض جـارتهـا .. وأما الولايات المتـحـدة، فـلاشك فى أنه قـد أطربهـا وأسـعـدها أن ترى الاتحـاد

السوفييتي وقد وقع في ورطة حرب مريرة منهكة طويلة الأمد على أرض أجنبية، شبيهة بورطتها هي ذاتها وفضيحتها في فيتنام . كذلك فإنه ربما دار في خلدها وقتئذ أن ذلك التورط السوفييتي في افغانستان قد يكون مؤذنا بتفاقم المشكلات داخل الاتحاد السوفييتي نفسه، وبتداعي معنويات افراد القوات المسلحة، وربما بانهاك النظام الشيوعي.. على أي الأحوال، فقد بادرت الولايات المتحدة منذ الغزو السوفييتي لأفغانستان، بتعضيد موقف باكستان العدائي لنظام الحكم الجديد في جارتها، وإقدامها صراحة على تقديم العون المعنوي والمادي الى الافغان الهاربين إليها، والعون العسكري للاسلاميين المتمردين داخل افغانستان، وتوفير التدريب العسكري والأسلحة للمتطوعين الوافدين إليها من مختلف الأقطار الاسلامية. وقد عبرت الولايات المتحدة للأنظمة التي تربطها بها علاقات قوية في تلك الاقطار عن رغبتها في الا تقف تلك الأنظمة في وجه ميل مواطنيها الغيورين على الاسلام الى التطوع للقتال جنبا الى جنب مع



المجاهدين الأفغان .

فإن كانت الولايات المتحدة قد حققت بهذه السياسة عددا من أغراضها تجاه الاتحاد السوفييتي، فلا ريب انها لم تكن في ذلك الحين تتوقع ان تؤدي خططها - بعد انسحاب السوفييت من افغانستان في أوائل ١٩٨٩ - الى ظهور مشاكل ضخمة، فيها هي نفسها، وفي عدة دول عربية واسلامية ممن استجابت انظمتها للنداء الأمريكي بالسماح للمتطوعين من أبنائها بالاشتراك في الجهاد وقد كانت مصر من بين تلك الدول .

الخلفية المصرية

بدأ كل من عبدالناصر والسادات عهده بمحاولة لكسب ولاء الإسلاميين، معتقدا ان بوسعه استخدامهم لتحقيق مآربه السياسية، ثم انتهى باتخاذ قرار مواجهتهم حين رأى قوتهم وقد تجاوزت الحد المرغوب فيه، أو المتفق عليه. فأما عبدالناصر ورجاله ، حتى قبل ثورة ١٩٥٢، فقد كانوا يرون من المصلحة ضمان تأييد جماعة الإخوان لحركتهم، واستخدامهم في كسر شوكة الاحزاب السياسية القائمة التي خالوا انها ستشكل عقبة في سبيل تنفيذ سياساتهم. وأما السادات، فقد وضح فور توليه الرئاسة عام ١٩٧٠ انه كان يبالغ في



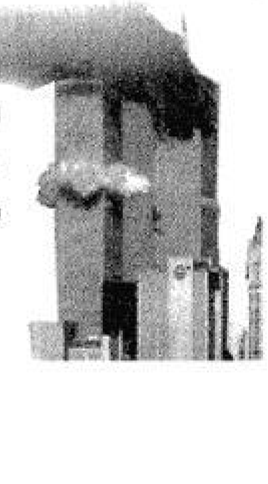
الانقاذ الجوي يشارك في نقل ضحايا الارهاب

تصوره لقوة اليساريين والناصريين، وفى ظنه ان السبيل الأوحد امامه الى زعزعة كيانهم هو ان يحظى بتأييد وعون بعض زعامات الحركات الاسلامية، والتحالف معها من اجل التراجع عن اشتراكية عبدالناصر، واحلال سياسة الانفتاح الاقتصادى مكانها، وفك عرى الروابط مع الاتحاد السوفييتي. وكان ان سوى السادات خلافاته مع معظم الجماعات الاسلامية فى صيف ١٩٧١، فاتحا امامها ابواب النشر ووسائل الاعلام، ومزودا اياها بالمال والسلاح من أجل مواجهة اليساريين وقمعهم، ومن الهيمنة على اتحادات الطلبة وغيرها .

وفى نفس الوقت ، تدفقت الهبات المالية السخية على الجماعات الاسلامية من عدة دول تتبنى النظام الاسلامى، ومن شخصيات عربية، على رأسها اسامة بن لادن ، يهمها استئصال الأيديولوجيات اليسارية، والتأثير فى سياسة مصر التى يرونها أهم دول العالم العربى، وقد ساهم هذا العون الضخم فى تعزيز ثقة الجماعات الاسلامية المصرية فى نفسها، حتى بدأت تحسب أن بمقدورها معاملة النظام الحاكم معاملة الند للند، بل وأن تكون دولة داخل الدولة.. ولم يدرك السادات إلا عد فوات الأوان - وفى السنتين أو السنوات الثلاث الاخيرة من حياته - خطر هؤلاء الاسلاميين عليه وعلى نظامه، وصعوبة إعادة المارد إلى القمقم الذى وضعه عبدالناصر فيه، والذى اخرجه هو منه .

المصريون «الأفغان»

استجاب النظام المصرى لطلب الولايات المتحدة منه أن يوافق على تطوع الإسلاميين المصريين للقتال فى صفوف المجاهدين الأفغان فبالإضافة إلى الرغبة فى إرضاء الأمريكيين رأى أن هذه الموافقة قد تتيح أمامه فرصة التخلص من بعض العناصر الأشد تطرفا وعدوانية ، والأكثر فعالية داخل الجماعات الإسلامية، فى الوقت الذى تبدو فيه الموافقة دليلا على حرص النظام على التجاوب مع مطالب تلك الجماعات ولم يدرك النظام إلا بعد عودة بعض هؤلاء المتطوعين إلى أرض الوطن وانتشار البعض الآخر فى دول المهجر عقب انسحاب السوفييت من أفغانستان، وبعد أن كانت العلاقة قد ساءت لدرجة كبيرة بين النظام والجماعات المتطرفة التى كانت قد شرعت فى تهديد الاستثمارات الأجنبية فى مصر، وفى مهاجمة السياحة التى تشكل المصدر الرئيسى للعملات الصعبة، مدى فداحة الخطأ الذى ارتكبه باستجابته للمطلب الأمريكى الغبى وسماحه لهؤلاء المتطوعين بالسفر، وكيف كانت تلك الاستجابة



وذلك الإذن مجرد فاتحة طور رهيب فى تاريخ أعمال العنف فى مصر .

بارك النظام الدعوة إلى التطوع وسمح للإسلاميين بجمع التبرعات للمجاهدين الافغان ، بل وتولت أجهزة حكومية الخصم من أجور ومهايا بعض العاملين والموظفين بالدولة التقديم المساندة المالية لهؤلاء المجاهدين ، وعبرت عن رضائها عن عزم عدد من النقابات - كنقابة الأطباء - إيفاد أعضاء فيها إلى المعسكرات فى مناطق الحدود بين أفغانستان وباكستان للتدرب فيها قبل خوض القتال ضد السوفييت ، وأمنت على دعوة الجماعات إلى الجهاد كفرض دينى، وهو ما تعتبره الجماعات الإسلامية الفريضة الغائبة فى المجتمع الإسلامى المعاصر .

فى هذه الأثناء كان أسامة بن لادن وغيره من الأثرياء والعلماء السعوديين قد اقاموا فى جدة ومكة مراكز لاستقبال المتطوعين من جميع أنحاء العالم الاسلامى، والانفاق على نقلهم الى الحدود الباكستانية الافغانية، كما اسهم عدد من الاثرياء العرب - بتعضيد من الولايات المتحدة - فى تأسيس كتيبة عربية يشرف عليها الفلسطينى عبدالله عزام ، وهى الكتيبة التى انخرط فيها



المجاهدون الافغان يدافعون عن وطنهم ضد القوات الروسية الغازية

المتطوعون من مصر قبل ان تقيم الجماعة الاسلامية المصرية معسكرا خاصة بها . وكان المصريون اعتبارا من عام ١٩٨٤ يوزعون فور وصولهم الى بيشاور على تلك الحدود على المعسكرات المختلفة فى الاراضى الافغانية.

فى تلك المعسكرات اتيحت للجماعات المصرية فرصة نادرة للتدريب العسكرى، واستخدام مختلف صنوف السلاح، ولإقامة علاقات وثيقة بأفراد الحركات الاسلامية فى دول عديدة، وكذا بالاثرياء العرب المستعدين لتمويل عملياتهم فى مصر بعد انقضاء الصراع فى افغانستان. كذلك فقد اكتسبوا مهارات وخبرات واسعة فى مجال التخطيط المحكم لعمليات ارهابية باهرة، وجمع المعلومات عن الأهداف ومسرح العمليات واعداد «الطليعة المجاهدة» او الكادر القتالى ذى الكفاءات غير العادية. وإحكام الروابط بين القيادات فى الخارج وبين الكوادر فى الداخل التى تكلف بالعمليات التخريبية او الاغتيالات، وتطوير وسائل الاتصال بين الأعضاء فى الداخل والخارج.

●●●

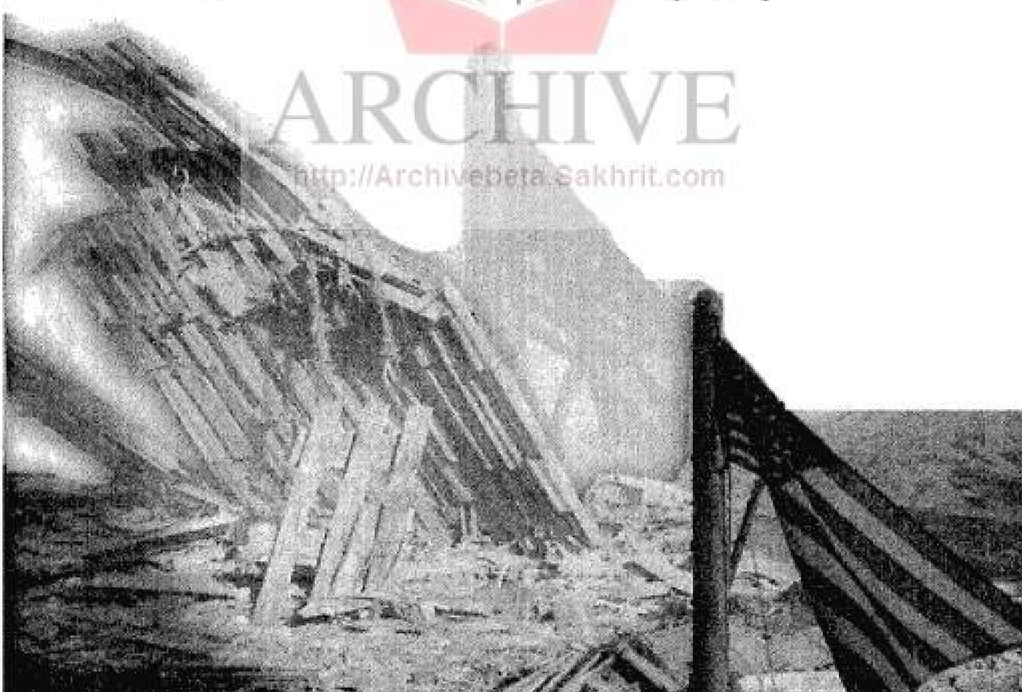
خلاصة القول هو أن الأمر بدأ بموقف من الولايات المتحدة ومن مصر يتسم بالخفة وسطحية التفكير ، وانتهى بالصراخ مع الذبابة التى بدأنا المقال بذكرها :

ـ من يخلصنى من هذه الورطة وله قرشان؟!. ■

واقع يفوق الخيال

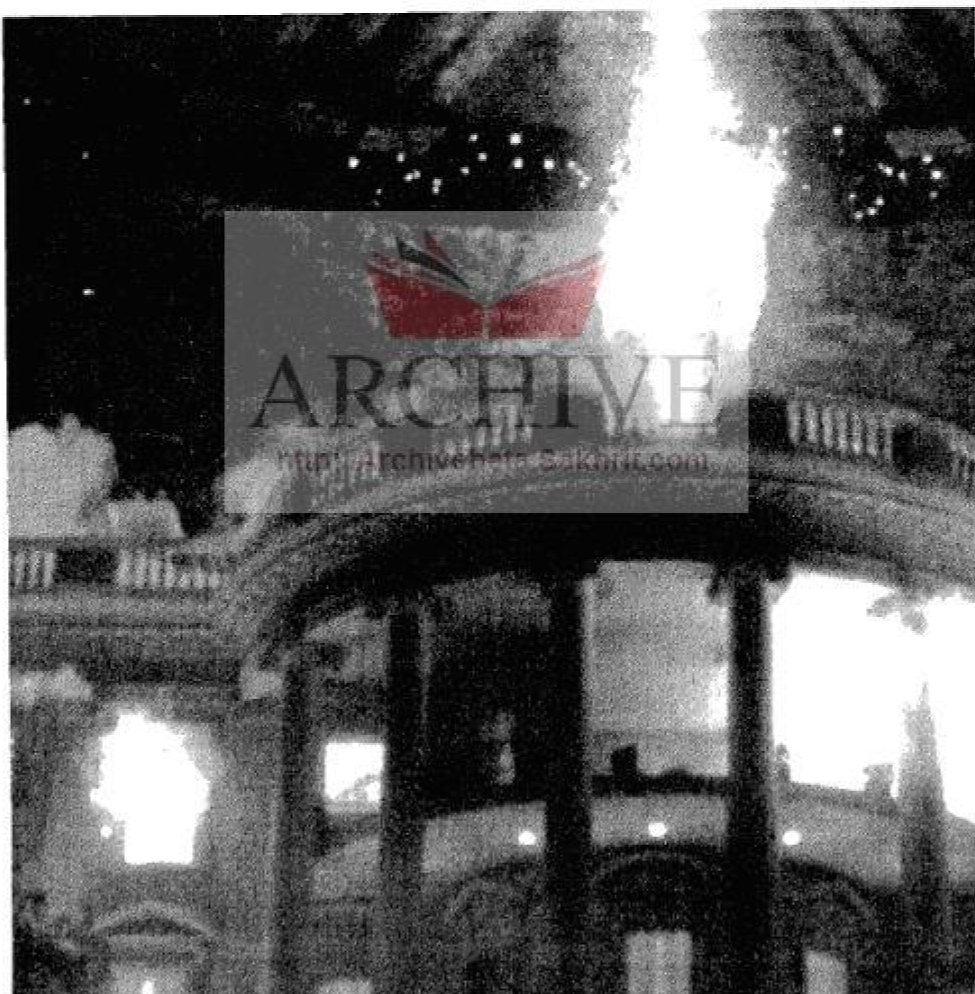
بقلم
ربيع شتا

كان يوم الثلاثاء الموافق الحادى عشر من سبتمبر (أيلول) من أول عام فى القرن الحادى والعشرين، كان يوما أسود وفاصلا فى تاريخ الولايات المتحدة، ومعها العالم بطبيعة الحال.



ففى صباحه، وعقارب الساعة تقترب من التاسعة، بالتوقيت الشرقى لبلاد العم سام، شاهد الناس فى مشارق الارض ومغاربها، وعلى امتداد بضع دقائق، لم تزد إلا قليلا على ربع الساعة من عمر الزمان، شاهدوا على الشاشات الصغيرة، طائرتين مدنيتين ضخمتين من طراز بوينج ٧٦٧، وهما تندفعان مثل صاروخين مدمرين داخل برجي مركز التجارة العالمى بجنوب

الهجوم على البيت الأبيض فى فيلم «يوم الاستقلال»



جزيرة مانهاتان، حيث يوجد حى المال والأعمال.

ولولا تعليق المذيعين على حادث اصطدام هاتين الطائرتين ، وعلى ألسنة اللهب وسحب الدخان الصاعدة من البرجين.

ثم تعليقهم على انهيار كليهما، وتحوله إلى انقاض ورماد، لولا ذلك لجنح بنا الظن الى أن ما نبصره على الشاشات الصغيرة ، لا يعدو أن يكون عملا سينمائيا روائيا، من ذلك النوع الذى برع مصنع الأحلام فى انتاجه على مر الأعوام .

والمقصود بذلك النوع من الأفلام، تلك التى تندرج تحت ما يسمى تارة بأفلام الكوارث مثل جهنم فى البرج، الزلزال، البركان، الاعصار وتيتانيك.

وتارة بأفلام الخيال العلمى مثل حرب النجوم وهجوم المريخ ويوم الاستقلال.

جهنم الحمراء

ولعل جهنم فى البرج (١٩٧٤) أقرب أفلام الكوارث بأحداثه لما اصاب برجى مانهاتان، قبل أيام .

فبطل الفيلم برج شاهق، يناطح السحاب بمائة وخمسة وثلاثين طابقا، اى اكثر علوا ومناطحة من البرجين اللذين ذهبا مع الريح انه، وبحق، آية من آيات فن المعمار، فى الربع الثالث من القرن العشرين.

ولأنه كذلك، فثمة حفل مقام، بمناسبة افتتاحه، فى الطابق الاخير، حضوره كوكبة مزهوة من المشاهير.

اما كيف انهار البرج العملاق، بفعل حريق شب فى احد طوابقه، نتيجة فساد شاب عملية البناء ، فذلك ما يحكيه فيلم تكاد تكون أحداثه المثيرة على امتداد مائة وخمسين دقيقة مماثلة لأحداث برجى مانهاتان.

ولن اعرض لغيره من افلام الكوارث، فذلك شىء يطول، وانما اكتفى بأن اقول بأنها، وفى مجموعها، تعكس تخوف الامريكى العادى من مستقبل اسود حزين. يتجرع غصصه ويحياه مرة قبل ان يكون ومرة حين يكون.

وذلك البلاء الذى يخشاه



ويترقبه. قد يكون سببه الطبيعة، متمثلا فى الزلازل والبراكين والاعاصير.

أو فعل الانسان متمثلا فى جرائم الفساد، وفظائع الارهاب.

ومما لوحظ على افلام الكوارث التى قام مصنع الاحلام بإنتاجها خلال الاعوام الاخيرة، ان ثمة تزايدا في عدد الاعمال السينمائية الضخمة الى تعرض لظاهرة الارهاب، وتهديدها للذاذة الحياة التى يعيشها الشعب الامريكى، بفضل رخاء لم يسبق له مثيل.

فالارهابيون ، وهم امريكيون ، يهددون فى فيلم الصخرة (١٩٩١) باستعمال السلاح النووى ضد سان فرانسسكو، تلك المدينة الرائعة الجمال.

وارهابيون آخرون، لعلهم روس، يعملون فى فيلم القديس (١٩٩٧) من اجل تحويل نيويورك، بفعل قنبلة ذرية، الى ارض خراب.

وارهابيون من كازاخستان يختطفون طائرة الرئيس الامريكى «١٩٩٥» . وهو على متنها حيث يهددونه بالقتل، انه هو لم يستجب الى طلبهم الضغط على الروس، من اجل الافراج عن احد قادة الشيشان.

ونفس ذلك البلاء المترقب تجسده افلام الخيال العلمي، وما اكثرها فى هذه الأيام.

غزو من الفضاء

ومن بواكير ذلك النوع من الافلام «اشياء ستحدث» «١٩٣٦» وحرب العوالم «١٩٥٣» وكلاهما عن قصص لويلز أديب الخيال العلمى الذائع الصيت.

وكلاهما يعرض لأحداث مستقبل مجهول، تتعرض فيه الانسانية لويلات حروب، مصحوبة بالهلاك والدمار.

وكما هو معروف فالعدو فى حرب العوالم كائنات قادمة من كوكب المريخ.

وقد استوحى الشاب اورسون ويلز من قصة ويلز هذه برنامجه الاذاعى الشهير، ذلك البرنامج الذى ما ان سمعه سكان نيويورك، حتى توهموا ان ثمة غزوا حقيقيا من قبل كائنات ذلك الكوكب القريب.

فكان ان خرج البعض من البيوت مذعورا، وقد انساه الرعب انه لا يغنى حذر من قدر .

ونفس الغزو تناوله فيلم هجوم المريخ «١٩٩٦» ولكن بأسلوب ساخر،

فيه من روح الفكاهة الشيء الكثير.

وبفضل ذلك الهجوم يستولى الغزاة على البيت الابيض . حيث يقتل الرئيس.

ومع ذلك ينتهى الامر بالقضاء على الغزاة، بفضل اغنية تنتصر للبراءة!

يوم الحساب

وآخر الافلام التى من هذا النوع وأهمها واكثرها نجاحا، هو يوم الاستقلال «١٩٩٦».

فبفضل مؤثرات خاصة مركبة شاهد الامريكيون ، ونحن معهم، سفن فضاء ضخمة قادمة من احد الكواكب، تغزو الكرة الأرضية يوم الرابع من يوليه «يوم الاستقلال» وتحول بصواريخها عواصم العالم، بما فيها واشنطن، والبيت الابيض الى خرابات.

غير انه ، عكس هجوم المريخ، لا ينجح الغزاة فى قتل الرئيس الامريكى.

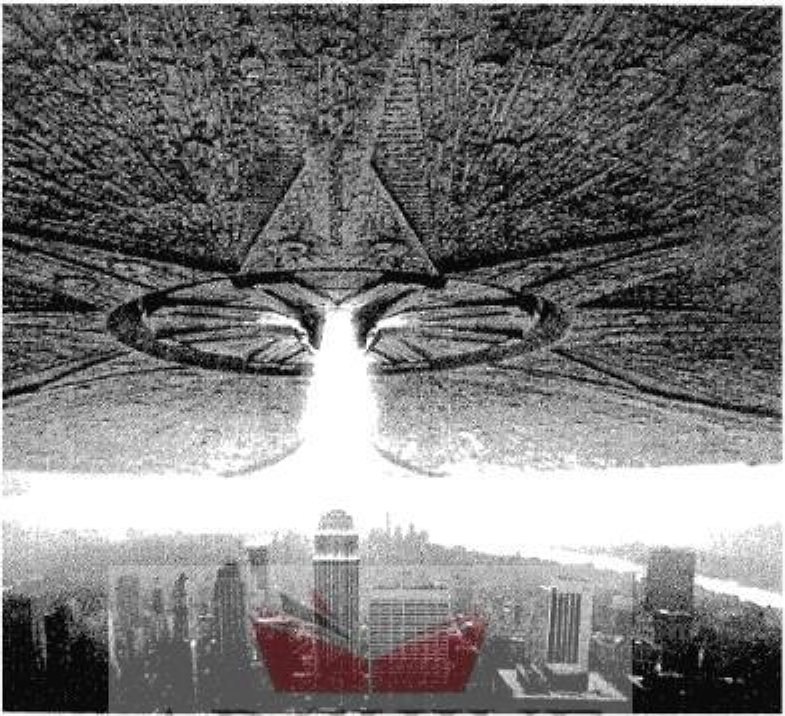
فهاهو ذا يدير المعارك ضدهم حتى يحرز النصر، وينقذ العالم مما كان يدبر له من قبل قوى الشر.

وأنتجت هوليوود فى نهاية القرن العشرين اى فى سنة ١٩٩٩ فيلم «نادى القتال» بطولة براد بيت وادوارد نورتن يعالج حالة الاحباط التى تواجه الشباب الامريكى المترف والذى يدفعه ملله الى دائرة العنف والارهاب لا لشيء الا للخروج من حالة الاحباط والملل التى يعيشها . فينضم الى جماعة ارهابية يضمها احد النوادي وتكون نتيجة افكار النادى الذى انضموا إليه مصادفة ان تتحول امريكا الى الدمار عندما تنهار عشرات ناطحات السحاب فى نيويورك قلعة الاقتصاد الامريكى.

وقبل ذلك جسد فيلم «الحصار» الذى اخرجه ادوارد زويك سنة ١٩٩٨ الخوف الامريكى من الارهاب الخارجى حيث تدور احداثه حول سلسلة من العمليات الارهابية ضد مواقع حيوية فى نيويورك بواسطة جماعات عربية ارهابية.

كما صور فيلم «اكاذيب صادقة» سنة ١٩٩٤ بطولة ارنولد شوارزنجر العرب بصورة الارهابيين الذين يحاولون





غزو امريكا في «يوم الاستقلال»

تدمير الحضارة الامريكية بالسلاح النووي.

وكل هذه الافلام الامريكية وغيرها تحاول ان تصور صورة العربي والمسلم كإرهابي يحاول تدمير حضارتهم وجاءت الاحداث الاخيرة لتنمي هذا الوهم وتزيده وتؤكده لديهم، حيث اتهموا وادانوا العرب والمسلمين قبل أن يضعوا ايديهم على أي دليل او مستند؟!

والآن، فالسؤال المطروح، بعد العدوان على برجي مانهاتان ومبنى وزارة الدفاع الامريكية «البنتاجون» هل في وسع صانعي افلام الكوارث والخيال العلمي ان يبدعوا اعمالا سينمائية مقنعة، وقد تجاوز الواقع يوم الثلاثاء الدامي كل خيال، تجاوزه على نحو لم يكن في الحسبان.

سؤال يبحث عن اجابة من ارباب مصنع الاحلام، في مستقبل الايام. ■

الانفجار فوق نيويورك

وقائع الرواية التى تنبأت بالثلاثاء الأسود

بقلم
محمود قاسم

ترى هل كان الدرس الأول للمجموعة التى قامت بتفجيرات نيويورك وواشنطن هو : «اقرأوا الكثير من روايات الخيال العلمى ، وادرسوها جيدا ، وشاهدوا المزيد من أفلام المستقبل ، وسينما الكوارث ، واحفظوها عن ظهر قلب ..

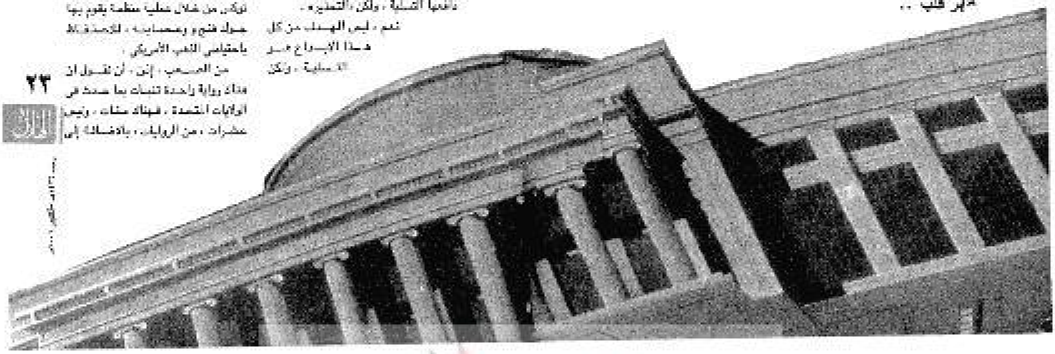
الذين شاهدوا ما حدث فى الولايات المتحدة صباح يوم الثلاثاء الأسود ، وكانوا على دراية جيدة بعوالم الخيال العلمى لم ينتبهوا قط ، إلا بعد فترة من الوقت ، أنهم يعيشون فى الواقع ، وأن تلك الصور التى يشاهدونها تحدث بالفعل.

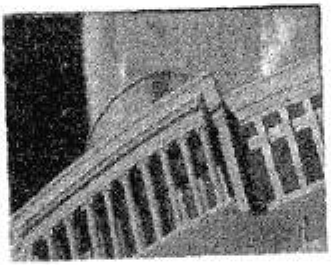
بالطبع الأمر مثير للحيرة ، فكاميرات القنوات الفضائية تصور المشهد فى نفس اللحظة ، كأنها كاميرا سينما ، ومن الواضح أن الناس التى اعتادت ذلك قد رأته ضربا من التخيل ، ربما حتى بعد أيام من حدوث الكارثة ، لكن من الواضح أن المسئولين ، ليس فى أمريكا وحدها ، بل فى العالم ، لم يشاهدوا أفلام الخيال العلمى ، ولم يقرأوا الروايات بجدية ، خاصة أن هذه الأعمال كلها ، ليس دافعها التسلية ، ولكن التحذير .

نعم ، ليس الهدف من كل هذا الإبداع هو التسلية ، ولكن من الواضح أن الناس شاهدت وقرأت ونسيت أن المستقبل ملئ بالأخطار .

ولقد كانت سمة واضحة فى روايات الخيال العلمى ، وأيضا الخيال السياسى ، والتحذير مما سيحدث من رغبات أصحاب الأهداف السياسية ، ومن ما يمكن الخيال العلمى أن يحققه ، وأن على الناس أن تحافظ على ما أنجزت بكل قوة من التدمير ، سواء كان ذلك عن طريق الصراع بين الايديولوجيات التى تمتلك الأسلحة النووية ، أو عن طريق الإرهاب ، أو عن طريق عصابات دولية تمتلك قوى تدميرية ، مثلما حدث فى روايات جيمس بوند ، التى ألفها البريطانى أيان فلمنج منذ أكثر من أربعين عاما ، وكان بطلها الرئيسى هو عصابة الشبح التى تسعى للاستيلاء على العالم ، أو سرقة فورت نوكس من خلال عملية منظمة يقوم بها جولد فنجر وعصابته ، للاحتفاظ باحتياطى الذهب الأمريكى .

من الصعب ، إذن ، أن نقول إن هناك رواية واحدة تنبأت بما حدث فى الولايات المتحدة ، فهناك مئات ، وليس عشرات ، من الروايات ، بالإضافة إلى





زخم هائل من أفلام التخيل العلمي ، التي جعلت المشاهدين يرددون حين العودة إلى المنزل: الحمد لله ، أن هذا لم يحدث .

التحذير

لكن الأمر حدث ، وكان شديد الجسامة ، وتم اكتشاف أن هناك فاصلا بين من يحذرون ، وبين الواقع ، فالفنان يقرأ المستقبل ، ولعل ذلك واضح في صورة عام ٢٠٠١ كما تخيلها الكاتب الأمريكي آرثر كلارك ، والمخرج ستانلي كيوبريك ، في رواية «٢٠٠١ أوديسا الفضاء» التي تحولت إلى فيلم شهير ..

ولاشك أن حصر عدد كبير من الروايات التي تنبأت بما حدث في نيويورك وواشنطن يحتاج إلى كتاب ضخم الصفحات .. فلم يكن لأدباء الخيال السياسي من هم ، منذ الحرب الباردة ، سوى التحذير من ضربة قاضية للمدن الكبرى ، مثلما فعل الفرنسي بييربول في روايته «كوكب القرود» المنشورة عام ١٩٦١ ، ومثلما فعل أدباء عديدون في رواياتهم ومنهم برنارد مالامود ، واسحاق أزيموف ، ونورمان سبيزاد ، وغيرهم ، وأيضا في العديد من الأفلام منها «رجل الاوميجا» ١٩٧٠ ، و«يوم الاستقلال» ١٩٩٦ ، و«الأثر العميق» وغيرها مثل «الهروب من نيويورك» ، و«نيويورك ٢٠١٠» .

والغريب أن مؤلفي هذه الروايات غير معروفين ، ليس فقط في بلادنا ، بل إن القارئ الغربي ينظر إلى هذه الأعمال باعتبارها أداة للتسلية ، يمكن التخلص منها عقب قراءتها ، وذلك مثلما حدث في رواية «قنبلة في نيويورك» التي نشرتها روايات الهلال قبل ثلاثة أعوام من تأليف ماري هيجنز كلارك ، وهي في المقام الأول رواية بوليسية حول عملية اختطاف وإرهاب تتم في مركز التجارة العالمي الذي انهار في دقائق قليلة ، فيما يكشف أن الواقع أشد دهشة من التخيل .

والغريب في هذه الرواية ، أن الطبعة الأولى منها باللغتين الانجليزية والفرنسية، قد بيع منها عشرة ملايين نسخة ، بينما كانت ترجمتها العربية محدودة التوزيع ، مما يعكس تقبل القارئ العربي لهذا النوع من الروايات .

وقد كانت مجلة الهلال هي الأسبق في قراءة هذه الروايات ، ربما قبل أي مطبوعة عربية أخرى بسنوات طويلة ، وفي مقال نشرته المجلة في يناير عام ١٩٨٥ ، تم تقديم واحدة من أهم الروايات التحذيرية ، التي تتنبأ بتفجير مدينة نيويورك .

الرواية اسمها «يوم الحرب» أو كما جاء فى ترجمتها الفرنسية «يوم القنبلة» ، منشورة عام ١٩٨٣ فى الولايات المتحدة ، من تأليف كاتبين مغمورين هما ويليام ستريرج ، وجون كوننكا ، اللذين طافا بشوارع نيويورك ، يتخيلان ما يمكن أن يصيب مدينتهما حين تنفجر فوقها احدى القنابل النووية السوفيتية .. طبعا حدث هذا إبان الحرب الباردة بين القوتين العظميين سابقا ..

إنه هجوم أرهابي

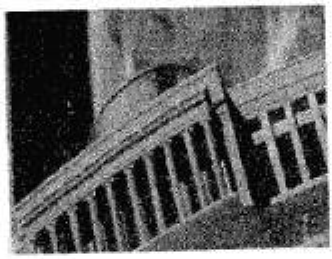
كما أشرنا فالرواية «مكتوبة عام ١٩٨٣ ، لكن أحداث وقوعها تدور عام ١٩٨٨ ، فى الثامن والعشرين من أكتوبر .. ففى هذا اليوم تكون الولايات المتحدة تنتظر بالطبع انتخاب رئيسها الجديد غير المعروف أنذاك ، وهو كما سيحدث فى الواقع جورج بوش الأب . بعد أن تنتهى تماما ولاية الرئيس الأسبق رونالد ريجان .. حيث أن انتخاب الرئيس الأمريكى يتم عادة فى الاسبوع الأول من نوفمبر كل أربع سنوات زوجية .

فى هذا اليوم ، ومن خلال الراوى ، تطير طائرة روسية محملة بالقنبلة النووية المتفجرة فوق سماء نيويورك ، وتنفجر ، كى تطيح بناطحات السحب وتحولها إلى أطلال ، فتفقد المدينة شوارعها الواسعة ، وأبنيتها العالية. الراوية هنا رجل نيويوركى عادى ، رب أسرة بسيط ، له زوجة وأبناء . يبدأ حكايته بعد هذا الحادث بعام ونصف العام تقريبا . فى عام ١٩٩٠ ، يتذكر يوم القنبلة ، يتحدث عن حياته ، وتدور الرواية بأكملها فى هذا اليوم وحده ، يصف بكل دقة ماذا حدث فيه للمدينة ، والناس :

«كنت أعيش فى نيويورك .. أحيا فى كافة أنحائها حيث أقضى أمسياتى . لكننى رأيتهم يموتون هناك .. ربما أن ما حدث قد جعلنى أشعر أننى مدان . ربما لأننى أحبها أكثر من مدينتى التى نزحت منها .. سان انطونيو .. لقد أزيلت المدينة من فوق الوجود . واختفت معالمها عن الانظار .. كيف اختفت المدينة التى حييت فيها ؟»

كان يسير فى الشارع .. يرقب الابنية العالية ، فجأة سكتت الرياح ، وقلت حدتها . وحل محلها صوت ارتطام الزجاج فى كل مكان (من المعروف أن نيويورك غرقت فى الأمطار بعد عملية الثلاثاء الأسود) تتكسر الابنية العالية أمامه ، وترتفع أصوات الرعب والاستغاثة فى الشوارع ، تسود الجثث ، فيهرول من سيارته وسط السحب الكثيفة .. الجو كله أسود «أتصور أن هناك هجوما «ارهابيا» ، أو انفجارا كهربائياً ، وليس قنبلة نووية قد انفجرت ..».

نحن إذن أمام رواية تمزج بين عدة أنواع أدبية : بين الخيال السياسى ، والكوارث والخيال العلمى . والمدينة هنا بمثابة معشوقة للراوية . إنه ينتمى إليها .



فإلى إحدى مدارسها يذهب ابنه ليتعلم ، وهناك فى الطابق الثامن والعشرين من بناية عالية فتح أخوه مكتبا للمحاماة ، لقد تهدمت الناطحة . وسقط أخوه ميتا ، يتخيله يتحدث فى الهاتف ، ثم فجأة تحدث الكارثة النووية . يختفى مثلما اختفى الكثيرون ، ويتساءل :

- ترى هل مات محترقا؟!. هل مات فى المصعد؟!.. أم مختنقا فى الجراج أسفل البناية العالية؟! .

«أمى ، التى كانت تفكر فى حياة سهلة من أجلنا ، بدت لى أنها لا يمكن أن تتخيل أن يموت أولادها فى مثل هذا الحادث» ، ويقول : .. فى يوم القنبلة ، حاولت أن أخابر أختى فى مدينة هيوستن، كى اهنئها ببلوغها سن الاربعين، لكن الهاتف لم يرد .

كانت سيارته تقف وراء أوتوبيس ، يقف بدوره وراء أوتوبيس آخر من طراز «جنرال موتورز» مصبوغ الزجاج ، وفجأة اصطبغ الجو بألوان غريبة ، وساد الظلام وسط ضوء النهار .

محاكمة رجل

يسرع الرجل إلى مدرسة ابنه بعد أن انفجرت الطائرة فوق المدينة ، هناك يلتقى بزوجته التى تبحث أيضا عن ابنها الذى اختفى . لقد قتلت القنبلة أكثر من مليونى شخص .. إنها كارثة أشد بشاعة من هيروشيما ونجازاكى التى ارتكبها الامريكيون أنفسهم .. الشئ الوحيد الباقى على حال طيب هو جزيرة مانهاتن حيث المال والثروة ، وحيث يعيش الراوية مع أسرته .. «النظرة الأولى إلى مدينة نيويورك كفيلة أن تقلب معدتى .. ليس لأن المدينة قد أصيبت بنكبة .. ولكن لأن أفقها الجديد قد خلا بعد الانفجار من ناطحات السحاب ، مثلما خلا من ابراج مركز التجارة الدولى عقب الثلاثاء الأسود .

وأهم ما فى الرواية ، هو أسلوب التنبؤ ، فالراوية فى الحافلة التى تنقله إلى مانهاتن يفكر أن البيروقراطية فى اصدار القرار الأمريكى منعت من التصدى للكارثة . حتى الجنود الذين تولوا عملية الانقاذ قد تصرفوا بغباء ، فهم يتصفحون أوراق تحقيق الشخصية بكل جدية ، وكان هذا هو الهم الأكبر لديهم ، بينما أن هناك أحياء تحت الأنقاض يمكن انقاذهم .

والراوية الذى لا نعرف شيئا عن اسمه حتى الفصول الأخيرة من الرواية ، يحدثنا أنه صحفى ، وانه يقوم بتصوير المدينة بعد الكارثة ، ولذا قام الجيش بدخول المدينة تحت قيادة مرشدة حسناء

، تتجول الفئران في الطرق ، وتتبول الكلاب في نوادي الديسكو ، ويقول الراوية أن الامريكيين لو تنبهوا إلى ما كان يقدمه الأدباء والفنانون لمثل هذا الحدث ما حدثت الكارثة بنفس الصورة ، وان الممثل بول نيومان قدم فيلما بعنوان «محاكمة رجل» عام ١٩٨٦ - لا ننسى أن الرواية مكتوبة قبل ذلك بثلاثة أعوام - يحذر من كارثة مماثلة وأن أفيشات الفيلم لا تزال معلقة في شوارع نيويورك .

تقول المرشدة : أنا مسئولة عن قطاع شارع شامبرز ، وأؤكد أن كل الاصلاحات في قطاعي تتم على أحسن وجه ، وكعادة الأمريكيين في مثل هذه الروايات أن يربطوا بين السلوك الإنساني وبين الكوارث ، فإنه على اطلال مدينة نيويورك تنشأ قصة حب بين رجل ماتت زوجته في الحادث وامرأة لم تمس الابتسامة شفتيها . ينمو الحب ببطء وهي ترشده عبر شوارع المدينة .. ويتجول المؤلفان من خلال بطليهما في شوارع نيويورك التي صارت أطلالا ..

تقول المرشدة : «في عام ١٩٨٩ . عملنا لإعادة بناء نيويورك ، قمنا بتقسيم المدينة إلى عدة أقسام ، عزلناها عن بعضها كي يمكن إصلاح كل منها ، وانه في العام نفسه بدأ العالم يعاني من مجاعة شديدة ، وفي لحظة شديدة القسوة اضطرت لبيع أختها مقابل كسرة خبز ، وأن البنوك قد أغلقت عقب الكارثة ، ولم تعد هناك قيمة للنقود ، ولا لشئ عدا الرغبة في الحياة .

«اليوم ، مدينة نيويورك خالية ، التهم الحريق نصفها وأصبحت نصف صحراء أحرقت الاشعاعات المدينة كأنها بقرة» .

أما الفصل الأخير من الرواية ، فهو يدور على لسان المرشدة ، التي تروى للصحفي رؤية أخرى ليوم القنبلة ، فهي أيضا تحب المدينة مثلما يحبها ، ولذا فإنها تأخذه معها إلى منزلها الذي تهدم ، والذي تزوره لأول مرة بعد أشهر عديدة ، لكنها لا تستطيع الاقتراب من المنزل الذي التهمه الحريق فتؤثر العودة مع الصحفي من حيث أتيا .

مدينة الاومجا

ليس هناك فارق كبير بين ما تخيله المؤلفان في رواية «يوم القنبلة» ، وبين ما عاشته نيويورك وواشنطن في يوم الثلاثاء الاسود ، وليس هناك توارد خواطر بين هذه الرواية والروايات الأخرى مثل «رجل الاوميجا» لريتشارد ماتيسون عام ١٩٦٨، ولكن لاشك أن الذين تولوا التخطيط الارهابي لعمليات التفجير في سماء وبنايات المدينة ، كان قد أوصوا اتباعهم بـ «قراءة سيناريوهات الأفلام ، والروايات التي تصورت نهاية مدينة نيويورك». ■



بقلم

د. سيد كريم

متى بدأت حضارة مصر الخالدة - أقدم الحضارات الإنسانية وأم الحضارات العالمية - فى الظهور إلى حيز الوجود؟ من هم بناة تلك الحضارة؟.

أطلق عليهم التاريخ اسم الفراعنة. واطلقت عليهم كتب العقيدة اسم العماليق أو العمالقة.

من أين وكيف أتوا؟ ومتى هبطوا على أرض مصر التى أطلقوا عليها اسم أرض الاله «جب بتاه» الاسم الذى لازالت تحتفظ به عبر آلاف السنين إلى يومنا هذا.

فحضارة مصر الخالدة حيّر لغز نشأتها ونور اشعاعها المؤرخين والباحثين فى تاريخ الحضارات الإنسانية وكتابها من أقدم العصور.

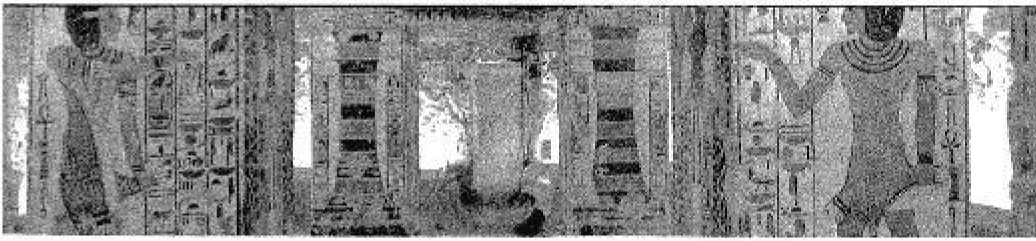
لغز نشأتها التى لم تخضع لنظريات النشوء والتطور والارتقاء التى تخضع لها سنة الحياة التى وصفت بالانتقال من الغاب إلى الحضر أو من الألف الى الياء أو انتقال الإنسان المتحضر من سكنى الجحور إلى سكنى القصور.

فالحضارة المصرية ظهرت قبل فجر التاريخ أو ما قبل التاريخ المسجل.. ظهرت مع بداية مولدها كاملة التكوين وفى قمة نضوجها.

بدأت الحضارة المصرية بعقيدة التوحيد فكان المصرى القديم - أول من نزل بأرض مصر - أول من عرف الاله الخالق الواحد، عرف البعث والحساب ومحكمة الأخرة والجنة والنار وهو ماردته الكتب السماوية جميعها التى نزلت على البشرية بعد كتاب التوحيد بآلاف السنين.

بعقيدة التوحيد تعلم المصرى الأول القراءة والكتابة التى قدمت له الحرف والكلمة فكانت اللغة الهيروغليفية وكتاباتها وخطوطها أول كتابة عرفتها البشرية.. لغة وكتابة. نزلت متكاملة وكان لها دورها الخلاق والمؤثر على جميع الكتابات واللغات التى تبادلتها اللغات الحية القديمة والحديثة.

● بدأت الحضارة بمعرفة المصرى القديم لعلوم الفلك وأسرار قبة السماء. عرفوا تقسيم الزمن ووضعوا أول تقويم عرفته البشرية وهو التقويم الشمسى المعمول به إلى الآن.. الذى قسم الزمن إلى سنين وأشهر وأيام وساعات ودقائق وثوان وهو التقويم الشمسى العالمى المعروف.. وما كشفت عنه نتائج أبحاثهم عن اسرار القبة السماوية



معبد كلابشة – أسوان

وتشكيلات كواكبها وأجرامها وبروجها وأطلقوا على الكواكب الاسماء التى عرفت بها إلى اليوم.

المصريون وأشعاع القوى الكونية

وأثبتوا بيضاوية شكل الكرة الأرضية وحددوا طوال أبعادها ومحاورها وأقطارها ودورتها حول نفسها وحول الشمس، لم يقتصر نبوغهم على علم الفلك الذى اعتبره علماء البحث العلمى مفتاح علوم المعرفة بأنواعها.. تلك العلوم التى أطلقوا عليها صفة العلوم المقدسة التى كانوا ينسبونها دائما إلى رسالة السماء التى حملوها معهم عندما هبطوا أرض مصر، انتقلوا من الفلك إلى الطب الذى حددوا ومارسوا جميع تخصصاته وأذهلوا العالم الحديث بما قاموا به من عمليات جراحية متطورة فى المخ وكانوا أول من عرف مكونات الجسم الإنسانى والوظائف الكاملة لأعضائه.

ويؤكد علماء البحث العلمى الخاص بدراسة علوم الحضارات القديمة دراية قدماء المصريين وسيطرتهم الدقيقة على كثير من القوى الكونية وإشعاعاتها ومن بينها الليزر والتى كانوا ينسبونها لقوى سحر الطب الروحانى التى اختص به كهنة العلوم.

كما كان لهم الفضل فى العلاج بالإبر الصينية «مقاراپيپيرة» كما تفوقوا فى الصيدلة والعقاقير الطبية. وأقاموا لها مدينة كاملة أطلق عليها مخزن العطارة «بوتو» تحيط بها مزارع النباتات الطبية ومناصيرها التجريبية. وتضم المتاحف العالمية العشرات من برديات الطب والصيدلة الفرعونية والتى تقوم المعاهد المتخصصة بمحاولة ترجمتها وفك رموزها.

● فى الهندسة المعمارية وضعوا أسس النظريات المعمارية وعلاقتها بالرياضيات والفلك والتى وضعت أسس وقواعد العمارة كعلم وفن العالم أجمع وحضاراته القديمة.

أول من شرعوا للمجتمع المتحضر

● كانوا أول من وضع تشاريع حياة المجتمع المتحضر سواء فيما يختص بالعلاقات الاسرية أو الاجتماعية فكان المصرى أول من عرف الرباط المقدس بالزواج وما يرتبط به من تشاريع حقوق المرأة وجميع أفراد الأسرة عندما كانت العلاقات الأسرية والاجتماعية فى العالم أجمع تخضع لشريعة الغاب.

كما كانوا أول من وضعوا تشاريع العدالة والمحاكم وتشاريع الثقافة فأقاموا دور العلم بدءا بدور الحضانة ورعاية الطفل إلى التطور الثقافى والمهنى إلى الجامعات التى أطلقوا عليها اسم «بيوت الحياة».

● كانوا أول من عرف الأدب وفنونه، من أدب الحكمة والعقيدة إلى أدب القصة والشعر والموسيقى.

وكانوا أول من قدم أدوات الكتابة وآلات الموسيقى وأسلحة الحرب للعالم أجمع.

● لم ينسبوا لأنفسهم أية ناحية من نواحى الاعجاز فى مكونات الحضارة وعناصر علومها لأنفسهم بل نسبوا كل شىء إلى السماء وكتاب العقيدة. أول عقيدة سماوية عرفتها البشرية بدأت بها الحضارة المصرية فى طبع خطوات أقدامها على صفحات تاريخ الإنسانية، التى بدأ بتاريخ مصر من إثنى عشر ألف وخمسمائة عام فى مدينة أون مرصد الشمس «هليوبوليس» وهو أول عصور الحضارة الذى أطلق عليه

المؤرخ والكاهن المصرى القديم مانيتون اسم عصر ملوك الشمس وأنصاف الالهة لكى يحتفظ كهنة المصريين القدماء من أهل العلم والمعرفة بأسرار تلك العلوم المقدسة، التى عاهدوا الآله ان يحتفظوا بأسرارها التى أمنهم عليها الاله حتى لا تخرج من أرض مصر المقدسة - أرض الاله - أطلقوا عليها اسم السحر، ودونوا وثائقها فى بردياتهم بشفرة سرية خاصة بالخط الهيروغليفى الذى عجز العالم القديم أو علماء العصر الحديث عن فك رموزه، ولم يتمكن كثير من الحضارات القديمة من التوصل لنقل معطيات تلك الحضارة وكشف أسرارها وأسرار العلوم المقدسة التى سيطرت على جميع نواحى حياة المجتمع المصرى وحفظت كيان حضارته التى بدأت من عصور ما قبل تاريخ البشرية.

باختفاء الحضارة الفرعونية اختفت معها أسرار عناصر مكونات كيانها التى تجمع بين أسرار نشأتها وسر اختفائها.

● لقد حير ذلك اللغز مؤرخى الحضارات ومسجلى التاريخ منذ أقدم العصور التى ازدهرت فيها الحضارة المصرية إلى يومنا هذا فتنافسوا وجاهدوا فى محاولة إماطة اللثام عن ذلك اللغز المحير.

حضارة قادمة من الفضاء

لا لغز الحضارة نفسها وتاريخ نشأتها ومراحل تطورها بل لغز بناة تلك الحضارة الخالدة:

من هم؟ ومن أين أتوا؟ ومتى هبطوا إلى أرض مصر؟

لقد تركز اهتمام علماء الدنيا فى العصر التكنولوجى الحديث على محاولة فك طلاسم ذلك اللغز المحير. لغز الحضارة المصرية مكانها فى حيز الوجود وهى تتجلى بكامل مظاهر مقوماتها الحضارية. أجمعت أبحاث أكثر من عالم فى مختلف أنحاء العالم الحديث بأن الحضارة المصرية قد خضعت لغزو حضارى من خارج حدود أرضها، وعندما تأكد للباحثين بأن الحضارة المصرية أقدم الحضارات على وجه الأرض ووصفها قدماء مؤرخى الحضارات بأنها «أم الحضارات» اتجه تفكير بعضهم إلى البحث عن مصادر ذلك الغزو من خارج كوكب الأرض.. أى من الكواكب الأخرى التى قد تكون بها حضارات أقدم وأرقى من حضارات الكوكب الذى نعيش على سطحه.

يقول الكاتب السويسرى «اريك

فون داينكن» في أبحاثه عن مصدر «الحياة في الأرض» و «الهابطون من السماء» أن مراكب الشمس الفرعونية وسفن رحلات الأرواح بين الأرض والعالم الآخر ، والتى احتلت مركزا مرموقا فى عقائد ومعتقدات قدماء المصريين بجانب مختلف الالهة والمعبودات المجنحة التى تتولى نقل رسائل السماء وعلوم المعرفة اليهم من العالم الآخر ماهي الا سفن الفضاء المتطورة التي ينتقل بها رواد الفضاء اليهم من الكواكب الأخرى ، كما أن المخلوقات والكائنات الأسطورية التى تحملها السفن ماهى الا رموز معبرة للقوى المحركة التى تقودها وتحركها بالقوى الكونية التى تستمدها من الشمس المجنحة التى تعلو هيكل السفن .

اكتشف فون داينكن نقوشا ورموزا مماثلة فى حضارتي المايا والاوزتيك الامريكية والتى تتفق فى كثير من عناصر تكوينها ونشأتها مع الحضارة المصرية وخاصة فى بناء الأهرامات والمسلات.. بجانب العادات والتقاليد ومقومات الثقافة.

الأهرامات تراث كوكب آخر

● من الدراسات والبحوث الحديثة التى قام بها العلماء الأمريكيون بالاشتراك مع خبراء علوم الفضاء الروسيين والتى قرروا فيها أن الذين بنوا الأهرام ليس هم قدماء المصريين ولكنهم أبناء جنس متفوق من البشر هبطوا إلى الأرض غزاة من كوكب آخر ، وأنهم أرادوا أن يتركوا تراثهم الحضارى الذى يتمثل فى الطاقة الهرمية للحضارات المقبلة فأقاموا ذلك البناء الهندسي المذهل للأهرام وأقاموا على أرض مصر مدة طويلة واختلطوا بأهل البلاد ، واكتسب منهم المصريون فن البناء بالحجر الذى لم يكن معروفا فى العصور التى سبقت بناء الأهرام كما كان لهم دور فعال فى بناء الحضارة المصرية بما نقلوه الى شعب مصر الذين اندمجوا فيه من مختلف علوم المعرفة ولأنهم أتوا من السماء فقد أطلق عليهم المصريون اسم انصاف الآلهة.

لقد بدأ العلماء فى تبنى تلك النظرية عندما اكتشف العالم الروسى «ديبترو» عام ١٩٨٠ وجود أهرام على سطح كوكب المريخ تشبه الأهرام المصرية فقام بتصويرها وتحليلها بمعاونة عالم الكمبيوتر «باتلر» فظهرت واضحة الشكل والتكوين الهندسى الذى يتفق شكلها مع الاهرامات المصرية ، كما يؤكد أنها ليست عبارة عن مكونات طبيعية فقام بنشرها

وتوزيعها على الندوات العلمية العالمية. وأكد عالم آخر وجود أهرام مماثلة لها على سطح كوكب الزهرة قامت برصدها وتسجيلها المركبة الفضائية الامريكية «فايكنج» كما أضافت إلى ذلك الكشف وجود وجه انسان ضخم الحجم منحوت فى الصخر قريب الشبه من وجه أبو الهول. كما كشفت مركبة الفضاء الأمريكية وجها آخر مماثلا لوجه أبو الهول على سطح الكوكب «نبتون» كما آثار عالم الفضاء السوفييتى «بلبنوف» اهتمام الدوائر العلمية باكتشافه وجها مماثلا على سطح القمر فى الوجه المظلم الذى لم يكن قد تم تصويره ووصل اليه الرواد فى الرحلات السابقة أضيف الى الوجوه والاهرام السابقة التى تم اكتشافها والتأكد من وجودها.

أحجار الهرم من كوكب المريخ

ويثير أحد الخبراء الامريكيين مفاجأة جديدة اعلنها فى بداية هذا العام باكتشافه أن أحجار بناء الهرم الأكبر وتمثال أبو الهول نقلت من جبال كوكب المريخ الذى يتفق تكوينها الجيولوجى مع أحجار الكوكب الاحمر. وليست الاحجار الطبيعية الموجودة بالمحاجر المصرية بالمنطقة. علما بأن احجار بناء الهرم الأكبر كما ورد ذكر تفاصيل قطعها وإعدادها ونقلها من محاجر طرة بالضفة الشرقية لنهر النيل المواجهة لموقع الأهرام ويتفق تكوينها الجيولوجى مع نوعية الاحجار الموجودة بالمحجر الذى نقلت منه . أما تمثال أبو الهول فقد فات الخبراء أن احجاره لم تنقل اليه من خارج موقع إقامته فقد نحته المصريون القدماء من كتلة واحدة من طبقات الأرض الذى هو جزء منها.

● اذا كان اكتشاف عدة أهرام أو صورة لوجه ابو الهول على سطح كوكب من الكواكب بعيدة عن اية معالم حضارية أخرى مرتبطة بموقعها أو قريبة منها فهو ما يقلب نظرية الغزو الحضارى التى نادوا بها، وقد تدعو للتفكير فى أن المصريين القدماء هم الذين غزوا تلك الكواكب التى كانت معروفة لهم فى رحلاتهم بمراكبهم الفضائية وتركوا بصماتهم على أرض كل منها بالاهرامات ووجه أبو الهول.

اليهود وتزوير التاريخ

● لقد انتهز كتاب اليهوديات فرصة اهتمام علماء العالم الحديث بموضوع الاهرام وعلاقتها بالفراعنة ونشأة الحضارة على أرض وادى

النيل حتى أعلنوا أن بناة الأهرام رمز الحضارة الفرعونية هم أجدادهم الكنعانيون وهو ما صرح به رئيسهم عند زيارته لمصر ومشاهدته لأهرام الجيزة وقد نسب اليهود علاقتهم بمصر الى ما كتبه «المقريزى» عن تاريخ مصر والذى يرجح أنه نقله عن أساطير الكنعانيين الذى وصف فيه تاريخ مصر بقوله:

سميت مصر على اسم «مصرايم» بن الكاهن «اقليمون» وهو من أبناء سام بن نوح واطلق على الكاهن اقليمون اسم عين الشمس لانه كان أول من عبد الشمس ببنى مدينة «أون» لعبادة إله الشمس الذى جعله أول إله للمصريين

وتستمر الاسطورة لتذكر انه كان لمصرايم أربعة ابناء أقطع كل واحد منهم جزءا من أرض مصر التى قسمها الى أربعة أقاليم ، وكان اكبر أبنائه يدعى منف وهو الذى شيد مدينة منف عاصمة لاقليمه الذى أصبح فيما بعد عاصمة البلاد وأقام أبناؤه الاهرامات العظيمة التى تتوسطها.



تحوت اله المعرفة والعلم

وهكذا يستمر المقريزى فى كتابه «تاريخ مصر» الذى لا يمت بصلة لتاريخ مصر الواقعى المسجل الذى لم يترك ثغرة ينفذ منها المفترون على تاريخ الحضارة المصرية سواء فى مجال التاريخ الزمنى المتصل الحلقات الذى كان أمينا على تسجيل نشأتها وتطورها.

● نسبت إحدى البعثات النمساوية أصل المصريين القدماء الى شعوب أواسط افريقيا الذين بدأوا حضارتهم فى بلاد النوبة، والتى زحفوا اليها متتبعين مجرى النيل عبر فروعه الجنوبية والشرقية ببشرتهم السوداء ليندمجوا مع سكان الصعيد ليظهر العنصر النوبى الاسمر، وقد ظهرت آثار حضارة النوبة قبل عصر الأسرات بما يقرب من ألف سنة. وهم الذين أمدوا مصر بالانعام والظراف والافيال والثيران الافريقية والتى لم يكن لها وجود فى مصر فى عصور ما قبل التاريخ كما تعلم منهم المصريون الحفر على العاج وصناعة الذهب الذى وجدت مناجمه بكثرة، والتى قام النوبيون باستغلالها قبل عصر الاسرات وأطلق المصريون على بلادهم اسم «نوبت» أى الذهب وهو الاسم الذى احتفظت به النوبة عبر التاريخ الى يومنا هذا.

حورس فى نقوش النوبة

كما كانت تجارة الأخشاب وصناعتها التى عرفتها مصر فى عصر ما قبل الاسرات تأتى إلى مصر من بلاد النوبة والتى كانت تنقل عبر نهر النيل.. وجاءت وثائق البحث العلمى لتدعم ما جاء فى الوثائق المصرية عن صلات مصر الحضارية والاقتصادية والسياسية بالنوبة منذ فجر التاريخ، كما أثبتت الحفائر امتداد حضارة البدارى فى بلاد النوبة ويرجع تاريخ حضارة البدارى الى ما يقرب من حضارة النوبة أى من ألف سنة قبل عهد الاسرات.

وكما انتقلت صناعة العاج والذهب من بلاد النوبة إلى حضارة البدارى فقد انتقلت صناعة النحاس والأوانى الفخارية والتى تتفق النقوش التى تزين بها وتحمل صور النعام والحيوانات الافريقية التى لم تكن موجودة بمصر والنقوش الزخرفية الفرعونية التى لم تكن معروفة بأفريقيا.

وقد تلاشت آثار النوبة لأنهم لم يطوروا طريقتهم فى الكتابة وكانت بلاد النوبة تمتد على ضفة النيل من أسوان الى الخرطوم. ويؤكد بعض الباحثين أن الصقر حورس أول رمز

لاله التوحيد عرفته مصر والذى اتخذه ملوك الاسرة الأولى شعارا للحكم وجدت صورته فى بعض نقوش النوبة فى عصر ما قبل التاريخ.

فاذا كان اتصال شعوب النوبة الافريقية قد بدأ قبل عصر الاسرات بألف سنة فالحضارة كما تدل على ذلك وثائق التاريخ المسجل وقوائم مانيتون سبقت ذلك الاتصال أو الاندماج كما يصفه البعض، سبقته بخمسة آلاف سنة فى مدينة «أون» عاصمة مصر الدينية منارة الحضارة.

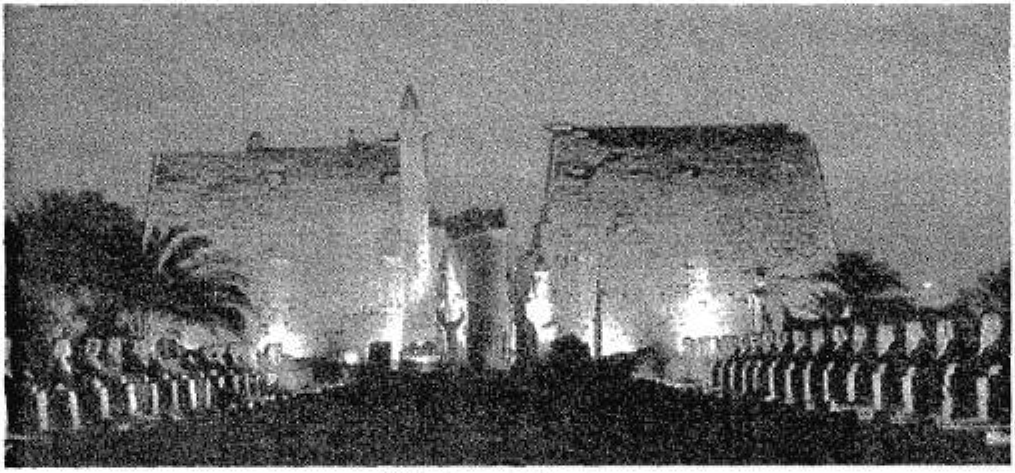
● كشف آخر حاول به أحد الاثريين الفرنسيين فى أواخر القرن الماضى أن يثبت علاقة الحضارة المصرية ونشأتها بالحضارة البابلية والاشورية القديمة.

يصف القائد «نعرمر» الذى توج على عرش مصر وأطلق عليه اسم الملك «مينا» مؤسس الاسرة الاولى وموحد القطرين لم يكن مصريا فاسم نعرمر ليس من الاسماء المعروفة فى مصر القديمة بل هو أقرب إلى الاسماء الاشورية.

لوحة مينا المشهورة ليست مصرية

وصف القائد نعرمر أو الملك مينا بأنه من الغزاة الاسيويين الذين دخلوا مصر عن طريق البحر الاحمر عبر طريق وادى الحمامات الذى يصل البحر الأحمر بوادى النيل ، والذى يطلق عليه الفراعنة اسم طريق الالهة وأكد ذلك عندما اكتشف ان نقوش لوحة مينا المشهورة ليست مصرية فرعونية بل أشورية بما تحتوى عليه من صور الحيوانات الاسطورية والاسيوية والاسود المتعانقة التى اشتهرت بها الحضارات الاشورية، والبابلية وهى مماثلة للنقوش التى وجدت على مقابض الاسلحة وأدوات الزينة التى اكتشفت فى حفريات عصور ما قبل التاريخ على أرض مصر ، والتى يرجع بعضها الى العصر النيوليتى الذى سبق حضارات بابل وأشور ونسبها بعض الباحثين الى القبائل الاسيوية التى كانت تعيش فى جنوب اليمن والحبشة وبلاد بونت. وارتبطت تلك الحضارات بالحضارة المصرية وأخذت عنها العقائد الدينية المصرية الخاصة بعبادة اله الشمس والتى أصبحت العقيدة الرسمية التى آمنت بها الملكة بلقيس.

لقد استمر اتصال تلك البلاد بمصر والذى بدأ فى عصور ما قبل التاريخ عن طريق موانىء البحر الاحمر مرورا بطريق الالهة وذلك عن طريق التبادل التجارى وليس الغزو



طريق الكباش - وادى الملوك

الحربى كما تراى وصفه لبعض الكتاب والمؤرخين بانتماء المصريين القدماء الى بلاد اليمن او بلاد جنوب شرق افريقيا.

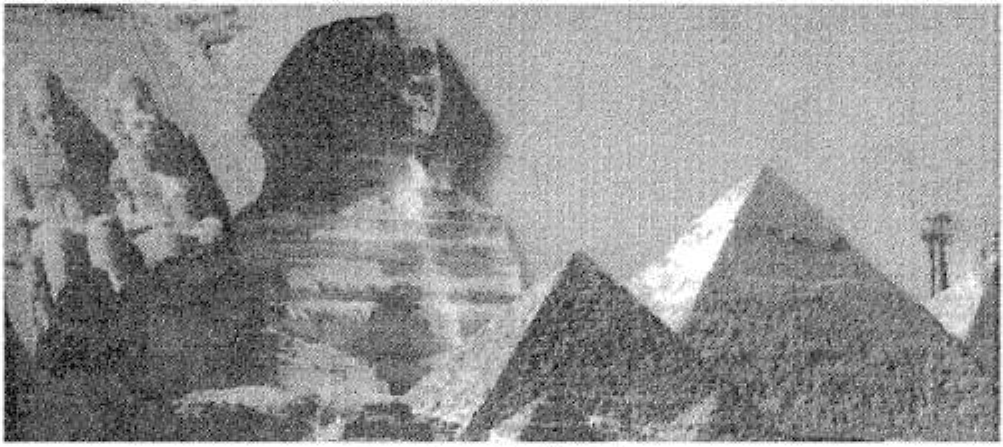
وكان لطريق وادي الحمامات او طريق الالهة (رامنو) أهمية كبيرة منذ أقدم عصور التاريخ المصرى القديم وكان مدخلا للتأثيرات الحضارية الوافدة الى مصر.

اتباع حور، أنصاف الآلهة

وتذكر أساطير مصر الفرعونية القديمة أن أول من دخل مصر عبر ذلك الطريق كانت قافلة «اتباع حور» كانوا من سلالة انصاف الالهة الذين سمي البحر الاحمر الذى حملهم الى ارض مصر باسم الاله (بحرحور) ولذلك أطلق المصريون على الطريق الذى سلكوه للوصول إلى نهر النيل طريق الالهة، ويحوى طريق الالهة كثيرا من الشواهد المحفورة على صخور الطريق من بينها ظهور سفن ذات طابع غير مصرى كذلك رسوم الحيوانات الأسطورية كما وجد بجانب المراكب نقوش بعضها ثمودى واسيوى قديم. ومما يلفت النظر أن نقوش صور بعض السفن التى وجدت فى آثار حضارة ماقبل التاريخ على الشاطىء الغربى للنيل والتى نسبت الى القوافل التى وصلت الى أرض مصر عبر الصحراء الغربية عن طريق هيرودوت الذى يمتد من شاطىء النيل الى شاطىء المحيط الاطلسى.

وقد حملت تلك القوافل التى وصلت عن طريق الصحراء الغربية باسم اتباع حور (شنسوحور).

وقد لفت نظر مؤرخي الحضارات صور السفن البحرية الكبيرة والأهرامات التى ترمز للبلاد التى أتوا منها وذلك قبل ظهور الأهرام على أرض مصر بآلاف السنين. مع صور



الحضارة المصرية مهد كل الحضارات

النعام والحيوانات التى أتوا بها معهم ولم يكن لها وجود على أرض مصر.

ويصف التاريخ وصول قوافل مماثلة عن طريق البحر الأبيض المتوسط ونزولهم فى شمال الدلتا وانتقلوا منها الى الأرض التى اختارها لهم الاله (جبتاه) أرض الاله عين الشمس التى أقاموا فيها معبد إله الشمس فى مدينة «أون» أول عاصمة فى تاريخ الحضارات الإنسانية - المدينة التى خرجت منها عناصر الحضارة وتشاريع العقيدة.

فمن هم اتباع حور (شنسوحور) الذين هبطوا على أرض مصر من الشمال والشرق والغرب؟

هل هم أصل المصريين القدماء بناة الحضارة؟

متى وصلوا إلى أرض مصر ومن أين أتوا؟

لقد اجاب كهنة مصر الأقدمين بمعبد أون على تلك الاسئلة التى فرضت نفسها على تاريخ الحضارات من آلاف السنين ونقلها عنهم قدماء مؤرخى الأغريق وسجله المؤرخ المصرى القديم «مانيتون» فى قوائم التاريخ الزمنى المسجل للحضارة المصرية.

أعلن كهنة «معبد أون» قصة مغادرتهم للقارة قبل غرقها وكيف وصلوا إلى أرض مصر المقدسة التى يرويها الاله بنهر الحياة فسجلوا وصولهم إلى أرض مصر بالاحتفال باعلان تقويمهم الكهنوتى الأول والذى يبدأ فى العام الموافق مع ٩٥٠٠ ق.م.

من المفاجآت التى كشفها علماء معاهد الاطلنتولوچيا فى الأبحاث التى يقومون بها فى البحث عن أسرار القارة المفقودة أن تاريخ غرقها يتفق تماما مع التاريخ الذى سجله الفراعنة عند وصولهم الى أرض مصر. ■



هل يعود زمن
مكتبة الإسكندرية؟!

بقلم
مصطفى نبيل

توقفت الحافلة التى أقلت المدعوين من الكتاب إلى لقاء وحوار حول مكتبة الإسكندرية، وقفنا أمام ذلك المبنى الثقافى الشامخ، الذى يكاد يقوم فى ذات المكان التى قامت فيه مكتبة الإسكندرية التاريخية التى أسسها بطليموس الأول منذ نحو ثلاثة وعشرين قرناً.

هذا الصرح المعمارى الذى يرمز إلى بناء العقل وإثراء الفكر واحترام العلم.



يهب علينا هواء بحر الإسكندرية المنعش، السماء صافية وأجواء الخريف، أجمل فصول السنة في الإسكندرية ، يشبه المبنى الذي يطل على البحر قرص الشمس رمز الإله آمون، ويعطي ظهره لليابسة التي ترمز إلى أوزوريس.

كل ما حولك يدعو إلى التأمل واستحضار الصور التاريخية والتساؤلات القديمة، مثل.. لماذا كانت مكتبة الإسكندرية علامة بارزة في تاريخ الإنسانية؟!.. ولماذا يعتز المصريون بها. وقد قامت في عصر البطالمة..؟ .. وما علاقة مصر بمكتبة أقامها المحتلون..؟!

وأين من كل ذلك الخريطة التي تحدد خطانا، والبوصلة التي تحدد اتجاهنا، والأفق الذي يحدد غايتنا.

نقلب صفحات الأيام القديمة، ونقرأ أحداث التاريخ، ونتابع تطوراته.

ظهرت مكانة مدينة الإسكندرية منذ القرن الثالث قبل الميلاد، وأصبحت مقصد طلاب المعرفة في كل مكان، مكتبتها هي كعبة العالم، ولم يوجد في ذلك الزمان مدينة تقارن بالإسكندرية.

نقلب صفحات تلك الرسالة التي جاءت في إحدى البرديات وهي من ابن لأبيه يقول .. «إذا لم تأخذني معك إلى الإسكندرية ، فلن أكتب لك، ولن أخاطبك بعد اليوم، ولن أحييك وأقدم فروض الطاعة لك كما اعتدت كل يوم..»!

ويذكر «سارتون» في سفره القيم تاريخ العلم.. «كانت مكتبة الإسكندرية أشهر المكتبات في العالم القديم وأفخمها على الإطلاق، وعمل حكام مصر من

البطالمة بكل الطرق الممكنة على تزويد مكتبتهم بالكتب والمعارف النادرة.. وكانت أهمية المكتبة تتركز في الدراسات الإنسانية، ولم يكن أمناء المكتبة مجرد مفهرسين بل كانوا ضالعين في فقه اللغة، فكانت المكتبة للإنسانيات و«الموسيون» للعلماء، الذي كان مهد علم التشريح والفلك، ولم يكن ما يميز المكتبة عظمة المبنى وأناقة القاعات، وروعة الأعمدة فحسب، بل عدد المؤلفات وأكوام لفائف البردي، ودقة الرسوم الجدارية والنقوش الغائرة، وأعظم ما فيها الرجال الذين كانت تضمهم المكتبة ، والتي من حقها أن تفخر بمن يقصدها من العلماء..».

فكانت المكتبة هي المؤسسة الثقافية الأولى، في زمن لم يعرف الجامعات والمعاهد، وأصبحت همزة الوصل التي تربط مصر بالعالم. وقد سجل «أرنولد توينبي» رأيه بقوله.. «إنها مكتبة متفردة ، لم يسبقها مثيل، ولم يتبعها شبيه..».

ويستعرض جيبسون - صاحب كتاب قيام وانهيار الحضارة الرومانية - زمن مكتبة الإسكندرية بقوله.. «لقد نهلوا من معين الفلسفة اليونانية أنبل الآراء وأكثرها تحررا حول كرامة الطبيعة الإنسانية وعن قيام المجتمع الأهلي، وأن يعيشوا في ظل حكومة حرة فاضلة».

وكانت المكتبة جزءًا من الحي الملكي، وليس غريبا العثور بالقرب منها على الآثار الغارقة، وتتألف المكتبة التاريخية من مجموعة من المباني تضم قاعات بحث، وأماكن لإقامة العلماء، وكان الأباطرة يدفعون مكافآت سخية للعلماء، كما كان رئيس المكتبة شخصية بارزة، وهو الكاهن الأكبر، وقد اقيمت المكتبة على نمط مدارس أثينا، وخاصة أكاديمية أفلاطون. (مصر في عصر البطالمة د. إبراهيم نصحي).

ويؤكد هذا الوصف «وول ديورانت» صاحب كتاب قصة الحضارة .. «ظلت مكتبة الإسكندرية إلى آخر أيامها معهدا للدراسات الراقية أكثر مما كانت جامعة للطلاب..» وكانت أول مؤسسة أقامتها دولة للعمل على تقدم العلوم والآداب..».

••

ولم تكن مصر مجرد المقر لهذا الصرح الثقافي الكبير، بل أثرتها بحضارتها ، فرغم أن البطالمة وصلوا إلى مصر غزاة تحت قيادة الإسكندر الأكبر، إلا أنه ما لبث الاسكندر وهو في قمة انتصاره، أن توجه إلى واحة سيوة، ووسط فضاء الصحراء، توج ابنا للإله آمون (إله الشمس)، وأعلن انتماءه للديانة المصرية القديمة، وطلب وهو المنتصر الفاتح دعم الإله آمون ومساندة كهنته، (كما فعل بعده نابليون الذي ارتدى العمامة، وأعلن دفاعه عن الإسلام) وطلب الإسكندر أن يسجد له الناس على اعتباره ابن الإله وليس ابن فيليب المقدوني، ودفن بعد موته في مصر.

وعندما تفككت الإمبراطورية عقب موته، لم يعد للبطالمة وطن سوى مصر، وأعلن بطليموس وخلفاؤه السبعة والتي كانت آخرتهم كليوباترة إيمانهم بالآلهة المصرية، وغدت مصر مصدر القوة لهم.

وها هو هيرودوت يعلن أن أصل أسماء جميع الإغريق أسماء مصرية، ويبدي



طه حسين



اسماعيل سراج الدين

أفلاطون إعجابه بأسبرطة لأنها أكثر مصرية من أثينا، - كما يذكر د. أحمد عتمان في مقدمة كتاب أثينا السوداء - كما أورد قول تيماديوس .. «إن الإغريق مازالوا أطفالاً في مضمار الحضارة..»، وكانت مصر بحضارتها ولغتها الأصل والنموذج الذي حذا حذوه الإغريق.

ويقول جيبسون .. «إن بقاء أهالي مصر على لهجاتهم ولغاتهم القديمة، حال بينهم وبين الدخول في أمر الإغريق..».

وبعد انتصار أوكتافيوس على انطونيوس حليف كليوباترة، فقدت مصر استقلالها كقاعدة لإمبراطورية البطالمة عام ٣١ ق. م، وأصبحت ولاية ضمن الإمبراطورية الرومانية .

هذا عن عصر البطالمة الذي يشبه ما جرى في عصر الطولونية أو الإخشيدية أو الفاطمية أو المملوكية، فيستمد حكام هذه الدول قوتهم ومجدهم من داخل البلاد.

أما عن ما فعلته هذه الأحداث في مكتبة الإسكندرية التاريخية، فبصرف النظر عن الحريق الذي تعرضت له المكتبة وأتى على أعظم منجزات هذا الزمان، إلا أن ما لحق بالمكتبة سواء بمبناها الرئيسي أو السيرابيوم من أضرار الحريق الذي اشتعل على فترتين متباعدتين في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد وحتى أخريات القرن الرابع الميلادي فقد ظلت المدارس الفكرية والفلسفية قائمة، ولكن عندما انتقلت الإسكندرية إلى حكم الرومان اعتبرت ثانية مدن الإمبراطورية، وبقيت أعظم موانيء البحر الأبيض، أما بداية انزواء دور المكتبة الفكري والثقافي جاء مع تراجع الديانة المصرية القديمة أمام انتشار المسيحية التي نظرت للديانة القديمة على أنها وثنية.

وقد شبه ذلك كلمنت السكندري مع بداية القرن الثالث.. «خوف رجال الدين الجديد من دراسة الفلسفة، مثل خوف الطفل من القناع». كما قال ديودور الصقلي.. «إن تسرع المؤمنين وإغلاق المعابد والقضاء على النظام الفكري، كان محاولة من الإمبراطور ثيودوسيوس لإلغاء الذاتية المصرية».

ويعلق د. رأفت عبدالحميد في كتابه المهم «الفكر المصري في العصر المسيحي» بقوله .. «ليس هناك بلد من البلاد أثر في تطور المعتقد المسيحي أشد عمقاً من مدينة الإسكندرية، فقد أصبحت الإسكندرية عقل العالم المسيحي..».

●●

ومن ناحية أخرى تزايدت مع ضعف الشرق الدراسات التي تنكر على الشرق مساهماته الحضارية ، وادعت اتجاهات في أوروبا والغرب باحتكار الحضارة، وفي المقابل ظهرت مدارس تنكر نظرية مركزية الثقافة وترفض فكرة المركز الواحد.

وتؤكد وجود مراكز متعددة، وهنا

تصبح مكتبة الإسكندرية أكبر دليل على دور مصر القديم ، كما تأتي أهمية تعلم فيثاغورس نظريته في مصر ، وفكرة أن فلاسفة اليونان تلامذة الفلسفة المصرية، وأفلوطين الصعيدي المصري ودوره المشهود في الفلسفة.

وفي هذا السياق صدر كتاب «التراث المسروق» لكاتبه جورج جي أم جمس يقول .. «إنه لا يوجد مصطلح الفلسفة الإغريقية فهي تسمية خاطئة، وإنما استحدث المصريون القدماء مذهبا سمي نظام الأسرار، وهو أول مذهب فلسفي عن خلاص الإنسان وتتحرر النفس من قيود الجسد عن طريق المعرفة من فنون وعلوم.. وبعد دخول الإسكندر مصر، حولت مدرسة أرسطو مكتبة الإسكندرية إلى مركز أبحاث العالم..».

ويضيف .. «إن فلاسفة اليونان لم يكونوا أصحاب الفلسفة اليونانية، وإنما أصحابها الحقيقيون هم الكهنة المصريون، وشراح النصوص المقدسة ومفسرو الرموز السرية، وها هي عبارة «إعرف نفسك» التي تنسب إلى سقراط، مسجلة على جدران المعابد المصرية وسابقة على قوله .. «فلقد غزا الإسكندر مصر واغتصب مكتبة الإسكندرية ونسبها لنفسه في دراما تاريخية أبطالها الاسكندر وأرسطو وجوستنيان الإمبراطور الروماني!».

واتبع نفس المنهج وول ديورانت في كتابه قصة الحضارة، فالشرق هو بداية خلق روح الاستكشاف والاقتحام، وهذه الروح هي التي تعيد الاعتبار للإنسان، وترد الاعتبار أيضا للحضارات الشرقية القديمة، ففيها حضارات اعترفت بالإنسان والحياة وبكل ما تحت الشمس والسماء.

وفكرة إحياء مكتبة الإسكندرية تعني وتؤكد فكرة المراكز الثقافية المتعددة لا المركز الواحد، وهي دعوة إلى التعدد الثقافي وإلى الحوار بين الحضارات والثقافات، وهي عودة زمن مكتبة الإسكندرية التي كانت بؤرة نشاط امتزج فيه الشرق مع الغرب، وهي عودة إلى مكتبة الشوامخ تلاميذ أرسطو وأفلاطون ، ومنهم أرشميدس الذي مازال نظامه معمولا به حتى اليوم، كما أن العودة إلى أجواء مكتبة الإسكندرية، تزود المرء برؤية عميقة لما يجري حولنا ، وتسلط الضوء بالضرورة على الدور المصري والشرقي بوجه عام، أو إذا استخدمنا كلمات أكثر تحديداً فهو الدور العربي الإسلامي.

ولا يمكن إغفال موقف الغرب بوجه عام، وهو موقف متناقض يجمع بين الإعجاب بمصر إلى حد الهوس من ناحية والتعالي عليها من ناحية أخرى.

وزمن مكتبة الإسكندرية هو زمن امتزاج الثقافات وصهرها في بوتقة واحدة.

••

وبعد تقليب صفحات التاريخ، وتقديم صور متتابعة لمكتبة الإسكندرية، وبعد محاولة الإجابة على بعض التساؤلات التي تتردد دون جواب مبين، نقترب من بعض وقائع اللقاء والحوار، داخل قاعات المكتبة في أوائل أنشطتها والتي أضفت على اللقاء بشموخها تفاؤلا بالمستقبل.



مصطفى نبيل وحسين أحمد أمين بين المجتمعين أثناء اللقاء حول دور مكتبة الاسكندرية

ويأخذني التأمل بعيداً، وبدلاً من التحليق في السماء نسير فوق الثرى، وبدلا من تأمل الماضي نواجه حقائق الحاضر ونستعد للمستقبل.

وهنا ألاحظ أنه كان من الطبيعي أن يسبق قيام هذا الصرح المعماري انتشال سلسلة المكتبات العامة من عثرتها، وبعضها يعاني من الاهمال، ولم تعد تحقق الحد الأدنى من مهمتها في توفير الكتاب لمن يطلبه، ولكن على أية حال فإن قيام مركز ثقافي على هذه الدرجة من التقدم يمثل دافعا للتحديث والتغيير في المواقع الأخرى من أجل رفع مستوى الأداء في كل منها.

وبداية لا يفوتني ملاحظة أن أربعة مهندسين معماريين من النرويج تقل أعمارهم عن خمسة وثلاثين عاما، هم من فاز تصميمهم المعماري للمكتبة في المسابقة التي أشرفت عليها اليونسكو.

وهنا ألاحظ غياب مؤسسات هندسية عملاقة قادرة في مصر، وأسترجع حقيقة أن المشاريع المهمة التي اقيمت في العقدين الأخيرين صممتها وأحيانا نفذتها شركات وبيوت خبرة أجنبية، فمثلا مبنى المؤتمرات في مدينة نصر، صممه وأقامه الصينيون، ودار الأوبرا أقامها اليابانيون، وبانوراما حرب أكتوبر أقامها الكوريون، وتنفذ المشاريع الهندسية الكبيرة شركات أجنبية بحجة عدم التزام شركات المقاولات المصرية بالمواعيد وببرنامج التنفيذ!

ولا يجوز أن يبقى الحال على ما هو عليه، وآن له أن ينتهي، ولسنا ضد الاستعانة بالخبرة الأجنبية، ولكن بشرط عدم توفرها وأن يحل محلها بالتدريج الخبرة المحلية.

●●

وعند تأمل موضوع اللقاء والحوار وهو وظائف مكتبة الإسكندرية، لابد أن أتساءل

ألا يعكس معمار المكتبة ويتوازى مع بنيان الوظائف التي ستقوم بها؟ وهو ما تلاحظه بالفعل في القبة السماوية وقاعة المؤتمرات والمحاضرات ، وصالات المعارض والمتاحف وقاعات الإطلاع، وأماكن الباحثين والدارسين ، والتعامل مع أحدث وسائط الاتصال الكلمة واللوحة والمسرحية والفيلم وأيضا الكتاب المغنط والإنترنت والعالم الرقمي الذي يتطور مع كل يوم جديد.

وفارس هذا الميدان بلا منازع هو الدكتور إسماعيل سراج الدين مدير المكتبة، الذي لا حديث في هذا المجال بعد حديثه حول إعداد المكتبة للمستقبل والتعامل مع ثورة المعلومات الرقمية.

واتفق المتحاورون خلال اللقاء أن أول مهام هذه المكتبة هو الاهتمام بمدينة الإسكندرية في العصور المختلفة، والاحتفاء بكل من أنجبتهم الإسكندرية والكتاب الذين كتبوا عنها مثل الشاعر اليوناني كفافي والروائي البريطاني داريل الذي كتب رباعية الإسكندرية. فلم تكن المكتبة التاريخية - كما رأينا - مجرد مخزن كتب، وإنما معهد للدراسات والمعلومات، ومركز للتوثيق والبحوث ونقطة تجميع الوثائق النادرة ، ومتحفا للعلوم والخطوط والمخطوطات.

وعلى المكتبة اليوم استغلال الميزات النسبية مثل وجود أعداد كبيرة من المخطوطات والبرديات في مصر، والذي يقوم د. يوسف زيدان بجمعها وفهرستها تمهيداً لتحقيقها ونشرها. وعليها أن تحصل على نسخ من اسطنبول وبلاد ما وراء النهر في جمهوريات آسيا الإسلامية مثل طشقند وبخارى وقازاخستان، ولا تنس المخطوطات الموجودة في العواصم الغربية المختلفة.

ولكي تصبح المكتبة نافذة العالم على مصر ونافذة مصر على العالم، ومن أجل أن تكون مركزا للحوار والتفاعل بين الثقافات، يجب أن تضم الكتب العربية والأفريقية ، مثلما تضم الكتب الأجنبية، وأعني أيضا بذلك الكتب المؤلفة باللغة العربية، ومعنى اللغة هنا الفكر وليس النطق، والتي تعد ثمرة الحضارة العربية وإحدى نتائج التفاعل بين الإنسان ومجتمعه، وبين واقعه وبيئته، وعندما يفكر الشعب لنفسه .

فللتراث المصري وجود متصل مهما تغيرت صوره، وفعالية ممتدة إلى أعماق التاريخ، حان وقت دراسته في وحدته، لا دراسة أثرية أو متحفية بل دراسة حية للأفكار والحضارة التي تمثلها.

وقد عكس اللقاء توجساً من شبه اختلال في التوازن في النظر إلى الثقافات المتعددة، وخاصة في عصر العولمة وهيمنة الثقافة الغربية الأوروبية، إلا أن المكتبة عبرت في الماضي وعليها أن تعبر في المستقبل عن تعدد الثقافات والحضارات وضرورة التفاعل والحوار بين هذه الثقافات وتعكس في زمانها فكر العالم ، وتنشر محاورتها في كل العالم، فهذا ما يحتاج إلى إحياء، وخاصة أن العقلانية كانت جزءاً عضويا من تكوينها.

ولكن مكتبة الإسكندرية التاريخية كانت تدير ظهرها إلى أفريقيا، وكان

عـالمهـا هو الشـام وروما وبيـزنطة - القسطنطينية فيما بعد- وأثينا وإسبرطة، ولم يعـد عـالم تلك الأيام هو العـالم المعاصر، فماذا بشأن ظهير مصر، العالم العربي وأفريقيا..؟، وماذا بشأن دور مصر في الثقافة العربية ؟!.

فإذا كانت المكتبة ساحة للحوار فلابد أن تعتني بالتراث العربي وبالفكر العربي المعاصر.

ومن الغريب ألا توجد مكتبة عامة في مصر تجمع الكتاب العربي، سواء ذلك الذي نشر في المغرب أو اليمن أو الكويت أو تونس أو العراق وهو ما تحتاجه المكتبة علاوة على احتيـاج كل باحث للكتاب العربي في الأفكار المختلفة.

وغني عن القول أن الخطوة الأولى في مشروع النهضة هي إحياء التراث ونشره واستلهامه، وهي ذاتها الخطوة الأولى في النهضة الأوربية التي تمثلت في إحياء التراث الإغريقي الروماني.

كما أن الحضارة العربية هي التي حفظت التراث الإغريقي من الضياع، إذ ترجمت مخطوطاته وأضافت إليه ، وهناك العديد من النصوص الإغريقية التي فقدت أصولها وبقيت ترجمتها العربية .. وعلى مكتبة الإسكندرية أن تسير على نفس المنوال ومثلما نجح العرب في ربط أطراف الأرض حضاريا، تصبح المكتبة ساحة للحوار والتفاعل بين الثقافات.

●●

أقول ذلك لأن التركيز لكثير من المتحدثين على دور المكتبة أعطى اهتماما خاصا لثقافة البحر المتوسط.. وكان الحاضر الغائب في هذه المناقشات هو الدكتور طه حسين الذي دعا في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» إلى الاتجاه صوب البحر المتوسط وهو القائل.. «إن حضارة مصر تنتمي إلى البحر المتوسط، ولابد من دراستـهـا..» ويضيف .. «إن تبادل المنافع بين العقل المصري والعقل اليوناني في العصور القديمة قد كان شيئا يشرف به اليونان، ويمتدحون به فيما يقولون من شعر، وفيما يكتبون من نثر فمصر مذكورة أحسن الذكر في الملاحم الإغريقية، ومذكورة أحسن الذكر عند هيرودوتوس ومن جاء بعده من الكتاب والفلاسفة.. ويرى الأستاذ العميد.. أن اليونان تلاميذ مصر في الحضارة وفي فنونها الرفيعة بنوع خاص، ولم تنفرد مصر بالتأثير في حياة اليونان، ولا في تكوين الحضارة اليونانية والعقل اليوناني، وإنما شاركتها في ذلك أمم شرقية أخرى.

أي أن الأستاذ العميد كان يدعو إلى تفاعل الحضارات وتبادل الثقافات، ولا يدعو إلى الاهتمام بحضارة البحر المتوسط على حساب الثقافة العربية.

ويبقى أن أقول.. إنه علينا ونحن نحتفل بهذه المؤسسة الثقافية المهمة أن نعطي الفضل لأصحابه، وعلينا أن نتذكر أول من نادى بإعادة بناء مكتبة الإسكندرية وهو الكاتب الراحل أحمد بهاء الدين، الذي اقترح إقامتها في يومياته في الأهرام، بل واقترح البدء في اكتتاب عام مصري وعالمي ، وهو ما حدث بالفعل. ■



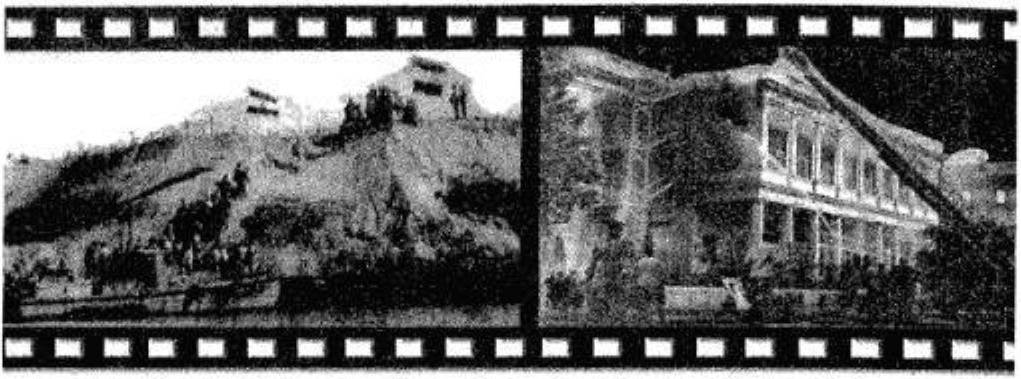
مسيرتي ومصر

في السبعينيات المبكرة

بقلم
د. مصطفى سويف

كانت السبعينيات المبكرة في القرن الماضي منعطفا جديدا بالنسبة لمصر ولي: كانت نقطة انتهاء ونقطة ابتداء بالنسبة لكلينا، وكانت تبشر كلا منا بقدر من التوفيق، كانت تعنى بالنسبة لمصر انتهاء حكم وابتداء حكم جديد، وكانت تعنى كذلك انتهاء شعور بالانكسار لتبدأ في الحلول محلّه مشاعر الثقة والكرامة في المحافل الدولية .

وكانت هناك علامات تبشّر بالرجاء في المستقبل القريب، وربما في البعيد أيضا. وكانت الفترة نفسها تعني فيما يخصني انتهاء عهد يغلب عليه مسلك التلمذة ليبدأ عهد يغلب عليه عطاء الأستاذية، وكانت الفترة تعني بالنسبة لي كذلك انتهاء توجُّه عام يقتصر فيه الخطاب على المحلّية ليقوم في أعقابه توجُّه عام يضفي على المحلية دلالة جديدة داخل إطار أشد رحابة هو إطار العالمية.



وكنت أري شواهد موضوعية تبشرني بقدر معقول من التوفيق في المستقبل المهني . هكذا عايشت الأيام الباكرة في السبعينيات عيناي ترصدان المسيرتين، ووجداني ينفعل لهما انفعالا متجانسا . أحيانا، فيسعدني أيما سعادة وينشق إلي انفعالين متباعدين أحيانا أخري فيكئبني أيما كآبة .

السبعينيات فى مصر

جاءت السبعينيات تحمل إلى مصر حكم الرئيس السادات، وسرعان ما ذاع بين القوم أنه يحب أن يشار إليه باسم «محمد أنور السادات»، وحبذا إذا جاءت الإشارة مسبوقة بعبارة «الرئيس المؤمن»، وقرأ البعض فى ذلك نوعا من الهمز واللمز، ثم سرعان مادخلنا فى دروب تشبه مايشير إليه أساتذة التحليل النفسى من دروب الصراعات بين أحداث تجرى فى مستوى الشعور وأخرى تجرى فى مستوى اللاشعور: كان واضحا أن ضمائر المواطنين تموج بأفكار وآمال حول موضوعات شتى، وأن خيطا رئيسيا ينتظم هذه الموضوعات جميعا هو مطلب إصلاح الأحوال، أحوال الاقتصاد، وأحوال الحريات، وأولا وقبل كل شىء إزاحة كابوس الهزيمة العسكرية (هزيمة سنة ١٩٦٧)، وكان هؤلاء المواطنون يقيّمون كل صغيرة وكبيرة فى أمور الحكم الجديد بمعيار مستمد مباشرة من مطلب الإصلاح الشامل هذا، وكانوا فى تقييمهم هذا يبدون وقد فرغ صبرهم إلى حد ملحوظ.

ومع ذلك فقد وجدوا أنفسهم مدفوعين دفعا إلى التأرجح المستمر بين مشاعر متعارضة، فكانوا يتفاءلون أحيانا، ويتشاءمون أحيانا أخرى، ويتساءلون أحيانا ثالثة، ويتعجبون أحيانا رابعة: فى أبريل سنة ١٩٧١ بدأت تذاع أنباء عن اجتماعات بين مصر وليبيا وسوريا لتكوين دولة موحدة، وسرعان ما ثار جدل حول ما إذا كانت الوحدة المقترحة اندماجية تعاقدية؟ وقيل كلام كثير، وتساءل الناس العاديون وتعجبوا، ولسان حالهم: «إحنا فى إيه

والآ في إيه؟!» وقال البعض من أولي الألباب إن هذا إلهاء للمواطنين عن شواغلهم الحقيقية. ثم إذا بنا نفاجأ في ١٣ مايو بالقبض على حوالي تسعين شخصا من القيادات الرسمية العليا في الدولة. وقرأ الناس في هذا الحدث صراعا على السلطة يجري في الخفاء، فراحوا يضربون أخماسا في أسداس، وانساق البعض إلى الشعور بأقدار من الشماتة في بعض من كانوا يتصرفون كأنهم أنصاف آلهة، وبعد يومين أعطت الحكومة لهذا الحدث اسما لكي يستعمله دعاتها والناس من بعدهم، فقالت إنه «حركة التصحيح»، وذاع مع هذا الاسم تعبير «مراكز القوى». وبعد فترة وجيزة أخليت الإذاعة والتليفزيون من كوادرهما، وملئت المناصب الشاغرة بكوادر جديدة، واسترسل الناس في تخميناتهم حول ما يجري، وما سوف يجري. وفي أول سبتمبر سنة ١٩٧١ أعلن قرار سيادي بتغيير اسم الدولة من «الجمهورية العربية المتحدة» ليصبح «جمهورية مصر العربية» ومرة أخرى ترددت على الألسنة عبارة «إحنا في إيه والآ في إيه؟!» وكأن ما لدى الناس من هموم وتساؤلات وظنون لايكفي، فإذا بنا نستيقظ صباح يوم من أيام أكتوبر في العام نفسه على أنباء احتراق دار الأوبرا، احترقت الدار احتراقا تاما،

وكانت هذه الدار بكامل ماحوته وما أحاط بها تاريخا حضاريا مكثفا بالنسبة لي وللكثيرين من أبناء جيلي، وجيل بأكمله جاء بعدنا، وأجيال متعددة من المثقفين عاشوا قبلنا، يومها تذكرت رقصات جالينا أولانوفا، وتذكرت مشاهد من أوبريت العشرة الطيبة .. وتناثرت في الأجواء أسئلة وشائعات: أكان الحريق بفعل فاعل؟ أم كان نتيجة إهمال ما؟ ومن المستفيد الحقيقي مما حدث؟ وكيف تستمر النيران لساعات عدة تأكل الجدران وماحوته الجدران بينما تقع قيادة شرطة مطافيء الحريق على مسافة عشرين مترا من الدار؟ وتناثرت في الأجواء إجابات شتى، يوجّه بعضها أصابع الاتهام إلى عملاء لإسرائيل، ولايرى البعض الآخر فيها إجراما بقدر مايرى دليلا يضاف إلى عشرات الأدلة على تبرؤ الدولة .. أما أنا فقد استبد بي شعور بالاكتئاب المصحوب بالغضب، وتوسمت فيما وقع صورة مكررة لما كان يحدث في القاهرة في أواخر عقد الأربعينيات من تفجيرات وحرائق في دور السينما، ويظل الفاعل مجهول الهوية! وتوسمت فيه كذلك صورة مصغرة لحريق القاهرة (يناير سنة ١٩٥٢)، وقد ظل الفاعل مجهولا! وتنبأت على طريقة كاسندرا بأن حريق الأوبرا سوف يلحق بالتفجيرات والحرائق السابقة عليه، وسوف يظل المجرم مستورا، وصدق صوت كاسندرا رغم غضب الغاضبين.

على أية حال كانت هذه الأحداث في

المعالم الكبرى الواسمة لمصر فى السنة الأولى من السبعينيات كما عايشتها. وفيما عدا حريق الأوبرا فقد أوجزت سائر الأحداث ودلالاتها كما ارتسمت فى ضميرى بعبارة واحدة، «الناس فى واد والحاكم وأعوانه فى واد». قال البعض ملتمسا العذر للرئيس السادات بأنه لم يكن يملك إلا أن يبدأ بترتيب البيت من الداخل، وقالوا إنه بمجرد أن فرغ من التغلب على خصومه (وقد أسماهم مراكز القوى) بدأ يخطو على الطريق الى إصلاح الحريات، وفعلا بدأ السادات يروج لمصطلح «دولة المؤسسات»، ويذيع أن الاحتكام سيكون دائما إلى القانون، ومع ذلك فقد بدا للبعض أن هذه الأسماء وهذه الأقوال إنما أريد بها بعض الحق وبعض الباطل.

دلالات الصمت

من يستعرض دروس التاريخ المصرى القديم والحديث يجد أن أحد الأخطاء التى تكرر وقوعها من جانب الحكام نحو المحكومين تأويل الصمت على أنه غفلة، وقد حدث ذلك فى أوائل حكم السادات، ولستُ فى مقامنا الراهن بصدد مناقشة أسباب هذا الخطأ ولاتعرية آلياته النفسية/ السياسية، ولكنى أكتفى برصده والتعليق عليه، فقد غلب على الناس الصمت فى السنة الأولى لحكم السادات.

وكان صمتا يؤدى لأصحابه وظائف متعددة هى فى جملتها أبعد ماتكون عن الغفلة، كان صمتا ينطوى على انتظار وترقب. فالحاكم جديد والناس لايعرفون عنه الكثير، وإذاً فليصبروا عليه حتى يكشف عن حقيقته، وكان صمتا ينطوى على إعادة النظر فيما اكتسبوه من خبرات فى عهد سابق لانتقاء ماقد ينفع منها واستبعاد مالاينفع، وكان ينطوى كذلك على انتظار نتيجة الصراع الدائر بين الحاكم ومنافسيه عسى أن يُحسم فى القريب فيعرفون من الذى سوف يحكمهم فعلا، وقد يكون كل ماحدث مجرد جولة سوف تعقبها جولات، وكان بعد هذا وذاك صمتا ينطوى على قدر من التقية، لأن الحاكم قد يغدر بهم وهو أمر وارد.

على كل حال كان صمت الناس إذ ذاك خليطا من هذه العناصر جميعا، والمهم أنه أدى وظيفة اجتماعية مهمة فى تيسير تعامل المواطنين مع الحاكم الجديد، إذ جاء شبيها بفترة السماح التى تعطى للمدين قبل أن يبدأ فى سداد أقساط دينه، وذلك حتى يحسن التأهل لما هو مقبل عليه، ثم يبدأ القوم يطالبونه بالسداد. وفى يناير سنة ١٩٧٢ انتهت فترة الصمت (المختلط أحيانا بالهمس) بكل ماتعنيه هذه النهاية، وبدأت الأصوات تعلو مطالبة بتحرير سيناء من الاحتلال الإسرائيلى. وكان طبيعيا أن تصدر هذه الأصوات أول ماتصدر عن الطلاب، شريحة المجتمع التى تتوفر لها العوامل الضرورية القيام بهذا التحرك: درجة لابأس بها من الوعى بالقضايا العامة، ودرجة لابأس بها من حماس الشباب، وقدر معقول من عدم

مستقبل مصر

الانشغال بالسعي اليومي للحصول على لقمة العيش، هكذا جاءت مظاهرات الطلبة في الجامعة فاتحة الأحداث العامة في سنة ١٩٧٢. وسرعان ماعبّر السادات عن غضبه من هذه المظاهرات، وبدا أنه كان يتصور الصمت السابق على أنه غفلة، فلما فوجيء بخطأ تصوره جاء رد فعله عنيفا منذ البداية، فبدأت تظهر في خطبه كلمات سباب موجهة نحو الطلبة، مثل «الرزالة»، و«الأرازل»، وبدأت تظهر في أحاديثه اتهامات بأن المحركين الحقيقيين لهؤلاء الشباب «السذج» إنما هم عملاء مراكز القوى التي أطيح برموزها، وأن بعض هؤلاء شيوعيون، وظهرت منذ ذلك الوقت المبكر علامات تنبيء بأن رئيس الدولة بدأ يستقطب بعض المنضوين تحت شعارات الإسلام السياسي ليضرب بهم أشباح الشيوعية وقد بدأت تتراءى له!.

كانت هذه المظاهرات الطلابية المطالبة بحرب التحرير، وردود الأفعال الساداتية الغاضبة، من أهم معالمنا الوطنية في سنة ١٩٧٢، ثم جاء المعلم الثالث في يوليه من العام نفسه وجاء طرد الخبراء العسكريين السوفييت، جاء دون مقدمات معلنة، فكان شبيها بالكثير من أحداث عام ١٩٧١، فلم يعرف المواطنون أي قدر من الحقائق المتعلقة بهذا الحدث، ومن ثم خلت الساحة إلا من الشائعات، ومع الشائعات تولد وتنامى كثير من الضجيج الإعلامي، ورأيت في ذلك كله برهانا جديدا يضاف إلى حصيلة تتراكم تحت ناظري مؤداه أن هناك دائما علاقة عكسية بين حجم الضجيج الإعلامي الرسمي أو شبه الرسمي وحجم التصديق الذي يلقاه المضمون عند مواطنينا، ومع الضجيج بدأنا نسمع خطبا لا أول لها ولا آخر، من الرئيس نفسه ومن حوارييه، وسمع الناس في هذه الخطب كثيرا من الوعود عن عام الحسم (حسم معركة التحرير).

وانتهى عام ١٩٧٢ولم تحسم قضية التحرير، ولا حسمت قضية الأحوال الاقتصادية المتدنية. وحتى قضية الحريات التي كانت ضمن الهموم العامة، والتي راح الرئيس يوظفها لخدمته أثناء معركته ضد مراكز القوى في سنة ١٩٧١ عادت تؤرّق المواطنين لأن خطب الرئيس أخذت تمتليء بالتهديدات الصريحة والمستترة، وبدأت تتناثر فيها عبارات أصبحت فيما بعد من جوامع الكلم، مثل القول «إن الديمقراطية لها أنياب»، و«إنه سوف يبطش بالمناوئين وسوف يكون بطشه شديدا ومع ذلك فسوف يتم باسم القانون، وإنه «سوف يفرم» من تسول له نفسه أن يخرج على الشرعية .. إلى آخر هذا النوع من التهديد والوعيد، الذي كان يخرّب أولا بأول مصداقية الدعوى بإقامة دولة المؤسسات ، والذي كان على أي حال لايليق بمقام الرئاسة، إذ ينقص مفعول الحكمة التي تعلمناها منذ صبانا ، «لكل مقام مقال».

ثم كان العام ١٩٧٣

فى ١٣ فبراير سنة ١٩٧٣ كتبتُ العبارة الآتية فى مفكرتى: «لم أستطع التدريس اليوم لطلبة الدبلوم بسبب جو الإضرابات فى الجامعة». كان صخب الإضراب فى جامعة القاهرة شديدا، كان الطلاب يخوضون معركتين، إحداهما فى مواجهة الحكومة، والثانية بين بعضهم البعض، رافعو شعارات الإسلام السياسى فى مواجهة رافعى الشعارات الليبرالية .

وفى الساعة الثانية بعد ظهر يوم السبت ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ أذيع بيان عسكرى لم يدرك كثيرون منا مغزاه، واتضح فيما بعد أنه كان بيانا بقيام حرب التحرير، وعشنا أياما عظيمة عندما تأكدت الأنباء بأن جنودنا يتقدمون بعتادهم وعدتهم شرق القناة، وأنهم رفعوا العلم المصرى على الضفة الشرقية، وأنهم اجتاحوا خط بارليف، وسمعت بأذنى الإذاعات الخارجية والمراسلين يتحدثون من خلالها عن الجنود المصريين بألفاظ تنضح بالاحترام والتوقير، وفى تلك الأيام غفر المواطنون للسادات صمته، واعتبروه جزءا من دهاء سياسى لاغنى عنه فى مثل هذا الموقف، ثم حدثت بعد ذلك أحداث جسام، تستحق أن يفرد لسردها أكثر من مقال .

أحداث موازية

أذكر الآن هذه الوقائع فيتداعى بفعلها مشهد الأحداث الموازية فى حياتى الشخصية، وأعجب لما أكتشفه بين المسارين من تناغم أحيانا، لا لأننى أستبعد أن يحدث هذا التناغم ولكن لأننى لم أتوقعه أصلا.

ومازال السؤال يراوحنى بين حين وآخر، ماذا أستطيع أن أقرأ فى هذا التناغم؟ هل أقرأه على أنه النتيجة الحتمية للشكل الذى تفتحت به خصيصة المصرية فى نفسى؟ أم أن إدراكى هذا التناغم هو أحد شرايين الحياة التى تحيا بها مصريتى؟ أيمكن أن يكون هذا التناغم هو الشكل الحديث لما يعرف عند البدائيين بالاندماج والتوحد بين الفرد والقبيلة؟ وإذا صح هذا التصور فما هو جوهر الفرق بين الشكلين البدائى والحديث؟ أيكون جوهر الفرق ماثلا فى زيادة عنصر الوعى فى الشكل الحديث؟ فأنا أقبله قبولا واعياً، بل وأوظف ما أستطيع من طاقة الوعى عندى لأجعل منه كيانا يتناسب ومقتضيات الحياة الحديثة؟ أم أن هناك ماهو أكثر من ذلك؟ وما علاقة ذلك بطبيعة المجتمع المصرى؟ أهى إحدى مظاهر خصوصيته؟ وإذا كان الأمر كذلك فماذا يكون مظهرها فى المجتمعات التى لاتتوافر لها خصوصية المجتمع المصرى؟

كانت فترة السبعينيات المبكرة تعنى فى أفقى نهاية عهد وبداية عهد، وانتهاء توجه واستهلال توجه آخر، وكانت السمة الغالبة على هذه الفترة تواتر الأحداث بصورة مكثفة، وبمضمون ينضح بكثير من القيم الإيجابية، ثلاثة أحداث رئيسية ملأت عليّ عالمى (العلمى/ المهنى) خلال

السنوات الثلاث الأولى من السبعينيات، كان أولها يدفعنى إلى القيام بدور بعينه فى هيئة الصحة العالمية التابعة للأمم المتحدة، وكان ثانيها يدعونى لأداء مهمة فى جامعة لُند السويدية، وكان ثالثها يكلفنى بمسئولية تأسيسية لقسم لعلم النفس بجامعة القاهرة .

مع هيئة الصحة العالمية

جاءت الشهور الأخيرة من الستينيات تحمل معها إرهاصات بخطوات سوف أخطوها فى رحاب هيئة الصحة العالمية مع بداية السبعينيات، وتبلورت هذه الإرهاصات فى صورة دعوة رسمية للمشاركة فى اجتماع علمى يعقد فى مقر الهيئة فى جنيف يضم عشرة من الخبراء فى بحوث تعاطى المخدرات، اختيروا من أنحاء العالم المختلفة على أساس بحوث نشروها فى عدد من دوريات التخصص العالمية، ورحَّبتُ بالدعوة، واستأذنتُ الجامعة ، وسافرت إلى جنيف حيث شاركت فى الاجتماع بورقة عرضتُ فيها ما أجريناه أنا وزملائى أعضاء فريق البحث هنا فى مصر، وما توصلنا إليه فى هذا الصدد، واستمر اجتماعنا من ٧ إلى ١١ ديسمبر سنة ١٩٧٠، لاسبيل هنا إلى تفصيل القول فى وقائع هذا الاجتماع، لذلك أكتفى بالقول بأن كل مابدر من الأعضاء نحوى جاء بمثابة تدشين لدور جديد هو دور الباحث الخبير الذى يلقى اعتراف أسرة علماء التخصص حيثما كانوا، الاعتراف بأعماله، ومن ثم بعضويته فى أسرتهم. وفى يونيه سنة ١٩٧١ أخبرتنى هيئة الصحة العالمية بأنها استأذنت وزارة الصحة المصرية فى أمر اختيارى عضوا دائما فى لجنة خبراء بحوث المخدرات بالهيئة، وأننى أصبحت الآن أشرُف بشغل هذه العضوية وحمل مسئوليتها، ومضيت منذ ذلك التاريخ أتلقى الدعوة تلو الدعوة للمشاركة فى اجتماعات اللجنة، واستمرت عضويتى العاملة على هذا النحو بامتداد خمس وعشرين سنة.

فى جامعة لُند

فى أواخر سنة ١٩٧١، وعلى أثر نشر عدد من البحوث النفسية الإكلينيكية فى دورتين من دوريات التخصص، إحداهما «المجلة البريطانية فى علم النفس» وتنشر فى لندن، والثانية مجلة «وقائع علم النفس» التى تنشر فى أمستردام، تلقيتُ دعوة من قسم علم النفس فى جامعة لُند السويدية باستضافتى استاذا زائرا لتقديم برنامج فى علم النفس العيادى لطلبة الدراسات العليا بالجامعة، على امتداد الفصل الدراسى الثانى للسنة الدراسية ١٩٧١ - ١٩٧٢. وقد تلقيت الدعوة باعتبارها تصديقا (من جهة مستقلة) على تدشينى الذى تم فى جنيف للقيام بدورى الجديد. ووصلت إلى لُند فى الأسبوع الأول من مارس ١٩٧٢، وفى لند كما فى جنيف كنت كثيرا ما أخلو إلى نفسى لأعيد

تعـريف مـصـريتى، وأحـدد بمزيد من الوضوح موقعها على خريطتى العالمية الجديدة .

قسم للعلوم النفسية بالجامعة

قـد يبـدو هذا الموضـوع فى نظر المواطن العادى موضوعا شديد المحدودية فى دلالته، بادى الخفة فى وزنه، فأين هو من متاعبنا الاقتصادية الحادة والمزمنة؟ وأين هو من قضايانا الدولية مع اسرائيل وغيرها؟ بل وأين هو من معاركنا المتجددة فى سبيل التنمية المادية والبشرية؟ وأين وأين؟ ولكن ماهكذا ينبغى أن ينظر إلى إدارة شئون المجتمع، ولا من هذه الزاوية يجوز تصريفها، كل الموضوعات يمكن أن تبدو خفيفة الوزن محدودة الدلالة إذا قدمت فى زحام موضوعات أخرى بعينها، كل الموضوعات، وتلك إحدى الخطايا الكبرى للحكم الشمولى، حيث الحاكم الفرد، أو الدائرة الضيقة من أعوانه ومستشاريه ينفردون بالنظر فى كل شىء وبالتصرف فى كل قضية، ماذا تكون النتيجة؟ كل شىء يبدو قطرة فى بحر، ويخلو الجو لانتقاء ما يناسب الهوى، هوى الحاكم ومستشاريه المحدودين، أو ما يناسب عقولهم، أو مايناسب من يستولى على آذانهم، ومما يؤسف له أن هذه القاعدة لاتصدق فى حالة الحكم الشمولى فحسب ولكنها تصدق بدرجات مختلفة كلما اقترب نظام الحكم فى أى مجتمع من أن يكون نظاما مركزيا، ومركزية الحكم عندنا حدّث عنها ولاحرج !! على أية حال قصة إنشاء قسم علمى مستقل لعلم النفس فى جامعة القاهرة تستحق أن تُروى تفصيلا، لما تنطوى عليه من دروس وعبر، لمن أراد أن يعتبر، ولكن لايتسع المجال هنا لروايتها على هذا النحو، وإن كنت أرجو أن يتسع لهذا الحديث فى مقبل الأيام، أما مختصر القول هنا فهو أن قرار الموافقة على إنشاء القسم صدر عن مجلس جامعة القاهرة فى جلسته المنعقدة بتاريخ ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٧٣، بعد أن لقيت فى سبيل إصداره كل صنوف العنت من معظم من كان بيدهم صنع القرار فى الجامعة.

وهكذا عشتُ وعاشت مصر الثلاثية الأولى من عقد السبعينيات، خاضت مصر الحرب، وحالفها النصر فى خطواتها الأولى، وأصبح هذا حدث الأحداث بالنسبة للجميع، ورأى الناس فيه بشير خير ستنصلح معه جميع الأحوال، ووجدتنى فى هذه الأثناء أدعى إلى الانتقال من طور التلمذة إلى طور الاستاذية ومايقتضيه ذلك من تحمل مسئوليات العطاء بكرم ونزاهة، والنهوض بأعباء الخطاب الذى يتجاوز ضيق الآفاق المحلية، ورحبت بهذه الدعوة واعتبرتها مكافأة لى على ماضٍ أمين، وحفزا إلى مستقبل يتطلب مضاعفة العديد من فضائل الماضى . ■

كيف يتم تأليف الكتاب المدرسى ؟!

بقلم
د. محمد رجب البيومى

وهل يستحق الكتاب المدرسى الذى يقرؤه الطفل فى المدرسة الابتدائية والتلميذ فى المدرسة الإعدادية والمدرسة الثانوية أن يكون موضع نقد فى مجلة ثقافية كالهلال ؟

سيقول الذين يزاولون التأليف المدرسى إن التأليف فى هذا المجال خطير إذ لابد فوق الإلمام بالمادة العلمية من مراعاة الناحية العقلية والناحية النفسية ، والمناخ الاجتماعى ، والوسط الروحى ، وكل ذلك يتطلب من الجهد الدائب ، والنظر المتواصل ما لا يتطلبه الكتاب العام الذى يكتب لغير التلاميذ ؟

وحق ما يقولون فمالنا أن نجادل فيه ، ولكن الذى نسأل عنه ملحين ، هل روعيت هذه النواحى العقلية والنفسية والجسمية عند التأليف ، أو أن هذه مقررات تذكر سردا فى مقدمات الكتب ، ويتباهى بها من يسجلونها فى اعتداد ، ثم لا تجد التنفيذ ؟

إن من المشاهد المؤلمة حقا أن تجد فى الصباح مئات التلاميذ الصغار يحملون الحقائب فوق ظهورهم - وهذا ما لم نألفه من قبل - وقد كدست بكتب الدراسة حتى ضاق بها جهد التلميذ ، فأخذ يرزح إعياء ، ومن الطريف الذى يذكر فى هذا المجال على سبيل التندر أن







شاشة التليفزيون في مفتتح الدراسة بالعام الماضي ، أخذت تعرض حقائب المدرسة فى إعلاناتها المتكررة ، وتقول إن بها مكانا لطعام الغذاء ومكاناً مأموناً لزجاجة الماء ، ليجد التلميذ غذاء الجسم والعقل معا ! ثم تتم النادرة المضحكة حين يكون ثمن الحقيبة مائتى جنيه فقط ! وكأن مصاريف المدرسة وأجور الدروس الخصوصية ليست كافية لصراخ أولياء الأمور ، فوجب أن تضاف إليها حقيبة الكتب الثمينة ، والتلاميذ يقلد بعضهم بعضا ، وكم يتنغص الوالد المسكين حين يقول له ابنه الصغير أريد حقيبة كبيرة ممتازة كحقيبة فلان ، فيترحم الوالد على أيام تلمذته حين كانت الحقيبة بعشرة قروش ، وبخمسة أيضا .

فوضى اللامبالاة

لقد حدثتنى حفيدتى التلميذة بإحدى المدارس الإعدادية ، أن أما مسكينة تجيء كل يوم مع ابنتها المريضة لتحمل عنها حقيبة الكتب ، لأنها مريضة بالقلب ، ولا تستطيع أن تصعد إلى الدور الثالث بما تحمل من أثقال ، فتعين على الأم أن ترافقها ثم عند الانتهاء بعد الظهيرة تنتظر التلميذة دقائق حتى تنبض والدتها إلى إغاثتها راجعة كما أنجدتها ذاهبة؟، فتصعد السلم ثانية ولا أدرى لماذا يفرض المدرسون على التلاميذ حمل جميع الكتب كل يوم ! أما كان فى تحديد الجدول المدرسى ما يخفف من أعباء هذا العبث! ولكنها فوضى اللامبالاة ! لو كنت مكان مدير المدرسة، وشاهدت هذه الأم الحائرة لأمرت المدرسين بتحديد المادة كل يوم ، وأخذت من يلزم التلاميذ بإحضار

جميع الكتب والكراسات ! بل حتمت أن يكون فصلها في الدور الأول ، والذين يكررون في كل مناسبة أنهم يراعون أدق قواعد التربية في التأليف ، فيقدرون الطاقة الذهنية للتلميذ يجابهون التلاميذ والمدرسين بما يقع موقع الضد مما يقولون ، ولعل اختيار جماعة من المؤلفين والمراجعين تبلغ الخمسة والستة والسبعة أحيانا ذو أثر في تضخيم الكتاب ، لأن كل واحد سيكتب ، ولابد أن تكون مساحة تأليفه لا تقل عن مساحة زميله ، فيأتي التضخم المترهل من هذه الناحية ! فأين أصول التأليف التربوي ؟ وأين مراعاة الطاقات الذهنية والنفسية للطلاب ؟ ولا أترك القول دون تمثيل ، فقد وقع في يدي عرضاً كتاب «الوطن العربي والعالم الخارجي» وهو مقرر على السنة الثانية الثانوية، فوجدته يشمل مائتين وأربعاً وستين صفحة من القطع الكبير ، وقد اشتمل على ثلاثة عشر فصلاً في بابين، إذ يتحدث عن عرض للخريطة السياسية للوطن العربي ، وملامح البيئة به ، ونمو السكان ، وتوزيعهم الجغرافي ، وخصائص الزراعة في الوطن العربي والانتاج الزراعي والانتاج الحيواني الإنتاج المعدني ومصادر الطاقة ، وخصائص الصناعة في الوطن العربي، وهذا كله في الباب الأول ، وقد جاء في ١٩٠ صفحة ، أما الباب الثاني فيتحدث عن الوطن العربي والعالم الخارجي فيفيض في منازل الدول ومراتبها ، ويخص الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتي ، وغرب أوربا ، واليابان والبرازيل ونيجيريا واستراليا والصين والهند بمعارف كثيرة ، ويقع في مائة وسبع وخمسين من الصفحات المكتظة المحتشدة ! وقد تقع التبعة فيما تقع على المنهج الدراسي الذي قام بوضعه أساتذة التربية والجغرافيا الأصلاء ، وهو منهج لا يقوم باستيعابه طالب الدراسات العليا ، بله طالب الكلية الجامعية ، فكيف صب هذا العذاب صبا على طالب لديه أكثر من ثلاث عشرة مادة ! ومن المضحك بعد هذا كله أنك تسأل هذا الطالب المجهود بعد نجاحه المتفوق في الثانوية وحصوله على أكثر من تسعين في المائة من الدرجات عن عاصمة محافظة من محافظات الجمهورية ، فلا يجيب بغير الشاذ الأليم ، فأين ذهبت معارفه عن البرازيل ونيجيريا والصين واليابان ؟

وكـــيف نجح بتـــفـــوق ونـال أعلى الدرجات !

بين كتب الوزارة والكتب الخارجية

أعرف أن لدينا ما يعرف بالكتاب الخارجي في كل مادة دراسية وأعرف أن المدرسين يشـيـرون في الدروس الخصـوصـيـة ، وغيـر الخصـوصـيـة بالرجوع إليه وحده وفيهم من يختصره إلى وريقـات تقدم للطالب كي يحـشـو بهـا ذهنه وتكون قنطرة الوصـــول ، والسؤال الضـرورى تجاه هذا الموقف الغريب هو لماذا لا توضع كتب الوزارة على نحو يقربها من الكتاب الخارجي ، بل لماذا لا يكتـفى بالكتـاب الخـارجى إذا كان هو المقرر فعلا ، وكيف يتحمل الطالب ثمن كتـابين في مـادة واحـدة أحـدهمـا لا يقـرأ أصـلا (والمدرسة بمدرسيها وناظرها وموجهيها يعلمون ذلك عن يقين) والثـانى هو المعـتـمـد المرتكن إليـه ؟ ولعل المصـــروفـــات المدرسـيـة فى جـمـيع مـراحل التـعليم تنخــفض إلى النصف إذا واجـهنا الحقائق ورحمنا المستضعفين .

على أنـي أعــرف أن المدارس جميعها ترسل فى آخر العام تقريرات عن المناهج والكتب ، يضعـهـا المدرس الأول مع زملائه ويرسلونها إلى المنطقة التعليمية ، لتتولى بدورها إرسالها إلى مكاتب التوجيه بالوزارة فى القاهرة ولا شك أن فى هذه التـقـريرات مـا يكشف عن عـوار في المناهج والكتب معا ، وقد وكل إلىّ حين كنت مدرسا أول بدار المعلمات فى بعض السنوات كـتـابة مـثل هذه التـقـريرات . فكنت أكتبـهـا بحيدة واخـلاص وأنا أتسـاءل اليـوم عن مـصـيـر هذه التـقـريرات ؟ أيقـرؤهـا الأسـاتذة المسـئـولون فى الوزارة أم أنهـا تتـحـول إلى عـمـل روتيني يرسل ليـهـمل ، لقـد كـان المسئولون من قبل أشد اهتماماً بهذه النقـدات الصـائبـة ، إذ يرسلون من الموجـهين العـامين إلى المدارس من يتحدث عنها ، ويناقش ما يراه جديراً بالمناقشة ، ولم نعد اليوم نرى لها من صدى يدل على أدنى اهتمام ! أخشى أن يكون الكبار فى الغرفات العالية بالوزارة ، قد أغفلوا هذه الناحية . مع ضرورة الاحتفال بها .وإلا ففيم الكتابة ومـــؤاخـــذة من لم يرسل إذا أهمل واستراح ؟

لقد كان الاهتمام بمسائل التعليم من قـبـل واجـبـاً أكـيـدا ، إذ كـان المسئولون يبذلون الجهد الدائب فى

تتبع كل ما يرد إليهم من تقريرات تجد صداها البعيد فوراً دون إهمال ، وقد رأينا من هؤلاء السابقين من يحضر إلى مكتبه مساء لينهى ما بقى من عمل اليوم ولا يستطاع إرجاؤه إلى يوم آخر دون أجر إضافي ، وإذا كان القارىء في شك من ذلك فإني أنقل إليه سطورا كتبها الدكتور زكي مبارك في مقال نشره بمجلة الرسالة الصادرة بتاريخ ١٢ من ديسمبر سنة ١٩٢٨ ، تحت عنوان (رجال التعليم في وزارة المعارف) يقول فيه:

الصدق في العمل

«في مقر وزارة المعارف ناس لا يتكلمون إلا قليلا مثل حسن فايق ، ومحمد حسين ، وصادق جوهر وأحمد عاصم والعجاتي والدمرداش محمد ، ولكن في هؤلاء الرجال الصامتين خصوصية عجيبة ، فهم يعتقدون أن وزارة المعارف دارهم ، ولا يخطر في بالهم أنهم موظفون وإنما يكافحون ويجاهدون وكأنهم يديرون ملكهم الخاص ، وما وقع بصرى على هؤلاء إلا أحسست الغيرة تلذع قلبي ، فأنا أتمنى أن أملك بعض ما يملكون من قوة وإخلاص ويؤذيني أن يكونوا أصدق مني في خدمة الواجب»

لقد قرر الدكتور أن الوظيفة لدى هؤلاء معناها التفاني في العمل دون إبطاء ! وقد حسب أن المتجر الخاص أو المصنع الخاص له امتياز عند صاحبه فوق ما للوظيفة عند هؤلاء من تقدير ، والحق أن الوظيفة في معناها العملي عمل خاص أنيط بموظف كفء ، فعليه أن يحرص على أداء الواجب فيه كما يحرص التاجر على مكسبه من عمله دون أدنى فارق كالتاجر يعمل جاهدا ليكسب والموظف قد جاء كسبه من طريق الوظيفة ، فلن يكون أقل اهتماما من التاجر أو صاحب المصنع ، أو زارع الأرض ! وهذا الفهم الأصيل كان موجوداً تمام الوجود في الزمن الذى كتب فيه الدكتور مبارك مقاله ! وقد ذكر أسماء فضلاء كرام في وزارة المعارف ، ولو امتد ببصره إلى الوزارات الأخرى لرأى نظراء ممتازين لهؤلاء الكرام ! أما اليوم فالموظف كبر أو صغر - إلا من عصم الله - يعتقد أن الوظيفة سد لفراغ فقط . وأن العمل الحقيقى هو خارج الوظيفة تماما ، وانظر إلى تدهور الأحوال في شتى المصالح الحكومية تجد الدليل المخيف !

العمل الجاد من بذرة إلى ثمرة

لقد كتب الدكتور زكي مبارك مقاله هذا في سنة ١٩٢٨ ، ونسبق هذا المدى بخمسة عشر عاما ، لنرى موقفا جديا

من مواقف رجال التربية والتعليم خاصا بتأليف كتاب مدرسى للمطالعة الثانوية ، فإن نظرة واحدة إلى ما صاحب ذلك من عمل متصل ، واستفسار من المسئولين ، وتحديد لأجود المؤلفين ، واختيار موضوعات الكتابة المناسبة للتلاميذ ، هذه النظرة ترينا كيف يكون العمل الجاد فى بدئه بذرة ثم فى انتهائه ثمرة مشتهاة. لقد أحس القائمون على شئون اللغة العربية بالوزارة سنة ١٩٢٣ ، أن المدارس الثانوية فى حاجة إلى كتاب للمطالعة إذ إن الطلاب ظلوا مدى طويلا يدرسون كتابى أدب الدنيا والدين للماوردى وكليلة ودمنة لابن المقفع ، وهما كتابان جليلا النفع بالنسبة للقارئ العام ، ولكن طالب المدرسة الثانوية يحتاج فى كتاب المطالعة إلى تنوع الموضوعات ، وسهولة الأسلوب ، والعيش فى حاضره الراهن حين يقرأ عن أمور يشهدها بالعين ويلمسها باليد ، لذلك قامت وزارة المعارف بعقد مسابقة لتأليف الكتاب المنشود ، وجاءت الكتب على غير المستوى المتوقع ، وهنا اجتمع القائمون على شئون الدراسة العربية بالوزارة ، وقرروا كتابة خطاب رسمى إلى وزير المعارف يقترح الموافقة على أسماء ذات ميزة خاصة فى الحقل العلمى ، كى يقوموا بتأليف الكتاب ، كما يقترح مكافأة لكل عضو ، وتحديدا لموعد الانتهاء من التأليف وبدء الطبع ، ويهمنا أن نشير إلى فقرات مما جاء فى كتاب المفتش الأول للغة العربية الأستاذ محمد حسنين الغمراوى بك إلى معالى وزير المعارف يحيى باشا إبراهيم حيث قال فيما أوجزه بتصرف دقيق :

حضرة صاحب المعالى يحيى إبراهيم باشا وزير المعارف .

توجهت همة نفر من الأدباء إلى وضع كتب المطالعة الثانوية بيد أن فحصها قد أسفر عن أنها لا تسد النقص، لأن كتاب المطالعة الذى يلائم تدرج العقل ، ويساوق الحركة العلمية يشبه أن يكون دائرة معارف مختصرة ، وعسير أن ينفرد واحد بوضعه على الوجه الأكمل فلا محيص من تكوين جماعة يناط بهم تأليف هذا الكتاب ، تجتمع فيهم من الصفات أن يكونوا ممن مارسوا تعليم اللغة العربية بالمدارس الثانوية زمنا طويلا ، وأن يكونوا ممن عرفوا بسعة الاطلاع ، وأن يكون بينهم بعض الذين سافروا إلى انجلترا وقد عرفوا إبان تلمذتهم فى دار العلوم بالتقدم على أقرانهم فى اللغة العربية وكما درسوا أصول التربية فى انجلترا ، لذلك نعرض عليكم أسماء من نقترحهم للتأليف. (ثم ذكر الرجل أسماء اثنى عشر

نابهـا من أسـاتذة مـصـر ووضـائفـهـم الحالية) وترى اللجنة أن تمنح الوزارة كل عضـو من هؤلاء أربعين جنيها عند إتمام الكتاب ، على أن يلغى انتداب أى عضـو فى أثناء العمل إذا ظهر عدم اقتداره عليه

وجاء رد معالي الوزير موافقا ، و مـؤيدا كل مـا اقـتـرح عليـه ، وقـال إن المكافأة ستصرف على دفعتين بعد موافقة اللجنة المالية ، وتصديق مجلس الوزراء ! وفى يوم ٣٠ مايو سنة ١٩٢٣ صدر قرار مجلس الوزراء بالموافقة وفقا للشروط المدونة بالخطاب !» .

نحو تأليف كتاب مدرسي جاد

هذا مثل يبدى الاهتمام البالغ بتأليف الكتاب المدرسى ، اهتماما يرعاه وزير المعارف ، ويصدر قرار مجلس الوزراء بتنفيذه ، ثم تقوم اللجنة بالتأليف فيصدر الكتاب فى جزءين ، تحـول بعدهمـا إلى أربعة ، مراعاة لسنوات الدراسة ، وتقرأ الموضـوعات فـتـجد الكتاب مع سلاسة أسلوبه وسـهـولة تناوله دائرة مـعـارف ميسرة للتلميذ ، ولن أحاول أذكر عناوين الموضـوعـات إذ إنها تربو على السـتين موزعة بين مسائل التاريخ والتربية والأدب والاجتماع والاقتصاد والأخلاق توزيعا يدفع كل قارىء – طالبا كان أو غير طالب – إلى استيعاب كل مقال دون سأم ، وقد رجعت إلى الكتاب اليوم فرأيت فيـه مـا يفـيـدنى ، وأعددته مرجعا علميا ! وأنا قارىء قديم! .

أرأيت إذن كـيف الاحـتـفـال بتـأليف كتاب مدرسي ؟ وكيف احتشاد طائفة من النابهين لإبداعه ، وكيف اهتمام الوزير ومجلس الوزراء بموضـوعـه ! وقـد ظل الكتاب مقررا خمسة عشر عاما حتى ظهـرت كـتـب أخـرى حـاولت احـتـذاءه فأصابت كثيرا كثيرا حينذاك ، وقد ظهر الكتاب فى عهد الملك فؤاد ، فلم نجد به أثرا يشير إلى ذلك ، أو موضوعا يخص ولى العـهـد الأمـيـر فـاروق ، بل اتجـه المؤلفون إلى الغرض المقصود ، واقرأ إن شئت على سبيل المقارنة ما ظهر فى الخمسينيات و الستينيات من كتب المطالعة لتجدها قد تحولت إلى مظاهرات إعلامية ، فمع كلمات للرئيس عبد الناصر ، ولوزير التربية كمال حسين تجد المكرر من موضوعات مديرية التحرير ، وحرب القناة، ومشروع الشجرة ، وعيد الجلاء ! موضـوعـات تكرر فى السنوات المختلفة وكأن طالب الفرقة الرابعة لم يقرأ أمثالها فى السنوات الأولى والثانية والثالثة ! أما دائرة المعارف التى كانت وجهة السابقين من المؤلفين على نحو ما ذكرنا من قبل فقد أصبحت فى ذمة التاريخ !

الكتاب المدرسي ليس رسالة جامعية

وأعود إلى الكتاب المدرسي فأذكر أنى قرأت فى الصحف أن السيد وزير التربية والتعليم قد أمر بإعادة النظر فى المناهج وضرورة التخلص من كثير مما بها من الحشو، ويتبع ذلك أن يجيء الكتاب المدرسي في العام القادم خالصا من أوراقه المتبعجة فى أكثر صفحاته، وأن يكون التأليف مما يتناسب مع قدرة الطالب عملا فعليا، لا قولا لفظيا، لأن بعض المتعصبين لتخصصاتهم يظنون امتلاء المنهج بشتى الموضوعات تركيزا لقيمة المادة بين المواد، وهو ظن خاطىء تماماً، ومن وراء هذا الظن تجد الكتاب المقرر على الصف الثانى الثانوى فى علم الاجتماع على سبيل المثال لا صلة له بالتأليف المدرسي على الإطلاق وقد خيل إلى حين تصفحته أنه رسالة جامعية، لا فصول مدرسية، إذ ضم سبعة أبواب كبار تتحدث عن موضوع علم الاجتماع ومجال دراسته وأهدافه، والمنهج العلمى فى دراساته والموضوعات الأساسية للعلم وهذا فى ست وأربعين من الصفحات ذات القطع الكبير. ثم جاء الباب الثانى خالصا بماهية العملية الاجتماعية والتنشئة الاجتماعية والتعاون والتكيف والمنافسة والصراع، وتلاه الباب الثالث ليتحدث عن نشأة الحياة الاجتماعية وتطورها وأشكالها من نحو الأسرة والعشيرة والقبيلة والقرية والمدينة والدولة والأمة والاتجاه نحو العالم. والباب الرابع يفصل الحديث عن الأسرة والنظام الاقتصادى والنظام السياسى ولا أفيض فى تعداد ما بالأبواب التالية وهى الخامس والسادس والسابع من فصول متداخلة فى بعض عناصرها ليتم الكتاب فى مائتين وسبع وعشرين من الصفحات الطوال، فليت شعرى أهذا كتاب مدرسى أم كتاب جامعى؟ بل إن الكتاب الجامعى لا يؤلف على هذا النحو من التشتت والاستطراد! ونحن نعلم أن العام الدراسى لا يتجاوز ستة أشهر على الأكثر، فهل تكفل حصص المادة بتوضيح هذا الركام! وقس على كتاب الاجتماع كتبا شتى فى الاقتصاد والمنطق وعلم النفس والتاريخ وما غاب عنى ذكره الآن.

وبعد فإذا أردنا أن ينشأ التلميذ محبا للقراءة، مشغوفا بالكتاب، فعلينا أن نجعل الكتاب المدرسي بعض الوسائل لهذا الحب، فيكون فى المواد الإنسانية أشبه بقصة، وذلك ليس بالعسير. ■



لويس عوض

والدراسات الأدبية المقارنة

بقلم
د. عبد المنعم تليمة

منهج لويس عوض فى درس الأدب ـ تنظيرا وتطبيقا وتأريخا ـ تاريخى . فهو ينهج نهج مفكرى القرن التاسع عشر (قرن التاريخ ويلف لفهم . وتنهض قاعدة هذا السبيل على أصلين : الأول درس قيام المجتمعات والعوامل الفاعلة فى تغيراتها وتحولاتها اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا حسب مفهومات التخلف والتطور والتقدم، ودرس علاقات المجتمعات (عالميا) حسب مفهومات التفاعل والصراع، للوصول الى مفهوم كلى لـ (الحياة) الانسانية على كوكب الأرض. والأصل الثانى درس العلاقات الثقافية بين أبنية المجتمعات والحضارات المختلفة حسب مفهومات التناحر والصراع من جهة والوئام والحوار والسلام من جهة أخرى، للوصول الى حدود المشترك الثقافى الانسانى ، الذى يتبدى فى الأديان والفنون والفلسفات والملل والمذاهب والنحل. وأثمر هذا السبيل ثمراته فى عطاء لويس عوض فكان مع مقولة (الأدب فى سبيل المجتمع) بيد أنه كان يقدم عليها مقولة (الأدب فى سبيل الحياة) وأسس على ذلك أن الدارس يبدأ بالطوابع المحلية والقومية فى درس الأدب وعليه أن يشد من هذه الطوابع، طوابع أرحب وهى الطوابع الانسانية الصائغة للمشترك الثقافى والابداعى الانسانى .



لديه أن مقولة المجتمع تعني المتعين والجزئي والنسبي والمحدود والأصل فيها المادية أما مقولة الحياة فتعني الرحيب والكلي والمطلق واللانهائي والأصل فيها الروحية. ولديه أن مقولة المجتمع تتحدد بزمان ومكان، أما مقولة الحياة فتعني شمول الزمان بلحظاته الثلاث الماضي والحاضر والمستقبل وشمول المكان بأركانه الأربعة وجهاته الأربع ويعني هذا زمانا غير متناه منذ الأزل الى الأبد، يعني الزمان (الانساني) كما يعني هذا مكانا غير متناه، لاتحده حدود ولا تعطله تخوم، هو المكان الذي يدرج عليه الانسان مذ كان هو هذا الكوكب الأرضي كله.

ولدى لويس عوض أن فكرته هذه تنص على أن الأدب - والفن عامة - ثمرة من ثمرات المجتمع المتعين، لكنه يشد هذا المجتمع الى آفاقه الانسانية، ولذا فهو يرى أن فكرته اجتماعية ذات آفاق وطوابع انسانية عامة. الحياة في هذا السياق تطابق الانسانية، والدعوة اليها انما هي سعي الى ما يشترك فيه البشر وما يوحدهم .

علاقات جمة فريدة

وبدهي أن يتأسس على ما سلف نفي كل ثنائية تجرح ذلك المشترك وتلك الوحدة. نفي ثنائيات : مثالية/ مادية - ذات / موضوع - شكل / مضمون - صورة/ محتوى - جسد / روح .. الخ .

ونبه لويس عوض الى انه يعي أن قوما

شخصية العدد



سيأخذون عليه مذهبه هذا (الانسانى) الذى يلوذ بمطلقات فكرية تنكر تناقضات موضوعية ماثلة فى المجتمع والفكر والفن وكل عناصر الحياة ومكوناتها . وكان لويس عوض قد نشط فى الأربعينات - مفكرا وناقدا ومبدعا - على أصول مادية تاريخية واضحة، بيد أنه منذ الخمسينات الباكرة جنح الى سبيل الاصلاحيين من عامة الديمقراطيين والاشتراكيين. وكان لديه - ممارسة عملية وتنظير فكرى وتطبيق نقدي - رده : إن المجتمعات الحديثة والعصرية صارت من التركيب والتعقيد فى كل مناحى وجودها، بحيث لا تعرف ظاهرة من ظواهر هذا الوجود ذات حدين متناقضين صارمين. وشهد العلم والفكر فى هذه العصور الحديثة ما يؤكد أن كل ظاهرة تتكون من عناصر عديدة وعلاقات جمة فريدة. ومن طبائع الأشياء أن تمتد هذه الصيغ (الفكرية) - فى كتابات لويس عوض - الى صيغ (عملية) تبدأ من الأدب ودرسه لتصل الى رؤى وكتابات ومواقف فى الحياة المصرية، بل فى حياة مصر العامة كلها. ذلك أن نفى الثنائية والتناقض إنما يكون - نظريا وعمليا - لصالح التعددية والوحدة. انما تستقيم نهضتنا ويطرد تحديث مجتمعنا بتعددية تتسع لكل المدارس والاتجاهات والاجتهادات والتيارات فى السياسة والاقتصاد والفكر والعلم والفن. ويحمى هذه التعددية وحدة عمادها الاتفاق على المشترك الوطنى وأداتها الحوار الصادق العصرى.

● منهج لويس عوض تاريخى، وعقيدته التفتيش فى الأعمال الفكرية والإبداعية.

يهمنا فى مقامنا هذا أن منهج لويس عوض تاريخى، يتصل اتصالا حميما بنتائج ما توصل إليه (التاريخيون) من مفكرى القرن التاسع عشر، وكان من نتائجهم أنهم أسسوا (تاريخاً) للأدب، وكان من نتائجهم أيضا أنهم ولدوا من حقل تاريخ الأدب ومن حقل نقد الأدب حقلا ثالثا جديدا هو حقل: الأدب المقارن. ولويس عوض - كما سلف - تاريخى، وعقيدته التفتيش فى الأعمال الفكرية والابداعية عن المشترك الثقافى الانسانى، ومذهبه أن طريقه الى هذا المشترك إنما يكون الدرس المقارن المؤسس على مبدأ التأثر والتأثير: بيان صلات الكتاب والشعراء بآداب غير أدبهم القومى، أو بيان مسار كتاب بعينه الى أدب أو آداب أخرى، أو تحقيق تاريخ الصلات الثقافية عامة والأدبية خاصة بين أمتين

أو أكثر . وللويس عوض، فى هذا الباب، جهود مرموقة .

عطاء بلا حدود

اتسع عطاء لويس عوض (١٩١٥ - ١٩٩٠) عشرات السنين، ليشمل حقول الصياغات الفكرية والدراسات الأدبية والتقويمات النقدية التطبيقية والابداعات فى الشعر والرواية والسيرة الذاتية والمسرحية، بل لقد اتسع هذا العطاء لكثرة من الترجمات والمقالات الثقافية والاصلاحية ولجهود نشطة فى التوجيه الثقافى وفى التقديم والتعريف بالمذاهب والنظريات والتخطيط لهياكل التعليم ومناهجه.. الخ. وكل هذا يؤهله - بجدارة لموقع فى الصف الأول من رواد النهضة والتحديث .

إنما نلتزم هنا بما يلزم، وهو موضوع هذا البحث : الدراسات المقارنة. ويتبدى الدرس المقارن - جليا وخفيا - فى جل دراسات لويس عوض فى الآداب القديمة فرعونية ويونانية، ففى الآداب الوسيطة عربية وشرقية وغربية وفى الآداب الحديثة والمعاصرة عربية وانجليزية وفرنسية. بيد أننا نقف عند درسه لرسالة الغفران لأبى العلاء المعرى، وهو درس من أجل أعماله وأكثرها دقة كما أنه أكثرها إثارة للجدل والمخاصمة، ولقد دارت حول هذا العمل - فعلا - معركة معروفة ضارية. واختيار لويس عوض للغفران لم يكن اعتباطا، ذلك أنه يرى التاريخ القديم فى الأبنية الفكرية، العقائد والمذاهب والملل والنحل الفلسفية والدينية خاصة، ولهذا فانه مع النصوص يفتش أبدا عن (الفكر)، من هنا وجد طلبه فى رسالة الغفران . فأبو العلاء له (بيانه الفكرى)، ان جاز التعبير هنا، وهو (انسانى) يستهوى أفئدة أصحاب التداخل الحضارى ووحدة التراث الانسانى. لهذا كله جاءت قراءة لويس عوض للغفران أقوى تمثيلاً لوجهته فى التاريخ الأدبى والدرس المقارن من ناحية، وأقوى تمثيلاً - فى التعامل مع النصوص التراثية - لوجهته فى التفسير من حيث الانتقال من مستوى ما يفصح عنه النص الى مستوى ما يضمره واقتران هذا بالعناصر الصياغية والأسلوبية والدلالية .

يرى لويس عوض أن الغفران (رسالة ايديولوجية)، شارك المعرى بها بموقف فكرى من الصراعات التى كان عصره يمور بها، صراعات الشرق والغرب (المسيحية / الاسلام / الحروب الصليبية) وصراعات الدويلات العربية، وصراعات المذاهب الاسلامية: (سنة/ شيعة) ويقيم قراءته على محورين ، ينصرف اولهما الى تحقيق تأثر ابى العلاء بتراث اليونان عامة، وينصرف ثانيهما الى عرض رسالة ابى العلاء على ذلك التراث اليونانى



خاصة مسرحية (الضفادع) لاريستوفانيس، لبيان أخذ اللاحق عن السابق .

ـ في المحور الأول يتحرج لويس عوض من القطع بأحكام عامة فتراه (يرجح) أن المعرى كان مطلعا على تراث اليونان. وقد كان في غنى عن هذا التحرج ، لأن معرفة العرب بتراث اليونان ثابتة وتأثير هذا التراث في الثقافة العربية الاسلامية يقيني. ولقد جاء أبوالعلاء في زمان ـ القرن الخامس الهجرى ـ شهد نضج تلك المعرفة وذاك التأثير، فالقول بترجيح اطلاعه ـ وهو في المحل الأرفع بين مثقفي زمانه ـ على تراث اليونان لا حاجة إليه لأن هذا الاطلاع من طبائع الاشياء، أما كيفية هذا الاطلاع ومساحته وتحديد مصادره واثبات مظانه فكلها امور بحاجة الى الدرس الموثق والاستنتاج بالوثيقة والدليل ـ لكن لويس عوض انشغل بالتقرير العام الذى هو في غنى عن التحرج والترجيح، لكن انه فيما انشغل به اضاف الى ماهو معروف تفصيلات نافعة، وأضاء مساحات صالحة. لقد اعتمد على أعمال الراسخين من علماء العرب الذين عاصروا أبا العلاء أو جاءوا بعده بقليل، ومن العلماء الغربيين، قدماء ومحدثين، الذين درسوا ذلك العصر، عصر الحروب الصليبية ، فاجتمعت له بذلك مادة غنية بعضها جديد لم تعرفه الكتابات العربية في هذا الباب، وبالاضافة إلى ذلك فإن لويس عوض قد تناول في هذا المحور مسائل دقيقة يتحرج غيره من الدارسين ـ ولا يزالون يتحرجون ـ من الخوض فيها ، أهمها التداخل الفكرى الذى جرى في تلك العصور بين الباطنية الاسلامية وما يمكن أن نسميه الكاثوليكية الشعبية.

● اتسع نشاطه ليشمل حقول الصياغات الفكرية والدراسات الأدبية والتقويمات النقدية.

وعي راق بحق الفن

يفترض لويس عوض أن المعرى كان مثقفا في تراث اليونان القديمة، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من مثقفي عصره، وأنه هوميروس وأرسطوفانيس على أقل تقدير سواء في ترجمات عربية ضاعت أو في نصوصها الأصلية ـ بل انه يشتبه في أن المعرى كان عارفا بلغة اليونان يقرأ فيها أدب اليونان، ويتأسس هذا الاشتباه على ما نعرفه عن البيئة المحيطة به وعن نشأته وتعليمه الرسمى. لقد كانت انطاكية واللاذقية بصفة خاصة وحلب الى حد ما مراكز

للثقافة الهلينية فى عصر المعرى سواء بعلة مجاورتها لتخوم بيزنطة أو بعلة احتلال الروم اياها اكثر من قرن. وهذه هى البلدان الثلاثة التى تقول لنا سير المعرى انه تلقى فيها تعليمه الرسمى حتى تجاوز العشرين وتنقل بينها. وحين نقرأ عن المعرى انه درس بدير فى اللاذقية - (دير الفاروس وسيأتى خبره) على راهب من الرهبان علوم القدماء، فإننا نستخلص أن علوم القدماء هذه التى كان يحفظها ويعلمها رهبان الروم فى أديرتهم لم تكن سوى الأدب اليونانى والفلسفة اليونانية بصفة خاصة. لابد - اذن - من توضيح طبيعة العصر الذى كان المعرى يعيش فيه فتتضح بذلك أهم مذاهبه ومعتقداته وأهم محاور الصراع فيه. عسى ان يلقى كل ذلك ضوءا على مرامى المعرى وغاياته من (رسالة الغفران)، وعسى أن نجد بعض المفاتيح التى قد تساعدنا على معرفة مواقفه من أفكار عصره وقضاياه وقواه المتصارعة بوجه عام . هكذا نرى أن لويس عوض يدأب أبدا على التفتيش - بنهج عقلانى انسانى - عن (المحتوى الفكرى) فى الأعمال الأدبية، وأنه وقع على بغيته النموذجية فى الغفران. فهذا العمل العلائى لديه رسالة أيديولوجية تفصح عن موقع ابى العلاء فى ذلك الصراع الحضارى التاريخى العقيدى ، المذهبى -، وموقعه - لا جرم - الى جانب العقل والنزعة الانسانية ، ولويس عوض أخلاقى جهير، طلب أول ما طلب (فكر) أبى العلاء فى غفرانه، ليحدد وجهته فى صراعات زمانه الدينية والفكرية. فصار الغفران لديه، من هذه الجهة، بيانا من بيانات تلك الصراعات . نعم لويس عوض اخلاقى جهير بمعنى أن سبيله فى التعامل مع المادة الأدبية محدد واضح، لكنه فى ذات الوقت لم يكن غاليا . ذلك أن رسوخه فى صناعة الأدب وعلومه جعله على وعى راق بحق الفن، ينهض الى درسه بأدواته ووسائله. فاذا رأينا منصرفه الأول قد كان الى الرسالة الفكرية فى الغفران، فإن (فن) ابى العلاء قد وجد ايضا موضعه فى دراسته. وللويس عوض منحاه فى هذا الدرس، وله نتائجه التى استخلصها من هذا الدرس نتعرف على منحاه ونتائجه فى المحور الثانى .

بين أبى العلاء وأرسطوفانيس

- فى هذا المحور الثانى نرى أن غاية لويس عوض هى أن يعرض النص العلائى على (ضفادع) ، أرسطو فانيس لجلاء نواحى التأثر فى الغفران ومداه. ولتحقيق هذه الغاية شتت لويس عوض الغفران الى طائفة هائلة من العناصر والجزئيات راح يعرضها واحدا فواحدا على ما رآه اصلا لها فى



تلك الثقافة القديمة، فلما لم يجد أدلة (نصية) تعين على توكيد فرضه مال الى الاشتباه والترجيح. بدأ بالنص على أن المصدر الأول لرسالة الغفران كان قصة الاسراء والمعراج في ابن عباس وروايات أخرى للحديث الشريف الخاص بالاسراء والمعراج. فالمعالم العامة للجنة والجحيم كما صورهما المعرى تطابق بغير شك ما ورد في التنزيل الحكيم أولا وفي ابن عباس ثانيا وفي المصادر الاسلامية بوجه عام ثالثا . ولكن المعرى يضيف تفاصيل في وصف الجنة ومثلها في وصف الجحيم لا أثر لها في المصادر الاسلامية. وبعض هذه التفاصيل يمكن القول انه ثمرة للابتكار الشخصي لأنه مجرد نسج للخصوصيات على العموميات الواردة في الأدب الديني، ولكن بعضه الآخر، وهو مهم وكثير، لاسبيل الى تفسيره إلا بافتراض اطلاع المعرى على ألوان من التراث الاجنبي كان لها اليها سبيل واطلاعه على ألوان من التراث الشعبي الشائع في عصره. وأهم العناصر التي لا ترجع الى المصادر الاسلامية لقصة المعراج عشرة، ولن يتسع المقام لبسط القول في هذه العناصر العشرة. انما مدارها تناول موضوع الحياة في العالم الآخر تناولا فكاهيا الاساس فيه الموازنة بين الشعراء موازنة تنتهي بأحكام نقدية قيمية تعتمد الجودة والرداءة . المهم أن لويس عوض يرجع هذه العناصر العشرة الى سيد الكوميديا ارسطو فانيس في مسرحيته (الضفادع) بصورة أساسية ،ثم بصورة ثانوية الى الكاتب الساخر لوسيان والشاعر اوفيد وقصيدة (الأعمال والأيام) لهيسيود وملحمة (الاوديسا) لهوميروس وجملة الميثولوجيا اليونانية.

هذا هو الجانب - المحور الثاني - الأدنى الى روح التشكيل الجمالي في قراءة لويس عوض. وهو اميل الى أن يجعل النقاط العشر السالفة نتائج، على الرغم من إقراره في اكثر من موضع انها مجرد اشتباهات وترجيحات. والحق أن هذه القراءة هي الرائدة الأولى في بابها. أي في بيان (تأثر) المعرى بالمصادر الفنية والفلسفية القديمة، اما (تأثير) غفران المعرى فيمن تلا - خاصة دانتي الليجيري في كوميدياه الالهية - فانه ليس موضوعنا هنا ، وفيه على أية حال دراسات معتبرة استشراقية وعربية . انما

● كان لديه ممارسة عملية وتنظير فكري وتطبيق نقدي لما يقوم بدراسته

نمضي الى الوقوف عند ما أسلفنا القول فيه لنتمه، وهو عرض لويس عوض غفران المعرى على الثقافة اليونانية عامة وعلى الضفادع (باتراخوى The Frogs : BATPAXOI ARISTOPHANES لأرسطو فانيس خاصة .

وهنا ننص بيقين على أن لويس عوض قد احتشد لعمله احتشادا أربى على احتشاده لغيره من أعماله، وحبك أطراف درسه أقوم حبك، ليمكن لأنظاره أن تكون أبين ولفروضه أن تكون أرجح. ومثله، من الراسخين في علومهم، لاينقصه - خاصة في مثل هذا العمل الكبير - المنهج السديد القويم، والمعرفة العريضة الشاملة، والأداة الرفيعة الجاهزة .

لويس وهنات ذوات خطر

وكاتب هذه الصفحات من أشد المؤمنين بأن الأدب العربي لوراثته ابداع الأمم القديمة ولتوسطه الزماني بين العصور القديمة والحديثة ولتوسط مواطنه بين شرق وغرب وشمال وجنوب، اوسع الآداب مجالا للدرس المقارن كما ان كاتب هذه الصفحات ممن لهم وشيجة طيبة بدرس الآداب اليونانية اللاتينية على وجه الخصوص. وعمل لويس عوض في الغفران مهم وكبير بيد أنه لم يخل من هنات ذوات خطر، ولذا فإن لنا - الى جانب ما سقناه من استدراكات وأنظار سالفة - وقفات، ينبغي النظر فيها والاعتداد بها تبدأ من الجزئي وهو مواضع التشكيل وتنتهي بالكلي وهو تصور الصلات التاريخية والتداخل الحضاري .

وقفة أولى: إن رد جزئيات عمل لاحق إلى جزئيات آخر سابق، إن لم يقم على بينة وقرينة، فقد جدواه ومعناه في آن. إن ورود جزئية بذاتها في عملين أمر يلفت نظر الدارس المقارن، فإن لهذا جدوى في درسه، غير أن هذا الورود لا يدل بذاته على أخذ اللاحق عن السابق، خاصة اذا كانت مصادر هذا اللاحق من السعة بحيث لايقدر على الاحاطة بها غير العصبة من الدارسين اولى القوة. لقد قدر لويس عوض أن كثيرا من عناصر التشكيل في الغفران قد استلهمها المعرى من الثقافة اليونانية وكوميديا الضفادع على الأخص، وتوسع في هذا التقدير، حتى لقد باتت (ترجيحاته) متخمة بالثغرات التي تجرح هذا التقدير وتوهن من منحاه. ثمة جزئيات لا تحتاج الى جهد كبير لبيان بعدها عن مجال التأثر لوضوح قربها من معرفة المعرى وغيره. وثمة جزئيات أخرى تحتاج الى جهد لأن قراءتها انما تكون بمعرفة مستوعبة بالعربية، وقد كان المعرى في المحل الأرفع من هذه المعرفة، كما أن هذه القراءة انما تكون بعرض هذه الجزئيات على مجمل عمل المعرى في

رسائله الاخرى و(سقط الزند) و(اللزوميات) ليفسر بعض عمله الأخر، وعلى ماسقط فى وعى الجماعة العربية من موروثات دينية وميثيولوجية صارت فى القرن الخامس الهجرى زمن المعرى جزءا من البيئة الثقافية العربية.

رصد التطور الجمالي

نريد القول هنا ان لويس عوض اجتهد اجتهاده واستهلك جل طاقته فى استخلاص الرسالة الايديولوجية للغفران فلما جاء الى عناصر التشكيل تبدت له براهين وأدلة فغامت وحدة الغفران وغابت حقيقته الجمالية. نعم لقد أكدت قراءة لويس عوض أن المصدر الأول للمعرى كان التنزيل الحكيم والحديث الشريف الذى رواه ابن عباس عن الإسراء والمعرج، وأكدت أن من مصادره التراث الشعبى العربى فى زمانه .. بيد أن هذا التأكيد لم يمض الى غاياته من الدرس والنظر واستخلاص النتائج اللازمة عنه: ما مسالك المصدر القرانى والحديثى الى الفكر والأدب العربيين، بل ماذا عما فجره ذلك المصدر حتى فى تفاسير القرآن الكريم وما نخرت به مما عرف بالاسرائيليات؟ . وما صور هذا التراث الشعبى العربى الذى عاصر المعرى، وما الذى عكسته هذه الصور فى العبارة عن ذلك المصدر الدينى متوسلة فى هذه العبارة بما سقط اليها من الميثيولوجيا والعقائد القديمة؟. بل ماذا عن تطور الأدب العربى حتى زمن المعرى ـ القرن الخامس الهجرى ـ فى ضوء حقائقه الذاتية وفى ضوء ما ورثه من مثل جمالى أعلى ـ وربما تقاليد وتشكيلات جمالية ـ من الآداب القديمة التى صارت تتفاعل فى بيئة الثقافة العربية الاسلامية؟ وافضى غياب هذه الأمور المهمة فى قراءة لويس عوض إلى يسر ترجيحها أن (المصدر الفنى) للغفران كان فى الأدب اليونانى اللاتينى عامة، وفى ضفادع أرسطو فانيس خاصة. وبدهى أن هذه أمور عريضة لا ينهض بها دارس واحد، لأنها تتصل بجملة حقول فى الدرس الأدبى، من كيفيات قراءة النصوص وطرائف الموازنة بينها، الى رصد التطور الجمالى ومناهج التأريخ له . وعلى الرغم من صعوبة هذه المسائل التى أثرناها، فإنها ضرورية لصياغة تاريخ منضبط لأدب الجماعة، وهى الزم للدرس المقارن لأنها قواعده التى ينهض



● جاءت قراءة لويس عوض لرسالة الغفران أقوى تمثيلاً لوجهته فى التاريخ الأدبى والدرس المقارن

عليها، وبغيرها لايستطيع الدارس المقارن أن يصل الى نتائج يقبلها العلم ويرضاها. وليس معنى ذلك ان يتوقف الدرس المقارن حتى نعيد كتابة تاريخ الأدب العربى ، وانما معنى الكلام هنا أن يتوسل الدارس المقارن بشيء من هذه المهمة التاريخية، فيجمع ما حول النص المختار من ابداعات عصره فى ذات النوع الأدبي، ويعرض ما جمعه على ابداعات سبقت فى ادب الجماعة فى ذات النوع، ليحدد دور نصه المختار فى تأصيل هذا النوع وتأسيسه. وبغير تحديد الدور الجمالى للنص المختار تفقد المقارنة بينه وبين نص من أدب آخر مغزاها وجدواها ذلك أن الأعمال الفنية ذات الاعتبار، ليست كائنات منبتة عن جذور وأواصر، وانما هي تخرج من رحم قاعدتها الجمالية الثقافية لتزلزلها زلزالا ولتضيف اليها اضافة.

وقفة ثانية : بصدد درس الغفران فى الآفاق السالفة حسبنا أن نشير هنا الى ان رسالة (التوابع والزوابع) لابن شهيد، كانت نصا عربيا معاصرا لغفران المعرى من نوعه الأدبى، وأن نشير الى أن كتاب (التوهم) للامام الحارث المحاسبى سبق النصين جميعا بقرنين من الزمان. ومنذ فجر القرن العشرين اهتم الدارسون بسبق أى من المعرى وابن شهيد للآخر وباحتذاء اى منهما لمعاصره. أما غايتنا فمختلفة لأن مدارها أن العملين معا كانا استجابة لحاجة جمالية فكرية طلبها تطور الأدب والفكر العربيين زمن الازدهار العظيم فى القرنين الرابع والخامس الهجريين. وأما غايتنا من الاشارة الى كتاب الامام المحاسبى، فمدارها التنبيه الى محاولات باكرة فى نفس النوع الادبى - فاذا كان الشأن الوقوف على (المصدر الفنى) لعمل ، أو لأعمال، فى القرن الخامس الهجرى، فان البدهى التماس ذلك المصدر أو تلك المصادر فى الابداع العربى، قبل أى درس مقارن .

ويتسع القول فى الغفران اتساعا حتى يعطى نائلة الثر: من حقائق جمالية فى النص، الى دور فى تطويع اللغة العربية ليتسع تعبيرها لضروب وأنواع جديدة من الانشاء الادبى، الى اصطناع التخيل لناهضة المحافظة الفكرية بالضرب فى أودية الميتافيزيقا والنظر الكونى. ولا ريب فى أن قراءة لويس عوض للغفران، وهى رائدة ، قد فتحت السبيل لما قلناه هنا . انما أردنا بما اقترحناه ان ننبه الى أن الدرس الجمالى للنص العلائى ووضعه فى مجرى التطور الأدبى والثقافى العربى، لابد أن يسبق أى درس مقارن ■

التصوف الصحيح و التصوف الكاذب

بقلم
حسن سليمان

● يقول اللورد كرومر.. « يجب إبعاد تأثير الصوفية عن الحرف والصناعات، حتى يمكن السيطرة على مصر »

● ازدهر أيام اللورد الذكر والموالد والخرافات، وأخذ يدوس الشيخ بفرسه على رقاب العباد (الدوسه) !

لا أدرى كيف أبدأ موضوعى، لكن كل ما أملكه هو محاولة جمع شتات فكرى عن ذكريات متناثرة، وحينما أجمعها بشكل جيد، سيمكننى ذلك أن أضع يدى على مشكلة فى غاية الأهمية والخطورة.

أذكر حينما كنت طالبا بالفرقة الثانية من كلية الفنون الجميلة كان أول مشروع لنا بالألوان الزيتية، وصادف أن السكين الذى كنت أستخدمه كان به خلل ما، لا أدرى إن كانت يده الخشبية انشرخت منى أثناء العمل أم كان بها ضعف منذ البداية، سألت عن أفضل من يعالج هذا السكين، دلنى البعض إلى شيخ الخراطين، فذهبت إليه فى صبيحة اليوم التالى، كان الحانوت



مغلقا فانتظرته وحين أتى بش كل منا فى وجه الآخر . قلت له: اريدك فى شىء بسيط، قال: أمهلنى بعض الوقت كى أجهز نفسى، تعجبت لدقته فى تنسيق حانوته، وكيفية تعامله مع الأدوات، خلع جبته وطبقها بعناية فائقة واضعا فوقها عمته، ثم اختبر جميع أسلحته قلت له: إن يد السكين قد مزعت، وأريته إياها، قال: لقد مزعت لأسباب كثيرة منها أن الخشب ليس فى الصلابة التى يجب أن تصنع به، ثانيا أن الشخص الذى يستخدمها لا يمسكها بشكل يتناسب واستخدامها، ثم إن طرف السكين ليس مزروقا بشكل جيد فى الخشب حتى يدخل فى الجلبة النحاس إلى أعلى.

درس لى بمنتهى الدقة أكثر من أى أستاذ فى قسم التصميم الصناعى، لما له من خبرة بالعمل، وايمان به، وبينما كنا نتحدث ألقى علينا رجل التحية وجاء ليدخل الدكان فقام الشيخ من مكانه وصفعه بشدة، وقال له: اخرج ثانية وادخل، فخرج الرجل ثانية وفى دخوله قال له ثانية: اخرج ثانية وادخل، وفى ثالث مرة قال له: الآن يمكنك الدخول، هكذا برجلك اليمنى تدخل فى الصباح مكان عملك. فلا تكن من أهل اليسار. ثم بدأ يختار لى قطعة خشب



لوحة تصور احتفالات «الدوسة»

معينة ضمن أكوام كثيرة من الخشب، لم أسأله عن نوع الخشب خشية أن ينهرنى تركته يؤدى عمله فى هدوء وهو يمسك بيده ليرى نقطة الضعف بالسكين وكيف يمكنه معالجتها ، كأنه يصمم سلاحا .

سألنى عن كيفية استخدامى له فشرحت له، فقال: أرنى عمليا كيف تمسك به، كان هذا فى وقت لم يكن التصميم الصناعى قد درس بعد فى مصر .أفاجأ به يتعامل مع السكين بانسياب غريب.. وأثناء عمله سأل الرجل الذى يعمل عنده: متى آخر مرة رأيت فيها شيخك ؟ إنه غاضب منك، وسأل كثيرا عنك . قال له: كنت مشغولا بأمور أسرتى. قال له: هل هذا أهم من دروسك فى الفقه والتصوف،



هل امتناعك عن الشيخ سيعطيك فرصة أكبر. لأن تكون خراطا ماهرا؟

علاقة التصوف بالصنعة

انتهى الرجل من صنع السكين وقال لي اضغط عليه، ففوجئت باستخدام آخر غير بقية السكاكين، وهكذا صرت بعد ذلك أصنع كل سكاكيني بل أزيد عليها الجزء الحديدي الذي يتوسط اليد والسلاح ويربط بينهما بقوة، لكن حينما سألت الرجل عن اجره أجابني في تواضع قرش صاغ فقط. فقلت له: كيف؟ قال لي : إنه أول عمل لي في الصباح وأنا أستبشر به، ولو أخذت منك أكثر مما طلبت ستتحمل وزرا كبيرا أنا في غنى عنه. تعلمت من هذا الرجل الكثير من التصميم، غير مفهومي عنه لكن ما أدهشني أكثر علاقة التصوف، والشيخ والدين بالصنعة؟ هذا ما وضعني في حيرة ولما سألت خالي، أجابني: أنه يعلم أن هناك علاقة، وأنها اندثرت ثم اندهش مما رويت قائلا: كيف تكون موجودة الآن، نصحني بأن أذهب إلى د. صبري السربوني، كي يفيدني في ذلك الأمر. فحدثته تليفونيا، فسمح لي بزيارته حتى يريني مراجعه ، وقد أكد لي ما رويته قائلا: إن لكل صنعة شيخاً فقيها أو صوفيا ، عليهم أن يأخذوا منه، ولا يصبح الصانع معلما أو استاذا حتى يجيزاه، فإن اجازاه يرتدي الملابس الخاصة بهم. ويقيمون له زفة كبيرة، ويركب البغل او الحمار، وعليه ان يفتح حانوتا في أي مكان ، بعيدا عن استاذه بعد أن يصدق على هذا كل أساتذة المهنة.

البدع المرفوضة

بعد ذلك وجدت كتاب «أنا وعباس الثاني» لكرومر ، وفوجئت من قراءتي له بمن وضع لي الأمور في نصابها، وأظن أن هذا كان بالجزء الثاني من الكتاب يقول فيه المؤلف: «إنه للسيطرة علي مصر يجب أن يوضع حد للصوفية وتغلغلها في كل الصناعات» فأدركت وأنا في بداية حياتي شيئا غريبا عليّ، لماذا أقيم في عهده مسجد الرفاعي، ولماذا ازدهرت البدع المرفوضة لدى الصوفيين الحقيقيين؟ (الموالد - الشعوذات - ربط التصوف بأشياء لاتمت الى جوهره مثل الورد والذكر والغناء) الدلالات متى افتقدت عنصر الخشوع الذي بنيت عليه هذه الدلالات في الماضي . أقيم مولد الرفاعي وأنا بالفرقة الثانية - فنون، فذهبت كي أشاهده ، وهناك رأيت رجالا ينامون بجوار بعضهم البعض ووجوههم الى الأرض ثم يسير عليهم رجل كحيل العين يرتدي عقالا اخضر فوق رأسه ويمتطي حصانا، كان المشهد مؤلما ومثيرا، ماذا يمكن ان يحدث لو وقع



حافر الحصان بكلية أحد النائمين؟

سألت فى ذلك خالى أجابنى: انها «الدوسة» هل يعقل أن تدل هذه الطقوس على أية طريقة من طرق العبادة أو التقرب الى الله؟

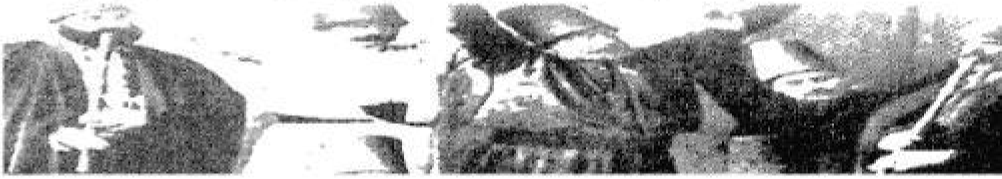
علاقتي بالشيخ التفتازاني

كانت لى علاقة وطيدة بشيخ جليل وصوفى عظيم يسمى الشيخ التفتازانى، كنا نرافق بعضنا طوال مراحل التعليم المختلفة، كانت بدايتها فى مدرسة الظاهر الابتدائية، ثم جلسنا على درج واحد بمدرسة فؤاد الثانوية، وبينما كنا بها ذات مرة وجدت الأساتذة يقفون للتفتازانى تعظيما قائلين: البقية فى حياتك، دون أن يقول لى شيئا عند وفاة والده، ثم سألوه: هل ستكمل دراستك بعد ذلك؟ قال لهم: باذن الله . لقد كان دمث الخلق، لايغتاب أحدا أو يتدخل فيما لا يعنيه، هادئا دائما. وعلى خلق حميد دون تظاهر أو إدعاء.

فى هذه السنة فهمت لماذا قالوا له: ستكمل أم لا!! فحينما أقيم موكب المحمل، كنا فى العادة نخرج إلى شرفات شارع العباسية لنرى هذا الاحتفال وهو متجه إلى الجبل الأصفر ودائما ما كانت الاحتفالات بالاعياد والمناسبات تقام بالجبل الأصفر وتصنع الأصونة الخاصة بكل مناسبة، وجدت زميلى التفتازانى راكبا حصانا وهو لم يتعد المرحلة الثانوية من الدراسة، كان مرتديا جلبابا أبيض، وعلى رأسه عقال أخضر، وخلفه البيارق والدفوف والصاجات ، وكل الطرق التفتازانية، وقد حملوا علما كبيرا مكتوب عليه الطريقة التفتازانية.

لم يقنع التفتازانى بأن يقف عند هذا الأمر، كما لم يقنع بأن يصبح شيخا تقبل يده دون إدراك أو معرفة، واصل دراسته وواظب على الحضور الى الأزهر، وحصل على التوجيهية، ثم التحق بالجامعة . ونال كل درجات الجامعة فى الفلسفة والفلسفة الإسلامية، قلُ لقاؤنا بعد ذلك نظرا لانشغال كل منا بالأمور الحياتية، غير أننى رأيته ذات مرة عندما اعلن الحرب حينئذ بمفرده ضد الطرق الصوفية كلها؟ وضد الإعلام وضد من أعطى لهم نقودا . فقد كان شيخ الطرق الصوفية فى ذلك الوقت انكر أشياء كثيرة، منها ما تدعيه وسائل الإعلام بشأن تصوفه لشخص يدعى شمس الدين الفاسى وبحكم منصبه استطاع ان يقنع مجلس الصوفية برفضه نهائيا وعدم الاعتراف به.

زادت البدع ولم يعد الصوفى هو الزاهد فى متاع الدنيا، وعن الجاه، بل أصبح كثير من مشايخ الصوفية يملكون السيارات الفارهة، ويقال : إن بعضهم لديه طائرات خاصة ومن



الصعب الاتصال بهم إلا عن طريق سكرتيرات غريبات الشكل، حتى وصل الأمر إلى حد انه يقال إنهم يعطون عهودا الى اشخاص مشبوهين كراقصات سيئات السمعة، بل ويفتون في الدين دون دراسة عميقة مثل التي كانت في الأزهر قديما، مؤكدين دون أن يذكروا في نهاية فتواهم عبارة «والله اعلم» أو «فوق كل ذي علم عليم»، يدعون أن لهم السيادة والكرامات؟ وأنهم عارفون ببواطن الأمور، وهكذا تحققت نبوءة أبي العباس - رحمه الله - حينما تنبأ أن الصوفيين الحقيقيين سيختفون ، وربما وجدوا في ديارهم ولا أحد يعلم عنهم شيئا، وغابت الصوفية الحقيقية طالما بعدت الأستاذية الكبيرة للشيخ.

وتحولت العبادات الى طقوس ليس لها مضمون شأنها في ذلك شأن كل شيء موجود الآن كالذكر المحرف والمبالغ فيه الذي لا أصل له من الدين ، والورد الذي لا ينبع عن قلب خالص الايمان بل هو تكرار أحرف وكلمات لا معنى لها حتى يغيب المرء عن الوعي ناسيا كل شيء حتى الله. ان المسألة محيرة، لكنني لو رجعت إلى الوراء قليلاً ستزداد حيرتي: لماذا قرر عبدالناصر ١٩٦٥ تأسيس المجلس الأعلى للطرق الصوفية. ولو امسكنا بمفهوم الصوفية العميق لوجدنا انه لا يمكن تعيين مجلس أعلى للطرق الصوفية، ولا حتى لتجميع طرق المشايخ؟ لأن لكل شيخ منهجه الخاص في عبادة الله. لكن يزداد تعجبنا أكثر من حدوث هذا عقب اعتقال الاخوان المسلمين مباشرة، وزادت الغرابة بتعيين مندوب دائم من رئاسة الجمهورية لحضور احتفال الصوفية!! هل للصوفيين احتفالات وبروتكولات؟ كذلك ارسال مندوب للأزهر في المناسبات المختلفة والطرق الصوفية. ان الصوفية ضد أي احتفال لكنها تتأتى نتيجة ايمان وخشوع دائمين فيما بين الفرد وربه.

إن الأزمة تكمن في كيفية تحويل الدين الى صيغة فردية لحل القوائم والأسس التي يبنى عليها الدين لأنه في ذلك الوقت حتى لا يصبح الدين مشكلة سياسية تزعزع النظام.

يعتقد بعض الناس ان الشيخ عبدالحليم محمود - الذي ملأت كتبه واجهات المكتبات صوفي كبير بل وأقاموا له مولدا ضخما تجتمع فيه معظم الطرق الصوفية بطنطا. في كتاب أسعد إبراهيم الذي صودر ذكر المؤلف ان عبدالحليم محمود كان يتبع الطريقة الكوبالية، وهي تابعة للفلسفة الباطنية ، وأتى بأمثلة كثيرة على اتصاله بالكوبالية ، كان الكتاب



ضخما، طرح في الأسواق لمدة خمسة اشهر ثم انتبهوا اليه فصادروه.

لقد بلغ عدد الطرق الصوفية غير المعروفة كالشاذلية والتفتازانية وغيرهما الى ٧٢ طريقة جديدة وقت السادات، وأصبحت الصوفية مظهرا بلا شكل أو مضمون ، وفي نفس الوقت قيل انه رفعت من دور الكتب كل الكتب التي صدرت عن السحر لأنها كانت تنص على استخدامه للسيطرة على كثير من الوزراء في ذلك العهد. من هنا نجد أن الصوفية الحديثة من الخطأ تسميتها بالصوفية لأنها تعني التآمر على الوعي حتى تغييبه.

أما الطريقة الوحيدة التي اتبعتها الحكومة، فقد كانت صوفية ، وزاد الطين بلة أن الاسلام ظل طيلة قرون دون أن نعلم شيئا عن زوجات المتصوفين الحقيقيين غير أن الصوفية الجديدة سمحت بدخول النسوة الساقطات، فنجد التصوف أصبح لا أكثر ولا أقل من نشاط فردي لا مقياس له، وحقيقة الأمر انه اذا وصل صوفي حقيقي الى شيء لا يبوح به. فإن اباح به ضل ، فكيف تنتشر الآن الكرامات والطرق التي تبني على طقوس كاذبة لا تمت الى المنهج الصوفي بأدنى صلة؟ إنها ليست اكثر من دروشة، إن صحت التسمية.

وبهذا جعلوا من التصوف الكاذب اختراعا شعبيا يؤكد حزب الحكومة ، مع مثل هذه الهلوسة يحدث فصل للتعامل المباشر مع القاعدة الشعبية.

والمضحك في الامر كله أن الطرق الصوفية أصبحت لها كارنيهات بصورتين واستمارة تعارف، وبما أن الشعب المصري ينهار وعيه بشكل سهل وسريع يصبح الاتصال بالدهماء والعوام سهل جدا عن طريق الصوفية الكاذبة او ما يسمى بالشعوذة فقط.

* * *

إن الصوفية الحالية من الممكن ان تتجه اتجاها مضادا للتجربة الروحية، فأصبح السر الباتع لشيخ الطريقة لدى العوام هو تحقيق المنفعة والمنفعة هي لغة الاقناع عند هذه الطبقة، وأصبح أهم شيء في هذه الطرق هو الورد وبقية الطقوس وهو من آليات التصوف، وطبيعة الورد والذكر وبقية الشعوذة والتي نهى عنها الأئمة الكبار عبر التاريخ تؤدي الى تضارب علاقة الدلالة العقلية التي تقوم على المنطق، إن الورد وغيره بهذا المفهوم يسبب الغيبوبة، فكما يوجد ما يسمى بفيروس الكمبيوتر يصح ان نسمي التصوف الحالي ب «فيروس الوعي». ■



تأثير ثورة الاتصالات على المجتمع



بقلم
د. أحمد محمد صالح

ما هى تأثيرات ثورة الاتصالات على المجتمع ؟ ما الذى نقصده حين نقول إن الإنترنت أعادت تشكيل المجتمع ؟! كيف يتصل ويتواصل الناس ؟ وكيف غيرت أنماط الاتصال الجديدة الطريقة التى يعمل بها الناس ؟ كيف تؤثر الزيادة المتضاعفة السريعة فى أعداد المستعملين للكمبيوتر والإنترنت فى تقليل وتقليص القيود وشروط التعليم الجامعى مثلا أو العمل السياسى ؟! كيف يمكن أن تؤثر الويب WWW على الطريقة التى يبحث ويستعمل فيها الناس المعلومات الطبية ؟! كلها أسئلة قد تبدو سهلة وبسيطة ! وكما نوهنا فى مجلة الهلال فى أعداد سابقة أنه ظهرت كيانات اجتماعية جديدة يتواصل من خلالها الناس مثل البريد الإليكترونى وجماعات المناقشة.

وتحتاج دراسة جديدة لفرع علمي جديد بدأ ينمو وموضوعه الأساسي التغيير الاجتماعي الناشئ نتيجة تطبيقات وممارسات تكنولوجيا المعلومات والاتصال ويطلق عليه بالانجليزية Social Informatics (SI)، الترجمة الحرفية لها هي المعلوماتية الاجتماعية ، ولكنها لا تعكس بالعربية المعنى بوضوح ، وإذا ترجمناها وظيفيا نقول اجتماعيات المعلوماتية أو سيسولوجيا المعلوماتية ، وهي مجال البحوث والدراسات التي تختبر تصميم واستعمالات وتطبيقات ونتائج تكنولوجيات المعلومات والاتصالات في تفاعلها مع السياقات الثقافية والمؤسسية . وهذا المقال هو مقدمة مختصرة للمجال المعرفي الجديد «اجتماعيات المعلوماتية»، نوضح فيها ماهية اجتماعيات المعلوماتية ، ثم نتابع أهمية السياق الاجتماعي ، والآلية التي تتم فيها ، والتكنيك الاجتماعي للشبكات ، وامكانيات الوصول للمعلومات، والبنية الاجتماعية من أجل الحوسبة ، في مقالات متتابعة .

تطبيقات جديدة على الإنترنت

في عصر المعلومات أصبحت نظم شبكات الكمبيوتر والاتصالات من الممارسات اليوميه للعامة في الدول المتقدمة ، ولجزء من النخبة في الدول غير الصناعية وأصبحت السياسات العامة في دول العالم خاصة الدول الصناعية تشجع وتسمح بوصول الجمهور بصفة عامة إلى الإنترنت ونشأ عن الاستعمال الواسع للإنترنت ممارسات وتطبيقات جديدة، مثل التجارة الإلكترونية ، التعليم من على بعد، النشر الإلكتروني، المكتبات الرقمية والمجتمعات الافتراضية أو التخيلية virtual Communities . وقد أثار ظهور هذه التطبيقات الجديدة افتراضات كثيرة حول التغييرات الاجتماعية التي يمكن أن تنبثق نتيجة انتشار تلك التطبيقات الجديدة . وظهرت أسئلة كثيرة مثل هل التجارة الإلكترونية أحدثت تآكلا في الأسواق المحلية ؟ هل استطاع التعليم من على بعد أن يمد فرصا جديدة ذات مغزى ، ومناسبة ورخيصة في المنزل ؟ هل سوف ينتشر التعليم من على بعد بسرعة ويصبح عاديا ويحل مكان الكليات والجامعات التي يتقلص فيها أعداد الطلاب الحضور ؟!هل سوف تنمو الصحف الإلكترونية وبشكل متزايد كبدائل ذات تكلفة منخفضة للمطبوعات الورقية ؟! وهل سوف تختفي وتتآكل المكتبات الورقية الأسمنتية ويحل محلها المكتبات الإليكترونية الرقمية ؟! هل سوف تختفي الاتصالات المواجهية لتحل محلها الاتصالات على الخط On line؟ هل سوف يتآكل شكل المجتمع التقليدي الذي تعودنا عليه ؟ كلها أسئلة تحاول بحوث المعلوماتية الاجتماعية أو اجتماعيات المعلوماتية الإجابة عليها ، ونزعم أن كل الدراسات التي تناولتا فيها مجتمع المعلومات والانترنت في الشهور الماضية في مجلة الهلال تدخل تحت نطاق مجال اجتماعيات المعلوماتية أو سيسولوجيا المعلوماتية أو التغيير الاجتماعي الناتج من تطبيقات وممارسات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات .



الأبعاد الاجتماعية لتطبيقات الحاسب

وموضوع اجتماعيات المعلوماتية ليس العلاقة البسيطة والظاهرة بين التكنولوجيات والتغيير الاجتماعى. فدراسات اجتماعيات المعلوماتية تبعثرت وتوزعت بين حقول ومجالات علمية متعددة منها علم الكمبيوتر، ونظم المعلومات، وبعض العلوم الاجتماعية، وكلها استعملت مصطلحات متباينة للدلالة على اجتماعيات المعلوماتية، واصبح المصطلح موضع أخذ وشد بين المتخصصين، لا يهمنا منها شئ، لأن هذه المجادلات بين المتخصصين حول المصطلح قد تحقق متعة علمية لهم، لكنها تشتت القارئ المتعطش للمعرفة الجديدة.

واجتماعيات المعلوماتية فى المجال المعرفى الذى يدرس ويبحث الأبعاد الاجتماعية لتطبيقات الحوسبة، متضمنا أدوار تكنولوجيات المعلومات والاتصالات فى التغيير الاجتماعى والتنظيمى، ومدى تأثر تنظيمات تكنولوجيا المعلومات بالقوى الاجتماعية. وتتضمن الدراسات والتحليلات التأثيرات الاجتماعية للحوسبة، والتحليل الأجتماعى للحوسبة، ودراسة الكمبيوتر كوسيط اتصالى متوسط (CMC)، وسياسات المعلومات، وأجهزة الكمبيوتر والمجتمع، والمعلوماتية المؤسساتية، والمعلوماتية التفسيرية ... الخ ومقررات ودراسات وبحوث اجتماعيات المعلوماتية أو سيسولوجيا المعلوماتية تنتظم من خلال حقول علمية مختلفة تتضمن نظم المعلومات، الأنثروبولجى، علم الكمبيوتر، علوم الاتصالات والاجتماع والمكتبات، وعلوم المعلومات، والسياسة، ودراسات العلوم والتكنولوجى (STS)، وهذا التوزيع والتعدد يصعب على العلماء أن يتقاسموا الاهتمامات المشتركة فى النواحى الاجتماعية لتكنولوجيات المعلومات، ويصعب ايضا على الطلاب المهتمين بذلك المجال تحديد المقررات لبرامجهم الدراسية المتقدمين بها للحصول على درجة علمية فى اجتماعيات المعلوماتية، وهو مصطلح جديد نسبيا، ويخدمنا كعنوان يجمع أولئك المهتمين بتلك الدراسات وموزعين على مجالات معرفية متعددة. ومصطلح اجتماعيات المعلوماتية يمكن أن يستخدم كمؤشر يساعد الآخرين ويعطى لهم فرصة لتكوين نظريات وأفكار أساسية، ودراسات، وتحقيقات، وكتب، ومقالات ومناهج دراسية ... الخ.

ونشأ مصطلح اجتماعيات المعلوماتية Social Informatics نتيجة سلسلة من المناقشات النشطة المتحمسة فى فبراير ومارس ١٩٩٦ بين مجموعات من الباحثين بغرض تطوير منحتهم الدراسية حول الأبعاد الاجتماعية للحوسبة، وتم الاتفاق عليه فى ورشة العمل التى عقدت فى جامعة انديانا بالولايات المتحدة الأمريكية فى خريف عام ١٩٩٧ حول التطوير فى المعلوماتية التنظيمية والاجتماعية،

ووصف مشاركو الورشة بحوث اجتماعيات المعلوماتية Social Informatics بأنها تحليل ونقد ومعايرة، للوصول إلى نظريات عن وحول السياقات الاجتماعية والثقافية والمؤسساتية التى تطبق وتمارس فيها تكنولوجيات المعلومات والاتصالات، أو لقيام بدراسات عملية تساهم فى عمليات التنظير . فهذا الحقل المعرفى يعرف بموضوعاته، من خلال الإجابة عن أسئلته الجوهرية، أكثر بما يعرف من خلال وسائله البحثية ، مثل الدراسات الحضرية أو علم الشيخوخة مثلا، فسيسولجيا المعلوماتية كان موضوعا لبحوث منهجية وتحليلية وانتقادية طوال الـ ٢٥ سنة الماضية ، وقوام هذه البحوث تطور عنه ونمت نظريات ونتائج متصلة بموضوعات فهم وتصميم وعمليات تطبيقات نظم المعلومات وما تحتويه من شبكات، ونواد اليكترونية، ومكتبات رقمية ، ومطبوعات اليكترونية ولسوء الحظ تبعثرت وتوزعت دراسات اجتماعيات المعلوماتية فى المجلات والنشرات العلمية بين حقول علمية مختلفة متضمنة علم الكمبيوتر ، نشم المعلومات ، وعلم المعلومات ، وبعض العلوم الاجتماعية .وكل هذه الحقول العلمية استخدمت تسميات مصطلحات مختلفة للدلالة على اجتماعيات المعلوماتية ، وهذا التعدد والتنوع المصطلحى صعب الأمر علي غير المتخصصين ، بل وعلى المتخصصين أنفسهم فى إدراك أهمية دراسات اجتماعيات المعلوماتية، وهذا ولد دافعا وحافزا على إبداع مصطلح اجتماعيات المعلوماتية Social informatics للمساعدة فى جعل أفكار هذه الدراسات ممكن لغير المتخصصين الوصول اليها، وايضا لتقوية الاتصالات بين المتخصصين، وتقوية الحوارات بين المصممين للتكنولوجيا والمحللين الاجتماعيين ويناقش هذا المقال الأفكار الأساسية، لبحوث اجتماعيات المعلوماتية وينتهى بمناقشة قصيرة حول خصائص هذا الفرع اليوم، نقدمه لكل المهتمين بالمعلوماتية فى مصر بأبعادها التكنولوجية، والاجتماعية، والاقتصادية ، والسياسية، ويتضمن إشارات عديدة لمساعدة القراء بسهولة الحصول على موارد أشمل .

تكنولوجيا المعلومات والتغيير الاجتماعى

هناك بدائل واختيارات متعددة للبحوث المنهجية حول تكنولوجيات والتغيير الاجتماعى ونجد هذا التعدد فى مجلة Wired فمثلا كتب فيها الصحفى صائغ جورج مقالا فى يناير ١٩٩٨ حول الطريقة التى تضاعفت بها قوة وطاقة الحوسبة بمئات الملايين منذ الخمسينات، وكتب عالم الكمبيوتر داتى هيليس حول طرق الحوسبة التى تؤدى إلى تحولات وتغييرات حضارية جديدة، فى فقرات قليلة وبروح معنوية متحمسة هذا النوع من الكتابات مقروء جدا، خاصة إذا عرفنا أن مجلة Wired ملونة وطباعتها مشوقة ومقالاتها لها صوت لكن هذا للأسف لايؤدى إلى الفهم



العميق الذي يحتاجه المتخصصين في تكنولوجيا المعلومات . فهذا النوع من الصحافة نشيط، وشيق ، ويقدم موضوعاته بسهولة وتبسيط ، لكن المتخصصين في هذا المجال ، ويعتمدون في اتصالاتهم مع بعضهم البعض على منابر اتصاليه أخرى مثل كتبهم المؤلفة في هذا المجال، مؤتمراتهم وندواتهم العلمية والمهنيون في تكنولوجيات المعلومات احيانا يتورطون في أعمال مملة جدا لتصميم نظم معلومات ، تختار بين المعدات ، وتطور سياسات وممارسات ، فينغمسون في جمع بيانات، وعمل أرشيف ، وتنظيم دورات تدريبية للمستخدمين ، وتقديم الاستشارات المالية .. الخ. وتختلف تفصيلات هذا التصميم باختلاف المستهدف من نظام المعلومات المزمع تصميمه! هل هو لشركة تأمين فيها تنوع لمطالبات الإدارة ، أو نظم مساندة لشركة استشارات مالية، أو مكتبة على الخط في الإنترنت تسمح بتقديم النشرات الطبية والكشف الطبي اعتمادا على النفس ، ومدعمة من وكالة رعاية صحية، وهكذا. لذلك طور باحثو اجتماعيات المعلومات بعض الأفكار الجوهرية التي يمكن أن تحسن الممارسة المهنية في تصميم مختلف نظم المعلومات فتصميم وتكوين نظم المعلومات هو دائما من أجل مساعدة الأفراد على تسهيل إنجاز أعمالهم ، وليس تعقيدها، فهي مهنة حاذقة فالتصميم الجيد لا يعتمد ولايستند إلى إعتبارات تكنولوجية فقط، بل يجب صياغة فهم كيف يعمل الناس؟ وإدراك نوعية ممارساتهم التنظيمية ، وكثير من المديرين ومهنيي تكنولوجيات المعلومات ينصحون ببعض المعايير البسيطة الفعالة للمساعدة في وضع استراتيجيات الحوسبة مثل : يجب دائما استعمال التكنولوجيات الأكثر تقدماً سواء كانت الاسرع أو الاسهل للاستعمال يجب دائما استعمال التكنولوجيات الأفضل من خلال معايير الاختيار المختلفة مثل الاقل غلاء، أو المتوافقة مع المعدات الأخرى أو الأكثر كفاءة وهناك توجيهات أخرى مثل استبدال النشاط البشري المكرر بنظام كمبيوتر ، أو ابتكار نظام الكمبيوتر لتفعيل اداء المؤسسة بفروعها هذه السياقات هي توجيهات حرة، وليست كافية لمساعدة مصممي نظم المعلومات على إنتاج نظم فعالة وهم يحتاجون بشدة إلى أفكار الاجتماعيات المعلوماتية ومن القضايا الأساسية التي اهتمت بها اجتماعيات المعلوماتية العلاقة بين الحوسبة والإنتاج !

مفارقات الإنتاجية

بين عام ١٩٦٠ و ١٩٨٠ كانت المقولة التي تقول ان استعمال الكمبيوتر مرتبط تماما بأرباح الانتاجية مسيطرة على مؤلفات العلماء الاقتصاديين ، وفي الاعلانات عن النظم الجديدة للكمبيوتر ، وحتى في توقعات الناس العاملين الذين خافوا من انتشار البطالة في المجتمع نتيجة الاستعمال الواسع لتطبيقات الكمبيوتر .

وعندما تراجعت تكاليف الحصول على الكمبيوتر . وزادت الاستثمارات في هذا المجال . حتى وصل الأمر في أواخر الثمانيات كانت الشركات الأمريكية تنفق نصف مواردها المالية الرئيسية تقريبا على الحواسيب والمواصلات السلكية واللاسلكية لاحظ العلماء الاقتصاديون أن الإحصاءات القومية لإنتاجية العمالة في الولايات المتحدة الأمريكية لاتزيد بالانتظام المتوقع مع زيادة استعمال الكمبيوتر . وبعض المديرين ايضا لاحظوا أن الاستثمارات كبيرة في الكمبيوترات الشخصية لم تترجم في زيادات الإنتاجية الرئيسية .

والغريب أنه منذ أواخر الثمانينات وصحافة التجارة الأمريكية قد تغنت بالتوقعات التي كان يمكن أن تؤديها الحوسبة إلى زيادة الدفعات الإنتاجية، وفي نفس الوقت أيضا تنشر القصص التي تقذف بمثل هذه الآمال إلى البحر واختلف العلماء الاقتصاديون أيضا في معتقداتهم عن حول العلاقة بين الحوسبة ونمو الإنتاجية . واعتقد الكثير أن الابتكار التكنولوجي كان عاملا رئيسيا في الإنتاجية القومية . وافترضوا أن الاستثمارات في تكنولوجيا المعلومات سوف تنعكس في الإحصاءات القومية عندما كان مخزون الرأسمال التراكمي لنظم الكمبيوتر كبيرا بالقدر الكافي . وسوف يظهر ذلك في تحسين إحصائيات الإنتاجية وبعض الاقتصاديين صاغوا مصطلح مفارقة الإنتاجية productivity paradox وكتب عالم الاقتصاد Robert Solow روبرت سولوو الحائز على جائزة نوبل (١٩٨٧) كتب يقول : يمكن أن ترى عصر الكمبيوتر في كل مكان، لكن لا يوجد له أثر في إحصائيات الإنتاجية !! واعتقاد سولوو ينفي الفرض الشائع : أن الحوسبة يمكن لها أن تحسن الإنتاجية مباشرة وبشكل مثير والعلماء الاقتصاديون انقسموا في تفسيراتهم للمفارقة الإنتاجية واعتقد البعض أن طرقهم لقياس الإنتاجية كانت غير كافية والآخرون ناقشوا إن كان المخزون الرائع لتكنولوجيا المعلومات صغيرا جداً حتى الآن، وغير كاف لكى تحصل على نتائج ذات معنى في الإحصاءات الاقتصادية القومية . وناقش البعض آثار الفاصل الزمني الذي يقلل من تاثير الحوسبة على زيادة الإنتاجية ، وآخرون اعتقدوا أن سوء الإدارة كان سببا أصيلا للمفارقة الإنتاجية .

والمفارقة الإنتاجية هي أيضا ظاهرة اجتماعية مهمة، لسوء حظ يتم تجاهلها في صحافة تكنولوجيا المعلومات والاتصال ، مثل مجلة Wired، ويتم تمويلها من قبل معظم المتخصصين رغم قبول الاقتصاديين فرضية التقلص في نمو إنتاجية العمالة في العقدين الماضيين ، التي انتشر فيهما استعمال تطبيقات الكمبيوتر انتشارا واسعا.

الاستثمار في أنظمة الكمبيوتر

وهناك بالطبع وبالتأكيد أشياء كثيرة قد تغيرت في المجتمعات الصناعية بين فترة مدة الـ ٢٠ سنة الأولى بعد الحرب العالمية الثانية والعشرين سنة الحديثة



التالية . مجموعة واحدة من التغييرات أثرت بعمق وهى الانتشار والاستثمار فى أنظمة الكمبيوتر ونظم تكنولوجيا الاتصالات. فمنذ أواخر الثمانينات والشركات الخاصة فى الولايات المتحدة كانت تستثمر نصف رأسمالها فى المعلومات وتكنولوجيا الاتصال يتضمن ذلك الاستثمار نظم التليفون والبريد الصوتى وأيضا الكمبيوترات وحتى الآن ومنذ ثورة الكمبيوتر الشخصى، جزء كبير من الاستثمارات يتوجه نحو تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وحملة الحوسبة مازالت متزايدة فى الشركات الرئيسية، واحدث ذلك تراكما استثماريا فى تكنولوجيا المعلومات ، لكن فى تلك الفترة لم ترتفع مكاسب الإنتاجية بالمقارنة بالزيادة التى احدثتها الميكنة فى فترة الخمسينات ، حيث زادت إنتاجية العمالة فى الولايات المتحدة الأمريكية بين ٢ - ٤ ٪ فى السنة فى هذه الفترة لذلك افترض الكثير من الناس أن الحوسبة ينبغى أن تحسن الإنتاجية مباشرة وبشكل مثير فقد تعطى وتضيف النظم الجديدة للكمبيوتر ونظم تكنولوجيا الاتصالات ميزات كثيرة على وسائل الإعلام التقليدى أو حتى نظم المعالجة بالكمبيوتر القديمة - لكن من الصعب الحصول على مكاسب إنتاجية من استعمال تطبيقات لنظم كمبيوتر منخفضة القيمة مثل تلك التى يستعملها الكثير من المهنيين كثيراً، وقد يطلقون عليها أدوات إنتاجية ، ولكنها مجرد أدوات تساعدهم أكثر على تحسين مظهر الوثائق وعرض وتقديم الموضوعات ، والتحليل العميق، ولتحسين التحكم وإدارة العلاقات خاصة فى حالة غياب السكرتارية، وهذه مكاسب كبيرة، ولكنها فى أغلب الاحيان لاتترجم إلى زيادة فى الإنتاجية !.

بعض العلماء الاقتصاديين مهتمون بهذه المسائل ويعتقدون أن المفارقة الإنتاجية غير حقيقية أصلا وأنها سوف تحل بتحسين طرق جديدة لقياس الإنتاجية وبزيادة الاستثمار فى نظم الكومبيوتر . وهناك مناقشة نشيطة بين العلماء الاقتصاديين والمحللين التنظيميين ويفسر المحللون التنظيميون المفارقة الإنتاجية فى أننا لم نتعلم كيف نستعمل أنظمة الكومبيوتر جيداً وبدرجة كافية فى مقياس أجتماعى وتنظيمى فهناك عمليات تنظيمية كثيرة وعادات عمل متعددة تقلل الإنتاجية عملياً وهناك بضعة تفسيرات اجتماعية للمفارقة الإنتاجية : (١) مؤسسات كثيرة طورت وصممت نظم بطريقة تؤدى إلى فشل فى التنفيذ ، أو (٢) مؤسسات قليلة جدا هى التى طورت وصممت نظم عمل الناس بفاعلية ، أو (٣) الاستهانة بكم الأعمال الماهرة المطلوبة لاستخراج قيمة من نظم المعالجة بالكمبيوتر وهذه الملاحظات تجعلنا نزعم أن الكثير من هذه المؤسسات تفقد القيمة الكامنة فى الطرق التى يعالجونها بالكمبيوتر .

وتبين بعض الدراسات الحديثة فى أواخر التسعينات أن الاستثمارات فى تكنولوجيا المعلومات قد حسنت إنتاجية بعض المنظمات واقتصاديات بعض الدول لكن البيانات على مستوى الشركات تظهر تباينا جوهريا للنتائج السابقة وتتراكم الدلائل على أن المؤسسات التى تعتمد على الحوسبة بكثافة مع الممارسات التنظيمية المناسبة إنتاجها أكبر من المتوسط، بالمقارنة بتلك المؤسسات التى لا تعتمد بكثافة على الكمبيوتر، وحسبت الدراسات أن الشركات التى تعتمد على الحوسبة بدرجة كبيرة ولكن تنظيمها غير منضبط ومهمل تتخلف فى انتاجيتها بنسبة ١٠ ٪ عن الشركات التى تعتمد ايضا بدرجة كبيرة على الحوسبة لكن تنظيمها منضبط وملائم لأهدافها.

التكنولوجيا والمنظومة الريفية

وفرضية المفارقة الإنتاجية تعطينا انطباعا بأن استراتيجيات الحوسبة الحالية لا تؤدى بسهولة إلى فوائد اجتماعية واقتصادية متوقعة وبوجه خاص التكنولوجيا الجيدة المستوى وحدها، غير كافية أن تنشئ القيمة الاقتصادية أو الاجتماعية، وهي نقطة دخول فى مجموعة دراسات ممتعة ومناقشة النظريات عن طرق الحوسبة المؤثرة والفعالة التى تحفز الممارسات الإنتاجية فى المؤسسات، وتحتاج مناقشات عميقة فى مقالات قادمة لكننا نزعم هنا أن عامل التكنولوجيا لوحده لايزيد الإنتاج ولا يحدث تقدما، ولا يعالج التخلف، حتى لو كانت تكنولوجيا الكمبيوتر والإنترنت، لأن التكنولوجيا تعمل داخل منظومة مجتمعية بمستوياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية؟ فماذا يفعل الكمبيوتر والإنترنت فى المجتمع المصرى حيث تسيطر علية منظومة ريفية السلوك والإدارة - فالواقع اليومى يعكس تماما ريفية الإدارة والسلوك، نقصد بالريفية هنا: عدم احترام قيمة الوقت، الفردية المتضخمة، احتراف النقد، سيطرة شخصية الخولى على أدوار السلطة، استرخاء فكرى، المبالغة فى التهوين والتهويل، العشوائية فى التخطيط والتنفيذ والمتابعة والتقييم، اللف حول المشكلة، التميز العاطفى والمجاملة والشخصانية فى العلاقات، والمزاجية فى اتخاذ القرارات، الاعتماد بصفة أساسية على الذاكرة فى حفظ وتسجيل واستدعاء المعلومات، اللامبالاه والبلادة والتناحة، وعدم احترام الأخر و الاستهانة بالقوانين، والتحايل عليها، والتمسك بمظاهر التدين وإهمال الجوهر الحقيقى للدين. وهذه السمات تعكس تماما العقلية الريفية فى السلوك والإدارة، وإذا كانت تلك الخصائص هى سمات سلوكية سائدة بين المصريين، فماذا تفعل التكنولوجيا وحدها؟! ماذا تفعل التكنولوجيا وحدها فى مجتمع لايحترم أحكام القضاء، ولا ينفذها! فماذا يتبقى لنا؟!. ■



الفرد فى مواجهة القوة الأعظم

بقلم
جميل مطر

منذ اليوم الأول لانتفاضة الأقصى توقع بعض مراقبين ودبلوماسيين أن تكون مسيرتها طويلة.. جاء التوقع نتيجة لتطورات مهمة في الساحتين الإسرائيلية والفلسطينية.

فبطول صيف ٢٠٠٠ كانت إسرائيل قد أكملت دورة اليسار الذي بدأ واستمر يمارس دوره في الحياة الإسرائيلية فيما يشبه الاحتكار، ثم دخل مرحلة التقطع حين برز اليمين، وبخاصة بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وقبل زيارة الرئيس السادات إلى القدس ومروراً بمحادثات كامب ديفيد واتفاقياتها.. وظل اليمين يتقدم واليسار ينحسر، حتى أن اليسار وهو منحسر كان يعتمد سياسات يمينية صهيونية مثل إخضاع أراضي فلسطينية جديدة للاستعمار اليهودي وخصخصة شركات الأدوية.



وفي ظني، أنه بحلول عام ٢٠٠٠، كانت المؤسستان السياسية والعسكرية الإسرائيلية قد توصلتا إلى أن تجربة استيراد بشر من غير اليهود قد نجحت .. بمعنى آخر تأكدت القيادات «الإسرائيلية» من أن «الإسرائيلية» أصبحت في حد ذاتها هوية تستطيع أن تقف جنباً إلى جنب مع الصهيونية واليهودية، وصارت هذه القيادات تعتقد أن المهاجرين الجدد ومعتنقي هذه الهوية هم الذين سيحققون مشروع الدولة الإسرائيلية في مساحتها الأمثل وضمن الحدود التي سيتوقفون هم عندها.. وأظن أن المسئولين الإسرائيليين لن يتباطؤا في السعي لتهجير مليون مواطن روسي أو من مواطني دول أخرى في الجوار القريب لروسيا، فالتوسع وإعادة البناء المتطور والقتال وتجديد النخبة السياسية كلها أهداف تحتاج لهؤلاء المهاجرين الروس حتى وإن كانوا من غير اليهود.

وبحلول عام ٢٠٠٠ كانت تطورات أخرى قد اكتملت على الجانب الفلسطيني .. ففي هذا العام كان قد مضى على انعقاد مؤتمر مدريد ما يقارب عشرة أعوام وعلى مؤتمر أوسلو ستة أعوام .. بمعنى آخر.. حان وقت تقديم القيادة العائدة من الخارج الحساب عن انجازاتها ، فهي التي وجهت المفاوضين في مدريد ثم اشتركت بنفسها في أوسلو.. وعلى امتداد الفترة كان الفلسطينيون ، أهل الداخل وأهل الشتات على حد سواء ، يتابعون عمليات قضم الأراضي على أيدي الإسرائيليين يقابلها الفشل الفلسطيني في إقامة الدولة وتحقيق حياة مادية أفضل.. ولولا الوفاء للرئيس الفلسطيني أو للثورة، ولولا أن البدائل أصعب وأعظم تكلفة، لما كان يمكن للقيادة الفلسطينية أن تستمر طويلا في ظل هذا الفشل.

تحيز واضح لإسرائيل

وبحلول عام ٢٠٠٠ ، كانت قد انهارت كل الآمال المتعلقة بالدور



الأمريكي الذي وعدت به العواصم العربية، والقيادة الفلسطينية بالذات، الشعب الفلسطيني في وطنه وشتاته وعادت تجدد هذا الوعد بثقة هائلة في العقد الأخير.. وعندما انكشف أن هذا الدور ليس لصالح الفلسطينيين وأنه يشد ساعد الاحتلال الإسرائيلي، وعندما لم تعد الطبقة الحاكمة في العالم العربي وفي فلسطين تحديداً قادرة على تبرير بشاعة الدور الأمريكي وقسوته، سقطت الآمال الفلسطينية وآمال الشارع العربي المتعلقة ليس فقط بالدور الأمريكي بل وأيضا بالأدوار العربية. بمعنى آخر انكشفت درجة الارتباط العظمى بين كل الأدوار الخارجية، وانهارت أحلام عودة الحقوق بالسلام العادل.

ويبدو أنه كان لابد أن تستمر الانتفاضة الأخيرة، أو في جولتها الثانية، عاما كاملاً لتتعمق أمور شديدة الأهمية في مسار الصراع العربي الإسرائيلي، فالمجتمع الإسرائيلي يتوجه الآن وبكل طاقته وارادته نحو اليمين العلماني الجديد، الأكثرية العظمى من المهاجرين الجدد من أنصار هذا التوجه، ولكن قطاعات مهمة تتوجه أيضا نحو اليمين الديني التقليدي المتزايد تشدداً وقوة وجرأة.

مجتمع فلسطيني جديد

على الناحية الأخرى، أعادت الانتفاضة فرز المجتمع الفلسطيني وعلاقاته الداخلية، صحيح أن تمرد الفلسطينيين في الشتات مكتوم بسبب الحماسة للانتفاضة وشدة القمع، وصحيح أن القيادة الفلسطينية في الداخل أهملت، أو كادت تهمل تماماً، قوى الشتات، ولم تعد تحفل بهم إلا لماما أو في المناسبات على عكس أيام السبعينيات والثمانينيات حين اهتمت بالشتات وأهملت شعب الداخل، وأكثر منه شعب ١٩٤٨. إلا أن هذه القوى متفاعلة مع قوى ناشئة داخل أراضي فلسطين وراء الخط الأخضر وربما أيضا مع بروزها، ومتفاعلة مع تحالفات «شبابية» جديدة عابرة للحدود بين الفصائل، كل هذه القوى وتفاعلاتها تصنع اليوم مجتمعاً فلسطينيا جديداً.

من ناحية ثالثة، كانت الانتفاضة سببا مباشراً في أن يحدث وللمرة



الأولى في تاريخ المنطقة مواجهة مباشرة بين الفرد العادى فى كافة أنحاء العالم العربى والولايات المتحدة الأمريكية .. ولهذه المواجهة عواقب.. أخشى أن تكون خطيرة، وهى لذلك تستحق التوقف عندها.. فقبل نصف قرن كان الفرد العربى العادى يولد فى بيئة معادية للمستعمر البريطانى أو الفرنسى ويتعلم منذ النشأة أساليب التعامل مع ممثل هذا الاستعمار وممارساته ، فى بعض الحالات كان الاستعمار مباشراً، كما فى الجزائر وتونس.. وفى حالات أخرى كان الاستعمار غير مباشر، بمعنى أنه مارس هيمنته عن خلال قيادات محلية، ولم يستبق من جنوده أو موظفيه إلا أقل عدد ممكن، وبذلك استطاع أن يعيد توجيه الاستنكار لوجوده وممارساته ليتحمل وزرها حكام محليون ويقلل فرص المواجهة بينه وبين المجتمع الخاضع لاستعماره أو بينه وبين الفرد العادى.

وعندما حلت الولايات المتحدة محل بريطانيا وفرنسا فى الهيمنة على منطقة الشرق الأوسط ، اختارت نهج التدخل غير المباشر، أو هكذا كانت نصيحة جهابذة الاستعمار فى لندن.. كانت التجربة الاستعمارية التقليدية قد وصلت إلى نهايتها أو كادت.. وكانت تجربة غنية بالنماذج. وبعض هذه النماذج شارك فى القضاء عليها الأمريكيون أنفسهم كما حدث فى الجزائر.. فقد كانت الولايات المتحدة شاهد عيان، ومشاركاً أيضا، على تسريع عملية الانسحاب الفرنسى من الجزائر والانسحابات البرتغالية من المستعمرات الأفريقية جنوب الصحراء، وبخاصة فى أنجولا وموزمبيق.

تأييد أمريكي لإسرائيل

وحاولت الدول الشيوعية وعلى رأسها الاتحاد السوفييتى وصم الولايات المتحدة بالاستعمار.. وهكذا فعلت بعض حكومات العالم الثالث ذات التوجه القومى أو الوطنى والعقلانى فى نفس الوقت.. كان العدو الخارجى مطلوبا لتعبئة الشعوب حول فكرة الدولة والأمة، ومطلوبا أحيانا لتحميله المسئولية عن القصور فى البناء والتنمية، وهذا بالضبط ما فعلته حكومات عربية كثيرة لم تبالغ كثيرا فى تحميل أمريكا مسئولية هذا التقصير أو ذاك، إذ كان التأييد



الأمريكي لإسرائيل على حساب العرب مثيرا لشكوكهم في حقيقة نوايا الأمريكيين تجاه المنطقة ككل، وهي الشكوك التي احتاجت إلى عقود ثلاثة أو أربعة وإلى حرب إقليمية وإلى انتفاضتين لتصبح في حكم اليقين عند جميع حكومات المنطقة بدون استثناء وإن حاول بعضها اخفاء هذا التحول من الشك إلى اليقين.

ولقد بقيت العلاقات بين الفرد العربي العادي والولايات المتحدة في معظم الأحيان بمنأى عن المواجهة بين حكومات عربية والولايات المتحدة، بمعنى آخر بقيت هذه العلاقات تابعة للعلاقات الأمريكية العربية الرسمية وإن عن بعد، ولكن، ليست مستقلة عنها، وهو ما يعني في نفس الوقت عدم التصديق الكامل من جانب الفرد لموقف الحكومات إن ناهضت أمريكا، كان الإعجاب بالتقدم العلمي وبمستوى معيشة الفرد الأمريكي وبالسينما الأمريكية وغيرها من وسائل الترفيه سائداً بين الأفراد ، إلى حد يتساوى أحيانا مع درجة العداء الذي تلح عليه بعض الحكومات الثورية، ويتجاوزه في أحيان كثيرة، الأمر الذي جعل السياسة العربية تجاه أمريكا موضوعاً بعيداً عن دائرة تصديق المواطن العربي، سواء كانت السياسة العربية تميل إلى الخلاف والعداء أم تميل إلى التحالف والاندراج.

وجاءت انتفاضة الأقصى، وتصرفت الولايات المتحدة تصرفات لا تتناسب مع أعراف كثيرة في الثقافة الأمريكية أو خارجها، بل أن بعض التصرفات بدا كما لو كان المقصود به إثارة غضب الشارع العربي والإسلامي، هكذا جاءت الفرصة ليدخل المواطن العربي العادي مواجهة مع الولايات المتحدة مستقلا عن حكوماته، أو على الأقل غير تابع لأي من دعاياتها أو دعايات جهات أخرى . وصار للمواطن العربي رأي في أمريكا يختلف عن الرأي الرسمي أو المعلن للدولة المنتمي إليها، وفي معظم الحالات والقضايا، رغم أنف هذه الدولة، وبالتالي رغم أنف النظام الإقليمي العربي ممثلا في عقيدته الجديدة التي اشتركت الولايات



المتحدة فى تأسيسها على مدى العشرين عاماً الماضية، ورغم أنف مؤسساته العتيقة المتآكلة.

الانتفاضة وتبصير المواطن العربى

لا أبالغ حين أقول أن لانتفاضة الأقصى معظم الفضل.. فقد أزالت الانتفاضة غشاوة عطلت بصر وبصيرة المواطن العربى سنوات طويلة.. ولكن بعض الفضل يجب أن يعود لواشنطن وبخاصة فى عهدى الرئيسين كلينتون وبوش الصغير.. شىء ما أو أشياء متعددة مترابطة حدثت فى الولايات المتحدة مؤخراً جعلت واشنطن تقرر الدخول فى مواجهة مع جماهير العرب والمسلمين، كان هناك تعمد واضح وإصرار غريب على أن تستخدم الغطرسة، وأحيانا سياسات أقرب إلى العنصرية، واستهانة أقرب إلى الإهانة المقصودة، وعقوبات أقرب إلى الاعتقال.. إن ما حدث من جانب الولايات المتحدة قبل وخلال اجتماعات ديربان وحول مؤتمر مكافحة العنصرية أعلن بوضوح وفى مرة واحدة موقفاً أمريكياً كانت واشنطن تلقمه للعرب بالتدريج . أخيرا صرخت أمريكا فى وجه كل فرد عربى وكل جمعية أو منظمة أهلية عربية، اذهب.. أو اذهبى إلى الجحيم.. إنها الحرب بينى وبينك.

لم تكن هكذا أمريكا التى عرفها المواطن العربى على امتداد عقود، أو تمناها أن تكون.. جاءت تصرفاتها فى ظل الانتفاضة تكشف عن حقيقة لم يكن يعرفها، أو عن تحول جديد لم يتوقعه ولم يلحظه. وأظن أن هذا الاكتشاف يقف الآن وراء كثير من الظواهر التى يموج بها عالمنا العربى، ابتداء من شقاق داخلى داخل كل مجتمع، وشقاق داخل كل دولة، وشقاق بين الدول، وانتهاء برأى عام عربى يتكون بسرعة ويستعد لمواجهة على نطاق أوسع.

الانحياز لإسرائيل سياسة قديمة

إنما يجب أن نراقب وبكل حذر وانتباه التطورات الحادثة على مستوى القمة الدولية، وبخاصة داخل النخب الحاكمة الأمريكية، أمور منها تخصنا مباشرة، وأمور أخرى تؤثر فينا بالتبعية أو عن بعد. أما ما يخصنا فيأتى فى صدارته هذا الإصرار الأمريكى الغريب على زيادة مكونات



العداء ضدها في المنطقة العربية، أو المنطقة الإسلامية بشكل عام، فالانحياز لإسرائيل سياسة قديمة ومعروفة ، ولكن المبالغة في الانحياز وبحقد معلن وملحوظ ، إلى حد تشجيع إسرائيل علنا وحفزها على اغتيال قادة فلسطينيين، وعلى استمرار سياسة الاستيطان وعلى فرض الأمر على الواقع والسلام الإسرائيلي العنصري على المنطقة بأسرها، فهذا جديد، أعرف أن العاقلين العرب، وبعضهم من الفلسطينيين ، لم يتصوروا ذات يوم أن الولايات المتحدة ستلعب دور الوسيط النزيه في الصراع العربي الإسرائيلي ، سكتوا عن الحقيقة ربما خوفاً من أمريكا أو إيمانا بواقعية تبشر بخير قليل جداً أو لا خير على الإطلاق أحسن من شر كثير جداً، ولن يحصل الفلسطينيون ولا غيرهم من العرب على هذا القليل جداً أو لن يأمنوا ضد الشر الكثير جداً، إلا ما تضمنه أمريكا .. ولو إلى حين.

قبل هذه الانتفاضة ، انتفاضة الأقصى ، كانت واشنطن راضية بتطور الأوضاع على الصعيد العربي الإسرائيلي ، كانت واشنطن راضية لأن إسرائيل كانت راضية.. وإسرائيل كانت راضية لأن التنسيق الأمريكي الإسرائيلي الذي أفرز مؤتمر مدريد حقق لإسرائيل اختراقا دبلوماسيا وانجازاً رائعاً لصالح إسرائيل في دول ومناطق حرمت من دخولها إسرائيل على امتداد عقود أربعة، ثم جاءت أوسلو .. وبالاثنتين ، مدريد وأوسلو فقدت منظمة التحرير الفلسطينية، وبعدها السلطة الفلسطينية، وضع القضية الأولى بالرعاية.. أو القضية الأم، ليس فقط عند شعوب أفريقيا وآسيا ولدى منظمات وجمعيات وتيارات غير حكومية في الشرق والغرب، ولكن أيضا، وهو الأخطر، عند الشعوب العربية وداخل منظماتها وجمعياتها وتياراتها، فبهذين الفعلين، مدريد وأوسلو، دخلت مرة أخرى في ضبابية مفهوم السلام الذي فرضته إسرائيل بمساعدة أمريكا على المنطقة بأسرها ليشل حركتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية، والدليل على ذلك أن



الدولتين اللتين وقعتا سلاماً مع إسرائيل أنهكهما كثرة وقسوة المطالب الأمريكية والأوروبية والإسرائيلية وإعداد مبادرات والقيام بضغوط تثبتان بها كل يوم وكل ساعة إلتزامهما مفهوم معين - وربما فريد - للسلام، وبعد وقت، صار الانصياع وراء هذا المفهوم سباقا بين كثير من دول الجامعة العربية.

سقوط الحدود بين القوي الأعظم

لن أبالغ فى انجازات انتفاضة الأقصى.. فهى لم تغير جذرياً فى نوعية أو فى سرعة الانهيارات العربية، ولكنها تسببت فيما هو أهم، فى نظرى .. لقد تصورت واشنطن، عن حق أو نتيجة وهم، أن هذه الانتفاضة فى بعض جوانبها تمس مصالح وأهدافا لها. ويبدو أنها اعتبرتها تحديا لكل ما شيدته أمريكا - أو دمرته - منذ عاصفة الخليج، وهو كثير جداً، لم يكن أمن إسرائيل على أهميته الشغل الشاغل لواشنطن، إنما كان أمن أمريكا ذاتها - فالانتفاضة ، فى أبرز معانيها، كانت، ومازالت إلى حد كبير تبرز قوة الفرد الواحد فى مواجهة قوة أخرى عاتية.. بمعنى آخر، الفرد يتحدى قوة أعظم، حتى وإن لم يعرف مدى وحدود عظمتها. سقطت الحدود بين القوى الأعظم بالنسبة لهذا الفرد.. إسرائيل قوة أعظم ، الأطلسى قوة أعظم، وأمريكا قوة أعظم، والحكومات العربية بما فيها السلطة الفلسطينية قوة أعظم، وكلها على مرمى حجر فى يده.. سقطت الهيبة. وسقطت الرهبة.....

لأول مرة، يصل الصدام بين الولايات المتحدة والمنطقة العربية إلى هذه الدرجة. لم يحدث فى أى يوم منذ بدأ أول إتصال عنف بين أمريكا والعالم الإسلامى وكان على ما أظن فى المغرب العربى، ان تصدى بالعداء، ولن أقول بالحقد أو الكراهية، الفرد المواطن العربى العادى وأخوه وزوجته وأبوه وابنه وجاره وابنته وجاره وجارته.. كل على حدة، مشمئز وغاضب.. ولا أحد فى السلطة العربية أو الأمريكية يدرك عواقب هذا النوع من المواجهة على علاقات حكومات المنطقة بأمريكا ، أو على علاقاتها بشعوبها أو على الأمن والاستقرار. ■



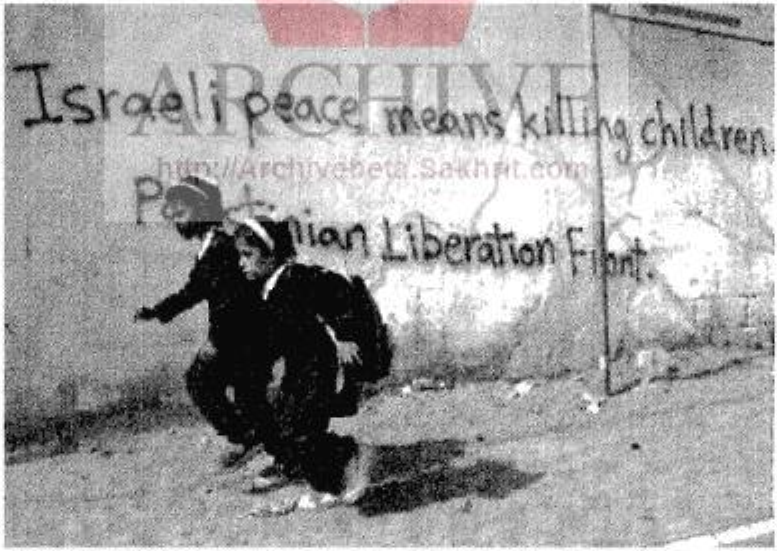
ماذا حققت الانتفاضة بعد عام من التضحيات؟!

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

مر منذ أيام قليلة عام كامل على تفجر انتفاضة الأقصى، ليؤكد الشعب الفلسطينى بذلك قدرته الفذة على مواصلة هذا النوع الخلاق من النضال التحررى الجماهيرى اليومى. سبق أن فعلها فى أواخر الثمانينات من القرن الماضى، وعاد فأكد هذه القدرة فى انتفاضته الراهنة على الرغم مما كان قد قيل فى حينه من أن اتفاقية أوسلو ١٩٩٣ قد قضت على إمكانية ممارسة هذا النوع من النضال فى أعقابها، بحكم أنها فصلت بين القوات الاسرائيلية وبين المحيط الجماهيرى الفلسطينى. لم يدرك القائلون بهذا وقتذاك أن الأصل فى تفجر النضال التحررى هو استمرار التناقض بين القوة الاستعمارية والشعب الخاضع لها، وأن اتفاقية أوسلو من ثم لم تكن لتؤدى الى القضاء على احتمالات مواصلة ذلك النضال التحررى الا فى حالة واحدة، وهى النجاح فى تحقيق تسوية الحد الأدنى المقبول فلسطينيا.



الحجر فى مواجهة أعتى الأسلحة ..!



هل يعنى السلام الاسرائيلى قتل الأطفال ؟!!



وتمثل الانتفاضة الفلسطينية الراهنة مرحلة مهمة من مراحل تطور حركة التحرر الوطنى الفلسطينى، ومن المؤكد أن نتيجة هذه المرحلة لن تنعكس على مستقبل فلسطين فحسب، وإنما على مستقبل كل الدول العربية المحيطة بها مباشرة، والقريبة منها كذلك، إن لم يكن - بحجم رابطة العروبة - على مستقبل النظام العربى ككل، ولذلك فإن محاولة بلورة رؤية نقدية لأداء الانتفاضة فى عام، ومن ثم استشراف مستقبلها بما يمكن من المشاركة الايجابية فى صياغة هذا المستقبل تصبح محاولة ضرورية لكل من يهتم بمستقبل فلسطين خاصة، أو الوطن العربى عامة.

اتجاهات ثلاثة فى التقييم :

يبدو للوهلة الأولى أن ثمة اتجاهات ثلاثة فى تقييم الانتفاضة:

الأول يرى أنها تمثل خروجا على السلوك الرشيد الذى ينبغى اتباعه، حيث أن أى ممارسة للقوة فى ظل وضع شديد الاختلال فى موازين القوى لغير صالح الفلسطينيين يكاد يتطابق مع السلوك الانتحارى، وأن السبيل الوحيد أمام الشعب الفلسطينى هو التفاوض والتفاوض حتى يبلغ آماله، وينسى هؤلاء عادة أو يتناسون أن كل حركات التحرر الوطنى قد انطلقت فى سياق ذات الموازين المختلة للقوى، غير أنها قد انتهت بالانتصار على النحو الذى أجبر محللى العلاقات الدولية كافة حتى أولئك المنتمين منهم الى القوى الاستعمارية على الاعتراف بأن القوة ليست مفهوما ماديا فحسب، لأن لها بعدا معنويا مهما، وأن أساليب وأنماط استخدام القوة قد تعوض الخلل فى موازينها المادية. كذلك ينسى هؤلاء أو يتناسون أن الاكتفاء بالتفاوض فى ظل اختلال موازين القوة لا يمكن أن يفضى إلا إلى تسويات مذلة، وأن ممارسة النضال التحررى وحدها هى التى يمكن أن تحسن نتيجة المفاوضات بعد أن تتيقن القوة الاستعمارية أن أمامها خصما يستحيل كسر إرادته، ومن ثم يصبح التفاوض معه من أجل تسوية ما سلوكا ضروريا.

أما الاتجاه الثانى فهو اتجاه وطنى قومى، ولكنه يتسم بعاطفية شديدة، إذ ينزعج بشدة، ويتألم لأقصى الحدود عندما يرى نزيف الدماء الفلسطينية، ودمار الممتلكات المادية، ويتخيل أن ثمة نهاية محتملة للوجود الفلسطينى ذاته لو استمر تطور الأوضاع على النحو الحالى، ولذلك فهو يرى أن قبول أى عرض خير من هذا المسار المأساوى للأحداث .

والواقع أن دوافع هذا الاتجاه نبيلة



وأخلاقية، غير أننا نعيش للأسف فى عالم اضطرت كل حركات التحرر الوطنى فيه الى ممارسة النضال بتكلفة بشرية ومادية هائلة كى تحصل على حقوقها، أو على الأقل على الحد المعقول منها، فلم يحدث أن فرط الاستعمار فى مستعمراته طوعا، وفى الحالات التى بدا فيها أنه فعل ذلك تصرف على هذا النحو لأنه رأى الرأس الاستعمارية التى طارت فى مواجهة حركات تحرر وطنى ناجحة، فاستوعب الدرس .

ومن المؤكد أن الثورة الراهنة فى وسائل الاتصال تلعب دورا فى زيادة إحساسنا بالألم لما يجرى على أرض فلسطين ، لكننا يجب أن نذكر جيدا أن الأهوال الاستعمارية واحدة، وأن معارك التحرر الوطنى فى الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي، أو فى المستعمرات البرتغالية فى أفريقيا ، أو فى النظام العنصرى فى جنوب إفريقيا كان يستشهد فيها المئات بل الآلاف فى أيام قليلة، ناهيك عن الخسارة المادية، غير أن هذه كانت الضريبة التى دفعتها أجيال من الشعوب المستعمرة كى تتمتع أجيال أخرى بحياة أكثر حرية وأمنا .

وأخيرا فإن الاتجاه الثالث ـ وكاتب هذه السطور من بين المنتمين اليه ـ يرى أن تفجر الانتفاضة كان حتميا، وهى الخيار الوحيد أمام الشعب الفلسطينى ليحصل على الحد الأدنى من حقوقه المشروعة، وهو ما ينقلنا الى النقاط التالية.

حول جدوى الانتفاضة

يتضح من استعراض مقولات الاتجاهين الأول والثانى فى تقييم الانتفاضة أنها سلوك غير مجد ـ إن لم يكن سلوكا مدمرا ـ للشعب الفلسطينى ، محبطا لأهدافه. والواقع أن القائلين بهذا من المؤكد أنهم يعيشون خارج التاريخ، فالشعب الفلسطينى ضحية لسلوك استعمارى، وفى كل الحالات المماثلة دونما استثناء تفجرت المقاومة ، وعلى الرغم من أن الشعب الفلسطينى لم يختلف عن أى شعب آخر فى أن إرهاصات المقاومة قد تواكبت مع تبلور السلوك الاستعمارى الاستيطانى الصهيونى حتى قبل نشأة دولة اسرائيل فى ١٩٤٨ فإنه من المحتمل أن يكون قد تأثر سلبا فى نضاله التحررى بمحيطه العربى، بمعنى أن «الرابطة العربية» ربما تكون ـ ولو باللاوعى ـ جعلته يركن الى الإدارة العربية للصراع ، ويثق فى نجدة «الأشقاء» له، ويعتمد على سعيهم المخلص لاسترداد حقوقه، ولقد أحبط النضال الفلسطينى حينا بضعف ظهيره العربى، أو تواطؤ بعض القوى الفاعلة فيه فى الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين، وترجع حينا آخر مع الضربة الضارية التى وجهت الى حركة التحرر العربى فى الستينات، وتوهم حينا ثالثا



أن «قطف الثمار» بات وشيكا فى السبعينات فى أعقاب حرب أكتوبر، غير أن القوى الفلسطينية الفاعلة استخلصت فى الثمانينات اعتبارا من قمة عمان ١٩٨٧ أن مسئوليتها الوطنية تحتم عليها أن تمسك بقضيتها فى أيديها، وتأكد هذا الاستنتاج بنتائج قمة واشنطن التى عقدت بعد أقل من شهر فى أعقاب قمة عمان بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى، وتجاهلت القضية الفلسطينية على الرغم من حمى تسوية الصراعات الاقليمية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت، ومن هنا كانت الانتفاضة الأولى التى تفجرت فى ديسمبر ١٩٨٧ ، وأفضت الى اتفاقية أوسلو بدلالتها التاريخية وعيوبها البنيوية، ومن هنا ايضا كانت الانتفاضة الثانية الراهنة التى تفجرت بعد أن زال وهم أوسلو بالكامل فى قمة كامب ديفيد ٢٠٠٠.

لم تتفجر الانتفاضة اذن لأن ثمة جدلا فكريا قد دار وانتهى الى أن الانتفاضة هى البديل الأفضل أمام الشعب الفلسطينى، وبالتالى يكون وقفها او استمرارها محكوما بجدل مماثل، وانما تفجرت كنتاج طبيعى للتناقض الاستعمارى الذى لا يدع للشعوب المستعمرة (بفتح الميم) بديلا سوى النضال التحررى من أجل استخلاص حقوقها، ومن يراجع عمليات اغتصاب الحقوق، وهدر الكرامة، وإزهاق الأرواح التى تمت على مدى عشرات السنين من الاحتلال سوف يجد أن سلوك التحرر الوطنى يبقى هو الخيار الوحيد المتاح أمام الشعوب الخاضعة للاحتلال، ناهيك عن أن يكون هذا الاحتلال احلاليا ، أى ينطوى على طرد الشعب الأصلى من وطنه واجلال المستعمر محله .

سؤال عن «الملاءمة»

إذا كانت السطور السابقة قد حاولت أن تثبت أن السؤال عن جدوى الانتفاضة فى غير محله بقدر ماهى نتاج حتمى للتناقض الاستعمارى فإن ثمة من يرون أن اللجوء الى استخدام وسائل عنيفة فى اطار الانتفاضة الراهنة (اطلاق الرصاص وقذائف الهاون - العمليات الاستشهادية.. الخ) سلوك لا يتسم بالحكمة بقدر ما يستفز ردود فعل اسرائيلية تصل فى بطشها الى حد الوحشية، ومن ثم فإنه من المستحسن أن تكرر الانتفاضة الراهنة نمطيا أسلوب انتفاضة أواخر الثمانينات، أى أن يكون السقف الأعلى لعنفها هو الحجر حماية للشعب الفلسطينى من تصاعد البطش الاسرائيلى .

ونستطيع أن نذكر على الفور بأن نفس المقولات قد ترددت إبان الانتفاضة الأولى: أن السكوت التام والاكتفاء



بالتفاوض (بغض النظر عن حساباته وجدواه)، أو اللجوء الى المظاهرات السلمية كحد أقصى للتصعيد هو البديل الأفضل أمام الشعب الفلسطيني بلا جدال، وأن الحجر يثير الاسرائيليين، ويدفعهم الى ردود فعل تبطش بالأبرياء.. الخ. فكأن كل المطلوب هو الامتناع عن المقاومة، والحفاظ من ثم على الخلل الراهن في ميزان القوى بين الإسرائيليين والفلسطينيين وصولا إما الى تكريس الوضع الراهن او تسوية مذلة.

غير أن الشيء الأجدر بالتذكير به ـ لا في الحالة الصهيونية / الفلسطينية وحدها، وانما في كل المواقف التي انطوت على علاقة استعمارية ـ هو أن لجوء القوة الاستعمارية الى العنف لم يكن مرهونا على الإطلاق بمبادرة الطرف الخاضع للاستعمار بالمقاومة، وإنما كان العنف الاستعماري سلوكا أصيلا منذ البداية ، ولصيقا بالحالة الاستعمارية ذاتها، فكيف كان ممكنا أن تغتصب الحقوق، وأن تتحقق المصالح الاستعمارية من ثم دون عنف، وفي حالتنا كيف كان ممكنا أن يأتي المستعمرون اليهود من جميع أرجاء العالم ليحلوا محل الغالبية العظمى من الشعب الفلسطيني دون عنف يمارس ضد هذا الشعب حتى يترك وطنه، ومن لديه شك في هذا فليراجع ماكتبه بعض المؤرخين «الصهاينة» الجدد حول أحداث ١٩٤٨ من واقع الوثائق الاسرائيلية ذاتها ، أو ليراجع العنف الاستعماري البريطاني في الهند على الرغم من أسلوب المقاومة السلمية الذي تمسك به غاندي، أو الفرنسي في الجزائر قبل أن تبدأ حركة التحرر الوطني الجزائري المسلحة في ١٩٥٤ .

العنف هو الأصل إذن في السلوك الاستعماري، وهو موجود بالمقاومة أو بدونها، بالمقاومة السلمية أو العنيفة، ومن هنا فإن من يرون بضرورة أن تكون الانتفاضة سلمية عليهم أن يدركوا أن اختيار أسلوب النضال راجع لكل شعب أن يقرره وفق ميزان القوى السائد بينه وبين القوة الاستعمارية، وبما يتناسب مع ظروفه وإمكاناته ، وقد تتمسك حركة تحررية بالأسلوب السلمي كحركة التحرر الهندي بزعامة غاندي، وقد يرفض الاستعمار التسليم إلا بأعمال أقصى عنف مقاوم ضده كما في الحالة الفرنسية في الهند الصينية أو الجزائر. أما القول بأن رد الفعل للسلوك الاستعماري لابد وأن يكون سلميا اتقاء لشره فإنه قول يتجاهل الطبيعة البنيوية لهذا السلوك، ويفضي الى تكريس مؤكد للأوضاع الاستعمارية.

ما الذي حققته الانتفاضة ؟

بعد حوار «الجدوى» و«الملاءمة» يبقى الحديث عن الانجاز على أرض الواقع



مطلوبا، ومن المؤكد أن عاما في عمر النضال التحرري للشعوب يمثل من المنظور التاريخي لحظة عابرة، فقد امتد نضال شعوب لعشرات السنين حتى أنجزت هدف استقلالها الوطني، ولذلك فليس مما يقلل من شأن الانتفاضة الفلسطينية الراهنة أن نقول انها لم تحقق هدفها النهائي بعد، غير أنها بالتأكيد قد مهدت الطريق من المنظور الاستراتيجي خلال عام واحد لتحقيق نقلة نوعية في المكاسب الفلسطينية، ويعنى هذا أن الانتفاضة قد نجحت في عام أن تعد المسرح الفلسطيني - وربما العربي والدولي بدرجة أقل - لتحقيق انجاز يحسب لها ، لكن ذلك بحد ذاته لا يعنى حتمية تجسيد هذا الانجاز على أرض الواقع في المدى المنظور لأنه - أي هذا الانجاز - يرتبط بشروط فلسطينية وعربية ودولية لا نستطيع الآن أن نؤكد أنها سوف تكون مواتية في المدى القصير. ولنرى الآن ما الذى نستند اليه في الحديث عما حققته الانتفاضة.

على الصعيد الفلسطيني ثمة انجازان استراتيجيان قد تحققا، اولهما أن الوحدة الوطنية الفلسطينية قد وضعت موضع اختبار لعام كامل، وخرجت من هذا الاختبار بنجاح. ربما تكون بعض الثغرات قد حدثت هنا أو هناك ، لكن الرهان على اقتتال او حتى خلاف سياسى جذرى بين الفصائل الفلسطينية المختلفة بما فيها سلطة الحكم الذاتي قد سقط طيلة العام الأول من الانتفاضة. ولاشك أن ثمة عوامل عديدة تقف وراء هذا الانجاز أولها موقف القيادة الفلسطينية في قمة كامب ديفيد ٢٠٠٠ ، والذى وضع حدا للشك في أن مثل هذه القيادة على الرغم من أية تحفظات عليها أو خلافات معها يمكن أن تفرط في الثوابت الفلسطينية والعربية، وثانيها الموقف المسئول للفصائل الفلسطينية التي أعلت ماهو وطنى على ماهو حزبى، وثالثها اكتشاف الطرفين، السلطة والفصائل للقيمة المضافة لعملهما المشترك، ورابعها ما قامت به اسرائيل من تكريس لهذه الوحدة بتوجيه ضرباتها دون تمييز لرموز السلطة والفصائل في اشارة واضحة الى توحد الجسد الفلسطيني ضدها. ومن الأمور بالغة الأهمية ما أثبتته الانتفاضة من امتداد هذا التوحد الى الفلسطينيين من حاملى الجنسية الاسرائيلية الذين صمدوا على أرض وطنهم في أعقاب نشأة الدولة الصهيونية في ١٩٤٨ .

أما الانجاز الاستراتيجى الثانى على الصعيد الفلسطيني فهو الصمود، فعلى مدى عام كامل أخرجت اسرائيل أقصى



الممكن من جعبتها العسكرية على النحو الوحشى الذى شاهدناه، غير أن الارادة السياسية الفلسطينية لم تنكسر، والأكثر أهمية من هذا أن القوى الفلسطينية أثبتت انها قادرة على الرد، بل وعلى الرد الموجع فى كثير من الأحيان، وفى توقيت تال مباشرة للعنف الاستعمارى، الأمر الذى أصبحت معه تمثل حقيقة يحسب حسابها. صحيح أن سياسات شارون لم تتغير، وأغلب الظن أنها لن تتغير، ولكن الطريق لسقوطه شخصيا وسقوط سياساته موضوعيا بات ممهدا، أو على الأقل بات ممكنا.

خسائر بشرية ومادية للكيان الصهيونى

ويرتبط بما سبق أن الانتفاضة على الصعيد الاسرائيلى قد تسببت فى خسائر بشرية ومادية يعتد بها للكيان الصهيونى، فلقد فقد هذا الكيان فى العام الأول من انتفاضة شعب صغير شبه أعزل من القتلى ما يفوق عدد القتلى الاسرائيليين فى حروب رئيسية مع دول عربية، ناهيك عن التكلفة المادية المباشرة لقمع الانتفاضة، والتى لم تحسب على نحو دقيق حتى الآن، غير أنها ضخمة بالضرورة، وكلما تذكرت أن تقريرا نشرته احدى المجلات المصرية منذ سنوات عن حادث لتبادل اطلاق النار بين قريتين فى صعيد مصر لدواعى الثأر استمر لعشرين دقيقة قد استخدمت فيه ذخيرة يقدر ثمنها بستمائة الف جنيه مصرى أدركت أن رقم التكلفة المباشرة لقمع الانتفاضة لابد أن يكون مخيفا أو على الأقل مقلقا لإسرائيل، فإذا أضيف لهذا الحديث المتكرر عن تراجع معدل النمو فى اسرائيل فى عام الانتفاضة، وضرب السياحة فيها على نحو موجع، وزيادة نسبة الهجرة العكسية، وتباطؤ معدل الهجرة الوافدة اليها، وكسر الاحساس بالأمن لدى المستوطن الإسرائيلى على الأقل فى المستعمرات التى تعرضت لإزعاج متكرر ومنتظم من الفلسطينيين، ومن ثم التقارير التى راجت حول نزوح أعداد منهم الى «الداخل الاسرائيلى»، وهى تقارير أكدها شارون نفسه عندما زار إحدى المستعمرات، وتوجه بالرجاء لسكانها ألا يغادروها، وأن يمنحوه فرصة - اذا أضفنا هذا كله لأدركنا أن الانتفاضة الفلسطينية قد سارت خلال عام بنجاح حتى الآن على ذات الطريق الذى سلكته حركات تحرر سابقة حققت اهدافها : العمل على رفع تكلفة الاحتلال الى الحد الذى تصبح العملية الاستعمارية معه مستهلكة للأمن اكثر منها منتجة له، وهنا تفقد منطق وجودها، ويبدأ المسئولون عنها فى اعادة حساباتهم.

وعلى الصعيد العربى لابد من



الاعتراف بأن الانتفاضة قد نجحت، وبالذات في بدايتها، في ضخ دماء «ثورية» في النظام العربي بشقيه الرسمي والشعبي، فعجلت بعقد قمة أكتوبر ٢٠٠٠ التي خرجت بخطاب سياسي مختلف نوعيا، وقرارات محددة لدعم الانتفاضة ماديا، وتمت الموافقة فيها على ملحق تكميلي لميثاق جامعة الدول العربية - لأول مرة - منذ نشأتها في ١٩٤٥ - نص على انعقاد القمم العربية بشكل دوري سنويا، وأفضت - أي الانتفاضة - الى حركة غير مسبوقة منذ سنوات طويلة في الشارع العربي لدعمها سياسيا، ومقاطعة «العدو» اقتصاديا .

الانتفاضة وحركة المد العربي

غير أنه لابد للأسف من الاعتراف ايضا بأن هذا كله قد تراجع بعد حين، فاستمرت الدول العربية في فهم قرارات قمتي القاهرة وعمان في عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠١ بنفس النهج القديم، أي بطرق مختلفة تعكس المصالح الوطنية وليس الموقف القومي، وتتراخى كالعادة في تنفيذ القرارات ذات الصلة بدعم الانتفاضة، كما طرأ نوع من الفتور على حركة الشارع العربي المؤيدة للانتفاضة، وهو فتور قد يكون مؤقتا، وان كان مما يثير القلق أن أحداثا جساما قد وقعت أثناء هذا الفتور دون أن تؤدي الى ردود فعل كانت منتظرة من الشارع العربي، الأمر الذي يستدعي وقفة تحليل وتأمل بعد أن أصبح النظام الشعبي العربي يضاهي نظيره الرسمي من حيث التقصير في دعم الانتفاضة. ومن المهم أن نؤكد هنا على أن الانتفاضة لا تلام على هذا التقصير العربي، فليس مطلوبا من الجزء أن يقود الكل، ولكن الغرض من هذه الملاحظات هو الاشارة الى أن الدور العربي حتى الآن لا يعد ظهيرا يعتد به للانتفاضة، ويجب أن نتذكر في هذا السياق أن أنجح حركات التحرر الوطني العربية المعاصرة في الجزائر وجنوب اليمن على سبيل المثال قد تمت في سياق حركة مد قومي عربي فعال .

أما على الصعيد الدولي فقد تميزت معظم المواقف الدولية - باستثناء المواقف الاسلامية - بانحياز واضح الى جانب اسرائيل، كما في الحالة الأمريكية، أو بادعاء زائف للحياد يغلف مواقف لا معنى لها مثل «ضرورة وقف تدهور الموقف»، و«ضرورة العودة للتفاوض»، و«ضرورة تقديم تنازلات جوهرية من الطرفين»، وهي مواقف لا تستخدم لغة الحقوق المشروعة، ولا تعني سوى تكريس الحالة الاستعمارية، وتعكس الثمرة الحقيقية للجهود الاسرائيلية الدءوبة والواعية في المجال



الدولي، والدور الفعال لقوى الضغط الصهيونية في عديد من الدول ذات التأثير في الساحة العالمية .

ولم تنجح كل التحركات العربية في أن تغير من الصورة السابقة شيئا طيلة العام المنصرم، وإن كان الصمود الفلسطيني للأمانة قد فرض على عديد من أجهزة الاعلام الأجنبية أن تغير من طريقة معالجتها وتناولها للانتفاضة ولو جزئيا، وبدأنا نشاهد بعض البرامج التليفزيونية المعقولة في عدد من محطات التليفزيون الأوربية، وعددا من المقالات الموضوعية في صحف أمريكية وأوربية، ناهيك عن قوى المجتمع المدني الدولي التي برز دورها كأوضح ما يكون في مؤتمر دربان الأخير .

انتفاضة حتى النصر

ليس هذا شعارا سياسيا يردد في مظاهرة، ولكنه يمثل تلخيصا دقيقا للموقف : أن البديل الوحيد المتاح امام الفلسطينيين لاستخلاص جزء من حقوقهم في هذه المرحلة التاريخية هو استمرار انتفاضتهم، وأن تحقيق الانتصار في سياق هذه الانتفاضة ممكن، وإن كان لم يتم حتى الآن .

ولكي تتواصل الانتفاضة لابد من استمرار وتدعيم الوحدة الوطنية الفلسطينية، على أن يتم بحث وتدارس أنسب السبل والصيغ لهذا كله بما في ذلك امكانية مراجعة وتقويم الأداء الفلسطيني في العام المنصرم نحو الأفضل، ومن الأمور بالغة الحيوية هنا أن يتم اتفاق فلسطيني واضح يستحسن أن يكون مدعوما بتأييد عربي عام على ماهية العرض السياسي الذي يمكن أن يكون ثمنا لوقف الانتفاضة، لأن أخطر الاشياء على مستقبلها هو أن يتم التلويح بعرض سياسي يشق الصفوف الفلسطينية، وربما العربية. ومن الأمور المهمة ايضا ان يحرص الطرف الفلسطيني على ألا يؤدي القصور في الدعم العربي للانتفاضة الى تصاعد التوتر في العلاقات الفلسطينية - العربية، حيث يبقى دائما أن دعما يسيرا خير من غياب الدعم على الاطلاق. ومع ذلك فإن معالجة القصور في الدعم العربي للانتفاضة سوف تقدم امكانية حقيقية للإسراع في تحقيقها لأهدافها خاصة وأن التطوير الايجابي للموقف العربي من الانتفاضة لابد وأنه سوف يفضي الى تحسن ولو جزئي في المواقف الدولية من القضية الفلسطينية.

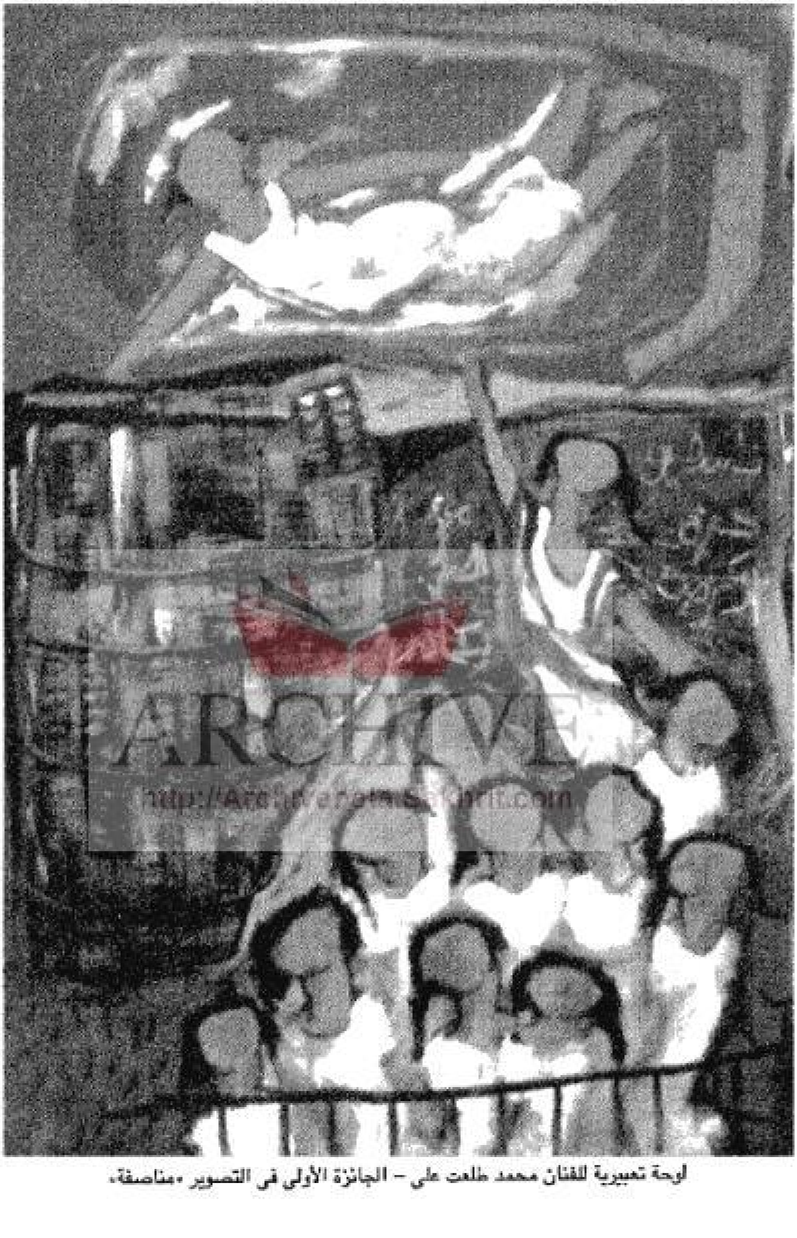
لم يصل النضال الفلسطيني في ارتقائه الى النجم الذي يسعى الى بلوغه بعد، غير أن النجم بات مرئيا، والطريق إليه واضح، ولم يبق سوى استمرار الصمود وتطوير الاداء من أجل تحقيق انجاز ممكن في مرحلة مهمة من مراحل الصراع المتد مع الكيان الصهيوني . ■

صالون الشباب الثالث عشر

بقلم
عز الدين نجيب

يتجدد هذا المهرجان كل عام، وأيام الصيف القائظة تشرف على نهايتها، والرطوبة تخنق الأنفاس فى القاعة المزدحمة وقد أصبح «الصالون» مناسبة حيوية يترقبها كل شباب الفنانين تحت سن ٣٥، انتظارا لما تسفر عنه نتائج التحكيم من جوائز تبلغ قيمتها ٦٦٠٠٠ جنيه يتقاسمها أربعون فنانا فى ثمانية تخصصات فنية، كما يستثمرها المسئولون عن إقامته فى حملة إعلامية واسعة عن دورهم التاريخى فى تشجيع الأجيال الجديدة، وفى إطلاق الطاقات المبدعة داخل شرايين الحركة الفنية الجامدة.

لكن ذلك كان يجرى - طوال السنوات العشر الأولى من عمر الصالون - فى ظل حالة من الفتور العام لدى النقاد والفنانين، والتزام الصمت عن تقييم التجربة، لتشككهم فى دوافع أجهزة وزارة الثقافة المعنية بهذا النشاط، التى كانوا يرون أنها تعمل على توجيه الحركة الشبابية غربا، لمحاكاة الاتجاهات الأوروأمريكية، والانسلاخ عن الهوية القومية فى الفن وعن أية قضايا فكرية جادة، مستغلة فى ذلك أموال الدولة، إذ تخصص بسخاء لاجتذاب الفنانين الشباب، الذين أتقنوا شروط اللعبة وراحوا يتسابقون لتقديم ما يرضى توجهات المسئولين واللجان سعيا لاقتناص الجوائز، حتى بات معرض الصالون السنوى للشباب مرتبطا فى أذهان كثير من النقاد والفنانين بحرية التجريب التقنى الأجوف، والعبث بالخامات الغريبة، وملاحقة أخر صيحات ما بعد الحداثة، بغض النظر عن دوافعها الأيديولوجية والسيكولوجية فى بلاد المنشأ.



لوحة تعبيرية للفنان محمد طلعت علي - الجائزة الأولى في التصوير «مناصفة»

وقد ساعد على ترسيخ هذه الفكرة في أذهان منتقدى الصالون: ارتباط مكان إقامته وتنظيمه - على مدار سنواته العشر الأولى - بمجمع الفنون بالزمالك، تحت السيطرة المطلقة لإدارته الفرعية التي تعتبر نفسها دولة مستقلة داخل الدولة، وتبدى استعلاءها على اغلب اتجاهات حركة الفن القومي الحديث والمعاصر في مصر، وفي المقابل تحتضن بغير تحفظ كل ما تضخه ظواهر الحداثة في الغرب من بدع، ولا تكف عن الهجوم على - والسخرية من - كل دعاة الارتباط بالتراث والجذور والواقع، وتغلق قاعات العرض التابعة لها إداريا - وهي ملك الدولة - في وجوه أصحاب هذه الاتجاهات، معتبرة إياهم رجعيين من مخلفات الماضي!.. ولم تكن تلك الإدارة تكتفي - في تشجيعها للفنانين الشباب - بالتوجيه والتنظيم والانتقاء والتدخل في منح الجوائز، بل كانت تقيم ورش العمل لهم في مقر «المجمع» ينتجون فيها أعمالهم التي ستدخل المسابقة، تحت التوجيه المباشر والتشجيع المطلق لمن يطبق ما تنادى به من أفكار، خاصة ضمن «الأعمال المركبة» التي تصب في اتجاه «الفن المفاهيمي»، وهو اتجاه يحتمل أي معنى وأي شكل فني وبأي وسيلة أو خامة تعن لصاحبها، وبلا أي معيار فني يرتكز عليه، بغض النظر عما يحدثه العمل من أثر في نفس المتلقي وحواسه، حتى لو كان إثارة النفور والامتعاض، وكان يمكن بسهولة التكهن مسبقا بالأعمال التي ستحصل على اكبر الجوائز من بين ما يتم إنتاجه في هذه الورش الفنية بدعم مباشر من جهة الادارة.

بداية التحول

ومنذ عامين اثنين حدث تحول مهم في مسار الصالون، حين تقرر نقل الصالون الحادي عشر من قاعات مجمع الفنون بالزمالك إلى قصر الفنون بالأوبرا، وتم تشكيل لجنة التحكيم في المسابقة «للاختيار والتقييم» من مجموعة وجوه غير معتادة في اللجان السابقة، إذ تضم مختلف الاتجاهات الفنية، ومن بينها ذات الانتماء القومي واحترام الأساليب التشخيصية، وكان على رأسها الفنان عصمت داوستاشي، وهكذا تحرر الصالون لأول مرة من سيطرة أصحاب البعد الواحد، واستبعدت اللجنة من العرض - منذ البداية - اكثر من ١٠٠٠ عمل فني، ظن أغلب أصحابها أنهم يجارون بها الاتجاهات التي تحظى بالجوائز، والحق أن اللجنة لم تر فيها جدارة بأن تسمى أعمالا فنية!.. ثم كان اختيار الأعمال الفائزة بالجوائز متوازنا بين شتى الأساليب، وأعطيت الفرصة لبروز اعمال تحمل رؤى تزاوج بين الهوية المصرية والحداثة وروح العصر، وتحاول الدخول في منطقة الفكر، متجاوزة ما استقر من منهج

التبعية لأساليب الاثارة التقنية بغرض لفت الانتباه بأى وسيلة، وجاء عدد الأعمال من هذا النوع فى الحقيقة قليلا جدا، بالرغم من ضيق ثقوب المصفاة التى تم خلالها تصفية الأعمال المقدمة، وكان ذلك منطقيا بعد عشر سنوات من التسطيح ومن التهميش لدور الفكر والالتزام، ومن شحذ الطاقات نحو الاثارة الشكلية وحدها.

وقد كتبت آنذاك مقالا بمجلة «ابداع» تحت عنوان: «بين فقر الفكر وأوصياء الحداثة».. قلت فيه:

«.. إننا - إذن - إزاء انقلاب حقيقى فى مسار الصالون، فكيف حدث؟.. أغلب الظن أن ذلك جاء بعد عملية مراجعة جذرية من القيادة العليا بالوزارة وقطاع الفنون التشكيلية لما آل إليه أمره، بعد أن أصبحت نتائجه مضغة، وباتت الاتهامات الموجهة إليه والى القيادة المباشرة له عبئا على سياسة الوزارة، فى وقت لا تسلم فيه هذه السياسة من الهجوم المتواصل من المثقفين من مواقع عدة، وربما رأت تلك القيادة أن إعطاء الفرصة للطرف النقيض للتجربة - ولو لمرة واحدة - سوف يضع أصحابه فى اختبار محسوب النتائج، فلو نجحت التجربة، احتسب ذلك حسنة لمن أعطاهم هذه الفرصة، ولو فشلت أصبح هؤلاء المعارضون عبرة لكل من يهاجم أو يشكك فى المسار القديم مستقبلا وربما رأى أصحاب قرار تشكيل اللجنة فى وجود أغلبية من الفنانين الشباب من أبناء الصالون السابقين ضمن أعضائها - صمام أمام يعصمها من أى انقلاب جذرى محتمل فى توجهاتها..»

بيد أن الفوز كان للاحتمال الأول، أعنى أن التجربة نجحت وعبر أغلب المتابعين للمعرض عن ارتياحهم، واحتسب ذلك حسنة للمسئولين عن الصالون، فتشجعوا على مواصلة التجربة على نفس الأسلوب فى العام التالى، بتشكيل لجنة التحكيم برئاسة الفنان محمود عبدالعاطى، الذى اجتهد كى يقيم توازنا دقيقا بين الأجيال والاتجاهات الفنية. لكن ظل البعد الغائب أو نقطة الضعف فى الصالون هى الفكر وقضايا المجتمع، وربما لهذا السبب اتجهت رئاسة الصالون (فى دورته الأخيرة رقم ١٣ التى افتتحت يوم ٢ سبتمبر الماضى) إلى تحديد موضوع الصالون والمسابقة وهو الانتفاضة، وقد لا يخلو ذلك أيضا من محاولة لكسب التعاطف النقدى والإعلامى، فى ظل استمرار الانتفاضة الفلسطينية الباسلة لعام كامل منذ اشتعالها فى سبتمبر ٢٠٠٠.

الصالون.. وجلال الانتفاضة

فى الحقيقة .. كان ذلك ينطوى على مخاطرة غير محسوبة العواقب بالرغم من

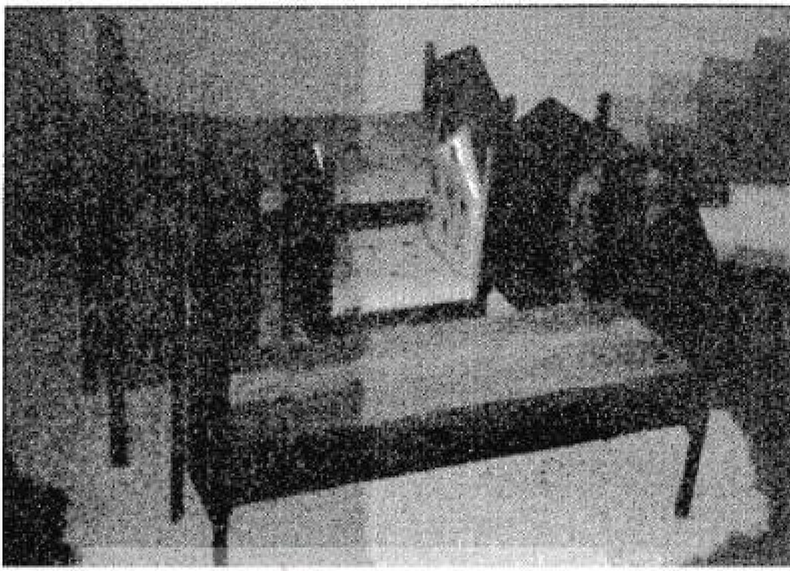
نبل مقاصدها .. ففي السنة قبل الماضية كان موضوع المسابقة هو «الطاقة» ، فإذا بنسبة كبيرة من الأعمال المقدمة تدور حول الطاقة الجنسية.. ربما بسبب ما يعانيه أصحابها من فقر الفكر ومن ظروف الكبت أيضا، وكان يمكن تمرير ذلك دون أن يعني انتقاصا من مكانة موضوع الطاقة، لكن الأمر يختلف بالنسبة لموضوع الانتفاضة، الذي لا يحتمل التسطيح أو التنفيس السيكولوجي . لما يمثله من نبل وفداء وقضية عادلة لشعب فلسطين.. لكن الله سلم، فدارت نسبة غير كبيرة من الأعمال المنتقاة للعرض في إطار الموضوع، وإن بدرجات متفاوتة من القدرة على التغلغل بداخله: بين المباشرة الفجة والايحاء الرمزي والشمولية الإنسانية والنقد السياسي، وإن كان - في محصلته النهائية - قد اتسم - مع استثناءات فردية متوهجة - بفتور التعبير وذهنيته الباردة، نظرا لعدم المعايشة الكافية للموضوع فنيا قبل المعرض بوقت مناسب، ومن ثم فقد جاء في مجمله شاحبا متواضعا، لا يداني هيبة وجلال الحدث ودلالاته المعنوية العميقة، وكشف عن الفجوة القائمة بين فكر الشباب وبين جدلية العلاقة بقضايا العصر، كما كشف عن ضحالة المستوى الثقافي والوعي السياسي للشباب، وإن كانوا في ذلك ضحايا لظروف عملت طويلا على قولبتهم وشحنهم في اتجاه معين، وضحايا لظروف أشمل في الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والقيمي الذي يعيشونه .

ومع ذلك ينبغي التنويه بتزايد درجة الجدية في الصالون - شكلا ومضمونا - عاما بعد آخر، وبخفوت النوبات العصبية التي كانت تبدو في محاولات الإثارة بالخامات الغريبة وفي اعمال التجهيزات الفراغية المركبة، كمجال للاستعراض الشكلي ولإحداث الضوضاء البصرية الجوفاء.. الأمر الذي يزيد جرعة التفاؤل بتنامي هذه الجدية، بعد أن امتص كثير من الفنانين الشباب محاولات استيعابهم السابقة وبدأوا في تجاوزها وقد أصبحوا أكثر نضجا.

جوائز!.. جوائز!.. جوائز!

لجنة التحكيم شكلت بشكل متوازن بين قيادات وأجيال واتجاهات فنية مختلفة ، من عمداء وأساتذة الكليات، الى نقاد وأساتذة علم الجمال، برئاسة الفنان وجيه وهبه. لكن تمثيل شباب الفنانين فيها جاء رمزيا بفنان واحد على عكس الدورات السابقة.

اعتمدت اللجنة لأول مرة في عملية الفرز على الشرائح الملونة التي تقدم بها أصحابها قبل أن يتقدموا بأعمالهم الأصلية، مما سهل عليها عبئا ضخما برفض الأعمال غير المناسبة من المنبع، ومع ذلك اقترب عدد الأعمال المرفوضة بعد



عمل للفنان وائل كمال درويش - جائزة اخناتون الذهبية

تقديمها فعلا من ٧٠٠ عمل، وأجازت اللجنة عرض أعمال ١٨٥ فنانا وقبلت منهم ٢٦٢ عملا أغلبها فى فرع التصوير «الرسم الملون» (وقد بلغوا ٢٧ فنانا)، وأقلهم فى فرع الجرافيك «بلغوا ١٢ فنانا» مما يجعلهم محظوظين مقارنة بالمصورين، إذ يحصلون على عدد متساو من الجوائز معهم بالرغم من أن عددهم ثلث عدد زملائهم.

إذن هناك خمس جوائز لكل فرع: أولى قيمتها ٣٠٠٠ جنيه، وثانية ٢٠٠٠ جنيه، وثالثة ١٥٠٠ جنيه، ورابعة «شرفية» ١٠٠٠ جنيه، وخامسة تسمى جائزة الصالون «؟!» ٧٠٠ جنيه، بخلاف جائزة اخناتون الذهبية وقيمتها ٥٠٠٠ جنيه، أما فروع المسابقة فهى: التصوير، الرسم، النحت، الخزف، الجرافيك، العمل المركب، التصوير الضوئى، الكمبيوتر جرافيك.

جاءت جائزة اخناتون الذهبية من نصيب الفنان وائل كمال درويش «٢٦ سنة» الذى فاز من قبل بعدة جوائز فى الصالونات السابقة ويملك موهبة متجددة وعمله الأخير ينتمى إلى الفن المفاهيمى، استخدم فيه قطعا من الأثاث، تبدو حقيقية وذات طراز عتيق، لعدد من الأسرة الخشبية والكراسى وغيرها، كسى فراش أحد السريرين بمجموعة من البوصلات تشير مؤشراتها الى اتجاهات متعارضة، وكسى الآخر بما يوحى بأنه أثار هيكل

عظمى لحيوان منقرض، وثبتت على حاجز أحد السريرين دفاتر أوراق قديمة متاكلة توحي بطول الزمن ومرور الأحداث.. ولا أدرى ما علاقة هذا كله بالانتفاضة ، سواء بدلالتها الفلسطينية أو بمفهومها الإنسانى العام!!.. بل ربما شعرت من خلاله بعكس المعنى، حيث يوحى بتوقف الزمن عند الماضى السحيق وباضطراب الاتجاهات الأصلية فى الحاضر..

ألا يبدو هذا الاضطراب فى فكر الفنان نفسه وهو يتعامل مع مثل هذا المعنى الجليل للانتفاضة؟.. وألا يلقى ذلك أيضا بدرجة من الظل على مدى قناعة أعضاء لجنة التحكيم بأخذ موضوع المسابقة فى الاعتبار؟.. وحين سألت أحدهم عن سبب اختيارهم لهذا العمل ذكر لى أنهم لم يجدوا عملا أفضل منه لهذه الجائزة الكبرى ، حيث تتسم الأعمال الأخرى بالمباشرة، على عكس عمل «درويش»!!

الأعمال المركبة تسترد الاعتبار

والحقيقة ان هناك اعمالا عدة بالمعرض - فى نفس العمل المركب - لا تتسم بالمباشرة ، فيما تحمل قدرا غير قليل من الابداع الفنى ومن عمق الفكر، وتعيد الاعتبار الذى اهتز كثيرا لهذا الفن الذى اسيء استخدامه من قبل.

نجد - على سبيل المثال - عمل الفنان محمد احمد عبدالهادى، الذى فاز بالجائزة الأولى لهذا الفرع، ويمثل مجموعة من العظام وشواهد القبور، فى تكوين مشهدى رهيب يوحى بالجنازة ، وإن كان الفنان قد كتب توضيحا بجانب عمله يقول فيها أنها ليست جنازة أشخاص ، بل جنازة معنى!

وثمة عمل مركب آخر اشترك فيه فنانان هما: إسلام عبدالسلام وأحمد عبدالكريم وقد فاز بجائزة شرفية، وهو يجمع عددا من المؤثرات التعبيرية القوية التى تدخل فى صميم الموضوع، من نحت ورسم وكولاج وصور متحركة بالفيديو وموسيقى وغناء.. كل ذلك داخل خيمة صغيرة معتمة، بما يشحن النفس ويشعل الاحساس من خلال فيض الصور المتدفقة للوضع المأساوى والنضالى للشعب الفلسطينى، على خلفية من أغنية القدس لفيروز ومن الموسيقى الدامية المحتشدة وأصوات أخرى غير مبالية بما يحدث!..

فيما نجد عملا مركبا ثالثا لم يحظ بأية جائزة، برغم استحقاقه الفوز فى رأيى، للفنانين هشام عبدالخالق وأحمد جلال حسن، إننا نجد أنفسنا داخل خيمة حالكة الظلمة، على أرضها الرملية حوض مليء بأكياس الدم الذى نراه يغلى أمام أعيننا، أو ربما كان ما نراه فقاقيع انفجار نبع الدم المتجدد من داخل الأرض التى ارتوت بالدم، وتخرج من الحوض يد بشرية تطلب النجدة، ووسط الرمال تبدو

أياد أخرى زاحفة وأخرى تبعث من الموت رافعة علامة النصر، وفي الخلفية شاشة تليفزيون مهشمة وقد توقفت عند صورة مبنى مهدم!

وإذا كانت تلك الأعمال المركبة قد استمدت قوتها من الشحنة التراجيدية، فإن عمل الفنان عاطف أحمد ابراهيم «الفائز بالجائزة الثالثة» قد استمد وجوده من قوة المفارقة الساخرة التي تحيط بالانتفاضة ، وقد رمز لها بشهيد ملقى على الأرض تم تشكيله بقصاصات الصحف ذات العناوين المرتبطة بالحدث، ويبدو وكأنما تم سحقه بدبابة ، فيما نرى أمامه كرسيا مغطى كذلك بعناوين الصحف الفاقعة المؤيدة للانتفاضة (رمزا للأنظمة التي تكتفي بالشعارات)، وبجوار الشهيد على الأرض صندوق ممتلئ ببقايا المعلبات الاستهلاكية الأمريكية، وفي خلفية المشهد قناع متكرر في نسخ كثيرة لرجل بلحية يبتسم ببلاهة ولا مبالاة.. وهكذا تصبح المفارقة الساخرة موقفا نقديا مريرا للوضع العربي والدولي المحيط بالانتفاضة!

بين التجريب.. والمحافظة.. والطفولة!

وتبدو حيادية اللجنة - رغم ذلك - في إعطائها بعض الجوائز لاتجاهات فنية محافظة، في مقابل أخرى طليعية أو تجريبية ، ففيما حصل الفنان «محمد طلعت علي» على الجائزة الأولى في التصوير (مناصفة) عن لوحة تعبيرية وحشية متفجرة ، تبدو كحريق يلتحم بداخله الطرف المعتدي - من خلال رمز الطائرة - بالطرف المعتدى عليه - ممثلا في الأجسام البشرية المندفعة بين المقاومة والاستشهاد - تحفهم نعوش طائرة وأطفال وزهور، كل هذا بألوان مشتعلة يسيطر عليها الأحمر والأصفر والأخضر، حصلت الفنانة وئام المصري على النصف الآخر من الجائزة، عن أعمال راقية الأسلوب بألوان الباستل القاتمة تتضمن دراسات لجسم جريح يرفع بيده علامة النصر، وهناك أياد مرفوعة بنداء الحياة، وفتاة أو أم تبكي.. في جو يغلفه الحزن.

فيما نجد العمل الفائز بالجائزة الثالثة في التصوير للفنان سامي ابو العز يستعين بأسلوب واقعي أكاديمي، لكنه يصب في تعبيرية رمزية شديدة الحيوية، من خلال انحدار شخصين من ارتفاع شاهق منزلقين فوق طوف خشبي هش، ليصطدما - في النهاية - بحواجز الأسلاك التي يقف فوقها عصفوران ، وعملت الخطوط السوداء النحيلة الرشيقة التي تحدد الأشخاص، وكذا اللون الأخضر المجنزر الغالب على التكوين - على إضفاء جو أسطوري أخاذ على اللوحة.

ومن جانب آخر تميزت كثير من الأعمال في التصوير والرسم بحس

طفولي يكسبها طابع البراءة والفطرة، مثل لوحة الفنانة نجلاء فتحي عفيفي (الفائزة بالجائزة الأولى في الرسم)، التي تبدو كرؤية عصرية رغم أنها مستمدة من الموروث او الفرجة الشعبية" رموز.. طقوس.. أوراق كوتشينة.. سحلية.. طائر خرافي منقض.. ثور.. أيد مرفوعة.. فتاة جالسة القرفصاء.. فدائي.. وقد بدا الأخير وكأنه الرباط الوحيد بموضوع المعرض!..

وفي هذا الاتجاه نجد لوحات الفنانة سحر الأمير، التي فازت بالجائزه الثانية في التصوير مناصفة مع الفنانة أميرة قناوي.. وإن كانت الأولى تعتمد على رسوم أطفال بحس زخرفي موزاييكي جداري، مع تقسيمات أرابيسكية على لحن طفل الحجارة، من خلال مستطيلات منفصلة متصلة بزجزاج يشبه رمز الماء الفرعوني، أما الثانية فتستخدم تقنية «الكولاج».. مستعينة بتكوينات تجريدية باللون الأحمر، تتخللها جملة مأخوذة من كتاب الموتى على لسان اوزيريس، تتلاعب بحروفها في إيقاع متكرر تقول: إنهض.. لن تغني.. لقد نوديت!

وفي اتجاه التعبير الفطري الطليق خارج الإطار الأكاديمي نجد لوحات الرسم للفنان عمرو الكفراوي (٢١ سنة) الفائز بالجائزة الثانية، فهي بورتريهات متطاولة الأعناق بعيدا عن النسب التشريحية والواقع المرئي، تجمع بين التشويه المتعمد والحلم المتجاوز، وهو موهبة مبكرة تبشر بالكثير بعد تخرجه في كلية الفنون الجميلة واستيعابه للأسس الراسخة في التصوير والرسم قبل الدخول في المنطقة الوعرة لتحطيم الشكل الواقعي.

أزمة في النحت!

أما في النحت فكانت الأعمال المتميزة شديدة الندرة، وهو أمر مثير للقلق في بلد يملك أعظم تراث إنساني في هذا الفن، كما يملك رموزا عبقرية في تاريخه المعاصر مثل مختار والسجيني وموسى.. على كل فقد كان العمل الفائز بالجائزة الأولى للفنان أحمد أحمد حامد تعويضا لا بأس به عن بعض هذا الفراغ، ويتكون من مجموعة اشخاص تحمل على كواهلها وأعناقها محفة خشبية، في إشارة رمزية إلى موكب الشهداء، وهو موكب يتسم بالمهابة والجلال، وإن ران على العمل نوع من السكونية والاستسلام القدري.

وكانت الجائزة الثانية في النحت للفنان شعبان محمد عباس، عن تمثال قوي التعبير يمثل عملاقا يرفع فوق رأسه صخرة كما لو كان يصعد بها جبلا او يستعد لالقائها، ويذكرنا بأسطورة سيزيف اليونانية للبطل التراجيدي الذي حكمت عليه الآلهة بالصعود بالصخرة الى قمة الجبل لكنها تسقط منه قبل ان يبلغها فينزل ويعاود حملها والصعود بها.. وهكذا الى الابد!.. والمهم في هذا التمثال هو



لوحة للفنان سامى ابو العز - الجائزة الثالثة فى التصوير

أسلوبه البنائي الراسخ ذو التضاريس الجبلية، وأنه لا يسعى إلى محاكاة التشريح الطبيعي برغم انطلاقه منه، وأنه أخيرا يحمل بصمة الفنان الخاصة دون محاولة لتقليد فنانين سابقين.

وباستثناء هذين التمثالين، فإن أغلب أعمال النحاتين في المعرض يغلب عليها الطابع التجريدي، خاصة في استخدام تأثيرات ملمسية توحي بتشكيلات تصنعها الطبيعة.. ولعل من أنجح ما عرض في هذا الاتجاه: تمثال خشبي للفنان محمود هاني هجرس (٢١ سنة) الذي لم يحصل على أية جائزة، بالرغم من قوته التعبيرية المبكرة التي يستلهم من خلالها إبداع جده النحات الكبير محمد هجرس، فيبدو تمثاله الذي يعتمد على جذع شجرة حقيقية، وكأنه مارد ضخم يخرج من قمقم!

وعلى ذكر الأعمال التي لم تحصل على جوائز، في الوقت الذي تبدو قيمتها الفنية والتعبيرية عالية، نجد أعمال الخزف للفنان حسان رشيد، وقد خاض تحديا واضحا لتطويع الآنية الخزفية للتعبير عن قضية صعبة ليست من طبيعة هذا الفن، لكنه نجح في التحدي دون أن يتنازل عن القيم الأساسية للتشكيل الأسطواني ولطبيعة الخامة، بعكس الكثيرين من الخزافين الجدد الذين ابتعدوا في طريق اللاعودة عن فن الآنية، مفضلين عليه التشكيلات النحتية المباشرة بالطين المحروق. وفي أحد الأطباق يقدم الفنان عظاما بشرية تفحمت على سطحه وكأنما تم شواؤها. وفي خلفيتها صور فوتوغرافية مطبوعة لمشاهد من المقاومة الفدائية لأطفال الحجارة.

لكن في مقابل هذا العمل التعبيري سيىء الحظ، نجد عملا آخر حالفه الحظ بالحصول على الجائزة الأولى في الخزف للفنان حسن محمد رشاد، وهو يضم مجموعة من المواسير الفخارية الغليظة، لكنها تعطي انطباعا بصحوة الشهداء واصطفافهم كجيش مقاتل!

وتأتي الجائزة الثانية في الخزف في نفس الاتجاه التعبيري المسرحي الأقرب إلى العمل المركب، للفنان الشرنوبي محمد، الذي يجمع بين أشكال فخارية هائلة الحجم وأخرى صغيرة، بين طائر ذي أجنحة أسطورية عملاقة، وإطارات لصور ضحايا الانتفاضة، ووقع اقدام كسيرة النصر الآتي لا محالة.

الفن من خلال التكنولوجيا

أما أعمال الجرافيك فهي شديدة التواضع والشحوب الابداعي داخل المعرض، تتردد بين التأثيرات التجريدية بحس غربي، كما نرى في لوحات الفنانة أميرة درغام «الجائزة الثالثة» وبين التأثير الشاعري بحس نوراني للفنانة نسرين الطو. وبين الرمزية الواضحة في لوحة «بصمة الكف» للفنان أحمد محمد حمزة (الجائزة الثانية).



الجائزة الثانية في النحت للفنان شعبان محمد عباس

وربما جاءت أعمال الكمبيوتر جرافيك - التى تمزج بين الرؤية الابداعية والتقنيات الحديثة فى التكنولوجيا - أقوى تعبيرا عن موضوع المسابقة، خاصة لوحة الفنان عصام الملاح الذى فاز بالجائزة الأولى، حيث صور جسم الشهيد وقد نبتت فوقه الزهور، فيما تربت عليه الأيدى بمزيج من الحنان والمساندة. كذلك لوحات الفنان اسامة محمود إمام، الفائز بجائزة الصالون، وهى تمثل زحاما هائلا من الأيدى والأصابع - تعطى انطباعا بزحام البشر والأبنية المعمارية معا - وهى ترفع إلى السماء علامة النصر فوق ما يبدو أنه نعوش الشهداء، فى مشهد أسطورى شامخ ورهيب.

وثمة أعمال عديدة فى التصوير الفوتوغرافى تستحق التنويه عنها، مثل أعمال الفنانة سماح الليثى بغموضها الشعرى المراوغ وكأنها ترسم بالضوء، وأعمال الفنان هانى الجويلى بزواياها غير المألوفة وانطلاقتها - فى نفس الوقت - من نبض الحياة اليومية بحس درامى، وأعمال الفنانة رباب عبدالسلام ذات العبق الزمنى الضارب فى العتاقة، والفنانة أسماء محيى الدين باقتناصها للحظة فارقة لطفل تاه بين الأنقاض.

ويجدر التنويه بمشاركة عدد من الفنانين الشباب من دول عربية لإخوانهم المصريين فى احتفالهم السنوى، حيث تضاعف هذا العام عدد الدول العربية والفنانين المشاركين من بينها حتى بلغوا ٣٠ فنانا من ١١ دولة هى: فلسطين، قطر، البحرين، سوريا، لبنان، الجزائر، الأردن، عمان، اليمن، الكويت، السعودية، وقدموا ٦٦ عملا فنيا فى مختلف المجالات الفنية.. وتلك تحية طيبة تستحق الرد بمثلها.

وبعد..

إن الإلمام التفصيلي بكل أعمال الصالون يتطلب أضعاف هذه المساحة، وهو ما يتعذر تحقيقه بالطبع، لكننا أردنا أن نلقى - فحسب - بعض الضوء على أهم ملامحه وتوجهاته، وأن نتحسس النبض الجياش لابداع أجيال الفنانين الشباب، ونحن فى مطلع الألفية الثالثة، بكل متغيراتها وتحدياتها الجارفة، وان كان المعرض قد بدا لنا اقل من الطموح المنشود قياسا إلى جلال الانتفاضة فإنه بلاشك حاول باخلاص - بقدر مواهب الأجيال الشابة، وبقدر المعطيات التى توفرت لأبنائها وبقدر جهود القائمين على هذه الاحتفالية المهمة، بدءا من الفنان د. احمد نوار رئيس قطاع الفنون التشكيلية وجميع مساعديه لإقامة هذا المعرض، حتى الفنان د. حمدى أبو المعاطى قومسيير عام الصالون الحالى.. وأخيرا رئيس وأعضاء لجنة التحكيم. ■

أقوال معاصرة

● «العنصرية مرض في النفس والروح يقتل أكثر من أي وباء آخر»

نلسون مانديلا
رئيس جمهورية جنوب أفريقيا السابق



نلسون مانديلا

● «الشجاعة ليست بفتح أبواب السجون لإخراج الموقوفين منها، بل في ادخال المسئول عما جرى إلى السجون»

وزير الاعلام اللبناني غازي العريضي

● «النقد مازال في ثقافتنا السائدة مرادفا للهجاء»

المفكر التونسي العفيف الأخضر

● «الأسرة الحديثة عاجزة عن القيام بمهمات تربية الأطفال»

لوي روسيل
أستاذ علم الاجتماع الفرنسي



كولين باول

● «الفلسطينيون لن ينالوا استقلالهم حتى ينال الأمريكيون استقلالهم!»

المفكر الأمريكي ناعوم شومسكي

● «لقد كنت جنديا، ولكنني لا أعرف عدوا في الحرب أكثر مكرا وخطراً من مرض الايدز»

كولين باول
وزير خارجية الولايات المتحدة



محمد مزالي

● «الوطن من دون كرامة منفى، والمنفى مع الكرامة وطن»

محمد مزالي
رئيس وزراء تونس الأسبق

● «المرأة المصرية تأكل بنهم، وتحلم بغصن البان»

المفكرة المصرية مارسيل نصر

● «المجتمع لايبقى مجتمعا، إلا بحد أقصى من التسامح، وحدّ أدنى من القضايا»

المفكر اللبناني حازم صاغية

سينما

السينما

بين أيام الانتفاضة وأيام السادات

بقلم
مصطفى درويش

بدأ صيف العام الأول من القرن الحادي والعشرين بأيام السادات لصاحبه محمد خان، وانتهى بسكوت حنصور وأصحاب والا بيزنس لصاحبيهما يوسف شاهين وعلي إدريس ، وأبدأ بفيلم خان، لأقول : إن الأفلام الجادة التي تعرض لسير المشاهير أقل من القليل.

وترجع قلتها، ولا أقول ندرتها، إلى انها عسيرة التنفيذ، باهظة التكاليف، فضلا عن أنها لا توفر لصانعيها ايرادات فلكية، مثل تلك التي توفرها الافلام الترفيهية غير المعنية بالتثقيف.

وأفلام السير تلك يطلقون عليها اسم الدراما التسجيلية (دكيو دراما) .

ومن أفلام هوليوود فى هذا المجال، أذكر على سبيل المثال «نيكسون» للمخرج أوليفر ستون (١٩٩٥) و«الحياة بعد بيكاسو» للمخرج جيمس ايفورى (١٩٩٦) وكلاهما، أى نيكسون وبيكاسو، تقمص شخصيته بجدارة النجم انطونى هوبكنز.

وقبل ذلك بخمسة أعوام كان قد تقمص شخصية القاتل العشوائى «هانيبال ليكتر» فى «صمت الحملان» (١٩٩١): تقمصها على نحو أثار إعجاب كل من استمتع بأدائه لدور ذلك القاتل المتعطش للدماء، مما كان سببا فى تتويجه بالجائزة التى يسيل لها لعاب النجوم فى مشارق الأرض ومغاربها، وأعنى بها جائزة أوسكار.





أحمد زكى فى دور العمر



والواضح بحالا يدع مجالا لأى شك، أن الشخصيات التى تقمصها هوبكنز فى الأفلام الثلاثة، مختلفة، متباينة، ليس بينها أى تشابه فى الطباع، ولا فى غير ذلك من الصفات.

فهانيبال سفاح، ونيكسون رجل سياسة، وبيكاسو فنان.

ومع ذلك أجاد هوبكنز تقمص الشخصيات الثلاث، رغم ما بينها من تباين واختلاف.

ولم يقل أحد انه ما كان يجوز له، وقد أدى دور السفاح هانيبال، أن يؤدى دور رئيس أغنى وأقوى دولة أولا، ثم دور

أشهر فنان تشكيلى فى القرن العشرين ثانيا.

كل هذا ذكرته بشيء من الاستطراد، لا لشيء سوى التدليل على انه لا عيب، ولا تثريب على أحمد زكى لمجرد انه قام بتقمص شخصيتين، مختلفتين، متباينتين، جمال عبدالناصر فى «ناصر ٥٦» (١٩٩٦) ومحمد أنور السادات فى «أيام السادات» (٢٠٠١).

أقول قطعا: إنه لا عيب ولا تثريب عليه فى ذلك، لاسيما انه أجاد تقمص الشخصيتين، بل إن تقمصه بشخصية السادات كان أكثر اتقانا واقناعا، عكس ما خطته بعض الأقلام.

لم يكن خطوة إلى الوراء كما زعم أصحاب تلك الأقلام بل قفزة إلى الأمام.

وان يكون تقمصه لشخصية السادات قفزة ليس بالأمر الغريب.

الاهتمام والإعجاب

فاهتمامه بتلك الشخصية والإعجاب بها أول التقليد، كما يقال.

ومن هنا، سعيه الدؤوب من أجل استحضار شخصيته بداية بالمحاكاة والتقليد.. ونهاية بالغوص فى أعمق أعماقها..

وفعلا وبعد جهد جهيد، صار متلبسا بها، معبرا عنها، وكأن صاحبها بعث حيا.

وهكذا، استطاع أحمد زكى باستحضاره شخصية السادات وتجسيدها بشكل منقطع النظير، استطاع أن ينسينى أن ما تراه عيناى على الشاشة، لا يعد أن يكون طيفا.

وليس أدل على ذلك، من اننى كنت أجنح فى بعض الأحيان إلى الظن بأن اللقطات التى تجرى أمامى هى فى حقيقة الأمر لقطات وثائقية للسادات يرجع عمرها إلى ما قبل إغتياله يوم السادس من أكتوبر لعام ١٩٨١، وذلك رغم أنها لقطات لأحمد زكى، صورها طارق التلمسانى بالألوان.

الأسود والأبيض والألوان

ورغم أن جميع اللقطات الوثائقية التى عمل المخرج على مزجها من حين لآخر بمشاهد الفيلم، قد روعى فيها ألا تكون ملونة بغير اللونين الأسود والأبيض.

وهنا، يحضرنى مشهد الكنيست (المجلس النيابى الإسرائيلى)، حيث ألقى السادات خطابه أمام أعضائه مجتمعين.

ففى ذلك المشهد ألقى أحمد زكى الخطاب متقمصا شخصية السادات.

وفى المشهد نفسه بقى أعضاء الكنيست المستمعين للخطاب دون تغيير أو تبديل.

بقوا كما كانوا ساعة تصويرهم، فى أثناء إلقاء الخطاب، قبل ثلاثة وعشرين عاماً.

ولأمر ما، إرتئى المخرج لهم، ألا يظهروا ملونين.

وذلك عكس أحمد زكى الذى جرى تصويره بالألوان.

وربما كان دافعه إلى التمييز بينهم

وبينه على هذا النحو. هو خشية اختلاط الأمر علينا، فنظن أن نراه ملقيا الخطاب ليس (أحمد زكى)، وإنما الأصل (السادات).

وفى اعتقادى أنه لولا ذلك التمييز اللونى بين أعضاء الكنيست والسادات (أحمد زكى) لاختلط الأمر علينا.

ولا تفسير لذلك سوى أن أحمد زكى قد ارتفع بتقمصه لشخصية السادات إلى أعلى عليين.

ومستوى كهذا، كاد يدنو من الكمال، كان من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن يصل إليه ذلك الممثل الأمريكى الأسود الذى لعب دور السادات فى مسلسل تليفزيونى، سارعت شركة كولومبيا إلى انتاجه، فى أثناء النصف الأول من ثمانينات القرن الماضى، وذلك عقب حادث المنصة، حيث أغتيل السادات.

سيناريو مهلهل

يبقى لى أن أقول عن فيلم خان أنه أحادى النظرة، وذلك بحكم أن سيناريو أحمد بهجت مستوحى من مؤلفين، لا ثالث لهما، هما «البحث عن الذات» وصاحبه السادات، و«سيدة من مصر» وصاحبته أرملته جيهان.

ومن عيوب السيناريو الأخرى حشو الفيلم بتفاصيل تافهة لم تخدم بناءه الدرامى، بل عملت على إضعافه فى نهاية الأمر.

ومن بين هذه التفاصيل أذكر على سبيل التمثيل حديثين للسادات.

أحدهما مع حلاقه، والآخر مع نفر من اساتذة كلية اداب جامعة القاهرة، وذلك بحضور جيهان.

وفى حديثه مع الحلاق شرح كيف انه ليس من الحكمة فى شىء الامتناع عن استرداد بعض الحق، كما يدعو إلى ذلك الغلاة المعادون لاتفاقيات كامب دافيد.

أما فى حديثه مع الأساتذة الجامعيين، فقد تبسط معهم، حتى إذا ما سأله أحدهم، وهو بالتحديد الدكتور جابر عصفور عن الديمقراطية وضرورتها، رد قائلا وهو يناوله قطعة من الفطير المشلتت «كل يا جابر كل.. فيه ديمقراطية أفضل من رئيس جمهورية يقدم لك بيده الفطيرة»..

والسؤال ما جدوى حشو تفاصيل من هذا القبيل فى سياق فيلم يعرض لسيرة زاخرة بأحداث اهتز لها الوطن العربى من الخليج إلى المحيط.

الشىء الاكيد، أن الفيلم كان فى وسعه الاستغناء عن هذين الحديثين، وعن تفاصيل أخرى اثقلته على نحو أدى إلى اطالته، دون داع، إلى ثلاث ساعات.

سكوتا مش هنسكت

وانتقل إلى فيلم شاهين الأخير..

وبداية، فأغلب الظن أن صاحب «سكوت حنصور» وربما دون وعى منه، لا يكون قد أنجز فيلمه، إلا ليختم به مشواره السينمائى الطويل.

وبهذه المثابة يعتبر تغريدة مثل تغريدة البجعة فى نهاية المطاف، صادرة من ألم يكويه، أراد أن يقولها عن نفسه، معبرا بها عن حياة أعطت أربعين فيلما، وظلت تعطى خمسين عاما، أو يزيد.

وإذا كان الفيلم كذلك، أي تغريدة أخيرة، فهو واحد من أصدق أفلام شاهين، وإن كان قد خانه التوفيق تماما في اختيار بعض ممثليه، وفي استنطاقهم على نحو مناف لإيقاع التحاور المعتاد فيما بيننا، نحن المصريين .

ازدواج الشخصيات

وأيا ما كان الأمر في هذا ، فالشخصيات المحورية في الفيلم وهي ثلاث ، الجدة - ماجدة الخطيب، الأم - لطيفة والحفيدة - روبي ، هذه الشخصيات لا تعدو أن تكون إنعكاسات لذات شاهين، وما يعتمل داخلها من تناقضات وصراعات ، جوهرها البحث عن اللذات، الاشتهاء للشهرة والمال، وفي الوقت نفسه الحماس لشعارات ، مثل إذابة الفوارق بين الطبقات.

فالجدة عجوز طروب، واسعة الثراء، خبرت الحياة، فعرفت أن العمر إن هو الا لحظة متعة، حتى لو كانت مرة المذاق.

وأن من الحق عليها، وهي على وشك مفارقة الحياة، أن تسعى جاهدة إلى انقاذ ما تبقى لها من متاعها - الإبنة والحفيدة - من أوهام التقاليد والعادات وإنتشالهما من براثن قيم عفنة عفا عليها الزمان، أضاعت بالتقيد بها عمرها هباء.

والإبنة مطربة شهيرة، فشلت في حياتها الزوجية مع والد ابنتها الوحيدة - أحمد محرز- وتعاني الآن آلام الوحدة والحرمان وسرعان ما يوقعها شاهين في شباك شاب بائع هوى - أحمد وفيق - واسمه ، ويا للعجب ، في الفيلم (جان بيير لمعي)!!

وتظل راضية مرضية، باستغلاله وقوعها في حبائله، متيحة له الاستمتاع بالحياة اللذيذة، كما يعيشها مشاهير النجوم، فضلا عن مشاركتها في الشهرة بالتمثيل معها والغناء تظل كذلك لاهية إلى أن تجيء لحظة الحقيقة فتكتشف، بفضل لعبة عواطف على طريقة مسرحيات الأديب الفرنسي (ماريفو) أدارها كاتب سيناريو أفلامها «أحمد بدير» ومخرجها «زكي فطين عبدالوهاب» تكتشف انه رأي جان بيير لمعي، قد استبدل بها ابنتها، ويعمل على إيقاعها في شباكه، لتوهمه، بعد سماع إشاعة أطلقها «بدير» قاصداً، حاصلها ان الجدة قد أوصت بكل ثروتها الطائلة للحفيدة، دون أمها.

صوت الحب

أما حدوتة الحفيدة، وترمز للجيل الجديد، حسب نظرة شاهين، فتتخلص في أنها، ومنذ البداية، متعلقة حباً بابن سائق سيارة جدتها (مصطفى شعبان)، تمارس معه الجنس ، منذ أن كانت صبية ليس لها من العمر سوى أربعة عشر ربيعاً.

والجدة الطروب تبارك هذا الحب .

أما لماذا تباركه إلى درجة انها تطلب يده لحفيدتها من أبيه السائق الأسمر (محمد الأدناني) ، الممتنع عن





أحمد رفيق
أو سوء الاختيار

الاستجابة لطلبها في دلال. فذلك لأنها تحب ألا يعلو صوت على صوت الحب، لا بسبب سوى أنه به وحده تذوب الفروق بين الأغنياء والفقراء.

تلك الفروق التي تتجاوزها من حين لآخر، بأكل النيفة مع سائقها الأسمر في الأحياء الشعبية الحبيبة إلى نفسها المحبة للناس اللي تحت.

ولن أعرض لتفصيل العلاقات بين نساء الفيلم اللائي يمثلن ثلاثة أجيال، ولا للحوارات فيما بينهن، وفيما بينهن وبين الشخصيات الأخرى، وأغلبها مفتعل أشد افتعال. كما لن أعرض لما شاب السرد من مآخذ كثيرة، فذلك شيء يطول، وإنما أكتفي بمأخذ واحد.

داء الاستسهال

وهو دوران الفيلم حول ما طرحه من معان.. دون أن يقدمها لنا بجلاء، ومنطق واضح يترتب لاحقه على سابقه.

ومن هنا عجزه عن أن يبعث فينا الإحساس بمعاناة أبطاله في صورها المختلفة.

ولعل خير مثل على عدم تسلسل أحداثه منطقيا إسراع لمعي باستبدال الابنة بأمها، فور سماعه اشاعة أن الجدة أوصت بثروتها للحفيدة الوحيدة.

فالأم هي الأخرى، ورغم الوصية، حتى إذا كانت حقيقية، واسعة الثراء، بحكم انها مطربة شهيرة ونجمة سينما في آن معاً. وإذن فهي تجمع في شخصها بين الثروة والشهرة وتوافرهما معا يحقق للعشيق جميع تطلعاته، خاصة ما كان منها متصلاً برغبته الجامحة في أن يكون نجما معبوداً من الجماهير.

وتلك الرغبة لن يكتب لها ان تتحقق بأية حال من الأحوال مع الابنة المفتقدة لشهرة الأم .

ولست أدرى كيف غاب ذلك عن فكر صاحب الفيلم، وهو من هو، فى عالم صناعة الأطياف.

الراجح أنه لا تفسير لذلك إلا أنه هو الآخر، يعانى من استشراء داء الاستسهال.

البزنس والأصحاب

والآن إلى الفيلم الثالث والأخير..

كان أول فيلم للمخرج على إدريس ، وعلى غير المتوقع فى أفلام الصيف، كان مفاجأة سارة، على سبيل الاستثناء .

فهو وعلى غير المألوف المعتاد فيما يجرى عرضه خلال أيام الصيف والأعياد، عمل سينمائى جاد . فبدءاً من العناوين، تظهر على خلفية الصورة المعروضة على الشاشة العملة الأمريكية الورقية من فئة المائة دولار، مكتوبا فى أعلاها، تحت الولايات المتحدة الأمريكية عبارة «وبالرب نثق» فى اشارة واضحة من أصحاب الفيلم للمفارقة بين تلك العبارة التى تقطر إيمانا، والدور الذى يلعبه الدولار كعملة ذات جلال فى مجال المال والأعمال، وكرمز للهيمنة الأمريكية فى عصر ما بعد الحرب الباردة، تلك الحرب التى استمرت زهاء ثلث قرن من عمر الزمان، وانتهت بانتصار العم سام.

وما أن تتلاشى العناوين ، حتى نفاجأ بصور ايقاعها سريع، مصحوبة بموسيقى صاخبة ، على نحو قد يجنح بنا إلى الظن بأن ما يجرى أمامنا ليس إلا قطعا لجريان السرد الفيلمى بإعلان، مدفوع الأجر، وما أكثر الإعلانات فى هذه الأيام.

دولارات.. دولارات

ولكن سرعان ما يتضح لنا أن ما نشاهده ليس إعلانا مدفوعا، وإنما مقدمة لبرنامج تبثه محطة فضائية خاصة (٢٠٠٠) ، تحت اسم «دولارات .. دولارات».

وأن مضيف ذلك البرنامج ، وهو «كريم نور» يؤدى دوره مصطفى قمر المطرب الشهير.

وما هى إلا بضع لقطات تمر، حتى يتبين لنا أن ثمة منافسة بين برنامجه وبرنامج آخر «فلاش» ويؤدى دوره هانى سلامة، النجم الصاعد الواعد.

ورغم الاختلاف بين البرنامجين ، إذ الأول ينحصر عمل مضيفة فى توجيه أسئلة هايفة إلى نفر من المتفرجين، فإذا ما جاءت إجابة أحدهم صحيحة، فاز بمبلغ كبير من المال فى إشارة ساخرة إلى برنامج «من سيربح المليون» الواسع الانتشار.

فى حين أن البرنامج الثانى ينحصر عمل مضيفه فى التنقيب عن المواهب الشابة، وإعطائها فرصة الظهور على الشاشة الصغيرة، لعل وعسى تصل إلى نجومية، بعيدة المنال .

فراغ ذهني

رغم ذلك، فثمة قاسم مشترك بينهما، هو شيوع التفاهة والضحالة على نحو يعكس وهنا إجتماعيا ، وفراغا ذهنيا.

ولا غرابة في هذا فمضيفا البرنامجين، كلاهما لا هدف له سوى تحقيق أكثر قدر من النجاح والشهرة، بأي ثمن، حتى ولو كان ذلك الثمن السير على جثث الآخرين.

ولأن ذلك أمر من الصعوبة بمكان إن لم يكن مستحيلاً بدون الإعلان.

فكلاهما، وفي سبيل تحقيق المراد، لا يقيم للصداقة، يدوسها بالأقدام.

يعمل بكل الوسائل ، بما في ذلك الضرب تحت الحزام، من أجل جذب المزيد من الإعلان إلى برنامجه، على حساب برنامج الآخر.

وبينما هما على هذه الحال متصارعان، حدث أمر لم يكن في الحسبان.

نقطة تحول

حدث أن إرتأى صاحب المحطة (٢٠٠٠) أدهم بك (سامي العدل) أن يركب هو الآخر موجة الاتجار بانتفاضة الأقصى.

فكان أن كلف كريم مضيف برنامج دولارات .. دولارات بالسفر إلى أرض فلسطين، حيث الانتفاضة ، وذلك كي يواصل توجيه أسئلته الهايفة إلى المشاركين في البرنامج من أجل فلسطين، ثم يهب الفائزين حفنة من الدولارات.

وفعلاً يستقل سيارة (ميكروباس) مع طاقم البرنامج المكون من المخرجة سلمة، وهي من أصل فلسطيني، وتؤدي دورها - نور - والمعد عبدالفتاح كمال (طارق عبدالعزيز).. والمصور مسعد عطية (محمد عطية).

وبطبيعة الحال لم تكن رحلتهم إلى أرض فلسطين مفروشة بالورود والرياحين.

فبعد نقطة العبور ، ذاقوا مرارة الاذلال ، وهم يتعرضون لتفتيش جنود الاحتلال .

وتتصاعد معاناتهم، متواكبة مع معاناة الفلسطينيين.

جنازات وتظاهرات

وهنا يكتشف كريم، وهو يشاهد جنازات الفلسطينيين الموتى برصاص الجنود الإسرائيليين، وتظاهرات الاحتجاج على الاحتلال، يكتشف رقاعة برنامجه دولارات .. دولارات..

ومع لحظة الحقيقة هذه يتحول كريم شخصا آخر، رافضاً الضياع في متاهة التفاهات مؤثراً تصوير الواقع كما هو مراً، دون أي تزويق.

وانطلاقا من تحوله هذا، يوافق على تصوير الشاب الفلسطيني جهاد (عمر واكد)، وهو يفجر نفسه، وسط جنود الاحتلال ، في إحدى نقاط التفتيش، فيقتل منهم الكثير.

وفي هذه الأثناء، كان صديقه وغريمه طارق، مضيف برنامج فلاش، في القاهرة، يصعد سلم الشهرة، فائزاً بأهم إعلان.

سينما

وتمر الايام ، ويعـود كـريم إلى القاهرة، ومعه الشريط الذى سجل به تضحية جهاد بحياته ، فداء فلسطين.

ولن أحكى كيف اضطهده أدهم بك ، صاحب المحطة.

ولا كيف حاول بكل الوسائل الحيلولة بينه وبين بث الشريط.

ولا كيف انتهى الأمر بانتصار الحق على الباطل ، مكتفيا بأن أقول : إن هذه النهاية السعيدة، مفتعلة أشد افتعال.

أما لماذا افتعلها صاحب السيناريو مدحت العدل ، فذلك لأنه شاء للفيلم أن يكون من النوع الموسيقى الخفيف، حيث يشدو قمر من حين لآخر بأغنية ، لزوم ذلك النوع من الأفلام.

نظرة إلى الأمام

وختاما يبقى لى أن أشير إلى أمرين أولهما ارتفاع مستوى أداء هانى سلامة على نحو لابد وأن يؤهله فى مستقبل قريب إلى الصعود والارتقاء إلى مصاف النجوم الكبار، وذلك فيما لو أكمل مشوار مقاوم رواسب ماض، قد يرتد به، فيحول بينه وبين التقدم إلى الأمام.

فهو فى الفيلم قد تخلص، ولحسن الحظ من الحملقة بعيون واسعة، لا ترمش أبداً.

كما تخلص ولحسن حظ سمعنا، من الطريقة الشاهينية فى الكلام.

أما الأمر الثانى فذلك الاهمال من جانب صانعى الفيلم لتفاصيل ، لو روعيت لجاء أصحاب والا بيزنس خالياً من عيوب حالت دون ارتفاع مستواه إلى المستوى المرغوب فى فيلم جاد.



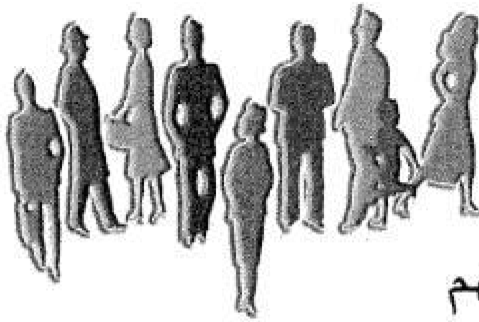
سكوت منصور

ومن بين هذه التفاصيل أذكر على سبيل التمثيل سفر طاقم برنامج دولارات.. دولارات بسيارة إلى أرض فلسطين.

وهذا يعنى دخولها من معبر رفح، حيث الأرض غير مرتفعة، بلا جبال، ولا غابات.

ولكن الفيلم صور الدخول من خلال جبال شاهقة تغطيها الغابات ، أى من أرض لبنان فى الشمال وذلك دون أن يذكر أن الطاقم غادر السيارة وركب البحر إلى لبنان ومنها إلى فلسطين .

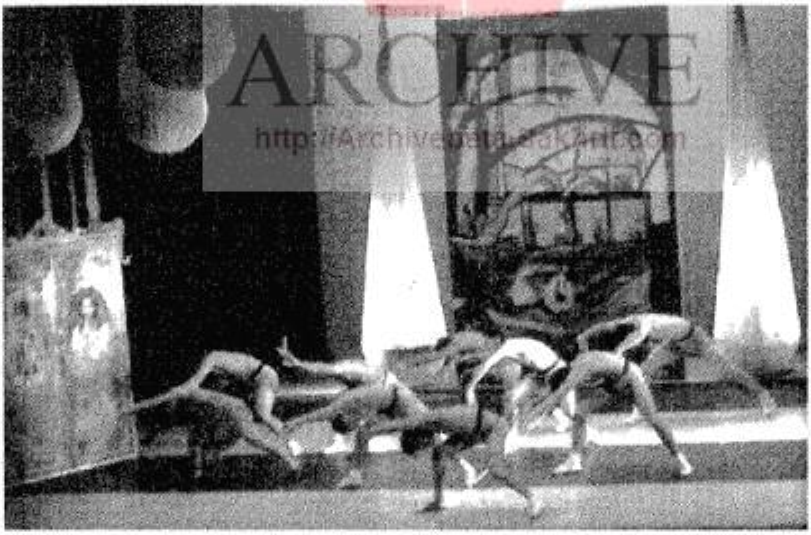
ومع ذلك فمما يشفع لأصحاب والا بيزنس، أنه فيلم جاد ، طرح فصلاً من مأساة أم القضايا، دون استسهال ، ودون ابتذال!! ■



بأقلامهم

لمن يتوجَّه المهرجان الدولى للمسرح التجريبى ؟

بقلم
سعد أردش



مشهد من مسرحية « المقابلة الأخيرة » ١٩٩٦

في الأول من سبتمبر ١٩٨٨ انطلقت الدورة الأولي لمهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي، بناء علي فكر وتخطيط وزير الثقافة الفنان فاروق حسني، وقد منحني شرف رئاسة الدورة الأولي، تقديراً لموقعي في تاريخ المسرح المصري كمؤسس ومدير لمسرح الجيب كأول مسرح تجريبي في العالم العربي، وقد لقيت فكرة المهرجان في دورته الأولي ترحيباً وإقبالاً شديدين علي المستوي المحلي والدولي، الأمر الذي حول الفكرة إلي مؤسسة يتجدد نشاطها روتينياً علي مدي ثلاثة عشر عاما، وهو عمر طويل نسبياً إذا قيس بعمر مهرجانات -نسبياً- المسرح العربي التي توقف بعضها، واستمر بعضها، وتم تأسيس بعضها . ولاشك أن استمرار المهرجان حتي بلغ عمره ثلاثة عشر عاماً يرجع إلي الجهد الذي بذله ويبذله الصديق الأستاذ الدكتور فوزي فهمي رئيس أكاديمية الفنون ورئيس المهرجان منذ دورته الثانية ، ولقد فجر المهرجان منذ دورته الأولي قضايا متعددة ومهمة لاتزال تناقش بين المثقفين المصريين، والمسرحيين منهم بوجه خاص وسأحاول هنا أن أطرح بعض هذه القضايا:

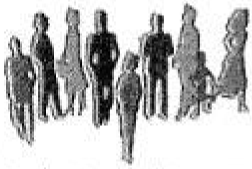
القضية الأولي: لمن يتوجه هذا المهرجان؟!

ويبنى أصحاب هذه القضية على تفسير مصطلح التجريب من حيث أنه جهد علمى معملى على عناصر المهنة - فنية كانت أو علمية - بقصد تطوير المسرح حتى يواكب حركة المجتمع، ويؤسسون على هذا تفسير نتائج مهمة:

١ - إن التجريب يجرى على أيدى وثقافة أصحاب المهنة، ويتوجه بالدرجة الأولى إلى أصحاب المهنة، وهم هنا أهل المسرح.

٢ - إن التجريب إذا كان يحتاج فى المرحلة المعملية إلى أفراد من الجمهور وفى أعداد محدودة، فهو لا يخرج إلى الجماهير الواسعة إلا بعد النضج والثبات، وهو نفس ما يرى فى التجريب العلمى فى الطب والصيدلة والزراعة والصناعة.. الخ.

٣ - إن التجريب، على مدى تاريخ الإنسانية، يبدأ محليا: ثم يفرض نفسه كنتائج ناجحة وثابتة على مجالات جغرافية أوسع، وهو أمر منطقى فيما يبدو لأن التجريب المحلى سيعتمد على معطيات الزمان والمكان والشخصية والإمكانيات المتاحة والتطلعات إلى ما هو أفضل، ومعنى هذا ببساطة أن التجريب يجب ألا يكون مستورداً حتى لا يصيب أهل المهنة بالعجز فى مواجهة الآخر، أو بالاغتراب على أقل تقدير.



القضية الثانية: فلسفة المهرجانات

– ويدعى أصحاب هذه القضية أن هنالك أولويات يجب أن تكون فى الحسبان من تأسيس أى مهرجان ، وهم لهذا يطرحون هذه الأسئلة :

١ – هل استكملت الظاهرة المسرحية المصرية مقوماتها الأساسية حتى تطمح إلى استيراد التجريب، ويجيبون عن هذا السؤال بأن المسرح فى مصر لايزال يحبو، وأنه فى النهاية ورغم كل الجهود يظل مسرحا قاهرياً محدوداً وأن عناصره تتآكل بدلاً من أن تتكاثر وأنه لم يهضم القديم الكلاسيكى حتى يطمح إلى الجديد.

٢ – إذا سلمنا بهذا الواقع فأى المهرجانات تخدمه بدرجة أفضل: مهرجان مسرحى وطنى، كما فى الأردن أم مهرجان مسرحى قومى، كما كان فى دمشق، وفى بغداد، أم مهرجان دولى كما فى قرطاج بتونس، أم مهرجان مسرحى تجريبى؟! ويجيب الحكماء بأنه كان أولى بنا أن نبدأ بمهرجان مسرحى قومى، يتطور فيما بعد إلى مهرجان مسرحى دولى..

القضية الثالثة: ما هى الآليات التى أعدتها مؤسسة المهرجان لتحقيق الفائدة من العروض التجريبية المستوردة من العالم، وحتى تتزايد عاماً بعد عام، سواء بالنسبة لرجال المسرح، أو بالنسبة للجماهير، أو بالنسبة للمؤسسة المسرحية المصرية؟!

ويجيب الخبثاء عن هذا السؤال بأن هذا الأمر لم يشغل مؤسسة المهرجان، بدليل أن المؤسسة المسرحية تتراجع، ويدللون على هذا بتراجع الإبداع من ناحية وبتآكل دور المسرح من ناحية أخرى، من ناحية الكم أولا لأن عدد دور المسرح فى مصر يتناقص بسرعة شديدة، ومن ناحية الكيف ثانياً، لأن الدور الموجودة، بما فيها المسرح القومى، والمسرح الكبير بدار الأوبرا، تفتقر إلى الحد الأدنى من التكنولوجيا الحديثة، سواء فى العمارة، أو فى التجهيزات.

القضية الرابعة: هل يستورد المهرجان أفضل العروض التجريبية فى العالم أم أن التبادل مرتبط بالاتفاقيات الثقافية الحكومية؟!..

ويشير أصحاب النيات السيئة إلى أن المهرجان لم يستقبل فى دوراته الثلاث عشرة الكثير من العروض التجريبية الرائدة، إما لأن الحكومات لا ترشحها، وإما لأنها باهظة التكاليف.

ولقد نوقشت كل هذه القضايا وغيرها فى الندوات المصاحبة لدورات المهرجان، ولعل هذه الندوات لو تحولت إلى آلية من آليات التطوير أن تؤدى للمهرجان فى دوراته المقبلة ثراء وديناميكية أكثر نشاطاً وأغزر فائدة.

ومع ذلك:

وبالرغم من إثارة كل هذه القضايا فإن المهرجان يعتبر أداة متجددة للتعمير المسرحى، ويطرح الكثير من الإيجابيات، ويحقق الكثير من النتائج التى تثرى

الحركة المسرحية المصرية من خلال الحوار الدائم بين المسرح العامل والمهرجان، ومن هذه النتائج على سبيل المثال:

١ - لا يستطيع منصف أن ينكر أن مئات العروض التجريبية التى انتقلت إلى مصر من أوروبا وأسيا قد أثرت التجربة المسرحية المصرية بعناصر جديدة ومبتكرة فى صياغة العرض المسرحى، على مستوى الكلمة والتعبير، والتشكيل، وعلى تيارات إبداعية جديدة فى سينوجرافيا المسرح.

فعلى مستوى النص المسرحى والفكر المسرحى فتحت كثير من العروض الباب أمام رؤى معاصرة وتناولات حديثة للتراث المسرحى الكلاسيكى. ويكفى أن نذكر هنا التناول الأسبانى لرائعة شكسبير «حلم منتصف ليلة صيف» والتناول المجرى «لروميو وجوليت» فى الدورة الأخيرة، ولن ننسى الصدمة التى حققها العرض اليابانى حول قضية مرض الإيدز فى المسرح المكشوف فى الأوبرا كأسلوب حديث ومبتكر فى تناول القضايا الإنسانية الآنية، وعلى مستوى التعبير سنظل نذكر روعة وإعجاز قدرات الممثلين الإنجليز فى تجسيدهم لجحيم سارتر بعد استبعاد النص اللغوى والتركيز على الحركة والتعبير الجسدى والصوتى المجرد، وسنظل نذكر أيضا رائعة اسكيلوس «الفرس»، التى قدمتها فرقة يونانية تجمع بين التعبير الجسدى، واحترام نص الكاتب، وسنظل نذكر التجارب العديدة التى قدمتها بولندا وغيرها من بلاد أوروبا الشرقية حول فلسفة التعبير الجسدى ودوره الجوهرى فى أداء الممثل من ناحية، وفى الصياغة السينوجرافية الحديثة من ناحية أخرى.

وفى مجال الاطار التشكيلى قدمت لنا العروض الفرنسية، والإيطالية كثيرا من الخامات الجديدة وطرق استعمالها فى الفضاء المسرحى فى حوار ممتع وجذاب مع التكنولوجيات المتقدمة فى الإضاءة المسرحية ، وفى الكثير من عروض الفرق الأمريكية واليابانية والصينية تذوقنا إبداعات الموسيقى المسرحية والمؤثرات الصوتية الحديثة التى ساهمت فى إنتاجها آلات وتكنولوجيات الصوت الحديثة.

عناصر الإبداع المسرحى

هذه وغيرها عطاءات لعروض الدورات المختلفة للمسرح التجريبى، ولو أخذنا أنفسنا بدراستها واكتشاف أسرارها فى معامل مسرحية علمية لقدمنا للحركة المسرحية المصرية عناصر كثيرة تثرى إبداعنا المسرحى. إن هذه المعامل تحتاج إلى دعم كبير وإلى تجهيزات وآليات ومعدات تكنولوجية يجب أن يلتزم بها المسرح العامل بقطاعيه العام والخاص.

٢ - لعبت الندوات الرئيسية المصاحبة لكل دورة من دورات المهرجان دورها فى إثراء الفكر التنظيرى المسرحى، من خلال موضوعات مهمة تتصل بفن المسرح من ناحية، وبالتجريب من ناحية أخرى، وتقوم مؤسسة المهرجان فى كل عام بنشر حصيلة الندوة الرئيسية

في كتاب، وأنا على يقين من أن هذه الكتب يمكن أن تشكل ركيزة منهجية لدراسات نظرية وتطبيقية تثرى الحركة المسرحية والعربية، ولكن هذه الدراسات تحتاج إلى معمل علمي خاص، تتواصل فيه الأجيال العاملة في ميادين المسرح، على أن تكون هناك قناة نابعة من إدارة المسرح العامل، تقوم بتفعيل هذه الدراسات وتطبيق نتائجها وتوصياتها. الأمر الذى يحتاج إلى صندوق تمويلي خاص، يدعم المشروعات التي تقدمها هذه الدراسات، هذا جانب مهم من الآليات التي يطالب بها الحكماء لتنشيط الحوار بين المهرجان والمسرح العامل، ومن حسن الحظ أن لدينا صندوقاً للتنمية الثقافية يمكن أن يتولى دعم المشروع.



٣ - إن الإصدارات التي تقوم بترجمتها ونشرها مؤسسة المهرجان تعتبر إضافة علمية شديدة الأهمية للأكاديميين ورجال المسرح وجماهير المسرح على السواء، فهذه الإصدارات مصنفة تصنيفاً منهجياً مدروسا بحيث يتيح للجانبين التنظيرى والتطبيقي إمكانيات متجددة للتطور، فهي تضم النصوص المسرحية التي تشكل أحدث التيارات في أدب المسرح، إلى جانب أحدث الدراسات المسرحية في أهم فنون العرض المسرحي، بالإضافة إلى سلسلة طويلة في تقنيات العمارة المسرحية، والسينوجرافيا، وفنون الأداء.

ولكى تتحقق الفائدة المرجوة من هذه الإصدارات، يمكن أن نسلك طريقين متوازيين: **الطريق الأول: أن تحتاج** لطبعات شعبية ورخيصة لتوزيعها على المسرحيين والجمهور، بقصد تفعيل هذه الإصدارات ونشر الثقافة المسرحية المعاصرة في أوسع محيط من أصل المسرح وجمهوره، **والطريق الثاني: أن** تتكون معامل أكاديمية ومسرحية لدراسة هذه الإصدارات ونشر القيم الجمالية الجديدة التى تحملها من ناحية، وتطوير الحركة المسرحية العاملة من ناحية أخرى في كل عناصرها المعمارية والبشرية والتقنية.

كل هذه الإيجابيات في عطاءات المهرجان الدولي للمسرح التجريبي يمكن أن تلعب دوراً رئيسياً في تطوير الحركة المسرحية المصرية ودفعها خطوات واسعة إلى الأمام، لو صحت النيات، وتكاملت السياسات، وتحقق الحوار الحى نظرياً وتطبيقياً بين المهرجان والمسرح العامل، أما أن يبقى المهرجان كائنا منعزلاً عن الحركة المسرحية، كائناً موسمياً يولد في اليوم الأول من سبتمبر، ويموت في اليوم العاشر، فالفائدة محدودة أو معدومة، والمسرح المصرى يتراجع بالفعل ويخبو نوره يوما بعد يوم.

إن مؤسسة المهرجان تعمل عاماً أو بعض عام لتقدم لنا حصيلة عملها في عشرة أيام، ولكن على من تقع مسئولية تفعيل هذا الزاد واستثماره طيلة عام إلا عشرة أيام؟!

لقد تحدثت عن كثير من العامل،

وأشرت إلى مؤسسات النشر الكبرى، وإلى صندوق التنمية الثقافية.. وإلى مؤسسة المسرح العامل، ويمكن أن أشير أيضا إلى الجامعات والمسرح الجامعي وإلى وزارة التربية والتعليم والمسرح المدرسي.

ولكن هذا الانجاز الذي أدعو إليه يحتاج إلى سياسات عليا وإلى لجان عليا تقوم على التخطيط والإشراف على التنفيذ، وتحتاج أولاً وقبل كل شيء أن تكون هناك خطة عليا للمسرح، تقوم على فلسفة واضحة، وعلى أحلام واضحة ومنطقية للمستقبل.

فماذا عن المستقبل؟!

لاشك أنه يبدو واضحا مما تقدم أن بقاء مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي أمر مطلوب، ولكن بشرط أن يتحقق الحوار الدائم الحي بينه وبين المسرح وأهل المسرح والجماهير المسرحية، وأن يتم تفعيل نتائج وتوصيات هذا الحوار في مشروعات قصيرة المدى أو طويلة المدى تثرى وتدفع إلى الأمام المؤسسة المسرحية المصرية.

ولكن قد يكون من المهم أيضا أن تفكر وزارة الثقافة جدياً في تأسيس مهرجان مسرحي قومي عربي في القاهرة أو في الاسكندرية يحفظ لمصر ريادتها العربية في المسرح ويحقق الحوار المسرحي بين المسارح العربية ويحيي التنافس بين هذه المسارح، بحيث يعود المسرح المصري والعربي سيرته الأولى من التعامل مع القضايا الوطنية والقومية والإنسانية المطروحة في إطار عروض مسرحية تتسم بالابتكار وحساسية الإبداع المسرحي. إن هذا المهرجان القومي حلم من الأحلام القديمة للمسرحيين المصريين والمسرح المصري، ولاشك أنه سيقدم لجماهير المسرح في مصر زاداً عربياً جديدا في وقت يحتاج فيه إلى تنشيط فكرة الوحدة العربية والتكامل العربي في مواجهة مخاطر القرن الحادي والعشرين.

أما عن التجريب المصري والعربي في المسرح، فإن من المطلوب أن نعيد النظر في شأن القائمين به وآليات إنتاجه. ذلك إنه من الواضح أن الحصيلة النهائية للدورات الثلاث عشرة من أهل التجريب في المسرح المصري بوجه خاص حصيلة لا تتناسب مطلقاً مع الجهد المبذول في دورات المهرجان وفي حصيلته.

وقد يكون من المهم أن نضع منهجاً للتجريب في المسرح وأن نحدد بشكل علمي شخصية أهل المسرح الذين يقومون بالتجريب ودراساتهم وثقافتهم وتجاربهم المسرحية السابقة وما يطمحون إلى تحقيقه من التجارب الجديدة، بحيث يصبح التجريب في المسرح المصري قضية علمية موضوعية لا نزوات شخصية ولا شك أن المعامل العلمية التي اقترحتها في هذا المقال يمكن أن تكون الإطار العلمي المناسب لمناقشة وفحص الأفكار الجادة للتجريب ومقومات الكوادر التي تطرح هذه الأفكار والنتائج المرجوة من تحقيق هذه الأفكار التجريبية، وما يمكن أن تنطوي عليه من عناصر المنافسة للعروض التجريبية العالمية. ■

التعبير الموسيقى وأفراح العبور

بقلم
فرج العنترى

●● كان من الطبيعي، أن تصدح أنغام الفرح العلوى في أنحاء مصرنا وفي سائر قري وعواصم وبوادي العرب برد فعل الانتصار التاريخي علي صهاينة إسرائيل في معركة العبور المذهلة سنة ١٩٧٣، وبأن تترنم كل الحناجر القومية بما شاءت من لذائذ التلاحين، وبأن تسترقص مختلف حركات البهجة كل ضروب وزخارف الإيقاع للتنفيس الجماهيري في كل دار وحارة وشارع وبمخيمات البوادي من المحيط إلي الخليج، تبعا لثبوت بتر ذلك الذراع المتطاول لإسرائيل، ولدفن ثرثرة غرورها في رمال سيناء علي مسمع كل الدنيا ورؤياها، ولنا نحن أن نتخذ من كم ونوع هذه الألحان التاريخية غذاء لإنسانية وجودنا الكريم، وتنشيطا لذاكرة كياننا، وعنصرا تربويا لأولادنا بحق وحقيق!! ●●



-١-

وأصل هذا الموضوع، أن مصر ومن ورائها كل الأشقاء العرب، كانت قد تصابرت على طعم مرارة العلقم فيما تطاولت به الصهيونية ومن والاها فى أعقاب تلك النكسة الكئيبة لسنة ١٩٦٧، بأن مصر وقوميتها العربية مجرد «جثث هامدة»، وبأن «ذراع إسرائيل الطويل هو الذى امتد فحطم الطائرات عند الفجر»، وبأن «مفتاح الغزو لأى مدينة عربية - فى تصريحات موشى ديان - ليس إلا قطعة من المعدن تدوسها دبابات إسرائيل».. نعم حدث كل هذا التلسين، وما نسيت مصر معه سفاهات مبكرات صوت الجيش الصهيونى وهى تذيع من ضفة القنال الشرقية أغانى البذاءات والتحرشات الموجهة إلى سمع جنودنا وقادتهم - وبطول الجبهة - فى صياغات قد تجهزت صهيونيا على نمط المشهور من نماذج غنائنا المصرعربى، بل وما نسيت ذاكرتنا لحظة - ويصعب فى الحقيقة أن ينسى معنا الأشقاء العرب - تلك الحملة الإعلامية والمدفوعة الأجر لاقناع أوسع قطاعات الرأى العام العالمى بالانحياز إلى تكريس هيبة وخطورة «الأسطورة التى لا تقهر» فى منطقتنا، والتركيز على أن كل جنرال إسرائيلى «عبقرية فذة»، وكل جندى إسرائيلى «بطولة متجسدة»، وبأن كل مواطن صهيونى هو «المبعوث الحضارى برسالة السوبر مان الجديد لمتسع شرقنا الأوسط» الخ.. الخ.. الخ..!!

حصن بارليف قطعة من الجبن المتهتك

نعم، نتذكر كل هذا جيداً ومعه أوجاع تصابرنا، ولكننا حققنا معه أصلا كل مراحل تجهيزنا لمعركة مستقبلية حاسمة بدءا بالصمود الصامت، فبالاستنزاف الفاعل، فإلى بناء حائط للصواريخ جامع ومانع، وأخيراً فبالوثبة الرمضانية للعبور المذهل والقتال الأعظم بالتخطيط الأرقم لتحقيق هدفنا بثأر النصر المحترم والمشهور وذلك، بعد أن كان القوم قد شبعوا من إقناع أنفسهم هم وذوى قرباهم «المموّلين بالسلاح وبدعم الفيتو» بأن حصونهم المشيدة، وسواترهم الرملية بطول خط بارليفهم، ملاجئ أمان تعصمهم كل العصمة من دك مدفعياتنا، ومن إصابات القذائف لطياراتنا، ومن تدمير تصويبات صواريخنا، فإذا بها تنهد عند العبور فوق رؤوسهم ليذوقوا عذاب السعير الحربى على حقيقته المصرية، ولتقع



الاعداد الغفيرة من جنودهم وقادتهم أسرى ميدان بمعيار الاى الدبابات التاسع والتسعين، وليرتفع صوت استغاثاتهم الراكعة الضارعة من هول وقوع القارعة عليهم، ومن كفاءة القدرات لجنودنا على اصطياد دباباتهم وتدميرها بالصاروخ الكتفى لا غير، بل وفى المعدلات التى لم تخطر على البال العسكرى العالمى بعد، وبذلك، وعلى مسمع الدنيا ورؤياها عبرنا، وانتصرنا، وجعلنا من حصون بارليفهم «قطعة من الجبن المتهتكة الجوانب» حسب وصف جنرالهم موشى ديان ضمن كل ما جرى وكان لهم فى سيناء!!

ولمن شاء أن يتثبت من حكمه على شموخ القيمة العظمى للعبور المصرى وتحطيم خط بارليف أن يراجع أقوال خبراء الروس العسكريين مسبقا من أن القيام بمثل هذه المجازفة كان سيكلف مصر خسارة ثلاثة أرباع الجيش العابر، وبأن تحطيم خط بارليف بالذات إنما يتطلب التسلح بقنبلة ذرية، ولكن هاهم أولاء جنود مصر - خير أجناد الأرض بشهادة سيد المرسلين قد عبروا بأقل الخسائر إليه فحطموه، ثم داسوا بأقدامهم حطام أسطورة الجيش الذى أشاعوا بأنه لا يقهر، ولا أن يقع جنوده وقادته فى مهانة الأسر الميدانى بالجملة والقطاعى!!

سقوط نظرية الأمن الإسرائيلي

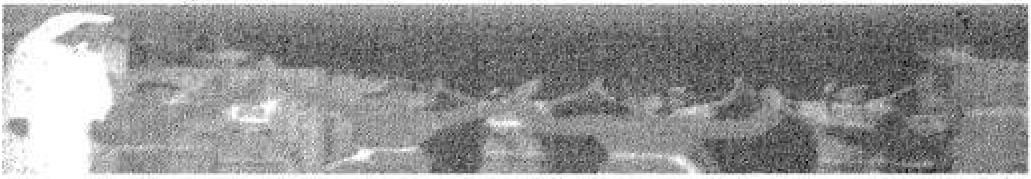
ومع «سقوط خط بارليف فى أيدى قواتنا المصرية فى الأيام الأولى للحرب، وفى الساعات الأولى منها!!، سقطت أشياء كثيرة داخل إسرائيل: منها نظرية الأمن الإسرائيلى المبنية على الحدود الآمنة، ومنها هيبة المؤسسة العسكرية فى داخل إسرائيل، وإلى أن انتهى بها الانهيار الكامل إلى حد المهانة التى عبر عنها رئيس دولتهم عند لقائه بقادتها فى غرفة عملياتهم حيث قال:

«.. عليكم الآن أن تدفعوا ثمن غروركم، ولا أعرف كيف أواجه عائلات القتلى الكثيرين فى هذه الحرب».

راجع مذكرات مشاوير العمر، للفريق كمال حسن على.. فى عدد أهرام الجمعة الثامن من أكتوبر ١٩٩٣.

وبذلك «كانت حرب أكتوبر هى أول نصر عربى على إسرائيل، ولا أتجاوز الحقيقة إذا قلت إنه نصر على إسرائيل ومخابراتها وعلى أمريكا»، المصدر السابق».

وبرغم كل ما سبق فقد حدثت مفاجأة الثغرة «وهى بحالها صناعة أمريكية من إخراج وتشجيع الولايات المتحدة، لأن هزيمة إسرائيل هى هزيمة السلاح الأمريكى، ولأن أمريكا نفسها كانت فى أمس الحاجة إلى ورقة تساوم بها سياسيا بعد توقف القتال!! «المصدر السابق».



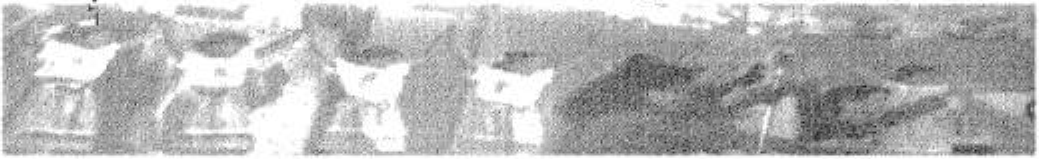

عبد الحليم حافظ


شادية

لكن نفس هذه الثغرة - أو مسرحيتها!! - قد جاءت في حينها لتؤكد التضامن العربي على أصوله «فإلى جانب القوات التي وصلت إلينا وإلى سوريا من كل من الجزائر، والمغرب، والسعودية، والسودان. والكويت وغيرها، دخل سلاح البترول العربي بدوره المؤثر في هذه الحرب، وبحيث تم استخدامه بطريقة فاقت نجاحات كل الجولات السابقة إذ بدأت الدول المنتجة للبترول تخفض من انتاجها بنسب تراوحت بين ٥٪، ١٠٪ ومن شأن هذه النسب أن تزداد في كل شهر تال أثناء القتال بنسبة مقدارها ٥٪ أيضاً، ثم جرى تصنيف الدول المستهلكة بحسب مواقفها من القضية العربية ومن إسرائيل، وقد بدأ ضغط المملكة السعودية على أمريكا ذاتها بقرار الحظر البترولي في يوم ٢٠ أكتوبر، ثم أصدرته في اليوم التالي على بقية دول الغرب، وكان لهذه الضغوط تأثيرها في حث الولايات المتحدة على تنفيذ وقف إطلاق النار، وبذلك جاءت محصلة النتائج الكلية بأن حرب أكتوبر لم تهزم إسرائيل وحسب، وإنما أقنعت كلا من أمريكا وأوروبا واليابان بأن مصالحهم في المنطقة لا ولن تقوم لها قائمة إلا بالاستناد على إيجاد تسوية عادلة في الشرق الأوسط.. «نفس المرجع السابق».

-٢-

ونحن إذا ما تناولنا مذاق أنغام أكتوبر بدءا بصياغة «القصيد السيمفوني ٦ أكتوبر» لموسيقانا القومي رفعت جرانة «١٩٢٤-٢٠٠٠» سنجد هذا الفنان هو الذي انفرد من دون جميع مؤلفينا الأوركستراليين بانفعاله بالموضوع، بالعكوف على صوغ حوادثه ودلالتها بموسيقى الآلات الاوركسترالية، وبما أن قالب القصيد السيمفوني symphon-ic poem يعتبر أحد صيغ التصوير النغمي الذي تقوم فيه الألحان الموسيقية مقام الأشخاص والأشياء والحالات والموضوعات التي سيكون على المؤلف أن يحددها ثم يطورها بحسب مقتضى الموضوع الذي يصوره نغميا، فإن هذا المؤلف الصديق قد صرح لي بأنه قد اعتمد في تصويره لمراحل العبور بالنغم على نفس تسلسل مراحل القتال التي سجلها المشير أحمد إسماعيل في مذكراته من غرفة العمليات الحربية والتي أوردها الاستاذ أحمد بهاء الدين في صفحة ٧٧ من كتابه «وتحطمت



الاسطورة بعد الظهر، فى الترتيب الآتى بعد:

●● «كنا جميعا فى مقاعدنا بغرفة العمليات، الخطة أمامنا والعمليات تجرى امام عيوننا، وقد أثبتت الخطة كفاءتها، وتم تنفيذ المهام بجسارة واقتدار، وقد حرصنا على أن تظل أعصابنا قوية، لأن أى ارتباك فى مركز القيادة من شأنه أن يؤدى إلى حـــدوث الخلل فى توازن العمليات».

●● «تمت ضربة الطيران الرئيسية الأولى بنجاح، وتم تمهيد المدفعية بنيرانها المكثفة فبدأت إقامة الجسور، وفرغ الجيش الثانى من إقامة جسوره فى الموعد المحدد، إلا أن الجيش الثالث لم يفرغ منها بسبب طبيعة الأرض».

●● «بدأت هجمات الإسرائيليين المضادة فى الموعد الذى توقعناه، ولابد للجيش الثالث من الاسراع فى تركيب جسوره لأجل عبور دباباتنا قبل أن تبدأ هجمات العدو المضادة أمام موجة العبور الأولى».

●● «ها هو العـــدو يقـــاوم على الجسور وأمام الحصون، وها هى قواتنا تواصل تنفيذ مهامها، وها هم الأبطال من رجالنا يستشهدون على الجسور وأمام الحصون».

●● «إن خسائرنا أقل مما توقعنا، وخسائر العدو أكبر مما توقع، ولم يعد هناك أدنى شك فى أننا حققنا نصرا كبيرا.

جرانة وصياغة القصيد السيمفونى ٦ أكتوبر

وعلى ضـــوء هذه العناصـــر أقام الاستـــاذ جـرانة صـيـاغـة قـصـيـده السيـمـفونى ٦ أكتوبر، الذى يستـغرق أداؤه نحـوا من ١٦ دقيقـة، والذى بدأه بتمهيد مطول نوعا كى يصور لنا قلق الانتظار الذى كان قد ابتدأ بغزو المشاعر منذ أولى مراحل التجهيز للمعركة إلى وقت حلول ساعة الصفر. وسنستمع فى هذا التمـهيد إلى تكرارات من دقات متقطعة تتوالى بالنقر على آلة المثلث المعدنية تمثيلا لدقات بندول الساعة، ثم نستدل من ترعيدات طبول الطرومبيطات Sidedrums على حـــالات لتـجـمـع التشكيلات المقاتلة مع تمييز الفريق الإسرائيلى بفقرة واضحة من أشهر أوبراتهم القومية «شمشـون ودليلة»، وتمييز الفريق المصرى بالشطرة الأولى من نشيدنا الوطنى السابق «والله زمان يا سلاحى، اشتقت لك فى كفاحى»، وعلى أثر ذلك تعلن لنا دقـــات الأجـــراس الأوركسترالية عن حلول ساعة الصفر وبدء الاقتتال، فتتولى طبول «التمبانى» بهديرها دور هدير المدفعية، ويصور لنا أسلوب التصاعد والتهابط بالنغم الكلى توالى طلعات سلاحنا الجوى الناجحة فى انقضاضاته الإيجابية، كما تشير حالات التوقف القصيرة فيما نسمعه من سياق المارش العسكرى إلى توالى حـركـة





بليغ حمدي



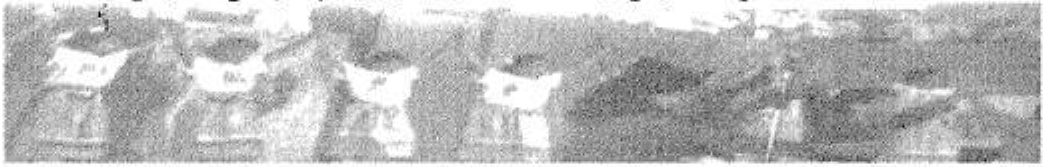
وردة

موجات العبور، ونستدل من قوة الوضوح للصدح المتكرر بفقرة النشيد الوطني المصرى فى مقابل الشذرات الخفيفة من اللحن الصهيونى على اضطراد تفوق الجانب المصرى، كما نستنتج من كثافة التنافر النغمي الناشر فى هارمونيات الأداء على مدى الشراسة والتجهم فى المعركة التى تصل بالسياق إلى جزء الإختتام، وحيث ينفرد السلام الوطنى المصرى بالصدح النحاسى المتعاظم فى لعانه وبفخامة تعبيره، فنتاكد بذلك من حيازة جيشنا المصرى للنصر المبين.

غرفة عمليات لتسجيل الابداعات

وأما عن تناول مذاقنا لابداعيات الأغانى والاناشيد فإنى استسمح القراء الاعزاء، أولا فى أن يتوقفوا معى للحظة تأمل أمام حادثة موسيقية جديرة بالاثبات وبالتقدير الذى سطرته جريدة الأهرام فى يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٩٣ بقلم الاستاذ مصطفى الضمرانى، وذلك أنه «ما إن أذيع نبأ عبور قواتنا المسلحة بنجاح، حتى تفجرت فى المواطنين ينابيع الفرح والسعادة. واهتز وجدان الملحن - المرحوم - بليغ حمدى فهب مسرعا إلى الإذاعة ممسكا بعوده ومعه الفرقة الماسية ورئيسها - المرحوم - أحمد فؤاد حسن والمطربة وردة، لكن دواعي الأمن المشددة منعتهم حينذاك من الدخول الفورى فاضطر بليغ إلى الاتصال بمن ظن أنه يسهل لهم الدخول غير أن تباطؤ الاستجابة كان قد زاد عن مدى صبر بليغ مما أثاره وجعله يهدد باستدعاء بوليس النجدة وبتحرير محضر بالواقعة ضد الاذاعة والتليفزيون. وأمام هذا الاصرار الساخن تذلل أخيرا تصريح الدخول، وأعلن بليغ أنه سيتحمل من جيبه الخاص كل النفقات التى يتطلبها تسجيل كل ألحانه من أغانى أكتوبر، وحذا حذوه رئيس الفرقة الماسية وأعضاؤها. كما أعلنت المطربة وردة عن تنازلها عن أي حقوق مادية فى هذا الجهد، وبالتالى بدأ التسجيل بأغنية «عبرنا الهزيمة» التى استلهم نظمها الشاعر عبد الرحيم منصور من مقال بنفس العنوان لتوفيق الحكيم، ومن ثم تدفقت شخصيات التطوع من نجوم الابداع والأداء، وظل ستوديو ٤٦ بمثابة غرفة عمليات مزدحمة لتسجيل الابداعات الغنائية الاكتوبرية».

وأما عن الجانب الابداعى الآخر فى



رقم	عنوان الأغنية	شاعر النظم	الملحن	شخصيات الأداء
١	عبرنا الهزيمة يامصر ياعظيمة	عبد الرحيم منصور	بليغ حمدى	شادية
٢	عاش اللى قال الكلمة بحكمة فى الوقت المناسب	محمد حمزة	بليغ حمدى	عبد الحليم حافظ والمجموعة
٣	الله معك الله معك	سامى أبو النور	عبد العظيم محمد	فايدة كامل
٤	مزّق الصمتَ يا نشيدَ العبور	كمال عبد الحليم	عبد العظيم محمد	فايدة كامل
٥	سمّينا وعدّينا	عليه الجعار	على اسماعيل	المجموعة
٦	صباح الخير يا سينا	عبد الرحمن الأبنودى	كمال الطويل	عبد الحليم حافظ
٧	ياالاحضان يا سينا	محمد كمال بدر	أحمد صدقى	المجموعة
٨	صبرنا وعبرنا وطهّرنا دارنا	كمال عمار	محمود الشريف	بلابل النغم
٩	صدق وعده	عبد الفتاح مصطفى	بليغ حمدى	المجموعة
١٠	وحياتك يا أرض بلادنا	حسين السيد	محمد الموجى	نجاة الصغيرة
١١	بكل حبّى للحياة ولبلدى	محسن الخياط	محمد الموجى	عبد الحليم والمجموعة
١٢	كل شىء أصبح له معنى فى بلادى	مجدى نجيب	كمال الطويل	نجاة الصغيرة
١٣	وأنا على الربابة باغنّى	عبد الرحيم منصور	بليغ حمدى	وردة
١٤	لفّى البلاد يا صبية بلد بلد	محسن الخياط	محمد الموجى	عبد الحليم والمجموعة
١٥	النجمة مالت ع القمر	محسن الخياط	محمد الموجى	عبد الحليم والمجموعة
١٦	يا قمر خدنى	نادر أبو الفتوح	بليغ حمدى	عفاف راضى
١٧	ارادة الشعب من إرادة الله	حسين السيد	محمد عبد الوهاب	محمد عبد الوهاب
١٨	النصر لمصر	صالح جودت	محمد سلمان	فايزة أحمد
١٩	رايحين، رايحين شايلين فى ايدنا سلاح	نبيلة قنديل	على اسماعيل	المجموعة
٢٠	ذولا مين ؟ دولا مين؟	سيد حجاب	كمال الطويل	سعاد حسنى والمجموعة
٢١	خلّى السلاح صاحى صاحى	أحمد شفيق كامل	كمال الطويل	المجموعة



رفعت جرانة



كمال الطويل

أغاني اكتوبر التي سنورد من مختاراتها قائمة بأكثرها شهرة وتداولا بالنقل عن المجلد الرابع عشر الخاص بالفنون في عملية المسح الاجتماعي الشامل للمجتمع المصري خلال المدة من ١٩٥٢ إلى ١٩٨٠ بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية سنة ١٩٨٥ وذلك بمرتكزات التوثيق الموجودة في الجدول السابق.

ومجرد الاطلاع على مضمون النصوص لهذه النماذج كفيل بالكشف عن ثبوت ما يلي من المرتكزات:

أولا : إزجاء وافر الثناء على صاحب قرار العبور محواً لآثار النكسة وأخذا بالثأر الكامل لاسترداد الأرض وتطهيراً لسمعة العرض الوطني.

ثانيا : الاغتباط العمومي بالتخلص من أوزار النكسة، والاقبال على احتضان كل محتويات الوجود في بلادنا التي أصبح كل ما فيها ومن فيها له قيمته ومعناه فعلا!!

ثالثا : الاشادة كل الاشادة بانجازات جيشنا وأبطاله، والاتجاه بتعابيرها صوب أعالي السماوات لمخاطبة الكواكب والنجوم عن مصرولوجية التفرد بتحقيق أعلى مستويات الانجاز.

رابعا: شدة الحرص على توجيه رسالة صريحة وحاكمة إلى «من يهمهم الأمر» بأننا من الآن وإلى الأبد: رايحين، راجعين، شايلين في ايدنا سلاحاً يقظاً للحراسة وللردع الحاسم والفوري.

وأما عن المذاق الاستماعي لموسيقى التعبيرات فلقد تميز أكثر ما تميز بحيوية الصدح اللحني اللامع والمتحرك بايقاع له حيوية وروح وانضباط المارش، وبالحرص - على تغليب أسلوب الغناء الجمعي والترديدي للافصاح التوكيدي عن جماهيرية القول والفعل والاتجاه في مواقف السراء والضراء وحين البأس.

وقد لايتبقى في النهاية إلا التوصية الفعالة بمراعاة التغذية الروحية من صدح ألحان هذا الفرح العلوي بذكريات انتصارنا التاريخي على عدو بلادنا في معركة العبور المذهل سنة ١٩٧٣ ، وبأن تقرر كل من وزارة التربية والتعليم وجهاز رعاية الشباب ادراج أنشودتي «السلاح الصاحي» و«بسم الله الله أكبر» في التناول الغنائي لمراحل الطفولة والشبيبه وإنما في أسلوب يخلو من أي معايب في الأداء.



عشرون عاما
على الرحيل

صلاح عبد الصبور



الرحلة والرحيل في الزمن الصعب

بقلم
د. حسن عطية (*)

لم تكن مصادفة أن أشرع في الكتابة عن شاعرنا المسرحي الكبير «صلاح عبدالصبور» ، بعد رحيل جسده عنا بعشرين عاما كاملة ، وعقب سهرة مع عرض مسرحي لفرقة القصبة الفلسطينية بعنوان (قصص تحت الاحتلال) ، قدم ضمن فعاليات مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي الأخيرة ، وحصلت به الفرقة على جائزة أفضل عرض مسرحي في المهرجان ، واستخدم فيه صناعه كلحن متكرر قصيدة عبدالصبور الشهيرة «يوميات نبي مهزوم يحمل قلما ينتظر نبيا يحمل سيفا» التي ضمنها مسرحيته المعروفة (ليلى والمجنون) ، والتي عرضت بمسرح الطليعة من إخراج «عبدالرحيم الزرقاني» منذ ثلاثين عاما كاملة .

(*) أستاذ بأكاديمية الفنون

ولا يمكننا القول هنا (كأن) صوت عبدالصبور الشاعر مازال مسموعا بيننا ، وسط أوضاع عربية تبدو وكأنها لم تتغير جوهريا للأفضل ، رغم المتغيرات العالمية شديدة التفجر المحيطة بنا ، وكأن النهر - نهرنا - لم تجر فيه أية مياه جديدة خلال عقود ثلاثة ، أو جرت فيه وعكرته بدلا من أن تجدده ، وإنما نقول (لأن) كلمات عبدالصبور كانت قادرة يوما ما على التعبير عن نبض زمنها وحركة واقعها ، فحملت صرخة جيل شارك رجالات الثورة الشباب أحلامهم الطوباوية ، واكتشف في رحم هزيمة ٦٧ أنه قد سبق للموت حين اكتفي بالكلمات في مواجهة الشر المستشرى في ملكوت الله ، لذلك كانت مرثيته لذاته تلحقها دعوة رومانسية لانتظار القادم من بعده ، ملقية هم التغيير على جيل تال ، في الوقت الذى استطاعت فيه تلك الكلمات الشعرية أن تمسك فيه ، ككل الأعمال الفنية الخالدة ، بالقانون الموضوعي الذى يحكم حركة الإنسان في كل زمان ومكان ، فتتجلى قوية في الأوقات المشابهة وأحداث العجز المماثلة ، تطلب ما تعجز هي عن فعله ، وتعبر عن حالات إنسانية في أزمنة وأمكنة مغايرة .

حماية من فخ العدمية

ولأن «عبدالصبور» لم يكن مجرد شاعر كبير اقتحم مجال المسرح بعد سلسلة من اقتحامات أدباء الخمسينيات والستينيات لهذا الفن الحوارى البناء ، المباشر الاتصال ، كساحة لمناقشة قضايا الواقع بحرية ما ، تسمح بها طبيعة الفن المسرحي المتعدد الصوت ، وإنما كان مثقفا فاعلا في مجتمعه ، مؤثرا فيما وفيمن حوله ، بحكم فكره وقيادته للعديد من المراكز والمؤسسات الثقافية ذات الفاعلية في مجتمع ذاك الزمان ، ومن ثم راح ينسج عالما مسرحيا خاصا به ، بعد مايقرب من عقد كامل من الزمان من بداية نشره لأشعاره ، حيث صدر ديوانه الأول (الناس في بلادى) عام ١٩٥٧ ، والذى تضمن روحا درامية .

الدراما قاعدة القصيدة الحديثة

أدرك «عبدالصبور» كشاعر أن الدراما هى القاعدة الأولى لبناء القصيدة الحديثة واكتمال معماريتها ، وهى بناء محكم ذو سياق تتعدد فيه المشاعر والأصوات وتتفاعل وفق اتجاه وحركة متسقتين لغويا وموسيقيا ، ومن ثم حاول في البداية كتابة بعض الحواريات ، لكنها لم ترق لأن تكون بناء دراميا متكاملا ، يمكن له التجسد في فضاء المسرح ، فسنواته العشرون الأولى بقريته لم تعرف رؤية المسرح كفن عرض إلا مرة واحدة، لذا كانت القصيدة الشعرية هى الراسخة في وجدانه كمبدع ، وهى التى حاول أن ينقلها من الصوت الواحد المدرك وحده للعالم ، للأصوات المتعددة المتصارعة حول جوهر هذا العالم، أى من مطلقية الرؤية المهيمنة لنسبية الآراء المتصارعة ، ومع ذلك ظل يتوق «إلي كتابة المسرح للتعبير عن الوجوه المختلفة للحقيقة داخل الإنسان»، فحاول أن يكتب شيئا عن المتنبي في بلاط سيف الدولة ، وعن الزير سالم في مواجهة جساس بن مرة ، بل وكتب شيئا عن حرب الجزائر،

وكلها موضوعات (تيمات) تنبثق وترتبط بحركة الواقع في النصف الثاني من الخمسينيات ونصف الستينيات الأول، سواء استمدت مادتها من التاريخ المعاصر الحي، فيما يتعلق بحرب الجزائر التحريرية، التي وقفت مصر إلى جوارها دعما بالسلاح والإعلام (إذاعة صوت العرب خاصة) والثقافة أيضا.

بين الشعر الغنائي والمسرحي

تضمن عالم «عبدالصبور» المسرحي خمسة نصوص درامية كتبت فيما بين أواسط الستينيات وأوائل السبعينيات، ثم ابتعد «عبد الصبور» عن عالم المسرح ليتفرغ لعوالم الإدارة والنشر والشعر، ولذا فالمسرح، رغم أهميته في مسيرة كاتبنا الإبداعية، لم يكن سوى محطة من محطات توجهه الفني، سرعان ما غادرها ليعود لعقد كامل من حياته لسيرته الأساسية في مضمار الشعر، وقراءة السياق التاريخي والاجتماعي والفكري الذي عاش وأبدع فيه شاعرنا، فضلا عن شخصيته ومواقفه الفكرية والعملية الخاصة، تكشف عن جوهر تنقله من الشعر الغنائي، بصوته المتعدد الطبقات، للشعر المسرحي بشخصياته المتعددة البنية والأصوات، عائدا مرة أخرى للشعر الغنائي، في بداية حقبة بدأت بدعوة للتعددية الحزبية، وانتهت بعودة المعتقلات، وفي مفتتح عقد بدأ بموت الزعيم وانتهى باغتيال الحاكم.

غير أننا نود هنا أن ندلف لعالم «عبدالصبور» الدرامي، بحثا عن إجابة لتساؤل طرحه هو نفسه في كتاب تأملي له منذ أربعين عاما كاملة أيضا، وهو كتاب يحمل عنوانه (ماذا يبقى منهم للتاريخ؟) جوهر سؤاله عن د. طه حسن وعباس العقاد وتوفيق الحكيم وابراهيم عبدالقادر المازني، والذي حدد فيه في البداية رؤيته للأديب، مفرقا بين «الأديب الكبير والأديب التاريخي» محددا الفرق بقوله «إن الأخير يرتبط اسمه بتغيير جوهري في تاريخ الأدب، وينسب هذا التغيير إليه، ويستطيع الأدباء الذين يأتون بعده أن يستفيدوا من كشفه الأدبي، فيسيروا على هداه، ويتجاوزه بعد أن مهد له (لهم) الطريق»، ومن ثم فإن قراءتنا لإبداع «عبدالصبور» الدرامي ولسياقه الاجتماعي في ظل لحظته الزمنية وإطاره المكاني، ليس بهدف البحث عما تبقى منه لأجيال الحاضر فقط، وإنما بهدف الكشف عن قدرة المبدع على صياغة واقعه في أبنية جمالية راقية وخالدة، وعلى مقدرته على إعادة صياغة ماهو مفتت ومتناثر في مجتمعه، في وجود فني متكامل.

كتب «عبدالصبور» مسرحيته الأولى «مأساة الحلاج» (عرضت عام ١٩٦٦ بفرقة المسرح الحديث، من إخراج سمير العصفوري)، وبنى معمار مسرحيته من جزءين متكافئين، يحمل الجزء الأول عنوان (الكلمة)، والثاني عنوان (الموت)، تتحرك الوقائع فيهما في متتالية تبدأ بالموت محققا، لتعود للحياة، متوجهة نحو قرار الموت الذي لا مناص منه، تأسيسا على أن الكلمة الثائرة الواعية المناهضة للأوضاع القائمة، قد تجلب الدمار لصاحبها سواء أسر أم اغتيل بيد القضاء، وجل

جيل «عبدالصبور» سيق للسجون بجرائم الكلم المناهض للسلطة ، أو دفع لمنصات محاكم خاصة علقت رقبته بمشنقة مجدولة زيفا من مصالح العامة .

يبنى «عبدالصبور» فى مسرحية (مأساة الحلاج) دراما متكاملة ، لا تنغلق على ذاتها بحكم كونها ليست نقيضا فنيا للواقع المعيش ، ولا بديلا تاريخيا مفارقا للحظة الحاضرة ، وإنما هى وجود مناظر لهذا الواقع المعيش ومتفاعل معه ، وجود يرتدى زى التاريخ ويتقنع بشخصيات ظهرت فى زمن آخر ، لندرك به مدى الخلل الحادث فى الواقع الذى يستغرقنا ، والخلل الذى رآه «عبدالصبور» وقتذاك كان كامنا عنده فى غياب العدالة بمفهومها الاجتماعى ، وهو ناتج عن ذلك التناقض الحادث على أرض الواقع بين المثقف الواعى بقيمة العدل ، والسلطة المتملكة للقوة ، والتى ترى أن العدل ليس قيمة فى ذاته ، بل هو الالتزام الحرفى بالقوانين المنصوص عليها ، وهى قوانين صيغت لتمثل وتدافع عن مصالح شرائح اجتماعية معينة ، وتحمى سلطة النظام المعبر عن هذه المصالح ، وليس لتحقيق التوازن فى الكون المختل .

وقد صاغ «عبدالصبور» قاضى مسرحيته السلطوى التفكير ، القادم من القرن الثالث الهجرى ، رجلا مهمته تنفيذ القانون الذى صنعه السادة ، قبل العدالة التى يتطلبها الواقع ، وفيه بعض من قاضى الحكيم فى (السلطان الحائر) المتمسك بحرفية القانون لا روحه ، وأن أخر «عبدالصبور» ظهوره فى فضاء المسرح ، ليتسنى له عرض قضيته كاملة ، وتقديم شخصيته التى استدعاها من عمق التاريخ العربى ، ومن صفحاته المطوية بحكم طبيعتها الصوفية ، وتصادمها مع السلطة التى تدون تاريخ الأمة بمنظورها الرسمى ، ومن ثم فالمشهد الأول من نصه الدرامى يبدأ من الشارع : من ساحة ببغداد ، ساحة مجردة ، لا تفاصيل واقعية لها ، تأكيدا على أننا لن نبرح زماننا ، ليستغرقنا زمن الحلاج التاريخى ، بل إننا نعيش قضية «الحسين بن منصور الحلاج» بعد أن تم تفسيرها تفسيرا عصريا ، وهى بالفعل قضية يعرضها «عبدالصبور» مسرحيا على المتلقى بعد أن حسمت على أرض الواقع فقد صدر الحكم بشنق «الحلاج» وها هى جثته معلقة أمامنا على جذع شجرة ، وكأنه مسيح عصره ، يسقط ظله على الأرض فيعيق العامة ، التى لم تعرفه ، عن المضى فى حياتها اليومية المكرورة ، فتتساءل مع أول صوت يهمس فى مفتتح المسرحية «ماذا وضعوا فى سكتنا ؟» ، فهى لاتعرفه ، ولا تعرف من قتله ، ولم قتلوه ، رغم أنه قتل من أجلهم ، وأن السلطة قتلته لأنه خرج من صومعته الصوفية ونزل للجماهير يدعوها للتمرد على أوضاعها الاجتماعية المتردية ، بل إن هذه (الجماهير) الشعبية ذاتها لايهمها ، كما يتجلى فى المشهد الأول ، من أمر الرجل المقتول من أجلها غير «حكاية طريفة» يقصها التاجر لزوجته حين يعود فى المساء ، أو نادرة خفيفة يلوكها الفلاح الفضولى بطبعه ، أو عبرة يقصها الواعظ على جمهوره مستخلصا منها موعظة أخلاقية .

الخلاص من المثقف صاحب الفكر

ولا تقف المسرحية عند تصويرها للعامة أو جماهير الشعب (العامل) عند هذا الحد ، بل هي تقدم مجموعة من فقراء المدينة ، الذين يعرفون «الحلاج» ، ويدركون أنه واحد منهم ، لكنهم خذلوه يوم خرج لهم ، وباعوه للسلطة مقابل «دينار من ذهب قاني» ، ووافقوا على قتله باعتباره «زنديق كافر» ، كما أن جماعته من أصحاب الصوفية ، تركوه أيضا يقتل، مانحا العالم شهيدا ، ومحققين بموته رغبته في أن يصبح «أسطورة وحكمة وفكرة» يتم بثها بين الفلاحين والتجار ، وتحويلها لأشعار وقصائد ، تمسكا بأن الفكر سيظل مجرد كلمات لدى المتصوفة من (المثقفين) ، يطرحها المثقف على الناس ، وعليهم هم تحويلها لفعل ، رغم أن هؤلاء الناس عند المثقف المبدع «عبدالصبور» هم الذين سهلوا للسلطة الخلاص من المثقف صاحب الفكر ، وهي نظرة لم تختلف كثيرا في كل أعمال «عبدالصبور» ، وعند غالبية مثقفي ذلك الزمان وكتاب مسرحه من أبناء الطبقة المتوسطة ، فهكذا كان الحال عند رشاد رشدي في (اتفرج ياسلام) و(بلدي يابلدي)، وعند «سعد وهبه» في (ياسلام سلم) ، وعند علي سالم في (أنت اللي قتلت الوحش) ، ولذا لم يكن غريبا أن تنقلنا مسرحية (مأساة الحلاج) في مشهدها الثاني لداخل بيت الحلاج ، في زمن سابق ، وفي فلاش باك مسرحي طويل ، وفي موقف حاسم من مواقف «الحلاج» الحياتية ، واضعة بطلها المثقف الواعي بدوره الاجتماعي ، والمدرك بأن غياب العدل في المجتمع قد أفقد الإنسان حريته ، مؤكدا بتقنعه بصوت المثقف التاريخي ، على مقولة سادت نظريا في الستينيات ، خاصة قبل هزيمة ٦٧ ، في كتابات المثقفين ومواثيق الثورة ، ترى أن لا انفصال بين العدل الاجتماعي ، والذي أسمته الحرية الاجتماعية ، وحرية الرأي التي أسمتها الحرية السياسة ، باعتبارهما «جناحا الحرية الحقيقية ، وبدونهما أو بدون أي منهما لاتستطيع الحرية أن تحلق إلى آفاق العدل المرتقب» ، لذا وضعت المسرحية بطلها المثقف في مناظرة مع صاحبه «الشبلي» المثقف النقيض ، والذي يكتفي بثقافته ، منعزلا بصوفيته عن الناس ، سعيدا بما تحققه له معارفه من تواصل مع المطلق، بعيدا عن شواغل الدنيا النسبية ، ومن ثم تنتهي المناظرة بتغير مهم في موقف الحلاج من الحياة ، فقد قرر أن يخلع عن جسده «خرقة الصوفية» شارة الانخلاع عن الدنيا ، وعن عقله مبدأ الحلول في المطلق ، وأن يهبط للساحة يبصر أهلها بحقيقة العدل الغائب ، فتسلمه الساحة للسجن ، مقبوضا عليه بتهمة تأليب الشعب على السلطان وتحريض العامة على الإفساد ، وتسلمه السلطة للمحكمة كي يصدر أمر قضاتها فيه .

وفيما بين مسرحيته الطويلة (مأساة الحلاج) ومسرحيته الطويلة الأخرى (ليلى والمجنون) ، كتب «عبدالصبور» مسرحيتين قصيرتين ، نشرهما بمجلة المسرح ، التي كان رئيسا لتحريرها أواخر الستينات ، وهما (مسافر ليل) و(الأميرة تنتظر) ، بني

معمارهما على مثال القصيد الدرامي القابل للتمثيل ، وأدار وقائع حدث مسرحيته الأولى الرمزية ذات الموقف الموحى بالعبثية شكلا دون معناه العدمي ، داخل عربة قطار «تندفع في طريقها على صوت موسيقاها» ، «بعد منتصف الليل»، إنها عربة قطار الحياة . كما اعتاد الكثير من الأدباء ترميز الحياة المتحركة للأمام بقطار مسرع تحكمه قوانينه الخاصة ، فضلا عن الإطار المكاني الذي تحكمه طبيعة القطار المتحرك ، والذي يجبر الكائن داخله على الانصياع لقوانينه، إذا ما تجلى له من ينفذ تلك القوانين بالقوة ، وإلا فالموت مترصد له خارج ذلك القطار (المندفع) ، غير أن «عبدالصبور» الذي خبر المسرح الحديث ، مثلما خبر جوهر المسرح الكلاسيكي ، وعرف تقنية (المسرح داخل المسرح) ، لم ير غضاضة في الاستفادة من هذه التقنية بكسر حاجز الإيهام النفسي داخل حالة الإيهام المسرحي المستمرة ، بخلق شخصية «راو» يشير إليه في نصه الموازي ، والموضوع بين علامات تنصيص ، والذي نعرفه بالإرشادات المسرحية ، وهي موجهة ليس فقط للمخرج المسرحي ، لصياغة حركة ممثليه (الميزانسين) ، وإنما أساسا لقارىء النص المنشور ، ليتصور شكل المسرح ، ويصنع بخياله الإطار المكاني للحدث المسرحي ، وحركة شخصياته داخله . فيشير «عبدالصبور» لراوية هذا بقوله «على جانب المسرح أي في ركن العربة يقف الراوي ، مرتديا حلة عصرية بالغة الأناقة»، هو إذن قد أدخل راويه منذ البدء داخل العربة وداخل الحدث الدرامي ، لا خارجهما ، صحيح أنه سيجعله يتوجه بحديثه لنا ، كجمهور متلق، وكأنه يحكي عن حدث يجري بعيدا عنه . أو كمن يعلق على مباراة المصارعة من موقع بعيد عنها ، لكنه سيدفعه للتورط في هذا الحدث ، مؤكدا أنه لا أحد بقادر على أن يكون بعيدا عن صراعات الحياة اليومية ، حتى ولو أراد أن يكون مجرد راو لها ، ومكتفيا بالتعليق عليها ، فالسلبية قد أسلمت «الحلاج» لحبل المشنقة . وهاهي تحاول أن تنأى بنفسها عن ما يحدث ، لكن قوانين الحياة وسلطتها الباطشة ، لا تجعلها تهنأ بنفسها . فالصراع الدائر أمامه يجري كالعادة بين المثقف (الراكب) والذي لايملك غير كلماته وذاكرته المجهدة ، وممثل السلطة (عامل التذاكر) مفتش قطار الحياة الذي لايسمح لأحد بركوبه إلا وفق شروط مالك القطار الذي فوضه بمتابعة تنفيذ قوانينه ، إنه صراع أخر تم تجريده ، بين «الحلاج» و«القاضي» بعد أن تم تلخيصهما وتحويلهما لرموز دالة .

المسرح داخل المسرح

في «الأميرة تنتظر» (كتبت عام ١٩٦٩ ، وعرضت عام ١٩٧١ من إخراج نبيل الألفي على مسرح الطليعة) يكتب «عبدالصبور» دراما شعرية الرؤية والموقف ، تتعدد فيها الأقنعة ويسمو فيها المعنى ، ويتماسك فيها البناء ، وتسرى أمامنا في شكل أخر من (المسرح داخل المسرح) دون كسر الإيهام تماما ، والتي تتمثل في فكرة المسرحة ، ففتيات المسرحية ، يمسرحن كل ليلة من ليالي الخريف السنوية ، نفس المشهد المأساوي الذي حدث لأميرتهن منذ خمسة عشر خريفا ، وكأنه تعزية شيعية ، حين خدعت وسقطت

فى هوى أحد حراس أبيها الصغار ، ويدعى «السمندل» ، رفعته لمستواها النوراني ، غير أنه سلبها عرش أبيها بعد أن قتله غيلة بمساعدتها ، وسرق خاتمه واغتصب حكمه ، وخرجت هى من قصر الورد ، كي تعيش بكوخ في واد مجدب ، منتظرة من يأتي ليخلصها ، والفتيات هن جوقة من وصيفاتها ، لا يحملن صوتا واحدا ، بل تختلف الآراء فيما بينهن ، وإن إجتمعن فقط على حب الأميرة ، والانتظار معها لمجيء المخلص ، ذاك الذي يدخل عليهن فجأة ، رث الثياب ، مدفوعا بوحي صوتهن المعذب ، حاملا اسم «القرندل» ، وممثلا لذاك المثقف الشاعر القادم من المجهول لكي يحقق حلم الأميرة في الخلاص من مغتصب ملكها وشبابها ، والذي ينجزه بالفعل ، حين يعود المغتصب «السمندل» بعد تلك السنوات الطوال باحثا عن سند جديد من الأميرة لنظام حكمه الذي اهتز ، فيقتله «القرندل» ويحرر أميرته من أسره ، ناصحا إياها في آخر كلماته بعدم التخاذل والانكسار قائلا لها : «يا امرأة وأميرة / كوني سيدة وأميرة»، ثم يخرج عائدا لمجهوله ، وتعد هي عدتها للعودة إلى القصر ، غير أن الواقع الملتهب في مصر بعد موت الزعيم ، وانقلاب مايو ٧١ ، وبداية الدعوة لمجتمع جديد ، دفع «عبدالصبور» ، بمشورة المخرج «نبيل الألفى» ، لوضع إضافة تتجلى فى استيقاظ الغابة على صبح جديد ، وفى دعوة الأميرة لوصيفاتها وللجمهور المتلقى لضرورة غلق الأبواب على الماضى ، فى إشارة جلية لموت «السمندل» الذى اغتصب عرش الأميرة ، وخلاصها بيد فارسها الجديد .

التمثيل داخل التمثيل

فى «ليلي والمجنون» يتجلى المسرح داخل المسرح غير المحطم لأى إيهام ، فى تقنية (التمثيل داخل التمثيل) ، حين يطلب الأستاذ من تلاميذه تمثيل مسرحية «أحمد شوقي» المعروفة (مجنون ليلى).

يختار «عبدالصبور» مجموعة دالة من شباب الوطن ، الذى تمرد على الهزيمة المريرة ، وخرج لأول مرة للشوارع منذ عام ١٩٥٤ ، لا ليؤيد الثورة وزعيمها ، بل ليرفض أحكام محاكمها فى العلن ،بينما يغلى داخله برفض لسياسات تلك الثورة التى أدت للهزيمة ، ويضع «عبدالصبور» هذه المجموعة المنتقاة فى مسرحيته ، بين يدى أستاذ جليل ، من جيل «عبدالصبور» نفسه ، اختارها بدوره لتعمل معه فى مجلة صغيرة تقدمية التوجه ، حاديها المستقبل «الحرية والعدل» ، تعانى بدورها من تعنت سلطات القصر والاحتلال ، مع غياب الجمهور (العام) عنها ، لعدم سقوطها فى هوة الإسفاف المتمرغة فيه بقية صحف السلطة ، مما ينعكس على نفسية هؤلاء الشباب ، ويؤثر على عملهم كمحررين بالمجلة ، رغم ثبات سماتهم الشخصية : «سعيد» العاشق ، و«حسان» الثورى العنيف ، و«زياد» خفيف الظل ، و«ليلى» المتباهية بجسدها ومشاعرها المتقدة ، ثم «حسام» العائد من المعتقل ، وقد باع نفسه للشرطة ،

ومعهم «حنان» و «سلوى» يعملان بذات المجلة ، وشيخنا الطيب ، بصفته رئيساً لتحرير المجلة ، والأكثر خبرة منهم ، يقترح عليهم للخروج من حالة التوتر الفكرى والنفسى الواقعية ، اللجوء للفن كمنفس عن طاقاتهم الانفعالية ، وكأقنعة ترتدى ليقول من خلالها كل شخص مايكتبه من أفكار للآخر ، ويختار لهم نصا رومانسيا من الماضى القريب لأمير الشعراء وشاعر الأمراء «أحمد شوقى» ، هو (مجنون ليلى) علهم يهربون به لسويعات من حاضرهم الملتهب.

مما لاشك فيه أن اختيار المهنة له دلالاته ودوره الوظيفى دراميا ، فالشباب هنا مجموعة من الصحفيين والشعراء ، لايملكون كما أعلن «سعيد» منذ الدقائق الأولى من المسرحية «إلا الكلمات» ، يعيشون وقتا مفقودا بين الوقتين ، يهفو أحدهم (حسان) للعنف ولا عقيدة له سوى القوة ، ويميل ثانيهم «سعيد» للمسالمة ويعيش مريضا بالأسلوب ويطالب محبوبته «ليلى» ، عبر شعر شوقى ، أن تترك ماضيها وتتبعه ، مؤكدا على ما وضعه «عبدالصبور» على لسان بطلته السابقة الأميرة / الرمز فى ضرورة نسيان الماضى وهجرته من أجل حاضر أفضل ومستقبل مشرق ، غير أن الماضى هنا له تفاصيله الواقعية ، ومن ثم من الصعب نسيانه ، بل أن «سعيدا» المتغضن الروح الممزق الوجدان ، كما رسمه مبدعه ، مطارد من هذا الماضى : ماضيه وماضى محبوبته «ليلى» ، فهى قد عرفت من قبله زميلهما «حسام» ، و«سعيد» كرجل شرقى ، رغم فكره المتحرر ، تعذبه تلك المعرفة التى تمت فى الماضى ، ويعذبه أكثر تضخيمه الخيالى لها ، رغم أن «ليلى» التى تريد أن تعبر به الجسر لدن الأحياء تقسم له ببراءتها ، مما يدفعه لتعذيبها ، ويدفعها للسقوط بسرعة بأحضان رفيقهما الجاسوس «حسام» ، الذى جندته الشرطة فى سجن اعتقاله ، فخان الرفقاء ، باسم «الأمر الواقع» . وفى لحظة درامية متأزمة ، هى ذروة الحدث ومفجرة مساره ، يهرع الرفقاء لبيت «حسام» بعد أن عرفوا من «زياد» حقيقة خيانته لهم ، فيكتشفوا هناك سقوط المعشوقة والرفقة والمبدأ فى آن واحد ، فيغمى على «سعيد» ، كسميه «قيس» عند شوقى ، ويندفع «حسان» خلف «حسام» يريد قتله ، وخلفهما «زياد» يود الانتقام بيد رفيقه ، إلا أن «حسام» ينجح فى تسليم «حسان» للشرطة ، ويعود لبيته محاولا استرجاع «ليلى» من «سعيد» المتماوت ، لحظة احتراق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ ، مما يرتفع برمز السقوط والانكسار ، ويجدل ما بين احتراق الفرد واحتراق الوطن .

الجيل الجديد يرفض عام الحسم المزعوم

يأخذنا البناء الدرامى إلى طريق الفعل المشلول ، فقد قبض على «سعيد» أيضا ، وسحبت رخصة إصدار المجلة ، وقررت الصحفية «سلوى» أن تهجر المهنة والحياة ، وتذهب للدير ، وقرر «زياد» أن يكسر قلمه ، ويعمل ومعه زميلته «حنان» بروضة أطفال ، ويعلن الأستاذ ضرورة غلق كل الأبواب ، فقد احترقت مدينتهم ، لأنهم تخاذلوا عنها وتركوها تحترق بأيدى الأشرار ، غير أن «عبدالصبور»

لايرغب في الوقوف بمسرحيته عند حد الهزيمة المرة ، التى أوصلنا إليها حدث المسرحية المأساوى ، بل منح متلقيه شعاعا من ضوء ، وأملا فى أن يأتى من بعده من يسترد بالقوة ما سلب منه ومن جيله بالقوة ، فيأخذنا فى المشهد الأخير إلى السجن ، سجن «الحلاج» و«الأميرة» و«سعيد» ، مستكملا قصيدته الطويلة ، التى بدأها فى منتصف المسرحية ، بحانة يؤمها السكارى ، مناشدا فى نهايتها سيده القادم من بعده : «أما أن تدركنا قبل الرعب القادم / أو لن تدركنا بعد» ، وهاهو بعض من هذا (الرعب القادم) قد وقع ، و«سعيد» قد أقعى بين جدران السجن ، متهما فقط بالنظر إلى المستقبل ، ولا يملك ، مثلما بدأ مع انطلاق الحدث الدرامى ، غير الكلمات ، وانتظار القادم من بعده ليخلصه ويخلص جيله من أزمته . وكأن ما مر به من وقائع وتغيرات لم تزده ، إلا انكسارا ، وكأن مظاهرات الطلاب الصاخبة فى ساحات الجامعات ، وحول (الكعكة الحجرية) ، كانت تحدث بأيدى جيل آخر ، وهو أمر كان غريبا وقتذاك ، فقد كتب «نعمان عاشور» مسرحيته (الجيل الطالع) والتى دان فيها الجيل الشاب ، ونعته بأنه «جيل ضايع» ومضيع البلد معه» ، وصاغ «صلاح جاهين» سيناريو فيلمه «خلى بالك من زوزو» للمخرج «حسن الإمام» ، وعرض مع مسرحيتى «نعمان» و«عبدالصبور» والجيل الجديد يرفض عام الحسم المزعوم ، ويطالب بالحرب دون انتظار للقادم من بعده ، حتى ولو طلب «عبدالصبور» منه «لا تنسى أن تحمل سيفك» .

يعاود «عبدالصبور» فى آخر نصوصه المسرحية (بعد أن يموت الملك) ، استخدام تقنية (المسرح داخل المسرح) ، فى مسرحية تتخذ ثوب التاريخ ، وتلتحف بالرمز المجرد ، وتقدم شخصيته الأثيرة (الشاعر) صاحب الكلمات ، وتنطلق من حدث بسيط : ملك باطش ، تتكشف له حقيقة نفسه فجأة أمام زوجته ، التى اغتصب وجودها المتحرر من على شاطىء النهر ، ليسجنه بقصره المغتصب أيضا ، فيموت حين يكتشف أنه قعيد الماضى ، ولا مستقبل له ، وتمدده حاشيته بفراشه ، منتظرة عودة روحه ، التى لن تأتى ، فالماضى لايعود ، والملكة تهرب مع شاعر القصر ، عائدة لمجرى النهر ، ومعاودة الحياة معه ، ودافعة إياه لكى يجعل لكلماته هدفا ، «لا تبخس كلماتك ما تستأهله من قدر / فالكلمة قد تفعل» ، وهى - الملكة - تسعد وتصنع مستقبلها مع من «يعرف كيف يقاتل بالمزمار ويغنى بالسيف» ، فهى بحاجة لفارس «سعيد» المنتظر الجامع بين الكلمة والعقل ، والمتسلح بالنظرية فى ثورته العملية ، القادر على تحقيق رغبة «محمود دياب» فى أن يجمع الفارس «صلاح الدين» فكر المنظر المتخيل «أسامة بن يعقوب» فى نضاله لتحرير الأوطان من دنس الصليبيين ، وذلك فى مسرحيته (باب الفتوح) التى كتبها فى ذاك الوقت ، ولذلك فأميرة «عبدالصبور» التى صارت ملكة لم تعد تنتظر مخلصها كى يأتيها ليقتل مغتصب حاضرها ومستقبلها ، بل هى التى تواجه غاصبها ، وتقتله بالكلمات ،

ونلتقط شاعرها ، لكي تدفعه للفعل ، حين ترسل الحاشية خلفهما الجلاد ، كي يتخلص من الشاعر ، ويعيد الملكة لقصرها ، لتعيش سجينة موت ملك البلاد، فيقدم الشاعر على نزع عيون الجلاد بمزماره ، منتقلا لأول مرة لمستوى الفعل ، بعد أن ظل لسنوات يردد أنه لايملك غير الكلمات .

اكتمال الحدث الدرامي

وينتهي الحدث الدرامي المتسامي شعرا ، عند حد التحول من الكلمة للفعل الفاعل ، ومن السهل استنتاج نتائج هذا الفعل ، غير أن «عبدالصبور» لايود أيضا أن يقف عند اكتمال الحدث الدرامي ، وهو إذ يبني عمله ، كما ذكرنا ، على تقنية (المسرح داخل المسرح) ، يبدأه بجوقة من نسوة ثلاث ، يقدمن الحدث ، ويعلقن عليه ، ويظهرن فى الفصل الثالث كله ، ليقدمن ويجسدن ما رآه المؤلف مواقف ثلاثة لما بعد تخليص «الشاعر» مليكته من قبضة الجلاد ، أو ما أسموهن بحلول المؤلف الثلاثة : حل الشكوى للأقدار ومناشدتها حل المشكلة ، ولا يخرج قرار محكمة الأقدار التي لجأ إليها الشاعر فى العالم السفلى كنظيره الإغريقى «أورفيوس» ، إلا عن تمزيق جسد الملكة لجزءين فيما بين الملك الميت والشاعر الحى ، فيرفض الأخير هذا التمزيق ، على طريقة «بريشت» في مسرحيته (دائرة الطباشير القوقازية) ، تعديلا لحكاية سليمان الحكيم الشهيرة ، ثم يتم تجسيد حلم الانتظار المعتاد للمخلص حتى يولد من رحم الملكة على النهر، ويكبر ويعود بعد سنوات عشرين، فيجد جناح الملك بالقصر قد نخره السوس، واحتل أمير البر الغربى باقى غرفه، وأخيرا يتم تجسيد حل التصدى للموقف، فيعود الشاعر ممتشقا سيف الجلاد بمليكته للقصر، ينظفه من رائحة الموت، ويسائل الملكة بعد توليها الحكم «من حاشيتك؟» ، فتجيبه «حاشيتى الناس جميعا» .

وبترتيب هذه الحلول الثلاثة تصاعديا وزمنيا، لا يتأتى للمشاهد فرصة الاختيار بينهم، فالأخير هو الفاعل ، وهو المختتم لإجابة «عبدالصبور» على سؤاله المسرحى الملح، هل يكتفى المخلص بكلماته الثائرة؟، أم عليه أن يحولها لفعل فاعل فى الأرض؟، وقد اختار «عبدالصبور» (الفعل)، ولعله بهذا الاختيار الحاسم قد قرر أن مسرحه لم يعد بقادر على طرح أسئلة جديدة، تضطره للبحث عن إجابات شافية عنها، فاعتزل الكتابة المسرحية ، وتفرغ للعمل والإدارة وبعض الشعر لعقد آخر فى حياته الخاطفة والمخطوفة ، ودراسة تلك المرحلة ، تخرج عن مجالنا هنا ، وإن أكدنا على أن ماتبقى من «عبدالصبور» الكثير الصالح لمسرحنا ولقضايانا الملحة ، فهو أديب (كبير) قدم لنا ركنا مهما ومؤثرا فى المكتبة العربية ،وهو أديب (تاريخى) ، نقل مسرحنا الشعرى نقلة نوعية ، حالت ظروف العصر ومتغيراته ، وانغماس شعرائنا عشاق المسرح فى الكتابة الدرامية لنخبة النخبة، دون تطوره ووصوله لجماهيره المتعطشة له . ■

عشرون عاما
على الرحيل

قراءة فى آخر ديوان

الإبحار فى الذاكرة



بقلم
مها محمود صالح

«الإبحار فى الذاكرة» هو الديوان الشعرى الأخير للشاعر صلاح عبدالصبور ويضم قصائد كتبها الشاعر فيما بين عامى ١٩٧٣، ١٩٧٨ . وهو بذلك يمثل خلاصة رؤى الشاعر الفكرية وخصائص شعره الفنية على حد سواء .

ويبدو ضروريا، حتى نصل إلى قراءة واعية ومحيطة للديوان، أن نربطه بالأعمال الشعرية السابقة عليه، وخاصة الديوان الأول للشاعر : «الناس فى بلادى» الصادر عام ١٩٥٧ وذلك بطبيعة الحال ليس بغرض تفضيل نص على آخر، وإنما لتحقيق هدفنا الأساسى ألا وهو الوصول إلى قراءة تثرى معرفتنا بالديوان وبصاحبه .

هذا العنوان يوحي بطبيعة الحال بدلالة متباينة عن تلك التي يوحي بها عنوان الديوان الأول «الناس في بلادي» وهي دلالة ستتأكد عند النظر في قصائد الديوانين. فبينما كان الديوان الأول يتحدث عن الناس بشكل عام، كما في قصيدة «الناس في بلادي» وعن أشخاص على وجه التحديد، مثل زهران في قصيدة «شنق زهران» والشيخ محيي الدين في قصيدة: «رسالة الى صديقة»، فإنه في ديوانه الأخير «الإبحار في الذاكرة»، كما يشي العنوان، ينكص الشاعر الى داخل نفسه ينظر ويطيل النظر مراجعا علاقاته بنفسه وبالآخرين وبالشعر!

ولعل غياب البشر، في ديوان «الإبحار في الذاكرة» يقودنا الى واحدة من أهم سمات قصائد الديوان ألا وهي التجريد الذي ينسحب على الأفكار والكائنات والمشاعر، طارحا عنها ماهو تفاصيل أو زيادات، محاولا النفاذ إلى الجوهر: جوهر المعاني والكائنات.

ويتضح ذلك إلى حد كبير في القصائد التي تتناول علاقة الشاعر بالمرأة

ففي ديوان «الناس في بلادي» مثلا يصف الشاعر حبيبته وصفا حسيا فيقول في قصيدته «أغنية حب»:

«وجه حبيبي خيمة من نور
شعر حبيبي حقل حنطة
خدا حبيبي فلقتا رمان
جيد حبيبي مقلع من الرخام...»

أما الحبيبة في «الإبحار في الذاكرة» فهي تكاد تفقد تفاصيلها الشكلية المحددة لتصبح وجودا معنويا يلتمس منه الشاعر السلوى في مواجهة وحدته وأحزانه ومخاوفه.. يقول الشاعر في المقطع الثالث من قصيدته «شذرات من حكاية متكررة وحزينة»:

«أتشف حضورك في صحراء الوقت
استشعر وقعك في صخر الصمت
تعروني البهجة،
ثم يفاجئني كالمطر المتقطع
حس الخوف من الموت»

ويضيف فى المقطع الرابع من نفس القصيدة :

وحيدا حزينا أواجه عينيك، إذ تسألان الفرح
وإذ ترفعان إلى مقلتىَّ حباب الشجى واخضرار القدح
وحيدا حزينا أواجه كفك حين تمد الىَّ
لترفعنى من رماد الرماد، الى حمرة الشفق الشاعرى
وحيدا حزينا أواجه فرحة حبك».

أما قصيدة «إجمال القصة» ففيها يضاف الى خاصية التجريد خاصية الإيجاز. ففى سطور قليلة وبتكثيف لغوى نتعرف على إجمال قصة الحب وكيف بدأت باللقاء، وتطورت حتى وصلت الى الفراق .. يقول الشاعر :

«كانت تدعونى بالرجل الرملى
وأناديها بالسيدة الخضراء
وتلاقينا فى زمنى الشفقى
وتنادينا فى مرح طفلى
وتعارفنا فى استحياء
وتحسس كل منا مبهورا ألوان الآخر
وتقاسمنا الأسماء.
وتفرقنا ..
لا تسألنى : ماذا يحدث للأشياء
إذ تتصدع
أو للأصداء
إذ تهوى فى الصمت المفرغ» .

الى أول جندى رفع العلم

وتتضح سمة التجريد أيضا فى قصيدة «إلى أول جندى رفع العلم فى سيناء» وهى كما يتضح من عنوانها وتاريخ كتابتها (٨ أكتوبر ١٩٧٣) انها قيلت لمناسبة محددة، وقد هرب الشاعر من فخ الخطابية الذى كان يمكن أن تستدعيه المناسبة، وذلك بأن اختار لحظة حميمة بسيطة تتكثف فيها كل معانى الوطنية وهى لحظة رفع العلم المصرى على رمال سيناء. يبدأ الشاعر قصيدته بقوله «تمليناك» ولعلها المرة الوحيدة فى الديوان كله التى يتحدث فيها الشاعر عن نفسه باعتباره جزءا من جماعة، بالإضافة الى أن هذا اللفظ يفيد الرؤية المتأنية المدققة التى تتضح بالود والفخر للجندى المصرى

إذ «يهل» وجهه على الشاشة، يقول الشاعر :

«تمليناك، حين أهل فوق الشاشة البيضاء،
وجهك يلثم العلما
وترفعه يداك،
لكى يحلق فى مدار الشمس،
حر الوجه مقتحما»

لكن هذا الوجه البشرى الحبيب يتجرد من صفاته البشرية رويدا رويدا حتى يتحول إلى معنى مجرد :

«ولكن كان هذا الوجه يظهر، ثم يستخفى.
ولم ألمح سوى بسمتك الزهراء والعينين
ولم تعلن لنا الشاشة نعتا لك أو اسما
ولكن، كيف كان اسم هنالك يحتويك ؟
وأنت فى لحظتك العظمى
تحولت الى معنى، كمعنى الحب، معنى الخير، معنى النور

معنى القدرة الأسمى»..

وتنتهى القصيدة وقد غامت الرؤية فى عينى الشاعر حتى رأى الجندى البطل وقد تحول الى رمز لمصر كلها .

«رأيتك جذع جميز على ترعة
رأيتك قطعة من صخرة الأهرام منتزعة
رأيتك حائطا من جانب القلعة
رأيتك دفقة من ماء نهر النيل
قد وقفت على قدمين
لترفع فى المدى علما
يحلق فى مدار الشمس،
حر الوجه مبتسما»..

الشعر والرماد

تحت هذا العنوان يقدم الشاعر قصيدته التى أراها مفتاح قراءة الديوان، باستثناء قصيدتى «إلى أول جندى رفع العلم فى سيناء» و«الى أول مقاتل قبّل تراب سيناء» .

كتبت تلك القصيدة في مانيلا بالفلبين عام ١٩٧٥ ، وهي تدور حول علاقة الشاعر بالشعر تساؤلاته التي لا تنقضي عن جدواه .

يصور الشاعر تصويرا فريدا حاله وصوته الشعرى يعود اليه بعد غياب فيقول :

«وأنا أسأل نفسى ...
مأخوذا بتتبع أصداء حديث الأشياء الى روحى
وحديث الروح الى الأشياء .
مسلوبا خلف الصور السانحة الهاربة ، الوهاجة ، والمنطفئة
اذ تطفو حينا فى زبد الآفاق الممتدة
ثم تغوص وتنحل كما تنحل الموجة
أو تذوى وتذوب كما تذوى قطرات الأنداء» .

واذ يستبد الفرح بالشاعر لعودة صديقه الشعر يتساءل :

«أين ستمضى رحلتنا فى هذى الأيام الحلوة
فأنا أعلم أن الخمر تقود الى النشوة
وأنا أعلم أن الشعر يقود الى الصبوة»

لكن الشاعر سرعان ما يكبح جماح مشاعره تجاه صديقه الشعر ويعتذر عن إكمال الرحلة معه قائلا :

«أسفا، لن نكمل رحلتنا ياشعرى
وسأمضى كى أضع خيامى فى أرض أخرى
لا تذروها عنها ريح الزمن الهوجاء» .

أما تفسير اقصاء الشاعر للشعر عن حياته فيتضح فيما ينوى أن يقوله للندمان عند عودته الى الوطن اذ يسألونه عما عاد به من تذكارات من مانيلا

«لا تذكارات معى.. لا .. بل أعطتنى مانيلا
شيئا من حكمة مانيلا .
أعطتنى أن الفم لم يخلق الا للضحك الصافى الجذلان
أعطتنى أن العينين
مرآتان يرى فى عمقهما العشاق ملامحهم
حين يميل الوجه الهيمان على الوجه الهيمان
أعطتنى أن الجسم البشرى

لم يخلق إلا كى يعلن معجزته
فى ايقاع الرقص الفرحان
درس عرفته روحى بعد فوات الأزمان
بعد أن انعقد الفم بضلالات الحكمة والحزن، .

انتساب

لكن هل يملك الشاعر إلا أن يكون شاعرا ؟!

هو شاعر لا يزال، لكنه وقد علمته مانيلا دروسها يقرر فيما يبدو أن يتوقف عن مطاردة الحكمة وتستغرقه محاولاته لإعادة التعرف على نفسه، أو على الأصح على جسده، فيقول فى قصيدة انتساب :

،أنتسب الى جسمى
أنتسب الى شهوة أطرافى أن تلمس أعراق الأشياء
شهوة شفتى أن تندى، وتندى
أن تسقى، أن تسقى ،
حتى تقنص روح الجلد الحمراء،

وتغص نفس الشاعر بالتساؤلات عما يطرأ على جسمه من تحولات ، فيعلن :

،أبغى أن تعرف نفسى،
كيف تصير الرغبة لحظة صحو
وكمال الرغبة لحظة محو
أبغى أن أعرف كيف أفاضت نفسى من حال فى حال
ورمتنى مسلوبا فى الحالين،

ويتساءل الشاعر عما يفعله الخمر والموسيقى بجسده فيقول :

،أبغى أن أعرف من أين تجىء حميا الكأس
وبماذا تلغو فى داخل جسمى الخمر؟،

ويقول :

،والموسيقى !
ولماذا تهبط ذكرى جسمك فى جسمى،
حين ترن الموسيقى،
تتجاوب ذكرى نبضك فى وقدة نبضى،

لكنه فيما يبدو قد فات الاوان ولم يعد من سبيل الى كسر اغتراب

الشاعر عن نفسه.. عن جسمه! فهو يقول :

والآن ،
ها أنذا ، لا أنت ، ولا الخمر، ولا الموسيقى
وأنا مغترب فى أنحاء الكون
مغترب عن جسمى الجامد .

تكرارية

وتظل علاقة الشاعر المرتبكة بالشعر، أو بالكلمة، وتساؤله عن جدواه تتردد أصداؤها عبر قصائد عدة فى الديوان. ففى قصيدة تكرارية يؤكد الشاعر أن التكرار يتربص بكل شىء ليقضى عليه ولا ينجو من ذلك أحد، حتى الشعر والأنغام ! فيقول الشاعر :

«يتحور بعض المكرورين إلى أصوات ...
أو أنغام أو أشعار
لكن هدير الزمن الدوار
يبتلع الزامر والزمار»

وإذ يحاول الشاعر أن يتجاوز ضجره وسأم التكرار الذى يحيط به من كل جانب فإنه يتجه فى قصيدة «الخبر» إلى الطبيعة فيتشبه ببعض عناصرها مطلقا على نفسه أسماء مثل : «القرصان الازرق» و«التنين المحرق» و«الأعصار العاصف» لكنه لا ينال من الطبيعة إلا السخرية ويواجهه ضيقه بكذبه فيصرخ :

«آه ، ضقت بحالى ، بأكاذيبى ضقت
لو يلتف على عنقى أحد الحبلين
حبل الصدق..
أو حبل الصمت»

ولكن هل يجرؤ الشاعر على الصدق؟

الموت بينهما :

فى قصيدة «الموت بينهما» يتبدى الصدق كتكليف ربانى يتلقاه الانسان (الشاعر) عن طريق صوت عظيم يقرأ كلمات من سورة البقرة تنتهى بقوله تعالى «ياآدم أنبئهم بأسمائهم» .. لكن الصوت الواهن الذى يمثل صوت الشاعر (الانسان) يصرخ مجيبا ..«لا .. لا
لا أجرؤ يا رباه

وكيف أسمى كل الأسماء، .

لقد ألف الشاعر التخفى تحت جدار التشبيه وفى حجر التورية وشق الإيماء، فلم يعد قادرا على تسمية الأشياء بأسمائها . هاهو يعلن عجزه قائلا

، ماذا تبغينى .. يا رباه ؟
هل تبغينى أن أدعو الشر باسمه
هل تبغينى أن أدعو القهر باسمه
هل تبغينى أن أدعو بالأسماء الظلم ، وتمليق القوة ، والطغيان ، وسوء النية ، والفقر ، الروحى ، وكذب القلب ، وخدع المنطق ، والتعذيب ، وتبرير القسوة والاسفاف العقلى ، وزيف الكلمات ، وتلفيق الأنباء..
...
لا .. لا ...
لا أقدر يارباه
لا أقدر يارباه، .

الشاعر والمدينة

من الموضوعات التى تتكرر فى أعمال صلاح عبدالصبور علاقته بالمدينة . القاهرة على وجه الخصوص . وفى ديوانه أحلام الفارس القديم (١٩٦٤) ينشد الشاعر مخاطبا مدينته ، إذ يعود اليها بعد شهر من التجوال، فيقول تحت عنوان «أغنية للقاهرة»

، لقاك يامدينتى حجى ومبكايا
لقاك يامدينتى أسايا
وحين رأيت من خلال ظلمة المطار
نورك يامدينتى عرفت أننى غللت
إلى الشوارع المسفلته
إلى الميادين التى تموت فى وقدتها
خضرة أيامى ...،

ورغم تلك التجربة الملتبسة التى تجمع بين الحب والعداء إلا أن الشاعر يؤكد على أن هواه لمدينته يفوق ضيقه بها . فينهى قصيدته قائلا :

، أهواك رغم أننى أنكرت فى رحابك

وأن طيرى الأليف طار عنى
وأننى أعود، لا مأوى، ولا ملتجأ
أعود كى أشرد فى أبوابك
أعود كى أشرب من عذابك»

وفى «الإبحار فى الذاكرة» يعود الشاعر ليؤكد على مشاعره التى تخلط الحب بالاشفاق بالضغينة تجاه مدينته، يتحدث الشاعر عن مدينته مخاطبا غريبا التقاه فى الطريق :

لكننى أحببتها .. أحببت هذه المدينة
ما أضيق الفراغ بين الحب والاشفاق والضغينة
أحببت أن أعيش بين لحمها وجلدها
لكى أحس نبضها العليل فى عروقها الدفينة
أحببت أن أسوح جنب نهرها
إذ تلتوى بشرته الكابية الحزينة»

لكن القاهرة على أية حال ظلت بالنسبة للشاعر ملتجاه الذى لا تزيده الغربة الا شوقا إليه، ورغبة فى الإنتناس بالخلان على أرضه! هاهو يقول فى قصيدة انتساب وهو يتأهب للعودة من مانيلا :

فى أيام .. فى أيام
سوف أعانق قاهرتى، يلتئم الشمل مع الندمان».

الشاعر والتصوف

سبق لصلاح عبدالصبور أن استخدم الموروث الصوفى فى بعض دواوينه، بل انه اعتمد عليه بشكل كبير فى مسرحيته الشعرية «مأساة الحلاج».

أما ديوان «الإبحار فى الذاكرة» فإن روحا صوفية تتسرب فى ثناياه وتتبدى فى كل عناصره : المعانى واللغة والبناء. مثلا : المفهوم الصوفى للمعرفة التى تبدأ من المادى الملموس وتترقى أملا فى ادراك المعنوى المحسوس يظهر فى قصيدة «انتساب» التى سبق الاشارة اليها، وفى ذات الوقت فإن الاحتفاء بالمعنوى كجوهر الوجود الحقيقى يظهر من ميل الشاعر للتجريد كما أشرنا سابقا.

كذلك تتداخل تجربة الحب البشرى مع التجربة الصوفية مانحة النص الشعرى ثراء فى لغته وبنائه .

يقول الشاعر فى المقطع السابع من قصيدة «شذرات من حكاية متكررة وحزينة»:

«وكنت أخوض صحارى سنينى
ثقيل الخطى، مكفهر الجبين
وتأتيننى بغتة، كالجنون
فلا أنت موصوفة فى كتاب انتظارى
ولا أنت واردة فى مجازات حلمى.
فى غفوتى أو نهارى
ولم تتنبأ لى الطير باسمك، رغم استماعى اليها طويلا..
ولا كشفت لى السحائب رسمك، رغم تملى منها طويلا
تظل الطوالع خرساء، حتى يفاجئك الوجد، وحدك حين تؤوب الى ملل الليل مستوحشا أو عليلا، فلا أنت أعددت مائدة السكر، لا أنت أرسلت فى طلب الندماء،..»

أما المفردات الصوفية فبعضها يظهر فى العبارات السابقة مثل: الوجد، مائدة السكر، الندماء، وهناك غيرها كثير منثور فى قصائد الديوان مثل قصيدة «انتساب» حيث تظهر مفردات: «محو، أفاضت، حال، مسلوبا». وهذه المفردات بما تتبعه من رموز وتأويلات تثرى النص وتفتح أفاقا جديدة للنظر فيه.

ولعل قصيدة «تجريدات» هى أكثر قصائد الديوان تمثلا للنص الصوفى فى لغته وبنائه ومعناه.

فى التجريدة الأولى تتابع الألفاظ الصوفية: «حال، يقين، الصحو، المحو»، أما التجريدة الثانية فهى تذكرنا بإيغالها فى التجريد والرمزية بنصوص صوفية متميزة مثل «كتاب الطواسين» للحلاج

وفى التجريدة الثالثة يقدم الشاعر نصا صوفيا فى لغته ومعناه، إذ يقول:

«يارب ! يارب!
أسقيتنى حتى اذا مامشت
كأسك فى موطن اسرارى
ألزمتنى الصمت، وهذا أنا
أعض مخنوقا بأسرارى». ■

عشرون عاما على الرحيل



صلاح عبد الصبور وسمات الحداثة الشعرية

بقلم
د. صبرى حافظ

تحل هذا الشهر الذكرى العشرون لرحيل الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور (١٩٣١ - ١٩٨١) الذى رحل عنا وهو فى أوج التألق والعطاء. كان الشاعر فيه قد بلور لغته، ونقى صوره وصفاها من كل التزيدات والأوشاب، فتألقت الصور عنده وكأنها نوع من الجواهر النقية الصافية، وبلغ ببناء القصيدة درجة كبيرة من الدقة والحنكة والعمق وتعدد الإيحاءات والدلالات، وكان كاتب المسرح الشعرى عنده قد تجاوز كل ما سبقه فى المسرح الشعرى العربى، وغامر بهذا الجنس الأدبى فى بقاع لم يسمع فيها وقع لقدم عربية من قبل كما كان الناقد فيه قد بلغ ذروة النضج والإبداع، بعد أن صقلت ذائقته الأدبية، وتبلورت لغته النقدية وأدواته التحليلية، واستقرت مفاهيمه ومنطلقاته الثقافية والفكرية. وكان المسئول الثقافى قد وصل إلى سمت الشهرة والتأثير، حيث كان وقتها رئيس مجلس إدارة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وكانت الطريقة التي رحل بها، والتي سمعت مؤخرا ترديدا لبعض وقائعها قد حملت الكثيرين علي غض الطرف عن بعض تناقضات الإنسان، في حقبة من أحلك الحقب في تاريخ الثقافة المصرية المعاصرة، ومع أنني لست من أنصار الفصل بين الإنسان والفنان، ومع أنني أعرف عن كثب بعض تناقضات الإنسان، فإنني لست مولعا بإثارة غبار قد استقر منذ سنوات طويلة. وحتي يحين أوان الكشف عما أعرفه، فإنني أود التماس بعض العذر للإنسان، والميل إلى استنتاج أن التناقض بين الإنسان والفنان في داخله كان حبا مستعرا ومقلقا له .

أصفى الأصوات الشعرية

ولولا ذلك لما استطاعت كليمات قليلة في جلسة أصدقاء، مهما كانت شدتها الجارحة استثارة الأزمة القلبية التي أودت بحياته. فلولا أن في داخل صلاح عبد الصبور، رئيس هيئة الكتاب في ذلك الوقت العصيب الذي سمح فيه للعدو الصهيوني بالاشتراك في معرض الكتاب بالقاهرة، وزجت السلطات في السجن من تظاهروا ضد المشاركة الصهيونية فيه، صلاح عبد الصبور آخر غير راض عن تصرفات الأول، لما كان لنقدات هذا التأثير القاتل، الذي دعا البعض إلى اتهامه بالإجهاز علي الشاعر عندما أجبر أحد الصلاحين علي النظر في وجه صلاح الآخر، فهاله ما رأي، وروع أمنه الداخلي وزلزله وكانت تلك الأزمة القلبية التي تفاقمت بإهمال الأطباء في المستشفي فخسرت مصر، وخسر الشعر العربي ، واحدا من أصفي الأصوات الشعرية وأكثرها إبداعا للشعر الحديث الشعر الذي ينطوي علي فهم حقيقي لماهية الحداثة ولطبيعة الذات الحديثة .

قد تبدو هذه البداية خارجة عن الموضوع، وهو المشاركة في تذاكر الفقيد الكبير بمناسبة مرور عشرين عاما علي رحيله، ومعرفة ما بقي منه للتاريخ، حسب تعبير جعله صلاح عبد الصبور نفسه عنوانا لأحد كتبه، ولكنها في حقيقة الأمر أوثق المقدمات صلة بما أريد أن أطرحه بمناسبة مرور عشرين عاما على رحيل هذا الشاعر الكبير، لأنها تكشف لنا أن هذا الشاعر قد حمل عبء الذات المنقسمة على نفسها وقضى نحبه تحت وطأته، وهو عبء شديد الصلة بما أود أن أطرحه هنا باعتباره- في اعتقادي - أهم ما سيبقى من هذا الشاعر الكبير، وهو دوره في تأسيس شعر الحداثة العربي، وبرغم أن صلاحا كان قد بلغ أوج الشهرة والإبداع، فقد نسيته الحياة الأدبية، ولم يعد يذكره أحد إلا لماما . صحيح أن بعض الدراسات الجامعية الجادة التي تتقصى جوانب من شعره أو مسرحه لاتزال تظهر بين الفينة والأخرى لكن صلاحا أجدر بأن تذكره الحياة الأدبية العربية من كثيرين من الذين يملأون الساحة ضجيجا من خلال وجودهم الصاخب، ويسخرون الأتباع والحواريين

الحديث عن إنجازاتهم بطريقة تتخلق معها صورة زائفة ومشوهة للواقع وللتاريخ الشعريين .والواقع أن هناك نزعة لتذاكر مآثر الفقيد بمناسبة ذكراه تلك من خلال بعض الندوات أو المقالات التى يقيمون فيها سرادقات من ورق، يتناولون فيها بعض مآثره أو يتأملون بعض إنجازاته. ولست معنيا هنا بعملية التذاكر تلك ، بقدر ما أود أن ألجأ إلى أحد المعايير التى أرساها صلاح عبد الصبور حتى تستقيم الصورة، ويتم تصحيح الكثير من المقولات الشائعة والمغلوطة، ويزول الزيف والخداع المتفشيين فى واقع الشعر العربى المعاصر .

زعم مغلوط لأدونيس

فقد استغل الشاعر السورى على أحمد سعيد أسبر، الذى يدعو نفسه أدونيس، غياب أكبر شاعرين عربيين ساهما فى صياغة أسس الحداثة العربية ، وبلورة إنجازها الشعرى المتميز، وهما بدر شاكر السياب وصلاح عبد الصبور، وروج لزعم خاطئ مغلوط مؤداه أنه هو شاعر الحداثة العربية ومؤسسها الأوحد . وأن كل شعر لا ينسج على منوال شعره ليس شعرا ، أو على الأقل ليس شعرا حديثا . مع أن الأنا الشعرية التى تطلع علينا من شعر أدونيس «أنا » غير حداثية على الإطلاق، لأنها «أنا» نرجسية تنحدر من أصلاب الأنا الرومانسية التى كانت تعتبر نفسها مركز العالم، وتعتبر الشاعر رائيا ملهما يتميز بصفات خارقة طالعة من وادى عبقر وتنتسب أكثر ما تنتسب إلى الأنا القبلية التقليدية القديمة التى تحتمى بعزوة القبيلة، برغم شقشقاتها بالرفض وهو أقرب إلى رفض الشاعر القديم لكل ما لا ينتمى للقبيلة، وهجائه المستمر للقبائل الأخرى. وليس رفض الأنا الحديثة لواقع يتسم بالأحادية وعمى البصيرة، لأن الشاعر الحديث لايعبأ بالقبيلة ولا بغيرها من القبائل المناهضة لها . وهى فى ممارساتها الشعرية والثقافية، وفى تجنيدها للحواريين لاتختلف عنها فى ممارساتها الشعرية التى هى أبعد ما تكون عن «الأنا» الحداثية كما يعرفها تاريخ الشعر . والأدب، والتى لانجدها إلا عند صلاح عبد الصبور ، وفى بعض أشعار بدر شاكر السياب المتأخرة

الحداثة ما هى ؟

لذلك أود أن أبدأ هذا المقال بتعريف ما هى الحداثة بصفة عامة ، وما هى الحداثة فى الشعر بصفة خاصة، ثم تمحيص الأنا الشعرية التى تطلع علينا من شعر صلاح عبد الصبور للتعرف على ما تنطوى عليه من حداثة. فالأنا الحديثة هى الأنا التى تعيش الواقع وتعى فى الوقت نفسه عدم قدرتها على احتماله أو التسامح معه كما يقول نيتشه. ولذلك لابد أن تكون قادرة على تجريد هذا الواقع دون تمويه واقعيته ، بموضعة جزئياته فى نسق جمالى مغاير يكشف عن خفتها غير المحتملة تلك أو بعمق وعينا، كما يقول بيتس به أن الأشياء تتداعى لأن المركز لم يعد قادرا على الإمساك بها ».

وذلك من خلال الوعي بأن الاحتمالات العرضية تنطوي على مآسيها في عالم الزمن العرضي هو الآخر، كما تنطوي على قدر كبير من التشتت الكابوسي المبهظ للذات. ولذلك فإن الفن الجدير بهذا الاسم لديها هو الفن الذي يستجيب لفوضى العالم الذي تدنت فيه مكانة العقل، ولم يعد للمنطق فيه مكان الصدارة كما كان الحال في الماضي، وأصبح من الضروري معه إعادة تأسيس الأنا الجمعية من جديد، والإجهاز على كل مسلماتها السابقة، بما في ذلك الإجهاز على المفهوم القديم بكلية الذات الفردية ومركزيتها. وقد ترتب على هذا كله وعي حاد بأزمة اللغة، وبأن بنيتها القديمة تتداعى هي الأخرى، وبأن الصيغ والأنساق اللغوية المستقرة لم تعد قادرة على استيعاب متغيرات العالم ومتغيرات التجربة. فقد تغيرت بنية المشاعر الإنسانية ذاتها منذ اكتشاف فرويد لقارة اللاوعي المضمرة، وإطاحة كل من داروين وماركس بكثير من مفاهيم التطور القديمة.

أما الأنا الشعرية الحديثة، فإنها الأنا التي تنطلق من رفض مفهوم الشاعر كصوت للقبيلة أو المجتمع، أو كمركز الثقافة التي يصدر عنها. إنها «أنا» الشاعر الحائر الجوال لا الشاعر الرائي العراف. أنا شاعر لايبحث عن مجد ما، بل يدع كل مجد وراء ظهره، لا تطمح صوره إلى استدعاء صفاء صور أسلافه، وإنما إلى اكتشاف الشعري في مواطن القبح لا الجمال التقليدي، وإلى البحث عنه في تفاصيل اليومي والعادي والمكرور. ولا نجد للغته رنين اللغة التراثية وإيحاءاتها، وإنما نبض اللغة العادية اليومية المألوفة وشعرها. لكن الشفرات اللغوية الجديدة التي يصوغها هذا الشاعر الحداثي لابد لها من أن تكون قادرة على فرض نفسها على التجربة اللغوية والمعرفية المشتركة دون أن تكون طالعة من إهابها، أو خاضعة لمنطلقاتها. تحيل إلى الأساطير، والخرافات، والمواضعات الشعرية القديمة، ومخزون الثقافة المشترك، والطقوس الجمعية المشتركة دون أن تقع في شراك منطلقاتها التصورية، وإنما تفرض رؤيتها الحداثية الجديدة عليها. فتعيد فهمنا لها، وتخلق تصورا جديدا ومغايرا لها وبهذه الطريقة يتخلق جدل مغاير بين جديد الحداثة والميراث الشعري السابق عليها جدل يعي عملية التوتر الدائمة بين الحساسية الحداثية الجديدة، وطبيعة المشاعر القديمة التي كانت متجذرة في ثقافة قومية واحدة، لأن الحساسية الشعرية الحديثة تجاوزت حدود هذه الثقافة الواحدة، للتعامل مع جوهر الشعر في مختلف الثقافات، أو بالأحرى مع الشعر الإنساني المصفى إن جاز التعبير، والكشف عما يمكن دعوته بعالم الشعر الخالص، أو «الشعرية» ذاتها، في استقلاليته عن بقية الأنواع الأدبية الأخرى.

شعر التجربة المضمرية

وبالإضافة إلى هذا كله، فإن الأنا الشعرية الحديثة هي الأنا التي تدرك مدى تداعي الواقع من حولها، ومدى تدهور

المشهد الحضرى فى المدينة التى تعيش فيها لأن الشعر الحداثى منذ بداياته الباكرة مع بودلير ، وحتى صوره المتألقة عند مالارميه وريلكه واليوت وباوند هو شعر التجربة الحضرية، وتوتر الحياة فى المدينة . وهى المدينة التى كلما ازدادت عمرانا، واتسعت رقعتها، وتضاعف عدد سكانها، كلما اكتشف الإنسان فيها أن الزحام هو مصدر وحدته وعزلته وليس مصدر راحته وإحساسه بالاندغام فى المجموع وأن مفهومى التعدد والعزلة ليسا نقيضين، وإنما هما وجهان لعملة واحدة هى التجربة الحضرية فكلما ازدادت معرفة الإنسان بالمدينة كلما تقلصت حقيقتها وواقعيتها، لأنه يفقد كل قواعد المنظور، ولا يستطيع أن يستوعب المدينة فى كليتها، بصورة تصبح معها هذه الكلية نوعاً من الوهم غير الحقيقى. لذلك يقول اليوت فى «الأرض الخراب» «القدس أثينا، الإسكندرية ، فيينا، لندن ، وهم » وهو وهم سرعان ما يؤكده انسداد الأفق فى المدينة، وانتشار المخاوف فيها وخاصة أثناء الليل فالمدينة فى الليل هى كابوس الشاعر الحديث، وهى مصدر التوتر فى شعره فى آن. وقد صاغت القصيدة الأولى فى ديوان صلاح عبد الصبور الأول «رحلة فى الليل » أبجدية التعامل الحديث مع الليل والمدينة فى أن :

الليل يا صديقتى ينفضنى بلا ضمير

ويطلق الظنون فى فراشى الصغير

ويثقل الفؤاد بالسواد

ورحلة الضياع فى بحر الحداد

فحين يقبل المساء يقفر الطريق،

والظلام محنة الغريب

يهب ثلة الرفاق، فض مجلس السمر

«إلى اللقاء» – وافترقنا – «نلتقى مساء غد» «الرخ مات – فاحترس، الشاه مات ! »

«لم ينجه التدبير إنى لاعب خطير »

«إلى اللقاء » وافترقنا – «نلتقى مساء غد»

أعود ياصديقتى لمنزلى الصغير ،

وفى فراشى الظنون لم تدع جفنى ينام.

التجربة بين تخوم التجريد ومنطقة التجسيد

وحشة الليل وقسوته واقفرار الطريق وحلكته، ووحدة الأنا ووساوسها، وغربة الذات ومخاوفها، وانفضاض الجمع وتفرقه، وهواجس الموت وحتميته، هى المفردات التى يصوغ منها الشاعر أبجدية التعامل مع المدينة فى الليل . وهى أبجدية سرعان ما ازدادت مع مرور الزمن، وتنامى التجربة وتعمقها صفاء ونقاء، وبلغت تخوم التجريد دون أن تبارح منطقة التجسيد، وعقدت صلحها مع الليل والمدينة من أجل أن تزداد قدرتها على سبر أغوارهما معا . وخلقت مسافتها الصحية بين النص وموضوعه لتستطيع أن تصوغ منظورها القادر على استيعابه والتعامل الشعرى معه. لذلك جاءت أغنيته التالية لليل فى ديوانه «أحلام الفارس القديم » أكثر

تكثيفا وأشد عمقا :

الليل سكرنا وكأسنا
ألفاظنا التي تدار فيه نقلنا وبقلنا
الله لايحرمني الليل ولا مرارته
وإن أتاني الموت، فلأمت محدثا أو سامعا
أو فلأمت، أصابعي في شعرها الجعد الثقيل الرائحة
في ركني الليلي، في المقهى الذي تضيئه مصابيح حزينة
حزينة كحزن عينيها اللتين تخشيان النور في النهار
عينان سوداوان
نضّاحتان بالجلال المر والأحزان
مرت عليهما تصاريف الزمان
فشالتا من كل يوم أسود ظلا..

هنا استطاع الشاعر أن يعقد صلحه مع الليل دون أن يتخلى عن وعيه بمرارته، أو عن رغبته في كشف عورته وتعرية سوأته. فقد بلغت الألفة به حدها، وأصبح سلوى الأنا وسلوانها وإن ظلت تتشبث في وجه عواديه التي تعي سلبياتها بالصحب تارة، وبالتواصل الحميمي مع المرأة أخرى، لكن المرأة سرعان ما تتحول في القصيدة إلى امرأة استعارية، وإلى تجسيد للمدينة مرة وللوطن المستباح أخرى، بعدما تخثر حلمها بفارسها المرتقب .

عينان سردابان
عميقتان موتا
غريقتان صمتا
فإن تكلمتا
تندتا تعاسة ولوعة ومقتا
ينكشف السرداب حينما تدق الساعة البطيئة الخطى
معلنة أن المسا قد انكشف
تقول لي العينان :
«ياعاهري المتوج الفودين بالحديد والحصى
يا ملكي الغريب الاسم المزيف السمات

أحببت فيك رؤية رأيتها منذ الصغر
وكان يشبهك
وليس أنت ... ليس أنت
كان فتى حلمي جميلا، لا مزوقا
مثقفا لاذرب اللسان
محتشما نبالة في الطبع لا خوفا
وعاطفا لا عاطفيا
ياعاهري، ياخدعتي ، ياقدري
في الساعة الليلية الأخيرة
خذني إلى البيت، فإنني أخاف أن يلفني الندى
تذوب أصابعي ويبدو قبح وجهي »

الأنا والمأزق الحداثي المغلق

وتعي القصيدة أن التوتر الشديد الذي بدأ يتخلق تحت قشرة العلاقة الجدلية بالليل سرعان ما يفضي بها إلى تلك الحوارية الدرامية التي يمتزج فيها الحوار بالنداء بالثورة على هذا الحبيب المخادع الذي تشكل العلاقة بينها وبينه المناظر للعلاقة المتوترة مع الليل في مطلع القصيدة ، فالحبيب هنا يجسد رؤية قبلية، وحلما طويلا طالما داعب مخيلة الحبيبة

حلم المدينة التي تجسد الحضارة والتقدم من ناحية، ثم تتكشف عن نقيضهما وهي تجسدهما، وحلم المرأة الاستعارة الوطن في البطل المخلص الذي يوقعها الحظ العاثر في غرام مثيله المزيف ذرب اللسان غير المثقف والعاطفي الذي تنطوي عاطفته على انفعالات فارغة لا على عطف حقيقي. لكن ما يمنح هذه العلاقة الإشكالية بعدها الحداثي هو وعي الأنا التي تبوح لنا في القصيدة بموقفها ، بأن هذا هو قدرها المتناقض الذي لافكاك منه هو شبيه زائف وعاهر وخدعة ، ولكنه هو قدرها في الوقت نفسه، وليس عليها إلا قبول هذا القدر ومعاقرته لذلك فإنها تناديه بأن يأخذها قبل أن ينقضي الليل، وقبل أن ينالها الندى، ويكشف قبحها ضوء النهار الفاضح. وهذا هو سلوك الذات المنقسمة على نفسها، والتي يصبح القبول عندها هو التجلي الوحيد للرفض. إنها الأنا الواقعة في المأزق الحداثي المغلق عليها والذي يجعلها تعيش التناقض حتى اللحظة الأخيرة .

وتصمت العينان ترجعان

عميقتان صمتا

غريقتان موتا

الليل ثوبنا، خباؤنا

رتبتنا، شارتنا، التي بها يعرفنا أصحابنا

«لايعرف الليل سوى من فقد النهار»

هذا شعارنا

لاتبكنا، يا أيها المستمع السعيد

فنحن مزهوون بانهزامنا

هكذا تنتهي القصيدة بذلك التعبير التناقضي ، مزهوون بانهزامنا، وهي صيغة الحداثة العربية بلا نزاع ففي كلمات قليلة، وصور متوهجة استطاع الشاعر أن يقتنص هذا الجوهر العميق للوضع العربي برمته ، وأن يكون رائيا ومستشرفا للمستقبل ، يعبر عن زهونا بالهزيمة وقد دعوناها انتصارا قبل أن يتحقق هذا كله بزمن طويل . فلا يعرف الليل سوى من فقد النهار، والوضع الحديث أو الحداثي هو وضع فقدان النهار والوضوح التقليديين بلا نزاع ومع فقدان النهار يصبح الليل هو الوجود السرمدي الدائم. ففي قصيدة « ٤ أصوات ليلية للمدينة المتألقة » من ديوان (شجر الليل) يصبح الليل هو الكينونة الحديثة ذاتها، هو الحالة الأبدية للوجود في مدائن الليل التي هي شارة المدينة المعاصرة، وعنوان حالتها الكيانية التي لا مفر منها :

آه ، ليس هو الليل

بل الرحم ، القبر، الغابة

آه ، ليس هو الليل،

بل الخوف الداجي

أنهار الوحشة والرعب المتمدد،

والأحزان الباطنة الصخابة

آه ليس هو الليل

بل القدر

الرؤيا الهولية

وسقوط الحاضر في المستقبل

آه ليس هو الليل،

بل الجرح اليومي
ينز دما أسود
في الصبح المقبل

التكثيف جوهر القصيدة الحداثية

فقد طال الليل كل ما يدور في الصباح ، بصورة أصبح معها الصبح نفسه في الوضع الحداثي له طبيعته الليلية. لذلك كان الشغف بالليل، والكشف عن جوهره شغفا بتقطير جوهر الوضع الحداثي ذاته والتعرف على أبعاده المتراكبة وكان استخدام العديد من الشفرات الشعرية، بما في ذلك صيغ النداء، والحوار والمناجاة توظيفا لها جميعا في بلورة ملامح القصيدة الحديثة وبنيتها . فقد وعي صلاح عبد الصبور منذ بدايات الشعرية مقولة آلان بو الشهيرة، لايوجد شئ يسمى بالقصيدة الطويلة، لأن جوهر القصيدة الحديثة هو التركيز والتكثيف البالغين وأن القصيدة إذا ما تجاوزت هذه الدفقة المركزة لابد من أن تتعدد فيها الأصوات، وتنهض من داخلها الدراما، التي تستطيع الحفاظ على تألق الشعر فيها . والشاعر الحديث بحق مغلول إلى هذا الوضع المتناقض ومقيد إلى المدينة، وهي الفضاء الأساسي للوضع الحديث، بأغلال وأمراس لا يستطيع الفكاك منها. فلنستمع إليه وهو يغني لمدينته «أغنية للقاهرة»:

لقاك يا مدينتي حجي ومبكايا
لقاك يا مدينتي أسايا
وحين رأيت من خلال ظلمة المطار
نورك يا مدينتي عرفت أنني غللت
إلى الشوارع المسفلته
إلى الميادين التي تموت في وقدتها خضرة أيامي
وأن ما قدر لي يا جرحي النامي
لقاك كلما اغتربت عنك
برحي الظامي
وأن يكون ما وهبت أو قدرت للفؤاد من عذاب
ينبوع إلهامي
وأن أذوب آخر الزمان فيك

فالشاعر / وهو الأنا الشعرية في القصيدة / يعود للمدينة بعد غياب عنها، وهو يعي أن لقاءه بها لقاء مترع بالتناقضات، وأنه لا يستطيع أن يحتضنها بلا شروط ، وليس في إمكانها الهرب منها والتخلي عنها أيضا فهي الحج والمبكى معا، وهي الأسى والحنين فقد ارتبطت الأنا بها بأمراس لاتستطيع كسرها ، وغلت إلى شوارعها المسفلتة السوداء، وإلى ميادينها وهي تعي أن أجمل ما في حياتها من توقد واخضرار يموت في وقدة هذه الميادين الحارقة ماديا ومعنويا فهي الجرح والسكين وهي الداء والدواء معا. وعذاباتها هي ينبوع إلهامه فقد أصبحت المدينة، شرط الحداثة وقدر شاعرها معا. لهذا فإنه وبعد أن يعدد لنا تناقضات علاقته بها ينهي القصيدة :

أهواك يا مدينتي
أهواك رغم أنني أنكرت في رحابك
وأن طيري الأليف طار عني
وأنني أعود، لا مأوى ، ولا ملتجأ
أعود كي أشرد في أبوابك
أعود كي أشرب من عذابك

الحوارية وانقسام الأنا الحديثة

هذا هو الهوى الحديث بحق، هوى متناقض لاعلاقة له بالحب الرومانسي القديم ، ولا بلوعة الفراق الذى يعد اللقاء بعده بالراحة والتحقق . وإنما حب يعي أن ثمرته هي الوحدة بعدما طار الحبيب من العش ، والتشرد والعذاب، ولكنه مع ذلك يعود للمدينة بشوق مستعر لها لأنها هي قدره وهي شارة حداثته كما كان الليل بكل تناقضاته شارته في القصيدة السابقة وهذا الحب حب حوارى وجدلى تنبثق حواريته من داخل القصيدة، فقد أصبحت الحوارية هي التجلي الشعرى لهذا الوضع المتناقض الذى يحتم انقسام الأنا الحديثة على نفسها ، ومعاناتها من تجليات هذا الانقسام الذى عاشه صلاح عبد الصبور الشاعر، ودفع حياته ثمنا له ، وهو انقسام يطلع علينا من أكثر من قصيدة منذ قصيدة العنوان في ديوانه المهم (أحلام الفارس القديم) وحتى آخر قصائده ومسرحياته الشعرية. يقول في هذه القصيدة الشهيرة :

قد كنت فيما فات من أيام
يافتنتي محاربا صلبا، وفارسا همام
من قبل أن تدوس في فؤادي الأقدام
من قبل أن تجلدني الشموس والصقيع
لكي تذل كبريائي الرفيع
كنت أعيش في ربيع خالد أي ربيع
وكنت إن بكيت هزني البكاء
وكنت عندما أحس بالرثاء
للبؤساء الضعفاء
أود لو أطعمتهم من قلبي الوجيع
وكنت عندما أرى المحيرين الضائعين
التائهين في الظلام
أود لو يحرقني ضياعهم ، أود لو أضئ
وكنت إن ضحكت صافيا، كأنني غدير
يفتر عن ظل النجوم وجهه الوضئ
ماذا جرى للفارس الهمام
انخلع القلب وولى هاربا بلا زمام
وانكسر قوادم الأحلام
يا من يدل خطوتي على طريق الدمعة البريئة
يا من يدل خطوتي على طريق الضحكة البريئة
لك السلام، لك السلام
أعطيك ما أعطتني الدنيا من التجريب والمهارة
لقاء يوم واحد من البكارة

«أنا» الوعي المتناقض

نحن هنا بإزاء «أنا» حديثة بكل معنى الكلمة. «أنا » تعي هزيمتها وتلوثها بالتجربة في هذا العالم الصاخب المأفون تحن إلى براءة مفتقدة تدرك أنها لن تستعاد أبدا وتعترف بهزيمتها وانكسار أحلامها وتبدد ماضيها بلا رجعة هي «أنا» الوعي المتناقض، الذى لايملك القدرة على تحقيق الأحلام القديمة ، ويتوق إلى براءة مستعصية، بل مستحيلة. وهذا هو الفرق الجوهرى بين هذه «الأنا» الحديثة، «والأنا»

الرومانسية التى تحلم أحلاماً وردية، أو ترفع راية القبيلة وتعتز عبرها بفرديتها، أو حتى تعيش فى وهم الدور المرصود للشاعر الرائى أو العراف . فقد فقدت «الأنا» الحديثة كل هذه الأوهام، أو أدركت أنها أوهام يستحيل تحقيقها فى عالم الليل السادر والمدينة الموحشة. وإدراك هذه الأنا لاستحالة الحلم، واستحالة أوهام استعادة البراءة، هو دليل نضجها ووعيها المأساوى الذى لامهرب منه فى الوضع الحداثى المترع بالتناقض لذلك ليس لهذه الذات سوى ذاتها وأحزانها تعود إليها فى «رؤيا» من قصائد «تأملات فى زمن جريح» :

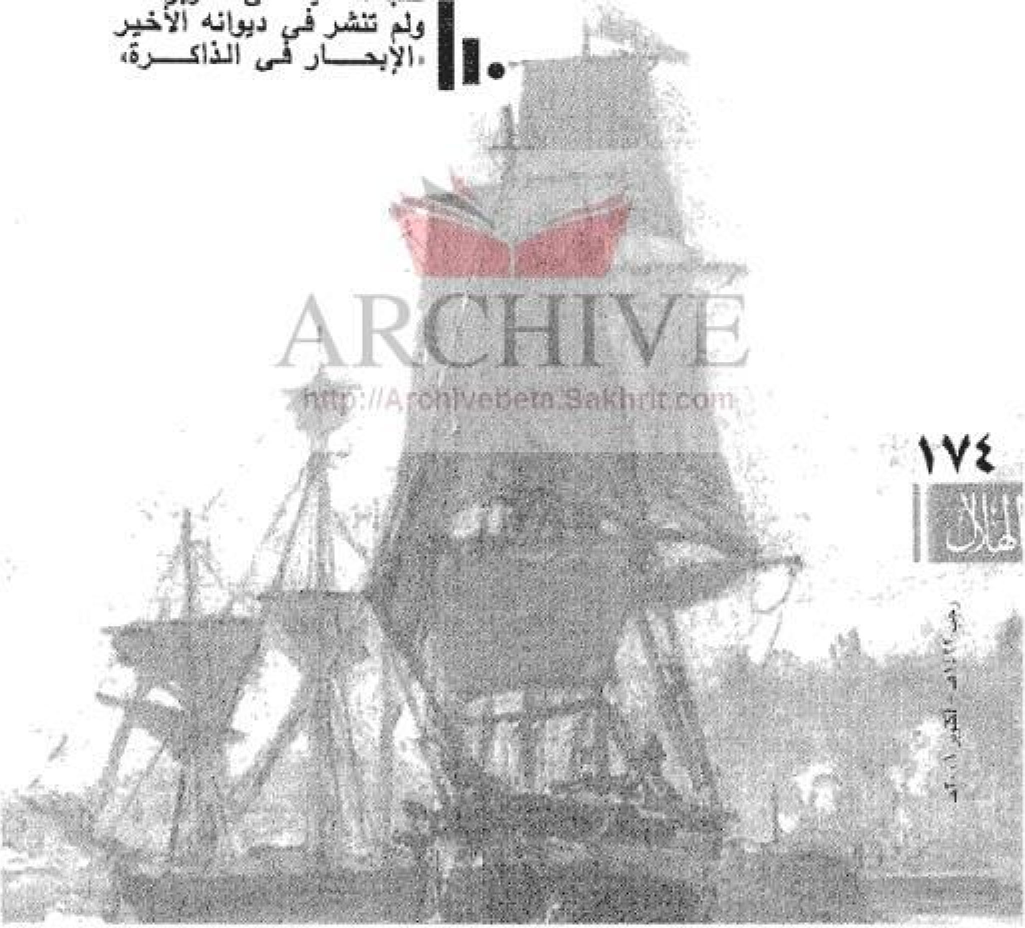
فى كل مساء
حين تدق الساعة نصف الليل ، وتنوى الأصوات
أتداخل فى جلدى
أتشرب أنفاسى
وأنادم ظلى فوق الحائط
أتجول فى تاريخى، أتنزه فى تذكاراتى
اتحد بجسمى المتفتت فى أجزاء اليوم الميت
تستيقظ أيامى المدفونة فى جسمى المتفتت
أتشابك طفلا وصبيا وحكيما محزونا
يتآلف ضحكي وبكائى مثل قرار وجواب
أجدل حبلا من زهوى وضياعى
لأعلقه فى سقف الليل الأزرق
أتسلقه حتى أتمدد فى وجه قباب المدن الصخرية
أتعانق والدنيا فى منتصف الليل

هذا التوحد مع الذات هو قدر «الأنا» الحديثة فى عالم لم يعد فيه للفرد تلك القديمة التى جعلت الإنسان مركز العالم ، لأنه خلق على صورة الرب كما تقول المسيحية ، أو لأن الله نفخ فيه من روحه كما يقول الإسلام، وهى كلها تصورات تضع الإنسان فى مركز العالم، وتعد الأساس الذى قامت عليه كل نزعات الفلسفة الفردية فقد كان انسحاق الإنسان بعد تدنى العقل والزراية بالمنطق أحد ملامح الوضع الحداثى الأساسية، ولذلك فإن «الأنا» الشعرية وهى تعود لذاتها وتنادم ظلها فوق الحائط فى قصيدة «رؤيا» لاتعد ذلك رفضا للعالم أو عودة لفراديس الذات ، وإنما تعى أن هذه الذات قد توزعت على أجزاء اليوم الميت، وأنه لم يعد لها وجود خارج تفتته وتشظيه وهى لذلك ذات يتشابك فيها الطفل والصبى والحكيم المترع بالحزن . ويصبح لديها الضحك هو الوجه الآخر للبكاء، والزهو هو القرين الحميم للضياع. والوجود فى الليل وفى المدينة الموحشة هو مأزق الوجود الذى لا مهرب منه. لقد استطاع صلاح عبد الصبور بحق أن يصوغ عبر دواوينه المتعددة أسس الوضع الحداثى وملامح «الأنا» الحديثة، بطريقة لم يستطعها أى من شعراء جيله . وهذا الإنجاز المهم هو أبرز ما سيبقى منه للتاريخ . ■

قصيدة مجهولة لصلاح عبد الصبور

عندما أوغل السندباد.. وعاد

كتب القصيدة فى أكتوبر ٧٩
ولم تنشر في ديوانه الأخير
«الإبحـار فى الذاكـرة»



.. كل شىء تجلى له
وتكشف..
كان انحدار المياه إلى منبع
النهر حتما،
وصار الرحيل
مللا يستطيل
ثبت السندباد مجاديفه ،
وأدار الشراع عن الريح
واستعد ليوم المعاد

***

فى فصول الرحيل الطويل
عرف السندباد الصباحات
عرف السندباد الأماسى

***

كان بعض الصباحات يتسع
البحر فيه
ويصبح كونا من الطيب
واليشب، والشمس
مجمرة تتدلى سلاسلها
الذهبية، ثم
يعانقها الغيم، تبتل حافتها
بالندى
كاشفا سر ألوانها السبعة
المستكنة فيها
يخرج البحر ألوانه
يمزج البحر ألوانه
يتبارى مع الشمس وصلا
وعشقا.. ويبذل
حتى تحل العرى، ويذوب
الوجوم
زبرجدة يصبح البحر، ينفث
لؤلؤه
الزبدى، ويملؤك الفرح يا
سندباد كما
امتلأت حبة بالرحيق، وتمثل
للنزع والنسم
صدرك قيثارة تتناوب فيها
أصابعها الخشنات
الرقيقات...
ينتشى السندباد وبمرأى
الزمان يعود
إليه، وينفى ويثبت فيما حوت
عينه من رؤى،
وما احتملت من ظلال البلاد
وما احتملت من شجى كامن
أو أسى مستعاد
ويبحر فى عرقه ودماه،
ويرسى بشط
الزمان البعيد القديم

***

وتعود الى السندباد طفولته،
وتعود الحقول
حقولا، ويعود الغدير ليمتد
كى تتأرجح فى جانبيه الحقول



وتعـود السكينة كي تتـمـدد
فوق الغدير
وتعود نجوم المساء
لكى تتناثر فـوق مـلاءتهـا
ارخبيلا
يطوف بين جزائره السندباد
زمنا مستعاد

***

ويعدو.. ويعدو
(يضحك السندباد لصورته،
وهو يعدو)
وتصلصل فى قلبـه الطفل
اجراسه الذهبية،
يعدو .. ويعدو
ويعـود إليه صباه رغيفا،
ونهدين
كـانا يمـيلان فى صورة،
يلثمان معا بين خاصرتيه.
لقد خـانك الوقت يا سندباد،
تسرب فوق رمال
حـياتك ، لولا فم البـحـر،
اسنانه الزبدية
لولا عناق الرياح وانفاسها
فى وتينك كانت
حـياتك مقـفـرة كـشتـاء
الصحارى، وملساء
مثل صخور الشواطىء، كنت
قضيت من
الوجـد والحـزن، اوغل اذن
سندباد ، افترع
خيمة الافق، وادخل..
ترشف نداها البليل، ارتعـد
نشوة
وتحـول عـمـودا من الفـرح
والنار، ينتفض جدرانها
يتلهب فى عمقها ثم يهوى
كبرق أضاء، كبرق خبا
.. وتقضي الزمان الصبا

***

كـان بعض الصبـاحـات
ينكمش البحر فيه،
ويغدو اديما من الجلد، اسود
مغضوضنا
لزجـا بالطحـالب والسمك
الميت والزيت، تلهث
نحـو الاديم شـفـاه المياه
مشفقة عطشا للرياح
.. أهذا هو البحر؟
لحـد من المـاء ، واد من
الخضرة المطفأة
..... أاهذا هو البحر؟
مـوت تئن به جـهـشـات

المجاديف معولة، والشموس
ممزقة في جهات السماء

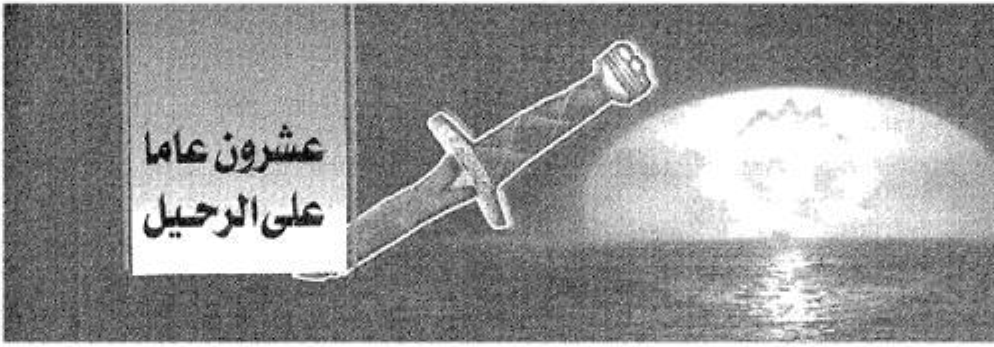
***

كان بعض الاماسى غطاء
جميلا كجسم امرأة
كان بعض الاماسى غطاء
ثقيلا كقبر
كان بعض الاماسى ثوبا
شفيفا، نيول الطواويس، نثر
النوافير ، اعراف خيل الرياح
العراب
يمتطى السندباد الظلام
المنقط بالضوء
يبحر نحو مياه السماوات،
وحدك تمضى
ايا سندباد، وقد ثمل الندماء
واغفوا،
ونامت أيادى رجالك فوق
المجاديف ، لا
شاهد لارتفاع البراقع الا
عيونك
جزت طباق الهواء الثمان
الكثيفة....
بحر وسيع سماوات ،
وأصبحت معنى
تحوم فيه المعانى..
وجدت.. فقدت.. وجدت
ورأيت الذى قد سمعت
وسمعت الذى قد رأيت

***

كان بعض الاماسى ثوبا
صفيقا من الزيت
والقار، الريح ساكنة
كالزجاج، على وجهها
البارد المستطيل تخثرت
الظلمات كدم..
أخلفت وعدها السحب، لم
تتفتح
حدائقها عن زهور النجيمات،
لم يرد البدر
اباره فى حقول السحاب،
وما تبعته عيونك
وهو يرطب خديه فى زرقة
الماء أو خضرة
العشب. نفسك مثقلة
بالهموم، اناخ
عليك المساء واثقل حتى
انكسرت شجى
وانحلت هباء
ويثقل نفسك ما حملت من
رؤى
وما احتملت من ظلال البلاد
وما احتملت من شجى كامن،
أو أسى مستعاد. ■

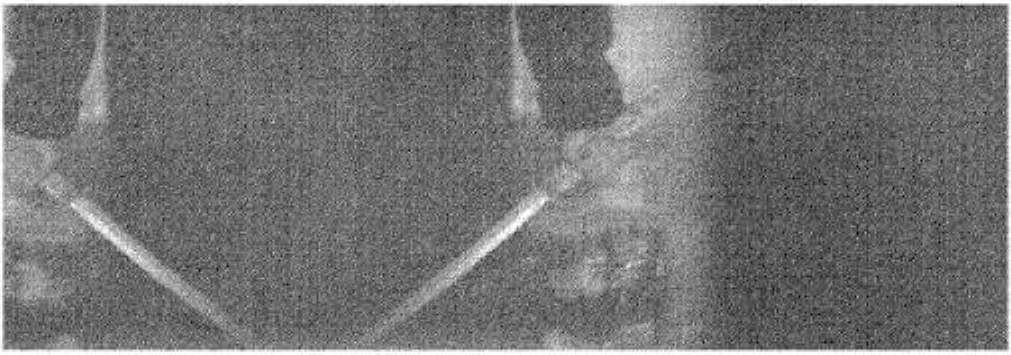




شنق زهران

بقلم
د. محمــود الربيعــى

صلاح عبدالصبور ذكرى حزينة مقيمة فى قلوب محبى الشعر العربى. كانت معرفتى به محدودة، ومكانته فى نفسى كبيرة، دخلت عليه - على غير معرفة - أيام كان مشرفا على مجلة «الكاتب» وقدمت له مقالتى «كيف أقرأ العمل الأدبى ؟»، فاستقبلنى استقبالا حسنا، وأوسع لها مكانا واضحا فى العدد التالى مباشرة لذلك اللقاء. وشاركت معه فى ندوة عن «نيرودا» فى جمعية الأدباء، وحين احتدم الخلاف بينى وبين شريكنا الثالث، حول القدر الواجب استخدامه من حياة الكاتب فى دراسة أدبه، استنجدت به، فقال - ولازلت أذكر عبارته - «أنا رجل توسطى» ! فهمت أنه تخلى عنى، ولكننى لم أغضب منه، لأن نبرته الودود، التى يعرفها كل من استمع إليه ، كانت تمنعك من تطوير أى شعور بالغضب تجاهه .

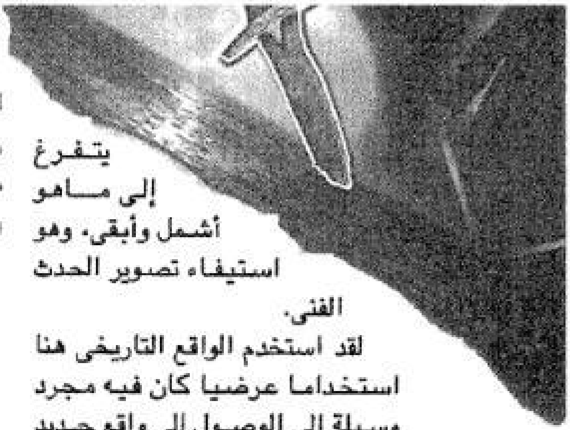


يعادى - من ناحية - «على مـايوجب الحبُّ للفـتـى» - على حـد قـول المتنبى ، ويمدح - من ناحية أخرى - لأسباب لا أراها أنا تدخل فى باب المديح. قيل فى سبب مديحه إنه متأثر بإليوت (وهل تسمى هذا مـدحا؟!) وقـيل قـدْحـا فـيـه إنه يخلط الثرثرة بالشعر، ولكن لم يقبل منه كذلك أن يفلسف الشعر ويعقده (فذُمّ بالشىء ونقيضه!) ولكن مجيئه فى «مـفـصـل» القـرن الماضى حين كانت الرومانسية منهكة جدا، وكانت الحداثة تحقق مكاسب كل يوم، ضمن له مكان الرائد، الذى تُعلَّق عليـه الآمـال فى تطوير الشـعـر العـربى وتحديثه.

لشعر صلاح عبدالصبور طبيعة تجعله قادرا على الوصول إلى مكامن بعيدة فى نفوس القراء وعقولهم، ومن اللازم أن تخـضـع نصـوص هذا الشـعـر للتـحليل، بالكشف عن عناصرها الأولية الفعّالة، التى تثير أحاسيس المتلقى، وتحقق لها الرضا والتـوازن ، فـتـؤهلها لـبَصَـر أحـدّ، وإدراك أوسع ، ووعى أعـمـق، وذلك عن طريق الشحذ العاطفى، والتحفيز الذهنى ، مما يضـمـن ضـبـطا أدق لردود الأفعـال العقلية، والعـاطفـيـة والسلوكية.

قصيدة شهيرة

ومن أشهر أعماله المبكرة قصيدة «شنق زهران»، التى نالت شـهـرة واسـعـة، وإن لم تنل - فـيـمـا أرى - نصيبا موازيا لشهرتها من الدرس والتحليل، لقد ربط الناس بسـرعـة بينهـا (وهى العـمـل الفنى) وبين الحادثة التاريخية التى تحمل إشارات لها (حـادثة دنشواى) فكانت النتيجة أن نظر بعض المتلقين إلى الحـادثة الفنيـة بصـفـتـهـا تابعـة للحـادثة التاريخية، وهذا ظلم للقصيدة مابعْده ظلم. والواقع أن الحدث التاريخى فى القصيدة غائم إلى أبعد حد، ويلفه الضباب من كل ناحية، وهو من عمل الشـاعـر على كل حـال، وهو الذى اخـتـار له هذا الدور الذى وضـعـه به فى الظل، وجعله لمحات، وذلك حتى



يتفرغ
إلى ما هو
أشمل وأبقى، وهو
استيفاء تصوير الحدث
الفنى.

لقد استخدم الواقع التاريخى هنا استخداما عرضيا كان فيه مجرد وسيلة إلى الوصول إلى واقع جديد هو الواقع الفنى، الذى تمثله القصيدة ذاتها ، ببنائها الحاصل من تضافر عناصرها، التى هى معجمها، وصورها، ورموزها، وإشاراتها، ولوحاتها المضيئة، وإعلانها – من ثم – عن مراميها الدلالية والروحية .

ولشنق زهران ملامح القصة، ففيها الحدث، والشخصية، والسرد، والتأزم، والانفراج، وهى تتبع نظاما بنائيا يتجاوز البيت والمقطع إلى اللوحة الكاملة، التى تمر أمام أعيننا كالتشكيلات الضوئية، فتساعدنا على تشرب القيم الموجودة فيها فى بطء وتمعن، ولاتزال هذه اللوحات تنمو عن طريق التضافر، والتقاطع ، والتوازى، والامتزاج، فيفيض بعضها فى بعض، محدثة ما أشرت إليه من تحقيق هدفها الكلى فى الراحة والتطهير.

والتتابع القصصى فى اللوحات الثمان التى تتكون منها القصيدة مقلوب رأسا على عقب، إذ يبدأ من النهاية، فتصور اللوحة الأولى «تدلى رأس زهران الوديع»، مقدمة له بجو من تداعيات الظلام والحزن المكثف ، والفزع:

وثوي في جبهة الأرض الضياء
ومشي الحزن إلي الأكواخ
تنين له ألف ذراع
كل دهليز ذراع
من أذان الظهر حتي الليل
.. يالله
في نصف نهار
كل هذي المحن الصماء في
نصف نهار
منذ تدلى رأس زهران الوديع

تثبيت الصورة فى ذهن المشاهد

لماذا تصور اللوحة الأولى من القصة المشهد الأخير منها؟ ألتحقق الغرض الذى يلخصه البلاغيون العرب القدامى بقولهم إن الشىء يقدَّم فى الذكر للاهتمام به؟ أو الغرض الذى ترمى إليه السينما من تثبيت قلب الصورة فى ذهن المشاهد بالتركيز عليها منذ الوهلة الأولى، ووضعها فى بؤرة الرؤية؟ وما أشرت إليه من الظلام والحزن والخوف مفردات تتآزر بعناية محدثة نوعا من المفارقة فى المكان والزمان؟ فمن ناحية المكان تتغلغل فى «كل دهليز» ومن ناحية الزمان تختزل فى «نصف نهار»! وهكذا تنسج اللوحة بعناية من خيوط خارجية، ولكنها من

صميم الطبيعة: الظلام، والأكواخ، والتنين، ورأس زهران، وأذان الظهر، ومن خيوط داخلية هى من صميم الطبيعة أيضا: الحزن، والمحن الصماء، والموت.

يكرّ الحدث بعد ذلك راجعا فى أسلوب «ارتداد» فيصل بين اللوحتين الأولى والثانية فى نسق «طردى عكسى» بديع:

كان زهران غلاما
أمه سمراء والأب مولد
وبعينيه وسامه
وعلي الصُّدْغ حمامه
وعلي الزند أبو زيد سلامة
ممسكا سيفا وتحت الوشم
نبش كالكتابه
اسم قريه
دنشواي

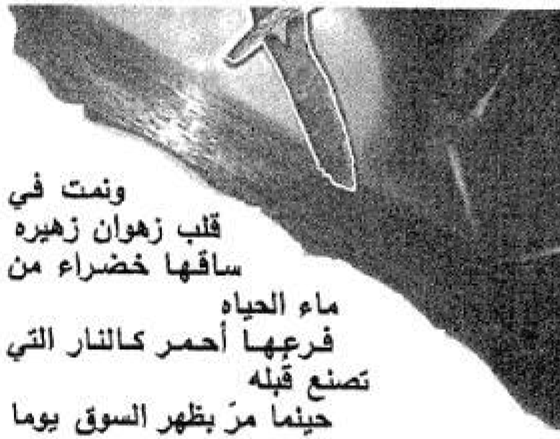
فى تكوين البطل الشعبى تحمل «ثنائية السلالة» معنى من «الثراء» و«التركيب» لاتحمله «أحادية» السلالة، لذا يحمل «التهجين» و«التوليد» فى هذه اللوحة من المعانى الايجابية مايتعارض مع «نقاء» السلالة، وهو مطلب شعبى كذلك.

صحة التمثيل بتعدد العناصر

نحن هنا فى جانب «اغتربوا تصحوا» أو فى جانب صحة التمثيل بتعدد العناصر. وإذ نفرغ من مسألة السلالة نواجه الملامح الحسية والمعنوية للبطل الشعبى، وأولها أنه بطل يحمل طابع «الوسامة»، لكن لماذا تناط الوسامة بالعينين؟ لأنهما آية الحياة والشاهد عليها، وأننا إذا تعرفنا على حقيقة الأمر من مصدره سهل علينا بعد ذلك التعرف عليه فى مظاهره المختلفة؟ وتتوالى الصفات والمظاهر حسية ومعنوية، وكلها تؤكد الجو الشعبى، والهوية القروية. وأول مانطالعه - فى هذا الصدد - الوشم - بظلاله المتضاعفة ورموزه الغنية؟ فالسلام يرمز له بالحمامة تطالعنا دون حجاب (وعلى الصُّدْغ حمامة)، وهى متصلة بحمام دنشواى بالطبع، ولكن على سبيل التذكرة فحسب، والحرب يرمز له بالهلالى «ممسكا سيفا»، وهكذا يعمل النقيض مع نقيضه فى مجال واحد، والهوية (وهى هدف الأهداف) يؤكدها الحفر العميق الذى لايمحى إلا بالنار على الزند والصدغ، وهو على الزند - بصفة خاصة - يقدم بطاقة تعريف (اسم قرية - دنشواى) لها من الثبات والملازمة مالايتوفر لغيرها، مما يمكن أن توفره المدينة، مهما تفننت فيه.

وتفيض اللوحة الثانية هذه (وهى لوحة الصبا) فى اللوحة الثالثة (وهى لوحة الشباب):

شب زهران قويا
ونقيا
يطأ الأرض خفيفا
وأليفا
كان ضحّاكا ولوعا بالغناء
وسماع الشعر في ليل الشتاء



ونمت في
قلب زهوان زهيره
ساقها خضراء من
ماء الحياه
فرعها أحمر كالنار التي
تصنع قبله
حينما مرّ بظهر السوق يوما
ذات يوم

فى البداية نرى «القوة» مقرونة «بالنقاء» فى نسق يكاد يجعل منهما قيمة واحدة (النقاء فى القوة، أو القوة فى النقاء)، الأمر الذى يجعلنا نقول إن قوة البطل الشعبى فى نقائه، على أن ثمة صفات أخرى داعمة وملازمة، فهو «يطأ الأرض خفيفا» (وهذا بالتعبير القرآنى : «يمشون على الأرض هونا»، وبالتعبير العلائى: «خفف الوطء...») وهذه الخفة تتناغم مع «الألفة» التالية، محدثة إيقاعا ظاهرا فى موسيقى القافية، وآخر باطنا فى التقابل بين المحسوس «خفيفا»، والمعنوى «أليفا» وإضافة إلى ذلك، هو مفطور على المرح، وحب الفن وهما صفتان لايفيد فى اكتسابهما التحصيل، ولابد أن يولد الإنسان بهما.

هكذا يصبح البطل الشعبى جاهزا للتحول من مرحلة الصبا إلى مرحلة الشباب، وهو تحول تقدمه القصيدة فى أنعم أسلوب، يجمع بين ماتفعله الأرض (ساقها خضراء) وما تفعله النار (كالنار التى تصنع قبله) وهكذا يدب ماء الرجولة فى الصبا، وهكذا أيضا يكون الشعر هو فن النسج الرقيق والإيحاءات الكاشفة. قارن هذا مثلا بما يعج به بعض ما ينسب ظلما إلى حومة الشعر الحديث من غلظة جسدية، وفظاظة جنسية، هما دليل الجهل، أو الصلف، أو هما معا!.

مرّ زهران بظهر السوق يوما
واشتري شالا منمنم .
ومضي يختال عجبا مثل
تركي معمم
ويجيل الطرف، ما أحلي
الشباب

عندما يصنع حبا
عندما يجهد أن يصطاد قلبا

«كان ياماكان» ودلالات شعبية

الحياة هنا تعرض نفسها، وهى فى أبهى حالاتها حيوية وتوقا للالتحام بالآخر ، ولا مكان أكثر ملاءمة لذلك من سوق القرية، إنه قلبها النابض، وعلى ذلك فهو الوعاء الطبيعى للفعل الشعبى الحيوى، والتركى رمز نموذجى أعلى للفلاح عندما يريد أن يختال : لقد أسكره الاختيال، فتخلص بالمجاز من غطاء رأسه الريفى، وتبنّى غطاء رأس الحاكم، وتخرج الأنا سافرة فى رحلة السعى إلى الالتحام بالآخر، إذ تختار القصيدة لذلك كلمة

شـعـبيـة بمعنى الكلمـة هى كلمـة «الاصطياد» (يصطاد قلبا).

ولن أقف طويلا - فى اللوحـة الخـامـسـة - عند عـبـارة «كـان ياماكـان»، ومـا تحـمله من دلالات شـعـبيـة، فـقـد وقف عندها نقـاد القصيدة بما فيه الكفاية:

كـان يامـاكـان أن زفت لزهران جميلة
كـان يامـا كـان أن أنجب زهران غلاما وغلاما
كـان يامـا كـان أن مـرّت لياليه الطويلة
ونمـت فـي قـلـب زهـران شجيره
سـاقـهـا سـوداء من مـاء الحياة
فرعـهـا أحـمـر كـالنار التي تحرق حقلا
عندما مرّ بظهر السوق يوما ذات يوم

البطل الشعبى من الحياة العادية الي الحياة الثورية

إنمـا أريـد أن ألفت النظـر، أولا إلى كلمة «جميلة»، وكيف أنها - اسما أو صـفـة - تظل عنصـرا فـعـالا فى تركـيـب اللوحـة، كـمـا أود أن ألفت النظر إلى أن البطل الشعبي لابد أن يكون ولودا، ولايتـصـــور أن يكون عقيما أو مُقلا (أنجب زهران غلاما وغـلامـا)، كـمـا أن إنجـاب الـغـلام (الذكـر) له فى البيـئـة الشـعـبيـة - وبخاصة الريفية - قيمة خاصة، تجعل منه مطلبا حيويا، وإذ نتحول - بعد ذلك - إلى «كان ياماكان» يلفت نظرنا تردده على نحو يجعل منه رمزا معادلا لدورة الزمن الروتينيـة، التى توقع فى الرتابة (مـرت ليـاليـه الطويلة) والتى تجعل من كسر الملالة فى حياة البطل الشعبي بحدوث أمر ثورى شيئا لازما، يخـرجـه من حـيـز الدوران فى عـالم «الجميلة والغلام» ونلاحظ أن ذلك يتم بالعـودة إلى الطين، فـالشـجـرة هى الشجرة، غير أن ساقها الخضراء هناك تحـولت هنا إلى سـاق سـوداء، أما فرعها فبقى أحمر كالنار، ولكنها ليست النار المنتجة التى تصنع قُبله، بل النار المدمـرة التى تحـرق حـقـلا، كانت النار هناك نار «الإخصاب» وهى هنا تصيب الإخصاب فى مقتل بتدمير الإنسان.

وهكذا يَعْبـر البطل الشـعـبى فى القصيدة من الحياة العادية إلى الحياة الثورية فى نعومـة تعبيرية مجازية، تعيد إلى الذهن النعومة التعبيرية المجازية التى عبـر بهـا من قبل فى القصيدة من الصبا إلى الشباب.

ويـسـتـمـر الـسـوق - فى اللوحـة السادسة - عنصر ربط، وإشارة إلى قلب الحـدث الشـعـرى، فى حين تبـقى النار - بمعناها الجـديد المدمـر - مهيمنة:

مرّ زهران بظهر السوق يوما



ورأي
النـار الـتـي
تحرق حقلا
ورأي النــار الـتــي
تصرع طفلا
كان زهران صديقا للحياه
ورأي النيران تجتاح الحياه
مدّ زهران إلي الأنجم كفا
ودعا يسأل لطفا
ربما سورة حقد في الدماء
ربما استـعـدي علي النار السماء

تضيف القصيدة إلى التدمير فى هذه اللوحة عنصرا جديدا هو اغتيال الإنسان (تصرع طفلا)، وكانت قد قدمت فى اللوحة السابقة اغتيال قُوت الإنسان (تحرق حقلا)، وهكذا تدمر النار الحياة بطرفي معادلتها (الإنسان وقوت الإنسان)، فأى مثير للثورة فى قلب محبى الحياة يفوق هذا المثير؟ والثائر - محب الحياة - مسلح فى القصيدة بسلاحين من العزيمة (سورة حقد فى الدماء) والإيمان بعون السماء (ودعا يسأله لطفا/ استعدى على النار السماء) . والمعنى أن وضع الإحساس الثورى موضع العمل محتاج إلى رصيد إيمانى يركن إليه، فالنخوة الوطنية هى التى تنهض على عقيدة صحيحة، وقد رأينا بأعيننا فى السنوات الأخيرة كيف انهارت الثورات التى تنحى العقيدة، وتناثرت أشلاؤها كأوراق الخريف، كما رأينا أن دعاء السماء وحده لم يجلب لأصحابه سوى الهزيمة والخذلان.

الفعل الشعرى

لاتحتاج القصيدة أن تخبرنا بعد ذلك عما فعل الثائر، فإحكام دوافع الفعل تحتم وقوع الفعل ، فيصبح بذلك غنيا عن البيان، ومؤهلات الثأر تكفينا مغبة السؤال عن أفعاله الثورية، هكذا نرى اللوحة السابقة تصور من جديد «تدلى رأس زهران الوديع»، ولكن دون إخلال بتضافر أجزاء الفعل الشعرى، أو بالصيغة القصصية التى يختارها هذا الفعل أسلوبا له:

وضع النِّطع علي السكة
والغيلان جاءوا
وأتي السيّاف مسرور وأعداء الحياه
صنعوا الموت لأحباب الحياه
وتدلي رأس زهران الوديع .

ثمة ترويع فظيع ماثل فى النِّطع والشيف، ترفده عوامل يأتى فى مقدمتها التأكيد على اسم السيّاف «مسرور» وقد نقرأها بالنصب: «مسرورا»، ليتأكد معنى البطش الذى يصل إلى حد البهجة بإراقة الدماء، وأن ليس الحاصل أداء الوظيفة فحسب بقطع الرقاب وإنما التلذذ والسرور بأداء هذه الوظيفة البشعة،

وفي جميع الأحوال تعود المأساة إلى نقطة البداية فى «وتدلى رأس زهران الوديع».

نهاية القصيدة ونبرة التفاؤل

وفي اللوحة الثامنة الختامية تهيمن جحافل الحزن، والهزيمة، والرعب، ولكن العجب أن كل ذلك ينتهي بالقصيدة إلى نبرة متفائلة، مخالفة لكل عناصر الموقف، إذا نظرنا إليها بحسب الظاهر، هذه النبرة المتفائلة تكمن فى السؤال الاستنكارى «فلماذا قريتي تخشى الحياة؟» وهو سؤال يعضده – ولاشك – السطر الشعرى السابق عليه: «مات زهران وعيناه حياة». فما معنى هذا السؤال الذى يثار فى جو تسلم كل العناصر المحيطة به ظاهرا إلى نتيجة منطقية هى الهزيمة أمام الحياة؟ لا أجد فى نفسى جوابا سوى أن القصيدة تقدم رؤية مفادها أن البطل لايستحق هذه التسمية إلا بأن يموت فعلا فى سبيل الهدف والمعتقد، ويقدم حياته من أجل الآخرين، وإلا فما معنى كونه بطلا من الأساس؟ وإذا مات البطل الشعبى من أجل الآخرين، لايصح أن يكون نتيجة موته انكسار معنى الحياة فى نفوس الآخرين. ذلك لأن هذه النتيجة – لو تحققت – تُفرغ تضحية البطل الشعبى بحياته من معناها، إذ معناها الحقيقى أنها «موت» «فردى» يحدث ضرورة من أجل «حياة» «جمعية». أما إذا تحقق المعنى الصحيح لموت البطل الشعبى فلابد أن تكون النتيجة بطلان خشية الحياة وصحة إرادة الحياة، على أن الحزن، والخوف، والإحساس بتصدع الأركان، كلها أمور مفهومة، باعتبارها ردود أفعال آنية لموت البطل ، ولكن ردود الافعال هذه شىء، والعزوف عن اقتحام غمرات الحياة شىء آخر، فاقتحام غمرات الحياة أمر ينبغى أن يعززه موت البطل الشعبى ما بقيت هذه الحياة، وما جدّ من موت بطل شعبى جديد.

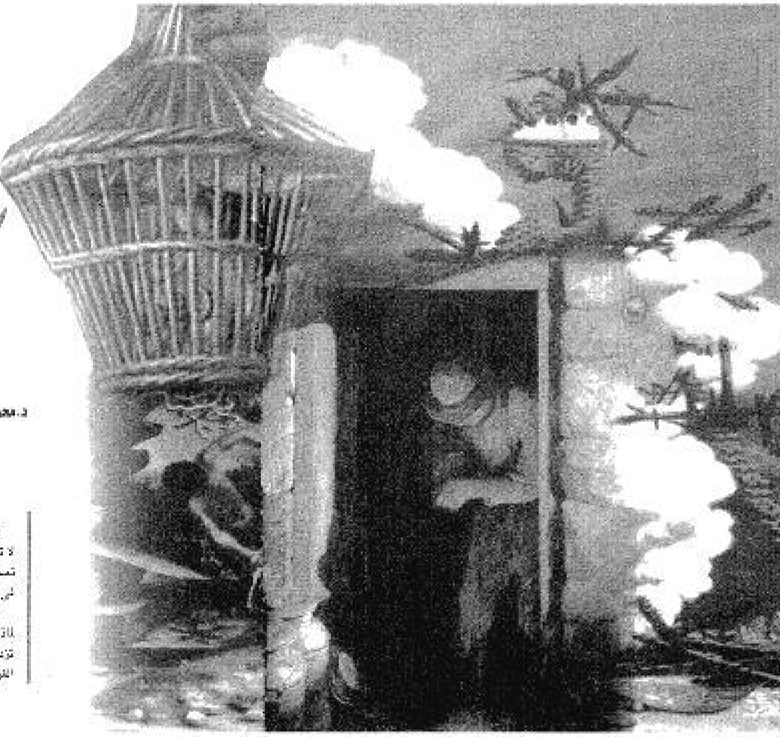
لقد أخذت قصيدة «شنق زهران» بمجامع عقلى وروحى، بصفتى واحدا من متذوقى الشعر العربى ومحبيه ، وكانت أدواتها فى رحلتها إلى نفسى تلك البنية المتضافرة، وتلك السلاسة اللغوية وتلك الموسيقى الواضحة الخفية، وتلك البساطة الحميمة ، وذلك الحزن الايجابى، وذلك السبر العميق لأرجاء الشقاء البشرى ، ووحشة الروح الإنسانى، وقد ضمنت لنفسها – بهذه الخصائص الداخلية لا بأية عوامل من خارجها – مكانة باقية ما نظر ناظر فى ديوان الشعر العربى الحديث. ■

قصة قصيرة

غابة القفص

بقلم
د. محمد المنسى قنديل

تقول في صوت حازم:
لا تدع أي أوهام تراودك. لن تعمل خارج القفص وإنما في داخله.
لا أفهم ماذا تعني ولا لماذا تكلمني بهذه الحدة، تزداد وحشتي. كأن برودة الغرفة ليست كافية. صوتها



ليس فقط هو الحاد، ولكن كل ما فيها حاد، أنفها المدبب المرفوع، رموشها التى تستدير إلى أعلى فى أقواس صغيرة، تحتهما عينان واسعتان مدببتا الأطراف، وحتى شفتاها الرفيعتان وهما تستديران حول أى كلمة تخرج من بينهما، فتحيطهما بنوع من الصدى الخافت، أقف مرتجفا فى وسط الغرفة وهى تحيط بى مثل شرك مباغت فى ليلة ضبابية.

أدير رأسى بعيدا عن أسر عينيها، لا أريدها أن تتمعن فى ارتجافتى طويلا، ألمح لافتة خشبية موجودة على حافة المكتب، محفور عليها اسمها «بلقيس سليمان»، لمسة أخرى من السخرية المريرة، أدير رأسى فأرى حارس الأقفاص العجوز «جمعة» وهو واقف فى أحد الأركان، هل كان يرتجف هو الآخر؟ تصمت السيدة حين



تلاحظ أننى قد أدرت رأسى، تتكلم فقط وهى تنظر إلى من خلال عينى، تريد لكلماتها أن تنفذ مباشرة إلى داخلى، تقول:

- كم شهر مضت وأنت عاطل عن العمل.

أقول فى تردد: سيدتى لا أهمية لذلك الآن.

تهتف: كم؟

أقول : ستة أشهر.

تسير فى خطوات سريعة، تفتح ضلفة خشبية فى الجدار وتخرج منها كومة من الفراء وتلقيها أمامى وهى تقول:

- لن ترفض هذا العمل إذن

للفراء لون ترابى مائل للصفرة، يفوح منه عفن وغبار وبقية من حياة ميتة، أقلب فيه مدهوشا دون أن أتعرف على هويته، شعر قصير مدبب، عينان من مادة داكنة تومضان فى وهن، ومخالب من معدن صدىء، وذيل من اللباد، من المؤكد أن أحدا لم يشغل هذه الوظيفة منذ مدة طويلة، أتحسس الجسد، يسرى فى أصابعى بعض من الموت الكامن فى ثناياه، أحدق فى وجه حارس الأقفاص الصامت، كان هو أيضا يرتجف، يشعر برائحة الموت التى تجول فى الغرفة، يظل وجهها جامدا وممتعضا، قلت:

- أى حيوان هذا؟

لا تجيب عن سؤالى، تقول:

- هذه الوظيفة ستوفر لك راتباوطعاما ومأوى، عليك أن تقبلها أو تغادر الحديقة على الفور،

لا وقت لدى أقضيه مع العاطلين عن العمل.

أود أن أعطيها ظهري وأن أتراجع، ولكني كنت منهكا من شوارع المدينة الباردة التي جبتها عشرات المرات، حفظت روائح الأرصفة في الأحياء المختلفة، وطيف الأضواء في النوافذ، وتشكيلات السحب في الليل، ونازعت الكلاب الضالة نفس الطعام، وعانيت من الارتجاف من وقع أقدام رجال الشرطة، ومن الجوع إلى جسد امرأة، ومن التماس مكان لا تفوح منه رائحة العفونة، أعيش يوما بعد آخر على هامش عالم غريب، الكلمات التي أقولها فيه فقط هي كلمات الاستجداء، المصادفة التعسة هي فقط التي قادتني هذا المساء إلى تلك الحديقة، وإلى مكتب هذه المرأة، أنحني إلى الأرض، أتناول الفراء وأضم رائحته العفنة إلى صدري كأنني أحتمي به، تستدير وتعطيني ظهرها كأنها قد ملت من رؤيتي، تقول للحارس:

- خذه للقفص ودربه على الحركات المناسبة.

لا تستدير ولو لتلقى نظرة أخيرة عليّ وأنا أغادر الغرفة، هل يمكن أن تتأتى لحظة أمسك فيها هذا الجسد الحاد الفارع وأضاجعه حتى تتكسر كل عظمة فيه.

أسير متعثرا خلف الحارس وأنا أحمل الفراء، أتنفس الهواء البارد، أسمع خوار الحيوانات النائمة، أحس بأنفاسها الحارة وأنا بجوار الأقفاص، يمضي



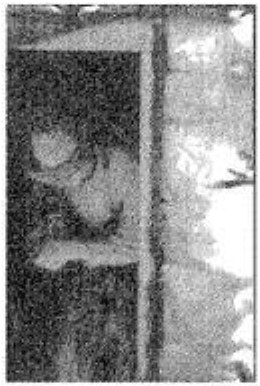
الحارس صامتا وكئيبا كأنه يقودني إلى قبري، يفتح الباب فتئن كل المفاصل الصدئة، أسمع صوت الحارس وهو يتحدث أخيرا:

- ها هو قفصك، البس الفراء، الآن سوف يجعلك تشعر ببعض الدفء، وعندما يقبل الصباح سوف تكون قد تعودت عليه.

اقرأ بصعوبة على باب القفص لافتة مكتوبة بخط ردئ: أسد استوائي. موطنه غابات أفريقيا.. أنظر في دهشة إلى الحارس، لا أرى ملامح وجهه بوضوح وسط الظلام، لا أعرف إن كان يرثي لي أم يسخر مني، من المؤكد أنه يعلم - من واقع خبرته - انه ما أن يأتي الصباح حتى أصبح سخرية الجميع، أدخل إلى القفص، وأشم عفونة الحيوان الذي سبقني، ينغلق الباب عليّ فتسرى رعدة في مفاصلي، كل

شىء بارد حولى، وانصراف الحارس السريع يزيد من درجة البرودة والجوع فى داخلى، لم يكن هناك حل لهذه التعاسة إلا أن أتشبث بهذا الفراء، أدخل نفسى فيه، الحيوان الذى تم سلخه أكبر حجما منى، أتأمل مخالبى المستعارة وأنيابى الحادة وفرائى الزائف، ثم أتحسس بطنى المتخشب من طول الجوع، إلى أى مدى قادتنى هذا الجوع؟ أتكوم فى ركن من القفص، أرى نافذتها الضيقة فى مواجهتى، وظلها وهو يتحرك خلفها. هى أيضا كانت أشبه بنا. بكل الحيوانات الحبيسة داخل أقفاص الحديقة، لها فرائها الخاص الذى ترتديه بعد أن يمضى الجميع، أظل أحدق فى النافذة، يربط ما بيننا ذلك الظل القلق.

أستيقظ وأنا أحس بشىء صلب يوخزنى فى



صدرى، حارس الأقفاص يقف خارج القضبان وهو يوجه نحوى عصا طويلة، بدأ يعاملنى مثلما يعامل بقية الحيوانات، يشير إلى عدة أرغفة وطبق من الفول وهو يصيح:

- كل سريعا وارتد غطاء الرأس، سرعان ما يأتى الزوار.

خبز يابس وفول حامض، أحشو معدتى، ليس لى خيار التذوق، يرن الجرس الداخلى للحديقة فتتأهب كل الحيوانات، تخور فى وهن وهى تدرك أن أمامها يوماً آخر صعباً، أضع رأسى داخل الغطاء ذى الفراء فيسود الظلام وأوشك على الاختناق، أتبين وجود فتحتين صغيرتين وسط العينين، وفتحة أخرى خلف الأنياب، يصبح العالم ضيقا والهواء شحيحا، لا أدرى إلى متى يمكننى الصمود هكذا، يبدأ الزوار فى التدفق، تعلو ضحكاتهم وروائح أطعمتهم، أنظر من خلال الثقب فأرى جموعهم حولى، عشرات من الوجوه، صغارا وكبارا. كأنهم لم يأتوا إلى الحديقة إلا لرؤيتى، يعاود الحارس وخزى بطرف عصاه فى قسوة، أنهض وأتمشى أمامهم متوجسا من لحظة انكشافى، أراه يجمع النقود منهم ويعاود وخزى مرة أخرى، أتأوه فى صوت عال، يشهق الجمهور فى خوف وانتشاء، من خلال الفتحات الضيقة أراهم وهم يرتدون فى خوف حين أقترب من القضبان، ثم يعاودون الاقتراب مرة أخرى حين

أبتعد، تنتظم إيقاعات أجسادهم من خطواتي، وتختلج تعبيرات وجوههم مع صيحاتي، الرجال يدخنون بعصبية والنساء ينظرن في اشتهاء، والأطفال يسرحون في نظرات ساهمة، كيف جازت عليهم الخدعة؟ كيف استطاعوا الاقتناع بجسدي الهزيل وهو يتحرك وسط هذا الفراء المتهدل، كيف اقتنعوا بعيوني الميتة ومخالبي الصدئة.

عبثا أحاول الابتعاد عنهم والانزواء في نهاية القفص، فعصا الحارس تطولني في كل مكان، تأوهاتي تتضاعف داخل الرأس الزائف فتتحول إلى زئير، يرتفع هياجهم كلما صرخت من الألم، كل جزء من جسدي قد أصبح يؤلمني، أود أن أتوسل إليه أن يكف ولو قليلا عن إثارتي، كنت في أمس الحاجة إلى لحظة من الراحة في هذا النهار



الطويل. لا أصدق عيني وأنا أرى أشعة الشمس وهي تنسحب من خلف الأشجار، ولا أذني وهي تسمع صوت الجرس الختامي، انسحب الناس أخيرا وانقضت لحظات الجنون، لم يبق إلا أصوات خوار الحيوانات التعسة المتعبة، انهار نائما على ظهري وقوائمي - رغما عني - مرفوعة إلى أعلى، أستيقظ مفزوعا على صوت مفاصل القفص الصدئة والحارس يضع أمامي طبقا من الطعام وبعض الأرغفة، تتصاعد الأبخرة من الطبق وتطفو عليه الدهون، يقول الحارس:

- كنت قاسيا عليك اليوم، ولكن هكذا الشغل، ويجب أن نرضي الناس الذين حضروا إلينا.

يساعدني على خلع رأس الأسد من فوق رأسي، أبدأ في الأكل بسرعة خوفا من أن يحدث أي شيء يحرمني من هذه الوجبة، خليط من الأرز والطعام وقطع من الشحم اللزج دون لحم، ولكني أحس بها تسري في عروقي وتبعث فيها الدفء، يتأملني «جمعة» الحارس في نظرة هي خليط من الشفقة والازدراء، كم جمع من القروش التي انهالت عليه طوال اليوم، أخاف أن أسأله حتى لا يرفع الطعام من أمامي، في هذه اللحظة كانت حاجتي للطعام أقوى من حاجتي للنقود، لابد أنه قد قرأ الأفكار التي تجول في خاطري، ينهض فجأة ويغلق القفص خلفه، أصرخ فيه أن ينتظر قليلا ولكنه يمضي، لم يبق

أمامى إلا أن أمسح الطبق حتى آخر قطعة من الدهن وانتظر داخل الفراء العفن.

يلف الحديقة تعب وظلام وسكون، يمحو ضوء القمر كل الألوان، أحس بالغثيان من كثرة الدهون ولكن الدفء يبقى، يسترخى جسدى ببطء، وتضاء نافذتها فى ليلى البارد الطويل، ويبدأ ظلها فى التحرك، هل يتأتى لى أن أقف أمامها مرة أخرى، وأن تكون أقل حدة وأكون أنا أكثر قدرة، هل يقدر لى أن ألمس جلدها لعل فيه بعضا من الدفء الذى أتوق إليه، أغفو قليلا ثم أستيقظ، أراها واقفة أمامى، تحدق فى مدن خارج القفص، ملامحها أكثر شحوبا تحت ضوء القمر، لا تتكلم وتحاول أن تنفذ بنظراتها خلف جلد الأسد الذى أرتديه، أسمع صوت أنفاسها الثقيلة، ترتدى ثوبا أبيض فضفاضا متهدلا على جسدها ذراعاها عاريان وثدياها ناهدان، تحدق فىّ قليلا ثم تبدأ فى السير مبتعدة، لا تعود إلى بيتها ولكنها تجوس وسط الأقفاص، ألمحها من بعيد مثل طيف ومثل وهم، يظهر ويختفى كحلم فى يقظة ناقصة، تعاود الحديقة يقظتها من جديد، كأنها من خلال هذا السريان الدءوب تبعث بعشرات من النبضات الحية التى توقظ الحيوانات وتملأ جسدها بالانتشاء ترتفع أصوات الخوار والعواء والنباح والهرير والفحيح والهديل والصهيل والزقزقات، تتداخل وتتحول إلى همهمات من



الرغبة الجائعة. لا أراها عائدة إلا بعد أن ينتصف الليل ويغور القمر، أرى ظلها ممتدا على العشب، وثوبها ملوث ببقع داكنة كأنها دماء طرية أو كأن القمر يبالغ فى خداعى.

صباح آخر، طعام يابس ووجوه مزدحمة، وعصا طويلة تباغتنى كلما توانيت، أتجول وسط عيونهم المحملقة وأتذكر كل الذين ارتدوا ثياب الأسود وزأروا مثلى، أباطرة وملوك قدامى، وقادة مزهوون بالنياشين، وقتلة متربصون، كان فى داخلهم نفس الشخص الخائف، وكل الذين حولهم لم يروهم إلا بعيون الخوف كما يروننى الآن، يضيق الجلد من حولى، يزداد اقترابا من جلدى الحقيقى، ببطء شديد أشعر أننى سيد الموقف، الملك الذى يسعى كل زوار الحديقة لرؤيته كل يوم، تعتدل خطوات وتصبح أكبر رسوخا على

الأرض، ويصبح زئيري قويا ومثيرا لرعب الرجال وشهوة النساء، يأتي الحارس في كل مساء، يضع أمامي طبق الطعام وهو يراقبني في حذر، أقول له:

– ماذا عن بقية حيوانات الحديقة؟

ينظر نحوي في بلاهة وهو يردد: ماذا عنهم؟

– هل كلهم مزيفون مثلي؟

– لا أدري، من المؤكد أن بينهم من هو مزيف، ولكني لا أعرف من هم، لم أعد أستطيع التمييز بين الحيوان الحقيقي والمزيف، الجميع حيوانات كما تعلم، عندما يجوعون أو يخافون كل من في الحديقة جوعى وكل من في الحديقة حيوانات.

– وبلقيس هل هي متزوجة، أرملة، أم عقربة سوداء؟

لأول مرة حدق في بخوف وهو يقول:

– لا يمكن أن تتحدث عن المديرة هكذا.

– لماذا، هل هي خطرة، هل هي أخطر من بقية حيوانات الحديقة؟

حدق فيّ طويلا ثم هتف: كلا، ولكنها تمتلك المصائر.

يتركني ويمضي دون أن يوضح كلماته، ينتصف الليل فأراها تمضي في ظلمة الحديقة دون بقية من قمر، تثير رؤيتها بداخلي جوعا ممضا، في الصباح وعندما تلتف حولي الوجوه الغريبة، أرى وجهها محاطا بظلمة الليل الخفية ترى كيف تبدو في ضوء النهار؟ لم تعد تقترب من قفصي، لا



تعرف أن الجلد قد ضاق علي والتصق بجلدي، وأنني حين أغفو ليلا تملأ أنفي روائح الطل والمطر والدم الطازج، وحين أرهف أذني أسمع حفيف الأجنحة وهسيس الديدان وصوت العصافير في نسغ الأشجار وارتعاد الطرائد في لحظة الافتراس، يقول لي الحارس: رائحتك أصبحت لا تطاق، قلت: فلأستحم إذن، قال: من الصعب أن تخرج من هذا الجلد، قلت: ومن قال إنني أريد أن أخرج منه.

ينصب الماء على فرائي فأحس به باردا وعذبا، كأنه مطر عذب يأتي من سحابات استوائية لاتجف، أنفض الماء من على لبدتي وأنا أقول للحارس:

– الليلة سوف تترك لي باب القفص مفتوحا.

يهبط بخرطوم المياه من على جسدي وهو يهتف:

– ولكنك أسد، والأسد لايجب أن يكون

خارج القفص.

- أريد أن أتجول داخل الحديقة، لن أخرج منها

يظل مترددا، يقول في خوف:

- لو عرفت المديرة ذلك فسوف تقتلني.

أقول له في تأكيد: لن تعرف

ولكن الخوف لا يغادره: إنها تعرف كل شيء، حتى قبل أن نقوم به.

اضطر إلى تهديده:

إذا لم تترك القفص مفتوحا فسوف يجدني الزوار أشبه بالجثة الهامدة، لن أتحرك ولن تجني من ورائي قرشا واحدا.

يتأمل وجهي قليلا: أعرف فيما تفكر، إنه أخطر مما تتصور.

يستدير وينصرف مبتعدا، وانفض الماء من على جسدي وأتمسح في القضبان، يهبط ليل داكن، وتهجع الأصوات، أخرج إلى العراء، هواء بارد مختلف عن هواء القفص



البارد، لمسة من الحياة تمس جسدي الذي ما زال فيه بقية من بلل، أسير عبر الأشجار القديمة الباسقة، أحس بجذورها الضاربة وهي تقلق استواء الأرض، أصعد على الدرج الضيق المؤدي إليها، أخطو بقوائمي الأربع فوقه بسهولة، يتحرك جسدي كله بمرونة وتلقائية، أقف أمام بابها وأرهف سمعي، هل هذا صوت تنفسها أم أنه حفيف ثوبها، أرفع مخالبي وأهوي فوق الباب، لا يرد عليّ أحد فأدق بقوة أكبر، أضغط على الباب قليلا فينفتح وحده، المكتب الذي شهد لحظات إذلالي الأولى خال ومظلم، أتلفت حولي فأشاهد بابا آخر يقود إلى داخل المنزل، أعبره إلى ممر مظلم، أجوس وسط رائحة ثقيلة ورطبة، قرنفل وبهار وصندل، الصمت مطبق ولكني - رغم كل الروائح - أشم رائحة عطرها وعرقها، أخرج من الطرقة إلى غرفة واسعة مليئة بالأشياء، لا أرى تفاصيلها ولكني ألمح ظلالها، أواصل التقدم حتى أرى بلقيس، تجلس بجانب مصباح شاحب الضوء لا يكشف إلا عن جانب من وجهها، وترتدي ثوبها الأبيض الذي يكشف عن ذراعيها وعنقها الطويل، صدرها النافر يصنع ظلا على الجدار، يعلو ويهبط مع صوت أنفاسها، جالسة ساكنة ترقب خطواتي التي تتباطأ كلما اقتربت منها، هل كانت تتوقع قدومي، هل تقرأ حقا كل نوايا الخوف والاشتهاء؟ أم أن حارس الأقفاص قد وشى بي؟ لقد مضيت لأكثر مما أستطيع

التراجع. أقف أمامها أخيرا وأرى التعبير المرسوم على وجهها نصف المضيء، بدا كأنها تنظر إلى ما أقوم به كأمر مسلم، كأنه من المحتم أن أصعد الدرج على قوائمي وأن أرخي ذيلي أمامها لاهثا وراغبا. أجد صوتي أخيرا فأقول: هل جئت متأخرا؟ يضيع الصوت في تجاويف رأسي، يتحول إلى نوع من الزنير الرخو. أشم رائحة جسدها بعمق. كل خلية من خلاياها، حتى رائحة العرق والإفرازات التي تنز منها. أمد يدي - أقصد قائمي الأمامي - وأضعه على صدرها العاري، تترك مخالبي عليها خمس علامات حمراء، نقاط دموية صغيرة. تغمض عينيها قليلا حتى أسحب مخالبي، أسمع صوتها وهو يهتف في صوت خافت:

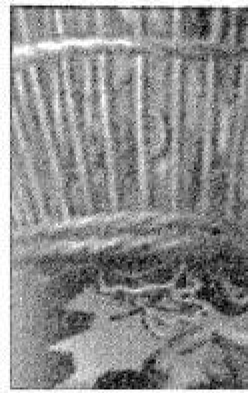
- عليك أن تتبعني أولا.

تحمل المصباح وتنهض واقفة. تسير حافية، لا تكاد تلمس



الأرض، نجتاز الغرفة إلى قاعة أخرى أكثر ظلاما، تزداد رائحة الرطوبة ويصبح الهواء ثقيلا، تمضي هي في سهولة ويسر بينما أتعثر أنا في عشرات الأشياء التي لا أراها. لا أدري إن كانت قطعا من الأثاث أم من جذوع الشجر. صوت حفيف خطواتها يتحول إلى نبضات، تتحول بالتدريج إلى إيقاعات خافتة لطبول بعيدة. أدخل في متاهات من الأغصان المتشابكة وأحس على وجهي بنوع من قطر المطر الدافئ، أين ذهبت جدران الغرفة، كيف أصبحنا فجأة ضائعين وسط هذه الغابة

الكثيفة التي يبدو واضحا أن أشعة الشمس لم تستطع التسلل إليها يوما ما. أتنفس هواء حارا مشبعا بمياه المطر وترتفع إيقاعات الطبول وتشتعل نار في مكان ما، تختفي بلقيس من أمامي تماما. وينهض من جوف الظلمة مسوخ غريبة. أنصاف من البشر والحيوانات، طقوس من السحر الأسود تكتمل دوائرها حول النيران المشتعلة. تأخذ الأقدام في الدبيب بجنون، يظهر ساحر القبيلة من مكان ما وهو يمسك طفلة صغيرة من قدميها. رأس الطفلة إلى أسفل وهي تصرخ. صراخها يضيع وسط صوت الطبول ودبيب الأقدام. ولكنني أرى وجهها الصغير. أتأمل ملامحها الدقيقة. تلك الملامح التي لم أنسها ولو للحظة واحدة من حياتي، أصرخ في لوعة وألم، وأريد أن أتقدم ولكن الأغصان المتداخلة تحيط



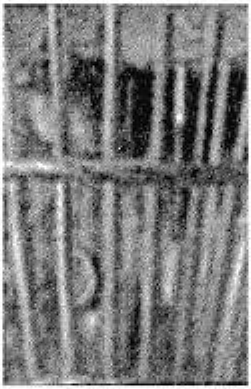
بى وتشل حركتى، كما حدث أول مرة يحدث الآن، أسد عاجز دوما، لا يستطع أن ينقذ أحب الناس إليه حين تحين اللحظة، تستيقظ فى داخلى كل الذكريات المريرة والمؤلمة، فرصة الحياة التى ضاعت منى قبل أن تلتهمها النيران وتدمر كل ما كنت أملك، وكل ما كنت أريد، أبكى: «يا ابنتى، يا جوهرتى الغالية، يحيط بى صائدو الرؤوس البشرية، أقزام هيئتهم بشعة، على وجوههم ندوب غائرة، وعلى بطونهم رسوم ملونة، رائحة الدم الطازج تملأ المكان، دم من هذا؟ أندفع هاربا، ويندفع حولى سرب من البقر الوحشى فى لحظة من الفزع الأعظم، كل الفخاخ فى انتظارى والجو هو نقطة ضعفى، تظهر بلقيس وهى تحمل المصباح، تضعه على الأرض فلا ينير أبعد من جسدها الذى ينتصب أمامى مثل شجرة فارعة، ينفرج فمها عن ابتسامة غريبة، ألم وسخرية وسخط، أكتم دموعى وحرقتى واقفز عليها، أغرس أظافرى فى ردائها وأنزعه من على جسدها، كل أشيائها التى كانت خافية عنى، مستعصية على، تبدو أمامى الآن، أحدق فى عينيها فتحدق فىّ دون خوف، أريد أن أقول لها: أريدك كالموت، ولكن صوتى يخرج زئيرا منكسرا، أحتويها وسط قوائمى الأربعة، أريد أن أدخلها فى فرائى وأن أنفذ إلى أغوارها، لعل بداخلها امرأة أخرى خائفة وراغبة ، ولكن عينيها الباردتين، تحدقان فىّ بصلابة، كأنهما تقودان إلى نفق مظلم ولبس لأعماق نفس بشرية، تهتف فى صرامة:

- مازال فى داخلك شىء بشرى نتن.

تدفعنى من فوقها، تغطى جسدها ببقايا ثوبها الممزق وتهتف: «أغرب عنى»، مرة أخرى يمتلىء وجهها بتعبيرات الازدراء، حتى بعد أن أصبحت أسد لم أستطع التغلب على ذلك الازدراء، أتوقف قليلا فى ذهول، أتأمل النقاط الخمس الدامية على صدرها، ولكن هذا لايغير من الأمر شيئا، أحرك قوائمى مبتعدا، أعبر الطرقة المظلمة، أسمع صوت بابها وهو يصفق خلفى، أسير عبر الحديقة الصامتة، يخيل إلىّ أن كل الحيوانات تحدق فى بشماتة، أدخل فى قفصى، ويأتى حارس الأقفاص، كأنه كان يترقب عودتى، يغلق

الباب خلفي، يضع قفلا ضخما على الباب ويمضي دون أن يتبادل معي كلمة واحدة.

أقضي الليل مرتعدا، ويأتي صباح بارد، لا أرى أحدا. حتى الحارس لايبالي بي ولا يحضر لي طعام الإفطار. لا يهم، لو أنه أحضره فلم آكن لآكله. أتجول في القفص التماسا للدفء، وتظل الحديقة خالية ويمر اليوم بطيئا، لا يتغير شيء حتى تعود ظلمة الليل مرة أخرى. ألطم القفل الضخم محبطا ويائسا، أزأر في حنق وغضب فلا يرد أحد عليّ. أغفو رغم جوعي ورغم قسوة الكوابيس. لا أعرف كيف



يمر الليل ويهبط نور الصباح التعس. لا تفارقني الغابة التي اجتزتها، ولا القربان البشري الذي راح هدرا. تداخلت دقات الطبول من وجيب قلبي. أنتفض مع كثرة الرطوبة الرابضة في أعماقي، أحاول أن أخلع الجلد الذي يحوطني فلا أستطيع. تداخل الجلدان ولم تعد هناك فرصة للتمييز بينهما. كأنها لعنة أبدية قد التصقت بي. جاء بعض الزوار القلقين، ما أن سمعوا أول زئير هربوا مسرعين، لم أر وجوههم ولم أبال بذلك، لابد وأن مظهري قد أصبح مثيرا للفزع أكثر مما هو متوقع. الجوع يقتل كل ما بداخلي من رغبات، أصبح أكثر خفة، ولكن هل أستطيع النفاذ بين كل هذه القضبان، وهل توجد هناك غابة ما خلف الأفق المظلم؟

ثم أشم رائحة الدم، دم طازج لم يتخثر بعد، تستيقظ في داخلي طاقة صاخبة من الحياة والرغبة. ألطم القفص بقوائمي وتشرئب كل شعيرات جسدي وتتحفز كل مخالبي. أرى حارس الأقفاص وهو مقبل نحوي، يحمل تلك الشرائح الحمراء الداكنة. ذبيحة مقطوعة من منتصفها بحيث تبدو جداول من اللحم المتوهج، ومن العظام التي تشد رقائق الأغشية. وحبل النخاع الذي يمتد بطول الذبيحة قانيا مفعما بالملايين من كريات الدم. يقترب الحارس أكثر فأستطيع التعرف على نوع اللحم من رائحته. لحم حمار، ليس صغيرا وليس طاعنا في السن. مناسب تماما لأسد جائع مثلي. يلقيه الحارس نحوي فأنقض عليه، أغمس فيه خياشيمي وأمزق أنسجته بمخالبي وأكسر عظامه بأنيابي، وأدرك أنها في الأعلى تطل عليّ من خلف ستائرها المسدلة.

سر الكتابة وعائشة صالح



بقلم
صافى ناز كاظم

«سر الكتابة» عند عائشة صالح هو أن يريد ناشرها كتابتها بحماس، فينطلق قلمها على الفور، هذا هو «سر الكتابة» عندى كذلك، بل لعله سر الكتابة على وجه العموم. عندما تغضب عائشة صالح تبلغ فى مبالغتها حد خصام نفسها، تقصف قلمها بيدها لا بيد غيرها، وتلقى بمكتبها من الشباك، وتعلن القطيعة الكاملة مع كل النوافذ، ساعتها أخاف، وأبذل كل جهدى لانتشالها من الغرق، والخشية تتملكنى من أن تشدنى الدوامة معها ونختفى سويا، تحت عنف التيارات.

«عائشة صالح» صديقتى جدا، بل من أعز صداقاتى رغم أن لقاءاتى معها يمكن أن أعدها على أصابع يدى.

قد ينحاز البعض لأعمال ومقالات لأنها مكتوبة بقلم صديق يجامله أو آخر لا يحب جرح مشاعره، لكننى من هؤلاء الذين تبدأ صداقاتهم أولاً بالكتابة، فإذا تمكنت منى صرت أبحث عنها وعن صاحبها، شوقا إلى الفن، وحماسا للإجادة، وإخلاصا للعناية، وتوقا إلى مداواة الصدر من الربو الثقافى، الذى قد يخنقنى إذا لم أتخذ التدابير المحكمة للحماية منه.

«فن كتابة المقال» «فن التحرير الصحفي» «فن رسم ملامح الشخصية» كلها فنون كتابة مجالها الرئيسى الجريدة اليومية

والمجلة الأسبوعية والشهرية. هذه فنون اشتهرت بسببها - فقط - أسماء رنانة فى تاريخنا الأدبى على رأسها: الأديب الشيخ عبدالعزيز البشرى، والأديب ابراهيم عبدالقادر المازنى، والأديب يوسف جوهر، والناقد الأديب وديع فلسطين والاديب الساخر محمد عفيفى والفنان والكاتب حسن سليمان ، والكاتب الذى لم يهمد له قلم إلا قبل لحظات من وفاته: فتحى رضون، والأديبة الآنسة مى زيادة، والأستاذة نبوية موسى، وباحثة البادية ملك حفنى ناصف .. وغيرهم الكثير .. الكثير، لم تكن الفكرة وحدها هى بؤرة الاهتمام، لكن «التعبير» عنها بفن وحلاوة وظرف، هو «الصائد» القارىء. وأتصور أن «فن المقال» هو صاحب الحيز الأكبر فى الانتاج الأدبى للدكتور طه حسين.

رغم أهمية «فن المقال»، لاتجد جائزة قيمة حاليا تأخذه فى حسبانها، فلقد صار الانتاج الكتابى - الذي يطلقون عليه سماجة مصطلح «الإبداع» - مقسما بين أشكال : «رواية»، «شعر»، «قصة قصيرة»، «نقد»، ولو كانت وسيلة الكتابة فى كل هذه الأشكال مثل «الضرب على الركب» بكتابات رثة، مدلوقة فى القراطيس كيفما اتفق تسدد بها الخانات، وتشغل المساحات، تنطها العيون بعد التفصد بعرق الملل من مدخل السطر الاول، ويكون الهرب.

***

بدأت صداقتى الحميمة بكتابات عائشة صالح، زميلتى بمؤسسة دار الهلال ، منذ مطلع الثمانينيات، منذ عدت إلى عملى بدار الهلال ١٩٨٣/٣/٢٥، بعد دوخة فصل ومنع ونفى وتشريد استمر على طول دورة فلكية صينية كاملة تعدادها ١٢ سنة، تنشر عائشة صالح فى مجلة الكواكب، تنشر فى مجلة المصور وأنا وراءها قارئة فرحانة بفنها فى كتابة المقال، والحوار، ورسم الشخصية، لايمكن أن يفوتنى السطر من كتابتها. فى البداية هالتنى الصفحات الكثيرة التى تستغرقها كتابتها السهبة، وأقول: ماهذا!، هل يمكن أن يتحمل أحد كل هذا على خد واحد؟، طبيعتى فى الكتابة الاختزال والاختصار والتكثيف والنفس القصير، وأضيق بالتطويل، وإن كنت أردد أحيانا: كم من قصير يطردنى بالملل والركاكة، وكم من مغدق يشدنى بالحضور، لى مع كل كتابة تجربة مذاق أولى لها أن تخمدنى أو تبعثنى. بدأت مع «عائشة صالح» متلمظة، متصورة أننى ساكتفى بقضمة من المدخل وخطفة من المنتصف ثم قفزة لائذة بالفرار الى الخاتمة لاهثة فرحة بالنجاة، بدأت أقرأ والقضمة وراءها القضمة وراءها الالتهام،

والاستطعام، مسحوبة صفحة تلاحقها صفحة «بصنعة اللطافة» التي من أسرارها حسن الاستضافة.

- عائشة صالح - كاتبة حين تدخل مقالها تجدها براحتها، تفرش بساطها، وتشرب قهوتها، وتسقي زرعتها، وتتكلم عفويتها، خواطرها، تداعياتها، مقاطعاتها، ساخرة من نفسها، وإن لم تنس أن تضرب بشكل مباغت من تسوّل له نفسه الدوس على طرفها، تختار موضوعاتها وشخصياتها لتنسج معها علاقة تفاعل، تحاورها لتحاور بالحوار كل مايعن لها طرحه وقوله والتنويه عنه . لحظة فعليا «الكتابة» يشرنب معها التاريخ، والثقافة، والكتب التي تتغذى عليها كدودة الحرير، وتجاربها مع الإنصاف والخذلان، تطفو أشجانها فتجدف لها بالقفشات حتى تخرج من نهر الغم، «مونو كتابة» - عائشة صالح - وحدها على الصفحات، مستغرقة، ناسية الزمن والمساحة، تضحك، وتبكي، وتتجهم، وتشخط ويصعب عليها ، وتغضب ثائرة ثم تهدأ فورا متسامحة مبررة هفوات البشر وعثراتهم.

***

لم أنس أبدا مقالها في المصور عن «زوزو نبيل» و«إيمان الطوخي» وعن «ياسمين الخصري»، وفي الكواكب عن «شريهان» وعناوين أخرى نسيتها ولم أنس فرحة سروري بعد القراءة، بعد لأي أخذت رقم هاتفها من زميل لنا، وهاتفتها: «يا عائشة ...» لأخبرها كيف بدأت صداقتي معها منذ قرأت - لأول مرة - مقالا لها.

تذهب إلى مبنى دار الهلال في أوقات لا أكون بها، وأروح في أيام لاتخرج هي فيها من بيتها. صورتها في ذاكرتي غير واضحة . عام ١٩٨٣ طلب مني الاستاذ حسن إمام عمر، رئيس تحرير الكواكب، أن أكتب عمودا ثابتا، وكان شرطه أن أقدم أربعة أعمدة في كل دفعة لتنزل على التوالي حتى يضمن عدم الإخلال. هذا الحرص منه شحذ توهجي للكتابة - «سر الكتابة كما ذكرت حماس الناشر» - أجلس وأقول لقلمي «مونولوج الكواكب» ، فينطق على الفور . أدخل لأقدم التزامي فأجد عند رئيس التحرير شابة تلبس السواد وتقطب الجبين تجلس إلى جوار الأستاذ الباسم «طه قابيل»، فيقولون: هذه زوجته الصحفية عائشة صالح، لاتكلمني، لا أكلمها، لا أستغرب، متوهمة أن الجهامة تخصني وحدي، لأنني كنت عائدة لتسوى إلى مكان شاعت عني فيه الإفتراءات، وأواسي نفسي بمقولة بريخت على لسان صلاح جاهين: «نينا بتستغرب لما حد مايضربهاش» لكنني أعرف أن عائشة تمر بظروف أحزان خاصة وأظل أراها في غرفة حسن إمام عمر، وفي المصعد

، صاعدة أو هابطة، طيفا مهموما يلبس السواد ويقطب الجبين، ويقولون: عائشة لديها أحزانها، يتوفى زوجها الباسم «طه قابيل»، فيتأصل اللون الأسود ثوبا لها مع المزيد من الحزن والوجه الذى آذبلته دفقات الدموع. لا أقترب منها، تكفينى «صنعة اللطافة» فى كتابتها لو كان الأمر انتخابا لصوت لصالحها لتكون رئيسة تحرير مجلة الكواكب بعد إنتهاء مدة الأستاذ حسن إمام عمر. لكن «لو» حرف إمتناع لحدوث الفعل وحين تم تعيين وافدة من الخارج، كارهة للمؤسسة ومن فيها، أطاحت بعمودى وعمود رائد الإذاعة الكبير وكروانها الاستاذ محمد فتحى، الذى كان حسن إمام عمر قد استكتبه ليقدم زاوية ثابتة أسبوعية راقية ناضجة واعية عن الإذاعة والتليفزيون، وسياسة بهذا التهور كان لابد أن تداهم وتدهم «صنعة اللطافة» وصاحبتها الفوارة، الثوارة، لم تقبل عائشة صالح هجمات العداء المسبق وانتقلت ليفرد لها المصور صفحاته وليأخذ فنها فى الكتابة انطلاقته اللائقة به، فصالت وجالت.

***

طبيعة أسلوب «عائشة صالح» و«صنعة اللطافة» تتطلب فرد الكلام على صفحات بخط يدها «الرهيب» تتعدى فى كتابتها العشرين ورقة وأحيانا تصل إلى الأربعين يضيق رئيس التحرير، تغضب عائشة، يتأزم الموقف يتم حرمانى من قراءة «صنعة اللطافة» حين يسمح المجال ويتم النشر، أندفع لأخابرها فأجدها سعيدة كطفلة تنشر لأول مرة، منشرحة للمزيد من العمل والعطاء. تتجلط دورة النشر بين: اختصرى ولا أختصر، تقف السدة فى شريان العطاء إلى أجل غير مسمى، أقف إلى جانبها وإلى جانب رئيس التحرير: معها ٧٥٪ حق، فكتابتها فن يؤذيه الاختصار، يكسر إيقاعه وينزع منه فتيل التأجج المطلوب والسحب الضرورى لـ «صنعة اللطافة» ورئيس التحرير معه ٢٥٪ حق، بين حقها وحقه أسألها:

طيب ياعائشة لماذا لاتجمعين كتاباتك كلها فى كتاب يتحمل أوراقك الكثيرة؟

الإجابة: يتضمنها تاريخ مولدها ١٩٣٤/٩/٢٥، حضرتها من برج الميزان الذى لايعرف فن الملفات، وحفظ أصول المقالات، والإقدام على سحب مالم ينشر و ... و ...

النتيجة: عائشة صالح لاتعرف حتى أن لها شيئا اسمه: «سركى معاش التأمينات»!.

ياعائشة: لماذا لاتبحثين عن الأبواب المفتوحة حتى تجدى من يقول لفن أسلوبك: أهلا وسهلا؟

الإجابة مرة أخرى: عائشة صالح تغضب من التجاهل وتتحرج من المبادرة والإقدام.

تحية لك ياعائشة. ■



من وراء حجاب

شعـــر: د.أحمد السيد عوضين

وسترت عني بعض حسنك بالحجاب ... وحفظته - سحرا - ترامي في انسياب

أخفيت عني ما تهدّل مرسلا ... ومصافحا خدين كالنور المذاب

وملامسا ثغرا رقيقا حالما ... يدعو المحب بيسمة فيها الجواب

لبيك حبي قد لقيت بك المنى ... أنت الحياة مع الرضي. ثم العذاب

إن تقبلي فالحسن يقبل مشرقا ... خلف الحجاب بدائع.. ورضاب

عين الخيال ببصيرة نفاذة   تلقي الجمال مجاوزا كل الحساب

تلقي الفتون كساحر أهدى الهوى   أهداه إذ ملك الفؤاد بلا احتساب

فهو الأسير - بل المسيَّر - لايرى   حسنا سواه الحسن من خلف الحجاب

تنأى الجميلة في دلال كلما   تلقى الرضى متواصل الأسباب

تبدي النفور وتستزيد من الهوى   شأن المدل.. ومن هواه عتاب

ترخي النقاب.. وتستدير بوجهها   وتشيح عني.. دون أن تهدي الجواب

يتباعد الخطو الأثير.. مهاجرا   وكأنما الهجر الجميل هو الخطاب

ويجئ للنائي المباعد قولها: أتظن أن القلب كف عن الرغاب

أو أن بعدي - ما حييت - معبر   عما توهم قلبك المرتاب

ورأيت خلف الستر ومضة نظرة   تهدي الحياة بنورها الخلاب

تحكي الحقيقة كلها.. تهدي الهوى   تهدي المحبة من وراء نقاب

والعين تومض، فهي خير محدث   ورسول حب من لدن أحباب

زال التردد وانثنيت محاذرا   ومنبيا قلبي بحلو عتاب

بل قد لا يكون العتب بعض حديثنا   بعد اشتياق فائق الأسباب

وسألت: ما القول- الحبيبة- بعدما   قلنا وقلنا.. في طويل حساب

نظرت طويلا.. لم تجب بلسانها   وتبسمت فرحا.. لتهديني الجواب

في سحر عينيها رأيت سعادتي   وعرفت ما بالقلب من فيض الرغاب

أقبلت أبدي بعض ما قد أرتجي   لم يبق ثمة بيننا أدنى حجاب

ورأيت حسنك ضاحكا أو باسما   يروي الفؤاد ويرتوي بعذاب

ويحدث النفس المشوقة بعدما   صدق الهوى في شرعة الأسباب

هذا هو الحسن الحلال.. ودائما   يهدي الحياة بدائع الأنساب

أرخي الحجاب حبيبتي في حشمة   سترا لحسن عن عيون صحاب

ما تسترين عن الفؤاد رواءه   أذكيت فيه الشوق للشهد الرضاب

التكوين

والدي علمني الدقة والانضباط في كل أمور حياتي.

محمود حمدي زقزوق

بعد التجارب الحياتية التي مررت بها والأحلام والآمال التي بنيتها في خيالي والتي تحقق بعضها ولم يتحقق البعض الآخر، وبعد تقييمي لذلك كله، اجدني أؤمن إيمانا جازما بصحة العبارة الحكيمة: لو اطلع أحدكم على الغيب لاختار الواقع، وحيث أننا لم نطلع ولن نطلع على الغيب الذى استأثر الله وحده بعلمه فإن الواقع هو ما نصنعه بأيدينا وما تخطط له عقولنا، وتتجه إلى تنفيذ تفاصيله جهودنا على مدى تاريخ حياة كل منا.

■



التطور سنة الحياة، والجمود يؤدى الى العجز عن مسايرة الحياة ومواجهة تحديات العصر.



والد د. زقزوق



زقزوق فى المرحلة الابتدائية فبراير ١٩٤٠

وهذا يعنى فى المحصلة النهائية أن الواقع هو خيارنا الذى اخترناه بأنفسنا لأنفسنا. ومن ثم فإن دور القضاء والقدر فى هذا الصدد ما هو إلا تسجيل سابق لما علم الله فى الأزل أننا سنختاره بأنفسنا دون إرغام أو قهر، أو على الأقل تسببنا فى حدوثه بصورة من الصور. ولكن الحياة تشتمل بالإضافة إلى ذلك على أمور أخرى ربما لم نكن سببا مباشرا فيها أو لم نكن نتوقعها سلبا أو إيجابا، غير أن عدم التوقع لا يعنى أنه ليست لها أسباب يمكن البحث عنها والعثور عليها، ونكون نحن طرفا فيها بأى شكل من الأشكال. وقد لا يتفق الكثيرون معنا فى ذلك، ولكن هذا هو ما نؤمن به ويتفق مع القانون القرآنى الثابت: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم». ولا شك فى أن ذلك كله له أثره البعيد والعميق فى توجيه مسيرة حياتنا من المهد إلى اللحد أو من الطفولة حتى الشيخوخة.

البداية

لقد كانت بدايتى فى قرية الضهيرية التابعة لمركز شربين بمحافظة الدقهلية. فقد ولدت فى هذه القرية فى الساعة الثانية بعد ظهر يوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٩٣٣م. وقد كان والدى رحمه الله يمتاز بالحرص على الدقة التامة. وكمثال على ذلك تسجيله ساعة المولد لأطفاله فى دفتر خاص كان يدون فيه الأحداث والتواريخ المهمة، وفى الوقت نفسه كان يحرص على تسجيل ذلك فى شهادة الميلاد لدى الجهة المختصة. ولم يرد أن ينتظر أربعة أيام ليسجل تاريخ ميلادى فى الأول من يناير ١٩٣٤م كما كان يفعل كثيرون فى القرية. وقد كان هذا درسا فى الدقة والانضباط تعلمته واستفدت منه فيما بعد.

ولكن الموت اختطف والدى وأنا لازلت فى السابعة من عمرى، وبذلك حرمت من المزيد

التكوين

من الدروس التى كان يمكن أن أتعلمها منه رحمه الله. وقد عوضنى الله عن حرمانى من الأبوة بأخى الأكبر الذى كان لى نعم الأخ والأب فى الوقت نفسه، والذى تولى تربيتى وتعليمى كأحد أبنائه منفذا وصية والدى بكل أمانة وإخلاص لا نظير لهما. ولم يكن فى قريتنا التى تعد أكبر قرى المركز إلا مدرسة أولية واحدة، وكان يطلق عليها أيضا المدرسة الإلزامية. والتحقت بها مثل أقرانى، وكنا نتردد على المدرسة وعلى الكتاب.

التعليم الديني

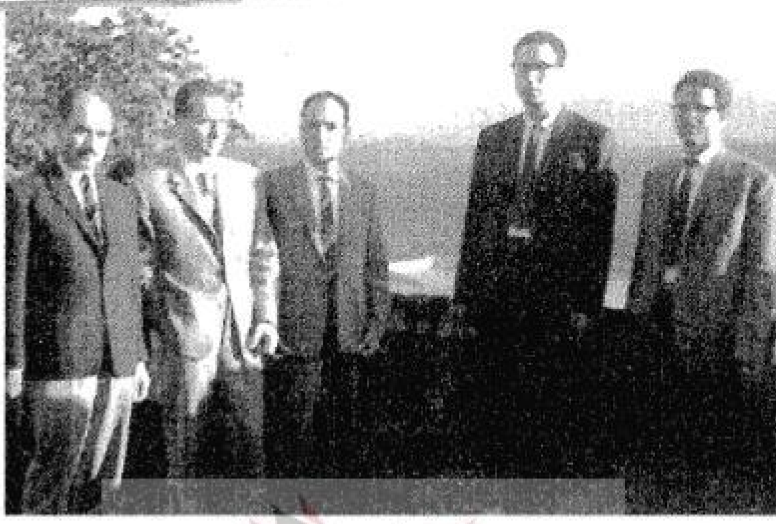
وقد تطلع بعض الآباء إلى إلحاق أبنائهم بمدرسة الزرقا الابتدائية التى تتيح لهم مواصلة التعليم المدنى. وسألنى أخى الأكبر إذا كنت أود أن ألتحق بهذه المدرسة مثل أقرانى أو التحق بالمعهد الدينى فى دمياط. ودون أن أفكر أبديت له رغبتى فى الالتحاق بالمعهد الدينى بدمياط. ولم يكن الذى أكد هذه الرغبة عندى هو المفاضلة بين التعليم الدينى والتعليم المدنى، ولكن هناك أمرا آخر بعيدا كل البعد عن قضية التعليم كان هو العامل المرجح فالذهاب إلى المدرسة الابتدائية كان حينئذ يعنى مشقة تتمثل فى الخروج من البيت فى الصباح الباكر والتوجه سيرا على الأقدام حوالى اثنين من الكيلو مترات حتى الوصول إلى المعدية التى



تنقلنا إلى الشاطئ الآخر للنيل حيث تقع قرية الزرقا التى بها المدرسة الابتدائية ثم العودة بنفس الطريقة. أما المعهد الدينى بدمياط فيعنى السكن مع الأقران بالمدينة دون هذه المشقات فى الذهاب والعودة. وقد وافق أخى على رغبتى فى التعليم الدينى.

وبعد أن أتممت حفظ القرآن الكريم دخلت مسابقة حفظ القرآن فى شربين على مستوى المركز وحصلت على المركز الأول وكانت المكافأة عبارة عن جنيهين ولكن ما تم صرفه لى كان ١٨٧,٥ قرشا فقط بعد خصم رسوم معينة على ما يبدو. وعلى الرغم من حفظى للقرآن الكريم وتوفر شروط الالتحاق بالمعهد الدينى إلا أن هناك شرطا وحيدا كان غير متوفر وهو عدم بلوغى الثانية عشرة من عمرى ولم يكن هناك استثناءات، فقد كان عدد المعاهد الدينية فى مصر كلها لا يتجاوز عشرة معاهد فى حين أنها حاليا تزيد على الخمسة آلاف، وكان علىّ أن أنتظر حتى العام التالى.

والتحقت بالمعهد الدينى بدمياط - بعد اجتياز امتحان دقيق للقبول - فى العام الدراسى ١٩٤٦ - ١٩٤٧م. وكان هناك شيخ للمعهد صاحب عقلية مستنيرة، قرر فتح فصول لتدريس اللغتين الانجليزية والفرنسية للراغبين من الطلاب، وكلف مدرسى العلوم المدنية بتدريس هاتين اللغتين. وكان الإقبال كبيرا من جانب الطلاب. وقد التحقت بدروس اللغة الانجليزية ولكن البرنامج للأسف لم يكتمل



من اليمين عبد الستار حسنين وعبد الغفور الأسود و توفيق برج ومحمود زقزوق ومحمد شامة

وتوقفت هذه الدراسة ولم أعد أذكر بالضبط أسباب هذا التوقف. ولعل ذلك كان لانتقال الشيخ إلى معهد آخر. وكان لهذا الشيخ مكرمة أخرى. فقد ألزم كل طالب بدفع جنيه ونصف جنيه، واشترى لنا ملابس كاملة للرياضة البدنية واهتم بذلك بصفة خاصة. والتمارين الرياضية التى تعلمتها حينذاك هى التمارين ذاتها التى لازلت أمارسها بصفة شبه يومية حتى الآن.

بدأت الكتابة مبكرا

وفى عام ١٩٥٠م - بعد حصولى على الشهادة الابتدائية - التحقت بمعهد طنطا الدينى الثانوى وكان لى أخ أكبر منى يدرس بالسنة الخامسة فى نفس المعهد. وعن طريقه تعرفت على صحيفة أسبوعية محلية محدودة التوزيع اسمها «سفينة الأخبار» وبدأت الكتابة فيها، وأصبحت واحدا من الكتاب الدائمين فيها. ونشرت لى بعض محاولاتى الشعرية والقصصية التى لم يكتب لها الاستمرار. وحدثت بينى - وأنا لازلت طالبا فى السنة الثانية الثانوية - وبين أحد كتاب الجريدة - الذى لم أحظ بلقائه أبدا - معركة صحفية حامية استمرت عدة أسابيع على صفحات الجريدة، بسبب نقدى لمقال له لاحظت فيه مبالغة غير مقبولة فى امتداحه لبعض رؤسائه حيث رفعه إلى مرتبة تكاد تقترب من مرتبة نبى الله إبراهيم الخليل عليه السلام. وقد اضطرت الصحيفة بعد احتدام المعركة إلى غلق الباب ونشر بيان ناشدت فيه كلينا بالكتابة فى موضوعات تهم القراء وتعود عليهم بالفائدة.

التكوين

نقد للعادات في الموالد

وأذكر أن مدرس مادة الإنشاء في المعهد الديني قد طلب منا في السنة الأولى الثانوية أن نكتب موضوعا عن انطباعاتنا عن مولد السيد البدوي، فكتبت موضوعا يشتمل على نقد لاذع للعادات والتقاليد والسلوكيات التي يشتمل عليها المولد. وقد أعطاني الأستاذ الدرجة النهائية وطلب مني أن أقرأ الموضوع على الطلاب. وفي الأسبوع التالي جاء الأستاذ وعلى ذراعه جبيرة وأربطة فقد وقع على يده فانكسرت، واعتقد الأستاذ أن ذلك كان انتقاما من السيد البدوي لتشجيعه لي على نقدي لما يحدث في مولده وتعجبت في نفسي أن يتوهم المدرس ذلك. فالسيد البدوي قد توفاه الله منذ زمن بعيد، والميت لا يستطيع أن يفعل شيئا، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «إذا مات الميت انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

وعندما انتقلت إلى السنة الثالثة الثانوية انتقلت إلى معهد المنصورة الديني، وظهرت لي بعض الكتابات في البريد الأدبي بمجلة الرسالة التي كان يصدرها المرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات حول موضوعات مثل الأزهر والثورة، والاقتباس من القرآن الكريم وقد



تركت هذه الكتابات أثرا طيبا لدى الكثيرين من زملائي وأساتذتي في المعهد.

وكنت أحرص على تدوين مذكراتي يوميا قبل أن آوى إلى الفراش أسجل فيها انطباعاتي وآمالي وآلامي وظلت هذه العادة عندي لا تتخلف طوال سنوات عديدة. ولازلت حتى اليوم أطالع بعض ما جاء فيها بين الحين والآخر ومما كتبته في هذه المذكرات في يوم الثلاثاء الأول من يناير ١٩٥٢م من تسجيل لبعض الأحداث المهمة ما يأتي دون تعديل في الأسلوب:

«طوى الزمن بين طياته عاما حافلا بالحوادث الجسام والأحداث الهامة التي تجاوب صداها في أنحاء العالم ففي هذا العام المنصرم من عمر التاريخ ألغت مصر المعاهدة المشئومة معاهدة ١٩٣٦م التي قامت بيننا وبين الانجليز، وكذلك ألغت اتفاقيتي ١٨٩٩م الخاصتين بإدارة السودان، وأصبح لقب الملك (ملك مصر والسودان). وفي العام الذي انتهى بانتهاء الأمس أممت إيران شركة البترول، وانسحب الإنجليز منها أذلاء صاغرين، وفيه أيضا نالت ليبيا استقلالها وفيه قضى الشيخ محمود أبو العيون نحبه تحت عجلات المترو وفيه أقيل الشيخ عبدالمجيد سليم شيخ الأزهر وولي مكانه الشيخ حمروش وفيه تزوج جلالة الملك الآنسة ناريمان هانم صادق.. وحصل انقلاب جديد في سوريا وأريقت الدماء في القنال... إلى غير هذه الأحداث التي لا يحصيها عد. واليوم يفتح الزمن صفحة ناصعة البياض ليستقبل عام ١٩٥٢م الذي

نأمل أن يكون عام إصلاح شامل لما فيه الخير للبشرية جمعاء، ونرجو ألا ينتهى هذا العام حتى تكون أرض مصر قد تطهرت من دنس الإنجليز وأن تتحرر نهائيا من نير الاستعمار وتسير سراعا نحو المجد والعظمة، وتخطو خطوات واسعة نحو الرقى والتقدم. وأخيرا وليس آخرا نرجو أن يكون برنامج هذا العام خاليا من شر حرب عالمية ثالثة يكتوى العالم بنارها ويتلظى بأسلحتها، بل نأمل أن يكون برنامجه فى صالح الشعوب الضعيفة لتقوى وتتحرر وترفع رأسها».

بداية مسيرتي الثقافية

وفى عام ١٩٥٥ رحلت إلى القاهرة للدراسة فى كلية اللغة العربية وشدنى النشاط الثقافى فى القاهرة. فكنت أحرص على الاستماع إلى المحاضرات التى تلقى فى قاعة الشيخ محمد عبده بالأزهر وجمعية الشبان المسلمين والجمعية الجغرافية ودار الحكمة والجامعة الشعبية والندوات الشعرية فى جمعية الشبان المسيحية. وقد أفدت كثيرا من المحاضرات التى كان يلقيها فى هذه المنتديات الثقافية قادة الفكر والأدب فى مصر. وكان لذلك أثره فى مسيرة حياتى الثقافية.

وفى عام ١٩٥٦ حدث العدوان الثلاثى على مصر من جانب كل من انجلترا وفرنسا وإسرائيل، وبادرت مع كثيرين من زملائى بالتطوع فى الحرس الوطنى، وكنا نعسكر فى بعض الأماكن فى القاهرة ونطلب من قادتنا يوميا أن نذهب إلى الجبهة وكانت فترة مليئة بالحماس الوطنى والاستعداد للتضحية فى سبيل عزة الوطن وكرامته بكل غال ورخيص.

وفى فترة الدراسة بكلية اللغة العربية كان يقوم بتدريس الفلسفة لنا الأستاذ الدكتور محمد البهى رحمه الله، وكان حريصا على أن يغرس فى نفوس طلابه الطموح ويبعث فيهم الهمم ويحرك فيهم الطاقات. وقام الدكتور البهى - الذى كان يشغل فى الوقت نفسه منصب المدير العام للثقافة بالأزهر - بتنظيم دراسات اختيارية فى اللغات الأجنبية الأوربية منها والشرقية لطلاب الكليات الأزهرية، وقد لقيت هذه الدراسة إقبالا كبيرا جعلها تتحول على يديه فيما بعد إلى معهد الإعداد والتوجيه الذى لم يكتب له الاستمرار من بعده مثل العديد من المشروعات الجميلة المفيدة.

والتحقت بدراسة اللغة الألمانية لإعجابى بالدكتور البهى الحاصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعات ألمانيا. وكان ذلك نقطة تحول فى حياتى الدراسية والوظيفية فيما بعد.

وبعد تخرجى من الكلية عام ١٩٥٩ حصلت على الشهادة العالمية مع إجازة التدريس عام ١٩٦٠ وفى العام ذاته عملت مدرسا بمعهد المحلة الكبرى الدينى حتى منتصف عام ١٩٦١ حيث انتدبنى الدكتور البهى للعمل بالإدارة العامة للثقافة بالأزهر مشرفا على قسم فحص الكتب والمجلات وعندما تم تعيينه أول مدير لجامعة الأزهر بعد تطويرها عملت معه مشرفا على قسم شئون الطلاب فى الجامعة، وأسعدنى الحظ أن أعمل بصفة مباشرة أيضا مع



مناقشة رسالة دكتوراه في كلية بنات جامعة عين شمس مع د. عاطف العراقى ود.أبو الوفا التفتازانى

الأستاذ على عبدالرازق الذى عين أمينا عاما للجامعة الأزهرية بعد صدور قانون تطوير الأزهر ثم أصبح فيما بعد وزيرا للتعليم العالى. وكان رحمه الله كفاءة إدارية نادرة ويمتاز بالدقة والانضباط في العمل والتفانى فيه.

قانون تطوير الأزهر

وقد عاصرت صدور قانون تطوير الأزهر رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ والذى أحدث صدى واسع النطاق بين المؤيدين له والمعارضين وبخاصة أنه قد تمت الموافقة عليه فى الساعات الأولى من الصباح الباكر فى آخر جلسة لمجلس الأمة قبل فض دورته



التشريعية حينذاك، الأمر الذى أحدث نوعا من البلبلة بسبب هذه السرعة الفاجئة فى إقرار قانون على جانب كبير من الأهمية. وقد وصفه الدكتور طه حسين - رحمه الله - بأنه لا يقل أهمية عن قانون الإصلاح الزراعى فى مصر.

وقد قيل وقتها - ولايزال البعض يردد - أن الذى وضع مشروع هذا القانون هو الدكتور محمد البهى. ولكنه - رحمه الله - ذكر لى مرارا أنه لم يشترك فى وضع هذا المشروع ولم يعلم به إلا يوم عرضه على مجلس الأمة حيث تم استدعاؤه لمناقشة مشروع القانون فى المجلس. وقد طلب من شيخ الأزهر أن يرافقه فى مناقشة المشروع وكيل الأزهر - وكان وقتها الشيخ نور الحسن على ما أذكر - وصدر القانون وتم تشكيل العديد من



مع البابا شنودة الثالث للتهنئة بأعياد الميلاد يناير ٢٠٠١

اللجان لوضع اللائحة التنفيذية ووضع التفاصيل لتنفيذ القانون فى أسرع وقت وقد اشتركت عام ١٩٦١ فى هذه اللجان سكرتيرا للجنتين هما لجنة الخطط واللوائح ولجنة رعاية الطلاب.

وكان القانون يهدف إلى إزالة الفجوة بين خريجي الأزهر وخريجي الجامعات المدنية ومن هنا تم إدخال برنامج وزارة التربية كاملا إلى معاهد الأزهر بجوار البرنامج الأزهري. وكان القانون يهدف أيضا إلى تخريج عالم الدين الفاهم لأمور الدنيا وعالم الدنيا الفاهم لأمور الدين كما جاء ذلك في المادة الثانية من هذا القانون.

ولكن الذين قاموا بتطبيق القانون كانوا - للأسف الشديد - من الذين لا يؤمنون به.. ومن هنا لم يتحقق الهدف الأصلي من صدور القانون وكان هدف هؤلاء هو بيان مساوئ القانون بزعم قضائه على شخصية الأزهر التى عرف بها على مدى القرون.

خمس منح للأزهر

ولكن التطوير هو سنة الحياة وقانون الوجود. فالتجديد مطلوب والتطوير مرغوب لأن الجمود يعني عدم القدرة على الحركة وعدم القدرة على مسايرة الحياة ومواجهة تحديات العصر. فلم يكن تطوير الأزهر أمرا سيئا، ولكنه للأسف الشديد لم يطبق كما كان ينبغى أن يكون.

واستطاع الدكتور البهى عن طريق صلاته الشخصية أن يحصل من الهيئة الألمانية للتبادل العلمى على خمس منح

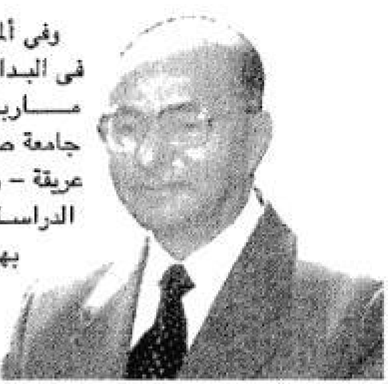
للأزهر للدراسة في ألمانيا للحصول على الدكتوراه وأجريت مسابقة في اللغة الألمانية تم الإعلان عنها في الصحف وكنت الأول من بين الناجحين وسافرنا نحن الخمسة الأوائل إلى ألمانيا في منتصف شهر يوليه عام ١٩٦٢.

مرحلة جديدة

وبذلك بدأت مرحلة جديدة في حياتي. ولكن التخطيط لهذه المرحلة لم يكن أمرا جديدا. فقد سجلت في مذكراتي في ٢٩ أغسطس ١٩٥٦ مشروعا حالما للتخطيط لمستقبلي تضمن حلم السفر إلى إحدى العواصم الأوربية للحصول على الدكتوراه من أجل المزيد من المعرفة وسعة الأفق والخبرة بالناس وبالحياة وعلى الرغم من أنني كتبت هذا المشروع تحت عنوان (أحلام لذيذة) فإنني حاولت رسم الطريق لتحقيق هذا الحلم، وأشرت إلى العديد من الإمكانات المتاحة وغير المتاحة.وبعد ست سنوات من كتابة هذا المشروع بدأت الخطوات الفعلية لتحقيق هذا الحلم بوصولي إلى ألمانيا.

دراسة الفلسفة في جامعة ميونيخ

وفي ألمانيا التحقت في البداية بجامعة ماربورج - وهي جامعة صغيرة ولكنها عريقة - ولكني وجدت الدراسة الفلسفية بها محدودة



فانتقلت إلى جامعة ميونيخ، وهي من أكبر جامعات ألمانيا إن لم تكن أكبرها على الإطلاق وبدأت أخوض تجربة جديدة في الدراسة للحصول على الدكتوراه في الفلسفة والدراسة في الجامعات الألمانية تعتمد على نظام الحرية الأكاديمية فالطالب له حرية اختيار المواد الإضافية بجانب المادة الرئيسية، ويستطيع أن ينتقل من جامعة إلى أخرى بسهولة ويسجل لنفسه المحاضرات والسيمينارات التي يريدها ويستطيع أيضا أن يقطع الدراسة لبعض الوقت، وإذا استوفى الشروط المطلوبة للامتحان يستطيع أن يحدد لنفسه الفترة التي يرغب أداء الامتحان فيها.

وكنت أشبه لزملائي الألمان هذا النظام بنظام الدراسة في الجامع الأزهر في الماضي حيث كان الطالب يختار لنفسه الحلقة الدراسية والأستاذ ويتقدم للامتحان بعد استيفاء شروط معينة.

وبعد أن كنت في السابق أتطلع إلى الاتجاه إلى الأدب وإلى الصحافة وجدتني أتحول إلى حقل الفلسفة، ولم تكن دراستي للفلسفة في مصر كافية للإحاطة بهذا المجال المتشعب الأطراف. وكان عليّ أن أبذل جهدا مضاعفا حتى أستطيع أن انتهي من الحصول على الدرجة العلمية في الفترة المحددة للمنحة الألمانية وللإجازة الدراسية الممنوحة لي من مصر.

وقد اخترت موضوعا للبحث في دراسة الدكتوراه عبارة عن مقارنة بين الشك المنهجي لدى كل من ديكارت الملقب بأبي الفلسفة الحديثة وحجة الإسلام

الغـزالى وقـد اقـتنع أسـتـاذى المشـرف بأهمية عقد هذه المقارنة الفلسفية. وبعد أن انتهيت من إعداد البحث وموافقته عليه أشار إلى أن هناك نصوصا كثيرة فى البحث مترجمة من العربية إلى الألمانية وأنه نظرا لعدم معرفته بالعربية فلابد من تحويل البحث إلى أحد المستشرقين للنظر فى هذه النصوص وتقييم الترجمة. وأحيل البحث إلى الأستاذ أنطون اشبيتالر الذى يعد من كبار المستشرقين الألمان، وتخرج على يديه من مصر المرحوم الدكتور رمضان عبدالتواب العميد الأسبق لكلية الآداب بجامعة عين شمس والدكتور محمود فهمى حجازى عضو مجمع اللغة العربية والرئيس الحالى للجامعة المصرية للثقافة الإسلامية (نور - مبارك) بقازاخستان.

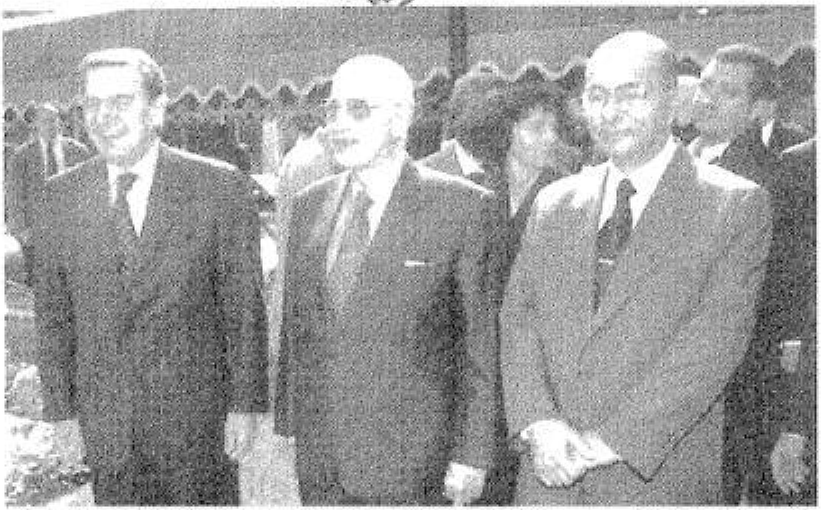
التشابه بين الغزالي وديكارت

وبعد أن قرأ الأستاذ اشبيتالر البحث سألنى: من الذى اقترح عليك موضوع هذا البحث؟ فذكرت له أن ذلك كان نتيجة لقراءاتى لفلسفة كل من الغزالى وديكارت، وملاحظتى وجود تشابه يكاد يكون كاملا بين كلا الفيلسوفين فى قضية الشك المنهجى بالذات. فقال: لكن هذا لا يعنى أن ديكارت (الذى عاش بعد الغزالى بأكثر من خمسة قرون) قد تأثر بالغزالى. وأن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد توارد

د. محمود حمدى زقزوق

- ولد بقرية الضهرية -مركز شربين - دقهلية
- تخرج في كلية اللغة العربية -جامعة الأزهر عام ١٩٥٩
- حصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة ميونيخ - ألمانيا عام ١٩٦٨
- أعير الي جامعة طرابلس - ليبيا عام ٧٢- والي جامعة قطر عام ٨٠
- عميد كلية أصول الدين أربع دورات متتالية ثم نائبا لرئيس جامعة الأزهر ١٩٩٥ ثم وزيرا للأوقاف في يناير ١٩٩٦
- اشترك في العديد من المؤتمرات العلمية في أوربا وبخاصة في مؤتمرات الحوار بين الأديان والحضارات.
- عضو بالعديد من المجامع والهيئات أهمها عضوية مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر وعضوية المجلس الأعلي للأزهر، ورئاسة الجمعية الفلسفية المصرية وعضو المجمع العلمي المصري، وعضوية الاكاديمية الاوربية للعلوم والفنون بسالزبورج.
- حاصل علي جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية عام ١٩٩٧

التكوين



مع المستشار الألمانى الحالى جيرهارد شرودر والدكتور عصمت عبد المجيد

خواطر. فقلت له إن ما كان يعنينى فى البحث ليس قضية التأثير والتأثر ولكن بيان أوجه الشبه بين الفيلسوفين من الناحية الفلسفية دون الخوض فى الناحية التاريخية وما إذا كانت هذه الأفكار لدى الغزالى قد وصلت إلى ديكارت أم لا. فهذا موضوع بحث آخر.

وبعد أن سلمت الرسالة وانتهيت من اجتياز الامتحانات المطلوبة حصلت على درجة الدكتوراه فى الفلسفة فى يوليه عام ١٩٦٨، وعدت إلى مصر فى أكتوبر ١٩٦٨ لأواجه العديد من المشاكل وبخاصة فى العمل حيث أصر الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية حينذاك - وهو الدكتور محمود حب الله رحمه الله - والذى كان على خلاف مع الدكتور محمد البهى ويعرف أنى أحد تلاميذ الدكتور البهى - أصر على أن أتسلم العمل مدرسا فى معهد المحلة الكبرى الدينى ولا أعمل فى مجمع البحوث بالقاهرة، على الرغم من أننى كنت أعمل قبل سفرى إلى ألمانيا فى الإدارة العامة للثقافة الإسلامية التى اندمجت بعد صدور قانون تطوير الأزهر فى مجمع البحوث الإسلامية. وبعد تدخل من الدكتور عبدالحليم محمود - رحمه الله - وكان وقتها رئيسا لقسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين - قبل الدكتور محمود حب الله أن أظل فى المجمع ولكنى ظللت بلا عمل وبلا مكان معين أجلس فيه. وطلبت





د. محمود زقزوق يسلم للسيد رئيس الجمهورية هدية وزارة الأوقاف فى احتفال الوزارة بذكرى المولد النبوى الشريف يوليه ٢٠٠١

جامعة الأزهر انتدابى ندبا كاملا للتدريس فى كلية البنات الإسلامية، ورفض أمين عام المجمع.

بين دار العلوم والأزهر

وبقيت مجمدا لا أعرف لى عملا محددا إلى أن تم تعيين الدكتور عبدالحليم محمود أمينا عاما لمجمع البحوث الإسلامية فوافق فورا على انتدابى لجامعة الأزهر.

وفى هذه الأثناء من عام ١٩٦٩ أعلنت كلية دار العلوم عن حاجتها لمدرس للفلسفة الإسلامية، كما أعلنت كلية أصول الدين كذلك عن حاجتها لمدرس للفلسفة وتقدمت بأوراقى إلى الكليتين، وتم ترشيحى بالفعل فى الوظيفتين وكان علىّ أن اختار فاستشرت الدكتور البهى - الذى كان صاحب الفضل فى ابتعاثى إلى ألمانيا - فأشار علىّ أن أظل فى الأزهر. وذهبت إلى الدكتور محمود قاسم عميد كلية دار العلوم حينذاك معتذرا وقد كان الرجل كريما معى إلى حد بعيد وتفهم موقفى ولكنه أضاف قائلا أود أن أنبهك إلى أمرين أولهما: أننى سألاقى العديد من المضايقات من جانب المشايخ بالأزهر وثانيهما: أنه إذا رغبت فى أى وقت الانتقال إلى كلية دار العلوم فالباب مفتوح وتقابلت معه رحمه الله بعد عام من تسلمى العمل بكلية أصول الدين وسألنى مرة أخرى إذا كانت لى رغبة فى الانتقال إلى دار العلوم فشكرته على كرمه وأبلغته أننى قررت البقاء فى الأزهر.

وخلال حياتى الوظيفية فى كلية أصول

الدين تمت إعارتي لجامعة طرابلس في ليبيا من عام ١٩٧٢ حتى ١٩٧٦ ولجامعة قطر من ١٩٨٠ حتى ١٩٨٤ ومرة أخرى من ١٩٨٩ حتى ١٩٩١ وعملت وكيلا لكلية الشريعة بجامعة قطر، وقبلها وكيلا لكلية أصول الدين بالقاهرة، وتم انتخابي عميدا لكلية أصول الدين أربع دورات متتالية وفي أكتوبر ١٩٩٥ عينت نائبا لرئيس جامعة الأزهر، وفي يناير ١٩٩٦ وزيرا للأوقاف.

الحوار بين الأديان والحضارات

وقد اشتركت منذ عام ١٩٨٠ في العديد من المؤتمرات العلمية في أوروبا وبخاصة في مؤتمرات الحوار بين الأديان والحضارات وكان اشتراكي فيها بصفة شخصية. وأول مؤتمر اشتركت فيه ممثلا رسميا للأزهر كان المؤتمر الذي عقد للحوار بين الأديان عام ١٩٩٤ في جامعة السوربون بباريس وفي العام نفسه اشتركت في مؤتمر مماثل لليونسكو بمدينة برشلونة بأسبانيا. وقبل أن أتولى الوزارة بأسبوعين فقط اشتركت أيضا في مؤتمر للحوار بين الأديان في مدينة نابولي بإيطاليا في ديسمبر ١٩٩٥.

وكان الإمام الأكبر الراحل الشيخ جاد الحق على جاد الحق - رحمه الله - من الرافضين لاشتراك الأزهر في المؤتمرات الدولية للحوار بين الأديان وقد أخذت القضية نقاشا طويلا في مجمع البحوث الإسلامية انتهى إلى موافقة فضيلته على المشاركة في مؤتمرات الحوار، وكان أول مؤتمر جاء عقب هذه الموافقة مؤتمر جامعة السوربون المشار إليه.



أما عن الأنشطة العلمية خارج نطاق عملي في الجامعة فقد تمثلت في عضويتي للعديد من المجامع والهيئات وأهمها عضوية مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر عام ١٩٩٠ ورئاسة الجمعية الفلسفية المصرية منذ أكثر من ثماني سنوات حتى الآن، وعضوية المجمع العلمي المصري، وعضوية اتحاد الكتاب منذ أكثر من عشرين عاما، وعضوية الأكاديمية الأوروبية للعلوم والفنون بسالزبورج بالنمسا، وعضوية المجلس الأعلى للأزهر.

الاهتمام بقضايا الدين والحضارة

وقد حصلت على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية عام ١٩٩٧ وفي الثلاثين عاما الماضية انصبت اهتماماتي العلمية بصفة أساسية على الدراسات الفلسفية - بحكم عملي أستاذا للفلسفة بجامعة الأزهر - وعلى الدراسات الاستشراقية - بحكم صلتي بالمستشرقين في أعمالهم العلمية المتصلة بالإسلام وتاريخه وحضارته وعلى الدراسات الإسلامية بحكم دراستي في الأزهر - وما يرتبط بذلك من اهتمام بقضايا الدين والحضارة والحوار بين الأديان

والحضارات. وقد صدر لي في هذه المجالات أكثر من عشرين كتابا، تمت ترجمة بعضها إلى لغات أجنبية مختلفة فقد ترجم كتاب (الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري) إلى التركية والإندونيسية وكتاب (المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت) إلى الإندونيسية والبوسنية وكتاب (الإسلام في مواجهة حملات التشكيك) إلى الانجليزية والفرنسية والألمانية والروسية. وذلك بالإضافة إلى البحوث المنشورة في المجلات العلمية في الوطن العربي وفي بعض البلاد الأوروبية كما نقلت إلى العربية من الألمانية بعض المؤلفات الفلسفية والاستشراقية، واشتركت في ترجمة كتاب بروكلمان (تاريخ الأدب العربي) إلى العربية.

وقد كان لكتابي (الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري) الذي صدر أولا في قطر عام ١٩٨٣ ثم في بيروت ثم بعد ذلك في القاهرة - كان له رد فعل متفاوت لدى المستشرقين وكان هذا الكتاب وغيره من مؤلفات لي عن الاستشراق من المراجع الأساسية التي اعتمد عليها باحث ألماني هو (إكيهارد رودولف) في إعداده لرسالته للدكتوراه التي قدمها إلى جامعة بون بعنوان (الدراسات الإسلامية الغربية في مرآة النقد الإسلامي) ونشرت الرسالة في برلين عام ١٩٩١.

وإذ أتذكر ذلك أذكر أن طالبة في جامعة الأزهر أعدت رسالة للدكتوراه عن الحوار بين الأديان وكان من الطبيعي أن تلجأ إليّ بصفتي من المشاركين في مؤتمرات الحوار بين الأديان منذ عشرين عاما. وقد ساعدتها وقدمت لها بعض أوراق العديد من مؤتمرات الحوار والكثير من المعلومات في هذا الصدد. وقد استخدمت ذلك كله في رسالتها. والعجيب في الأمر أن الأستاذ المشرف عليها أمرها - كما ذكرت لي - أن تشطب اسمي من الرسالة في كل مكان ورد فيه، كما لو أن ذكر اسمي في هذه الرسالة سيعلي من قدري ويرفع من ذكري فالأمر بالنسبة لي لا يعني شيئا ومن طبعي ألا أحجب علما عن أحد ولا أبغي من وراء ذلك جزاء ولا شكورا.

ولكن في المقابل جاءتني باحثة ألمانية اسمها (أنكه فون كوجلجن) كانت تعد رسالة دكتوراه في جامعة بون عن ابن رشد، وقد قدمت لها بعض المساعدات العلمية ونشرت الرسالة عام ١٩٩٤ فإذا بها تسجل ذلك بالشكر والتقدير في مقدمة الرسالة ثم تناقش بحثي عن ابن رشد في صلب الرسالة.

إن حياتنا مليئة بالمفارقات الغريبة، كما أنها تشتمل علي الكثير من الأمور المضحكات المبكيات والحكمة تقتضي أن يمر المرء علي صغائر الأمور مر الكرام، وألا يقف عندها فالحياة فيها ما هو أهم من ذلك من قضايا كبيرة لا يقوي عليها إلا كبار النفوس ولله في خلقه شئون. ■

تعقيب حول موضوع متحف الفن الإسلامى

نشرت الهلال فى عدد سبتمبر الماضى تحقيقا عن متحف الفن الإسلامى ونود أن نوضح ما يلى:

١ - بداية أن تاريخ إنشاء المبنى يرجع إلى ١٩٠٣ وكان الغرض من إنشائه هو مبنى يجمع بين مكان للمتحف الإسلامى (الأنتيكخانة السلطانية) فى الدور الأرضى ودار الكتب المصرية (الكتبخانة الخديوية) فى الدور الأول والثانى.

٢ - أعمال الإنشاءات للميزانين المعدنى لفراغ دار الكتب والذى يحمل تشكيلات معمارية معدنية هو تنفيذ لمشروع معمارى فائز فى مسابقة معمارية دولية لتطوير دار الكتب وهو ينطلق من فلسفة معمارية تؤمن بضرورة المزج بين القديم والحديث مع المحافظة على الشكل العام الخارجي للمبنى.

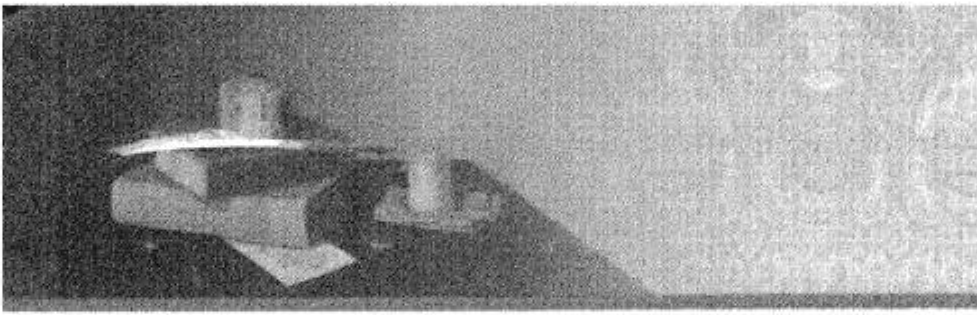
وبالنسبة لإنشاء الميزانين المعدنى فى فراغ المتحف الإسلامى على مستوى واحد أعلى الجزء الإدارى فالغرض منه إيجاد مسطحات جديدة لتخزين القطع الأثرية المخزنة حاليا فى بدروم المبنى، وذلك للحفاظ عليها من التلف نتيجة سوء التخزين ولإمكان تنفيذ أعمال الترميمات فى بدروم المبنى المستخدم حاليا كمخازن للمتحف.

٣ - بالنسبة لاستخدام عنصر الحديد فى إنشاء هذا الميزانين فهو يعتبر من أحسن العناصر الإنشائية المناسبة للغرض الذى أنشئت من أجله وهو المخازن والذى لا يؤثر فى نفس الوقت على الطراز المعمارى للمبنى، والجدير بالذكر أنه قد سبق استخدام عنصر الحديد كعنصر انشائى فى سقف قاعة الشواهد الأثرية بالمتحف الإسلامى فى فترات سابقة بدون اعتراض عليها.

٤ - بالنسبة لموضوع استيلاء دار الكتب على قاعتى النسيج والسجاد وطبقا لتصريحات الأستاذ الدكتور/ جاب الله على جاب الله نفسه فإن المتحف كان قد استعار هذه القاعة من هيئة دار الكتب عند انتقالها إلى المبنى الجديد لها بكورنيش النيل فى فترة رئاسة الدكتور أحمد قدرى والتى كانت مستغلة كقاعة اطلاع رئيسية لدار الكتب وما حدث الآن هو استعادة دار الكتب لهذه القاعة وليس الاستيلاء عليها.

سمير غريب

رئيس مجلس إدارة دار الكتب



عرس.. بأرض القمـر

(سـيناء) في خلوة والأفق يعـتـصـر
ينسـاب منه الندى والصحـو والقمـر

كم ضم هذا الضـيـاء شطها حـقـبا
كم غنت الشـمس والأزهار والشـجـر

والريح بثت بأغوار السـمـا شـبـبا
راحت ترش وفـوق الغـيم تنهـمـر

ياليت شعري كما السلاح خشخشة
لكنت دانتـه تعلو.. وتنفـجـر

أرض اللآلئ والفـيـروز راهبـة
مهما غزاها الدجى في الفجر تنتصر

هذا البـراح غـدا يزف في المرتقى
بشـائرا إذ أديم الرمل يسـتـعـر

فانهالت الأسد كالرعد الغضوب وما
خافت بروقـا ولا في الليل تندثر

حتى الذرا بالصمود اخضوضرت وهجا
والبـغي عاد إلى الأوهام ينكسـر

(سيناء) من خلف أوجاع الردى ضحكت
أنا الوميض.. وكان العصف يختمر

يا دوقة الشد وصار النصر ملحمة
كـدفـقـة النهـر والجدباء تنتظر

هل الصـيـاح نشيدا عاد مسكنه
والعـتق والمجد والأطيار والسمر

مـا صـاب رام، وإن جـارت نوائبـه
قلب العـروبة بالأسـود تزدخـر

يا زهرة هدها الإعـصـار أزمنة
الله زانك فـازدانت لك العـبـر

عبدالناصر أحمد الجوهري
دكرنس - دقهلية

أنت والهلال

الهلال.. هي الأولى

السيد رئيس تحرير الهلال

أتابع مجلة الهلال من مكتبة والدى منذ الخمسينات ومازلت برغم انقطاعي عن هذه المتابعة لفترات قليلة أعود مرة أخرى إليها.

ودعني أصارحك بأنكم بعد تسلمكم رئاسة تحريرها لم أنقطع عن قراءتها ومتابعتها وأقول بأنها تتقدم على مر الأعوام خاصة في السنتين الماضيتين، فبالنسبة لى أراها هي الأولى بين المجلات الدورية، لكن لى مطلبا أرجو تحقيقه بأن يوضع مع اسم الكاتب والباحث جنسيته وتخصصه وأؤكد لكم بأن الهلال في تقدم مستمر نرجو أن يتواصل دائما.

خالد محمد صقر المعوشرجي

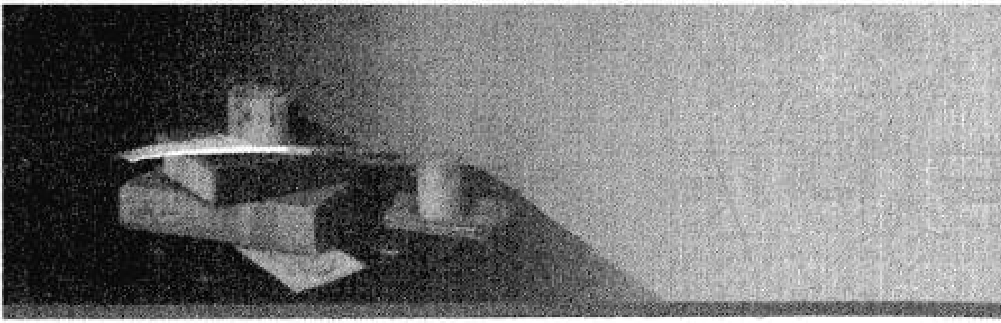
رئيس تحرير جريدة المؤشر - الكويت

الهلال: دأبت الهلال حين تنشر مقالا لأحد كتابها الجدد بأن تضع في نهاية الصفحة الأولى هامشا يبرز تخصصه والجامعة التي يعمل بها ولمرة واحدة وكل من يتابع الهلال بانتظام يعلم ذلك، كما أننا على سبيل المثال حينما ننشر للشاعر سليم الرافعي نضع إلى جوار اسمه - لبنان.. وعموما نعدك بأن ننفذ هذا المطلب ونشكرك على رسالتك الرقيقة.

الحياة تتغير!

استوقفتني فقرة من المقال الأدبى الذى كتبه الأستاذ أحمد بهجت في باب التكوين المنشور في عدد سبتمبر ٢٠٠١ من مجلة الهلال، وهى الفقرة الخاصة بحرص نساء الطبقة الوسطى في أوائل القرن العشرين على ضرورة وجود البيانو ضمن جهازهن عند الزواج، وأنه من خلال تملك والدته للبيانو وقيامها بالعزف عليه أحب هو الموسيقى.

لقد دعاني هذا للتساؤل: لماذا اختفت من مجتمعنا الآن هذه العادة الجميلة ذات المدلول الكبير؟ في ذات الوقت الذى تقلصت فيه أيضا أعداد المجلات الموسيقية في شتى أنحاء القاهرة، فشارع محمد على الشهير ببيع الآلات الموسيقية اختفت معظم محلاته حيث تحولت إلى محلات للزنكوغراف، ولم يبق - ربما للذكرى - سوى محلين أو ثلاثة، كذلك تحولت المحلات الموسيقية في الفجالة وشبرا إلى محلات أدوات صحية وعصير، كما اختفت المعاهد الموسيقية الخاصة التي كانت منتشرة منذ عقود قليلة في



أحياء القاهرة، بل صاحب ذلك اختفاء دور السينما بالتدريج أيضا خاصة الدور الصيفية التى كانت ترتادها العائلات.

وتزامن ذلك أيضا مع تحول المقاهي النظيفة الرحبة بشارع عماد الدين التي كانت ملتقى للأدباء والفنانين إلى معارض سيارات.

ألا يدلنا هذا على تراجع الثقافة وتردى المشاعر الإنسانية الحميمة. مما أدى إلى تفشى الجريمة والغلظة بشكل لم يكن موجودا فى مجتمعنا من قبل؟!

عادل شافعي الخطيب

لا ندرى

من أين جاءوا؟!
لا ندرى
أو كيف جاءوا؟!
لا ندرى
أأمطرتنا بهم السماء؟!
لا ندرى
كانوا قليلا.. فأصبحوا كثرا
كانوا عصابة.. فأصبحوا جيشا
أنمنا واستيقظوا هم؟!
لعل..
أتهنا نحن وعادوا هم؟!
لعل..
كانوا يخافونا فخفناهم..
حقيقة
فما الذى يجرى؟!
لا ندرى

عبدالحكم الزمامي
أبو تشت - قنا

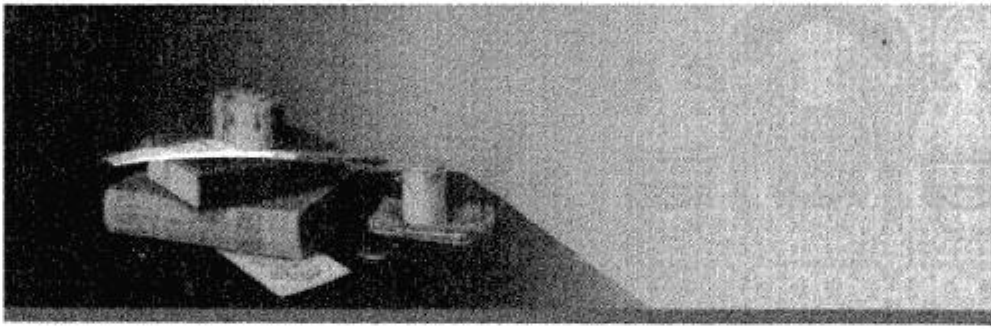
دعوة للعناية بالبيئة في مدارسنا

وصلتنا رسالة مهمة من دكتور جمال العطار استشارى التغذية والصحة العامة بكامب شيزار - الاسكندرية يتناول فيها موضوعا مهما حول البيئة المدرسية والصحة العامة ويتحدث عن الإهمال والفوضى الذين يحدثان فى مدارسنا خاصة رياض الأطفال، وعدم الاهتمام بالعيادات المدرسية التى غالبا ما توضع إلى جوار دورات المياه، فضلا عن الأتربة الموجودة بأحواش المدرسة مما أثر على صحة التلاميذ، ومرض الكثيرون منهم بأمراض الحساسية فى الصدر.. فضلا عن إهمال الفراشات والدادات وعملهن فى بيع الحلوى والبسكويت، ويطالب بالاهتمام بالملاعب الرياضية ونظافتها حتى تكون البيئة المدرسية حافزا بالاهتمام بصحة التلاميذ.

ونحن معك أيها الصديق فى أن تهتم كل الإدارات التعليمية بمتابعة المدارس التابعة لها والتنبيه المستمر والدائم على الاهتمام بالبيئة.

في ذكرى نصر أكتوبر
لحظة العبور

يا صرخة الجندى فى إصرار
يا صرخة نطقت لها الأشعار
عار على أقوام دنس أرضهم
جيش اليهود وشنقوا الأحرار
حتى الرضيع ما نجا من بطشهم
دكوا عليه جداره فانهار
قتلوا الشيوخ وضيعوا أطفالنا
بقروا حواملنا وداسوا الدار
وقفوا على هذى الحصون وظنهم
أن لا ندوس الترب يوم نهار
دك الحصون جنودنا وتقدموا
نحو العدو ومايهابوا شرار
ثم أتى جند الإله كتيبة
مصرية داست على الكفار.



عبروا الحصون ومزقوا أغلالهم
هدموا الجسور وحطموا الأشرار
ومشوا سراعا من أراضى مصرنا
وتمزق فى أرضنا الكفار
والآن فى القدس العظيمة كلبهم
يرتع ويلعب ضاحكا غدار
وطفولة قد قدموا أرواحهم
فى القدس ماخافوا من النيران
ألقوا على جند العدو حجارة
فكأنها نيران من غضبان
يا أمة الإسلام هيا وكبرى
يا أمة الإسلام حان الآن
هيا إلى القدس التى قد قدمت
أطفالها ورجالها الشجعان

أحمد نادي بهلول - ديروط

حكمة القدر

أواه من ليل من باتت تموج به ... شتى العواطف من حب ومن حذر
يرى النجوم، ولكن ليس يلمسها ... يثنيه بعد المدى والخوف من خطر
إن هده وهن، يغفو ليدركها ... بالنوم، لكنه يصحو على غرر
كم ارتقى لسماها متن أجنحة ... فلم ينل غير جهد البحث والسفر
ناجته نجمته يوما بأدمعها ... فهاله دمعها. والتاع فى كدر
وشف منه حنين دافق ألم ... سرى لمهجتها، وانداح فى وفر
وصب فى جوفها نورا، وأسلمها ... لغفوة بعد أن كلت من السهر
بدا بأحلامها نجما يسامرها ... والحب ينشدها فى غفلة القمر
فكان (حلما) حبيبا، ليس تدركه ... وليس يدركها فى عالم البشر
يرنو إليها فترنو ملء أعينها ... كلاهما - سغبا - يقتات من نظر
هى الأمانى كبرق خلب ومضت ... (كادت ولما..) فغص الليل بالعبر
قد كان حظهما من كل ما بنيا ... بينا، وتلك أخيرا.. حكمة القدر!

أمانى حاتم بسيسو - عمان - الأردن

الإفراج عن وثائق الثورة

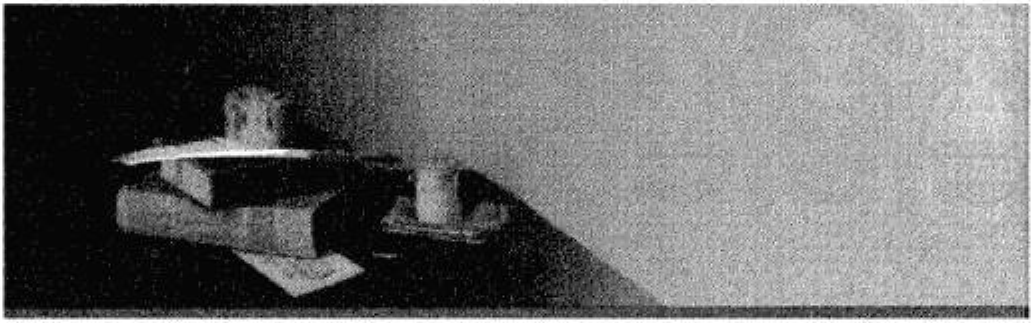
جذب انتباهي بشدة مقال الدكتور عاصم الدسوقى فى هلال سبتمبر ٢٠٠١ تحت عنوان «الحقيقة عن ثورة يوليو ١٩٥٢ قراءة فى رواية» عبدالمحسن أبو النور..» ضمن كتب مهرجان القراءة للجميع وليست هذه هى المرة الأولى التى يعرض فيها الدكتور عاصم لمثل هذه المذكرات فقد سبق له العام الماضى ان عرض لمذكرات الصاغ عبدالله طعيمة على انه شاهد على صراع السلطة فى مصر وتحت عنوان «شاهد حق» للصراع بين عبدالناصر ومحمد نجيب من جهة، وبين انور السادات ومجموعة على صبرى من جهة اخرى..

والحقيقة ان الدكتور عاصم فى طليعة مؤرخي ثورة يوليو ١٩٥٢، ولقد تصدى للكتابة عنها مرارا كثيرة، بموضوعية وبحثا عن الحقيقة التاريخة دوما وهو منهجه فى التاريخ الحديث والمعاصر.. ويناقش مذكرات الضباط الأحرار الذين طالما قال عنهم:

«انهم غيروا المفهوم الثابت في ادبيات الفكر السياسى الغربى.. عن دور الجيش من انه اداة الطبقة الحاكمة».

وفى إطار الفكرة ذاتها، ينبه الى مدى خطورة كتابة التاريخ اعتمادا على الذاكرة، لأن الشهادة قد تأتى - فى تقديره - عارية عن تحديد تاريخ اهم منعطفات الاحداث التاريخية.. ومن ثم الاسماء التى كان لها ارتباط وثيق لبعض المواقف المهمة، مما يجعل التثبت من الوقائع التاريخية الواردة بالتالى عاريا.

ومن نافلة القول، اننى أناشد كل من يحتفظ بأية وثيقة لها علاقة بثورة يوليو ١٩٥٢ ان يودعها دار الوثائق القومية التاريخية.. وفى المقام الاول الضباط الاحرار الذين مازالوا بيننا أو ورثة الراحلين منهم.. لان هذه الوثائق شهادة حية على تاريخ الثورة البيضاء بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني.. لاشك فى



هذا. وحتى تكون هاديا للاجيال التى لم تعايش الثورة للوقوف على حقيقة ما حدث آنذاك.

وخلاصة القول، لتحرى الصحة ولمحو الشك باليقين، ولكي نجلى للقارىء صورة واضحة وبيانا صحيحا قويما ينبغى ان يفرج عن وثائق الثورة الرسمية حتى تكون عونا صادقا لكل من يتصدى للكتابة عن الثورة من المؤرخين الذين يتلهفون على احدى الوثائق لما لها من اهمية بالغة.

د. صموئيل لبيب سيحة - المنيا

تدللى

قل «لام عمرو» ماطلى وتدللى   وإذا طلبت وصالكم لا تقبلى
فإذا سألتك أن أروى منهلى   فتثاقلى وتمنعى وتدللى
قولى غدا.. وغدا عديه إلى غد   أو سوفينى فى الهوى وتعللى
وإذا شكوت جوى الهجير وناره   لا تسمعى.. لا تقنعى.. لا تعقلى
لا تحسبن مشاعرى فى غفلة   - أبدا - ولا فقر الغرام بمنزلى
أبدا كلفت بحبكم وإلى الأبد   كلف به الحب فحبكم شاغلى
فالقرب نار والبعاد صبابة   والشوق فى قربى وبعدى قاتلى
إنى عرفتك كعبة مرصودة   طلت على جمع الأحبة من عل
إنى عشقتك زهرة فوق الربي   محجوبة.. ومصونة فى معزل
كونى كذا كي تشعليني دائما   زيدى فؤادى لوعة بتدلل
ماذا أقول أقد جننت من الهوى   ومن الهجير ومن بعادك مأملى
كلا ورب العرش لا تتمهلى   لا يحزننك قالتى وتقولى
إنى أحبك أنت عمرى منيتى   إنى أحبك أنت حبى الأول
أنت الحياة ونورها وعبيرها   لولاك ما بالصبح ليل ينجى
أرجوك لا تتمهلى وتعجلى   أرجوك أن تتعجلى فتعجلى

إيمان محمد العطيفى

الشيخ شبل - المراغة - سوهاج

الكلمة الأخيرة

لكى لا ننسى



بقلم : د. عبد العظيم أنيس

رغم حزننا العميق على الأبرياء الذين ماتوا فى أحداث نيويورك وواشنطن دون ذنب جنوه ، فإن من الصعب على أى عاقل محايد أن يقتنع أن الحرب التى تعدها واشنطن مع عملائها هدفها الحقيقى هو الحصول على فرد واحد (حيا أو ميتا) هو أسامة بن لادن !!

ولكى لا ننسى ينبغى أن نواجه ثلاثة اعتبارات أساسية فى هذا الموضوع هى فى الحقيقة جوهره :

أولا : ينبغى على الأمريكيين أن يجيبوا على السؤال الذى طرحته سيدة أمريكية فى محطة سى إن . إن حين قالت : لماذا يكرهنا الناس إلى هذا الحد ؟ .

والحقيقة أن شعوب العالم الثالث لا تكره الشعب الأمريكى إنما تكره السياسة الأمريكية .

وهذه الكراهية للسياسة الأمريكية وخصوصا منذ وصول بوش مصدرها العشرات من الوقائع، من انحياز كامل لإسرائيل ضد الشعب الفلسطينى، من رفض التوقيع على المعاهدات الدولية الخاصة بالبيئة والخاصة ببيع السلاح ومحاكمة المسئولين عن جرائم الحرب مثل شارون ... الخ ، ومن سياسة السيطرة والهيمنة الاقتصادية والسياسية والعسكرية على شعوب العالم الثالث .

ثانيا : إن موقف الغرب (وخصوصا واشنطن) من قضية الإرهاب هو موقف ذو وجهين فبينما يستنكر الإرهاب ويقيم الدنيا ويقعدها عندما يقع الإرهاب عليه ، فانه يستحل لنفسه استخدام هذا السلاح ضد خصومه عند اللزوم . وتاريخ المخابرات الأمريكية والانجليزية والفرنسية الحديث ملىء بأمثلة اللجوء إلى الإرهاب فى تنفيذ مخططاته .

ويكفى أن نشير إلى ماهو منشور فى وثائق مقروءة الآن عن قيام لجنة الأربعين التى يرأسها كيسنجر عندما كان مستشارا للأمن القومى الأمريكى أيام حكم نيكسون بتدبير اغتيال رئيس الأركان شنيدر فى جيش شيلى أيام حكم الليندى تمهيداً للانقلاب على نظام الليندى نفسه كما هو معروف ، ويكفى أن نشير إلى محاولات أمريكا المتكررة لاغتيال كاسترو وأن نشير إلى اعترافات ضابط المخابرات البريطانية السابق فى كتابه الحديث عن محاولة بريطانيا مؤخرا اغتيال العقيد القذافى فى بنغازى بقنبلة أفلت منها بأعجوبة . وقد أعلن مؤخرا فى الصحف البريطانية أن اغتيال داج همرشولد أمين عام الأمم المتحدة عام ١٩٦١ إنما تم بتدبير من المخابرات البلجيكية والفرنسية وأصحاب مصالح المناجم من الأوربيين فى إقليم كاتنجا .

ثالثا : علينا ألا ننسى أن المصالح البترولية فى أمريكا هى التى تحكم واشنطن اليوم . وقد كان بوش وتشينى من موظفيها فى السابق وهذه المصالح البترولية هى التى ترسم سياسة الولايات المتحدة اليوم .

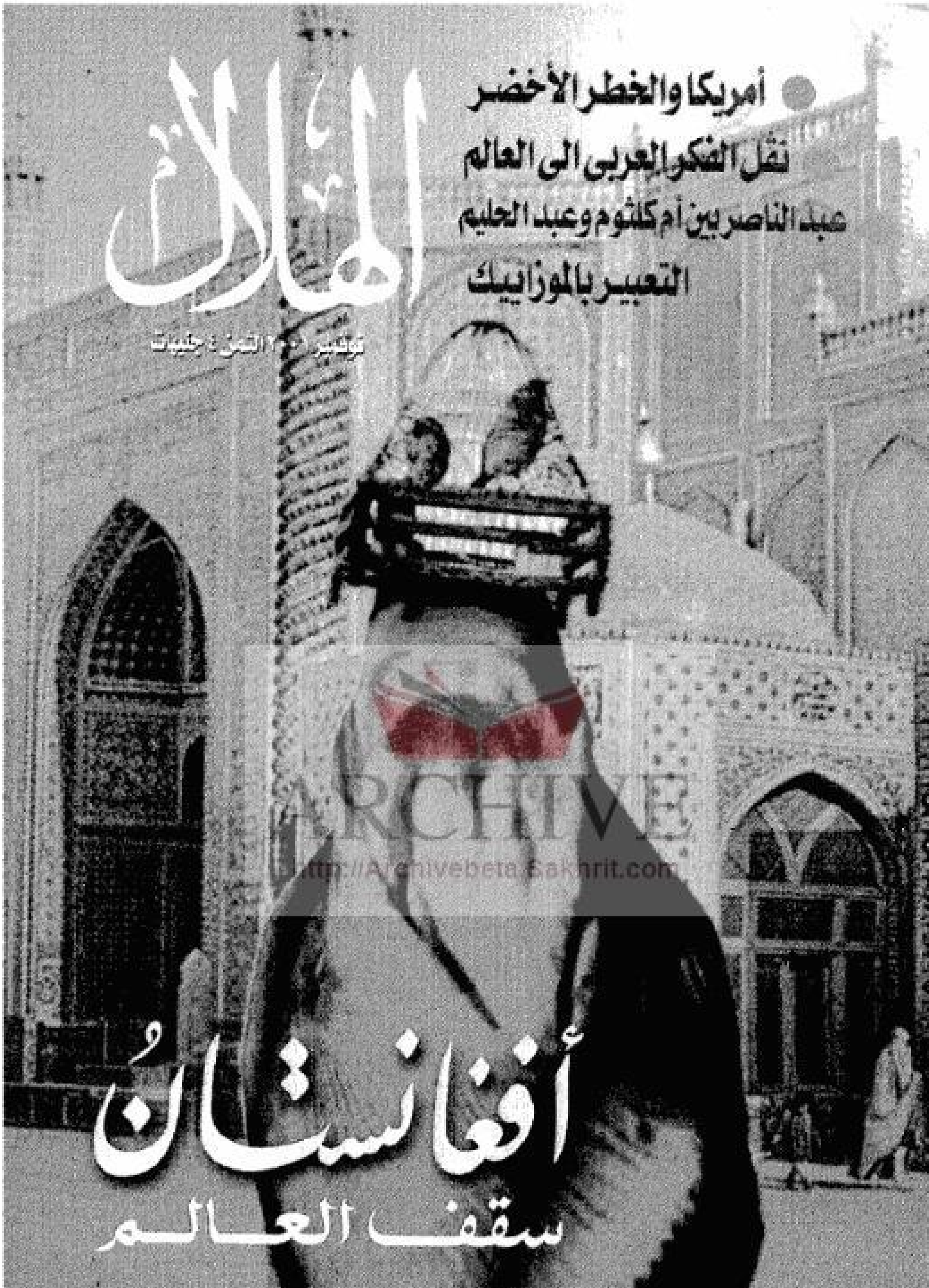
ومن هنا يمكن أن نفهم الهدف الحقيقى من غزو أفغانستان ، أن السيطرة على أفغانستان ووضع حكومة عميلة فى كابول من شأنه أن يحقق حلمين أمريكيين بتروليين : أولهما إنشاء خط أنابيب فقط من إحدى الجمهوريات السوفييتية السابق عبر أفغانستان ثم باكستان إلى المحيط الهندى .

والثانى هو الاقتراب من جنوب روسيا وبالتالى إحكام الحصار عليها وليس سرا أن الأمريكيين - عبر أغراض أخرى - يمدون ثوار الشيشان بالسلاح .

هذا هو الهدف الاستراتيجى الأمريكى من أى محاولة لغزو أفغانستان .



مفهوم ذهبي جديد
A NEW GOLDEN CONCEPT
بطاقة ماستر كارد مصر للطيران
البنك الأهلى المصرى الذهبية
أكبر خصومات على تذاكر السفر بهذه الدرجات :
• خصم يصل إلى ٥٠% للدرجة الأولى .
• خصم يصل إلى ٤٠% لدرجة رجال الأعمال .
• خصم يصل إلى ٣٠% للدرجة السياحية .
أكبر خصومات على المشتريات و الخدمات :
• خصم يبدأ من ٥% على مشترياتك بهذه البطاقة من السوق الحرة أو على متن الطائرة .
• خصم يبدأ من ١٠% على بعض الخدمات العلاجية بمستشفى مصر للطيران .
هدايا شهرية .. تذاكر دولية :
فرصة للفوز بتذكرتين دوليتين فى سحب شهرى .
الأسماء الكبيرة .. مزاياها كبيرة
مصر للطيران
EGYPTAIR
MasterCard
البنك الأهلي المصري
NATIONAL BANK OF EGYPT



الهلال
نوفمبر ٢٠٠١ الثمن ٤ جنيهات
أمريكا والخطر الأخضر
نقل الفكر العربى الى العالم
عبد الناصر بين أم كلثوم وعبد الحليم
التعبير بالموزاييك
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com
أفغانستان
سقف العالم





لوحة وفنان

لوحة : الفلاحة

للفنان : صلاح طاهر

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

سيد عبد المالك — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١.٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١.٥ ريال - تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٧٠٠٠ ليرة - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢.٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



الغلاف تصميم الفنان

محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٨٠ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٤٥ دولارا، أمريكا وأوربا وأفريقيا ٥٥ دولارا، باقي دول العالم ٥٥ دولارا.

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص.ب رقم ٢٦٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة



عزيزى القارئ

الحرية أو الأيقونة المقدسة!

نجحت الولايات المتحدة الأمريكية فى تقديم نموذج خلق حالة توازن دقيق بين كل من الأمن والحرية، وعند حدوث خلل فسرعان، مايعود التوازن من جديد، فبعد الخلل الذى وقع خلال الحرب الباردة وفى ظل مكافحة الشيوعية ظهرت المكارثية، ولكن سرعان ما قضى عليها.

وها هما الحرب والإرهاب يطلقان الشيطان من عقاله، ويخرج الشيطان من القمقم، ويقدم للبشر أسوأ ما لديهم فالحرب والإرهاب هما خروج عن الشرعية وخروج عن الإنسانية. وها هو التوازن يختل، وتهتز بقوة أعمدة النظام الأمريكى القائم على الحرية، حرية التعبير وحرية الفكر وحرية السوق واحترام خصوصية الإنسان.

وتمكن الحدث الجلل فى ١١ سبتمبر من المساس بالقيم الرئيسية للمجتمع الأمريكى، وأخذت حرية التعبير تتآكل، واختلط الأمر بين الإعلام الذى يزيد من معرفة المتلقى بما يجرى حوله، وبين الدعاية والتحريض واللعب بالعقول، أى بين الدعاية وبين المراجعة والتحليل، ساعد على ذلك اعتماد الإعلام فى أمريكا على الصور والانطباعات بدلاً من الكلمات والأفكار..

ولاحظ المراقبون خلال تلك الأحداث المروعة توقف عدسة التليفزيون الأمريكى فى المحطات التليفزيونية المختلفة على أبراج مركز التجارة العالمى وهى تقصف، ولم تتحرك العدسة لكى تنقل صور الضحايا أو عمليات الانقاذ، أو مأساة الضحايا وهم يطيرون فى الهواء من النوافذ، ولم تقترب العدسات من المبنى وما يحيطه من حركة، واختفى العديد من التفاصيل التى يسهل تقديمها مع هذه المأساة، ولم تعرف أسماء ركاب الطائرات الأربع، وظهر أن الإعلام يعمل وسط خطوط حمراء رسمتها الادارة، وظل الاعتماد كاملا على البيانات الرسمية، ولعل أجهزة الإعلام فرضت رقابة ذاتية، وخاصة تلك المؤسسات التى تعمل فى نيويورك التى روعتها تلك المأساة غير الإنسانية..

ولكن ما يدعو للدهشة، أنه لم يذع فى أية محطة تليفزيون فضائية أو فى أية صحيفة الحديث عن مسئولية ما حدث، ومن الذى يقع عليه اللوم فى أحداث واشنطن ونيويورك، وما هى أوجه التقصير فى النظم القائمة.. وبرزت على السطح تلك القيود التى فرضت على حرية التعبير، وأخذ الإعلام يوجه الاتهامات للعرب والمسلمين منذ اللحظات الأولى، واعتقل ما يزيد على سبعمائة وخمسين عربيا وتحول الرئيس الأمريكى إلى قائد القوات الأمريكية الذى لا يجوز انتقاده، وكأن الحرية تقتصر على تناول غراميات الرئيس مع عدم المساس بالقضايا الاستراتيجية أو تجنب نشر الأسرار العسكرية بعد إعلان قيام الحرب العالمية الثالثة.! ووضعت القيود على حركة المراسلين الحربيين.

وأخذت المعلومات تتسرب على ما أصاب عدداً من الصحفيين ومقدمي البرامج في الإذاعة والتليفزيون، وتردد فصل عدد كبير من الإعلاميين لتخطيهم الخطوط الحمراء الموضوعة.. ونشر ما وقع لاثنين من الكتاب في تكساس وأرجون اللذين فصلا من صحيفتيهما بعد توجيههما نقداً لاذعا للرئيس الأمريكي بوش.. أولهما «توم جاتنج» من صحيفة «سيتى صن» في تكساس والذى كتب يقول.. «بدلاً من أن يعود الرئيس إلى واشنطن ساعة تلك العمليات الإرهابية أخذ يطوف مثل الطفل المذعور الذي يبحث عن أمه بعد أن طاردته الكوابيس»

وفصل أيضاً من إحدى الصحف في أرجون «دان جوثرى» بعد هجومه على الرئيس الأمريكي..

وعرفت حكاية مذيع التليفزيون « جينجر » الذى تناول أيضاً اختفاء الرئيس خلال العمليات الإرهابية ومما قاله:«.. من حق الشعب أن يتطلع في مثل هذه الأوقات العصيبة إلى قدوة يحتذى شجاعتها، والتي ينبغي أن تتمثل في الرئيس، لكي يستلهم منه الجميع القوة والثبات، فمن الرؤساء من يلبي ويدرك هذه الحالة، وهناك أيضاً من يختفون.!».

وعندما شعر بفداحة ما أذيع، عاد واعتذر وقال إن هناك خطأ فيما نقل عنه، وأن كلامه قد انتزع من سياقه!.

وأذيع ما تعرض له «بيل ماهر» مقدم البرامج في أكثر من محطة تليفزيونية عندما أذاع ما قاله الرئيس من أن مهاجمة مركز التجارة والبنتاجون عمل يتسم بالجبن، فعلق قائلا: «نحن الذين كنا جبناء عندما أطلقنا صواريخ توماهوك وكروز من مسافة ٣ آلاف كيلو متر، أما ما وقع في واشنطن ونيويورك فقولوا عنه ما تريدون، ولكن هذا ليس جبنا!» وأدى ذلك إلى توقف عدد من شبكات التليفزيون عن التعامل معه..

ولم يقم أحد بالدفاع عن بيل والقول إنها مجرد وجهة نظر.

ومن صور الانقلاب عن الحرية والذى يعتبر مساسا بروح الديمقراطية ثورة الغضب ضد وسائل إعلام الدول الأخرى، وانشاء وزارة للأمن تضم كل أجهزة الأمن التي كانت تابعة لوزارة العدل، واغلاق المنافذ البرية وطرد المواطنين غير الأمريكيين دون محاكمة.

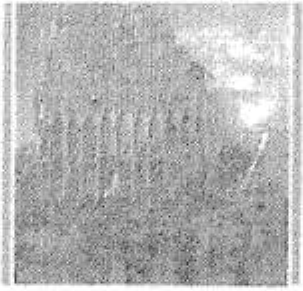
أما حرية السوق، فقامت السلطات الأمريكية بالتدخل لدى البنوك لتجميد الحسابات التي ترى أنها تمول عمليات الإرهاب، وأيضاً بدون تحقيق أو تحقق أو اصدار حكم من المحكمة يؤكد هذه الإدعاءات.. مما سيكون له أكبر الأثر على فكرة الاقتصاد والسوق الحر!

وبعد توارى الحرية تتوارى الخصوصية، وأصبح من حق الإدارة التنصت على محادثات الأفراد ومراقبة رسائلهم بلا أمر قضائي، وهو ما يعتبر السطر الأخير في قيمة غالية وعزيزة هي احترام خصوصية الفرد، فيقوم النظام الحر على تقديس الحياة الخاصة للأفراد، وعدم المساس بها، وأصبح اليوم من حق الادارة اختراق الحجب وتمزيق استار الخصوصية والتلصص على أدق أسرار الأفراد، لقد أخذ «جورج أورويل» يحذر في روايته « ١٩٨٤ » من اقتحام النظم الشمولية خصوصية الأفراد في ظل التقدم العلمي.. وها هي تقع في قلعة النظام الحر!

وبعد..

إن تجديد التشريعات واللوائح لن يقضى على الإرهاب، وتقييد حرية الأفراد لن يجتث الإرهاب ما لم يتم تغيير جذرى يعالج أسبابه. ■

المحـــــــرر



ماذا يبقى من الولايات المتحدة الأمريكية؟!

بقلم

د. أحمد يوسف أحمد

عندما وقعت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ أخذ الجميع يتابعونها غير مصدقين لحقيقة أنهم يشاهدون شيئا واقعيا، وربما ساعد على ذلك أن ما كانوا يرونه على شاشات التليفزيون كأحداث حقيقية سبق أن رأوه بشكل أو بآخر فى أفلام سينمائية أمريكية تمادت فى تخيل هجمات ضارية على الحضارة الإنسانية، وفى القلب منها «الحلم الأمريكى»، وربما لم يهتم الكثيرون فى حينه بالتبصر فى دلالات ما يقع من أحداث وآثاره المستقبلية، وإن كان المؤكد أنه مع بداية انقشاع الغبار عن موقع الأحداث، واتضاح هول ما حدث بدأت العقول تمعن الفكر فيه، وتحاول أن تستشرف محصلة تأثيره على المستقبل.

الجدل السابق حول حدود القوة الأمريكية

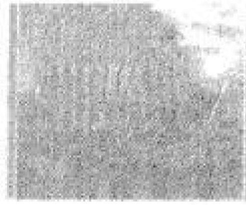
تذكرت على الفور عندما بدأ العقل يعمل أن جدلا واسعا قد نشب فى كل مكان فى أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتى، وخروج الولايات المتحدة الأمريكية منتصرة فى الحرب الباردة على نحو كاسح تكاد ألا توجد

له سوابق فى تاريخ العلاقات الدولية: أن تنهار قوة عالمية من داخلها دون حرب رئيسية مباشرة، وقد نذكر من سوابق التاريخ أنه حتى الدول المريضة والكيانات المعتلة احتاجت إلى حروب رئيسية كى تتفكك.

ولقد تركز الجدل حول ما آلت إليه الأمور فى الساحة العالمية بعد انهيار الاتحاد السوفييتى، وانقسم المتجادلون إلى فريقين رئيسيين: أولهما يرى أن هذا الانهيار قد أفضى إلى ظهور نظام عالمى جديد، ذى طابع أحادى القطبية، يتميز من ثم بهيمنة أمريكية منفردة، ويلاحظ أن مجرد استخدام مصطلح «نظام» فى هذا السياق كان يعنى أن أنصار هذا الفريق يعتبرون أن أحادية القطب هذه سوف تمثل مرحلة مستقرة من مراحل تطور النظام العالمى، وقيل فى هذا السياق أن القرن العشرين كان أمريكيا، وأن القرن الحادى والعشرين سوف يكون كذلك.

كانت حجج هؤلاء تستند إلى دلالات الانتصار الأمريكى الكامل على الاتحاد السوفييتى، والذى فتح الباب لأمثال فوكو ياما للقول بأن التاريخ قد بلغ نهايته، وكانوا يستشهدون بأن الولايات المتحدة الأمريكية وحدها دون بقية دول العالم تمتلك مقومات القطب العالمى أو القيادة العالمية بشقيها المادى والمعنوى، وبينما قد تمتلك هذه الدولة أو تلك جزءا من المقومات المادية فإن أحدا لا يمتلك المقومات المعنوية التى تتمثل فى مشروع لقيادة العالم، فالاتحاد الأوروبى أو اليابان قد يكونا عملاقين اقتصاديين بالمعايير العالمية، ولكن قوتهما العسكرية لا تقارن بالقوة الأمريكية، وروسيا قد تكون عملاقا عسكريا بحكم ترسانتها النووية، ومع ذلك فإن تعثرها الاقتصادى لا يخفى على أحد، وقد تكون الصين فى طريقها لأن تصبح عملاقا اقتصاديا وعسكريا، غير أن مستقبلها مازال محفوفا بعلامات استفهام عديدة تتعلق بقدرتها على الاستمرار فى إطار الصيغة الحالية لنظامها السياسى طويلا وهكذا.

ومن ناحية ثانية فإن قوة من القوى السابقة لم تدع لنفسها أصلا دورا فى قيادة العالم، ولا هى قدمت مشروعا كالمشروع الأمريكى الذى يقوم على الحرية بكل تجلياتها: النظم السياسية الديمقراطية - صيانة حقوق الإنسان - الاقتصاد الحر منهجا لبناء الاقتصادات الوطنية والعلاقات الاقتصادية الدولية -



الدفاع عن حريات الشعوب وصيانة أمنها.. الخ

وأخيرا فإن أنصار هذا الفريق كانوا يستشهدون على صدق ما يقولون بأن الولايات المتحدة الأمريكية قد أثبتت منذ بداية التسعينات من القرن الماضى أنها فعلا القوة التى تقود العالم، فقد قادت الجهد الدبلوماسى والعسكرى فى معظم الأزمات والصراعات الأهلية والإقليمية والعالمية الحادة التى نشبت منذ ذلك الوقت وحتى الآن فى الخليج والشرق الأوسط والصومال والبوسنة والهرسك ويوغوسلافيا وايرلندا.. الخ.

***

غير أن ثمة فريقا آخر كان يرى رأيا مغايرا مؤداه أن الأحداث الجسام التى وقعت فى بداية التسعينات من القرن العشرين لم تفض إلى نظام عالمى جديد، وإنما إلى وضع انتقالى آخذ فى التشكل فى مدى زمنى قد يطول عقدا أو عقدين، وأن هذا التشكل سوف يكون فى الأغلب باتجاه نظام عالمى متعدد الأقطاب، نتيجة وجود مراكز قوة دولية مرشحة لأن تكون أقطابا عالمية فى مدى زمنى منظور.

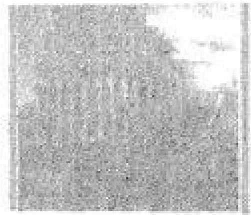
وذكر هؤلاء بأن طبيعة النظم الدولية لا تتكشف بمجرد وقوع الحدث الذى يمثل نهاية للنظام القديم، فمن كان يتصور مثلا فى حينه ان النظام الدولى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية سوف يكون ثنائى القطبية؟ لقد بنى نظام الأمم المتحدة فى ١٩٤٦ على فكرة الأقطاب الخمسة التى أعطيت مقاعد دائمة فى مجلس الأمن، وسرعان ما أخذ يتضح بالتدريج أن بعض هذه القوى غير قادر على التحمل بأعباء القيادة الدولية، فبدأت تنسحب واحدة تلو الأخرى حتى اتضح بشكل قاطع فى النصف الثانى من خمسينات القرن العشرين ان من بقى من ساحة القيادة دولتان اثنتان فقط، وتحدى هؤلاء أن يعثر أحد على مصطلح القطبية الثنائية كوصف للنظام الدولى فى أعقاب الحرب العالمية فى أى من كتب العلاقات الدولية التى ظهرت فى ذلك الوقت، ومن ثم فإن القضية بالنسبة لهم قضية وقت: أمهلونا بعض الوقت وسوف نؤكد لكم أن منحنى القوة الأمريكية آخذ فى الهبوط التدريجى، بدليل أن الولايات المتحدة الأمريكية التى حصلت على تفويض من مجلس الأمن بالعمل العسكرى ضد العراق إبان

أزمة الخليج ١٩٩٠ / ١٩٩١ لم تستطع أن تحصل على نفس الشيء في مواجهات أخرى في العراق لاحقا، إنتهاء بإخفاقها في تمرير مشروع العقوبات الذكية من مجلس الأمن.

علامات استفهام!

ولعل هذه التطورات ترتبط مباشرة بما إرتآه انصار الفريق الثاني من أن مكمن الضعف الرئيسي في القيادة الأمريكية للعالم لايعود إلى مقومات قوتها المادية، وإنما إلى طبيعة مشروعها القيادي، فالحرية التي تمثل حجر الأساس في هذا المشروع تبدو محلا لعديد من من علامات الاستفهام، فالولايات المتحدة الأمريكية تعلن وتصر على انها رسول الديمقراطية في العالم، وتنفق على نحو ساذج مئات الملايين من الدولارات للمساعدة في نشر «التنشئة الديمقراطية» في جميع انحاء العالم، لكنها عندما تتعامل مع دولة لا تحترم هي ذاتها رسالتها الديمقراطية، فهي تتخذ لنفسها حلفاء أساسيين من دول غير ديمقراطية، وتوافق على إجراءات غير ديمقراطية في دول بعينها طالما أنها سوف تمنع وصول خصوم الولايات المتحدة الأمريكية الى الحكم وهي تدعي الدفاع عن حقوق الإنسان، كما فعلت في حالة اكراد العراق. لكنها في الممارسة تبدو متأثرة بمصالحها الاستراتيجية اكثر منها بالنوازع الإنسانية. فهي تحمي اكراد العراق من السلطة العراقية، وتحمي «ألبان» كوسوفا من السلطة اليوغوسلافية. لكنها لا تحرك ساكنا بالنسبة للشعب الفلسطيني في مواجهة اسرائيل، أو الشعب الشيشاني في مواجهة روسيا. وهي تتبني مفاهيم موضع نظر عن حقوق الإنسان، الأمر الذي يفضي بها إلى تدخل مرفوض وضار في شئون بعض الدول تحت ستار «الإنسانية».

وفي مجال الاقتصاد الحر كمنهج لبناء الاقتصادات الوطنية بدا واضحا في الممارسة أن الولايات المتحدة الأمريكية بافتراض حسن النية لاتعرف الكثير عن طبيعة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية لشعوب الدول المتخلفة، وأن تطبيق ما تحاول فرضه على هذا الدول مدعومة في ذلك – أي الولايات المتحدة – بمؤسسات اقتصادية دولية يمكن أن يفضي إلى كارثة بالنسبة لتلك الدول، إن لم يكن ذلك قد حدث فعلا. أما العلاقات الاقتصادية الدولية فثمة احساس واسع النطاق لدى دول الجنوب بصفة



عامة، وقطاعات من النخب الفكرية والرأى العام فى بلاد الشمال المتقدم بأن تنظيمها على أساس من الازالة التامة للحواجز سوف يعمل بشدة لصالح الدول المتقدمة، ومن ثم سوف يصل باقتصادات الدول المتخلفة الى كارثة.

وفى مجال تحقيق السلم والأمن الدوليين برز من جديد موضوع ازدواجية المعايير الذى يمكن الولايات المتحدة الأمريكية من الانحياز التام لدولة استعمارية غاصبة كإسرائيل إلى الحد الذى تتجاهل معه كافة الحقوق العربية، وتقبل فيه ممارسات تتعارض مع السياسة الامريكية المعلنة ذاتها، كما فى الموقف الإسرائيلى من معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية.

كان المشروع الأمريكى لقيادة العالم إذن هو نقطة الضعف الرئيسية فى القوة الأمريكية لدى أنصار الفريق الثانى بقدر ما أدى إلى نفور عالمى من القيادة الامريكية لعله تجلى فى لفظ أعضاء الأمم المتحدة لأول مرة للولايات المتحدة الأمريكية من عضوية لجنة حقوق الإنسان فى هذا العام فى سابقة هى الأولى من نوعها منذ نشأة المنظمة العالمية.

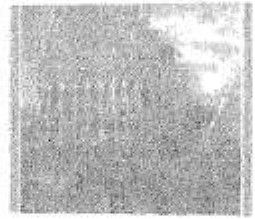
أحداث سبتمبر ٢٠٠١ وتداعياتها على القوة الأمريكية

لقد كشفت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ عن شيء أخطر بخصوص مدى هشاشة القيادة الأمريكية للعالم، ويتعلق هذا الشيء بقوة الولايات المتحدة بالمفهوم المادى وليس المعنوى. ولم يكن الكثيرون فى السابق يتحدثون عن هذا الانكشاف للقوة الأمريكية، فقد كان الاعتقاد مطلقا بأن القوة الأمريكية العسكرية غير قابلة للمساس بها، وأن التقدم التكنولوجى الأمريكى قد وصل إلى الحد الذى يقف العالم بأسره مجردا حتى من ورقة التوت أمام العيون الأمريكية، وبدا الرئيس الامريكى وهو يتحدث – من منطلق مصالح الفئات والطبقات التى يمثلها – عن مشروع الدرع الصاروخى وكأنه يسعى الى وضع الرتوش الأخيرة على لوحة القوة الأمريكية المطلقة، وكان نفس الإحساس موجودا ايضا فيما يتعلق بالقوة الاقتصادية الامريكية التى شهدت ازدهارا غير مسبوق فى سنوات حكم كلينتون ، والتى كان الكثيرون يؤمنون بأن الاقتصاد الأمريكى لديه القدرة مهما عانى من أزمات على التصحيح الذاتى بحيث

يبقى دائما الاقتصاد الأول على العالم. وفى هذا الاطار وقع ما شهدناه جميعا بهذه البساطة «باستخدام السكاكين كما قيل لنا» وبكل هذه الآثار الفادحة على القوة الأمريكية رمزا وفعلا وكيف عجزت مؤسساتها عن التنبؤ بالخطر والإعداد لمواجهته والنجاح فى ذلك.

ولقد كان من الممكن أن يفضى ما وقع إلى نقلة نوعية فى تدعيم القوة الأمريكية شريطة أن تدرس اسبابه، وتحاول ان تحدث تكيفا فى السياسة الأمريكية لمواجهة الرفض العالمى الواضح لهذه السياسة والذى ينتشر فى شتى أقاليم العالم التى تعانى من الظلم بمختلف صنوفه واشكاله، غير أن السياسة الأمريكية اندفعت حتى الآن فى مواجهات وفق النمط القديم: الاستخدام المطلق للقوة والذى لن يفضى وحده إلا إلى مزيد من تآكل القوة المادية الأمريكية والمشروع الأمريكى لقيادة العالم ، فالحرب الدائرة فى افغانستان الآن، او بعبارة ادق الهجمات الامريكية الضارية على افغانستان، اما ان تؤدى الى نصر سريع وحاسم للولايات المتحدة الامريكية، وفى هذه الحالة ستجنى بالاضافة الى مكاسب النصر مزيدا من الرفض من قبل الشعوب الاسلامية والعربية وكذلك القطاعات المستنيرة فى الرأى العام الأوروبى والأمريكى، والتى رأينا لحسن الحظ شواهد مبكرة على تنبهها لخطورة الموقف الراهن على السلم والأمن الدوليين. غير أن هذه الحرب قد تؤدى كاحتمال ثان اذا طال امدها واتسع نطاقها إلى مزيد من استنزاف القوة المادية الأمريكية وسوف يعجل هذا بتحولات اساسية فى النظام العالمى.

وربما يكون الأهم من استنزاف القوة المادية أن ثمة مزيدا من الاستنزاف المعنوى للمشروع الأمريكى لقيادة العالم منذ بدأت الضربات ضد افغانستان، فالسقوط المتكرر لضحايا مدنيين ابرياء فى افغانستان ، والضوابط المتزايدة على الحريات داخل الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها بصفة عامة وتجاه العرب والمسلمين المقيمين فيها، وكذلك الأمريكيين من اصول عربية واسلامية تهدد بتآكل حلم الحرية الأمريكى ذاته، والتحالف الامريكى مع دول غير ديمقراطية لضرب ما تسميه الولايات المتحدة بالارهاب دليل آخر على أن الديمقراطية ليست عنصرا جوهريا فى المشروع الأمريكى لقيادة العالم، كما ان إسقاط العقوبات عن باكستان



والهند والتى كانت الولايات المتحدة الامريكية قد فرضتها عليهما نتيجة انتهاكهما لمعاهدة منع انتشار الاسلحة النووية، يعنى ان عقد القيادة ينفرط بين يدى الولايات المتحدة الامريكية ، إذ ان الرسالة واضحة. تمرد بقدر ما تستطيع على معايير النظام، وسوف اتغاضى عن هذا التمرد فى اللحظة التى احتاجك فيها، وطالما ان هذا يحدث فهو يعنى ان القبضة الامريكية المطلقة على زمام الامور فى العالم آخذة فى التراخى.

ما الذي يبقى من الحلم الأمريكي ؟

ما الذى يبقى من الولايات المتحدة الأمريكية اذن بعد الانكشاف المفاجىء لقوتها المادية والافلاس المتزايد لمشروعها القيادى. يبقى فى الواقع تلك المنجزات الحضارية التى لا تعرفها غالبية الشعوب العربية والاسلامية - وربما معظم شعوب العالم - جيدا ، ذلك ان أسوأ ما فى الولايات المتحدة الأمريكية يصلنا عن طريق سياساتها الرسمية التى تضعها نخبة حاكمة تعبر عن مصالح ضيقة لقوى اجتماعية تحتل اعلى السلم الاجتماعي، لكننا للأسف لا نملك جسورا حقيقية مع الشعب الأمريكى الذى صنع منجزات اقتصادية هائلة تتضمن تقدما تكنولوجيا باهرا لا يسأل صناعه بالضرورة عن إساءة استخدامه، وأدب رفيع لا يصل إلا إلى القلة منا وأفلام سينمائية تحمل قيما سامية لمجتمع انسانى لا تعرف عنه الكثير ولا ندرى لماذا يحتجب معظمها عنا لصلحة افلام العنف والجنس، وموسيقى راقية وتعليم متقدم، وأمور أخرى ايجابية كثيرة حجبتها عنا سياسة ضيقة الأفق عقيمة الرؤية .

يبقى هذا - وهو كثير - من المشروع الامريكى، وربما تقع المسئولية على عاتقنا فى ان نحاول استكشافه على نحو متزايد، وان نقيم الجسور معه فهذا هو المخرج الوحيد من الصدام الذى يوشك ان يقع وان يكون عاما على الصعيد المجتمعى، ولعله يمثل قوة ضاغطة تصحيحية للسياسات الامريكية الراهنة التى لن تقود اذا استمرت على ما هى عليه الا الى مزيد من تآكل الحلم الأمريكى وتهديد الاستقرار العالمى. ■

أقوال معاصرة

● «الإرهابيون يخضعون لعمليات غسيل مخ من قادتهم الذين يعطونهم تصورات خاطئة عن الدين»

شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي



شيخ الأزهر

● «قبل أن تقع الحرب سجل الإرهاب هدفا، جعل الديموقراطية أقل ديموقراطية».

المفكر اللبناني حازم صاغية

● «حرب الخليج، قبل عشر سنوات، كانت بمثابة فندق خمس نجوم للأمريكيين»

باتريك سيل

الكاتب البريطاني المتخصص في شئون الشرق الأوسط

● «يجب أن نتذكر، ونحن نخوض الحرب العالمية الثالثة، أنها ستكون حربا طويلة الأجل، ضد عدو ذكي، وله دوافعه»

الكاتب والصحفي الأمريكي توماس فريدمان



آرثر ميللر

● «أمريكا في حاجة إلى العالم، والعالم في حاجة إلى أمريكا»

الأديب الأمريكي آرثر ميللر

● «الإرهاب مثل النباتات الخبيثة كلما قطعتها نمت بحجم أكبر»

حافظ جعفر حسن

قارئ من الدمام بالسعودية

● «مازالت بربارة (أم الرئيس الأمريكي بوش الابن) تنهره كما كانت تفعل به، عندما كان طفلا»

الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الأب



د. مصطفى الفقي

● «الكآبة هي البوابة لدخول المرض الخبيث جسم الإنسان»

د. محمود محفوظ

وزير الصحة الأسبق

● «الإرهاب ظلامي الفكر، عشوائي الاتجاه، ينطلق من مجهول إلى أي عنوان»

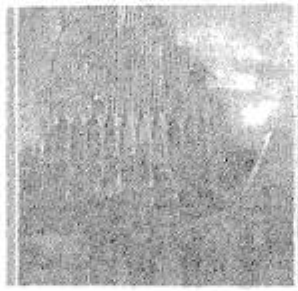
د. مصطفى الفقي

عضو مجلس الشعب

● «اسرائيل تقف اليوم أمام منعطف حاسم، إما أن تقام إلى جانبها دولة فلسطينية علمانية، أو دولة بنلادينية طالبانية»

شمعون بيريز

وزير خارجية اسرائيل



الحريـــة

بين أمـريكا والعـالم الثـالث

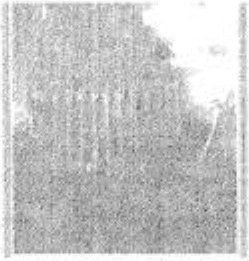
بقلم
د. حسن نافعة

عاصفة الطائرات الانتحارية التى هبت على نيـويورك وواشنطن صباح يوم ١١ سبتمبر من عام ٢٠٠١ لم تدمر مبنى التجارة العالمية وجانباً من وزارة الدفاع الأمريكية فقط، وإنما دمرت أشياء أخرى كثيرة، وغيرت أشياء أكثر سواء فى رؤية المجتمع الأمريكى لنفسـه أو فى رؤيتـه للآخـرين. وسـوف يظل الباحثـون والمحللون ينقبـون عن هذه الأشيـاء التى دمـرت أو دفنت مع الركـام المتسـاقط فى نيويورك وواشنطن وذلك لفترة طويلة قادمة.



الحريق الذى تولد عن حادث أوكلاهوما

لقد كان من الطبيعى أن تتوجه أنظار الباحثين أولا إلى محاولة حصر الخسائر المادية التى أسفرت عنها تلك العاصفة سواء فى الأرواح أو فى الممتلكات. وربما يكون هذا هو الجانب السهل فى الموضوع. وقد ظهرت بالفعل تقديرات أولية تشير إلى أن الخسائر فى الأرواح تصل إلى حوالى ستة آلاف شخص وأن تكلفة إعادة وضع المبانى والممتلكات إلى ماكانت عليه قبل العاصفة تصل إلى حوالى ١٠٠ مليار دولار . غير أن التقديرات الإجمالية الحقيقية والنهائية لهذه الخسائر لن تكون متاحة قبل عدة شهور. فالخسائر المادية التى أحدثتها العاصفة لا تقدر بقيمة ما دمر من مبان وممتلكات فقط وإنما بمجمل الخسائر الاقتصادية التى خلفتها هذه العاصفة وراءها. مثل خسائر شركات الطيران والتأمين والبورصة وغيرها. ويقدر البعض إجمالى الخسائر العالمية الناجمة عن هذا العمل الإرهابى بما يقرب من ٣٥٠ مليار دولار على أقل تقدير ، وهو رقم يعادل إجمالى ديون العالم الثالث تقريباً.



أما الجانب الآخر الذى لفت أنظار الباحثين والمحللين فيتعلق بطبيعة الأضرار التى لحقت بهيبة الولايات المتحدة ومكانتها على الصعيد الدولى.

إدارة منفردة للأزمة

غير أن هناك جانباً آخر من الصورة لم يأخذ بعد مايستحقه من اهتمام الباحثين والمحللين . فقد هزت تلك العاصفة عمق المجتمع الأمريكى من داخله هزا عنيفا. ولأن الشعب الأمريكى، الملتف حول قيادته فى تلك الظروف الاستثنائية، يبدو معنيا الآن أكثر من أى شىء آخر بالرد الخارجى على هذا التحدى، فإن ما يجرى أمامنا على السطح ونستطيع رصده بالعين المجردة لايعكس بالضرورة ما يعتمل فى أعماق المجتمع الأمريكى من تفاعلات ناجمة عن تلك العاصفة. ولذلك يصعب، فى تلك المرحلة المبكرة، أن نتعرف بدقة على الطريقة التى سيستجيب بها النظام السياسى - الاجتماعى الأمريكى لما أثارته تلك العاصفة من تحديات. ومع ذلك فقد أصيب العديد من المحللين بالدهشة من السهولة التى تم بها تفويض الرئيس الأمريكى بكل السلطات والصلاحيات التى تمكنه من إدارة منفردة ومطلقة للأزمة، وتجعله فى وضع يمكنه من استخدام كل الوسائل المتاحة، بما فيها القوة المسلحة. وهذا النمط فى إدارة الأزمات تعرفه دول العالم الثالث جيداً، لكنه غير مألوف فى المجتمعات الديمقراطية. كما لفت أنظار المراقبين فى الوقت نفسه عنف ردة الفعل المجتمعية تجاه العرب والمسلمين، والذين تعرضوا لاعتداءات عشوائية على المقدسات والمحرمات ووصلت إلى حد القتل أو التهديد به. وكان من الطبيعى أن يتساءل هؤلاء المحللون عن التأثيرات المحتملة لهذه الردة على حركة الحقوق المدنية والسياسية وعلى مصير «بوتقة الصهر» الأمريكية.

على أى حال، وبصرف النظر عما قد تنطوى عليه استنتاجات بعض المحللين من مبالغات، إلا أنه بات من المؤكد أن معادلة الأمن والحرية فى النظام السياسى، وفى المجتمع الأمريكى أيضاً، فقدت توازنها وباتت معرضة للاختلال، وهذا هو الجانب الذى سنحاول أن نلقى عليه الضوء فى الأسطر القادمة.

فمن المعروف أن النظام السياسى الأمريكى ظل يشكل على الدوام أحد مفاخر الولايات المتحدة الأمريكية، وعنصرا من عناصر قوتها السياسية ، وعادة مايعزى إليه الفضل فيما حققته هذه الدولة الفتية من انجازات مكنتها من أن تحتل بجدارة موقع الدولة الأولى فى

العالم وأن تهيمن- منفردة- على مقاليد النظام الدولى منذ عقد من الزمان. ويعود السبب فى ذلك كله إلى ماتمتع به النظام السياسى الأمريكى من خصائص ومقومات فريدة ميزته على، وعن كافة النظم السياسية الأخرى فى العالم. فدرجة الاستقرار التى تمتع بها النظام السياسى الأمريكى لاتقارن بأى نظام سياسى آخر، بما فى ذلك أعرق النظم الديمقراطية فى العالم. ويكفى أن نذكر، فى هذا الصدد أن الدستور الأمريكى هو أقدم الدساتير المكتوبة فى العالم رغم حداثة الولايات المتحدة الأمريكية، وتمتع بالثبات وبالقدرة على الاستمرار والتكيف مع كافة الظروف والأوضاع المحلية والعالمية المتقلبة. فقد صدر هذا الدستور عام ١٧٧٨ ومازال معمولا به حتى الآن، بعد إدخال تعديلات عليه لم تتجاوز ٢٤ تعديلا فقط خلال فترة زمنية تجاوزت قرنين من الزمان.

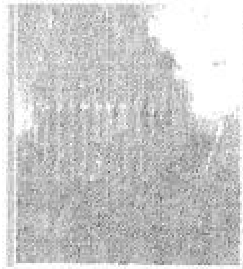
حرية بلا حدود

ويعتبر النظام السياسى الأمريكى، من وجهة نظر المتيمين به من أكفأ النظم السياسية وأقدرها على تحقيق الفصل والتوازن والرقابة المتبادلة بين السلطات، ومن أكثرها توسعاً فى كفالة الحقوق والحريات الفردية، ومن أشدها حرصا على الشفافية والقابلية للمحاسبة والخضوع للمساءلة والفحص والتقويم.

ويكفى أن نذكر فى هذا الصدد على سبيل المثال، أن الحريات المتاحة للأفراد والمؤسسات الرسمية والشعبية هى من القوة والاتساع والحيوية بحيث مكنت القوى الحية فى المجتمع من التصدى على الدوام لأخطاء أى مسئول مهما علا قدره، بما فى ذلك رئيس الدولة نفسه. ولذلك لم يكن غريباً أن تتمكن هذه القوى الحية من الإطاحة بأحد الرؤساء مرة بعد إجباره على الاستقالة (نيكسون: بسبب فضيحة ووترجيت). وكادت تطيح بآخر بعد تعريضه لفضيحة مدوية (كلينتون : بسبب فضيحة مونيكا لوينسكى).

أما الناقدون للنظام السياسى والاجتماعى الأمريكى فعادة مايركزون انتقاداتهم على بعدين رئيسيين يصعب، من وجهة نظرهم إغفالهما عند القيام بأى عملية تقويم موضوعى لأداء هذا النظام:

البعد الأول : يتعلق بحداثة حركة الحقوق المدنية والسياسية فى الولايات المتحدة، والتى لم تبدأ فى تحقيق إنجازات حاسمة إلا مع مطلع الستينات. إذ يرى البعض أن النظام الأمريكى ظل حتى وقت قريب عنصريا فى جوهره وبالتالى فلم يتمتع بمزايا الحريات المكفولة فيه، فى واقع الأمر، سوى شريحة البيض البروتستانت الذين يشكلون عصب المجتمع الأمريكى. أما الأقليات، وخاصة الزنوج، فلم يبدأوا فى الحصول على حقوقهم السياسية والمدنية



كاملة إلا بعد منتصف الستينيات وبالتحديد بعد اغتيال الزعيم الزنجى مارتن لوثر كنج.

البعد الثانى : يتعلق بالأداء الخارجى لهذا النظام. إذ يرى البعض أن النظام الأمريكى بنى تحالفاته الخارجية، وعلى الرغم من كل ماقيل ويقال عن ارتباط السياسة الخارجية الأمريكية بحقوق الانسان وفقا لاعتبارات المصلحة وحدها دون أى اعتبار للقيم والقواعد الأخلاقية وخاصة مايتعلق منها بحقوق الإنسان، فلم تتردد الولايات المتحدة الأمريكية من الإطاحة بحكومة الليندى المنتخبة ديمقراطيا فى شيلى فى بداية السبعينات أو القيام بمحاولات متعددة لاغتيال وتصفية القيادات المناوئة لسياساتها الخارجية أو التحالف مع قادة دكتاتوريين من أمثال ماركوس في الفلبين والشاه فى إيران.. الخ. أى النظام الأمريكى لايختلف فى أدائه الخارجى عن أى نظام ديكتاتورى آخر.

ورغم تسليمنا التام بوجاهة هذه الانتقادات، فمما لاشك فيه أن المجتمع الأمريكى كان قد خطا خطوات كبيرة نحو توسيع نطاق الحريات والقضاء على معظم مظاهر الفصل العنصرى وأشكال التمييز بين الأقليات، وخاصة منذ بداية الستينيات، وهو ماأسهم كثيراً فى تثبيت صورة النظام السياسى الأمريكى باعتباره أكثر النظم السياسية فى العالم ليبرالية واستقرارا وشفافية. على صعيد آخر فان نمط الحياة الأمريكي كان قد بدأ يمارس قدرا كبيراً من الجاذبية والتأثير والانتشار فى كل أنحاء العالم، وخاصة في أوساط الشباب، وهو عامل ساعد على إفراز وتثبيت صورة «النموذج الأمريكى» فى الذهن العالمى باعتباره النموذج الأكثر استجابة وتوافقا مع احتياجات البشر وتطلعاتهم الطبيعية نحو الحرية والرفاهية.

ولذلك لم يكن غريبا أن يبدو المجتمع الأمريكى، فى سياق هذا «النموذج» أو «النمط»، وكأنه المجتمع الأقدر على تحقيق التوازن بين متطلبات الأمن ومتطلبات الحرية، وذلك من خلال معادلة فريدة تطمح إلى تحقيق أعلى درجات الأمن دون ما حاجة لفرض أى قيود تذكر من شأنها المساس بالحريات الفردية أو العامة. غير أن هذه المعادلة كانت قد بدأت تختل مع تصاعد العمليات الإرهابية خلال حقبة التسعينات، قبل أن تدخل مرحلة جديدة تهددها بالانهيار فى أعقاب مايجرى يوم ١١ سبتمبر.

قانون مكافحة الإرهاب

وكان حادث أوكلاهما، وهو أكبر حادث إرهابى تتعرض له الولايات المتحدة

حتى تاريخه، قد أدى إلى صدور قانون يعرف باسم قانون مكافحة الإرهاب عام ١٩٩٦. وقد تضمن هذا القانون فقرة تعرف باسم «الدليل السرى Secret ev-idence يمكن بموجبها احتجاز غير المواطنين الأمريكيين بل وطردهم خارج الولايات المتحدة بناء على أدلة لا يكشف النقاب عنها تقدمها المباحث الفيدرالية أو إدارة الهجرة الى القاضى الذى يسمح له فقط دون المتهم أو محاميه بالاطلاع عليها .

ومن المعروف أن أجهزة الإعلام الأمريكية كانت قد سارعت باتهام العرب والمسلمين بتدبير هذا الحادث ثم ما لبث أن اتضح أن الذى ارتكبه مسيحى بروتستانتى أمريكى أبيض حوكم وأعدم بالفعل. ومع ذلك فلم يطبق قانون الأدلة السرية الا على العرب والمسلمين فى الولايات المتحدة دون غيرهم من أجناس الأرض. فحتى عام ١٩٩٨ طبقت فقرة الأدلة السرية فى قانون الارهاب على ٢٥ حالة كانت جميعها تتعلق بعرب ومسلمين. من أشهر هذه الحالات قضية العراقيين الستة الذين كانت المخابرات الأمريكية قد جاءت بهم الى الولايات المتحدة ضمن مجموعة من ستة آلاف عراقى شاركوا فى محاولة فاشلة للإطاحة بالرئيس صدام حسين. حيث اصدر قاض امريكى حكمه فى مارس ١٩٩٨، استنادا الى قانون الأدلة السرية، بترحيل هؤلاء العراقيين الستة. وهناك حالات أخرى كثيرة صدرت فيها أحكام شديدة القسوة يصعب تصور صدورها إلا فى أشد دول العالم الثالث تسلطا وقسوة. وعلى سبيل المثال فقد وصلت فترات احتجاز بعض العرب الى ثلاث سنوات ونصف متواصلة دون أية محاكمة ودون تقديم أية أدلة (حالة الشاب المصرى ناصر أحمد الذى احتجز فى نيويورك لمدة ثلاث سنوات ونصف بتهمة الارتباط بتنظيم إرهابى قبل ان يفرج عنه فى نوفمبر ١٩٩٩ ، وحالة الشاب الفلسطينى مازن النجار الذى كان يقوم بتدريس اللغة العربية فى جامعة فلوريدا واحتجز لفترة ثلاث سنوات ونصف بتهمة الارتباط بتنظيم الجهاد قبل أن يفرج عنه فى ديسمبر ٢٠٠٠، وغيرها من الحالات التى ثبت فيما بعد براءتها تماما بدليل الافراج عنها).

مشروع لتعديل القانون

تجدر الاشارة الى أن هذا القانون كان قد ووجه بعاصفة من الانتقادات وقامت المنظمات العربية الامريكية، تدعمها المنظمات الأمريكية العاملة فى مجال الدفاع عن الحريات الدنية، بحملات متواصلة لوقف العمل بهذا القانون، من منطلق أنه يتعارض مع الحقوق الدستورية حتى لو اقتصر تطبيقه على غير حاملى الجنسية الأمريكية. وقد



وصلت هذه الحملة ذروتها حين قام كل من السناتور سبنسر ابراهام، العربى الاصلى، والسناتور ادوارد كنيدى، بارسال خطاب الى المدعى العام الامريكى يطالبان فيه بوقف العمل بهذا القانون .

ورغم ذلك فقد تعين الانتظار حتى أكتوبر ٢٠٠٠ قبل أن تبدأ اللجنة التشريعية فى مجلس النواب باعداد مشروع لتعديل البند الخاص بالأدلة السرية فى قانون الارهاب على نحو يسمح بحماية الأسرار المتعلقة بمصدر المعلومات وفى الوقت نفسه حماية حقوق المتهم، وخاصة حقه فى الدفاع عن نفسه ضد اتهامات محددة. وهكذا فقد اقترح مشروع التعديل باطلاع المتهم، على جانب من الأدلة فى الحدود التى لا تسمح بالكشف عن مصدر المعلومات، والتصريح للمحامى باعداد دفاع عنها . غير أن القانون ظل حبيس اللجنة ولم يكن قد تحرك منها حتى وقوع أحداث ١١ سبتمبر .

تجدر الاشارة أيضا الى أن إعلان جورج دبليو بوش، أثناء حملة الانتخابات الرئاسية الأخيرة، عن نيته فى انهاء العمل بالبند الخاص بالأدلة السرية كان من أهم الأسباب التى دفعت بغالبية الجالية المسلمة فى الولايات المتحدة للتصويت لصالحه، وهو عامل ساعد الى حد كبير على فوز بوش الابن بمقعد الرئاسة. ومع ذلك فحتى وقوع أحداث سبتمبر ٢٠٠١ لم يكن الرئيس جورج دبليو بوش الابن قد فعل شيئا على الاطلاق لتغيير هذا القانون. وبعدها بأيام قليلة فقط تقدمت ادارة بوش بمشروع قانون جديد لمكافحة الارهاب لايستهدف الغاء الفقرة الخاصة بالأدلة السرية وانما يمنح الحكومة سلطات واسعة فى تعقب الرسائل الالكترونية ومراقبة أجهزة الاتصالات بمختلف أنواعها واحتجاز المشتبه فى تورطهم فى أعمال إرهابية بدون توجيه اتهام لهم .

ويوجد الآن مشروعان للقانون أحدهما فى مجلس النواب والآخر فى مجلس الشيوخ، ورغم أن المشروعين يفرضان قيودا جديدة وكثيرة على الحريات، إلا أن مشروع مجلس الشيوخ يبدو أكثر استجابة لمطالب الحكومة من مشروع مجلس النواب. ومع ذلك فقد بقيت الفقرة الخاصة بالأدلة السرية المطبقة على غير الامريكيين دون تعديل بل وتم تشديدها ليسمح للمدعى العام أو لإدارة الهجرة باحتجاز المواطنين المتشبه فى تورطهم فى عمليات أو فى تنظيمات إرهابية لمدة ٧ أيام دون توجيه أى اتهام .

الحرية والأمن

على أى حال فقد كان من اللافت

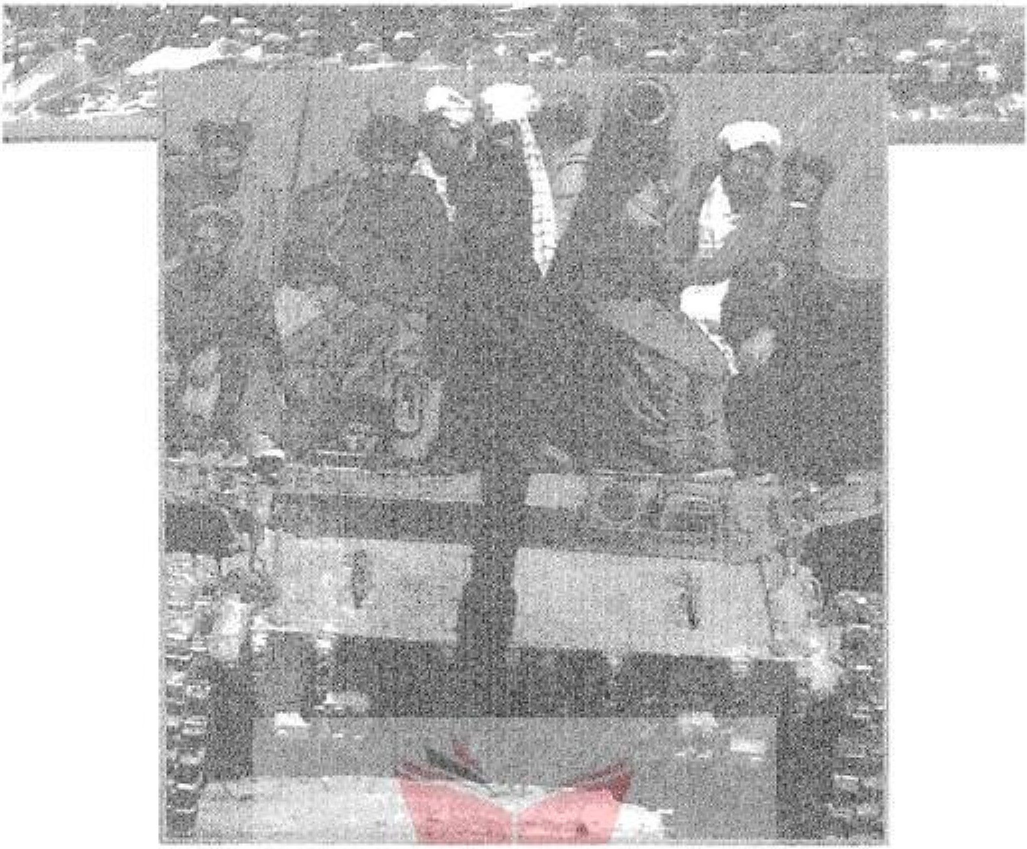


إحدى الطائرتين في طريقها لتدمير برج مركز التجارة العالمي

للنظر جدا أن يجيز مجلس الشيوخ مشروع القانون يوم ١١ اكتوبر . بعد مناقشات لا تذكر ، وبأغلبية ٩٦ ضد واحد (هو السناتور الديمقراطي فين جولد). أما مجلس النواب فقد وافق ايضا على مشروع القانون بأغلبية ٣٣٧ صوتا ضد ٧٩ .

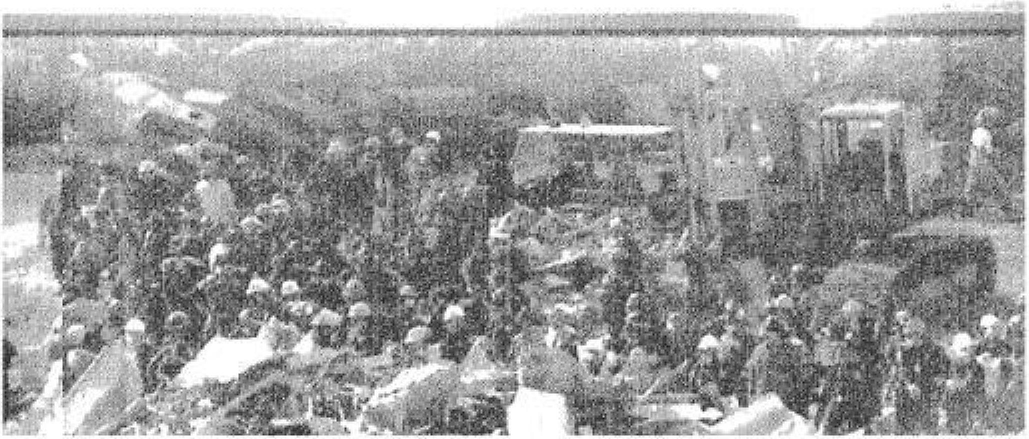
وفي حدود علمنا لا توجد سوابق في تاريخ التشريع الأمريكي تم فيها اقرار مشروع قانون يمس الحريات في الولايات المتحدة بهذه السرعة وبهذه الأغلبية. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن المجتمع الأمريكي أصبح في حالة مزاجية مختلفة كلية .

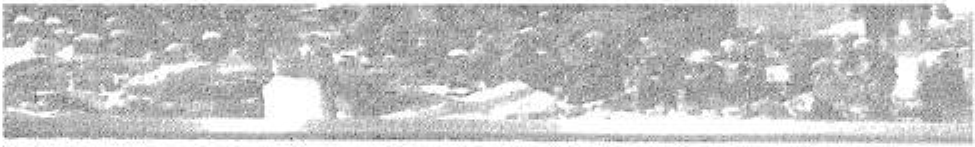
لذلك يمكن القول أن كفة الاعتبارات المتعلقة بالأمن بدأت ترجح، حتى عند أعلى مستويات النخبة في الولايات المتحدة، على كفة الاعتبارات المتعلقة بالحريات. وكانت قوة النظام الأمريكي الأساسية تكمن في ميله الدائم لتحقيق العكس أي ترجيح كفة الحريات على كفة الأمن. والمعنى الوحيد لهذا التحول أن معادلة الحرية والأمن في الولايات المتحدة بدأت تختل بالفعل. وعندما تميل كفة الأمن على كفة الحريات في ميزان العدالة يصبح السؤال عما اذا كانت الولايات المتحدة قد بدأت طريقها للتحول بالفعل الى واحدة من بلدان العالم الثالث سؤالا مشروعا. ■



أمريكا والخطر الأخضر

بقلم
مصطفى نبيل





ما الأهداف الحقيقية لما يطلق عليه أولى حروب القرن العالمية ؟!

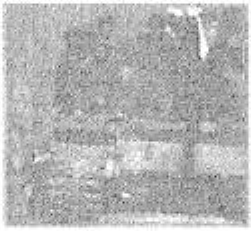
وهل مايشهده العالم اليوم من حرب طاحنة، طرفاها: الولايات المتحدة الأمريكية، أقوى دولة في العالم، وأفغانستان، أضعف دول الأرض ، هو حقيقة أحد نتائج الأحداث الإرهابية اللا إنسانية فى كل من واشنطن ونيويورك يوم ١١ سبتمبر الفائت ؟.. وهل لاتوجد وسائل أفضل للقضاء على الإرهاب ؟! أم أن مايدور هو صراع من أجل المصالح الاستراتيجية للدولة الأعظم لاستكمال هيمنتها العالمية، قدمت لها هذه الأحداث فرصة بدء مخططها ؟!

فبات معروفا أن أسامة بن لادن الذى جيشت من أجله القوات، مرصود ومطلوب قبل هذه الأحداث ، واعترف كلينتون الرئيس الأمريكى السابق بوجود خطط أمريكية للقبض عليه أو اغتياله .

فهل نحن أمام نقلة نوعية فى الاستراتيجية الأمريكية نحو الهيمنة ، تشابه تلك النقلة التى حدثت فى حرب الخليج الثانية ؟!

أم مجرد قرار يعكس غطرسة القوة من أجل تخليص العالم من ظاهرة الإرهاب التى باتت تهدد مستقبل البشرية ؟! .





وتتلاحق الأسئلة حول مكان الصراع وطبيعة موقعه، سواء بالنسبة للحرب أو مظاهرات التضامن والرفض والاحتجاج ، التي امتدت وشملت هلال أو قوس الأزمات القديم .

لذا تساءل العالم .. هل هي حرب دينية ؟! خاصة وقد اشتعلت في القوس الأخضر ، الذي يمثل سرة العالم ، ورابطة العقد لدول الجنوب أو مايطلق عليه دول العالم الثالث ، والذي يضم شبكة المواصلات والاتصالات مثل ممر خيبر وطريق الحرير ومضيق هرمز وقناة السويس ومضيق جبل طارق والذي يحتوى على كل من نفط الخليج ونفط بحر قزوين خاصة أن هناك مشكلة جدية حول نقل نفط بحر قزوين ، ويمكن لأفغانستان أن تقدم ممراً مناسباً لأنابيب النفط ، والذي تحتل مصر موضع القلب فيه والعالم العربي نواته ، والتي رأى فيها الإسكندر الأكبر مفتاح العالم ومدخل السيطرة على الكون ، ثم جاء بعده بونابرت ليؤكد ذلك . وهي المنطقة التي تمتد من الجمهوريات الإسلامية في آسيا وحتى المغرب ، ويصل هذا القوس شمالاً إلى نهر الفولجا ويترامى جنوباً حتى أفريقيا ، ويمتد شرقا من الفلبين حتى البلقان ، في قاطع من فرغانة حتى غانة(كما يسميه مؤرخو الإسلام) .

وهذه الحرب التي شهدنا بدايتها ، متى وكيف ستنتهي وقد أعلنت أمامها هدفا . يكاد يكون مستحيل التحقيق بالطائرات والمدافع والصواريخ ، هذه الحرب التي لا تفرق بين تنظيم القاعدة وطالبان ولا تفرق بين نظام الحكم والشعوب المغلوبة على أمرها ؟!

ولا أظن أنه توجد إجابات شافية عن هذه الأسئلة ، فلا يعرف التاريخ زعيما أو قائدا أو دولة أعلنت عن أهدافها ، وغالبا مايختلف المعلن عن الحقيقي ، ولا أعلنت دولة عن مصالحها الحقيقية عند تعبئة قواتها ودفعها للقتال، إلا أنه يمكن التأكيد على أن القوة المحركة لهذا الصراع هي الاعتبارات الاستراتيجية وليس المعتقدات الدينية ، وفن إدارة الصراع يقضي تفسير الصراع بعناصر ثقافية أحياناً أو حضارية أو عقائدية للاستهلاك سواء الداخلي أو العالمي .

وإذا لم توجد إجابات في ظل دوى المدافع ، يمكن أن نكتفي باستعادة الذاكرة التاريخية ، ورصد مجموعة تأملات وملاحظات تتناول تجارب سابقة ، ولعلنا نعثر في أحداث الماضي على ضوء يكشف بعض أبعاد مايجرى.

وبداية لايفوتني أن أذكر أنه عند بدء المعركة ضد الإرهاب سقطت الفواصل في العديد من الكتابات بين الإسلام والإرهاب، ولا نقصد هنا زلة لسان الرئيس الأمريكي بوش ولا أقوال رئيس

وزراء إيطاليا بيرلسكوني ولا كلمات البارونة تاتشر ، إنما العديد من الاقوال التي ازدحمت بها الصحف والقنوات الفضائية ، والذى أكدته أيضا المعاملة التي تلقاها العرب فى البلدان الغربية .

ومن هذه النماذج تجاوز جوديث ميلر الأمريكية اليهودية لهذا الخط الفاصل عند قولها .. «يجب الاسترابة في إخلاص المسلمين للحقيقة والعدل والديمقراطية ، لأن التاريخ الإسلامي والعربي مع طبيعة تطور هذه المجتمعات يوجب هذه الريبة ، فالإسلام والديمقراطية خصمان لايجتمعان ..» ! أما العرب فى رأيها «فهم مخادعون تتناقض تعهداتهم مع أهدافهم المعلنة ، وتعلموا تهدئة الغرب وخداع أنصارهم المحتملين ، من خلال التلاعب بالكلمات» !

أقول .. الصراع القائم اليوم ليس صراع حضارات وليس صراع أيديولوجيات ولكن هناك أطرافاً من مصلحتها معالجته على هذا النحو ، وهو لايرتبط بالأحداث الإرهابية غير الإنسانية التي وقعت في أمريكا ، ولكنه صراع ضد الخصوصية وضد أولئك الذين يتمسكون بالهوية الحضارية والثقافية فى ظل العولمة، ولا أظن أنه صراع تاريخي أو ديني كما يحلو للبعض أن يصوروه ، بل هو صراع ضد سيادة الدول ، صراع يطمح إلى إختفاء أولئك الذين يصرون على مقاومة التبعية ، ومن أجل أن يتحول ذلك القوس الذى أطلقوا عليه يوماً قوس الخطر إلى الولاء الكامل للولايات المتحدة، ويضع بين أيديها ثرواته وموقعه رصيداً لها في صراع مقبل من أجل المنافسة مع روسيا أو الصين أو اليابان أو أوروبا أو معها جميعا .

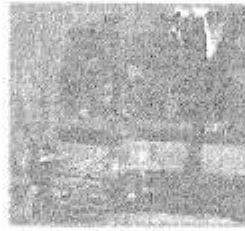
ويحضرني قول سابق لجاك بيرك .. «تريد الولايات المتحدة السيطرة على العالم وإخضاعه لنفوذها ، وليس خافيا على أحد أن الشعوب الإسلامية هى التي تقف في طريقها» حديث فى الأهرام ، ٢٢/٤/٩٣ .

ومازالت في الذاكرة كلمات نيكسون في كتابه «نصر بلا حرب» عندما يقول : «إن ساحة الصراع سوف تكون في العالم الثالث» .

كما أؤكد أن هذا الذى يجرى ليس استمرارا للحروب الدينية بين الشرق والغرب والتى دارت فى الماضى ، وإن كان من مصلحة البعض صب الزيت وإشعال ماتبقى من ذكريات ، فالمسلمون فى الذاكرة الأوربية هم .. البربر الذين غزوا أسبانيا والعرب الذين أغاروا على كل من فرنسا وإيطاليا ، والأتراك الذين دقوا أبواب فيينا وحولوا بيزنطة إلى القسطنطينية، وهم التتار الذين أخضعوا موسكو .

ويسقط من الذاكرة الغربية أن الأوربيين استعمروا البلدان الإسلامية على مدى القرون الثلاثة الأخيرة ، واعتبروا مقاومة الاستعمار تعصباً ، وحاكم الانجليز عرابى بوصفه إرهابيا متعصبا .

ولا أظن أن ماجرى فى الحروب



الصليبية يعني كثيراً بلداً مثل أمريكا لم تكن قائمة خلال هذه الأحداث .

وهنا علينا أن نفرق في الغرب بين الأوربيين وبين الأمريكيين فمازالت في الذاكرة الأوربية تلك الأحداث التاريخية ، وبذلك يعرفون مدى حساسيتها .

كما أشك كثيرا فيما يدعونه من أن المسلمين سوف .. «يخرجون منتصرين من بين الأنقاض ، يهددون ويتوعدون ، ويقومون بدور جديد فيما كان قديماً ساحة الغرب ...» كما يدعي ويليم ليند ويتمنى أن يحدث ولكنه لم يحدث فأين هو هذا القيام الذي يتحدثون عنه . فمازالت الفجوة بين الشرق والغرب تزداد اتساعاً مع الأيام ، وهذه الأقوال لا تعدو أن تكون تبريراً لإجهاض أي محاولة للقيام .

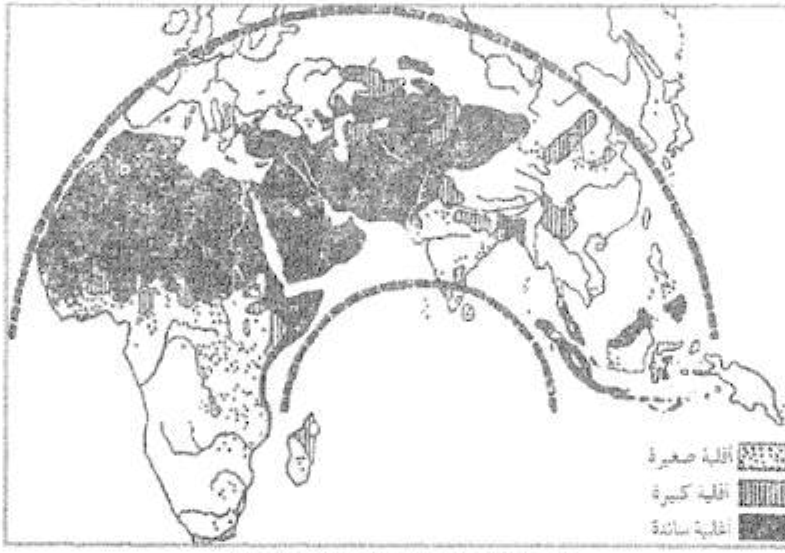
ونعود لكلمات بيرك «يصر الغرب على إلصاق صفة التطرف بالمسلمين ، لأن العرب الأكثر قرباً وتناقضاً مع الشعوب الغربية . مع بعض الشبه الذي يجمع مفكري الطرفين . فقد نهل فلاسفة مثل ابن سينا وابن رشد من بحر الفلسفة اليونانية . وأطلقوا على أنفسهم أبناء أرسطو ...» .

الحقيقة والوهم

وعلى أية حال يتسم الخطاب الغربي بازدواجية فاضحة ، فجانب منه يتجه إلى الشعور الإسلامي يسترضيه ، ويدرك من خبرته التاريخية أنه من الضروري عدم استفزاز المشاعر الدينية ، ومن ناحية أخرى يحشد الرأي العام وراء استخدامه العنف . وهنا ينبغي عدم إغفال التأثيرات الصهيونية على الخطاب الأمريكي .

ويكمن أصل المشكلة في تصور الغربي لمركزية ووحدانية الحضارة الغربية، فلا حضارة سوى حضارته ، ولا استنارة إلا التي تنبع من قيمه ومفاهيمه، يقول ليدن هاوار في كتابه «المستنقع» الواقع أن لغة المثالية التي يصاغ بها النقد الحالي للإسلام تخفي مصالح اقتصادية واضحة ، ولا يوجد ما يربطها بالقلق المزعوم على حالة الحرية في الشرق ، فمثل هذه النغمة تستخدم لحشد المساندة لنظم أوتوقراطية موالية للغرب ومن أجل ضمان هيمنة أمريكا .» ، ويضيف .. «هناك تناقض واسع بين مشروع أمريكا العالمي وفرضها للسلام الأمريكي في الشرق الأوسط، فصانعو السياسة الأمريكية يعرفون أن الحكومات المنتخبة ديمقراطيا، وصاحبة القاعدة الشعبية، ستكون أقل نزوعاً للانحناء للرغبات الأمريكية ...» .

وساد في الخطاب الغربي أن الإسلام هو مصدر الخطر والتهديد المقبل على حضارته، وتتناول الحجج عدداً من القوالب المسكوكة مثل الإسلام والديمقراطية ، والفصل بين الجنسين ، وتطبيق عقوبات الرجم والبتر والجلد ، أو



قوس الأزمات الأخضر الذي يمثل سرة العالم

الإسلام وحقوق الإنسان ، والإسلام وحرية العقائد ، وهذا كله لغو وماهو إلا غطاء للمصالح وتعبئة للرأى العام داخل البلدان الغربية لضمان تأييد استخدام العنف !

وإصرار الخطاب الغربى على عدم التمييز بين ماهو دينى وماهو سياسى، وتصاعد نزعة التدخل الغربى، فتدخل الأمريكان فى سوريا سنة ١٩٨٣ ، وفى ليبيا سنة ١٩٨٦ وفى إيران سنة ١٩٨٨ وفى العراق سنة ٩٠ - ١٩٩١ ، وفى الصومال (٩٢ - ١٩٩٣) .

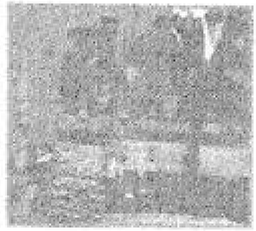
وتطرح اتجاهات إسلامية نفسها بوصفها القوة المعادية للهيمنة الأجنبية ، ويدفعون الصراع مع الهيمنة الأجنبية خطوة بعدم الاكتفاء بمقاومة الهيمنة السياسية وإنما الأفكار والقيم الأمريكية أيضا .

ويصر الخطاب أيضا على وضع كل التيارات الإسلامية فى سلة واحدة ، باعتبارها تهديداً للمصالح الأمريكية ، لهذا لاينبغى للأمريكيين أن يدهشوا من أن الخطاب الذى يزعم الدفاع عن الأخلاق والقيم الفاضلة يقابل فى العالم العربى بالسخرية والازدراء ...

فأى مواطن وأيا كان إنتماؤه يلاحظ أن الحكومات الغربية تسارع إلى التدخل العسكرى فى البلاد العربية والإسلامية .

هذا كله رغم أن هلال الأزمات ، لايوجد فيه بلدان متناغمة ، بل فسيفساء من عدة تجمعات قومية وإثنية ودينية تتوافق أحياناً وكثيراً ماتتصارع !

فهل يتجاوز هذا الصراع المسلح هدف القضاء على الإرهاب إلى هدف



تحويل الحكومات المحلية إلى شرطة للأمريكان . وتنال بذلك من سيادة الدولة الوطنية . وندخل عصراً جديداً لا أحد يدرى طبيعته.

العمة والسروال !

وعندما تقلب صفحات التاريخ . وتتعرف على مغزاه ، وتأخذ منه العبرة أحيانا ، وتستخرج منه قوانين الحركة أحيانا أخرى . يقدم لنا نابليون بونابرت نموذجاً فاضحا للازدواجية الغربية ، ويظهر خطاب الحملة الفرنسية الذى سعى بجرأة إلى الضحك على ذقون المصريين ، وكانت الكلمة إلى جانب المدفع مصوبة إلى عقولهم وحياتهم .

يكتب الجبرتى عن سنة وصول الحملة الفرنسية فيقول .. «هى أول سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلاف الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب ، وتواتر الأسباب» .

جاء نابليون على رأس الحملة الفرنسية ، وارتدى العمة والجلباب والسروال ، وأخذ يشارك فى الموالد والمناسبات الدينية ، وأخذ يردد أنه جاء لنصرة الإسلام وأن الفرنسيين أعداء الكاثوليك وبابا روما ، وطردوا البابا من عاصمته ، وقضوا على فرسان مالطة أعداء الإسلام . وأعلن .. «أرجو ألا تتأخر اللحظة التى أستطيع فيها جمع الرجال فى البلاد ، وإقامة نظام يقوم على القرآن والشريعة ، وهى المبادىء القادرة على تحقيق سعادة البشر» . ويعلن .. «أن العاقل من يدرك أن ما قمنا به ، كان بفضل الله ومعونته ، وعملا بقضائه وقدره .. واعلموا أن الله أتى بى من الغرب ، لهلاك أولئك الذين ظلموا فى الأرض ، وجاء فى القرآن فى آيات عديدة ما وقع وأشار فى آيات أخرى لما سيقع ، وسيظهر لكم أن كل ما أفعل هو حكم إلهى ..!!» وواصل تلاعبه بالعقول إلى حد إقامته الصلاة وسط المصلين فى الجامع . ويقول للمشايخ أعضاء الديوان «إننى مسلم وقد أكون مسلماً أكثر منكم» ويقول فى مرة أخرى .. «ألا يذكر فى القرآن أن إنسانا سيصل إليكم مكلفا بإكمال رسالة النبى (ﷺ) ! إن القادم هو أنا ..» !

وعندما يكتب مذكراته فى منفاه فى سانت هيلانة، يفسر ما قام به من خديعة بقوله .. «إن الذين يغيرون العالم ، لابد لتحريك الجماعات من استخدام ماهو «مقدس» ، ويضيف «علينا معرفة كيف فتح المسلمون الأوائل العالم فى ذلك الوقت القصير الذى لم يتعد ثلاث عشرة سنة ، وكيف نجح رجال خرجوا من أعماق الصحراء وليست لديهم خبرة

عسكرية ولا يعرفون النظام أو الانضباط فى قيام إمبراطورية إسلامية واسعة الأرجاء .

ويعترف فى مذكراته .. «أن بياناته إلى المسلمين فى مصر ، لم تكن سوى احتيال إذا نجح ، فسيمكنه ذلك من تحقيق طموحاته ، التى تبدأ من مصر ، وبعدها سأنجز الحرب ضد الترك ، وسأجعل من نفسى إمبراطور الشرق ، وكنت سأعود إلى باريس عن طريق القسطنطينية» .

ويقول .. «سأحل محل النبى (ﷺ) وعندها سأجد نفسى على طريق آسيا راكبا فيلاً ، وعلى رأسى عمامة وبين يدى القرآن الذى أخطه على هواى (!!!) ويتساءل.. «ألا يستحق ملك الشرق من أجل اخضاع آسيا أن يرتدى المرء عمامة وسراويل شرقية !» .

ولم تدخل تلك الخديعة لحظة على المصريين ، ولم يجد الجيش الفرنسى فيها سوى مادة للضحك .

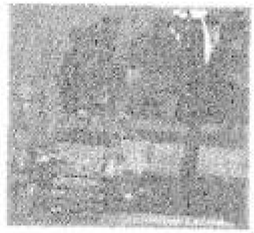
ويقول هنرى لورنس فى كتابه «بونابرت والإسلام» .. «إن الفرنسيين فى النصف الأول من القرن العشرين سوف يجعلون بونابرت الرائد العظيم لسياسة فرنسا الإسلامية» .

الموجة الاستعمارية

وإذا رفعنا أعيننا قليلا عن مايجرى ، ونظرنا إلى الماضى القريب ، واستعرضنا الموجة الاستعمارية الفائتة التى أخضعت معظم بلدان هلال الأزمات عدا أفغانستان واليمن الشمالى وبعض أنحاء الجزيرة العربية .. وجدنا أن معظم مشاكل العالم الإسلامى المعاصر وليدة تلك الموجة الاستعمارية ، قيام اسرائيل ، ومشكلة جنوب السودان ، وكشمير ، وتقسيم اليمن وتقسيم الشام .. الخ .

وكانت هذه الموجة صريحة فى إحياء ذكرى الحروب الصليبية . عندما أعلن اللنبى فى القدس .. «الآن انتهت الحروب الصليبية» ، وعندما قال جورو فى دمشق .. «ها قد عدنا يا صلاح الدين» !

وبقيت طويلاً السيطرة السوفييتية على جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية، ولعل مايجرى فى هذه الجمهوريات اليوم يجيب عن سؤال مهم ، وهو لماذا تقف روسيا موقف التأييد من الهجوم والحشد الأمريكى البريطانى على أفغانستان ، رغم أن مايجرى يحدث فى بطن روسيا الرخو ؟.. فعلاوة على الصراع الذى يدور فى الشيشان مع القوات الروسية ، فيلاحظ أن الجمهوريات الإسلامية لم تشهد أى تغيير بعد سقوط الاتحاد السوفييتى ، ولم يتغير أى من حكامها السابقين ، بعد دخولها فى الكومنولث بخلاف ما جرى فى بقية الجمهوريات التى كانت تشكل الاتحاد السوفيتى ، ومازالت السلطات الحاكمة تتكون من الشيوعيين السابقين بالإضافة إلى الروس الذين أستوطنوا الجمهوريات الإسلامية ، والذين يبلغ متوسط أعدادهم حوالى ٢٠٪ من السكان فى كل جمهورية، وهم العاملون



في الصناعات الدقيقة مثل صناعة الطائرات والصواريخ وبعض الأسلحة غير التقليدية . وفي هذه الجمهوريات يقود الحرس القديم بمساندة الروس حملة دموية ضد المعارضة الإسلامية ، ويرسلون موجة من اللاجئين المسلمين من طاجيكستان إلى أفغانستان، وتنتقل من أفغانستان قوة للدعم في أوزبكستان ضد الحكومات القائمة تلك الدولة التي تضم أعظم الآثار الإسلامية في سمرقند وبخارى .

ويصل عدد الجمهوريات الإسلامية إلى ست هي قازاخستان وتركمانستان وطاجيكستان وأوزبكستان وقيرغيزيا ، بالإضافة إلى تسع جمهوريات تتمتع بالحكم الذاتي ، وفيها يشكل المسلمون أغلبية معتبرة ، وهي باشكيريا وداغستان، ومناطق حكم ذاتي مثل الشيشان في القوقاز .

وهذا ما تبقى من السيطرة السوفييتية لهذه المناطق .

●●●

الخداع

وتمضي عجلة الخداع في دورانها .. ومنذ اللحظات الأولى لدخول جيوش الاحتلال البريطاني مصر ، تجنبت سلطات الاحتلال أي تماس مع الدين ، وإذا تم تعيين المستشارين البريطانيين في كافة الوزارات ، إلا أنه اعتبر كل من الأزهر الشريف والأوقاف تحت سلطة الخديو أو السلطان ، والتي تعمل بريطانيا سلطاتها من خلالهما .

ورغم ندرة الدراسات التاريخية التي تتناول هذه المسألة الحيوية ، فإنه يمكن أن نجد في كتابات اللورد كرومر بعض الضوء ، عندما يذكر في كتابه «مصر الحديثة» أنه لم يبق - بعد دخول القوات البريطانية مصر - صالحاً للحكم سوى شيوخ الأزهر ، ورغم قلتهم إلا أنهم أكثر القوى تأثيراً ، فتعاليم أفرادها تنفذ دائما إلى أعماق الأهالي ، مما يقضي على ماكسبته مصر من تقدم ومدنية ! ، ويظل خطر إستئثارهم بالحكم وارداً حتى يثبت عدم صلاحيتهم ، وهذا عقب فترة انتقال صعبة ، فأنصارهم سيقيمون الحكم على دعائم من العقيدة المحمدية ، التي عفا عليها الزمن ، وغدت لا تساير العصر الحديث (!) .

وفي موضع آخر يقحم الدين في بعض التطورات ثم يرميه بالجمود والتخلف ، ويستدير نحو شيوخ الأزهر وينسب إليهم التعصب وأنهم عناصر شغب واضطراب ! .وقد ساعد «كرومر» على انتشار الطرق الصوفية في مصر ليواجه بهم شيوخ الأزهر .

وتتوالى صور الازدواجية بين الظاهر والباطن في السياسة الاستعمارية ، ويظهر ذلك مثلا في فتح السودان

والقضاء على ثورة المهدى ، عندما تخفت السياسة البريطانية وراء مصر ، واستخدمتها قفازا لتحقيق مصالحها ، وحتى تتجنب شبهة الصدام مع ثورة إسلامية .

وواجهت السياسة الاستعمارية البريطانية أصعب لحظاتها عندما دخلت الدولة العثمانية دولة الخلافة الحرب العالمية الأولى ، وبرز التضارب بين الطرفين ، فكانت حجة بريطانيا عند دخول قوات مصر هو حماية الأقليات والدفاع عن الأريكة الخديوية وظهر وجهها الحقيقي ورغبتها في إعادة تشكيل الشرق الأوسط، استمع إلى ما يقوله الصحفى ستيفنز ..«كان الكولونيل ريجنالد وينجت يعرف .. أن العربى ابن الأكاذيب الغامض يستطيع الكولونيل أن يحادثه ساعات وأن يعرف ليس فقط مدى الصدق في أقواله ، ولكن يعرف أيضا مقدار مايخفى ..» ويتخيل جون بوتشاف في كتابه «العباءة الخضراء» عام ١٩١٦ استخدام ألمانيا نبيا مسلماً من أجل تدمير الإمبراطورية البريطانية !!

وعادت ذات اللعبة التى سبق ولعبها بونابرت يوم لبس العمامة وادعى الإسلام، يعلق الكاتب الأمريكى دافيد فرومكين على هذه الفترة في كتابه «سلام ما بعده سلام ..» أساء كل من الغرب والشرق فهم الآخر طوال معظم القرن العشرين ، فكان كيتشنر يرى ضرورة الاستيلاء على الجانب الناطق باللغة العربية من الإمبراطورية العثمانية، ويضيف ..«وكان كيتشنر شأنه مثل معظم البريطانيين يعتقد أن الدين مسئول عن كل شيء ، وأعتقد أن المسلمين يطيعون قادتهم ، وبهذه الروح تصور كيتشنر أن الإسلام يمكن استغلاله أو التحكم فيه عن طريق شيوخه من رجال الدين .

ثم اعتقد كيتشنر أن من يسيطر على شخص الخليفة يسيطر على بلاد الإسلام، كما يمكن أن يدفع الخليفة بالإسلام ضد بريطانيا وتقويض مركزها في كل من الهند ومصر والسودان .

لذا عمل كيتشنر على تدبير اختيار خليفة بمعرفته ، واستخدام لفظ بابا المسلمين بدل الخليفة في الكثير في العديد من المراسلات البريطانية ..

وتدور العجلة بين سوء الفهم من جانب وسوء التقدير من جانب آخر ، ويمضى العالم من جديد بين العقل والجنون .

فإلى أين يتجه العالم ؟ وهل هناك قوى تحاول إخفاء القضايا الصحيحة وهي السلام والتعايش والقضاء على الجهل والفقر والظلم . وتشعل الحروب وتنشر القهر الذى يولد الإرهاب ؟.

فالحرب التى تشنها أمريكا على أفغانستان لا تختلف كثيراً على ما تقوم به إسرائيل ضد الشعب الفلسطينى فى أرضه .

أفغانستان

سقف العالم المجهول

أرض الجبال والفن والتمرد

أماني عبد الحميد

النساء يمارسن أعمال النسيج اليدوي



أطلق عليها الجغرافيون لقب سقف العالم نظرا لارتفاع جبالها التى تصل الى سبعة آلاف متر تقريبا. وبقدر وعورة جبالها الصماء القاسية بقدر شراسة أهلها الذين يصفهم المورخون بأنهم خليط عجيب من الأجناس والأعراق لم تمتزج دماؤهم أو أنسابهم رغم وحدة الأرض. والذين اكتسبوا صلابة جبالهم الشامخة وشراستها وحدتها مع الآخرين. وعلى مدى التاريخ شهدت أفغانستان العديد من الغزوات الخارجية التى تحطمت فوق أسنة صخورها القاسية وشراسة الأفغان وصلابتهم اللامحدودة وبرغم اختلاف القبائل والعشائر الأفغانية فإن الدين الإسلامى هو الذى جمع شملهم وقرب بينهم.

الإبل وسيلة مواصلاتهم



الطبيعة الجغرافية شكلت العوازل الطبيعية التى احتمت داخلها القوميات والعشائر

وإذا كان الحديث يدور اليوم حول ما تتعرض له أفغانستان من حملة عسكرية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية التي استخدمت أحدث الأسلحة والمعدات العسكرية فإن ذلك يجعلنا نستعيد تاريخ هذا البلد العجيب وقصته مع الغزاة السابقين والمعارك.

وقد تناوب على أفغانستان العديد من من أنظمة الحكم المختلفة حتى وصول نظام طالبان إلى الحكم ولكن ظلت البلاد تغط في ظلام الجمود.

وبرغم وعورة تضاريسها وقسوة جبالها العالية فإن أفغانستان تعرضت للعديد من الغزوات العسكرية وكانت دوما بوابة احتلال شبه القارة الهندية ولكن كل الغزوات تكسرت نصالها فوق صخورها القاسية وعلى يد أبنائها العماليق بشراستهم وصلابتهم النادرة.

وفي الماضى القريب كانت تحيط بأفغانستان ثلاث امبراطوريات كبيرة أحاطت بها إحاطة السوار بالمعصم وشكلت تهديدا خطيرا لأراضيها وهى:

١ - الامبراطورية البريطانية فى شبه القارة الهندية.

٢ - روسيا القيصرية في آسيا الوسطى.

٣ - إيران الشاهانية على حدودها الغربية.

ورغم شراسة الهجمات والغزوات التى حاولت احتلال هذا البلد فإن أرض أفغانستان تحولت إلى مقبرة لغزاتها على مدى التاريخ ووقف أمامها كل الشعب الأفغانى بكل فئاته وأعراقه وأجناسه يدا واحدة.

وقد شبه بعض الأدباء تشكيلة هذا الشعب بكل أعراقه وأجناسه بأنه أشبه بموزاييك بشرى يجسد شكلا مختلف الألوان يتداخل في نسيج واحد نادر التناغم والتنوع حتى أصبح الشعب الأفغانى شعبا ذا طبيعة خاصة ، ولذلك استلهمت العديد من الأعمال الأدبية والفنية من طبيعة هذا البلد وتشكيلته الفنية النادرة القصص والأفلام العالمية المميزة أشهرها فيلم ممر خيبر، كما ضم هذا البلد العديد من الآثار التاريخية العريقة التى تجمع بين الآثار البوذية والفارسية والإسلامية فى بانوراما رائعة تجعله من متاحف العالم المفتوحة النادرة ولكننا لم ننس كيف دمر طالبان تماثيل بوذا منذ بضعة شهور.

ولكي نفهم هذا البلد العجيب وهذا الشعب العريق دعونا نقلب فى صفحات التاريخ وسجلاته لنتعرف على أكثر بلاد العالم غرابة وأكثر الشعوب شراسة وصلابة.. وقد مر أشهر الغزاة فى التاريخ بها، لكن أحدا منهم لم يهنأ على أرضها

متاعهم الفقر والمصير المجهول ◀





الطابع القبلي يغلب حتى على الترفيه

أو يستقر بداية من جيوش الفرس والاسكندر الأكبر جنكيزخان وتيمورلنك وحتى جيوش الامبراطورية البريطانية وجيوش قياصرة الروس.. جميعهم مروا فوق صخور جبالها وخرجوا منها يجرجرون أذيال الفشل.

ففي عام ٣٣٣ قبل الميلاد انطلقت جيوش الاسكندر المقدوني في اتجاه أفغانستان ضمن حملة عسكرية لوقف اتساع الامبراطورية الفارسية حيث قامت القبائل الايرانية الأصل باحتلال بلاد الأفغان خلال موجة الهجرات الآرية العظمى وبالفعل حقق الاسكندر الأكبر النصر في معركة سوس عام ٣٣٠ قبل الميلاد ، وأوقف التقدم الفارسي وبدأت الحضارة الهيلينية في تأثيراتها على أفغانستان وما جاورها من بلاد وظل تأثيرها ممتداً سائداً فترة طويلة ، لكن جيوش الاسكندر في سبيل ذلك دخلت في قتال مرير دام حوالي سنتين أبدى فيه الأفغان قوة وشراسة حربية مما أذهل الإسكندر نفسه.

كما لم تستطع الامبراطورية البريطانية أن تخفي إعجابها وانبهارها بالروح القتالية التي يتمتع بها الشعب الأفغاني، برغم أنها اكتوت بنارها خلال ثلاث حروب ضروس انهزمت فيها هزيمة نكراء. مونتستوري الفنستون الضابط البريطاني الذي عقد أول اتصال رسمي بين الحكومة البريطانية والمملكة الأفغانية عام ١٨٠٩ كتب يقول في مذكراته عن الشعب الأفغاني «عيوبه روح الثأر، الجشع!، الطمع! والعناد! وفي المقابل



الخوف يملأ الوجوه



والقرآن الكريم ملاذهم

فهو شعب مخلوق في الحرية وروح الاستقلال والشجاعة والصلابة» وهذه الكلمات أكبر دليل على انبهار الامبراطورية العظمى بقوة شعب دولة صغرى بل إن المرة الوحيدة التي أفنى فيها جيش بريطانيا برغم أن الامبراطورية كانت في أوج جبروتها وهي الواقعة التي لا ينساها التاريخ البريطاني ففي الحرب الأولى ١٨٣٨ - ١٨٤٢ فقد الانجليز حوالي ٤٥٠٠ جندي في موقعة واحدة كما كانت القوات الانجليزية في هزائم ساحقة خلال الحرب الثانية ١٨٧٨ - ١٨٨١ كما انتصر الأفغان في حروبهم الثلاث ونالوا نتيجتها استقلالهم عام ١٩١٩.

أما روسيا القيصرية التي حاولت مرارا التوغل في الجنوب والجنوب الشرقي أملا في الوصول إلى الطرق المؤدية إلى المياه الدافئة في بحر العرب كان لها تاريخ طويل مع المقاتلين الأفغان ولكن الامبراطورية البريطانية لم تكن لتسمح لها بالتحكم في بلاد الأفغان مفتاح باب الهند درة تاجها وأرضها الخصيبة. ولكن خلال القرن العشرين بدأ السوفيت في التوغل داخل الأراضي الأفغانية سياسيا واقتصاديا مستغلين سلسلة الانقلابات العسكرية داخلها حتى جاء شهر ديسمبر ١٩٧٩ الذي تمكنت فيه قوات السوفيت أن تحقق الوجود العسكري أيضا بشكل مباشر «لكن مقاومة المجاهدين نشطت فالغازي الجديد هو الجار الضخم والذي يمثل القوى

تكسرت كل الغزوات فوق صخورها القاسية وعلى يد أبنائها العمالقة بشراستهم وصلابتهم النادرة

العظمى الثانية فى العالم السياسى ويقود المعسكر الشرقى الأمر الذى استثار شجاعة المواجهة داخل نفوس الشعب . فإن الـ«تورش» أى الشجاعة هى المعيار الذى يقاس به الرجال ويكفى أن نورد كلمات قالها شاب أفغانى عن الحرب السوفيتية الأفغانية : « النصر لأبناء البلاد، والهزيمة للغزاة مهما كانت أسماؤهم أو ألوانهم أو جيوشهم هذه جبال وعرة تسكنها قبائل أنشأها التاريخ والجغرافيا، على رفض السيطرة الأجنبية أو التحكم الداخلى لذلك ظلت صفحتنا واضحة .. نتشكل فى عدة أصول عرقية .. نبدو أحيانا متباعدين، لكننا فى مواجهة الغزو الأجنبى قطعة صلدة متماسكة من الموزاييك المدهش».

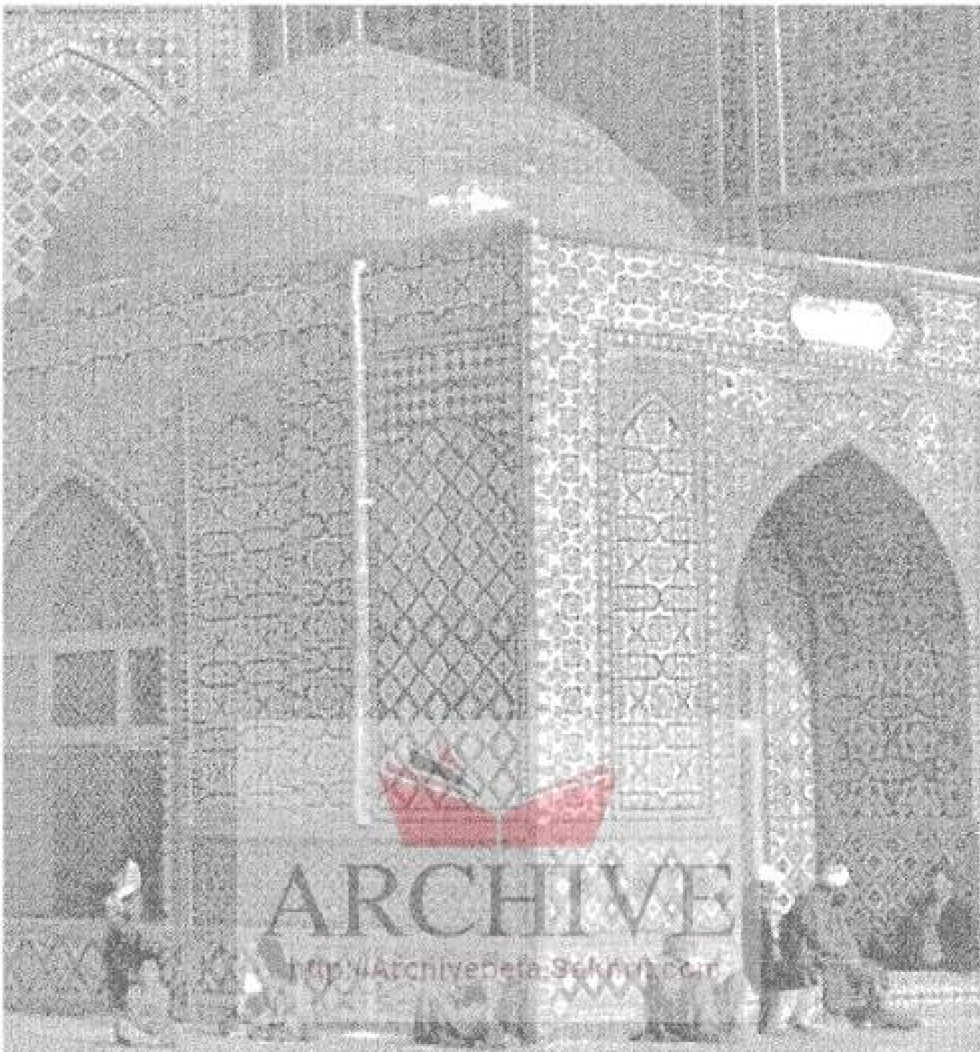
موزاييك البشر والجبال

أفغانستان لوحة موزاييك مختلفة الألوان صغيرة القطع مفتتة الأصول لكنها تعطى الانطباع الكامل عندما تتلاحم معا فى لوحة واحدة ، ذلك أصدق تعبير عن لوحة أفغانستان البشر والأرض رسمها الكاتب الصحفى صلاح الدين حافظ فى كتابه أفغانستان الإسلام والثورة.

أرضها فرضت عليهم عزلة قد تورث الجنون.. تركت بصماتها على البشر الذين تربوا على قسوة الطبيعة وجبروتها فشبوا رجالا من طراز نادر مقاتلين أشداء، وتحولت بلادهم إلى قلعة حصينة فهو شعب روحه حرة طليقة وسط الجبال والهضاب والتلال تلك الجبال التى ظلت مدى التاريخ تمثل نقطة الدفاع عن البلاد والسبب وراء عزلة أهلها. ففى الشمال توجد الجبال شاهقة الارتفاع بقممها الثلجية أهمها هضبة البامير أعلى هضاب العالم وأشدها وعورة والتى يسميها الجغرافيون بـ«سقف العالم» ، وتوجد جبال الهندوكوش التى لا يستطيع أحد أن يتخيل ارتفاعها ففى بعض المواقع يصل ارتفاعها إلى ٧٦٢٠ مترا تقريبا ، والتى يطلق عليها أيضا جبل الأنهار لأن أكثر الأنهار تنبع منها من بينها نهر هلمند الذى يخترق الهضاب الصحراوية فى الجنوب الغربى.

أما كابول العاصمة فترقد فى أحضان جبل سليمان الدرع الواقى لحدود البلاد الشرقية والذى يضم ممر خيبر الشهير الواصل بين كابول وبيشاور بطول ٣٢٠ متراً . وفى الأساطير الشعبية حول جبل سليمان أن سيدنا سليمان قد صعد قمة الجبل ليلقى نظرة على الهند ثم رجع دون أن يدخلها لانخفاضها الشديد وظلمتها القاتمة بالمقارنة بالجبال الشاهقة ، لذا سمى الجبل باسمه.

تلك الطبيعة الجغرافية الوعرة كانت إلى جانب ميزتها الدفاعية كانت تشكل



الباب الأزرق بمزار شريف من أجمل مساجد أفغانستان



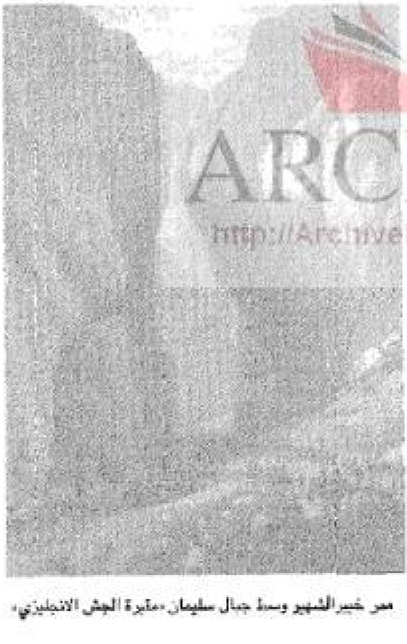
الكتاتيب وسيلة
التعليم الوحيدة

العوازل الطبيعية التى احتمت داخلها الأعراق والقوميات والعشائر وجنبتها الذوبان أو الانقراض. فكافة المحللين يميلون إلى اعتبار أفغانستان تجمعاً قبلياً أكثر من اعتباره شعبا انصهرت أصوله في بوتقة واحدة . ولكن لا أحد يستطيع أن ينكر دور الدين الإسلامى فى إيجاد القاسم المشترك بين شتات تلك العشائر فهو الديانة التى استطاعت أن تتحول إلى هوية جامعة للشعب الأفغانى أجمعه حيث ينتمى معظمهم للمذهب السنى الحنفي فيما عدا قبائل الهزارا والتركمان فهم ينتمون للمذهب الشيعى الجعفرى وقلة ضئيلة من الطائفة الاسماعيلية تسكن بعض جبال الهندوكوش.

ففي القرن السابع الميلادى دخل الإسلام أفغانستان ، تحديداً بعد معركة القادسية عام ٦٣٦ - ٦٣٧ ميلادية ونهاوند ٦٤٢ ميلادية والتى وضعت كل منهما نقطة الانهيار فى مسار الامبراطوريات الفارسية لصالح تأثير الديانة والحضارة الإسلامية وتمكنت الدعوة من فتح أجزاء مهمة من الامبراطورية الفارسية خلال عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، واتسعت لتشمل قلب أفغانستان فى عهد عثمان بن عفان لكنها تدعمت فى عهد معاويه لتتحول البلاد ورجالها وقبائلها إلى مقاتلين فى جيوش الدولة الإسلامية الأمر الذى دفع الجغرافيين إلى اعتبار



هجوم أفغاني على سفارة كابول خلال الحرب الثانية



ممر خيبر الشهير وسط جبال سليمان «مقبرة الجيش الانجليزي»



الشادوري تراث
أفغاني قديم



الجبال والبيوت
تراوح منذ القدم

● أفغانستان بانوراما رائعة لآثار الحضارات القديمة جعلته متحفا عالميا مفتوحا

أفغانستان «بلاد الإسلام المعلقة».

ويذكر أن أرضها شهدت تطور حضارات العالم القديم أيضا، لكنها لم تكن يوما مقرا لها بل كانت الممر الذى عبرت منه تلك الحضارات الاغريقية والرومانية والعربية والإسلامية مرورا بالفارسية فى غرب العالم كما شهدت المسيحية والإسلام والبوذية والبراهمية والزرادشتية.

إلا أن التوحد الدينى لم يمتد إلى توحد لغوى، فاحتفظت كل عشيرة بلغتها الأصلية، وإن كانت فى معظمها لغات تأثرت بلغات أخرى مثل اللغة العربية أو الفارسية أو حتى الهندية والانجليزية.

من أهم القوميات التى تضمها أفغانستان جماعة الباشتون حيث يمثلون حوالى ٤٠٪ من سكان البلاد ويطلقون على أنفسهم لقب المؤسسين الأوائل بل إن لغتهم الباشتو أصبحت اللغة الرسمية للبلاد. وأهل الباشتون ذوو نفوذ كبير يعملون فى التجارة خاصة عبر الحدود بل ويصل نفوذهم فى المناطق الحدودية داخل باكستان وأغلب عناصر حركة طالبان من الباشتون، ومن العبارات الشهيرة عنهم: «لهم وجوه الصخور وقلوب الأسود وعيون الصقور وسيقان الفهود». وأبرز قبائل الباشتون قبيلة الدوريا الذين يسكنون مناطق ما بين هيرات وقندهار وقبيلة «الغلذائى» الذين يعيشون ما بين كابول وقندهار.

أما الطاجيك تصل نسبتهم حوالى ٢٥٪ هم خليط من الفرس والعرب، يسكنون مناطق شمال شرق البلاد حيث يسكنون قمم الجبال الشاهقة ولهم امتدادات داخل اوزبكستان وطاجيكستان وينتمى حوالى ١٠٪ منهم للمذهب الشيعى.

أما الهزارا فيمثلون ١٩٪ من السكان خليط ايرانى منغولى، شديدو المراس ذوو طباع حادة ويسكنون الجبال فى وسط البلاد، ينتمون إلى المذهب الشيعى الجعفرى، لغتهم الرئيسية الفارسية. ومن القوميات أيضا البلوتشى الذين يمثلون حوالى ٤٪ والأوزبك والتركمان حوالى ٦٪ وظلت الأصول العرقية والقبائل المتناثرة تحافظ على استقلاليتها من حماية المراعى، والالتزام بالتزاوج الداخلى بهدف الحفاظ على النقاء العرقى.

ويرغم ذلك التنوع البشرى المتعدد الأجناس والأشكال الذى يميز أفغانستان إلا أنه يتداخل فى نسيج واحد خاصة داخل المدن والشوارع والأسواق فيذكر لنا الكاتب فهمى هويدى فى كتابه

◀ الجبال كالمتاهة من السهل دخولها لكن من الصعب الخروج منها

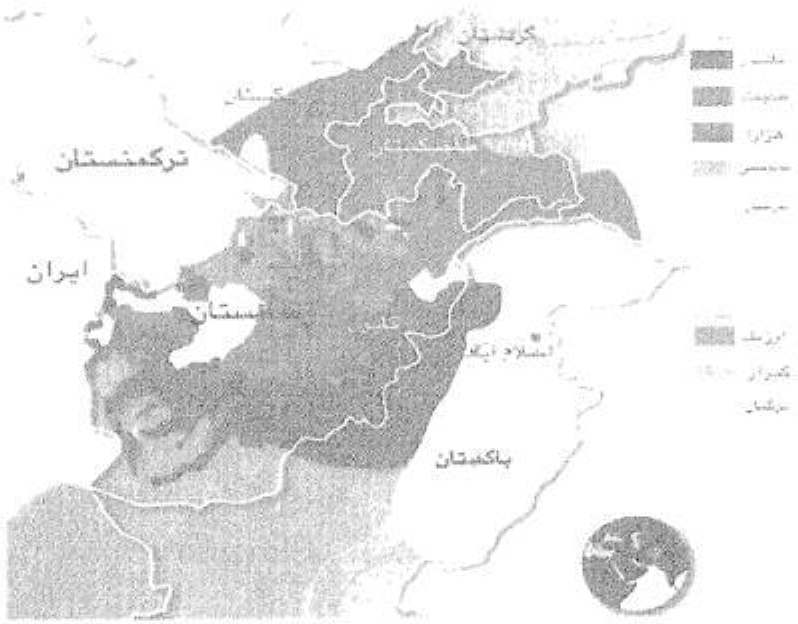


● الدين الإسلامي تحول إلى هوية جامعة للشعب الأفغاني بمختلف أعراقه وأجناسه

«طالبان ضد الله في المعركة الفلطاء أن «أسواق المدينة ينصب انتاج كل القبائل فيها .. السجاد الذي صنعته أيدي بنات التركمان ومروى، والجلود والفرو والعقيق من مناطق الطاجيك، الصداري المطرزة من غزني، والحلي والأساور الفضية من بلاد التركمان ونورستان والبنادق والمسدسات المشغولة بالعاج من مناطق الهزارا». وفي الأونة الأخيرة بدأت القبائل الأفغانية تشتهر بانتاجها المتميز لمنتجين لا رابط بينهما السجاد والأفيون . أولا السجاد يعتبر من المنتجات المهمة فمع تزايد الفقر أصبح الأفغان لا يعرفون في الأثاث سوى السجاد ، أما متوسطو الحال فأثاثهم قد يضم السرير المصنوع من جذوع الشجر والحبال إلى جانب السجاد وبما أن النساء كانت هي فقط تنسج السجاد أصبح الرجل الذي يتزوج أكثر من امرأة يمتلك عدداً أكبر من السجاد أما الأفيون فقد أباحت زراعته حركة طالبان عقب توليها مقاليد السلطة وقد برر علماء الدين قرارها بأن الأفيون يدخل في صناعة أحد عشر نوعا من الدواء خاصة المسكنات والمضادات الحيوية وأن المشكلة تكمن في إساءة استخدامه وتصنيعه وبما أن تصنيعه يتم خارج البلاد فإنها لا تتحمل وزر الاستخدام الخاطئ.

وهنا تثار العديد والعديد من التساؤلات التي يطرحها العالم أجمع حول ما آلت إليه الأوضاع داخل أفغانستان والتي أصبحت تحاصر الناس وتمارس عليهم مزيدا من الضغوط حتى أن المراقبين يصفون الأحداث الجارية والتغييرات التي طرأت على البلاد بأنها تغييرات من بائس إلى أشد بؤساً.

ففي أعقاب انسحاب القوات الروسية من أفغانستان تحولت العاصمة كابول إلى مسرح للعمليات القتالية. منذ عام ١٩٩٢ وحتى عام ١٩٩٦ بدخول قوات حركة طالبان المدينة ساهم في اغتيالها قوات المجاهدين المتناحرة حتى تحولت إلى مدينة لا تصلح للحياة الإنسانية ضمن سلسلة من أعمال الهدم والتدمير والتخريب فقوات قلب الدين حكمتيار زعيم الحزب الإسلامي وقوات أحمد شاه مسعود تتصارعان على فرض السيطرة على المدينة ، ثم يتصاعد القتال بين قوات حكمتيار وميليشيات الجنرال الأوزبكي الشيوعي عبدالرشيد دوستم ويسفر عن مقتل حوالي ٤ آلاف شخص ثم يتجدد القتال بين قوات برهان الدين رباني زعيم الجمعية الإسلامية مع حكمتيار بعد ما تم التصالح بينهما ثم يتحالف دوستم وحكمتيار الخصمين ومعهما خصم ثالث عبدالعلي مزاري زعيم حزب الوحدة الشيعي ضد أحمد شاه مسعود ويستمر

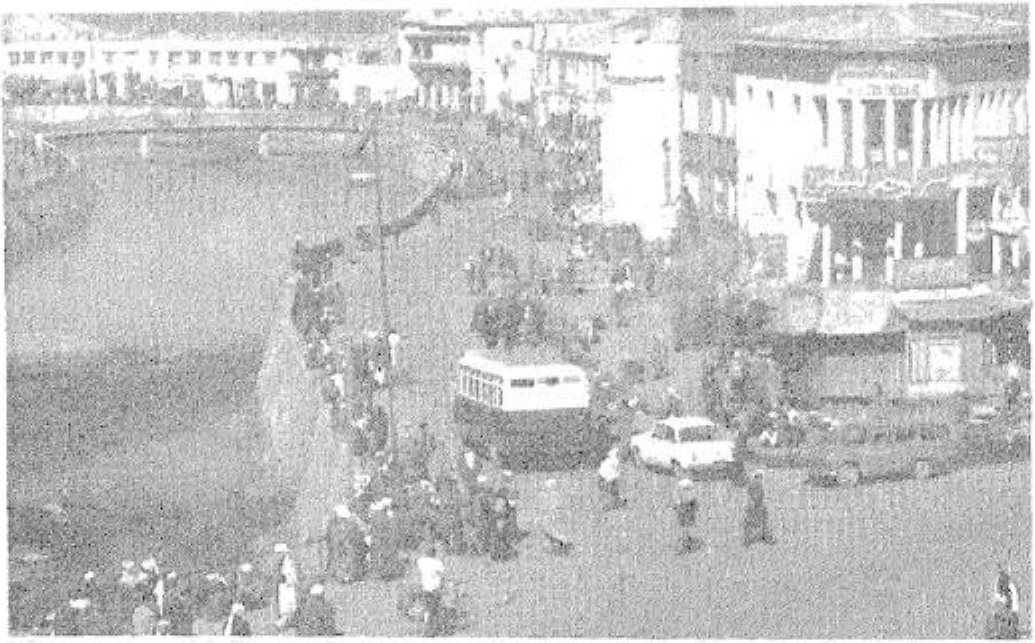


خريطة تبين أماكن استقرار العشائر الأفغانية

القتال حتي تتمكن طالبان من دخول المدينة، وكأننا نشاهد لعبة الكراسى الموسيقية كل يحاول الفوز بالكرسى المتبقى، لكن للأسف يكتشف فى النهاية أنه كرسى كسيح بلا أرجل.

من أين جاءت وإلى أين تذهب؟

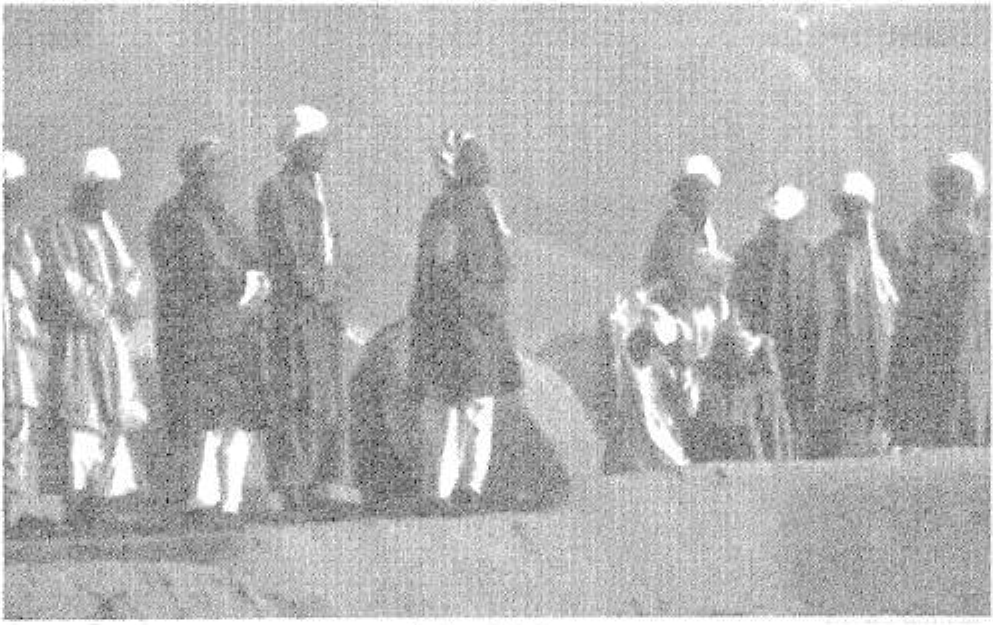
من أين جاءت حركة طالبان؟ يوضح الكاتب فهمى هويدى فى كتابه أن المدارس الدينية هى المحاضن التى فرخت حركة طالبان ، ومن بينها مدرسة شديدة المحافظة يطلق عليها الديوبندية نسبة إلى بلدة ديوبندا بالهند ، تأسست فى عام ١٨٦٧ ، وذاع صيتها حتى أطلق عليها أزهر الهند ورغم قيامها على مدى ١٣٠ سنة بدور كبير فى خدمة العلوم الدينية إلا أنها ضعفت وترهلت وتوقفت عند مرحلة تجاوزتها الثقافة الإسلامية ، فمازالت قضية المرأة عندهم مشكلة والرفض لمختلف أنواع الفنون سواء التعبيرية أو التشكيلية. عناصر طالبان تشربوا معارفهم ومنهج تفكيرهم من تلك المدارس التى ظلت نموذجا قامت عليه عشرة آلاف مدرسة فى شبه القارة الهندية (الهند - باكستان - أفغانستان) خاصة فيما يتعلق بالاهتمام بالمظاهر والتركيز على سلوكيات الناس وقضايا الحياة الفرعية والولاء المطلق للمشايخ ، بل إن العالم أصبح يأخذ عليهم تشددهم



كابول المدينة الجميلة قبل الغزو السوفيتي

والأمر الغريب أن أفغانستان حاول عدد من حكامها المتعاقبين فرض النموذج العلماني الميال للغرب كما حاول أمان الله خان تحديث البلاد وإجراء إصلاحات سياسية واجتماعية واقتصادية محاكيا بذلك تجربة كمال أتاتورك في تركيا . كذلك الملك ظاهر شاه أكثر حكامها استقرارا واستمرارا في الحكم فيما بين عام ١٩٣٣ - ١٩٧٣ والذى أصدر دستوراً عصريا في عام ١٩٦٤ حدد فيه السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية مما أدى إلى ازدهار الحياة السياسية لكن المجتمع والعلماء في مقدمتهم قاوموا محاولات التحديث بل إن فتاوى العلماء كانت بمثابة الوقود لكل تمرد وثورة على الحكام في البلاد . وفي دراسة أجراها مركز الدراسات السياسية الباكستانية عن طالبان للمؤلف مولوى حفيظ الله حقاني أكدت أنه خلال ٢٥٠ سنه أى منذ ١٧٤٧ وحتى وقتنا هذا تولى السلطة ٣٠ حاكما منهم ١٣ (حوالى ٤٣.٣٪) تقلدوا منصبهم استنادا إلى أسباب دينية - ومنهم ١١ حاكما (٣٥.٦٪) عزلوا من مناصبهم نتيجة لأسباب دينية مما يصور مدى قوة مكانة العلماء بل إن الشاعر محمد إقبال قال يوما «إذا أردتم القضاء على تعلق الأفغان بدينهم فأخرجوا العلماء من سهولهم وجبالهم».

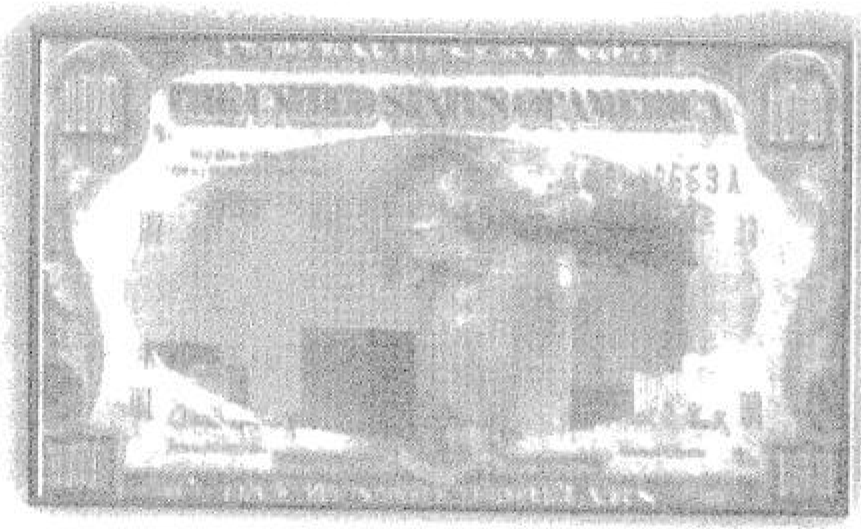
وها هي حركة طالبان تتولى مقاليد السلطة بعد صراع دموى مع الفصائل



موزاييك البشر بالجبال

الأفغانية الأخرى.. ماذا فعلت؟ قامت بإصدار تعميم في ١٩٩٦/٢/١٧ بعد دخولها كابول بحوالي شهرين لتطلع الشعب على المحظورات على رأسها منع الفتنة وسفور النساء حظر الموسيقى، منع حلق اللحى، أداء الصلوات في المساجد، منع تربية الحمام أو اللعب بالطيور، منع تعاطي المخدرات حظر اللعب بالطيارات الورقية أو المراهنة عليها، منع صنع الأصنام، وغيرها من المحظورات التي صدرت بشكل مستفز، آخرها كان القيام بتدمير تمثالي بوذا في أقليم باميان متناسية أن الشعب الأفغاني شعب شديد التدين ومعظمهم ينتمون للمذهب السني الحنفي ولا يتساهلون رجالا ولا نساء في العبادات بل إن النساء ظلت متمسكة بالثوب الشعبي والموروث الشادوري الذي يحجبها من قمة الرأس إلى أخمص القدم ويحجب حتى العينين قبل أن تفرضه حركة طالبان بالقوة.. وهنا نتذكر قول الكاتب فهمي هويدي عن أفغانستان «بلد موغل في التخلف لم يعن به أحد خصوصا الذين حكموه عاشوا منفصلين عنه برغم أنهم في صدارته وعلى قمته..».

وإذا كانت أفغانستان على مر التاريخ أرضا للتحدي والشراسة والصلابة فإن هذه الأرض قد شهدت في نفس الوقت على أرضها أعظم الحضارات الإنسانية والآثار التاريخية الشامخة الباقية. ■



على هامش الأحداث الأمريكية الأخيرة

من كلام فى الاقتصاد إلى كلام عن الأخلاق

بقلم
د. جلال أمين

كان الكلام كله حتى ١٠ سبتمبر ٢٠٠١ عن الاقتصاد، ولكن ابتداء من ١١ سبتمبر أصبح الكلام كله عن الأخلاق. فما سرّ هذا التحول الغريب؟

الظاهرة حقيقية لاشك فيها. كان كلام الصحف والإذاعات والتليفزيون حتى ١٠ سبتمبر يدور حول أمور مثل الركود الاقتصادى فى الولايات المتحدة، وعما إذا كان سيقود العالم كله إلى كساد اقتصادى عام، أو عن سعر الدولار بالمقارنة بسائر العملات، أو عن الجولة القادمة فى مفاوضات تحرير التجارة المزمع عقده فى الدوحة .. إلخ.

فجأة انقطع الكلام عن هذا كله بمجرد سقوط برجي مركز التجارة العالمي بنيويورك، وضرب مبنى وزارة الدفاع في واشنطن ، وإذا بالكلام كله يدور حول أمور تتعلق بالأخلاق: الارهاب والوحشية، الجبن والشجاعة، الكراهية والحب، التحضر والتخلف، وعن أى الحضارات أسمى من غيرها، وعما إذا كان المطلوب تحقيق العدالة أو مجرد الانتقام إلخ. حتى العمليات العسكرية أطلقت عليها أسماء أخلاقية، «كالنسر النبيل»، و«العدل المطلق» و«الحرية اللامتناهية».



نجيب محفوظ

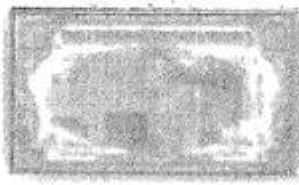
شاع فى أمريكا مناخ غريب لم يعهده الأمريكيون من قبل. ففضلا عن الحزن العميق والبكاء فى كل مكان. قال من عرف الأمريكيين قبل الحادث وبعده إنه لم ير الناس هناك قط يبذلون مثل هذا التعاطف والتآزر مع بعضهم البعض، الذى رآه فى أعقاب ١١ سبتمبر، ولا رأى الكنائس مكتظة بالناس إلى هذه الدرجة. ولكنهم أصبحوا أيضاً أكثر نفورا من الأجنبى والأجنبية من أى وقت مضى، خاصة إذا كان الأجنبى أسمر اللون أو كثيف اللحية، أو إذا كانت الأجنبية تغطى رأسها بحجاب. راح الأمريكيون يسألون بعضهم البعض وهم فى حالة غريبة من عدم التصديق «لماذا يكرهوننا إلى هذا الحد؟ ونحن الذين أعطيناهم وأعطيناهم؟ هل هذا هو جزاء الإحسان؟»



توني بلير

الغاضب منهم أصبح أكثر استعداداً للاعتداء على الأجنبى بالضرب أو السب أو البصق، ولكن منهم من عقد العزم على أن يحاول أن يفهم. بدأت إذن أسماء تتردد على أسماع الأمريكيين ولم تكن معروفة لهم من قبل، وهى أسماء عرف أصحابها بالنظر إلى السياسة كأخلاق، أو على الاقل عرفوا بأنهم غير مستعدين للفصل بين هذه وتلك ، من أمثال ناعوم تشومسكى الأمريكى وروبرت فيسك البريطانى. وقيل إن أكثر الكتب مبيعا فى الولايات المتحدة فى أعقاب حوادث سبتمبر كان إما كتبا عن الاسلام أو عن صراع الحضارات.

أما الصحف والمجلات البريطانية فقد امتلأت بالمقالات والتعليقات الأقرب إلى التقييم الأخلاقى منها إلى التحليل السياسى. فيم أخطأت الولايات المتحدة بالضبط؟ وهل تتناسب هذه الأخطاء مع حجم الاعتداء على نيويورك وواشنطن؟ وما الفرق بين إرهاب الأفراد وإرهاب الدولة؟ بل نشرت مجلة بريطانية مشهورة بأنها محافظة للغاية ويمينية دائما (وهى الايكونومست) مقالا بعنوان مدهش : «هل تدفع أمريكا ثمن الجرائم



الاسرائيلية؟». وعندما خرج رئيس وزراء إيطاليا بتصريحه المشئوم عن الإسلام ووصف فيه الحضارة الغربية بأنها أسمى وأنبل من الحضارة الإسلامية، ردت عليه جريدة الجارديان البريطانية بعنف قائلة: «أنت آخر شخص يحق له الكلام عن التحضر. فتاريخك الأخلاقي لا يسمح لك بذلك!».

الحل في القيم والحب

وفي مصر، حيث تعلو النبرة الأخلاقية دائما في صحفها ومجلاتها وتليفزيونها حتى تغطي على أي تحليل سياسي، لم يكن المرء يظن أن من الممكن أن تزيد هذه النبرة ارتفاعا. فها هو نجيب محفوظ في مربعه الأسبوعي في جريدة الأهرام يقول لصحفية إسبانية إن العلاج الوحيد لشرور العالم هو أن تعم مبادئ الأخلاق والعدل والحق. ويقول إن البعض قد يعتبر هذا الكلام مغرقا في المثالية والخيال، ولكنه يقول: «هل كان أحد يصدق أن يحدث ما حدث في نيويورك وواشنطن في الحياة الواقعية، وهو الأقرب إلى الكابوس غير القابل للتحقيق؟ فإذا كان من الممكن أن يتحقق الكابوس المخيف فلماذا لا يمكن أن يتحقق الحلم الجميل؟».

وفي ندوة ضمت بعض كبار الاقتصاديين المصريين الذين دعوا لمناقشة الآثار المتوقعة لما حدث، قال أحدهم إن العلاج الوحيد لما حدث والمانع الوحيد لتكراره هو «الحب». وعندما سئل آخر عن رأيه في هذا الكلام صدّق عليه وكرّر أيضا كلمة «الحب». كما سمعت مثقفا مصريا كبيرا يعلق على الأحداث بقوله: «إنها بلاشك بداية النهاية لهذا العالم!». ونهاية العالم تتطلب من المرء بالطبع أن يعيد حساب ذنوبه وحسناته.

ما سرّ هذا التحول المفاجئ إلى الأخلاق؟

هناك بالطبع واقعة الموت، والموت في حد ذاته موعظة. فإذا كان الضحايا بهذا العدد، وإذا كان الموت قد فاجأهم وهو أبعد ما يكون عن أذهانهم، فإن المرء يكون على استعداد بلاشك للتأمل وإعادة التفكير في معنى الحياة وقيمتها، ولابد أن يقوده هذا إلى التفكير الأخلاقي.

وهناك أيضا رؤية «عزيز قوم ذلّ»، أي رؤية أكبر قوة في العالم وهي تتعرض للمذلة والإهانة في لحظة كانت فيها أكثر دول العالم خيلاء وإعجابا بنفسها. فإذا كان مثل هذا يمكن أن يحدث لأقوى الناس وأشدهم بأسا، ألا يجب إذن أن يتعظ الأضعف والأصغر والأقل بأسا؟

إعادة التفكير ومحاولة الفهم

وهناك أيضا الخوف. فإذا كان مثل هذا المصير يمكن أن يحدث لطائرة عادية في رحلة من رحلاتها اليومية من

مدينة أمريكية لأخرى، وفي صباح يوم عادي ولأشخاص قد لا يعرفون أي شيء عن السياسة وقد لا يقرأون الجرائد اليومية، فما الذي يمنع أن يحدث مثل هذا لي أو لواحد من أهلي؟ فإذا كان العالم قد أصبح محفوفا بالمخاطر لهذه الدرجة، ألا يستحق الأمر منا إعادة التفكير ومحاولة الفهم؟

بالاضافة إلى هذا كله هناك الإدراك المفاجيء لخطأ جسيم اعتدنا جميعا الوقوع فيه. إذ كيف تسنىّ لنا أن نقدس التكنولوجيا الحديثة إلى هذه الدرجة؟ وكيف وضعنا فيها هذا القدر من الثقة؟

ما هذا الغرور بقدرة الانسان على ابتداع تكنولوجيا تجلب له السعادة والرفاهية وتوفر له الراحة والأمان. إذا كان برجان عظيمان كان يظن أنهما قادران على الصمود في مكانهما لعدة آلاف من السنين، يمكن أن يسقطا بهذه السهولة؟ وإذا كان أحد المهندسين الذين اشتركوا في تصميمهما قال معلقا على الحادث إنه في الوقت الذي جرى فيه تصميم البرجين كان حجم الطائرات أقل بكثير مما هو الآن، ولم يؤخذ في الاعتبار أن من الممكن أن تصطدم بهما طائرة كبيرة؟ هل هذا منتهى قدرة الإنسان على التخطيط والاحتياط للمستقبل؟ وما كل هذه العظمة والأبهة اللتين نضفيهما على التكنولوجيا الحديثة إذا كان باستطاعة رجل واحد أو عدد قليل من الرجال إحداث كل هذا الدمار والتغلب على كل إجراءات الأمن، إذا توفر لديه مطواة صغيرة يخيف بها الركاب، مع استعداده بالطبع للانتحار؟ هل الحقيقة إذن أن الإرادة الانسانية أقوى من أي شيء يمكن أن تخلقه التكنولوجيا الحديثة؟

* * *

ما أجمل أن يكون هذا التحول من الاقتصاد إلى الأخلاق تحولا نهائيا ودائما. ولكن كل الشواهد تدل للأسف على عكس ذلك. فكم صادفنا في حياتنا من أمثلة، ربما لا تصل في درجة المساوية إلى أحداث ١١ سبتمبر، ولكنها مشابهة لها مع ذلك، ولم يستمر أثرها علينا إلا أياما معدودة. عدنا بعدها إلى سابق عهدنا مع عدم الاكتراث؟ كم ذهبنا للعزاء في وفاة شخص عزيز فقدناه فجأة وهو في ريعان الشباب، وطافت بأذهاننا مختلف الأفكار عن معنى الحياة والموت، ثم سرعان ما نسينا الأمر برمته وعدنا إلى ما كنا فيه وكأن شيئا لم يحدث؟ كم رأينا «عزيز قوم ذل»، واستبد بنا الخوف، وشاهدنا من الأمثلة على عجز التكنولوجيا الحديثة عن إدخال السعادة على قلب حزين، أو إعادة حب الحياة إلى شخص أصابه الاكتئاب، ثم عدنا إلى الظن بأنه ليس هناك من مشكلة لا تستطيع التكنولوجيا الحديثة أو العلم الحديث حلّها؟

مازال أمامنا وقت طويلا بلا شك من القتل والتدمير والتباهي بالقوة والافتتان بالتكنولوجيا قبل أن تصل إلى الاعتقاد الراسخ واليقين الكامل بأن هناك أشياء أفضل من كل هذا بكثير. ■

الإعلامُ والإرهابُ

* الإعلام يحقق الأهداف الاستراتيجية للإرهاب !

* يعتبر الإرهاب وسائل الإعلام أحد أسلحته الرئيسية !.

بقلم
د. أحمد محمد صالح

لايمكن لإنسان أن يوافق على هجمات تسيل فيها دماء أبرياء فالانفجارات العشوائية بعيدا عن ميدان الحروب أو القتال ، لا يمكن وصفها إلا أنها أعمال ارهابية ! وسيعتبر يوم الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ من الظواهر اللافتة فى التاريخ المعاصر للبشرية نتيجة الهجمات الارهابية التى تعرضت لها مؤسسات أمريكية حيوية في نيويورك وواشنطن قبل أسابيع !! واهتز على أثرها أمن الدولة العظمى الوحيدة فى العالم ، ودمرت رموز القوة والسطوة الأمريكية فى مركز التجارة العالمى والبنتاجون .



وهى المرة الأولى فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية التى تقصف فيها مدن ومواقع مدنية أمريكية لدرجة أن صرخ مشاهدو التلفزيون فى كافة أنحاء العالم صرخة واحدة لا أصدق ما أراه كأنه فيلم ! وكأننا فى فيلم فعلا! وتغيرت تماما صورة السوبرمان الأمريكي! والعالم كله سيختلف شكله تماما بعد هذا التاريخ ! وستتغير العلاقات السياسية الدولية باتجاه مزيد من القدرة الأمريكية على التدخل فى أوضاع بلدان كثيرة من العالم خاصة العالم الثالث ! وينتظر أن تتراجع مكتسبات الحريات الديمقراطية فى العالم كله مائة سنة على الأقل للوراء ! نتيجة المزيد من الإجراءات الأمنية تحسبا للعمليات الارهابية !

ولن نسترسل كثيرا فى نتائج تلك الانفجارات الارهابية. لأن وسائل الاعلام تعج بالتحليلات والمقالات والبرامج حول هذا الحدث ! لدرجة أننى اكتشفت بعد كتابة مقدمة المقال بأنها تحمل نفس المعنى الذى ظهر فى

معظم المقالات والبرامج الاعلامية عن هذا الحدث ! لكننا هنا سوف نتوقف عند نقطة العلاقة بين الحدث الارهابي والميديا ، التي ألقت الاتهامات جزافا نحو العرب والمسلمين ، واشعلت أعمال التعصب ضد العرب والمسلمين في الخارج !

في الأيام الماضية فاضت الصحف والمجلات والاذاعات ومحطات التليفزيون الفضائية والانترنت بالأنباء والأخبار والتحليلات والدراسات والمقالات والبرامج حول جماعات الإرهاب ، وانتشرت صور قيادات الارهاب في الصحف والمجلات، وبثت العديد من الافلام والبرامج الحية التي تحمل لقاءات مع قيادات الارهاب عبر المحطات الفضائية الأجنبية والعربية وفتحت حوارات معهم ! واتذكر منذ سنوات بعد الحادث الارهابي في الاقصر فاضت صحفنا ومجلاتنا الحكومية والمعارضة بصور الإرهابيين وبالأحاديث المطولة مع قياداتهم في الداخل والخارج، وبتحقيقات صحفية عن حركتهم وتاريخها، بل زاد الأمر بتكرار الدعوة للحوار معهم، وزادت الكثافة الإعلامية حولهم لدرجة إن قناة فضائية عربية، وهي قناة الجزيرة بقطر نظمت لقاء ات حية مع تلك القيادات



الإرهابية المصرية والمقيمة في لندن وتتوالى الآن الأخبار والصور والأفلام والتحقيقات الاعلامية عن السعودي اسامة بن لادن الذي تبحث عنه أمريكا رغم أنه من صنعها ، وأصبح اسطورة بلا معنى ! إن وسائل الإعلام جعلت أسامة بن لادن في قلب الموجة الإعلامية، فهو نموذج اعلامي مثالي : فهو عربي، مسلم ، مليونير، مجاهد، وذو كاريزما، يبدو حزينا دائما، حاملا على أكتافه هموم العالم، والعجيب انه ينتقل من مكان إلى أخر بزوجاته الأربعة كما يقولون !.

الإعلام سلاح رئيسي للإرهاب

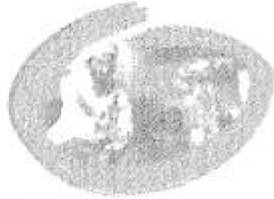
وأزعم هنا انه رغم أهمية الدور الإعلامي في فضح جماعات الإرهاب فإن أهدافا أخرى للإرهاب تتحقق بنجاح شديد من خلال الحملات الإعلامية ، حيث تصل رسالة الإرهاب للجميع! وأزعم أيضا أنه بتلك الضجة الاعلامية التي تحدث حول الإرهابيين في جميع وسائل الإعلام عقب حوادث الإرهاب أو وقائع اعتقالهم، يتم تحقيق واستكمال جميع أهدافهم الاستراتيجية، لأن وسائل الإعلام تظل دائما فعالة في المواجهة بين الحكومات وحركات الإرهاب ، فالاحتكام إلى

الرأى العام. والتأثير عليه قد يعزز أفعال الحكومة لمواجهة الإرهاب، وأيضا قد يؤثر ويدعم أعمال الحركات الإرهابية، التي تعتبر أن مدى نجاح تغطية وسائل الإعلام لجرائمهم هي مقياس مهم لنجاح الفعل الإرهابي نفسه، بل أن تلك التغطية الإعلامية تزودهم بمعلومات يمكن إن تساعدهم في تضليل وتعطيل الجهود التي تبذل لمحاصرتهم والقضاء عليهم .

والحكومات تستعمل وسائل الاعلام لإثارة الرأى العام المحلى والعالمى ضد الحركات الإرهابية وتستثمر الحكومات أيضا الجهود الدبلوماسية بجانب الميديا في تعبئة الرأى العام ضد الإرهاب في الدول الأخرى للضغط على حكوماتهم لاتخاذ اجراءات ضده، تماما كما تفعل الولايات المتحدة الأمريكية الآن، وأيضا كما فعلت مصر بعد حادثة الاقصر بالتأثير على الرأى العام البريطانى للضغط على حكومته التى تشجع إيواء العناصر الإرهابية هناك تحت مزاعم احترام حقوق الانسان والحريات .وهنا نذكر بمقولة مرجريت تاتشر رئيسة الوزراء البريطانية السابقة التى وصفت عمليات الإعلام والاعلان والذيوع الذى تحدثه وسائل الاعلام حول الأفعال الإرهابية ، بانها الاكسجين اللازم للإرهاب ولا يستطيع الاستغناء عنه، بل أن الإرهابى يعتبر وسائل الاعلام هى سلاحه الرئيسى، وأنها تلعب دورا محوريا لصالحه عندما تغطى الحدث الإرهابى تغطية واسعة، كما حدث أخيرا فى الهجمات على نيويورك وواشنطن !

وهنا يجب التأكيد على أن اختلاف رؤية كل من الحكومات، والميديا ، والإرهابيين حول وظيفة وأدوار ومسئوليات أجهزة الاعلام عند تغطية أحداث الإرهاب، يتولد عنه الكثير من التناقض والتنافس والتضارب أثناء تغطية الحدث الإرهابي بين الجهات الثلاث المعنية ، وتكون النتيجة غالبا مكاسب تكتيكية واستراتيجية يحصل عليها الإرهاب ، والتحدى الذى يواجه الحكومات ووسائل الاعلام هو كيفية تفهم ديناميكية وجهات النظر الثلاث .

واعتمادا على تقرير رافيل.ف.بيرل وهو باحث متخصص فى سياسات مواجهة الإرهاب الدولى بمكتبة الكونجرس الأمريكى ، وله بحث منشور فى الإنترنت فى يوليو ١٩٩٧، تحت عنوان «الارهاب والميديا فى القرن الحادى والعشرين »، «يمكن أن نحلل اختلاف رؤية كل من الأطراف الثلاثة، الحكومات ، ووسائل الأعلام ، والإرهابيين حول وظيفة وأدوار ومسئوليات وسائل الاعلام عند تغطية



أحداث الإرهاب .

الإرهابيون يريدون الشهرة، والإعلام والاعلان المجاني عنهم الذى توفره لهم وسائل الاعلام عند تغطيتها لأحداث الإرهاب. والذى لاتستطيع تلك الجماعات أن توفره لأفرادها وتتحمل تكاليفه المرتفعة وهذه الشهرة التى يوفرها لهم الاعلام ، ويصبحون بعدها شخصيات معروفة، وصورهم وأحاديثهم منتشرة عبر العالم، هى بمثابة اعتراف رسمى وإعلامى بوجودهم. ولايستطيع أحد أن يتجاهلهم ، وبعدها يصبح أى حديث عن عدم الحوار معهم ليس له معنى فالمقابلات الإعلامية الحية مع الإرهابيين تعتبر جائزة ومكافأة لهم عن أفعالهم الاجرامية ، ففى مايو ١٩٩٧ أجرت محطة CNN مقابلة تليفزيونية حية مع أسامة بن لادن، من خلال اللقاء معه وتصويره فى موقعه والكلام عن نشاطه وأهدافه، فهى قصة إعلامية حية ومثيرة جدا وتجذب ملايين المشاهدين، وهو مايريده بالضبط أسامة بن لادن فوسائل الاعلام عندما تجرى مقابلات حية وأحاديث صحفية مع الإرهابيين ، تقدم لهم الفرصة لكى يتفهم الجمهور الأسباب والدوافع التى دفعتهم لذلك ،فينشأ تفهم مادح لأسبابهم وليس لأفعالهم، فلا أحد يوافقهم على أعمالهم، لكن هذا لايمنع أن يوجد من يتعاطف مع الدوافع والأسباب والمعاناة التى دفعتهم لذلك ، ووسائل الاعلام توفر لعامة الناس الذين على استعداد للتجاوب مع أسباب ودوافع الأرهابيين الفرص الكاملة للتعاطف معهم وتفهم أسبابهم ، وهنا يظهر العنف والقتل الذى يمارسه الإرهابيون مجرد حلقة فى سلسلة ردود الأفعال الممكنة ضد قوى الشر الجبارة التى دفعتهم للارهاب، والإرهابيون حريصون جدا أن يكونوا علاقات عامة جيدة مع وسائل الاعلام، خاصة الصحافة ووكالات الأنباء، فيحرصون على تزويد تلك الوكالات بأخبارهم وبياناتهم وأفكارهم وهم أيضا حريصون على دس عملاء لهم فى مواقع الاتصال بالمؤسسات الصحفية ووكالات الأنباء، مثل عمال التليفونات أو موظفى التلكس والفاكس ، وغيره من المواقع الوظيفية المتحكمة فى مسار الأخبار ، والإرهابيون يريدون أيضا الشرعية ، ويطالبون وسائل الاعلام أن تعطى لجماعاتهم المسلحة الشرعية ، مثل بقية الأجنحة السياسية الأخرى فى المجتمع

، ويتاح لهم التعبير عن وجهة نظرهم مثل بقية المنظمات غير الحكومية ومراكز الأبحاث الخاصة التي غالبا ما تعتبر غطاء للحركات الإرهابية من خلالها يسهل جمع التبرعات أو تجنيد أعضاء جدد، وتسهيل السفر والتنقل بين البلاد المستهدفة. أنهم يريدون أيضا من وسائل الاعلام أن تساعدهم فى تضخيم جرائمهم وتعظيم الأضرار التى أصابت المجتمع من الحوادث الإرهابية، من خلال نشر التحقيقات الإعلامية عنهم كمجرمين عتاة يثيرون الرعب، فيزداد الخوف والذعر منهم وتتعاظم خسائر الاقتصاد خاصة فى قطاع السياحة، ويفقد الناس الثقة فى حكوماتهم وقدراتها على حمايتهم من الإرهابيين، إنهم يريدون أيضا أن تبالغ وسائل الإعلام فى وصف أفعالهم الإرهابية ، حتى تبالغ الحكومة أيضا فى الخوف منهم، وتنتشر مشاعر الرعب منهم فى المجتمع .

ماذا تريد الحكومات من الإعلام ؟

والحكومات تبحث دائما عن تفهم ، وتعاون، وولاء وسائل الاعلام حول تحديد أضرار الإرهاب على المجتمع، وأيضا فى تناولها للجهود الأمنية المبذولة لمحاصرة المسئولين عن الإرهاب والحكومات تريد من وسائل الاعلام تقديرا إعلاميا لجهودها وبرنامجها ضد الإرهاب ، فمن وجهة نظر الحكومات أنه يجب على وسائل الإعلام أن تدعم مجهودات وأفعال الحكومة وهى تحاصر وتقاوم الإرهاب وتهدف الحكومات أيضا إلى عزل الإرهابيين عن وسائل الاعلام ، ومنع نشر أفكارهم ومبرراتهم مع الإعلام والدعاية لبرنامجها فى مكافحة الإرهاب على أمل محاصرته وهزيمته والحكومات تريد من وسائل الاعلام أن تقدم الإرهابيين الى المجتمع كمجرمين عتاة أعداء للبشر والمجتمع ، والحكومات وهى تمنع عادة دخول وسائل الاعلام المنطقة الآنية للحدث ، تأمل وتطلب من وسائل الاعلام أن تقدم بيانات ذكية لصالحها حين تسمح لها بالدخول والحكومات تريد أيضا من وسائل الاعلام المساعدة فى حصار التوتر الناشئ عن الحدث الإرهابى، وليس المساهمة فى إحداث هذا التوتر ونشره، لأن المحافظة على هدوء المجتمع هدف سياسى مهم لأى حكومة وأثناء الحدث الإرهابى وبعده تسعى الحكومات الى منع وسائل الاعلام لتوصيل أى معلومات للإرهابيين تساعدهم على متابعة تحركات تعقبهم ، والهرب من منطقة الحدث

وتأمل الحكومات من وسائل



الاعـــلام، خــــلال قصصها الإعلامية الحية والمثيرة ألا تكشف عن خبايا العمليات الإرهابية الناجحة أو المحبطة، حتى لا تستخدم تلك الأسرار في نجاح إرهابي جديد والحكومات تريد من وسائل الاعلام أن تكون حذرة، ولا تنخدع من البيانات والفاكسات التي تصلها من المجموعات الإرهابية، فهي عادة بيانات مدسوسة وغير دقيقة أنهم يريدون من وسائل الاعلام أيضا أن تظهر الحكومة ومؤسساتها بمنظر جيد، وهنا تحذر الحكومات مؤسساتها المختلفة من تسرب أي معلومات الى وسائل الاعلام، خاصة من خلال هؤلاء الإعلاميين الذين يحصلون على معلومات مقابل تلميع وتجميل تلك المؤسسة أو ذاك وتسعى الحكومات الى تزويد وسائل الاعلام بأسباب جيدة للارهاب، تظهره كعمل فردي، وتعلم الناس بأبعاد جريمته، خاصة إعلام هؤلاء المتوقع دخولهم كروافد جديدة لمجموعات الارهاب باختصار الحكومات تريد تعاون وسائل الاعلام خاصة في حالات الارهاب المتطرف في إجرامه حيث يتعرض الأمن القومي لمخاطر حقيقية، وهنا يجب على وسائل الاعلام التوعية بهذا الخطر الذي يهدد الأمن القومي.

كل صحفي وإعلامي يحتاج الحرية في تغطية القضايا بدون أي ضغط أو اعاقة من رئيس التحرير أو من الحكومة، ووسائل الاعلام يجب أن تكون أول من يعرف قصة الحدث الإرهابي، فالاخبار القديمة لاتعتبر أخباراً، فبث أو نشر الخبر في وقته الحقيقي والفعلي يعتبر شيئا ضروريا في المنافسة الشديدة بين وسائل الاعلام. وهي تريد أن تجعل قصص الارهاب مثيرة وحية عن طريق المقابلات الحية مع القائمين بالحدث الارهابي. والإعلاميون في معظم الأحيان يريدون أن يكونوا محترفين ومنضبوطين وممارسين للدقة لكي لا يعطوا مصداقية للمعلومات المشوشة مهما كانت مثيرة، إنهم يريدون حماية قانونية لحريتهم في نشر الحوادث الارهابية نفسها وألا يكونوا هدفا لها وأثناء تغطية الحوادث الارهابية يريدون حماية حقوق المجتمع المعروفة، انهم يريدون أن يكون لهم دور بناء في مكافحة الحالات الارهابية بدون أن يخسروا هم أنفسهم القصة الخبرية حول الحدث الارهابي.

معنى ذلك أن كل من الحكومات، ووسائل الاعلام لدى كل منهما وجهة نظر مختلفة في كيفية التغطية والمعالجة

الإعلامية للحدث الإرهابي ، ويحاول صناعو القرار التوازن بين متطلبات الحكومات في التغطية الإعلامية للحدث، وبين توفير واحترام حرية الصحافة التي تمثل أحد الأعمدة الأساسية للمجتمعات الديمقراطية . لذا، فإن الاتصال والتفاهم بين الحكومات ووسائل الاعلام ، وتفهم كل منها لوجهة نظر الآخر، مهم للغاية ، وهو الركيزة الأساسية في أي استراتيجية توضع لمكافحة الإرهاب خاصة في المجتمعات الديمقراطية فالإرهاب والديمقراطية لا يجتمعان، والمجرمون والمتطرفون الدينيون عندما يحكمون أي مجتمع تموت فيه تماما الصحافة الحرة .

الإعلام العربي

واليوم في عصر الثورة التكنولوجية المعلوماتية والاتصالية التي تجسدها الأقمار الصناعية والإنترنت ، تحول الاعلام الى فاعل سياسي أساسي لتعبئة الرأي العام العالمي في سبيل الحرب أو من أجل السلام، ونتذكر ما حدث في حرب العراق من تعبئة اعلامية للعالم كله، ومن ينسى أيضا دور CNN في انباء حرب البوسنة؟ كل ذلك يلقي مسئولية ضخمة على أجهزة الاعلام العربية، في مواجهة استغلال اسرائيل للهجمات الارهابية الأخيرة على أمريكا لاتهام العرب والمسلمين بالإرهاب ، وتبرير ما تفعله في فلسطين من قتل ونهب واغتصاب ! ويزداد موقف الاعلام العربي صعوبة في ظل الاتهامات المستمرة للعرب والمسلمين بالارهاب عبر أجهزة الإعلام المعولم ، فأين هي خطة الاعلام العربية ؟ لمواجهة التفاعلات السياسية العالمية الناتجة عن الهجمات الإرهابية ضد مبنى التجارة العالمية في أمريكا والبنتاجون، أين هي الخطة الاعلامية العربية في ظل الحشد الأمريكي لتحالف دولي ضد الارهاب؟ وما انعكاسات هذه التفاعلات على امكان توحيد الموقف العربي.. اعلاميا في الحديث عن الارهاب ؟ كيف يمكن أن تواجه اسرائيل أعلاميا عندما تلصق تهمة الارهاب بالعرب والمسلمين وتحاول استقطاب أوسع تأييد لها ؟ وكيف نوظف المناخ السائد في العالم الآن ضد الارهاب في كشف وتعرية الحركات الارهابية المحلية المتسترة داخل عناوين وشعارات دينية أو خيرية واجتماعية مختلفة !. ■



فيلم الحصار بين الخيال والواقع

المصفحات تجوب
شوارع نيويورك

يعتبر الدستور الأمريكى، وبحق، أبو الدساتير المكتوبة، المعمول بأحكامها حاليا فى مشارق الأرض ومغاربها.

فهو أقدمها عهدا، وأصلبها عودا وصمودا لعاديات الزمان.

فأحكامه يرجع العمل بها إلى ١٧٨٩، ذلك العام الذى جرى فيه تتويج الانتصار فى حرب الاستقلال بانتخاب قائدها «جورج واشنطن» أول رئيس للولايات المتحدة الدولة الفتية، الفائزة بالاستقلال، قبل بضعة أعوام.

هذا، ولم تكن تلك الدولة الجديدة، يحد أرضها المحيطان الأطلسي شرقا والهادى غربا، كما هو الحال الآن.

فأرضها فى ذلك الزمان الموغل، كانت منحصرة فى اثنتى عشرة ولاية من «ديلاوار» شمالا، حتى «جورجيا» جنوبا، بسواحل لا تطل إلا على المحيط الأطلسى، أو ماكان يسمى ببحر الظلمات، قبل اكتشاف العالم الجديد.

بعد ذلك تمر الأيام أعواما بعد أعوام، وإذا بعدد ولاياتها يرتفع خلال قرنين إلا قليلا، إلى خمسين ولاية، آخر ما جرى ضمه منها، شبه جزيرة ألاسكا، وجزر هاواى، وكان ذلك فى أثناء العام الأخير من ستينات القرن العشرين.

ورغم ذلك التوسع، وبعضه كان على حساب إنجلترا وفرنسا، ومعظمه كان على حساب كل من الهنود الحمر سكان قارة أمريكا الشمالية الأصليين، والمكسيك التى تراجعت حدود دولتها إلى جنوب نهر



دنزل واشنطن ضد الجنرال القاشى بروس ويليس



العسكر فى فيتنام



ريوجراند بفقدان ولايات فلوريدا وتكساس ونيو مكسيكو وأريزونا وكاليفورنيا.

ورغم الحروب التي خاضت الولايات المتحدة غمارها سواء على أرضها مثل الحرب الأهلية بين جنوبها وشمالها (١٨٦١ - ١٨٦٥م) أو خارج حدودها مثل الحرب ضد اسبانيا، والحربين العالميتين الأولى والثانية.. والحروب الصغيرة الأخرى التي دار رحى معظمها في آسيا، وآخرها حرب فيتنام.

ورغم الحرب الباردة التي استمرت زهاء خمسة وأربعين عاما وفي أثنائها دفع بالعالم، أكثر من مرة، إلى حافة هاوية الفناء.

وعانت الحريات، داخل الولايات المتحدة من ماكرثية، في غلو معاداتها لخطر الشيوعية، كانت أقرب إلى الفاشية منها إلى الديمقراطية التي كانت تزعم الدفاع عنها.

ديمقراطية راسخة

رغم كل ذلك، ظل الدستور بأحكامه التي صاغها قادة حرب الاستقلال في مدينة فيلادلفيا (١٧٨٧ - ١٧٨٩)، ظل درعا حاميا لحقوق المواطنين، خاصة ما كان منها متصلا بالملكية وحرية التعبير.

وحاميا لمبدأ الفصل بين السلطات الثلاث، التشريعية، والقضائية، والتنفيذية، على نحو حال دون توغل إحداها على حساب الأخرى، ودون وقوع انقلاب على الجمهورية، يتحول بها إلى قيصرية استبدادية، إن عاجلا أو آجلا، لابد أن تطيح بالدستور وتعصف بالحريات.

حقا أباحت الضرورات من حين لآخر إدخال بعض التعديلات.

ولكنها كانت من ذلك النوع الحميد الذي جنح بأحكامه إلى الأفضل، وآية ذلك التعديل الثاني الذي أحاط حرية التعبير بسياج منيع من الحماية، في مواجهة السلطة، إذا ما تعسفت في استعمال حقها في حماية النظام العام، وحسن الآداب.

عدوى البونابرتية

وكذلك التعديل الثاني والعشرين (فبراير ١٩٥١) الذي حظر على الرئيس المنتخب ترشيح نفسه لولاية ثالثة، وذلك تجنبا لتكرار سابقة انتخاب فرانكلين روزفلت رئيسا أربع مرات.

واتقاء لخطر سقوط النظام الديمقراطي في براثن بونابرتية، لا

تقيم وزنا لا للدستور، ولا للحريات.

والحق أن ذلك الخطر قد تعرضت له الولايات المتحدة من حين لآخر، شأنها في ذلك شأن الدول الأخرى .

ولعل أخر محنة من هذا القبيل، إنما ترجع إلى خمسين عاما مضت، عندما هدد الجنرال ماك أرثر بطل حرب الباسيفيك، والحاكم بأمره في اليابان بعد استسلامها، دون قيد ولا شرط، هدد في أثناء الحرب الكورية باستعمال القنبلة الذرية ، متمردا بذلك على سياسة الولايات المتحدة المعلنة، وعلى الشرعية المتمثلة في الرئيس هاري ترومان.

غير أن تمرده هذا باء بفشل ذريع، انتهى به مرفوتا، منبوذا.

ومع ذلك ، فسابقة التمرد هذه، إن دلت على شيء فإنما تدل على أن للعسكريين داخل الدوائر الحاكمة الأمريكية نفوذا كبيرا، يشكل خطرا على الديمقراطية، لا سيما، في أوقات الأحداث والخطوب.

وشاهد على ذلك النفوذ وخطره الجنرال دوايت إيزنهاور، آخر عسكري انتخب رئيسا للولايات المتحدة.

ففي خطابه الأخير، وولايته الثانية على وشك الانتهاء، قال من بين ما قال. إن ثمة مؤسسة صناعية عسكرية مهيمنة، وان خطرها على الديموقراطية عظيم.

عسكرة علي قدم وساق

والآن نشاهد هذا الخطر متجسدا في محاولات عسكرة المجتمع الأمريكي، إثر مأساة العدوان الغادر علي نيويورك وواشنطن، يوم الثلاثاء الدامي، الموافق الحادي عشر من سبتمبر، أيلول الأسود .

وإلا فبماذا نفسر ذلك الاسراع المريب نحو استصدار تشريعات من الكونجرس، تحد من الحريات المدنية . وحقوق الإنسان.

وإنشاء وزارة للأمن الداخلي، يتربع على قمتها القيصر الجديد «توم ريدج» حاكم بنسلفانيا السابق، ويعرف عنه تشدده في محاربة الجريمة، وتوقيعه خلال عام واحد (١٩٩٤) على مائة حكم صادر بالإعدام.

فضلا عن أن شهرته مستمدة، في معظمها، من بسالته في حرب فيتنام.

هذا إلى ارتفاع الأصوات جهارا ، نهاراً، مطالبة بزيادة جرعة التجسس علي حياة الأفراد، بالتنصت على مكالماتهم، وباستباحة الاطلاع على رسائلهم عبر الإنترنت، وبمراقبة

مكاتباتهم وحساباتهم الشخصية.

علاوة على التوسع الكبير فى الإجراءات الأمنية، بحيث أصبحت الطرق والكبارى والانفاق والموانىء والمطارات، تعج برجال الشرطة والحرس الوطنى، مع كلابهم الشرسة، المدربة على شم رائحة الأعداء.

وبحيث كاد يصبح تفتيش الأفراد، لمجرد الاشتباه، أمرا مألوفا.

ولم يبق غير حشد كل مشتبه فى أمره، داخل معسكرات اعتقال، مثلما حدث لليابانيين الأمريكيين، إثر العدوان على بيرل هاربر، وذلك قبل ستين عاما.

أين هوليوود

وقد يبدو غريبا أن مصنع الأحلام، وإلى عهد قريب، لم يبد أى اهتمام، من خلال الأفلام، بالمعارك الدائرة من أجل تعرية العسكرية الأمريكية، وكشف خطرها الداهم على الديمقراطية.

ومن هنا، غياب أى عرض لذلك الخطر، لا من قريب، ولا من بعيد.

وأغلب الظن أن ذلك إنما يرجع إلى انصراف كل جهد هوليوود إلى تمجيد دور الجيش الأمريكى فى الحربين العالميتين الأولى والثانية، والإعلاء من شأن ذلك الدور فى تحرير العالم من رق النازية الألمانية والعسكرية اليابانية.

فضلا عن أن مقتضيات الحرب الباردة، واحتمالات تحولها فى أى وقت إلى حرب ساخنة نووية، أوجبت عليها أن تمتنع عن كشف عورات العسكرية الأمريكية إلى حين انتهاء تلك الحرب، بشكل أو بآخر، ويا حبذا بالانتصار.

التحول لماذا؟

هكذا ظل الحال إلى أن لقى الرئيس جون كيندى مصرعه فى دالاس بولاية تكساس (١٩٦٣) وتورطت أداة الحرب الأمريكية الجبارة فى أوحال وأدغال فيتنام.

فكلاهما أحدث تحولا عظيما فى القلوب والعقول، كان له أثره، ولا شك، على ما تنتجه هوليوود من أفلام.

ولأن ستانلى كوبريك كان دوما مخرجا رائدا، فقد بادر إلى نقد المؤسسة العسكرية بفيلم من نوع الملهاة السوداء اسماه «الدكتور سترينج لاف» (ترجمته حب غريب) أو «كيف تعلمت أن أتوقف عن القلق وأحب القنبلة» (١٩٦٤).

والمقصود بتلك القنبلة المحبوبة، القنبلة الذرية.

ومحبوها، فى الفيلم، نفر من



مارلون براندو جنرال أمريكي مجنون في «نهاية العالم اليوم»

جنرالات البنتاجون مصاب بهوس الفزع من خطر الشيوعية، وبلزوم استعمال القنبلة، حماية للعالم الحر من شرها.

ومع اقتراب الفيلم من نهايته، تلقي القنبلة الذرية، دون علم الرئيس الأمريكي، على الاتحاد السوفيتي، وذلك بموجب أمر صادر من جنرال ملتاث، يعيش هاجس الخوف على نقائه العنصري وقواه الجنسية من مؤامرات الشيوعية الدولية.

وعلى كل، فبفضل هذا الفيلم الحدث انفتح الطريق أمام كوكبة من المخرجين، ارتأت من الحق عليها أن تقف لمن يسعون إلى اضعاف الديمقراطية، بعسكرة المجتمع الأمريكي، تقف لهم بالمرصاد.

ومن بين مخرجي تلك الكوكبة أذكر على سبيل التمثيل فرانسيس فورد كوبولا صاحب «نهاية العالم الآن»، عن حرب فيتنام، وكيرينس مالك صاحب «الخط الأحمر الرفيع» عن حرب الباسيفيك ضد اليابان.

الفيلم النبوءة

وادوارد زفيك صاحب «حصار».

وعند الفيلم الأخير أطيل الوقوف بعض الشيء، لا لأنه الأفضل، وإنما لأن صاحبه تنبأ قبل ثلاثة أعوام، بما يحدث، هذه الأيام، في الولايات المتحدة، وبخاصة نيويورك، وذلك بعد تدمير البرجين التوأم، وانعدام الشعور بالأمن والأمان.



و«حصار» يبدأ - وقبل العناوين - بالرئيس السابق «بيل كلينتون» على شاشة التلفاز، وهو يلقي خطابا ، متوعدا فيه بالعقاب مرتكبي عملية إرهابية في الجزيرة العربية، راح ضحيتها نفر من الجنود الأمريكيين.

وبعد لقطة سريعة لما أحدثته تلك العملية من دمار، ولقطة أخرى لدمار سابق لحق مبنى مكتب المباحث الاتحادية بأوكلاهوما.

بعد ذلك نسمع صوتا موجبا الاتهام عن جرم ارتكاب العملية الإرهابية في الجزيرة العربية إلى الشيخ أحمد بن طلال، الذي سرعان ما نشاهده داخل سيارة مرسيدس فارهة ، منطلقة وسط صحراء، لا نعرف أين .

الاختطاف

وما هي إلا بضع لقطات ، حتى يعترض طريق سيارته قطيع من الأغنام، وحتى يجرى اختطافه وتفجير السيارة بقصد ايهام أتباعه أنه مات بسبب ذلك التفجير.

والآن ، وقد اختطف، نراه في مكان ما جالسا يسبح بحمد الله.

وأمامه رجل فارع الطول، عريض المنكبين، يظهر في اللقطة لبضع ثوان، وهو واقف يدقق النظر في الشيخ الأسير.

وذلك الرجل ، يؤدى دوره النجم «بروس ويليس» سيتضح لنا، فيما بعد، أنه يشغل مركزا مرموقا في الجيش الأمريكي، وصاحب العقل المدبر لعملية الاختطاف.

وفجأة تنتقل الكاميرا بنا إلى وجه مؤذن يدعو إلى الصلاة.

ومنه إلى مصلين، يؤدون الفرض خاشعين فإذا ما غادرت الكاميرا المكان اكتشفنا أن الصلاة في مسجد بحي بروكلين المواجه لجزيرة مانهاتان، حيث ناطحات السحاب .

وشيئا فشيئا تتجه الكاميرا بنا إلى مبنى بتلك الجزيرة، حيث يعمل انطوني هوبارد - يؤدي دوره النجم الأسود دنزل واشنطن - رئيسا لوحدة محاربة الإرهاب.

صدام الأجهزة

وما أن نتعرف عليه، وعلى طبيعة عمله، حتى يقع أول حادث إرهابي في نيويورك.

وتتكرر الحوادث الإرهابية، وتتصاعد وفي كل مرة يطالب مرتكبوها بالافراج عن الشيخ أحمد بن طلال.

ومع تكرار الحوادث وتصاعدها



الجيش يحتل نيويورك

نكتشف أن المخابرات المركزية في واد، والمباحث الاتحادية في واد آخر، وأن الجنرال المختطف للشيخ في واد ثالث. وأن لا أحد من رجال أو نساء المخابرات والمباحث يعرف من أمر الاختطاف شيئاً.

وعندما يفجر الإرهابيون أحد مسارح برودواي الكبرى، ويموت رواده بالمئات.

هنا يتحرك الجيش، فتعلن حالة الطوارىء وتجوب المصفحات شوارع مانهاتان، ويقود الجنرال، واسمه «ويليم ديفرو»، حملة الاعتقالات التي تطول كل العرب والمسلمين.

ولن أحكي كيف قامت المظاهرات مطالبة بالافراج عن المعتقلين، وعودة الحريات، خاصة بعد القضاء على خلايا الإرهابيين.

ولا كيف انتهى الأمر بالجنرال المتآمر على الديمقراطية، من منطلق عنصري بغيض، انتهى به مقبوضا عليه، تمهيدا لمحاكمته عن جرائمه أمام القضاء.

فذاك شيء يطول، وإنما اكتفي بأن أقول بأن هذا الختام السعيد مفتعل أشد افتعال.

وربما لو كان الختام فاجعا لما عاش المسئولون عن الحفاظ على الأمن مخدوعين بسراب الزمان الجميل، ولما حدثت مأساة الثلاثاء!! ■

صدام الحضارات

نبوءة فاسدة تحقق نفسها !

بقلم

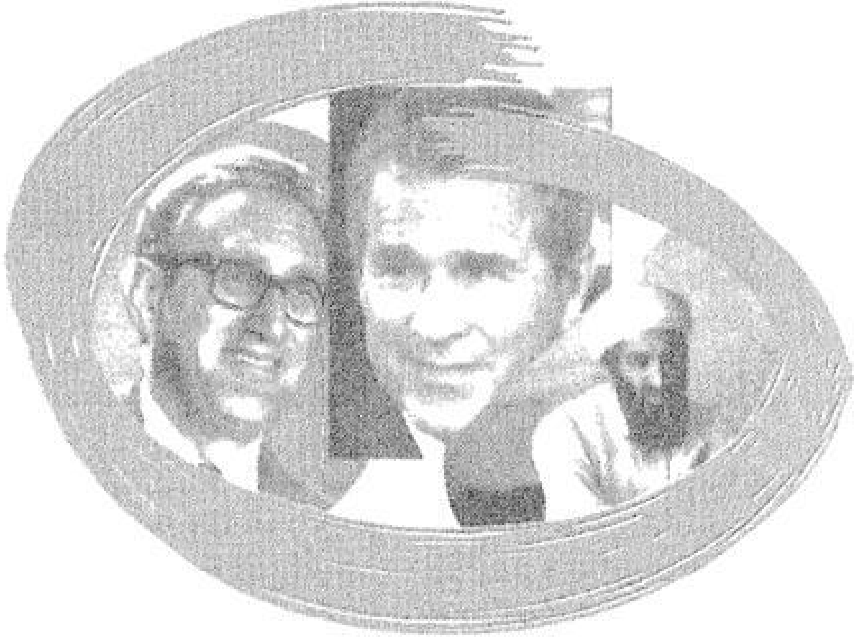
د. صلاح قنصوه



٧٠

الهلال

شعبان ١٤٢٢هـ - نوفمبر ٢٠





صامويل هنتنجتون

لا يبلغ بى الغرور حد الادعاء بأننى أفهم في السياسة، أو الزعم بقدرتى على التحليل، وربط المقدمات بالنتائج. ولعل ما حملنى على «الاعتراف» بهذا العجز هو ما يشبه ما يتعرض له المتهم في أقسام الشرطة، فيما ينقله محرر الحوادث عن محاضرها، في عبارة موجزة موحية: «وبمواجهته، أى المتهم، انهار واعترف»!

فلابد أن كثيرين غيرى يشاركوننى فيما يعانونه من «تعذيب» يصدر عن تمزق نفسى بين الشعور، بالتشفى من جهة، وبالاحساس بالتوجس من جهة أخرى من جراء النتائج التى لابد أن تترتب على ما يحدث اليوم في العالم.

فثمة ما يتناوبنى من عاطفة أو انفعال بدائى، ومن ادراك عقلى يتنازعانى حينما أطالع أو أشاهد ما يجرى لحظة بلحظة، فهذه «مواجهة» تدفعنى دفعا الى الاعتراف بالقصور.

١ - كتابة التاريخ وصدام الحضارات

لقد تعودنا كمواطنين بسطاء أن نؤمن بأن التاريخ فى مسيرته يحقق ما يسميه الناقد «توماس رايمر» بالعدالة الشعرية، أى الفنية، التى تعنى عقاب الشر وثواب الخير فى نهاية الأمر، أو على الأقل، يحقق التاريخ ما نعلق به على الأحداث قائلين: يسلط الله أبدانا على أبدان!

غير أن التاريخ شىء، وتدوينه شىء آخر. وقد جرت العادة أن يسجل وكأنه حكاية أو دراما لها حبكتها ومسارها وأبطالها ونهايتها. إلا أن التاريخ الفعلى شبكة أو ركام متناثر من التفاصيل والوقائع المتعددة. أما كتابته، فتختار ناظما أو محورا يضم تلك الحوادث فى إئتلاف أو نسق معين هو الذى يحدد الدلالة أو التفسيرات التى يفضلها المؤرخ. فتجرى إعادة بناء الوقائع والملابسات، فتقسم إلى جوهر، وإلى أعراض تدور من حوله. ويلتقط المؤرخ من بين تلك الوقائع والشخصيات والحوادث ما يصلح فى نظره جوهرا أو نواة أو بنية اساسية. ويعاد صياغة غيرها من الوقائع بوصفها أعراضا أو مظاهر أو نتائج. وعلى هذا النحو يتعامل المؤرخون مع الحوادث كما لو كانت برادة حديد لا تستعيد انتظامها الا فى دائرة المجال المغناطيسى باستخدام قضيب ممغنط هو الذى يصبح لديهم المحور الرئيسى لما يحدث. وتتباين مؤلفات المؤرخين بتباين ذلك المحور المختار الذى يزعمون أنه الحقيقة الموضوعية التى فرضت نفسها عليهم فرضا.

ولقد استيقظنا على أحداث الحادى عشر من سبتمبر الماضى التى تعد لحظات حادة وفارقة وقعت فى أمريكا، إلا أنها تدفع البشر فى غير ذلك المكان الى المراجعة وتغيير المواقف. وهنا أصاب الخلل مسارات التاريخ الذى ألفنا التعامل معه كحكاية سبق تحديد أدوار أبطالها. وعندئذ لابد أن تتعارض أساليب الفهم لما جرى، وتتخاصم طرق الاستجابة لها.

بل أن الأحداث ما تلبث أن تتداعى وتتضاعف مع اتساع الذبذبات المنطلقة من بؤرتها. وفى ظل تلك الوقائع المتتابعة السريعة المباغتة، لا يمكن لأى إدعاء مسرف أن يزعم قدرته على التنبؤ بما ستنتهى إليه.

وأحسب أن أقصى ما يمكن ان نؤديه هو التسجيل الموضوعى، والتصنيف المدقق لفئات اللاعبين على

الساحة الراهنة، والتفسير المتواضع ، ولا أقول الصحيح أو الدقيق، لما يجري.

وقد فرضت «نظرية صدام الحضارات» نفسها علينا فرضا لا مفر من مواجهته ومناقشته ولا أقصد هنا مناقشة محتواها العلمي، أو اجراءاتها المنهجية، بل بوصفها «كيانا» أو شيئا ، أو شعارا متداولا ينكر الغربيون استخدامه ويتبرأون منه، بينما يستعمله الطرف الآخر المسمى الآن بالارهابيين بوصفه ، أي «صدام الحضارات» واقعا فعليا. وبعبارة أخرى ، يمكن القول بأن الفكرة تغدو واقعا موضوعيا بقدر عدد من يعتقدونها حتى إذا أعوزها المنطق والبرهان. ويفيض التاريخ بالعديد من الأمثلة التي سفك فيها البشر دماء بعضهم البعض نتيجة الاعتقاد بصحة آراء معينة، فعندنا على سبيل المثال، جماعات الارهاب الديني التي اعتقدت أن الحكومة كافرة، والمجتمع بأسره خارج على شريعة الإسلام ولايزال يحيا في الجاهلية. فاستطاعوا باعتقادهم ذاك تخريب الاقتصاد في فترة معينة، كما يصنع رفاقهم في الجزائر اليوم. ولم يكن الاقتصاد وحده مجالا لتأثيرهم ، فلايزال إخوتهم في الإسلام في مصر يؤثرون، بلا حدود منظورة، في التشريعات ، والحسابات السياسية للحكومة وسائر الأحزاب، وكذلك في المحاكم والمدارس والجامعات ، فضلا عن وسائل الإعلام ومؤسسات الثقافة وأنواع الفنون.

وقد كان لنظرية صدام الحضارات إغراء وسطوة أدت إلى ما يسميه «ارنست ناجل» بالتنبؤ المحقق لنفسه. فهذا النوع من التنبؤ ليس علميا ولا موضوعيا لأنه حين يصاغ ويعلن يتألف من تنبؤات لا تصدق فعلا على الوقائع القائمة حينذاك ، ولكنه «يصير» صادقا بسبب الأفعال التي يتخذها الناس كنتيجة تلزم عن «الاعتقاد» بصحة ذلك التنبؤ الكاذب. ويضرب لذلك مثلا: فمع ان «بنك الولايات المتحدة» وهو بنك خاص رغم اسمه ، لم يكن في ضائقة مالية جديدة عام ١٩٢٨، إلا أن الكثيرين من أصحاب الودائع «ظنوا» أنه يعاني ضائقة لا مخرج منها، وقد يفلس سريعا. وقد أدى ذلك الاعتقاد إلى سحبهم لودائعهم مما دفع البنك إلى الافلاس في الواقع.

ولكن نظرية صدام الحضارات على هذا المستوى البسيط لحالة البنك المذكور، بل هي أشد تعقيدا.

فلم يكن «هنتنجتون» ليحلم منذ خمس سنوات أن يحدث ما سبق أن ساهم سياسيا في التخطيط له بهذه

السرعة القياسية. فقد كان يهدف إلى صرف الانتباه عما يجرى فى الواقع العالمى عقب انتهاء الحرب الباردة ليتسنى تحريك الأطراف المختلفة بكفاءة واقتدار لخدمة المصالح الأمريكية البعيدة والمختلفة عن مصالح أوسع فئات الجماهير فى الشرق والغرب على السواء. فكان الكتاب كله تذكيرا ملحا على واجب المواطنين فى التشبث بالخصومة بين البشر، حتى يفرغ أصحاب المصالح لإدارة شئون العالم.

ولأن «هنتنجتون» مخطط استراتيجى أمنى «لإعادة صنع النظام العالمى»، وهو العنوان الفرعى لكتابه، فقد التقط من الأصوليين الإسلاميين طرف الخيط، وقام بتمثيل دور التلميذ المقتنع بتعاليمهم، وطبق دعاواهم بمهارة محترف سياسى، ومفكر «براجماتى» لا يعنيه من الفكرة صدقها الموضوعى، واتساقها الداخلى، بل ما تثمره الفكرة من نتائج عملية نافعة للمصالح الرأسمالية الأمريكية. وهى فكرة قدمها له الأصوليون منا على طبق من الفضة، أو أثمن من ذلك كثيرا.

وعندما أصدر مقاله الشهير فى مجلة «فورن آفيرز» قبل أن يتورم فى كتابه المعروف، أثنى عليه «كسينجر»، مهندس السياسة الخارجية، ومنفذها قائلا: إنه أفضل ما صدر منذ مقال «جورج كينان» عن نظرية الاحتواء فى المجلة نفسها عام ١٩٤٧.

ولقد أعد «كينان» نظريته تلك لتكون وصفة ناجعة لتصنيع الحرب الباردة وإدارتها باحتواء الخطر السوفييتى، الذى خرج منتصرا من الحرب، وذلك بخلق قوة مناوئة للتصدى له على امتداد العالم بأسره. وظلت تلك النظرية عماد السياسة الخارجية الأمريكية حتى انهيار الاتحاد السوفييتى. فجاء صاحبنا بصدام الحضارات خلفا للاحتواء. وقد ذكر بصراحة يحسد عليها فى مقاله عن تآكل «المصالح القوية الأمريكية» الذى أعقب نشر كتابه، ذكر أن السلعة الأولى التى كانت تروجها السياسة الأمريكية هى الحماية من الاتحاد السوفييتى وقد اختفت هذه السلعة. وكان لابد اذن من تصنيع سلعة اخرى بديلة، وهى فى نظره إيجاد أو صنع عدو، حتى يحين الوقت، كما يقول «لتجديد هوية أمريكا القومية التى من أجلها عقد الأمريكيون العزم على بذل حياتهم وثرواتهم وشرفهم القومى»!

إذن فصدام الحضارات فكرة أو

دعوة لتعبئة العدد الأكبر من جماهير الدول الأمريكية والأوروبية، وإثارة حماسهم فى الانخراط فى حروب كولونيالية جديدة بنفس الشعارات والمبررات التى استخدمت فى الحروب الصليبية فى العصور الوسطى. ولايهم أن يكون التهديد واقعيا، بل يكفى إثارة الشعور به لدى الغربيين. كما أن هذه الفكرة مضمونة فى تغذية الأصولية الإسلامية، والتأكيد على صحتها لتكون ذريعة مقبولة للصدام معها، ذلك الصدام الذى يعرف مؤلفنا نتيجته المظفرة سلفا.

ولا ريب ان هذه الفكرة مؤكدة المفعول فى تشجيع الأصوليين على تطوعهم وجهادهم فى ضرب اقتصاد بلادهم، أو اضعافه فى وجه المنافسة الغربية.

٢ - استحداث العدو واستدراجه:

ولنتأمل ذلك العدو المصنع أو المخلق. فهل هى محض مصادفة، أن يتم حشد هؤلاء الأصوليين الإرهابيين بتمويل وتدريب أمريكى مباشر أو غير مباشر؟؟

بطبيعة الحال لا أقصد قط أنهم عملاء، ولكنهم، لسوء طالعنا، استغلوا كأدوات دون وعى، لخدمة أهداف لا علاقة لها بهم أو بأوطانهم. ولم يكن من العسير سوقهم إلى انجاز تلك الأهداف لأنهم لم يتدربوا على النظر أمامهم لاكتشاف المستقبل. والتقدم نحوه، بل هم، بحكم التعريف، يتطلعون الى الخلف يشرى عصرهم الذهبى المفقود فى الماضى البعيد. ولأن الماضى لا نحياه، وليس مجسدا أمامنا، فإنهم يتخيلونه ويصطنعونه بحسب قدراتهم العقلية الضيقة، وتصوراتهم المتطرفة.

وعندما انفصلوا عن رعاتهم الأولين وانقلبوا عليهم، لأنهم بشر وليسوا أدوات، كان من المتوقع أن يقفوا فى صف مصالح شعوبهم ضد الحماة السابقين، بيد أنهم، دون وعى أو قصد، منحوا أعداءنا أثمن الخدمات، وأمدوهم بالذرائع الكفيلة بإعادة احتلال بعض بلادنا، بطريقة أو بأخرى.

ولقد قال «هنتنجتون» فى مقاله عن «تآكل المصالح القومية الأمريكية»: «إننا لسنا فى حاجة الى القوة، بل فى حاجة إلى أهداف لاستخدام تلك القوى». ولقد أهداه الإرهابيون أهدافه المطلوبة بسخاء وحماس.

وربما ينبغى أن نميز فى هذا الصدد بين أمرين: الاستراتيجية السياسية، وهى عادة لا تعلن ولا يصرّح بها. وهى التى تحدد الأهداف والخطط لتنفيذها، وبين الخطاب السياسى التعبوى، وهو خطاب يعلنه

القادة ورجال السياسة ببلاغة وانفعال.

فهذا الخطاب يستمد عناصره من معجم الأخلاق والدين والعرق «أى الجنس» وغيرها من عناصر الثقافة غير المادية، ولا يصرح فيه بالاهداف والمصالح المادية الحقيقية، فهو وحده الذى يصلح لحشد الجماهير ودفع الشباب الى سلخانة الحرب.

فانظر معى، سيدى القارئ، الى خطاب «بوش» الذى يقول فيه بنبرة درامية مثيرة للعطف والمودة: لماذا يكرهوننا؟ ويجيب: لأنهم ضد ما لدينا من حرية وتعددية وديموقراطية، وأضاف فى خطاب تال لأنهم أعداء البراءة!

ومعنى هذا ببساطة أن الذين فجروا أنفسهم وهم يعتقدون أنهم شهداء، قتلوا أنفسهم فداء للنقيض ما ذكره بوش، أى فداء للعبودية، والبطش والطغيان، كما بذلوا دماءهم فداء لما هو عدو للبراءة. أى أنهم استشهدوا فى سبيل إعلاء كلمة الجريمة!!

والواقع أن الولايات المتحدة هى أكثر الدول استخداما للعنف والإرهاب خاصة فى تعاملها مع العالم الثالث سواء فى أقصى الغرب فى أمريكا اللاتينية، أو فى أقصى الشرق فى كوريا وفيتنام على سبيل المثال.

غير أن هذا العنف وذلك الارهاب يغلفان تغليفا جيدا تحت عنوان الدفاع عن الحرية والديمقراطية. وهى مهمة تؤديها جماعات الضغط «اللوبى» فى الكونجرس، ووسائل الإعلام، والأفلام على أفضل وجه.

أما على الطرف الآخر لدى الأصوليين. فإن خطابهم التعبوى يفضحهم ويؤذى شعوبنا لأنه لا يتحدث عن الحرية والعدالة والتسامح، بل يتحدث، كما يريد «هنتنجتون» عن «الاسلام» فعندما يتحدث عن تاريخ المسلمين، وأوضاع البلدان التى تسكنها أغلبية مسلمة، يستخدم لفظا واحدا هو الإسلام وكأنه كيان محدد فاعل. والأصوليون والارهابيون لا يميزون بين مقاصدهم ومصالحهم، وبين الإسلام، فهم الاسلام نفسه، وليته كان الاسلام الذى نعتنقه. بل هو ذلك النوع من الدين أو الجنس. الذى لا يعترف بدين أو ببشر غيره، وينزع عن المسيحيين صفتهم كأهل كتاب، فالعالم عندهم منقسم اما إلى مسلمين، أو كفرة مشركين. بل إن صفة المسلمين مقصورة عليهم وحدهم دون غيرهم ممن يطلق عليهم مسلمين.

فهذا نائب وزير خارجية طالبان

يقول: «ان بوش قد أعلن الحرب على المسلمين»، وذلك بعد ما صرح بوش بأنه لا يحارب المسلمين بل الارهابيين. ولم يكن ذلك المسئول الطالباني من الغفلة والافتراء بحيث يتقول على بوش ما لم يقله، فالجميع قد سمعوه أو شاهدوه، ولكنه كان صادقا مع نفسه، لأنه لا يعترف إلا بجماعته بوصفهم وحدهم المسلمين. فإذا قال بوش إنه يحاربهم، إذن فهو يحارب المسلمين، اما من يحسبون أنفسهم مسلمين، فقد أسماهم «المنافقين» وضمهم الى الكفرة المشركين في فريق واحد.

ووقف «بن لادن» متخذا سمت المسيح الجديد الغاضب المهدد، وأعلن الويل والثبور للكفرة في أمريكا وأرض الجزيرة العربية مقسما العالم الى فسطاطين، فسطاط الايمان، وفسطاط الكفر، ثم أضاف طلبه بطرد الكفر من أرض فلسطين، وكلنا تعلم أن السلاح والأموال والدماء قد تدفقت جميعا لنصرة المجاهدين في أفغانستان، ولم نسمع قط أن نصيبا ضئيلا قد بلغ المناضلين في فلسطين.. بينما عاود السلاح والمال تدفقهما على جماعة طالبان لقهر الفصائل الأخرى من المجاهدين الافغان المسلمين.

ثم خرج علينا المتحدث باسم تنظيم القاعدة «سليمان أبو غيث» متوعدا الكفار بعاصفة الطائرات تيمنا باسم عاصفة الصحراء الأمريكية. وقد أبدى عطفا شديدا على المسلمين الأمريكيين والبريطانيين بنصحهم بعدم سكنى العمارات العالية أو ركوب الطائرات . وهذا بذلك يصم هؤلاء المسلمين من المواطنين الأمريكيين والبريطانيين بالخيانة للبلاد التي يعيشون فيها بوصفهم أعداء للكفار. ولا أدرى أى منطق أو شرع يسوغ ما يترتب على ذلك من دعوة الأمريكيين والأوروبيين الى معاملة المسلمين هناك كأعداء وجواسيس!

وقد وقع بالفعل ما نخشاه، فأثيرت الفتن الطائفية ضد المسلمين، وربما أدى ذلك الذى اغراء بعض الغوغاء من المسلمين بالعدوان على غير المسلمين في منطقة الشرق الأوسط ، وبذلك تحقق لاسرائيل حلمها بتفكك الوطن العربي، وإقامة الدويلات الطائفية الضعيفة.

٣ - البراجماتية والصليبية

واذا كان «بوش» عندما وصف حملته ضد الارهاب بأنها حملة صليبية ، ثم عاد واعتذر عن الوصف. فإنه لم يكن يقصد المعنى القديم للكلمة، لأنها تعنى في التعبيرات الانجليزية المعتادة اى مشروع يتصف بالحماس المشبوب لعلاج مشكلة ما. ولكن الارهابيين الأصوليين جعلوها حربا صليبية بين الإسلام والمسيحية

وضمنوا بذلك تجنيد الغوغاء في صفوفهم، وتبرير قتل المدنيين والأبرياء لأنهم في نظرهم سواء في الغرب أو إسرائيل جيش العدو الاحتياطي.

وعلى هذا الوجه نسقط بأيدينا دعاوانا الانسانية والسياسية من اجل قضية فلسطين، لأن من حق اليهود حينئذ ان يقتلوا المسلمين طالما أعلن المسلمون الحرب عليهم وعلى غيرهم من اصحاب الديانات الأخرى. ويعني هذا أن نترك لمن يملك القوة فقط، أن يحسم المعركة لصالحه مع علمنا سلفا بنتيجة امثال تلك المعارك. ولم يترك لنا الارهابيون خيارا سوى الانتحار وقتل المدنيين حتى لو كان من بينهم مسلمون. ويبيح ذلك المبدأ الإرهابي قتل المسلمين في أوروبا وامريكا وغيرها من البلدان التي يكون فيها المسلمون أقلية ضعيفة وحينئذ لا يكون المسلمون مواطنين عاملين في أي مكان . بل يتحولون الى دمى تحركها النظرية البراجماتية الامريكية لصدام الحضارات التي تبناها الارهابيون.

ويجدر بنا ان نفصح عن معنى البراجماتية عند وليم جيمس خاصة لانها تمثل التيار الرئيسي للفكر السياسي الامريكي.

وقد أسلفنا ان الفكرة لا تكون صادقة بمضمونها بل بما تدره من نتائج عملية نافعة، وهذا هو ما يسميه جيمس بالقيمة الكاش (Cash) اي الفورية المباشرة. اما ما يتصل بالاعتقاد. فيسميها بالقيم العليا، ولايهم فيها نتيجة الفكرة المباشرة، بل بما يثمره الاعتقاد بصحتها . فقضية او فكرة الله موجود مثلا. لايهم جيمس اثبات صحتها أو كذبها. بل فائدة الاعتقاد بصحتها. ومن ثم فالمؤمن بصحتها اكثر اطمئنانا ممن لا يعتقد بصدقها. ومن هنا نرى ان الاعتقاد بصحة صدام الحضارات يدفع المؤمنين بها إلى أن يتطوعوا في خدمة المصالح الأمريكية. وقد حدث ذلك بالفعل.

ولكن ما مصدر العنف والارهاب محليا وعالميا؟

العنف هو الطريق الاقصر والمختصر لبلوغ الهدف أو الاستيلاء عليه، أو منع الخصم من بلوغه او تدميره.. وهو لايحدث الا في سياق حرم من فرص المشاركة الفعلية مع الاخرين والحوار معهم والتقرير المتبادل بينهم. فهو نوع من الدفاع الاخير للعاجز أو اليائس الذي لا يملك

سواه. وقد حوصر وظهره الى الحائط.

فاذا حرم المواطن من الاستعمال الحر الآمن لطاقاته العقلية التى تشغل جزءه الانسان الأعلى، تركزت طاقاته فى الجزء الحيوانى الأدنى. فلا يستعمل سوى المخلب والناب فى حل مشاكله. ورغم ان هذه الممارسات تدبر وتتم خفية دون اعلان فى اكثر الاحيان، الا انها تحظى برضا الغوغاء وهى الجماهير متى فقدت رأسها وعقلها.

وكلما اتسعت المسافة بين النظام أو السلطة ومعارضيه في بلد ما. تقلصت حدود التسامح والحرية. وكلما أدرك النظام. انه لا يتمتع بالموافقة عليه من الجميع، وأنه غير مستقر، انكمشت مساحة الديمقراطية والحوار الذى يرحب بالتعددية والمشاركة فى اتخاذ القرار. ومن ثم تقوم السلطة بطمس هذه المسافة او الفروق بين النظام والجماهير بحيث لايبدو سوى الاتفاق والاجماع بينهما. ومن هنا يصبح المعارضون حالات إجرامية يتعامل معها القانون الجنائى ومن قبله الشرطة.

وما يصلح لتفسير العنف والارهاب فى المستوى المحلى يصلح ايضا على المستوى العالمى على ان تمثل امريكا النظام او السلطة الجائرة. وتمثل شعوب العالم الثالث والمواطنين المغلوبين على أمرهم الذين يخرج الارهابيون من بينهم.

وكلا الطرفين اللذين انتزع بوش وبن لادن حق تمثيل جماهيرهما اليوم. يوجهان خطابيهما الى غوغاء كل طرف فيهما. وبذلك تتحقق نبوءة هنتنجتون فى قوله بأن صدام الحضارات نزاع بين القبائل، لأن الحضارات فى نظريته هى القبائل الكبرى للبشرية اليوم. ويسلم هذا التصور إلى أن الصراع بين البشر ليس صراعا حول المصالح التى تتغير وتتبدل، بل قتال وحشى بين «أنواع» من الحيوان فرقت الغريزة بينها مرة واحدة والى الابد، تلك الغريزة التى يشغل الدين محلها فى نظريته. فهذا مثلا انسان من النوع المسلم، وذاك إنسان من النوع المسيحي. وكلاهما عدو طبيعي للآخر!!

إن صدام الحضارات تلك النبوءة التى فى سبيلها الى التحقق، هو صدام «الحماقات» الذى يبدأ من حماقة استنتاج فاسد فى مجال العلم، ويشتعل بحماقة الارهابيين، وينتشر بحماقة السياسة الامريكية التى لاتدرى، على وجه اليقين ردود الافعال التى تجرنا إليها. ■

نوبل ٢٠٠١

نايبـول:
هل يهاجم الإسلام أم المسلمين؟

بقلم
محمـود قـاسـم

كـان لمجلة الهـلال، وروايات الهـلال، السـبق الملحـوظ فى متـابعة إبداع الحـاصلين على الجوائز الأدبية، خاصة بعد أن ينالوا الجوائز، ولكن الأمر اختلف بالنسبة للروائى الترينيدادى ف.س نايبول، حيث أن مانشرته مجلة الهلال فى أكتوبر ١٩٩٠، وما نشرته روايات الهلال «منعطف النهر» فى فبراير ١٩٩٢، يعكس أن الهلال قد تحدثت عن الكاتب والرواية وأنهما سيحصلان فى المستقبل القريب على الجائزة، وقد كان.

هل سرق الكاتب الترينيدادى ديرك والكوت جائزة نوبل من مواطنه ف.س.نايبول عام ١٩٩٢؟.

هذه هى الحـقـيـقـة. فـالكاتب الترينيدادى نايبول. المقيم فى انجلترا، هو الأكـثـر مـوهبـة. وعطاء، ويمثل برواياته، وكتبه المتعددة هذه الثقافة.

وعندما راحت الجائزة إلى والكوت كان هناك إحـسـاس أن الجـائزة أخطأت مـسـارها، وهى فى طريقـهـا إلى صاحبها.

وذلك باعتبار أن جائزة نوبل تمنح فى مرات محدودة إلى الثقافات البعيدة، ويتم اختيار كاتب يمثل هذه



«منعطف النهر»
روايات الهلال فبراير ١٩٩٢

٨١
الهلال
شعبان ١٤٢٢هـ - نوفمبر ٢٠٠١م



الكاتب الروائى
ف.س. نايبول



الثقافة بقوة مثلما حدث مع نجيب محفوظ فيما يخص الرواية العربية.

وكان الإحساس العام أن كاتبا من ترينداد لن يحصل على الجائزة نفسها قبل فترة طويلة، ولكن من الواضح أن مايشهده العالم الآن من أحداث شديدة الحرارة يعنى أن الحظ العاثر قد انقلب مرة أخرى، وجاءت النتيجة لصالح الكاتب.

فوسط نقاش محتدم عن الشرق، والإسلام.. ومنظور الغرب إليه، جاء نايبول ليمثل ثقافة المنطقة الساخنة، فقد كرس قلمه للبحث عن مفاهيم البسطاء في بقع عديدة من العالم رحل إليها الهنود والترينداديون.

اسمه الحقيقي فيدياضهاد سوراج برساد نايبول، ولد عام ١٩٣٢ فى جزيرة ترينداد التابعة لبحر الكاريبى، وهو ابن لأحد البراهمة النازحين من شمال الهند، وقد عاش فى بلاده حتى عام ١٩٥٠، فأراد أن يهرب من ذلك المجتمع «المغلق» - حسبما يرى - فهاجر إلى المملكة المتحدة ليستكمل دراسته الجامعية ووقتها قال «عندما وصلت إلى انجلترا شعرت أننى تخليت عن ملابسى، وأننى شخص قبيح، أسود، أخلو من أية محاسن، وليست لدى أى خلفيات، ولا أمتلك سوى الوحدة، وذكائى».

هجوم على الإسلام

ولاشك فى أن شخصا لديه مثل هذا الشعور لابد أن يكون لديه الاستعداد أن يتخلى عن كل قبحه الخارجى ليتسرب هذا القبح إلى داخله، هذا القبح تغلغل شيئا فشيئا فى داخله. يفعل مايحلو له يحرك سن القلم ليعبر عن رؤيته القبيحة تجاه هذا الشرق الذى جاء منه، وليرتدى الملابس التى يرى هؤلاء الذين ذهب إليهم أن يرتديها، والفكر الذى يجتذبه، فهم الذين سيصنعونه، ويبرزونه، ويقدمونه بالصورة التى تناسبهم، وأيضا يمنحونه الخلود فى الوقت المناسب بحصوله على جائزة نوبل.

فى عام ١٩٥٤ بدأ فى كتابة الرواية، وعندما أراد أن يفعل ذلك كتب باللغة الانجليزية التي قدم بها كل أعماله، حيث نشر له حتى الآن أكثر من عشرين كتابا منها أربع عشرة رواية، وعدة كتب انتقد فى بعضها سلوك المسلمين فى العالم المعاصر،

وذكر الكثير من المغالطات التى تستلزم من علماء وفقهاء الإسلام أن يقوموا بالرد عليه، ودحضه.. من هذه الكتب «بين المؤمنين»، و«غروب الإسلام»، و«يوميات اسلامية»، و«مابعد الإيمان، رحلة إسلامية إلى الدول المؤمنة»، وهى رحلة قام بها الكاتب إلى أربع دول اسلامية فى آسيا، وهى الباكستان، وأندونيسيا، وإيران، وماليزيا. كما نشر كتابا حول رجل عجوز يقوم بزيارة مصر بعنوان «سيرك فى الأقصر».

الجدير بالذكر أن الكاتب لم يشر إلى مسألة القائد فى رواياته العديدة وكان الهم الأساسى أكثر أهمية لديه، ومن هذه الروايات: «عامل التدليك المتصوف» عام ١٩٥٧، و«شارع ميجيل» عام ١٩٥٩، و«منزل السيد بيسواس» عام ١٩٦٦، و«المحاربون» عام ١٩٧٥، و«فى منعطف النهر» عام ١٩٧٧، وهى الرواية الوحيدة المنشورة له باللغة العربية فى سلسلة روايات الهلال، فى فبراير عام ١٩٩٢. وله أيضا رواية منشورة فى التسعينات بعنوان «الهند، ألف ثائر وثائر».

تقول مجلة «بانوراما» الايطالية فى عددها الصادر فى ٧ ديسمبر عام ١٩٨١ أن نايبول رجل بلا جذور، وأنه رغم أصله الهندى، إلا أنه متعلق بالغرب، أما مجلة «الاكسبريس» الفرنسية»، فتقول فى ١٦ سبتمبر ١٩٨٣، إنه صحفى رحال أكثر منه أديبا، أما مجلة «تايم» الأمريكية، فترى أنه الروائى الأول وتحاول أن تشبهه بالكاتب البحار جوزيف كونراد، وقد خصصت مجلة نيوزويك ملفا مهما عنه فى ١٩٨١/٨/١٨، وظهرت صورته على غلاف المجلة كأنه واحد من نجوم السينما.

فى الفترة بين أغسطس عام ١٩٧٩ إلى فبراير ١٩٨٠، قام نايبول بجولة فى بعض البلاد الإسلامية شملت كل من الدول المسلمة المشار إليها، هذه الرحلة التى استغرقت ستة أشهر كان هدفها الأول هو التعريف بالمسلمين الذين لايتكلمون اللغة العربية فى آسيا، وذلك عقب الثورة الإسلامية فى إيران، أنها أول ثورة دينية فى العصر الحديث ومنذ فترة طويلة من الزمن لم تقم ثورة دينية بمثل هذه المواصفات، مما سبب انزعاجا للغرب الذى نصب العداء ضد الثورة، وكان مطلوباً من الكاتب أن يقدم رؤيا للغرب عن المسلمين.

اجترار الذكريات

وكما نرى فإن الأمر نفسه يتكرر الآن، وفوز نايبول بالجائزة، يعنى أنه



فى وسط الظروف التى تم فيها الحديث عن المسلمين فى المنطقة نفسها بشكل خاص، وأن الإرهابيين الذين ارتكبوا تفجيرات الثلاثاء الأسود، هم من المسلمين الذين سكنوا المنطقة، ومن الواضح أن الكاتب لم يقم بالسفر إلى أفغانستان لأنها لم تكن قد دخلت دائرة الاهتمام بعد.

وقد عاد نايبول من هذه الرحلة ليقدم كتابا حول انطباعاته، وبدا كأنه يلقى نكتة وهو يقول: إن كتابه «غروب الإسلام» هو بالألوان الطبيعية، وأعلن أنه سوف يقدم هذه البلاد بالمنظور نفسه الذى تصور به السينما الأمريكية هذه البلاد، ياله من منطق.

والجديد أن الكاتب ظل يجتر الذكريات فى كتبه التالية ومن أشهرها «مابعد الإيمان» وهو الكاتب الذى كتب عنه أدوار سعيد قائلا: «لماذا يعود بعد عشرين عاما ليقدم كتابا ثانيا يضارع الأول فى الإطالة والإملال؟ السبب الوحيد الذى أجده أن لديه نظرة جديدة مهمة إلى الإسلام تتلخص فى أن الإسلام هو دين العرب، وأن كل مسلم غير عربى هو معتنق للدين».

يقول الكاتب إن آيات الله قد استقبلوه فى ايران كشخص غريب ليس منه أى خطر، أما الباكستانيون فقد استقبلوه كباكستانى،. وتقول مجلة الأكسبريس التى صورته على غلافها فى ٦ نوفمبر عام ١٩٨١، أن رجلا مثل نايبول يؤمن بالتقدم العلمى، والتقنيات، والتصنيع، والمعاصرة ماكان له أن يذهب إلى هذه البلاد لأنه سيعود ليكتب بنفس المنظور، وكأن كل من له نفس القناعات سيكتبون بنفس الرؤية.

كتاب على هوى الغرب

ويبدو أن الكاتب الذى قدمه نايبول جاء على هوى رجال الغرب فى عام ١٩٨٠ حين شهدت ايران اعدامات متتالية لخصوم الثورة، وبدأت الحرب العراقية الايرانية، فكانت الحملة عنيفة لإرضاء الغرور الأجنبى ضد المسلمين المتناحرين فيما بينهم، فهو يرى أن الإسلام هو الذى أمر أتباعه أن يفعلوا ذلك، وأن إيران تصدر نظامها الدموى إلى العالم الإسلامى وخاصة مصر.

وهذا ليس كتابا تحليليا عن الإسلام ولكنه رحلة فى بلاد اسلامية، يقوم بها رحالة يحكى مشاهداته،

ويرى أن المسلمين ليست لديهم قدرة على التطور لسبب بسيط أن تعاليمهم لاتسمح لهم بذلك، وهو كما نرى رأى أشبه بتصريحات بيرلسكوني عن الإسلام في الشهر الماضي.

والكاتب يتحدث عن الأماكن التي زارها، والأشخاص الذين قابلهم، وهو لايرحل إلى هذه البلاد في رحلة سياحية عادية، بل هي رحلة دينية ضد الإسلام، يتخذ له في كل بلد من هذه البلاد دليلاً هو، في أغلب الأحيان ناقم على ما يحدث أمامه ويصور له الأشياء بمنظوره.

ويرى الكاتب في حديث له إلى مجلة نيوزويك في ٨ أغسطس ١٩٨٠ أن المسلمين قوم عنصريون متخلفون ليس لهم وجود فكري أساسي، وأن المسلمين لم يكتسبوا الفكر الصحيح إلا باتصالهم بالغرب، ومثل هذه الأقاويل وغيرها موجودة في الأحاديث الصحفية التي تجري معه في المجلات التي وصلتنا، والغريب أن المثقفين لدينا لم يقرأوا الكاتب رغم شهرته.

ولا يكن الكاتب مثل هذه المشاعر فقط تجاه المسلمين، بل تجاه العالم الثالث الذي جاء منه، وهو كما يقال رجل فقد حاسة الشعور بالحنين إلى جذوره، فقد أشهر كافة أسلحة الهجوم على العالم الثالث في كتابه «عودة ايفا بيرون»، وأيضا في رواياته مثل «في منعطف النهر» و«أخبرني من أقتل».

تصوير لتخلف العالم الثالث

والروايات التي كتبها ليست بها حدة الانتقاد، لكنها محاولة لوصف البسطاء في هذا العالم، فروايته «في منعطف النهر» يرى أن أفريقيا قارة تعج بالقلاقل السياسية والاجتماعية، سالم الراوية يعيش في جنوب أفريقيا، من أصل هندي، وهو رجل متشائم، يسكن في الساحل الشرقي الأفريقي منذ سنوات، ويقيم في المنطقة نفسها هندوس، وبرتغاليون، ومن الصعب فيه تحديد الهوية الأفريقية، والديانة الرئيسية فيه هي البوذية بالطبع، وعندما يقرر الرحيل عن البلد، لأن الأمور لم تعد كسابق عهدها، تكون الوجهة هي المدينة.

وهناك يقابل أحد عبيده القدامى الذي يطلب الإيواء وأن يعود إلى حمايته، رغم أن سالم ليس بالرجل الثري، لذا فإنه يقوم بتسليم عبده السابق إلى صديق له يدعى فرديناند.

ولايشير نايبول إلى اسم البلد الأفريقي، الذي يتحدث عنه، لكنه أقرب إلى زائير، ويقول نايبول: إن الناس في هذه البلاد لايتغيرون بسهولة، يعيشون النمط نفسه من الحياة،



ولايعرفون الثورة أو التمرد. وسالم هذا ليس من أصل أفـــريقي، ولا علاقة له بالقارة السوداء، إنه رجل يعشق الحضارة الغربية، وهو مزيج من عدة حضارات، فهو يبيح لنفسه زوجة صديقه، ويرى الكاتب أن مثل هذه الأمـور مألوفة بكثرة في هذه البلاد.

يقول الراوية في الفصل التاسع من الرواية : «بدأت أدرك في الوقت نفسه أن احساسي بالهم لأني رجل منساق مع التيار، وبلا جذور هو إحســـاس زائف، ولم يكن حلمي بالنسبة لي بالوطن والأمان ليس أكثر من حلم للعزلة يتسم بالخطأ في التاريخ والغباء والضعف الزائد، أنني انتمي إلى نفسي فحسب ولن اسلم رجولتي لأحد.

«وبالنسبة لواحد مثلي فإن هناك حضارة واحدة ومكانا واحدا مثل لندن أو مكانا يشبهها، أي أن مكاناً آخر كان خداعا للعقل، الوطن من أجل ماذا؟ هل هو من أجل أن أنحني أمام رجالنا العظماء؟ أم للاختباء، وبالنسبة لأناس في مثل وضعنا، أناس اقتيدوا للعبودية، فإن هذه أكبر خــدعــة على الإطلاق، نحن لانملك شيئا، بل نعزي أنفسنا بمجرد الفكرة الخاصة بالرجال العظماء لقبيلتنا أمثال غاندي ونهرو، ولكننا نخفي أنفسنا أي نقــول «خـذ رجـولتي واستثمرها لي، أو خذ رجولتي وأصبح رجلا عظيما من أجلي. لا أريد أن أكون رجلا بنفسي».

هل هناك كلمات تلخص حياة كاتب وفكره، وهمه العام أكثر مما جاء في هذه الفقرة؟

رواية واحدة مكررة

وفي رواية «المحاربون» فإن هناك شخصا مشابها هو جيمي أحمد، إنه زعيم هندي ينحدر من أصل صيني، عـاش سنوات عديدة في المملكة المتحدة، إنه صورة حية لزعيم هندي عرفه الكاتب يدعى ميشيل عبدالملك، الذي تم شنقه بعد أن قتل امرأته البيضاء عام ١٩٧٥ في ترينداد، مسقط رأس الكاتب، لقد فعل ذلك تبعا للعادات الاجتماعية في بلاده رغم أنه تعلم لسنوات في الغرب، ولم يحدد نايبول، ايضا، المكان في هذه الرواية كعادته، يرحل إلى بلد هو أقرب إلى جامايكا، حيث ينغمس وسط الفقراء ويدير مؤسسة زراعية، شعارها «العودة إلى الأرض» .. لكن السكان

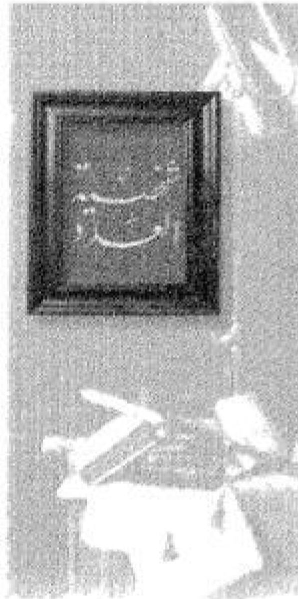
يرفضون استمرار الجمعية، ولأنه مشدود الى النموذج الغربي يقابل بيتر روش، أو فرديناند في الرواية السابقة، الصحفي الانجليزي وعشيقته جين التي يستبيحها لنفسه أيضا كرجل غربي الفكر دون أن يحس بالندم، ولايقوم الكاتب بالقاء أي لوم عليه.

ومن الواضح أن الكاتب قد ألف في حياته رواية واحدة راح يقلب في أحداثها ويكررها، وأشخاصها من رواية الى أخرى، مثلما تجدد الأمر في روايته «أخبريني من أقتل» فقد رحلت الشخصية التي تتبعناها عن منطقة الكاريبي الى لندن، برفقة أخيه سانترس - الرواية - وبعد رحلة انجلترا يسافر بمفرده إلى الولايات المتحدة، وهناك ينام فوق الأرصفة ويكرر نفس المعاناة التي يعانيها الزنوج في البلاد، يظل الأمريكيون بالنسبة له مخلوقات غير حقيقية، أنهم أناس غائصون في التليفزيون، وقد صاروا قطعة منه، يتزوج من امرأة زنجية، وعليه أن يفكر مثل الزنوج، لذا فإنه يشارك في مظاهرات السود عام ١٩٦٨، ويشارك في إحراق العديد من المنازل التي يمتلكها البيض، إنه رجل، كما يدعى نايبول، يبحث عن حريته، ولكن ماهي الحرية في هذا المجتمع الأمريكي؟

بلا شك يصبح للحرية معنى مرنا عند كاتب له مثل هذه التجارب، وأبطاله هم كائنات مستنسخة منه، والبطل القادم من الشرق، في هذه الروايات يتسم دائما بالدونية والضياع، وهو يسعى دائما إلى الهجرة من بلاده مثلما فعل نايبول، يبحث عن مأوى خارج الوطن الذي لم يضق به صدره، لكن البلاد التي يذهب إليها لا تتقبله بسهولة، حتى لو حصل على جائزة نوبل، حيث قيل: إن نايبول هو الكاتب البريطاني الترينيدادي الأصل.

ومن الواضح أننا أمام كاتب متمرد، لم يضع هويته تحت قبعة بعينها، ولم ينتقد المسلمين وحدهم لأنهم لم يستطيعوا التأقلم مع الحضارات المعاصرة، فهو كلام مشابه للرحالة المعاصرين الذين انبهروا بمنجزات الغرب، ومنهم الطهطاوي، والشيخ محمد عبده، لكن الكاتب انتقد الهندوس، والبيض العنصريين في الولايات المتحدة، وأيضا هويات عديدة.

ومن يقرأ ابداع المؤلف سيكتشف أنه يكتب كل هذه التناقضات بما لايعكس وجهة نظره بل آراء الكثيرين ممن التقي بهم في الحياة. ■



في ذكرى رحيل العميد

حياة طه حسين في الأزهر

بقلم
د. محمد الدسوقى

لا يسع الدارس المنصف لحياة عميد الأدب العربى فى العصر الحاضر إلا أن يقر أن هذه الحياة كانت سلسلة من المواقف المناهضة لوأد الحرية الفكرية والسياسية والاجتماعية، وأن العميد خاض فى سبيل انتصار هذه الحرية معارك كثيرة، وتعرض من أجل هذا لضروب شتى من الأذى والاعنات فما زادته إلا إصرارا على مواقفه، واستمساكا بما كان ينادى به ويدعو إليه.



ولا يسمح المجال بتفصيل القول، ومن ثم اجتزىء بعض المواقف وبخاصة ما كان منها فى حياة العميد الدراسية الباكرة، أو فى ايام الطلب بالأزهر.

فى مستهل القرن الميلادى العشرين، وعلى وجه التحديد فى العام الثانى منه التحق طه حسين بالأزهر طالبا به بعد أن حفظ القرآن الكريم وبعض المتون فى القرية، وكان أول درس سمعه فى حلقات مسجد الامام الحسين يتعلق بموضوع الطلاق. وكان الذى يلقيه هو الشيخ محمد بخيت المطيعى، وكانت أول عبارة قالها الشيخ فى درسه وسمعها الطالب منه هى: ولو قال الزوج لزوجته: أنت طلاق، أو أنت طلام، أو أنت طلال وقع الطلاق ولا عبرة بتغيير اللفظ، ولم يستسغ الطالب طه حسين ما سمع، وشعر بشىء من الضيق والنفور، لأن ما ألقاه شيخه ليس هو العلم الذى تهفو إليه عقليته، أو يقنع به طموحه، أو يأنس إليه تفكيره، وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن طه حسين منذ بداية حياته الدراسية بالأزهر كان يمقت الجمود والتقليد، ويحترم عقله كل الاحترام.

خروجه من الأزهر

ولم يفكر الطالب النجيب مع هذا فى أن ينصرف عن دروس الأزهر والاختلاف إلى حلقات العلم فيه، بيد أن مرور الأيام زاده ضيقا ونفورا من



ذلك المنهج الذي ألفه الشيوخ، ودرجوا عليه في دروسهم، لأنه منهج يقوم على الحفظ أكثر مما يقوم على الفهم، ويردد آراء السابقين وكأنها نصوص مقدسة لا تناقش ولا تعارض، وما أبغض هذا وذاك لدى طه حسين.

وكان لابد أن تحدث لهذا الطالب الذي يحترم عقله ويجهر برأيه في شجاعة مع هؤلاء الشيوخ الذين عاشوا في دائرة مغلقة من التفكير أحداث مختلفة تحملهم في النهاية على طرده من الأزهر، فمثلهم لن يفسح صدره للرأي الصريح والعقلية الذكية التي تؤمن بالحرية الفكرية، ولاسيما إذا كان صاحبها في مرحلة الدراسة.

فمما جرى له مع هؤلاء الشيوخ أنه كان يقرأ مع زميليه أحمد حسن الزيات ومحمود زناتي في كتاب الكامل للمبرد. فلما بلغوا الى ما جاء في هذا الكتاب من ان الفقهاء كفروا الحجاج، لأنه قال حين رأى المسلمين يطوفون بقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنبره، انما يطوفون برمة وأعواد.

وعلق العميد على رأي الفقهاء في تكفير الحجاج بأن هذا بما قاله قد أساء الأدب ولكنه لا يعد كافرا.

ونقل تعليق العميد في عبارة مشوهة الناقمون من الطلاب على الزملاء الثلاثة إلى شيخ الأزهر حسونة النواوي فأمر بطردهم كما أمر الشيخ سيد المرصفي أستاذ الأدب العربي الذي كان يدرس الكامل بعدم تدريس هذا الكتاب.

حياته سلسلة من المواقف المناهضة لوأد الحرية الفكرية والسياسية والاجتماعية.

لما حدث هذا كتب طه حسين مقالا يهاجم فيه الشيخ حسونة هجوما عنيفا، ويذهب به إلى لطفي السيد لنشره في الجريدة، ويقول لطفي للفتى: هل تريد شتم الشيخ حسونة او العودة إلى الأزهر؟ ويرد الفتى: لا مصلحة لي في شتم الشيخ حسونة، وهنا يضع أستاذ الجيل مقال الفتى في مكتبه ويسعى لدى شيخ الأزهر للعفو عن الطلاب الثلاثة والسماح لهم بحضور حلقات الدروس في الأزهر، ويصرح الشيخ حسونة للطفي السيد بأنه لم يطرد هؤلاء الطلاب، وإنما أراد تخويفهم فحسب.

هجوم علي المشايخ

وفي ذكرى مرور عام على إنشاء مدرسة الدعوة والإرشاد التي كان يرأسها الشيخ رشيد رضا أقيم حفل في فندق «سافوي» حضره عدد من شيوخ الأزهر وعلى رأسهم الشيخ الأكبر سليم

البشرى. وفى هذا الحفل دارت كؤوس الخمر على الحاضرين . وبالطبع لم يشرب شيوخ الأزهر. بيد أنهم ما كان لهم ان يشاركوا فى حفل ترتكب فيه المنكرات والمحرمات فإن فى هذا شبهة اعتراف بمشروعية تلك المنكرات . ولهذا هاجم طه حسين هؤلاء الشيوخ هجوما عنيفا، وهجاهم هجاء لاذعا فى قصيدة نشرت في جريدة الحزب الوطني استبليا بقوله:

رعا الله المشايخ اذ توافوا
إلى سافوى من يوم الخميس

وقد احفظ هذا الهجوم والهجاء الشيوخ وبخاصة شيخ الأزهر ، ودبر هذا فى نفسه امراً، وأسر الى بعض خاصته بما عزم عليه، وعرف الشيخ المرصفى بما يريده الشيخ الاكبر، وكان يقدر الطالب النجيب. لما يلمسه فيه من ارهاصات تبشر بمستقبل مشرق، فذهب إلى تلميذه فى بيته وقال له: انصحك يا بني ألا تدخل الامتحان هذا العام ، وسأل الفتى فى دهشة لماذا؟ وقال أستاذه فى ألم يشوبه الغضب: إنهم عازمون على اسقاطك. وعرف الفتى الدافع الذى حمل شيوخه على التخطيط لاسقاطه. بيد أنه لم يستجب لنصيحة شيخه الذى يقدره تقديرا خاصا من بين شيوخ الأزهر. فهو أستاذ الادب الذى شرح لهم الكامل شرحا مستفيضا، والفتى النجيب كان مغرما بهذا الكتاب الذى قرأه عدة مرات:

ويحدثنى عميد الأدب العربي - رحمه الله - قائلا:

لم يزعجنى ما عرفته لانى ذاكرت دروسى مذاكرة جيدة، والممت بها إلماما وافيا ، والذى حدث ان اللجنة التى كان مقررا ان أمتحن امامها كان يرأسها الشيخ عبدالحكم، ولما أوحى إليه الشيخ البشرى بما يريد جاء رد الشيخ عبدالحكم وإذا كان مذاكر فكيف يرسب؟

ويأمر الشيخ الأكبر بإلغاء لجنة الشيخ عبدالحكم، وضاع على هذا الشيخ بسبب موقفه النبيل وحكمه العادل وجبة غداء ونحو ثلاثين قرشا. وهذا كل مكافأة رئاسة اللجنة.

لجنة تأتمر بأمر الشيخ

وتتألف لجنة أخرى يرأسها الشيخ الدسوقى العربى تأتمر بأمر الشيخ البشرى وتستجيب لما يراه، ويدخل الطالب حجرة اللجنة رابط الجاش واثقا بنفسه، ويجلس أمام اللجنة ليقدم له

● منهجه العلمى الاستقلال فى الفهم والحكم والنفور من الجمود والتقليد.



رشيد رضا



رئيسها بقية كوب من الشاى كان يحتسيه قائلا له: اشرب هذا لتحصل لك البركة. ويشرب الطالب سؤر شيخه، وحصلت له البركة فرسب فى الامتحان.

لقد امتحنت اللجنة الطالب فى مادة أصول الفقه، وأجاب الطالب إجابة وافية، ويدلف إلى حجرة الامتحان الشيخ البشرى ليقول الى رئيس اللجنة: ارفق به يا شيخ دسوقى حرام عليك، ورفق الشيخ بالطالب رفقا عجيبا. وذلك ان الطالب بعد ان انتهى من امتحان مادة الأصول طلب منه ان يستريح بعض الوقت فى حجرة مجاورة، ويخرج الطالب ليجد شيخ الأزهر جالسا أمام حجرة الامتحان ليتأكد من أن اللجنة حققت ما طلبه منها.

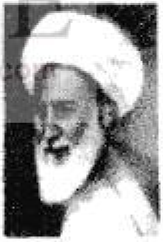
وبعد أن جلس الطالب برهة قصيرة فى تلك الحجرة فوجىء بمن يدخل عليه يحمل معه حافظة أوراقه وكتبه، ومعنى هذا أن الطالب قد رسب فيما امتحن فيه ولن يواصل الامتحان في سائر العلوم.

ويحمل الطالب أوراقه غير آسف ولا حزين ليسرع إلى الجامعة الأهلية التى التحق بها منذ انشائها فى سنة ١٩٠٨م وأكب على دروسه فى هذه الجامعة ليصبح اول خريج يحصل على شهادة الدكتوراه منها، ثم توفده بعد ذلك إلى فرنسا لينهل من علوم الغرب كما نهل من علوم الشرق. وفى فترة وجيزة يحصل على اعلى الدرجات الجامعية الممتازة.

وتمر الايام ويصبح طه حسين حديث الناس بما دبج من مقالات وألف من كتب وجهر بالحق ونادى بالحرية، ودعا الى اشتراكية التعليم وضرورته للإنسان كالماء والهواء، ويسعى الأزهر إلى العميد، ليعرض عليه منحه درجة العالمية، ولكن العميد يرفض عرض الأزهر، معللا رفضه بقوله لا أحب ان يفعل الأزهر معى مثل ما فعل مع الأستاذ على عبدالرازق، فقد منحه الأزهر العالمية، ثم حكم بأخذها منه، لأنه جهر برأى أغضب الملك فؤاد، ثم عاد فمنحه الدرجة مرة أخرى.

وبعد فهذا طرف من مواقف العميد الأديب العبقرى يعبر فى جلاء عن شجاعته فى الحق وانتصاره للحرية الفكرية، وإخلاصه فى طلب العلم، وجنوحه منذ حياته العلمية الباكرة إلى الاستقلال فى الفهم والحكم، والنفور من الجمود والتقليد، رحمه الله وجزاه كفاء ما قدم خير الجزاء. ■

○ كان شجاعا فى الحق مخلصا فى طلب العلم منتصرا لحرية التعبير


سليم البشرى

سيد القمة

شعر
سليم الرافعي
طرابلس - لبنان

سيد القمة .. هل من نسب ... يرتقي بالسفح حتى يثبا ؟
سيد القمة .. هل من وتَرٍ ... في ثرى الوادي يهز المنكبا ؟
انه الصمت احتوى أسطورة ... واشتهت أسطورة أن تغضبا
عالم في الغيب .. من ألبسه ... في صدى الهمس مناجاة الصبا ؟
تجتلي الأعين من أطيافه ... ملكوت الأمس يزهو موكبا
أهو الملْك الذي غاب .. فمن ... أيقظ الملك الذي قد غُيِّبا ؟
أمم تحلم بالمجد .. مشت ... في البوادي وأطلت بالرُّبا
وعلى الآفاق - والليل سجاً ... شفق يوشك أن يلتهبا
يا شعاعات الضحا مغلولة ... في السماوات تشق الغيهبا
سائل يسأل عن فجر .. متى ... يأنس الفجر بنا مقتربا ؟
في دم الشرق نبوّات سرت ... صفق الغرب لها واضطربا
قبس الحكمة منها والنهى ... وبنى العرش لها والقببا
شوّه الشرق نداء عاصف ... بالنبوات ادعاها كذبا
نحن بالروح علونا .. والهدى ... من إخاء صاغ منا مذهبا
نحن للبشرى وللحب سقى ... تهرنا العالم لما عذُبا
قالت الآيات : كونوا رحمة ... قالت الآيات : كونوا كوكبا
قصة الحب ومعشوقاته ... هذه الأرواح .. فيما كتبا
إنما الشرق من النور ومن ... جحد النور نأمى .. واغتربا
لم يزل فينا رسول قائل ... أيها الربا .. تقبل طيبا
أيها الرب .. رجونا غمرة ... سيد القمة من قد وهبا ..



٩٤

الهلال

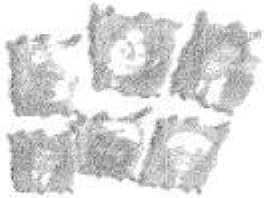
شعبان ١٤٢٢هـ – نوفمبر ٢٠٠١م

التماثيل المكسورة

بقلم
د. محمد رجب البيومى

تقع في يدك مذكرة جامعية فى التاريخ مثلا ، فتجد مع ركاكة الأسلوب ، وضعف التناول معلومات مخطئة واتهامات لرءوس كبيرة أدت دورها القيادى فى التزام ، وتبحث عن المؤلف فتجده مدرسا ناشئا لم يدرس موضوعه على وجهه الصحيح ، وتتساءل فى غيظ : ألا ينتمى هذا المدرس الناشئ إلى قسم يضم الأساتذة ، وله رئيس يقرأ وينقد ، فلا تجد الجواب ، والمذكرات الجامعية عمل غير شرعى فى أصله . لأن الطالب الجامعى غير الطالب بالثانوية ، فهو يشارك فى إعداد المادة أو المفروض منهجا أن يشارك فى إعداد المادة وعلى الأستاذ أن يدله على المراجع ليعرف أطراف موضوعه. ولما كانت قراءة المراجع مما يصعب ويعسر، جاء كتاب الأستاذ بديلا عنها، فكان فى عهده الأول مصدرا موثوقا به، ونال تقدير القارئين خارج الجامعة، بحيث قرأه ذوو الثقافة معجبين ، ثم انحدر الزمن بأصحابه حتى أصبح الكتاب مذكرة تكتب للكسب المادى أولا ، ولا يهم ذوى الأمر بالجامعة أخطأ المؤلف أم أصاب !

- الصغار يرجمون الكبار
- دفاع عن الأفغاني وعبده والمراغي



ومدرسو اليوم يعتمدون على الصحف أكثر مما يعتمدون على المصادر الدقيقة وقد دأبت الصحف منذ قامت الثورة على انتقاص رجل العهد البائد كما وصفوه ! وتوالى الهتافون يرضون سادتهم ليكونوا من أهل الثقة ، ومن أهم مظاهر الرضا أن ينقصوا أعلام الأمة دون حياء ! وقد كنت أظن قادة الثورة بمنأى عن التوجيه المغرض ، حتى قرأت أن الأستاذ كامل الشناوى كتب فى ذكرياته بجريدة الجمهورية مقالا تحدث فيه عن السياسى النابه الأستاذ حفنى محمود وموقف شقيقه رئيس الوزراء الأسبق محمد محمود من مقالبه ، وهو حديث باسم مرفه، لم يمس أحدا من أبطال العهد بشئ، ولكن الرئيس عبدالناصر ، الرئيس عبدالناصر نفسه !! استدعى الأستاذ كامل الشناوى ليوبخه بشدة ، مستنكرا حديثه ، قائلا له : تحدث يا هذا عن هموم الفلاح ومصائب الإقطاع !! وخرج كامل الشناوى فى حاجة إلى من يسحبه إذ لم يكد يبصر من فرط ما نزل به ! وقد علم المأجورون هذا الهوى الماكر لدى الضباط الأحرار ! فشنوا الحرب على الأبرياء ! وانتقل الأمر إلى الجامعات ، فأخذ المنافقون يبحثون عمن يروق للعهد أن يحطمه فاتخذوه مجال الذبح والتشهير ! وقل ماشئت فيما قيل عن سعد ، وأعلام السياسة والقلم من الحزبيين ، فكلهم خائن وصولى ! وعد هذا التشهير الدنئ إضافة جديدة للبحث العلمى ينال بها الباحث أعلى الدرجات ! وهكذا أصبح انتقاص الفضلاء عملا مشروعا ، بل عملا وطنيا محيدا يرجى ثوابه ، وتنتظر جدواه!

التاريخ المحايد النزيه

كنت وأنا طالب بالقسم الثانوى فى الأربعينات بالمعهد الدينى مشتركا فى مجلة الثقافة ، فجعلت أقرأ سلسلة مقالات متتابعة عن زعماء الإصلاح للدكتور أحمد أمين ، فأجد نمطا من التاريخ المحايد النزيه يقدمه الباحث فى جلاء مشرق ، وقد أشرب حب من يتحدث عنهم ، لا لمأرب ذاتى فقد ذهبوا جميعا إلى رحمة الله ، ولكن لأنهم يستحقون الحب والتقدير، ومع هذا الاعتزاز البالغ قد كان أحمد أمين يقف أمام لحظات الضعف فى حياتهم ، فيتحدث عنها بأمانة ، وقد يجد من أسباب التبرير ما يقدمه للقارئ مقتنعا به بعد فحص متئد ! ومن هنا كان النمط المبدع الذى اختطه أحمد أمين فى دراساته البصيرة التى جمعت فى كتاب طبع عدة مرات ! كان هذا النمط بمثابة مصباح منير للناشئة من أمثالى ، وأذكر أنى احتذيته فيما كتبت عن أعلام النهضة الإسلامية فى موسوعة ضافية بلغت للآن خمسة مجلدات . وذكرت ذلك فى مقدمة الكتاب ! وقد وقر لدى أن منهج أحمد أمين هو الأمثل ، فهو هادئ الطبع ، مخلص الرأى ، قريب التناول ، وأذكر أن كاتبا جامعيا انتقص الإمام محمد عبده انتقاصا مؤلما ، إذ تتبع من مواقفه ما

يمكن أن يكون موضع الخلاف فنسى ما قدمه من بطولات علمية وسياسية وخلقية ، وأخذ يطيل القول فى علاقته الأخيرة بكرومر ، وقد رجعت إلى ما كتب أحمد أمين – فضلا عما كتب الأستاذ عباس العقاد – فرأيت الباحث على تقديرى إياه قد نظر بعين واحدة لا بعينيه الاثنتين فلم ير غير الوجه الشاحب ، وكنت أقول في نفسي ألم يقرأ هذا الرجل الفضال ما كتب أحمد أمين وعباس العقاد وعثمان أمين ، ولا أقول ما كتب محمد رشيد رضا ومصطفى عبدالرازق ومحمد مصطفى المراغى إذ هم حواريوه المخلصون ! لابد أنه قرأ ، ولكنه تغافل !

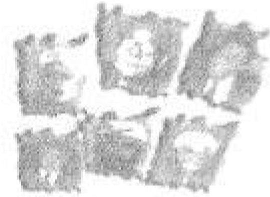
لقد تعلمت – صغيرا – من منهج أحمد أمين أن النقد لا يمنع التقدير ، وأن لحظات الضعف فى حياة الإنسان لابد منها لمن لم يرزق الكمال المطلق لأنه بشر، وأخذت أومن بضرورة النقد المنهجى بروح الحيدة ، إذ هو الأجدى والأقوم ، غير أنى رأيت الأستاذ العقاد يسير خطوة أخرى مع بعض من اختار الحديث عنهم من عظماء الإسلام ، هذه الخطوة هى خطوة التأييد المطلق لأعمال هذا العظيم ، وقد تحدث عن ذلك فى مقدمة (عبقرية عمر) فقال :

«إن الناس قد تعودوا ممن يسمونهم بالكتاب المنصفين أن يحبذوا وينقدوا ، وأن يفرقوا بين الثناء والملام وأن يسترسلوا في الحسنات بقدر ، لينقلبوا عن كل حسنة ، إلى عيب يكافئها ، ويشفعوا كل فضيلة بنقيصة تعادلها ، فإن لم يفعلوا ذلك فهم إذن مظنة المغالاة والإعجاب المتحيز ، وهم إذن أقل من الكتاب المنصفين الذين يمدحون ويقدحون ، ولا يعجبون إلا وهم متحفزون للملام .

عرض لى هذا الخاطر فذكرت قصة العامل الذى تحاكم إلى قاضيه مع بعض السوقة فى عقار يختلفان على ملكه ، فحكم القاضى للسوقة بغير العدل ليغنم سمعة العدل فى محاسبة الملوك ، وعزله الحاكم لأنه ظلم وهو يبتغى الرياء بظلمه ، فكان أعدل عادل حين بدا كأنه يحرص على مال مغصوب ، وقد أنصف وهو مستهدف لتهمة الظلم ، وقاضيه قد ظلم وهو يتراءى بالإنصاف ، قلت لنفسى إن كنت قد أفدت شيئا من مصاحبة عمر بن الخطاب ، فلا يحرجنك أن تزكى عملا له كلما رأيته أهلا للتزكية ، وإن زعم زاعم أنها المغالاة ، وأنه فرط الإعجاب» .

تكافؤ الأدلة

هذا كلام العقاد ذى النظرة المتشعبة التى تتسع لشتى الاحتمالات فى الموقف الواحد فيفصح عنها جميعا بما يملك من برهان ، وقد عرف أن العظيم من عمالقة التاريخ لا يهوى بقدره أن تختلف معه فى أمر ، وقد يكون للعقاد موضع للخلاف ولكنه يقدر الوجهة المقابلة فينتهى إلى ما يقول عنه علماء الكلام (تكافؤ الأدلة) فلا ترجيح ، وإذا كان هذا أمر العقاد ، فما بالك بمن يخط أول كتاب ألفه ، فيجعل نفسه أستاذا لمن يتحدث عنه ، والعجيب أن كل ما يسوقه فى انتقاصه البارد معروف تحدث عنه الكاتبون ، وأوضحوا احتمال الخطأ والصواب فيه ، فليت شعرى لم حرص أن يجعل هذه الهنات



سببا في حملة فاشلة يصبح فيها بطلا يجول في غير ميدان ! إن الولوع بانتقاص العظماء من الحقراء أمر لا تستعصي معرفة دواعيه ، ففي بعض النفوس بغض لكل سام رزقه الله إحدى الفضائل ، التي يستحيل أن تكون له ، وإذ ذاك تكون هذه الفضيلة داء ينغز في صدره ، فينفس عنه ببعض ما يظنه تجريحا للرجل الكبير ، ولعل هذا ما عناه البحتري حين قال :

وكأنما شرف العظيم إذا انتمى
جرم جناه على الوضيع الأصغر

لقد تهجم المتهجمون على جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد مصطفى المراغي من أئمة الدين ، فقال قائلهم عن جمال : إنه ماسوني وعن محمد عبده أنه صديق كرومر وعن المراغي إنه كان بالسودان حليف الإنجليز ، ولو رجع هؤلاء إلى الفصول التي كتبها أحمد أمين عن جمال الدين ومحمد عبده لرأوا حقيقة الأمر فيما قيل ، فقد ظن الأفغاني أن الماسونية كما تدعى بلسان دعاتها جماعة إصلاح تنادي بالحرية والإخاء والمساواة بين أفراد الجنس البشرى ، فلما خالط القوم وعرف أن الأعضاء يحرمون الكلام في السياسة ثارت ثائرته ، وهاجمهم متحدثاً وخطيبا ، وفضح من مكنوناتهم ما استتر ! وقال كلمته المشهورة : «إذا كانت الماسونية لا تدك صروح الظلم والعتو والجور فلا حملت يد الأحرار مطرقة ولا قامت لبنايتهم زاوية» ! فأى هجوم أبلغ من هذا وأصرح !

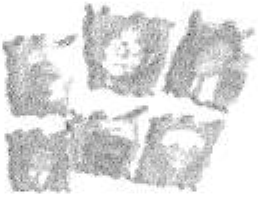
كما أن محمد عبده أراد أن يصلح الأزهر فعارضه الخديو وخاصمه وسلط عليه المنتفعين من الصيد في الماء العكر ، فافتروا عليه الأراجيف ، ورأى كرومر يرحب بالإصلاح الديني مادام بعيدا عن المنحى السياسي ، فانتهزها فرصة ليضع قانون الإصلاح الأزهري ، وحاول الخديو إقالته من الافتاء ، فتمسك به كرومر ، والسؤال الذي يجب أن نقف عنده، هل أيد محمد عبده كرومر في سياسته الباغية ، هل اعترف بحق انجلترا في حكم البلاد ؟ وإذا كانت الإجابة بالنفي فأى شئ ينكر المنكرون ؟

أما ما قيل عن صداقة الإمام المراغي للإنجليز بالسودان ، فهى أكذوبة بلقاء ، فالمراغي كان قاضي القضاة بالسودان ، وقد أصر على ألا يتقدمه الحاكم الإنجليزي في موقف ما ، فتحاشى الحاكم مجابهته ، وحين قامت الثورة المصرية ١٩١٩ دعا المراغي أعيان السودانيين للتبرع لمصابي الثورة من الشهداء ، وأرسل كتبه بذلك لقضاة الشرع في الأقاليم ، وحاول الحاكم الانجليزي منع الرجل ، وقال له في حدة : أنا رئيسك ، فانتفض المراغي صائحا ، أنا رئيس مثلك تماما ، وأنا معين بأمر ملكي ، كما عينت ، وأنهى الحوار ، ولم تصلح شفاعة الشافعين في رأب الصدع بحال !

التهجم الكاذب

هذا بعض ما يدفع تهجم هؤلاء ! ولو أمكنت الفرصة لتحدثت عما قيل عن

غيرهم من الكبراء افتراء وجهلا ، ولكنى انتقل إلى نوع آخر من التهجم الكاذب يحيق بمؤلفات رائعة ، أخذت مكانها الساحق فى المكتبة الإسلامية حتى أصبحت إحدى مفاخر العصر عن يقين ، ولكن الذين يحاولون التأليف فى موضوع هذه الكتب رأوا نورها ساطعا يخطف الأبصار ، فتهجموا عليها تهجم من يخزى نفسه بما يقول ، دون أن يدرى سقطته الشنعاء ، لقد ألف الدكتور محمد حسين هيكل فى أوائل الثلاثينات كتاب (حياة محمد) فصادف دويا رنانا تجاوب صداه فى آفاق العالم العربى بأجمعه لأن منهج الكاتب فى التفكير الجاد واكب منحاه فى التعبير الأدبى الصافى ، ووراء ذلك عاطفة جياشة تفيض بالإخلاص ، وتنفح بالحب ، وقد ألف الناس من قبل أسلوبا سرديا غير هذا الأسلوب فى كتابة السيرة ، فلما ذاع الكتاب كان فاتحة اتجاه جديد فى تأريخ حياة النبى ، وقد شفى صدور قوم مؤمنين ، واحتفى به الإمام الأكبر محمد مصطفى المراغى احتفاء ظهر فى المقدمة الرائعة التى صدر بها الكتاب ، وهى مقدمة لم تسق مساق التنويه قدر ما سيقت للكشف عما اهتدى إليه المؤلف من اتجاه حميد فى الحديث عن نبيه الكريم ، هذا الكتاب الخالد - الخالد حقا - وجد ممن دفعهم طموحهم إلى كتابة السيرة اعتراضا مصدره القصور والغيرة معا ، وقد تجرأ أحدهم فكتب فى مقدمة مؤلف له عن السيرة «إن مؤلف الكتاب منبهر بالحضارة الأوربية ، وأنه خضع خضوعا منكسرا وراء الحضارة الأوربية ، وتحت لواء ما زعموه من العلم الحديث» والناقد هنا يريد أن يقرر أن مسلك الدكتور هيكل مغاير للمنهج الإسلامى ، مع أن الدكتور هيكل قد اعترف أن هذه طريقة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأساس دعوته ، وقد عقب الإمام المراغى على ذلك بقوله «أما أن هذه طريقة القرآن فذلك حق لاريب فيه ، فقد جعل العقل حقا وبرهانا ، وأما أن هذه هى الطريقة الحديثة فهذا ما يعتذر عنه لأنها طريقة القرآن ، وطريقة علماء المسلمين ، وقد جرى الإمام الغزالى على الطريقة نفسها ، وكرر فى أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء وفكر وقدر ليجافى التقليد، وليكون إيمانه المستيقن المعتمد على الدليل والبرهان !!» ، أيدرى القارئ ما قال الناقد بصدد ذلك مهاجما الدكتور هيكل والإمام المراغى والأستاذ محمد فريد وجدى ، إن هذه الطريقة تقتضى الإعراض عن الخبر الصادق الذى يثبت فى الكتاب والسنة !! أى فهم هذا ؟ بل أى تجن مقصود ؟ إن الدكتور هيكل تجافى الحديث عن المعجزات الحسية واكتفى بالحديث عن المعجزات العقلية ، لا لأنه ينكر هذه المعجزات ، إذ لم يقل ذلك ، ولكنه أراد أن يخاطب العقل الإنسانى لا العقل المسلم وحده ، فإذا كان غير المسلمين لا يؤمنون بالمعجزات فلينظروا إلى حياة الرسول ، وإلى ما نزل عليه من القرآن المتداول الذائع ، ففى ذلك ما يؤكد النبوة دون احتياج إلى ما قد ينكرون من معجزات لم يشاهدوها ، وبذلك أصبح الكتاب موضع اقتناع لدى



المتصفين من غير المسلمين ، بل إنه أضاف إلى الإسلام أرضا جديدة ، حين جعل أبناء الملل الأخرى يقرأون سيرة الرسول دون أن يجدوا بها مثارا للشك والتهوين ! هذا الكسب الكبير هو الذى شن عليه الناقد الجرئ حملته ! وأنا أقول لأمثاله ، أي جدوى فيما كتبتموه؟ لقد نقلتم الأحاديث والأحداث والرسائل، من الورق الأصفر فى المراجع القديمة إلى الورق الأبيض ! وذكرتم كل ما يعلمه الدارسون لأنهم قرأوا كل ما قرأتم . وما استطعتم أن تبلغوا مبلغ هيكل فى تأثيره ونفاذه بل ظللتم منه على بعد آلاف الأميال. وإذا كان الأستاذ محمد فريد وجدى قد سلك مسلك الدكتور هيكل فقد زاد عليه بما أبدع به في التحليل العلمي لمعاني النبوة والوحي والغيب بما لم يخطر لكم على بال ! فلماذا تحاولون انتقاصهما من يشرفكم كثيرا أن تجلسوا منهم مجالس التلاميذ

ثم يجئ مؤلف آخر فيعلن فى صدر ما سوده من صحائف السيرة المشتهرة لدى العام ، أن كتاب هيكل يمثل مرحلة زمنية فات أوانها ! أى مرحلة يا أخى ؟ وكتب التاريخ النبوى بعامة سجلات باقية منذ كتب ابن اسحق سيرته عن رسول الله ! أحقائق التاريخ النبوى من العلم التجريبى فى الطب والطبيعة والكيمياء حتى نقول إنها تمثل مرحلة طرأ عليها ما عصف بكثير من حقائقها ! هذا صد عن سبيل الحق ، وعاقبته وخيمة حين يكون قائله أستاذا فى كلية فإنه بذلك يصرف عقول الطلاب الأغرار عما يفيدهم، ويرمى بهم فى أظلم تضييق !

تجريح أعلام العصر

على أن الأمر فى انتقاص الفضلاء ليس مقصورا على الصغار والأوساط ، بل انتقل فى أحيان شتى إلى الكبار ، وعجيب أن ينتقص الكبير الكبير ، ولكن عجائب الدنيا تسمح بكل شاذ مرفوض ، فكثير من الذين يدونون مذكراتهم فى خريف العمر ، يلجأون إلى بطولات غير واقعية يرتفعون بها ، وهم فى الأصل مرتفعون لا ينقصهم شئ من العلاء ، وأضرب المثل ببعض ما قرأته في مذكرات الأستاذ الكبير محمد كرد على من أكبر علماء الشام ذيوعا ، وأغزرهم انتاجا ، وبعض ما ذكره الأستاذ الكبير الدكتور عبدالرحمن بدوى الأستاذ المرموق لعدة أجيال ، فهذان الفاضلان قد تركا لقلميهما العنان فى تجريح أعلام العصر ونابغيه وأقول التجريح عن قصد ، لأن نقد الكبار أمر طبيعى يتعاطاه الزملاء فى كل جيل ، أما التجريح ، دون مبرر غير التجريح حين لا يقدم الكاتب دليلا واحدا على صحة ما قال ، فهو البلاء المبين .

لقد هاجم الأستاذ محمد كرد على أعلام مصر من أمثال لطفي السيد ومحمد حسين هيكل والمازنى وأحمد أمين وأحمد حسن الزيات ومحمود شلتوت لأسباب مضحكة فندها الدكتور أحمد أمين فى

مقال ساخر قال في نهايته : «وآخر ما كنت آمله فيه أن يتحرى الصدق فيما يقول، ولكن خاب أملي في هذا أيضا ، فقد رأيته يذكر عني حادثتين أشهد بالله أنهما كاذبتان . كما يذكر كثيرا من الأحداث عن أشخاص متعددين في مصر والشام ، يكذبونها وينكرونها ، وأسوأ ما في هذا أنه يشكك القراء في كل ما صدر عنه من مؤلفات ، فمن يدري ؟ لعله استباح لنفسه من خلق الأحداث ما استباحه في الرواية عن الأحياء ، وبهذا لم يكن أساء لنفسه ولكنه أساء إلى المؤرخين جميعا» .

أما الأستاذ الدكتور عبدالرحمن بدوي فكلنا يعرف الضجة الكبيرة التي أثيرت حول سيرته الذاتية التي دونها وإن كنت أعجب لشئ فإنني أعجب لمن ثاروا على ما وجه للأستاذ من نقد ، وقالوا إنه غريب فارق وطنه ولقي الجحود فلماذا تثير الضجة حوله ؟ والسؤال الذي لا مفر من الاجابة عليه هو ما نقوله لهؤلاء - ألم يجرح الأستاذ نفرا من أعلام مصر فرماهم بالجهل والحسد والغباء وسوء التصرف، وفيهم من يرتقي في أخلاقه إلى الذروة كمنصور فهمي وأحمد أمين وعبدالوهاب عزام ؟ وقد كانوا عمداء لكلية الآداب فرأت في عهودهم النزاهة والاحتفاظ بالكرامة والاستقامة إذا مست الأعراف الجامعية بما يسئ ؟ فإذا هاجم الأستاذ هؤلاء الأطهار وهم في رضوان الله ساكتون لا ينطقون أفنقول لمن دافع عنهم لقد هاجمتم الرجل وهو غريب وقد ترك مصر ولاقي الجحود ؟ ألا يعرفون أن الساكت عن الحق شيطان أخرس .

وإذا كان الأستاذ أحمد أمين ذكر أن الأستاذ محمد كرد علي ذكر عنه حادثتين يشهد الله أنهما كاذبتان - فأنا أيضا أقرر أن ما ذكره الدكتور بدوي من أن أحمد أمين طلب أن يشترك معه في مؤلفاته مما لا يصدق ، لشئ واحد هو أن ما ذكره الدكتور أحمد أمين عن الثقافة الإسلامية يختلف إلى درجة التناقض أحيانا عما قرره الدكتور في كتبه التي ظهرت في حياة أحمد أمين ، فكيف يلتقي الرجلان في مؤلف ذي خطة معلومة متفق عليه ؟ قد يشترك أحمد أمين مع عبدالحميد العبادي في كتابة التاريخ الإسلامي وقد يشترك أحمد أمين مع عبدالوهاب خلاف في كتابة التشريع الإسلامي وقد يشترك أحمد أمين مع أحمد الزين في تحقيق العقد والامتاع والمؤانسة لأن المشرب متفق والهدف واضح أما أن يشترك الأستاذ فريد وجدي مع الأستاذ شبلي شميل في كتاب يتحدث عن عالم الغيب حديث المتوافقين المتساندين فهذا ما لا يعقل !

قارئي العزيز ، قد أكون غير مصيب في بعض ما قررت ، ولكن عذري فيما بيني وبينك أني صادق مع نفسي كل الصدق فما أردت ترجيح كفة على كفة ، وإذا وجد بعض الخطأ فهو العوج الذي قال عنه أبو العلاء المعري :

خذي رأيي وحسبك ذاك مني
على ما فيَّ من عوج وأمْتِ

■



رؤى فنية بالموزاييك

بقلم

د. صبرى منصور

تخلط النظرة الشائعة بين خامة الموزاييك كخامة إبداع فنى، وكوسيط للتعبير عن قيم جمالية وتشكيلية رفيعة، وبين خامة السيراميك كخامة حديثة تستغل فى تكسية الحوائط والأرضيات، وقد يجمعهما السطح اللامع البراق، وكذلك علاقتهما المرتبطة بالجدران، ولكن شتان ما بين استخدام ذى هدف جمالى وتعبيرى، وبين استخدام آخر غرضه مجرد التزيين والزخرفة..

وتضم خامة الموزاييك - التى يطلق عليها الفسيفساء باللغة العربية - مواداً طبيعية صلبة كالأحجار والرخام والحصى، ومواداً أخرى مصنعة كالموزاييك الخزفى والزجاجى، وهى تستخدم بعد تقطيعها وتقسيمها إلى قطع أو مكعبات صغيرة يتم صفها ورصها بجوار بعضها بطريقة معينة للحصول على الشكل الجمالى المطلوب، ونظراً لصلابة الخامة وقدرتها على الاحتفاظ ببهاء ونقاء ألوانها، ومقاومتها للعوامل الجوية المختلفة مما يسمح لها بالبقاء قروناً طويلة، فإنها أصبحت أصلح الخامات المناسبة للتصوير فوق المسطحات المعمارية الداخلية أو الخارجية. وقد ظهر استعمال الموزاييك فى زمن الإغريق واستمر خلال الحضارة اليونانية حيث استخدم فى تكسية الحوائط والأرضيات بمناظر طبيعية ومشاهد الصيد وتكوينات الطبيعة الصامتة، وجاء الازدهار الحقيقى لهذا الفن على أيدى الفنانين البيزنطيين

▶ منظر من الحسين - محمد نبوى

من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر الميلادي، فقد أتاحت لهم الحوائط الضخمة في الكنائس البيزنطية الفرصة لتنفيذ تصميمات متنوعة بالموزاييك جسدت مشاهد من الكتاب المقدس وحياة السيد المسيح والسيدة العذراء وقصص القديسين، وقد تم في تلك الفترة تخليق آلاف الدرجات اللونية، وإضافة اللونين الفضي والذهبي، كما ظهرت تقنيات جديدة في استخدام الخامة وتطويعها للتعبير عن الروح الجديدة التي سادت الفن البيزنطي من بساطة ورمزية.

المصريون وفن الموزاييك

ولم يعرف المصريون هذا الفن بالمعنى الدقيق للكلمة إلا منذ عقود قليلة وذلك بعد إنشاء أقسام حديثة لدراسة التصوير الجداري بكليات الفنون الجميلة، والمحاولات التي تمت قبل ذلك محاولات اتسمت ببساطة أسلوب التعامل مع الخامة الذي كان يدور في فلك الزخرفة والزينة، ومع مرور الوقت وتنوع التجارب وتراكم الخبرات بدأت تظهر محاولات جادة في التعامل مع خامة الموزاييك بحساسية فنية مرهفة استوعبت امكانيات الخامة اللا نهائية في التعبير عن رؤى فنية ذات مذاق من نوع خاص . تؤكده ما تتمتع به هذه الخامة من صفات تميزها عن وسائط التعبير الفنى الأخرى كالألوان الزيتية والمائية وألوان الباستيل. وهي على صعوبة التعامل معها - إذ أنها في النهاية ذات صفة حجرية صلبة - وكذلك تعدد مراحل تنفيذها التي تستلزم مجهوداً بدنيا كبيراً، إلاّ أن من يستهويه التعامل معها يجد في عذابها متعة، وفي النتيجة الفنية التي يحققها تعويض مناسب عما كابده من جهد وما عاناه من تعب ذهني وبدني..

أول معرض جماعي:

وفي معرض يقام لأول مرة في مصر لمجموعة من فناني الموزاييك افتتح في ٢٧ أكتوبر الماضي بقاعة الدبلوماسيين معرض لنخبة من الشباب الذين تخصصوا في فن التصوير الجداري، واستهوتهم خامة الموزاييك، فحاولوا في تجاربهم المعروضة استكشاف إمكانياتها التعبيرية والتعرف على أسرار تقنياتها، كما حاولوا من خلالها التعبير عن رؤاهم وخيالاتهم الفنية، وقد استطاعوا تحقيق قيم جمالية وتشكيلية مبتكرة في مجال



ظلام لا يدوم - شيماء نوفل

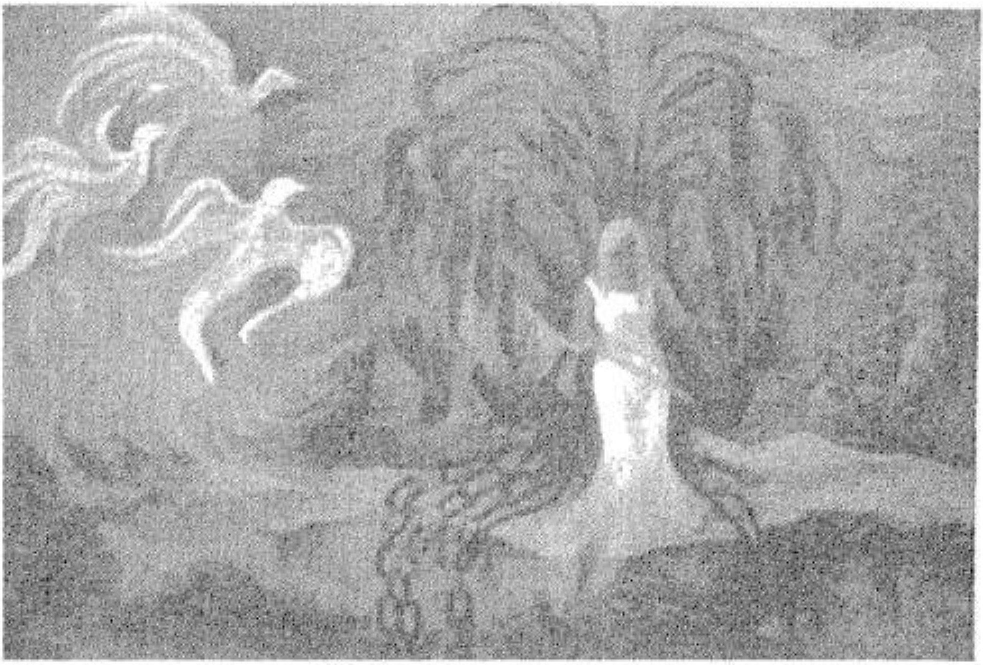


شئ من دفء الوطن - إيناس جاد الله

مازال حديث العهد فى الحركة الفنية التشكيلية..

فالفنانة إيمان حامد قد تناولت خامة الموزاييك فى أعمالها بأسلوب يميل إلى الاقتصاد فى التلوين والبساطة فى التحليل بما يتلاءم مع تصميماتها الفنية التى تتجه نحو الرمزية، وهى تؤكد من خلال وضع القطع المتراصة فى اتجاهات حلزونية حيوية التصميم وتضفى عليه مزيداً من الحركة التى تسعد عين المتلقى وهى تتجول فى أرجاء اللوحة وبين أشكالها..

وتميل الفنانة إيناس جاد الله إلى التناول غير التقليدى للخامة فى محاولة لاستحداث أسلوب خاص يعتمد على مزج خامة الموزاييك بخامات أخرى متنوعة كالرمل والقماش، وهى وإن كانت تميل إلى تجريد العناصر والأشكال، وتعمد إلى أسلوب مختلف فى تقطيع ورص قطع الموزاييك للحصول على قيم تشكيلية مبتكرة، إلا أن هناك مسحة تعبيرية تسيطر على أجواء اللوحات وتضيف إليها بعداً دراميا مؤثراً وتتضمن أعمال الفنانة رانيا شوقى مقدرة واضحة فى تجزئة مكعبات الموزاييك وفقاً لما يتطلبه تحليل الأشكال والعناصر، وهى تتحكم فى حجم



قيود - نرمين المصرى

القطع وتستطيع أن تجسد بها أدق الأشكال وأصغرها حجماً، كما أنها- ورغم الألوان المحدودة لخامة الموزاييك - قد استطاعت اظهار عناصر لوحاتها مع المحافظة على الانسجام اللونى العام.

مذاق فني شديد الخصوصية

وتعكس أعمال الفنانة رباب سالم أسلوباً مميزاً فى استخدام قطع الموزاييك التى تخلطها بخامات أخرى مثل الخرز الملون والقطع الصدفية، وهى عامة تميل فى أعمالها إلى التجريب ومحاولة التعرف على امكانيات الخامات حين تتجاور، وهى بذلك تقدم مزيجاً فريداً له مذاق فنى شديد الخصوصية..

وتستعرض الفنانة شيرين عادل فى لوحتها «الخلق والطوفان» امكانياتها الفنية فى تنفيذ تصميم مركب يمتلئ بالعديد من العناصر والكثير من الأشكال، وما يستدعيه ذلك التعدد من تنوع فى الدرجات اللونية، ودرجات الفاتح والغامق، ومع ذلك فقد حافظت الفنانة على التناغم اللونى حين سيطرت على اللوحة الدرجات البنية والتى خففت من حدة سخونتها بمساحات من اللون الأزرق الذى قامت بنثره فى مساحات متوازنة فى أرجاء العمل. ويقترب أسلوب الفنانة شيماء نوفل

في لوحتها المسماة «ظلام لا يدوم» من الأداء التصويري غير المنمق، فهي تنتقل من مناطق الظل إلى مناطق الضوء انتقالات قوية وجريئة، كما أنها تستخدم قطع الموزاييك بطريقة تماثل ضربات الفرشاة السريعة والمؤثرة، مما أضفى على لوحتها مسحة تعبيرية واضحة..

نموذج متميز وموهبة فريدة

وتعرض الفنانة مروة عزيز نموذجاً متميزاً يعكس موهبة فريدة في التعامل مع قطع الموزاييك بسهولة ويسر، فهي تنتقي درجاتها اللونية بعناية شديدة مقرونة بحساسية فائقة، وتجيد تطعيم وإثراء مساحات اللون الواحد باستخدام ألوان مصاحبة مناسبة، وهي سواء في لوحتها «أرض الأحلام» ذات الألوان الساخنة، أو في لوحتها «هي والقمر» التي تسيطر عليها الألوان الباردة قد أظهرت براعة في الانتقال بين الدرجات الكونية، كما أنها في نفس الوقت استطاعت بخامة الموزاييك الجامدة تجسيد عالم فني خيالي مغلف بسحر الغموض.

ويقدم الفنان محمد نبوى في لوحته «منظر من الحسين» أسلوباً مختلفاً، فهو يحاول اخضاع قطع الموزاييك في تجاورها بأسلوب يوحي للمشاهد بالأبعاد الواقعية لعناصر المنظر من مبان وأشخاص، وقد استطاع بقدرة متميزة اختيار درجات اللون واتجاهات وضع الموزاييك ليقدم مشهداً يحمل عبق التاريخ بمنطقة الحسين.

وتتعامل الفنانة مها طلعت في لوحاتها مع قطع الموزاييك بحرية وانطلاق، فهي لا تخضعها لنظام محدد، وإنما تتناثر القطع مختلفة الأشكال متنوعة الأحجام على سطح اللوحة، وتختلط ألوانها وتتداخل اتجاهاتها مما أضفى على اللوحات قدراً كبيراً من الحيوية، وجاء ذلك متناسباً مع أسلوبها الفني في تحوير وتبسيط أشكال وعناصر اللوحات.

وتعرض الفنانة نرمين المصرى أعمالاً تكشف عن قدرة فائقة في استخدام خامة الموزاييك والتعامل معها بأسلوب تصويري متميز، وهي في لوحتها المسماه «قيود» قد اختارت خلفية من اللون الأحمر، ورغم صعوبة تناوله في مساحات ضخمة إلا أنها قد تدخلت «بطريقة الحرق» بأجراء

تعديلات وخلق تنويعات مختلفة من درجات اللون مما أكسبه ثراء لونياً مميزاً، كما لطفت من شيوعه باستعمالها لدرجات اللون الأبيض وشفافيته، مع لمسات من اللون الأزرق، وتجسد الفنانة من خلال أسلوبها المتمكن فى تجزئة قطع الموزاييك واتجاهات وضعها واختيار درجاتها نموذجاً فريداً فى تناول موضوع رومانسي رقيق بخامة الموزاييك ذات الطبيعة الصلدة القاسية..

وبأسلوب هندسى صارم تقدم الفنانة نهال سعد لوحاتها التى تؤكد بها شخصيتها الفنية التى تميل إلى التبسيط والتحليل الهندسي، وهى تعتمد فى تصميماتها على الخطوط المتقاطعة والمساحات المتداخلة والاتجاهات المتعارضة لوضع قطع الموزاييك، كما تلجأ إلى اجراء الحوار بين الألوان الساخنة والباردة، وبين المناطق الداكنة ولمسات الضوء التى تجتذب عين المشاهد وتمنح الحيوية للعمل..

رعاية مجال فني جديد:

ويحتاج شباب الفنانين الذين أقبلوا على دراسة التصوير الجدارى وفن الموزاييك إلى الاحتضان والتشجيع من قبل المؤسسات والجمهور لكى يواصلوا انتاجهم وإبداعهم فى مجال فنى مازال جديداً على المصريين، ويجب على المركز القومى للفنون التشكيلية أن يضعه فى مرتبة لا تقل قيمة عن بقية المجالات الفنية الأخرى من نحت وتصوير زيتى ورسم وجرافيك، وأن تقبل الأعمال المتميزة فيه لعرضها ضمن المعرض القومي للفنون، ولقد أحسنت وزارة الثقافة صنعاً حين خصصت جائزة لهذا المجال ضمن الجوائز التى تمنحها للإبداع الفنى،

ونرجو أن تضعه أيضاً ضمن الفروع الفنية التشكيلية التى تمنح فيها جوائز الدولة التشجيعية وجوائز التفوق، فلاشك أن مثل هذا التشجيع والاهتمام والتقدير سوف يساهم فى خلق أجيال فنية، ويحفزها إلى الإبداع والإضافة فى هذا المجال ليس على المستوى المحلى فقط وإنما أيضاً على المستوى العالمى. ■

التصوف والسنة

علم الباطن وعلم الظاهر

بقلم
حسن سليمان

إن التصوف الحقيقي لا يتعارض مع جوهر الإسلام وروح العقيدة الإسلامية الغراء، ولنضرب مثلا بالذين يدعون أن لهم كرامات وينالون من الأضرحة الشفاعات، فالله قد وعد رسوله (صلى الله عليه وسلم) بالشفاعة والمقام، وذلك لأنه زاد تكليفه بتكليف أمته: «ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا» (الإسراء ٧٩).

وهذا معناه أن الطريق إلى نور الحق طريق لا أخر له من نسك وتهجد وإخلاص، ولو كانت المكاشفة والكرامات التي يدعونها عن الأموات من الأمور الشرعية التي أقرتها السنة النبوية المطهرة، لكان أولى بها عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، لكن أحدا منهم لم يقم بالمكاشفة في تفسير القرآن، أو تأويل مشكلة أو التنبؤ بحدث أو معجزة لأنهم جميعا بشر معرضون للخطأ والصواب أما النبي فهو المعصوم الوحيد من البشر من كل خطأ، ومن الخطورة أن تؤخذ الأحكام والتشريعات أو تستمد من أمور ظنية لا أصل لها في التشريع الإسلامي السليم إذ إنه لا يجوز فيه القياس على أمور ظنية.

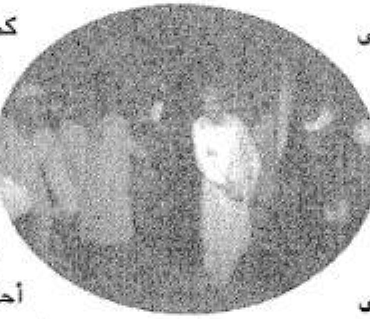
التصوف الحقيقي مبني على التوحيد الخالص

إن التصوف الحقيقي لا يؤمن بالرقص والطرب، ولا يبالغ برفع التكاليف واتباع الهرطقة، وتحليل الحرام أو تحريم الحلال، والتصوف العالي يبعد كل البعد عن السنة الحقيقية، ولابد أن يكون التصوف مبنيا على التوحيد الصافي الذي لا تشوبه شائبة بمعنى البعد عن كل ما يدعو إلى الشرك بالله أو الإلحاد ظاهريا أو باطنيا.

إن حديثي عن المكاشفة تنحصر في الحديث الشريف: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا» إنني أستند على هذا الحديث لأنه السند الوحيد لما أريد قوله، والتوحيد يأتي من خلال علاقة العبد بربه فيما اشتغل العبد في أموره الحياتية يجب عليه ألا ينسى أن الله رقيب عليه يرشده إلى الخير ويحاسبه على الشر.

هناك زعم يقول بأن علم الباطن خاص بالصوفية، وعلم الظاهر خاص بالفقهاء، والحقيقة أن الباطن والظاهر والشريعة، كل





هذا مردود إلى كتاب الله وسنة رسوله لا إلى المشايخ أو الفقهاء أو مدعى التصوف، بل الجميع سواء في عبادته والتفاني في حبه

ولا يجوز التفرقة بين الشريعة والحقيقة والظاهر والباطن كقول مدعى الصوفية الذين يعتبرون أنفسهم أرباب الحقائق والفقهاء أرباب الظواهر، وهذا مؤشر خطير لا يدركه عقلي ولو سلمنا بهذا سنسلم بأنه من الممكن أن تعتزل جماعة من المتصوفين في جبل كالرهبان، يبتعدون عن مخالطة أهل الدنيا، وهذا لا يجوز لأنه لا رهبنة في الإسلام.

ومن غير المنطقي أن نصدق الذين يدعون أنهم اتحدوا مع الله، لأن الحق لا يتحد بالمخلوقات حتى وإن أعلنوا جهرا أن الله ظهر لهم وتجلى بحيث أمكنهم معرفته، كيف يمكن لنا تصديق ذلك أو حتى التفكير باحتمال حدوثه؟

إن القرآن يؤكد دائما على أن معجزة الله في خلق الكون هي دلالات على وجوده وعلى معرفته «لآيات لقوم يعقلون» أريد أن أؤكد قولي بالحديث الشريف: «واعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه قبل أن يموت» وقد ثبت هذا الحديث في صحيح مسلم.

علم الباطن منحة من الله

من الممكن القول عن مدعى الصوفية كما قال أبو عثمان: «غرقى في الذنوب»، أو كما قال الواسطي: «غرقى في رؤية أعمالهم، وعلم الباطن الذى يدعيه الصوفيون هو سر من أسرار الله وحكم من أحكامه يمنحه لمن يشاء من عباده ممن لا ولن نعرفهم لأنهم دائما يخفون حقيقتهم عن الآخرين.

يقول الله تعالى « قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله» (النمل ٦٥) فالذى يتنبأ بغيب يعتبر منكرا نص الآية الكريمة، إننى استحيى أن أتحدث عن حالات شائعة بين مدعي التصوف هم أقرب إلى التخلف العقلى أو الهيستريا المرضية، يطلقون عليها حالات الوجد التى يجوز فيها الرقص والطرب ولطم الخدود وشق الجيوب.

إن المسلم الحق لابد أن يكون متزنا في تفكيره وفي تصرفاته فلا يختل وقاره، يقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية «لطم الخدود، وشق الجيوب، ولمس الأضرحة من أصناف الشرك المنافي للتوحيد الخالص».

كما أن قول الذين يدعون أنفسهم من الأقطاب وأنهم عارفون بالله أو قول: «أقسم على الله بجاهي، فإن جاهي عند الله عظيم» لا يصح التفكير في تصديقه.

إن مدّعي الصوفية ينطبق عليهم قول الآية: «الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» (الكهف ١٠٤) .

والمؤمن الحقيقي مهما فعل ومهما بذل

من جهد يشعر دائما فى قرارة نفسه بالتقصير، فالله يستحق أكثر مما فعل. قال الإمام الشافعي: أحب الصالحين ولست منهم، لعلي أنال بهم شفاعة.

كثيرا ما يقولون يا شفيعي يا فلان مع أن الرسول لم ينل حتى الآن درجة الشفاعة وإنما وعد بها.

لذلك نجده يقول: «ادعوا لى بالمقام المحمود والدرجة الرفيعة فإني أرجو أن أبلغهما» والمقام المحمود هو مقام الشفاعة إذ أعطاه الله وعدا بها، وبهذا نصل إلى أن الرسول لم يصل إلى مقام الشفاعة طوال حياته.

قال قائل إن الرسول قال: «رأيت ربى فى أحسن صورة» فادعى البعض أن النبى رأى ربه، لكن السيدة عائشة كذبت هذا بأشد التكذيب قائلة: من قال أن محمدا قد رأى ربه، فقد أعظم الفرية على رسول الله».

ولما سئل النبى عما إذا كان رأى ربه أجاب: «نور إنى أراه».

إن كل الصوفيين الذين التزموا بالسنة علما وتطبيقا وبأصول التشريع الإسلامى وزهدوا فى مغريات الحياة وادياتها رغم أنهم لم يحرموا أنفسهم من الطيبات التى أحلها الله يمكن تسميتهم بالصوفيين الخلصاء الذين التزموا بكل ما جاء على لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

زيارة الأضرحة والحذر منها

أما عن زيارة الأضرحة والتبرك بها فلن نجد أبلغ من موقف عمر بن الخطاب حينما حذر ابنه عبدالله ألا يختص مكان رسول الله بالصلاة فيه، كان عبدالله دائم المواظبة على الصلاة فى مكان صلاة الرسول، فأراد أبوه أن يقطع هذا حتى لا تكون هناك ثمة شبهة وثنية أو اتخاذ واسطة بين العبد وربه والذى قد يعد من قبيل الذرائع الوثنية فيما بعد عهد النبى وخلفائه.

كان عمر ينصح ابنه دائما أن يصلى فى أى بقعة تدركه الصلاة فيها، كذلك موقفه المشهور ببتر شجرة بيعة الرضوان التى كان يتبرك بها بعض المسلمين ويتمسحون بجذعها فقد هدد وتوعد كل من يتقرب منها.

إن كل هذه البدع الآتية باسم التصوف ينطبق على من يدعونها قول الآية: «ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا» (الكهف ١٠٦).

أضيف أن القاعدة الأصلية فى الفلسفة لا صغير مع إصرار ولا كبير مع استغفار.

قيل لأرسطو: «لماذا تناقض صديقك أفلاطون؟»

أجاب: «أفلاطون صديق والحق أولى بالصداقة منه»، وأنا أتفق معه فى الرأى.

وأخيرا يبقى لنا أن نقول إن بداية التصوف الحقيقى هي التواضع لله فقط، وعدم التقرب منه لمنفعة ما وإنما إيمانا به وخوفا صادقا من غضبه والعمل على إرضائه واجتناب نواهيه. ■





رواية البيضاء.. ليوسف إدريس

بقلم
د. فهمى عبد السلام

البارودى ... ذلك الأعمى الذى يقود

نريد خطوة نخرج بها من تلك الدائرة القاتلة، تلك الدائرة التى احتوتنا وامتصت كل حماستنا، وحولتنا إلى كائنات بيزنطية لا هم لها إلا أن تجتمع لتناقش لتنفض، لتعود إلى النقاش

يحيى - البيضاء - يوسف إدريس

تلقي رواية البيضاء لكاتبنا الراحل الكبير د. يوسف إدريس الأضواء علي ذلك العالم المدهش، عالم الحلقات الشيوعية السرية، عالم الاجتماعات السرية والمنشورات والرونيوهات والأسماء الحركية والحماس الملتهب والقرارات الخطيرة والمواعيد المنضبطة والتي لها مواعيد احتياطية . عالم الخنادق السفلية التي تموج بالأحقاد والبطولات والتناحر والأمجاد والاتجاهات والخيانات. وكل هذا يتم سراً وتحت الأرض.

—١—

أحداث العمل المهم تدور فى نهاية الأربعينات عن تجربة ذاتية للكاتب الراحل، والبطل المحورى للعمل هو الطبيب الشاب يحيى ابن الخامسة والعشرين المحب للحياة وللناس. ويحيى فى عمر الحماس الملتهب والاندفاعات والجيشان العاطفى، ويحدثنا يحيى عن مسكنه فى بولاق أبو العلا، وأمام البيت تلتقى عشرات من خطوط الترام والأتوبيسات، وتختلط هذه بالآلاف من عربات الكارو، إنه يعيش أثناء الليل وأطراف النهار مع أبناء الشعب، بين زعيق الباعة والمآتم والأفراح والذاهبين للصلاة فى مسجد أبوالعلا، والقيمين حلقات الذكر حوله، وقد اختلطوا بالسكارى الخارجين من بوظة بولاق القريبة ومن الخمارات الكثيرة فى شارع بولاق. تلك الضجة التي تحطم الأعصاب بالإضافة إلى وجوه الناس، تلك الوجوه المصرية بشحوبها وبقبحها وبفقرها. وكلامهم الملىء بالمغالطات والمبالغات والجليطة، لكن الطبيب الشاب يفضل ألا يترك هذا المسكن، لأنه يشعر بأنه يعيش وسط شعبنا بكل مزاياه وكل عيوبه، فخلف هذا القبح وتلك الجليطة ، يرى أنها صادرة كلها عن روح حلوة كأنها «العجمية» التي كلما أكلت منها لا تشعر بالشبع على حد تعبيره.

ويصحبنا د. يوسف إدريس ذلك الحكاء الجميل إلى يوم عمل من أيام الطبيب الشاب يحيى، إنه طبيب ورش العمال فى السكة الحديدية، مهمة يحيى هى توقيع الكشف على العمال الذين يبلغون أنهم مرضى ليحصلوا على إجازة مرضية، مدفوعة الأجر بالطبع. والمشكلة أنه يعلم ومتأكد أن ٩٩٪ من العمال أصحاء تماماً، وليتهم عشرة أو مائة، كل صباح يبلغ مئات العمال أنهم

مرضى. والجميع يعلم أنهم يبلغون بأنهم مرضى لأنهم يتمارضون أو لأنهم لا يريدون العمل. لكنهم يبلغون لسبب آخر مضحك. فالعمل يبدأ في السابعة صباحاً. فإذا تأخر العامل ربع ساعة خصم منه ربع اليوم، إذا ما تأخر ساعة واحدة، يتم خصم أجر اليوم كاملاً. ولأن معظم العمال كانوا يسكنون في أطراف القاهرة لرخص المساكن هناك، ولأن معظمهم كانوا مثل طبيبهم الشاب لا يحبون الاستيقاظ مبكراً، فكان عدد كبير منهم يصل متأخراً، ولكي لا يتم خصم اليوم عليه، يقوم العامل المتأخر بالتبليغ عن مرضه الوهمي، ليرمي بلاءه على طبيبنا الشاب. في البداية وتحت أوهام لجنة الطلبة والعمال التي كان يحيى عضواً بها، كان من حماسته للطبقة العاملة يعطي العمال إجازات كما يطلبون، وبدلاً من أن يقدر العمال تعاطفه معهم، اكتشف أنهم بدأوا يستهترون به، ويطلبون الإجازة بوقاحة كحق مكتسب، حتى جاء يوم ممطر تسبب في تأخير حوالي ٨٠٠ عامل أبلغوا بالمرض، ومنحهم يحيى الإجازات كطبيب ثوري متعاطف مع الطبقة العاملة وجاء مدير الإدارة الطبية يستطلع دفتر الإجازات فوجد أن هناك ٥٠٠ حالة إسهال و٢٠٠ حالة انفلونزا. فقال المدير للطبيب: ٥٠٠ حالة إسهال.. دي العنابر فيها كوليرا.. ودي حاجة لازم تقلب البلد



كلها».

وكان الجزاء رادعاً، خصم ثلاثة أيام وإنذار بالفصل للطبيب الرومانسي، المهم أن العمال لم يتحرك منهم أحد للدفاع عن الطبيب الذي عوقب بسببهم وتجاهلت اللجنة النقابية المسألة، وتركوه يتلقى جزاءه وحده بلا اعتراض ولا تعاطف. وانقشعت أوهام اللجنة العمالية والطلبة عن الطبيب الشاب، وبدأ يراجع ويتأنى، فيذهب صباحاً فيجد شيئاً عبثياً يضعه يوسف إدريس ببراعة، في مشهد «حلمنتيشي» لا يحدث إلا في بلدنا.

ما لا يقل عن ٩٠٠ عامل متمارض يترقبون ظهور الطبيب ترقب الملهوف، زحام رهيب فلا يطيقون صبراً فيبعثون بفرقة كشافة ترقب ظهوره من أول الشارع، فإذا ظهر هرعوا جرياً ليبشروا الواقفين بمجيئه، ويخترقون الأجسام المتراصة ليصبحوا قريباً من الباب، ما أن تأتي البشارة حتى تحدث موجة اضطراب وزق وزعيق وسباب لا تسكت إلا حين يقترب الطبيب، فترتفع موجة من التحيات والترحيب «صباح الفل» «نهارنا نادي» ويسمع الهمسات:

- دا مزاجه رايق باين عليه النهارده.

فيرد آخر:

- دا بيقولوا عليه صعب قوي.

فيرد ثالث:

- أما نشوف.

ويعقب رابع بصوت عالٍ كي يسمع

الطبيب - صعب إيه يا أخينا والنبى دكتورنا ده أطيب واحد خلقه ربنا.

ما أن يصل يحيى حتى يصنع له العمال أخدوداً وسط بحر العمال المتلاطم أشبه بأخدود موسى ليعبر منه الطبيب، فيدخل الطبيب إلى حجرة بائسة واسعة ليس بها سوى كنبة مبقورة الأحشاء ولوحة كشف النظر التى لم يتبق بها علامة واحدة سليمة، فيجلس الطبيب يائساً منهاراً من الوضع البائس ومما هو مقبل عليه، والمرض مرسي الذى يجل الطبيب إجلالاً تاماً ينهر الواقفين خارج الحجرة شاخطاً فيهم قائلا «طابور» ... البيه مش حا يشتغل إلا بالطابور.

تبدأ حركة زق وتدافع ومحاولات تزويغ وتسلل وشتائم وأيمان مغلظة، وأخيراً جداً يتكون الطابور، وهو طابور غريب يبدأ داخل حجرة الكشف البائسة ويمتد إلى الصالة ثم ينحرف يساراً ويهبط مع السلم حتى يصل إلى العنابر نفسها كي يعطل العمل بها.

وفي أدب جم يقول مرسي التمورجى «قهوة يا بيه .. مش كده».

ولا ينتظر عم مرسى إجابة الطبيب فيزعق التمورجى على مساعده الواقف على الباب ووظيفته أن يدخل العمال واحداً واحداً «قهوة على الريحة للبيه يا عم حسين».

.. كل يوم يحدث هذا، وكل يوم يحاول عم حسين أن يهرول لتنفيذ الأمر، وكل يوم لا يتمكن عم حسين من الهرولة وهو الواقف من شدة الزحام بالكاد. فترتفع الألسنة القريبة من الطابور صائحة:

«قهوة على الريحة للبيه يا جدع».

يتلقفها الواقفون فى الصالة، وتسرى فى الطابور الطويل حتى تصل إلى القهوجى فى البوفيه، كل هذا يحدث كل يوم ودون أن يتحرك أحد من مكانه، وفي ثانية تكون القهوة قد أعدت، وتظل أيدى الطابور تتناولها محافظة عليها، حتى تستقر أمام يحيى دون أن يتحرك أحد من مكانه لتبدأ التمثيلية.

يدخل العامل ويرفع يده بسلام عظيم وتحية زائفة كلها تملق ظاهر رخيص، عندك إيه، عندى إسهال وبعده عندك إيه عندى مغص، مغص إسهال مشوار حاأطلق مراتى ابنى ضايع ورايح أدور عليه والنبى أبويا مات وتعيش انت لازم أحضر الدفنة، بمرور الأيام يصبح يحيى مساوماً من الدرجة الأولى، العامل يريد خمسة، محايلات وتشنجات وأيمان مغلظة ودق على المكتب، وابتسامات، وتنتهى المساومة المرهقة بأربعة أيام، ويغادر يحيى فى الثانية ظهراً وقد تحولت رأسه إلى عنابر وشوارع وأيدى تلوح وزعيق ومناكفات وتهديدات ورجاء ومغص كلوى وإسهال وعفاريت ملطخة بالدوكو والزيت وخبطات كثيرة على المكتب وتشنجات

عصبية ورغبة جامحة تراود الطبيب الشاب أن ينتحر أو يقتل أول إنسان يصادفه . فيعود إلى شقة بولاق ليجد ضجة الشارع والغبار وزفارة الكبدة التي تصل إليه رائحتها من نافذة شقة بولاق، فيتناول طعام الغذاء، ويغلق الزجاج ليمنح الشقة بعض الهدوء، ويدق جرس الباب، فيدق قلب يحيى دقة واحدة كبيرة ثم يسكت هنيهة ، ثم يعود الدق فيسرع يحيى ملهوفاً، لتقابله ابتسامة سانتي ، تلك الابتسامة العذبة دائماً، الحلوة دائماً، وتقول له في همس جميل: ممكن أدخل.



- ٢ -

.. ويحيى بطل يوسف إدريس الريفي الجذور الرومانسي التكوين بحكم السن، موزع بين عمله الثوري كعضو نشط في جماعة تحرير المستعمرات الشيوعية السرية، وبين نيران عشق أليم لـ سانتي ، إنها امرأة شابة يونانية الأبوين مولودة في القاهرة، تعرف عليها يحيى عن طريق الجماعة كي يعلمها اللغة العربية، فوقع يحيى برومانتيكيته في حب سانتي، والحب كما يقول شكسبير الخالد هو الفطنة وقد قتلتها الحماقة، أحبها يحيى حباً جارفاً، ولم تمانع سانتي، وحينما يطلب منها يحيى أن تبادله حباً بحب، إذا بها تعلن له أنه فهم الأمر خطأ، فهما مجرد أصدقاء ...(!!)، وأنها متزوجة من قبرصي مناضل يعيش في مصر وتحب زوجها.

المفترض هنا أن تتركه سانتي في حاله، لكنها وهي التي تحب زوجها كما تقول ليحيى، لا مانع عندها أبداً من أن تتلقى منه رسائل غرامية ملتهبة، بل وتستمر في زيارته كل يوم في شقته وهو الشاب الأعزب، بل وتستمرىء تعذيبه وتغذية الأمل في صدره، يقترب منها فتبتعد، يبتعد عنها فتقترب. ولأن العاشق مثل الشاعر كما قال داريل في رباعيته التحفة ، هو ذلك المتواطىء ضد نفسه، لا ترى عينا العاشق يحيى أن سانتي امرأة لعوب تحقق أنوثتها الشريرة بتعذيبه، ويكابد يحيى جحيم الحب الشقي الذي يرتد إلى صدره خائباً، فيهجرها فتعود إليه كي لا يفلت منها وكي لا يبرأ من حبها الأليم . والغريب أن الناشر (روزا اليوسف - ٨٠) يعلق على ظهر الغلاف «إنها قصة طبيب شاب يرغب في تطوير المجتمع كله وخلال رحلته من أجل تغيير المجتمع يلتقي بامرأة «نقية»، وأن يحول يحيى بحبه الجارف «دفء الصحبة» «وصداقة الأفكار» إلى رماد مثلج .

الحقيقة أن قارىء الرواية سيشعر بالدهشة لأن يتم وصف سانتي بالمرأة النقية . إذا كانت سانتي امرأة نقية فكيف بالله تكون الأنثى اللعوب، وهل من النقاء أن تتلقى الخطابات الغرامية الملتهبة وأن تسعد بها ، وهل إذا صدقنا

ببراءة سانتى ونقائها ، فلم تفهم رغبة يحيى تجاهها ، ثم ها هو يصارحها بحبه، فلو كانت نقية وبيضاء القلب بغير سوء ، لقطعت صلاتها فوراً بالعاشق الذى أساء الفهم، لكن سانتى التى أدركت حب يحيى من أول لقاء، لم تفاجأ بتصريح يحيى بحبه لها، وهل من النقاء أن تشعل تلك النقية قلب يحيى بالغيرة وهى تلمح له بعلاقتها الجديدة مع شوقى صديق يحيى وعضو التنظيم ، لكنها أنثى لعوب أوقعت يحيى البرىء فى غرامها، وأدمنت تعذيبه، فإذا ما اقترب منها تبتعد، وإذا ما ابتعد عنها اقتربت منه كى لا يفلت من دائرتها الجهنمية .

— ٣ —

حينما التقى يحيى بمعذبته سانتى، يكابد محنة من نوع آخر، محنة تتعلق بعمله الثورى فى جماعة تحرير المستعمرات، تحديداً بأزمة شديدة مع البارودى زعيم التنظيم، والذى كان فى الوقت نفسه يحتل مركز رئيس تحرير المجلة الناطقة بلسان الجماعة ، انضم يحيى إلى التنظيم على يد شوقى، لقد تعرف يحيى على شوقى فى مظاهرة طلابية عنيفة، فى تلك المظاهرة عَنَّ ليحيى أن يشعل سيجارة تاريخية من النار المندلعة من أتوبيس كان المتظاهرون قاموا بحرقه، فوجد يحيى طالباً شاباً آخر فكر فى اللحظة نفسها أن يشعل سيجارة تاريخية هو الآخر من نيران الأتوبيس، فتعارفاً وتكررت لقاءاتهما فى الاضرابات والمظاهرات، وحينما توطدت الصلة، قام شوقى بتقديم يحيى إلى البارودى زعيم التنظيم... وكان البارودى زعيماً ونجماً لامعاً من نجوم العمل السرى الشيوعى، وكانت شهرته فى تلك الأوساط بأنه زعيم خطير بل وغاية فى الخطورة...

كان البارودى يتمتع بشخصية ساحرة قادرة على أن تحظى بحب الكوادر والتأثير عليهم، وأحب يحيى زعيمه ذلك الحب الذى يصل إلى التقديس، وأصبح يحيى يرى أن البارودى معجزة بمعنى الكلمة، وكان يرى آراء البارودى هى أسلم الآراء، وأن أحكامه هى أدق الأحكام، وأن ذكاءه هو أحد ذكاء، وأن أى معضلة لا يمكن أن تستعصى على عقل البارودى الزعيم الفذ وعبقرى الثورة، كان من شدة انسجامه حيال كاريزمة البارودى الساحقة، أن يحيى لم يكن ليجرؤ بدافع الهيبة أن ينظر إلى عينى البارودى مباشرة، أو أن يناديه باسمه مجرداً دون أن يضيف لقب الأستاذ قبل الاسم .

أين المحنة إذن؟ المحنة بدأت بعد أن توطدت العلاقة بين البارودى ويحيى ، بعد فترة من اقتراب يحيى من زعامته التاريخية بدأ الطبيب الشاب يلاحظ أشياء وآراء لم يستطع يحيى أن يقبلها أو أن يهضمها، فعلى الرغم أن البارودى

كان يدافع عن الفلاحين إلا أن حديث البارودى عنهم كان يؤكد ليحيى (وهو الفلاح) أن البارودى لم يعرف الفلاح المصرى، حينما كان البارودى يتحدث عن الثورة والأساليب الثورية، كان يحيى يشعر أن البارودى يتحدث عن ثورة أجنبية لا علاقة لها بمصر، أو عن ثورة لن تحدث إلا فى الكتب، حتى الكتب التى كان البارودى يحملها معه كانت فرنسية، وكان يحيى ينكر على البارودى وهو المولود فى المغربلين وابن شيخ تعلم وتخرج من الأزهر، أنه لا يحفظ إلا الأشعار الفرنسية لبول ايلوار ولافونتين ولم يكن يحيى يهضم تعاذب البارودى وهو يرتل الأشعار بالفرنسية ويراه علامة انسحاق حيال أوروبا. هذه الهواجس عذبت يحيى، وحينما كان يفضفض بتلك الملحوظات على استحياء، كان أعضاء الجماعة يتهمونه بالتخلف، وبأنه «متعصب قومى» وبأنه مازال فلاحا. وأمام كاريزمة البارودى الكبيرة، راح يحيى يؤنب نفسه على الهواجس السوداء، بل وراح يجبر نفسه وذائقته الأصيلة قسراً، كى يستمتع هو الآخر بأشعار اليوار الفرنسية وبموسيقى سترافنسكى، ومضى هو الآخر يستعذب النطق بالفرنسية ، وأخرس يحيى حاسته النقدية الأصيلة ، وحول نفسه بنفسه إلى مستنسخ صغير للبارودى، واندمج تماماً، وأصبح واحداً من الحركة



«التى تتلمس طريقها فى الظلام، وليس هناك ما يهديها سوى شعاع أبيض واحد قادم عبر البحر الأبيض، الذى لا يراه إلا البارودى وحده».

وتم القبض على البارودى، وتم إسناد رئاسة تحرير المجلة إلى شوقى، وبابتعاد البارودى اشتعلت الجماعة حماسة، وبرغم الحماسة إلا أن أحوال المجلة بدأت تسوء، فالتوزيع يقل بشكل خطير، والدعم المادى من المتعاطفين بدأ يقل، وبالرغم من هذا استمرت الجماعة فى العمل، واستمر التدهور، هنا بدأت هواجس يحيى تظهر من جديد ، ويبدأ يصارح شوقى بأسباب الانهيار الذى يواجهونه بسبب خط المجلة، وراح يحيى يطلب من شوقى بالتغيير فى خط المجلة، تغيير جذرى بالاقتراب من الواقع المصرى، وبدلاً من الاكليشيهات الخواجاتى والرطان الأيديولوجى، طلب يحيى بالكتابة فى موضوعات تبحث مشكلات بلادنا بالطريقة المحلية وبلغة يفهمها شعبنا ، وتحت إلحاح يحيى بدأ شوقى يستجيب ، وبدأت المجلة تنحى نهجاً مصرياً فى المشكلات وتكتب باللغة التى يفهمها شعبنا، وهنا بدأت المشاكل.

--ع--

... تمت الدعوة إلى اجتماع طارىء لمناقشة رسالة خطيرة وصلت إلى الجماعة من البارودى فى السجن، كانت

الرسالة بخصوص التغييرات التى طرأت على المجلة فى غياب البارودى عن رئاسة التحرير، والرسالة ليست بشأن تلك التغييرات لكنها تخص المبدأ. مبدأ أن يتم تغيير الخط السياسى بأيدى الذين بقوا فى الخارج (يحيى وبقية الجماعة)، وإصرار البارودى على أن هذه التغييرات وأمثالها مسألة تخص القيادة.

.. وظهر ليحيى الوجه الحقيقى للبارودى ورأى يحيى أن المسألة أصبحت مضحكة، فالبارودى يصر على أن يحكمهم من داخل السجن، وأن يقودهم حتى وهو بعيد عن أرض المعركة، وأن عليهم الا يتحركوا وألا يبدوا رأياً، حتى يبعثوا إليه فى سجنه، كى يرشدهم وهو الذى لا يكاد يعرف شيئا حتى عن طبيعة المعارك التى يخوضونها. كل هذه الأفكار دارت فى رأس يحيى وجعلته يشعر بالغيظ من تلك الأثرة، وانعدام أية إنكار للذات، وازداد حنق يحيى وهو يستمع إلى كلمة الرفاق، تحديداً أحدهم وهو يلف ويدور ويدور ويلف، ثم يتحدث عن خبرة القيادة (...) وعن ضرورة احترامها وتقديسها ، وأن هناك مشاكل أعلى من مستوى تفكيرهم (...) وهذه المشاكل لا يملك البت فيها سوى البارودى، وانتهى كلامه وهو يسبل عينيه ويطلب فوراً أن تبعث الجماعة إلى البارودى رسالة شكر وتأييد.

وطلب شوقى من يحيى أن يتحدث

... وانفجر يحيى بكل ما يعتمل به صدره من أوضاع يراها غير معقولة، قال رأيه فى تذبذب شوقى بين الانصياع للبارودى ، وبين هقيم الواضح فى قيادة أنفسهم بأنفسهم، وطالب بخطوة إيجابية لتحويل كلام المجلة الميت الذى ينشرونه على الناس إلى شعلة نار وحماس. وطالب يحيى بخطوة يخرجون بها من الدائرة القاتلة «تلك الدائرة التى احتوت كل حماسنا وامتصت كل ثوراتنا وأحالتنا إلى كائنات بيزنطية لا عمل لها إلا أن تجتمع وتناقش لتنفض لتعود إلى النقاش».

وتصدى له شوقى قائلا: «إن بعض الناس مثلك(...) يظنون أن الثورة فوضى، فنحن ميزتنا العظمى التى تميزنا عن الآخرين(....) إننا ثوار منظمون، فالثورة هى قمة النظام وأى عمل ضد النظام هو عمل ضد الثورة، والنظام بيعطى البارودى الحق انه يقودنا، إذا إحنا سمعنا كلام يحيى وخرجنا عن النظام وأخذنا قرار بفصل البارودى وعزله عن رئاسة التحرير يبقى احنا بنخرب، تبقى فوضى، ويبقى هو راخر ياخد قرار بفصلنا إحنا كمان. ونقعد نلطش فى بعض ونحطم العمل والمجلة»..

ولم يقتنع يحيى بحرف واحد من أباطيل شوقى، التى ترسخ استبداد البارودى وأثرته الكريهة، لاسيما أن يحيى كان يعلم أن أراء شوقى الحقيقية التى

كان يقولها له على انفراد كانت تتفق مع آراءه، لكن في الاجتماعات كان شوقي اعتاد أن يعلن عكس آرائه، الأمر الذي حير يحيى وأفقده الثقة في شوقي هو الآخر. كان المنطق يقضي بأن يقطع يحيى علاقته بالتنظيم، وأن يترك اللامعقول الذي يحدث وبموافقة الجميع ماعداه، ورأى يحيى أن من الصعب أن يقطع صلته بهم قطعا كاملا، لاسيما أن اندماجه في العمل معهم، كان أفقده طعم التواصل مع الناس العاديين، فقد أصبحت الجماعة هم كل أصحابه وأقاربه ومعارفه، فهو لايسهر إلا معهم ولا يرتاح إلا إلى مناقشاتهم، أفقدوه تذوق الاحساس بالناس العاديين، ويستمر يحيى معهم، ممزق القلب بحب سانتي الأليم من ناحية، ومن هواجسه السوداء في الطريق الذي اختاره والذي بدا له بالنفق المظلم.

... وتحدث المفاجأة، فيخرج البارودي من السجن فتعم الفرحة، وينسى يحيى صدام رئاسة التحرير، وهو ابن الريف الطيب القلب لايتذكر سوى الوجه المضيء للزعيم، وجه العبقرية والمعجزة الثورية والمعلم والصديق والعيش والملح، ومن شدة حماس يحيى يمنح البارودي آخر ثلاثة جنيهات كان يملكها، يأخذها البارودي دون كلمة شكر، ويأخذ يحيى زعيمه لكي



يقيم معه، في ذلك اللقاء يكتشف يحيى أن البارودي فقد نظره داخل السجن، وأنه أصبح أعمى في حاجة لمن يقوده، وشعر يحيى بشفقة هائلة لهذه الكارثة التي ألمت بالزعيم، واختلطت شفقة يحيى بدهشة شديدة عندما وجد أن البارودي غير حزين لهذه الكارثة التي كان يتحدث عنها في بساطة كما لو كان أحد الاكليشيهات ضاع أثناء الطبع.

وحينما أتت «البرينة» سانتي لزيارة يحيى كعادتهما اليومية في الثالثة ظهرا، ارتبك يحيى لوجود البارودي، واضطر لاخفاء البارودي في غرفة داخلية، وإذا بالبارودي يسفر عن وجه قبيح آخر.

إذا شعر الضيف أن المضيف يستقبل امرأة، عليه ألا يسأل، وأن يعبر تلك المسألة الخاصة، وألا يتم الحديث فيها إلا إذا رغب صاحب البيت، لكن البارودي الغليظ المستبد، راح يسأل يحيى عن من تكون، وعن مدى صلته بها، بل وراح يسخر علانية ويغمز في شأنها، وإذا بذلك المستبد لايكتفي بذلك، بل يطلب من يحيى فيما يشبه الأمر أن يقطع علاقته بسانتي، وشعر يحيى بالنفور من هذا المتسلط الذي يتدخل بصفاقة فيما لايعنيه، وأثبت البارودي أنه شخص لايطاق على المستوى الانساني، فبعدها مباشرة لجأ يحيى إلى الحيلة ليتخلص من اقامة البارودي الثقيل المتسلط، فقال للبارودي أن أسرته

الريفية ستأتي قريبا لزيارته، وقام يحيى بإرسال خطاب يستدعي أمه وأخواته البنات كي يستحي البارودي ويحل عن سمانه، لكن البارودي تجاهل المسألة، وحينما ازداد تجاهل البارودي قال له يحيى بلهجة ذات معنى:

- أمي وأخواتي البنات حاييجوا بكره..

الشخص صاحب الحياء، لا ينتظر أن يتم طرده، لكن البارودي لايرى شيئا في أن يعيش مع البنات ومع أم يحيى، والدليل على ذلك إنه قال ليحيى:

- افتكر اني اشوف لي مكان تاني.

قالها البارودي بطريقة من ينتظر أن يقول له يحيى «لا أبدا»، لكن يحيى لم يقل له شيئا، وهنا فقط أدرك البارودي أن العرف والذوق يقضيان بأن يترك شقة يحيى، والسؤال الآن، هل البارودي ابن المغربلين لايدرك أن بيت المصري حتى ولو كان ثوريا له حرمة، وأن شعبنا يرى أنه لايليق أبدا أن يعيش رجلا غريبا حتى ولو كان زعيما بين نساء وبنات أغراب عليه، هل انفصل البارودي عن واقعنا إلى هذه الدرجة، ورحل البارودي، وعلى أسنة الرماح، ليترك يحيى يتقلى بغرامه البائس مع سانتي.

المهم أنه خلال تلك الإقامة التي أتاحت ليحيى أن ينفرد بالبارودي لفترات طويلة، أن يتناقشا في القضية الأساسية التي لم تحسم بينهما، حول حق القيادة وكيفية الاختلاف معها، ولم يتردد البارودي، وأعلن في صفاقة أن قيادته للتنظيم أبدية، وأن الضرورة التاريخية تحتم هذا(!!)، لأن القيادة أكثر خبرة، .فيسأله يحيى ويحاصره وإذا ما أخطأت القيادة أو انحرفت أو حتى خانت فمن يحاسبها؟.. فالقيادة في هذه الحالة هي الخصم والحكم ومن حقها وحدها أن تفصل وتدفع وتتهم أي خارج عليها لكي تضمن بقاء أبديا.

هنا يضيق البارودي بالنقاش وبالحصار فيرد قائلا:

«أساس النقاش خاطئ»، فليس من المفترض أن تخون القيادة لأنها حينئذ تخون نفسها(!!) وليس من المفروض أن تخطئ، فإن أخطأت فعليها أن تكتشف الخطأ وأن تصلحه بنفسها.

ثم يضيف البارودي حاسما النقاش:

«عموما أنا مش موافق على الروح اللي بتناقشني بيها والتي لاتتحدث فيها بالاحترام الواجب نحو قادتك وعن قيادتك سمعنا مزيكا أحسن».

وينتهي العمل الجميل بيحيى داخل السجن الذي أنقذه من قيادة البارودي، ذلك الأعمى البصر والبصيرة المستبد المغالط، وينقذه السجن كذلك من حب سانتي «البريئة» المدمر، فتحية إلى يوسف إدريس الفنان المتمرد على القهر وإن كان ثوريا.■

السياسى والفنان

عبد الناصر وأم كلثوم

بقلم
سعيد عكاشة



علاقة عبد الناصر بأم كلثوم تحتاج إلى التأمل، خصوصا ما قيل من تدخل عبد الناصر وإلغائه للقرار الذى اتخذه ضابط صغير فى بداية الثورة بمنع أغانيها لأنها من العهد البائد، أيضا ما رواه عبد الوهاب عن رأى أم كلثوم حينما طلب منها الذهاب معه إلى مقر قيادة الثورة لإعلان تأييدها وردها بأنها لن تفعل ذلك إلا عندما تشعر من داخلها برغبة حقيقية فى هذا التأييد.

لقد كانت لأم كلثوم شعبية كبيرة، فهل خشي عبد الناصر من هذه الشعبية، وبالتالي كانت صداقتهما التي تحدث عنها كثيرون. وبوفاته فقدت أم كلثوم واحدا من أهم وأبرز مؤيديها.

لقد أظهر مسلسل أم كلثوم والذى عرض أكثر من مرة ، العلاقة بين أم كلثوم وعبد الناصر وكأنها علاقة احترام وتقدير، وأشار إلى حادث قيام عبد الناصر فى أول سنوات الثورة بنقل أحد الضباط، وكان هذا الضابط يشغل منصب مدير مكتبه، بسبب منعه أم كلثوم من الغناء!

وفي هذه الحادثة لم يبين المسلسل متى وقعت؟ وكم المدة التى عاشتها أم كلثوم ممنوعة من الغناء؟ كما أن كاتب المسلسل محفوظ عبد الرحمن اعتمد على مصدر واحد فى رواية هذه الحادثة، مع أن هناك ثلاث روايات أخرى لا تتفق تماما فيما بينها حول شخصية صاحب القرار، نحاول هنا فتح ملف هذه الحادثة من واقع الروايات الأربع التى تناولتها.

الرواية الأولى

فى عدد مجلة الكواكب (٢نوفمبر ١٩٩٢) ذكر الكاتب حلمى سالم - تحت عنوان ٥٠ سنة غناء.. الحلقة التاسعة - أنه عقب ثورة يوليو ١٩٥٢ بأيام قليلة أصدر وزير الإرشاد فى حكومة الثورة، قرارا يمنع أم كلثوم من الغناء، ومنع أغانيها من الإذاعة باعتبارها أحد رموز النظام الملكى السابق، ولكن عبد الناصر فور علمه بهذا القرار قام بإلغائه قائلا: إذا كنتم تريدون منع أم كلثوم من الغناء، اهدموا الهرم الأكبر!!

الرواية الثانية :

تقدمها د.رتيبة الحفنى عميدة معهد



الموسيقى السابقة فى كتابها «أم كلثوم معجزة الغناء العربى» وتقول «فى بداية عصر الثورة همس بعض المغرضين للرئيس عبد الناصر بأن يجعل للثورة مطربة أخرى غير أم كلثوم التى غنت للملك فاروق «حبيبى يسعد أوقاته» ونالت بسبب ذلك نيشان الكمال، ولذلك يجب معاملتها معاملة أحزاب العهد البائد، واقتنع عبد الناصر بهذا الرأى، وطلب أن تنصب المطربة ليلى مراد على عرش الغناء، وفعلا كانت ليلى مراد المطربة الأولى لقطار الثورة، وكانت نجمة أول أعيادها فى يوليو ١٩٥٣».

الرواية الثالثة :

ذكرها «محمد أحمد» السكرتير الخاص السابق للرئيس عبد الناصر فى عدد جريدة العربى الناصرية بتاريخ ٢٩ سبتمبر ١٩٩٧، يقول «كان عبد الناصر يحب سماع صوت أم كلثوم، ومع مرور الوقت أصبح من كبار مستمعيها، والمعجبين بها، وكانت أغانى أم كلثوم قد منعت من الإذاعة بعد الثورة مباشرة بقرار من ضابط صغير، وفور علم عبد الناصر بذلك ألغى القرار، ونقل هذا الضابط من موقعه ليحل محله ضابط أوسع أفقا».

الرواية الرابعة :

وردت فى بحث نشر فى مجلة «مصر والعالم العربى» الباريسية، للباحث الفرنسى فيليب فيجرو بعنوان «محورية الموسيقى العربية» العدد الأول خريف ١٩٩٧ - ويقول «كان اللواء محمد نجيب أول رئيس لمصر فى عهد الثورة هو صاحب قرار منع أغانى أم كلثوم من الإذاعة بشكل غير مباشر، فعقب زيارته للإذاعة فى أول أيام الثورة طالب المسئولين فيها بالتركيز على جيل جديد من المطربين لإخراج الأغنية المصرية من حالة الحزن والكسل التى تعشش فى أركانها».

إن أول ما يستوقفنا فى هذه الروايات الأربع أنها جميعا لا تحدد تاريخا دقيقا لقرار المنع، كما أنها تتضارب حول مصدر القرار هل

عبد الحكيم عامر



عبد الحليم حافظ



كان عبد الناصر أم محمد نجيب، أم أول وزير إرشاد (ثقافة) في حكومة الثورة (فتحي رضوان)، أم كان مجرد ضابط صغير؟.

ويبدو أن سبب ذلك هو أن قرار المنع لم يصدر رسميا، أو على الأقل لا توجد في محفوظات الإذاعة أو الجريدة الرسمية التي تنشر القرارات الحكومية أي إشارة إليه من قريب أوبعيد، ومن ثم قد يكون القرار مجرد «توجيه» صادر من قادة الثورة ولو في صورة غير مباشرة، ولكن لا يمكن قبول الرأى القائل بأن من أصدر الأمر كان ضابطا صغيرا، فقادة ثورة يوليو وعلى رأسهم عبد الناصر كانوا يهتمون آنذاك بأدق الأمور تحسبا لتأثير أى قرار على استقرارهم في السلطة. ومن ثم من الأوقع أن نتصور أن التوجيه الذى أصدره محمد نجيب - في رواية الباحث الفرنسي - كان المدخل الذى أعطى الضوء الأخضر لتمرير قرار المنع، والذى لم يكن ليصدر إلا بموافقة مسئول كبير، مثل وزير الإرشاد - كما ورد في رواية الصحفي حلمى سالم - ولكن المشكلة أنه لا توجد في الوثائق الرسمية أو في مذكرات فتحى رضوان وزير الإرشاد آنذاك، أية إشارة إلى هذه الحادثة، ولكن ما ذكره الباحث فيليب فيجرو من أن قرار المنع بقي ساريا من يولية ١٩٥٢ حتى مطلع عام ١٩٥٤، لابد وأن يطرح تساؤلا مهما وهو: هل كان من الممكن أن تبقى أم كلثوم ممنوعة من الغناء - ولو بأمر من وزير الإرشاد - بدون علم وموافقة قادة الثورة وعلى رأسهم عبد الناصر شخصيا؟

واقع الأمر أنه يصعب تصديق ذلك، لأن أم كلثوم لم تكن مجرد مطربة عادية، بل كانت جزءا مهما من حياة المصريين، وبنفس الكيفية يصعب تصديق أن غيابها لم يلفت انتباه عبد الناصر على مدى عام ونصف العام!!

إن التفسير الوحيد لروايتى حلمى سالم ومحمد أحمد، أن كلا منهما كان يحاول نفي الاتهام عن عبد الناصر، لدواع إيديولوجية، حيث تسود بين مؤيدي عبد الناصر إلى اليوم فكرة أنه لم يكن يعلم بكثير

ليلى مراد



محمد عبد الوهاب



من القرارات السيئة التى اتخذت فى عيده.

ولكن إذا افترضنا أن عبد الناصر كان هو صاحب قرار المنع فلماذا فعل ذلك؟

الاحتمال الأول : أن هناك من أوقع بين أم كلثوم والثورة.

وقد روى الموسيقار الراحل محمد عبد الوهاب. أنه فوجىء عقب قيام الثورة بأيام ببعض ضباط الجيش يطلبون منه أن يذهب إلى مقر القيادة لإعلان تأييده لها، ويقول عبد الوهاب أنه اتصل على الفور بأم كلثوم ليسألها عن رأيها فأجابته بأنها لن تفعل ذلك إلا عندما تشعر من داخلها بأنها يجب أن تفعل. ويقول عبد الوهاب أيضا إنه استحسن هذا الرأى ولم يستجب لطلب من حضروا إليه!!

وإذا افترضنا صحة هذه الواقعة فلماذا لم تقم الثورة بمنع عبد الوهاب من الغناء أيضا؟

هل وشي عبد الوهاب بأم كلثوم عند الضباط فكافأوه وعاقبوها؟ ربما كان ذلك صحيحا خاصة أن المنافسة بينهما كانت حامية وكان كل منهما له مصلحة فى إقصاء الآخر من الساحة الغنائية.

الاحتمال الثاني : أن هناك دوافع نفسية حدت بعبد الناصر للاحتكاك بأم كلثوم، ومحاولة الإطاحة بها، فقد لاحظ أغلب من رافقوا عبد الناصر منذ عمله فى الجيش، أنه كان ميالا للانفراد بالسلطة والاستئثار بحب من حوله (أنظر مثلا ما كتبه خالد محيى الدين رفيق عبد الناصر فى مجلس قيادة الثورة - مذكرات بعنوان: الآن أتكلم) فإذا اعتبرنا أم كلثوم بشعبيتها الطاغية كانت تمثل لعبد الناصر منافسا خطيرا فى الاستئثار بحب الشعب المصرى فليس من المستبعد أن يكون صراع «الفنان» و«السياسى» على جمهور واحد، ربما لعب دورا من الناحية النفسية، فى جعل عبد الناصر يقف فى المواجهة مع أم كلثوم، ويحاول إزاحتها من طريقه. ولا نجد أدل على ذلك من الاستدلال بحادث شبيه، فقد توترت العلاقة بين عبد الحكيم عامر (نائب عبد الناصر) والمطرب عبد الحليم حافظ منذ عام ١٩٦٢ عقب عودتهما معا من زيارة للجزائر عقب استقلالها مباشرة، حيث صرح عبد الحكيم غاضبا (حمل الناس



فى الجزائر عبد الحليم على الأكتاف، أما أنا فلم يعرف أحد من أكون وماذا أمثل فى مصر)

الاحتمال الثالث : أن القضاء على رموز ما قبل ثورة ٢٣ يوليــــو، والذى سيطر على نفوس ضباط يوليو لفترة طويلة، قد جعل البعض يعتبر أم كلثوم أحد رموز هذا العهد ولكن إذا كان ذلك صحيحا فلماذا استبدلها بمطربة أخرى لم تكن تقل ارتباطا بهذا العهد؟.

لماذا اختار عبد الناصر ليلى مراد بدلا من أم كلثوم؟

إن من فسروا قرار منع أم كلثوم من الغناء بأنه كان بسبب غنائها للملك فاروق لا يجيبون على تساؤل مهم وهو: لماذا كانت ليلى مراد هى البديل لأم كلثوم مع أن ليلى مــــراد غنت بدورها للملك السابق. والأكثر من

السياسى والفنان

ذلك أن الشـائعـات كـانت تطاردها وتصفها بأنها إحدى محظياته. ففى كتاب لصالح مرسى بعنوان «ليلى مراد» نعرف أن ليلى مراد تعرفت على الملك فاروق فى صيف عام ١٩٤٥، وأنها أحيت حفلا خاصا له فى سراى رأس التين بعد ذلك بأيام قليلة وبدون فرقة موسيقية!! والأهم من ذلك أن ليلى مراد «اليهودية الديانة» والتى أسلمت بعد زواجها من النجم السينمائى الراحل أنور وجدى كانت قد اتهمت بعد حرب عام ١٩٤٨ بأنها تبرعت بـ ٥٠ ألف جنيه للوكالة اليهودية لدعم جهود تهجير اليهود إلى فلسطين.

فكيف نفهم إقدام عبد الناصر وقادة ثورة يوليو - وهم المهمومون بمحو عهد الملك السابق وكل من ارتبط به. والانتقام لهزيمتهم على يد إسرائيل عام ١٩٤٨ - على جعل مطربة «يهودية» تطاردها الشائعات التى تشكك فى ولائها لبلادها، نجمة لحفل عيد الثورة الأول عام١٩٥٣؟.

صحيح أن ليلى مراد كانت قد أعلنت إسلامها من قبل، وأن الشائعات حول دعمها للوكالة اليهودية تم نفيها. غير أن فكرة الربط بين اليهود وإسرائيل كانت فكرة شائعة لدى المصريين خاصة جماعة الإخوان التى كانت تستخدم فى أدبياتها تعبير «اليهود» بدلا من الإسرائيليين فى حديثها عن الحرب وظروف اندلاعها لذلك كان من الغريب فعلا أنه يقبل قادة ثورة يولية - وكان أغلبهم متأثرا بفكر هذه الجماعة - تنصيب ليلى مراد كمطربة الثورة!! والتفسير المحتمل لهذه الخطوة لا يخرج عن أحد احتمالين:

الأول : أن عبد الناصر كان يدرك صعوبة إزاحة أم كلثوم عن عرشها ما لم تكن هناك منافسة لها.

الثانى: عبد الناصر لم يختر ليلى مراد فقط لكى تنافس أم كلثوم وتقضى على شعبيتها بل ربما فكر أيضا فى استخدامها لسبب سياسى، يتلخص فى إرسال رسالة غير مباشرة إلى إسرائيل مؤداها أن مصر لا تكن عداء لليهود بدليل اختيار الثورة لمطربة يهودية الأصل لتكون معبرة عنها (ربما اكتشف عبد الناصر دبلوماسية «البنج بونج» قبل هنرى كيسنجر الذى استخدمها عام ١٩٧١ فى الصين).

إن كلا الاحتمالين كان لهما ما

يدعمهما، فالأول كان مرجحا بحكم شخصية عبد الناصر الشمولية وسياسة الثورة فى أيامها الأولى، والثانى لا يمكن استبعاده لأن الفترة القصيرة التى تلت قيام الثورة شهدت اهتماما ملحوظا من جانب رجالها للتودد إلى اليهود المصريين، و كما يذكر «د. على شلش» فى كتابه «اليهود والماسون فى مصر» (زار الرئيس محمد نجيب الطائفة اليهودية.. ومدارسها وأثنى على وطنية اليهود المصريين، كما تم اختيار المحامى اليهودى زكى عريبى فى اللجنة التى تشكلت لوضع دستور جديد للبلاد عام ١٩٥٢)، أيضا تذكر د. نادية سراج الدين فى بحث بعنوان «المساعى الأمريكية البريطانية لتحقق السلام فى الشرق الأوسط ١٩٥٤ - ١٩٥٦» أن عبد الناصر أبدى مرونة فى التعامل مع المشكلة الإسرائيلية.

لا أحد يدرى بالضبط ماذا كان يريد عبد الناصر ولكن المثير فى الأمر أن عودة أم كلثوم إلى الغناء مرة ثانية قد أعقبها اختفاء ليلى مراد واعتزالها الفن عام ١٩٥٥ وهى فى أوج تألقها، حيث لم تكن قد بلغت السابعة والثلاثين من عمرها عندما اتخذت قرار الاعتزال!!


أنور وجدى


صلاح جاهين

لقد أعلنت ليلى مراد أنها اعتزلت الفن لوفاة زوجها أنور وجدى.. إلا أن هذا المبرر يبدو غير قوى أو غير كاف لدفع نجمة متألقة للاعتزال خاصة أن خلافاتها مع أنور وجدى بسبب علاقاته النسائية وزواجه بعد ذلك من النجمة السينمائية «ليلى فوزى»، ومن غير المعقول أن تكون خلافاتهما بمثل هذه الحدة ثم تعتزل ليلى مراد الفن حزنا عليه!!

فهل كانت هناك أسباب خفية وراء اعتزال ليلى مراد، مثل أن تكون أم كلثوم قد اشترطت ذلك بعد عودتها للغناء؟ وهل كان ثمن ذلك أن قامت أم كلثوم بالغناء للثورة على مدى أربع سنوات كاملة (١٩٥٤ - ١٩٥٨) أغنيات وطنية، دون أن تقدم أى أغنية عاطفية (كما يقول فيليب فيجرو)؟

على أية حال عادت أم كلثوم للغناء مرة ثانية ولكن هل عنت عودتها تلك، أن علاقتها بعبد الناصر

قد أصبحت جيدة؟ فيما يبدو لم تنس أم كلثوم ما فعله بها عبد الناصر سواء بمنعها من الغناء أو اختيار مطربة أخرى لتحل محلها في احياء عيد ميلاد الثورة الأول، فهو الذى أعطى للمطرب الشاب - آنذاك - عبد الحليم حافظ الفرصة ليصبح نجم الشباب الأول وتدريجيا انكشف الستار عن المنافسة الحامية بين أم كلثوم وعبد الحليم حافظ والتى تشابكت خيوطها مع الصراع الدائر من أعلى بين عبد الناصر ونائبه عبد الحكيم عامر. وبدا واضحا أن عبد الناصر يقف بقوة خلف عبد الحليم، بينما وقف عبد الحكيم عامر خلف أم كلثوم. وعندما اصطدم عبد الحليم بأم كلثوم فى إحدى الحفلات المشتركة بينهما وأعلن على الهواء أن أم كلثوم قد تعمدت أن تطيل فقرتها الغنائية حتى تقلل من قدره حين يغني بعدها ويكون الجمهور أغلبه قد انصرف، غضبت أم كلثوم غضبا شديدا. وتدخل المشير عبد الحكيم عامر وأصدر أمرا لعبد الحليم بالاعتذار لها وإلا قام باعتقاله!!

وهنا تدخل عبد الناصر لحماية عبد الحليم، وقرر أن يجعل أم كلثوم هى نجمة حفل عيد الثورة بينما يكون عبد الحليم «منفردا» هو نجم حفلة عيد تأميم قناة السويس.

والملاحظ أن أم كلثوم لم تغن لعبد الناصر نفسه كثيرا، وكانت أغلب أغانيها الوطنية بعيدة عن ذكر اسمه مباشرة، بينما كان عبد الحليم يتعمد إضافة اسم «ناصر» الى الاغانى حتى وإن لم يكن المؤلف قد ذكر «ناصر» فيها، كما حدث مثلا فى أغنية «صورة» التى غناها عام ١٩٦٥ (من كلمات صلاح جاهين) والغريب أن أغانى أم كلثوم الوطنية لم تلق نجاحا كبيرا مثل تلك التى لاقتها نفس النوعية من الأغانى التى انطلقت من حنجرة عبد الحليم حافظ، وغالبا ما ظهرت الأغنيات الوطنية لأم كلثوم باهتة ولم تعش فى وجدان الناس على الاطلاق فهل كان ذلك بسبب عدم حماسها للثورة؟ أم لأنها ظلت متأثرة طيلة حياتها بما فعله بها ثوار يوليو فى بداية حكمهم؟.

ظلت أم كلثوم قادرة دوما على الصمود اعتمادا على شعبيتها الجارفة وتأييد عبد الحكيم عامر لها. ويذكر الكاتب الصحفى الراحل مصطفى أمين

فى كتابه «مسائل شخصية» (أنه عندما دخل السجن عام ١٩٦٥ كانت أمواله موضوعة تحت الحراسة وكان جميع اصدقائه يخشون زيارته أو تقديم أى مساعدة له خوفا من غضب عبد الناصر، إلا أن أم كلثوم وحدها هى التى كسرت هذا الخوف، فعندما ارسل لها مصطفى أمين رسالة عبر وسيط لتقرضه مائتى جنيه لشراء طعام خاص بدلا من طعام السجن الرديء ارسلت له أم كلثوم ٥٠٠ جنيه كاملة، وأبدت استعدادها لإمداده بأى أموال يحتاجها، ويقول مصطفى أمين أيضا إنه علم بعد ذلك أن أم كلثوم حاولت تخليصه من تهمة التجسس التى أدين بها، فعقب يومين فقط من اعتقاله كانت فى جلسة ضمتها مع عبد الوهاب والرئيس عبد الناصر وعبد الحكيم عامر، وقال عبد الناصر للموسيقار عبد الوهاب «طبعا انت زعلان على صاحبك مصطفى أمين».

فرد عبد الوهاب على الفور (أبدا يا فندم.. المسيء لازم ياخذ جزاءه). والتفت عبد الناصر إلى أم كلثوم وكرر نفس التعبير فردت أم كلثوم (أنا أعرف مصطفى أمين طول حياته، أعرف وطنيته، وأعرف كيف دخل كل مليم أخبار اليوم)، ويضيف مصطفى أمين أن عبد الناصر غضب من أم كلثوم، وأشاح بوجهه بعيدا عنها، فيما كانت هى تواصل دفاعها. وفيما بعد سعت لدى عبد الحكيم عامر لاقناع عبد الناصر بالإفراج عنه.

وحينما وقعت هزيمة يونية عام ١٩٦٧ أعلنت أم كلثوم اعتزالها الغناء، ثم عدلت عن القرار (كما تذكر د. رتيبة الحفنى فى كتابها: أم كلثوم معجزة الغناء العربى)، وقد قالت أم كلثوم فى حينها إنها فقدت شهيتها للغناء بعد الهزيمة وعادت فقط من أجل أن تضع صوتها فى خدمة المعركة. ورغم أن الكاتب الصحفى محمد حسنين هيكل يرى أن أم كلثوم فقدت رغبتها فى الغناء بعد وفاة عبد الناصر عام ١٩٧٠، فإن ذلك الرأى لا يتسق مع حقيقة أن أم كلثوم لم تتوقف عن الغناء حتى اللحظة الأخيرة من حياتها وقدمت عدة أغنيات ناجحة فى الفترة التى عاشتها فى ظل الحقبة «الساداتية» وعلى أى حال كان اختلاط الفن بالسياسة أمرا شائعا فى العالم الحديث، ولم تكن مصر خارج هذه الظاهرة، وربما تكشف مذكرات ووثائق لم تظهر بعد جوانب العلاقة بين عبد الناصر وأم كلثوم. ■



لعبة الشطرنج وانفجار العالم

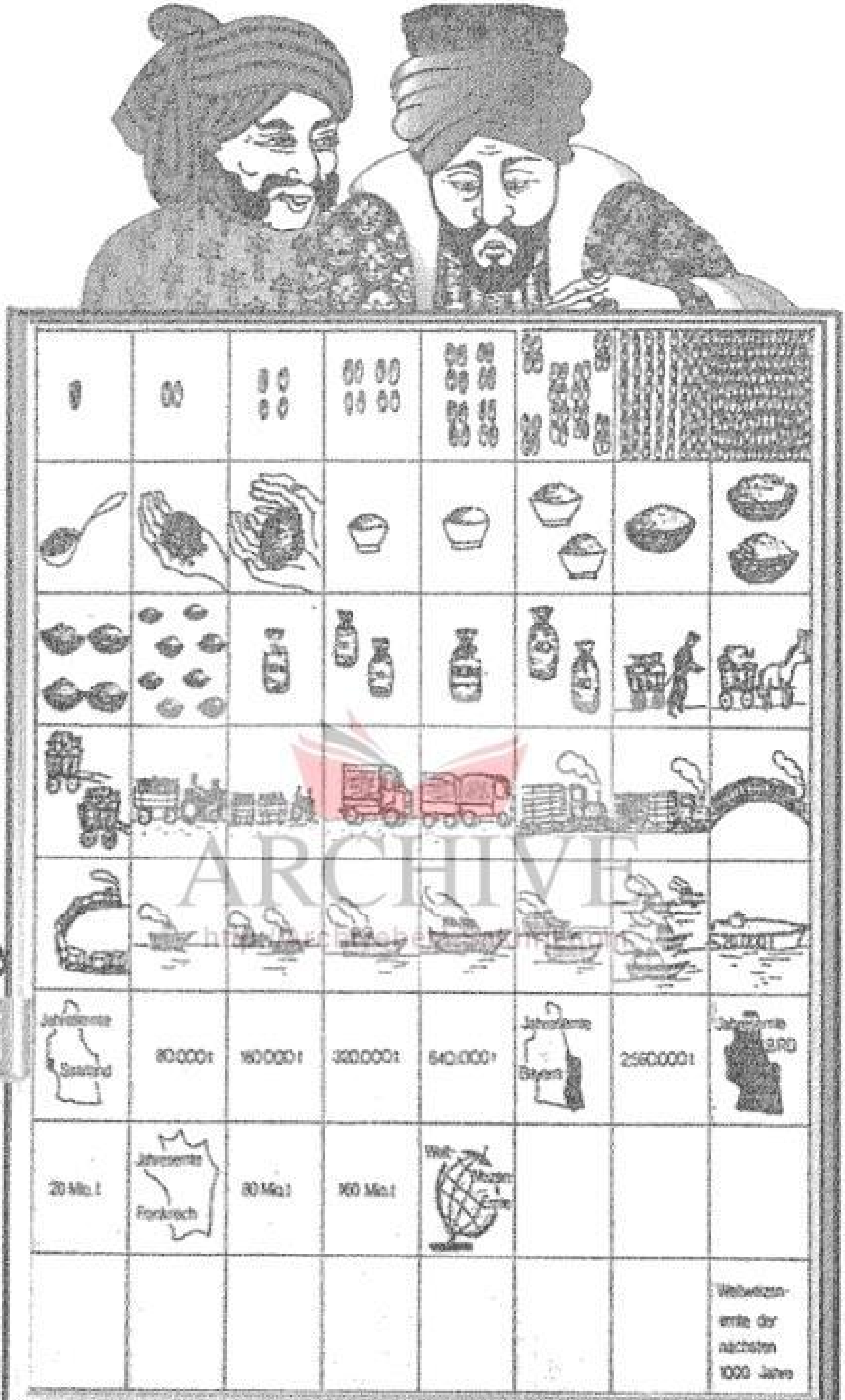
بقلم
د. سيد كريم

الاسطورة الهندية التى تنبأت بنكبات العالم

تحكى الأسطورة التى ترجع إلى ٢٥٠٠ سنة أن حكيم البراهمة فى الهند القديمة «أسيسا» ابتكر لعبة الشطرنج المعروفة وحملها ليقدمها هدية إلى الملك شيرام .

عندما شاهدها الملك انبهر بها وولع بها ولعا شديدا ، ومن فرط إعجابه بها أمر بأن يكافأ الحكيم بتلبية أية رغبة بطلبها مهما كان قدرها .

تقدم الحكيم «أسيسا» وقال بتواضع تام إنه لا يطلب من الملك أكثر من حبة واحدة من القمح توضع فى الخانة الأولى من خانات لوحة الشطرنج الأربعة والستين التى ابتكرها ثم يوضع له فى كل خانة من الخانات التالية ضعف عدد الحبات التى وضعت فى الخانة التى تسبقها .


Saarland
80.000 t
160.000 t
320.000 t
640.000 t
Jahresernte
Bayern
2.560.000 t
Jahresernte
BRD
20 Mio. t
Jahresernte
Frankreich
80 Mio. t
160 Mio. t
Welt-
Weizen-
Ernte
Weltweizen-
ernte der
nächsten
1000 Jahre



وقد سر الملك شيرام من رجاحة عقل الحكيم البراهمي وقناعة طلبه فأمر بتلبية رغبته وطلبه فورا فاحضروا له وعاء كبيرا مملوءا بالقمح وترك له ملء الخانات بحبات القمح وفقا لرغبته . فعندما وصل إلى نهاية الصف الأول كان الوعاء قد فرغ بما يحويه لتبدأ أول خانة من الصف الذى يليه بملء وعاء كامل من القمح يتضاعف عدده بالتوالي حتى بلغ حجم ما يوضع في خانة آخر الصف حمولة عربة كاملة، وتوالي نقل القمح بالعربات حتى فرغ كل ما كان موجودا بمخازن الملك . وعندما علم الملك بنفاده أمر رجاله بحمل القمح الموجود بمخازن الدولة حتى لا يتراجع عن تلبية رغبة الحكيم . وهكذا استمر نقل قمح المخازن إلى لوحة الشطرنج إلى أن اكتشفوا بأنها لن تكفى لتغطية نصف خانات اللوحة ولن تكفى تغطيتها جميع ما تنتجه مزارع الدولة وأن تغطيتها بالكامل سوف لا يكون فيه خراب الدولة بأكملها بل سيتعداه إلى خراب العالم بأكمله .

فبحساب كمية القمح التى بدأت بحبة واحدة من القمح فى المرحلة الأولى لتخضع للتضاعف المركب نجد أن حجمها سيصل فى آخر الأمر أى فى الخانة الرابعة والستين إلى ٤٠٠ مليار طن من القمح .. أى ما ينتجه العالم فى ألف عام.

● إن تلك اللعبة الماكرة مازالت تحتل مكانها المرموق فى جميع أنحاء العالم الحديث وتلعب أصابعها لتسيطر على كيان اقتصادياته . لم يتعلم الإنسان من تبعات مصيرها فيستمر فى الوقوع فى أخطائها .

إن جميع المشاكل التى تعترض حياة الشعوب فى عالم اليوم وما يتبعها من انفجارات سكانية أو بيئية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية تخضع لأصابع الشطرنج والتضاعف المتصاعد والمركب لاحصائيات معدلات نتائج حساباته .

الزيادة السكانية

● إن الزيادة السكانية التى تفجرت فى كثير من دول العالم ماهى إلا صورة تعكس دورة زيادة كميات حبات القمح على لوحة الشطرنج . تلك الزيادة المتضاعفة والمركبة التى فجرت كيان الدولة وخربت اقتصادها



واستنفدت مواردها قبل أن تصل اللعبة إلى نهايتها.

لقد تضاعف سكان العالم خلال قرن واحد من الزمان انتقل فيه عدد السكان من نصف مليار ساكن إلى مليارين خلال قرن واحد وإذا استمرت معدلات النمو على حالها فسيصل عدد سكان العالم إلى ستة مليارات في نهاية القرن الحالي . تبعا لتلك الكثافة السكانية المتزايدة وعلاقتها بمساحة الأرض المتناقصة فقد قدر علماء البيئة أنه بنهاية عام ٢٥٠٠ سيحتل كل متر مربع واحد من الأرض خمسون شخصا .

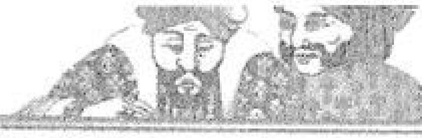
كما أن للانفجار السكاني دورا هاما في البناء الاجتماعي والنظام السياسي وارتباطهما بالقيم الإنسانية للشعوب .

بدخول الزيادة السكانية في دوامة لعبة الشطرنج بدأت آثار تخريبها تظهر في منتصف الطريق بدأت بتلوث البيئة الذي امتدت آثاره من الأفراد إلى المجتمعات إلى الشعوب إلى العالم أجمع حتى بدأت الجهود العالمية إلى التكاتف لمواجهة أزمة البيئة الإنسانية المرتبطة الحلقات، وما أفرزته انفجاراتها من ضروب متنوعة من تلوث الهواء والماء والتربة فتلوث البيئة على اختلاف عناصر تكوينها تخضع مسبباته إلى نفس نظرية التضاعف المركب لتطورها، فالزيادة المركبة لعدد السيارات في المدن الكبرى على سبيل المثال تتضاعف كل خمس سنوات بالإضافة إلى انكماش مساحات الشوارع وطرق المرور والانتظار مما يساعد على بطء الحركة ومضاعفة مسافات الانتقال مما يساعد على زيادة افرازات عادم السيارات إلى ضعف معدلها الطبيعي المرتبط بعدد السيارات .

● إن التلوث المرتبط بعادم السيارات لا يتوقف عند تلوث هواء جو المدينة وآثاره المباشرة على الصحة العامة وكل ما يرتبط بالتنفس والأمراض الصدرية والجلدية بل يمتد إلى تلوث السمع بالضوضاء والبصر بالغازات . كما يمتد أثره إلى طاقة العمل وتلوث الوقت والدور السلبي لكل منهما في الإنتاج والاقتصاد العام .

ثورة صناعية عالمية

● إن الثورة الصناعية العالمية ثورة التنافس والسباق في الإنتاج دخلت بدورها في دوامة لعبة الشطرنج . انتقل التنافس في الإنتاج من سد الحاجات المحلية للشعوب التي تغطي احتياجات المواطنين إلى إغراق الأسواق العالمية بمختلف



الوسائل المشروعة وغير المشروعة بأضعاف احتياجاتها وتخزين مالا يمكن تصريفه مما يعمل على تخريب اقتصاديات الإنتاج . إن أخطر مافي اللعبة هو العمل على استنزاف مصادر الخامات لتساير عجلة التصنيع وفي مقدمتها خامات النحاس والفضة والكروم والقصدير والفحم والبترول وإدخالها في دوامة اللعبة ، وقد قرر خبراء المناجم والبترول أن مخزون تلك الخامات الرئيسية تبعا لدورة استنزافها المركب ستقضي عليه وينفذ قبل مرور قرن واحد من الزمان. سوف لا يكون فيه خراب الدول الصناعية التي تستهلك تلك الخامات بل ستتبعها الدول النامية التي تعتبر تلك الخامات عماد ثروتها القومية .. ورأس مالها الوحيد .

إن استغلال مصادر الخامات ومنابع الطاقة واستنفادها بالتصاعد المركب سيعجل بالكارثة ولا يترك ما يعمل على تمويل احتياجات الأجيال القادمة .

● إن مباريات التنافس الصناعي افرزت أخطر عوامل تلوث البيئة التي تتمثل في مخلفات المركبات الكيماوية والبيولوجية والبلوتونية بأنواعها بالإضافة إلى مخلفات المفاعلات الذرية والتي بلغت خطورتها إلى تدمير الغلاف الجوى بثقب الاوزون وما ترتب عليه من مفاجآت في أعراض التلوث أثارت حيرة علماء البيئة وخبرائها . بدأت بانتشار الأمراض السرطانية للجلد وامتدت إلى مختلف أجزاء الجسم ويحاول البعض كشف العلاقة بينها وبين مرض الايدز الذي لم يكن له وجود في العالم قبل ظهور ثقب الأوزون .

وليس من المستبعد اكتشاف العلاقة بين التلوث الناتج من ثقب الأوزون وارتفاع درجة حرارة الأرض وما صاحبها من ذوبان الجليد والطوفان القادم من ارتفاع منسوب البحار والمحيطات وما صاحب التلوث من سلسلة من الظواهر الطبيعية المدمرة كالزلازل والبراكين والفيضانات والجفاف وحرائق الغابات والتي بدأت تعمل بنشاط غير طبيعي وحدوث غير متوقع في مختلف أنحاء الكرة الأرضية .

كما أن حجم النفايات المتصاعد بدرجة مذهلة والتي تحاول الدول الغنية التخلص منها بتصديرها إلى الدول الفقيرة والنامية مع علمها بالآثار المدمرة لتلك النفايات للتربة والمياه الجوفية التي تغذي الآبار وما يعيش عليها من أحياء



وكائنات ونبات ولن تنجو من عواقبها واخطارها البلاد المصدرة لها .

● نموذج آخر للعبة الشطرنج الهندية ودورها في تصعيد مختلف التلوث الذى انتقل من تلوث البيئة إلى تلوث الاقتصاد والتلوث السياسى للعلاقات الدولية بين أطراف اللعبة . يتمثل ذلك النموذج في مباراة سباق التسلح وصراع التنافس على تصعيد إنتاج أسلحة الدمار الذرية والهيدروجينية والكيماوية والبيولوجية والتى تستنزف نصف الميزانية السنوية لكل من طرفى المواجهة فى المباراة حتى بلغ المخزون لديهما ما يكفى لتدمير الكرة الأرضية وفناء البشرية بأكملها أربع مرات.

وحاول كل من طرفى اللعبة تعويض بعض خسائره بتصدير الفائض الذى فقد مفعوله إلى الدول النامية والعالم الثالث وهو ما ساعد على خراب كل منها وهى تلعب بنار الأسلحة التى استبدلتها بطعامها .

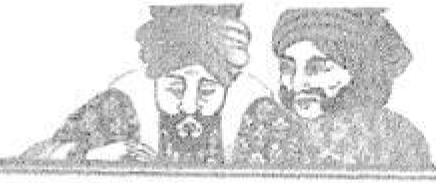
● بينما الدول التى خرجت من الحرب العالمية الأخيرة خاوية الوفاض وحرمت من المشاركة في لعبة التسلح ، فقد اكتفت بالفرجة على اللعبة وخرجت منها وقد أصبحت من أغنى دول العالم بل وأصبح اقتصادها يهدد اقتصاد ابطال اللعبة وفى مقدمة تلك الدول ألمانيا واليابان .

وقد تركزت جهود كل منهما على استبدال التصنيع الحربى المستهلك للاقتصاد العام بالتصنيع المدنى المنمى للاقتصاد وهكذا احتلت كل منهما مركز الصدارة بين الدول الصناعية المنتجة وصعد ميزانها التجارى ليرفع مستوى قوة عملتها حتى بلغت خلال ربع قرن وهو الطول الزمنى لشوط المباراة خمسة أمثال قيمة الدولار والروبل اللذين اهتزت قيمتهما أمام مستوى النقد العالمى فى عدة دول وهو ما انعكس على عملة كثير من دول العالم الثالث التى اشتركت في لعبة التسليح .

لعبة القروض على لوحة الشطرنج

● إن الانفجار الاقتصادى العالمى المرتبط بلعبة القروض ودورها فى تلوث اقتصاديات الاستثمار وانهيار عناصره يشبه الانفجار السكانى ودوره فى تلوث البيئة وانهيار كيان المجتمعات .

إن القرض الذى يحصل عليه المستثمر فردا كان أو شركة .. أو دولة يطلب منه فى سبيل الاحتفاظ بالقرض أن يتحمل دفع فوائد دورية يبدى ظاهرها براءة حبة



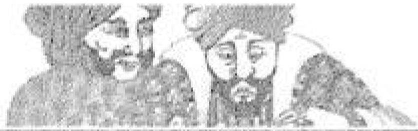
القمح المنفردة ويخفي باطنها عوامل انفجارها بتضاعف حجمها المركب فيعجز عن تكملة اللعبة التي يكون فيها خرابه كما توقف الملك الهندى عن الاستمرار فيها بعدما قضت على ثروة بلاده .

فالحاصل على القرض الذى يواظب على تسديد ما يطلب منه كل عام من رسوم وفوائد وضرائب معقدة ومركبة يكتشف فى نهاية الأمر أنه قد قام خلال بضع سنوات بتغطية قيمة ما يوازى قيمة القرض عدة مرات مع بقاء مديونية قيمة القرض على حاله وعليه أن يرده بالكامل . لقد تعرضت كثير من شركات الاستثمار فى العالم إلى إعلان افلاسها بعدما اكتشفت أن عائد دخل المشروع بأكمله لا يكفى لسداد فوائد القرض وحدها لا القرض نفسه .

● فى المجال السياسى تعتبر لعبة القروض أذكى وسائل الاستعمار التى حلت محل الاستعمار العسكرى الذى كان سائدا قبل الحرب العالمية الأخيرة ليحل محله الاستعمار السياسى فى أعقاب ثورات التحرير بالانقلابات العسكرية والانتماءات العقائدية التى خربت كيانها الاقتصادى والاجتماعى . وتفتحت الأبواب ليعود المستعمر القديم بسلاح سلمى جديد اطلق عليه «سلاح الاحتلال بالقروض» .

ظهرت القروض فى البداية بأحد وجهيها على صورة معونات اقتصادية وقيود ميسرة لا ترد ثم كشفت عن الوجه الآخر بتقديم قروض مخفضة تتضاعف نسبة فوائدها المركبة تبعا لزيادة الطلب والحاجة الملحة للحصول عليها لسد العجز المتزايد فى اقتصاديات الشعوب المستعمرة بالقروض التى أدت إلى تفجر ثورة أزمة القروض العالمية التى يشهدها العالم اليوم بين الدول الدائنة ودول العالم الثالث المدينة والتى انهار اقتصادها بتراكم الديون والقروض . ولا يختلف موقف الدول المدينة فى لعبة القروض العالمية عن موقف الملك الهندى أمام ماهو مطالب بتسديده للحكيم أسيسا مالك القروض .

● ثورة عالمية جديدة اطلق عليها النظام العالمى الجديد . بدأت عندما فوجئ العالم الحر بخطورة اللعبة التى اعتادت على ممارستها الدول الكبرى فى مباريات تنافسها فى مختلف برامج تنمية نشاطاتها الصناعية والاقتصادية والاجتماعية وما أفرزته تلك المباريات من نتائج مدمرة للكيان الاجتماعى



والاقتصادى بل والسياسى لتلك الدول. فالنظام العالمى الجديد كما يعلن عنه قصد به التعاون المشترك بين جميع دول العالم على تفاوت مستوياتها البيئية والاجتماعية واختلاف أوضاعها السياسية والبيئية والاقتصادية والثقافية . تعاون عالمى ثقافى مشترك يعمل على تنقية البيئة العالمية من أدرانها المتوارثة فيستفيد من تجارب الماضى ويتفادى اخطاءه تعاون مشترك يعمل على بناء مجتمع حضارى موحد بتوحيد كيانه الاقتصادى بالثقافة الاقتصادية المشتركة والأسواق المشتركة والعملة النقدية الموحدة .

● سؤال يفرض نفسه : هل سيتحرر الوعى الكونى الجديد عند صياغة المجتمع العالمى فى ظل نظامه الجديد من قبضة اللعبة المدمرة وآثار انفجارها ؟

لقد بدأ الوعى الكونى الجديد يبرز فى موضوع تلوث البيئة ووقف نزيف عناصر مسبباتها . كذلك فى وقف سباق التسلح والقضاء على الأسلحة الذرية والكيماوية وغيرها من أسلحة دمار البشرية .

كما بدأ خبراء النقد والاقتصاد العالمى فى عقد المؤتمرات المشتركة فى محاولة إصلاح نظام النقد والبنوك والاقتصاد العالمى .

لقد اجمع خبراء البيئة والاقتصاد عند مواجهة أى مشكلة من تلك المشاكل المعقدة والمزمنة إن إصلاح مسارها يجب أن يبدأ بإخراجها من دوامة لعبة الشطرنج الهندية .

وردة النيل .. ولعبة القمح .. ولعبة الشطرنج

● إن وردة النيل التى قدسها المصريون القدماء كما قدسوا حبة القمح . الوردة انبهر المصرى بجمالها وهى تختال وحيدة على سطح نهر النيل كما انبهر الملك الهندى بحبة القمح الوحيدة وهى تتحرك على لوحة الشطرنج، فوردة النيل هى صورة حية للعبة الشطرنج . فسرعان ما تتكاثر الزهرة ويتضاعف تكاثرها وهى تنتقل من منطقة إلى أخرى على سطح الماء كما تتكاثر حبة القمح فى تنقلها من خانة إلى أخرى على سطح اللوحة . فإذا بوردة النيل قد غطت بتكاثرها سطح النهر بأكمله لتصيبه بالشلل الذى يعرقل الملاحة وتلوث بيئة النهر وماءه وهواءه وحياة كائناته . ■


هجاء القرن العشرين

شعر

د.هيثم الحويج العمر

دمشق

بقرن واحد مليون حرب ... لماذا جئت يا قرن الجنون؟

لقد لوثت بيئتنا وصرنا ... كأسراب الجراد من الشجون

نفتش عن مياه ليس فيها ... سموم بين أهداب العيون

وعن بقر لنأكله سليم ... بلا خوف من المرض اللعين

وعن بحر نقى لم يلوث ... بنفط أو بأسطول وهُون «١»

ضجيج حولنا من كل صوب ... دخان يشتهى رئة الجنين

لماذا جئت كهربة وسمّا ... وكنا قبل ذلك فى هُدون؟«٢»

نحاور ماءنا الصافى ونلقى ... على الأنهار أقمار الحنين

بهذا القرن «هتلر» جاء وغدا ... وقال أنا إله فاعبدونى

ودمرت القذيفة «هيرشيما» ... بيوم أرجوانى حزين

ومن ينسى فلسطينا غزتها ... قريظة بعد وعد من خدين«٣»

بهذا القرن أمسى الناس أسرى ... تعذبهم سجون من رتين

تعقدت الحياة ورب عيش ... بسيط مثل عيش الياسمين

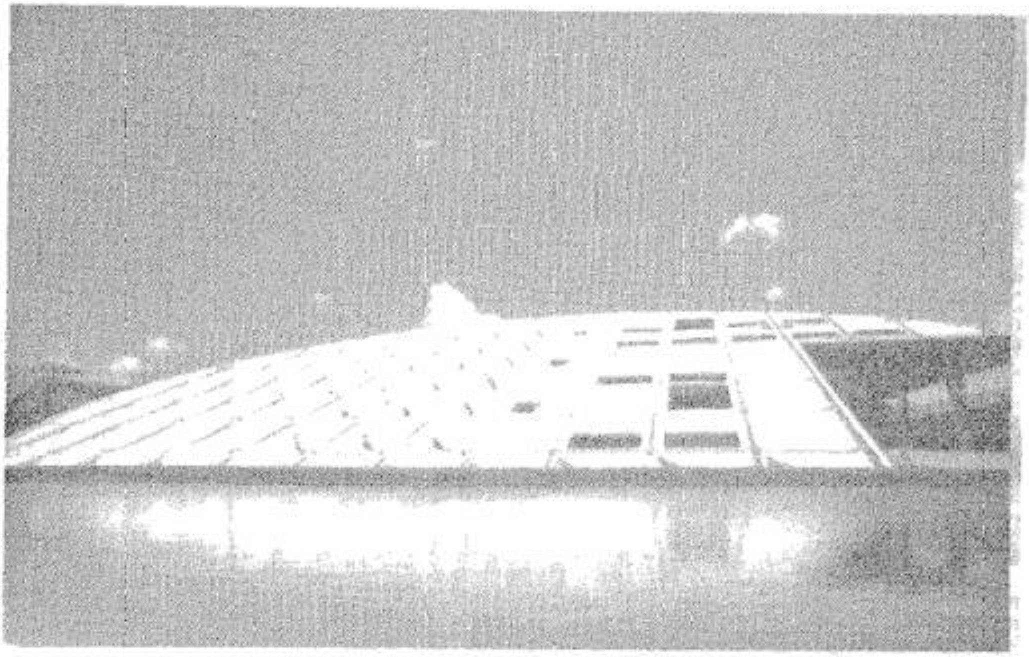
ينير الروح ، يجعلنا نجوما ... تفتش عن صدى لحن جنون

وكم مرض جديد صار سيفا ... برأس العلم جاء من المجون

صحيح أننا زرنا الثريا ... ودسنا جبهة القمر الرزين

ولكن الضريبة دمرتنا ... خسائرنا ملايين الغصون

١- هون : ذل . ٢- هدون : سكون . ٣- خدين : صاحب .



مكتبة الإسكندرية

تفتح أبوابها للثقافات العالمية

بقلم
عاطف مصطفى

شعبان ١٤٢٢هـ - نوفمبر ٢٠٠١م

● كوادر مدربة تذلل العقبات للباحثين ومعمل حديث لترميم المخطوطات والكتب.



بدأت مكتبة الإسكندرية ممارسة الأنشطة المقررة للافتتاح التجريبي عقب إعلان السيدة سوزان مبارك قرينة رئيس الجمهورية ورئيس مجلس أمناء المكتبة مساء الإثنين الأول من أكتوبر الماضي ولمدة ستة أسابيع وذلك في حفل كبير تم فيه تكريم عدد من الشخصيات التي ساهمت بجهد كبير ليتحقق هذا المشروع الحضاري الكبير. كما أقيمت ندوة الريشة والقلم، والتي ناقشت كلا من أعمال الأديب نجيب محفوظ والفنان التشكيلي صلاح طاهر، فضلا عن تكريم عدد من الفنانين من بينهم حسين بيكار ومحمد حامد عويس والناقد مختار العطار...

• لقاءات فكرية بين المثقفين والفنانين المصريين العالميين على مدار العام تأكيدا علي تواصل الحضارات.

ومكتبة الاسكندرية أقيمت فى نفس مكان المكتبة القديمة التى كانت تعتبر مركز إشعاع عالمي، فقد أسسها بطليموس الأول منذ ٢٣٠٠ سنة وتحديدا في ٢٨٨ ق.م، وكانت المكتبة القديمة مركزا لاجتذاب العديد من الشخصيات البارزة في العالم، وقد احترقت مكتبة الاسكندرية أول مرة سنة ٤٨ ق.م على يدي يوليوس قيصر، عندما لجأت إليه كليوباترة ليحميها من أخيها وزوجها في ذات الوقت بطليموس الثالث عشر، فقام قيصر بحرق أسطول بطليموس وامتدت النيران لتشمل المكتبة، واحترقت المكتبة مرة ثانية سنة ٣٩١م، وهذا دليل على أن العرب لم يقوموا بحرق المكتبة كما قيل، حيث أن حريق المكتبة كان قبل ظهور الاسلام بمائتى سنة.

مشروع إحياء المكتبة الجديدة

فى عام ١٩٧٤ نادى د.لطفى دويدار رئيس الجامعة الأسبق بضرورة إحياء مكتبة الاسكندرية.. وفي عام ١٩٩٨ وضع حجر الأساس بعد أن تمت الموافقة على مشروع إحياء المكتبة من خلال حكومة مصر ومنظمة اليونسكو، وفي فبراير عام ١٩٩٠ عقد اجتماع أسوان، حيث قامت السيدة سوزان مبارك بدعوة ملوك ورؤساء الدول، وتمكنت من خلال اتصالاتها أن تحصل على منح تصل الى حوالى ٦٥ مليون دولار وشعار المكتبة هو تحد للعصر الرقمي، ونافذة العالم والمنطقة على مصر، ونافذة مصر والمنطقة على العالم، فضلا عن تجهيزها لتكون مركزا للاتصالات عن طريق الانترنت.

وفلسفة مكتبة الاسكندرية كما يعلن مديرها د.اسماعيل سراج الدين أنها



اسماعيل سراج الدين

إحياء لروح المكتبة القديمة، وأنها بالإضافة لدورها فى التفاعلات الثقافية والعالمية تهتم أيضا بالندوات والمعارض الفنية.

وهى عبارة عن قرص شمس غير مكتمل الإشراق لاستمرار تدفق تجدد المعلومات، وتقع في مواجهة مجمع الكليات النظرية بالشاطبى وتطل واجتهها الشمالية على البحر، ونلاحظ أن قرص الشمس مائل بزاوية ميل ١٦.٥، بحيث يسمح بدخول الضوء المباشر للمكتبة فقط بلا ظل أو أثر للشمس، وتتكون من ١١ دورا منها أربعة أدوار تحت الأرض وسبعة فوق الأرض، وحائط المكتبة مبطن بالجرانيت الذى أتى به من أسوان، ويصل عدد أحجاره ٤٢٠٠ حجر، وزن الحجر الواحد ما يقرب من طن، وقد كتبت على هذه الأحجار أبجديات كل اللغات القديمة والحديثة، وأيضا الحروف الموسيقية.

وتضم المكتبة القبة السماوية وتحت القبة يوجد متحف للعلوم مساحته حوالى ٤٥٠ مترا مربعا.

كما تضم أيضا مكتبة للشباب ومكتبة للمكفوفين وأخرى للموسيقى وبها متحف العلوم الدائم، ومتحف المخطوطات ومعمل لترميم وحفظ الكتب والمخطوطات.

والمشروع فى حد ذاته وصلت تكلفته حوالى ٢٥٠ مليون دولار يثبت إلى أى حد مدى الاهتمام بالثقافة والمعرفة، ويشعرك

قصيدة البردة للبوصيري



ديوان سلامة بن جندل



وأنت تتجول داخل المكتبة بنوع من الزهو، وقد تطلق عليه بحق هرما رابعا ولكنه هذه المرة يبين كيف تحرص مصر على ثقافتها وتفاعلها الحضاري مع ثقافات البحر الأبيض وثقافة العالم أجمع.

المخطوطات.. سجل الحضارة

وأثناء الجولة داخل المكتبة توقفت طويلا عند قسم المخطوطات، خاصة عندما التقيت بالدكتور يوسف زيدان مدير المخطوطات والتزويد وهو أحد الجنود الذين بذلوا جهدا كبيرا لإعداد معرض المخطوطات، وكذلك لاستقبال كل الهدايا.. من الكتب والمخطوطات التي تصل إلى مكتبة الاسكندرية.

قال لي: إن الكتاب المطبوع يدل على ذاته بمجرد ظهوره والإعلان عن صدوره وبالتالي يمكن الوصول إليه.. أما المخطوطات فهو محتجب بذاته، تجده بدون غلاف، وبدون عنوان وبالتالي يحتاج إلى جهد علمي كبير لإبرازه، والفكرة المطبقة في التعامل مع المخطوطات في مكتبة الإسكندرية ليست مجرد أن المكتبة بها عدد كبير من المخطوطات لكن كيف يمكن تأسيس خطاب تراثي ومعرفة تراثية، خاصة في أمة مثل الأمة العربية الإسلامية التي لا يزال فكرها كله وكتاب حضارتها مجهول، لأن المخطوطات التي تمثل سجل الحضارة العربية الإسلامية لم ينشر منها حتى الآن إلا من ٥ - ٧٪ من مجموع التراث، وإذا كان هذا التراث محتجبا أكثر من ٩٠٪ منه في المخطوطات، وإذا كانت هذه المخطوطات لا تفصح عن ذاتها بسهولة، فتصبح القضية هي العمل العلمي المتعلق بالمخطوطات والدراسة الكاملة من عدة نواح.



يوسف زيدان

ومبنى مكتبة الإسكندرية يضم حوالى ستة آلاف مخطوط نادر جدا وهذه هي مجموعة بلدية الإسكندرية، يضاف إلى ذلك أن مكتبة الاسكندرية تتولى الاشراف الفني والاداري على مجموعتي مسجد أبي العباس المرسي، وتضم حوالي ٢٧٠٠ مخطوطة ومجموعة المعهد الديني بسموحة وتضم أيضا ١٨٨١ مخطوطة، والمجموعتان الأخيرتان، كانتا في القرون السابقة هما مكتبة الشيخ ابراهيم في المنشية، والذي كان يعد أزهر الاسكندرية طوال القرون الماضية.

ومن الطبيعي أن تجد فيها مخطوطات مهمة جدا، ومجمل المخطوطات الموجودة في الإسكندرية، والتي تتولى مكتبة الاسكندرية من خلالها العمل في تأسيس خطاب عليها تصل إلى حوالي عشرة آلاف مخطوطة، والعبرة هنا كما يشير الباحث التراثي يوسف زيدان ليست بالعدد، ولكن العبرة بمنهج وخطة التعامل التي تهدف إلى تأليف خطاب تراثي، انطلاقا من هذه المخطوطات، وهذا هو ما نفعله، حيث نقوم حاليا بعمل فهارس وقد أصدرنا حتى الآن تسعة فهارس عن مخطوطات الإسكندرية، سواء في مكتبة البلدية، أو مكتبة المرسي أبي العباس، أو في مكتبة المعهد الديني،

تاج العروس من جواهر القاموس لمؤلفه السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، ونسخ في شعبان ١١٨٠ هـ



كما يتم عمل لوحات مصورة للتعريف بالمكتبة، بالاضافة إلى عمل مكتبة رقمية لإتاحة النصوص الكاملة ونقوم بعمل تصفح تخيلي ويراه رواد المكتبة في القاعة التي تعرض فيها أندر المخطوطات، وبحيث يستطيع أي شخص تقليب صفحات المخطوط، كما لو كان هذا المخطوط موجودا أمامه ومتحف المخطوطات أيضا داخل مكتبة الاسكندرية، هو شكل من أشكال العناية بالتراث، لإبراز هذا المحتوى وتقديم خدمة لزوار المتحف من خلال المتخصصين في التراث، منذ الوهلة الأولى وبطريقة علمية منظمة.

• خطة طموح للاستفادة من المخطوطات النادرة.

لكن حينما نتوقف ونتساءل عن المنهج الذي تتبعه المكتبة وما يبذل من جهد حاليا ينصب على ما نسميه بالعملية التراثية، أو عملية تأسيس خطاب تراثي.

المنهج .. الإتاحة والتعريف والنشر

نجد أن الاهتمام ليس بكم ومحتوى الأشياء، لأن هناك بعض البلاد مثل تركيا تضم عددا هائلا من المخطوطات، ولكن العبرة بمعرفة هذا التراث ونادرا ما يحدث في بعض البلاد.

يبدد حيرتي د. زيدان ليؤكد أن المنهج هو الإتاحة والتعريف والنشر ويقول: نحن بصدد عمل نشر متعدد اللغات في بعض النصوص التراثية المهمة، ونعد حاليا نصا لابن الهيثم هو «رسالة في ماهية الأثر الذي يبدو على وجه القمر»، بحيث يكون الكتاب المنشور مشتملا على صورة طبق الأصل المخطوطة، ثم النص العربي المحقق لها، ثم الترجمة بالانجليزية والفرنسية وكل هذا يتم في كتاب واحد، وكل كتاب يصدر عن المكتبة يكون بهذا الطريقة بحيث يمكن عمل مثاقفة مع العالم كله.لأننا غير معنيين بعملية تعريف الذات بالذات وهو ما يعني أن المكتبة سوف تكون نافذة لمصر على العالم والعالم على مصر.

ويستفيد الباحث الذي يدخل قسم المخطوطات من حوالي ستة آلاف مخطوط نادر جدا، فضلا عن مصورات فيلمية، ومن المخطوطات المهمة مخطوطات الأسكوريال والتي أهدتها الملكة صوفيا إلى مكتبة الإسكندرية،فضلا عن عدة مخطوطات متنوعة موجودة على ميكروفيلم.

وحرصت إدارة المكتبة على تدريب مجموعة من الكوادر لكي تقدم خدمة اضافية، لأن الباحث في مختلف المجالات التراثية يحتاج إلى اجابات محددة وخاصة ومتخصصة، وفعلا نجحت ادارة المكتبة في تكوين هذه المجموعة المؤهلة والمدربة لإرشاد ومساعدة الباحثين في مجالات بحثهم المختلفة، ومعظمهم تدربوا داخل الاسكندرية كما تدرب عدد آخر من خلال بعثات الى أوروبا على كيفية الحفاظ على الوثائق والخرائط والمخطوطات المعرضة للخطر، واستطاعوا خلال الفترة الماضية تحقيق نجاحات في معالجة وترميم مجموعة كبيرة من المخطوطات والخرائط والوثائق.

وفي إدارة المخطوطات يتوفر معمل للترميم به أحدث أنواع التكنولوجيا المعمول به في المكتبات العالمية، ومعمل رقمي يتم فيه تحليل الأصول المخطوطة والأشياء النادرة إلى صورة رقمية، كما

يوجد بالمكتبة معمل للميكروفيلم يتولى عمل كتالوجات للمصورات الفيلمية، ويتولى تنظيم عملية الاطلاع عليها.

وتضم المكتبة صوامع للباحثين، وقد تستغل كقاعات مصغرة بين الأستاذ وتلاميذه، وأيضا هناك صومعة تضم باحثا واحدا يقوم بعمل بحثه لرسالة الماجستير أو الدكتوراة.

الإهداءات من كل مكان

وتضم المكتبة حاليا آلاف من الكتب المهمة التي وصلت كإهداءات من شخصيات بارزة ودول ومؤسسات كبرى، بعضها كتب نادرة وبعضها مقتنيات خاصة.

وآخر ما وصل إلى المكتبة قبيل الافتتاح التجريبي مباشرة مجموعة كتب لورانس داريل صاحب «رباعيات الاسكندرية»، وأهدتها زوجته إيفاداريل، وتحرص المكتبة على أن يوضع اسم المهدى على كل كتاب أهداه الى المكتبة من الداخل، بحيث يظل هذا شاهدا للتاريخ، كما تسجل الاهداءات فى سجلات المكتبة باسم هذا المهدى سواء أكان كتابا أم مخطوطا، أو أى شئ أثرى ذا قيمة.

وقد تلقت المكتبة حتى الآن ٨٢ ألف كتاب من هذه الإهداءات، بعضها في شكل مجموعات ضخمة من دول مثل فرنسا واسبانيا وبعضها من أشخاص من أهمهم على سبيل المثال د.هنرى أمين عوض، حيث قدم مكتبة بها مجموعة مهمة جدا من الكتب النادرة، كما أهدى د. مصطفى العبادى وزوجته د.عزة كراره كتابين من أوائل المطبوعات: كتاب تاريخ عصره.. وطبع سنة ١٥٧٥م فى جزءين ووضعته المكتبة فى متحف الكتب لأنه من أوائل المطبوعات، والكتاب الثاني هو «مجموعة القوانين التي سنها الإمبراطور جستنيان».. وهو من الكتب القديمة كما أهدى د. محمد عوض أستاذ الهندسة إلى مكتبة الاسكندرية السجل المصور لافتتاح قناة السويس ود. اسماعيل سراج الدين أهدى المكتبة كتاب «الفن العربي» ضمن مجموعة كبيرة من الكتب. وهذا الكتاب مهم في بابه. ومازالت الاتصالات تتوالى للتبرع بالكتب، وهذه المجموعات المتنوعة كما يقول د. يوسف زيدان تمثل أحد المصادر الأساسية لتزويد المكتبة

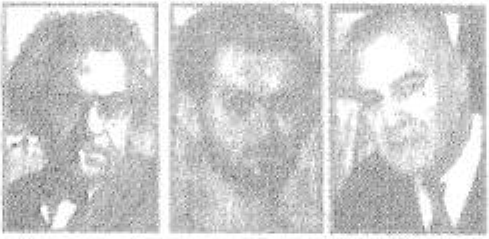
***

وحلم مكتبة الاسكندرية بدا حقيقة لسها كل الذين زاروها منذ بدء التشغيل التجريبي، وأصبحت منارة تشع الثقافة والمعرفة ويشير إلى ذلك الدكتور مفيد شهاب الدين وزير التعليم العالي والبحث العلمي بقوله: الآن تطور مفهوم المكتبة، وهي تتحول أكثر من أنها مكتبة لتصبح مركزا ثقافيا وذلك من خلال وضع برامج ثابتة وخطط حديثة لنظام المحاضرات من كبار العلماء في العالم، فضلا عن الندوات التي تجمع علماء من عدة جنسيات حول موضوعات جديدة، وقضايا معاصرة، بالإضافة الى المعارض الفنية من فناني العالم واللقاءات المستمرة بين مجموعات من المثقفين المصريين وعلماء الغرب... ففي كل يوم يكون هناك نشاط مغاير عن اليوم الذى سبقه، وهذا هو أول ما يميز مكتبة الاسكندرية كمركز ثقافي...

بهذا تضفي مكتبة الاسكندرية جوا من المعرفة والثقافة الرفيعة، فضلا عن أن المدينة سوف تصبح مزارا ثقافيا وعلميا، بالاضافة إلى كونها مزاراً سياحيا مهما.

قضايا الفنون التشكيلية

فى مستهل أنشطة مكتبة الاسكندرية

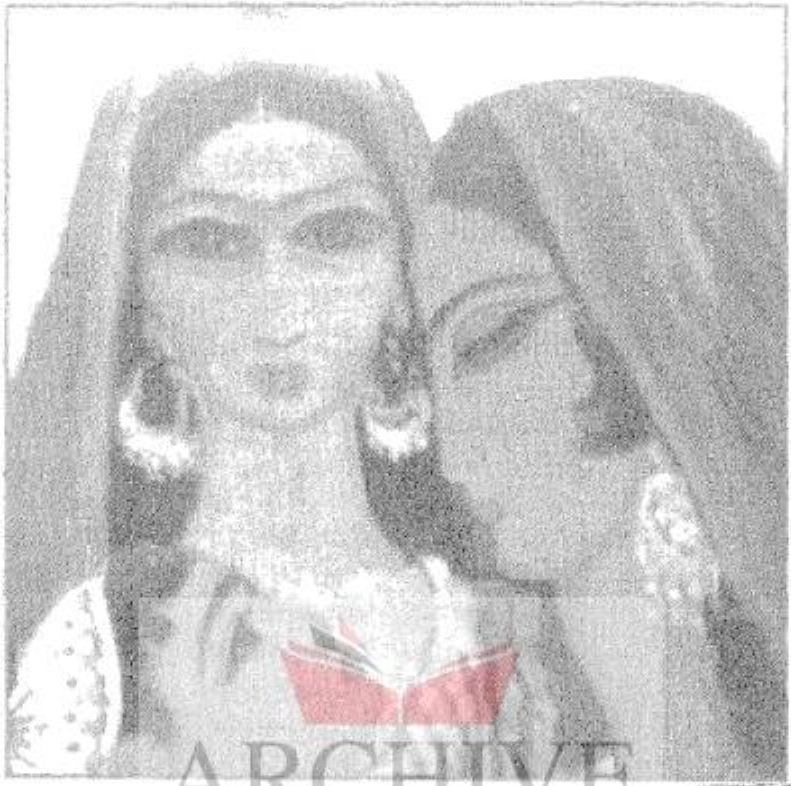


صلاح طاهر - محمود سعيد - سيف وانلي

بقلم

عزالدين نجيب

●● فى إطار الافتتاح التجريبى لمكتبة الإسكندرية تم تكريم الفنان التشكيلي الكبير صلاح طاهر مع عدد من الفنانين، وقد صدر كتاب فاخر ضم مجموعة كبيرة من لوحات الفنان، كما ضم دراسات وتعليقات نقدية عنه بأقلام النقاد والفنانين والمفكرين، إلى جانب المعرض الاستعادى الذى أقيم بالمكتبة لمراحل إبداعه المتتالية منذ الثلاثينيات حتى الآن ؛ جمعها عاشق فنه ومؤسس الجمعية التى أشهرت باسم محبيه بالإسكندرية المهندس ياسر سيف ●●



لوحة «الأمومة» - صلاح طاهر ١٩٢٠

بحثا عن ملامح الفن السكندرى

ولأن المناسبة هى إطلاق تيار النشاط لأول مرة بالمكتبة ، فقد كان من الطبيعى أن يكون فى مقدمته ندوة عن أحد أهم الأنشطة الإبداعية التى تميزت بها الاسكندرية على مسار تاريخها ، وهو الفنون التشكيلية ، سعيا إلى استجلاء ملامح تميزها ماضيا وحاضرا ، وإلى التعرف على مناطق التماس والتلاقى والتفاعل مع ثقافات العالم من خلالها ، وإلى تقييم نقدى لعطاءات الإبداع الفنى لهذه المدرسة فى تاريخها الحديث والمعاصر ، وصولا إلى تقييم الحركة الإبداعية المصرية ككل فى تواصلها مع مدرسة الاسكندرية وإطلالها على العالم الخارجى وتفاعلها معه من خلالها ، سواء عن طريق رموزها المبدعين أو من خلال بينالى الاسكندرية الذى يمثل أحد ملامح الحياة الفنية للاسكندرية ولمصر من ورائها.

وهكذا رأت اللجنة المنظمة لهذه الندوة

– والتي شرفت بتكليفي برئاستها – أن تكون هذه المرتكزات – سالفة الذكر – نقاط انطلاق لمحاورها وموضوعاتها ، وطرحتها على نخبة من كبار الفنانين والنقاد والمفكرين والدارسين من مصر وبعض الدول العربية والأوروبية ، حتى تتفاعل أطروحاتهم على خلفية هذه المدرسة وتنطلق إلى رؤى وآفاق جديدة ، أوجدتها متغيرات هذا العصر ومستجداته الفكرية والسياسية والثقافية . وحتى تكتمل هذه الجدلية اتفق على أن تنتهي الندوة الممتدة على مدى يومين بمائدة مستديرة تتحاور فيها مختلف الاتجاهات والمدارس الفكرية من مصر وخارجها .

لكن أحداث سبتمبر الماضي الدامية بنيويورك وواشنطن وما تبعها من ارتباك في حركة السفر حالت دون حضور جميع النقاد الأمريكيين والأوروبيين ، وأغلب المدعوين من الدول العربية ، حيث لم يتمكن من الحضور إلا الفنان والناقد السوري المقيم بباريس أسعد عرابي ، الذي شارك بصورة فعالة سواء بورقته البحثية أو بمداخلاته النقدية .

وهكذا شارك بالأوراق في هذه الندوة اثنا عشر باحثا ، وضعف هذا العدد تقريبا من المعقبين الذين أعدوا مقدما تعقيباتهم على تلك الأوراق بتكليف من اللجنة ، حول قضايا متصلة / منفصلة مثل : هل هناك ما يمكن اعتباره مدرسة للفن السكندري ؟ وما هو موقفها بين الخصوصية والعالمية والعولمة ؟ .. وما دورها في حوار الثقافات ؟

وما هو تأثر الفن المصري بالمتغيرات الاقليمية والعالمية ؟ .. وفي غضون ذلك كان لابد من عرض المنظور التشكيلي لحركة الفن السكندري ومسيرة أجياله ، ولإبداعات الطيور المهاجرة من أبنائه إلى الخارج ، ثم لبينالي الاسكندرية .. واقعه ومستقبله ، وأخيرا كان لابد من تخصيص جلسة للفنان المحتفى به صلاح طاهر لتقييم إبداعه .

مدرسة الاسكندرية .. هل توجد ؟

كان هذا هو السؤال الصعب الذي دار حوله جدل كبير ، خاصة في الحركة التشكيلية الحديثة في مصر ، ولم يكن مطروحا بالنسبة للمنظور التاريخي القديم للفن السكندري ، الذي عرضه باستفاضة شيخ الأكاديميين المتخصصين في تاريخ الاسكندرية ، الدكتور لطفي عبدالوهاب ، الذي أوضح أن الفن السكندري القديم ظهر داخل إطار حضاري يمثله التقاء الحضارة المصرية القديمة بالحضارة اليونانية الوافدة بعد أن أسقط الحاجز الحضاري بين الجانبين على يد الاسكندرية ، لكن أهم ما يميز مدرسة الاسكندرية – كما أوضح د.عبدالوهاب – هو تعامل الفنان السكندري بشكل واسع مع مظاهر الحياة اليومية في المدينة ، نتيجة تعدد عناصر السكان بها مما أدى إلى ظهور أجواء وتصورات جديدة انبثقت عن

اتجاهات فنية جديدة أو عن توسع فى اتجاهات قديمة ، كما تمثل تميز هذه المدرسة فى التشكيل الكاريكاتورى المعتمد على المبالغة والغرابة ، ومنبعهما روح الفكاهة الساخرة لدى السكندريين والتى تعود بدورها إلى استقلال الشخصية السكندرية لأسباب اقتصادية تاريخية ، وهو استقلال أتاح لها حرية النقد فى أشكالها المتعددة ومن بينها الشكل الفنى.

أما حركة الفن السكندرى الحديث منذ أوائل القرن العشرين ، فقد عالجها الفنان د. محمد سالم من منظور السرد التاريخى على خلفية من المتغيرات السياسية بدءا من عصر محمد على ومشروعه التحديثى الشامل لمصر ، الذى كان للاسكندرية فيه دور متميز ، وكان للوجود الأجنبى بالاسكندرية فى عهده وضع بالغ الأهمية ، وهو ما تأسست فوقه بعد ذلك مراسم الفنانين الأوربيين التى كانت بمثابة معامل التفريخ لأجيال الرواد مثل محمد ناجى ومحمود سعيد وسيف وأدهم وانلى ومحمود موسى ومرجريت نخلة . وقد تتبع محمد سالم حركة النمو المتصاعد للفن السكندرى متحفظا فى اعتبارها مدرسة ، دون أن يسعى إلى تلمس ملامح مشتركة سواء فى الرؤية الفكرية أو الأساليب الفنية بين رموزها ، وقد وقف إطاره الزمنى عند النصف الأول من القرن العشرين ، ما أتاح له درجة أكبر من التركيز على رموز الحركة والجماعات الأهلية بالاسكندرية وظروف نشأتها .

لكن الفنان د. مصطفى الرزاز قد مضى إلى أبعد من هذا الإطار الزمنى وصولا إلى نهاية القرن الماضى ، متناولا بالتحليل مراحل تطور حركة الفن السكندرى عبر الظروف والملابسات والموقع الجغرافى والعوامل السياسية والثقافية والاقتصادية ، باتصالها بالمؤثرات الاغريقية والرومانية والمصرية القديمة ، معتبرا الاسكندرية مركز التقاء التجار والفلاسفة والمغامرين ، وبعد إسهاب فى عرض رؤى الرموز البارزة لفنانى الاسكندرية كل على حدة حتى الثمانينيات ، ركز الرزاز بحثه على تيار ما بعد الطليعة فى العالم وانعكاساته على جيل الفنانين الشبان السكندريين بدور مرسم أتيليه الاسكندرية من ناحية وصالون الشباب بالقاهرة من ناحية أخرى على هؤلاء الشبان ، الذين اعتبر أنهم قاموا بغزو هذا الصالون فى جو مشبع بروح الحوار والتجاوب فى مناخ غير مسبوق أتاحه لهم الفنان أحمد فؤاد سليم والناقدة فاطمة إسماعيل بتشجيع من الفنان أحمد نوار رئيس المركز القومى للفنون التشكيلية ، ويستطرد الرزاز فى حفاوته البالغة بإنجاز هذا الجيل عبر اللقاء الحميم والتنافس الراقى الذى يشكل ملمحا جديدا على الحركة الفنية المصرية لم تشهده منذ سنوات الرعيل الأول وجيل الجماعات

المتمردة التي برقت في ظلام المحافظة والرجعية من آن لآخر ، مرجعا جانبا أساسيا من تألق هؤلاء الشبان السكندريين إلى المشروع الطليعي الذي تبناه الفنان فاروق وهبة حين بعث تقاليد مرسم أتيليه الاسكندرية الذي أسسه الفنان محمد ناجي عام ١٩٣٤ .

منظور مختلف لرؤى الحداثة

وإذا كان د. مصطفى الرزاز قد بالغ في حفاوته برؤى الحداثة لدى ذلك الجيل بين فناني الاسكندرية ، فقد ذهبت في الورقة التي قدمتها إلى اتجاه معاكس تماما ، معتبرا أن قضية الحداثة انتقلت على يد هذا الجيل إلى شكلانية جوفاء تابعة للتأثيرات الأورو أمريكية، منصرفة عن التعبير عن رؤى ذات وزن حضاري يتناسب مع تاريخ مدرسة الاسكندرية وحضارة مصر ، فضلا عن غياب الانشغال لدى أبناء هذا الجيل بتأسيس لغة جمالية ذات لهجة مصرية صميمة أيا كانت المؤثرات الأجنبية فيها ، هذا على عكس ما حققته الأجيال السابقة منذ جيل الرواد ، من محمد ناجي ومحمود سعيد وسيف وأدهم وانلي و محمود موسى ومرجريت نخلة وعفت ناجي ومحمد عويس ، وصولا إلى مريم عبدالعليم وفاطمة عرارجي منذ الخمسينيات ، وسعيد العدوي ومصطفى عبدالمعطي ومحمود عبدالله فرسان جماعة التجريبيين في الستينيات وبقية الكوكبة اللامعة التي صاحبتهم ولحقت بهم في السبعينيات والثمانينيات ، الذين لم يكن التجريب بالنسبة إليهم هدفا لذاته بل وسيلة لاكتشاف الخصوصية والأصالة والبكارة الجمالية ولتعميق الشخصية المصرية التي أرسى ركائزها الأولى جيل الرواد . حتى يمكن القول أن هناك سمات مشتركة بين هذه الأجيال المتلاحقة تستمد طاقتها من روح مدرسة الاسكندرية القديمة ، منها المزج بين عناصر البيئة والتراث وبين الاتجاهات الغربية في الفن ، ومنها اتخاذ الإنسان والطبيعة مادة للفن ، والتعبير عن الذات كرمز للإنسانية جمعاء، والتنوع التقني والحيوية الابتكارية عند الاستفادة بأنماط الفن العالمي ، والروح الفطرية والشعبية والتعبير التلقائي المتأثر بفنون الأطفال والفلكلور ، والشغف بالتجريب بالخامات غير التقليدية مستفيدين من عناصر البيئة الطبيعية نحو تحقيق بنيوية حداثية للشكل الفني ، وأخيرا هناك جدلية العلاقة بالآخر من خلال جدلية الحس والعقل والنظام الهندسي .

مخاطر العولمة .. والسلطة الثقافية

أما الفنان الناقد العربي د. أسعد عرابي فيصل إلى مدى أبعد في نقده لما آلت إليه حركة الحداثة في مصر خاصة عبر بينالي الاسكندرية ، إذ يرى أنها بلغت ما يسمى «الحداثة بأي ثمن» أو إلى «أصولية عولمية حديثة» ! .. وهو يرجع جذورها إلى تجارب في الفن المصري في الأربعينيات ، مثل تجربة



أمومة أو البشارة - محمود سعيد ١٩٥٢

رمسيس يونان وجماعة الفن والحرية، ثم تجربة كنعان «اللامث الحداثى المقطوع عن رحم الثقافة المحلية» .. ويرى عرابى أن هذه التجارب هيأت (بدرجة ما) لأزمة الحداثة، والتحول من بنفسجية اللون المتوسطي في عروض البينالى (كناية عن امتزاج الأحمر والأزرق) إلى سيطرة لون الشمال الأزرق، مجتاحا الخصائص الثقافية لحداثة الجنوب .. ويتساءل: ألم تقد آلية «الحداثة بأى ثمن» إلى موقف لا يقل تطرفا عن صبوة «اللا حداثة بأى ثمن»؟ .. ذلك أن الطابع الاحتكارى لتيارات ما بعد الحداثة فى البينالى يطرح عصبية جديدة معادية للوحة والمنحوتة والمحفورة مما لا نجد له نظيرا فى التظاهرات العالمية .. حتى شكلت الظواهر التشكيلية الجديدة مثل فن الإنشاءات سابقة التجهيز والدادائية المحدثة والمفاهيمية وفن الأداء الجسدى ...الخ .. هيكلية منفصمة عن أى تراكم نهضوى بما فيه جذوره المتوسطية، وهو ما لا نجد له نظيرا فى الشمال، لأن سياقه العضوى النسبي يجعل من الأطروحة وعكسها مجالا للبحث وليس لإحلال واحدة مكان الأخرى، وقد تحولت هذه الظاهرة بحكم ما يملكه البينالى من سلطة ثقافية إلى عدوى اتباعية فى التظاهرات الفنية في دول عربية مختلفة، ولو أعيد عرض هذه الظواهر في بلاد التصدير الشمالية لأثارت السخرية، ويذهب عرابى إلى أن الأخطر من سيطرة أحادية العرض هو أحادية التوجه في الجوائز ولجان التحكيم والدعوات والإعلام والطباعة والنقد.

ويقارن بين افتعال الحداثة وافتعال قدسية الحروفية، ليصل إلى أن الاثنين يجتمعان على التمترس العقائدى خلف سكونية جمالية فاقدة لحق الانتخاب .. ويطلق عرابى فى النهاية صيحة تحذير من أن الانفصال عن تراكم الذاكرة يمثل جحودا لعقيدة التنوير النهضوية التى أطلقتها مدرسة الاسكندرية، وخاصة إذا كان ذلك ذريعة لاستبدال ذاكرة جنوب المتوسط بذاكرة شماله وما بعد الحداثة فيه !!

أوراق وهموم سكندرية

كان موضوع ورقة الفنان السكندرى د. محمد شاكر هو «الاسكندرية وحوار الثقافات» غير أنه - لسبب ما - ركز بحثه القصير على التاريخ الحضارى للاسكندرية القديمة الذى نعرفه جميعا، دون الاقتراب ليس فقط من حركة الفن السكندرى الحديث والمعاصر، بل ولا حتى من الفن السكندرى الكلاسيكى، وما يعكسه كلا الفنين من نتائج الحوار التاريخى مع الثقافات المختلفة الوافدة أو التى تطل عليها الاسكندرية، وهو محور الندوة وأساس مشروع مكتبة الاسكندرية ذاتها، مكتفيا بالإشارة إلى أنه دار فى تاريخ المدينة القديم والوسيط

والحديث حوار بخصب من أدائها وأدواتها في صنع مدينة متحضرة اختلفت قليلا مع بعض الثقافات وتفاعلت مع البعض الآخر كثيرا ، وذابت جميعا في تلك المدينة طواعية ، دون أن نعرف أوجه الاختلاف أو التفاعل أو الذوبان !

بينما عبرت ورقة الفنان السكندري ثروت البحر بعنوان «حركة الفن المصري والمتغيرات الاقليمية والعالمية» عن إحساس ذاتي بأزمة الثقافة المصرية في ظل حالة من التبعية للغرب وفي ظروف التحولات السياسية التي تجتاح العالم والهيمنة أحادية الجانب ، بعد غياب مشروعات النهضة المصرية وانكسارها الواحد تلو الآخر منذ عهد محمد على حتى اليوم ، ولم يكن نصيب الفنون التشكيلية في الورقة بأكثر من نصيب الشعر أو الأغنية أو الأزياء وغيرها من المجالات التي تأثرت بالتغيرات والتحولات الاقتصادية والسياسية والثقافية ، وهي تبدو صرخة احتجاج ضد كل ما يحدث ويؤدي إلى انحراف مسار الهوية الثقافية وإلى الخواء الروحي على خلفية من الشعور بالانكسار القومي ، الأمر الذي جعل منظمي الندوة يضعون هذه الورقة تحت عنوان «شهادة» دون أن يعني ذلك أي تقليل من قيمتها وتوجهاتها الفكرية الصادقة .

أما الفنان السكندري عصمت داوستاشي فقد تتبع في ورقته عن بينالي الاسكندرية مسيرة هذا المعرض الدولي منذ تأسيسه عام ١٩٥٥ ، معتبرا أنه في حد ذاته مدرسة تحمل خصائص واضحة لفنون منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط بحضاراتها العريقة . معتبرا أن هذه الخصائص هي التي حددت معالم الفن الحديث طوال نصف القرن الأخير لكنه يلقي بسؤال مهم حول مصير البينالي وجدوى استمراره في ضوء وجود بينالي القاهرة الدولي وقد أصبح أكثر أهمية وتجميعا للدول وعلى رأسها دول حوض البحر المتوسط ذاتها التي كانت تحرص على المشاركة في بينالي الاسكندرية ، وفي حين يلقى بينالي القاهرة كل دعم واهتمام من أجهزة وزارة الثقافة فإن بينالي الاسكندرية يعاني الاهمال والتهميش الأمر الذي حدا ببعض دول المنطقة إلى الاحجام عن المشاركة في الدورة الحالية من البينالي مكتفية بالوجود في بينالي القاهرة ، ويرى داوستاشي أن الدورات الأخيرة من بينالي الاسكندرية بعيدة كل البعد عن البانوراما الحقيقية لإبداعات دول البحر المتوسط ، وتحول البينالي إلى مجرد معرض محدود مثل أي معرض آخر ، ثم ينادي في النهاية بالعمل على إنقاذه بتشكيل إدارة دائمة له وإيجاد مقر جديد وميزانية للصرف عليه ويدعو إلى اشتراك مكتبة الاسكندرية بإمكاناتها العالية في مهمة الانقاذ كشريك أساسي .

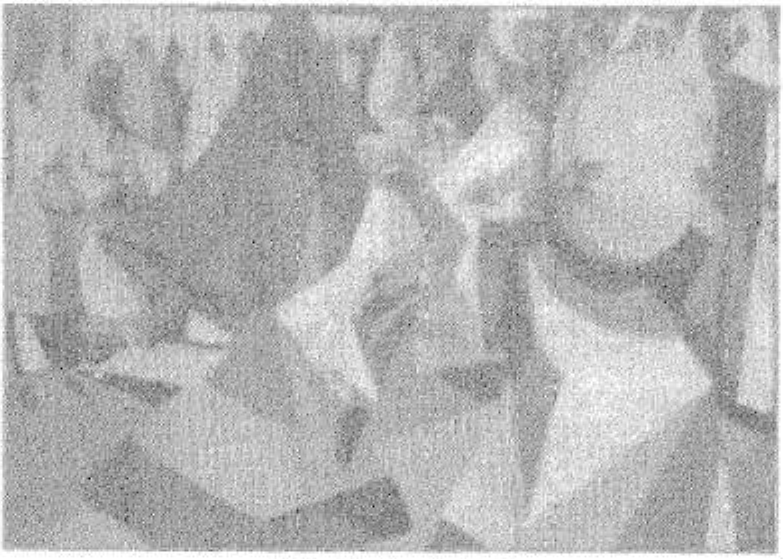
حول هذا الموضوع قدم الروائي والناقد الكبير إدوار الخراط ورقته في الندوة . مستعرضا رحلة ثلاثة فنانين سكندريين ميهمين اضطرتهم الظروف إلى الغياب عنها . هم أحمد مرسي .. الشاعر المقيم بنيويورك . والبروفيسور سامي علي/ الفيلسوف والمحلل النفسي المقيم في باريس . وأحمد زغلول الذي توفي بالفيوم عام ١٩٩٠ . وكلمات إدوار الخراط - كعهده دائما - رؤية شاعرية استبطانية لعوالم ذاتية باللغة الحساسة . خاصة وأنه تربطه باثنين من الفنانين الثلاثة أواصر صداقة ممتدة وذكريات عميقة بالاسكندرية التي يعد هو شخصيا أحد أبنائها .

لكنه في الوقت ذاته يحرص على أن يبتعد عن المعاني الأدبية والعبارات الإنشائية الفضفاضة . مقتربا وسع طاقته من اللغة التشكيلية وجمالياتها فعن أعمال أحمد مرسي يقول إنه لم يهتم بالقواعد الأكاديمية ولا بمحاكاة المنظور وأنه يحدد مساحات عمله بمعطيات مساحة اللوحة : الطول والعرض . ولا يعنى بخدع التجسيم، وعندما يستخدم رموزا شاعرية يصهرها بالقيم التشكيلية البحتة ولا يكتفي بسرد حكاية .. وتكمن في خلفية عمله تصميمات سافرة أو كامنة لقيم الدائرة والمثلث والخط المستقيم .. وعن سامي علي يتتبع العلاقة بين لوحاته وبين الحروفية والشعر الصوفي موضحا تجليات خبرته الروحية التي تسعى إلى تجسيد ماهو غير قابل أصلا للتجسيد .. أما أحمد زغلول فيستعرض الخراط تجربته التشكيلية بحميمية من يجمع بينهما التماهي مع كنه الحياة والطبيعة والشوق إلى تجسيم الأشواق الروحية المتموجة . ويصف أسلوبه بأنه يتجاوز قيم الكلاسيكية الجديدة إلى نوع من الشطح الاشراقي بالتشكيل الخلاق .

صلاح طاهر .. شعلة الإبداع

وتحت هذا العنوان يقدم الفنان الناقد مكرم حنين ورقته عن الفنان صلاح طاهر في المحور الأخير من الندوة . متتبعا مسيرته منذ مرحلته الأكاديمية قبل منتصف الخمسينيات . ثم انتقاله المفاجيء إلى التعبيرية التجريدية عام ١٩٥٦ لينتقل من النقيض إلى النقيض أي من الرسوم الواقعية والتكوينات المقيدة إلى حرية الألوان والأشكال التي لا تشابه الطبيعة . وذلك بعد عودته من زيارة لأمريكا زار خلالها معرضا للفن الأمريكي المعاصر في بوسطن .

ولقد عكس الحوار الذي دار حول هذه الورقة . وورقة المهندس ياسر سيف - أحد المنظمين للاحتفالية - عن صلاح طاهر . إشكالية الانتقال المفاجيء للفنان من جانب إلى آخر . أو ازدواجية أسلوبه



رقصة نوبية - سيف وانلي ١٩٥٩

وقناعاته الجمالية بين نقيضين متعارضين، خاصة أن صلاح طاهر لا يزال يمارس الرسم بالأسلوب الأكاديمي المباشر عبر صور البورتريه التي برع فيها واتخذ منها وسيلة للدخل الاقتصادي الذي يؤمن به حياته ويساعده على الإبداع بالشكل الآخر الذي يفضله، وذهب بعض المعقبين إلى الفنان صلاح طاهر لم يفض بداخله تماما إشكالية التوزع بين قناعتين جماليتين بالرغم من وعيه الشديد بالفرق بينهما، كما ذهب البعض الآخر إلى أن تجربته التعبيرية التجريدية لم تنفصم عن تجربته الأكاديمية والواقعية بل هي تطور طبيعي لها، حيث إن الأولى تتضمن مجمل عناصر الواقع المرئي من مشاهد الأشخاص والطبيعة، لكنه يعيد صياغتها بحركة عفوية بجرات السكين والعجائن اللونية.

هذا وقد أدار وشارك في التعقيبات على أوراق الندوة كوكبة ممتازة من الفنانين والنقاد نذكر منهم على سبيل المثال: طه حسين، كمال الجويلي، مختار العطار، صالح رضا، مصطفى عبدالمعطي، أحمد عثمان، سعيد حداية، هشام قنديل، نعيمة الشيشيني، طارق زبادي، فرغلي عبدالحفيظ، صبري منصور، رضا عبدالسلام، صبري حجازي .. أما المائدة المستديرة فتستحق وقفة منفردة. ■

معالم فى طريق الأدب العربية

البيان والتبيين

لأبى عثمان الجاحظ

بقلم
د. محمد عبد المنعم خفاجى

كتاب «البيان والتبيين» أحد شوامخ التراث فى الفكر العربى، ويجعله ابن خلدون (-٨٠٨ هـ) أحد أركان الأدب الاربعة ، ويعده المسعودى (-٣٤٦هـ) فى كتابه «مروج الذهب» من أشرف كتب الجاحظ، وقال عنه «إنه جمع فيه بين المنظوم والمنثور وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار» ونوه به أبو هلال العسكرى (- ٣٩٥هـ) وعده من أشهر كتب البلاغة ثم استطرد أبو هلال إلى أنه لم يبن عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة .

وقال ابن رشيق القيروانى عن الكتاب إنه لا يبلغ جودة وفضلا ..

ومع ما فى هذه الآراء من عموم وتجاوز فإنها تنويه بالكتاب وأهميته.



١٦٣

الهلال

والكتاب بلا ريب كان مصدرا أصيلا لثقافة الأدباء والشعراء والكتاب العرب على طول العصور ومن مادته الواسعة نهل البلغاء والمؤلفون قديما وحديثا، وقد تتلمذ على مذهب الجاحظ فيه كل الباحثين القدامي في الأدب، كابن قتيبة (-٢٧٦هـ) والمبرد (- ٢٨٥هـ) وابن عبد ربه الأندلسي صاحب «العقد الفريد» (٣٢٩ هـ)، وكأبي هلال العسكري صاحب الصناعتين (-٣٩٥هـ) وأبي اسحاق الحصري (-٤٨٣هـ) صاحب كتاب «زهر الآداب» وابن رشيق (- ٤٦٠هـ) في كتابه «العمدة»، وأسامة بن منقذ (٤٨٨ - ٥٨٤هـ) في كتابه «لباب الآداب» وابن الأثير (-٦٣٧هـ) في كتابه «المثل السائر» وغيرهم من الكتاب والمؤلفين.

بلاغة العرب

و«البيان والتبيين» أول كتاب ألف في الأدب في تراثنا العربي وقد ظهر جامعا لفنون كثيرة منه ولأنواع عدة من الأدب والخطابة والشعر واللغة، وهو من أجلّ الوثائق الأدبية في آداب الجاهلية والاسلام كما يقول خليل مردم ، يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغات العرب، ومن أصول الأدب والنقد والبلاغة .

و«البيان والتبيين» أصل من أصول الأدب، ويمثل المدرسة العربية في منهج الكتابة والتأليف في الأدب هذا المنهج الذي يحيطك علما بكل المعارف العربية عن الأدب وفنونه وبلاغاته، وعن النص الأدبي وتذوقه، والكشف عن أسراره، وكل ما يتصل به من ثقافات عصره: وهو منهج في الأدب يخالف منهج المستشرقين في دراسة أدبنا العربي وتاريخه الذي بدأه المستشرق النمسوي «جوزيف هامر بورجشتال» (١٧٧٤ - ١٨٥٦) في كتابه «تاريخ الأدب العربي» ٧ مجلدات، ثم البارون فون كريمر (١٨٢٨ - ١٨٨٩) النمسوي في كتابه «تاريخ الحضارة في الشرق في ظل الخلفاء» في مجلدين، ثم بروكلمان (١٨٦٨ - ١٩٥٦) في كتابه المشهور «تاريخ الأدب العربي» وتأثر بهذا المنهج التاريخي الاستشراقي للأدب كل من حسن توفيق العدل (١٨٦٢ - ١٩٠٤) في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» وجرجي زيدان (١٩١٤) في كتابه بالعنوان السابق نفسه، ثم لفيف كبير من

الباحثين والكاتبين في تاريخ الأدب العربي وفي مقدمتهم د. رشوقي ضيف .

والكتاب مطبوع طبعات عديدة في القاهرة ومختلف العواصم العربية، وطبعت منتخبات منه عام ١٣٠١هـ - ١٨٨٣ م في القسطنطينية ضمن مجموعة بعنوان خمس رسائل، كما نشرت منتخبات منه في القاهرة عام ١٩١٠، وفي بيت المقدس العربية عام ١٩٣٢ في ٢٤٨ صفحة وهي منتخبات من اختيار شريف النشاشيبي وخليل بيدس، وطبع «البيان والتبيين» محب الدين الخطيب في القاهرة عام ١٣٣٢ هـ في ثلاثة أجزاء، وكذلك السندوبي أيضا في ثلاثة أجزاء، ونشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة عام ١٩٦١ في اربعة أجزاء بتحقيق عبد السلام هارون .

وللمستشرق الروسي كراتشوفسكي (-١٩٥٢) بحث عن القسم الخاص بالبلاغة من الكتاب .. ومنه نسخه خطية في مختلف مكتبات العالم، ولأحمد أمين دراسات عن «البيان والتبيين» في الجزء الأول من ضحى الاسلام، تعرض فيها لنقد منهج الجاحظ الاستطرادي .

وعندما ألف الجاحظ كتابه «الحيوان» أهداه إلى محمد بن عبد الملك ابن الزيات، وكان من أشد الناس حبا للجاحظ، وإعجابا به وبأدبه، وقد قتل ابن الزيات عام ٢٣٣ هـ بأمر الخليفة المتوكل، وألف الجاحظ بعد ذلك كتاب «البيان والتبيين» وأهداه إلى الوزير احمد بن أبي دؤاد (- ٢٤٠هـ)، فهو ثمرة من ثمرات أدب الجاحظ في نهايات عمره، وأغلب الظن أنه ألفه نحو عام ٢٣٥هـ أي قبل وفاته بنحو عشرين عاما، وفيه يشير إلى كتاب «الحيوان» ويقول : كانت العادة في كتب «الحيوان» أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار، فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب - البيان - في ذلك أوفر».

سوقي ملوكي.. عامي خاص

وعندما يقول ابن خلدون (- ٨٠٨هـ) عن الكتاب : سمعت من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة: أدب الكاتب لابن قتيبة، والكامل للمبرد والبيان للجاحظ والنوادر للقالي: وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها.

لا يعد في قوله هذا مغاليا، وإن كانت الكتب الثلاثة المذكورة مع «البيان» لا توازن به خطرا وأهمية .

ويصف الجاحظ كتابه «البيان» بأنه قد جمع استقصاء المعاني، واستيفاء جميع الحقوق، مع اللفظ الجزل، والمخرج السهـل، فهو سوقي ملوكي، وعامي خاص .

والجاحظ فى ذلك أيضا لا يعرفنا بكتابه التعريف الأمثل، هو لا يذكر لنا مثلا أنه أول كتاب يؤلف جامعا للأدب وأصوله وفنونه، ولا أنه أهم كتاب ظهر فى القرن الثالث الهجرى يكتب عن تيارات الأدب العربى والبلاغة العربية والنقد العربى حتى تاريخ تأليفه ولا أنه وثيقة أدبية رفيعة للفكر العربى وبخاصة الفكر الأدبى حتى عصره، ولأنه يحمل جذور الأدب المقارن فى عرف القدماء، ولا أنه كتاب يدافع عن العروبة والعربية دينا ولغة وتاريخا وفكرا ولا شيئا من ذلك كله.

ولقد كان لظهور الكتاب ضجة فى شتى الأوساط الأدبية وشتى البيئات، وعند مختلف العلماء والأدباء والشعراء، والكتاب على وجه الخصوص، ولأهميته حمل الكتاب بعد ظهوره إلى الأندلس وقرطبة فيما حمل إليها من نفائس المؤلفات وتهافت الناس عليه لقراءته ولاقتنائه.

فى الجزء الأول من كتاب «البيان» يشرح الجاحظ معنى «البيان والتبيين» ولاشك أن الجاحظ عبر بهذا الاسم قصدا، وأراد به الأدب، فالأدب عنده بيان وتبيين، أى بلاغة وإيصال لهذه البلاغة لأذهان السامعين والقارئين، أى أنه جمال التعبير الذى يجتهد الأديب فى تهذيبه ليصل ببلاغته إلى أذهان الناس ومشاعرهم وعقولهم.. ويبين الجاحظ فى هذا الجزء عيوب البيان ، ويضع الحدود العامة للبلاغة ومذاهبها فـى استطراد واسع مثير .

أما الجزء الثانى من «البيان» فيتحدث الجاحظ فيه بأسلوبه الاستطرادى عن الخطابة والشعر وفنونهما والعديد من أعلامهما.

وفى الجزء الثالث يرد الجاحظ على الشعوبية ومطاعنها التى قدحت بها فى العرب لاسيما ما يؤاخذون العرب به من أخذ العصا والقوس عند الخطابة وفى مواقف الكلام.

البيان .. ثمرة الفكر العبقرى

إن الكتاب ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة، والفكر العبقرى لأبى عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ. ويعد أجل مصدر لثقافة الأدباء والشعراء والكتاب العرب على طول العصور. وأدباؤنا الكبار لم يفتهم أمر الكتاب ولم ينسوا أهميته وفضله على الأدب والأدباء من مختلف الأجيال والمدارس والمذاهب، وهو مظهر لامتزاج الثقافات فى عصر الجاحظ، هذا الامتزاج الذى نراه فيه، فللثقافة العربية الحظ الاكبر. ومع هذا فحظ الثقافات الأخرى، من فارسية ويونانية وهندية وغيرها حظ غير قليل.

وعندما ينقد صاحب «ضحى الاسلام» الجاحظ وكتابه «البيان» ويذهب إلى أن شخصية الجاحظ فيه تكاد تكون معدومه، يكون بذلك لم ينظر إلى الكتاب بنظرة ثاقبة، وأثر استطراد الجاحظ فى كتابه فى هذا الحكم الجائر. وهذا خطأ دون ريب، والجاحظ إنما ألف كتابه ليكون موسوعة فى الأدب والبيان، لا ليكون كتابا منهجيا محدودا، والاستطراد فيه ليس اغفالا من صاحبه للموضوع الذى يعرض له، ولانسيانا لغرضه المقصود، ولا إهمالا لصميم الفكر الأدبى المراد منه، وإنما هو أسلوب من أساليب التشويق والإثارة وبعث الاهتمام عند القارئ.

والجاحظ فى كتابه يرى البلاغة فى الأسلوب والنظم لا فى المعانى، فالبلاغة عنده ترجع إلى سحر الصياغة، وبلاغة الأداء، وروعة التعبير أكثر مما ترجع إلى دقة المعانى وعمقها، والمعانى كما يقول - مطروحة فى الطريق يعرفها البدوى والحضرى والعربى والعجمى، وإنما الشأن فى تخير اللفظ وجودة السبك، وتلاحم الألفاظ ومواءمتها لمعانيها، وفى صحة الطبع، وإقامة الوزن.

رأى طه حسين فى الجاحظ

وبعد الدكتور طه حسين الجاحظ هو المؤسس للبيان العربى بما جمعه فى كتابه من نصوص توضح لنا كيف كان العرب حتى منتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربى، وتعطينا صورة مجملة لنشأته وكذلك رأى ابن خلدون فى مقدمته.

ومقارنات الجاحظ فيه بين بلاغات العرب وبلاغات الفرس والهند تعطينا أسسا صالحة لتأريخ نشأة فكرة الأدب المقارن عند العرب، وفى الكتاب ذكر للكثير من ألوان البلاغة كالأمثال والكناية والبديع والتشبيه والأسلوب الحكيم والاحتراس وغيرها، والجاحظ أول من أشار إلى المذهب الكلامى. ويذكر الجاحظ الاستطراد وحديثه عنه يدل على أن كتابه كان محاضرات يلقيها على طلابه ويسبغ عليها من روحه ما

بسم الله الرحمن الرحيم

يجعلها سائغة لعقول والقلوب.

ويذكر الجاحظ في الكتاب «صناعة الكلام» ويعني بها حينا «علم الكلام» وحينا آخر البيان . كما يذكر «صناعة المنطق» وصناعة الخطابة وأصحاب الخطابة والبلاغة .

إن الجاحظ عبقري الفكر العربي ومؤلف كتاب «البيان» شخصية نادرة في تاريخ الأمة العربية والعقل العربي. إنه سجل حافل لمختلف الآراء والتيارات والفكر حول الأدب والبلاغة والنقد والشعر والخطابة وما إلى ذلك كله، ويجمع في صفحاته الكثير من بلاغات العرب وآدابهم، كما يضم آراء وأفكارا كثيرة في قوانين البلاغة وأصول النقد، إلى أنه سجل لكثير من أعلام الأدباء والشعراء والخطباء والبلغاء حتى عصره ونقد الجاحظ فيه لمذهب أصحاب الصنعة من الشعراء، وإيثاره لمذهب المطبوعين يعد من أهم مسائل النقد في الكتاب، كما يعد ما احتوى عليه الكتاب من آراء ونظريات في البلاغة وعناصرها ومذاهبها واتجاهاتها وألوانها وغايتها وأثرها من أهم محتوياته ومضامينه ومن أجل ذلك عد ابن خلدون الجاحظ من السابقين في التأليف في البيان .

عصر حافل بالمفكرين

إن الجاحظ أديب موسوعي، عاش الناس في عصره وبعد عصره عيالا عليه في البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة، كما قال شيخ الكتاب ابن العميد (- ٣٦٠هـ) الذي أطلقوا عليه لقب الجاحظ الثاني.

وهو صاحب مذهب في النقد، ومنشئ منهج فني في الأدب، وصاحب مذهب وطريقة في الاسلوب احتذاه في القديم الكاتب الساخر أبو حـــيان التـــوحيدي (- ٤١٤هـ) مؤلف كتاب «تقريظ الجاحظ، كما احتذاه في الحديث عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين.

والجاحظ الذي عاش أكثر من مائة عام (١٥٠ - ٢٥٥ هـ) (٧٦٧ - ٨٦٨م)، والذي عاصر اثني عشر خليفة من خلفاء بني العباس من المنصور العباسي حتى

المعتز بن المتوكل المتوفى في رجب من عام ٢٥٥ هـ بعد وفاة الجاحظ في المحرم من العام نفسه بسبعة شهور.. قد عاش حقبة ازدهار الحياة الفكرية في الأمة العربية والاسلامية في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري والنصف الأول من القرن الثالث عاش عصرا حافلا بالعلوم قديمها وحديثها، كما كان حافلا بالمفكرين والفلاسفة، وهو كذلك عصر نهضة الأدب والكتابة والشعر والثقافة الأدبية والتأليف في الأدب وعصر كبار الأدباء والشعراء ورواة الأدب. عصر بشار وابي نواس ومسلم بن الوليد وابي العتاهية وأبي تمام والبحتري وابن الرومي، وعصر سهل بن هارون (- ١٥٠هـ) وعمرو بن مسعدة (- ٢١٤هـ) وأحمد بن يوسف (- ٢١٣هـ) والحسن بن وهب (٢٦٥هـ) وغيرهم وعصر الخليل ابن احمد (١٠٠ - ١٧٥هـ) وسيبويه (١٣٥ - ١٨٨هـ) والاصمعي (١٢٢- ٢١٦هـ) وابن سلام الجمحي (٢٣١هـ) وابي عبيدة (١١٠ - ٢٠٨ هـ)، وسواهم. ويقول الجاحظ : وقد أدركت رواة المسجدين والمربدين، ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب ونسيبهم والارجاز العربية القصار، والأشعار المنصفة، فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة . ثم استبردوا ذلك كله ووقفوا على قصار الحديث والفقر من كل شئ ولقد شهدتهم وما هم على شئ أحرص منهم على نسيب العباس بن الاحنف، فما هو إلا أن أورد عليهم (خلف) نسيب الأعراب فصار زهدهم في نسيب العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب، ثم رأيتهم منذ سنيات، وما يروي عندهم نسيب الأعراب والأحدث السن، ولقد جلست إلى أبي عبيدة والأصمعي مع من جالست من رواة البغداديين فما رأيت أحدا منهم قصد إلى شعر في النسيب فأنشده، وكان (خلف) يجمع ذلك كله . وفي هذا النص نعرف إحاطة الجاحظ بفكر الرواة وأذواقهم وبتطور أفكارهم في الرواية .

اتجاهان أدبيان مختلفان

ولقد كان الجاحظ بثقافته الواسعة ملما بكل معارف عصره وقد عاش في عصر شاع فيه اتجاهان أدبيان مختلفان:

اتجاه يميل إلى الرجوع بالأدب إلى أسلوب الجاهليين وبداوتهم وجزالتهم، واتجاه أخر يميل إلى سهولة الأسلوب وإلى رقة المحدثين وعذوبتهم، وكان بذوقه وبلاغته مع الاتجاه الأخير، كما كان في عصر يميل كثير منه إلى تفضيل بلاغة الجاهليين على بلاغة المحدثين ، والقليلون ينصفون المحدثين ويساوونهم بالجاهليين في البلاغة فلا

فضل لجاهلي على محدث إلا بالبلاغة والبيان، وليس الحكم في النقد راجعا إلى العصر بل إلى الإبداع الأدبي نفسه.

وكان الجاحظ لايحرص على ثقافة الملوك من النسب والخبر وطرائف الأدب بقدر حرصه على ثقافة الشعب، وكان ابو هفان البصرى راوية أبي نواس يقول: لم أرقط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فانه لم يقع في يده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان ، حتى إنه ليستأجر دكاكين الوراقين ، ويبيت فيها للقراءة . وكان كثير الحفظ واسع الرواية ، قوى الحجة .

وفي البصرة حيث نشأ الجاحظ كانت تتلاقى الثقافات من فارسية ويونانية وهندية ، وكان الجاحظ يعى ذلك كله ويتابعه . وأثر ثقافته الفارسية واضح في كتابه «البيان» ، فنراه ينقل فيه الكثير من النصوص الفارسية في البلاغة والخطابة والبيان .

ولأن الجاحظ بثقافته الاعتزالية الواسعة وبتلمذته على إمام الاعتزال في عصره (النظام) (ـ ٢٣٥هـ) ، وبصداقاته لبشر بن المعتمر المعتزلي (ـ ٢١٠ هـ) ، وأبي الهزيل العلاف المعتزلي (ـ ٢٣٢ هـ) ، كان متصلا بالمنطق اليوناني وبمذاهب فلاسفة اليونان وحكمائها ، مما يبدو أثره في كتاب « الحيوان » بصفة خاصة ، ويتحدث عن صاحب المنطق : أرسطو ، وأنه كان غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام - أي بالنقد - وتفضله ومعانيه وبخصائصه ، ويذكر أقسام البيان كما عرفها أرسطو ، ويذهب د . طه حسين إلى أن الجاحظ قد قرأ مترجمات لآراء أرسطو في كتابيه الخطابة والشعر .

وكان ذوق الجاحظ المرهف الخبير بأسرار الكلام يقوده دائما إلى إصدار الأحكام النقدية الصائبة على الكلام شعره ونثره على السواء . وكان أسلوب الجاحظ قريبا إلى الافهام ، ينفذ إلي القلوب ، ويمتلك العواطف ، وكان يقول : ينبغي للكاتب أن يكون رقيق حواشي اللسان ، عذب ينابيع البيان كما يروى

صاحب «معجم الأدباء »، وكان يعجب بمذهب المحدثين . ويصفهم بأنهم لم يكونوا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة ، والمعاني المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة ، والمخارج السهلة ، والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له رونق وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وفتحت للسان باب البلاغة ، وأشارت إلى حسان المعاني . وكان لذلك يفضل أشعار المحدثين ، وينقد المتعصبين عليهم ممن كانوا يؤثرون الأسلوب البدوى في البلاغة . وقد استشهد الجاحظ في كتبه وبخاصة في كتابة «البيان» بشعر المحدثين ، ومدح شعر أبي نواس ، وقال عنه : إنك إن تأملت شعره فضلته إلا أن تعترض عليك فيه العصبية ، أو كنت ممن يرى أن أهل البدو أبدا أشعر وأن المولدين لايقاربونهم في شئ ، فإن اعترض عليك هذا الباب فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوبا محكوما بالعصبية الظالمة

لقد كان أبو عثمان ، في كتبه ، وفي كتابه « البيان والتبيين » على وجه الخصوص صوت مصره وعصره وصورة بيئته وحياته وشخصيته وثقافته . كان كما يمثله لنا كتابه « البيان والتبيين » ذا ثقافة نادرة، وعقل ذكي ومواهب مرهفة، وذوق مدرك لأسرار الجمال في الأسلوب، وكان يملك زمام الجماهير في عصره ببلاغته الساحرة النادرة، لم يجامل أحدا على حساب الحقيقة ، فنراه يقول في أسلوب نقدى حزين : هدم أصحابنا - يعني بهم العباسيين - مدن الشامات لبني مروان .

ولقد صدق أبو حيان التوحيدى فيما يقول: لم أجد في جميع من تقدم الا ثلاثة لو اجتمع أهل الانس والجن في مدحهم لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم: أبو عثمان الجاحظ ، وأبو حنيفة الدينورى، وأبو زيد البلخي. فكان يقال لأبي زيد البلخي : جاحظ خراسان .

وبعد فهذا هو أبو عثمان الجاحظ المفكر العربي الكبير ، فهذا هو كتابه «البيان » الكتاب الذى تعلم الأدب عليه أجيال الأدباء والمثقفين على مر الأيام ، والذى أثر أعظم التأثير في الأدباء العرب، من ابن العميد شيخ الكتاب في عصره، إلى توفيق الحكيم وطه حسين والمازني والعقاد في عصرنا اليوم. ■

شروق الشروق

قصة
جمال الغيطاني
رسوم
الفنان جميل شفيق



الأول

لاحت وفاجأني فجراً ، أول شروق عليّ لم أعاينه. لم أره، لم أحط به علماً ، ذلك أنني أجهل ترتيبه في دورات الفلك، إذ لايمكن حتى الآن تحديد موقع تلك اللحظة التي اكتمل عندها أول شروق لنجمنا المتأجج إلى حيز مطلوب، ليتم لابد من إرسال وتلق، انبعاث الأشعة وسفر الضوء، لابد له من محددات أو مسافة، يبدو عندها ويتخذ صوراً مغايرة، لابد أن الشروق الافتتاحي اتخذ زمناً طويلاً حتى تم، مراحل شتى منها تشكل الكوكب الأرضي وانفصاله

شكل الاستدارة، ثم ميله على محوره، وبدأ دورانه حول مركزه وانجذابه إلى مداره ليكون الثالث في الترتيب بالنسبة للأصل بعد عطارد والزهرة، أي أسباب أدت إلى ذلك؟ لا أدري، لا يمكنني القطع، لكن ما أعرفه أن الثلاثة آخر حد القلة، وأول حد الكثرة، هكذا أخبرنا شيخنا الأكبر وأطلعنا، هل لذلك من معنى؟

ربما نعم، وربما لا ..

حقا إن الأمر حيرة، لكنني أمسك حتى لا أحيد، وأنثني إلى ذكر أول شروق أعيه، رأيته في الأفق القاهري، لايرتبط بأقدم صورة أعيها في ذاكرتي، لحظة خروجنا الليلي من الغرفة لننزل إلى الطابق الأول بعد إطلاق صفارات الإنذار المتقطعة، لابد أن ما أطلعت عليه تال لتلك الليلة، لا أقدر على استعادة ماقبلها، ولو جزئية ضئيلة، إنما الأمر بصبح، وقفت فوق السطح زاخرا بفيض من فضول، متطلعا إلى ذلك الاحمرار المهد ناحية جبل المقطم، لون متغير، متدفق، ينبئ بمصدره قبل قدومه، تتعاقب درجات الحمرة بسرعة متوالية، تتفجر بصمت غير ملحوظ ومن هنا سمي الفجر فجرا، من انفجار الماء وبدء تدفقه، والفجر فجران، أولهما كاذب فيه لواح وإشارة، ثم اختفاء بعقبه ذلك التدرج المبهر.

من خلف صخور المقطم يبدأ البزوغ، مجرد خط نحيل يميل إلى استدارة، يكتمل شيئا فشيئا، وبمجرد اكتمال الدائرة بصعودها يبدأ الرحيل المسفر عن مداه.

لحظة لاتغيب عني، استعدتها في مواضع شتى، وأوقات مغايرة، ذلك التطلع المبهور أفتقده الآن، لم يعد ما يثير أمري، ولايحرك فضولي، ذلك أن الاستثارة مرتبطة بالقدوم، بالطلة، ومن يطل والمد جديد أو متطلع إلى وفادة، لكن من يميل إلى غروب فإنما زاده في الاستعادة وتمامه في الاسترجاع، وفوز المكنون.

حدقت محاولا الاستيعاب، وقت بين بين، ربما خريفي، وأجمل أويقات سماء المدينة



مانطالعه منها في ذلك الفصل من مسار العام، يشف الفراغ ويرق لذلك أقدمت على التحديق والإلمام، ثمة هيئة بشرية للاستدارة المتوهجة، القانية، أقرب إلى حضور الأنثى رغم استدارة الصلعة وخلو الجهات من منابت الخصلات والشعيرات الشاردة. هذا الكيان الإنسان لازمني حتى مع إطلاعي على أدق مايتعلق بها فيما بعد. لماذا للشمس الأنوثة وللقمر الذكورة؟

ربما تأثير اللغة، لماذا تمام الاستدارة؟ ربما لأن كل موجود مستدير، كروي، لماذا اليقين أن ثمة صلة ذاهبة، آيبة،ما الشمس الا عين لكائن هائل والقمر عينه الأخرى، يتطلع بهما صوبي، يقصدني بنظراته وأحاول إدراكه، أحيانا يظل القمر مرئيا على خلفية السماء الزرقاء الصافية، يقترن وجوده بالشمس الطالعة، وعند حد معلوم يختفي ليعاود الظهور، لكن ليس من جهة قدوم الشمس.

توالت عليّ أيام كثيرة، لا أعرف بطلوعها إلا من انتهاء الظلمة ولمعة الضوء من إنبلاج الصبح، يتوه وجودها المستدير في سماء المدينة المزدحمة لاينتبه إليها الخلق لكنها حاضرة، مشرقة، مطلة، لها العلو، ولي التطلع ويقيني بالقربى، فليس ما يسهم في كينونة جسدي إلا ذرات من غبارها .

تساؤل

كم شروقا توالى عليّ؟

وكم يبلغ عند تمامي؟

في البحر

أول ما رأيته من البر، وكنت أرتقي السطح الذي نسكنه، قائم على بر، لكن أول شروق من البحر قدر لي أن أشهده في عقدي الثالث، بالدقة قرب منتصفه.

أول ليلة أمضيها في البحر، دعيت لحضور التدريبات السنوية، كان خروجنا بعد آخر ضوء من ميناء قرب الإسكندرية، وقفت أرقب تراجع البر، تماهي الحدود، ليس فقط بتأثير المسافة الفارقة، إنما لتدفق الليل، بسرعة حتى اختلط عليّ فلم أدر أينبع من الموج أو ينزل من السماوات العلا؟ عندما حصل الاندماج وتوارت الحدود الفارقة وانتفت الألوان ، أصبحت في مواجهة لم تستوقفني وقت حدوثها إنما عند استعادتها مرات خلال الثلاثين عاما التالية، ذلك أنني صرت إلى نقطة أواجه عندها العدم، أو الأبد، باختصار مالايمكن تحديده، انقضى أول ليل وحتى هذه اللحظة لا أدري، هل غفوت أم

أمضيته بلا اغفاء.. في تلك الأيام اعتدت بذل المجهود. كنت عفيا. قادرا علي التجوال في المكان والوقت، وفي الجبهة أمضيت نهارات وليالي متصلة بدون وسن، قرب الفجر فارقت الموضع المخصص لنومي، طلعت إلى سطح السفينة البحرية، لم تكن بالكبيرة ولا بالصغيرة، تلك نقطة متحركة تتبع حضورنا أو نتبعها، سماء وبحر، لم أرهما قريبين من بعضهما كما أطلعت ذلك اليوم، موج متوسط وغيوم متناثرة وحركة متهادية، أزرق أقرب إلى الرمادي، لم يول الليل تماما بعد، هل ينبع اللون من البحر أم يتلقاه من مصدر لانعرفه؟، أين زرقة البحر ليلا؟

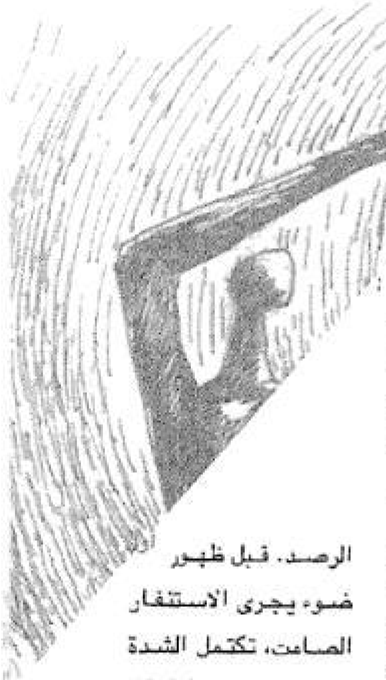
لم أعرف الجهات، حاولت التخمين من المقدمة إذ افترضت استمرار ابتعادها عن نقطة المنطلق، القطع ممكن إذا استفسرت والرجال لايكفون عن ابداء الود والنصح إذا لزم، لكنني مستغرق، مطلع، متوقع للطلة الكونية، وليتي وجهي إلى نقطة محددة حيث توقعت الظهور، يختلف الأمر في البحر، حيث المدى فسيح، وما من حواجز أقامها بشر، يتحدد الأمر بالألوان، تلك الدرجة من الحمرة المتغيرة، الدالة، أصداء الحريق الأزلي، تترقرق درجاته على مدى الأمواج المتعاقبة.

بالضبط، حيث توقعت تنبيء بموقعها، بمكانها، بدأ صعودها السريع، هنا جرى الظهور من الماء، طلع النجم الملتهب، المتقد من أفق الموج، هكذا رأيت اللهب الكوني قادما من البحر وإلى البحر، ذلك أنني أمضيت يومي هذا نائيا عن أي بد، حتى تمام الغروب، نزول القرص الملتهب، تام الاستدارة في الأفق، حيث تتماس حدود الفراغ بالماء، لم أبح لإنسان بانبهاري، وقدر لي أن أعرف أويقات مقاربة فيما تلا ذلك من عمر .

توالي الشروق

مرة فوق البحر، ومرة فوق المحيط.. كلاهما في الطائرة.

الأولى في الطريق إلى المغرب، متجه إليه من المشرق، يبدو الأمر في البداية وكأننا نستبق الشمس، أقلعنا من القاهرة والأفق الشرقي يبدي اللون الأحمر الممهد ، لكن ما إن تجاوزنا البر إلى البحر حتى أغمقت السماء، وأدلجنا إلى ليل متجدد، بعد ساعة أو أكثر مضينا بمحاذاة ساحل أفريقية، يظهر البر حينا من بين فرجات



الغيوم ويختفي. تطلعت
إلى الأفق عبر الكوة
المستديرة، شروق آخر.
الانبعاث اللوني
المهيد. ذلك الاندلاع
المفاجئ، المتراوح،
المضطرم، المنبئ، القادم
من عمق الكون، لم يبد
القرص بعد، تماما كما
رأيته لحظة الإقلاع من
القاهرة، لا أعرف اسم
الموضع . يتغير مع
استمرار الاندفاع
وديمومة الانتقال، تجدد
الليل مرة أخرى لكنه
تبدد فجأة بدون تمهيد أو
مدارج، اكتمل نهار لم
أقدر على إدراك ميلاده.
توالي الشروق على
مرات ثلاث فوق المحيط،
والمحيطات تتوالى، فلابد
من إحاطة المحيط وهذا
مما يطول الحديث فيه،
كنت قادما من المشرق،
لكن هذه المرة إلى أقصى
المغرب، في البداية رحت
أتطلع مدققا، متحققا من
بهتان العتمة وتداخل
السواد بالحمرة، لم أر
قرص الشمس ذاته. إنما
رأيت مرسلاته وما ينبئ
عنه، من وضعية هذا
أخمن المصدر ، وجهته ،
يكتمل الحضور الشفقي
ثم يغيب ليحل ليل
ولاتمضي ساعة إلا
ويدركنا الضوء فيبدأ
إشراق جديد لينذر مرة
أخرى ثم يولي وعند
الثالثة أو الرابعة شع
فشمل واحتوى ولم يعد
ممكنا السبق، فلا يكون
الأمر النهائي إلا للنور
الأصلي، مهما تعاقب
ضوء في إثر ضوء،
فمهما غلبت الوسيلة أو
تعاظمت يبقى السبق
والشمول للمنبع .

وضع سكوني.
تأهب التحفز، غير
المتظور، المستعصي على
الرصد. قبل ظهور
ضوء يجري الاستنفار
الصامت، تكتمل الشدة
لكن في غير حركة، كل
يلزم مكانه فينعدم
الانتقال، المواضع كلها
محسوبة، معدة، كل
مطلع، قائم على حيزه
ومهامه، الصمت عن
الكلام أيضا، لايخاطب
الزميل جاره، لا بالهمس
أو النطق، ولا حتى
بالنظر، إذ يتطلع كل
موجود إلى الناحية
الأخرى، إلى الجهة
المقابلة، إلى المنطقة
العازلة، الضفة الأخرى
من القناة الفاصلة، مع

اقتراب بزوغ الضوء الأول ينشط السمك ويقفز من المياه الزرقاء إلى الفراغ ليعود مسرعا، تصل إلى الحواس حركة الأمواج المتتابعة يدركها القريبون والقابعون فى المناطق الخلفية ، فى الخنادق، فى الغرف التحتية، فى التحصينات الخرسانية، فى مواقع القيادة الأمامية، الخلفية، فى نقاط الاستطلاع إن بالأجهزة أو بالبصر.

أول ضوء، بعمق الصمت، تغلق كافة أجهزة الاتصال، لم أعرف لحظة مماثلة طوال تجوالى مثلها يمكن تعيين تلك اللحيظة التى يفترق فيها المتضادان، ويتحدد اللونان، الأبيض من الأسود، يسرى السكون إلى الأرض، إلى السماء ، حتى الطيور تكف، أما الأسماك فتغوص إلى أعماق أبعد، تتقارب حواس الرصد والتوقع، وكذا يكون الأمر هناك .

كسوف

تأهبت لتلك اللحظات، عند خروجى من بيتى وسلوكى طريقى المعتاد، لاحظت خلو الشوارع، ولم يعسر علىّ رصد توجس القوم، ذلك أن ماسيجرى أمر استثنائى رغم توقعه وتحديد موعده من أهل العلم والاختصاص، لكن غير العادى باعث دائما على الخشية والفضول معا.

عند الوقت المعلوم خرجت إلى الشرفة وتطلعت عبر المنظار الغامق إلى أعلى، كل نور قائم، من فوق مهما بدا لنا الوهم أنه أفقى أو نور استواء، تطلع الشمس من الشرق، تبدو متحركة، ساعية، والحقيقة أننا الدائرون حولنا وحولها، عند تلك الظهيرة نظرت متوجسا، عبر تلك الشعاعة المكانية أرقب ظل الجرم التابع على الأصل المتبوع مع غياب ظهوره، هكذا بدأ ظل القمر لتتحقق لنا استدارته، ينقص قرص الشمس بمقدار زحف الظل على سطحه، شيئا فشيئا يبرد الجو ويغمق الفراغ.

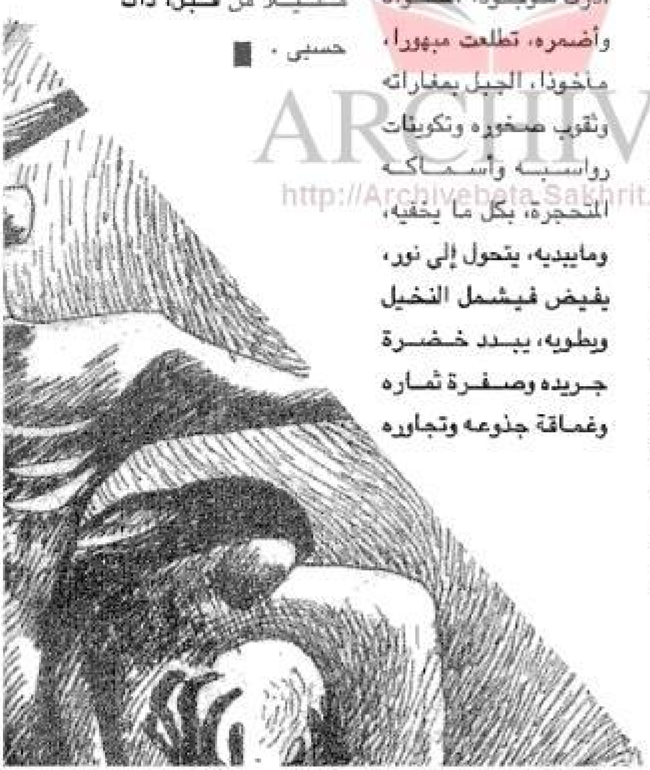
الجرم الصغير يخفى الأصل، الظل لاغير - فالأصل غائب مستتر - يبدد المصدر، شيئا فشيئا تخفت حرارة الفراغ، يكتمل الحجاب فتغرب الشمس فى غير موعدها المقدر، تختفى ظاهرة، بالإمكان رؤية الاستدارة، وأطراف الوهج الماسى، ذلك الانولاع الخفاق، لاتتحقق رؤيته إلا باكتمال الظل، لم يدم ذلك إلا دقيقتين وربع، بعدهما بدأ انحسار الفرع الذى توحد بالأصل وغطاه، كان شروقا فريدا، لايتقدر إلا كل حين معلوم، وعندما يحين موعده التالى لن أشهده!

انصهار

في مواجهتي مباشرة الجبل وغابة النخيل على الضفة الأخرى، والنهر يمضي من جنوب إلى شمال، يقع الفندق الصغير على الشاطىء مباشرة، خرجت إلى الشرفة متوثبا، تواقا، مدفوعا بتلك الطاقة الغامضة المصاحبة للتطلع والبشر عقب نوم هادىء لم تقطعه منغصات، إنما أردت رؤية النهار في بدايته، تلك عادتي كلما نزلت مكانا آوي إليه في سفر، لكن هذا الصباح بدا مغايرا، ذلك أني مجرد خروجي إلى الشرفة فوجئت، لم يكن شروقا إنما اندلاع وبزوغ، نور لا مركز له ولا مصدر يمكن تعيينه أو تحديده، طالع من اللاجهة، مع سريانه يصهر كل علامة، أعي أنني في الصعيد، في إقليم المنيا تحديدا، في الجنوب تتجاوز العناصر وتتحدد الفروق، الصحراء، بجوار الزرع، الأصفر والأخضر، يمكن الوقوف بقدم في الحضور وأخرى في الغياب. الصخر والنهر يمتزجان، الكمون والإسفار، الصلابة والسيولة. لكن الأمر بدا مغايرا الآن، لم أعرف نهارا صريحا مسفراً كهذا، لا حمرة ممهدة، ولا تدرج و إنما طلوع مبين، نور من نور على نور ساطع، ثاقب، كلما أدرك موجودا احتواه وأضمره، تطلعت مبهورا، مأخوذا، الجبل بمغاراته وثقوب صخوره وتكوينات رواسبه وأسماكه المتحجرة، بكل ما يخفيه، ومايبديه، يتحول إلي نور، يفيض فيشمل النخيل وبطوبه، يبدد خضرة جريده وصفرة ثماره وغماقة جذوعه وتجاوره المتراص، يصبح نورا مندمجا، يسري إلى النهر فلا شاطىء ولا ماء، يتقدم ناحيتي، إلى حيث الجهة التي ستصير لا جهة. قال مولانا الشيخ الأكبر:

«الشروق والغروب، فيهما الوجدان والفقد..»

كنت أعي حضوري مع يقيني بانطوائي البادي في نور النور المتجه نحوي، شروق الشروق الذي لم أعرف له مثيلا من قبل، ذاك حسبي. ■




محمد مندور


صبري حافظ



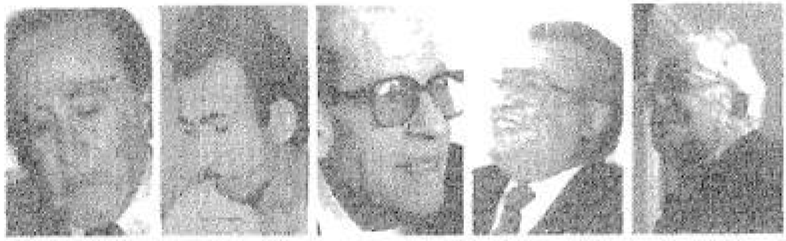

نوال السعداوي


مصطفى ماهر

ترجمة الأدب العربى المعاصر بأية معايير تتم ؟

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

منذ ثلاثة وثلاثين عاما ، وعلى وجه التحديد فى مايو ١٩٦٨ كتب صبرى حافظ فى مجلة «المجلة» عرضا لكتاب «أقاصيص عربية حديثة» اختارها وترجمها إلى الانجليزية المترجم الكندى المولد دنيس جونسون - ديفيز ، وصدرت عن مطبعة جامعة أكسفورد عام ١٩٦٧ . أثنى صبرى حافظ على جهد المترجم ولكنه شكا من أن أغلب القصص التى اختارها تلح على الجوانب السلبية فى الحياة العربية : الخرافة والدجل والشعوذة ، الإيمان الساذج بالرقى والتعاويذ ديماجوجية الشعب العربى وبلاهته السياسية وغلبة روح القطيع عليه ، فقدان الحرية السياسية والاستسلام للأحلام الساذجة ، تعقيدات الروتين الحكومى وغباؤه ، إلخ .



يحيى حقي جابر عصفور نجيب محفوظ بدر شاكر السياب جبرا إبراهيم جبرا

وفي فترة أحدث كتب القاص فتحي سلامة في مجلة «القصة» (أكتوبر نوفمبر ديسمبر ١٩٩٣) عازفا على نفس الوتر ، وإن افتقرت كتابته الصحفية إلى جدية حافظ وعمقه ، قال فتحي سلامة إن الغرب ينظر إلينا بعين الاستعلاء وإننا لاينبغي أن نفرح حين يترجمون أعمالنا . ثم ختم كلمته بقوله : «أيها السادة إنهم لايترجمون إلا القصص التي تخدم أهدافهم العنصرية فلا تفرحوا بتلك الترجمة وهذا الاهتمام . إنهم يبحثون لنا عن أدلة اتهام جديدة يقدمونها إلى العالم لكي يعرف العالم إننا متخلفون لانستحق الحياة» .

قدر كبير من الصواب ؟

هذا إذن – مع تفاوت في مواضع التوكيد – جواب اثنين من مثقفينا عن السؤال الذي يطرحه عنوان هذا المقال : بأية معايير يختار العالم الخارجي (والغرب بخاصة) ما يترجمه من أدبنا إلى لغاته ؟ عند صبري حافظ وفتحي سلامة أن الغرب يترجم ما يؤكد أفكاره المسبقة عن العالم العربي السادر في تخلفه وخرافاته ، العاجز عن ملاحقة التقدم العلمي والتطور التقني . وتلقى هذه الفكرة دعما قويا من كتاب إدوارد سعيد الخطير «الاستشراق» (١٩٨٧) حيث يؤكد هذا الأكاديمي البارز والناقد الممتاز أن الغرب قد اختار أن يصوغ للشرق صورة تلائم مفهومه له : فالشرق هو مسرح كل ماهو غريب وعجائبي وساحر ، يمثل تحررا من قيود العقل ومن قوانين العلية ومن الأخلاقيات الفيكتورية الصارمة . إنه ، في كلمة ، عالم ألف ليلة وليلة حيث الخيال المجنح الطليق ، وأشد الأحلام جموحا تتحقق ، ولذات الحس والفرج والبطن تكمن في انتظار سعيد الحظ الذي تناديه عينان دعجاوان من وراء حجاب ، في مشربية .

ولابد من الإقرار بأن في آراء صبري حافظ وفتحي سلامة وإدوارد سعيد قدرا كبيرا من الصواب : فالغرب في نظرته إلى الشرق تحركه المصلحة ، ويعوزه التنزه من الغرض ، لقد ترجم القرآن الكريم إلى اللغات الأوروبية ، وأطرافا من التراث العربي الكلاسيكي شعرا ونثرا وفلسفة ودينا وعلما وأدبا ، لأنه – إلى

جانب حب الاستطلاع الفكرى الذى هو من أبرز فضائل الإنسان الغربي - كان بحاجة إلى أن يعرف هذا العالم العربى ظهرا لبطن ، ويستكنه أنماط فكره وشعوره ، كى يتسنى له السيطرة عليه عسكريا وثقافيا ودينيا واقتصاديا وحضاريا .

نحن لاننزه الغرب ، إذن ، عن سوء الطوية ، ولا ننفى أن يكون المعيار الأول الذى يختار به مايترجم من ثقافتنا هو معيار المصلحة المادية والأغراض العملية ، ولكن من الخطأ أن نكتفى بهذا التعليل ، فالأمر أعقد من ذلك كثيرا ، تشتبك فيه - كما هو الشأن فى أغلب الشئون الإنسانية - جدائل متداخلة علينا أن نحل خيوطها وأن نفك الاشتباك بينها ، لكى نظفر بصورة صادقة لمكوناتها .

الدافع السياسى

إن من الدوافع التى تدفع الغرب إلى ترجمة أدبنا الحديث ودراسته الدافع السياسى المحكوم بأيديولوچية النظم الحاكمة . ففى فترة ما من صعود المد الاشتراكى فى مصر فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات كانت مجلة «الشرق» السوفيتية (ويرأس تحريرها د. محمد مندور) تنشر مقالات لمستشرقين ونقاد سوفييت عن الأدب العربى الحديث تشيد بأعمال لنجيب محفوظ وعبدالرحمن الشرقاوى والخميسى وإدريس ومحمد صدقى (فى مراحلهم الواقعية) لأنها تجد فى أعمال هؤلاء الكتاب مايدنو بهم من الفكر الاشتراكى والمنهج الواقعى الملتزم وتصوير الصراع الطبقى والانحياز إلى جانب العمال والفلاحين فى وجه الرأسماليين والإقطاعيين .

ومن معايير الاختيار - كما يلاحظ د. مصطفى ماهر (انظر : لمزيد من القراءة ، فى أعقاب هذا المقال) - أن يتوافق الاتجاه الفكرى لدار النشر مع فكر الأديب أو الأديبة العربية . هكذا نجد مثلا أن دور النشر المهتمة بالحركة النسائية احتفت بترجمة روايات نوال السعداوى ، ولنا أن نضيف : ولطيفة الزيات وسلوى بكر وأليفة رفعت وحنان الشيخ وغادة السمان وأهداف سويف .

ولا يغفل مصطفى ماهر عامل العلاقات الشخصية والمصادفة والمزاج الشخصى فى اختيار النصوص المترجمة فيقول : «وربما كان المترجم الفرد يستجيب لذوقه أو لفكرة خطرت بباله ، وربما لعبت العلاقات الشخصية دورها كأن يكون التقى بهذا الكاتب أو ذاك ، أو أوقعت المصادفة فى يده كتابا بعينه ». وأقول : هذا ما يفسر مثلا اهتمام دنيس جونسون - ديفيز بترجمة أقاصيص أليفة رفعت إلى الانجليزية ، وهى لاتحسب فى عداد الكتاب المهمين فى موازين النقاد العرب ، وإن اهتم بها أنصار الحركة النسوانية لأسباب سوسيولوجية أو أيديولوجية أو غير ذلك .

كذلك يذكر مصطفى ماهر عاملا آخر مهما حين يقول :

«لا ينبغى أن نغفل عن التيارات أو الموجات التي تظهر على الساحة . فربما تردد اسم أديب لحصوله على جائزة عالمية ضخمة ، أو ربما تسلطت الأضواء على أديب لتعرضه لهجوم ، أو جاءت مناسبة مرور كذا سنة على مولده أو على وفاته ، أو دار حديث مجدد عن أشياء لم تكتشف بعد ، أو تظهر رواية مترجمة إلى الفرنسية أو الانجليزية فتفتح الباب أمام ترجمة إلى الألمانية» .

ويضيف الدكتور محمد على الكردى ، فى ورقة له عنوانها «الأدب العربى بين العالمية والعولمة» ، عاملا آخر يضاف إلى ماسبق ذكره . إنه مايمكن تسميته أفق التوقع الغربى أى الجمهور الغربى المعنى بترجمة الأثر العربى :

«حينما نكون بصدد القارئ العام فذلك يعنى مخاطبة ذوقه وميله والتطابق ، بقدر الإمكان ، مع أفكاره المسبقة والمتوارثة عن الشرق الإسلامى والعالم العربى . وهذا مايفسر لنا النجاح الهائل الذى حققته رواية «آيات شيطانية» لسلمان رشدى ، وما أضفته عليه من رونق وبريق يتجاوزان أضعاف أضعاف مايحاط به كبار الكتاب الحقيقيين من إجلال وتقدير ، وذلك كله بسبب إدانته الغبية من قبل حاكم إسلامى متطرف ، وهو مايطابق الصورة المزرية التى يرغب الغربيون فى إلصاقها بالإسلام والمسلمين» .

هذه إذن أهم المعايير اللا أدبية - إذا جاز القول - التى تحكم عملية الاختيار والترجمة والمراجعة والنشر والتوزيع . لكن من الحق أن نضيف أن هناك معايير أدبية أخرى تدخل فى الموضوع .

هموم فردية

فلا ريب فى أن الأعمال العربية التى تلفت نظر المترجم الغربى هى التى تملك ، إلى جانب طابعها المحلى ، سمات إنسانية عامة تجعلها قابلة للنقل والتوصيل. كتب دزموندستيوارت ، المستشرق والروائى الانجليزى ومترجم رواية «الأرض» للشرقاوى إلى الانجليزية ، مقالة عن «الأدب العربى وهل هو قابل للتصدير ؟» فى عام ١٩٦٢ يشكو من أن أغلب الكتاب العرب يقتصرون على التحدث عن هموم فردية أو محلية ، واستثنى من هذا الحكم كتابا قلائل كنجيب محفوظ الذى جعل من حى خان الخليلى «مثالا عالميا لا مصريا قحا» وجعل من شخصياته نماذج للإنسان فى كل مكان .

وأكرر هنا أن الغرب لايريد أن ينقل أدبا عربيا يكون صورة باهتة من أدبه الغربى ، فمن لديه الأصل لايحتاج إلى الصورة . إن المترجم الغربى - فى الأغلب الأعم - ينجذب إلى الأدب الصادق الذى يتحدث عن مشكلات الفلاح أو العامل أو الموظف أو الطالب العربى أكثر مما ينجذب إلى الروايات المتأثرة بالفكر الوجودى والأدب الغربى

ترجمة الأدب العربي

والتي تبدو وكأنها محاكاة ممسوخة لكافكا أو سارتر أو كولن ولسون . وفي هذا الصدد تذكر أستاذة للأدب الفرنسي ومترجمة قديرة هي الدكتورة آمال فريد (مجلة فصول صيف ١٩٩٨) حوارا دار بينها وبين الروائي الفرنسي ميشيل دوميه ، وكان مدعوا في جامعة القاهرة :

«حينما قلت له باعتزاز وفخر إننا نعتبر محفوظ هو بلزاك الأدب العربي ، رد قائلا : لايهمنا على الإطلاق أن يكون بلزاك ، ولكن أن يكون نجيب محفوظ هو ذلك الكاتب العبقري المتميز الذي يجدون في رواياته عالماً له خصوصيته وتفرده ويتميز بالمحلية الشديدة ، ويجعل القارىء الفرنسي يعيش في البيئة المصرية ، ويتسمع كلمات أبناء الحارة المصرية ، وهي تصدر من القلب» .

نظرة الاستعلاء

وأود أن أتقدم بملحوظتين :

الملحوظة الأولى هي أن المسئول عن عدم وصول الأدب العربي المعاصر إلى الغرب بدرجة كافية اثنان : الغرب أولا ، ونحن ثانيا .

فالغرب يعاني – وسيظل كذلك للأسف – من شعور أبدي بالاستعلاء علينا ، ويعتقد أن لديه منذ الأغريق مايكفيه ويزيد، ولذلك فهو لايلتفت إلى الأدب العربي إلا في لحظات فراغه من تراثه ، وعلى نطاق ضيق في أوساط المستشرقين والمتخصصين في الآداب الشرقية . ماذا يهم الغرب – وقد حصلت فيه المرأة على كافة حقوقها منذ القرن التاسع عشر وأصبح للأقليات الجنسية كيانها المعترف به قانونيا واجتماعيا وسياسيا – من أغلب قصصنا التي تدور مثلا حول عقبات في طريق زواج شاب وشابة متحابين حديثي التخرج في الجامعة ، أو أزمة المساكن أو قصور خدمات التليفون والكهرباء والمياه ، أو التوفيق بين بيت المرأة وعملها ، أو الصراع بين المحافظة والتحرر ؟ هذه كلها قضايا فرغ منها الغرب منذ زمن طويل وحلها بطريقته الخاصة ، سواء كنا نقبل هذه الطريقة أو نرفضها ، ومن ثم فهو ليس على استعداد لأن يشغل باله بها .

ونحن المسئولون ثانيا لأننا لانقوم بجهد كاف من أجل تسويق ما نترجمه من الأدب العربي إلى اللغات الأجنبية ، ولا نصدره من حيث الطباعة والإخراج بالشكل اللائق الذي يستطيع أن يصمد للمنافسة العالمية . وهذا أمر مؤسف لأن الهيئة المصرية للكتاب في ظل ولاية الدكتور سمير سرحان ، وبإشراف الدكتور محمد عناني ، تصدر سلسلة قيمة باللغة الانجليزية عنوانها «الأدب العربي المعاصر» مترجما إلى الانجليزية .

وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن أكثر من ستين كتابا من الأدب العربي الحديث ما بين شعر ورواية وقصص قصيرة ومسرح شعري ومسرح نثري وأدب فكاهي وسير وتراجم . وهذه

السلسلة خليقة أن تحدث أثرا عميقا في القارىء الأجنبي لو عنى بإخراجها الطباعي وتسويقها في الغرب .

والملحوظة الثانية : هي أننا إذا كنا نشكو من المعايير المزدوجة التي يعامل بها الغرب أدبنا ، ولا نبرئه من الهوى والمصلحة ، فإن من الحق أن نذكر أن بعض مترجمينا العرب يرتكبون مثل ذلك ، إذ يتحيزون لأدباء عرب بعينهم على حساب أدباء آخرين ، وذلك لأسباب سياسية أو أيديولوچية أو شخصية ، وسأضرب مثلا واحدا لذلك أختم به مقالي، وفي نفسي مرارة ، لأن ظلم ذوى القربى أشد مضاضة من ظلم الغريب .

للشاعر والمترجم اليمني عبدالله العذري كتاب عنوانه «الشعر الحديث في العالم العربي» صدر في سلسلة بنجوين المشهورة عام ١٩٨٦ وضم إلى جانب مقدمة وتعريف بالشعراء مختارات من أربعة وعشرين شاعرا قسمهم على النحو التالي :

١ - حركة التفعيلة (المدرسة العراقية) ١٩٤٧ - ١٩٥٧ : بدر شاكر السياب - نازك الملائكة - عبدالوهاب البياتي - بلند الحيدري .

٢ - حركة مجلة شعر (المدرسة السورية) ١٩٥٧ - ١٩٦٧ : يوسف الخال - أدونيس - أنسي الحاج - شوقي أبوشقرا - فؤاد رفقة - محمد الماغوط - جبرا إبراهيم جبرا - توفيق صايغ - رياض الريس - عصام محفوظ .

٣ - خبرة حزيران ١٩٦٧ - ١٩٨٢ : نزار قباني - فدوى طوقان - سميح القاسم - رشيد حسين - معين بسيسو - صلاح نيازي .

٤ - الخبرة البيروتية (١٩٨٢ -) : خليل حاوي - سامي مهدي - سعدي يوسف - محمود درويش .

والكتاب جهد طيب ولكنه يصدم القارىء - العربي قبل المصري - بخلوه من أي شاعر مصري كأنما مصر لم تنجب صلاح عبدالصبور ولا أحمد عبدالمعطي حجازي ولا محمد إبراهيم أبوسنة ولا فاروق شوشة ولا أمل دنقل ولا محمد عفيفي مطر ولا صلاح جاهين . وقد وجه الدكتور محمد عناني في مقالة له عن الكتاب ، على صفحات مجلة «القاهرة» ، النظر إلى هذا الإغفال الذي لايمكن أن يكون سهوا وإنما من الواضح أنه جاء مع سبق الإصرار والترصد . قد تكون للعذري تحفظاته على سياسة مصر الخارجية في عصر الرئيس السادات ، ولكن من الصغار الذي يضر أصحابه أكثر مما يضر مصر أن يتجاهلوا البلد الذي أنجب طه حسين والعقاد وسلامة موسى وهيكل والمازني والزيات ، والذي مد يده إلى أغلب الأقطار العربية وساعدها على التقدم نحو الثقافة والحضارة ، دون منّ أو انتظار مقابل . كم تجني السياسة على الأدب ! وكم يسيء العذري وأمثاله إلى قضية الأدب العربي - من حيث أرادوا أن يخدموها - بتجاهلهم الشعر المصري ! عزاؤنا أن في مصر من

ترجمة الأدب العربي

المترجمين (يكفي أن نذكر أسماء محمد عناني ، ونهاد صليحة ، ونهاد سالم) من يستطيعون أن ينقلوا شعرنا وقصتنا ومسرحنا إلى اللغات الأجنبية دون حاجة إلى هذا المترجم أو غيره .

لمزيد من القراءة

- عصام عبدالله ، حول ملتقى الأدب الروائي العربي مترجما إلى الفرنسية ، مجلة القاهرة ١٥ نوفمبر ١٩٩٠ .
- نجاتي صدقي ، القصة العربية الحديثة في الأدب الروسي ، مجلة الرائد العربي (الكويت) نوفمبر ١٩٦٣ .
- أنطون غطاس كرم ، قصتنا المعاصرة في ترجمة فرنسية ، مجلة حوار (بيروت) سبتمبر - أكتوبر ١٩٦٤
- د. نبيلة إبراهيم ، مصر في قصص مشاهير كتابها المعاصرين لهرمان زيوك ، مجلة المجلة ديسمبر ١٩٦٣ .
- فتحي سلامة ، قضايا ومتابعات : دراسات أوربية حول القصة العربية ، مجلة القصة ، أكتوبر نوفمبر ديسمبر ١٩٩٣ .
- صبري حافظ ، أقاصيص عربية حديثة اختارها وترجمها دنيس جونسون - ديفيز ، مجلة المجلة ، مايو ١٩٦٨ .
- دزموند ستيوارت ، الأدب العربي وهل هو قابل للتصدير ؟ ترجمة يحيى حقي ، مجلة المجلة ، ديسمبر ١٩٦٢ .
- د. فاطمة موسى ، حول الأدب العربي والقارىء الانجليزي ، مجلة المجلة، يناير ١٩٦٣ (تعقيب على مقالة دزموند ستيوارت المذكورة أعلاه) .
- فريتس شتيبات ، عن أولاد حارتنا لنجيب محفوظ ، ترجمة د. عبدالغفار مكاوي ، مجلة الثقافة أكتوبر ١٩٧٨ (أعيد طبعها في كتاب عبدالغفار مكاوي : شعر وفكر : دراسات في الأدب والفلسفة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥) .
- أحمد الخميسي ، نجيب محفوظ في مرآة الاستشراق السوفيتي ، دار الثقافة الجديدة ١٩٨٩ .
- أندرية ميكيل ، ريجيس بلاشير ، بيير جورجان ، رؤية فرنسية للأدب العربي ، ترجمة وتقديم وتعليق د. أحمد درويش ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٣
- د. مارينا ستاغ ، حدود حرية التعبير : تجربة كتاب القصة والرواية في مصر في عهدي عبدالناصر والسادات ، ترجمة طلعت الشايب ، دار شرقيات ١٩٩٥ .
- د. عبداللطيف عبدالحليم ، الاستشراق الأسباني ونجيب محفوظ ، مجلة عالم الكتاب ، يناير فبراير مارس ١٩٩٠ .
- محمد عبدالله الشفقي ، نجيب محفوظ في عالم الناطقين بالانجليزية ،

مجلة الهلال ، ديسمبر ١٩٨١ .

- د. هيام أبوالحسين . يحيى حقى بين مترجميه ، مجلة إبداع يناير ١٩٩٤ .

- د. جابر عصفور (مشرفا) الأدب العربى والعالمية ، أبحاث مؤتمر المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة من ٤ - ٧ ديسمبر ١٩٩٩ ، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠١ ، خاصة أبحاث روبين أوستل ، وروجر آلن ، ود. محمد على الكردى .

- د. كاميليا صبحى - نجيب محفوظ فى مرآة الغرب فى كتابها : الإرهاب الفكرى وبزوغ العولمة ، لعدد من الكتاب ، ترجمة وتقديم د. كاميليا صبحى ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٩٨ .

- د. فاطمة موسى (منسقة للحوار) الرواية العربية مترجمة : ندوة بالمجلس الأعلى للثقافة ، مجلة فصول ، صيف ١٩٩٨ .

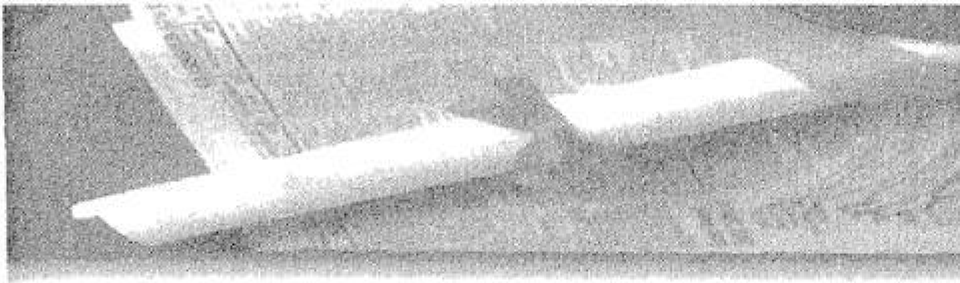
- د. مصطفى ماهر ، حول ترجمة الرواية العربية إلى الألمانية ، مجلة فصول ، ربيع ١٩٩٨ .

- المؤسسة الأوربية للثقافة بأمستردام ومدرسة المترجمين فى طليطلة ، ذاكرة المستقبل لعدد من الكتاب ، خاصة : ترجمة الأدب العربى المعاصر إلى اللغات الأوربية لميخيل إيرناندو دى لاراميندى وغونثالو فيرنا ندث باربيا ، ٢٠٠٠ .

- المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ، ملخصات أبحاث الحلقة البحثية حول قضايا الترجمة وإشكالياتها من ٢٨ - ٣١ أكتوبر ٢٠٠٠ ، خاصة : نحو إثراء حركة ترجمة الأدب العربى إلى الألمانية لعاصم عزالدين العمارى ، وترجمة الأدب العربى إلى اللغة الانجليزية أمس واليوم لفاطمة موسى ، ومشاكل الترجمة إلى اللغة الانجليزية لمرسى سعد الدين .

وهناك ، بالانجليزية ، مقابلة مع المترجم دنيس جونسون - ديفيز تتناول تجربته فى الترجمة ومشكلات ترجمة الأدب العربى إلى الانجليزية ، نشرت فى مجل ألف ، الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، العدد الثالث ربيع ١٩٨٣ ، أجرى المقابلة د. فريال غزول وباربارا هارلو ونلز جونسون وأعيد طبعها فى كتاب د. فريال غزول وباربارا هارلو (محررتين) : المنظر من الداخل : كتاب ونقاد عن الأدب العربى المعاصر ، مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٩٤ .

كما توجد مقالة بالانجليزية لجون رودنبك - الذى كان مديرا لمطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة - عنوانها «فن الترجمة» فى مجلة «كايرو توداى» (يناير ١٩٨٩) تتناول مشكلات الترجمة الأدبية من العربية إلى الانجليزية . ■



حول الترجمة إلى اللغة العربية

بقلم
ابراهيم فتحى

تلبى الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية كما لبت في الماضي احتياجات ثقافية وعملية يقتضيها التطور الاجتماعي والسياسي والفكري. والبداية الحديثة كانت فى عصر محمد على مرتبطة باسم الرائد رفاعة رافع الطهطاوى. وبطبيعة الحال كانت الاحتياجات تدور حول بناء الجيش والمصانع الحربية على الأغلب لذلك حظيت العلوم التطبيقية بنصيب كبير من جهود الترجمة من الفرنسية، وقد طالب كثيرون من علماء الأزهر المستنيرين كان أشهرهم حسن العطار بالاتجاه إلى العلوم الطبيعية الحديثة فى التدريس بالأزهر استكمالا للنقص فى التعليم الأزهرى، وإن لم يتحقق ذلك فى الأزهر، فقد كان مطلبا لعدد من المتعلمين فى المدارس التى أنشئت خارجه (وكانت قليلة العدد عملية الاتجاه) ومن أعضاء البعثات.



محمد على — رفاعة الطهطاوى — الخديو عباس الأول

وقد أسس رفاعة الطهطاوى مدرسة للترجمة سميت مدرسة الألسن عام ١٨٣٥، وكان بها أقسام متعددة، ثم أسس عام ١٨٤١ قلم الترجمة الذى ترجم كتب الميكانيكا والطب والعلوم الطبيعية، وعلى الرغم من أن ترجمة العلوم التطبيقية كانت محور الاهتمام فإن هذه العلوم تتطلب للتمكن منها معرفة ببعض المبادىء النظرية والمقدمات الفلسفية، وقد ترجم رفاعة كتاب مبادىء الهندسة والمنطق وكتاب قدماء الفلاسفة من الإغريق،وكانت طموحات محمد على الاستقلالية عن الباب العالى وكان بناؤه لدولة بيروقراطية حديثة على أسس بناء القوات المسلحة وفروعها المختلفة دافعا للاهتمام بمصر وهى منصة الوثوب فى مشروعه الامبراطورى فترجم رفاعة تاريخ قدماء المصريين، كما كان دافعاً للاهتمام بالأسس التى تقوم عليها الدول القوية المتمدينة فترجم رفاعة الدستور الفرنسى (أو الشارطة كما عرّب الكلمة الفرنسية) وقانون الصحة العامة الفرنسى والقانون المدنى الفرنسى . وذهب رفاعة بعيدا فى بلد لايتمتع فيه «الرعايا» بأدنى الحقوق السياسية أو المدنية فترجم وثيقة حقوق الانسان والعقد الاجتماعى لروسو، وذلك من باب التعرف على كائن غريب اسمه الفرنسيس لابقصد محاكاته، وكان عدد القراء شديد الضآلة وكلهم ينتمون إلى الدائرة المحيطة بولى النعم، الذى يرغب فى فهم سياسة من يتعامل معهم من قناصل فرنسا، فهو الذى طلب من رفاعة ترجمة الدستور الفرنسى.

توقف الترجمة فى عهد عباس

وبعد محمد على جاء، عسف عباس الأول وإلغاؤه مدرسة الألسن وقلم الترجمة، وأمره أن تقتصر الترجمة على اللغة التركية وحدها، فحينما يكون جمهور القراء مقصورا على الحاكم

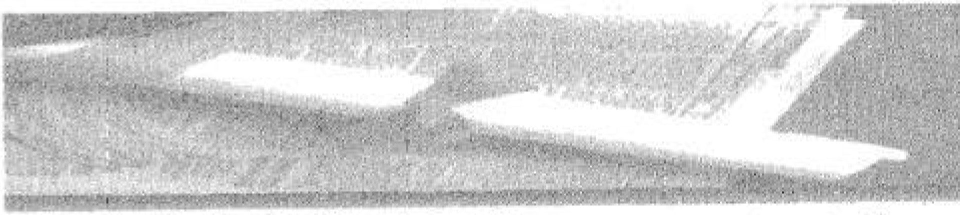


وبطانته وموظفيه واحتياجهم تصبح الترجمة بلا جذور ويسهل العصف بها. ولم يكن الأمر أفضل مع سعيد الذى كان يؤمن بأن الشعب الجاهل مطية ذلول فألغى ديوان المدارس ومطبعة بولاق الأميرية وتوقفت أى محاولة للترجمة فى عهده.

ولكن التغيرات الاقتصادية ونشوء طبقة وسطى من الملاك الزراعيين والتجار والموظفين وتوسع التجارة مع أوربا استدعت جميعا توسعا في التعليم، وزادت نسبة عدد الطلبة بالتعليم الابتدائي والثانوى، وقد تطلبت الحياة الاقتصادية والعلاقات الواسعة مع الممولين الأجانب اهتماما خاصا فى عصر اسماعيل بالقانون، فأنشئت مدرسة الإدارة لتدريس القانون وضمت إليها مدرسة الألسن، وشملت حركة الترجمة كتب القانون الفرنسي التى تفوقت على كتب العلوم التطبيقية فى عصر محمد علي. لقد أصبح هناك لأول مرة جمهور «أهلي» من القراء له احتياجاته المتميزة عن احتياجات الوالي وعن حدود الثقافة الأزهرية المكتفية بما عندها، وبالاضافة إلى ذلك كان هناك المهاجرون الشوام القادمون إلى مصر هربا من البطش العثمانى بثقافتهم الأوربية وقد أنشأ هؤلاء صحافة قوية لم تكن تعبر مباشرة عن الحاكم بل تعيش على إقبال جمهور القراء من الفئات المتعلمة الناشئة حديثا وكانت وعاء للترجمة والتعليق على مسرحيات مترجمة، ثم روايات مترجمة مسلسلة ، وقصص قصيرة مترجمة. أى بدأت حركة الترجمة الأدبية وكالمعتاد كان رفاعة سباقا فقد ترجم «وقائع تليماك» لفينيلون ونشرها فى بيروت ، لما فيها من «نصائح للملوك» والحكام ومواعظ لتحسين سلوك عامة الناس.

الترجمة من الفرنسية

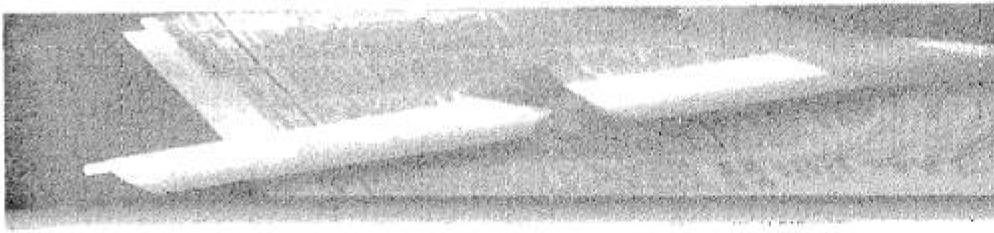
وبعد الاحتلال البريطاني فرض الاستعمار فى البداية اللغة الانجليزية لغة للتعليم وأهمل التعليم العالى وحاول أن تكون الغلبة للتعليم الأولى المجانى (مختلف عن التعليم الابتدائى الذى يتقاضى مصروفات). ولكن الحركة الوطنية بمتعلميها قاومت كل ذلك وحققت انتصارات فى مجال التعليم، وكانت الطبقة الوسطى قائدة الحركة الوطنية تفرق بين الغرب المستعمر والحضارة الغربية المتفوقة فدعت إلى «اقتباس» مايلزم لتقدمنا من معارف الغرب وفنونه، وقد اتجهت حركة الترجمة فى الأساس إلى اللغة الفرنسية نتيجة للعلاقات بين محمد علي واسماعيل بفرنسا ونتيجة لثقافة المهاجرين الشوام ونتيجة لمحاولة بعض الوطنيين استغلال التناقض بين فرنسا وانجلترا على النفوذ في المنطقة، فقد كانت ثقافة مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وأحمد لطفى السيد وغيرهم أقرب إلى الفرنسية من الإنجليزية، وحتى حينما ترجم فتحي



زغلول ما يدعو إلى الإصلاح على هدى الأنظمة والشرائع الأوربية. ترجم «سر تقدم الانجليز السكسونيين» عن الفرنسية من تأليف ادمون دومولان، وروح الاجتماع وتطور الأمم لجوستاف لوبون ، وترجم أحمد لطفي السيد كتاب السياسة لأرسطو عن الفرنسية ولكن الكثيرين كانوا يعرفون الانجليزية ويترجمون منها.

الترجمة في فروع مختلفة

وكان لقراء الطبقة الوسطى المعادين للاحتلال، وذوى الفردية البازغة احتياجاتهم الثقافية فى التعرف على تاريخ الدول الغربية، فترجمت روايات تاريخية تجمع التاريخ إلى مغامرات الأبطال وشواغلهم الغرامية فترجمت بعض روايات والتر سكوت عن الإنجليزية، وروايات اسكندر ديماس عن الفرنسية، وبالاضافة إلى ذلك ترجمت الروايات الرومانسية استجابة إلى قوة التيار الرومانسى فى الأدب الذى كان ينتقد الأدب التقليدى ويطالب بحقوق العاطفة والخيال، فترجمت روايات «البؤساء» لفيكتور هوجو (أو اجزاء منها)، وترجم محمد عثمان جلال رواية «بول وفرجينى» لبرناردان دى سان بيير (وصاغها المنفلوطى بعد ذلك بقلمه الرشيق باسم الفضيلة)، وعن الانجليزية ترجم محمد السباعى قصة مدينتين لديكنز، وهنرى أزموند لتاكراى، والبعث لتولستوى والسعادة العائلية له، ولم تكن الترجمة مقصورة على الأدب، فقد قام المهاجر الشامى شبلى شميل بترجمة وتلخيص وشرح نظرية التطور، «فلسفة النشوء والارتقاء»، وبعد ذلك يترجم اسماعيل مظهر كتاب «أصل الأنواع» لداروين مغامرا بجهده الفردى فى ترجمة المصطلحات البيولوجية، ومن الملاحظ أن ترجمة العلوم البحتة أو التطبيقية التى كانت لها السيادة بداية عصر النهضة قد انحسرت انحسارا شديدا بالمقارنة بالترجمة الأدبية وترجمة العلوم الإنسانية . ويرجع ذلك إلى أن دارسى العلوم المصريين بدأوا يدرسونها باللغة الانجليزية فى بعثاتهم ثم يدرسونها لطلبتهم بنفس اللغة عند عودتهم. فالطب درس بالانجليزية فى «مدرسة» قصر العينى أولا ، وظل الأمر كذلك حتى الآن . وحينما أنشئت الجامعة المصرية ثم الجامعات اللاحقة اعتمد الدارسون فى المجال العلمي بكل فروعه على اللغة الانجليزية (الهندسة ، الطبيعة ، الكيمياء ، الفلك ، الرياضة .... إلخ) ، وباستثناء كليات الزراعة التى أسهم أساتذتها بترجمة العلوم البيولوجية ومصطلحاتها إلى اللغة العربية فى جهود مشكورة، اعتمد الباحثون العلميون على المراجع باللغة الانجليزية ولم تمس الحاجة إلى ترجمات بالعربية (قارن بسوريا حيث تدرس العلوم باللغة العربية) . واقتصرت لذلك ترجمة العلوم على تبسيطات قليلة للقارئ العام ، مثل شروح



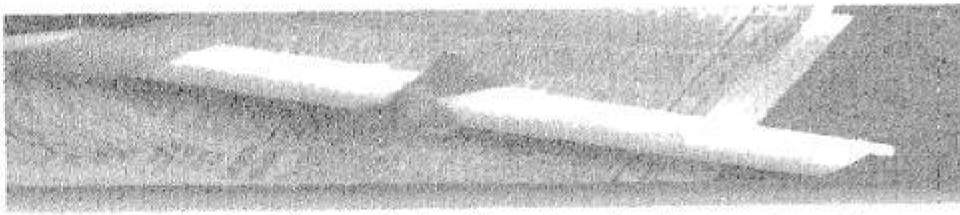
النظريات العلمية كالنسبية فى مجلة المقتطف قديما (الباب النسبية مبسطا لحنا خباز) وشرح نظرية دارون فى كتابات سلامة موسى .

ازدهار الترجمة فى الستينيات

ومن المفارقات أن الترجمات العلمية عرفت فى الستينيات من القرن العشرين ازدهارا مفاجئا على أيدى التبادل الثقافى بين الدولة المصرية والاتحاد السوفييتى السابق قامت المرحومة بنت الشاطئ فى كتاباتها بالأهرام بإبداء الإعجاب بها ، وحث المصريين على متابعتها . فقد انهالت ترجمات العلوم الطبيعية والرياضية (كتب فى بناء الذرة والأجسام الأولية ، وطبيعيات الكم والفلك والفضاء، ونظرية الاحتمالات والسبرنطيقا ...... إلخ) على القراء بمستويات مختلفة ، وكذلك معاجم الفروع التطبيقية من نسيج وسيارات وكيمياء وعمارة (من جانب ألمانيا الشرقية بمساعدة أساتذة مصريين) . ولكن الطلب على هذه الترجمات كان محدود النطاق ، فجمهورها الطبيعي لايستخدم اللغة العربية فى ممارساته النظرية والتطبيقية ، وستظل ترجمة العلوم محاصرة بنقص الطلب من جانب الذين يستطيعون استهلاك المراجع الأساسية الاستراتيجية. أما المثقف العام الجاد الذى يتطلع إلى الإلمام بالحد الأدنى من الانجازات العلمية فقد توجهت إليه جهود فردية رائعة فى الترجمة العلمية من أمثلتها المشرقة الدكتور أحمد مستجير والدكتور سمير حنا . وفضلا عن ذلك فإن فلسفة العلم تلقى احتفاء من جانب متخصصى الفلسفة اللامعين ، وهم يضطرون فى كتبهم المؤلفة إلى ترجمة وتلخيص الاتجاهات المختلفة التى يناقشونها ، (ابتداء من زكى نجيب وصلاح قنصوه إلى يمنى طريف الخولى) ، ولكن الانفصال الحاد فى مناهج التعليم العالى بين الدراسات العلمية والانسانية ، وعدم الاهتمام المتبادل بين المتخصصين فيهما ، يجعل دارسى العلم لا يعرفون إلا القليل عن الفلسفة ودارسى الفلسفة لا يعرفون إلا القليل عن العلم وجمهور فلسفة العلم حلقة ضيقة من ذوى الثقافة الرفيعة . وقد بدأ كثيرون محاولات الخروج من غرف التخصص الضيقة هذه مما سينعكس على ترجمات فلسفة العلم .

التوسع فى الترجمة الأدبية

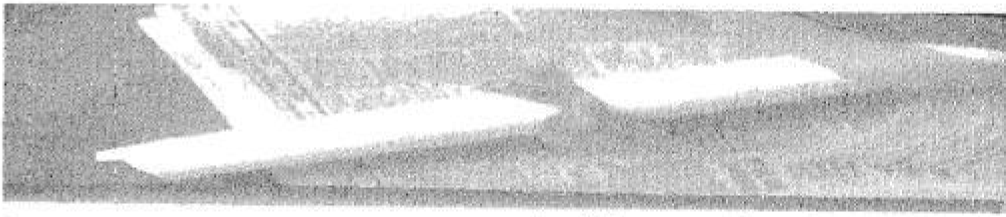
وإذا قارنا ذلك بالترجمة الأدبية وجدنا لها نطاقا أوسع . فمنذ بداية النضال من أجل الاستقلال صاحبت الدعوة إلى خلق أدب مصرى عصرى جهود لترجمة روائع منتقاة من الأدب العالمى لم تقف عند الأدباء الانجليز والفرنسيين . ففى أعقاب ثورة ١٩١٩ كانت المدرسة الحديثة فى القص تترجم أعمالا تتخطى حدود الرومانسية إلى الواقعية ، فترجمت «الفجر» قصصا لبلزاك وفلوبير و ديكنز وموباسان وزولا وأناتول فرانس. ويلاحظ الدارسون أنه



في العشرينيات من هذا القرن كتب رائد المدرسة الحديثة في القص أحمد خيرى سعيد (كانت تضم حسين فوزى وابراهيم المصرى ويحيى حقى ومحمود طاهر لاشين وغيرهم) عن حاجتنا لترجمة القصص الروسية والأدب الروسى لأننا بالروس أشبه الأمم (عام ١٩٢٠ في مجلة الشباب) . فهذا الأدب كما يقول أدباء تلك المدرسة يتناول القضايا الاجتماعية التى يعانى منها أبناء الشعب ، ويحلل النفس البشرية ذات المنازع المختلفة ، ويصور الحياة الإنسانية كما هي بآلامها وشرورها ويدعو للحرية في كل شئ . وترجمت الفجر أعمالا لجوجول وتورجنيف وتولستوى ودستويفسكي ولتشيخوف خاصة ، ولبوشكين وليرمنتوف وجوركى . وفي هذه الفترة قدمت جريدة وادى النيل بعض روائع الأدب الروسي مثل الأبله وأسير الأوهام لدستويفسكى ، وآنا كارنينا لتولستوى ، وليزا لتورجنيف وبعض قصص تشيخوف . كما ترجمت «البيان» ملكة الورق لبوشكين ورأس العائلة لتشيخوف . بل إن البلاغ الاسبوعية قدمت ترجمات كثيرة لأدباء روس . وترجم محمد السباعي لتشيخوف (هواجس الظلام) . وكتبت السياسة الاسبوعية جريدة الاحرار الدستوريين تحت عنوان الأدب الواقعي مديحا في الأدب الروسى ، فهو مع صدقه في وصف الحياة ، مثالى النزعة ذو فن وجلال : إنه يصف الحياة الاجتماعية ويعني بالفن ويعلو بالنفس ، ويبلغ الحماس مداه عند الكاتب فيقول إنما تولستوى وتورجنيف ودستويفسكى إلا أنبياء عندهم فن ولهم رسالة . لقد كان الأدب الروسي الكلاسيكي عند جميع الاتجاهات السياسية الوطنية نموذجا يحتذى لإنشاء أدب مصرى عصرى (في العشرينات من هذا القرن) لذلك توالت ترجماته (سيد حامد النساج - تطور فن القصة القصيرة في مصر من ١٩١٠ إلى ١٩٣٣) .

ترجمة روائع الأدب الروسى

وظل الاتجاه شطر الأدب الروسى الكلاسيكي ملمحا مهما لحركة الترجمة الأدبية في العقود التالية وخاصة في الفترة التي أعقبت ١٩٥٢ . وكان القطاف سهلا فقد دعم الاتحاد السوفييتي السابق في التبادل الثقافي مع مصر والبلاد العربية ترجمات غزيرة لروائع الأدب الروسى الكلاسيكي ، ولكن ترجمة الأعمال السوفييتية الدعائية الرديئة لم تلق رواجا أو ترحيبا ، ولكن أعمالا محدودة من روائع الأدب السوفييتي مثل الدون الهادئ لشولوخوف (جائزة نوبل) والهزيمة والحرس الفتى لفادييف ، والعاصفة وسقوط باريس وذوبان الثلوج لإيليا اهرنبورج عرفها القارئ العربي باعتبارها تصويرا لمقاومة شعبية حافلة بالتناقضات ضد الغزو والقهر والاستبداد . لقد كنا نرى من الآخر ما نحتاجه ، وكان استقباله دائما مشروطا بتهيؤ الأرض لذلك ، وكنا نعيد تفسيره وفقا



لمتطلباتنا . وكانت ترجمة أشعار ايفتشنكو السوفييتي التي لقيت ترحيبا جماهيريا عند إلقائها بواسطة ممثلين وممثلات ، تثير في معاداتها للستالينية عند المتلقين في مصر في ذلك الوقت أملا في المحافظة على «الاشتراكية» مع تطعيمها بالديمقراطية .

ولم تخضع الترجمة في مصر لخطة مركزية وكان الانجاز الرسمي جزءا من جهود متعددة الاتجاهات تنبثق من متطلبات موضوعية ، لقد قامت «دار الهلال» و«دار المعارف» ولجنة « التأليف والترجمة والنشر » بأدوار ضخمة في مجال التعريف بفروع متعددة من الثقافات العالمية . وكان أساتذة الكليات الجامعية (اللغات والدراسات الإنسانية) روادا طليعيين في انجازات الترجمة . لقد ترجم هؤلاء وفقا لتخصصاتهم دراسات نقدية وبحثية شديدة الاهمية . ففي مجال الفلسفة ترجم عبدالرحمن بدوي وزكي نجيب محمود وعثمان أمين وفؤاد زكريا وعبدالغفار مكاوي وعزت قرني وغيرهم أعمالا تمتد من الأصول اليونانية والهلنستية (محاورات افلاطون ، منطق وبويطيقا وخطابة ارسطو ، التساعية الرباعية لأفلوطين) إلى الفلسفة الحديثة (تاريخ الفلسفة الغربية لبرتراند رسل ، الوجود والعدم لسارتر ، المنطق نظرية البحث لجون ديوي) .

أما أقسام اللغات فقد عرفتنا أساتذتها بأصول المدارس النقدية الحديثة مترجمة إلى العربية (جابر عصفور ، محمد غنيمي هلال ، انجيل بطرس سمعان ، أمينة رشيد) وقد شارك الفيلسوف فؤاد زكريا بإسهامات كبيرة في مجالات النقد الفني المترجم ، كما ترجم هؤلاء الاساتذة أعمالا أدبية رائعة (سامية أسعد وترجماتها الشعرية عن الفرنسية وقبلها عبدالعزيز الأهواني ودون كيخوته) وفي خرق لنطاق المركزية الأوربية في الترجمة قدم الراحل العظيم د. ابراهيم الدسوقي شتا «مثنوي» مولانا جلال الدين الرومي عن الفارسية في المشروع القومي للترجمة . وما أقل ما ترجم مباشرة عن اللغات الصينية واليابانية واللغات الافريقية . لقد ترجم الكثير عن أدب امريكا اللاتينية المكتوب بلغتين أوربيتين للتشابه الواضح في الظروف . كما تشهد الترجمات من هذا الأدب عن الأسبانية ازدهارا كميا كبيرا يعاني بعضه من رداءة اللغة العربية . ومن ناحية أخرى اهتم الصينيون بأن يترجموا إلى العربية أعمال ماوتسي تونج السياسية والفلسفية ، ونظرياتهم السياسية ، والقليل جدا من الأعمال الأدبية (لوسون وكوموجو من الكلاسيك) . ولن تكون الترجمة من اللغات غير الأوربية مزدهرة إلا تحت إشراف مركزي يقدم المشروع القومي للترجمة نموذجا ناجحا له يلم شتات الجهود الفردية الضرورية . ■

الترجمة من العربية

هل تؤدي إلى انتشار الأدب العربي عالميا؟

بقلم
د. حامد أبو أحمد


أدوارد سعيد


ايهاب حسن

إن الكتب الكثيرة التي صدرت عن الترجمة بوصفها علما، خلال الفترة الأخيرة، قد توصلت إلي مسميات أو مصطلحات لكثير مما يجري علي ساحة الترجمة، ومن بين هذه المصطلحات مصطلح «الترجمة العكسية» ويختص بالترجمة من اللغة الأم إلي لغة أخري أجنبية، أي أن يقوم مترجم عربي - مثلا - بترجمة نص من العربية إلي الإنجليزية أو الفرنسية أو الإسبانية أو غير ذلك من لغات العالم وهذا النوع من الترجمة موجود عندنا الآن بكثرة، وبعض المشتغلين بالترجمة يطالبون بدعمه وتعميمه بحيث يغطي مساحة واسعة من الكتب المؤلفة باللغة العربية.

وقبل أن نتناول جدوى هذا النوع من الترجمة العكسية نريد أن نتوقف قليلا عند الترجمة بصفة عامة لنطرح سؤالا مهما هو : هل هناك نوع من التوازى أو التكافؤ بين مايترجم من لغات أجنبية إلى اللغة العربية، ومايترجم من اللغة العربية إلى لغات أجنبية؟ وللإجابة على هذا السؤال ينبغى أن نقوم أولا بعملية مسح، لاندعى أنها دقيقة بصورة مطلقة، ولكنها على الأقل يمكن أن تقدم صورة قريبة لواقع الحال .

وحدة الثقافة الانسانية

ومعروف أن الترجمة عندنا، فى العصر الحديث، بدأت منذ فترة طويلة، وإن كان لايهمنا هنا التوقف عند الجانب التاريخى، ومن ثم سوف نكتفى بالعقود الأخيرة، فقد تركزت الترجمات من اللغات الأجنبية الى اللغة العربية حول عدد محدود من اللغات، من أبرزها الإنجليزية والفرنسية، ولحقت بهما بعد ذلك الألمانية، والأسبانية، والروسية، ثم دخلت بعض لغات الشرق مثل الفارسية، والتركية، وأخيرا بدأ يتضح دور اللغات الأخرى، ومن ثم بدأنا نشهد ظهور ترجمات عن اليابانية والصينية من آسيا ، والسواحلية من افريقيا، وهذا إن دل فإنما يدل على أن ثمة اقتناعا يتزايد يوما بعد يوم بوحدة الثقافة الإنسانية ، وأن التركيز على لغة واحدة أو ثقافة وحيدة هو نوع من المركزية البغيضة التى أصبحت تحارب حتى من داخلها، أى من داخل التجمع العرقى لهذه المجموعة أو تلك، ومما يدل على ذلك تلك الكلمة التى ألقاها الروائى الأسبانى خوان جويتيسولو فى بروكسل فى ١٥ أكتوبر عام ١٩٨٥م عند تسلمه لجائزة الأدب الأوروبى التى تمنحها السوق الأوروبية المشتركة، إذ قال «لقد جعلنى اكتسابى لهذا الفضول الأوربى النهم أتحول شيئا فشيئا الى اسبانى من نمط آخر. صرت عاشقا لأشكال الحياة والثقافات والألسن الموجودة فى مناطق جغرافية بعيدة، ومحبا ليس فقط لكيفيدو وجونجورا، وستيرن، وفلوبير، ومالارميه وجيمس جويس، وإنما أيضا لابن عربى، وأبى نواس، وابن حزم، والمؤلف الفارسى - التركى مولانا جلال الدين الرومى» .

دعوة للاهتمام بكل اللغات

وكان الدكتور طه حسين فى كتابه المهم «مستقبل الثقافة فى مصر» قد طرح رؤيته فى الفصول الأخيرة «من ٣٢ إلى ٢٥»، حول كيفية التعامل مع اللغات والثقافات المختلفة، حيث رأى أن اللغات ليست مقصورة على الإنجليزية والفرنسية، كما أن العلم والفن والأدب والفلسفة وكل مواد الثقافة والمعرفة ليست مقصورة على الإنجليز والفرنسيين، وإنما هناك لغات أوربية حية ليست أقل رقيا وامتيازا من هاتين اللغتين، وهناك أمم أوربية راقية ليست أقل تفوقا وامتيازا فى الثقافة والمعرفة من هاتين الأمتين العظيمتين، ومن أقواله فى ذلك مانصه : «وما أعرف أن بيننا وبين هذين الشعبين الصديقين معاهدة تفرض علينا ألا نتعلم إلا لغتهما، وألا نستمد العلم والثقافة إلا منهما، بل الذى أعرفه أننا قد ألغينا الامتيازات، وأصبحنا أحرارا فى أشياء لم نكن أحرارا فيها قبل عام واحد .

وأظن أننا أحرار في أن نتعلم من اللغات الأوربية ماشاء، وأن نستمد العلم الأوربي والثقافة الأوربية من حيث شاء».

ومن هنا خصص طه حسين الفصل رقم ٣٤ للحديث عن أهمية اللغتين اليونانية واللاتينية . والآن نحن نهتم بكل لغات العالم غربية كانت أو شرقية وتفتح كل عام أقسام جديدة في كليات اللغات والترجمة، آخرها – حسبما أعلم – قسم اللغة الصينية ، وإن كان هذا القسم موجودا في كلية الألسن منذ فترة غير قليلة، وكذلك قسم اللغة اليابانية.

المشروع القومي للترجمة

وأخلص من كل هذا إلى القول بأننا أصبحنا نترجم من لغات متعددة إلى اللغة العربية، وأبرز دليل علي ذلك «المشروع القومي للترجمة» بالمجلس الأعلى للثقافة ، والذي صدر منه إلى الآن مايقرب من ثلاثمائة كتاب من أمهات الكتب العالمية، ولاشك أن كل بلدان العالم العربي تشهد حالة ازدهار للترجمة حيث تترجم الكتب من كل المجالات، ومن كثير من اللغات في العلوم والفلسفة، والأدب، والفن، وإن كان عدم التنسيق بين المراكز المتعددة للترجمة يؤدي في بعض الأحيان إلى ترجمة بعض الكتب أكثر من مرة في أكثر من مكان، وهذه المسألة في حد ذاتها لها جانب إيجابي وآخر سلبي : جانبها الايجابي يتمثل في أن بعض الترجمات قد تأتي رديئة ومن ثم يتاح للقارىء الاطلاع على أكثر من ترجمة، أما الجانب السلبي فهو أن مايبذل من جهد ومال في ذلك يمكن أن يستغل في عمل ترجمات أخرى. وعلى أية حال فإن وضع الترجمة الآن في العالم العربي. من لغات أجنبية إلى اللغة العربية ينطوي على نوع من الازدهار نتمنى أن يستمر، وأن تكون لدينا مؤسسات في الترجمة تتابع صدور أي جديد مهم لنقله فورا الى اللغة العربية، مثلما يحدث في كثير من بلدان العالم وخاصة في أوربا وأمريكا.

ونعود مرة أخرى إلى سؤالنا السابق، وفحواه: «هل مايترجم من اللغة العربية إلى لغات العالم يساوي أو يوازي مايترجم من اللغات الأخرى الى العربية؟»، ولاشك أن الاجابة، للوهلة الأولى، لابد أن تكون بالنفي، لأسباب كثيرة من بينها أننا في كثير من المجالات، مازلنا نعتمد على الثقافة الأجنبية وخاصة في العلوم : الكيمياء، والفيزياء، وعلوم الطب، والرياضة والاحصاء، والمعلوماتية، وغيرها، ومن هنا تعلو الأصوات الكثيرة بالرفض عندما يطالب البعض بتعريب العلوم في الكليات العلمية، مثل الطب ، والهندسة، والعلوم، والصيدلة، وسواها، والسبب الرئيسي الذي يستندون إليه في هذا الرفض هو أن التعريب سوف يؤدي إلى تعقيد المشكلة لا إلى حلها . وإن كانت سوريا قد خطت خطوة مهمة في هذا الصدد، لكن الجامعات العربية الأخرى مازالت تتهيب الإقدام على ذلك، أو لعل الأساتذة لم يصلوا بعد إلى حالة الاقتناع بهذه التجربة، وإذا انتقلنا الى مجالات العلوم الإنسانية والفنون والآداب نجد أن الخطوات التي خطوناها في هذه المجالات وأحرزنا فيها بعض التقدم تنحصر في حقول قليلة مثل الشعر، والرواية، والقصة القصيرة، والمسرح .

ثقافتنا ردت إلينا

وهذه بالتحديد هى الحقول التى تجذب انتباه الآخرين وتجعلهم يترجمون بعض إبداعاتها إلى لغاتهم، أما فيما يتعلق بالفلسفة، ونظريات الأدب، والثقافة بشكل عام، واللغويات ، والعلوم الإنسانية الجديدة مثل علم المعاجم، والأسلوبية، وعلم الدلالة، والسيميوطيقا وغيرها فنحن مازلنا نعتمد اعتمادا شبه كامل علي ما ينتجه الغرب، ولايمنع هذا محاولات العودة إلى التراث والاستفادة منه فى تناول هذا الموضوع أو ذاك ولكن كل هذه محاولات لم تصل بعد إلى مرحلة التأصيل الكامل، لأنها فى الأساس تضع العلم الأجنبى أساسا للمقارنة، أو قل إنها تتعامل مع التراث من خلاله فى محاولة للقول بأن تراثنا يشتمل علي جذور لكثير مما نراه متحققا الآن فى هذا العلم أو ذاك ، من العلوم الإنسانية الحديثة، ومن ثم فإن المترجم الغربى لن يكون مهتما بنقل مثل هذه الكتب الى لغته الأم، لأنها تدخل فى نطاق مايقال عنه«هذه ثقافتنا ردت إلينا» .

ولكننا فى هذا الصدد لاينبغى أن نغفل حقيقة واقعة الآن، وهى أن كثيرين من المثقفين من أصول عربية يسهمون بجهود فعالة داخل البلدان التى يعيشون فيها، فى فرنسا، وانجلترا، والولايات المتحدة الأمريكية وسواها، مثل إدوارد سعيد، وإيهاب حسن وغيرهما، لكن هؤلاء فى كل الأحوال ينسبون إلى الثقافات التى عاشوها، وتأثروا بها، وصاروا نتاجا لها، ولهذا فإنهم عندما يترجمون الى اللغة العربية يؤخذون دائما من هذا المنظور، وليس من منظور أصولهم العربية، لكنها على أية حال نقلة مهمة فى ثقافة مابعد الكولونيالية، أي الثقافة البينية، التى تقوم علي التعالق بين التخصصات المختلفة والثقافات المختلفة كذلك.

التوسع فى الترجمة

المحصلة النهائية، إذن، هى أن بعض الإنتاج الثقافي العربي بدأ يشق طريقه نحو الترجمة إلى لغات أجنبية، ولكن هذا الإنتاج – كما أسلفنا – يكاد ينحصر فى الإبداعات الأدبية : الشعر، والرواية، والقصة القصيرة، والمسرح، فقد ترجم عدد كبير من أعمال نجيب محفوظ إلى لغات متعددة، خاصة بعد حصوله على جائزة نوبل عام ١٩٨٨، وقبلها كان ماترجم له قليلا مقارنة بما حدث بعد ذلك، ومن قبل ترجمت بعض أعمال طه حسين، وتوفيق الحكيم وعدد آخر من الكتاب، لكن الترجمات قبل نوبل نجيب محفوظ كانت محصورة، إلى حد كبير، فى دوائر المتخصصين من المستشرقين وأساتذة اللغة العربية فى الجامعات الأجنبية، الآن حدث بعض التوسع فى الترجمة ، حيث دخلت أجيال جديدة من الستينيات والسبعينيات وحتى الأجيال الأخيرة، لكن مازال كل شيء فى إطار «المحدود» أما فى الشعر فقد ترجمت أعمال للبياتي، وأدونيس، وعبد الصبور، وخليل حاوى، وسواهم، إلا أن الملاحظ هو أن حركة الترجمة إلى اللغات الأجنبية لم تأخذ مثلا الشكل المتواصل الذى شهدته حركة الترجمة من أدب أمريكا اللاتينية. ولاشك أن هناك جملة أسباب

وراء ذلك، من بينهـا أن أدب أمـريكا اللاتينيـة مكتـوب بلغـة أوربيـة هى الاسبانية أو البرتغالية، والسبب الثانى أن حـركـة الأدب فى القـارة المذكـورة شهدت موجات متتالية من الأجيال التى كان لكل منها اسهاماته القوية فى حركة الثقافة العالمية، على حين أن الأدب عندنا مازال يشهد حالات انتكاس قوية تعوقه، فى بعض الأحيان، عن مسيرته الظافرة .. لكننا، على كل الأحـوال، نتـفق أو نتـمـاهى مع أمـريكا اللاتينيـة فى قلة اسـهـامـاتنا فى مـجـالات العلوم والتكنولوجـيـا ومن ثم فـإن دخـولنا ودخولهم حركة الثقافة العالمية يتم فقط من خـلال الآداب والفنون ويضـاف الى ذلك أن الاسـهـامـات النظرية فى كـلا الطرفين ضـعيفة، لكن يحسب لصالحنا دائمـا أننا بدأنا التـفـاعل مع العـالم وثقافاته بعد أن تخلصنا من آثار الفترة الاستـعـمارية الطويلة التى كانت تريد الحيلولة بيننا وبين الاسـهام فى عملية التطور العالمية الخلاقة.

ترجمة معكوسة وصياغة جديدة

ويبقى أن أشير إلى أننا حاولنا أن نعوض قلة المترجم من آدابنا إلى اللغات الأجنبية بقيامنا نحن بالترجمة، أى الترجمة المعكوسة التى عرضنا لمعناها فيما سبق، فقامت بعض الهيئات وبعض دور النشر بعمل مشاريع تقوم باختيار الكتب وترجمتها إلى اللغات العالمية المعروفة مثل الانجليزية أو الفرنسية ، وظهرت أيضا مبادرات فردية، ولكن لوحظ أن هذا النوع من الترجمة لم يحل المشكلة لأسباب كثيرة، من بينها أن الترجمة المعكوسة التى يقوم بها فرد أو أفراد انطلاقا من لغتهم الأم إلى لغة أجنبية تشتمل على أخطاء كثيرة، فضلا عن جفاف الأسلوب ، وبرودته، وعـدم اسـتكـمـاله للشـروط والمعـايير التى تجـعل القـارىء الأجنبى يهـتم به أو ينجـذب إليـه ، وهذا النوع من الترجمة يحتاج دائما إلى مراجع من أبناء اللغة المترجم اليها يقوم بتعديل الأسلوب أو صياغته من جديد إذا كانت هناك حاجة لذلك . ومعروف أن مصطفى لطفى المنفلوطى قد نسب إليه ترجمة عدد من الروايات مع أنه لم يكن يعـرف لغـة أجنبية، ولذلك كان المترجم الأساسى ينقل النص، ويعيد هو صياغته بأسلوب عربى رصين، ومن ثم حظيت ترجماته بشـهـرة فائقة وانتشار كبير ومازالت تحتل فى عقول الناس ووجداناتهم مكانة متميزة، وهذا يدل، بلا أدنى ريب، على أن الصياغة الأسلوبيـة مسـألة فى غـاية الأهمـيـة، والترجمة المعكوسة التى يقوم بها بعضنا الآن تفتقر افتقارا واضحا لهذه الصياغة، ولذلك تصدر هذه الكتب المترجمة لتوضع فى المخازن أو توزع مجانا على القراء فى الخارج، وهذا أمر يعكس مـقـدار عدم الاهتمام بها، المسألة إذن تحتاج إلى إعادة نظر فى ضوء المفاهيم الجديدة التى جاءت بها نظريات التـرجـمـة، وهذه النظريات تدرس الآن فى كليات اللغات بكل أنحاء العالم، ويعاد النظر فيها بين الحين والحين، باعتبارها داخلة فى سياقات علم حديث يراد له أن يأخـذ مـوقـعـه ضـمـن العلوم الجديدة التى تشعبت بصورة لا مثيل لها فى كل ثقافات العالم . ■

رجال لهم بصمات في الحياة


د. محجوب ثابت


يوسف بك نحاس


محمود أبو الوفا

بقلم
وديع فلسطين

في حياتنا الفكرية رجال كانت لهم بصمات واضحة في عصرهم، ولكن ذيول النسيان انسدلت عليهم فلم يعد يذكرهم أحد، اللهم إلا من يطاوعه صبره على التنبيش في الصحف القديمة عن آثارهم والأدوار التي اضطلعوا بها.

الدكتور محجوب ثابت

ومن الذين كانت لهم «شنّة ورنّة» في عصرهم الدكتور محجوب ثابت الذي مرت في شهر مايو الماضي ذكرى وفاته (في ٢١ مايو ١٩٤٥) وهو طبيب عرفته المحافل السياسية والأدبية في النصف الأول من القرن الماضي، ولعله صار اليوم مجهولا من جمهرة القراء.

رأيت الدكتور محجوب ثابت بشحمه ولحمه للمرة الأولى والأخيرة حوالي عام ١٩٤٠ عندما توجهت مع شقيقي الأكبر إلى كلية الهندسة بجامعة فؤاد الأول لمرافقة طالبين مستجدين أوصانا والدهما الموظف المصري في حكومة السودان تحت الحكم الثنائي المصري الانجليزي بأن نقوم لهما بدور «ولي الأمر» عند تقديم أوراقهما للتسجيل كطالبين في كلية

الهندسة ، نظرا لأن ظروف والدهما لم تسمح له بأن يقوم بهذه المهمة . وهذان الطالبان هما ماهر ونصرى عبدالنور اللذان أصبحا بعد ذلك من عمد صناعة السينما في مصر، فماهر هو مهندس الديكور الأول للأفلام ونصرى هو مهندس الصوت الأول الذى يعتمد عليه حتى محمد عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ فى ضبط تسجيلات الأغانى (رحمهما الله فقد توفيا من سنوات).

وعندما دخلنا القاعة الفسيحة فى كلية الهندسة، ألفيناها مكتظة بالطلاب المستجدين ويقف فى صدارتها طبيب الجامعة الدكتور محجوب ثابت بقامته الفارعة ولحيته المرسلة وعويناته التى تشبه «المونوكل» وقد ارتدى معطفا أبيض، ووضع السماع الطبى على أذنيه وغير بعيدة عنه منضدة عليها غليونه وكان محجوب ثابت يخاطب الطلبة باللغة العربية الفصحى فيناديهم واحدا واحدا قائلا:

«أقبل يا ولدى واكشف عن صدرك لأفحصك» ومتى اطمأن إلى سلامة قلبه قال له: قلبك سليم يا ولدى أنت مقبول» وكأنما كان يتعمد تكرار حرف القاف الذى كان ينطقه مفخما.

وبمجرد الانتهاء من فحص الطالبين اللذين جئنا من أجلهما والاطمئنان إلى قبولهما فى الكلية انصرفنا وكانت الصورة التى ارتسمت فى ذهنى عن محجوب ثابت أنه رجل مهيب الطلعة، يتسم بالوقار ولا يعرف الهزل، يؤدى واجبه الطبي بكل الحرص والأمانة وحسبك أن تعرف أنه أستاذ بكلية الطب يقف على قدم المساواة مع الأساتذة الأجانب ولهذا أدهشني أن اكتشف بعد ذلك أن الشعراء والصحفيين فى عصره كانوا يتلذذون بالتندر عليه والتفكه معه، ومحاولة إخراجه من هالة الوقار التى تحيط به ولعل الذى كان يغريهم بذلك هو أن محجوب ثابت كان يتردد على المقاهى التى يتصعلك فيها الأدباء والشعراء ورجال السياسة مثل بار اللواء أمام مبنى جريدة الأهرام القديم بشارع مظلوم باشا، ومثل مقهى «صولت» بشارع قصر النيل مكان عمارة وهبة الآن، وغيرهما من المقاهى التى كانت منتشرة فى القاهرة مثل «اسبلنددبار» و«الباريزيانا» «والسالوى» وما إليها ولعل من أسباب «التحرش» بمحجوب ثابت أنه كان يقتني عربة حنطور يجرها حصان اسمه «مكسويني» يتنقل بها فى أنحاء القاهرة بين كلية الطب وعيادته ومقاهى السهر والمزاج ولكن لعل أقذع دعابة تعرض لها محجوب ثابت على يدى الشاعر أحمد شوقى هى إتهامه بأنه مهوى للبراغيث وفى هذا قال أمير الشعراء:

براغيث محجوب لم أنسها
ولم أنس ما طعمت من دمى
تشق خراطيمها جوربى

رحلة
[illegible]
في الحياة

وتنفـــذ في اللحم والأعظم
وكنت إذا الصيف راح احتجمت
فـجـاء الخـريف فلم أحـتجم
ترحب بالضـيف فـوق الطريق
فـبـاب العـيـادة فـالسلم
قـد انتشـرت جـوقـة جـوقـة
كـمـا رشت الأرض بالسـمسم
وترقص رقص المواسي الحـداد
على الجلد، والعلق الأسـحم
بواكـيـر تطلع قـبل الشـتـاء
وتـرفـع ألـويـة المـوسـم
إذا مـا ابن سـينا رمى بلغـمـا
رأيت البـراغـيـث في البلغم
وتبـصـرها حـول «بيبـا» الرئيس
وفي شـاربيـه وحـول الفم
وبين حـفـائر أسنانه
مع السـوس في طلب المطعم!
ولأن الرئيس ابن سينا كان طبيبا،
فقد أطلق شوقي على محجوب ثابت
اسمه أما «البيبا» فهي البايب أو
الغليون.

الدكتور يوسف نحاس بك

اكتشفت جريدة «الأهرام» وهي
تحتفل بمرور ١٢٥ عاما على إصدارها
أنها انفردت ربما على مدى تاريخها
الطويل بتخصيص افتتاحيتها في يوم
السبت ٢٧ مارس ١٩٢٦ لعرض كتاب
جديد صدر وقتها عنوانه «الفلاح» عرضته
على ثلاثة أعمدة كاملة في صفحتها
الأولى. أما مؤلف الكتاب فهو الدكتور
يوسف نحاس بك العالم الاقتصادي
والخبير المتخصص في شئون القطن،
وأما ناشر الكتاب فهو شاعر الأقطار
العربية خليل مطران بك، وأما صاحب
المقدمة فهو قاضي القضاة عبدالعزيز
فهمي باشا. وهذا الكتاب هو أصلا
أطروحة دكتوراه كتبها الدكتور نحاس
باللغة الفرنسية ونشرها بنصها الفرنسي
في باريس في عام ١٩٠١ أي أن الطبعة
العربية ظهرت بعد ربع قرن من ظهور
النص الفرنسي.

والدكتور يوسف نحاس بك مصري
من أصل سوري، فقد نزح والده فتح الله
نحاس بك من حلب إلى مصر واشتغل
بالزراعة وعنه تخصص ابنه في زراعة
القطن حتى صار من أكبر المتعاملين مع
بورصة عقود القطن في الاسكندرية كما
صار فقيها في كل ما يتعلق بالقطن
المصري زراعة وتجارة وآفات وبذورا
وأسواقا، وهو ما سجله في كتابه الضخم
«القطن في خمسين عاما».. الذي كان لي
شرف تجميع مادته من مقالاته المنشورة
في الصحف على مدى نصف قرن.

والصداقة التي جمعت بين يوسف
نحاس بك، والشاعر خليل مطران بك قد

اتخذت مظاهر عدة حيث اشتركا معا فى ترجمة كتاب «الأحوال الزراعية فى القطر المصرى أثناء حملة نابليون بونابرت» لمؤلفه ب.س. جيرار، وقد قدم للترجمة العربية الأمير عمر طوسون رئيس الجمعية الزراعية الملكية وفؤاد أباظة باشا المدير العام للجمعية، وقد نشرت الطبعة العربية عام ١٩٤٢ . كما اشترك نحاس بك ومطران بك في القيام برحلة إلى السودان عام ١٩٤٥ فاحتفى بهما أدباء السودان واقتصاديوه وامتلأت الصحف السودانية بأحاديث معهما وبمحاورات شعرية مع مطران وقد قمت بجمع آثار هذه الحفاوة من الصحف السودانية فى كتاب عنوانه «ذكريات السودان» صدر بمقدمة لى فى عام ١٩٥٥.

وعندما تخلى مطران بك عن عمله مديرا لفرقة التمثيل القومية اختاره الدكتور نحاس بك سكرتيرا عاما للنقابة الزراعية العامة وهى جمعية أنشأها مع مجموعة من رجال الاقتصاد، وذلك لتوفير راتب شهرى لمطران بك يكفل له الحياة الكريمة، ولم يكن يطلب من الشاعر التردد على مقر النقابة فى شارع عبدالخالق ثروت ولا كان مطلوبا منه مزاولة أى عمل فيها.

وللدكتور يوسف نحاس بك مشاركة عملية فى الحياة السياسية المصرية سجل تفاصيلها فى كتابين عنوان أولهما «ذكريات سعد - عبدالعزيز - ماهر ورفاقه فى ثورة ١٩١٩» وعنوان الثانى «صفحة من تاريخ مصر السياسى الحديث : مفاوضات عدلى - كيرزون» .كما نشر الدكتور نحاس بك كتيبا عنوانه «حالتنا المالية والاقتصادية ١٩١١ - ١٩٤٣» وكتيبا باللغة الفرنسية عن زراعة التبغ فى مصر.

وكان الدكتور نحاس بك متزوجا من كريمة يوسف سابا باشا مدير البريد ووزير المالية الأسبق الذى أطلق أسمه على حى «سابا باشا» بالاسكندرية.

وجاءت وفاته فى عام ١٩٥٥ أثر إصابته باللوكيميا - أو سرطان الدم.

الشاعر محمود أبو الوفا

على مدى سنوات طويلة عرفت الشاعر البائس «محمود أبو الوفا» وكنت من أصدقائه المقربين الذين يقفون على أخص دخائله . وبرغم موهبته الشعرية الفريدة فهو لم يظفر بأى شهادة تكون رخصته فى سوق العمل ولهذا عانى فى حياته كثيرا بسبب افتقاره إلى المؤهلات ثم بسبب ساقه المبتورة منذ صباه الباكر غير أن بعض الغيارى كانوا يسعون لدى المسئولين لاستثناء أبى الوفا من شروط الاستخدام . وهو أمر كان يحتاج إلى قرار من مجلس الوزراء فإذا استقالت الوزارة أو أقيلت، جاءت بعدها وزارة جديدة استفتحت أعمالها بإلغاء جميع الاستثناءات التى قررتها الوزارة السابقة ومن جملتها الاستثناء الخاص بأبى

الوفا، فيجد نفسه في الشارع وهو أمر تكرر معه مما أورثه اعتقادا بأن هناك نحسا يطارده وقد عبر عن ذلك بقوله:

لو خلعت الثوب أبغي غسله
أقسمت شمس الضحى لم تطلع
لو طلبت النهر أروى ظمأ
لاشتكى النهر جفاف المنبع
ولو أني تلمس التبر يدي
حول التبر ترابا إصبعي

وفي محاولة يائسة لتقرير معاش استثنائي لأبي الوفا، توافقت مع صديقي الأديب حليم متري على أن يتحدث في هذا الأمر مع صديقه يوسف السباعي أركان حرب المجتمع الثقافي في حين اخترت أن أوجه ثلاث رسائل مختلفة الصياغة وبإمضاءات مستعارة إلى ثلاثة من كتاب الأعمدة في الصحف راجيا إياهم أن يتبنوا قضية منح معاش استثنائي للشاعر فاستجاب للدعوة محمد زكي عبدالقادر في عموده «نحو النور» ، وكذلك إبراهيم نوار في جريدة الجمهورية أما أحمد الصاوي محمد صاحب «ماقل ودل» فقد أهمل الرسالة وأخبرني حليم متري أن يوسف السباعي وعده بتكريم أبي الوفا في عيد العلم فانتظرنا عيد العلم واستمعنا إلى أسماء المكرمين، وكان حظ أبي الوفا ميدالية تعلق على الصدر!

وتعبيرا عن شعوري بخيبة الأمل تلقاء هذه الحال، كتبت إلى صديقي الشاعر المهجري جورج صيدح المقيم في باريس أصور له هذه المفارقة المدهشة فما كان منه إلا أن وافاني بالأبيات التالية:

أرأيت كيف المجد بالشعر احتفى
وأتاك بالنيشان ينسيك الجفا
جاء الدعي، فراح يبسط كفه
ورأى الشقي، فردها نحو القفا
أيكون مجدك صنو دهرك في الأذى
إن من ضن، وإن تجنى أسرفا
شرف الوسام لمن يبيت على الطوى
«صحن المدمس» كان منه أشرفا
وأخجله النيل الجزيل وفاؤه
إن لم يذق طعم الوفاء (أبو الوفا)

الشاعرة نازك الملائكة

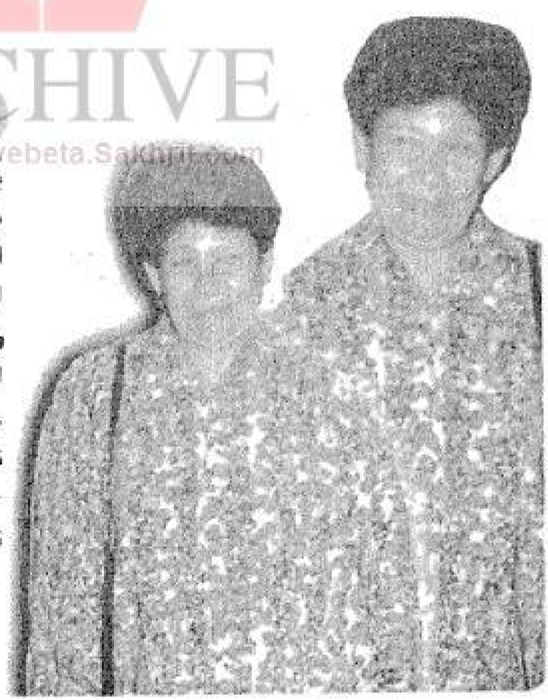
في المغرب جمعية اسمها «جمعية المبدعين الشباب بطنجة» وهي تقيم في كل عام مسابقة بين الشعراء باللغات العربية والفرنسية والأسبانية وتختار في كل عام اسم شاعر مرموق تطلقه على دورة المسابقة . وفي العام الحالي اختارت الجمعية اسم الشاعرة العراقية الكبيرة نازك الملائكة شفاها الله وعافاها – لإطلاقه على الدورة الجديدة تكريما لها على دورها الريادي في الحياة الأدبية بعامة وفي الشعر بخاصة. ■

البحر عشقي وكنزي وسري

فوزية مهران

ولدت فى الاسكندرية ..
أقمت لى مكانا على الماء فى تلك البقعة المباركة داخل لحظة عناق بين النيل والبحر المتوسط.
أعلى صخرة ممتدة فى قلب الماء – على اللسان الحجرى المتكسر فى رأس البر.
يلهمنى البحر كثيرا – يعلمنى إقامة الكلمات .. يشعرنى بوسع وامتلاء – أتوحد مع الوجود – مجرد قطرة ماء تسرى وتذوب ثم تعود لتبعث من جديد .

كنت كمن يتعلم الأسماء – أسمع أصواتا – يسرى بى على متن الأشواق. مثلث سحرى – صوت الأرض وصخب البحر وجريان النيل – تعلمت الصمت العميق .. تعودت التأمل والنظر فى الأعماق – تدربت على المواجهة – الفكرة الأولى للكتابة جاءت من هنا. فيض محبة ورؤى نضيرة – أريد لأنثرها بين الناس – أضعها بين أيديهم وقلوبهم – لا تكتمل المتعة إلاّ بهم.



ودائما أحلم - انتظر يوما ينشق الأفق وتبرز سفينة بيضاء عليها فارس جميل يحملني معه - أدور بين مدن العالم وموانيه أعيش معاناة الناس وحكاياتهم .. أعود لأحكيها مرة أخرى ليعرفها الناس - منهم وإليهم دائما - تلك هي قدسية الحركة - وسر الماء.

الكتابة حياتي

أعرف - الكتابة حياتي ومهمتي.

وسيلتي للحرية.. للنضج - للتعبير عن ذاتي والناس جميعا. كتابة جديدة مدادها - الماء الحي - وتسرى بمتعة الكشف والمعرفة.

كأنما كنت أقرأ صفحات حياتي فوق الماء - كتبت بعضا من أفكارى ومشاعرى - لا أعرف لم أسميتها «ترينمة السعادة» - كنت في الخامسة عشرة من عمرى - أرسلتها إلى كاتبي المفضل - سعد مكاوى - بجريدة المصرى.

فوجئت بها منشورة وسط الصفحة الأخيرة وصورة فتاة على البحر. ها قد صدق الوعد - ونذرت نفسي للمهمة.

ويوما انشق الأفق عن سفينة بيضاء - حملتني بين الموانىء والفنارات - ربانها فارس فلاح - وكانت قصة الحب والزواج - الرحلة التى ألهمت حياتي وأثمرت «حديقة البنات» وعشرات القصص والروايات.

- لم يكن الأمر من قبيل الصدفة - جمال الطبيعة وجلال الخلق لايمكن مرده إلى الصدفة - ولكنى أؤمن بمقولة «باستير» «الصدفة تختار العقل المهيىء لها».

إقرأ - كانت الحركة الأولى لإيقاع الحياة في بيتنا. وصوت أبي في الفجر يرتل القرآن «إن قرآن الفجر كان مشهودا» كنت أتعجل أن أكبر بسرعة لأسمع صوت نفسى بالترتيل الجميل.

وتسرى «الكلمات» داخلنا فاذا بموجات من الطمأنينة والثقة وإشراقة يوم جديد.

وظل هذا تقليدا جميلا يعيننى على الحياة - فحتى لو بتنا على هم ثقيل - عاهدت نفسى أن أكون «جديدة» في الصباح..

أفكر في شيء جديد - والرؤية الجديدة تخلق حلولاً جديدة وإبداعا جميلا.

المكتبة ودور عظيم

المكتبة ركن أساسى في بيتنا الصغير - الكتب تتزايد والرفوف تعلو وتزدهر.

«ميراث العلم هو خير زاد» - هكذا يؤمن أبي - قد يترك الناس لذويهم مالاً أو أرضاً أو عقاراً - ذلك يمكن أن يفنى ويزول - ولكن العلم يبقى معك دائما - لا أحد يستطيع أن يسلبه منك. «تلك فلسفته في الحياة».

الكتب هى أثمن ما لدينا - وحتى الآن - إنهم أصدقاء أحياء نتصل بهم ونعرف عنهم ونعيد صياغة أسلوب الحياة. تعلمت الحروف والكلمات مبكرا.

بدأت أمر بإصبعى على الحروف الكبيرة

التكوين

في مانشيت الصحف - كأنما أكتشف مفاتيح الكلمات - استوعبت بعض الحروف بسرعة - عندما اكتشف أبي لعبتي - خرج على طريقته التقليدية في التعليم وأخذ ينطق لي الكلمات. «وكان تدريباً أوليا على السياسة والاهتمام بأحوال الناس».

تعودت على التفكير والربط بين الأشياء - والاستنتاج.

مدرسة اللوزي الابتدائية بدمياط كانت مدرستي الأولى .. قصر جميل تحيط به حديقة - فناء رخامي ونافورة رقراقة الفصول بالدور الثاني ويحيط بها ممر تعلو فوقه المشربيات.

كنت أعيش عالما من الأساطير والحكايات.. حتى الطريق إليها تخيم على جانبيه أشجار التمرحنة - ومازلت أتنفس تلك الرائحة الناعمة. وكنت أتنسم التاريخ - قيل لنا إن تجار الحرير من الشام يأتون سراي اللوزي بك للاتجار زمان.

وننطلق مع الخيال والمغامرات خصوصا ذلك البدرون الغامض المغلق.

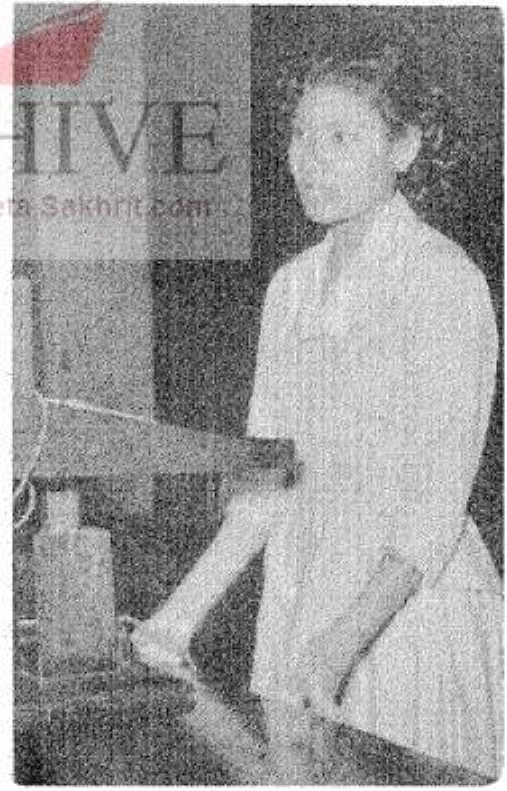
ودائما الأماكن التي تجسد التاريخ تؤثر فيَّ - أسمع مسيرة الزمان على أرض الوطن - وأناس يسيرون بين حنايا الأرض يحملون أفكارا وأحلاما.

أستاذ اللغة العربية «الأستاذ بدوي» كان يشجعنا على القراءة ويقيم لنا المسابقات الأدبية ونفوز بحمل ثمين من الكتب - فزت بجائزة كتاب «الأيام» لطه حسين ..

وأصبح «طه حسين» رمزا للتعليم ولقوة الارادة.. ولقدرة الإنسان أن يغير من ظروفه.

أؤمن منذ البداية أن التعليم يمكن أن يحدث تطورا في حياة الناس ويضفي رقيا على أسلوب عيشهم - ارتبط التعليم عندي بالحرية بالقدرة على التواصل والفهم والتسامح والحوار.

في الجامعة الامريكية ١٩٥٢/٤/٢٥





فى اتحاد الكتاب .. بناتى والكاتب القصصى فهمى حسين

انتقلنا إلى المنصورة للالتحاق بمدرسة المنصورة الثانوية. أيضا قصر فسيح فى حى توريل الراقى.

مساكين طلبة ومدارس هذه الأيام - بنايات خرسانية صماء عارية من الجمال.

عشت مع الروايات أوقاتا طويلة إنها بمثابة حياة ثانية لى - قرأت المنفلوطى «العبرات والزفرات» . وبول وفيرجينى وبكيت طويلا مع آلام الحب والفراق.

أهتم كثيرا بالروايات وفى كل الآداب - نتعلم منها الكثير وتعطى انطباعا عن الحياة وخبرات كثيرة - ناقد روسى قال لى - عندما نريد أن نعرف شعبا على حقيقته نقرأ رواياته.

وأذ لما قعلته بنا قصص جورجى زيدان التاريخية .. تعلمنا التاريخ منها . وزينب لهيكل - أعرف ستكون لى قصتى يوما ما - «الفن وليد التجربة» أقبلت على الشعر المتنبى وشوقى - حافظ إبراهيم - أثر فى محمد اقبال - وطاغور (تلك الروح الشفيفة التى تتوحد مع الطبيعة) ومعه تعرف وحدة الفنون . أعجبنى أسلوب توفيق الحكيم أمى كانت جامعة شعبية - تحفظ أمثلة كثيرة - أى شىء يقع له مثل عندها ومطابق تماما. وتملك تراثا من الحكايات الشعبية - تعلقت بحكاياتها وطريقتها فى الرد كانت تمثل لى الدهشة الأولى - كنا نخاف والدى يؤمن بالثقافة الرفيعة. ويخشى علينا من تلك الخرافات الغريبة -

ويحرم عليها أن تنطق بأى من الأمثال أمامنا - لكنها لا تستطيع وتفعل لو همساً .

أنا والتناقض

اعتقد أننى تمكنت من حل مشكلة التناقض بينهما وجمعت بين الجانبين .

أمى كانت تدهشنى - كيف جمعت كنزها الثمين من الأمثال والحكايات - ولماذا يفرض عليها أبى الصمت .

«وأحسست أن أوضاعا جائرة تتعرض لها النساء، وأحسست أننى يجب أن أحمى أمى - وعندما أكبر أدافع عنها وحقها فى التعبير - وأعلن بقوة أننى تأثرت بعالمها كثيرا» .

كانت بارعة فى أشغال الابرة والكروشيه - وطالما حلمت بالملائكة المعلقة على الستائر - أى قطعة قماش بسيطة يمكن أن تحيلها إلى مفرش ثمين - كانت تحفظ أغانى سيد درويش والأدوار القديمة..

كان صوتها رحيما - تغنى لنفسها وتلزم الصمت فى حضور أبى، وفى ندوة فى الأوبرا لاحياء مولد سيد درويش - كنت أحيى ذكراها - قلت إن ألحانه عمقت جذورنا الموسيقية .

ويبدو أن أمى كانت تتهدهدنى: «م النيل أمبوه - حبوه حبه يانونو بالأكتر من بابا وماما والسكر» . ونطقتها ملحنة .. وكانت لحظة مليئة بالحب وروح الفناء .

كان ارتباطى بالثقافة الجماهيرية ربما تحية لها ومسيرة على دربها وتوسعا فى الرسالة .

«غرس الثقافة فى القرى والمدن - وجعل الثقافة عملية متبادلة - نأخذ عنهم ثم نعيد فنهم إليهم - عملية إيقاظ الوعى وتفتح عقول الناس - وتفعيل الحركة باتجاه التقدم والتغير. تجعل من الكتابة عملا مناضلا .



مع نهاد صليحه فى لجنة تحكيم مسرح الاقاليم

هذا الانتماء كان بمثابة «المسيرة الطويلة» في حياتي والرحلة العملية الحقيقية.

وصلت إلى عمق حنايا الوطن وسط القرى والفلاحين عرفت أهلي وناسي وأحسست بنبضهم بآلامهم - شاهدت المواهب الخصبة - وآمنت بمستقبل الثقافة.

أضفت النقد كنوع مهم وحيوي للكتابة .. كنا نقدم لهم مسرحا - ومن أمتع لحظات الحياة والعمل - أن تناقش فلاحين عن المسرحية وتستمع لملاحظاتهم التلقائية وتتعلم منهم كثيرا.

حكاية مع روز اليوسف..

كان أبي وفديا عريقا - وتبينت أنا وصديقتي «دعد» أن مجلة روز اليوسف تحمل أفكارا جديدة وتتحدث بأسلوب قريب منا - وأن السياسة فيها تدفع باتجاه تقدمي ولا تكرس الوضع القائم. كنا نعيش عصرا عاصفا: وفورانا جماهيريا أضد الاحتلال الانجليزي وضد أحوال المعيشة السيئة في نهاية الأربعينات.

اتفقنا أن نشتريها بمصروفنا الخاص

- الثمن : ثلاثة قروش!

اكتشفها أبي - وغضب غضبا شديدا

- اعتبر الأمر نوعا من الخروج عن طاعته ومن العصيان المدني. فالمجلة تهاجم الوفد والزعيم النحاس باشا.

وفي النهاية استطعت أن أنطق بصوت دامغ .

- أنا اقرأ لأعرف.

وكانت هناك ميزة عظيمة في ذلك الصعيدي المستبد - أنه يقتنع إذا ما قدمت له دليلاً عقلياً أو برهاناً.. ومن يومها وروز اليوسف تتصدر قائمة المجلات.

تذكرت أن الدراسة الثانوية كانت ست سنوات للبنات مقابل خمسة للبنين! (بعض أصحاب العقليات الجامدة أشار بأن قدرة البنات على التحصيل أقل !).

مثل هذا التمييز العنصري كان يشعل الرغبة والتمرد داخلنا. وبدأنا ندرك مدى الظلم الواقع على البسطاء والنساء. ولابد من حسن الاستعداد للكفاح المستمر.

الدائرة الحمراء

كنا ندرس الثورة الفرنسية في التوجيهية كان مدرس التاريخ «الاستاذ رشوان سيد أحمد» مشهوداً له بسعة الاطلاع وقوة الاقناع. بدأ منهج التاريخ برسم دائرة حمراء على السبورة وفي قلبها كلمة «الحرية» يقول : الرؤية الحقيقية لأحداث التاريخ أن ندرسها من خلال تقدمها نحو الحرية أو تراجعها عنها.

الحرية : هي التي تقرر قوانين الحركة في الحياة والتاريخ.

عمقت دراسة الثورة الفرنسية رؤيتنا للتاريخ والواقع.

رتب هذا المعلم الجليل خريطة تفكيرنا وبعث التناسق إلى عملية التفكير. جعلنا ننفذ خلال التاريخ والأحداث برؤية مبصرة



مع أمينة السعيد ويوسف ادريس في الأوبرا - مايو ١٩٩٠

- ونشهد غاية الإنسان ومقياس الأعمال الفردية والجماعية.

استمر حلم التغيير - حلم الثورة - ومبادىء الثورة الفرنسية فقط دون صراع دموي ولا جلوتين.

نحن جيل ارتبطت الثقافة لديه بالسياسة - الاهتمام بأحوال الناس والرغبة في حياة أفضل لشعب مصر.

(لم نعرف لنا تاريخا منفصلا - جرى علينا كل ما وقع بأرض الوطن. تتلون لحظاتنا الخاصة بأحداث الوطن - والسعادة لدينا تعني سعادة الجميع). إن أعظم الاكتشافات العلمية في هذه الفترة في صدر الشباب كتاب أرسطو ونظريته عن السعادة السياسية.

تقدمت لسابقة الفلسفة وبحثنا عن المرجع الثمين حتى عثرنا عليه في مكتبة بلدية المنصورة - وهذا دور يذكر للمكتبات العامة الخلاصة : أن السياسة غايتها توفير أسباب العيش النبيل للناس . تنقية المجتمع من الأنانية والاستغلال والاستبداد واحترام حرية التعبير وحق العمل والتقدم .

قبة الجامعة كان رمزا عاليا لطريق التقدم كانت الأيام تموج بالصراع والمظاهرات على أشدها - والأحزاب يرهقها التنافس على السلطة - كانت البلاد في حالة مخاض.

في الجامعة أقمت «ببيت الطالبات» - فرحت بوجودي في الجامعة والقاهرة .



مع وزيرة الثقافة نجاح العطار فى أحد مهرجانات دمشق المسرحية ـ ١٩٨٧

أتولى تسيير دفة مستقبلى – وبدأت القراءة التأسيسية.

منذ اللحظة الأولى أحسست أننى سأقوم بالكتابة عن هذه الحياة الجديدة. بنات يأتين إلى الجامعة من كل حنايا مصر – من كل الطبقات بهدف العلم والمعرفة وتحسين المستقبل.

تجربة حقيقية ومثيرة – أحسست أنى داخل لحظة التحول ذاتها والمشاركة فى إقامة حياة جديدة وبدء الانتقال من الحلم إلى العمل.

الحقيقة أن الدراسة بكلية الآداب – قسم اللغة الانجليزية ممتعة – اللغة تجعل الإنسان يتفتح على آداب وفنون العالم – ويعرف حقيقة ما يجرى حوله من أحداث والجديد فى الفكر والعلم والمذاهب.

يزداد الشعور بالحرية – والمسئولية.

وقامت الثورة

إحساس طبيعى أن نعتبر أنفسنا جنودا للثورة – الحلم يتحول إلى حقيقة أمام أعيننا.

قرب نهاية المرحلة الجامعية وجدت إعلانا فى روز اليوسف – عرفت منه أن الدار فى سبيلها لاصدار مجلة جديدة «صباح الخير».

«هذه لى .. أعدت من أجلى – حبى لروز اليوسف وكتيبة الكتاب المجاهدين فيها قد تبلور فى صورة خلق جديد – هى وجهتى إذن ومناط عملى» أنتمى إليهم – تعجبنى حكمة أحمد بهاء الدين – أسلوبه

الشيق النافذ - مناورات صلاح حافظ وبابه المبهر «انتصار الحياة» - وإحسان الكاتب العنيف الرقيق الذي مهد للثورة بحق..

ومقالاته النارية عن الفساد - عن الأسلحة الفاسدة - كانت عزما وقوة، فوق كل ذلك كان يعجبني تحرره واستقلاله.

يقول دائما : «لست في خدمة أحد - ولا أعبر عن رأى أحد - ولكن دائما كاتب حر في رأيه».

وأنا قد عثرت على أيقونة حية في تاريخ الحضارة القديم حيث أعلن الحكيم آنى - «أن لاسيد للكاتب سوى مهمته».

أول بيت لى في العاصمة «بيت الطالبات» - وأول دار للكتابة «دار روز اليوسف».

قدمنى بهاء للسيدة روز اليوسف - سيدة أمة - العنيدة الجميلة.. تألقت على المسرح ونقلت مسرحها إلى الصحافة - أقامت مجلتها على «النقد» - على «المعارضة» - على الرؤية الناقدة الواعية.

جعلت من مجلتها مسرحا للتقدم والتغيير.

ظللنا شهورا طويلة نعمل ونستعد - نتخيل حجم المجلة - أبوابها.. هدفها .

(أجمل متعة في الحياة أن يحب الإنسان ما يعمله) وما أحلى العمل مع الكبار.

حركة الحياة دافقة داخل روز اليوسف - مجموعة الكتاب والفنانين - أصدقاء الدار من المواهب الجديدة - قادة الاشتراكيين وأقطاب الحركة الماركسية - بوتقة - تحوى ثقافة التنوع وتثرى الحياة والفكر. مركز للحركة الثقافية والجدل السياسي والابداع الفني.

مولد مجلة

سيظل اليوم الخامس من يناير ١٩٥٦ - يوما مجيدا في حياتي ونقطة تحول عميقة.

مجلة جديدة في بداية الثورة - يعني منارة عالية وجامعة ومسرح جديد .

(بعد شهور من العمل المضني اللذيذ - نسهر للفجر - نجوب الشوارع - نذهب إلى ميدان المحطة - نقبل العدد الجديد - الأول - من صباح الخير).

أحمد بهاء الدين كان مايسترو الفريق الفني - يدرك أن مجلة جديدة يعني رؤية جديدة وأن لابد من فكرة أساسية وهدف تنطلق إليه - وعندما رفع شعار (للقلوب الشابة والعقول المتحررة) لم يكن مجرد شعار..

كانت النغمة الرئيسية التي يدور عليه العزف - يضعها بهاء ببساطة: تحقيق



عشت عشرين يوماً آكل الموز.. أثناء مؤتمر المرأة العالمى فى الصين- سبتمبر ١٩٩٥

أسلوب التقدم لأسلوب الحياة - وخلق مجتمع جديد - تطبيق أهداف الثورة على أسلوب الحياة الاجتماعية.

(كانت بمثابة انتفاضة ثورية تعيد صياغة السلوك الاجتماعى ودائرة العمل)

- تفاعل مجموعة من الطاقات فى سياق عملية خلق مشترك.

وكأننا فى مهمة مقدسة هو شد سفينة البلاد إلى أمام وحماية الثورة.

كنا أبناءها - وتعذبنا بالخلاف معها - وزج بالكثيرين إلى المعتقل .. - وأن تنضم لكتيبة روز اليوسف المناضلة - معناه أنه قد كتب عليك النضال ومكتوب من أجلك العشق والمعاناة.

بيت الطالبات

أول مجموعة قصصية لى «بيت الطالبات» نشرت فى الكتاب الذهبى عام ١٩٦١.

(أردت أن أقول خلالها إن القيادة بالحب والتفاهم أفضل من القسوة والقهر وفرض الرأى بالقوة).

من أجمل ما قيل عن الكتاب بعد إعادة طبعه فى مكتبة الأسرة - بعد مضى أربعين عاما على نشره : قالت الناقدة د. نهاد صليحة:

«أرادت المشرفة أن تجعل من بيت الطالبات سجنا وهي سجانته . والمديرة الفرنسية جيتا - ارادته ديرا ومنزلا روحيا ورهبانية متفتحة. والكاتبة تراه بناء جديدا تتدرب فيه البنات على أسلوب تقدمي للحياة والمشاركة في أعمال التقدم والبناء».

في الحقيقة كنت أناقش مشكلة الحكم - لم يكن حلمنا بالثورة رومانسيا - لكنا نسعى وراء تغيير حقيقي - ونحقق حياة أفضل لشعب مصر - هذا هو الحلم والهدف.

كانت الهزيمة مزلزلة - تركت جرحا غائرا مازال ينغز علينا في كل الأزمات والمحن.

صديق فنان قال «كنا ننام ووجوهنا إلى الحائط - أحسسنا بعمق الطعنة وجرح رجولتنا - وتكشفت المأساة عن أوضاع أكثر إيلاما.

يستطرد الفنان التشكيلي مفردات اللوحة. يشير إلى موقف المرأة المصرية وحنانها وصبرها والأمومة الفياضة ساندت رجلها وجاهدت حتى بعث الروح من جديد.

كتبت رواية «جياد البحر» حيث تدور السفينة إلى موانىء البحر الأحمر تحمل زادا لأهل الفنارات «ليبق ضوء الفنار مرسلا»

- رسالة إنسانية تليق بمصر - الرحلة أيضا تحمل مسرحا لعمال الفنارات والموانىء تتداخل أحداث المسرحية المكتوبة

السفينة عايدة (٣).. قصة اللقاء والحب ورواية جياد البحر



والمسرحية الجديدة تنمو أحداثها على السفينة الجارية.

تتلقى السفينة أمرا بالعودة في بداية . حزيران.

وهي قصة فنية وقصة حقيقية.

«رواية حاجز أمواج» معظم المجموعة على السفينة – احتشدوا على صيحة القائد «إعادة بناء الجيش» – والإنسان.

حرب الاستنزاف كانت التدريب الشاق – للحصول على النصر.

«العايدة» تكتمل فصولها الآن – تتحدث فيها السفينة من بدء بنائها إلى عبورها القناة بعد الانتصار.

اخترت الكتابة واخترتني كذلك

عمرى يقاس بعدد الكلمات والمقالات والقصص والنقد. واللحظات التي أبعثها على الورق . تقاس حالتي بحركة الكتابة – تعودت أيام الصمت «أن اخترع لنفسي دراسة فن جديد – تعلمت حكمة» الصبر الجميل.

اخترت أن أدرس السينما – أعيد قراءة الرواية والنص السينمائي المنشور ثم مشاهدة الفيلم (دراسة مقارنة بين الأدب والسينما).

أفاد أسلوبي كثيرا – التعبير بالصورة – باللقطة الموحية. لا شيء يذهب هباء. كل معرفة جديدة تضاف إلى الرصيد وتثرى العقل والوجدان.

القراءة النقدية مغامرة فنية تقتضى نصا إبداعيا نديا موازيا. تأثرت بنظرية اسبينوزا عن الجمال «الجمال ليس صفة في الشيء المدروس بقدر ما هو الأثر الذى ينشأ في الإنسان نفسه الذى يدرس الشيء».

دائما أتذكر الكتابة كفكرة تبرق أمامى فاحتمل ما يحدث. وكلما ألمت بي المحن – أتذكر أني سوف أكتب التجربة – وبذلك يخف وقعها عليّ .. وتعينني على التحرر والانتعاش والعزم.

أجمل ما فى حياتى أصدقائى – قصة «صلاة» «أصلي بطريقتى الخاصة – أحادث من أحبهم – من يعني وجودهم أمنا ودفئا.. قديم زمن لا نلتقى فيه – لكن أعرف أنك هناك».

الصداقة : موقف – واختيار ومشاعر ولقاء فكرى وإنساني.

أصدقائي من الكتب والكتاب – كتب كثيرة أثرت في واستعيد قراءتها كثيرا مثل دورة الموسيقى.

(أعامل الكلمات كالموسيقى).

اعترف : وأنا أقترب من السبعين – أني لم أقل كل ما لدى بعد – «مليانه كتابة» .

أن أوان جمع «الرصيد» – «أوراق ديسمبر» أعكف على كتابتها الآن.

وجدت لغة مشتركة بيني وبين الناس – وبفضل هذه الصلة الروحية والتى تقام فى سياق عملية الكتابة ينبثق وهج حياتى. ■

محمود عزمي .. عطاء في مجالي الإعلام والسياسة

الدكتور محمود عزمي والذي ولد في عام ١٨٨٩ ورحل عنا في عام ١٩٥٤ نتذكره بعد مرور ٤٦ عاما على هذا الرحيل .

ومحمود عزمي جمع في شخصيته بين العطاء في مجالي الإعلام والدبلوماسية ، وقد عرف بعدائه الشديد للملك والسراي ، وفي سنة ١٩٣٦ وقف موقفا معارضا للمعاهدة المصرية الإنجليزية ، وغادر مصر إلى العراق ، حيث عمل عميداً لكلية الحقوق ببغداد .

كان صحفيا مرموقا ، أصدر جريدتي «المحروسة» و «الاستقلال» ورأس تحرير روز اليوسف ، وحرر في عدد من المجلات المصرية من بينها مجلة الهلال ، وأصدر مجلة «الشباب» عام ١٩٣٦ علاوة على تعيينه مشرفا على معهد التحرير والترجمة والصحافة الذي بدأت الدراسة فيه سنة ١٩٤٠ ، وله الفضل في إعداد ميثاق الشرف الصحفي الدولي في هذه اللجنة ، كما كان الدكتور عزمي أول مصري فكر في إنشاء وكالة أنباء مصرية ، وكانت وكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية نتاج فكره بعد وفاته حيث أنشئت عام ١٩٥٦ .

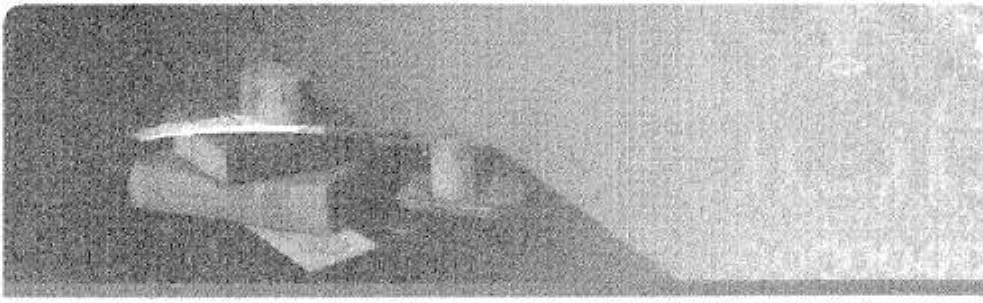
من بين إسهاماته كتاب «خفايا سياسية» وتناول فيه دوره في الحركة الوطنية وعلاقاته برجال السياسة المصرية .

عين ممثلا دائما لمصر في الأمم المتحدة ، وفارق الحياة شهيدا في الثالث من نوفمبر ١٩٥٤ على منبر مجلس الأمن ، حيث أصابته نوبة قلبية مفاجئة وهو يتحدث عن الحقوق المصرية في مواجهة إسرائيل .

علاء الدين عمرو حموده - القاهرة

إن بعض الظن إثم

ضربوك « أمريكا » ولا تدرين من
ضربوا ولا من ذا الذي لا يؤتمن
تتخبطين الآن في كم عثرة
كالطائر المذبوح يا مأوى الفتن
هلا نظرت لغيرنا في هذه ؟
هلا اتهمت الخائنين على الزمن ؟





إن اليهود على الزمان تمرد
ولهم أمور من سواهم لم تكن
لم يحضروا يوم القضا كحضورهم
وكأنهم يدرون دون بنى الوطن
غابوا عن الأحداث قبل حدوثها
من ذا الذى في الناس يدرى الغيب من ؟
لم لا يكونون الجناة ؟ تأملى
إن التأمل كم يفيد ذوى المحن
عيناك دوما بارتياب نحونا
كونى كذلك نحوهم ظنا كظن
والظن ظلم «بعضه فتفكرى
يا من لهذا الظن فينا تطمئن
بل «إن بعض الظن إثم» فاحذرى
يا من تقاد بذى الظنون وقد تجن

حسن أبو الغيط
المصيلحة - منوفية

على مدى [illegible] سنوات
أضاءت الهلال سماء العروبة

نتابع باهتمام شديد هذا التواصل من مجلة الهلال لقضايا الثقافة والإبداع ، وننتظر منها المزيد على مرور الشهور وتتابع سنوات الإصدار ..

ولقد توقفنا عند السنة العاشرة بعد المائة لصدور الهلال ، والتى أضاءت سماء العروبة بما قدمته من إبداع متميز ، حتى أنها لتعد سجلا حافلا لأحوال الثقافة العربية في المشرق والمغرب ، فما أن تتحدث إلى مثقف أو باحث أكاديمى وتقول له : أنا من القاهرة ، على الفور يسألك عن «الهلال» التى يحتفظ بأعداد كثيرة منها فى مكتبته ، ويذكر لك باحث بحرينى أو أديب مغربى كيف كانت تصل إليه الهلال فى العشرينات ، وما بعدها وهو متشوق إلى قراءة كل جديد فى مجال الثقافة العربية من خلال تبويب رصين وبقلم كبار الكتاب والمفكرين العرب .

وحينما تبدأ مجلتنا الرائدة عامها العاشر بعد المائة وفى ظل هذا التطور ، ومسايرة التقنيات الحديثة فى الطباعة وفنون الإخراج ، وتنوع أبوابها وبأقلام المفكرين المصريين والشعراء والأدباء من الأقطار العربية يدفعنا ذلك كله إلى التفاؤل بأن مطبوعة

مثل الهلال لا يمكن الاستغناء عنها فى ظل هذا التطور فى مجال الكمبيوتر والانترنت وحتى الكتاب المرئى .. فإلى الأمام والمزيد من الرقى .

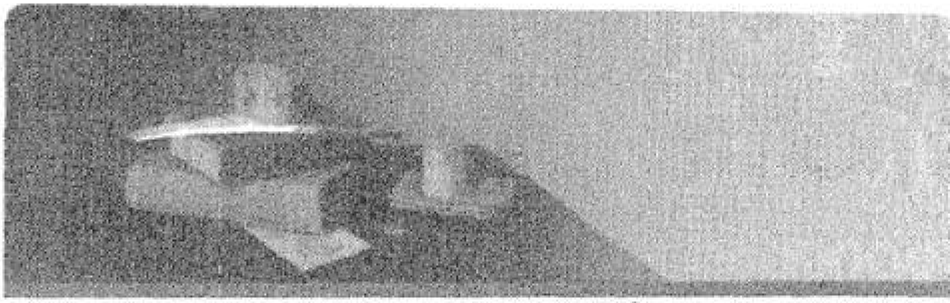
عثمان السيد جوده - القاهرة

الهلال : نشكر للقارىء الصديق هذه الكلمات التى تنم عن تواصل مستمر مع مجلة لم تتوقف عند مرحلة زمنية ، بل صارعت حتى تستمر وواصلت دورها التنويرى بأقدام ثابتة .. لم يتوقف صدورها على مدى هذه الرحلة ، سواء وهى تصدر مرتين فى الشهر ، وبعد ذلك ، وكانت ومازالت تبحث عن المستقبل ولا تنسى ماضى العرب التليد ، وتكرم أعلام الفكر ، وتنشر بأقلام علماء وكتاب العصر ، وتحرص دوما على التطور فى جميع مجالات الطباعة حتى أنها حصلت هذا العام على جائزة معرض القاهرة الدولى للكتاب باعتبارها من أفضل المجلات الثقافية .

أى أرض ترى

أى أرض ترى تتعالى عن العين
والعين مشتاقة أن تراها ولو مرة
أى أرض ترى تختفى خلف أسوارها العاليات
تختفى فوق جسر بعيد عن الناس والمشكلات
أى أرض ترى تزرع الياسمين كما تزرع القمح والخضراوات
يخرج الحب أشجارها ضاحكات
وتعيش الطيور على أرضها آمنات
أى أرض ترى صبحها وردة تشتهى
ليلها بهجة الامسيات
المياه النقية ما بين أشجارها جاريات
الربيع لها عاشق يصنع المستحيل ليبقى بها دائما
ويزينها بالنبات الذى هو أحلى النبات
أى أرض ترى أهلها يلبسون ثياب الصفاء ويلقون دوما
عليك السلام المعطر بالحب والأمنيات
ابتساماتهم بالرضا ناطقات
أهلها لا يخافون منك إذا ما رأوك تزينت يوما
ببعض من الأغنيات
أى أرض ترى .. ستحقق معجزة المعجزات

عبدالعزيز الشراكى
المنصورة



الرياضيات أهم إنجاز لمكتبة الإسكندرية

تعليقا على مقال «هل يعود زمن مكتبة الإسكندرية؟» والذى نشر فى عدد أكتوبر ٢٠٠١ يؤكد الدكتور عبدالعظيم أنيس ، على أن المكتبة لم تقتصر اهتماماتها على العلوم الإنسانية ، إنما يعتبر أكبر إنجازاتها فى الرياضيات ، وهو زمن كل من اقليدس وأرشميدس وأبولونيوس ، وكان الإنجاز العظيم لاقليدس ، إنه أول من قنن العلوم الرياضية فى كتابه «الأصول فى الهندسة المستوية» والربط المنطقى كان معروفا قبل اقليدس ، ولكن الربط جزء كبير من المعرفة الرياضية فى بناء واحد من الاستنباط الذى يبدأ من المسلمات ، لم تعرف قبل اقليدس وكانت قيمة هذا بالنسبة للرياضيات كبيرة جدا .

كما يتضح عن حقيقة أن اقليدس مازال حتى اليوم أساس تعليم الهندسة فى المرحلة قبل الجامعية .

عندما لا تجف الدموع

يا دموعى كيف أسلو مهجتى
فى فؤادى كم توارى من عذاب
كيف أنسى لحظة فيها النوى
حار من فرط الأسى يرجو الجواب؟!
صار بستان التمنى ذابلا
وانزوت أزهار عمرى فى الشباب
كنت يا شط الأمانى أرتمى
فى بحار العشق لا أخشى العباب
والتقينا فى مساء كالرؤى
فاستبد الحب بالقلب المذاب
واحتوانى سحر عينيك التى
أرقت من حسنها جفن الرباب!
أشرقت شمس توارت فى دمى
ثم ضنت واختفت بين الشعاب !!
وافترقنا فاحترقنا فى النوى
كم أعانى ضعف نفسى فى اللباب

ربما قد نلتقي فوق السها
بعدما ضاقت بنا هذي الرحاب!!
نلتقي في كل عين تشتكي
وهم أحلام تراءت كالشهاب
أين عمري ؟ ليتني بين الثرى
كنت أطلالاً تلاشت أو سراب!
إنما الدنيا شقاء للورى
كل ما فيها حنين واغتراب

حاتم عبدالمحسن غيث - طلخا - دقهلية

امنعوا الإرهاب الذي يقع على الشعب الفلسطيني؟

بعد أحداث ١١ سبتمبر وما تعرضت له الولايات المتحدة بدأت الحرب ضد طالبان فى أفغانستان لإلقاء القبض على بن لادن وأتباعه الذين تتهمهم بتفجير أعلى برجين فى نيويورك والهجوم على البنتاجون بطائرة ركاب مدنية وقتل الآلاف من جراء هذا الدمار

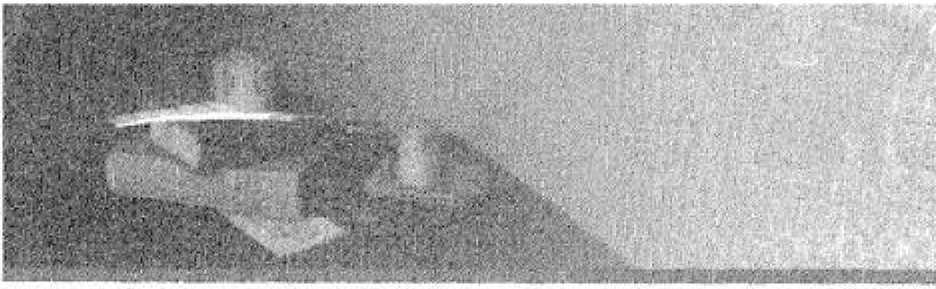
وبدأ بوش يناشد العالم لإقامة تحالف دولي ضد الإرهاب. لكن كيف تتم الحرب على هذا الإرهاب الذي لا وطن له ولا دين ولا جيش .

لم تستطع أمريكا بكل قوتها منع هذه الكارثة ووقفت عاجزة ، ثم بدأت تعاقب شعبا أعزل من السلاح وفي غمرة الأحداث ومنذ تولي بوش مسئولية الولايات المتحدة . نسى تماما القضية الفلسطينية ، لب الصراع في الشرق الأوسط ، وترك نزيف الدم لشعب أعزل يقتل ويصاب منه العشرات يوميا ، لسبب واحد هو أن تصبح القدس عاصمته ، وأن يعود إليه ترابه الوطني المستباح من قبل القوات الإسرائيلية .

ولا ندري كيف يعالج الراعي الأول للسلام هذه المشكلة ويتدخل لكي تعود الحقوق إلى أصحابها ، خاصة وهو يعلم من هو الإرهابي ، ومن هو الذي ينادي بحقه ..

وإذا كانت هذه الحملة على أفغانستان من أجل وضع حد للإرهاب، فمن الضروري أن ينزع الفتيل المشتعل في الأرض الفلسطينية ، وذلك بعودة الحق الضائع إلى أصحابه !

د. صموئيل لبيب سيحه - المنيا



إقدام

تأخرت عن دورة الفلك فى مغزل الماء
يا صحوة الروض عند حلول الشتاء
تأخرت
فانفتحت أغنياتك للبرد
وانطفأت أمنياتك فى طبقات التحدى
وعلقت أحلامك الوترية فى حائط الكبرياء
تقدمك النور والماء والريح والصمت
وانحل فى دمك الوقت مشتبكا بغصون الهواء
وأنت تقول : بلادى وناسى
وتمسك جرحك قبل المساس بقلب البكاء
وتكره من أخروك قليلا
وترجع للأرض نيلا
تهدهد أهداب عينيه عهد البقاء
تأخرت
فاستبق القادمون خطاك
فغاضت بحملك ذكراك
وانتصب القبر بين الصدى والنداء !

عبدالرحيم الماسخ - سوهاج

المرقش يموت بين يدى محبوبته

هو عوف بن سعد لقب بالمرقش لبيت من الشعر قال فيه:

الدار وحش والرسوم كما
رقش فى ظهر الأديم قلم

أحب المرقش ابنة عمه أسماء ولكن حدث أن تقدم لها رجل من بنى غطيف ميسور الحال وكان والدها يمر بضائقة شديدة فوافق على زواجه منها وتم الزواج وأخذ الرجل زوجته إلى بلدته نجران فى الوقت الذى كان فيه المرقش قد ترك بلدته وخرج يسعى فى مناكب الأرض كى يدبر مهرها ولما عاد ومعه المال أخبره أهله أن

أسماء قد ماتت فذهب إلى قبرها الذى ادعى أهله أنه قبرها، وجلس بجواره وغطى وجهه بسترة فسمع رجلان يتحدثان بأن هذا قبر فلان الذى أدعى أهل المرقش أنه قبر أسماء فعاد المرقش إلى أهله وأخبرهم بما سمعه فأخبروه بالحقيقة، ولم يطق المرقش البقاء فرحل عنها إلى مكان بعيد لا يعلمه وأثناء سيره حل به التعب فرأى أمامه كهفا مهجورا فنزل به كي يستريح وأثناء وجوده به أصابه مرض شديد ولا أحد بجواره، ولكن حدث أن مر به أحد الرعاة فسأله المرقش عمن يكون فقال له : أنا راعى غنم فلان الذى يقيم بنجران بالقرب من هنا وكان فلان هذا هو زوج أسماء فقال له المرقش :

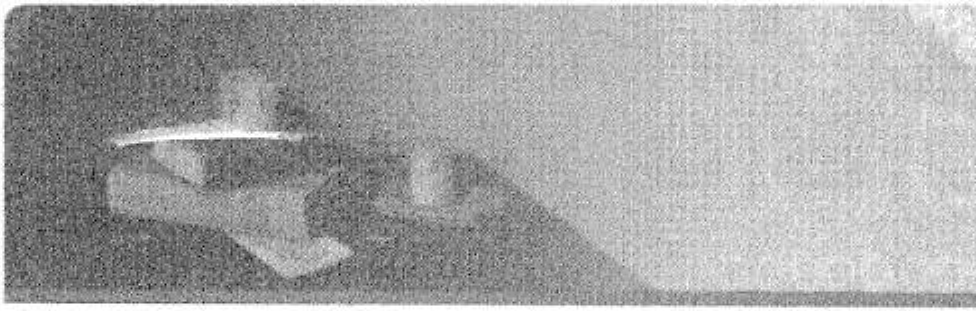
- هل تستطيع الحديث مع زوجته ،

- لا ولكن جاريتها تأتيني كل صباح لتأخذ مني اللبن الذى أحلبه لها .

- إذن خذ خاتمي هذا وألقه في اللبن ففعل الراعى ولما عثرت أسماء على الخاتم وعرفت أنه خاتم المرقش استدعت الراعي وسألته عن هذا الخاتم فأخبرها بالقصة وعندئذ أخبرت أسماء زوجها بما حدث وطلبت منه أن يذهب إلى المرقش ويأتى به ففعل ولما حضر أسلم الروح بين يديها بعد أن أنشدها أبياتا قال فيها :

سرى ليلا خيالا من أسماء
فارقني وأصابني محود
فبت أدير أمرى كل حالا
وأذكر أهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرفي لنار
يشب لها لذى الأرض وقود
هى ببلدة وأنا بأخرى
وقطعت المواثيق والعهود
فما بالى أنى يخان عهدى
وما بالى أصاد ولا أصيد
أناس كلما أخلقت وصلا
عناني منهم وصل جديد

محمد أمين عيسوى -الاسماعيلية



انتظار !
قصة قصيرة

سلمت عليها لآخر مرة فاحترقت جميع أصابعي ..

تركت لديها لفافة صغيرة جدا فيها قلب ، وبعض الدموع والذكريات ، ومستقبل غامض قد يأتي وقد لا يأتي ..

لم يكن لدى وقت فراغ لأنتحر .. فعدت من طريق جانبي مظلم .. فوجئت بـ «سيزيف» أمامي .. يواصل عمله الأبدى الممل .. يرفع الصخرة لأعلى جبل - أراه الآن لأول مرة - فتسقط مسرعة للسطح .. فيرفعها من جديد مرة ومرات ..

بان البشر على وجهه عندما لمحني .. ناداني .. ترددت لحظة وأنا أنظر لساعتي.

فقد تأخرت عن موعد الفيلم العربي ..

ثم اتجهت إليه .. وجدت العرق يغمره .. حلقه جاف .. ويلهث طلبا للهواء ..

همس فى أذنى .

«أحمل عني الصخرة قليلا أرجوك .. سأروى ظمأى بزجاجة مثلجة من محل قريب وأعود .

الحق أن منظره أثار شفقتي .. فقبلت .. أعطاني الصخرة بفرح ..

كانت ضخمة وثقيلة .. تمطى فى قوة .. نفض غبارا وهميا من على ثيابه ..

قلت بأريحية : « هل تحتاج نقودا » ؟!

فنظر نحوى بعتاب .. ثم لوح بكفه ومضى ..

لكنه لم يعد ..

كنت أواصل عمله بأمانة وشرف .. وكلما تغشانى التعب أو ثقل الحمل على .. أعزى نفسي وأهمس «ربما مازال ينتظر زجاجة الكوكاكولا حتى تتثلج» !

حسام مصطفى إبراهيم
نادى أدب شربين

الكلمة الأخيرة



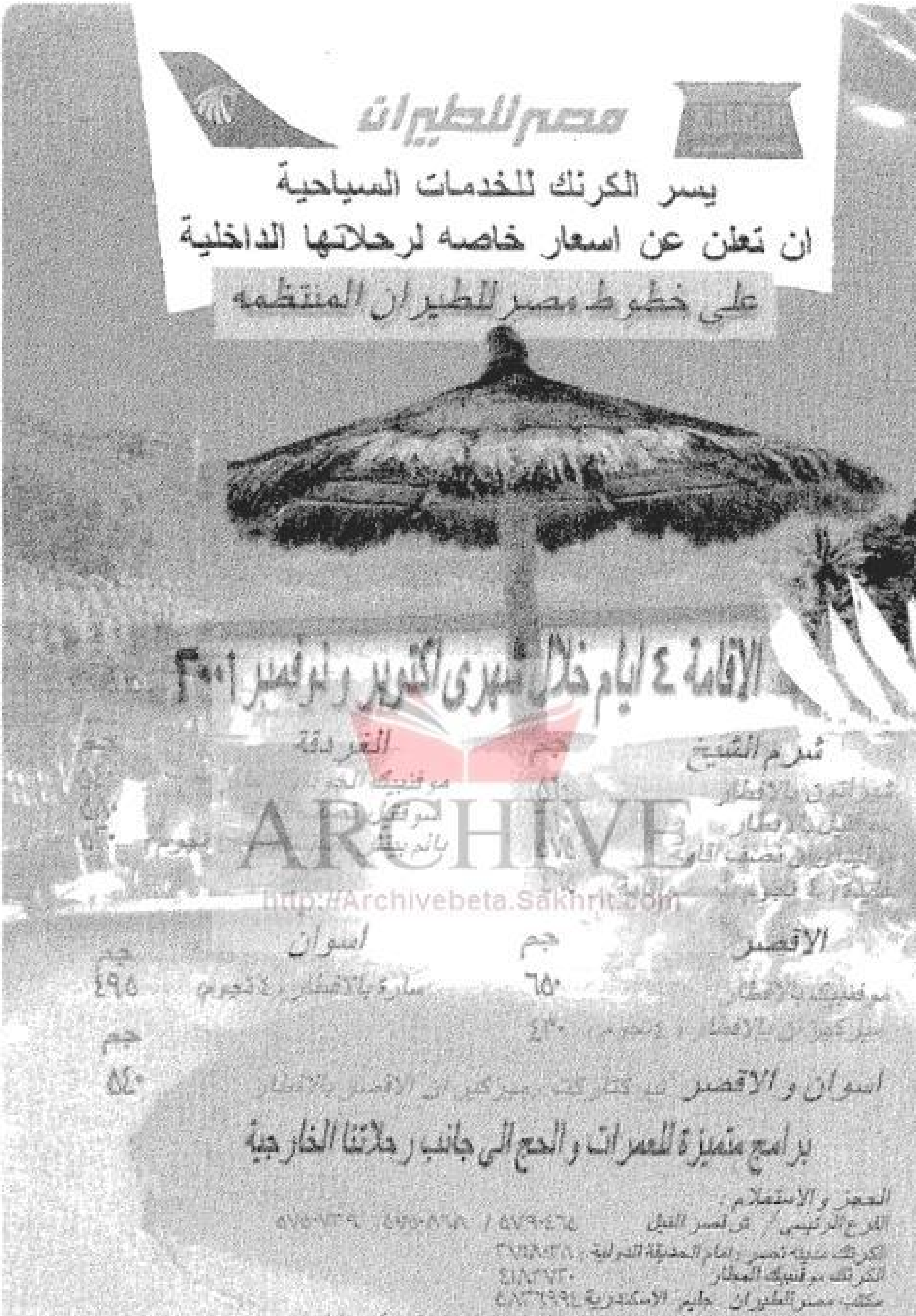
لمن يكتب الناقد؟

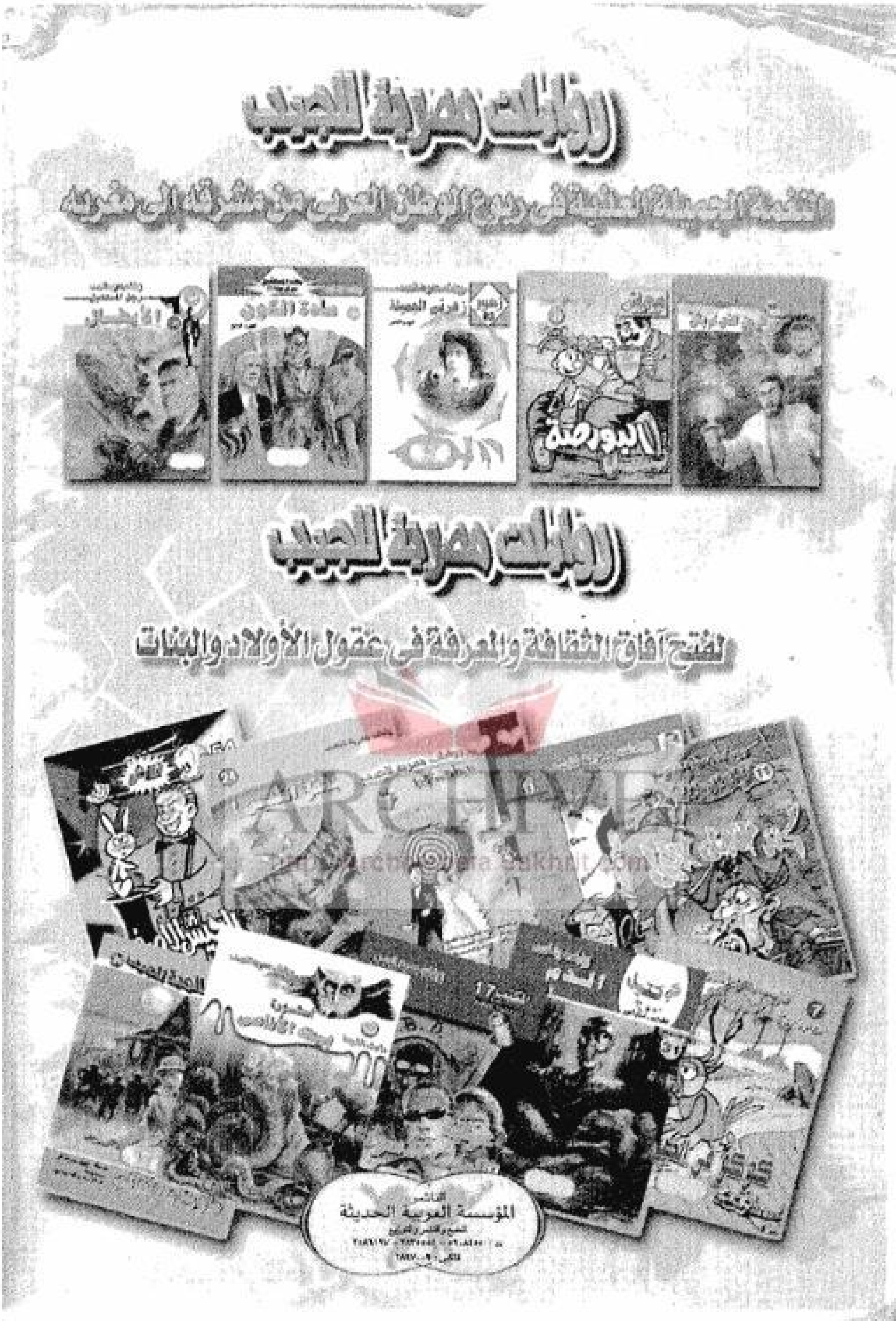
بقلم: د. محمود الربيعي

الأصل أن الناقد واحد من بين القراء، لكنه قارىء مدرب، تكونت لديه خبرات كمية ونوعية بالنصوص الأدبية، والنظريات التي طورها أمثاله على مدى التاريخ، وفي شتى الثقافات، ثم إنه قارىء موهوب يتمتع بحساسية خاصة نحو النصوص الأدبية باستيعابها وتمثلها على نحو صحيح، وتكوين مجموعة صالحة من ألوان التحليل المنهجي المقنع، والوصف الواضح الذي يقدم إلى القارىء - غير الناقد - على نحو جذاب، يجعله راغباً في مزيد من قراءة الأدب، والتمتع به، وتعديل عاداته وتقاليده، وألوان رؤيته، طبقاً لما تهديه إليه قراءاته الأدبية مدى حياته. وبذلك يساعد الناقد في إيجاد نوع من قراء الأدب ينتشرون على رقعة واسعة في الحياة، ويعيدون تشكيل قيمتها على نحو أفضل، دون وصاية من الناقد بل باستجابتهم لما يختارونه هم نتيجة لثقافتهم الأدبية التي كان الناقد واحداً ممن ساعدوهم على تحصيلها.

وليس من عمل الناقد أن يجلس في عليائه مصدراً أحكاماً - ينقصها الدليل في معظم الأحيان - على الأعمال الأدبية بالجودة أو الرداءة، كما أنه ليس من عمله أن يتجه إلى الكاتب المبدع، مادحاً ومقرظاً، أو شاتماً وموبخاً، إن عمله - بالأحرى - تحليل النص بوصفه وشرحه، وتقديم النص بما يشتمل عليه من [illegible] المعاني، وبيان قيمته، وما أضافه إلى جملة الأعمال التي ينتمي إليها على اتساع العالم وطول التاريخ. ولقد أحسن المبدعون صنعاً حين اعترفوا دائماً - ومنهم من المبدعين العرب نجيب محفوظ ويوسف إدريس - بأنهم استفادوا قليلاً جداً من النقاد في مسيرتهم الأدبية، ولكن ذلك - للحق - لم يلقن نقادنا الدرس الواجب، فهم ماضون فيما يفعلون من رفع من يريدون رفعهم إلى عنان السماء، وخفض من يريدون خفضهم إلى حضيض الأرض.

الناقد الحق يكتب عندي - إذن - للقراء، ويساعد غيره على فقه العمل الأدبي، وليس هو ذلك الإنسان الذي يتحدث إلى الآخرين حاملاً الصولجان، ولا ذلك الذي يتحوصل في طائفة أو «شلة» فينصرهم ظالمين أو مظلومين على طريقة الجاهلية الأولى، ولا ذلك الذي يضيق دائرة المعرفة فيلوي أعناق النصوص الأدبية لتوافق مذهبه أو معتقده. الناقد الحق هو الذي يفتح من الأبواب أكثر مما يغلق، ويعرض من البدائل في المعاني والأساليب التي يشتمل عليها النص الجيد، ما يساعد على بقاء هذا النص صالحاً للقراءة ما بقي قارىء مهتم بالأدب على وجه هذه الأرض.


مصر للطيران
يسر الكرنك للخدمات السياحية
ان تعلن عن اسعار خاصه لرحلاتها الداخلية
على خطوط مصر للطيران المنتظمه
الاقامة ٤ ايام خلال شهرى اكتوبر ونوفمبر ٢٠٠١
شرم الشيخ
الغردقة
الاقصر
اسوان
جم
٦٥٠
٤٩٥
٥٤٠
اسوان و الاقصر
برامج متميزة للعمرات و الحج الى جانب رحلاتنا الخارجية
الحجز و الاستعلام :
مكاتب مصر للطيران



روايات مصرية للجيب
روايات مصرية للجيب
تفتح آفاق الثقافة والمعرفة في عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

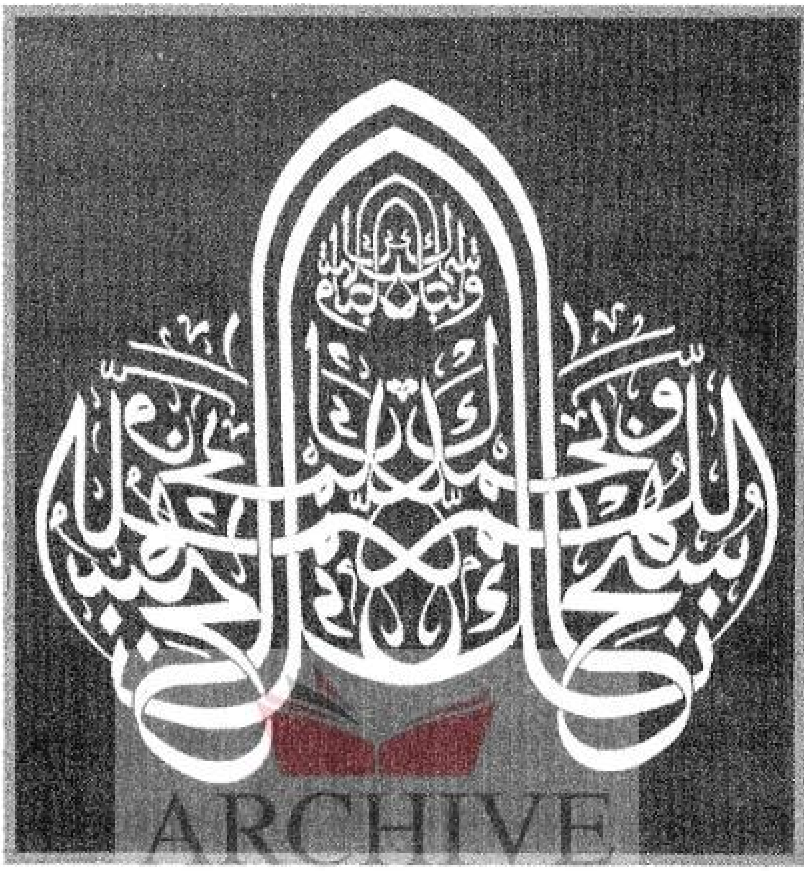
الهلال

في رحاب رمضان

ديسمبر ٢٠٠١ - الثمن ٤ جنيهات



أجنحة الموسيقى السبعة جزء خاص



تسابيح..

للفنان : محمد العيسوى



لوحة وفنان

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

الإدارة : القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
الكاتبات ص.ب ٦١ – العتبة – الرقم البريدي: ١١٥١١ – تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١٦ – فاكس: ٣٦٢٥٤٦٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ١ دينار - الكويت ١.٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبى/ أبوظبى ١٥ درهما - سلطنة عمان ١.٥ ريال - تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٧٠٠٠ ليرة - سويسرا ٤ فرنكات - المملكة المتحدة ٢.٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



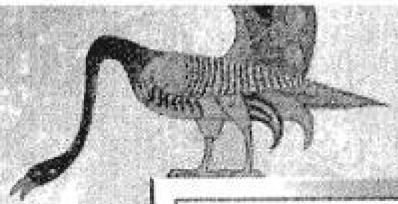
الغلاف تصميم الفنان

محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوروبا وافريقيا ٢٥ دولارا. باقي دول العالم ٤٥ دولارا.

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٢ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.



الأبواب الثابتة



الموسيقي العربية والعمران

يتحول خريف القاهرة كل سنة إلى ساحة لألوان الموسيقى العربية من مصر والبلاد العربية شرقا وغربا.

وتتحول أهم مسارح القاهرة ومدن كبرى أخرى إلى ملتقى عام لموسيقيى ومطربى ومطربات البلدان العربية، وكل منهم يقدم أفضل ما عنده من موسيقى وغناء.

وذلك التحول الذى ينتظره بفارغ الصبر عشاق الموسيقى العربية من الخليج إلى المحيط يرجع تاريخه إلى عشر سنوات مضت، عندما بدأت فعاليات مهرجان ومؤتمر الموسيقى العربية، وذلك بفضل ما بذلته الدكتورة رتيبة الحفنى من جهد جهيد.

والحق أن انطلاق المهرجان ومعه المؤتمر فى ذلك التاريخ لم يكن وليد تصرف عشوائى، وإنما كان وليد تفكير وتدبير.

فقبل انطلاقه بقليل كان قد رحل عن دنيانا محمد عبد الوهاب مطرب الأجيال.

كما أنه وعلى امتداد العقود الثلاثة السابقة على رحيله، كانت قد رحلت كوكب الشرق أم كلثوم، ورحل كل من الشيخ زكريا أحمد ومحمد القصبجى ورياض السنباطى وبليغ حمدى وغيرهم كثير.

وبرحيلهم انقطع فن الموسيقى العربية، وذلك لأن أحدا لم يخلفهم فى مكانهم، وتبعا لذلك صارت أغلب الأمكنة العالية فى الموسيقى العربية سواء أكانت تأليفا أوغناء نهبا لأعداء ذلك النوع الرفيع من موسيقانا الذى هو، والحق يقال، زادنا فى مواجهة عواصف عاتية، تعمل على اقتلاع شخصيتنا القومية من الجذور.

ومما زاد الطين بلة، اختلاط الحابل بالنابل على نحو أصبح معه تحرير تلك الأمكنة، وقد صارت نهبا، من الصعوبة بمكان.

والأهم والأخطر غياب الوعى بأن كل ذلك مؤداه قص أجنحة فن يعد فى رأى ابن خلدون صاحب المقدمة، علامة بقاء الأمة وعمران البلاد، وربما انقراض ذلك



الفن وصيرورته والعدم سواء بسواء.

وفى ذلك الجو المشحون بالقلق والجزع من تلك الموجة الهمجية التى تتهدد مستقبل الموسيقى العربية، وحتى لا ينتهى بها الأمر أثرا مفتقدا الحياة، مكانه متحف متواضع يراه الإنسان العربى من بعيد، ويبكى على حائطه مستعيدا ذكريات الأجداد الكرام. بدءا من يونس الكاتب الملحن المغنى الذى شهد أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية وانتهاء بمحمد عبد الوهاب فى الربع الرابع من القرن العشرين، نقول حتى لا يحدث ذلك، حرص الغيورون على تراث الموسيقى العربية على اقامة مهرجان سنوى مشحون بصوت الموسيقى العربية، وأغانيها الجميلة والأصيلة.

يصحبه، وفى نفس الوقت، مؤتمر زاخر بالأبحاث والمناقشات واللقاءات.

وليس من شك ان ذلك المهرجان المؤتمر قد أثمر الكثير، وذلك رغم بعض المعوقات، وبعض المثالب التى شابت نشاطه خلال سنوات عمره العشر.

ويكفى ان من بين ثماره الدانية، إقامة بيت العود العربى، قبل ثلاث سنوات، وتحت إشراف نصير شمة الموسيقار العراقى، وصاحب العود ذى الرنين والأنين!! ■

المحــــــرر



عالم ما بعد ١١ سبتمبر

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

لايختلف اثنان حول فداحة وأهمية أحداث ١١ سبتمبر الماضى إلى الحد الذى شاعت معه مقولة أن ذلك التاريخ أصبح فاصلاً بين عهدين أو مرحلتين الأمر الذى يعنى أننا الآن بصدد عالم جديد، أو على الأقل بداية له . وثمة مايغرى بقبول هذه الطريقة فى التفكير طالما أن ما وقع فى ذلك اليوم قد وجه ضربة شديدة مادية ومعنوية للقطب المهيمن فى النظام العالمى الراهن، وبالتالى فإن المقولات التى كانت تتحدث عن عملية مقبلة لتآكل القوة الأمريكية باتت أمراً مطروحاً بعد أن كانت تقابل باستخفاف من قبل البعض، خاصة وأنه من الواضح أن من نفذ الأهداف أياً كانت هويته ليس بالخصم الهين، إلى الدرجة التى جعلت البعض يتحدث عن ظهور قطب جديد «خفى» مناوىء للهيمنة الأمريكية .

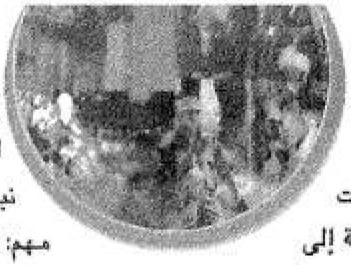
ومن ناحية أخرى فإن الولايات المتحدة سوف تضطر في غمار سعيها للانتقام إلى بناء تحالفات تدخل فيها قوى إقليمية لابد وأنها سوف تحصل على مكاسب في مقابل ماتتحمله من التزامات، وهو مايفتح الطريق لتطورات إقليمية مهمة، وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد رفعت العقوبات التي كانت قد فرضتها على كل من باكستان والهند بسبب تحديهما لمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية بعد أن أبدت الدولتان السياسة الأمريكية المناوئة للإرهاب فإن هذا يفتح الباب لسؤال حول إمكانية تكرار هذا السلوك في أقاليم أخرى كالشرق الأوسط، ومن ثم إمكانية حدوث تطورات مهمة على صعيد الصراع العربي - الإسرائيلي على سبيل المثال.

وتحتاج كل هذه الأفكار إلى تحليل وتقويم موضوعيين تحاول الصفحات التالية أن تقدم مساهمة أولية فيهما.

نظرة إلي الأوضاع العالمية قبل ١١ سبتمبر

يبدو من غير الممكن أن نبدأ التفكير في تداعيات أحداث سبتمبر ٢٠٠١ على النظام العالمي دون أن نمعن النظر فيما كان عليه حال هذا النظام قبل ذلك التاريخ. ومن الحقيقي أن الأوضاع العالمية كانت تشير قبل ١١ سبتمبر إلى نظام أحادي القطبية يتميز بهيمنة أمريكية واضحة، غير أنه من الضروري أيضاً أن يرصد تطور هذا النظام والدور الأمريكي المهيمن فيه على مدار مدة قصيرة للغاية بالمنظور التاريخي تتجاوز بالكاد عقداً من الزمان هو العقد الأخير من القرن العشرين، فقد قادت الولايات المتحدة الأمريكية العالم على نحو شبه مطلق إبان أزمة وحرب الخليج في سنتي ١٩٩٠ و١٩٩١، بما في ذلك إدارة المداولات داخل مجلس الأمن باتجاه إصدار قرارات الإدانة للعرق، وإسباغ الشرعية على دورها العسكري في الخليج.

غير أن الأمور تطورت بعد ذلك على نحو بدا مختلفاً، وإن يكن ذلك قد حدث بالتدريج، فلم تستطع الولايات المتحدة الأمريكية أن تفعل الشيء ذاته في ضرباتها العسكرية ضد يوغسلافيا، واضطرت لأن تنفذها بقيادة حلف الأطلنطي، دونما أدنى تفويض من الأمم المتحدة، وأجبرت أخيراً على عدم تقديم مشروع تعديل العقوبات على العراق كي تصبح «ذكية» إلى مجلس الأمن، بعد أن بات واضحاً أنه قد يواجه خطر الاعتراض الروسي وربما الصيني، ناهيك عن أن يحصل على الأغلبية المطلوبة



داخل المجلس لإقراره أصلاً.

وتعنى المؤشرات السابقة - بالإضافة إلى مؤشرات أخرى لعل من أهمها التحدى الباكستانى والهندى لمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية - أن القبضة الأمريكية على زمام القيادة فى النظام العالمى قد تراخت ولو قليلاً فى خلال عقد واحد من الزمان تقريباً ، وهو الأمر الذى أعطى جدارة لمنطق القائلين بأن الاحتكار الأمريكى للهيمنة فى النظام العالمى ليس سوى وضع مؤقت .والخلاصة أن خبرة تطور الأوضاع العالمية قبل ١١ سبتمبر تفيد بأن التطور كان يسير باتجاه بدء الانحسار التدريجى للهيمنة الأمريكية على الشئون العالمية . وهكذا تكون أحداث سبتمبر قد عززت تطورات سابقة عليها فهل يمثل هذا اتجاها حتمياً؟ تنقلنا محاولة الاجابة على هذا السؤال إلى النقطة التالية :

تراجع مستمر أم إمكانية للتصحيح

بينما يشير التحليل السابق إلى أن ثمة هبوطاً يمكن رصده لمنحى القوة الأمريكية، وتعززه أحداث سبتمبر ٢٠٠١ فإن التحليل الوارد فى هذه النقطة يشير إلى إمكانية ألا يكون هذا التراجع حتمياً، ويمكن أن نبدأ هذا التحليل بسؤال مهم: كيف يؤثر متغير ما على نظام للتفاعلات؟ وفى حالتنا كيف يؤثر حدث بأهمية ما وقع فى سبتمبر ٢٠٠١ على النظام الأمريكى ومن ثم على بنية النظام العالمى؟

يبدو أحياناً من متابعة مايكتبه البعض ويقوله وكأن الحدث عندما يقع يكون له تأثير حتمى فى اتجاه محدد وبدرجة معينة ، ومن ثم تصبح مهمتنا فى معرفة الكيفية التى سيؤثر بها حدث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ على القوة الأمريكية وبنية النظام العالمى هى تحديد ذلك الاتجاه وتلك الدرجة . والواقع أن هذا قد يصح فى الظواهر الفيزيقية أو الميكانيكية ، وليس فيما يتعلق بالظواهر الاجتماعية ومنها السياسية ، وقد نستعين فى الإجابة على هذا السؤال ببعض مقولات مايسمى بتحليل النظام Sys-tem anamalysis ، وأولى هذه المقولات يتعلق بديناميات النظام Sys-tem aynamics .

فمن الصحيح أن متغيراً ما عندما يؤثر على نظام للتفاعلات يحدث تأثيراً بكيفية ما وبدرجة معينة، غير أن هذا التأثير يطلق بعد ذلك سلسلة من

التأثيرات فى اتجاهات متشابكة لايكون قياسها سهلاً بالضرورة ، كما أنه يترتب عليه سلسلة من ردود الأفعال ينطبق عليها الشيء نفسه ، وفى الظواهر الاجتماعية - ومنها السياسية - تبدأ كل الأطراف المعنية بالحدث فى التصرف بما يحفظ مصالحها ويحسن أوضاعها إن أمكن، ومن هنا تبدأ سلسلة من التفاعلات يتباعد بالتدريج ارتباطها بالحدث الأصلى.

وبعبارة أخرى فإن قياس المحصلة النهائية لتأثير أحداث ١١ سبتمبر تبدو معقدة للغاية ، وبالتطبيق على ما وقع بالفعل نجد أن ثمة تأثيراً مباشراً للأحداث على الولايات المتحدة الأمريكية يتعلق بالخسارة المالية والمعنوية الهائلة المتمثلة فى تدمير برجى مركز التجارة العالمى ، وجزء من مبنى وزارة الدفاع الأمريكية، غير أن هذا ولد درجة يعتد بها من الهلع فى أوساط الشعب الأمريكى أفضت إلى مخاوف مبررة لديه ولدى غيره من السفر بالطائرات ، فكسدت رحلات الطيران ، ومن ثم منيت شركات الطيران بخسائر فادحة ، وكذلك مصانع الطائرات والصناعات المرتبطة بها لقلة الطلب المتوقعة على صناعة الطائرات ، وكذلك شركات السياحة لأسباب مفهومة ، وانخفضت أسعار النفط ، وانهارت أسعار الأسهم سواء بسبب هذه التطورات، أو توقعاً لما سوف يجيء.

وتولدت موجة من مشاعر الاستياء والغضب - إن لم تكن الكراهية - فى الولايات المتحدة الأمريكية وبلدان أوربية وغيرها تجاه العرب والمسلمين بسبب سرعة إلقاء التهم جزافاً من قبل المسئولين الأمريكيين على عناصر عربية وإسلامية بتدبير الأحداث ، وتولدت كذلك موجة جديدة من الرفض والعداء للسياسة الأمريكية فى قطاعات واسعة من الجماهير والنخب العربية والإسلامية بسبب الطريقة الأمريكية فى التعامل مع الأحداث ، وهو مايثبت أن حساب المحصلة لهذا كله يبدو شديد التعقيد.

أما الفكرة الأخرى المأخوذة من تحليل النظم ، والتى يمكن أن تفيدنا فى التحليل الراهن لحتمية تراجع القوة الأمريكية فهى تلك المتعلقة بما يسمى بالتغذية الاسترجاعية Feedback وهى تعنى ببساطة ورود المعلومات إلى نظام ما حول نتائج أفعاله الذاتية ، فإذا أتت تفيد بنجاح هذه الأفعال فى تحقيق الهدف منها كررها النظام فيما يسمى بالتغذية الاسترجاعية الايجابية حتى ينجز أهدافه بالكامل ، وأن أتت تفيد



بالعكس فإن النظام يضطر إلى تعديل أو تغيير الأفعال الأصلية فيما يسمى بالتغذية الاسترجاعية السلبية حتى يكون بمقدوره أن يحقق تلك الأهداف . ولاشك أن قدرة أى نظام على القيام بنجاح بهذه العملية تتوقف أولاً على وجود قنوات اتصال سليمة تمر خلالها معلومات دقيقة إليه، وكذلك على الفهم والتفسير السليمين لهذه المعلومات ، وليس كل نظام قادراً على ذلك بالتأكيد ، وبالتالى فإن قدرة بعض النظم على الاستمرار فى تحقيق أهدافها يمكن أن تتناقص على نحو مطرد إلى أن يتهدد بقاء النظام ذاته.

وبتطبيق هذه الفكرة على الوضع الذى أوجدته أحداث سبتمبر ٢٠٠١ بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية سوف نجد أنها منذ وقعت تلك الأحداث قد تبنت سلسلة من الأفعال الداخلية والخارجية تتصور حتى الآن أنها تحقق الغرض منها ، بدليل أنها مستمرة فيها (الاجراءات الأمنية الداخلية والضربات العسكرية الموجهة ضد أفغانستان). ومن المبكر حالياً الحكم على هذه الأفعال بأنها تمثل استجابة صحيحة لما حدث، غير أن المهم تحليلياً أن هذا يعنى أنها مازالت هناك من الناحية النظرية فرصة أمام الولايات المتحدة الأمريكية لكى تعيد حساباتها ، وتتصرف فى الأزمة الراهنة على نحو سليم ، كما أن ثمة إمكانية لأن يحدث العكس ، وبالتالى تكون التصرفات الأمريكية الراهنة بداية لعملية تآكل القوة الأمريكية ، ولو إلى حين اكتشاف الولايات المتحدة الأمريكية لخطأ حساباتها.

وقد نذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية استطاعت أن تقوم بعملية تغذية استرجاعية ناجحة فى أعقاب هزيمتها فى فيتنام فى أوائل السبعينات من القرن الماضى، وحولت هزيمتها إلى نصر مطلق على الاتحاد السوفييتى بعد حوالى عشرين عاماً ، كما أنها فى عهد كلينتون قد شهدت ازدهاراً اقتصادياً لافتاً للنظر ، بعد أن كان كثيرون يتوقعون أن تتزايد الظواهر السلبية فى الاقتصاد الأمريكى بما يساعد على عملية تآكل القوة الأمريكية.

وتعنى هذه الفكرة أنه لا توجد حتمية ما بالنسبة لتداعيات أحداث سبتمبر على القوة الأمريكية خاصة على المدى القصير والمتوسط ، نظراً لأن حدوث اخفاق لسلوك نظام ما فى سعيه لتحقيق أهدافه يمكن أن يتبعه نجاح إذا أمكن فهم أسباب الإخفاق، وإجراء تعديل جزئى أو تغيير

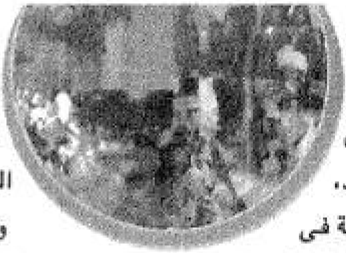
جذرى للسلوك المتبع، ولكنه يمكن - أى الاخفاق . أن يكون بداية لسلسلة من الخطى الفاشلة التى قد تفضى إلى العجز عن تحقيق الأهداف، وقد تهدد بقاء النظام ذاته . وسوف تكون قدرات النظام والتطورات فى البيئة المحيطة به عاملاً مهماً فى الحالتين ، بمعنى أنه كلما كانت القدرات أقوى وبيئة النظام مواتية له كان النجاح أيسر ، وتصحيح السلوك أسهل ... والعكس صحيح .

ومن الممكن القول مع ذلك بأن الولايات المتحدة الأمريكية تبدو حالياً من وجهة نظر الكثيرين داخل الوطن العربى وخارجه غير قادرة على استيعاب ماحدث وفهم دروسه ، وقد اختارت حتى الآن أن تتصرف وفقاً للنمط السلوكى التقليدى الذى من شأنه - حتى وإن أفضى إلى انتصارات عسكرية آنية - أن يؤدى إلى تعاظم الكراهية للمشروع الأمريكى عالمياً، ومن ثم زيادة أسباب مقاومته على النحو الذى يساعد على تآكل الهيمنة الأمريكية ، ويعنى هذا أن النظام الأمريكى عاجز عن القيام بتغذية استرجاعية صحيحة من المنظور الاستراتيجى ، لأنه من المنظور التكتيكى يمكن أن يبدو وكأنه يتحرك بنجاح فى اتجاه ضبط إيقاع النظام العالمى وفقاً للنغمة الأمريكية.

موقع العرب من تداعيات سبتمبر

عندما نبدأ فى مناقشة وضعنا كوطن عربى فى خريطة التحولات المتوقعة قد يكون من المناسب أن نبدأ منهاجياً فى مناقشة تأثير مايحدث فى قمة النظام العالمى على أقاليمه الفرعية، ويمكن رصد مدرستين تحليليتين فى هذا الخصوص الأولى هى الأكثر تقليدية والأقل قدرة على تفسير عملية تأثر الأوضاع فى النظم الفرعية من النظام العالمى بما يحدث فى قمته ، وهى تلك المدرسة التى ترى أن مايحدث فى هذه النظم الفرعية ليس سوى انعكاس مباشر لما يحدث على قمة النظام، بعبارة أخرى فإن إرادة القمة العالمية تكون نافذة فى أقاليم العالم دون قيد ولا شرط.

أما المدرسة الثانية - وتعود إلى أوائل عقد السبعينات من القرن الماضى - فترى - وإن اعترفت بطبيعة الحال بتأثير ماهو عالمى على ماهو إقليمى - أن الواقع أعقد بكثير من فكرة انعكاس الإرادة العالمية على الأوضاع الإقليمية ، فثمة عوامل تخص الأقاليم ذاتها تؤثر فى هذه الأوضاع ، فتعوق حدوث تأثير عالمى ما أو تمنعه ... الخ، وبالتالى فإن فهم مايحدث فى منطقة كالوطن العربى أو إقليم كالشرق الأوسط يكون محصلة



لتفاعل السياسات العالمية والعوامل الإقليمية في آن واحد، وقد تكون المحصلة فى إقليم ما لصالح التأثير العالمى، وقد يحدث العكس فى إقليم آخر، ويتوقف الأمر على مدى قوة ذلك التأثير العالمى ومدى تماسك الأقاليم فى مواجهته .

ويعد النظام العربى ساحة خصبة لتقديم نماذج للتدليل على صحة هذا التحليل : ألم تحاول القوى الغربية العظمى والكبرى فى النظام العالمى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية أن تعيد تشكيل مستقبل المنطقة فى أطر شرق أوسطية عسكرية (مشروع قيادة الشرق الأوسط فى مطلع الخمسينات وحلف بغداد فى منتصفها على سبيل المثال) واقتصادية (مشروع جونستون للمياه فى النصف الأول من الخمسينات والمشروع الشرق أوسطى فى التسعينات) ، وكان الاخفاق نصيبها فى كل الأحوال. ألم ترفض قوة إقليمية كمصر على الرغم من علاقاتها التعاونية بالولات المتحدة الأمريكية الانصياع لسياستها بخصوص تسوية الصراع العربى - الإسرائيلى وأزمة لوكيربى وجنوب السودان ومستقبل العراق.... الخ؟ وبنت لنفسها فى هذا الصدد موقفاً مستقلاً خلف خطاً أحمر ترسمه المصالح المصرية الحيوية.

ويعنى ماسبق أن التحولات المتوقعة فى النظام العالمى بعد سبتمبر ٢٠٠١ ليس من الضرورى أن تؤثر على النظام العربى فى اتجاه التلبية الكاملة لإرادة قيادة هذا النظام، وانما يمكن أن يظهر - أى النظام العربى - قدراً من الممانعة أو المقاومة لتلك الارادة ، بحيث تاتى المحصلة مزيجاً من تفاعل ارادتين بغض النظر عن الوزن النسبى لتاثير كل منهما فى هذه المحصلة.

ويظهر إمعان النظر فى التداعيات الأولى لأحداث سبتمبر ٢٠٠١ أن انعكاساتها على النظام العربى ترتبط بمسألتين رئيسيتين الأولى تتعلق بموقع هذا النظام من قضية محاربة الإرهاب ، والثانية تتعلق بالصراع العربى الإسرائيلى.

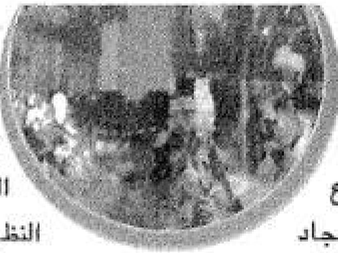
ويبدو أن المسألة الأولى قد أفضت إلى أزمة مكتومة فى العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وعدد من القوى الفاعلة فى النظام العربى ومصدر هذه الأزمة فيما يظهر لنا من مؤشرات أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تريد من الدول العربية انصياعاً أعمى لسياستها فى محاربة الإرهاب، خاصة فى ظل الظروف

المهينة التى أحاطت بهجمات سبتمبر ٢٠٠١. ويبرز منطق من ليس معنا فهو علينا والاستخفاف بالتحفظات العربية على حملة مواجهة الإرهاب، وبصفة خاصة فيما يتعلق بالمشاركة فى تحالف عسكرى من أجل هذه المواجهة، وتبنى تعريف للإرهاب لا توافق هذه الدول عليه باعتبار أنه يدخل فى نطاق التنظيمات الإرهابية جماعات يعتبرها العرب قوى للتحرر العربى من الإحتلال الإسرائيلى ، ورفض الدول العربية التهديد بضرب أية دولة عربية فى سياق الحملة ضد الإرهاب، وتوجيه التهم جزافاً لمؤسسات عربية اقتصادية واجتماعية بأنها تقف وراء تمويل تنظيمات إرهابية ، وإساءة معاملة مواطنين تابعين لدول عربية ..الخ.

ومن اللافت للنظر أن الدول العربية التى كانت هدفاً للانتقادات الأمريكية - ولو على الصعيد غير الرسمى - فى سياق الحملة ضد الإرهاب لم تكن فحسب من بين الدول التى اعتادت الولايات المتحدة الأمريكية على تسميتها بالدول المارقة ، وإنما شملت دولاً صديقة - إن لم تكن شبه حليفة - لها ،ويعنى هذا أن العرب يجدون أنفسهم - ربما للمرة الأولى منذ أزمة وحرب الخليج ١٩٩٠ - ١٩٩١- فى نفس الخندق فى مواجهة غير مقصودة مع الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد طالت الانتقادات وأحياناً الاتهامات - وإن يكن بدرجات متفاوتة - سواء على الصعيد الرسمى أو غير الرسمي دولاً كالعراق وسوريا واليمن وفى الوقت نفسه مصر والسعودية والكويت والإمارات ...الخ ، ويفترض هذا أن العرب أمامهم الآن إمكانية حقيقية لبلورة موقف مشترك تجاه السياسة الأمريكية فى هذا الخصوص.

ومن الضرورى هنا أن يجرى حوار حقيقى وندى مع الولايات المتحدة الأمريكية يتناول مسائل كالاختلاف فى النظرة إلى مفهوم الإرهاب ، وحقيقة الموقف العربى المعادى للإرهاب ، والآليات المثلى لمواجهته ، ومن المهم أن يتم التركيز فى هذا الحوار على ضرورة مراجعة السياسة الأمريكية تجاه هذه المسائل وغيرها ، وإلا فإن التداعيات السلبية لتلك السياسة فى المنطقة إضافة إلى التراكمات السابقة الناجمة عن سياسات أمريكية غير منصفة تجاه القضايا العربية يمكن أن تجعل من الوطن العربى بحق بيئة مواتية لظهور أجيال من الإرهابيين نتيجة الشعور بعدم العدالة والعجز عن مواجهته بالطرق المشروعة.

أما فيما يتعلق بالصراع العربى - الإسرائيلى فقد بدأت فور وقوع أحداث



سبتمبر محاولات استغلال تلك الأحداث من قبل طرفي الصراع ، فركز شارون على إيجاد نوع من التطابق بين الإرهاب الذى وجه ضرباته إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وبين ما يسميه بالإرهاب الذى تتعرض له إسرائيل من قبل الفلسطينيين، على أمل أن تدخل حركة التحرر الفلسطيني بصفة نهائية وقاطعة ضمن الأهداف التى تتجه اليها الحملة الدولية بقيادة أمريكية ضد الإرهاب . أما الطرف العربي ، وبصفة خاصة الرئيس حسني مبارك فقد ركز على أن عدم حل القضية الفلسطينية مسئول إلى حد كبير عن توفير مناخ يمكن أن يزدهر الإرهاب فيه ، بما يعني أن حل هذه القضية سوف يقضي على جانب كبير من مصادر تلك الظاهرة.

وبدا إلى حين وكأن الطرف العربي يكسب فى هذا السياق ، فإسرائيل قد استبعدت من التحالف العسكرى ضد الإرهاب، بما يعنى أن الولايات المتحدة الأمريكية تدرك العبء السياسى الذى يمثله دخول إسرائيل في هذا التحالف، وصدرت عن الرئيس الأمريكي تصريحات لاتفيد فحسب بموافقته على إنشاء دولة فلسطينية ، وإنما بأن انشاء هذه الدولة كان دوماً جزءاً من النظرة الأمريكية لحل الصراع ، غير أن إمعان النظر في هذا كله خاصة على ضوء السوابق الماضية لتصريحات مشابهة صدرت في ظروف مماثلة سواء عن رؤساء أمريكيين أو غيرهم تظهر أنه لاتوجد حتى الآن أدنى ضمانات لأن تكون هذه التصريحات تعبيراً عن خط استراتيجي ثابت ، ولعدم التراجع عن هذه التصريحات كما حدث فى سوابق كثيرة، ناهيك عن عمومية التصريحات بشكل يمكن أن يجردها من أى مضمون حقيقي. والواقع أن ثمة مخاوف حقيقية ومبررة من أن هذه التصريحات ليست سوى نوع من المناورة السياسية قصد بها تطويع المواقف العربية في الحملة ضد الإرهاب.

دعوة للمشاركة في صنع المستقبل

يعني ماسبق كله أن أحداث سبتمبر الماضي وإن كانت تطرح إمكانية لتحولات حقيقية فى النظام العالمي والنظم الاقليمية المتفرعة منه في غير صالح الولايات المتحدة إلا أن طبيعة التطور السياسى ، وبالذات فى المدى القصير وربما المتوسط، لاتضمن مساراً حتمياً لهذه التحولات ، فمن الممكن فى هذا

المدى أن تنجح الولايات المتحدة الأمريكية في استعادة توازنها ، ومن الممكن أيضاً - وإن كان ذلك أقل احتمالا - أن تقوم بعملية مراجعة لسياساتها الخارجية ينجم عنها محاصرة الرفض واسع الانتشار المشروع الأمريكي لقيادة العالم ، وربما تقليل هذا الرفض إلى درجة آمنة بالنسبة لاستمرار القيادة الأمريكية للنظام العالمي . ومن الممكن أيضاً أن تزداد التبعية العربية للولايات المتحدة الأمريكية تحت وطأة الضغط الأمريكي لقبول المنطق المطروح للتعامل مع ظاهرة الإرهاب الدولي ، غير أن ثمة إمكانية حقيقية تنبع من وجود قاسم مشترك واضح بين مواقف الدول العربية إزاء ظاهرة الإرهاب لبلورة موقف عربي مشترك يمكن من مواجهة الضغوط، والتحاور مع الدوائر الأمريكية بشأن عملية المراجعة المطلوبة من أجل نظام عالمي أكثر استقراراً وعدلاً ، ولا يبدو أن الصراع العربي الإسرائيلي الذي استعصى على محاولات سابقة كثيرة للتسوية مرشح لأن يكون هدفاً لتحول تحدثه السياسة الأمريكية تحديداً على ضوء التحليل السابق لتصريحات الرئيس الأمريكي في هذا الخصوص

وهكذا فإن العرب مطالبون - بالإضافة إلى محاولة فهم مايجري في العالم من حولهم وعلى أرضهم من تحولات في أعقاب أحداث سبتمبر - بأن يفكروا في الكيفية التي يمكنهم أن يزيدوا بها من تأثيرهم في هذه التحولات إلى الحد الأقصى الممكن . ذلك أن المستقبل في المدى القصير على الأقل وربما في المدى المتوسط أيضاً لايسير وفقاً لحتمية ما، وإنما تصنعه القوى صاحبة الرؤية السليمة والقدرة على تشكيله، ولا ندعي لأنفسنا قدرة على أن نعيد تشكيل العالم من حولنا ، لكنه يتعين علينا على الأقل أن نكون القوة الأولى المؤثرة في صياغة المستقبل العربي، وهنا فقط يمكننا أن نؤثر بدرجة أو بأخرى في العالم الذي نعيش فيه . أما إذا تقاعسنا عن الوفاء بهذه المهمة فسوف تكون بكل تأكيد من نصيب قوى أخرى ليس ثمة شك في أن المستقبل العربي لايعنيها من قريب أو بعيد. ■

الدين والدنيا

عند أربعة أجيال من المصريين

بقلم

د. جلال أمين

لا يمكن أن أعتبر نفسى ، أو أن أعتبر أسرتى ، عينة ممثلة للمصريين بوجه عام . بل ولا يمكن أن يعتبر أى شخص مصرى أو أى أسرة مصرية عينة ممثلة للمصريين . فالمصريون طبقات وشرائح ، أغنياء وفقراء ، من الريف أو الحضر ، متعلمون وأميون ، مسيسون (أى مهتمون بأمور السياسة) أو غير مسيسين .. إلخ، ومع هذا فإن من الممكن أن يكون فهم الجزء ، فى بعض الجوانب على الأقل عاملاً مساعداً على فهم الكل . ومن ثم يمكن أن يؤدى تتبع ما طرأ من تغيرات على أسرة ما ، كأسرتى مثلاً ، مع مرور الزمن إلى إلقاء بعض الضوء على بعض التغيرات المهمة التى لحقت بالمجتمع المصرى ، أو على الأقل تلك التى طرأت على شريحة اجتماعية معينة من شرائح المجتمع المصرى ، فى بعض جوانب سلوكها ونوازعها ونمط حياتها.

وسوف أحكى للقارئ الآن قصة لتغير مهم طرأ على بضعة أجيال من أسرتى ، عبر فترة تزيد على المائة عام، فى جانب معين دون غيره ، يمكن أن أطلق عليه « علاقة الدين بالدنيا » . ويدفعنى إلى رواية هذه القصة اعتقادى أن هذا التغير الذى طرأ على أجيال متتالية من أسرتى ، قد يكون ممثلا صادقا إلى حد كبير لما طرأ من تغير ، فى هذا الجانب بالذات ، على الشريحة الاجتماعية التى تنتمى إليها أسرتى ، وهى شريحة تنتمى إلى الطبقة المتوسطة المصرية ، وتعيش فى الحضر ، وتحظى

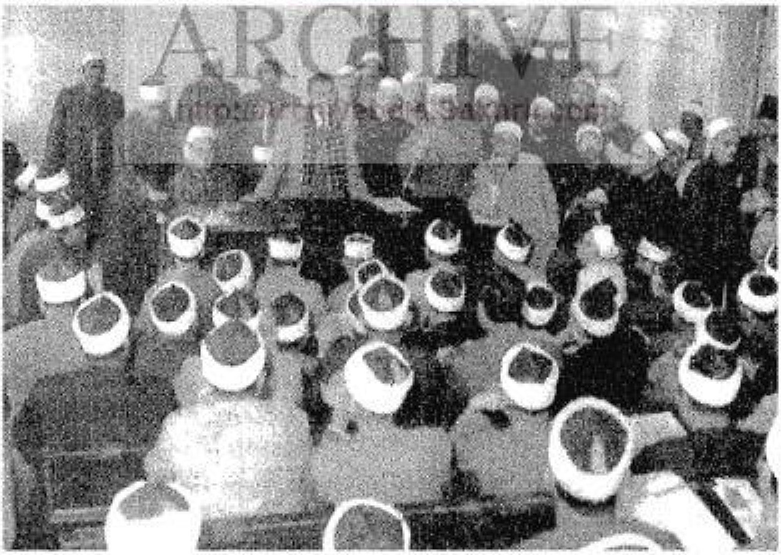
بقدر لا بأس به من التعليم . وهي قصة تتناول أربعة أجيال . جيل جدي وجيل أبي ، ثم جيلي وجيل أولادي .

* * *

في سيرة أبي الذاتية التي نشرها في منتصف الخمسينات (كتاب "حياتي" لأحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة السادسة ، ١٩٧٨) ورد الوصف التالي لشخصية جدي ولنوع نظرته للعلاقة بين الدين والدنيا :

«متدين أشد التدين ، يكثر من الصلاة ومن قراءة القرآن والحديث ، ويزكي ، ويصرف زكاته على الفقراء من أقاربه ويصوم ، ويحج ويتهجد بالليل ويبتهل إلى الله . وإذا صدرت منه سيئة أو ما يظنها سيئة أكثر من الندم والاستغفار والتوبة . زاهد عن السعي في طلب الرزق إلا بمقدار ما تحتاج إليه أسرته ، فإن زاد شيئاً فبقدر ما يدخره ليوم الحاجة . يكثر من ذكر الموت ويتبع ذلك بأحاديث يحفظها في تفاهة الدنيا وحقارة شأنها وهوانها على الله . وبنى مقبرة يذهب إليها ويتلو عندها القرآن يرجو بذلك أن تكون منزلا مباركاً له عند وفاته . يهزأ بالدنيا وزخرفها ومباهجها . رأيته مرة يلبس كسوة تشريف ليذهب إلى حفلة المحمل ، ثم يقف في الغرفة قليلا متردداً ، ثم يخلعها ويرميها بيده إلى أحد أركان الغرفة ويقول إنما الحياة الدنيا لهو ولعب وزينة ، ويجلس بعد ذلك يتلو القرآن ... وهو بسيط في أكله وشربه ولبسه ونومه . حتى ليأكل ما قدم إليه من غير ضجر ، وينام على حشية من غير سرير ، ويلبس في دقيقة ملبسه البسيط في غير أناقة ... دنياه التي يعرفها أزهره ومسجده وكتبه ومن يتصل به من أهل حيه . أما السياسة

أحد الدروس الدينية بالأزهر



والاحتلال ، وأما شئون الاقتصاد ، وأما الحياة الاجتماعية والمدنية مما يجرى وراء حيه فلا يعلم عنها شيئا ، فهو لا يقرأ الجرائد إلا إذا وقعت في يده عرضا ، ولا يجتمع بالناس يتكلمون في الشئون العامة إلا قليلاً » (ص٢١١ - ٢١٣) .

هذا رجل يملأ الدين حياته ، وتكاد تتحول حياته اليومية كلها إلى ممارسة لواحدة أو أخرى من شعائر الدين . بل والدين عنده يتعلق بالخلاص الروحي في الأساس ، ولا يتعلق في ذهنه بقضية سياسية أو اجتماعية أو بهدف « نهضة الأمة » . قضية نهضة الأمة قد تطوف بخاطره ولكنها لا تشغل باله ، فالأرجح عنده أن حال الأمة كما كانت عند مولده ستكون هي حالها عند مماته .

وإرادته هو على أى حال ، وما يمكن أن يصنعه ، ليس مما تتوقف عليه نهضة الأمة . فليس في قدرته أن يفعل شيئا من أجل إحداثها ، وإنما سوف تحدث هذه النهضة فقط عندما يشاء الله .

* * *

كان أبى رجلاً متديناً بلا شك ، ولكن العلاقة بين الدين والدنيا في نظره كانت علاقة مختلفة جدا عما كانت في نظر جدي . خلاصه الروحي مهم بلا ريب ، ولكن يبدو أن الأهم عنده هو خلاص أمته . إنه لا يكاد يكف عن التفكير في « سبل إصلاح الأمة » ، وفي أسباب تأخر أمته بينما يتقدم غيرها .

وعندما كان طالبا بمدرسة القضاء الشرعي طُلب إليه أن يعد محاضرة لإلقائها على الطلبة والأساتذة وضيوف المدرسة فيختار موضوعا لمحاضرته « أسباب ضعف المسلمين » ويرد هذا الضعف إلى سببين أساسيين ، فساد نظام الحكم ، وأن رجال الدين « شايعوا الحكومات الظالمة وأيدوها وتآمروا معها وبثوا في نفوس الشعب الرضا بالقضاء والقدر والاعتماد على نعيم الآخرة إذ حرموا نعيم الدنيا..» (كتاب حياتي، ص ١١٤) .

وهو يكتب تاريخ الحياة العقلية للإسلام في عدة أجزاء بهذا الدافع وحده وهو أن تستخلص من الماضي دروس تعيننا على تحقيق النهضة في المستقبل .. الخ .

كل هذا الانشغال بنهضة الأمة كان فارقا أساسياً بين موقف أبي وموقف جدي من العلاقة بين الدين والدنيا . ولكن كان هناك شئ مهم يجمع بينهما . ذلك أن الأمة التي كان يشغل بال أبي أمر نهضتها كانت هي أمة المسلمين ، وهي الأمة التي لم يكن جدي ليشعر بالانتساب إلا إليها .

عندما كتب أبي كتابه « زعماء الإصلاح في العصر الحديث » ، لم يقتصر على الزعماء المصريين ، ولا حتى الزعماء العرب ، بل أضاف إلى هؤلاء مدحت باشا من تركيا والسيد أحمد خان من الهند ، فقد كانت قضيتهم جميعا ، في نظر أبي قضية واحدة ، وهي إصلاح حال المسلمين والنهوض بالأمة الإسلامية .

كان أبي يشعر بولاء قوى لقضية نهضة مصر ، وقضية نهضة العرب ووحدتهم ، ولكنه ظل حتى وفاته في منتصف الخمسينات يعتبر أن هذه وتلك ليستا إلا جزئيتين في كل أكبر وأهم وهو قضية نهضة المسلمين . كان اهتمامه مثلا بثورة كمال أتاتورك في تركيا في أعقاب

الحرب العالمية الأولى ، بالغ الشدة ، إذ كان يهمه جداً أن يصل إلى قرار فيما إذا كان ما فعله أتاتورك في تركيا يصلح أو لا يصلح للتطبيق خارجها . كانت تركيا في نظر أبى ، تدخل في دائرة الأمة التى ينتسب إليها ، مثلما كانت في نظر جدى ، ولكن جدى لم يكن على استعداد، لو لفت أحد نظره إلى ما يحدث فيها ، إلى أن يقبل سماع أى كلمة توحى ولو من بعيد بإعادة تفسير الدين بحجة « الإصلاح » أو « النهضة الاجتماعية » بينما كان أبى على استعداد للاستماع إلى مثل هذا ومناقشته والاتفاق مع بعضه .

* * *

لم يكن هذا الاختلاف بين موقف أبى وموقف جدى من قضية « الدين والدنيا » شيئا غريبا . بالمرة ، أو مما يصعب تفسيره إذ فلننظر كيف نشأ جدى وتعلم ، بالمقارنة بنشأة أبى وتعليمه . لقد ولد جدى قبل منتصف القرن التاسع عشر بقليل ، في حوالي ١٨٤٥ ، وفى ظروف سياسية وثقافية تغرس في الذهن والقلب الاعتقاد بأن الكيان الأكبر الذى ينتسب إليه رجل مثل جدى ، ليس هو الدولة المصرية ، ولا الأمة العربية ، بل « أمة الإسلام » . كانت فكرة القومية سواء المصرية أوالعربية ، على الأقل حتى بلغ جدى سن الأربعين ، غير مألوفة بالمرة لدى المصريين ، فكل من الفكرتين لم تكن قد نبتت في مصر قبل الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، ولم يترعرع إلا في أعقاب الحرب العالمية الأولى .

والتعليم الذى تلقاه جدى تعليم أزهرى بحت ، والدنيا التى يعرفها لا تتجاوز حدود القاهرة ، بل وحتى القاهرة لا يكاد يعرف عنها إلا حى الأزهر والجيزة

أما أبى فقد كان عالمه المادى والفكرى أوسع بكثير . لقد ولد بعد خمسة أعوام من ثورة عرابى ، ورأى جنود الاحتلال الانجليزى وهو صبى ، وحدثت حادثة دنشواى وهو في العشرين من عمره ، وقرأ في الجرائد عن صدور الحكم بالاعدام على أربعة من أهل دنشواى وعلى آخرين بالسجن والجلد ، مقابل موت ضابط إنجليزى جاء إلى دنشواى لصيد الحمام ولا يعرف ما إذا كان مات من إصابته بضربة عصا من أحد الأهالى أو بضربة شمس ، فبكى أبى وكل من معه بكاء مرا عندما قرأوا عن هذه الأحكام .

وعلّم أبى نفسه الانجليزية وقرأ بها ، ليس فقط عن تاريخ الإسلام بل وفى الفلسفة والأدب والتاريخ .. الخ . صحيح أنه بكى عندما ركب القطار إلى طنطا ، وهو في السادسة عشرة ، إذ كان يفارق أهله لأول مرة ، ولكنه سافر في منتصف العمر إلى تركيا ولبنان وسوريا ، بل ورأى بعض البلاد الأوربية وإن كان هذا بعد بلوغه الخمسين من عمره .

هكذا اتسع العالم الذى عرفه أبى ورآه بعينه فإذا بولائه العميق للدين يقوم بجواره اهتمام أيضا بشئون الدنيا . يحترم الدين ويبجله ولا يقبل من أحد أن يستهين به ، ولكنه أيضا لا يستهين بالمال والنجاح الدنيوى ، وتشغله قضايا النهضة في هذا العالم كما يشغله الثواب والعقاب في العالم الآخر ، فإذا به يصف نفسه في مقال كتبه بعنوان « صديق » ، ولم يكن يعنى إلا نفسه ، فيقول :

« اصطلحت عليه الأضداد وائتلفت فيه المتناقضات ... يتلاقى فيه مذهب أهل السنة بمذهب النشوء والارتقاء ، ومذهب الجبر بمذهب الاختيار ، وتجتمع في مكتبته كتب خطية قديمة في موضوعات قديمة ، قد أكلتها الأرضة ونسج الزمان عليها خيوطاً ، وأحدث الكتب الأوربية فكراً وطبعاً وتجليداً ... ومن أصدقائه السكير والزاهد والفاجر والعابد ... » .

* * *

ثم جئت أنا لأجد أبي على هذه الحال. لم أذهب إلى كتاب ولا إلى الأزهر بل إلى مدرسة حديثة في مصر الجديدة ، أتعلم فيها الانجليزية إلى جانب العربية ، ثم مبادئ الفرنسية . ولا يقنع أبي بهذا فيرسلني إلى مدرسة أخرى تسمي « بالنموذجية » لأنه سمع انها تطبق طرقا أحدث في التعليم «وأكثر تقدما». والدين لم يعد هو محور قراءاتي وتفكيري ، وهو الذي كان محور قراءات أبي وهو صبي وكل حياة جدي ، بل أصبح يدرس لنا فقط في « حصة الدين » ، إلى جانب حصة التاريخ وحصة الجغرافيا وحصة الموسيقى .

وبينما تنكمش « دائرة الدين » المحيطة بي تتسع « دائرة الدنيا » . فالصحف والمجلات التي لم يكن يراها جدي ، والتي كان أبي يخرج لشراء بعضها في المناسبات الهامة ، أصبحت تأتي يوميا إلى بيتنا دون حاجة إلى طلبها . والسينما التي لم تكن قد اخترعت بعد عندما كان جدي في الخمسين من عمره ، ولم يدخلها أبي قط قبل أن يبلغ الخمسين من عمره ، ثم لم يعد إليها إلا مرة أخرى أو مرتين حتى آخر حياته ، دخلتها أنا في سن الخامسة أو السادسة واعتبرتها مصدرا مهما من مصادر الترفيه . والطائرة التي مات جدي قبل أن تستعمل في غير الحرب ، ولم يركبها أبي إلا وقد قارب الستين ، ركبتها أنا في سن الخامسة عشرة .

لم يكن جدي يعتقد أن في قدرته أن يفعل شيئاً يذكر من أجل الإصلاح ، ولكن أبي كان يعتقد أن الاصلاح ممكن وإن كان صعبا ، والاصلاح المطلوب هو « إصلاح حال المسلمين » . أما أنا فقد كانت ثقتي بإمكانية الاصلاح ، أيام شبابي ، أكبر من ثقة أبي أيام شبابه ، كما كان الإصلاح المطلوب في نظري هو في الأساس إصلاح حال المصريين .

كان الغذاء السياسي الذي تلقيته منذ بدأ وعيي بالأحداث السياسية غذاء مصريا صميما ، يدور حول جلاء الانجليز عن مصر ، وإصلاح النظام السياسي المصري ، والعدالة الاجتماعية بين أغنياء المصريين وفقرائهم وكانت تأتينا أخبار البلاد العربية متقطعة ومتناثرة ودون إلحاح . تغير الأمر بعض الشئ عندما حدث تقسيم فلسطين في ١٩٤٧ ثم قيام حرب فلسطين ، وكنت وقتها في الثانية عشرة من عمري . ولكن قيام ثورة يوليو في ١٩٥٢ ، أعاد توجيه اهتمامنا ، لعدة سنوات ، إلى المسائل المصرية البحتة وعندما بدأ النظام المصري يلح على العلاقات العربية وعلى قضية فلسطين ، بعد منتصف الخمسينات ، اتسعت قضية الاصلاح بعض الشئ لتشمل إصلاح حال العرب ، ولكن ذلك حدث بعد أن بلغت العشرين ، ومن ثم ظل « حال المصريين » يحتل مركز الصدارة لدى ، أما « إصلاح

حال المسلمين » ، فكان شيئا أبعد بكثير ، ولا يثير لدى من الحماسة ما كان يثيره لدى أبي .

* * *

ها قد ذهبت بعيداً عن النقطة التي وصل إليها أبي ، ناهيك عن تلك التي وصل إليها جدي . أما ابني الذي يبلغ الآن الثلاثين من عمره ، فما أبعد النقطة التي وصل إليها هو عن النقطة التي وصل إليها كل من الأجيال الثلاثة السابقة عليه . عندما بلغ ابني سن دخول المدرسة كانت المدارس الحكومية في مصر قد بلغت من التدهور ما جعلني أفضل له مدرسة من مدارس اللغات ، وهو اسم كان يطلق على مدارس، وإن كانت مملوكة للحكومة ، فإنها كانت في الأصل مدارس إنجليزية أو فرنسية أممتها الحكومة في الخمسينات وتركت لها درجة من الاستقلال في عدة أمور من بينها تعليم بعض المواد بلغة أجنبية ، والاستعانة ببعض الأجانب لتدريسها ، والاهتمام بالنشاط الرياضي والاجتماعي بدرجة أكبر من غيرها من المدارس . كان أبي يصف أثر تعلمه لغة أجنبية بأنه كان كمن اعتاد أن يرى العالم بعين واحدة فأصبح يراه بعينين . ولكن أبي بدأ يتعلم الانجليزية وهو في نحو الثلاثين من عمره ، فما بالك بصبي أصبح يجيد القراءة بها قبل أن يتم العاشرة ؟

كانت السينما في نظر أبي أعجوبة من الأعاجيب ، فصارت في نظري وسيلة للترويح عن النفس بين الحين والآخر ، نادرا ما أرى فيها أفلاما غير أفلام ليلي مراد وعباس فارس ، أما في نظر ابني فقد أصبحت ضرورة من ضرورات الحياة ، يصعب تصور العيش بدونها ، يرى فيها الفيلم المصري والأمريكي ، والهندي والايطالي . أما التليفزيون الذي ظهر في مصر بعد موت أبي ، ودخل بيتي بعد أن تجاوزت الثلاثين ، فقد رأى ابني على شاشته ، وهو في السادسة من عمره ، مسرحية « مدرسة المشاغبين » ، التي تسخر من أي محاولة للتهذيب والإصلاح .

كان جدي يعتبر الاصلاح في حكم المستحيل واعتبره أبي ممكنا والمطلوب إصلاحه في نظره ، هو حال المسلمين ، واعتبرته أنا أيضا ممكنا والمطلوب إصلاحه في نظري هو حال مصر وعلى الأكثر حال العرب . أما ابني فإني أراه يتصرف وأسمعه يتكلم وكأن الإصلاح في حكم المستحيل ، سواء كان إصلاح المسلمين أو العرب أو مصر . وهو يتصرف وكأن الأهم هو انصراف المرء لحاله وألا يشغل باله أكثر من اللازم بأمور هو أعجز من أن يحدث أي أثر فيها ، أو على الأكثر أن ينصرف المرء إلى محاولة إصلاح جزئية صغيرة يستطيع أن يحدث فيها بعض الأثر . قد يبدو الأمر للوهلة الأولى وكأن ابني قد عاد إلى النقطة التي بدأ منها جدي وهي الاعتقاد بأن الفرد منا أتفه أو أعجز من أن يحدث أي تغيير مهم في نظام المجتمع ، ناهيك عن تغيير نظام الكون . ولكن ما أشد الاختلاف بين المصريين اللذين أديا بجدي وابني إلى هذه النتيجة الواحدة لقد وصل إليها جدي بتعمقه في قراءة كتب الدين ، ووصل ابني إليها من قراءة كتب التاريخ والسياسة وسماع أخبار العالم من التليفزيون . ■



وكان العام ١٩٧٤

بقلم
د. مصطفى سويف

لا أظن أننى سعدت بمصريتى إلى حد قارب الفخر، وربما التفاخر، كما سعدت بها فى بواكير أكتوبر سنة ١٩٧٣، لأن أحداث الحرب أمدتنى، كما أمدت سائر المواطنين، بإطار نفسى/ اجتماعى/ سياسى بلغ مستوى عاليا من الكفاءة فيما استحدثه من تصالح بيننا من ناحية ووقائع الحياة الاجتماعية / السياسية الجارية حولنا من ناحية أخرى. وقد حدثتنى نفسى عندئذ بأن مسيرة مصر فى مقبل الأيام سوف تكون مصدر إلهام لى لكى أجعل من مسيرتى معادلا شخصيا يكافىء أفضل ما انطوت عليه بشائر السادس من اكتوبر .



وتوالت الأحداث فى الأيام القليلة الأخيرة من الحرب الساخنة، والأسابيع المحدودة التى تلت ذلك مباشرة كانت وفاة طه حسين فى آخر شهر اكتوبر هى الحدث الفذ الذى ارتج له وجدانى، وارتجت له وجدانات آلاف المثقفين فى أرجاء مصر والوطن العربى بأكمله. وفى صباح يوم الأربعاء الحادى والثلاثين من أكتوبر وجدتنى محشورا فى زحام شديد حول نعش طه حسين، تحت قبة جامعة القاهرة، ومن هناك خرجنا نشيع الجثمان إلى مثواه الأخير .

فى ذلك اليوم كتبت فى مفكرتى عبارة شديدة الإيجاز : «شيعنا اليوم جنازة طه حسين. موكب مهيب، خرج من قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة.» ولم أزد على ذلك حرفا واحدا فى المفكرة . كان واضحا أن الحزن الذى ملأ صدرى وصل بى إلى درجة من الاكتئاب أشعرتنى بأن أى كم أو كيف من الكلمات لا وزن له أمام هذا الخطب الجلل . وانقضت بعد ذلك سنوات السبعينيات وما بعدها، وكلما عادت الذكرى أتأمل توقيت هذا الموت الذى وقع فى ذات الشهر الذى انتصرت فيه الإرادة المصرية بالسواعد المصرية ، وأتساءل أكان ذلك نذير سوء بما سوف تلقاه فرحة المصريين فى الشهور والأعوام القليلة التالية من تفريغ وإفقار لشحنتها الدافعة؟

فى شهر أكتوبر نفسه، فى الأيام القليلة التالية لورود أنباء النصر، عشنا أحداثا شديدة التهديد لتداعيات هذا النصر فى النفوس، فقد احتدمت معركة فى سيناء وصفت فى حينها «داخليا وخارجيا » بأنها واحدة من أكبر معارك الدبابات فى تاريخ الحروب الحديثة ، وقد زادنا هذا الوصف شعورا بالفخر ، لكنه سرب إلى نفوسنا فى الوقت نفسه نوعا من البلبلة الوجدانية، مزيدا من الثقة

وكان العام ١٩٧٤

والخوف معا. وفجأة اخترقت قوات العدو الإسرائيلي صفوف قواتها وعبرت الى غرب القناة مستغلة فى سبيل ذلك معلومات سربتها اليها المخابرات الأمريكية، ومحدثة ما عرف باسم الثغرة «عند منطقة الدفرسوار شرق الدلتا»، وأثار فينا هذا الحدث قدرا من القلق، لكن هذا القدر ظل فى البدء محدودا بحدود فرضها عليه إطار شعورنا السابق بالنصر. وبدأ الحديث عن وقف إطلاق النار، وتوقف الزحف المصرى الذى كان قد بدأ نحو وسط سيناء (نحو منطقة ذات اهمية استراتيجية تعرف باسم منطقة المضايق) ورأينا فى هذا التوقف لغزا وتناثرت أسئلة وتكهنات حول دواعيه ودلالاته.

اطار الحرب الباردة

وفى هذه الاثناء بزغ اطار الحرب الباردة بين القوتين العظميين ليفرض نفسه على مسرح العمليات، بدأ الدور الامريكى يتعاظم فى امداد اسرائيل بالسلاح.

واخذ الدور السوفييتى يتعاظم فى مواجهته لإمدادنا بالسلاح، ونشطت اشكال من الانتصار العربى لنا .. الخ، وازدادت كثافة التحركات الدبلوماسية بين العواصم الاربع. القاهرة، وواشنطن، وتل ابيب، وموسكو وفى هذه الاثناء برز اسم «هنرى كسنجر» وزير الخارجية الامريكى. يناظره من مصر «اسماعيل فهمى» وسرعان ما أصبح كسنجر هو اللاعب الرئيسى على المسرح، وهو ما ألحق الخسوف باسماء نظرائه وادوارهم.

وفى هذه الأثناء شاع فى أدوات الإعلام مصطلح التحركات المكوكية التى كان كسنجر يقوم بها. وفى هذه الاثناء فى نوفمبر أعلن عن اتفاق محدود كان اقرب الى الهدنة عرف باسم اتفاق الكيلو ١٠١، وبعد شهرين أعلن عما عرف فيما بعد بوقف اطلاق النار الأول فى يناير ١٩٧٤، وكان نصيب الاتحاد السوفييتى فى أثناء هذه التحركات الاستبعاد ما أمكن. وقوبل هذا الاستبعاد بالسكوت المريب من جانبنا. وكان نصيب مصر فى الاثناء نفسها حفنة من آمال تلوح بها أمريكا، بعضها كاذب، والبعض الآخر لا يكاد يفى بالحد الأدنى من حقنا الذى لا يقبل الجدل، وفوق هذا وذاك كانت تقدم لنا الأغلال الغل تلو الآخر لكى تربطنا الى مشيئة السياسة الامريكية، ودهاليز الاقتصاد الغربى المتأمرك. وتحسر

المواطن المصرى العادى على أيام قلائل (لا تكاد تبلغ اسبوعين اثنين) عاشها اثناء اندلاع العمليات الحربية نفسها: فى تلك الأيام كانت القيادات السياسية والإعلامية تحدثه حديثا مباشرا مستقيما، لا لف فيه ولا دوران، أما الآن فقد عادت الكلمات المنطوقة والمكتوبة تبعد به عن الأحداث. وفى هذه الأجواء اختلطت التخمينات مع الشائعات مع الحقائق. وبدأت خيوط الشك والريبة تنسج غلالتها المعهودة بين الحاكم والمحكوم.

سنة ١٩٧٤

فى رؤياى أن سنة ١٩٧٤ كانت من النوع الذى يجعل الولدان شيبا، فقد تضافرت وتكالبت على مصر فيها العديد من القوى الغربية والمحلية لتجريد الشعب من فرحته وفخره بأبنائه الذين تحدوا كل المحاذير وخيبوا كل النبوءات المتشائمة، وعبروا القناة إلى الشرق. فى هذه السنة أعدت الأغلال المادية والمعنوية واستخدمت بمهارة فائقة لكبح جماح مشاعر النشوة أو اليوفوريا) الوطنية، وكان ذلك بتدبير من قوى الغرب المتأهبة دائما لخدمة الاستراتيجية الأمريكية، وساعدها فى هذا التوجه انسياق اعداد متزايدة من القوى المحلية عن غفلة احيانا قليلة وعن تغافل أحيانا كثيرة.

فى هذه السنة بدأت احاديث كسنجر والاعلام ورجالات الدولة المصرية عن الموقف القتالى يختلط شيئا فشيئا بعناصر من الحديث عن الاقتصاد المصرى، وصور الأمر لنا وكأن اجتيازنا مرحلة الحرب الساخنة كان أقرب الى المصادفة/ المعجزة، لأن اقتصادنا كان إذ ذاك قاب قوسين او أدنى من الانهيار، ومن ثم فلا مناص من معالجة اتفاقات وقف اطلاق النار معالجة لا تغفل اعادة النظر فى أحوالنا الاقتصادية. وكانت الخطوة الأولى فى هذا الاتجاه هى البدء مباشرة فى اجراءات تطهير القناة لكى تعود إليها الملاحة الدولية فتدر القناة دخلا. وبدىء فعلا فى إجراءات التطهير. ثم لم نلبث ان بدأنا نستقبل الوفود من البنك الدولى ومن صندوق النقد الدولى، وكان الهدف المعلن فى خطوطه الكبرى، لرحلات هذه الوفود هو تصحيح مسار الاقتصاد المصرى، حتى يمكن أن ينهمر على مصر الخير العميم ممثلا فى المنح والقروض والاستثمارات. وفى هذا الاطار وضع التخطيط لزيارة يقوم بها رتشارد نيكسون رئيس الولايات المتحدة، لتكون هذه الزيارة بمثابة ختم النسر على مشروع التوجه الجديد للدولة المصرية وقد عادت الى مقاسها الحقيقى.

على أية حال، كان من أهم الخطوات

وكان العام ١٩٧٤

التى خطتها الحكومة المصرية فى تلك الفترة ، لتمهيد الطريق أمام هطول الاموال علينا من الغرب ، وكجزء من البساط الاحمر الذي ستفرشه أمام نيكسون عند وصوله الى ارض الكنانة، إصدار القانون الرئيسي لتغيير وجه الاقتصاد المصرى، قانون ٤٣ لسنة ١٩٧٤ المعروف باسم قانون استثمار المال العربي والأجنبي (البداية الرسمية لسياسة الانفتاح). جدير بالذكر هنا أن استصدار هذا القانون من مجلس الشعب لم يستغرق اكثر من واحد وعشرين يوما، رغم كل ما له من دلالات اقتصادية وسياسية وتاريخية. وجدير بالذكر كذلك أن عددا من رجالات مصر الذين تحمسوا لاستصدار هذا القانون كانوا هم انفسهم ، بأشخاصهم ، الذين تحمسوا لوضع دعائم الاقتصاد الموجه من قبل تحت إمرة عبدالناصر ، وتحمسوا بوجه خاص لصدور ما سمى بالقوانين الاشتراكية فى أوائل الستينيات ! .

ثم جاء نيكسون فى زيارته الموعودة، وصل إلينا بعد ثلاثة ايام من صدور قانون الانفتاح «فى ١٢ يونيه» . وكان من الممكن للقيادات المصرية السياسية حينئذ ان تستقبله بالاجراءات البروتوكولية المناسبة لوضع الدولة التى يمثلها ، وهى اجراءات متعارف عليها بين دول العالم ، ولكن اسلوب الحفاوة الذى قوبل الرجل به بلغ فى مغالاته حدا من التدني فى فجاجته وبهرجته المتخلفة يفوق كل وصف. وأثار ذلك فى نفوس اعداد كبيرة من المواطنين مشاعر بالغة الأذى لكرامتهم الوطنية، ولكنهم ظلوا كعادتهم يرصدون الاحداث فى صمت ، ويسجلون فى سرائرهم أنهم كانوا شهودا يقظين لما يجرى من حولهم، رافضين ما يعنيه وما يطلق حوله من وعود وادعيات، يباركها ساسة العهد وجوقاتهم. فى ذلك الوقت برز اسم الراوية الشعبى «الشيخ إمام» ، وعلا صوته وهو يتغنى بقصيدة من الشعر العامى كان مطلعها «شرفت يا نيكسون بابا، يا بتاع الووترجيت». واستمع إلى هذا الصوت عشرات الآلاف من المواطنين على شرائط الكاسيت، وفى الوقت نفسه كتب الأديب الكبير الأستاذ يوسف القعيد، من وحى الأحداث نفسها وثيقة بالغة الأهمية فى أدب الرفض «يحدث فى مصر الآن».

جدير بالذكر أن هذه الأحداث كلها جرت ولم يكن اتفاق فض الاشتباك الثانى بيننا من ناحية وجيوش الاسرائيليين من

ناحية أخرى «بواسطة أمريكية» قد عُقد بعد. وكأن ذلك لم يكن عبئا كافيا يجثم على صدورنا ، ويمزج بمرارة شديدة فرحتنا بأبنائنا الذين انتصروا فى القتال كأن هذا العبء لم يكن فيه الكفاية ، فقد حدثت أحداث أخرى فى سنة ١٩٧٤ نفسها تزيد من مشاعر الكرب فى نفوسنا. ففى أوائل هذا العام وقع هجوم مسلح على الكلية الفنية العسكرية قتل فيه أحد عشر شابا من أبناء الكلية، وتبين فى التحقيق الجنائى أن الذى قام بالهجوم مجموعة من المتطرفين باسم الدين يقودهم رجل يدعى صالح سرية، وكان هدفهم الحصول على كميات كبيرة من الأسلحة تساعدهم على القيام بعمليات أخرى . وفى سنة ١٩٧٤ نفسها بدأت الدولة فى تنفيذ سياسة تشجيع العمالة الفنية للسفر إلى الدول النفطية على نطاق واسع وتبلور التبرير الرئيسي لهذه السياسة فى قول السادة صناع القرار أن هذه العمالة الفنية سلعة اذا جرى تصديرها كان العائد أموالا دولارية ضخمة وأخيرا وليس أخرا فقد صدرت فى ختام سنة ١٩٧٤ وثيقة عرفت باسم ورقة اكتوبر ، احسن البعض الظن بها عند صدورها، وتذكرت حينئذ ما سمى من قبل ورقة ٣٠ مارس التى صدرت سنة ١٩٦٨ لتجميل ما كان قد تبقى من وجه النظام الناصرى . وفى الحالتين جهل الدعاة أو تجاهلوا أن كلا منهما صدرت فى اطار ظروف موضوعية تهدر مقدما مصداقية أى منهما، أو تقوّض دعائمها عند الجذور .

الهوة والمسيرة

لم يحدث ابدا على امتداد حياتى الواعية أن اتسعت الهوة بين مسيرتى الشخصية فى صورتها المتكاملة ومسيرة مصر والمصريين من حولى بمثل اتساعها فى غضون سنة ١٩٧٤ ، فقد جاءت هذه السنة وأحداثها الحياتية الشخصية بمثابة نمو طبيعى لما سبقها ، سواء فيما يتعلق بالانجاز البحثى فى ميدان تعاطى المخدرات بوجه خاص ، أو بدراساتى فى ميدان الشخصية بوجه عام ، أو فيما يتعلق بمهامى التخصصية الأكاديمية فى الجامعة ، أو بالمهام التخصصية فى وزارة الصحة .

كانت أهم احداث حياتى البحثية المصوبة أدواتها نحو سلوكيات التعاطى تتمثل فى اتساع رقعة الاعتراف فى دوائر التخصص الخارجى بنتائجنا التى توصلنا اليها هنا فى مصر أنا وفريق الباحثين المصريين العاملين معى تحت مظلة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية . وذات يوم فى أبريل سنة ١٩٧٤ . تلقيت برقية من احدى لجان

وكان العام ١٩٧٤

التشريع فى الكونجرس الامريكي تدعونى الى زيارة واشنطن للادلاء بشهادة علمية حول ما تلقيه نتائج بحوثنا المصرية من أضواء علمية على حقيقة الاثار النفسية التى يسببها تعاطى القنب «الحشيش» لدى متعاطيه

وقالت البرقية انهم بصدد دعوة حوالى ستة عشر عالما من جميع انحاء العالم للإدلاء بشهادات مماثلة كل على ضوء بحوثه المنشورة . وأننى إذا وافقت على الاستجابة للدعوة فساكون ضيفا على الحكومة الامريكية التى ستتكفل بنفقات السفر والإقامة . وحددوا موعدا للإدلاء بهذه الشهادات منتصف مايو .

وكان امرا طبيعيا أن تغمرني إزاء هذه الدعوة سعادة لم تعادلها الا سعادتي يوم أن تلقيت الدعوة بالعضوية فى لجنة الخبراء الدائمين لبحوث التعاطى التابعة لهيئة الصحة العالمية فى مايو سنة ١٩٧١.

فى هاتين اللحظتين كانت الموجة الأولى من مشاعر السعادة تنصب جملة وتفصيلا على الانجاز الذى حققناه انا وتلامذتى زملاء الفريق البحثى ثم انحسرت هذه الموجه وتوالت بعدها موجات اخرى لم تكن مركزة بمثل تركيز الموجة الأولى فى جوهر الانجاز العلمى، بل كانت تموج بأفكار ، وذكريات ، وأمال للمستقبل لا تكاد تقف عند حد بعينه. على أية حال اكتملت القصة بتلبيتى الدعوة، فذهبت الى واشنطن وأدليت بشهادتى امام لجنة برأسها سيناتور يدعى سيناتور جورنى ومعه عضوان آخران . وتلك قصة تستحق أن تفرد لها سطور وسطور، وكان أقيم ما راعنى فيها جدية اللجنة ومن ورائها المجلس الذى فوضها ، وأمانة اللجنة ازاء التفويض . وارتفاع القامة الحقيقية للشهود تشهد لهم بالمصداقية بحوثهم المنشورة فى أرقى دوريات التخصص فى العالم، وعندما زرت الولايات المتحدة بعد ذلك بسنتين للإسهام فى أحد المؤتمرات الدولية حول المخدرات أهداني الاستاذ ماردن جونز. (وكان واحدا من العلماء الذين أدلوا بشهادتهم فى سنة ١٩٧٤) نسخة من مضبطة المجلس التى جمعت شهاداتنا معا لتكون مرجعا علميا يضاف الى سائر المراجع الموثوق بها فى الميدان .

وتوالت أحداث سنة ١٩٧٤ من فئة الاحداث الشخصية / البحثية، ففى هذه السنة نفسها اكملت بلورة النتائج الرئيسية التى وصلنا اليها فيما يتعلق

بتدهور عدد من القدرات النفسية المهمة لدى المتعاطى ونشرتها فى « دورية المخدرات» التى تصدر عن الأمم المتحدة باشراف هيئة الصحة العالمية . وبلورت نتائج بحوث اخرى فى الشخصية وأرسلتها للنشر فى «دورية الوقائع السيكولوجية».. التى تصدر فى امستردام ، وكانت هذه الأخيرة تتناول ظاهرة نفسية تتولد فى سياق اوضاعنا المجتمعية / الحضارية ابتكرت لها مصطلحا جديدا هو مصطلح « الهامشية الحضارية». وفى سبتمبر سنة ١٩٧٤ افتتحنا أنا وتلاميذى الذين بلغوا رشدهم الاكاديمى الدراسة فى القسم العلمى الذى انشأناه فى نهاية سنة ١٩٧٣، مكرسا للعلوم النفسية، فى كلية الاداب بجامعة القاهرة . وفى ثنايا هذه المسيرة متعددة الشعاب كان بعض الذهن منصرفا الى تطوير هيكل البحوث الجارية فى المركز القوى حول تعاطى المخدرات بما يناسب ما جرى على أرض الواقع من تطورات مهمة فى الظاهرة نفسها .

عين على التخصص وعين على الوطن

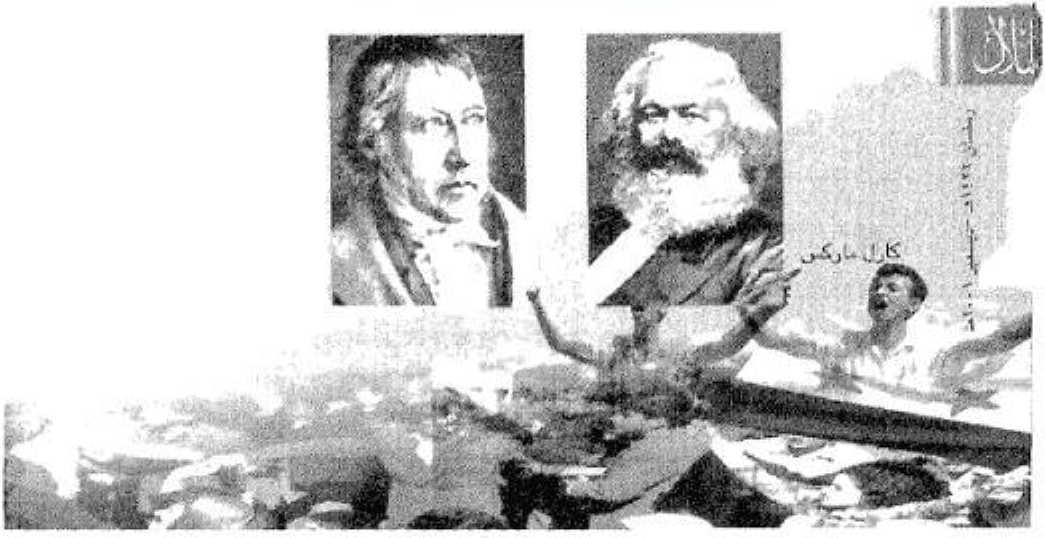
منذ وعيت الارتباط بالتخصص كان ذلك على خلفية الارتباط بالهم العام . ومن ثم فقد وجدتني منذ بداية الطريق أمارس انتباها موزعا بين عين على مسيرتى وعين على مسيرة مصر، ولم تكن هذه الممارسة تتم بغير مشقة، وكانت هذه المشقة انواعا منوعة، وكان اشدها وطأة على النفس ما كنت اعانيه عندما تفترق المسيرتان . وأنا اذكر الآن حريق القاهرة فى يناير سنة ١٩٥٢ وما تلاه من أحداث جسام على أنه كان من أسوأ لحظات الافتراق هذه فقد رأيته يعنى اجهاض المخاض الذى كانت تمر به مصر من خلال تفاعل صحى بين قواها الذاتية، فلما جاء العام ١٩٧٤ عشت المشهد والمعنى مرة ثانية، تغيرت الظروف وتبدلت المظاهر واختفت شخوص وجاءت شخوص. ولكن الجوهر ظل واحدا . كانت فرحة النصر مخاضا بالغ الأهمية فى دلالاته الصحية وفى أنواره الكاشفة للطريق إلى المستقبل القريب، ومنه إلى البعيد لكن قوى متعددة تلاقت مصالحها، ومن ثم إراداتها على ضرورة اجهاض المخاض. وإذا المساران يفترقان . وإذا الهوة بينهما آخذة فى الاتساع ، وإذا السؤال المناسب يفرض نفسه على عقلى فى الوقت المناسب: «أليست إرادات المواطنين فاعلة فى أقدار أممهم؟». ■

متى تفشل محاولات الإصلاح والتغيير..؟!

بقلم
حسين أحمد أمين

« كل ما هو حقيقى معقول ، وكل ما هو معقول حقيقى » .

كذا قال هيجيل ، وكذا ذهب مبدأ الحتمية التاريخية عند إنجلز وكارل ماركس ، وتبعهم ليو تولستوى فى تفسيره لمسار التاريخ فى روايته « الحرب والسلام » .. وهو ما يتضمن معنى أنه ما من حركة تفشل ، وما من متمرد لم يوفق فى تحقيق أغراضه ، إلا كانا مقضيا عليهما أصلا بالخيبة ، حتى لو لم يكن بالوسع عزو الفشل إلى سوء تنظيم فى الحركة ، أو إلى قصور فى شخص المتمرد أو خططه .. فالتاريخ لا يكلل بالنجاح إلا ما كان مسايرا لأغراضه ومجرى تطوره ، ولو هيئ للناس أن الفشل كان نكسة أو ردة .



وبالتالى فإنه من الحماقة عند هيجيل وماركس وإنجلز وتولستوى ، وعند هوبز من قبلهم ، القول بأنه لو كان قد أتيحت للحركة الظروف المواتية ، ولولا أنها قمعت من جانب هذه الجهة أو تلك ، أو تعثرت لهذا السبب أو ذاك ، لكانت مسيرة البشرية قد تغيرت ، ولكان مجرى التاريخ غير ما هو عليه .. ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ .

ذلك أن كل ما بوسع الإنسان أن يفعله ، تتحكم فيه من من أسفله تأثيرات القوى المادية ، ومن أعلاه ما يسميه هيجيل بغرض الله من العالم . فالأفراد ، حتى العباقرة والعظماء منهم ، عاجزون عن تغيير مجرى التاريخ ، وعن صنعه أو التأثير فيه ، إن هم حاولوا عرقلة مجراه ، أو تغيير اتجاه المسيرة ، وجدوا أنفسهم فى النهاية وقد لفظوا وطرحوا جانبا . وقد سخر هيجيل من مشروع كانط لإحلال السلام العالمى الدائم واستئصال الحروب، باعتبارهما من المستحيلات ، مضيفا قوله إن مهمة الفيلسوف هى اكتشاف مسار التاريخ لا تحويله ، وإن ما يجعل العظماء عظماء إنما هو قدرتهم على التنبؤ بالمرحلة التالية من التطور التاريخى ، وعلى تبنى الاتجاهات المستقبلية ، وتكييف أنفسهم وفق أهداف المسيرة . عندئذ .. وعندئذ فقط ـ تضحى هذه القلة القليلة شخصيات تاريخية عالمية ، حيث اتفقت أهدافهم مع أهداف وإرادة « روح العالم » ، وأثبتوا قدرتهم على استكشاف احتياجات العصر، والحقيقة اللازمة للعالم الذين يعيشون فيه ، وعلى التنبؤ بما هو فى رحم الزمان ، وما هو فى سبيله إلى النضج والخروج إلى النور .

الزعامة خداع بصر

وقد وافق ماركس على هذه الفكرة عند هيجيل ، مضيفا قوله : إن دور القائد هو أن يسهم بجهد فى دفع المسيرة الحتمية إلى الأمام فى سبيل اختصار الوقت ، وتوفير الجهد ، وتقليل التضحيات . أما تولستوى فيرى الإيمان بالقيادة والزعامة خداع بصر ، وأن من يؤمن بفعالية الأبطال والزعماء كمن


تولستوى


السلطان عبد الحميد



يراقب مسيرة قطيع من الماشية دون أن يلتفت إلى تفاوت خصوبة المرعى فى مختلف أنحاء الحقل ، أو إلى توجيه الراعى للقطيع ، فينسب اتجاه مسيرته إلى الشاة التى صادف أن كانت على رأسه .

هذا المذهب لا يحمل فى اعتقادى غير جانب واحد من الحقيقة . إذ ما أدرانا أن فشل الحركة الثورية أو خطط المتمرد هو دائماً نكسة ضرورية تقتضيها الحتمية التاريخية ومسار الحياة البشرية ، وأنه بالتالى نعمة فى صورة نقمة، ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ...﴾، نعم قد أسهمت نهاية المسيح المأساوية فى خدمة نمو المسيحية . ولكن ، هل خدم إعدام سقراط رسالته ؟ هل تسبب اغتيال أحمد كسروى عام ١٩٤٦ فى إيران فى ازدهار فكره وانتشاره بعد موته ؟.. بوسع كارل ماركس أن يتحمس لنشوب ثورات ١٨٤٨ فى أوربا ، وأن يسهم فيها على أساس ما ارتآه من العوامل التى تؤهلها النجاح فى إسقاط النظم الرجعية وإقامة النظام الاشتراكى ، وبوسعه هو وإنجلز بعد فشلها الذريع أن يشرحا أسباب هذا الفشل ، وأن يعزوا حماسهما السابق إلى إغفالهما اعتبارات معينة من الحسبان.. نعم . ولكن ما قيمة النظرية العلمية إن كان سيظل بمقدورك إلى الأبد إيجاد المبررات لعدم انطباقها على الواقع ؟

ثلاثة ألوان من الفشل

وفى نيتى أن أعرض فى هذا المقال ثلاثة ألوان أو أمثلة من الفشل ، من أجل إيضاح تباين دواعيه .

أولاً : الفشل الذي تقتضيه الحتمية التاريخية

وهنا تصدق قولة هيجيل ومذهب ماركس ، وأجد من أبرز الأمثلة التاريخية له فشل على بن أبى طالب فى صراعه مع معاوية .

تولى الخلافة والفتنة قائمة ، وقلوب الكثيرين (ومن بينهم عدد كبير من الصحابة ، وزوج النبى عائشة) غير راضية به . فلا هو أمكنه فرض الطاعة له، ولا اقتضى رأيه أن يكف عن القتال الذى ظن أن به تحصل الطاعة والجماعة فما زاد الأمر إلا شدة ، وجانبه إلا ضعفا، والأمة إلا افتراقا ، وضعفت الخلافة به ضعفا أوجبت أن تصير ملكا .

كان رجلا بورك له فى الدين والخلق ، وبورك لخصمه معاوية فى السياسة والرأى وقد وصفه أعداؤه أنفسهم بأنه أعبد أهل الأرض وأزهدهم وأعلمهم وأخشاهم لله ، وأنه نعم الخليفة لو صادف أوان الخلافة . غير أنه لم يصادف أوانها فقد أراد أن يرد الناس إلى السيرة التى ألفوها أيام النبى والشيخين ، فلم ينشطوا لذلك ولم يطمئنوا إليه ، وإنما رأوه خليفة قديما يدبر جيلا جديداً ، ورأوه غريبا فى العصر الذى عاش فيه . وأصبح الأغنياء قادة السخط عليه ، إذ علموا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ، ولن يلبث أن يحاسبهم على ما جمعوه من المال ، أو يأخذ عليهم طريق المزيد ، فلم يعد لهم



مطمع في النفع على يديه ، وخانوه وناصروا أعداءه .

فمأساته إذن تتلخص في عجزه بمثاليته وتقواه وتشبثه بما يعتقد أنه الحق، عن أن يفهم روح العصر الذى عاش فيه ، وعن أن يفهم احتياجات العصر ورجاله فالدنيا عنده دائما ، حتى أثناء خلافته ، دار ممر لا دار مقر . فإذا هو وهو يتقرب إلى الله بدينه قد نفّر الناس منه بتتبعه لعوراتهم ، وبسياسته إياهم بالشدة . وقد كانت العرب بعد فتوحات عهدى أبى بكر وعمر قد رأوا فى الأمصار حضارة راعتهم ، وفنونا من الترف سحرت عيونهم وتعلقت بها قلوبهم، وجمعوا من الأموال الطائلة ما أيقظ فيهم مآرب كانت غافلة ، وخلق لديهم حاجات لم تكن معروفة ولا مألوفة . إلا قلة قليلة - علىّ منها - كانت تعيش فى آخر الزمان الذى غلب الدين فيه على كل شئ . وقد جاهد على فى خلافته أن يرد الناس إلى ما كانوا عليه قبل نعيم الفتوحات ، فأخفق حيث يشرفه أن يخفق ، وحيث يعيبه أن ينجح .

كان أعداؤه يسمونه بالمحدود ، لعجزه عن تكييف نفسه وفق مقتضيات الموقف ، ولصرامته فى تطبيق الشريعة ، وافتقاره إلى المرونة ، وإصراره العنيد على رفض الاستماع إلى نصح أعوانه بأن الزمن قد تغير عما كان عليه وقت النبى . فهنا محاولة لتغيير مجرى التاريخ كان مقضيا عليها بالفشل منذ البداية ، ولا يصح الحديث بصددها عما عساه أن تكون الأمور عليه لو أنها نجحت ، ولا حتى الإشارة إلى أسباب لفشلها غير السبب الوحيد (هو تنافيها مع احتياجات العصر) كالإشارة إلى شق الزبير وطلحة عصا الطاعة ، أو مفارقة الخوارج لجيش على ومحاربتهم إياه ، أو انخداع أبى موسى الأشعرى لعمرو بن العاص فيما يعرف بالتحكيم ، أو غير ذلك .

ثانياً : الفشل المؤقت

قد يخرج أحد المفكرين أو العلماء بفكرة صائبة ، فلا تلقى الفكرة صدى أو قبولا وذيوعا بين الناس ، إما لأنه لم يدلل عليها التدليل الكافى ، ولم يتيسر له جمع الشواهد على صحتها ، أو - وهو الأهم - أن المناخ السائد وقتها (كالمناخ الدينى أو السياسى) لم يكن ليسمح بذيوع تلك الفكرة ، ولم يكن المجتمع والناس مهيئين بعد لتحمل نتائجها فى مختلف مناحى الحياة . فإذا بمفكر إثر مفكر ، أو عالم إثر عالم ، يكرر المحاولة فيتكرر الفشل ، حتى تتهيأ الظروف المواتية فى المجتمع ، ويبلغ الناس درجة معينة من النضج والتحرر ، فيخرج بنفس الفكرة إنسان آخر ، ما يصرح بها حتى تلقى من فورها قبولا وتهليلا وإشادة ، وكأنما لم يقل بها أحد قبله ، فتغير مجرى التاريخ ، وتحدث انقلابا خطيرا فى تفكير البشر ، لمجرد أن البشرية باتت وقتها على استعداد لتقبلها .

وربما كانت نظرية دارون الخاصة بالتطور والانتقاء الطبيعى وبقاء الأصلح من أبرز الأمثلة فى هذا الباب .



فالنظرية ألمح إليها بعض فلاسفة الإغريق ، خاصة هرقليطس وإمبيدوقليس وأرسطو ، دون أن تصادف جذورها التربة المناسبة للنمو . وقد لاحظ إمبيدوقليس أن لثمة تطورا تدريجيا يطرأ على الكائنات الحية ، وأن الأشكال غير الكاملة من المخلوقات تحل محلها في بطء شديد أشكال أرقى وأقرب إلى الكمال .. كما كتب أرسطو عام أسماه بسلم الطبيعة Scala natural بادئا بالنباتات الدنيا ، فالنباتات العليا ، فالإسفنج فالأسماك فالحيوانات الثديية ، قائلا إن الطبيعة تتطور من الكائنات غير الحية إلى أعلى مراتب الحيوان تطورا غير منقطع ، غير أنه من البطء بحيث يخيل لنا أنه لا فارق بين كائنات درجة من السلم وكائنات الدرجة التالية لها مباشرة ، في حين يبدو الفارق شاسعا بين الإنسان وكائنات الدرجة الدنيا .

نموذج أولي للحيوانات

لم يلتفت أحد بعد أرسطو إلى ما ذهب إليه هؤلاء ، ولا كان بالإمكان في ظل القرون الوسطى أن تسمح الكنيسة لأحد بالقول بأن ظهور الإنسان كان نتيجة تطور استغرق ملايين السنين . لذلك وئدت نظرية التطور نحو ألف عام ، حتى جاء الفيلسوف السياسي الفرنسي مونتيسكيو فكتب عام ١٧٢١ يعلق على اكتشاف حيوان الليمور الطائر في جزيرة جاوة (وكان الناس يسمونه بالقرد المجنح) ويقول :

« إن هذا الاكتشاف يعزز من اعتقادي أن أوجه الاختلاف بين أنواع الحيوان يمكن أن تتزايد على مر الأيام ، أو أن تتناقص على مر الأيام ، وبالتالي فثمة احتمال أن يتحول الحيوان من نوع إلى نوع آخر » .

ثم خطا الفيلسوف دينيس ديدرو خطوة أخرى عام ١٧٥٢ حين كتب يقول

« لو أننا درسنا المملكة الحيوانية ، ولاحظنا أن الحيوانات ذات القوائم الأربع ليس منها ما تختلف أعضاؤه ووظائفها - خاصة ما هو منها داخل الجسم - بعضها عن بعض ، لوصلنا إلى النتيجة التالية : أنه كان ثمة في الأصل حيوان واحد هو النموذج الأولي لجميع الحيوانات بعده ، ثم تسببت الطبيعة بعد ذلك في إطالة بعض أعضائه أو تقصيرها ، أو تغييرها أو مضاعفتها ، أو الاستغناء عنها كلية » .

ثم جاء عالم البيولوجيا الفرنسي جورج بيفون (١٧٠٧ - ١٧٨٨) ، فلاحظ في كتابه عن التاريخ الطبيعي شبه الحمار بالحصان وإمكان تزاوجهما وتساءل :

« ألا يمكن إذن أن يكون هذان النوعان من أصل مشترك؟» . وقد أثارت نظريته هذه ثائرة كلية اللاهوت بجامعة السوربون التي رأت أن القول بانتماء الحمار إلى عائلة الحصان ، وبأن اختلافه عن الحصان هو مجرد نتيجة لتدهوره ، قد يؤدي إلى الزعم بعد ذلك أن القرد ينتمي إلى عائلة الإنسان ، وأن القرد والانسان من أصل واحد » .. لذلك بادر بيفون بالاعتذار عن نظرية صلة النسب بين جميع الحيوانات - بما في ذلك القرد



والإنسان - وكتب يقول : « إنها نظرية خاطئة . فالمؤكد من الكتاب المقدس أن جميع الحيوانات كانت موجودة وقت بدء الخليقة ، وأن كلا منها خرج من يد الخالق بالصورة التى هو عليها فى يومنا هذا !.

المناخ يساعد على الانتشار

وتلا هؤلاء حشد من العلماء والفلاسفة مثل إيرازموس داروين (جد تشارلس) ، فالعالم الفرنسى لا مارك الذى تدين له نظرية داروين فى التطور أفدح الدين ، فمالتس ، فجوته الشاعر الالمانى ، فهيجيل ، بالإضافة إلى ويليام ويلز ، وإدوارد بلايث ، وباتريك ماتيو ، وروبرت تشيمبرز ، كل يردد ما قاله أسلافه أو يضيف إليه ، دون أن يجرؤ واحد منهم على تحدى الكنيسة تحديا صريحا ، وزلزلة إيمان الناس بما ورد فى التوراة عن قصة الخلق.. وقد ظل تشارلس داروين نفسه سنوات طويلة بعد وصوله إلى نظريته عام ١٨٣٨ لا يجد فى نفسه هذه القدرة على التحدى، وبقى صامتا لا يتفوه بها على مدى عشرين عاما ، حتى مع ظهور أفكار شبيهة بفكرته فى كل من سويسرا وسكوتلندا والنمسا ، ساهمت فى خلق مناخ جديد فى القارة الأوروبية . حتى إذا ما وصلت داروين عام ١٨٥٨ رسالة من عالم البيولوجيا الانجليزى الفريد راسل والاس المقيم فى جزر الهند الشرقية ، يخبره فيها بنظريته فى النشوء والارتقاء ، ورأى داروين أن تلك النظرية لا تكاد تختلف فى كثير أو قليل عن نظريته هو ، وأن من شأن نشرها أن يجعل كتابه مجرد تكرار لما يذهب والاس اليه ، بادر الرجلان فى نفس الوقت بتقديم بحثين إلى اجتماع لإحدى الجمعيات العلمية عام ١٨٥٨ ، ثم خرج كتاب داروين « أصل الأنواع » بعد ذلك فى العام التالى (١٨٥٩) .

وقد كان ظهور الكتاب بمثابة فتح سد مائى تجمعت وراءه أمواج متلاطمة تريد أن تتحرر وتنطلق ، لا فى مجال البيولوجيا فحسب ، وإنما فى جميع المجالات الأخرى كالاقتصاد والاجتماع والسياسة والفلسفة والدين ، بل وحتى الفنون والآداب ، بحيث تغيرت معالم الحياة الفكرية بعد داروين تغيرا جذريا عنها قبله . غير أننا نضيف القول بأن تلك التيارات التى تدفقت بعد أن فتح داروين أمامها السد هى التى ساعدته على الظهور بنظريته ، وأسهمت فى نجاحها وفى قبولها على نطاق واسع ، فى حين فشلت نظريات أسلافه فى أن تحظى بالقبول ، لا لأنها كانت خاطئة ، وإنما لأن المناخ العام - كما سبق القول - لم يكن مهيأ بعد لانتشارها .

ثالثاً : الفشل الذى لا مبرر له

ثمة أفكار وسياسات كان يمكن بكل سهولة أن يقدر لها التوفيق والنجاح ، غير أنها فشلت فشلا لا مبرر له ، ولا يمكن أن نعزوه إلى أى تقصير من أصحابها ، أو إلى أنها لم تكن موافقة لاحتياجات العصر أو مسار التاريخ ، أو إلى أن المجتمع والناس وقتها لم يكونوا



مهيئين بعد لتحمل عواقبها . فهى بالتالى مما يتعذر انطباق نظريات هيجيل وإنجلز وماركس عليها .

وسنورد الآن مثلين فى هذا الباب من التاريخ الإسلامى :

أ. صلاح الدين الأيوبي (١١٣٨ - ١١٩٣)

لم يكن صلاح الدين - بالرغم من انتصار جيشه الساحق على الصليبيين فى موقعة حطين - من المبرزين كقائد عسكرى، أو كمخطط استراتيجى . وإنما كان تكتيكيا جيدا .. ولا كان إداريا بارعا، فالظاهر أنه لم يول اهتمامه الشخصى للتفاصيل الإدارية إلا قليلا ، ودون أن يتعدى ذلك محاولة القضاء على المفاسد والفصل فى المظالم . وإنما كان إنجازه الأكبر أنه استطاع أن ينتشل الإسلام طيلة فترة حاسمة (وإن كانت وجيزة) من وهدة الانحطاط الأخلاقى السياسى ، وذلك بفضل ما أوتى من صلاح وطيبة وثبات فى الخلق ، ودفاعه العتيد عن مثل أخلاقية رفيعة ، وتجسيده هذه المثل فى حياته الخاصة وأعماله ، موجدا بذلك حوله حافزا للاتحاد كان كافيا لمجابهة التحدى الذى ألقته الأقدار فى طريق الأمة ..

إنه لمن الطبيعى ، حين يقوم امرؤ بإنجاز عمل عظيم (كطرد صلاح الدين للفرنجة من فلسطين وبلاد الشام) ، أن نحسب ذلك بمثابة الهدف الذى وضعه دائما نصب عينيه . غير أن الواقع أن ما ينجزه الإنسان من أعمال ليس فى غالب الأحيان سوى جزء مما عقد العزم على إنجازه فى البداية . ولعله لم ينجح فى تحقيق ما أنجزه إلا لأنه وضع نصب عينيه هدفا أبعد منالا مما أنجزه بكثير .

ولم يكن المخطط الأوسع لصلاح الدين إلا مخطط رجل يتصف بطموح لا يعرف حدا ، أو ببساطة لا حد لها . وقد اتصف صلاح الدين بالأمرين معا . لكن طموحه نشأ عن بساطة خلقه وسداد نظره . فقد رأى بوضوح أن ضعف الجسم السياسى الإسلامى ، (وهو الضعف الذى أفسح المجال لقيام الدويلات الصليبية واستمر فى افساحه أمام بقائها) كان نتيجة للانحطاط فى الخلق السياسى. وعلى هذا الانحطاط ثار صلاح الدين. فلم يكن هناك فى رأيه سوى طريق واحد لوضع حد له: وهو إحياء الكيان السياسى الإسلامى فى ظل دولة واحدة موحدة، ليست تحت حكمه هو، وإنما تحت اشراف الخلافة العباسية. كان يدرك أن مشكلة العالم الاسلامى ليست سياسية فحسب، بل هى ابضا الى حد كبير مشكلة اخلاقية ونفسية، وأن التصدى لها على مجرد الصعيدين السياسى والعسكرى من شأنه أن يؤدى الى الاخفاق فى حلها. فقد رأى أنه ان شاء الحصول على نتائج فعالة، فمن اللازم أن يعزز الولاء السياسى بحوافز وروادع أخلاقية ونفسية. وكان إصراره على هذا الرأى مثيرا للحيرة والدهشة فى نفوس أصدقائه ومعاونيه .

صفات خلقية أدت لنجاح باهر

كان ديدنه فى التعامل مع الأمراء والقواد، سواء كانوا من الأصدقاء أم



الأعداء، هو الصدق فى قوله والوفاء المطلق به .. حتى مع الصليبيين أنفسهم كانت الهدنة تعنى له هدنة. ولا يحوى سجله حالة واحدة نقض فيها العهد معهم. غير أن كان عليه من أجل تحقيق هدفه، أن يعزز انجازاته وانتصاراته بخلق تيار خلقى ونفسى يعمل فى صالح الأمة جمعاء، ويكون من القوة بحيث تتعذر معه مقاومته. وقد نجح فى هذا بفضل الزامه نفسه بمبادئ العدل والاخلاص والصدق وانكار الذات فهو وإن لم يكن حاكما مدربا، ولا قائدا ملهما، كان المصدر الذى الهم جميع العناصر والقوى الساعية الى وحدة الاسلام فى وجه الغزاة، والبؤرة التى اجتمعت هذه العناصر حولها. وقد تحقق له هذا الأمر بسبب القدوة التى تجلت فى شجاعته وعزمه. ونكرانه لذاته، وتواضعه وكرمه، وبساطته ونزاهته .

وقد أوقعت هذه الخلال فيه أعداءه من المسلمين ومن الصليبيين على السواء فى حيرة من أمرهم، لأنهم توقعوا أن يجدوا الحوافز التى تحركه على غرار حوافزهم، وترسموا فيه أن يمارس اللعبة السياسية على طريقتهم.. كان بريئا كل البراءة، ولا كان بالقادر حتى على أن يفهم المكر عند الآخرين. وهو ضعف استغله أعداؤه بل وأفراد أسرته فى بعض الأحيان. ثم اذا هم فى النهاية يصطدمون بصخرة اخلاصه الموطد العزم على خدمة مثله العليا. وهو إخلاص لم يتهيأ لأحد أو لشىء أن يزعزعه أو ينتقص منه.

وكانت صفاته الخلقية هذه هى المسئولة عن نجاحه الباهر، وكان تشخيصه لداء بنى قومه ودينه هو التشخيص الوحيد الذى كان بمقدورهم أن يفيدوا منه غير أنهم تناسوه، وركزوا بدلا منه، فى حديثهم عن الرجل، على انتصاراته وانجازاته العسكرية. فما مات حتى دب الخلاف بين خلفائه، وتمزقت بخلافهم وحدة المسلمين، فذهبت ريحهم، وأحاق الفشل بهم ، دون أن يكون لهذا الفشل أدنى مبرر، أو أية ضرورة تاريخية.

-مدحت باشا (١٨٢٢ - ١٨٨٤)

هو مصلح سياسى عثمانى، ساهم بدور بارز فى خلع السلطان عبدالعزيز فلما ولى رئاسة الوزارة فى عهد السلطان عبدالحميد أعلن الدستور القائم على مبدأ اشتراك المواطنين كافة فى شئون الدولة من غير تفرقة بين عنصر ودين وحاول ادخال الإصلاحات الكفيلة بالنهوض بدولة تلفظ انفاسها الأخيرة، واستئصال المفاسد التى استشرت فيها .

كان يرى أن أى اصلاح فى الدولة العثمانية يجب أن يقوم على أساس من الحكم الديموقراطى على النمط الانجليزى أو الفرنسى. فلا مناص إذن من الأخذ بدستور، ومن انشاء مجالس نيابية تمثل فيها كل عناصر الدولة وكل أقطارها، فتحكم الأمة نفسها بنفسها، لا أن يحكمها السلطان بارادته، ويهيمن عليها المقربون الى السلطان وافراد اسرته ممن لا تعنيهم غير مصالحهم المادية الخاصة.



وبالدستور يصبح الحكام فى كل ولاية مسئولين أمام البرلمان، اى امام الأمة، فيضطرون الى تحرى العدل والنهوض بالاصلاحات، والا حوسبوا وعوقبوا.. وقد مرت معظم الدول الأوروبية بمثل هذا الطور الذى تمر به الدولة العثمانية، فلم ينقذها الا الأخذ بأساليب الديموقراطية ومبادئ الحرية التى تربى الأمم، وتحيى النفوس، وترد للمرء حقوقه، وتشعره بشخصيته، وتضمن له العدل. أما فقدان الحرية فمن شأنه أن يملأ أفراد الرعية خوفا، ويفقدهم رجولتهم، ويخلقهم بأخلاق العبيد، من ذلة وضعة، وعدم الإلتفات الا الى المأكل والملبس وسائر الشهوات الحسية، ينالونها من أخس الطرق .

وعنده أن الوضع فى الدولة العثمانية لا يمت الا الاسلام بصلة. فالإسلام يأمر بالشورى وهو مايسميه الأوروبيون البرلمان. ويدعو الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو ما يأخذ فى المدينة الحديثة شكل حرية الصحف فى النقد، وحرية الأفراد فى التأليف، وحرية الجميع فى ابداء الرأى. فلا أحد معصوم، ولا الحكومة معصومة، ولا السلطان أو الوالى معصوم وانما الذى يقوّمهم ويخيفهم ويلزمهم الجادة يقظة الرأى العام وحريته فى النقد، وهو ما أسماه القرآن «التواصى بالحق» .

يقظة الرأى وحرية النقد

ثم هذه أراضى الدولة العثمانية من أخصب اراضى العالم، وهى مع ذلك فقيرة مهملة بسبب هجرة الكثير من أهلها فرارا من الظلم ومن الضرائب التى تثقل كاهلهم، وبسبب مطامع الدول الأوروبية التى تناهض اصلاح الدولة. وبسبب الافتقار الى السياسة الاقتصادية الرشيدة. فلا شركات ولا مصانع. والقطن كثير فى البلاد ومع ذلك فالمنسوجات القطنية تجلب من أوروبا بل وحتى علب الكبريت والطرابيش على رؤسنا نجلبها من الخارج. ولاشك فى أن قدرة الدول الأوروبية على إملاء ارادتها علينا راجعة فى المقام الأول الى القروض التى نتلقاها منها. فمتى كثرت ديوننا ضاع استقلالنا الادارى والسياسى والاقتصادى معا، وتدخل الأجانب فى شئوننا بحجة حفظ أموالهم .

غير أن مدحت فشل فى تنفيذ اى مما كان يخامر ذهنه من أفكار لا لأنها كانت خيالية غير واقعية، ولا لأن الدولة لم تكن فى أمس الحاجة اليها، وانما لأن السلطان رأى فى الاصلاح السياسى تحديا لإرادته، ورأى رجال الدين التشريعات المدنية منافية للإسلام، ورأى الرعايا الأجانب فى المساواة نهاية لامتيازاتهم، ورأت الدول الأجنبية فى الترشيد الاقتصادى خطرا على نفوذهم. وقد تحالف جميع هؤلاء مع عدد جم من كبار رجال البلاط والدولة ممن كانوا يحققون لأنفسهم الثراء الطائل من النهب والظلم، فأطاحوا بمدحت وعزلوه، ثم حاكموه ونفوه، ثم خنقوه فى منفاه، ثم كان أن عطلوا الدستور وكان أن أعادوا الأوضاع الى ماكانت عليه. ■



أقوال معاصرة

● «علينا إعادة تقييم استثماراتنا فى الغرب ومراجعة مسألة الايداع فى البنوك الغربية. بعد أن صرنا كمن يدخر اللحم في بيت السباع» .

«الأمير السعودي عمرو محمد الفيصل»



أدوارد ووكر

● «المرأة الايرانية تعيش فى سجن كبير».

جعفر بناهى

المخرج الايرانى الحائز فيلمه الدائرة على الجائزة الكبرى لمهرجان فينيسيا

● «من النادر في تاريخ أية أمة أن يتاح لها منقذ خارجي».

ادوارد . اس. ووكر

رئيس معهد دراسات الشرق الأوسط فى واشنطن

● «أن يجيء وقت لا تكون فيه ثمة حاجة للرجال على الاطلاق ، احتمال ليس بعيداً»

سيجفريد ميرين

الاستاذ بجامعة فيينا بالنمسا،



محمود درويش

● «نحن وسط المخاضة بين عالم من دول فى طريقها إلى الزوال وعالم متعدد المراكز فى سبيله الي التخلق».

برتراند بادى

الاستاذ بمعهد الدراسات السياسية بباريس

● «الثقافة العربية مثل غيرها من الثقافات في العالم، ثقافة من الصراعات والتناقضات والمصالح المختلفة» .

د . كمال أبو ديب

أستاذ النقد بانجلترا



سليم الحص

● «ليس من الممكن للأغنياء ومشاهير الرجال أن يختلطوا بالناس المغمورين».

السير مايكيل كين

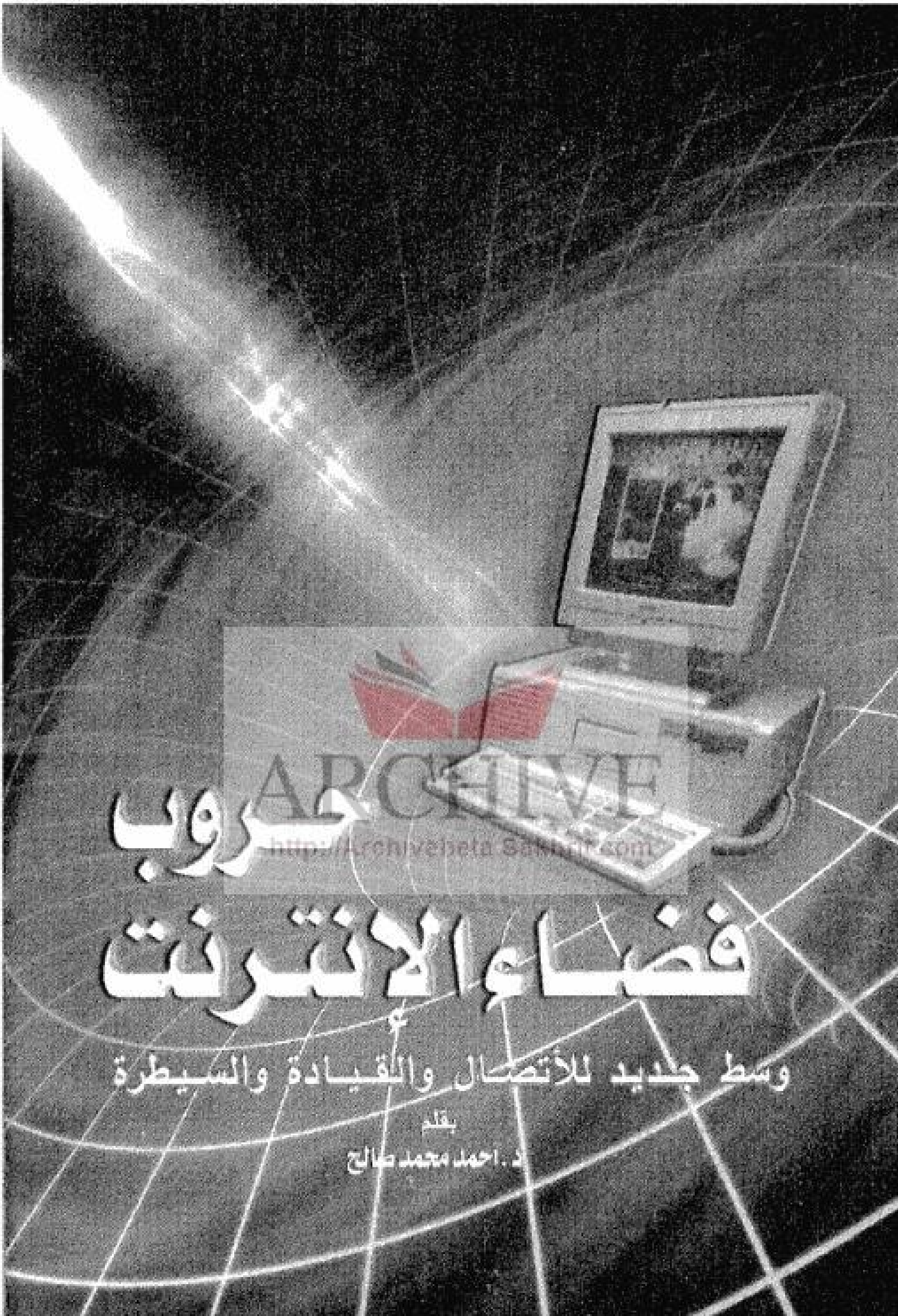
الممثل الانجليزى الفائز بجائزة اوسكار مرتين

● «الشعر يحتل المرتبة الأخيرة في قراءاتي».

الشاعر الفلسطينى محمود درويش

● «من يقبض على وسائل الاعلام ، يصبح على حق !» .

سليم الحص - رئيس حكومة لبنان السابق

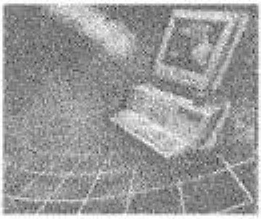

حروب
فضاء الإنترنت
وسط جديد للأتصال والقيادة والسيطرة
بقلم
د. احمد محمد صالح

أثناء السبعينات والثمانينات زادت حركات العنف المسلح، وانقسم العالم فى توصيفها .. هل هى تطرف وإرهاب سياسى؟ هل هى حركات مشروعة للتحرير والنضال السياسى والاقتصادى؟! وأصبح كل طرف يصف هذا العنف المسلح وفقاً لأهدافه؟ فهناك عنف مسلح مشروع، وعنف مسلح آخر غير مشروع! وقد أدى انهيار الكتلة السوفيتية، وانتهاء تمويلها السرى وتشجيعها للحركات المسلحة، إلى تناقص نشاط المجموعات اليسارية العنيفة التى رفعت شعارات التحرير ضد الاستعمار والنضال ضد الرأسمالية، والتى كانت تميز القرن الـ ١٩ وحتى أواخر القرن العشرين، فالتسعينات رأت تطورا وظهر عنف وتطرف جديد أزعم أنه إرهاب لا يحتمل الشك فى عدم مشروعيته! وليس معنى ذلك أن الإرهاب الرسمى المدعوم من الدول قد توقف، بل على العكس من ذلك توسعت نشاطاته فى العالم.

والتطرفية الإرهابية الجديدة فى التسعينات كانت متحججة بالشعارات الدينية كغطاء لها، وتزعم أنها وحدها تملك الحقيقة، وكانت عالمية! وأباحت العنف المتطرف، ولا تعترف بالآخر! وهى فى أغلب الأحوال يتوقع لها أن تكون سمة الألفية الجديدة! والتطرفية الإرهابية الجديدة فى التسعينات لا تبحث فقط عن الأهداف العسكرية أو الحكومية، ولكنها تبحث أيضاً عن الأهداف المدنية التى تمثل رموزا للمجتمع مثل محاولة قتل نجيب محفوظ! وما حدث فى مجزرة الأقصر من سنوات قليلة، وحادثة أوكلاهوما، ولن يكون آخرها هجوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ضد مبنى التجارة العالمية فى نيويورك! والضحايا كانوا فى الغالب مدنيين أبرياء!.

حرب الإنترنت

وقد تضاعف القلق العالمى المتزايد حول هذا الإرهاب الجديد نتيجة القلق الموازى حول توظيف تكنولوجيات الاتصالات والمعلومات الجديدة ICT's كوسيط جديد للاتصال، والقيادة والسيطرة من قبل المتطرفين والإرهابيين،



● تمثل أجهزة الكمبيوتر أكبر تهديد للأمن فى المستقبل مع قدرة بعض الدول على إعاقة منافسيها

وتتيح لهم الوصول إلى مخازن معلومات الخصوم والتجسس على عملياتهم واتصالاتهم، ويقال إن أسامة بن لادن، وهو أحد نجوم التطرفية الإرهابية الجديدة فى القرن الجديد، ينتقل بين كهوف جبال أفغانستان ومعه كمبيوتر محمول لا يفارقه ويصدر أوامره إلى اتباعه من خلال البريد الإلكترونى فى كل أنحاء العالم!.

وإذا كانت قوة ورفعة الدولة الحديثة الآن تكمن فى مدى الاعتماد على تكنولوجيات الكمبيوتر والمعلومات والاتصالات ، فإن نقطة القوة هذه هى فى الوقت نفسه نقطة ضعف خطيرة فى الدول الحديثة! وأفضل مثال على ذلك هجوم الثلاثاء الأسود بالطائرات المدنية على برجى التجارة العالمية بنيويورك ومبنى البنتاجون بواشنطن وقتل حوالى ٣ آلاف من الأبرياء؟ والسؤال كيف حدث ذلك فى أقوى دولة فى العالم، تملك أحدث تكنولوجيات المعلومات والاتصالات؟ والعجيب ان الأهداف التى هوجمت ودمرت تعتبر رموزا لمدى التقدم فى تكنولوجيات المعلومات والاتصالات! التى تستخدم فى التأثير والتعديل والتعطيل وتدمير الدولة ومؤسساتها وسكانها من خلال فعل وسائل الاعلام التى توظف تلك التكنولوجيات، أو بواسطة فاعل مدمر ، وهنا نستطيع أن نقول أنها حرب الشبكة netwar ، أول حرب الإنترنت! حيث تستعمل أسلحة فضاء الإنترنت cyberspace أو فضاء المعلومات؛ من حملات دعائية على كل المستويات إلى إحداث الشوشرة والتدخل بقواعد بيانات وشبكات الآخرين!.

والسؤال الآن ما الذى يميز حرب الإنترنت بصفة خاصة عند مقارنتها ببقية أشكال الحروب؟! الإجابة فى كتاب الإستراتيجى العسكرى مارتن فان كريفيلد Van Creveld, Martin تحت عنوان «تحول الحرب» الصادر فى نيويورك عام ١٩٩١ فأهداف الحرب هنا هى المعلومات والاتصالات، وقد تستعمل لتعديل الفكر أو تعرقل وتعطل أعمال مخططة للتنفيذ. بهذا المعنى يمكن أن نميز بين حرب الإنترنت والأشكال السابقة

● فيروسات الكمبيوتر تمثل شكلا من أشكال الإرهاب وهو إرهاب إليكتروني تفوق خسائره أشد الأسلحة فتكا

والمبكرة من الحروب مثل الحروب الاقتصادية التي تستهدف وسائل الإنتاج، والحروب السياسية التي تستهدف القيادة والحكومة. ولهذا فحرب الإنترنت تثير اهتمام هؤلاء المنشغلين بالحروب غير العسكرية! أو هؤلاء الذين يعملون في مواقع ثانوية! والدول أيضاً قد تعتبر حرب الإنترنت حربا ثانوية أو وسيلة مساعدة في الحروب العسكرية ، أو كخيار قبل الانتقال إلى مرحلة الحرب العسكرية ! على أية حال، يبدو أن حرب الإنترنت أصبحت موضع الاهتمام الشديد من قبل جماعات المتطرفين والإرهابيين! حيث لا توجد حدود فيزيقية أو مادية، لذلك تعتبر الوسيلة المثلى التي تتبناها الجماعات التي تعمل وتشتغل عبر المسافات البعيدة أو التي تعمل بشكل عالمي. ونمو مثل هذه الجماعات، وسلطاتهم المتنامية بالنسبة للدولة القومية تعتمد بشكل كبير على علاقات القوة بين تلك الجماعات والدولة!.

حروب المستقبل

ويقول مارتن فان كريفيلد : إن الحرب القادمة ستكون في الغالب بين تلك الجماعات والدول القومية، أكثر من كونها حربا بين الدول نفسها، وتحققت توقعات كريفيلد، فأول حرب في القرن الـ ٢١، والتي تدور الآن هي فعلا حرب بين مجموعة دول على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وبين مجموعات متطرفة وإرهابية ترفع شعارات دينية، ويقدر مركز سيمون وسينتال في أحدث تقرير له عن الكراهية العنصرية عبر الإنترنت وجود ثلاثة آلاف موقع يثير مشاكل عنصرية، ويعرف المركز المواقع المثيرة للمشاكل بأنها تلك التي تروج للعنف العرقي ومعاداة السامية والإرهاب وموسيقى الكراهية ، هذا ومعظم الخصوم العصريين للدول القومية اليوم هم الخارجون عن القوانين مثل الإرهابيين الدوليين، والمتطرفين عامة وبالأخص المتطرفون الدينيون والعرقيون المنظمون في شبكات تنظيمية ، وتجد وكالات تنفيذ القانون والمؤسسات الأمنية صعوبة غالباً في ملاحقة تلك الجماعات لأن ذلك يستلزم منها اختراق قوانين الدول القومية، أو العمل بقوانين طوارئ استثنائية.

والآن فقط اعترفت دول العالم المتقدم بوجود الإرهاب، والتي كانت حتى آخر وقت تعتبره يحدث في أماكن أخرى بعيدة عنها، وأصبحوا هم أنفسهم ضحايا له، فلا يمكن أن ينسوا الهجوم الإرهابي في نفق طوكيو، وتفجيرات أوكلاهوما، وأخيراً تفجيرات نيويورك وواشنطن، على الرغم من الإشارات التحذيرية الواضحة التي سبقت تلك الحوادث! وفي تقرير لوكالة المخابرات الكندية عام ١٩٩٦ في الجزء الخامس من التقرير الذي يتكلم عن دور تكنولوجيات المعلومات يحذر من ان فضاء الإنترنت أصبح ساحة للتطرف السياسي! وان شكل الحروب الكلاسيكي ومكانها استبدل بالهجوم على البنية التحتية للمعلومات، وتركز المخاوف بشكل خاص على الأشخاص والجهات الذين ينتهكون شبكات الكمبيوتر الخاصة بالحكومات والشركات والمصارف المختلفة وتتنوع الجرائم التي يرتكبها هؤلاء بين سرقة المعلومات أو تدميرها ، واختراق الحسابات المصرفية واستخدام بطاقات ائتمانية للغير، إضافة إلى ابتزاز المؤسسات من خلال تهديدها بزرع فيروسات في شبكاتها.

حروب الفيروسات

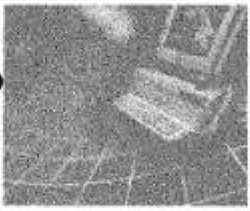
وفيروسات الكمبيوتر تمثل شكلا من أشكال الإرهاب ، ولكنه إرهاب إليكتروني تفوق خسائره خسائر أشد الأسلحة فتكا! نظرا للخسائر المالية البالغة الناجمة عنه، وذلك لعدم الحاجة في تنفيذه إلى تفجيرات نووية أو أسلحة كيماوية وبيولوجية! وأوضح دكتور ليونارد أدلمان أستاذ علوم الكمبيوتر بجامعة سوثرن الأمريكية الذي درس فيروسات الكمبيوتر لمدة عشرين عاما قوله ان خطورة واضرار الفيروسات لايمكن القضاء عليها أو الحد منها بالتقنيات الفنية الحالية ولكن بنفس الأسلوب الإبداعي لصانع هذا الفيروس ، وأضاف أن العالم لم يشهد بعد فيروسات خطيرة أو شديدة الضرر حتى الآن وقال إنه لم ير حتى الآن أية استعدادات تعوق انتشار اى فيروس من الفيروسات الخطيرة التي ستلوح وتظهر من حولنا ، وفضلا عن ذلك فان شبكة الانترنت المصدر الرئيسي لانتشار الإنترنت لاتتمتع بأي نظام دفاعي قوي كما أنه لا يمكن إنشاء مثل هذا النظام.

وأوضح أدلمان أن برامج مقاومة الفيروسات تستطيع فقط اقتفاء أثر الفيروسات المعروفة والمدرجة داخل نسيج برامج مقاومة الفيروسات مؤكداً ضرورة اشعار العالم الالكتروني بالرهبة والخوف من المستقبل، وأكد أدلمان أنه يبدو أن معظم وأهم نظم الكمبيوتر مثل نظم

الكمبيوتر في البنوك وغيرها لديها مناعة خاصة ضد الفيروسات التي تأتي عن طريق البريد الالكتروني مثل فيروس (مليسا) وفيروس (الحب) الذي تم ارساله وانتشاره كملف ملحق مع رسالة البريد الالكتروني. وفي نفس السياق قال كريس جوجانز مدير العمليات بشركة سيكيوريتي انترناشيونال بولاية فيرجينيا الأمريكية وفرعها بلندن إن الأشخاص أو المستخدمين الذين تغلغل فيروس كود رد لديهم هم مستخدمون وليسوا محترفين أساسيين، ونتيجة لهذا فان هجمات فيروسات الكمبيوتر حتى الآن تسبب ازعاجاً فقط ولا تصل إلى حد الكارثة. تبقى حقيقة مهمة وهي أن لعبة القط والفأر بين نظم الكمبيوتر من ناحية وبين صانعي الفيروسات وقراصنة الكمبيوتر من ناحية أخرى ستستمر لفترة طويلة فبرغم كل الوسائل الأمنية التي ابتكرتها الشركات العالمية فقد نجح المهاجمون في شن هجمات كانت تعد صعبة النجاح ولكنها نجحت، كما أن الشباب والمغامرين سيستمرون في تحضير فيروسات جديدة، كما أن المختبرات الكبرى لن تتوقف عن وضع وتصميم فيروسات فتاكة، والفيروس برنامج كمبيوتر لا يختلف عن سائر البرامج التي يتعامل معها جميع مستخدمي الكمبيوتر لكنها بدلا من قيام هذه البرامج بالمساعدة في تنظيم الملفات وتحرير النصوص والصور يقوم بتخريب ملفات الكمبيوتر .

الساخطون في فضاء الإنترنت

هذا وتعتبر الإنترنت المنتدى الأول في التاريخ حيث يجتمع في فضاء الإنترنت كل الساخطين على الدول القومية ومجتمعاتها، ويتبادلون وجهات النظر، ويعززون إجحافاتهم، لذلك ليس من المستغرب على سبيل المثال أن يتبادلوا البريد الإلكتروني، والحوار عبر منتديات الإنترنت مثلما تفعل الميليشيات اليمنية، وأصبح مضمون الحوار الذي يفعل في منتديات الإنترنت ، هو مصدر للعديد من نظريات المؤامرة المتوحشة الذي تسوقها وسائل الإعلام. لقد تحولت منتديات الحوار في الإنترنت منذ وقوع هجمات الثلاثاء الأسود في ١١ سبتمبر على الولايات المتحدة الأمريكية، إلى ميدان تنتشر فيه مختلف نظريات التآمر! ومن السيناريوهات التي انتشرت في منتديات الإنترنت، وفرح بها بعض العرب والمسلمين عن سذاجة وضعف، وأضحكتني ضحكا كالبكاء سيناريو يتوقع في عام ٢٠٠٦ انتصار الطالبان على قوات التحالف ، واعتمار الرئيس بوش في ملابس وعمة أفغانية ، وهو يطلق لحيته، ويوضع حجاب على رأس تمثال الحرية في



• حرب الإنترنت أصبحت موضع اهتمام شديد من قبل جماعات المتطرفين والإرهابيين

نيويورك! وهناك دعاء انتشر أيضاً في منتديات الإنترنت يقول : «اللهم غنمنا نساءهم» وهكذا انحصرت آمال المسلمين وأهدافهم في العمة الأفغانية واللحية والحجاب، وأخذ نساء الكفرة غنيمة!

والجماعات المتطرفة والإرهابية تتسابق الآن في الدخول إلى فضاء الإنترنت، حيث أصبح الحماس والسرعة في الدخول إلى الشبكة هو محك التقييم والمفاضلة بين تلك الجماعات . فاجتمع في فضاء الإنترنت جماعات متطرفة وإرهابية من أقصى اليمين، وعنصريون بيض، ونازيون جدد، وإسلاميون أصوليون، وآخرون مثل المتطرفين البيئيين، وأيضاً جماعات من أقصى اليسار، ولكنهم أبطأ وأقل حماساً في الوجود في فضاء الإنترنت! وتعتبر جماعات أقصى اليمين من عنصريين بيض وعرقيين، وجماعات الإسلام الأصولية هما المجموعتان الرئيستان في فضاء الإنترنت ، ذات الطبيعية العالمية، والتي تخطت الحدود القومية . وتركز جماعات أقصى اليمين نشاطها في الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا، ولكن بالمقارنة مع جذورها الإيديولوجية في العشرينات والثلاثينات فهي تستهدف الآن توحيد الاصول الأنجلوسكسونية البيضاء أو الأوربية . أما جماعات الأصولية الإسلامية فهي تعيش في شتات على مستوى العالم الواسع وتسعى وتبحث عن العودة إلى سيطرة وحكم الدولة المقدسة! أو دولة إسلامية تتخطى الحدود القومية! يعيش تحت رايتها كل مسلمي العالم من مختلف الاجناس والألوان، وأن تكون الدولة المقدسة نفس المعايير والقوانين التي كانت سائدة في القرنين الأول والثاني من العصور الجاهلية بالجزيرة العربية، هذه النماذج من التنظيمات تعتبر نماذج مثالية لمستعملي الشبكات ومن مؤيدي وأنصار netwar حرب الشبكات.

الصراعات السياسية في الإنترنت

«وقد تمثل أجهزة الكمبيوتر - وليس الصواريخ - أكبر تهديد للأمن في المستقبل مع قدرة بعض الدول على إعاقة منافسيها باستخدام ما يسمى بحرب الفضاء الإلكتروني «هذا ما ذكره الأدميرال كريس باري رئيس قوات الدفاع

• مشروع قانون أمريكي يعتبر المتسللين إلى برامج الكمبيوتر - المعروفين بالهاكرز - إرهابيين، وعقوبتهم تصل إلى السجن مدى الحياة

الاسترالية في مؤتمر في سيدني في شهر ٧ - ٢٠٠١ قبل هجوم سبتمبر بحوالي شهرين ونشر في موقع الـ BBC ، وأوضح أن لدى أكثر من ٣٠ دولة في العالم برامج متقدمة لشن حرب من خلال الكمبيوتر، ويمكن أن تفضي هجمات الكمبيوتر إلى تدمير البنية الأساسية في بلد من البلدان ومعدات الدفاع وتخريب الاتصالات وقوى الطاقة والأنظمة العسكرية، وإن أكثر الدول عرضة للهجوم هي الدول المتطورة تكنولوجيا في مجال الكمبيوتر مثل الولايات المتحدة واستراليا ولذا يجب أن تحمي نفسها ، وأضاف الأدميرال الذي كان يخاطب المشاركين في مؤتمر عن الأمن في منطقة المحيط الهادىء في جامعة سيدني إن برامج شن الحروب على الكمبيوتر تتسم برخص سعرها وفاعليتها في الهجوم، وقال إن الهجمات عبر الفضاء الإلكتروني ستوفر للمتنافسين من الدول وغير الدول خيارات تفوق الكلمات ولكنها لاتبلغ حد الهجمات الحقيقية بالأسلحة، وتنبأ الأدميرال باري بأن مثل هذه البرامج قد تصبح جزءاً من أسلحة الدول خلال العقد المقبل وما بعده، وتتحدى الاستقرار.

وهكذا أصبح الكمبيوتر والإنترنت اليوم أحد الوسائل الجديد في الصراعات السياسية التي تدور في عالمنا المعاصر ، فقد شهدت السنوات القليلة الماضية ، محاولات دولية لاختراق شبكات حكومية في مختلف دول العالم ، مثل المحاولات الروسية لاختراق شبكات الوزارات الأمريكية، والهجمات المتبادلة بين الصين وتايوان على الشبكات الحكومية في البلدين في محاولة للحصول على المعلومات السرية، وفي الفترة الماضية تم تحديد أحد أجهزة الكمبيوتر في جامعة كاليفورنيا باعتباره الجهاز الذي استخدم في عمليات تخريب واسعة استهدفت مواقع رئيسية على شبكة الإنترنت، فقد وقعت سلسلة من الهجمات التخريبية، عطلت عدداً من المواقع المهمة على الشبكة مثل موقع السي إن إن، وياهو، وأمازون، وزد نت. وفي اليابان دعت الحكومة إلى عقد اجتماع طارىء لاتخاذ إجراءات أمنية لحماية أنظمة الكمبيوتر الحكومية بعد أن تعرضت للتخريب من قبل متسللين

استطاعوا النفاذ إلى مواقع حكومية على شبكة الإنترنت، وفى حالتين أخريين انتقد المتسللون الموقف اليابانى الرسمى من تاريخ الحروب اليابانية فى الصين . كما تم محو بيانات مهمة من الموقع الحكومى تتضمن إحصائيات عن تعداد السكان. ولا يختلف الأمر كثيراً فى الصراع العربى الإسرائيلى، الذى أخذ أشكالاً اليكترونية متعددة،

الحجارة الالكترونية

وإذا كانت انتفاضة القدس فى الأراضى المحتلة فى فلسطين . كان سلاحها الأساسى هو الحجارة فى يد الجميع احتجاجاً على الاحتلال الإسرائيلى، فإن هناك سلاحاً آخر أشبه بفعل الحجارة، هو الحجارة الإلكترونية التى ترمى على المواقع الإسرائيلية فى الإنترنت، وتحدث نفس فعل الحجارة الحقيقية. وبعيداً عن شوارع القدس ورام الله، والخليل كان يدور صراع بدون الحجر وزجاجات المولوتوف وقذائف الدبابات والطائرات والرصاص الحى، صراع تواجه فيه العقول بالعقول فى مجال تقنيات المعلومات . ويذكر أن حرب الإنترنت فى الشرق الأوسط قد اشتدت فى الآونة الأخيرة، ففى العام الماضى ادعى مراهق إسرائيلى، اعتبر فى إسرائيل بطلا، بأنه خرب موقع الحكومة العراقية على شبكة الإنترنت وتعرضت مواقع حكومية إسرائيلية على شبكة الإنترنت إلى هجمات تخريب واسعة النطاق من جماعات إسلامية من جميع أنحاء العالم مما أدى إلى شلها تماما، فقد تعطل موقع البرلمان الإسرائيلى ووزارة الخارجية الإسرائيلية وكذلك مواقع رئيس الوزراء الإسرائيلى ووزارة الدفاع فى أوائل أيام انتفاضة القدس بعد أن اخترقه عدد من الهاكرز الذين يعتقد أن مصدرهم المملكة العربية السعودية ، وتستمر هذه الهجمات بين الإسرائيليين والفلسطينيين حتى الآن وتشير التقارير الصحفية إلى أن مجموعات إسلامية كانت قد سهلت الحصول على برامج متخصصة تتيح إرسال سيل ضخم من الرسائل الإلكترونية بهدف تخريب المواقع الإسرائيلية.

وانتقل الصراع بين الجيش السريلانكى ومتمردى نمور التاميل الانفصاليين إلى جبهة جديدة وهى الإنترنت فقد أقامت المؤسسة العسكرية فى سريلانكا موقعاً على الإنترنت لعرض وقائع الصراع فى شمالى البلاد من وجهة نظرها غير أن الموقع الجديد واجه مايعتقد أنه هجوم مضاد من قبل مخربين ينتمون لجماعات المتمردين، وقد وصف بيان صادر عن الجيش السريلانكى موقع

الإنترنت الجديد بأنه خطوة تاريخية لواحد من أغنى جيوش العالم بالخبرة القتالية وقال البيان إن الموقع سيعرض معلومات دقيقة عن أفرع ووحدات الجيش السريلانكي، وأخر أخبار الموقف فى منطقة العمليات وقال مسئولو الجيش إن الموقع لا يهدف إلى الرد على الدعاية التى ينشرها نمور التاميل على الإنترنت ويذكر أن المتعاطفين مع حركة التمرد الانفصالية فى شمالى البلاد استغلوا سلاح الإنترنت بكفاءة فائقة على مدى السنوات الماضية لعرض وجهة نظرهم للصراع.

الحريات المدنية ومواجهة حروب الإنترنت

ومن ناحية أخرى حذرت جمعيات الحريات المدنية من مشروع قانون أمريكى تقترحه الإدارة الأمريكية يعتبر المتسللين إلى البرامج الكمبيوترية، المعروفين بالهاكرز، إرهابيين، وقد أضاف مشروع القانون الجديد مخالفات التسلل إلى برامج الكمبيوتر إلى قائمة الجرائم الإرهابية، وقد تصل عقوبة هذه الجرائم إلى السجن مدى الحياة، وتزعم تلك الجمعيات أن اعتبار جرائم الكمبيوتر الصغيرة جرائم إرهابية لا يعتبر رداً مناسباً على الأحداث الأخيرة، بالإضافة إلى جعل التسلل الكمبيوترى جريمة إرهابية، فإن القانون سيحدد عقوبات تصل إلى السجن مدى الحياة، ويوسع من صلاحيات الاحتجاز والمصادرة قبل الإدانة، بالإضافة إلى إشراك من يساعد المتسللين أو يأويهم فى الجريمة ، حتى وإن كانت الأضرار الناتجة عن التسلل ضمن الحد الأدنى وتشعر جمعيات الحقوق المدنية بالقلق من أن مشروع القانون هذا ربما اقترح باستعجال ودون بحث تأثيراته على الأمن والحريات الشخصية . وقد حذر المسئولون والأكاديميون من أن التسلل التخريبى إلى الإنترنت سيكون جزءا من حرب خطيرة ضد الولايات المتحدة . وقال تقرير حديث لمعهد دراسات الأمن والتكنولوجيا إن معظم التسللات السابقة التى لها علاقة بالسياسة كانت تسللات تهدف الإزعاج وليس الضرر، وإن من غير المرجح أن تنتج مثل هذه التسللات عن عمل عسكرى أمريكى ويضيف التقرير أن الاحتمال قائم بأن يحصل تسلل مدمر ردا على أى عمل تقوم به الولايات المتحدة انتقاماً من منفذى الهجوم الإرهابى فى الحادى عشر من سبتمبر/أيلول الجارى، وإن مثل هذا التسلل الخطير لابد وأن يزعزع شبكات المعلومات فى الولايات المتحدة وحلفائها الأوربيين. ■

دائرة حوار

أمريكا والكراهية

.. الرد الجدلى

بقلم
جميل مطر

• هؤلاء ينتقدون السياسة الأمريكية !

• عدد خاص لمجلة أمريكية يهاجم السياسة الأمريكية !

أستطيع أن أفهم الدوافع وراء غضب بعض المحللين السياسيين على محللين آخرين لم تعجبهم بعض السياسات الخارجية الأمريكية فكتبوا ينتقدونها . لا أتحدث هنا عن غضب على مقالات أو أفكار زاخرة بالشماتة ، أو تجاوزت حدود المعقول فى الانتقاد فتحولت إلى الشكل الغوغائى فهى لا تنشد إلا التهييج وإثارة المشاعر الدينية والوطنية ضد أمريكا وإنما أتحدث عن مقالات وآراء عاقلة ويتسم كاتبوها بالمسئولية .

أتصور أن المحللين الغاضبين ، وبينهم قادة في النخبة السياسية في عدد من الدول العربية ، أو في نخبة رجال المال والأعمال ، وبينهم أيضا رواد في قطاع الجمعيات والمنظمات الأهلية حديثة النشأة ، أتصور أن بعض هؤلاء الغاضبين يخشى ، وبصدق ، تداعيات الانتقاد للسياسات الأمريكية وعواقبه على مستقبل العلاقات المصرية الأمريكية . ولا ننسى أن فريقا من هؤلاء الناس يعتقدون ، عن حق أو عن باطل ، أن أمريكا يجب أن تكون مقبولة ، ومحبوبة أيضا ، فلا بديل من هذا أو ذاك إن ابتغينا لبلادنا تقدما وتحضراً واستقراراً ورضاء .

ومن فرط حماسة بعض الغاضبين على منتقدي بعض جوانب السياسة الأمريكية بدا كثير من حجج الدفاع عن أمريكا ضعيفا بسبب الانفعال عند الكتابة أو بسبب استخدام عبارات الإدانة والاستهزاء وأحياناً السخرية اللاذعة . وقد توقفت مراراً أمام مقالات أو شهادات احتوت على كثير من عبارات لو أنها صدرت عن كاتب من الغرب ، لا تهمناه بالتطرف وبعنصرية مقيتة ، بعض الغاضبين لم يخجل من وصف المجتمعات التي أفرزت هؤلاء المنتقدين بالتخلف ، فانتقاد أمريكا - في رأيهم - لا يمكن أن يصدر إلا عن إنسان متخلف . ضربوا المثل بالتحالف الفوري الذي قام بين أمريكا وأوروبا الغربية وروسيا كدليل على أن المعركة الإعلامية الدائرة ليست سوى رد فعل للحرب التي يشنها بين وقت وآخر المتخلفون في العالم العربي والإسلامي على المتحضرين في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا .

المنتقدون في سلة واحدة

أخطأ الغاضبون حين جمعوا كل المنتقدين في سلة واحدة . والمثير للانتباه أن الحملة الإعلامية التي شنتها حكومة وإعلام الولايات المتحدة على بعض الدول والشعوب والإعلام في العالمين العربي والإسلامي جمعت هي نفسها المنتقدين ووضعتهم في سلة واحدة . فقرأنا أو سمعنا ، هنا وهناك ، من يتهم المنتقدين بأنهم يكرهون أمريكا لأنها دولة ديمقراطية ، وذهبت الحملة إلى حد الزعم أن وراء الانتقادات تقف حكومات عربية وإسلامية كرهت وتكره الديمقراطية وبالتالي كرهت وتكره الولايات المتحدة باعتبارها المبشر الأعظم بالديمقراطية وحقوق الانسان في العالم . وذهبوا إلى حد أبعد حين اشتركوا جميعا - هنا وهناك - في حذف كل أسباب ومصادر الإرهاب إلا

سبباً صار الأوحد، وهو الافتقار إلى الديمقراطية متجاهلين أن إرهاباً أقدم وأطول عمراً يسود فى ايرلنده وإسرائيل وألمانيا وداخل الولايات المتحدة نفسها. ويظهر هذا الأمر واضحا من مقال بعنوان «غضب الملعونين» بقلم الكاتب التركى «أورهان باتوك Orhan Pa-nuk». يقول باتوك إن السبب فى هذه الكراهية التى يحملها فقراء العالم والمحرومون والبؤساء لأمريكا هو أن حكوماتهم تشجع الكراهية لأمريكا حتى تستمر فى استبدادها وتستمر فى السرقة. وضرب المثل بتركيا حيث تقوم البيروقراطية الحكومية والحزبية بتشجيع الكراهية لأمريكا لتستمر تسرق وتحكم. ويعترف باتوك بأن الفجوة بين الفقراء والأغنياء، أى بين معظم شعوب العالم وأمريكا بالذات، صارت خطيرة، ولكنه يضيف أن الأخطر من اتساع الفجوة هو تباهى الشعب الأغنى بثرائه أمام الفقراء، ويعتقد أنه لم يحدث فى التاريخ أن تلذذ شعب وتباهى وتفاخر واستفز مثلما يفعل الشعب الأمريكى لدرجة أن ثقافته ومنتجاته الترفيهية صارت تركز على حكايات الأغنياء والمرفهين ليتسلى بها الفقراء والمعدمون، تماماً كما كان الأمر فى أيام زمان عندما كانت تسلية الفقراء ترديد روايات عن حياة الملوك والأغنياء، إلا أن هذه كانت تعتمد على خيال الراوى والمستمع أما الآن فهى مصورة ومتلفزة وموثقة. والأدهى أنها قد تكون متعمدة.

نوعان من الكراهية

وأمام ضراوة حملة الغاضبين على منتقدى السياسة الأمريكية أصبح لدينا نوعان من الكراهية؛ كراهية من جانب عدد كبير من المثقفين والنخب السياسية لكثير من سياسات أمريكا الخارجية، وكراهية بعض المثقفين وأفراد فى النخب السياسية لشعوبهم التى لم تتعاطف بالقدر المناسب - بسبب تخلفها وجهلها وتعصبها - مع أمريكا التى تعرضت لكارثة إنسانية رهيبة. هذا البعض أخفى استياءه من رفض معظم الحكومات العربية الانضمام، أو إعلان الانضمام، إلى التحالف الذى تقوده أمريكا ضد الإرهاب، وانضم انفراديا إلى التحالف. وهذا حقه لأنه ينطلق فى دفاعه عن أمريكا من إيمانه بالحرية والديمقراطية، ولكنه يتجاوز هذا الحق حين يستعدى قوى التحالف وأفكاره ومبالغاته على مواطنيه وزملائه وأقرانه فى السياسة أو فى الإعلام. هو يعلم، كما يعلم كل المفكرين، أن الحرب تقترن، بل وتشترط أحياناً الاقتران، بالمعلومات الزائفة وبتهييج المشاعر ضد

القادة والشعوب ، وبتبريرات الأعمال الوحشية التى يرتكبها الجنود فى الجو كما فى الأرض ، وبإثارة الفتن فى مجتمعات الخصوم والمترددين ، ولعل أفدح خطأ وقع فيه غاضبون كثيرون كان حين تخلوا عن الموضوعية وانضموا إلى «منظومة حرب عقائدية وفكرية وعسكرية» قام بتنظيمها وتعميمها وتجميع قوى التحالف حولها طرف لم يخف أننا قد نصبح ذات يوم قريب هدفاً من أهداف هذه الحرب ، لعيب فينا يراه ولا نراه ، أو لعيب فينا يراه ونراه ولا نستطيع أن نفعل حياله الكثير ، فهو عيب إما لصيق أو متجذر أو أصيل .

****

تابعت شخصياً الحملة الإعلامية والسياسية الأمريكية ضد دول وحكومات بعينها بسبب ما يقال عن أنها لم تتعاطف بالقدر المناسب ، أو ترددت فى إعلان انضمامها إلى تحالف بحجة أنها لم تفهم جيداً أهداف الحرب ولم تتعرف بالدقة اللازمة على العدو أو تحالف الأعداء . كانت الحملة ، ومازالت ، قاسية ، ومثلها مثل أى علاقة بين أمريكا ودولة أخرى ، غير متوازنة . إذ إنه مهما قيل عن الحدة فى مقالات ومواقف تنتقد سياسات أمريكية ، يظل مقال واحد شديد القسوة تنشره النيويورك تايمز وتنقله الفضائيات والأجهزة الأمريكية أقوى مفعولاً من عشرات المقالات التى تنشرها صحف محلية تصدر بالعربية أو بالأوردو أو بالسواحيلى أو بالفارسى ، وبولغ فى القسوة . بالغت الأجهزة الإعلامية والسياسية الأمريكية . وبالغ الغاضبون على الانتقادات للسياسة الخارجية الأمريكية . ولم ينتبه أحد هنا أو هناك إلى حقيقة أن بعض الانتقادات على السياسة الأمريكية فى مقالات وشهادات أمريكية وأوربية كان أكثر حدة من معظم الانتقادات التى سجلها مفكرون من العالم العربى والإسلامى .

كتب «تيرى اجليتون» Terry Eagleton فى مجلة لندن ريفيو أوف بوكس يقول «إنهم يستخدمون الأزمة كذريعة ليدوسوا على حرياتنا المدنية ، لقد أصبحت الولايات المتحدة - بعد التشريعات والاجراءات الأخيرة ، دولة الحزب الواحد» .

وتقول المؤرخة الأمريكية «مارى بيرد» Mary Beard . «مهما حاولنا التخفيف منها أو تضخيمها أو تجميعها ، ما حدث فى نيويورك كارثة كانت ستحدث إن آجلا أو عاجلا» .

ويتحدث البروفسور توماس لاكير Thomas Laqueur عن هذا القدر الهائل من الشر فى فاجعة نيويورك فيقول أنه ليس على كل حال شاذا ، ولا هو بالحدث شديد الغرابة ، فحكومتنا مسئولة عن وقوع أحداث كثيرة أسوأ بكثير من فاجعة نيويورك» .

ويكتب الأستاذ فردريك جيمسون Jameson عن بن لادن فيقول «إنه صناعة أمريكية من منتجات الحرب الباردة .. وما يحدث الآن ما هو إلا نوع من «الرد الجدلي» .. نحن صممنا – أو شاركنا فى تصميم – العديد من المشكلات التى يعانى منها العالم .. مثل الاستعمار والاستغلال والعولمة .. ولذلك لا يجوز بأى حال أن نندهش لردود الفعل ..» .

هناك لنحمي النفط

ويناقش المفكر الأشهر تونى جودت Tony Judt موضوع العداء أو الكراهية لأمريكا فيقول «أمريكا دفعت شعوب ودول العالم نحو المهانة والشعور بأنها غير ذات قيمة .. وأنها لا شيء .. دفعتها نحو اليأس .وفى عالم كثيف الاتصالات يتدعم هذا الشعور بعد كل احتكاك بأمريكا .. المفجر فى هذه العملية التبادلية هو الغطرسة الأمريكية .. فأمريكا تعتبر أن من حقها أن توجد أينما تريد » . وضرب المثل بتصريح من آرميتاج مساعد وزير الخارجية الأمريكية حين سئل عن أسباب وجود قوات امريكية على مقربة من الأماكن الإسلامية المقدسة .. أجاب «نحن هناك لنحمى النفط .. وسنبقى هناك» .

وينصح جودت Judt الحكومة الأمريكية بإعادة تقويم علاقاتها بالعالم . ويعتقد أنه إذا كان فى العالم من يكره أمريكا بسبب منظومة قيمها فهم فى الغالب شعوب أوروبية ، أما من يكره أمريكا بسبب سياساتها الخارجية فهؤلاء هم الأكثرية بين شعوب العالم . وأحيانا ترتكب أمريكا من السياسات ما هو أسوأ من رد الفعل وإن أخذ شكل الجريمة .

هذه النماذج من الآراء والمقالات وكثير غيرها خصصت لها إحدى أهم الدوريات الثقافية الأمريكية معظم عددها الأخير وهى مجلة «نيويورك ريفيو أوف بوكس» . هذا النوع من الفكر وهذا النوع من تمسك المثقف بموضوعيته وحريته الفكرية هما دعامتا أمل متجدد فى ألا تقع أمريكا مجتمعات وأفرادا ، فى شرك ينصب لها ولهم تحت عنوان أعطنى جزءاً من حريتك، أعطك جزءاً مناسباً من الأمن أو التقدم أو الرخاء أو تحت عنوان أكره أمريكا لأنها تتمتع بحرية أكثر لأنها أغنى ولأنها قوية . أما أصدقاء امريكا النموذج والرمز الناجح ورواد النهضة والتنوير والقيم الإنسانية الرفيعة فهؤلاء يقولون لها الآن .. بعض سياساتك الخارجية حالفها الصواب .. وهو السبب فيما تعانين ونعانى . ■

الممنوع في الفنون والآداب

بقلم
د. كمال الدسوقي

رأينا فى مقال سابق عن حرية التفكير والابداع ما خلص إليه الإمام الغزالي والعز بن عبدالسلام وغيرهما عن الشعر - إنشاءً وانشاداً وسماعاً - حتي لو اقترن بالغناء - أنه سنة في العرس ونحوه مما اعتاد العرب علي ارتجازه فى حداء الإبل بالسفر وما أثر عن الرسول وصحابته في الحج والغزو وفي بناء المسجد وحفر الخندق .. طالما أنه يحرك لحال سنية تذكر بالعمل فى الدنيا للآخرة فكل شعر كان حكمة أو فيه الأمر بالطاعة أو حث علي مكارم الأخلاق والزهد ونحو ذلك من خصال البر وتجنيب المعصية هو سنة - كما قال الأذرعي - الذي يستحسن قول الماوردى: « الشعر فى كلام العرب مستحب إن حذر من الدنيا أو رغب فى الآخرة أو حث على مكارم الأخلاق، ومباح إذا سلم من الفحش والكذب، وهو محظور إذا اقترن بهذا أو ذاك .

وبناء عليه نقل عن الجنيد (من أكابر الشافعية) أن السماع على ثلاثة أقسام . سماع العوام - وهو حرام عليهم لبقاء نفوسهم ، وسماع الزهاد ، وهو مباح لهم لحصول مجاهدتهم ، وسماع العارفين المستحب لحياة قلوبهم - ومما لتفصيل القول فيه كان من أهم كتب الإمام ابن حجر المكي الهيثمي : « كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع » الذي يذكرنا بكتاب الإمام الغزالي « إلجام العوام عن علم الكلام » .

استحباب الغناء بالشعر ترويحاً للنفس وحفزاً للهمم والنشاط

كان الإمام الهيثمي قد ألف هذا الكتاب للرد على فقيه مالكي متصوف مصري الموطن تونسي الأصل في كتاب ألفه باسم « فرح الأسماع برخص السماع » اتخذه (الغاوون) مرشداً وناصحاً وداعياً إلى الحق ، فجاهروا على الملأ بما أباح لهم من محرمات اصغاء لكل ناهق وناعق ، ولم يراعوا حق الله في بلده الحرام (التي كان الإمام قد استقر بها للتدريس والافتاء كما سنرى) ، ولا خشوا عذاب الله يوم الحساب ، حيث قام يكسر آلات لهوهم بيده ، وتعزيرهم في الأسواق، وتشديد العقاب عليهم حتى لزموا حدودهم وتحفظوا في مجاهرتهم - إيماناً منه كما يقول بالحديث الشريف . الذي رواه ابن مسعود أن الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل ، وفي رواية أبي هريرة : العشب ، والحديث الذي رواه أنس ، من قعد إلى قينة يستمع إليها صُبّ الله في أذنيه الأنك - أي الرصاص المذاب.

وكان الإمام ابن حجر المكي الهيثمي السعدي الأنصاري الشافعي ، شهاب الدين شيخ الإسلام أبو العباس الفقيه ، ينسب إلى محلة أبي الهيثم من إقليم الشرقية بمصر المحروسة التي ولد بها سنة ٩٠٩ هجرية - حيث كفله بعد وفاة أبيه وهو صغير الامامان شمس الدين ابن أبي الحمايل والشناوي ، وفي مقام أبي الفتيان سيدي أحمد البدوي (بعاصمة الغربية طنطا) حفظ القرآن وتعلم ، ثم في الجامع الأزهر بالقاهرة أتم تعليمه - حيث أذن له بالتدريس والإفتاء وعمره دون العشرين. وفي سنة ٩٧٤ توفي بمكة المكرمة التي كان قد حج إليها وجاور واشتغل بالتدريس والإفتاء . وبقدر ما سرني الرجوع إلى كتاب « كف الرعاع ». الذي نشرته دار الشعب -(١٩٨٠) لتلخيص « محرمات اللهو والسماع » ، فقد أهاج خواطري كون الإمام الهيثمي (بلدياتي) وبلديات رفيق الصبا والشباب وزميل الدراسة بالزقازيق الثانوية أول الأربعينات الأديب الشاعر الغنائي الفنان الرسام الموسيقي العازف على العود

والمصور الفوتوغرافي المدلل الرفيق - مرسي جميل عزيز - صاحب الألف أغنية عاطفية رقيقة لكبار الملحنين والمغنيات ، التي تسيل عذوبة ورقة بلا نشاز أو لفظة نابية - لقد فرقت بيننا السبل بعد الثانوي لكننا ظللنا إلى قبيل وفاته لا تفوتنا أية فرصة اتصال به والجلوس إليه بقهوة مصر وحديقتها لنستعيد سماع إبداعاته في استلهام ألحان أغانيه : يا امه القمر عالباب، توب الفرح ياتوب ، مكاحل مكاحل، .. بيت العز يابيتنا .. حيث لا بذاءة لفظ أو همسة فجور تثير الشهوة أو تهبط بسمو الروح والوجدان .

محرمات الشدو والسماع خصوصا المقترن بالعزف والرقص والمجون

فالقسم الثاني من الغناء بالمد والكسر الذي هو رفع الصوت بالشعر - الذي يلي القسم الذي اعتاده الناس للترويح عن النفوس وتنشيط الهمم والعزائم للعمل - مما سبقت الإحاطة بإباحته ، والذي هو ما ينتحله المغنون العارفون بصنعة الغناء المختارون المدن في غزل الشعر مع تلحينه بالتلحينات الأنيقة وتقطيعه لها على النغمات الرقيقة التي تهيج النفوس وتطربها كحميا الكؤوس ، فهذا هو الغناء المختلف عليه في أقوال العلماء ما بين **حرام** (قال عنه القرطبي على مذهب مالك انه يترخص فيه أهل المدينة بما يفعله الفسّاق وكذلك أهل الكوفة على مذهب أبي حنيفة) كحرمة الميتة، **ومكروه** عند الشافعي وأحمد وأكثر أصحابهما من أهل البصرة - خصوصاً سماع الغناء من أجنبية مع أمن الفتنة فهو شديد الكراهية ومع خوف الفتنة بها ومن الأمرد الحسن حرام بلا خلاف ، **ومباح** على قول ابراهيم بن سعد والعنبري في النوع الأول لمن لا يزالون من الصحابة والتابعين ومن الحجازيين يسمعون السماع في أفضل أيام السنة الأيام المعدودات - وهما مبدعان في اعتقادهما أو اجتهادهما مهما حكى عنهما القشيري الشافعي عن مالك .

أما رابع تنبيهات الهيثمي في هذا الشأن فهو ما يحرم كثيره (الذي يدخل في باب السفه عند الشافعي) ويدل على ترك المروءة عند الأذرعي دون قليله - أي عدم الإباحة بإطلاق .

الخامس أنه لما كان الغناء يحرم فعله وسماعه إلا إذا كان في بيت خال - بما يظن رجوعه لرد الشهادة بالمجاهرة دون الإخفاء ، مع الرد على ذلك بأن هذا لا ينافي الحرمة ، فمن تحمل شهادة يحرم عليه فعل خارم لمروءته وان أبيح في نفسه لأن فعله إبطال لحق الغير .

السادس : يحرم الغناء إذا كان من امرأة لرجل أو لرجال ، أو من رجل لامرأة ونساء ، أو إن اقترن به نحو مسكر أو أكثر منه أو انقطع إليه .

السابع : إن صحت النية فيه لم يكره، وإلا كره (الكافي للخوارزمي) .

الثامن : يجوز الغناء وسماعه إن سلم من تضييع فرض أو حرمة مبيح وكان من رجل أو محرم لرجل ولم يسمعه على قارعة طريق ولم يقترن به مكروه .

التاسع : يحرم الغناء إن كان بجعل - كما نقل الأستاذ (أبو منصور) عن الشافعي .

العاشر : وهو طاعة ان نوى به نزوع القلب على الطاعة ، ومعصية إن نوى به التقوية على المعصية . فان لم يكن به نية الطاعة أو المعصية فهو معفو عنه ، كخروج الإنسان إلى بستان وقعوده على بابه متفرجا (الغزالى وابن حزم) .

حادى عشر : إن كان ما استعمل يحتمل وجهين جائزاً وحراماً فسماعه جائز ، وإن لم يحتمل إلا وجهاً واحداً (وهو وجه الفسق) فحرام .

وعموماً فتحريم سماع الغناء من حرة أو أمة أجنبية - فى التنبيه الثانى - بناءً على المأثور من أن صوت المرأة عورة ، سواء أخاف فتنة بها أم لا ولو من وراء حجاب ، وهو الراجح ولا خلاف فيه ، ولو لم يكن المغنى أو المغنية محل الفتنة ، لكن استماع الغناء منه يبعث على الافتتان بغيره من الناس ، فهو حرام لما فيه من الخبث وتحريك القلب الخرب إلى ما يهواه لا سيما أهل العشق والشغف ومن ينشغل بصورة خاصة . أما بناء على أن صوت المرأة غير عورة - وهو الأصح - فلا يحرم إلا إن خشى فتنة . هذا هو الفيصل فى عدم تحريم سماع مجرد الغناء من غير آلة. والهيثمى يستطرد بعد ذلك فى حكم سماع الغناء المقترن بالرقص أو نحو دف أو وتر أو مزمار أو بالطبول وسائر الأوتار والمعازف ، وفى الباب الثانى من الكتاب يفصل القول فى أقسام اللهو المحرم كاللعب بالنرد أو الشطرنج ... بالخاتم وبالجوز والحمام ، والمصارعة ومسابقات الجرى ونحوها - مما الضابط المعول عليه فى إباحته أو تحريمه أنه إذا كان المعتمد فيه الحذر والتخمين فهو حرام، أما إذا كان المعتمد فيه الفكر والحساب فهو حلال.

معايير التعبير عن الابداع : المجاهرة بتدنيس الجنس وتسفيه المعتقدات

حدود حرية التعبير إذن بالفنون والآداب فى الانشاد والغناء والشدو والسماع - للترويح عن النفس وشحذ الهمم للعمل والنشاط - عدم إيقاع الفتن وإشاعة الفاحشة ، بما يؤديان إليه من اللهو عن الطاعات والجرّ إلى المعصية باقتراف المحرمات . وقد تبين لنا ما انتهى إليه حماة حق الأديب والشاعر والروائى فى حرية الفكر والابداع من أن عليه أن يتحوط لنفسه أثناء هيمانه

وتجلياته من الوقوع فى الشطط . والتبذل أو خدش الحياء الاجتماعى أو جرح المعتقدات أو هدم المقدسات .. مما يؤدى إلى مصادرة عمله الفنى ويضطر زملاء المهنة إلى المطالبة بالافراج عن العمل وصاحبه ومن ثم إلى مناوأة السلطات المسئولة عن الرقابة على الفنون والآداب ، ومما يؤدى إلى أن ينقسم المثقفون أنفسهم حول مدى تجاوز المبدع حدود حرية التفكير والتعبير، ومدى حق السلطات الدينية والاجتماعية والسياسية فى درء الفتن الطائفية والافتراءات العقائدية ومجافاة آداب العلاقات الجنسية .. حين لا يحرص المفكر أو الفنان من تلقاء نفسه على أن يجعل من ضميره هو رقيبا عليه - وكفى الله المبدعين القتال .

ومتى سلمنا بكون الإنسان كائناً اجتماعياً ، حتى وهو فى خلوته مع نفسه ، وبأن الاستحسان أو الاستهجان فالقبول أو النبذ هما سلطة الرقيب الاجتماعى عليه باسم القانون والتقاليد والأعراف كضبط اجتماعى دنيوى ، وبأن الثواب والعقاب فى الآخرة هما جزاء الطاعة أو المعصية لما أحل وحرم ، ما أمر به وما نهى عنه الخالق المبدع المطلع على خفايا النفوس وخائنة الأعين .. فإن من المستغرب أن يعمد الانسان الذى اصطفاه الله فعلمه ما لم يعلم وآتاه الحكمة والرشاد ... بدعوى الخلق والابداع - إلى المجاهرة بالمعصية وهو يستلهم منه ويستدعى لابداعه شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ! ونتساءل هل يساوى الشذوذ والتفرد بالجنون والعبقرية الفساد فى الأرض وتقطيع الأرحام وتدنيس العبادات وتلويث المصونات واستباحة الأعراض .. التى تهز قواعد المجتمع الانسانى لتقضى على مرتكبها وفاعلها أول ما تقضى ولا يفيد بعد ذلك توبة أو ندم أو استرحام أو انتحار ؟ .

وما بال الذين يريدون حقاً وصدقاً أن يتفوقوا فى صناعة الأدب وصياغة فنون القول والتعبير لتسير بذكرهم الركبان فى مواكب المبدعين والخالدين لا يتأسون ببلاغة آيات القرآن فى التعبير عن أدق خلجات العلاقات الانسانية فى الحياة الجنسية بأرقى الأساليب وأسماها باعتبارها وظيفة بيولوجية للذكر والأنثى تهدف للتناسل وتعاقب الأجيال وعمارة الكون وخلافة الله فى الأرض ... بعبارات الزواج والسكن واللباس والمباشرة والرفث - مما يجعل اتصال الجنسين عبادة وطاعة، ومن العزوف عن الزواج إثماً ومعصية ؟ ومما على هدى منه تدرس فى كليات الطب للبنين والبنات وظائف تشريح الأعضاء التناسلية للذكر والأنثى بلا خجل أو استحياء - حيث لا حياء فى العلم ، خصوصاً الذى يسعى إلى فحص وعلاج أمراض الحمل والولادة وحماية الطفولة

والأمومة حفاظا على النوع ؟ وأنه على هذا النهج لقداسة الحياة الجنسية كان تناول الفقهاء لأدق تفاصيل أحكام المحرم والشاذ من العلاقات الجنسية كالزنا واللواط والاغتصاب والظهار .. التى تستوجب عقوبات الجلد والرجم فى الدنيا وعذاب الله فى الآخرة ، والموانع الشرعية فى إتيان الذكران وغشيان المحارم من ذوى القربى ، والطلاق والتحليل ... وتفاصيل أحكام الوجوبى كالتطهر من الجنابة ، والإحصان من الخيانة بالدخول فى عقد النكاح ، واشهار شرعية القران باعراس الولائم والغناء ، وعدم تحريم ما أحل الله من تعدد زيجات وطيبات عيش وزينة ...

ثم ما بال الذين يريدون التميز بالابداع وكفالة حرية التعبير بالفنون والآداب لا يترفعون عن التفكير فى الحب أو الجنس ـ لا على أنه شهوة بهيمية أو غريزة عمياء لا ترعى فى سورتها لطلب الإشباع حرمة ولا ذمة بدلا من اتخاذها وسيلة رضى الله الذى جعلها وظيفة قدسية يستخلف بها الانسان طاعة وعبادة لا معصية وإفساداً كما أراد لاتصال الذكر والأنثى بالصورة الشرعية التى حددها أن يكون انتقالاً من القدسى إلى الجنسى وطهارة من الحدث الأكبر الذى حلله الله نعمة ومتعة لحب الحياة وحركة الوجود ... فى تجرد من العرى الفاضح وكشف العورة الذى ستره اللباس لكيلا نرى سوأتنا ـ وعموما ثقافة البورنو الواعرة التى يروج لها الغرب وممارسات المسلمين منذ صدر الإسلام لانحرافات الأعاجم الداخلية فى الإسلام .. مما جعل أكبر علماء الاجتماع والنفس العرب عبدالوهاب بو حديبة يكتب بالفرنسية (١٩٨٥) تعريفاً للغربية بسمو فكرة الجنس فى الإسلام وأن الانحراف عن مثالياته هو فى ممارسات المسلمين ـ الكتاب الذى أعادت ترجمته الرائعة عن الانجليزية ـ مزيدة ومنقحة فى مطلع الالفية الثالثة والقرن الحادى والعشرين ـ الكاتبة القدسية المولد هالة الغورى ـ لينضم إلى رصيد كتاباتها القومية المبدعة منذ اهتمامها بكتاب « الإسلام والجنس » للعلامة بوحديبة ـ جزاهما الله عن العرب والمسلمين خير الجزاء .

وجوب تنشئة الصغار على آداب النظر للمحارم والرقابة على مثيرات شهواتهم وافسادهم

وانه لمن أجل التصدى لاشاعة فنون العرى الفاضح وثقافة البورنو الخليعة والانحلالية التى تهدد باباحية العلاقات الجنسية وتفكك نظم الأسرة والزواج ـ خصوصا فى عالم السموات المفتوحة وأطباق استقبال القنوات الفضائية وغزو شبكات الاتصال ... كان اهتمام المربين العرب المسلمين بتنشئة الأولاد والبنات

تنشئة دينية قوامها تلقين الصغار في سن التمييز (من السابعة إلى العاشرة) آداب الاستئذان وآداب النظرة الأولى بتعويدهم واجب الاستئذان على الأهل في أوقات يكون الرجل والمرأة بها في حال لا يجب أن يطلع عليها أحد من الصغار - ثلاث عورات من قبل صلاة الفجر ، وحين وضع الثياب بالظهيرة ثم من بعد صلاة العشاء، وكذلك - من باب أولى - إذا بلغ الأطفال الحلم وتجاوزوا مجرد التمييز ، والثانية بتعويدهم على أدب النظر إلى المحارم (سبع النساء المحرمات بسبب النسب ، وأربع المحرمات بسبب المصاهرة . زوجة الأب ، وزوجة الابن ، وأم الزوجة ، وبنت الزوجة الربيبة في حجر زوج أمها التي دخل بها) ، يلي ذلك الأمهات من الرضاعة. بل هناك أدب النظر إلى الزوجة في جميع بدنها المباح شرعاً (إلا إلى عورتها ونظرها هي عورته بتفضيل) لان ما يجوز في كله المس والجماع لا يحرم على الزوج مادونه - كذلك آداب النظر إلى المرأة الأجنبية ، والرجل الأجنبي ، والصبي إن كان مراهقا أو مميزا ، والنظر إلى الغلام الأمرد ، وإلى عورة الصغير... مقابل الحالات المباح فيها النظر بالضرورة بقصد الخطبة، أو التعليم، أو المداواة، أو المحاكمة والشهادة.. مما لا يزال الرجعيون من المسلمين يحرمونه على النساء المسلمات وتتصدى للدفاع عنهن في هذا المجال منظمات حقوق الانسان بدعوى ظلم الاسلام للمرأة وعدم مساواتها بالرجل في حقوقها المشروعة.

أما في سن المراهقة (مابين العاشرة والرابعة عشرة) فان التربية الجنسية تنصب على تجنيب الولد الاثارات الجنسية. بالرقابة الداخلية على الأولاد في الظهور على زينة النساء وعوراتهن والتفرقة بين البنين والبنات في المضاجع».. فالرقابة الخارجية على تعرضهم لمفاسد السينما والمسرح، ولأزياء النساء الفاضحة، والمظاهر الخليعة، والصحبة السيئة، والاختلاط بين الجنسين، ومواخير البغاء والدعارة السرية والعلنية.. ومن الوسائل الايجابية في تجنيب الولد مواطن الاثارة فالانزلاق في هذه المفاسد التوعية بمذاهب المفسدين في الأرض كاليهودية والماسونية والشيوعية والالحادية، التحررية الانحلالية، التحذير من اخطار الزنا (أمراض الزهرى والسيلان والايدز)، التخويف من العواقب النفسية الاجتماعية والاقتصادية الوخيمة، عذاب الله في الآخرة. واخيرا ففي سن البلوغ (من ١٤ الى ١٦) وما بعد البلوغ والرشد يعلم الشباب آداب الاتصال الجنسي اذا كان مقبلا على الزواج، وآداب الاستعفاف اذا لم يكن قادرا عليه بعد، ويلقن حث الدين على الزواج وتحريمه العزوف عنه

باستمرار العزوبة والهروب من تحمل مسئولياته، وأن تصريف الشهوة فى الحلال له ثوابه عند الله - لأن الإسلام لا يبيح الكبت أو العزوبة او الحرام، كما يعرف بحقوق الزوجة الشرعية كشريكة حياة منذ الدخول بها والخلوة اليها وطوال حياتهما الزوجية (عبدالله ناصح علوان: تربية الأولاد فى الإسلام ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، حلب وبيروت، طبعة اولي (١٩٧٦) وثالثة ١٩٨١ - جزآن.

ومع كل هذا لا يزال العرب والمسلمون يتجادلون ويتحاورون، بفضل ما للغة العربية من طلاقة لبيان وقوة بيان ونصوع حجة وبرهان، وما للاسلام من عالمية نزول ومخاطبة للكافة، خصوصا فى ظل ما استشرى فى كل انحاء العالم الجديد من دعوة (للحوار) بدل العنف والارهاب فى تقبل الرأى الآخر والشخص الآخر وبدعوى الدفاع عن حقوق الإنسان.. وخصوصا ايضا ان العرب كما قال ابن خلدون - اهل عصبية ورياسة، كل امرىء منهم أمة وحده، وكل حزب بما لديهم فرحون، لايملون من الحوار والجدل - لا الجدل بالمعنى الفلسفى الذى هو انتقال من الموضوع الى النقيض فمركب الموضوع، ولا يكفون عن الكلام - لا بمعنى علم الكلام الذى هو علم العقائد والملل والنحل الذى حاول الشهرستانى - لكيلا يجىء عدد مذاهب الملة بقدر عدد أصحاب المقالات حصره فى الثلاثة والسبعين فرقة إلى الناجية منها واحدة أهل السنة والجماعة - بل ذهب النوبختى الى عد مذاهب الشيعة وحدها بمائة وتسعة عشر .. بل بمعنى الكلام الذى هو رفع الصوت بالشجب والاستنكار حتى فى اعلى المستويات على الصعيد القومى والدولى والعسكرى السياسى والاقتصادى بحيث ينتظر العدو صدور مقررات اجتماعاتهم واعلام بياناتهم ليبادر بتنفيذ سياسته هو فى عدم المبالاة بهم . أما على الصعيد الوطنى لكل دولة عربية فان وزارات الثقافة والاعلام تكاد تعقد لجانها المتخصصة فى شتى فروع العلوم والفنون والآداب والثقافة العلمية والهندسة البيولوجية والوراثية والاتصالات وكل يوم تقريبا ندوة أو مؤتمر أو حلقة دراسية عن أحد افرازات العولمة وحرية التجارة والتنوير والحداثة ومابعد الحداثة تناقش فيها بحرارة موضوعات التكتلات الاقتصادية والسوق المشتركة والجودة للتصدير وقروض الاستثمار.. وخطر التبعية السياسية والاقتصادية على الهوية الثقافية القومية، واباحة استنساخ الحاصلات الزراعية والثروة الحيوانية ونقل الاعضاء، وتأجير الارحام وقضايا الخلع وسفر الزوجات.. مما تتضارب حوله فتاوى العلماء والفقهاء.. وتطول

وتتجدد المناقشات دون ان يصل المتحاورون إلى المتوسط والاعتدال أو التجاوب مع التغيرات التى يفرضها طوعا او كرها العصر الذى يعيشون فيه

ضرورة حماية الشباب من التيارات الفكرية الجارفة في عصر السموات المفتوحة

ولعل هذه الطبيعة المتأصلة فى نفوس العرب والمسلمين أفرادا وجماعات من حيث حب الجدل والكلام وإيثار القول على الفعل انما ترجع ليس فقط لما اثاره اختلاطهم بعد العدد الأول للإسلام من شبهات في العقيدة التى دخلها الفرس واليهود والمجوس والصابئة. بل ربما - كما يقول المفسرون وعلماء التاريخ ومقارنة الأديان منذ بدء الخليقة ومجادلة إبليس اللعين ربه تعالى اثر عصيان أمره بالسجود لآدم، اذ يقولون ان اول شبهة وقعت فى الاسلام فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم كانت من المنافقين والكفار حين «جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق»، وسألوا فيما منعوا السؤال عنه «ويسألونك عن الروح» وعن البعث والنشور، والحساب والاختيار ان عشر الخلافات التى ثارت فى الأمة ومازال النبى على قيد الحياة حول الامامة والخلافة حتى زمان الخوارج والغلاة على الإمام على التى انهت عصر الراشدين إلى ملك بنى أمية .. التى هى امتداد سبع خلافات ابليس اللعين التى عصى فيها خالقه بالسؤال عن حكمة خلقه على مقتضى مشيئته، وأمره بالسجود لآدم المخلوق من طين وهو من نار، وطرده من الجنة ثم ادخاله اليها لاغواء آدم وذريته، وانظاره الى يوم يبعثون.. مما يمكن حصره كشبهات فى القواعد الأربعة الأصولية الكبرى الصفات والتوحيد، القدر والعدل، الوعد والوعيد، السمع والعقل والرسالة والأمانة - عنها تفرعت أشهر الفرق التى اختلفت حول أو بعض هذه المسائل. فأضاف الطالبون عند الغزالى أربعة: المتكلمون أهل الرأى والنظر، الباطنية المخصوصون بالتعليم عن الامام المعصوم، الفلاسفة اصحاب المنطق والبرهان الصوفية خواص الحضرة وأهل المكاشفة بين كل هذه التيارات المتلاطمة عاش العرب ماضيهم وحاضرهم . وسط شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا، فلا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم - ولا عاصم اليوم من أمر الله .. فى قضية التعبير والابداع - إلا بكف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع درأ لإثارة الفتنة واشاعة الفحش، والاستمتاع بابداعات الفنون والآداب فى حدود عدم اللهو عن الطاعات والحث عن عمل الصالحات. ■



القاضى الدولى

نبيل العربى

بقلم
أميـن يسـرى

حظيت مصر العربية بنصيب مرموق في محكمة العدل الدولية لثالث مرة في تاريخ المحكمة والدبلوماسية المصرية، وذلك عندما اجمعت لجنة القانون الدولي بالجمعية العامة للأمم المتحدة الشهر الماضي «أكتوبر ٢٠٠١» على اختيار السفير الدكتور نبيل العربي قاضيا بمحكمة العدل الدولية بعد استقالة القاضي العربي الجزائري الذي ظل يشغل هذا المقعد على مدي عشرين عاما .. ويأتي نبيل العربي الثالث بعد عبدالحميد «باشا» بدوي، والدكتور عبد الله العريان، ولم يحظ هذا الخبر على أهميته باهتمام يذكر في وسائل إعلامنا فقد أشارت الصحف إليه كخبر مقتضب ودون تعليق سوي ما جاء في العامود اليومي للأستاذ سلامة أحمد سلامة في جريدة «الأهرام» وانفرد به .

على أن السيد الرئيس كان سباقا للفضل مقدرا لما لهذا الخبر من أهمية فتفضل باستقبال الدكتور نبيل العربى فى وقت مبكر من صباح يوم كان مشحونا بنشاط مكثف للسيد الرئيس لافتتاح إنجازات تمت، فوجد السيد الرئيس أن الإنجاز الذى تحقق باختيار الدكتور نبيل العربى هو فى ذات الأهمية إن لم تكن أكبر وأعظم .





والواقع أن هذا القصور الإعلامي في تقديري يسأل عنه إلى حد ما نبيل العربي ذاته، فهو بطبعه وتواضعه لايخشى أضواء كاميرات الصحفيين، ولكنه لايسعى لها. كان دوما كذلك. وأذكر أنه عندما التقطت صورة تذكارية لخريجي كلية الحقوق جامعة القاهرة - عام ١٩٥٥ جاء موقعه - مع الدكتور جلال أمين - في آخر الصفوف، رغم إنه بتفوقه كان من حقه أن يحتل الصف الأول، وإلى جانب عميد الكلية - الأستاذ الدكتور عبد المنعم بدر - الذي كانت تربطه مع سائر أساتذة الكلية علاقة وطيدة بزميلهم الأستاذ محمد عبد الله العربي - والد نبيل - وكان نبيل بالنسبة إليهم في منزلة الابن.

لم يكن تفوق نبيل العربي في دراسته ومن بعد في الوظائف التي تقلدها وليد المصادفة أو حسن الحظ. بل شكل عاملان في بلورة هذا التفوق ودفعه للمكانة التي يستحقها، أولهما المدرسة التي ألتحق بها في المرحلة الابتدائية والثانوية وثانيهما البيت الذي تربى فيه.

مدرسة نموذجية

كانت المدرسة النموذجية - التي سميت فيما بعد النقراشي النموذجية بعد اغتيال رئيس الوزراء النقراشي باشا الذي كان ابنه أحد طلبة المدرسة - نموذجا أعده الأستاذ القباني «بك» وكيل وزارة المعارف حينئذ - لتكون تجربة لما يجب أن تكون عليه سائر مدارس القطر، وكان عدد طلبتها لايزيد على مائة وعشر طالبا يرتدون زيا خاصا ولايزيد عدد طلاب الفصل الواحد عن خمسة عشر طالبا وأحيانا أقل من ذلك - ويتلقون تعليمهم على يد خير الأساتذة. فالدكتور خليل صابات عميد كلية الإعلام فيما بعد هو الذي تعلم نبيل العربي على يديه اللغة الفرنسية، وكان الدكتور رشاد رشدي عميد أكاديمية الفنون فيما بعد هو الذي درس اللغة الانجليزية لنبيل العربي وأقرانه، وكان الأستاذ الدكتور يوسف خليل هو الذي علمنا الجغرافيا، والحديث عن هذه المدرسة يطول. لكن يكفي القول إنها أثمرت وخرجت نبيل العربي وجلال أمين وغيرهما الذين احتلوا جميعهم مناصب مرموقة في الحياة العامة حتى يومنا هذا. وهو ما يؤكد أهمية التربية الصحيحة في تكوين الرجل الناجح.

أما العامل الثاني في تكوين نبيل العربي فقد كان البيت الذي نشأ فيه. فوالده أحد الرواد الأوائل المالية العامة. ولم تكن ريادته مقصورة على العلم بل كان أبا فاضلا لنبيل وزملائه يرعاه ويرعاهم بكل حدب وحب ويفيض عليهم من حيز نفسه الكثير.

وكانت والدة نبيل العربي أيضا تشغل مكانا مرموقا بوزارة

● كان له دور كبير في مباحثات طابا التي أعادت الحق إلى أصحابه



نبيل العربى
أمين يسرى
وجلال أمين عام
١٩٥٢

المعارف وكانت أول سيدة مصرية تتولى المنصب الذي كانت تشغله قبلها سيدة بريطانية أتى بها الاستعمار البريطانى كما أتى بغيرها ليحتلوا أكبر المناصب والمواقع بوزارة المعارف للهيمنة على عقول الطلاب المصريين.

فى هذا المناخ العلمى نشأ نبيل العربى وفى هذا البيت الطيب تربى وفى هذه المدرسة النموذجية تلقى تعليمه على يد أفضل الأساتذة.

دور عميق للزوجة

وكان لزوجة نبيل العربى دور أيضا فيما حقق وفيما شغل من مناصب فقد تزوج من السيدة نادية تيمور العميدة بكلية الهندسة حينئذ، والتى جمعت بينهما رياضة التنس بنادى هليوبوليس وأصبح هو والأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل زوجان لشقيقتين لهن شقيقات متزوجات من رجال أعمال كانت لهم مساهماتهم الكبيرة فى المجالات الاقتصادية فى مصر، وأنجبت له هشام ومروان ومى، ومن يعرف هذه الزوجة عن كثب يستطيع أن يلمس دورها المهم فى حياته.

بدأ نبيل العربى خطاه فى الحياة العملية بعد تخرجه فى كلية الحقوق بالعمل بالمحاماة بمكتب الأستاذ الدكتور حنفى أبو العلا الذى كان من أكبر إن لم يكن أكبر مكتب للمحاماه فى القاهرة فى ذلك الحين، وبعد أن أمضى فترة التمرين التحق بهيئة قضايا الدولة التى كانت تسمى قلم قضايا الحكومة وبقى بها فترة قصيرة فقد تقدم لامتحان الملحقين الدبلوماسيين ونجح بتفوق، ومضى فى عمله فى السلك الدبلوماسى فتنقل بين عواصم عدة كالخرطوم وروما وجنيف «المقر الأوربى للأمم المتحدة» ونيويورك «الوفد الدائم» حتى عين سفيرا لمصر فى الهند ثم عاد إلى جنيف ومنها انتقل إلى نيويورك رئيسا لوفد مصر الدائم لدى الأمم المتحدة، أما فى ديوان وزارة الخارجية فقد كانت كفاءته سببا فى اختياره للعمل بمكتب وزير الخارجية كما ترأس إدارة الشئون القانونية .

وبعد أن بلغ الدكتور نبيل العربى سن الستين «وهو من مواليد ١٥مارس ١٩٣٥» بالقاهرة فقد رأت وزارة الخارجية أن الحاجة ماسة له فاستصدرت قرارا بمد مدة



كقاض بمحكمة العدل الدولية أمامه تحديات كثيرة يمر بها العالم اليوم

خدمته أربع سنوات أخرى قضاها رئيسا لوفد مصر الدائم لدى الأمم المتحدة فى نيويورك، فلما انتهت هذه الفترة وعاد إلى مصر عاوده الحنين للعمل بالمحاماة مرة أخرى، فانضم الى مكتب الأستاذ الدكتور زكى هاشم للمحاماه وهو واحد من أكبر مكاتب المحاماه فى مصر حيث تولى قضايا التحكيم الدولى بكفاءة واقتدار، كما اختارته الجامعة الأمريكية عضوا بمجلس الأمناء بها، ومع هذا ظل الدكتور نبيل العربى على حرصه على متابعة اجتماعات لجنة القانون الدولى فى جنيف ولجنة تعويضات حرب الخليج التابعة للأمم المتحدة ، ورغم ثقل كل هذه الأعباء فقد كنا نجده متابعا للشئون الداخلية على خط متواز مع متابعة للشئون الدولية ملما بكل تفاصيلها دون أن يحول كل هذا بينه وبين نشاطه الاجتماعى فكان يلبى عن طيب خاطر دعوات أصدقائه كما كان يقيم لهم حفلات الغداء والعشاء حتى أن المرء كان يحتار فى قدرته على الوفاء بكل هذه المتطلبات رغم أنه الحريص على النوم مبكرا قبل الحادية عشرة مساء.

ويبقى الدكتور نبيل العربى ويبقى تواضعه وزهده عن الإعلان عن نفسه بل حتى التحدث عن مواقف له أثناء مشاركته فى أحداث تاريخية مسئولا عن عدم معرفة خبايا هذه المواقف التى فى الإعلان عنها مايرفع قدره بين مواطنيه ويكشف الستار عن وقائع كان لها تأثيرها فى النتائج التى تحققت من حق مواطنيه عليه أن يعرفوها له وللتاريخ.

جهد خارق فى كامب ديفيد

لقد شارك الدكتور نبيل العربى مع كوكبة من الدبلوماسيين والقانونيين المصريين فى مباحثات كامب ديفيد «سبتمبر ١٩٧٨» م مع الوزير أحمد ماهر وزير الخارجية الحالى والسفير عبدالرءوف الريدى والسفير أحمد أبو الغيط، وتكشف مذكرات الوزير محمد إبراهيم كامل والرئيس كارتر ووليم كوانت وبريزنسكى وموشى ديان وفايتسمان عن ملامح الجهد الذى بذلته مجموعة الخارجية، ولكن أيضا عن ضيقهم وعدم موافقتهم على صيغة معدة للتوقيع عليها كان الرئيس الراحل السادات قد وافق عليها .. وعندما حل الليل على جبال كاكوكتين فى كامب ديفيد وقبل أن يتفرق الجميع طلب عضوان بالوفد الأمريكى من الحاضرين التوقيع على خريطة لكامب ديفيد . ولم يكن ينقص هذه التوقيعات سوى توقيعات موظفى وزارة الخارجية المصرية . وقد التقيا بهم فيما بعد وهم يتنزهون على أقدامهم فى الممر وطلب عضو الوفد الأمريكى، منهم إضافة توقيعاتهم على الخريطة لكن اجابوا جميعا «بالقطع لا .. لن

نوقع حتى يحل السلام فعلا..» وفشل عضو الوفد الأمريكي في إقناعهم وأدرك بذلك أن شيئا ما قد حدث وعرف هو وزميله بعد وقت قصير أن هناك استقالات واسعة النطاق بين أعضاء الوفد المصرى : الوزير محمد إبراهيم كامل واثنان من مساعديه أحدهما نبيل العربى، ولاتذكر أى من المراجع تفاصيل إضافية، لكن المؤكد أن الدكتور نبيل العربى لم يقدم استقالته كما أشيع لكنه تعرض لموقف صعب عندما أنابه فريق الخارجية المصرية للتوجه إلى حيث إقامة الرئيس الراحل وإبلاغه بوجهات نظرهم وملاحظاتهم على الاتفاقية التى وافق عليها فى غيبتهم، وكان اختيار فريق الخارجية المصرية للدكتور نبيل العربى مبعثه العلاقة الخاصة التى كانت تربطه بالرئيس السادات حيث تجمع صلة القرابة بين والدته والسيدة جيهان السادات، كما كان الرئيس السادات كثير التردد على منزل والده، واستجاب الدكتور نبيل العربى لطلب زملائه وتوجه حيث قابل الرئيس السادات الذى ما كاد يسمع رأى وملاحظات الدبلوماسيين المصريين حتى انفجر غاضبا متهما إياهم بأنهم مجرد موظفين ولايرون مايرى من نظر بعيد وأن رؤيتهم لاتتعدى المسافة بين أنظارهم ومواقع أقدامهم، لكن الدكتور نبيل العربى لم يتاجر بموقفه هذا ولم يستخدمه فى الإعلان عن نفسه فقد اعتبر أنه قام بواجبه وهذا حسبه.

دوره فى مباحثات طابا

ثم كان للدكتور نبيل العربى دور كبير فى مباحثات طابا ثم دور أكبر بعد احالة الخلاف الى لجنة تحكيم دولية، ولم يشر الدكتور نبيل العربى إلى تفاصيل مهمته الشاقة فى أى من أحاديثه أو ماكتب بل جاءت مقدمة الكتيب الذى صدر عن هذه القضية وكتبها موضوعية تماما تناول فيها حق مصر فى طابا من النواحى التاريخية والجغرافية والقانونية مسقطا تماما دوره الشخصى فى هذا الجهد الذى كلل بالنجاح بعودة طابا إلى الوطن وكان هذا حسبه أيضا.

وأمام الدكتور نبيل العربى فى منصبه الجديد الذى هو جدير به كقاض بمحكمة العدل الدولية تحديات كثيرة، لعل أولها جديد هذا المنصب الذى لم يألفه من قبل، رغم أنه لم يكن بعيدا عن المحاكم والتحكيم وسبق له المرافعة فى قضية طابا وغيرها، والتحدى الآخر هو كيفية المشاركة فى إصدار الأحكام فى القضايا المنظورة أمام محكمة العدل الدولة وفيها قضية أقامتها الجماهيرية الليبية تتصل بقضية لوكيربى والحصار الذى فرض عليها وهى قضية أغلب الظن أن محامى خصوم ليبيا فيها سوف يدفعون بطلب تنحى القاضى العربى عن نظرها.

تحديات عديدة سوف تواجه الدكتور نبيل العربى فى منصبه الجديد لكن علمه وتواضعه ونزاهته هى من أبرز الصفات المطلوبة فى القاضى العادل، ومن هنا فمن المتيقن أنه على مدى خمس سنوات فى منصبه الجديد والتى بدأت يوم الاثنين ٢٠٠١/١١/١٩ سوف يؤكد أنه سيكون خير خلف لخير سلف أنجبتهم مصر كان أولهم عبد الحميد باشا بدوى والأستاذ الفاضل الدكتور عبد الله العريان، فمصر ولادة للنجباء، والعظام على مدى التاريخ لكنها متواضعة فيكفيها فخرا أن لها مثل هؤلاء الأبناء. ■

نفحات رمضان

رمضان والمترفون

جوانب وصور رائعة في رمضان

بقلم

د. محمد رجب البيومي

ماذا تظن حين تقرأ هذه العبارة «بمناسبة شهر رمضان المعظم» إنك تقرؤها فى الصحف وتسمعها فى الإذاعة ، وتشاهدها فى التليفزيون فتظن أن هذه المناسبة الكريمة تستدعى إقامة مادب الرحمن فى المساجد الكبرى ، وفى الميادين العامة عند الفطور ، أو تستدعى إقدام المسيرات الخيرية والجمعيات الإسلامية على توزيع الملابس والمآكل والنقود على الفقراء ، أو تستدعى تبرع أصحاب المصانع بأجر شهر على العمال أو تستدعى تخفيض الكتب الدينية إلى النصف ليستطيع القارىء شراءها دون إجهاد ، أو تستدعى الإعلان عن الندوات الدينية فى المساجد . والنوادى الشهيرة . تظن ذلك كله لأن المناسبة الكريمة تستدعى ذلك وأكثر من ذلك .. وكانت فى القديم مصدرا لكل بركة تعود على الفقراء والمعوزين ولكنك تفاجأ بما يلى :



بمناسبة شهر رمضان المبارك يقدم الكازينو الشهير أمهر الراقصات لقضاء الليل في شتى ألوان البهجة مع سحور لذيذ شهي وتدوم السهرة إلى أذان الفجر ! وقد كتب إعلان كبير يضم هذه العبارة (سحور راقص!!) بمناسبة شهر رمضان المبارك يقام الحفل الساهر ليلياً حافلاً بكبار المطربين والمطربات ، وسيحضر فلان من العراق ، وفلانة من المغرب وفلانة من الجزائر المشاركة جوار الفنانات المصريات . ويمتد السهر إلى أذان الفجر بعد تناول السحور اللذيذ وبه من المشروبات بعض المحرمات ! كيف هذا ؟

بمناسبة الشهر الكريم ستقدم الإذاعة مسابقاتها الفنية ذات الجوائز الحافلة حيث يسأل المجتمعون عن أسماء الأفلام وأسماء الممثلين والممثلات . وفي أيّ مكان صور فيلم كذا ، ومن بطلة فيلم كذا؟ وماذا كانت ترتدي ؟ ويدوي التصفيق عند الإجابة العويصة ، وتوزع الجوائز عن سخاء !!

بمناسبة الشهر الكريم ستعقد مسابقة للأغنية في المساء بالتليفزيون حيث تتلى الأغنية . وتحذف منها كلمة أو كلمتان وكأن ذلك لغز خطير وعلى



المتسابق أن يعرف ما يحذف فإذا تفضل بالإجابة دوى التصفيق . ونال الجائزة عن استحقاق !

بمناسبة الشهر الكريم ستقدم شركة «كذا» أعظم أنواع السجائر ، ثم يعرض شريط يمثل فتاة شبه عارية وفي فمها سيجارة ، وبجوارها شاب يبادلها التقاط الأنفاس في وضاعة شائنة ، وتكتب بعد هذا الإغراء الخليع عبارة (التدخين يضر بالصحة !) .

إن عبارة التدخين يضر بالصحة في غرابتها المدهشة . وتناقضها المذهل تذكرني تماما بعبارة (بمناسبة شهر رمضان المبارك) التي أشرت إليها من قبل ، أليست العبارتان ضربا من ضروب النفاق المذهل الذي يمثل دوره دون حياء أمام الملايين من المشاهدين ! وأقل طفل يسأل : إذا كان التدخين يضر بالصحة فلماذا تتكرر إذاعة الإعلانات ذات الإغراء عنه ؟ وإذا كان رمضان شهر الصوم والحرمان والتقوى والخشوع فلماذا تتعدد فيه مظاهر الفسوق !

إن أول ما أفسد معاني الفضيلة في هذا الشهر ، هو هذا الترف الذي اختصت به فئة قليلة ليست بشيء من ناحية الكم العددي إذا قورنت بالجمع الغفير هذه الفئة وجدت المال يتدفق في أيديها دون حافز . ولابد أن يظهر أثر هذا الثراء في البذخ المستبشع في اللهو ، وقد تعود الأب أن يسهر في أماكن المرح غير عابىء بما ينفق وتعود الابن أن يأخذ من أبيه في اليوم الواحد ما يكفي أسرة متواضعة في شهر ، وطبيعي أن يكون لرمضان ميزانيته الهائلة مأكلا ومشرباً وسهراً ، فامتلأت الملاهي بأبناء الذوات ، وتنوعت أفانين الإغراء ، وبعد أن كان رمضان شهر الاقتصاد والقناعة أصبح شهر الإسراف والشره . وماذا يفعل رب الأسرة المسكينة حين يشاهد إعلانات المأكل في التليفزيون فاحشة بأثمانها ، وكلها بمناسبة شهر رمضان . ماذا يفعل أمام أسئلة أبنائه وأطفاله . لقد جعل يسائل نفسه أهذا شهر الحرمان ؟ أهذا شهر التأديب بالجوع؟. أهذا شهر الإحساس بالمشاركة الوجدانية في تمثل حياة البائسين ! لقد أصبح رمضان مما يحسب الحساب لمقدمه قبل ثلاثة أشهر ! ثم يجيء عيد الفطر بمتطلباته الضرورية فيكون كارثة أخرى للجمهرة المسكينة .

الاحتفال في المساجد

لقد صار رمضان غريباً في أهله . إذ تبدل به الحال من النقيض إلى النقيض ، كانت مصر في أيام الإسلام الأولى تحتفل برمضان في المساجد فحسب إذ تمتلىء بالذاكرين والقانتين ، ومضت على هذا السنن حتى أتى أحمد بن طولون ، فرأى أن يكون شهر رمضان شهر الاحسان ، فعمل على إطعام الفقراء في مآدب خاصة تقام للصائمين عند الغروب ، وأصدر منشورا للحكام في البلاد المختلفة أن يحتفلوا باطعام الفقراء كل يوم فأصبح لرمضان معنى من معاني الخير لدى من يعز عليهم أن يأكلوا ما يشتهون ! وقد فطن ابن طولون لما يبعثه الترف من مفاسد في النفوس . فكان يطوف أثناء الليل في رمضان بين الأحياء الفقيرة . والأحياء الغنية فيرى عجباً أي عجب ! ما يكاد يلم متنكرا بالأحياء الثرية حتى يشم رائحة الخمور ، ويسمع من الأغاني الخليعة ما يضيق به ، فإذا انتقل إلى الأحياء الفقيرة ، وفي رمضان بالذات أخذ يسمع آيات القرآن ، أو دوي حلقات الذكر ، ثم يفد إلى المساجد متنكرا أيضا فيجدها ملأى بذوي الصلاح من المستورين ، ويتفقد الأغنياء فلا يكاد يجدهم ، فجمع أعوانه من رجال الشرطة وقال : دعوا بيوت الفقراء لا تراقب في شيء ، وعليكم بأحياء ذوي الثراء فراقبوا من يخرج بالليل ، فإذا حمل مُسكرا أو أداة لهو فاعتقلوه ! وعلم الأثرياء ذلك فأخذوا يحتشمون .

أما مصر الفاطمية فقد احتفلت برمضان احتفالا باذخاً . لأن ثراء الفاطميين دفعهم إلى هذا البذخ ، ولكنه

• رمضان شهر الاقتصاد والقناعة أصبح شهر الإسراف والشره

بذخ المآكل فقط ، أما دور الخمر ، وأماكن اللهو فكانت توصد إيصادا تاما قبل حلول الشهر بأيام وظل الاحتفال الإيماني برمضان على ممر العصور بعيدا عن كل لهو عابث ، وغناء فاحش، واجتماع مريد ، حتى حان القرن العشرون فماذا جد ؟

كان رمضان يجد نفسه تماما في القرية والمدينة معا ، قبل أن يظهر التليفزيون هذا الجهاز الذى طرد رمضان طردا لا رجعة فيه ! ففي النصف الأول من



هذا القرن كان المترفون في القرية لا يجدون من وسائل اللهو ما يحول دونهم وبين تقوى الله ، فهم لا يتميزون عن غير المترفين ! إلا بجودة الطعام ونظافة المسكن . لذلك كان رمضان لديهم موسم خير وبركة . وكان من دونهم من الناس يحاولون تقليدهم في مظاهر البر والإحسان كل على قدر كسبه ، ولكن استقبال رمضان بالفرحة يعم القرية جميعها فما يكاد يعلن قدوم الشهر حتى تضاء المئذنة بالمصابيح ليعلم القريب والبعيد أن الصوم يبدأ من الغد ثم تمضي الفوانيس إلى المسجد لتشارك في إضاءته ، كل مُصَلٍ يحمل مصباحه . فيتحول المسجد إلى ضحى مشرق ، وتلقى الدروس ، ويهنئ الناس بعضهم بعضا .

رمضان في الريف

أما الرائع حقا ففي موائد الطعام قبيل الغروب إذ يقدمُ ذو القدرة مائدته لمن يود أن يفطر ، فإذا انتهى الأمر هرع المفطرون إلى المسجد ، يسمعون الدرس ويصلون معه العشاء صلاة التراويح وهي عشرون ركعة لا تنقص ، وفي أثناء الركعات تدوي الترنيمات الدينية صلاة وسلاما على رسول الله وخلفائه الأربعة ، وترجع المصابيح ثانية إلى المنزل فتشرق الشمس في المساء ، وهنا تقام السهرات القرآنية حيث يحرص الكثيرون على توظيف قارىء طيلة الشهر يتلو آيات الذكر الحكيم فيما يعرف بسهرة رمضان ويفد الزائرون إلى هذه السهرات مجاملة لأصحابها ، وردا كريماً لزيارات سبق بها القوم . على حين يمكث الفقراء حتى يحين ميعاد السحور فيتناولوه في ترحيب وتأهيل . وكأنهم يؤدون خدمة لصاحب المنزل إذ يشرفونه بتناول السحور ، ويسود المجتمع القروي جو روحي خالص ، تتصافى فيه النفوس فتزول أسباب الخصام حين تعقد مجالس الصلح عن رغبة متبادلة ، فنحن في شهر كريم . ويجيء العيد المبارك فيكون تتويجا لما تقدمه من المبَرات . حيث تنحر الذبائح، وتفرق الزكاة على من ينتظرونها في شوق ، وهذا في الريف ، أما في المدن ، وأكبر مظهر لها مدينة القاهرة ، فإن رمضان لا يبدأ في بهائه الروحي بمكان منها كما يبدو في القاهرة الفاطمية حيث مسجد الحسين رضي الله عنه . إذ يزدحم الميدان على سعته بالزوار ممن يخففون أثقال

الطعـام بجـولات متـئـدة فى الحى الحسينى وما يتبعه من خان الخليلى وأزقته المتقاربة ذات الحوانيت المتلاصقة الحافلة بالتحف والآثار ، ومقهى الفيشاوى حينئذ هو منتدى الصفوة وغير الصفوة من السامرين ، وقد أتى عليه حين من الدهر كان أول كعبة للقصاد فى رمضان ، يأتيه القاهريون من مختلف الطبقات فللوزراء حلقات تمتد إلى وقت السحور ، وللصحافيين حلقات ، ولأبناء الجامعات من أزهرية ومدنية وفود تتحلق من الأساتذة والطلاب ، ولم يفت نبهاء الممثلين أن يشاركوا فى الكرنفال الثابت غير المتنقل فكان نجيب الريحانى وسليمان نجيب وعلى الكسار ويوسف وهبى ممن يحرصون على الحضور الباكر قبل أن تمتلىء القاعدة . وتاريخ هذا المقهى عريق ، لأنه شهد قبل هؤلاء عبده الحمولى ومحمد عثمان ، وقد كتب الأستاذ خليل مطران مقالا تحت عنوان «عبده الحمولى يؤذن الفجر على مئذنة الحسين» قال فيه إن جمهور أصدقائه بالمقهى طلبوا منه أن يصعد إلى المئذنة . ويلقى بعض التسابيح فاستجاب وأبدع مطران ما شاء فى وصف الابتداء والتدرج منه إلى ما يليه حتى قال :

«رجل فى أعلى المنارة لا يبدو منه إلا شبح ضئيل ، وهو الذى من أجله توافدت هذه الجماهير المتزاحمة كأنهم فقراء ينتظرون من محسن علوى تنزيل الأقوات ، وتوزيع ما يتمنون من الصدقات ، لساق تتصل به نياط آلاف من القلوب لتهتز بحكم نبراته أشهى الاهتزازات ، ولتحلق على أجنحته مصعدة إلى السموات ، نسمة تخرجها شفتان فتتقسمها أرواح لا

• أرسل صيحاتى المحذرة من الابتذال الموجود فى هذا الشهر الفضيل

تحصى وتتخذ منها غذاء من جوع وربأ من ظمأ» .

الأنباء العلوى للأثرياء

ليقارن القارىء بين ما وصف به مطران عبد الحمولى فى إنشاده الساحر بليالى رمضان على مئذنة الحسين وبين ما يذاع فى هذا الشهر الكريم من الأغانى الخليعة فى الكازينوهات الهابطة . بل وفى محطات الإذاعة من مرئية ومسموعة ليعلم أن الفن الجميل لا ينفر منه أحد ، إنما

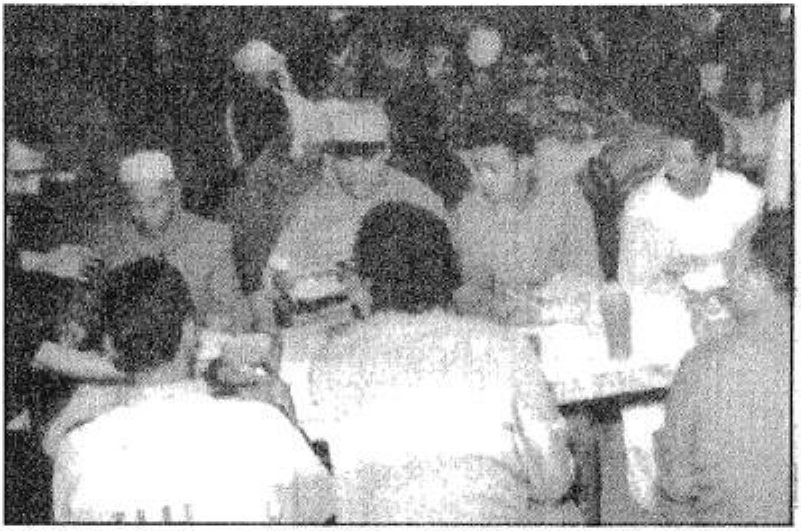


يكون النفور من هذا الغثاء المتراكب الذى نسمعه ، ونزداد غيظاً حين نسمع من يقرظه وكأنه من ألحان السماء !

نعود إلى حديث الأثرياء ، فى العهد الذى نتحدث عنه ، فنذكر أنهم ليسوا سواء فى الاتجاه السلوكى فمنهم ذو الهمة العالية ، والمروءة الحافزة ، وهؤلاء يستقبلون رمضان استقبال المؤمن الواثق بربه ، العارف بمزايا الصوم الخلقية ، وثمرته النفسية ، وأثره الاجتماعى لو تم على وجهه الصحيح ، ولا نجد اسماً أنصع ولا أروع ولا أعز من اسم الزعيم الاقتصادى الأكبر محمد طلعت حرب ، إذ كان يستقبل رمضان الكريم بتوزيع زكاة المال على العائلات التى درس أحوالها ،، واطمأن إلى مساعدتها الواجبة ، ثم بإقامة سهرات ليلية فى منزله يدعو فيها إخوانه الاقتصاديين إلى مدارسة أبواب من التفسير والحديث النبوى الشريف مع نفر من كبار العلماء نذكر منهم الشيخ حسين والى أحد أعضاء هيئة كبار العلماء بالأزهر ، ورئيس لجنة الفتوى ، وقد لا يعلم الكثيرون أن طلعت حرب باشا نشأ نشأة أدبية ، إذ كان صاحب قلم جبار يصول كل مصال فى قضايا الفكر المعاصر وقد كتب بالفرنسية رداً حاسماً على مفتريات المسيو هانوتو وزير الخارجية الفرنسية على الإسلام ، فكان نداً للإمام محمد عبده فى رده المنشور باللغة العربية ، كما ألف كتابين حول قضية المرأة والحجاب حين نشر الأستاذ قاسم أمين كتابه عن تحرير المرأة . وقد كان زميلين فى فصل واحد بمدرسة الادارة والحقوق ، وتعارفا عن خبرة متكافئة ، وتقدير متبادل ، وخطبه الاقتصادية فى مطلع كل عام كانت نموذجاً من نماذج الأسلوب العلمى الرفيع، أقول هذه لأؤكد جدوى سهراته الرمضانية القيمة ونزعته الإيمانية السعيدة التى جعلته يحفر الصخر الصلب بأظافره حتى بنى مجد مصر الاقتصادى! ولا أدرى لماذا لم يكن بسلوكه المثالى قدوة لذوى الثراء ، وقد رأوا أمامهم أكبر مثال يضع الشهر المبارك موضعه الصحيح .

رمضان المسكين كشيخ بماخور

على حين نجد فى الجهة المضادة بعض الوزراء المرموقين إذ ذاك يحتفلون



موائد الرحمن فى رمضان

بالشهر المبارك احتفالاً مضحكاً تحدث عنه الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات فى الجزء الأول من وحى الرسالة حديثاً قد يطول اختيارنا منه بعض الشىء . وهذا كسب للقارىء إذ يسعد بنفحات من الأدب الرفيع لا يجد نظيراً لها الآن ، قال الزيات ببعض التصرف :

«ميم باشا يتبوأ منصبا من مناصب الدولة الرفيعة بعد حياة كادحة تبتدىء من القرية الفقيرة والوظيفة الخاملة . وتنتهى إلى هذا الجاه العريض ،والثراء الضخم وهو وزوجته من عهد وابناه وبناته الثلاث من عهد ولابد للأسرة أن تصوم بحكم النشأة وسلطان العادة .

ولابد لهذا الصوم الجافى أن ترق حواشيه إذا ما نزل على الأسرة ، فيجتمع مجلس الأسرة يوميا لينظر فى مقترحات البطون على إدارة المطبخ . فهذه تقترح ، وهذا يعترض والباشا يدير النقاش إدارة موفقة فيعدل أو يكمل حتى ينتهى النقاش بثبت حافل بالمشهيات والمقليات والمحشوات والفطائر مما لا تجد بعضه فى مطعم كبير ، ولكن لونين من ألوان الطعام لا يصيبهما التغيير ، لوناً من الأرانب المطبوخة فى النبيذ يحبه الباشا ، ولوناً من الشرائح الوردية مطعمة بخصوص من شحم الخنزير تحبه الأنسة الكبرى .

وبعد وصف أنيق لحالة الباشا طيلة



اليوم يقول الأستاذ الزيات (يقبل الباشا على المائدة ينضد الأكواب ويسكب أمام كل أكل الشراب الذى تعوده ويرتب الألوان مع الغلام على أصول مقررة فى الفن ، ويخرج إلى الردهة فيلقى النظرة الأخيرة على الشمس الغاربة ، ويعود فيرى الأسرة بجنسيها لم تفرغ من الإعداد للسهرة الراقصة فالحلل والحلى تحتار والشعور ترجل ، والحواجب تدقق ، والخطوات واللفتات والبسمات تتكرر أمام المرايا بإتقان ، حتى إذا نطق مدفع الإفطار من المذياع أهرعوا إلى المائدة إهراع جنود الإطفاء للسيارة ، ثم يقبلون على هذه الأكالة إقبال الشره القاره . فلو رأيتهم حسبتهم صاموا العام كله ليفطروا فى رمضان .

أذّنت العشاء ، فصلاها الباشا وقد أخذت الأسرة زينتها التامة الكاشفة ، واجتمعت في البهو الفسيح الفخم تستقبل أسراب السيدات والأوانس ومعهن أبناؤهن وإخوتهن من الأيفاع والشواب فيعزف البيان ، ويخفق العود ، وتشدو الكواعب ، ويدور الرقص على نمطيه الشرقي والغربي . فتلتف الأيدى على الخصور ، وتلتصق الصدور بالصدور ، وتمتزج أنفاس الكحول بأنفاس العطور ويقف رمضان المسكين من هذه المناظر المريبة . وقفة شيخ من شيوخ الدين دفعت به الأقدار إلى ماخور » .

هذان طرازان مختلفان طراز طلعت حرب والباشا الكبير (م) !

وصف حفل مسائى

لقد وصف الزيات حفلا مسائيا فى منزل خاص ، لم تقع عليه عين غير عيون من شهدوه ، ولم يكن يدرى أن جهاز التليفزيون فيما بعد سينقل صورة مكبرة من هذه الاحتفالات يومياً في شتى القنوات بمناسبة شهر رمضان المعظم ، وكنت أسمع من الذين يجيزون إذاعة هذه الحفلات الراقصة على هذا النحو المبتذل أن طبيعة العصر تقتضى ذلك ، وما لم يكن جائزاً من قبل . لابد أن يجوز حتى تلحق بالعالم يقال ذلك فى نبرة عالية تستخف بالمعارضين ، وشاء الله أن يأتى المثل الأعلى للحفلات المهذبة من تليفزيون غير عربى هو تليفزيون إيران ، حيث امتنع نهائياً عن شاشته كل مظاهر الخلاعة فى الأفلام والمسرحيات والحفلات الساهرة . ولم يُعدّ ذلك تأخراً عن طبيعة

العصر لأن إيران قد حصدت فى المهرجانات العالمية للسينما أكثر مما حصدته مصر وأخواتها العربيات ، مع الوقار والاحتشام فى أفلام إيران ، والتبذل والاستخفاف فى أفلام الدول العربية ، ومعنى هذا أن من يتولون التحكيم قد قدروا طبيعة الالتزام الخلقى وكافئوه . ومعناه بلغة أخرى أننا ننحدر لنرضى الشهوات الهابطة لا لكى ننسجم مع إيقاع العصر ، ونحصد جوائز المهرجانات !

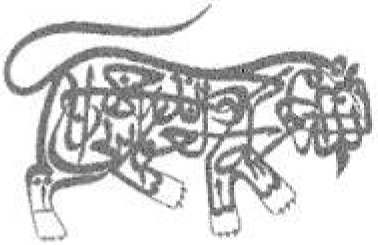
وإذا تركنا الإذاعة مرئية ومسموعة إلى الصحافة . فإننا نرى عجبا أى عجب فقد دأبت الجرائد اليومية على أن تفرد إحداها صحيفتين خاصتين بالشهر المبارك ، ونافستها أخرى فى هذا السباق الحميد ، وتقرأ الصحيفتين المزعومتين ، وقد كتب فى الصفحة الأولى (أنوار رمضان هى كذا ، وهى كذا) فماذا تجد؟ تجد أن الصفحتين قد ذهب النصف الأسفل فى كل منهما إلى إعلانات لاهية . وما بقى لا يتحدث عن رمضان الروحى إلا فى مقالات مقتضبة لا تتجاوز إحداها نصف عمود لا يأتى بجديد ، أما الباقى فصورة لمسجد أو رسم لفانوس أو صورة لمسحراتى أو إطار لإمساكية رمضان ، بحيث يخرج القارىء من الصحيفتين بدون زاد حقيقى ، فهل هذا خداع من نوع جديد ! لم لا تنفرد صفحة واحدة بمقال جاد أو مقالين لكاتب مشهود بفضله وعلمه بدل أن نجد العجالات التافهة مع التوقيع البراق مثل (باحث اسلامى) (عضو اتحاد الكتاب) (من علماء الأزهر) وهى صفات لا يتمسك بها غير المنكسرين الضعفاء !

لقد كتبت فى هذه المعانى كثيرا كثيراً

• صار رمضان غريبا فى أهله إذ تبدل به الحال من النقيض الى النقيض

، فمنذ عشرين عاما أو أكثر وأنا فى كل رمضان أرسل صيحاتى المحذرة من هذا الابتذال دون جدوى ، ولم أيأس بعد ، فقد مكث نوح عليه السلام فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعو إلى الله على بصيرة ، فما أجابه غير القليل ، حتى ضاق صدره فقال «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » ولكنى أقول ما قال خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم «رب اهد قومى فإنهم لا يعلمون» .

■



بعد انحسار عصر السلاطين من يدافع عن:



الخط العربي

بقلم : محمد أبو طالب

لا يوجد أى متحف للخط العربى ، ولا توجد أية كلية أو معهد عال، ولا يوجد قسم خاص بالخط العربى بنقابة الفنانين التشكيليين ولا نعرف أى جهة مسئولة عنه ... هذا الفن الأصيل يبحث عن ولي لأمره.

والخط العربي سحر غامض حيث يمتلك إضافة للقيم الجمالية المتفردة أبعاداً فلسفية ودينية تسمو بالروح إلي أعلي الآفاق الخط العربى نتاج ممارسة وتطوير لأكثر من ألف عام خلت ، ويحتاج من يتصدى لكتابته إلى أن يدرس تلك الأسس الحسابية والهندسية التى بنى عليها كما يخضع نفسه لتدريب شاق مخلص على مجموعة الأصول والضوابط التى أفرزتها تجارب وبحوث وممارسات السابقين ، منذ عهد الوزير العبقرى ابو على بن محمد بن على بن مقلة الذى أحدث الانقلاب الأول فى الخط العربى ، وأوجد «الثلث»

و «النسخي» في القرن العاشر ووضع مصنفاً عن الخط العربي أسماه «الخط المنسوب» اعتمد فيه على بعض النظريات الرياضية .

انبهار الغرب بالخط العربي

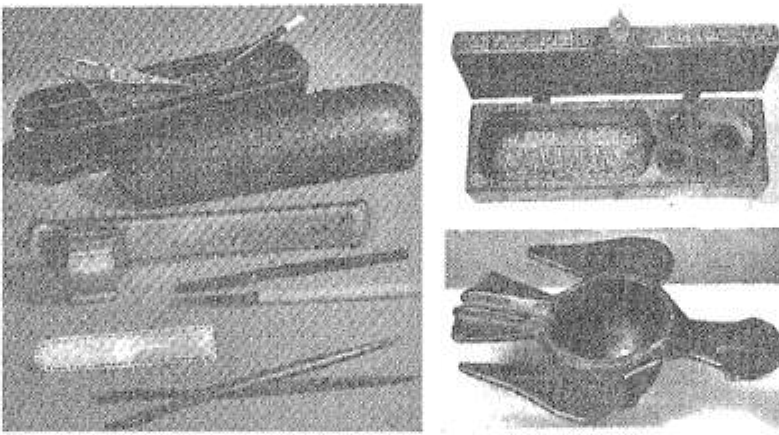
لم يتوقف الإعجاب والانبهار بسحر وجمال الخط العربي عند حدود العالم العربي والاسلامي بل انتقل إلى مختلف البلدان الأوروبية عن طريق المنسوجات والأواني الخزفية والعملات النقدية والمخطوطات وغيرها ، كان ذلك إبان ازدهار الحضارة الاسلامية ، وأدرك الفنان الأوروبي قيمة الخط العربي وأحس بمظهره البديع وتلك القيمة الفنية الفائقة التي ترتكز على التناسق في التكرار والاتزان في التماثل وجمال الايقاع في الترديد ، حتى يخيل للناظر أن حروفه في حركة دائبة رغم سكونها وذلك بسبب مرونة تلك الحروف وقابليتها للمد والرجع والاستدارة والتشابك والتداخل إضافة إلى الوصل والفصل .

ولم يكتف الفنان في أوروبا بالاستمتاع بهذا الزخم من الجمال في الخط العربي بل استمر في متابعة تطوره والاقتباس منه ، فرأيناه ينقش كلمات عربية غالب الظن أنه لا يعرف معناها لأنها أحيانا كانت تنقش في وضع معكوس كتلك الكتابات المنقوشة على قطع الحلي والعملة والأواني ، وأوغل الفنان الأوربي في اقتباسه للخط العربي حتى استخدمه في تزيين أردية تتويج الأمراء والأباطرة .

والفنان الأوربي معذور فالخط العربي له سحر خاص لا يقاوم وجماله كامن في ذاته بغض النظر عن الخامة التي يستخدمها الفنان سواء كانت حبراً وورقاً أو معدناً أو رخاماً أو خشباً أو خزفاً أو نسيجاً أو حجراً أو غير ذلك من الخامات العديدة التي نجح الفنان المسلم في تطويعها لإبراز مكامن الجمال في الحروف العربية .

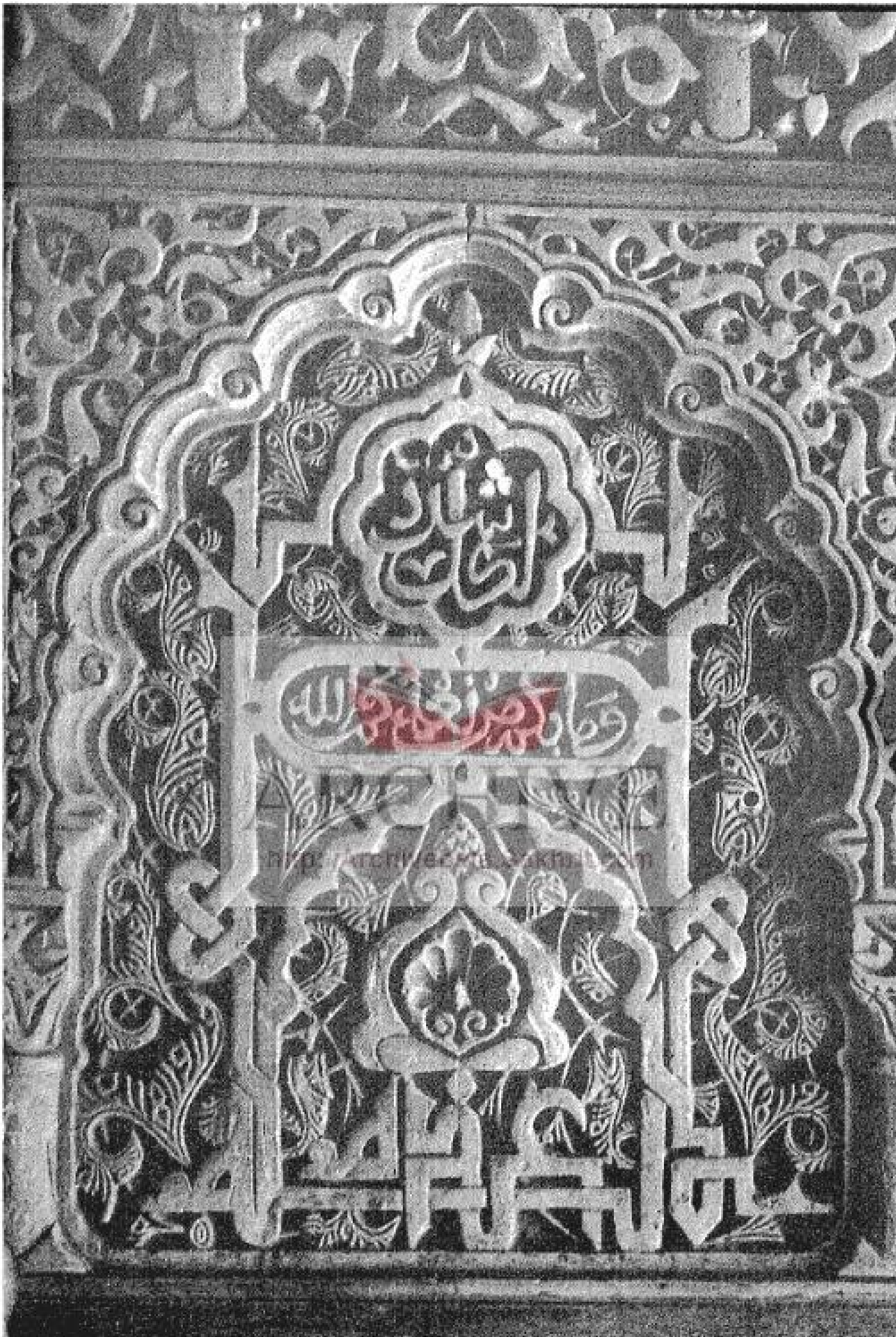
إحدى دعامات الهوية العربية

دفعنا لكتابة المقدمة السابقة إحساس بالحسرة والألم لما وصل إليه الحال من إهمال وعدم اهتمام بالخط العربي رغم أنه لا خلاف على أنه إحدى الدعامات الرئيسية المؤكدة للهوية العربية في مواجهة ذلك الاجتياح الشرس من العولمة ، ونحن على مدار الساعة نقرأ ونسمع ونرى ذلك الحماس البالغ للتأكيد على الهوية العربية والحفاظ على الأصالة ، وتكثر التوصيات بضرورة الحفاظ على كنوز التراث العربي ، والتأكيد على التوعية بأهميته في سبيل التواصل بين الأجيال وتدعيماً للارتباط بحضارتنا التي أثارت الطريق للعالم وقت أن ساد ظلام الجهل معظم أقطار المعمورة ، ولكن لا وجود لأي فعل حقيقي لهذا التوجه النبيل بل على العكس تماما حيث تتعرض اللغة العربية ومن ثم الخط العربي لهجوم شرس من الخارج والداخل أدى إلى حجب الخط



بعض الادوات التي يستخدمها الفنان في كتابة الخطوط العربية





العربى الأصيل وتضييق فرص وجوده وانتشاره حتى كاد يختفى تماما من الذاكرة البصرية للغالبية ، ذلك بسبب تلك التأثيرات الوافدة التى طمست حاسة التذوق الأصيلة عند الكثيرين إضافة إلى تدنى مستوى كثير ممن يتصدون لكتابة الخط العربى هذه الأيام .

ويرى البعض أن ظهور الكمبيوتر من أهم الأسباب التى أدت للحالة الراهنة للخط العربى بعد أن اصبح الاحتياج إلى الخط اليدوى يكاد ينعدم فى وجود الكمبيوتر .

وأنا أختلف مع هذا الرأى فالكمبيوتر ليس هو السبب الرئيسى لما وصل إليه الحال بالنسبة للخط العربى وان كان له بعض التأثير ، والدليل على ذلك أن ظهور آلة التصوير الضوئى (الكاميرا) لم يؤثر بالسلب على فن التصوير الزيتى كذلك اختراع آلات الطباعة الحديثة لم يؤثر على فن الحفر (الجرافيك) .

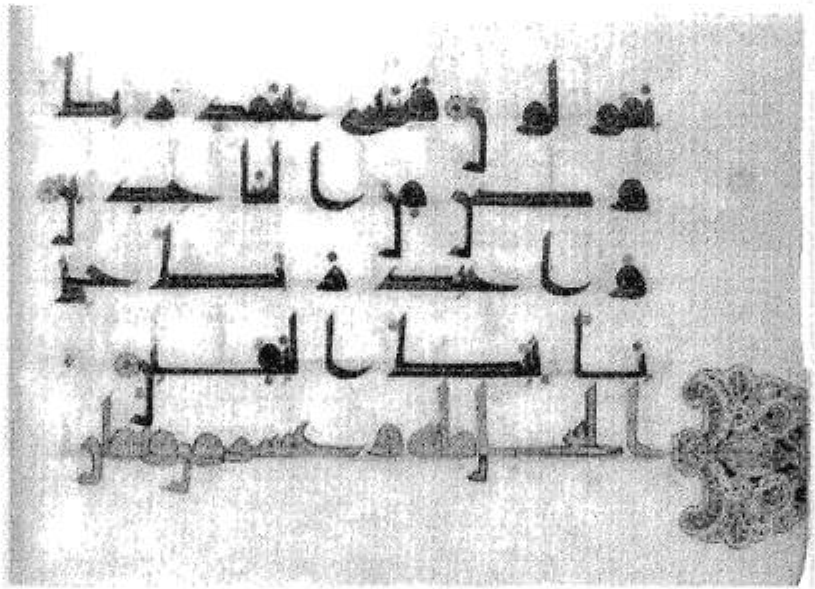
تخريج كوادر جديدة

السبب فى رأيى يرجع إلى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عندما بدأت رياح العصر الحديث فى مصر بإنشاء المعاهد والمدارس والكليات لتخريج كوادر جديدة لأرباب الحرف والصنائع التى كانت تمارس سابقاً دون الحاجة إلى دراسة أكاديمية مثل الطب والصناعة والزراعة والفنون والآداب . يهمنا فى هذا المقال من بين تلك المدارس والمعاهد مدرسة الفنون الجميلة بالقاهرة التى أنشئت فى بداية القرن العشرين ، لأنها أول مدرسة



عليا للفنون الجميلة أنشئت فى مصر وكان انشاؤها على النمط الأوروبى على غرار مدارس الفنون الجميلة فى فرنسا ، فكانت أقسامها تشمل التصوير الزيتى والحفر والنحت وتجاهل المؤسسون لتلك المدرسة أقسام الفنون الجميلة العربية ومن بينها الخط العربى ، فجاءت تلك المدرسة لتؤكد بالأسلوب الاكاديمى النمط الغربى للفنون الجميلة وبالطبع لم يكن لخط العربى مكان أو قسم بتلك الكلية أو الكليات التى توالى إنشاؤها بعد ذلك فى اماكن أخرى بمصر مثل الاسكندرية والمنيا والاقصر ولا حتى فى المعاهد الفنية الأخرى التى تم انشاؤها بعد ذلك .

منذ ذلك التاريخ قبل حوالى قرن من الزمان كتب على الخط العربى أن يظل بعيداً منبوذاً خارج دائرة الاهتمام والتقدير ، كذلك الخطاط الذى تقرر أن يتوقف قطار تعليمه عند المحطة المتوسطة وحرم من التأهل الثقافى والفنى الأكاديمى العالى مثل زميله الفنان المصور أو الحفار أو المثال ، فكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن أصبح الخطاط فى مستوى ثقافى واجتماعى أقل من زميله الفنان الأكاديمى بحكم المؤهل العالى والدراسات العليا



والبعثات وغيرها .

أما الفنانون الخطاطون المبدعون الذين اعتمدوا على أنفسهم بالدراسة والتثقيف إلى جانب الموهبة وابدعوا اعمالا عظيمة لم تجد متحفا لحفظها وصيانتها مثل عشرات المتاحف التى تملأ ربوع مصر للفنون الجميلة الغربية من تصوير وحفر ونحت وخلافه بعيداً عن تلك الجامعات والمعاهد والاكاديميات الرسمية ، كانت هناك مدارس لتحسين الخط العربى بإمكانيات محدودة وبهدف محدود تختار الدارسين فيها من خريجى المدارس الابتدائية والاعدادية ليحصل الخريج منها على مؤهل متوسط ، ولكن رغم امكانيات تلك المدارس المتواضعة فقد قامت بدور مهم فى الحفاظ على الخط العربى حتى الآن لأنه لولا جهود تلك المدارس والقائمين عليها عبر السنوات الماضية من كبار الخطاطين المحبين لهذا الفن الأصيل لاندثر تماماً هذا الفن .

الخط فى بئر النسيان

ومن الإنصاف أن نذكر تلك المساهمات القليلة والمحدودة التى تمت فى محاولة للاهتمام بفن الخط العربى ، منها محاولة المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية لإحياء الاهتمام بالخط العربى بافتتاح معرض عام بقاعة الغرفة التجارية بالقاهرة عام ١٩٦٨ وعقد حلقة بحث افتتحها يوسف السباعى سكرتير عام المجلس آنذاك ، كما تم تخصيص جائزة من جوائز الدولة التشجيعية للخط العربى ، كان ذلك منذ أكثر من ثلاثين





عاماً ثم ألغيت الجائزة التشجيعية بعد ذلك وتم ألقاء الخط العربي في بئر النسيان إلى أن تذكره الفنان الدكتور أحمد نوار رئيس قطاع الفنون التشكيلية وأقام له معرضاً عاماً بالتعاون مع جمعية الخط المصرية واقيمت على هامش المعرض عدة ندوات جذبت جمهوراً غفيراً مما أكد تعطش الناس إلى هذا الفن الجميل .

وانتهى العرض وانتهت الندوات بمجموعة من التوصيات تكاد تكون مطابقة لتوصيات حلقة البحث التى اقيمت فى الستينيات ، ولم يتم تنفيذ أي من تلك التوصيات السابقة أو اللاحقة .

أخيرا نود رصد بعض الحقائق منها أنه لا يوجد أي متحف للخط العربي ، لا توجد كلية أو معهد عال للخط العربى ، لا يوجد قسم خاص بالخط العربى بأى كلية أو معهد عال فنى .

لا تعترف نقابة التشكيليين بالخط العربى وليس من بين اقسامها قسم للخط العربى .

لذا ندعو إلى انشاء كلية للفنون الجميلة العربية من بين اقسامها قسم للخط العربى .

ولا نعرف إلى من نتوجه بهذه الدعوة لانقاذ هذا الفن الأصيل لأننا لا نعرف جهة رسمية مسئولة عن الخط العربي فهذا الفن الأصيل مازال يبحث عن ولى لأمره. ■

رمضان

الإسلام في العقل الأمريكي

بقلم
مصطفى نبيل

ليس لي فضل في كتابة هذا المقال ..

فالفضل يعود إلى كتاب «أمريكا والاسلام» - صراع الحضارات أم صراع المصالح» لكاتبه الباحث الأكاديمي د. فواز جرجس الأستاذ بجامعة سان لويس بنيويورك والصادر قبل أحداث ١١ سبتمبر في واشنطن ونيويورك. حصلت عليه وتصفحته وتركته حتى تحين فرصة قراءته .

ويدور الكتاب حول العوامل المؤثرة في القرار السياسي الأمريكي تجاه الظاهرة الإسلامية ، في الفترة بين الرئيس كارتر وحتى الرئيس كلينتون.

ووجدته دراسة مهمة غنية بالمعلومات والأفكار ، وكأنه كتب بعد الأحداث الأمريكية المفجعة . مما يعطي قيمة كبيرة لمصداقيته.

إنه بحق الكتاب الوثيقة أو النبوءة التي لم يأخذ بها أحد.

لم يقتصر التعرف في الكتاب على تلافيف العقل الأمريكي تجاه الاسلام ، على مجرد معرفة رأى الأكاديميين وحدهم، ولا على ماتنشره أجهزة الإعلام ، وإنما ذهب إلى مكانة الإسلام والمسلمين في مخيلة المواطن الأمريكي العادى.

ومن يتابع ما جرى بعد أحداث ١١ سبتمبر يصعب عليه أن يصدق، تلك الإحصاءات التى أعلنها مكتب التحقيقات الفيدرالى «الا ف. بى. أى» عام ١٩٩٥ والذى يحصي العمليات الإرهابية التى تعرضت لها أمريكا مابين عامى ١٩٨٢ و١٩٩٢، أى خلال السنوات العشر، فقد تعرضت لاثنين وسبعين هجوماً إرهابياً من أبناء بورتريكو، وثلاثة وعشرين هجوماً لجماعات يسارية، وستة عشر هجوماً لجماعات صهيونية ، واثنى عشر هجوماً من كوبيين مناوئين لكاسترو، وست عمليات هجومية لمجموعات يمينية أمريكية، هذا باستثناء عملية إرهابية واحدة فى مركز التجارة العالمى التى قام بها إرهابيون يدعون الإسلام.

كما يقدم مكتب التحقيقات الفيدرالى إحصاء بالعمليات التى تعرضت لها المصالح الأمريكية خارج الأراضى الأمريكية ، فقد وقع أربعة وأربعون هجوماً معادياً فى دول أمريكا اللاتينية



عام ١٩٩٤ وحده، أما فى الشرق الأوسط فقد وقعت ثماني عمليات ، وفى آسيا خمسة وفى أوربا خمسة وفى أفريقيا أربعة!، فأين الإرهابيون المسلمون فى هذا كله..؟!

فصيحات المجابهة مع الصحوة الإسلامية سابقة عن أحداث سبتمبر، ينادى بها عدد من الأمريكيين معظمهم من اليهود، الذين يحثون أمريكا على القيام بعمل ما مثل ماسبق وفعل الغرب ضد الاتحاد السوفييتي، ومن أجل احتواء هذه العقيدة «العدوانية» الجديدة ، فالتطرف الإسلامى واصل لامحالة إلى شواطىء أمريكا، سواء عبر المهاجرين أو الزوار المسلمين(!).

ويلاحظ الكاتب وجود العديد من الكتب والدراسات التى تتناول السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الشرق الأوسط، ولكن لا توجد دراسة واحدة تدور حول العقل الأمريكى وتصوراته تجاه الإسلام والمسلمين، مع زيادة الحديث فى الإعلام والأوساط الأكاديمية عن الخطر

«الأخضر» عقب القضاء على الخطر «الأحمر» الذي كان يمثل تهديداً استراتيجيا للغرب، وبرزت المشاعر المعادية للمسلمين مع بروز الحركات الإسلامية النشطة التي تتحدى النظم القائمة في البلدان الإسلامية والتي تتلقى المساندة من الغرب.

ويتناول الكاتب الصراع الذي يدور بين الحمائم والصقور داخل الإدارة الأمريكية، بين أولئك الذين يرون أن الإسلام يشكل تهديداً على المصالح الغربية وبين أولئك الذين يدركون طابعه الحقيقي، وإلى أي حد تلعب العلاقة التاريخية بين الحضارتين الغربية والشرقية في اتخاذ القرار السياسي.

وينظر إلى هذه القضية من خلال ملابسات خاصة مثل أحداث الثورة الإسلامية في إيران وأزمة الرهائن التي أعقبتها ، ثم ماوقع بعدها في كل من بيروت والصومال.

ويطمح المؤلف إلى الذهاب أبعد مما يتناقله واضعو السياسة الخارجية، ويبحث في طبيعة المجتمع الأمريكي وهياكل اتخاذ القرار، وتحليل المسائل التي تلعب دوراً مهما في تفكير واضعي السياسة الأمريكية تجاه الإسلام والمسلمين.

ويبحث في العلاقة بين القرار السياسي الفعل السياسي، وهل تؤثر القيم والثقافة السائدة لدى المواطن حول الإسلام في هذا القرار، ومدى مساهمة هذه الثقافة في صياغة السياسة الخارجية.

فإذا كان السياسي يضبط أقواله حسب مقتضى الحال إلا أن الأكاديمي وما يمتع به من حرية البحث يمكن أن يكون أقرب إلى العقل الجمعي الأمريكي تجاه الظاهرة الإسلامية .

المسلمون الطيبون!

وإذا كانت التصريحات الأمريكية العلنية بشأن الاسلام «المعتدل» هي تصريحات إيجابية ، وخاصة أيام إدارة كل من بوش الأب وكلينتون وتأكيدهما على دور الولايات المتحدة كجسر بين نظم وانساق حضارية مختلفة، إلا أن القرارات السياسية لم تكن كذلك.

فالقراءة المتأنية تكشف عمق الخلافات حول السياسة الواجب اتباعها إذا وصل الاسلاميون إلى السلطة، ويمكن القول إن النخبة الأمريكية تعتبر أن الإسلاميين الطيبين هم أولئك العازفون عن السياسة، ومع أن القادة الأمريكيين يرفضون فكرة «صدام الحضارات» إلا أن السياسة الأمريكية بعد انتهاء الحرب الباردة تبدو متأثرة بفكرة الخطر «الأخضر».

وهكذا تتأرجح السياسة الأمريكية بين دعاة الواقعية ودعاة المبادىء، بين دعاة التراضي والتوفيق وبين دعاة التصدي

وضـرورة المجـابهـة ، ورغـم أن الخطر العسكرى الإسلامى قد انتهى مع نهاية القـرن السـابع عـشـر، إلا أن التـحـدى الدينى والفكرى ظل قـائمـاً ، ومسيطراً على مخيلة الغربى.

وبالنسبة للإدارة الأمريكيـة ، يمس هذا الجدل القيم الرئيسية التى تقوم عليها الولايات المتحدة الأمريكية ، فهى تضم أعراقـاً مـخـتلفـة وأديانـاً مـتـعـددة يضمها جميعاً المواطنة الأمريكية ، فهى أمة من المهاجرين، وأن أى موقف ضد دين من الأديان يهدد تماسكها الداخلى، وبعـد أن تراجـعـت أمـريكا من فكرة السبيكة الواحدة التى صنعتها المواطنة، إلى التـأكيـد على طبق السـلاطة الذى يضم خضراوات مختلفة، ولكنها تصنع طبقاً واحداً متناسقاً ، ولم يعد مقبولاً فكرة سـيطرة الواسب أى الانجلو سكسـون على الحيـاة السياسية والاقتصادية فى أمريكا.

أمام الثورة!

ويستعرض د. فواز جرجس مواقف ومناقـشـات الإدارة الأمـريكيـة فى ظل الرؤساء كارتر وريجان وبوش الأب تجاه الإسلام السياسى.

ويسـجل رأى ريجـان من خـلال لقـاء نشـر فى مـجلة تايم فى ١٧ نوفـمبـر ١٩٨٠ يقـول فـيـه .. «تظهـر فى الأفق احتمالات نشوب حرب دينية، بعد عودة



كارتر



كلينتون

المسلمين إلى فكرة أن تضـحـيـة المسلم بحياته فى قـتـال اليـهـود والنصـارى هو الطريق إلى الجنة..»!

وكان قيام الثورة الإيرانية وعجز كل من كارتر وريجان على مواجهتها بسبب اهتـمـامـهـمـا بالحـرب البـاردة ، أحـد الأسباب التى أثرت على آراء الأمريكيين تجاه الاسلام والمسلمين.

وكتب أيامها هاملتون جوردان رئيس مـوظفى البيت الأبيض خـلال رئاسـة كارتر..

«إننا نتعامل مع أناس معتوهين فى إيران..»، وبعد إيران جاءت الخيبات فى لبنان والصـومـال .. وفى وقت لاحق أحرقت سفاراتها، فى كل من باكستان وليـبـيـا والكويت وأفـغـانسـتـان، وأدرك الأمريكيون فجأة أن الإسلام السياسى عاد لكى يبقى.

غير أن الغزو السوفييتى لأفغانستان فى ديسمبر ١٩٧٩، نقل اهتمام أصحاب القرار السياسى فى أمريكا إلى الصدام

مع المعسكر الشيوعي فالصراع مع الاتحاد السوفييتي يحتل المرتبة الأعلى فى أولوياتها أكثر من مجابة الخطر الإسلامى الجديد. وسجل كارتر فى مذكراته .. «إن الغزو السوفييتى لأفغانستان هو التطور الدولى الأخطر الذى حدث منذ أصبحت رئيساً» وقال بريجنسكى مستشار الأمن القومى .. «إن الأمر الأكثر أهمية اليوم هو إقامة إئتلاف إسلامى معاد للسوفييت» ، وأعيدت ذاكرة الخمسينيات والستينيات عندما استخدم الأمريكيون الإسلام سلاحاً فكرياً فى المعركة مع القومية العربية.

أما ريجان فقد استخدم لغة عدائية تجاه الإسلام السياسى فى أكثر من مناسبة، ففى أعقاب الغزو الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ اقترح ريجان «اشتراك المعتدلين العرب فى عملية السلام قبل زيادة موجة الأصوليين المعادين للسلام، وقبل أن تضع الحكومات الموالية للغرب فى وضع دفاعى». (النيويورك تايمز ٣١ أكتوبر ١٩٨٢).

ومن جديد يغلب الصراع مع السوفييت الصراع مع الإسلام ، ولام بعض حلفاء أمريكا السياسة الأمريكية لخلقها شبكة إرهابية إسلامية بدعمها الذين يسمون أنفسهم مجاهدين إسلاميين فى أفغانستان (نيويورك تايمز ٥ إبريل ١٩٩٣).

بوش الأب

وتوافق مع تولى چورج بوش منصب الرئاسة عام ١٩٨٩ حركة إحياء إسلامى واسع فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ودارت مناقشة مهمة بعد تسلمه لمهام منصبه فى البيت الأبيض حول التعامل مع الإسلام بعد انتشار الحركات الإسلامية فى مختلف أرجاء العالم العربى وبعد تداعى الشيوعية.

وشهدت هذه الفترة انقلابا عسكريا فى السودان عام ١٩٨٩ متحالف مع الجبهة الإسلامية وما حققته الجبهة الوطنية للإنقاذ فى الجزائر فى ديسمبر ١٩٩١.

وهنا امتثل بوش لإرادة الرئيس الفرنسى ميتران وأيد قرار جنرالات الجزائر فى إلغاء الانتخابات، وفى البدء «أسفت» وزارة الخارجية الأمريكية لتعليق العملية الانتخابية ، وأبدت أملها فى إيجاد طريقة لاستئناف التقدم نحو الديمقراطية.

ويقول جيمس بيكر وزير خارجية بوش فى مذكراته .. «انتهجنا سياسة استبعاد الأصوليين الراديكاليين فى الجزائر، حتى مع إدراكنا أن هذا الأمر مخالف لساندتنا للديمقراطية، ويمكن القول إنه عندما تساند الديمقراطية تأخذ منها

ماتقدمه لك، إذا أعطتك أصولية إسلامية راديكالية، فمن المفترض أن تتحملها، ونحن لم نتحملها لشعورنا أن وجهات نظر الأصوليين الراديكاليين مناوئة جداً لما نؤمن به، ولمصالحنا القومية»!.

وبدا واضحاً أن الاسلام السياسى فى نظر واشنطن هو حركة ثورية تماثل فى جذورها التاريخية الفكرة العربية الداعية إلى الوحدة العربية .

ولعل خطاب بلليترو ومن بعده جيراجيان الذى أعلن فى خطاب بعنوان «الولايات المتحدة والإسلام والشرق الأوسط فى عالم متغير»، يوضح معالم سياسة بوش عندما كان مساعد وزير الخارجية للشرق الأدنى فى يونيو ٩٢، يقول .. «إننا نرتاب فى الذين يستغلون الديمقراطية من أجل الوصول إلى السلطة، ولا يتورعون عن تدمير الديمقراطية لكى يحافظوا على السلطة» وأضاف .. «إن نهاية الحرب الباردة أضافت الدفاع عن لب القيم الأمريكية مثل دعم حقوق الإنسان والتعددية والمشاركة فى الحكم، ورفض التطرف والإرهاب» وختم كلمته بالقول .. «لاتنظر الحكومة الأمريكية إلى الاسلام على أنه يواجه الغرب أو يهدد السلام.. فلقد انتهت الحروب الصليبية منذ أمد بعيد، ويعترف الأمريكيون بالإسلام كقوة ذات أهمية تاريخية التى أثرت فى ثقافتنا وأثرتها..»



بوش الاب



الخمينى

أما الإسلام فى مخيلة المواطن العادى، فتصورها له المفاهيم التى اكتسبها المواطن من الأفلام والثقافة السائدة، فيرى العرب والمسلمين خطرين وليسوا أهلا للثقة وغير ديمقراطيين وهمجيين وبدائيين ويسيئون معاملة نسائهم، وأورد الكاتب بعض الاستطلاعات التى أجريت والتى ترى العرب والمسلمين إما فاحشى الثراء وفاجرين وإما من البدو ، ويؤمنون أن المسلمين ميالون إلى التعصب وأن الإسلام معاد بطبيعته للديمقراطية، ويرى الاستطلاع أن عدم التفرقة بين الإسلام والإرهاب تلحق أضراراً كبيرة بصورة المسلمين، وتلك الآراء الشائعة التى يراها المواطنون، تقيد قدرة المسئولين على إنتهاج سياسة «توفيقية» تجاه الإسلام.

والجدير بالذكر أن هذه الصورة تكونت عقب أحداث وتصرفات نسبت إلى الإسلام، وأيضاً نتيجة التقصير فى تقديم الاسلام وتصحيح ما يلصق به مما هو مخالف للحقيقة.

وتظهر الصورة السلبية للإسلام فى وسائل الإعلام الأمريكية إذا قبل إن المهمة الرئيسية لأجهزة الإعلام تكمن فى كونها الزناد الرافد للدولة، فهذا يعنى أن الصورة السلبية تعكس أو تفرز الحوار المضطرب داخل صانع القرار الأمريكي

ويشير روبرت بيليترو السفير الأمريكي السابق فى القاهرة ومساعد وزير الخارجية السابق إلى أن الإعلام الإخبارى غالباً مايشير إلى الإسلام فى تقاريره الإخبارية عن العنف أو عن الإرهاب أو عن المنازعات العرقية، ما يؤدى إلى مساواة الإسلام بالأصولية والتطرف فى المناقشات العامة وحتى الأكاديمية!.

وتنعكس هذه الصورة القائمة فى المخيلة الأمريكية على المسلمين الذين يعيشون داخل أمريكا، يقول كرامر فى كتابه «الجهاد ضد اليهود..» إن أولئك الموجودين بالفعل فى الدول الغربية، ليسوا سوى قنابل موقوتة»!.

ماذا يقول المفكرون؟

ويستشهد د. فوزى جرجس بعدد من الكتاب والمفكرين، ويذكر على لسان مكسيم رودنسون قوله .. «إن العالم المسيحى الغربى ، رأى العالم الإسلامى كخطر قبل أن يراه كمشكلة..».

ويرى ألبرت حورانى .. «إن أوربا المسيحية ترى فى الدين الإسلامى منذ ظهوره مشكلة لها ، فنظرت أوربا إلى الإسلام بمزيج من الخوف والحيرة، ولم يقبلوا بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، أو قبول هبوط الوحى، والاعتقاد الأوسع أن الإسلام زائف (١)، والله ليس الرب، وأن الإسلام اختراع يجب استنكار بواعث أصحابه وصفاتهم..»!

وأكد الألمانى أوليفر البادر بونى.. «أن الإسلام بدأ بالسيف، وأبقى عليه السيف، وسوف يزول بالسيف..».

وترجع هذه الرؤية إلى قرون عديدة من الصراع بين الشرق والغرب، وأن لدى كل من الحضارتين شعوراً بكونية الرسالة، وأنهما تشتركان إلى حد كبير فى التراث سواء المسيحى اليهودى أو الإغريقى الرومانى، كما يشكل الإسلام تحدياً دينياً وفكرياً وعسكرياً للغرب، والأكاديميون أقل حرجاً من السياسيين فى إبداء آرائهم، وهذه بعض النماذج الكاشفة.

ويلخص برنارد لويس موقف الإسلاميين من العملية الانتخابية بقوله .. «إنها تصويت لمرة واحدة»، ويذهب چيليس كابل ويدعى أن الديمقراطية الليبرالية لاتتلاءم مع الإسلام، ووفقاً لأيموس بيرلونز .. «يتحتم على الولايات المتحدة التأكد من أن حركة الأصولية الإسلامية تخنق فى المهد..»، ويقول مورتيمر زكرن..

«نحن فى الخط الأمامى فى صراع يرجع إلى مئات السنين، والعقبة الرئيسية فى وجه رغبة المتطرفين الجامحة إلقاء قيم الغرب الفاسقة فى البحر، تماماً مثلما فعلوا من قبل مع الصليبيين..»، ويقول شارلز كروتامر فى الواشطن بوست فى يناير ٩٣..« إن الخطر الجديد مساو فى شره لإمبراطورية الشر القديمة..» ويقول بيتز .. «الإسلاميون يتحدون الغرب بصورة أعمق مما فعله الشيوعيون، فالشيوعيون يختلفون مع سياستنا، ولكن ليس مع نظرتنا إلى العالم بما فيها ملابسنا وطريقة معيشتنا!.»

ولا يقيم پايبس تمييزاً بين الإسلام كدين وبين الإسلام السياسى، فالاسلام فى رأيه وجزء من طبيعته مناهض للغرب، ويعرف الأمريكيون خصمهم عندما يرونه..» وطالب وولتر كاروجل «بتحالف يضم أمريكا وروسيا للدفاع عن تخوم العالم المسيحى ضد العدو المشترك..»!

ويقول جوناثان پاريس .. «إن الأربعة أخماس من العالم غير الإسلامية لن تتحمل من الخمس الإسلامى أن يمارس ضدها جهاده..».

وها هى چين كيرباتريك تدعى .. «أن العالم العربى هو المكان الوحيد فى العالم الذى تزعزت فيه قناعاتى بقدرة



ريجان



بوش الابن

الشعب على الاختيار العقلانى، إذا ترك له حرية القرار..»، ويعلق المؤلف على هذه الآراء قائلاً.. «إذا كانت ثمة صفة واحدة توحد الصقور ، فهى تطابق آرائهم مع إسرائيل، وأنهم يهدفون جميعاً إلى التأثير فى النزاع العربى الإسرائيلى.

أما تصور الجمهور الأمريكى للإسلام والمسلمين ، فهى الصورة التى تقدمها وسائل الإعلام المختلفة ، وهى الصورة التى تروجها جماعات المصالح وواضعى السياسة، والتى جاءت من الخوف من الإرهاب ، واحتمال حصول الإرهابيين على سلاح نووى. كما ترى الأوساط الشعبية الاسلام مهدداً لاستقرار دول البترول الخليجية، وعقبة فى طريق السلام الفلسطينى الإسرائيلى(!).

معارضة عبد الناصر

وإذا كانت الولايات المتحدة بعد الحرب الثانية قد اتخذت موقف المعارض للاستعمار وساندت حركات التحرر، فقد نظروا فى النصف الثانى من هذا القرن

بارتياب كبير إلى الأفكار السائدة فى العالم الثالث، وقامت السياسة الأمريكية بين عامى ١٩٥٥ و١٩٧٠ على معارضة الفكرة العربية التى قادها عبد الناصر، وكانت الفكرة العربية هى الخطر على النظم المحافظة الموالية لأمريكا ونظر إلى سياسات الإسلام مثل الحلف الإسلامى الذى يخدم المصالح الأمريكية. وجاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣ والحظر البترولى العربى، والثورة الإيرانية ٧٨ -٧٩، وحملت المسئولين الأمريكيين على الاعتراف بوجود قوة جديدة تهدد المصالح الغربية، وكان على الحكومة الأمريكية أن تقاوم عودة سلطة الإسلام. كما أدى تفجير مركز التجارة العالمى فى فبراير ١٩٩٣ إلى مضاعفة الاهتمام بالاسلام بعد إدانة مسلمين بشن حرب إرهاب دينى فى أمريكا.

ويؤكد فى هذا السياق ريتشارد بوليت فى أوراق جامعة كولومبيا .. أن الأمريكيين كانوا على استعداد لتقبل الفكرة القائلة إن أعمال العنف التى ارتكبها بعض المسلمين .. «ممثلة لثقافة متعصبة وإرهابية ، لا يمكن التسامح أو التفاهم معها..» وأعرب بوليت عن خشيته من أن تشهد الولايات المتحدة نمو نوع جديد من معاداة السامية ، قائم على التفرقة ضد الإسلام والمسلمين .. وأكد .. «سوف نصل فى وقت ما إلى عدم احتياج الناس إلى أدلة من أجل تصديق أن أى تهديد إرهابى هو من متطرفين مسلمين» وهو ماحدث بالضبط بعد أحداث ١١ سبتمبر.

كما حذر الصحفى ستيفن أمرسون فى الفيلم الوثائقى «جهاد فى أمريكا» عن وجود شبكة دولية منسقة من جماعات الإرهاب الإسلامى توجه بنادقها إلى المصالح الغربية..»

قوة الضغط الصهيونية

ويؤكد د. فوزى جرجس دور إسرائيل ومؤيديها فى خلط الأوراق، وتقديم الإسلامى على أنه إرهابى، ففى حين يذكر بعض المسئولين الأمريكيين أن الولايات المتحدة ملتزمة كلياً بأمن إسرائيل ، فلابد أن تتأثر هذه السياسة بمواقف إسرائيل.

وطبقاً لما تذكره له أحد المسئولين البارزين فى وزارة الخارجية فإن الولايات المتحدة .. «متأثرة إلى أبعد الحدود بالتفسير الإسرائيلى عن الإسلاميين . إلى حد أن أصبحت وجهة نظر إسرائيل تجاه الأصولية الإسلامية ، هو طريقة معرفة المسئولين الأمريكيين للظاهرة .. فالولايات المتحدة تعارض حصول الحكومات الإسلامية على أية أسلحة غير تقليدية، والشكوك الأمريكية فى الإسلاميين تتعلق بمعارضة لا تلين من بعض الإسلاميين السلام مع إسرائيل ، وهى مسألة حيوية

في السياسة الخارجية الأمريكية!

وقد اشتبهت صحيفة الايكونوميست «باعتماد كلينتون على معلومات تزوده بها إسرائيل» (٦ مايو ١٩٩٥ الايكونوميست).

وبالنسبة لموقف الكونجرس لاحظ أحد أعضاء مجلس الأمن القومي أن آراء الكونجرس في الاسلام والمسلمين مفرطة في التبسيط ومجحفة.

وقالت مراسلة نيويورك تايمز إيلاين سيولينو .. «في غياب تهديدات ملحة على الولايات المتحدة، سيطرت الراديكالية الإسلامية على مخيلة بعض أعضاء الكونجرس، وقد حذر رئيس مجلس النواب جينجرتش من الإسلام الشمولي!، ودعا إلى وضع استراتيجية متماسكة لمحاربة الاسلام الشمولي، واتهمت النائبة إيليان روس إدارة كلينتون بالاستخفاف بالطبيعة المتسقة التي يظهرها «التطرف الإسلامي» والتي تقف متراصة ومصممة على قتال الشيطان الأكبر «أمريكا» وتحقيق السيادة الكونية للإسلام.

وهكذا جاءت أحداث سبتمبر على هذه الخلفية، فكما رأينا لم يكن للولايات المتحدة سياسة محددة متماسكة في أسلوب التعامل مع ظاهرة الإسلام السياسي، بعد أن ظلت تتأرجح بين الحمائم والصقور، كما ظل اليهود لهم



عبد الناصر



جيمس بيكر

كلمة مسموعة في رسم هذه السياسة، ويستعدون الإدارة الأمريكية، ويتعمدون تجاهل الفروق بين الإسلام والإرهاب، وظلت السياسات تتسم بردود الأفعال، وكثيراً ما جاءت متضاربة، وكما قال بلليترو .. «لدينا مصالح نعنى بها يومياً، على أساس عملي وواقعي..».

ومن جانبنا لابد أن نعمل من أجل وقف الحلقة الشريرة، من الفعل ورد الفعل، التي تغذيها مجموعات الضغط الصهيونية، ولا يجوز لنا أن نتصور أن الآخر ينظر إلينا كما ننظر إلى أنفسنا.

وحان الوقت أن تحكم سياسات الولايات المتحدة المسائل الاستراتيجية التي تفوق الاختلافات الحضارية وتفوق الاستجابة لصيحات عنصرية تطلقها قوى الضغط الصهيونية. ■



حوار أم صدام الأديان

الإسلام في أمريكا

بقلم

د. محمد بلتاجي

١٠٠
الهلال
رمضان ١٤٢٢هـ - ديسمبر ٢٠٠١م



المسلمون فى امريكا يندون بالارهاب فى مؤتمر أمام احد المراكز الاسلامية

"إن الأمور تغيرت بعد الهجوم المذهل على برجي مركز التجارة العالمي بنيويورك وعلى مبنى البنتاجون، حيث ألصق هذا الهجوم - على نحو ما - بالإسلام باعتبار أن المتهمين الأساسيين فيه من المسلمين، بالرغم من أن النظرة المنصفة ترى في هذا الاتهام وملابساته كثيراً من الغموض والمجاهيل وعوائق الرؤية الصحيحة. لكن - ومهما يكن من أمر - فإن أموراً كثيرة قد تغيرت بعد هذا التاريخ؛ حيث أصبح المسلمون هناك ومؤسساتهم جميعاً يلقون من ألوان الهجوم والحرب وعدم التسامح والشك فيهم وفي نياتهم نحو النظام الأمريكي - ما وصل إلى حد القتل والهدم والحريق تحت شعار الانتقام من المسلمين المسئولين عما أصاب أمريكا من ذلة وهوان وخسائر في هذا اليوم الذى لم تشهد له مثيلا منذ قيامها، ولا يوم الهجوم اليابانى على بيرل هاربور في ديسمبر ١٩٤١م.

وهؤلاء الذين يقومون بذلك ضد كل ما هو مسلم من الذين تغلب على تصرفاتهم وردود أفعالهم روح القطيع الذى تحركه وتتحكم فيه روح الانتقام والعنف، ولا يحكمون العقل والتفكير السليم في قيادة تصرفاتهم وردود أفعالهم، وهؤلاء أحفاد المستوطنين الأوائل الذين كانوا يبادرون بشنق المتهم قبل أن يثبت ارتكابه للجريمة ثبوتاً قطعياً يبيح إزهاق روحه."



وحينما كان (الدين الإسلامى) وليدا محاصرا بالأعداء فى مناطق وجوده من شبه الجزيرة العربية - لم يشمل بعد كل مناطقها ، ولم يخرج بعد منها إلى غيرها - قال النبى محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغن هذا الأمر مابلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا دخله هذا الدين ..(١).

وقد ورد فى صحيح مسلم(٢) أن النبى صلى الله عليه وسلم تنبأ بهذا بعد أن جمع الله له الأرض من مشارقها ومغاربها فرآها وعلم أن الإسلام سيدخل إليها جميعا .. وهذه النبوءة من علامات صدق النبوة الإسلامية ودلائلها.

ويعتبر وجود الإسلام فى أمريكا مصداقا لها ، كما يعتبر مثالا واقعياً يكّذب دعاوى الذين زعموا أن الإسلام لا ينتشر إلا بالسيف والحرب والقتال والإكراه، فهذه الأمة الفتية التى لاتصل عمر حضارتها المعاصرة إلى ثلاثمائة عام يوجد فيها الإسلام بأعداد من الملايين وينتشر فيها بطرق أبعد ما تكون عن وسائل الحرب، بل بالاختيار الحر، بالرغم من ظروف كثيرة معادية.

الإسلام الأمريكى

وقد بدأ الوجود الإسلامى فى أمريكا فى صورة ملموسة(٣) على يد أفراد من الأمريكيين السود أحفاد الأفارقة الذين اقتيدوا قسرا بعد خطفهم من مناطق عديدة من إفريقيا ليفرض عليهم المواطن الأمريكى الأبيض (ذو الأصول الأوربية) الرق ظلما ، ويعهد إليهم بأشق الأعمال، بعد أن انتزعوا جبرا من بلادهم وأهليهم وحضارتهم وديانتهم ، وقد كان قسم كبير منهم من مناطق يغلب على مواطنيها ديانة الإسلام، وأجبرهم (سادتهم) على تناسى ديانتهم وشعائرها فى ظل أسوأ صور القهر والإذلال ، وقد قام واحد من أحفادهم (وهو أليكس هالى) بدراسة تتبع فيها الأصول الإفريقية التى انحدر منها، حيث تبين له أنه انحدر من قوم مسلمين فى مالى(٤).

وكما هو معروف فقد وجدت بقية من الضمير الإنسانى العام عند مواطنى الولايات الشمالية خاصة دفعتهم إلى معاملة هؤلاء السود بشىء من الرفق والشعور بالأخوة الإنسانية العامة، مما رفضته الولايات الجنوبية (على وجه العموم) وكان سبباً فى (الحرب الأهلية الأمريكية) فى القرن التاسع عشر(٥).

عودة للإسلام

وبالرغم من أن أمورا كثيرة قد تغيرت فى العقود الأخيرة فى هذه القضية فإن أفرادا ومجموعات من الأمريكيين ذوى الأصول الإفريقية - ممن كانت الدعاية المسيحية قد فرضت على أجدادهم - قد

اتجهوا إلى (الإسلام) الذى يرفع منذ أربعة عشر قرنا شعاره بالتساوى المطلق بين البشر (لا فضل لعربي على عجمي ،ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح وطاعة الله تعالى) كما ورد فى الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم (٦)، الذى ورد فيه أيضاً أن الناس (سواسية كأسنان المشط .. كلهم أبناء آدم ، وآدم خلق من تراب) . وهذه العقيدة الدينية في مقابلها فلسفات بشرية ونظريات عديدة ترى أن (الإنسان الراقى) هو فقط الذى انحدر من أصول بيضاء، فهو وحده الجدير بكل تكريم وسيادة ، وهو - وحده (٧) - الذى يحكم العالم بقيمه وحضارته!

أما الإسلام فقد ورد أيضاً فى الحديث الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم عنف الصحابي الجليل ذا المكانة الخاصة فى الإسلام (أبا ذر الغفارى) بقوله له (إنك امرؤ فيك جاهلية) وذلك حين تلاحى مع بلال بن رباح الحبشي فعيره بلونه الأسود قائلاً (ياابن السوداء). فقال النبي صلى الله عليه وسلم (ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى)، فأتى أبو ذر - حين سمع تعنيف النبى صلى الله عليه وسلم له - يسترضى بلالا فوضع له خده على الأرض ليدوس عليه.!

الخلاص فى الإسلام

ولا عجب بعد هذا أن يكون السابقون إلى الإسلام من الأمريكيين السود قد وجدوا الخلاص مما يعانونه - بسبب لونهم - فى هذا الدين (الإسلام)، كذلك لاعجب أن السابقين منهم إلى الإسلام أطلقوا على أنفسهم اسم (البلاليين) تيمنا بمكانة بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قال عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه (إنه سيدنا). ولقد كان من هؤلاء الذين أسلموا شخصيات متميزة في المجتمع الأمريكي، لعل من أهمهم (كلاى) بطل العالم في الملاكمة الذى تسمى بعد إسلامه باسم (محمد على)، ومنهم جمع كبير من أبطال الرياضات المختلفة وكبار رجال السياسة والفكر .. ويصل عدد هؤلاء الأمريكيين الأفارقة إلى نحو أربعة ملايين على الأقل.

على أن أمر الإسلام فى أمريكا لم يقتصر على هؤلاء، فكما يجذب الإسلام الآن أفرادا من بلدان أوربا (مثل رجاء جارودى - ومراد هوفمان، وقبلهما محمد أسد .. وكثيرون) فكذلك يجذب إليه أفرادا من الأمريكيين ذوى الأصول المختلفة.

وبداهة فإن الوجود الإسلامى المتنامى فى أمريكا يحتاج إلى مراكز وأماكن للعبادات والشعائر ومؤسسات تعلم الدين الصحيح؛ حيث وردت بعض الإحصاءات بأنه يدخل إلى الإسلام كل يوم أكثر من ثمانين أمريكيا ، ومن ثم وصلت المراكز الإسلامية الآن بها إلى ألفين وخمسمائة مركز إسلامى، كذلك انشئت فى السنوات الأخيرة بعض الجامعات الإسلامية. ومنها (الجامعة الإسلامية الأمريكية) ، التى أنشئت على



الإسلام في أمريكا

الجمعية الإسلامية الأمريكية Mas) استمرارا لجهود أعضائها في حمل رسالة الإسلام في أمريكا الشمالية منذ أوائل الستينات من القرن العشرين، وذلك وفق فهم شامل للإسلام(٨).

الجامعة الإسلامية الأمريكية

وقد تأسست (الجامعة الإسلامية الأمريكية) في غرة رمضان سنة ١٤٢٠ هـ (ديسمبر ١٩٩٩م) بكانسس سيتي (ميزوري) «رغبة في إحداث نقلة علمية وتربوية من مجرد المعرفة العشوائية للإسلام إلى الدراسة المنهجية، وذلك شعور بالمسئولية نحو مواجهة التحديات والشبهات ضد الإسلام وعقيدته الصافية وشريعته السامية وحضارته الراقية»(٩).

وأهداف هذه الجامعة هي :

١- تخريج جيل من الباحثين الدعاة يفهمون الإسلام فهما صحيحاً، ويعملون به، ويسعون إلى توطين الدعوة إليه في أمريكا.

٢ - جذب الشباب المسلم وغيره إلى الدراسات الشرعية والأكاديمية توثيقا للصلة بينهم وبين عقيدة الإسلام وحضارته.

٣ - تعليم اللغتين العربية والانجليزية لغير الناطقين بهما.

٤ - تقديم حلول عملية لمشكلات المسلمين في المجتمع الأمريكي ومشكلات هذا المجتمع بعامة .

وتستخدم الجامعة الإسلامية الأمريكية أحدث وسائل الاتصال والتعليم في ذلك من انترنت وندوات ودورات تعليمية .. وغيرها.

وقد تم تسجيل الجامعة لدى الجهات الرسمية الأمريكية كمؤسسة علمية تربوية، وفتح مكتب رئيسي لها في شرق أمريكا بمدينة ديترويت بولاية متشجان حيث يوجد فيها وحدها أكثر من نصف مليون مسلم(١٠).

وتخدم المؤسسات الإسلامية من مدارس ومراكز وجامعات في أمريكا أكثر من ستة ملايين مسلم بها من أعراق مختلفة .

وقبل الحادي عشر من سبتمبر الماضي (٢٠٠١م) كانت الأمور مناسبة تماماً لأداء هذه الخدمات دون أي معوّق : إذ كانت البلاد (على وجه العموم) يسودها جو من الحرية الذي يكفل لكل من الديانات والعقائد والحضارات أن تعبر عن نفسها وتؤدي الخدمات الدينية والثقافية لمعتنقيها في إطار عام بني على اجتماع أعراق وحضارات مختلفة ما بين أوربية وأسيوية وإفريقية؛ حيث ساعد على تدعيم هذه الحرية (الحقيقية) - التي يفتقدها كثير من المواطنين النازحين إلى

أمريكا في بلادهم الأصلية - أن أمريكا بلد مفتوح مادياً وثقافياً وحضارياً، تقوم المواطنة فيه على ديموقراطية (حقيقية) مبنية على تنوع الأصول وتعدد التراث الحضارى والثقافى لمواطنيها.

جهل بالإسلام

بيد أن رد الفعل في أمريكا تجاه الإسلام لم يقتصر على ذلك، إذ وجد معه رد فعل آخر يتمثل في حب استطلاع شديد لمعرفة جوانب هذا الدين وحضارته - ولو من قبيل (اعرف عدوك جيدا تعرف كيف تحاربه) - ومن ثم أصبح هناك إقبال شديد على قراءة ترجمات القرآن الكريم وكل الدراسات التى تتخذ الحضارة الإسلامية موضوعا لها . ونحن نؤمن بأن الجهل بالإسلام هو العدو الأكبر له: حيث تنتشر معه المعلومات المغلوطة بقصد وبغير قصد، كما تنتشر معه الأساطير والأوهام التى قد تؤجج العداء. ومن ثم نأمل أن يتيح حب الاستطلاع الشديد عند المواطن الأمريكى فرصة كافية للتعرف على الإسلام الصحيح عقيدة ونظام حياة وحضارة، ولعل هذا يؤدى إلى دعم الفرصة أمام الإسلام من حيث تقبله والدخول فيه.

وقد انتقلت المعركة ضد الإسلام في أمريكا فى الأيام الأخيرة إلى الأمريكيين غير المسلمين - وعلى كافة المستويات - فهناك من أسهم بقول أو فعل فى تعريض العرب والمسلمين فيها إلى الإهانة أو التحقير أو تدمير الممتلكات والحرب على كل مظهر إسلامى(١١) «وفى الوقت نفسه شهدت مدن عديدة تعاطف جماعات من الشعب الأمريكى مع أصدقائهم العرب ، فعمدوا إلى مساعدتهم في مواجهة المتطرفين» (أخبار اليوم فى ٢٧/١٠/٢٠٠١: تقرير من نيويورك).

وشنت جماعات أمريكية معادية للإسلام هجوماً عنيفاً على سنثيا ماكينى عضو الكونجرس الأمريكي لأنها بعثت ببرقية اعتذار للأمير السعودى الوليد بن طلال بعد رفض عمدة نيويورك قبول هديته إلى ضحايا هجوم ١١ سبتمبر، ووصل الهجوم عليها إلى اتهامها بأنها (عميلة) وبأنها (مومس)! (المصدر السابق).

وبداهة فقد كانت الأيدى الصهيونية المسيطرة على معظم أجهزة الإعلام وراء قسط كبير من تأجيج نار الكراهية والعداء ضد المسلمين والعرب ولحساب إسرائيل.

وفى مقابل سنثيا ماكينى وجد عشرات من رجال الكونجرس وغيرهم قاموا بدورهم المعتاد فى مهاجمة واتهام كل ما ينتسب إلى الإسلام والمسلمين، وفى مقدمتهم نائب آخر هو جون كوكس من ولاية لويزيانا حيث ظهر على شاشة التليفزيون لينادى بمعاملة العرب والمسلمين فى أمريكا معاملة خاصة شديدة: الأصل فيها هو وضعهم موضع الشبهة والاتهام ومعاملتهم بصرف النظر عن مفاهيم (حقوق الإنسان) و(الحرية)!

وقد سجلت آلاف الوقائع فى تطبيق ذلك فى المطارات ومؤسسات الدولة



والطرقات ولم ينج منها الأمريكيون الذين دخلوا إلى الإسلام منذ عشرات السنين إذا كان اسم أحدهم (محمد) أو (أحمد) أو (أسامة) أو نحو ذلك ، أو إذا كانت وجوههم سمراء أو ذات طابع عربي ! وسقطت في هذه الممارسات العنصرية كل الأقنعة التي حاولت أمريكا وأوربا أن تدعي - لعشرات السنين - أنها صفات أصيلة لاتنفك عن حضارتها بحال

أقوال وأفعال متناقضة

ووصلت المعركة بين الأمريكيين تجاه الإسلام إلى المستويات العليا في الإدارة الأمريكية حيث صرح الرئيس الأمريكي بوش عن قضية (عداء الغرب للإسلام) بقوله «كيف يمكن أن يقال هذا وقد وقفت الولايات المتحدة وجيشها إلى جانب المسلمين وقضاياهم في الخليج والبوسنة وكوسوفو» كذلك طلب الرئيس من المدارس أن توجه تلاميذها لإنشاء صداقات وكتابة رسائل للتفاهم مع تلاميذ الدول الإسلامية (أخبار اليوم ١٠/٢٧ تقرير من نيويورك ص ٧) . لكن كثيرا من العرب والمسلمين داخل الولايات المتحدة وخارجها يرون أن ضرب الأبرياء المدنيين في أفغانستان وقتلهم لايتفق مع هذا!

كذلك صرح وزير خارجيته كولين باول أمام مجلس الشيوخ بأن أمريكا تركت للمتطرفين بأن تصورها على أنها بلد تختلف قيمه الأساسية عن القيم الإسلامية وقال : «إن الإدارة الأمريكية تسعى للإستعانة بالمسلمين الأمريكيين لتوضيح القيم الأمريكية والتأكيد على أنها متوافقة مع العقيدة الإسلامية» ، (جريدة الأهرام في ١٠/٢٧ تقرير من وكالات الأنباء).

لكن هذه التصريحات المعلنة من كبار رجال الإدارة الأمريكية تناقضها أقوال وأفعال أخرى تصدر عن آخرين في الإدارة الأمريكية تشير إلى أنه سيتم «إحكام المراقبة على المساجد ورجال الدين المسلمين في أمريكا بعد ظهور دلائل على استخدام بعضها لتجنيد عناصر إرهابية وتمويل عمليات معادية لأمريكا». وسوف تستغل في ذلك الصلاحيات الجديدة لقانون مكافحة الإرهاب الذي صدر عقب هجوم الثلاثاء الأسود ١١ سبتمبر سواء فيما يتعلق بعمليات المراقبة دون قيود ، أو أوامر الإعتقال لفترات مفتوحة ، أو الحصول على اعترافات بوسائل غير تقليدية . ورغم تردد مسئولو المخابرات الأمريكية في فتح ملف المساجد ورجال الدين لحساسيته وارتباطه بالحريات الدينية إلا أن هذه الحساسية ليس لها مكان الآن بسبب



النساء المسلمات يشاركن فى مظاهرة ضد الارهاب

وجود أدلة ضد عدد من المساجد بالتورط فى تجنيد وتمويل الإرهاب لم يتم الكشف عنها حتى الآن. وكشف مسئولو مكتب التحقيقات الفيدرالية النقاب عن اعتقادهم بأن هناك خطرا قائماً يمكن أن تمثله بعض المساجد، وسيتم التحرك نحو السيطرة على هذا الخطر». (وكالات الأنباء . أخبار ٢٠٠١/١/٢١ ص ٥).

إحساس بالخطر

وخلاصة الوضع تجاه الإسلام والمسلمين فى أمريكا اليوم أن المسلمين ومؤسساتهم من مراكز ومدارس وجامعات ومساجد تعانى تضييقا لاشك فيه، يبعث عليه الخوف والإحساس بالخطر الداهم على الحضارة الأمريكية المعاصرة، ويغذيه ارتياب كامن موروث فى الإسلام والمسلمين. فكيف يواجه المسلمون هناك هذا الموقف الصعب؟ وما الذى يجب على المسلمين خارج أمريكا لمؤازرتهم حتى تمر هذه الأزمة الخطيرة ؟

أما مايجب على المسلمين فى أمريكا فهو أن يكونوا واعين لمتغيرات المجتمع الأمريكى (على وجه العموم) تجاههم، وأن يثبتوا بالتصرفات الرصينة أنهم ومؤسساتهم جميعاً أبعد مايكونون عن كافة صور الإرهاب والعمل على هدم الحضارة الأمريكية المعاصرة؛ وينبغى أن يكون الوعى عندهم مستقرا على أن بقاء (الإسلام) فى أمريكا وإعطاءه فرصة النمو السلمى أفضل كثيراً من التورط فى تصرفات وانتماءات حمقاء تنبه المجتمع لضربهم ومحاولة تقليص وجودهم فيه.



الإسلام في أمريكا

وأنه خير للإسلام والمسلمين أن ينمو الوجود الإسلامى عن طريق الاختيار الحر الذى تهيىء له تصرفات سلمية واضحة الجوانب - من القيام بأعمال لاتتفق مع طبيعة الإسلام السلمية ، ثم إنها أيضاً لن تثمر إلا ثماراً مرة لا تعود على الإسلام والمسلمين بالخير.

أوقات عصيبة

ومما لاشك فيه أن المسلمين هناك أو بعضهم على الأقل - سيمرون بأوقات عصيبة وسيعانون من شكوك وارتيابات كثيرة - وربما يتعرضون لأعمال عدائية متعددة - فعليهم الاستمساك بالصبر والصلاة والاستعانة بالله تعالى ، ثم بالعقلاء والأصدقاء من الأمة الأمريكية .. حتى يرتفع هذا الضيق شيئاً فشيئاً إن شاء الله وربما أعقبته انفراجة فى صالح الوجود الإسلامى فى أمريكا قد تتمثل فى وعى أعمق وأصح بالإسلام وحقيقته، مما يهيىء الطريق إلى فهم وتفاهم أفضل يكون فى صالح هذا الوجود (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) (البقرة ٢١٦) ورب ضارة نافعة ، كما يقول المثل العربي.

وأما ما يجب على المسلمين خارج أمريكا لمؤازرة إخوانهم داخلها فهو أن ينسقوا معهم جهودهم لإثبات نصاعة الإسلام وكونه دين السلم والرحمة للعالمين وتكميل مكارم الأخلاق والعدل، وليس كما يشيعه أعداؤه وبعض الجاهلين من أتباعه الذين يسيئون إليه وإلى أنفسهم قبل الإساءة إلى غيرهم .

ويكفى فى ذلك إيراد عشرات الآيات والأحاديث التى قررت المبادىء السابقة بغاية الوضوح:

ومنها (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) «الأنبياء : ١٠٧».

(وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) «الأنفال : ٦١».

(لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم) «الممتحنة : ٨ - ٩» .

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط..) «الحديد: ٢٥».

(لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) «البقرة : ٢٥٦».

(وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ، «الكهف ٢٩».

(ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) يونس : ٩٩».

وآيات أخرى كثيرة واضحة الدلالة ترفض طعن الطاعنين وادعاءات الجاهلين... وفى الحديث النبوى الصحيح أصداؤها مثل ما رواه النبى صلى الله عليه وسلم من أنه غفر لمن سقى كلبا كان يلهث عطشا ولا يصل إلى الماء، وأن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل .. فكيف بالإفساد العام وقتل الأنفس بغير حق .. وصدق رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم حين قال إنه بعث رحمة مهداة إلى الخلق جميعهم، وأنه بعث ليتمم مكارم الأخلاق .. صلى الله عليه وسلم.■

الهوامش

(١) مسند أحمد ١٠٣/٤ والمدر : هم أهل المدن والحضر، والوبر: هم اهل البادية (أى الذين يربون الأنعام ذوات الصوف) .. ويقصد الحديث : انحاء العالم جميعها.

(٢) كتاب الفتن ، باب هلاك هذه الأمة..

(٣) بداهة كان يوجد بأمريكا قبل هذا مسلمون أفراد لم يكن لهم وجود جمعى ملموس فى صورة مؤسسات وتجمعات.

(٤) انظر كتابه (الجذور) الذى روى فيه رحلة البحث عن أصوله.

(٥) ومازال الولايات الجنوبية - حتى اليوم - على شىء من التشدد فى معاملة الأمريكيين السود - بالمقارنة بالولايات الشمالية - لأن العقل الجمعى الموروث عندهم لايتقبل فكرة التساوى المطلق بين البشر بصرف النظر عن ألوانهم ! وقد عبرت عن ذلك أعمال أدبية وفنية كثيرة.

(٦) راجع مثلا : كشف الخفاء ٤٥١/٢ للعجلونى.

(٧) وكم جرت هذه الفلسفات والنظريات على البشرية من شرور ومآس! وهل كانت الحرب العالمية الثانية - مثلا - إلا ثمرة مرة من ثمار بعض نظريات التفوق العنصرى؟ والذى تفعله إسرائيل من جرائم فى فلسطين ليس فى حقيقته إلا ثمرة أخرى! والأمثلة كثيرة.

(٨) كتاب التعريف بالجامعة الإسلامية الأمريكية.

Islamic American university

(٩) السابق .

(١٠) السابق .

(١١) وقع ٩٦٠ حالة اعتداء على المسلمين منذ أحداث ١١ سبتمبر إلى ٢٢ اكتوبر (وكالات الأنباء : جريدة الوفد فى ٢٠٠١/١١/٢) . وربما كان العدد الحقيقى أكبر، حيث يمكن أن تكون هناك حالات اعتداء أخرى لم يبلغ عنها.

(١٢) الأحاديث فيما سبق كثيرة صحيحة، انظر مثلا : صحيح البخارى باب بدء الخلق، وصحيح مسلم، كتاب البر، وموطأ مالك، كتاب حسن الخلق .. وغيرها.

المستشرقون والإسلام

بقلم
عاطف مصطفى

ظاهرة الاستشراق التي بدأت منذ مئات السنين حققت في ظاهرها نوعا من التقارب بين الشرق والغرب ، وأعطت للآخر الحق - في أحيان كثيرة - أن يكتب ما يحلو له عن الإسلام والشريعة الإسلامية بشكل غير مقبول ، ولم يسكت على ذلك علماؤنا ، بل إنهم قارعوهم الحجة بالحجة .

وقد حرص الغرب والذي استفاد كثيرا من علماء المسلمين ومفكريهم على رد الجميل ، ولكن بطريقتهم ، فهم ينسون أن للإسلام دوره الكبير في تحقيق العدالة ورفع الظلم عن البشرية ، وأن القرآن والسنة هما التشريع الذي يحقق الأهداف السامية لهذا الدين الحنيف .

فبعد انتصار صلاح الدين الأيوبي على أوروبا التي دأبت على إرسال جيوشها لغزو الشرق، بدأ الغرب يدرس الشرق سياسيا واقتصاديا بهدف تسييس الشرق للأطماع الغربية الاستعمارية وبدأنا نشهد جيلا من الدارسين للشرق، ولعلنا نذكر ما يقال أن الحملة الفرنسية فشلت حربيا لكنها نجحت علميا في فك رموز حجر رشيد، وأدخلت أول مطبعة إلى مصر .

وفي فرنسا وانجلترا وايطاليا، أنشئت وزارة يطلق عليها وزارة الاستعمار. وكان الدارسون للشرق ينتمون إلى هذه الوزارة، وهذا الجيل من المستشرقين، هو الذي أخذ يزيف كثيرا

من الحقائق، ويصطنع حواجز كثيرة بين العالم الإسلامي، فضلا عن تشويههم لحقائق الدين الإسلامي نظرا لعدم فهمهم للنصوص العربية، فضلا عن ترجمتهم للقرآن ترجمات غير أمينة، وبما يدعهم يصدرون أحكاما غير صحيحة وملتبسة .

وقد بدأ الاستشراق منذ قرون كثيرة سابقة للقرن الثامن عشر، بل نرى أن الاستشراق قد أرسى قواعده منذ العصور الإسلامية المبكرة. والاستشراق قد بدأ في أوروبا نفسها في العصور الوسطى الإسلامية، حينما كان العرب المسلمون يحكمون أرجاء كثيرة في شبه جزيرة أيبريا (بلاد الأندلس) وفي فرنسا وإيطاليا وصقلية وجزر البحر المتوسط، فقد كانت أوروبا قبل الفتوحات العربية والإسلامية تسبح في ظلمات التخلف وقد بددت الحضارة العربية الإسلامية هذا التخلف، وأصبح العرب أساتذة للأوروبيين، وكتبت أسبانيا العربية الإسلامية فيما بين منتصف القرن الثامن وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين أروع صفحات تاريخ الحضارة العربية في العصور الوسطى . وأقبل الأوروبيون ينهلون من منابع الحضارة العربية، وقدم طلاب العلم من كل أرجاء أوروبا على بلاد الأندلس يدرسون في جامعاتها ومعاهدها كل أنواع العلم .

وحينما أقدم الأوروبيون على الاقتباس من حضارة الشرق العربية والإسلامية، وحينما أصبحت هذه الحضارة الشرقية هي أساس حضارة القارة الأوروبية، بدأ جيل من المستشرقين الأوروبيين، فقد وجدوا في حضارة العرب ما يناسب احتياجاتهم وسد الفراغ الموجود عندهم، وكانت الحضارة العربية لها من المرونة والواقعية، ما يجعلها تناسب الشعوب الأوروبية على اختلاف بلادها وأجناسها وثقافاتها، وقد اتخذ إقبالهم على الاستفادة من الحضارة العربية شكلا علميا منظما، مما يجعله استشراقا على أسس علمية ثابتة.

واهتمت الدول الأوروبية بإرسال بعثات علمية إلى بلاد الأندلس العربية لدراسة العلوم والفنون والصناعات في معاهدها الكبرى، نتيجة ذيوع شهرة الأندلس وحضارتها الزاهرة في انجلترا وفرنسا وهولندا .

بداية الاستشراق

ومن الأمثلة التي توضح بداية الاستشراق العلمي المنظم، تلك البعثات الثلاث التي قدمت إلى الأندلس في (٢١٣هـ) وكان تعدادها سبعمائة طالب وطالبة، كما بعث الملك فيليب البافاري إلى الخليفة الأموي بالأندلس يسأله السماح له بإيفاد هيئة تشرف على حالة بلاد الأندلس ودراسة أنظمتها وشرائعها وثقافة مختلف الأوساط فيها، ليتمكن من اقتباس المثمر المفيد من ذلك لبلاده .

وظل المستشرقون ينهلون من حضارة العرب والإسلام، إلى أن أتت الحروب الصليبية، والتي كانت من العوامل المهمة في نقل الفكر الإسلامي إلى الغرب .

وقد أطلعت هذه الحروب الغرب عن طريق الاتصال بالشرق من جهة والمقارنة بين الإسلام ودينهم من جهة أخرى على مواطن في دينهم تحتاج إلى مراجعة أو تعديل ، وهذا ما سماه بعضهم بحركة «الإصلاح الديني» ، وهذه الحركة استرعت مراجعة أصول الدين عندهم ، فاستدعت المراجعة نوعا من الدراسات العبرانية ، ثم انتقلوا إلى الدراسات العربية ، ثم كانت هناك الرغبة القوية فى التبشير بالمسيحية فى الشرق ، فاستلزم هذا دراسة اللغة العربية على أيدى المستشرقين ، لتكون تلك الدراسة عونا على النجاح فى هذا التبشير ، ومن هنا تلاقت وجهة الاستعمار مع التبشير والاستشراق معا ! .

وبدأ دور المستشرقين فى الهجوم على الإسلام وكان من بينهم «رايموند» رئيس أساقفة توليدو وحاكم مدينة كاستيل (١١٣٠م - ١١٥٠م) وأيضا بيتر المعروف باسم Peter the venerable . وقد حمل بيتر هذا لواء حملة نشطة ضد الإسلام ، ولام المسيحيين على مهادنة الإسلام ، ووضع خطة لمحاربته ، ورأى أن تكون نقطة بداية هذه الحرب هى القرآن ، ولهذا السبب ترجم القرآن إلى اللاتينية ، وتاريخ أول ترجمة يدعو إلى الحديث عنها ، إذ أنه لا يجوز أن نصفها بأنها ترجمة على أى حال من الأحوال . فإن روبرت الذى تولى أمر الترجمة لم يقم بترجمة القرآن حرفيا ، بل قام بترجمة بعض المعانى العربية بقدر ما استطاع .

وفى الواقع لم تكن محاولة ترجمة القرآن التى قام بها الاستشراق تستهدف فهم هذا الدين على وجه صحيح ، ولكنها كانت فى الغالب تحاول اقتناص بعض الأسباب للهجوم عليه .

الهجوم على الإسلام

رغم الأسباب العديدة للاستشراق ، فإن الظاهرة التى غلبت عليه ، هى أن بعض المستشرقين كانوا عملاء للاستعمار فى بلاد العرب والمسلمين ، ومن هنا فقد دأبوا على تقويض الخصائص والمقومات الدينية والتاريخية والقومية للعرب والمسلمين ، لكى يمكنوا الاستعمار من هذه البلاد ، وليشيعوا النزعة الاستعمارية الغربية فى مجالات مختلفة ، ومنها مجال التظاهر بالبحث العلمى المحايد .

وكان للاسلام نصيب الأسد من هذا الهجوم ، حيث بدأ المستشرقون يزعمون بأن الإسلام دين مادى ، وبأنه قام على السيف والتعصب ، فإما أن تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وإما أن تقطع رقبتك بلا جدال ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الذى صاغ القرآن وصنعه ، وأن المسلمين قوم لا يصلحون للحياة ولا للعزة .

ومن المستشرقين من أبدى إعجابا وإقبالا على حياة الشرق ، وتحمس للحضارة العربية تحمسا شديدا ، وانعكست هذه الميول بالاتجاهات فى كتاباته وأبحاثه . ومنهم من اتصف

بالتعصب الأعمى ضد الإسلام أو العروبة أو الشرق ، فكانت كتاباته كلها سهاما مسمومة ، ومنهم أيضا من أبدى إعجابه بالإسلام حتى أنه اعتنقه وأخلص له، وانعكس ذلك على أبحاثه ، فأقبل يخدم هذا الدين وحضارته بقلمه وفكره ، ومن المستشرقين من تأثر بسياسة دولته التي ينتمي إليها ، فأصبحت أبحاثه صورة لاتجاهات هذه الدولة وأهدافها السياسية أو الاستعمارية ! .

وكان مرجليوث هو أول من أثار الشك في الشعر الجاهلي ، وقد أشار في بحثه إلى أن الشعر الذي يقرأ على أنه شعر جاهلي ، إنما نظم في العصور الإسلامية، ثم نحله هؤلاء الواضعون المزيفون لشعراء جاهليين .

ولمرجليوث أيضا آراء ضد الإسلام والنبي ﷺ أوردها في كتابه «محمد وظهور الإسلام» وقد تناولها بالتحليل الأستاذ أنور الجندي في كتابه «الإسلام والثقافة العربية» وكلها تدور حول شبهات النقل من اليهود والنصارى ، والتفسيرات الباطلة للنصوص وفق مفهومه اليهودي البالغ الكره للإسلام .

ولقد حاول المستشرقون دائما تصوير الإسلام في صورة الدين الجامد الذي لا يصلح للتطور أو التجديد .

وخير ما يصور محاولة بعض المستشرقين من أن يلصقوا بالإسلام كل تأخر حضاري أصاب العالم الإسلامي كتاب «الإسلام في التاريخ الحديث» للمستشرق الأمريكي المعاصر (ولفرد كانتويل سميث) الذي كان مديرا لمعهد الدراسات الإسلامية بجامعة ماكچيل بمدينة مونتريال بكندا ويقول في كتابه «للإسلام في العصر الحديث مشكلة وأزمة فالمسلمون يحسون أن خطأ ما وقع في تاريخهم ، فانحرف به عن طريقه السوي ، وأن ثمة مفارقة بين الدين الذي أنزله الله، وبين التطور التاريخي للعالم الذي يسيطر عليه ويصرف أموره ، وأنهم يفكرون في كيفية تقويم ما اعوج من تاريخهم حتى يعاود سيره من جديد في كامل قوته» .

ويقول : «إذن فالمأزق الإسلامي إزاء العصرية يحسه المثقفون بعمق ، فقد مضى أكثر من قرن من الزمان ، منذ بدت الحاجة إلى الدفاع عن القصيدة ضد الضغط الخارجي والتأخر الخارجي !

ويمتدح «سميث» الأتراك لأنهم تخلوا عن الحضارة العربية الإسلامية وأقبلوا على الأخذ بالحضارة الأوروبية ، حيث يقول عنهم «يعنينا موقف تركيا من التصدي للدين الإسلامي ، فالأتراك لم يرتدوا عن دينهم ولم يهجروه ، وإنما أخذوا يعيدون النظر فيه ، وهو الشعب المسلم الوحيد ، الذي أدرك على وجه التحديد ما يحتاج إليه ، وهو الشعب المسلم الوحيد الذي استطاع أن يشكل أسسه الفكرية والاجتماعية ، بما يتناسب مع أوضاع المدنية الحديثة ، وقد سبق أن الإسلام يعنى كثيرا بالتاريخ ، وأن الشق

التركي من التاريخ الإسلامي ، هو الشق الوحيد في المرحلة المعاصرة ، الذي يستطيع أصحابه أن يرقبوه دون أدنى ارتياب ، وهو الشعب الوحيد كذلك بين الشعوب الإسلامية الذي يستطيع أن يطمئن إلى أن مشاركته في التاريخ الإسلامي الحديث ، كانت ذات أثر فعال ... إلخ» .

وعلى الرغم من الأخطاء الفادحة التي وقع فيها كثير من المستشرقين فإن الفضل يرجع إليهم في إبراز المقومات الكبرى والمعالم الرئيسية لحضارتنا الإسلامية ، فقد أبرزوا أثر الإسلام في حضارات الأمم الأخرى ، وكيف تأثرت بها حضارته كما أوضحوا أثر الحضارة الإسلامية في حضارة أوروبا ، وإن الإسلام لم يكن مجرد ثقافة روحية ، ولم تنحصر حضارته في الأدب والفن والفلسفة والتصوف ، ولم تكن تراثا جنسيا واحدا ، أو أمة واحدة من الأمم . فقد أنشأ الإسلام حضارة واسعة غنية فيها الروح والمادة ، وفيها المعرفة والعمل ، وفيها الأدب والعلم ، وقد اتسع صدرها لكل نافع من ذخائر الحضارات القديمة ، وطبعت تطور الإنسانية بطابعها عدة قرون ، ثم تلقى الغرب فيها مبادئ النهضة في العصور الوسطى ، وقد اعترف المستشرقون بذلك ، وأخرجوا عديدا من البحوث في هذا المجال .

وكان فهم المستشرقين للإسلام وطبيعته وروحه يحدد مدى نجاحهم في دراسة التاريخ الإسلامي والحضارة ، وكلها وضحت صورة الإسلام في أذهانهم، أصبحت أبحاثهم واقعية وحقيقية وذات قيمة علمية كما أن فهم المستشرق للإسلام يبعده عن تأثره بحضارته الغربية المادية العنصرية الدنيوية ، وفي ذلك يقول سميث في كتابه «الإسلام والتاريخ الحديث» ..

«يمر المجتمع الإسلامي اليوم ، شأن بقية الجنس البشري بمرحلة انتقال خطيرة ، والذي يميز هذا المجتمع أن أعضاءه يواجهون الحياة العصرية بحريتها وفرصها ، بوصفهم ورثة تقليد فريد ، والسمات المميزة لهذا المجتمع هي : إيمان واسلام ، وماض عظيم .. إن التطورات التي حدثت في العالم الإسلامي كثيرة وجوهرية ، لدرجة تجعلها تصعب على الفهم ، على أن هذا الفهم لا غنى عنه لغير المسلمين ، حتى يقيموا صلاتهم بالعالم الإسلامي على دعائم من الفهم والإدراك كما أن فهم الأحداث الجارية في العالم الإسلامي إنما يتضمن فهما لصفتها الإنسانية ، فإن عقيدة المسلم صفة وشكلا ، لتؤثر في تطور مجتمعه سياسيا واقتصاديا وحضاريا .. إننا في حاجة إلى فهم شامل وواضح لماهية الإسلام ، وما هية الحياة العصرية إن أردنا فهم حالة العالم الإسلامي ، فإن الإسلام قوة ، وكان في حركة من أكثر من ثلاثة عشر قرنا .. إلخ» .

لقد أقر الكثيرون من المستشرقين وكبار الأدباء من الغرب بصدق وإيمان

محمد بالرسالة التى عهد الله إليه بتبليغها، ومنهم من أشاد بعظمة محمد الروحية ، وبسمو خلقه ورفعة نفسه وعلو فضائله .

ويعلل «مونتيه» طعن بعض المستشرقين فى شخصية الرسول بقوله «كثيرا ما حكمت عليه الأحكام القاسية ، وما ذلك إلا لأنه ندر بين المصلحين من عرفت حياتهم بالتفصيل مثله ، وأن ما قام به من اصلاح الأخلاق ، وتطهير المجتمع يمكن أن يعد به من أعظم المحسنين إلى الإنسانية» .

دور مهم للمستشرقين

وقد أشار الدكتور على حسنى الخربوطلى فى كتابه «المستشرقون والتاريخ الإسلامى» بقوله «ليس المستشرقون جميعا صنفا واحدا ، فهناك من قدم انتاجا علميا ضخما أفاد البشرية عامة والشرق خاصة ، ومنهم من كان إنتاجه وجهده متواضعا ، ومنهم من عاش على هامش الاستشراق .

وفى تقييمهم يقول د. الخربوطلى «أنصف كثير من المستشرقين الإسلام والرسول والتاريخ الإسلامى والحضارة العربية ، ولكن بعض المستشرقين دفعهم بغضهم الأعمى أو حقدهم أو جهلهم أو تقصيرهم إلى الإساءة والاجحاف والجحود .

ونجد فى مجال الاستشراق العديد من الكتب المهمة من بينها كتاب الاستشراق - المعرفة - السلطة - الإنشاء لادوارد سعيد والذى تناول من خلاله الفهم السيئ للاستشراق الذى به فهم فى الغرب حتى الآن ، واستعرض الفروق الثقافية والتاريخية عن الدور الفرنسى والبريطانى فى الشرق ، وحتى مرحلة الهيمنة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية - كما يلقى الضوء على عدد من المستشرقين البارزين الذين تحيزوا للإسلام ، وفى المقابل نظرة الكراهية للبعض منهم عن الإسلام وكيفية انتشاره .

وفى كتاب «سيرة محمد» من تأليف الكاتبة البريطانية كارين أرمسترونج والتى قضت حياتها راهبة ، وكرست جهودها لتصحيح المفاهيم ودحض الأساطير ، نجدها أنصفت سيدنا محمد وقدمت شهادة موضوعية عنه وعن الإسلام وفى سردها لحياة محمد تبين أن الإله الذى دعا محمد إلى عبادته ، هو الإله الذى عبده ابراهيم ودعا إليه موسى وعيسى .

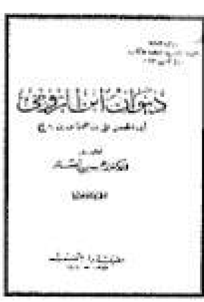
وفى حديثها لوقائع حياة الرسول فى المدينة ، ومحاولة إقامة مجتمع عدل وكفاية، تبين أنه فى جوهره تحقيق للمشيئة الإلهية ، وأيضا من خلال عرضها لغزواته ومعاركه الحربية تقدم مفهوما جديدا للجهاد يختلف عن مفهوم الدعاية الغربية موضحة أن الإسلام لم ينتصر عن طريق السيف ، ولم تكن الحرب وسيلة أو هدفا له قط ، وعلى عكس ذلك فهو دين الاستمرارية مع الماضى وعقيدة سلم وتسامح. ■

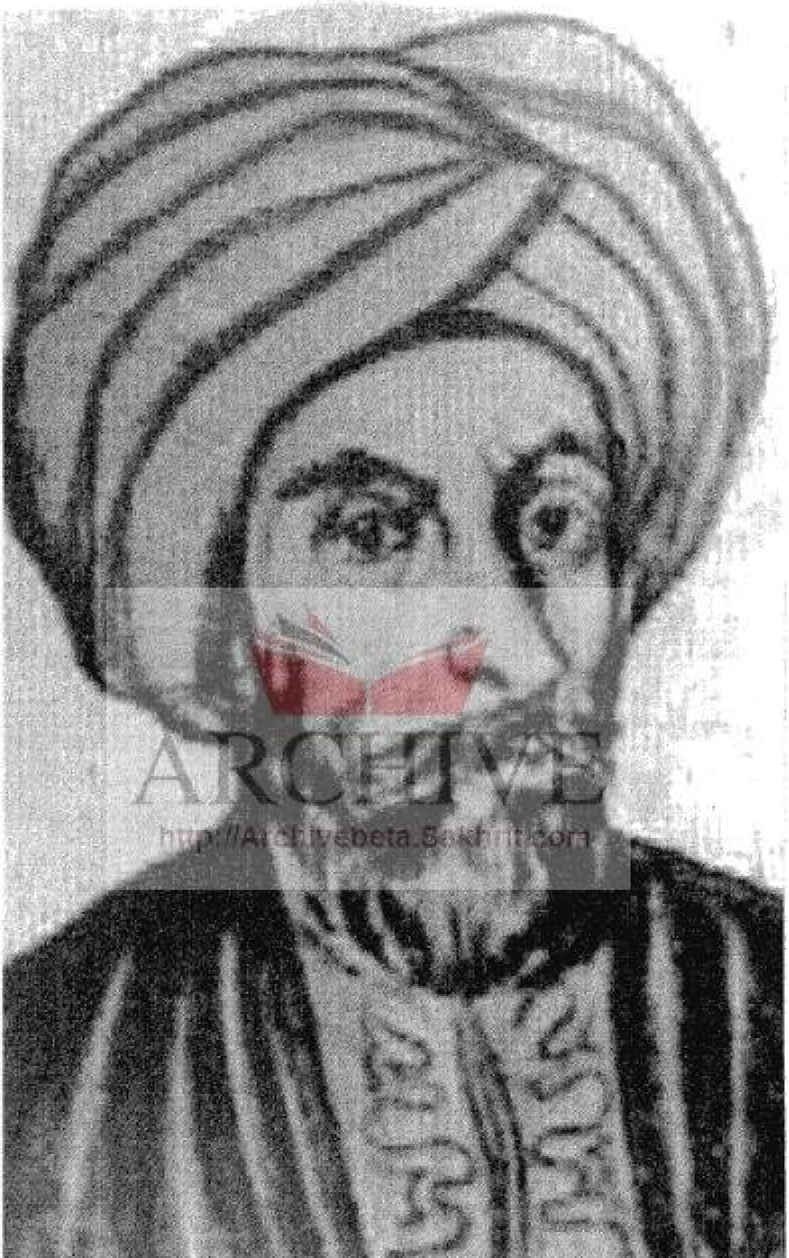
من ذخائر الكتب العربية

ديوان ابن الرومي

بقلم
د. عبد اللطيف عبد الحليم

ديوان نادر في تاريخ الشعر العربي، تأخر نشره عن تاريخ نشر لذات الشاعر ورصفائه وهو قليل الرصفاء في الشعر العربي، وربما كان هذا من الغبن الذي لحق بالشاعر - حيا وراحلا - وربما كان هذا الغبن لم يلحق بالشاعر وحده، بل لحق بتاريخ الشعر العربي ذاته، حين نشر في زمن الطباعة دواوين الخفاف من متأخري الشعراء والنظامين، وأغفل مثل ديوان ابن الرومي..





١١٧

الهلال

رمضان ١٤٢٢هـ - ديسمبر ٢٠٠١م

ونشر هذا الديوان وذيوعه كان حقيقا أن يغير كثيرا من مفاهيم نقدية شاعت بين الناس، واتخذت سمت التقاليد المرعية، غير أن هذا النشر أيضا متعلق بتذوق الناس للكلام، وتفتيشهم له وهو أمر لم يتحقق إلا لدى قلة نادرة أيضا تصبر على القراءة والنظر، وتنفر من الرضوخ لسلطان الذوق الشائع، ومن ثم رزق شاعر كالبحترى مثلا الذيوع والتأثير، ولا تثريب على الناس ولا على قريع ابن الرومى (البحترى) ومعاصره، لكن فاء الناس إلى البحتري - الذى لم يخرج عن عمود الشعر - مغفلين صنوه، أو صوتا آخر به تقابل الصورة أو تكتمل ، دون الاتكاء على صوت واحد، أو جملة أصوات متقاربة، مهما بلغت هذه الأصوات.

بدوات ابن الرومي وسهواته

وربما كانت بدوات ابن الرومي، وسهواته الجبارة التى شاعت عنه، وراء شيء من اجفال النظر إليه، وإيثار السلامة عن خوض غابة غير مأمونة، وتلك هي بدوات النحس والتشاؤم، فخيلت لكل من يهتم بالشاعر أنه ملاق شيئا من العواقب والنذر، وقد ظل الشاعر حياته كلها تحت وطأة هذه القالة، مُحَلأً عليه في موارده رهين كسر بيته، ورويت في ذلك شائعات تواترت عنه، ونشط خياله أو وهمه الوثاب أو ذهنه المضطرب فصور له أن الامر حقيقة واقعة، واستغل الخبثاء - وهم آفة كل العصور - أعصاب هذا الرجل المسكين، يتلعبون بها ما شاء لهم التَّلَعُّب، فضاقت عليه الدنيا، أو ازدادت ضيقا، حيث لم تتسع ولم تتراحب أمام عينيه يوما، وصدق العصر الحاضر هذه القالة أيضا.. فما يكاد أحد يقترب من الشاعر أو يفكر فى مصاقبته إلا وتلعبت به حوادث المصادفات فأمن الناس أو كادوا، وإذا الفراش الذى يغشى النار أو الهارب منها سواء

اهتم بديوانه جعفر والى باشا وكيل نظارة الحقانية فقيل، ونشر طائفة من شعره فى مجلدين الشيخ محمد شريف سليم بك، عميد مدرسة دار العلوم - ربما كان أول نشر عربى لديوان الشاعر، مشفوع بالشرح والتقويم - فلحق به أذى لم أحققه بعد.. والعهدة في هذه الرواية على الأستاذ العقاد سماعا - وأصدر كامل كيلانى مختاراته فى ثلاثة مجلدات، بتصدير العقاد سنة ١٩٢٤، وحسبها الناس ديوان ابن الرومي، فلحقته خسارة شديدة، ويقال أيضا إن مدير المطبعة «سيد بك» مات، وتجاسر المازنى على التوفر على ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية، وكتب عنه مقالات مسهبة فى «حصاد الهشيم» سنة ١٩٢٤- وهى من أدق المقالات، التى كتبت عن الشاعر وشعره - فهيضت ساقه، لسبب لاتهاض له السيقان، وظل الرجل أظلع بيْن الظلع حتى رحل فى ١٩٤٩.



عباس العقاد



عبد القادر المازني



كامل الكيلاني

العقاد وابن الرومي

وكتب عنه العقاد كتابه الجليل «ابن الرومي - حياته من شعره» وهو أهم كتاب كتب عن الشاعر على الاطلاق، مع نفورنا من «أفعل التفضيل» في كل ما نصدر من آراء نقدية.. لكننا نراها في محلها الصحيح. فسجن العقاد تسعة أشهر بتهمة العيب في الذات الملكية، وتوفر على قراءته ونخْله الأستاذ على الجندي الشاعر، عميد دار العلوم، فبقي في درجته الوظيفية ثمانية عشر حولا كريتا، حين رقى زملاؤه !! وتمتد هذه القتامة إلى عباس خضر حين تحدث عن مختارات كيلاني، مكتفيا بها عن ديوان ابن الرومي، بعد أن نفض عن مخطوطته الغبار - كما قال - شامتا فيه ! يستاهل!!

لأن شعره لا يروق له، ونحن نزعم بل نكاد نوقن أن عباس خضر لم يقرأه وربما لم يره مكتفيا بالشائعات التي تنطلي حتى على المثقفين من أمثال عباس خضر، أو أن ذوقه قد مرد على الشعر الذي لا يحوج متلقيه إلى بصر وزكانة، وما هكذا يكون شعر ابن الرومي، فَقَرفه بما لا يستحق.

وهذه المصادفات التي اقترنت بابن الرومي حديثا، لم تكن إلا من قبيل الأفاكية، التي تبعث على الابتسام في أغلب الاحيان، غير أن ابن الرومي شأن كل مصادفة تقع للناس في الدنيا، ولم تكن بمثنية رجالا لم يقفوا عندها، وكان اهتمامهم من قبيل الاهتمامات «المباركة» لم يتعلق بها نحس أو تشاؤم.

المازني وإقبال على الديوان

اهتم به العقاد والمازني وعلى شوقي (ت ١٩٥٩) في سنة ١٩١٢، وأقبلوا على قراءة مخطوطته في دار الكتب، متلوِّمين لدى نونية الشاعر التي يمدح بها أبا الصقر :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان   فيهن نوعان: تفاح ورمان..

وهي من فرائد شعره، فعارضها كل منهم بقصيدة من وزنها ورويها، وذاعت

القصائد ذيوعا كبيرا - درّست لطلابي القصائد الأربع سنوات مطولة ولم يحدث إلا الفأل الحسن - وشاء محمد مصطفى الماحي أن يلحق بالمعارضين، فنظم قصيدة على غرارها، ولعل هذا حدث حين كانوا يعملون معا في ديوان الأوقاف، ولم يعارضها شكري حيث كان في انجلترا، وغدا كتاب العقاد عن ابن الرومي من أمهات المصادر عن الشاعر وشعره وكذلك مقالات المازني، وإن كان أغفلها حسين نصار حين نشر ديوان الشاعر محققا، وتلاحقت الدراسات عن صاحبنا، فأخرج روفون جست كتابه: ابن الرومي حياته وشعره، و«ابن الرومي» لمحمد عبدالغني حسن، و«ابن الرومي في الصورة والوجود» لعلي شلق، و«ابن الرومي شاعر الغربة النفسية».. لفوزي عطوي، و«ابن الرومي» لأحمد خالد، إلى جانب فصول مسهبة أو غير مسهبة في كتب تعرض للعصر العباسي، وهي دراسات تتفاوت جودة وتوسطا، ورداءة، وبعضها يكتفي بنقل الدراسات السابقة عليه ساطيا دون أن يشير أو يضيف شيئا ذا قيمة ، وآخر هذه البحوث رسالة جامعية لهناء عابدين بآداب سوهاج «ابن الرومي بين ناقديه في القديم والحديث» وعرضت للشاعر في تقص نقدي جيد.

حسين نصار وإخراج للديوان

ظل الديوان حبيس المخطوطات وآخر عهدي به ١٩٧٢ حين كنت أقارن بين الشاعر والمازني عكفت عليه، في دار الكتب المصرية بباب الخلق - نضر الله أيامها - ولم أر عنتا في القراءة والنقل اليدوي، لأنها نسخة شديدة الروعة والدقة، حتى قيض الله للديوان رجلا مسرف الشجاعة حسين نصار، في صبره ودماثة طبعه، فأخرج الديوان مع طائفة من تلاميذه في ستة مجلدات، وقد تعقبت نشرته بالتصحيح اللغوي والعروضي في دوريات متعددة حتى جمعتها في كتابي «أدب ونقد» ١٩٨٨، وأشهد أن الرجل تلقى ملاحظاتي بصدر متراحب، وحنو شديد، شاكراً ومحيياً، ثم صدرت الطبعة الثانية من الديوان فصنعت اللجنة بملاحظاتي صنيعا لم أرضه، حيث صححت، وحين تركت التصحيح - يبدو عدم اقتناعها بما قلت - كررت خطأ الطبعة الأولى، ونبهت على ذلك في جريدة الأهرام وأرجعته إلى «سهوات» ابن الرومي الجبارة، أو ملاحقة «النحس المبارك»، وحملته على محمل الفكاهة معترفا بأن حسين نصار لم يراجع الطبعة الثانية، وإلا كان يشير أو يأمر بالاشارة إلى كاتب هذه السطور!!

وثمة نشرة للديوان صدرت بعد نشرة حسين نصار بحوالى عقدين من الزمان، اضطلع بها عبد الأمير على مهنا، ونشرتها دار ومكتبة الهلال فى بيروت الطبعة الأولى ١٩٩١، وأشهد أننى لم أرها، وإن كانت الباحثة السوهاجية اعتمدت عليها أحيانا . .

وجاءت اعتماداتها فى غير موضعها كما أشرت إلى ذلك حين ناقشتها، كما أشهد أننى رجل غير حسن الظن بطبعات بيروت فى نشرات التراث، حيث تغلب التجارة الأمانة العلمية والدقة، ورفض قديما اميليو غرثيه غومث نشرات لبنان واعتمادها فى البحوث الجامعية، ومعه حق كثير، لا تعصبا إقليميا، بل إحقاقا لما نراه ونعتقده.



صفحة العنوان من النسخة «د»

بين ابن الرومي وشعراء عصره

ولعل من جملة الأسباب التى عاقت نشر ديوان ابن الرومى، والنسيئة فى إصداره ضخامة الديوان بصورة شديدة لافتة للنظر، وكان القدماء والمحدثون يرسلون هذا الحكم دون إحصاء فراق لى أن أقوم بشىء يسير من ذلك مقارنا بينه وبين شعراء عصره بصفة عامة :

١ – ابن الرومى: ٢٠٣٩ قصيدة عدد الأبيات ٢٠٥٣٠، ٢ – مهيار الديلمى ٣٨٧ قصيدة، عدد الأبيات ٢٢٥١٥، ٣ – البحترى: ٩٢٣ قصيدة، عدد الأبيات ١٥٨٥٥، ٤ – الشريف الرضى ٦٨٥ قصيدة، عدد الأبيات ١٦١٩٩، ٥ – أبوالعلاء المعرى ١٧٠٢ قصيدة، عدد الأبيات ١٣٥٩٥، ٦ – أبونواس ١٠٠٠ قصيدة، عدد الأبيات ٧٥٣٧، ٧ – أبوتمام ٤٨٤ قصيدة، عدد الأبيات ٧٢٥٦، ٨ – المتنبى ٢٨٦ قصيدة، عدد الأبيات ٥٣٥٧ – وبين يدى قائمة مطولة بأبى العتاهية وأبى فراس، وبشار بن برد، والعباس بن الأحنف وغيرهم، وكلها تؤكد حقيقة لا حجاج فيها، وهى أن أطولهم قامة هو شاعرنا، يليه مهيار وقصائده مطولة جدا، وبها ثقل فى إطالتها وربما كان للدم الفارسى دور فى هذه الاطالة لأن شعراء الفرس تطول قصائدهم طولا غريبا، وإن كانت الثقافة العربية غالبة، وشعرها أغلب، لأن طول النفس يكاد يكون خصيصة شخصية قبل أن يكون خصيصة لغوية، أما أبوالعلاء فتغلب عليه المقطعات خاصة فى اللزوميات، وينبغى أن نذكر هنا لزوميات ابن الرومى، فى مطولاته خاصة الدالية التى التزم فيها الفتحة قبل حرف الروى.

أبين ضلوعي جمرة تتوقد　　　على ما مضى أم حسرة تتجدد

وبلغت ٢٨٢ بيتا، وهو طول غير معهود في لزوم ما لا يلزم.

يدل على ثقابة جنابه، وسعة صدره فيما تضيق به الأنفاس، كما ينبغي أن نؤكد أيضا أن الطول ليس المحك في تفضيل شاعر على شاعر، لكن إذا أضيف إلى الإطالة الاجادة، فقد شأى الشاعر من تقدمه، وأعيا من يأتي بعده، وهكذا نرى شعر صاحبنا حين يطيل وحين يقصر، وما أسهل الشعر عليه. كما قال القدماء ويقوله المحدثون حيث استوت بديهته وفكره، ولم نر هذا الاستواء لدى غيره إلا عند أحمد مخيمر من المحدثين، لا يكاد كلاهما يلقي بباله إلى الكلام، حتى تهطع إليهما أجياد الكلام النافرة، فإذا هي مأنوسة سهلة القياد، وعبارة «استواء البديهة والفكر» قالها ابن الرومي حين تعجب الناس من سرعة نظمه قصيدته البائية.

نجاك يا ابن الحاجب الحاجب　　　وأين ينجو مني الهارب

وبلغت ١٠٧ أبيات، نظمها في ساعتها، وليس فيها حرف مصلح، ولعله يصف بهذه العبارة التي نطق بها عفوا شعره كله، وكل شعر جيد لا تبين فيه أمارات المشقة.. وقطرات العرق وغبار الرحلة، التي تبدو أحيانا في صورة معاظلات، ولا يعني ذلك أن الشاعر لا يعاني، بل إنه يدخل الحومة شاكي السلاح، متخذا لأمته، فارسا عريق الفروسية.

ابن الرومي
ونسيج الذاكرة الشعرية

وديوان ابن الرومي دخل في نسيج الذاكرة الشعرية للأمة، برغم الغبن الذي لقيه، والشعراء كالناس عموما وكالأشياء، بعضها مجدود وبعضها غير مجدود بالنسبة للضوء أو العتمة، لكن لا نظن أن شاعرنا قديما وحديثا - وبخاصة في الحديث - يشكو عدم ذكره، ربما يشكو في حياته السغب والمخمصة، وأصابته حرفة الأدب في الصميم، وأوغل الحرمان في أعصابه فأسرف في الملاذ حين تتاح له وجنى عليه عقابيل لم تفلت منها عافية الشاعر عصبيا وجسديا، دخل الديوان في ذاكرة الأمة، فلا يخلو سفر من أسفار الأدب والتاريخ واللغة من ذكر الشاعر حتى ولو كان ذكر الاقذاع والنكير، وعاب عليه المتحننون شعره الهجائي، وإن كانوا طربوا له في خلواتهم - نعتقد ذلك - واقفين عند تصويره الحي المبدع، ولقطاته الفنية التي

تفضح المصورة الأمينة، لأنه يضيف إلى التصوير مشاعره وما هكذا تصلح المصورة، وهجائيات ابن الرومي نمط وحدها في هذا الباب، وما أظنها - على افحاشها - زادت عدد الفاحشين واحدا، وحسنا أن صدر ديوان الشاعر بتحقيق حسين نصار وفيه تلك الأمانة والشجاعة التي تحلى بها المحقق الجليل، ولم يخل بتلك الأمانة مستجيبا إلى تلك الأصوات التافهة من المنافقين المضللين الضالين!! .



حسين نصار

المشارقة والديوان



عباس خضر

عرف المشارقة ديوانه في حياة الشاعر، وعرفه أهل المغرب والأندلس ، ولقب الأندلسيون أبا عبدالله الرصافي بابن الرومي، كما هو شأنهم في التلقب بألقاب المشارقة، رجالا ونساء، وإن كنت أرى البون الهائل بين الرصافي وبين شاعرنا إلا إذا كان وجه الشبه وصف الطبيعة، وهو وجه مفارقة لا وجه مشابهة، شتان بين الوصفين، لكننا حين نرفض الموازنة، نتخذ منها شاهداً على ما نزعم من ذيوع الشاعر المشرقي لدى أهل الأندلس. و«ذخيرة» ابن بسام الشنتريني وتوفي ٥٤٢ هـ تمتلىء صفحاتها باحتذاء الأندلسيين لابن الرومي، في صوره ودقته، واستدراكاته، وشتان أيضا بين الأصل والتقليد، ويدل هذا أيضا على شدة استقصاء ابن بسام وقوة حافظته وإن كان ألف كتابه «والنفس غير جميع» ومع ذلك بانت ذاكرته التي لا تكاد تخرم شيئا، لأن تقبل السلخ والأخذ والاغارة والنهب - كلها ألقاب للسرقات الأدبية قديما - إنما تنثال بها الذاكرة وقت القراءة والتأليف، دون مراجعة للأصول غالبا.

على مدى ثمانية أجزاء يطل طيف ابن الرومي في الذخيرة، ويطل قبلها في تلافيف الذاكرة الشعرية للشعراء الذين تعقبهم ابن بسام، ولعل ديوان ابن الرومي رحل الى الاندلس في حياة الشاعر نفسه، وإن كنا لم نذكر من اضطلع بحمله اليها.. لكن دوران الرحلة الدائب بين بغداد والحواضر المشرقية بعد سكون بازى الخلاف بين الأمويين في الاندلس وبغداد العباسية يؤكد الحقيقة الأدبية، التي عززها الاستقراء والشواهد الشعرية، وإن غمض علينا ناقلو الدواوين، ولكنا هنا نذكر المتنبي إذ حمل ديوانه زكريا بن الأشج الجزائري الأصل إلى الاندلس ، ومارس تأثيرا هائلا.

من ذخائر الكتب العربية

ابن الرومي وتأثيره في الشرق

بيد أن هناك تأثيرا روميا فى الشرق وفي الاندلس على السواء، ويتعلق بهجاء شاعرنا للورد وتفضيله للنرجس، ألفت كتب ونظمت قصائد معارضة، وشاتمة لابن الرومي أقلها انه « جُعَلي » يموت هذا الجنس الحشرى من الورد، وكان مبلغ ما قاله ابن الرومى محتجا:

أين الخدود من العيون نفاسة ورئاسة لولا القياس الفاسد

ومتتبع هذه المعركة الشعرية مدرك بلا ريب مدى تقصى ابن الرومى للمعنى، واحتجاجاته الشعرية القصية عن برودة الذهن «حسن البيان يرى الظلماء كالنور» كما يقول هو نفسه.

ظل ماء الشعر عند ابن الرومي يسرى فى أعراق الذاكرة الشعرية جهرة أحيانا، ومستسرا فى أحيان كثيرة، لدرجة أن رجلا كشوقى لم يتلبث لديه كثيرا، واعترف بذلك للعقاد حين صفا الأمر بينهما قليلا، وأقلعت السماء عن غيمها داعيا إياه لحفلة شاى، سأل شوقى العقاد عن سر إعجابه بابن الرومى - وكان النقاد يتندرون بإعجاب العقاد في مجال الغض من الشاعرين - فأجابه العقاد مفصلا الحديث، فما كان من شوقى إلا أن قال سوف أعيد قراءته لكنه كان بآخرة من عمره، فلم يتح له أن يعيد.

قيض الله للشاعر العباسى أن يكشف أسداف الخمول الجائر عنه، رجل في مطلع حياته الأدبية هو العقاد وأن يكتشف خير ما فيه - وفيه خير كثير - فقرأ ديوانه على مكث هو والمازنى خاصة، وهداهما الشاعر إلى نفسهما وإلى مفهوم مخالف للشعر غير المفهوم السائد، ولذا نعتقد أن ابن الرومى حين التقيا به، إنما التقيا بصديق قديم على بعد الشقة، وقرت لديهما عقيدة شعرية أن ابن الرومى قرين لشعراء أوربيين يقرآن لهم، دون ذوبان في أحد، ودون أن يكسف الأوربى ما هو قارٌ لديهما فى التراث الصحيح، وتلك هى الفائدة المرتجاة من التأثير والتأثر، كما نعتقد أن مفهوم الديوانيين للشعر إمتداد لمفهوم قديم فى التراث العربى مع نفحة شخصية ذلك المفهوم الذى تسعد فيه الفكرة الشعرية الوجدان الصحيح ليطيرا بجناحين من الخيال، وكان ابن الرومى مع قرنائه الكبار: المتنبى، والشريف، وأبوتمام والمعرى من إخوان هذا الطراز، هم السلف الصالح فى التراث الشعرى العربى، وإذا خلا ديوان العرب من تلك الاسماء فماذا يبقى؟ .

عارضه العقاد والمازني، وعلى شوقي، وسرى في شعر شكري تشاؤما وانقباضا حيث تنشد تحيزته هذا اللون من الشعور والكلام واستأثر بالعقاد كثيرا فى استدراكاته، واخراج ما يتوهم أنه داخل فى المراد، واللفتات الذهنية البارعة، وفى السخرية، وفى علو نبرة التشاؤم - خاصة فى بواكير العقاد - وفى مطاوعة الكلام، على حين كثرت قراءاته فى الآداب الأجنبية، فالتقى الوافد والأصيل فى نفس تهضم وتستوعب، ولو لم يكن العقاد - شأنه شأن كل شاعر أصيل - على نسقه النفسى ومطارح فكره لما كان لديه قابلية لأن يتأثر بكائن من كان، ولو كان ابن الرومى شاعره الأثير.

كذلك كان الشأن مع صديقه المازني، تشاؤما، وحزنا ممضا، وسخرية حتى من نفسه ومن وجهه كما صنع صنوه البغدادى قديما.

شغفت بالخرد الحسان وما يصلح وجهى إلى لذى ورع

كى يعبد الله فى الفلاة، ولا يشهد يوما مساجد الجمع.

وتعلو النبرة لدى المازنى فيهجو نفسه شكلا وموضوعا ويرثى نفسه فى سخرية مريرة كاشفا ما تواضع عليه الناس من زيف ونفاق:

انظر إلى وجهى الشتيم اللعين.

وجاءت قراءة المازنى للشريف الرضى معجبا به وبصاحبه القديم، والشريف أجزل شعراء العربية، فأعدته الجزالة، ونعده أجزل جماعة الديوان، دون أن نستثنى أحداً، وإن كان بعضهم يناهزه كعبد الرحمن صدقى، وعلى شوقى، وأحمد مخيمر من شعراء ما بعد الديوان، وامتزج الشريف وابن الرومى فى دم مازنى لا ينصل لونه، مع أمشاج متباينة من الشعراء الأوروبيين ، مما جلب عليه تهمة الإغارة والسرقة، ونفخ فيها التيار المحافظ، وأرثها جماعة أبوللو ، ولانزال نعتقد أن ديوان ابن الرومى فى حاجة إلى قراءة دقيقة، وتذوق رفيع، حيث امتد تأثيره خارج نطاق الديوانيين، وكان محمود شاكر (أبوفهر) من قرائه الأصدقاء، تشهد قراءة شعره بهذه الصداقة التى لا تخفى، كما نعتقد أنه فى حاجة إلى مختارات، وإذا جاز الاقتراح، فأرجو أن تنهض دار الهلال بطبع مختارات الشاعر وأرجو ألا تخشى من بدوات الشاعر المتشائمة، وسهواته فى النحس، ولعلها حين تذيع بين الناس تكفكف غرب هذه «السمعة» غير الحسنة، وعلى كاتب هذه السطور «التعويض» المناسب حيث أخذت عهداً وميثاقا غليظا من الشاعر فى مرات كثيرة، - آخرها أننى أتداوى بقراءة شعره - أن يكون مأمون البادرة، فإذا أفلحت فإننى أرجع ذلك «إلى «بركات» ابن الرومى.. وما ذلك بعزيز. ■

ذكـــــريات

بقلم
مصطفى درويـــش

المخرجون النجوم أقل من القليل، إنهم ، والحق يقال، من تلك الفئة النادرة التى يصعب أن يجود بمثلها الزمان .

وأقصد بالمخرج النجم، ذلك الصانع للأطياف الذي يقبل الجمهور على مشاهدة أفلامه، لا لموضوعها ، ولا لممثليها وممثلاتها ، حتى ولو كانوا مشاهير، وانما لمجرد أنها ممهورة باسمه الشنان الرنان.

ومن بين مخرجي تلك الفئة النادرة، أذكر على سبيل التمثيل «سيسيل. بى. دى ميل» صاحب فيلم الوصايا العشر، صامتا وناطقا، «ألفريد هتشكوك» مبدع ذلك النوع المسمي بسينما التشويق، و«ستيفن سبيلبرج» صانع الفك المفترس، ثلاثية انديانا جونز، انقاذ النفر رايان، وغير ذلك كثير .



جود لو .. زير نساء صناعي

رحلة ناقد إلى ايطاليا



الذكاء الصناعى

ولعلى لست بعيدا عن الصواب إذا ماجنحت الى القول بأن الأخير، أى سبيلبرج، يعتبر أشهر مخرج فى تاريخ السينما، وذلك منذ تحرك الصورة على شاشة فضية، بفضل الأخوة لوميير، قبل قرن وستة أعوام.

هذا، وقد جرى عرض آخر أفلامه «الذكاء الصناعى» فى مصر، وذلك قبل بضعة أسابيع.

ولقد أسرعت بمشاهدته، قبل ساعات من سفرى الى مدينة سان فنسنت بشمال إيطاليا .

ويرجع اسراعى هذا إلى توقعى اخفاقه تجاريا، وتبعا لذلك رفعه من دور السينما ، قبل عودتى من ربوع ايطاليا فالذكاء الصناعى يدخل فى عداد أفلام الخيال العلمى.

العلم والخيال المفقودان

وذلك النوع من الافلام ، عادة لا يقبل جمهورنا على مشاهدته وأغلب الظن ان مرجع ذلك الى عدم الاكتراث لا بتحصيل العلم، ولا بإعمال الخيال.

ويعد الذكاء الصناعى الفيلم الحادى والعشرين لصاحبه، ساحر مصنع الاحلام.

ولا ريب، انه وحيد نوعه بين رصيد

ذلك الساحر من الأفلام. فالتفكير في ابداعه بدأ مع نهاية ثمانينات القرن العشرين .

والمفكر لم يكن سبيلبرج ، وانما ساحر آخر هو ستانلى كوبريك، ذلك المخرج الامريكى الذى آثر العيش فى انجلترا، حتى رحيله عن دنيانا فى ربيع ١٩٩٩ فقبل رحيله بثلاثين عاما، قرأ أقصوصة من أقاصيص الخيال العلمى فى مجلة هاربر بازار .

العالم بعد ألف عام

وأحداثها تدور فى مستقبل جد بعيد، وبالتحديد فى أثناء الألفية الرابعة، أى بعد اكثر من ألف عام .

وباختصار، تحكى قصة طفل صناعى يحلم بالتحول الى طفل حقيقى من جنس الإنسان . ونظرا الى شدة اعجاب كوبريك بها، فقد عمل على الالتقاء بمؤلفها «براين الديس» ، وشراء حق ترجمتها إلى لغة السينما.

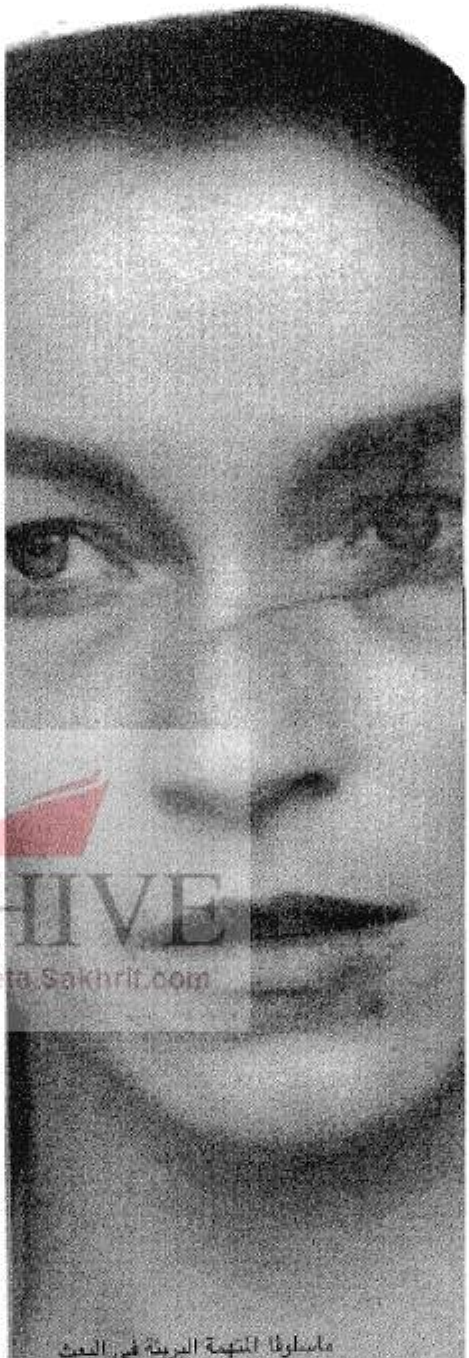
وما أن حصل على هذا الحق، حتى أعلن على الملأ أن الفيلم عن القصة المشتراة سيكون اسمه «الذكاء الصناعى».

وفى ذلك الزمان، كان كوبريك له من العمر خمسون عاما وكان فى أوج مجده، بفضل أفلامه الثلاثة الأخيرة «اوديسة الفضاء ٢٠٠١» «البرتقالة الآلية» و«بارى ليندون».

أسطورة .. ولكن

فى كلمات كان اسطورة تسعى، عبقرية فى وسعها مواجهة التحديات .

ومع ذلك، جاءه الموت دون أن يحقق



ماسلوفا المتهمة البريئة فى البعث

حلم التحول بالذكاء الصناعي إلى واقع من صور تتحرك ، وفق ما يهوى، ويشاء .

وأغرب العجب أن تشاء الاقدار لسبيلبرج ساحر مصنع الاحلام أن يحقق حلم المخرج الراحل، وان يحققه في رائعة من ثلاث ساعات الا قليلا، تمر متعتها كنسمة صيف، وكأنها ثوان.

وكل ذلك ، ولما يمض على اختفائه عن دنيانا، سوى عامين وبضعة شهور.

موت الأحلام

وهنا أراني في حل من عقد مقارنة بين ماحدث لحلم كوبريك في بلاد العم سام، وبين مالم يحدث لحلم مخرجنا الراحل شادى عبدالسلام.

قبل خمسة عشر عاما بالتمام، ودعنا جثمان مخرجنا إلى مثواه الاخير. وكان من بين ذخائره الثمينة التي خلفها لنا، سيناريو فيلم «اخناتون» ذلك الفرعون الملعون الذى شرع في التحول بدين المصريين أيام الفراعين إلى دين أقرب الى التوحيد، منه الى عبادة الأصنام.

وكم راوده حلم تحقيق هذا الفيلم، دون جدوى وهاهى ذي الأيام تمر عاما بعد عام، دون أن يتحقق، حتى يومنا هذا، حلم شادى عبدالسلام أما لماذا لم يتحقق شيء من حلمه، عكس الحال مع المخرج الأمريكي الراحل، فذلك لأنه ليس لدينا أمثال ساحر مصنع الاحلام.

وبالمناسبة مرت ذكرى رحيل صاحب المومياء «ليلة حساب السنين»، قبل خمسة عشر عاما، مرت دون ذكر، إلا من مقال يتيم بقلم المفكر لمعى المطيعى. ولا غرابة فى هذا ، فكل شيء فى مصرنا ينسى بعد حين.

مدينة غير بديلة

وأعود بعد هذا الاستطراد الى مدينة سان فنسنت بأقصى شمال غرب ايطاليا..

أعود اليها لأقول انها مدينة صغيرة، وسط جبال تناطح السحاب، قريبا من حدود فرنسا وسويسرا معا وحتى أصل اليها، وجدتني مستقلا، في الربع الرابع من أكتوبر، الطائرة الى ميلانو ، حيث كنيسة الدومو ينتصب اعلاها تمثال صغير، رقيق للسيدة مريم العذراء وحيث مسرح لاسكالا يفوح منه عطر اوبرات فيردى وبوتشيني، وغيرهما من مشاهير الموسيقيين.

وبعد ثلاثة أيام قضيتها في تلك المدينة ، التي تعتبر بحق قلب ايطاليا النابض، وجدتني مستقلا السيارة الى مدينة صغيرة، لم أكن اعرف، قبل أيام، أن لها وجودا على خريطة عالمنا، وان لها مهرجانا يعقد في أكتوبر من كل عام.

ولأول مرة في حياتي ، وأنا وحدى خارج مصر، لم أشاهد فى أثناء الأيام السبعة التى قضيت بعضها فى ميلانو، وبعضها الآخر في سان فنسنت، حيث يعقد مهرجان مقصورة عروضه على الأفلام الايطالية التى جرى انتاجها خلال العام، أقول لم أشاهد سوى مسلسل تليفزيوني من ثلاث ساعات وعشرين دقيقة عن سيناريو مستوحى من قصة «البعث» لصاحبها ليف تلستوى ومما يعرف عنها أنها آخر قصة طويلة ابدعها خيال الأديب

الروسى صاحب الحرب والسلام وانا كارينينا، وفيها عرض تلستوى لفساد النظام الاجتماعى فى روسيا القيصرية، من خلال مأساة كاتيوشا ماسلوفا، الفتاة البريئة، التى تحول بها مجتمع كله نكد وشر إلى بغيّ ، فمجرمة تساق الى سيبيريا مع المساجين العاديين والسياسيين، مضطربة معهم بين اليأس والرجاء.

عندهم وعندنا

والحديث عن مسلسل البعث ومخرجيه الأخوين باولو وفيتوريو تافيانى، حديث يطول وبطبيعة الحال لا يتسع له المجال ومع ذلك ، ففى وسعى أن أقول بأقل الكلمات إن الأخوين تافيانى وإن كانا قد تجاوزا السبعين، إلا أنهما لم يفقدا من حيويتهما شيئا.

ولقد ظهر اثر ذلك على نحو اعاد الى شاشة ذاكرتنا امجادهما السينمائية إبان ستينات وسبعينات القرن العشرين، ظهر واضحا على ترجمتهما بعث تلستوى الى لغة السينما .

فمعروف أن ترجمة «البعث» الى تلك اللغة أمر من الصعوبة بمكان .

وكم تعثرت فى ذلك محاولات بعض كبار المخرجين العالميين .

ولكن محاولة الأخوين، على العكس من ذلك، كللت بالنجاح.

فترجمتهما لقصة تلستوى جاءت متشبعة بروحها الى حد كبير.

ولو جنحنا الى اجراء مقارنة بين بعثهما وبين مسلسلاتنا المصابة بداء الاستسهال، وأحيانا بداء الابتذال، والتى يحلو لتليفزيوننا العملاق أن يسلطها علينا بانتظام واطراد خلال ليالى رمضان. لخرجنا من تلك المقارنة بشعور الخزى والعار.

الرسالة

أما لماذا اقتصرت مشاهدتى على مسلسل البعث دون سواه من الأفلام الاثنين والعشرين المشاركة فى فاعليات مهرجان السينما الايطالية، فذلك لأننى ما ركبت مخاطر السفر الى ايطاليا، بعد بضعة اسابيع من فاجعة الحادى عشر من سبتمبر الاسود، من أجل مشاهدة أفلام ذلك المهرجان، وإنما من اجل الاشتراك، بوصفى ممثلا لجمعية النقاد المصريين فى اجتماع الاتحاد الدولى للصحافة السينمائية «فيبريسى» بمدينة سان فنسنت، حيث يجرى انعقاد الجمعية العمومية لذلك الاتحاد كل عام، وبالتحديد فى اثناء فاعليات المهرجان وانعقاد تلك الجمعية خلال العام الأول من القرن الجديد، اكتسب اهمية خاصة لسببين أحدهما تغيير لائحة الاتحاد على نحو يحظر معه انتخاب الرئيس ونوابه لأكثر من دورتين متتاليتين، مدتهما أربعة أعوام، وذلك حتى لا تتكرر سابقة بقاء الناقد الانجليزى ديريك مالكولم رئيسا للاتحاد عشرة اعوام ، دون انقطاع !.

والثانى انتخاب رئيس الاتحاد ونوابه.



البعث للاخوين تافياني

انتخابات حرة

ولم يكن المرشحون لمنصب الرئيس سوى ثلاثة، أحدهم الناقد الاسرائيلي دان فينارو.

أما الآخران فهما الناقدان الفرنسيان جان روا وميشيل سيمون.

وفي صباح يوم ٢٦ أكتوبر جرى الاقتراع .

وبطبيعة الحال كان سريا، وكما كان متوقعا فاز بالرئاسة ميشيل سيمون رئيس تحرير «بوزيتيف» أحدى ارقى مجلات السينما فى فرنسا، واكثرها جدية واهتماما بالفن السابع، لاسيما ما كان منه متصلا بسينما العالم الثالث وكان فوزه باكتساح ، اذ حصل على ثمانية عشر صوتا .

فى حين لم يحصل جان روا ناقد جريدة الاومانيتيه (الانسانية) لسان حال الحزب الشيوعي الفرنسى، إلا على خمسة أصوات.

ولم يحصل دان فيناريو ناقد جريدة جيروسليم بوست التى تصدر فى اسرائيل باللغة الانجليزية، إلا على صوتين من مجموعة خمسة وعشرين صوتا .

فن الثقافة

وختاما، يظل لى أن اشير باختصار الى أمرين أحدهما انه، وفى اثناء انعقاد الجمعية العمومية فى ذلك الصباح، تقرر

اختيار افضل فيلم اوربي جرى عرضه خلال العام الذي على وشك الرحيل، اختياره من بين عشرة أفلام شاهدها أغلب النقاد الحاضرين، واستقر رأيهم على أنها تنهض الى مستوى التنافس على مركز الصدارة بين أفلام ذلك العام ولم أشارك في ذلك الاختيار لا لشئ سوى انني لم أشاهد سوى فيلم واحد من بين الأفلام العشرة، وهو «حجرة ابني» لصاحبه المخرج الايطالي ناني موريتي، والفائز بالسعفة الذهبية في مهرجان كان الأخير.

هذا، ولم اشاهده في القاهرة، وانما في باريس، وذلك قبل فاجعة الحادي عشر من سبتمبر بقليل .

أما لماذا لم اشاهد الافلام التسعة الأخرى، فذلك لأن أيا منها لم تتح له فرصة العرض عندنا، ولاينتظر ان تتاح في مستقبل قريب.

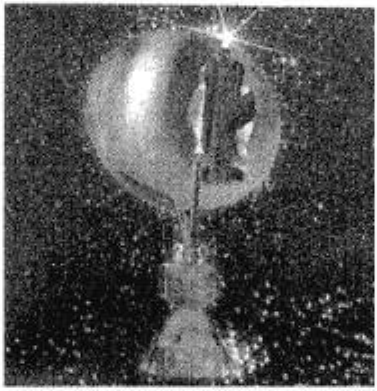
استبعاد المومياء

أما الامر الثاني ، فشخصي، وينحصر في أن ديريك مالكولم رئيس الاتحاد السابق، وناقد جريدة الجارديان على امتداد ثلث قرن من عمر الزمان، قام مشكورا بإهدائي النسخة الوحيدة التي كانت معه من كتابه «قرن من الأفلام» (دار نشر تويس بارك - طبعة ٢٠٠٠).

والكتاب يجمع بين دفتيه رأي صاحبه في مائة فيلم لمائة مخرج.

والأفلام المائة في رأيه ، أفضل ماشاهده، أو على الأقل علامات في تاريخ السينما العالمية.

وما أظنني أسرف حين أثني على الكتاب، وحين أتمنى على الذين يحسنون



مهرجان سان فنسنت للأفلام الروائية الايطالية

الانجليزية، ان يتيحوا قراءته للذين لا يحسنون هذه اللغة ، منا نحن المصريين.

فما أسرع ما انغمست مع صاحب الكتاب فيما خطه قلمه عن الافلام، حتى كأنني شاهدتها معه، لا اقرأ انباءها وصورها في كتاب.

ومما استرعى انتباهي، بعد الانتهاء من قراءة فهرس الكتاب ان احدا من مخرجي الوطن العربي، بدءا من الخليج وحتى المحيط لم يرد له ذكر، فلا ابوسيف ولا بركات، ولا حتى شاهين له فيلم بين الافلام المائة المختارة.

وفيما أنا وصاحب الكتاب سائرين الى حيث حفل توزيع الجوائز على الافلام الايطالية الفائزة، قال لي ، دون ان اسأله، إنه كان على وشك اختيار فيلم المومياء لشادي عبدالسلام ليكون بين أفلامه المائة.

ولكن لسبب ما لم يفصح عنه تراجع عن عزمه واستبعده من كشف الافلام التي وقع عليها الاختيار واحسست من نبرة صوته انه صادق، وانه ربما نادم على استبعاد المومياء ، ولكن بعد فوات الأوان. ■



الموسيقى والغناء

جزء خاص

- المفاصل الثلاثة فى الأزمة الراهنة للموسيقى العربية
- لماذا فشل مهرجان الموسيقى فى علاج أمراض الغناء العربى ؟
- مؤتمر ١٩٣٢ وتطوير الموسيقى الشرقية
- عمر خيرت
- أجنحة الموسيقى السبعة



المفاصل الثلاثة

فى الأزمة الراهنة للموسيقى العربية

بقلم

الياس سحاب

هناك ملاحظة عامة تكاد تشبه القانون، فى الدراسات الاجتماعية، وما يرافقها أو يتفرع عنها من دراسات أنتولوجية أو أنثربولوجية، تجد روابط دائمة متبادلة بين صعود وهبوط الفنون لدى شعب من الشعوب أو أمة من الأمم (بما فى ذلك فن الموسيقى طبعا) وبين صعود وهبوط الأحوال العامة، أو الأوضاع السياسية لهذه الشعوب والأمم. ومنذ أن وردت هذه الملاحظة - القانون فى مقدمة ابن خلدون الشهيرة، لم تكف الدراسات ، كما لم يكف تطور الحياة نفسها فى كل زمان ومكان، عن التعمق فى دراسة مثل هذه الروابط والتفاعلات، بين الفنون من جهة، والحياة العامة والحياة السياسية من جهة ثانية.

أمـــــا فيما يتعلق بنا نحن العــــرب، فاعتقد أن هذه الملاحـظـــة - القـــانون لم تنطبق على واقع الحال في حياتنا الثقافية والعامة بنسبة مـائة بالمائة، كمـا تنطبق على أحوالنا العامة وأحوال الموسيقى العربية، في الربع الأخير من القرن العشرين .


عبده الحامولي


سلامه حجازى

لا يخـتلف اثنان من ذوى العـــقل الراجح والمستوى الثقافى المعقول، من العرب المعاصرين، أن الأحوال الراهنة للموسيقى العربية والغناء العربي لا تسر حبيبا ولا عدوا . وإن كـانوا بعـد ذلك يختلفون فى تحديد الأسباب، كمـا فى اقـتـراح الحلول، بل إنهم ، بعـد ذلك، ينقسمون بين متفائل يعتبرها سحابة صيف عابرة تمر عـاجـلا أم آجلا، أو موسما مجدبا، قد يقصر أو يطول، ولكنه سيترك الساحة حتما لموسم أو مواسم خصبة مقبلة، وبين متشائم يرى الأفق مـسـدودا فى المدى المنظور على الأقل، ويعتقد أن الخروج من هذه الأزمة لن يتم بانتظار سلبى لتبدل الظروف الموضوعية التى أنجبت الأزمـة، بل لابد من تحـديد دقيق لهذه الظروف والأسـبـاب، تمهيدا للعـــمل الدؤوب على تبديلها وتغييرها، فى أســـرع وقت ممكن، وقـبل أن تستـفـحل الأزمة، وتتحول واقعا مقيما مستمرا .

وبما أن هذا المقال مخصص بالذات لأزمة الموسيقى العربية الراهنة على وجـــه التـــحـديد، فـإنى سأقـصره على الإشارة الى مـا أعتقده الاضلاع الثلاثة المكونة للأزمة فى الحياة الموسيقية للعرب المعاصرين، كما للأزمة فى حياتهم العامة، فى كل ميادين الثقافة والسياسة.

أولا : العلاقة المقطوعة أو المضطربة بالتراث

أعتقد أن العرب هم أكثر الأمم الحيـة المعـاصـرة مـعـاناة لمشكلة العلاقة بتراثهم (فى كل المجالات) ، بل ربما كـانوا الأمـة الوحيـدة (بين الأمم الحيـة) التى تعـانى من هـذه المـشـكـلـة. لأن هـذه العلاقة قد وجدت حلولها لدى



بقية الأمم الحية، سواء فى نواحى الحياة العملية العامة، أو فى مجالات التربية والتعليم، أو فى مراكز الدراسة والأبحاث، أو فى أجهزة الإعلام والمؤسسات الفنية العامة من مسارح ومعاهد .

وأشد ما يثير الريبة والشك عند طرح هذا الموضوع فى أى منتدى أو مجلة متخصصة أو عامة لدينا ، هو استنفار غدد الرفض، اعتقادا بأن الدعوة لتنظيم العلاقة بالتراث (فى أى مجال) انما هى دعوة للمكوث فى الماضى (القريب او حتى البعيد) .

وفى الموسيقى بالذات، يقول النافرون من موضوع التراث، لقد عبر كل جيل فى الموسيقى العربية عن عصره، فلماذا لا تتركون للجيل الحالى حق التعبير عن عصره ، مثل سابقيه؟

والرد السريع على هذا التخوف هو أن لا أحد (اللهم الا السلفيون المتشددون المنغلقون)، يجادل فى حق كل جيل بأن يعيش عصره ويعبر عنه، فهذه سنة الحياة فى كل زمان ومكان، عندنا كما عند سائر الأمم، وهى سنة حتمية لا يمكن أن يوقف مسيرتها رأى متشدد أو دعوة منغلقة، ولكن المشكلة ليست هنا ، بل فى موقع آخر .

ولو نحن بحثنا عن المشكلة فى التحليل الميدانى لها، لدعونا الى التأمل بنظرة طائر فى مسيرة الموسيقى العربية فى القرنين الأخيرين، من محمد عثمان الى سيد درويش الى محمد عبدالوهاب الى محمد الموجى (وقد تعمدت اختيار أربعة رموز بارزة، يمثل كل منها جيلا كاملا من الموسيقيين العرب) . كل هؤلاء ، دخلوا الآن رحاب التراث العربى المعاصر، ونحن فى مطلع القرن الحادى والعشرين، وبعبارة مستعارة من الحياة العامة، كلهم يمكن وضعه الآن تحت عنوان عام اسمه «التراث»، فهل هم متشابهون، وهل أنتجوا فنا متشابها؟ ألم يؤد كل منهم دوره فى اطار ظروف جيله، ويعطى نتاجا موسيقيا جديدا بالنسبة لنتائج من سبقوه ؟

طبعا، هذه مسألة محسومة. لماذا اذن لا نطمئن الى أن الجيل الجديد سيؤدى دوره آليا فى هذه السلسلة التاريخية؟

لأن مثل هذا الدور يؤدى آليا ، فى حالة واحدة فقط، عندما يترعرع الموسيقى، قبل أن يبدأ مرحلة الانتاج، فى بيئته الطبيعية (أى فى تراثه).

لقد تحدث محمد عبدالوهاب بعبارة شديدة البساطة (شديدة العمق) عن هذا الموضوع فى مقابلة اذاعية فقال ما معناه عندما انتهيت من التعرف الى كل



زكريا أحمد



أم كلثوم

النتاج الموسيقى لسيد درويش، أدركت اننى اصبحت أعرف تماما من هو أبى، واتجهت الى التعرف على نتاج سلامة حجازى ومحمد عثمان وعبده الحامولى، لأعرف من هو جدى.

هذا ما فعله محمد عثمان فى زمانه، وما فعله سيد درويش بعده، وما فعله محمد عبدالوهاب بعد سيد درويش، وما فعله محمد الموجى بعد عبدالوهاب. فماذا كانت النتيجة العملية: هل دفعهم الاتصال بالحلقة السابقة (أو الحلقات السابقة) فى سلسلة تراثهم الموسيقى على أن يعيشوا الى الأبد فى أسر هذا التراث؟ العكس هو الذى حصل، فلقد أتى كل منهم فى زمانه (كما فعل الموهوبون من أبناء جيله) باضافات تجديدية ثورية فى كثير من الأحيان، ولكنها دخلت رأسا الى وجدان أمته، وأصبحت تمثل تراثا جديدا (اذا صح التعبير)، لأنها انطلقت أصلا من التراث الذى عبر عن هذا الوجدان فى عصور سابقة.

أما أبطال الموجة السائدة فى الغناء العربى والموسيقى العربية فى الربع الاخير من القرن العشرين، فمعظمهم منقطع العلاقة بالأجيال السابقة، ومن تبقى، عقد علاقة مضطربة وسطحية بتلك الأجيال.

ليس معنى هذا، أن مجرد الاتصال بما ومن سبق، سينتج لنا عباقرة فى الموسيقى والغناء، فقد يمر فى عمر الأمم كلها مواسم خالية من العباقرة، أو شحيحة (تماما كالمواسم الزراعية)، ولكن عندما توجد البذرة العبقرية، فإن الشرط الضرورى لأداء وظيفتها فى انتاج الثمار الناضجة، هو طرحها فى أرض خصبة، وهذه الأرض فى الثقافة والفنون، ليست سوى تراث الأمة المتراكم عبر العصور.

الموسم اذن مجدب حتما اذا وجدت بذرة الموهبة (أو العبقرية) ولا توجد الأرض الخصبة، فكيف بالموسم اذا لم يوجد الإثنان؟!

ثانيا: العلاقة الملتبسة بالغرب

مع أن اتصال هذه المنطقة



بالغرب في مجال الموسيقى له جذور تاريخية قديمة تعود الى أيام التفاعل بين الاغريق والفراعنة، ثم الى أيام العرب في الأندلس، فإن علاقة العرب المعاصرين بالغرب في الموسيقى بالذات بدأت مع نهضة محمد علي، التي شملت فيما شملت، انشاء معاهد الموسيقى العسكرية، أنشأها خبراء فرنسيون في الغالب. ثم تطورت في عهد الخديو اسماعيل، بالتزامن بين افتتاح قناة السويس وانشاء دار الأوبرا المصرية في عام ١٨٦٩، واذا كان من المؤكد أو المرجح أن هذا الحدث كان له شيء من الأثر في القرن التاسع عشر، فإن الإعلان التاريخي الرسمي لهذه العلاقة يمكن أن يرمز له باندفاع سيد درويش (مؤسس مدرسة القرن العشرين في الموسيقى العربية المعاصرة) نحو الافادة من الأوركسترا الغربية والة البيانو، والبدء بتدوين مؤلفاته بالنوتة المعتمدة في أوربا، كل ذلك عبر استعانته بقائد الأوركسترا المسيو كاسيو. وكان سيد درويش قد توج هذا الاتجاه بالإعلان الصريح، في أواخر عمره القصير، عن الرغبة بالسفر الى ايطاليا، لاستقاء علوم الموسيقى الأوربية من منابعها الأصلية.

وإذا كان سيد درويش قد رحل عنا باكرا قبل أن يقطف ثمار هذا الاتجاه، وقبل أن نعرف ماذا كانت ستؤول إليه النتائج العملية لهذا الاتجاه عند سيد درويش بالذات، فإن بامكاننا - على الأقل - أن نكون واثقين من عنصر بالغ الأهمية في هذه المعادلة المعقدة، هو أن سيد درويش لم ينطلق في اتجاه الاتصال بالغرب والاستفادة من علومه الموسيقية، قبل أن يرتوي حتى الثمالة من منابع الموسيقى العربية، ابتداء بالتجويد القرآني والانشاد الديني (وهو الشيخ)، مرورا بالانشاد الديني للمسيحيين الشرقيين، وانتهاء بما اتصل به من تراث القرن التاسع عشر، والتراث التقليدي السابق، كما استمع الى النماذج المتبقية منه في القاهرة وحلب.

بعد ذلك، انفتحت ابواب اتصال العرب المعاصرين بالموسيقى الاوربية (الكلاسيكية والخفيفة) على كل مصاريعها. ويمكننا الآن بعد مرور قرن كامل على هذه الظاهرة، رصد وتحليل نتائجها الفعلية على الصعيدين النظري والعملي.

باختصار شديد، يمكن القول بأن المواقف النظرية والعملية من هذه المسألة قد توزعت على ثلاثة مواقف

١ - موقف رفض اى تداخل او تمازج او اتصال بالموسيقى الأوربية، على

مختلف الأصعدة، في التلحين والعزف والغناء. أما الثمار العملية لهذا الموقف فقد تراوحت (مثل


محمد القصبجي


رياض السنباطي

سائر المواقف) بين من استطاع ان ينتج ويطور ويبدع انطلاقا من هذا الموقف، ومن بقي نتاجه محدودا لا شأن له ولا قيمة. ولعل ألمع نماذج المبدعين وأكبرهم وأكثرهم أهمية، من بين أصحاب هذا الموقف، عبقري اللحن الشيخ زكريا أحمد. الذي لم يكتف بالابداع الكبير، بل كان بين كبار المجددين خاصة في شكلي الدور والطقطوقة.

فهو - على سبيل المثال - مبتكر ومؤسس الشكل المتطور للطقطوقة، الذي نقلها من شكلها التقليدي ذي الأغصان المتكررة اللحن الواحد، الى تبدل اللحن (والمقام أحيانا) من غصن لآخر. وهناك جزء من نتاج العبقري الآخر السنباطي، ينتمي الى هذا الموقف، وهو بالتحديد نتاجه الكلثومي .

٢ - موقف انطلق الى التفاعل مع النتاج الأوربي الرفيع (وخاصة الكلاسيكي منه) ، ولكن بعد أن أكمل عملية الهضم التام لتراث الموسيقى العربية والغناء العربي (في المجالين الديني والدنيوي) ، ولعل الاندماش بآفاق التعبير الفني اللامحدود التي تتيحها الاوركسترا السمفونية في الموسيقى الأوربية، كانت محور اندفاع هؤلاء (أو الكبار منهم على الأقل) نحو منابع الموسيقى الأوربية، بدليل أنهم بعد أن هضموا ماهضموه من النماذج الرفيعة لهذه الموسيقى، انطلقوا لترجمة تأثرهم، في نتاجهم الموسيقي والغنائي العربي ، مستعينين بعدد من الموزعين الموسيقيين الذين كانوا على إلمام بقواعد الموسيقى العربية وقواعد الموسيقى الأوربية، من أمثال عزيز صادق، وابراهيم حجاج، وفؤاد الظاهري، وعبدالحليم نويرة وعطية شرارة، وصولا الى علي اسماعيل، وأندريا رايدر (الذي ربما كان أقل هؤلاء إلماما بعلوم الموسيقى العربية) . ويمكن القول بأن أبرز ممثلي هذا الموقف، ومن أبرز من أنتج تحت سقفه، محمد عبدالوهاب ومحمد القصبجي



(فى قسم من نتاجهما لا كله)، ورياض السنباطى فى بعض ألحانه غير الكلثومية.

٣ ـ موقف «ذهب أصحابه الى الموسيقى الأوربية ولم يعودوا»، إما لأنهم لم ينطلقوا أصلا من قواعد راسخة فى علوم وجماليات الموسيقى العربية، أو لأنهم غرقوا فى لجة الانبهار المطلق بالموسيقى الاوربية، واعتبروا أنها رديف «المستقبل والتقدم» وان الموسيقى العربية هى رديف «الماضى والتخلف» .

وقد كان من الممكن ان نترك أمر هذه المواقف الثلاثة ، من غير تعسف أو تدخل قسرى، تتفاعل تلقائيا مع وجدان الناس، فيبقى منها مايستحق البقاء، ويزول ما يستحق الزوال ـ غير أن أمرا ما، جاء يخرج هذه المسألة عن طريقها الصحيح بالخضوع لنتائج التفاعل الكيميائى الطبيعى فى الحياة الثقافية للشعوب، وهو اعتماد أسلوب شديد الغرابة فى تدريس الموسيقى فى المعاهد الموسيقية فى كل البلاد العربية (ربما باستثناء تونس) ، يجعل معاهد الموسيقى الأوربية منفصلة عن معاهد الموسيقى العربية. ولا تكتفى الأولى فقط بتركيز عقد النقص، بحملها اسم «كونسرفتوار» (بدل معهد موسيقى)، ولكنها غالبا ما تمنح من الرعاية والامكانات المادية والاحترام المعنوى، أكثر بكثير مما تمنح معاهد الموسيقى العربية.

النتائج العملية لهذا الأسلوب الفظيع، هى تزايد وتضخم عدد الموهوبين العرب، الذين تتم تنشئتهم بعيدا عن منابع وعلوم الموسيقى العربية، فتكتمل لدى بعضهم ظاهرة التغرب التى غالبا ما تتماهى مع التعالى على الموسيقى العربية، بل احتقارها فى العلن حينا، وفى السر أحيانا، أو يصاب بعضهم الآخر بانفصام الشخصية بين وجدانه الذى تهزه الموسيقى العربية بعمق، وعلومه التى تشده الى حصر احترامه بالموسيقى الأوربية وحدها .

غير أن هذه الظاهرة انتجت لنا فصيلا آخر من الموسيقيين الملتبسين، يعتقدون أنهم ملكوا المجد من أطرافه، بتحصيل بدائى أو متوسط لأوليات علوم الموسيقى الاوربية (من تدوين بالنوطة الموسيقية الى شىء من قواعد الهارمونيا والبوليفونيا الأولية)، اضافة الى المام مشابه بماهو شائع من مقامات وايقاعات الموسيقى العربية، واطلاع سطحى على شىء من التراث العربى القديم والمعاصر. هؤلاء هم الكتيبة الأنشط حاليا، التى تلبس المادة الفقيرة والسطحية للنتاج الموسيقى والغنائى الراهن، ثوب الابهار الشكلى فى التوزيع والتنفيذ الموسيقى، فهم يسمعوننا من

الضجيج كثيره، ولكنهم لا يعطوننا من الطحين حتى قليله .

باختصار شديد، لا حل لهذه المعضلة التي يزداد تفاقمها أمام أعيننا وفي اذاننا يوما بعد يوم، الا بتوحيد مناهج المعاهد الموسيقية، فيكون التعليم الأساسي لتراث وقواعد الموسيقى العربية، على أن يستكمل ذلك بتدريس تراث وعلوم الموسيقى الأوربية، بشكل جاد ومعمق، وليس بطريقة شكلية سطحية كما يتم في بعض معاهد الموسيقى العربية حاليا .

هذا هو السبيل الوحيد المطلوب اتباعه فورا، اذا أردنا أن نضمن عمليا اعادة تزويد حياتنا الموسيقية بأعداد وافرة من الموهوبين الذين يحملون الموقف الثاني (ب) المشار اليه أعلاه، والمبني على تجذر كامل في تربة الموسيقى العربية وعلومها، واطلاع قوي وصحي على تراث وعلوم الموسيقى الأوربية الرفيعة.


محمد عبد الوهاب


محمد عبد المطلب

ثالثا : سيادة القيم الاستهلاكية

اذا كانت العولمة ظاهرة تحول طبيعية، يمكن للأمم الحية المتقدمة أن تقاوم سلبياتها وتحمي نفسها منها ، ريثما تنضج الظروف التي تسمح بتراجع هذه السلبيات، وتطور العولمة من سيطرة للقيم الاستهلاكية التي تطمع بتحويل العالم كله الى سوق موحدة للسلع الامريكية والقيم الأمريكية والسيطرة الامبراطورية السياسية الأمريكية، إلى انفتاح متوازن وتفاعل حر بين الأمم في جميع المجالات الثقافية والاقتصادية والسياسية، أقول اذا كان هذا موقف الأمم المتقدمة من العولمة، فإن أسوأ ما في هذه الظاهرة بالنسبة لنا نحن العرب، أنها داهمتنا ونحن لانزال نتخبط في محاولة الخروج من أسر التخلف الطويل الذي رزحنا في أصفاده قرونا طويلة، ونتخبط في محاولة استكمال دخول مجتمعاتنا العصور الحديثة في الممارسة السياسية المبنية على الحريات الديمقراطية، ونتخبط في ايجاد صيغة سياسية متطورة (مثل اوربا) لوحدة المنطقة العربية (أو اتحادها) في كيان



سياسي مواز لوحدتها الثقافية ووحدة تاريخها ووحدة مصيرها .

إن مداهمة العولمة لنا بصيغتها الأمريكية الراهنة، ونحن ما نزال نتخبط في مشكلاتنا المصيرية الآنفة الذكر، اضافة الى تخبط رابع في مواجهة سرطان تحويل فلسطين الى كيان صهيوني يسمم الحياة العربية منذ نصف قرن، قد جعلنا فريسة سهلة لهجمة القيم الأمريكية التسويقية الاستهلاكية ، التى تجأر من أخطارها المجتمعات المتقدمة فى أوربا الغربية نفسها .

فاذا بحثنا عن أثر كل ذلك فى مجال الموسيقى والفنون، كما فى سائر المجالات الأخرى فى حياتنا ، فإننا نكتشف أن هذه الأوضاع العامة قد ضخمت أزمتنا الموسيقية وضاعفت مشكلاتها وضخمت حجم هذه المشكلات. ذلك أنه فى عز العصر الذهبى للنهضة الموسيقية العربية المعاصرة ، سواء فى القرن التاسع عشر أو العشرين، لم تكن الساحة الموسيقية تخلو من نماذج للموسيقى والغناء الرقيع الساقط، ونماذج الموسيقى الخفيفة، وكانت كل هذه النماذج توجد فى ظل فنون الموسيقى والغناء الرفيع، تتعايش معها، ولكن لا تحل محلها، ولا تهددها، أو تهدد الذوق العام. ويكفى أن نضرب مثالا على ذلك مازال حيا فى الأذهان، بشيوع نماذج الغناء الرخيص فى علب الليل والحانات فى العقدين الأولين من القرن العشرين، ثم شيوع نماذج الغناء الخفيف فى عقدى الثلاثينيات والأربعينيات، الى جانب نماذج الغناء والموسيقى الرفيعة التى أطلقها سيد درويش والقصبجي وعبدالوهاب وزكريا احمد والسنباطى، بأصوات عبدالوهاب وأم كلثوم وليلى مراد وأسمهان وسواهم وسواهن .

ولكن ما يحدث الآن يختلف تماما، بعد أن اختفت من الساحة نماذج الموسيقى والغناء الرفيع، الا فى أعمال متقطعة لمن بقى على قيد الحياة من العصر الذهبى، او للقلة من الذين ترعرعوا فى حضن الجيل الأخير من رموز ذلك العصر، ولكن حتى هؤلاء أصابهم الاكتئاب الفنى والثقافى، أو حاصرتهم ظروف الانتاج الجديدة، فى وسائل الاعلام ووسائل إنتاج للأشرطة والأسطوانات، فانسحبوا الى الصفوف الخلفية إما صامتين صمتا كاملا، او قليلى الانتاج، بينما ملأت الساحة وتسيدتها من المحيط الى الخليج، نماذج ليست فقط منبتة الصلة بحلقات التراث المعاصر او القديم للموسيقى والغناء العربيين، بل منبتة الصلة (فى معظمها) بالعناصر التى تكون شخصية وهوية الموسيقى والغناء العربيين، فى عملية

يحركها ويحكمها حافز واحد هو حافز تحويل الفن (كما كان دائما عندنا وعند سائر الشعوب) من أرقى وسائل التعبير عن مكنونات وأحاسيس النفس البشرية، الى أكثر السلع رواجا، بعد وجبات الطعام السريع، وفى منافسة مفتوحة لها.



محمد الموجى



عبد الحليم نويره

وأبشع مافى سيادة القيم الاستهلاكية بأبشع صورها فى ساحة الانتاج الموسيقى والغنائى، أنها جاءت تتحالف حلفا شريرا مع كل عوامل الاحباط العربى العام فى المجالات السياسية والاجتماعية، ومع صعود هائل لعوامل التفكك، والتشرذم فى حياتنا العربية، بما أعاد الى الصفوف الخلفية، والى خزائن المحفوظات، كل نتاج الموسيقى والغناء الكلاسيكى العربى الرفيع المعاصر، الذى ظل طوال القرنين الأخيرين، يمثل العصب الحساس فى الوجدان الموحد للعرب المعاصرين، أمام نماذج متفاوتة القيمة، وبعضها مشكوك فى قيمته، باسم الخصوصية المحلية لكل بلد عربى، وذلك بدل المسار الذى كان يفترض ان تستند فيه هذه الخصوصية المحلية الى التراث العربى الكلاسيكى العام فى الموسيقى، والغناء المعاصرين، وتصب فى نهره الكبير روافد جديدة من الفنون المحلية ، تماما كما حدث فى سياق النهضة الموسيقية - الغنائية المشرقية التى انطلقت من لبنان فى عقدى الخمسينيات والستينيات، فجاءت تستند الى ينابيع التراث الكلاسيكى العربى العام، وتضيف إليه النكهة المشرقية الجميلة، بدل من أن تنفصل عنه، أو تحل محله .

إن تكاتف هذه المفاصل الثلاثة وتكاملها فى أزمة الموسيقى العربية المعاصرة، جاءت تعمق مجرى الأزمة وتهدد بمد أجلها الى أطول ما نتمنى ونشتهى، وتتطلب جهودا حثيثة فى وعى عميق لها ، ومبادرة سريعة الى تفكيكها فى عقولنا أولا ، ثم فى مناهج معاهدنا الموسيقية، ثم فى السياسة الموسيقية - الغنائية لأجهزة أعلامنا المرئى والمسموع، قبل أن تتحول هذه الأزمة من سحابة سوداء عابرة، الى انحطاط مقيم ومستديم. ■



على هامش مهرجان الموسيقى العربية:

لماذا فشل المهرجان فى علاج أمراض الغناء العربى؟

- الحصاد المر بعد رحلة من الابداع والفن على مدى عشر سنوات

أمانى عبد الحميد

إختتم مهرجان ومؤتمر الموسيقى العربية أعماله الشهر الماضى بدار الأوبرا المصرية بعد عشرة أعوام سارها على درب إحياء التراث الغنائى العربى وإعادته إلى الساحة الفنية. حاول خلالها أن يقوم بدور معمل التفريخ للمواهب الغنائية الجديدة وللكشف عن قدرات الفرق الموسيقية وإبداع مطربيها. لكنه فشل على مدى سنوات عمره فى تحقيق المعادلة الصعبة، وهى إخراج موسيقانا العربية من إطارها المتحفى التراثى. وأن يضع يده على مواطن الضعف المستشرى فى جسد الغناء العربى المعاصر.

شارك في مهرجان ومؤتمر الموسيقى العربية في دورته العاشرة حوالى ٣٦ مطربا ومطربة على رأسهم الفنان الكبير صباح فخرى والفنانة عفاف راضي، والفنان صفوان بهلوان وغيرهم من الأصوات الجادة، كما اشتركت حوالى ١٥ فرقة من فرق الموسيقى العربية منها فرقة أوركسترا أوبرا القاهرة وفرقة عبدالحليم نويرة، وفرقة عيون، قيثارة، بابل للتراث، صابرين وغيرهم.. وذلك من خلال إحياء أكثر من ٢١ حفلا موسيقيا بمسارح دار الأوبرا المصرية ومسرح الجمهورية ومسارح الإسكندرية وبعض الأقاليم مثل المنيا، بنى سويف، قليوب، بنها، طنطا ودمنهور وغيرها.

ناقش المؤتمر محورين أساسيين هما الارتجال الآلى فى الموسيقى العربية، والألحان الشعبية فى مختلف البلدان العربية فى أغنية الطفل، وعلى منبر التنظير الموسيقى العربى بحث المؤتمر التنظير من خلال مؤلفات «أبى يعقوب الكندى». وعلى هامش المهرجان أقيمت مسابقة الدور والتى اشترطت فيها غناء دورين، المستوى الأول دور « قد ما أحبك زعلان منك» ألحان محمد عثمان المستوى الثانى دور «أنا هويت وانتهيت» ألحان سيد درويش. خرج المهرجان فى ختام أعماله بتوصيات كان أهمها:

- «تدريس مادة الارتجال الموسيقى والغنائى فى المعاهد الموسيقية
- إذاعة فقرات منه فى الإذاعات العربية.
- تنظيم مسابقات لتنمية موهبة الارتجال.
- انشاء صندوق تشرف عليه جامعة الدول العربية لتشجيع الفنانين على ابتكار أغانى الطفل.

الحصاد المر

برغم مرور عشر سنوات من عمر المهرجان، ورغم تقديمه للمواهب الغنائية الواعدة ودعمه لبعض الفرق الموسيقية المميزة. فإن حصاد أعوامه كان أشبه بالحصاد المر. فبرغم الجهود المبذولة من جانب دار الأوبرا المصرية وبرغم الحضور العربى القوى، إلا أن الساحة الغنائية لاتزال تعانى من الشوائب. فقد عجز المهرجان عن تحقيق المعادلة الصعبة، وهى الربط بين ما كان وبين ما هو كائن بين الموسيقى العربية التراثية وبين الموسيقى التى نستمع إليها الآن. فشل فى إخراج الموسيقى العربية من إطارها المتحفى والدفع بها إلى الساحة الموسيقية خارج أسوار دار الأوبرا وبعد انقضاء أيام المهرجان. بل لم يتمكن من وضع يده على مواطن الضعف المستشرى فى جسد الغناء العربى. ولم يجب على عديد من التساؤلات التى تؤرقنا كجمهور غيور على



موسيقانا. فهل توارت الموسيقى الأصيلة أمام طوفان ما يسمى بالموسيقى الشبابية؟ وهل أصبحت تراثاً قديماً لا يتناسب مع عصر السرعة والمادة الذى نعيشه؟ هل انتهى عصر الطرب والمطولات الغنائية وفقدت أغانينا هويتها؟

وبشكل أدق أين تقف الموسيقى والأغنية العربية الآن؟. تساؤلات الإجابة عليها مؤلمة. نعيش وسط جو خال من الطرب، ألحان مكررة، أغان كل شيء فيها سطحي بلا مضمون، بل لا توجد ألحان تستطيع أن تستوعب حناجر المواهب الغنائية الصاعدة والتى نجح المهرجان في تقديم العديد منها كل عام آمال ماهر، ريهام عبدالحكيم، مى فاروق، أصوات تنتمى إلى المدرسة الكلثومية. لكنها لا تستطيع أن تخرج من تحت ردائها، إلى أين تخرج؟.. يكفينا أن فناناً في قامة صباح فخرى أو فناناً مثل صفوان بهلوان لا يملكان سوى غناء التراث! ففى الماضى كانت الموسيقى العربية متعددة الأشكال مثل السماعى والتحميلة والدور والقصيدة والمونولوج والموشح والطقطوقة.. أما الآن فنحن مجبرون على سماع موسيقى تفتقر إلى أى من تلك القوالب والأشكال. فكم من الأغانى تمر على آذاننا دون تذكر اسمها واسم مؤديها؟. فكم من الملحنين الجدد درس فن كتابة النوتة الموسيقية وتعرف على مقامات الموسيقى العربية. وكم من الأصوات نمى صوته بالعلم والثقافة. وكأن الساحة الغنائية انفرط عقدها وصارت بلا رابط أو سلطان. هل كانت تلك القضايا المؤلمة أحد محاور مهرجان ومؤتمر الموسيقى العربية؟؟.

نقطة نور

نجح المهرجان برغم كل شيء في تقديم مطربين جدد لاتزال ينابيع النغم الأصيل تتفجر داخل حناجرهم. مثل معين شريف الصوت الجبلى القادم من لبنان، ومى فاروق أحد الأصوات المصرية الصاعدة والتى فازت في مسابقة القصيدة العام الماضى. وقدمت خلال المهرجان رائعة أم كلثوم «شمس الأصيل» ألحان رياض السنباطى.. كذلك ريهام عبدالحكيم التي قدمت «أنساك» و«الحب كله».. وبرغم الأداء المتقن إلا أن الاحساس بالكلمات لايزال يحتاج إلى مزيد من الدفء ليتلاءم مع ما تنطقان به من معان.

ويظل صوت آمال ماهر ذا حضور مميز وقوى على الرغم من صغر سنها وقصر عمرها الفنى الذى لا يتجاوز العامين.. لكنها حققت المعادلة الصعبة آلا وهى إقبال الجمهور عليها واحترام النقاد لموهبتها الجارفة. إلا أن قلة الخبرة ونقص الذكاء الفنى قد يعرقل مسيرتها كثيرا.

وعلى مستوى الفرق الموسيقية نتوقف عند فرقتى «قيثارة» و«صابرين».. الأولى أسسها د. ألفريد جميل عام ١٩٨٩ بهدف إقامة تواصل مع التراث القديم واضفاء عنصر التجريب على ما تقدمه. وهو الأمر الذى يستحق الاهتمام خاصة أن الفرقة تسعى خلف الأغانى غير المطروقة والمهملة داخل التراث وتعيد طرحها بشكل جديد يميل إلى التجريب. أما فرقة «صابرين» فقد انطلقت فى قلب معاناة الشعب

الفلسطيني عام ١٩٨٠ على يد الملحن سعيد مراد لترسم بأصوات أعضائها وأدائهم البارع على العود وفي مقدمتهم المطربة كاميليا جبران ملامح أهم قضايا وطن مغتصب.

وجدير بالذكر أن وجود نخبة من نجوم الطرب العربي في القاهرة في إطار فعاليات المهرجان هو مكسب حقيقي للجمهور. لكن هذا لا يعني أن تظل تلك النجوم حبيسة خطى العمالقة القدامى.

عربية أصيلة

وهذا يقودنا إلى قضية مهمة قد ناقشها المهرجان ضمن محاورة وهي قضية عزوبة الموسيقى خاصة أن البعض حاولوا إضفاء صفة الشرقية عليها كعنوان واسع مطاط لتشمل الموسيقى التركية والفارسية وغيرها من ألوان الموسيقى التي ازدهرت في الماضي. ويكفينا قول الجاحظ عن الموسيقى «أنها كانت بنظر الفرس أدبا. وبنظر الروم فلسفة أما بنظر العرب فأصبحت علماء».

وهذا القول يكشف عن نقطة مهمة تستحق التسجيل: هي أن الموسيقى العربية لم تكن يوما مجرد تابع أو استنساخ لما قبلها من الفنون الموسيقية سواء عند الفرس أو اليونان، بل كانت فنا عربيا قائما بذاته بل وخاضعا لنظم وقواعد العلوم وهذا يرد على ادعاءات المتشككين في أصل التراث الموسيقى الوارد إلينا عبر التاريخ. والدليل على ذلك ما جاء في أبحاث منير «الكندي» ضمن فعاليات المؤتمر. ويكفينا أن نذكر أن انتشار الإسلام خلال القرن السابع الميلادي في أقطار الشرق الأوسط، وذيوع اللغة العربية لتصبح اللغة الأولى فراحت مصر والشام والرافدين والجزيرة والمغرب واليمن تصوغ قوالب موسيقية مشتركة وتبني مقامات مشتركة وضروبا إيقاعية ذات أسس واحدة مستمدة جميعها من تفاعيل الشعر العربي. وبالتالي كانت اللغة العربية ومن بعدها الموسيقى العربية هي الهوية الجامعة لأرجاء العالم الإسلامي، ولكن أين نحن الآن من ذلك..! ويكفينا أن نذكر أن صوت أم كلثوم كان يجمع الأمة العربية كلها في كل خميس من أول كل شهر ولو أدار أحد مؤشر الراديو فسيجد صوتها يشدو في المغرب وحتى العراق.

وفي النهاية بعدما انفض الجمع.. تكشفت لنا حقيقة الأمر.. فالأجواء التي نعيشها يخنقها افتقار الذوق والسطحية.. وكأننا وسط لهاث ساخن نبحث عن نقطة نقاء باردة ننطلق منها.. الموسيقى العربية بلا شك تحمل داخل مضامينها نقطة الانطلاق النقية نحو سماء رحبة تسع العالم العربي أجمع.. وقد تكون الهوية الجامعة التي نلتف حولها يوماً ما.. ولا يسعنى إلا القول بأن حفلات الغناء العربي احتشدت حولها الجماهير.. وأصبحنا نرى فوق شباك تذاكرها «لافتة كامل العدد» وهو أبلغ دليل على مدى احتياجنا إلى كل ما هو أصيل بعيدا عن الابتذال والاسفاف السائد على الساحة الغنائية اليوم. ■



مؤتمر ١٩٣٢ وتطوير

الموسيقى الشرقية

بقلم
عبد العزيز عبد الجليل *

بعد أقل من خمسة أشهر سيكون قد مر على انعقاد المؤتمر الأول للموسيقى العربية بالقاهرة عام ١٩٣٢م سبعون عاما. وسيزامن ذلك عودة الروح إلى مقر «معهد الموسيقى العربية» بشارع رمسيس الذى احتضن هذا الحدث الفني، وهو اليوم يشهد الاصلاح والترميم، ويقوم مهرجان الموسيقى العربية برعاية دار الأوبرا المصرية لتجعل منه مؤسسة ثقافية وفنية، تضم متحفا لآلات الموسيقي ومكتبة تحوى بعض المخطوطات الموسيقية النادرة، إضافة إلى قاعة لعرض أعمال الموسيقار محمد عبدالوهاب وحجرات للاستماع والتدريب.

لقد عاش معهد الموسيقى العربية، ومعه الأوساط العلمية والفنية بالقاهرة، زهاء ثلاثة أسابيع من شهر مارس ١٩٣٢ على وقع مؤتمر موسيقى كبير، حضره جلة من علماء الموسيقى الذين توافدوا من مختلف البلاد الأوروبية، وفيهم أمثال جورج هانرى فارير، وهايا، وهندميت وكارادوفو، وكورتزاكس، وروبرت لاخمان، والأب كولا نجيت، إضافة إلى الموسيقى التركى رءوف يكتا أستاذ معهد الموسيقى باسطنبول والدكتور محمود أحمد الحفنى مفتش

* باحث مغربى كرمه مهرجان الموسيقى هذا العام وله العديد من المؤلفات في الموسيقى العربية والمغربية.

الموسيقى بوزارة المعارف المصرية يومئذ.

وعلى امتداد فترة انعقاد المؤتمر، انكبت لجانه السبعة على دراسة المقامات والإيقاعات العربية، والتأليف الموسيقى، والسلم الموسيقى والتعليمى، وتاريخ الموسيقى ومخطوطاتها وآلاتها ، كما اهتمت لجنة التسجيل بسماع واختيار القطع الغنائية والآلية التى عرضتها المجموعات الموسيقية المنتمية إلى المغرب والجزائر وتونس ومصر وسوريا والعراق.

الموزيكولوجيا العربية

ولا غرو فقد شكل مؤتمر القاهرة للموسيقى خطوة جبارة فى مجال تأسيس علم «الموزيكولوجيا العربية» فتحت السبيل أمام الباحثين والدارسين العرب لطارحة قضايا السلم العربي، وإجراء دراسات مقارنة بين أنظومات المقامات والإيقاعات المتداولة فى بلدان العالم العربي، وجرد الأنماط التراثية والتعريف بقوالبها الغنائية والآلية، وتحليل بنياتها ، كما شكل المؤتمر مناسبة لإصدار توصيات تحث على العناية بتاريخ الموسيقى العربية ونشر المجاميع الشعرية الغنائية، والتعليم بالمخطوطات الموسيقية المتفرقة فى المكتبات.

وقد كانت أبرز توصية أصدرها مؤتمر القاهرة هى العمل على خلق كيان عربى يضطلع بمتابعة ما بدأته اللجان السبع من دراسات ، ووضع قراراتها وتوصياتها موضع التنفيذ، غير أن الظروف العامة التى فرضتها ملابسات الحرب العالمية الثانية وما واكبها وأعقبها من تحركات وانتفاضات أفضت إلى انعتاق الشعوب العربية من قيود الاحتلال والاستعمار، كان من نتائجها أن تظل توصية مؤتمر القاهرة، معلقة إلى ما بعد قيام الجامعة العربية، بحوالي عقد ونصف عقد من الزمان، حتى إذا أطلت سنة ١٩٦٩ صدر عن إدارة الشئون الاجتماعية والعمل لجامعة الدول العربية - بفضل حدب الدكتور محمود أحمد الحفنى خبير الموسيقى بها - قرار بعقد المؤتمر الثانى للموسيقى العربية بمدينة فاس بالمغرب تناط به مهمة اتمام دراسة ما تبقى من أشغال مؤتمر القاهرة، والتفكير فى احداث مجمع عربى للموسيقى منبثق عن الجامعة العربية. وقد انعكست هاتان الغايتان على طبيعة جدول الأعمال، الذى حدده المؤتمرون، فجاءت نقطه صورة شبه مطابقة ، لتلك التى تمحورت حولها أعمال مؤتمر القاهرة ، وهكذا



انكبت لجانه على دراسة قضايا التعليم الموسيقي، والثقافة الموسيقية، والتسجيلات وتاريخ الموسيقى، والمخطوطات والآلات والمقامات، والسلالم والإيقاعات، ودراسة مصنفات الأغاني من الوجهة الموسيقية.

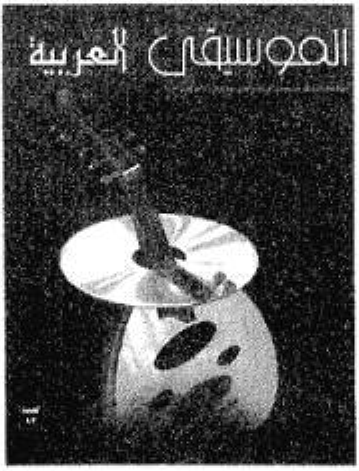
مجمع عربي للموسيقى

أما بخصوص إنشاء مجمع عربي للموسيقى، فقد أوصى المؤتمر بتشكيل لجنة تحضيرية، يعرض عليها مشروع لائحة ونظام المجمع المقترح لدراسة وإبداء الرأي فيه قبل عرضه على مجلس جامعة الدول العربية للبت فيه.

وقد كان من بين أعضاء هذه اللجنة الدكتور محمود أحمد الحفني ممثل مصر في المؤتمر والذي شكل حضوره امتدادا لروح مؤتمر القاهرة، وتعبيرا حيا عن الرغبة القوية في البلوغ بقراراته مبلغ التنفيذ، ناهيك فقد كان هو نفسه سكرتير عام مؤتمر القاهرة، ومحرر محاضر جلساته العامة.

وبالفعل فقد أقرت الجامعة العربية نظام المجمع فانعقد أول مؤتمر له بطرابلس بليبيا في منتصف يناير ١٩٧١م، وتوالت بعد ذلك مؤتمراته واجتماعاته لتدرك مع حلول عام ٢٠٠١ الذكرى الثلاثين لقيام هذه المؤسسة الموسيقية العتيدة، والتي اقيمت بعاصمة الجزائر في ربيع هذا العام وجرى فيها تكريم أعلام المجمع ممن أسهموا في تأسيسه.

لقد أسهم المجمع العربي للموسيقى - على امتداد العقود الثلاثة الماضية من عمره - في تقريب وجهات النظر، وفي رسم الخطوط الكبرى لاستراتيجية واضحة المعالم والخطوات، كما أنه أغنى مجال البحث في الموسيقى العربية، وأتاح الفرصة للتعرف على التراث الموسيقى الذي تزخر به الدول العربية، مثلما ساعد على تقييد الطريق من أجل تبادل الخبرات بين المعاهد والجامعات الموسيقية المنتشرة في العالم العربي.



مجلة الموسيقى العربية

ولعل من أعظم منجزات المجمع العربي للموسيقي صدور نشرة باسم «مجلة الموسيقى العربية» ظهر منها حوالي عشرين عددا، وهي تشكل منبرا للإعلان عن نشاطات المجمع وتتوزع صفحاتها بعض الدراسات التي تقدم عادة في مؤتمر المجمع وفي اجتماعاته الدورية.

وفي سياق دعم التوجه العلمي للمجمع - وخاصة بعد إعادة النظر في



قانونه الأساسي وتطعيم هيكله الإداري بهيئة علمية يشكلها خبراء في الموسيقى العربية - عمد المجمع إلى اتخاذ قرار بإصدار مجلة دورية محكمة ، تتضمن دراسات موسيقية موثوقة، وهي «مجلة البحث الموسيقي» التي صدر حديثا عددها الأول بالأردن مقر أمانة المجمع العربي للموسيقى.

وفي نفس هذا السياق ، سن المجمع جائزة كبرى تمنح كل سنتين للشخصيات الموسيقية العربية من كبار الدارسين والفنانين الذين أغنوا الساحة العلمية والفنية بإنتاجهم ، كما تمنح للمؤسسات الموسيقية التي أكدت حضورها على مستوى العطاء الفني الجاد، مثلما خصص المجمع من ميزانيته أقساطا توجه لدعم مهرجانات الموسيقى العربية في العالم العربي وخاصة منها ذات الاهتمام بأغنية الطفل العربية.

ومن جهة أخرى فقد أغنى المجمع المكتبة الموسيقية بعمله على إصدار كاسيتات واسطوانات للتراث العربي، ولكبار العازفين والمطربين ، ممن تميزوا بالأصالة في أداء الموسيقى، وفي هذا الصدد صدر شريط خاص بأعمال الفنان العراقي نصير شمة وسي دي خاص بأغاني أم كلثوم الأولى من ألحان الموسيقار الدكتور عبدالغني النجريدي، ويجري حاليا العمل على إصدار اسطوانات لإنشاد المشايخ ولأبرز التقاسيم المسجلة على الآلات العربية.

هذه لمحة عن المجمع العربي للموسيقى ، سعت إلى تقديم صورة عن مؤسسة موسيقية، منبثقة عن الجامعة العربية، وهي مؤسسة ما انفكت منذ تأسيسها تؤكد قدرة الأمة العربية على ابداع وخلق فضاءات مثلى للعمل العربي المشترك ، من أجل توحيد الجهود وتقريب الرؤى، وكسب رهانات العولمة على صعيد مستقبل موسيقانا العربية.

وحاليا يساهم مؤتمر القاهرة في أداء الرسالة التي من أجلها أسس المجمع العربي للموسيقى من خلال المناقشات الفنية التي تثار في الندوات والمنابر العلمية المنظمة. ■



عمر خيرت

يقودنا الحديث عن الفنان عمر خيرت إلي العديد من التساؤلات،فالنجاح الذي يحتله الآن علي الساحة الموسيقية يدعو لوقفة نبحث من خلالها ظاهره عمر خيرت وتحليلها موسيقيا.

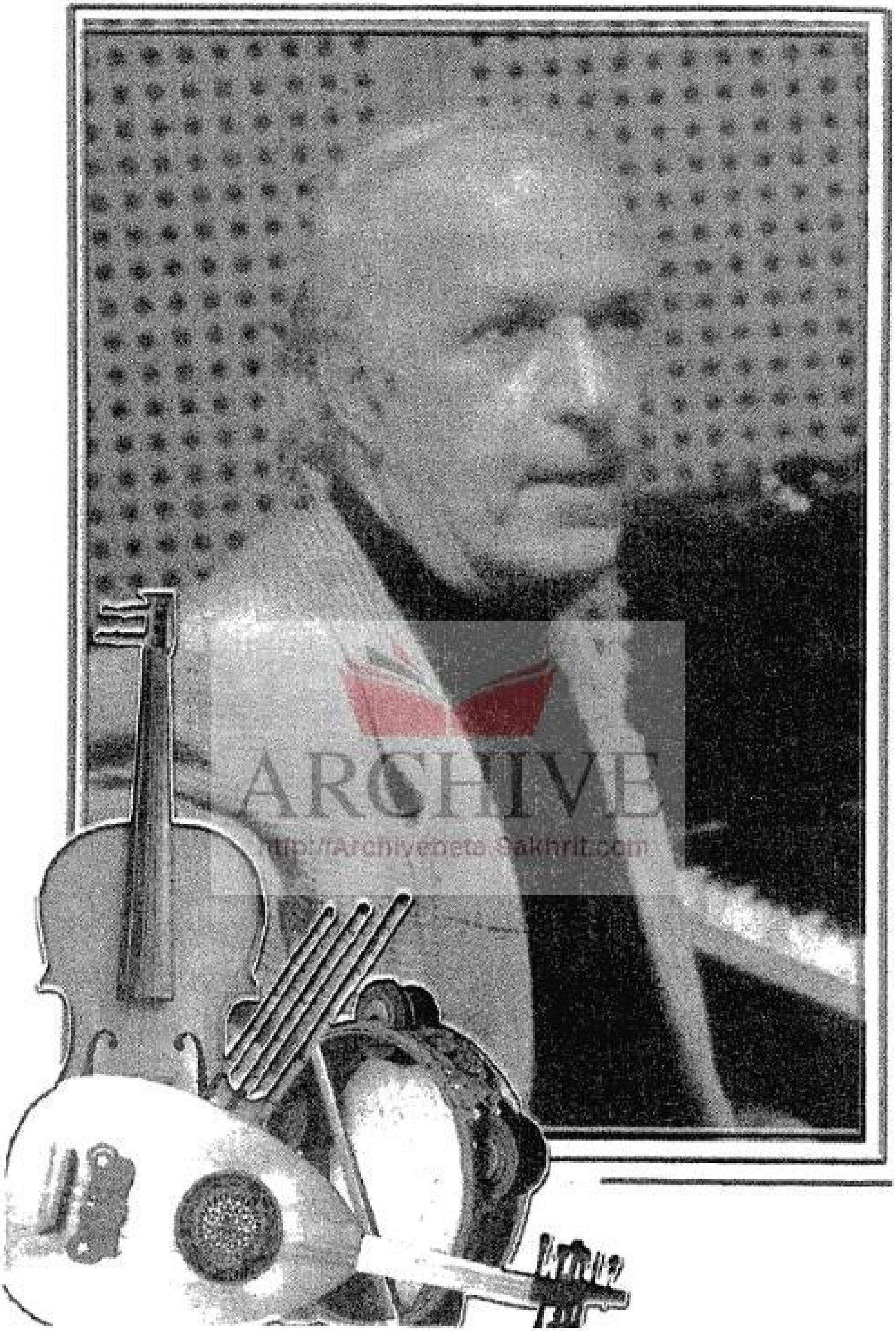
لقد نشأ عمر في عائلة لها اهتمامات موسيقية ناهيك عن عمه الموسيقار الرائد والمهندس اللامع أبو بكر خيرت. قاده حبه للموسيقي ليتعلم أصولها الكلاسيكية وبعشقها ويقتحم فيما بعد علم الموسيقي من خلال وجوده في فرق موسيقيه غربية محلية أفاد واستفاد منها الكثير. في بداية هذا الطريق ظهر ايضا موهبة عمر ليس فقط في العزف (درامز - بيانو - الخ) بل ايضا في التأليف الموسيقي بعد أن استطاع أن ينهل في هذه الفترة زادا من الخبرة الموسيقية الغربية بايقاعاتها المختلفة من اغان ورقصات كما شكلت خلفيته الكلاسيكية ايضا المادة الأولية في التاليف التي ظهرت فيما بعد في اختياره السلالم الموسيقيه الغربية وكيفية الانتقال والتجوال بينها بطرق غير تقليدية. كما استفاد ايضا فيما بعد باستغلال المقامات الشرقية المثيلة للغربية (كالحجاز مثلا) والانتقال منها وإلي الغربية بطريقة مجددة دون شك وإن عرفنا أن أكثر مايؤثر علي الانسان في الاستمتاع الموسيقي يرجع إلي الأتي:

١ - اللحن ٢ - الإيقاع والتزامن ٣ - تغير السلالم أو المقامات ٤ - التوزيع سنجد أن اللحن عند عمر لايميل إلي التعقيد بقدر السهولة والبساطة. أما الإيقاع والأزمنة فهي ماجدد وأضاف فيها بتقديمه نوعية جديدة للمستمع العربي والتي لاشك من الاسباب الأولي والرئيسية في نجاحه أما الانتقال بين السلالم الغربية والمقامات الشرقية فقدم فيها اسلوبا جديدا ايضا. أما توزيعاته والتي دعم دور البيانو فيها أرتسمت بلغة بوليفونيه وهارمونيه متوازنة خلابة خلافا للمونوفونية التي تطوق وتحاصر الموسيقي العربية بصفة عامة لذا حين قدم أعماله الأولي كانت بكل المقاييس مجازفة ناجحة توالت توابعها في أعمال تنوعت بين الموسيقي التصويرية- بداية (ليلة القبض علي فاطمة الخ) والألحان الغنائية (خدني لعالم تاني ، تعرف تتكلم بلدي ..... الخ) والتوزيعات الموسيقية للغير (وهابيات ...... الخ).

وأخيرا الموسيقي البحتة أو الصرف التي ملأ بها فراغا طالما ظل خاويا (رابسودية عربية النيل الخ).

إن البصمة الجديدة علي الآذان وهذا الأسلوب الإيقاعي وهذه الأزمنه دعت البعض إلي القول - خطأ - بتكرار موسيقى عمر خيرت لكن الحقيقة خلاف ذلك تماما فهو قادر - بلا منازع - أن يتلون كل مرة بأسلوب مغاير لكنه في هذا الحال لن يكون عمر خيرت ببصمته التي تتطور وتتجدد في هذا الإطار الناجح .. فيتعطش له مزيد من مريديه .

طارق شرارة - موسيقار وناقد موسيقي



أجنحة الموسيقى السبعة

بقلم
نصير شمه

فى الثالثة من عمرى كنت أحمل المذياع متنقلا فى أرجاء المنزل وحديقته ، كانت الألوان تتفتح أمامي من خلال صوت الموسيقي الصادر عن المذياع ، وبينما يتلهى أقرانى فى لعب الكرة كنت أبحث بيدى عن مفتاح التنقل بين الإذاعات لأستمع إلى ما يذاع حين ذاك ، وكانت أمي تضحك وهى ترانى منسجما مع الموسيقى لدرجة أنها التقطت لى صورة وأنا أحمل الراديو فور استيقاظى من النوم ، وكانت كلما أرادت أن ترتاح من طلباتي لتلتفت إلى أعمال المنزل تلهينى بالراديو الكبير .

ظلت الموسيقى معى ملاذا جميلا ألجأ إليه ، وظل الراديو صديق طفولتى ، كنت أحاول بينما أكبر من سنة إلى سنة أن ألتقط صوت الموسيقى فى الأشياء التى حولى ، أحاول مرارا أن أستمع إلى صوت الماء وهو يهبط من الصنبور فأضع أصابعي تحت الماء لأستمع إلى الصوت وهو يتغير مع حركة أصابعي ، صارت لعبتى الأجمل هى محاولة البحث عن الموسيقى .

بعد ذلك كانت المدرسة ، وكانت أجمل الحصص هى حصص الأناشيد ، حيث أستمع إلى صوت زملائى ككورال مع أستاذى الذى كان يعزف على العود بينما كنا نغنى النشيد .

الحادثة التي خلقت مني عازفاً

مذ بلغت العاشرة من عمرى بدأت أبحث عن وسيلة لامتلاك آلة للعزف ، وكان عود أستاذ الأناشيد يشدنى إليه وأنا أرى أصابعه تتلاعب بالأوتار فتصدر أنغاما



احتضن العود دائما كأنه حبيبتى الأبدية !..

جميلة ننشد معها ونحلق فى سماوات بعيدة ، تركت أستاذى منشغلا وتحايلت فأمسكت عوده ورحت أعزف عليه أنغاما متقطعة لا رابط بينها ولكننى كنت أحاول أن أصنع جملة موسيقية صحيحة .

فجأة دخل الأستاذ علىَّ وأنا أحطم عوده ، كنت من وجهة نظرى أعزف ، وكان من وجهة نظره يرانى ألعب ، فاستحققت العقاب ، وأمسك بقلم رصاص ثم وضعه بين أصبعين من أصابعى وأمسك على يدى بشدة فغابت روحى من الألم فصرخت .

هذه الحادثة ظلت معى دائما ، وكنت كلما تذكرتها شعرت بالألم مجددا فى أصابعى ، لكنها جعلتنى أقسم بأننى سأتعلم العزف على العود لأصبح أفضل من أستاذى الذى عاقبنى .

فى السن نفسه تقريبا كنت بدأت أغنى الأغنيات التى كنت أستمع إليها أمام البنات والصبيان الذين كانوا يخرجون بعد القيلولة إلى ساحة المدينة ، كنت أغنى أغانى عبد الحليم حافظ ، فأرى البنات من حولى وقد بدأت أعينهن تمتلىء



بالدموع وتتساقط على خدودهن وكنت أحب ذلك الشعور الذى كان يصاحبنى أثناء الغناء ، فقد كنت أشعر أننى أعيش فى عالم آخر وانفصل عن أقرانى الذين يحيطون بى وأنا أغنى .

فى ذلك الوقت كان لدى الكثير من الأحلام ، وقد علمتنى الأيام أن الحلم سيظل حلما ما لم نلامسه بأصابع واثقة ، ولم أكن أحب الأحلام التى لا تتحقق ، كنت أريد أن أعيش الحلم الذى أعايشه فى الخيال حقيقة ، كنت أريد أن ألامسه وأشعر به .

أولى الخطوات مع الحلم

هكذا بدأت أولى خطواتى مع الأحلام ، كنت أرى نفسى جالسا على خشبة المسرح والجمهور يحيط بى ، وكنت أستمع إلى التصفيق ، وحلمت كثيراً ، لكننى بأصابع واثقة كما ذكرت كنت أسير نحو الحلم وباتجاه تحقيقه .

وفى عام ١٩٧٧ حققت أول خطوة على سلم الحلم الطويل وبدأت بتعلم العزف على العود على يد معلمى الأول صاحب حسين الناموس فى مدينتى الكوت التى تقع فى جنوب بغداد ، وبعد أربع سنوات التحقت بمعهد الدراسات النغمية فى بغداد ، وتلقيت أول عود هدية من أستاذى ليصبح ملكا لى أداعب أوتاره فى ساعات الصباح المبكرة وحتى طلوع الفجر ، كنت ما أن أضع رأسى على الوسادة حتى تعاودنى أحلامى ، فأهرع إلى العود الذى كان دائما إلى جانب سريرى وأحتضنه كما لو أنه حبيبتى الأبدية .

كنت أشعر بأن العالم كله بين يدى، واستمع الى الأنغام المتصاعدة من العود وأنا أضع أذنى عليه، أشم رائحة خشبه، واشعر بأن التاريخ كله منتصب أمامى أحادثه بالموسيقى ويرد علىّ هو الآخر بالموسيقى.

صرت أبحث فى كتب التاريخ، واقرأ عن السومريين وأجدادنا البابليين أحاول البحث عن مصادر جديدة تجعلنى أشعر بأن هذه الآلة التى فى يدى هى نفسها التى عزف عليها السومرى المنتصب فى متحف بغداد.

كان العود هو التاريخ، وهو الذى يروى ويحكى لى، أعايشه وأظل أحدثه ولا يبخل علىّ فقد وهبته حياتى كلها وصرت رهنا له.

فى معهد الدراسات النغمية لم أكن أريد أن أكون تلميذا عاديا، كان العود هو منتهى أحلامى، هو حياتى التى أراها فى المستقبل، وكان حلمى يلح علىّ، فأتدرب ليل نهار على العزف من دون كلل أو ملل، وكان اليوم الذى تنقص ساعات التدرب فيه على العزف عن عشر ساعات أشعر أنه يوم مفتقد من عمرى، بل يوم ضائع ذهب هباء، وكنت أشعر بأن العمر يمضى سريعا، وبأن الحلم لا يستطيع الانتظار طويلا، فالحلم يفقد صبره مثله مثلنا نحن

البشر، إن لم نغذه بمقومات بقائه أضحى هباء، وذهب إلى أدراج النسيان.

كنت في الساعات القليلة التي أريح فيها جسدي أمضي في الحلم بعيدا، أجوب دول العالم محتضنا عودي ومناديا بقضيتي التي أؤمن بها، قضية الإنسان في كل زمان ومكان، وكنت أشعر بأن هذا العود هو وحده الذي سيستطيع أن يكسر كل الحواجز ليمضي بي بعيدا جدا، وليسمعني ويتعرف على حضارة وطني كل من في العالم، فالموسيقى وحدها اللغة التي تصنع المعجزات، هي وحدها اللغة التي لا تحتاج إلى وسيط، تخرج من الروح لتذهب فوراً إلى الروح.

العود منتهى حلمي

في ذلك الوقت لم أكن أريد أن أتحول إلى ببغاء، يردد ما يتعلمه من أستاذه، كنت أريد أن أذهب أبعد بكثير فالنسخة لا يمكن أن تتحول إلى أصل ستبقى رقما من تعداد النسخ، وأردت دائما التفرد، هكذا كنت أعزف موسيقاي وألحاني، أجلس على الكرسي وأنا أحاول أن أرى الكون وأصنعه موسيقى.

صارت الموسيقى هي العين التي أرى من خلالها العالم كله.

فيما بعد تخرجت من معهد الدراسات النغمية على يد أساتذة أكفاء الاستاذ علي الإمام والأستاذ روحي الخماش والأستاذ سالم عبدالكريم، وصار علي ان اشق مستقبلي الذي عملت من أجله، هذا بالرغم من أنني خلال سنوات تعلمي في معهد الدراسات النغمية كنت أقوم بالتدريس في المعهد ذاته وفي مدرسة الموسيقى والباليه.

لا أعرف لماذا قبلت أن اشارك في ذلك الوقت بمسابقة في التأليف الموسيقي، فأنا كشخص غير مقتنع بالمسابقات كلها، وبالرغم من ذلك تقدمت للمسابقة، ونلت الجائزة الأولى لأفضل لحن.

وبالرغم من فرحي بالجائزة فإنني لم اشعر بأنني حققت أيا من أحلامي، كانت أحلامي أكبر من البحر بكثير، تعبره وتذهب إلى ما ورائه، لكن كانت رحى الحرب مع الجارة إيران قد اشتدت وبدأت تسرق من أحلامنا وحاضرنا الكثير الذي أدركناه فيما بعد.

في ذلك الوقت جاءني صديق كان يتعلم العزف على العود، وعندما رأيته صدمت فقد اختفت يده واصبح بيد واحدة، صورته هذه هزتني من الأعماق فلم استطع كلاما، نظرت إليه، فبادرني قائلا الآن لم يعد في وسعي أن أعزف العود فقد انفجر لغم في يدي كما ترى وصرت بيد واحدة، ويد واحدة لا تصفق، صمت طويلا قبل أن استطيع الرد ثم قلت



له بعد أن اجتاحت نفسي قوة غريبة، لا تخف ستستطيع العزف وستكمل المشوار، فقال: كيف.. قلت: له أقسم لك لن أعزف ثانية قبل أن أجعلك قادرا على العزف.

العزف بيد واحدة

بعد هذه الحادثة لجأت إلى غرفتي مقفلا الباب علي نفسي محاولا العزف بيد واحدة متناسيا يدي الثانية السليمة، وبعد فترة كانت مقطوعة (قصة حب شرقية) التي ألفتها لتعزف على يد واحدة، كانت هذه هي الخطوة الأولى للعزف لمن فقد يده أثناء الحرب وهم جنود كثر، وفيما بعد أصبحت هذه الطريقة شائعة بين طلابي الذين أدرس لهم أساليب العزف على العود.

جاء عام ١٩٨٨ ليضع حدا لهذه الحرب التي كان وقودها قرابة المليوني انسان من البلدين وشروخ عميقة في أرواحنا لم يستطع الزمن مداواتها. في العام ١٩٨٩ غادرت بغداد إلى عمان للمشاركة في مسرحية عنوانها (البلاد طلبت أهلها) تأليف المرحوم عبداللطيف عقل وإخراج المنصف السويسي، وجئت في تلك السنة لأول مرة إلى القاهرة لتسجيل الموسيقى والألحان في استديوهات مصر، وكان لهذا العمل المسرحي تأثير بالغ على مسيرتي فيما بعد، فقد خصصت ربع حفلاتي في ذلك العام لأبناء فلسطين وبدأت بكتابة أعمال كثيرة تتحدث عن بطولات الشعب الفلسطيني وقدرته غير المتناهية على المقاومة، وبدأت هذه الأعمال تنتشر في كل مكان وتطلب، وأحسست آنذاك بقيمة أن يكون الموسيقى ابنا لزمانه ولسان حال مجتمعه محتفظا بمستوى فني فوق الشبهات.

فجأة صحوت على حلم كنت رأيت فيه الموسيقى، أعني أنني لم أكن اسمعها بل أراها بعينين مفتوحتين وهي تتراقص أمامي بأجنحة بيضاء أخاذة في جمالها، نهضت من سريري، وأنا أفكر بالطريقة التي استطيع من خلالها ان أرى الموسيقى، إنني اسمعها لكنني أريد أن ألامسها وأراها، أمسكت العود بين أصابعي، وأغمضت عيني، كانت الأنغام تتراكض بين أصابعي، وتؤلف صورة واسعة لفرس يركض في أرض لا نهائية من دون أن يتوقف أبدا يركض ويركض وهو يصنع من وقع حوافره موسيقى تدب في أذني فتعيد أصابعي صياغتها، أنهيت اللحن الذي خرج مرة واحدة وبدفقة لا تتوقف لأجد نفسي أرى الموسيقى، منذ ذلك اليوم صرت أريد من الموسيقى أن تصبح صورة ترى بالعينين كما تسمع بالأذنين، صرت أبحث عن موسيقى الصورة التي صارت هاجسي في كل ما ألفت من أعمال موسيقية.

انتهى ذلك العام بمأساة طبعت حياتي

بالألم والحزن والسواد، فقدت حريتي فجأة، كنت قد بدأت بحصد نجاحات متتالية وجوائز عديدة وفجأة أعادني كابوس إلى النقيض.

عدت عنوة إلى العراق وانقلبت حياتي رأسا على عقب ، وبعد فترة زمنية كانت دهوراً عددها مائة وسبعون دخلت خدمة العلم الالزامية وخلال أدائي لهذه الخدمة حصل المحظور ودخل العراق إلى الجارة الكويت وبدأت الأحداث تتوالى وتتطور بسرعة مذهلة، دمر بعدها بلدي وتمزقت روابط الكرخ والرصافة ضفتي بغداد الجميلتين وكأننا صحونا على زلزال دمر كل جميل فينا وعلى ارضنا.

أجمل دعوة سمعتها

رحلت هنا والدتي التي كانت هي المعادل عندي للوطن، صرت فجأة يتيما وأنا استعيد دعوتها لي في كل صباح قبل أن أغادر المنزل (إن شاء الله يتحول التراب بيدك إلى ذهب). وهذه أجمل دعوة سمعتها في كل ما تبع من سنوات.

كان مواليد عام ١٩٦٣ هم أول مجموعة تسرح من الجيش بعد وقف إطلاق النار، هنا بدأت أفكر ما هو العمل الذي يطيب جروح أرض الرافدين، فقررت أن أقدم أول حفل وفي المتحف العراقي (القاعة الآشورية تحديداً) التي تحتوي جدرانها على قطع أثرية تعود إلى خمسة آلاف عام، أردت أن أقول من تلك القاعة إن هذا هو العمق الحقيقي لنا لا ما تهدم من مبان وجسور.

كانت الدماء لاتزال ندية حينما اعلن عن موعد الحفل ببطاقات دعوة طبعت باليد كما أراد لنا بوش بأن يعيدنا إلى عصر ما قبل التكنولوجيا لكنه ودون أن يشاء أعادنا إلى جذر ربما قد نسيناه بمجيء التكنولوجيا، وكان لهذه الحفلة فعل السحر حضورا وعزفا وتأثيرا كأنما طائر العنقاء قد بدأ ينفض التراب عن نفسه ليحلق مجدداً.

حملت عودي وجرح العراق وطفت العالم من دون دعم أي جهة لا داخل ولا خارج العراق، كنت مسلحا بإيماني وموهبتي وما تعلمت وعودي، كانت الأنغام قادرة على أن تجمع كميات كبيرة من علب الدواء لأطفال وشيوخ شعبي، وامتدت ساقاي إلى أرجاء الوطن العربي والعالم، وكان يقيني يزداد كل يوم بأن الموهبة مسئولية كبيرة لم تمنح للإنسان تكريما له ليؤدي واجبا مقدسا من خلالها.

الموهبة مسئولية كبيرة

في أكتوبر ١٩٩٣ دعيت إلى تونس لأكون أستاذ العود في المعهد العالي





نصير شمه فى طفولته ممسكا بالراديو



.. و فى أيام الصبا

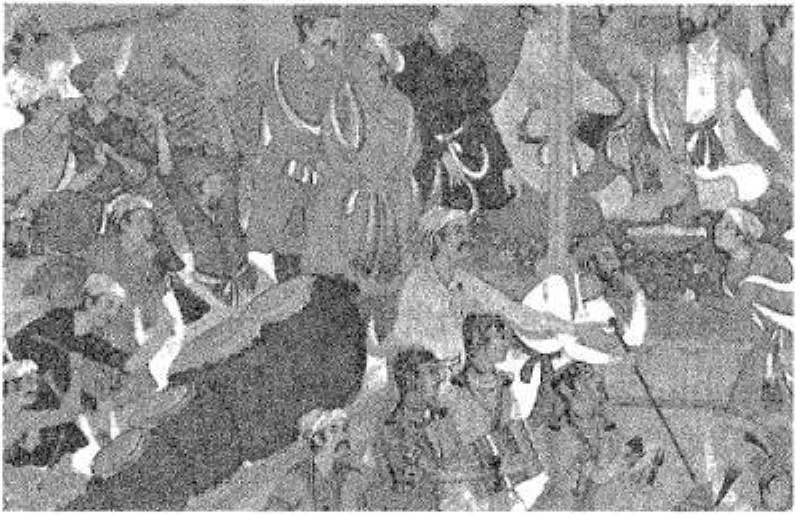
للموسيقى، وأقمت فى المعهد خمس سنوات كانت غزيرة بالفن وبالانفتاح أكثر على أوربا فقد ظهرت لى الاسطوانة الأولى (قصة حب شرقية) من باريس معهد العالم العربى عام ١٩٩٤ وتلتها الاسطوانة الثانية (إشراق) من روما عام ١٩٩٦.

وبدأت أجوب العالم وأنا احمل عودى واحقق بعض احلامى التى مازالت لم تتحقق كلها حتى اليوم.

لم يكن مشوارى مع العود سهلا، كان طريقاً طويلاً مازال أمامى الكثير لابلغ نهايته بل أننى لن أبلغها أبدا، غير أننى عرفت ان من يريد ان يحفر اسمه هو من يضيف لا من يسير على منوال السابقين، فاهتممت بالثقافة والشعر والأدب، وكان زادى من الفنون التشكيلية كبيرا، فأنا تقريبا لدى مجموعة من الاصدقاء التشكيليين أكثر بكثير من الموسيقيين.

كما أن جل أصدقائى من الشعراء والكتاب عموما. فالموسيقى بلا ثقافة سيظل مجرد عازف يحرك الاوتار بطريقة ميكانيكية ومن دون أدنى شعور بالرغبة فى التغيير أو النظر صوب المستقبل.

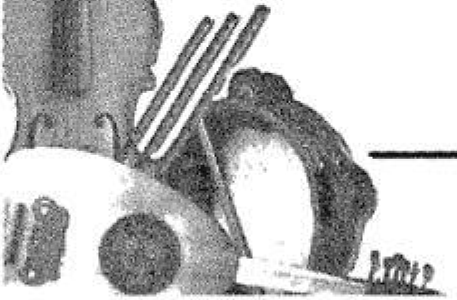
ومن خلال بحثى المتواصل توصلت إلى مخطوطة للمعلم الفارابى موجودة فى احدى مكتبات ابرلندا، وفيها يشرح المعلم عن العود ذى الثمانية أوتار، فقمت بتحقيق هذه المخطوطة عام ١٩٨٦، وقدمت



العود بمناظرة مفتوحة أمام الجمهور كان الفارابي والعود المثمن نجمين سطعا في ذلك الحفل.

بعد تونس دعيت إلى القاهرة لتحقيق الحلم الذي راودني وخططت له طويلا، وهو اقامة بيت للعود.. وهكذا كان بيت العود العربي في دار الاوبرا المصرية (أكتوبر ١٩٩٨)، ومن هنا انطلقت رحلة جديدة مع جمهور جديد وعريق بدأت أشعر معه بلذة النجاح الذي يقترن بالجدية والجهد والرصانة، ولا أنسى دور د. رتيبة الحفني التي غيرت وجهتي من لندن الى القاهرة وأشعر هنا أن هذه الخطوة كانت صائبة جدا فقد أعطيت الكثير خلال هذه السنوات الثلاث وكذلك نلت الكثير من الاحترام والتقدير.. وربما يصبح الحديث عن تجربة مصر بعد سنوات أجدى.

مع الموسيقى كان طريقي جميلا وصعبا، اكتسبت خبرات كثيرة، وتعلمت ان الحزن الذي يقهرنا به الزمن يجعلنا اقوى وأكثر قدرة على العطاء، وها أنا اليوم انظر إلى الموسيقى التي اعطيتها الكثير فمنحتني الكثير، سلم موسيقي بسبع درجات منحنى طاقة كبيرة وبأجنحة لا متناهية، ومنحته طيراني في كل مرة أمسك بها عودي ■



بينالي الإسكندرية الحادي والعشرون

انفتاح.. أم خصوصية؟!

بقلم
عز الدين نجيب

لمعت في سماء الاسكندرية خلال شهر واحد أضواء حدثين حملا رسالة حضارية مشعة وسط ظلام حرب الإبادة الهمجية، بين أعتي مبتكرات ترسانة الحرب في واشنطن وإسرائيل وبين سكان الكهوف والمخيمات في أفغانستان وفلسطين، الأول هو الافتتاح التجريبي لمكتبة الاسكندرية في أول أكتوبر الماضي، بعد أكثر من ألفي عام على دمارها الأول، وقد صاحبت الافتتاح ندوتان إحداهما أدبية - احتفاء بنجيب محفوظ - والأخرى تشكيلية حول الفن السكندري، واحتفاء أيضا بالفنان صلاح طاهر (قامت «الهلال» بتغطية الندوتين في العدد الماضي) . أما الحدث الثاني فهو افتتاح بينالي الاسكندرية الحادي والعشرين يوم ٢٦ أكتوبر بمشاركة ١٦ دولة من دول حوض البحر الأبيض المتوسط بإبداعات فنانيها، وصاحبته - كذلك - ندوة دولية على امتداد ثلاثة أيام تحت عنوان «البحر المتوسط: حضارة وحاضر» ، شارك فيها فنانون ونقاد من الدول المشاركة..

جائزة البينالي للفنان برناردي رويج



١٦٣
الهلال
رمضان ١٤٢٢هـ - ديسمبر ٢٠٠١م



جائزة البينالي للفنان سالم رمضان التميمي

فيالها من بداية للألفية الثالثة تليق بقدر مصر التاريخي ودورها الحضاري! ويالها من مسئولية على قادتها الثقافيين ومبدعيها، حتى يظلوا متمسكين بهذا الدور، في الوقت الذي تتساقط أمام أعين العالم كل دعاوى التحضر والتقدم، وتسفر عن عكسها من المعاني!

جسر للحوار الثقافي

وبينالي الاسكندرية ثمرة جمالية لفكرة تفاعل الثقافات والحضارات التي كانت الاسكندرية على امتداد تاريخها مسرحا لها، بدءا من الكلمة اللاتينية «بينالي» التي تعني المعرض الذي يقام كل سنتين، ومرورا بالمؤثرات الاقليمية والتاريخية والفكرية والجمالية المتبادلة بين دول المنطقة ووجدت دائما في الاسكندرية أيضا مهيأة للحوار والتفاعل، ما خلق منها منطقة «كوزمو بوليتانية» ترحب بكل جديد في الفكر والابداع يطرأ على مسار الثقافة العالمية، وجسرا للحوار بين

الشمال والجنوب في دول المتوسط، بل بين ثقافات الشرق والغرب بشكل عام.

وكان بينالى الاسكندرية - منذ أول دورة له عام ١٩٥٥ - حريصا على تأكيد الخصوصية المصرية في الفن، في نفس الوقت الذى يفتح نوافذه لكل جديد فى العالم الغربى، فعمل على تمييز الجناح المصرى بأكبر المساحات للفنانين المصريين حين يكون بمثابة تظاهرة جمالية لكل التيارات والاتجاهات الفنية فى مصر أمام دول العالم، كى تصلهم رسالتنا الثقافية بخصوصيتها الفريدة بقدر ما تصلنا رسالتهم بتوجهاتها العصرية، ولمزيد من الحرص على هذه الاستقلالية كانت عملية التحكيم للجوائز تقام على مستويين: مستوى الجناح المصرى الذى يشترك فى تقييمه مندوبو الدول الأجنبية، ومستوى بقية الأجنحة المشاركة.. لكن مع تتابع الدورات تم توحيد عملية التحكيم من خلال لجنة واحدة، واختصار عدد الفنانين المصريين إلى ما يقرب من عدد العارضين بجناح كل من الدول الأخرى، توحيدا للقاعدة والمعيار، حتى تتمتع المشاركة المصرية والجوائز التى قد تفوز بها بصفة العالمية.

وشهد البينالى - خاصة بعد رحيل مؤسسة حسين صبحى فى الثمانينات - مسيرة متعثرة، لعدم قناعة القيادات المحلية التالية بتحمل تبعاته وأعبائه، ما أدى إلى صراع على تولى زمامه بين

بينالى الاسكندرية

محافظة الاسكندرية ووزارة الثقافة، الأمر الذى تم حسمه مؤخرا بتبعيته للوزارة، ودخوله ضمن أنشطة قطاع الفنون التشكيلية، الذى عين له مديرا دائما هو الفنان د. مصطفى عبدالوهاب، بديلا عن الفنان عصمت داوستاشى الذى شهد البينالى خلال توليه مسئوليته أنجح دورة فى حقبة التسعينيات، كما يعين له قومسييرا مؤقتا لكل دورة، وكان القومسيير العام فى الدورة الأخيرة هو الفنان د. محمد شاكر، الذى بذل جهدا واضحا حتى خرج المعرض إلى الوجود فى ظل الظروف الدولية الأخيرة رغم أنها كانت كفيلة بإفشاله، ولا شك أن تعاون أجهزة المحافظة تحت قيادة المحافظ الديناميكى عبدالسلام المحجوب، كان له دور فعال فى إقامة الدورة الحالية، وبلغ عدد الدول المشاركة ١٦ دولة، منها ست دول عربية هى سوريا وفلسطين ولبنان والمغرب وليبيا وتونس، ودول أجنبية مثل فرنسا وإسبانيا واليونان وقبرص وكرواتيا والبوسنة.

البينالى.. والأسئلة المحورية:

وعلى ضوء الدورة الحالية، وما سبقها من دورات، تفرض بعض الأسئلة المحورية نفسها على المتابع من المنظور الثقافى والفكرى.. مثل: هل حقق البينالى تقدما للحركة الفنية المصرية؟.. وفى أى اتجاه؟..

وما تأثير ذلك على خصوصيتها؟.. وما مدى ارتباط نتائج هذا الملتقى الابداعى بالمتغيرات الدولية الحادثة بقوة فى الفن ومدى تأثيرها مستقبلا على خصوصيتنا الثقافية عبر الفنون التشكيلية؟

وكان حريا بالندوة الدولية المصاحبة لهذه الدورة - برئاسة الفنان د. مصطفى عبدالمعطى - أن تضع تلك الأسئلة نصب عينيها، لكنها دارت حول الشواطئ الآمنة بعيدا عن أية خلافات فكرية، أى حول التاريخ الحضارى للإسكندرية وتقييم منجزات الماضى من منظور بانورامى يتجنب محكات المواجهة على صعيد الفكر، فبدت أقرب إلى صورة لندوة افتتاح مكتبة الاسكندرية التى عقدت قبلها بأسابيع قليلة، باستثناء بعض المحاور خارج نطاق الفن التشكيلى مثل المسرح والسينما والفنون الشعبية، ما أحالها إلى ملتقى ثقافى عام يصلح أن يقام فى أى وقت وأى مكان غير البينالى، وبقى العزاء المرتجى من الندوة هو ما تضمنه برنامجها من عرض لحركات الفن الحديث فى دول أوربية وعربية عديدة، لكن حتى هذا الجانب تعرض بعضه للإلغاء أو التغيير لعدم حضور المتحدثين فيه، وقدم بعضه بشكل باهت وأقل من معلومات أى متابع لحركات الفن الحديث أوربية أو عربية.

وقبل أن نحاول البحث عن إجابات لتلك الأسئلة، دعونا نلق نظرة سريعة على أهم الأجنحة المشاركة وما أحرزته من جوائز.

إسبانيا.. فرس الرهان

أصبح من المعتاد فى كل دورة أن يكون الجناح الإسبانى هو الجناح الأفضل، لذا لم يكن مفاجأة حصوله فى الدورة الحالية على جائزة أفضل جناح، فقد قدمت إسبانيا من خلاله مجموعة من فنانى الصف الأول بها، تتنوع اتجاهاتها بين الحداثة وما بعد الحداثة وبين اتجاهات تقليدية كالتعبيرية التشخيصية وهذا نموذج جيد لأهمية التعدد فى رؤى الفن حسب أذواق الأشخاص والثقافات بغير تسييد لاتجاه على آخر.

لكن المشكلة تكمن فى تقييم لجنة التحكيم لأعمال فنانى هذا الجناح حيث منحت الجائزة الكبرى للبينالى (٥٠٠٠٠ج) لعمل من التصوير الفوتوغرافى هائل الحجم بالأبيض والأسود لمبنى خرسانى متعدد الطوابق قد يحتمل تأويلات رمزية مختلفة من منظور اتجاه ما بعد الحداثة، التى تلغى الفروق بين التخصصات الفنية وتعطى دور البطولة فى العمل للمفاهيم الذهنية وليس للقيم الجمالية المتعارف عليها، بما يجعل من اللوحات والتماثيل والمعايير الإستطيقية المستقرة فى النقد الفنى عن جوهر الشكل وتمايز مجالات الابداع - أعمالا من مخلفات الماضى، فيما يضم الجناح أعمالا أخرى أجمع النقاد والزوار على أهميتها وامتيازها خاصة أعمال النحت للفنان برنارد رويج، بالرغم من أنها قد تنتمى أيضا لاتجاه ما بعد الحداثة، حيث يستعير النحات أسلوبا

واقعيا في تشكيل تمثالين لشخصين بوجوه أبنوسية السواد في وضع مواجهة حادة وهما يرتديان ملابس السهرة الرسمية المصنوعة من القماش الأسود، وقد ثبتت في عيني أحدهما شمعتان مشتعلتان بات سناجهما المحترق يكسو منطقة أعلى العينين فبدتا كعيون الجن، هكذا يتخذ التمثال سمتا أسطوريا أو مواجهة دراماتيكية بين الأنا والآخر أو بين الأنا والذات!.. وهو عمل مبتكر ومتجاوز للمألوف ومتعدد الأبعاد والرؤى بتعدد وجهات النظر إليه، لكنه لم يفز إلا بجائزة تحت الكبرى.

فرنسا وإيطاليا :

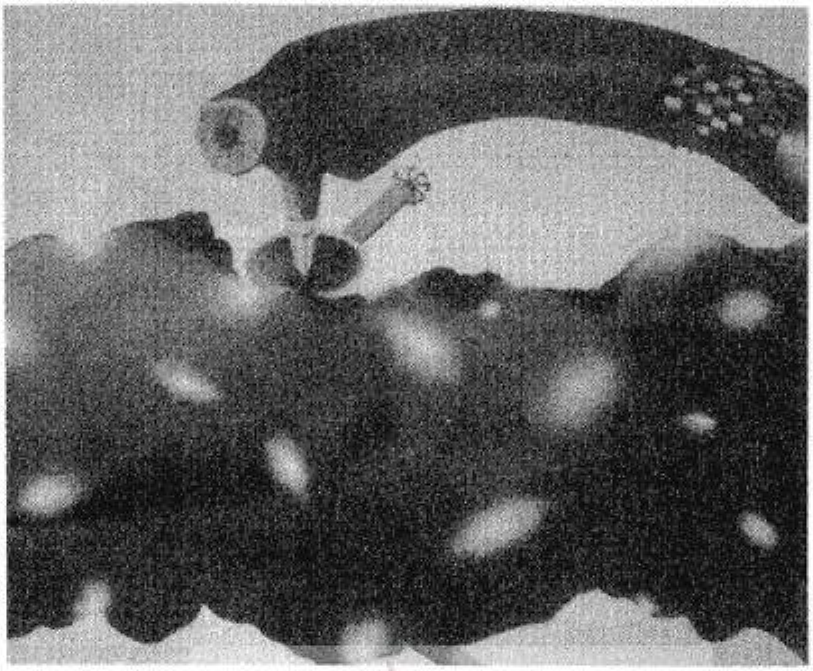
الملل وخيبة الأمل!

اقتصر جناح فرنسا على عروض بالفيديو لثلاثة فنانين هم جيان سيسبلوجا وجون جيرلو ولبو أن شي، يقدمون عبر المشاهد المتتابعة على الشاشات ثلاث حالات: الأولى حالة وسواس قهري لفتاة لا نراها تغسل يديها بالصابون على الحوض دون توقف بسرعة متصاعدة. والثانية حالة مناولة من يد إلى يد أخرى (دون أن نرى صاحبيهما) لأشياء صغيرة مثل الأدوات المنزلية والخاصة جدا إلى ما لا نهاية، والثالثة استعراض لعبوات بلاستيكية لمنتجات الأدوية وهي تتدفق أيضا إلى مالا نهاية، وما يجمع بين الحالات الثلاث هو الرتابة بغير فعل يؤدي إلى أي تغيير، ومن ثم فهي تنتهي بالمشاهد

سريعا إلى شعور بالملل الشديد.

وقد اعتذرت إيطاليا عن عدم المشاركة لكن جناحها الشاسع امتلأ بلوحات فنان إيطالي واحد شارك بصفة شخصية بعد أن تمت دعوته كضيف شرف، هو المصور جيوفاني سوكول، ونجحت لوحاته الزيتية الكبيرة في إيجاد توازن جمالي يقوم على جوهر الأسس الكلاسيكية في التصميم والبناء واللون والملمس، وبرغم مذاقه العصري فهو يملك ذكاء التعامل مع الواقع برؤية فلسفية وروحية بالرغم من أن أعماله لا تزيد عن مقاطع من مبان معمارية ساكنة لكنها تنبض بحس الشعر وهمس الموسيقى.

إن أجنحة الدول الثلاث - إسبانيا وإيطاليا وفرنسا - كانت دائما بمثابة ثقل الرمانة في دورات البينالي منذ إنشائه، ومن خلالها كان يتحدد المسار العام لحركة الفن العالمي المعاصر، وكان ذلك يتحقق من خلال الجدية الشديدة التي كانت تلك الدول الثلاث تتعامل بها مع هذا الحدث ، حتى أن اسبانيا خصصت له إدارة دائمة تقوم بالتحضير للجناح الاسباني على امتداد العامين بأفضل فنانيها ، أما إيطاليا فقد كانت تطمع منذ البداية في نقل البينالي إليها ليكون شقيقا لبينالي فينيسيا ، فتنفرد بذلك بأعرق وأقدم بينالين في العالم ، لتصبح مركز



جائزة محمد رشيد للفنان موانيا السباعي

الاشـــعـــاع الفني المنافس لبـاريس ونيويورك ، وبعد محاولات مستميتة منها انكسرت أطماعها على صخرة إصرار المصريين وحسن استقطابهم للرأي العام بين دول البحر المتوسط عند نشأة الفكرة ، بما عمل على استقرار البينالى فى الاسكندية ، عندئذ لم يبق أمام إيطاليا إلا أن تثبت جدارتها من خلال جناحها الذى حقق تميزاً فى كل دورة .. فلماذا اعتذرت عن المشاركة هذا العام ؟ .. السبب ببساطة يرجع إلى سوء التخطيط فى الادارة الثقافية المصرية ، التى تقيم بيناليين دوليين خلال عام واحد فى القاهرة والاسكندرية ، ما جعل إيطاليا تفضل التركيز على المشاركة فى بينالى القاهرة وتعتذر عن بينالى الاسكندرية .

وإذا كانت فرنسا لم تحذ حذوها ، فإنها - عمليا - تعاملت باستخفاف مع بينالى الاسكندرية، باختيارها أعمالا تصنف تحت «فنون الاتصال التكنولوجية» ، التى ينتهى عمرها فور انتهاء المعرض ، ومازالت من الناحية الجمالية محل شكوك كبيرة فى استقرارها بذاكرة الفن ، وعلى كل فإن نظرة الاستخفاف يمكن إدراكها ببساطة عند المقارنة بين جناح فرنسا الأخير وبين أجنحتها فى دورات البينالى

السابقة حينما كانت تقام في توقيت بعيد عن بينالى القاهرة ، وهكذا نكتشف أن مصر تحارب مصر، بتلك العشوائية فى الادارة الثقافية ، التى تلهث خلف كم المهرجانات دونما اهتمام بالقيمة .

مشاركة أجنبية باهتة

وقد لا يختلف الأمر كثيرا بالنسبة لدول أوربية أخرى مثل اليونان ، التى لم يشترك فى المعرض إلا فنانة واحدة منها هى فيكي تسالاماتا ، عرضت مجموعة لوحات طباعية متواضعة المستوى ، وهى فى الحقيقة لوحة واحدة تم توليدها فى عدة صور بألوان مختلفة مع تعديلات طفيفة ، وكرواتيا التى قدمت أعمالا مزيلة شاحبة لا تعكس مستوى الحركة الفنية لهذا البلد الذى انبثقت فيه فورة إبداعية ذات مذاق خاص خلال الحرب التى اكتوى بها سنوات طويلة .

وتأتى البوسنة بستة فنانين لا يزال يخيم عليهم هاجس الحرب ، على خلفية من الطبيعة والحس الانسانى المضيء ، فثمة تكوينات فوتوغرافية لشواهد القبور ، ولجنود يزيلون الألغام ، ولأسلاك أجهزة الاتصالات الممزقة ، ولجدران تعرضت للدمار ، وأظن أنهم مازالوا فى مرحلة بحث عن الذات والطريق .

ولعل قبرص كانت الأفضل بين أجنحة الدول الصغرى ، بأعمال تحترم القيم الراسخة فى فن التصوير الزيتى بمفهوم حداثى يزاوج بين التشخيص والتجريد ، خاصة أعمال أندرياس افستاثيو ، وكذا الأعمال المستوحاة من الأيقونات المسيحية بعراقة الماضى والمسحة الروحانية فى معلقات اندرياس خريسانثو ، حتى فيلم الفيديو لبول كوروس عبر عن حالة حميمية دافئة لنبض الشارع القبرصى .

وفى رأيى أن أروع أعمال فن الرسم بالأبيض والأسود كانت بالجناح الألبانى لأباز هادو وحسن نالبانى، التى تستقطر رحيق الحياة والسلام من بين أطلال الحرب ، بمذاق واقعى تعبيرى رمزى ، وإن شئت الدقة - بمذاق إنسانى يتجاوز مسميات المدارس والاتجاهات ويتميز بالحساسية والصدق .

مشاركة عربية متفاوتة

على حين بدت جدران الجناح السورى عارية بسبب تأخر وصول أعمال الفنانين السوريين ، فيما عدا فنان واحد هو علي السرميني التي لا أعرف كيف أتى بها دون بقية أعمال الجناح وهو القومسيير الرسمي له (!) ، تألق الجناح الفلسطيني بأعمال الفنانة تينا المالحي ، التي جسدت خريطة فلسطين مرسومة علي قماش متهرئ عبر عدة مستويات ، نرى خلالها هذا الوطن الجريح المتآكل الحدود ، الممزق باحتلال العدو ، المتلاحم بنضال المقاتلين ، المفكك بتهاون الأشقاء .. بورتريهات لوجه الوطن عبر صيرورة

ملحمة الانتهاك ، إنه العمل الذي تتلاشى عنده الحدود بين الفن والوثيقة ، بين خطاب السياسة وخطاب الجمال ، وقد استحق الحصول على إحدى جوائز البينالي الخمسة دون مجاملة .

● ويبدا الجناح اللبناني نموذجا لافتقاد الهوية ، أعماله تحاكي اتجاهات الحداثة الأوربية حينا ، مثل تجريديات ديانا الحوراني ، أو تلهث خلف تأثيرات الخامات على السطح حينا آخر ، مثل لوحات بسام كيرللس ، أو تستعير فطرة الأطفال حينا ثالثا مثل السيد عبد الرؤوف، أو تفتعل أسلوب التجهيزات المركبة في الفراغ بحشرها بغير مناسبة مع اللوحات الزيتية ادعاء للحداثة كما عند سامية علوة ، وقد نالت مع ذلك إحدى الجوائز !

● والأمر قد يختلف عن ذلك بجناح ليبيا ، حيث تتفاوت أعمال فنانيه بين استلهام الموروث من خلال الحروف العربية لدى محمد الحاراتي ، أو المنظر الانطباعي لدى عبد السلام النطاح ، أو التشكيل المعماري لدى أحمد السباعي ، بما يوحي بانشغالهم بقضية البحث عن الهوية العربية ، وبين التحليل للسطح المجرد مع الحفاوة المطلقة بملامس السطح وتجعداته التجريدية لدى سالم التميمي بأسلوب أوربي بحت ... ومثلما فازت لبنان بإحدى الجوائز كذلك فاز التميمي بجائزة مشابهة ، ربما لمهارته في محاكاة الشكل الاوربي .

جائزة البينالي للفنانة تينا شيرولي



● أما المغرب فتعكس أعمال فنانيه حيرتهم وجهدهم للتوفيق بين الهوية العربية وبين الحداثة الأوربية ، حيث تبقى اللوحة لدى أغلبهم بمفهوم تجريدى عشوائى النزعة بلمسات طليقة بغير قيود ، وإذ بالفنان يضيف إليها فى النهاية وجوها أو أشخاصا بحس واقعى أو تعبيرى ، مثل عبد الباسط بن دحمان ، وقد يضيف آخر بعض الكتابات من أبيات الشعر أو الحروف العربية مثل عبد الله الحريرى وأحمد جاريد .... لكنها قد تعكس جميعا نكهة متوسطية مشبعة بهواء البحر.

● وتأتى تونس بخمسة فنانين من أجيال واتجاهات مختلفة ، يبرز من بينهم عبد الرازق الساحلى ، بمعلقاته النسجية العملاقة ذات حس الخيمة البدائى الزخرفى ، ما أهله للحصول على إحدى جوائز البينالى الشرفية ، وعبد العزيز الحسنى بمنحوتاته الحديدية التى تلعب بالفراغات فى إيقاع تجريدى رشيق رغم اعتماده على التشخيص ، ورسوم زبير التركى بواقعيتها البليغة وخطوطها الرقيقة المنسابة ، مع أعمال أخرى لفنانين قد تدخل فى إطار الدراسات الأكاديمية .

الجناح المصرى

● ضم جناح مصر ستة فنانين ، منهم اثنان من جيل السبعينات هما النحات أحمد السطوحى والرسام مصطفى مشعل ، أما الأربعة الآخرون فينتسبون إلى أجيال الشباب بين

الثلاثينيات والأربعينيات من عمرهم ، ولم يقدم الأكبر سنا شيئاً جديداً لافتا ، قياسا إلى ما عرف به كل منهما ، فهى نفس التشكيلات الحديدية فى اطار التعبيرية التجريدية عند السطوحى ، فى اندفاعها المحسوب فى الفضاء بهيمنة مستبدة ، وهى نفس التكوينات الناعمة فى الرسم التى عرف بها مشعل ، وإن اقتصرت هنا على اللون الأسود فوق الورق الأبيض وتضاعفت مساحتها ، بمذاق يستدعى إلى الذاكرة روح التراث والحس الحضارى متراكم الطبقات لتاريخ الاسكندرية ، لكن مع نزعة أقرب إلى الأكاديمية المحافظة الهيابة من اقتحام المناطق الخطرة فى تقنيات الحداثة .

● وفيما آثر أحمد عمر - من خلال لوحاته فى الحفر على الخشب - استلهام منابع الطفولة الساذجة ، ساعيا فى الوقت ذاته إلى إبهارنا بأحجامها الضخمة التى لا تتناسب مع تكويناتها وموضوعاتها البسيطة ، مع تلوين مساحات الجدران من خلفها مما يجعلها جزءا من العرض ، سعت الفنانة هويدا السباعى إلى إبهارنا بشكل مختلف ، من خلال بناء يشبه غرفة واقعية لتشغيل مصنع ، بمواسير وروافع وتروس فى جو خانق مظلم ، ومن ورائها عرضت مجموعة لوحات زيتية تقوم على التجريد العضوى لجسم الانسان مع

ايحاءات رمزية للصراع بين الانسان والآلة ، وحقيقة لم أشعر بثمة تواصل جمالي بين العملين ، ولا بأن فكرة الصراع بين الانسان والآلة نابعة من صميم أزمة الانسان المصري الذي لم يصل في تقدمه التكنولوجي إلى قيم وآليات المجتمع الصناعي حتى تتحدث عن الأزمة الروحية المنعكسة عنه ، والعمل على المستويين التقني والتعبيري يعكس تشوشا فكريا وأسلوبيا داخل الفنانة ، قد يزيده ما تحظى به من تشجيع مادي ومعنوي لا يلقي بالا إلى منطقة الفكر لدى الفنانين الشباب ، خاصة بعد فوزها بجائزة محمد رشيد (٤٠٠٠٠ ج) عن هذا العمل .

● وقد نلاحظ نفس التشوش الفكري والأسلوبي في جناح الفنان الشاب محمود منيسي وهو عمل مركب أيضا لكنه معتقل داخل حجرة مظلمة تتصدرها شاشة عرض كبيرة للفيديو تعرض شريطا لأمواج البحر وهي تتلاطم فوق الصخور ، وليعطي المشاهد عن الحياة الفطرية والطبيعية في الجزر توحي بنوع من الجمال الوحشي ، وعلى الجدران تصطف تماثيل لأشخاص شكلت من مخلفات الآلات من موتورات وتروس وروافع ، وتبدو لنا شاخصة كالأشباح والهياكل العظمية في الظلام ملقية على الجدران بظلالها التي تعكسها أضواء عرض الفيديو على الشاشة ، بحيث يعكس هواجس غربة الانسان النابعة عن حالة الميكنة التي انغمس فيها ...

إن كلا العملين – لمنيسي وهويدا – يدوران في فلك أزمة مفتعلة لا تخص مجتمعنا، بل تخص المجتمع الغربي ، كما يدوران في فلك الاتجاهات الفنية المكتسحة لمحافل الفن الغربي ، والتي حظيت طويلا بتشجيع القائمين على مقاليد الفن بمصر طوال العقد الأخير من القرن الماضي ، وها هم يتخلون عن أحد نجوم الشباب الذي أعدوه كفرس أسود للرهان بإغداق الاهتمام به في السنوات الماضية ، فيستكثرون عليه الحصول على جائزة في هذا البينالي ، وقيل إن الجائزة الكبرى كانت من نصيبه ثم سحبت منه في اللحظة الأخيرة لتعطى للفنان الاسباني ، لكن المؤكد أن الاهتمام اتجه إلى تلميع أفراس رهان جديدة ، بمنح جائزة لكل من هويدا السباعي ومحمد ابو النجا ، والاكتفاء بمنح منيسي جائزة شرفية !

● وبعيدا عن الجائزة ، وحساباتها الغامضة ، فإن عمل محمد فتحي أبو النجا يبدو أكثر اتساقا مع منابعه الفكرية والتقنية على السواء ، إنه لا يكتفي بتوظيفه الذكي لخامة الورق التي يصنعها بنفسه بعجائن نباتية في تشييد بناء يحاكي جدار مكتبة الاسكندرية ، بما يحمله من رموز وكتابات بارزة وغائرة ، بل يعمل على توظيف الذاكرة التاريخية ، بما يختزنه العقل الجمعي من موروث انثروبولوجي يتصل ببصمات الانسان الحضارية في

هذه المنطقة من العالم ، ومن موروث حضارى يتعلق بدور المكتبة القديمة فى التواصل الثقافى للمعرفة عبر العالم ، فيقيم جسرا طائرا من الكتب المعلقة فى الهواء على شكل زجزاج يصل بين الجدار الرمزى لمبنى المكتبة وبين الجانب المقابل من قاعة العرض ، وقد يبدو جانب التقنية الورقية فى أعمال أبو النجا غالبا فى توليد الدلالة الرمزية بما يجعله دائرا فى فلك الإثارة البصرية بغية جذب الأنظار مع قليل من التأثير الروحى أو العاطفى ، لكن أصالة الفكرة وجدية البحث قد تكون شفيعة للحصول على الجائزة .. أو هذا ما نرجوه على الأقل !

عودة إلى الأسئلة المحورية

● بعد ٤٦ عاما على افتتاح أول دورة لبينالى الاسكندرية .. ماذا بقى منه ؟ .. لا شك أن علاقتنا «بالآخر» وبالعالم أصبحت إرسالا واستقبالا ، بعد أن كانت علاقة ذات بعد واحد ، لكن علينا الاعتراف بأن البينالى فى هذا الحوار الثقافى لم يكن إلا الوعاء الذى تحقق عبره هذا الحوار ، ولم يكن إبداع الآخر فى البداية هو النموذج المحتذى لفنانينا ،واستمر الحال على قدر من التوازن والتكافؤ بين الخصوصيات الثقافية حتى دورة عام ١٩٧٤ ، لتشهد الدورات التالية توجها من جانبنا نحو محاكاة الغرب واللهاث خلفه بشتى السبل ، ما جعل الخصوصية التى كانت آخذة فى التصاعد والتبلور للفن المصرى فى الثلثين الأولين من القرن الماضى ، تتجه نحو الذوبان فى الآخر بدعوى العالمية ، وتصبح «التقنية» هدفا على حساب «الروح» ويمسى التجريد بديلا للموضوع والعالمية بديلا للقومية.

وعملت المتغيرات المتلاحقة – مع ثورة الاتصالات التى قذفتنا إلى قلب العصر ونحن لا نملك أدواتها – على أن تزداد الكتلة الأجنبية ظهورا فى أساليب فنانينا ، خاصة أجيال الشباب ، التى وجدت من يغذى لديها هذا التوجه بقوة ، حتى أصبح التسابق يدور حول الأكثر إثارة وغرابة واستفزازا ، وليس الأكثر أصالة وحميمية واتصالا ، ولا نستطيع أن نحمل البينالى هذه المسئولية ، أو أن نقول إن عدم وجوده كان الأفضل ، بالعكس .. ستظل له أهمية الدور التاريخى فى الانفتاح على العالم ، لكن المشكلة تكمن فى عدم نضوج المقومات الذاتية للدخول باستقلالية فى هذا المضمار ، وافتقاد البوصلة نحو تحقيق تلك الاستقلالية لدى المؤسسة الثقافية ، مع ضعف البنى التحتية للثقافة الوطنية لدى الأجيال الجديدة. ■


أحلام الخضرا
قصة : حمدي ابو كيلة

منذ سنوات طويلة وعائد بيع محصول الزيتون يكاد يكفي لسد رمق الأفواه المفتوحة . الأحلام تبزغ ثم تتوارى مع كر الأيام والسنين وقصر ذات اليد وقلة الحيلة . ثورة الحياة تكرر نفسها مع الأجيال المتعاقبة من أهل القرية، حلم فإخفاق ، فحلم فإخفاق فحلم فإخفاق . الحلم الوحيد الذي يتحقق بانتظام هو نضج محصول الزيتون كل سنة ثم بيعه مقابل جنيهات قليلة تفي من الاحتياجات بما تفي ويؤجل الباقي إلى ما شاء الله ، وهو حلم غدا مع تكراره عبر السنوات الطويلة مكروراً مملا خابي البهجة مطفأ الوميض، ولكن أهل القرية - رغم هذا - لا يتورعون عن اصطناع الأحلام والجري وراء سرابها في دروب الأيام والسنين ، فهم يرون أن بلدهم جدير بأن يمتلك مدرسة إعدادية تجنب أبناءهم عناء السفر إلى المركز كل يوم تحت المطر وفي عز برد الشتاء، خاصة أن عدم وجود هذه المدرسة بالقرية يدفع الكثيرين منهم إلى التوقف بأبنائهم عند المرحلة الابتدائية درءاً للعناء وتجنباً لعبء تكاليف لايطيقون تحملها. وهم يحلمون بوحدة صحية أو مستشفى حكومي صغير عله ينجح في حمايتهم من أمراض فتاكة لعينة تقيم بينهم لتخطف الواحد منهم بعد الواحد وهو في زهرة الشباب. ويتوقون لأن يفتحوا أعينهم ليروا قريتهم وقد ارتبطت بالمركز بطريق مرصوف يسهل عليهم الذهاب والإياب. ويعتقدون أنهم يستحقون أن تنشأ في بلدهم جمعية تعاونية توفر لهم الآلات الزراعية كالجرار وماكينة المياه وغيرها من الأشياء التي تيسر العمل وتحسن المحصول، وأحلام أهل القرية فوق هذا وذاك لا تحصى ولاتعد . ولكن حلمهم هذه المرة يختلف عن سابق المرات، فهم لايحلمون بطريق ولا مستشفى ولا مدرسة ، لكنهم يحلمون بكل هذا مجتمعا وفوقه الكثير. لقد أخذتهم الأحلام إلى بعيد .. إلى ما يشبه خاتم سليمان أو المصباح المسحور. لقد استطاع ولد صغير أن يحيي نيرانا قديمة كانت قد انحسرت عن دفقات وراء دفقات من الجمرات التي تأججت يوما ثم انطمرت تحت طبقات من الإحباط والخذلان. ولد صغير لا يجاوز الثانية عشرة من عمره امتهن الفلاحة يوم التحق بالمدرسة الابتدائية فعاش سنوات طفولته نصف تلميذ ونصف فلاح، مشقق القدمين ، متسخ الجلباب ، أصفر الوجه ، بارز البطن، محملا بالواجبات من كل صنف ولكن القرية تصحو يوما لتفاجأ بأن هذا الولد المحصوص قد حقق إنجازا يفوق الخيال، لقد جاء ترتيبه الأول على شهادة القبول بالمحافظة ، كل المحافظة بمدنها



وقــراها أغنيــائهــا وفقرائها، مسعود ؟ (وهذا اسمه) ابن حلال عليه ؟ (وهذا اسم أبيه)، ابن الخضرا ؟(وذاك هو اسم القرية) على مدى الأيام التالية دارت رؤوس أهل الخضرا تيها بولدهم الممصوص فهذا اسمه يظهر فى أكثر من جريدة، وتلك صورته مع المحافظ - شخصيا - وهو يصافحه ويسلمه شهادة تقدير . إنها من لحظات السعادة النادرة الممزوجة بنشوة الفوز، التى أتيح لأهل الخضرا أن يعاقروها عبر تاريخهم الطويل، لحظات منحهم إياها مسعود حلال عليه، وكعادة أهل الخضرا، لم يفوتوا تلك الفرصة من دون أن تلعب برؤوسهم الأحلام، ولكن الأمر هذه المرة مختلف ، لقد كان تحقيق كل أحلامهم السابقة منوطا برضا شخص ما كبير فى مكان ما بالمدينة الكبيرة، ولم يحدث أن وفقوا أبدا لنيل هذا الرضاء، كانوا يحلمون ويطلبون من الغرباء - الكبراء - أن يحققوا الأحلام لهم، أما هذه



المرة - وحيث دارت الرؤوس بفعل ما أتاه مسعود - فهم يحلمون بأن يخرج كبير من بينهم، الولد - رغم أنه أصغر ممصوص - تفوق على كل أبناء المحافظة ، ورفع رؤوسهم عاليا وهو مازال صبيا لماذا لا يراهنون عليه ؟ وإذا كان أبوه لايقدر على تحمل نفقات تعليمه بالمدينة، فهم يستطيعون أن يتعاونوا على تدبير هذا الأمر ولو من جنيهات الزيتون القليلة. وخلال أقل من عشر سنوات سوف يكون لدى الخضرا ابن متفوق متخرج من الجامعة ، وسيصبح مع الأيام رجلها الذى يحقق لها كل الأحلام، وكما استطاع اليوم أن يحقق هذا التفوق الباهر وهو فى هذه السن الصغيرة ، فلماذا لايستطيع فى الوقت المناسب أن يشق طريقه وسط دنيا الكبراء؟! وقد صبروا كثيرا وطويلا وذاقوا مرارة الحرمان أجيالاً وراء أجيال ، فليصبروا عشر سنوات أخرى. والمهم هو أن تدبر القرية للولد كل احتياجاته لكى يستطيع أن يحافظ على امتيازه وتفوقه حتى تحين اللحظة الموعودة. ولم يهمل الحالمون شيئا من التفاصيل ، فانتووا أن يتخرج مسعود من كلية الحقوق، فهكذا تخيلوا الصورة المثلى لمن سيكون رجلهم القوى الذى سيخترق أجواز النفوذ والسلطان .

مسعود وجد نفسه فجأة محط اهتمام الجميع، والحق أن الولد كان أصيلا ، فعلى الرغم من فرحته الطفولية الطاغية لم يعرف الغرور سبيلاً إلى نفسه ، ولولا تلك الحفاوة التى تعامل بها معه أهل الخضرا لما شعر بأنه فعل شيئا غير عادى بل ربما أنه - على صغر سنه وانعدام خبرته - شعر بأن هذا النجاح يلقى عليه مسئولية جسيمة ويتطلب

منه أن يحافظ عليه بل ويحقق منه المزيد فى سنوات حياته المقبلة. ولم يخيب مسعود رجاء أهل الخضرا ، فاستطاع أن ينهى تعليمه محققاً نجاحا وراء نجاح حتى حصل على ليسانس الحقوق بتفوق. وربما كانت تلك السنوات العشر هى أسعد السنوات فى حياة أهل الخضرا ، حيث راح حلمهم ينمو أمام أعينهم سنة وراء سنة من دون أن تئده العوائق والعثرات. ثم كان قرارهم – ومعهم مسعود – بأن يفتتح مكتبا للمحاماة فى قلب الخضرا حتى يكون فى متناول يدهم ، ولكى يستطيعوا أن يحملوه ما شاءوا من الأمانات ، وحتى يتاح له وهو عائش بينهم أن يلملم فسيفساء أحلامهم التى تبعثرت عبر سنوات طويلة من قلة الشئ وانعدام الظهير. تكفلت جنيهات الزيتون المحدودة باستئجار المكتب وتأثيثه فى غرفة صغيرة متوارية فى شارع فقير. وبدأ مسعود يشق طريقه محققا نجاحات صغيرة لا بأس بها أشعرت الأهل بالثقة والاطمئنان ، فهو يستطيع أن يفرج عن المحتجزين بالمركز، وأن يتصدى لإنجاز معاملات الأهالى مع مكاتب الحكومة بسلاسة وسرعة. كما أنه راح يقيم الدعاوى فى جميع منازعات القرية الأزلية ، ويدبج العرائض فى طلباتها المهملة على مر السنين. ومن جانبهم.. وعلامة كل ما منحوه من ثقتهم وتعضيدهم، تعاهد أهل الخضرا على أن يكون مسعود وكيلهم ومحاميهم الوحيد ، وعلى ألا يلجأوا لغيره فى أى شأن من شئونهم مهما كانت الأحوال .

كانت كل الدلائل تشير إلى أن الخضرا ستقلت هذه المرة بحلمها، وستجنى عما قريب ثمارا ناضجة حلوة تعوضها



عن مرارة الصبر الطويل. وكان أهل القرى المجاورة ينظرون بعجب لا يخلو من حسد إلى ما تحققه الخضرا – وما تعد نفسها بتحقيقه – على يدى ابنها الذى راح صيته يذيع وراحت القصص عن مهارته وبراعته تنتشر يوما بعد يوم . ولم يمنع الحسد أهل هذه القرى من اللجوء إلى مسعود بقضاياهم وشكاواهم . ومسعود لم يكن لديه ما يمنعه من قبول تلك القضايا والشكاوى والتصدى لها، ولا كان لديه ما يمنعه من أن يطلب الأتعاب المناسبة عنها . وذلك على الرغم من أن العلاقة بين الخضرا وجيرانها كانت لا تخلو من العقد الدفينة، فالخضرا هى أكبر القرى فى المنطقة، وهى أقدمها من حيث النشأة ، وفوق هذا فإن أهل الخضرا هم أول من أدخل زراعة الزيتون إلى هذه النواحى، وهم الذين قاموا بعد ذلك بتلقين أسرارها لأهالى القرى الأخرى بحيث علموهم فنون زراعته ورعايته

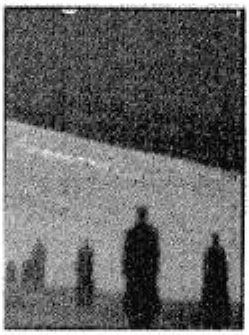
وجنيه وتسويقه . وهكذا – مع مرور السنوات – كان أهالي الخضرا يشعرون بشيء من الامتياز والتفوق يقابله على الناحية الأخرى كثير من الإحساس بالحسد المشوب بعقدة نقص متخفية تحت ستار من إبداء الإعجاب والامتنان..

وفي سنواتنا الأخيرة هذه التي بدأ فيها نجم مسعود يبزغ جاذبا اهتمام القريب والبعيد، كان نجم آخر يطوف ويحوم في سماء المنطقة قبل أن يهبط في قراها قرية وراء أخرى، رجل غريب راح يحط بالقرى ليقنع أهليها بأنه يملك حيلة سحرية يمكنهم لو اتبعوها أن يحيلوا فقرهم ثراء ويؤسهم رغدا، فهو يستطيع أن يحيل ما تنتجه أرضهم من زيتون أخضر يباع لقاء قروش قليلة إلى زيتون أسود يدر الجنيهات بالألوف ، ولن يطلب منهم لنفسه مقابل ذلك سوى نصيب بسيط متفق عليه من ناتج الزيتون الأسود. وهكذا، وجد الناس في القرى المختلفة أنفسهم بين يوم وليلة أمام من يهديهم



الحلم ، ويتكفل في نفس الوقت بتحقيقه . ولم يكذب الرجل الغريب فيما ادعاه ، فما هي إلا أشهر قليلة حتى راحت براميل الزيتون الأسود تتدفق خارجة من القرى في طريقها إلى المركز ثم إلى كل مكان آخر فيه من يملك أن يدفع الثمن، بينما كانت الجنيهات – بالألوف – تتدفق في الاتجاه المضاد. وهكذا عرفت القرى ثراء لم يراودها يوما في الأحلام. وأصبح في مقدور أقلها شأنا أن تحقق في طرفة عين ما يفوق كل ما عاشت الخضرا تقتات عليه دهورا من الأماني العزيزة، فالطرق الحريرية الناعمة والمستشفيات الحديثة المجهزة المكتظة بأمهر الأطباء الوافدين من كل مكان، والمدارس رفيعة المستوى والسيارات من أحدث الطرز، كل هذا أصبح متاحا ميسورا منثورا في كل اتجاه وزاد عليه خطوط الكهرباء ومحطات المياه التي راحت توصل خدماتها إلى كل شارع وكل بيت. وجاء دور الخضرا ، وحط بها الرجل الغريب، وراح يجري تجاربه على زيتونها الذي كان له دائما السبق على زيتون كل القرى المجاورة في جودته ومواصفاته . ولكن الرجل خرج ليعلن لأهل الخضرا أن زيتونهم بالذات لايصلح للاسوداد، وأن كل التجارب التي أجراها عليه أثبتت أنه إما أن يبقى أخضر كما هو أو أن يتحول إلى زيتون أصفر لاخير فيه ولا رجاء .أما أن يكتسب اللون الأسود .. فلا. وهكذا وجدت الخضرا أنه حتى الحلم الذي هبط على الآخرين جاهزا دون أن يكلفوا أنفسهم عناء نسج خيوطه أو تشكيل ملامحه، حتى هذا الحلم عندما طرق أبوابها عاد وارتد موليا ظهره لكن

... لا يهم فالخضرا لديها مسعود، إنه فارسها الذي سيحقق لها كل الأحلام الجديدة بها، الأحلام التي نقشتها المعاناة على صفحة الزمان الطويل، لا الأحلام الجاهزة الخارجة توا من جعبة الغرباء. وسوف يظل مسعود - ابن الخضرا - هو الإنجاز الذي لن يستطيع الآخرون الإتيان بمثله مهما تدفقت البراميل من أرضهم أو تدفقت الأموال إلى خزائنهم، والدليل على ذلك أنهم جميعا لا يجدون من يلجأون إليه عند الشدة سواه، والحقيقة أن أهل القرى المجاورة منذ جرت الفلوس بين أيديهم أكثروا من اللجوء إلى مسعود، قضايا ومنازعات وشيكات وشكاوى وعقود واتفاقات وصفقات. والحقيقة أيضا أنهم لم يكونوا يبخلون على مسعود بما يستحقه من أتعاب. وهكذا تحسنت أحوال مسعود كثيرا، ولعله كان الأول بين أهل الخضرا الذي يستفيد من حالة الثراء التي أصابت القرى المجاورة، وذلك قبل أن يلجأ الكثيرون من أفقر أبناء الخضرا - بعد حين - للعمل باليومية في معامل الزيتون الأسود لقاء أجر يكاد يقيم أود الأولاد. وقد بدت معالم الثراء على مسعود واضحة للعيان، فنقل مكتبه إلى أوسع شارع بالقرية، ثم تطورت أحواله أكثر فافتتح لمكتبه فرعا بالمركز، وقالوا إنه افتتح فرعا بالعاصمة نفسها، وراحت حياة مسعود تعرف مفردات جديدة مازال من العسير على قاموس أهل الخضرا أن يستوعبها بين سطوره، مثل الصوف الإنجليزى والحرير اليابانى والعطر الباريسي والحلي الذهبية المطعمة بالأحجار الثمينة، والعملات الأجنبية ذات الأسماء الغريبة القابعة في



حساباته بالبنوك ولم يعد يتنقل إلا بسيارة سوداء فارهة تكلل جبهتها دائرة من المعدن اللماع تتوسطها نجمة ثلاثية الأطراف.

وأصبح مكتب مسعود متخما بالقضايا. وأصحاب براميل الزيتون الأسود لايقبلون تقصيرا أو إهمالا فى قضاياهم. إنهم يدفعون بسخاء ودون تأخير، وهو لا يستطيع أن يقابل إحسانهم إلا بمثله، فيبذل أقصى ما يستطيع من وقته وجهده وعلمه وخبرته من أجل أن يحصل لهم على حقوقهم ويحقق لهم مطالبهم. وقضايا أهل الخضرا - بدورها - تتراكم في مكتب مسعود عبر السنين والحقيقة أنه لم يتسلمها، ولكن المشكلة أنه كلما حان موعد نظر إحدى هذه القضايا، وجد مسعود نفسه في مأزق يتكرر في كل مرة، فهو لم يجد الوقت الكافي لقراءة القضية ودراسة أوراقها كما ينبغي، وهكذا لا يكون أمامه وقد وقف أمام القاضي إلا أن يطلب التأجيل. ■

البطل الشيوعي فى الرواية المصرية

فتحي غانم - حكاية تو

«حكاية خدمة الغز التى تنتهى دائماً ... بالعلقة»

بقلم
د. فهمى عبد السلام

«يصل الإنسان أحيانا إلى درجة من الانحطاط يعجز عنها الحيوان ، فهل رأيت صرصارا يتلذذ بصفع صرصار آخر على قفاه»

فتحى غانم - حكاية تو ..

(١)

.. يوجد دائما الغز ، ودائما يوجد من يخدمهم ، وفى كل زمان ومكان ، وفى جميع الظروف تنتهى الخدمة دائما بالعلقة ، وحكاية تو للكاتب الراحل الكبير فتحى غانم ، والتى صدرت عن «روايات الهلال» عام ٨٧ ، تحكى قصة واحد من فصيلة لم يتعرض لها كاتب من قبل على هذا النحو من العمق واكتمال الرؤية ودقة الرصد وجماله الفنى ، إنها فصيلة خدم السلطة وجلاديها ، فالبطل الحقيقى للعمل هو اللواء زهدى ، مسئول التعذيب فى سجون الستينيات ، الذي يقدمه لنا فتحى غانم ، ومن خلاله يحكى لنا عن الأهوال التى قد يدفعها ، سجين الرأى فى معتقلات ذلك الزمان .

الرواية الرائعة مكتوبة بضمير الراوي، وهو كاتب وروائي ، لقد ساقته الأقدار في نهاية الستينيات ومطلع السبعينيات إلى أن يتعرف على اللواء زهدى ، فهما عضوان في شلة المعاشات بنادى الارستقراطية بالاسكندرية ، شلة من رجال الدولة الذين ولت أيامهم ، منهم السفير السابق ومدير البنك السابق ، وأبرز أعضاء الشلة في البذاءة وسلاطة اللسان ، هو اللواء المحال إلى التقاعد ، إذ يتلفت حوله ثم يهتف في فرح عظيم .
«النسوان مش موجودين يا ولاد » ، ثم يطلق اللواء زهدى سيلا من الكلمات البذيئة ، ويردد التأوهات الجنسية في تكرار منغم نشوان كأنه المجذوب في حلقة الذكر ، وكل الشلة تعلم أن اللواء زهدى نجم الحلقات الجنسية محال إلى التقاعد ، وأنه يعيش وحيدا في شقته بالأزاريطة ، فقد طلق زهدى زوجته منذ ربع قرن ، وحدث الطلاق بعد شهور من الزواج ، وكانت الزوجة حاملا في وحيده حسن ، ومشكلة زهدى الآن هي إصرار حسن على الهجرة ، فيعابثه أحد أعضاء الشلة قائلا :

« الولد عنده حق يتبرأ منك» .

وقد يتجرأ أحدهم فيقول لزهدى وهما يتبادلان الشتائم

« ومين أدراني أن حسن ابنك ، لقد طلقت أمه وهى حامل» .

واللواء زهدى لا يغضب من هذه الملحوظة الجارحة الحادة ، على العكس ، إذ يمتشق على الفور حسام البذاءة منتشيا طروبا ، ويواجه القائل كيف أنه متأكد من الليلة التى أنجب حسن فيها ، وبالصوت وبالصورة وبالحركة ، إنه رجل مثل صفيحة زبالة تنتظر من يفتحها ،



شهدى عطية بريشة الفنان زهدى - ١٩٥٩





لتخرج البذاءات والسوقية . فاللواء زهدى السلطوى رجل لا يستطيع أن يتعامل مع الآخرين ، أو أن يعبر عن نفسه إلا من خلال تبادل الشتائم والإهانات .

(٢)

واللواء زهدى الشرس الدموى المزاج خفيف الظل كذلك ، وأعضاء الشلة يقولون عنه «اللواء زهدى مصيبة بس دمه خفيف» ويعلمون أن ترمومتر حالة اللواء المزاجية تتحدد بهجرة حسن ، فإذا جاء راضيا مسرورا عرفوا أن زهدى استطاع اقناع حسن بالعدول عن الهجرة ، وإذا جاء مهموما كئيبا عرفوا أن حسن لازال مصرا على الهجرة ، وذات صباح ذهب الراوى مبكرا إلى النادى ، ليجد اللواء زهدى قد جاء مبكرا جدا عن مواعيده ، وكان اللواء مهموما حزينا ، لقد كان عائدا لتوه من الوداع الحزين ، فقد هاجر حسن إلى كندا .

ولكى يسرى الراوى عن اللواء الحزين، يحدثه عن المشترك في مهنتيهما ، رجل الشرطة والروائى ، أن كلاهما عليه أن يسجل أدق الانطباعات عن الناس ، ما ظهر منها وما خفى ، وأن المخابرات البريطانية كانت تستخدم الروائى سومرست موم وغيره من الكتاب كى يكتب لها التقارير . واللواء زهدى الجاهل من العيار الثقيل ، أهتم فى البداية وانتبه ، لكنه لم يفهم شيئا ، فأنىّ لرأس اللواء المحشوة بالبذاءات وبالعدوان ، أن تفهم ذلك ، لكنه لا يرضى أن يظهر بمظهر الجاهل ولكى يؤكد للراوى أنه له هو الآخر فى «اللون» (الكتابة والأدب) ، راح زهدى يتحدث عن مجلدات كتب الأدب العربى القديم التى يملكها ، وكيف أنه اشتراها من مزاد لبيع قصر ثرى لبنانى ، وإذا باللواء زهدى تنتابه فجأة حالة كرم غير مسبوقة ولا معهودة ، إذ يقرر زهدى فجأة أنه سيهدى هذه المكتبة إلى الراوى ، وأنهما سيذهبان إلى شقة زهدى فى الأزاريطة ليعطيه المكتبة ، فأزداد شعور الراوى بالشفقة على اللواء الحزين ، فالمكتبة التى كان زهدى يعدها كى يرثها حسن ، لم يعد لها فائدة ، وأن أريحية زهدى المفاجئة سببها أن زهدى يريد استبقاء الراوى معه لأطول فترة ممكنة ، كى لا يخلو زهدى إلى نفسه وإلى أحزانه، وانطلقا معا إلى عرين اللواء الحزين فى الأزاريطة ما أن دخلا وفى طريقهما إلى

المصعد وأمام شقة مفتوحة الباب كانت تقف امرأة هائلة البدن مصبوغة الشعر تتحدث إلى رجل ليبي ، إنها قوادة الاسكندرية الشهيرة «منيرة بيچو» ، التي ما أن لمحت اللواء زهدي حتى رفعت عقيرتها بالترحيب بصوت متحشرج . وإذا باللواء زهدي يتبدل من حال إلى حال . تحول زهدي من رجل حزين مهدم إلى ذلك المرح السليط اللسان ، توهج اللواء زهدي بالبذاءات المنتقاة وبما لذ وطاب من الشتائم التي راح يقذف بها منيرة بيچو ، فقد وجد زهدي نفسه الضائعة في أحزان حسن وهجرته عندما التقى بالقوادة ، وتركاها واللواء زهدي في حالة إنطلاق كاملة ، وأخذ يثرثر وقد لمعت عيناه بفرح وحشي مبتذل عن تقديره الكامل لهذه المرأة منيرة بيچو ، عن كفاءتها في أن يضاجعها عشرات الرجال ، وعن قدرتها على كسب عشرات الجنيهات في اليوم الواحد ، وأنها أجدع من كل الرجال الذين ليسوا رجالا ، فماذا يملكون كي يتباهوا به ؟! .. هذه الذيول التي تتدلى من بين أفخاذهم ليبولوا منها ؟ .

داخل الشقة أدرك الراوي خطورة الحالة التي سيطرت على اللواء زهدي ، فهو نوع من الرجال الذين إذا ما تدفقوا في الكلام البذيء الممتزج بانفعالات عاطفية ، فلابد أن تبادلهم بذاءة ببذاءة ، وأن تشاركهم هذا الابتذال متخليا عن أي حاجز تفرضه تقاليد أو ثقافة أو تربية أو خجل طبيعي ، فإذا لم تستطع أن تدوس على كل هذا ، وتندمج معه ، فسوف ينقلب ضدك حتما ، ويهاجمك بشراسة ، إنه لا يحتمل أو أن تتخلى عنه في هذا الموقف الذي يتعرى فيه أمامك ، ولن يطيق أن تتفرج عليه أو تتعالى أو تخجل أو حتى ترتبك ، وأدرك الراوي خطورة الموقف ، فرسم ابتسامة ثبتها على وجهه ، وطعمها بتهتهات تكلفها كي ينجو بها من بطش زهدي .

وحينما رأى الراوي المكتبة سبب تلك المغامرة كلها ، ضحك في سره ، فالمكتبة التي كان زهدي يتحدث عنها كما لو كان يتحدث عن أثمن مكتبة في العالم ، لم تكن سوى دولاب صغير حقير ، ظهرت داخله خمسة مجلدات حمراء ، لأجزاء متفرقة من الأغاني وحيوان الجاحظ وصبح الأعشى للقلقشندي وإلى جوارها قبعت مرجعيات اللواء العجيب الحقيقية ، مجلات للصور العارية ، فقال الراوي في محاولة ساذجة لإرضاء زهدي وللإندماج معه مشيرا إلى المجلات :

– هذه المجلات هي المهمة لا كتب الأدب يا چنرال .

فقضم زهدي الطعم بسهولة فقد فرح جدا وصاح منذرا وقد أخذ الكلمات محمل الجد .



– هذه لا أفرط فيها أبدا .. أنا استخدمها .

وأتى بحركة بذيئة .

– ولو مجلة واحدة .

فأخرج زهدى صوتا منكرا وقال – أبدا ولا واحدة .

فقال الراوى مندمجا فى التمثيلية .

– خلاص أمرى إلى الله .. سآخذ هذا الجزء من حيوان الجاحظ .

فنظر زهدى إليه مستريبا وقال – اشمعنى ؟!

– لأن به قصصا عن العلاقات الجنسية بين الحيوانات .

فضاقت عيناه وقال : ولا هذا أيضا .

وعاد زهدى إلى شراسته فقال مزمجرا .

– ولا أى كتاب .. هل صدقت أنى أعطيك شيئا من هذه الكتب .. أنت فاكرنى عبيط .

هذا الجاهل العظيم ، الذى يصدق أن حيوان الجاحظ كتابا عن قصص الجنس عند الحيوانات ، كان المسئول عن سجناء الرأى قبل إحالته إلى التقاعد .

(٣)

.. تعتمد رائعة فتحى غانم على واقعة حقيقية شهيرة فى الأدبيات الماركسية ، حدثت فى مطلع عام ١٩٥٩ ، فى ليلة رأس السنة ، فبينما العالم كله يحتفل بمطلع عام جديد وآمال جديدة ، وصفحة جديدة تشرق فى تاريخ الإنسان ، ألقت السلطة القبض على مئات من الشيوعيين ، وأودعتهم فى المعتقلات ، وعهدت بهم إلى رجال من نوع اللواء زهدى العجيب .

ويحكى الراوى لنا عن ذكريات اللواء زهدى بخصوص تلك الليلة الجهنمية الرهيبة ، كان زهدى آنذاك مديرا للسجن، وكانت التعليمات قد أتت إليه أن يعد العدة لاستقبال عدد من المساجين السياسيين، وكان زهدى فى غاية الضيق من الموعد ، إذ كان مدعوا لقضاء سهرة رأس السنة مع أصدقائه ، وكانوا قد اعتادوا على الاحتفال بتلك المناسبة باحتفال رهيب ، اعتاد زهدى أن يشرب وحده زجاجة جراند ماكنيش ، وأن يسكر سكرة بنى، لكن وصول المساجين أفسد ترتيبات السهرة .

وكان زهدى قد رتب للمساجين ما أسماه «بحفلة الاستقبال» ، وهى حفلة من «النوع الثقيل» على حد تعبير زهدى ، معتمدا على خبير «يعجبك» ، وهو الضابط الحلو التركى الأصل شوكت المعروف بأنه

عــريق في الشــذوذ الجنسي ، فكان شوكت خبيرا بهذا النوع من الحفلات ، وكانت لديه فرقة مدربة من الوحوش ، وينتقل بهم من سجن إلى سجن لإقامة حفلات التعذيب الوحشي . وقبل وصول المساجين جاء شوكت بفرقته ، وأجرى البروفات اللازمة ، من هنا سيدخلون إلى هذا العنبر ، ثم سيهجم عليهم الرجال بالهراوات ، صارخين فيهم كي يتجردوا من ثيابهم ، بلا إبطاء وبلا تأخير . ويجب أن يصبح الواحد منهم ملبوصا ، بعدها يتم دفعهم إلى حوش السجن تحت ضرب الهراوات ، ليمروا بين صفين من رجال شوكت ، ولابد أن تكون الثياب مكومة فوق رؤوسهم ، بذلك يصبح الجسد العاري الملط معرضا للضرب في أي موقع وهو يجري ، حتى يدخلوا واحدا واحدا في عنبر آخر ، فيستقبلهم الحلاق ، فيجلسوا القرفصاء ويحلق شعرهم نمرة واحد ، ومن يحلق شعره يستلم ملابس السجن ، هذه هي الحفلة التي أعدها زهدي لسجناء الرأي ، وبدأت الحفلة بالفعل .

كانت فرقة شوكت قد اصطفت في أماكنها ، وكما في البروفة دخل السجناء إلى العنبر ، وانهالت عليهم الهراوات ، وعلا الصراخ بأمرهم بخلع الملابس ، وخرجوا مهرولين إلى الحوش ، وانطلقت وحوش شوكت يفتكون بالضيوف العراة ، والذي يسقط يركلونه بالأقدام ، ويدفسون بالهراوة في مؤخرته ، والذي تتهشم نظارته فيمشي كالأعمى يواجه الركلات والهراوات ، ومنهم من يبول على نفسه من هول ما يحدث له ، والويل للرجل الطويل العريض ، لابد أن يركع وأن يخضع وأن يجار بأعلى صوته بأنه امرأة ، ويتحول هذا الحشد ممن يقولون عنهم أنهم مثقفون وسياسيون وأبطال ، إلى كومة هشة من اللحم والعظم والدم الذي لا يساوي ثلاثة مليمات .

وحفلة الاستقبال الشنيعة يراها اللواء زهدي ضرورية ولا غنى عنها ، كي يعرف كل من في السجن مكانه ، لولا هذه الحفلة ربما استطاع السجين السياسي التأثير على السجان الجاهل الغلبان ، وربما استطاع السجين المثقف المدرب على الكلام التأثير على صغار الضباط الذين قد يتساءل الواحد منهم عن سبب الاعتقال أو عن جدواه ، وهذا سيؤدي إلى تعاطف ، وربما يصل إلى تعاون ، وربما هروب وكوارث لا أول لها ولا آخر ، فالحفلة واجبة لكسر عين السجين وإذلاله ، فبعدها لن يخشى السجان الجاهل من الأفندي المثقف وقد رآه خاضعا راكعا يجأر بأنه مَرَة ، فالحفلة ولادة جديدة للسجين ، يتعرى كما ولدته أمه ، وكي يفيق على واقعه الجديد كسجين ذليل مكسور العين



بعد الحفلة ، والحفلة لها فائدة أخرى ، هي أن يفهم السجين السياسي الذي اعتاد على نمط معين من التعامل ، شغل المثقفين لا مؤاخذة ، مناقشات وأفكار وآراء ، وتقول له كلمة فيرد عليك الواحد منهم بعشرة ، بعدها سيفهم الواحد منهم أن تحويله إلى كفته مسألة فى منتهى السهولة ، فيصبح طبعا لينا تشكله كما تريد ، فالحفلة مقصود بها إحداث تغيير نفسي كبير للسجين عن طريق الصدمة .

والتغيير بالصدمة مسألة معروفة فى الجامعات الأوروبية والأمريكية ، ولازلنا مع اللواء زهدى فى فلسفة التعذيب ، فحينما يدخل الطلاب الجدد لأول مرة ، يهجم عليهم كبار الطلاب بالضرب والإهانات والبهدلة وبتكليفهم بأعمال مهينة ، كل هذا كى يفيق الطلاب الصغار القادمون من أحضان أمهاتهم ، فيتخلصون من طفولتهم الكامنة ويتحولوا إلى رجال ، ويتجاهل اللواء زهدى ، الفارق الهائل فى تغيير بالصدمة يتحول خلالها صغار الطلاب إلى رجال ، وصدمة زهدى وشوكت التى تحول الرجال إلى كوم لحم ودم وعظام لا يساوى ثلاثة مليمات .

(٤)

الأجساد العارية تنهض وتسقط تحت ضربات العصى ، ثم تنهض لاهثة ينهشها الفزع ، وكانت الحفلة فى ذروتها ، وفى حوش السجن تتردد معزوفة دموية من الأنين والصراخ وصوت ارتطام الهراوات بالعظام ، ولهاث الضاربين والمضروبين فى موسيقى حارة دافقة ، وشوكت يتمايل طربا وزهدى بدأ يشعر بالملل إذ كان يشعر بالشبع وبأنه حصل على كفايته ، وراح ينظر فى ساعته بين لحظة وأخرى ، ويفكر فى إنهاء الحفل كى يلحق بأصحابه فى المعادى ليشرب كأسين حان موعدهم ليتم الانسجام ويكتمل المزاج ، ويعترف أن الحفل الذى رآه حرك غرائزه ، فراودته رغبة جامحة فى أن يفاجىء أصحابه فى المعادى وهم سكارى ، فيطيح بهم كما يشاء ، وأن يمرح معهم فيصفع كل واحد منهم على قفاه ..

وبينما كانت تلك الأفكار تدور فى عقل زهدى إذا به يلاحظ أن هناك سجينا ربع القامة متقدم فى العمر يقف فى الحوش مرتديا ثيابه وكأن لاشئ يحدث ، وعندما التقت عينا زهدى بعينى الرجل العجيب ، لم يلمح زهدى أدنى خوف أو قلق فى

عيني هذا المخبول ، إنه لا يدرك ماذا يمكن أن يحدث له من تحديه العجيب للهراوات والأوامر الهادرة وهو الأعزل أمام هذه القوة الدموية الرهيبة ، كان زهدي يشفق أن يرى شوكت ذلك المجنون ، فلو رآه شوكت فلن تمر الليلة على خير ، وحدث ما كان زهدي يخشاه ، إذ قبيل انتهاء الحفل ، وزهدي يطلب من شوكت الانتهاء ، وشوكت يتلذذ من العرض الباهر الذي يقوم وحوشه بتقديمه ، إذا بشوكت يرى ذلك الرجل العجيب وينتبه له، ومن نظرة شوكت إلى الرجل ، أدرك زهدي أن ذلك الرجل قد مات بالفعل .

وتقدم شوكت ناحية الرجل ، واقترب منه وراح يتفرس فيه والمسافة بينهما شبرين والعين في العين ، وعينا الرجل لا تهتز ولا ترمش ، وتوقفت وحوش شوكت عن «عجن» المساجين بالهراوات ، وساد صمت ثقيل في حوش السجن ، وزهدي مزعزع المشاعر بين الخوف من عواقب الصدام ، وبين متعة التشفي والانتقام من هذا المخبول الذي تحدى هيبتهم ، وراح شوكت يتعوج ويتثني وهو يقول للرجل اسمك إيه يا حلوه ؟ .. ردي علي علشان أحمر لك خدودك .. أنا حا أزوقك وأحطلك البودرة والأحمر والرجل لا يرد ولا يهتز ولا يرمش . إن شوكت يعيش بفكرة ثابتة يقيم عليها حياته ، أنه مخلوق في هذه الدنيا وكل مهمته هي القضاء على ذلك الوهم الذي اسمه رجولة ، فالرجولة نكتة يخدع بها الناس أنفسهم ، وكل الذين يتعاملون مع شوكت كانوا يخشون شراسته اللا نهائية ، فهم يستخدمونه كما يستخدم أصحاب السيرك حيوانا شاذا مفترسا ، يقدمون له الطعام والرعاية ويستعرضون شراسته ويخشونها في نفس الوقت ويحترسون منها ، فثارة الداخلية لا ترتوي ولا تهدأ إلا بعد أن يهدر رجولة من يتصورون أنفسهم رجالا .

والواقعة حقيقية ، قتل خلالها المناضل شهدي عطية الشافعي ، وخيال الروائي الكبير جعلت من القاتل المتوحش لابد أن يكون شاذا جنسيا ، وطلب شوكت من الرجل بصوت صارخ .

- قول أنا مرة

وجعل يردد الطلب صارخا ، وانهال على الرجل بالصفعات والركلات والرجل وكأنه لا يشعر ، فاندفع وحوش شوكت ، وأنهالت الضربات وهراوة ترتفع وهراوة تهبط ، وثلاثة هراوات وعشرة تهبط وتطلع وتضرب وتضرب وتضرب . وأصوات الارتطام والدم ينبثق وينثال ، واستمر الضرب لفترة طويلة والرجل صامد ، ثم سقط على ركبتيه ، وظلوا يضربون ، حتى اقترب منه أحدهم ، وصرخ قائلا :

الراجل خلص ..



(٥)

.. أن يموت أحدهم أثناء التعذيب هذه مشكلة ليست بالهينة أمام المسئولين ، ويصر زهدى على الراوى أن يتتبع تفكيره، فاللواء زهدى فى قرارة نفسه لا يشعر بأدنى ذنب فى قتل مسجون سياسى ، لماذا ؟! وجهة نظر زهدى العجيب تتلخص فى أن العقلية الألمانية صاحبة الامتياز الهائل فى الدقة والتنظيم والانضباط لم تجد وسيلة لاخضاع المعتقلين أفضل من حرقهم فى الأفران ، ولكن للأسف لا يملك زهدى أن يحرق المعتقلين فكان لابد أن يتصرف بسرعة ، أن يصرف المعتقلين فورا إلى العنابر ، وأن يصيح بأعلى صوته كى يحملوا السجين إلى الزنزانة بسرعة ، وأن يطلب بصوت مرتفع جدا الاسراع بطلب الطبيب لمعالجة السجين ، ثم يحمى نفسه ، كيف ؟! بإجراء تحقيق ، طبيب شرعى جميل ، يكتب تقريرا جميلا إن السجين مات ، وسبب الوفاة ؟! أزمة قلبية انتابته بدون سبب ، فالسلطة - الغُزّ - لا يريدون «الشوشرة» ، والسلطة تعلم أن زهدى وشوكت قتلا الرجل من أجل تأكيد سلطتها ، ورؤساء زهدى لا يريدون مواقف محرجة ، وحدوث الوفاة دليل على عدم الخبرة بفنون الضرب (..) ، وعدم الخبرة هذا هو أخطر الاتهامات فى نظر زهدى ، أما الاتهامات التى من نوع خرق القانون واستعمال القسوة ، فتلك شكليات لا تعنى زهدى ولا تعنى الرؤساء ، فكل ما يعنيه فى المقام الأول هو «الحرفنة» كما يقول ، ومقياسها بالنسبة لزهدى كما فهمها ، أن تضرب من تشاء وتفتك بمن تشاء وتسوم من تشاء كل ألوان العذاب ، وأن تصل به فعلا إلى حافة الموت ، لكن دون أن يموت ، ودون أن تترك فى جسده آثارا فاضحة ، وهذا هو الفن ، وهذا هو مقياس الخبرة والكفاءة ، أما من حديث عن حقوق للسجين والمعاملة الإنسانية والقانون فكلام ساذج لا يصدقه إلا السذج ولا يعترف به أحد فى أى سجن من سجون العالم .

ويسأل زهدى فى انفعال :

.. هل تصدق أنهم يعاملون المساجين فى أمريكا معاملة إنسانية .. ثم يطلق زهدى شخيرا من أنفه ثم يسأل .

- هل يحدث هذا فى روسيا ثم يطلق شخيرا أطول .

ثم يسأل :

- هل يحدث هذا فى نيام نيام ؟ ثم

يطلق شخيرا غريبا .

ويختم زهدى شرحه المسهب عن فلسفة التعذيب متحدثا عن المعتقل (..) الذى أعده ربنا سبحانه وتعالى للكافرين المذنبين ، هل وعدهم بالمعاملة الإنسانية ؟ هل قرأت وصف ما يلاقونه من عذاب والأسياخ المحمية والثعبان الأقرع والنيران التى ستشويهم ، إذن لماذا نخدع أنفسنا ونقول أن المساجين يعاملون معاملة إنسانية .. هذا فى تقدير زهدى بك كلام ساذج ، وكل ما هو مطلوب هو أن تكون المعاملة بفن وبحكمة ، فالمطلوب هو أن تعذب لا أن تقتل ، تماما مثلما يحدث فى الجحيم ، فهمت يا أستاذ .. لعلك تكون قد استفدت حتى تكفوا عن كتابة كلام أهبل عن المعاملة الإنسانية للمساجين..

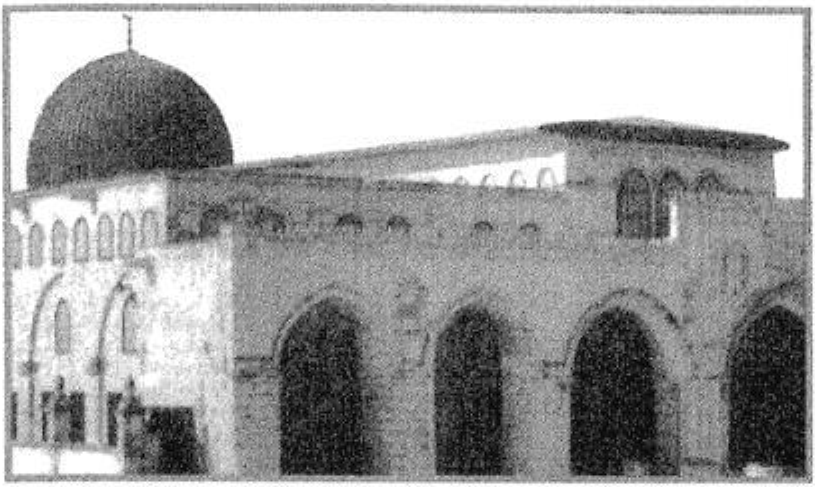
(٦)

.. لم يفهم فتحى غانم أن نرى الدنيا أناس من هذه العينة العجيبة من البشر ، ويتساءل فى الرواية الفاتنة ، «علمنى زهدى أنه إذا كان للإنسان تلك الآفاق السامية الرحيبة من الكرامة وعزة النفس والمثل العليا ، وهى آفاق لا يستطيع حيوان آخر غير الإنسان أن يصل إليها ، فإن الإنسان أيضا عنده استعداد للهبوط إلى هوة سحيقة من الانحطاط والسفالة والحقارة ، يعجز الحيوان ، بل تعجز الحشرة الدنيئة عن التردى فيها ، فلا أظن أن صرصارا يتلذذ بضرب صرصار آخر على قفاه ، ففى نفوسنا نحن البشر طاقات من الخير والشر ، والنبل والسفالة والسمو والحقارة ، بحيث أصبحت حياتنا فى كل لحظة ، مسرحا لمعارك لا تنتهى بين النقيض ونقيضه سواء كانت تلك المعارك من حولنا ، أو داخل نفوسنا ، على كل حال ، لم يأت الوقت لكى أرثى فيه البشر ..

●●●

لقد قدم فتحى غانم فى حكاية تورثاء حزينا لانحطاط الإنسان عند زهدى ، الذى عوقب لتفانيه فى تأكيد هيبة السلطة بالفصل من الخدمة وإحالته على المعاش ، والذى لم يستطع أن يفهم كيف أخرجت السلطة نفسها المساجين الذين قام زهدى بتعذيبهم ، كى يحتلوا المناصب بعد خروجهم ، وأن يفصلوا رجلهم لمجرد خطأ فنى لا أكثر .

فى مرثية فتحى غانم الرائعة لإنسان مصر المتأرجح بين انحطاط زهدى ، ونبالة الشيوعى الذى مات منتصبا كى لا يقول أنا مرة، فالرواية تحية عظيمة لذلك البطل الذى بموته أكد معنى الحياة تحية كذلك لمن قال «لا» فى وجه من قالوا «نعم» ، وظلت روحه العبقرية الألم ، ملهمة للأجيال. ■



عظيم ثقيف

شعر
سليم الرافعى
لبنان

أتـــأذن لى (حمص) فـأوقظ (خـالـدا)
أتسمعنى (حـمص) اذا جئت قـاصدا؟

أقــول لــه : يـافاتح الشرق.. ما الذى
ضـواك عـن الفتح المـؤزَّر قـائدا؟

وهــل غُيِّبَتْ عنها (ثقيف) فلم تَلِدْ
سـواك.. وغشَّى الصمتُ تـلـك الفدافدا؟

ومــن نطفـة مهموسـة مـن سلالـة
أتيت بطـيـف العبقريـة حـاشدا؟

أم اخـتـارك الـشرق المبارك سيفـه
لـديـن هـو التاريخ ينبض راشـدا؟

عـظيـم (ثـقيـف) أنت فى الـدهـر كـلـه
عـظيـم.. وبالاسلام تـعلـو مجاهدا

عـظيـم (ثـقيـف) أنت فـى (الـقـدس) شعلة
وأجمل نـور الـفتـح مـا كـان واعـدا

يُحدثني وادي (ثقيف) ونزلة
ومورد ماء أن سترجع واردا
لتدفع عنا «الروم» يا خالد الخطى
وهل غير (سيف الله) يبرق راعدا ؟
إرادة رب يملأ الكون نوره
ويهدي جموع المؤمنين الشواردا
بكل جلال الروح رفرفت فوقنا
كنسر سماوات تحدّر ماردا
فمن يجمع الإسلام تحت لوائه
إذا لم يقم بالروح يبني القواعدا؟
وليست حضارات الشعوب كنائساً
وليست حضارات الشعوب مساجدا
ولكنها حُريِّة ونبُوّة
بغيرهما ما مجّد الشرقُ ماجدا
عشقناهما ياخالد الفتح من دم
جرى في بطاح (القادسية) خالدا
وفي ساحة (البرموك) رقرق آية
من النور تجتاح الخصيم المعاندا
حميت النصارى واليهود ولم تضق
بدين إذا لبّى وصلّى وعاهدا

***

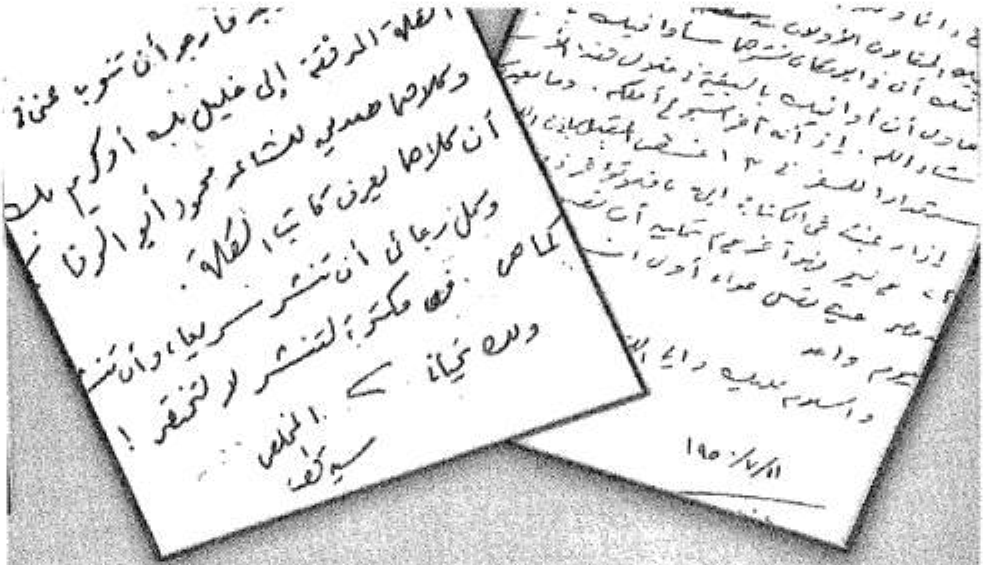
عظيم (ثقيف) عد إلى الأرض واسقني
سماء.. وقدّسني اذا جئت وافدا
فإني إلى (حمص) أهرول راكعاً
وإني إلى (حمص) أشمّر ساجدا
ألست حروف الخلد واسمك جنة
حبيبي أعدني رابط الجأش راغدا
آفر من العصر الذي يزعمونه
لألقاك سيف الله أبيض واحدا



سبعة خطابات من سيد قطب إلى وديع فلسطين

بقلم
صافى ناز كاظم

أتصور إننى أملك كنزا غاليا أهداه إلىّ الأستاذ وديع فلسطين، الكاتب الكبير والصديق العزيز وصداقتى بالأستاذ وديع فلسطين (المولود فى ١/١٠/١٩٢٣) من نتائج سعيى الدءوب والحاحى المخلص، كما عبرت عن ذلك بالتفصيل فى أول مقال أكتبه عنه وتم نشره بمجلتنا هذه العريقة - الهلال - تحت عنوان «وديع فلسطين: السهل الممتنع» العدد الصادر فى أكتوبر ١٩٩٧. وحين يحصل الإنسان على صداقة وديع فلسطين، فإنه يكون بذلك قد توصل إلى ملاذ ثقافى وأدبى وفنى يتدفق بالخير والعطاء.



وفي ١١ يناير ٢٠٠٠، فاجأنا الأستاذ وديع بمقال عذب جميل عن الشهيد سيد قطب نشره بجريدة الحياة اللندنية يرد، بطريقة غير مباشرة، غيبة الأديب والناقد العلامة سيد قطب الذي أصبح الخوض في سيرته والافتراء والافتئات عليه هواية من هوايات بعض الأقلام التي تعرف وتنكر أو لا تعرف وتدّعي المعرفة نهايته. حين ظهر مقال الأستاذ وديع فلسطين وذكر به مراسلاته مع الأستاذ سيد قطب، إبان زيارته إلى الولايات المتحدة، تاقت نفسي إلى الإطلاع على هذه المراسلات، ولكنني خجلت من طلب ذلك مقتدية بالمثل القائل «إن كان حبيبك عسل لا تأكله كله»، وقلت «إن كان الأستاذ وديع معطاء فلا تستغلي كرمه»، حتى تهيأت المناسبة، بمشيئة الله، في سياق ثقافي وذكر لي الأستاذ وديع فلسطين أنه لا يزال يحتفظ – من بين ذخائر مكتبته وحافظات أوراقه – على سبعة خطابات من الأستاذ سيد قطب. لقفت كلامه وبتوسل – لم أكن محتاجة إلى تشديده الشدة التي هددتها – قلت: «.. هل .. هل .. ممكن .. ممكن إذا .. لم .... لم .. أبص بصة على خط سيد قطب .. لأنني عمري ما شفته؟». وبأريحية النفس التي لا تعرف البخل أو الشح قال بهدوء «طبعا ممكن» قلت: «كيف؟». قال «أصورها لك، ولو إن خطها قد بهت بفعل مرور نصف قرن كامل على كتابتها، ولأنه كان يستخدم ورق الرسائل البريدية ذات



سيد قطب



وديع فلسطين



اللون الأزرق و...» دفعتني اللهفة «يا أستاذ وديع كل اللي تجيبه زين هو أنا طايلة !» وضحكت متعجبة من الدقة المتناهية التي تلازم الأستاذ وديع فلسطين حتى في فرصة أمامه متاحة ليمن بها علي. سألته بعد أن تلقيت منه الرسائل السبع المصورة عن الأصل: «لماذا لا تنشرها يا أستاذ وديع وتكتب عنها؟».

قال في زهد : «لا أرى أهمية لذلك». يا نهار أبيض؟ لا أهمية في ذلك؟ بلعت ريقي وقلت: «طيب .. طيب.. ممكن .. ممكن.. أنا ..» ضحك: «أنت حرة» خلاص: أنا حرة!.

***

الأهمية التي رأيتها في الخطابات، فوق أنها من الشهيد سيد قطب المولود في ١٩٠٦/١٠/٩ إلى الأديب وديع فلسطين، هي في شكل العلاقة الجميلة التي نشأت بين أستاذنا في الرابعة والأربعين في سمت شهرته وعطائه الفكري والثقافي والأدبي وبين ناقد شاب لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره، ولغة المخاطبة الندية الودود التي تبث الهم الثقافي والعلمي وتشاركه. هذه مراسلة نقف على طرف واحد منها، لكنها تخبرنا عن الرقي الذي يتمتع به الطرفان، وتجعلنا نلمس الغور الإنساني الدمث، الذي كان جوهر شخصية الشهيد سيد قطب، والذي يجعلنا لا نصدق عنه أيا من افتراءات العنف وسائر التهم والبهتان الذي لاحقه ويلاحقه. ولاشك أن هذه الخطابات كما سيتبين القارئ قصيرة، وعفو الخاطر، وتدخل في إطار : «كيف حالك.. سلامات»، لكنها ببعدها الزمني وبنبضها الخاطف لا تخلو من دلالات مفيدة للكافة.

***

الرسالة الأولى:
١٩٥٠/١/٢٢

«أخي الأستاذ وديع

تحياتي إليك، وبعد ، فعلى رغم معرفتي بمشاغلك أرغب إليك في أن تكتب إلي وأن تكون على اتصال بي ما استطعت. فأنا هنا في وحشة نفسية وفكرية على الرغم من كل الصحف الأمريكاني حولي.

الأمريكي ذو عقل طالما هو في المعمل أو المصنع أو حجرة الدرس فإذا خرج عن «الشغل» فهو عامي حتى ولو كان أستاذا في الجامعة. لا يجيد إلا التهريج والحديث التافه، وإذا لم تتحدث عن مباريات الكرة والأفلام الجديدة والبنات ! فلن تجد موضوعا آخر للحديث يشاركك فيه المجتمعون!.

كيف تمضي الحياة عندكم. وماذا عندك من أخبار عن الأدب والتأليف وشئون الفكر بوجه عام؟

وكيف تسير الأحوال السياسية والاجتماعية والصحفية عندكم، وماذا عن الأحكام العرفية والرقابة (طبعا في حدود الرقابة!).

هل تقابل الأستاذ فؤاد صروف؟ ماذا

يعمل الآن ؟ أرجو أن تبلغه تحياتى وكذلك كريم بك إن كنت تلقاه. وتحياتى إليك ومودتى.

المخلص

سيد قطب»

***

الرسالة الثانية

مكتوبة على ورق فندق روزفلت، شارع جونز وإدى، سان فرانسيسكو.

« سان فرانسيسكو ١٥/٣/١٩٥٠

أخى الأستاذ وديع

أشكرك كل الشكر على ماجشمت نفسك من عناء فى إرسال أعداد مجلة الأديب وشيخ الصحافة ومنبر الشرق. ولقد أسديت إلى فضلا كبيرا. ولكنى لا أود أن تحمل نفسك أكثر مما صنعت حتى اليوم. وحسبى أن ترسل إلىّ فى الحين بعد الحين رسالة تحدثنى فيها عن نفسك ونشاطك وعن المهم من الأحداث والأشياء.

ولقد سرنى أن أعلم نبأ اختيارك أستاذا لصياغة الأنباء الصحفية بالدراسات العليا بالجامعة الأمريكية مما يدل على أن الجهد الصادق لابد أن يجد تقديرا فى النهاية.

من أعداد الأديب التى أرسلتها إلىّ علمت أن هذه المجلة المهمة فى الحقل الأدبى لا تزال تعانى من ركود فى سوق الأدب وقلة تشجيع الهيئات والحكومات.

وددت لو كنت على شئ من السعة لأجيب تلك الدعوة - ومع ذلك سأحاول ما فى جهدى - وإنك لتعرف أننى جاهدت لتقرير أكثر من مائة اشتراك لها فى وزارة المعارف المصرية ونجحت حينما كان عملى هناك فى «تشجيع التأليف» ولست أدرى الآن ما صنع الله بهذه الإدارة، ولا نصيب التأليف من التشجيع. وأرجو أن أوفق إلى عمل شئ عندما أعود.

أرجو - إذا تيسر لك - أن تبلغ تحياتى للأستاذ الكبير فؤاد صروف وتحياتى إليك وتمنياتى.

المخلص

سيد قطب

عنوانى الدائم هو مكتب البعثات بوشنطون».

***

الرسالة الثالثة

٢/٤/١٩٥٠

«أخى الأستاذ وديع

وصلتنى رسالتك مفضوضة - كما توقعت - يبدو أن إخواننا فى الرقابة يردون على كلمتك عن الرقابة ! على أية حال ليست الرقابة وحدها هى كل ما فى مصر من ألغاز وأعاجيب!

لدى سلسلة مقالات ربما نشرتها فى الأهرام تباعا بعنوان: «ألغاز محيرة فى حياتنا المصرية» من بينها محطة الإذاعة التى أشرت إليها فى رسالتك.

سألتنى عن موعد عودتى لقد كنت معتزما العودة فى مايو القادم فأنا لا أعمل لدراسة معينة - فالشهادات لا تهمنى فى حياتى. إنها ميسورة كل اليسر فى أمريكا.

ولكنى أرى الدراسة الحرة فى مثل سنى وموقفى أجدى نفعا.

غير أن برنامج زياراتى للمدارس والجامعات الأمريكية قد يستغرق شهرين آخرين بعد مايو فتكون عودتى - إن شاء الله - فى يوليو.



بهذه المناسبة إن لدى مشروعا عن سلسلة محاضرات عامة عن «كيف نعيد إنشاء أداتنا الثقافية» أعنى وزارة المعارف وملحقاتها على ضوء تجاربى ومشاهداتى هنا مضافا إليها معلوماتى عن الوزارة ومدارسها بحكم عملى فيها.

ولعله يكون من المناسب إذن أن تكون قاعة يورت الأمريكية هى مكان هذه المحاضرات، التى قد تتراوح بين ٦ – ٨ . ولكنى لا أعرف من المسئول عن تنظيم المحاضرات هناك فإذا رأيت أن تبحث لى هذه النقطة، على أن ينظم موسم خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر ينظم ٨ أيام موزعة أسبوعيا أو مرتين فى الأسبوع، كنت لك شاكرا .

وستتناول أحاديثى إعادة تنظيم وزارة المعارف. اختصاص المناطق والدوائر السياسية. طرق وضع المناهج وتأليف الكتب المدرسية. علاقة الأداة التعليمية بعالم التأليف والصحافة الإذاعة المدرسية والعامة. وفى انتظار ردك .

لك تحياتى

المخلص

سيد قطب»

***

الرسالة الرابعة:

«أخى الأستاذ وديع

تحياتى إليك وشكرى المتكرر على رسائلك ومجلاتك وجرائدك! وبعد فأحب أن تطمئن الأستاذ حنا رزق بعد إبلاغه تحياتى وشكرى على أننى لن أتخذ الهجوم على وزارة المعارف وسيلة للإصلاح، فإننى أنوى أن أدعو الدكتور طه حسين بك لحضور المحاضرة الأولى على الأقل، ولن يناسب إذن أن أهاجم ، بل سيكون النقد التوجيهى – هو الطريق.

إذا لم يكن يثقل هذا على وقتك فارجو أن تضمن رسائلك إلىّ بعض الأنباء الهامة عن المشروعات الإنشائية التى تبحثها الحكومة أو التى انتهت من إقرارها، فإننى أحتاج إليها أحيانا فى بعض محاضراتى فى الأوساط الأمريكية للتعريف بحاضر مصر الذى لا يعرفون عنه شيئا يذكر.

كذلك أود أن أعرف شيئا تفصيليا عن نسبة الغلاء الحاضر وعن الرقابة وهل أصبحت فى صلب القانون العام، وعن الترقيات الاستثنائية وموقف البرلمان منها وهل أقر القانون الخاص بها. لا لاذاعة هذه القضائم هنا، بل لاكون على اتصال شخصى بما يجرى فى مصر!

ثم لا تنس أن تحدثنى عن نشاطك الادبى أولا بأول فإننى لا أحب أن تأكل الصحافة كل وقتك على كل حال.

ولك تحياتى وتمنياتى

المخلص

سيد قطب»

١٩٥٠/٥/١٤

***

الرسالة الخامسة:

«أخى الأستاذ وديع

شكرا لك على تلك البيانات الثمينة التى بعثت بها إلىّ إن عدم انتظام وصول

الصحف والأخبار المصرية إليّ يشعرني بعزلة عن بلدي. ومهما يكن في الأخبار التي تصل إليّ من سوء فإنها مفيدة لي، لأنها تقفني على ما يجب أن يعمل لإزالة هذا السوء. لست يائسا من مستقبل هذا البلد أيا كانت العقبات التي في الطريق. لقد استيقظنا ولن ننام مرة أخرى وإذا كنا نتخبط، فقد يزيد هذا التخبط يقظتنا، لأن الصدمات كثيرا ما تنبه الغافلين.

لقد كنت قد قلت لك: إنني أعتزم نشر سلسلة من المقالات في الأهرام بعنوان: «ألغاز محيرة في حياتنا المصرية» وأرسلت إليه المقال الأول بالفعل، ولكني عدلت عن نشرها متباعدة فأرسلت إليهم ألا ينشروا ذلك المقال.

ما رأيك لو كتبت لك أربع مقالات أو خمسة مسلسلة تحت ذلك العنوان، عن: «كهربة خزان أسوان» و«كهربة خط حلوان»، و«محطة الإذاعة»، و«المركزية»، و«الوسائل الحديثة للخدمات العامة» على أن تنشر في «المقطم» متتابعة بقدر الإمكان، بحيث لا تبعد المسافة بين الواحدة والأخرى، لأن موضوعاتها مترابطة، ولو كانت تحت عنوانات مختلفة؟

***

الآن أستطيع أن أحدد موعد عودتي، فستكون إن شاء الله على الباخرة الخديو اسماعيل التي تبحر من نيويورك في يوم ٢ أغسطس القادم فتصل الإسكندرية حوالي يوم ١٩ أو ٢٠ منه.

ولما كانت الصحف التي تتفضل بارسالها إليّ تستغرق بين ٤٠ و ٤٥ يوما، فإني أحب أن أوفر عليك موالاة إرسالها بعد ١٥ مايو الحالي لأنها لن تصل إليّ بعد هذا التاريخ. ولن أستطيع أن أفيك من الشكر على هذه الخدمة الأخوية القيمة التي قمت لي بها بإرسال هذه الصحف مدة طويلة.

كنت قد كتبت إلى الأستاذ فؤاد صروف على عنوان الأهرام، ولكنني لم أتلق منه ردا، فهل هو غائب، أم أن عنوانه قد تغير؟ إنني أكن لهذا الرجل قدرا كبيرا من الود والاحترام.

***

كذلك أرسلت إلى الأديب في بيروت مجموعة خواطر تحت عنوان «أضواء من بعيد» أحسبها وصلت إليه الآن أو ستصل قبل وصول هذا إليك أرجو أن تحتفظ لي بنسخ من العدد الذي تنشر فيه.

ولك تحياتي ومودتي
١٩٥٠/٦/٩

المخلص
سيد قطب»

***

الرسالة السادسة

«أخي الأستاذ وديع

شكرا لك على كل ما صنعت وما تصنع لي في غيبتي إنني سأظل أذكر ذلك دائما ولن أنساه.

إليك المقالان الأولان من «ألغاز محيرة» وحين أعرف منك أن في الإمكان نشرهما سأوافيك بالبقية بل سأحاول أن أوافيك بالبقية في خلال هذا الأسبوع إن شاء الله، إذ أنه آخر أسبوع أملكه وما بعده سيكون استعدادا للسفر في ٢ أغسطس المقبل بإذن الله.

إذا رغبت في الكتابة إليّ، فلا تؤخر ذلك عن يوم ٢٣ يوليو فهو آخر يوم يمكن



أن تصل إليَّ الرسائل من مصر حيث تصل حوالي أول أغسطس قبل سفري بيوم واحد.

والسلام عليك وإلى اللقاء

المخلص

سيد قطب

١٩٥٠/٧/١١

عنواني هو هو ».

***

الرسالة السابعة

«أخي الأستاذ وديع

تحياتي الخالصة إليك وصلتني آخر رسائلك وفيها قصاصتا الصباح ومنبر الشرق. ولعلك وجدت المقال الثاني من الألغاز فقد كان مع المقال الأول في ظرف واحد ولعل هذا هو الذي جعل الأمر يشتبه عليك.

لقد قررت أن أعود بالطائرة بدل الباخرة توفيرا لصحتي من عناء البحر. ثم لكي أتمكن من زيارة لندن وباريس وجنيف وروما في طريقي وقضاء ثلاثة أيام في كل منها للاجتماع ببعض المشتغلين بالتعليم والتربية في هذه البلاد ومحادثتهم في المسائل التعليمية فتكون فرصة - ولو قصيرة - لإعادة خبرة عن نظم التعليم في تلك البلاد بالإضافة إلى أمريكا التي درست نظام التعليم فيها .

وسأغادر نيويورك إن شاء الله يوم ٧ أغسطس لأصل مطار فاروق الجوى في الساعة ٧.٤٥ صباح يوم ٢٠ منه. فإذا رأيت أن شيئا من هذا البرنامج يستحق أن تشير إليه في المقطم قرب يوم الوصول فافعل. وما أريد هذه الإشارة لشخصي، ولكن لدي أفكارا واقتراحات وبرامج أريد لها النفاذ في مصر للخير العام ومثل هذه الإشارات قد يساعد على تقبل هذه البرامج في دوائرنا الرسمية التي لا تقيس القيم إلا بظواهرها.

لك تحياتي الخالصة وإلى اللقاء.

المخلص سيد قطب

١٩٥٠/٧/٢٨»

***

وبالإضافة إلى تلك الرسائل المرسلة من أمريكا كان الأستاذ سيد قطب قد ترك قبل مغادرته مصر، رسالة غير مؤرخة، ولعلها كانت في نهاية عام ١٩٤٩، وجدها الأستاذ وديع فلسطين على مكتبه بجريدة المقطم تقول

«أخي الأستاذ وديع

صباح الخير وبعد فأرجو أن تنوب عني في تقديم الكلمة المرفقة إلى خليل بك أو كريم بك وكلاهما صديق للشاعر محمود أبو الوفا كما أن كلاهما يعرف كاتب الكلمة.

وكل رجائي أن تنشر سريعا ، وأن تنشر كما هي، فهي مكتوبة لتنشر لا لتختصر!

ولك تحياتي

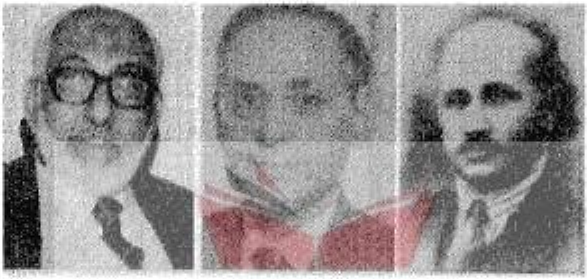
المخلص

سيد قطب»

والواضح أن «الكلمة» كانت استغاثة لرفع الظلم والألم عن الشاعر محمود أبو الوفا الذي أسماه الأستاذ وديع فلسطين في مقال له «الشاعر البائس». ■



ذكريات



د. عبد السلام ذهني بك - د. عبد الهادي محبوبة - محمود شاكر

بقلم
وديع فلسطين

يغفل المؤرخون أحيانا أدواراً مهمة اضطلع بها أفراد ذوو همة لتأكيد الأصالة الوطنية والاستمساك بالقيم الأصيلة للمجتمع . وهم أفراد لم يعرفوا معنى الصمت ، بل جاهروا برأيهم وثبتوا على مبدئهم وأبوا إلا أن يسجلوا صفحة فخار فى تاريخ أمتهم ، حتى ولو نسيتهم الأجيال التالية .

ومن هؤلاء الرواد الأفذاذ الدكتور عبد السلام ذهنى بك القاضى والمستشار الوطنى الذين سجل للقضاء المصرى ولنفسه صفحة بيضاء تستأهل كل تقدير وإجلال .

وخواطر



د. محمود الطناحي — سيد إبراهيم — د. عبد السلام هارون

وقد سعيت إلى معرفة هذا الرجل فى عام ١٩٤٨ بعدما عرفت أنه يقضى سحابة يومه فى مكتبة بشارع عبد العزيز يملكها صديق له . وكان الناقد الأدبى سيد قطب قد أوعز إلىّ بكتابة مقال عنوانه «اللغة العربية تصارع» أروى فيه المراحل التى مرت بها لغة الضاد حتى صارت لغة المدارس ولغة الدواوين ولغة القضاء ، فاستقبلنى الدكتور عبد السلام بك - وهو قصير القامة مكتنز دبت بواكير الشيخوخة فى جسمه - بغير قليل من الحذر والريبة ، ولم أستغرب منه هذا التصرف لأنه بوصفه قاضياً لم يألف التحدث عن عمله ، ولا سيما لأنه يواجه صحفياً لا يعرفه ولا يدرك حقيقة مقاصده .

فقلت له حدثنى عن عملك فى إعلاء شأن الضاد فى المحاكم المختلطة التى أنشئت فى مصر فى عام ١٨٧٥ وألغيت بعد ذلك فى ١٤ أكتوبر ١٩٤٩ بعد إقرار إلغائها فى مؤتمر عقد فى مدينة مونتريه فى عام ١٩٣٧ .

فقال : إن هذا المحاكم أنشئت

بعد مفاوضات أجراها نوبار باشا مع الدول الأجنبية صاحبة الامتيازات في مصر ، وكانت تشكل من قضاة مصريين وأجانب . ومنحت هذه المحاكم من اختصاصات المحاكم المختلطة حق النظر في القضايا المدنية والتجارية والجنائية التي يكون أطرافها من الأجانب وحدهم أو من الأجانب والمصريين . ونص في اللائحة الرسمية للمحاكم المختلطة على استخدام اللغة العربية بوصفها لغة رسمية إلى جانب اللغتين الفرنسية والإيطالية . ولكن جرت عادة المحاكم على الاستئثار باللغة الفرنسية لغة موحدة في مخاطباتها وفي الأحكام التي تصدرها وأغفلت غيرها من اللغات .

واستطرد الدكتور عبد السلام ذهني بك فقال إن سفينة المحاكم المختلطة درجت على اتباع هذا الأسلوب في قضائها إلى أن حل شهر فبراير ١٩٢٤ عندما صدر قرار بتعييني مستشاراً في هذه المحاكم ، وعز عليّ أن أرى لغة بلادي تهدر ويضرب عنها صفحاً ، فقررت أن أحيي النص الميت من اللائحة الرسمية للمحاكم ، وهو أن للغة العربية حقاً يتساوى مع اللغتين الفرنسية والإيطالية في مباشرة القضايا المختلفة . وانتهزت فرصة كتابة أول حكم لي وقمت بكتابته باللغة العربية وقدمته بعد ذلك إلى رئيس الدائرة البلجيكي ليمضيه ، فبهت القاضي . واستعاذ بالله ، وقال إن مجد المحاكم المختلطة يؤذن بالأفول ، وإن نجمها في طريقه إلى الخبو .

ويقول الدكتور المستشار عبد السلام ذهني بك إن هذه الحادثة كان لها صدى مدو حمل الأجانب من قضاة المحكمة إلى اتخاذ موقف إجماعي يحول دون مضي المستشار المصري في الطريق الذي اختطه .

وعند إلغاء الامتيازات الأجنبية التي كان يحتمي بها الأجانب المقيمون في مصر من مساطتهم أمام القانون المصري ، أصبحت للمحاكم المصرية وحدها ولاية على جميع المقيمين في مصر من مصريين وأجانب باستثناء رجال السلك الدبلوماسي المعتمدين في مصر والذين يتمتعون بحصانة دبلوماسية .

أفليس من المخجل ألا يعرف أبناء هذا الجيل رجلاً له قامة المستشار الدكتور عبد السلام ذهني بك الذي انتصر للغة الضاد مدفوعاً بحسه الوطني العارم .

الدكتور عبد الهادي محبوبة

يعرف القراء الشاعرة العراقية الكبيرة نازك الملائكة - أسبغ الله عليها نعمة الشفاء - فقد ذاعت شهرتها وكادت تغطي على شهرة زوجها الدكتور عبد الهادي محمد رضا محبوبة الأستاذ الجامعي المرموق وصاحب المؤلفات الأكاديمية الرصينة وأحدثها كتابه عن «نظام الملك الحسن بن علي الطوسي ٤٠٨ - ٤٨٥ هـ) وهو كبير الوزراء في الأمة الإسلامية .

وقد فجعت نازك الملائكة في وفاة زوجها ووالد ابنهما الوحيد براق في الثامن من سبتمبر الماضي ، وتم تشييعه في جنازة متواضعة إلى مثواه في مقابر القاهرة .

والدكتور محبوبة نال تعليمه العالي في مصر وكان أساتذته في جامعة فؤاد الأول الدكتور طه حسين والدكتور أحمد أمين والدكتور عبد الوهاب عزام وغيرهم من فحول الأساتذة . ومن مصر نال درجتي الماجستير والدكتوراه.

وعند عودته إلى العراق أسس جامعة البصرة وكان مديرها الأول ، وقرت عيناه بتخريج الفوج الأول منها في عام ١٩٦٤ . كما أصدر مجلة أكاديمية لجامعة البصرة ورأس تحريرها .

وهو من الأعضاء المؤسسين لاتحاد الكتاب والمؤلفين العراقيين ، كما أنه هو الذي أطلق اسم المربد على المهرجان السنوي للأدب والشعر الذي يقام في بغداد وحرر مجلة «المربد» .

والدكتور محبوبة من مواليد عام ١٩١٩ وقضى الأعوام الأخيرة من عمره مع أسرته الصغيرة في القاهرة، مغالباً أمراضه ، دون أن تحول بينه وبين المشاركة في الندوات الأدبية التي تقام في القاهرة .

ولئن كتمت الشاعرة نازك الملائكة أحزانها وأبت أن تساير الناس في نشر المناعي في الصحف محتفظة بمشاعرها لنفسها ، إلا أن طاقتها الشعرية لم تقو على الكتمان ، فطالعتنا بقصيدة من عيون الشعر بعنوان «أنا وحدي» ختمتها بقولها :

كان قلبي متعباً يسكنه حزن فظيع
رقصت فيه ، وشدته إلى الجرح ، دموع
صور في عمقه يصبغ مرآها النجيع
كان .. لكن يدا مرت عليه
حملت بعض تحاياها إليه
باركت آلامه السوداء ، كانت يد طفل
أي طفل ، لم يكن في الليل غيري، غير ظلي

الملثم وغير الملثم

أما الملثم فهو الأديب الأردني يعقوب العودات (١٩١٠ - ١٩٧١) الذي كان يكني نفسه بـ «البدوي الملثم» ، وأما غير الملثم فهو الأديب الشاعر محمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ - ١٩٨٥) ، وقد أكرمني ربي فكنت صديقاً لكليهما ، وهي صداقة نعمنا فيها بأوفى المودات ، وازدانت بغير قليل من المداعبات والمفاكهات ، وهذه عينة منها :

وقد مر علينا زمن - لا أعاده الله - لم نكن نجد فيه من أصناف الشاي في السوق إلا «شاي التموين» ، وهو تراب الشاي وقد خلط «بفيتامينات» قيل إنها برادة الحديد ونشارة الخشب. فكنا نطلب من أصدقائنا القادمين من الخارج ألا ينسونا بنصيب من الشاي الأصلي ذي النكهة «غير الترابية» [١] وفطن أخونا البدوي الملثم إلى مدى تلهفنا على الحصول على الشاي المعتبر ،

وانتهز فرصة سفر صديق له إلى القاهرة ، وحمله علبتين فاخرتين من الشاي ، واحدة لمحمد عبد الغني حسن والثانية لي . أما أنا فقد بعثت إلى الملثم برسالة شكرته فيها وقلت ما معناه «إنني إذ أثني على مروءتك وكرمك ، أستشهد بالآية الكريمة : «لئن شكرتم لأزيدنكم» ، عسى أن تستهدي بها !

أما أخونا غير الملثم عبد الغني حسن ، فلم يكد يتسلم علبته حتى فاضت قريحته الشعرية بأبيات وجهها إلى صديقه الملثم قال فيها :

وصلت هديتك اللطيفة يا أخي
فعرفت فيها فضلك السباقا
لم تكف أوراق البيان ، فجئتنا
بالشاي تبعثه لنا أوراقا !
طابت كخلقك في المحافل نكهة
وحلت لطبعك في النفوس مذاقا
والذوق ليس عليك شيئاً طارئاً
إني عرفتك ناقداً ذواقا
فيم اعتذارك من ضآلة «كلها»
و«الكيف» أرحب ساحة ونطاقا ؟
لا غرو إن وصلت إلىّ هزيلة
من فرط ما حملتها الأشواق !

فجاوبه البدوي الملثم بقوله :

نسيمات شعرك هيجت أشواقا
فغدا سحاب مدامعي دفاقا
أمذكري نفحات ود خالص
مازال بين جوانحي خفاقا ؟
حملت رسالتك الشذية عطره
فاستنشقته جوارحي استنشاقا
لا بعد ما بيني وبينك والهوى
ساق ، ونحن بكأسه نتساقى
ونجوب آفاق الحياة بسحره
فإذا انطوى أفق ، جلا آفاق
لك يا عبد الغني دعابة
أهدت لنا الراووق والترياقا
من فيض شعرك ، وهو بحر زاخر
مازلت فيه الأوحد السباقا !

وعندما قرأ عبد الغني حسن هذه الأبيات قال لي : ألم تلاحظ أن صديقنا البدوي الملثم تهرب من أي وعد بتكرار هداياه من الشاي ؟

محمد أبو الفضل إبراهيم

كلما مررت ببيت جاري محقق التراث الراحل محمد أبو الفضل ابراهيم (١٩٠٥ - ١٩٨١) الذي حقق عشرات من كتب التراث يقع بعضها في ٢٠ جزءاً مثل «تاريخ الطبري» ، ينتابني شعوران أولهما أن هذا العالم الكبير عاش ومات دون أن يكون موضوع تكريم من أي جهة ، فجوائز الدولة ليس بينها ما ينصرف إلى تحقيق كتب التراث ، والمجامع لها معاييرها الخاصة في اختيار أعضائها ولا معقب عليها ، ومجتمعات الثقافة تدور حول نفسها فيتقارض بعضها الثناء مع البعض الآخر في «شلته» ، والصحف - حتى الأدبية منها - مشغولة بالظواهر الغريبة أو الصارخة ، وليس لها أدنى اهتمام بتحقيق التراث .

أما الشعور الثاني فهو اعتقادي من متابعة أوضاعنا الثقافية أن صناعة تحقيق التراث قد انقرضت أو كادت بعد رحيل آخر أعلامها : أبي الفضل وعبد السلام هارون (١٩٠٩ - ١٩٨٨) ومحمود محمد شاكر (١٩٠٩ - ١٩٩٧) ومحمود الطناحي

(١٩٣٥ - ١٩٩٩) ، و هي «صناعة ثقيلة» لم يعد يحسنها في مصر إلا نفر قليل ، وإن كان لها في العالم العربي عدد غير قليل من المشتغلين بها .

ويسوقني حديث «الانقراض» إلى صناعتين عربيتين أخريين كاد يدركهما ناموس الانقراض ، أولاهما صناعة الخط العربي ، وقد عرفت من أعلامها سيد ابراهيم (١٨٩٧ - ١٩٩٤) ونجيب هواويني ، وهناك أعلام آخرون لم تهيىء الى الظروف معرفتهم منهم محمد كاظم ومحمد حسني (والد الفنانة سعاد حسني) . فقد دخل الكمبيوتر صناعة الخط وأفسدها ، ولم تعد المدارس تهتم بالخط ، ولا أدري ما مصير مدرسة تحسين الخطوط التي كان خريجوها ينتشرون في دور الصحف ودور النشر والمطابع ، حتى القصر الملكي في العصر الذي يسمونه بالبائد البغيض ، كان فيه خطاط يكتب براءات الألقاب والرتب والمحررات الصادرة عن القصر ، وقد ابتدع هذا الخطاط وقتها ما كان يعرف بحروف التاج ، وهي محاكاة للحروف التي تعرف في اللغة الانجليزية باسم Cop-tital letters .

ولو سئل اليوم طالب الجامعة أو حتى المثقفون عن الفرق بين خط النسخ وخط الرقعة والخط الفارسي والخط الكوفي وغيرها من فنون الخط، فلا أظنهم يدركون شيئاً من هذه الألغاز !

أما الصناعة الثانية التي يهددها الانقراض - إن لم تكن قد انقرضت فعلا - فهي الشعر ، الذي كانوا يعرفونه بأنه ديوان العرب . فقد تعرض الشعر الأصيل في العقود الأخيرة لهجمات شرسة من أسباب التشويه والإفساد تسمت بأسماء منكرة منها «شعر التفعيلة» ، والشعر الحر ، والشعر الطلق ، وقصيدة النثر ، والشعر العامي ، وكلها تصب في اتجاه واحد ، هو تدمير البنية الأساسية للشعر ، وإخلاء الجو لهذه «التقاليع» التي تتمسح بالشعر بعدما أنكرته . وقد ساعد على انتشار هذه «الموضات» الجديدة قول القائلين إن الشاعر الإنجليزي ت . س. إليوت يسير على هذا النهج وأن النقاد الغربيين يتقبلون هذه المذاهب الشعرية بحفاوة . ومع كثرة الهيئات التي ترصد للشعراء جوائز مالية سخية ، فإن هذا التيار الجارف قد ازداد ضراوة وكاد يحتكر صفحاتنا الأدبية باعتباره النموذج الشعري الوحيد ، حتى نسي الناس الشعر الموزون المقفى ولم يعودوا يتذوقونه . وحتى الناشرون باتوا يتطيرون من دواوين الشعراء ، ولا يقبلون نشرها ولا حتى إعادة نشر دواوين كبار الشعراء الغابرين . بل إن الدولة نفسها صارت تتبنى هذه الاتجاهات المحسوبة ظلماً على الشعر ، وآية ذلك تخصيص عدد كامل من مجلة «فصول» الحكومية لما يسمى «الأفق الأدونيسي» ، وكذلك منح جائزة الشعر لمؤلفي الأغاني والطقاطيق !

فواضيعة الأدب العربي إذا ما انقرضت فيه صناعات التحقيق والخط والشعر . ■

إنكار الذات أهم ما تعلمته من قريتي

عبد العزيز حمودة

الجذور :

تمتد جذوري في قرية مصرية تبعد عن أقرب مركز حضري مسافة خمسة كيلومترات فوق طريق زراعي طيني يتلوى مجاورا لترعة صغيرة ارتبطت بها أنشطة القرية الحياتية ، كما ارتبطت بها مراحل نموي المختلفة : حين كان يتصايح أهل القرية ، بعد موسم جفاف طويل : المية جات ، وكنا ساعتها ونحن صبية صغار نتدافع إلى خارج القرية إلى أن نصل إلى النقطة التي وصلها المياه ونصحبها في سعادة ، وكثير من الإحساس بالسحر ، حتى تدخل نطاق القرية وتمر بها ثم تتخطاها .



وحين كانت تحل شهور الصيف الطويلة ، وتتوقف الدراسة ، فأحتمي بسنارتي البدائية من الوحدة والفراغ أجلس الساعات في صبر علني أرزق شيئا . وحينما كانت تحمل إلينا أيضا ، مع كل الخير ، بعض جثث القتلى تطفو فوق مياهها وقد تورمت وانتفخت فيسارع الفلاحون إلي دفعها بعيدا عن الشاطىء حتي تمضي في طريقها إلي



عبد العزيز حمودة في حديث باسم مع د. أحمد هيكل ود. سمير سرحان

قرية لاحقة ، تماما كما فعلت قري أخرى ولابد قبل قريتنا حتى لايجد البعض أنفسهم فى «س» و«ج» لبضعة أيام . وحينما أخرج في ساعات النهار المبكرة ، قبل الفجر ، بعد ليلة سهر طويلة مع دروسى قبل الامتحانات لأجلس مغلقا بكل السحر الذى تولده أفرع أشجار الصفصاف وقد تدلت فى مياه الترعة العتيقة .كنت أشكو لشجرة الصفصاف ومياه الترعة المتقلبة بين الطوفان والجفاف لواعج قلبى المحب ، أشكو لها هموم حبى الأول الطفولى بكل براءته وأفلاطونيته والذى قضيت سنوات وسنوات دون أن أبوح لمحبوبتى به ، ذلك النوع من الحب الرومانسى المبكر الذى ساهم فى تكوين شخصيتى وحولنى إلى رومانسى ميئوس منه !!

وقبل ذلك الحب الطفولى الرومانسى ، بل قبل أى شىء كانت هناك الأسرة . أهم مؤثر فى تكوين شخصيتى ، حيث تعلمت وتلقيت كل الحب الرائع والألم النبيل . ولدت لأسرة كبيرة العدد ، فقد كنت الطفل قبل الأخير بين سبعة إخوة وأخوات . ولكن تلك الأسرة الصغيرة أو الأسرة «النواة» ، كما يقول علماء الاجتماع ، لم تكن أسرتى الوحيدة . فقد نشأت داخل بيت كبير - بيت كان من الكبر بحيث أننى ظللت لسنوات طويلة أخشى «عفاريت» السرداب المظلم الذى يربط بين جناحى البيت المزدوج . تحت سقف ذلك البيت اجتمعت أكثر من أسرة نواة كان يقوم برعاية شئونها كبير الأسرة .

الترابط الأسرى فى القرية

وكان ذلك أروع ما تعلمته وفتحت عينى عليه فى تلك الفترة المبكرة وهو الترابط الأسرى الذى افتقدته بشكل قوى منذ أن غادرت القرية . كان أفراد الأسرة/ الأسر يعملون بالتجارة والزراعة فى نفس الوقت ويشرف عليهم جميعا «عم» أو «أخ» أكبر . وحينما يتوفى كبير الأسرة يرث المهنة

التكوين

المزدوجة عضو آخر ، عم أو شقيق ، ويرث أيضا مع مسئولياته خير الأسرة وديونها فى آن . وحيث أن العمل الرئيسى بين المهنتين لأسرتنا كان التجارة ، تجارة القطن على وجه التحديد ، فقد عاشت الأسر الصغيرة والأسرة الكبيرة كل تقلبات التجارة ، مما كان يعنى أن يشهد جيل ما ازدهاراً اقتصاديا بينما يشهد جيل آخر فترة انكسار وتراجع اقتصادى . وفترة التراجع الاقتصادى هى الفترة التى جئت فيها إلى هذا العالم . كان عمى قد توفى وترك التجارة ، بديون غير قليلة إلى شقيقه الأكبر ، وهو والدى . وشاهدت عن قرب ، فى سنواتى المبكرة ، قصة كفاح أبى لرعاية الأسرة وتسديد ديونها فى نفس الوقت . وقد غرز فى أعضاء أسرتى إيمانا راسخا بأن والدى قتلته الديون التى ورثها ، إذ توفى مبكرا ، تحت الخامسة والأربعين ، قبل أن يكمل سداد الديون . وهكذا انتقل كل شىء إلى أكتاف أخى الأكبر الذى تحمل المسئولية المركبة عن أسرته النواة والأسرة الكبيرة وهو فى سن الثانية عشرة

إننى هنا لا أتحدث عن الألم ، بل عن أروع مافى الأسرة الريفية فى ريف مصر وهو إنكار الذات والترابط والتضحية ، والكثير ، الكثير جداً من الحب . وكما هو متوقع ، عشت كل تقلبات التجارة فى سنوات وعيى المبكر ، وتفتحت عيناى على أخبار بورصة القطن حينما كانت تلك الأخبار تحمل لنا جميعا سنوات ازدهار كان يترجم إلى شراء «نقل» رمضان من مكسرات بالجوال ، وسنوات أخرى



كان «العرقسوس» هو شرابنا الوحيد فوق طبلية الإفطار . لكن الشقيق الأكبر اليافع السن والأخضر العود لم يشك ذات يوم . وصمم أن يكمل معى المشوار الذى كان قد بدأه أبى ، وهو مشوار التعليم حتى نهايته ، بعد أن تركنى أبى وأنا فوق السابعة بقليل .

إلى نيويورك

لابد أن الرحلة من تلك القرية التى تخطئها العين فوق علامة طريق فى منتصف الطريق الزراعى بين القاهرة والاسكندرية والتى يحلو لى أن أصفها بأنها قرية «على شمال السماء» إلى نيويورك تبدو للكثيرين ، كما تبدو لى بالقطع ، طويلة ، ومن كتاب الشيخ ولوح الأردواز وحصير القاعة الداكنة إلى مكتبات وأروقة جامعة كورنيل ، إحدى أكبر عشر جامعات فى أمريكا مستحيلة . لكنها اليوم ، وأنا أسترجع خطى الرحلة الرائعة لم تكن مستحيلة . طويلة نعم ، مستحيلة ، لا . فلا شىء ، كما يقول الملك لير فى رائعة شكسبير ، يأتى من لاشىء» .

أيام الطفولة والصبا :

كان أبى رحمه الله ، لا أعرف لماذا ، قد توسم فى النجابة ، وكان مصمما على أن أكمل أنا بالذات رحلة العلم حتى نهايتها ، خاصة أن أشقائى الثلاثة الأكبر سنا ، لم يكملوا سوى تعلم القراءة والكتابة والحساب فى كتاب القرية ثم المدرسة الإلزامية . وقد اكتفى أخى الأصغر فيما بعد بنفس القدر من التعليم . وحينما وافته المنية مبكرا أصر شقيقى الأكبر الذى تحمل العبء كاملا فى فدائية وإنكار للذات أن يحقق حلم أبى . وهكذا بعد أن حفظت بعض سور من القرآن الكريم وأكملت

التعليم الإلزامى فى مدرسة القرية أصر على أن أتقدم بأوراقى إلى المدرسة الإبتدائية فى كفر الزيات ، ومن الطبيعي ، بعد سنوات الكتاب والمدرسة الابتدائية ، أن يكون سني كبيرا بعض الشيء .

وهكذا بدأت الدراسة الابتدائية وقد قاربت العاشرة من عمرى . وكان ذلك فى عام الكوليرا عام ١٩٤٧ ، وفى فترة التراجع الاقتصادى فى أحوال الأسرة .

وربما كانت هذه الظروف مجتمعة دوافعى الأساسية للتفوق فى الدراسة بالإضافة إلى رغبتى فى تأكيد ذاتى وإثبات إننى كنت أستحق كل تضحيات الأسرة من أجلي : تكاليف الطربوش والبدلة القصيرة والكتب والكراسات «والحمارة» التى كانت تستخدم «ركوبة» لتوصيلى إلى المدرسة صباح كل يوم وقرش الصاغ مصروفى اليومى . وتفوقت بالفعل إلى الحد الذى دفعنى إلى البكاء بحرقة شديدة حينما تراجعت فى أحد الاختبارات الدورية (الفترة) عن مكانة الأول التى اعتدتها إلى مكانة الرابع لأننى ارتكبت خطأ بسيطا فى اختبار الحساب فنقلت رقما من خطوة بطريق الخطأ ، مثل ١٤٧ حينما ينقل خطأ فى الخطوة التالية ١٧٤ ، وأعطانى مدرس الحساب صفرا على الإجابة . ونحن نعرف اليوم أنه مادامت خطوات حل المسألة الحسابية صحيحة فيمكن معاقبة التلميذ بإنقاص درجته وليس باعطائه صفرا عند ارتكاب خطأ من النوع الذى ارتكبته أنا فى ذلك الماضى البعيد !!

ومرة أخرى ، لاشيء يأتى من لاشيء لقد كانت الرحلة بمعنييها المادى والمعنوى شاقة . فى أيام الشتاء كنت أتقوقع فوق «الركوبة» وخلفى ابن عمى وقد تغطينا «بحرام» من الصوف الثقيل لنبدأ رحلة الساعة إلى كفر الزيات ، وفى أحيان كثيرة ، وبعد رحلة طويلة فى برد الشتاء كنت حينما أنزل عن ظهر الدابة لا أقدر على الحركة بعد أن تجمدت ساقاى ، مما كان يجعل ابن عمى يدفعنى بيده دفعا حتى أتحرك . أما فى أيام المطر فقد كان الأمر أشد قسوة . كانت السماء حينما تمطر يتحول الطريق الزراعى إلى خمسة كيلومترات من الطين والوحل لبضعة أيام مما يجعل استخدام الركوبة صباحا أو حركة الأتوبيس عصرا أمرا مستحيلا فى تلك الأيام كانت أمى رحمها الله تتوسل إلى ألا أذهب إلى المدرسة ، ولكننى كنت أبكى وأصر على الذهاب إلى المدرسة . وفى أحيان كثيرة كنت أصل إلى المدرسة أو أعود منها وقد امتلأت فردتا الحذاء بمياه المطر الذى وصل إليهما من ملابسى المبللة !! لكن ذلك لم يكن يمنعنى من الجلوس أمام الطبلية الصغيرة فى المساء لأذاكر دروسى فى ضوء مصباح الكيروسين الصغير (لبة نمرة خمسة) !!

وتحولت أيضا فى هذه السن المبكرة ، بين العاشرة والرابعة عشرة إلى خطيب المدرسة الأسبوعى ، فقد كنت ألقى على الطلاب خطبة الصباح كل يوم سبت ، وتدرجت من الخطب المكتوبة والمنقولة إلى الخطب المحفوظة ثم إلى الخطب المرتجلة وهكذا وجدتنى ذات يوم خطيب القرية أثناء الحملة الانتخابية الحزبية قبل ثورة ١٩٥٢ ، وكان ذلك عام ١٩٥٠ كنت خطيب المرشح الوفدى : صبى صغير يقف فى جلبابه أو بيجامته وسط حشود الفلاحين يلهب حماسهم بعربية فصحى يسحرهم وقعها أكثر مما يسحرهم معناها !! . واستمر تفوقى الدراسى إلى أن حصلت على

التكوين

الشهادة الابتدائية القديمة عام ١٩٥١، ثم الإعدادية (فى مرحلتها الانتقالية كانت الدراسة عامين فقط) عام ١٩٥٣ ، ثم الثانوية العامة عام ١٩٥٦ . وهبطت على القاهرة لأول مرة لأتقدم بأوراقى إلى مكتب التنسيق فى يوليو ١٩٥٦ ، فى بداية سنوات الوهج القومى الرائعات .

ب - بداية الوعى :

وعى الإنسان بالشىء لايحدث بين يوم وليلة ، وما يعنينى هنا هو وعيى السياسى . ورغم إننى لم أنشغل بالسياسة ولم أشتغل بها فى أى يوم من الأيام إلا أن الغريب أن وعيى السياسى بدأ مبكرا بعد أن تكاتفت بعض الظروف الخاصة على تشكيله ، أبرزها ولاشك أننى عشت فترة التحولات السياسية الكبرى فى مصر والعالم العربى ، شاهدت عن بعد بمعنى وعن قرب بمعنى آخر ضياع فلسطين بين عامى ١٩٤٨ و١٩٤٩ ، وشاركت فى المظاهرات الطلابية التى حركها الحدث الجلل ، وشاركت أيضا فى مظاهرات الابتهاج بعودة أبطال الفالوجا بعد فك الحصار عنهم . وعشت سنوات الغليان السياسى التى سبقت ثورة يوليو من تكاثر الأقاويل حول فساد النظام الملكى والملك ، ثم إلغاء معاهدة ١٩٣٦ فى أكتوبر ١٩٥١ ثم مقاومة الفدائيين للاحتلال الانجليزى فى منطقة القناة والتى وصلت إلى ذروتها بالهجوم الانجليزى العنيف على مقر الشرطة فى الإسماعيلية ، ثم ماتبع ذلك من حريق القاهرة وإقالة وزارة النحاس الوفدية ، وتعاقب أربع أو خمس وزارات على مصر بين يناير ويوليو ١٩٥٢.



يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، صباح الثورة ، لم أكن قد بلغت الخامسة عشرة بعد . لكن الثورة ، فى وعيى المبكر بضرورة التغيير ، جاءت تعبيراً عن الحلم الذى انتظرناه طويلا . لم يكن التليفزيون قد دخل حياتنا بعد ، وهكذا كان الراديو وسيلتنا للاتصال بالأحداث خارج نطاق قريتنا التى تقع «على شمال السما» . كانت عائلتنا من بين ثلاث عائلات تمتلك جهازا للراديو فى القرية كلها . وهكذا كنا نجلس فوق المصطبة الطينية أمام بيتنا نتابع أخبار الثورة وبياناتها يقرأها جلال معوض حتى ساعة متأخرة من الليل ، فيهتز كيانى كله إلى درجة البكاء . وبكيت من الفرح وأنا أستمع إلى وصف ساعة خروج الملك من الإسكندرية فى ساعة متأخرة من عصر ٢٦ يوليو . وعشت إنجازات الثورة ، وعشت أيضا خلافات قيادتها إلى أن جاء يوم تأميم قناة السويس بعد أربع سنوات ، فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ، ويومها كنت عائدا من القاهرة بعد أن تقدمت بأوراقى إلى مكتب التنسيق . كنا نعيش الوهج القومى فى أجمل ساعاته وأيامه . وكان تأميم القناة هو رد ناصر على عمليات التشكيك فى مصر الثورة وقدرة اقتصادها على تحمل تكاليف بناء السد العالى ، وهو التشكيك الذى قاده فى الغرب وزير خارجية أمريكا فى ذلك الوقت «جون فوستر دالاس» لكن تشكيل الوعى لم يقتصر على الواقع السياسى . لقد كان وعيى الأدبى يتشكل منذ سنوات . كانت أيام العطلة الصيفية فى القرية طويلة مملة . وتشاء الصدفة المحضة أن يتوفر لى من داخل القرية من يساعدنى فى ذلك . كان بالقرية شخصية غريبة مثيرة للعجب

والإعجاب ، سليمان الطحان ، ميكانيكي أو مسئول «وابور الطحين» في القرية ، كان كنزاً اغترفت منه أثناء عطلات الصيف الطويلة ، فقد كان ذلك الرجل البسيط يحتفظ في مكتبته الخاصة بجميع روايات جرجي زيدان والمنفلوطي ومعظم كتابات العقاد وطه حسين . وهكذا كان يعيرني رواية لجرجي زيدان مثلاً فالتهمها في ليلتين على أكثر تقدير لأستبدلها بأخرى ، وهكذا خلال عامين أو ثلاثة لم يعد لدى ذلك الرجل اللغز مايعيرني إياه . كانت النتيجة أن موضوعات الإنشاء التي كنت أكتبها كل أسبوع أصبحت هي النماذج التي أقرأها على طلاب الفصل ، والتي تعرض على «مفتش» اللغة العربية الذي يضيف إلى تعليقات المدرس تعليقات أكثر تشجيعاً . وكلما كبرت اتسعت دائرة إطلاعي بالطبع ، واتسعت معها دائرة حساسيتي الأدبية الخاصة . في البداية كان مدرس اللغة العربية الذي انتقل معي من المرحلة الإعدادية إلى المرحلة الثانوية يقول إنني أكتب كما يكتب المنفلوطي أو طه حسين في مرحلة لاحقة . ولم لا ، فقد قرأت «النظرات» و«العبرات» في شغف ، وقرأت «ماجدولين» أكثر من مرة وأنا أختنق بعبراتي أثناء كل قراءة . وكان مدرس اللغة العربية الرائع يؤكد في ثقة أنني أحفظ «النظرات» و«العبرات» عن ظهر قلب وهذا مالم أفعله !! .

جـ - الصدمة الثقافية

«الصدمة الثقافية» مصطلح يطلق على الحالة التي تنشأ عند انتقال إنسان من واقع ثقافي إلى واقع ثقافي مختلف - وأنا أستخدم مصطلح الثقافة هنا بمعناه العلمي الدقيق وهو «طريقة حياة» قد يكون الواقع الثقافي الجديد أكثر تعقيدا لكنه أيضا قد يكون أقل تعقيدا وأكثر بساطة . في كلتا الحالين يفرض الانتقال من ثقافة إلى ثقافة أخرى آليات جديدة للتكيف . وقدرة الإنسان على تطوير آليات التكيف هي محك صلابته . فالفشل في التكيف يعني رفض الثقافة الجديدة والتقوقع داخل الثقافة الأولى وهو مايسمى بعدم الاتزان . أما الاتزان فهو القدرة على التعامل مع الثقافة الجديدة . وفي أحيان كثيرة قد تكون الثقافة الجديدة من الإبهار بحيث تحقق عند الشخص نوعا آخر من عدم الاتزان . فيما يتعلق بي فقد مررت بصدمتين ثقافيتين أساسيتين - مع بعض التوابع الفرعية والحتمية - خرجت منهما دون أن أفقد توازني ، والحمد لله ، سواء بالتقوقع والهروب أو الانبهار وفقدان الهوية .

د - الصدمة الأولى :

التحقت بقسم اللغة الانجليزية وبدأت الدراسة (أكتوبر ١٩٥٦) بعد سنوات قليلة من تعريبه ، أي بعد خروج الأساتذة الانجليز من مصر . وهكذا حمل العبء في تلك السنوات المبكرة أستاذان فقط ، هما رشاد رشدي ويسن العيوطي ومجموعة من الشباب الحاصلين على الماجستير أذكر منهم سعد جمال وداود حلمي وحلمي أبوالفتوح وفايز اسكندر وأنجيل بطرس وشكري مصطفى وفخري قسطندي ، وبعد قليل انضم إلى هؤلاء مجموعة أخرى من الحاصلين على الدكتوراه هم أمين روفائيل ومجدي وهبة وفاطمة موسى وشوقي السكري لكن المرحلة الجديدة كانت صدمتي الثقافية العنيفة الأولى . لن أتوقف هنا عند الحياة في القاهرة وتجربة

التكوين

الطواف في شوارع الجيزة وحواريها كل شهرين أو كل عام بحثا عن سكن مع مجموعة من الزملاء ، أو حياة الاختلاط الجديدة على تماما . لكنني سوف أتوقف عند أهمية التجربة علميا وثقافيا . لكن قبل تلك الوقفة الأساسية لنا وقفة مع الوعي السياسي .

بعد بداية الدراسة بأسابيع قليلة ، وفي حوالي السادسة من مساء ٢٩ أكتوبر ، على ما أذكر ، وكنا قد انتهينا من درس مسائي وتجمعنا حول «المعيدة» في حوار تقليدي انطلقت صفارة الإنذار بغارة جوية من فوق المكتبة المواجهة لقسم اللغة الانجليزية . كانت تلك بداية العدوان الثلاثي على مصر ، بعد أن أثبتت الشهور السابقة منذ تأميم القناة أن «إيدن» و«موليه» لم يكونا جادين في التوصل إلى تسوية حقيقية مع ناصر ، بل كانا مصممين على إذلاله ووأد العفريت الجديد، عفريت القومية العربية ، قبل أن يخرج من قمقمه عملاقا مهددا بنهاية عهد الاستعمار التقليدي . وحينما فشل العدوان الثلاثي بعد المقاومة المصرية الرائعة وبعد الإنذار الروسي الذي وجهه بولجانين وغضبة إيزنهاور الذي اعتبر حدوث العدوان دون علمه إحراجا سياسيا له وهو يخوض إنتخابات الفترة الثانية ، خرج العملاق من القمقم وانحسر الاستعمار القديم أمام الدعوة الفتية للوحدة العربية التي وصلت إلى ذروتها بالوحدة بين مصر وسوريا في فبراير ١٩٥٨ . بعد تلك الذروة بدأت فترة الانكسار ، فكما حدث في كل



الثورات الكبرى عبر التاريخ ، استطاع سماسرة الثورة والبرجوازية الجديدة الانحراف بها عن مسارها ففقدت براءتها وغامت رؤيتها . وتحولت السنوات الأولى من الستينات ، حتى عام ١٩٦٧ في الواقع ، إلى سنوات من الكبت والقهر . وهكذا مهد المنحرفون للإهانة الكبرى التي لحقت بالعسكرية المصرية حينما لم يمكن الجيش المصري من القتال . كان الإنسان المصري قد هزم من الداخل قبل حدوث الهزيمة العسكرية . وتحملت العسكرية المصرية ، ظلما ، تبعة الأخطاء المتراكمة . لكن لهذا حديث آخر .

لنعد إلى قسم اللغة الانجليزية وصدمتي الثقافية الأولى وكيف استطاع ذلك الفلاح أن يتعامل معها . وجدت نفسي داخل قسم اللغة الانجليزية أتعامل مع واقع مختلف وتركيبة لم يعد التحكم فيها أمرا أقدر عليه . في مراحل التعليم السابقة كنت أنا الذي أتحكم في ظروفي ، بل إنني استطعت في المرحلة الثانوية أن أتغلب على سوء اختياري ، تحت ضغط زملاء القرية الأربعة الوحيدين ، حينما التحقت بالشعبة الأدبية ، بينما كانت درجاتي في مقررات الرياضيات والعلوم لاتقل عن الدرجات النهائية في معظم الأحيان !! أما في قسم اللغة الإنجليزية فوجدتني أدخل في منافسة غير عادلة وغير متكافئة مع مجموعة من زملائي وزميلاتي من خريجي المدارس الانجليزية والأمريكية والذين يرطنون بالانجليزية ويتحدثونها كما يتحدثها أهلها . ماذا أفعل أنا ، ابن القرية البسيط الذي لم يترك حضن تلك القرية «على شمال السما» قبل الحضور إلى القاهرة لأول

مرة للالتحاق بقسم اللغة الانجليزية ؟ ماذا أفعل ، وكيف أنافس نجل بهي الدين بركات (باشا) والذي لايعرف العربية ويتحدث الانجليزية بصورة أفضل من أساتذته ؟ وقس عليه عشرين طالبا وطالبة آخرين !!

أستاذي رشاد رشدي

ولم أفقد توازني . حسبت نقاط قوتي وضعفي بدقة كاملة . كانت لغتي الانجليزية المكتوبة لاتقل عن لغة هولاء ، إن لم تفضلها . لكن نطقي وطلاقتي كان ينقصهما الكثير . ووضعت يدي على قاموس لنطق الانجليزية أخذت أدرسه بدقة وأعلم نفسي النطق السليم . وفي نفس الوقت كنت أدرك ، أنه في مرحلة ما ، حينما تتقارب الكفتان ، ولابد أن تتقاربا نتيجة لتصميمي ، فلن تكون الرطانة بانجليزية سليمة ، هي معيار الحكم النهائي والتفوق في نهاية الشوط . وهكذا اتجهت إلى الاطلاع والقراءة النهمة . كنت أعكف على قراءة المراجع داخل مكتبة الجامعة إلى أن تغلق أبوابها في السابعة مساء ، وبعد أن يطردني الموظفون قبل ذلك بالفعل بالمعنى الحرفي للكلمة . واستطعت أن أنجح في السنتين الأولى والثانية بتقدير «جيد» . وفي السنة الثالثة بدأ الجهد المنسق الذي بذلته لمدة عامين يؤتي أكله . واكتشفني رشاد رشدي رحمه الله ذات يوم أثناء محاضرة في النقد التطبيقي كان يناقش ويحلل معنا أثناءها نماذج من الشعر الانجليزي والقصة القصيرة . كانت القصة يومها قصة لبيرانديللو بعنوان «الحرب» ، وكان رشاد رشدي قد تولى تسفيه آراء كل زملائي من المتفوقين في الدراسة والحاصلين على تقدير «جيد جداً» .



د. عبد العزيز حموده ولحظة تأمل..

ورفعت يدي في استحياء شديد أمام ذلك الأستاذ العملاق . واستمع الرجل إلى في صبر غريب لمدة ربع ساعة كاملة ودون أن يقاطعني . عندما انتهيت سألني بصوته العريض ، وبالعربية : «اسمك إيه ياولد ؟» وحينما أجبته قال بالحرف الواحد ، وفي حضرة الجميع ، ومن بينهم هؤلاء الراطنون بالانجليزية ، «لو دخلت عندي امتحان الشفهي حديك ٢٠ من ٢٠» . وكانت تلك اللحظة الدفعة الكبرى التي كنت أحتاجها!! لكننا لانستطيع أن نتحدث عن رشاد رشدي بهذه العجالة ، لأنه يمثل محطة لا أملك إلا أن أتوقف عندها في بعض الأناة.

تعددت الآراء حول رشاد رشدي ، بل تعرض لظلم كبير في فترة المد الاشتراكي في الستينيات حينما كان من «المحرمات» في عصر القولبة الذي قسم البشر إلى تقدميين ورجعيين فقط . ومازالت ذكراه

التكوين

تعانى نفس الظلم حتى الآن ، رغم مرور الكثير من المياه تحت الجسر . ولن أدخل فى جدل حول مكانة رشاد رشدى ، بل سأتحدث عنه كأستاذ مارس تأثيرا كبيرا ورائعا على حياتى كلها . كان رشاد رشدى ، كما اعترف لنا فيما بعد ، يبحث عن الطلاب الواعدين من خريجى المدارس المصرية ليشجعهم ويحتضنهم . والجانب الذى لايعرفه الكثيرون عن رشاد رشدى بل ينكرونه عليه ، أنه كان يقول لنا ، لى ولمحمد عنانى وسمير سرحان ، : «لا أريد خواجات فى قسم اللغة الانجليزية . أريد شبابا قادرين على خدمة الثقافة العربية ، فالثقافة الانجليزية لها من يخدمونها فى بلادهم» . كانت تلك فلسفة رشاد رشدى التى مارسها طوال حياته ، ومارسها معى يوم أن تخرجت بتفوق .

بين التعيين والفرصة الأمريكية

كانت صلتى المباشرة برشاد رشدى قد انقطعت منذ تلك اللحظة الرائعة . وحينما تخرجت بتفوق لم أحلم بالتعيين فى القسم ، فقد كان الكلام كثيرا عن «الواسطة» و«المعرفة المسبقة» . فى نفس الوقت كان لدى عرض بالسفر إلى أمريكا . ولهذا العرض هو الآخر قصة طريفة . كان قد تم إجراء تعديلات فى لائحة الدراسة عام ٦٠/٥٩ ، تم بمقتضاه إدخال الأدب الأمريكى ضمن مقررات الدراسة فى السنة الرابعة لأول مرة . وتم انتداب الملحق الثقافى الأمريكى ، مع أستاذ آخر أمريكى معار إلى جامعة عين شمس لتدريس مادة الدراما الأمريكية . والطريف أنهما فى أحيان كثيرة



كانا يدخلان قاعة الدرس معا . والأكثر طرافة أنه بنهاية الفصل الدراسى فوجئت بأن درجتى فى الامتحان النهائى كانت ٢٠/٢١ ، وعرفت فيما بعد أن ذلك إجراء معروف فى الجامعات والمدارس الأمريكية بعيدا عن إعجاب الأستاذ بورقة الإجابة . وكانت قصة تداولها الجميع داخل أروقة الكلية ابتداء من عميدها المرحوم عزالدين فريد إلى زملاء الفصل الدراسى . وهكذا عرض على الملحق الثقافى الأمريكى بعد تخرجى مباشرة ، أن يساعدنى فى الحصول على منحة للدراسة فى إحدى الجامعات الأمريكية الكبرى . لكن الأمر كان يحتاج إلى تزكية من رئيس القسم . وحيث إننى لم أكن من المحاسيب أو أصحاب المكانة ، ولم أكن أتوقع التعيين فى القسم رحبت بالفرصة الأمريكية واتصلت برشاد رشدى طالبا منه تزكية فطلب منى الحضور إلى شقته فى شارع الجيزة صباح الجمعة التالى .

استقبلنى الرجل فى شقته فى ذلك الصباح بحفاوة وسلمنى التزكية مكتوبة على الطابعة ثم طلب منى الجلوس . بعد نقاش قصير أقنعنى الرجل - هو الذى أقنعنى بما كنت أحلم به !! - أنه من الخير لى قبول التعيين فى القسم مدرسا للغة لعام أو عامين ولابد أن الفرصة ستتاح لى فيما بعد للسفر إلى أمريكا . هكذا : دون وساطة أو محسوبية أو عزوة أو مكانة . هو رشاد رشدى الأستاذ والإنسان الذى ظل يقدمنى فى المحافل الأدبية حتى آخر أيامه باعتبارى ابنه البكر !! .

مع الحلم الأمريكى وجها لوجه

ربما لايعرف الكثيرون أن مصطلح

«الحلم الأمريكي» بكل إبهاره ، وكل تناقضاته أيضا ، هو مفتاح الكثير من مغالق الفكر الأمريكي الحديث والمعاصر ، في الثقافة والفكر والسياسة . وتفرض علينا المساحة المتاحة هنا أن نعرف ذلك المصطلح في إيجاز شديد . لقد قامت أمريكا ونشأت منذ بداية القرن السابع عشر على ذلك الحلم بالنجاح . كان المهاجرون من المتطهرين (البيوريتان) قد بدأوا عمليات الهجرة المكثفة من انجلترا إلى السواحل الشرقية للقارة الجديدة سعيا وراء تحقيق حلم المدينة الفاضلة التي يستطيعون فيها ممارسة طقوسهم في حرية واقامة عالمهم المثالي بعيدا عن اضطهاد الملوك الجدد بعد وفاة اليزابيث العظمى .معطيات الحلم كانت تقوم على مفارقة مبدئية : فالمتطهرون يؤمنون باننا ، كأبناء آدم ، نولد وقد ورثنا خطيئة آدم عليه السلام ، وأننا جميعا ، باستثناء قلة مختارة ، محكوم علينا أن نصلى نار جهنم . وفي نفس الوقت ، فإن حياتنا على الأرض ، تماما كما كانت حياة آدم بعد نفيه من الفردوس ، نوع من العقاب لا مكان فيه إلا للعمل الشاق ، وهذا يفسر سر النجاح المادي الذي حققه الأمريكيون في العالم الجديد والذي تأكد في الأيام التي تلت نهاية الحرب العالمية الأولى . لقد تكفل قرنان من الزمان بإحداث تحول جذري في مفهوم الحلم . لقد فشل مفهوم المدينة الفاضلة مبكرا بعد أن توارثت أجيال جديدة كانت تبتعد بالتدريج عن طهر حركة الإصلاح الديني الأولى وتزمتها . وهكذا حل حلم النجاح المادي ، حلم الوفرة والرخاء محل الحلم الأخلاقي والديني ،

د. عبدالعزيز حمودة

- من مواليد نوفمبر ١٩٣٧ - قرية «دلبشان» - كفر الزيات- غربية.
- ليسانس آداب جامعة القاهرة ١٩٦٠ - ماجستير ودكتوراه في الأدب الانجليزي - جامعة كورنيل - الولايات المتحدة ١٩٦٨.
- مدرس لغة (قسم اللغةالانجليزية) كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٦٠
- وكيل كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٨٢ .
- عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٨٥ .
- مستشار مصر الثقافي في واشنطن ١٩٨٩ .
- عميد كليات العلوم الإنسانية - جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا ١٩٩٧ .
- نائب رئيس جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا ١٩٩٨ حتى الآن.

ابرز مؤلفاته

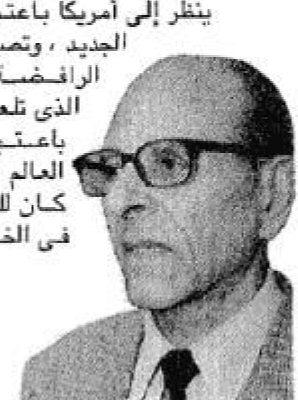
- علم الجمال والنقد الحديث ١٩٦٣ ، المسرح السياسي ١٩٧٠ ، مسرح رشاد رشدي ١٩٧٢ ، البناء الدرامي١٩٧٦ ، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية ١٩٩٨ ، المرايا المقعرة : نحو نظرية نقدية عربية ٢٠٠١ .

وأبرز أعماله الإبداعية (مسرحيات)

- الناس في طيبة ١٩٨١ ، ليلة الكولونيل الأخيرة ١٩٨١ ، الرهائن ١٩٨٢ ، الظاهر بيبرس ١٩٨٥ ، المقاول ١٩٨٦ .

التكوين

وشهدت أمريكا بين عامى ١٩١٨ و١٩٢٩ عقدا من الرخاء المادى والنجاح السهل ، ثم بدأ الحلم الجديد يتلقى اللطمات الواحدة بعد الأخرى . والواقع أن تاريخ الحلم الأمريكى منذ نهاية العشرينيات إلى اليوم سلسلة من اللطمات تعقبها فترات ترنح واضحة ثم عودة إلى العنفوان . فى سبتمبر ١٩٢٩ ، وبالانهيار المفاجىء للأسعار فى بورصة «وول ستريت» بدأت أعنف أزمة اقتصادية شهدتها أمريكا منذ نشأتها إلى اليوم ، وهى أزمة الكساد الاقتصادى الشامل التى استمرت حتى منتصف الثلاثينيات . لقد فتح الأمريكيون أعينهم فجأة على حقيقة فشل الحلم الأمريكى وأسطورة النجاح السهل . ولهذا لم يكن غريبا أن تشهد فترة الثلاثينيات تلك عملية تحول واضحة بين المثقفين إلى الفكر الاشتراكى . ثم عاد الحلم الأمريكى إلى عنفوانه مرة أخرى بعد أن خرجت أمريكا من الحرب العالمية الثانية أكبر قوة اقتصادية وعسكرية . لكن سرعان ما تكفلت سنوات التورط فى فيتنام بتوجيه لطمة أخرى إلى ذلك الحلم . وهكذا إلى اليوم . ما يهمنا هنا أن اللطمات المتتالية تكفلت بتفكيك الحلم من الداخل . لم يعد المثقف الأمريكى ينظر إلى أمريكا باعتبارها الفردوس الجديد ، وتصاعدت الأصوات الرافضة للدور الجديد الذى تلعبه أمريكا باعتبارها شرطى العالم . ورغم ذلك فقد كان للحلم الأمريكى فى الخارج ومن الخارج بريقه الذى جذب ملايين المهاجرين من كل بقاع الأرض . حينما هبطت على نيويورك – مطار كينيدى على وجه التحديد – فى ٢٩ يناير ١٩٦٤ كطالب بعثة كان الحلم الأمريكى فى أوج عنفوانه وأكثر درجاته بريقا وإبهارا . فى الليلة السابقة على السفر سهرنا جميعا أنا وسمير سرحان ومحمد عنانى فى بيت رشاد رشدى حتى الصباح ، وأسمعنا الرجل ، أو أسمعنى أنا سمفونية «العالم الجديد» الذى ألفها الموسيقى المجرى «دى ڤورجاك» وهو على ظهر السفينة التى أقلته مهاجرا إلى العالم الجديد .



لقائى الأول بالحلم الأمريكى

كان لقائى الأول مع الحلم الأمريكى صدمة عنيفة . فقد وصلت من المطار إلى محطة الأوتوبيس الرئيسية فى شارع ٤٢ على ما أذكر حوالى الخامسة عصرا . وكانت أمامى ساعات قبل أن أستقل الأوتوبيس إلى «كورنيل» فقلت لنفسى أرى نيويورك وأتمشى فى شوارعها . وخرجت إلى الشارع لأهرول مذعورا عائدا للاحتماء بالمحطة الكبيرة . كانت تلك هى ساعة الذروة فى نيويورك ، وكان الشارع يموج بطوفان البشر ، فإذا استوقفت واحدا منهم لتسأله شيئا تحاشاك أو نفر منك كأنك بعير أجرب . كان إنطباعى الأول أن أمريكا بلد بلا قلب اختفى فيها الاتصال بين الإنسان والإنسان . وعندما أتيحت لى بعد ذلك فرصة الزيارة أو الاقامة فى المدن الصغرى والريف الأمريكى تغير ذلك الانطباع الأول فالأمريكى إنسان بسيط يتسم ببراءة محببة يفتح قلبه للآخر دون تعقيدات أو حواجز . لكن المدن الكبرى وانطباعى عنها ظلت كما هى . ومازلت أعتقد أن «نيويورك» مدينة بلا قلب .

كان عليَّ أن أدخل المنافسة كاملة ، إذ سرعان ما اكتشفت أن مادرسناه بقسم اللغة الانجليزية لم يكن أكثر من قشور الأدب الانجليزي . وهكذا تطلبت المنافسة عملية تعويض طويلة دفعتني لأن أقرأ أربعة أمثال مايقرأه زملائي الأمريكيين . وكما حدث في جامعة القاهرة أثبت كفاءتي أيضا في كورنيل وحصلت على درجتي الماجستير والدكتوراه في أربع سنوات فقط . وأثناء ذلك وقعت أحداث جسام . الحدث الأول كان سعيدا . كنت قد تقابلت في الصيف السابق على سفري مع «هيام» الطالبة بكلية الآداب بجامعة الأسكندرية وبقينا على اتصال أثناء سفري إلى أن وصلت إلى مرحلة فاصلة : إما أن أرضخ لمغريات الحياة الجديدة أو أتزوج . كان الاختيار سهلا فقد حددت هدفي جيدا . وتزوجت من هيام ، زوجتي لأكثر من ستة وثلاثين عاما اليوم . وسرعان ما أنجبت طفلتي الأولى «سالي» التي ولدت في أمريكا ثم أسعدتني بعد العودة بـ «ريم» التي حصلت مؤخرا على ماجستير الإدارة من الجامعة الأمريكية وأحمد الذي أصبح طبيبا يتجه إلى التخصص في الأمراض العصبية والنفسية .أما سالي فقد حصلت على الدكتوراه في الأدب الانجليزي .

نهاية إنبهاري بالحلم الأمريكي

أما الحدث الثاني فقد كان مأساة الهزيمة العسكرية القاسية في يونيو ١٩٦٧ . ولن أدخل هنا في ظروف الهزيمة التي ظلمت بها قواتنا المسلحة ، لكنني أتوقف عند رحلتي مع الحلم الأمريكي . كانت هزيمة ٦٧ هي نهاية إنبهاري بالحلم الأمريكي . ليس معنى ذلك رفضي للحلم الأمريكي والتجربة الأمريكية كاملة في تعصب أعمى ، لكنني بدأت أرى الجانب الآخر لذلك الحلم ، وكان جانبا قبيحا بالغ القبح . كانت الهزيمة قاسية بكل المقاييس دفعتنا إلى البقاء في بيوتنا خجلا لأسابيع ، وورثتني قرحة في الاثنى عشر لازمتني لما يقرب من خمسة وعشرين عاما ، في الشهور التالية للهزيمة شاهدت الحلم الأمريكي وقد سيطرت عليه بالكامل الصهيونية العالمية واللوبي الصهيوني ، وارتفعت الأصوات وكتبت المقالات تتهمنا بالكثير بل وتزيف أمجاد التاريخ العربي . أدركت أيامها أن ذلك الحلم لم يكن يستحق كل ذلك الانبهار في المقام الأول . وحينما عدت إلى أمريكا في رحلة ثانية بعد ربع قرن بالتمام والكمال كنت قد طورت مسافة نقدية تكفي للتعامل الموضوعي مع ذلك الحلم . وهكذا كانت عودتي إلى أمريكا عام ١٩٨٩ ، مستشارا ثقافيا لمصر ، أبعد ما تكون عن الانبهار . وقد عشت حتى رأيت العسكرية المصرية تثأر لكرامتها وكرامة العرب جميعا عام ١٩٧٣ . وتصادف إنني كنت أيامها معارا إلى بلد عربي . واستعدت كرامتي ، وأصبحت قادرا مرة أخرى أن أتفاخر بأنني مصري . بكيت وأنا أستمع في ضيافة صديق عربي إلى تفاصيل تحرير القنطرة شرق يوم ٨ أكتوبر ، ثم وأنا أشاهد على التليفزيون السعودي مشهد تسليم موقع عيون موسى إلى القوات المصرية ، تماما كما بكيت بعد ذلك بخمسة عشر عاما وأنا أستمع داخل مجلس كلية الآداب إلى فرز أصوات الأساتذة الذين صوتوا لإعادة انتخابي عميدا للكلية لفترة ثانية . ■

أنت والهلال

الهلال.. البقاء للأقوى

إنني من أشد المعجبين بمجلة الهلال، والتي أواصل جهودي من أجل جمع أعدادها منذ صدورها في عام ١٨٩٢ وأحمد الله أن لدى الكثير من أعدادها الأولى ولدى على سبيل المثال مجلد من الهلال في عام ١٩٠٠ بأكمله، فضلا عن أعداد متفرقة في فترة الخمسينات من القرن العشرين.

ومن يقرأ الهلال مجلتكم الغراء لا يستغرب أنها تصدر منذ قرن كامل وتسع سنوات في القرن الجديد، لأن البقاء كما نعلم للأقوى وهي بحق مجلة قوية بطرحها وتنوع موضوعاتها المفيدة والنادرة في آن واحد.

وإنني معجب بكتاب الهلال وأود أن أحصل على عنوان الأستاذ وديع فلسطين، والذي تسعدني كتاباته في مجلتكم وبكل ما يقدمه.

فهد بن محمد بن نايف الدبوس - الكويت

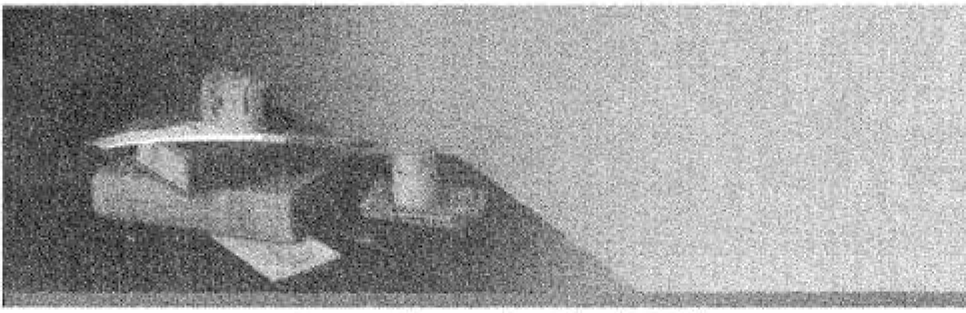
شكرا لك أيها الصديق على هذه الكلمات التي تزيدنا إصرارا على مواصلة رسالة الهلال وإليك عنوان الأستاذ وديع فلسطين، ٦ ش الامام على مصر الجديدة القاهرة ج - م - ع.

إشكالية التأريخ لثورة يوليو ١٩٥٢م

كانت الثورة العرابية ثورة ضد الجالس على العرش، وكانت ثورة ١٩١٩م ضد الاحتلال الإنجليزي، أما ثورة يوليو ١٩٥٢ فكانت ضد العرش والاحتلال معا بحيث أصبحت خطا فاصلا بين عصرين عصر ساد فيه الإقطاع والتبعية وآخر ساد فيه العمل من أجل الطبقات الكادحة والتحرر من الاستعمار. ولكن يبقى التأريخ لهذه العلامة البارزة في تاريخ مصر الحديث والمعاصر إشكالية حقا فقد أثار الدكتور عاصم الدسوقي في عدد سبتمبر الماضي من مجلة الهلال قضية مهمة وهي مسألة غياب وثائق ثورة يوليو ١٩٥٢ أو تغييبها على حد ما ذكر فمازال دارسو التاريخ يعتمدون بشكل أساسي في مجال تناولهم لهذه الثورة على المذكرات الخاصة.

والواقع أن المذكرات الخاصة بصفة عامة لا تصلح لأن تكون المصدر الأوحد لكتابة التاريخ، إذ أنها سوف تكون وسيلة صاحبها الوحيدة لتغيير الماضي، ومن ثم لماذا لا نعطي الفرصة لهذه الثورة أو لمن قام بها أو شارك فيها لان ينالوا حظهم من الإنصاف أو النقد السليم؟ ألا تكفي الفترة المنقضية على حدوث هذه الثورة لذلك؟ أم سنظل نتخبط بين الحقيقة والزيف كما قال الدكتور عاصم الدسوقي في نهاية مقاله؟

محمود محمد أحمد - طالب دراسات عليا - آداب بني سويف



الارتداد إلي العصر الحجرى!

تعليقا وتعقيبا على مقال «أمريكا والخطر الأخضر» في عدد الهلال - نوفمبر ٢٠٠١ يتساءل الأستاذ مصطفى نبيل إلى أين يتجه العالم بعد أحداث ١١ سبتمبر؟ وينتهى فى مقاله إلى أن الحرب التى تشنها أمريكا على أفغانستان لا تختلف كثيرا عما تقوم به إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني في أرضه، والحقيقة أن الولايات المتحدة الأمريكية ومعها دول التحالف الغربى فى السنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين ارتدت بالإنسانية إلى العصر الحجرى حيث عهد القوة والانتقام الفردى حيث تسود العلاقات الدولية قاعدة قوية تنصرف إلى أن القوة تنشئ الحق وتحميه، وحيث يعتمد على القوة لإنشاء الحقوق وحمايتها وللجيش أن يقتل المدنيين ويفتك بالأبرياء شيوخا وأطفالا ونساء كما يحدث فى الأراضى الفلسطينية المنكوبة.

علاء الدين عمرو حمودة

تعقيب علي مقال كتاب في الكراهية

لنا تعقيب على ما كتبه الأستاذ طارق البشرى فى هلال يوليو ٢٠٠١ (كتاب فى الكراهية ناقد لكتاب وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها) ومع تقديرنا للبشرى ككاتب مستنير إلا أن مؤلف الكتاب لن يستطيع أن ينفصل عن مجتمعه أو ثقافته العربية على الإطلاق.

فالكنيسة الأرثوذكسية وطنية وهى باتباعها مؤسسة تخدم الوطن والأقباط من نسيج هذه الأمة وليسوا أقلية كما يقول البعض كما أن دعوة لقاء الحكماء التى نادت بها جريدة وطني وأيدها الكثير من اخوتنا المسلمين هدفها مناقشة هموم الأقباط والتى اعترف بها الكثير من المثقفين فى مصر ويقول الأستاذ البشرى أن الكاتب (أسقط وقائع لقاء عمرو بن العاص مع البطريرك بنيامين) إلا أن بالرجوع للكتاب ص٥٧ سطر ٣ فيقول الراهب انطونيوس (ولما استتبت الأمور أمر عمرو بن العاص بعودة البابا بنيامين من مكانه الذى اختفى فيه بعد أن أمنه على شعبه وكنائسه ورد إليه الكنائس التى كان استولى عليها الروم) كما قال في نفس الصفحة فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها منذ زمان) إلخ.. بذلك لم يسقط الراهب المؤلف هذا اللقاء كما نلاحظ أن جميع المعلومات بهذا الكتاب قد وثقها المؤلف بمصادرها التى استعان بها. وذكر الأستاذ البشرى مركزا أن المؤلف استعان بكتاب جاك تاجر فى معظم ما كتب فى حين أن المؤلف استعان بعشرات المصادر لم أسجلها احتراما للمساحة أليست كل هذه

المصادر مصدرا للثقة فى المعلومات . ولعل المقريزى قد حدثنا كثيرا عن الحقبة القبطية التى عاصرها فى فترات متفاوتة عبر التاريخ . ويقول الأستاذ البشرى إن الكاتب فصل نفسه عن اخوانه المسلمين وهنا يحدثنا الانطونى فى ص٢٦٨ قائلا: (وهكذا انتهت هذه الحوادث المشئومة التى أضرت بالمسلمين والنصارى) (المقريزى ص٢ ص٥١١).أما عن موقف الأقباط تجاه نابليون فأرجو من الأستاذ البشرى مراجعة كتاب الجبرتي ص٣٤٨ وأيضا ص٥١١ الجزء الثانى. إن المواقف الوطنية للاقباط فى ثورة ١٩ (سينوت حنا ورفاقه) والقمص سرجيوس خطيب الثورة العرابية واستشهاد القبطي بجوار الأخ المسلم فى معاركنا حتي نصر ٧٣ والحياة المشتركة التى نحياها هى أعظم دليل على الحب الذى يوحد هذا الشعب ، ومهما تحدث من منغصات بين حين وآخر فإن تلاحم الشعب المصرى قادر على أن يحتوى المواقف بالحكمة والحب . ونحن لا ننكر ولن نتخلى عن ثقافتنا العربية على الإطلاق وليست القبطية لغة للتخاطب اليومى كما يقول البشرى ولتطمئن فأنا مسيحى عربى وكلنا كذلك وأخيرا أقول للاستاذ البشرى أن هذه الأحداث لها المر والحلو والحب يجعلنا نذكر حلوها فقط ويجب ألا نكترث بها أو نكرس لها فى عهد تقدمت فيه الأفكار وأصبح العالم قرية واحدة كما أن روح السلام والاخاء الاجتماعى تنمو مع نمو الثقافات وتطور التعليم الأمر الذى يرتقى بايديولوجيات الشعوب ونحن فى وقت نحتاج فيه إلى الالتحام والتعاون والحب لنبنى مصر. ولنعتبر أن ما سجله هذا الكتاب هو سرد تاريخى موثق بالمراجع ولا غبار عليه وأن كانت به بعض المرارة إلا أنه هناك بين جنباته صفحات تشرق بالحب.

ميخائيل بهيج مرقص - كاتب وشاعر

يحيا بغل المجلس!
قصة قصيرة

كانت بغال البلدية تمرح بيننا، تقسو علينا أحيانا، ولكننا لا نستطيع العيش بدونها تجر عربة الرش، تجر عربات القمامة تجر عربات الكارو.. تفعل أشياء كثيرة لم نكن نحس كم هى مهمة وما أن تمر بشارعنا حتى نشعر بأن هناك من يهتم بنا ويحاول جاهدا أن يجعلنا نشعر بوجوده.. وأنه يرعانا.. وأن علينا الطاعة..

ويرتفع منا الدعاء لبغل البلدية..

***



ولأن كل شئ يتطور .. اختفى بغل البلدية وجاءت الصورة المعدلة : بغل المجلس.

***

حضر البغل إلى المجلس، مهيبا كقائد.. رقيقا كحمامة.. عبوسا كيوم مطير.. مبتسما كنسمة في عصارى الصيف.. لهذا كانت حيرتنا.. لم نستطع أن نصنفه ، أنحبه؟ أنكرهه؟ وعلى الرغم منا.. ارتفع صوتنا بالدعاء لبغل المجلس.

***

وزع بغل المجلس العمل على البغال الأصغر، راحوا يمتصون رحيق الزهور.. وكان استهلاك العسل من نصيبهم وعلينا أن نرعى الزهور ونتمتع برؤيتها ونسعد برؤيتهم يمتصون رحيقها وعلا صوتنا بالدعاء لبغل المجلس.

***

أخذت الزهور تذبل، احتل الصبار أماكنها.. أخذت البغال تمتص دماءنا.. وكان العسل أروع.. ويحصل بغل المجلس على نصيبه منها، فالبغال الأصغر تعرف له قدره ونحن نعرف قدر البغال واستمر دعاؤنا لبغل المجلس.

سمير بسيوني – المنصورة

لماذا لا يستكمل طبع الخطط التوفيقية وبقية مذكرات سعد زغلول؟

تفاءلنا خيرا بإعادة طبع الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك والتى طبع منها تسعة أجزاء فقط، وتوقفت عند هذا الحد، ونسى المسئولون عن هذا المشروع استكمال طبع هذا العمل العلمى المهم.

أيضا لا ندرى سببا لتوقف المؤرخ الدكتور عبدالعظيم رمضان عند الجزء التاسع من مذكرات سعد زغلول وهل يواصل هذه المذكرات التى تفيد أبناء جيلنا خاصة الباحثين فى مجال الدراسات التاريخية والسياسية لفترة مهمة فى حياة مصر؟

ابراهيم حسن – الاسكندرية

الهلال: نتوجه بهذه الأسئلة إلى الدكتور سمير سرحان رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب على أمل مواصلة نشر هذه الأعمال النادرة فى تاريخ مصر.

أنت والهلال

وحـــدة

وحيدا وحيدا
أسافر دوما
يهز فؤادى صباح ندى
وعصفورتى بللتها الرياح
بدمع البحار
وقلبى نخيل تدلى
ونام على خد المساء
وليس ينام!!

محمود المصلى - شربين

كرم الخليفة

أقبل رجل من شعراء البادية على الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان ولما وقف بين يديه أنشد قائلا:

والله ما ندرى إذا ما فاتنا طلب إليك من الذى نتطلب
فلقد خرجنا فى البلاد فلم نجد أحد سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعاداتنا التى عودتنا أو فارشدنا إلى من نذهب

فأمر له عبدالملك بألف دينار أخذها الرجل وانصرف حامدا شاكرا وفى العام التالى جاءه وأنشده:

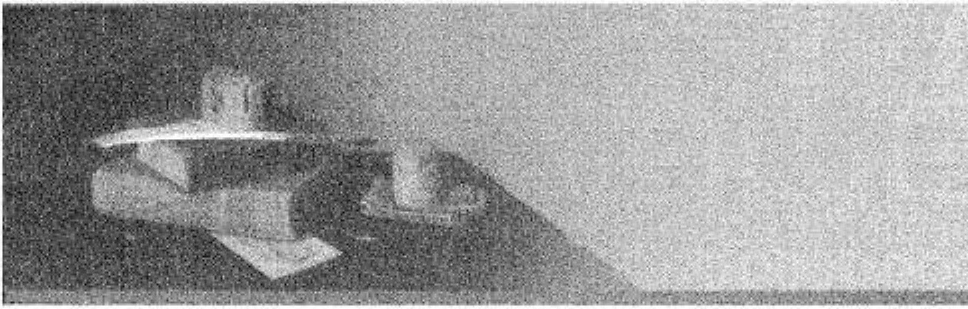
يارب الذى لا يأتى من الخير - انه إذا فعل المعروف زاد وتمم
وليس كبانا حين تم بناؤه - تتبعه بالنقض حتى تهدم

فأمر له عبدالملك بألف أخرى وفى العام التالى جاءه الرجل وأنشده:

إذا أعطيت كنت جزيلا فى الندى - تجود بالمعروف عودا على بدء

ثم قال لعبد الملك: إنى جئتك هذه المرة شاكرا كرمك وجودك ولا أنتظر المزيد فقال له عبدالملك: إنك سررتنا بثناء باق وأعطيناك مالا زائلا فلا تقطع عادتك عنا ولن أقطع عادتى عنك أكرمك الله وأرضاك.

محمد أمين عيسوي - الإسماعيلية



للمجد قيامة أخرى

يا أمي
إني قابلت (صلاح الدين)..
بسوق (دمشق)
فوق جواد أشهب
مرتديا
درع الفجر
الطل
ويشعل جأش الريح..
ويحمل في يده اليمنى
الوية تلهب
ليس هراء
إني صافحت (صلاح الدين)..
فداعبني مبتسما
ومضى
في هودجه البالي
يحرسه البدر
ونجم أحدب
ليس هراء
نزل الأمس (بعكا)
الآن يشق غبار الصحراء
فلن توقفه أخاديد الرهبة
أو قيظ يغضب
كان يردد أغنية المجد
العتق
الشمس
وكان يردد موالا
في أوجاع ينشب
زمجر في أعماق التاريخ..
ورتل آيات الإسراء..
توضأ بأديم النصر
الفتح
ثم تخضب
يا أمي
هاهي أطفال مدينتنا
تجرى والفرحة بين الأصداء..
مدوية
تتسلق أعمدة الدهشة
ترنو في شغف
تنتظر
الفيض
الموكب
فمجرات الغيم الواهي
تتوسد وجه الأقمار
الأحلام
تشبع أيقونة حلم
لم يصلب
توقظني أمي من نومي
أصرخ ممتطيا
خيبة أضغاثي
أهذي
كيف سيخرج لبلاد المغرب؟!

عبدالناصر أحمد الجوهري
دكرنس - دقهلية

أنت والهلال

الغربة

الغربة تسبح في وجهي
تأخذني نحو الأحزان

ترتد قليلا تدخلني
تشرب من نبع الشريان

تنساب مع العظم وأحيانا
مسجونا داخل جدران

وأطل على نفسي الحيرى
وأنا في حالة هذيان

أتساءل في شبه جنون
من يعرف شكل الإنسان

من يعرف وطني يخبرني
من يعرف بيتي عنواني

فأنا من زمن ياهذا
لا أعرف شكلا لمكان

الغربة تسبح في صدري
لتصب الحزن بأضلاعي

تبغي أن أحيا مسجونا
أتألم ملء الأسماع

تشطرني عدة شطرات
كي تأخذ عقلي وذراعي

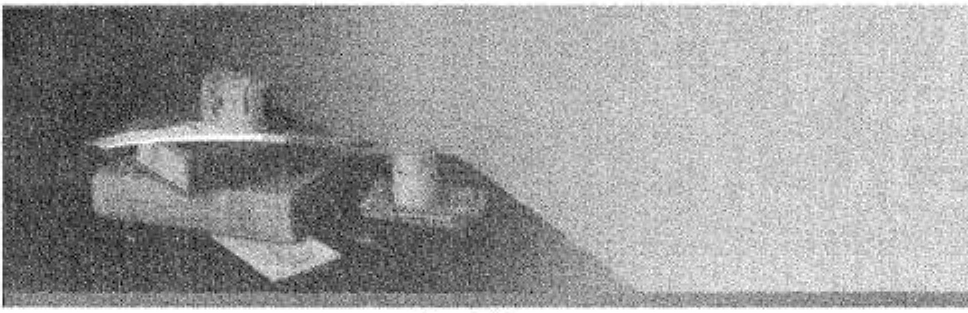
تدنو أحيانا من حلقي
لتحطم حصني ودفاعي

تزحف أحيانا في بطء
تصرخ في آلم أوجاعي

يا وطني قد صرت غريبا
تكتب تقريرا لضياعي

من يحمل عني أحزاني؟!
من يفرد في الكون شراعي؟

عبدالناصر محمد أبو النور - دمياط



مع الأصدقاء

● الصديق: حاتم عبدالهادى السيد- العريش: وصلت مساهمتك بعنوان «ماذا قال هدهد حسان عن شهر رمضان» وكيف أن هذا الهدهد أخذنا فى رحلة نتعرف من خلالها عن معنى كلمة « رمضان» شهر الصوم، ثم رحلة الهدهد بحثا عن الكنافة التى وصفها الطبيب لمعاوية بن أبى سفيان والتى إذا تناولها فى السحور خففت من الجوع الذى يلاقيه طوال يوم الصوم، ثم هذه المعلومات حول فانوس رمضان ومدفع الإفطار، وبدء صيام شهر رمضان ومكانة شهر رمضان من خلال طواف الهدهد على مجالس الذكر وحفاظ الأحاديث النبوية الشريفة من أمثال أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى، وكيف أن الله سبحانه وتعالى اختص الشهر الكريم بنزول القرآن، وليلة القدر والتى هى خير من ألف شهر... فشكرا لك على مساهمتك وفى انتظار المزيد من مساهماتك.

● ومن العراق وصلت رسالة من الصديق أثير محمد شهاب يتناول فيها القصيدة العمودية الجديدة فى العراق، ويقول إن مشروعية القصيدة العمودية الجديدة فى العراق، ونمو التوجه نحو الممارسة الفعلية لها، تتجسد فى رغبة المؤسسة الثقافية أولا، نتيجة الاعتقاد فى أن دلالة الشكل أكثر ارتباطا بالهوية العربية وفقدان الواقع للإيقاع بسبب دلالات الحروب والحصارات.

ونحن لا ندرى ما علاقة هذا بالإبداع ورغبة الشاعر فى التعبير عن مكنونات النفس الشاعرة لديه؟!

ونكتفى بهذه العبارة التى يقول فيها بالنص : «ولقد أصبحت رغبة المؤسسة الثقافية فى التشجيع على هذا النمط الكتابى دلالتين:

الأولى: فقدان الشاعر المعاصر علامات الإحساس الشعرى وتوجهات النص الشعرى وأنماطه الكتابية، بسبب معايشة جمرة الواقع وسقطاته».

● وصلتنا عدة قصص قصيرة للأصدقاء: حسام مصطفى - نادى أدب شربين بعنوان «الأحوال والمواقف»، ومن وائل قنصوة سيناريست بالمركز القومى للسينما «خدمة عامة» ومن فاروق عبدالله عضو نادى القصة بعنوان «آثار الدماء»، «من أوراق شخص عصرى» قصة أرسلها أيضا محمد هشام نادى أدب شربين بالدقهلية.. وهذه الأعمال بذل فيها كتابها جهدا مشكورا ونظرا لضيق المساحة نرجو أن نتناولها فى أعداد قادمة.. وشكرا لكل الأصدقاء الذين يرسلون إلينا شعرهم وإنتاجهم الأدبى.

الكلمة الأخيرة

الموضوع .. الضاغط



بقلم : محمد مستجاب

سوف أتجرأ .. على غير ما تعودت - وأطرح عليك موضوعاً يقلقني ويقلقك ، والواقع يفرض علينا أن نتجادل فيه تمهيداً لمواجهته ، وبصفة مبدئية فإن الموضوع لا علاقة له بذلك المشهد الساحر الذى اخترقت فيه الطائرة الأمريكية - الثانية بالذات - البرج الأمريكى الذى يحوى مركز التجارة العالمية ، ولا بمشهد ساحر آخر تصدرت فيه تلك الممثلة الصفحات الأولى لصحفنا المتعددة وهى تتجه نحو سلطات التحقيق فى قضية تعذيب خادمة أو خادمتين بالسلخ أو الكىّ بالنار ، كما أن كابول - عاصمة أفغانستان - ستظل تشتعل انهياراً وصراخاً وكفاحاً وخطباً وبيانات بعيداً من موضوعنا ، وقد يطرأ فى بالك أن الجدل الذى يدور بينك وبين زوجتك حول الشهر الكريم - رمضان المعظم - بما فيه من تفاؤل وترفُّع وزكاة وأحاسيس وتواصل إنسانى جدير بأن يحتل مساحة اهتمامنا - فى هذه السطور ، ربما لأنى أميل إلى رأى زوجتك كى تصبح مثلى حينما أجادل زوجتى فى الفوازير والمسلسلات والاندهاش المتوالى إعجاباً بما يفرزه التليفزيون الرمضانى الجليل ، وليس من السهل - فيما أعتقد - أن تتدحرج من قمة روائح الموائد الشهية التى تخترقها الطائرات وحاملاتها دون استبعاد الصواريخ والانفجارات ، كى تصاحبنى فى جولة هادئة بين أحياء الحسين أو السيدة زينب أو السيدة عائشة ، وهو ما يؤدى بى - وبك - إلى الابتعاد عن الموضوع الضاغط المقلق ، والذى نحن فى أشد الحاجة إليه الآن لمناقشته .

والموضوع يا صديقى ، والذى يجب أن أصارحك به ، يتلخص فى .. عذراً ، دعنى أحاول أن أتذكر حتى يتسنى لنا مواجهته ، اترك لى فرصة كى أجد الخيط الذى يقودنى لطرح هذا الموضوع المقلق الشائك ، والضاغط .. أيضا ..

وسوف أهرع إليك بمجرد أن أتذكره بعد الانتهاء مباشرة من مشاهدة آخر مشاهد حلقات مسلسل التمهيد للسحور .. وكل موضوع ونحن بخير ..


مصر للطيران
تشجيعا للسياحة الداخلية
تعلن عن تخفيض أسعار تذاكر
جميع الرحلات الداخلية
١٠٪ تخفيض لتذاكر المصريين
فى الفتره من ١٠ نوفمبر حتى ١٠ ديسمبر
تخفيضات لغير المصريين تصل الى ٤٠٪
مصر للطيران
EGYPTAIR
www.egyptair.com.eg
الراحه .. الرفاهيه .. الأمان
بأحدث طرازات الطائرات
أهلا بكم معنا


روايات مصرية للجيب
النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه
البورصة
روايات مصرية للجيب
لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة